الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazer - Volume 12 - Issue 136 - May 2010

مجلة شهرية العدد ١٣٦ - السنة الثانية عشرة - مايو ٢٠١٠ - الثمن عشرة جنيهات

دولة الفصل العنصري.. الأخرى

نهاية الناشر / أول تجربة ماركسية عربية

البحث عن «مصر المثقفة» / فن الكذب السياسي

In the World of Facebook



فى عالم «فيسبوك»

In the World of Facebook



تشارلز بيترسون

Charles Petersen



من خلال البدء فى جامعة هارفارد تفادى الموقع مشكلة واجهت المواقع الأخرى وهى أن الأشخاص ذوى الصداقات المتعددة لم يشعروا بدافع كبير للتسجيل فيها

■■ انطلق فيسبوك، أكثر الشبكات الاجتماعية شعبية فى العالم، من غرفة أحد الطلبة فى جامعة هارفارد شتاء عام ٢٠٠٤. وكما كان الحال مع مايكروسوفت، شركة التكنولوجيا الأشهر التى أنشأها متسرب من الدراسة من جامعة هارفارد أيضاً، لم يكن فيسبوك فكرةً أصليةً على الإطلاق. منذ ربع قرنٍ سبق، عندما طلبت شركة IBM من بيل جيتس تصميم برمجيات لحاسبها الآلى الجديد، قام، ببساطة، بشراء البرنامج من شركة أخرى وأعاد تسميته باسم جديد. استلهم مارك زوكربيرج مؤسس موقع فيسبوك، والذى ترك الدراسة بالجامعة بعد ستة أشهر من إطلاقه للموقع، معظم أفكاره من شبكات اجتماعية قائمة مثل فريندستر «Friendster» وماى سبيس «MySpace». ولكن فى حين أن مايكروسوفت كان من الممكن أن تنشأ بسهولة فى معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا «MIT» أو معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا «Caltech»، لم يكن من قبيل المصادفة أن ينشأ فيسبوك فى هارفارد.

ما هى «الشبكات الاجتماعية»؟ بالرغم من غموض المصطلح الذى أصبح يشمل كل ما نقوم به مع سائر مستخدمى الانترنت، يمكن أن نرفقه بثلاثة أنشطة أساسية: إنشاء صفحة ويب شخصية أو «profile» والتى ستكون بمثابة موطن بديل للفرد على شبكة الانترنت، رحلة فى سوق أو تجمع افتراضى حيث بالإضافة إلى دراسة المارة، يمكنك التنزه بين معارفك القدامى بحثًا عن أى شخص التقيت به أو يمكنك تذكر اسمه من الماضى، وأخيراً فرصة لإزالة الحاجز الرقمى بينك وبين العابرين عن طريق كشف هويتك لهم أو ما نسميه فى لغتنا الانترنتية المستحدثة «مصادقتهم» أو «friending them»، أى المطالبة بأن تكونوا متصلين على الانترنت بطريقة من الطرق.

فيسبوك كان ناجحًا من البداية لأنه لم يبتعد كثيراً عن الطريقة التى يتفاعل بها جمهوره، ولأنه أيضًا بدأ فى الطبقة الأعلى من الهرم الاجتماعى. ميز زوكربرغ موقعه عبر وسيلة واحدة، مبدئيا على الأقل، وهى تحديد العضوية على جامعة هارفارد. وبذلك بُنِى الموقع على أحد أهم مبادئ التعليم فى جامعات النخبة، أن الجميع فى الحرم الجامعى إن لم يكن صديقًا فهو صديق محتمل، صديق تم بالفعل تفحصه ومراجعته من قبَل السلطات. خلافًا لذلك، معظم الشبكات الاجتماعية السابقة مثل ماى سبيس وفريندستر اعتمدت على رغبة الشخص فى لقاء ومصادقة الغرباء بالإضافة لأصدقائه الحاليين. ولكن لا يوجد غرباء فى الجامعة، على الأقل فى جامعة كهارفارد، لذا لا غرباء على فيسبوك.



علاقة الموقع بالقوانين الاجتماعية الجامعية تظهر بجلاء فى اسمه والذى على العكس من باقى الشبكات الاجتماعية سواء فريندستر، ماى سبيس أو SixDegrees, Bebo, Orkut الخ الخ، اسم تقليدى شديد القدم وهو كتاب الوافدين الجدد الذى توزعه العديد من الكليات على طلابها الجدد وفيه صورة فوتوغرافية لكل طالب مع بعض التفاصيل القليلة عنه. موقع زوكربيرج حافظ على حصريته من خلال مطلب واحد للانضمام، بريد الكترونى email تابع لجامعة هارفارد.

من خلال البدء فى جامعة هارفارد تفادى الموقع مشكلة واجهت المواقع الأخرى وهى أن الأشخاص ذوى الصداقات المتعددة لم يشعروا بدافع كبير للتسجيل فيها. حصل زوكربيرج على الفكرة الأولية من اثنين من أعضاء نادى بورسيليان «Porcellian» أحد أعرق نوادى القمة فى هارفارد والذى سيقوم بمقاضاته لاحقًا بتهمة سرقة خطتهم (تم تسوية القضية خارج المحكمة مقابل ٨٥ مليون دولار كما يدّعى البعض). أهمية قصر الموقع على مجموعة من صفوة أعضاء المجتمع الجامعى هى الكشف الرئيس الذى يناقشه بنْ ميزْرِك «Ben Mezrich» فى سرده الدرامى لأيام انشاء فيسبوك الأولى فى كتابه «بليونير بالصدفة» «The Accidental Billionaire». إذ يذكر، فى أحد أكثر المقاطع دقّةً فى كتابه، أن زوكربيرج عندما أطلق موقعه، أرسل إعلان الإطلاق إلى فينيكس «أحد نوادى القمة» عبر البريد الالكترونى. وفى غضون شهر، امتدّ الموقع لجامعتى برينستون وستانفورد. كان فيسبوك من البداية، خلافًا لباقى الشبكات الاجتماعية، ناديا حصريا.

وإذا كان الملف الشخصى على الشبكات الاجتماعية يمثّلُ المنزل للفرد، فإن صفحة فيسبوك فى البداية بدت وكأنّها كغرفة نوم طالب تم تشييدها وشغلها مؤخراً. فكما يمكنك أن تضع فى غرفتك ملصقًا بذيئًا أو أن تملأ رفوف مكتبتك بكتبك المفضلة، يمكنك أن تقوم بذلك على صفحة حسابك على فيسبوك، إلا أنّك لن تتمكّن من تغيير تخطيط الغرفة الأساسى أو وضع الأثاث، فهذه الأساسيات بقيت كما هى تماماً بالنسبة للجميع. وهكذا، أمكن الحصول

The Accidental Billionaires: The Founding of Facebook, A Tale of Sex, Money, Genius, and Betrayal
by Ben Mezrich
$25.00 Doubleday, 260 pp.,

Stealing MySpace: The Battle to Control the Most Popular Website in America
by Julia Angwin
$27.00 Random House, 371 pp.,

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books

ترجمة: نادية أحمد

على واحدة من تلك الغرف بنفس الطريقة التى يحصل بها الطالب الوافد على شريك فى غرفته، عن طريق ملء استمارة مرفقة بصورة شخصية. وهنا بعض التفاصيل التى لزم توفرها لتحصل على غرفتك على موقع فيسبوك:

الاسم، الجنس وتاريخ الميلاد، التخصص الأكاديمى، محل الإقامة، العنوان البريدى بالكلية، المدرسة الثانوية، البريد الالكترونى، رقم الهاتف، العنوان الحالى، وجهات النظر السياسية، الأنشطة الجامعية، الاهتمامات، الموسيقى والبرامج التليفزيونية المفضلة، والمفضلات من الأفلام والكتب والأقوال المأثورة.

استذكر عدد غير قليل من دارسى علم الاجتماع الجدد نظريات بيار بورديو «Pierre Bourdieu» الباحث الفرنسى المعروف باستخدامه أساليب المسح فى تحديد الطبقات الاجتماعية وتفضيله للأعمال الفنية كوسيلة لتأكيد أن مفهوم الجمال خاضع بشكل كبير للتمييز والطبقات الاجتماعية. لكن زوكربيرج كان أقل اهتماماً بعلم الاجتماع من الجنس، كما اظهرت أكثر الأسئلة بروزاً أثناء انشاء الصفحة الشخصية: (جاءت الإجابات على شكل اختيارات من متعدد):

مهتم/مهتمة بـ: الرجال/النساء. (يمكن اختيار الاثنين)

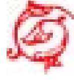
يبحث عن: صداقة/ علاقة/ مواعدة/ لعب عشوائى/ أيا ما يمكن الحصول عليه. (أو اختيار الخمس!)

وضع العلاقة: أعزب/ مرتبط/ مخطوب/ متزوج/ علاقة معقّدة/ علاقة مفتوحة. (القائمة التى رأى زوكربيرج انها شاملة بشكل كاف لجعل المستخدم يختار وضع واحد)

أخيراً، إذا لم تتمكن من نقل الجوهر الكامل لشخصك فى الأسئلة السابقة، يمكنك دائماً كتابة عبارات ثاقبة تصفها فى خانة «معلومات عن نفسك».

الطريقة التى أجاب بها الطلاب على هذه الاستفسارات كانت فى كثير من الأحيان مسلية، إذ سجل العديد أنفسهم على أنهم متزوجون من صديقهم المفضل أو شريكهم بالغرفة، وبعض الذين كانوا فى علاقات طويلة الأمد ادعوا أنهم مهتمون فقط بعلاقات عشوائية أو عبثية. وبدلاً من صورهم الشخصية، استخدم الأعضاء الأوائل صورا لأعمال فنية، أغلفة ألبومات أو صور لكتّاب. هؤلاء الذين ضمّنوا صوراً شخصية نادراً ما اختاروا صورهم الأكثر جاذبية واستبدلوها بصور تلقائية أو مضحكة لهم فى حالة سكر على سبيل المثال للتعبير عن اللامبالاة. قائمة «المفضلات» أثارت بعض القلق والمفارقات الكوميدية من حين لآخر حيث يجتمع بيتهوفن مع فرق بوب موسيقية مثل OutKast أو حتى سيلين ديون فى نفس القائمة.

أصبح الموقع مزحة، واختصر شخصية الفرد فى مجموعة من التوجهات والمواقف المعينة. وغير كلمة «صديق» من صفة تتطلب مدّة كافية لاكتسابها، إلى فعل «مُصادقة» لحظى لا يتطلب وقتًا. فى البداية ظهر فيسبوك كامتداد طبيعى للمناخ الجامعى، فيه تبدو الصداقة الأبدية ببساطة زيارة متأخرة لغرفة أخرى فى المخدع، ويبدو إدراج جين اوستن كواحدة من الكتاب المفضلين أو إزالة شارلوت برونتى من القائمة هو حدث على قدر كبير من الأهمية، يوضح بعمق التغيرات فى شخصية الفرد.

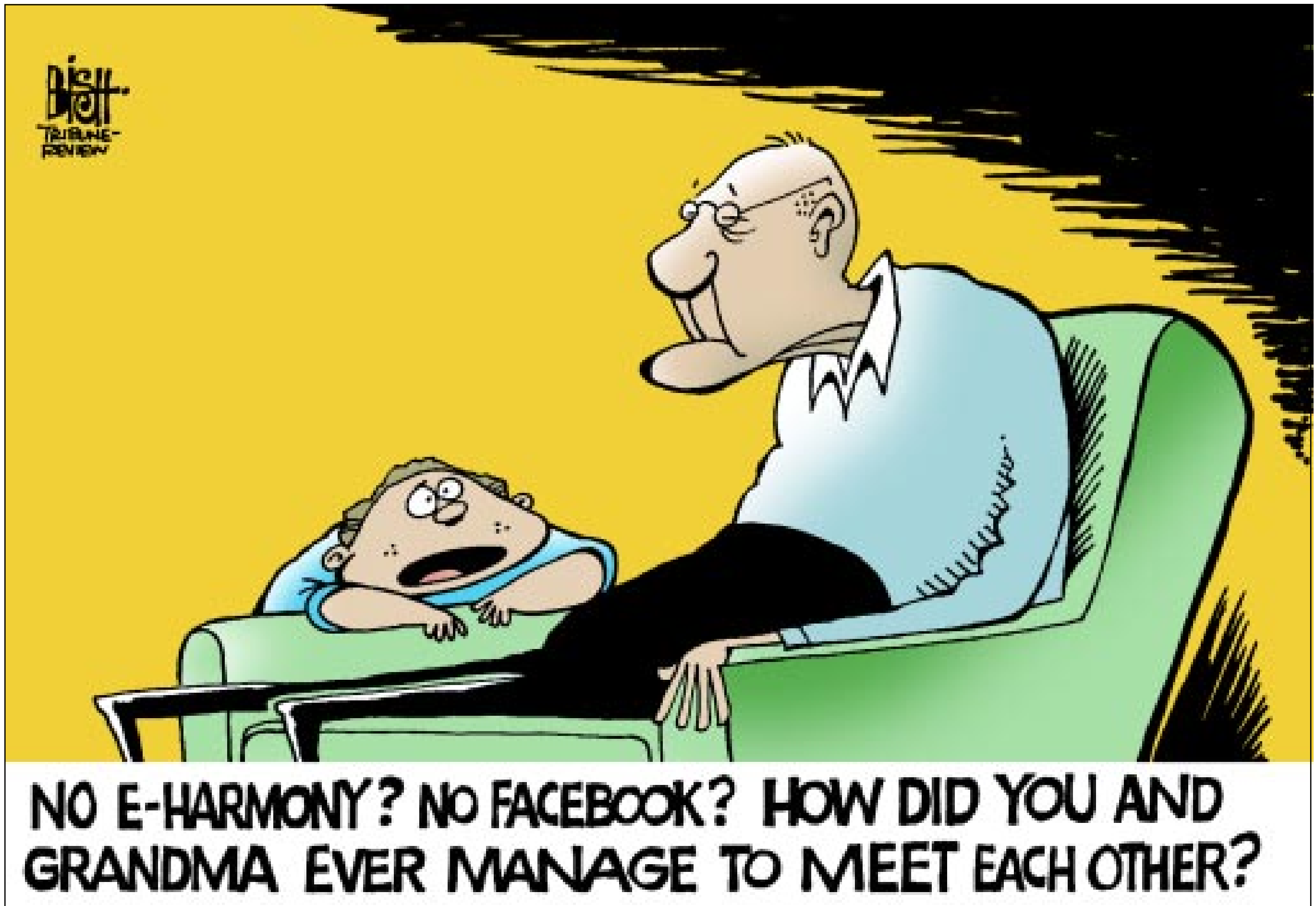


وما هى الجامعة إن لم تكن سلسلة من اتخاذ المواقف؟ أكثر من ذلك بكثير بالطبع، ولكن لا يمكن إلقاء اللوم على فيسبوك الأولى لفشله فى تجسيد التجربة الجامعية كليا. حتى أنه أصبح من الطبيعى أن تحيى صديقًا فى قاعة الطعام بقولك «أرى أنك أضفت تروتسكى لقائمة كتّابك المفضلين، وأزلت ماركس!». نوعًا ما ساهم الموقع فى تأكيد ما استنتجه ثورو «Thoreau»، وهو طالب درس فى هارفارد قرنين من الزمن قبل زوكربيرج ، بخصوص جزء غير معترف به ولكنّه من أهم أجزاء المنهاج الدراسى: «التدريس، على سبيل المثال، عنصر مهم فى تكاليف الدراسة، فى حين أن التعليم الأكثر قيمة، والذى يكتسبه الطالب من خلال الربط والتواصل مع المثقفين من معاصريه وأقرانه، ليس مُكلِّفًا».

ظهرت الإشارات الأولى لما سيسببه فيسبوك من مشاكل عندما لاحظ البعض ظهور بعض الأعضاء غير المتوقعين، هؤلاء الذين لم يدرسوا فى جامعتك أو على الأقل فى جامعة أخرى على نفس المستوى والمعايير. وعلى الأخص بالنسبة للطلاب الذين تخرجوا من المدارس الحكومية فى المرحلة الثانوية ثم قبلتهم إحدى كليات النخبة، إذ شكّلت إضافة الجامعات والكليات الحكومية نقطة تحول لهم، فقد انضم زملاء المدرسة القدامى للموقع وبدأوا فى ارسال طلبات «المصادقة». كانت المعايير الانتقائية التى خضع لها من يرغب فى التسجيل على الموقع، والتى غلبت عليها عوامل التفضيل والتكبّر، عامل جذبٍ رئيسى للنسخة الأولية لفيسبوك.

آليات «الإضافة كصديق» تستحق الوصف بشىء من التفصيل. فى البداية، وداخل الكلية الواحدة كان يمكن للجميع أن يطلعوا على كل شىء. كنت «تصادق» زميلتك ليس لترى صفحتها الخاصة ولكن لتضيف الاسم والصورة، وكأنهما غنيمة، إلى قائمة أصدقائك. هذه القائمة بدورها تظهر بالقرب من قوائم مفضلات الكتب والموسيقى كدليل آخر على ذوقك الشخصى أو شعبيتك. إذا أرادت زميلة لك فى نفس الجامعة أن تطلع على صفحتك الخاصة يمكنها أن تكتب اسمك بنفس بساطة أن تلمحك فى حرم الجامعة أو تتنصت على محادثاتك فى قاعة الطعام.

مع ذلك، حرص زوكربيرج على تطويق كل جامعة بمعزل عن الآخرين. طلب «إضافة



صديق» اتّخذ وظيفة جديدة ليصبح وسيلة لإعطاء طلاب الجامعات الأخرى الإذن للإطلاع على صفحتك الخاصة. السبيل الوحيد لطالب فى إحدى الجامعات الحكومية لمشاهدة صفحة طالب فى جامعة خاصة هو إرسال طلب إضافة كصديق. ولكن بخلاف الحال عندما يلتقى أحد طلاب الجامعات الخاصة مصادفةً بأحد معارفه القدامى خلال عطلة الشتاء، لا يوجد رد فعل متعادل عند إرسال طلب الإضافة كصديق، إذ يجب عليك أن تقبل أو ترفض الطلب.

يبدو الآن على نحوٍ ما أن بوردو كان محقـًا فى الفترة التى اقتصر فيها فيسبوك على جامعات النخبة، إذ يدل إدراج بيتهوفن فى قائمة الموسيقى المفضلة بوضوح على ذوق الفرد الجمالى مزيلاً معه الفروق الطبقية والمجتمعية ليحل محلها أحكام مبنية على عناصر عقلية تحليلية. ولكن يمكن النظر إلى مثل هذه الاختيارات، على مرأى من زملاء الدراسة السابقين، على أنها نوع من الادعاء. لم يعد من الممكن التعامل مع الموقع على أنه امتداد لحياة النخبة الجامعية وطريقة لمتابعة المميزين من زملائه ومعاصريه.

الأساس الطبقى الذى اعتمده فيسبوك أثناء نجاحه المبكر يظهر بوضوح عند مقارنته بأكبر خصومه، ماى سبيس. فللانضمام لفيسبوك يحتاج المرء إلى عنوان بريد الكترونى تابع لواحدة من كليات النخبة، أما غير المنتمين للجامعة فالمتاح أمامهم كان موقع ماى سبيس الذى حلّ محل فريندستر بعد أن فقد الأخير شعبيته تدريجيا. وهو ما عبّر عنه ديفيد بروكس عام ٢٠٠٦ بقوله: «كانت النتيجة اتساعاً هائلاً فى مساحة التمييز الطبقى بين مستخدمى فيسبوك ومستخدمى ماى سبيس الأكثر عدداً والأقل تعليماً».

حتى بعد أن فُتحت عضوية فيسبوك لطلاب المدارس الثانوية، العاملين فى الشركات، والعالم بأسره تدريجيا وفى محاولة من زوكربيرج ومؤسسى الموقع للبناء على نجاحه المبكر، ظلت فكرة الحصرية والتمييز الطبقى عاملا مهما فى شعبيته. دانا بويد «Dana Boyd»، باحثة فى مركز بيركمان لبحوث الانترنت والمجتمع وواحدة من أفضل الأكاديميين الذين يدرسون علم الشبكات الاجتماعية، كتبت مقالة فى عام ٢٠٠٧ ناقشت وبمصطلحات شديدة النمطية المواقع المفضلة للعديد من طلاب المدارس الثانوية: «الطلاب الملتزمون، الرياضيون، وغيرهم من الطلبة الجيدين توجهوا للفيسبوك. يأتى هؤلاء عادة من عائلات تولى التعليم والذهاب للجامعة أهمية كبيرة. ماى سبيس لا يزال موطنًا للشباب اللاتينى وذوى الأصول الأسبانية، المراهقين من المهاجرين، ذوى الاهتمامات البديلة فى الفن والشباب المنجذب للصيحات الجديدة والغريبة بالإضافة للمراهقين ممن لم يكملوا التعليم الجامعى ومتوقع منهم البحث عن وظيفة بمجرد الانتهاء من الدراسة فى المرحلة الثانوية». وكان سماح الجيش الأمريكى عام ٢٠٠٧ لجنوده باستخدام فيسبوك وفرض حظر على ماى سبيس أحد أهم مظاهر التمييز الطبقى الذى لاحظته بويد.

حظى فيسبوك بشعبية كبيرة فى المؤسسة العسكرية، ولكنه لم يكن الشبكة «الاجتماعية» المفضلة عند الجنود الذين تدور أعمارهم حول ١٨ عاماً، وهم يأتون غالباً من مجتمعات فقيرة وأقل تعليماً، هؤلاء اتجهوا لموقع ماى سبيس. بينما الضباط الذين تلقّى معظمهم بالفعل تعليماً جامعيا، اختاروا التعامل مع فيسبوك.



لم يكن فيسبوك الشبكة «الاجتماعية» المفضلة عند الجنود الذين تدور أعمارهم حول ١٨ عاماً، وهم يأتون غالباً من مجتمعات فقيرة وأقل تعليماً

ماى سبيس لا يزال محظوراً داخل المؤسسة العسكرية الأمريكية حتى يومنا هذا بينما بقى فيسبوك متاحاً على الرغم من بعض المخاوف الأمنية.

أهمية الطبقة الاجتماعية تظهر أيضـًا وبوضوح فى تصميم ومظهر فيسبوك. يلقى دائماً تصميم فيسبوك «النظيف والمرتب» الثناء خلافًا للتصميم المزعج والفوضوى (New York) والطباعة المستفزة والصور عديمة الذوق المنتشرة على ماى سبيس (The Chronicles of Higher Education). ولكن كما توثق جوليا انجوين فى كتابها «سرقة ماى سبيس»، جماليات الموقع تنبع من أذواق أعضائه. فى البداية حاول موقع ماى سبيس فرض قيود على كيفية إنشاء الصفحة ولكن كان من السهل التحايل على هذه القيود. مهندسو ماى سبيس غير الضليعين بالبرمجة بشكل خاص لم يتكبدوا عناء إصلاح تلك الثقوب التى كشف عنها الهاكرز.

على الرغم من أن ماى سبيس ادرج تفاصيل شخصية مشابهة لفيسبوك وإن كانت أقل تعقيداً «كالتعليم»، ادرج أيضاً «القوام الجسدى» و«الأبراج»، خلاف ذلك قد تبدو صفحة ماى سبيس كأى شيء آخر على الشبكة. على النقيض، صُمِّمت صفحات فيسبوك جميعها بطريقة واحدة اعتمدت على استخدام اللونين الأزرق الهادئ والأبيض الناصع. مهندسو فيسبوك الأذكى من منافسيهم فى ماى سبيس تمكنوا من إفشال أى محاولات لكسر هذه القواعد. أن تذم شكل وتصميم ماى سبيس يعادل ذم الرسم على الحوائط «الجرافيتى»، والثناء على تصميم فيسبوك النظيف والمشذب هو كالاحتفال بالمجمعات السكنية الجديدة. مناخ ماى سبيس الأكثر تساهلاً وتركيزه على الذوقيات والجماليات التى تجذب أفراد الطبقة العاملة تساعد فى تفسير عرض روبرت مردوك ٥٨٠ مليون دولار لشراء الموقع. المفاجأة جاءت عندما حصل فيسبوك، الموقع الذى يبدو نخبويا للوهلة الأولى، على الشبكة الاجتماعية الأكثر شعبية فى أميركا فى أوائل عام ٢٠٠٩ متخطيا ماى سبيس واحتكاره للطبقة العاملة. يستخدم فيسبوك الآن ما يقارب ال ٣٥٠ مليون عضو فى جميع أنحاء العالم، منهم أكثر من ١٠٠ مليون فى الولايات المتحدة. تمكن فيسبوك من التغلب على ماى سبيس بنفس الطريقة التى تحكمت بها قنوات فوكس وفوكس نيوز بموجات الأثير، من خلال جذب من أصبحوا أكبر سوق جديدة للشبكات الاجتماعية، الآباء.

للمفارقة، معظم الآباء تجنبوا ماى سبيس لنفس السبب الذى جذب مردوك إليه. بدايةً، مكانته المركزية فى ما يدعى «بالثقافة الحضرية» المهيمنة على البث الأمريكى المعاصر رغم أن أكثر من نصف الأمريكيين يعيشون الآن فى الضواحى. أظهرت أفضل صفحات ماى سبيس أذواقًا مشابهة لما نراه فى«MTV Cribs» البرنامج التليفزيونى سيئ السمعة الذى يظهر قصور وبيوت نجوم الراب والسينما والفنانين بما تحويه حياتهم من رفاهية زائدة وبذخ، فلا يثير الدهشة أن يكون موقف الآباء سلبيا نحو ماى سبيس. صفحة الماى سبيس ليست برنامجًا تليفزيونيا عاديا يجلس المرء ويسترخى ليشاهده مثل باقى برامج الواقع التى تشغل معظم ساعات البث التليفزيونى أو موسيقى تستمع لها مثل الهيب هوب المتصاعدة من أجهزة الستيريو عبر أمريكا. صفحة الماى سبيس بمثابة منزل المرء الرقمى، النسخة البسيطة والخارجية منه يراها الجميع أما «داخل المنزل» فيكشف المزيد من المعلومات الشخصية للأصدقاء المخصوصين بالمشاهدة. فى حين يفضل معظم المراهقين تزيين حجراتهم بالمزاوجة بين الهيب هوب والمخدرات، ومازالوا يستخدمون ماى سبيس بأعداد مهولة، يختار آباؤهم العيش فى الضواحى الهادئة من أجل السلامة والخصوصية، الأمر الذى وفره لهم فيسبوك وحده.

أمام توسع فيسبوك ليسمح بانضمام العامة بالإضافة لرواد الجامعات، مع الإبقاء على رقابة مشددة على تصميم ومظهر الصفحات، أصبحت جماليات تصميم الموقع أقل شبهًا بحجرة فى مخدع الطلاب خاضع لسيطرة شبه أبوية وأقرب لمبان حكومية فى مجتمع مخطَّط. سمح فيسبوك للأعضاء بإضافة بعض العناصر الشخصية التى صممها مبرمجون لا يتبعون الموقع لصفحاتهم على شرط أن يبقى الهيكل الأساسى للصفحة ثابتًا لا يتغير وكل إضافة جديدة لابد أن تُدمج فى داخل الهيكل الجامد. أصبح هذا النمط الغالب فى ما يمكن أن ندعوه «فترة

بعد وقت قصير من انطلاق فيسبوك، بدأ بالسماح للأعضاء بتحميل ألبومات كاملة، واليوم يستضيف فيسبوك صوراً أكثر من أى موقع آخر



الضواحى» والتى بدأت فى سبتمبر ٢٠٠٦ وامتدت بسبل عدة إلى الآن. يمكننا تحديد هذا التاريخ بدقة متناهية نظراً لتزامن فتح باب التسجيل فى فيسبوك للجميع مع بدء تشغيل خاصية «آخر الأخبار» والتى أصبحت الصفة المميزة للموقع.

آخر الأخبار، وكما يوحى الاسم، تشبه شبكة اتصالات شخصية. «تخيل جهاز لمراقبة السوق الاجتماعى كما يتم مراقبة التغييرات فى سوق السندات» هكذا وصفت صحيفة نيويورك تايمز الميزة الجديدة عند ظهورها. يمكننى اقتراح تعبير مجازى آخر: سور الفناء الخلفى فى منزل فى أحد الضواحى. عندما كان فيسبوك مقتصراً على الجامعات، اعتمد على الحياة الجامعية الصاخبة للطلاب بين غرف المخادع وقاعة الطعام. كان من السهل ان تتابع بكثافة عدداً قليلاً من صفحات أصدقائك المقربين أو تلك الفتاة الجميلة فى صفك وفى نفس الوقت تجاهل الباقين بسهولة تامة.

على النقيض من ذلك ومع ميزة آخر الأخبار أصبح كل فرد محلا للحديث والقيل والقال عبر إرسال أدق تفاصيل التغييرات التى تتم فى حسابه لدائرة واسعة من «الأصدقاء». إلى جانب متعة معرفة أن الفتاة المعجب بها فى السر أضافت جودارد لقائمة مخرجيها المفضلين، اضطررت أن تحتمل صورة بعد صورة لمغامرات سُكْر طائشة لمعارف لم ترهم منذ سنين. إعدادات جديدة كان من المفترض أن تحجب الأصدقاء غير المرغوب فيهم، ولكنها بالكاد تعمل.

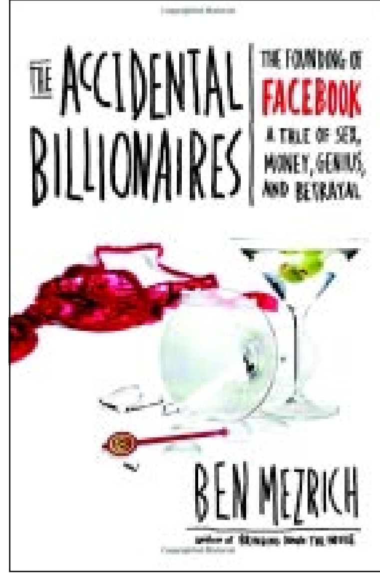
مئات الآلاف من الأعضاء سينضمون لاحقًا «للمجموعات الاحتجاجية» للشكوى من «آخر الأخبار»، كما يفعلون مع كل إعادة تصميم جديدة. ولكن لم يعكس فيسبوك مساره إلا بعد بعض الأخطاء الشنيعة (على سبيل المثال، برنامج يقوم ببث مشتريات الفرد على الانترنت لمئات «الأصدقاء» مخرباً العديد من الهدايا المفاجأة بالإضافة للكشف عن بعض الأذواق السرية لمستخدميها). بدلاً من ذلك أصدر زوكربيرج كل تحديث مؤكداً للأعضاء أنهم سيقدرون التغييرات بمرور الوقت. اشارت التقارير أنه تفاخر أيضًا أمام العاملين بشركته الربيع الماضى قائلاً «إن معظم الشركات التخريبية لا تستمع لعملائها». على الرغم من أن زوكربيرج يقلد بهذا القول كلايتون كريستيانسن أستاذ التجارة والأعمال بجامعة هارفارد والذى صاغ مصطلح «الابتكارات التخريبية» لوصف الكثير من التغييرات التكنولوجية، فليس من الصعب سماع صدى لآراء روبرت موزس فى حديثه.

نتيجةً لهذه التغييرات، لا سيما مع امتداد فيسبوك ليضم المزيد من الآباء، الموظفين والمدرسين، ازدادت الأجواء القاتمة والمتزمتة على الموقع ولجأ عدد قليل من الأعضاء لإلغاء حسابه، وفى آخر المطاف، تحولت القدرة على الاطلاع على حياة كل من تعرفهم وقتما شئت إلى نوع من الإدمان الشديد بالمقارنة بخدمات أقل خصوصية عرضها موقعا ماى سبيس وتويتر. بدأ المرح الذى ظهر مع بداية فيسبوك يتوارى. يتناقل العديد من الطلاب قصة عمةّ بحثت عن ابن أختها على فيسبوك ومن دون ارسال «طلب صداقة» رسمى، اكتشفت من بين قلة من المعلومات المتاحة لأعضاء فيسبوك من غير الأصدقاء أن ديفيد الصغير ادرج نفسه «كمتزوج» ولشخص من نفس النوع. والدته لم تكن قد اخبرتها حتى أنه مثلى الجنس، ناهيك عن دعوتها لحفل الزفاف!



نشأت المشاكل عادة بسبب المساس بالصور. بعد وقت قصير من انطلاق فيسبوك، بدأ بالسماح للأعضاء بتحميل ألبومات كاملة، واليوم يستضيف فيسبوك صوراً أكثر من أى موقع آخر، فإذا حدث أن ارتاد صاحب عمل نفس الجامعة التى ارتادها أحد المرشحين للعمل فى شركته، واستخدم عنوان بريد الكترونى تابعا لخريجى الجامعة لإنشاء حساب على فيسبوك، سيتمكن من كشف عدد كبير من صور المرشح. اعتُبِر الخريجون بشكل آلى جزءاً من شبكة جامعتهم وبالتالى أمكنهم الإطلاع على صفحات معظم الطلبة الحاليين، دليلاً على أن الموقع تأسس على مبدأ «الحصرية» وليس كما يدّعى زوكربيرج وآخرون اعتماده على «الخصوصية». مثال كلاسيكى لهذا الموقف نشرته التايمز منتصف ٢٠٠٦:

«تُدير أنّا هومايون مؤسسة جرين آيفى للاستشارات التعليمية. بدافع الفضول بحثت السيدة هومايون عن صفحة (أ) المرشحة لوظيفة بالمؤسسة على فيسبوك. وجدت صوراً فاضحة وتعليقات حول مغامرات الطالبة الجنسية وعادات شرب الكحول وتدخين المخدرات بما فى ذلك شهادات أصدقاء عن أفعالها. بين الصور لقطات لها غائبة عن الوعى بسبب الكحول».



يوفر لك فيسبوك الفرصة للفصل بينك وبين أى صور مُجرِّمة، ولكن بحلول الوقت الذى تنفذ به ذلك، تكون قد تأخّرت كثيراً. قصتى المفضلة تلك التى تحكى عن مصرفى شاب ومتدرب بإحدى الشركات، ابلغ رئيسه بالعمل أنه قد يتغيب عن العمل بسبب «حالة طوارئ عائلية.» قبل أن يتمكن الشاب من إخفاء آثاره، اكتشف زملاؤه طبيعة الحالة الطارئة، إذ ظهرت فى صفحة آخر الأخبار صور له مرتديا زى جنية غابة وفى يده زجاجة من المشروب فى إحدى حفلات الهالوين.

كل هذه نوادر كثر الخوض فيها عن «جيل فيسبوك»، النوادر التى تجعل اولئك الذين ولدوا قبل الثورة المعلوماتية والانترنت يتساءلون إن كان مواطنو اليوم الرقميون سيعرفون حلاوة الخصوصية الحقيقية. ما لم يتحدث عنه الناس بنفس القدر هو رد فعل الشباب على هذه الأحداث الفاضحة، من خلال تقليم إعدادات الخصوصية بعناية تشابه تقليم حديقة الفناء الأمامى فى أحد بيوت الضواحى. انتهت فترة السخرية من الزواج، والمفاخرة بتعاطى المخدرات أو حتى الذوق السيئ فى الموسيقى. ازال الموقع خيارات «لعب عشوائى» و «أيا كان الذى يمكننى الحصول عليه» من قائمة «ابحث عن» ليستبدلها بعبارة «التواصل».

بعد ست سنوات من تأسيسه، لم يسمح فيسبوك للمستخدم بالموافقة على أى الصور يمكن الإشارة لشخصه فيها. حل واحد متوفر: ضبط خيارات الخصوصية بحيث لا تسمح لأحد بالإطلاع على صورك على الإطلاق، خيار يثبت أنه الأكثر حكمة كلما رأيت صورة مهينة لأحد أصدقائك فى صفحة آخر الأخبار، لتختفى بعدها بساعات قليلة كزوج لعوب مرّ عاريا وللحظة عبر فناء بيته.

نظراً للقدرية المحتومة فيما يتعلق بموت وانتهاء الخصوصية، يبدو مشجعاً أن مشاكل فيسبوك لا تنبع من انعدام تام للخصوصية ولكن من البارانويا المنتشرة حول ما إذا كانت الثقة فى إعدادات الخصوصية على الموقع ممكنة. قبل إطلاق الموقع عام ٢٠٠٤، بدا الإصرار على الخصوصية على الشبكة العنكبوتية كنوع من الاستعلاء. وبفضل طبيعة الموقع النخبوية التى أثّرت فى تأسيسه، أظهر فيسبوك للملايين من الطلبة الجامعيين، أكثر فئة تستخدم الانترنت، أن استبعاد العالم الخارجى وسّع نطاق ما يمكن فعله على الانترنت. كما تعلمنا جميعاً فى الحياة الواقعية ولعدة قرون، وكما تعلم هؤلاء الطلبة على الانترنت، هنالك العديد من صور الحفلات إلى الأقوال المأثورة عن الماركيز دى ساد يمكن للمرء تثبيتها بسهولة على المكتب أو الحائط ولكن يفضّل ألا تكون مرئية للجميع على الانترنت.

بعد سنة كاملة من التخبّط المستمر لفيسبوك من تحديث لآخر، ورغم تشجيع الأعضاء على إظهار الصورة الشخصية للجميع وعلى غير هوى العديدين، ظهرت الدلائل الأولى على نظام أقوى خصوصيةً. وفى نهاية المطاف، إن لم يحسن فيسبوك إعدادات الخصوصية، ما الذى سيمنع الأعضاء من الانتقال لأى موقع آخر. كلما زاد تعقيد إعدادات الخصوصية على فيسبوك، خصوصاً مع زيادة خبرة الأعضاء فى التعامل





الآن يمكن للأعمال التجارية إنشاء «صفحة معجبين» خاصة بها، والتى تبدو كأى صفحة أخرى على الموقع باستثناء الصفحة الرئيسية التى تحولت لما يشبه واجهة المحل



معها، ستبدأ حقبة جديدة من الخصوصية على الشبكات الاجتماعية.

على سبيل المثال، واحدة من نتائج التغييرات الأخيرة فى الإعدادات هى القدرة على التعامل مع الطلاق بشكل أفضل. فى الماضى، اجتمع العديد من الآباء المنفصلين والذين لم يتواصلوا منذ سنين، عندما علّق كلٌ منهما على محتويات صفحة أحد أبنائهم. أما الآن، فى ما يمكن اعتباره إشارة على انتهاء «مرحلة الضواحى السكنية» على الموقع، أصبح بإمكان الفرد تقسيم العائلة لمجموعات كلٍ تطلع على مجموعة مختلفة من الصور والأنشطة. هذه التطورات فى إعدادات الخصوصية سرعان ما سيتبعها تغييرات فى جماليات الموقع. العديد من الشبكات الاجتماعية ومن ضمنها فيسبوك بدأت بالسماح للأعضاء بوقف أو تقليل استخدام المواقع نفسها ذات القيود البصرية الخانقة واستخدامها لبناء «بيوت» رقمية مع الاستفادة من الخدمات الأساسية للشبكات كما لو كانت مرافق عامة.

ولكن فيسبوك لا يرغب فى مجرد التفرع لمجموعة صفحات أخرى على الويب، ولكن التطلعات «الخبيثة نوعاً ما» والتى قد تكون مفيدة ومربحة للغاية تهدف لتتبع نشاطات الفرد بأكملها على الإنترنت. هذا هو طموح «فيسبوك تواصل/كونيكت»، خدمة يمكن للأعضاء تنشيطها ويمكن من خلالها ربط نشاطات الفرد على مواقع الانترنت المختلفة مثل Netflix, YouTube, Huffington Post بصفحة فيسبوك الخاصة به. فمثلاً اذا تركت رداً على قصة على موقع الهافينجتون بوست، يمكن تلقائيا نشره على صفحتك الخاصة فى فيسبوك لمشاركته مع أصدقائك. أى ردود لاحقة يكتبها أصدقاؤك ستظهر على صفحتك الشخصية وقصة هافينجتون بوست الأصلية.

إذاً اعتُمِد فيسبوك كونيكت على





من خلال تشجيع الأعضاء على استعمال الشبكة العنكبوتية، يأمل زوكربيرج فى اغتنام الفرصة وإبدال شبكته الجديدة بشبكة الانترنت القديمة



نطاق واسع، الخدمة بالفعل ناجحة للغاية حتى الآن، بمشاركة Yahoo وحتى ماى سبيس يمكننا أن نبدأ برؤية تغييرات فى العديد من الافتراضات الأساسية بخصوص الانترنت. عندما يدرك الفرد أن التعليقات اللاذعة التى يتركها على فضاء الانترنت ستتم مشاركتها مع دائرة واسعة من المعارف الشخصيين، وكأنها رسالة خطية يبعث بها المرء لصحيفة المدينة المحلية أكثر من كونها انفجارا مجهول الهوية، يمكن أن يختفى الجو المسموم للتعليقات على الانترنت.

لفيسبوك كونيكت تأثير قوى أيضاً على السياسة. إذ كان موقع MyBarackObama.com المحتفى به على نطاق واسع وسيلة مبكرة لإظهار كيفية تأثير الشبكات الاجتماعية على الحملات الانتخابية. فقد عانى الموقع من عدّة مشاكل متأصلة، فى الوقت الذى تمتع فيه بشعبية كبيرة، مع ما يزيد على مليونين من الأعضاء أثناء الحملة الانتخابية. فلاستخدام الموقع كان عليك الانضمام بحساب جديد على الإنترنت مع اسم جديد وكلمة مرور يمكن أن تنساها بسهولة. أيا كان ما تفعله على الموقع سواءً كان مشاهدة خطاب جديد، الحديث مع الناخبين أو الاشتراك فى فرز الأصوات، هذه النشاطات أمكنك مشاركتها فقط مع معارفك على هذه الشبكة الخاصة الجديدة الذين اضطررت لتحمل متاعب العثور عليهم و«مصادقتهم» من جديد. ويبقى الأعضاء قادرين على ارسال رسائل الكترونية منفصلة بخصوص كل حدث فى الحملة ينوون حضوره، ولكن هذه هى بالتحديد «نقاط الاحتكاك» المفترض أن تقضى عليها الشبكات الاجتماعية.

استفادت حملة أوباما الانتخابية من فيسبوك بإنشاء صفحة خاصة لحملة المرشح الديمقراطى والذى استقطب ٢,٢ مليون مؤيد، جميعهم تلقوا تحديثات يومية عن الحملة. لكن واحدا من الأغراض الأساسية للفيسبوك هو التعرف على الأحداث والمناسبات، مثل الحفلات الموسيقية أو القراءات الأدبية، التى ينوى أصدقاؤك حضورها. اذ أمكنك أن ترى على فيسبوك أحداث الحملة التى تطوع أصدقاؤك للمشاركة بها، للعديد من الأعضاء خاصةً أولئك المهتمين بالسياسة ولكن ينقصهم الالتزام تزيد احتمالية مشاركتهم بالحملة. أضاف موقع MyBarackObama خدمة فيسبوك كونيكت فى أكتوبر ٢٠٠٨، ولكن الخدمة فى ذلك الوقت كانت جديدة ولم تستخدمها إلا قلّة قليلة. لذلك، وكما قال رائد جمع التبرعات على الانترنت عام ٢٠٠٤، لتصل للكمال مع باراك أوباما فى ٢٠٠٨، هوارد دين «اتوقع أن دور الشبكات الاجتماعية فى العام ٢٠٠٨ سيبدو أكثر بساطة من منظور العام ٢٠١٢».



يمكننا أن نرى التأثير المحتمل للفيسبوك على السياسة فى الطريقة التى استخدمها الموقع لتغيير توجهاته فى نوع آخر من الحملات: الإعلان. الآن يمكن للأعمال التجارية إنشاء «صفحة معجبين» خاصة بها، والتى تبدو كأى صفحة أخرى على الموقع باستثناء الصفحة الرئيسية التى تحولت لما يشبه واجهة المحل. الأعضاء يمكنهم أن يصبحوا «معجبين» بمنتج ما، أو شخصية عامة ما: «نيويورك ريفيو» (١٢ ألف معجب)، «أوبرا متروبوليتان» (٣٠ ألف معجب)، باريس هيلتون (١٦٠ ألف معجب)، كوكاكولا (٤ ملايين معجب) وباراك أوباما (٧ ملايين معجب).

فور تسجيل الفرد لنفسه كمعجب، يتلقى تحديثات من هذه الشركات أو الشخصيات العامة بنفس الطريقة التى يتلقون بها التحديثات من أصدقائهم الشخصيين. النتيجة تسويق أقرب لطريقة نقل الأخبار شفهيا. فى حين أنه يبدو من الغريب أن يختار العديد من الناس استقبال الإعلانات التجارية المتنوعة، المعلومات التى ترسلها الشركات والمنظمات لا تختلف كثيراً عن الطراز القديم للنشرات الاخبارية. رينيه فليمنج فى متحف المتروبوليتان! باريس هيلتون ترشح نفسها للرئاسة! باراك أوباما يلقى خطبة فى هاييتى!

ويتمثل الجانب الأكثر إثارة للقلق فى خطط الموقع لتوليد دخل عن طريق الإعلانات. بدلاً من فرض رسوم على صفحات المعجبين الخاصة بالشركات، يتقاضى فيسبوك مقابلا لوضع الإعلانات فى أى مكان آخر على الموقع باعتبارها وسيلة لترويج السلع وجذب معجبين آخرين. نظراً لامتلاك الفيسبوك معلومات ديموغرافية غير مسبوقة عن أعضائه، يمكنه تقديم إعلانات تستقطب مجموعة من النجارين فى مدينة صغيرة فى فيرمونت دون غيرهم، أو للخريجين من كلية هارفارد للأعمال، أو للمقيمين فى مانهاتن من محبى الأوبرا فالموقع قادر على توفير أكثر الإعلانات استهدافًا فى التاريخ. يبيع جوجل مساحات إعلانية تظهر فى مواقع جغرافية معينة، كما حدث مع سكوت براون عندما استأجر جزءاً كبيراً من المساحة الإعلانية الموجهة لولاية ماساتشوستس خلال الأيام الأخيرة من حملته الناجحة لدخول مجلس الشيوخ الأمريكى. مع فيسبوك كونيكت يمكن نشر إعلانات تستهدف قاطنى ماساتشوستس ممن يستخدمون عبارات مثل «آيرلندى»، «إيطالى»، أو«أسود» فى ملفاتهم الشخصية، أو من يدرجون الكاثوليكية، البروتستانتية واليهودية فى قائمة الديانة. على الرغم من ذلك، حتى الآن لم يحقق الموقع أرباحاً ملحوظة فى مجال الإعلانات، ويعتقد البعض أن السبب الوحيد فى ادعاء الموقع أن الأمر مربح هو محاسبوه المتميزون.

أصبح فيسبوك كونيكت إذاً أكثر استخداماً على الانترنت، فهو يستطيع نشر الإعلانات ليس فقط على صفحات الموقع نفسه ولكن فى أماكن أخرى أيضاً. جوجل يحصل على أكبر أرباحه من خدمة «الإعلان خلال البحث» حيث البحث عن كلمة «تأمين» يظهر إعلانات لشركات مثل «جيكو» و«أول ستيت». لكن جوجل لم ينجح فى «الإعلانات المعروضة»، الاسم الذى يطلق على الإعلانات التى تظهر بجانب كل شىء على الانترنت من صور الحفلات للصفحات الإخبارية، إذ لا يبدو واضحاً نوع السلع التى يمكن أن يرغب فيها المتصفحون. مع المعلومات الدقيقة التى

يمتلكها فيسبوك عن أعضائه، من المرجح أن يكون قادراً على تنفيذ الإعلانات المعروضة بفاعلية أكبر بكثير من جوجل. تخيل سيدة ذكرت فى صفحها الخاصة أنها يهودية، بهذا سترى إعلانات مرتبطة بديانتها ليس فقط فى مجلة «Commentary»، ولكن على كل موقع من مواقع الويب التى تزورها. هل سينفِّر الإعلان الموجه الأعضاء عن دخول فيسبوك وماذا عن إظهار حب للماركيز دى ساد، هل يعنى أنك تفضل إعلانات عن الجلود؟ هل سينزعج الأعضاء من فكرة الإعلانات الموجهة؟.. سنرى.

إذا انتشر فيسبوك كونيكت فى باقى نواحى الانترنت، فستظهر تأثيرات أكثر تطرفًا وراديكالية. جوجل، القوة المهيمنة على شبكة الانترنت فى العقد الماضى نشرت أهدافها صراحة عند تأسيس الشركة: «تنظيم المعلومات فى العالم وجعلها فى متناول الجميع.» ولكن هناك العديد من الأشياء التى لا يرغب الأفراد فى جعلها فى متناول الجميع وليس فقط الكتب الخاضعة لحقوق الطبع والنشر. مع المعلومات الخاصة لأكثر من ٣٥٠ مليون عضو على فيسبوك، اطلقت مجلة «Wired» لفظ «شبكة الانترنت الثانية» على الموقع. من خلال تشجيع الأعضاء على استعمال فيسبوك فى جميع أنحاء الشبكة العنكبوتية، يأمل زوكربيرج فى اغتنام الفرصة وإبدال شبكته الجديدة بشبكة الانترنت القديمة.

يجب الإشادة بطموح زوكربيرج لتحويل الانترنت لتجربة أكثر إنسانية، ولكن على الجانب الآخر ما زال موقعه، رغم محاولاته الانفتاح مؤخرًا، يمنع أعضاءه من نقل معلوماتهم لأى من الشبكات الاجتماعية الأخرى. ونظراً لكم الوقت والجهد الذى يبذله الفرد فى تكوين ملفه الشخصى، فإن هذا الحظر يبدو كمنع صاحب منزل من تجميع ممتلكاته والانتقال إلى منزل آخر. علاوة على ذلك، ومع امتلاك الموقع قاعدة بيانات ضخمة من المعلومات الشخصية أملاً فى الاستفادة منها عن طريق الإعلان المستهدِف، خلق فيسبوك مشاكل الرقابة الخاصة به. نوعًا ما يمكن أن يرى زوكربيرج على أنه روبرت موزيس الانترنت، جالبًا بعض النظام لبيئة تسودها الفوضى. على الرغم من أن العديد من الجهود بُذلت لخلق أشكال أخرى من الشبكات الاجتماعية، لم يلق أى منها النجاح حتى الآن. نبقى فى انتظار من يشبه جاين جيكوبز «التخطيط العمرانى» على الانترنت.

ما يثير الكثيرين بخصوص فيسبوك هو التدفق المستمر للتحديثات والأخبار من «الأصدقاء»، جدد وقدماء. الأمر الذى يشير إليه علماء الاجتماع بلفظ «الوعى المحيط». هذه ليست ظاهرة جديدة، فالجميع من أجدادنا قبل بدء التاريخ إلى معاصرى جين أوستن جربوا الحصار بالأحاديث المستمرة للآخرين. جاذبية فيسبوك تأتى من قدرته على تقليص الأحاديث المنتشرة على الانترنت فى أرجاء العالم لحجم الأحاديث المتبادلة فى كلية من الكليات أو قرية أو غرفة معيشة فى أحد البيوت. ولكن هذا الشكل، شديد القدم، من الاجتماعيات الذى انتقل للعصر الالكترونى هو المثير للقلق بالنسبة لبعض الأعضاء عوضاً عن الإعلانات المستهدِفة أو تصميم الموقع الباعث على الملل. كما ذكر وليام ديريزيويتش فى كتابه «وقائع التعليم العالى» أحد الكتابات النقدية الأكثر بلاغة عن فيسبوك: «لقد حولنا «أصدقاءنا» إلى كتلة متجانسة لا مميزة، نوع من الجمهور العام من معدومى الهوية. فنحن لا نتوجه بالحديث لدائرة ولكن لسحابة. بعبارة أخرى، الصداقة تتراجع من علاقة لمجرد شعور».

إنها لحقيقة أن فيسبوك يمكن أن يمنح الشعور الزائف بالتواصل مع الأصدقاء فى أماكن بعيدة، حيث إن بعض الأعضاء يكتبون عن الصعوبات الحقيقية التى يواجهونها فى حياتهم. على الرغم من استهلاك فيسبوك لما ينبغى أن يكون أقدس كلمات اللغة، معظمنا مازال يعلم أن صفحة آخر الأخبار المحدثة باستمرار من قبل «الأصدقاء» ليست بأى شكل بديلاً عن المحادثة الحقيقية. فى الواقع الكثير مما يجعل فيسبوك وسيلة مجدية يأتى من قدرة الفرد على الحكم على ما يمكن مشاركته أو إخفاؤه عن العامة. ليس من الصعب الاستنتاج أن بعض الأمور لا يجب «نشرها» علنيا على الإطلاق، بل يشاركها المرء مع أفراد معينين عن طريق البريد الالكترونى، خدمات المحادثة الفورية، الرسائل النصية، الرسائل الخاصة على فيسبوك، عبر الهاتف، أو مع كوب من القهوة أو بعض البيرة. كل هذه «التقنيات» سواء مطولة أو مقتضبة، تحفظ نوعا من الحميمية يختصها الفرد بشخصيات معينة فى حياته. ■

كـتــــاب
الــزاويـــة



قصائد فلسطينية
(١)
أطفال سنة ١٩٤٨

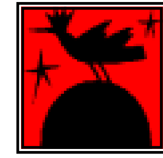
سميح القاسم

كَومٌ من السمك المقدّد فى الأزقة . فى الزوايا
تلهو بما ترك التتار الانكليز من البقايا
أُنبوبةٌ.. و حطام طائرةٍ.. وناقلةٌ هشيمه
ومدافع محروقة.. وثياب جندىٍّ قديمه
وقنابل مشلولة.. وقنابل صارت شظايا
* * *
((يا اخوتى السمر العراة.. ويا روايتىَ الأليمه
غنّوا طويلاً وارقصوا بين الكوارث والخطايا))
لم يقرأوا عن ((دنُ كشوت)) وعن خرافات القتال
ويجنّدون كتائباً تُفنى كتائب فى الخيال
فرسانها فى الجوع تزحف.. والعصىُّ لها بنادق
وتشدّ للجبناء، فى أغصان ليمونٍ، مشانق
والشاربون من الدماء لهم وسامات الرجال
* * *
يا إخوتى !
آباؤنا لم يغرسوا غير الأساطير السقيمه
واليتم.. والرؤيا العقيمه
فلنجنِ من غرسِ الجهالة والخيانة والجريمه
فلنجنِ من خبز التمزّقِ.. نكبة الجوع العضال

السنة الثانية عشرة
العدد ١٣٦
مايو ٢٠١٠

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى





محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- **الأخضر الإبراهيمى**.. المبعوث الخاص للأمم المتحدة، كان وزيرا للخارجية فى الجزائر
- **السيد أمين شلبى**.. الرئيس التنفيذى للمجلس المصرى للشئون الخارجية
- **أحمد حجاج**.. أمين عام الجمعية الأفريقية ـ القاهرة
- **أحمد رشيد**.. مراسل الديلى تلجراف فى باكستان
- **إخلاص عطا الله**.. صحفية
- **إسماعيل سراج الدين**.. مدير مكتبة الإسكندرية
- **تشارلز بيترسون**.. كاتب متخصص فى الشبكات الاجتماعية الجديدة
- **تشارلس سيميك**.. شاعر ومترجم وكاتب
- **جارى كسباروف**.. أشهر لاعبى الشطرنج فى التاريخ، كاتب وناشط سياسى
- **جيسون أبشتاين**.. ناشر وكاتب
- **رونى كاسرلز**.. وزير الزراعة والاستخبارات الأسبق فى حكومتى الرئيسين نيلسُن مانديلا وثابو إمبيكى
- **عواطف عبد الرحمن**.. أستاذة الصحافة بجامعة القاهرة
- **فيرى دى كيركوف**.. سفير كندا فى القاهرة
- **محمود محمد فهمى**.. الرئيس الأسبق لهيئتى سوق المال والاستثمار ـ مصر
- **مصطفى نبيل**.. صحفى مصرى، كان رئيسا لتحرير «الهلال»
- **معتز خورشيد**.. نائب رئيس الجامعة البريطانية بمصر ـ كان نائبا لرئيس جامعة القاهرة
- **وليد محمود عبد الناصر**.. كاتب مصرى

رسوم العدد

محمد حجى

الغلاف تفصيل من لوحة للفنان حلمى التونى





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١,٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١,٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

صفقة...

أحمـــــد رشـــيـد

[١]

■■ طوال ثلاثين عاما، ألقت أفغانستان بظلال واسعة ثقيلة على أحداث العالم، ولكنها اتسمت أيضا بلحظات فارقة كان من الممكن أن تجلب السلام وتغير من تاريخ العالم.

جاءت إحدى تلك اللحظات فى فبراير من عام ١٩٨٩، عندما كان آخر جندى سوفيتى يغادر أفغانستان. فقد طار وزير الخارجية السوفيتى «إدوارد شيفرنادزا» إلى إسلام أباد – وهى الزيارة الأولى التى يقوم بها مسئول سوفيتى رفيع إلى باكستان. حيث جاء فى مهمة الفرصة الأخيرة لمحاولة إقناع رئيسة الوزراء «بناظير بوتو» والجيش ووكالة خدمات الاستخبارات المتبادلة (ISI) للموافقة على اقتسام مؤقت للسلطة بين النظام الشيوعى الأفغانى فى كابول والمجاهدين الأفغان. كان «شيفرنادزا» يأمل فى منع حرب أهلية ووضع أساس لنقل السلطة سلميا ونهائيا إلى المجاهدين.

كان السوفييت فى ذلك الوقت فى حالة من الفزع. ومن المفارقة أنهم اتفقوا مع تحليل وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية (CIA) بأن الرئيس الأفغانى محمد نجيب الله لن يستمر سوى لأسابيع قليلة بعد مغادرة القوات السوفيتية. وقد أخطأت الاستخبارات الأمريكية التقدير – فقد بقى نجيب الله ثلاث سنوات أخرى حتى أجبره اندلاع الحرب الأهلية على اللجوء إلى مجمع الأمم المتحدة فى أبريل عام ١٩٩٢. رفضت الاستخبارات الباكستانية التجاوب مع «شيفرنادزا». فقد رغبت فى الإتيان إلى السلطة بـ «غلب الدين حكمتيار»، وهو صنيعتها الرئيسى وأحد قادة المجاهدين السبعة المختلفين فيما بينهم. كما حثت الاستخبارات الأمريكية أيضا الاستخبارات الباكستانية للوقوف بحزم أمام السوفييت. فقد أرادت الانتقام لإذلال الولايات المتحدة فى فيتنام والاحتفال بانهيار شيوعى كامل فى كابول – بغض النظر عما يتكلفه ذلك من الأرواح الأفغانية. لم تكن التسوية السياسية ضمن خطط الاستخبارات الباكستانية والأمريكية.

تم استدعائى للقاء «شيفرنادزا» فى وقت متأخر من الليل، وأتذكر كيف كان محبطا ولكنه غاضب بشكل واضح وثائر بسبب قصر نظر باكستان والولايات المتحدة والرغبة الواضحة لدى كلتا الحكومتين لإذلال موسكو. وقد مضى فى طرح رؤية تنبؤية لمستقبل أفغانستان وباكستان والمنطقة. وقد جاءت توقعاته بشأن العنف صحيحة تماما.

فى تلك اللحظة الفارقة، لو تم قبول تسوية «شيفرنادزا»، فربما تجنب العالم الحرب الأهلية الأفغانية وتدمير كابول وصعود طالبان والملاذ الذى وفرته للقاعدة. وربما تمكنا حتى من تجنب الحادى عشر من سبتمبر – والكثير مما حدث منذ ذلك الوقت، بما فى ذلك المحاولة الأخيرة لمتطرف نيجيرى لتفجير طائرة خطوط جوية فوق الأطلنطى، ومقتل سبعة من ضباط الاستخبارات الأمريكية فى قاعدة أفغانية، والخسائر الفادحة المستمرة فى صفوف قوات حلف شمال الأطلنطى (ناتو NATO) والمدنيين الأفغان فى أفغانستان.

مع خطة أوباما المثيرة للجدل والمحفوفة بالمخاطر لزيادة القوات الأمريكية فى أفغانستان أولا ثم خفضها بعد ذلك فى خلال ثمانية عشر شهرا، فإن كل أمة وكل زعيم سياسى فى المنطقة يواجه الآن لحظة فارقة أخرى. والسؤال على المحك هو ما إذا كانت الولايات المتحدة وحلفاؤها راغبين فى التحدث إلى طالبان الأفغانية، حيث لا يوجد نصر عسكرى فى المستقبل المنظور وليست هناك من طريقة أخرى لإنهاء حرب مستمرة منذ ثلاثين عاما.

عندما تأتى تلك اللحظة – وهى قادمة لا محالة – فهل ستكون الولايات المتحدة والناتو على استعداد للتحدث إلى طالبان، أم هل سينقسمان داخليا كما هما الآن؟ هل ستتوفر للرئيس حامد قرضاى المصداقية للمشاركة فى مثل تلك المحادثات والوفاء بأى اتفاق يمكن التوصل إليه؟ هل ستطالب الاستخبارات الباكستانية بعودة صنائعها فى طالبان إلى السلطة؟ هل سيوافق متشددو طالبان فى الأساس – بعد أن اشتموا رائحة النصر – على إجراء محادثات، وبالتالى يكونون على استعداد للتخلى عن القاعدة؟ أم هل سيقبعون طوال الثمانية عشر شهرا القادمة فى انتظار بدء رحيل الأمريكيين.

[٢]

تنتشر حركة طالبان الأفغانية الآن فى أنحاء البلاد. وقد بسطت نفوذها أثناء العام الماضى إلى غرب وشمال أفغانستان اللذين شهدا هدوءا فى الماضى. وتتمتع قيادة الحركة بملاذات آمنة فى باكستان.

وقد زاد حجم الخسائر لدى جميع الأطراف بصورة درامية. ووفقا للأمم المتحدة، فقد شنت طالبان أو الجماعات المتمردة الأخرى خلال عام ٢٠٠٩ ألفا ومائتى هجوم شهرى فى المتوسط – بزيادة قدرها ٦٥٪ عن العام السابق. وخلال الاثنى عشر شهرا، لقى ٢٤١٢ مدنيا مصرعهم بزيادة قدرها ١٤٪، قتل ثلثاهم بواسطة طالبان بزيادة قدرها ٤٠٪. بالإضافة لذلك، ارتفع عدد القتلى فى صفوف قوات الولايات المتحدة والناتو بنسبة ٧٦٪، من ٢٩٥ قتيلا عام ٢٠٠٨ إلى ٥٢٠ قتيلا عام ٢٠٠٩.

يضاف إلى التحديات التى تواجه الحكومة الأفغانية الصعوبة التى واجهتها طوال السنوات الماضية فى تجنيد الباشتون فى الجيش والشرطة الأفغانيين من مناطق الباشتون الجنوبية التى تهيمن عليها طالبان بشكل كبير، على الرغم من زيادة تجنيد الباشتون مؤخرا عقب زيادة رواتب قوات الأمن. مع ذلك، اخترقت طالبان قطاعات من الجيش والشرطة الأفغانية – وهما العنصران الرئيسيان فى خطة الولايات المتحدة للبدء فى تسليم السلطة إلى القوات المحلية بحلول يوليو عام ٢٠١١. وقد توقفت برامج التنمية فى مناطق واسعة من أفغانستان وجرى نقل ما يقارب نصف عمال الأمم المتحدة فى أفغانستان إلى دبى وآسيا الوسطى لدواع أمنية.

وفقا لما ذكره الماجور جنرال «مايكل فلين» القائد العسكرى لاستخبارات الناتو فى أفغانستان، فلدى طالبان الآن حكام ظل فى ثلاث وثلاثين مقاطعة من بين أربع وثلاثين – وهم يعملون على تنظيم شئون الحركة على المستوى الإقليمى وعرقلة المبادرات الحكومية فى مناطقهم – والحركة «قادرة على إعالة نفسها إلى الأبد». وقد وصف «فلين» الاستخبارات الأمريكية فى أفغانستان بالجهل المطبق.

صعد قادة طالبان من حملتهم الشريرة لإرهاب أو قتل أى مدنيين أفغان يعملون لدى حكومة قرضاى أو وكالات الإغاثة أو الجماعات النسائية أو حتى الأمم المتحدة. وقد شن مسلحون فى الثامن عشر من يناير هجوما انتحاريا مزدوجا على مسافة ياردات فقط من قصر الرئاسة فى قلب كابول، مما أدى إلى اندلاع معركة بالأسلحة النارية قتل فيها ثلاثة جنود واثنان من المدنيين وجرح أكثر من سبعين. وقد أبلغ الأمين العام للأمم المتحدة «بان كى- مون» مجلس الأمن فى بداية الشهر الحالى «إننا نمر الآن بلحظة فارقة. لا يمكن أن يستمر الحال كما هو عليه إذا كان علينا أن ننجح فى أفغانستان». وأضاف «هناك خطر أن يصبح الوضع العام المتدهور هناك غير قابل للتعديل».

الرؤية السائدة فى واشنطون هى أنه من الممكن فى النهاية استمالة العديد من مقاتلى طالبان فى الميدان، ولكن يجب على الهجوم الحالى للقوات الأمريكية أن يصدهم للوراء أولا ويحول دفة انتصارات طالبان ويحقق السيطرة على مراكز التجمعات السكانية والطرق الرئيسية. ووفقا للإستراتيجية الأمريكية الحالية، يجب على الجيش الأمريكى أن يضعف طالبان قبل أن يتفاوض معها. ويحتفظ قائد القوات الأمريكية وقوات الناتو، الجنرال «ستانلى ماكريستال» بميزانية خاصة قدرها مليار ونصف مليار دولار لتوزيعها كحوافز وأشكال أخرى للدعم على مقاتلى طالبان الذين يلقون أسلحتهم، كما يوجد لديه مجموعة من الضباط البريطانيين والأمريكيين الذين يضعون الخطط لاستمالة قادة ومقاتلى طالبان بينما يحول هجوم القوات دفة ساحة المعركة مرة ثانية لصالح الولايات المتحدة. وقد أخبرنى الجنرال «ماكريستال» فى إسلام أباد فى بداية شهر يناير أنه واثق من أن العديد من مقاتلى طالبان سوف يستمالون فى ميدان المعركة. إن جهود المصالحة الأمريكية تلك سوف يقودها قرضاى الذى دعا طوال سنوات عديدة إلى إجراء محادثات مع زعماء طالبان.

هناك طريقة أخرى للنظر إلى الأزمة الحالية. فرغم نجاحها، فربما كانت طالبان الآن على وشك الوصول إلى أوج قوتها. ومع ذلك، فهى لا تسيطر على المراكز الرئيسية للتجمعات السكانية – ولن تستطيع ذلك، بالنظر إلى السطوة العسكرية والقوة الجوية للناتو. وليس هناك أعمال تمرد شعبية واسعة النطاق ضد قوات الناتو كما كان الحال ضد قوات التحالف فى العراق. ولا تريد الغالبية العظمى من الأفغان عودة نظام طالبان على الرغم من حنقهم تجاه حكومة قرضاى والإخفاق الدولى العام فى تحقيق تقدم اقتصادى. ويعتقد الكثير من الأفغان أنه طالما بقيت القوات الغربية فسوف يبقى الأمل فى عودة الأمن وأن تتحسن أحوال معيشتهم.

ولذلك فمن الممكن أن توفر الأشهر القليلة القادمة فرصة حاسمة لإقناع طالبان أن هذا هو أفضل وقت للتفاوض حول تسوية، لأنها وصلت إلى أقصى قوتها.

بترتيب مع:
The New York Review of Books

عن كتاب: حياتى مع طالبان
My Life with the Taliban.

تأليف: عبد السلام ضعيف، مترجم عن لغة الباشتو ومحرر بواسطة أليكس ستريك فان لينشوتين Alex Strick van Linchoten وفيلكس كوين Felix Kuehn.

مطبعة جامعة كولومبيا، ٣٣١ صفحة، ٢٩,٩٥ دولار

ترجمة عادل فتحى



[٣]

ذكر كل من الجنرالين «ماكريستال» و«دافيد بيتراوس»، رئيس القيادة المركزية العسكرية الأمريكية، أنهما لا يستطيعان شق طريقهما نحو النصر. إن أوباما واضح بشأن هزيمة القاعدة، ولكنه أكثر ميلا نحو التفاوض مع طالبان. وفى حديثه فى «ويست بوينت» فى ديسمبر، ذكر أوباما أنه ساند جهود كابول لـ «فتح الباب أمام مقاتلى طالبان الذين يتخلون عن العنف ويحترمون الحقوق الإنسانية لإخوانهم المواطنين».

تهدف الإستراتيجية العسكرية الأمريكية الحالية إلى التخلص من قادة ومقاتلى طالبان وإبعادهم دون تقديم أية تنازلات أو تغييرات سياسية كبرى على الدستور الأفغانى. ولكن واشنطون تبقى منقسمة بشدة حول إجراء حوار مع زعماء طالبان. فوزارتا الخارجية والدفاع والبيت الأبيض ووكالة الاستخبارات المركزية لديها جميعا رؤى مختلفة حول ذلك، كما يوجد أيضا انقسام بين الولايات المتحدة وحلفائها.

أخبرنى الجنرال «ماكريستال» أن العديد من قادة طالبان من المستوى المتوسط ينتظرون ورجالهم أن يعلن قرضاى عن إستراتيجية للمصالحة قبل أن يعربوا عن استعدادهم لتغيير ولاءاتهم. حيث قال: «إن إعادة دمج مقاتلى طالبان السابقين فى المجتمع يوفر فرصة طيبة للحد من التمرد فى أفغانستان، بينما يجب مطاردة القاعدة وتدميرها. أما فيما يتعلق بإجراء الولايات المتحدة وحلفائها محادثات مع قيادة طالبان، فذلك قرار سياسى يعود إلى واشنطون». فى ديسمبر الماضى، أخبرنى «ريتشارد هولبروك»، الممثل الأمريكى الخاص لأفغانستان وباكستان، أنه فى تقديره فإن ٧٠٪ تقريبا من مقاتلى طالبان يحاربون لأسباب محلية أو من أجل المال وليس بسبب التزام عقائدى بالحركة، ومن الممكن استمالتهم.

فى الوقت نفسه كشفت طالبان عن أولى إشارات المرونة، كما يوحى بذلك بيان من عشر صفحات صدر فى نوفمبر عام ٢٠٠٩ بمناسبة الاحتفال الدينى بالعيد. فبينما حث الملا عمر زعيم طالبان مقاتليه على مواصلة الجهاد ضد «العدو (الأمريكى) المتغطرس»، فقد أكد أيضا أن نظام حكم طالبان فى المستقبل سوف يحقق السلام وعدم تدخل القوى الخارجية، ولن يشكل أى تهديد للدول المجاورة - مشيرا إلى عدم عودة القاعدة إلى أفغانستان مع طالبان. وقال عمر فى لهجة تبدو دبلوماسية أكثر من كونها متطرفة «إن إمارة أفغانستان الإسلامية ترغب فى اتخاذ إجراءات بناءة مع كافة الدول للتعاون المشترك والتنمية الاقتصادية والمستقبل الواحد على أساس من الاحترام المتبادل».

بعد ذلك بأسبوع، ومرة أخرى، أوحى رد فعل طالبان تجاه خطاب أوباما فى «ويست بوينت» بموقف مختلف. فلم يكن هناك ذكر واحد للجهاد أو فرض الشريعة الإسلامية. وبدلا من ذلك تحدثت طالبان عن الكفاح القومى والوطنى لاستقلال أفغانستان، وأعربت عن «استعدادها لتوفير ضمانات قانونية إذا انسحبت القوات الأجنبية من أفغانستان». بل إن طالبان - فى رسالة بمناسبة العام الجديد، وبينما أدانت الهجوم الأمريكى الأخير - بدت متعاطفة مع أوباما، حيث أشارت إلى أن الرئيس الأمريكى يواجه «العديد من المشاكل والمعارضة الكبرى» فى الداخل.

يمكن اقتفاء لهجة طالبان الجديدة إلى المحادثات السرية فى ربيع عام ٢٠٠٩. وقد ضمت المحادثات التى رعتها المملكة العربية السعودية - بطلب من قرضاى - حركة طالبان السابقة (أو المتقاعدة الآن) وأعضاء عربا سابقين فى القاعدة وممثلى قرضاى. لم يتحقق الكثير، ولكن المحادثات أدت إلى سلسلة من الزيارات إلى المملكة العربية السعودية من قبل زعماء بارزين فى طالبان أثناء الفترة الباقية من عام ٢٠٠٩. وسرعان ما حث

... مع طالبان!

المسئولون الأمريكيون والبريطانيون والسعوديون الذين كانوا على صلة غير مباشرة مع طالبان فى تلك المحادثات، حثوا طالبان على التخلى عن القاعدة وتقديم مطالبها التفاوضية. فى المقابل، ذكرت طالبان أن تخليها عن القاعدة سوف يتطلب من الطرف الآخر أن يفى بمطلب جوهرى لها: أن تعلن كافة القوات الأجنبية عن جدول زمنى للرحيل عن أفغانستان.

لم يتم تشكيل خدمة الاستخبارات السعودية «استخبارات» لتحقيق نتائج سياسية، ولكنها وفرت لطالبان مكانا آمنا للقاء، كما عملت كمحاور مع الحكومة الأفغانية والمسئولين الغربيين. ومن الأمور ذات الدلالة الهامة أن الاستخبارات الباكستانية - التى طالبت حلفاءها السعوديين السابقين بدور رئيسى فى المفاوضات - أبقيت بعيدة حتى الآن بطلب من كل من طالبان والحكومة الأفغانية، حيث إنها ليست موضع ثقة أى منهما. وربما كان ذلك على وشك أن يتغير الآن. إن الطريق إلى مزيد من المفاوضات الرسمية مع زعماء طالبان يمر بباكستان والاستخبارات الباكستانية.

[٤]

لقد تصاعد التوتر بين الولايات المتحدة وباكستان فى الأشهر الأخيرة، حيث تطالب واشنطون الجيش الباكستانى بـ «اعتقال أو قتل» زعماء طالبان الأفغانية وكذلك كبار المجاهدين فى باكستان. ويشتمل ذلك على قيادة طالبان الأفغانية المقيمة فى «كويتا» و«كراتشى»، وكذلك حلفائهم مثل «جلال الدين حقانى» و«غلب الدين حكمتيار» اللذين يعيشان فى شمال وزيرستان فى مناطق القبائل المتاخمة لأفغانستان. تقول باكستان أنها مشغولة بما يكفى فى التعامل مع مشاكلها الخاصة الحرجة مع طالبان الباكستانية وعدد متزايد من الهجمات الإرهابية بواسطة جماعات متمردة مختلفة. فقواتها مرهقة تماما ولديها القليل من المال، ولن تتجاوب مع الأمريكيين إلا عندما تكون مستعدة لذلك. الحقيقة أن باكستان لن تشن أبدا هجوما عسكريا ضد زعماء طالبان الأفغانية، حيث إنها تعتبرهم حلفاء محتملين فى أفغانستان ما بعد الأمريكيين، عندما تتخلى الولايات المتحدة فى الغالب عن باكستان أيضا.

إن الجيش الباكستانى يخشى بشدة من انسحاب أمريكى من أفغانستان؛ فالنتيجة يمكن أن تكون حربا أهلية واضطرابات فى ساحة باكستان الخلفية مرة أخرى. وقد أخبرنى ضابط كبير بالجيش الباكستانى «نحن نريد للهجوم الأمريكى أن ينجح فى أفغانستان، لأننا سندفع الثمن لو لم ينجحوا». كما أن الجيش الباكستانى على قناعة بأن الولايات المتحدة سوف تتوافق فى النهاية مع الهند، وأنها قد سمحت للهند بتقوية نفوذها فى كابول على حساب باكستان. ورغم كافة التضحيات التى قدمها الباكستانيون للأفغان طوال ثلاثين عاما ومساندتهم ضد السوفييت، لم يعد لديهم الآن أصدقاء فى أفغانستان - فيما عدا طالبان الأفغانية التى تتعامل مع الاستخبارات الباكستانية من منطلق الحذر أكثر من المودة.

فى سبيل استعادة النفوذ فى أفغانستان وإخراج الهنود بمجرد رحيل الأمريكيين، فى وسع الجيش الباكستانى - كخيار بديل - أن يساند طالبان من خلال خطة للاستيلاء على كابول وإقامة حكومة موالية لباكستان. مع ذلك، فهذا الاحتمال محفوف جدا بالمخاطر فى الوقت الراهن؛ فالمجتمع الدولى لن يتسامح أبدا تجاه ذلك، ومثل ذلك النظام يمكن أيضا أن يوفر قاعدة تستطيع طالبان الباكستانية انطلاقا منها - أن تشن مزيدا من الهجمات فى باكستان.

فى تحول سياسى رئيسى، يقول مسئولون رفيعو المستوى فى الجيش والاستخبارات أنهم عرضوا المساعدة لإجراء محادثات وسيطة بين زعماء طالبان والأمريكيين وقرضاى. وأخبرنى ضابط كبير فى الجيش «نحن نريد للمحادثات أن تبدأ الآن وليس بعد ثمانية عشر شهرا عند رحيلهم؛ ولكن الأمريكيين يجب أن يثقوا بنا ويعتمدوا علينا». هناك فقدان عميق للثقة بين الاستخبارات الأمريكية والباكستانية، كما قد ترفض الدول الأخرى أيضا إصرار باكستان على إجراء كافة المفاوضات من خلال الاستخبارات الباكستانية. يقترح المسئولون الباكستانيون أنه إذا ساعدت الاستخبارات الباكستانية فى عقد المحادثات، فيجب أن تتوقف الاتصالات المستقلة بين زعماء طالبان والاستخبارات الأمريكية والاستخبارات البريطانية الخارجية (MI٦) ودائرة الأمن القومى الأفغانية (NDS). فى المقابل، يقول المسئولون الباكستانيون أنهم يريدون فقط التأكد «من حماية المصالح الوطنية الباكستانية فى أفغانستان» - وهى مصالح ما زال يجب طرحها بوضوح أمام الأمريكيين والأفغان.

يعد ذلك تحولا هاما فى الموقف الرسمى لباكستان. فطوال السنوات التسع الماضية - وبرغم الاتصالات المعروفة تماما بين الاستخبارات الباكستانية وطالبان الأفغانية - فقد أنكرت باكستان أى نفوذ لها لدى زعماء طالبان، وصرحت بأن استضافتها لهم على الملأ تعد أمرا مستحيلا. إذا كانت باكستان سترعى المفاوضات مع طالبان، فسوف يتعين عليها أن تبذل جهودا جادة لاكتساب ثقة الولايات المتحدة والأفغان؛ ولكن من الممكن حل خلافاتهم من خلال إجراء ترتيبات بين مختلف وكالات الاستخبارات والحكومات المشاركة. يقول مسئولون أمريكيون كبار أن باكستان تظهر نفسها فى ثوب «أكثر مرونة» تجاه السياسة الأفغانية أكثر من ذى قبل.

كيف سيكون رد فعل زعماء طالبان؟ لقد طفح كيل الكثير منهم طوال سنوات من تلاعب الاستخبارات الباكستانية بهم ووضعها الإستراتيجيات نيابة عنهم، وسوف يفضلون إبقاء الاستخبارات الباكستانية خارج مثل تلك المحادثات. وقد أقام بعض أعضاء طالبان علاقة مع دائرة الأمن القومى الأفغانية، وهى وكالة الاستخبارات الداخلية التابعة لحكومة كابول. وهناك كراهية متبادلة وفقدان للثقة بين كل من الاستخبارات الأفغانية والباكستانية، وسوف تقاوم الاستخبارات الأفغانية بشدة السماح بدور رئيسى للاستخبارات الباكستانية فى المفاوضات. الأهم من ذلك، أن القبول الحاسم للمصالحة مع طالبان يتعين أن يأتى من السكان غير الباشتون فى الشمال، والذين يعادون طالبان والاستخبارات الباكستانية بشدة. وإذا كانت الجماعات العرقية فى الشمال الذين يشكلون أكثر قليلا من ٥٠٪ من السكان لا يقبلون بخطة المصالحة، فسوف تتجدد الحرب الأهلية كما حدث فى التسعينيات.

ولكن الاستخبارات الباكستانية لديها نفوذ وتأثير على طالبان. فليس بإمكان طالبان فقط أن تزود مقاتليها بالمؤن والعتاد من باكستان وأن تحصل على العلاج الطبى والتسهيلات الأخرى، ولكن عائلات معظم زعماء طالبان تعيش فى باكستان حيث تمتلك منازل وتدير مشاريع ومحال تجارية. كما يسافر زعماء طالبان إلى المملكة العربية السعودية بجوازات سفر باكستانية. وكل ذلك يضعهم تحت تأثير الاستخبارات الباكستانية. وحتى قبل أن يفكر الجيش الأمريكى فى تحييد قادة طالبان من المستوى الأوسط، فسوف يتوجب على كلا الطرفين أن يتأكد من وقع ذلك على الاستخبارات الباكستانية.

إن الرغبة الملحة لدى الجيش الباكستانى لتحقيق بعض السيطرة على مجريات الأحداث فى المستقبل فى أفغانستان تعود جزئيا إلى هدفه الإستراتيجى فى تجنب التطويق من قبل الهند؛ ولكنها أيضا نتيجة للانتكاسات التى تعرض لها منذ عام ٢٠٠١. فما زال الجيش يعانى من قرارات الرئيس بوش بالسماح لتحالف الشمال المناوئ لباكستان بالاستيلاء على كابول عام ٢٠٠١، وتجاهل طلبات إسلام أباد اللاحقة بالتشاور حول إستراتيجية الولايات المتحدة فى أفغانستان، والتعامل مع جميع الباشتون الأفغان باعتبارهم أعضاء محتملين فى طالبان. وقد ساعد ذلك على تطرف السكان الباشتون فى باكستان نفسها والذين يبلغ عددهم أكثر من ضعف الموجودين فى أفغانستان. (يوجد ١٢ مليونا من الباشتون فى أفغانستان و٢٧ مليونا فى باكستان).

يتطلب الحديث مع طالبان أكثر من مجرد تعاون سرى بين وكالات الاستخبارات، أو قيام الاستخبارات الأمريكية برشوة قادة طالبان لتغيير ولائهم - مثلما فعلت مع تحالف الشمال عام ٢٠٠١. فهناك حاجة ملحة لإستراتيجية تروج على الملأ تتضمن جهودا ملموسة لبناء مؤسسات سياسية وتقديم مساعدات إنسانية بطرق لا تتطلب سيطرة غربية تنتهك السيادة - إستراتيجية يمكنها استقطاب العديد من أعضاء طالبان والإقلال من العنف واسترضاء الأفغان المعارضين لجميع تلك التسويات. وقد بالغ مسئولو أوباما فى الحديث عن الحاجة لمثل تلك الإستراتيجية الشعبية، ولكنهم لم يحققوا سوى القليل خلال عامه الأول فى منصبه. مع ذلك فإن لتلك الأهداف أهمية كبرى.

فيما يلى بعض المقترحات لخطوات يجب اتخاذها قبل التحدث مع طالبان. من الناحية النظرية، لقيت جميع تلك النقاط قبولا لدى الولايات المتحدة والناتو، ولكن لم يتم تنفيذ أى منها:

١- إقناع جيران أفغانستان والدول الأخرى فى المنطقة بالموافقة على إستراتيجية مصالحة مع طالبان تقودها الحكومة الأفغانية. حيث إن وضع إستراتيجية ورؤية إقليمية حول أفغانستان كان أحد الأهداف الأساسية لإدارة أوباما؛ ولكن لم يتحقق سوى القليل. فمن إيران وحتى الهند، أصبحت التوترات الإقليمية الآن أسوأ مما كانت قبل عام.

٢- السماح لأفغانستان بالتقدم بطلب لمجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بحذف



في الوقت الذي تواجه فيه أفغانستان خيارا حاسما، يضعنا كتاب الملا عبد السلام ضعيف، وزير طالبان الأسبق، والذى قضى أكثر من أربع سنوات فى سجن جوانتانامو. للمرة الأولى فى قلب أسلوب تفكير طالبان





أسماء زعماء طالبان من قائمة للإرهابيين أعدت عام ٢٠٠١ - طالما تخلى أولئك الزعماء عن العنف والصلات مع القاعدة. وقد رفضت روسيا حتى الآن أخذ مثل ذلك الطلب فى الاعتبار؛ ولكن أوباما لم يحاول بما يكفى لانتزاع ذلك التصريح من الزعماء الروس.

٣- تمرير قرار لمجلس الأمن يخول الحكومة الأفغانية رسميا التفاوض مع طالبان ويسمح للولايات المتحدة والناتو والأمم المتحدة بتشجيع تلك العملية. وسوف يعنى ذلك إقناع الدول المتمنعة مثل روسيا والهند بمساعدة مثل هذا القرار. (فى السابع والعشرين من يناير، أعلنت لجنة تابعة لمجلس الأمن - بموافقة روسية - أنها قد رفعت العقوبات عن خمسة من المسئولين السابقين فى طالبان يقال أنهم يساندون حكومة قرضاى).

٤- أن يتولى الناتو والقوات الأفغانية مسئولية أمن أعضاء طالبان وعائلاتهم الذين يعودون إلى أفغانستان، والاستعانة بمساعدة الوكالات الدولية مثل اللجنة العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة أو اللجنة الدولية للصليب الأحمر للعمل مع الحكومة الأفغانية لمساعدة عائلات طالبان العائدة والترتيب للتعويضات والإسكان والتدريب على العمل والاحتياجات الأخرى التى قد تعوزهم فى مواجهة إعادة الاستقرار.

٥- توفير مخصصات مالية كافية وتدريب طاقم عاملين لهيئة للمصالحة - تقودها الحكومة الأفغانية - وتعمل مع القوات الغربية والوكالات الإنسانية لطرح برنامج شامل وواضح لأمن أعضاء طالبان العائدين وترتيبات استقبالهم.

٦- حث الجيش الباكستانى على مساعدة الناتو والقوات الأفغانية لتوفير الأمن لأفراد طالبان العائدين وعائلاتهم والسماح بتقديم المساعدة اللازمة لعبور الحدود من قبل الوكالات الإنسانية الدولية. وتشجيع باكستان والمملكة العربية السعودية لمساعدة طالبان فى إقامة حزب سياسى قانونى، مثلما فعل مقاتلون أفغان آخرون، مثل الأعضاء السابقين فى الحزب الإسلامى التابع لـ «غلب الدين حكمتيار». وسوف يشكل ذلك ضربة قاصمة للقاعدة ولطالبان الباكستانية ويضفى شكلا ملموسا لتأكيدات أوباما المتكررة بأنه على استعداد للتواصل مع الخصوم فى العالم الإسلامى.

٧- يجب توفير مكان محايد لقيادة طالبان - مثل المملكة العربية السعودية أو غيرها - تتمكن فيه من عقد محادثات مع الحكومة الأفغانية والناتو. ويجب أن تطلق الولايات المتحدة سراح باقى الأسرى الأفغان المعتقلين فى جوانتانامو والسماح لهم بالذهاب إلى أفغانستان أو باكستان أو المملكة العربية السعودية.

٨- ما لم يتم تنفيذ تلك السياسات المعلنة على الملأ، فمن الممكن جدا أن تتوصل طالبان إلى استنتاج أنه من الأفضل والأكثر أمنا بالنسبة لها أن تقبع لمدة ثمانية عشر شهرا فى انتظار أن يبدأ الأمريكيون فى الرحيل، ثم تتحرك - عند استشعار ضعف أفغانستان - للقضاء على الحكومة فى كابول، رغم أن ذلك لن يؤدى سوى إلى اندلاع الحرب الأهلية من جديد.

فى نفس الوقت تماما الذى تواجه فيه أفغانستان خيارا حاسما، نجد كتابا يضع القارئ للمرة الأولى فى قلب أسلوب تفكير طالبان، وهو كتاب «حياتى مع طالبان» للملا عبد السلام ضعيف، وزير طالبان الأسبق وسفيرها لدى باكستان، والذى قضى أكثر من أربع سنوات فى سجن جوانتانامو. وقد نشر الكتاب فى الأصل بلغة الباشتو وهى لغة الباشتون، ثم ترجم ببراعة وحرر بإسهاب لتيسير فهمه بواسطة «أليكس ستريك فان لينشوتين» و«فيلكس كوين»، وهما باحثان يعيشان فى قندهار موطن طالبان.

ولد ضعيف عام ١٩٦٨ ونشأ فى قرية قاحلة صغيرة فى منطقة قندهار. ومثل العديد من أفراد طالبان، فقد جاء من عائلة من الملالى ونشأ يتيما بعد أن فقد أبويه فى سن صغيرة. لم تصل التنمية الاقتصادية أبدا إلى مثل تلك القرى الأفغانية، حيث تركزت حياته الشخصية والحياة اليومية على التعليم فى المدرسة الإسلامية والزراعة وحماية ميثاق شرف قبيلة الباشتون والأخذ بالثأر. وقد فرت عشيرته الكبرى إلى باكستان بعد الغزو السوفيتى عام ١٩٧٩، ولكنه عاد سرا إلى الوطن فى سن الخامسة عشرة لقتال السوفييت. وقد خدم فى الثمانينيات تحت إمرة العديد من القادة، بما فى ذلك الملا عمر.

يحيى ضعيف من جديد الظروف شديدة القسوة التى قاتل الأفغان فى ظلها - دونما طعام أو رعاية طبية أو ذخيرة كافية، وتحت قصف سوفيتى مستمر: «انضممت إلى الجهاد للمرة الأولى وأنا فى سن الخامسة عشرة. لم أكن أعرف كيف أطلق النار من بندقية الكلاشينكوف أو كيف أقود الرجال. لم أكن أعلم شيئا عن الحرب. ولكن الخطوط الأمامية السوفيتية كانت ساحة اختبار قاسية، وفى النهاية كنت أقود العديد من جماعات المجاهدين».

بعد رحيل السوفييت عن أفغانستان، أصبح ضعيف ملا فى قرية صغيرة بالقرب من قندهار. وهو يصف كيف تدهورت الأوضاع فى الجنوب عندما فرض أمراء الحرب والمجرمون الإتاوات على الشاحنات المارة على الطرق وكانوا يختطفون ويغتصبون النساء ويأسرون الصبية ليمارسوا معهم الشذوذ فيما بعد. كان ضعيف أحد أفراد طالبان الأصليين؛ وقد انضم فى شتاء عام ١٩٩٤ إلى الشباب من أصحاب الفكر نفسه لوضع إستراتيجية للتعامل مع أمراء الحرب.

كان ضعيف ولا يزال شديد الإخلاص للملا عمر الذى كان - كما كتب ضعيف: «يستمع للجميع باهتمام واحترام لأى فترة يحتاجون للحديث فيها، ولم يكن يحاول أبدا أن يقاطعهم. وبعد أن ينصت لهم، كان يجيب بأفكار منظمة متسقة».

عندما حضر ضعيف الاجتماع التأسيسى لطالبان، أقسم كل رجل يمين الولاء لعمر. ولا يزال هذا القسم ساريا، وهذا هو السبب أن أحدا من كبار قادة طالبان لم يكشف أبدا عن مخبأ عمر. وعندما بدأت طالبان فى غزو أفغانستان، ترقى ضعيف من منصب إلى آخر.

بعد استيلاء طالبان على كابول عام ١٩٩٦، انتقل ضعيف إلى وزارة الدفاع، حيث كانت - كما كتب - الميزانية الأسبوعية لميليشيات طالبان التى تقاتل تحالف الشمال تصل إلى ثلاثمائة ألف دولار أسبوعيا، أو أربعة عشر مليون دولار فقط فى العام. وبحلول عام ١٩٩٩، عندما سيطرت طالبان على ٨٠٪ من البلاد، وصلت ميزانيتها الإجمالية إلى ثمانين مليون دولار فقط - من الضرائب الإسلامية التى فرضتها طالبان، وكذلك التبرعات من باكستان والمملكة العربية السعودية و- بعد عام ١٩٩٦ - من أسامة بن لادن (رغم أن ضعيف لم يذكر مساهماته). وهو يصف حكومة فوضوية غير منسجمة: «لم تقترب الميزانية مما هو مطلوب لبدء أى تنمية جادة؛ كان الأمر أشبه بقطرة ماء تسقط على حجر ساخن وتتبخر دون أن تترك أى أثر».

فى بداية كتابه، يصف ضعيف كراهيته الشديدة للاستخبارات الباكستانية، والتى زادت عام ٢٠٠٠ عندما عين كسفير لطالبان لدى باكستان. وهو يزعم أنه قاوم محاولات تجنيده من قبل الاستخبارات الباكستانية: «أثناء تعاملى معهم كنت أحاول ألا أكون شديد العذوبة حتى لا يبتلعونى أو شديد المرارة حتى لا يبصقونى». وهو يصف كيف «مدت الاستخبارات الباكستانية جذورها عميقا فى أفغانستان كسرطان يغرس جذوره فى الجسد البشرى» وكيف «شكا كل حاكم فى أفغانستان من ذلك، ولكن أحدا لم يستطع التخلص منهم». وقد كون ضعيف شبكته السرية الخاصة من المسئولين الباكستانيين الذين زودوه بالمعلومات حول ما كانت الاستخبارات الباكستانية تخطط له بالنسبة لطالبان.

إن ما يفعله ضعيف أو يراوغ بشأنه يحمل دلالات هامة. فهو لم يشر إلى الدعم المالى والمادى الذى قدمته الاستخبارات الباكستانية إلى طالبان، وبالكاد لم يقل شيئا عن تنظيم القاعدة أو كيف أصبح بطله الملا عمر شديد القرب من أسامة بن لادن. ولم يكن لديه شىء يذكره عن أساليب طالبان لقهر النساء، بما فى ذلك منعهن من التعليم، كما لا يشير إلى عقوبات طالبان القاسية، بما فى ذلك الرجم على مرأى من الجمهور.

بحلول عام ٢٠٠١، وبعد أن قيدت عقوبات الأمم المتحدة اتصالات طالبان الدولية، أصبح ضعيف هو الزعيم الوحيد من طالبان القادر على الالتقاء بمبعوثى الولايات المتحدة والغرب. وكانت تهيمن على علاقته بسفارة الولايات المتحدة فى إسلام أباد المطالب الأمريكية بتسليم أسامة بن لادن. وفى الأيام التالية للحادى عشر من سبتمبر، حاول ضعيف باستماتة أن يتجنب الهجوم الأمريكى الوشيك على بلاده من خلال مناشدة السفارات الغربية وكتابة الرسائل للأمم المتحدة ومحاولة الحصول على دعم من الدول الإسلامية. وقد التقى بالملا عمر الذى كان على قناعة بأن الأمريكيين لن يجرؤوا على الهجوم. كتب ضعيف بأن عمر كان يرى «أن هناك فرصة تقل عن ١٠٪ أن تلجأ أمريكا إلى أى شىء يتعدى التهديدات، ولذلك فإن الهجوم غير مرجح».

فى يناير عام ٢٠٠٢ قامت الاستخبارات الباكستانية بتسليم ضعيف إلى الأمريكيين - باعوه كما يقول - وانتهى به الأمر فى جوانتانامو. وهو يعيش الآن فى كابول تحت حماية الحكومة وأصبح أمله الأخير هو السلام والمصالحة فى أفغانستان. يقول أنه لا يؤمن بالقاعدة، ولكنه يتحدث كأفغانى وطنى لديه انحياز إسلامى قوى تجاه طالبان. وقد كتب أن أفغانستان هى «الوطن العائلة الذى يحق لنا جميعا أن نعيش فيه دون تمييز مع الاحتفاظ بقيمنا. ولا يحق لأى شخص أن ينتزع ذلك منا». هل يمكن أن تعود أفغانستان أبدا وطنا آمنا لكل الأفغان؟ إنهم يستحقون ذلك بالتأكيد. ■



أسئلة عن الإسلام والغرب

■■ يتناول هذا المقال عدداً من التساؤلات التى تتردد فى كويبك -كندا حول موضوع التلاؤم والتعايش المعقول بين الأفراد، وإلى أى مدى يمكن للمجتمع أن يضع فى اعتباره التنوع والاختلاف بين السكان. وذلك على اعتبار أن هذا التنوع من الأمور الحيوية والحساسة فى أى بلد من البلاد التى يعيش فيها مجموعات مختلفة لها مميزات وصفات ومعتقدات متنوعة. وخاصة أنه فى هذه الأيام وفى ظل العصر الذى نعيش فيه يوجد القليل من الدول التى تنتمى إلى عرق واحد أو عقيدة ومنهج واحد. ونجد مثلا فى بلد مثل كندا حيث يولد فيها واحد من كل خمسة أفراد فى الخارج، وكذلك نجد فى مصر حيث توجد بها حضارة منذ خمسة آلاف سنة والتى كانت سببًا فى جلب أناس من مختلف أنحاء العالم إلى ضفاف نهر النيل. وتشير هذه الأوضاع إلى عكس ما يردده عدد كبير من القادة فى العالم بالحديث عن التكامل داخل بلدانهم ومجتمعاتهم، على الرغم من أن كلمة «تكامل» تعتبر إلى حد كبير كلمة جافة، لأنها لا تعبر عن الرغبة فى قبول فكرة التكامل من جانب الأشخاص المستهدفين.

هذا ونجد الدليل على ما أشرنا إليه فى القرآن الكريم فى سورة البقرة، الآية ٦٢، وهو ما يعبر بوضوح عن الفكرة التى نناقشها حيث تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ».

ونجد أن الإشارة إلى عبارة «وعمل صالحا» هى عبارة مهمة لأنها تنطوى على الاعتدال والتفانى والتفاهم، والتناغم والتوافق مع الموضوع الذى نناقشه، وخاصة أن كل ذلك يعتمد على فكرة بسيطة والتى تقوم بدلاً من التركيز على ما يميز بين الناس من اختلافات فإن هناك ضرورة للدعوة للتآزر بين الناس جميعا استنادا إلى هذه الاختلافات وتداخل الأديان وتداخل العرقيات والتداخل الثقافى. وهى كلها عوامل ينبغى أن تكون أهم الأسس فى

(*) Ferry de Kerckhove,
Ambassador of Canada to Egypt
الكاتب يعمل سفيرا لكندا فى القاهرة

ترجمة: محسن يوسف



دفاعا عن الحجاب: فرنسيات يتظاهرن فى ستراسبورج ـ ديسمبر ٢٠٠٣

فيرى دى كيركوف*

Ferry de Kerckhove

العلاقات بين الإسلام مع الغرب وعلاقات الغرب مع الإسلام. وهى كلها عوامل تتيح فرصًا للاستزادة والثراء، والذى يمكن أن يتحقق من خلال التسامح المتبادل، وإتاحة الظروف لوجود مجتمع إقليمى ودولى يحترم التنوع، وأيضا له من الروابط المشتركة ما يسمح له بالتكيف، والتطور، والازدهار.

ويتطلب ذلك ضرورة مناقشة قضية سوء الفهم فى الغرب عن الإسلام. وفى نفس الوقت ضرورة مناقشة سوء الفهم عن الغرب فى البلاد الإسلامية حيث أشار عالم الدين الإندونيسى الراحل Nurcholish Madjid إلى أن الغرب يتصرف بشكل مختلف حينما يواجه الإسلام أكثر منه حينما يواجه الهندوسية والبوذية والكنفوشية»، ولذلك يجب التوقف عند مثل هذه التصريحات.

وذلك من المهم أن نطرح بناءً على هذه الأفكار هذا السؤال المهم وهو هل الإسلام ضد الغرب؟ بالطبع فإن هذا السؤال فى حد ذاته لا معنى له فى المطلق لأنه يشير إلى وضع الدين الإسلامى فى مقابل مكان جغرافى. غير أنه من خلال التعمق ومحاولة فهم محتوى هذا السؤال والنظر إلى تفسيراته الجزئية نجد أن هذا الموضوع يتعلق بقضية الفصل بين الدين والدولة، أى قضية العلمانية. والأهم من ذلك هو الاحترام والتقدير لخصوصية الإسلام فى عالم متعدد ومتنوع الثقافات، مع العلم أنه فى بعض البلاد الإسلامية، وخاصة تلك التى تسود فيها الشريعة وتهيمن على الإطار القانونى للدولة، حيث توجد بعض أشكال التواصل المتتابع بين الدين والدولة. وهو الأمر الذى يشير إلى ضرورة التنبه إلى وجود اختلاف جوهرى يحتاج للفهم ويتعلق بأن الإسلام يفتقد بوضوح الفصل بين الحياة الدينية والحياة المدنية.

هذا ويعتبر الإسلام بالنسبة لغالبية المسلمين الأساس لحياة المسلم على مدار اليوم، مع العلم أن هناك ضرورة بالنسبة للجيل الحالى والأجيال القادمة بأن تعترف بأن الإسلام فى البلدان الإسلامية هو المعيار الأساسى لهوية المرء الثقافية والسياسية والاجتماعية بغض النظر عن وجود درجة من التسامح و«الاتفاق» مع «القيم والأحكام غير الإسلامية»، ولذلك فإن «الغرب» سوف يفشل فى فهم الطبيعة الحقيقية للإسلام وسوف يخلط بينه وبين الانحرافات الأصولية. وهو الأمر الذى سيؤدى إلى تنوعات غريبة على غرار ما قاله هانتنجتون فى صراع الحضارات.

هذا وعلى الرغم من أن كاتب هذه السطور جديد على المجتمع المصرى للتحقق من صحة اقتراحاته بالنسبة لمصر، ولكن هناك إحساسا قويا بأن هناك نسبة كبيرة من الشعب المصرى يعيشون على الافتراض السابق الإشارة إليه ولكن سيترك الأمر إلى المؤرخين الدينيين للإجابة على السؤال التالى: هل من الممكن أن يكون الإسلام - كتعبير حديث عن اعتقاد مشترك - لم يتطرق إلى أو لم يناقش طبيعة الانفصال الذى واجهته المسيحية فى فترة عصر النهضة بين الإطارات السلوكية العلمانية والدينية؟

وتشير الإجابة والانطباع الشخصى للتساؤل عن الإسلام و«هل هو ضد الغرب؟» بأنها بالطبع ستكون بالنفى ولكن...، بمعنى أن محتوى الإسلام العقائدى ليس بالغريب أو المعادى ولكن الأصوليين المسلمين قد وجهوا رؤيتهم الجهادية والسياسية عن الإسلام ضد الغرب، وتم تعزيز ذلك التوجه من خلال النقاش والجدل حول التخلف الاقتصادى فى مقابل الازدهار الاقتصادى الغربى. ولكن هذا ليس هو الوضع الآن مع الأزمة الاقتصادية العالمية التى يواجهها العالم.

والسؤال الثانى الذى يجب أن يطرح للمناقشة يتعلق بموضوع هل القيم الإسلامية تتوافق مع القيم الغربية؟ بمعنى آخر هل قيم الإسلام، ومنهج الحياة الإسلامى، والإنتاج الثقافى الإسلامى، والرؤى الفلسفية له تعد متناقضة مع القيم الغربية أو المسيحية؟ ولمناقشة هذا الموضوع فإنه يمكن الإشارة إلى الطريقة التى اندمج بها العديد من المسلمين فى المجتمع الكندى للكشف عن زيف هذه الأسطورة، ولكن حتى مع افتراض أنهم أى المسلمين فى الواقع لا يندمجون فى المجتمع الكندى، وأنه توجد حياة متوازية للمعيشة فى كندا وأنه مجتمع متنوع الثقافات مثل المدينة الفاضلة أو «يوتوبيا»، وبالرغم من ذلك فسوف يظل من الصعوبة ألا نعرف أو نفهم أن هاتين الثقافتين لديهما ميراث مشترك، وأن هناك احتمالات كبيرة لوجود نقاط للتقارب بينهما أكثر من نقاط الاختلاف. إلا أن التطور الاجتماعى والسياسى للدول والشعوب قد أدى حتما إلى تأكيد كبير لعدد من الاختلافات السطحية، أو حتى العميقة، بدلا من التأكيد على نقاط التشابه. كما أن الأصوليين قد استندوا إلى ذلك واستغلوه لإظهار أن العقائد والديانات والمذاهب الروحانية لا تتوافق مع بعضها البعض. ومن الواضح أن الفوارق بين مستويات التطور الاقتصادى والموروثات عن الماضى الاستعمارى والظلم

طبيعة الزمن الذى نعيش فيه تهتم بالإدراك والصور بصورة أكبر من اهتمامها بالحقيقة



الواضح فى معاملة الغرب لقضايا الشرق الأوسط - كانت بمثابة العوامل المغذية لتدعيم أقوى لحدوث تصادم من الصعب الهروب منه. غير أنه من المؤكد أن التسامح أو غيابه يعتبر نتاجًا تاريخيا أكثر من كونه نتاجًا عقائديا.

هذا ومن المؤكد ضرورة التسليم بأن هناك قضايا تحتاج إلى التطرق إليها، ومنها الاتجاه فى بعض الدول إلى السماح للأوامر والوصايا الدينية أن تحل محل القوانين المدنية الوضعية، كما أن موضوع الفتاوى ببساطة ليست من الأمور التى يستطيع الغرب فهمها. بالإضافة إلى أن بعض هذه الفتاوى تحتل العناوين الرئيسية والاهتمامات البارزة، وهو الأمر الذى يؤكد على زيادة غرابتها وعدم وضوحها، كما أن التقاليد العلمانية الموجودة فى الغرب أدت إلى الاعتقاد عند بعض الغربيين بأن هناك تهديداً كبيراً من قبل المجتمع المسلم أكثر من أى من المجتمعات الأخرى، وخاصة فيما يتعلق بأسبقية المعايير الدينية على المعايير الدنيوية.

كذلك هناك بعض العادات الثقافية التى يتم تعريفها أحيانًا فى سياق دينى على الرغم من أنها بالنسبة للملاحظ الخارجى تبدو وكأنها تنبع من التقاليد والعادات أكثر من أى شىء آخر. وهو الأمر الذى يتطلب بعض الشرح والفهم، ومن أمثلة ذلك قضية الحجاب، والزواج التقليدى والتى هى بالرغم من كونها ليست مقصورة على البلدان المسلمة - بالإضافة إلى شعائر ذبح الخروف فى عيد الأضحى، وهى بالنسبة لرؤية الرجل الغربى تبدو صعبة الفهم، وخاصة أنه فى الحقيقة ليس كل المسلمين من مختلف البلدان لهم نفس العادات والتى تجعل من الصعب فهم معنى هذه الممارسات، وأن الدين الإسلامى يطالب باتباعها بشكل حازم. وفى الحقيقة فإن نفس الأمر ينطبق أيضا بالنسبة للمسيحيين وخاصة أن طبيعة الزمن الذى نعيش فيه تهتم بالإدراك والصور بصورة أكبر من اهتمامها بالحقيقة.

وحول قضية الحداثة فإن هناك عددا من الخرافات أو الأساطير التى تدعى أن الإسلام لديه حساسية تجاه التمدن، بينما المسيحية والتى يجسدها الغرب تعرف نفسها من خلال السعى للمعرفة العلمية والتكيف مع التغيرات التكنولوجية، كما يتضح من جاليليو، وقد مضى زمن طويل منذ أن أشار السيد أبو الأعلى المودودى «بأن الدين الإسلامى، بالاختلاف عن الدين المسيحى، لا يمكن أن نفصله عن العلوم الدنيوية». وأن العالم الإسلامى الآن يمكن أن يتفق وصفه مع ما أشار إليه رئيس الوزراء الماليزى الأسبق مهاتير محمد منذ سنوات قليلة فى حديثة عن «تكسير تركيبة العقل المسلم»، حيث يقول: «نحن لم نلحق فقط بالثورة الصناعية ولكننا لم نلحق أيضا بالتطورات اللاحقة التى نظرنا لها بشك... وأنه لابد أن يصاحب اكتساب المعرفة تغير فى طريقة التفكير، وفى قائمة المعتقدات والقيم التى ترجعنا دائما إلى الوراء عندما نحاول البحث عن الطريق لتقوية أنفسنا».

هذا وعلى الرغم من أنه فى داخل بعض المناطق فى العالم الإسلامى يبدو أن هناك مشكلة فى التكيف مع الحداثة والتى تتوازى أو تتطابق مع تبنى الأفكار الغربية، فإن تاريخ إسهامات العلماء المسلمين فى العلوم يوضح أن هذه المشكلة هى مشكلة العقلية وليست مشكلة فلسفية، والتى ربما ترجع إلى التفسير الحرفى المفرط فى حماية القرآن الكريم، وهو على العكس تماماً مما تنطوى عليه الحداثة.

ويعطى الرئيس الإندونيسى الأسبق والعالم الإسلامى عبد الرحمن وحيد الشهير بـ «GusÛDur» يعطى لنا إجابة نابغة لهذه القضية ويرتقى بالجدل إلى مستوى القيم؛ حيث يقول: «نحن نحتاج إلى أن نتعرض إلى التناقضات الظاهرة بين فهمنا للقانون الإسلامى والقيم العالمية والتى نصدق عليها، ولكن ندعى أنها من صميم الإيمان». وهو الأمر الذى يتضح فيه التناقض والمفارقة التاريخية فى وضع الشىء فى غير زمانه وخاصة بين الأوساط الإسلامية المتحفظة التى - تحت رداء الالتزام الأعمى بشكل ونص القرآن - أصبحت قادرة على أن تمارس تحكمها فى جمهور المسلمين غير المتعلمين وفى نفس الوقت تتجنب مواجهة القضايا الأساسية للعصر الحديث وفى الحقيقة فإن الغرب و«GusÛDur» يملكان نفس وجهة النظر.

وحول السؤال عن هل هناك تناقض بين الإسلام والنظام الدولى؟ نجد أن بعض العلماء قد ناقشوا مقولة أن الإسلام أصبح عنصراً أساسيا فى إعادة البناء الحالى للنظام العالمى. كما أن الحقيقة الموضوعية توضح أن الأبعاد العرقية-الثقافية تلعب دوراً متناميا فى التعامل مع الكوارث الدولية الحالية مثل القول بأن المتغيرات الداخلية الهامة تعتبر هامة فى تشكيل السياسة الخارجية. هذا ويعتبر الإسلام بالفعل واحداً من أهم المتغيرات المتداخلة الأساسية كما أنه أحد المتغيرات المعقدة.

ويتضح وكما يشير البعض فى أننا بالتركيز فقط على طرق القمع والإرهاب وفرض الديمقراطية، قد أدى هذا إلى الانشغال بالمحيط الجيو- سياسى ونسينا جوهر العلاقات الإنسانية التى تتمثل فى العلاقات الثقافية والاجتماعية. وهو الأمر الذى يؤكد على الحاجة لمنهج شامل. كما أنه هو الذى قد يجعل من الإسلام عدواً مناهضاً للنظام الدولى. ولذلك فإنه بالإضافة إلى أهمية ضرورة التأكيد على القيم المشتركة بما فيها حقوق الإنسان والحرية والديمقراطية، فإن هناك حاجة إلى فهم أفضل للبنية الاجتماعية لدول العالم الإسلامى وذلك لتحقيق أعمق للفهم المتبادل.

وكذلك فإن هناك سؤالاً مهماً يطرح نفسه وهو: هل يمكن لرجل الشارع فى الغرب أن يتعلم كيف يفرق بين الإسلام والإسلاميين، أو بين التعبير الافتخارى أو الظاهرى لمعتقدات شخص ما والأصولية المستلهمة من السياسة؟ ويعرف أحد العلماء «الإسلاميزم» بأنها «الحركات والأيديولوجيات التى تدعى أن الإسلام، كما يفسرونه هو الأساس لإعادة تشكيل الدول والمجتمعات المعاصرة، وذلك طبقًا للصورة التى كانت عليها فترة نشأة الإسلام منذ ١٤٠٠ سنة». ولكن فى الحقيقة فإن أهداف الإسلاميين هى الحصول على السلطة، وبذلك يكون لهم أهداف سياسية وليست دينية. ولذلك فهناك غموض أساسى بين الحيل السياسية والتى تتستر تحت الواجهة الدينية القديمة وبين الاستنارة من خلال الإسلام المتحفظ والذى فيه الكثير من الغموض ويؤدى فى الغالب إلى أن معظم القادة المسلمين المتدينين لا يستطيعون شجبه أو التنديد به.

ومن هنا تتضح حقيقة ظهور المخاطر من خلال الإعاقة الدائمة من الإسلاميين لدول مسلمة عديدة ضمن دوائر عالمية، وهو الأمر الذى يحتاج إلى مقاومة فى الربط السهل بين «الإسلاميزم» ومظاهره العنيفة مع أى إدانة أو اتهام للإسلام. إن الإحساس المتبادل بالخوف والتهديد الذى ينسبه الغرب للتسليح الإسلامى وخوف الإسلاميين من سياسات الغرب وأفكارهم وقوتهم وبأسهم الاقتصادى وقوتهم العالمية تدعو إلى تقدير متبادل للمشاعر أكثر منها إلى نشر قوات عسكرية.

والخلاصة أنه لا يجب الخلط بين الإسلاميين والإسلام، ولكن فى نفس الوقت لا ينبغى أيضاً تجاهل الإسلاميزم. وعلى الرغم من صعوبة ذلك، فإنه ينبغى وجود شكل من أشكال الحيز السياسى المتاح للمتمسكين بسياسات عدم العنف حتى يمكنهم توصيل رؤيتهم للإصلاح إلى العالم والإعلان عنها، وذلك من خلال الإعلان عن سخطهم من داخل النظام الاجتماعى والاقتصادى والسياسى الحالى.

إن الإسلام يتميز بالتنوع البشرى كما أنه يتميز بمرجعيته الوحيدة وهى القرآن الكريم. وأنه لم يأت بمعزل عن سياقات أخرى كانت موجودة من قبله، وبذلك لا يمكن أن يكون مصدراً للتعصب؛ ومن ثم يكون من الصعب التحديد أو التأكد عمن يمكنه أن يتحدث باسم المسلمين. ولذلك تظهر حاجة كبيرة إلى تقوية الروابط مع المنظمات الإسلامية للتأكد من التمثيل الكامل لكل التيارات وتقليل الصراعات المتوقعة.

هذا وتظهر حقيقة وجمال الإسلام كدين فى أنه يعتمد على الوحى، والذى ينبغى أن يتم تعظيمه وشرحه، وهو الأمر الذى ربما يمكن أن يساعد فى مواجهة رغبتنا نحو العلمانية والعقلانية. ■



هناك حاجة إلى فهم أفضل للبنية الاجتماعية لدول العالم الإسلامى وذلك لتحقيق أعمق للفهم المتبادل



تشـــــــارلس ســـــيميك
Charles Simic



شهود على الرعب



saigon-execution, Eddie Adams' famous photo from the Vietnam war

[١]

■■ بما أن مراسلى الحروب المستقلين قد غدوا الآن أنواعا منقرضة تقريبا، ونحن نخوض حروبا لايظهر من صور الدمار والقتل فيها إلا القليل على شاشات التلفزيون او فى الصحف، فمن الجدير أن نستذكر أنه كان هناك زمن لم يكن الحال فيه كما هو الآن.

قبل أن يضع البنتاغون سياسة مرافقة المراسلين للقوات المسلحة - وبهذا تقيد حركتهم خشية ظهور صور وتقارير لا تتطابق مع السرد الرسمى للأحداث- كان مراسلو الحرب تقريبا يعملون بشكل انفرادى فى الدول التى تمزقها الحروب، ينقلون ما يرونه ويصلون إلى استنتاجاتهم الخاصة بأنفسهم. كانت مهنة شديدة الخطورة. بين ١٩٩١ و ٢٠٠١ مات ثلاثة وأربعون صحفيا فى البلقان، وهذا العدد أقل من الذين ماتوا فى العراق، حيث قتل مابين ٢٠٠٣ و ٢٠٠٩

Stripping Bare the Body: Politics Violence⁄War
by Mark⁄Danner
$28.95 Nation Books, 626 pp.,

بترتيب خاص مع
The New York Review of Books

ترجمة: بثينة الناصرى

مايبلغ ١٤٥ صحفيا على خط تبادل النيران أو بالتفجير الإنتحارى أو بالجرائم المدبرة من قبل مختلف المشاركين فى الصراع الذين لايرغبون أن يدس الصحفيون أنوفهم فيما لا يعنيهم.

بدءا من انتخابات ١٩٨٧ التى كان يفترض أن تجلب الديمقراطية إلى هايتى، بعد حكم عائلة دوفاليه Duvaliers الدموى، ولكن هذه الانتخابات قد تسببت فى مذبحة أخرى، يسجل مارك دانر الأحداث فى نزاعات اكثر عنفا فى البوسنة وكرواتيا فى أوائل التسعينيات من القرن الماضى، وعنف مابعد غزو العراق، والتعذيب فى سجوننا السرية فى أنحاء العالم، والقرارات السياسية المختلفة فى واشنطن والتى كان لها إما تأثير ضار أو مفيد على شعوب تلك الدول. هذه النصوص المطولة والمبحوثة والمكتوبة جيدا والكثير منها مما ظهر على هذه الصفحات، تجمع بين التحليل السياسى والخلفية التاريخية وتغطية عيانية من دانر، لإيصال المعاناة الانسانية الشديدة فى أحداث يمكن أن تبدو فى كثير من الأحيان قصية عن الأنظار.

عنوان الكتاب مقتبس من مقولة للرئيس الهايتى السابق ليزلى مانيجا Leslie Manigat الذى استلم السلطة من الضباط الدوفاليين بعد أن أجهضوا بوحشية انتخابات ١٩٨٧. نقل عنه دانر قوله بأن العنف السياسى «يجرد الجسد الاجتماعى عاريا» مما يتيح لنا أن ننظر تحت السطح لما يحدث فعلا فى المجتمع. هذا ما يجعل قراءة هذه المجموعة من المقالات شيئا ممتعا. وفى الوقت الذى نتعلم فيه الكثير حول هذه الدول التى اخترقها العنف، نشهد أيضا المعرفة التى اكتسبها دانر نفسه، وفهمه المتعمق لحدود التدخلات العسكرية ونتائجها غير المقصودة.

هايتى كانت بداية المعرفة لدى دانر. وقد وصلها فى عام ١٩٨٦ لتغطية «انتقال البلاد إلى الديمقراطية» لحساب صحيفة نيويوركر فى أعقاب النفى الفخم لفرانسوا (بابا دوك) ابن دوفاليه بنقله بطائرة عسكرية امريكية نفاثة إلى فرنسا، ببادرة من إدارة ريغان. وكما يعترف دانر بنفسه، فقد كان يتوقع، بسذاجة، أن من شأن انتخابات حرة وحكومة شعبية تنتج عنها أن تكسر دائرة الانقلابات العسكرية والحكام الدكتاتوريين، حين كان من الممكن أن يتحول طبيب ريفى خجول إلى وحش سفاح، وجنرال ذو تهتهة إلى كاليغولا منتش بالخمرة. لكنه أدرك بعد ذلك :

إن العنف هو محرك السياسات فى هايتى، هو وسيلة تغيير النظام، وهو نهج استلام الحكم. والصراع من أجل السلطة مستمر ولا ينتهى، بل يتخلل كل جوانب الحياة، وفى نظر أى مواطن هايتى هو مرادف للثراء والشهرة. يقول الرئيس السابق الذى أعطى لهذا الكتاب عنوانه «اذا لم يذهب الانسان إلى السياسة، فالسياسة هى التى تأتى إليه» وقد كان استاذا ومفكرا وكاتبا من عائلة سياسية لامعة، واستلم السلطة بفضل العسكر بعد انتخابات دموية مجهضة وفقدها بعد بضعة أشهر فى انقلاب صاخب.

فى الدول التعيسة يعيد التاريخ نفسه. إن غياب المؤسسات المحترمة والقوانين المدروسة التى يمكن للمرء أن يعتمد عليها لحمايته، تصيب باللعنة هذه المجتمعات لإحياء نفس الصراعات، وتكرار نفس الاخطاء أكثر من مرة، وتحمل نفس النتائج المرعبة لهذه الأفعال. فى هايتى كما قال وزير مالية سابق للكاتب دانر «ان البزنس الدموى للقمع والتعذيب والقتل، مؤسس على أن يبقى راسخا، من اجل الحصول على المزيد من الأموال» (ترجمت كلمة العمل فى مقطع the whole bloody business of repression etc بكلمة بزنس لأن القائل يقصد أن عملية التعذيب والقتل والقمع هى بزنس لتوليد المزيد من المال. فالكلمة تجىء فى السياق - المترجمة)

هناك الكثير من الأماكن الاخرى، يصدق عليها هذا القول، ولكن من الأفضل إخفاء هذا الفساد خلف طبقة لامعة من القانون والنظام. فى هايتى الفقيرة، والفجوة العميقة فيها بين طبقة حاكمة صغيرة ومتعلمة تتحدث الفرنسية وبقية السكان الأميين الذين يتحدثون الكريولية (ولهذا لا يفهمون غالبا ما

«We got no dog in this Fight»
جيمس بيكر وزير الخارجية الأمريكى بعد فشل مهمته فى يوغسلافيا ـ ١٩٩١



يقوله رئيسهم لهم) تم تجريد هذه الحقائق القاسية عارية. كان دوفاليه الأب الذى حكم بين ١٩٥٧ وموته فى ١٩٧١، يعتقد بانه ينبغى ألا يكون لإرهاب السلطة حدود. وعلى المرء أن لا يقتل اعداءه فحسب ولكن أصدقاء أعدائه أيضا وبأفظع ما يمكن من الطرق المشهودة.

فى يوم الأحد ٢٩ نوفمبر ١٩٨٧، وهو اليوم الذى أجهضت فيه الانتخابات من قبل الجنرال هنرى نامفى، رئيس العصابة العسكرية التى حكمت البلاد منذ رحيل دوفاليه الابن، حدثت مذبحة نهارية مروعة اخرى . بدون كلمة تحذير، فتح الجنود النار على الناس الذين كانوا يصطفون فى طوابير الانتظار أمام مراكز الاقتراع، فتناثرت جثث الرجال والنساء والأطفال فى شوارع بورتوبرنس فى برك من الدماء. وفى الريف، حدث الشىء ذاته. كما روت امرأة ميسورة لدانر فى حديث هاتفى «كل هذا يستدعى إلى الأذهان دوفاليه الأب.. أنظر » توقفت لحظة ثم قالت «انت تعتقد أن هذه كانت مذبحة، ولكن هذا كان مجرد يوم عادى من أيام دوفاليه».

تعود المحاولات الأمريكية لتشكيل السياسة فى هايتى إلى العام ١٩١٥ حين أرسل المارينز للقضاء على فوضى الصراع الداخلى. بقى المارينز هناك لمدة تسعة عشر عاما معلنين أن شعب هايتى غير مستعد لحكم نفسه. انتزع الأمريكيون الأرض وأنشأوا قوتى شرطة وجيش كان من المفترض ان تمنعا التمرد وتحميا العاصمة الأمريكية (فى هايتى) . ولكن لم يكن هذا كل شىء. قدمت واشنطن معونة عسكرية أمريكية للرئيس بابا دوك دوفاليه خلال سنواته الدموية الأولى . استلم ٤٠ مليون دولار ودعما من المارينز لحماية نظامه من أى حركة شعبية قد تطيح به.

فى عام ١٩٩٤ أمر الرئيس كلنتون القوات الأمريكية بالتدخل لاستعادة الرئيس المنتخب جان برتران اريستيد Jean Bertrand Aristide منصبه رئيسا للبلاد بعد أن تمت الإطاحة به، وحماية المصالح الأمريكية ووقف الفظائع. ويقول دانر فى كتابه «لقد فشل حتى ارسال عشرين ألفا من القوات الأمريكية فى تغيير الديناميكية الأساسية» فالجنود الأمريكان لم يواجهوا رجال الميليشيات المدججين بالسلاح، خوفا من فقدان حياتهم . أما ارستيد فقد أعيد بمروحية أمريكية هبطت فوق القصر الرئاسى، حيث حكم حكما مزعزعا لمدة عشر سنوات ثم طارت به الطائرة بعدها إلى المنفى مرة أخرى.

[٢]

ومرة أخرى تصبح محاسن ومساوئ التدخل الأمريكى قضية ضاغطة خلال الحروب فى يوغسلافيا السابقة، والتى قام دانر بتغطيتها بعد سنوات قليلة من زيارته لهايتى. لقد حل السلام فى البوسنة والهرسك بفضل اتفاق دايتون فى نوفمبر ١٩٩٥، وبعد أربع سنوات تقريبا وقع تدخل الناتو فى كوسوفو وقصفت صربيا. فى نصوصه، يتأمل دانر الذى قضى بعض الوقت فى البوسنة خلال الحرب، ليس فى تجربته هناك فحسب، بل يقوم أيضا بمراجعة الأحداث التى أدت إلى انفصال جمهوريات عديدة والاعتراف بها دولا مستقلة، والحروب التى نتجت عن ذلك وتفكيك دولة كانت تعرف باسم يوغسلافيا منذ ١٩١٨.

السؤال الذى كان يحيره، كما قد يحير أى شخص كتب عن هذه الحروب، هو كيف كان ممكنا للمجتمع الدولى وخاصة الولايات المتحدة أن يقف متفرجا على قصف القوات الصربية لسراييفو وقتل الناس العزل والتى شاهدها العالم بأسره على شاشات التلفزيون؟ لماذا لم يكن ثمة تدخل عسكرى للوقوف بوجه التطهير العرقى الصربى؟ لماذا لم يوفر الغطاء الجوى لتأمين وصول البوسنيين المحاصرين والعزل فى سربرنيتسا إلى مكان آمن؟ يمكننا فهم بعض التردد الذى شاب تحرك الولايات المتحدة والاتحاد الأوربى وحتى يمكن غفرانه عند استرجاعه فى الذهن، ولكن ليس الفظائع التى كان هناك الكثير من التحذيرات المسبقة بشأنها ونقلت إلى جهات كان يمكنها أن تفعل شيئا ولكنها ظلت تماطل حتى فات الأوان.

يؤرخ دانر تدخل الولايات المتحدة بدءا من الرئيس بوش الأول وزيارة الوزير بيكر الفاشلة إلى بلغراد فى يونيو ١٩٩١.



كيف كان ممكنا للمجتمع الدولى وخاصة الولايات المتحدة أن يقف متفرجا على قصف القوات الصربية لسراييفو وقتل الناس العزل



حاول بيكر أن يبقى على يوغسلافيا موحدة رغم (تقييم استخباراتى قومى من السى آى أية بانه طبقا لمصدر غير مسمى اقتبس منه فى نيويورك تايمز، قال متنبئا بأن تجربة يوغسلافيا القديمة فشلت وأن الدولة سوف تتفكك، وأن هذا يمكن أن يصاحبه على أكثر احتمال عنف عرقى واضطراب يؤدى إلى حرب أهلية.) ويقول دانر «لا يمكن لأحد أن يثبت أن أى «تهديدات قوية » أو حتى «أفعال» (ويمكن للمرء أن يتكهن بالكثير منها ماعدا حرب شاملة) كان يمكن لها أن تمنع النزاع القادم». وعلى أية حال لم يكن التدخل العسكرى واردا، حيث كانت الولايات المتحدة مشغولة بالاضطراب الذى يمور فى الاتحاد السوفيتى وفى الشرق الاوسط، وكذلك باقتراب الانتخابات الرئاسية.

يرى دانر أن اقتراب سلوفنيا وكرواتيا من حافة الانفصال،مع تحذيرات بيكر ضد اعلان احادى الجانب للاستقلال وضد استخدام القوة للإبقاء على الاتحاد، هو الذى اضطر الصرب لاستخدام القوة. ومع ذلك فلم يكن الصرب وانما الجيش اليوغسلافى والحكومة اليوغسلافية وكان الاثنان لايزالان فى السلطة، وكان من الطبيعى ان تكون لهما مصالح فى المحافظة على الاتحاد.

ولكن لم يكن الوضع قبل انطلاق النزاع، شديد الوضوح كما يريدنا دانر أن نعتقد. لم تكن يوغسلافيا، رغم مايذيعه القوميون العنصريون، مكانا سيئا للعيش بالنسبة لمعظم سكانها وخاصة المتزاوجين من اعراق مختلفة أو الذين يعيشون فى أقليات فى جمهوريات تسيطر عليها غالبية من عرق آخر. وكان هؤلاء مع الكثير من اليوغسلاف الآخرين يأملون أن يسود العقل وأن تبزغ بالتدريج كونفدرالية مرنة، ولكن المجموعة الأوربية European Community على أية حال وضعت حدا لهذا بإعلانها يوما فى مارس ١٩٩١ بأن للجمهوريات اليوغسلافية الحق فى تقرير مصيرها. ودفعت ألمانيا إلى انفصال سلوفينيا وكرواتيا فورا، كما فعلت الولايات المتحدة بعد أشهر قليلة مع البوسنة والهرسك.

وبدون تفكير فى النتائج، شجع الأوربيون القادة القوميين والجماعات الاثنية الذين يناسب مصالحهم تفكيك بلد متعدد الأعراق، على حساب أولئك الذين لا يكنون ولاء واضحا للعرق أو اولئك مثل الصرب الذين يشكلون اكبر جماعة عرقية فى يوغسلافيا ولكن فجأة وجدوا أنفسهم وقد أصبحوا أقلية كبيرة فى كرواتيا وتقريبا نصف السكان فى البوسنة والهرسك. ولم يكن أى من الاحزاب التى تفضلها الولايات المتحدة بضمنها ذات الأصول السلوفينية، يريدون هوية متعددة الثقافات. وقد اعتبرت الخصائص الفاشية الواضحة للحزب الحاكم فى كرواتيا والمسمى HDZ وكأنها شىء هامشى لا قيمة له. وكذلك كانت خصائص الهيمنة الاسلامية على البوسنة . وماكان سلوبودان ميلوسيفيتش سيجمح مطلق العنان لو لم تجبر يوغسلافيا وحكومتها الأخيرة بضمنها جيش متعدد الأعراق على الاختفاء بهذه السرعة.

فى ضوء كل هذا، كان من المفهوم أن الصرب سيشعرون بالخطر حين وقف المجتمع الدولى مع الانفصاليين ولم يكتف بذلك وإنما قام فورا بإعادة كتابة تاريخ يوغسلافيا، واصفا إياهم (الصرب) بأنهم طغاة وكل الآخرين ضحايا رغم حقيقة أن الحاكم المطلق ليوغسلافيا منذ ١٩٤٥ وحتى وفاته فى ١٩٨٠ كان المارشال تيتو وهو نصف كرواتى وأن سلوفينيا وكرواتيا كانتا أكثر الجمهوريات رفاهية فى الاتحاد. كما أعلن الاتحاد الأوربى أن حدود الجمهوريات لن تتغير، وهكذا يمكن لكرواتيا أن تنفصل، ولكن ليس الصرب فى إقليم كراجينا الذين أرادوا الانفصال عن كرواتيا، أو، كما فى حالة الألبان فى كوسوفو الذين أرادوا أن ينفصلوا عن صربيا.

بطبيعة الحال، فى خريف ١٩٩١، حين أحاطت المدفعية والمشاة الصربيون بمدينة فوكوفار الكرواتية وحين كشف ميلوسيفيتش خطته للعالم للدفاع عن المصالح القومية الصربية بتدمير المدن وإطلاق النار على المدنيين العزل، لم يكلف أحد نفسه بتذكر سبب الحرب أو أن يشعر بالعطف على الصرب الذين تمت



شيطنتهم . ويعتقد دانر أنه كان ينبغى استخدام القوة مباشرة، وهو يقتبس باستحسان أقوال مخطط عسكرى أمريكى من أن قصفا جويا مكثفا على القوات الصربية التى تحاصر فوكوفار كان يمكنه أن ينهى الحصار. ولكن دانر يعترف أيضا بمرارة أن قيام أى دولة باستخدام جيشها فورا حسب الطلب للقضاء على صراع فى بلاد أخرى، أمر غير محتمل.

يدهشنى أن دانر لا يذكر العديد من المحاولات المبكرة لعقد صفقة سلام بين الأطراف المتحاربة. خاصة محاولة خوزيه كوتيليرو Jose Cutileiro وهو دبلوماسى برتغالى، فى فبراير و مارس ١٩٩٢ أن يمنع الحرب الأهلية بعقد اجتماع لقادة الجماعات العرقية الثلاث فى لشبونة للتوصل إلى اتفاق دستورى قبل إعلان الجمهوريات استقلالها. وكان الترتيب الذى اقترحه هو تقسيم البوسنة إلى ثلاثة اقاليم منفصلة تتمتع بالحكم الذاتى مع حكومة مركزية ضعيفة، على أن يحصل المسلمون على ٤٥ بالمائة من الارض، والصرب على ٤٢,٥ بالمائة والكروات على ١٢,٥ بالمائة.

وفى مذكراته يذكر السفير الامريكى الســابــق وارن زمــرمــان Warren Zimmerman الذى شجع قائد مسلمى البوسنة على عزت بيغوفتش Alija Izetbegovic على رفض الخطة فى ذلك الوقت، أن مقترح كوتيليرو ربما كان سيكون الأفضل للمسلمين من الخطة البديلة بضمنها وصفة دايتون التى أنهت القتال فى ١٩٩٥. إذن لماذا خربت الولايات المتحدة الوفاق فى لشبونة ثم قامت بالاعتراف باستقلال البوسنة والهرسك فى اليوم التالى مباشرة، رغم اتفاق وكالات استخباراتها على أن الاعتراف بالاستقلال سوف يفجر البلاد؟

ديفد إن جبس David N. Gibbs، فى كتابه الممتاز حول تدمير يوغسلافيا «أولا لا تؤذى»[1] First Do No Harm يقدم توضيحا معقولا. كانت الولايات المتحدة قلقة من الجهود الأوربية لخلق سياسة خارجية اوربية مستقلة. وفى الاعتراف باستقلال البوسنة، أكدت الولايات المتحدة مركزها القيادى وصححت افتقارها السابق لسياسة واضحة. بتعبير آخر، كانت اعتبارات السياسة الواقعية المراعية للمصالح الأمريكية هى التى وراء ذلك القرار.

ومهما تكن القصة الحقيقية وراء ذلك القرار، فما حدث بعدها كان جحيما فوق الارض. مات حوالى ١٠٠ ألف شخص



من العسكريين والمدنيين فى السنوات الثلاث التالية، وقتل من المسلمين ضعف ماقتل من الصرب. إن الوصف المفصل الذى قدمه دانر للفظائع التى بلغت ذروتها فى مذبحة سريبنيتسا، يصلح ليكون إدانة قوية لشلل المجتمع الدولى ووحشية الصرب، الذين انطلقوا لذبح المسلمين وتطهيرهم عرقيا بأسلوب يشابه تقريبا ذلك الذى استخدمه الفاشيون الكروات فى القضاء على الصرب قبل خمسين سنة. وليس هذا تبرئة للمسلمين والكروات. يقول جون دويتش John Deutch، الذى كان فى حينها مسئولا فى وزارة الدفاع الأمريكية «أحد أسباب صعوبة اتباع سياسة جيدة هو فظاعة كل الأطراف» وعلى أية حال، كان البيت الأبيض على عهد بوش وجنرالاته ضد التدخل. ومن بين المأساتين اللتين كانتا تجريان على مسرح العالم، اختار الأمريكيون التدخل فى الصومال وليس البوسنة، حيث إن العملية فى الصومال ستكون اقل خطرا وأكثر مكسبا.

يسأل دانر السؤال العسير: ماهو سبب الوحشية الاستثنائية للصرب؟ ويعزوها إلى الايديولوجية المرتبطة بالايمان بصربيا العظمى (التى، بالمناسبة، لم اسمع عنها كلمة واحدة قبل سقوط يوغسلافيا) والاحساس الأقرب إلى الهستريا بمظلمة تاريخية، والخطاب المحموم والبارانويا حول إبادة قادمة للصرب (متناسين أن المذبحة التى نفذها الفاشيون الكروات فى الحرب العالمية الثانية مازالت طازجة فى أذهان الكثيرين).

يقترب دانر من الحقيقة حين يضع اللوم على سياسيين طموحين قساة. ولكن على أية حال، كان تصويره لميلوسيفيتش الذى يصفه بالدكتاتور رغم تعامله مع أحزاب معارضة وسماحه بمظاهرات متكررة فى الشوارع، غير مقنع. مثل حالة الرجال الذين يجلبون الكوارث على شعوبهم، كان ميلوسفيتش، انتهازيا ومستغلا بدون ذرة من التعقل. ولم يكن يقصد بسياسته القومية حل أى مشكلة لمواطنيه الصرب، ولكنها كانت لمجرد زيادة سلطته الشخصية و إثراء المتحلقين حوله. وبدلا من حماية المصالح القومية الشرعية، كان يتصرف مثل سفاح ونجح فى بعثرة أى تعاطف دولى كان يمكن أن يحظى به الصرب.

أما بالنسبة لأتباعه - ٨٠ ألفا منهم خرجوا فى بلغراد عام ٢٠٠٦ لتوديعه الوداع الأخير، والكثير منهم كانوا قد طهروا عرقيا فى كرواتيا والبوسنة وكوسوفو - وبالتأكيد لم يربطوا بين سياساته ومحنتهم. ما تذكروه عنه ومازالوا يحملونه له من إعجاب، هو عناده. فقد ظل يقول (كلا) للجميع حتى حين كان ذلك ضد مصالحه الشخصية. ويوحى دانر بالانطباع بأنه كان نوعا من العبقرى الشرير الذى خطط كل شىء مسبقا. وأنا لا أرى المسألة بهذا الشكل. بل كان القائد الكرواتى الجنرال فرانجو توجمان Franjo Tudjman هو الذى عرف كيف يخطط. عرف أن المرء يحتاج إلى حلفاء أقوياء إذا أراد أن يرتكب جريمة تطهير عرقى وينجو من العقاب.

الكثير مما حدث فى كل من كرواتيا والبوسنة كان انتقاما. وكما يوثق دانر فى مقالاته، كانت مذبحة سيربرنيتسا انتقاما لقتل الصرب من قبل المسلمين الذين اتخذوا من (المنطقة الآمنة) محطة للانطلاق فى مداهمات ليلية على القرى المحيطة. وحسب تفكير الجنرال راتكو ملاديتش Ratko Mladic المنتقم والمتوحش، فقد كان هذا يمنحه الحق لذبح من المسلمين اضعافا مضاعفة مما قتل من الصرب، بغض النظر عما اذا كان الضحايا مسئولين عما حدث للصرب . ومن غير المستغرب أن المجتمع الدولى استغرق أربع سنوات حتى يفهم تماما نوع الشياطين التى أطلقها ميلوسوفيتش.

وأشارك دانر فى غضبه من أنه كان يمكن فعل شىء لكسر حصار سيراييفو ومنع القتل الجماعى فى سريبرنيتسا، ولكن اوربا والولايات المتحدة وجدتا نفسيهما بين سياستين متناقضتين عمليا : أما استخدام قوات حفظ السلام لايقاف القتل - وهذا ماكان سيكون فى صالح الصرب، الذين كانوا يحتلون فى منتصف عام ١٩٩٥ حوالى ٧٠ بالمائة من الأراضى البوسنية - او يسعون لإيقاف التطهير العرقى بقصف الصرب وترك المسلمين والكروات الذين اعتبروا ضحايا، يقومون بدورهم بتطهير الصرب.

ويقر دانر بأن الخيار الأخير كان يعنى مئات الالوف من اللاجئين الصرب الاضافيين. ولكنه يعتقد أن ذلك المسار كان سيكون هو الافضل: بدلا من التقسيم العرقى، كان يمكن أن يؤدى، اذا كانت الولايات المتحدة مستعدة لتولى «مهمة ومسئولية بناء دولة جديدة» إلى «إعادة بناء نوع من بوسنة موحدة» ويقول أن هذا «كان يمكن أن يجلب للبوسنة مستقبلا مختلفا جدا عن «السلام البارد» الكئيب حسب اتفاق دايتون، ومهما كان ذلك مثاليا وغير قابل للتطبيق، فإنى أرى نفس الرأى. ولكنى لا أعتقد أنه فهم المضمون الكامل لما يقترحه. فمن أجل اعادة العدالة كنا سنرتكب ظلما فاضحا آخر بالتعامل مع صرب البوسنة على انهم مذنبون . فى النهاية، لم تكن الولايات المتحدة ستقبل بالقيام بذلك، ولا الاتحاد الأوربى.

من بين المأساتين اللتين كانتا تجريان على مسرح العالم، اختار الأمريكيون التدخل فى الصومال وليس البوسنة، حيث إن العملية فى الصومال ستكون أقل خطرا وأكثر مكسبا

[٣]

مقالات دانر حول العراق المنشورة فى هذه الصفحات بين سبتمبر ٢٠٠٣ و ابريل ٢٠٠٩، وكتبت بعد زيارات لمعاينة الاحداث السياسية الرئيسية فى البلاد، وكنت قد قرأتها وأعجبت بها حين نشرت تباعا، تبدو الآن اقوى تأثيرا حيث جمعت معا. ومع صعوبة القيام بتحليل سياسى وتوقعات فى التو واللحظة، تعتبر هذه المقالات تقارير صحفية فى أفضل

إسقاط تمثال صدام حسين، التلويح بالاصابع البنفسجية بعد أول انتخابات، وصور أخرى مدبرة بعناية هى الصور التى يريدوننا أن نراها، وليس البقية، التى يعتقدون أنها ينبغى أن تظل مخفية من عيون الأمريكيين



صورها. الصور التى ينقلها عن بغداد الممزقة بالصراع العرقى (استخدم الكاتب كلمة ethnic لوصف الصراع، وفى الواقع أنه ليس عرقيا بل طائفيا لأن (الشيعة) و(السنة) مذاهب دينية وليست أعراقا- المترجمة)، ومئات من التفجيرات الانتحارية، وشوارعها المسيجة بجدران مضادة للانفجار بارتفاع اثنى عشر او خمسة عشر قدما، وصور الفلوجة ومبانيها التى تحولت إلى أنقاض بمدفعية المارينز، كانت صورا نابضة بالحياة بشكل مفزع.

وبصفته معارضا للحرب فإن دانر هنا اكثر تشكيكا بمزاعم الحكومة الامريكية واكثر تقديرا للتعقيدات الهائلة فى الاوضاع على الارض مما كان عليه فى يوغسلافيا. انه يجيد اظهار البعد بين الواقع المأساوى - دولة حطمها احتلالنا والحرب الأهلية ومشاكل سياسية جمة وارهاب - ومسئولى ادارة بوش بنظرتهم الواثقة بأن الحقيقة تابعة للقوة وأن لديهم القدرة لتشكيل الحقيقة كى تبدو كما يريدونها.

إسقاط تمثال صدام حسين، التلويح بالاصابع البنفسجية بعد أول انتخابات، وصور أخرى مدبرة بعناية هى الصور التى يريدوننا أن نراها، وليس البقية، التى يعتقدون أنها ينبغى أن تظل مخفية من عيون الأمريكيين.

كان كل من دانر ورون ساسكند Ron Suskind الذى يقتبس من كتابه (مبدأ الواحد بالمائة) نصوصا مطولة[٢] يعتقدان أن غزو العراق كان يقصد به أن تجعل أمريكا من صدام حسين أمثولة لتوضيح مايمكن أن يحدث لمن يفكر بامتلاك أسلحة دمار شامل - والتى لم يكن العراقيون يمتلكونها فى الواقع - أو مايتوقعه من يستهين بقوة الولايات المتحدة. وكان هنرى كسنجر يتفق على هذا وقد أيد الحرب وينقل عنه دانر قوله «لأن أفغانستان لم تكن كافية». ويوضح ان الاسلاميين المتطرفين يريدون إذلالنا «ونحن نحتاج إلى إذلالهم». ويقول دانر إنه من أجل مكانة ومصداقية الهيمنة الامريكية، كان لابد من استبدال صورة «انهيار البرجين إلى أنقاض والنار تشتعل فيهما» بمشاهد «الدبابات الأمريكية تهدر بخيلاء فى شوارع العاصمة العربية المقهورة». كان ينبغى أن يكون هذا المشهد عرضا فخما مشهودا لـ «الصدمة والرعب» لا يقيده مايسمى أسلحة الضعفاء: الأمم المتحدة، القوانين والمحاكم الدولية، وبقية ما قد يستخدمه العالم لمحاولة تقييد القوة الأمريكية.

فى الممارسة الواقعية، ما وصفه دانر فى العراق يماثل ما سمته باربرة دبليو تخمان Barbara W.Tuchman «مسيرة الحماقة» شيئا أكثر من إظهار القوة التى لاتقهر. فى كتابها الشهير[٣] درست الشخصيات التاريخية التى اتخذت قرارات كارثية تناقض مصالح بلدانها، قرارات كانت تبدو غير منتجة حتى فى زمانها وكان لها بدائل جاهزة أفضل.

عند إعادة قراءة نصوص دانر اليوم، ندرك بأنه لم يكن هناك أى شىء قريب من التفكير الجاد قبل غزونا العراق. كان قادتنا واثقين من أنفسهم وقد رفضوا أن يسمحوا باستمرار فرق تفتيش الأمم المتحدة. لقد ظنوا أن موازنة حسابات المجازفة سوف لن تفيد إلا فى عرقلة الفعل. ماذا يهم التدبر الحذر المستند على السبب والنتيجة، إذا كان لديك أقوى جيش فى العالم، ونفقات الدفاع لديك أكثر من بقية ميزانيات جيوش العالم مجتمعة؟ حين ساد النهب فى أعقاب غزونا العراق، فى وزارات الحكومة فى بغداد والجامعات والمستشفيات ومحطات الكهرباء والمصانع، قضى على البنى التحتية للبلاد وقضى معه على كل الاحترام الذى قد يكنه العراقيون لكفاءتنا، فقد وقف ١٤٠ الف جندى أمريكى يتفرجون على الفوضى المتصاعدة دون أن يفعل شيئا.

وحدث نفس الشىء حين قرر بول بريمر Paul Bremer الحاكم الأمريكى فى العراق المسئول عن الإشراف على إعادة إعمار العراق، أن يطرد كل البعثيين من الحكومة وأن يحل الجيش - وبذلك حول ٣٥٠ ألفا من الأشخاص المذلين والعاطلين إلى اعداء، مما أدى إلى تغيير ما كان يخطط له البنتاغون من نصر سريع ومغادرة سريعة، إلى احتلال طويل المدى- وقبل أن يقدم على خطوته لم يخطر بريمر أحدا فى مجلس الأمن القومى او فى وزارة الخارجية بما سيحدث.



ويوضح دانر فى كتابه أن الفشل المنهجى فى العراق كان فى أغلبه نتيجة تصميم إرادى لصناع القرار للنأى بأنفسهم عن المسئولين فى الحكومة الذين قد يعرفون شيئا. وكما كتب أحد المؤرخين وهو يصف الحمق العجيب لملك اسبانيا فيليب الثانى «لايمكن لأى تجربة فاشلة فى سياساته أن تهز إيمانه بروعتها».

أكثر مقالتين مؤلمتين فى الكتاب تتعلق بالتعذيب وكانتا قد نشرتا فى ابريل بعد أن حصل دانر على تقرير سرى كتبه مسئولو اللجنة الدولية للصليب الأحمر ICRC. من أجل مراقبة الالتزام بمعاهدات جنيف وللاشراف على معاملة السجناء، سافر أعضاء من اللجنة إلى غوانتنامو وتحدثوا سرا مع عدد من المعتقلين الذين أفصحوا عن نوع التحقيقات التى اخضعوا لها سواء فى غوانتنامو أو فى شبكة السجون السرية فى انحاء العالم حيث تم احتجازهم. وصفوا بالتفصيل، وكل على حدة، ما يسميه الرئيس بوش «الاجراءات البديلة» والتى تعنى بدون جدال، رغم انكاره المحموم، التعذيب.

كانت هذه «الأساليب» مقتبسة من الشيوعيين السوفييت والصينيين وأنظمة قمعية أخرى، قديمة وحديثة، وكان يجرى تلطيف وقعها بمساعدة محامين فى وزارة العدل مع مسئولين من وكالة المخابرات المركزية وأطباء وعلماء نفس. وبهذا فهم لم يبعثوا من جديد الممارسات اللاشرعية فى إيقاع الألم والرعب فى البشر، المقتبسة من أكثر فصول التاريخ الانسانى عارا فحسب، بل فعلوا ذلك بالمشاركة الفاعلة لمسئولين كبار فى الحكومة من الذين أصروا على أن يتم إبلاغهم بتطورات هذه «الاستجوابات» ساعة بساعة، والذين دبروا تطبيق أسلوب (الإيهام بالإغراق Waterboarding) والحرمان من النوم والحواس، وطرق بربرية أخرى على بعض أشهر المعتقلين.

وبما أن القانون الدولى (والولايات المتحدة أحد الموقعين عليه) يحظر المعاملات القاسية واللاإنسانية والمهينة، فإن ممارستنا التعذيب كانت تخفى وتبرر و يتم تجاهلها فى أكثر الأحوال، ليس فقط من قبل إدارة بوش وأبواقه من الكتاب، ولكن أيضا من قبل الكونغرس والآن حتى من قبل الكثير من الأمريكيين، وفى الواقع أكثر من نصف الشعب الأمريكى كما يشير أحدث استطلاع للرأى. وما يسبب قشعريرة أشد عند قراءة نصوص دانر حول تقرير لجنة الصليب الأحمر، أنها كتبت عندما كان لايزال لدينا - مع قدوم الإدارة الجديدة- أمل معقول بأن يكون هناك نوع من تحقيق جاد وحتى مقاضاة للمتورطين.

ولكن يبدو أن هذا لن يحدث. لقد اتخذت ادارة اوباما خطوات لإنهاء التعذيب وسربت وثائق تبين تواطؤا رسميا فى تنفيذه، ولكن يبدو ان ادارة اوباما ليست مهتمة فى إقامة أى نوع من لجان تقصى الحقائق التى يمكنها أن تحقق بشكل شامل بالجرائم التى ارتكبها قادتنا ومسئولونا الكبار السابقون. ومن هنا يصبح لكتاب دانر قيمة كبيرة. ينبغى أن يقرأه اولئك الذين مازالوا يرون فى حروبنا حملات أخلاقية. يمكنهم أن يدركوا من صفحاته لماذا يرغب الكثير جدا من «الجاحدين الذين أحسنا إليهم»، فى تفجير أنفسهم من أجل إيذائنا، ولماذا لا تؤدى الحروب القائمة على الأوهام إلا إلى المزيد من الأوهام والمزيد من الحروب. ■



يوضح دانر أن الفشل المنهجى فى العراق كان فى أغلبه نتيجة تصميم إرادى لصناع القرار للنأى بأنفسهم عن المسئولين فى الحكومة الذين قد يعرفون شيئا



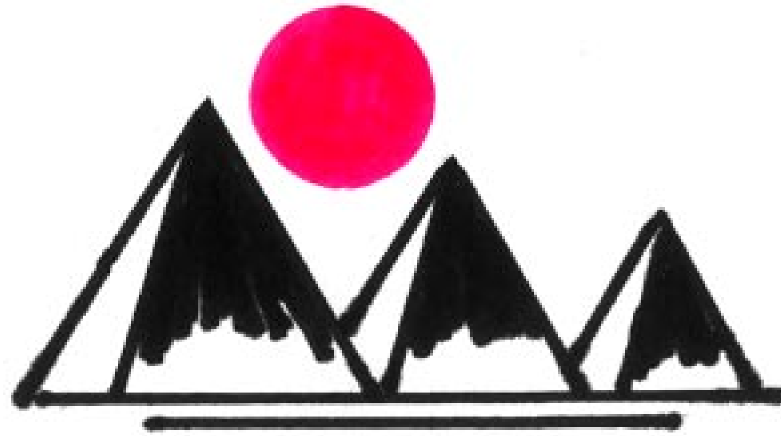
هوامش:

1 - First Do No Harm: Humanitarian Intervention and the Destruction of Yugoslavia (Vanderbilt University Press, 2009).
2 - The One Percent Doctrine: Deep Inside America's Pursuit of Its Enemies Since 9/11 (Simon and Schuster, 2006).
3 - The March of Folly: From Troy to Vietnam (Knopf, 1984).

عودة "مصر المثقفة"



إسماعيل سراج الدين





الثقافة العربية في حاجة إلى الركيزة الضخمة التي يمكن لمصر أن تعطيها



■■ أكتب هذه السطور، بقلم مثقل بالهموم، وقلبٍ حزين بما يرى حولنا من مظاهر الضعف والانحلال، وما يحيط بنا من التخلف والتبعية، في وقت لم تهتز ثقتي في شباب وطني قيد أنملة؛ ثقتي في قدراتهم الخلاقة، في وطنيتهم الصادقة، في طموحاتهم الشامخة لأنفسهم ولبلدنا ولمجتمعنا. أقول هذا لأنني واثق من أن هذه القدرات الهائلة موجودة ولكنها نائمة، راكدة، تنتظر الشرارة التي تفجر طاقاتها، وتجند إمكاناتها، والدعوة التي توجه مسارها نحو الإقدام والتقدم، فينطلق جيل جديد من المصريين، بناة مستقبل مصر في القرن الحادي والعشرين، بنفس الحماس الذي قامت به قيادات شابة منذ قرن من الزمان، وبنفس العزيمة التي أطلقت في مصر عنان الفكر والإبداع، وفتحت أبواب البناء والتعمير، وأصرت على الاستقلال من المستعمر الغاشم، وبنت الجامعة المصرية، وأسست الاقتصاد الوطني، وأرست قواعد العمل النيابي الديمقراطي، وغير ذلك من الإنجازات.

أقول هذا، مع تقديري التام لما تحقق في النصف الثاني من القرن العشرين من إنجازات، وما خاضته مصر من معارك من أجل التخلص من الاستعمار، وبناء المجتمع الحديث الذي يتمتع فيه كل أبنائه بنعمة التعليم، والصحة، وقدر من العيش الكريم. وأعلم جيداً ما سجلت مصر من صفحات مجيدة في دعم حركات التحرر الوطني في البلاد العربية والإفريقية، ودورها وإسهامات أبنائها في الفكر الإسلامي والقومي، ولكن لا يخفى على أحد أن هذه صفحات سطرت منذ عقود، وأن واقعنا العربي والإفريقي والإسلامي والمتوسطي كله لا يزال دون ما كان لنا أن نتوقع، بل وتقهقر حتى عادت الدول العظمى، والتي هي دون العظمى، فاستباحت الهجوم على ثقافتنا وعلى مقدساتنا وعلى تلك الأمور التي نعتبرها من الثوابت المحددة لشخصيتنا، بل نرى العالم يجري لإعادة صياغة مؤسساته الدولية، ورسم مساراته للخروج من الأزمة العالمية الراهنة، ولسنا مدعوين للإسهام في صناعة هذا المستقبل ولا نستشار في رؤيتنا لهذا العالم الجديد الذي نحن جزءٌ لا يتجزأ منه، بل ولنا من الفكر والثقافة والمعرفة والتاريخ ما يؤهلنا لأن نكون شركاء في البناء، بل وزملاء في القيادة.

وأعود إلى مصر الغالية وأقول:

إن لمصر دوراً محورياً في الدوائر المتداخلة من العالم العربي والإسلامي والإفريقي والمتوسطي، وإن تأخرها في القيام بهذا الدور الثقافي يدفع ثمنه كل أبناء هذه العوالم المتداخلة، وإن كانت الظروف الحالية من ثراء البعض وفقر الآخرين، أو من التقدم التعليمي والمعرفي لقوم وتأخر غيرهم، قد تؤدي إلى شعور بعضهم بأنهم في غنى عن الإسهام المصري ولا يريدون منه شيئاً، بل ويذهب بعضهم إلى محاربة ظهور دور مصري قوي في هذه الساحة أو تلك، دون أن يعوا الثمن الفادح الذي تدفعه الثقافات العربية والإسلامية والإفريقية والمتوسطية لغياب دور مصر الخلاق وإسهامها المبدع وقدرتها البناءة.

ثلاث من هذه الدوائر الأربع قد تحدث عنها جمال عبد الناصر في كتابه فلسفة الثورة، وهي الدوائر العربية والإسلامية والإفريقية، أما الدائرة الرابعة - الدائرة المتوسطية - فهي جديرة باهتمام خاص، لأن البعد المتوسطي كان جزءاً لا يتجزأ من الثقافة المصرية عبر آلاف السنين تتابعت فيها الممالك والحضارات. بل أقول إن لفترة تقرب من أربعة قرون كانت الإسكندرية هي عاصمة المتوسط بلا منازع حتى حلت محلها روما عاصمة الإمبراطورية الكبرى.

والبعد المتوسطي واضح في رؤية طه حسين حين كتب عن مستقبل الثقافة في مصر، وإن كان جزءاً من همه آنذاك دحض المقولة العنصرية التي حاولت وصْم العقل الشرقي بأنه أقل كفاءة وأدنى مرتبة من العقل الغربي. كما أن دور مصر وأهميتها في الدائرة المتوسطية يعترف به كل عالم منصف؛ ومنهم فرناند برودل Fernand Braudel، الذي عكف على عالم دائرة المتوسط طويلاً.

إن مستقبل مصر مرتبط بهذه الدوائر الأربع، فهي منها وهي فعّالة فيها وبها، ولذا كان رقي مصر وقوتها يضفي على كل من هذه الدوائر رقياً وقوة، وإن كان في كلٍ منها يبدو دور مصر مختلفاً، وعطاؤها مغايراً، لما هو في الدائرة الأخرى. وقد يتبادر للبعض أنني أتحدث عن دور مصر السياسي أو العسكري أو الاقتصادي، ولكنني أتحدث هنا عن دورها الثقافي المتميز والمتباين من دائرة إلى أخرى. وهذه الأدوار المتباينة أراها كلها بناءة بعيدة كل البعد عن الهيمنة أو السطوة التي كانت من ملامح فترات تاريخية معينة، بل أحسب أن الدول الشقيقة في كل دائرة من هذه الدوائر ستزداد قوة بقوة دور مصر الثقافي معها.

واسمحوا لي في هذه المقالة أن أسهب الحديث شيئاً عن هذه الأدوار الأربعة كما أراها، وكما أرنو لها في بداية هذا القرن الجديد بما يشهده من عولمة جارفة وثورة معرفية وعلمية، وطفرة تكنولوجية واتصالاتية، ثم أن أضيف عليها دائرة خامسة أرى أن على مصر أن تلعب فيها أيضاً دوراً كبيراً، يأتي تتويجاً لما ستنجزه في الدوائر الأربع، وتكملة لرسالتها التاريخية الخالدة، وهي الدائرة العالمية.

أولاً: الدائرة العربية:

وهي الأولى بحكم اللغة، فلا ثقافة تذكر بدون اللغة، ولا تواصل دون كتابة، والدول العربية التي تشترك في اللغة بالضرورة ترتبط ببعضها في إنتاجها الثقافي المشترك، وإن حافظت على خصوصياتها وذاتيتها، ولكن يكون هذا التباين بمثابة اختلاف الورود في الباقة الواحدة، يزيدها جمالاً، ويضفي عليها رونقاً خاصاً، دون أن يفسد على الباقة وحدتها.

ولكن مصر بحكم وسطيتها، وعمقها التاريخي وعدد أبنائها المبدعين المجددين، قادرة على الإسهام في هذه الباقة وردة من الورود العربية، ولكنها أيضاً هي القادرة على إبراز تلك الصفات التي تربط هذا العالم الفسيح مشرقه ومغربه، وأن تتوسط الباقة فتزيدها جمالاً وبهاءً.



للثقافة العالمية مفاهيم تتفق عليها غالبية الأطراف الذين يشعرون بالانتماء إليها



إن الإسهام المصرى فى الثقافة العربية من الإنتاج الأدبى والمسرحى، من الفنون التشكيلية والموسيقى، من السينما والرقص قادر متمكن معطاء، كما أن إنتاج مصر فى العلوم والفلسفة واللغة له رصيد ضخم يمكنه البناء عليه والانطلاق منه.

ولا يخفى على أحد أننا نعيش فترة تراجع فى العطاء المصرى فى كل هذه الساحات الفنية والثقافية، وأن هذا التراجع يواكب ثراء الخليج وخراب العراق، انطلاق الشام وانحدار السودان، انغلاق الجزائر وانفصام المغرب واستمرار الجرح الأليم فى الوطن الفلسطينى السليب.

ولكن الثقافة العربية فى حاجة إلى الركيزة الضخمة التى يمكن لمصر أن تعطيها، ذلك الثقل الذى يتأتى بزخم الإنتاج الفكرى وجودته، فيكون قوة الارتباط الذاتى وقدرة الإشعاع العالمى، بنور ثقافة أصيلة تنطلق من أهلها، وليس نور مرآة تعكس ضوءاً مستورداً.

وما أحوج الثقافة العربية اليوم لمثل هذا الثقل وذلك العطاء، للخروج من التشرذم والانهزام، ولبناء قدراتنا على مواجهة الآخرين بدون انكسار أو انبهار، مواجهة ندية يسودها الاحترام المتبادل والعطاء المتكافئ. ولا أقول أننا سوف نكون سواسية مع الغرب من اليوم الأول، ولكن إذا صححنا مسيرتنا وأكدنا على ذاتيتنا، سوف تتأكد هذه الندية فى سنوات محدودات. وليست هذه أحلاما بعيدة المنال، فأمامنا الدول الآسيوية التى حققت الكثير مثل كوريا وتايوان وسنغافورة وماليزيا، ولكن أتت صحوة الصين مؤكدة على بزوغ شمس الشرق الجديد، لتأخذ عبء حمل الشعلة من اليابان التى طالما كانت القطب الشرقى فى صراع وتنافس مع الغرب عبر العقود الطوال. ولمصر فى العالم العربى بما لها من مقومات ثقافية، فى صحوتها الثقافية ما للصين فى صحوتها الاقتصادية من أثر فعال على المنطقة بأسرها، فالمنطقة بأكملها تزداد قوة وفاعلية، ولا تأتى وثبة مصر وانطلاقها على حساب الدول العربية الأخرى، بل تأتى لتزيدها قوة فوق قوتها، ولتضفى بعداً إضافيًا على نتاجها الفكرى والثقافى.

ثانيا: العالم الإسلامى:

للعالم العربى دور خاص فى قلب العالم الإسلامى، ولكن ليس كل عربى مسلماً وليس كل مسلم عربيًا، وللفكر الإسلامى تاريخه ونتاجه وإسهاماته للحضارة العالمية عبر القرون، وما زال الوازع الدينى مكونًا أساسيًا فى شخصية المسلمين، وسيبقى الدين جزءاً لا يتجزأ من حركة المجتمع، ومن ثم تأتى الإسهامات المعاصرة فى ميدان الفكر الإسلامى فى مقدمة القوى الفاعلة فى التيارات الثقافية الكبرى. وقد أخذ صمويل هانتنجتون (Samuel P. Huntington) من تلك الحقيقة منطلقًا ليقدم أطروحته عن صدام الثقافات والحضارات، وهى مقولة تحيى فى ثياب جديدة مقولة الاستعمارى كبلنج (Kipling) من أن الشرق شرق والغرب غرب ولا يمكن أن يلتقيا.

وعلى المجال الثقافى فى العالم الإسلامى تتصارع أربع دول ليكون لها التأثير الأكبر على هذه الساحة العريضة التى تضم ١٤٠٠ مليون نسمة، وتمتد من المحيط الأطلنطى إلى إندونيسيا، مع ظهور جاليات من المسلمين فى كل الدول الغربية، لكل منها أثرها وفاعليتها. وهذه الدول الأربع هى: إيران، والسعودية، وتركيا، ومصر.

وإن غابت مصر غابت معها الوسطية التى لمسناها فى إسهامات محمد عبده ومن تلاه .. وإن غابت مصر أصبح القطب العربى الوحيد المتحرك فى معترك الفكر والثقافة الإسلامية المعاصرة، هو السعودية، التى لها نظرتها الوهابية المعروفة .. فالفارسية والتركية لغات لا تملك نفس البعد التاريخى الذى تتمتع به العربية فى الخطاب الدينى الإسلامى، والخطاب الثقافى الإسلامى.

ومن ثم نرى أن انحسار دور مصر ثقافيًا يهدر قيمًا نراها هامة للعالم العربى والإسلامى، بينما يزيد الطين بلة أن أصواتًا كثيرة تريد أن تنفرد بالخطاب الدينى المعاصر - فى مصر وفى دول أخرى - أصواتًا غلب عليها الانغلاق والتزمت، لا تقبل إلا رؤيتها الضيقة، ترفض الجديد والمغاير، وترمى بالكفر والإلحاد كل من خالفها الرأى، بل تنصب نفسها وصيًا على المجتمع؛ بأن تفرض عليه ما يباح له أن يقرأ أو يسمع أو يرى.

ثالثًا: الدائرة الإفريقية:

لسنا هنا نتحدث عن الأبعاد الإستراتيجية الجغرافية، من أهمية مصادر مياه النيل، وأن إفريقيا جنوب الصحراء هى الأسواق الطبيعية للتجارة المصرية، أو غير ذلك من الاعتبارات السياسية والاقتصادية والعسكرية .. إننا نتحدث عن الثقافة والبعد الثقافى للحضارة المعاصرة.

إننى أرى أن الإسهامات الثقافية للقارة السوداء من الأهمية أنه لا يجوز أن نستمر فى تجاهلها. فما من منصف لا يرى تأثيرها العالمى فى الفنون التشكيلية وفى الموسيقى وفى الرقص على سبيل المثال. كما أن لمصر تاريخيًا صلة وثيقة بقلب القارة من السودان. كما أن مواطنينا من النوبة لهم ثقافتهم المتميزة التى غلبت كفتها على ثقافة قدماء المصريين أحيانًا، وغلب عليهم سكان شمال الوادى أحيانًا أخرى، فكانت علاقة جدلية ثرية عبر القرون. وحتى إذا تجاوزنا عن مثل هذه العلاقات الخاصة، فإن مصر حاضرة فى القارة الإفريقية بحكم الدائرتين الأخريين العربية والإسلامية. بل إن الواقع يحدد ذلك، فإن ثلثى العرب من سكان إفريقيا، والعرب هم همزة الوصل بين شمال القارة وجنوبها عبر الصحراء الكبرى، فالدول العربية تضم موريتانيا غربًا والصومال وجيبوتى والسودان وجزر القمر شرقًا. كما أن الإسلام هو الدين الأكثر نموًا، ويزداد انتشاره فى إفريقيا يومًا بعد يوم.

ولم تكن مصر غائبة عن الساحة السياسية الأفريقية أبداً، فهى دولة مؤسسة لمنظمة الوحدة الإفريقية والاتحاد الإفريقى من بعدها، وكانت مصر مساندةً لكل حركات التحرر الوطنى التى اجتاحت القارة الإفريقية فى خمسينيات وستينيات القرن الماضى، ولكننى أتحدث هنا عن توثيق الصلات الثقافية بين هذه الشعوب، وهذا أمر آخر عن العمل السياسى والدبلوماسى.

رابعًا: الدائرة المتوسطية:

لمصر باعٌ كبير فى الثقافة المتوسطية، فى عمق التاريخ وباتساع المتوسط كله، كانت مصر دولة محورية بفكرها، وإنتاجها - ونذكر بصفة خاصة فترة البطالمة ومكتبة الإسكندرية القديمة - ثم هى دولة مفصلية (Hinge) بحكم أنها على فترات طويلة من تاريخها المديد، كانت ملتقى التجارة والثقافة بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب فتوسطت مراكز العلم والمعرفة فى الدولة الإسلامية المترامية، من الأندلس والمغرب من جهة إلى الشام وبغداد وما وراء النهر. أما فى الفترة الحديثة، فقد جاء الصدام مع الغرب مبكراً فى مصر ولم تنقطع الصلة الثقافية بعد رد الحملة الفرنسية على أدبارها.

والدائرة المتوسطية هى ساحة الثقافات والحضارات القديمة التى ارتبطت أحداثها فى تاريخ مشترك، بل تداخلت وتلاحقت الحضارات مما أثمر فى كلٍ منها بالمزيد من الثراء.

أما فى الفترة المعاصرة، فبتكوين وتوسع الاتحاد الأوروبى شمالا وتكوين واتساع كلٍ من الجامعة العربية والمؤتمر الإسلامى جنوبًا كانت رغبة التعاون صادقة وإن لم نتمكن من التوصل إلى الصيغة المثلى لآلياتها .. فجاءت آليات برشلونة منقوصة، ومازالت محاولات مثل مؤسسة آناليند فى بدايتها، بينما ركزت محاولات أخرى على كيفية إقامة الحوار بين الإسلام والغرب بما سمى حوار الحضارات، ثم التحالف بين الحضارات، ثم أتت المبادرة الجديدة للوحدة من أجل المتوسط لتضفى شرعية جديدة على مشروع قديم ..

كلها محاولات للاستجابة لذلك الإحساس الواضح بأهمية تفعيل الدائرة المتوسطية على الساحة الثقافية العالمية المعاصرة.

وأجزم بأن مصر قادرة على أن تحقق هذا التفعيل المنشود، بما لها من مقومات فى الدوائر الأخرى، وما لها من رصيد فى التاريخ المتوسطى المديد.

خامساً: الدائرة العالمية

وأقصد هنا أننا نعيش فى عالم سادته حضارة عالمية ذات سمات ثقافية محددة، ولا أقف عند ما أعتبره جهود الكتاب والمعلقين حول العولمة باعتبارها ظاهرة كونية لا مفر منها، تحددها زيادة الاتصالات، وحركة رأس المال والتجارة، وغير ذلك من







للهوية المصرية روافد عديدة، كتب عنها المفكرون فى الماضى وفى الحاضر

الشواهد الاقتصادية والسياسية... إننى أتحدث عن البعد الثقافى للحضارة العالمية التى بدأت العولمة فى ترسيخها.

وللثقافة العالمية مفاهيم تتفق عليها غالبية الأطراف - فرادى وجماعات - الذين يشعرون بالانتماء إليها، حتى وإن كانت الممارسات السياسية والاجتماعية والاقتصادية لم ترق إلى دون طموحات هذه الثقافة العالمية. وأهم هذه المعالم هى ثقافة حقوق الإنسان، والدعوة إلى التعددية وإلى النظام الديمقراطى، والسماحة تجاه المخالفين، وإلى الاهتمام بالبيئة، وإلى التعايش السلمى إن لم نتمكن من تحقيق السلام الشامل الكامل فى هذا العالم الذى مازالت تسوده الخلافات والتفاوت فى الدخول والفروقات الشاسعة فى الإمكانيات والفرص المتاحة، عالم مازال يسود فيه منطق القوة فوق العدل. ولا يسلم فرد منا من الإحساس بتأثير هذه التيارات الثقافية، ومن التفاعل معها فى مجتمعه المحلى، بل إن أغلبنا تقبل هذه المفاهيم ويؤمن بها، بل نجد بيننا من يحاول تأصيلها إلى عصور ماضية فى ثقافتنا للتأكيد على أنها ليست من صنع الغرب ولكنها من نتاجنا، أو على الأقل، من نتاج آبائنا.

وأيا كان الوضع فمصر لها فى هذا الميدان باع طويل. إننا لسنا قادرين على التفاعل مع هذه التيارات فحسب، بل إننا أيضا قادرون على الإسهام فى بناء هذا الصرح العالمى الكبير الذى سيكون الإطار المرجعى للتعددية الثقافية فى القرن الجديد.

ويؤسفنى إزاء هذه الفرصة المتاحة للتفاعل البناء مع هذه التيارات أننا نجد تيارات قوية فى ساحتنا الثقافية المصرية والعربية والإسلامية، تطالب بالانعزال والتقوقع، وتقترح العودة إلى الماضى خوفا من عناق المستقبل، وتسارع إلى تعليل ذلك بالإشارة إلى نواقص الساحة العالمية، وتندفع إلى إدانة أخطاء الآخرين غير مبالية بالنواقص فى مجتمعاتنا، والأخطاء فى ممارساتنا وإننا إزاء هذه الازدواجية فى المعايير التى نمارسها إزاء أنفسنا والآخرين، كثيرا ما نضعف وقع حجتنا، ونبدد أحقية رفضنا لازدواجية المعايير التى يمارسها الغرب عامة وأمريكا خاصة فى هذا العالم الذى مازالت تسوده القوة فوق العدل وتعم فيه حجة السلطة فوق كلمة الصدق.

صحيح أن لكل شعب هويته ولكل مجتمع خصوصيته الثقافية، ولكن للذاتية الثقافية حدودا، فلا يقبل من أى مجموعة من الناس أن تقول إن هويتى الثقافية تقتضى أن أعامل هؤلاء - النساء أو غير المسلمين - بما ينتقص من حقوقهم الأساسية التى هى حق لمجرد كونهم من بنى الإنسان. فحقوق الإنسان لا تعطى من حاكم إلى محكوم، فهى حق، ولا يجوز لأغلبية أن تحرم أقلية من هذه الحقوق وهنا نأتى إلى مواقفنا من الأقليات فى الغرب وفى مجتمعاتنا.

إنه يبدو غريبا أن يتبارى الناس فى المزايدة فى شجب قرار الناخبين السويسريين المانع للمآذن، ولا نتكلم على موقف السعودية من القاطنين بها من المسيحيين الذين لايجوز لهم بناء أية كنيسة، بل لايجوز لهم ممارسة شعائر دينهم مجاهرة فى أى مكان - وأظن أن المراقب المنصف عليه أن يسجل للغربيين إنجازات كبيرة فى ميدان احترام حقوق الإنسان وحماية حرية التعبير وقبول قدر كبير من التعددية رغم ما يبقى فى مجتمعاتهم من نواقص، وما فيها من هوة بين الهدف المعلن والممارسة الفعلية وما يشوب شعوبهم من العنصرية والتطرف إضافة إلى ماضيهم الملىء بالدم والمجازر والحروب، وحاضر بعضهم الذى مازال يمارس الحرب ويعتمد القوة الغاشمة بينما يعلن خطاب الديمقراطية وحقوق الإنسان.

وإزاء هذا الوضع العالمى الأليم - وأؤكد مرة أخرى أننى هنا أتحدث عن الثقافة ولست فى مجال التحليل السياسى - أظن أننا قادرون على تحسينه، وطرح رؤى وآراء ومقترحات وممارسات تحصل على اهتمام الكثير، بل وتستأثر بقناعة غالبيتهم، فتكون لنا إسهاماتنا فى صناعة هذه المرجعية العالمية، شريطة ان نبدأ بالاعتراف بنواقصنا ومعالجتها، وأن نكون مثلا فى الربط بين الخطاب المعلن والممارسة الفعلية، وأن قوة مصر فى هذه الساحة العالمية ستكون إضافة لقوة العالم العربى والإسلامى والإفريقى والمتوسطى.

ولنا أن نسأل هل كل هذه الدوائر تخل بالهوية المصرية المعاصرة؟

حول الهوية المصرية:

ليست الهويةُ أمراً بسيطاً، بل هى أمر يتنافى مع أحادية الفكر، ويتعارض مع التبسيط المخل الذى يذهب إليه كثيرون فى حديثهم عن هذه الظاهرة الهامة. فللهوية مكونات موضوعية، وهى تتكون عبر الزمن من تراكمات التجارب وتداعيات الخيارات التى يمر بها الشخص، ولكن لها أيضا مكونات داخلية (ما أشعر به تجاه نفسى وتجاه الآخرين) ومكونات خارجية (كيف يرانى الآخرون وكيف يتعاملون معى طبقا لهذه الرؤية).

وكثيراً ما يحاول عدد من الناس اختزال الهوية إلى الجنسية، فيقال هذا مصرى وهذا فرنسى وهذا بريطانى، ولكن سرعان ما نجد أن نوعية جواز السفر الذى يحمله الشخص ما هى إلا مؤشر واحد من مؤشرات كثيرة، وعنصر واحد من عناصر عديدة، كلها يسهم فى تكوين الهوية.

فمن مكونات الهوية النوع: الذكورة أو الأنوثة، والوضع العائلى: أن أكون أباً أو زوجاً أو مجرد ابن، أو أخ ... أو كل هذا... ومنها أيضا: المجموعة الاثنية/ العرقية التى أنتمى إليها، وكذلك الديانة التى أومن بها، وأيضاً اللغة التى أتحدث بها، والمنهج الفكرى والسياسى الذى ألتزم به، والعمل أو التخصص المهنى الذى أمارسه، والوضع الاجتماعى، محلياً، وإقليمياً ودولياً الذى أتمتع به ..كل هذه العناصر - بأوزانٍ متفاوتة، تسهم فى تكوين الهوية، تلك المعرفة المحددة للذات التى هى أساس تعامل الشخص مع نفسه ومع الآخرين.

وللهوية المصرية روافد عديدة، كتب عنها المفكرون فى الماضى وفى الحاضر، وقد قال البعض، وأقول معهم، أن من مكوناتها المتعددة وروافدها المتداخلة يجب أن نذكر:

- إرث قدماء المصريين
- إرث الثقافة الهلينستية (المسماة عند الكثير بثقافة الفترة الإغريقية/ الرومانية).
- إرث الثقافة المسيحية العريقة بمصر
- إرث الثقافة العربية
- إرث الثقافة الإسلامية
- إرث البعد الإفريقى

ويحاول البعض أن يختزل الهوية إلى بعدٍ واحد دون الاعتراف بأن الأبعاد الأخرى بها تأثيرها ولها مكانتها، وأن عالمنا المتعدد الأبعاد كثيرا ما يتفاعل مع المكونات المختلفة بطرق مختلفة، وأن الذين يفرضون أحادية النظر وأحادية الرؤية يخطئون كل الخطأ، بل يفرضون على الناس خيارات ليست ضرورية بل تؤدى إلى الاستقطاب الثقافى والصراع الأيديولوجى والتفكك المجتمعى.

وأصبحت المجتمعات كلها متعددة



ليست الهويةُ أمراً بسيطاً، بل هى أمر يتنافى مع أحادية الفكر، ويتعارض مع التبسيط المخل الذى يذهب إليه كثيرون



الهوية وإن غلبت عليها صبغة ما، وتطورت هذه الحقيقة للتعددية الجديدة إلى إيجاد مناخ ثقافى ثرىٍ فى هذه المجتمعات، وإن نجم عنها أحيانًا صدامات بين الجماعات المجتمعية (communities) التى تعرف نفسها ببعد من أبعاد الهوية المركبة دون الأبعاد الأخرى.

ولقد رأينا فى مصر، وبالإسكندرية بصفة خاصة فى القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، أن هذه التعددية فى الجاليات الأجنبية بتفاعلاتها المستمرة مع بعضها ومع المجتمع المصرى العريض، قد أسهمت فى مناخ من الحيوية الثقافية بالإسكندرية. فكانت الإسكندرية المدينة التى ولدت بها الصحف الخاصة المستقلة عن الدولة، فصدرت منها الأهرام أعرق الصحف المصرية، كما صدرت بها أول مجلة نسائية فى مصر، كما شهدت المدينة تنمية حضارية سبقت بها العديد من المدن المصرية منها شبكات المياه النقية والكهرباء وخطوط الترام والتليفون، بحيث عدت مدينة أوروبية على أرض مصرية، حتى صارت الخدمات البلدية بها يضرب بها المثل خارج مصر، كذلك الحركة الفنية خاصةً المسرح الذى شهد رواجاً من قبل الشوام الذين انتقلوا إلى القاهرة فأثروا الحركة المسرحية بها، وأبرزهم روز اليوسف، وولدت بالإسكندرية صناعة السينما المصرية التى أصبحت فى منتصف القرن الماضى من أكبر صناعات السينما فى العالم. وغير ذلك الكثير.

ولكن هذه ليست أحوالنا اليوم. وعلى مصر إصلاح أوضاعها الثقافية المتردية داخليًا قبل أن تنطلق على الساحة الخارجية المتمثلة فى هذه الدوائر الخمس.

إصلاح الوضع الثقافى المصـــرى مـحـلــيًــا

وانحطت الثقافة فى مصر، فلم تبقَ ساحةً للحوار الفكرى الراقى، ولم تصبح كما كانت مجالاً مفتوحًا للرأى والرأى الآخر، بما يقدمه ذلك من ثراء ثقافى وزخم معرفى، بل صارت البلاد منتدى للاجتماعيات، وغلب الشخصى والشللى على الموضوعى فى العمل العام؛ حيث غابت الموضوعية والالتزام بالعقلانية والمنهج العلمى، وغاب وضوح الرؤية واختفت الشفافية وسادت الشائعات، فتجد فى كل موضوع يطرح، تميل الأفواه على الآذان همسًا، ثم يرتفع الهمس ليكون حديثًا على الشفاه وينتشر الحديث حتى يسمعه كل ذى أذن، وتكتسب الشائعة مصداقية التكرار والشيوع .. إلى أن تأتى شائعة أخرى لتحل محلها، ويدور مثل هذا الحديث السطحى فى دوائره المفرغة؛ فلا ينتج جديداً ولا يقدم لبنة لصرح المعرفة، ولا يقيم بناء الثقافة، بل يسهم فى تقويض مؤسسات المجتمع.

يؤرقنى الوضع الحالى، بما فيه من تردٍ، وإن كنت مرتاحًا للرجاء الدانى والأمل البعيد أن تستعيد مصر حياتها الثقافية الراقية على يد الجيل الصاعد من أبنائها. ولكن علينا - الكهول والشيوخ - أن نمكّن هذا الجيل الصاعد من أن يتقدم بعطائه، بفتح الأبواب، بتذليل العقبات، وبتقدير الإنجازات ..

كما أنه من الأساسى أن نتذكر أن هناك قطاعات هامة من الإنتاج الثقافى، مثل الفيلم، أو المسرح لا يمكن للشباب أن ينتج ويبدع فيه دون مشاركة مؤسسية هامة. فليس كل الإبداع الثقافى مثل الأديب والشاعر الذى ينفرد بقلمه ويختار كلماته ، ولذا بات ضرورياً أن نعيد النظر فى الآليات والمؤسسات الثقافية فى بلادنا، وإعادة صياغتها بما يناسب مقتضيات العصر وتطور التكنولوجيا واحتياجات الشباب.

ولكن لا يمكن أن نتخيل الطفرة الثقافية المرموقة إذا كانت مصر مازالت مجتمعًا لا يحترم العلم والمعرفة، ولا يقدِّر الخيال والإبداع ولا يسمح للصوت المخالف والرأى المغاير بأن يعبر عن نفسه. إن هذه الأوضاع تحتاج منا وقفة صريحة مع أنفسنا، وبصفة خاصة مراجعة أوضاع مؤسسات الثقافة والإعلام والبحث العلمى والتعليم والتعليم العالى وإصلاحها جميعاً. وبصفة خاصة، يجب إصلاح الجامعات، حيث فقد الأستاذ الجامعى مكانته وهيبتَه، وضاع ما كان عنده من أريحية ونخوة واعتزاز بالذات وبالرسالة الجامعية والمهمة التعليمية، فوجب علينا أن نعيد للجامعة خصوصيتها واستقلالها، وضمان أن الجامعة ليست مدرسة ثانوية كبيرة، ولكنها مكان خاص تتواصل فيه الأجيال، وتعيش فيه الثقافة بين عبق التاريخ ومطلب الجديد... ولكن هذه موضوعات نتركها لحديث آخر... ■

كـتـــــاب الــزاويـــة



قصائد فلسطينية
(٢)
وعاد فى كفن
محمود درويش

يحكون فى بلادنا
يحكون فى شجن
عن صاحبى الذى مضى
وعاد فى كفن

* * *

كان اسمه. ..
لا تذكروا اسمه!
خلوه فى قلوبنا...
لا تدعوا الكلمة
تضيع فى الهواء، كالرماد...
خلوه جرحا راعفا ...لا يعرف الضماد
طريقه إليه.. .
أخاف يا أحبتى ...أخاف يا أيتام ...
أخاف أن ننساه بين زحمة الأسماء
أخاف أن يذوب فى زوابع الشتاء!
أخاف أن تنام فى قلوبنا
جراحنا ...
أخاف أن تنام !!

الباشا والشيخ والصحفيون

فن الكذب السياسى

مصطفى نبيل



ونحن مقبلون على انعقاد مؤتمر المثقفين - بعد طول انتظار - لم يتحدد من ستوجه إليه الدعوة، ولم يعرف كيف يعبر هذا المؤتمر عن رأى المثقفين وليس عن رأى الحكومة، نستعرض أحد المواقف البارزة للمثقفين بعد هزيمة الثورة العرابية، واحتلال البلاد، وكيف انتقل البعض من تأييد الثورة إلى التنكر لها، كما يمكن اتباع ذات النهج بعدما جرى فى يونيو ١٩٦٧.

نأمل أن يستفيد هذا المؤتمر من الذاكرة التاريخية، وأن يقيم من المثقفين حاجزا ضد روح الهزيمة...



لم تكتمل الهزيمة بعد الاحتلال البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ إلا عندما عصفت بالبلاد جيوش غير مرئية أسلحتها سموم الأفكار، اتجهت هذه السموم فى البداية إلى صفوة المجتمع من المثقفين والقادة، وانتقلت بعدها إلى العامة.

ويكشف هذا الفصل من التاريخ الذى بدأ وانتهى عن قضايا بالغة الدلالة.. وإذا كان النصر له ألف لسان، فالهزيمة لا لسان لها، وتختلط الأمور فى زمن الهزيمة، وتهتز بعض المسلمات، فظهر من يرى أن الذود عن الوطن وحمايته والتضحية فى سبيله أحد صور تخلف الشرق، وخلال الهزيمة يعلو صوت المتخاذلين والمرتدين والمنافقين، الذين يبحثون لأنفسهم عن مكان فى ظل الأوضاع الجديدة، ويأخذون فى لعن الماضى، ويخلطون بين ما هو ثابت وما هو متغير، وما يتعلق بالوطن وما يتعلق بزعيم من الزعماء أو نظام من النظم...

ولم يكن ممكناً بقاء الاحتلال البريطانى ما يزيد على سبعين عاماً إلا بعد اقتحام العقول وليس اقتحام الحصون وحدها...

وعادة يهتم المؤرخون بحالة النهوض والانتصار، وتتوارى فى دراساتهم فترات الهزيمة والانكسار، وتختفى دروس الهزيمة وعبرها...

ونرصد هنا بعض مواقف المثقفين، الذى وقفوا إلى جانب الحركة الوطنية ثم عادوا ونكصوا على أعقابهم.

جاءت الأساطيل البريطانية فى يوم قائظ فى ١١ يوليو ١٨٨٢، وتوقف زحف أول ثورة وطنية فى الشرق كله...

وكما ينقل المؤرخون تباشير النهضة التى سبقت الغزو الفرنسى لمصر، شهدت مصر نهضة جديدة قبل الاحتلال البريطانى..

واستهدفت قوات الاحتلال تصفية ثورة تتمتع بتأييد الشعب بكل فئاته ضد طغيان الحكام وتنادى بالحرية وتطالب بالدستور وحقوق الوطن والمواطن.. وأخذت الحياة تفيض بالحركة وتموج بالجديد تأليفاً وترجمة، تعقد الندوات وحلقات العلم والأدب والسياسة..

وها هو الشيخ محمد عبده يقدم صورة عن هذه الأيام.. «كانوا يتنقلون بما يكتبونه من تلك المعارف إلى قراهم، والزائرون يذهبون بما ينالونه إلى أحيائهم، فاستيقظت مشاعر، وانتبهت عقول، وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد..» وانطلقت حركة التنوير ونشر الثقافة فى كل أنحاء البلاد، وقامت الصحف بدورها، ولعل صدور الصحف وتعطيلها وإنذارها تكشف عن عمق النهضة والعمل على حصارها، وعرفت البلاد الأحزاب والمجالس النيابية ووضع دستور ١٨٧٩.. وافتتح مجلس شورى النواب سنة ١٨٦٦ والذى استمر ستة عشر عاماً..

ويصف أحمد شفيق الحالة الفكرية بقوله: «وانقلبت مصر مسرحاً للخطباء فى كل مجتمع وناد، حتى فى المساجد، ولم يبق مجلس للسمر أو احتفال بعرس إلا اقتحمه الخطباء، و اعتلى منصته المغنون.. حتى لو سمعت أن محمد عثمان المغنى الشهير كان إذا سئل فى أى فرح تغنى الليلة؟ عند فلان مع النديم..».

وكانت حركة واسعة لإنشاء الجمعيات التى جذبت العناصر النشطة التى تتوق للعدل والحرية..

وعقب الدخول الاستعمارى رأينا بعد أن قامت حركة النهوض الوطنى فى مواجهة الطغاة والقوى الاستعمارية، ورأينا كيف اكتملت ووصلت إلى عقل الأمة، وبعدها كيف نجح الغزاة والخديو فى لى عنق الحقيقة؟ وكيف تم انتزاع قيم راسخة يلتف حولها الأهالى، وزرع بديل عنها قيم ومفاهيم أخرى، وكيف أكملت الكلمات المزيفة ما بدأه السلاح، وكيف نجحت الحملة التى شقت على زعيم الثورة أحمد عرابى، الذى قام بعمل شاق وحملة واسعة شعارها «مصر للمصريين»، وكان تعبيراً صادقاً عن جهاد شعب صمم على أن يملك إرادته فى مواجهة الغزاة...

وبعد سقوط سلطة عرابى وهزيمته فى التل الكبير يوم ١٢ سبتمبر انحاز العديد من مناصريه إلى سلطة الخديو والإنجليز، فى الوقت الذى خرج فيه الأهالى من سكان باب الشعرية والحسينية يحملون العصى والهراوات دفاعاً عن الوطن..

ونستعرض مواقف عدد من الشخصيات التى قامت بدور بارز فى هذه المرحلة من التاريخ، والذى يقدم أغلى الدروس والعبر.

محمد سلطان باشا

كان أحد القادة الذين سقطوا فى لحظة الصدام والمواجهة، بدأ واحداً من زعماء الحركة الوطنية وانقلب عليها، وانتهى به الحال فى صفوف الأعداء، جاء من بين الفلاحين، وولد فى زاوية الأموات بالمنيا سنة ١٨٣٥، عين عمدة لبلدته، وارتقى مأموراً لمركز قلوصنا، حتى أصبح مفتشاً عاماً للوجه القبلى، وابنته هدى شعراوى رائدة الحركة النسائية التى حملت اسم زوجها ولم تحمل اسمه!

وبرز سلطان باشا كأحد الوجوه الداعية للحركة الوطنية، والمطالبة بالدستور والحياة النيابية، وكان أحد المؤسسين للحزب الوطنى(!) وكان يطمع فى رئاسة الحزب لثرائه الواسع، فكان يملك نحو ثلاثة عشر ألف فدان! ويروى عنه الشيخ محمد عبده فى مذكراته.. «سلطان باشا لم يكن من أغبياء الأغنياء، بل كان فيه شىء من الفطنة يزينه الغنى وتعلى قيمته مظاهر الثروة. كان يفهم ما يقال، ويرضى السامع إذا قال.. ولكن هيهات أن يكون له بصر بالعواقب أو علم بمصائر الانقلاب فى الحكومات وتغير الأشكال عليها، وما يصيب الأمم من مجارى الحوادث من تقدم وتقهقر، أفادته مناصبه السابقة أيام إسماعيل باشا شهرة وعلو صيت.. كان مثله مثل الكثير من الأعيان فى استنكار تلك البدع التى جاءت فى وزارة رياض باشا فيما استأثر من السلطة، وفى استنكار تلك البدع التى جاءت فى وزارته، خصوصًا إبطال السلطة الشخصية، والأخذ على يد الأقوياء، ووضع حدود تلزم الأعيان وأهل الثقة بالوقوف عندها فى علاقاتهم مع غيرهم، فكان ممن يألم لهذه القيود، ويعدها من الضربات التى أصيبت بها البلاد (أى أن انضمامه إلى الثورة من بدايته حتى يستقوى على الفلاحين البسطاء رغم أنها قامت من أجلهم).

وعند اشتداد الاضطراب وتلاطم القوى، بارح القاهرة توجه إلى المنيا..

إذا كان هذا هو موقف الباشا والشيخ فما هو موقف صحفيى هذا الزمان؟!



وساهم الباشا فى الدعوة إلى تكتل الجهود وراء عرابى زعيم الثورة، وأخذ يحث الأعيان على الاجتماع لتأليف وفد المطالبة باستدعاء مجلس النواب عندما تعطلت الحياة النيابية.

وذهب الباشا إلى شريف باشا رئيس الوزراء ومعه عريضة وقعها ألف وستمائة من الأعيان يطلبون استئناف الحياة النيابية، وعند نشوب أزمة الضباط الشراكسة الذين تآمروا على اغتيال عرابى والبارودى دعا المجلس للاجتماع فى بيته، ورفض الإنذار البريطانى الذى يطالب بضرورة إقالة الوزارة ونفى عرابى، وأصر الباشا على ضرورة أن يتولى عرابى وزارة الجهادية «لحسم الشر، واتقاء الهياج».

فما أن احتلت الجيوش البريطانية الإسكندرية حتى أرسل الخديو توفيق إلى سلطان باشا يأمره بالتوجه إلى القاهرة... «وتكونوا بالنيابة عنى محافظًا على البلد، وجميع الإجراءات هناك تكون مطلوبة منكم، وأعطى الإشعار اللازم من ذلك للجنرال ولسلى..»!!

ولم يتأخر سلطان باشا عن العمل، وجند شبكة فى كل أنحاء البلاد للتعاون معه، وأخذ يردد أن الإنجليز ليس فى نيتهم احتلال البلاد وليس فى نيتهم التعرض للأهالى، ولكنهم حضروا لتطبيق الشرع!، وتأديب العصاة، واتصل بمشايخ العربان لإبعادهم عن عرابى وعن الثورة، وجلبهم إلى جانب الإنجليز بأى مبلغ يطلبونه!، ووضع تحت يده مبلغ كبير من المال لكسب الأنصار والأعوان.

وقدم الهدايا لقيادات الجيش البريطانى فى كتاب شكر على «إنقاذ البلاد من غوائل الفتنة العاصية»، وحصل الباشا على مكافأة قدرها عشرة آلاف جنيه استرلينى كما حصل على لقب سير من ملكة بريطانيا.

... ويذكر أحمد شفيق «أنه مما ساعد على نجاح الإنجليز أن الخديو عين سلطان باشا مندوبًا خديويا وبمعيته بعض ياورانه لدى الجنرال ولسلى، وناط به نشر الفكر الجديد، خصوصًا بين الأعراب لمساعدة الجيش الإنجليزى الذى يحارب العرابيين باسم الخديو».

وكافأته السلطات البريطانية وعين رئيسًا لمجلس شورى القوانين سنة ١٨٨٣.

ويروى الشيخ محمد عبده فى مذكراته قائلاً: «هذا الهمام الوطنى الذى أوقد نار الفتنة فى البلاد، وجمع لها وقودها وحطبها حتى امتد لهيبها وعم جميع الأنحاء، ثم هرب من طريقها حينما خاف أن يلدغه لسان لهيبها، ثم جاء فى آخر الأمر نائبًا عن الخديو فى حبس كثير من الناس ولم يفرق بين الأبرياء وغيرهم.. إلا أن العدل الإلهى سيقوم بمجازاته على ما صدر منه..».

لم يكن تخاذل الباشا هو الموقف الوحيد، فعلى عكسه تمامًا كان موقف الشيخ حسن العدوى.

كان الشيخ واهنًا كبير العمر، يئن تحت ثقل سنوات الثمانين، وتحت هيكله الواهن كانت شخصيته الصلبة، كباحث صادق عن العدل، وعندما قدم للمحاكمة التى أقامها الإنجليز لرجال الثورة العرابية..

سألته المحكمة بغتة وبأسلوب مسرحى وصوت كالرعد: هل تجرأت ووقعت على قرار يعلن أن الخديو يستحق العزل؟.. وفجأة تجرى الدماء فى عروق الشيخ، ويميل بجسمه إلى الأمام، ويبسط يده، وينظر فى ثبات إلى رئيس المحكمة ويقول: آه يا باشا.. وإذا كنت تسأل عن رأيى، فهذا هو ما أعتقده بالفعل، إذا أحضرت لى وثيقة بالمعنى الذى تذكره، فسأوقعها وأختمها هنا أمامك، فهل تنكرون أن توفيق باشا خان بلده ولجأ إلى الإنجليز؟، وهل بعدها يصبح جديرًا بأن يحكمنا؟

ويطلب رئيس المحكمة من الشيخ مغادرة القاعة ليستريح ولم يستدع مرة أخرى.. ثم قررت المحكمة نفيه إلى قريته. (كيف دافعنا عن عرابى وصحبه.. تأليف أ. م برودلى).

فإذا كان الباشاوات قد اتخذوا أثناء التحقيق موقف طعن وإنكار الثورة، إلا أن الشيوخ الذين قدموا للمحاكمة كانوا أكثر صلابة لأنهم أقرب إلى عامة الشعب...

تحول الثوار إلى عصاة!!

إذا كان هذا هو موقف الباشا والشيخ فما هو موقف صحفيى هذا الزمان؟! أحد هؤلاء بشارة تقلا (١٨٥٢ - ١٩٠١) الذى أنشأ مع أخيه جريدة الأهرام فى الإسكندرية عام ١٨٧٥، والذى أيد الثورة بحماس عن قيامها، واستمر متحمسًا لها داعيا إليها حتى وقعت الهزيمة، فاختفى الرجل وغادر الديار إلى لبنان، وسرعان ما ظهر مرة أخرى لكى يعلن تأييده لسلطة الخديو والاحتلال البريطانى، ونشر فى الصفحة الأولى فى الأهرام صورة القائد البريطانى الجنرال ولسلى على صهوة جواده، كما نشر بعد محاكمة العرابيين مقالاً يؤكد فيه وجود اتفاق سابق بين عرابى والإنجليز(!)، تم فيه بيع مقر «التل الكبير».. ويروى برادلى المحامى البريطانى الذى جاء للدفاع عن عرابى نقلاً عن زعيم الثورة.. «فتح على باب الزنزانة فجأة، وإذا بمحرر جريدة الأهرام المدعو بشارة تقلا يدخل على، فتصورت أنه جاء لزيارتى والتخفيف عنى، فقد كان معنا قبل الحرب، وكان يقسم بدينه وشرفه أنه واحد منا له ما لنا وعليه ما علينا، وأنه من دعاة الحرية، وكنا نجله ونقدره، ولكن إذا بى أتى ليشتم بوقاحة فيما يجرى لنا ويتساءل بغلظة: عرابى ما هذا الذى فعلت؟! هل رأيت نتيجة أفعالك وما آل إليه حالك؟!، فعلمت عندها أنه ذو وجهين وأنه لا شرف له..».



وينشر تقلا فى أهرام ٩-١٠-١٨٨٢ يطالب بسرعة إنزال أقصى عقوبة بزعيم العصاة... «يستلفت الرأى العام مجلس التحقيق العسكرى والمجلس الحربى إلى إصدار الحكم على العصاة بالوجه السريع لأن الوقت ثمين، فلا يضاع بإطالة التفحص فيما هو واضح من جميع الوجوه!، وما عرابى ورفاقه إلا عصاة، كما تشهد أعمالهم، وما عقاب العصاة فى جميع القوانين العسكرية إلا الإعدام».

وها هو رئيس تحرير الأهرام يبيع نفسه لمن يدفع أكثر..

وبقى نموذج المثقف الثائر يتمثل فى عبدالله النديم، مثلاً يحتذى أمام الأجيال الجديدة، والحفاظ على المبادئ الوطنية، والتضحية فى سبيل الشعب، بعد أن صنفت منه بوتقة الثورة العرابية أحد الشخصيات النادرة..

ونجده يكشف مبكرًا «المثقف الانتهازى»، ويكتب لعرابى فى منفاه: «لا تثق بصاحب، فإن الناس قد تغيرت، وأصبح يذمكم من كان يمدحكم»، ويقول فى رسالة أخرى من مخبئه: «عندما دخل العدوان وتربع الطغيان، تجملوا بالثبات وبرموا الأشناب، وتنهدوا فرحًا، واختالوا مرحًا، وجردوا سيوفهم التى ما سلت، وحركوا أيديهم التى نحلت، وقابلوا الإنجليز بالولائم وتقربوا إليهم بالجرائم، وقدم لهم المنافقون النعائس.. وتلقوهم بالموسيقى والأغانى، وتراقصوا معهم بالغوانى، وكأنهم الظافرون بالإنجليز، أو أنهم من غير الوطن العزيز، وجمعوا نقودًا من سائر الناس، وصنعوا سيفًا لولسلى وسيفًا لسيمور وطبنجتين مرصعتين بالماس، وكتب عليها مشير المنافقين - سلطان باشا - هدية ومعرفة جميل من المصريين.. ثم وضعوا الرحمة تحت نعالهم، وجعلوا القسوة أحمل نعالهم، وداروا حول حزبنا فى البلاد يتصيدونهم فى الأصفاد، ثم ساقوهم إلى السجون وموارد المتون..«وساقوا الشيخ عليش إمام السنة إلى مستشفى قصر العينى كأنه مجرم.. وهناك جاءه العدو وسقاه فانتقل إلى رحمة الله، وساقوا بقية العلماء وسجنوهم سجن الأدنياء..»!!

فعندما طلب الخديو والإنجليز رأس النديم كاتب الثورة وخطيبها، هرب النديم وغاص وسط الأهالى واحتضنه الشعب تسع سنوات (رجل فى المنفى - أبو المعاطى أبو النجا)، و يكاد يكون النديم أحد القلائل الذى لم يطعنوا الثورة ولا قائدها بعد الهزيمة، ويعود موقفه هذا إلى نشأته، فقد نشأ وسط الشعب، ولد لأب يعمل فرانًا، وترك مدرسة الجامع الأنور بالإسكندرية وانغمس لأوساط الأدباتية يتعلم منهم حكمة الشعب.. وأخذ يحضر حلقات جمال الدين الأفغانى فى القاهرة، وأصدر مجلة «التنكيت والتبكيت» عقب الثورة، وطلب منه عرابى تغيير اسمها لتصبح «لسان الثورة»، فسماها «الطائف». ورصدت السلطة مكافأة قدرها ألف جنيه لمن يأتى به حيا أو ميتًا. وأعلنت عن عقوبة الإعدام لمن يخفيه أو يكشف مكانه، ولا يبلغ السلطات عنه، وأخفته الجموع فى قلب مصر عن أعين الوشاة.

ويلاحظ أنه لم يفقد الأمل يومًا، يكتب لعرابى.. «أمامك مستقبل أنت عصامه، تجمع فريقًا أنت إمامه، فأنت فى مصر وإن كان جسمك فى سيلان فذكراك فى الألسن وسمتك فى الأعين.. سرى صوتنا فى البلاد، وتنبه الناس من الرقاد، وتوارد علينا زمر وأفواج، فكان لفيفنا على هذا الترتيب، مخلص أدرك ما قصدنا فقام برصد رصدنا، ومتردد حائر، ومع النوازل دائر، ومذبذب إن عظمت الآراء لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومنافق عنا وإلينا ويحمل معنا وعلينا، وعدو ينسب إلينا البدعة، وينصب لنا شرك الخدعة، وساذج يتحرك إذا نبه..».

هذا جانب من صورة تاريخية تساعد على الإمساك ببعض خيوط المستقبل، ومعرفة عوامل الضعف التى يجب تجنبها.. وعناصر القوة التى ينبغى الحفاظ عليها.. ■



أول تجربة ماركسية عربية

عشرون عاما على الأفول

وليد محمود عبد الناصر

■■ فى مايو ١٩٩٠، تم قيام الوحدة اليمنية بين الشطر الشمالى الذى كان يسمى من قبل «الجمهورية العربية اليمنية» والشطر الجنوبى الذى كان يسمى «جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية»، وكانت الأخيرة أول دولة، وحتى الآن الدولة الوحيدة، فى العالم العربى، التى تبنت رسميًا الماركسية كأيديولوجية ونظامًا سياسيًا وكنمط تحالف دولى وإقليمى منذ ما بعد استقلالها وخروج المحتل البريطانى منها فى نوفمبر ١٩٦٧ بوقت قصير. وقد تزامنت الوحدة اليمنية عام ١٩٩٠ مع الوحدة الألمانية، وبعد ذلك بأربع سنوات قامت حرب سعى خلالها الجنوب مجددًا، ولكن تحت صياغات وشعارات أخرى، إلى الانفصال، ولكنه خسر هذه الحرب وبقى اليمن موحدًا حتى الآن.

إلا أن ما يهمنا هنا ونتناوله بقدر من الإسهاب فى العرض والتحليل هو تجربة ما يقرب من ٢٣ عامًا فى الجنوب اليمنى منذ الاستقلال وحتى الوحدة، وتحديدًا كيفية عمل هذا «النموذج» الماركسى فى جنوب الوطن العربى وفى منطقة شديدة الحساسية على صعيد الاستراتيجية الدولية لإشراف اليمن الجنوبى على خليج باب المندب، وهو الممر الحيوى للتجارة الدولية والورقة المؤثرة فى الحسابات الدولية، خاصة فى الزمن الذى نتناوله هنا، وهو زمن الحرب الباردة. ثم هناك السؤال أيضًا بشأن طبيعة هذا النظام السياسى الذى نشأ فى الجنوب متبنيًا ما كان مفترضًا حينذاك أنها أكثر الأيديولوجيات الإنسانية تقدمًا، فى مجتمع كان ما زال للانتماء والولاء القبلى فيه دور كبير، بل نكاد نقول حاسمًا.

ومن أهم من كتب بتواصل عن تجربة «جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية» الأكاديمى والكاتب «فريد هاليداى»، والذى كان لسنوات أستاذًا للعلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة لندن. وسنتناول هنا كتابات «هاليداى» حول تلك التجربة، ولكن دون الاقتصار عليها. ففى عام ١٩٧٠، أصدر «هاليداى» كتابه الهام، وربما الذى كان سبب شهرته عالميًا «جزيرة العرب بدون سلاطين»، وتعرض فيه للمفارقة بين حالة اليمن الجنوبية التى رآها فى ذلك الوقت دولة تتحرك نحو التحرر والتقدم ونماذج الدول العربية الأخرى فى منطقة الخليج، والتى اعتبر نظمها مآلها إلى الزوال! وصدر الكتاب نفسه فى طبعة جديدة ومحدثة عام ٢٠٠٢. وواصل بعد ذلك «هاليداى» اهتمامه بالتجربة فى اليمن الجنوبية، وظهر ذلك بشكل خاص عبر مقالات من حين إلى آخر فى دورية «تقرير ميريب» الصادر عن معهد المعلومات والبحوث للشرق الأوسط، اليسارى التوجه بالولايات المتحدة الأمريكية، والذى كان «هاليداى» أحد أبرز المساهمين فيه. وكان تتويج كتابات «هاليداى» عن التجربة الماركسية فى جنوب اليمن هو كتابه «الثورة والسياسة الخارجية: حالة اليمن الجنوبى ما بين ١٩٦٧ و١٩٨٧». وبالطبع فإن «هاليداى» ينتمى فكريًا إلى اليسار، ولكن غلبة أمانته العلمية وموضوعيته المنهجية وحياده البحثى جعل الجميع يتفق على متابعة كتاباته وأخذها مأخذ الجد دون اتهام بانحياز أيديولوجى أو تعصب مذهبى.

ونعود إلى موضوعنا هنا وهو تجربة اليمن الجنوبية فى تبنى الماركسية منذ ما بعد الاستقلال بوقت قصير وحتى الوحدة مع الشمال، ونتوقف أمام محطات هامة ولا تخلو من دلالات فى هذه المسيرة الثرية بتفاعلاتها وأحداثها وتعاقب مراحلها بالرغم من القصر النسبى للتجربة. ويجب أن نذكر هنا أن هدف الوحدة بين شطرى اليمن كان دائمًا حاضرًا بل ومتقدمًا على جدول الأعمال المعلن لكافة الفرقاء فى الشطر الجنوبى، بل إنه كثيرًا ما تم استخدامه، كما سنرى لاحقًا، خلال محطات الصراع فيما بين مختلف الفرقاء فى الجنوب، من جهة اتهام كل طرف لخصمه بعدم الجدية أو عدم المصداقية فى العمل من أجل الوحدة، دون أن يعنى ذلك إنكار قيام هؤلاء الفرقاء فى مواضع أخرى باتهام الشطر الشمالى وقياداته بدورها بعدم الجدية أو المصداقية فى التعاون مع الجنوب لإنجاز هدف الوحدة، الذى كان بلا شك خلال تلك الفترة التى نتناولها هنا حلم الجماهير اليمنية فى الشمال والجنوب على حد سواء.

ولنبدأ الحكاية من البداية، فخلال النضال من أجل إجلاء المحتل البريطانى، كان هناك طرفان رئيسيان يقودان هذا النضال، الأول هو جبهة التحرير، والتى كانت مدعومة من القيادة الناصرية فى مصر فى تلك الفترة، وحظيت بالدعم منها بشكل خاص بفضل وجود القوات المصرية فى الشطر الشمالى منذ ما بعد الثورة اليمنية فى الشمال فى سبتمبر ١٩٦٢، بينما كان الطرف الآخر هو الجبهة القومية والتى خرجت فى الأصل من رحم حركة القوميين العرب التى نشأت فى الجامعة الأمريكية فى بيروت، ولكن الجبهة أخذت منحى يساريًا واضحًا ومتزايدًا أكثر من حركتها الأم. ولا شك أن هزيمة ١٩٦٧ وما تلاها من اتفاق مصرى سعودى على خروج القوات المصرية من اليمن أثر سلبًا على جبهة التحرير وفرصها فى حكم جنوب اليمن، خاصة أن جلاء البريطانيين عن جنوب اليمن وإعلان استقلاله جاء فى ذلك التوقيت، وتحديدًا فى نوفمبر ١٩٦٧. كما قيل الكثير عن رغبة بريطانيا نفسها فى

اليمن، هذا البلد الثرى تاريخُه ـ رغم شح جغرافيته ـ بدماء الحروب، وثارات القبائل.. وتجاذبات السياسة. يحتفل هذه الأيام ـ على صوت الرصاص ـ بعشرين عاما على وحدته، كما بنهاية «التجربة الماركسية الأولى»، ولعلها الأخيرة،عربيا.

هنا استطراد لملف فتحناه العدد الماضى. أغضب البعضُ، وخاطبنا الآخرون ممتنين.. وفى الحالتين، أكدنا أن «الحوار الحر» حول كل القضايا، فضيلة نبتغيها ـ وربما نفتقدها ـ فى عالمنا العربى الذى بدت أوصاله تهتز بفعل متغيرات قرن جديد.

المحـــرر



الحيلولة دون تولى جبهة التحرير السلطة بعد الاستقلال فى عدن حتى لا يبدو الأمر انتصاراً حينذاك للرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر، حتى ولو كان من سيؤول إليه الحكم هو الجبهة القومية المفترض آنذاك أنها كانت الأكثر يسارية والأكثر تشدداً فى انتمائها القومى العربى من جبهة التحرير.

وبالرغم من خروج قادة جبهة التحرير إلى مصر منذ وقت مبكر للخلاف مع الجبهة القومية ونظراً للطابع الدموى الذى ظهرت علاماته مبكرة لتصفية الحسابات بين مختلف الأطراف فى اليمن الجنوبى، فإن رفاق الأمس داخل الجبهة القومية سرعان ما التفتوا إلى بعضهم البعض وبدأ مسلسلاً لم ينته للتصفيات المتبادلة والمتتالية، ربما لم ينته سوى بالوحدة بين شطرى اليمن عام ١٩٩٠. وكانت البداية بالتخلص من أول رئيس لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية الوليدة، وهو قحطان الشعبى، وذلك قبل أقل من عامين على استقلال الشطر الجنوبى، فى انقلاب سمى بالحركة التصحيحية قاده سالم ربيع على المعروف حركياً باسم «سالمين»، لم يخل من العنف والدموية، وأدى أيضاً إلى خروج قيادات أخرى مثل فيصل الشعبى، شقيق قحطان، وآخرين. وبدا المشهد أوضح بعد انقلاب ١٩٦٩، فيسار الجبهة القومية، بانتماءاته الماركسية الصريحة والمعلنة، بالرغم من استخدام تعبير «الاشتراكية العلمية» لوصف هذه الانتماءات حينذاك، سيطر على الأمور، وبدأ أيضاً فى الظهور بجانب سالم ربيع على شخصيات مثل عبد الفتاح إسماعيل المعروف حركياً باسم «فتاح» المنظر الأيديولوجى للجبهة القومية، وعلى ناصر محمد الذى كان ينظر إليه باعتباره الأكثر براجماتية، ووزير الدفاع على عنتر ووزير الخارجية سالم مطيع على ووزير الداخلية سالم مصلح وآخرين.



وشهدت الفترة الممتدة ما بين ١٩٦٩ و١٩٧٨، تاريخ المحطة القادمة الهامة فى تاريخ اليمن الجنوبى، تطورات لافتة داخلياً وخارجياً. فعلى صعيد العمل من أجل الوحدة، بدأ الجدل داخل الجبهة القومية حول الأسس التى يجب أن تقوم عليها الوحدة، وكان التركيز على مفهوم ماركسى للوحدة، لم يكن مقبولاً لدى الشمال، حتى عندما جاء للحكم فى صنعاء المقدم إبراهيم الحمدى فى حركة عسكرية فى عام ١٩٧٤ أطاحت بالحكم الذى جاء عبر انقلاب نوفمبر ١٩٦٧ الذى أطاح بقائد الثورة اليمنية المشير الراحل عبد الله السلال. فبالرغم من تحمس الحمدى للتقارب مع الشطر الجنوبى وإعلانه الحرص على إتمام الوحدة اليمنية والبحث عن المشترك مع الجنوب فى هذا الصدد، وبالرغم من توجهاته القومية العربية بشكل عام، فإنه بدا بالتأكيد غير متقبل للأطروحات الراديكالية للجبهة القومية فى الجنوب بشأن الوحدة، وأيضاً غير قادر على تليينها لدى الرفاق الجنوبيين ولا على تمريرها لدى شركائه العسكريين فى مجلس القيادة فى الشمال. ولكن حتى عندما تعرض الحمدى للاغتيال فإن القادة الجنوبيين سارعوا باتهام القوى المعارضة للوحدة فى الشمال وللتقارب بين الشمال والجنوب بتنفيذ هذا الاغتيال دون أن يفوت على قادة الجبهة بالطبع اتهام أطراف إقليمية ودولية بالوقوف خلف الاغتيال أو التحريض المباشر أو غير مباشر عليه فى إشارات واضحة للمملكة العربية السعودية والولايات المتحدة بشكل خاص. وفى ذلك الوقت كانت اليمن الجنوبية تحصل على دعم من كل من الاتحاد السوفيتى السابق والصين الشعبية على حد سواء، وهما قطبا العالم الشيوعى فى ذلك الوقت، وبالرغم من العداء المستحكم بين الدولتين منذ ستينيات القرن العشرين. وبدا بشكل متزايد أن سالم ربيع على يميل للصين وللماركسية الماوية باعتبارها أصلح لحالة اليمن الجنوبية، بينما بدا أن الآخرين بزعامة عبد الفتاح إسماعيل يميلون إلى النموذج السوفيتى أيديولوجياً وسياسياً وعلى صعيد التحالفات الدولية. وقد شهدت نفس تلك الفترة دعماً فعالاً من حكام اليمن الجنوبى لما كان يسمى «الجبهة الشعبية لتحرير ظفار»، والتى كانت تنشط فى إقليم ظفار العمانى بعملياتها المسلحة ساعية لاستقلال الإقليم، بينما كان نظام الشاه محمد رضا بهلوى فى إيران فى تلك الفترة يدعم السلطان فى مسقط ضد الانفصاليين فى ظفار. ولكن الضغوط تزايدت على حكام عدن لوقف الدعم لثوار ظفار، كما أن السلطان قابوس بدأ بعد توليه الحكم فى مسقط عام ١٩٧٠ فى إدخال إصلاحات فى إقليم ظفار أبعدت بعض قطاعات الإقليم عن حركة التمرد المسلحة، وانتهى الأمر بقبول الرئيس سالم ربيع على من الناحية الفعلية بوقف الدعم لمتمردى ظفار وهو الأمر الذى ساهم بدرجة كبيرة فى انتهاء التمرد هناك حيث لم تكن اليمن الجنوبية مجرد داعم لهم بل شكلت عمقاً استراتيجياً لنشاطهم العملياتى. ولكن هذا الموضوع تحديداً استخدمه لاحقاً خصوم سالم ربيع على فى سياق اتهامه بالتخلى عن «الالتزامات الأممية» لليمن الجنوبية تجاه قوى الثورة فى العالم عبر تخليه عن ثوار ظفار.



وغنى عن الذكر أنه خلال نفس الفترة، قدمت اليمن الديمقراطية الشعبية الدعم للفصائل الفلسطينية الراديكالية، خاصة الجبهتين الشعبية والديمقراطية لتحرير فلسطين بزعامة كل من جورج حبش ونايف حواتمة على التوالى، ليس فقط بسبب التوجهات اليسارية المشتركة بينهما وبين الحكم فى عدن، ولكن أيضاً لاعتبار آخر يتصل بالعلاقة الشخصية التى ربطت عدداً من زعماء الجبهة القومية، والذين خرجوا من رحم «حركة القوميين العرب» التى ضمت أيضاً حبش وحواتمة وغيرهما من رموز اليسار الفلسطينى. وقد استمر هذا الموقف طوال فترة وجود جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، أى منذ الاستقلال عام ١٩٦٧ وحتى الوحدة عام ١٩٩٠. ومن هذا المنطلق عارضت القيادة فى عدن على سبيل المثال قبول الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر لمبادرة وزير الخارجية الأمريكى حينذاك «وليم روجرز» فى يوليو ١٩٧٠، وتبنى قادة عدن نفس موقف الجبهات الفلسطينية اليسارية تجاه موقف القيادة المصرية حينذاك. ولكن الحكام فى عدن لم يتوانوا عن القيام بواجبهم القومى العربى، وبالرغم من اختلاف الرؤى الأيديولوجية والسياسية مع مصر وسوريا وغيرهما من الدول العربية فى تلك الفترة، فإن اليمن الديمقراطية الشعبية لعبت دوراً مؤثراً وفعالاً خلال حرب أكتوبر ١٩٧٣، من خلال التنسيق مع مصر على وجه الخصوص، حيث تم الترتيب بحيث تقوم القطع البحرية العسكرية المصرية بإغلاق باب المندب خلال الحرب أمام السفن الإسرائيلية أو المتجهة إلى إسرائيل كعامل ضغط إضافى على إسرائيل وحلفائها.

وكان عام ١٩٧٧ محطة أخرى لافتة فى مسيرة السياسة الخارجية لليمن الجنوبى، حيث أن حكام عدن سارعوا إلى إدانة زيارة الرئيس المصرى الراحل محمد أنور السادات إلى القدس فى نوفمبر ١٩٧٧ فيما عرف باسم «مبادرة السلام»، ونعتت قيادات الحكومة والجبهة القومية فى عدن الرئيس المصرى ونظامه بأفظع اتهامات الخيانة والتآمر ضد الأمة العربية، وسرعان ما استجاب القادة فى عدن للدعوة إلى القمة الأولى لما عرف بـ«جبهة الصمود والتصدى»، والتى أطلق عليها الرئيس المصرى الراحل تعبير «جبهة الرفض»، وتشكلت من كل من ليبيا وسوريا والجزائر واليمن الديمقراطية الشعبية ومنظمة التحرير الفلسطينية، وعقدت عدداً من المؤتمرات على مستوى القمة ووزراء الخارجية بهدف إجهاض المسار الذى اختاره الرئيس المصرى. وقد ساهمت هذه الجبهة بالطبع فى تعزيز العلاقات فيما بين أطرافها وإظهارهم كمحور على المشهد السياسى العربى، ولكن دونما تقديم بديل واضح وملموس عن استراتيجية الرئيس المصرى، خاصة فى ظل فشل الجبهة فى ضم العراق إليها بسبب الصراع المستحكم حينذاك بين فرعى حزب البعث العربى الاشتراكى الحاكمين فى كل من سوريا والعراق، وبالرغم من تقارب المواقف بين الجبهة والعراق، ثم بسبب انعقاد قمة بغداد العربية فى نوفمبر ١٩٧٨، وعقب توقيع الرئيس الراحل السادات على الاتفاق الإطارى فى كامب دافيد فى سبتمبر من العام نفسه، وإقرار هذه القمة لعقوبات عربية جماعية بحق مصر، وهو ما أظهر محدودية تأثير جبهة الصمود والتصدى.

وقد انعكست العلاقات الخارجية على الأوضاع الداخلية فى جنوب اليمن، حيث أن قوى من المعارضة فى جنوب اليمن قد لجأت إلى الخارج، خاصة مصر والمملكة



العربية السعودية، والشطر الشمالى، وشكل هؤلاء المعارضون تنظيماتهم واندرجوا فيها. ومن هذه التنظيمات جبهة القوى الوطنية فى جنوب اليمن بزعامة عبد القوى مكاوى الذى استقر به المقام فى القاهرة، ورابطة أبناء جنوب اليمن بقيادة الجعفرى التى انتقل قادتها ما بين مصر والسعودية وكان لهؤلاء القادة دور بعد ذلك بسنوات، وتحديداً فى عام ١٩٩٤، فى محاولة الانفصال بجنوب اليمن من جديد بعد أربع سنوات من الوحدة مع الشمال بالتحالف مع خصوم الأمس فى الشطر الجنوبى قادة الجبهة القومية ومن بعدها الحزب الاشتراكى. وخلال تصعيد الصدام بين مصر واليمن الجنوبية باعتبار الأخيرة جزءاً من «جبهة الصمود والتصدى»، فقد استخدم الرئيس المصرى الراحل أنور السادات تنظيمات المعارضة اليمنية الجنوبية، خاصة تلك التى اتخذت من القاهرة مقراً لها، فى إطار صراعه مع دول الجبهة، ووفر لها الحرية الإعلامية والتنظيمية للعمل من مصر، بالإضافة إلى ضم تلك التنظيمات إلى منظمة الشعوب العربية والإسلامية التى أسسها الرئيس الراحل السادات فى أعقاب إخراج مصر من عضوية جامعة الدول العربية وتعليق عضويتها بمنظمة المؤتمر الإسلامى، عقب اتفاقية السلام المصرية الإسرائيلية فى مارس ١٩٧٩،

وعلى الصعيد الداخلى، بدا الاتجاه محسوماً ومتصاعداً نحو فرض المزيد من التشدد العقائدى الماركسى، وظهرت نزعة لفرض قوانين بدت متناقضة مع طبيعة مجتمع كانت ما زالت الاعتبارات القبلية والعائلية تلعب دوراً مؤثراً فى العديد من أقاليمه، وإن كان بدرجة أقل من الشطر الشمالى. ومن ذلك على سبيل المثال، كان إصدار قانون يجرم تعدد الزوجات. وقد صدر القانون تحت شعار حماية حقوق المرأة وتعزيز دورها فى المجتمع ومساواتها بالرجل، أى كان المنطلق المعلن تقدمياً، ولكن بالمقابل، فإن مثل هذا القانون شكل صدمة لأعراف قائمة ولتفسيرات دينية تقليدية فى مجتمع تدين الغالبية الساحقة فيه بالإسلام السنى. وشكل هذا القانون علامة على التزام الحكم فى عدن على إحداث تغييرات مجتمعية جذرية وعدم الاكتفاء بممارسة السلطة السياسية أو حتى احتكار هذه الممارسة والسيطرة الكاملة والمطلقة للدولة على كافة مناحى النشاط الاقتصادى، سواء ما كبر منه أو ما صغر. وما لبث أن وضح مدى التزام النظام الحاكم فى عدن بالقانون الذى أصدره، وذلك عندما تم الإعلان بشكل مفاجئ فى عدن عن تنفيذ حكم الإعدام بحق «سالم مطيع على»، والذى كان يشغل منصب وزير الخارجية لسنوات فى اليمن الجنوبية! وكان السبب الذى



أول تجـــربة ماركســية عــربيـــة

تم الإشارة إليه فى نفس الإعلان لتنفيذ حكم الإعدام بحقه هو ثبوت قيامه بتعدد الزوجات بما يخالف القانون الذى يحظر ذلك! وسواء كان هذا هو السبب الحقيقى لإعدامه أم لا، فإن حجم العقوبة لم يبد متناسباً مع حجم المخالفة للقانون الذى مررته السلطات المعنية فى عدن فى هذا الشأن.

ونعود إلى عام ١٩٧٨، الذى مثل نقطة فارقة فى تاريخ اليمن الديمقراطية الشعبية، بل فى تاريخ اليمن بشطريه. ففى سبتمبر من هذا العام، وبالرغم من انشغال المنطقة والعالم بأسره بحدث جلل غير من أوضاع سياسية وإستراتيجية فى المنطقة كانت ممتدة منذ الحرب العربية الإسرائيلية الأولى عام ١٩٤٨، وهو توقيع الاتفاق الإطارى لكامب دافيد بين مصر وإسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية، فقد حدثت سلسلة متلاحقة من الأحداث فى ظرف أيام معدودة فى اليمن بشطريه حينذاك: شماله وجنوبه، جذبت اهتمام العالم بأسره تجاه هذا الجزء الهام من الوطن العربى. فبعد الاغتيال الغامض للرئيس اليمنى الشمالى إبراهيم الحمدى، والذى بقى إلى الآن غامضاً لم تعلن جهة مسئوليتها عنه ولم تسفر التحقيقات بشأنه عن أى نتيجة محددة، خلفه المقدم حسين الغشمى فى رئاسة مجلس القيادة فى الجمهورية العربية اليمنية (الشطر الشمالى)، وبمرور الوقت بدأت القيادة فى الشطر الجنوبى تتهم الغشمى بالتراجع عن الالتزامات التى كان الحمدى قد أخذها على نفسه تجاه دفع مفاوضات الوحدة بين شطرى اليمن، وبدا هناك توتر متصاعد بين الشطرين، وكانت اللهجة متشددة بشكل خاص من قيادة الجبهة القومية ممثلة فى أمينها العام الراحل عبد الفتاح إسماعيل. وقد تراوحت العلاقة بين الطرفين صعوداً وهبوطاً، وبدأت اتهامات متبادلة من كل طرف للآخر بإيواء معارضين للطرف الآخر. وبدا أن مسعى الوحدة اليمنية يتعثر. ولكن تم الاتفاق على عقد قمة بين الرئيسين حسين الغشمى وسالم ربيع على، وقبل الموعد المقرر للقمة بأيام معدودة أرسلت القيادة فى الجنوب مبعوثاً برسالة للرئيس الغشمى، وكان الحدث المفاجأة/الصدمة، فقد انفجرت حقيبة بحوزة المبعوث الجنوبى، كان من المفترض أن بها رسالة من القيادة فى الجنوب للرئيس الغشمى، وحدث الانفجار بينما كان المبعوث قد بدأ لتوه الاجتماع مع الغشمى، فأودى الانفجار بحياة الغشمى والمبعوث الجنوبى معاً، وانفجر الوضع بين الشمال والجنوب بالغاً درجة من التوتر وصلت إلى درجة أن لاحت فى الأفق بوادر حرب بين الجانبين، ولكن الأهم والأخطر فى هذا المجال هو أن هذا الحادث المروع انعكس على الصراع فى الجنوب بين سالم ربيع على من جهة ومناوئيه بزعامة عبد الفتاح اسماعيل من جهة أخرى. ففجأة وفى ظرف ساعات، بدأت قيادة الجبهة القومية تتهم سالم ربيع بالضلوع فى حادث تفجير الغشمى مشيرة إلى أن المبعوث الجنوبى الذى التقى الغشمى وانفجرت الحقيبة التى كان يحملها كان مبعوثاً من الرئيس سالم ربيع على إلى الرئيس الغشمى، وبالتالى فقد وجهت قيادة الجبهة القومية أصابع الاتهام إلى سالم ربيع على، ليس فقط بالتخطيط لاغتيال الغشمى، بل أيضاً بإفساد مسعى الوحدة الذى كان على وشك أن يستأنف من جديد، وسارعت بتوظيف الحادث لتبرير قرار، ليس من المعروف تحديداً توقيت اتخاذه، بالتخلص من سالم ربيع على لمرة واحدة وبلا رجعة. وكان الإجراء سريعاً، وقبل أن يفيق العالم بأسره من حادث التفجير فى صنعاء الذى أودى بحياة الغشمى، فوجئ بالإعلان فى عدن عن مصرع الرئيس سالم ربيع على فى ظروف غامضة قيل بعد ذلك أنها كانت إعداماً، كما قيل أنه جاء كرد فعل على تحرك للرئيس نحو الانقلاب على «القيادة الجماعية» والسعى للانفراد بالسلطة والتخلص من منافسيه وعلى رأسهم عبد الفتاح إسماعيل، وتم اتهامه بالمسئولية رسمياً عن مصرع الغشمى، ثم الذهاب خطوة أبعد تمثلت فى اتهام الرئيس الراحل «بخيانة أهداف الثورة الطبقية والأيديولوجية»!، بحسب بيان صدر عن قيادة الجبهة القومية بعد اجتماع طارئ لها نفس يوم مصرع سالم ربيع على.

وكان قرار التخلص من سالم ربيع على علامة على حدوث أكثر من تحول فى اليمن الجنوبية، سواء على صعيد الأوضاع الداخلية أو فيما يتعلق بالعلاقات الخارجية. فداخلياً كان الخيار الأيديولوجى قد حسم عقب التخلص من سالم ربيع، وفى إطار مراجعات الجبهة القومية لما أسمته بالأخطاء التى أدت إلى تفاقم الأوضاع الداخلية وصولاً إلى ما أسمته الجبهة «انحراف» سالم ربيع على ومحاولة انقلابه على القيادة الجماعية.



ففى تقييم الجبهة القومية أن أحد أسباب ذلك هو أن صيغة الجبهة القومية كانت فضفاضة أكثر مما يجب، وهى وإن كانت يمكن أن تصلح فى مرحلة «الثورة الوطنية الديمقراطية»، فإنها لم توفر آليات التأكد من الانضباط التنظيمى أو الالتزام الأيديولوجى لقياداتها وكوادرها وأعضائها، وبالتالى استنتجت قيادة الجبهة ضرورة الإعلان رسمياً عن بدء الاستعدادات للتحول من صيغة الجبهة القومية إلى صيغة الحزب الطليعى، وهو «الحزب الاشتراكى»، على أن يتبنى الحزب الجديد بوضوح ودون مواربة أو غموض «الاشتراكية العلمية»، وهو التعبير الذى كان يستخدم لوصف الماركسية، خاصة فى المجتمعات التى كانت كلمة الماركسية تفسر فيها على أنها مرادف للإلحاد. وبالتالى تبنت القيادة فى الشطر الجنوبى رسمياً خيار الحزب الأوحد، بديلاً عن خيار العمل الجبهوى الذى من المفترض أن يضم تيارات



كان قرار التخلص من سالم ربيع على علامة على حدوث أكثر من تحول فى اليمن الجنوبية



متنوعة وآراء متعددة بداخله، وارتبط بذلك إعلان التبنى الصريح والقاطع لخيار «الاشتراكية العلمية» أو الماركسية، فى أول حالة يتم فيها ذلك بدون أى لبس فى الوطن العربى.

وفى البداية، تم الإعلان عن قيام قيادة جماعية، خاصة فى ظل الاتهامات للرئيس الراحل سالم ربيع على بالسعى للانفراد بالسلطة، وبدا أن القيادة الجديدة ثلاثية تمثلت فى كل من عبد الفتاح إسماعيل الذى تحول من أمين عام الجبهة القومية إلى أمين عام الحزب الجديد بالإضافة إلى منصب الرئاسة خلفاً للراحل سالم ربيع على، وعلى ناصر محمد الذى تولى منصباً مستحدثاً وهو رئاسة الحكومة، وعلى عنتر الذى تولى منصب وزارة الدفاع. وقد قام بعض المحللين حينذاك بالمقارنة بين تلك القيادة الثلاثية التى نشأت حينذاك فى عدن وبين القيادة الثلاثية التى أعلن عنها فى الاتحاد السوفيتى السابق عقب إقصاء «نيكيتا خروتشوف» عام ١٩٦٤، حيث تم إحلال قيادة ثلاثية محله تمثلت حينذاك فى «ليونيد بريجنيف» سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعى السوفيتى، و«نيكولاى بودجورنى» رئيساً لمجلس السوفييت الأعلى (رئيساً للدولة)، وأخيراً «أليكسى كوسيجين» رئيساً لمجلس الوزراء. ولكن فى الحالة اليمنية الجنوبية بدا غريباً أن عبد الفتاح إسماعيل جمع بين رئاسة الدولة والحزب، فى وقت كان يتهم فيه سالم ربيع على بالسعى للانفراد بالسلطة بينما كانت كل سلطات الأخير تنحصر فى رئاسة الدولة دون الحزب.

إلا أنه سرعان ما دبت الخلافات فى صفوف القيادة «الجماعية» الجديدة، وبدا فى مرحلة أن غالبية الفرقاء الجدد قد سئمت من تسلط عبد الفتاح إسماعيل الحزبى وتشدده العقائدى، وبدا أيضاً أن عصر «إسماعيل» فى طريقه إلى الزوال، خاصة عندما أعلن فى عدن، وكالعادة بشكل مفاجئ، أنه تم نفى عبد الفتاح إسماعيل إلى الاتحاد السوفيتى، وبدا أن على ناصر محمد هو الرابح الأكبر من هذا الإبعاد لإسماعيل، الذى لم يتصف بالطابع الدموى هذه المرة، حيث جمع بين رئاستى الدولة والحكومة، إلا أن هذا الوضع لعلى ناصر لم يستمر طويلاً، فقد بدأ تشكك بقية القادة فى عدن من سعى على ناصر للانفراد بالسلطة فى الشطر الجنوبى وإبعاد من تواطأوا معه لإبعاد إسماعيل، كذلك وضح أن سعيه لتبنى «مواقف براجماتية» أو «معتدلة» بهدف التقرب من الدول العربية الثرية والحصول على الدعم منها، خاصة المملكة العربية السعودية وبقية دول الخليج، لم تؤت أكلها، وأن هذه الدول لا تقبل بأقل من إنهاء كامل للدولة الماركسية فى أقصى



أول تجربة ماركسية عربية

جنوب شبه الجزيرة العربية، لما ترى فيه من تهديد ليس فقط لنظامها السياسى والاقتصادى بل أيضاً من تناقض مع الأوضاع الاجتماعية القائمة بها. وإلى جانب ذلك، جاءت التحركات السوفيتية لفرض نوع من الانسجام والتناغم السياسى، ولو الظاهرى والمؤقت، بين القادة فى عدن لتجنب أى انهيار للنظام القائم فى عدن قد يؤدى إلى فقدان الاتحاد السوفيتى لهذا الحليف ذى الوضع الاستراتيجى المتميز. وبناءً على كل ذلك، اتخذت قيادة الحزب الاشتراكى فى عدن القرار بعودة عبد الفتاح إسماعيل مجدداً إلى عدن، مع تولى منصب أمين عام الحزب الاشتراكى فقط دون منصب رئاسة الدولة الذى بقى فى يد على ناصر محمد، وفى ظل صيغة «قيادة جماعية» جديدة، ثبت أنها كانت قصيرة العمر وأنها حملت نذر اشد المواجهات السياسية والعسكرية دموية عبر التاريخ الزمنى القصير نسبياً لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية.

وإذا انتقلنا لتناول العلاقات الخارجية، سواء الإقليمية والدولية، لليمن الجنوبية خلال الفترة من مصرع الرئيس سالم ربيع على فى ١٩٧٨ وحتى الصراع الدموى فى يناير ١٩٨٦، نرى أن تلك الفترة شهدت تعميق التحالف بين اليمن الجنوبية والاتحاد السوفيتى السابق، وأخذ ذلك أشكالاً متعددة، كان من أهمها تكثيف الوجود العسكرى السوفيتى فى اليمن، وبناء قاعدة عسكرية بحرية متكاملة للسوفييت هناك، مثلت فرصة ثمينة للاتحاد السوفيتى السابق فى التواجد على مدخل البحر الأحمر. وبالمقابل تقلص تماماً النفوذ الصينى الذى كان بازغاً فى زمن سالم ربيع على، وبدا أن المنافسة السوفيتية الصينية على اليمن الجنوبى قد حسمت نهائياً لصالح الطرف الثانى.



وبالتالى، وبناء على هذا التحالف اليمنى مع الاتحاد السوفيتى، تحددت إلى حد كبير شبكة التحالفات الدولية والإقليمية لليمن الديمقراطية الشعبية. وعلى سبيل المثال، ففيما يتعلق بالنزاع الإثيوبى/الصومالى، والذى تمثل فى حرب شاملة عامى ١٩٧٧ و١٩٧٨، وما أعقبها من استمرار النزاع بوسائل أخرى، وقفت اليمن الجنوبية بشكل حاسم مع إثيوبيا فى هذا النزاع، حيث كانت الأخيرة قد دخلت فى حالة تحالف شامل مع الاتحاد السوفيتى السابق بعد استيلاء العقيد «مانجستو هايلا ميريام» على السلطة منفرداً وتخلصه من رفاقه الضباط الذين قاموا معه بالانقلاب على الإمبراطور «هايلا سيلاسى» عام ١٩٧٤، وسرعان ما أعلن «مانجستو» تبنيه رسمياً للماركسية اللينينية، وتطور محور يمنى جنوبى/إثيوبى فى البحر الأحمر فى حالة تحالف إستراتيجى مع الاتحاد السوفيتى السابق وإستراتيجيته الكونية.

إلا أن الاتحاد السوفيتى السابق أثبت بمرور الوقت أنه عاجز عن توفير الاحتياجات المادية والاقتصادية التى تحتاجها اليمن الجنوبية، باستثناء ما كان الاتحاد السوفيتى يقدمه نظير استخدام القاعدة العسكرية فى عدن.



كانت خاصية أحداث يناير ١٩٨٦ فى تاريخ اليمن الجنوبى، أنها كانت. بلا منازع. الأكثر دموية وتخريباً للبلاد



فمن جهة، فإن السياسات الاقتصادية التى كانت تتبعها السلطات فى عدن، وهى التى عكست الالتزام الحرفى بالأدبيات الاقتصادية للماركسية اللينينية فى مجتمع أبعد ما يكون فى هياكل الانتاج به وأنماط العلاقات الإنتاجية عما هو مفترض أن يكون فى مجتمع مؤهل لتطبيق الماركسية عليه، أدت كما كان متوقعاً إلى إخفاقات حادة، علماً بأن اقتصاد الجنوب اليمنى كان يتمحور لعقود قبل الاستقلال على كون عدن «ميناءً حراً»، أى كان الاقتصاد ككل يرتكز على دعائم تجارية «مركانتلية». وكما ذكرنا من قبل فإن محاولات تأمين دعم اقتصادى من الدول العربية النفطية فى منطقة الخليج إما تعثرت أو كانت محدودة النجاح وقصيرة العمر، وربما كان لدى القيادة فى عدن أمل فى أن الانضمام إلى «جبهة الصمود والتصدى» أو لاحقاً التقارب مع العراق تحت قيادة حزب البعث بزعامة الرئيس الراحل صدام حسين، ستوفر دعماً لبلدهم، فى الحالة الأولى عبر ليبيا والجزائر، وفى الحالة الثانية عبر تأمين دعم اقتصادى عراقى، فإن هذه المحاولات بدورها لم تثمر الكثير، ربما سوى أن ليبيا غطت لفترة الاحتياجات النفطية اليمنية الجنوبية، خاصة عندما تبلور محور ليبى/يمنى جنوبى/إثيوبى، بدا آنذاك أنه موجه ضد الحكم الحليف لمصر تحت قيادة الرئيس الراحل السادات والغرب فى كل من الصومال فى عهد الرئيس الراحل محمد سياد برى والسودان فى عهد الرئيس الراحل جعفر النميرى.

وقبل الولوج إلى أحداث يناير ١٩٨٦ فى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية نتعرض هنا للمشهد المحلى والإقليمى والدولى قبل اندلاع هذه الأحداث. فعلى الصعيد الداخلى، بدأ الصراع يتأرجح من جديد بين عبد الفتاح إسماعيل من جهة وعلى ناصر محمد من جهة أخرى، ولكن هذه المرة نجح الأول فى تجميع عدد أكبر من القادة خلفه، بمن فيهم وزير الدفاع على عنتر وعدد من القيادات الصاعدة أبرزهم على سالم البيض وسالم صالح محمد وحيدر أبو بكر العطاس وآخرين. ومن الواضح أن على ناصر محمد بدأ يدرك أن الأقلية داخل صفوف القيادة هى التى تؤيده، كما كان يفتقد الدعم إلى حد كبير داخل الحزب، حيث كان عبد الفتاح إسماعيل يحكم سيطرته وأنشأ ما يشبه ميليشيا للحزب، كذلك فإن وزير الدفاع على عنتر كان موالياً لعبد الفتاح إسماعيل. وبدأ على ناصر يتحين فرصة التخلص من منافسيه، كما بدأ مناوئوه بدورهم يبحثون فى كيفية التخلص منه.

وعلى الصعيد الإقليمى، استمرت العلاقات

بين الشمال والجنوب ما بين ١٩٧٨ و١٩٨٦ فى التحرك كالبندول بين السعى لتحقيق الوحدة والتوتر المتصاعد والاقتراب من المواجهة العسكرية وحافة الحرب، واتهام كل طرف للآخر بمحاولة التدخل فى شئونه الداخلية عبر دعم معارضين لدى الطرف الآخر، وبات فى مرحلة ما أن كلاً من حركة ١٤ يناير والتجمع الوطنى الديمقراطى المعارضين فى الشمال والمدعومين من الحزب الاشتراكى فى الجنوب يمثلان تهديداً حقيقياً لحكم الرئيس على عبد الله صالح فى صنعاء والذى خلف المقدم حسين الغاشمى بعد مصرعه. كما بدا أن هناك اتجاهين فى الجنوب فيما يتعلق بالتحرك نحو الوحدة مع الشمال، كل منهما يرحب بالوحدة ولكن كل منهما له تصوره لهذه الوحدة، فتيار الرئيس على ناصر محمد بات أكثر استعداداً للإسراع فى خطوات الوحدة، وربما اعتبرها أسلم الطرق للتخلص من منافسيه فى الجنوب فى ضوء صعوبة التخلص منهم بأى وسيلة أخرى سياسية أو حتى عسكرية، والتيار الآخر بزعامة عبد الفتاح إسماعيل كان ما يزال يعتبر النظام الحاكم فى صنعاء قبلياً ويدعو إلى ما أسماه «صيغة تقدمية» لتحقيق الوحدة، على أن تضم أيضاً القوى المعارضة فى الشمال مثل حركة ١٤ يناير والتجمع الوطنى الديمقراطى، وهو أمر كانت ترفضه القيادة فى صنعاء وتطالب كرد على ذلك بإدخال المعارضة الموجودة فى المنافى للحكم فى عدن ضمن أى ترتيب للوحدة بين شطرى اليمن.

وعلى الصعيد الدولى، حدث تطور له مغزاه فى الاتحاد السوفيتى السابق، وجاء إلى سدة أهم منصب فى تلك الدولة العظمى حينذاك، كسكرتير عام للحزب الشيوعى السوفيتى، «ميخائيل جورباتشوف» عام ١٩٨٥ وبدأ مباشرة يطرح أفكاراً خاصة بتجديد ومراجعة الماركسية، وهى أفكار بدت أكثر تحررية وليبرالية، وتمثلت على المستوى السياسى فى «الجلاسنوست»، وعلى الصعيد الاقتصادى فى «البرسترويكا». وكان من آثار ذلك البدء تدريجياً فى فك الارتباط للاتحاد السوفيتى مع العديد من حلفائه عبر العالم، بما فى ذلك فى نطاق الجوار الجيواستراتيجى والأمنى المباشر للاتحاد السوفيتى السابق فى البلطيق وشرق ووسط أوروبا، فما بالنا بالأبعد من ذلك جغرافياً، كما تزامن مع ذلك تناقص حاد فى المساعدات السوفيتية، المحدودة أصلاً كما ذكرنا آنفاً مقارنة باحتياجات اليمن الجنوبية. وفى وسط كل هذه الأجواء زاد تأزم الوضع الاقتصادى فى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية. كما أن أطروحات «جورباتشوف» بدأت تثير الشكوك فى جدوى النموذج الماركسى اللينينى، خاصة عندما يكون



أول تجـــربة ماركســية عـربيـــة

منبع المراجعات الدولة الأم للماركسية فى العالم. ووضع هذا الأمر ضغوطاً على حكام عدن، وكان رد الفعل الأولى من جانب عبد الفتاح إسماعيل، باعتباره منظراً للحزب الاشتراكى اليمنى، مماثلاً لرد فعل الزعيم الكوبى «فيدل كاسترو»، حيث أكد التمسك بـ «الاشتراكية العلمية» خياراً حتمياً لا فكاك منه. ولا يجب أن ننسى أن البعض داخل القيادة اليمنية الجنوبية، بمن فى ذلك على ناصر محمد، بدأ يشير على استحياء إلى إمكانية إجراء مراجعات فكرية وسياسية مماثلة لما كان يجرى بالاتحاد السوفيتى السابق، بالإضافة إلى الإعراب عن دعم للمسعى التجديدى لجورباتشوف، إلا أن هذه الآراء كان يتم الإعراب عنها بحرص شديد، نظراً للتخوف من أن كل هذه المراجعات فى موسكو قد تنتهى كما انتهت محاولات خروتشوف فى السابق بالانقلاب عليها.

ولكن ماذا حدث فى ١٣ يناير ١٩٨٦؟ كالعادة فى التاريخ القصير لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، ومع كل صراع سلطة تتم الأمور سريعاً وفى تكتم شديد وبين دائرة محدودة ومغلقة من البشر، وكالعادة أيضاً تظهر بعد الحدث روايات متباينة ومتناقضة عن الأحداث من جانب مختلف الأطراف المعنية. وهكذا أيضاً بدأت احداث يناير ١٩٨٦، فالمعروف أن اجتماعاً للقيادة اليمنية كان يتم فى عدن، بحضور جميع الفرقاء، والثابت أن إطلاق نار تم، وأودى بحياة على عنتر وزير الدفاع وآخرين، وفى البداية كان يعتقد أنه أودى أيضاً بحياة عبد الفتاح إسماعيل، إلا أنه اتضح أن عبد الفتاح إسماعيل قد تمكن من الفرار داخل عربة مدرعة، وإن كان لم يظهر أبداً بعد ذلك وساد اعتقاد منذ ذلك التاريخ أنه لقى حتفه وهو داخل تلك العربة المدرعة. وقد قدم الطرف المنتصر - أى تيار عبد الفتاح إسماعيل الممثل فى على سالم البيض وسالم صالح محمد وأبو بكر العطاس وغيرهم - فى أحداث يناير ١٩٨٦ رؤيته لأحداث ذلك اليوم على النحو التالى: أن على ناصر محمد دعا إلى اجتماع للقيادة بينما كان بالفعل قد أعد العدة للتخلص من منافسيه عبر تصفيتهم جسدياً. وهكذا وعندما اكتمل وجود مناوئى على ناصر فى الاجتماع تم إغلاق القاعة وقام جزء من حرس على ناصر محمد وأنصاره بالتعامل مع حرس عبد الفتاح إسماعيل وبقية حلفائه فى الخارج، بينما قام جزء آخر منهم باقتحام القاعة ومحاولة تصفية القادة الموجودين بالداخل.



بالمقابل، ظهرت رواية أخرى تقول بأن اجتماعاً كان يدور بالفعل واحتدم النقاش بين على ناصر ومناوئيه، وأدى الأمر إلى الاحتكام للسلاح مما أدى إلى مصرع على عنتر والبعض وفرار البعض الآخر.

ولكن كانت خاصية أحداث يناير ١٩٨٦ فى تاريخ اليمن الجنوبى، وخاصة فترات الصراع على السلطة، أنها كانت بلا منازع الأكثر دموية وتخريبياً للبلاد والاقتصاد والمجتمع وكل شىء، فقد كانت حرباً أهلية بكل معنى الكلمة. ولكن الأهم والأخطر أن هذه الحرب الأهلية كشفت أمراً فى غاية الأهمية والدلالة، وهو أن عقدين من التجربة المفترض أنها «تقدمية» وتسعى لبناء الماركسية فى جنوب شبه الجزيرة العربية أثبتت أنها تركت أثراً قليلاً وسطحياً خارج حدود العاصمة عدن وأن المجتمع اليمنى فى الجنوب احتفظ فى واقع الأمر بالعديد من خصائصه التقليدية، بما فى ذلك الطابع القبلى والعشائرى، وأن جهود التحديث المجتمعى بقيت فى معظمها على الهامش. وما أظهر ذلك كان لجوء كل من القيادات «الاشتراكية» و«التقدمية» فى عدن إلى القبيلة أو العشيرة التى ينتمى إليها أصلاً لجلب المقاتلين، وإما كان لدى هؤلاء المقاتلين السلاح أصلاً، وهذه ستكون طامة فى ظل دولة شمولية كانت تدعى سيطرتها وبسط قبضتها القوية على كل مناحى الحياة، وإذا كان السلاح قد تم توزيعه بمعرفة هؤلاء القادة وكان هذا السلاح أصلاً سلاحاً للجيش أو الشرطة أو الميليشيات الحزبية، فتكون الطامة أكبر. ودارت رحى هذه الحرب على مدى أيام، واستمرت الأمور متأرجحة بين يوم وآخر ومن غير الواضح من الطرف الذى سيحقق النصر حتى الأيام الأخيرة عندما فر على ناصر محمد خارج البلاد وبدا بشكل متزايد أن الغلبة لتيار عبد الفتاح إسماعيل بالرغم من غياب شخص عبد الفتاح إسماعيل، وبالفعل سيطر القادة الجدد على الأوضاع وظهرت قيادة، «جماعية» أيضاً، جديدة ممثلة فى على سالم البيض أميناً عاماً للحزب الاشتراكى، وسالم صالح محمد رئيساً لمجلس الرئاسة، وأبو بكر العطاس رئيساً للحكومة. وانتقل على ناصر محمد إلى دمشق وأسس مركزاً للدراسات الإستراتيجية بها. وقد تباينت الروايات أيضاً حول مصير عبد الفتاح إسماعيل، ومن المسئول عن مصرعه. فبالرغم من روايات تظهر من آن إلى آخر عن شخص وجد فى مكان ما فى اليمن وأنه هو عبد الفتاح إسماعيل ولكن بعد ما فقد ذاكرته نتيجة إصابة تعرض لها فى العربة المدرعة التى استقلها للنجاة من المجزرة التى كانت تستهدفه فى المقام الأول، فإن الأغلب أن إسماعيل لقى مصرعه خلال وجوده فى هذه المدرعة، ويبدو من المنطقى قول القادة الجدد فى عدن أن تدمير هذه العربة المدرعة تم بواسطة قوات موالية لعلى ناصر محمد فور اندلاع القتال. إلا أن روايات أخرى ألقت باللائمة فى مصرع «فتاح» على القوات الموالية للقادة الجدد فى عدن، سواء تم ذلك عن طريق الخطأ (نيران صديقة)، أو وصل الأمر بالبعض إلى اتهام هؤلاء القادة الجدد بتعمد إصدار الأوامر بتصفية عبد الفتاح إسماعيل بعد نجاته لضمان انفرادهم بالسلطة فى حال انتصارهم على على ناصر محمد، وهو ما تحقق بالفعل.

وبالرغم من أن كتاب «فريد هاليداى» الذى أشرنا إليه فى مقدمة هذا المقال



فــى نهــايــة المطـــاف، كـــــان الحـــــل الـــذى خلصـــت إليـــه القيـــادة فــى الجنــــوب هـــــــو «الهـــــــــروب إلــى الأمـــــــام»



«الثورة والسياسة الخارجية» يقف عند حدود عام ١٩٨٧، فإن السنوات الأربع الممتدة حتى الوحدة بين الشمال والجنوب تستحق الاستعراض هنا ولو بشكل موجز.

فبالرغم من تحقيق الانتصار العسكرى والسياسى فى حرب يناير ١٩٨٦، أو كما أسماها احد الكتاب العرب حينذاك «حرب القبائل الماركسية»، فإن القادة الجدد فى عدن وجدوا أنفسهم امام أوضاع لا يحسدون عليها. فعلى الصعيد الداخلى، كان المجتمع ممزقًا نتيجة حالة الاستقطاب القبلى والعشائرى التى ميزت حرب يناير ١٩٨٦، كما كانت حالة من الصدمة سادت لدى النخبة السياسية، سواء على صعيد الحزب الاشتراكى أو المؤسسة العسكرية أو غيرها. وتزامن ذلك مع فترة عالمية شهدت انهيار الكتلة الاشتراكية فى شرق ووسط أوروبا وتساقط الأنظمة بهذه الدول واحدة بعد الأخرى واتضاح هشاشة ما كان يبدو من تمسك بالماركسية اللينينية فيما بين هذه الشعوب، ثم انتقال أنظمة حكم أخرى فى مناطق أخرى من العالم، خاصة فى أفريقيا، بعيداً عن الخيار الماركسى، الذى بدا أن هذه الأنظمة كانت تتبناه فقط على المستوى اللفظى والشعاراتى، لصالح تبنى شعارات تبدو جذابة لجلب الدعم الغربى، خاصة الأمريكى، لهذه الدول، وفى مقدمتها الدعم المادى والاقتصادى، ومن لم ينح هذا المنحى، مثل نظام منجستو مثلاً فى إثيوبيا تعرض لتصاعد حرب العصابات ضده من أكثر من خصم وتلقى هؤلاء الدعم المباشر أو غير المباشر من الغرب بصفة عامة، والولايات المتحدة الأمريكية على وجه الخصوص. وأدى هذا الوضع إلى دفع القادة الجدد فى عدن إلى إعادة ترتيب أوراقهم وحساب خطواتهم المقبلة بحذر.

وبالرغم من أن التوقعات كانت تشير إلى أن من انتصر فى حرب ١٣ يناير ١٩٨٦ هو التيار الأكثر تشدداً من الناحية الأيديولوجية مما أوحى بحالة من التزمت العقائدى والحدة السياسية، فإن القادة الجدد ما لبثوا أن أدركوا محدودية هامش الحركة المتاح لهم فى ضوء الظروف التى أشرنا إليه فى الفقرة السابقة. وبدأ هذا الوعى المتزايد ينعكس فى شكل تحركات على أكثر من صعيد.

فعلى صعيد تفاعل الأوضاع الداخلية مع البيئتين الإقليمية والدولية، وبالرغم من الانتصار العسكرى فى حرب يناير، فقد بدأ الرئيس المخلوع على ناصر محمد تحركات بدا منها انه يسعى للعودة إلى السلطة فى عدن، ودارت تحركات واتصالات له مع قادة فى بعض دول الخليج العربية ودول عربية أخرى، بما فيها الشطر الشمالى، وكذلك



أول تجـــربة ماركســية عـربيـــة

اتصالات عبر مراكز أبحاث ومؤسسات أخرى فى دول غربية، وذلك بهدف جمع الدعم لعودته. وتزامن ذلك مع تدنى أكبر فى حجم الدعم السوفيتى وصل إلى نذر إيقاف هذا الدعم بالكامل، وهو دعم بالرغم من عدم استجابته لكافة الاحتياجات اليمنية الجنوبية، كان يمثل شريان حياة لاقتصاد جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية. بل إن العلاقات السوفيتية تحسنت وانتقلت بشكل متزايد إلى مرحلة نوعية أكثر تقدماً مع اليمن الشمالية فى نفس الفترة مما أتى على حساب علاقات السوفيت مع عدن، كما تحسنت العلاقات واقتربت إلى مرحلة تحالف بين اليمن الشمالية وبين الدول العربية التى كانت مصنفة على أنها «تقدمية»، وفى مقدمتها العراق فى عهد الرئيس الراحل صدام حسين، كما كانت «جبهة الصمود والتصدى قد تفككت منذ زمن، وغاب الغطاء السياسى، وبدرجة أقل، الاقتصادى الجزئى، الذى كانت توفره هذه الجبهة للقادة فى عدن فى مرحلة سابقة.

وعلى الصعيد الاقتصادى، استمرت الحالة الاقتصادية فى الجنوب فى الجمود، إن لم يكن التدهور، ولم تلح فى الأفق بوادر تحسن فى ظل أن النفط الذى بدأ يظهر ويتكاثر اكتشافه فى الشطر الشمالى لم يظهر فى الشطر الجنوبى. وتزامن مع ذلك تزايد الضغوط فى الجنوب والشمال لإتمام الوحدة اليمنية، خاصة أنه فى حملتها المضادة لتحركات على ناصر محمد، خاصة على الصعيد الإقليمى، ردت القيادة الجديدة فى عدن عبر حملة مكثفة اتهمته فيها بالمسئولية عن تأخر تحقيق الوحدة بل وتعمد تعطيلها، وذلك بهدف تحييد أى دعم قد يحصل عليه، خاصة فى الشطر الشمالى، وبالذات فى ظل وجود حالة عدم رضا بين قطاعات من الشعب فى الجنوب عن ما آلت إليه حرب ١٣ يناير ١٩٨٦ من تدمير وخراب، واستمرار وجود أنصار لعلى ناصر محمد وآخرين فى حالة تذمر على «المنتصرين» فى حرب يناير المذكورة.



وفى نهاية المطاف، كان الحل الذى خلصت إليه القيادة فى الجنوب هو «الهروب إلى الأمام» أو «الهروب إلى المجهول»، أى الاندفاع نحو القبول بخيار الوحدة مع الشمال طبقًا لمعايير كان أغلبها من وضع القيادة فى الشمال. ولم يكن هذا القرار سهلاً أو متفقاً عليه بين القادة فى الجنوب، بل شهد الأمر جدالاً وسجالاً وشداً وجذباً، وكان أكثر المتحمسين للتعجل بخيار الوحدة الاندماجية الفورية مع الشمال هو سكرتير عام الحزب الاشتراكى على سالم البيض، بالرغم من تحفظ آخرين فى القيادة فى عدن ودعوة البعض لوحدة تدريجية أو اتحاد أو فيدرالية أو حتى كونفدرالية. ولكن انتهى الأمر بقرار للقيادة فى عدن بالذهاب إلى آخر الشوط: أى الوحدة الاندماجية والفورية، التى اعتبرها بعضهم بعد اتمام الوحدة فى مايو ١٩٩٠ بأربع سنوات، وتحديداً فى عام ١٩٩٤ أنها كانت أشبه بـ«الضم» وليس الوحدة، ومثلما شبه القادة فى صنعاء حدث الوحدة فى عام ١٩٩٠ بالوحدة الألمانية التى تمت فى نفس العام من جهة إعادة توحيد شطرى الوطن الواحد المجزأ، فإن قادة الاشتراكى عادوا بعد أربع سنوات من الوحدة مع الشمال يشبهون الوحدة اليمنية بالوحدة الألمانية من حيث أنها كانت فعل ضم من الشمال للجنوب تماماً كما فعلت ألمانيا الاتحادية (الغربية) حينذاك نحو ألمانيا الديمقراطية (الشرقية) التى اعتبرت طرفًا مهزومًا فى حرب لم تتم، وهى الحرب الباردة. ولم يكن هذا الكلام دقيقاً أو منصفاً على إطلاقه، حيث فى حالة اليمن تم تقسيم مسبق للمناصب فحصل الشمال على رئاسة الدولة والبرلمان، وحصل الجنوب على منصبى نائب الرئيس ورئيس الحكومة، بينما بقى الجيش مجزأً حتى حرب الانفصال عام ١٩٩٤.

وهكذا، كما رأينا وعرضنا وحللنا فى هذا المقال، أشرقت وغابت أول تجربة لدولة عربية حكمتها الأيديولوجية الماركسية اللينينية، وآخر تجربة حتى الآن، فى فترة زمنية قصيرة للغاية فى حسابات التاريخ والأمم والشعوب، أقل من ثلاث وعشرين عاماً هى الفترة التى استغرقتها تلك التجربة منذ استقلال جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية فى نوفمبر ١٩٦٧ وحتى الوحدة الاندماجية بينها وبين الجمهورية العربية اليمنية فى دولة واحدة هى الجمهورية اليمنية فى مايو ١٩٩٠. ولكن لا يمكن إنكار أن هناك الكثير الذى يمكن أن يقال حول تجربة اليمن الجنوبى القصيرة زمنياً وشديدة الثراء والتنوع بأحداثها التى تخللتها لقطات دراماتيكية لصراعات السلطة الدموية والمتجددة من محطة إلى أخرى، وحسابات المحاور الإقليمية والدولية التى كان لها غالباً طابعاً أيديولوجياً، ولكنها لم تخل من اعتبارات جيو استراتيجية وسياسية وأحياناً اقتصادياً، والسعى لإنجاز تحولات مجتمعية واقتصادية ثبت محدودية ما أنجزته على أرض الواقع فى نهاية الأمر. وأخيراً، فإن للتجربة اليمنية الجنوبية خصوصيتها نظراً لارتباطها العضوى بقضية الوحدة، يمنياً فى الأساس، ولكن أيضاً عربياً بسبب جذور الجبهة القومية فى عدن فى حركة القوميين العرب، وأممياً بسبب الأيديولوجية الماركسية اللينينية الحاكمة لحكام الجنوب، سواء فى عهد الجبهة القومية أو الحزب الاشتراكى. وتداخلت تطورات تجربة اليمن الديمقراطية الشعبية وتفاعلت مع وتأثرت بتطور عالمى تاريخى، ألا وهو تحرك القوة العظمى الثانية فى ذلك الوقت، الاتحاد السوفيتى السابق، نحو نهايتها: انهيار الماركسية اللينينية فى «وطنها الأم» وما اتبع ذلك من تفكك الاتحاد السوفيتى السابق. ■



للتجـــربة اليمنيــة الجنــوبيــة خصــوصيتهــا نظـراً لارتبـاطهـا العضـوى بقضيـة الوحـدة، يمنيـــــاً فـى الأســـــاس، ولكــن أيضــاً عربيــاً



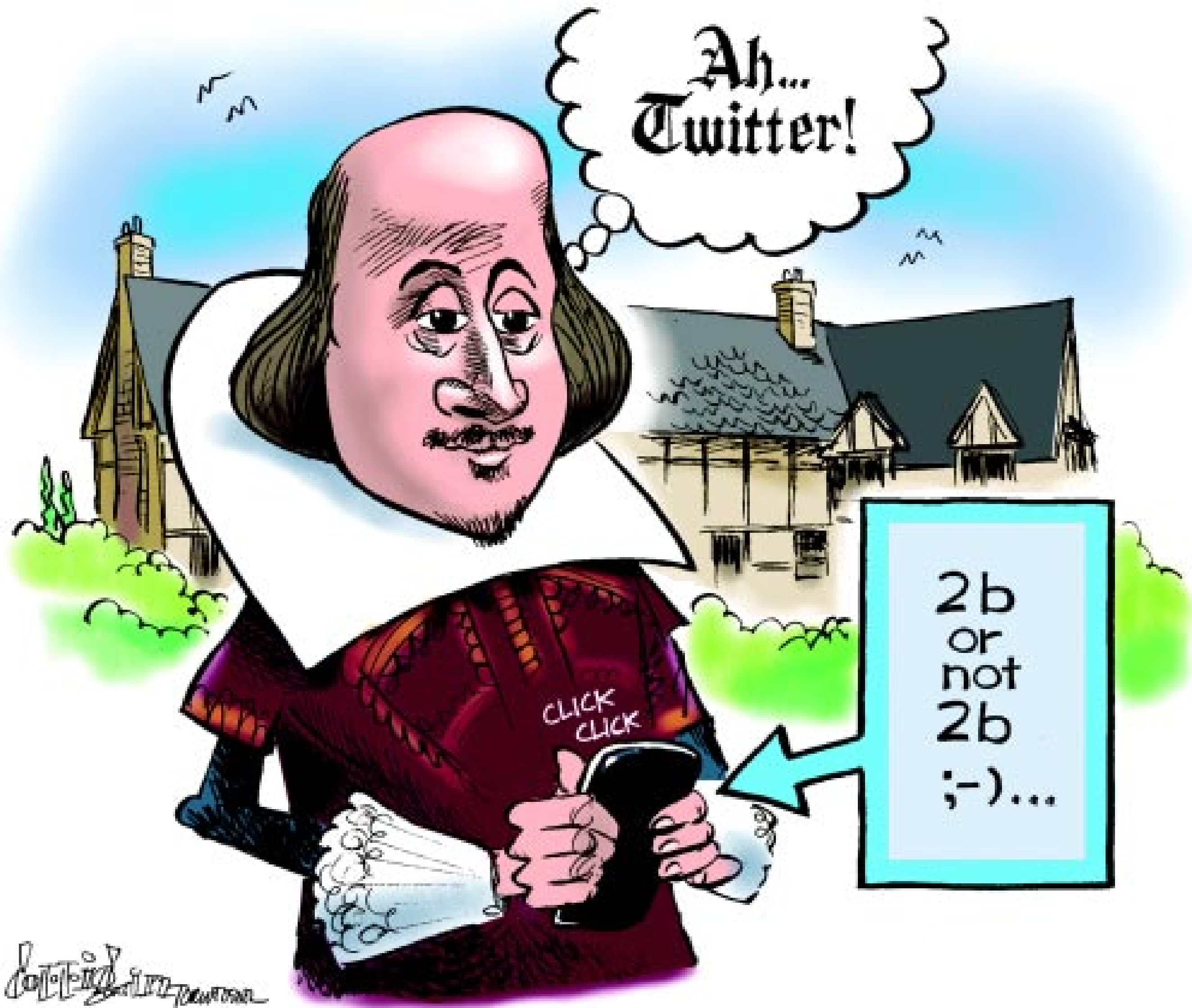
كاتب هذا المقال عمل مديرا للنشر فى Random House لمدة أربعين عاما كاملة، كما أنه أحد الذين أنشأوا المطبوعة الأكثر احتراما فى عالم الكتب The Newyork Review of Books قبل أن ينشئ عام ١٩٧٩ مع Edmund Wilson مؤسسة Library of America وهى مؤسسة غير ربحية تستهدف تسويق الكلاسيكيات الأمريكية (تطبع ٢٥٠ ألف جزء فى العام) وفضلا عن أنه الفائز بأول «جائزة قومية للكتاب» فى الولايات المتحدة الأمريكية. تعتبر كتبه المتخصصة فى النشر من أكثر الكتب أهمية فى موضوعها.

جيسون أبشتاين، يهتم الآن بالثورة الجديدة فى عالم النشر، فأنشأ مع آخرين On Demand Books وهى الشركة المنتجة لماكينة طبع الكتب عند الحاجة The Espresso Book Machin، والتى ينظر إليها الكثيرون على أنها انقلاب في عالم النشر.

أبشتاين، الناشر ذو الرؤية المستقبلية، هو كاتب هذا المقال.

المحــــرر

نهـــــايـــة الـنـاشـــــر



فى هذا العالم، يمكن لأى شخص أن يدعى أنه «ناشر»، كما يمكن لأىٍ كان أن يسمى نفسه «كاتبًا» أومؤلفا



■■ تمر صناعة نشر الكتب حاليا بمرحلة انتقالية لا رجعة فيها، حيث تحولت الكتب من مجرد سلع مادية مخزونة فى المستودعات يتم نقلها إلى تجار التجزئة بالشاحنات، إلى ملفات رقمية مخزونة فى الفضاء الإلكترونى يتم تسليمها إلى أى مكان على وجه الأرض تقريبًا، بسرعة وبتكاليف زهيدة عن طريق البريد الإلكترونى. هذا التحول التاريخى سوف يكون تحولاً جذريا فى عملية نشر الكتب فى جميع أنحاء العالم، وأيضاً فى الثقافات المتأثرة بها والتى تعتمد عليها. فى نفس الوقت، ولأسباب مختلفة تماماً، نجد أن العمل المتميز والراقى فى مجال الكتب، الذى انخرطتُ فيه منذ أكثر من نصف قرن،أصبح بالفعل على حافة الهاوية، فهو يعانى من إدمان شديد للمقامرة خطوط عريضة ومبهمة، بما سيكون للرقمنة (digitization) من تأثير كبير على مستقبلنا. فلا عجب إذن والأرض تهتز من تحت أقدامهم، أن يؤخر الناشرون قدمًا فى الماضى المنهار ويقدمون الأخرى بحثًا عن أرض صلبة فى مستقبل متلبس، مترددين فى اغتنام الفرصة التى توفرها لهم الرقمنة لاستعادة وتطوير وترويج قوائم عرض كتبهم إلى السوق اللامركزية فى جميع أنحاء العالم. وعلى الرغم من أن التكنولوجيات الجديدة لا تنتظر تصريحًا من أحد فإنها، على حد تعبير «شومبيتر» تخريبية وغير قابلة للنقاش مثلها مثل الزلازل.

التكنولوجيا التى قدمها لنا غوتنبرغ كانت شرطًا ضروريا لانبعاث العالم الغربى من جديد، كما لو أن محو عنهم بسببه. كتب كارل ماركس فى بيانه الشيوعى عام ١٨٤٨،عن الثورات أن كل ما هو صلب يذوب فى الهواء. لقد كانت رؤيته عن جنة العمال بطبيعة الحال خاطئة بنسبة ١٨٠ درجة، فما هى إلا انتصار للأمنيات على التجربة، فما قد ذاب سرعان ما تجمد وترسخ كالرأسمالية الصناعية التى تعتبر جنة البعض على حساب الكثيرين. غير أن هذا التشبيه القوى لماركس يلائم صناعة النشر فى وقتنا الحالى، حيث إن الكثافة الرأسمالية لبنيتها التحتية - المطابع، والمستودعات المكدسة بالمخزون السلعى المرتجع، وسوق التجزئة المقيد بكلفة العقارات - تواجه انحلالاً داخل السحابة الضخمة التى ستحمل بداخلها كل كتب العالم تدريجيا على هيئة ملفات رقمية ليتم تحميلها على مؤلفا. فى هذا العالم ستذوب الفلاتر التقليدية فى الهواء، ولن يبقى فى النهاية إلا فلتر أخير - عجز الإنسان عن قراءة ما هو غير قابل للقراءة- لغربلة ما يستحق الإبقاء عليه فى سوق افتراضية حيث يتشارك عندليب «كيتس» نفس الفضاء الإلكترونى مع هايكو العمة مارى.

إن محتويات مكتبات العالم التى سنتمكن أخيرا من الوصول إليها فى أى مكان عمليا بضغطة من «الماوس» لن تكون نعمة خالصة. فضغطة أخرى قد تطمس وتمحو نفس هذه المحتويات وتصل بالحضارة إلى نهايتها: وهى إحدى الحجج القوية، إن كنا فى حاجة إلى واحدة، التى تدعم الكتاب المادى الملموس فى العصر الرقمى.

وفى خضم الفوضى الأدبية

...الذى نعرف!

بالكتب الموسمية الأكثر مبيعًا المحفوفة بالمخاطر والتى لا تغطى تكلفتها فى الكثير من الحالات، ويتزامن هذا مع تدهور قائمة عرض الكتب المطبوعة (backlist) التى كانت تعتبر دخلاً سنويا أساسيا يعتمد عليه الناشرون فى الأيام الخوالى ويضمن لهم الاستقرار من السنة إلى السنة فى السراء والضراء. أزمة الثقة التى تعكس هذه الصدمات المتقاطعة تحدث بسبب الأسواق المتخصصة التى يسيطر عليها تحول تكنولوجى عالى الخطورة، سريع الزوال،وأكبر حجمًا من ذاك التحول التاريخى المهم من غرف نسخ المخطوطات الكنسية فى أديرة العصور الوسطى إلى الطباعة بالحروف المعدنية المنفصلة أو المتحركة التى اخترعها غوتنبرغ فى مدينة (ماينز) الألمانية منذ ستة قرون.

وبرغم أن اختراع غوتنبرغ مهد لعالمنا الحديث بكل عجائبه ومحنه، فإن أحداً لم يتنبأ، ولا حتى غوتنبرغ نفسه، بأن تكون لآلته الطابعة هذا التأثير. كما لا يمكن لأحد أن يتنبأ اليوم، إلا فى الأمية، والأسلوب العلمى،والحكومة الدستورية، كانوا جميعا بشكل ضمنى،فى انتظار غوتنبرغ، ليقوم بعمل هذا التحول السريع. وفى غضون خمسين عاماً انتقلت عملية تشغيل المطابع من حدود أوروبا إلى مناطق أخرى، ولم تتوقف إلا عند حدود الدول الإسلامية التى كانت تتجنب آلة الطباعة. وربما لنفس سبب خوف الدول الإسلامية من خطر محو الأمية الذى قد يخل بالنظام، تجاهلت الصين الكتابة الصوتية (phonetics transcription)، التى تسمح باستخدام آلة الطباعة، للكلمات التصويرية الرمزية (ideographs)، المنسوبة إلى الإمبراطور الكورى.

ومقاومة الناشرين للمستقبل الرقمى المنطلق بأقصى سرعة، ليس مصدره الخوف من خطر محو الأمية وإنما مصدره هو خوفهم من الزوال ومن صعوبة التحول الرقمى المعقد الذى ينتظرهم،وهو الشىء الذى ليس له أهمية كبيرة بالنسبة لبنيتهم الأساسية التقليدية بل وربما سيتم الاستغناء الفور عنوانًا تلو الآخر حيثما وجد اتصال فى أى مكان على وجه الأرض،وسيتم طبعها وتغليفها على الفور فى مناطق البيع بناء على الطلب بواسطة ماكينة كتب الاسبرسو كنسخة ذات غلاف ورقى (paperback)، أو سيتم نقلها إلى أجهزة القراءة الإلكترونية بما فى ذلك أجهزة (Kindle) و(Sony Reader)، وما تبعهما من أجهزة متعددة الاستعمال، من بينها جهاز (iPad) أحدث أجهزة شركة (Apple) فى الآونة الأخيرة. قدرة هذه التكنولوجيا غير المسبوقة على تقديم هذه الخيارات اللانهائية من عناوين الكتب للسوق الجديد الشاسع متعدد اللغات سوف تحل محل نظام غوتنبرغ مع أو من دون تعاون المسئولين التنفيذيين الحاليين.



الرقمنة ستتيح لنا عالمًا يمكن فيه لأى شخص أن يدعى أنه ناشر، كما يمكن لأى كان- ذكرا أم أنثى- أن يسمى نفسه

للمستقبل الرقمى، سوف يسترشد القراء بأسماء الناشرين المشهورين والمتميزين فى مختلف أنحاء العالم من خلال دليل متعدد اللغات، وهى الوظيفة التى يبدو أن محرك البحث جوجل يستعد للهيمنة عليها بالتعاون مع كبرى المكتبات الوطنية والجامعية ومصنفى المؤلفات والفهارس المهرة، ووفقا لمعايير حقوق النشر والتأليف العالمية تماشيا مع شبكة الإنترنت الدولية (World Wide Web). كما سيتم نشر عناوين الكتب على المواقع الخاصة بالمؤلفين والناشرين وعلى المواقع الموثوق منها والتى تحظى باهتمام خاص حيث يقوم النقاد المتخصصون بتقييم سيرة حياة نابليون أو كتيبات تدريب الكلاب وتحميلها من الناشر أو المؤلف مباشرة إلى المستخدم بينما تقوم البرمجيات بتحديد سعر الشراء المناسب، متجاوزين بذلك للصيغ التقليدية. وبعد إضافة سعر المنتج وسعر الشحن واستبعاد استرجاع المنتج، سنجد القراء يدفعون مبالغ أقل، والمؤلفين يربحون مبالغ أكثر، وسيتمكن ناشرو الكتب من البقاء بل وربما يزدهرون، بغض النظر عن بنيتهم الأساسية الزائدة على الحاجة.

هذا المستقبل هو استنتاج يمكن التنبؤ به من تطور الرقمنة فى المرحلة الراهنة فى الولايات المتحدة الأمريكية، حيث يناقش



جيسون أبشتاين
Jason Epstein

بترتيب خاص مع
The New York Review of Books

ترجمة: وسام رجب

أنصار النتائج المتعددة تفاصيل الرقمنة على نطاق واسع فى المدونات، بما فى ذلك الخيال الطوباوى بأن المحتوى الرقمى فى المستقبل سيتوفر مجانا ولن يجد المؤلفون لقمة العيش.

كما ستشجع الرقمنة التباين غير المسبوق للمحتويات المتخصصة والجديدة فى العديد من اللغات، وسوف يقوم الناشرون غير المتخصصين فى الوقت الحالى بإحياء بنيتهم الأساسية التقليدية الزائدة على الحاجة كلما ازدادت قدرتهم على التكيف مع المعطيات الحالية، غير أن الرقمنة قد بدأت بالفعل فى إنتاج ناشرين متخصصين يحتلون العديد من الأماكن فى السوق المتخصصة «سوق النيتش- Niche» التى يعمل بها مجموعات صغيرة من المحررين المتماثلين فى الآراء ووجهات النظر، رغم أنهم ربما لا يتشاركون نفس المكتب أو حتى نفس البلد، بقدر ما هى لامركزية شركات البرمجيات مع الموظفين فى ولاية كاليفورنيا الذين يتعاونون مع زملائهم فى برشلونة وبنغالور على الإنترنت.

لكن صعوبة العمل الانفرادى للإبداع الأدبى تتطلب موهبة فردية ونادرة، فأدب الخيال لا يتطلب تقريبا أى شكل تعاونى على الإطلاق. والشبكات الاجتماعية على الإنترنت يمكن أن تعرض للقراء هذا أو ذاك الكتاب لكنها تنتهك العزلة المطلوبة لخلق عوالم مصطنعة بها أناس حقيقيون. فعمل الكاتب وهو فى طور التنفيذ يكون على درجة عالية من الخصوصية إلى أن يصبح جاهزا للعرض على صديق موثوق به أو على المحرر. ديكنز وميلفيل كانا يكتبان فى عزلة تامة مستخدمين الورق والأقلام، وكذلك كان يفعل مئات من الكتاب الذين عملت معهم على مدى سنوات عديدة، باستثناء أنهم كانوا يستخدمون الآلات الكاتبة وأجهزة الكمبيوتر.

فى ثقافات ما قبل تعلم الكتابة، كانت الملاحم الكبرى بالضرورة هى إبداعات شعبية محفوظة عن ظهر قلب فى الذاكرة الجماعية ترتل وتنشد تحت إشراف كهنوتى على مدى أجيال. ومع اختراع الأبجدية، لم يعد يعتمد الكتاب على الذاكرة الجماعية، بل كانوا يدونون أعمالهم على حجر، أو بردية، أو على الورق.وفى العصر الحديث أصبحت المشاريع الجماعية تقتصر فى الأساس على الأعمال المرجعية المعقدة، والتى تعد «الويكيبيديا- Wikipedia» أحد أمثالها. وعلى الرغم من أن الشبكات الاجتماعية على الإنترنت لن تنتج ديكنز أو ميلفيل آخر، فإن الإنترنت يعد بالفعل مصدرا قويا للكتاب، فهو يزودنا بمجموعة كبيرة ومتنوعة من المواد المرجعية المستحدثة، والمعاجم، والصحف، و ذلك متاح بشكل فورى ومريح فى كل مكان سواء برسوم اشتراك أو مجانا من خلال محرك البحث جوجل أو الويكيبيديا .فمعظم المواد المرجعية الحساسة والتى تستغرق وقتا لن تحتاج إلى طبعها وتغليفها مرة أخرى.

كما أن الكتابات النقدية عالية الجودة، الغنية بمعلومات عن مواضيع



من غير الممكن فى هذه المرحلة المبكرة استباق المشهد الجديد للنشر بالتفصيل أو تحديد معدل التطور، الذى سيكون معقدا ومتشتتا



عامة، ستكون نادرة وضرورية أكثر من أى وقت مضى، وسوف يتم الإبقاء عليها كما كانت دائما فى شكل مطبوع وعلى الإنترنت من أجل القراء المتميزين. وستظهر أعمال عبقرية وفذة من بعض مناطق العالم التى كانت تتسلل إليها الكتب بالكاد من قبل، تماما كالأعمال التى ظهرت فجأة بعد غوتنبرغ من كل أركان أوروبا الصامتة والمظلمة.على أن مطبعة غوتنبرغ لم تمنح أوروبا، مع ضيق حدودها الثقافية، لغة مشتركة.لكن قد تسفر عن الرقمنة نتائج مختلفة نوعا ما فى كل أنحاء العالم من خلال عرض النصوص العلمية والأدبية الجوهرية باللغات الرئيسية، حيث سيجد المترجمون الكثير من العمل.

تكلفة الدخول للناشرين فى المستقبل ستكون تكلفة ضئيلة للغاية، ولا تتطلب سوى متابعة الفريق المختص بالتحرير، وخدمات الدعم الفورى ولكن بدون نفقات مرافق وتسهيلات التسويق التقليدية، ونفقات الإدارة متعددة المستويات. وبالفعل يعتمد الناشرون الصغار على الخدمات الخارجية حسب الحاجة مثل إدارة الأعمال،والشئون القانونية، والمحاسبة، والتصميم، والتصحيح، والدعاية، وما إلى ذلك، بينما سيقوم الإنترنت بتزويدهم بالفرص الدعائية الفيروسية والتى يعتبر «الفيس بوك - face book» و«اليوتيوب- you tube» من أهم الرواد المتقدمين فى هذا المجال.كما يمكن أن يحصل المؤلفون على تمويلات مقدمة سلفا من مستثمرين خارجيين يأملون فى الحصول على أرباح، كما يحدث بالنسبة للأفلام والمسرحيات. هذا الانتقال من الإدارة المركزية المعقدة إلى وحدات شبه مستقلة مختصة بالتحرير تتضح بالفعل داخل تكتلات مثل: الناشر نان.أ تالس (Nan A Talese) فى راندوم هاوس (Random House) والناشر جونثان كارب (Jonathan Karp) فى هاشيت (Hachette)، وهو الاتجاه الذى سيتعزز ويقوى بينما تتلاشى الشركات الأم.ولأن هذه التكتلات تقاوم المطالب الباهظة لمؤلفى الكتب الأكثر مبيعا والذين من المتوقع أن تتصدر كتبهم قوائم الكتب الأكثر مبيعا، لذا سوف يقوم هؤلاء الكتاب، بمساعدة وكلائهم ومديرى أعمالهم، بالنشر لأنفسهم مع الاحتفاظ بصافى الأرباح من مبيعات الكتب الرقمية والتقليدية على حد سواء. وباستخدام آلة كتب الاسبرسو، قد يصبح التجار المغامرون الذين يعملون فى مجال بيع الكتب بالتجزئة ناشرين، على غرار ما حدث مع أسلافهم فى القرن الثامن عشر.



كما أن الحقوق الإقليمية التقليدية سوف تصبح زائدة على الحاجة، وعلى نطاق عالمى، بينما ستصبح اتفاقية حقوق النشر والتأليف الموحدة هى الأساسية. وستظل مشكلة حماية المحتوى من عملية التبادل غير المصرح بها للملفات، مشكلة مزعجة تثير العديد من التساؤلات الخطيرة حول جدوى التأليف، لأنه بدون حماية سيتضور المؤلفون جوعا وستنحدر المدنية، وهى أحد التوقعات المعترف بها فى دستور الولايات المتحدة الأمريكية، الذى يطالب بحقوق النشر والتأليف للحفاظ على الكتاب ليس على سبيل الإنصاف فى المقام الأول ولكن من أجل الصالح العام وتنوير الجمهور.

بعض الموسيقيين يقومون بتعويض العائدات المفقودة من خلال تقديم الحفلات، أو بيع التيشيرتات، أو من خلال الحملات الإعلانية المصاحبة. أما بالنسبة للكتاب فلا يوجد حل مماثل.والتحسينات التى تتم حاليا على برامج إدارة الحقوق الرقمية، والتى صممت بهدف منع تبادل الملفات، سوف تظل فى سباق مستمر مع هؤلاء الذين يقومون بعملية تبادل الملفات للتهرب من الدفع لأنفسهم ولأصدقائهم، ويحدث هذا غالبا بسبب اعتقاد أحمق بأن «المحتوى لابد أن يكون مجانا» - تماما مثلما يحدث مع البرامج المضادة للفيروسات فى سباقها المستمر مع القراصنة. مشكلة التبادل غير المصرح بها للملفات لن تكون مشكلة خطيرة من وجهة نظرى، ربما عند هذا الحد حيث المكتبات والقراء دائما ما يتبادلون الكتب مع الآخرين.

سوف تظهر هذه الحلول وغيرها بشكل انتهازى عند الضرورة، كما هى حال الحلول عادةً.لكن من غير الممكن فى هذه المرحلة المبكرة استباق المشهد الجديد للنشر بالتفصيل أو تحديد معدل التطور، الذى سيكون معقدا ومتشتتا، أو أن نتوقع الدور المستقبلى للناشرين التقليديين فى حين أن الرقمنة تحتل الصدارة بشكل غير منتظم ومتنوع، بينما يقوم الناشرون والقراء والكتاب بالتكيف تبعا لذلك.بالتالى لن يظهر التوقيت بوضوح إلا بأثر رجعى.

لقد حاولت حتى الآن أن أتنبأ بالمستقبل الرقمى بأسلوب نفعى. لكن هناك أيضا البعد الأخلاقى،حيث إننا من المخلوقات المزعجة التى لها تاريخ طويل من التدمير الذاتى. فهذه الصناعة التى بدأها غوتنبرغ تمكنت فى نهاية المطاف من نشر أعمال مونتين وشكسبيروسيرفانتس على نطاق واسع، ناهيك عن كتب الأطفال مثل الفيل بابار للكاتب الفرنسى (جان دى برونوف) والقطة فى القبعة لدكتور(سيوس).لكن تكنولوجيا غوتنبرغ أيضا قدمت لنا بروتوكولات حكماء صهيون، وكفاحى (لهتلر)،والهراء الذى حول بول بوت فى باريس من مجرد شخص معتوه إلى قاتل

على الرغم من أن التكنولوجيات الجديدة لا تنتظر تصريحًا من أحد فإنها، على حد تعبير «شومبيتر» تخريبية وغير قابلة للنقاش مثلها مثل الزلازل



يقوم بعمليات إبادة جماعية. الرقمنة أيضا سوف تبرز أفضل ما فى طبيعتنا، ولكنها بالمثل سوف تخرج نقيضها الشيطانى.والرقابة ليست هى الحل لهذه الشرور.

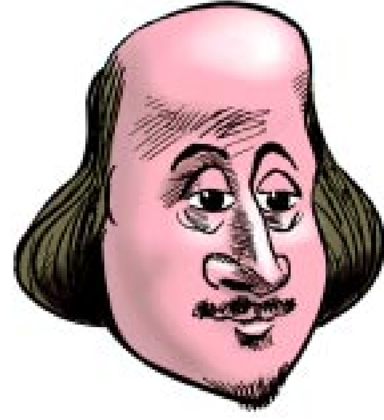
المحتوى الرقمى لا يزال هشا.لذلك من الضرورى الاحتفاظ بالكتب المادية المطبوعة آمنة بعيدا عن المتطفلين والنشالين الإلكترونيين والمخاطر الناجمة عن التخزين الإلكترونى. فعملية الحذف التعسفى التى قام بها موقع «أمازون– Amazon» لرواية جورج أورويل(١٩٨٤) مؤخراً، بناء على طلب الناشر،من مستخدمى «كيندل – Kindle» الذين كانوا قد قاموا بتحميل الرواية بالفعل، تشير إلى أن السهولة التى يمكن بها حذف الملفات دون إنذار أو إذن مسبق، تعد من مخاطر النشر والتوزيع الإلكترونى التى لا مفر منها.وفى الدنمارك تقوم ملفات الموسيقى التى يتم تحميلها برسوم اشتراك بتدمير ذاتها تلقائيا عندما تنتهى صلاحية الاشتراك. تماما كما يحدث لاشتراكى السنوى فى قاموس اكسفورد للغة الإنجليزية على الإنترنت إن لم أقم بتجديده.وغيرها الكثير من المواد المرجعية التى عادة ما تكون حساسة وتستغرق وقتا، ولهذا السبب لن تحتاج أبدا للطباعة أو التغليف لأنها تباع بالفعل عن طريق رسوم اشتراك قابلة للتجديد. ولو كنت ناشرا فى الوقت الحالى لكنت أخذت فى اعتبارى نموذج الاستئجار القابل للتجديد لتحميل الكتب الإلكترونية – حيث «مكتبة الإعارة» تقنية عصر الكساد الاقتصادى–التى تعكس، بصورة أكثر دقة، العلاقة الشرطية بين من يقومون بتوفير المحتوى والمستخدم الفعلى،وهى العلاقة التى تفرضها برامج إدارة الحقوق الرقمية.

وأود أن أضيف بضع كلمات عن تطور وتقييم اهتمامى الخاص بالرقمنة.فى بداية مسيرتى العملية كنت مصابا بهاجس التوزيع والمحافظة على قائمة عرض الكتب(backlist) – والمقصود بها الكتب المنشورة سابقا ولا تزال فى الطباعة، والتى تشكل عنصرا لا غنى عنه لاستقرار الناشر، والتى تعتبر فى مجملها مستودعا للحضارات. وبهذا المفهوم، من الإنصاف أن نقول عن نشر الكتب إنه أكثر من مجرد عمل. فبدون محتويات مكتباتنا –قوائم عرض كتبنا المشتركة، وذاكرتنا الثقافية – ستنهار حضارتنا.

فبحلول منتصف الثمانينيات كنت قد صرت مدركا للتآكل الخطير الذى أصاب قوائم عرض كتب الناشرين وكأنها أسراب تتحرك بالبطء باستثناء بعض عناوين الكتب الحيوية التى كانت تتناقص كل شهر. وهناك سببان لذلك، تغيير قانون الضرائب الذى لم يعد يسمح بإدراج المخزون الموجود من السلع غير المباعة كمصروفات، ولكن الأهم من ذلك، هو الاختفاء، حيث هجر الأمريكان المئات من المكتبات المقامة فى المدن والمستقلة والمجهزة تجهيزا جديا، واستعاضوا عنها بسلسلة متاجر فى مراكز التسوق بالضواحى التى تقوم بدفع نفس الإيجار الذى يدفعه متجر الأحذية المجاور لنفس المساحة المحدودة، وتتطلب نفس سرعة دورة رأس المال.

هذا الانتقال الديموغرافى قلب مجال العمل فى الكتب رأسا على عقب، حيث تجار التجزئة، غير القادرين على الاحتفاظ بمخزون من قوائم عرض الكتب الأصيلة والعميقة، يطالبون الآن بارتفاع معدل دوران رأس المال،وكثيرا ما يطلبون عناوين كتب سريعة الزوال.والمؤلفون أصحاب الكتب الأكثر مبيعا الذين كانوا يدينون بالولاء لناشريهم فيما سبق كعرف متبع فيما بينهم،أصبحوا الآن رقائق (فيش)فى كازينوهات القمار: إنها هبة – أو (بون)– مضمونة و غير قابلة للاسترداد بالنسبة للمؤلفين ووكلائهم، وكابوسا بالنسبة للناشرين الذين يتحملون المجازفة كاملة ويكونون محظوظين لو حققوا توازنًا وخرجوا دون خسارة. فى ذات الوقت نجد قائمة عرض الكتب فى انحدار مستمر. ودور النشر الصغيرة غير القادرة على تحمل مثل هذه المخاطر اندمجت مع دور النشر الأكبر،ودور النشر الأكبر سقطت فى أحضان التكتلات الحالية.

فى منتصف الثمانينيات قمت بنشر كتالوج القارئ لتعويض الانحدار فى قائمة عرض الكتب، وهو عبارة عن مكتبة مستقلة فى شكل كتالوج يمكن للقارئ من خلاله أن يطلب ٤٠.٠٠٠ عنوان من عناوين قائمة عرض الكتب عن طريق الهاتف. كان الإنترنت موجودا لكنه لم يكن قد تم استغلاله بعد فى الكسب التجارى.ولقد حقق كتالوج القارئ نجاحا فوريا مما يؤكد إيمانى بإنشاء سوق عالمية قوية لكتب قائمة العرض. لكننى لم أقدر تكلفة التعامل مع الطلبات الفردية حق قدرها، ووصلت،مع الممولين، إلى نتيجة مؤداها أن خسائرنا ستصبح فادحة إذا واصلنا. الآن أصبح الإنترنت متاحا من الناحية التجارية، وقد استغله «أمازون – Amazon» بكل شجاعة، وكان يعانى فى البداية من الخسائر التى كنت أخشاها.لكننى الآن قد بدأت أسمع عن الرقمنة ووسطائها، مما يعنى أنه يمكن للناشرين الآن أن يتطلعوا إلى تسويق عدد لا محدود من قوائم عرض الكتب عمليا دون الحاجة إلى وجود سلع مادية، أو مصاريف شحن،أو استعادة نسخ الكتب غير المباعة.كما أن الزبائن سيدفعون ثمن مشترياتهم مقدما.مما يعنى أن السلع الإلكترونية فى النهاية ستتجاوز تسهيلات الشحن الآلى التى يقوم بها



موقع أمازون. كان هذا منذ خمسة وعشرين عاما. واليوم تستبدل الرقمنة بالنشر المادى أكثر مما كنت أتخيل.

الأجهزة متعددة الاستعمال المزودة بتطبيقات القراءة والتى تعتبر غير مكلفة نسبيا، سوف تنتشر فى سوق الكتب الإلكترونية، وقد تشجع على ظهور أشكال أدبية جديدة، مثل روايات الموبايل اليابانية.فغالبا ما تشجع الثورات الوليدة على الخيالات الطوباوية إلى أن تؤكد مقتضيات الطبيعة الإنسانية نفسها. فبرغم أن المدونين كان لهم السبق فى تقديم مجموعة من المشاريع الجمعية والشعبية المتنوعة، وتقديم أنواع جديدة من التعبير، فإن الشكل الأدبى كان محافظا بطريقة ملحوظة عبر تاريخه الطويل، لأن فعل القراءة يمقت كل ما يمكن أن يلهى عنه، فالتعزيزات التى من هذا النوع الموجودة على شبكة الإنترنت – الفرق الموسيقية وأفلام الرسوم المتحركة (الأنيميشين)، والتعليقات النقدية،وغيرها من البيانات الوصفية أو الميتاداتا– تنبأ بها بعض أنبياء العصر الرقمى باعتبارها هامشاً للأشخاص الذين يوفرون لنا المحتوى.

أكثر هذه الأوهام تطرفا هى، تلك التى تفترض أن محتويات السحابة الرقمية سوف تندمج أو اندمجت لتشكل كتاباً واحداً، شاملاً،فرديا، جمعيا، مستقل الذكاء، أو لتشكل العقل الجماعى الذى يقوم باستنساخ التآزر الذى يحدث عفويا داخل العقول الفردية إلكترونيا وعلى نطاق عالمى.صحيح أن ازدراء الفرضيات الجريئة الجديدة– مثل أن الأرض كروية وتدور حول الشمس– دائما ما يكون خطيرا،لكن الخطر فى الموضع الذى نتحدث بشأنه هنا هو خطر هين.فالعدمية– الاحتقار العشوائى للنصوص– المتضمنة فى هذا الوهم القبيح هى بلا شك مزعجة وتدل على الإفقار الثقافى، كما أنها كريهة أكثر من افتراضات المغالين بشأن الكتب الإلكترونية الذين يفترضون أن المؤلفين الذين يقضون شهورا وسنوات فى الكتابة لن يطالبوا بنسخة مادية ليحتفظوا بها كدليل على كدهم وأملهم فى أجيال المستقبل.

وعلى أية حال، السوق العالمية للمحتوى الرقمى ليست ضربا من الخيال. فلسوف تكون ضخماً جداً ومتنوعاً جداً ومدهشاً جدا؛ولا يمكن تصور تأثيره الثقافى. وستصبح الكتب الإلكترونية عاملا مهماً فى هذا المستقبل الغامض، لكن الكتب المطبوعة والمغلفة ستظل المخزون الذى لا غنى عنه لحكمتنا الجماعية.

لابد أن أعلن انحيازى. فغرفى مكدسة بالكتب من الأرض إلى السقف، لدرجة أنه صار لابد لى أن أفكر مرتين فى المكان الذى يمكن أن أضع فيه كتابا آخر.فلو أن كل هذه الكتب قد تبخرت فى الهواء،لأى سبب أو حادث ما لا يمكن تخيله،تاركة رفوفى عارية إلا من قائمة تذكارية بالملفات الرقمية المهجورة، فسوف أرغب فى أن أذوب وأتلاشى أنا أيضا، لأن الكتب هى حياتى. وأقول هذا حتى يتسنى لكم معرفة الانحياز الذى أحتفى من خلاله بالرقمنة الحتمية بوصفها قوة لا يمكن تخيلها،ولكن هشة بلا حدود، تعزز محو الأمية الذى نعتمد عليه جميعا فى كل أنحاء العالم، سواء كنا من القراء أم غير القراء. ■

جــــــــاري كســــــباروف
Garry Kasparov

■■ فى هامبورج عام ١٩٨٥ كنت قد لعبت الشطرنج ضد ٣٢ جهاز كمبيوتر فى نفس الوقت، فيما سُمى بالعرض المتزامن. وأثناء اللعب كنت أتنقل من آلة إلى أخرى

Chess Metaphors: Artificial Intelligence and the Human Mind
مجازات الشطرنج: الذكاء الصناعى والعقل البشرى
Diego Rasskin-Gutman, translated from the Spanish by Deborah Klosky
MIT Press, 250pp, $24.95 (no date mentioned)

بترتيب خاص مع :
The New York Review of Books

ترجمة: أشرف عمر

لأكثر من خمس ساعات. كان أكبر أربعة صناع للكمبيوتر قد أرسلوا أفضل نماذج لديهم من الأجهزة، ثمانية من تلك النماذج سُميت باسمى فى شركة سايتك للإلكترونيات.

ذلك يوضح الحالة التى كانت عليها أجهزة الشطرنج فى ذلك الوقت حيث إنها لم تكن مفاجأة على الإطلاق عندما فزت فى كل الأدوار بنتيجة ٣٢-٠، إلا أنه قد مرت علىّ لحظة لم أشعر فيها بالارتياح. فى لحظة معينة أدركت أننى كنت أنزلق فى مأزق أثناء أحد الأدوار ضد واحد من نماذج كاسباروف. إذا فازت الآلة أو حتى تعادلت، لأسرع الناس بالقول أننى قد تنازلت عن الدور كى أتقرب إلى الشركة، لذلك كان علىّ أن أكثف جهودى. فى النهاية وجدت طريقة لأخدع الآلة من خلال طُعم كان عليها أن ترفضه. ومن المنظور البشرى، أو على الأقل من منظورى الخاص، كانت تلك الأيام هى الأفضل فى المنافسة بين الإنسان والآلة فى الشطرنج.



بعد ١١ عاما استطعت بالكاد أن أفوز فى مباراة شطرنج على جهاز الكمبيوتر الخارق «ديب بلو». وفى ١٩٩٧ ضاعفت شركة أى بى إم محاولاتها وضاعفت القدرات العملية لجهاز ديب بلو ومن ثم خسرت المباراة، فى حدث لفت أنظار العالم. قوبلت النتيجة باندهاش وتعجب من قبل أولئك الذين اعتبروا النتيجة رمزاً لخضوع الإنسان لأجهزة الكمبيوتر القوية (اقرأ العنوان الرئيسى للنيوزويك آنذاك «المقاومة الأخيرة للعقل البشرى»). وآخرون استهجنوا النتيجة وتعجبوا أن الإنسان لازالت لديه القدرة على منافسة القدرة الحسابية الهائلة التى، بحلول ١٩٩٧، أصبحت موجودة على كل مكتب فى العالم الأول.

أما المتخصصون -لاعبو الشطرنج والمبرمجون والمتحمسون للذكاء الصناعى- فقد قدروا النتيجة بشكل أكثر دقة. كان أبطال الشطرنج قد بدأوا يرون المعنى الحقيقى لوجود آلات تلعب بكمال متناهى. بينما كان جمهور أجهزة الشطرنج سعداء بانتصار أحد علوم الكمبيوتر المبكرة وذات القداسة، وفى حالات كثيرة كان ذلك متسقا مع غلو

العقـــــل والآلــــــة..

مع انتشار برامج الكمبيوتر خارقة القوة أصبح من السهل أن يلعب أى صبى فى منزله شطرنج مع خصم قوى بدلاً من الحاجة إلى مدرب محترف



.. سؤال الذكاء الأبدى

الإعلام السائد. يُذكر أن كتاب ديب بلو، الذى كتبه مونتى نيوبورن عام ٢٠٠٣، قام بتعريف الجهاز على أنه.. «حيوى ومميز ونادر يفوق كل الانتصارات العلمية السابقة منذ أول رحلة جوية لأورفيل رايت وحتى هبوط وكالة الفضاء الأمريكية ناسا على سطح القمر...».

كان جمهور الذكاء الإلكترونى أيضاً مسرورين للغاية بالنتيجة وزخمها، لكنهم كانوا مفزوعين من حقيقة أن ديب بلو لم يكن كما تخيله جمهور الشطرنج قبل عقود من الزمن عندما حلموا بابتكار آلة تهزم بطل العالم فى الشطرنج. وبدلا من جهاز كمبيوتر يفكر ويلعب مثل الإنسان، بالإبداع والحدس البشرى، قد تم تطوير برنامج يلعب مثل الآلة بحيث يستطيع بشكل منظم تقدير ٢٠٠ مليون حركة محتملة على لوحة الشطرنج فى الثانية الواحدة، ويستطيع الفوز بأقل عدد من الحركات. وكما وضح إيجور أليكساندر، مهندس الشبكات العصبية والذكاء الصناعى، فى كتابه عام ٢٠٠٠، كيف تصنع عقل، فإنه:

فى منتصف التسعينيات، كان عدد الناس الذين لديهم بعض الخبرة فى استخدام الكمبيوتر أكبر بكثير من منتصف الستينيات. ومع هزيمة كاسباروف أدرك الناس أن هناك انتصارا كبيرا للمبرمجين، ولكن لا يستطيع أحد منهم ممن ينافسون الذكاء البشرى أن يساعدنا فى إرشاد حياتنا.

كان انجازا رائعا، بالطبع، انجاز بشرى من قبل أعضاء فريق شركة أى بى إم. لكن جهاز ديب بلو كان ذكيا فقط بقدر ذكاء ساعة المنبه المبرمجة. وخسارة ساعة منبه بقيمة ١٠ ملايين دولار لا تجعلنى أفضل حالاً.

للأسف تحطمت آمالى فى أن ألعب مباراة أخرى ضد ديب بلو. فقد حظيت شركة أى بى إم بالشهرة التى تريدها وسرعان ما أوقفت المشروع. كما خسرت مشاريع أخرى لتصنيع أجهزة وبرامج الشطرنج الفرصة فى رعاية المشروع.

ومع ذلك كنت أود أن أخوض مباراة أخرى فى ١٩٩٨ إذ كنت جاهزا جيداً لذلك، كان واضحا أن مسألة تفوق الكمبيوتر على الإنسان فى الشطرنج اعتُبرت دوما مسألة وقت. واليوم يمكنك فقط بـ ٥٠ دولارا شراء برنامج كمبيوتر يقهر معظم أبطال الشطرنج. لعبت فى ٢٠٠٣ مباريات جادة ضد اثنين من تلك البرامج المجانية المتاحة على الانترنت، وبالطبع كنت ألعب كل مباراة على حدة، وفى الحالتين كانت المباريات تنتهى إما بالفوز بفارق قطعة واحدة أو التعادل عدة مرات.

ليس دائماً ما يفهم المرء عواقب أن يمتلك بطل شطرنج خارق فى جهاز الكمبيوتر المتنقل الخاص به، خاصة ما يعنيه ذلك بالنسبة للاعب الشطرنج المحترف. هناك عدد من السيناريوهات المرعبة لأولئك الذين فقدوا اهتمامهم بلعبة الشطرنج مع صعود الشطرنج الآلى، بالأخص بعد خسارتى أمام ديب بلو. البعض يجيب عن ذلك ببعض التعميمات حول جدوى المشى بالرغم من أن السيارات أو الدراجات تسير أسرع، هناك تشابه زائف حيث إن السيارات لا تساعد الانسان فى الجرى بشكل أسرع بينما يؤثر الشطرنج الكمبيوتر بلا شك على جودة لعب البشر للشطرنج.

آخرون يفترضون أن اللعبة يمكن حلها، أى أن هناك طريقة مستنتجة رياضيا منذ بدء المباراة لكى يفوز الكمبيوتر (أو ربما إثبات أن مباراة الشطرنج التى تُلعب بالطريقة الأمثل على الإطلاق سوف تنتهى بالتعادل). ربما تستطيع النسخة الأصلية من برنامج هال ٩٠٠٠ أن تعلن أن الدور الذى يبدأ بحركة ١. إي٤ سوف ينتهى بموت الملك لنقل فى ٣٨٤٨٤ حركة. هذه التنبؤات الكئيبة لا تصير حقيقية ولا يمكن أن تكون جائزة. لعبة الشطرنج أكثر تعقيدا بكثير من أن يتم حلها من خلال تكنولوجيا يمكن أن نتصورها اليوم. عدد المواضع المتاحة فى الشطرنج هى ١٠٤٠، أما عدد الألعاب المختلفة المحتملة فهى ١٠١٢٠. حاول المؤلفون بطرق مختلفة أن يحملوا هذا الكم الهائل، عادةً بناء على واحد من المجالات التى تُستخدم لتوظيف تلك الأسُس، وهو مجال علم الفلك. فى كتابه «مجازات الشطرنج»

يشير راسكين جوتمان إلى أن لاعب الشطرنج الذى يفكر فى ٨ حركات قادمة، يكون مطروحاً أمامه عدد كبير من الألعاب مثل عدد النجوم فى المجرة. دلل راسكين جوتمان على التنوع الشديد فى ألعاب الشطرنج عندما قال أنه يوجد عدد كبير من ألعاب الشطرنج يفوق عدد الذرات فى الكون. تلك المقارنات تؤثر فى أى مراقب عادى وتجعله يتساءل: لماذا لا تستطيع الحسابات المعقدة لدى الكمبيوتر المتطور أن تحل لوحة اللعب القديمة هذه. تلك المقارنات مفيدة بالطبع، لكنى لن أجريها بنفسى من أجل الإيحاء بمدى تعقيد لعبة الشطرنج، خاصةً إذا كانت تشكل بطريقة رياضية غير متصلة بالموضوع إلى حد كبير.

ذلك المقياس الفلكى ليس بعيداً تماماً عن مبرمجى الشطرنج. لقد عرفوا جيداً منذ البداية أنه لا يمكن فهم هذه اللعبة -وبالتالى صنع برنامج لا يُهزم- باستخدام القدرات الحالية للكمبيوتر، ولابد من إيجاد طرق مختصرة فعالة. وفى الحقيقة كان أول برنامج للشطرنج تم استخدامه قد صُمم من قبل أخصائى علم الرياضيات، البريطانى الأسطورى ألان تيرنينج فى عام ١٩٥٢، ولم يكن يملك جهاز كمبيوتر !!. لقد أجرى عملياته الحسابية على الورق، و «آلة الورق» هذه قد لعبت الشطرنج بكفاءة.



استطاع راسكين جوتمان أن يغطى هذه المنطقة فى كتاب أنجز هدفه ليكون خلاصة كل الخلاصات. يغطى الفصل الأول من الكتاب تاريخ دراسة وظائف المخ، كما يحث القارئ على استكمال القراءة. سيتذكر القارئ ما درسه فى المدرسة الثانوية حول المحاور والفروع العصبية. ومن خلال هذا الفصل نتعلم كثيرا عن الأنظمة الكولينية والأمينية فى الجهاز العصبى وكثير من الأشياء غير المتوافرة فى الذكاء الصناعى للكمبيوتر. ويستمر الفصل بشكل موجز، إن لم يكن استنتاجيا، فى فحص الذكاء الصناعى، وكمبيوتر الشطرنج، وكيف يلعب الإنسان الشطرنج.

هناك كثير من النتائج غير المقصودة، سواء الإيجابية أو السلبية، فيما يتعلق بالتزايد السريع لبرامج الشطرنج القوية. الأطفال يحبون الكمبيوتر ويعتادون عليه بشكل طبيعى، لذلك فالأمر ليس مفاجأة أنهم يعتادون أيضاً على شطرنج الكمبيوتر. ومع انتشار برامج الكمبيوتر خارقة القوة أصبح من السهل أن يلعب أى صبى فى منزله شطرنج مع خصم قوى بدلاً من الحاجة إلى مدرب محترف. أصبحت تلك البلاد التى لم تعتد على لعبة الشطرنج والتى لديها عدد قليل من مدربى الشطرنج تقدم أطفالا عباقرة فى اللعبة. وأنا فى الحقيقة أقوم بتدريب أحد هؤلاء الصبية هذا العام، ماجنس كارلسن الذى يبلغ ١٩ عاماً من النرويج، ذلك البلد الذى لا يُلعب فيه الشطرنج كثيراً.

إن الاستخدام الكثيف لتحليلات الكمبيوتر يدفع لعبة الشطرنج ذاتها فى اتجاهات جديدة. الآلة لا تهتم أبداً بأساليب أو أنماط اللعب، ولا بمئات السنين التى نشأت خلالها وتطورت نظرية اللعبة. هى فقط تحسب قيمة قطع الشطرنج، وتحلل بلايين الحركات، وتقوم بحسابها مرة أخرى (أى أن الكمبيوتر يترجم كل قطعة وكل وضع فى اللعبة إلى قيمة من أجل أن يختزل اللعبة إلى أرقام يستطيع تحليلها ومعالجتها). وهو خال تماماً من أى محاباة أو انحياز وقد ساهم ذلك فى تطوير أولئك اللاعبين المتحررين من الدوجما تماماً مثل الآلة التى يتدربون عليها. وهكذا فإن أى حركة لا تكون جيدة أو سيئة لأنها تبدو كذلك أو لأنها لم تُلعب من قبل. لكنها تكون جيدة إذا نجحت وسيئة إذا لم تنجح. وعلى الرغم من أننا نحتاج مقياسا قويا وفعالا للحدس والمنطق لكى نلعب جيداً، فإن الناس اليوم بدأوا يلعبون أكثر مثل أجهزة الكمبيوتر.

كما أن توافر ملايين الألعاب بضغطة زر فى قاعدة بيانات الكمبيوتر قد جعل أفضل

العـقـــــل  والآلـــــــة

اللاعبين أصغر وأصغر في السن. إن استيعاب الآلاف من الأنماط الأساسية وحركات اللعب يحتاج سنين عديدة، كما يشير مالكولم جلادويلز في نظريته «عشرة آلاف ساعة لتصبح خبيراً» التي شرحها في كتابه الجديد (وهو نفس كتاب جلادويل الأقدم «ومضة» لكن بإعادة قولبة بشكل خلاق في علم النفس الإدراكي الموجود في كتاب «مجازات الشطرنج»). المراهقون اليوم، وبشكل متزايد الصبية والأطفال، يستطيعون إسراع هذه العملية من خلال الدخول على الأرشيف الرقمي لمعلومات الشطرنج، وأن يستغلوا الحيوية العالية لعقولهم ويحتفظوا بها. نادراً، في عهد ما قبل الكمبيوتر، ما كنت تجد أبطال شطرنج من المراهقين لينالوا بطولة العالم. لقد حقق بوبي فيشر رقما قياسيا عندما حصل على لقب بطل الشطرنج عام ١٩٥٨ وكان عمره ١٥ عاماً، وهذا الرقم القياسي تم تجاوزه فقط في ١٩٩١. ومنذ ذلك الوقت حتى الآن تم كسر الرقم القياسي ٢٠ مرة، بواسطة صاحب الرقم القياسي الحالي الأوكراني سيجي كارجاكين، الذي حمل اللقب في عمر ١٢ عاماً في ٢٠٠٢. أما الآن، فإن كارجاكين البالغ ٢٠ عاماً، هو من بين أفضل اللاعبين في العالم لكنه، مثل بقية نظرائه المذهلين، ليس مثل فيشر الذي صعد فوق رؤوس وأكتاف نظرائه –وفي فترة قصيرة فوق قمة عالم الشطرنج.

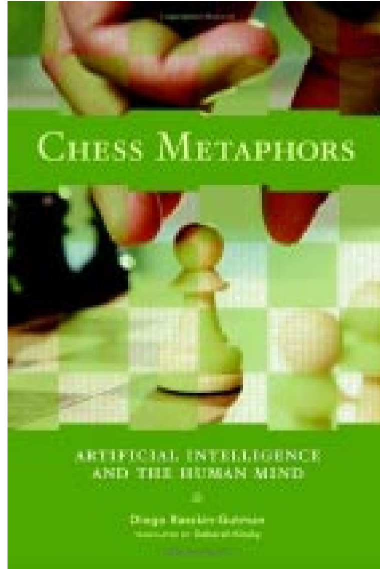
إن البراعة والتميز في لعب الشطرنج يُعتبر رمزا للذكاء العام. في وجهة نظري هذه الفرضية ليست صحيحة، لكني سأكون سعيدا إذا كانت صحيحة. لكن، من أجل الفحص والمجادلة، يُعد الشطرنج، بحسب كلمات راسكين جوتمان «معملا لا نظير له حيث يمكن تحديد وتجسيم عملية التعلم مع درجة المهارة، في إطار ممتاز للمقارنة تُستخدم خلاله تقنيات تحليلية صارمة».

وأنا أتفق مع ذلك تماماً، لكن لأسباب مختلفة. فأنا مهتم أكثر بكثير بكيفية استخدام معمل الشطرنج لإنارة وإعمال العقل البشري، وليس العقل الصناعي. وكما وضحت في كتابي «كيف تزيِّف الحياة الشطرنج» عام ٢٠٠٧، أن: الشطرنج عبارة عن رابطة إدراكية فريدة حيث يتلاقى الفن مع العلم في العقل البشري، ثم يتم تكرارهم وتصفيتهم، وتحسينهم بالخبرة». بالمصادفة فإن القسم من الكتاب الذي يحوي تلك الفقرة يحمل اسم «أكثر من مجرد مجاز»، ويستخدم هذا القسم عملية اتخاذ القرار في الشطرنج كنموذج لفهم وتحسين اتخاذنا للقرار بشكل عام.

وهذا لا ينفي أبداً أنني مهتم بالسعي وراء الآلات الذكية. فالعروض العديدة التي لعبت فيها مع الكمبيوتر كانت بالأساس بناء على رغبتي في المشاركة في هذه التجربة العظيمة. ونتيجة لحظي (وربما سوء حظي) كنت بطلا للعالم في الشطرنج خلال تلك السنوات الحرجة التي نافس فيها الكمبيوتر اللاعبين ثم تفوق عليهم. قبل عام ١٩٩٤ وبعد ٢٠٠٤، لم تلفت تلك المبارزات الكثير من الاهتمام. فقد انتقل الكمبيوتر من قمة الضعف إلى قمة القوة. وفي غضون عشر سنوات أصبحت المنافسات عبارة عن صدامات مدهشة بين القدرة الكمبيوترية (وعلينا ألا ننسى عقل وحكمة المبرمجين) وبين حدس ومعرفة بطل الشطرنج.



فيما يسميه راسكين جوتمان بتناقض مورافيك، فإنه في الشطرنج، كما في أمور أخرى كثيرة، النواحي التي يتميز فيها الكمبيوتر بالقوة، يتميز فيها الإنسان بالضعف، والعكس بالعكس. وقد ألهمني ذلك بفكرة تجربة. ماذا لو لعب الإنسان والكمبيوتر كشركاء بدلاً من متنافسين؟ لقد رأت بنات أفكاري تلك الفكرة في مباراة عام ١٩٩٨ في اسبانيا، سميناها «الشطرنج المتقدم». أثناء اللعب



كان كل منا يتحكم في جهاز كمبيوتر شخصي ببرنامج شطرنج يختاره بنفسه. كانت الفكرة الأساسية هي الوصول إلى أعلى مستوى يُمكن أن يكون في دور شطرنج. تركيبة من أفضل القدرات في الإنسان وفي الآلة.

على الرغم من أنني كنت قد استعددت لهذه الطريقة غير المعتادة في اللعب، كانت مباراتي ضد البلغاري فاسيلين توبالوف يسودها شعور غريب. فالتحكم في برنامج كمبيوتر أثناء لعب الشطرنج كان مزعجاً بقدر ما كان مثيراً. والسماح بالدخول إلى قاعدة بيانات تحوي بضعة ملايين من الألعاب كان يعني أننا غير مضطرين لإجهاد الذاكرة. لكن بمجرد أننا لدينا نفس الفرصة للدخول على نفس قاعدة البيانات، فإن الميزة في ابتكار فكرة جديدة تقل شيئاً فشيئاً.



في الشطرنج، كما في أمور أخرى كثيرة، النواحي التي يتميز فيها الكمبيوتر بالقوة، يتميز فيها الإنسان بالضعف، والعكس بالعكس



كما أن الحصول على كمبيوتر كشريك لك في اللعب كان يعني أنك لن تخاف من الوقوع في أي هفوات تكتيكية أثناء اللعب. استطاع الكمبيوتر أن يحسب نتائج كل خطوة نقوم بها، ويشير إلى المحصلة من هذه الخطوة والخطوات المضادة التي يمكن أن تتغافل عنها. وبذلك كنا قد استطعنا أن نركز على التخطيط الاستراتيجي بدلاً من استهلاك الوقت في الحسابات. في هذه الظروف كان للإبداع الإنساني قيمة أعلى. وعلى الرغم من كل ذلك، لم يكن اللعب مع تابولوف ممتازاً. فقد كنا نلعب بالوقت لذلك كان لدينا وقت قصير لاستشارة مساعدينا الآليين. إلا أن النتائج كانت لافتة للنظر. منذ شهر كنت قد تغلبت على ذلك البلغاري في أدوار شطرنج سريعة بدون كمبيوترات ٤-٠، لكن في الشطرنج المتقدم انتهى اللعب بالتعادل ٣-٣. إن ميزتي في حساب تكتيكات حركات اللعب تم إبطالها بواسطة الآلة.

لم يذكر راسكين جوتمان أي شيء عن تلك التجربة، لقد تجاهلها بالرغم من علاقتها القريبة بموضوع دراسته. اللافت للنظر هو كيف استمرت تجربة «الشطرنج المتقدم». في ٢٠٠٥ استضاف موقع لعب الشطرنج على الانترنت (playchess.com) مسابقة شطرنج حرة وفيها يمكن لأي متسابق أن يشارك في فرق مع أشخاص آخرين أو كمبيوترات. كما هي العادة تم تفعيل نظم «ضد الغش» لمنع، أو على الأقل تثبيط، الغش عن طريق استخدام مساعدة الكمبيوتر (وهنا أتساءل ماذا لو كانت تلك النظم، المعنية بالتحليل التشخيصي لكل حركة والتي تحسب كل الاحتمالات، أقل ذكاء من البرامج التي تتقصى وتكشف عنها).

تحت إغواء الجائزة المالية، دخلت المسابقة مجموعات عديدة مكونة من أبطال شطرنج أقوياء يعملون مع أجهزة كمبيوتر. في البداية كانت النتائج متوقعة. الفرق المكونة من اللاعبين والكمبيوتر تفوقت حتى على أقوى أجهزة الكمبيوتر. آلة الشطرنج، هيدرا، وهي كمبيوتر خارق متخصص في الشطرنج مثل ديب بلو، لم تصل إلى مستوى لاعب الشطرنج القوي الذي يستخدم كمبيوتر ضعيفا حتى. الدمج بين الإرشاد الاستراتيجي البشري والحدة التكتيكية



للكمبيوتر كان مذهلاً. جاءت المفاجأة فى النتيجة النهائية للحدث. لم يكن الفائز بطل شطرنج يستخدم كمبيوتر ماهرا، لكنه كان زوجا من الشباب الأمريكيين هواة الشطرنج الذين كانوا يستخدمون ثلاثة أجهزة كمبيوتر فى نفس الوقت. لاعب ضعيف + كمبيوتر + عملية أفضل، هذه المجموعة متفوقة على الكمبيوتر القوى بمفرده، وبالتأكيد فإنها متفوقة أكثر بكثير من لاعب قوى + كمبيوتر + عملية أدنى. إن نتيجة «مسابقة الشطرنج الحرة» بالرغم من كونها مذهلة، إلا أنها تتسق مع اعتقادى أن «الموهبة» هى مصطلح يُساء استخدامه ومفهوم يُساء فهمه. فى اللحظة التى أصبحت فيها أصغر بطل شطرنج فى العالم فى عمر ٢٢ عاماً عام ١٩٨٥، بدأت أتلقى أسئلة لانهائية حول سر نجاحى وطبيعة موهبتى. وبدلاً من السؤال حول «الدفاعات الصقلية»، أراد الصحفيون سؤالى عن نظامى الغذائى، حياتى الشخصية، عدد الحركات التى أتوقعها فى اللعب، وعدد الألعاب التى أحتفظ بها فى ذاكرتى.

أدركت سريعاً أن إجاباتى كانت مخيبة للآمال. لم أكن آكل أى شىء مميز. كنت أعمل بجد لأن والدتى علمتنى ذلك. كانت ذاكرتى جيدة لكنى لم أكن أتذكر الصور بسهولة. أما حول عدد الألعاب التى يتوقعها بطل الشطرنج أثناء اللعب، فإن راسكين جوتمان يُنسب كثيراً من الإجابة على هذا التساؤل إلى بطل العالم الكوبى الكبير خوسيه راؤول كابابلانكا بين آخرين : «حركة واحدة، الحركة الأفضل». هذه الإجابة جيدة أو سيئة مثل أى إجابة أخرى. طريقة بليغة للتخلص من محاولة شخص يسأل عن شىء يحتاج إلى تبصر وفهم عميق ويفشل فى ذلك. سؤال شبيه بسؤال لانس أرمسترونج كم مرة يغيّر فيها سرعة سيارته أثناء رحلته فى فرنسا.

إن الإجابة الوحيدة الواقعية، ألا وهى «الأمر يعتمد على الوضع وعلى الوقت المتاح»، هى إجابة غير مرضية. فى المباراة التى قد تكون الأفضل فى مسابقة هوجوفينز عام ١٩٩٩ فى هولندا، قد تبصرت وضع الفوز بعد ١٥ حركة مقبلة، نجاح فذ وغير عادى. لقد ضحيت بعدد من القطع من أجل الهجوم، وحرقت جسورى؛ وإذا كانت حساباتى خاطئة كنت سأخسر بالتأكيد. على الرغم من أن حدسى كان صائباً وأن خصمى، توبالوف مرة أخرى، فشل تحت الضغط فى إيجاد الدفاع الأنسب، التحليلات اللاحقة أثبتت أننى، برغم مجهودى الهائل إلا أننى قد أهدرت طريقاً أقصر للانتصار. بجانب تهكم كابابلانكا، فإن تقييم عدد قليل من حركات اللعب بشكل صحيح أهم بكثير بالنسبة للإنسان فى الشطرنج، واتخاذ الإنسان للقرار بشكل عام أهم بكثير من البحث الأعمق بشكل منظم عن حركات أفضل -أى عدد الحركات المتوقعة أثناء اللعب- ذلك البحث الذى يعتمد عليه الكمبيوتر. ليس هناك من شك كبير أن الناس المختلفين يسعدون بأن لديهم قدرات إدراكية بكميات مختلفة مثل الذاكرة القوية أو بعض من مهارات التبصر التى يُقال أن لاعبى الشطرنج يستخدمونها. واحد من أسباب أن الشطرنج «معمل لا نظير له» و «رابطة فريدة» هو أنه يتطلب أداء عاليا لكثير من وظائف المخ. حيث فشلت الكثير من التحقيقات والتحليلات بسبب أنها لم تضع فى الاعتبار أهمية عملية التعلم وممارسة الشطرنج. القدرة على العمل بجدية على مدار أيام إلى النهاية دون فقدان التركيز هى موهبة. القدرة على استيعاب معلومات جديدة بعد الدراسة على مدار ساعات هى موهبة. أن تبرمج نفسك من خلال تحليل عمليات ونتائج اتخاذ القرار سوف يحسن النتائج كثيراً، بنفس الطريقة التى يعمل بها برنامج شطرنج أفضل من آخر على نفس جهاز الكمبيوتر. قد لا نكون قادرين على تغيير «أجهزتنا» لكننا قادرون على تطوير «برامجنا».

والآن مع التفوق الواضح لأجهزة الشطرنج والمنافسة بين «الآلة والإنسان»، ربما يكون قد حان الوقت لنعود إلى تلك الأهداف التى جعلت شطرنج الكمبيوتر جذابا لكثير من أفضل العقول البشرية فى القرن العشرين. لعب الشطرنج بشكل أفضل كان مشكلة أرادوا حلها، نعم، وقد تم حلها. لكن هناك بالطبع أهداف أخرى : ابتكار برنامج يلعب الشطرنج بواسطة التفكير مثل البشر، ربما من خلال تعلُم الشطرنج كما يفعل الإنسان. وبالتأكيد ستكون الطريقة ذات الجدوى هنا هى البحث والتحقيق أكثر من الابتكار، تماماً مثلما نفعل، تطبيق الحسابات الأسرع على الإطلاق على الأجهزة الأسرع على الإطلاق.



هذا هو آخر مجاز للشطرنج، مجاز لكيفية أننا قد نبذنا الإبداع والابتكار واستبدلناهم بالإمداد المنتظم للسلع التسويقية. كل الأحلام حول ابتداع ذكاء صناعى يمتزج فى لعبة قديمة ترمز إلى التفكير البشرى، تم التخلى عنها. وفى المقابل، فإننا كل عام نجد لدينا برامج شطرنج جديدة، وإصدارات جديدة لأخرى قديمة، مبنية على نفس مفاهيم البرمجة الأساسية حيث التقاط الحركة من خلال البحث فى ملايين الاحتمالات التى تم تطويرها فى الستينيات والسبعينيات من القرن الماضى.

وهكذا، مثل أى شىء آخر فى عالمنا الحديث، حيث ثراء التكنولوجيا وفقر الابتكار، وقعت عملية برمجة الشطرنج فريسة دعم متطلبات السوق. البرامج قوية الذكاء تلعب الشطرنج بشكل أفضل، فلماذا نهتم بأى شىء آخر؟ لماذا نهدر الوقت والمال لنختبر أفكارا جديدة وابتكارية، فى حين أننا نعلم الأفضل؟ مثل ذلك التفكير يجب أن يثير الذعر لدى أى فرد يستحق لقب عالم، لكن الأمر يبدو، بشكل مأساوى، باعتباره معياراً. العقول الأفضل لدينا تم توجيهها من أجل الهندسة المالية وليس من أجل الهندسة الحقيقية، بكل ما يعنيه هذا من نتائج كارثية على كل من القطاعين.

ربما يكون الشطرنج هو اللعبة غير المناسبة لهذا الزمان. لعبة البوكر منتشرة فى كل مكان، حيث يحلم هواة البوكر بأن يفوزوا بالملايين وأن يظهروا على شاشات التليفزيون لأنهم يمارسون لعبة ورق كل تعقيداتها يمكن تفصيلها بقطعة واحدة من الورق. وبينما يعتبر الشطرنج لعبة معلومات بنسبة ١٠٠٪، حيث يكون كلا اللاعبين حريصون على كل المعلومات طول فترة اللعب، وبالتالى يمكن استخدام قوة الكمبيوتر فيها، يعتمد البوكر على تخبئة الأوراق وعلى الأفخاخ، انتهاز الفرص، الاحتيال وعلى المجازفة.

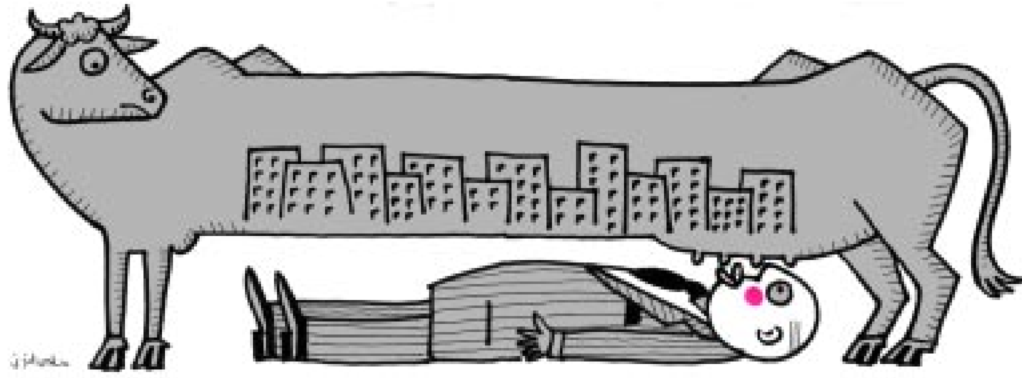
تبدو تلك هى السمات الرئيسية للعبة البوكر المبنية بالكامل على النفسية البشرية، وبالتالى فالبوكر يبدو غير قابل لغزو الكمبيوتر. تستطيع الآلة أن تحسب بسهولة احتمالات الأوراق فى كل يد، لكن ما الذى يجعل اللاعب ذا الاحتمالات الضعيفة يضع رهانا كبيرا؟ ومع ذلك فإن الكمبيوتر متفوق فى هذه النقطة أيضاً. جوناثان تشايفر، مخترع برنامج«تيكرز-سولفينج»، قد انتقل إلى البوكر، ولاعبوه الرقميون يمارسون اللعبة بشكل أفضل وأفضل ضد اللاعبين (البشر) المهرة -بما يعنيه ذلك من معنى للمواقع الإلكترونية للقمار.

ربما يكون الاتجاه الحالى للعديد من محترفى الشطرنج الذين يرفعون من شأن التسلية المربحة للبوكر ليس اتجاهاً سلبياً كلية. وربما الوقت ليس متأخراً لكى يتعلم البشر من جديد كيف يجازفون من أجل الابتكار والإبداع وبالتالى يحافظون على طرق الحياة المتقدمة التى نستمتع بها. وإذا تطلب الأمر كمبيوتر خارقا يلعب البوكر ليذكرنا أننا لا نستطيع الاستمتاع بالمكاسب دون خوض المجازفة، فليكن ذلك. ■



العقـــول الأفضـــل لدينـــا تـــم توجيههـــا مـــن أجـــل الهندســـة المالية وليس من أجل الهندسة الحقيقية، بكل ما يعنيـــه هـــذا مـــن نتائـــج كارثيـــة عـــلى كل من القطاعيـــن





الضـــريبـة العـقـــاريـة

اضطراب تشريعى.. وشبهات دستورية



مـحــمــود مــحــمــد فــهــمــى

فى العدد الماضى نشرت «وجهات نظر» دراسة - أثارت جدلاً - عن الأبعاد القانونية والاقتصادية والسياسية لقانون الضرائب العقارية الجديد. ويبدو أنها لم تكن الورقة الأخيرة فى ملف لايريد له القانونيون ولا الاقتصاديون، دعك من السياسيين، أن يغلق. هنا بحث كتبه لـ«وجهات نظر» رجل القانون الذى كان رئيسا لهيئتى سوق المال والاستثمار. ونحن كعادتنا - بالمقالين - نفتح باب النقاش.

المحـــرر

■■ نظرا لما أثير حول قانون الضريبة على العقارات المبنية من آراء ومناقشات متباينة سواء من جانب المسئولين فى وزارة المالية، أو جمعيات رجال الاعمال، أو المواطنين لمساسه بحياتهم واستقرارهم، لذا فقد رأيت انه قد يكون من المناسب دراسة هذا القانون دراسة متأنية بعض الشىء فى ضوء ما يتجاذبه من آراء، فأعاننى الله بعون وتوفيق من عنده لتقديم هذا البحث بجهد المقل الذى لا يفى على الغاية.

تمـــهــــيـــــد:

تعريف الضريبة والمبادئ الدستورية العامة التى تحكمها:

أولا: تعريف الضريبة:

استقر الفقه المالى الضريبى على تعريف الضريبة بانها مبلغ من المال، يدفع للدولة - أو لاحد الاشخاص الاعتبارية العامة - جبرا من المولين على دخل معين ايا كان نوعه أو مصدره، وذلك مقابل سماح الدولة للممول دافع الضريبة، وتهيئتها له لجميع الظروف المواتية لتحقيق هذا الدخل وحمايته من الاعتداء عليه، وعلى أن تستعمل الضريبة فى تغطية النفقات العامة للدولة، الا اذا كانت ضريبة محلية فتخصص لتغطية النفقات المحلية فى محافظة أو مدينة معينة، كما أن الضريبة على خلاف الرسم لا تدفع نظير أداء خدمة محددة لدافع الضريبة، وانما مقابل تمتع الممول دافع الضريبة بالخدمات العامة التى تؤديها الدولة بصفة عامة للمواطنين كافة كالصحة، والتعليم، والامن، والنظافة، والمرور.. الخ.

ثانيا: المبادئ الدستورية العامة التى تحكم فرض الضريبة واداءها:

تنص المادة (١١٩) من الدستور على ان:

■■ انشاء الضرائب العامة، وتعديلها، أو الغاؤها لا يكون الا بقانون، ولا يعفى احد من ادائها الا فى الاحوال المبينة فى القانون.

ولا يجوز تكليف أحد أداء غير ذلك من الضرائب أو الرسوم إلا فى حدود القانون.

وقد استقر قضاء المحكمة الدستورية العليا، وكذلك قضاء النقض الضريبى، وكذلك الفقه المالى الضريبى على المبادئ الاساسية الضريبية الاتية:

١ - أن الأصل فى الضريبة ألا تفرض على رأس المال الذى لا يغل دخلا، والا تآكل رأسمال ذاته لنقصانه سنويا بمقدار الضريبة حتى يزول ويتلاشى كلية بما يضر الاقتصاد القومى، وانما تفرض الضريبة على الدخل الدورى المتجدد دون رأس المال الذى يولد هذا الدخل.

٢ - أن الضريبة لا تفرض الا بقانون، أى يجب أن يتضمن القانون ذاته القواعد الاساسية التى تحدد الممول المكلف بأداء الضريبة، ووعاء الضريبة والقواعد العامة الاساسية لتقدير هذا الوعاء بطريقة حاسمة نهائية، وسعر الضريبة واجراءات ربطها والطعن فيه، واجراءات ومواعيد أدائها، بحيث لا يترك أى من هذه القواعد الأساسية للائحة التنفيذية أو للقرارات الوزارية، والا كان ذلك تشريعا ضريبيا ابتداء لا تملكه تلك اللائحة أو هذه القرارات دستوريا.

٣ - ان الضريبة يجب ان تتسم بأربع خصائص رئيسية وهى:

٣/أ- المساواة: بان يساهم المواطنون فى النفقات العامة بحسب مقدرتهم النسبية أى بنسبة الدخل الذى يتمتعون به ويحققونه فى حماية الدولة.

٣/ب-اليقين: انه يجب ان تكون الضريبة المفروضة على كل فرد مؤكدة وليست تحكمية متروك تقديرها للسلطات الضريبية، اذ التقدير الحكمى لا يكون إلا كجزاء على التهرب من الضريبة أو التلاعب فى بياناتها بقصد تخفيضها.

٣/جـ- الملاءمة: بأن تجبى الضريبة فى الوقت وبالطريقة الملائمة للمكلف وبحسب مقدرة الممول التكليفية

٣/د- الاقتصاد: أى أن تكون نفقات جباية الضريبة فى اضيق الحدود حتى لا يتحمل الممول نفقات لا داعى لها.

٤ - يجب أن تتسم الضريبة بالعدالة: وذلك بأن يكون فرض الضريبة على

لا يجوز أن تفاجئ الدولة المواطنين بفرض الضريبة باثر رجعى على دخل لم يكن يخضع فى السابق للضريبة، أو ان تلغى إعفاء ضريبيا ساريا قد بدأت مدته وتقرر فيه حق مكتسب للممول قبل صدور القانون الذى يلغى الإعفاء ويفرض الضريبة الجديدة



قدم المساواة من حيث الدخول التى تفرض عليها، فلا تفرض على دخل معين ويعفى من الضريبة دخل آخر مماثل له فى نوع المصدر، كأن تفرض على العقارات المبنية وتعفى منها الاراضى الزراعية ذات الدخل الدائم المستقر والتى ليست تحت مرحلة الأصلاح، اذ كلا المصدرين هو من قبيل العقارات.

٥ - عدم رجعية الضريبة:

فلا يجوز ان تفاجئ الدولة المواطنين بفرض الضريبة باثر رجعى على دخل لم يكن يخضع فى السابق للضريبة، أو أن تلغى إعفاء ضريبيا ساريا قد بدأت مدته وتقرر فيه حق مكتسب للممول قبل صدور القانون الذى يلغى الإعفاء ويفرض الضريبة الجديدة.

٦ - وأخيرا فإن فرض الضريبة يتعلق به انواع ثلاثة من المصالح:

أ - مصلحة الدولة أو الخزانة العامة
ب - مصلحة الممول جـ - مصلحة المجتمع

أ - فيهم الدولة ان تكون الضريبة غزيرة الحصيلة، مرنة الناتج، قليلة نفقات الجباية.

ب - ويهم الممول أن يحمل من الضريبة بنصيب عادل محدد على اسس واضحة يقينية وغير تحكمية، وألا تفرض الضريبة على مصدر الدخل وانما على الدخل ذاته وبشرط ألا تأتى عليه وانما يستقطع منه النصيب العادل لمشاركته فى النفقات العامة.

جـ - واخيرا يهم المجتمع ككل الا تقف الضريبة عائقا وحجر عثرة فى وجه التقدم الاقتصادى والاجتماعى للمجتمع، بل يعنيه ان تتخذ الضريبة وسيلة فعالة لتحقيق هذا التقدم.

(راجع فى تفصيل ما سبق الدكتور/ حسين خلاف - المالية العامة والضرائب - طبعة سنة ١٩٥٠)

إنما أردت بهذا التمهيد أن أضىء الطريق لما نحن مقدمون عليه من مناقشة قانون الضريبة على العقارات المبنية رقم ١٩٦ لسنة ٢٠٠٨ لنتعرف على ما اذا كان هذا القانون متفقا أو غير متفق مع القواعد والاسس العامة لفرض الضريبة لا سيما من الناحية الدستورية، ثم من الناحية التشريعية، ثم من الناحية العملية.

ولذلك فسوف نقسم هذا البحث إلى الاقسام الثلاثة الاتية:

القسم الاول: شبهات عدم الدستورية.

القسم الثانى: الاضطراب التشريعى.

القسم الثالث: المقترحات.

القسم الأول
شبهات عدم الدستورية

ملحوظتان أوليان:

قبل ان نتناول شبهات عدم الدستورية التى انتابت قانون الضريبة على العقارات المبنية رقم ١٩٦ لسنة ٢٠٠٨، ثمة ملحوظتان اوليان يلزم ابداؤهما وهما:

الاولى: الاهداف العامة للقانون: الجباية:

وتتعلق هذه الملحوظة بالاهداف العامة للقانون، ذلك انه يبين من استقراء أحكام القانون أنه قد ركز على هدف الجباية والحصيلة والعمل على زيادتها بكافة الطرق دون النظر إلى الأثر الاجتماعى والاقتصادى والاستثمارى المترتب على تطبيق القانون، وذلك وفقا لما يلى:



الاثر الاجتماعى: اخضاع السكن الخاص للضريبة وهو غير دستورى، مما سوف يؤثر على دخل الافراد ممن ليس لهم مورد رزق كاف لدفع الضريبة كأصحاب المعاشات والارامل والايتام.

الاثر الاقتصادى: اخضاع مبانى المصانع والشركات للضريبة مما سيزيد تكلفة الانتاج، ويمكن ان تتخلص هذه المصانع والشركات من عبء الضريبة بنقل هذا العبء على المستهلك النهائى للسلعة أو الخدمة وهو اصلا مثقل بارتفاع سعرها.

الاثر الاستثمارى: سوف يترتب على فرض الضريبة العقارية على مبانى المصانع والشركات أن يكون عامل طرد أو مقيد للتوسع فى الاستثمارات أو الاقدام على استثمارات جديدة لزيادة تكلفة المشروع نتيجة فرض الضريبة.

الملحوظة الثانية: الضريبة لم تستحق بعد:

وتتعلق بتحديد تاريخ استحقاق الضريبة، ذلك ان القانون المذكور قد نشر فى الجريدة الرسمية بالعدد (٢٥) مكرر (ج) فى ٢٠٠٨/٦/٢٣، ونصت المادة التاسعة من قانون الاصدار على ان يعمل به من اليوم التالى لتاريخ نشره، وذلك مع مراعاة ان الضريبة المربوطة وفقا للقانون الموضوعى يعمل بها اعتبارا من اول يناير التالى للسنة التى تبدأ فيها اجراءات الربط، ومن ثم فإذ لم تبدأ لجان الحصر والتقدير المنصوص عليها فى المادة (١٣) من القانون اجراءات ربط الضريبة حتى الان، فإنه يتعين القول بأن الضريبة العقارية الجديدة مازالت غير سارية ولا مستحقة، الامر الذى تكون معه الاجراءات المزمع اتخاذها حاليا من جانب الجهات الضريبية لتحصيلها غير ذات سند من القانون.

ولايجاد هذا السند كان يجب أن ينص على:

الانتهاء من اجراءات الحصر والتقدير والربط وليس مجرد البدء فى هذه الاجراءات، إذ إن الربط وما يعقبه من نشر فى الجريدة الرسمية واخطار المكلف هو الذى يحدد مقدار الضريبة، وبالتالى تستحق قانونا ويلزم الممول بأدائها، فلا يغنى عن ذلك مجرد البدء فى اجراءات الربط.

والآن نتناول شبهات عدم الدستورية وعددها (١٤) وفقا لما يلى:

أولا: عدم دستورية فرض الضريبة على السكن الخاص:

من المعروف والمستقر شرعا، وقانونا، ودستورا ان المسكن الخاص من المقومات الاساسية لحياة الانسان اذ بدونه لا تستقيم حياته، وانه اذا كان مملوكا للساكن وعائلته فانما هو نتيجة دخله السابق من كده وعرقه وعمله سواء فى الداخل أو الخارج، وانه باعتبار كونه كذلك فقد سبق خضوعه لضريبة الدخل عند تحقق هذا الدخل فى حينه - ومن ثم يكون فرض الضريبة العقارية على السكن الخاص، غير دستورى باعتبار أن الضريبة تفرض هنا على رأس المال وليس على الدخل، وباعتبار ان رأس المال هذا هو نتيجة دخل سبق ان فرضت عليه الضريبة عند تحققه، الامر الذى يتعين معه اعفاء السكن الخاص من الضريبة العقارية، ولكن بشرط ان يكون سكنا واحدا، الا اذا كان الممول متزوجا بأكثر من زوجة ففى هذه الحالة تعفى جميع المساكن المخصصة لسكنى زوجاته، اذ هو مكلف وفقا للشريعة الاسلامية بتدبير سكن مستقل لكل زوجة من زوجاته ثم للحاضنات منهن بعد الطلاق، وذلك نزولا على المادة (٢) من الدستور التى تنص على ان.

مبادئ الشريعة الاسلامية المصدر الرئيسى للتشريع

ولقد قيل فى الرد على ذلك أن أى عقار سواء كان سكنا خاصا للمكلف أو غير سكن له وقيمته خمسمائة الف جنيه فأقل فهو معفى من الضريبة، ولكن يرد على ذلك: ما الحكم فيما لو كانت قيمة العقار سكن المكلف اكثر من خمسمائة ألف جنيه، هنا لا يعفى وكان الواجب ان يعفى السكن الخاص أيا كانت قيمته، أو بالأقل أن تعفى الخمسمائة ألف جنيه الأولى ثم تفرض الضريبة على ما زاد عليها، وفى حالة تعدد المساكن الخاصة نزولا على حكم القانون والشريعة، فلا تعفى الا الخمسمائة الف جنيه الاولى، من مجموع قيمة هذه المساكن المتعددة، ثم يخضع ما زاد على ذلك للضريبة.

ووجه عدم الدستورية أن الأصل فى الضريبة أنها انما تفرض على الدخل الناتج من أصل سواء كان اصلا عقاريا أو أصلا منقولا كما سلف البيان، فلا تفرض الضريبة دستوريا على رأس المال المجمد فى السكن الشخصى والذى لا يدر دخلا.

وقد سبق للمحكمة الدستورية العليا أن اصدرت فى سنة ١٩٩٩ حكما بعدم خضوع الارض الفضاء التى لا تغل دخلا للضريبة العقارية، مقررة بذلك الأصل العام فى





يبين من استقراء أحكام القانون أنه قد ركز على هدف الجباية والحصيلة والعمل على زيادتها بكافة الطرق دون النظر إلى الآثار المترتبة على تطبيق القانون





ليس هناك سند قانونى حاليا لالزام المكلفين بتقديم الاقرارات، وانما يلزم تعديل القانون بايراد نص صريح فيه يخول الوزير اصدار قرار بالزام المكلفين بتقديم الاقرارات مع تحديد الملزمين بالتقديم



اقتصار فرض الضريبة على الدخل وليس على رأس المال.

ويلاحظ من جهة اخرى ان فرض الضريبة على السكن الخاص يتضمن ازدواجا ضريبيا، ذلك ان تدبير هذا السكن انما تم من موارد الممول، وقد سبق ان خضعت هذه الموارد - سواء كانت دخولا أو قروضا أو أى مورد آخر قانونى وشرعى، للضريبة وقت تحقق المورد أو الدخل، فإذا تراكم هذا الدخل فى صورة مدخرات، لكى يشترى أو يعد به الممول سكنا فلا يجوز قانونا ودستوريا اعادة اخضاعه لضريبة العقارات المبنية لسابقة خضوعه للضريبة النوعية وقت تحققه.

كما يلاحظ كذلك ان فرض الضريبة العقارية على السكن الخاص، وهو لا يغل دخلا، يعتبر فى حقيقته ايجارا اجباريا يدفعه الممول للدولة فى صورة ضريبة نظير تركها له للانتفاع بالسكن وهو اصلا ملكه هو، وليس ملك الدولة فلا يجوز دستوريا أن تتقاضى عن الانتفاع به مقابلا ممن يملكه ويشغله كسكن خاص له ولاسرته.

ثانيا: خلو القانون من نص يخول الوزير الزام المكلفين بتقديم الاقرارات:

لم يتضمن القانون أى نص يخول الوزير المختص وهو وزير المالية الحق أو سلطة إصدار قرار بالزام المكلفين بتقديم إقرارات حالية قبل بدء استحقاق الضريبة، وانما الإقرارات بحسب نص المادة (١٤) من القانون هى إقرارات تقدم بعد نفاذ القانون، وهى إما إقرارات خمسية أى كل خمس سنوات لاجراء الحصر الخمسى للعقارات (والتى قد يعدل القانون فتصير عشر سنوات كالقانون الحالى وذلك نزولا على توجيهات رئيس الجمهورية)، أو إقرارات سنوية لحصر العقارات المستجدة التى تخضع للضريبة سواء كانت عقارات كاملة أو أجزاء اضيفت للعقارات السابق حصرها أو العقارات التى زالت عنها أسباب الإعفاء.

وعلى ذلك فليس ثمة سند تشريعى يمكن ان يستند اليه السيد وزير المالية فى الزام المكلفين بتقديم الإقرارات حاليا سواء فى المدة الأصلية التى كانت تنتهى فى ٢٠٠٩/١٢/٣١ أو المدة الممتدة حتى ٣١ مارس ٢٠١٠.

ولقد كان الاحرى بوزارة المالية ان يقتصر الالزام بتقديم الاقرارات على العقارات التى خضعت للقانون الجديد لاول مرة، باعتبار ان العقارات السابقة التى كانت خاضعة لعوائد المبانى، لدى مصلحة الضريبة العقارية حصر بها من واقع دفاتر الحصر والتقدير الحالية الخاصة بعوائد المبانى، ومن ثم فليس ثمة محل لالزام اصحاب هذه العقارات القديمة الخاضعة للعوائد بتقديم الاقرارات، وهو ما كان سوف يخفف العبء والاجراءات الادارية على كل من المكلفين والمصلحة.

هذا فضلا عن انه كان يجب ارجاء الالزام بتقديم الاقرارات لحين انتهاء وزارة المالية ومصلحة الضريبة العقارية من ارسال خطابات الاعفاء من الضريبة وفقا لما اعلنه المسئولون فى الوزارة والمصلحة من انه جارى ارسال هذه الخطابات، ومن ثم يعفى من يخطر بإعفائه من الضريبة من تقديم الاقرار.

ويبين مما تقدم انه ليس هناك سند قانونى حاليا لالزام المكلفين بتقديم الاقرارات، وانما يلزم تعديل القانون بايراد نص صريح فيه يخول الوزير اصدار قرار بالزام المكلفين بتقديم الاقرارات مع تحديد الملزمين بالتقديم وتحديد قواعد واجراءات ومواعيد تقديم الاقرارات قبل موعد استحقاق الضريبة.



ثالثا: عدم دستورية، وعدم مشروعية فرض اية غرامة على عدم تقديم الاقرار:

دأب المسئولون فى وزارة المالية على تهديد المواطنين بفرض غرامة مالية تتراوح ما بين مائتى جنيه إلى الفى جنيه على من يمتنع عن تقديم الاقرار حتى نهاية المدة الممتدة فى ٢٠١٠/٣/٣١، وذلك استنادا منهم إلى المادة (٣٠) من القانون التى نصت على هذه الغرامة.

إلا أنه بالرجوع إلى هذه المادة نجدها انما تعاقب على عدم تقديم الاقرار المنصوص عليه فى المادة (١٤) من القانون، وهو الاقرار الخمسى لاعادة التقدير، أو الاقرار السنوى لما يستجد من عقارات أو ما يدخل من تعديلات على العقارات القائمة، أو التى زالت عنها أسباب الإعفاء، وبالتالى فإن المادة (٣٠) المذكورة لا تعاقب من قريب أو بعيد الامتناع عن تقديم الاقرار فى غير هاتين الحالتين، اى الاقرار المطلوب تقديمه حاليا من المواطنين وقبل الانتهاء من اجراءات الحصر والتقدير ثم الربط.

الامر الذى يجعل هذا التهديد بتوقيع الغرامة عن الامتناع عن تقديم الاقرار مخالفا للمادة (٦٦) من الدستور التى تنص على انه «... لا جريمة ولا عقوبة الا بناء على قانون» لما ثبت انه فى هذه الحالة لا تعاقب المادة (٣٠) من القانون على عدم تقديم الإقرارات حاليا.

ولا يجوز الالتفاف على ذلك بالقول بأن الاقرارات الحالية هى من قبيل اجراءات الحصر والتقدير، أو هى تقاس على الاقرارات الخمسية، اذ من المستقر قضاء وفقها وافتاء ان النصوص الجنائية لا يقاس عليها ولا يتوسع فى تفسيرها.

رابعا: خلو القانون ذاته من القواعد العامة التى تحدد وعاء الضريبة:

عدم دستورية «القواعد الاسترشادية» التى تضمنها القانون:

من المستقر عليه دستورا وقانونا طبقا للمادة (١١٩) من الدستور انه يجب ان يتضمن القانون ذاته القواعد الاساسية العامة لفرض الضريبة، واهمها القواعد العامة لتحديد وعاء الضريبة، الا ان القانون قد خلت مواده جميعا من اى قاعدة عامة محددة وواضحة لتحديد وعاء الضريبة وانما ما تضمنه هو ما نصت عليه المادة (١٢) من ان «يستهدى فى تحديد الضريبة بالمؤشرات الواردة فى الجدولين المرفقين بهذا القانون» واحدهما للوحدات السكنية، والثانى للمنشآت الصناعية، اذ ان هذا «الاستهداء بالمؤشرات» لا يغنى ولا يفيد ولا يقيم اية قواعد عامة لتحديد وعاء الضريبة، بل سوف يفتح الباب واسعا للخلاف فى التفسير بين مأمور الضرائب والممول حول دلالة والزامية هذا الاستهداء، وما يعقب ذلك من مزيد الطعون الادارية ثم الدعاوى القضائية.

خامسا: مخالفة المادة (١١٩) من الدستور لخلو القانون من القواعد العامة المحددة للقيمة الايجارية السنوية للوحدات السكنية المعفاة:

قررت المادة (١٨/د) من القانون اعفاء الوحدات السكنية التى تقل قيمتها الايجارية السنوية عن (٦٠٠٠) جم اى خمسمائة جنيه شهريا من الضريبة، وان يخضع ما زاد على ذلك للضريبة، الا ان المادة لم تتضمن المعايير والقواعد العامة لحساب هذه القيمة الايجارية السنوية مما يخالف المادة (١١٩) من الدستور، فضلا عن انها قد قصرت الاعفاء على المبانى المستعملة فى اغراض السكن، وتركت المبانى فى غير اغراض السكن دون اعفاء مما يخل بمبدأ المساواة طبقا للمادة (٤٠) من الدستور.

هذا فضلا عن ان الاعفاء المقرر بالمادة (١٨/د) المذكورة للوحدات السكنية التى يقل ايجارها السنوى عن (٦٠٠٠) جم، انما يمثل اعفاء جزئيا للسكن الخاص، فلماذا اكتفى المشرع بذلك ولم يقرر اعفاء السكن الخاص بصفة عامة من الضريبة اذا كان فى حدود مبلغ الاعفاء العام وهو خمسمائة الف جنيه.

سادسا: عدم دستورية اعفاء الاراضى الزراعية من الضريبة:

من المعروف ان هذا القانون الجديد انما هو خاص بالضريبة على العقارات المبنية، وبالتالى فلا شأن له بالضريبة على الاراضى الزراعية، الا انه رغم ذلك قد نص فى المادة الثالثة (اصدار) على استبدال المادة (٣٧) من قانون الضريبة على الدخل رقم ٢٠٠٥/٩١ الخاصة بايرادات الثروة العقارية، بأن قصرها فقط على ايرادات العقارات المبنية وايرادات الوحدات المفروشة واخرج منها « ايرادات الاراضى الزراعية»، فصارت هذه الايرادات غير خاضعة لقانون الضريبة على الدخل المشار اليه، ومن ثم فقد صارت غير خاضعة لاية ضريبة، هذا بينما العقارات المبنية تخضع للضريبة، وهى تفرقة لا مبرر لها بين مصدرى دخل يمتان إلى نوع واحد من الأصل وهو العقار، مما يخل بمبدأ المساواة امام القانون المنصوص عليه بالمادة (٤٠) من الدستور، وكذلك بمبدأ العدالة الضريبية المستقر فى القضاء الدستورى وقضاء النقض حسبما سلف البيان.

سابعا: عدم دستورية تحميل المنتفع بالعقار أو المستغل له بكامل دين الضريبة:

نصت المادة (٢) من القانون على ان «المكلف بأداء الضريبة هو مالك العقار



ينبغى قانونا ودستورا أن يقسم مبلغ الضريبة بين مالك الرقبة فيتحمل ثلثها وبين المنتفع والمستغل فيتحمل الثلثين، واذ لم تفعل المادة (٢) من القانون ذلك فإنها تكون مشوبة بعدم الدستورية



المبنى أو من له حق عينى بالانتفاع أو بالاستغلال سواء كان شخصا طبيعيا أو اعتباريا».

بما معناه تحميل صاحب حق الانتفاع أو مستغل العقار بكامل مبلغ الضريبة حال كونه غير متمتع بالملكية الكاملة وانما يملك فقط نسبة ثلثى حق الملكية وهى التى تقابل حق الانتفاع أو الاستغلال، مع بقاء ملكية الرقبة والتى تمثل ثلث حق الملكية فى يد المالك الأصلى للعقار، ورغم ذلك فلا يتحمل بأى نصيب من الضريبة، ومن ثم فكان ينبغى قانونا ودستورا أن يقسم مبلغ الضريبة بين مالك الرقبة فيتحمل بثلثها وبين المنتفع والمستغل فيتحمل الثلثين، واذ لم تفعل المادة (٢) من القانون ذلك فإنها تكون مشوبة بعدم الدستورية لاخلالها بالمبدأ الدستورى الخاص بالعدالة الضريبية، وبالمبدأ الدستورى بالمساواة امام القانون.

ثامنا: عدم جواز سريان القانون باثر رجعى على الحقوق المكتسبة:

من المعروف ان العقارات المقامة فى المجتمعات العمرانية الجديدة تتمتع باعفاء ضريبى مدته عشر سنوات وذلك طبقا للمادة (٢٢) من قانون المجتمعات العمرانية الجديدة رقم ١٩٧٩/٥٩.

كما لا تخضع عقارات المشروعات المنشأة فى المناطق الحرة لاحكام قوانين الضرائب والرسوم فى مصر، وذلك طبقا للمادة (٣٥) من قانون الاستثمار رقم ٨ لسنة ١٩٩٧.

ورغم ذلك فقد اعلن المسئولون فى وزارة المالية ان هذه الاعفاءات كلها قد الغيت اعمالا لما نصت عليه المادة الثانية (اصدار) من انه «كما يلغى كل نص يخالف احكام هذا القانون».

وهو ما ارى عدم دستوريته لما يتضمنه من سريان قانون الضريبة العقارية باثر رجعى على مدد الاعفاء التى تكون بدأت فعلا قبل نفاذه ورتبت بالتالى للمستثمرين حقوقا مكتسبة فى استكمالها دون الغاء إلى ان تنقضى مددها، وهو ما اتبعه المشرع فى المادة الثانية (اصدار) من قانون الاستثمار رقم ٨ لسنة ١٩٩٧، وكذلك فى المادة الثالثة (اصدار) من قانون الضريبة على الدخل رقم ٩١/٢٠٠٥ حيث ابقت كلتا المادتين على الاعفاءات السابقة إلى ان تنتهى مددها وهو ما يثير التساؤل عن وجه التفرقة بين قانون الضريبة العقارية والقانونين المذكورين.

هذا فضلا عن انه لا يجوز ان يكون لقانون الضريبة العقارية اثر رجعى لمخالفة ذلك للمبدأ الدستورى بعدم رجعية القوانين المنصوص عليه فى المادتين (٦٦) و (١٨٧) من الدستور.

تاسعا: مخالفة مبدأ المساواة المنصوص عليه فى المادة (٤٠) من الدستور حين حرم القانون مبانى النوادى الرياضية من الاعفاء:



قررت المادة (١٨/و) من القانون اعفاء مبانى مراكز الشباب والرياضة من الضريبة وعدم اعفاء مبانى الاندية الرياضية، مما يتضمن اخلالا بمبدأ المساواة امام القانون المنصوص عليه فى المادة (٤٠) من الدستور، ومبدأ العدالة والمساواة الضريبية، وذلك رغما من ان المشرع فى قانون الرياضة رقم ١٩٧٢/٧٧ قد عامل مراكز الشباب والاندية على قدم المساواة من حيث الاعفاءات المقررة بذلك القانون، الامر الذى يجعل المغايرة فى الاعفاء الضريبى وفقا للمادة (١٨/و) مخالفة للدستور.

هذا فضلا عن ان اخضاع مبانى الاندية للضريبة سوف يلقى عليها عبئا ثقيلا تنوء بحمله، وهى اصلا تعانى نقصا فى الموارد، مما سوف يعجزها عن اداء رسالتها التربوية والرياضية على الوجه الاكمل.

عاشرا: مخالفة المادة (٦٨) من الدستور حين نصت على نهائية لجان الطعن:

نصت المادة (١٧) من القانون على ان قرار لجنة الطعن يكون نهائيا اى لا يجوز الطعن عليه، وهذا مخالف للمادة (٦٨) دستور، التى حظرت تحصين اى قرار أو عمل ادارى من رقابة القضاء، فضلا عن تعارض المادة (١٧) مع المادة (٧) من القانون ذاته التى قررت اختصاص القضاء الادارى دون غيره بالفصل فى المنازعات التى تنشأ عن تطبيق احكام القانون، الامر الذى يستفاد منه عدم نهائية قرارات لجان الطعن ما دام يمكن الالتجاء إلى القضاء الادارى بالطعن عليها باعتبار انها انما تتعلق بمنازعات ناشئة عن تطبيق القانون.

حادى عشر: عدم دستورية تنحية القضاء الادارى من النظر والفصل فى طلبات رفع الضريبة:

نصت المادة (٢١) من القانون على ان تتولى لجان الحصر والتقدير النظر والفصل فى طلبات رفع الضريبة، وهو ما يخالف المادة (٦٨) من الدستور الخاصة بحق كل مواطن فى الالتجاء إلى قاضيه الطبيعى، وكان الاحرى بالقانون ان يكل هذه المهمة إلى القضاء الادارى بمجلس الدولة باعتباره القاضى الطبيعى المختص نزولا على المادة (١٧٢) من الدستور التى حددت اختصاصات مجلس الدولة، وباعتبار ان طلبات رفع الضريبة هى فى حقيقتها طعن فى القرار السلبى بعدم رفع الضريبة فى الاحوال التى يصبح فيها العقار غير خاضع للضريبة طبقا للمادة (١٩) من القانون، مما يدخل فى الاختصاص الاصيل لمجلس الدولة.

ثانى عشر: عدم دستورية التفويض فى الطلب الكتابى لتحريك الدعوى الجنائية:

علقت المادة (٣٢) من القانون رفع الدعوى الجنائية أو اتخاذ اى اجراء من اجراءات التحقيق فيها، فى الجرائم المنصوص عليها فى القانون، على تقديم طلب كتابى من الوزير المختص أو من يفوضه، وهو ما يخالف القاعدة العامة المقررة فى المادتين (٨) و (٩) من قانون الاجراءات الجنائية التى لا تجيز التفويض فى تقديم الطلب الكتابى اللازم - كاجراء مسبق - لتحريك الدعوى الجنائية، والقول بغير ذلك من شأنه ان يجيز للوزير ان يفوض من يشاء من الموظفين التابعين له، وايا ما كانت درجته نزولا، لكى يقدم الطلب الكتابى بتحريك الدعوى الجنائية، وهو ما يمس الحرية الشخصية للمواطن حسبما حماها الدستور فى المواد من (٦٤) إلى (٧٢) منه.

ولذلك يتعين القول بعدم دستورية المادة (٣٢) من القانون فيما نصت عليه من تخويل الوزير الحق فى تفويض من يراه لتحريك الدعوى الجنائية.

وفضلا عما تقدم فإن المادة (٣٢) من القانون سوف تثير صعوبة عملية فى تحريك الدعوى الجنائية، اذ من غير المتصور عملا ان يتقدم الوزير بالعديد من الطلبات الكتابية للاذن بتحريك الدعوى الجنائية بالنسبة للممتنعين عن تقديم الاقرارات، سواء الاقرارات المطلوبة حاليا - رغم افتقادها للسند القانونى للالتزام بتقديمها كما سلف البيان - أو الاقرارات الخمسية أو السنوية طبقا للمادة (١٤) من القانون، وكذلك بالنسبة للجرائم الاربع المنصوص عليها فى المادة (٣١) من القانون.

ثالث عشر: عدم دستورية المادتين (٣٠) و (٣١) من القانون لاخلالهما بمبدأ عدالة العقوبة ووجوب تناسبهما مع الجرم:

اذ نصت المادة (٣٠) على عقوبة الغرامة من مائتى جنيه إلى الفى جنيه لمن امتنع عن تقديم الاقرار المنصوص عليه فى المادة (١٤) من القانون وهو الاقرار الخمسى وكذلك الاقرار السنوى - مما يفيد اتجاه نية المكلف إلى التهرب كلية من اداء الضريبة - ثم جاءت المادة (٣١) التالية لها مباشرة وشددت العقوبة - ليس عن الامتناع الكلى عن تقديم الاقرار - وانما عن تقديمه ولكنه متضمن اوراقا أو مستندات غير صحيحة أو مزورة للجنة الحصر أو التقدير أو للجنة الطعن، اى ان هناك اقرارا قدم فعلا، ولكن متضمنا بيانات أو مستندات غير صحيحة أو مزورة، فشددت العقوبة عليه إلى الغرامة التى لا تقل عن الف جنيه ولا تجاوز خمسة الاف جنيه بالاضافة إلى تعويض يعادل مثل الضريبة التى لم يتم اداؤها، فالعقوبة هنا اشد عن جرم اخف، بينما فى حالة التهرب الكلى بالامتناع كلية عن تقديم الاقرار العقوبة اخف عن جرم اشد، وهو ما يصم المادتين (٣٠) و (٣١) بعدم الدستورية لمخالفتهما لمبدأ العدالة الجنائية المنصوص عليه فى المواد من (٦٦) إلى (٧٢) من الدستور حسبما استقر عليه قضاء المحكمة الدستورية العليا، وقضاء النقض الجنائى.

رابع عشر: مخالفة القانون للمادة (١٧٢) من الدستور المحددة لاختصاص مجلس الدولة:

بمراجعة الاعمال التحضيرية للقانون



إن تقدير قيمة العقار بالقيمة السوقية الحالية من شأنه أن يوجد عدم تناسب بين الضريبة والقيمة لا سيما بالنسبة للمساكن القديمة التى أنشئت من أربعين وخمسين سنة وتغل ايجارا ضئيلا



والمناقشات البرلمانية المتعلقة به استبان عدم سبق عرض مشروع القانون على قسم التشريع بمجلس الدولة رغم كون هذا العرض وجوبيا نزولا على حكم المادة (٦٣) من قانون مجلس الدولة رقم ٤٧ لسنة ١٩٧٢، حيث نصت على انه «على كل وزارة (اى يجب على كل وزارة) أو مصلحة قبل استصدار اى قانون أو قرار من رئيس الجمهورية ذى صفة تشريعية أو لائحة ان تعرض المشروع المقترح على قسم التشريع لمراجعة صياغته، ويجوز لها ان تعهد اليه باعداد هذه التشريعات».

وعلى ذلك واذ كان قانون مجلس الدولة من القوانين المكملة للدستور وذلك نزولا على حكم المادة (١٧٢) من الدستور حين احالت إلى القانون لكى يحدد اختصاصات المجلس الاخرى بعد ان قررت ان مجلس الدولة هيئة قضائية مستقلة، وبعد ان حددت اختصاصاته - باعتباره قاضى القانون العام وقاضى المشروعية، فمن ثم اذا صدر قانون مجلس الدولة رقم ٤٧ لسنة ١٩٧٢ وحدد الاختصاصات الاخرى للمجلس - بناء على ذلك النص الدستورى - ومن بينها الاختصاص الوجوبى لقسم التشريع فى مراجعة مشروعات القوانين قبل اصدارها، فإن عدم عرض مشروع قانون الضريبة العقارية على قسم التشريع - والحال كذلك - يصمه بعدم الدستورية.

القسم الثانى

الاضطراب التشريعى والتعارض بين النصوص

فضلا عن شبهات عدم الدستورية الاربع عشرة السالف ذكرها، فثمة عيوب اخرى قد شابت نصوص القانون فأصابتها بعوار الاضطراب أو التعارض وفقا لما يلى:

اولا: اضطراب تحديد الاطار القانونى الذى يحكم الضريبة فى الفترة من تاريخ نفاذ القانون لتاريخ سريان الضريبة الجديدة:

نصت المادة التاسعة من قانون الاصدار على الا تسرى المادة الثانية (اصدار) والخاصة بالغاء القوانين السابقة بما فيها قانون الضريبة العقارية السارى حاليا (وهو ما يعرف بقانون العوائد) رقم ٥٦ لسنة ١٩٥٤، وكذلك ألا تسرى المادة الثالثة (اصدار) وهى الخاصة بتعديل المواد (٣٧) و (٣٩) و (٤٥) و (٤٦) من قانون الضريبة على الدخل رقم ٩١ لسنة ٢٠٠٥ - ألا تسرى هاتان المادتان الا اعتبارا من تاريخ استحقاق الضريبة المربوطة وفقا لاحكام القانون المرافق، اى اعتبارا من اول يناير للسنة التالية التى تبدأ فيها اجراءات الربط، وقد رأينا فيما سبق ان اجراءات الربط لم تبدأ بعد، فمن ثم تكون جميع القوانين والنصوص الملغاة أو المستبدلة بالمادتين الثانية والثالثة (اصدار) مازالت قائمة ولم تلغ أو تستبدل مما سوف يوجد فى رأيى اضطرابا تشريعيا فى تحديد الاطار القانونى للضريبة فى الفترة من تاريخ نشر القانون والعمل به إلى تاريخ السريان الفعلى للضريبة واستحقاقها وبالتالى الغاء القوانين والنصوص المشار اليها.



وجدير بالتنويه فى هذا الصدد بما اعلنه السيد رئيس الجمهورية فى زيارته مؤخرا لكفر الشيخ مما نشره الاهرام بتاريخ ٢٠١٠/١/٢٢ من ان السيد الرئيس «اكد ان موضوع قانون الضريبة العقارية لم يحسم بعد، وانه يفكر فى مد فترة تقدير قيمة العقار والضرائب المستحقة عليه لتصبح عشر سنوات بدلا من خمس سنوات مع وضع معدل التضخم فى الاعتبار عند اعادة التقدير، وان تكون الضريبة متدرجة من نسبة ١٪ إلى نسبة ١٠٪».

وهو ما اوجد نوعا من الارتياح لدى المواطنين لما قد يتيحه ذلك الاعلان من فرصة لالتقاط الانفاس، كما اثار ايضا كثيرا من التساؤلات حول امكانية ادخال بعض التعديلات للقانون بما يحقق توجيهات السيد الرئيس، وان كان المسئولون فى وزارة المالية قد اعلنوا ان هذه التوجيهات يمكن تحقيقها فى مراحل تنفيذ القانون، وهو ما لا يجوز دستوريا اذ ان تحقيق التوجيهات المشار اليها لا يكون الا بتعديل القانون بذات اجراءات اصداره، ولا يغنى عن ذلك اية ادوات أو وسائل تنفيذية اخرى والا عد ذلك تشريعا مبتدأ أو تعديلا لاحكام القانون مما لا تملكه دستوريا تلك الادوات والوسائل.

ثانيا: تداخل واضطراب وعدم دقة اسس تحديد القيمة الايجارية:

نصت المادة الثانية (اصدار) على الغاء المواد (٣٨ و ٤٠ و ٤١ و ٤٤) من قانون الضريبة على الدخل، ويلاحظ ان المادة (٣٨) تتعلق بتحديد ايراد الاراضى الزراعية، فاذا الغيت اصبحت الاراضى الزراعية لا تخضع لاية ضريبة، وهو ما رأينا عدم دستوريته، والمواد الاخرى متعلقة بتحديد ايرادات العقارات المبنية والاعفاء من الضريبة، الا ان المشرع ترك المادة (٣٩) من قانون الضريبة على الدخل فلم يلغها، وهى المادة التى تحدد القيمة الايجارية للعقارات المبنية، الامر الذى يترتب عليه ان هذه المادة ما زالت قائمة ونافذة ومطبقة، هذا بينما المشرع فى المادة (١٢) من قانون الضريبة العقارية حدد اسلوبا اخر لتقدير الضريبة بان يكون عن طريق «الاستهداء بالمؤشرات الواردة فى الجدولين المرفقين بالقانون»، مما سوف يخلق اضطرابا تشريعيا متعلقا بأى المادتين تطبق فى شأن تحديد القيمة الايجارية للعقارات المبنية.

ثالثا: عدم مشروعية المسئولية التضامنية للمستأجرين عن اداء الضريبة مع المكلفين بادائها:

وهو ما نصت عليه المادة (٢٤) من القانون اذ كلفت المستأجر بدفع الضريبة نيابة عن المكلف بأدائها وذلك فى حدود قيمة الايجار فى الحالة التى يمتنع فيها المكلف عن سداد الضريبة.

ويلاحظ على هذه المادة انها تخالف الأصل العام فى التضامن بين المدينين والذى يقضى بان يكون هؤلاء المدينون، مدينين اصليين بالدين، والمستأجر ليس كذلك اذ انه ليس مدينا اصليا بدين الضريبة، بل المدين الأصلى به هو المكلف بأدائها سواء كان المالك أو المنتفع أو المستغل.

وفضلا عن ذلك فإن من شأن تلك المادة ان تتسبب فى المزيد من المنازعات بين المكلفين والمستأجرين ومصلحة الضرائب العقارية مما يزيد العبء على الجهاز القضائى المثقل اصلا بتركة ثقيلة جدا من القضايا والدعاوى المتراكمة فى مختلف درجات التقاضى، اذ قد يكون المكلف ينازع اصلا فى عدم خضوعه للضريبة العقارية كلية أو ينازع فى مقدارها، ومع ذلك ارغم المستأجر على سداد الايجار لمصلحة الضرائب العقارية رضوخا لحكم القانون وتوقيا للحكم عليه بالعقوبات والغرامات، وقد يكون المكلف فى امس الحاجة للايجار باعتباره مورد دخله الوحيد.

ان هذه المادة دليل قاطع على ان الهدف من اصدار القانون هو الحصيلة وزيادتها إلى اقصى حد دون نظر إلى الابعاد الاجتماعية المترتبة على فرضها.

رابعا: عدم ملاءمة التقدير الخمسى وعدم عدالته:

يلاحظ إن تقدير قيمة العقار بالقيمة السوقية الحالية من شأنه أن يوجد عدم تناسب بين الضريبة والقيمة لا سيما بالنسبة للمساكن القديمة التى أنشئت من أربعين وخمسين سنة وتغل ايجارا ضئيلا.

كما يلاحظ انه ولئن كان حد الاعفاء فى القانون الجديد هو نصف مليون جنيه فأقل، الا ان هذا الحد يمكن ان ترتفع قيمته عند اعادة التقدير بعد خمس سنوات نظرا للتضخم وازدياد الاسعار، وبالتالى فمن هو معفى حاليا لدخوله تحت حد الاعفاء يمكن بعد خمس سنوات ان يعاد تقدير قيمة العقار فيجاوز حد الاعفاء وبالتالى يخضع للضريبة.

ولذلك فإنه من الملائم ان تكون اعادة التقدير كل عشر سنوات كما ينص القانون الحالى رقم ١٩٥٤/٥٦ باعتبار ان مدة العشر السنوات هى مدة مناسبة نظرا لان التغيرات التى تطرأ على قيمة العقارات عند عدم وجود مضاربة هى بحسب طبيعتها تغيرات بطيئة.

كما يلاحظ ان المادة (٥) من القانون قد اجازت ان تزيد قيمة العقار السكنى عند اعادة تقديره كل خمس سنوات بنسبة لا تزيد على ٣٠٪ من التقدير السابق، وبالنسبة لغير السكنى بنسبة لا تزيد على ٤٥٪، الامر الذى يترتب عليه ان تتضاعف قيمة العقار السكنى كل (١٥) سنة، والعقار غير السكنى كل سنتين، بما

الـضـريـبـة الـعـقـاريـة



كان من الملائم ان تقوم الجهات الحكومية المختصة بحصر نهائى للعقارات المختلفة وأن تجرى تقييما نهائيا لها ولقيمتها الإيجارية



يترتب على ذلك من مضاعفة مقدار الضريبة، وذلك دون زيادة الحد الادنى للاعفاء، الامر الذى كان يجب مراعاته فيضاعف حد الاعفاء بنفس نسبة الزيادة فى قيمة العقار.

خامسا: عدم تحديد مرتبة امتياز دين الضريبة العقارية:

قررت المادة (٢٦) من القانون، للخزانة العامة، حق امتياز على العقارات المبنية المفروض عليها الضريبة، وعلى اجرة هذه العقارات، وعلى منقولات المكلف بأداء الضريبة والموجودة فى العقار.

ولما كان الامتياز اولوية يقررها القانون لحق معين مراعاة منه لصفة هذا الحق، وذلك طبقا للمادة (١١٣٠) من القانون المدنى.

وكانت مرتبة الامتياز يحددها القانون، فمن ثم فقد كان على المشرع ان يحدد مرتبة حق الامتياز الذى قرره فى المادة (٢٦) من القانون، وهو إذ لم يفعل ذلك فسوف تتأخر مرتبة هذا الحق عن كل امتياز اخر اورده القانون المدنى، مما يجعل دين الضريبة العقارية متأخرا فى السداد عند التزاحم بين الدائنين، وهو ما يضر بصالح الخزانة العامة.

القسم الثالث

المقترحات

اعادة النظر فى القانون بأكمله:

ازاء ما استبان مما تقدم من شبهات عدم الدستورية، ومن الاضطراب التشريعى لنصوص القانون وتعارضها، والصعوبات العملية الناشئة عن وجوب تقديم طلبات كتابية من الوزير لتحريك الدعوى الجنائية عن الجرائم التى تقع بالمخالفة لاحكام القانون وطوال فترة نفاذه، فضلا عن عدم مشروعية الالزام بتقديم الاقرار المطلوب حاليا، وعدم دستورية العقاب عن الامتناع عن تقديمه، فضلا عما سلف بيانه من عيوب اخرى.

لذلك فإننا نرى وجوب اعادة النظر فى القانون بأكمله لتفادى ما اعتوره من عيوب عدم الدستورية، ولضبط احكامه، وازالة تعارضها لا سيما مع احكام ومواد قانون الضريبة على الدخل رقم ٩١ لسنة ٢٠٠٥، وذلك باتباع ذات الاجراءات السابق اتخاذها فى اصداره.

ولقد كان من الملائم ان تقوم الجهات الحكومية المختصة بحصر نهائى للعقارات المختلفة على مستوى الجمهورية وأن تجرى تقييما نهائيا لها ولقيمتها الايجارية، ثم تستبعد منه ما لا يخضع للضريبة لدخوله فى حد الاعفاء المنصوص عليه فى القانون، وبالتالى لا يلزم مالكو الوحدات غير الخاضعة بتقديم الاقرارات مما كان سوف يخفف من عبء تقديم هذه الاقرارات ثم من عبء ترتيبها وفهرستها وبحثها.

كما يلحق بهؤلاء السابقين، المكلفون بدفع العوائد الحالية، باعتبار ان هذه العوائد انما تدفع عن عقارات تم حصرها فعلا، وتم حصر ملاكها، وبالتالى لا محل لالزامهم بتقديم الاقرارات.

الا ان الحكومة - كالعادة - استعملت المواطنين - سواء كانوا مكلفين أو غير مكلفين - اداة لحصر العقارات جميعها سواء الخاضعة أو غير الخاضعة للضريبة.

هذا مع وجوب ايراد نص صريح فى القانون بالزام المكلفين بتقديم الاقرارات الحالية - بعد تضيق نطاق وتقليل عددهم على النحو المتقدم - وذلك سدا للثغرة الحالية فى القانون فى هذا الخصوص، ومع فرض غرامة ادارية تهديدية وليست قضائية - اى بدون حكم محكمة - وبنص صريح فى القانون على الامتناع عن تقديم الاقرار، وعلى ان ترد الغرامة كلها أو بعضها اذا استجاب الممول وقدم الاقرار، أو اثبت ان ثمة ظروفا قهرية منعته من تقديم الاقرار فى الميعاد.

هذا بحث كتب فى عجالة لالقاء بعض الضوء على قانون الضريبة على العقارات المبنية الذى شغل الناس جميعا مؤخرا لمساسه بحياة كل منهم واستقراره. وهو اجتهاد من جانبى قد يصيب وقد يخطئ، ومن اجتهد فأصاب فله اجران، ومن اجتهد واخطأ فله اجر واحد، وحسبى ان اكون من اصحاب الاجر الواحد. والله من وراء القصد وهو الموفق والهادى إلى سواء السبيل،،، ■

كـتـاب الـزاويـة



قصائد فلسطينية

(٣)

أشد على أياديكم

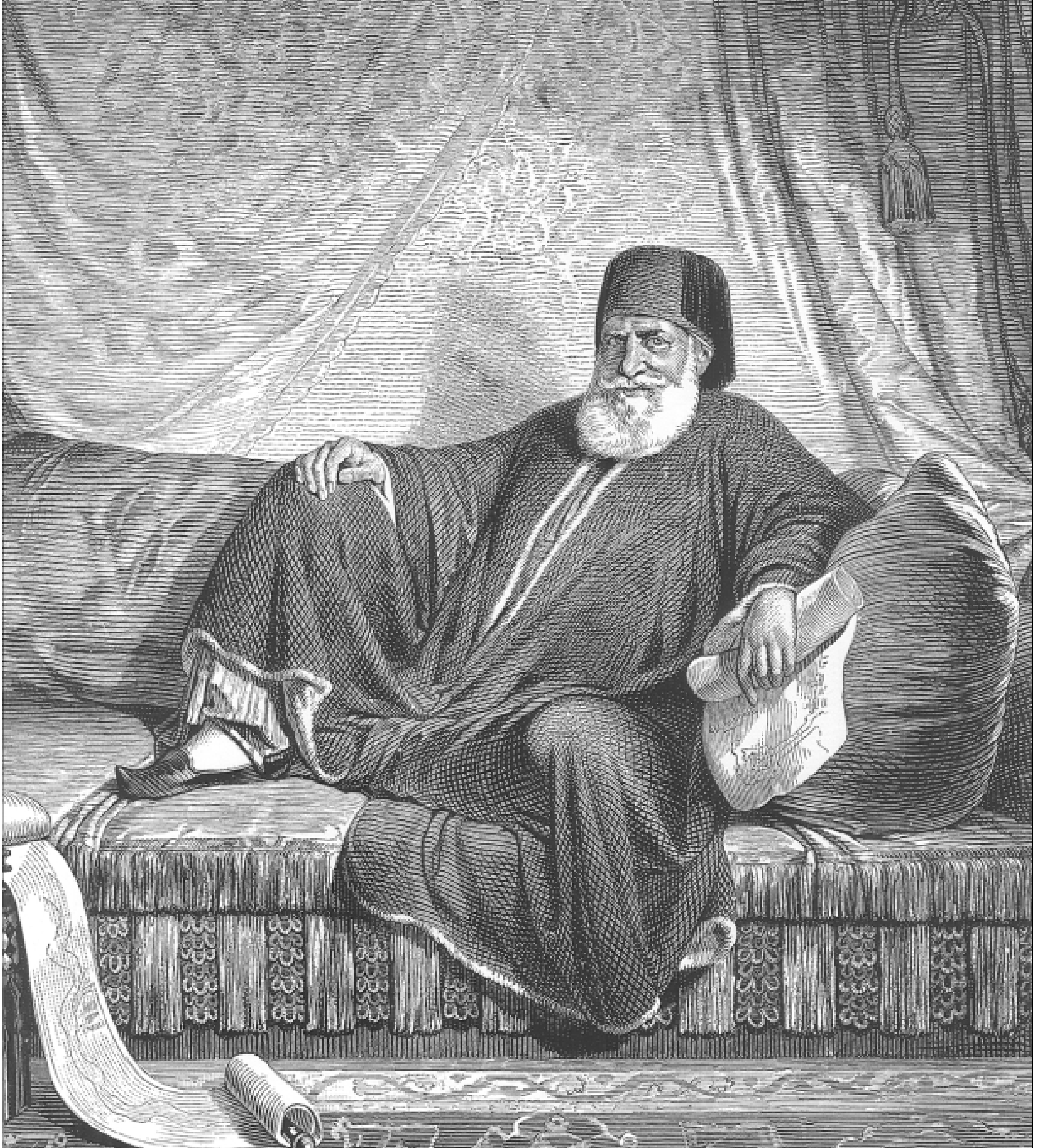
توفيق زياد

أناديكم
أشد على أياديكم..
أبوس الأرض تحت نعالكم
وأقول :أفديكم
وأهديكم ضيا عينى
ودفء القلب أعطيكم
فمأساتى التى أحيا
نصيبى من مآسيكم.
أناديكم
أشد على أياديكم..
أنا ما هنت فى وطنى ولا صغرت أكتافى
وقفت بوجه ظلامى
يتيما، عاريا، حافى
حملت دمى على كفى
وما نكست أعلامى
وصنت العشب الأخضر فوق قبور أسلافى
أناديكم ...أشد على أياديكم!!

محمد على الكبير

الــــــــــــــوالــى... والســـــــــــــــلـطـان

"تقــريـر مبعوث الآســتانــة"



أحـــــمـــــد حـــــجــــــاج




أدرك محمد على بعد هذا الاختبار ضرورة تحديث الجيش المصرى فأنشأ كلية عسكرية للتدريب وتخلص من الضباط العثمانيين وأحل محلهم ضباطا مصريين وشركس



■ ■ محمد على كان يطلق عليه اسم الكبير باعتبار سيطرته على مصر والنهوض بها وجعلها مركزا لفتوحاته حتى وصل فى بعض الأحوال إلى أعتاب الامبراطورية العثمانية التى كان سلطانها ينظر إليه على أنه مجرد تابع لهذه الامبراطورية يجب عليه «لثم» الأعتاب الهمايونية وأن يعتبر نفسه عبدا فيها. محمد على كان يطمح بالرغم من كل قوته إلى الحصول على فرمان من الباب العالى لكى يجعل من مصر ملكا له ومن بعده لأولاده، وكان على استعداد لتقديم كل الرشاوى الممكنة وإظهار الولاء للسلطان، وكانت له عيون فى الأستانة يتابعون كل ما يجرى فيها، وكان يقدم العطايا والأموال إلى كبار المسئولين فى حاشية السلطان وأصحاب القرار فيها.

محمد على ظُلم كثيرا، فقد اعتبرنا فى فترة من الفترات أنه كان طاغيا اضطهد البلاد حيث استولى على حكم مصر بالقوة وانسحب ذلك كله على تاريخ ذريته من بعده من حكام مصر، وكانت كتب التاريخ التى تدرس فى مدارسنا فى هذه الفترة انعكاسا لهذه النظرة. ولكن الآن أعيد إليه «بعض» اعتباره وفى بعض الأحوال بالمبالغة فى دهائه وقوته كما لو كانت لدينا بعض «النوستالجيا» - وهى مشروعة- عن حقبة كانت مصر قد أزاحت فيها إلى حد ما حكم سلاطين العثمانيين، وأسس فيها محمد على ما نعتبره مصر الحديثة.

محمد على هو الذى قال عن مصر :

«إن مصر تبدو لى دوما مثل طفل عار، لا يجد من يساعده ويمد له العون، طفل ظل قرونا غافلا ونائما، يجب علىّ بمفردى أن أقوم حياله بدور الأب والأم والسيد والخادم والقاضى والمعلم».

محمد على إذا ميوله عثمانية تركية وفى نفس الوقت يعتبر أن الإمبراطورية العثمانية تدار بطريقة سيئة، ومن جانب آخر فإن ميوله نحو المصريين لها ازدواجية ففى حين يجدهم سندا لمشروعه الطموح وأدخل التعليم لهم، إلا أنه يعتبرهم كسالى يجب السيطرة عليهم وتوجيههم. وكان يحابى الأتراك فى الوظائف العليا فى الدولة. ولكنه على أية حال لم يكن مختلفا عن نظم الحكم فى عصره سواء فى الإمبراطورية العثمانية أو حتى الممالك الأوروبية التى كان الحكام والملوك فيها يعتبرون أنفسهم فوق الرعية التى يحكمونها. ولكن يذكر له فى كل الأحوال أنه مؤسس الجيش المصرى النظامى الحديث، بعد أن كانت قواته من قبل خليطا من أجناس مختلفة ليس لهم أى ولاء لمصر أى مرتزقة.

مصر محمد على كانت دولة قوية تهابها الدول الأوروبية وكان يوجد فيها قناصل لأكثر الدول الأوروبية القوية فى هذه المرحلة، أى النصف الأول من القرن الثامن عشر يكتبون تقارير منتظمة عن أحوال البلاد وينافسون بعضهم بعضا فى تقوية علاقاتهم مع والى مصر. وبعضهم اشتغل بتهريب الآثار المصرية القديمة ولم يلق ذلك أى معارضة من جانب محمد على الذى اعتبر هذه الآثار لا قيمة لها وتعجب من اهتمام الأجانب بها. وقد آن الأوان لكى نقوم ببحث جدى فى الأرشيف التركى عن المراسلات التى كانت تتم بين مصر والأستانة ليس فقط خلال فترة حكم محمد على ولكن فى الفترة السابقة منذ الغزو العثمانى وتعيين ولاة أتراك فى مصر. الامبراطورية العثمانية كان لها مثل أى إمبراطورية أخرى جهاز إدارى ضخم وكان على كل مبعوث أن يكتب تقارير منتظمة تتضمن مشاهداته وتعليقاته وتوجيهاته تماما كما يبعث سفراء الدول الآن تقارير إلى عواصمهم. ولا يقتصر الأمر على الأرشيف التركى وإنما إلى أرشيفات الدول الكبرى فى موسكو وبرلين وباريس وفيينا. وقد رأيت بنفسى عندما كنت أعمل فى النمسا الأرشيف النمساوى القديم الذى تضمن مراسلات وتقارير لا تنتهى عن أحاديث قنصل النمسا فى مصر مع محمد على، بل فى أحد هذه التقارير أرفق القنصل به منشورا قام بعض الثوار المصريين فى ذلك الوقت بتوزيعه.

كلنا نعرف أن محمد على ولد فى أسرة فقيرة متواضعة فى قولة باليونان التى كانت تابعة لمدة طويلة للإمبراطورية العثمانية، وحتى وقت قصير كان لمصر إدارة لأوقاف محمد على فى هذه المدينة أعتقد أننا قمنا منذ سنوات قليلة ببيعها أو تأجيرها لكى تصبح فندقا فى هذه المنطقة، إذ حرص محمد على بعد توليه حكم مصر ألا ينسى مكان مولده فاشترى ممتلكات أوقفها على هذا المكان، وهو ما آل إلى مصر حتى بعد انتهاء حكم أسرة محمد على. كان أبوه إبراهيم أغا شرطيا محليا حرص على أن يقوم ولده- أى محمد على- بالعمل مع حاكم المدينة حيث تلقى تدريباته الأولى وعمل أيضا تاجرا للدخان قبل التحاقه بالجيش العثمانى. وقد بنى نفسه فى شبابه ولقوة إرادته بدأ وهو حاكم مصر فى تعلم الكتابة فى سن الخامسة والأربعين..

عائلة محمد على كانت كبيرة نسبيا، ومن ضمن زوجاته أمينة نصراتى زوجته الأولى ويقال أنها كانت امرأة مطلقة أنجب منها خمسة أطفال من ضمنهم خليفته إبراهيم باشا الذى أعتبره من جانبى من أكبر العسكريين ليس فى مصر وإنما فى العالم أيضا، إلى جانب ولدين آخرين وبنتين. من الزوجات الأخريات عين الحياة التى أنجب منها ولدا واحدا هو محمد سعيد والثالثة ناحماز والرابعة زيبا خديجة التى أنجب منها أيضا ولدا واحدا. ومن الجدير بالذكر أن نابليون ولد فى نفس العام الذى ولد فيه محمد على.



لن نتعرض هنا إلى تاريخ محمد على الذى أرسله السلطان إلى مصر بعد خروج نابليون منها بعد غزوه إياها، وكان ضمن «الكتيبة» الألبانية التى أرسلت ضمن القوات التركية لإعادة الحكم العثمانى فيها وباقى القصة معروف حتى تولى حكم مصر. إلا أننا نركز هنا على علاقات محمد على مع الأستانة وخاصة بعد أن عمل على تنظيم الجيش المصرى من جديد بدلا من الاعتماد على قواته الألبانية التى قدمت إلى مصر. ولأول مرة يدخل محمد على الفلاحين فى هيكل الجيش المصرى بعد أن قال الجميع أنهم لا يصلحون للجندية، فهم لا يقرأون ولا يكتبون ولم يعملوا فى أى عمل منظم طوال حياتهم. جاء أول اختبار خارجى للجيش المصرى الجديد فى اليونان عام ١٩٢٧ عندما طلب منه السلطان العثمانى محمود الثانى الاستعانة بقوات مصرية لإخماد ثورة اليونانيين ضد الاحتلال التركى. قاد القوات المصرية إبراهيم باشا، ولكن الأمور لم تجر على ما يرام مما أدى إلى ظهور خلافات بينه وبين السلطان. فى هذه الفترة كان محمد على قد أنشأ بحرية مصرية قوية وكان عليه شراء كل السفن تقريبا من الخارج وخاصة بريطانيا وفرنسا وروسيا وهى الدول التى أيدت ثورة اليونانيين، ولذلك عمدت أساطيل هذه الدول إلى التحالف فيما بينها لإجهاض البحرية المصرية الناشئة فى معركة نافارين المعروفة. لم يكن محمد على يريد الدخول فى معركة مع هذا التحالف القوى وعرف النتيجة مسبقا وحاول إقناع السلطان العثمانى دون فائدة بالتفاوض من أجل حل مشكلة ثورة اليونانيين، ولكن السلطان رفض بكل بشدة وهو ما أدى بمحمد على إلى دفع الأسطول المصرى إلى المعركة دون اقتناع من جانبه.

أدرك محمد على بعد هذا الاختبار ضرورة تحديث الجيش المصرى فأنشأ كلية عسكرية للتدريب وتخلص من الضباط العثمانيين وأحل محلهم ضباطا مصريين وشركس. وفى عام١٨٣١ دخلت القوات المصرية فلسطين ثم سوريا تحت قيادة إبراهيم باشا بعد أن كانت قد دخلت السودان قبل عشر سنوات. افتعل محمد على معركة مع والى عكا الجزار باشا الذى كان يخضع للهيمنة العثمانية عندما رفض إعادة عدة آلاف من المصريين الذين هربوا من الخدمة الإلزامية العسكرية. بعد هزيمة والى عكا زحفت القوات المصرية عبر ممر بايلان التركى حتى وصلت إلى الأناضول وهزمت القوات العثمانية شر هزيمة فى معركة قونية المعروفة ولم يكن هناك أى عائق امام تقدم القوات المصرية حتى تصل إلى استانبول نفسها وطبقا لمعاهدة كوتاهيا التى وقعت عام ١٨٣٣ تم التنازل عن سوريا وأضنة لمصر وأصبح إبراهيم باشا واليا عليهما.

ذعر السلطان محمود الثانى وقبل عرض روسيا - عدو الأمس- إمداده بمساعدات عسكرية وانتهى الأمر بمعاهدة «أونكيار سكيلسى» التى سمحت لمحمد على باحتلال جزيرة كريت والحجاز فى مقابل انسحابه من الأناضول مع تعيين إبراهيم باشا واليا على سوريا. ولكن محمد على لم يكن راضيا عن شروط هذه المعاهدة التى حرمته من ☜





كان محمد على فى فترة الزيارة حاكما ليس فقط على مصر وإنما على دولة تمتد من السودان إلى جبال طوروس إلى جانب الحجاز، وساهمت قواته فى مساعدة السلطان العثمانى فى التصدى لثورة الموره فى اليونان



قطف ثمار غزواته ولذلك استأنف عام ١٨٣٩ الحرب ضد قوات السلطان محمود الثانى وهزمها على حدود سوريا فى معركة نزيب والتجأ الأسطول العثمانى كله إلى مصر. وازداد الأمر سوءا بموت السلطان محمود الثانى بعد هذه المعركة مباشرة وخلفه ولى عهده السلطان عبدالمجيد الذى لم يكن يتجاوز السادسة عشرة من عمره. وللأسف ثارت خلافات بين محمد على ونجله إبراهيم حول الإستراتيجية التى يجب اتباعها، فقد كان محمد على حريصا على عدم دفع الأمور فى حين أن إبراهيم باشا كان يريد التقدم مباشرة لاحتلال استانبول، وهو الأمر الذى مكن السلطان الجديد من الحصول على دعم أوروبى كبير خاصة أن الدول الأوروبية هالها تقدم محمد على وإنشاء جيش مصرى قوى واحتمال استيلائه على الإمبراطورية العثمانية كلها مما قد يهدد أوروبا مرة أخرى. فقامت بريطانيا بفرض حصار بحرى على مصر وهزمت قوات إبراهيم باشا بالقرب من بيروت مما أجبر محمد علىّ على الانسحاب من كل سوريا وتم التوصل إلى اتفاقية لندن التى حددت الجيش المصرى بألا تزيد قواته على ١٨ ألف جندى وإلى التنازل تقريبا عن كل سفن البحرية المصرية. المكسب الوحيد، إذا ما أسمينا ذلك مكسبا، هو السماح له بأن يكون ممثل الباب العالى على مصر التى أصبحت ملكا له يورثها إلى أبنائه وهو ما جعله يركز على سياسة تحديث مصر اقتصاديا وعسكريا فى نفس الوقت.

لماذا هذه المقدمة الطويلة؟

فى خضم هذه الظروف كان من الطبيعى أن تكون العلاقات بين محمد على والسلطان العثمانى متوترة، فالآستانة لم تنس قيام محمد على بدخول حدودها غازيا مهددا العاصمة نفسها وكانت تعتبر أن محمد على ما هو إلا أحد أتباعها، ومحمد على من ناحيته كان يعتقد أن الإمبراطورية العثمانية مريضة وتحتاج إلى رجل قوى مثله لقيادتها يستطيع الوقوف أمام الأطماع الأوروبية. وفى نفس الوقت فإنه كان فى احتياج. ظاهريا على الأقل- إلى الحصول على موافقة الباب العالى على حكمه فى مصر. ولذلك أوفدت الآستانة عام ١٨٣٧ رجلا من رجالها إلى مصر ليقابل محمد على ويستطلع نياته وأحواله ويقيم الأوضاع فى مصر عن كثب. هذا الرجل كان اسمه «صارم» بك أحد رجال القبطان العثمانى الأكبر أحمد باشا،الذى أرسله حاملا رسالة منه تدور حول ما أبداه محمد على فى مناسبة سابقة من الرغبة فى قيام القبطان الأكبر أى قائد البحرية بزيارة مصر.ولكن الهدف الحقيقى لزيارة صارم بك كان محاولة معرفة ما يضمره محمد على نحو تركيا.

أقام صارم بك فترة فى مصر قابل خلالها محمد على باشا مرارا سواء على انفراد أو مع عدد من مستشاريه، ثم عاد إلى الآستانة حيث قدم تقريرا مطولا إلى القبطان الأكبر نقل فيه ما ذكره محمد على تقريبا بالنص وواصفا طبيعة العلاقات بين مصر وتركيا. ولا يجب أن ننسى ونحن نقرأ هذا التقرير أن صارم بك كان منتقدا وفى أحيان كثيرة معاديا بل تعمد إهانة محمد على عدة مرات ولو بأسلوب غير مباشر. كان محمد على فى فترة الزيارة حاكما ليس فقط على مصر وإنما على دولة تمتد من السودان إلى جبال طوروس إلى جانب الحجاز، وساهمت قواته فى مساعدة السلطان العثمانى فى التصدى لثورة الموره فى اليونان كما أسلفنا. ولكنه بالرغم من كل ذلك لم يكن قد حصل بعد على الفرمان الذى يطمع فيه بولاية مصر على أن يكون لأولاده حكمها بعد موته.



سنورد تقرير صارم بك كما هو، الذى يكشف عن دهاء محمد على وتظاهره بالولاء للسلطان ويصف نفسه بأنه عبد له، إذ كان يرغب دائما فى عدم وقوع السلطان تحت تأثير دسائس الإنجليز الذين لم يكونوا يرغبون فى رؤية محمد على ومصر تزداد قوة. يلاحظ أيضا من الحديث بين الجانبين محاولة كل منهما التمسح بالمشاعر الإسلامية والظهور بمظهر الدفاع عن الإسلام، ولكنه أظهر أيضا العنجهية التركية فى معاملة من تعتبرهم مجرد مندوبين عنها فى أرجاء الإمبراطورية العثمانية الواسعة. كما أن التقرير يشير إلى أسلوب التخاطب فى ذلك الوقت وهو لا يختلف كثيرا عن الأسلوب الذى كان متبعا فى التخاطب بين المسئولين الأوروبيين أيضا باستخدام ألفاظ التفخيم والتبجيل وعدم الدخول مباشرة فى الموضوع وإنما الدوران حوله.

هل يضم أرشيف دار الوثائق القومية عندنا أى تسجيل من جانب محمد على أو معاونيه لهذا الحديث؟ لا أعرف، ولكن إذا كان كما أعلن بالفعل أن غالبية وثائق الأرشيف المصرى القديم قد تم دبلجتها فإن ذلك قد يعين الباحثين على التأكد من ذلك.

تقرير صارم بك حول زيارته لمصر:

لما وصلنا إلى الإسكندرية تقدمنا إلى الحجر الصحى ولبثنا فيه بضعة أيام، لم نتلق خلالها من القاهرة أى كتاب أو أى خبر، خلافا لما كنا ننتظره إبان وجودنا فى الآستانة وما رأيناه آنذاك من الشوق. وبينما نحن نفكر فى ذلك تقدم إلينا داعيكم لبيب أفندى (الذى كان فى زيارة لتركيا من قبل وألح لرغبة محمد على فى زيارة القبطان الأكبر أى قائد البحرية لمصر)، الذى فهمنا من قدومه إلينا أنهم يريدون فى القاهرة التحقق من أسباب إيفادنا بكل سرعة، إنما أخفى لبيب أفندى سره. ولعله أخفاه لأنهم أشاروا عليه بذلك. قال لى أنه ما إن سمع بوصولى إلى الإسكندرية حتى هب لمقابلتى ثم سألنى عن أسباب سياحتى لكنه لم يستطع الاقتراب منى فى الحجر الصحى فلم نتحدث بحرية. ومع ذلك فقد فهمت مرامه وأعطيته الكتاب الذى خطه القبطان الأكبر فعاد إلى القاهرة بعد أن لبثت فى الإسكندرية يومين. وكم شكوت له طول مدة الحجر الصحى وأوضحت أن وظيفتى لا تسمح لى بطول الإقامة وأنه ينبغى على أن أعجل بمقابلة والى مصر، فبلغ شكواى عند عودته إلى القاهرة وكان جوابه إلىّ عبارة عن الاعتذار لعدم استطاعته التدخل فى أعمال الحجر. ثم وصل إلينا المهماندار أحمد أغا فامتطينا معه السفن من الإسكندرية ووصلنا إلى القاهرة (وسيلة السفر بين المدينتين فى هذه الفترة) فى اليوم الخامس من تاريخ سفرنا حيث نزلنا فى بيته فى الساعة التاسعة. وما استقر بنا المقام فى منزل سامى بك حتى رأيناه يسألنا دفعة واحدة عن مأموريتنا. ولا ندرى أفعل ذلك من جراء الصيام أم لأنهم طلبوا منه ذلك؟

سامى بك باشا معاون

محمد على باشا

كنا سمعنا شيئا كثيرا عن شيطنة سامى بك فى الآستانة وعلمنا من أقوال لبيب أفندى فى الإسكندرية ومن تحقيقاتنا الأخرى ومن إفادات مهماندارينا وسائر الموظفين أنه واسع النفوذ فى مصر، كما علمنا أنهم التزموا نزولنا فى بيته. والحق أنه قد تبين لنا من حال سامى بك ومقاله أن كل ما قيل بشأنه حق. وعليه فإننا استعذنا بالله من شره وكيده وأجبناه بأن وظيفتنا محررة فى كتاب القبطان الأكبر، وأننى من جراء متاعب السفر وحالة السفر والصيام غير قادر على الكلام. لكنه لم يقتنع بذلك وظل يطرق كل باب لأبوح بكل شىء وظل يسألنى عما إذا كنت أحمل عدا كتاب القبطان الأكبر كتابا من الباب العالى أو من أى مقام آخر وعما إذا كنت تلقيت بعض الإرادات الشفوية أو التعليمات السرية، فأجبته بأن الكتاب الذى حمله لبيب أفندى إلى القبطان الأكبر قد اطلعت عليه الذات الشاهانية، ثم كتب الجواب من طرف القبطان بأمر الذات الشاهانية التى أمرت بأن تكون المسألة سرية كما أشير فى الكتاب الذى أحمله. وحيث إننى ليست لى وظيفة مستقلة تخول لى الحل والعقد فإننى لم أتلق أى تعليمات تحريرية أو شفوية. هنالك قال لى سامى بك: إذن لماذا أوفدتم إلى مصر؟ إن مثل ذلك الكتاب كان يمكن أن يحمله أحد رجال البريد فلا بد أنكم منتدبون للقيام بوظيفة تخفونها، والحال أن أفندينا الباشا يريد أن يعلم الحقيقة وإنى لأسألكم لأطمئنه.

أجبته: لست موظفا بأى وظيفة دقيقة لكنى ملم بالمسألة المصرية، ولذلك فقد أذنوا لى لأجيب عن بعض الأسئلة. ثم إننا جلسنا قليلا فقام سامى بك وذهب وعاد قبل ساعة الغروب بنصف ساعة وأخذنى إلى المحل المعروف بالديوان فى القلعة، قائلا: إن أفندينا سيقابلك.




إننا لو حظينا بالعفو العالى التام لقدمنا للثم أعتاب الذات الشاهانية رغما من بلوغنا السبعين من العمر، ولخدمت أنا وأولادى وأحفادى الدولة والأمة بجميع عسكرنا وسفننا



أول حديث مع محمد على

كانت عادة محمد على باشا أن يفطر فى الحرم وأن يفطر الضيوف فى غرفة الديوان. وعليه فقد أفطرنا مع سامى بك ولبيب أفندى فى تلك الغرفة وبينما نحن نفطر خرج الباشا من الحرم فشربنا القهوة، ثم اختلينا فسألنى عن وظيفتى فأجبته أنه كان وصل إلينا كتاب من لبيب أفندى كما وصل من طرف دولته كتاب إلى (القابو كتخدا) رد عليه القبطان الأكبر بكتاب أرسله معى إليه. وهنالك أمر محمد على باشا سامى بك أن يقرأ الكتاب الذى جئت به فقرأه سامى وفى يده شمعة يستضىء بها فلما تمت تلاوة الكتاب اختلينا مع الباشا كرة أخرى فرأيته قد تغير لونه وظهرت عليه آثار الحدة ثم شرع يقول:

● لماذا نتحدث أمثال هذه الأحاديث. إننى لم أطلب من أحمد باشا أن يجىء إلى مصر، ولأرو لك ما حدث. لما أراد لبيب أفندى أن يتحرك من الآستانة إلى إسكندرية دعى إلى الباب الهمايونى وتشرف بلثم الأعتاب السلطانية وقابل العطف الشاهانى. ثم أطلعنا فى الجريدة الرسمية على آثار ذلك العطف وقرأنا بعض المقالات التى بشرتنا بلطف الذات الشاهانية نحونا. إنما لم يتكلم لبيب أفندى بما يفيد صراحة أنه موفد من قبلى، بل كان كل ما فعله عبارة عن أنه أفهم بحاله ولسانه أنه موفد. نعم إننا أظهرنا له مقدار إخلاصنا وعبوديتنا وقلنا له إننا لو حظينا بالعفو العالى التام لقدمنا للثم أعتاب الذات الشاهانية رغما من بلوغنا السبعين من العمر، ولخدمت أنا وأولادى وأحفادى الدولة والأمة بجميع عسكرنا وسفننا، وهذا هو كل ما حدث. وقد نقل لبيب أفندى هذا الكلام إلى أحمد باشا الذى قال له أن جلالة السلطان عظيم العفو، عظيم الرحمة وأننى لا يصح أن أتردد فى الفوز بعفوه العلى ما دمت أريد الخدمة وإظهار العبودية. وحيث إن أحمد باشا سيتقدم إلى البحر الأبيض (قائد البحرية العثمانية أى سيتوجه مع بعض السفن الحربية فى مناورة فى البحر الأبيض) فقد سئلت عما إذا كنت أدعوه إذا فعل ذلك فأجبت بأنى أكون سعيدا إذا قابلت زملائى وكتبت كتابا أرسلته مع لبيب أفندى، وعلى هذا النحو أدى لبيب أفندى وظيفته بكل نجاح. لكننى والحق قد انزعجت من الوظيفة التى تعهدتم بها، ليس لأنى لا أبغض زيارة أحمد باشا لكن لم أطلب زيارته. ثم إنكم تقولون أنكم قد تكتمتم خبر الوظيفة التى تعهدتم بها، فى حين أنه قد انتشر خبرها فى جريدة رسمية (إنكليزية) وسأريكم ترجمة ما نشرته تلك الجريدة. فهل يصح أن تكتبوا عنى على هذا النحو وأن تبوحوا بالأمر للإنكليز وأن تجعلونى على ألسنة الإفرنج ما هى خطيئتى، أترانى لا أحسن خدمة الدولة والأمة؟!.



وقد اشتد الغضب بمحمد على باشا فقال شيئا كثيرا لكنى أجبته على هذا النحو:

● لو كان الأمر على النحو الذى تقولونه كان الحق معكم، لكنه ليس كذلك. نحن لا نعلم ماذا قلتم للبيب أفندى، لكننا أجبناكم على مافهمنا من كتابكم. أما الحوادث (أى الأنباء) التى انتشرت فى الصحف فليس مصدرها الآستانة، بل المحتمل أن يكون مصدرها القاهرة.

هنالك غضب محمد على باشا وقال لى : يا بنى، إننا تعلمنا هذه الطرق وأنتم تلعبون فى الحارات. أتريد أنت الآن أن تخدع محمد على؟!

ساءتنى هذه المعاملة فتجاوزت حدود الأدب بلا اختيار وقلت للباشا:

● إنى لم ألعب فى الحارات بل دخلت الباب العالى منذ الخامسة عشرة من سنى! وهنالك خدمت فى معية أكبر الذوات وترقيت فى ظل الذات الشاهانية ولا محل لأن أخدعكم مطلقا. إنكم تعلمون أكثر الأخبار، لكن لا أعلم إذا ما كنتم تعلمون بها على وجه الصحة. إن قيامنا بإخبار الأغيار (أى الأجانب) عن وظيفتنا شىء لا يقبله العقل. فلا شك فى أن مصدر هذا الخبر هو القاهرة لا سيما أنى سمعت عند قيامى من الآستانة أن السفارة الإنكليزية بلغت الباب العالى أنه اتصل بها من طرف الكولونيل (روحمل) إنهم ينتظرون فى الإسكندرية وصول القبطان الأكبر أحمد باشا لكن الباب العالى أخفى المسألة رغما عن ذلك. وهناك دليل آخر هو أن الحوادث (أى الأنباء) لا تصل من الآستانة إلى لندرة إلا فى ظرف شهر! ولا يمكن أن يصل الخبر من الآستانة إلى لندرة وينشر فيها ثم يصل إلى مصر إلا فى شهرين على الأقل. والحال أنه لم يمر على قيامى من الآستانة مثل هذه المدة. فلا شك أنه قد ترشح هذا الخبر من مصر.

هنالك سكت محمد على باشا ولم يحر جوابا. إلا أنه قال:إننى لم أبح لأحد بشىء من ذلك بل إن قناصل الدول يزوروننى كل ليلة للاطلاع على أسباب مجيئكم فأخفى عنهم كل شىء. فسألته: هل يطلب منكم قنصل إنكلترا الاطلاع على أسباب رحلتى؟ أجابنى: أجل إنه يجتهد أكثر من زملائه للاطلاع على الحقيقة ؟ لأنه قد اتصل بعلم السفير الإنكليزى فى الآستانة خبر مجيئكم. وهنالك قلت لوالى مصر: إذا لماذا لم يكتب سفير إنكلترا إلى قنصله فى مصر؟. وعلى هذا النحو تبينت مغالطة الباشا فزدته هذه الكلمات: إن هذه الأمور لا تستحق الغضب وما دمتم تريدون دولتكم، كما قلتم للبيب أفندى، الفوز بالرضا العالى فإن مجيئى إلى طرفكم بكتاب يقضى عليكم بأن تتقدموا بالشكر، لا أن تتأسفوا لفهمنا أن الطلب وقع من طرفكم، فقال الباشا: ليكن ذلك وماذا عسى أن أقول. قل لنا أنت ما هى وظيفتك؟ أجبته على ذلك قائلا: إن وظيفتى عبارة عن أن أفهم سبب مطالبتكم بمقابلة القبطان الأكبر وأن أحمل جوابا على الكتاب الذى حررتموه، وسأزوركم كرة أخرى لفهم النتيجة، ثم قمت وذهبت إلى دار الضيافة.

لبيب أفندى

زارنى لبيب أفندى فى اليوم التالى من مقابلة محمد على باشا فسألته عن الواقع من أوله إلى آخره، فقال لى أنه تكلم بما يفيد أن محمد على باشا مقبول لدى الذات الشاهانية، ومرغوب فيه، فقابل محمد على باشا هذه الكلمات بأن جميع مساعيه متجهة لإرضاء جلالة السلطان والأمة الإسلامية وزاد على ذلك قوله: أن لدينا هنا لجلالة مولانا المعظم نحو مائة ألف، بل مائة وخمسين ألفا من الجنود مع أسطول كامل، ولا دين علينا لأحد فى ظل الذات الشاهانية. بل له فى خزائننا مقدار وافر من الأموال وإنى لمستعد ما دمت على قيد الحياة، فإذا مت فجميع أولادى وأحفادى مستعدون لخدمة الذات الشاهانية ووفقا للإرادات السنية. هذه هى آمالنا وهذه هى أفكارنا لكننا لا نجد سبيلا للاتصال وبيان الحال.

على هذا النحو تكلم محمد على باشا مع لبيب أفندى، وعلى هذا النحو أغراه سامى بك فوثق بهم لجهله بباطن الأمر، وأجابهم بأن جميع آمال الذات الشاهانية تنحصر فى إعداد القوة والفوز براحة الأمة الإسلامية، فما دام يفكر والى مصر على ذلك النحو فلا شك أن الذات الشاهانية تسعف رجاءه. وتقرر على أثر ذلك تحرير الكتاب السالف الذكر، بيد أنهم لما رأوا قدومى إلى مصر أخذهم القلق وأوجسوا خيفة. وحيث إن لبيب أفندى قد فهم مرادهم الآن فقد بدل لهجته نحوهم ولم يترك كلمة إلا قالها فى وجههم، حتى إنه قال لسامى بك :

× كنت أظنكم مسلمين، ولذلك كنت أثق بكلامكم وأستعمل مقامى لدى السلطة السنية لخدمتكم، ولهذا كتبت ذلك الكتاب المهم، فهل كتبت من تلقاء نفسى أم أنتم الذين شجعتمونى على الكتابة؟ ترى هل جاء والى مصر بكل ما يملك من الثروة من قولة (مكان مولد محمد على فى ألبانيا قبل قدومه إلى مصر)، أم نال ما ناله فى ظل الذات الشاهانية؟ قهركم الله أجمعين، إنى كنت أدعو الله لكم إلى الآن، لكن سأذهب إلى بيت الله وأعتصم بأستار الكعبة وأرجو الله أن يخذلكم.

ثم انفصل لبيب أفندى عنهم بعد ذلك وبدأ فى مذمتهم والقدح علنا فى الأسواق والمجامع، كما أنه سافر إلى الحجاز قبل قيامى من مصر بأربعة أيام. والحق أن لبيب أفندى كان محقا فى التأثر من جراء حسن ظنه فى إسلامهم.ماذا يقال عن الإسلام فى ذلك العهد؟! كل هؤلاء، كبيرهم وصغيرهم، يفكرون فى القدر الإلهى والإرادة الإلهية ويعتقدون جميعا أن الاشتغال بأداء الفرائض والسنة محض عبث ولذلك فإنهم لا يعملون بها ويزعمون أن الله بعد أن







إن جلالة مولانا المعظم ـ أطال الله عمره ـ إنما يبذل همته العالية الشاهانية ليلا ونهارا لزيادة قوة الدولة العلية وإعلاء شأنها العظيم، فإذا قمتم كذلك دولتكم بالخدمة التى تترتب لميلكم زال كل سخط وحرج



خلق العالم وكرم بنى آدم فوض إرادته للنوع الإنسانى من بين خلقه، وجعل إرادة الناس فى أرجحهم عقلا، ولهذا فإنهم يعتبرون أنفسهم أرجح الناس عقولا ويعتبرون غرورا لا نظير له.

الحديث الثانى مع محمد على باشا

كانت أول مقابلتنا لمحمد على باشا ليلة عرفة، ولهذا فإننا لم نقم لزيارته فى اليوم التالى بل ذهبت إليه أول يوم العيد دون أن نستطيع محادثته من كثرة الزوار، ثم تقدمنا إليه ثالث أيام العيد فغير الباشا أطواره وقال: إن الذى يحول دون التفاهم التام هو حيل الإفرنج ودسائسهم وأردف ذلك بقوله: إن قوته البرية كاملة وقوته البحرية عظيمة وقوته المالية قد تحسنت من حسن إدارته وأنه لو حوصرت الإسكندرية مدة طويلة فإنه لا يحتاج إلى شىء من الخارج بل إنه بحسن إدارته بإمكانه بيع بعض المحصولات حتى يستطيع ادخار الأموال، ولذلك فإن الإفرنج لا يريدون حسن التفاهم بينه وبين السلطة السنية. ثم تكلم محمد على باشا عن آثار مصانعه وكيفية نسجها ملابس الجنود ثم كيفية قيامها بتجهيز العساكر بكل ما يلزم من المهمات. واستمر يتكلم على هذا النحو نحو ساعتين ليفهمنى أنه من أصحاب القوة، لكنى اكتفيت بسماع أقواله ثم عدت إلى دار الضيافة.

وبما أنهم فهموا فى مصر بعد وصولى إليها أن لبيب أفندى ليس له أى حول أوطول ورأوا أن وظيفتى عبارة عن استقصاء أحوال مصر لإخبار الباب العالى بما أراه، أصبح هم سامى بك التحدث عن سطوة مصر فى كل وقت، كما دار كل حديث الباشا حول هذا الموضوع فى مقابلتنا الثانية. لكننى لم أقابلهم بشىء وبما أنه أصابنى، بحكمة الله، صداع استمر ثلاثة أيام لم أستطع مقابلة الباشا بالطبع. بل لم أستطع أن أحدث سامى بك بأى كلمة، فحملوا ذلك على أنى قد تأثرت من كلامهم فحولوا اهتماماتهم الباردة إلى معاملة أوفق وجاءنى سامى بك فقال لى: إنكم لم تروا أفندينا منذ أيام، فأجبته:

● وهل هو يبحث عنى أبدا ! وما عسى أن أفعل برؤيته ؟ إننى ذهبت إليه قبل أيام فقضى ساعتين يمدح نفسه ويفخر ولا أدرى ماذا كان مراده. إنى مكلف بتبليغ ما أراه!! لكننى كذلك أريد أن أفهم المرام من مقابلة القبطان الأكبر، فليس واجبى البحث عن أحوال مصر. لقد أتعب الباشا نفسه بلا لزوم، لأنى نسيت قسما عظيما من كلامه، إنما إذا كان مراده أن أبلغ ما سمعته منه، فليعلم أن ذلك يكذب ما أبداه من العبودية.



أجابنى سامى بك على ذلك بقوله:

● إذا كان أفندينا لا يدعوكم لمقابلته فذلك لئلا تظنوا أنه يطلب شيئا، أما هو فيريد أن يراكم كل يوم. ثم إنه ما قال لكم ما قال، إلا لأنه مشغول بالمصالح دون أن يرمى إلى مرمى آخر. فالأولى أن نتحدث فيما بيننا وأن نجد طريقة مثلى نعرضها على أفندينا.

أجبته على ذلك قائلا: ما دام مراد الباشا أن يفوز بالعفو القلبى والتوجه العالى فإنه يجد بنفسه طريقة ترضى مولانا صاحب الشوكة.

وعليه أوضح سامى بك وقال: أى الطرق أولى ؟ أنقدم شيئا مناسبا إلى الأعتاب السنية؟ وعلاوة شىء على واردات بر الشام؟ أم تقديم الأسطول المصرى ليكون فى معية الأسطول الهمايونى ولدى الحاجة تقديم العساكر البرية اللازمة. كان سامى بك يقول كل ذلك كأنه من عنده ويجتهد لأن يقنعنى بأنه إنما يتكلم من تلقاء نفسه، ثم إنه أردف هذه الكلمات: إنى أفهم كل شىء وأعلم أن الطريق الذى تسلكه طريق لا مخرج له، ولكن ما العمل، وهم يعطوننى هنا ثلاثمائة كيس كما أنهم أنقذونى مع عائلتى من الأسر ولذلك فإنى أخدمهم.

وعليه فإنى قلت له مظهرا الثقة به: إنك ذو دراية وفطانة. وقد اعترفت أن الطريق الذى تسلكه طريق لا مخرج له فإذا تقدمت فى طريق الإنصاف كانت العاقبة حسنة. ثم إنى زدت على ذلك : أننا يمكننا أن نتكلم بعد الآن، لا شك أن تفهم نقص آرائكم التى تريدون أن تنالوا بها الرضا الشاهانى. إننى أرى أن جريرة الباشا التى يطلب العفو عنها نجمت عن غضبه على والى عكا، والآن قد زال ذلك الغضب فالأولى اذن أن يكتفى الباشا بمصر وأن لا يتكلف النفقات الطائلة وأن يحصر سعيه للاحتفاظ بالعساكر والسفن الكافية لمصر والحجاز وأن يعود إلى حالته السابقة. إننى أظن أن هذا العمل يرضى الذات الشاهانية ويجعلها تسبغ عفوها على الباشا.

أجابنى سامى بك على هذه الآراء بقوله: أرجو ألا تقول لأفندينا شيئا من ذلك لأنه يغضب منه ثم إنه يشك فيكم بعد أن بدأ يثق بكم. أجبت سامى بك بأنى أجبته بما خطر ببالى ردا على كلامه، وإذا سألنى الباشا أيضا لن أتأخر فى تكرا رتلك الآراء، لكنى لست مكلفا بذلك فلا أتقدم من تلقاء نفسى لفتح باب الموضوع. هنالك قال لى سامى بك: إن أفندينا يجيبكم على تلك الآراء بكلام طويل، فالأرجح أن تبحث فى آرائى، لأنها أقرب إلى المصلحة. ثم إنه إذا كان العفو هذه المرة كالمرات السالفة، لفظيا فحسب، فإنه لا يثق به. لأنه يريد أن يحظى هذه المرة بعفو يضمن راحته وراحة عائلته من بعده!

أجبته قائلا: ينبغى أن يكون الشرط من صاحب العفو ؟ وأن ينتظر أن يتحقق بعد العفو. وعلى هذا النحو تجاهلت فهم ما يرمى إليه، من توريث أولاد محمد على بعده.

ثالث حديث مع محمد على

وفى اليوم التالى تقدم محمد على باشا إلى حديقة شبرا ودعانى إليها فتقدمت إليه وحدثته نحو أربع ساعات فقال لى: إنه يعرض على الأعتاب الشاهانية إخلاصه وعبوديته، وإن ما وقع منه من قبل إنما وقع من جراء قيام بعض الناس بإغضابه، وأنه ندم الآن على ما فرط منه ولا يأمل إلا أن يقبل الأعتاب الهمايونية وأن يقضى أكثر أوقاته، إذا صدرت الإرادة السنية فى البوسفور ليقوم بحصته فى الخدمة بدرجة عقله، مالا وبدنا، وأن الإفرنج يفرحون إذ يرونه منظورا إليه بعين السخط من طرف السلطنة السنية فيبذلون كل جهدهم لفصل الطرفين عن بعضهما تمام الفصل، وهذا لا يؤدى والعياذ بالله إلا إلى تفرق كلمة الأمة. ولهذا فإنه قد حار فى أمره، لكنه يرى أن كل شىء بدأ يتحسن فى الآستانة العلية، ولهذا فإذا اتحدت الكلمة وانضمت العساكر المصرية إلى العساكر المعمورة والسفن المصرية إلى الآستانة المعمورة لا تجرؤ أى دولة من الدول الأربع على إضمار شىء نحو الدولة العلية ولا تتمكن من أن تقترح عليها شيئا مما تقترحه الآن، ثم إذا استمر العمل على هذا النحو عشرة أعوام تجددت قوة الدولة العلية وأصبح جلالة ولى نعمتنا المعظم أطال الله بقاءه- كأجداده العظام، ملجأ للملوك والأمراء.

أجبت الباشا على ذلك: إن جلالة مولانا المعظم ـ أطال الله عمره- إنما يبذل همته العالية الشاهانية ليلا ونهارا لزيادة قوة الدولة العلية وإعلاء شأنها العظيم، فإذا قمتم كذلك دولتكم بالخدمة التى تترتب لميلكم زال كل سخط وحرج.

هنالك بادرنى محمد على باشا بقوله: كلا يا بنى ! إنك قد تكلمت مع سامى بك ببعض الأقوال التى نقلت على أن وزراء الدولة العلية والذات الشاهانية ينبغى أن يكونوا مثلى، لأن كثرة الوزراء لا تفيد وإنى لمستعد أن أرسل ولدى مع مائة ألف من الجنود إلى أى مكان يريده سيدنا ولى النعم. كما أنى من جهة أخرى أجيب العدو على كل شىء بالسفن المصرية. فليقرر جلالة ولى النعم هذه الشروط بدلا من أن يطلب منى ترك الأراضى التى فى عهدتى، وليعدنى بإحسان هذه البلاد إلى أولادى وأحفادى إذا أمل منهم خدمة. أما إذا كان لا يثق بنا فليكتب شروطه وما يطلبه من الخدم وليعلنها فى أوروبا وفى جميع البلاد، بشرط أن يلغيها إذا ما ظهر من أولادى وأحفادى أى شىء مخالف لها. أما تفريق شمل القوة التى جمعتها فى ظرف ثلاثين عاما فلا تعتبر إلا خيانة للدولة والأمة. لقد روى لى قنصل النمسا قبل أيام أنه سيطلب منى تقليل قوتى البرية والبحرية فأجبته أن زملائى (يقصد زملاءه من المسئولين الأتراك) لن يقترحوا على أمثال هذه الاقتراحات وهأنذا أرى ذلك صحيحا. ثم إنكم طلبتم جلائى من بر الشام، ترى هل تجدون وزيرا أصلح منى لإدارة الشام؟ إننى إذا اقتنعت أنها ستدار إدارة أحسن من إدارتى تركتها.

أجبت الباشا عن ذلك قائلا: بما أنه يقتضى على العبد أن يفوز بالرضا قبل




إن الأهالى فى الأناضول يزرعون أراضيهم حد الكفاية، وقد شاهدت القرى إبان قدومى إلى القاهرة فرأيت الفلاحين يعيشون فى عشش من الطين لا تحتوى على حصيرة أو غطاء



كل شىء فلا يصح البحث فى الإحسان. إنكم لإكثاركم من الأرباح (الإيرادات التى تحول من مصر إلى الأستانة) وزيادتكم من عدد الجنود قد أحسنتم فى الإدارة أكثر من قبل، لكننا نسمع بما يقع من الاعتداءات الكثيرة، ويصل إلينا ما يرفعه الناس من التظلمات والشكايات. وحيث إن الرعية وديعة فى يد صاحب الجلالة المعظم، ظل الله فى العالم، وخليفة النبى المحترم فإن جلالته يريد أن تحظى رعيته بالأمان والسلام.

أجابنى محمد على باشا على ذلك بقوله: هل الإدارة التى يقوم بها الأمراء المسيحيون (فى الشام يقصد) بأحسن من إدارتى؟ هنالك قلت له: إن ما يفعلونه يكاد لا يذكر، إنما كان من مآثر جلالة مولانا السلطان أن أزالهم. اندهش محمد على باشا من هذا الجواب وسألنى: وكيف حدث ذلك ؟ أجبته بأن حضرات المشيرين (يقصد كبار الضباط من رتبة مشير الذين يتولون الإشراف على بعض المناطق) العظام قد أحيلت عنهم الالتزامات، ثم شرحت له كيفية وقوع ذلك والتعليمات التى صدرت والإرادات السنية التى انتشرت فى هذا الباب ورأيت أنه كان يظن أن المشيرين يكتفون بجمع الجنود ولا يفعلون شيئا فى الإدارة المالية والملكية. وقد سر محمد على باشا من إيضاحاتى وواظب على إيضاح سروره حتى يوم عودتى. ثم قال لى إنه لا يقع أى اعتداء فى البلاد التى فى عهدته ولا يقع أى أمر إلا بعلمه لأنه تصل إليه التقارير من كل مكان. أجبته بأن تلك الأصول تراعى الآن فى كل مكان من الممالك المحروسة وأن الحصول على التقارير وإن كان حسنا إلا أنه ليس من المأمون أن يكون ما تحتويه التقارير صحيحا فى كل وقت.

وقد أعلن محمد على سروره من هذا الخبر أيضا، ثم إنى قلت له: إن العصيان الذى وقع فى برية الشام أخيرا نجم من كثرة الاعتداء ومن البدع الجديدة من جمع العساكر. فأجابنى: إن الأهالى عسر عليهم جمع العساكر (أى الخدمة الإلزامية للالتحاق بالجيش) فقاموا، لكن جمعت أسلحتهم فانخمد عصيانهم وحيث إنهم شجعوا على الزراعة كأهل مصر فسيربحون من ذلك إلى أن قال: «إن أمتنا تحب الكسل، ولا تقدم على العمل من تلقاء نفسها فلابد من سوقها إلى العمل. كنت أسمع من قبل أنه يرسل من حوالى منطقة آيدين إلى أزمير كل عام (١٨٠) ألف بالة من القطن وأنه قد هبط هذا المقدار الآن إلى (١٠) آلاف بالة، وهذه أمور تستحق الدقة».

أجبته: إن الأهالى فى الأناضول يزرعون أراضيهم حد الكفاية، وقد شاهدت القرى إبان قدومى إلى القاهرة فرأيت الفلاحين يعيشون فى عشش من الطين لا تحتوى على حصيرة أو غطاء، ولا يلبسون إلا قميصا ولا يتغدون إلا بالعدس، رغما عن أنهم يشتغلون ليل نهار ويحصدون مزروعاتهم مرات متتاليات فى العام، وتلد حيواناتهم مرتين. مع أنهم ينبغى أن يعيشوا فى رفاهية وثراء. تعمد الباشا إغضاء الطرف عن هذا التعريف وقال إنهم يدفنون النقود تحت الأرض وإنه قد مات شيخ قرية قبل أيام، فظهر فى بيته ألف كيس من النقود. ثم عدنا لموضوعنا فقال الباشا:

● أى بنى! إن عصيان بر الشام أوقعنى فى خطيئة وإننى لمتهم بها ولما علمت أنه وقع ذلك العصيان بإغراء رشيد باشا غضبت كثيرا وراجعت إنكلترا لتعترف لى بالاستقلال. إنما لم يمض على ذلك عشرون يوما حتى ندمت ولا أنفك أوبخ نفسى من جهة وألوم رجالى المقربين لعدم منعهم إياى.

أجبته على ذلك: إننا سمعنا أن الأسباب السالفة الذكر هى التى تسببت فى الثورة ولو فرضنا أن رشيد باشا هو الذى أقامها، كانت لا تصح مراجعة الأجنبى فيظهر أنكم غضبتم غضبا عظيما؟! فكان جواب محمد على باشا على ذلك:

× أجل، كان ذلك الواقع، لكن أراهم فى الأستانة يراجعون الأجانب ضدى دائما ويرسلون السفراء إلى الخارج للبحث فى مسألة مصر والحال أنه لا فائدة فى ذلك. وقد علمت أن سفير فرنسا قد حدث الباب العالى محادثة سرية قبل مغادرته الأستانة وأنه أعطى خطا همايونيا له وأنه قد استدعى القنصل الفرنسى فى القاهرة، وسنرى ما يفعل هؤلاء. إنهم لو أسعفوا رجائى واجتنبوا تدخل الغير فى الأمر تكون النتيجة أحسن!

قابلت الباشا بهذه الكلمات: كلا يا سيدى! إنكم فتحتم هذا الباب بأيديكم. أما فى الأستانة فإنهم لا يراجعون السفارات أصلا! بل المحتمل أن يكون الباب العالى قد سئل بعض الأسئلة فأجاب عليها جوابا مناسبا... وقد راجع الأميرال (روش) وأخبرنا أنكم تريدون الحصول على العفو العالى مقابل ترك بعض البلاد، ولعله استفسر عما إذا كانت تصدر إرادة علية فى هذا الشأن فأجيب على ذلك النحو المناسب.

وهنا أقسم محمد على باشا بأغلظ الأيمان أنه لم يراجع الفرنسيين أصلا وأنه سمع أن الفرنسيين قدموا تقريرا للباب العالى، لكنه لا يعلم بشىء من ذلك وكل ما يعلمه عبارة عن أن الذات الشاهانية سترضى بانتقال مصر إلى أولاده وأحفاده. أجبت على ذلك بأن ذلك الرضا لا أصل له ولا فصل.



وحيث إنه أمسى المساء عدت إلى دار الضيافة وفى اليوم الثانى جاءنى سامى بك وحدثنى فى منزله قائلا: إنكم قد تباحثتم مع أفندينا بالأمس مباحثة طويلة وقد روى لى شطرا منها فرأيته يتهاود فما عليك إلا أن توالى السعى وتصل إلى حل المسألة حلا حاسما فى القطر المصرى. أجبته: أهذه هى المهاودة؟ لقد تكلم الباشا وما فعلته أن سمعته. فماذا عسى أن ينتج من ذلك ؟ ثم إنى لا تسمح لى وظيفتى بالبت فى شىء إنما آمل التوفيق فى المستقبل إذا مال الباشا إلى التفاهم، أما حالته الحاضرة فتدعو إلى اليأس.

فرد على سامى بك بقوله: إن ذلك الرجل على علاقات حسنة مع الإفرنج لكنه لا يرد أن يصل إلى مرامه بتدخلهم فإذا تأجلت المسألة سبعة أعوام أخرى انحلت على الأصول الأوروبية.

فكان جوابى: إننى لا أفهم سبب ميل الإفرنج إليكم، أو احترامهم لكم أكثر من احترامهم السلطنة السنية. ترى هل تظنون أن الناس يجتمعون لخدمتكم على قاعدة منافية للحق؟ إن ما تتمتع به البلاد المصرية من الأمان مبنى على حكم السلطنة السنية، فإنكم كلما فاجأكم الإفرنج ببعض المطالب تجيبونهم أنه لا يمكنكم أن تنفذوها إلا إذا رضيت الدولة العلية وبذلك تتخلصون من ضغطهم فهل يمكنكم أن تنكروا ذلك؟

هنالك أجابنى سامى بك بقوله: أسأل الله ألا يتقلص عنا ظل الدولة وإنى لأشاركك فى اعتقادك وأتمنى حل المسألة. فبادرته بهذه الكلمات: إنك أمين الباشا ومستشاره، ويمكنك أن تفهمه كل شىء على أحسن صورة فتنال المكافأة. وانتهى الحديث بيننا على هذا النحو.

الحديث الرابع مع محمد على فى قصر الدوبارة

وحيث إنه تقدم محمد على باشا إلى قصر إبراهيم باشا الواقع فى حديقة (الدوبارة) القريبة من القاهرة ودعانى إلى ذلك القصر سرت إليه وقابلته هناك وذكرت له أنى لبثت فى مصر أكثر من عشرة أيام وأنى فهمت ما أريد فهمه فإذا سمح لى دولته تأهبت للرحيل فى ظرف يوم أو يومين. وزدت على ذلك أنه لم يكن من المنتظر أن تطول الرحلة البحرية على هذا النحو من جراء الحجر الصحى، بل كان ينبغى على الإسراع بالعودة لأقوم بواجباتى التى أؤديها فى حكومة الذات الشاهانية. أجابنى الباشا على ذلك بقوله:

● إذا فعلتم ذلك تقصر مدة إقامتكم لدينا. إنما قد أخبرنا ولدنا القبطان الباشا أن نعيدكم إليه بسرعة وعليه فإننا نتمنى لكم السلامة ولا يمضى يومان حتى ترحلوا. أما مسألة كريد (يقصد جزيرة كريت التى احتلها الجيش المصرى) فقد سبق البحث فيها مع سامى بك وعلمنا أنكم تحملون الدفاتر الخاصة بتلك الجزيرة. فاطلبوا إذن مقابلة هذه الدفاتر بالدفاتر التى وردت من كريد حديثا. وقد هيأت من تقاسيط (أى الأقساط) الواردات المصرية وبر الشام قسطين مع نقود أصحاب العلاقة وخمسة وعشرين ألف كيس على حساب كريد، ولا شك أنها ستصل إلى الأستانة العلية قبلك. فإذا تبقى شىء بعد مقابلة الدفاتر من واردات كريد، أرسلته من بعدك مع القسط الآخر. والسبب فى عدم انتظام التقاسيط هو ما استدنته من الأوروبيين من جراء شراء بعض الأشياء، إنما قد نقص ذلك الدين الآن وبقى علىَّ للفرنسيين نحو (٢٥٠) ألف كيس سأدفعها

إن مولانا صاحب الشوكة ـ أطال الله بقاءه ـ سلطان على الشأن، عظيم الرحمة لم ير العالم نظيره ولو تقدمتم إليه وتشرفتم بلثم أعتابه لفهمتم ذلك ولندمتم على تفريطكم فى أداء هذا الواجب



خلال هذه السنة وهنالك أقدم للأستانة العلية كل تقسيط فى وقته.

ثم قدم لى الدفاتر التى وردت من كريد فقلت له: إنكم كنتم حدثتم برتو باشا ناظر الإدارة الملكية وقلتم له إنكم تدفعون فى أول سنة (٦) آلاف كيس وتزيدونها فيما بعد إلى (١٠) آلاف ثم تزيدونها على هذا النحو، والحال أنكم لم تضبطوا المستندات القديمة. فأجابنى: أجل كنا تحدثنا على ذلك النحو وإنما لم تصلح الأمور بعد، بل لم أستطع الحصول على نفقاتى، إنما بدأت تنتظم الأمور. ولو سجل اسمى فى دفتر العبيد المخلصين مع زملائى لزدت واردات البلاد التى فى عهدتى.

حينئذ أجبته قائلا: لا نشك مطلقا فى أنكم مقيدون ذلك فى الدفتر، فسارعوا إلى إظهار همتكم والقيام بواجبات العبودية لتكونوا أكبر زميل لجميع العبيد المخلصين (أى المسئولين فى كل أنحاء الإمبراطورية العثمانية) فيصلح كل شىء. وقد أردت أن أطمئن الباشا بأمثال هذه الكلمات فأجابنى بقوله: أجل إننى كذلك آمل ما تقول، لكننى قد فعلت شيئا كثيرا فلا أثق وأريد أن أثق، كما أتمنى أن يقوم أولادى وأحفادى من بعدى بخدمة السلطة السنية، بقاء لذكرى فى ظل الذات الشاهانية وكم أود أن أحظى بلثم الأعتاب الهمايونية لكنى لا أدرى بأى وجه أفعل ذلك.

فقلت له: إن مولانا صاحب الشوكة ـ أطال الله بقاءه ـ سلطان على الشأن، عظيم الرحمة لم ير العالم نظيره ولو تقدمتم إليه وتشرفتم بلثم أعتابه لفهمتم ذلك ولندمتم على تفريطكم فى أداء هذا الواجب. فأجابنى الباشا قائلا: أسأل الله ألا يقبضنى قبل أن أحقق هذا الأمل. قلت له: هذا فى يدكم فإذا سعيتم له فزتم به.

أجابنى: إنكم تقترحون على ذلك، إنما لا تكفى هذه الاقتراحات لملء قلبى بالثقة. فرددت عليه: إن هذه إلا آراء أبسطها لك من تلقاء نفسى، فمثلا إذا كنت تكتفى بمصر تنجلى عن البلاد الأخرى من نفسك وترجو بقاء (عكا) فى عهدتك فربما يقبل رجاؤك. أجابنى محمد على باشا بقوله: والله لا أرضى بترك قرية واحدة من تلقاء نفسى، أما إذا أكرهت، فذلك شىء آخر. إننى إذا أردتم منى أن أثق، فاعلموا أنه لا تحل الثقة فى قلبى إلا بإبقاء الأراضى التى فى عهدتى معى إلى حين مماتى، ثم وعدت بإحسانها إلى أولادى وأحفادى من بعدى. هنالك أقف كل حياتى لطلب الرضا العالى وخدمة السلطنة السنية وبذل كل ما أملكه فى سبيل الذات الشاهانية. وهنالك لا تمس الحاجة لتقليل القوة المصرية، إذ تكون تلك القوة بأجمعها تحت أمر الذات الشاهانية التى يستعملها كما يشاء دون أن يتحمل أى نفقات.

أجبته قائلا: هذا ما لا يقبله عقلى، إنى لأرجوكم إعفائى من الإجابة عن هذه الأسئلة لأننى لست مخولا للبحث فيها. والأولى أن تعتبرونى كأنى لم أسمع هذه الكلمات.

فقال: إننى إذا أسعف رجائى فيها، وإلا فإنى راض عن حالى الحاضرة ولا أقصر فى الدعاء. لكنى أخشى تدخل الإفرنج، الذين لابد أن يتدخلوا على هذا النحو، فتسوء العاقبة لأن القناصل منذ وصولك كل يوم يلحون فى السؤال لفهم وظيفتك. وقد أخفيت عنهم كل شىء إلا أنى اضطررت إلى التلميح لبعضهم، وذلك دأب الإفرنج الذين لا يفعلون شيئا لمصلحة الإسلام بل يجرون وراء منافعهم. سيحدث ما سيحدث وما عليك إلا أن تنقل ما رأيت وما سمعت، فلعلهم يجدون حلا.

أجبته: إننى لا أستطيع أن أتحفكم بأى أمل، وإذا كنتم لا تثقون بى فأمروا رجلا تثقون به لأروى له كما سمعت منكم إزاءه. أجابنى محمد على باشا: إننى فكرت فى ذلك، لا لعدم ثقتى بك، بل لتقديم عريضة شكر للذات الشاهانية يتقدم بها ولدى عباس باشا أو سامى بك معك. لكنى تأدبت من تقديم تلك العريضة، ولم أستنسب إرسال رجالى، بيد أنى سأفكر بعد رحيلك، فإذا قررت شيئا أرسلت مندوبا. أجبته: ذلك الأمر مفوض إليكم. إنما أرجو ألا يكون مصير ذلك الرجل عبارة عن الذهاب والإياب مثلى.

ثم عدت إلى دار الضيافة.

محمد على باشا وقناصل الدول

إن الباشا المشار إليه محمد على يبالغ فى احترام القناصل ويتباحث معهم فى كل أمر. وقد ظهر لى أن القناصل يتدخلون فى كل شىء إلى درجة أنه لما تمت مدة الحجر الصحى فى مدينة الإسكندرية جاءنى وكيل قنصل فرنسا وأراد أن يفهم منى وظيفتى فصرفته بالتحدث فى الإقليم والهواء. ولما وصلت إلى القاهرة زارنى القناصل أجمعون بمناسبة العيد فلم أتكلم معهم إلا فى المواسم. إنما جاءنى قنصل الروسيا مع قنصل النمسا ذات يوم وأطالا زيارتهما وذكرا حسن إدارة محمد على باشا وانتظام سفنه وكثرة عساكره البرية والبحرية ومهاراتها وعنايته بالمصانع والزراعة والتجارة ثم مدحا قوته المالية وقالا: إن محصول العام وافر وأنه سيستفاد منه فوائد كبيرة تربو على مليون ونصف مليون من الأكياس وزادا على ذلك أن الباشا يريد ترك الأمر لأولاده ليستريح وأنه مادامت الأمور تنتظم فلا شك أننا سنسهل للباشا الوصول إلى مرامه.



فأجبتهما قائلا: إننى لا علم لى بما يرومه الباشا على تلك الصورة، لأن وظيفتى عبارة عن النظر فى واردات كريد المرتبطة بإدارة القبطان الأكبر أحمد باشا. إنما الباشا كان قد أخبرهم بذلك ولهذا فإنهم لم يتقبلوا هذا الجواب وسألونى عما إذا كنت منتدبا للقيام بوظيفة أخرى وعما إذا كان الباشا يحدثنى فى مسائل أخرى؟ فأجبتهم قائلا: إذا كان الباشا حدثنى فى مثل تلك الأمور أصغيت إلى أقواله وأجبته وفق ما أعلم. فقال قنصل النمسا إن الباشا قد بلغه أن المطلوب تقليل القوة المصرية وأنه يرفض ذلك. فأجبته بأن الباشا أخبرنى بأنه بلغه شىء من هذا القبيل فأجاب بأنه لا ينتظر من زملائه أن يقترحوا عليه مثل ذلك الاقتراح.

قال قنصل النمسا: ليتكم تنصحونه لئلا يختار هذه النفقات الباهظة بلا لزوم. أجبته قائلا: إنكم كنتم تمتدحون إدارة الباشا الآن فلا شك أن الباشا يفكر فى ذلك.

وحيث إن هؤلاء القناصل ما زارونى إلا بطلب الباشا، وإن لم يكن ذلك فلا شك أنهم سيخبرونه بكل ما أقوله فإنى لم أشأ إطالة الكلام وغيرت الموضوع فأراد قنصل النمسا أن يعود إلى البحث، إنما فهم الميرالاى « رد حمل» قنصل الروسيا مرامى وتكلم عن الحجر الصحى وعن غضبى على قنصل اليونان الذى كان يشرف على الحجر قائلا: يشرف على الحجر الصحى فى الإسكندرية واحد من القناصل كل شهر والحق أنه صادفت نوبة الحجر عند وصولى إلى الإسكندرية زمن القنصل اليونانى الذى أبلغنى أن مدته هى ٢١ يوما، ثم أراد أن يضع فى السفينة الهمايونية التى أمتطيها بعض الحراس من الكفار، فلم يقبل الربان ذلك وأبلغنى الواقع فأمرته ألا يقبل أولئك الحراس. إنما ألح القنصل اليونانى فى وجوب دخول الحراس، وجاء زكى أفندى مع بغوص (أرمنى مقرب من محمد على وكان يقيم أغلب الأوقات فى الإسكندرية) برفقة القنصل لإقناعى، وحيث إنى لم أكن أعلم أن الرجل الذى يرافق زكى أفندى وبغوص هو القنصل اليونانى فإنى لم أسمع إلحاحهم على إقامة الحراس حتى قلت: لعل ذلك من آثار ملعنة القنصل اليونانى لأنى أعلم أصول الحجر وهى ليست كذلك. إننى لو ذهبت بهذه السفينة إلى مياه اليونان، لما قبلت إقامة حراس فيها. فكيف أقبل ذلك وأنا أتقدم بسفينة همايونية إلى بلاد تابعة للذات الشاهانية، فليفعل القنصل ما يشاء. بل إذا شاء فليقرر أن الحجر غير صحيح. وعليه غضب القنصل وغادر السفينة وأراد أن يضم عشرة أيام على مدة الحجر التى تخصنى وألا يعترف بصحة الحجر، إنما لم يستطع لذلك سبيلا بهمة الذات الشاهانية وكان نصيبه الهوان. هذه هى الحادثة التى أشار إليها قنصل الروسيا فى حديثه وقد أجبت على إشارته بأنى لا أصل إلى الأستانة حتى أطلب ترضية من سفير اليونان، فأجاب: إن القنصل اليونانى فى الإسكندرية يشتغل بالتجارة منذ القديم فلا يعلم الأصول التى ينبغى أن تتبع، ولهذا نرجوكم ألا تغضبوا من عمله. فقلت له: لا بأس، عليه أن يتعلم احترام الناس على هذا النحو.

إن مدح القنصل لمحمد على باشا لم يكن مدحا صادقا بل كان لإرضاء خاطره أو لفهم رأيى، وهبهم أنهم كانوا جادين فى مدحهم فلا شك أنهم قد بالغوا.

أسطول محمد على

نعم إن فى البرية والبحرية المصرية نحو مائة ألف جندى، وفى المدارس بعض أولاد العرب (أى المصريين) لكنا لم نر إلا بعض السفن المكونة من (٨) قباق و(٥) فرقتين و(٤) فروت ونحو عشر بريق وغولت وفوتر وكلها وإن كانت مزينة، إلا أنها لا تجدى نفعا، وقد فحص عبدكم راغب قبطان حالة النظام فيها وحالة الترسانة فيها وعليه أن يقدم تقريرا بشأنها.

إدارة محمد على

أما حسن إدارته فعبارة عن اجتماع لبعض المحاسيب حوله وسوقهم إياه كل يوم إلى شىء لمجرد الحصول على المنفعة الشخصية ثم قيامهم بمدح ذلك الشىء. فإذا لم تفلح التجربة استخدموا الأجانب بمرتبات باهظة للقيام به. وقد أسست بعض المصانع التى تنتج ما يلزم العساكر ولهذا لا يشترى من الخارج شىء، إنما قد أنفقت نفقات عظيمة ولا يدرى أحد متى يؤون أوان الربح.

والحق أن محمد على باشا اكتشف طريق التجارة، فإنه يشترى جميع محصولات البلاد التى فى عهدته ثم يبيعها فلا يملك أحد من ماله شيئا. وكذلك فإنه يشترى كل ما يرد من الخارج ليبيعه للناس. أما الفلاحون المساكين فإنهم لا يجنون من سعيهم إلا إشباع بطونهم. إنهم يقدرون ربح مليون ونصف مليون كيس من المحصولات هذا العام. وهذا الرقم وإن كان مبالغا فيه إلا أنه لم يبعد عن (٥٠٠٫٠٠٠) قنطار ثمن كل قنطار خمسمائة قرش، وحيث إن محمد على قد اشترى كل قنطار بمائتين وخمسين قرشا من أصحابه فقد بلغ ربحه مائة فى المائة وحصل الباشا على مائتين وخمسين ألف كيس من القطن فحسب. فمن الممكن أن تصل الواردات إلى النحو المذكور، لكن الأهالى لا يستطيعون أن يبيعوا محصولاتهم بثمنه ولذلك فإنهم يعانون كثيرا من المصاعب فى أمر المعيشة ويشكون مر الشكوى من ذلك. وكذلك الجند غير ممنونين، لكن الأهالى تخشى الجند والجند يخشون ضباطهم فيلتزمون السكوت.

جيش محمد على

إن أكثر ضباط محمد على من عبيده، وكما أن قسما منهم من قدماء رجاله الذين رباهم وأجزل لهم العطاء وأفسح لهم الحرية وزوجهم بجواريه وربطهم بنفسه. ثم إن قسما قليلا منهم قد تصاهروا فيما بينهم فارتبطوا ببعضهم، ويوجد من بينهم من هم كالأنعام لا يفكرون فى شىء إلا فى نعيمهم ولا يتأخرون عن تأييد اضطهاد الباشا لمجرد منفعتهم، فكل انتظام الجيش المصرى مبنى على حالة ضباطه السالفة الذكر.

وحيث إننا أتممنا أهبتنا للسفر يوم الاثنين الموافق ١٥ شوال تقدمنا إلى الباشا لوداعه فسلمنا الجواب الذى حرره وقال لى: إننى لأدعو لجميع زملائى. ثم تقدمت إلى (بولاق) وسافرت منها إلى الإسكندرية حيث امتطيت السفينة الهمايونية فجاءنى بغوص وقال لى: إن الباشا أمر بزيادة الخمسة وعشرين ألف كيس التى تهيأت إلى ثلاثين ألفا. ثم تحركت وتقدمت إلى الآستانة، حيث حررت هذه العريضة عما رأيت وشاهدت وسمعت وحققت. ولقد التزمت التواضع وخطة المماشاة فى مبدأ الأمر مع الباشا المشار إليه وسعيت لإمالته إلى النقطة المطلوبة إلا أنه لم يقبل ذلك بل زادت نخوته، كما لم تؤثر فيه الكلمات القوية التى قلتها له أثناء المصاحبة (أى اللقاء) وهو وإن لان فى بعض الأحيان، إلا أنه لم ينزل عن قوله ورأيه وهو ما يدل على أنه يأمل شيئا من الأجانب.

وإذا ما فرضنا أن اللغة التى يستعملها القناصل نحوه جدية فذلك يؤيد ما نقول، إنما تدل تحقيقاتى السرية على أنهم يضغطون عليه فى وجوب إطاعة السلطة السنية واتباع أوامرها، لكنى لم أطلع على صورة ذلك الضغط، وعدا هذا يريد كل إنسان فى القطر أن يبيع ما له بنفسه ويطلب ترك أصول اليد الواحدة (أى احتكار محمد على للمحصولات). ثم إن الباشا كان يواظب على مذمة الإفرنج إزائى بكل شدة كما كان يظهر عليه القلق والاضطراب رغما عن تكتمه: وقد حررنا هذا للتشرف بإحاطتكم علما به. انتهى تقرير صارم بك. ■

كـتـــاب
الــزاويــة



قصائد فلسطينية
(٤)
المدينة المحاصرة

معين بسيسو

البحر يحكي للنجوم حكاية الوطن السجين
واللّيل كالشحّاذ يطرق بالدموع وبالأنين
أبواب غزة وهي مغلقة على الشعب الحزين
فيحرّك الأحياء ناموا فوق أنقاض السنين
وكأنّهم قبر تدقّ عليه أيدي النابشين
وتكاد أنوار الصباح تطلّ من فرط العذاب
وتطارد اللّيل الذي ما زال موفور الشباب
لكنّه ما حان موعدها وما حان الذهاب
المارد الجبّار غطّى رأسه العالي التراب
كالبحر غطّاه الضباب وليس يقتله الضباب
ويخاطب الفجر المدينة وهي حيرى لا تجيب
قدّامها البحر الأجاج وملؤها الرمل الجديب
وعلى جوانبها تدبّ خطى العدوّ المستريب
ماذا يقول الفجر هل فتحت إلى الوطن الدروب
فنودّع الصحراء حين نسير للوادي الخصيب ؟
* * *
هذي هي الحسناء غزة في مآتمها تدور
ما بين جوعى في الخيام وبين عطشى في القبور
ومعذّب يقتات من دمه ويعتصر الجذور
صور من الإذلال فاغضب أيها الشعب الأسير
فسياطهم كتبت مصائرنا على تلك الظهور
أقرأت أم ما زلت بكّاء على الوطن المضاع ؟
الخوف كبّل ساعديك فرحت تجتنب الصراع
وتقول إنّي قد وشقّت الريح الشراع
يا أيّها المدحور في أرض يضجّ بها الشعاع
أنشد أناشيد الكفاح وسرّ بقافلة الجياع

التعليم العالى بين التنوع والهوية

معتـــــز خـــورشـــيد

■■ تحدثت العديد من المقالات فى الأونة الأخيرة عن حصاد منظومة التعليم العالى بمصر، والتنوع غير المنضبط فى برامجها الأكاديمية وتخصصاتها العلمية وتعدد أنماط تمويلها والتباين فى التعامل المالى مع طلابها وتأثير ذلك على التباين فى مستوى الخريجين وقدرتهم على المنافسة فى أسواق العمل. مما يعكس - فى مجمله - نمواً غير مخطط أو توجهاً عشوائياً يتعين مراجعته بصورة شاملة من قبل متخذ القرار التعليمى. وخلاصة مايقال عادة، أن ساحة التعليم المصرى تشهد - فى الوقت الراهن - توجهات أكاديمية وسياسات تعليمية قد تساهم فى حدوث خلل فى هيكلها وتراجع فى مستوى جودة أدائها.

ونظراً لأهمية هذا الموضوع وانعكاساته المباشرة وغير المباشرة على تحقيق أهداف منظومة التعليم العالى والبحث العلمى بمصر، أود طرح بعض الأفكار والملاحظات حول ما تشهدة منظومة التعليم العالى فى بداية الالفية الثالثة.

أولاً: اتفقت معظم الدراسات التحليلية فى مجال التعليم الجامعى على أن تنوع نظم التعليم العالى وبرامجها الأكاديمية يمثل إحدى السمات المميزة للألفية الثالثة. وهذا التنوع يتضمن النظم والبرامج الاكاديمية وأنماط التعليم والتعلم وأساليب التدريس والتكنولوجيا المستخدمة والدور البحثى للجامعات وهيكل ملكية الاصول. وقد صاحب هذا التنوع فى النظم والبرامج تباين مماثل فى انماط التمويل وأساليبه. ويعود ذلك بالاساس إلى تراجع الدعم المالى الحكومى والحاجة إلى استكماله من خلال مصادر مختلفة منها؛ الوحدات المولدة للدخل والصناديق الخاصة والتعليم المفتوح ومشاركة الطلاب ودعم الخريجين. وقد اكدت العديد من الدراسات التحليلية المعدة من قبل البنك الدولى ومنظمة اليونسكو أن تنويع مصادر تمويل الجامعات العامة يمثل ضرورة يفرضها الوضع الراهن لنظم التعليم العالى ويعكس أحد متطلبات تحقيق مستوى ملائم من توافر الموارد المالية واستدامتها.



وتفيد المؤشرات الدولية للتعليم العالى - فى بداية الألفية الثالثة - أن معدلات التسجيل فى النظم غير الجامعية تنمو بمعدلات أعلى من معدلات التسجيل فى الجامعات التقليدية. حيث ظهرت أنواع متعددة للمؤسسات غير الجامعية مثل المعاهد الفنية والتكنولوجية العالية، والمعاهد المهنية المتوسطة التى تستمر الدراسة بها لمدة عامين، وكليات التعليم الأهلى المنشأة من هيئات المجتمع المدنى، بالاضافة إلى المؤسسات التى تقدم خدمات التعليم من بُعد والتعلم مدى الحياة، وبرامج تعليم الكبار.

ثانياً: برغم هذا التنوع غير المسبوق فى النظم والبرامج على المستوى العالمى، فإنه يتعين أن يكون لكل دولة رؤية تعليمية متكاملة تتحدد من خلال تبنى نموذج تعليمى يتواءم مع طبيعة نظامها الاقتصادى والاجتماعى ويحقق اهدافها الإنمائية فى مجال التنمية البشرية. أى أن منظومة التعليم العالى بأى دولة من المفروض أن يكون لديها «هوية» تميزها عن أقرانها وتعكس سماتها الخاصة فى المجالات الاكاديمية والبحثية والخدمية المجتمعية. ومن الطبيعى ان يرتبط النموذج التعليمى المختار بنظام محدد لتمويله يرتكز على عدد من المعايير الحاكمة التى تنبثق عن استراتيجية تعليمية على درجة عالية من الاتساق والشمول.

فقد تبنت دولة فنلندة - على سبيل المثال - نظاماً للتعليم العالى يعتمد كلياً على الجامعات الحكومية التى تقدم الخدمة التعليمية بدون مقابل مادى (أو رسوم دراسية) لكل الطلاب حتى نهاية مرحلة الدراسات العليا. وهو يمثل توجهاً استراتيجياً معتمداً من الدولة بكافة أطيافها. وفى إطار تحقيق الأهداف الانمائية فى مجال التعليم، تمول الحكومة الفنلندية نحو ٥٠٪ من تكلفة التعليم والبحث العلمى الجامعى وتحث مؤسسات المجتمع المدنى ومجتمع الاعمال الخاص على تقديم دعم مالى وعينى لمراكز «التعلم مدى الحياة» الملحقة بكل جامعة. ومن ثم يمكن استخدام العائد المتولد عن الخدمات التدريبية والتأهيلية التى تقدمها هذه المراكز فى استكمال متطلبات تمويل الأنشطة الجامعية. وبالطبع فإن دور هذه المراكز لا يتضمن منح درجات اكاديمية جامعية ولكن تقديم خدمات متنوعة فى شكل برامج تدريبية وتأهيلية وورش عمل، تتوافق مع توجهات التعلم المستمر ومتطلبات عصر العلم والمعرفة بالالفية الثالثة. ويمثل هذا النموذج التعليمى خياراً استراتيجياً يطبق على الجامعات بدون استثناء. ولا يخفى على المهتمين بقضايا التعليم ان منظومة التعليم الفنلندى تحظى باحترام وتقدير عالمى وتحتل مرتبة متقدمة بين دول العالم من حيث كفاءة نظامها التعليمى وفعاليته.



ويعتمد نظام التعليم العالى البريطانى - من ناحية أخرى - على الجامعات المملوكة للدولة التى تتلقى دعماً مالياً حكومياً للقيام بأنشطتها التعليمية والبحثية والثقافية. وبرغم استقلالية الجامعات فى أختيار هيكلها الأكاديمى وبرامجها التعليمية والدرجات العلمية التى تمنحها، فإن نظامها التعليمى يعمل فى إطار المعايير والقواعد العامة التى يحددها المجلس الوطنى لتمويل الجامعات وجهاز ضمان الجودة. ونظراً لقصور التمويل الحكومى تعتمد الجامعات على الرسوم الدراسية المحصلة من الطلاب الانجليز والقروض ذات الفائدة المنخفضة التى تمنحها البنوك لهم لاستكمال مستويات التمويل المطلوبة. كما تعتمد هذه الجامعات ايضاً على الرسوم الدراسية التى تحصلها من الطلاب الوافدين من كافة بقاع العالم للدراسة بالمملكة المتحدة بالاضافة إلى عائد الخدمات التى تقدمها الجامعة إلى المجتمع البريطانى والاوروبى. ويمثل هذا «النموذج التعليمى» التوجه العام لكل الجامعات البريطانية.

وتتبنى فرنسا - فى الوقت الراهن - نموذجا محددا للتعليم العالى يرتكز اساساً على الجامعات الحكومية والمدارس

يعتبر الاختلال بين مخرجات التعليم ومتطلبات سوق العمل من أهم المشاكل الهيكلية التى يتعين التصدى لها من قبل متخذ القرار التعليمى



العليا المتخصصة ذات التوجه التطبيقى. وتمثل المدارس العليا بالنموذج الفرنسى نظاماً تعليمياً على درجة عالية من الجودة والتخصص العلمى الدقيق. ويتم القبول بمعظمها من خلال اختبار للقدرات يسمح باختيار الطلاب الاكثر كفاءة علمية وقدرة اكاديمية. هذا وقد توجهت وزارة التعليم الوطنى - فى نفس الوقت - إلى إنشاء جامعات عامة متوسطة وصغيرة الحجم - يتم الدراسة بها برسوم رمزية - وتركز على مجال علمى أو قطاع اكاديمى محدد. إذ يوجد بالعاصمة باريس نحو ١٦ جامعة ذات توجهات علمية محددة، حيث تختص جامعتا السوربون ٢،١ بالعلوم الاقتصادية والقانونية، فى حين تركز جامعة السوربون ٣ على اللغات والآداب، وجامعة دوفين على العلوم الادارية...وهكذا. أى أن فرنسا قد تبنت نموذجا تعليميا يشجع إنشاء جامعات متوسطة الحجم تتخصص فى مجالات علمية محددة، ويدعم انشاء مدارس عليا تطبيقية تستوعب الطلاب الأكثر قدرة ذهنية ومهارة علمية.

وتعتبر دول قارة آسيا أكثر تطوراً من حيث تنويع نظم التعليم العالى، فقد اعتمد النموذج التعليمى بتايلاند - على سبيل المثال - على إنشاء جامعتين مفتوحتين ترتبط كل منهما بعدد من الجامعات الإقليمية لاستكمال الجهود التعليمية التى تقوم بها الجامعات الحكومية الأربع الرئيسية بمدينة بانكوك. ومن ناحية أخرى، أقامت الصين شبكة متكاملة من الجامعات الإقليمية وتبنت - فى نفس الوقت - منهجيات تعليمية تعتمد على النقل التليفزيونى والتعليم من بُعد للتغلب على مشكلة الاعداد الكبيرة. فى حين يعتمد نموذج كل من أندونيسيا، وكوريا الجنوبية، والفلبين - بشكل أساسى - على المؤسسات الجامعية الخاصة لمقابلة الطلب المتزايد على خدمات تعليم المرحلة الجامعية وما بعدها.

أما دول أمريكا اللاتينية فقد اعتمدت على نموذج تعليمى يشجع المعاهد المهنية والمراكز الفنية المتخصصة، إلى جانب انشاء جامعات صغيرة الحجم، ، حيث اتجهت دولة شيلى - على سبيل المثال - إلى تبنى سياسات إصلاحية فى مجال التعليم العالى عن طريق إنشاء (٨٢) معهداً مهنياً متخصصاً، ونحو (١٦٨) مركزاً فنياً تستمر فيها الدراسة لمدة عامين دراسيين بعد الثانوية العامة، كما تم تقسيم الجامعتين الحكوميتين إلى (١٢) جامعة صغيرة متعددة التخصصات. وقد ساهم هذا النموذج التعليمى فى مضاعفة أعداد المسجلين بنظم التعليم العالى وتحقيق متطلبات اسواق العمل.

اما ما يتم فى مصر فيتسم بعدم وضوح «النموذج التعليمى» الذى يتلائم مع طبيعة الدولة ونظامها السياسى والأقتصادى وتوجهاتها فى مجالات التنمية البشرية، حيث تتعدد الأنظمة والبرامج والهياكل الأكاديمية فى الجامعة الحكومية الواحدة. فالجامعات الحكومية لابد ان تتضمن معظم التخصصات العلمية - دون النظر إلى التميز النسبى لكل منها أو امكاناتها العلمية والتنظيمية - ويوجد بها انواع متعددة من النظم التعليمية واشكالاً مختلفة من الهياكل التمويلية ومن ثم مستويات متباينة من جودة العملية التعليمية.

ثالثاً: أنه يصعب فى الوقت الراهن - فى ظل تراجع الدور التمويلى الحكومى وتزايد الطلب على خدمات التعليم العالى والسعى إلى تحقيق الأهداف الأنمائية فيما يخص زيادة معدلات أتاحة التعليم العالى للشريحة العمرية من ١٨إلى ٢٣ عاماً - الاعتماد بشكل اساسى على الجامعات الحكومية لاستكمال الطاقة الاستيعابية لمنظومة التعليم الجامعى بمصر. ومن هنا فقد توجهت منظومة التعليم العالى فى مصر إلى استكمال طاقتها الاستيعابية وامكاناتها التمويلية من خلال توجهين رئيسيين:

● التوجه الأول: يتمثل فى انشاء مؤسسات للتعليم العالى غير حكومية تعتمد فى تمويلها على قطاع الاعمال الخاص ومؤسسات المجتمع المدنى. وقد نتج عن هذا التوجة انشاء جامعات خاصة وأهلية ومعاهد عليا وأكاديميات تقدم خدمات التعليم العالى وفق برامج اكاديمية يتم معادلتها من المجلس الاعلى للجامعات. وبرغم حداثة التجربة وضرورتها لاستكمال الطاقة الاستيعابية للمنظومة الجامعية فانها لم تنجح فى طرح برامج اكاديمية جديدة غير مكررة تستكمل الخدمات التعليمية المقدمة من الجامعات العامة وتدعم - فى نفس الوقت - المتطلبات الحديثة بأسواق العمل المحلية والأقليمية. كما ساهم النمو السريع غير المنضبط فى أعداد المعاهد العليا - فى ظل غياب معايير جودة التعليم فى العديد منها - فى احداث خلل فى اداء منظومة التعليم العالى يتعين التصدى له وأصلاحه.

● التوجه الثانى: يتمثل فى انشاء شعب تعليمية ووحدات خدمية مولدة للدخل - داخل الجامعات الحكومية - بغية توفير سبل التمويل الذاتى المكمل للدعم الحكومى. وقد شهدت ساحة التعليم العالى فى العشر سنوات الأخيرة سباقاً بين الجامعات الحكومية لانشاء وحدات خدمية ذات طابع خاص، ومراكز للتعليم المفتوح، وشعب للغات وبرامج اكاديمية مشتركة مع العالم الخارجى، ثم أخيراً «البرامج الجديدة». وقد شجعت الدولة هذا التوجة نظراً لقدرتة على توفير موارد ذاتية أضافية للجامعات بما يخفف الاعباء المالية على ميزانية الدولة. وقد ساهم هذا النمو - غير المخطط - فى البرامج التعليمية وتعدد أنماطها وهياكلها الاكايمية وبدائل تمويل انشطتها داخل الجامعة الحكومية الواحدة، إلى دخول منظومة التعليم العام فى «منطقة ضبابية» تتسم بعدم وضوح الرؤية بالنسبة للتوجهات والاهداف الرئيسية التى انشئت من أجلها الجامعات الحكومية، ودورها فى أتاحة فرص التعليم العالى للجميع وعدالة توزيع خدماته وفق معايير الجودة المرغوبة بغض النظر عن القدرة المالية للطلاب.

وفى اعتقادى ان ما يتم بالجامعات الحكومية نتج عن عدم وجود توجه عام حاكم أو نموذج تعليمى طويل الاجل يعكس طبيعة منظومة التعليم وتسعى الحكومات المتعاقبة إلى تحقيقة فى مصر. اذ أن الامر بدأ بقيام ميزانية الدولة بتوفير معظم الموارد المالية للعملية التعليمية، وعندما تراجع التمويل الحكومى لجأت الجامعات - فى سعيها إلى استكمال التمويل المطلوب - إلى انشاء وحدات ذات طابع خاص لتوليد الدخل. ونظراً للزيادة المطردة فى أعداد الطلاب اتجهت الجامعات إلى انشاء مراكز للتعليم المفتوح، ليس بالضرورة لتقديم نوعية مختلفة من التعلم المستمر ولكن احياناً لتعظيم سبل التمويل الذاتى، وتلى ذلك انشاء شعب اللغات ثم أخيراً مقترح البرامج الجديدة. أى ان الحاجة إلى التمويل فى ظل غياب نموذج تعليمى طويل الأجل واستراتيجية شاملة لتنمية الموارد البشرية والتزايد فى اعداد الطلاب، قد أدى إلى وجود هذا الخلل فى أداء المنظومة التعليمية.



ويجدر التأكيد - فى هذا المجال - انه منذ بداية الالفية الثالثة تم اعداد ثلاث خطط استراتيجية للتعليم العالى والبحث العلمى، الاولى خلال شهر فبراير من عام ٢٠٠٠، والثانية فى أغسطس عام ٢٠٠٤، ثم أخيراً فى عام ٢٠٠٩. وبصرف النظر عن مدى اتساق هذه الخطط الاستراتيجية وتبنيها لمسار تعليمى يعكس خصوصية المجتمع المصرى وخصائصة الأقتصادية والسياسية، فإن هذه الخطط أو الرؤى الاستراتيجية أرتبطت بتعيين وزير جديد، وهو ما يؤكد حاجة مصر «إلى استراتيجية للتعليم لا تتغيير مع تولى وزير جديد مهامه».

بيد أن اختيار نموذج لمنظومة التعليم العالى المصرى - يعكس هوية الاقتصادية والثقافية - يتطلب بالضرورة تحديد استراتيجية الدولة فى مواجهة القضايا الهيكلية التى يعانى منها التعليم العالى فى مصر والتى يمكن تلخيصها فى النقاط التالية:

أولاً: الاختلال بين مخرجات التعليم ومتطلبات سوق العمل

يعتبر الاختلال بين مخرجات التعليم ومتطلبات سوق العمل من أهم المشاكل الهيكلية التى يتعين التصدى لها من قبل متخذ القرار التعليمى وخبراء التعليم العالى والبحث العلمى على المستوى الوطنى. إذ يمكن تفسير مشكلة البطالة الهيكلية - التى يعانى منها الاقتصاد المصرى - ليس فقط بالفجوة الكمية بين حجم المخرجات التعليمية ومايمكن ان يوفره المجتمع وقطاعاته الانتاجية من فرص عمل للخريجين، ولكن أيضاً بقصور مؤسسات التعليم العالى الوطنية فى اعداد خريج قادر على التفاعل مع متطلبات أسواق العمل والمنافسة على المستويين المحلى والاقليمى بما يتناسب مع عصر العلم والتكنولوجيا ومجتمعات المعرفة وعولمة الانشطة الانتاجية والخدمية.

ثانياً: الازدواجية بين الجامعات الخاصة والعامة

تعانى منظومة التعليم من اختلال رئيسى يتمثل فى الازدواجية (Duality) بين الجامعات العامة ومؤسسات التعليم العالى الخاصة، ويمكن رصد هذه الازدواجية بين الجامعات الخاصة والعامة فى النقاط التالية:

١- تعانى الجامعات الخاصة من نقص فى مواردها البشرية من هيئة التدريس والهيئة المعاونة، فى حين تمتلك الجامعات الحكومية كوادر تعليمية وبحثية أكثر عدداً وقدرة علمية وتنوع أكاديمى. وتنعكس هذه الازدواجية فى تعاظم طلب الجامعات الخاصة - التى يصل عددها فى الوقت الراهن الى نحو ٢٠ جامعة - على أعضاء هيئة التدريس بالجامعات الحكومية، وعلى وجه الخصوص فى التخصصات العلمية الأكثر



حداثة ومن أعضاء هيئة التدريس الأكثر خبرة وكفاءة علمية، وهو مايمكن ان يؤدى الى استنزاف الكوادر البشرية المتميزة بالجامعات الحكومية.

٢. تشهد منظومة التعليم المصرى اختلالاً واضحاً فى معدلات الأجور المطبقة بالجامعات الحكومية والخاصة. ففى حين يصل مرتب عضو هيئة تدريس بالجامعات الحكومية الى نحو ثلاثة آلاف جنيه فى المتوسط، فإن مرتبه بأى جامعة خاصة يبدأ من ثمانية آلاف جنيه شهرياً. وبصرف النظر عن الخلاف فى معدلات الاستخدام السائدة فى كل من الجامعات الخاصة والعامة، فإن هذا الاختلال فى هيكل الاجور من الممكن ان يساهم فى خلق مناخ غير صحى قد يهدد كفاءة اداء منظومة التعليم العالى ككل.

٣. تتميز الجامعات الخاصة بوفرة مواردها المالية مع تواضع أعداد الطلاب بها، فى حين تعانى الجامعات الحكومية من تكدس فى أعداد طلابها ونقص فى مواردها المالية المتاحة. ويعود التناقص فى اعداد الطلاب بالجامعات الخاصة الى صغر الشريحة المجتمعية القادرة على سداد رسومها الدراسية المرتفعة من ناحية، وعدم سعيها الى تنويع التخصصات العلمية بكلياتها ومعاهدها استكمالاً للمجالات الاكاديمية الغير متوافرة بالجامعات الحكومية، من ناحية أخرى. أما التكدس العددى بالجامعات الحكومية فيعود - بطبيعة الحال - الى سياسة الدولة للتوسع فى اتاحة التعليم العالى بمصر وفق التوجه العالمى نحو ديمقراطية التعليم واتاحته للقادر وغير القادر من شرائح المجتمع.

٤. مازالت الجامعات الحكومية - بحكم امكاناتها البشرية واعداد طلابها وخريجيها وبالتنوع فى مناهجها العلمية - تقوم بالدور الرئيسى فى منح الدرجات العلمية وتوفير الكفاءات المهنية التى يتطلبها سوق العمل المصرى والاقليمى العربى، ومازال دور الجامعات الخاصة محدوداً فى هذا الشأن نظراً لحداثة تجربة التعليم العالى الخاص فى مصر من ناحية، وتركيز الجامعات الخاصة على عدد محدد من التخصصات العلمية المتكررة بالتعليم العام من ناحية أخرى، وبرغم ان البرامج الأكاديمية بالجامعات الخاصة يحكمها الطلب السوقى على خدمات التعليم، فإن الأمر يتطلب وجود حد ادنى من التنسيق بين القطاعين الخاص والعام بغية ان اتقوم الجامعات الخاصة بدور مكمل وليس موازيا للجامعات الحكومية. وتشير المؤشرات التعليمية - فى هذا المجال - إلى أن الجامعات الحكومية تستوعب ما يعادل ٨٥٪ من مخرجات المرحلة الثانوية فى حين تستوعب الجامعات الخاصة نحو ٥٪ فقط من حجم الخريجين.

ثالثاً: اختلال العلاقة بين أعداد الطلاب والامكانات التعليمية

إلى جانب الازدواجية السائدة فى منظومة التعليم العالى بين المؤسسات العامة والخاصة، فإن الجامعات الحكومية تواجه مشكلة هيكلية رئيسية تتمثل فى اختلال العلاقة بين أعداد الطلاب والامكانات المتاحة من قاعات تدريسية ومعامل بحثية واجهزة علمية ومكتبات رقمية ووسائل تدريبية. ومما لاشك فيه أن هذا الاختلال الهيكلى يمثل عائقاً أساسياً يقلل من فرص الجامعات الحكومية لتحقيق أهداف ضمان جودة العملية التعليمية والبحثية وتأهيل طلابها للتفاعل مع متطلبات عصر العلم والتكنولوجيا ومجتمعات المعرفة.

رابعاً: الاختلالات المالية

تعانى الجامعات المصرية - فى معظمها - من اختلالات مالية هيكلية على مستويات متعددة. فالجامعات الحكومية تعانى - بشكل أساسى - من عدم الاتساق بين ايراداتها الذاتية وماتوفره الحكومة لها من دعم مالى - من ناحية - وبين حجم الانفاق على العملية التعليمية والبحثية الذى يسمح بتحقيق مستوى مقبول من جودة الاداء من ناحية أخرى. وتمثل هذه الفجوة المالية عائقاً رئيسياً فى طريق تحقيق اهداف التطوير والتحديث للعملية التعليمية بوجه عام. وتتسم بعض الجامعات والمعاهد الخاصة بوجود اختلالات مالية تكمن فى تباين المعايير المستخدمة فى تحديد العلاقة بين مستوى جودة ماتقدمه الجامعة أو المعهد من خدمات تعليمية وبحثية، وقيمة ماتحصله من رسوم دراسية.

وعلى مستوى آخر، فإن ميزانية الجامعات المصرية تتضمن عدم اتساق فى توزيع بنودها على عناصر الانفاق، اذ يحتل باب الاجور والمرتبات نسبة مرتفعة من جملة الانفاق بالجامعات الحكومية بالمقارنة بحجم الانفاق على البحث العلمى والتطوير بتلك الجامعات، وهو الأمر الذى يخل بقدرة الجامعة على استكمال أنشطتها التعليمية والبحثية والخدمية المجتمعية بالجودة والكفاءة المرغوبة.

خامساً: البرامج والشُعب الجديدة

يؤدى التوجه الحكومى الراهن للتوسع فى البرامج الجديدة بالجامعات الحكومية - التى بدأ تطبيقها فى الآونة الأخيرة بغية توفير موارد ذاتية إضافية للجامعة - الى وجود أنماط أو نظم تعليمية متباينة داخل الكلية الواحدة تختلف فى مستوى جودة الخدمة التعليمية واساليب التدريس والتكنولوجيات المستخدمة ومستويات الإشراف العلمى والإرشاد الأكاديمى، كما ان هذه البرامج الجديدة من الممكن ان تؤدى الى ارساء مبدأ يتنافى مع التوجه العالمى لإتاحة التعليم بالجودة المرغوبة للقادر وغير القادر مالياً على حد سواء بالجامعات العامة. كما أنه يصعب قبول مبدأ المفاضلة بين الطلاب المتساوين فى القدرة العلمية بنفس المعهد أو المؤسسة العلمية بناء على الإمكانات المالية لأولياء الأمور، إذ أن هذا التوجه من الممكن أن يؤدى إلى خلق مناخ اجتماعى غير صحى بين الطلاب. ونظراً لحاجة الجامعات الحكومية إلى التوسع فى التمويل الذاتى - فى ظل تراجع الدعم الحكومى - فإنه يمكن تجميع هذه البرامج الجديدة فى كيانات تعليمية منفصلة خارج الجامعات الحكومية تخضع لمنظومة ادارية ومالية مستقلة.



سادساً: الاختلال فى مهام الجامعة

يتعين الإشارة فى هذا الصدد إلى الإختلال فى دور الجامعات الذى قد ينشأ عن تباين الوزن النسبى لتوزيع جهودها بين مجالات التعليم والبحث العلمى وخدمة المجتمع وتنمية البيئة إلى جانب دورها التنويرى والثقافى. ومع قبول التوجه الراهن نحو تخصص بعض الجامعات فى مجال محدد مثل الجامعات ذات التوجه البحثى، أو جامعات الدراسات العليا، أو الجامعات التكنولوجية، غير أن الأمر المحقق - فى هذا الشأن - أن مسمى «الجامعة» قد نشأ أساساً بهدف تحقيق الحد الأدنى «للجمع» بين التعليم والبحث وخدمة المجتمع. وهنا يتعين الإشارة أيضاً إلى قصور معاكس فى الجامعات الحكومية من حيث سعيها إلى التعدد الكبير فى التخصصات العلمية وأنشاء العديد من الكليات والمعاهد البحثية دون توافر المقومات الأساسية المطلوبة لتحقيق هذا التوسع غير المنضبط.

سابعاً: الأجور وحافز الجودة

فى ظل سعى وزارة التعليم العالى إلى معالجة التشوهات المالية فى هيكل أجور أعضاء هيئة التدريس بالجامعات الحكومية من حيث تدنى معدلات هذه الأجور والخلل فى العلاقة بين الاجر الأساسى والأجر المتغير، ونظراً لصعوبة التصدى بشكل صريح لإعادة هيكلة الكادر الوظيفى لاعضاء هيئة التدريس والارتقاء بمخصصات أجورهم، أقترحت الوزارة نظاماً جديداً لزيادة دخل الاستاذ الجامعى يطلق عليه «حافز الجودة». ويعتمد هذا النظام على تقديم استمارة شهرية تحدد ما قام به عضو هيئة التدريس من أعمال اضافية تساهم فى «تطوير جودة الاداء الجامعى» شريطة ان يتواجد بالجامعة لمدة اربعة ايام كاملة بحد ادنى ويتقاضى مقابل هذه الاعمال الاضافية مكافأة بعد اقرار الاستمارة من قبل القسم والكلية واعتمادها من إدارة الجامعة.

وبرغم النوايا الحسنة للوزارة، فإن حافز الجودة لم يلق قبولاً عاماً من مجتمع هيئة التدريس بالجامعات، حيث امتنع بعض الاساتذة عن المشاركة به، بالاضافة إلى تحوله - بعد مرحلة التطبيق الاولى - إلى اجراء روتينى لا يعكس بالضرورة تحسنا فى مستويات الاداء الجامعى، فضلاً عن تواضع مستوى الزيادة فى المرتب المتولدة عنه. والجدير بالذكر هنا، ان نظام حافز الجودة قد ساهم فى زيادة الاختلالات المالية فى هيكل الاجور الجامعية من حيث تضخيمه لحجم الاجر المتغير على حساب الاجر الاساسى لعضو هيئة التدريس (وهو الاجر الذى يحسب على اساسه معاشه عند التقاعد والاضافات الاخرى المتحركة على المرتب). ويبدو ان مشروع حافز الجودة يواجة مشاكل تطبيقية - فى الوقت الراهن - بما يتطلب إعادة النظر فى آليات عمله من قبل الحكومة.

ثامناً: المعاهد العليا

شهدت السنوات الأخيرة توسعا غير منضبط وزيادة عشوائية فى اعداد المعاهد العليا الخاصة التى تمنح درجات علمية جامعية، حيث تقدر المساهمة النسبية لتلك المعاهد فى معدلات استيعاب خريجى مرحلة التعليم الثانوى بنحو ١١٪ فى حين لا تتعدى مساهمة الجامعات الخاصة نسبة ٥٪ فقط. وبرغم ان هذه المعاهد تتعامل مع شريحة طلابية خاصة لا تحقق معدلات القبول بالجامعات الحكومية وغير قادرة - فى نفس الوقت - على سداد الرسوم الدراسية بالجامعات الخاصة، فإن هناك الكثير من الملاحظات حول جودة الاداء التعليمى لبعضها وفق المعايير المعتمدة، ذلك بالاضافة إلى وجود تكرار فى برامجها التعليمية وتركيزها على التخصصات العلمية الاقل تكلفة وأختيارها للتخصصات العلمية التى تقدمها معظم الجامعات الحكومية والخاصة على حد سواء. ونظراً لعدم وجود توجه عام ورؤية طويلة الأجل لدور هذه المعاهد، فانها من الممكن ان تساهم فى زيادة الخلل الهيكلى الراهن فى منظومة التعليم العالى بمصر. ■

تفاوت اهتمام الصحف المصرية بقضايا التعليم الجامعى ومشكلاته وبدا هذا الاهتمام متنوعاً فى أساليبه ومعالجاته ومصادره



الجامعات المصرية فى الصحافة المصرية

عواطف عبد الرحمن

■■ لاستطلاع وتقييم اتجاهات الصحافة المصرية إزاء القضايا المرتبطة بالجامعات المصرية، تم إجراء دراسة تحليلية على عينة من الصحف المصرية القومية والحزبية والخاصة وأسفرت الدراسة عن مجموعة من النتائج نوجز أبرزها على النحو التالى:

أولاً: تفاوت اهتمام الصحف المصرية بقضايا التعليم الجامعى ومشكلاته:

بدا هذا الاهتمام متنوعاً فى أساليبه ومعالجاته ومصادره فضلاً عن المساحة المخصصة لهذه القضايا. وقد توزع هذا الاهتمام داخل مختلف صفحات كل من الصحف القومية والحزبية والخاصة سواء عبر الأخبار والتقارير التى تغطى الأنشطة التعليمية وتحركات المسئولين عن التعليم الجامعى والأنشطة الطلابية وأخبار التنسيق والقبول بالجامعات أو عبر صفحات الرأى والتحقيقات علاوة على تخصيص صفحات للتعليم الجامعى فى بعض الصحف.

بالنسبة للصحف القومية: فقد اهتم بعضها بتحديد أسباب أزمة التعليم الجامعى وطرح حلول أما بالنسبة للصحف الحزبية: فقد اشترك معظمها فى الاهتمام بطرح القضايا الجامعية مثل تدهور المنظومة الجامعية والنشاط الطلابى والتدخلات الأمنية فى الجامعة وأزمة البحث العلمى وخصخصة التعليم وبيع أصول جامعة الإسكندرية ولكن لوحظ انفراد الوفد بقضايا الجامعات الخاصة وتطوير جامعة الأزهر والجامعات الإقليمية فيما انفردت الأهالى بقضيتى الجودة والاعتماد والانحياز الدينى. كما انفرد خطاب الأهالى بالتركيز على ابراز الدور الأمنى وتدخلاته فى إهدار حقوق الطلاب والأساتذة وباعتباره أحد الأسباب الرئيسية فى تدهور المنظومة التعليمية بالجامعات. وبالنسبة للصحف الخاصة: تنوعت الأشكال التحريرية التى قدمت من خلالها الصحف الخاصة قضايا التعليم الجامعى. وقد تعددت الموضوعات الجامعية التى تناولتها الصحف الخاصة وتراوحت ما بين تدهور العملية التعليمية والبحث العلمى ودور الأمن داخل الجامعة والأنشطة والانتخابات واللائحة الطلابية والجودة والتعليم المتميز والمظاهرات التى عمت الجامعات المصرية واحالة العديد من الطلاب إلى مجالس التأديب وارتفاع أسعار المصروفات الجامعية. وقد أرجعت الصحف الخاصة أسباب تدهور العملية التعليمية إلى قصور المقررات التعليمية وانفصالها عن احتياجات سوق العمل وفشلها فى تنمية مهارات الطلاب فضلاً عن اعتمادها على التلقين مما جعل الجامعات تتحول إلى وسيلة لمنح الشهادات عديمة الجدوى.

ثانياً: قضية مجانية التعليم:

حظيت قضية مجانية التعليم الجامعى باهتمام كبير وارتبط الخطاب عن مجانية التعليم بالحديث عن جودة التعليم كما غلب عليه الاتجاه المعارض للسياسات الحكومية والرسمية. وقد تناولت الصحف الحزبية قضية مجانية التعليم فى إطار معالجتها لمشروع القانون الجديد للجامعات ومحاولات الدولة الالتفاف على مجانية التعليم وتحويل الجامعات إلى مؤسسات اقتصادية تخضع لاملاءات أجنبية ولنفوذ رجال الأعمال والمستثمرين. أما الصحف الخاصة فلم تركز على قضية مجانية التعليم الجامعى بشكل منفرد بل تناولتها فى سياق زيادة المصروفات، وحرص وزير التعليم على تنفيذ مخطط البنك الدولى ورجال الأعمال للسيطرة على الجامعات وإعادة هيكلة التعليم الجامعى بما يخدم مصالح السوق العالمية والمحلية.

ثالثاً: قضية أزمة البحث العلمى: فى إطار الحديث عن أزمة البحث العلمى فى مصر أجمعت كل الصحف محل الدراسة على طرح أبعاد الأزمة التى يمر بها البحث العلمى فى الجامعات كما اتفقت اتجاهات الكتاب فى هذه الصحف على ارجاع مسئولية تدهور البحث العلمى إلى السياسات الحكومية ومسئولية الدولة عما وصل إليه حال البحث العلمى من تردٍ ومسئوليتها كذلك فى النهوض به إلى جانب مسئولية الباحثين والعلماء. وقد انفرد خطاب الأهالى بالتركيز على تسابق الجامعات فى خدمة السوق الرأسمالية على حساب المصالح الاجتماعية والثقافية للمجتمع المصرى بالإضافة إلى تدخل المؤسسات الدينية غير المبرر فى أحوال البحث العلمى فضلاً عن عدم توفر الأجهزة والمعامل والمكتبات الحديثة، الأمر الذى أدى إلى تفشى عمليات النقل الحرفى من الانترنت وانتشار البحوث النمطية.

كما انفردت الوفد بالتركيز على أسباب أخرى مثل سيادة المحسوبية والوساطة والتساهل فى منح الدرجات العلمية بالإضافة إلى انفصال البحث العلمى فى الجامعات عن قطاع الصياغة



رابعاً: البعد الأمنى: فى خطاب الصحف القومية، غاب الاهتمام بالبعد الأمنى وتأثيره السلبى على مجمل الحياة الجامعية سواء العملية التعليمية أو اختيار القيادات الجامعية أو الأنشطة الطلابية. ورغم غلبة الطابع الاخبارى على تغطية الصحف الحزبية والخاصة للأحداث التى صاحبت الانتخابات الطلابية من انتهاكات أمنية واعتداءات على الطلاب المرشحين والمحسوبين على المعارضة إلا أن الأهرام والأخبار حرصتا على ابراز صورة إيجابية للمسئولين فى الجامعات وحرصهم على الأداء الديموقراطى أثناء انتخابات الطلاب كما تم استبعاد البعد الأمنى فى تشخيص الصحف القومية للأسباب التى تؤدى إلى انسحاب الطلاب من المشاركة فى الانتخابات وسائر الأنشطة الطلابية. وقد اتفقت أطروحات كل من الوفد والأهالى على الدور السلبى للقيادات الجامعية من رؤساء جامعات وعمداء ومكاتب إدارات الشباب الذين حولوا الجامعات أثناء الانتخابات إلى أدوات مبايعة للحزب الحاكم. . وقد تماثلت الصحيفتان (الوفد والأهالى) فى إدانة ومعارضة التدخل الأمنى فى شئون الجامعات وركزت الأهالى على التحذير من خطورة هذا التدخل الأمنى على كل من العملية التعليمية والأنشطة الطلابية واستقلال الجامعات ككل.

وفى إطار معالجة الصحف الخاصة للتدخلات الأمنية فى شئون الجامعات ركز الخطاب الصحفى على الأمن ودوره فى اختيار القيادات الجامعية مما يجعل الاختيار يتم على أيدى أطراف ليس لهم علاقة بالعملية التعليمية . كما أفاضت فى إبراز دور الأمن فى انتشار العنف والبلطجة داخل الجامعات.

خامساً: الأنشطة الطلابية: لوحظ أن الأنشطة الطلابية فى الجامعات تحتل ذيل قائمة اهتمامات الصحف القومية، إذ تبنت التوجهات الرسمية واسقطت عن عمد البعد الأمنى وتأثيره السلبى على الأنشطة الطلابية. هذا فيما اهتمت كل من الأهالى والوفد بالأنشطة الطلابية خصوصاً لائحة ٢٠٠٧ المعروفة وابرزت الصحيفتان التشابه الكبير بين اللائحة الجديدة واللائحة السابقة ١٩٧٩ مؤكدين أنها تستهدف تكريس السلطة الأمنية والإدارية وتسعى إلى الغاء دور الأحزاب والأنشطة السياسية وتكريس انفراد الحزب الوطنى الحاكم بالحركة الطلابية من خلال تزوير الانتخابات الطلابية. وقد انفردت الأهالى بالتأكيد على أن الحظر الأمنى المفروض على الأنشطة الطلابية سوف يترك الجامعة نهباً للتطرف ورواد التكفير والطائفية هذا وقد طرحت الأهالى لائحة اتحاد الشباب التقدمى كبديل للائحة الحكومية كما نشرت الوفد لائحتين بديلتين اشتملتا على لائحة نادى أعضاء هيئة التدريس بجامعة القاهرة ولائحة نادى جامعة الأزهر. واتفقت



للاستزادة: الصحافة المصرية والجامعات
عواطف عبد الرحمن
دار العربى - القاهرة ٢٠٠٨

الصحف الخاصة مع الصحف الحزبية فى إدانة اللائحة الطلابية الجديدة لاعتبارها تمثل قيداً على الأنشطة الطلابية يفوق اللائحة السابقة

سادساً: المصادر: اختلفت المصادر التى اعتمدت عليها كل من الصحف القومية والحزبية والخاصة فى معالجة قضايا التعليم الجامعى. إذ اعتمدت الصحف القومية على المصادر الرسمية. وتنوعت المصادر فى كل من الصحف الحزبية والخاصة. إذ انتقلت من رصد الأحداث والوقائع الجامعية إلى استطلاع اتجاهات الأساتذة والخبراء والطلاب وحرصت الصحف الحزبية على طرح بدائل وحلول للأزمات التى يعانى منها التعليم الجامعى.

سابعاً: أعضاء هيئة التدريس: أجمعت الصحف القومية والحزبية والخاصة على رصد وإدانة الواقع الإدارى والاقتصادى والعلمى المتدهور لأعضاء هيئات التدريس بالجامعات المصرية وابرزوا الانعكاس السلبى لهذه الأزمة على الأداء التعليمى والعائد التنموى للتعليم الجامعى إلا أنهم اختلفوا فى تفسير أسباب هذه الأزمة. فقد ركزت الوفد على التأثير السلبى للانتماء السياسى للأساتذة على أدوارهم الجامعية وغياب المعايير العلمية فى تقييم أداء أعضاء هيئة التدريس وأشارت الأهالى إلى تأثير الحزب الوطنى ودوره فى استقطاب الأساتذة وتنمية تطلعاتهم لنيل مناصب سيادية حكومية على حساب رسالتهم الجامعية كما ركزت فى تحليلها للأسباب على عدم احترام حقوق الأساتذة فى اختيار قياداتهم بالانتخاب الحر وأيضاً إجبار الأساتذة على تطبيق الأساليب الأمريكية فى العملية التعليمية دون مراعاة لخصوصية الواقع الاجتماعى والثقافى فى مصر.



وأتفقت كل من الصحف القومية والحزبية والخاصة على ضرورة اصلاح الأوضاع المالية لأعضاء هيئات التدريس فى الجامعات كأساس لإصلاح معظم المشكلات التى تعانى منها العملية التعليمية والبحث العلمى فى الجامعات وانفردت الصحف الخاصة بمتابعة العلاقة بين رؤساء الجامعات مع الأساتذة والطلاب وركزت على القرارات الإدارية المتعسفة مع الطلاب خصوصاً مع المتمين للإخوان المسلمين ورفض عودتهم للجامعة رغم حصولهم على أحكام قضائية واستبعادهم من المدن الجامعية وتحويلهم إلى مجالس تأديب.

كذلك أشارت الصحف الخاصة إلى انتشار ظاهرة الأستاذ الجامعى المتميز وتدهور المستوى العلمى لمعظم الأساتذة وتنافس الأساتذة من أجل الحصول على الأموال والمناصب وقيام بعض الأساتذة باعطاء دروس خصوصية نظراً لتردى أوضاعهم الاقتصادية. كما ابرزت أوجه الفساد العديدة التى استشرت داخل الجامعات وارتبطت بتعيين أبناء الأساتذة وأقارب القيادات الجامعية والتسيب والاستسهال فى منح الدرجات العلمية لمن لا يستحقونها. وافاضت الصحف الخاصة فى تناول المواقف السلبية للأساتذة إزاء الانتهاكات الأمنية وممارسات الفساد الإدارى والعلمى داخل الجامعات حتى أصبحت الواسطة والمحسوبية هى مرتبة الشرف الحقيقية فى معظم الجامعات.

ثامناً: الجامعات الاقليمية: لم تنل الجامعات الاقليمية حقها من الاهتمام من جانب الصحف القومية والحزبية والخاصة إلا فى إطار الرصد المتفاوت لبعض أشكال الفساد والتسيب والسرقات العلمية والمخالفات الإدارية والمالية والتعسف مع الحركة الطلابية والتواطؤ مع الأمن ضد الأساتذة والطلاب. ولكن الاستثناء الوحيد يتمثل فى طرح قضية بيع أصول جامعة الاسكندرية التى أولتها الصحف الحزبية اهتماماً ملحوظاً.

تاسعاً: التعليم الجامعى الخاص والأجنبى: اهتم الخطاب الصحفى لكل من الأهرام والأخبار بقضية التعليم الجامعى الخاص وغلب الاتجاه المرتبط بالتوجهات الرسمية على نمط هذا الخطاب إلا بعض الاستثناءات. ولكن غابت الكثير من الاشكاليات المتعلقة بالتعليم الجامعى الخاص خصوصاً فروع الجامعات الأجنبية وتأثيرها السلبى على الهوية الوطنية واللغة القومية. وقد اتفقت الصحف الحزبية على معارضة موقف الدولة من خصخصة التعليم العالى على أساس انه يندرج ضمن الخدمات العامة التى تمثل الركيزة الأساسية لأى تنمية بشرية واعتبرت أن إنشاء كليات خاصة متميزة لا تزيد على كونها حجة للالتفاف على مجانية التعليم وإهدار مبدأ تكافؤ الفرص واستجابة لاملاءات المؤسسات الاقتصادية الدولية وانفردت الوفد بتقديم رؤية الأطراف المؤيدة لخصخصة التعليم كما اتفقت الصحيفتان (الوفد والأهالى) على أن الحل الحقيقى لأزمة التعليم الجامعى يكمن فى توجيه الموارد المالية لاصلاح الجامعات بدلاً من إنشاء كليات للتعليم المتميز لصالح أبناء الموسرين على حساب حق الفقراء فى التعليم الجامعى.



واعتبرت الوفد أن انتشار الجامعات الخاصة أصبح سبباً لانتشار ما يعرف بالسياحة التعليمية بمعنى اقبال الطلاب العرب على الجامعات الخاصة المصرية نظراً لانخفاض تكاليفها خصوصاً فى ظل تنافس بعض الجامعات الخاصة فى مصر. وركزت الأهالى على قضية الغاء تكليف المعيدة المسيحية واعتبرتها مخالفة فاضحة للدستور وإذكاء للتعصب الدينى مما سيدفع بعض الموهوبين للهجرة خارج مصر. وركزت الصحف الخاصة على الجامعة الأمريكية باعتبارها نموذجاً للجامعات الأجنبية بسبب مشاركتها الإيجابية فى الأنشطة المجتمعية ومنح الطلاب حرية ممارسة الأنشطة السياسية ومنح الطالبات حرية ارتداء النقاب. ولكن ذلك لم يحل دون انتقاد الصحف الخاصة للجامعات الخاصة المصرية باعتبارها مكانا لبيع الشهادات للطلاب.

أما قضية جودة التعليم فقد انفردت الأهالى بتناولها حيث أكدت أن تطبيق الجودة بمعاييرها الحالية ليس فى صالح التعليم الجامعى بسبب فرضها على الجامعات فى إطار الغرض الذى قدمته بعض المؤسسات الدولية دون الحرص على تشخيص المشكلات الحقيقية للتعليم الجامعى ومحاولة إيجاد حلول لهذه المشكلات يتلاءم مع الواقع الاجتماعى والاقتصادى لكل من الطلاب والأساتذة. كما أكدت الأهالى أن الاصرار على تطبيق الجودة لن يستفيد منه سوى شلة من الأساتذة الموالين للحزب الوطنى. وطرحت الأهالى رؤيتها فى أن الحل الحقيقى يكمن فى ضرورة البدء بإصلاح البنية البشرية من أعضاء هيئة التدريس ومعاونيهم وتوفير المكتبات والمعامل بدلاً من تبديد الميزانية على شعارات ومهرجانات الجودة.

عاشراً: الأطر والاستراتيجيات: تنوعت الأطر التى استخدمتها كل من الصحف القومية والحزبية والخاصة فى طرح مختلف قضايا التعليم الجامعى خلال عام ٢٠٠٧ كما اختلفت استراتيجيات المعالجة باختلاف الصحف وتوجهاتها. وإذا كانت الصحف القومية قد اكتفت برصد وتشخيص أهم المشكلات التى تواجه التعليم الجامعى ولم تبلور حلولاً أو بدائل للأوضاع الجامعية الراهنة كذلك فعلت الصحف الخاصة التى اكتفت بعرض المشاكل وتوصيفها بأسلوب ساخر ورصد النتائج المترتبة عليها دون أن تطرح فكراً بديلاً أو حلولاً مجدية. وانفردت الصحف الحزبية بطرح حلول ورؤى بديلة لمعظم القضايا الجامعية التى تصدت لمعالجتها خصوصاً صحيفة الأهالى التى اتفقت مع رؤية جماعة ٩ مارس لاستقلال الجامعات وأضافت بعض الحلول الأخرى. ■



ركزت الصحف الخاصة على الجامعة الأمريكية باعتبارها نموذجا للجامعات الأجنبية بسبب مشاركتها الإيجابية فى الأنشطة المجتمعية ومنح الطلاب حرية ممارسة الأنشطة السياسية



حين تأسست الجامعة الأهلية عام ١٩٠٨ اتخذت من تحديث دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية واحداً من أبرز الأهداف التى طمحت إلى تحقيقها



مائة عام من التنوير

■ ■ ناقش الكتاب عدة محاور: المحور الأول نقد خطاب التنوير، المحور الثانى: الثقافة والتفكير العلمى، المحور الثالث قراءة الإبداع بين التاريخية والنصية، المحور الرابع النقد الأكاديمى.

يتعرض الكتاب للعلاقة بين الجامعة والمنظور التاريخى فى قراءة الشعر والأدب، ذلك أن دارس النقد العربى الحديث يستطيع أن يسجل - كما يذكر الدكتور سامى سليمان محمد - أن ثمة قرانًا بين الجامعة (الجامعة الأهلية، فالجامعة المصرية، فجامعة فؤاد الأول، ثم جامعة القاهرة) وبلورة المنظور التاريخى فى قراءة الشعر، فإذا كان المنظور التاريخى ينطلق من الحاجة إلى رؤية الظواهر الأدبية والثقافية وفق مستويين متلازمين، وهما: الظاهرة فى إطار السياقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية التى أثرت فيها وطبعته بطوابع محددة، والنظر إليها من منظورات جديدة مرتبطة أو متصلة باللحظة الثقافية التى يتم فيها استعادة تلك الظاهرة، فإن درس الأدب والشعر العربى فى الجامعة كان يستهدف، منذ إنشاء الجامعة ثم عبر التطورات أو المراحل المختلفة التى مرت بها، تقديم دراسات للأدب العربى تبتغى إنتاج رؤى جديدة له عبر اتخاذ المنظور التاريخى مدخلاً لقراءة ذلك الأدب. فحين تأسست الجامعة الأهلية عام ١٩٠٨ اتخذت من تحديث دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية واحداً من أبرز الأهداف التى طمحت إلى تحقيقها، وكانت دعوته لعديد من المستشرقين للتدريس بها وسيلة من وسائل تحقيق ذلك الهدف، ثم أدركت إدارة الجامعة الوليدة أن الاعتماد على هؤلاء المستشرقين الذين يقدمون المناهج الحديثة فى الدراسات الأدبية واللغوية وفى مختلف العلوم الإنسانية يعد حلاً مرحليا لن يغنى عن إعداد كوادر من الباحثين المصريين الذين يتصلون بعمق بالمناهج والاتجاهات الحديثة فى دراسة العلوم الإنسانية، فكان أن أعلنت عن تنظيم مسابقة بين دارسى الأدب العربى يحصل الفائز به على منحة من الجامعة لدراسة الأدب العربى بجامعة السوربون، وأجريت المسابقة ونال أحمد ضيف (١٨٨٠ - ١٩٤٥) المركز الأول فيها، فأرسلته الجامعة إلى فرنسا ليدرس مناهج الدراسات الأدبية الحديثة على يد مستشرقى السوربون ويفيد منها فى دراسة الأدب العربى القديم والوسيط، وقد أقام بباريس (كأول مبعوث مصرى يدرس هذا التخصص بجامعة السوربون) بين عامى ١٩١٢ و١٩١٨ وقدم رسالته للدكتوراة فى موضوع «الغنائية والمذهب الوجدانى عند العرب»، وحين عاد إلى القاهرة عين لتدريس الأدب العربى فى الجامعة الأهلية.

إن ما عرف عن أحمد ضيف من سبقه إلى تقديم منظورات جديدة إلى مجال دراسة تاريخ الأدب علامة لها أهميتها فى الدلالة على المنحى الذى مضت فيه دراسات الأدب العربى فى الجامعة الأهلية (١٩٠٨ - ١٩٢٥)، ثم فى الجامعة المصرية (١٩٢٥ - ١٩٣٦)، ثم فى جامعة فؤاد الأول (١٩٣٦- ١٩٥٢)، وأخيراً فى جامعة القاهرة (فيما بعد يوليو ١٩٥٢) بعد ذلك. إذ غلبت العناية بدرس تاريخ الأدب العربى القديم والوسيط عبر دراسات تناولت الفترات التاريخية له، وأخرى ركزت على كتابة حيوات الأدباء ودراسة إبداعاتهم، وفى مقابل ذلك قلت العناية بدراسة قضايا الأدب الحديث ومشكلاته، كما ندرت العناية بدراسة أعلامه ومدارسه، وحين بدأ اهتمام الجامعة المصرية بهذه الجوانب ينال جانبًا من اهتمامات باحثيها، كانت محاولات التأريخ للأدباء المحدثين وللأنواع الجديدة والأنواع الممتدة من التراثين القديم والوسيط هى الغالبة على تلك المحاولات. وتلك علامة أخرى على أن التوجه التاريخى فى درس الأدب العربى، القديم والوسيط، قد اكتسبت مساحات جديدة يعمل فيها طرائقه فى البحث والتحليل والتقييم.

وإذا كانت إسهامات طه حسين النقدية والمنهجية ودوره فى تأصيل المنظور التاريخى فى درس الأدب، قد نالت اهتمامات كثيرة من قبل دارسيه ودارسى النقد العربى الحديث ودارسى نظريات ومناهج تاريخ الأدب فى الثقافة العربية الحديثة، فإن إسهامات التالين له من أبناء الأجيال التى تتلمذت عليه لم تنل، حتى الآن، إلا قليلاً من عناية الدارسين. ومن أهم هؤلاء التالين له اثنان من تلاميذه يمثلان جيلين مختلفين: شوقى ضيف (١٩١١ - ٢٠٠٥) الذى يمثل جيل الأربعينيات، ويوسف خليف (١٩٢٣ - ١٩٩٥) الذى يمثل جيل الخمسينيات. فهذان من أبرز نقاد الاتجاه التاريخى، ومن إسهاماتهما فى بلورة المنظور التاريخى فى قراءة النص الشعرى «الفن ومذاهبه فى الشعر العربى» ١٩٤٣، و«التطور والتجديد فى الشعر الأموى» ١٩٥٣ لشوقى ضيف. و«الشعراء الصعاليك فى العصر الجاهلى» عام ١٩٥٩، و«حياة الشعر فى الكوفة إلى نهاية القرن التالى للهجرة» عام ١٩٦٨ ليوسف خليف.



الدكتور مصطفى الضبع يعالج فى دراسته قضية العلاقة القائمة بين الجامعة والنص الأدبى، ذلك أن الجامعة بوصفها مؤسسة أكاديمية لها رؤاها النقدية المؤسسة على تنظيم نظرى يجعلها بمعزل عن عشوائية الانطباعية، وتخرج النقد من تقليدية التناول (بفعل قدراتها التطويرية) والنص الأدبى بوصفه كيانًا يطرح رؤاه للعالم - تلك الرؤى التى تكون فى حاجة إلى مقاربة نقدية منظمة قادرة على استكشاف مساحات الوعى وإضاءتها، تلك المساحات التى ربما لا تكتمل دائرتها الإبداعية دونما هذه المقاربة، والعلاقة تتأسس عليها عدة أهداف تمنحها طابعها الخاص الذى يخرجها من كونها مجرد ارتباط بين كيانين إلى علاقة حتمية تتبلور خلالها رؤية للعالم فى لحظة إبداعه.

فى هذه العلاقة تقف الجامعة موقف الكاشف عن فعل ليس بالإمكان القيام به دونما التسلح بالمعايير المتجاوزة لخرافات العقل فى عصوره الأولى، ويقف النص موقف الكنز الذى ليس بالإمكان سبر أغواره دون التسلح بمعرفة أكثر قدرة على اكتشاف ما ليس تابعًا له بقدر ما هو مانحه حرية محافظًا على شخصيته.

والمؤسسة الجامعية هنا نعنى بها - يضيف د. مصطفى الضبع - الكيان العلمى المتمثل فى الكليات المعنية بدراسة العلوم الإنسانية، خاصة الأقسام العلمية المتخصصة فى دراسة اللغة العربية وآدابها والتى تعتمد مناهجها ومقرراتها على النقد والعمل على النص الأدبى بوصفه نموذجها التدريسى والاشتغال عليه بحثيا، ومحاولة وضعه فى سياقه النوعى، واكتشاف مكانته فى هذا السياق، وأما النص هنا فهو ذلك النص المتجنس (شعراً، وقصة، ومسرحاً، ورواية) ذلك الذى يمثل مسرحاً ومرجعاً (أحيانًا) ومصدراً للدرس النقدى الأكاديمى الطابع، ذلك النقد الذى لا يشكل نوعًا للنقد بقدر ما يمثل معرفة ضرورية لكل ناقد، فالأكاديمية هنا ليست عرضًا يمكن للمشتغل بها أن يضعه التصنيف متجاوزاً لنوع آخر من النقاد، فنقول ناقد أكاديمى وناقد غير أكاديمى، وإنما الأكاديميون هنا نوع من المعرفة القبلية والضرورية للناقد الذى يعرف من خلالها إلى أى مدى تكون علاقته بالنص علاقة منتجة، فاعلة، عميقة، واعية، وإنه لا يعتمد آليات منهج عقيم لإغلاق النص وتطبيق قوانين ليست جامدة، وليست بقدر ما يجعل النص أكثر فاعلية لاستخدامه معرفة منظمة فى اكتشاف هذه الآليات.

ويضيف د. مصطفى الضبع: بمرور مائة سنة على معرفة الحياة المصرية الجامعة، أصبحنا على يقين أن الجامعة هى الأولى بمراجعة قوانينها ومبادئها وحتى أعرافها بغية التطوير وقيادة المجتمع البشرى بصورة أكثر تنظيمًا تخليصًا له من بداوة الفكر وتخلف النظرة وجمودها ورسوخ الرؤية الأحادية القيمة. ■

إخلاص عطا الله

«الثقافة والجامعة المصرية - مائة عام من التنوير»
الهيئة العامة لقصور لثقافة
القاهرة ٢٠٠٨

إن من أعظم الجوانب فى رواية «الجوع» أنها تذكرنا بسخافة العديد من اهتماماتنا اليومية وتوقظنا بما تثيره فينا من خجل من الأسلوب والطريقة التى نبدد بها الكثير من حياتنا مثل القلق على صحتنا، ونظام طعامنا



الجــــوع

أكثـــر من روايـــة



الســـيد أمـــين شـــلبى

■■ صدرت مؤخرا الترجمة العربية عن الأصل النرويجى رواية «الجوع» للروائى النرويجى كنوت همسن (١٨٩٢-١٩٥٢). ومع تعدد أعماله الروائية مثل Victoria, Pan, The Wandenear, Mysteries وحصوله على جائزة نوبل عام ١٩٢١ على روايته Soul Growth of the، فإن شهرته الأوروبية التى جعلت منه «ابن المدرسة الأوروبية الحديثة»، قد ارتبطت بروايته «الجوع» التى نشرها عام ١٨٩٠. الواقع أنه رغم مرور اكثر من مائة عام على صدورها الا انها صمدت للزمن بشكل رائع واثبتت انها واحدة من الاعمال النادرة التى غيرت مجرى الرواية وبشكل يقول معه النقاد اذا لم تكن قد ظهرت هذه الرواية فإن الأدب الأوروبى الذى نعرفه اليوم ربما كان سيبدو شيئا مختلفا.ولعل ابرز صفات «الجوع» وأكثرها تأثيرا هى ادراكها للأهمية الجوهرية لعنصر الامانة فى الشخصية الإنسانية، ووصفها للأساليب التى نستطيع بها ان نحمى ونذود عن انفسنا، وان نواصل اوهامنا عن اهميتنا الخاصة للمجتمع الذى نعيش فيه والعالم من حولنا. وليس مصادفة ان الرواية تجعل من المدينة مسرحها وبيئتها التى يعرض ويتحرك فيها ابطالها، ذلك انه من المدينة نواجه أعظم الأخطار والاختبارات. لذلك نجد همسن يخاطر بتجريد بطله فى الرواية من اسمه رغم ما نعلمه ان اسم الإنسان هو ما يتحقق من خلاله هويته الفردية، ورغم هذا فان هذا البطل الذى لا اسم له ينتهى به الامر ان يكون مصيره اكثر اهمية. إن من أعظم الجوانب فى رواية «الجوع» أنها تذكرنا بسخافة العديد من اهتماماتنا اليومية وتوقظنا بما تثيره فينا من خجل من الأسلوب والطريقة التى نبدد بها الكثير من حياتنا مثل القلق على صحتنا، ونظام طعامنا، وانشغالنا بما يفكر فيه الآخرون عنا وعن آرائنا وسلوكنا. وهى تذكرنا بالمدى الذى ندمن فيه الاهتمام بأنفسنا وبأمننا. ومن هنا فإن الرواية، تعلو بنا، وهى إذ لا تشجع الأوهام. فإنها تحث على حب الحياة لذاتها. وقد يفسر هذا كيف ان رواية عمرها اكثر من مائة عام ما زالت تقرأ بشغف وتصدر ليس فقط فى النطاق الجامعى والأكاديمى، بل من ملايين الناس العاديين الذين يقرأون لسبب بسيط وهو بهجة ومتعة القراءة.

«الجـــــــــوع»

وفى تقدير النقاد ان أحد أسباب قوة رواية «الجوع» هو انها تختزل عشر سنوات من الحياة الحقيقية والبائسة إلى عدة شهور. وقد كانت العشر سنوات من الجوع والعمل الجسدى الشاق التى عاناها همسن فى تأثيرها شبيهة بالفترة التى قضاها دوستويفسكى فى سيبريا حيث قادته التجربة بشكل قاس إلى نفسه، وكثفت خياله، وجعلته أكثر من مجرد «كاتب» فقد أجبرته على أن يتوغل فى أعماقه، وخلال هذه العشر سنوات لم يعثر همسن على وظيفة بين «الناس المتعلمين» ومثل هذه الوظائف، وظائف التدريس مثلا، تعنى ان الكاتب يعمل مع اناس «يستطيع أن يتحدث معهم» وما دام همسن لم يكن أبدا مع هؤلاء الناس فقد تعلم بدلا من هذا ان يتحدث إلى نفسه، ومثلما عبر الكاتب الاسبانى، انطونيو ما كادو، فان الكاتب يجب ان يستمع إلى نفسه، «ويجب ان يتلقى بالدهشة أحاديثه الداخلية مع نفسه، وان يميز فى أحاديثه تلك بين الصوت الحقيقى والصوت المزيف، وقد أدرك همسن كل هذا فى مقدمته لكتابه عن «الحياة الثقافية لأمريكا الحديثة» فقال «ان صوت الحقيقة يتضمن رؤية كلا الجانبين أو الموضوعين بالضرورة». وقد شارك همسن كلا من كيركجارد والروائى الهولندى بيتر جاكسون فى هذه الرؤية، ومثلهما تحول همسن إلى داخله بتصميم اعظم. وقد سجل همسن تجربة «جوع» ساعة بساعة، وعاما بعد عام، وبالمراقبة المستمرة لامزجته التى ترتفع وتنخفض، كما تابع مسيرتها بعناية وكأنه فلكى داخلى، وباقتناع اننا نسرع فى مراقبة حركات الأجساد «السماوية» أو الأجساد الشيطانية داخلنا.

لقد راقب همسن موضوعه وأفكار شخصيته بعناية شديدة وإذا كان أفضل الروائيين يظهرون بشكل حى كيف ان أفكار شخصياتهم تصنع عبر فترة زمنية قصيرة، نصف ساعة مثلا. حلقات غريبة

كنوت هامسون
«الجوع»
ترجمة رندة حكيم، شيرين عبدالوهاب
دار ميريت
القاهرة ٢٠٠٩

يسجل نقاد همسن ويلاحظون ايمانا مشوقا يسرى فى كل الرواية وبصورة تكاد تصل إلى حد الإيمان القائم على الخرافة باللاوعى.. ولا يشعر الشخصية الرئيسية «الجوع» بأى شفقة تجاه نفسه



أو تحولات غير متوقعة، اما همسن، فقد كان فى مقدوره ان يرسم مثل هذه التحولات لمدة دقيقة واحدة فقط من وقت شخصيته. لقد كان لديه مثل الجواهرجى نظارة مكبرة على عينيه وبحيث يجعل قارئه دائما مشدوها باستمرار التفاصيل الدقيقة التى تصور ذكاء شخصيته وحدة هذا الذكاء. وقليل من الكتب والاعمال التى تبدو الشخصية الرئيسية فيها عبقرية، حيث يميل الكثير من الروائيين إلى ان يصوروا اناسا على مستوى أقل ذكاء منهم حتى يشعر القارئ انه فى بيئة. غير ان همسن تتصوره هو فكرة يونانية أكثر منها مسيحية، فقد أحب اليونانيون أبطالا لهم قوة أعظم من الشخصية وذكاء أقوى، وبهذا المعنى تشترك رواية «الجوع» مع التراجيديات القديمة والشعر القديم فى صفة يونانية اخرى وهى المرح والبهجة الغربية وبشكل لافت للنظر. ومن الغريب ان تعتبر رواية مثل «جوع» كتابا مبهجا ولكنها الحقيقة. فالمزاج المصاحب هو الفرح المتولد من مراقبة الذكاء وخاصة ذلك الذى يتبدى حتى فى وقت الأزمة الحقيقية.

ان «جوع » تصدم العديد من قرائها ومازالت تفعل، لان همسن لا يلجأ إلى البلاغة والكلام المنمق واللغة الطنانة أو الهيستريات حين تقع عيناه على دوافع شيطانية. وكان همسن يجب ان يعصف بالاشياء، ويعى ان نوعا جديدا من الفن يستطيع، وبدون حجة وبساطة، ان يدفع فنه قدما إلى المؤخرة. وهذا ما فعله ت.س.. اليوت فى «الأرض الخراب». أما همسن فهاجم الأدباء القدامى بأسمائهم. فقد هاجم نجوم الأدب النرويجى وقتئذ «بيرنسون، وابسن، وكيلاند، ورغم انهم كانوا محبوبين فى النرويج، فان همسن لم يراع الفخر القومى بهم وهاجمهم. وبعد عودة ابسن بعد غياب أكثر من عشرين عاما فى الخارج حين سخر همسن من مواعظه الأخلاقية، ودراماته الجديدة والتى اعتبر همسن انها أدنى من الدراما السيكولوجية الحقيقية، وهاجم ابسن لأنه قدم شخصيات ليس لها ذكاء أعلى من مستمعيه. ولا يستبعد النقاد ان مسرحية ابسن والتى كتبت بعد هذا الهجوم، قد كتبت بفعل هذا النقد المؤلم من همسن، فى هذه الراوية يتحدث ابسن عن اسلوب جديد يتحدى أساليب البناء القديمة، ويعترف ابسن انه ربما بنى الكثير جدا من المنازل للناس العاديين وربما ارتكب خطأ فى عدم بناء مزيد من الكاتدرائيات. بهذه المعانى يمكن اعتبار «الجوع» كاتدرائية لأن كل الرواية هى غرف يرن فيها الصدى لجزء مجهول من الشخصية.



وحين صدرت عام ١٨٩٠، كان همسن فى الحادية والثلاثين من عمره وبشكل أدهش كل إنسان بسرعة وحدة نثرها وجعلت اللغة النرويجية تبدو كلغة شابة، وهو ما لم يحققه همسن إلا بالكثير من المشقة، ومثلما تقول الكثير من الشهادات انه كان يعمل طوال الليل وحتى الفجر ويمزق كل ما كتبه ويدوس عليه أو يقذفه من النافذة. ويرد البعض حدة أسلوبه فى الكتابة وسرعته إلى تجربة حياته فى الولايات المتحدة مثلما يقول الروائى النرويجى انه يظن ان الإثارة، واللغة الدارجة والنبرة الساخرة فى الكلام الأمريكى قد ساهمت فى صنع اسلوب روايته «الجوع». وبعد ذلك بثلاثين عاما أذهلت جمل هيمنجواى القصيرة واللاذعة القراء الأمريكيين الذين تعودوا على جمل ديكنز وهنرى جيمس. ويلاحظ ان بها صفة أخرى تذكرنا برواية هيمنجواى، فهى ليست كتابا فى الاحتجاج الاجتماعى وليست صرخة ضد مجتمع يعرف هذا النوع من الجوع. ويفسر نقاد همسن ذلك بانه لم يكن لديه ثقة كاملة فى الطبقة الوسطى على العكس من اميل زولا الذى كان يثق بالفعل فى الطبقة الوسطى. حتى وهو يهاجمها، وكان يعتقد انه اذا ما كشف بوضوح عن ظلم ما فإن الطبقة الوسطى سوف تصححه. اما همسن فإن خبرته المبكرة بالطبقة الوسطى جعلته لا يثق بها. وكشخص ناضج رآها قاتلة للحياة الدافقة والغزيرة المليئة بالحيوية التى كان يؤمن بها.

ويسجل نقاد همسن ويلاحظون ايمانا مشوقا يسرى فى كل الرواية وبصورة تكاد تصل إلى حد الإيمان القائم على الخرافة باللاوعى.. ولا يشعر الشخصية الرئيسية «الجوع» بأى شفقة تجاه نفسه، كما لا نشعر نحن أيضا بذلك، لان ثمة شعورا عبر الرواية ان مجاعته مدبرة بشكل ما، وبأنه بطريقة ما قد اختار عبر اللاوعى، هذه المعاناة. ان بطل الرواية يطيع اللاوعى، ويظل فى جوعه رغم المعاناة حتى يختبر ويعيش التجربة التى يجب ان يعيشها أو ان يتعلم ما يجب عليه أن يتعلمه. وما يبدو لنا جالبا للكارثة، وان روحه تعتبره كنصر سرى. كما ان عدم قدرته على اعالة نفسه تعيشها روحه كلون من الطاعة، وما يبدو للمراقب غير المهتم كسلسلة من التهليل الزاهد، وتبدو له طاعته للاوعى حتى لو جاءت على حساب معاناته الجسدية هى الشىء الصحيح. انها طريق العبقرية والتعلم. ان مجاعته المؤلمة قد استدعت احتياطيا ضخما من القوة المبرئة Healing Power والتى كانت حكمته متخفية فى الروح. وكما كتب بليك: «ان الحيوية والحماس هى الحياة وإذا استمر الأحمق فى حماقته فسوف يصبح حكيما».

وحين عاش بطل همسن ما يجب عليه ان يعيشه ويختبره، وتعلم ما كان عليه ان يتعلمه، فقد لاوعيه اهتمامه بجوعه، وسمح له ان يقبل وظيفة، وانتهت الرواية، فى هذا الوقت كان قد تغير، وقد أدرك البطل ذلك فى النهاية على الطبيعة وخلال تطلعه إلى الخلف. آلية كريستيانا «وحيث تلمع النوافذ بمثل هذا الضياء، فهم انه الآن قد انفصل وانه لن يكون أبدا جزءا من الحياة المريحة لأوروبا» ولم يكن همسن بالطبع هو شخصيته، ولا يمكن ان يقال انه نفسه قد اصبح حكيما.



ويجرى ايزاك سنجر Jsaac Bashevis Singer مقارنه بين رواية «الجوع» وبطلها وبين رواية دوستوفيسكى «الجريمة والعقاب» وبطلها راسكولينكوف، فكلاهما قد عانى من الحاجة الشديدة، وكلاهما مبتدئ فى الأدب، وكلاهما عصبى بشكل كبير ويكاد يقع على حافة الجنون. وكلاهما ارستقراطى فى الروح. بل ويمكن القول انهما «نيتشويون»، رغم ان نيتشة كان مازال طالبا حين كتب دوستوفيسكى كلاسيكيته. غير انه رغم تشابههم، فان البطلين مختلفان بشكل أساسى، ان راسكولينكوف عميق بجذوره فى روسيا والشئون الروسية. وقد قدم دوستوفيسكى صورة شاملة لأم راسكولينكوف ولاخته وعروسته هو وصديقه مع مجموعة كاملة من النماذج والشخصيات الروسية الحقيقية، كما صور دوستوفيسكى المجتمع الذى انتج راسكولينكوف.

وفى عمل همسن فنحن نرى مدينة كريتسينيا، ونشعر بمناخها المادى والروحى، ويذكر همسن اسماء الشوارع والمبانى، ولكن فى نفس الوقت يتحقق القارئ ان البطل قد ابعد عن محيطه وافاقه فى أرض أجنبية. ويمكن القول أيضا ان جوعه فى غاية الارستقراطية، انه فى حالة مجاعة لا لأنه لا يجد وظيفة فى المدينة أو فى المزرعة، ولكن أساسا لأنه مصمم بشكل عنيد لأن يعيش من كتاباته رغم انه مجرد مبتدئ. انه جائع فى حالة جوع من العيش ومن الالهام. انه وحيد لا لأنه لا يستطيع أن يقيم صداقات ولكن لأنه ليس لديه صبر للآخرين، انه يعانى خجل هؤلاء الذين يجب أن يرتفعوا فوق رفاقهم من البشر أو يفنوا. ومن الظواهر اللافتة انه حين يذكر اسكولينكوف المحقق بإمكانية هربه من روسيا، لا يبدى المحقق اهتماما بذلك مشيرا إلى أن أشخاصا مثل راسكولينكوف لا يهربون، انه مشدود إلى روسيا. اما بطل همسن فقد انتهى إلى التحاقه بطاقم باخرة متجهة إلى البحار السبعة. فى الوقت الذى تحرر راسكولينكوف بفترة الاشغال الشاقة فى سيبريا مصحوبا بمحبوبته سونيا وروح من البعث الدينى. وفى الوقت الذى كان راسكولينكوف يبحث عن تصفية حسابه مع الله، كان أبطال همسن فى خصام وشجار مع القدر. وبمعنى ما فان بطل «الجوع» يشن اضرابا ضد المصير ويبدو انه يقول «إما أن يبعثنى الالهام أو اننى سوف أنهى حياتى. ولكن المصير لا يزوده بالالهام ولا يدعه يموت. انه ينجو دائما بفعل مؤقت، انه ينشر مقالا أو صورة ويتلقى بضع كوبونات، ثم تبدأ المحنة مرة أخرى. ان الطابع الانتحارى لبطل همسن، وكل أبطال رواياته الأولى تبدو كذلك فى تحفته الأدبية «Pan» فبطلها اللافننت جلاجن يعانى الوحدة شأنه شأن بطل. لقد استقر جلاجن فى قرية صغيرة على حافة غابة فى شمال النرويج دون أى هدف معبر لمجرد ان يكون وحيدا. انه يناضل فقط ما يستطيع صيده ببندقيته وليس له أصدقاء غير كلبه آسوب، انه يتحدث لنفسه وللأشجار وللبحر، انه يعيش فى نوع من نشوة التوحد مع

كـتـــاب
الــزاويــة



قصائد فلسطينية
(٥)
سنرجع يوماً

هارون هاشم رشيد

سنرجع يوماً إلى حينا
ونغرق في دافئات المنى
سنرجع مهما يمر الزمان
وتنأى المسافات ما بيننا
فيا قلب مهلاً ولا ترتمي
على درب عودتنا موهنا
يعز علينا غداً
أن تعود رفوف الطيور ونحن هنا.
هنالك عند التلال تلال
تنام وتصحو على عهدنا
وناس هم الحب أيامهم
هدوء انتظار شجي الغنا.
ربوع مدى العين صفصافها
على كل ماء وها فانحنى
تعب الزهيرات في ظله
عبير الهدوء وصفو الهنا.
سنرجع خبرني العندليب
غداة التقينا على منحنى
بأن البلابل لما تزل
هناك تعيش بأشعارنا
وما زال بين تلال الحنين
وناس الحنين، مكان لنا
فيا قلب كم شردتنا الرياح
تعال سنرجع هيا بنا
سنرجع يوماً إلى حينا...

الطبيعة ولكنها قد تزول فى أى لحظة إلى نوع من الكآبة. والحقيقة انه يعيش فى حالة من الياس المتواصل. ان الهه وكذلك الطبيعة التى يعيش فيها غير مبالية، ومحايدة تجاه الخير والشر غالبا ما تكون قاسية، ان المرء يتحدث اليها ولكنها تلتزم الصمت وتصرفاتها غامضة وبلا معنى.

[٢]

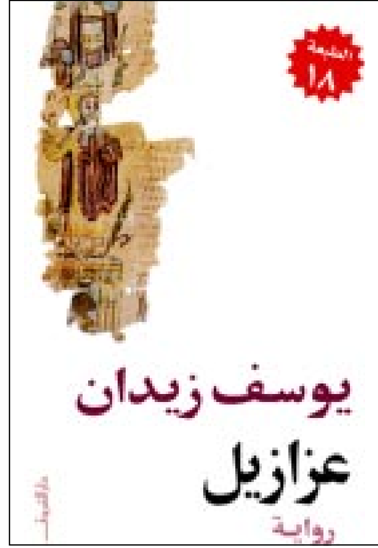
ورغم ان همسن يذكر دائما على انه مؤلف «الجوع» إلا ان هذه التسمية فى مجموعها مضللة لأن روايته الأولى، فيما عدا بعض التفاصيل، تختلف بشكل ملحوظ عن بعض أعماله الأخيرة. فالملمح الأساسى الذى تشترك فيه «جوع» بوضوح مع العديد من روايات همسن الأخرى هو تركيزها على شخصية تتميز بقدر كبير من الفردية مثلما تفعل معظم روايات همسن الأولى وخـــاصـــة Pan (1894) Mysteries (١٨٩٢)، وهذا الفرد على درجة كبيرة من الحساسية، ولكن هنا ينتهى التشابه بين «جوع» وبين روايات همسن التالية لها مباشرة ذلك ان الشخصية المركزية فى «جوع» هى شخصية غير طبيعية بالمعنى المتطرف للكلمة، انه بطل دوستوفيسكى، مريض فى الجسد والروح، فرضت آلام الجوع الممزقة على حياته الباطنية سلسلة من الهلوسات المحمومة العصبية والضعيفة وفى السنوات التى تلت «الجوع» مباشرة عام ١٨٩٠ صار اهتمام همسن الرئيسى فى روايته هو فى التحليل السيكولوجى الحميم لبعض المنبوذين من المجتمع، وبعض ذوى الحساسية العالية والمثقفين بدرجة عالية الذين يعيشون بشكل كبير حياتهم فى استقلال تام عن الأعراف العادية للمجتمع. وهم فى معظم الوقت يقفون موقف المتفرج ولا يشاركون بنشاط فى حياة مجتمعهم. واتجاههم نحو الحياة اتجاه نقدى ومتعال رغم سلبيتهم. ومما لاشك فيه ان ميل همسن لمثل هذه النماذج السيكلوجية الغربية كان نتيجة مباشرة لرد فعله القوى ضد تركيز الأدب الاسكندنافى فى الحقب الاخيرة للقرن التاسع عشر على «المشكلات الاجتماعية» واعتبارها المادة الجوهرية للأدب. بدا هذا فى الدور الذى لعبه براندیس واستریندبرج فى الدانمارك والسويد فى جعل الأدب أداة للإصلاح الاجتماعى، وفى الدور المتطرف لبيرنسون وابسن فى هذا الاتجاه فى النرويج من الثمانينيات من هذا القرن، ورغم اعجاب همسن بمواطنه بيرنسون وبحيويته الحارة والخلاقة الا انه لم يستطع ان يتحمس لابسن، وفى الوقت الذى كتب فيه همسن بدأ يطور مذهبا فى الأدب يعارض بشدة «أدب المشكلة» والذى كان بيرنسون وابسن مسئولين عنه فى النرويج.

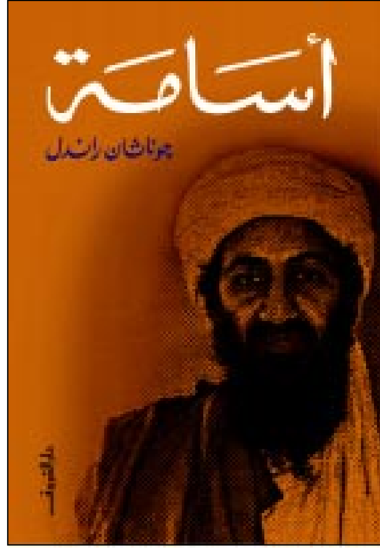
ومع هذا فقد كان له عدة تعليقات سلبية على الرواية وضد تركيزه الاخلاقى. كذلك نال ابسن منه نقدا عنيفا حيث وصفه بانه «هاو فى الفكر» واصر همسن على ان الأدب يجب ان يركز على ان يعكس الأعمال الداخلية الرقيقة التفكير فى كل تجلياتها خارج نطاق الوعى وغير الواعية unconscious وبالنسبة له كان الفرد غير العادى والذى لا تسيطر عليه النوازع الأخلاقية أكثر جاذبية له كموضوع للأدب من الرجل العادى، مواطن لمجتمع برجوازى. وهذا هو السبب فى ان شخصية «المنبوذ من المجتمع» كانت موجودة فى كل روايات همسن الأولى: ناجيل فى Mysteries وللفتانننت جلاجن فى Pan غير ان همسن لم يكن يركز بشكل نهائى على هذه الشخصيات الفردية فقط لأن هذه الشخصيات تعيش فى عالم تسكنه كائنات بشرية أخرى وانها فى رد فعل دائم مع هذا العالم فى صورة أو بأخرى رغم انها تنشد العزلة وتعبر عن احتقارها له. وهذا هو ما دفع همسن إلى موقف اجتماعى أكثر نضجا وأكثر تفصيلا ظهر فى روايات متأخرة مثل: The Village of segel Foss (1913) Children of age (١٩١٥). ■

مــصـــــــــــادر

1. Rober Bly, OThe Art of Hunger., Introduction to OHunger., Forrar, Straus and Givoux, New York, 1967
2. Ellas Bredsdorff, OAn Introduction of Scandinavian Literature., 1951
3. Arlik Gustafson, OSix Scandinavian Novelists ., Princeton 1940
4. Sven H. Rossel, OA History of Scandinavian Literature, University of Minnesota Press, 1982

الهجوم على التعصب الدينى
ليس هجوما على الدين





علـيـــــــــاء رافـــــــــع

■■ يلاحظ المتابع للحوار بين الأنبا بيشوى وبين د. يوسف زيدان، أو بالأحرى للمعركة الفكرية بينهما أن القضية قد انقلبت من قضية معالجة التعصب فى أى مرحلة من التاريخ الإنسانى، والإشارة إلى أنه فى كل الأديان يوجد هؤلاء المتعصبون الذى يقتلون الفكر الحر وهو ما أراد د. زيدان أن يبينه فى كتابه «عزازيل»، إلى دفاع عن الكنيسة وعن المسيحية، فيما بدا وكأنه هجوم عليها. وإذا أردنا أن نضع هذه المعركة فى دائرة أوسع، سنجد أن الدخول فى متاهات الدفاع والهجوم يرجع إلى ذلك الخلط بين التعصب الدينى وبين سماحة كل الأديان. فليس هناك دين متعصب، وذلك لأن الرسالة القادمة من مصدر الحق الإلهى تبغى غير الإنسان، وتسعى إلى ربط البشر بروابط المحبة وتدفعهم إلى السباق من أجل خدمة بعضهم البعض. ولا يمكن أن تكون أى دعوة إلى إشهار العداء والادعاء بتملك الحقيقة المطلقة تعبيرا عن أى من الرسالات السماوية. ويخيل إلى أن هذا ما أراد أن يبرزه زيدان فى روايته، أى التفرقة بين التعصب الدينى وبين رسالة الأديان، فهو وإن كان يتحدث عن الماضى ويستخدم أحداثا تاريخية حقيقية ممزوجة بشخصية خيالية ليجعلها شاهدة على تلك الأحداث، إلا أنه فى نفس الوقت يحاول أن يشخص أسباب العنف والقهر التى يمارسها المتعصبون ضد الفكر الحر باسم الدين. ولا يعنى الدين هنا أى مسمى دينى، ذلك أن الأسلوب والحجج والبراهين واحدة، سواء كان هؤلاء المتعصبون مسيحيين أم مسلمين أم يهودا، أم حتى بوذيين.

ويحضرنى هنا كيف أنه من الممكن أن يختلط الأمر عندما يهاجم البعض فكرا ما يطلق عليه الجماعات الإسلامية أو فكر أسامة بن لادن، أو أى مذهب فكرى إسلامى، فيؤخذ هذا الهجوم على أنه هجوم على الإسلام. نحن أمام تاريخ طويل ظهر فيه التعصب والتشدد والعنف الذى تشدق بكلمات دينية، والدين منه براء. وهذا الربط التعسفى بين دين ما وبين العنف هو من صفات الجهلاء، فما يحدث اليوم فى الغرب من تعصب ضد الإسلام، وهو ما بات يسمى بإسلاموفوبيا الذى نتج بعد حادث ١١ سبتمبر الأشهر، تعبير عن الجهل بالإسلام. وأما الدارسون والمثقفون فهم لا ينخدعون بالفكر المتعسف لبعض من المسلمين. وعلى سبيل المثال نجد كارين أرمسترونج الراهبة التى هجرت الدير، ودخلت فى مرحلة من مراحل الشك، قد كتبت عن رسول الإسلام سيدنا محمد (عليه الصلاة والسلام) سيرة من أروع ما كتب عن الرسول، وكثيرا ما هاجمت هؤلاء المتعصبين الجاهلين، وبينت فى أكثر من حديث عدم التناقض بين الفكر الإسلامى وبين الفكر التقدمى الحر. وهناك أيضا د. جون اسبيستو الذى يقود حوارا بين المسيحية والإسلام، والذى كتب الكثير من الكتب عن الفكر الإسلامى، أوضح تعدد الرؤى الإسلامية، متخذا أيضا من حياة الرسول مرجعية لبيان الجوانب الإيجابية فى هذا الدين الحنيف. وأذكر هذين المثلين - والأمثلة كثيرة - لأن أصحابها لم يتحولوا إلى اعتناق الإسلام، ومع ذلك كانوا حياديين فى الحكم والرؤية، بينما نجد أن كثيرين ممن قرأوا عن الإسلام، قد اكتشفوا أنه الدين الذى نزل به عيسى، فلم يجدوا غضاضة فى الدخول فيه، سعداء بأنهم وجدوا ضالتهم، ومنهم روجيه جارودى الفرنسى، وريتشارد أيتن الإنجليزى، ومراد هوفمان الألمانى، وغيرهم كثيرون. ما أريد أن أؤكد عليه هو أن الحيادية نحو الإسلام لا تتطلب بالضرورة اعتناقه، كما أن تقدير والإعلاء من رسالة السيد المسيح عليه السلام، لا تعنى اعتناق المسيحية. ومن داخل كل من الدائرتين، لا يعنى أن هناك اتفاقا تاما بين فرق المسلمين، أو كنائس المسيحيين، وهذا لا يضير الإسلام أو المسيحية.

أقول قولى هذا، ليس فقط توضيحا لرسالة الإسلام السمحاء، ولكن أيضا دفاعا عن رسالة المسيح عليه السلام، وعمن يعتنقونها، فإذا كان هناك تعصب عند البعض، وكأنه لا تصح المسيحية إلا بالهجوم على الإسلام، فهناك الكثيرون الذين يدعون إلى جوهر المسيحية الأخلاقى، وما تحمله تعاليم السيد المسيح عليه السلام من محبة للعالم أجمع، ومن نشر لكل المبادئ الخلقية الرفيعة. وأذكر فى هذا الصدد الكلمة الحكيمة التى ألقاها الدكتور يوحنا قلته فى مكتبة الإسكندرية فى مارس ٢٠٠٩ عن تجديد الخطاب الدينى، مستشهدا فيها بالتراث الصوفى الإسلامى، مؤكدا على التفرقة بين الخطاب الذى يدعو إلى العداء مستخدما أقوالا مغلوطة من التراث الدينى، وبين الرسالات التى جاءت لتنشر المحبة والسلام بين البشر. وكذلك من يقرأ مقالات البابا شنودة فى الأهرام، سيجد أنها مليئة بالحكمة والرؤية الأخلاقية السامية التى لا يختلف عليها اثنان.

ولكن هذا لا ينفى أن تاريخ المسلمين ملىء بالدماء، بدءا من مقتل عثمان، ثم على بن أبى طالب، والحسين وفظائع الدولة الأموية والعباسية، ومذابح الدولة العثمانية. ولكن هذا لا ينفى أيضا أنه كانت هناك لحظات مضيئة فى التاريخ الإسلامى، بدليل التطور الحضارى الذى شهده العالم بعد انتشار الإسلام فى أرجاء المعمورة. وقد غيرت هذه الحضارة من وجه التاريخ، وأضافت الكثير إلى التراكم العلمى العالمى، فكانت بشيرا بالنهضة الأوربية التى بدأت فى القرن الخامس عشر، وهو بداية انحدار الخلافة الإسلامية التى انعزلت عن المبادىء الأساسية للإسلام، وغرقت فى الحرفية الدينية، وابتعدت عن التقدم العلمى الذى كان قد أحرزه المسلمون فى عهود ازدهارهم. ويمتلئ تاريخ المسيحيين كذلك بالدماء، فمن يمكنه أن ينسى الحروب الصليبية والأعمال الوحشية المرتبطة بها.

ومن يتعرض للحظات الظلام فى التاريخ، سيجد أن خطاب العنصرية والتعصب والدعوة إلى العنف والاستعلاء هى مظاهر مشتركة بصرف النظر عما إذا كان هؤلاء ممن يدعون إلى موقفهم باسم الدين أو يتسمون بأسماء أخرى: علمانيين، شيوعيين، تقدميين، ليبراليين أو ما شئت من الأسماء. فهل يعنى اندفاع جورج دبليو بوش فى حرب العراق وتدمير بلده تدميرا كاملا تحت ادعاءات زائفة أن المبادئ التى قامت عليها الولايات المتحدة غير حقيقية؟ لقد جاء أوباما مؤكدا أنه يسير على نهج الآباء المؤسسين، ولكن لا شك أن أسلوبه وفلسفته قد اختلفا تماما عن سابقه. ولا تعنى مهاجمة بوش الابن هجوما على مبادئ الليبرالية لمن ينهجون هذا النهج.

لماذا إذن تقف الكنيسة القبطية مهاجمة لعمل أدبى أراد أن يستخدم أحداثا تاريخية، معبرا بها عن «الكيفية التى يقتل بها التعصب الفكر الحر»، ولماذا يبدو زيدان وكأنه عدو للأقباط.

ولا شك أن يوسف زيدان الذى ينتمى إلى الإسلام متأثرا بمبادئه، وهذا أمر لا يعتبر فى ذاته تهديدا للمسيحية، فمن المعروف أن هناك أمورا عقائدية أساسية بها اختلافات بين المسيحيين بوجه عام والأقباط بوجه خاص ومع المسلمين. وليس هناك ما يمنع أن يعبر هذا الكاتب عن قناعته ورؤيته، بل ونقده للعقيدة المسيحية انطلاقا من موقفه الإسلامى، ولا يعتبر هذا تقليلا أو إهانة للمسيحيين. ومن ناحية أخرى، فلينظر المعترضون على زيدان إلى الموقف غير المعلن من الأقباط، ذلك أن مجرد إصرار الكنيسة على أن المسيح قد صلب هو فى الواقع موقف ناقد للرؤية الإسلامية، واعتراف ضمنى بعدم الإيمان بما جاء فى القرآن باعتباره الكتاب المنزل من عند الله. ومع هذا فإن إنكار ما يعتقده المسلمون، لا يعنى أنه إهانة للإسلام، فهذا شأنهم، واختيارهم وحريتهم، بل إن هذا الموقف تعبير عن أخلاقيات الإسلام من ضرورة توفير حرية العقيدة «لكم دينكم ولى دين». ولذا فإن عرض زيدان لبعض أفكاره على لسان أبطال روايته، لا يجعله عدوا للمسيحية، ولكنه معبر عما يجيش فى قلبه وعقله باعتباره مسلما ينتمى إلى ثقافة الإسلام.

إذا أردنا عصرا يتسم بالحرية الحقة فلا بد أن ندافع عن حق الاختلاف، وألا نخلق عداوات أو معارك لا مبرر لها، ذلك أن الحوار يعتمد فى المقام الأول على أن يضع كل فى اعتباره موقع الآخر الفكرى والأيديولوجى، فلا يعتبره عدوا، لأنه لا يتفق معه. وبقدر ما تبدو هذه القضية على قدر من البساطة، لكنها تغيب عندما يبدأ السجال يأخذ مكانه بدلا من الحوار. ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

المحاكمة
رواية مصورة

كافكا ـ ماروفيتز ـ مونتلييه
القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠ ، ١٢٨ صفحة



«فى النهاية، ليس بيدك إلا أن تقبل الأشياء كما هى وقبل هذا وذاك، لا تلفت الأنظار إليك! أبق على فمك مغلقًا، مهما كان ذلك ضد طبيعتك! وجب أن تفهم أن وراء هذا النظام العظيم للعدالة حالة من التوازن».

فى هذه المعالجة الأخاذة لرواية «المحاكمة» كرواية مصورة، نقرأ القصة الكئيبة لجوزيف ك، الذى اعتقل ذات صباح دون أن تشرح له الأسباب، ليجد نفسه فى صراع مرير ضد إجراءات قضائية فى غاية الغموض. ويُقذف به من مواجهة تبعث على التشوش إلى التى تليها، ومن ثَمَّ تتنامى بداخله مشاعر الإحباط من أن يثبت براءته فى مواجهة تُهم مجهولة. فى لوحة شديدة الوضوح للبيروقراطية المتسلطة التى تدهس حياة مواطنيها المغرَّبين. ولهذا فإن «المحاكمة» مناسبة لمقتضى الحال الآن مثلما كانت دائماً.

■

عبقرية التسويق

بيتر فيسك
ترجمة: د/أحمد طاهر
عالم الكتب
القاهرة ـ ٢٠١٠



العبقرية = ذكاء + تخيل = نتائج غير متوقعة

قم بعمل نمو مربح ومتواصل وسط ازدحام أسواق اليوم وأبق على اتصال مع الأسواق من خلال العبقرية التجارية قم باستكشاف تحدى الاستراتيجيات والابتكار والقيادة وتغير مثلما يتغير عملك لتحقيق الأداء العالى.

بداية من جنوب كروكس الى روعة ديزل أسرار كيكومان طاقة ريد بول رؤية جوجل - كرنت تى فى - ثورة بروكتر أند جامبل وظاهرة بنك أمبكوا

فهذا الكتاب يقدم أفضل الرؤى فى العالم ويقدم أجندة جديدة للأعمال التجارية اليوم. ان رؤية الأشياء بطريقة مختلفة هى أساس العبقرية استكشف أكبر الفرص فى الأسواق المستقرة والناشئة.

ابتكر مفاهيم وأسواقا بدلا من الاكتفاء بتطوير المنتجات ودع التغيير يحدث حتى يحفز عملك ويربط عملاءك

ويبقى أهم شىء هو تحويل الأفكار لتنفيذ عملى ذى تأثير مربح نحو مدخل أكثر إلهاما لنمو الأعمال ملهما من أسرار قادة الأسواق حول العالم منهم: آبل - بانج والفسين - نادى برشلونة - بيركشاير هاثاواى....

يعتبر بيتر فيسك خبيرا فى استراتيجيات الأعمال ومستشارا لقادة الأعمال حول العالم متحدثا ملهما ومنظما للأعمال التجارية أنه مؤلف الكتاب الأكثر مبيعا وهو عبقرية التسويق المتاح أيضا من خلال كابستون.

■

الاعلام والديمقراطية

أ.د./فاروق أبو زيد
عالم الكتب
القاهرة ـ ٢٠١٠



يبحث هذا الكتاب فى العلاقة بين الإعلام والديموقراطية من خلال تسعة فصول يتناول أولها «مفهوم الديموقراطية» فى حين يتناول الفصل الثانى مفهوم ديموقراطية الإعلام، أما الفصل الثالث فهو يتناول مفهوم ديموقراطية الثقافة، ويعالج الفصل الرابع ديموقراطية الإعلام بين الحرية والمسئولية» أما الفصل الخامس فيتناول الديموقراطية وخصخصة الإعلام، ويتناول الفصل السادس ديموقراطية القنوات الفضائية، أما الفصل السابع فيعالج قضية الإعلام والانتخابات فى حين يعالج الفصل الثامن الإعلام ودمقرطة جماعات الإسلام السياسى، أما الفصل التاسع والأخير فهو يتناول الإعلام وقضايا التحول الديمقراطى.

إن الكتاب يطرح العديد من الأسئلة ويحاول الإجابة على الكثير منها، وهو يترك للقارئ مساحة واسعة من الحرية للتفكير فى هذه الأسئلة لعله يهتدى إلى إجابات أخرى عنها مسترشداً أو مختلفاً أو مضيفاً إلى الإجابات التى توصل إليها المؤلف. فالعلاقة بين الإعلام والديموقراطية أصبحت اليوم قضية مصيرية بالنسبة للجميع فى بلادنا، لا فرق فى ذلك بين المؤلف أو القارئ، فالجميع فى الهم سواء.

■

تحديات الأمن الغذائى العربى

مراجعة وتقديم: د. صبحى القاسم
الناشر: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت
سنة الإصدار: ٢٠٠٩
عدد الصفحات: ١٥٦ صفحة



يضم الكتاب بين دفتيه، أعمال ندوة تتصل بمعضلة الأمن الغذائى العربى فى ظل التطورات الإقليمية والدولية، عقدت فى منتدى عبدالحميد شومان الثقافى فى أواخر العام٢٠٠٨، وشاركت فيها نخبة من المفكرين والمختصين فى شؤون الزراعة والاقتصاد والأمن الغذائى العربى، وقدمت فيها دراسات جادة ومناقشات مستفيضة.

وفى مقدمته لهذا الكتاب يرى الخبير والباحث الاقتصادى، الدكتور صبحى القاسم: «أن مفهوم الأمن الغذائى قد تطور ليشمل كفاية جميع أفراد المجتمع من السلع الضرورية، بعد أن كان يقتصر على الاكتفاء الذاتى، وأصبح مفهوم الأمن الغذائى ينطوى على أربعة أركان هى: أولا: إتاحة المعروض من المواد الغذائية، سواء من الإنتاج المحلى أو من السوق العالمية، ثانيا: استقرار المعروض من المواد الغذائية على مدار السنة ومن موسم لآخر، ثالثا: إتاحة المواد الغذائية للمواطنين كافة وتناسبها مع دخولهم، رابعا: سلامة الغذاء وفق المواصفات المعتمدة.

ويعنى ذلك أن يحصل كل مواطن على احتياجاته الغذائية الضرورية على مدار السنة دون حرمان، سواء من الإنتاج المحلى أو المستورد، وقد استبدل بمفهوم الاكتفاء الذاتى مفهوم الاعتماد على الذات، وهذا يعنى قيام الدولة بتوفير الغذاء من إنتاجها المحلى، فضلا عن توفير النقد الأجنبى من إمكانياتها الذاتية لاستكمال احتياجاتها من سوق الغذاء العالمى».

■

Shift delete

شعر: لينا الطيبى
دار العين للنشر
الطبعة: الأولى
القاهرة ـ ٢٠١٠
عدد الصفحات ـ ٢٠٤



«يا ربى... أمسك بيدى... أنا أكتُبنى».
بكل هذه الرهبة، بكل هذه المهابة؛ مهابة الكتابة، قلقها، الخوف من الإيغال فى الأبيض خاصة إذا كان سيمتلئ بحبر الذات، بالكتابة عن الروح فى تجلياتها وتصدعاتها وشفافيتها، تدخل الشاعرة لينا الطيبى فى طقس الشعر. تسرى فى ليل القصيدة مثل حوذى عتيق يغذ الخطى باتجاه الشوق المختبئ فى العبارات، توقظ الصورة، تفصِّل الكلام على قدر المعنى أو تغزله فى موزاييك نسى أن يرتدى صلابته، ولانَ تحت ضرباتها حتى غدا راقصة تلف الكون كله فى حركة واحدة.

يتأسس ديوان لينا الطيبى الجديد الموسوم بـ (Shift Delete) ويهجس فى كل قصائده بتيمة (المحو/ الكتابة)، ففى كل قصيدة محو لفكرة ما، لصورة ما، لذاكرة ما، وإحلال لنقيضها أو لتصور الشاعرة عما ينبغى أن يكتب. وهى فى استخدامها لمصطلح (Shift Delete) معاً، مع أن (Delete) وحدها كفيلة بفعل المسح أو المحو، إنما تؤكد على رغبة المحو الكامل/ المسح الذى لا يمكن معه استعادة ما تم مسحه.

ورغم أن عنوان الديوان لا يوحى بالشعرية إطلاقاً، إلا أن الشاعرة تمكنت من إدخاله فى دائرة الشعر، فمن يقرأ العنوان متصلاً بالقصائد عامة، أو بالقصيدة التى تحمل الاسم نفسه، سيقع على شعر كثير وعذب وبهى، وينسحب هذا القول على عناوين وحالات أخرى غير شعرية استطاعت الشاعرة أن تحولها الى شعر كما فى لعبة كرة القدم، ولعبة توم وجيرى، وحالات النفس الأخرى التى تبدو للإنسان العادى من المألوفات اليومية.

من نحن؟ إلى أين نمضى؟ ماذا حل

بالإنسان؟ والحب، أين بات يقيم؟ لماذا تراجع إلى كهف بعيد فى الذاكرة وبات نسياً منسياً؟ كيف نقول الحب فى القرن الحادى والعشرين؟ بأى لغة وأى طريقة؟ كيف لنا أن نقطف ثمرة الحب من دون أن نستشعر مرارة الخسارات؟ هل يمكننا مسح ذاكرتنا مسحاً كاملاً فى ضغطة على (Shift Delete)؟ هل ذاكرتنا مثل ذاكرة الكمبيوتر يمكن مسح ملفاتها و«فرمتتها» ورميها فى سلة المهملات؟ هل التكنولوجيا إذن هى ذلك الغول الذى يلتهم الذاكرة؟

الشاعرة لينا الطيبى شاعرة سورية تقيم بالقاهرة. صدر لها خمس مجموعات شعرية باللغة العربية، كما صدرت لها مختارات شعرية بعنوان «شمس فى خزانة وقصائد أخرى» باللغة الإسبانية، مدريد ٢٠٠٠. كما ترجمت بعض قصائدها إلى لغات عدة منها الإنجليزية، والفرنسية، والألمانية، والإيطالية.

■

الأحرار الدستوريون

أحمد زكريا الشلق

القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠، ٥١٢ صفحة



يتناول هذا الكتاب المهم مسيرة حزب الأحرار الدستوريين فى التاريخ المصرى المعاصر كنموذج حزبى عبر عن طبقة الأعيان المصرية، والتى نمت واستقرت أوضاعها خلال القرن التاسع عشر ثم شرعت مع مطلع القرن العشرين تؤلف الأحزاب السياسية التى تسعى للوصول إلى السلطة. ويتتبع الكتاب تاريخ الحزب بداية من تكونه عام ١٩٢٢، على يد مجموعة ممن انفصلوا عن سعد زغلول عام ١٩٢١ وأسسوا حزب الدستوريين برئاسة عدلى يكن باشا ليصبح بمثابة حزب معارض لأفكار سعد ومن تبقوا معه. كما يحلل الكتاب مستجدات المجتمع المصرى وتفاعل الأحرار الدستوريين معها حتى اختفاء الحزب من الحياة السياسية عام ١٩٥٣ على يد ضباط يوليو.

وقد استطاع الدكتور أحمد زكريا الشلق بطريقة منهجية مستفيداً من مصادر مصرية ووثائق بريطانية أن يتتبع الأصول الاجتماعية والفكرية للأحرار الدستوريين وإسهامهم السياسى والبرلمانى كحزب يفتقر إلى التأييد الشعبى، ولكنه يتمتع بتأثير بالغ فى الحياة السياسية والثقافية المصرية، وذلك بفضل جريدته الهامة «السياسة» التى رأس تحريرها محمد حسين هيكل، وكتب لها أهم مفكرى القرن العشرين فى مصر، وكذا بنوعية قياداته من أمثال هيكل نفسه، وأحمد لطفى السيد، وعبد العزيز فهمى، ومحمد محمود... وغيرهم.

■

على أبواب الحب

فاطمة شعبان

مؤسسة شمس للنشر والاعلام – ٢٠١٠ ـ ١٠٤ صفحات



تضمن كتاب على أبواب الحب للكاتبة الكويتية فاطمة شعبان عضوة رابطة الأدباء-دولة الكويت، أكثر من عشرين مقالاً اختلطت بالسرد القصصى،منها: كُتَّاب السيناريوهات، والذراع المبتورة، و على أبواب الحب،و الفراغ حين يقتل بصمت، وجوارى ألف ليلة وليلة، و كلمة جديدة فى قاموسى،وحبيبة زوجى عجيبة، وغيرها من المقالات ذات الطابع السردى التى تروى أحداثا تفاعلية تجمع بين الحقيقة المطعمة بالخيال وعقدة تبحث عن حل، وتتناول مفارقات الحياة اليومية بأسلوب كوميدى ساخر فى محاولة لتقديم بعض المعالجات فى إطار نفسى وتربوى، كما يطرح الكتاب مشاكل متنوعة، التقطتها عدسة المؤلفة عبر تفاعلها اليومى، مع شرائح المجتمع، مبادرة بتقديم الحلول إن أمكن.

■

المسلمون والأقباط فى التاريخ

فكرى اندراوس

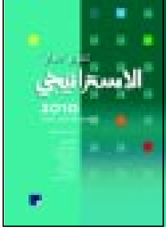
دار الثقافة الجديدة

أبريل ٢٠١٠



يبحث هذا الكتاب فى جذور علاقة الأقباط بالمسلمين فى إطار تاريخى،محاولا كشف اسباب التوتر الحقيقية الكامنة وراء ما نراه احيانامن اضطرابات. كما يسرد تاريخ دخول المسيحية والاسلام لمصر متعرضا للأديان من ناحية الفقه الدينى.مستعرضا تاريخ الكنيسة القبطية ورجالها منذ انشائها وحتى تاريخنا المعاصر، وكذلك دور الازهر ورجاله، ودور الحكام، الجيد منهم

تقرير مدار الاستراتيجى ٢٠١٠



المشهد الإسرائيلى لعام ٢٠٠٩

مدار المركز الفلسطينى للدراسات الاسرائيلية

رام الله -أبريل ـ ٢٠١٠

شهد عام ٢٠٠٩ مجموعة من الأحداث المفصلية التى بلورت الواقع السياسى والدبلوماسى فى إسرائيل، أهمها الحرب على غزة وما نتج عنها من إسقاطات داخلية وإقليمية ودولية، وتشكيل حكومة إسرائيلية جديدة برئاسة بنيامين نتنياهو تدمج بين الفكر النيوليبرالى والصهيونية المتجددة.

الحرب على غزة وإسقاطاتها: كان للحرب الإسرائيلية على غزة مجموعة من النتائج التكتيكية الأمنية المباشرة والعسكرية والدولية غير المباشرة.

أمنيا- تثبيت الهدوء على الجبهة الجنوبية: تكتيكيا، نجحت إسرائيل فى نهاية الحرب على غزة فى فرض حالة من الهدوء النسبى فى جنوب إسرائيل، كما استرجعت جزءا من ثقة مواطنيها بقدرة الجيش على إدارة الحرب، خاصة بعد حالة التضعضع التى لحقت بهيبته خلال الحرب على لبنان،غير أن نجاحها هذا هو نجاح تكتيكى محدود، إذ أنها لم تستطع تحقيق نصر استراتيجى من خلال تفكيك قدرات المقاومة الفلسطينية على إطلاق الصواريخ، ما يعنى هشاشة الهدوء وخطر تفجره المستقبلى.

عسكريا- تبنى عقيدة الضاحية بوصفها إستراتيجية عسكرية، ويعنى هذا عمليا تحويل عدم تناسب القوة، فى مواجهة القوى غير النظامية بما فى ذلك القدرة على استهداف المدنيين وعلى تدمير البنى التحتية بشكل مقصود ومدروس، إلى وسيلة الضغط الأهم على المنظمات غير النظامية، وهو ما تعرضنا له بشكل مفصل فى تقرير العام السابق كما نتعرض له من زوايا جديدة فى تقريرنا هذا فى الفصل العسكرى.

ومقابل هذه التغيرات التى كانت إلى حدّ بعيد متوقعة ومحسوبة إسرائيليا، نتجت عن الحرب إسقاطات دولية وقانونية قد تتحول فى حال تم استغلالها (فلسطينيا وعربيا) بشكل جيد إلى خسارة إستراتيجية، من بينها اتساع حملة المناهضة الشعبية لإسرائيل، ونشر تقرير غولدستون الذى شكل نقطة مفصلية، ليس بسبب إمكانات ترجمته عمليا لملاحقة دولية قانونية للقيادات الإسرائيلية، وهو أمر مشكوك فيه فى الوقت الراهن، بل الأهم بإسهامه فى دفع بعض التوجهات الدولية للضغط على الدولة الإسرائيلية وتعزيزها، وذلك فى مستويين :

أولا: فتح نافذة باتجاه تعزيز حملات الملاحقة القانونية التى يتم رفعها ضد القيادات العسكرية والسياسية الإسرائيلية. ورغم انه من غير المرجح أن تتمخض هذه الدعوات عن نتائج فعلية، إلا أن تكثيفها خاصة فى دول غربية تعد حليفة مثل بريطانيا واسبانيا، من الممكن أن يدفع باتجاه تعزيز الرأى العام الشعبى ضد الاحتلال الإسرائيلى.

ثانيا: تزايد التخوف من عواقب استخدام القوة المفرطة فى الحروب المقبلة: رغم أننا لا نعتقد بان إسرائيل بصدد التنازل عن نظرية الردع المبنية على عقيدة الضاحية، إلا أن المخاوف من ملاحقة قانونية مستقبلية، ناهيك عن تزايد المخاوف من نزع الشرعية عن إسرائيل، قد تشكل كابحا معينا فى وجه الاستخدام المفرط للقوة تجاه المدنيين فى المستقبل.

عودة النيوليبرالية والصهيونية المتجددة: تشكل عودة بنيامين نتنياهو إلى سدة الحكم بمثابة عودة للفكر الاقتصادى النيوليبرالى والفكر القومى الصهيونى المتجدد الذى يتأسس على إعادة إحياء الصهيونية الهرتسلية والبنغوريونية وتفسيرها. وتحمل هذه العودة إسقاطات مهمة من المتوقع أن تؤثر على المشهد الإسرائيلى من جهة والفلسطينى من جهة أخرى أهمها:

تحويل المشروع السياسى للحكومة إلى مشروع للحفاظ على يهودية الدولة: يشدد بنيامين نتنياهو بالذات على مدى ارتباط فكره الصهيونى بفكر هرتسل من جهة وبن غوريون من جهة أخرى، ويصر على أن لب صهيونية الآباء هو الحفاظ على يهودية الدولة، ما يعنى تصعيد المطالبة بالاعتراف بيهودية الدولة وتحويله إلى جزء من الأجندة الدبلوماسية الدولية، وتهويد ما يمكن تهويده، و تكثيف الاستيطان فى القدس المحتلة مقابل تشديد التضييق على سكانها العرب والتعامل معهم كما باقى الفلسطينيين فى إسرائيل، من منظور كونهم تهديدا ديمغرافيا يجب التغلب عليه.

سياسيا، استبعاد أى تنازل سياسى حقيقى تجاه الفلسطينيين: يهيئ الحديث باسم القيم القومية الصهيونية، وأهمية الحفاظ على قيم اليهودية والتاريخ اليهودى، جنبا إلى جنب مع الحديث ضرورة تشجيع الهجرة إلى إسرائيل والعمل على وضع خطط لاستجلاب المهاجرين، يهيئ أفضل الظروف لوضع ضدين متناحرين فكريا ضمن سلة واحدة يحملها نتنياهو، وتضم المهاجرين العلمانيين القوميين الروس بقيادة أفيغدور ليبرمان من جهة والتيار الدينى اليمينى الشرقى الذى يمثله أيلى يشاى. ولكن هذا التحالف يشترك بموقفه اليمينى المتشدد وبرفضه للحلول السياسية المطروحة.

تشديد الخناق على الفلسطينيين فى إسرائيل: تحمل عودة النيوليبرالية والصهيونية المتجددة إسقاطات إستراتيجية على مستقبل الفلسطينيين فى إسرائيل، وتنطوى على تضييق متصاعد لحيز العمل السياسى والذين يعملون ضمنه. كما تحمل برامج وإجراءات لقمع هويتهم القومية مقابل تعزيز طابع الدولة اليهودى من خلال الاستمرار فى سن القوانين المناسبة من جهة، وصك المشاريع التى تضمن التفوق الديمغرافى والسياسى اليهودى، ناهيك عن الاستمرار فى تشجيع الهجرة إلى إسرائيل.

دبلوماسيا، تصاعد التوتر مع الولايات المتحدة: استمرارا لما كنا توقعناه فى العام المنصرم من أن صعود حكومة يمينية فى إسرائيل فى ظل صعود إدارة أوباما البراغماتية يهدد بتوتير العلاقة بين البلدين من غير المس بالتحالفات الإستراتيجية، فإننا نرى أن هذا التوتر ما زال مرشحا للتصعيد فى ظل بقاء حكومة نتنياهو على نفس تركيبتها الائتلافية. وفيما تشكل الأزمة التى ثارت حول إعلان إسرائيل بناء ١٦٠٠ وحدة استيطانية فى القدس الشرقية فى أثناء زيارة جو بايدن إلى إسرائيل نقطة الذروة فى التوتر بين الحكومتين، فإنها تكشف أمرين من المفترض أن يستمرا فى التأثير على ديناميكية المجريات السياسية الداخلية والخارجية فى ظل حكومة نتنياهو وهما:

أولا: تعاظم ارتباط السياسة الخارجية فى إسرائيل بحيثيات العلاقات الداخلية ما يعنى أن إسرائيل قد تقوم بممارسات تبدو خارجيا غير متوقعة وغير مفهومة بسبب سياسات داخلية ضيقة وحسابات حزبية ومناورات ائتلافية تكتيكية.

وثانيا: عمق الهوة الفاصلة بين البرنامج الائتلافى لحكومة نتنياهو وتشكيلتها الإيديولوجية الحزبية وبين ما يصدره نتنياهو من مواقف دبلوماسية ناعمة، خاصة تلك الموجهة للأذن الأميركية. والتى تتحدث عن رغبته بسلام عادل وحقيقى، وموافقته على صيغة معينة لحل الدولتين كما عبر عن ذلك فى خطاب بار إيلان.

وان كان نتنياهو نجح للوهلة الأولى فى المناورة بين الأمرين من خلال قرار تجميد الاستيطان المؤقت فى الضفة باستثناء القدس، فان نوعية ائتلافه ومستلزماته حولت مناورته هذه فى ظل زيارة جو بايدن إلى إسرائيل فى الأسابيع الماضية إلى كرة مرتدة، بل من الممكن أن تتحول إلى منفذ للإدارة الأميركية لإجبار إسرائيل على تجميد الاستيطان فى القدس الشرقية ،وبالتالى تسهيل العودة إلى المفاوضات، على أن حصول هذا الأمر سيكون بمثابة دق مسمار فى نعش حكومة اليمين فى صيغتها الحالية،ومن هنا تصدر الدعوات وتبرز توقعات باحتمال تغيير الصيغة الحكومية الحالية .

والضعيف، و دور رجال السياسة فى التوحيد او التفريق، و تطبيق الشريعة وما يدور حوله من جدل.يتعرض الكتاب لكثير من الشخصيات التاريخية الضاربة فى القدم او فى تاريخنا المعاصر.اعتمد التوثيق التاريخى لهذا الكتاب على عرب ومصريين واجانب.

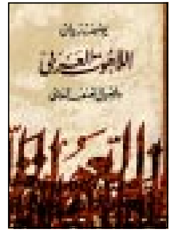
على ضوء تاريخ علاقة المسلمين بالأقباط فى مصر و تطورها، يحاول الكاتب طرح طرق جديدة لاصلاح،علاقة الاقباط بالمسلمين بشكل جذرى.

■

اللاهوت العربى

يوسف زيدان

القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠ ، ٢٣٢ صفحة



فى هذا الكتاب يتتبع الدكتور يوسف زيدان أهم الأفكار التى شكّلت تصورَ العرب (يهود ومسيحيين ومسلمين) عن علاقة الإنسان بالخالق. ومن ثَمّ توجّه إلى كل من علم اللاهوت المسيحى وعلم الكلام الإسلامى يناقش ويحلل ويقارن ويتتبع تطور الأفكار على الصعيدين. وذلك كله بغرض إدراك الروابط الخفية بين المراحل التاريخية المسماة بالتاريخ اليهودى/ التاريخ المسيحى/ التاريخ الإسلامى! والنظر إلى كل هذه التواريخ باعتبارها تاريخاً واحداً ارتبط بالجغرافيا، وتحكمت فيه آليات واحدة لابد لنا من إدراك طبيعة عملها فى الماضى والحاضر. وصولاً إلى تقديم فهم أشمل لارتباط الدين بالسياسة، والعنف الذى لم ولن تخلو منه هذه الثقافة ما دامت تعيش فى جزر منعزلة.

■

يكتب الباء يقرأ الجسد

شعر: حسن طلب

دار العين للنشر

الطبعة: الأولى

القاهرة ٢٠١٠ ـ عدد الصفحات: ١٥٢



بدأ الشاعر حسن طلب فى كتابة قصائد هذا الديوان منذ عام ١٩٨٨ وانتهى منه فى عام ٢٠٠٨.

ربطت بين كل القصائد تيمة الجسد،حيث بدأ الشاعر أول أجزاء الديوان بعنوان «الجسد يتشكل» ثم الجسد يتوسل ويتدلل وأخيرا ختم الديوان بعنوان الجسد يتحول.

«حسن طلب» شاعر وعر المسالك، سلّطه الله على الشعر وعلى القراء والنقاد، ليشقى به الشعر والنقاد والقراء؛ لكن دون أن يضنوا عليه بالإعجاب والثناء. وإذا عنّ لأحد أن يكتب عن شعره استهل كلامه بأنه من جيل السبعينيات، كأن فى هذا الوصف ما يغنى عن كل تعريف، على عاداتنا فى أخذ الأمور من أقرب طريق دون تدقيق وتحقيق؛ وإلا فالسبعينيات هذه إن كان لها من دلالة؛ فهى دليل على الإفلاس الفكرى، لأنه لا يؤخذ منها إلا أن من تُطلق عليهم هم أبناء زمان واحد من سنة كذا إلى سنة كذا، لا أكثر ولا أقل. ومثل ذلك يقال فى سائر هذه الأوصاف المشتقة من الزمان الذى يقاس بالشهر والأعوام، وهو أثر من آثار تاريخ الأدب القديم الذى لم يعد أحد يأخذ به إلا أبناء لغة الضاد!

والذى يعنينى من ذلك أن «حسن طلب» لا يحده هذا الوصف، ولا صلة له بشعره من قريب ولا من بعيد. وقصيدته التى نحن بصددها قصيدة تدير الرءوس، فهو شاعر يأخذ بالألباب، ومن الضيم له أن يقال إن صنعته كلها تقوم على التلاعب بالألفاظ، فهذا من أثر الخداع والمراوغة وغيرها مما يجرى مجراهما، مما أورثته إياه اللغة الشعرية؛ وهى عناء وشقاء.

ولا معنى لأن يقال عنه ما يقال من اللعب بالألفاظ، فهذا اللعب وإن كان لا يخلو منه شعر؛ مقتضاه إذا حُكم به على إنسان فقره فى الشاعرية. و«حسن طلب» ليس فقيراً فى الشاعرية، بل هو غنى بها؛ ورصيده منها ضخم.

■

لا تصدق ما يقال

تأليف: آمال البشيرى

دار العين للنشر

الطبعة: الأولى

القاهرة ـ ٢٠١٠ـ عدد الصفحات: ١٥٢



آمال البشيرى من مواليد الجزائر ١٩٧٠ حاصلة على ليسانس فى العلوم السياسية والعلاقات الدولية صدر لها أكثر من ديوان شعر باللغة الفرنسية وأكثر من رواية باللغة العربية.

من رواياتها الأخيرة «لا تصدق كل ما يقال »:

أدار زر المسجل ليسمع أغنية فيروز المفضلة لديه «كيفك أنت» لكى يجيبها بصوت خافت:

– لست بخير يا ست فيروز.

تذكر بأنه لم يستقبل منذ الصباح مكالمات هاتفية، اكتشف أنه ترك جواله على وضع صامت، تأمل فى شاشة هاتفه، صعق. وجد ست عشرة مكالمة لم يرد عليها. تسع مكالمات من «فالا» التى لم تنم تلك الليلة فى البيت، خمن بأنها حصلت على صيد سمين، وبأنها قضت ليلتها بين أوراق فئة المائة دولار، والكثير من أقداح «الفودكا». والقصص الماتروشكية التى تحكيها لزبائنها لكى تقودهم بدهشة إلى عالمها العجائبى، ليعيشوا بعيدا عن الواقع القاسى أجواء الصيف الهندى، وسحر الشمس التى لا تغرب لمدة أشهر، وأقواس قزح التى تفاجئك بدون مطر، والثلج الذى يتحول إلى حلبة رقص، والدمى الخشبية التى يصنعها والدها العجوز فقط لكى يمنحها أسماء حبيباته، أشياء، وأشياء. هكذا هى فالا، عبارة عن فم مجتهد يتقن وصف ما لا يوصف.

ضرب على رقمها ليأتيه صوتها المبحوح، وهى نصف نائمة:

– هاى. حبيبى. أين أنت؟

■

فى الرواية العربية الجديدة

تأليف فخرى صالح

دار العين

الطبعة: الأولى

القاهرة ٢٠١٠ ـ عدد الصفحات: ٢٤٨



كُتبت فصول هذا الكتاب ما بين عامى ١٩٨٤ ـ ١٩٩٨وهى مهجوسة بسؤال أساسى: كيف استطاع جيل الستينيات، والجيل الذى جاء بعده، أن ينتهك جسد الكتابة الروائية الكلاسيكية وينقل الرواية العربية من أفق اليقين المستقر الهانئ إلى أفق الشك حتى بعملية الكتابة نفسها؟ وقد اختار الناقد الأدبى «فخرى صالح» للإجابة على هذا السؤال عددا من الروايات التى يظن أنها نصوص أساسية فى منجز جيل الستينيات الروائى والجيل الذى تلاه، ووضع هذه النصوص قبالة النص المحفوظى الذى يبدو حاضرا فى الذهن لدى إنجاز كل قراءة على حدة رغم غيابه من أفق التحليل وتواريه فى ثنايا التفكير بالرواية العربية المكتوبة بعده.

وسيجد القارئ أنه اختار «رامة والتنين» لإدوار الخراط (الذى ينتمى لجيل الستينيات فكرا لا عمراً)، و«اللجنة» لصنع الله ابراهيم، و«الجبل الصغير» لإلياس خورى، و«فقهاء الظلام» لسليم بركات، و«نزيف الحجر» و«التبر» لإبراهيم الكونى لجلاء طبيعة الانتهاكات الشكلية والتغير على صعيد رؤية العالم فى ما يسميه «الرواية العربية الجديدة».

أضاف الناقد الأدبى «فخرى صالح» إلى القراءات النصية لأعمال روائية بعينها قراءتين مسحيتين لأعمال إميل حبيبى الروائية وبعض أعمال جمال الغيطانى بغرض التعرف على أشكال استخدام السرد التراثى، والمادة التراثية كذلك، فى الرواية العربية الجديدة.

كما أضاف فى ملحق الكتاب قراءة سجالية لكتابى إدوار الخراط «الحساسية الجديدة» و«الكتابة عبر النوعية» اللذين ينتميان إلى أفق الأسئلة التى يسألها هذا الكتاب ويبحث لها عن أجوبة لم تكن شافية على أية حال.

«فخرى صالح» ناقد وكاتب ومترجم ومحاضر أردنى، صدر له أربعة عشر كتاباً نقدياً، وخمسة كتب مترجمة، وشارك فى ترجمة كتابين هما «روائع الأدب الأمريكى»، «الحضارة العربية الإسلامية فى الأندلس». نال جائزة فلسطين للنقد الأدبى ١٩٩٧.



سوسيولوجيا التراث

د/ فريدريك معتوق

صادر عن شبكة المعارف

أبريل ٢٠١٠- ٢٠٧ صفحات



«التراث مفهوم حديث.. يمثّل كتلة كبيرة من الأعمال العائدة إلى الأزمنة العربية الماضية والتى كان للإسلام فيها إسهام معنوى كبير.. من هنا يبدأ، عندنا، ربط المخزون الفكرى العائد إلى الأزمنة الماضية بمرجعيّة هى المرجعيّة الدينية. فلا يعود التراث، ضمن هذا الفهم، مجرّد خزان ضخم لأعمال كتّاب من الماضى يتمّ التعامل معه بالعقل، بل يتحوّل إلى مخزون معنوى هائل يُستثمر فى تجييش المشاعر، وأحياناً العصبيّات.

فالتراث، كماعرف فى هذا الكتاب، موقف ذهنى متكامل من الآخر ومن العالم، يختلف من بُنية اجتماعية إلى أخرى، ويتمتع بوظيفة محدّدة تنبع من رؤية أشمل تخدم هذا الموقف. علماً أن الموقف والوظيفة يتناسقان فى ما بينهما على المستوى الداخلى من ناحية، ويتميّزان، بحدّة أو برفق، أو حتى بعصبيّة، عن العالم الخارجى من ناحية أخرى».

والكاتب من مواليد بيروت (لبنان) ١٩٤٩. حاصل على دكتوراه الدولة فى علم الاجتماع من جامعة تور (فرنسا) عام ١٩٧٩. يشرف على رسائل وأطروحات فى

الجامعة اللبنانية. وحالياً، يشغل منصب عميد معهد العلوم الاجتماعية.

■

ماذا أصابك يا وطن؟

فاروق جويدة
القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠، ٥٦ صفحة



ديوان جديد للشاعر فاروق جويدة تصدره دار الشروق، وفيه ثلاث قصائد تتعرض اثنتان منها لحوادث أصابت المصريين فى السنوات الأخيرة مثل شهداء مصر من الشباب الذين ابتلعتهم الأمواج على شواطئ إيطاليا وتركيا واليونان، أو غرقى العبارة سالم إكسبريس، كما يضيف فاروق جويدة قصيدة ثالثة تحمل عنوان هذا عتاب الأحباب للأحباب. وفى القصائد الثلاث يتنقل جويدة بين الإيقاعات السلسة والمفردات البسيطة والخلابة فى الوقت نفسه، والتى رسخت لفاروق جويدة موقعه البارز على خريطة القصيدة العربية الحديثة.

■

العالم متمردا

فريمان دايسون
ترجمة: محمد على أحمد
الدار المصرية اللبنانية
القاهرة ـ ٢٠١٠



إشكاليات كثيرة يثيرها كتاب «العالم متمرداً» من تأليف فريمان دايسون، الصادر حديثًا عن الدار المصرية اللبنانية ومشروع كلمة الإماراتى، فهو لا يغرق فى تفصيلات علمية تهم العلماء والباحثين فقط، بل اهتم بالجانب الإنسانى فى العلم، والمشكلات التى أرقت بعض العلماء، وحياة هؤلاء العلماء وتأثيرهم فى محيطهم الاجتماعى، وكيف أن الخيال أساس كل اكتشاف علمى، أما الإشكالية الأهم التى يثيرها هذا الكتاب المهم، فهى العلاقة بين العلم والأدب، فالعلماء يبدون غارقين فى عالمهم وتجاربهم ومشكلاتهم التقنية، لا يعرفون ما يجرى على صعيد الأدب، كما أن الأدباء يفعلون الشىء ذاته، وكلاهما يحمل فكرة خاطئة عن الآخر، فالأديب يرى العالم جاف المشاعر منزوع العاطفة، والعالم ينظر إلى الأديب على أنه كائن عاطفى غارق فى مشاعر خائبة رومانسية ومثالية يهرب من واقعه بالإغراق فى الخيال ولا يقدم شيئًا مفيداً للبشرية غير التسلية.. هذه مشكلة تبدو بلا حل، لكن الكتاب يثبت العكس فالعلم استفاد من خيال الأدباء، والعلماء ينجزون أكثر إذا قرأوا الأدب، وبالعكس الأدباء يصبح أدبهم أكثر خبرة بالحياة وبالنفس البشرية التى يزعمون أنهم يفهمونها، عندما يعرفون طرفًا من العلم.

أما الإشكالية الثالثة فهى كيف تتم الكتابة عن العلم فى الصحف والمجلات، فأغلب فصول هذا الكتاب نشرت فى مجلة متخصصة فى عروض الكتب، لكنك حين تقرأها لا يمكن أن تشعر بالملل أو الجفاف فقد تم تقديمها بطريقة جذابة تناسب جميع الأذواق المتخصص والقارئ العالم.

تنقسم مجموعة المقالات التى يضمها الكتاب إلى أربعة أقسام وفقًا لموضوعها، ومرتبة زمنياً داخل كل قسم، يتناول القسم الأول القضايا السياسية الناجمة عن العلم والتكنولوجيا، ويهتم القسم الثانى بمشاكل الحرب والسلام، والثالث تاريخ العلم، أما القسم الرابع ففيه تأملات شخصية وفلسفية وهناك ثلاثة فصول أخرى مأخوذة عن كتاب سابق للمؤلف بعنوان: «الأسلحة والأمل»، ذلك الكتاب الذى تم إهماله لأنه صدر وقت انهيار الاتحاد السوفيتى ومن هذه المقالات سمى المؤلف كتابه الحالى: العالم متمرداً.

وإذا كان كتاب بهذا الحجم لا يمكن تلخيصه حيث يقع فى ستمائة صفحة فإن الإشارة إلى بعض فصوله تظهر مدى أهميته للقارئ العربى، وهو فى أربعة أقسام كبرى وتحتها عناوين فصول مثل: قوة العقل، العالم واللحم والشيطان، هل وجود الله محل اختبار، هذا الجانب من الحب الأعمى، والدين من الخارج. كما خصص المؤلف ثلاثة فصول الأستاذ ريتشارد فاينمان العالم الذى اجتمعت فيه صفات التفانى فى العلم والروح المرحة، إنه العالم الذى يصف ببلاغة فائقة دور التمرد فى مجال العلم، ولعل أهم فصول الكتاب المعنون: هل وجود الله محل اختبار يوضح إحدى أهم الإشكاليات التى جرى النقاش بشأنها طويلا بين رجال الدين والعلماء.

يكتسب هذا الكتاب أهميته من كون مؤلفه عمل لفترة مستشاراً علميًا لحكومة الولايات المتحدة، كما أنه عالم فيزياء وعلى دراية عميقة بتاريخ العلم، وبالجدل العلمى الذى يدور حاليا حول العلم والأخلاق والإيمان، وهو أحد المتنبئين الكبار بمستقبل المناخ والهندسة الوراثية وغزو الفضاء والإقامة فيه، ولا يخلو الكتاب كذلك من التفكير الفلسفى لقضايا مثل: الحد من التسلح، والمبادئ النووية والحفاظ على البيئة والعلاقة بين العلم والدين.

■

أنامل الموت

رائد العزاوى
الدار المصرية اللبنانية ـ ٢٠١٠



رواية مجنونة عن القاعدة والإرهاب والسياسة فى الشرق الأوسط وتقع فى ثلاثين فصلاً متراوحة الطول، حسب منطق الأحداث وهى فصول زمنية حيث إن الرواية تتبع طريقة السرد المستقيم، تدور فى عالم شديد الغرابة والرعب ملىء بالدماء والدسائس فى عدة أمكنة من العالم، إذ تلتقط الرواية حياة شقيقين تحوّل الأكبر منهما من شخص عادى بسيط يحلم بالوظيفة والزواج إلى مواطن عالمى ينخرط فى سلك الإرهاب، ويصل به الأمر إلى الانضمام إلى تنظيم القاعدة متتبعًا تحولاته الفكرية والاجتماعية والحياتية وفى هذا الخط من الرواية تشتبك الأحداث مع أجهزة مخابرات عدة فى أحداث مشوقة فرضتها طبيعة العمل الروائى ورحلة ذلك الإرهابى، مع أجهزة عدة كلها تراقب هذا التنظيم تستفيد منه وتوجهه لخدمة أهدافها، وتحاربه فى أحيان أخرى، وتضع الرواية يدها وتشير إلى أن الإرهاب الحقيقى تقف وراءه أجهزة مخابرات إسرائيلية فهى القاسم المشترك الأعظم فى أغلب الأحداث التى هزّت العالم حتى أحداث الحادى عشر من سبتمبر فى أمريكا عبر الوسيط «ناحوم» الإسرائيلى الذى يموّل أغلب عمليات الإرهاب فى الشرق الأوسط ويستخدم فى مخططه شباباً من العرب والمصريين فى حرب قذرة تجرى تحت أعين الجميع، وينجو فى كل مرة بتوازنات سياسية وقودها شهداء هذه العمليات. أما الشقيق الثانى فيتمسك بمصريته ويرفض كل دعاوى الإرهاب فيتم اغتياله على يد شقيقه، وتتتبع الرواية مصير هذه الأسرة المنكوبة عبر القاهرة وشرم الشيخ والمصير الذى آلت إليه نتيجة الإرهاب الذى لا يفرق بين مسلم أو مسيحى فالجميع وقود فى حرب مجنونة هدفها فى النهاية السيطرة على المنطقة العربية.

الأحداث فى الرواية متخيلة والشخصيات لها ظلال فى الواقع، لكنها مكتوبة بمعرفة وخبرة حياتية عاشها الكاتب الذى عمل مراسلاً لإذاعة البى بى سى، فى حرب أفغانستان وغيرها من المناطق الملتهبة فى العالم، وعبر تجواله فى العديد من هذه المناطق التى تتماس مع الوطن العربى والملتحمة مع قضاياه، تذخر الرواية بالعديد من الأحداث والشخصيات مصريين وسعوديين وكويتيين، وتمتد مساحتها مكانيًا بين مصر والسودان وأفغانستان ولندن وتل أبيب والعراق أحدث المناطق التى صارت مسرحًا لعمليات ناحوم الإسرائيلى والإرهابى الذى يحركه.

■

الوجودية الجديدة

عند كولن ولسون
ترجمة د. سليم عكيش الشمرى
شبكة المعارف ـ ٢٠١٠
عدد الصفحات ـ ١٧٢



«لماذا يتناسى الباحث العربى كولن ولسون؟ ولماذا يعزف عن تقديم دراسة شاملة للفكر الولسونى؟...». بهذا التساؤل يبدأ الدكتور سليم الشمّرى كتابه: الوجودية الجديدة عند كولن ولسون، محاولاً استكمال سلسلة الفلسفة الوجودية الغربية، ملقياً الضوء على كولن ولسون وفلسفة المعنى والحياة عنده.

اعتبر الشمّرى فى كتابه، أنه قد فات الباحث العربى التمعّن بمؤلفات ولسون عن كثبٍ فى ظل الصرخات القوية لنيتشه وسارتر وهمنغواى وكافكا...، وذلك لسببين: أولهما: كوْن مؤلفات ولسون مزعجة لأنها تجمع مساهمات متعددة لأدباء كبار، وهذا ما أخمد صوت ولسون وجعل صوت الآخرين أعلى. وثانيهما: أن مؤلفات ولسون محيّرة، كونها شاملة ومتنوعة تجمع النقد الأدبى، والفلسفة والروايات وعلم النفس والتصوف... ما حيّر الباحث الذى وجد عند ولسون اهتمامات متعددة لا تتركّز حول فكرة واحدة. وبرأى الشمّرى أنه لو واكب الباحث العربى مؤلفات ولسون، وتمعّن بأفكاره، لأدرك وجود فكرٍ وجوديٍ جديدٍ يحمل على أجنحته فكرة واحدة تحوم حول تطوير الوعى الإنسانى.

وبغية تحقيق الهدف من هذا الكتاب، قام الشمّرى بتقديم ولسون كمفكر متميز، اهتم بمشكلة «قيمة الوجود الإنسانى ومعناه»، وذلك بطريقة بسيطة وواضحة بعيدة عن الغموض والالتباس ومتميزة بالإيجاز والاختصار فى عرض فلسفة ولسون بصورة موضوعية. وهكذا، توزع الكتاب ثلاثة فصول، يسبقها تمهيد ومقدمة تعطى لمحة عن حياة ولسون ومؤلفاته وانشغالاته الفلسفية، وفصول ثلاثة سارت باتجاهين: الأول: يشمل اللامنتمى فى الحضارة الغربية، والثانى: يعرض الأسس الجديدة فى الفلسفة الوجودية عند كولن ولسون.

■

شـــــعراء أندلســـيون منســــيون

■■ رغم أن عنوان كتاب الدكتور فوزى عيسى هو «شعراء أندلسيون منسيون» إلا أنه استطاع بمهارة أن يطلعنا على جوانب هامة من التاريخ الأندلسى، الذى لا يعرف عنه كثير من المثقفين شيئاً، فلم يعد الكتاب مجرد سيرة لبعض الشعراء المنسيين، ولكنه إطلالة على جانب مجهول من هذا التاريخ الهام.

لقد استطاع الدكتور فوزى عيسى أن ينقب بمهارة عن المفقود والضائع من التراث الأندلسى الهام وقدم للمكتبة العربية وقارئها شعراء أندلسيين ذاع صيتهم من خلال كتابه «شعراء أندلسيون منسيون» الذى صدر عن مركز البابطين لتحقيق المخطوطات الشعرية.

عرض عيسى لكل شاعر من هؤلاء من حيث نشأته وتعليمه وأساتذته ثم أهم المواقف التى تعرض لها، وخصائص شعره وفنيته والسمات التى تحدد قصائده، وأعقب كل شاعر بجزء مستقل لمجموع شعره وهو بذلك يقدم مجموعة من الكتب فى كتاب واحد، ويغنى القارئ ويثريه بحصيلة معرفية هائلة حول هؤلاء الشعراء المنسيين.

وقد حرص عيسى على أن يذكر جوانب حياة كل شاعر محاسنها ومساوئها، فكان بذلك مؤرخاً محايداً لم يقدم أى توجهات شخصية أثناء عرضه لهؤلاء الشعراء المنسيين.

ويقول د. فوزى عيسى أن المتخصصين فى حقل الأدب الأندلسى يضطلعون بمسئولية كبرى فى حفظ التراث الأندلسى، والتنقيب عن المفقود والضائع من هذا التراث، وهناك شعراء أندلسيون ذاع صيتهم فى زمانهم وكانوا ملء السمع والبصر، ولكن إبداعهم الشعرى لم يسلم من عوادى الزمن، ففقدت دواوينهم، وضاعت

شعراء أندلسيون منسيون
د. فوزى عيسى
الناشر: مركز البابطين لتحقيق المخطوطات الشعرية
عدد الصفحات: ٥٠٥

أشعارهم، ولم يبق منها إلا النزر اليسير.

مضيفاً أنه حاول فى هذا المجموع الشعرى أن يجمع ما تناثر من شعر بعض الشعراء المنسيين من بطون المصادر الأندلسية والمغربية والمشرقية واخترت شعراء ينتمون إلى عصور أندلسية مختلفة هم: ابن هذيل، عبادة بن ماء السماء، ابن الأبار الخولانى، أبو عامر بن مسلمة، السميسر، ابن هانئ الأصغر، أبو جعفر بن سعيد، بالإضافة إلى ثلاث شاعرات أندلسيات هن ولادة ونزهون وحفصة الركونية.

ويهدف عيسى من ذلك إلى إخراج هؤلاء الشعراء من دائرة النسيان، مؤكداً أن اختيار هؤلاء الشعراء لم يكن خاضعا لعامل المصادفة وإنما لعدة اعتبارات منها أن لمعظمهم دواوين مفقودة.

ويبدأ الكتاب بالشاعر «يحيى بن هذيل» وهو أبو بكر يحيى بن هذيل بن عبد الملك بن هذيل بن الحكم التميمى القرطبى، ولد بقرطبة سنة ٣٠٥ هـ وتثقف ثقافة لغوية أدبية، فأخذ العلم عن قاسم بن أصبغ وأحمد بن خالد وابن أيمن، وكان من أشهر شيوخه وأساتذته ابن القوطية، وقد تفرغ ابن هذيل للشعر وأخلص له حتى بلغ مكانة عالية فى الشعر وصار من أبرز شعراء القرن الرابع فى الأندلس، ويعد ثالث ثلاثة من مشاهير عصره: الغزال وابن عبد ربه وابن هذيل، وقد أشار ابن الفرضى إلى علو منزلته فى الشعر فى عصره فقال: «كان شاعر وقته غير مدافع».

وكان لابن هذيل ديوان أجاز روايته لابن الفرضى، ولكنه ضاع فيما ضاع من التراث الشعرى الأندلسى ولم يبق له إلا اختيارات مبثوثة فى كتب الأدب والتراجم تتبعناها وجمعنا منها أكثر من خمسمائة بيت فى هذا المجموع الشعرى.



وتلاه الشاعر «عبادة بن ماء السماء» وهو أبو بكر عبادة بن عبد الله بن محمد بن عبادة الأنصارى الخزرجى، وهو من ذرية الصحابى الجليل سعد بن عبادة الأنصارى وقيل له ابن ماء السماء لجدهم الأول. فكان شاعرا وشاحا، ووصف بأنه «من فحول شعراء الأندلس» ووصف كذلك بأنه شاعر الأندلس ورأس الشعراء فى الدولة العامرية، وقد أسهم بدور بارز فى تطور فن الموشحات، وغطت شهرته كوشاح على شعره، وقد أدرك عبادة الدولة العامرية ولحق الحموديين ومدح أمراءهم وتلقى العلم على شيوخ عصره وتتلمذ بصفة خاصة على العالم اللغوى المشهور أبى بكر الزبيدى.

وفى شعر عبادة نظرات اجتماعية تعكس رؤيته للواقع الاجتماعى ونظرته للناس، وهى فى مجملها نظرة سلبية تصم الناس بالفساد الأخلاقى ويقوم موقفه منهم على التوجس وأخذ الحيطة والحذر، وفى ذلك يقول:

وكأن الخيرىّ من كتمه الطيب
فقيهٌ مغرى بطول رياءِ
يُظهر الزهد بالنهار ويُمسى
فاتكا ليله مع الظرفاءِ

وجاء ثالث هؤلاء الشعراء «ابن الأبار الخولانى الإشبيلى»، وهو أبو جعفر أحمد بن محمد الخولانى الأندلسى الإشبيلى المعروف بابن الأبار، والخولانى نسبة إلى خولان بن عمرو وهى قبيلة كبيرة نزلت بالشام، وولد ابن الأبار بإشبيليه وعاش فيها وتوفى بها سنة ٤٣٣هـ

ولم يصل من شعر ابن الأبار إلا القليل وهذا القليل يؤكد شاعريته وتفننه فى صناعة النظم، وأغلبه فى المدح ووصف الطبيعة والخمر. وقد تطورت على يديه قصيدة المدح فمزجها بالطبيعة وصاغها على نسق جديد كأن يستنطق الزهريات ويصلها بالمدح أو يصف الربيع (ملك الفصول) ويصله بالممدوح، وتجرى مدائحه فى الأغلب على هذه الطريقة.

وكان لدى ابن الأبار الخولانى قدرة على الجمع بين النقيضين فى الموضوع الشعرى كأن يتخلص من التعزية إلى التهنئة، واشتهر بالروضيات والزهريات، فوصف الخيرى والآس والنرجس والأقاح والنيلوفر والورد وغيرها. ويمزج فى الموضوع بين الطبيعة والحب ويعنى بإيجاد مشاكلات بين الزهريات والعشق اعتمادا على عنصر التشخيص.

ويعرض د. فوزى عيسى لرابع الشعراء المنسيين وهو الوزير «أبو عامر ابن مسلمة» فهو أبو عامر محمد بن

خـــــالـــــد عـــــــــزب

عبد الله بن محمد بن مسلمة القرطبى، وكان من بيت أدب ورياسة وأنه كان ذا منزلة فيهم وكان أبوه وزيرا شاعرا.

وكان أبو عامر بن مسلمة من أعلام عصره، وكان أديبا شاعرا جمع بين صناعتى النظم والنثر، وقد هاجر من قرطبة إلى إشبيلية واتصل بالمعتضد بن عباد، وأنه ذهب إليه مضطرا وتعامل معه بحذر شديد وداراه مدة حياته اتقاءً لشره، كما أنه لم يرق ماء وجهه بل عاش بفضل وفرة وتصون لأملاك قديمة كانت له بإشبيلية ورثها عن أجداده وأنه مات مستورا بماله، وقد ألف أبو عامر للمعتضد كتابا سماه (حديقة الارتياح فى صفة حقيقة الراح) ذكر فيه ما قيل فى الراح وفى الرياض والبساتين، وقد رآه الحميدى ونقل عنه ابن سعيد فى المغرب.

ثم يأتى شاعر أندلسى آخر هو الخامس فى الكتاب يحكى لنا عنه فوزى عيسى وهو «السميسر الإلبيرى» وهو أبو القاسم خلف بن فرج الإلبيرى المعروف بالسُّميسر وكان من شعراء إلبيرة فى مدة ملوك الطوائف. وهو شاعر من طراز فريد، إذ كان أحد الأصوات النضالية المدافعة عن الأندلس، وقد تصدى بشعره للملوك المتخاذلين وبرع فى النقد السياسى على نحو لا نجده عند شاعر أندلسى آخر، وقد وصفه ابن بسام بأنه «كان باقعة عصره، وأعجوبة دهره» وقد اشتهر السميسر بالهجاء ووصفه ابن بسام بأنه «كان باقعة عصره، وأعجوبة دهره.. وله مذهب استفرغ فيه مجهود شعره، من القدح فى أهل عصره» وقد ألف السميسر ديوانا أو كتابا فى الهجاء سماه «شفاء الأمراض فى أخذ الأعراض» كان يقع فى مجلدات ولم يصل إلينا.

ثم سادس شاعر هو «ابن هانئ الأصغر» وهو شاعر مجيد سقط من ذاكرة الشعر الأندلسى لأنه هاجر إلى مصر صغيرا، وهو من نسل ابن هانئ الشاعر المشهور، وكاد ينسى تماما لولا أن العماد الاصفهانى احتفظ بقدر لا بأس به من شعره فى «خريدة القصر» وأدرجه فى القسم الذى أفرده لشعراء مصر، وقد جمعنا له ما يقرب من خمسمائة بيت، ويعد ابن هانئ الأصغر من جملة شعراء الأندلس المنسيين، فقد سقط من المصادر الأندلسية وكاد يسقط من ذاكرة الشعر الأندلسى لأنه هاجر إلى المشرق واستقر بمصر.

وابن هانئ الأصغر هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن مفضل الأزدى الأندلسى، وهو ينسب إلى ابن هانئ الشاعر الأندلسى المشهور، فهو من نسله وأحد أحفاده، ولا نعرف شيئا عن ملابسات انتقاله إلى مصر وإن كنا نرجح أنه خرج من الأندلس صغيرا قبل أن تتفتح مواهبه الشعرية، وهو ما يعلل صمت المصادر الأندلسية عن الإشارة إليه، وفى شعره إشارات إلى غربته، كقوله:

لا تصغرنى لكون الجسم مغتربا
فإن فى الجسم عقلا غير مغترب



والشاعر المنسى السابع هو «أبو جعفر بن سعيد» واسمه أبو جعفر بن عبد الله بن سعيد العنسى، وهو عم والد ابن سعيد وأحد مصنفى كتاب المغرب، وبرغم أنه أشعر أسرة بنى سعيد، وكان شعره مدوناً ولكن ديوانه مفقود، فالقاسم المشترك الأعظم بين هؤلاء الشعراء هو علو طبقتهم وذيوع صيتهم فى عصورهم، وضياع دواوينهم الشعرية حتى صاروا أو كادوا يعدون من جملة الشعراء المنسيين الذين طمر الزمن أشعارهم وأخبارهم، ولعل أجمل ما فى سيرة أبى جعفر بن سعيد قصة الحب التى جمعته بحفصة بنت الحاج الركونى أديبة زمانها، وشاعرة أوانها، فاشتد بها غرامه، وطال حبُّه وهيامه، وكانت بينهما منادمات ومغازلات أربت على ما كان بين علوة وأبى عبادة، وكانت حفصة أستاذة وقتها، وانتهت إلى أن علمت النساء فى دار الخليفة الموحدى المنصور، وكانت فريدة الزمان فى الحسن والظرف والأدب واللوذعية، وكانت أديبة نبيلة، جيدة البديهة سريعة الشعر، وانتهت القصة بمقتل أبى جعفر بن عثمان بن عبد المؤمن والى غرناطة الذى أحب حفصة وكانت محل هواه.

ولم يغفل فوزى عيسى الشاعرات الأندلسيات المنسيات من كتابه، فبدأ بـ«ولادة بنت المستكفى» وهى الأميرة الأندلسية ذائعة الصيت ولادة بنت المستكفى بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر عبد الرحمن بن محمد، عاشت ولادة شطرا من حياتها فى عصر الخلافة وأدركت عصر الطوائف وامتد بها العمر حتى أربت على الثمانين وتوفيت سنة ٤٨٤هـ وهو ما يجعل تاريخ ميلادها فى حدود سنة ٤٠٠ هـ أو بعدها بقليل، واشتهرت ولادة بقصة حب شهيرة مع ابن زيدون والتى انتهت بالهجر والقطيعة والخصام.

أما «نزهون الغرناطية»، فهى نزهون بنت القلاعى أو القليعى وتعرف كذلك بالقليعية، وكانت شاعرة غرناطة فى القرن السادس الهجرى، وكان والدها محمد بن أحمد بن خلف القليعى الغسانى قاضياً، تولى قضاء غرناطة سنة ٥٠٨ هـ وتوفى سنة ٥١٠هـ وكان من أهل الفضل والحسب والدين، ولم تحتفظ المصادر بتاريخ ولادة نزهون أو وفاتها.

ولم تسر نزهون على سنن أبيها بل خلعت ثوب التصاون وانخرطت فى حياة اللهو والمجون وقد وصفها الحجارى فى «المسهب» بخفة الروح، والانطباع الزائد، والحلاوة، وحفظ الشعر، والمعرفة بضرب الأمثال مع جمال فائق وحسن فائق، ووصفها ابن سعيد بأنها شاعرة ماجنة كثيرة النوادر، وقال عنها ابن الخطيب: كانت أديبة شاعرة، سريعة الجواب، صاحبة فكاهة ودعابة. وهى شاعرة ظريفة خفيفة الروح كثيرة النوادر، لا تجد حرجاً فى الإفحاش فى القول، ولها مساجلات شعرية ونوادر ومواقف مع بعض معاصريها من الأدباء تدل على بديهة وذكاء وتماجن.

ثم «حفصة بنت الحاج الرَّكُّونى» والتى ذكرها فوزى عيسى من قبل فى حديثه عن أبى جعفر بن سعيد، وقد عاشت حفصة فى القرن السادس الهجرى فى عصر الموحدين وتنسب إلى قرية «راكونة» واستقرت فى غرناطة، فكانت من أديباتها البارزات حتى ليقول الشقندى: «ولم يكن لها -أى غرناطة- إلا ما خصها الله تعالى به من كونها قد نبغ فيها من الشواعر مثل نزهون القلاعية وزينب بنت زياد وحفصة بنت الحاج وناهيك عن الظرف والأدب.

وأغلب الظن أن كثيرا من شعر حفصة ضاع فلم يصل إلينا منه سوى ثمانية وخمسين بيتا، وهو فى جملته شعر أنثوى يمتاز بالرقة والعذوبة وصدق العاطفة، وقد التفت بعض القدماء إلى صفة الرقة فى شعرها، فوصفها ابن دحية بأنها «رقيقة النظم والنثر» وهو ما يشير إلى أن حفصة لم تكن شاعرة فحسب بل كانت كاتبة أيضا، ولكن المصادر لم تحتفظ بشىء من نثرها. ■



القاسم المشترك الأعظم بين هؤلاء الشعراء هو علو طبقتهم وذيوع صيتهم فى عصورهم، وضياع دواوينهم الشعرية حتى صاروا من جملة الشعراء المنسيين الذين طمر الزمن أشعارهم وأخبارهم



السـودان: مـسـتـقـبـل عـلـى المحـك*

الأخضر الابـراهيمى وديزموند تـوتـو
Lakhdar Brahimi and Desmond Tutu

■■ الجزائر. لقد أصبح مستقبل السودان على المحك. فمن المقرر أن تجرى الانتخابات الوطنية فى شهر إبريل/ نيسان. ومن المفترض أن يعقد الاستفتاء حول الوضع المستقبلى لجنوب البلاد فى عام ٢٠١١. وكان ذلك من العناصر الرئيسية فى اتفاقية السلام الشاملة التى أبرمت فى عام ٢٠٠٥، والتى أنهت عشرين عاماً من الحرب الأهلية بين الشمال والجنوب.

والواقع أن كلاً من الاقتراعين يبشر بخير حقيقى، ولكن هناك شكوكا حقيقية تحيط بهما أيضاً. فقد تراجع القادة السياسيون فى السودان عن تعهداتهم بموجب اتفاقية السلام. ومن الصعب الآن أن نجد التعاون والإجماع اللازمين. وما زالت المأساة المروعة التى يعيشها إقليم دارفور فى غرب البلاد مستمرة بلا هوادة.

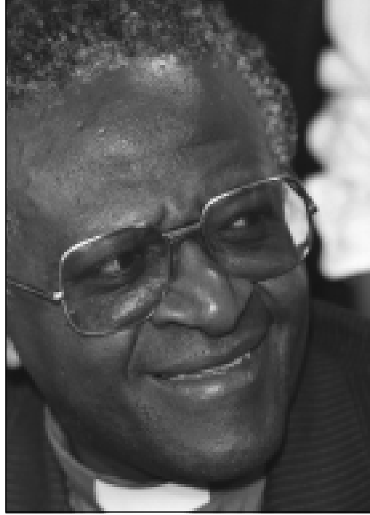
كان الدعم الذى قدمه المجتمع الدولى هو الذى ساعد فى الجمع بين الأطراف السودانية فى عام ٢٠٠٥. ولقد سارع عدد كبير من البلدان فى أفريقيا والغرب إلى ضمان الاتفاق. ومن الواضح أن السودان فى حاجة ماسة إلى مثل هذه الجهود الآن.

فمع الدعم الدولى اللائق سوف يكون بوسع السودان أن تحرز تقدماً حاسماً نحو السلام والديمقراطية فى غضون الأشهر المقبلة. أما إذا تقاعس المجتمع الدولى عن التعامل مع هذا التحدى فإن الصراعات والتوترات التى كبدت السودان مئات الآلاف من الأرواح سوف تستمر وتتفاقم. ولا يجوز لنا أبداً أن نسمح لهذا بالحدوث.

منذ بدأ نيلسون مانديلا فى تشكيل مجموعة من قادة العالم السابقين لتأسيس مجموعة الحكماء، كنا نحن أعضاء هذه المجموعة نركز على المحنة التى يعيشها السودان. ولقد اخترنا هذا البلد كمقصد لزيارتنا الأولى، وعلى مدى العامين الماضيين عكفنا على مراقبة الكارثة الإنسانية فى دارفور وغيرها من أجزاء البلاد عن كثب.

وأثناء زيارتنا فى عام ٢٠٠٧، اجتمعنا بزعماء المجتمع السياسى والمدنى من مختلف أنحاء البلاد، فضلاً عن ممثلين لوكالات الأمم المتحدة المختلفة، والاتحاد





الأفريقى، وعدد من الدبلوماسيين. ولكن اجتماعنا مع الناس العاديين فى السودان هو الذى ترك أعمق الأثر فى أنفسنا.

فقد استمعنا إلى قدر هائل من الروايات الشخصية عن اليأس والآلام التى لا يمكن تصورها. ومن الواضح أن العنف والتشريد وانتهاكات حقوق الإنسان تسببت فى خسائر هائلة. لقد خُرِّب السودان طيلة عقود من الزمان بفعل نزاعات مريرة ضاربة بجذورها فى الفقر المدقع، والصراعات حول الموارد، والتوترات العرقية والدينية.

ولكن رغم انتشار الفساد والظلم، فقد وجدنا أيضاً قدراً ملحوظاً من المرونة والتفاؤل. والواقع أن السودانيين، مثلهم فى ذلك كمثل كل الشعوب فى مختلف أنحاء العالم، عازمون على بناء حياة أفضل من أجل أبنائهم وأحفادهم. وهم يتوقون إلى السلام، والاستقرار، والفرصة لإبداء الرأى فيما يتصل بصياغة مستقبل بلادهم. وهم راغبون فى الحصول على الفرص التعليمية والاقتصادية حتى يصبح بوسعهم انتشال أنفسهم وأسرهم من براثن الفقر.

حتى الآن كانت هذه الآمال محبطة. وهذه ليست مأساة بالنسبة لشعب السودان الذى طالت معاناته فحسب، بل إن هذه المأساة تخلف آثاراً بالغة الضرر فى مختلف أنحاء المنطقة والعالم ككل. فالسودان ليست بلداً صغيراً تافهاً؛ بل إنه يحتل المرتبة العاشرة بين أضخم بلدان العالم مساحة. وهو الأضخم مساحة فى أفريقيا والعالم العربى. والسودان يحتل موقعاً محورياً فى قارتنا، ويشترك فى حدوده الشمالية مع مصر، وحدوده الجنوبية مع كينيا، فضلاً عن سبع دول أخرى تشترك معه فى الحدود.

لقد أسفر الاقتتال الدائر فى البلاد منذ عام ٢٠٠٣ عن نزوح مليونين من أصل أربعين مليوناً هم سكان السودان، مع اضطرار أعداد كبيرة إلى اللجوء إلى بلدان مجاورة. وهذه التدفقات من اللاجئين تشكل سبيلاً إلى انتشار عدم الاستقرار عبر حدود السودان إلى بلدان أخرى. ولا أظن أننا نحتاج إلى ما يذكرنا بالتهديدات التى تفرضها البلدان الفاشلة على الأمن الدولى.

وفى حين أن الشعب السودانى قد يكون من بين أفقر الشعوب فى العالم، فإن السودان غنية بالثروات الطبيعية، بما فى ذلك النفط والمعادن الثمينة. ولا شك أن هذه الموارد، فى ظل التنمية اللائقة فى جو من الاستقرار والأمن وفى ظل الزعامة المسئولة والحكم الرشيد، من الممكن أن تستغل لتحسين مستويات المعيشة والتصدى للتحديات العديدة التى يواجهها السودان.

ولكن الأمل ضئيل فى تحقق هذه الغايات ما لم يجتمع زعماء الشمال والجنوب سوياً على تنفيذ اتفاقية السلام الشاملة. وإذا لم توضع الأسس السليمة للانتخابات المقبلة والاستفتاء، فلسوف يواجه السودان خطراً أعظم.

ومن الأهمية بمكان أن نضمن حرية الانتخابات وانفتاحها وشمولها كخطوة أولى. ويتعين على كافة مناطق البلاد أن تشارك فى الاقتراع، بمن فى ذلك المواطنون النازحون داخلياً ومواطنو المناطق التى يسيطر عليها المتمردون فى دارفور.

ومن الضرورات الأساسية فضلاً عن ذلك أن يتم السماح للمراقبين الدوليين بالوصول الكامل إلى المقار الانتخابية لمراقبة انتخابات العام القادم واستفتاء عام ٢٠١١. وآنذاك فقط سوف يكون بوسع أهل السودان أن يثقوا فى النتائج، وهذا بدوره سوف يشكل الأساس الذى سوف ينبنى عليه الإصلاح الحقيقى والديمقراطية. وإلا فإن الخطر الحقيقى قائم فى أن تعمل الانتخابات على تصعيد التوترات وأعمال العنف وليس الحد منها.

إن هذه الانتخابات والاستفتاء، على الرغم من أهميتها الحيوية، لا تشكل التحدى الوحيد الذى يواجهه السودان وأهله. فالمشاكل المعقدة والمتشابكة التى يعيشها السودان لا يمكن معالجتها بطريقة مجزأة. ولن تنجح البلدان منفردة أو المنظمات الإقليمية التى تتبنى أجندات مختلفة فى مساعدة السودان فى التغلب على مشاكله. ورغم حسن النوايا وراء هذه الجهود فسوف تظل غير فعّالة من دون تنسيق أفضل.

إننا فى حاجة ماسة إلى مبادرة المجتمع الدولى إلى وضع استراتيجية واضحة ومتماسكة وشاملة فى التعامل مع الانتخابات والاستفتاء وغير ذلك من أمور. ولابد بصورة خاصة من وجود قدر أعظم من الدعم الإقليمى والدولى للجهود الرامية إلى تمهيد الأرض لاتفاقية تتم من خلال الوساطة بشأن دارفور، فضلاً عن حل النزاعات المعلقة بين زعماء الشمال والجنوب بشأن الإعداد للانتخابات، والاستفتاء، وغير ذلك من الجوانب الرئيسية فى اتفاقية السلام. ويتعين على المجتمع الدولية بصورة أكثر عموماً، والدول الأفريقية بشكل خاص، أن تضع احتياجات الشعب السودانى قبل مصالح قادته.

إن الباب إلى مستقبل أفضل للسودان يظل مفتوحاً. ولكن النجاح يتوقف على التقيد بالجدول الزمنى لتحقيق التقدم المنصوص عليه فى اتفاقية السلام الشامل. ومن دون التحركات السريعة والجريئة من جانب المجتمع الدولى، وخاصة من جانب الجهات التى تضمن اتفاقية السلام، لضمان الوفاء بالوعود، فسوف تضيع هذه الفرصة من بين أيدينا. إن الوقت ينفد بسرعة وقد تكون العواقب مأساوية ووخيمة. ■

* كُتب هذا المقال قبل الانتخابات الرئاسية الأخيرة فى السودان

ترجمة: مايسة كامل



دولـة الفصـل العنصرى الأخـرى

رونــــــــى كـاســـــرلــز
Ronnie Kasrils

■■ أريد أن أبدأ باقتباس كلمات لافتة لشخصية جنوب أفريقية أكدت قبل ٤٨ عاماً: «لقد أخذ اليهود إسرائيل من العرب، بعد أن عاش العرب هناك ألف عام. إن إسرائيل مثل جنوب أفريقيا، دولة فصل عنصرى». (صحيفة راند ديلى ميل، ٢٣/ ١١/ ١٩٦١). لم تكن هذه كلمات للزعيم نيلسن مانديلا أو الأسقف ديزموند توتو أو روث فيرست، بل كانت لمهندس ومؤسس نظام الفصل العنصرى (أبارتهَيْد) ذاته، رئيس الوزراء العنصرى الدكتور هندريك ڤيروُرد.

كان هندريك ڤيروُرد ساخطاً على انتقاد سياسة الفصل العنصرى، وخطاب هارولد مكميلان (رئيس الوزراء فى حكومة المحافظين البريطانية وقتها) بعنوان «رياح التغيير»، والسخط الدولى المتصاعد بسبب «مذبحة شارپڤيل» بحق المواطنين الأفارقة بجنوب أفريقيا؛ بينما يقدم الغرب، فى نفس الوقت، دعمه غير المشروط لإسرائيل الصهيونية.

من المؤكد أن ڤيروُرد كان على حق. فكل من نظام الفصل العنصرى بجنوب أفريقيا وإسرائيل الصهيونية كان كياناً استعمارياً استيطانياً، وقد أنشئ على أساس الاغتصاب الشرس لأرض وحقوق السكان الأصليين. وهذا موثق فى حالة إسرائيل بلا أدنى خجل من زمن هرتسل إلى غَبوتنسكى، وبن غوريون، ومناحيم بيغن، وموشيه ديان إلى شارون، وآخرين.

كلتا الدولتين (إسرائيل وجنوب أفريقيا العنصرية) تبنت ونفذت سياسة تقوم على العنصرية العرقية؛ ادعاء اليهود فى إسرائيل والبيض فى جنوب أفريقيا بحقهم فى المواطنة حصرياً؛ واحتكار الحقوق القانونية فى ملكية الأرض والعقار والأعمال التجارية؛ والوصول الحصرى للمرافق التعليمية والصحية والاجتماعية والرياضية والثقافية، والمعاشات والخدمات البلدية على حساب السكان الأصليين؛ واحتكار عضوية القوات العسكرية والأجهزة الأمنية، وامتيازات التنمية البشرية والاقتصادية على قياس خطوط التفوق العرقى. وحتى قوانين الزواج بكلا البلدين مصممة بهدف حماية النقاء العنصرى. وكون الأقلية الفلسطينية داخل إسرائيل يحق لها التصويت، فذلك بالكاد يعالج الظلم الواقع عليهم بجميع المسائل الأخرى

Address by Ronnie Kasril
Cape Town International Conference:
Re-Envisioning Israel/Palestine
12 June 2009

ترجمة: مازن النجار

لحقوق الإنسان الأساسية. على أى حال، الفلسطينيون الذين يسمح لهم بالترشح لانتخابات الكنيست، يفعلون ذلك شريطة عدم التجرؤ على التساؤل حول وجود إسرائيل، كدولة يهودية.

أما من كانوا يسمون «غير البيض» بجنوب أفريقيا العنصرية، والأفارقة الأصليون، وآخرون مختلطو الأعراق أو أصولهم آسيوية، فشأنهم شأن مواطنى الدرجة الثانية أو الثالثة من غير اليهود فى إسرائيل ذاتها، ناهيك عن سكان المناطق المحتلة عسكرياً، فقد خضعوا لتصنيفات وأوضاع فى غاية الغموض والالتباس وكافة صور التمييز والإجحاف، كتلك القوانين التى تحظر عليهم حرية التنقل والحصول على عمل والتجارة، وتملى عليهم محال إقامتهم وغير ذلك.

لا بد أن هندريك ڤيروُرد كان واعياً بتجريد إسرائيل للفلسطينيين من وطنهم وأرضهم فى ١٩٤٨، سنة وصول حزب نظام الفصل العنصرى أيضاً إلى السلطة بجنوب أفريقيا، وتدمير قراهم والمذابح المعدة مع سبق الإصرار، والتطهير العرقى الممنهج.

فى غضون سنوات قليلة من وصوله للسلطة بجنوب أفريقيا فى ١٩٤٨، أجرى نظام الفصل العنصرى بلا رحمة تطهيراً للمدن، والبلدات المسماة «البقع السوداء» حيث يعيش ويتجاور ويدرس ويتاجر «غير البيض»؛ فقاموا بتجريف المنازل وتحميل الأسر على شاحنات عسكرية، ونقلهم عنوة إلى مستوطنات بعيدة. وعلى عكس معازل السكان الأصليين، التى سرعان ما أعيد تشكيلها لتكون بانتوستانات، لم تكن هذه المستوطنات بعيدة جداً عن المناطق الصناعية، لأن الاقتصاد ازدهر بحصة من اليد العاملة السوداء الرخيصة.

لم يعش ڤيروُرد ليرى تفتيت الأراضى الفلسطينية بعد حرب ١٩٦٧، وما أعقبها من إقامة بانتوستانات ضئيلة فى الضفة الغربية وقطاع غزة، لكنه سيكون معجباً جداً ومؤيداً لعمليات وإجراءات عزل الفلسطينيين فى سجون أشبه بالغيتوهات. فهذه فى المحصلة «خطة ڤيروُرد العظمى»، وهذا ما دفع بسهولة جيمى كارتر إلى تشخيص أوضاع الأراضى الفلسطينية المحتلة، باعتبارها أقرب إلى الفصل العنصرى.

مثلت البانتوستانات نحو ١٣ بالمائة من مساحة جنوب أفريقيا العنصرية، وتشبه بشكل خارق للعادة ومثير للسخرية، قطع الأرض المنكمشة باستمرار، والتى تريد إسرائيل إيداع الفلسطينيين بها، حيث يقدر أن ما يزيد على ثلث الأراضى الفلسطينية تضم الكتل الاستيطانية غير القانونية ومنظومة الشبكة الأمنية، بطرقها المخصصة لليهود فقط. وهذا يعنى أن الضفة الغربية التى كانت ٢٢ بالمائة من فلسطين الانتدابية أصبحت ١٢ بالمائة فقط.

عندما زار رونى كاسرلز بصحبة عزيز باهاد (نائب وزير خارجية جنوب أفريقيا) ياسر عرفات بمقر المقاطعة المهدوم فى ٢٠٠٤، أشار عرفات حوله وقال «انظروا هذا ليس سوى بانتوستان!» ورد كاسرلز وباهاد بقولهما لا، وأشارا إلى أنه حتى فى جنوب أفريقيا العنصرية، لم يحدث أن قصفت الطائرات الحربية أو الدبابات بانتوستان أو حتى بلدة. ولدهشة ياسر عرفات، أخبره الضيوف أن حكومة جنوب أفريقيا العنصرية قد ضخت أموالاً طائلة وأقامت مبانى إدارية تثير الإعجاب فى البانتوستانات، بل وسمحت لها بشركات خطوط جوية تخدم عواصمها «الصورية» لإقناع العالم بأنها جادة فيما يسمى «التنمية المنفصلة». بل إن البانتوستانات لم تكن مسيجة أصلاً!

ما كان يثير إعجاب هندريك ڤيرورد، مهندس ومؤسس نظام الفصل العنصرى بجنوب أفريقيا، إفلات إسرائيل المستمر من أى عقوبات تتعلق بممارساتها للعنف والإرهاب، ومضيها فى هذا الطريق دون عوائق من حلفائها الغربيين، خاصة الولايات المتحدة وبشكل متزايد. وأثار إعجاب ڤيرورد وأضرابه أيضاً، وحاولوا محاكاتها بجنوب أفريقيا، الطريقة التى سمحت بها القوى الغربية لإسرائيل الإمبريالية باستخدام قوتها العسكرية، بدون حدود أو قيود أو عقوبة أيضاً، لتوسيع أراضيها، وكبح مد القومية العربية فى جوارها.

فبعد حرب الأيام الستة (١٩٦٧)، أدلى جون ڤورستر، خليفة ڤيرورد فى قيادة نظام الأپارتهَيْد، بتصريحه الشهير: «لقد هزم الإسرائيليون العرب قبل الغداء، ونحن سنأكل الدول الأفريقية فى الإفطار». ألقى ڤورستر هذا التحذير الأخير فى مواجهة دعم الدول الأفريقية المستقلة للكفاح المسلح المتنامى آنذاك من أجل التحرر فى إقليم أفريقيا الجنوبية.

لكن لم تكن عقيدة إسرائيل العنصرية وحدها التى أثارت حماس قادة نظام الأپارتهَيْد، وإنما استخدام السردية التوراتية كديباجة أو أساس أيديولوجى لتبرير الرؤية والأهداف والأساليب، التى يتبناها الكيانان العنصريان.

فالرواد الهولنديون (المستوطنون) الأوائل، أو ما يسمى الأفريكانرز بجنوب

كتب التاريخ العنصرية تقول إن
الرجل الأبيض وصل إلى جنوب أفريقيا، عندما كانت «قبائل البانتو» الأفريقية القادمة من الشمال
تتجول عشوائياً عبر نهر ليمبوبو



أفريقيا، استخدموا الكتاب المقدس (العهد القديم) والبندقية شأن المستعمرين فى أى مكان آخر، لإقامة قلاع محصنة وحصرية فى مناطق جنوب أفريقيا النائية. ومثل بنى إسرائيل فى العهد القديم، زعموا أنهم «شعب الله المختار»، للقيام بمهمة ترويض وتحضير البرارى؛ متجاهلين إنتاجية وكدح الشعب الذى حرث التراب وتبادل المنتجات لقرون طويلة. وزعم المستوطنون أنهم وحدهم الذين جعلوا الأرض تدر لبناً وعسلاً.

وادعوا أن لهم مع الله عهداً بأن يسوق أعداءهم إلى قبضتهم، وأن يبارك أعمالهم. وحتى ظهور الديمقراطية بجنوب أفريقيا، كانت كتب التاريخ العنصرية عموماً تقول إن الرجل الأبيض وصل إلى جنوب أفريقيا، عندما كانت «قبائل البانتو» الأفريقية القادمة من الشمال تتجول عشوائياً عبر نهر ليمبوبو، وأنهم الأفريكانرز كانوا مستوطنين رواداً فى أرض خالية من السكان.

مثل هذه العقلية الاستيطانية العنصرية هى التى «عقلنت» وبررت عمليات الإبادة الجماعية للشعوب الأصلية فى الأميركتين وأستراليا ونيوزيلندا، وفى أفريقيا من ناميبيا إلى الكونغو وغيرها، بيد أن صداها الأكثر وضوحاً كان فى فلسطين. لكن الجانب الأكثر عاراً فى هذا الدجل الاستيطانى اللاحق أن إسرائيل الصهيونية قد سمح لها الغرب بالتطلع إلى مثل هذا الهدف، حتى فى القرن الحادى والعشرين.

ليس من الصعب بأى حال الإدراك من بعيد، كما استطاع فيرورد أيضاً إدراك، أن إسرائيل دولة فصل عنصرى (نظام أپارتهيْد). عقب حرب أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٣، قام جون ڤورستر، خليفة ڤيرورد، بزيارة إسرائيل عندما استعادت مصر قناة السويس. بعد ذلك، أصبحت إسرائيل وجنوب أفريقيا توءمين عسكريين، حيث قدمت بريتوريا المساعدة لإسرائيل إبان نكستها فى ١٩٧٣، وقامت إسرائيل بدعم نظام الأپارتهيْد فى ذروة الحظر والعقوبات عليه بالأسلحة والتكنولوجيا، من سفن الأسطول الحربية، وتطوير الطائرات المقاتلة الأسرع من الصوت، إلى بناء ست قنابل نووية، وإنشاء صناعة سلاح مزدهرة.

بالنسبة لحركات التحرر فى أفريقيا الجنوبية، مثلت إسرائيل وجنوب أفريقيا العنصرية محوراً عنصرياً استيطانياً. يلاحظ رونى كاسرلز أن ڤورستر وأمثاله كانوا متعاطفين مع النازية، ولذلك اعتقلوا خلال الحرب العالمية الثانية، ومع ذلك فقد تم تكريمهم كأبطال فى إسرائيل، وبالمناسبة، لم تصدر إشارة إليهم من قبل صهاينة جنوب أفريقيا باعتبارهم معادين للسامية! وهذا لم يفاجئ أولئك الذين فهموا الطبيعة العنصرية الحقيقية وشخصية إسرائيل الصهيونية.

إن من المفيد إضافة أن إسرائيل، فى سلوكها وأساليبها القمعية، قد أصبحت أشبه ما تكون بنظام جنوب أفريقيا العنصرى فى ذروته، بل وتجاوزت إسرائيل مستوى وحشيته، فى هدم المنازل وإزالة المجتمعات السكانية، والاغتيالات المستهدفة، والمذابح، وسجن وتعذيب الخصوم، والعدوان على البلاد المجاورة.

من المؤكد أن أبناء جنوب أفريقيا يستطيعون تشخيص السبب المرضى، المغذى للكراهية لدى النخبة السياسية العسكرية والجمهور عموماً فى إسرائيل، مما يؤدى إلى مزيد من المواقف العنصرية المتطرفة لدى ممثليها المنتخبين، كما تدل محصلة انتخابات الكنيست الأخيرة. وليس من الصعب أيضاً لأى ملِم بتاريخ الاستعمار أن يفهم الطريقة التى تؤكد بها الكراهية العنصرية المغروسة عمداً مبررات أبشع أعمال لاإنسانية ضد حتى المدنيين العزل، أطفالاً ونساء وشيوخاً، كما حدث مؤخراً فى غزة. من هذه العنصرية الجامحة تتغذى حروب الإبادة الجماعية والمحارق.



يجوز القول، بدون مبالغة، أن أى زائر للأراضى الفلسطينية المحتلة من جنوب أفريقيا سواء أكان مشاركاً فى الكفاح من أجل الحرية، أو مدفوعاً بالكرامة الإنسانية البسيطة، سوف يُصدم فى الصميم بالوضع الذى سيلاقيه هناك، وسيتفق مع ملاحظات الأسقف ديزموند توتو، بما فى ذلك ملاحظاته الأخيرة أن أموراً تحدث فى إسرائيل، «مثل العقوبات الجماعية»، لم تحدث أبداً خلال حكم نظام الفصل العنصرى بجنوب أفريقيا (انظر: صحيفة «الغارديان» اللندنية، ٢٨ مايو/أيار) ٢٠٠٩.

أود أن أذكِّر هنا بكلمات عضو مجلس الوزراء الإسرائيلى، أهارون سيزلنغ، فى ١٩٤٨ عقب انكشاف أمر مذبحة دير ياسين الوحشية التى راح ضحيتها ٢٤٠ قروياً من أهل البلدة. قال أهارون سيزلنغ: «الآن لقد تصرفنا نحن أيضاً مثل النازيين، لقد اهتز كيانى كله.» (كتاب توم سيغيف: «الإسرائيليون الأوائل»)

يُروى أن عضو مجلس العموم البريطانى المخضرم، جيرالد كوفمَن (يهودى)، وهو صديق قديم لإسرائيل أيضاً، قد لاحظ أن الناطقة باسم قوات الدفاع الإسرائيلية كانت تتحدث كما لو كانت نازية، عندما رفضت ببرود مسئولية مقتل المدنيين العزّل فى غزة، وبينهم كثير من النساء والأطفال. إننا لا نجرؤ على السماح بأن نستبعد من خطابنا ما هو واضح ويثير القشعريرة مثل فيل فى حجرة: الصعود الكاسح للفاشيين كأڤيغدور ليبرمان لتولى مواقع السلطة الرئيسة فى إسرائيل؛ والتهديد بطرد فلسطينيى ١٩٤٨؛ وتنفيذ فكرة «الجدار الحديدى» التى دعا إليها جابوتنسكى.

كان الكنيست الإسرائيلى قد صوّت بأغلبية كبيرة لإقرار قانون يهدد بسجن كل من ينكر أن إسرائيل دولة يهودية وديمقراطية؛ وهناك قانون آخر قيد المناقشة يحظر على أى شخص الدعوة إلى دولة ثنائية القومية؛ وكذلك هناك مشروع قانون آخر يعاقب بالسجن لثلاث سنوات من يحيى ذكرى «النكبة». وكان الكاتب الإسرائيلى والناشط لأجل السلام، أورى أفنيرى، قد وصف ذلك بأنه «مصنع قوانين عنصرية، ذات رائحة فاشية كريهة مميزة».

يحتاج الأمر إلى نقاش صريح. فإذا كانت جرائم المحرقة النازية (الهولوكوست) هى أعلى درجات مقياس الهمجية البشرية فى الأزمنة الحديثة، فأين نضع ما حدث مؤخراً من تكلفة بشرية باهظة فى غزة، والمعالم العديدة الملطخة بالدم منذ ١٩٤٨، والجرائم (الإسرائيلية) بلبنان فى ١٩٨٢ و٢٠٠٦؟

كيف نقيّم وحشية إلقاء القنابل على السكان المدنيين وإضرام الفوسفور الأبيض، وإحراق البشر أحياء، وتحميص الناس بالغازات فى غيتو غزة، تحت وطأة حصار بلا هوادة، حيث لا مهرب أو مخبأ. وعلى مدى ٢٢ يوماً من القصف المتواصل، تلاشت عائلات بأكملها أمام عينين مفزوعتين لمن بقى حياً من طفل أو أب أو أم.

فمجازر غرنيكا (أسبانيا) وليديْس (بلاد التشيك) وغيتو وارسو (بولندا) وديرياسين (فلسطين) وصبرا وشاتيلا (لبنان) وشاربفيل (جنوب أفريقيا) تحتل أعلى مستويات الهمجية البشرية، والذين ارتكبوا المذبحة فى غزة هم ذرية ضحايا الهولوكوست، لكنهم مرة أخرى وبكلمات أهارون سيزلنغ يتصرفون مثل النازيين.

لا يجوز أبداً السماح بأن تفلت هذه الجرائم بدون عقاب، ويجب على المجتمع الدولى المطالبة بمحاكمة المتورطين لارتكابهم جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية. ذلك أن العبرة تقول بأنه إذا لم يتم وقف الجناة فى مساراتهم هذه، فسوف تتعاظم هذه الجرائم وتنتشر ليس فقط لتشمل كامل الشرق الأوسط وإيران، ولكنها ستمتد وراء ذلك. بالطبع، نظراً لأن إسرائيل حليف رئيس لمصالح الولايات المتحدة الأميركية، لن تكون هناك نهاية قريبة لهذه الملحمة الدموية، حيث يُدفع بالفلسطينيين نحو طريق الشعوب البائدة من الحقب الاستعمارية السابقة. لكن لا يجوز أن يسمح لهذا المصير بالحدوث.

هل نجرؤ على الاعتقاد بأن أميركا تحت قيادة أوباما ستحدث أى تغيير؟ يثير البعض أملاً بأنه بعد ١٥ عاماً، قد تعود الحياة مرة أخرى إلى خطة خارطة الطريق المتعثرة ومعها تخيلات حل الدولتين. ويلاحظ المرء أن الرئيس أوباما يدعو فقط إلى تجميد بناء المستوطنات، وإلى قليل مما له قيمة. هل يمكن للمساومات حول ١٢ بالمائة أو أقل (من مساحة فلسطين) أن تقيم دولة فلسطينية قابلة للحياة؟ إنه أمر مشكوك به. إننا نترقب باهتمام نتائج مداولات هذا المؤتمر.

هل لى أن أذكركم بقصة إدوارد لير «أليس فى بلاد العجائب»، حيث تسأل أليس التائهة «يرقة» الفراشة الجالسة على فطر الغاريقون عن الطريق. لكنها بدورها تسألها أين تريد أن تذهب؛ بيد أن أليس المنذهلة لا تدرى أين تذهب. عندها تجيب اليرقة: «إذا كنت لا تدرين أين تذهبين، فأى طريق سوف تؤدى الغرض».

هل نحن من السذاجة بحيث نعتقد أن الأكاديميين (وحدهم) يمكنهم أن يساعدونا فى العثور على حاجتنا ويدلونا على الاتجاه الصحيح. أرجو أن تكون مداولاتنا هنا فى هذا المؤتمر منتجة. ضعوا فى اعتباركم مهمة القاضى رتشارد غولدستون (من جنوب أفريقيا) ولجنة التحقيق المكلفة من الأمم المتحدة، والتى قوبلت برفض إسرائيلى تام للتعاون معها فى التحقيق حول حمام الدم الذى حدث فى غزة. لقد تم استجواب عشرات الناجين فى غزة، أحدهم شاهد الجنود الإسرائيليين يطلقون النار على والدته المسنة وأخته وأردوهما قتيلتين، بينما كانت الأسرة تخلى منزلها ملوحة براية بيضاء. يقول ماجد حجاج أن: «اللجنة كانت كغيرها من الذين جاءوا. لقد كُتبت تقارير كثيرة، لكن ليس هناك شىء سوى حبر على ورق». وكأننا مرة أخرى نقرأ سطوراً من عجائب رواية إدوارد لير.

ولئن بدأت كلمتى باقتباس من الدكتور هندريك ڤيرورد، فسأختم باقتباس قول ذائع للزعيم نيلسن مانديلا قاله فى ١٩٩٧: «لقد اتخذت الأمم المتحدة موقفاً قوياً ضد نظام الفصل العنصرى بجنوب أفريقيا؛ وعلى مدى السنين، تم بناء إجماع دولى حول هذا الموقف، مما ساعد فى وضع حد نهائى لهذا النظام الجائر. لكننا ندرك جيداً أن حريتنا منقوصة بدون حرية الفلسطينيين (بريتوريا، ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٧) .وكما استطاعت الحركة الوطنية الموحدة لشعب عازم ومصمم، معززة بأعمال وتدابير التضامن الدولى التى تبنت أسلحة سلمية من «مقاطعة» و«سحب الاستثمارات» و«عقوبات»، بما فى ذلك مبادرات أكاديمية عديدة، أن تظفر بالحرية لكل شعوب جنوب أفريقيا، كذلك يمكن فعل الأمر ذاته فى الأرض المقدسة. ■

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazer - Volume 12 - Issue 137 - June 2010

مجلة شهرية العدد ١٣٧ - السنة الثانية عشرة - يونية ٢٠١٠ - الثمن عشرة جنيهات

لماذا تخسر الولايات المتحدة التيار الاسلامى؟

أكبر سجل «سرى جدا» فى التاريخ!

ألف ليلة وليلة من الأرق

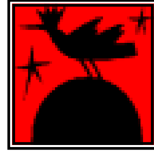


السنة الثانية عشرة
العدد ١٣٧
يونية ٢٠١٠

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتَّاب العدد:

- أحمد مستجير.. أستاذ بكلية الزراعة جامعة القاهرة (راحل)
- أيمن الصياد.. صحفى
- باتريشيا موريسور.. كاتبة أمريكية، تكتب فى عدد من المجلات الأمريكية
- جيمس بامفورد.. صحفى وكاتب أمريكى متخصص فى شئون الاستخبارات
- حسن أبشر الطيب.. ناقد أدبى من السودان
- رايموند ويليام بيكر.. أستاذ سابق للسياسات الدولية فى Trinity College
- فاضل الربيعى.. كاتب وروائى عراقى متخصص فى دراسة التاريخ القديم والأساطير
- فؤاد قنديل.. كاتب مصرى
- لبنى الريدى.. مترجمة
- محمد عبد السلام العمرى.. معمارى وكاتب
- محمد مستجير.. قاص مصرى راحل
- محمد يوسف عدس.. كاتب مصرى

رسوم العدد

محمد حجى - Carlos Latuff - Dave Granlund





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

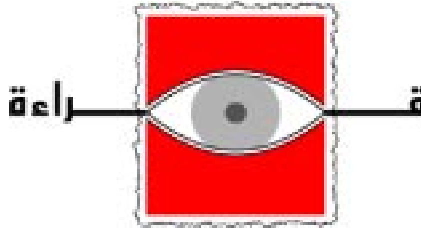
الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١,٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١,٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



عشيّة الفجر الدامى..

«حــــــديث الحصــــار»

One Year After تقـــــريـــر «دولـــى» فـى ١١٢ صـفـحـة و٤٤ جـدولا بـيـانـيـا، يـــوضــح «بـــالأرقـــام» حــــال غـــزة «الـســــجـن الـكــبـيـــــر»

■■ دون أن نبالغ فى تقييم ما حدث.. ودون أن تسكرنا صيحاتُ التنديد شرقًا وغربيا بـ«الجريمة» فنطمئن إلى ما نعرفه من أننا على حق.. فنذهب «لنقعدَ مع القاعدين»، تبقى حقيقة أن الدماءَ التى سالت على سطح «مرمرة الزرقاء» فى فجرِ اليوم الأخير من مايو ستكتب سطراً مهمًا فى تاريخ هذه المنطقة الذى لم يستقر أبداً منذ وضعت الحرب الأولى أوزارها فى ذلك اليوم البعيد من العام الثامن عشر من القرن الماضى. ولم تكن أبدا «الأصداء الحمراء» لدماء الضحايا، والتى تجسدت أعلامًا تركية «حمراء» غطت شوارعَ عواصمَ عالمية عديدة، من طوكيو وكوالالمبور شرقًا، إلى نيويورك وأتاوا غربيًا، إلا واحدة من مشاهد عدة، لها بالضرورة معنى ودلالة.



هل كان ما جرى مفاجئًا؟

لا.. بدليل أن كلا من نتنياهو وأردوجان كانا فى الطرف الآخر من الكرة الأرضية.

ونعم.. بدليل أن كلا منهما استقل أول طائرة عائداً إلى حيث الحدث.

المفاجأةُ إذن كانت فى التفاصيل..

لم تكن القيادة السياسية فى إسرائيل، على رعونتها، تتصور أن جنود بحريتها سيقودونها إلى هذا المأزق. كما لم يكن أحدٌ فى العالم المتحضر ـ الذى تتباهى إسرائيلُ بأنها الوحيدة فى المنطقة التى تنتسب إليه ـ يتصور أن المسألة يمكن أن تصلَ إلى حد إراقة الدماء، رغم أن صورة «راتشيل كورى» الناشطة اليهودية الأمريكية التى قضت ذات يوم تحت جرافة إسرائيلية ما زالت ماثلة فى الأذهان.

أيا ما كان الأمر، فقد كان ما جرى مهما كانت تفاصيله، كاشفا عن خريطةٍ «إقليمية» جديدةٍ تتشكل.. وكذلك عن واقع «دولى» جديد، تتراءى بعض ملامحه ربما فى سفن «الناشطين» البادية فى الأفق.

انبلج الفجر الدامى إذن عن مشهد ـ بدا للبعض جديدا ـ وهو ليس كذلك، وعلى أىٍّ، فهذه بعض ملامحه.. فضلا عن أسئلته:

١- عرى الأتراك «الجدد» الجميع؛ إسرائيلَ المغترة بقوتها، والعرب المترددين والمرتبكين فى حساباتهم العنكبوتية، والنظام الدولى الموروث من القرن الماضى، والذى عجزت «حكوماته» متمثلة بمجلس أمنه الدولى عن الخروج من إسار الفيتو، ليندد «بوضوح» بعدوان فى عرض البحر على قافلة إنسانية تحمل مواطنى ثلاث وأربعين دولة؛ أى ما يقارب ربع أعضاء المنظمة الدولية بالتمام والكمال. (تركيا التى فقدت تسعةً من مواطنيها عضوٌ فى حلف الأطلنطى).

٢- كشف إعجاب الشارع العربى بـ«الطيب» أردوجان، والذى خاطب الإسرائيليين بلغة لم يسمعها العرب من قادتهم منذ أكثر من ربع قرن من الزمان: «لقد سئمنا أكاذيبكم..» عن حقيقتين: الأولى أن العرب ما زالوا يبحثون عن الزعيم، وإن لم يكن عربيًا(!). والثانية أنهم ما زالوا ـ رغم كل شىء ـ يعتبرون أن إسرائيل هى «العدو».

٣- كسب تيار الإسلام السياسى أرضا هنا ونقاطا هناك، فتركيا «الجديدة» لها ملامحُ لا تخفى عن العيان، وكثيرٌ من الرموز كانوا «بأنفسهم» على سطح الأسطول. فكما كان فى المشهد استقبالٌ موريتانى حافل لنائب رئيس حزب «تواصل» الإسلامى محمد غلام ولد الحاج الشيخ، كان فيه قرارٌ غير مسبوق للبرلمان الكويتى (الذى كان نائبه الطبطبائى ضمن الذاهبين إلى غزة) بالدعوة إلى سحب مبادرة السلام العربية. كما كان فيه أن رموز الإخوان المسلمين، والذين «وحدهم» شاركوا من مصر، وجدوا طريقهم للمرة الأولى إلى شاشات التلفزيون المصرى. كما كان فيه طبعا «صورة» الشيخ رائد صلاح، بما يعنيه عند فلسطينىّ الداخل.

٤- لم نعد نسمع أحداً ـ غير الإسرائيليين ربما ـ يدافع عن الحصار، فكما أن المصريين لم يكن أمامهم غير فتح معبر رفح (ولو جزئيًا، أو إلى حين)، صار هناك حديثٌ عن عودة الأوربيين إلى المعبر، بعد أن أدرك الجميع، أو بالأحرى اعترف «أن بقاء الحصار على قطاع غزة لن يؤدى إلى إضعاف حماس أو سقوطها، بل إلى إضعاف أهل غزة واقتصادها» والرأى هنا لنبيل شعث، لا غيره.

٥- لم تعد المراهنة على إسقاط «خيار المقاومة» ممكنة، رغمَ كل ثمن باهظ. سواء تحت «الرصاص المصبوب» على غزة المحاصرة ديسمبر ٢٠٠٨/ يناير ٢٠٠٩، أو على سطح «مرمرة الزرقاء» مايو ٢٠١٠.

٦- أنه فى عالم «ما بعد الإنترنت» هناك «قوى دولية» جديدة، ما زلنا نغفل دورها، متمثلة فى تلك «اللا حكومية» (Non-Governmental)، والتى من ظواهرها هؤلاء «الناشطون» القادمون من ٤٣ دولة، والقادرون على تنظيم أنفسهم عبر آليات التواصل «والتنادى» التقنية الجديدة. فى هذا العالم الجديد، الذى أسقط ما كان «للحدود» من قيمة سياسية وعسكرية، لم يعد بوسع أى دارس للعلاقات الدولية أن يتجاهل ما جرى من عطب لمفاهيم كانت قد استقرت ردحا من الزمان، ليس أولها مفهوم «السيادة» كما ليس آخرها مفهوم «الهوية» أو «المواطنة».



جاء حزيران إذن وغزة فى قلب الحدث. والحاصل أن واشنطن ـ كعادتها ـ أعاقت إصدار قرار «عادل» من مجلس الأمن يدين عدوانا فى المياه الدولية على دولة «إسلامية» كبرى، لم توصف يوماً بـ«المروق» أو التطرف، بل على العكس، فهى الدولة الإسلامية الوحيدة العضو فى «الأطلنطى»، كما أنها اعتبرت دوما من جانب الغرب «النموذج» الذى يجب أن تحتذيه الدول الإسلامية الباحثة عن الحداثة.

وكانت المفارقة أن جرى ذلك ـ بالمصادفة ـ وسط فيض من التعليقات والتحليلات يحاول رصد ما جرى على صعيد العلاقة بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامى بمناسبة عام من خطاب أوباما الشهير فى جامعة القاهرة (مايو ٢٠٠٩).

«One Year After» كان عنوانا لمعظم المقالات والبرامج التلفزيونية التى خصصت للموضوع. وللمصادفة أيضا فالعنوان ذاته «One Year After»

أيمن الصياد

©REUTERS/Ibraheem Abu Mustafa



كان عنوانا لتقرير دولى مهم يتناول حال غزة «السجن الكبير» كما أسماه الرئيس الأمريكى كارتر لا غيره، بعد عام من عملية «الرصاص المصبوب».

التقرير الذى أعده برنامج الأمم المتحدة الإنمائى (UNDP) وصدرت نسخته الإنجليزية قبل أيام، تصل عدد صفحاته إلى ١١٢ صفحة، ويضم ٤٤ جدولا بيانيا، توضح «بالأرقام» حالة «السجن الكبير».

يُكذب التقرير «الدولى» ابتداءً ما يروجه الإسرائيليون بأن «لا مشكلة هناك»، وينسب إلى جون هولمز، منسق جهود الإغاثة الطارئة للأمم المتحدة، وصفه للحصار بأنه «عقاب جماعى» للسكان المدنيين فى قطاع غزة. مؤكدا أن الحصار يؤدى حتما إلى «نقص فى الغذاء والدواء، والتضييق على حقوق سكان القطاع فى التعليم والصحة والمأوى والثقافة والتنمية الشخصية والعمل».

بلغة الأرقام، واعتمادا على تقرير سابق لمكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشئون الإنسانية. عن الأثر الإنسانى «لعامين من الحصار» على قطاع غزة. والصادر فى أغسطس/ آب ٢٠٠٩، إلى جانب مصادر مستقلة أخرى، يُذكر التقرير «الدولى» بما أدت إليه عملية «الرصاص المصبوب»، وهو الاسم الذى أطلقه الجيش الإسرائيلى على حملته الدموية ضد قطاع غزة: مقتل ١٤١٧ فلسطينياً (١٣٨٣ فى تقديرات أخرى) ، ٣١٣ منهم من الأطفال و١١٦ من النساء، إضافة إلى ٩٨٨ رجلاً. كما أصيب أكثر من ٥٣٨٠، من بينهم ١٨٧٢ طفلاً و٨٠٠ امرأة، وكذلك ٢٥٢٠ رجلاً. وعانى ٤٠-٧٠ فى المائة من المصابين من إصابات شديدة، بينما أصيب ١١ فى المائة منهم بالعجز الدائم. ودمر أو أصيب بأضرار بالغة ما لا يقل عن ٦٢٦٨ منزلاً. وتكبد السكان المدنيون المزيد من المعاناة من جراء الأضرار التى لحقت بأنظمة الكهرباء والمياه والصرف. كما خلفت العمليات العسكرية أيضاً أضراراً كبيرة على المدارس والجامعات والمستشفيات ومراكز الرعاية الصحية والشركات والمصانع والأراضى الزراعية ومرافق الإدارة العامة. حيث شملت أهداف الغارات المبانى والدواوين الرئاسية والبرلمانية والوزارية والقانونية، وتلك التابعة للمجتمع المدنى والإدارة المحلية، ملحقة دماراً بالقدرات المؤسسية التى كانت تعانى فى الأصل من الضعف.

ويؤكد التقرير على أن الحصار المستمر والمتواصل يعيق أية جهود «حتى لو كانت دولية» للتعافى من آثاره، فعلى الرغم من مرور أكثر من عام على إيقاف إسرائيل لعملياتها العسكرية ضد القطاع، فإنه ما زال ٥٧.٣ فى المائة من الدمار الذى طال المبانى والبنية الأساسية قائماً بلا إصلاح ولا إعادة بناء. ولا تزال هناك حاجة إلى ما يقرب من ٥٢٧ مليون دولار أمريكى لإعادة قطاع غزة إلى حالته فى يوم ٢٦ ديسمبر/ كانون الأول ٢٠٠٨، اليوم السابق على اليوم الذى بدأت فيه القاذفات الإسرائيلية قصفها الذى دام ٢٣ يوماً.

حكومية .. ولا حكومية

فى الثانى من مارس/ آذار ٢٠٠٩، وفى أجواء الصدمة الإنسانية التى أحدثتها صور العدوان الإسرائيلى على غزة، اجتمع حشد كبير من قادة العالم فى شرم الشيخ، وتحت لافتة «مؤتمر شرم الشيخ للمانحين»، التقطت مئات الصور التى بدت وكأنها هدف فى ذاته، ثم كان «إبراءً للذمة» أن اعتمد المجتمعون خطة السلطة الوطنية الفلسطينية للإنعاش المبكر وإعادة الإعمار فى غزة (PNERRP) متعهدين بتقديم أكثر من ١.٣ مليار دولار أمريكى مساندةً للخطة.

يذكرنا التقرير «الدولى» بما جرى

يشير التقرير «الدولى» الى أنه وبسبب الحصار، ظلت «الأنفاق» دوما حلا عبقريا «ووحيداً» للإبقاء على الحياة فى هذا السجن الكبير



بيروت - لبنان ©REUTERS/Khalil Hassan



بودابست - المجر ©AFP PHOTO / BALINT PORNECZI



بورديو - فرنسا © AFP PHOTO PIERRE ANDRIEU



فى المدينة المصرية الساحلية، ويؤكد نصاً أنه «وبعد مرور أكثر من عام بعد مؤتمر شرم الشيخ، لم يتحقق سوى عدد قليل من هذه التعهدات..»، إذ ما زال الحصار الإسرائيلى يمثل أحد العوامل الرئيسة التى تعيق عملية إعادة إعمار غزة.

وعلى مدى الأشهر الماضية، يقول التقرير: تجددت دعوات كل من الجهات المانحة واللجنة الرباعية وهيئات الأمم المتحدة والعلماء والمنظمات الدولية غير الحكومية، لإسرائيل برفع الحصار عن غزة أو تخفيفه على الأقل. وعلى الرغم من تلك الجهود، لم يسجل سوى تقدم ضئيل يظل شكليا إذ لا يسمح عملياً بتلبية طبيعة احتياجات القطاع وحجمها.

وفيما يمكن أن نعده نحن رسالة إلى كل من يعترض على الجهود «اللاحكومية» لكسر الحصار، وآخرهم وزير الخارجية البريطانى، ورغم كل المؤتمرات «التجميلية» التى تعقد تحت لافتة «إعادة الإعمار»، يجدر بنا الإشارة إلى ما يخلص إليه التقرير «الدولى» صراحة من أنه «مع استمرار الحصار، لا يمكن عملياً إعادة الإعمار». إذ على الدوام - يقول التقرير - كان الحصار عقبة رئيسة فى طريق إصلاح الأضرار التى تسببت فيها الاعتداءات الجوية الإسرائيلية والدمار الذى خلفته. فلم يتم إعادة بناء أى من المنازل المدمرة البالغ عددها ٣٤٢٥ منزلاً، مما أدى إلى تشريد ما يقرب من ٢٠ ألف شخص. وتم إصلاح ١٧,٥ فى المائة من قيمة الأضرار التى لحقت بالمرافق التعليمية، مما أدى إلى فرض مزيد من الضغوط على الجهاز التعليمى المثقل كاهله بالفعل فى غزة، حيث كان التدريس فى المدارس على فترتين يومياً لعقود.

كما أعيقت كذلك عمليات إصلاح البنية الأساسية. فلم يتم إصلاح سوى نصف شبكة الكهرباء، وهو ما يعد أحد أسباب ازدياد حالات انقطاع الكهرباء؛ ولم تنجز أى تحسينات فى البنية الأساسية للنقل. وفى القطاع الاقتصادى، أعيد تأهيل ربع الأراضى الزراعية المدمرة وتم إصلاح ٤٠ فى المائة فقط من شركات القطاع الخاص. أما صناعة الصيد فتكاد تكون مدمرة بالكامل جراء القيود الإسرائيلية المستمرة على المجال البحرى.

وبإلقاء نظرة فاحصة، يتبين أن البنية الأساسية التى لا تزال فى معظمها دون إصلاح هى تلك التى تعد ضرورية للاحتياجات الأساسية لسكان غزة. فقد تأخر إصلاح كل من مستشفيى الوفاء والقدس اللذين تعرضا لأضرار بالغة، بسبب نقص المواد، ولم يبدأ العمل فى مستشفى القدس إلا فى فبراير/ شباط ٢٠١٠. ولا تزال هناك حاجة إلى ٤٦٠ ٥٤١ ٢١ دولاراً أمريكياً قيمة عمليات الإصلاح لإعادة تأهيل الجامعات، ومدرستين خاصتين دمرتا بالكامل، بما فى ذلك المدرسة الأمريكية فى غزة. كما لم يتم إصلاح معظم البنية الأساسية الزراعية المدمرة، بما فيها مزارع الدواجن والماشية والصوب الزجاجية ومنشآت التخزين والبنية الأساسية للرى، والتى تبلغ قيمتها ٤٠ مليون دولار أمريكى، وثمة حاجة أيضاً إلى إعادة زراعة أشجار بساتين بقيمة ٣٠ مليون دولار أمريكى.

الأنفاق.. شريان الحياة

وبعيدا عن «نفاق» الرسميين الذين اجتمعوا يوما فى شرم الشيخ قبل أن ينفض كل منهم إلى حال سبيله، تبقى «الأنفاق» حلا عبقريا «ووحيداً» للإبقاء على الحياة فى هذا السجن الكبير. إذ تحت عنوان واضح الدلالة: «اقتصاد الأنفاق.. شريان حياة غزة»، يقول التقريرالدولى: «للتحايل على الحصار، والحصول على السلع من أجل حياة كريمة، بدأ سكان غزة الاعتماد على الأنفاق القديمة والجديدة التى تمر عبر رفح إلى مصر». موضحا أن اقتصاد غزة المعتمد على الأنفاق ظل قائماً لمدة ١٥ عاماً، مدفوعاً بالضرورات التجارية والنقص فى السلع فى غزة. وقبل فك الارتباط فى عام ٢٠٠٥، دأب الجيش الإسرائيلى على شن حرب مستمرة لمنع حفر الأنفاق. حيث عمد الجيش إلى إغراق المنطقة الحدودية، واصطناع هزات أرضية مصغرة بواسطة المتفجرات، والتفتيش من منزل إلى منزل. وفى كل مرة يردم فيها نفقاً، يقوم

العمال بحفر واحد آخر للالتفاف على الحصار، وإعادة الاتصال بالممر الرئيسى. وبعد أن كانت أعمال حفر الأنفاق سرية، صارت علنية، بعد عام ٢٠٠٧، حيث أنشئت المئات من الأنفاق تحت أبراج المراقبة الحدودية.. وأن تلك الأنفاق تراوحت من أنفاق بدائية إلى أنفاق متطورة، استخدمت فى تهريب كل شىء .. خاصة السلع الأساسية التى تحظرها إسرائيل. ويمكن رؤية شواهد اقتصاد الأنفاق فى قطاع غزة فى الكوكا كولا والسجائر المصرية والدراجات النارية الصينية والوقود ومواد البناء والأدوية.

يبين التقرير أن أى انتعاش فى قطاع غزة يجب أن ينسب أولا وقبل كل شىء إلى ما يسميه «صمود وإبداع أهل غزة». وعلى الرغم من أن التقرير لا يمكنه أن يقدم دراسة متعمقة لمختلف الإستراتيجيات المتبعة فى حل المشاكل، ويكتفى فى الغالب بتسجيل أعمال الإنعاش الممولة من قبل الجهات المانحة، فإن حقيقة حدوث الانتعاش على الرغم من الحصار الحالى خير شاهد على وجودها. فعلى مدى السنوات الماضية - يقول التقرير - استطاع أهل غزة تحقيق أقصى استفادة من الموارد المتاحة محليًا. فطوروا حلولاً محليةً لحل مشكلة عدم توافر المبيدات الحشرية. وأصلحوا الطرق الزراعية باستخدام أنقاض المنازل المدمرة. وكان الدافع وراء إعادة تشغيل قطاع البناء والتشييد هو إعادة تدوير الأنقاض المسحوقة المختلطة بالأسمنت المجلوب عبر الأنفاق. وأنجزت شركات الكهرباء والاتصالات معظم الإصلاحات باستخدام قطع الغيار المتاحة، وباستخدام حلول مبتكرة وغير تقليدية. كما تم تطوير تكنولوجيات إنشاء بديلة بمساعدة من الأونروا ومؤئل الأمم المتحدة، من أجل بناء المنازل على الرغم من الحظر الإسرائيلى على مواد الإنشاء.



ورغم أن التقرير الدولى الذى نعرضه هنا يكتفى بحكم عنوانه برصد البيانات الخاصة بوصف الحالة المأساوية لقطاع غزة بعد عام من الحرب الإسرائيلية الأخيرة، إلا أنه يحرص على توضيح أن مشكلة الحصار لم تبدأ مع حملة «الرصاص المصبوب» التى استمرت ٢٣ يومًا ضد القطاع، إذ إنها لم تكن غير الأحدث فى «سلسلة إجراءات الهيمنة وبسط النفوذ» التى تتخذها إسرائيل - بنص التقرير - والتى تكثفت منذ عام ٢٠٠٠. ففى ١٤ يونيو/ حزيران ٢٠٠٧، حظرت إسرائيل تصدير جميع البضائع من قطاع غزة واستيراد أى شىء إليها عدا «ما تعتبره» الحكومة الإسرائيلية موادًا إنسانية. الأمر الذى كان له آثارٌ مدمرة، ليس أولها ارتفاعٌ فى معدل البطالة ليصبح من أعلى المعدلات فى العالم.

يخلص التقرير - بعد أن يضع بيانات وأرقام الواقع أمام الجميع - إلى أن «الإبقاء على الوضع الراهن لن يمكّن غزة أبدا من التعافى». ويأمل واضعو التقرير كما يقولون فى تقديمهم له، أن يلقى الضوء على محنة الفلسطينيين بعد مرور سنة على عملية «الرصاص المصبوب» الإسرائيلية. «فحرمان الناس من حقهم فى عيش حياة كريمة ينبغى أن يثير قضية الضمير».

رحم الله «ضحايا الضمير»، الذين لبوا نداءه، بداية من راتشيل كورى، وليس نهاية بأتراك «الفجر الدامى» التسعة.



وبعد.. لا أحد يعرف إلى أين سينتهى حال الغضب على ما جرى فوق المتوسط، فالعرب نفسهم قصير.. «يتحدثون.. ولا يفعلون» كما قال موشيه ديان «مطمئنا صحبَه» وهو يدخل الأقصى فى ذلك اليوم البعيد من يونيو ١٩٦٧.

فالحاصل أن العرب لم يستفيدوا أبدا من «تقرير جولدستون»، كما لم يستفيدوا قبله من قرار «العدل الدولية» الخاص بالجدار. ولعلهم لن يستفيدوا أيضا من هذا التقرير الواصف لحال غزة بعد عام، رغم أنه يحمل - كغيره - خاتم منظمة «دولية». ■

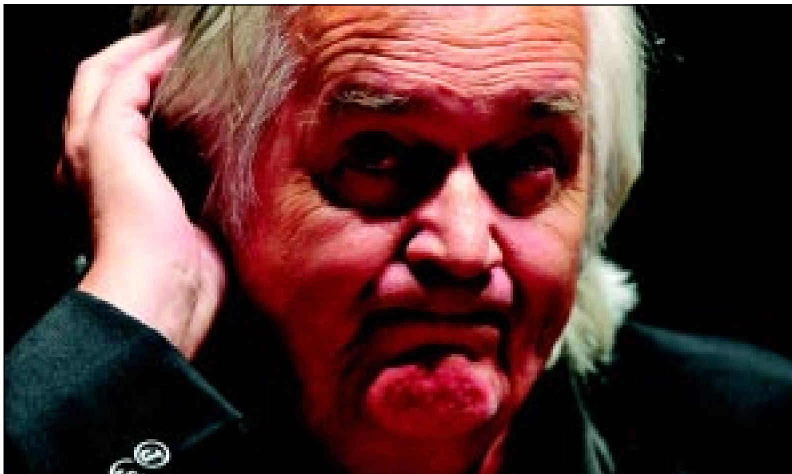
جاكارتا - اندونيسيا ©AFP PHOTO / ROMEO GACAD



واشنطن - الولايات المتحدة: ادوارد بيك السفير الأمريكي السابق فى موريتانيا يخطب في مظاهرة احتجاجية أمام البيت الأبيض © REUTERS/ Kevin Lamarque



الروائى السويدى الشهير هنين مانكيل الذى كان على ظهر السفينة يحكى تجربته ©AFP PHOTO / JOHANNES EISELE



رايمـونـد ويـلـيـام بـيـكـر
Raymond William Baker

لماذا تفقد الولايات المتحدة

■■ هذا المقال يزعم أن الولايات المتحدة على وجه الخصوص والغرب بصفة عامة فشلا فى فهم التيار الإسلامى كشريك محتمل فى معارك الحرية والديمقراطية على مستوى العالم كله.

هى حقيقة محجوبة بفعل شعارات إسلامية رئيسية تشن تلك المعارك التحررية باسمها. فالولايات المتحدة تنفر القوى الإسلامية الرئيسية بفعل سياساتها وتحولهم من شركاء محتملين إلى أعداء مرجحين. وفى حين يبدو من غير المرجح على المدى القصير أى تغيير على السياسات الأميركية الرسمية، يبدو المجال مفتوحا أمام مؤسسات المجتمع المدنى الغربية ذات التوجهات الديمقراطية والمعادية للإمبريالية لخلق توازن ما مع التداعيات المدمرة للسياسات الأمريكية ولخلق مجالات للتعاون مع التيار الإسلامى.

وبحد أدنى لابد من إعادة النظر فى الدراسة الأكاديمية للشرق الأوسط لخلق مجال من الدراسة الإنسانية ربما توفر دعما فكريا ونظريا يساند تلك الجهود.

وكنت عن نفسى قد بدأت دراستى - الجدية - للعالم الإسلامى بعد تخرجى من جامعة هارفارد أواسط الستينيات. واستعددت لاحقا عام ١٩٦٨ بعد إتمام الدراسة المطلوبة للدكتوراة، للتلاقى وجها لوجه مع العالم الذى درسته فى واحدة من أعظم مراكز الدراسة الغربية. وكان استعدادى ممتازا، أو هكذا على الأقل ظننت وقتئذ. وكنت خلال دراستى قد ألفت دراسة منهج هارفارد الرائع فى التراث الإسلامى الذى تفخر به هارفارد على يد الراحل ناداف صافران أحد رواد دراسات الشرق الأوسط.

وشجعنى صافران على المضى قدما فى اهتمامى باللغة العربية وآدابها وأشرف على قراءاتى المستقلة للنصوص الكلاسيكية التى اعتاد جيله من الدارسين على التركيز عليها، بالرغم من كونه عالما فى السياسة تربطه علاقات قوية بإسرائيل. وتعلقت من جانبى ضمن دراستى لتلك الكلاسيكيات بما اعتبرته أفضل الدراسات الاجتماعية حول التحديث. وبدأت خلال دراستى فى فصول صافران الدراسية قراءاتى للأدب المتعلق بالشرق الأوسط والذى كان يلقى ازدهارا ونموا.

كان صامويل هنتنجتون المفكر المحافظ واسع الصيت مرشدا لى فى هذا الصدد، وصار مشرفا ومستشارا أكاديميا على دراستى. كنت قد وطنت نفسى على أن أشهد التحول الفكرى والأخلاقى والاقتصادى والسياسى لمجتمعات متأخرة إلى صورة الدولة الحديثة. واخترت مصر باعتبارها «المجتمع الرائد» فى العالم العربى نموذجا لدراسة حالة حول «التنمية السياسية». وكانت القاهرة بذلك زاوية مواتية تمكننى من رؤية عن قرب لحركة التاريخ.

ومع ذلك فلم أكن متقبلا وجهات النظر تلك دون نقد. بل على العكس، فلطبيعة وضعى كصبى من الطبقة العاملة نشأ فى جيرسى سيتى فى نيو جيرسى، استقدمت معى إلى هارفارد التزامات يسارية قوية جدا على الصعيدين الأخلاقى والفكرى.

وفرضت على تلك الالتزامات بدورها موقفا نقديا من التقاليد الاستشراقية القديمة من ناحية ومن الأدب الحديث من ناحية أخرى.

فقد نظرت من البداية لكلا المنهجين كتيار ولموقفى منه كموقف نقدى. ولبناء موقفى المستقل، اقتربت من نقاد النظام العالمى من التيارات المهيمنة بالإضافة للماركسيين من مختلف التيارات الذين هيمنوا على الحركات اليسارية الجديدة التى كنت ناشطا فيها، والتى تمحورت فى الأساس على مناهضة الحرب الأمريكية على فيتنام.

وبالرغم من تحصنى بالنظرة اليسارية النقدية تلك، إلا أن مواجهتى مع القاهرة كانت صدمة قوية للغاية. كان ذاك العالم الذى درسته بالتفصيل فى كامبريدج -سواء على يد التيارات السائدة أو نقادها- ببساطة غير موجود على الإطلاق.

كانت الحقائق على الأرض لا تحمل أى وجه شبه مع المسارات التاريخية والمفاهيم الذهنية التى كنت مسلحا بها. لم أكن كذلك مستعدا على الصعيدين العاطفى والفكرى لمواجهة الجاذبية القوية للثقافة العربية الإسلامية التى اجتاحتنى.

ولاحظت عبر خلفيتى عن تاريخ الفن، تلك الركاكة الفكرية التى تناولت بها التيارات الرئيسية والعلوم الاجتماعية النقدية على السواء القضايا الثقافية.

اكتشفت أن كلا التيارين - المهيمن واليسارى- لايختلفان فى افتراضاتهما عن العالم، سواء إن كان ينبغى القبول به أو تغييره: هو العالم وفقا لما يعرفه الغرب فقط.

لم تثبت دراستى فى هارفارد أى فائدة لى حينئذ باستثناء دراستى التكميلية للغة العربية وآدابها والفلسفة وهى الدراسات التى بدا أنها قد دبت فيها حياة موازية لحياتها فى هارفارد. وأثبتت تلك المواد الدراسية أنه لاغنى عنها على المدى الطويل. وبدت لى تلك الدراسات الثقافية وقتها كمكافأة على كدى فى دراسة أدبيات العلوم الاجتماعية، غافلا وقتئذ عن أنى قد خلطت الأمرين.

وتذوقت وقتها لغة القرآن البديعة القوية بالرغم من صعوبتها. كما أسرتنى تلك المقاطع الرائعة التى كنا نتلوها من أدب الرحلات العربى والأدب الفلسفى فى عصره الذهبى.



وعبر تلك القصاصات فى منهج اللغة العربية الدراسى لاحظت الثراء والتعقيد والتنوع فى الثقافة الإسلامية والعربية (وفى تلك الأيام كان فصل المستوى الدراسى المتقدم للغة العربية يضم طالبين فقط). كان العنصر الإنسانى هو أكثر ما مسنى.

كان انفتاح ودهشة ابن بطوطة، الرحالة والحكاء العربى الشهير فى القرن الرابع عشر، على النقيض من الانغلاق البادى فى أداء المتخصصين الغربيين الذين هيمنوا على دراساتى السابقة فى هارفارد.

كان ابن بطوطة يهمس فى أذنى من آن إلى آخر بشكوكه فى استطاعة أى ثقافة أخرى أن تتيح نفسها بتلك الشفافية، بينما كنت لسوء الحظ قد جئت القاهرة فى الأساس لدراسة الأدب الحديث.

واكتشفت عدم قدرة تلك الصيغ التبسيطية التى حملتنى بها العلوم الاجتماعية الغربية على التعامل مع هذا المجتمع المدهش الغنى المركب الذى غرقت فيه فى مصر.

ساعدتنى نظرتى اليسارية النقدية نوعا ما على فتح مجال لتفكير أقرب للأرضية المصرية. كتبت أطروحتى وأول كتبى حول الثورة المصرية المترددة فى العالم العربى بمساعدة مفكرين ماركسيين مصريين أعانونى على تناول أفكار صافران وهنتنجتون على أرضية يسارية وبعيون مصرية (بيكر ١٩٧٦).

وبالرغم من تلك الإيجابيات، أجد نفسى لدهشتى كغيرى من نظرائى الغربيين قد فشلت فى تدوين ملاحظات جادة حول «الصحوة الإسلامية» فى ظل ما حققته من تقدم هائل وقتذاك.

كانت الحركات الإسلامية فى كل مكان فى المنطقة بازغة على طريق إعادة تشكيل الشرق الأوسط على نحو خالف بالكامل التوقعات الغربية، إن لم نقل توقعات اليسار المصرى.

كانوا هناك يخوضون معاركهم أمام عينى إلا أنى أغفلت عنهم. فقد ركزت فى دراستى عن مصر على القوى العلمانية، القومية واليسارية، التى كانت تقود مسار ثورة ناصر.

فقد ضافرت بين رؤى اليساريين المصريين ونقدهم المميز للتجربة الناصرية والحقائق التى تعلمتها فى هارفارد.

لكن الأهم هنا أنى أهملت للأسف فى كتابى هذا الحركات الإسلامية وخاصة الإخوان المسلمين.

ومع ذلك، أتذكر- بشىء من الفكاهة - أنى لم أستطع التحكم فى العداء الذى تحكم فى حركة عمل أساتذتى فى هارفارد من ناحية وأصدقائى الجدد من اليساريين المصريين لكل ما هو إسلامى.

احتجت بعض الوقت والكثير من المجهود لإعادة النظر قبل أن أتمكن من هز تلك التحيزات الأيديولوجية والنظر

ينشر هذا المقال بالاشتراك مع:
Arab Studies Quarterly

ترجمة: بيسان كساب

فشلت الولايات المتحدة فى فهم التيار الإسلامى كشريك محتمل فى معارك الحـــرية والديمقراطيـــة



بعقلانية للصحوة الإسلامية مع الوضع فى الاعتبار أسباب مركزية مصر فيها.

إلا أن ما يقلقنى اليوم ليس خيبة أملى فى الكثير من الدراسات الغربية عن العالم الإسلامى الذى نلت تدريبى العملى فيه، بقدر ما يؤرقنى حقيقة أننا لازلنا لا نبلى بلاء أفضل إلى اليوم.

وحقيقة الأمر أن تفشى العداء فى الولايات المتحدة للمسلمين وللإسلام نفسه قد جعل الوضع أسوأ.

فالفصول الدراسية التى أحاضر فيها تفيض بطلاب تحركهم نغمة «اعرف عدوك» التى لم أحتك بها إلا إبان دراستى للاتحاد السوفيتى. كانت الشيوعية السوفيتية وقتذاك هى العدو الذى تطبق عليه النماذج «التوتاليتارية» (مصطلح نظم الحكم التوتاليتارية يشير على نحو مبسط إلى النظم الشمولية - المترجم).

أما اليوم ف«الفاشية الإسلامية» هى العدو واصطبغ بالتالى النموذج باللون الأخضر بدلا من الأحمر، بالرغم من أن كلا النموذجين تجريديان، تعميميان، ويخدمان مصالح ذاتية ولا علاقة لهما بأى حقائق على الأرض.

كانت الدراسة فى الستينيات تحركها النظرة للولايات المتحدة كقوة عظمى بازغة تواجهها مسئوليات عالمية ومنافسة محتدمة مع الاتحاد السوفيتى.

كنا نحتاج إدراك الناس للعالم خارج حدودنا للمساعدة فى تغييره إلى النمط الحديث الذى كنا رواده، خشية من سيادة النموذج الشيوعى.

هذا الخطاب حول المسئولية العالمية كان كاشفا لصعود إرادة إمبريالية، كما أن الحديث حول الدول المتخلفة استدعى ببساطة افتراض ضرورة تقديم تنازلات من قبل الشعوب المتخلفة.

وأيا كان الرأى حول تلك الذرائع وآثارها العنصرية فى الستينيات، فالأوضاع اليوم أسوأ. فالطلب اليوم كبير على متخصصين فى شئون الإرهاب، يتحدثون العربية بطلاقة لخدمة مصالح الأمن الوطنى. حتى إن الأمر يصل بى فى بعض الأحيان للتساؤل حول ما إن كانت توصياتى للطلبة بالالتحاق ببرامج لدراسة اللغة تنتهى ببساطة إلى زيادة عدد متحدثى العربية اللازمين للتنصت والاستجواب (فى الأجهزة الأمنية - المترجم).



ويعد المتخصصون فى شئون الإرهاب أنفسهم، بتركيزهم هذا على العالم العربى، لمواجهة جيش ضخم بلا اسم من الإسلاميين المتشددين الذين ينبغى وفقا لما لقنوا مواجهتهم بأبعد مدى قد يقتضيه الأمر لحماية الوطن من ١١ سبتمبر جديد.

لم تعد أمريكا اليوم تهدف لتطوير المجتمعات المتخلفة بل لتدمير المناطق التى ترى أنها تشكل معاقل لعدو تتوهمه، لحماية «الوطن».

وتتراجع اليوم المراكز التقليدية المتخصصة فى (دراسات- المترجم) التنمية والتحديث لصالح جيل جديد من المراكز المتخصصة دراسات الإرهاب فى بعض من أرقى الجامعات الغربية.

ويعتقد طلابى فى السنة النهائية أن تجربتنا العلمانية فى الغرب التى استقينا منها نماذج للتنمية تصلح لتقديم خريطة مستقبل العالم العربى والإسلامى.

فحين نضع نصب أعيننا مستقبلا مستوردا حتميا للمجتمعات العربية، نفقد أهمية الموجة الإسلامية التى أصبحت

العلاقة مع التيار الإسلامى؟!



Demonizing Islam by Carlos Latuff

شـركـاء مـحـتـمـلـون .. اعـداء مـرجـحـون

عنوانا للسياسة فى معظم العالم العربى.

ففى تلك الأيام تجدنا ناصبين أعيننا فقط على المجموعات الإجرامية الهامشية كالقاعدة، وعلى العنف والفوضى التى تسببها. ونهمل أعدادا أكبر بكثير من الإسلاميين المعتدلين نافذى التأثير.

وبالكاد نلاحظ بساطة حياة الناس العاديين فى العالم الإسلامى وأحلامهم اليومية.

ولا نمنح أى اهتمام تقريبا لتيار الوسطية الإسلامى الذى يوفر واحدة من أكثر الأطر تأثيرا لتلك الحياة وتلك الأحلام.

الأخبار الحقيقية من العالم العربى هى هؤلاء الناس العاديون فى كل المنطقة الذين يناضلون كل يوم بكل السبل المتاحة أمامهم لخلق حياة أفضل لهم ولأطفالهم.

يتوقون لأنظمة اقتصادية وسياسية أكثر عدالة، ويسعون لخلق مجتمعات ذات جذور من قيم موروثة لكنها منفتحة على العالم، تعددية ومتسامحة، تسمح بحريات أوسع وتوزيعا أوسع للثروة. (خورى ٢٠٠٧).

ويزداد اختيار أولئك الناس يوما بعد يوم للرايات الإسلامية شعارا لمعاركهم تلك.

وما يلفت النظر فى تلك النضالات هى الظروف المحيطة بها من الاستبداد المحلى والهجمات الأجنبية. فالعالم العربى والإسلامى يتأوه تحت حكم سلطوى بينما يواجه هجمات أجنبية على عدة جبهات. ويكتسب التيار الإسلامى قوة عبر المنطقة ويؤسس نفسه كمعارض رئيسى للنظم الحالية وكملهم للنضال ضد الغزاة الأجانب.

وفى بعض الأحيان تتخذ معارك نشطاء التيار الإسلامى ومفكريه أبعادا بطولية بينما يخاطر أولئك الناس بكل شىء من ناحية لتحويل دول بوليسية رهيبة، فاسدة، عاجزة لأنظمة سياسية عاقلة، وفى مواجهة الأجانب الذين يتسللون ويحتلون أراضيهم.

لن يفيد فى شىء تشويه تلك المعارك من أجل حياة طبيعية سوية، ذات القدرة الهائلة على شحذ المقاومة، بما فيها المقاومة المسلحة.

وفى بعض الأحيان تساء قراءة المعارك اليومية من أجل البقاء لصالح افتراض أن قضايا حرية الوطن والاستقلال لا تهم الناس العاديين. بل بالعكس: فالمعركة من أجل الحياة العادية تحتاج مقاومة غير عادية وهى حقيقة معروفة للغاية.

ومن غير المقبول أن نلوم المواطنين العرب والحركات التى يدعمونها على ولائها لكلا الأمرين: القضايا المتعلقة بالأحلام اليومية كالطعام، المسكن الرعاية الصحية والتعليم لأطفالهم من ناحية ودعم المقاومة ضد الطغاة المحليين والغزاة الأجانب.

وفى مواجهة ظروف كتلك لا يمكن فعل ما هو أقل من ذلك، كما يتضح من تجارب حماس وحزب الله. فالأمر لا يتعلق بازدواجية ما أو أجندة خفية. بل يتعلق الأمر بتحمل حزمتين من المسئوليات. فالناس العاديون فى أرجاء العالم العربى يمتلكون حسا ثاقبا ودقيقا للغاية أن أعداء الحرية والحياة الكريمة المتمثلين فى حكوماتهم القمعية ليسوا وحدهم، وليسوا بالضرورة التهديد الأخطر على الدوام.

فلا زالت ذكريات الاستعمار الأجنبى المباشر فى أرجاء المنطقة حية وجارحة، بل وتبعث للحياة باستمرار عبر العقود الأربعة الماضية على يد الاحتلال الإسرائيلى للضفة الغربية وقطاع غزة.

ويقدم الاعتداء الأمريكى على أفغانستان كجريمة حرب هائلة من الدرجة الأولى لا يفوقها إلا الغزو غير الشرعى واللا أخلاقى للعراق وتشتيت شعبه، نسخة جديدة من تلك الفظائع اليومية من التشريد والسلب فى البقية المحاصرة من فلسطين التاريخية.

وترى عين المواطن العادى فى العالم العربى أمورا كتلك كحقائق الحياة اليومية المستقاة من النسخة الأمريكية من كتاب «هدية الأجنبى» (عجمى ٢٠٠٦).

ويقوم خطاب الإمبراطورية الأمريكية على إعادة تشكيل المنطقة كجزء من الحرب العالمية ضد الإرهاب.

ويترجم هذا الخطاب على الأرض إلى استعمار وفصل عنصرى وعقاب جماعى وحروب مفتوحة دوريا ضد السكان المدنيين فى الأراضى التى تحتلها إسرائيل، هجوم شامل أمريكى إسرائيلى على لبنان، مساندة أمريكية للديكتاتوريات فى كل مكان، موت وخراب على نحو مذهل فى أفغانستان والعراق.

وتمد ثورة المعلومات البيوت العربية يوميا بمشاهد تلك الآلام بالصوت والصورة.

ويصعب تحديد إن كانت أحداث مشاهد العنف التى تبثها الفضائيات العربية تصور الأمريكيين فى العراق أم الإسرائيليين فى الضفة الغربية.

وليس المقصود من كل هذا تقديم الغطاء لتبرئة حركات المقاومة الإسلامية. فكما يتعرض الضحايا لوحشية تلك الظروف، كثيرا ما يورطون أنفسهم للأسف فى أعمال وحشية.



ومن الواضح طبعا ارتكاب حماس وحزب الله لتجاوزات تصل فى بعض الأحيان لحد التجاوزات الإجرامية.

وإذا بدت لنا ردود الفعل الإنسانية تلك على أى درجة من الشذوذ، فى المقابل زيارة أى مدينة أمريكية. هل سنندهش عندئذ من ملاحظة عودة الناس للتمسك بإيمانهم فى مواجهة اصطدام أحلامهم بالعنف واليأس؟

فعودة الإيمان الدينى هو اتجاه عالمى وليس معبرا عن ظاهرة إسلامية محضة. فحين يضيع كل شىء يرتد البشر العاديون لتقاليدهم الدينية وقياداتهم ومؤسساتهم للحصول على شىء من الراحة فى مواجهة الظروف القاهرة، وغير المحتملة، كما ذكرتنا مسيرات الرهبان البوذيين فى ميانمار بزيهم الأحمر وأقدامهم الحافية، بالقس جيسى جاكسون فى أمريكا، وبايشوب ديزموند توتو فى جنوب أفريقيا، آية الله الخومينى فى إيران، حزب الله فى الجنوب اللبنانى، حماس فى الأراضى المحتلة من قبل إسرائيل. تحمل كل تلك الحركات مشتركات أكثر مما نحن فى الغرب مستعدين لإدراكه.

ولا تسعى أى من تلك الحركات لخلق مجتمعات دينية باستثناء الثورة الإسلامية الإيرانية. بل تسعى فى معظم الأمر كما هو الحال اليوم فى ميانمار لخلق مجتمعات ودول مدنية أكثر عدالة.

فى حين لا يلتفت أى منا فى الغرب للأحداث المثيلة فى العالم العربى والإسلامى، فنحن على العكس تحتلنا أفكار مسبقة حول النسخة الأحدث من التهديد الإسلامى.

هذا التجاهل للنضال من أجل حياة طبيعية فى ظل ظروف غير طبيعية والعودة للإسلام طلبا للحماية، كلفنا حصيلة هائلة من الفرص الضائعة وعدم الفهم. كما أن حقيقة فشل التطرف غير العقلانى والإجرامى فى السيطرة على الغالبية العظمى من الناس العاديين تمثل أمرا غاية فى الأهمية.

فأمر كهذا يكشف عن احتمال أن يؤدى الدعم الأمريكى المخزى للسجن الجماعى للمدنيين فى غزة واندفاعنا فى القتل فى العراق لنتائج أقل تدميرا لسمعتنا ومكانتنا الدولية مما هو شائع فى حال أدركنا حجم فشلنا الأخلاقى والسياسى وعدّلنا من ثم سياساتنا وتفكيرنا.

العرب والمسلمون العاديون يمنحوننا حقيقة قدرا من التحرك بحرية وأمان لا نستحقه. فأنا أتحرك بحرية كمواطن أمريكى فى طول العالم الإسلامى وعرضه بما فيه مناطق كدمشق مثلا بالرغم من تصاعد العداء لأمريكا الذى لا ينعكس أبدا على صعيد شخص.

فالناس العاديون فى العالم العربى أذكياء وفطنون إلى حقيقة الاختلاف بين المواطنين والحكومات. ويعنى ذلك أن لدينا شركاء محتملين فى العالم العربى الإسلامى لا سيما فى ظل التزاماتنا نحو الديمقراطية.

والمدهش ربما، أن تلك الاحتمالية تمتد إلى الإسلاميين المعتدلين الذين يلعبون دورا هاما فى المعارك المحتدمة من أجل الديمقراطية.

ومع ذلك، فقد جاء التركيز بعد عدد من أحداث الفشل التى واجهتنا على نقص القوات والجهود الاستخباراتية فى سياق من الحماقة والاندفاع الأيدلوجى للقيادة السياسة. ولم يكن ذلك إلا مجرد بداية. إلا أن ما يؤسفنى بشدة هو ذاك الاهتمام الضئيل للفشل الفكرى الهائل الكامن وراء كل ما سواه: فشلنا الدائم فى إدراك الشركاء المحتملين للنقاد الأمريكيين للإمبراطورية والمدافعين عن



ســـاعـدتنى نظـــرتى اليســارية النقـــدية نوعــا مــا عـــلى فتــح مجـــال أوســـع للتفكيـــر. وان كنت فشـــلت فـــى تـــدوين ملاحظـــات جـــادة حـــول «الصحـــوة الإســـلامية»



الديمقراطية فى العالم الإسلامى بما فى ذلك تيار الحركات الإسلامية.

أمريكا أكبر من أى حكومة، وبالتأكيد هى أكثر اتساعا ومسالمة من تلك الحكومة الحالية. وضعنا الحالى كأمة هو أننا ذوو وجود هائل فى عالم إسلامى لا نعلم عنه شيئا ولا نعلم فيه الصديق من العدو حتى يطلق علينا الرصاص.

حان الوقت لتحرك الحركات الاجتماعية الأمريكية التى تحرك المجتمع المدنى. أولئك الذين حققوا أهم الانتصارات الديمقراطية فى تاريخ أمريكا. إنه لمن الحتمى إذن أن يبذل أولئك جهدا فكريا وأخلاقيا وسياسيا بحثا فيما وراء شواطئنا ووراء مخاوفنا عن شركاء كالتيار الإسلامى الذين يشاركوننا أفضل أحلامنا.

من المحتم على الإمبراطوريات أن تختلق نسخة ما من قصيدة «مسئولية الرجل الأبيض» (قصيدة ترجع لأواخر القرن التاسع عشر للشاعر البريطانى روديارد كيلينج فسرها منظرو الإمبريالية كتعبير عن المهمة التاريخية للرجل الأبيض - المترجم)، كما تتجه دائما إلى استحضار تهديد ما مريع صادر عن «السكان الأصليين».

وعادة ما تثير تلك المخاوف فزع مواطنى الإمبراطورية ومن ثم تبرر العنف المروع الموجه غالبا ضد المدنيين فى أماكن بعيدة، إلا أن الإمبراطوريات حتما ما تولد نقادا لها خاصة مع ارتفاع الخسائر المادية والبشرية.

وتظهر المعارضة للإمبراطوريات فى البداية فى هذا الإطار الوطنى الضيق مع تلك النظرة لتجاوزاتها كتهديد للمصالح الوطنية. لكن الأمر لا يخلو من أقليات تنتمى لنفس الإمبراطورية لكنها أبعد نظرا لتدرك بذلك المصلحة الإنسانية المشتركة فى مقاومة المشاريع الاستعمارية والعنف الذى تجره وراءها.

أولئك الأفراد والجماعات الذين يحيون فى مركز الإمبريالية ذاته، منفتحون على الأقل نظريا على أفكار التعاون فى مقاومة الإمبراطورية وفى بناء عالم أفضل، وأكثر ديمقراطية وعدالة، أو ما أسماه إدوارد سعيد «المعرفة الجدلية»، أى توفير القاعدة المعرفية للجهود المتضافرة من أجل المصلحة الإنسانية (سعيد ١٩٧٨).

وهناك بالفعل بدايات لإطلاق دراسات من هذا النوع، لكن سجل إنجازاتها إلى الآن لازال دون المطلوب.

فمعظم تلك الجهود بذلت فى اتجاه تفكيك نقدى للعقلية الغربية. وبالكاد بدأ العمل الإيجابى فى الدراسة الإنسانية المقارنة للعالم العربى.

نقطة البداية هى فهم السياق الذى يعيش فيه مواطنو العالم العربى العاديون حياتهم. وأول درس فى تلك الخطوة هو الوعى بدور الغرب وحليفته إسرائيل فى الخداع حول طبيعة هذا السياق.

والثانى لا يقل أهمية، وهو مسئولية الأنظمة المحلية هى الأخرى عن جعل الحياة اللائقة أبعد منالا بالنسبة للمواطنين العاديين.

ولا يعنى هذا بحال نفى حقيقة مفادها أن لأمريكا كإمبراطورية مصالحها الإمبريالية فى المنطقة لا المصالح الإمبريالية للإمبراطورية فى المنطقة وأنها ليست مجرد قوة عظمى.

ولا يقلل من أهمية دور الشريك الإسرائيلى لأمريكا. فإسرائيل بكل صراحة هى القوة الإقليمية المهيمنة، ذات إستراتيجيات توسعية، وترسانة نووية وقوة عسكرية معتبرة دوليا لدعم طموحاتها.

ويؤكد أداء إسرائيل نيتها احتلال أكبر جزء ممكن من الضفة الغربية بينما تمدد من ناحية أخرى بقية حدودها ولا سيما حدودها مع لبنان وسوريا، كلما سنحت الفرصة.

وتبدو النظرة الأمريكية لإسرائيل كدولة حبيسة، و«حليف محاصر» كمحض خيال أمريكى، خيال ساهم بفاعلية فى نسجه أستاذى الراحل فى جامعة هارفارد ناداف صافران (صافران ١٩٧٨).

إنه لمن السخافة حقا الكتابة عن المنطقة كما لو أن الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين التاريخية لا يسير على قدم وساق، وكما لو أن أمريكا لم تفتتح عهدا جديدا من العلاقة مع العالم الإسلامى بالحرب الإجرامية على أفغانستان والعراق.

كيف يمكن للمرء أن يفهم منطقة ما وأهلها دون أن يضع فى الاعتبار الضغوط الأجنبية، الغزوات، والاعتداءات الصريحة التى تطيح بأى احتمال لمستقبل من صنع أهل تلك المنطقة أنفسهم.

كيف يمكن للمرء أن يفهم منطقة ما وأهلها دون أن يضع فى اعتباره ضمن القوى المحلية الرئيسية فيها المعتدلين الإسلاميين بالذات الذين يمثلون المقاومة الأكثر فاعلية فى وجه هذا النهب.

ما يلفت الانتباه حقا فى الصحوة الإسلامية ليس المجموعات المتطرفة العنيفة الهامشية بتكتيكاتهم واستراتيجياتهم القائمة على جذب الانتباه. بل إن ما يلفت الانتباه حقا هو إصرار التيار الإسلامى الذى يخوض نضالا ضد الأعداء الأجانب، إلا أنه لا يخوض فقط حربا من أجل الحرية فى مواجهة التدخلات الأجنبية، بل يخوض كذلك كفاحا من أجل ديموقراطية على خلفية إسلامية.





وتظل قضية الإسلام والديمقراطية فى قلب الجدل بين المدرسة الإمبريالية ونقادها. وبذلك فرض عجز العالم الإسلامى عن خلق الديمقراطية - بحسب ما تذهب إليه مقولات المحافظين الجدد- إلى فرض إستراتيجية استخدام القوة العسكرية المفرطة الساحقة لإعداد الأرض الإسلامية الرافضة للديمقراطية لإنباتها فيها مستوردة من الخارج.

تلك الخصائص بدت واضحة منذ سنوات فى مقولات الأكاديميين الذين اعتمد عليهم أنشط منظرى ومفكرى النظام ولا سيما برنارد لويس وفؤاد عجمى.

وحين تبخرت الخطط الخادعة المبالغ فيها لإعادة تشكيل المنطقة فى خضم الموت والدمار، تحمل الإسلام نفسه اللائمة.

ويقول عجمى إن الأحلام النبيلة بإعادة تشكيل الشرق الأوسط من جديد على نحو يتماشى مع الخط الديمقراطى تعثرت، حين فشل البشر أنفسهم فى العراق بالذات فى الرقى إلى توقعات الإمبريالية وفى تحمل مسئولية كتلك، بينما بلاد «الصدمة والترويع» تتدهور على طريق الفوضى (الصدمة والترويع مصطلح عسكرى يقصد به استخدام قوة عسكرية لا محدودة فى وقت قصير لترويع العدو وكسر إرادته - المترجم)، وعانت بعدها «التجربة النبيلة» فشلا لا تلام عليه (عجمى ٢٠٠٦).

ومنع تواطؤ المؤسسة الليبرالية التاريخى مع المشروع الإمبريالى بزوغ أى بديل ليبرالى حقيقى ومنح الحرب على الإرهاب راية ديمقراطية تخاض تحتها وصولا إلى الحرب الأمريكية على العراق.

وثبت بالتالى استحالة إنتاج الليبراليين لسياسة حقيقية لتعطيل ركب الحرب إلى بغداد. بل أدى الليبراليون دورا قياديا فى صياغة تلك الثنائيات المتعارضة: الخير والشر، الحرية والاستبداد.

وكانوا قد ساهموا طبعا بجدية فى التلاعب المعيب فى تعريف الرموز الديمقراطية خدمة للمصالح الإمبريالية فى أرجاء العالم الثالث.

وفى ذات السياق، تبنوا بالكامل نفس الفكرة الاستشراقية حول الإسلام والعالم الإسلامى التى دعمت أطروحة «الاستثنائية» لوصف فشل الديمقراطية فى العالم الإسلامى.

فى حين لم يذهب اليسار السياسى والثقافى المشتبك مع قضايا الإسلام والديمقراطية أبعد من انتقاد الأفكار الاستشراقية وفضح الأساليب التى اتبعتها تلك الأفكار ومؤسساتها فى تقديم الإسلام والحركات الإسلامية بصورة خادعة و«تغطيته».

كما لعب اليسار دورا قياديا هاما فى تعبئة المعارضة الداخلية ضد الخراب الذى جرته سياسات بوش. على أن رفع الغطاء الأيدلوجى الذى يحتمى به المشروع الإمبريالى للحصول على مبرر وجوده وشرعيته مهمة لابد من إنجازها بالكامل.

وتقف تلك النظرة نحو الإسلام كطرف رافض لقيم الحداثة عاجزة، لدى اليسار والليبراليين على السواء.

ولم تبذل أى جهود على الإطلاق تقريبا لتقييم أى

احتمالات لوجود طاقات تحررية لدى الإسلاميين المعتدلين، بما فى ذلك إسهامهم فى الديمقراطية كنظرية وممارسة وفى مقاومة الإمبريالية.

جاءت استمرارية المقولات الرئيسية للمحافظين الجدد والليبراليين عن الإسلام، مع تجاهل اليسار للمقاومة والنضالات الديمقراطية لتسفر عن جسم هائل من الدراسات الغربية المختلة عن الإسلام والديمقراطية والتى تحمل اتساقا مدهشا فيما بينها.

وفى الغالب الأعم من الدراسات السابقة عن الاتحاد السوفيتى ثم لاحقا عن الإسلام الآن تتخذ اتجاها ينظر لثقافة بعينها حتى وإن كانت شريرة أو فاشلة كوحدة مصمتة بحيث يمكن فهم جزء منها بإرجاعه لمكوناته. ووفقا لهذا التصنيف المغلوط فالإسلام باعتباره «حضارة فاشلة» هو كذلك كيان ثقافى متماسك شفاف تماما ومفهوم بناء على فحص أى من أجزائه.

ووفقا لهذا المفهوم فالإسلام وحدة يسهل فك شفرتها، بالضبط كالنظام السوفيتى التوليتارى. (التوليتارية اصطلاح يشير للنظم السياسية السلطوية التى تعتمد على إدارة الدولة عبر مؤسسة واحدة فى صورة حزب سياسى مثلا أو حتى طبقة، وتستخدم سلطتها على نحو مفرط لتنظيم الحياة العامة - المترجم).

وبذلك تكون الحركات الإسلامية المتعددة بالضبط كنظيرتها الشيوعية فى السابق طيعة تماما للتصنيف لكونها مجرد فروع ظليلة بعض الشىء من وحدة يسهل النفاذ إليها. كما أن هذا «الإسلام المتاح» يظل ثابتا فى صفاته الأساسية، بالرغم من الاختلافات الظاهرية، التى تسايرها جين كيركباتريك فى أطروحتها التبريرية حول الاختلاف بين النظم اليمينية السلطوية القابلة للتقلب لكن غير المتغيرة فى جوهرها التوتاليتارى، والأنظمة الشيوعية (كيركباتريك ١٩٧٩).

واليوم تمثل أطروحة ثبات الإسلام المفترض تلك نعمة لصناع السياسة المنهمكين فى المهام اللانهائية لتنظيم أمور الإمبراطورية العالمية وخاصة فى قواعدها الأكثر أهمية وحساسية فى العالم الإسلامى.

وتحمل تلك الفرضية عبء علم اللغات ودراسة الثقافات عن المحللين الأمنيين والعسكريين المهيمنين على الجدل المصاحب للحرب ضد الإرهاب. فلا حاجة إذن لأن يهتم المرء بالتفاصيل المضجرة لتاريخ الشعوب الأخرى ولا التفاصيل المتشعبة الغريبة لظروفهم. فالإسلامى شخصية ثابتة.

وتتلاشى بذلك تماما كل التفاصيل التافهة المزعجة عن التجارب الحية فى مجتمعات متغيرة فى مقابل النظرة للإسلام بتجريد شديد، ككيان طيع للفهم لتعيد صورة التهديد الشيوعى الوحيد إبان الحرب الباردة. ويشترك الباحثون الليبراليون والمحافظون على السواء فى تلك النظرة للثقافة الإسلامية باعتبارها كيانا لا يتجزأ، وهى النظرة التى تخدم مقاصد الإمبراطورية سواء عن وعى أو عن عدمه.

وغنى عن القول إن إسلاما بهذه الصورة المتخيلة لا يملك أى فرصة فى خلق الديمقراطية أو العمل كشريك بناء مع المجتمع المدنى فى العالم فى المشاريع الديمقراطية.

لا يمكن للديمقراطية إذن أن تمد جذورها فى تلك التربة الثقافية الفقيرة فى العالم الإسلامى. ويحتاج العالم الإسلامى لإعادة تشكيله وهى مهمة تتطلب استخدام قوة هائلة. فالتطور الديمقراطى فى داخل العالم الإسلامى تقاومه طبيعة الإسلام نفسه. والأمل الوحيد للعالم الإسلامى هو أن تأتيه الديمقراطية من الخارج. وتحتاج المشروعات الإمبريالية الكبيرة فى عصر العولمة لمسوغات أكبر ربما. فلن يفيد كثيرا الحديث فى هذا الصدد عن البترول والسيطرة على منابعه على المدى البعيد. أما رفع لواء الديمقراطية فيمنح الإمبراطورية الأمريكية أهدافا معلنة أرقى وأكثر استحقاقا.

فما إن تصبح فرضية نبذ الإسلام للديمقراطية مقبولة، بحيث تصير تعريفا لخصائص تلك الحضارة، حتى يبدو الطريق ممهدا بعدها لاستخدام القوة الغاشمة لإنقاذ المسلمين من بربريتهم.

أما مجموعات العنف الإجرامية فى العالم الإسلامى والتى تشكل أقلية على كل حال فقد أصبحت حليفا لا غنى عنه يبرر الأجندة الإمبريالية ويضفى عليها نوعا من المصداقية.

فى حين كان للتيار الأوسع من الإسلاميين قول آخر تماما. فقد أطلقوا كما سنرى، تقييما جوهريا للتراث، كاشفين عن مصادر إسلامية مهمة بشأن السوابق الديمقراطية، وإمكانيات تحسين الممارسة الديمقراطية بالتماشى مع العصر. بل ونشطوا على نحو فريد فى المشاركة فى المجالات المتاحة أمام الممارسة الديمقراطية، والتزموا بشروط اللعبة وحققوا بالفعل بعض النجاحات اللافتة كما هو الحال فى الأردن وتركيا ومصر.



يمكن للباحثين المرور مرور الكرام على هذا السجل، كما يمكنهم تجاهله تماما. هناك دائما طرق لتفريغ تلك التجارب الديمقراطية للتيار الإسلامى من وزنها الحقيقى وأهميتها. فلا يذكر الباحثون الليبراليون فى الغرب الإسلاميين المعتدلين فى أدبياتهم وتحليلاتهم إلا كدوبلير لتعويض غياب الليبراليين المرتبطين بالغرب، الذين يمثلون ضالة دائمة لأولئك الباحثين على أمل العثور عليها (حمزاوى ٢٠٠٥).

فى حين أن المعتدلين الإسلاميين فى نظر الباحثين اليساريين إن لاحظوهم أصلا، ليسوا إلا قوائم فارغة معدة فقط لإدراج النسخة اليسارية من القيم الغربية عن العدالة وحقوق الإنسان. فالحركات الإسلامية لا يمكن التعويل عليها فى المساهمة الحقيقية فى التطور الديمقراطى فى نظر اليسار والليبراليين على السواء (زونز ٢٠٠٣).

لا يمكن خوض الجدل حول غياب النشطاء الديمقراطيين فى الإسلام بسهولة حتى فى حال توفر للباحثين والصحفيين اطلاع سطحى على كتابات وتطبيقات أى من كبار المفكرين الإسلاميين المعتدلين. كما أن أمرا كهذا لا يحدث غالبا من الأساس. ويسخر المحافظون الجدد بالطبع من مجرد فكرة إيجاد مركز إسلامى.

بينما ينظر الباحثون من التيار الليبرالى للمعتدلين الإسلاميين بشك مبالغ فيه، بينما اليسار غالبا إما معاد للإسلاميين أو ببساطة متجاهلا لهم.

وبذلك تتدفق حصيلة الجدل الاستشراقى بمنتهى الثقة: الإسلام إيمان معيب والحضارة الإسلامية حضارة فاشلة لا أمل لها فى التطور الديمقراطى.

فحتى أكثر الكتابات الموجهة للجمهور الغربى إثارة للاهتمام فى هذا الصدد لدى الليبراليين واليساريين، قصرت فى أى تناول جاد للمعتدلين الإسلاميين حتى باعتبارهم ذوى حق لا لبس فيه فى مستقبل مجتمعاتهم.

فمثل هذا التجاهل المقصود مطلوب للإبقاء على ذات الأوضاع القائمة. فلننظر مثلا فى إنتاج «المدرسة العقلية» للإسلاميين المجددين التى نشطت منذ سبعينيات القرن الماضى. أنتج أولئك المعتدلون المصريون أعمالا متعددة فى غاية النضج تتناول أهم القضايا التى تواجه العالم الإسلامى، بداية من حقوق المرأة والأقليات وصولا لنماذج مقاومة الإمبريالية الغربية والأمريكية بصورة خاصة. ومن عباءة تلك المدرسة برز بعض أهم المفكرين المعتدلين كالراحل محمد الغزالى ويوسف القرضاوى، ويمكن القول إنهما أكثر المفكرين الإسلاميين تأثيرا فى عصرنا (بيكر ٢٠٠٤).

وألهمت أعمالهم حركات إسلامية معتدلة فى كل أرجاء العالم الإسلامى.

فجهل الولايات المتحدة المتعمد بالتيار الإسلامى راجع إلى الموقف المناهض للإمبريالية الذى يتخذه هذا التيار.

فالتزامات هذا التيار نحو الديمقراطية ومعارك العدالة الاجتماعية لا تنفصل عن مقاومته القوية للتدخلات الأجنبية بما فيها الأمريكية.

تلك المواقف المناهضة للإمبريالية تجعل من الإسلاميين تيارا غير مقبول فى نظر الحكومة الأمريكية ودوائر صنع القرار. صحيح أن الأمر لا يطرح علنا بهذا القدر من الفجاجة، إلا أنه لا يستدعى مهارات تحليلية عظيمة لإدراك أساس هذه الكراهية الأمريكية للتيار الإسلامى.

فالسائد ببساطة هو التعامل كما لو



الولايات المتحدة تنفر القوى الاسلامية الرئيسية بفعل سياساتها وتحولهم من شركاء محتملين الى أعداء مرجحين



لماذا تخسر الولايات المتحدة المسلمين؟!

أنه ما من شركاء محتملين بين الإسلاميين (برنارد ٢٠٠٣).

لكن علينا بالطبع معرفة المزيد عن الأمر. ففى واقع الأمر هناك تاريخ طويل من الاتصالات المكثفة بين الإسلام وأمريكا، وإن كانت قد جرت لأسباب بعيدة تماما عن قضية التطور الديموقراطى.

ومع ذلك فسجل الاتصالات هذا ربما يشير إلى دروس أخرى. أولا يدحض تماما مقولات «صراع الحضارات» الشهيرة بين الإسلام والغرب، التى روجها صامويل هنتنجتون (هنتنجتون ١٩٩٣).

يعلم الباحثون فى شئون المنطقة جيدا عن تاريخ العلاقات المتشابكة بين الإسلام والإمبراطورية الأمريكية.

ويقدم إدوارد سعيد نقطة بداية مفيدة لتحليل تلك الصلات المعقدة بين الطرفين بمقولته الشهيرة من أن عصرنا هو عصر «عدة إسلامات». بينما هو من ناحية أخرى عصر الإمبراطورية الأمريكية المتفردة - أو عصر القطب الوحيد كما يطلق عليه المحافظون الجدد - وللإسلام والإمبراطورية تاريخ من التشابك.

فقد حافظت أمريكا على علاقات متناغمة ومتوافقة مع الإسلام لتدعيم وضعها كقوة إمبريالية، وهو ما يندر الاعتراف به حاليا، إلا أن أمرا كهذا على الأقل يساوى فى أهميته فى فهم العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامى، سجل المعارضة للهيمنة الأمريكية التى ألهمها الإسلام من الناحية الأخرى.

داومت أمريكا على الاستخدام النشط لـ«إسلامات متعددة» خدمة لأغراضها. إلا أن تداعيات هذا التلاعب بـ«الإسلامات المحبذة» لم تكن على الدوام كما خطط لها، إلا على المدى البعيد.

فقد جر وراءه غالبا العنف الذى ارتد فى نهاية المطاف ضد عملاء أمريكا إلى أن وصل لأمريكا نفسها. ومع ذلك فقد كان هذا النمط من الإسلام المحبذ المدعوم من الولايات المتحدة استثنائيا فى أهميته لمشاريع الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية. وفقط عبر فهم هذا التاريخ يمكننا فهم توجه الإدارة الأمريكية فى العالم الإسلامى وعواقبه المحتملة.

فبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وقع الرئيس روزفلت اتفاقا تاريخيا مع بيت آل سعود فى المملكة العربية السعودية. وبمقتضاه ضمنت الولايات المتحدة بقاء العائلة المالكة فى الحكم معلنة أن الدفاع عن المملكة جزء حيوى من المصالح الأمريكية، مقابل شروط تفضيلية لحصول أمريكا على البترول.

وتعود أصول النظام السعودى الحاكم إلى القرن الـ١٨ الذى شهد تحالفا ناجحا بين محمد بن سعود أحد القيادات القبلية وابن عبد الوهاب القطب الإسلامى المتزمت.

وأتاح الدعم المادى الأمريكى للأنظمة القمعية، للعائلة المالكة السعودية فرض نفسها على «شعبها»، بالرغم من كراهية الإسلام عميقة الجذور للملكية. كما أتاح للإسلام الوهابى السيطرة بقوة على المملكة السعودية، وأتاح للسعودية عبر عائدات النفط التصرف على المستوى الدولى كقوة تقليدية رجعية. كما عينت نفسها حارسا على أقدس المواقع الإسلامية، مكة والمدينة، لتحصل بذلك على الغطاء الأيدلوجى المطلوب لنظامها القمعى المدعوم أمريكيا.

وأكدت تلك العلاقات مع السعودية انتصار الولايات المتحدة على منافسيها الأوربيين على بترول الشرق الأوسط. كما تسببت لاحقا فى ثورة الابن المتمرد لآل بن لادن، إحدى أغنى وأقوى العائلات السعودية.

ولعب تواطؤ الإسلام السعودى دورا موازيا فى المنافسة الجيوبوليتيكية اللاحقة مع الاتحاد السوفيتى فى الخمسينيات والستينيات. إذ استخدمت الولايات المتحدة كما هو معروف الأيدلوجية الإسلامية الوهابية الرجعية للسعوديين فى إحداث التوازن مع القوميين العرب التقدميين. إذ كان أولئك القوميين قد أبدوا انفتاحا على السوفييت فى مقابل مساندتهم لمشروعات التنمية الوطنية المستقلة. ما كان يعنى تهديدا للهيمنة الأمريكية على الشرق الأوسط وحقول بتروله الثمينة.

هدد القوميون العرب الراديكاليون فى شخص الرئيس المصرى جمال عبد الناصر، بالسير فى طريق التنمية المستقلة التى تمثل فى جوهرها لعنة حقيقية لأى قوة استعمارية.

ثم أنهت رياح خارجية متزامنة مع مؤامرات داخلية على تلك الطموحات القومية بنهاية الستينيات.

ولم تجد الولايات المتحدة بعدها غضاضة فى الغطاء الأيدلوجى الذى منحه الإسلام التابع للدولة للنظام العسكرى الجديد المهادن لها بعدما فرغ من أى مضامين وطنية، فقد كان التهديد الحقيقى لأنظمة كتلك قادما من اليسار بما يجره من ذكريات الجماهير المساندة للتقدم المادى تحت الشعارات القومية العربية الراديكالية.

لم يكن النظام الجديد أقل قمعية فى سبيله لأهدافه الرجعية من النظام السابق فى استهدافه للتنمية المستقلة والرفاهة الاجتماعية للشعب.



ومن جديد طرحت مصر نموذج أنور السادات باعتباره «الرئيس المؤمن» الذى طرد السوفييت الملحدين، وفتح البلاد أمام الاختراق الأمريكى، ورحب بعودة الإسلاميين الملتزمين للحياة العامة فى مواجهة اليسار.



احتضن الأمريكيون السادات والإسلام المدجن على السواء. إلا أن تلاعب السادات بالرموز الإسلامية كغطاء لتحالفه مع أمريكا وإذعانه لإسرائيل بصدد القضية الفلسطينية أثار غضب الإسلاميين المتطرفين الذين اغتالوه فى نهاية المطاف.

وحين تخبط الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان عام ١٩٧٩، لجأت الولايات المتحدة لنمط مختلف من الإسلام السياسى للتعجيل بهزيمة الاتحاد السوفيتى. ودربت المخابرات الأمريكية مع نظرائها فى المنطقة بكفاءة استقدام المسلحين الإسلاميين من كل أرجاء العالم الإسلامى بمن فيهم أسامة بن لادن، للاستفادة من ضعف وضع الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان المحتلة.

ولم تذهب تلك الجهود هباء فى تأثيرها على القوى الدولية. إذ عجلت هزيمة السوفييت فى أفغانستان بزوال الاتحاد السوفيتى.

ولم تذهب تلك الجهود هباء بمعايير القوى الدولية. إذ ساهمت الهزيمة السوفيتية فى أفغانستان فى التعجيل بزوال الاتحاد السوفيتى.

ولم تكن تلك المرة الأخيرة ولا الأهم التى تدعم فيها شبكات العنف الإسلامية الهيمنة الأمريكية المطلقة التى مولتها ودربتها على العمل فى أفغانستان.

فنتيجة للانتصار فى حرب العصابات المدعومة من أمريكا ضد الاتحاد السوفيتى تضاعفت أعداد المجموعات الجهادية فى العالم كله ناشرة الخراب فى كل مكان إلى أن وصلت إلى نيويورك فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

أعتبر نفسى ممن يرون بناء على المعلومات المتاحة أن تلك الأحداث المروعة ليست إلا انتقاما من السياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط ودعمها فى البداية للقتلة حتى وصل بها الأمر إلى تدريبهم فى بعض الأحيان.

وفى حين كان فتح قضية كتلك فى الإعلام بعد ١١سبتمبر ضربا من المستحيل فى ظل صحوة الجنون الوطنى الذى جرى التلاعب به وقتذاك، صدرت عدة كتب جادة لاحقا فى هذا الصدد أصبحت توفر التوازن المطلوب، مثل «الغطرسة الإمبريالية»، و«عمل شيطانى».

من الأهمية بمكان الآن أن يتحمل الشعب المؤمن بالديمقراطية مسئولية أفعال حكومته. وهو أمر لن يتحقق مادام الجدل ليس حرا حول تداعيات دعمنا لأنظمة النفط، بل والأهم للتوسع الإسرائيلى، وطالما جر هذا الجدل التشكيك فى الوطنية والاتهامات بالعداء للسامية.

ويبدو الأمر من قبيل نكران الجميل حين نسمح لهذا الوعيد بالاستمرار، بما فى ذلك التشهير برئيس سابق لتجرؤه على وصف نظام الفصل العنصرى فى الأراضى المحتلة بأنه نظام للفصل العنصرى.

ويجدر بأولئك المتشككين زيارة الضفة الغربية بصحبة فلسطينى يقيم هناك. وبغض النظر عن التفاصيل الدقيقة



شركاء محتملون .. اعداء مرجحون

للمؤامرة، فقد جرت جريمة ١١ سبتمبر بحق الإنسانية تداعيات غير مقصودة ساعدت على إنعاش الخطط التوسعية للمحافظين الجدد الذين هيمنوا على إدارة بوش.

واستحضر الإرهابيون الإسلاميون على نحو قابل للتصديق أمام أمريكا الفزعة، فى صورة «المهددين للحضارة» التى تسعى إليها كل قوة طموحة لتبرير القسوة التى تمارسها لحماية مصالحها الاقتصادية والسياسية التوسعية.

واختلقت آنذاك خرافة الإسلاميين والمبالغة فى وصف التهديد الذى يشكله عنف المتطرفين لخدمة النسخة التى أرادها المحافظون الجدد للإمبراطورية. واستخدمت الإدارة فى غمرة الانفعال السائد كل التدابير للسيطرة على الإعلام للحيلولة دون أى ربط بين الجريمة وسياسات الولايات المتحدة غير العادلة تجاه الشرق الأوسط بآلياتها الدموية التى اندفعت فى انتهاجها.

كانت خطط الإطاحة بطالبان واحتلال العراق، وبالنسبة للإسرائيليين «حل» القضية الفلسطينية بالقوة حاضرة قبل ١١ سبتمبر. وفى ظل صحوة الوحشية، استفزت الإدارة أمريكا الجريحة البريئة، ضحية الهجوم بسبب حرياتها وازدهارها، كما صورت الأمر.

وبلا ذرة من حياء، صاغت تلك الإدارة لدورها فى الشرق الأوسط صورة بطل الديموقراطية والحصن المنيع فى وجه المنابع الإسلامية للتعصب الذى أنتج ظاهريا الإرهاب العالمى.

كان المسرح معدا لإطلاق النموذج الإسلامى الخيالى. ولم تكن استراتيجية جديدة. بل من المهم أن نعرف عن التجربة الأمريكية فى استخدام الإسلام لأغراض الإمبريالية، بما فى ذلك النسخة المتخلفة منه والعنيفة على السواء.

وفى تلك المرة ترك المفكرون الاستراتيجيون فى إدارة بوش النماذج المعدة سلفا.

فى كل اللحظات الحرجة كان الأمريكيون يعثرون على الإسلام القابل للتشكل لخدمة احتياجاتهم. فالعلاقة مع السعودية منحتهم إسلاما ملكيا، رجعيا وقمعيا تعاونت معه أمريكا دون شكوى حتى الآن. فى حين كان الجهاد المدعوم أمريكيا ضد السوفييت فى أفغانستان على العكس داعيا للمضى قدما فى العنف بدلا من مجرد الإسلام القمعى، وسانده الأمريكيون بحماس وجمعت، ومولت، ودربت دعاته من كل الجنسيات.

وفى الوقت ذاته، احتاج النظام المصرى التابع الجديد وقتئذ إسلاما مدجنا و«أليفا» لتأييد الحكومة اليمينية السلطوية التى تعتمد سياسات تخفض من معدلات التصنيع فى مصر وتسهل فرض تسوية قاسية على الفلسطينيين.

فرحبنا نحن الأمريكيين بجهود السادات المدفوعة بالمصلحة الشخصية لتغطية سياساته الموالية للأمريكان بأى شرعية يمكن أن يضفيها هذا الإسلام المدجن.

فى كل مرة إذن، كان الإسلام يتكيف مع مشاريع القوة الأمريكية، بحيث كان دوما إسلاما مختلفا من البداية ليتناسب مع احتياجات اللاعبين المحليين.

وكان له جذوره المستقلة فى تربة العالم الإسلامى وخدم أهدافا معروفة لأنظمة قائمة أو لحركات.

سعت إدارة بوش من جانبها لريادة بديل مختلف يندرج تحت نفس النموذج، على نحو سيوضح الأبعاد الثقافية والفكرية لممارستها لقوتها العالمية.



وكان للعراق أن يكون مسرحا للنموذج الجديد.

وتبدو صورة الإسلام الذى حبذته إدارة بوش هذا كأوضح ما يكون وعلى نحو رسمى فى دراسة مؤسسة راند الهامة بعنوان «الإسلام الديمقراطى المدنى: شركاء، موارد، واستراتيجيات» لشيريل بيانارد (بينارد ٢٠٠٣)، والصادر برعاية وحدة البحوث الوطنية الأمنية فى المؤسسة.

وتتخذ بينارد من التهديد الإسلامى مدخلا لجدلها واسع الصدى والتأثير. وتفتتح تحليلها بمقدمة حول مأزق العالم العربى والإسلامى الذى أوقع نفسه فيه وصنعه بأيديه. وتقول إن الغضب المتولد من تلك القائمة دون حل يهدد بالتمدد ويشكل خطرا على بقية العالم. فكل الجراح ألحقها العالم الإسلامى بنفسه.

وتستبعد بينارد فى تحليلها هذا أى ذكر للاستعمار الغربى للعالم الإسلامى أو ما لحقه من دمار باق إلى الآن. وما من إشارة لديها إلى الوجود الإمبريالى فى العالم الإسلامى عبر شبكة القواعد العسكرية التى تنمو بسرعة مدهشة، والأنظمة العميلة ولا إلى كيف يقيد هذا الوجود التنمية المستقلة.

وما من ذكر حتى إلى حقائق التدخلات السياسية والاقتصادية التى تعتمد غالبا العنف للسيطرة على الاستقلال الاقتصادى والسياسى، ولا كيف شكلت تلك التدخلات الأوضاع فى الشرق الأوسط.

وعلى نحو غامض، غابت عن هذا التحليل إسرائيل، القوة العظمى إقليميا والمسلحة حتى الأسنان بكل أنواع أسلحة الدمار الشامل.

حجب الشبح الإسلامى إذن تلك الحقائق غير الملائمة. وفقط عبر حذف كل ما سبق أمكن لبينارد التسليم بالخلفية غير العقلانية للتهديد الإسلامى. ولمواجهة هذا التهديد تطرح ضرورة تحويل صناع الاستراتيجية الأمريكية الإسلام نفسه إلى إحدى الأدوات.

باختصار هى تدخل إلى حقل الاستخدام الاستراتيجى للإسلام لخدمة الأغراض السياسية والاقتصادية الأمريكية.

تستحضر بينارد إسلاما طيعا يمكن تحويله لأداة لمواجهة إسلام المقاومة، وخدمة الأهداف الأمريكية طائعا. الجديد فى طرح بينارد هو استبعادها للاستراتيجية القديمة بالاعتماد على الإسلام «المصطنع» فى خدمة الأهداف الأمريكية. فبدلا من إسلام يمكن إعادة تشكيله، تنصح بينارد بصناعة الإمبريالية الأمريكية للإسلام الجديد الذى تريده.

ويطلق كتاب جديد شاركت فى تأليفه بينارد جدلا شبيها حول ضرورة مساعدة أمريكا فى صناعة ما أسماه المؤلفون شبكات المسلمين المعتدلين لإحداث التوازن مع الجهاديين. فالحاجة إذن هى وفقا لما تطرح هى إسلام يصنع فى أمريكا ثم يصدر للعالم الإسلامى. لغة فجة وسوقية تلك التى يوصف بها إعادة صناعة أحد أعظم التقاليد الدينية والثقافية للإنسانية: «ليس سهلا تغيير ديانة عالمية كبرى، فإذا كان بناء أمة أمرا عسيرا فإن بناء ديانة أخطر وأعقد على نحو لا يقبل القياس أصلا» كما كتبت بينارد (بينارد ٢٠٠٣).

وفى سياق مشروع كهذا، بهذا القدر غير المحتمل من الغرور والازدراء للثقافة، تعترف بينارد بأن المصادر الفكرية لإعادة التشكيل تلك يجب استيرادها من الغرب. وتوضح دراسة بينارد أن الإسلام الذى تحتاجه الإمبراطورية الأمريكية الآن لن يكون فقط إسلاما مصنوعا لخدمة الأغراض الأمريكية. بل إسلاما مصنوعا فى أمريكا. فجوهر الأمر يقوم على التوجه إلى الباحثين المسلمين المهاجرين الذين تركوا العالم الإسلامى للإقامة فى الغرب. سيطلق أولئك تفسيرات أهدأ للإسلام تقيده فى المجال الشخصى، وتحرم الإيمان من أى قدرة على تحفيز المسلمين على مقاومة التدخلات الغربية فى الأراضى الإسلامية.

لن يلبث إعادة التاريخ المنسى لاستخدام الولايات المتحدة للنظم والحركات الإسلامية لصالح مشروع القوة الأمريكية، أن ينعش منابع الأصولية العنيفة التى توتر العلاقة بين العالم الإسلامى والغرب.

ويغطى خطاب الإمبراطورية على تلك القضايا، بالرغم من أن التاريخ يوضح أن تأثير تلك القضايا حاسم وثابت.

أقل علم بالتاريخ كان ليوضح أن جهود إدارة بوش لإعادة تشكيل العالم العربى والإسلامى لخدمة المصالح الأمريكية والإسرائيلية، باستخدام الإسلام نفسه، سيؤدى حتما فى النهاية إلى إثارة المشاعر وتأجيج ربما عنف أكبر.

وللأسف تشير الأحداث فى العراق إلى تلك النتيجة بدقة.

فيما تأتى أعمال الليبراليين واليساريين مثلهم كمثل محللى المحافظين الجدد كبينارد، ينطلقون من



المجال مفتوحا أمام مؤسسات المجتمع المدنى الغربية لخلق توازنا ما مع التداعيات المدمرة للسياسات الأميريكية ولخلق مجالات للتعاون مع التيار الإسلامى



طرح قد يذكر بتشكك أو بصراحة يفترض أن سياق الثقافة الإسلامية تستبعد التطور الديموقراطى. بينما تدل الحقائق أن الديموقراطية الإسلامية هى احتمال قائم بقوة.

فالديموقراطية هى فى حقيقة الأمر مطروحة على أجندة الإسلاميين المعتدلين فى كل أرجاء العالم الإسلامى. فى الوقت نفسه، قدم كبار الباحثين الإسلاميين الوسطيين إسهامات ضخمة للتنظير للديموقراطية على أرض إسلامية. ويعالج تيار الوسطية الإسلامى القضية عبر ثلاثة أسئلة مميزة: هل تحتاج الأمة للديموقراطية لتزدهر فى العصر الحديث؟ أى المصادر الفكرية والتطبيقية تستطيع الحركات الإسلامية فى التيار المعتدل الاستناد إليها لفهم الديمقراطية؟ ما مدى احتمالية نجاح الإسلاميين المعتدلين فى المعارك الدائرة من أجل الديمقراطية فى بقاع فى العالم الإسلامى؟

سيلاحظ الجمهور اليقظ المطلع على أعمال أهم الباحثين الإسلاميين المعاصرين أنى قد وضعت تلك الأسئلة فى إطار يعكس التعامل مع قضية الإسلام والديموقراطية من قبل الاتجاه السائد بين الإسلاميين أنفسهم الذين يقومون بدور قيادى فى هذه المعركة فى نقاط منتشرة فى أرجاء العالم الإسلامى.

ولنستشهد بأكثر النماذج إثارة للتفاؤل، وهم الإسلاميون المجددون فى مصر الذين أطلقوا تفسيرات جديدة بالغة التطور والعمق للإسلام من كل جوانبه، مع اهتمام ملحوظ منهم بقضية الإسلام والديموقراطية.

صحيح أنه لم يتسن أبدا لمدرسة الإسلاميين المجددين فى مصر إنشاء حزب سياسى، إلا أنهم نشطوا مع ذلك فى المجتمع المدنى المصرى وآثروا على نحو حاسم فى الجيل الأصغر من النشطاء الإسلاميين المعتدلين، وخاصة أولئك الذين التفوا حول حزب الوسط منذ عام ١٩٩٦.

وأحدثت الحركات المعتدلة عدة تطورات موازية فى مناطق أخرى من العالم الإسلامى، كما هو الحال فى نموذج حزب النهضة فى تونس، حزب الإصلاح فى الجزائر، اتحاد العمل الإسلامى فى الأردن، حزب الأمة فى الكويت، الحزب الإصلاحى اليمنى.

من الممكن الحديث عن شبكة غير رسمية للمعتدلين الإسلاميين تكونت خلال العقدين الماضيين تحتفظ فيها مصر بموقع محورى، وتجمع بين نظرة إسلامية حضارية للعالم مع التزام نحو الديمقراطية وسياسة خارجية ملتزمة بالمقاومة ضد الاعتداءات الغربية وخاصة الأمريكية على العالم الإسلامى.

ومع ذلك لم تلفت تلك الجماعات المعتدلة نظر منافسيهم من المتشددين المتسمين بالعنف، بالرغم من أن وزنهم فى مجتمعاتهم أثقل بمراحل.

ويبدو تعامل المعتدلين الإسلاميين مع الديموقراطية وفقا للأسئلة الثلاثة الإطارية لطرحى هنا، بعيدا عن التناول المعتاد للأمر فى الغرب. فقضية المنافسة بين الإسلام والديموقراطية برمتها المهيمنة على النقاشات الغربية تتراجع للخلفية. فالإسلام وفقا لمفهوم التيار السائد بين الإسلاميين قادر على خلق بدائل متعددة من النظم السياسية بما فيها النظم الديموقراطية. إلا أن الديموقراطية، لا فى مصر فقط بل وعلى صعيد جهود كل المؤمنين بالديموقراطية من المسلمين فى كل مكان كذلك.

يحمل الإسلاميون الجدد فى أذهانهم فهما راقيا لدور العقل وفقا لمدرسة العقل.

وصار الأمر لديهم من المسلمات فى كل أبحاثهم. فقد سعوا إجمالا وعن وعى لاستخدام مبادئ العقل لفهم الأوضاع العالمية الجديدة التى أنتجت أغلبها قوى غربية لكنها مؤثرة على المجتمعات الإسلامية دون استثناء.

سعوا لفهم، التغيرات المعاصرة التى هيمنت على التحولات فى العالم خلال الربع الأخير من القرن العشرين. ويهدفون للعيش متوافقين مع الأهداف



التساؤل حول ما إن كان النظام الديموقراطى أو ما سواه يشكل أولوية بالنسبة للعالم من عدمه ظل طارحا نفسه بقوة منذ السبعينيات.

إلا أن مفكرين إسلاميين معتدلين واسعى التأثير كفهمى هويدى، سليم العوا، محمد الغزالى من مصر، ويوسف القرضاوى المقيم فى قطر طرحوا على نحو لا لبس فيه أن الديموقراطية حتمية تماما.

وإجمالا، أنتج أولئك النشطاء والباحثون كما من الأدبيات والإنجازات العملية، تجاهلها الغرب غالبا، وراجت على نحو واسع فى الدوائر المعتدلة، طرحت بقوة الموقف الإسلامى من الديموقراطية.

ويكشف أولئك الباحثون عن جذور إسلامية ثابتة للديموقراطية، ويشيرون إلى الفكر الثرى حول العقل والثقافة فى التراث. وطور الإسلاميون الجدد فى مصر بالتحديد مبادئ العقل والثقافة فى الإسلام على نحو يتصل مباشرة بالمعارك الدائرة من أجل الأسمى للإسلام فى هذا العالم الجديد.

والثقافة بالنسبة لهم ليست أمرا منفصلا بعيدا كبقايا من عصور ماضية يجب تحنيطها، بل أداة حية للتعامل مع التحديات الفريدة والشاقة لهذا العصر.

ولهذه الأسباب يحتل العقل على الصعيدين الفكرى والعملى مكانة مركزية ومعقدة عند الإسلاميين المجددين.



وينظرون للعقل كأداة دقيقة لتحقيق الأهداف والتأثيرات، قادر على تقييم الأهداف والتأثيرات التنافسية، قادر على التأسيس للأطر الأخلاقية المنظمة للأهداف المتعددة والمتضاربة كذلك غالبا، وإنتاج نماذج يستحيل التنبؤ بأشكالها.

ينظر الإسلاميون الجدد للمسلمين باعتبارهم ورثة حضارة اعترفت بالإنجازات العلمية للإغريق، الهنود، والصينيين والتقطتها منهم. لم تحفظ الحضارة الإسلامية هذا الكنز الإنسانى فقط بل ساهمت فيه مساهمات مدهشة فى الصيدلة والحساب والفلك بل والأهم ربما فى فهم النظريات ومقاصد العلوم المختبرية والإمبريقية.

اختار يوسف القرضاوى المركزية المطلقة للعقلية العلمية والعملية وفقا للمدرسة الوسطية، موضوعا للمحاضرة الافتتاحية فى مركز أقيم عام ١٩٩٦ تخليدا لاسم المفكر الإسلامى المجدد العظيم محمد الغزالى الذى رحل قبلها بعامين.

ذكر القرضاوى مستمعيه بأن الوحى نفسه طالب المسلمين باستخدام عقولهم: «اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم» (الآيات ١ إلى ٥ من سورة العلق - المترجم).

يرى المسلمون أن الآية الافتتاحية تشير إلى أن الله أراد بدء عصر العقل، والتعليم، والعلوم وكان يطالب المسلمين بأن يلعبوا دورا قياديا فى تحقيق هذا.

تحدث يوسف القرضاوى عام ١٩٩٦ عن الانتصارات التاريخية للحضارة الإسلامية المميزة والمتوازنة التى أطلقت التنوير فى العالم كله من مراكزها الدراسية العظيمة فى القاهرة، بغداد، وقرطبة. وقال القرضاوى إن معظم العلوم المتقدمة وجدت تعبيرا عنها فى اللغة العربية كلغة عالمية متميزة.

ونقل القرضاوى عن الغزالى حزنه العميق من تخلف وجهل المجتمع الإسلامى الذى كان نورا هاديا للعلوم والتعليم لألف سنة.

لكن أكثر ما كان يغضب الغزالى كان إلقاء اللوم على الإسلام نفسه فى هذا التخلف. وتساءل الغزالى مستنكرا عن كيفية أن يستقيم ادعاء كهذا بينما كان الإسلام قد أثبت نفسه كقاطرة جرت للعالم العلم والتنوير. فلم يتضمن الإسلام أى تضارب بين العلم والإيمان. وهو ما يعبر عنه القرضاوى قائلا: «بالنسبة لنا... العلم دين والدين علم».

ويقول القرضاوى إن القرآن أمر الإنسان أن يكون مستقلا فى التفكير وأن يعتمد على العقل فى تحسين الأوضاع الإنسانية.

فبالنسبة للمسلمين «تفكر ساعة خير من عبادة سنة». وفى سياق إشارته لأسباب اقتصادية وسياسية كانت وراء تراجع الحضارة الإسلامية العظيمة، أوضح أن أول الأسباب هو فشل النظام التعليمى، الذى

لم يشجع التفكير الإبداعى والمستقل (القرضاوى ١٩٩٦).

هذا التشديد على دور العقل والفهم لمبادئه ظهرت من سياق ثقافى متميز شكله الإسلام قبل أى شىء. سيكون من المفيد أن نتوقف قليلا ونستعرض بأقصى وضوح ممكن هذا السياق الثقافى وفقا لنظرية الوسطية وخبراتها العملية. يتضمن مفهوم الثقافة كجزء من الإنتاج الفكرى والاجتماعى لتيار الوسطية المصرى فكرة الشعور المشترك بالثقافة، بالإضافة إلى عادات العقل والشعور التى تمثل ملكية مشتركة للمجتمعات الإنسانية المختلفة التى يضمها العالم الإسلامى.

يتضمن مفهوم الثقافة كذلك الشعور بإنجازات وإنتاج الجهد الإنسانى الذى يستحق الاهتمام والاحترام لما يتضمنه من جمال يؤثر فى البيئة الإنسانية بالمقارنة مع العالم الطبيعى المحض.

ليس من بين الإسلاميين الجدد من يميل إطلاقا للحط من دور الفنون، أو العلوم الطبيعية والإسلامية وكل أشكال الإبداع الأعلى المعترف بها كنتاج قيم لصور من الجهد الإنسانى الأرقى، والتى منحت المجتمعات الإسلامية فى أقصى درجات ازدهارها جمالا ثريا محفزا على النهضة وجديراً بالإجلال.

دافع الإسلاميون المجددون عن الفن والفنانين بشجاعة عظيمة ضد ما اعتبروه قراءة مغلوطة جاهلة متطرفة للإسلام نبذت الموسيقى والرقص والتعبير الفنى عموما عن المجتمع الإسلامى (أبو المجد ١٩٩٢).

ويشجب فهمى هويدى التزايد المستمر لعادة «التمتم» العالى المتفاخر والمزيف بالقرآن فى أماكن عامة غير ملائمة كمترو الأنفاق المزدحم أو الحافلات، إذ كتب فى هذا الصدد بازدراء شديد: «بعضهم لا يتوقف عن التمتم بالآيات بصوت عال... بالرغم من أنهم لا يمانعون فى إهانة الناس أو أكل أموالهم بالباطل» (هويدى ١٩٩٩).

وفى إحدى أدبياتهم حول الإبداع، يقف الإسلاميون المجددون ضد نمط التحفيظ عن ظهر قلب كالببغاء، وضد الانفصال بين التعليم والحياة، ليس فقط فى الدراسات الدينية بل فى كل مجالات التعليم.

مفهوم الثقافة عند أتباع مدرسة الوسطية مفتوح وشامل لمعان جامعة تساعد على التفاعل مع عالم متشعب وأكبر.

ثقافة بريئة من جرعة التوتاليتارية التى تجدها فى كل الأصوليات، سواء بين جماعات المتطرفين المختلفة أو بين أصوليى السوق الحر فى الغرب.

فالإسلام كما يفسره التيار السائد بين الإسلاميين، لم يأت للعالم ليجعله متجانسا بالكامل، بغض النظر عن قيمة إسهاماته فى المشروع الإنسانى لبناء العالم.

ويصر المجددون الإسلاميون على منح الاهتمام للحقائق على الأرض كالسياق الذى تخاض فيه صراعات بعينها ومن ثم للأشكال الفريدة التى تتخذها حتما تلك الصراعات.



وهم على وعى تام، مثلا، بأن الإسلام فى مصر تشكل بطرق معينة عبر تفاعل استغرق قرونا مع عدد ضخم من المسيحيين المصريين. بينما تتفاخر سياقات أخرى بتأثيرات مختلفة. فلا يمكن لحركة واحدة أو رؤية واحدة للثقافة أن تكون صحيحة فى كل الأزمنة والأماكن.

ووحدها المقاصد الأعلى للإسلام التى دعى إلى اعتناقها كل الجنس البشرى، تمتلك هذة العالمية. أما التفاصيل، بما فيها تفاصيل استخدام العقل ودور الثقافة، فمتروكة لتعامل المسلمين معها فى ظل ظروفهم المتشعبة.

كما ظلت هناك دوما مساحة تركها التيار الإسلامى لتقييم التقاليد الأخرى، ولأبعاد فى الثقافة الإسلامية ترجع صدى أفضل الإنجازات الثقافية للثقافات الأخرى.

واختتم الإسلاميون المجددون إعلانا رسميا صدر عن مدرستهم العقلية أوائل الثمانينيات باستحضار القيم المشتركة التى تشكلت على نحو متمايز فى مختلف الثقافات.

وقدموا فى تلك الخاتمة فكرهم باعتباره فكرا مشتقا من المبادئ الإسلامية، ورسالتهم كرسالة موجهة فى المقام الأول لشعب مصر ثم إلى العالم الإسلامى الأكبر.

إلا أنهم يسعون كذلك لتفسير وتنظيم قراءاتهم للموروث الإسلامى على نحو يستجيب لعصر جديد فى التاريخ الإنسانى، عندما «تسقط الحواجز بين الشعوب وتتقلص المسافات». يسعون فى أعمالهم إلى جعل التجديد الإسلامى جزءا من هذا العهد الجديد «عندما تبحث الدول، الشعوب والثقافات حول العالم عن أرضية فكرية ومصالح مشتركة وتسعى لعلاقات بين الحضارات وتعاون ثقافى من أجل قيم كالعدل، والسلام، والحرية، واحترام حقوق الإنسان» (أبو المجد ١٩٩١: ١٣).

وطور الإسلاميون المجددون على هذا النحو وبوعى كامل، إحساسا واضحا بوجود إنجازات متوازية ومتناسقة فى الثقافات الأخرى حتى فى أكثر الأبعاد العزيزة عليهم فى ثقافتهم الإسلامية.

وتتضمن ذاكرتهم التاريخية حول التطور فى الثقافة الإسلامية التى ينتمون لها لقاءات منتجة مع الفلسفة اليونانية، الأدب الإيرانى، العلوم التطبيقية الصينية والهندية والتى تطلعنا على ما يمكن أن يسمى الإنجازات الإنسانية العالمية.

ولا يمانع أولئك الإسلاميون على الإطلاق فى هذا العصر فى الاعتراف ببعض إنجازات النبوغ فى العلوم السياسية فى التجربة الأمريكية ذات الأهمية العالمية، بما فى ذلك علاقتها بالعالم الإسلامى. هذا التقدير من جانبهم للإنجازات العابرة للثقافات لا يعنى بالطبع أن ثقافتهم ليس لديها ما تساهم به فى كل جوانب الخارطة الإنسانية. ولا يعنى ذلك ضمنا القبول بكل تجاوزات محصلة الثقافات المختلفة. وعلى سبيل المثال لا يمنعهم التقدير للفكر والتجربة الأمريكيين على طريق البحث عن الديموقراطية من قبيل فكرة تقييد السلطة التنفيذية، من أعنف النقد للسياسات غير الديموقراطية التى تتابع تطبيقها الولايات المتحدة وغيرها من القوى الغربية الديموقراطية فى دول الجنوب.

هذا التميز فى مصادر العقل والثقافة الذى يظهره الإسلاميون المجددون بوضوح يمكنه نقله عن الإسلام لأغراض التطور الديموقراطى.

أسهم إسلام الوسطية على مستوى العالم على نحو ملحوظ فى نمو الأدبيات الإسلامية وسجلها من الإنجازات الملموسة على طريق البحث عن الديموقراطية كما أجملنا آنفا.

ساند الإسلاميون المجددون منذ السبعينيات الحركات العاملة على تقييد السلطة المطلقة للرئيس فى مصر ولتحويل مصر إلى دولة قانون، مستندين فى ذلك إلى قراءة للموروث تؤكد على إمكانيات التطور على النهج الديموقراطى.

وشجعوا الممارسة الديمقراطية ما إن بدأت من خلال المجتمع المدنى، وبصورة خاصة فى النقابات المهنية.

والأهم، ما عمل عليه المعتدلون من شق طرق للمشاركة الشعبية فى العمل الاجتماعى والاقتصادى الذى يخدم المصلحة العامة، غالبا فى وجه العقبات البيروقراطية والسياسية. إلا أن جانبا صغيرا جدا من هذا السجل معروف فى الغرب (بيكر ٢٠٠٤).

إلا أن المؤسف حقا هو تحول الجهل خاصة فى السنوات القليلة الماضية لخدمة الإمبراطورية. فالإمبراطورية الأمريكية تحتاج إلى فكرة أن الديموقراطية لا يمكن أن تنبع من مصادر محلية للعقل والثقافة، على عكس ما يشدد عليه المجددون الإسلاميون.

ولا يكفى هنا تجاهل الأدلة. بل إن ثمة مواظبة على إنتاج الأعمال الفكرية رديئة المستوى مطلوبة من منظرى الإمبراطورية. فلابد من إعادة إنتاج نظرية الاستثنائية الإسلامية مرة تلو المرة للتعويض بالترديد المستمر عن افتقارها إلى قوة الإقناع اللازمة فى الجدل، لا على الصعيد الفكرى فقط بل السياسى كذلك.

بينما ينتهز الإسلاميون الفرص للرقى بالممارسة الديموقراطية فى ظل ظروفهم المتشعبة، بغض النظر عن القيود المحيطة. ويطرحون فى سياق الحديث حول ما إن كان يتعين على الحركات الإسلامية أن تتسم بالديموقراطية من عدمه، أسئلة أعمق



كان انفتاح ابن بطوطة، الرحالة العربى الشهير فى القرن الرابع عشر، على النقيض من الانغلاق البادى فى أداء المتخصصين الغربيين فى الشؤون الاسلامية



لماذا تخسر الولايات المتحدة المسلمين؟!

حول الصورة الدقيقة التى تتخذها الديموقراطية فى كل نظمها.

ويفتشون فى التراث لتحديد كيفية تفسيره بحيث يدعم أشكال الديموقراطية المطلوبة.

وينشرون فيما بينهم تبصرة مستقاة من الخبرة العملية من الصراعات من أجل الديموقراطية فى سياقات بعينها، يلعب فيها المعتدلون المصريون دورا هاما لنشر الخبرات.

إن خير دحض لفكرة تولد الديموقراطية فقط من استخدام الإمبراطورية لها كأداة كما فعلنا فى العراق، هو تاريخنا نفسه وتاريخ الشعوب الأخرى كذلك. فتاريخنا وتاريخهم يوضح كيف أن الديموقراطية تبنى ببطء على مدى عقود وربما قرون.

فالتجارب الحية لتقليص حدود السلطة الاستبدادية، وخلق قواعد عادلة تحكم الحياة العامة، وإنتاج فرص أوسع فأوسع أمام الناس أنفسهم للمشاركة فى صياغة المستقبل، كلها تشكل صفات وقواعد أساسية فى معركة الديموقراطية فى كل مكان.

وفى ضوء ما سبق، فالمعركة أبعد ما تكون عن النصر فى أمريكا، حيث القوى البلوتوقراطية المتغطرسة، والتحالف العسكرى الصناعى شبه المستحيل تحديه، والسياسة الخارجية الإمبريالية يهددون المكتسبات الديموقراطية التى فزنا بها بصعوبة (نظام الحكم البلوتوقراطى اصطلاح يشير إجمالا إلى حكم الثروة - المترجم).

وفى ضوء ما سبق بالكامل، من السهل إذن أن ننبذ تلك الأطروحة المزيفة الرائجة حول الاستثنائية الإسلامية التى تنفى أى إمكانية لاشتباك العالم الإسلامى مع معارك الديموقراطية.

تلك المعارك تشكل جزءا من تاريخ الحركات التى هيمن عليها العلمانيون فى أهم الدول الإسلامية فى المنطقة، ولاسيما تركيا، إيران، ومصر. إلا أن تلك المعارك تخاض اليوم وينتظر أن تخاض مصطبغة بصبغة إسلامية فى دول فى العالم العربى والإسلامى كالمغرب، الأردن، مصر، اليمن والكويت.

على أن ما تعرض له الإسلاميون فى دول أخرى ولاسيما فى تونس والجزائر كان قاسيا للغاية. وعندما نضع فى اعتبارنا ضعف الجهود التى يمكن بذلها فى ظروف بهذه الصعوبة التى تصل غالبا إلى مستويات غير محتملة من العنف، ربما يمكننا حينئذ تقييم جهودنا. فقد هبت على ديموقراطيتنا عواصف عاتية فى السنوات الأخيرة على نحو كان ليقلق الآباء المؤسسين.

ومع ذلك، فحدود المعارك الديموقراطية فى العالم الإسلامى تستحق الاهتمام فعلا. فقد استغلت الجماعات المتطرفة كالقاعدة العنف على نحو مذهل وربطته بلا جدال برؤى سياسية غير ديموقراطية.

فى حين اعتمدت طالبان تفسيرات متطرفة للإسلام لبناء ديكتاتورية وحشية زادت من سوء المعاناة الأسطورية للشعب الأفغانى.

هل لنا أن ننده من النجاح المحدود لتلك النضالات، فى ظل دور القوى الدولية غير القابل للإنكار فى مساندة النظم السلطوية المنتشرة فى العالم الإسلامى؟ هل من المنطق تعميم وإرجاع محدودية النجاح تلك إلى حاجز ما ثابت بين الإسلام والديموقراطية؟

جاء الوقت لننقل اهتمامنا بالعالم الإسلامى من الجوهر الخادع المتسلط إلى التاريخ الواقعى لمعارك تخاض من أجل الحرية.

حان الوقت على الأقل لوقف إعاقة تلك النضالات. فبدون تقييم دءوب لسياساتنا سنحول شركاءنا المحتملين لأعداء مرجحين. وليس من قبيل الانعزالية اقتراح اتباع رأى جون ديوى هذه الشخصية الوطنية الأمريكية العظيمة بصدد الديموقراطية (جون ديوى عالم أمريكى راحل تخصص فى أصول التربية وعلم النفس- المترجم).

فالرسالة الأساسية لأعمال جون ديوى النظرية والعملية كانت إيمانه الراسخ بأن أعظم ما يمكن أن تمنحه أمريكا للعالم هو تجربتها الديموقراطية (ديوى ١٩٢٧).

فاحتمالات تطبيق الديموقراطية فى بقية العالم اليوم ستصبح أقوى بكثير فى حال منحته أقوى وأغنى ديموقراطية فيه نموذجا جذابا، إذا كان أداؤها تجاه الآخرين نموذجا يستحق الإجلال، إذا كانت سياساتها أكثر استحقاقا للاحترام.

على أنه من غير المحتمل إحداث أى من تلك التغييرات قريبا على يد الحكومة الأمريكية، سواء إن كانت تنتمى لليبراليين من الحزب الديموقراطى أو المحافظين الجدد من الحزب الجمهورى. لكن على الأقل، يتوجب على قوى المجتمع المدنى استهداف بذل جهد أكبر فى معاركنا الديموقراطية داخل وطننا.

وفى غضون ذلك لابد أن تمارس ضغطا على الحكومة لتقليل حجم الأذى على معارك الديموقراطية الحقيقية التى يخوضها الآخرون، بمن فيهم المعتدلون الإسلاميون فى العالم العربى والإسلامى. ■



عندما يتحدث أردوجان (١)

فى المياه الدولية فى عرض البحر البحر المتوسط، وفى فجر الحادى والثلاثين من مايو هاجمت البحرية الاسرائيلية قافلة «أسطول الحرية» المتجهة سفنه الى غزة تحمل نشطاء من أكثر من أربعين دولة، بصحبتهم أدوية ومعونات لسكان غزة المحاصرة. وكانت نتيجة الهجوم الاسرائيلى أن سقط عدد من الضحايا بينهم تسعة من الأتراك. لم يكن رجب طيب أردوجان، رئيس الوزراء التركى فى بلاده يومها، ولكنه عاد على الفورليلقى خطابا أمام البرلمان التركى، ذكر الكثيرون بموقفه فى منتدى دافوس (مارس ٢٠٠٩)عندما انسحب من جلسة شارك فيها شيمون بيريز محتجا على تبريره لقصف غزة، قائلا له: «أعلم سبب رفعكم صوتكم، وذلك بسبب شعوركم بالندم» مضيفا: «عندما يتعلق الأمر بالقتل، فإنكم أكثر من تفهمونه.. أعلم كيف تضربون وتقتلون الأطفال على الشواطئ».

وهنا فقرات من نص الخطاب الذى ألقاه رئيس الوزراء التركى أردوغان أمام البرلمان التركى فى الأول من يونيو/حزيران ٢٠١٠.

«أصدقائى النواب الكرام.. الضيوف الكرام.. إلى كل من يشاهدنا عبر شاشات التلفزيون. لن أخاطب اليوم شعبى العزيز فحسب بل سأخاطب كذلك الإنسانية جمعاء، أود أن أخاطب ضمير الإنسانية وعقلها، أريد أن أشاركم عواطفى بشكل صريح.

يوم أمس وفى ساعات الصباح الأولى قامت عناصر مسلحة من الجيش الإسرائيلى بهجوم غير قانونى فى المياه الدولية على أسطول الحرية الذى كان يحمل المساعدات الإنسانية إلى شعب غزة، والذى كان على متنه ٦٠٠ شخص من ٣٢ دولة، وأراقوا دماء الأبرياء.

كذلك تم احتجاز سفن المساعدات الإنسانية خلال هذا الهجوم الذى ترك عديدا من القتلى والجرحى".

لقد قطع الطريق على السفن التى ترشحت من ضمير الإنسانية، بالسلاح والجبروت ولم تستطع السفن التى كانت تحمل الرحمة والشفقة أن تصل إلى مبتغاها وتلطخت بالدماء.

لقد تلقى ضمير الإنسانية فى مياه المتوسط واحدا من أشد الجروح على مر العصور.

الاستشــــــــــراق الأمـريكــــــــى

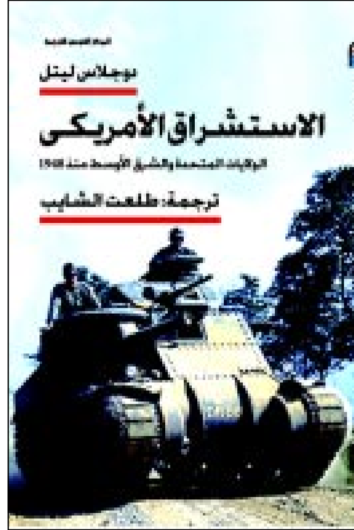
قصة العلاقات المضطربة بين أمريكا والشرق الأوسط منذ عام ١٩٤٥

■■ الاستشراق مصطلح أنهكه الدارسون تعريفا وتحديدا وتحليلا، وأشهرهم بالطبع المفكر العربى الكبير إدوارد سعيد، ورغم ذلك فالمصطلح لا يخرج فى غالب صوره عن فكرة انشغال الغرب بشئون الشرق، وكان فى معظم الحالات صفة لفرد أو مؤسسة يعنى أو تعنى بدرس أحوال متباينة لبلد أو بلاد شرقية، أما الاستشراق الذى يؤرق كل صفحات هذا الكتاب فهو يركز على جانب كبير من فكر دولة هى الكبرى فى العالم دون شك، تتابع بكل زعمائها وساستها ومفكريها وموظفيها بمنتهى الدقة والاهتمام عبر آليات غير محددة كل ما يجرى فى الشرق الأوسط حتى ليعرفون ما لا يعرفه أهله أنفسهم عنه، ودافعهم دائما كان ولا يزال هو الاستحواذ والسيطرة وليس فقط من أجل مجرد المعرفة، وهو ذاته الهم الكولونيالى- مع فروق قليلة - الذى أرق الغربيين منذ عصر النهضة.

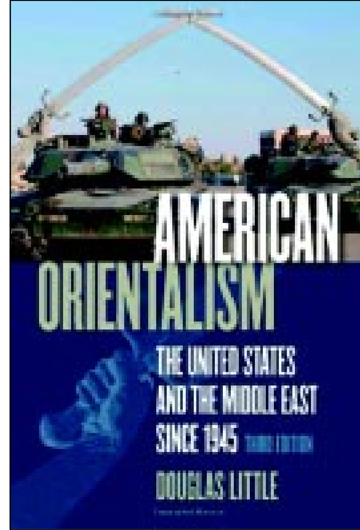
وقد صدرت مؤخرا عن المركز القومى للترجمة بالقاهرة الترجمة العربية لكتاب «الاستشراق الأمريكى» للمؤرخ دوجلاس ليتل المتخصص فى تاريخ الدبلوماسية الأمريكية والمحاضر فى علاقات الولايات المتحدة بالشرق الأوسط، والمعروف باهتمامه الخاص بالإسلام الراديكالى، وقد قام بالترجمة مترجم بارز هو المصرى طلعت الشايب الذى قدم للمكتبة العربية أكثر من ثلاثين كتابا مترجمة عن الإنجليزية، من أهمها «صدام الحضارات» و«الحرب الباردة الثقافية». «فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى» . «الفنون والآداب تحت ضغط العولمة». «غياب السلام». غير عدد كبير من الإبداعات الأدبية.

توفرت لدوجلاس ليتل أستاذ التاريخ بجامعة كلارك تلال من المعلومات حول العلاقات الملتبسة أحيانا والسائرة على الأشواك والقنابل أحيانا أخرى بين أمريكا والعرب فى كتابه «الاستشراق الأمريكى» الذى يتجاوز عدد صفحاته سبعمائة صفحة، وعبر فصوله التسعة، وقد بدا مرتكزا فى تحليله لملابسات هذه العلاقات على الأحداث وأقوال الزعماء ورصده الدقيق لمجريات المصالح، وشتى تجليات الحراك الدولى خاصة منذ ما بعد الحرب العالمية الثانية، وإن لم يمنعه هذا الإطار الزمنى القصير من تأصيل بعض المقولات والخلفيات والمنطلقات التى أفضت إلى مواقف ذات أثر فاعل فى مسار العلاقات وحرارتها، بردها إلى أسبابها ومنابعها التاريخية.

لابد أن «ألف ليلة وليلة» هى التى أشاعت لدى الأوروبيين صورة ذهنية للشرق الأوسط الغارق فى السحر والملذات واللهو والسذاجة والصناعات التقليدية المدهشة والطقوس والعادات الغريبة، وعبرت تلك الملامح المحيط الأطلنطى إلى أمريكا عبر سطور العديد من الرحالة، لعل من أبرزهم الكاتب الأمريكى الشهير مارك



الاستشراق الأمريكى
دوجلاس ليتل
ترجمة: طلعت الشايب
المركز القومى للترجمة بالقاهرة الترجمة – القاهرة



American Orientalism: The United States and the Middle East since 1945
Douglas Little
The University of North Carolina Press
2008

توين الذى جاء فى كتابه «السذج خارج الوطن» ١٨٦٩:

«أن ترى قافلة من الجمال تحمل طيب الجزيرة العربية ومنسوجات فارس النادرة تتهادى عبر مجازات السوق الضيقة.. فذلك أحد تجليات الشرق الأصيلة. الصورة لا ينقصها أى شىء فهى تعيدك على الفور إلى طفولتك المنسية لتعيش مرة أخرى أحلام ألف ليلة، ومرة أخرى يكون الأمراء رفاقك، وأميرك «هارون الرشيد» وخدمك مردة وجان، يأتون وسط الدخان والرعد والبرق ويختفون كما تختفى العاصفة».

لكن الأمر بالنسبة للأمريكيين لم يمض على هذا النحو إلى ما لانهاية، فقد أصبحوا يستشعرون أن الشرق الأوسط يمثل هاجسا مقلقا لهم، والشرق الأوسط عندهم ومنذ البداية ليس الدول العربية وحدها بل هو الممتد من المغرب حتى أفغانستان مرورا بتركيا وإيران وبالطبع بعد ذلك إسرائيل، وكان من السهل على مفكريهم السياسيين اعتبار المنطقة برمتها إسلامية، وهكذا يشير الشرق الأوسط فى العادة إلى الإسلام وخاصة لو تركز الحديث على الإرهاب. ومن المؤسف حقا أن يترسخ فى العقلية والثقافة الشعبية الأمريكية أن الإسلام هو تلك العقيدة البربرية الشريرة التى حملها النبى محمد من الصحراء العربية إلى الشمال الأفريقى لتضع شعوب الأرض المقهورة أمام خيار التحول إلى الإسلام أو الموت. وانطبعت أيضا صورة البلاد العربية

على أنها بلاد الاستبداد الشرقى والفساد الاقتصادى والحماقة الفكرية.

على أن أمريكا وهى بنت أوروبا النجيبة التى رضعت الفكر الاستعمارى من أساتذته وأنضجته على نار الطموحات غير المحدودة التى غذتها القوة الاقتصادية والعسكرية رأت أن من حق الإمبراطورية الأمريكية الجديدة التى يعيش العالم عصرها أن تضع يدها على كل الدنيا، وقد أدركت مع بداية القرن العشرين أن العرب ليسوا بالسذاجة التى تصورها مارك توين وغيره، لأنهم كما يثيرون الدهشة يمكن أن يثيروا الرعب وهم لذلك يمثلون العائق الحقيقى ضد إحكام قبضتها على العالم.

لم يتوقف الأمريكيون عن تأمل الكيان والشخصية العربية وسرعان ما عثروا على المفتاح / المدخل وهو البترول، وكان قد سبقهم الإنجليز إلى بترول إيران.. تقدم الأمريكان من بترول السعودية وثبتوا جيدا أعمدتهم، ولما اندلعت الحرب الثانية وانتهت بعلو كعبها وطول ذراعها وضعت خططها العملية لإخراج الاستعمار البريطانى والفرنسى من المنطقة ووضعها تحت حمايتها تمهيدا لابتلاعها، وما إن أعلن اليهود دولتهم حتى أسرعت أمريكا باعترافها بالدولة الجديدة، فقد أيقنت من سنوات بأن إسرائيل يمكنها أن تكون عاملا مهما فى السيطرة على هذا الحوت مترامى الأطراف.

وبقدر ابتهاج قادة أمريكا بهذا القرش الصغير الذى يمكن أن يلكز الحوت فى جنبه كلما دعت الحاجة فقد فوجئت

بالثورة المصرية وقائدها عبد الناصر ودعوته للقومية العربية وحق تقرير المصير ومساعدته فى تحرير كثير من الدول المحتلة. وكان من المحتم محاولة جذبه بالإغراءات، لكنه تأبى ومن ثم كان لابد من ملاحقته حتى يتم التخلص منه، وفى الوقت ذاته فقد تحول عبد الناصر إلى كابوس لأنه لا يمثل نفسه فقط من وجهة النظر الأمريكية بل يمثل بوابة ضخمة يمكن أن ينفذ من خلالها الاتحاد السوفيتى إلى المنطقة العربية، وعندئذ تتعذر تماما مهمة احتواء الشرق الأوسط بل سقوطه خارج حسابات أمريكا مضافا إلى حسابات الشيوعية الدولية ويصبح الخطر خطرين.

وعندما أعلن الشقيرى إنشاء «جيش فلسطين» عام ١٩٦٤ أيقن الدبلوماسيون الأمريكيون أن ذلك لم يكن يعنى أكثر من أن عبد الناصر سيصدر شارات جديدة للواء فلسطينى موجود فى سيناء ليلوح بفكرة الجهاد العربى لاستعادة الأرض المغتصبة، وسرعان ما شعرت الإدارة الأمريكية بالانزعاج لأن الرئيس المصرى أعلن فى خطاب له أن الجيش الفلسطينى سوف يتلقى أعلى التدريبات والأسلحة كى يحرر أرضه، وظلت الأمور تبدو للأمريكيين على أنها مجرد شعارات وخطب للاستهلاك المحلى حتى قام ناصر باصطحاب عرفات معه إلى موسكو وتقديمه للقادة السوفييت بوصفه قائد الجيش الفلسطينى الذى يتعين دعمه من أجل تحرير بلده، وتزايد الشعور لدى الأمريكيين بخطورة ما يحدث.

يقول دوجلاس: وبينما كانت نذر الحرب تلوح فى الأفق، كانت واشنطن تنحو باللائمة على العرب بسبب تعنتهم الذى جعل التسوية مستحيلة، وبعد زيارة قام بها هارولاند سوندرز خبير الشرق الأوسط بالبيت الأبيض للمنطقة قال: لا توجد أى بادرة تدل على أن الفلسطينيين روضوا أنفسهم على فقدان بيوتهم التى تركوها فى إسرائيل، وبعد أن عاشوا قرابة العقدين فى بيوت الصفيح والخيام القذرة أصبح كرههم للصهيونية بلا حدود، وكرر سوندرز ما سبق أن صرح به: «حاول ألا تقع فى خطأ الاعتقاد أن الزمن كفيل بحل مشكلة اللاجئين، وذكر رؤساءه فى ١٦مايو ١٩٦٧ بأن جماعة فتح الإرهابية ترسل مخربيها إلى إسرائيل وتختارهم من بين الأكثر مرارة وحقدا من هؤلاء اللاجئين».

ويقول دوجلاس ليتل فى كتابه وهو أحد هؤلاء المستشرقين الذين لم يستطيعوا برغم الدرس العلمى أن يتخلصوا تماما من الرؤية الأمريكية الاستعمارية: كان من الخطأ أن تعتقد فتح ومن معها أن هناك أملا فى استعادة وطنهم المفقود عن طريق القتال.

أسرع الأمريكان يصممون الخطط لاقتناص الديك الرومى كما كانوا يسمون الرئيس المصرى وقد أمكن ذلك فى عام

فؤاد قنديل

١٩٦٧، إذ لم ينهزم عبد الناصر فقط فى الحرب ولكنه رحل أيضا عام ١٩٧٠، وتنفس الأمريكيون الصعداء وتجدد الأمل فى معاودة العمل من أجل الاستيلاء على هذه المنطقة المستعصية، ليأتى من بعده من ينتهج نهجا مضادا تماما لاتجاه سلفه، ويعلن بوضوح استعداده لتوطيد العلاقات مع أمريكا وأن يطور فى سياساته لتتسق مع الرأسمالية الغربية وينهى كل ما له علاقة بالرومانسية الثورية والقومية العربية.

لم تمر سنوات قليلة على التخلص من الثورى المصرى وعودة مصر إلى الحظيرة الأمريكية حتى استولى زعيم الثورة الإسلامية الإمام الخومينى على سدة الحكم فى إيران عام ١٩٧٩ وطرد الشاه، وبدا الأفق ملتهبا وملتبسا على نحو من الأنحاء، لكن القادة الأمريكيين انشغلوا بتأمل التجربة وعندما أوشكوا على استكمال التصور الفعلى لما تم، ظهر الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان مفتشا عن البترول بقواته العسكرية.

قال جيمى كارتر بعبارة حاسمة لم تتردد على لسانه كثيرا:

«المنطقة التى تهددها القوات السوفيتية الآن فى أفغانستان ذات أهمية إستراتيجية، فهى تحتوى على أكثر من ثلثى النفط المصدر للعالم. فليكن موقفنا واضحا تماما إذ إن أى محاولة من أى قوة أجنبية للسيطرة على الخليج الفارسى سوف تعتبر اعتداء على المصالح الحيوية للولايات المتحدة الأمريكية، وسوف يتم التصدى لهذا الاعتداء بكل الوسائل الممكنة بما فى ذلك القوة العسكرية».

لم تحارب أمريكا مباشرة لإخراج السوفييت من أفغانستان، لأنها فى العادة تدفع بغيرها ليقوم بمبادرات مفتوحة ومتعددة المجالات، لتعطى نفسها فرصة تأمل الخريطة وحالة الأطراف ذات الصلة وفى الوقت ذاته تتواصل جهود رجالها لبحث الخيارات المتعددة لوقف الاعتداءات بأقل خسائر ممكنة، وقد أوعزت بذلك لكثير من المجاهدين العرب الذين عرف عنهم مقتهم المتعاظم للشيوعية، وتكفى لإطلاق شرارة اللهب فى مساحات حماسهم الشاسعة أن تتم الإشارة عبر وسائل الإعلام أو قنوات دبلوماسية متأخرة أو غير معنية تماما إلى نية الشيوعيين فى الاستيلاء على بلد إسلامى، وهذا ما حدث طوال الثمانينيات حيث تنادى المجاهدون العرب والمسلمون من الأقطار العربية المختلفة، واندفعوا إلى أفغانستان وقاتلوا بشراسة نادرة جحافل الجيش السوفيتى حتى اندحر. وكان طبيعيا أن تتسع الابتسامة على وجه تمثال الحرية وتمتد من نيويورك حتى واشنطون.

لكن الابتسامة سرعان ما تبدلت بحالة من التوجس، واستيقظ العرب والعالم صباح الثانى من أغسطس عام ١٩٩٠على حدث صادم مزق الأمة العربية بلا رحمة، إذ اقتحم صدام الكويت فى سلوك همجى أحمق لا مبرر له وغير مسبوق وتمادى فهدد بالاستيلاء على ما جاورها، وليس أهم من أفغانستان إلا الخليج، لذلك أسرعت القوات الأمريكية مدعومة بقوات بعض الدول لإخراج المعتدى وتكسير عظامه إذا أمكن حتى لا يكرر التجربة التعسة.

على أن الإدارة الأمريكية فى فترة حكم الرئيس كلينتون كانت تتابع ما يجرى فى العراق وترصد بدقة الوضعين السياسى والعسكرى، كما كانت تنصت جيدا للأحوال فى السودان، وأقدمت القوات الأمريكية على توجيه ضربة عسكرية محدودة للجماهيرية الليبية بحجة أنها وراء ارتكاب عدد من حوادث اختطاف الطائرات، وسعت لاستصدار قرار من الأمم المتحدة بتوقيع عقوبات على ليبيا وفرض حصار على حركة الطيران منها وإليها، وهكذا ظلت العلاقات الملتبسة تتواصل هنا وهناك وتزداد خيوط كرة الصوف تشابكا وتعقيدا دون أن تلمس الجماهير العربية بادرة أمل فى حل مشكلة الشرق الأوسط الأولى وهى احتلال إسرائيل لفلسطين، واستمرار التربص الأمريكى بدول عديدة فى المنطقة بصورة دعت لأن يتشكك الكثير من المتابعين فى النوايا الأمريكية التى لم تختلف مطلقا رغم تغير الرؤساء.

وبعد سنوات قليلة ضربت طائرتان برجى مركز التجارة العالمى الشهير بمدينة نيويورك، وأسرع الإعلام الأمريكى يتهم العرب، وتعالت الأصوات التى لا ترى فى الإسلام غير أنه عقيدة إرهابية، والعرب ليسوا إلا سفاحين وقتلة.. ومن ثم عادت إلى فضاء الشرق الأوسط كرة البنج بونج الملتهبة التى كان حتما أن تتقاذفها كل الأطراف فى المنطقة، وتصور الأمريكيون فى عهد بوش الابن أن الأمور لن تكون تحت السيطرة إلا بعمل عنيف سرعان ما تجلى فى احتلال أفغانستان والعراق.

هذا بالفعل كتاب مهم، ولا تكمن أهميته فى عرضه تفاصيل العلاقات الأمريكية الشرق أوسطية، أو الأمريكية الإسلامية على وجه التحديد، ولكن لأنه يكشف الكثير مما جرى فى الكواليس السياسية من مخاوف أحيانا وشكوك، وما كان يحتدم فى رءوس الأمريكيين بشكل شبه دائم من أفكار ونوايا وصراعات وترتيبات إزاء هذه المنطقة المرغوبة والملغومة فى آن، وربما لا تزال كذلك برغم حراك جزرها نحو البحار الأمريكية، ولابد من الاعتراف الذى لا يقره مؤلف الكتاب بأن العلاقات الأمريكية الإسلامية كانت وستظل هى التى يمكن أن تكون راسخة وقوية لأسباب كثيرة أعمق مما يتصور البعض لولا الدعم الأمريكى لإسرائيل، وعدم استعدادها للاستغناء عنها لأنها ترى أن مصالحها مع العرب ليست كافية لإقامة علاقة مأمونة ولابد من إبقاء هذه القنبلة على باب المنطقة. ■

عندما يتحدث أردوجان (٢)

«مرة أخرى نلعن بشدة هذا الهجوم الذى استهدف السفن التى كانت تقل ركابا كلهم من المدنيين من نساء وأطفال ورجال دين وغيرهم كافة أشكال اللعن.

إن الهجوم الذى قامت به إسرائيل على السفن التى كانت تحمل المساعدات الإنسانية إلى غزة والمجزرة التى ارتكبتها قد استحقا كافة أشكال اللعن.

إن هذا الهجوم هو هجوم سافر على القانون الدولى وعلى الضمير الإنسانى وعلى السلام العالمى.

أقول الضمير الإنسانى لأن السفن كانت تقل ركابا من كل الجنسيات والأديان ينقلون فقط مساعدات إنسانية إلى غزة المحاصرة والمقاطعة.

كانت السفن قد أعلنت إلى العالم كله قبل مغادرتها عن حمولتها ونيتها.

و كان ٦٠ صحفيا من تركيا والعالم قد استقلوا كشهود على الحدث متن سفن الأسطول الذى يحمل مساعدات إنسانية فقط.

إن هذا العدوان الذى حصل على السفن الست وركابها الستمائة الذين كانوا ينقلون المساعدات إلى الناس المظلومين والمحتاجين، إلى الفلسطينيين الذين هدمت منازلهم والمتروكين لرحمة الجوع هو عدوان صارخ على الفلسفة التى قامت عليها الأمم المتحدة.

لقد انطلقت السفن من تركيا ومن الدول الأخرى ناقلة المساعدات الإنسانية فقط، وقد فتشت من قبل السلطات المختصة وفق القواعد الدولية للملاحة والسفر.

فى نفس الوقت لم يكن على متن السفن هذه من الركاب سوى المدنيين ومتطوعى الإغاثة. تم رفع العلم الأبيض على صوارى السفن.

ورغم توافر كل هذه الشروط فلقد تعرضت السفن للهجوم المسلح.

يجب أن لا تتهرب إسرائيل التى عرقلت المجتمع الدولى من الوصول إلى الأخبار منذ اللحظة الأولى للحدث من تأمين المعلومات الصحيحة للرأى العام العالمى والتعاون مع المجتمع الدولى.

مرة أخرى وبهذه المناسبة نقول: يجب على إسرائيل أن ترفع فورا الحصار اللانسانى على غزة. يجب أن لا تكون عائقا يمنع وصول المساعدات الإنسانية المرسلة إلى الشعب الفلسطينى إلى هدفها.

هل اسمى هناك؟

أكبر سجل "سرى جدا" فى التاريخ

جيمس بامفورد
James Bamford

■■ فى الطرف النائى للصحراء القاحلة الجافة فى ولاية يوتا الأمريكية، حيث درجة الحرارة كثيراً ما تتخطى المائة، ثمة عمال بناء بقبعات صلبة، يستعدون فى سرية تامة لبناء ما قد يصبح المعادل الأمريكى لمكتبة بابل التى ابتكرها المؤلف الأرجنتينى خورخى لويس بورخيس؛ مكان يضم كماً من المعلومات مخيفا وهائلا فى آن واحد، تختزن فيه معرفة العالم بأسره، لكن دون أن يفهم أحد أى كلمة منها. البناء الهائل، الذى يمتد على مساحة مليون متر مربع وتبلغ تكلفته مليارى دولار، سيكون حجمه أكبر من الكونجرس الأمريكى بما يزيد على الثلث، ويستهلك قدرا من الطاقة يعادل مجموع ما تستهلكه جميع المنازل فى مدينة سولت ليك سيتى مجتمعة.

وخلافاً لما أورده بورخيس فى عمله «متاهة من الحروف» فإن المكتبة سوف تتوقع عددا قليلا من الزوار. وقد شيد ذلك البناء من قبل مؤسسة تتمتع بدرجة عالية من السرية هى وكالة الأمن القومى الأمريكى. وهى المسئول الأول عن «إشارات المخابرات» وكذلك جمع وتحليل أشكال مختلفة من الاتصالات- التى قد تتخطى تريليونات المكالمات الهاتفية، ورسائل البريد الإلكترونى، البيانات المنتشرة، وعمليات البحث على الشبكة المعلوماتية وإيصالات ساحات انتظار السيارات، وعدد زائرى مكتبات بيع الكتب، و«المفكرات والبيانات الشخصية» الرقمية.

ونظرا لعدم وجود مساحة وطاقة كافيتين فى مقر وكالة الأمن القومى فى فورت ميد بولاية ماريلاند والذى تعادل مساحته مساحة مدينة، كانت الوكالة تعمل أيضا لاستكمال العمل فى بناء أرشيف آخر للبيانات فى سان انتونيو بولاية تكساس سيكون تقريبا فى مساحة منشأة آلامو دوم.

ويعطى التقرير الذى أعدته مؤسسة ميتر أحد مراكز التفكير التابعة للبنتاجون فكرة عن حجم المعلومات التى سيتم تخزينها فى محافل تكنولوجيا المعلومات الهائلة التى تبنى بلا نوافذ. ويقول التقرير مشيراً إلى مجموعة مختلفة من الأساليب الفنية لجمع البيانات مع التحسن الذى طرأ على أجهزة الاستشعار (المجسات) المرتبطة بمهام الاستطلاع المختلفة يتزايد حجم المعلومات وهناك احتمالية أن يصل حجم هذه البيانات، بحلول عام ٢٠١٥، إلى مستوى يوتا بايت[١] بما يقارب سبتليون (١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) الذى يحوى عددا من صفحات النصية والرقمية التى يتجاوز حجمها اليوتابايت ولم يتم ابتكار مسمى عددى لها حتى يومنا هذا. وبمجرد تفريغ تلك البيانات وتخزينها فى هذه المكتبات اللانهائية تقريباً، سيجرى تحليلها بواسطة أدوات معلوماتية قوية، وحاسبات آلية عملاقة تستخدم برامج حسابية معقدة لتحديد من منا يمكن أن يكون إرهابيا أو يحتمل أن يكون كذلك يوما ما. ففى عالم مراقبة كل جسيم نشط الذى يعمل بطريقة آلية تلقائية لوكالة الأمن القومى الأمريكى، فإن كل مقدار ضئيل له تاريخ وكل ضغطة على لوحة المفاتيح تكشف عن قصة..

على مدى عشر سنوات تقريبا منذ هجمات الحادى عشر من سبتمبر، تعرضت منظومة المخابرات الأمريكية[٢] لتغيير مزلزل، فقد أطاح بمدير وكالة المخابرات المركزية من قمة الهيكل التنظيمى وحل محله مدير وكالة الأمن القومى الأمريكى الجديد، وهو ضابط مخابرات يساعده عدد كبير من العاملين ولكن لا شىء أكثر من ذلك. ولم ينج مدير وكالة الأمن القومى من الزلزال وحسب وإنما أصبح أقوى رئيس لوكالة تجسس عرفه العالم. وأصبح مسئولا عن منظمة يبلغ حجمها ثلاثة أمثال وكالة المخابرات المركزية. ومنحه الكونجرس الأمريكى تفويضاً غير مسبوق فى عام ٢٠٠٨ للمراقبة والتنصت على الأمريكيين على الرغم من الانتقادات العامة لإدارة بوش لاستخدامها للوكالة فى المراقبة الداخلية بدون إذن قضائى فى سياق «الحرب على الإرهاب»، وحرره ذلك التشريع إلى حد كبير أيضا من محكمة مراقبة الاستخبارات الأجنبية العقيمة. وفى خطوة أخرى ذات مغزى، عين مؤخراً كرئيس لقيادة خاصة فى وزارة الدفاع الأمريكية لمقاومة الانتهاكات التى تتم لشبكة الإنترنت، مما يجعله فى موقع المسئولية عن قوة متنامية من محاربى العالم الافتراضى.

ولم تضع الوكالة وقتا، وشرعت فى تحقيق طفرة بنائية ومضاعفة حجم مقرها الرئيسى وتوسيع نطاق مواقع التنصت التابعة لها، كما شيدت معامل ضخمة لتخزين البيانات. جاءت إحدى الأفكار التى تشير إلى أن الغرض المحتمل هو إنشاء مراكز ضخمة على قدر كبير من السرية من المقر الرئيسى للاتصالات الحكومية التابع للمخابرات البريطانية الشريكة. ففى العام الماضى اقترحت الحكومة البريطانية إنشاء قاعدة بيانات مركزية ضخمة تديرها الحكومة لاحتواء كل التفاصيل الخاصة بالمكالمات الهاتفية ورسائل البريد الإلكترونية والبحث فى شبكة الإنترنت فى المملكة المتحدة..حيث يتم إيداع أى نقرة على مفتاح «أرسل» أو الضغط على مفتاح «الرد» وأى من تفاصيل الاتصالات فى المستودع الإلكترونى - وربما لأجل غير معلوم - فى المخزن الحكومى لإخضاعها للفحص والتحليل.

لكن عندما كشفت حكومة المملكة المتحدة عن خططها تلك، واجهت احتجاجات فورية ومعارضة ضخمة من الجمهور والصحافة، الأمر الذى حدا بها إلى تفكيك المشروع الذى أطلق عليه «قاعدة بيانات الأخ الأكبر». لكنها طرحت خطة جديدة. وبدلاً من إنشاء قاعدة بيانات ضخمة ومركزية، سيطلب من شركات الاتصالات ومقدمى خدمة

هذا مكان يضم كم من المعلومات مخيف وهائل فى آن واحد، تختزن فيه معرفة العالم بأسره، لكن دون أن يفهم أحد أى كلمة منها

The Secret Sentry: The Untold History of the National Security Agency
by Matthew M. Aid
Bloomsbury, 423 pp., $30.00

بترتيب مع:
The Newyork Review of Books

ترجمة: بيسان عدوان



الإنترنت الاحتفاظ بسجلات بكل التفاصيل المتعلقة بالمحادثات الهاتفية ورسائل البريد الإلكترونى وعادات تصفح مواقع الإنترنت الخاصة بكل فرد فى بريطانيا لمدة عام. وأثار ذلك سخط الشعب مرة أخرى بجانب رفض مجموعة لندن لمعاملات الإنترنت التى تضم أكثر من ٣٣٠ شركة للاتصالات السلكية واللاسلكية وفى بيان للمجموعة فى أغسطس الماضى أشارت إلى «نرى أن... حجم البيانات التى تقترح الحكومة الآن (علينا) جمعها والاحتفاظ بها ستكون غير مسبوقة، وكذلك المستوى الكلى للتدخل فى خصوصية المواطنين»[٣].

وخلافاً للحكومة البريطانية التى سمحت بإقامة بنك للمعلومات، وهو أمر جدير بقدر كبير من الثناء، حظيت وكالة الأمن القومى الأمريكى الأمريكية بتعاون كامل من شركات الاتصالات الأمريكية وبأقصى قدر من السرية بعد هجمات الحادى عشر من سبتمبر. فعلى سبيل المثال، فقد قامت الوكالة ببناء غرف سرية فى مراكز المحولات الكبرى لشركة (إيه تى آند تى) (AT&T)[٤] حيث يجرى تحويل نسخ مطابقة لكل البيانات وعرضها بحثا عن أسماء وكلمات دالة باستخدام أجهزة الكومبيوتر ثم إرسالها إلى وكالة الأمن القومى لتحليلها. وهكذا فمن المحتمل أن تصبح هذه المراكز فى يوتا وتكساس - ربما فى أماكن أخرى - مخازن مركزية للبيانات التى تجمعها وكالة الأمن القومى الأمريكى فى النسخة الأمريكية لمشروع «قاعدة بيانات الأخ الأكبر» البريطانى.

وتعقب ماثيو م. إيد أسرار وكالة الأمن القومى الأمريكى لفترة طويلة جدا. وعندما كان رقيباً متخصصا فى اللغة الروسية بفرع القوات الجوية التابع لوكالة الأمن القومى، ألقى القبض عليه وأدانته محكمة عسكرية، وحكم عليه بالسجن وأدين بارتكاب سلوك مشين وأُعفى من الخدمة لانتحاله صفة ضابط والاستيلاء على وثائق مختومة بخاتم سرى للغاية لوكالة الأمن القومى.

ويفضل حالياً الحصول على أسرار وكالة الأمن القومى بطريقة قانونية من خلال الأرشيف (الوطنى) القومى، وكانت ثمرة ذلك كتابه «الحارس السرى: تاريخ وكالة الأمن القومى الأمريكى المسكوت عنه»، وهو سرد للتاريخ مثقل بالهوامش من خلال تقارير للوكالة رفعت عنها السرية ولكن جرى تنقيحها بعناية، والتى كانت تتقاطر ببطء خارج الوكالة على مر الأعوام. وكانت هذه التقارير أكثر غنى بالمعلومات فى فترة الحرب العالمية الثانية ولكن سرعان ما اضمحل مضمونها أثناء الحرب الباردة.

وبدأ إيد دراسته قبيل بيرل هاربر حيث كان العملاء السريون الأمريكيون مقبلين على مسرح للعمليات صغير ونصف فارغ، ووصل عددهم عندما وضعت الحرب أوزارها إلى ٣٧ ألف ضابط ما بين عسكرى ومدنى، الأمر الذى يتطلب وضعهم فى منشأة مساحتها تعادل مساحة ملعب لكرة القدم. وبحلول يوم ١٤ أغسطس ١٩٤٥، وبينما لم يجف بعد الحبر الذى كتبت به وثائق استسلام اليابان، لم يكن اللغويون وخبراء فك الشفرات الأمريكيون الذين يديرون ٣٧ مركزاً للتنصت حول العالم تمكنوا من قراءة ما يزيد على ثلاثمائة من الأكواد الدبلوماسية وأنظمة شفرية تخص ٦٠ دولة.

ويشير إيد إلى أن «إمبراطورية إشارات المخابرات الأمريكية فى قمة سلطتها ومكانتها». ولكن خلال أيام، وضع اللغويون والمحللون أقلامهم المشحوذة بدقة جانبا وانتزع خبراء التنصت سماعات الأذن. وبحلول نهاية ديسمبر ١٩٤٥، تقلص حجم عالم العمل السرى الأمريكى حتى وصل إلى ٧٥٠٠ رجل وامرأة..

وعلى الرغم من تسريح أعداد كبيرة، تفوق العدد الصغير من خبراء فك الشفرات الأمريكيين والبريطانيين على «العدو الجديد»، والذى بات معروفاً أنه روسيا. فقد استطاع المجهود الأمريكى البريطانى المشترك من فك آلاف الرسائل من الجيش والبحرية الروسيين المشفرة فى الفترة من منتصف الأربعينيات حتى نهايته. ولكن الحفل انتهى فى ٢٩ أكتوبر ١٩٤٨ عندما كان الرئيس الأمريكى الأسبق ترومان على وشك أن يلقى خطاب حملة فى نيويورك. فيما عرف داخل العالم السرى بيوم «الجمعة الأسود»، قلبت الحكومة والجيش الروسيان الأمور رأساً على عقب، وانتقلا على الفور إلى نظم تشفير جديدة وغير قابلة للتفكيك وتم استبدال الإشارات اللاسلكية التى يسهل اختراقها إلى الكابلات المدفونة تحت الأرض.

وفى الحرب بين الجواسيس والآلات، تكون الغلبة للجواسيس. فقد نجح السوفييت فى تجنيد ويليام ويسباند، وهو خبير فى اللغة الروسية عمره ٤٠ عاماً يعمل مع الجيش الأمريكى، الذى قدم للروس معلومات أساسية عن نقاط الضعف فى نظام الشفرة الأمريكى والتى جرى استغلالها بنجاح. وكانت ضربة لم يشف منها قط خبراء فك الشفرات. ووصف مؤرخو وكالة الأمن القومى الأمريكى تلك الضربة بأنها «قد تكون إحدى الخسائر الأكثر فداحة التى منيت بها المخابرات فى تاريخ الولايات المتحدة.»

عندما أحرزت واشنطن بعض المكاسب المتواضعة فى اختراق النظام الروسى فى السبعينيات، كرر التاريخ نفسه وتعرض الأمريكيون لضربة أخرى، وفى هذه المرة أفشى رونالد بيلتون مرة أخرى الأسرار الأمريكية. ومنذ ذلك الحين، أصبح يروج لصانعى الشفرات ليس فقط فيما يتعلق بالشفرات الروسية رفيعة المستوى، ولكن أيضا فى بلدان رئيسة أخرى مثل الصين وكوريا الشمالية.

ومن جهة أخرى، أحرزت وكالة الأمن القومى الأمريكى تقدما ملحوظاً ضد البلدان الأقل تقدماً فى صناعة الشفرات، الأمر الذى أكسبها رؤية ثاقبة فى فهم نوايا وخطط تلك البلاد التى تثير قلقاً أكبر لدى الولايات المتحدة. وهكذا، فعندما ناقش دبلوماسى صينى فى الأمم المتحدة مشروعا جديدا فى أفريقيا مع نظيره السودانى، كان المتنصتون فى وكالة الأمن القومى الأمريكى مصابين بالصمم فيما يبدو بما يتعلق بشبكات الاتصالات الصينية ولكنهم ربما تمكنوا من الحصول على المعلومات نفسها باستغلال نقاط الضعف فى نظم الاتصالات والتشفير السودانية عندما أرسل الدبلوماسى السودانى تقريرا عن الاجتماع إلى الخرطوم - وإن يكن - حتى فى العالم الثالث يمكن أن يحتاج نظام الشفرة المستخدم إلى جهود شاقة لاختراقه.

كتب إيد أنه خلال الحرب الأمريكية على فيتنام، لم تتمكن وكالة الأمن القومى الأمريكى قط من اختراق أنظمة التشفير رفيعة المستوى لكل من فيتنام الشمالية أو الفيتكونج. وكانت هذه مفاجأة دفعته إلى استنتاج أن «كل شىء كنا نعتقد أننا نعرفه عن دور وكالة الأمن القومى الأمريكى فى الحرب الفيتنامية فى حاجة إلى إعادة النظر.» ونظراً لأن الكتاب مرتب ترتيباً زمنياً، كان من الصعب إلى حد ما تفكيك شفرة السجل الكامل للوكالة. ولكن يمكن رؤية اتجاهات مثيرة للقلق، منها نقاط الضعف المتكررة. فعلى ما يبدو فإن الوكالة التى أنشئت



يمتد على مساحة مليون متر مربع، وتبلغ تكلفته مليارى دولار، وحجمه أكبر بكثير من الكونجرس



فى أعقاب الحرب العالمية الثانية لمنع أى هجوم آخر مباغت، كانت هى نفسها معرضة لكثير من الهجمات المباغتة والتهديدات الخطيرة. ففى الخمسينيات، عندما تدفق أكثر من ١٠٠ ألف جندى من كوريا الشمالية مدججين بالسلاح عبر خط عرض ٣٨ متوغلين فى كوريا الجنوبية، كان محللو الشفرات من بين آخر من علموا بالهجوم.

وجاء فى تقرير لوكالة الأمن القومى الأمريكى رفعت عنه السرية وأورده إيد فى كتابه «لم يجر الالتفات إلى غرض كوريا الشمالية.» وصرح ضابط مخابرات «ضاعت كوريا الشمالية فى خلط الأوراق، ولم يقل لنا أحد إنهم لم يكونوا مهتمين بما يجرى شمال خط العرض ٣٨.» ومما يثير الدهشة فى ذلك الوقت؛ أنه لم يكن لدى وكالة الأمن التابعة للقوات المسلحة، وهى الوكالة السابقة على وكالة الأمن القومى الأمريكى، قاموس للغة الكورية.

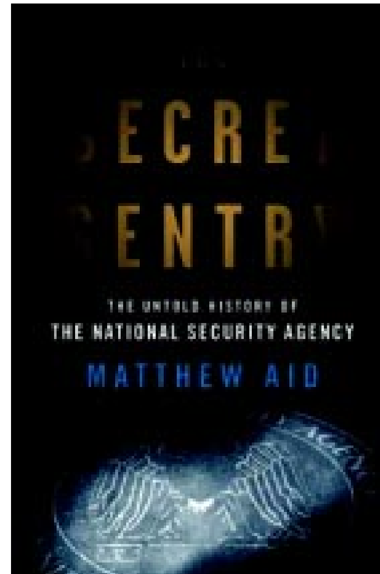
ولسوء حظ الجنرال دوجلاس ماك أرثر، فإن محللى الشفرات كانوا قادرين على فك وتحليل الاتصالات الدائرة بين السفير الأسبانى فى طوكيو ودبلوماسيين آخرين، ولاحظوا أنهم خلال مناقشاتهم مع الجنرال أماطوا اللثام عن تطلعه سراً إلى حرب شاملة مع الصين وروسيا، وقد تستخدم فيها أسلحة نووية إذا لزم الأمر. فمن النادر أن تلعب المعلومات السرية التى تحصل عليها وكالة الأمن القومى وتقاريرها دورا هاما فى السياسة الأمريكية، وبمجرد عرض تلك الرسائل على الرئيس ترومان، انتهى مستقبل أرثر على نحو مفاجئ.

كانت إحدى المفاجآت الكبيرة فى الستينيات عندما استطاع الاتحاد السوفيتى نقل أعداد كبيرة من الأفراد وكميات كبيرة من العتاد، والصواريخ الباليستية إلى كوبا دون أن تنتبه وكالة الأمن القومى. حيث لم تكن قادرة آنذاك على فك رموز التشفير السوفيتية ذات المستوى الرفيع، ولم تعلم الوكالة أنه تم حشد فرقة الصواريخ الحادية والخمسين وتم إنزالها فى كوبا. كما لم تكتشف الوكالة نقل خمسة أفواج أخرى كاملة من الصواريخ متوسطة المدى من قواعدها فى روسيا إلى كوبا. ولم يكن لديها أى معلومات بأن الصواريخ الباليستية الروسية فى الأراضى الكوبية يجرى تركيبها فى قاذفات للصواريخ. ويشير مؤرخ فى وكالة الأمن القومى إلى أن «أمن الاتصالات السوفيتية كان متقنا بشكل كامل تقريباً.»

ولاحت أولى المؤشرات بأن ثمة أمراً غير عادى يحدث، فى منتصف يوليو ١٩٦٢، حيث ازداد عدد سفن الشحن والركاب الروسية المتجهة إلى كوبا. ودفع تحليل بيانات الشحنات غير السرية المحللين فى وكالة الأمن القومى الأمريكى إلى الاشتباه فى أن السفن كانت تنقل أسلحة، ولكن لم يُكتشف أنها كانت تنقل صواريخ باليستية مزودة برءوس حربية نووية إلا فى منتصف تشرين الأول/أكتوبر، أى بعد شهر من وصولها. وكانت وكالة المخابرات الأمريكية، بناء على معلومات من مصادرها فى كوبا وفلوريدا، هى التى أمرت بإرسال طائرات الاستطلاع يو - ٢ التى التقطت صورا فوتوغرافية لها فى مواقع إطلاقها على الجزيرة.

وخلص إيد إلى أن «الكارثة فى الحقيقة هى أى شىء عدا أن يعد ذلك نجاحا لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية.» وهذا ما رأته الوكالة -أيضا- فى أحد التقارير الداخلية التى تؤرخ للوكالة بصراحة. حيث ذكرت أن الأحداث المتلاحقة «أشارت إلى الفشل الأكثر وضوحا فى تحليل إشارات المخابرات التى من شأنها تحذير القادة منذ الحرب العالمية الثانية».

ومؤخراً جدا، لم تكن وكالة الأمن القومى الأمريكى على دراية بالتفجير النووى الوشيك الذى أجرته الهند فى عام ١٩٩٨، والهجوم على مركز التجارة العالمى فى عام ١٩٩٣، أو تعرض السفارتين الأمريكيتين فى أفريقيا للهجوم فى العام نفسه، وكذلك الهجوم على المدمرة «كول» فى اليمن عام ٢٠٠٠. وتنبئنا كل تلك الأحداث بأن شراء جهاز تلفاز بـ ٣٠٠ دولار



لمتابعة قناة الـ «سى إن إن» خيراً من بلايين الدولارات التى تنفق دون جدوى على الأقمار الاصطناعية للتنصت ومراقبة تنظيم القاعدة.

كان تجاهل الإشارات الصحيحة نموذجاً آخر فى تقصير وكالة الأمن القومى وفشلها، فخلال الحرب الكورية، التقطت الرابطة الأمريكية للخدمات الخارجية إشارات تشير إلى أن الصينيين يقومون بشحن الآلاف من الجنود والأسلحة إلى منشوريا عن طريق السكك الحديدية. ولكن المسئولين فى الاستخبارات العسكرية قد رفضوا تصديق تلك المعلومات التى تشير بوضوح إلى استعداد بكين للحرب - لأنها - ببساطة - لم تكن تتوافق مع خططهم!

كما أن الرسائل الدبلوماسية بين السفير الهندى فى الصين ووزارة الخارجية الهندية أكدت أنه فى حالة اجتياز قوات الأمم المتحدة لخط عرض ٣٨ من كوريا الشمالية، فإن الصين ستعلن الحرب عليها. ويرى إيد أنه- للمرة الثانية - «تم تجاهل تلك المعلومات أو إهمالها فى واشنطن». ورغم قيام الصين بعبور نهر يالوا باتجاه كوريا الشمالية ظل الذهول وعدم التصديق مسيطرين على واشنطن وسول حتى تفاجأوا بهجوم القوات الصينية على كوريا الجنوبية وقوات الأمم المتحدة.

الأمر نفسه تكرر فى فيتنام، حيث حذر أحد التقارير التى صدرت فى ٢٥ كانون الثانى/ يناير١٩٦٨ بأن هجوماً وشيكاً على مناطق مختلفة فى جنوب فيتنام من قبل قوى عظمى، ولكن لم يصدق البيت الأبيض ولا وكالة المخابرات الأمريكية، وكذلك الجنرال وليام ويستمورلاند قائد الجيش الأمريكى آنذاك حتى تفاجأوا بهجوم ١٠٠ ألف مقاتل من الفيتناميين والفيتكونج بعد خمسة أيام من التحذير.

لم تتمكن وكالة الأمن القومى الأمريكى من استبعاد تلك الواقعة من مخيلتها، كما لم تتمكن من محو المآسى التى خلفتها الحرب، وأوردها إيد فى كتابه، تلك التى تحكى تخلى الوكالة عن عملائها الفيتناميين فى نهاية الحرب. وفى تقريرها بهذا الشأن كُتب «أنهم بلا شك قد قتلوا» مشيرة بأنها «لم تعرف بعد قصة هؤلاء العملاء».

وفى السياق نفسه، حذرت وكالة الأمن القومى من استعداد مصر وسوريا وتخطيطهما لشن هجوم ضار ضد إسرائيل عام ١٩٧٣، ووفقا للوثائق الرسمية ذكر إيد «رفضت وكالة المخابرات الأمريكية تصديق ذلك - بحجة أن العرب ليسوا أغبياء للحد الذى يجعلهم يقدمون على ذلك- لكن بالفعل قد هاجموا وانتصروا».

فى بداية الغزو السوفيتى على أفغانستان ذهبت الأمور إلى ما تنبأت به وكالة الأمن القومى بأن الاتحاد السوفيتى على وشك القيام بغزو أفغانستان قبل أيام من عبور أول فوج سوفيتى للحدود فى ٢٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٩ وقد كان. ويذكر إيد أن «من المحتمل أن يكون الغزو السوفيتى على أفغانستان أكثر العلامات بروزاً فى تاريخ وكالة الأمن القومى الأمريكى».

أعادت إدارة الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريغان وقائع سقوط طائرة الركاب الكورية رحلة رقم ٧٠٠ فى عام ١٩٨٣، بحيث تبدو أن الطيار الروسى كان على علم بهويتها، ورغم أن وكالة الأمن القومى الأمريكى كانت على دراية بأن الروس كانوا ينوون استهداف الطيران العسكرى الأمريكى، وما جرى كان خطأ غير مقصود. وبهذا الشأن ذكر إيد فى كتابه أن «تعامل البيت الأبيض مع التقارير الواردة من وكالة الأمن كان انتقائياً، ذلك من أكثر الأمور التى تؤخذ على إدارة ريغان».

لم تمثل تلك النماذج إزعاجاً بالقدر الذى مثلته حادثة تدمير الأُسطولين الأمريكيين فى شمال فيتنام، حيث استخدمت الواقعة مبرراً للتصعيد الأمريكى فى الحرب الفيتنامية عام ١٩٦٤. إن أكثر الأمور المزعجة - حقاً- فى تاريخ الوكالة هو زجها بالولايات المتحدة فى العديد من الحروب، بسبب عجزها عن أداء مهامها الوظيفية، إما بجهلها بالإشارات المخابراتية وعدم مقدرتها على فك الشفرات بطريقة صحيحة، أو تجاهلها أو بالأحرى إهمالها للإشارات، كما باستخدامها الانتقائى للمعلومات. فقد ذكرت التقارير السرية أن الأُسطولين تعرضا لهجومين من قبل الطوربيدات الفيتنامية أثناء قيامهما بمهام استطلاعية لصالح وكالة الأمن.

من خلال الوثائق التى أعيد فتحها لاستكمال التحقيقات فى عام ٢٠٠٠، تبيَن أن الهجوم الثانى على هاتين المدمرتين لم يحدث مطلقا، واستشهد إيد بالوثائق نفسها قائلا «إن المسئولين فى الوكالة آنذاك قد استبدلوا عمداً ٩٠٪ من الوقائع والمعلومات ليسمعوا البيت الأبيض - فحسب- ما أراد سماعه، والذى يدعم تلك المزاعم التى أشارت إلى أن



كل المعلومات هنا، حتى بيانات ايصالات الانتظار فى ساحات السيارات



الشيوعيين هم من قاموا بالهجوم على المدمرتين، وهذا ما تم إبلاغه للمسئولين.

كما فى فيتنام، أبلغت وكالة الأمن القومى الأمريكى للبيت الأبيض ما أراد سماعه عن العراق، فرغم غموض البراهين والمعلومات عن حقيقة امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل، كان عمل وكالة الأمن خلال تغطيتها كارثياً بكل المقاييس. ففى أواخر عام ١٩٩٠ بدأت بغداد استخدام نظام الألياف الشبكية للاتصالات العسكرية بدلاً من نظام اللاسلكى (الراديو)، فى الوقت نفسه الذى حظر صدام حسين استخدام الهواتف المحمولة مما أبقى مستوى الاتصالات منخفضا للغاية. وطبقا لتقارير لاحقة، كتب إيد «لم تتمكن الوكالة من الحصول على أى رسائل أو إشارات استخباراتية يستدل بها على ما كانت تراه واشنطن هدفا مرجوا وذريعة للحرب على العراق، وعلى العكس تماما، فإن الإشارات الواردة من المناطق المحيطة استبعدت امتلاكها لأى من أسلحة الدمار الشامل»، وذكر أحد المسئولين بالوكالة قائلا «بحثنا طويلا وبشدة، فلم نجد حتى مدخنة تشير إلى أن حسين يحاول بناء مفاعل نووى أو أى شىء آخر». ورغم ذلك، لم يمنع ذلك الجنرال مايكل ف هايدن مدير وكالة الأمن القومى الأمريكى آنذاك من الإشارة بالموافقة على التقارير التخمينية بشأن الخطر العراقى وهو ما مهد الطريق للحرب التدميرية فى ٢٠٠٣.

فيما حاول إيد الإلمام بكافة الوقائع والمعلومات فى الحرب الأمريكية على العراق وأفغانستان، فإن أكثر الأجزاء المستترة كان فى التزاوج بين قدرات وكالة الأمن القومى الأمريكى الاستراتيجية ذات التقنيات العالية وقدراتها الفعلية المرحلية. فقبل الحادى عشر من سبتمبر لم يكن عمل وكالة الأمن القومى الأمريكى فى أفغانستان أفضل حالا منه فى العراق. ولم يكن لديها خبير لغوى واحد يجيد اللغة الباشتية والدارية، ورغم ترشح العديد من الأفغان المقيمين فى فيرمونت بولاية كاليفورنيا للعمل كمترجمين فى وكالة الأمن القومى لكن الهواجس الأمنية حالت دون ذلك. كما لم تستغل الوكالة نظام الاتصالات اللاسلكية المعمول به لدى حركة طالبان والذى يسهل اختراقه عبر الأقمار الاصطناعية للتجسس عليها.

كانت الحرب فى أفغانستان نوعاً جديداً لم يتم الاستعداد لها، وأوضح إيد أنه بالرغم من تعاون العملاء فى أفغانستان مع وحدات القوات الخاصة الأمريكية المتواجدة فى جبال تورا بورا، استطاع كل من أسامة بن لادن والملا عمر زعيم حركة طالبان - بسهولة - النفاذ إلى الشبكات الإلكترونية دون أن تتمكن الوكالة من القبض عليهم، وعلى مدار ثمانى سنوات ورغم بلايين الدولارات التى أُنفقت على تسجيل رسائل بن لادن الصوتية التى كان يبثها، فإن الوكالة لم تكن على مقربة من الإمساك بهما كما كانت فى تورا بورا عام ٢٠٠١.

ومما يدعو للإحباط، أن أضعف قسم فى الكتاب، هو ذلك القسم الذى يحوى أجزاء مختصرة عن التنصت والمراقبة على المجتمع الأمريكى الداخلى بعد ١١ سبتمبر. فلم يرفق إيد أى مناقشات أو مشتبه بهم لقاعدة البيانات العملاقة التى تُبنى فى ولاية يزتا بولاية تكساس، أو إلى أى مدى اقترن قانون مراقبة الاستخبارات الخارجية مع مشروع قانون التنصت والمراقبة الداخلية فى الولايات المتحدة الأمريكية.

ما يدعونا للتساؤل حقاً، فإذا كانت وكالة الأمن القومى الأمريكى لديها القدرة على النفاذ واستخدام البيانات والمعلومات فى المستودعات الرقمية للشركة الأمريكية للاتصال[٥] فى سان فرانسيسكو، وأن تتفحص كل البريد الإلكترونى - والتنصت على كل المكالمات الهاتفية بإذن قضائى أو بدونه، فما حاجتها لبناء مشروع ضخم مركزى لقاعدة البيانات ذات تكلفة فائقة، وفقاً لتقرير وزارة العدل الذى صدر حديثا فى ٣١ كانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٨، فإن جداول المراقبة للقوائم الإرهابية احتوت على أكثر من ١,١ مليون شخص معروف أو مشتبه بهم»[٦]

فى الوقت الحالى، أصبح التاريخ الذى كتبه إيد أكثر قرباً من الحقيقة، كما تقلصت المستندات الأرشيفية الناقصة، خاصة أنه لم يكن أول شخص يجرى جوانب أخرى هامة فى تاريخ وكالة الأمن القومى دون معالجة بما فى ذلك السنوات المضطربة من التجسس غير القانونى فى منتصف السبعينيات والذى تم التحقيق بها من قبل مجلس الشيوخ. وعلى مدار عقد كامل، فشلت الوكالة باعتبارها رائدا فى التحديث رغم الأهمية المتزايدة للمنافسة الإلكترونية أو لصراع الشبكات الالكترونية وتطبيقاتها فيما يعرف باسم الحروب الافتراضية المستقبلية.

ما يطرح علينا تساؤلا آخر، إلى أن يقودنا ذلك، خلص إيد إلى أن أكبر مشكلة تواجه الوكالة ليس فى خطط التحديث المضطربة التى تستدعى إصلاح الكثير من المشكلات المستعصية التى تعد «غيض من فيض»، ويرى أنه بدلاً من الاستغراق فى خطة تحديث والشروع فى تنفيذها على الوكالة فى بادئ الأمر تحديد أغلب احتياجاتها الفعلية كتحديث محطات الكهرباء لتوليد الطاقة اللازمة لها وإصلاح شبكات الاتصالات بدلا من سن قوانين وتشريعات تزيد من سلطتها.

يعد النقص الحاد فى الطاقة الكهربائية واحدة من أكثر المشاكل الملحة التى تواجه وكالة الأمن القومى الأمريكى، فيذكر إيد «أن مقدار ما تستهلكه الوكالة من كهرباء يقدر بحوالى ٧٠ مليون دولار سنويا لمقرها فقط، فما مقدار ما تحتاجه لقاعدة البيانات الرقمية العملاقة التى تبنيها فى ولاية يوتا». مشيراً إلى رفض الكونجرس الأمريكى لطلباتها بشأن زيادة التمويل الحكومى.

إنه لأمر محرج للغاية فى أن تكون الطاقة الكهربائية مرادفاً للسلطة السياسية لدى وكالة الأمن القومى الأمريكى، فالعملة المعمول بها فى أعلى مراتب العالم السرى هى الكيلووات. ولضمان فاعلية أعلى لمراكز البيانات يستوجب ذلك مزيدا من الطاقة الكهربائية الأمر الذى يولد الحاجة المستمرة لمزيد من الرقابة الإلكترونية على المكالمات الهاتفية والبريد الإلكترونى. والعكس، فمن أجل الحصول على مزيد من البيانات يستدعى ذلك تدفق مزيد من التقارير الأمر الذى يعنى مزيداً من السلطة السياسية لوكالة الأمن القومى الأمريكى.

ويقترح إيد ساخرا قطع التيار الكهربائى أو سحب أحد مكونات القابس الكهربائى عن وكالة الأمن القومى الأمريكى بدلاً من استجدائها لتمويل حاجتها من الطاقة الكهربائية. وعلى مدار عقود لم تتمكن الوكالة من الاستفادة مما حصلت عليه من مزايا وتمويلات، مقتبسا تصريحا لهربرت ليفن أحد مسئولى وزارة الخارجية السابق «سواء أنفقت الوكالة الملايين أو لا، يظل سؤال يدور بخلدنا ماذا يمكن أن تفعله؟».

استناداً إلى تاريخ وكالة الأمن القومى فإن كثيراً ما ترتكب الأخطاء فجأة أو عمداً لتوريط البلاد فى الحروب التى تعد تكلفة الخروج منها أمرا كارثيا. وخير مثال على ذلك هى هجمات ١١ سبتمبر، حيث قامت وكالة الأمن القومى الأمريكى بالتنصت على اثنين من مدبرى الاعتداءات لمدة عام ونصف العام دون أن تقوم بدورها فى القبض عليهما، بجانب درايتها بأنهم أُرسلوا من قبل بن لادن ويقومون بالإعداد للهجمات، كما أنهم اختاروا مركزاً للقيادة بفندق لوريل بولاية ميرلاند، ورغم ذلك لم تسع الوكالة للحصول على مذكرة قضائية لتحديد مواقعهم أو التنصت عليهم، أو أن تبلغ وكالة الاستخبارات الأمريكية أو مكتب التحقيقات الفيدرالية بوجودهم.

على ما يبدو أن يتم سحب التيار الكهربائى أو السماح باستخدام الأضواء الخافتة ليس وارداً نظراً لسياسات الرئيس أوباما المتشددة حيال أفغانستان، ومع ذلك، فى حال قيام حرب يمكن التنبؤ بها - لن يجد الرئيس أوباما وقتها حلا إلا أن يقترب أكثر من النفق المعتم للعالم السرى الأكثر فخامة، ومن المحتمل أن يلتقى أولئك بـ«مكتبة بابل» وهم فى حالة عصبية، وكما قال أحدهم إنها «رحلة عظيمة طالما هى مستمرة». ■

---

(1) The MITRE Corporation, “Data i Analysis Challenges“ (December 2008), p١٣

(٢) يوجد خمسة عشر جهازا استخباراتياً فى الولايات المتحدة الأمريكية، وهى مجموعة مترابطة من الوكالات والمنظمات التابعة للسلطة التنفيذية والتى تعمل معاً أو كل على حده، ستبقى على حالها، أى كما تم إنشاؤها بموجب قانون الأمن القومى للعام ١٩٤٧ للقيام بالنشاطات الاستخباراتية (المترجم).

(3) David Leppard, “Internet Firms Resist Ministers‘ Plan to Spy on Every E-mail,” The Sunday Times, August 2, 2009.

(٤) إحدى أكبر شركات الاتصالات فى الولايات المتحدة مقرها الرئيسى فى دالاس بولاية تكساس يديرها راندال ل. ستيفنسون مدير مجلس الإدارة (المترجم).

(٥) ويذكر أن نحو ٤٠ دعوى قضائية رفعت فعليا ضد عدد من شركات الاتصالات الأمريكية بسبب اشتراكها مع الإدارة فى التجسس على الأمريكيين دون وجود إذن قضائى مسبق، من بينها AT&T, Verizon and Sprint Nextel Corp، وتتهم هذه الشركات بانتهاك حرية الأمريكيين فى ظل برنامج التجسس السرى الذى أقرته إدارة بوش منذ عام ٢٠٠٢(المترجم).

(6) The Federal Bureau of Investigation‘s Terrorist Watchlist Nomination Practices,” US Department of Justice, Office of the Inspector General, Audit Division, Audit Report 09-25, May 2009.

كيف أصبحت الكارثة ممكنة؟!

لبنى الريدى

■ ■ إن كتاب «عودة اقتصاديات الكساد وأزمة ٢٠٠٨» لعالم الاقتصاد بول كروجمان، الحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد لعام ٢٠٠٨، لا يتناول ماذا حدث بقدر ما يتناول لماذا حدث، فهو يؤكد أن الأهم فيما يجب فهمه هو كيف أصبحت هذه الكارثة ممكنة؟

إذا كنت ممن يؤمنون بأن الأسواق عادة ما تتدبر أمرها لكى يتوازن العرض مع الطلب، فإن الركود يكون أمرا غريبا حقا. ويكون السؤال المنطقى هو لماذا تعانى إذن اقتصاديات السوق من فترات ركود؟ ففى أثناء الركود الاقتصادى يبدو العرض موجودا فى كل مكان ولا يوجد طلب فى أى مكان. ويكون هناك عمال مستعدون للعمل لكن لا توجد وظائف كافية، ومصانع جيدة تماما غير أنه لا توجد طلبات كافية، ومحلات مفتوحة لكن لا يوجد زبائن. إن المشكلة ليست فى القدرة على الإنتاج، لكنها ببساطة فى النقص فى الطلب الفعلى. لكن كيف يمكن أن يكون هناك طلب ضئيل جدا على السلع بشكل عام؟ أليس على الناس أن ينفقوا نقودهم على شىء ما؟

وهنا يبرز سؤالان حاسمان: كيف يمكن أن تحدث حالات الركود؟ وكيف التعامل معها؟

لكن قبل الإجابة عن هذه الأسئلة يستعرض الكاتب الأزمات المتتالية التى عصفت باقتصاد أمريكا اللاتينية والدول الآسيوية خلال العقد الأخير من القرن العشرين. ويقول كروجمان إنه كتب الطبعة الأولى من هذا الكتاب كرد فعل على الأزمة الآسيوية. فبينما رأى البعض الأزمة كظاهرة آسيوية بشكل خاص، رآها كروجمان كنذير مثير للقلق بالنسبة لنا جميعا، وتحذير بأن مشكلات اقتصاديات الكساد لم تختف فى العالم الحديث. ومن المحزن القول، إنه كان على حق فى قلقه، حيث يتصارع حاليا أغلب العالم، بما فى ذلك الولايات المتحدة، مع أزمة مالية واقتصادية تحمل أوجه تشابه بالكساد الكبير أكبر حتى من الأزمة الآسيوية لعقد التسعينيات من القرن العشرين.

The Return of Depression
Economics and the Crisis of 2008
Paul Krugman
W. W. Norton & Company;
Reprint edition 2009
224 pages

Paul Krugman



لقد اعتقد الاقتصاديون أن جميع الأمور تحت السيطرة، وأن «المشكلة المركزية المتعلقة بالحيلولة دون حدوث الكساد قد جرى حلها». إن روبرت لوكاس الأستاذ فى جامعة شيكاغو والحائز على جائزة نوبل فى الاقتصاد لعام ١٩٩٥ أكد «أن المشكلة المركزية الخاصة بالوقاية من الكساد قد حلت، وذلك لكل الأغراض العملية.» لم يدع لوكاس أن الدورة الاقتصادية، أى التناوب غير المنتظم للكساد والازدهار الذى استمر لقرن ونصف على أقل تقدير، قد انتهت. لكنه ادعى أن الدورة قد روضت، لدرجة أن فوائد أى مزيد من الترويض تعد تافهة: إن التخلص من التذبذبات فى النمو الاقتصادى لن يحقق، على حد قوله، سوى مكاسب تافهة بالنسبة للرفاهة العامة. لم يكن لوكاس الوحيد الذى ادعى أن الوقاية من الكساد أصبحت مشكلة محلولة. فبعد ذلك بعام، فى عام ٢٠٠٤، ألقى بن برنانكى، الأستاذ السابق فى جامعة برينستون ورئيس مجلس إدارة بنك الاحتياطى الفيدرالى حاليا، خطابا متفائلا بشكل لافت للنظر أكد فيه، كما فعل لوكاس تقريبا، أن سياسة الاقتصاد الجمعى الحديثة حلت مشكلة الدورة الاقتصادية، أو - بدقة أكبر - قللت المشكلة بحيث أصبحت شيئا مزعجا أكثر منها قضية ذات أولوية أولى.

تبدو هذه التصريحات المتفائلة معتدة بنفسها بشكل لا يصدق نظرا لحقيقة أن التسعينيات من القرن العشرين شهدت مشكلات اقتصادية تذكر بالكساد الكبير فى عدد من البلدان. بما فى ذلك اليابان، ثانى أكبر اقتصاد فى العالم. لكن فى السنوات الأولى من العقد الحالى، لم تكن المشكلات التى تحمل سمات الكساد قد ضربت الولايات المتحدة بعد.

ويعود بنا الكاتب إلى السنوات الأخيرة من عقد الثمانينيات من القرن العشرين، ليذكرنا بناقوس خطر تجاهله كل من السياسيين والاقتصاديين على حد سواء. ففى تلك الفترة بدا أن أمريكا اللاتينية قد تعلمت أخيرا درسها، حيث قامت بالإصلاح وبدأت تطبيق ما يسمى باتفاق واشنطن: أى خصخصة الشركات المملوكة للدولة، ورفع القيود على الواردات وتحرير التجارة، وتحرير الأسواق من اللوائح المنظمة، والسيطرة على عجز الموازنة. وأصبحت السيطرة على التضخم هى الأولوية. كما تم

كتاب بول كروجمان، الحاصل على جائزة نوبل في الاقتصاد لعام ٢٠٠٨، لا يتناول ماذا حدث بقدر ما يتناول لماذا حدث



تحرير القواعد التى كانت تحكم ملكية الأجانب. وبحلول ١٩٩٣ كان رأس المال الأجنبى المستثمر فى المكسيك يزيد على ٣٠ مليار دولار. وبدأت وسائل الإعلام الدولية تتحدث عن أمريكا لاتينية «جديدة»، وبشكل خاص عن «المعجزة المكسيكية». وفى سبتمبر ١٩٩٤ نشر التقرير العالمى السنوى للتنافسية رسالة خاصة من بطل الساعة، الرئيس المكسيكى، كارلوس ساليناس.

وبعد ذلك بثلاثة أشهر، غاصت المكسيك فى أسوأ أزمة مالية مرت عليها حتى ذلك الوقت. وتسببت هذه الأزمة التى أطلق عليها اسم أزمة التكيلا فى واحدة من أسوأ حالات الركود التى ضربت بلدا واحدا منذ الثلاثينيات من القرن العشرين. وانتشرت انعكاسات الأزمة عبر أمريكا اللاتينية، مما كاد أن يسبب انهيارا للنظام البنكى الأرجنتينى. وكان لا بد من التعامل مع أزمة التكيلا على أنها إنذار، وتحذير بأن الرأى الجيد للأسواق يمكن أن يكون متقلبا، وأن ذلك لا يعزل الاقتصاد فى المستقبل عن أزمة ثقة.

لكن تم تجاهل ذلك التحذير.

هل كانت هناك أية سحب فى أفق أمريكا اللاتينية مع نهاية عام ١٩٩٣؟ لقد كان المستثمرون يشعرون بالغبطة: كان يبدو لهم أن التوجه الجديد للقارة نحو السوق الحرة قد حولها إلى أرض الفرص. إلا أن نتيجة تطبيق اتفاق واشنطن كانت زيادة ضخمة للواردات على الصادرات: وبحلول عام ١٩٩٣ بلغ عجز المكسيك ٨٪ من الناتج المحلى الإجمالى وهو رقم نادرا ما تم رصده فى السابق. هل كان ذلك دليلا على وجود خلل ما؟ وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك سمة مقلقة لأداء المكسيك: مع كل الإصلاحات، وكل رأس المال المتدفق على البلاد، أين كان النمو؟ ففى الفترة من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٤، سنوات «المعجزة المكسيكية» بلغ النمو الاقتصادى السنوى ٢,٨٪، وهو ما كان أقل بكثير عن مستوى ١٩٨١. أين كانت المعجزة. أين مردود كل تلك الإصلاحات، وكل ذلك الاستثمار الأجنبى؟ إنه لأمر محير أن تحقق تدفقات رأس المال الضخمة مثل تلك النتيجة الضئيلة. أين الخطأ؟

خلال عام ١٩٩٤، بدأت بعض الأمور المهمة تسوء فى المكسيك. ففى ديسمبر ١٩٩٤، قررت السلطات المكسيكية تخفيض قيمة عملتها البيزو لمواجهة الاستنزاف المستمر لاحتياطى المكسيك من العملة الأجنبية. وكانت النتيجة هروبا مكثفا لرءوس الأموال، حيث اكتشف المستثمرون الأجانب أن المكسيك ليست الدرة التى تخيلوها، وأرادوا الخروج بأى ثمن. وسريعا ما انهارت قيمة البيزو إلى نصف قيمته قبل الأزمة. ومع تدهور قيمة العملة تضاعف حجم الديون الدولارية تضاعفا مذهلا. وانخفض الناتج المحلى الإجمالى الحقيقى خلال ١٩٩٥ بنسبة ٧٪، كما انخفض الإنتاج الصناعى بنسبة ١٥٪، وهو أسوأ بكثير من أى شىء مرت به الولايات المتحدة منذ كساد الثلاثينيات من القرن العشرين. لقد أفلس آلاف رجال الأعمال، وفقد آلاف العمال وظائفهم. وتحديدا، لماذا كان للأزمة المالية مثل هذا التأثير المدمر على الاقتصاد الحقيقى؟ ولماذا لم تستطع الحكومة المكسيكية منع هذا الانهيار؟ هذا هو السؤال الرئيسى.

امتدت الأزمة إلى بلدان أمريكا اللاتينية الأخرى، خاصة الأرجنتين. كيف أمكن أن تؤثر أزمة المكسيك على الاقتصاد الأرجنتينى بالرغم من أن المكسيك والأرجنتين يقعان عند الطرفين المتقابلين للقارة، ولا تربطهما سوى علاقات مالية أو تجارية قليلة؟ ربما لأن كل بلدان أمريكا اللاتينية بالنسبة للمستثمرين الأمريكيين متماثلة. لقد بدأت المشكلة بتقييد الإقراض والمطالبة بتسديد القروض، كرد فعل عصبى للأنباء الواردة من المكسيك. وبدأ المودعون يسحبون أرصدتهم تحسبا للأسوأ، وهكذا بدأت الدائرة المفرغة لانهيار الائتمان والتزاحم على البنوك لاسترداد الودائع، كل ذلك انطلاقا من لعبة فقد الثقة بالسوق. ومع بداية ١٩٩٥، بدا أن التجارب الإصلاحية فى كل من المكسيك والأرجنتين قد انتهت بانهيار مؤد إلى كارثة.

وبعد بداية أزمة التكيلا بـ١٤ عاما، يمر جزء كبير من العالم، بما فيه الولايات المتحدة، بأزمة مالية تشبه بشكل واضح أحداث ١٩٩٤ . ١٩٩٥، مما يوضح أننا تعلمنا الدرس الخطأ من أمريكا اللاتينية.

كما يجب أن ندرك أيضا أن ما حدث للمكسيك يمكن أن يحدث فى أى مكان آخر: إن النجاح الظاهرى لأى اقتصاد، وإعجاب الأسواق ووسائل الإعلام بمن يديرون هذا الاقتصاد، لا يمثل ضمانا لحصانته ضد أزمة مالية مفاجئة.

وبالتالى لم يكن أحد مهيأ لظهور أزمة من النوع نفسه فى آسيا بعد ذلك بسنوات قليلة، ولا لعدم فعالية الإنقاذ على الطريقة المكسيكية عندما تقع الأزمة. ومن ثم كنا أقل استعدادا للأزمة العالمية التى انفجرت عام ٢٠٠٧.

ففى أواخر التسعينيات من القرن العشرين تعرضت مجموعة من الاقتصادات الآسيوية. وهى اقتصادات تنتج حوالى ربع إنتاج العالم ويعيش فيها ثلثا مليار نسمة. لركود اقتصادى حمل تشابها مخيفا مع الكساد الكبير. حيث اندفعت الأزمة فى سماء زرقاء صافية، وكان أغلب علماء الاقتصاد يتوقعون استمرار الازدهار الاقتصادى حتى مع تزايد زخم الركود؛ وكما فى الثلاثينيات من القرن العشرين أثبت العلاج الاقتصادى التقليدى عدم جدواه، بل كان فى بعض الأحيان معوقا.



إن الاضطراب الاقتصادى الذى تعرضت له آسيا، والذى نتعرض له جميعا الآن، هو تحديدا نوع الأمور التى اعتقدنا أننا تعلمنا تفاديها. كان هناك شبه إجماع أن شيئا مثل الكساد الكبير لن يتكرر أبدا. غير أن كل شىء انهار فى عام ٢٠٠٨. يرى الكاتب أنه كان علينا أن ندرك منذ عقد مضى أن ثقتنا لم تكن فى محلها، إذ تبدو قصة الأزمة الآسيوية كأنها مأخوذة مباشرة من التاريخ المالى لعقد الثلاثينيات من القرن العشرين، والتى اتضح أنها كانت نوعا من البروفة للأزمة العالمية المتنامية الآن..

فى السنوات الأولى من تسعينيات القرن الماضى كانت أسعار الفائدة فى البلدان المتقدمة منخفضة بشكل استثنائى لأن البنوك المركزية كانت تحاول إخراج اقتصادياتها من حالة ركود متوسط؛ ومن ثم ذهب العديد من المستثمرين إلى الخارج بحثا عن أرباح أعلى. فى عام ١٩٩٠ بلغت تدفقات رأس المال الخاص إلى البلدان النامية ٤٢ مليار دولار، وبحلول عام ١٩٩٧ تضاعفت هذه التدفقات خمسة أضعاف لتصل إلى ٢٥٦ مليار دولار. فى البداية، ذهب أغلب الأموال إلى أمريكا اللاتينية، خاصة المكسيك، لكن بعد ١٩٩٤، توجهت رءوس الأموال إلى اقتصادات جنوب شرق آسيا.

ومع تدفق القروض من الخارج على بلدان جنوب شرق آسيا، نتج توسع مكثف فى الائتمان، وهو ما مول موجة من الاستثمارات الجديدة. بعض هذه الأموال وجهت للبناء، مساكن ومكاتب، لكن الجزء الأكبر استخدم فى المضاربة الصرفة، فى مجال العقارات بشكل رئيسى، لكن فى الأسهم أيضا. فى بداية عام ١٩٩٦ بدأت اقتصادات جنوب شرق آسيا تشبه بدرجة كبيرة «اقتصاد الفقاعة» الذى عانت منه اليابان فى أواخر الثمانينيات من القرن العشرين. حيث أدت زيادة الاستثمار، مع موجة الإنفاق المتزايد من قبل المستهلكين الجدد الموسرين، إلى حدوث موجة من الواردات، أى زيادة الاستيراد، بينما دفع الازدهار الاقتصادى الأجور إلى الارتفاع مما جعل الصادرات أقل تنافسية. وكانت النتيجة هى عجز تجارى ضخم. وبدلا من أن تغذى القروض الأجنبية النقود والائتمان المحلى، بدأت هذه القروض تخصص للواردات.

لقد ساعدت الضمانات الضمنية التى وفرتها الحكومات، عبر كل المنطقة، تلك الاستثمارات التى لولا هذه الضمانات لكانت محفوفة بمخاطر أكبر وواعدة بدرجة أقل، وهو ما زاد من حمى المضاربة. وعندما تأزمت أحوال عدد متزايد من الاستثمارات المعتمدة على المضاربة والتى مولت، مباشرة أو بشكل غير مباشر، بالقروض الأجنبية الرخيصة؛ أفلس بعض المضاربين، وخرجت بعض الشركات المالية من السوق. وأصبح المقرضون الأجانب غير راغبين فى إقراض أى أموال إضافية.

حتى ذلك الحين لم يكن هناك شىء غير عادى. إنها أزمة عملة تقليدية فى حالة نشاط وتفاقم تام، بما فى ذلك السمات المعتادة للأزمة، من استنزاف الاحتياطيات، وهجمات المضاربين على العملة الضعيفة. وبالتالى لم يتوقع الاقتصاديون حدوث كارثة، أو ركود مدمر. لكنهم كانوا على خطأ.

والسؤال الذى يطرح نفسه، لماذا انتشر الركود عبر آسيا على أثر تخفيض قيمة العملة التايلاندية؟ وكيف أدى تخفيض عملة اقتصاد صغير إلى انهيار الاستثمار والإنتاج عبر منطقة شاسعة بهذا القدر؟

كيف أصبحت الكارثة ممكنة؟!





إذا كنت ممن يؤمنون بأن الأسواق عادة ما تتدبر أمرها لكى يتوازن العرض مع الطلب، فإن الركود يكون أمرا غريبا حقا



ولماذا لم تمنع الحكومات حدوث الكارثة، أو ربما لم تستطع؟

إن ما حدث حقا، كان حلقة من التغذية الاسترجاعية المدمرة: إن فقدان الثقة يغذى المشكلات المالية للشركات والبنوك والقطاع الأسرى، والتى بدورها يغذيها انخفاض قيمة العملة الوطنية وارتفاع أسعار الفائدة والركود الاقتصادى، وهو ما يغذى فقدان الثقة. إنها الدائرة المفرغة للأزمة المالية. إن ذلك ما حدث تقريبا فى كل الاقتصادات الآسيوية المبتلاة. إن فقدان الثقة يدفع المستثمرين سواء أجانب أو محليين إلى سحب أموالهم من البلاد. ومن ناحية أخرى يؤدى رفع أسعار الفائدة وانخفاض قيمة العملة إلى خلق مشكلات لكل من المؤسسات المالية والشركات الأخرى. وكل ذلك يزيد من فقد الثقة مما يؤدى فى النهاية إلى الانهيار. وعلى الرغم من أن حلقة التغذية الاسترجاعية معروفة نظريا للجميع (من الثقة، إلى الأسواق المالية، إلى الاقتصاد الحقيقى، وعودة مجددا إلى الثقة)، لكن لم يدرك أحد عمليا قوة عملية التغذية تلك.

وكما حدث فى أمريكا اللاتينية، كانت الطريقة التى ترتبط بها الاقتصادات الآسيوية فى ذهن المستثمرين من أهم عوامل انتشار الأزمة. إن المعجزة الآسيوية فتحت شهية المستثمرين للمنطقة، ومن ثم عندما يتضح أن اقتصاد بلد ما ليس خارقا كما كان متوقعا، فإن ذلك يهز الثقة فى البلدان الأخرى فى المنطقة، بغض النظر عن الارتباط الفعلى بين هذه الاقتصادات. إذ يعتبر المستثمرون أن الاضطراب فى اقتصاد آسيوى إنما هو بمثابة أنباء سيئة عن اقتصاد البلدان الأخرى فى المنطقة.

لماذا عانت آسيا من أزمة اقتصادية رهيبة؟ ولماذا بدأت فى عام ١٩٩٧؟ كانت هناك عيوب حقيقية فى هذه الاقتصادات، لكن نقطة الضعف الرئيسية كانت عدم حصانتها أمام الهلع الذاتى التحقق. ويرجع عدم حصانة هذه الاقتصادات جزئيا إلى أنها فتحت أسواقها المالية، أى لأنها التزمت، فى الواقع، باقتصاديات السوق الحرة بشكل أفضل.

فعندما ضربت الأزمة البلدان الآسيوية وجدت هذه البلدان نفسها وقد فرض صندوق النقد الدولى ووزارة الخزانة الأمريكية عليها سياسات تتلخص فيما يلى: تقشف مالى، ورفع أسعار الفائدة إلى مستويات تأديبية، وخفض الإنفاق، وزيادة الضرائب. وهو النقيض تماما لما قامت به الولايات المتحدة فى مواجهة الأزمة المالية. كما أن هذه السياسات التى فرضتها واشنطن على العديد من البلدان التى تمر بأزمة هو النقيض تماما لكل الحلول الكينزية التى أسهمت فى الخروج من الكساد الكبير.

وتكررت الوصفة نفسها مع البرازيل بعد ذلك بعام. لقد تضمن برنامج الإنقاذ لبلد يمر بتباطؤ اقتصادى ولا يعانى من تضخم ما يلى: زيادة الضرائب، خفض الإنفاق الحكومى، والاستمرار فى أسعار فائدة شديدة الارتفاع. لقد رفعت البرازيل أسعار الفائدة بنسبة ٥٠٪ عندما بدأت الأزمة. وهى سياسة ضمنت أن تعانى البلاد من ركود بغيض فى ١٩٩٩. كان البرنامج الخاص بالبرازيل متطرفا بشكل غريب؛ وهو كان بمثابة الصورة الكاريكاتيرية للسياسات التى طبقت فى آسيا فى العام السابق أى عام ١٩٩٨.

والسؤال هو: لماذا أيد هؤلاء الخبراء النابغون الذين يضعون السياسة فى واشنطن، سياسات فاسدة تماما بشأن اقتصادات الأسواق الناشئة؟ الإجابة المختصرة هى «الخوف من المضاربين»، والحاجة المتصورة إلى كسب ثقة السوق بأى ثمن. فمن وجهة نظرهم يجب أن يكون الهدف الأسمى للسياسة تهدئة مخاوف السوق وكسب ثقتها، حتى وإن كان ذلك على حساب الاهتمامات الطبيعية للسياسة الاقتصادية. إن وصفة صندوق النقد الدولى وواشنطن: رفع أسعار الفائدة وخفض الإنفاق مع رفع قيمة العملة، هى وصفة تؤدى إلى الركود. وبالتالى يتساءل كروجمان عن العلاج الذى قدمته واشنطن، ويجيب أنها لم تقدم شيئا.

إن صندوق النقد الدولى هو «مقرض الملاذ الأخير» بالنسبة للحكومات. ومنذ بداية الأزمة الآسيوية كان هناك العديد من الشكاوى من الدور الذى لعبه الصندوق. إذ يعتقد البعض أن الصندوق ووزارة الخزانة الأمريكية التى تملى فى الواقع سياسات الصندوق قد تسببا فى الأزمة، أو أنهما أساءا إدارة الأزمة بشكل جعلها أسوأ مما كان يحتاج الأمر. هل هم على حق؟

يجيب الكاتب أن هناك أمرين فعلهما الصندوق بشكل خاطئ: أولا، عندما تم استدعاء الصندوق إلى تايلاند، وإندونيسيا، وكوريا، سرعان ما طالب بتقشف مالى أى زيادة الضرائب وخفض الإنفاق من أجل تفادى حدوث عجز كبير فى الموازنة. لكن من الصعب فهم هذا الجزء من البرنامج، لأن فى آسيا لم يكن عجز الموازنة مشكلة كبيرة. وأدت محاولة تنفيذ هذا البرنامج إلى تفاقم الركود نظرا لخفض الطلب.

ثانيا، طالب الصندوق بإصلاحات «هيكلية» كشرط لمنح قروض للاقتصادات التى تعانى الأزمة. وإذا سألت مسئولى الصندوق فى ذلك الوقت عن الهدف من كل تلك المطالب، سيقولون إن ذلك كله جزء من عملية إعادة بناء ثقة السوق. لقد اتضح أن نظرية الصندوق كانت خاطئة.

أما بالنسبة لقضايا أسعار الفائدة وأسعار الصرف فقد طالب الصندوق الدول الآسيوية برفع أسعار الفائدة، إلى مستويات مرتفعة جدا، فى محاولة لإقناع المستثمرين بالاحتفاظ بأموالهم فى مكانها. وقال جيفرى ساش Jeffrey Sachs وهو من أشد المنتقدين للصندوق، إن ذلك كان الشىء الأكثر ضررا وخطأ الذى يمكن أن يقوم به. وشاركه هذا الرأى عالم الاقتصاد الحائز على جائزة نوبل جوزيف ستيجلتز الذى يعتقد أن الصندوق ووزارة الخزانة الأمريكية قد أسهما فى تفاقم الأزمة الآسيوية.

الخلاصة أن قواعد النظام المالى الدولى لا تمنح على ما يبدو العديد من البلدان مخرجا.

ومن ناحية أخرى، يوضح الكتاب أن دور البنوك المركزية: الاحتياطى الفيدرالى الأمريكى، والبنك الأوروبى المركزى، وبنك اليابان... إلخ، هو الحفاظ على الاقتصاد فى حالة توازن بإضافة النقد أو طرحه تبعا لما يحتاجه الاقتصاد، وذلك عن طريق إدارة أسعار الفائدة، وتزويد البنوك عند الضرورة بالنقود السائلة. لقد استخدم الاحتياطى الفيدرالى هذه الأدوات بشكل مكثف منذ بداية الأزمة. وكانت هذه التحركات كفيلة، فى الأوقات العادية، بأن تجعل الائتمان أيسر بكثير، وذلك بخفض أسعار الفائدة عبر المنظومة كلها. الائتمان التجارى، وإقراض الشركات، وفوائد الرهن. تاريخيا، كان إقراض البنوك كافيا لتخفيف أى عجز فى السيولة فى النظام المالى، لكننا لا نعيش فى ظل أوقات طبيعية، وبالتالى لا تنطبق السوابق التاريخية. لقد فقد الاحتياطى الفيدرالى قدرته على أن يكون قوة قاطرة للاقتصاد. فأسعار فائدة الائتمان قصير الأجل زادت عما كانت عليه قبل الأزمة رغم خفض الاحتياطى الفيدرالى لها أكثر من ٤٪، كما أن أسعار الفائدة التى تعد مهمة فى اتخاذ قرارات الإنفاق والاستثمار قد ارتفعت أو على الأقل فشلت فى أن تنخفض، على الرغم من محاولة الاحتياطى الفيدرالى دفعها نحو الهبوط.

لماذا أخفق بنك الاحتياطى الفيدرالى هذه المرة فى إخراج الاقتصاد من الأزمة؟ ففى عام ١٩٨٧، مثلا، انهار سوق الأسهم فى الولايات المتحدة. كان اليوم الأول من الانهيار شبيها باليوم الأول من انهيار عام ١٩٢٩. لكن الاحتياطى الفيدرالى ضخ نقدا إلى النظام، ولم يتباطأ الاقتصاد الحقيقى، واستعادت البورصة عافيتها.

ماذا عن كل القروض التى قدمها الاحتياطى الفيدرالى للبنوك؟ على الأرجح أنها ساعدت، لكن ليس كما كان

كيف أصبحت الكارثة ممكنة؟!





الســـؤال المنطقـــى هـــو لمـــاذا تعـــانى اقتصـــاديات السوق من فترات ركود يبدو فيها العرض موجـــود فى كـــل مكان ولا يوجـد طـــلب فـــى أى مكـــان



متوقعا، وذلك لأن البنوك التقليدية ليست فى قلب الأزمة.

يشير كروجمان إلى وجود فارق جوهرى، ألا وهو وجود نظام بنكى مواز. كان من المفترض أن عصر أزمات البنوك قد انتهى منذ سبعين عاما، حيث إن البنوك محكومة بلوائح منظمة، ومؤمن على ودائعها، وتضمن الدولة ودائع المودعين. ذلك صحيح بالنسبة للبنوك التقليدية، لكنه غير صحيح بالنسبة لجزء كبير من النظام البنكى الموازى القائم فعلا.

لماذا يتجه المودعون والمقترضون إلى النظام البنكى الموازى بدلا من البنوك التقليدية؟ الإجابة هى، لأنه يمنحهم شروطا أفضل، حيث يدفع لهم أسعار فائدة أعلى مما يحصلون عليه من ودائعهم البنكية، بينما بالنسبة للإقراض فإنهم يحصلون على أسعار فائدة أقل مما تقدمه البنوك التقليدية بالنسبة للقروض طويلة الأجل. والسؤال كيف يستطيع النظام المصرفى الموازى أن يقوم بذلك؟

الإجابة تبدو واضحة: البنوك تحكمها لوائح منظمة صارمة؛ فهى مطالبة بالاحتفاظ باحتياطيات سائلة، وبرأس مال ضخم، فضلا عن تكلفة نظام تأمين الودائع. لكن البنوك الموازية تتجنب وتتجاهل هذه اللوائح المنظمة والتكلفة المصاحبة لها. غير أن ذلك يعنى أيضا أنها لا تحظى بحماية شبكة الأمان البنكية. ومن ناحية أخرى، تعمل البنوك التقليدية، التى تأخذ الودائع وتكون جزءا من نظام الاحتياطى الفيدرالى، بشكل أو بآخر فى ضوء الشمس، مع دفاتر مفتوحة وتحت رقابة فعالة. وعلى النقيض فإن المؤسسات البنكية الموازية أكثر غموضا.

فى الواقع، قبل أن تعصف الأزمة، كان القليلون هم من يدركون إلى أى مدى أصبح النظام البنكى الموازى مهما. لقد أصبح هذا النظام ضخما جدا خاصة فى أسواق النقد والاستدانة. حيث بلغ إجمالى الموازنات العامة لأهم خمسة بنوك استثمارية فى هذا المجال أربعة تريليونات دولار، بينما إجمالى أصول النظام البنكى كله حوالى عشرة تريليونات دولار.

إن هذه المؤسسات ليست بنوكا من وجهة نظر اللوائح المنظمة، لكنها مع ذلك تؤدى الوظائف البنكية. إن حجم الأصول غير القابلة نسبيا للتحويل بسهولة إلى نقد والمحفوفة بالمخاطر على المدى الطويل والتى تم تمويلها بديون قصيرة الأجل جعلت العديد من المؤسسات فى هذا النظام المالى الموازى غير حصينة، حيث لا تحظى بأية حماية مثل التأمين على الإيداع المتوفر لدى النظام البنكى للتقليل من مثل هذه المخاطر. وبالفعل انهار العديد من مؤسسات النظام البنكى الموازى، ولعل أشهرها ليمان برازرز. والسؤال هو: لماذا سمح لهذا النظام أن يصبح غير حصين لهذه الدرجة؟ يرجع البعض السبب فى الأزمة إلى غياب اللوائح المنظمة التى كانت موجودة فى فترة سابقة، لكن الجزء الأكبر من الأزمة لا يتضمن مشكلات خاصة بالمؤسسات التى ألغيت فيها اللوائح المنظمة وعانت مخاطر جديدة؛ إنما يتضمن المخاطر التى قامت بها مؤسسات لم يتم أصلا وضع لوائح منظمة لها، أى النظام البنكى الموازى.

عندما توسع النظام المصرفى الموازى لينافس أو حتى يفوق النظام المصرفى التقليدى من حيث الأهمية، كان على السياسيين والمسئولين الحكوميين أن يدركوا أننا نخلق مجددا عدم حصانة مالية من النوع الذى جعل الكساد الكبير ممكنا؛ وكان عليهم، كرد فعل، أن يمدوا اللوائح المنظمة وشبكة الأمان لتغطى هذه المؤسسات الجديدة. وكان يجب المطالبة بقاعدة بسيطة: أى شىء يقوم بما تقوم به البنوك، وأى شىء يتعين إنقاذه فى الأزمات بالطريقة التى يتم إنقاذ البنوك بها، يجب أن يخضع للوائح المنظمة التى يخضع لها البنك.

بالطبع كان هناك الكثيرون الذين يدركون إلى أى مدى يقترب النظام من الانهيار. لكن تم تجاهل هذا التحذير، ولم يكن هناك أى تحرك لفرض اللوائح المنظمة. على النقيض، كانت أيديولوجية إدارة جورج بوش الابن ضد، وبعمق، فرض لوائح منظمة على القطاع المالى. بل لقد استخدمت إدارة بوش السلطة الفيدرالية لتجميد أية جهود على مستوى الولايات لفرض بعض المراقبة على عمليات الإقراض.

وبالتالى تم تجاهل الأخطار المتنامية لأزمة النظام المالى والاقتصاد ككل أو تم إنكارها. ووقعت الأزمة.. بدأت بالخسائر المرتبطة بقروض الإسكان والرهن، التى قوضت الثقة فى النظام البنكى الموازى. فبمجرد أن يسحب المستثمرون فى ترتيبات التمويل تلك، رءوس أموالهم من هذه الأسواق، أو يهددون بسحبها، يصبح النظام معرضا لدورة تحويل اضطرارى للأصول إلى سيولة نقدية، وهى دورة تعزز نفسها ذاتيا، مما يزيد من تقلب الأسواق ويخفض الأسعار عبر أنواع متعددة من الأصول. وكرد فعل، يتم سحب التمويل تماما من بعض العملاء، أو زيادة متطلبات التأمين المالى. وأدى بيع الأصول فى أسواق تعانى من أزمة، إلى تفاقم الوضع نظرا للقيمة المتواضعة للأصول. خاصة الأصول المرتبطة بالرهن. وانتشرت الأزمة عبر النظام. ويساعد ذلك على تفسير كيف تستطيع كمية صغيرة نسبيا من الأصول المحفوفة بالمخاطر أن تقوض ثقة المستثمرين والمشاركين الآخرين فى السوق عبر مجال أوسع بكثير من الأصول والأسواق.

إن ذلك هو المنطق نفسه الذى أدى إلى الأزمة المالية فى آسيا عامى ١٩٩٧ و١٩٩٨. فى هذه الحالة حدثت الخسائر بسبب انهيار قيمة أصول مالية محفوفة بالمخاطر بدلا من انهيار قيمة العملة المحلية، كما فى إندونيسيا والأرجنتين، إلا أن القصة هى أساسا نفسها.

ونتيجة لعملية التعزيز الذاتى تلك، حدث ضغط ضخم على البنوك مما سبب عجز النظام البنكى الموازى، مثل ما حدث للنظام البنكى التقليدى فى أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين. لقد اختفى، فى الواقع، قطاع بنكى يوفر ما قيمته ٣٣٠ مليار دولار من الائتمان.

عبر النشاط الاقتصادى كله، خسر بعض رجال الأعمال والأفراد إمكانية الوصول لأى ائتمان، بينما وجد آخرون أنفسهم يدفعون أسعار فائدة أعلى حتى بعد محاولة الاحتياطى الفيدرالى خفض أسعار الفائدة. فى الواقع وجد الاحتياطى الفيدرالى نفسه يشرف على فخ سيولة، حيث فقدت السياسة المالية التقليدية أية قوة قطر للاقتصاد الحقيقى.

يعانى الاحتياطى الفيدرالى من أن تدخله يأتى دائما متأخرا. إن الأزمة المالية مستمرة فى اتخاذ أبعاد جديدة، لم تتوقعها سوى قلة من الناس فقط، بما فى ذلك خبراء الاحتياطى الفيدرالى. وهو ما يصل بنا إلى البعد الدولى للأزمة.

ويشير كروجمان إلى تحول آخر فى شخصية النظام المالى، بالإضافة إلى نمو النظام البنكى الموازى، ألا وهو، بروز العولمة المالية. لقد حدث أغلب هذا التحول خلال الخمسة عشر عاما الأخيرة، خاصة بعد الأزمة الآسيوية. حيث يملك المستثمرون فى كل بلد حصصا كبيرة فى البلدان الأخرى. ففى عام ١٩٩٦، عشية الأزمة الآسيوية، كانت الولايات المتحدة تملك أصولا فيما وراء البحار تساوى ٥٧ فى المائة من الناتج المحلى الإجمالى، وديونا تساوى ٥٧ فى المائة من الناتج المحلى الإجمالى. وبحلول ٢٠٠٧، ارتفعت هذه الأرقام إلى ١٢٨ فى المائة و١٤٥ فى المائة على التوالى.

كان من المفترض أن يؤدى هذا التغيير إلى تقليل المخاطرة، لكن جزءا كبيرا من الزيادة فى العولمة المالية، أتى فى الواقع من استثمارات مؤسسات مالية ذات قوة وسلطة كبيرة، والتى تقوم بمختلف أنواع الرهانات عابرة الحدود التى تتسم بالمخاطرة. وعندما تسوء الأمور فى الولايات المتحدة، تقوم هذه الاستثمارات عابرة الحدود بدور «آلية النقل»، مما يسمح لأزمة بدأت فى الولايات المتحدة مع سوق الإسكان، أن تدفع دورات من الأزمات فيما وراء البحار. وبحلول خريف



كيف أصبحت الكارثة ممكنة؟!





يستعرض الكاتب الأزمات المتتالية التى عصفت باقتصاد أمريكا اللاتينية والدول الآسيوية خلال العقد الأخير من القرن العشرين



٢٠٠٨، حطمت مشكلات قروض الإسكان فى أماكن مثل فلوريدا النظام البنكى فى أيسلندا.

أما فى حالة الأسواق الناشئة، فكانت هناك نقطة ضعف خاصة، ألا وهى التجارة التى تتلخص فى الاقتراض فى البلدان ذات أسعار الفائدة المنخفضة، مثل اليابان، والإقراض فى البلدان ذات أسعار الفائدة العالية، مثل البرازيل وروسيا. وكانت تجارة مربحة جدا طالما ظلت الأمور ملائمة؛ لكنها لم تعد كذلك.

كان المفجر هو انهيار بنك الاستثمار، ليمان برازرز، فى ١٥ سبتمبر ٢٠٠٨. وكان من المتوقع أن يتدخل الاحتياطى الفيدرالى للإنقاذ، كما فعل فى مارس من العام نفسه بالنسبة لبير ستيرنز، وهو أحد البنوك الاستثمارية الرئيسية الخمسة، لكن وزارة الخزانة قررت أن عواقب إفلاس ليمان لن تكون خطيرة، وسمحت بأن يغرق. وفى غضون أيام، كان واضحا أنها خطوة كارثية: لقد انهارت الثقة، وتدهورت أسعار الأصول، وجفت قنوات الائتمان القليلة التى كانت لا تزال تعمل. ولم ينجح التأميم الفعال لشركة التأمين العملاقة AIG، بعد ذلك بأيام قليلة فى تخفيف حالة الذعر.

ونتج عن ذلك توقف تدفق رءوس الأموال من اليابان والبلدان الأخرى ذات أسعار الفائدة المنخفضة، مما أدى إلى ارتفاع قيمة الين ارتفاعا كبيرا؛ ولأن رأس المال لم يعد يتدفق إلى الأسواق الناشئة، انخفضت قيمة عملات تلك الأسواق انخفاضا ضخما. وبالتالى خسر كل من اقترض بعملة وأقرض بأخرى خسائر ضخمة. ومعنى ذلك أن جهود حكومات الأسواق الناشئة لحماية نفسها من أزمة أخرى قد أفسدها عدم إدراك القطاع الخاص للمخاطر. ولم ينج أحد، فالبنوك البرازيلية الرئيسية تفادت الاقتراض من الخارج المحفوف بالمخاطر، لكنها مع ذلك وجدت نفسها فى مأزق لأن عملاءها المحليين لم يتحلوا بالقدر نفسه من الحرص. وهو ما يشبه كثيرا أزمات العملة السابقة. إندونيسيا ١٩٩٧، والأرجنتين ٢٠٠٢.

إن زيادة حدة أزمة الائتمان بعد إفلاس ليمان برازرز، والأزمة المفاجئة فى الأسواق الناشئة، وانهيار ثقة المستهلك، كل ذلك يشير إلى أسوأ ركود فى الولايات المتحدة، وفى العالم ككل، منذ أوائل الثمانينيات من القرن العشرين. لكن ما يثير القلق حقا هو غياب سياسة لقطر الاقتصاد. لقد كان ركود ١٩٨١-١٩٨٢، الذى دفع البطالة إلى أكثر من ١٠٪ أمرا رهيبا، لكنه كان بدرجة وأخرى اختيارا متعمدا: كان الاحتياطى الفيدرالى ينتهج سياسة نقدية محكمة لقصم ظهر التضخم، وبمجرد أن قرر بول فولكر رئيس الاحتياطى الفيدرالى أن الاقتصاد قد عانى بما فيه الكفاية وفك المحابس، عاد الاقتصاد إلى الازدهار.

لكن هذه المرة، ينهار الاقتصاد رغم الجهود المتكررة لصانعى القرار من أجل دفعه إلى تجاوز الأزمة. يذكر هذا العجز بكساد ١٩٣٠. إن ما نمر به ليس كسادا بعد، لكننا نعيش اقتصاديات كساد.

فى الفصل الأخير من الكتاب يلخص كروجمان الحلول المقترحة فى ما يلى: العودة إلى الاقتصاد الكينزى الذى يمثل الإطار الأفضل لفهم معانى الركود والكساد. لقد فقدت السياسة النقدية التقليدية أى تأثير لها نظرا لاستمرار الركود وتفاقمه، بالرغم من أن بنك الاحتياطى الفيدرالى خفض معدلات الفائدة إلى صفر٪. وبالتالى يكون الحل الكينزى وهو زيادة الإنفاق الحكومى هو المخرج.

يعتقد الكاتب أن الحل الجلى الواضح هو ضخ المزيد من رأس المال، وأن إعادة الرسملة يجب أن تكون أكبر وأوسع، مؤكدا أنه يتعين أن تكون هناك سيطرة حكومية أكبر: «فى الواقع، سيكون الأمر أقرب للتأميم الكلى المؤقت لجزء كبير من النظام المالى. ولكى أكون واضحا تماما، لا يمثل ذلك هدفا طويل المدى، فالأمر ليس الاستيلاء على قمم قيادة الاقتصاد: يجب إعادة خصخصة المالية بمجرد أن يتوفر الأمان للقيام بذلك، كما فعلت السويد بإعادة النظام البنكى مجددا للقطاع الخاص بعد عملية الإنقاذ المالية الكبيرة التى قامت بها فى السنوات الأولى من تسعينيات القرن العشرين.» ويؤكد كروجمان: إن الأمر المهم حاليا هو تخفيف القيود على الائتمان بكل الطرق المتاحة، دون أن يتم عرقلة ذلك بعقد أيديولوجية. لا يمكن أن يكون هناك أسوأ من التقصير فى القيام بما هو ضرورى بسبب الخوف من أن يكون العمل على إنقاذ النظام المالى «اشتراكيا» بطريقة ما. ويؤكد أن ما يتعين علينا عمله هو إعادة تعلم الدروس التى لقننا الكساد الكبير لأجدادنا.

ويشير إلى نمو النظام البنكى الموازى، دون وجود أى توسع مقابل للوائح والقوانين المنظمة لذلك، مؤكدا أنه يجب أن يكون المبدأ الأساسى واضحا: إن أى شىء يتعين إنقاذه أثناء أزمة مالية، لأنه يلعب دورا جوهريا فى الآلية المالية، يجب أن يتم ضبطه وتنظيمه عندما لا تكون هناك أزمة حتى لا تحدث مجازفات مفرطة. ومن ثم يتعين أن تمتد اللوائح المنظمة إلى أجزاء من النظام أوسع بكثير. وخلص كروجمان إلى أنه قد ثبت بوضوح أن العولمة المالية أكثر خطورة مما أدركنا.

نقدم فيما يلى ترجمة للفصل الأخير الذى يلخص الحلول المقترحة، ويقدم رؤى وطرق تفكير مختلفة.

عودة اقتصاديات الكساد

إن الاقتصاد العالمى ليس فى حالة كساد؛ ومن المرجح ألا يقع فى الكساد، بالرغم من ضخامة الأزمة الحالية (وإن كنت أتمنى أن أكون متأكدا تماما بهذا الشأن). لكن بينما لم يعد الكساد ذاته مجددا، فإن اقتصاديات الكساد أظهرت عودة مذهلة، وهى نوع المشكلات التى ميزت أغلب الاقتصاد العالمى فى ثلاثينيات القرن العشرين لكنها لم تشاهد منذ ذلك الحين. منذ خمسة عشر عاما مضت كان من الصعب أن يفكر أحد فى أن الأمم الحديثة قد تجبر على أن تعانى من فترات ركود ساحقة للعظام خوفا من المضاربين على العملة، وأن تجد هذه الأمم الرئيسية المتقدمة نفسها عاجزة بشكل مستمر عن إحداث إنفاق كاف للحفاظ على عمالها ومصانعها فى حالة تشغيل. لقد ثبت فى النهاية أن الاقتصاد العالمى مكان أكثر خطورة مما كنا نتصور.

كيف أصبح العالم خطرا لهذا الحد؟ الأكثر أهمية، كيف نخرج من الأزمة الحالية، وما الذى نستطيع فى المقام الأول أن نفعله لتفادى حدوث مثل هذه الأزمات؟ لقد رويت العديد من الحكايات فى هذا الكتاب؛ وحان الوقت الآن لكى أحاول استنتاج بعض المغزى.

ما هى اقتصاديات الكساد؟

ما معنى أن نقول أن اقتصاديات الكساد قد عادت؟ يعنى ذلك أساسا أنه لأول مرة خلال جيلين، أصبح قصور جانب الطلب فى الاقتصاد. الإنفاق الخاص، غير كاف للاستفادة من القدرة الإنتاجية المتاحة. هو القيد الواضح والحالى على الرخاء الاقتصادى بالنسبة لجزء كبير من العالم.

نحن لم نكن مستعدين لذلك. ولا أعنى بصيغة الجمع الاقتصاديين فقط لكن صناع السياسة أيضا والجمهور المثقف بصورة عامة. إن مجموعة الأفكار السخيفة الخاصة بـ«اقتصاديات جانب العرض» تمثل نظرية غير مستقرة وعرضة للانقلاب، وكان من المفترض ألا يكون لها تأثير لولا أنها تناشد وتروق لتحيز وهوى رؤساء التحرير والأثرياء. لكن على امتداد العقود القليلة الماضية كانت هناك نزعة مطردة فى التفكير الاقتصادى تعزز جانب العرض وتبتعد عن جانب الطلب.

ونتجت هذه النزعة جزئيا عن نزاعات نظرية داخل علم الاقتصاد، نزاعات تمت تصفيتها. كما فى أغلب الأحيان. عبر شكل ما من الغربلة، إلى

كيف أصبحت الكارثة ممكنة؟!



خطاب أوسع. باختصار، كان مصدر النزاعات النظرية هو الآتى: مبدئيا، النقص فى الطلب الإجمالى سيعالج نفسه لو أن الأسعار والأجور انخفضت بسرعة فى مواجهة البطالة. لكن الأسعار فى الواقع لا تنخفض بسرعة فى مواجهة الركود، إلا أن الاقتصاديين عجزوا عن الاتفاق بشكل دقيق حول سبب ذلك. وكانت النتيجة سلسلة من المعارك الأكاديمية المريرة جعلت موضوع حالات الركود برمته وكيف تحدث نوعا من حقل الألغام المهنى الذى لا يجرؤ على أن يخطو فيه سوى قلة من الاقتصاديين. ومن المفهوم أن يستنتج الجمهور أن الاقتصاديين إما أنهم لا يفهمون حالات الركود أو أن العلاجات المعتمدة على جانب الطلب لم تعد محل ثقة. الحقيقة أن اقتصاديات الاقتصاد الكلى الجيدة قديمة الطراز، المعتمدة على الطلب لديها الكثير لتقدمه فى ورطتنا الحالية. لكن المدافعين عنها يفتقدون تماما القدرة على الإقناع، بينما تملأ منتقديها حدة انفعالية.

المفارقة، أنه إذا كان الضعف النظرى للاقتصاديات المعتمدة على جانب الطلب، هو أحد أسباب عدم استعدادنا لعودة نقاط الخلاف والنقاش حول قضايا الكساد، فإن النجاحات العملية لهذه الاقتصاديات أمر آخر. فخلال كل العقود التى تجادل الاقتصاديون فى ما بينهم حول ما إذا كان يمكن فعلا استخدام السياسة النقدية لإخراج اقتصاد ما من الركود، كانت البنوك المركزية تنطلق وبشكل متكرر وتستخدم السياسة النقدية لتفعل ذلك تحديدا. وبشكل فعال جدا فى الواقع، بحيث أصبحت فكرة الانخفاض فى النشاط الاقتصادى لفترة طويلة نتيجة لنقص الطلب، فكرة غير واردة. بالطبع يستطيع الاحتياطى الفيدرالى ونظراؤه فى البلدان الأخرى دائما خفض أسعار الفائدة بدرجة كافية للحفاظ على الإنفاق عاليا؛ إذن، باستثناء ما يحدث على المدى القصير جدا، كان القيد الوحيد على الفعالية الاقتصادية هو قدرة الاقتصاد على الإنتاج. أى، جانب العرض.

حتى الآن، لا يزال العديد من الاقتصاديين يعتقدون أن حالات الركود هى قضية ثانوية، وينظرون إلى دراستها على أنه موضوع يكاد يكون سيئ السمعة. إن روبرت لوكاس Robert Lucas فى خطابه الرئاسى، الذى استشهدت به فى الفصل الأول، حاول بصراحة إثبات أن الدورة الاقتصادية لم تعد موضوعا مهما، وأنه يتعين على الاقتصاديين تحويل اهتمامهم إلى التقدم التكنولوجى والنمو طويل المدى. إنها قضايا مهمة، ورائعة، وتمثل على المدى البعيد ما يهم حقا. لكن كما أشار كينز، على المدى الطويل سنكون جميعا موتى.

وفى غضون ذلك، فى المدى القصير يترنح العالم من أزمة إلى أخرى، وتتضمن كلها بشكل حاسم مشكلة توليد طلب كاف. لقد عانى بلد وراء الآخر من الركود. اليابان من بداية تسعينيات القرن العشرين حتى الآن، والمكسيك فى عام ١٩٩٥، والمكسيك، وتايلاند، وماليزيا، وإندونيسيا، وكوريا فى عام ١٩٩٧، والأرجنتين فى عام ٢٠٠٢، والجميع تقريبا فى عام ٢٠٠٨. مما أدى على الأقل مؤقتا إلى تعطيل التقدم الاقتصادى لسنوات، ووجدت هذه البلدان أن السياسة التقليدية لمواجهة هذا الوضع تبدو منعدمة التأثير. ومجددا، أصبح السؤال عن كيفية خلق طلب كاف للاستفادة من طاقة الإنتاج القصوى للاقتصاد سؤالا حاسما. لقد عادت اقتصاديات الكساد.

ما العمل: التعامل مع الحاجة الملحة

إن ما يحتاجه العالم الآن فورا هو عملية إنقاذ. فنظام الائتمان العالمى فى حالة شلل، وبينما أكتب تلك السطور تتجمع قوة دافعة لحدوث تدهور اقتصادى عالمى. إن إصلاح الضعف الذى جعل هذه الأزمة ممكنة هو أمر جوهرى، لكنه يستطيع الانتظار قليلا. أولا، نحتاج إلى التعامل مع الخطر الواضح والموجود. وللقيام بذلك، يحتاج صناع السياسة حول العالم إلى القيام بأمرين: جعل الائتمان يتدفق مجددا ودعم الإنفاق.

إن المهمة الأولى هى الأصعب، لكن لابد من القيام بها، وعلى وجه السرعة. لا يمر يوم تقريبا دون أنباء عن كارثة أخرى نتجت عن تجميد الائتمان. وبينما أكتب هذه المسودة، على سبيل المثال، وردت التقارير عن انهيار خطابات الضمان، طريقة التمويل الرئيسة للتجارة العالمية. فجأة، لم يعد بإمكان وكلاء المستوردين مواصلة إنجاز صفقاتهم، خاصة فى البلدان النامية، وتقف السفن عاطلة عن العمل: فمؤشر البلطيق الجاف Baltic Dry Index، وهو مقياس لتكاليف الشحن مستخدم على نطاق واسع، قد انخفض بنسبة ٨٩٪ هذا العام.

إن ما يقف وراء أزمة الائتمان هو تضافر عاملين: انخفاض الثقة فى المؤسسات المالية وهلاك جزء كبير من رأسمال هذه المؤسسات. لم يعد الناس والمؤسسات، بما فى ذلك المؤسسات المالية، يريدون التعامل مع أى شخص إلا إذا كان لديه رأسمال كبير يدعم ما يعد به، وعلاوة على ذلك، استنفدت الأزمة رأس المال عبر الطاولة.

إن الحل الجلى الواضح هو ضخ المزيد من رأس المال. فى الواقع، هذا هو رد الفعل القياسى فى الأزمة المالية. فى عام ١٩٣٣ استخدمت إدارة الرئيس الأمريكى فى ذلك الوقت روزفلت مؤسسة إعادة البناء المالية Reconstruction Finance Corporation لإعادة رسملة البنوك بشراء الأسهم ذات الأفضلية. أسهم لها الأولوية على الأسهم العادية من منظور استحقاقها للأرباح. وعندما عانت السويد من أزمة مالية فى أوائل التسعينيات من القرن العشرين، تدخلت الحكومة وزودت البنوك برأسمال إضافى يساوى ٤٪ من الناتج المحلى الإجمالى للسويد. المكافئ لحوالى ٦٠٠ مليار دولار بالنسبة للولايات المتحدة فى هذه الأيام. مقابل ملكية جزئية. وعندما تحركت اليابان لإنقاذ بنوكها عام ١٩٩٨، قامت بشراء أسهم ذات أفضلية بأكثر من ٥٠٠ مليار دولار، أى ما يكافئ نسبة إلى الناتج المحلى الإجمالى، ضخ رأسمال بحوالى ٢ تريليون دولار فى الولايات المتحدة. وفى كل حالة، ساعد توفير رأس المال على إعادة قدرة البنوك على الإقراض، وحرر أسواق الائتمان من التجميد.

هناك عملية إنقاذ مالية طبقا لخطوط مماثلة تجرى حاليا فى الولايات المتحدة والاقتصادات المتقدمة الأخرى، غير أن ذلك جاء متأخرا، ويرجع الفضل فى ذلك جزئيا إلى الانحياز الأيديولوجى لإدارة بوش. فى أول الأمر، بعد انهيار ليمان برازرز، اقترحت وزارة الخزانة أن تشترى من البنوك والمؤسسات المالية الأخرى الأصول التى تعانى من مشكلات بـ٧٠٠ مليار دولار. غير أنه لم يكن واضحا أبدا كيف يمكن أن يساعد ذلك فى تحسين الوضع. (إذا دفعت وزارة الخزانة القيمة السوقية لتلك الأصول، فإن ذلك لن يساعد وضع أرسمال البنوك إلا مساعدة طفيفة، بينما إذا دفعت أعلى من القيمة السوقية فسوف تتهم بإهدار أموال دافعى الضرائب.) لا بأس: بعد تردد لمدة ثلاثة أسابيع، اتبعت الولايات المتحدة الطريق الذى سبقتها إليه بريطانيا ثم بعد ذلك بلدان القارة الأوروبية، وحولت الخطة إلى برنامج إعادة رسملة.

إلا أنه بدا من المشكوك فيه أن ذلك سيكون كافيا لكى تسير الأمور إلى تحسن، وذلك لثلاثة أسباب على الأقل. أولا، حتى إذا تم استخدام كل الـ٧٠٠ مليار دولار لإعادة الرسملة (حتى الآن لم يتم تسليم سوى جزء من هذا المبلغ)، فإن المبلغ يظل صغيرا، نسبة إلى إجمالى الناتج المحلى، مقارنة مع عملية الإنقاذ المالى التى قام بها البنك المركزى اليابانى. إن خطورة الأزمة المالية فى الولايات المتحدة وأوروبا قابلة للجدل مقارنة بالأزمة المالية اليابانية. ثانيا، ليس واضحا حتى الآن الكم الذى سيصل من حزمة الإنقاذ إلى النظام البنكى الموازى، الذى هو قلب



يعود بنا الكاتب إلى السنوات الأخيرة من الثمانينيات من القرن العشرين، ليذكرنا بناقوس خطر تجاهله الجميع



كيف أصبحت الكارثة ممكنة؟!





إن الاضطراب الاقتصادى الذى تعرضت له آسيا، والذى نتعرض له جميعا الآن، هو تحديدا نوع الأمور التى اعتقدنا أننا تعلمنا تفاديها



المشكلة. ثالثا، ليس من الواضح إن كانت البنوك سترغب فى إقراض هذه الاعتمادات المالية، أم ستفضل كنزها والجلوس فوقها (وهى المشكلة التى واجهتها سياسة الاتفاق الجديد(*). نيوديل. منذ ٧٥ عاما مضت).

أعتقد أن إعادة الرسملة يجب أن تكون أكبر وأوسع، وأنه يتعين أن يكون هناك إصرار أكبر من جانب السيطرة الحكومية. فى الواقع، سيكون ذلك أقرب ما يكون للتأميم الكلى المؤقت لجزء كبير من النظام المالى. ولكى أكون واضحا تماما، لا يمثل ذلك هدفا طويل المدى، فالأمر ليس الاستيلاء على قمم قيادة الاقتصاد: يجب إعادة خصخصة القطاع المالى بمجرد أن يتوفر الأمان للقيام بذلك، كما فعلت السويد بإعادة النظام البنكى مجددا للقطاع الخاص بعد عملية الإنقاذ المالية الكبيرة التى قامت بها فى السنوات الأولى من تسعينيات القرن العشرين. لكن الأمر المهم حاليا، هو تخفيف القيود على الائتمان بكل الطرق المتاحة، دون أن يتم عرقلة ذلك بعقد أيديولوجية. لا يمكن أن يكون هناك أسوأ من التقصير فى القيام بما هو ضرورى بسبب الخوف من أن يكون العمل على إنقاذ النظام المالى «اشتراكيا» بطريقة ما.

وينطبق الشىء نفسه على خط آخر لتناول حل أزمة الائتمان: دخول البنوك المركزية مجال عمل الإقراض المباشر للقطاع غير المالى. إن استعداد الاحتياطى الفيدرالى لشراء أوراق تجارية هو خطوة كبرى فى ذلك الاتجاه، لكن ربما الأمر يحتاج إلى المزيد.

ويجب تنسيق كل هذه التصرفات مع البلدان المتقدمة الأخرى. والسبب فى ذلك هو العولمة المالية، الموصوفة فى الفصل التاسع. إن جزءا من مكافأة عمليات إنقاذ النظام المالى التى تقوم بها الولايات المتحدة هو المساعدة على تخفيف القيود على الوصول للائتمان فى أوروبا؛ كما أن جزءا من مكافأة جهود الإنقاذ الأوروبية هو التخفيف من القيود على الائتمان فى الولايات المتحدة. إذن يجب أن يفعل الجميع الشىء نفسه بدرجة أو أخرى؛ لأننا جميعا فى قارب واحد.

وهناك شىء آخر أيضا: إن انتشار الأزمة المالية إلى الأسواق الناشئة، جعل القيام بعملية إنقاذ عالمية للبلدان النامية جزءا من حل الأزمة. وكما فى حالة إعادة الرسملة، أجزاء من ذلك تحدث حاليا بينما أكتب هذه السطور: لقد وفر صندوق النقد الدولى قروضا للبلدان ذات الاقتصادات المضطربة مثل أوكرانيا، مع تقديم دروس أخلاقية أقل ومطالبات أقل بالتقشف عما حدث أثناء الأزمة الآسيوية فى تسعينيات القرن العشرين. وفى غضون ذلك، زود الاحتياطى الفيدرالى البنوك المركزية فى العديد من الأسواق الناشئة بخطوط مقايضة، تمنحها الحق فى أن يقترضوا دولارات عندما يكون ذلك ضروريا. وكما هو الحال مع إعادة الرسملة، يبدو أن الجهود تسير حتى الآن فى الاتجاه الصحيح لكنها متواضعة جدا، وبالتالى يحتاج الأمر إلى المزيد.

حتى لو أن عملية إنقاذ النظام المالى بدأت تعيد أسواق الائتمان إلى الحياة، فإننا لا نزال نواجه زخما يتجمع مهددا بانهيار عالمى. ما الذى يمكن فعله بهذا الشأن؟ الإجابة، بشكل أكيد تقريبا، هى الحافز المالى الكينزى الجيد القديم.

حاليا، جربت الولايات المتحدة حافزا ماليا فى بداية عام ٢٠٠٨؛ لقد أعلنت إدارة بوش وأعضاء الكونجرس الديمقراطيون أنها خطة لتحقيق «قفزة البداية» للاقتصاد. غير أن النتائج الفعلية كانت مخيبة للآمال، وذلك لسببين. أولا، كان الحافز ضعيفا جدا، حيث لم يتجاوز ١٪ من الناتج المحلى الإجمالى. ويجب أن يكون الحافز التالى أكبر بكثير، حوالى ٤٪ من الناتج المحلى الإجمالى. ثانيا، أخذت معظم أموال الحزمة الأولى شكل تخفيضات ضرائبية، ولقد تم ادخار الكثير منها بدلا من إنفاقه. يجب أن تركز الخطة الجديدة على تعزيز وتوسيع الإنفاق الحكومى. تعزيزه بتقديم المساعدة لحكومات الولايات والحكومات المحلية، وتوسيعه بالإنفاق على الطرق، والجسور، والأشكال الأخرى من البنية التحتية.

الاعتراض المعتاد على الإنفاق العام كشكل من أشكال الحافز الاقتصادى هو أنه يستغرق وقتا طويلا قبل أن يحدث فرقا. فعندما تتحقق زيادة الطلب، يكون الانهيار قد تم تجاوزه. غير أن ذلك لم يعد يبدو حاليا مشكلة كبرى: إذ من الصعب جدا رؤية أى إصلاح اقتصادى سريع، إلا إذا نشأت بشكل غير متوقع فقاعة ما جديدة لتحل محل الفقاعة العقارية. (عنوان رئيسى فى الصحيفة الساخرة ذى أونيون the onion عبر بشكل ممتاز عن المشكلة: «الركود المصابة به الأمة يطالب بفقاعة جديدة للاستثمار فيها.») وإذا ما يتم دفع الإنفاق العام إلى الأمام بسرعة معقولة، فإنه يصل فى وفرة من الوقت لقدم المساعدة. وهو يتميز عن خفض الضرائب بميزتين كبيرتين. من جانب، سيتم بالفعل إنفاق المال؛ ومن جانب آخر، سيتم خلق شىء ذى قيمة (مثلا، جسور لن تنهار).

قد يعترض بعض القراء بأن توفير الحافز المالى من خلال الإنفاق على الأعمال العامة هو ما قامت به اليابان فى تسعينيات القرن العشرين. وهو ما حدث. لكن، حتى فى اليابان، وفى الإنفاق العام على الأرجح نتج اقتصاد ضعيف من الغوص فى كساد فعلى. فضلا عن ذلك، هناك أسباب للاعتقاد بأن الحافز من خلال الإنفاق العام سينجح بشكل أفضل فى الولايات المتحدة عما حدث فى اليابان، إذا نفذ على وجه السرعة. وذلك لسبب واحد، هو أننا لم نعلق بعد فى فخ التوقعات بالانكماش الذى وقعت فيه اليابان بعد سنوات من السياسات التى تفتقر إلى القوة الكافية. كما أن اليابان انتظرت طويلا جدا لكى تعيد رسملة نظامها البنكى، وهى غلطة نرجو ألا نكررها.

إن النقطة الأساسية فى كل ذلك هى التعامل مع الأزمة الحالية بعزيمة أننا سنعمل كل ما يمكن لجعل الأمور تدور؛ وإذا كان ما تم حتى الآن غير كاف، فلنقم بالمزيد، ولنقم بشىء مختلف، إلى أن يبدأ الائتمان فى التدفق ويبدأ الاقتصاد الحقيقى فى استرداد عافيته.

وبمجرد أن يكون جهد الإصلاح المالى جاريا فعلا، سيحين الوقت للتوجه نحو إجراءات وقائية: أى إصلاح النظام بحيث لا تتكرر الأزمة مجددا.

إصلاح مالى

قال جون ماينارد كينز فى بداية الكساد الكبير، لدينا خلل فى المغنيط(**): أغلب المحرك الاقتصادى فى حالة جيدة، لكن هناك مكونا حاسما، النظام المالى، لا يعمل. كما قال أيضا ما يلى: «لقد ورطنا أنفسنا فى تشوش ذهنى ضخم، بوقوعنا فى خطأ تحكم فاضح فى آلة دقيقة، لا نفهم طريقة عملها.» إن المقولتين صحيحتان الآن كما كانتا حينذاك.

كيف نشأ هذا التشوش الذهنى الضخم الثانى؟ بعد الآثار السلبية للكساد الكبير، أعدنا تصميم الآلة بحيث أصبحنا نفهمها جيدا بما يكفى، مهما تكن الظروف لتفادى أية كوارث كبرى. لقد وضعت البنوك، ذلك الجزء من النظام الذى كان مقصرا بشكل خطير فى ثلاثينيات القرن العشرين، تحت لوائح وقوانين منظمة صارمة ودعمت بشبكة إنقاذ قوية. وفى الوقت نفسه، تم الحد من حركات رأس المال على المستوى الدولى، والتى كان لها دور فى انتشار الفوضى فى ثلاثينيات القرن العشرين. وأصبح النظام المالى مضجرا قليلا لكنه مأمون أكثر بكثير.

ثم أصبحت الأمور مجددا مثيرة للاهتمام وخطيرة. إن تدفقات رأس المال الدولى المتنامية، قد جهزت المسرح لأزمات عملة مدمرة فى تسعينيات القرن العشرين، ولأزمة مالية عالمية فى ٢٠٠٨.

كيف أصبحت الكارثة ممكنة؟!



إن نمو النظام البنكى الموازى، دون أى توسع مقابل للوائح والقوانين المنظمة لذلك، جهز المسرح للبنك العصرى لكى يقدم عروضه على مستوى ضخم. وتضمنت هذه العروض طقطقات شديدة الاهتياج لفأرة أجهزة الحاسوب، بدلا من حشود الجماهير شديدة الاهتياج خارج أبواب البنوك الموصدة، إلا أنها لم تكن أقل تدميرا.

من الواضح أن ما يتعين علينا عمله هو إعادة تعلم الدروس التى لقنها الكساد الكبير لأجدادنا. لا أريد أن أعرض تفاصيل نظام جديد ضابط للنشاط الاقتصادى، لكن يجب أن يكون المبدأ الأساسى واضحا: أى شىء يتعين إنقاذه أثناء أزمة مالية، لأنه يلعب دورا جوهريا فى الآلية المالية، يجب أن يتم ضبطه وتنظيمه عندما لا تكون هناك أزمة حتى لا تحدث مجازفات مفرطة. منذ الثلاثينيات من القرن العشرين فرض على البنوك التجارية أن يكون لديها رأسمال كاف، وأن تمتلك احتياطيا من الأصول السائلة التى يمكن تحويلها فورا إلى نقود، وأن تحد من أنواع الاستثمارات التى تقوم بها، وكل ذلك مقابل ضمانات فيدرالية عندما تسوء الأمور. أما وقد رأينا مجموعة واسعة من المؤسسات غير البنكية تخلق ما يعادل أزمة بنكية، فإنه يتعين أن تمتد لوائح منظمة مماثلة إلى أجزاء من النظام أوسع بكثير.

كما يجب علينا أن نفكر بإمعان فى كيفية التعامل مع العولمة المالية. بعد الآثار المدمرة للأزمة الآسيوية، كانت هناك بعض الدعوات التى تطالب بقيود طويلة الأجل على التدفقات الدولية لرأس المال، وليس مجرد ضوابط مؤقتة فى أوقات الأزمة. لقد تم رفض أغلب هذه الدعوات لصالح استراتيجية إنشاء احتياطيات ضخمة من العملة الأجنبية من المفترض أن تدرأ أى أزمات مستقبلية. الآن يبدو أن هذه الاستراتيجية لم تنجح. لا بد أن هذه الاستراتيجية بدت مثل الكابوس بالنسبة لبلدان مثل البرازيل وكوريا: بعد كل ما قاموا به، يكابدون أزمة التسعينيات من القرن العشرين مجددا. ليس واضحا على وجه التحديد ما الشكل الذى يجب أن يكون عليه رد الفعل التالى، لكن لقد ثبت بوضوح أن العولمة المالية أكثر خطورة مما أدركنا.

قوة الأفكار

كما استنتج القراء، لا أعتقد فقط أننا نعيش فى عصر جديد من اقتصاديات الكساد، لكن أيضا أن جون ماينرد كينز. عالم الاقتصاد الذى فهم الكساد الكبير. هو الآن وثيق الصلة بالموضوع أكثر من أى وقت مضى. لقد ختم كنز تحفته، «النظرية العامة فى التشغيل والفائدة والنقود»، بمقالة شهيرة عن أهمية الأفكار الاقتصادية: «عاجلا أو آجلا، فإن الأفكار، وليس الفوائد المكتسبة، هى الخطيرة سواء للخير أو للشر».

يمكننا أن نجادل حول ما إذا كان ذلك صحيحا دائما، لكن فى أوقات مثل التى نمر بها، هو صحيح تماما. من المفترض أن تكون الجملة الاقتصادية الجوهرية «لا يوجد غداء مجانى»؛ أى أن هناك موارد محدودة، ولكى تحصل على المزيد من شىء ما يجب أن تقبل بقدر أقل من شىء آخر، وأنه لا يوجد مكسب دون ألم. غير أن اقتصاديات الكساد هى دراسة المواقف والأوضاع حيث يوجد غداء مجانى، إذا استطعنا فقط أن نفهم كيف نضع يدنا عليه، لأن هناك موارد غير مستخدمة يمكن استغلالها. وبالتالى، فإن الندرة الحقيقية فى عالم كينز. وعالمنا. ليست ندرة موارد، ولا حتى ندرة فضيلة وفعالية، لكنها ندرة فهم وإدراك.

غير أننا لن نحقق الفهم الذى نحتاجه إلا إذا أردنا أن نفكر بوضوح بشأن مشكلاتنا، وأن نتبع تلك الأفكار حيثما تقودنا. يقول بعض الناس إن مشكلاتنا الاقتصادية بنيوية، ولا يوجد لها علاج سريع متاح؛ لكنى أعتقد أن العوائق البنيوية الوحيدة ذات الأهمية، التى تقف حائلا ضد الرخاء العالمى هى النظريات الآيلة للزوال التى تزحم بغير نظام عقول البشر. ■

(*) سياسة اقتصادية وضعها الرئيس الأمريكى روزفلت لمعالجة الأوضاع الاقتصادية المتردية فى الولايات المتحدة إثر أزمة ١٩٢٩. تعتمد هذه السياسة على تدخل الدولة فى إعادة توزيع الثروة وفى توجيه النشاط الاقتصادى. ولا تهدف هذه السياسة إلى إعادة النظر فى النظام الرأسمالى بل إلى جعله مقبولا لدى المواطنين بإدخال بعض الإصلاحات الشكلية عليه (المترجم).

(**) جهاز كهربائى لإحداث الشرر فى محرك داخلى الاحتراق (المترجم).

كتاب الزاوية



عندما يتحدث أردوجان (٣)

أصدقائى الأعزاء

كما تعلمون فإننا نعمل فى مشروع تحالف الحضارات مع إسبانيا. هدفنا تقوية الفكرة القائلة بإمكانية تعايش الأديان والحضارات والثقافات المختلفة فى سلام وبتسامح وكذلك إحلال المحبة بدلا عن الحقد والكراهية.

على أن أقول متأسفا إن الأحداث التى جرت أمس قد شكلت لطخة سوداء من منظور الحضارة والثقافة الإنسانية، لقد سجلت باعتبارها عيبا كبيرا فى تاريخ الإنسانية.

الهجوم المسلح على سفن المساعدة وقتل الناس الأبرياء ومعاملة الناس المدنيين معاملة الإرهابيين يعتبر سقوطا من الناحية الإنسانية وتهورا حقيرا.

نحن نعلم أن للسلم والحرب حقوقهما. لا يُعتدى على الأطفال فى الحرب، لا يعتدى على النساء والشيوخ فى الحرب، لا يعتدى على المدنيين ورجال الدين فى الحرب، لا يعتدى على الذين يرفعون الرايات البيض وموظفى الصحة والإغاثة فى الحرب. أما الذين يعتدون على هؤلاء فى السلم وليس فى الحرب فلا يكونون قد داسوا الحقوق فحسب وإنما يكونون قد داسوا الإنسانية وجعلوها تحت أقدامهم وقد خرجوا من الإنسانية... حتى الطغاة وقطاع الطرق والقراصنة لهم حساسيات معينة وقواعد أخلاقية يعملون بها.

إن وصف من لا يملك أى وازع أخلاقى أو أية حساسية أخرى بهذه الصفات إنما يعتبر مدحا له.

إن اعتداء إسرائيل على سفينة تقل متطوعين من ٣٢ قوما يجعلها كأنها تتحدى العالم. لقد أصيب السلام العالمى بجرح كبير.

يجب قطعا وبكل تأكيد أن تعاقب حكومة إسرائيل على هذا الهجوم الجرىء وغير المسؤول والمتهور والمستهتر بالحقوق وبكافة القيم الإنسانية.

يجب على المجتمع الدولى بدلا من أن ينتظر تحقيقا من إدارة اتخذت من الكذب سياسة دولة ولا يحمرّ وجهها خجلا من جريمة اقترفتها، أن يحقق فى الحادثة بكل جوانبها وأن يقابلها بالرد الحقوقى. نحن فى تركيا لن ندع هذا الموضوع.

إن تركيا ليست دولة بنيت أمس لا جذور لها، وهى قطعا ليست بالدولة القبلية. يجب أن لا يحاول أحد اختبار صبر تركيا.

وبالقدر الذى تعتبر صداقة تركيا غالية فإن معاداتها قاسية بالقدر نفسه. إن فقدان صداقة تركيا فى حد ذاته يعتبر ثمنا باهظا.



استعادة المسافر خانة



محمد عبد السلام العمرى

تمهيد

■■ عندما بدأت الكتابة عن العلاقة بين العمارة العربية والفنون، وكانت إحدى ركائز هذه العلاقة فصلا بعنوان، العلاقة بين العمارة والرواية، قرأت أعمالا كثيرة فى هذا السياق فوجدت أن جمال الغيطانى اهتم كثيراً بالعمارة فى بعض أعماله مروراً برسالة فى الصبابة والوجد، إلى سفر البنيان التى هى فى متن هذه العلاقة، إلى المسافر خانة، التى أوحت بكثير من القضايا والهموم، إلى الاهتمام الواضح بدراسة التواريخ المعمارية للمساجد، وتسجيلها كتابة وتصويراً .

والكاتب لا يتذكر المسافر خانة كمبنى فقط، إنما يتذكر ظاهرة اجتماعية كاملة وحياة موارة، وتاريخا واجتماعا، وفلسفة ودينا، وقاهرة حميمية نفتقدها جميعاً الآن، مواقع الطفولة، الصبا والشباب، العمر كله الذى يحمله الإنسان بين جنباته، وهى علاقة الأثر بكامل عمر الكاتب نفسه.

وهذا الكتاب مرثية لعمرنا الجميل، ولحياتنا، وتراثنا، وتاريخنا، ولتأريخ حرق الآثار هذه، الذى لم يحدث له مثيل فى أى دولة من دول العالم المختلفة، غير مهتمين إلا بتكريس القبح والرداءة وتواصل الانهيارات والحرائق فى شتى المجالات.

والقبح والرداءة لا يقومان عادة إلا على أنقاض كل ما هو جميل وعريق، لكن الملاحظ أننا نستسلم لهذا كأنه قدر، كأن لا فائدة من المقاومة، لأن التيار جارف وكاسح وساحق وماحق أيضاً، لن يقف أمامه عاقل أو متزن، لذا رأينا كل هذه التنازلات، كل هذا التبدل فى الرأى والقيم، والأخلاق، وإنك لا تضمن أحداً، فإنسان هذا الوطن طحنته الحياة والظروف وشكلته بحيث أصبح قادراً على أن يحمل عدة تناقضات فى شخصيته تظهر واضحة فى عدة مواقف متباينة فى الآن ذاته.

فأصبحنا بلا ملامح مدجنى الهوية، مثل عمارتنا الآن تماماً، جو عام يصهر فيه كل شىء ليحوله إلى مسخ.



وفى ظنى أن المسافر خانة عمل معمارى روائى متخيل؛ لأنه استرجاع من الذاكرة، اهتم به الروائى جمال الغيطانى، منذ بدأ يعى الحياة، فالتقطت الذاكرة، وسجلت وصورت تاريخ المبنى، هو يحيى وينتمى إلى الأثر الذى كان جزءاً لا يتجزأ من تكوينه الثقافى.

والذاكرة فى الأغلب الأعم غير كاملة الدقة والتفاصيل، وكان التساؤل هو كيف يمكن أن أقيم علاقة بين عمارة متخيلة وأى فن من الفنون، فالعمارة إذا كانت مشيدة وقائمة، فإن كل أنواع التواريخ والتسجيل، والرؤية البصرية سواء إذا كانت اجتماعية أو اقتصادية أو سياسية يمكن قراءتها، وتحليلها، والوصول من خلالها إلى إقامة تلك العلاقة التى هى فى الأغلب الأعم رؤية الكاتب وثقافته وخبراته.

كذلك فإن كل أنواع تواريخ الفنون تكون قائمة، وبصفة أن هذا العمل المعمارى متخيل لعمارة تراثية عربية إسلامية عريقة تم حرقه عمداً؛ بسبب فساد واضح وأخطاء فى الترميم المتواصل على مدى أكثر من عشرين عاماً، وإن هناك عدة شركات مقاولات غير أمينة مثل المشرفين عليها تماماً، تناوبوا ترميمه.

أقول إذا كان هذا الأثر بهذه الصفة فإنه سيكون بالنسبة للأعمال المعمارية الأخرى والروائية جديراً بتناوله ودراسته، فلم يسبق أن أقيم أثر محترق بالتخيل، سواء كان بالذاكرة أو بالرواية، أن تكتب رواية، أن تنشئ أثراً معمارياً تستنطق الذاكرة معالمه وتوضح وتبين الكثير من الغموض، والكثير من الالتباس.

كيف يمكننا أن نأخذ هذا العمل على أنه تسجيل حى لعمل معمارى تراثى عريق تم محوه من الوجود ؛ لشبهة فساد أو نهب مؤكد، غير عابئين بحضارتنا وتراثنا وذاكرتنا التى لم يبق لنا شىء إلا هى.

وما هو مقدار الصدق هنا، وما هو قدر التأليف أو التخيل، وما هى المراجع التى استند إليها الروائى ليعيد بناء هذا الأثر المعمارى النادر، وما هى مراجعنا نحن التى يجب أن نستند إليها لمناقشة مثل هذا العمل وتفنيد عناصره.

وهل يحق لنا ذلك أم لا ؟



إننا عندما نتناول مثل هذا العمل لا يجب أن ننزعه عن سياق المنطقة والموقع الذى نشأ فيه.

والكاتب ربما تداخلت عنده المفاهيم المعمارية، مع الثقافية، مع قراءة التاريخ، وكتب التراث، والحس الصوفى، فتداخلت عنده الأزمنة والأوقات فبدا أن هناك تخمة ثقافية ومعمارية باهظة، على أنه من اللازم لفت النظر، أن عمارة القاهرة المعزية تختلف اختلافاً جذرياً عن عمارة المماليك التى دارت فى فلكها الوكالات، ومنها وكالة المسافر خانة.

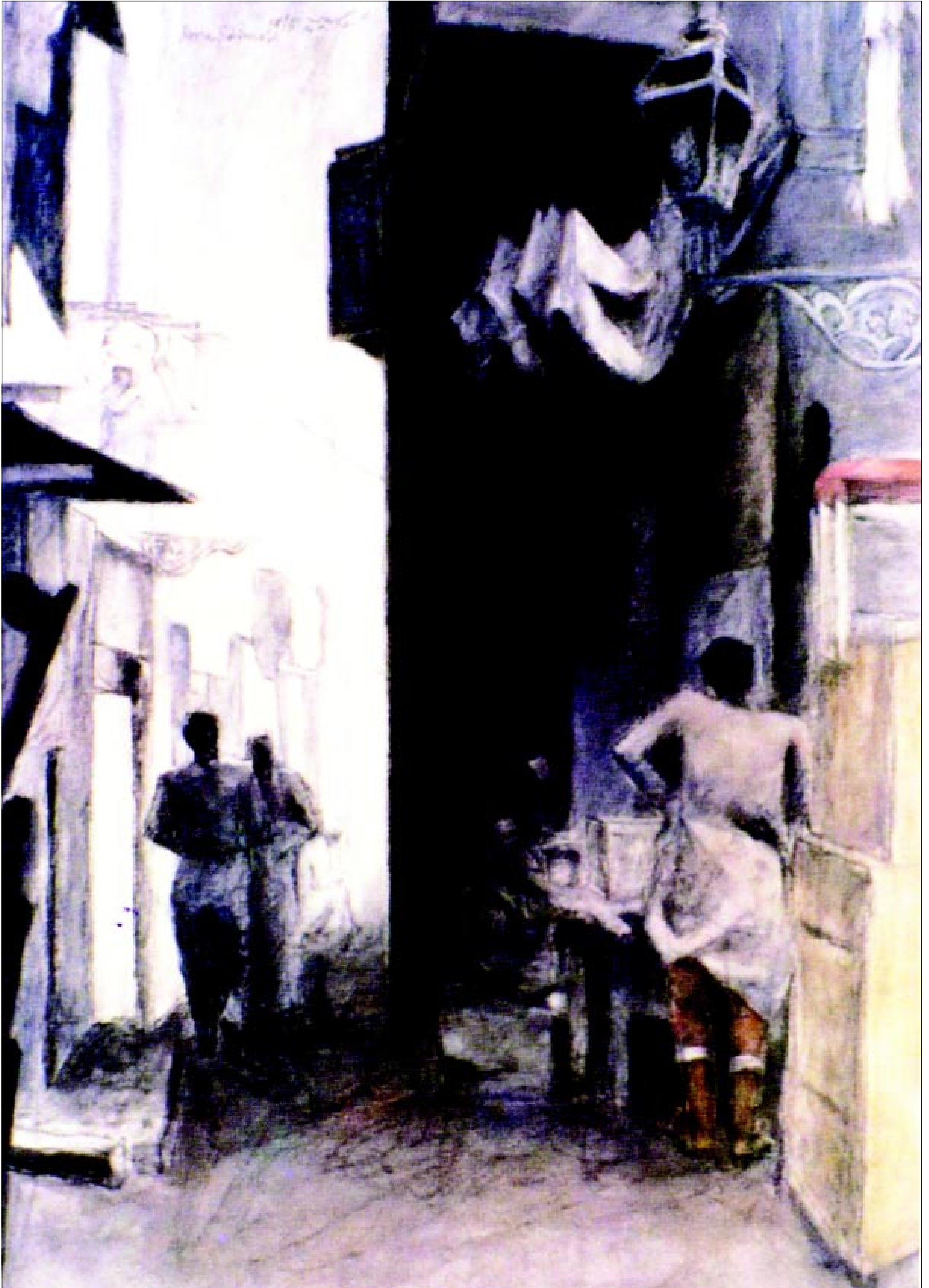
إن تناول هذا العمل كعمل روائى متخيل يختلف عن عمارة المسافر خانة المجسمة كفكرة، كبنيان، يعج بالأفراح والأتراح والمواليد، والحياة الصاخبة التى يتحملها هذا المبنى؛ الذى لم نستطع الحصول له على تصميمات معمارية تحتفظ بها أية جهة، حتى ولو كانت «هيئة الآثار



من اللازم لفت النظر،
أن عمارة القاهرة المعزية تختلف اختلافاً جذرياً
عن عمارة المماليك



المسافر خانة
جمال الغيطانى
دار الشروق - القاهرة ـ ٢٠٠٧



حسن سليمان - حارة قاهرية - ١٩٥٥

المصرية» التى يجب أن تحتفظ بملفات معمارية وهندسية متكاملة لأى أثر معمارى.

لن نعرف إذن مدى اختلاف التخيل المعمارى عن الواقع؛ الذى قالوا فيه إن هذا المبنى به أكبر مشربية معمارية فى العالم الإسلامى، وهذا أيضاً تخيل؛ لأن المشربية فى أساس منشئها مبنية لتعطى حرية رؤية الخارج دون أن يقتحم الخارج خصوصية الداخل وتلطيف الجو وتدرج الإضاءة... إلخ، فهل كانت تلك المشربية موزعة على كل البلكونات الداخلية، والشبابيك، ولماذا لم تكن هناك خصوصية أيضاً فى توزيع المشربيات بدلا من أن تكون هناك مشربية واحدة، قابلة بلا جدال للتعرض للعوامل الجوية والطقس والرياح، وغيرها من عوامل التأثير، التى تقلل من كفاءتها ومن عمرها الافتراضى.

والتراث المعمارى لأى دولة يعبر عن مجموعة من القيم، من بينها القيمة التاريخية، التى هى ذاكرة المدن، والقيمة الجمالية التى تولد مع ميلاد المعمار، وترتبط بالطابع العام، والقدرات الإبداعية، والتصميمية، والتأثيرية له، وهناك القيمة الوظيفية للعمل المعمارى التى تعنى الهدف المقصود من وجود المعمار فى عصر من العصور، كالأسبلة فى القاهرة القديمة على سبيل المثال.

والعمران مع تطور ملامحه، واختلاف طرزه لا يمثل فقط قطعاً من الجمال، لكنه تعبير دقيق عما طرأ من تطور سكانى واجتماعى على أى مدينة.

العمران يولد ويعيش ويحيا، ويشارك، يعمل، يلهو، يصارع، ويسالم، يحب ويكره، ينجب، ويورث، يتثقف ويتعبد، ثم ينهى سيرته فى العمران بكتابة التاريخ.

العمران يفرض وجوده وملامحه على الإنسان فى حركته وسكونه، وهو المرتقى بحواسه إذا أحسن وهو المتدنى بها إذا أساء.

ولم نكن نتصور أن علوم التخطيط بكل مداخلاتها، الاجتماعية، والاقتصادية، والهندسية هى الأساس الذى ينتهى إلى مخرج يتم تصويره تصويراً بصرياً من جانب المصمم المعمارى، وفى ضوء ما يمليه المخطط العمرانى، من تصورات عن استخدامات الأرض، وما يحمله من اشتراطات بنائية وكثافة سكانية.

وإعادة المسافر خانة يجب أن تكون حصيلة التخطيط بكل صوره، ومداخلاته الاجتماعية والاقتصادية، مراعياً فى الاعتبار، حتى الشارع الذى هو صورة المجتمع، تتبلور فيه شخصيته، ويتردد نبضه، بل هو الصحيفة التى تنشر تفاصيل حياته اليومية، وتعكس ثقافته، ومزاجه الخاص، وذوقه العام.

ونحن لم نستوعب بعد فى نطاق أهمية محصلة التخطيط، قيم ومعانى الحداثة ، التى تقوم على فكرة النظام والتنظيم، إذ إننا نحتفى أكثر بفوضى التخريب، نقف مكتوفى الأيدى من الصدمات، الحرائق المتوالية، التى لا نعرف كيفية التصرف حيالها، لأننا لا نفهم الكيفية التى تعمل بها النظم الحديثة، لا تستوعب الصيانة أو الأمن الصناعى أو حماية البيئة، وأى نظام قابل للحياة لابد أن يفهم أن المرافق الضرورية لتشغيله لها أولوية على ما عداها.

مدخل

منذ أكثر من خمسمائة عام أقام شاهبندر تجار القاهرة حسين محرم مبنى أثريا ضخماً رأى أنه سيخلده على مدى التاريخ، هذا المبنى اسمه وكالة المسافر خانة، وفيما بعد قصر المسافر الخانة، كان ملتقى التجار من كل أنحاء العالم العربى، عبارة عن فندق يأتى إليه الأغراب، يعيشون فيه، ويعرضون بضاعاتهم، ويعقدون صفقاتهم.

بنى هذا القصر فى حى الجمالية، وقد ولد به الخديو «إسماعيل»؛ الذى سيرتبط اسمه بحرائق التراث المعمارى والحضرى النادر، إذ تم حرق هذا الأثر فى ١٩٨٨/١٠/٢٨ كما أن الأثر المعمارى الآخر والأكثر أهمية عن المسافر خانة، وهو الأوبرا الخديوية التى بناها إسماعيل لافتتاح قناة السويس تم حرقه أيضاً قبل هذا المبنى فى ١٩٧١/١٠/٢٢، والاثنان فى شهر أكتوبر، ثم أحدث حرائق تراث إسماعيل المعمارى النادر، كان مبنى مجلس الشورى الذى بنى ١٨٦٩ وكان أول مجلس شورى فى العالم، وكان إسماعيل الرابط بين كل تلك الحرائق، وكل هذا الدمار، وبدا أن هناك تساؤلا هاماً، هل المقصود حقبة مزدهرة من حياتنا، والانتقام من تلك الحقبة.

هذه الحرائق أضاعت على مصر أهم كنوزها الأثرية المعمارية الإسلامية فى لحظات. والمسافر خانة يعتبر من أجمل القصور الإسلامية، يحرص السائحون من جميع أنحاء العالم على زيارته فيما سبق، وكان موضوعاً على خرائطهم ضمن برامجهم السياحية، يستمتعون بتكويناته الهندسية البديعة، وزخارفه الجذابة، المكسوة بالمنحنيات والمنمنمات والأرابيسك، وأرضياته المصنوعة من الرخام الملون، كذلك أسقفه الخشبية، بالإضافة إلى متحف مشربياته التى ليس لها مثيل، خاصة أنه كان يفتخر بأن به أكبر مشربية معمارية فى العمارة العربية الإسلامية، فى كافة أنحاء الدنيا، وهذه المشربية آية فى فن المنمنمات، وتقاطيعها الخشبية الدقيقة، هدفها السماح للنور بالدخول إلى القاعات والإيوانات، لكن بعد ترشيحه، وتخفيف حدته، فى بلاد تحيطها الصحراء من كل جانب.

وكانت تلك المشربية التى لا مثيل لها قائمة فى الناحية القبلية، مستندة إلى عامود إيوانى من رخام، ذى تكنة كورونثية التصميم.

كانت المسافر خانة وصلت عندما احترقت إلى وضع مؤلم، إذ كانت هناك تعديات مستمرة، مباحة بدون أى نوع من أنواع الحماية، تعرضت لتعديات مستمرة بصفة يومية من أهالى المنطقة، والتجاوزات التى أحاطت بها، وساعدت على حدوث هذا الحريق المدمر.

خاصة الإهمال، والترميمات المتراخية؛ التى استمرت أكثر من عشرين عاماً، يسلمها مقاول إلى آخر دون رقابة أو إشراف، إذ إن هؤلاء السادة كانوا العامل المشترك بين الفساد والمقاولين على تدمير هذا المبنى الأثرى.

ولم يكن غريباً أن يتفق الجميع، بل وتتوحد آراؤهم حول الأسباب الحقيقية التى كانت وراء هذه الكارثة، إهمال الإشراف والصيانة لهذا القصر أوجد حوله مكاناً لتجمع القمامة، مجاوراً، وملاصقا له، وقد ساعدت هذه الأكوام المتكدسة على اشتعال هذا الحريق، بالإضافة إلى تعمد إحداث الحريق فى أخشاب الترميمات الداخلية؛ حتى تضيع المعالم، وحتى لا يساعد على كشف فساد الترميمات المتكررة، وصرف المستحقات للمقاولين، أكثر من مرة.

وكان الإهمال وعدم المتابعة أوجد أعداداً كبيرة من زوار المولد الحسينى القادمين من الريف، والمناطق المجاورة، بكل عائلاتهم، واحتياجاتهم من أكل ومغسل وملبس داخل القصر، طوال مدة المولد، استخداماتهم السيئة لقاعات القصر، وما يتركه من آثار سلبية على مكوناته.

ومما ساعد على ذلك الشوارع والأزقة والحارات الضيقة، والتجمعات السكانية الكثيفة الهائلة والمحلات التجارية، والزحام المستمر طوال اليوم، مما يجعل الأجهزة المعنية غير قادرة على القيام بمهامها.

وفى فترة نهضة ثقافية حقيقية فى حقبة الستينيات ضم القصر بين جنباته مجموعات من الفنانين التشكيليين للإقامة بداخله، ومزاولة هواياتهم فى الفنون التشكيلية، رسم، ونحت، وتشكيل، استخداماتهم اليومية لبعض مصادر الكهرباء داخل القصر فى إعداد المشروبات والأطعمة إلى جانب استضافة أصدقائهم، وما ترتب على ذلك من استهلاك مكونات القصر، وتصدع لمقتنياته.

كانت هناك اجتماعات وندوات، تعددت فيها جهات الإشراف، وقد تنبهوا إلى ملاحظة أن شارع المعز لدين الله الفاطمى يتعرض لبعض المخاطر، مثلما تتعرض المسافر خانة؛ التى يمكن أن تأتى على كل شىء، وتدمره تدميراً شاملا، مثل وجود مخازن للبوتاجاز والكيماويات، وأن انفجار أنبوبة بوتاجاز واحدة كفيلة بتدمير الشارع بأكمله، كما أنها كفيلة بتدمير المسافر خانة، إذ إن كل عائلة لها احتياجاتها.

لقد اشتعلت النيران فى كل مكونات القصر، أبوابه، مشربياته، نوافذه الخشبية.

وقد تضامن البعض؛ الأوقاف، التربية والتعليم على إلحاق الأذى والدمار فى شارع المعز أيضاً، إذ استخدمت وزارة التربية والتعليم بعض المخازن فى هذا الشارع لتشوين الكتب المدرسية القابلة للاشتعال فى أى وقت.

ويحمد لهيئة الآثار أن قامت بالتخلص من كل هذا عندما استعادت شارع المعز معمارياً قبل أن يتم تدميره.



والحقيقة أن المسافر خانة تعتبر محظوظة رغم احتراقها، وتدميرها بالكامل لأنها وجدت من ينتصر لها، يؤرخ لها، ويسجلها كأثر، لن يمحو من الذاكرة، ستعيش بفضل هذا الكاتب المثقف المهموم بالتراث المعمارى لهذا الوطن الذى استطاع من خلاله أن يستعيد مبنى تراثيا معماريا عربيا إسلاميا، وأن يبقى فى الذاكرة إلى الأبد.

ولو وجدنا من يستنطق الذاكرة،

لم تكن المسافر خانة مرجعاً للفن المعمارى العربى الإسلامى فقط، إنما كانت ذاكرة للرؤية، فيها تراكمت الأزمنة والثقافات، والتواريخ والأحداث



ويكتب عن دار الأوبرا الخديوية، وسلاسل المبانى الأثرية التى تم حرقها بتعمد على فترات متقاربة، بتنسيق تآمرى وبتخطيط مدهش سنكون بالذاكرة استعضنا عن المبنى الذى يمكن إعادة بنائه مرة ثانية بمساعدة استرجاع الأثر من الذاكرة.

هذا التسجيل لهذا التاريخ، لهذه الآثار بالتصوير، بالكتابة، خوفا من ضياعها سيجعلنا أمام تاريخ من الجمال، من الإبداع، إذ إن الخيال لا يستوعب هذا الكم الهائل من تخريب الميادين والحدائق، والآثار المعمارية والنيل الذى استباحوه، كل هذا سيعود من خلال الذاكرة.

ينبهنا هذا إلى الخوف من المجهول، المناطق المعتمة فى أنفسنا، ولا يمكن التفكير فى حريق المسافر خانة فى معزل عما يحدث فى هذا الوطن، من إهمال وتراخ، وتردٍّ؛ لدرجة يحس فيها المتابع أن الدولة فى واد، وأن الشعب والوطن وهمومه وأحلامه وأشواقه فى واد آخر.

لم تكن المسافر خانة مرجعاً للفن المعمارى العربى الإسلامى فقط، إنما كانت ذاكرة للرؤية، فيها تراكمت الأزمنة والثقافات، والتواريخ والأحداث، تشم فيها رائحة المكان. نرى ونلمس، ونسمع، ونتنفس.

ولولا المعمار لاندثرت الأفكار والصياغات المؤدية إلى تجسيد الرؤية، ولو كانت هذه الرؤية دقيقة فى تصورها وتسجيلها لأضحى الكيان المعمارى مجسداً ناطقاً، شاهداً على كل ما مر عليه من انتصارات وانكسارات وأحداث جسام من تآمر، ومن فساد.

علاقة المسافر خانة

بالمكان ـ بالوسط المحيط

افتقدت فى هذا الكتاب تحديد الموقع المعمارى للمسافر خانة وعلاقتها بكل الأبنية الإسلامية، والتاريخية الموجودة فى هذا المكان، موقعها من شارع المعز، من بيت نجيب محفوظ، من الحسين، وقصر الشوق.

وقد بدا أن هم الكاتب الرئيسى هو توضيح موقع المسافر خانة من حارة درب الطبلاوى مسقط رأس الكاتب والتركيز على انتزاع المبنى الأثرى من الخراب والدمار الذى حل به.

ولذلك سنحاول الإشارة قدر المستطاع إلى علاقته بالموقع العام الكلى، كنظرة بانورامية واسعة للمنطقة التى أقيم فيها هذا الأثر، وأهم الأبنية الأثرية، دون التطرق إلى التفاصيل.

لأن استعادة المسافر خانة وحدها من الذاكرة تطلب عمراً كاملا من هذا الروائى، وبدت المسافر خانة محظوظة بوجود هذا الكاتب، وتواصله مع هذا المكان، موطن العمر والذكرى، الطفولة والشباب.

إذ لا يمكن فصل المسافر خانة عن موقعها الذى صممت فيه وبنيت، كانت حالة كاملة، كنت أتمنى أن يسترجع الكاتب التاريخ والأحداث والذكريات، والشخصيات والحقب التاريخية الكثيرة التى مرت على وكالة المسافر خانة، فهل كان كل تاريخها أن الخديو إسماعيل ولد فيها، أم أن هناك شخصيات كثيرة وهامة، ولدت، وعاشت فيها ودخلتها، ومرت عليها، وما القيمة التاريخية لهؤلاء الأشخاص، وأهمية تأثيرهم ودورهم على أحداث هذه العصور التى مرت، وعلى المسافر خانة، وعلى هذا الوطن، وما هى المبانى التى تم تدميرها، والأشخاص الذين عاشوا بها، وما تأثيرهم، وهل كانوا سبباً فى كل هذه الكوارث والمصائب التى مرت على هذا الوطن، وما هو الدور الإيجابى الذى ساهموا به فى رقى الوطن وتحضره، تلك المنطقة التى كانت تمور بكل حكام وشيوخ ومؤرخى الوطن.

ولماذا القاهرة الفاطمية بالذات هى التى اكتظت بكل هذه الآثار المعمارية العربية الإسلامية، بكل هذه الثروات.. بيوت تاريخية، تراثية عريقة، المسافر خانة، بيت السنارى، كتخدا – إلى شارع المعز بكامله بما يحتوى عليه من أكثر من ٤٢ أثراً معمارياً، إسلامياً، فريداً.

تلك كانت نواة القاهرة التى وضع أساسها جوهر الصقلى فيما يعرف ببين القصرين بتعليمات الخليفة الفاطمى الشيعى المعز لدين الله الفاطمى.



عندما حضر المصريون لتهنئة جوهر الصقلى، ومبايعته، فوجئوا بأنه حفر أساس القصر الكبير الذى سينزل به الأئمة الفاطميون.

وكان هذا القصر بمثابة الخطوة الأولى لتأسيس مدينة القاهرة التى أريد لها أن تكون حصناً للجيش الجديد، ومقراً لسكنى الخليفة المعز لدين الله الفاطمى، وبعد أن خطط جوهر الصقلى أساس القصر الشرقى الكبير، يقابله من الجهة الأخرى القصر الغربى الصغير، الذى أنشأه المعز الفاطمى الثانى، موقع هذا القصر اليوم هو المكان الذى يحتله مسجد الحسين، وخان الخليلى، وعرفت المنطقة الواقعة بين القصر الشرقى والقصر الغربى باسم بين القصرين، التى كانت مسرحاً للاحتفالات والمواكب الدينية والعسكرية، بعد ذلك شرع فى تخطيط الأحياء لنزول وفد الجيش الفاطمى.

ثم ما لبث جوهر أن أحاط القصر الكبير، والأحياء الجديدة بسور حديد للدفاع عنها، وأطلق على هذه المدينة المسورة اسم المنصورية، وظلت تعرف بهذا الاسم حتى جاء المعز، فسماها القاهرة.

وكانت للقاهرة وقت إنشائها أربعة أبواب، هى باب النصر شمالا، وباب الفتوح وباب زويلة من الجنوب، وباب سعادة من الغرب، ولم يكن يزيد طول كل جانب من جوانب القاهرة على ألف ومائتى متر، وأن مساحتها كانت ٣٤٠ فداناً شغل القصر الرئيسى فيها خمس مساحتها.

وفى عام ٩٧٢م، رمضان ٣٠٦هـ أتم جوهر الصقلى بناء الأزهر ليكون مقراً للشعائر الإسلامية الشيعية فلما استقر المعز فى قصره جمع الناس فى مجلس عام وقال لهم : هل بقى من رؤسائكم أحد، فقالوا: لم يبق معتبر لم يحضر، فأخرج سيفه من غمده، وشهره فى وجوههم قائلا هذا نسبى، ثم نثر عليهم ذهباً كثيراً، وقال: هذا حسبى، فقالوا جميعهم: سمعنا، وأطعنا، وقد بدا أن القمع لا يتجزأ، لأن مقولته هذه اعتبرت تجسيداً مؤكداً لفكرة القمع التى لا تتجزأ والتى نفذها جوهر الصقلى فى قاهرة المعز عندما أحاطها بالأسوار، فأصبحت سجناً كبيراً.

كان شارع المعز، ولا يزال كتاباً مفتوحاً، يؤرخ للقاهرة، ويلخص قصتها، منذ تأسيسها إلى الآن، فقد تجسدت فيه جميع مظاهر الحضارة الإسلامية، بدءاً من العصر الفاطمى، مروراً بالعصر الأيوبى، ثم عصر المماليك البحرية، ثم الجركسية، ثم العثمانية، وقد أطلق عليه المؤرخون اسم الشارع الأعظم، وهو مواز للشارع الذى بنيت فيه المسافر خانة، لا تبتعد عنه كثيراً.

وقد تمركزت الحياة فى مدينة القاهرة الفاطمية، وأصبحت أساسيات الحياة الاقتصادية، وجميع الأنشطة التجارية، بين الصاغة والكحكيين، التى احتوت على ٢٣ سوقاً، و٢٣ وكالة.



اكتظ شارع المعز بالمبانى، وأفاض على الأحياء المجاورة، تم توسيع الشارع، وتم تشييد جامع المؤيد ومسجد برسباى ١٤٢٠م، وترميم جامع الحاكم بأمر الله ١٤٤١م.

أقام قايتباى منشآت ضخمة، وأقام الغورى جامعاً ومدرسة، وشيد مجموعة تضم سبيلا، وضريحاً.

أما آخر المواكب المملوكية الرسمية التى شهدها شارع المعز، فقد جاء على خلفية بداية تصدع الدولة المملوكية، فى مقابل بزوغ نجم الدولة العثمانية.





Fabio Fabbi (Italian, 1861 - 1946), Wedding in Cairo

تضاربت الأقوال فى كثير من التواريخ، وعند الكثير من المؤرخين فقال البعض أيضاً إنه كان يضم ١٢٤ سوقا، من بينها سوق الصاغة عند بين القصرين، وكان به ٣٩ حماماً شرقياً، لاستحمام الرجال، و٢٣ حماماً لاستحمام النساء.

هذه الأسواق كانت تضم ١٢ ألف حانوت، تضيق بالباعة، فيجلسون على الأرض بأطباق الخبز، وأصناف المعايش، وكان للشارع تقاليد صارمة، مثلا لا يمر بالشارع دابة تحمل تبنا، أو حطباً، ولا يمر به سقاء وقربته غير مغطاة، وعلى أصحاب الحوانيت أن يضع كل منهم أمام حانوته زيراً مملوءاً بالماء خشية أن يحدث حريق مفاجئ، وأن يعلق فوق حانوته طوال الليل قنديلا مضاء حتى الصباح.

وكان الزبالون يمرون بالسوق، يكنسونها من الأتربة، ويرشونها بالماء، وكان الخفراء بالليل يحرسون الحوانيت المغلقة، بينما ١٢ ألف قنديل تشع نوراً فوق أبوابها حتى الصباح.

وكانت تجارة الرقيق منتشرة تلك الأيام، بل إن معظم سلاطين مصر الذين جاءوا بعد الفاطميين كانوا من المماليك الذين اشتراهم أسيادهم من أسواق النخاسة، والرقيق، ومن بينهم السلطان قطز قاهر المغول فى عين جالوت والظاهر بيبرس قاهر المغول أيضاً.

وفى المكان الذى يحتله الآن جامع المطهر، يوجد خان سرور، بداخله حجرة الرقيق للنساء، وإلى جوارها حجرة الرقيق للرجال، وبينهما دكة المماليك، لجلوس من يعرض منهم للبيع، والمملوك الرومى، أو التركى، أو التركمانى يباع بثمن يتراوح بين مائة دينار، وألف دينار، بعد اختبار قدرات المملوك فى الذكاء والحساب والفروسية، أمام أعين المارة من أهل القاهرة. وكان مكان جميلات العالم فى الداخل، فى غرفة الرقيق للفرجة، والفحص.

أما خان الخليلى فقد كان مقبرة للخلفاء الفاطميين، يحمل اسم تربة الزعفران، وقد قال المقريزى إنه فى عهد السلطان برقوق قام الأمير جهاركس الخليل بنبش مقبرة الخلفاء الفاطميين، وألقى بعظام المعز لدين الله، والعزيز بالله، وغيرهما فوق مزابل البرقية (الدراسة حالياً). وكانت تعرف وقتها بمزبلة مصر، وأقام سكان المقبرة خانا، أطلق عليه اسمه، ويشاء القدر أن يلقى الخليل مصرعه، ويلقى جثمانه فوق مزبلة مصر، ولم يبق من حكاية الخليل إلا اسمه خان الخليلى.

فى مقدمته قال ابن خلدون

رأيت حاضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام، وكرسى الملك.

تلوح القصور، والأواوين فى جوه، وتزهو الحدائق، والمدارس والكواكب بآفاقه، وتضىء الدرر والكواكب من علمائه.

وقال ابن بطوطة:

أم البلاد، وقرارة فرعون ذى الأوتاد،

وغيرهم قال الكثير فى مدح وذم المصريين بأسوأ الألفاظ.

فلماذا قالوا ذلك؟

هل تختزل القاهرة المعزية فى شارع المعز فقط، أم فى المسافر خانة، أم فى كل البيوت التراثية الأثرية التى تعج بها هذه المنطقة، وهل الكتابة عن المسافر خانة هى التى استدعت كل هذا التراث، إذ إنها «المسافر خانة» لم تبن فى فراغ، لكنها ارتبطت بكل هذه المواقع، لذا كان من الأهمية توضيح هذه العلاقة بين هذا المبنى المسافر خانة، وبين كل المبانى المحيطة بها.

بالقرب من هذا المكان كان هناك منزل سيد الرواية العالمية نجيب محفوظ الذى ولد فيه، والذى أصبح مزاراً تاريخياً، منه خرج إلى الدنيا، وظل فيه حتى أكمل تعليمه، وتسلم أول وظائفه فى وزارة الأوقاف العمومية، وفى إحدى مدارس هذا الحى تعلم جمال عبد الناصر، وكان هناك أيضاً منزل جمال الغيطانى الذى استعاد المسافر خانة من الذاكرة، هذا المكان تم بناؤه بالقرب من شارع المعز، متحف الآثار المعمارية الإسلامية فى العالم الذى ليس له مثيل.

هذا المتحف سجل تاريخى، نقرأ من خلاله كل أنواع الفنون، المآذن والقباب، والأضرحة، والكتاتيب والمدارس، البيمارستانات، أبوابه، أسبلته، خاناته، تواريخ اقتصادية وسياسية وحربية واجتماعية .

هذا الشارع الذى ولدت فيه القاهرة الفاطمية قبل أكثر من ألف عام، هذا المتحف الذى يشع ثراء وثقافة، وتحضراً، كتاباً مفتوحاً لكل من يريد أن يقرأ، ومن يريد أن يعرف أن للقاهرة تاريخاً عظيماً .

فى هذا الشارع عاش السلطان قلاوون، والسلطان قطز والظاهر بيبرس، الصالح أيوب وزوجته شجر الدر، أول ملكة فى تاريخ الإسلام، والتى قادت جيوش مصر للنصر على الفرنسيين، آسرة لويس التاسع فى دار ابن لقمان فى المنصورة، وفى هذا الشارع أيضاً عاش طومانباى البطل المصرى الذى قاوم جيوش السلطان سليم الأول، والذى علقوا رأسه على بوابة المتولى، فيه عاش الحاكم بأمر الله، وبنى مسجده الذى ما زال موجوداً حتى الآن.

أما مطعم السلاطين الذى أعلنت عنه هيئة الآثار، فكان قصراً من قصور الضيافة فى عهد الخلفاء الفاطميين، فيه دار الحسبة، ومركز الشرطة وقصر الغورى .

به أكثر من ٤٢ أثراً تم ترميمها من قبل هيئة الآثار المصرية، بين جامع ومدرسة، وبيمارستان، وخانقاه، ومدرسة السلطان الصالح أيوب وزوجته شجرة الدر، فى المكان بيت السحيمى وعبد الرحمن كتخدا، وجامع السلطان برقوق، ومدرسة الناصر محمد، ومجموعة السلطان قلاوون، وجامع القاضى يحيى، وأم الفلاح، وقاعة محيى الدين أبو الصفا، وحمام السلطان دانيال ومتحف النسيج الإسلامى، ومجموعة أسبلة محمد على، والسلحدار، ونفيسة البيضا .

فى هذا المكان عاش أهم المؤرخين فى العالم العربى والإسلامى، المقريزى، وابن إياس، وابن تغرى بردى.

كيف إذن أهملت الدولة كل هذه الكنوز، فاحترقت المسافر خانة. وقبل ذلك زلزل زلزال أكتوبر ١٩٩٢ كيان المنطقة بأكملها وأسقط وخرب بيوتاً، ومساجد، وآثارا إسلامية كثيرة نادرة، فقد فقدت مصر فى هذا الزلزال أكثر من ٥٠٠ أثر إسلامى، ضاعت واختفت تماماً، وأصبحت خرابات، قبل أن يتم حرق المسافر خانة ١٩٩٨.

أضحت أهم منطقة أثرية إسلامية فى العالم خراباً ينعق فيها البوم طوال أكثر من أربعين عاماً، ولا يكفى ما قامت به هيئة الآثار من ترميم لشارع المعز، فما زالت المنطقة فى حاجة لنفض كل هذا الغبار عنها.

وإذا كان الغيطانى استرجع المسافر خانة من الذاكرة، فإن تناولى لهذا الكتاب دعوة لإعادة بنائها، ولن نعدم الحصول على تصميماتها المعمارية حتى بالتخيل القابل للتنفيذ ولو جيشنا عشرات المعماريين لاستعادة هذه التصميمات من الذاكرة والمبانى المشابهة والقيام بتنفيذها، فقط لو صدقت النوايا، وكان هناك بالفعل من يحرص على إحياء هذا الأثر المعمارى الهام، وغيره من آثار، وفى هذا السياق فإن للتنسيق الحضارى دوراً هاماً حيال هذا الأمر.

تاريخ من الحرق

سجل الحرق الثقافى المصرى على مر التاريخ فاق الخيال، لأنه تنوع بين مبان معمارية أثرية تاريخية مذهلة وبين حرق الكتب والوثائق، والذاكرة، وأشرطة الأفلام والمتاحف ومن حرق المبانى، ثقافية، تاريخية أخرى، تسجل وتؤرخ لحقب كثيرة مرت على هذا المبنى تحديداً أو على مبان أثرية أخرى.

وحرق المبانى لم يكتف بحرق المعمار والحوائط والأسقف والأبواب والشبابيك، وغيرها من المفروشات فقط، بل حرق تاريخ لحقبة مرت على هذا المبنى أو ذاك لمدد سنوات عديدة تصل إلى خمسمائة عام مثل المسافر خانة أو مائتى عام أو مائة عام من التراكم الثقافى والمعرفى، تواريخ اقتصادية، سياسية، ثقافية، حضارية، تستطيع من خلالها أن تعرف إذا كانت هذه الفترة فترة ازدهار، اقتصادى، ثقافى، سياسى واجتماعى، وعلمى، أم أنها فترة ضحلة.

وهذا الحريق يفتح ملفات كثيرة من الإهمال والتسيب، بالتعامل مع المؤسسات والآثار الهامة والحيوية فى مصر بطريقة يمكن تدريسها فى المعاهد، الجامعات، باعتبارها أسوأ طريقة يجب تجنبها.

كما يعيد ذاكرة الحرائق الكبرى التى جرت من قبل، والتى حدثت من بعد، تلك التى اندلعت، وشملت كل أنحاء الوطن إلى الدرجة التى رصدت فيها الأجهزة المعنية أكثر من ثلاثين ألف حريق فى الأعوام السابقة، وكان الجناة عادة مجهولين.

والغريب أنه لم يوجد أى حريق فى أى مبنى أثرى تمت السيطرة عليه، قبل أن تأتى النيران عليه تماما، ولا تجد النيران ما تأكله.



وقد وضح أن كل المبانى الأثرية التى دمرت حرقاً جسدت صورة القاهرة الحديثة التى أعطت ظهرها لقاهرة المماليك، ما عدا المسافر خانة، حيث كان من الصعب على عربة تجرها جياد أن

الخط أحد الفنون العربية التى لجأ إليها المعمارى لإشاعة البهجة فى التصميم الداخلى والقدرة على التوازن والاستقرار



تسير فيها، وحيث كانت أكوام القمامة هى العلاقة المميزة لها، وحيث كان يزورها الطاعون مرة كل عشر سنوات ويسحق عدداً هائلا منها.

وكان لضيق الشوارع، والأزقة، فائدة أمنية معروفة، خاصة المتاهات التى لا يعرف الهروب منها إلا ابن المكان، الدارس له، وكانت مصيدة لأى غريب يحاول أن ينتهك خصوصية المكان فالناس تعرف بعضها بعضاً.

ومن حقنا أن نتساءل بناء على تواريخ الحرق التى اجتاحت الوطن فى هذا الأوان كم مبنى مرشحاً للحرق فى هذا الوطن، وهل للمبانى التى احترقت أية أهمية فى نظر القائمين عليها؛ المسئولين عنها؛ إذ تحتوى القاهرة وحدها على أكثر من ثلاثة آلاف مبنى أثرى تاريخى.

وهل يستطيع عاقل أن يستوعب ما حدث عندما انتزعت أهم عناصر الحليات العربية الإسلامية من المسجد الجامع، الأزهر الشريف، عندما أخذت وزارة الإسكان على عاتقها ترميمه، دون إبداء أية اعتراضات من هيئة الآثار، وبفضل هذا الترميم أخرج اليونسكو الأزهر الشريف من نطاق المبانى الأثرية.

نفس ما حدث للأزهر يحدث الآن للمبنى المعمارى الأثرى محطة السكة الحديد، غير الموجود له أى مثيل فى العالم، مثله مثل آثارنا المعمارية الإسلامية جميعها، فى جميع أنحاء الوطن.

لقد اجتاحت الوطن سلسلة من التخريب والحرائق، إن لم تعبر عن تعمد وفساد فإنها تعبر عن جهل فاضح، ورؤية عدم وعى المسئولين بأهمية ما نملك، من تاريخ وحضارة وتراث، وأن هناك تساؤلات، واتهامات لجهات بعينها، ومعتقدات دينية بمتابعة هذه الآثار، والتخلص منها، من التواريخ، والحضارة، والتراث حتى يستفيد البعض من مواقع هذه الآثار النادرة، والتخلص من التفاخر والتباهى بها فى الآن ذاته، حتى لا يبقى لنا تاريخ، حتى يمحوا آلاف السنين من حضارتنا.

سلسلة من الحرائق تعبر تعبيرا دقيقاً عما وصل إليه حالنا فى جميع مناحى الحياة من انهيارات، وتسيب، وعدم مسئولية.

أهمية المسافر خانة أنه أثر معمارى، تاريخ إسلامى نادر، جعله محمد على مكاناً مخصصاً لاستقبال كبار زوار مصر من دول العالم لفترة طويلة.

كان يضم نماذج مختلفة، ومبهرة، لفنون العمارة العربية، والإسلامية من الأرابيسك والرخام، والفسيفساء، والزجاج الملون بشكل ينسق مع ارتفاعه الكبير ٢٢ متراً. يحتوى على الأنواع المتعددة من الخطوط، التى تزين كامل المبنى، معبرة عن الرضا والشوق والسكينة، فى إيقاع بصرى مريح للقلب والعين، تسر الخاطر، وتبهجه، وتفرحه، وتعطيه الأمل والرغبة فى الحياة.

دخل قصر المسافر خانة اهتمام الدولة عام ١٨٩٧، عندما سجلته لجنة الآثار العربية وتم ترميمه لأول مرة عام ١٩٢٨.

وقد قالت الجهات الرسمية إن النار أتت من القمامة التى كانت بالقرب منه وقام الأهالى بإشعالها للتخلص منها.

كيف أصلا يكون هناك أثر بهذه الأهمية وإلى جواره كل هذه الأكوام من القمامة، لكن الأهالى يقولون إن النار جاءت من داخل المسافر خانة، وإنهم من أيقظوا الحارس لينقذ نفسه وحتى يبلغ الجهات المختصة.

لم تستطع سيارات الإطفاء إنقاذ شىء من الأثر وأتت النيران عليه كاملا، ولم يتبق منه الآن إلا بقايا بلون الرماد.

وقد هاجم الشرفاء من المثقفين السياسة الأمنية لهذه الثقافة المتصدية للحفاظ على الآثار، وقد اتهموا هيئة الآثار بالتراخى وعدم الجدية فى الحفاظ على الآثار، وعدم حماية وتأمين مثل هذه الأماكن الأثرية بالشكل الأمثل. ووعود حكومية بعدم تكرار الأمر، وبدا أن مرض حرق الآثار ليس سياسياً، لكنه مرض ثقافى فى المقام الأول.

كان هذا القصر يعانى من الإهمال الشديد منذ زلزال ١٩٩٢، تم صلبه تمهيداً لترميمه، إلا أن الإهمال والحريق وصل إليه أثناء الترميم وبسبب استخدام المياه فى عمليات الإطفاء تهدمت حوائط القصر الأثرى، وما زال أنقاضاً.

ولقد شهدت الآثار الإسلامية عدة حرائق، فقد حرق سبيل قيطاس بالجمالية فى شهر مارس ١٩٩٩، وفى نفس الشهر وقع حريق فى ورشة أخشاب فى الفناء الداخلى لسقيفة رضوان بالمغربلين المعروفة بقصبة القاهرة.

وفى أوائل الألفية الجديدة وقع حريق بوكالة بازرعة بشارع المعز لدين الله الفاطمى.

وعند احتراق مجلس الشورى، كانت هناك التصميمات المعمارية الإنشائية لهذا المبنى، ولقد احترقت هذه التصميمات أيضاً ضمن ما احترق من وثائق ومحاضر المجلس، لكن مبنى المجلس مازال موجوداً ويمكن رفع المبنى، وإعادة الرسومات والتصميمات من الطبيعة، رغم أن التصميمات الداخلية والحليات النادرة دمرت تماماً.

أما فى حالة المسافر خانة فلم تكن هناك تصميمات معمارية، وقد تهدم المبنى عن بكرة أبيه فهل باستعادة المسافر خانة من الذاكرة نستطيع «أن نحدد الوظائف العضوية للتصميمات المعمارية الداخلية حتى يمكن إعادة بنائها.. كما وعد الوزير، الذى قال إن المثقفين عماليين يندبوا على خرابة»، ثم واصل سنبنى لكم غيرها.

نفس ما قاله عن الأوبرا القديمة التى قال عنها أنها شوية خشب بغدادلى وحرص فى كل تعديل وزارى أن يقدم رسومات تصميمات دار الأوبرا المحترقة مكان الجراج، بصفته أنه سيقوم بهدم الجراج، وإعادة بناء دار الأوبرا الخديوية بشكلها وحالتها القديمة كمشروع قومى، وهو ما لم يحدث حتى الآن، وكان من الأهمية البعد عن هذا الجو، لأن كل مختلف معهم بالضرورة هو عدو، هم الذين يتحدثون عن الحوار المفتقد مع الآخر، إلا شارع المعز، وبقى لى أمل واحد فى هذه الحياة، أن أرى المتحف الكبير، متحف العالم قائماً.

الأوبرا الخديوية

هى المكان الذى أراد له الخديو إسماعيل أن يكون معبراً عن واجهة مصر الثقافية فى عصره، لتقدم فنون الموسيقى والمسرح والأوبرا الرفيعة، اقتداء بالدول الأوربية، كانت ثانى دار أوبرا فى العالم بعد الأوبرا الإيطالية.

وكانت قد اندلعت فيها النيران فجأة فى ١٩٧١/١٠/٢٨ بعد ١٠٢ عام على تأسيسها ولأسباب مجهولة حتى الآن، كان المبنى بالكامل من الخشب البغدادلى، الأمر الذى ساعد على انتشار النيران بسرعة كبيرة.

احترقت كل مقتنيات الأوبرا الثمينة من لوحات فنية، وأصلية، وآلات ونوت الموسيقا التى تركتها الفرق الأوربية تذكاراً، وتقديراً للمكان، ولم يتبق من كل هذا سوى تمثال نهضة الفنون للفنان المصرى محمد حسن، التمثال الذى كان موضوعاً على مدخل الأوبرا، فلم تطله النيران التى بدأت من الداخل، حتى أتت عليه كاملا.

تم افتتاح دار الأوبرا قبل افتتاح قناة السويس فى ١٨ نوفمبر ١٨٦٩، لكن أول العروض التى شهدتها تأجلت إلى ما بعد ذلك بعامين لأن اسماعيل كان يريد لها افتتاحاً مبهراً، يتناسب مع شكلها المعمارى الرائع، بعدما استعان بمصممين ايطاليين، الموطن الأصلى لفن الأوبرا.

حرص أثناء التصميم على القيام بتخطيط ميدان فسيح أمامها، منتظم الزوايا، وضع





Jean-Léon Gérôme, 1824 - 1904,
Harem Women Feeding Pigeons in a Courtyard

فيه اسماعيل تمثال أبيه ابراهيم باشا بعد أن نقله من ميدان العتبة.

حضر الاحتفال بافتتاحها الذى واكب افتتاح قناة السويس ملوك أوربا ورؤساؤها،بتاريخها الذى سجلته بفنها، بحضارتها، انتصارات الوطن وانكساراته، لذا عم الشعب المصرى حزن عميق لاختفائها من خريطة القاهرة، وكان المصريون يبكون أمام المشهد الرهيب، حتى من لم يدخلوها فى حياتهم، ولا يعرفون ما يقدم فيها من فنون.

إننى آمل أن يفهم المسئولون قيمة هذا الصرح الفنى الراقى الذى كان موئلا لكل فرق العالم، والذى كنا نباهى به العالم،بأنه معلم من معالم القاهرة.

وقد ارتبط افتتاحها بافتتاح أعظم ممر مائى على مر التاريخ، وحتى الآن، وأن دماء ما يقرب من مائة وخمسين ألف مصرى أريقت فى حفر قناة السويس مرتبطة بتواريخ بناء هذه الأوبرا ، فهل كانت مجرد خشب بغدادلى؟ أم كانت كل هذه التواريخ، من الافتخار والعزة والحضارة والمباهاة والريادة.

إن التاريخ لا يشترى، التاريخ له رجاله الذين يصنعونه، إذ إنه حروب وانتصارات وانكسارات، وتقدم، وبناء، وعرق، ودم، وتراث متراكم من المعارف والثقافات والأزمنة، ولن نلقى تبعة مسئولية حرق الأوبرا على عاتق هذه الثقافة أو تلك التى أخذت على عاتقها إعادة هذا الأثر لسيرته الأولى الذى هو حلم آمل أن يتحقق مثله مثل المسافر خانة.

الشورى

كان الحزن صادمًا، والدموع تتساقط من أعين الشعب، عندما احترقت دار الأوبرا فى ١٩٧١، وكانت مفارقة عجيبة عندما احترق مجلس الشورى، إذ عبر الجميع عن منتهى الشماتة فى المجلس وأعضائه، وداعين على مجلس الشعب، ومجلس الشورى بمن فيه، بالموت والتدمير حرقًا، مثلما دمروا البلد ونهبوه.

مبنى مجلس الشورى نموذج معمارى فريد يعود تاريخ بنائه إلى عصر إسماعيل، أسقفه وأرضياته شيدت من الخشب، وتصميمه وطرازه المعمارى يرجع إلى فترة عصر النهضة، كما قالوا، إلا أنه يمثل عدة طرز معمارية فريدة، ويعد أحد المبانى المعمارية النادرة، الذى يعبر تعبيراً دقيقًا عن فترة من أزهى الفترات التى مر بها الوطن.

وإن ما جرى فى حريق مجلس الشورى يمكن أن يكون بروفة لحريق كبير يمكن أن يشعل قلب القاهرة، ووسط العاصمة من أصغر شرارة.

وإن كارثة هذا الحريق أن هذا المبنى يمكن أن يكون رمزًا لإرادة الشعب، فى مواجهة الحاكم، فهل كان المطلوب أيضًا القضاء على هذا الرمز العلمانى، هذا الرمز «مجلس الشورى» الذى شهد محاكمة أحمد عرابى ورفاقه بعد هزيمة التل الكبير، واقتضت محاكمة عرابى جمع العديد من الوثائق بمراحل الثورة العرابية، التى اعتبرت دليل اتهام ضد عرابى ورفاقه.

إن كافة الوثائق المتعلقة بالحياة النيابية المصرية، منذ أول مجلس تشريعى تشكل سنة ١٨٦٦ كانت بمقر مجلس الشورى المحترق رغم أن القانون يفرض أن تكون هذه الوثائق لدى دار الوثائق القومية.

وقد تدوولت أحاديث كثيرة عن مصلحة رجال أعمال هذا الأوان فى حرق هذه المبانى الأثرية. خاصة مجلس الشورى، لما يمثله موقعه الهام ومساحته الكبيرة وهدم المبانى التاريخية القديمة التى تمثل أماكن هامة فى القاهرة ومساحتها لاستغلالها فى المبانى التجارية، والصفقات العقارية التى تدر المليارات.

المسرح القومى

إن مسلسل الحرائق يواكب ثقافة ترفض وتناهض التراث وتزدريه، وتريد إلغاءه لصالح ناطحات السحاب، تلك التى هى أهم من الحفاظ على الآثار، والكنوز المعمارية القائمة، والتى تأكدت نظريتها وفلسفتها فى الأوان الأخير، عندما عرضت للبيع عمارات وسط البلد الأثرية والتاريخية.

وهل هناك مغزى أخلاقى خاص لحرق صرح ثقافى وتنويرى وفكرى مثل المسرح القومى الذى على بعد خطوات منه مركز إطفاء العاصمة؟ مثله مثل الأوبرا تماما.

وقد رأت الجماعات الإسلامية فى حرق المسرح القومى مكان اللهو والتهتك، غضبًا من الله، وعقابًا.

هذه الجماعات عينها غير مبرئة من حرقه، تلك التى أقامت مسجدًا بجوار المسرح القومى، ولا يستبعد أن تكون أرادت توسيع المسجد فخربت المسرح، علمًا بأن المسجد أقيم عنوة بدون ترخيص، بوضع اليد على مساحة فى حديقة تابعة للشعب، بطريقة الابتزاز والبلطجة، وهل يرضى الإسلام بذلك؟

قصر الجوهرة

هذا القصر تعرض لحرائق عديدة كان آخرها عام ١٩٧٢ وهو أكبر الحرائق التى دمرت الأثر، الذى كان يحتوى على مجموعة من التحف النادرة، والأثاث الفخم، ورغم كل أعمال الترميم التى تمت، وتكلفت الملايين من الجنيهات إلا أنه لم يرجع إلى أصله.

هذا القصر الذى كان يقع فى الجهة الجنوبية الغربية من القلعة، والذى قام ببنائه محمد على باشا، على أنقاض عدد من القصور القديمة.

وكان مقرًا للحكم منذ إنشائه عام ١٨١٤، وكان يتميز بمجموعة من القاعات والغرف التى زينت جدرانها وأسقفها بنقوش وزخارف مذهبة من طراز الركوكو الذى يتميز بالوحدات الزخرفية المتكررة، والمناظر الطبيعية.

وأتذكر كيف انبهرنا بمراياه البلجيكية العريضة والمرتفعة والتى تغطى كامل الحوائط عندما زرناه فى رحلة مدرسية فى الستينيات.

تواريخ من الحرق لمبان منتقاة ذات مفهوم محدد فى عمق الشعور المصرى، مرجعه الإهمال، غياب التوقع، الاستسلام، الاسترخاء، عدم الشعور، عدم الإحساس، التبلد، خفوت الطاقة ووهنها والرغبة فى عدم العيش فى أى نوع من أنواع الخطر، جشع رجال الأعمال، الجراد الجديد الذى يأتى على الأخضر واليابس.

وقد تناولت فى كتابى «ثقافة الهزيمة» محرقة مسرح بنى سويف ولن أكرر وأعيد تناولها، لأن حرق جيل كامل من المسرحيين يجلل رءوسنا جميعًا بالخجل والعار إلى الأبد.



وهل نتناول حريق القاهرة إبان ثورة يوليو، الذى أدى إلى إسقاط حكومة الوفد الشعبية، وإنهاء المقاومة الشعبية فى القناة، أى أنه استخدم أساسًا فى التخويف من الحريات ومن الديموقراطية.

وهل نتناول حرائق القلعة، والمتحف المصرى، ومكتبة الإسكندرية، هل نتناول المحارق المتعددة للقطارات، هل نتناول محرقة العبارة، أم أنه بناء على ذلك علينا أن ننبه بأننا فوق بركان قادم من الحرائق للوطن بكامله.

استعادة المسافرخانة

عندما انفجرت الثورة الأمريكية ضد بريطانيا كانت هناك مدينة صغيرة تسمى «وليامز برج» هى القلب النابض، والمحرك للثورة، خرج منها كل الثوار، وقد اندثرت البلدة الصغيرة مع الزمن وضاعت معالمها وأهميتها، ثم شب حريق كبير فى البلدة المهملة فأتى عليها، ومر على ذلك وقت طويل اختفت فيه القرية تقريبًا من خريطة الولايات المتحدة، ويقول المفكر والكاتب الكبير أحمد بهاء الدين فى كتاب أعده الناقد عبد الرحمن أبو عوف لجهاز التنسيق الحضارى: بعد هذه الأحداث بما يقرب من مائتى سنة أى منذ ٢٨٠ عاما تقريبًا من الآن ظهرت فى الولايات المتحدة فكرة لبعث هذه القرية من جديد، لهذه القطعة من الأرض؛ التى تحمل أعز ذكريات البلاد، فلا يجب أن تبقى هكذا مجرد أرض جرداء. ليس فيها سوى أنقاض المبانى وأشجار الغابات، وكان ذلك فى الفترة ما بين ١٩٢٥ - ١٩٤٥، وعلى مدى عشرين عامًا.

وكانت الفكرة هى إعادة البلدة إلى ما كانت عليه أيام الثورة بالضبط، ليس فى المبانى فقط، لكن حتى فى طريقة الحياة. كان المطلوب أن تعود المدينة ببيوتها، ومبانيها الرسمية، وسكانها، وملابسها التاريخية ودكاكينها المشهورة، تمامًا كما كانت منذ تاريخ احتراقها.

وقد أعدوا مركزًا هائلا اسمه «مركز وليامز برج السياحى» فيه كل البيانات والصور والمعلومات عن هذه المدينة، فى هذا المركز عينه يعرضون كل ساعتين فيلما تدور قصته حول البلدة وحوادث الثورة فيها كما حدثت، بكل شخصياتها وأقطابها وأماكنها، فيلمًا تاريخيًا ملونًا، يراه الزوار قبل أن يزوروا مواقع الأحداث.

وقد تكونت لجان ضخمة من المؤرخين والمهندسين، والمنقبين، وأنفقت هذه اللجان سنوات فى البحث والتنقيب لكى يعرف الزائر كيف كان كل شىء فى البلدة أيام الثورة.

كانوا يبحثون عن مكان قصر الحاكم

هل هناك مغزى أخلاقى خاص لحرق صرح ثقافى وتنويرى وفكرى مثل المسرح القومى الذى على بعد خطوات منه مركز إطفاء العاصمة؟



البريطانى، ثم يبحثون عن رسومه الهندسية الكاملة، ثم تصميم الأثاث الذى كان موجوداً فيه، الصور والتماثيل والزخارف، لون الجدران والستائر، تصميم الحديقة، حتى المطابخ وحجرات الخدم واسطبلات الخيل.

ويقول بهاء المفكر، صافى العقل، مرتب التفكير، منظمه، إنه فى سبيل تجميع هذه المعلومات كانوا يسافرون إلى لندن ليبحثوا فى السجلات هناك، ويعودوا إلى الصور والوثائق، وكل ما يمكن العثور عليه، حتى إذا أقاموا مبنى قصر الحاكم البريطانى من جديد أعادوه كما كان بالضبط، وفى مكانه بالتحديد، ولقد استمر هذا الجهد لمدة عشرين عاماً.

وبهذا المجهود العجيب أقاموا قصر الحاكم العام، ومبنى الكونجرس الصغير، والحانة التى كان يلتقى فيها جورج واشنطن وجيفرسون، ثم أقاموا مكتب البريد، ومطبعة الصحف والمطاعم والحانات الرئيسية، والسجن، والمقصلة، ومقر الحامية العسكرية، ثم أقاموا بعد ذلك عدداً كبيراً من البيوت والمساكن، كما كانت بالضبط، ثم أقاموا الدكاكين الرئيسية كما كانت.. الحداد، والنجار، والصائغ والفرن والمطبعة ومحل الأزياء باعثين فيها الحياة. مدينة كاملة تم بعثها من العدم.

بهذه المفاهيم عن أهمية الآثار والتاريخ والتراث أعاد الأمريكيون تاريخهم واعين بأهمية هذه الأمور الهامة والمنعطفات التاريخية فى تاريخ الشعوب.

كذلك فإن مثقفاً وروائياً مصرياً مهموما قرر أن يأخذ على عاتقه استعادة المسافر خانة من الذاكرة، فماذا فعل بمفرده؟

إننا فى حاجة إلى هذه الآثار التاريخية التى تكون شخصيتنا على مدى التاريخ وترميمها وتحويلها إلى أماكن يرتادها الناس، ويستعملونها، ويعيشون جوها التاريخى يتأثرون بعظمة الأجداد، لا مجرد كهوف خاوية مظلمة، مثلما فعلت هيئة الآثار عندما استعادت شارع المعز، ورممت أكثر من ٤٢ أثراً، وأعادتها إلى سيرتها الأولى.

قام جمال الغيطانى باستعادة المسافر خانة على الورق، فحفظ المبنى من الاندثار، وأنه يمكن الرجوع إلى كتابه هذا فى حالة ما إذا قررت الثقافة إعادة بناء المسافر خانة.

وفى صبح الأعشى يقول القلقشندى «الكلام فى منزلة الهواء يمكن أن يفنى ما لم تقلده الكتابة، وإذا كانت الرواية المقروءة تكتب التاريخ فإن العمارة أيضاً تكتب التاريخ.

عندما علم بحرق المسافر خانة أصابه كمد عميق، رغم أنه فى حالة دائمة من التوقع لكل ما هو مزعج بالنسبة لآثارنا والتى كما يقول الغيطانى لم تعرف هوانا، ولا إهمالا كما جرى لها خلال السنوات الأخيرة.

فى ظنى أن كتاب المسافر خانة شفاه من وهم التخيل بإمكان أن يجد هذا البناء قائماً ذات يوم، وأنه لا يصدق ما حدث، وأنه سيمضى إلى درب الطبلاوى وإلى مدخلها الجميل، عابراً إلى الفناء الداخلى، حيث الفن والتاريخ النادر، واللحظات الآفلة، بأصواتها النبيلة.

ارتبط هذا المبنى بطفولة وشباب المؤلف، أفق حياة، أقدم لحظات حياته، ولقد وعى بأن هذا المبنى لا مثيل له، أول رؤيته له مبنى هرمى الشكل من الخشب، وعرف فيما بعد أن هذا جزء من بناء قديم اسمه المسافر خانة، وأن هذا الجزء اسمه «ملقف» فى الطفولة تتضخم الأشياء، المبانى، والشوارع، حتى الأشخاص.

المبنى مثير للغموض وللخيال، مهجور، خاو ليلا، ممرات تحت الأرض، أخشاب لا نظير لها، كتابات سحرية فوق الجدران.

هذا البناء الفخم، الضخم، ذو الأسوار العالية، له مدخل لا يكشف عما يحتويه الداخل، تحتفظ بالماضى الذى يندثر ويولى.

كان ارتباطه منذ البدء بهذا المبنى الذى يقع فى قلب القاهرة القديمة ارتباطا بأثر رجعى، يراه يضارع الحمراء، وإيوان كسرى، وطوب قابى سراى، وصوله باشا.

الحنين والفقد إلى المبنى اعتبره الكاتب فقداً لمراحل من عمره الشخصى، فلجأ إلى الذاكرة، التى أسعفته، ربما لتراكم المشاهدات والحنين، وحفر التفاصيل فى الذاكرة التى حاول من خلالها استعادة أشكال الجدران والأسقف والمشربيات والزمن اللا مرئى والمعنى الخفى.

مبانى المكان المحيط مؤرخ لرجال الثورة الذين وقفوا فى شرفة أحد البيوت وخطبوا وأثاروا الانتباه.

بالقرب منها ولد عبد الوارث عسر، يسجل الروائى بتفاصيل دقيقة أسماء بيوت وحوارى، ودكاكين، وأفران، وباعة، أماكن ضيقة حميمة ، يعرفون أى غريب يدخل إليها، اكتشاف المجهول الذى لا يبعد إلا أمتاراً عن البيت.

يتذكر أن جدران المسافر خانة رمادية، عالية، مدخلها المواری «المنكسر» حسب التعبير المعمارى الذى لا يكشف من بالداخل.



وقد لاحظ أن فى القاهرة القديمة يتجاور القصر، والربع والحوش، نجد الأشد ثراء بجوار الفقير والدرويش وابن السبيل، وأزمنة ترث الأزمنة.

لكن هذا المكان وجد بين قصرين، القصر الشرقى الكبير، والقصر الغربى، وفيما عرف ببين القصرين، قصر المعز لدين الله الفاطمى، وقصر المعز الثانى الأصغر منه، وهذا المكان فى ذلك التاريخ هو نواة القاهرة الفاطمية.

وقد بدا أن الآثار المعمارية الإسلامية بما فيها المسافر خانة، نالت قسطاً من الإهمال على مدى تاريخها، فالمسافر خانة بدا عليها الإهمال فى نهاية الستينيات قبل أن يهتم بها ويرممها ثروت عكاشة، بطريقة علمية، هى وآثار معمارية عربية أخرى.

نوعيات من الأبنية غير المتشابهة، المتعددة، تدخل فى التخطيط، الخوف من الهجمات التى تعددت على أزمنة متغايرة، التخطيط، والفنون، الواجهات، المشربيات، المداخل المنكسرة، الحانات، الوكالات، البيمارستانات وغيرها، تلك التى لا نستطيع أن ننزعها من الذاكرة، لذا كان قصر المسافر خانة أحد أهم المراكز المكونة للقاهرة الفاطمية، بأسواره المرتفعة، ولونه الرمادى القاتم الذى كساه الحجر المنحوت، وعلى مدى التاريخ لم يستطع أحد قراءة التفاصيل الداخلية للمسافر خانة إلا إذا دخلها، ولم يكن هذا ممكنا، فأقام السكان علاقة مع الذكرى، مع الحيوات التى كانت واختفت، ولأن التفاصيل لم تكن معروفة لذا نشط الخيال، وتوالدت التفاصيل والحكايات.

فمن الذى شيد هذا المبنى الغامض، تضاربت الأقاويل، لكن هناك إجماعا عند البعض على أن محمود محرم شهبندر تجار القاهرة هو الذى شيد هذا القصر أو الوكالة فى تسمية أخرى، وهى تسمية دقيقة.

فى ظنى أن هذا الكتاب هو صورة للحياة الاجتماعية فى الوسط المحيط بقصر المسافر خانة، هو القبض على اللحظة الحميمية فى حياة المؤلف، فى هذا الأوان، هو استعادة هذه الحميمية والألفة العائلية، وأن المسافر خانة تكئة لاستعادة كل هذا، لاستعادة الشباب والزهو المنقرض.

المكان إذن لا ينفصل عن الوسط المحيط، ذاكرة المكان، ذاكرة الموقع وبقدر حزن الكاتب على فقد المسافر خانة كان حزنه أيضاً على أن هذا الدرب الذى نشأ فيه، قد فقد هو الآخر جزءاً رئيسياً من ذاكرته، وفقدت القاهرة القديمة مركزاً للإشعاع، وبث الخصوصية.

إنما المكان أيضاً من الذاكرة، أقسامه تبدو



Frederick Arthur Bridgman (1847 - 1928)

منفصلة، متصلة.. هل يقصد بالأقسام التصميم والتوزيع الداخلى المعمارى للمكان. وسقف المسافر خانة من الذاكرة مغطى بالخشب تختلف الزخرفة من موضع إلى آخر.

فى المبانى العربية القديمة ثمة أحواش «باثيو» لاتصال الأرض بالسماء والاتصال بالخالق، هذا ما قال عنه «ثمة مساحات تنفذ مباشرة إلى السماء، مصدر الضوء والتهوية».

يحتوى المكان على قاعة المجد، سقف من الخشب، الزخارف واضحة، تكوينات بديعة تستوحى الكون من مجرات وأفلاك سابحة ونجوم.

تستعيد الذاكرة الجدران والمشربيات، ومقاعد الرخام الملتصقة بالجدران. وموائد الرخام الملون الأبيض، الأسود، الأحمر.

كان الطعام يوضع فوقها، فى الأسفل جمرات الفحم مشتعلة، الحلوى من كل صنف.

نافورة كانت مصنوعة من الرخام الملون، يتدفق منها الماء فى الصيف لترطيب الجو، يستعيد القبة، الشخشيخة، التى كانت تتوسط قاعة المجد التى كانت متحفًا حيًا لفنون الخشب والرخام والضوء، والخط، هذه هى علاقة العمارة بالفنون موضحًا أنه فى المسافة ما بين الأرض والسقف حزام من خشب حول البيت كله، ربما لحمايته، عليه كتابة هى قصائد من الشعر «البردة»، أبيات رقيقة نادرة.

بتفاصيل أكثر دقة يتذكر السقف، تواريخ الأسقف، أشكالها منذ الفراعنة. رابطًا بينه وبين السمائى، من خلال اللون، أو ذكر النجوم صراحة، أو تلميحًا من خلال المقرنصات أو الحشوات أو الأشكال الهندسية الموحية، المطابقة أو القريبة.

السقف متنوع وممتد عبر العمارة العريقة، وكانت المسافر خانة متنوعة الأسقف لا يشبه أحدها الآخر. مركزها جميعًا سقف قاعة المجد، قبة خشبية، تتوسطها نجمة مثمنة بغدادية تحيط بها أشكال هندسية متداخلة، تؤدى إلى أنصاف قباب محيطة، أيضًا ثمانية.

يقول الغيطانى إن الثمانية رقم مقدس، إذ يرمز إلى أبواب الجنة، وهذا التكوين، فهل هو كذلك أم أنه الرقم سبعة إذ للجنة سبعة أبواب كما يعتقد البعض.

يذكر أيضًا أن هذا التكوين كان يتخلل فراغاته زخارف ورقية مستوحاة من الغصون، وتداخلها، والزهور.. هذه الفنون، وهذه التفاصيل الدقيقة هى العلاقة بين العمارة وبين الفنون التى تستطيع العمارة أن تستوعبها، أيًا كانت، بما فيها الرواية ذاتها.

لأنه بدا لى وأنا أقرأ هذا الكتاب كما قلت من قبل أننى بصدد عمل روائى متخيل له تكئة من الواقع، قد تخون الذاكرة أحيانًا، وقد يمتلئ المكان بنوع من الخيال الروائى، يقوم بملء فراغ الواقع الحقيقى غير المتذكر.

تلك الوحدات الزخرفية النجمية كانت من العاج المحفور له مكان فى الخشب من سن الفيل، عظام الجمل، أو الجاموس.

وهناك تكرارات كثيرة خاصة موضوع الماء والنافورة، وقد ذكر هذا فى أكثر من موضع، يرى المؤلف، وهى رؤية صائبة أن المسافر خانة لم يكن مرجعًا للفن المعمارى العربى الإسلامى فى مصر فقط، إنما كان ذاكرة للرؤية الفنية، ولولا المعمار لاندثرت الأفكار، والصياغات المؤدية إلى تجسيد النظرة التى كان يتطلع من خلالها القوم إلى الواقع اليومى، وقد عبر المعمارى المصرى بكل تراثه المتعدد أيضًا عن الاختلاف، فوقفنا أمام مستويات متعددة لأرضية المسافر خانة، إذ إن لقاعة المجد خمسة مستويات ظاهرة للبعض بمجرد عبور الباب.

الخط أحد الفنون العربية التى لجأ إليها المعمارى لإشاعة البهجة فى التصميم الداخلى والقدرة على التوازن والاستقرار، فارتبط هذا الفن بالعمارة وازدهر، ولو لم تكن هناك عمارة لما كان هذا التنوع المتعدد والمتفرد للخطوط على تلك المساحات الشاسعة عرضًا وطولا، مساحة وسقفًا، فأينما تكون فى أى مبنى أثرى خاصة المساجد يمكن أن تكون هناك خطوط متنوعة، تفنن الخطاط العربى فى تنسيقها مثلما حدث فى تاج محل مثلا.

يستنجد الروائى بالذاكرة ليروى حرف الخط، متوالية، متتابعة، متعانقة، مشتبكة متلاقية، متفرقة، صاعدة، هابطة راكعة.

وقد ارتبط الخط العربى بالآيات القرآنية، وإنك إذا رأيت جداراً رسم أو حفر عليه خط تدرك على الفور أنه عربى إسلامى فى الآن ذاته، وستجد دائمًا أنه أعلى من قامة الإنسان وأنه يتضاءل أمام الآيات التى تجبره طريقة كتابتها على النظر إلى أعلى.

الفن إذن ليس إلا وسائل للتعبير والتقرب وتجسيد العبادة من خلال العمارة ذاتها التى تذكر بأقواسها، ومقرنصاتها، وزواياها، سنونها، كوابيلها، مداخلها المنمنمة المكتوب عليها عبارات الهدوء والسكينة.



فى هذا المكان امتزجت آيات الخط العربى بالآيات الإسلامية بالشعر الذى ملأ المكان بالعمارة، بكل لحظة فى حياة البشر، كان الشعر جزءاً من العمارة القاهرية.

وقد استدعت الذاكرة فيما استدعت الأبواب المختلفة والمتعددة، تلك التى كانت وسيلة أيضًا لحفر الآيات القرآنية عليها والأشعار، وقد استعرض الأنواع المتعددة للأبواب، وقد أعدت «أخبار الأدب» التى يرأس تحريرها الغيطانى عدداً كاملا نادراً عن الأبواب لم يذكر فيه هذا الباب الوهمى الذى يطالعنا فى المقابر المصرية القديمة، والتى وصلتنا سالمة أو شبه سالمة فى سقارة وطيبة، وسائر أنحاء مصر، أبواب محفورة فى الجدران، مزخرفة، عليها كتابات مقدسة، رسوم تتصل بالعقيدة، وصاحب المقبرة، الباب الرمزى، الذى يقول كل شىء، ولا يفصح عن شىء، والذى لا يمكن اجتيازه إلا بالخيال فقط.

هناك تفاصيل لم يوضحها الكاتب ولم يذكرها أو يحددها، ومعلومات هامة، وهى مثلا ما هو ارتفاع المبنى، علمًا أن هناك مصادر أخرى ذكرت أن ارتفاعه اثنان وعشرون مترًا وقد ذكرت ذلك فى سياق هذه الدراسة. أى أنها حسب الارتفاعات المتعارف عليها حاليًا كان عدد أدوارها سبعة أدوار.

لكنه لم يوضح ذلك، ولم يوضح كم عدد الأدوار التى كانت موجودة حينذاك، لأن ارتفاعات الأدوار الآن تختلف عن ارتفاعات الأدوار عندما بنيت المسافر خانة.

ولم يوضح الأجنحة التى كانت موجودة، وعددها، وهل هى أجنحة دوبلكس أم أجنحة مفردة، لأن الدوبلكس تحتوى على سلالم داخلية كقيلا خاصة مثلا، وما هو عدد الغرف، وكم تشغل من مساحات المبنى سواء الغرف أو الأجنحة، وكم عدد القاعات، المطابخ، المطاعم، دورات المياه، صالات الاستقبال، والفسقيات، وما هى المساحة الكلية للمبنى، أطوال أضلاعه، علاماته المعمارية المميزة، بخلاف المشربية تلك.

مساحة قاعدة المجد الرئيسية التى تعلوها الشخشيخة، ارتفاعها، الباثيو الداخلى، الفضاءات، عدد المداخل، السلالم الرئيسية، سلالم الخدم، سلالم الهروب، عرضها ارتفاعات الدرج ونوعه، حتى يمكن مساعدة من يريد إعادة بنائها، وحتى نتخيل هذا الرعب الذى كان يعيشه فى صغره.

وقد أشار إلى الملقف وهو أحد العناصر الهامة فى العمارة العربية الإسلامية. وإن كانت إشارة عامة، وليس بتفصيل دقيق.

لكنه رسم تفاصيل المكان من ذاكرته، بشكل مكتوب، له مصداقية، خاصة أنه قضى جزءاً كبيراً من طفولته وشبابه وحتى الآن فى هذا المكان الذى كان يسكن بجواره، وأول ما يفتح عينيه، يراه، فهل تأخذ هيئة الآثار على عاتقها إعادة بناء المسافر خانة مستعينة برؤية وجهد المخلصين فى هذا الوطن. ■



Jean-Leon Gerome,Prayer on the Housetops, 1865

كتـــــابة عـــــلى الأرض

محـمـــــــــــد مســـــتجاب

■■ أربعة ظللت أخشاهم دهورا: سيدنا محمد عثمان شيخ الكُتَّاب، خالي أحمد خميس ناظر مدرسة النصارى، عفريت كان يداهمني بين ليلة وأخرى أثناء تسللي إلى غيط طماطم الجيران ليلا، وامرأة كانت تفتح عينها وترفع حاجبها تحديا وهي تخطو فوق العتبة لتدخل إلى واحد من أثرياء بلدتنا دون اهتمام بمشاعرنا، وخامسهم السعدني . محمود. هذا الذي جذب القصة من بين آهات يوسف السباعي ونوافذ حارة نجيب محفوظ وإنسانية محمود البدوي وحزن يوسف إدريس المرير، جذبها من شعرها. هذه القصة المكتوبة في الورق المسطور. وألقى بها على أرضية الشارع المكفهر، لتتلوى صارخة ضاحكة تتلاطم مع محلات الكفتة ولحمة الرأس والمبار ولفائف البطولة الصارخة الواهنة، وسحب اللغة الرصينة الدافئة المنظمة من بين جدران أساليب المنفلوطي وأمين الخولي وطه حسين، وخلع عنها أرديتها لتجري عارية واقعية في شوارع الجيزة والأحراش المبكرة لشارع الهرم، وجعلها . إن أراد أن تبدو لامعة. تجلس بعض الوقت تداعب بأقدامها الحافية تيارات ناعمة من مياه البحر الأعظم، ثم يسامر اللغة. آخر الليل. على قهوة كتكوت، لتفرز أنواعا من السلوك الواقعي الحقيقي لشعب ظل الكثير من المعبرين عنه يؤلفون له ما لا يعرفه . هذا الشعب. أبدا.

كنت ريفيا أتلهف على قراءة ما أستطيع الوصول إليه من أوراق، حينما عاد محمود السعدني من الجزائر لينشر تحقيقاته المتفردة عن ثورتها، ظل أيامها يثابر (يهابر أفضل) كي يجد طريقا للخروج عما هو معهود من السياق اللغوي والمعاني الجميلة، وخلال ذلك، أو قبل ذلك، قرأت له أقاصيص في مجلة التحرير أو الرسالة الجديدة. فيما أعتقد، وكان من بينها. والاعتماد هنا على الذاكرة الصبيانية الرائقة. قصة (جنة رضوان) التي حملت فيما بعد عنوان مجموعة كاملة، لكن الأخطر من كل ذلك أنه . بعد ذلك بسنوات. كتب روايته الحلوة الشائكة الواخزة: حتى يعود القمر، بالطبع كانت الرواية على غير النسق والمعاني المعهودة السائرة والسارية أيامها، فقد فتح السعدني بطن الواقع الذي كانت اللافتات والشعارات والمكتوبات من قصص ومقالات وروايات قد جهلته (لم أقل تجاهلته)، كانت حروب الفدائيين ضد الإنجليز في معسكرات القنال قد استولت. بطبيعة الأمر. على عواطفنا فور إلغاء المعاهدة الشهيرة بالصداقة، وهو ما أثبت قدرة هذا الشعب المصري (أيامها) على الصلابة والقدرة والتحمل، ووقع شهداء من كافة الفصائل مدنيون وشرطة، مما أدى إلى ثورات عارمة في الشوارع. في كافة البلاد. تندد بالنظام الخائن والملك الخائن، حتى وصل الأمر إلى حرائق القاهرة الشهيرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢، وخلال اضطرابات سياسية وتغييرات وزارية واعتقالات ثورية، قام عبد الناصر بانقلابه المعبر عن هذه الثورة (وأنا أميل إلى الإنصات إلى استنتاج يشير إلى أن عبد الناصر قطع الطريق على ثورة شيوعية)، وكل ما كتب من موضوعات أو تنظيرات لم تومئ أبدا أو تكتشف أو تغوص في أتون النار الذي اشتعل في قناة السويس أثناء حرب الفدائيين، فالحس الشعبي بالذات ظل خاضعا للشعارات والعاطفة الوطنية أكثر من الإمعان في فلسفة السلوك الشعبي في أرض الموقعة ذاتها، وكان مدهشا لدرجة تثير اضطرابي الصبياني أن أجد في رواية السعدني. حتى يعود القمر. آدميين يجعجعون صارخين بالشجاعة مقابل هؤلاء الأبطال الذين استشهدوا بالفعل، إنهم أناس من الواقع الفعلي الذي يقع في شباك السلوك العفوي التلقائي من حداقة (وصف للرجل الحدق الذي يبدو فاهما) وحركات فتونة وتراقص واستذكاء خلال عمليات تهريب السلاح للفدائيين أو إيوائهم، كانت طبيعة الناس تتفسخ في الرواية كاشفة عن أمور لا نحب نحن الكتاب أن نتورط فيها عادة، وهي ثورة تعبير لم يدركها أحد من النقاد حتى الآن، أدركتها وحدي وكانت من بين أسباب اقتحامي الشخصي لهذه المعاني والمثل التي يصمم كتابنا أن يحافظوا عليها معتقدين أنها تصنع المجد الشعبي العظيم.

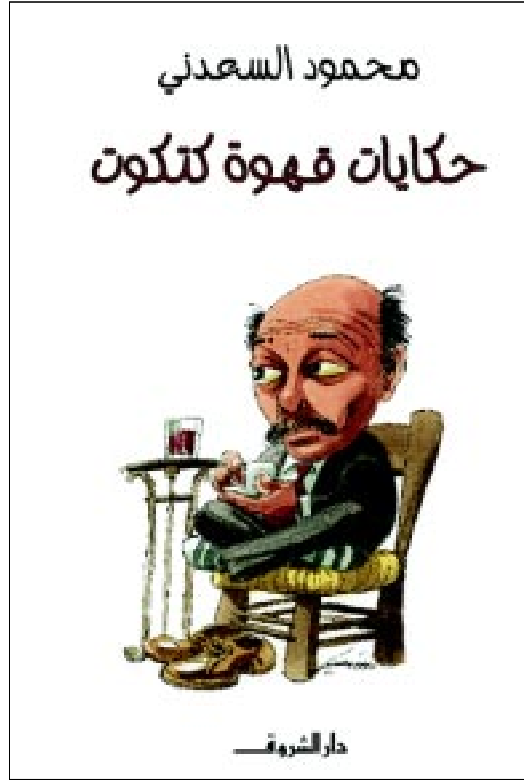
ولم يغب السعدني عن بالي أبدا، كنت قد كبرت وظللت. في تلك السنوات المريرة الطويلة. أبحث عن عمل دون إهمال في الوقوع داخل حفر الغرام الملتهب بين مرارة وأخرى، لكني ظللت مع السعدني في مواقعه المبكرة مع لويس عوض، ومأمون الشناوي، وشاركته أسى اصطدامه بيوسف السباعي أيام علاج طفلته الغالية (هالة)، وما صاحب ذلك من مرارة الواقع المصري، وظللت أتقلب بين ربًى وتلال ووهاد ووديان وجزر وخرابات وحدائق وسجون ومطاعم ومجالس تحشيش وشرب بوظة ومتاجرة في شعارات، العالم عنده يتسع ويتسع حتى يملأ حارة بالجوعى، ثم يضيق ويضيق حتى يختنق بين قارة إفريقيا، الواقع هو سيد الموقف، والحس الشعبي الغامر هو رقصة الزار الصاخبة التي بسببها سجن واعتقل. هذا الكاتب الجميل المتفرد. في كافة العصور، ولاذ بعثمان أحمد عثمان في المقاولون العرب، ثم هرب إلى لندن (وبالمناسبة كان يصدر مجلة ٢٣ يوليو أو يكتب فيها خلال تلك السنوات التي تكاره فيها مع السادات)، ثم إلى الخليج، حياة تبدو مترفة بالمرارة والغربة والحزن الذي يكوي سراديب العقل والفؤاد، حيث ينتهي الأمر. كل الأمر. في طاسة تعبق برائحة الكبدة المحمرة بالبقدونس، وقد حاصرتها جدران المعتقلات: الحوائط والكلمات.

وظلت خطوطي مع السعدني تتوازى (الخطوط وليست الحياة ذاتها). اشتغلت في السد العالي (وبالمناسبة كنت في شركة عثمان) وعدت إلى القاهرة لأتزوج وأظل سنوات طويلة في مجمع اللغة العربية، وأقرأ السعدني، وأشارك في مهاجمة السعدني وأفتح بطنه وأقلب تجاربه وأزداد به حبا، وانتقادا، وسخرية.

■ ■ ■

منذ شهور. قد تتجاوز العام. جاءني صوته الشارخ في التليفون: واد يا مستجاب.. عاوز أشوفك.

وتوجهت إليه... ■



حكايات قهوة كتكوت
القاهرة ـ دار الشروق ٢٠١٠
٢٢٢ صفحة

ألــف ليـــلة وليـــلة .. مـن الأرق

ترجمة: وسام رجب

■■ نيك آدمز، الذى يمثل الأنا الأخرى للكاتب آرنست همنغواى فى قصته القصيرة (الآن أرقد)، يظل مستيقظاً طوال الليل وهو يستمع إلى صوت دودة القز وهى تأكل أوراق التوت خارج خيمته فى الجيش، عندما كان فى إيطاليا. لقد كان آرنست همنغواى نفسه يعانى من أعراض أرق متقدمة وحادة لدرجة أنه كان يخاف الذهاب إلى الفراش والأنوار مطفأة. فظل يعانى من الأرق لبقية حياته، وفى كثير من الأحيان كان من الصعب فصل هذه المسألة عن الأمراض الأخرى التى كان يعانيها - بما فى ذلك الاكتئاب الحاد وإدمان الكحول المزمن وداء البول السكرى. ويقول همنغواى «أنا شخصياً لا أريد أن أنام لأننى قد عشت لفترة طويلة وأنا على يقين بأن روحى ستغادر جسدى لو أغمضت عينى فى الظلام وسمحت لنفسى بالذهاب فى النوم».

فما المقصود بالضبط عندما يقول شخص ما «أنا لا أنام»؟



لقد ارتبط النوم بالموت لفترة طويلة منذ أن ابتكر قدماء الإغريق علم الأنساب النابض بالحياة الذى يوضح ذلك الارتباط. أنجبت «نيكس- Nyx» ربة الليل ولدين توءمين، «هيبنوس- Hypnos» النوم، و«ثانتوس - Thanatos» الموت. «هيبنوس» أنجب «مورفيوس- Morpheus» إله الأحلام الذى عاش محاطا بزهور الخشخاش، التى توهب الأحلام. وبرغم أنه لم يكن لمورفيوس وجود دون هيبنوس، فإن الإغريق لم يهتموا كثيرا بالنوم فى حد ذاته، بل اهتموا بذريته السحرية: الأحلام. فلقد كانوا يحجون إلى «معابد الأحلام»، حيث، بعد تقديم الأضاحى والاستحمام فى المياه المقدسة، قد يظهر لهم فى نومهم إله الشفاء ليعالج كل ما من شأنه أن يزعجهم. والصينيون أيضا يؤمنون بروحين مختلفتين - «بو - p,o» و«هون - hun» - تمثلان العالم المادى والعالم الروحى. «هون»، الذى يمكنه أن ينفصل عن الجسد أثناء النوم، كان كثيرا ما يزور أرض الموتى حيث يعود بأخبار الأسلاف المتوفين. وحسبما يقول «روبرت فان دى كاسل» Robert L. Van de Castle فى كتابه «عقلنا الحالم»: «إذا فشلت الروح فى العودة إلى الجسد قبل أن يستيقظ الحالم، فقد تنتج عن ذلك عواقب وخيمة».

كان توصيف مرض الأرق، فى مطلع القرن التاسع عشر، أنه العذاب الرهيب الذى غالبا ما يؤدى إلى الانتحار. ولقد تم نشر ١٨٨٨ مقالاً فى صحيفة واشنطن بوست لتوضح أنه «من المعروف جيدا أن فقدان النوم لفترة طويلة يؤدى إلى الجنون». فقد كان من المعتقد أن هناك سائلاً ما

@ Antony Coverhires



لقد ارتبط النوم بالموت لفترة طويلة منذ أن ابتكر قدماء الإغريق علم الأنساب النابض بالحياة الذى يوضح ذلك الارتباط



يسمى بـ«السائل العصبى» يتم إفرازه ليلا، فإذا لم يحصل الشخص على كمية كافية منه فقد تصبح الأعصاب حساسة ومهتاجة بصورة غير طبيعية- تقريبا كما لو كانت عارية- وقد يصاب ضحية هذا المرض بالجنون.

وبرغم أننا قطعنا شوطا طويلا فى فهمنا للنوم، فإنه إذا طلبت اليوم من شخص يعانى من الأرق أن يصف لك الأعراض التى يشعر بها، فسوف يقص عليك رواية مشابهة. فطبقا للمركز القومى لأبحاث اضطرابات النوم، نجد أن من ٣٠ إلى ٤٠٪ من الأمريكيين البالغين يمرون بنوبات متقطعة من الأرق على مدار السنة. ومن ١٥ إلى ٢٠٪ يعانون من أعراض مزمنة. كما أن هناك الكثير من حالات توتر الأعصاب. ولكن عندما يقول شخص ما «أنا لا أنام» فما الذى يعنيه بالضبط؟ إذا كان يعانى من أرق وراثى مميت، فإنه يصف حالة تؤدى فى النهاية إلى الوفاة، حيث لا يوجد علاج. والأرق الوراثى المميت يحدث نتيجة تراكم بروتينات غريبة تسمى «البريونات» داخل مراكز المهاد - والمهاد هو الجزء الذى يتحكم فى تنظيم عملية النوم فى المخ. ويبدأ هذا المرض عادة بين سن الأربعين والستين، وأول أعراضه هو الفقدان المتزايد للقدرة على النوم، فى النهاية يدخل الشخص المصاب فى غيبوبة، ثم يموت بسبب الآثار المترتبة على الحرمان من النوم.

وحيث إن الأرق الوراثى المميت نادر جدا، فمعظم الناس الذين يشكون من أنهم لا يستطيعون النوم، يقصدون عادة بهذه الشكوى أنهم ينامون بالفعل ولكن ليس لوقت طويل أو بالعمق الكافى. ربما بسبب فقدان وظيفة أو المرور بتجربة طلاق، وفى مثل هذه الحالات عادة ما تحل مشكلة الأرق نفسها بنفسها مع الوقت. وبمزيج من العلاج والأدوية المضادة للاكتئاب. يمكن حل مشكلة الأرق عندما يكون عرضاً أساسياً من أعراض الاكتئاب هل يشخِّر المريض أثناء النوم؟ قد تكون هذه علامة على توقف التنفس أثناء النوم، ويمكن حلها بمساعدة أجهزة التنفس أو أجهزة طب الأسنان.

الأرق اضطراب فريد من نوعه، حيث يكون المريض هو أيضا المسئول الرئيسى عن تشخيص المرض. (الأكاديمية الأمريكية لطب النوم - American Academy of Sleep Medicine) التى تحدد المعايير السريرية فى هذا المجال، توصى بعمل دراسات ليلية لكل الناس الذين يشكون من مشاكل النوم. لكن ما الفائدة من متابعة شخص ليس نائما؟ وإذا قيل لك إنك تعانى من الأرق، وهو شىء تعرفه مسبقا فى كل الأحوال، فما الذى يمكن عمله حيال ذلك؟ غالبا سيصف أطباء النوم علاجاً سلوكياً إدراكياً يشتمل على مجموعة من القواعد الخاصة بالمبادئ الأساسية للنوم الصحى، مثل تجنب المنبهات والكحول، تنظيم وقت النوم ووقت الاستيقاظ، وعدم استخدام السرير إلا للنوم والجنس.



لكن بينما تبدو المبادئ الأساسية للنوم الصحى منطقية من الناحية النظرية فى الثقافة المعاصرة التى لا تتيح أى وقت لعملية الاسترخاء، إلا أنه من الصعب وضعها موضع التنفيذ. فنحن نجلس على الكمبيوتر لساعات طويلة بعدها نجلس مع أجهزة البلاك بيرى. حتى أطفالنا يعانون من فرط الحركة والنشاط أكثر منا، ويختلقون سبلاً للتخلف عن مواعيد نومهم، حتى لقد صار مفهوم «موعد النوم» فى الوقت الحالى يبدو غريبا. ولتعويض إحساسهم بالإرهاق فى الصباح يتناولون أطعمة تحتوى على مادة الكافيين ومشروبات الطاقة ويبتلعون الأديرال والريتالين.

فى الآونة الأخيرة انتشر عقار «Provigil» بين طلاب الجامعات باعتباره «عقاراً ذكياً». وكشفت الدراسة الوطنية لعام ٢٠٠٥ التى قام بها فريق بحث من جامعة ميتشجان عام ٢٠٠٥، أن ٧٪ من طلاب الجامعة يستخدمون منشطات لا توصف إلا بأمر الطبيب لأغراض غير طبية على مدار حياتهم، و٤٪ منهم استخدموها فى العام الماضى. وفى عينة من طلاب المدارس المتوسطة والثانوية كانت نسبة الاستخدام غير المشروع للأدوية المنشطة ٤,٥٪. وكما يقول عالم الأنثربولوجى وولف ماثيو ماير «إذا كان المجتمع لا يمكنه أن يرتاح، فكيف يمكنه أن ينام؟».

ولمكافحة ما يسمى بـ«ثقافة الإنهاك أو الإجهاد» ينفق الأمريكان ما يقرب من نحو ٢٤ مليار دولار سنويا على السلع والخدمات المرتبطة بالنوم، فيشترون مراتب سرير بخمسة آلاف دولار، و٦٠٠ ملاءة، وأحدث أجهزة الصوت التى تحاكى أصوات الأمواج وتغريد العصافير. وبحلول عام ٢٠١٢ من المتوقع أن تزيد معدلات النمو فى سوق أدوية الأرق بنسب ٧٨٪، أى ما يقرب من ٣,٩ مليون دولار. ولكن ما الذى نحصل عليه حقا من استخدام الحبوب المنومة؟ إنها لا توفر إلا ١١,٤ دقيقة إضافية زيادة على الحبوب المنومة الوهمية. كما أنها تتداخل مع تكوين الذاكرة، مما ينتج عنه أن بعض الأشخاص ينسون أحيانا كيف ناموا فى الواقع. يقول بعض أطباء النوم «وما الخطأ فى ذلك؟ إذا تصور الناس أن نومهم قد تحسن، فسوف يشعرون بالتحسن». لكن هذا المنطق يبدو لى مثل منطق «أليس فى بلاد العجائب». إنى أتساءل: عما إذا كنت قد تغيرت فى الليل؟ دعونى أفكر. هل كنت نفس الشخص عندما استيقظت هذا الصباح؟ أعتقد بالكاد أنى أستطيع أن أتذكر شعورى على نحو مختلف قليلا. لكن إن لم أكن نفس الشخص، فالسؤال التالى هو: «من أنا فى هذا العالم». لا أستطيع أن أفكر فى شخص مختلف تمام الاختلاف عن ذاك الفظ غليظ القلب همنغواى أكثر من مايكل جاكسون. إلا أنه أيضا كان يعانى من الأرق المزمن. لا يمكن للمرء إلا أن يتخيل حجم الضغط الذى كان يعانيه جاكسون وهو يتدرب على بروفات جولته الفنية العالمية المرهقة التى كانت تحمل مسمى تنبؤياً يبعث على الأسى «this is it - قضى الأمر». على مدى سنوات فقدت الحبوب المنومة والمهدئات الأخرى مفعولها لدرجة أنه طلب من طبيبه أن يعطيه عقار البروبوفول المخدر الذى كان عاملا رئيسيا فى وفاته لاحقا. كان جاكسون يشير إلى هذا العقار بوصفه «كوب حليبه». هناك أمر مفجع عن شخص يرغب فى النوم بشدة لدرجة أنه قد يختار أن يتناول عقاراً مخدراً بدلاً من المهدئات القديمة: كوب من الحليب الدافئ .

لكن ربما نحن بعيدون عن طرق العلاج الصوفية هذه. فنحن نعيش فى أوقات عصيبة. وكما يقول البعض لا شىء جديدا. لقد كان الناس يبحثون عن سبل تؤدى بهم إلى ما كان يسميه شكسبير «ندى النوم اللذيذ كالشهد» طالما كانوا قادرين على حصاد الأعشاب الطبية. ولقد عثر على إشارة إلى زهرة خشخاش الأفيون على ألواح صلصال سومرية يعود تاريخها إلى عام ٣٠٠٠ ق.م. فنحن لا نعرف إلا القليل عن الطريقة التى كان ينام بها إنسان ما قبل التاريخ - حيث لا توجد عظام نائمة يصلح أن نحللها - ولكن بما أن الناس كانوا يجتمعون معا فى الكهوف، فعلى الأرجح أنهم كانوا يشعرون بالقلق من الدببة العملاقة التى يمكن أن تأكلهم. ونحن الآن نستلقى على مراتب أنيقة تكلفتها ٢٢.٠٠٠ دولار، ونحن نشعر بالقلق من الإرهابيين الذين سوف يفجرون طائراتنا. لذا سيظل العديد منا متيقظين الليلة، يستمعون إلى صوت دودة القز من خلال أجهزة الصوت الغالية التى اشتريناها. نخشى من أن تتركنا أرواحنا، نخشى ألا تكون لدينا أرواح، نخشى مع كل يوم يمر أن يكون «this is it» قد قضى الأمر. ■

باتريشيا موريسرو

Patricia Morrisroe

النوم
ذلك الموت الصغير



أحمد مستجير



وَجْهُ حبيبتكَ الجميل يصبح أجملَ إذا تأَمّلْتَه وهى نائمة، يغدو طفلاً، يَبِينُ منه الجوهرُ، وجوهرُ الإنسان هو الجمالُ. فى النوم تتوارى أدران الحياة ويتألّق الجوهرُ



■■ «إلىَّ يا أيُّها النومُ الرحيبُ العذبُ! إلىَّ! أبعدْنى، أبعدْنى عن نَفْسِى المَغْرُورَة، وعن كلِّ ما هو عقيمٍ يَتحكّمُ فى روحى فأبتسمُ أو أبْكى. فإذا ما وَفَدْتَ، فَلْتَكُنْ يا نومُ كالموتِ عميقاً»!

باتريك ب. ألكزاندر

النومُ هو أكثرُ عمليات الجسمِ غموضاً. فى النومِ العميقِ ينقطعُ النائمُ عن العالمِ الحسىِّ: لا يسمعُ، لا يشعرُ، لا يتذوقُ، لا يشمُّ، ولا يَرَى إذا فُتحتَ له عيناه! نقضى ثُلُثَ حياتنا نائمين: إذا بَلَغْتَ من العمرِ ستِّين عاماً، فستكون وقد نمتَ منها عشرين عاما! ورغم ذلك فلم يَحْظَ النوم من العلماء بالاهتمام الحقيقى إلا مؤخراً. كلُّ ما نعرفه عن النوم عرفناه خلال الخمس وعشرين سنة الماضية.

النوم ليس شيئاً نملأ به فراغَ الوقت بالخمول، إنه عمليةٌ ديناميةٌ، هو نشاطٌ نحتاجُه ليس لنا أن نَرْفُضَه، عمليةٌ نشطةٌ تتضمن عملياتٍ فسيولوجيةً بالجسمِ ضروريةً. بعد النومِ نُدْرِكُ أنَّ تغيراتٍ قد حدثتْ لنا بالفعل، نشعرُ بالراحةِ وأننا قد غدونا أنشطَ. النومُ مطلوبٌ لبقائنا.

وَجْهُ حبيبتكَ الجميلُ يصبح أجملَ إذا تَأَمّلْتَه وهى نائمة، يغدو طفلاً، يَبِينُ منه الجوهرُ، وجوهرُ الإنسانِ هو الجمالُ. فى النوم تتوارى أدرانُ الحياة ويتألّقُ الجوهرُ.

تناوله الكُتّابُ كثيراً هذا النوم، والشعراءُ منهم بخاصة. هو الموت الصغير عند الكثير منهم! هذا هنرى لونجفيلو Longfellow. W.H يقول: «أواه! لَكَمْ أكرهُ تلك الجرعاتِ الصغيرةَ من الموت». وهذا إيليا أبوماضى يكتبُ:

إنْ يَكُ الموتُ هجوعاً يملأُ النفس سلاما
وانعتاقاً لا اعتقالاً، وابتداءً لا ختامَا
فلماذا أعشقُ النومَ ولا أهوى الحِمَامَا
ولماذا تجزعُ الأرواحُ مِنْهُ
لست أدرى!

يرى علماءُ التطورِ أن دوراتِ مراحلِ النوم قد وُجِدَتْ لأنَّ النوم قد يصبح خَطِراً بالنسبة للحيوان غائباً عمَّا يجرى حولَهُ، ومن الضرورى له أن يتأكدَ من سلامة موقعه ما بين آونةٍ وأخرى. والأغلبُ أن نجدَ فى الحيواناتِ الاجتماعيةِ فرداً أو آخر يبقى طولَ الوقت قريباً من اليقظةِ حتى يمكنَهُ عند الضرورة أو يوقظَ الآخرين.

مَراحِلُ النَّوْمِ

لتحديد مراحلِ النوم يعتمد العلماءُ الآن على مقاييسَ ثلاثة: الأولُ هو النشاطُ الموجىُ الكلّىُّ للمخ كما تقيسه آلة تسجيل مُخَطَّطِ كهربائيةِ المخ electroencephalogram (EEG)، وهذه الآلة توفر ملخصاً للنشاط الكهربائى لأى منطقة من المخ. أما الثانى فهو درجة قوام العضلات، وتقيسه آلة تسجيل مُخَطَّطِ كهربائيةِ العضلات (EMG) electromyogram. والثالث هو نتائج آلة رَصْدِ حركاتِ العين بمخطَّط كهربائية العين electro-oculogram (EOG). ومُخَطَّطُ كهربائيةِ المخ هو أهم هذه المقاييس فى التمييز بين مراحل النوم المختلفة.

من الممكن أن تُقَسَّمَ أنماطُ موجات المخ المختلفة فى اليقظة إلى ضربَيْن: موجات بيتا beta، وترددها يبلغ ١٣ . ١٧ حلقة فى الثانية (ح/ث)، وموجات ألفا alpha وترددها يبلغ ٨ . ١٢ ح/ث. موجات بيتا ترتبط بالنشاط اليومى للمخ، وهى الأعلى تردداً والأدنى فى السعة، كما أن درجة اللا توافق بينها هى الأعلى مقارنة بغيرها من موجات المخ: موجات بيتا ليست متناغمةً تماماً، لأن النشاطَ اليومى للمخ يتضمن الكثير من الخبرات المعرفية والحسية والحركيةِ المختلفة.

فى فترات الاسترخاء أثناء اليقظة يبدأ المخ فى توليد موجات ألفا الأبطأ والأكثر سعةً والأكثر تناغماً. الواضح أن الأنشطةَ التى تُعَزِّزُ نشاط موجات ألفا (كالتأمل) لها مردودها الطيب على الصحة.

يبدأ نشاط المخ أثناء النوم فى منطقة الجسر pons بجذع المخ. يرسل الجسم إشاراتٍ إلى الثالامص وإلى قشرة المخ المسئولة عن عمليات التفكير، كما يرسل إشارات لكى تغلقَ نيورونات الحركة فى الحبل الشوكى، مما يسبب شللاً مؤقتاً يمنع الحركة.

عندما تَدْخُلُ أولى مراحل النوم المسماةَ بمرحلة الوَسَنِ drowsiness، تبدأ الموجاتُ فى الابطاء فتتحول إلى موجات تسمى موجات ثيتا theta، وتَرَدُّدُها هو ٤ . ٧ ح/ث، وهى أكثرُ بُطْئاً من ألفا وأكثرُ سعةً. هذه المرحلةُ الأولى من مراحلِ النوم هى مرحلةٌ تمهيديةٌ بين اليقظةِ والنوم، وتستمر عادة ما بين دقيقةٍ وخمسِ دقائق، وقد تطولُ كثيراً فى حالة الأرَق، وفيها يستعدُّ الجسمُ للنوم، وتترهل عضلاتُه. يحدث كثيراً مع التحول نحو ترهل العضلات أن يشعرَ الفردُ بتقلُّصٍ مفاجئٍ فى عَضَلَةِ الرِّجْلِ ويحس بأنه يسقطُ فى هاوية.

مع تحولِ النائم إلى المرحلة الثانية، المرحلة التى تستغرق ٤٥ . ٦٠٪ من وقت النوم، تَظَلُّ موجاتُ ثيتا نشطةً، وإنما تتخللها ظاهرتان تحدثان كلَّ دقيقة أو نحوها وتحددان خصائصَ المرحلة: مغْزَلُ النوم sleep spindle ويتألَّفُ من اضطرامات من موجات سريعة جداً (١٢ . ١٦ح/ث)، ومُعَقَّداتٌ ك complexes k، وهذه ازديادٌ مفاجئٌ فى تردد وسعةِ الموجات.

المرحلتان الأولى والثانية هما مرحلتا النوم الخفيف، والواقع أنك إذا أُوقِظْتَ خلالهما فلن تتذكَّرَ أنك كنت نائماً.

يتحول النائمُ بعد ذلك إلى المرحلةِ الثالثةِ والرابعةِ من النوم، مرحلتىْ موجاتِ دلتا delta البطيئة (٣ح/ث)، أو مرحلتىْ نوم الموجة البطيئة، أو النوم العميقِ الذى يستمر ١٠ . ٢٠ دقيقة، وقد يمتد إلى ٣٠ دقيقة. والواقع أنْ ليس ثمةَ فاصلٌ حقيقىٌّ بين هاتين المرحلتين سوى أن نسبةَ موجات دلتا فى المرحلة الثالثة تشكل ٢٠ . ٥٠٪ من مجموع الموجات، بينما تزيد النسبةُ عن ٥٠٪ فى المرحلة الرابعة. وأعمقُ النوم هو نومُ دلتا، ففيه تكون موجاتُ المخ أبعد ما تكون عن موجاته أثناء اليقظة، ومن ثَمَّ يصعبُ إيقاظُ النائم. فإذا ما أُوقظ فقد يتطلب الأمرُ بضعَ دقائق قبل أن يدركَ ما يجرى حولَه! والعجيبُ أن نومَ دلتا هذا هو الوقتُ الذى يحدث به عادة المشىُ أثناءَ النوم، ورعبُ النوم، والكلامُ أثناء النوم. يشغلُ نومُ دلتا ما يصل إلى ٤٠ . ٥٠٪ من فترة نوم الأطفال، الأمرُ الذى يُفَسِّرُ صعوبةَ إيقاظ الطفل.

بعد المرور فى هذه المراحل الأساسية الأربعة للنوم، والتى تُعرف باسم النوم اللاّريمى، تأتى المرحلةُ الخامسة

(*) عدد فبراير ٢٠٠٦

والأخيرةُ فى الدورة، وهى مرحلةٌ متفردةٌ تسمى مرحلةَ نومِ الحركاتِ العَيْنِيَّةِ السريعة Rapid Eye Movement (REM) أو نوم الرِّيم، وفيه تتحرك العينُ باندفاعٍ يمكنُ رصدُهُ. هى لا تتحرك على الدوام، وإنما تندفع إلى الخلف وإلى الأمام، أو إلى أعلى وأسفل، ثم إنها تتوقفُ فجأةً لتنطلقَ ثانيةً إلى الخلف وإلى الأمام. تتحرك العينان سوياً فى نفس الاتجاه كما يحدث أثناءَ اليقظة. يعتقد بعضُ العلماء أن حركةَ العينين هذه إنما تتعلق بصُوَرٍ يراها النائمُ فى حُلْمِه، لكنْ السببَ فى حدوثها أو وظيفتَها، إن كانت لها وظيفةٌ، لا يزال مجهولاً.

تستغرقُ مرحلةُ الريم نحو ٢٠٪ من فترة النوم الطبيعى أثناء الليل، وتتميز أيضاً بفَقْدٍ فجائىٍّ لِقَوَام العضلات. والواقع أن العضلاتِ الهيكليةَ التى تُحَرِّكُ أجسادَنا (كعضلات الذراعين والرِّجْلَيْن) تكون مشلولةً فى نوم الريم (ولا هكذا يكون الوضع فى النوم اللاريمى). ينشأ هذا الشللُ عن إفراز حامض الجلايسين الأمينى glycine من جذع المخ على النيورونات الحركية. لكن هناك بالطبع عضلاتٍ هامةً أخرى تستمر فى عملها، مثل عضلاتِ القلب والحجاب الحاجز وعضلاتِ العين، والعضلات الملساء كتلك الخاصة بالأمعاء والأوعية الدموية.

أهم ما يميز مرحلةَ نوم الرِّيم هذه هو أنها الأكثرُ ارتباطاً بالأحلام. عندما أيقظَ الباحثون البعضَ أثناء نوم الريم، وسألوهم عن أحلامهم وجدوا أن الغالبيةَ العظمى منهم يتذكرون الحُلْمَ، أما إذا أُوقظ الفردُ فى مرحلة نوم اللاريم فالعادة ألاَّ يتذكرَ أحلامَهُ. مرحلةُ نوم الريم مرحلةٌ تتميز بمخٍّ نشط فى جسمٍ مشلول. أنت تَحلُمُ وجسمُك لا يُنَفِّذ أحلامَك، وإلا آذيتَ نفسَك أو آذيتَ غيرَك.

تستمر هذه المرحلةُ من النوم ١٠ ـ ٢٠ دقيقة، بعدها يعود النائمُ ثانيةً إلى المرحلة الثانية، وتكون دورةُ النوم قد انتهت. قد يمر الشخصُ بأربعٍ أو خمسٍ أو ست دوراتِ نوم فى الليلة، يستغرق كلٌّ منها نحو ٩٠ دقيقة (وتكون ٥٠ دقيقة فقط فى المواليد). يكون النومُ العميق، نومُ دلتا، فى كل دورة أقلَّ منه فى الدورة التى تسبقه، حتى ينتهى بعد بضع دورات. بذا يقع معظمُ النومِ العميقِ فى النصف الأول من النوم، ويتزايد طولُ نومِ الريم فى كل دورةٍ فى النصف الثانى.

من المثير أن نذكر أن مرحلةَ نوم الريم المتفردةَ هذه، التى ترتبط بالأحلام، لم تُكْتَشَفْ إلا فى عام ١٩٥٣، على يَدَىْ يوجين أسيرينسكى Eugene Aserinsky وأستاذه ناثانيل كلايتمان Nathaniel Kleitman. وقد فتح اكتشافُهما هذا عالماً جديداً لدراسة النوم، فقد كان العلماءُ قَبْلَهُ يظنون أن النومَ مجردُ رحلة نعاسٍ وسكونٍ وخمود، يصمتُ فيها الجسمُ، رحلة لا تُهِم كثيراً.

أولى دورات النوم إذن تتميز بفتراتِ ريمٍ قصيرة، وفترات طويلة من النوم العميق. ثم ينقلب الأمرُ مع التوغلِ فى الليل، فتصبحُ الدوراتُ الأخيرةُ طويلةَ الريمِ قصيرةَ النومِ العميق، حتى إذا ما اقترب الصباحُ كان معظمُ النوم فى المرحلتين الأولى والثانية ونوم الريم، وتصبح المرحلتان الثالثةُ والرابعةُ قصيرتين جداً. لكنَّ ما يجعلُك تستيقظُ فى الصباح منتعشاً هو عددُ دوراتِ النوم التى مررتَ بها.

يحتاج المواليدُ إلى ١٦ 

ساعة نوم يومياً. وفى عمر ٦ شهور. ٣ سنوات يقل وقتُ النوم ليصبح فى المتوسط نحو١٤ ساعة. المراهقون يحتاجون إلى ٩ ساعات من النوم أثناء الليل، والنومُ بالنسبة لهم مهمٌ جداً، حيث أثناءَه يُفْرَزُ هرمونُ النمو بكميات كبيرة من الغدة النخامية. تصل الكميةُ إلى أقصاها بعد ساعة من النوم، ثم تبدأ بالتدريج فى الانخفاض. المراهقُ يحتاج النومَ لينضجَ جنسياً.

ومع تقدم العمر يقل طولُ فترة النوم بالليل. يحتاج الإنسانُ الناضج إلى ما بين ٧ و٨ ساعات من النوم فى الليلة. وتقول مذكراتُ بعضِ مَنْ كتبوا فى العصر الفيكتورى، قبل استخدام الإضاءة الكهربائية، إن البالغين كانوا ينامون ٩ . ١٠ ساعات فى الليلة!

صحيح أن هناك مَنْ يكفيه ٥ أو ١٠ ساعات من النوم، لكن دراسةً حديثة تقول إن مرضَ السكر يكون أكثرَ انتشاراً بين مَنْ ينامون أقل من ٦ ساعات أو أكثر من ٩ ساعات، مقارنةً بمن ينامون ٨.٧ ساعات. قلةُ النوم قد تكون نذيراً بمرض السكر. ثم إن هناك أبحاثاً كثيرةً تشير إلى وجود ارتباط معنويٍّ بين السِّمْنَة وقلة ساعات النوم: احتمالُ السِّمْنَة بين من ينامون ٤ ساعات فى الليلة تكون أكثرَ بنسبة ٧٣٪ مقارنةً بمن ينامون ٨.٧ ساعات، أما مَنْ ينامون روتينياً ٥.٦ ساعات فيكون احتمالُ الزيادة ٢٣ . ٥٠٪. ثمة علاقةٌ بين قلَّة النوم ومستويات هرمون اللبتين leptin، الهرمون الذى ينظم الشهية. من ينامون روتينياً أقل من ٥ ساعات تُفْرِزُ أجسادُهم من اللبتين قدراً أقل بنسبة ١٥٪، يُتَرْجَمُ إلى زيادة الإحساس بالجوع، ومن ثَمَّ النَّهم فى الأكل.

يتغير نمطُ النوم مع تقدم العمر كما قلنا، إذ ينخفض الوقتُ الذى يقضيه الفردُ فى أعمق مراحل النوم (المرحلتين الثالثة والرابعة من النوم اللاريمى). المولودُ يقضى نصفَ وقت نومه الكُلِّى فى نوم ريمى، بل الحقيقةُ أنه يدلفُ مباشرة إلى نوم الريم عندما ينعس. وعلى عمر سنتين يشكل النومُ الريمى ٢٠ . ٢٥٪ من وقت النوم الكلى، ليظلَّ الأمرُ هكذا بَقِيَّةَ الحياة. هناك أمراضٌ، كالألزهايمر والباركنسون، تتسبب فى تقليل طولِ فترة نوم الريم.

النومُ والتغيراتُ الفسيولوجيةُ

لكى يغلبنا النعاسُ لابد أن تنخفضَ حرارةُ الجسم، فالواقع أن حرارةَ الجسم ودورةَ النوم/ اليقظة مرتبطتان بإحكام، وهذا هو السببُ فى اضطراب النوم فى ليالى الصيف الحارة. آليةُ تدفق الدم التى تنقل الحرارة فى الجسم، تعملُ كأفضل ما يكون فيما بين ١٨° و٣٠°م، ولكنْ مع التقدم فى العمر يصبحُ المجالُ أضيقَ (٢٣ . ٢٥°م)، وهذا هو السببُ فى أن تنتشر أمراضُ النوم بشكل أوسع فى كبار السن.

فى النوم اللاريمى ينخفض نشاطُ المخ، ويبطؤ النبضُ، وينخفض ضغطُ الدم. ويبقى تدفقُ الدم إلى المخ كحالته فى اليقظة، كما يبقى معدلُ التنفس على حاله بينما تنخفضُ حرارةُ الجسم، أما فى النوم الريمى فيتزايد نشاطُ مناطق الحركة والإحساس بالمخ، ويزداد معدلُ النبض عنه فى النوم اللاريمى بنسبة قد تصل إلى ٣٠٪، ويزداد تدفقُ الدم إلى المخ بما يزيد عنه فى النوم اللاريمى بنسبة تتراوح ما بين ٥٠ و٢٠٠٪ (حسَبَ مناطق المخ المختلفة)، ويرتفع معدلُ التنفس. ولكن قد يتخلله انقطاعُ النفس. كما تُكْتَمُ الكُحَّةُ، أما بالنسبة لحرارة الجسم فتقتربُ من حرارة الجو المحيط: فلا ارتجاف ولا عَرَق!

طول فترة النوم فى الحيوانات

يختلف طولُ فترة النوم الطبيعية بين أنواع الحيوانات اختلافاً بَيِّناً: فهو فى القطة والفأر ١٢ ساعة، وفى الأرنب ١١.٤ساعة، وفى الكلب ١٠.٦ ساعة، والشمبانزى ٩.٧ ساعة (كإنسان العصر الفيكتورى!)، وفى البقرة ٤ ساعات، وفى الأغنام ٣.٨ ساعة (تستطيع الماشيةُ والأغنامُ والفِيَلَةُ أن تنام واقفة، لكنها فى هذا الوضع لا تدخل إلى نوم الريم، ولكى يحدثَ هذا لابد للحيوان أن يرقد. النوم والحيوان واقف ليس نوماً كاملاً)، وفى الفيل ٣.٥ ساعة، وفى الحمار٣,١ساعة، وفى الحصان ٢.٩ ساعة وفى الزرافة ١.٩ ساعة!

النـــــومُ.. لمـــــاذا؟

تشير التجاربُ على الحيوانات إلى أن النومَ أمرٌ أساسىٌّ للبقاء. خُذْ التجاربَ التى أُجريت على الجرذان. تعيش هذه الحيواناتُ عادةً سنتين أو ثلاثة، فإذا حُرِمَتْ من نوم الريم فإنها تحيا خمسةَ أشهر فقط، أما إذا حُرِمَتْ من النوم كُلِّيَّةً فلن تعيشَ إلا ثلاثة أسابيع. وحرمانُ الإنسان طويلاً من النوم يؤدى إلى البارانويا والهَلْوَسة. ما هى وظيفةُ النوم حقاً؟

هل هى ترميمُ وتجديدُ أجهزة الجسم بعد ما بَذَلَتْهُ فى استهلاك الطاقة أثناء اليقظة؟ يبقى المخُّ نشطاً أثناء النوم، لكن معدلَ الأيض يَقِلُّ. سوى أننا لا نمتلك قرائنَ علميةً تقول إن ما يجرى فى النوم من ترميم وتجديد يزيد عما يتم فى أوقات الراحة فى اليقظة. ففيم يختلف النومُ عن أوقات راحتنا والاسترخاء فى النهار؟ نَعَمْ، ينخفضُ تخليقُ البروتين فى الجسم كلِّه، لكن هذا يرجعُ إلى أن فترةَ النوم هى فترةٌ نصوم فيها عن الأكل.

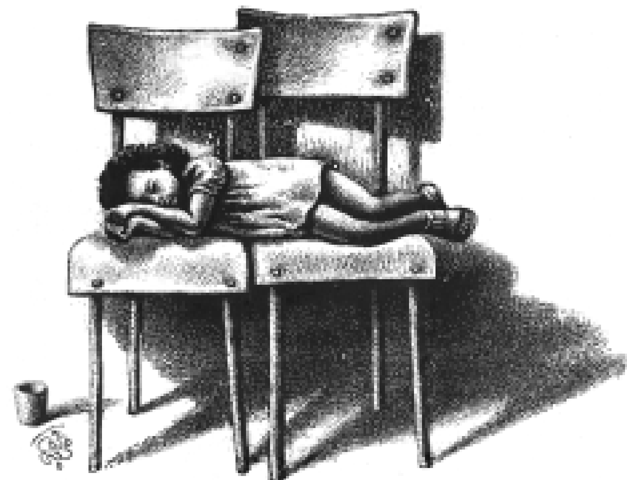
أَيَكُونُ النومُ وسيلةً للحفاظ على الطاقة؟ ترتكزُ هذه الفكرةُ على حقيقة أن الأيضَ ينخفض أثناء النوم. تُصيبُنَا الأمراضُ المُعْدِيةُ بالنعاس. وقد يكون ذلك لأن ثمةَ جزيئات تسمى السيتوكينات cytokines تُنَظِّمُ عملَ الجهاز المناعى (وهى من أقوى المواد التى تجلب النوم). ربما سمح النومُ للجسم بأن يحفظ الطاقةَ وموارد الجسم الأخرى، ليستخدمَها الجهاز المناعى فى مقاومة العدوى، إن كان ثمة.

أم يكونُ النومُ لترسيخ الذاكرة؟ الفكرةُ هنا تقول إن النومَ يُعَزز التعلم والذاكرة، ويساعدُ فى نفس الوقت فى مَحْوِ الذكريات غير المطلوبة ونسيانها (ننام لننسى!). تغمرنا الخبراتُ والأفكار أثناء النهار، البعضُ منها يستحق أن يُحْفَظَ لنذكره، والبعضُ لا يلزم أن يُحفظ. ربما ساعدنا النومُ فى إعادة ترتيب كل الخبرات والأفكار ليُخَزِّنَ منها ما يلزم ويُهْمِلَ ما لا يهم. ثمة دراسةٌ أُجريت على الطيور المُغَرِّدَة ظهرتْ مؤخراً تقول إن النومَ قد يلعب دوراً هاماً فى التعلم. اتضح أن الطيورَ التى تستمع وهى نائمة إلى تسجيل لأغنياتها، تضطرمُ نيوروناتُها بنمط قد يكون مطابقاً لنمط الغناء، وإن لم تُصدر صوتاً. يعتقد الباحثون أن الطائرَ يحلم بالغناء، فيُعيد الأغنيات ويكررها، ويقوِّى النمطَ العصبىَّ المطلوبَ ليصدحَ بالأغنية. يبدو أن النومَ مهم لتعلم الإنسان أيضاً. إن مَنْ يَنْعَمَ بالنوم اللاريمى العميق فى النصف الأول من الليل، وبالنوم الريمى فى النصف الثانى تتحسن قدرتُه على التذكر، وهذا يقترحُ أن نومَ الليل الكامل يلعب دوراً فى التعلم:

تتزايدُ بالفعل الشواهدُ من الأبحاث على أن المخَّ يَستخدم وقتَ النوم فى توطيد الذكريات التى اكتُسِبَتْ أثناءَ النهار. اختُبِرَ ١٢ متطوعاً فى تجربة استمعوا فيها إلى كلمات تَعَمَّدَ الباحثون أن تكونَ صعبةَ الفهم. رأى المتطوعون الكلمات مكتوبةً فى البداية، ثم طُلِبَ منهم فيما بعد أن يتعرفوا عليها بالسماع فقط. اتضح أن القدرةَ على تَذَكُّرِ الكلمات الصحيحة تقلُّ رويداً رويداً حتى نهاية اليوم. ثم أُعيدَ اختبارُ المتطوعين عقب ليلة نوم جيد، فتذكَّروا بعض الكلمات التى كانوا قد «نَسُوها» فى المساء السابق. «النومُ يُوطِّدُ الذكريات، ويحميها من التآكل». النومُ على ما يبدو «يسترجع» الذكريات. إذا انخفض الأداءُ بالتآكل، فبالنوم نستعيد ما فُقِد. النومُ يُساعد فى إنضاج» بعض الذكريات، كما أنه «يُشَذِّبُ» أيضاً الذكريات غيرَ المهمة. فى النوم اللاَّريمى يستعيد المخُّ الذكريات بل وقد يُضَخِّمُهَا، وفى النوم الريمى يُقْدَحُ زِنادُ تعبير جينات معينة فتُخَزِّنُ وتُوطِّدُ ما عولج فى النوم اللاريمى.

إذا انهمكتَ تتدرب على ممارسة ما، ثم وجدتَ أنك بعد التدريب لا تُتْقِنُها بالصورة التى تُرضيك، فستنسى القضيةَ، ثم تتعجبُ إذ تجد بعد فترة أنك تتقنُها! شىء ما حدثَ وجَعَلَك تُتْقِنُها. الغريب أن الأداءَ لا يتحسن مباشرةً بعد التدريب، وإنما بعد بضع ساعات أو حتى بعد بضعة أيام. وَجَدَ الباحثون أن النومَ ضرورىٌ بعد التدريب، لتحسين الأداء. مرورُ الوقتِ فى حد ذاته لا يكفى. النومُ فى الليلة التالية للتدريب هو الذى يُحَسِّنُ الأداء. النومُ هو الأمرُ المهم. النومُ بعد التعلم مباشرة يكون تأثيرُهُ. كما تقولُ الأبحاثُ. أفضلَ من النوم فى أى وقت آخر. «أَجِّلْ عَمَلَ اليوم إلى الغد» فيتحسَّنُ أداؤك!!

هل كان النومُ يحمى إنسان الغابة من الافتراس؟ السكونُ أثناء النوم يقلل من تَعَرُّضِ الفرد للمفترسات، سوى أنه يقلِّلُ فى نفس الوقت من الإحساس بالعالم



الخارجى، ومن ثَمَّ يزيد من احتمال السقوط ضحيةً للمفترسات!

هل يساعدُ النومُ فى تنامى المخ؟ يبدو أن هذا التنامى يرتبط بنوم الريم الذى يكون طويلاً فى الجنين وفى الوليد، ومرحلةُ النوم هذه قد تتدخل كثيراً فى تكوين الاقترانات (التشابكات) العصبية بالمخ.

هل يسهم النومُ فى تفريغ العواطف؟ ربما كان نومُ الريم هو الذى يوفِّر التنفيسَ الآمنَ للعواطف، يحميه الشَّللُ العضلىُ الذى يحدث أثناءه، فلا يَسْمح بتنفيذ ما نحلم به. ثم إن مناطقَ المخ التى تتحكم فى العواطف واتخاذ القرارات والتفاعلات الاجتماعية، يقلُّ عَمَلُها أثناء النوم، الأمرُ الذى يحررُنا من الضغوط التى تحدث فى اليقظة.

الساعةُ البيولوجية

هناك فى جسم الإنسان ساعةٌ بيولوجية biological clock تنظِّم توقيتَ نومه، تجعلُنا ننامُ فى الليل ونستيقظُ فى النهار. تدور هذه الساعةُ فترةً تبلغ نحو ٢٤ ساعة يومياً (تزيد نحو ٢٠,١٠ دقيقة) لذا تسمى الساعة النَّحْويومية circadian، وهى توجدُ فى النواة فوق التصالبية superchiasmatic nucleus المستقرة فى الهيبوثالامص hypothalamus بالمخ. الساعةُ تركيبٌ دقيقٌ للغاية يتألف من عنقودين فى حجم رأس الدبوس، كلٌّ يحتوى على نحو عشرة آلاف خلية عصبية (نيورون neuron). (من بين مائة بليون نيورون تؤلف المخ).

الساعةُ البيولوجيةُ جهازٌ فسيولوجى مبرمجٌ وراثيًا يسمح للكائن الحى بأن يحيا متناغماً مع الإيقاعات الطبيعية المنتظمة. مثل دورة النهار/الليل، أو تغير فصول السنة. وأهمُّ وظائفها هى تنظيمُ الجسم ليتوافقَ مع الإيقاعات البيولوجية مثل دورة النوم/اليقظة. تتحكم الساعةُ أيضاً فى الدورات التناسلية لبعض الحيوانات، لقدرتها على تَعَقُّب التغيرات فى طول ضوء النهار وظلمة الليل، كما تلعبُ أيضاً دوراً فى البيات الشتوى لبعض الحيوانات وفى هجرة الطيور.

هناك نوعان من الإيقاعات الطبيعية: نوعٌ خارجى المنشأ، ويأتى مباشرةً عن إيقاع خارجىٍ بالبيئة، يُوَلِّد إيقاعات فى الكائن ذاته. إذا أُزيل المؤثرُ الخارجىُ توقفت. أما الإيقاعاتُ داخليةُ المنشأ فتأتى عن ساعة بيولوجية مكتفية بذاتها لا تعتمد على شىء خارج الجسم: التذبذبُ فى حرارة الجسم إيقاعٌ داخلى يبقى حتى لو تغيرتْ الظروفُ الخارجية.

ولما كان للساعة النحويومية فى معظم الناس طولُ يومٍ طبيعى، فلابد أن يُعَادَ ضبطُها لتتوافقَ مع دورة الليل/النهار، أى الضوء/الظلام. الضوءُ هو الذى يُزَامِنُ الساعةَ البيولوجية الداخليةَ مع الدورة البيئية. مستقبلاتُ الضوء بالشبكية تنقلُ إلى النواة فوق التصالبية إشارات معينةً، وهناك تتفاعلُ الإشاراتُ مع بضعة جينات تعمل كضابط إيقاع.

تكتشف العينُ الضوءَ عن طريق عُصَيَّات الشبكية وخلاياها المخروطية التى تقوم بصياغة الصُّوَر المرئية. ظل العلماء لسنين طويلة يعتقدون أن الساعةَ النحويومية تُضْبَطُ بمساعدة الرودوبسين rhodopsin. وهذا بروتينٌ يكشفُ الضوءَ موجودٌ فى العصيَّات والمخاريط بالشبكية، لكنهم عثروا مؤخراً على شواهد تشير إلى وجود جهازٍ خاص بالعين لكشف الضوء، ويعتقدون أن هذا الجهازَ يقوم بتقدير الإشراق brightness للمساعدة فى ضبط ساعتنا الداخلية. هناك بروتينٌ يسمى ميلانوبسين melanopsin يعتبر أساسياً لهذا الجهاز، ويرى العلماءُ أن نسبةً محدودةً من الخلايا الحساسة للضوء بالكتلة العصبية بالشبكية تحتوى على الميلانوبسين وتنقل الإشارات إلى الساعة الحاكمة بالمخ.

اقترحتْ إحدى الدراسات منذ بضع سنين أن تعريضَ ظَهْر الرُّكْبَة إلى الضوء قد يُعيد ضبطَ دورة النوم/ اليقظة، لكن دراسةٌ حديثة بيَّنت أن هذا غيرُ صحيح وأكدتْ أن الضوءَ لابد أن يمرَّ خلال العين حتى يؤثرَ على ساعتنا الداخلية.

تتحكم الساعةُ النحويومية بالنواة فوق التصالبية فى إفراز الميلاتونين melatonin من الغدة الصنوبرية pineal: يرتفعُ مستوى الميلاتونين أثناءَ الليل وينخفضُ فى الفجر فى الأنواع الليلية والنهارية من الحيوانات، لذا يُطْلَقُ عليه اسم «هرمونُ الظلام». تتحكم النواةُ هذه فى توقيت إفراز الميلاتونين، الذى يعود بدوره إلى النواة وينظِّم نشاطَها. فى الثدييات مثلاً سنجد أن مستقبلات الميلاتونين بالمخ موجودةٌ بالنواة فوق التصالبية، وقد أوضحت التجاربُ أن الحقنَ بالميلاتونين يتسبب فى تحولات بالإيقاعات النحويومية فى عدد من الأنواع الحيوانية مثل الجرذان والأغنام والطيور والبشر، وتكون الآثارُ أوضحَ إذا ما أُعطى الميلاتونين فى غياب موجات الضوء. وعلى هذا سنجد أن حَقْنَ الأعمى بالميلاتونين يساعد فى ضَبْط ساعته البيولوجية.

عُرِف عن الساعة البيولوجية عام ١٩٥٠، عندما لاحظ العلماءُ أن طائرَ الزرزور يستخدمُ الشمسَ فى الهجرة، فثمة ساعةٌ بيولوجية تُوَجِّه الطائرَ مع تغير الشمس. وكان أولُ جين يُكْتَشَفُ لهذه الساعة هو الجين بيريود (بير) period (per) فى ذبابة الفاكهة (الدروسوفيلا)، وذلك فى عام ١٩٧١ (حُدِّدَ التتابعُ الدناوى لهذا الجين عام ١٩٨٤). والحق أن الكثيرَ مما نعرفه عن تنظيم الساعة البيولوجية قد جاء عن دراسات على هذه الذبابة. وبعد جين بير اكتُشفَ جينُ تَيمْليس (تيم) timeless (tim)، واتضح أن الجينيْن يدوران مع الايقاع النَّحْوَيَوْمِىّ. ينشط الجينان مبكراً فى الليل ويُنْتِجان الرَّنَا المِرْسال RNA m الذى يَرْحَل خارج نواة الخلية إلى السيتوبلازم حيث يُتَرْجَمُ إلى بروتينيْن هما TIM و PER. يتراكم البروتينان فى السيتوبلازم، وعندما يصل تركيزُهما إلى حدٍّ معين، يرتبطان سوياً ليتشكَّلَ مركَّبٌ جديدٌ يدخل إلى نواة الخلية. فى النواة يرتبط هذا المركبُ بالجينيْن بير وتيم، ليَكْبِتَ النَّسْخَ منهما، فيتعطلُ نشاطُهما ويُوَقِّفُ إنتاجَ البروتينيْن. هى إذن أنشوطة تغذية مرتدة سلبية. بعد فترة يتحلل المركبُ البروتينى ويبدأ الجينان فى النَّسْخ مرةً أخرى.

اكتُشفت فى ذبابة الفاكهة جيناتٌ تُسْرِعُ من إيقاعات الساعة النحويومية أو تبطئُ منها أو تَمْحُوها. كُشفَ عن ثلاث طفرات فى جين اسمُه كلوك clock: طفرةٌ تُنْتِج حشرات تختفى فيها الإيقاعاتُ النحويومية، وطفرةٌ تكون فيها الدورةُ ١٩ ساعة، وطفرةٌ يصل فيها طولُ الدورة إلى ٢٩ ساعة، بدلاً من الأربع وعشرين ساعة الطبيعية.

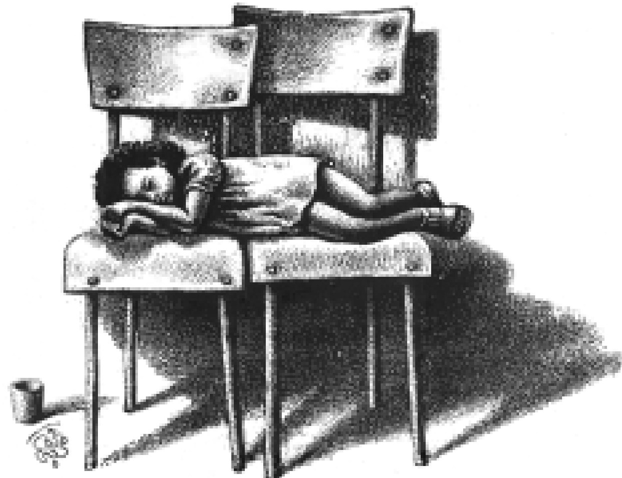
من المثير أن نذكرَ أن جينات شبيهةً قد عُثر عليها فى الثدييات، وتقول الدراسات إن الساعةَ بالثدييات تعمل تقريباً بنفس طريقتها فى ذبابة الفاكهة. عَثَرَ العلماءُ على أول جين فى الثدييات عام ١٩٨٨، بعد أن اكتشفوا حيوانات هامة لها دورةٌ نحويومية طولُها ٢٠ ساعة. وفى عام ١٩٩٧ اكتُشف جينُ كلوك فى الفأر، وحُدِّدَ موقعُه وتَمَّتْ سَلْسَلَةُ دناه. وفى عام ٢٠٠١ اكتَشَفَ العلماءُ أولَ جين بشرىٍّ للساعة البيولوجية أثناء دراستهم لمرض بشرىٍّ يغلب فيه النومُ المريضَ مبكراً جداً ليستيقظَ تلقائيًا قبل الفجر بساعات.

الجينُ البشرىُ الطافرُ hPer2 مسئولٌ عن نمطٍ وراثىٍّ من النوم يُسَمى «متلازمةُ طور النوم المبكر العائلى» (FASPS). مَنْ تظهر به هذه المتلازمةُ يُسَمى «قُبَّرَةُ الصباح»، إذ يبدأُ النعاسَ فى السابعة مساءً ويستيقظُ فى الثانية صباحاً. هناك طفرةٌ أخرى هى hPer3 يصبح بها الفردُ «بومةَ المساء» إذ ينام متأخراً جداً فى الليل، ويجد صعوبةً بالغةً فى الاستيقاظ فى الصباح.

عندما تُزَال الساعةُ الحاكمةُ من الجُرْذان تفسدُ الدورةُ اليوميةُ للنشاط والنوم، والمعتقدُ أنها تُزَامِنُ الساعات «المحلية» فى الأعضاء والأنسجة المختلفة من الجسم، إما عن طريق الهرمونات أو بتغيير حرارة الجسم. ولقد عُثِر بالفعل على ساعات تشغلُها الجيناتُ مستقلةً عن الساعة الحاكمة، فى الكبد والرئة والخصية والأنسجة الضامة والعضلات، ومثلُ هذه الساعات «المَحَلِّية» المستقلة تُوجد بذبابة الفاكهة فى قرون الاستشعار، فلهذه إيقاعٌ نحويومى مستقلٌ عن ساعة المخ الحاكمة. ذبذبةُ قرون الاستشعار ترتبط بحاسة الشَّمِّ التى تَكُونُ أكثرَ حساسية فى الليل عنها فى النهار.

الشيخوخةُ قد تُفْسِد تَزَامُنَ الساعات «المحلية» عبر الجسم، وتَزَامُنَها مع ساعة المخ الحاكمة. تقول نتائجُ البحوث إن النشاطَ الكهربائى بالساعات البيولوجية الداخلية لكبار السن من الجُرذَان، لا يكون فى نفس انتظامه فى صغارها، وعلى هذا سنجدُ أن الجُرَذَ العَجُوزَ يفعل ما يفعله كبارُ السن منا: يُقَيِّل أثناء النهار!

ربما ساعدتْ جيناتٌ



الساعة البيولوجية يوماً فى علاج السرطان. هناك ٨ جينات على الأقل من هذه الجينات تُنَسِّقُ الوظائفَ الطبيعيةَ فى الجسم، مثل تضاعف الخلايا (غير المحكوم فى السرطان) وانتحار الخلايا (الذى يُعطَّل فى خلايا الورم السرطانى). ظَهَرَ من البحوث أن إزالةَ الجين mPer2 من خلايا الفأر يجعلها سرطانيةً، ولا تنتحر. فإذا كانت جيناتُ الساعة البيولوجية تلعبُ بالفعل دوراً فى السرطان، فمن الممكن أن تُستَهْدَفَ لإنتاج أدوية جديدة تُوقِفُ هذا المرضَ.

شـلـل النـوم

يحدث أحياناً أن تستيقظَ فجأةً فى أعماق الليل يخالجك الشعورُ بأن شرّاً ما يحيط بك. لا تستطيع التنفسَ. تحسُّ بأن هناك مَنْ يضغطُ على صدرك ويحاول أن يخنقَكَ. تُصابُ بالذعر عندما تكتشف أنك لا تستطيع أن تتحركَ.

تحسُّ بشلل النوم هذا إذا استيقظتَ لسبب أو لآخر فى مرحلة نوم الريم، يستيقظ مخُّك فى حالة نصف ريم، بينا جسدك لا يزال مسترخياً نصفَ مشلول. تقع فريسةً ما بين عَالَم الواقع وعَالَم هلوسة الأحلام، ثم لا تستطيع أن تصلَ إلى هذا ولا ذاك. «تكافحُ» كى تتحررَ فلا تستطيع. يزداد خوفُك وتشعرُ وكأن عجوزاً شمطاءَ تجلس على صدرك. وفى الوقت الحَرِج، وقبل أن تتمكنَ منك الشمطاءُ، يفرزُ جسمُك دفْقَةَ من الأدرينالين تخرجه من الشلل.

تصيبُ هذه الحالةُ نحو ٢٥٪ من الناس، ويَخبرُ الغالبيةُ العظمى من هؤلاء رعباً هائلاً قَلَّما يتحدثون عنه إذ لا يحبون مناقشتَه حتى لا يعتقدُ السامعُ أنهم قد أصيبوا بخَلَلٍ عقلى!

تقول الأبحاثُ الطبية إن شللَ النوم ليس على وجه العموم مؤذياً، إنه لا يستغرق سوى بضع ثوان، وقد يطولُ ليصبحَ بضع دقائق، لكنَّ مَنْ يَخْبرُهُ سيعتقدُ أنه قد استمر ساعات. تشير نتائجُ التجارب إلى أن احتمالَ حلول هذا الشلل بين مَن ينامون على ظهورهم يبلغ خمسةَ أضعاف احتمالِ ظهوره بين مَن ينامون فى أى وضع آخر. إذا تَجنَّبْتَ النومَ على ظهرك قَلَّ شلل النوم كثيراً. فإذا ما وَقَعْتَ فريسةً له فما عليك إلا أن تحركَ جزءاً من جسدك، رأسَكَ مثلاً أو إصبعَك أو أحدَ أصابع قدمك، أو حتى أن «تُبَرْبِش» بعينيك. هذا يكفى «كعلاج» طبيب فى الحقيقة، بل ويمكنك أن تقومَ بهذا فى عقلكَ إذا لم تستطعْ أن تحركَ رأسَك أو إصبعَك. حاولْ فقط أن تتخيلَ أنك تحركُ رأسَك أو إصبعَك لتُبْقِى عَقْلَك نشطاً بما يكفى كى يدركَ جسدُك الأمرَ فيتحرك لإيقاظك وينتهى الشللُ.

هناك عائلاتٌ يجرى فيها شللُ النوم هذا، الأمر الذى قد يشير إلى أنَّه وراثى، لكن الكثيرين يعتقدون أنه يأتى نتيجةً لمشاكل سيكولوجية أو بيئية.

الأحـــلامُ

فى الليلة التى ينام فيها جيداً، يقضى الفردُ نحو ساعتين وهو يحلم. قد تتذكر بعضَ الأحلام عندما تستيقظُ إذا كانتْ ذات طبيعة استثنائية شاذة، لكن هناك من الأحلام ما يعكس خبرات واقعيةً. ورغم ذلك فإن أحلامَ نوم الريم عادةً ما تكون خبراتٍ جديدةً إبداعيةً، كالأعمال الروائية كلُّها كلماتٌ وأحداثٌ وأفكارٌ وإحساساتٌ خياليةٌ، وليست مجردَ سَرْدٍ لأحداث واقعية. لا يبدو أن لمؤثرات ما قبل النومِ أثراً كبيراً على محتوى الحلم. لكن المصدرَ الذى يُستَقَى منه الحُلْمُ لا يزال مجهولاً.

يعتقد معظمُ العلماء أن الأحلامَ تحدث لكل البشر بنفس التكرار تقريباً؛ وعلى هذا فإذا اعتقد البعضُ أنهم لا يحلمون أو أنهم قد حلموا مرةً واحدة فقط فى ليلة معينة، فإنما يكون هذا لأن تذكُّرَهم للأحلام قد خَفَتَ أو تلاشى من الذاكرة.

يُفْتَحُ نومُ الريم ويُغْلَقُ عن طريق منطقة الجسر Pons بالمخ. أما ما ينظم الأحلامَ فمنطقتان بعيدتان عن الجسر (وتتحكمان فى وظائف عليا بالمخ)، من هنا يمكن أن يُفْصَلَ النومُ عن الحُلم، كما يحدث أحياناً عند تعاطى مخدرات معينة، أو عندما يحدث عطبٌ ما فى الجسر، فيفقد الفردُ نومَ الريم ولا يَفْقِد الحُلْمَ، أو عندما يحدث عطبٌ فى مناطق أمامية من المخ فيفقدُ الفردُ الحُلْمَ ولا يتأثر نومُ الريم. أمكن باستخدام تقنيات التفريس scanning تحديدُ مناطق المخ التى تَنْشَط أثناء أحلام الريم، أما المناطقُ التى تكون خاملة أثناء الحُلم فتشملُ تلك التى تنظمُ الذكاءَ والوعىَ والاستدلالَ المنطقىَّ. لا تزال أهميةُ الأحلام لصحة النائم مجهولةً، وكذا معنى الأحلام.

الجــيـت لاج

من بين النتائج السلبية للساعة البيولوجية هناك ما يصيب المسافرين عبر مناطق زمنية مختلفة، والذى نعرفه باسم الجيت لاج jet lag، والذى يَتَسَبَّبُ فى الإفراط فى النوم، وفقدان التركيز، وضعف التحكم الحركى، والاستجابة البطيئة للأحداث، والغثيان، وضيق الصدر. تحدث الجيت لاج عندما تَعْجَزُ ساعتُنا النحويومية عن التكيف مع التغير فى الماعات الضوء التى يمر بها الشخصُ عندما يعبر بسرعة مناطقَ زمنية مختلفة. يقع الجسمُ عندئذ فى «لخبطة». الساعةُ البيولوجية تحملُ الإيقاعَ المُهَيَّأَ لمنطقة الزمن الأصلية، وهذا يختلف عن الماعات الضوء فى المنطقة الزمنية الجديدة. هذا اللاتزامنُ يؤثر فى دورة النوم/اليقظة، وغيرها من الدورات: تخرج كلُّ دورات الجسم عن التوافق، ويتطلب الأمرُ بضعةَ أيام حتى يتم ضَبْطُ الساعة حَسَب المنطقة الزمنية الجديدة، الاختلافُ فى ساعات ضوء النهار سيعيدُ ضبطَ الساعة الداخلية.

السفرُ نحو الشرق يتسبب عادةً فى جيت لاج أقسى من السفر نحو الغرب، لأن السفرَ شرقاً يتطلب أن نقصرَ يَوْمَنَا، ويتطلبُ إشاراتِ وقتٍ تحدث أبكرَ مما تعودتْ عليه ساعتُنا البيولوجية. ساعتُنا النحويومية على ما يبدو تكون أقدرَ على التكيف مع يوم أطول منها على التكيف مع يوم أقصر. ربما وَجَدْنا هذا واضحاً عند بدء التحول إلى التوقيت الشتوى (فى بداية الخريف)، عندما يصبح طولُ اليوم الأول ٢٥ ساعة، ففيه يجد الجسمُ أن التحولَ أسهلُ منه عند التحول إلى التوقيت الصيفى (فى بداية الربيع) عندما يصبح طولُ اليوم الأول ٢٣ ساعة.

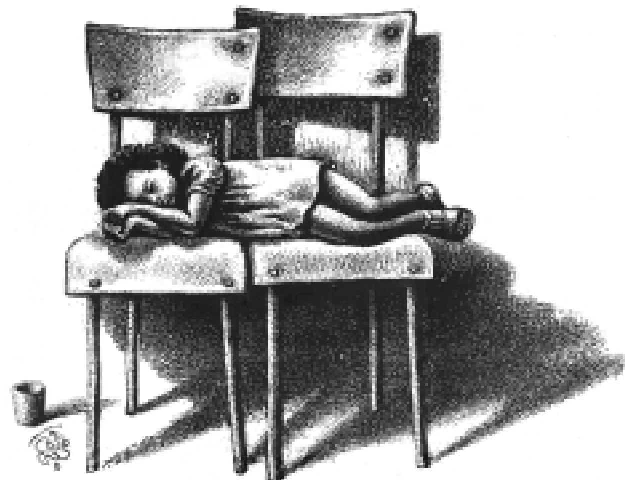
التَّـثَـــاؤُبُ

نتثاءبُ عندما نصحو من النوم ونحتاج إلى الحركة، ونتثاءبُ عندما نستعدُّ للنوم. يتثاءبُ الجنينُ فى بطن أمه وعمره ١١ أسبوعاً. يبدأ الوليدُ فى التثاؤب بعد ولادته ببضع دقائق. الرياضيون يتثاءبون عند بداية المباراة، المظليون يتثاءبون قبل القفز من الطائرة، الطلبةُ يتثاءبون قبل الامتحان، الموسيقيون يتثاءبون قبل بداية العزف. لكن مرضى الشيزوفرانيا نادراً ما يتثاءبون. التثاؤب، كالابتسام والضحك، يُعْدِى. لكنَّ الأطفال قبل سنِّ الثانية لا يتثاءبون بالعدوى. الشمبانزى والقردةُ العليا تتثاءب مثلنا، والقططُ أيضاً.

كانت الفكرةُ الشائعة هى أننا نتثاءبُ لحاجة الجسم إلى الأكسجين أو بسبب زيادةِ نسبة ثانى أكسيد الكربون فى الدم. أما السببُ فى أن التثاؤبَ يُعْدِى فهو أن الموجودين فى نفس المكان يحتاجون هم أيضاً إلى الأكسجين. لكن بروفاين Provine سنة ١٩٨٧ أثبتَ أن هذا خطأٌ. إن صورةَ شخص يتثاءبُ قد تدفعك إلى التثاؤب، بل ويكفى حتى صوتُ شخص يتثاءب. يبدأ نحو نصف الكبار (٤٢ - ٥٠٪ منهم) فى التثاؤب مباشرةً عند مشاهدة أفلام فيديو عن التثاؤب. ولقد تتثاءب وأنت تقرأ هذا!!

التثاؤبُ عمليةٌ لا إرادية. وجد الباحثون سنة ٢٠٠٥ أن ثمة تعطيلاً واضحاً لمنطقة بالمخ حول الأميجدالة يزداد مع تهيؤ الفرد للتثاؤب بعد رؤية آخر يتثاءب. هذه المنطقةُ من المخ ترتبطُ بالتحليل اللاشعورى للتعبيرات العاطفية فى الوجه. لكنْ، لا أحَد يعرف لماذا يتعطل نشاطُها مع عدوى التثاؤب.

يأتى التثاؤبُ استجابةً لمجالٍ واسع من المسببات: الاقتراب من النعاس، الاستيقاظ من النوم، الجوع، الضجر، الهلع، التعب، الإجهاد، ويكون أشدَّ وأقوى فى الصباح الباكر عنه فى الليل. يستمر التثاؤبُ فترةً تتراوح ما بين ٥ و١٠ ثوان، وهو فى الذكور أقوى منه فى الإناث وأطول. عند التثاؤب يَتَّسِع الصدرُ، ويهبط الحجابُ الحاجزُ والحنجرةُ، ويرتفع جناحا الأنفِ ولَهَاة الحلق، ويُسْحَبُ اللسانُ إلى أسفل إلى الخلف، وتُبعدُ الأوتارُ الصوتية، ويُفَتَّحُ الفمُ على



اتساعه للشهيق العميق، وتُغلق الغددُ الدمعية للعين، ويزداد ضغطُ الدم ومعدلُ النبض. فإذا أطبقتَ فَكَّيْكَ ولم تفتحْ فَمَكَ، فلن تجدَ التثاؤبَ مُشْبِعاً! بَسْطُ عضلات الفك والوجه أمرٌ ضروريٌّ للتمتع بالتثاؤب! في التثاؤب مُتْعَةٌ؟!

يرى بعضُ العلماء أن عدوى التثاؤب قد نشأتْ في وقت ما من تاريخنا التطوري، لأنه يخدم في تنسيق السلوك الاجتماعي للجماعة. مواعيد النوم والاستيقاظ على وجه الخصوص. ربما كان هذا جزءاً من ظاهرة عامة للإشارات اللاشعورية التي تُستخدم في توقيت السلوك الجماعي. عندما يتثاءبُ فردٌ فإنه ينقلُ إشارةً إلى الآخرين، فيتثاءبون ويستعد الجميعُ للنوم. مثلُ هذا التواقت قد يكون أساسياً لبقاء النوع، مثلما يبدأ سربُ الطيور في الطيران بمجرد أن يرتفع طيرٌ واحدٌ منطلقاً في الهواء، لأنه . فَرْضاً . قد لاحَظَ خَطَراً يقترب! إننا نتثاءبُ كي نَبْقَى معاً، ونُواقتُ نشاطاتنا، نتثاءبُ كي يُخْبِرَ بعضُنا بعضاً بأن موعدَ النوم قد أزف، أو أن الوقتَ قد حان للاستيقاظ والبحث عن الطعام!

السَّائـــرون نيَامـــاً

السيرُ أثناء النوم somnambulism، أو السَّرْنَمَةُ، حالةٌ يختلط فيها النومُ باليقظة، يصحو فيها الفرد جزئياً ليمشي. يحدث هذا أساساً في الثُّلْثِ الأول من الليل، بعد ساعة أو ساعتين من النوم، والطفلُ في مرحلة النوم العميق اللاريمي. ولا يحدثُ في مرحلة النوم الريمي. يبدو الطفلُ يقظان مرتبكاً عاجزاً عن معرفة ما يفعل: عيناه مفتوحتان بهما نظرةٌ زجاجيَّةٌ وعلى وجهه تعبيرٌ مَشْدُوه، يتجول بلا هدف في المنزل، ليقوم بأفعال تبدو مقصودةً، فلقد يتوجَّه إلى حجرة أخرى بالمنزل لينامَ فيها، أو يمضي إلى المطبخ ليأكلَ، أو قد يخرج إلى الشارع، بل وربما تَوَجَّهَ إلى النافذة وفَتَحَها وسَقَطَ منها! ولقد يدخلُ في حديث مع الآخرين، إنما بكلام مشوش لا يُفْهَمُ له معنى. تستمر هذه الحالة ٥ . ٢٠ دقيقة، والعادةُ ألاَّ يتذكرها الطفلُ عندما يستيقظ، ولا يجب في الحقيقة أن نُذَكِّرَهُ بها وإلا خاف من النوم فيما بعد، بل ولا يجب أيضاً أن نوقظَه وهو في هذه الحالة ولا أن نتحدثَ معه بصوت مرتفع، يكفي أن نصطحبَهُ بهدوء إلى فراشه، إذا سَمَحَ هو بذلك.

لا أَحَدَ يعرفُ السببَ الحقيقي لسلوك الأطفال هذا، وإن كان في العادة «صفةً تجرى في العائلة»، بمعنى أنه على الأغلب وراثي. تقول الدراساتُ على التوائم المتطابقة أنه إذا كان أحدُ التوأمين يسير نائماً، فالأغلبُ أن يكون الآخرُ كذلك أيضاً. هي صفةٌ يقدحُ زنادَها نومُ الطفل في مكانٍ غريب، وتراكمُ فترات قلة النوم، والحُمَّى، ولكن يَنْدُرُ أن يرتبطَ هذا السلوك بالحالة السيكولوجية. ولقد رُصِدَ معامل تلازم مرتفع (+٠,٧٣) في الأطفال بين السَّرْنَمَةِ وبين التكلم أثناء النوم (بَلَغَ هذا المعامل +٠,٥٦ في كبار السن).

تصيبُ هذه الحالةُ الأطفالَ بخاصة، لاسيما بين عمرَيْ ٨ و١٢ عاماً، عندما تَصِلُ نسبةُ مَنْ يعاني منها، مرةً واحدة على الأقل، إلى نحو ١٧٪، لكنها تختفي قبل البلوغ في معظم الحالات، وإن كانت قد تَحِلُّ بالبعض بعد البلوغ. هناك نحو ٤٪ من البالغين يسيرون نياماً. أما السببُ في معظم حالات الأطفال فوراثي. إذا كنت مُسَرْنِماً فثمة احتمالٌ يبلغ ٤٥٪ في أن يُولَدَ لك طفلٌ مثلُكَ، وإذا كنت وزوجتُك سوياً مُسَرْنِمَيْن فقد يرتفع الاحتمالُ إلى ٦٠٪!

أما ما يُسَبِّبُ السرنمةَ في الكبار، فهناك بجانب الوراثة أحوالٌ تزيد من احتمال ظهورها، منها: الإجهادُ الجسدي والعاطفي، وانخفاضُ إفراز الغدة الدرقية، والصداعُ النصفي، وإصاباتُ الرأس، والتهابُ الدماغ، والحمى، وانقطاعُ النَّفَس أثناء النوم، وتعاطي بعض أدوية علاج الأمراض النفسية (كالليثيوم) أو أدوية علاج مرض باركنسون، ونقصُ المغنسيوم، وأيضاً السفرُ عبر مناطق زمنية مختلفة، أو النومُ في مكان غير مألوف. وقد اتضح أن نسبةً كبيرةً ممَّن يسيرون أثناء النوم من الكبار قد خَبِرُوا السرنمةَ وهم أطفال، نسبةٌ تبلغ ٢٥٪ في الرجال و١٨٪ في النساء. وتَأَخُّرُ ظهور السرنمة في الكبار عادةً ما يعني أن وراءَها سبباً عضوياً.

في دراسة نُشرت سنة ٢٠٠٢ شملتْ ٧٤ «مريضاً» بالغاً ممن يسيرون نائمين (٥٨٪ منهم كانت الصفةُ قد ظهرتْ بهم وهم أطفال)، وكان لنسبة ٢٤٪ من هؤلاء أقاربُ يسيرون نُوَّماً) اتضح أن أكثر من نصفهم يحمل صيغةٌ من جينٍ هو (DQB1)، لا يوجد إلا في رُبع عينة من الأصحاء استُخدمت للمقارنة. هذا الجينُ هو واحدٌ من عائلة من الجينات تُنْتِجُ بروتينات اسمها هلا HLA تختص بتنظيم الجهاز المناعي. وقد اتضح أيضاً أن هذا الجينَ يرتبط بمرض آخر من أمراض النوم، هو الخَدَر.

التَّعْسيلةُ (القَيْلُولَةُ)

التَّعْسيلةُ (أو ضجعة الظهيرة) هي فترةٌ قصيرةٌ من النوم يأخذها الفردُ بعد وجبة منتصف اليوم، وتُعْتَبَرُ فترةً وجيزةً من الراحة الخفيفة أكثر منها نوماً جادا. لا يعرفُها الأطفالُ عادةً ولكنهم يتعلمونها في نهاية المطاف. يحدث في منتصف النهار أن يقلَّ نشاطُ الجسم وتنخفضَ حرارتُه (في الرجال أوضح كثيراً من النساء)، الأمرُ الذي يتسبب في حالة وَسَن تشبه ما يحدث لنا ليلاً في المرحلة الأولى من مراحل النوم، فيغلبُنا النعاس. وإشباعُ هذه الرغبة في النعاس يجعلنا نصحو ونحن نشعر بالراحة والنشاط.

التعسيلةُ تُعَزِّزُ التعلمَ والذاكرةَ. أجريتْ تجربةٌ قورنت فيها مهاراتُ التعلم والذاكرة لمجموعتين من الناس خلال يوم واحد ومعه صباح اليوم التالي. حُرِمَتْ مجموعةٌ من النوم تماماً طولَ النهار، فأخذ أداؤهم يتناقص حتى العصر والمساء. سُمِحَ للمجموعة الأخرى أن يعسِّلوا لمدة ٦٠ . ٩٠ دقيقة في الساعة الثانية ظهراً، ثم فُحصت موجاتُ المخ في مرحلتَي نوم الموجة البطيئة ونوم الريم. تقول النتائجُ إن مَنْ كان نومُهم يتضمن المرحلتيْن كانوا أفضلَ أداءً ممَّن لم يناموا . عندما اختُبروا في نهاية النهار، أما مَنْ لم يَصِلْ منهم إلى نوم الريم فكان أداؤهم أقلَّ ممن مَرَّ بمرحلتَي النوم. كان أداءُ مَنْ تَمَكَّنَ من تعسيلة جيدة على نفس جودة أداء متطوعين في دراسات أخرى اختُبروا بعد نَوْم ليلتين نوماً جيداً. انتهى الباحثون إلى القول بأن التعسيلة تعادل نومَ ليلة كاملة بالنسبة للتعلم. إنها وسيلةٌ لتسديد جزء من «دين النوم»، وكلُّنا مَدِينٌ!

دَيْـــنُ الـنَّـــــوْمِ

دَيْنُ النوم هو القَدْرُ من النوم الذي كان يلزم أن تأخُذَهُ، ولم تأخذْه. الحرمانُ من النوم يسبب الشعورَ بالإرهاق بالنهار، والخمولَ والقلقَ والكآبةَ وضيقَ الصدر وانخفاضَ قدرة المخ على التركيز أو التذكر، وضَعْفاً جسمانياً يصعب معه القيامُ بالمهام البسيطة، أما المهامُ الأصعبُ فتبدو لك مستحيلةً. استرخ، فإذا بدأتَ تشعر بأنك تَعِبٌ، أو أصابَكَ الوَسَنُ وشعرتَ بالرغبة في النوم، فستكونُ هذه إشارةً بأن عليك دَيْناً!!

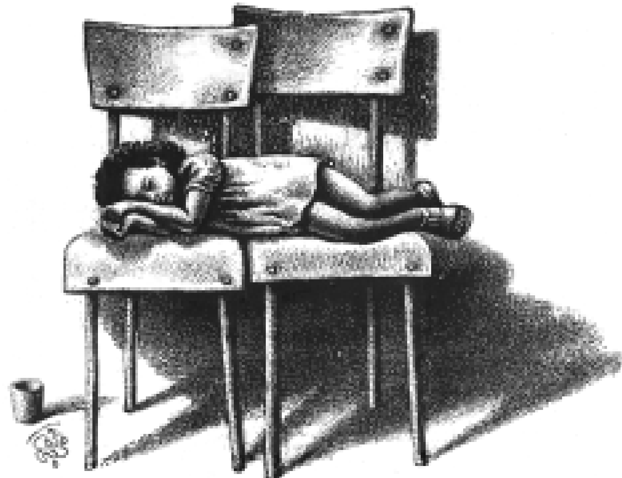
يمكن تقدير دَيْن النوم إذن بالسرعة التي يغلبُك فيها النومُ أثناء النهار. العطشُ الشديد يجعلك تشربُ كوبَ الماء، إذا تَوَفَّر، في لمحة. مَنْ يحمل دَيْناً من النوم ثقيلاً ينعس على الفور إذا أُتيحت الفرصةُ أثناء النهار. ٩٠٪ من الناس يعتقدون أن وجبةَ الغذاء الثقيلةَ ظهراً هي السببُ في الوَسَنِ الذي يستحثُ النعاسَ في الظهيرة. وهذا خطأٌ فادح. إذا لم يكنْ لديك منْ دَيْن النوم الكثيرُ فلن تُحِسَّ بالحاجة إلى النوم بعد الوجبة في منتصف النهار. البعضُ يتصور أن الرتابةَ ودفءَ الحجرة والكحوليات كلَّها تسبب النعاسَ، وهذا أيضاً خطأٌ بَيِّن. هذه العواملُ جميعاً لا تسبب النعاسَ، إنما هو حجمُ دَيْن النوم! يحاول البعضُ منا، جَهْلاً، أن يجدوا في شُرْب القهوة بديلاً عن النوم نهاراً. وهذا أمرٌ لا طائل وراءه، ولا يُسَدِّدُ دَيْنَ النوم. لا سبيلَ إلى تسديد الدَّيْن إلا بساعات نوم إضافية.

الأَرَقُ (الــسُّــهَــادُ)

الأَرَقُ هو ألاَّ تتمكنَ من أن تنالَ ما تحتاجه من النوم المريح أثناء الليل، أن تَجِدَ صعوبةً في الولوج إلى النوم، أو أن تستيقظَ كثيراً أثناء النوم ثم يصعبُ عليك أن تنامَ ثانية، أو أن تستيقظَ مبكراً جداً في الصباح.

الكثيرون منا يعانون كلَّ ليلة من الأرق على مستوى ما:

في كل ليلة يعاني من الأرق



١٠ ـ ١٥٪ من الناس. الأرقُ يُصيب النساءَ أكْثَرَ مِمَّا يصيبُ الرجالَ، لاسيما الحوامل منهن. ربما بسبب التغيرات التى تحدث فى الهرمونات والحاجة إلى التبول وحركة الجنين داخل البطن، بل وشكل الجسم الذى قد يُغَيِّرُ من وضْعَةِ النوم.

والحصولُ على ما يكفى من النوم أمرٌ أساسىٌّ للصحة والسلامة، فللأرق آثارُه السلبيةُ على المزاج، ويسبب زيادةَ دَيْنِ النوم، مما يتدخل سلبيًا فى النشاط اليومى للشخص وفى علاقاته مع الآخرين وأدائه فى العمل، ولقد يتسبب أيضاً فى مخاطرَ جسدية، ربما كان أخطرُها النعاسُ أثناء قيادة السيارة.

يحدثُ «الأرقُ العابر» بين الفينة والفينة، وهو قصيرٌ لا يستمر طويلاً. بضع ليالٍ متقطعة فقط خلال أقل من أربعة أسابيع، وعادةً ما يكون السببُ ظرفاً طارئاً مؤقتاً، مشكلةً عاطفيةً مثلاً أو واقعةً مؤلمة، أو يوماً مرهقاً فى العمل، أو ضجةً حدثت أثناء النوم، أو خطأً حلَّ بالساعة البيولوجية بسبب الجيت لاج، أو أثراً جانبيًا لتعاطى أدوية الكحة أو البرد.

أما «الأرقُ المزمنُ» فيستمر ثلاثَ أو أربعَ ليالٍ فى الأسبوع، لمدة شهرٍ أو أكثر، والعادةُ أن يكونَ نتيجةً لعوامل مركَّبة، فأسبابُه فى الواقع متعددةٌ منها الإصابةُ بالربْو والتهاب المفاصل، والاكتئابُ العميق، وتعاطى أدوية ضغط الدم والكافايين (فى الشاى والقهوة والكاكاو والكولا) والنيكوتين والكحول، والقلقُ الشديد، وانقطاعُ النَّفَس، وانقطاع الطمث فى النساء. وقد لُوحظت فى أصحاب الأرق المزمن مستوياتٌ غير طبيعية من بعضِ كيماويات الجسم، مثل الميلاتونين الذى تنخفضُ نسبته فى الكثير من الحالات، ومثل الكورتيزول cortisol، هرمون الإجهاد، الذى ترتفع نسبتُه وهو المعروف بتقليله لنوم الريم.

هناك أيضاً حالةٌ وراثيةٌ نادرةٌ من الأرق يمكن أن تَغْدُو فى النهاية قاتلةً، تُسمى الأرقُ العائلى المميتُ.

الغَطيطُ (الشَّخِير)

ليس ثمة ما هو أسوأ من صوت شخصٍ يَغطُّ فى نومه بجوارك وأنت تحاول أن تنامَ! الغطيطُ مشكلةٌ شائعة للغاية، «تُصيب» الصغيرَ كما الكبير: ٢٠٪ من الرجال فى عمر ٣٠ ـ ٣٥ عاماً يغطُّون أثناء النوم بضعَ ليالٍ فى الأسبوع، مقابل ٥٪ من النساء فى هذا العمر. وعلى عُمْرِ ٦٠ سنة تصبح النسبة ٦٠٪ بين الرجال و٤٠٪ بين النساء. يقولون إن الغطيطَ كان مفيداً لأجدادنا القدامى، إذْ كان يخيفُ المفترسات أثناء الليل ويُبعدها عن أسلافنا وهم نيام. ولكنه أصبحَ اليومَ سبباً مِنْ بيْن أسباب الطلاق! مِنْ بيْن كبار المشهورين بالغطيط سنجد أبراهام لينكولن، فرانكلين روزفلت، ونستون تشرشل وبنيتوموسوليني. ومثلُنا يغط فى النوم الكلبُ والقطةُ والفيلُ والغوريلا والخنزيرُ.

يحدثُ الشخيرُ عندما لا يستطيع النائمُ أن يمررَ الهواء بحرية خلال أنفه وفَمِه. يَصْدُرُ الصوتُ عن أوركسترا مِنَ ذبذباتٍ كثيفة للَّهاة وسقف الحلق إذْ الهواءُ يندفع خلال مَسْلَك هوائىٍّ ضَيِّقٍ ليصل إلى الرئتين. يشتركُ فى العزف أيضاً اللسانُ واللَّوزُ والزوائد الأنفية إن كانت متضخمة. فى اليقظة تُبْقِى العضلاتُ الحَلْقَ مفتوحاً، فإذا ما نام الفردُ ارتخت عضلاتُ الحَلْقِ واسترختْ إلى الداخل فيضيق الحَلْقُ، ومع ازدياد ضِيق مسلك الهواء تزداد حدةُ الغطيط.

ومع التنفس يبدأ الحلق فى التذبذب، وتسبب الذبذباتُ صوتَ الشخير. فإذا كان ثمة انسدادٌ بالأنف، تَنَفَّسَ النائمُ عن طريق الفم، وفَتْحُ الفم يدفع اللسانَ إلى الخلف، وهذا يضغط على مؤخرة الحَلْقِ لينطلق أيضاً عزفُ الغطيط. بجانب انسداد المسالك الأنفية الهوائية هناك أسباب عديدة أخرى للغطيط منها الحساسيةُ الفصلية، واحتقانُ الأنف المزمن، والتواءُ الحاجز الأنفى، وتضخُّم اللوزتين والزوائد الأنفية، والسمنةُ، والتدخينُ وشربُ الكحوليات قبل النوم. والعادة ألاَّ يكتشف الشخصُ أنه يَغطُّ فى النوم، وإنما يخبره بذلك الآخرون ممَّن أزعجهم شخيرُه وقَضَّ نَوْمَهم. قد يَغطُّ البعضُ وهم جلوس إذا ناموا. كنتُ مرة فى جلسة نام رئيسُها البدينُ وبدأ فى غطيط غريب مزعج، أيقظتُه، فصحا وأكد لى أنه لم يكن نائماً، فقلت إنها أول مرة أرى فيها شخصاً يشخِّر وهو مستيقظ!!

قد يتسبب الشخير فى الإجهاد والتعب أثناء النهار، ويبدو أنه يسهمُ فى خطر ازدياد ضغط الدم، والسكتة الدماغية.

من بين طرق معالجة الغطيط أن تنام ورأسك على مخدة مرتفعة، أو ترفع رأسَ السرير بضع بوصات وأن تُغَيِّرَ وضْعَتَك فى النوم فلا تنام على ظهرك، وأن تتجنب الوجبات الثقيلة قبل النوم، وأن تتأكد من عدم تضخم اللوزتين والزوائد الأنفية واللهاة، وأن يعمل السِّمَانُ على تخفيض وزن أجسامهم.

انقطاعُ النَّفَس

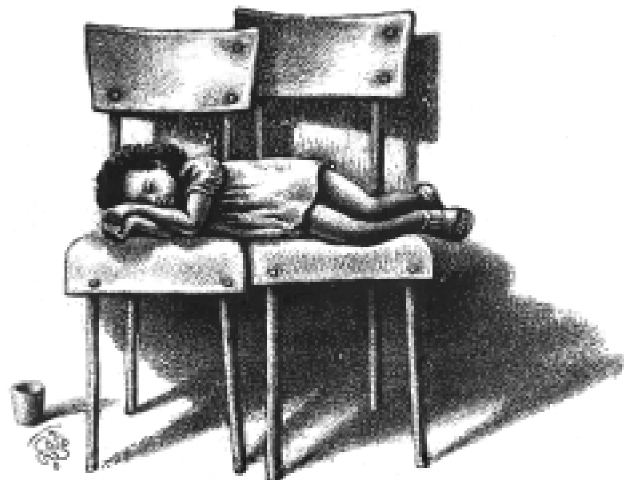
من بين الأمراض التى قد تسبب فيها الشخيرُ، مرضٌ خطيرٌ من أمراض النوم هو انقطاع النَّفَس apnea الذى يصيب نحو ٤٪ من البشر، وفيه يتوقف النائمُ بالفعل عن التنفس لفترة قصيرة (١٠ ـ ٣٠ ثانية) لعددٍ من المرات يتراوح بين ٣٠ و٣٠٠ مرة فى الليلة الواحدة. عندئذ يستيقظ النائمُ لاهثاً يطلب الهواءَ، ثم ينامُ ثانية. فإذا ما استيقظَ فى الصباح لم يَتَذَكَّرْ ما حدث له، لكنه يحسُّ بصداعٍ مؤلمٍ يلازمه طولَ اليوم فيبدو مرهقاً مُنْهَكاً، بل ولقد يجد صعوبةً فى أنْ يبقى مستيقظاً حتى أثناء محادثاته مع الآخرين. اكتُشفَ مؤخراً أن لدى مرضى القلب الذين يعانون من انقطاع النفس مستوياتٍ مرتفعةً للغاية من حامض الهوموسيستاين الأمينى الذى يفرزه الجسمُ. مثل هذه المستويات المرتفعة قد تثير الأوعيةَ الدمويةَ وتؤدى إلى انسداد الشرايين. اتضح أيضاً أن مَنْ يعانون من انخفاض إفرازات الغدة الدرقية مُعَرَّضُونَ أكثر للشخير وانقطاعِ النفس، فالعادة أن يكون هؤلاء من السِّمَان، ولأنَّ اللسانَ لديهم عادةً ما يكون ضخماً، ومع احتمال أن تصطحبهُ أيضاً ترسيباتٌ دهنية فى الممر الهوائى الأعلى، فإن احتمالَ حدوث انقطاع النفس عادةً ما يكون فيهم كبيراً.

ثمة عِلَّةٌ أخرى من عِلَل النوم نادرةٌ للغاية، هى الخُدار narcolepsy، تصيب نحو نصف فى المائة من الناس، وفيها يسقط الفردُ فجأةً نائماً فى أوقات غريبة وبشكل متكرر عبر النهار. هذه أيضاً عِلَّةٌ خَطِرةٌ مُوهِنةٌ.

الكوابيس ورعب الليل

الكابوس nightmare حُلْمٌ يحدث فى النوم الرِّيمىِّ يحس فيه الشخصُ بخوفٍ وفزعٍ رهيب، وكرب وقلق فظيع فيستيقظُ هلعاً. جزئياً على الأقل. تحدث هذه الظاهرةُ نمطيًا فى الجزء الأخير من الليل، فى الصباح الباكر، وعادةً ما تُوقظ النائمَ الذى يمكنه دائماً أن يتذكر فَحْوَى الحلم. قد تكون معظمُ الكوابيس مجردَ رَدِّ فِعْلٍ لضغوط الحياة. فإذا تكرر نفسُ الكابوس عدداً من المرات أصبحَ مَرَضاً قد يُفْسِد حياةَ الفرد الاجتماعية والوظيفية. تبدأ الكوابيسُ، عادةً قبل عمر ١٠ سنوات، وتعتبر أمراً طبيعياً فى الطفولة، وهى أكثر شيوعاً فى البنات عنها فى الصبيان. وقد تستمر الكوابيسُ حتى سنِّ البلوغ وعندئذ فكثيراً ما تكون مرتبطةً بمشاكل خارجية ونفسية. ورغم ذلك فإن ٥٪ من الكبار يَخْبُرون الكوابيس بين الفينة والفينة، النساءُ أكثر من الرجال. تعاطى وجبات الطعام الثقيلة مباشرةً قبل النوم قد يرفع أيضَ الجسم والمخ، ويسبب الكوابيس. على أن هناك نسبةً تبلغ ١٪ من الكبار يعانون من الكوابيس المتكررة. يبدو أن الوقوعَ فريسةَ الكوابيس أمرٌ يجرى فى العائلات.

أما رُعْبُ الليل night terror فيحدثُ أكثر ما يحدث فى الصبيانِ قبل البلوغ، وإن كان يُصيب البناتِ والبالغين أيضاً. هو ظاهرةٌ شائعة فى الأطفال بين عمر ٣ و٥ سنوات، وأقل كثيراً بعد ذلك. يحدث رعب الليل والطفل لا يزال فى مرحلة النوم العميق اللاريمى فى الثلث الأول من الليل بعد ساعةٍ أو ساعتين من نومه. يجلسُ الطفلُ فى سريره ويبدأ وهو نائم فى صراخٍ مذعور لمدة دقيقة أو دقيقتين، وقد يستمر خمس دقائق، جسدُه يتصبب عرقاً ونَبْضُهُ قد تزايد وعيناه مفتوحتان. لكنه لا يصل إلى اليقظة الكاملة، كما يصعبُ تهدئته، ثم يعودُ إلى النوم ثانيةً ولا يتذكر الواقعة عندما يستيقظ فى الصباح. ■



سيـــاســـة وحـــروب وعـــقـــائـــد



فــاضـــــل الــربـيــعـــــى

■■ فى قلب المسيحية العربية تتزاحم اليوم، كما تزاحمت فى الماضى البعيد، صورتان متناظرتان للمسيح، إحداهما للنبى عيسى ابن مريم، والأخرى للرب يسوع المسيح. وهما بفعل هذا التشابك الاستثنائى، تبدوان حتى هذه اللحظة كصورتين تاريخيتين لديانتين، إحداهما قديمة وقد عرفها العرب باسم «النصرانية»، وأخرى جديدة سوف يعرفونها تحت تأثير الفلسفة اليونانية، ثم تاليًا تحت تأثير الجدل الفلسفى العميق حول شخصية المسيح، باسم «المسيحية»، وهى المسيحية الرسولية - نسبة إلى بولس الرسول. وقد درج العامة من الناس على مماثلة النصرانية مع المسيحية، حتى أصبحت كلمة «نصرانى» دالة على «المسيحى» بإطلاق. غير أن روايات الإخباريين العرب عن «النصرانية» بعض القبائل فى الجزيرة العربية واليمن والعراق والشام، لا تدل لا من قريب ولا من بعيد على أن المقصود منها الإشارة إلى «المسيحية» كما نعرفها اليوم، بل قُصِد بها الإشارة إلى دين عربى قديم هو «النصرانية»، ولأن الروايات الإخبارية الكلاسيكية تتضمن مثل هذا التمييز، فإن الرواية المعاصرة ولأغراض التحليل التاريخى ليس إلا، يجب أن تتضمن التمييز نفسه. لقد ارتبط بزوغ عصر النصرانية فى الجزيرة العربية، وإلى حد بعيد انتشارها ثم اضمحلالها وانحسارها وتراجعها فى المنطقة ككل، بجملة عوامل وظروف دولية ومحلية متشابكة، قد يكون من بينها تصاعد الصراع البيزنطى - الفارسى، وهو صراع لعبت فيه مملكة الحيرة فى العراق القديم، واليمن ونجران ومكة والقدس، أدوارًا متميزة. وقد تنفرد مملكة الحيرة فى إطار هذا الصراع العالمى، بلعب دور شديد الخصوصية، ذلك أنها أصبحت طرفًا رئيسيًا فى نشر النصرانية ثم المسيحية بكل مذاهبها فى المنطقة. لكن تاريخ مملكة الحيرة، المطمور تحت طبقات سميكة من التراب والأساطير والمرويات المضطربة، قد لا يساعد بما فيه الكفاية فى التعرف على طبيعة هذا الدور وحدوده، ومع ذلك، فإن ما لدينا من عناصر ومواد تاريخية وأساطير ومرويات وقصص، يمكن أن يشكل أساسًا من أساسات كثيرة فى عمل يهدف إلى استكشاف هذا التاريخ، وربما التعرف إليه بدقة أكثر وحتى إعادة بنائه.

ولذلك يكتسب هذا الأمر أهميته من إمكانية بيان الظروف، وكذلك العوامل والدوافع التى مكنت المملكة، وخلال وقت قصير نسبيًا، وكما لم يحدث مع أى مكان آخر خارج الجزيرة العربية، من أن تُصبح واحدة من أكبر حاضنتين تاريخيتين للنصرانية بعد نجران فى الجنوب الغربى، إذ وعلى الرغم من التراجع الذى عرفته وعاشته هذه الديانة، والتبدل الهائل الذى حدث لها تحت تأثير الفلسفة اليونانية القديمة، ثم تحت ضغط الجدل الفلسفى العميق الذى تفجر فى المنطقة كلها حول طبيعة المسيح، فإنها واصلت دفاعها المستميت عن نصرانية العرب الأولى دين عيسى ابن مريم، وذلك حين أقدم ملوكها - كما المسيح، فإنها واصلت دفاعها المستميت عن نصرانية العرب الأولى دين عيسى ابن مريم، وذلك حين أقدم ملوكها - كما أقدمت قبائلها - على اعتناق مذاهب «مسيحية» شرقية، بدت لهم وكأنها الأقرب إلى الديانة القديمة التى عرفوها. وفى هذا الإطار، سعت مملكة الحيرة ومن خلفها قبائل البادية إلى مقاومة التبدل العميق والجذرى الذى طرأ على هذه الديانة، ولكن دون جدوى أو كثير أمل. ومع ذلك بدت، وهى تشاهد اشتداد الصراع من حولها بين الفرس والبيزنطيين، وتعيش لحظة تاريخية فاصلة من تلك اللحظات التى تعاظم فيها نفوذ الهرطقات الفلسفية، وكأنها سوف تضطر أو تُرغم عاجلاً أم آجلاً لمقاومة الضغوط ومواجهة التحديات السياسية والفلسفية واللاهوتية الجديدة التى هبت رياحها مع العصر الهلينى، لا بقوة الرفض والتشكيك والجدل العقلى، وربما بالعزلة، بل بقوة السلاح أيضًا. وفى هذا النطاق من تزاحم القوى الدولية والأفكار والمعتقدات الفلسفية من حول العرب، راحت الصور الجديدة ليسوع المسيح الرب، وقد صاغها الرسل والبطاركة فى أنطاكيا والإسكندرية بعناية تامة تحت التأثير المباشر للفلسفة اليونانية، تتدفق من حول قبائلهم وممالكهم الصغيرة، لا لتفرض عليهم القيام بتعديلات طفيفة على جوهر ديانتهم القديمة وحسب، بل وأن يتقبلوا الدمج المثير بين شخصيتى عيسى ابن مريم ويسوع المسيح. وفى مرات لا تُحصى، بدا أن من المتعذر على القبائل العربية أن تتقبل بسهولة مثل هذا الدمج المثير. ولذلك ظلت - فى روايتها لتاريخها ولتاريخ مملكة الحيرة - تميّز تمييزًا دقيقًا بين «مسيحيتها» العربية الخالصة أى النصرانية، وبين «مسيحية» أخرى، وفدت عليها من خارج الجزيرة العربية، وراحت تفرض عليها لا اسم يسوع المسيح بدلاً من اسم عيسى ابن مريم، وإنما كذلك صورته كرب لا كإنسان. وهذه، بدا أن من المتعذر إلى النهاية تقبلها بالنسبة لمجتمعات، كانت بفضل «طبيعتها»، أى تحت تأثير «فطرتها الأولى»، تأنف من فكرة «تأليه» البشر «لبشر» آخرين.

كانت نصرانية قبائل العرب هى «مسيحيتها» القديمة التى ولدت على الفطرة، عقيدة توحيدية شديدة البساطة والتقشف من المنظور الفلسفى، بل وشديدة التناغم والانسجام والتلاؤم مع حاجات بيئة صحراوية، فيما تبدت «المسيحية» الجديدة القادمة من خارج الجزيرة العربية مع العصر الهلينى، ومع تعاظم سطوة الجدال الفلسفى المستند إلى رؤى وتصورات فلاسفة اليونان القديمة، وكأنها دين آخر يصبح فيه النبى عيسى، هو نفسه الرب يسوع المسيح. وفى قلب هذا التزاحم بين الصور الفلسفية، ومع تضاؤل إمكانيات مقاومته، تراجعت النصرانية العربية إلى الوراء، وأخذت تذوى مع الوقت، ثم تفقد مكانتها وقدرتها على الصمود حتى داخل الجزيرة العربية نفسها. لقد كانت تُصارع دون جدوى، لا من أجل تمييز نفسها عن «مسيحية رسولية» كانت تنتصر فى شتى بقاع الأرض، وإنما من أجل أن تبقى فى المسرح التاريخى كدين عربى. وكان أمرًا بديهيًا أن تخفق سائر الجماعات النصرانية فى الجزيرة العربية فى الحفاظ على «بقية من دين عيسى ابن مريم».

ولعل العبارة الشهيرة التى وردت فى العديد من المؤلفات التاريخية القديمة على لسان الحارث بن كعب (من قبيلة بلحارث أساقفة نجران) قبيل وفاته، وهو يوصى أولاده بأن يتمسكوا بالنصرانية، وأن يقاوموا الضغوط والتحديات السياسية والفلسفية، كافية للدلالة على حجم التحدى ونوع التراجع، إذ خاطب الحارث بن كعب أبناءه قائلاً: «يا بنىَّ قد أتت علىَّ مائة وستون سنة، ولا بقى على دين عيسى ابن مريم من العرب غيرى، وغير تميم بن مر بن أسد، فموتوا على شريعتى واحفظوا علىَّ

من مقدمة المسيح العربى
النصرانية فى الجزيرة العربية
والصراع البيزنطى - الفارسى
فاضل الربيعى
بيروت: رياض الريس للكتب والنشر

كانت نصرانية قبائل العرب هى «مسيحيتها» القديمة التى ولدت على الفطرة، عقيـــدة توحيــدية شــديدة البســاطــة والتقشــف مـن المنظــور الفلســفى





La cene- the Last Supper. Canvas, 158x 233 cm, *Champaigne, Philippe de* (1602-1674)

وصاتى - وصيتى - وإلهكم فاتقوا، يكفكم ما أهمَّكم ويصلح لكم حالكم وإياكم ومعصيته». أما فى مملكة الحيرة، فإن النصارى العرب وهم يتتبعون خطى إخوتهم فى نجران، فقد راحوا يتجمعون فى شكل فرقة دينية، سوف يعرفها التاريخ باسم «العبَّاد». وقد ارتأى ابن دريد فى «الاشتقاق» فى تفسيره للكلمة التى ارتبطت بظاهرة وجود هذه الجماعات، أن للاسم صلة بطبيعة الدين الذى اعتنقوه، فهم كانوا «قبائل شتى من بطون العرب اجتمعوا بالحيرة على النصرانية فأنفوا أن يقال لهم عبيد، فينسب الرجل عبَّادى». ومع ذلك يمكن ملاحظة أن التحول المُطَّرد إلى الحنيفية، والذى شهدته الجزيرة العربية فى أوساط وثنيى قريش عشية الإسلام، كان يرتبط عميقاً بحقيقة أن تراجع النصرانية، اتخذ فى هذه الآونة من التاريخ، صورة عودة إلى عقائد وشرائع عربية، ولدت فى الأصل من رحم الديانة الإبراهيمية. ومن هذه العقائد عقيدة الحنيفية التى سوف تتبلور داخل بيئة وثنية فى صورة دين توحيدى «غامض» إلى حد ما.

وكما فى سيرة ابن هشام، فإن قريشاً اجتمعت يوماً فى العيد، عند صنم لهم يُعظمونه ويطوفون حوله وينحرون له، فقال بعضهم لبعض: ما قوم التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شىء. ثم إنهم «تفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم». وحسب رواية ابن حبيب فى «المُنمَّق فى أخبار قريش» ورواية ابن الجوزى التى نقلها صاحب السيرة الحلبية (١/٢٢٢ - ٢٢٣) فإن «أبو بكر الصديق ورياب بن البرَّاء وأسعد بن كَرْب الحِمْيرى وقسُّ بن ساعدة الأيادى وأبا قيس بن صِرْمَة» كانوا على دين الحنيفية. أما ورقة بن نوفل فدخل اليهودية، ثم «تركها ودخل النصرانية واتبع الكتب». لكن قائمة ابن حبيب تضم أسماء آخرين، منهم أسد بن عبدالعزى، وزيد بن عمرو بن نفيل، وعبيد الله بن جحش، وعبدالمطلب بن هاشم، وشيبة بن عبد شمس (وكان يتحنَّف فى غار حراء) وأبو أمية بن المغيرة والحارث بن عبيد المخزوميان، وعامر بن حذيم الجمحى، وعبدالله بن جدعان التيمى، ومقيس بن قيس. وهؤلاء جميعاً كانوا يعيبون على العرب وقريش استمرارهم فى الوثنية وترك شريعة إبراهيم. والمثير للاهتمام فى هذا السياق، أن الإخباريين العرب، غالباً ما يشيرون إلى ورقة بن نوفل بأنه «من الأحناف» أو «من نصارى العرب» فى آن واحد، ومن دون أن يبدو ذلك متناقضاً. وهذا يعنى من بين ما يعنيه، أن هؤلاء الأحناف ليسوا سوى فرقة نصرانية، وجدت نفسها وهى تحتمى من الهجوم الفلسفى الكاسح على المنطقة، بعقيدة قديمة أخرى من عقائد العرب. ويُلاحظ من نصى «المُنمَّق» و«السيرة الحلبية» عن حنيفية أبو بكر وأسعد بن كَرْب وقسٍّ بن ساعدة والآخرين، أن لا دليل على وجود هؤلاء، كجماعة حنيفية واحدة ومتماسكة، لأنهم عاشوا فى عصور وبيئات مختلفة، ويستحيل الجمع بينهم فى عصر واحد، وكمثال على ذلك، أن أسعد بن كَرْب الحِمْيرى وهو من ملوك اليمن القدماء، يبدو من المنظور التاريخى، أبعدهم عن حقبة «عشية الإسلام» التى عاش فيها الآخرون. ومع هذا، فإن مجرد تجرؤ مؤلف مثل ابن الجوزى، أو ابن حبيب، على وضع أبى بكر الصديق ضمن «الأحناف» - وهو أمر لا يقول به مؤلفون آخرون - يُدلل على اتساع نطاق بحث العرب قبل الإسلام عن «ديانة» أخرى، بعدما تراجعت النصرانية أمام زحف المسيحية الرسولية فى المنطقة. وفى هذا الإطار، يتوافق عدد كبير من الرواة العرب والمسلمين على أن دين عيسى ابن مريم، هو الدين الذى تعرَّف العرب القدماء إليه وآمنوا به، وأن المسيحية الجديدة لم تلق الكثير من القبول فى أوساط القبائل.

لقد سجل القرآن الكريم فى العديد من الآيات والسور، وبدقة مذهلة، وقائع وصور الجدل المحتدم حول شخصية المسيح، وهو جدل انتهى بتمسك وتشبث النصارى العرب برواياتهم عن دين المسيح العربى (المسيح عيسى ابن مريم) الذى عرفوه. كانت «المسيحية الجديدة» المنافسة، والمُنادية بيسوع المسيح الابن والرب، تستمد قوتها ونفوذها فى المنطقة من عنصرين تاريخيين، كانا مُتلازمين بصورة تامة، الجدل الفلسفى الصاخب الذى طوَّر الرؤى المسيحية وغير شكلها بالكامل، واعتناق الإمبراطورية الرومانية للمسيحية كديانة رسمية. وهذان العاملان كانا حاسمين فى تطور المسيحية الجديدة التى راحت تتبنى، وتصارع فى الآن ذاته، تيارات فلسفية ولاهوتية وهرطقات، كانت جميعاً



تُخوّض فى جدال لا يهدأ حول شخصية المسيح وجوهره.

ولم يكن أمام النصرانية العربية المراجعة بطبيعة الحال، إلا أن تنزوى داخل الجزيرة العربية حاضنتها القديمة، وتتخفى بعض فرقها وشيعها عن أنظار المشتبهين بها فى صورة «أحناف»، زهدوا فى الدنيا ولكنهم كانوا لايزالون فى مسوح الرهبان. وفى الواقع لم يعد بوسع النصارى العرب آنئذ، أن يفرضوا على أتباعهم أى شكل من التمييز، بين دين عيسى ابن مريم والمسيحية الجديدة، لأن الأخيرة راحت على أيدى مبشرين ورهبان وقساوسة كانوا يجوبون أرض الجزيرة العربية طولاً وعرضًا، تفرض رؤاها وتصوراتها النهائية عن طبيعة المسيح.

فى هذا الإطار العمومى المشحون بالصراع والرؤى والأحداث، سوف يبدو تاريخ مملكة الحيرة، ومن زاوية العلاقة بين انتشار النصرانية ثم تراجعها وبين الدور الذى اضطلعت به، وكأنه تاريخ مجهول بالفعل، بينما تشكل الأساطير «تاريخًا بديلاً» حاضراً بقوة، نظراً لضخامة التراث الذى تركه لنا القدماء من مرويات وقصص وحكايات، كانت بوجه الإجمال، تروى بأشكال وشروط السرد الكلاسيكى والتقليدى، كيفية تحول القبائل والملوك إلى «النصرانية»، بل وظروف دخول القبائل فى قلب جدل فلسفى محتدم سرعان ما تحول إلى صراع سياسى. إن إعادة بناء الرواية التاريخية استناداً إلى هذا التراث، ستكون خطوة أولى ولكن ضرورية للغاية، حتى يكشف باطن الأرض عن كنوزه من النقوش الضائعة التى خط فيها النصارى العرب بعضًا من سطور هذا التاريخ. وبالنسبة لقارئ التاريخ القديم، فإن مملكة الحيرة (غربى الفرات العراقى) مثلما سجل الإخباريون العرب بعض فصول ازدهارها وتلاشيها عن المسرح، وتناقلوا قصصها وأحداثها فى مؤلفاتهم؛ ستبدو لا محالة، بفعل التشابك والفوضى فى سرد الأخبار، مثل كرة خيوط رقيقة سقطت من الرف ثم راحت تتدحرج، فتشابكت الخيوط والتف بعضها على بعض، حتى تشكلت عندئذ، عُقد لا حل لها. ولذلك سيبدو هذا التاريخ لشدة تراكب وتعقد أحداثه - مراراً وتكراراً بالنسبة للقراء العاديين وحتى لأهل الاختصاص من معالجى النصوص الأسطورية والقديمة على حد سواء. كما لو كان تاريخًا أسطوريًا متشابكًا يستحيل فهمه، أو التعرف عليه من دون نزع بعض الخيوط من الكرة، أو تمزيقها والتخلص منها دون تردد. لقد تعاقب على رواية تاريخ النصرانية وتاريخ مملكة الحيرة كذلك، وبصورته المُزرية هذه، رواة أعطوا لأنفسهم وإلى أبعد حد متخيل، حق وحرية التصرف فى تقرير مصائر شخصياته وأبطاله، وربما تقرير عدد السنوات التى حكم فيها الملوك فى الحيرة من غير تدقيق فى صحة وجودهم؟ ولذلك أيضًا، يبزغ تاريخ الحيرة كما كُتب على هذا النحو، بوصفه سلسلة متصلة من الأساطير والروايات الإخبارية التى تعج بأسماء مدن، هى فى خاتمة المطاف دويلات مدن قديمة وزائلة، ازدهرت وحاربت ثم ذوت، ولكن من دون أن تترك أى أثر حقيقى يثبت حضورها فى السجلات المكتوبة. وهكذا، فقد ترددت فى أرجاء هذا التاريخ الصاخب، وعلى نحو غير مألوف وباستمرار، أسماء ملوك نصارى لا يعرف عنهم المؤرخون وعلماء الآثار أى شىء، كما ترددت فى دهاليزه المظلمة، أسماء ملوك آخرين يبدون لأول وهلة، كما لو كانوا أشخاصًا حقيقيين وتاريخيين بالفعل، بينما البعض الآخر لا وجود له فى مسرح التاريخ، فيما تصعب بالنسبة لآخرين البرهنة على أنهم شخصيات حقيقية أو واقعية. ومن أجل تسهيل مهمة القارئ ومساعدته على فهم هذه الأساطير، فهمًا خلاقًا واستيعاب دلالاتها بتأمين أقصى قدر من التفاعل مع جهازها السردى المعقد، حيث يتشابك التاريخى مع الأسطورى، وتمكينه فى الآن ذاته من التعرف على جغرافيات القصص والأشعار والروايات، حيث دارت فوق مسرحها ذات يوم أحداث مروعة ومأساوية، فإن المؤلف سيعرض بعض التعريفات المقتضبة للأماكن والشخصيات الواردة فى الكتاب. والمثير للاهتمام فى هذا النطاق، أن أساطير مملكة الحيرة ارتبطت بشكل وثيق بمسألة انتشار المسيحية الجديدة فى الجزيرة العربية (وليس دين عيسى بن مريم كما عرفه العرب).

وهذا أمر يستدعى التعريف، لا بالأماكن والمدن والدويلات القديمة وحسب، وإنما كذلك بالفرق والمذاهب والتيارات والأفكار العقائدية الكبرى. إن الباحث عن صلة ما، بين ظهور ثم انتشار المسيحية فى العراق القديم والجزيرة العربية، وبين انتشار هذه الأساطير التى أعاد سردها الإخباريون العرب فى مختلف العصور؛ سيجد نفسه مضطراً إلى رسم إطار تاريخى فضفاض، الغرض منه تأمين وسيلة مناسبة لفهم الإشارات والرموز على أكمل وجه.

إن السعى إلى إعادة بناء الأساطير من داخل هذا التاريخ المتشابك، وليس من خارجه، هو الوسيلة الوحيدة التى نملكها اليوم، لإنجاز فهم عميق لكل ما يبدو لنا مجرد أخطاء أو فوضى ضربت هنا أو عصفت هناك، ذلك أن إعادة قراءة التاريخ وبناء روايته، تتطلب الاستعداد والقدرة معًا، لتقديم معالجة راديكالية وفعالة للنصوص القديمة. وفى أرجاء هذا التاريخ كما سنرى، ترددت بشكل متواتر ومثير، أسماء مدن ودويلات مدن وملوك ورهبان وقساوسة ومبشرين، يصعب أو يستحيل تجاهلها حتى وإن بدت وكأنها من تلفيق الرواة. ومن غير شك، فإن مساعدة وتمكين القراء من التفاعل، والمساهمة أيضًا فى إعادة تركيب «تاريخ قديم» ضائع أو مفقود من السجلات، وتمكينهم كذلك، من التنقيب عنه كما لم يفعل المنقبون ولم يبحث فيه الباحثون من قبل؛ سوف تعنى أن هؤلاء القراء يمكن أن يصبحوا شركاء فى البحث عن تاريخ منسى روته الأساطير بأكثر مما رواه كتاب التاريخ. ولأجل ذلك كله، فسوف يقوم الكاتب بعرض وتحليل أهم أسطورة عربية قديمة تداولها سكان الحيرة، ومعهم عرب الجزيرة العربية على مر العصور، نعنى أسطورة جذيمة الأبرش ومصرع النديمين (المهرّجين) بوصفها الأسطورة الكبرى، والمؤسسة لسلسلة من الأساطير والتصوّرات السائدة عن تاريخ هذه المملكة ونصرانية ملوكها العرب. إن أسطورة «نديمى جذيمة الملك» مثلها مثل أسطورة «تنصر النعمان» ذات صلة حميمة بالمسيحية العربية والصراع البيزنطى - الفارسى فى المنطقة. لقد أصبح انتشار المسيحية فى وقت ما، هو الإطار الحقيقى للصراع الذى خاضته الإمبراطوريتان القديمتان بضراوة، وبذلك ما ترددت أصداؤه بقوة فى قلب الجزيرة العربية التى كانت تترقب آنئذ، لا مصيرها، بل ومستقبل العالم القديم بأسره. وفى لحظات الترقب هذه، عاشت واختمرت فكرة الإسلام العظيم من قبل أن يولد فى مكة.

وأخيراً؛ فإن أساطير الحيرة التى روت أشياء كثيرة لا يعرفها المؤرخون عن النصرانية الأولى، هى من بين أثمن ما امتلك العرب من أساطير. ولأنها على هذا القدر من الأهمية كما نرى، فسوف نقوم بتفكيكها فى سياق إعادة بناء رواية متماسكة عن تاريخ المسيحية العربية، بالتلازم مع استكشاف مجاهل تاريخ هذه المملكة التى طُمرت تحت ركام من المرويات الشعبية المفعمة بالخيال. ■



إن السعى إلى إعادة بناء الأساطير من داخل هذا التاريخ المتشابك، وليس من خارجه، هو الوسيلة الوحيدة التى نملكها اليوم، لإنجاز فهم عميق



رواية لأديب مصرى فى المهجر



محمد يوسف عدس

العالم الذى

■■ هذه رواية تصوِّر حياة أسرة مصرية من الطبقة الوسطى تعيش فى القاهرة، ولكن لها أصول ريفية فى بعض قرى الدلتا بمحافظة الدقهلية.. فنحن أمام أسرة وُلِد أبناء الجيل الثانى فيها وعاشوا حياتهم فى المدينة بعيدا عن القرية، وأسرة أو أسر ريفية تمثل جذور الأب والأم.. هما إذن مجتمعان أو عالمان مختلفان كثيرا؛ فى أساليب المعيشة.. وفى سلَّم القيم السائدة.. وفى نظرة كل منهما إلى العالم وإلى الناس. ومع ذلك نجد أن أعضاء هذين المجتمعين حريصون على ألا تنقطع وشائج الصلة فيما بينهم، بل نجد علاقات حميمة تقرِّب بعضهم من بعض، يفهم كل منهم الآخر، ويقدِّر ما بينهم من اختلافات، سواء كانت اختلافات فكرية أو سلوكية.. وسنرى أن هذه الاختلافات فى النظرة والسلوك ليست مصدر تباعد أو نفور بقدر ما هى مصدر تواصل وتكامل.. وفى كثير من الأحيان مثار تعليقات فكهة، وحكايات يتداولها الكبار والصغار، بمزيج من الدهشة المعلنة والفخر المكنون..

يرجع المؤلف إلى ذكريات طفولته الأولى فى الزقازيق فيروى لنا أطرافا من حياة الأسرة فى مجتمع هادئ مستقر تجرى فيه علاقات أخوية وجوار بين الأسر المسلمة والمسيحية، كعنصرين متلازمين فى المجتمع من قديم الزمن.. قد يضطرب هذا المناخ السلمى أحيانا وتتعكر المياه فى أجزاء من مجراه بسبب حدث طارئ، عادة ما يكون مصدره شائعات بين بعض الجهلاء، ولكن مثل هذه الأحداث نادرة الوقوع، سرعان ما يتم احتواؤها فى جوٍّ وُدِّى، من خلال قنوات التواصل بين العقلاء من الجانبين.

ولعل المؤلف هنا يحاول أن يلفت نظرنا إلى أن هذا المناخ الاجتماعى الصحى، كان هو السائد المستقر فى مصر.. وأن الذى يحدث الآن من اضطرابات بين المسلمين والمسيحيين، تعددت وتيرة حدوثها وعلا صداها فى الصحافة والإعلام بشكل غير مسبوق، مما يعكِّر الأجواء المتوترة بين المواطنين المسيحيين والمسلمين.. لابد أن يكون عنصرا دخيلا.. تغذيه مصالح سياسية مشبوهة.. وليس جزءاً طبيعيا من العلاقات الأصيلة بين المصريين، وتاريخهم الطويل والعريق فى التفاهم والتسامح.

تغطى الرواية فترة تمتد على مدى عقدين من الزمن، وبالتحديد سنوات الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين.. والذين عاصروا هذه الفترة بوعى، وهم الآن قلَّة قليلة، يعلمون أنها كانت فترة حافلة بالأحداث الجسام والتحوّلات الكبرى فى تاريخ مصر.. لقد شهدت هذه الفترة تغيرات هائلة وصراعات واضطرابات خطيرة على المستوى المحلى والعالمى على السواء، وقد انعكس هذا كله على حياة المجتمع المصرى بأسره.. يطرحها المؤلف فى روايته فيبرز ملامحها وآثارها العميقة فى وقائع حيَّة تشكل فى حقيقة الأمر الخلفية الاجتماعية والفكرية لكل ما يجرى من أحداث وتطورات درامية فى محيط أسرة السيد المصرى: فى حياة أفرادها وعلاقاتهم بعضهم ببعض، وعلاقاتهم بالآخرين فى المجتمع، وبصفة خاصة مشاركة بعض أفرادها فى الحركة الوطنية، وتعرضهم لاضطهاد السلطات الحاكمة بسبب هذا النشاط.

هذه إذن رواية واقعية، بمعنى أنها تصف واقعا حقيقيا لأسرة مصرية محددة، يعرف المؤلف أفرادها معرفة حميمة، يعرف أوضاعهم ويحس بمشاعرهم ويشاركهم فى أفراحهم وهمومهم، ويعانى معهم صعوباتهم ومشاكلهم الطارئة والمزمنة، وهى مشكلة حقيقية وليست متخيلة، ومن هنا جاء صدق الرواية، وأصالتها، ولكن المهم أن المؤلف لا يلجأ إلى السرد التاريخى المباشر، بل يصف الواقع مغموسا برؤيته الخاصة للشخصيات والأحداث، وما تمثله هذه الشخصيات من قيم وتأثيرات على مجرى الأحداث والوقائع، فى سياق درامى يدمج القارئ فى تياره بطريقة طبيعية لا افتعال فيها، فإذا به مثلا يتعاطف مع شخصيات بعينها، لا يملك إلا أن يمنحها مشاعره.. أستطيع أن أصف شعورى الخاص مثلا تجاه شخصية سميحة وهى شخصية محورية فى هذه الرواية، يتفاعل حول مشكلتها أفراد الأسرة جميعا، وتتشكل مواقفهم، وتوتراتهم بعضهم مع بعض..



سميحة هى أصغر أفراد الأسرة، وجدت نفسها فجأة محرومة قهرا من مواصلة الدراسة.. لم يكن ذلك عن ضيق ذات اليد، فالأسرة واحدة من أسر الطبقة المتوسطة.. ميسورة الحال فى ذلك الزمن، عائلها فى وظيفة لا بأس بها، ذات دخل كاف ليجعلها أسرة مستورة، وتملك الأم بضعة أفدنة من أرض زراعية ورثتها عن أبيها، وهى لا تبخل بإسعاف الأسرة بالمال عندما تطرأ ظروف تستدعى مساعدة إضافية. كل إخوة سميحة وأختاها الأكبر منها، واصلوا تعليمهم حتى المرحلة الجامعية، بعضهم تخرج، وحصل على وظائف محترمة وبعضهم مازال يواصل تعليمه بلا انقطاع.. ولم تكن سميحة متخلِّفة فى دراستها ولا راغبة عنها، بل كانت مقبلة على الدراسة بحماس، ومتفوقة على قريناتها فى المدرسة.. والغريب أن والدها -وهو رب الأسرة المسئول- لم يكن هو الذى اتخذ قرارا بوقفها عن مواصلة الدراسة، وإذن فمن صاحب هذا القرار المشئوم..؟ إنه الأخ الأكبر «سى نادر» هكذا كان يخاطبه الجميع داخل الأسرة.

لـ«سى نادر» هذا مكانة متميِّزة بين جميع الإخوة والأخوات؛ فالجميع يعملون له ألف حساب؛ شعورهم نحوه مزيج من الاحترام والاعتزاز.. ولكنه احترام مشوب بالخشية من انتقاداته المستمرة لهم، ومن تعليقاته اللاذعة على تصرفاتهم.. صغُرت أو كبُرت، كأنه رقيب عتيد يحصى عليهم الأنفاس.. ربما كانت هذه طريقة مبطَّنة لبسط سيطرته على الآخرين. إذا نظرت إلى سى نادر من الخارج لا تملك إلا الإعجاب به؛ فهو رجل هادئ رابط الجأش شديد الثقة بنفسه، لا يُسمع له صوت مرتفع مهما كانت درجة غضبه، له قدرة على الإقناع والنفاذ إلى العقول بكلام هادئ رصين.. شديد العناية بمظهره وأناقته.. ولكنه ينفق دخله كله من وظيفته المرموقة على مطالبه الشخصية، ومتعه الخاصة، التى تدور حول الملبس المتميز، وارتياد السينما والمطاعم الفاخرة مع أصدقائه من أبناء الطبقة العليا فى المجتمع. ولذلك يضطر إلى اللجوء إلى والدته يطلب منها قروضا لا تُرد.. مقيم فى بيت الأسرة المزدحم ولكنه لا يسهم بشىء من النفقة فيه. لقد أمعن فى بلوغ سن الزواج، ولكنه لا يقبل عليه جادا، قد يستجيب لإلحاح والدته وأبيه، فيقدم على خطوبة فتاة، يبدى نحوها فى أول الأمر شيئا من الحماس، ولكن سرعان ما ينطفئ هذا الحماس وينسحب من الخطوبة فجأة، مُتمحلا بعض الأعذار الواهية والمبررات التافهة.

استسلم الجميع على مضض لقرار سى نادر بحرمان سميحة من مواصلة التعليم إلا سميحة نفسها، التى أُسقط فى يدها، ولم تجد أحداً ينهض لنجدتها فى مواجهة هذا القرار الغاشم، سوى أصغر إخوتها طارق، الذى كان ينظر إلى سلوك أخيه الأكبر فى جملته باستغراب شديد وعدم رضا، وقد تفجر غضبه بقوة بعد قراره الظالم الذى لم يعبأ بتفسيره أو تبريره للآخرين، كأنما كان يتوقع من الجميع الإذعان والاستسلام بلا مناقشة، على اعتبار أنه يصدر قراراته عن حكمة وترو.

تجرأ طارق فناقشه فى الأمر مُحتجا، ففوجئ نادر ولم يستطع أن يقدِّم إجابة منطقية، بل حاول صرفه بسخرية واستعلاء، قائلا له: ما أنت إلا

Fathy Fares,
A World He left Behind,
Sid Harta Publishers,
Melbourne,2009.

نحن أمام أسرة وُلد أبناء الجيل الثانى فيها وعاشوا حياتهم فى المدنية بعيدا عن القرية



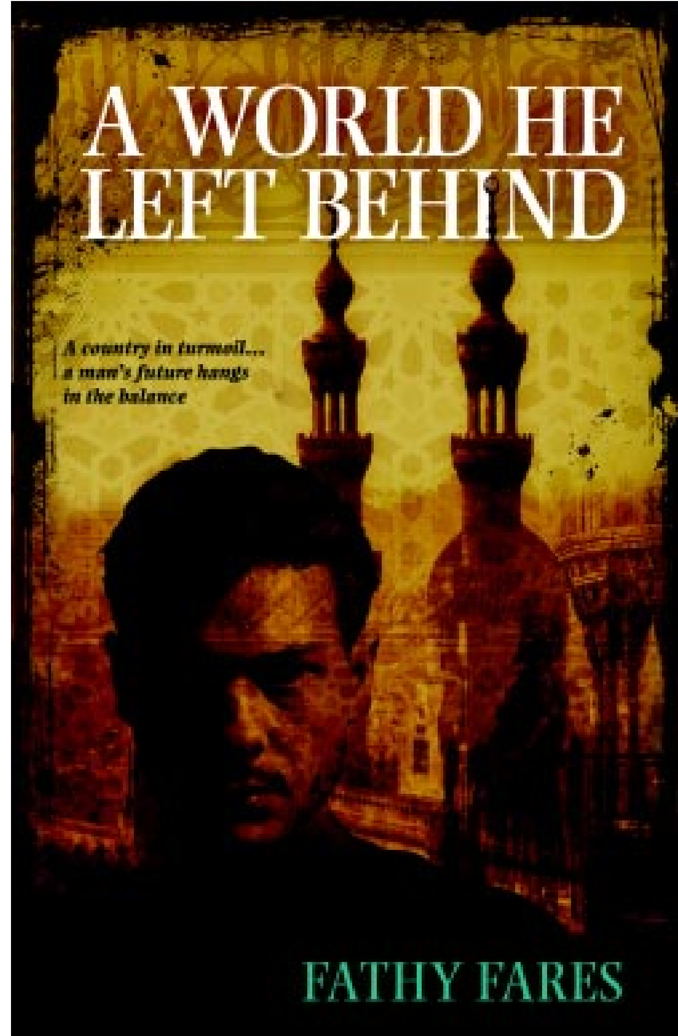
هما إذن مجتمعان أو عالمان مختلفان كثيرا؛ فى أساليب المعيشة.. وفى سلّم القيم السائدة

خلّفه وراءه!

تلميذ صغير لا تدرك من هذه الأمور شيئا.. اذهب واعتن بدروسك.. ثم أمسك به وحاول طرده من غرفته، فاستشاط طارق غضبا ولطمه على وجهه بجمع يده، وكانت هذه الواقعة أول صدام عنيف فى تاريخ أسرة السيد المصرى، ومن هنا بدأت العلاقات فى الأسرة تتوتر، وتتصارع الإرادات ووجهات النظر، لا فيما إذا كان قرار سى نادر هذا صحيحا أو خطأ.. فالجميع يدرك أنه قرار خاطئ.. ولكن فى كيفية مواجهة سى نادر بهذه الحقيقة، والأسلوب الأمثل لحمله على تغيير قراره، لتعود سميحة إلى المدرسة، وتستعيد حقها فى التعليم الذى حرمت منه قسرا، وهى تشعر بالقهر والذهول؛ فهى ترى أن أختيها الأكبر منها أكملتا تعليمهما.. فشغلت إحداهما (فريدة) وظيفة طبيبة، أما خديجة فقد تزوجت ممّن أحبت، وتفرغت لتربية أطفالها راغبة.. وقد غمرها زوجها كمال بإنفاقه الكريم فأغناها عن الوظيفة..

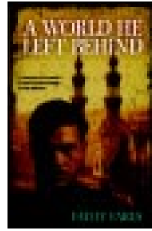
حتى سميحة نفسها رغم حزنها العميق، وشعورها بالظلم الفادح الواقع عليها، كانت تتحاشى أن تكون مشكلتها سببا فى معاناة الأسرة لأى اضطراب أو توتر، وكلما شعرت ببوادر اضطراب، كانت تعتكف فى غرفتها وتبكى بدموع حارقة على حظها العاثر، لم تستطع أن تستوعب هذا الجور على حقوقها.. ولم تفهم سبب هذا الصمت الذى يحيط بمشكلتها.. ولا هذا الشلل الذى أصاب أبويها وإخوتها تجاه هذا القرار.. كان قلبها يحترق فى صمت.. وتفيض بها مشاعر الغضب المكبوت أحيانا عندما تنفرد بأمّها، فتعبّر عن آلامها الدفينة.. تقول والدموع تنهمر من عينيها: «لماذا أنا وحدى دون الجميع..؟! ألأننى خلقت بنتا..؟! لماذا لا أذهب إلى المدرسة مثل بقية البنات من زميلاتى..؟! لماذا يحرّم علىّ سى نادر حتى الخروج إلى الشارع.. لمَ كل هذا الظلم..؟!».. لم تكن سميحة تتلقى أى إجابة من والدتها الحزينة سوى محاولات لطمأنتها، ونصيحتها: «اصبرى يا ابنتى إن شاء الله سنجد لمشكلتك حلا يرضيك ويريحك..» ولكن هذا الحل لا يأتى أبدا.. فهل فى المسألة سر لا يعرفه أحد..؟ أم أنهم يعرفون السر ولا يجرؤون على المكاشفة والحديث عنه..؟!

مسألة حيّرت طارق كثيرا بل شغلت كثيرا من وقته حتى أصبحت همّه الأول يبيت ويصبح فيه.. يقلّب الأمر على وجوهه المختلفة، حتى وصل إلى اقتناع بأن أصل المشكلة كلها يكمن فى عقل سى نادر.. فى تركيبته الشخصية.. التى صبغت كل مواقفه تجاه الأسرة جميعًا: فهذا الأخ الأكبر نشأ مدلّلا.. أسرف عليه والداه فى التدليل، فلم يكن يعبّر عن رغبته فى شىء إلا سارعا إلى تحقيقها له، مهما كلّفهما ذلك من مشقة.. فهو الابن الأول الذى رزقا به بعد عناء وطول انتظار.. وقد أصيبت أمه عقب ولادته بمرض شديد غريب كادت أن تفقد حياتها بسببه.. كانت نتيجة هذا النوع من النشأة أن تحورت شخصية نادر حول ذاتها، فهو أنانى شديد الأنانية لا يرى سوى نفسه، ولا يعبأ بمشاعر الآخرين أو مصالحهم، يشعر بأن الجميع ينبغى تسخيرهم فى تحقيق مطالبه ورغباته، ويرى أن هذا حق شرعى لا ينبغى أن يشاركه فيه أحد، وعلى الجميع أن



يتحملوا جموحه، وأخطاءه إن حدثت! فهو لا يعترف أبدا بأن له أخطاء.. حتى وهو يعيش عالة على أبويه، ولا يساهم فى تكاليف الأسرة بشىء من راتبه وهو قادر.. إنه يرى الخطأ دائما فى جانب الآخرين من أفراد الأسرة.. وهو لا يكفّ عن توجيه انتقاداته وسخريته من سلوكهم وأفكارهم.. فأصبح كل واحد منهم يتوارى بعيدا عنه، حتى لا يواجه سخريته وانتقاداته التى يرى فيها تعرية له من كرامته الشخصية وخصوصياته.. أصبح سى نادر شخصية متسلطة يريد أن يسيطر على الجميع، وأن يسخّرهم فى خدمته.. وكان طارق يكره كل ذلك منه.. لم يكن ليستسيغه أو يستوعبه.. ولم يفهم لقرار سى نادر بإلزام سميحة بالبقاء فى البيت أى مبرر مقنع.. فهو لا يصدّق زعمه بأن الأم فى حاجة إلى من يساعدها فى حمل جزء من الأعباء المنزلية.. فقد كان فى البيت خادمتان تقومان بالعمل اللازم كله.. ولم يكن هناك سوى تفسير واحد عند طارق: أن هذا الرجل الأنانىّ يريد خادمة خاصة نظيفة ومتعلمة يثق فيها وتكون طوع أمره، وعند إشارته.. وكانت ضحيته هى هذه الأخت المسكينة التى لم يعبأ بإنسانيتها أو بحقوقها ومصلحتها.. ولم يرحم ضعفها وصغر سنّها وقلّة حيلتها.

حاولت الأم أن تفهم سر هذا القرار من سى نادر فلم يقدّم لها سوى عبارة مبهمة قائلا: «ألا ترين أنها بلغت سن الخامسة عشرة وأصبحت ناضجة.. ولا ينبغى لها أن تختلط بالشبان خارج البيت..؟!» حاولت الأم أن ترضيه فقالت له: «إن كنت تخشى عليها من شىء نرسل معها أخا من إخوتها ليوصلها كل يوم إلى المدرسة.. وهى لا تمانع فى ذلك.. بل ترحّب بهذا الحل إن كان يرضيك..» ولكن سى نادر صمم على موقفه وطلب من أمه ألا تفاتحه فى هذا الأمر مرة ثانية.. بل زاد فى عنته تجاه أخته.. وأصبح يراقب حركاتها ويعد عليها أنفاسها وهى فى البيت.. فعلى إثر مناقشة

العالم الذى  خلّفه وراءه!

حادة انفعلت فيها سميحة وشعرت بحرارة تتصاعد من صدرها إلى رأسها ففتحت نافذة الغرفة لتستنشق هواء باردا، فقفز نادر نحو النافذة وأخذ يتطلع إلى نوافذ العمارة المواجهة ليرى إن كان هناك شبان ينظرون نحو أخته.. ثم شبك مصراعى النافذة، وعنفها بشدة قائلا لها: «ألم أنهك عن الاقتراب من هذه النافذة.. وألا تفتحيها لأى سبب من الأسباب..!».

من هذه المواقف تأكد لدى طارق أن هذا الرجل فى عقله شىء من الخلل غريب، ولا ينبغى الاستسلام له بل تجب مواجهته.. ولم يرَ أى مبرر أن تظل الأسرة تحت رحمته.. ولا أن تتحمل بقاءه فى البيت دون مبرر، بل يجب أن يستقل بمسكنه بعيدا عن الأسرة، فهو موظف قادر على الزواج والاستقلال.. ويكفى ما عانته الأسرة على يديه من منغصات، وما تلاقيه أختهم الصغرى من اضطهاد وتعنت مريض..! اكتشف طارق أيضا أن موقف أبيه السلبى تجاه بقاء نادر فى البيت وعدم تكليفه المشاركة فى نفقات الأسرة أنه يريد أن يمكّن نادر من ادخار بعض المال من مرتبه يساعده على نفقات الزواج الذى يرتقبه الجميع.. كما أن السيد المصرى كان مستعداً لتحمل الكثير من أخطائه، حتى لا يثير غضبه، وحتى لا يبدو أمام الآخرين أنه يطرد ابنه الأكبر من بيت الأسرة، ولعل هذه بعض سمات باقية من نشأته على القيم الريفية التقليدية، لم يستطع رغم علمه وثقافته أن يتخلص منها...

كانت هذه الخواطر والتوترات تتفاعل فى عقل طارق.. وتجول فى عقول أفراد أسرة السيد المصرى، وتصنع التيار التحتى المستمر فى جهازها العصبى.. فيلقى بظلاله الكئيبة على حياة الأسرة، دون أن تجد له حلا.. إذ تبدو مشلولة الإرادة، عاجزة عن المصارحة والمواجهة.. يحاول طارق أن يستوعبها، ولا يجد لها مبررا ولا نهاية، فيزداد غضبه وتحتد مواقفه تجاه الأخ الأكبر، الذى يبدو سادرا فى غيه، بهدوء عجيب...!

يقدم لنا المؤلف شخصيات روايته بأسماء مستعارة، فقد اختار السيد المصرى اسما لعميد الأسرة، وأطلق على الأم اسم أم نادر، عادة ريفية قديمة فى نسبة الأم إلى ابنها البكر.. وعرفنا سميحة كشخصية محورية فى الرواية، كما عرفنا شيئا عن طارق وهو فى الحقيقة الشخصية الرئيسة فى الرواية.. عرفناه من خلال موقفه من سى نادر، وانحيازه إلى قضية أخته الصغرى المظلومة.. مما يوحى لنا بأننا أمام شخصية قوية جريئة، تشعر بتحمل المسئولية فى سن مبكرة.. هذه الشخصية هى فى الواقع مدار الحدث الدرامى الذى يتطور ويتعقد ويتصاعد حتى يؤدى إلى رحيل صاحبه خارج الوطن، ليستكمل دراسته الجامعية أولا، ثم ينتهى به الأمر إلى هجرة دائمة بعيدا عن الوطن.

كذلك ألمحنا إلى اسم الأختين الكُبْريين: فريدة الطبيبة وخديجة المتزوجة من الأستاذ كمال، وسيعرف القارئ أن ثمرة هذا الزواج الأولى هى الطفلة عزيزة الشقية، التى كان لحضورها المفاجئ فى المواقف الساخنة دور مهم فى تبريد أجواء المناقشات عندما ترتفع حرارتها، وإعادة الجو المتوتر إلى أوضاعه الطبيعية بين الفرقاء من أفراد الأسرة.. فقد كانت الأحداث السياسية والاجتماعية مدار نقاش مستمر بينهم على اختلاف منازعهم وتعدد وجهات نظرهم...



يبدو أن المؤلف كان حريصا على أن يقدم إلينا نموذجا للأسرة المصرية من الطبقة الوسطى فى ذلك الزمن، وقد استطاع فى الحقيقة أن يصور هذه الأسرة بمشكلاتها وهمومها واهتمامها بشئون الوطن السياسية والاجتماعية والفكرية، ومشاركتها الفعالة فى النشاط الوطنى، وتضحياتها فى هذا السبيل.. وأرى أن التعرف على هذا الجانب بالغ الأهمية فى المقارنة بين نموذجى الأسرة المصرية من الطبقة المتوسطة فى مجتمع الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، وبين الأسرة المصرية فى هذا العهد؛ فقد تقلصت الطبقة المتوسطة، وتحولت إلى أشباح هزيلة غير قادرة على التماسك أمام التجريف المستمر لرصيدها الذى أنجزته فى الماضى، وتحت الضربات القاصمة المتلاحقة التى تتلقاها من أنظمة قمعية دائمة العمل على تجفيف ينابيعها الروحية والفكرية والاقتصادية.. فلم يعد حديث هذه الأسر يدور حول هموم الوطن الكبرى وإنما تتمركز مشاغلها اليومية حول غلاء المعيشة والحصول على رغيف الخبز، وإذا تطرقت إلى شىء من هموم الوطن فالشعور السائد هو اليأس من إصلاح الأوضاع الفاسدة فى السياسة والاقتصاد، ونهب المال العام، وفضائح رجال المال والأعمال والبطالة والبلطجة الأمنية، والانحياز المهين لأعداء الأمة..

يقدم فتحى فارس مؤلف الرواية مشاهد وأوضاعا للطبقة المصرية الوسطى، وللأسرة المصرية خلال الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضى، شديدة الاختلاف عما نألفه اليوم سائدا فى المجتمع المصرى.. خصوصا فى هذا الجيل الذى ولد وعاش - خلال العقود الثلاثة الأخيرة - فى مجتمع يمكن أن نطلق عليه مجتمع قانون الطوارئ.. وفى هذه الناحية تكتسب الرواية أهمية خاصة بالنسبة للمؤرخين وخبراء علم الاجتماع وعلماء النفس السياسى، وللقارئ المثقف بصفة عامة؛ فبالإضافة إلى ما أسلفنا من التحام الأسرة المصرية بالشأن الوطنى.. وتطلعها إلى مستقبل أفضل تتخلص فيه البلاد من الاحتلال البريطانى والملكية الفاسدة، لم تكن هذه الأسرة تعانى ولا تنشغل كثيرا بمشكلات الأسعار وضيق العيش والبطالة.. وإطلالة القارئ على مائدة أسرة السيد المصرى ووجباتها الغنية بكل ما طاب من أنواع الطعام - كما يصفها المؤلف- يدرك هذه الحقيقة.. فهو حفىّ بمائدة الأسرة، وبالوجبات اليومية التى يجتمع حولها أفرادها يتبادلون أطراف الحديث فى سرور وإقبال واضحين، يصفها بتفصيل شديد ويشير إلى مكوناتها ومذاقاتها المختلفة، ومهارة الأم فى تجهيز الوجبات الشهية.. ومعرفتى الشخصية بالمؤلف تؤكد لى أن هذه الحفاوة بالطعام وتنوع مذاقاته هى بعض سماته الشخصية التى أسبغها على شخصية طارق.. كأنه يصف نفسه.. فلا شك أن شخصية طارق ومواقفه ودوره فى الرواية بصفة عامة تعكس السمات الجوهرية لشخصية المؤلف نفسه.. بحيث تبدو لى أحيانا أنها سيرة حياته الخاصة فى قالب روائى.



من أفراد هذه الأسرة الكبيرة سيتعرف القارئ على شخصيات الأبناء: أحمد وماجد وحمدى وحسن.. وسيرى أن كل واحد منهم عالم قائم بذاته: فأحمد ضابط فى الجيش يقضى معظم وقته منذ التحاقه بالكلية العسكرية بعيدا عن البيت والأسرة، فلا يرونه إلا لِماماً، وغالبا ما يكون هذا فى إجازة قصيرة أو على مائدة الطعام، ومع ذلك فهو معنىّ بأحوال الأسرة ومشكلاتها.. وكثيرا ما يناقشها مع أخته الكبرى خديجة وزوجها كمال، وقد توصلا معا إلى حقيقة أن سى نادر يعانى من مرض نفسى، وأن شيئا ما لا بد من عمله لمواجهة هذا الوضع.. ولكن انشغاله بعمله، والأحداث الدرامية المتلاحقة التى وقعت فى محيط الأسرة صرفت النظر إلى أمور أخرى، وأجلت المواجهة إلى أجل غير مسمى.

فإذا أتينا إلى حمدى وجدنا شخصية مجتهدة فى الدراسة، ولكنها منسحبة منطوية على ذاتها؛ فهو دائما منكبّ على الاستذكار، حريص على أن ينأى بنفسه بعيدا عن المناقشات الأسرية، سواء فى الشأن العام أو الخاص، لا يحب التصادم مع الآخرين.. فإذا شعر ببوادر نقاش يوشك على الاحتداد، نراه ينسحب بهدوء ويذهب إلى مكان آخر ليقرأ كتابا..

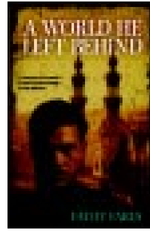
أما ماجد فلا يُقبل على قراءة الكتب، وقد تراه أحيانا يصلح راديو قديما.. وهو غير معنىّ بالأمور السياسية، ولا بأى شأن جاد؛ فهو يرى الناس والأشياء والمواقف من منظور كاريكاتيرى.. إنه لمّاح شديد الذكاء ترى ذلك فى لمعة عينيه.. يميل إلى التخابث، ولكن من يقترب منه يدرك أن له قلبا طيبا يكره إيذاء الآخرين أوالإضرار بهم، وإنما هو يميل بطبيعته إلى التنكيت، ورسم المواقف المثيرة



المؤلف هنا يحاول أن يلفت نظرنا إلى أن هذا المناخ الاجتماعى الصحى، كان هو السائد المستقر فى مصر



العالم الذى خلّفه وراءه!



للضحك، ولديه قدرة عجيبة على صكّ الأسماء والصفات التى تلخّص شخصيات كل من حوله من الناس فى المنزل أو خارجه.. كأنه يرسم صورا كاريكاتيرية لهم.. فسى نادر مثلا بجلالة قدره هو «خنفس».. وعادة ما يحتفظ ماجد بهذه الأسماء الكاريكاتيرية لنفسه سرًا، فلا يُطْلع عليها إلا أقرب الأصدقاء.. وقد تتسرب هذه الأسماء بالصدفة أحيانا لتصل إلى أصحابها، ولكنهم لن يعرفوا مصدرها ولا من أطلقها عليهم أبدا.. يقول المؤلف تفسيرا لهذا السلوك: لعل ماجد كانت تلح عليه رغبة قوية أن يلفت النظر إليه فى المدرسة وخارجها.. فقد كان هذا شيئًا يفتقده فى بيت الأسرة...!

بين هؤلاء جميعا تبرز شخصية حسن متميزة بخصائصها؛ فهو طالب مجتهد قوى الإيمان بالله سمح الوجه لطيف الشمائل، على أهبة الاستعداد دائما لمساعدة الآخرين.. إنه ينتمى إلى جماعة الإخوان المسلمين، ويعتقد أن طريقة حسن البنا فى الإصلاح السياسى والاجتماعى هى أصوب طريقة لإنقاذ الأمة والدفاع عنها فى مواجهة أعدائها بما فى ذلك الاحتلال البريطانى لمصر، والأطماع الصهيونية فى فلسطين.. فى سنة ١٩٤٧ كانت الأحداث المأساوية تتسارع فى الأراضى الفلسطينية تمهيدا لتمكين اليهود فيها بمساعدة الانتداب البريطانى، فكان حسن من أوائل الشبان الذين لبّوا نداء الدفاع عن فلسطين، حيث تطوّع فى صفوف الفدائيين، وأبلى بلاء حسنا فى الحرب الفلسطينية. ذهبت الجيوش العربية إلى فلسطين وهى على غير استعداد للحرب؛ إذ كانت تعانى من قصور شديد فى التسليح والتدريب، وكان هذا من أبرز أسباب النكبة الفلسطينية الكبرى، ولولا بسالة الفدائيين الذين استطاعوا إحراز انتصارات مبهرة على القوات الإسرائيلية المتفوقة فى السلاح والتدريب والتنظيم، لتحولت الحرب إلى مجزرة للقوات العربية، ويعترف بهذه الحقيقة اللواء المواوى قائد الجبهة المصرى فى حرب فلسطين..

من الأحداث الكبرى الأخرى التى تميزت بها تلك الفترة غير الحرب الفلسطينية حرب الفدائيين ضد قوات الاحتلال الإنجليزى فى قناة السويس، وقد اشترك فيها حسن أيضا فأبلى بلاء عظيما، مستفيدا فى ذلك بخبراته السابقة فى حرب فلسطين..

أما طارق فقد كان له مسلك آخر فى تعبيره عن حماسه الوطنى، فقد كان يرى أن المهمة الأساسية لمصر هى التخلص أولا من الاحتلال البريطانى، والتخلص من الحكم الملكى الفاسد، وأنه لا سبيل لإصلاح مصر وتقدمها إلا بتحقيق هذين الهدفين.. وكان طارق رغم حداثة سنة يرى فى نفسه زعيما وطنيا قادرا على حفز الجماهير وقيادتها نحو تحقيق هذه الأهداف.. فمن الناحية البدنية كان فارع الطول ممشوق القوام حسن المظهر... وكان نضجه المبكر ووسامة منظره وطلاقة لسانه مؤهلات قوية لأداء دور الزعامة، حتى وهو لا يزال طالبا فى المدرسة الثانوية، وقد رأى فيه زملاؤه من الطلاب زعيما جريئا موثوقا به، فتبعوه وحملوه على أكتافهم فى المظاهرات.. وكانت المظاهرات العارمة، سمة يومية فى ذلك الوقت تجتاح مدينة القاهرة، كما تجتاح جميع المدن المصرية الأخرى، تهتف بسقوط الاحتلال الإنجليزى وسقوط الملك الفاسد.. كان الحماس الوطنى للشعب المصرى على أشده.. وكان دور الطلاب فيه هو الأبرز، والأكثر أثرا.. وقد استمر طارق يؤدى دوره القيادى هذا بحماس أشد ونضج أكثر بعد أن انتقل إلى الجامعة..



وما يصفه المؤلف من حراك سياسى وحرية فى التعبير عن الرأى، والتظاهرات الحاشدة فى تلك الفترة، يصور مجتمعا مصريا يقظا حيا فعالا، ممتلئا بالحماس والثقة بالنفس.. على عكس الصورة البائسة التى تحول إليها المجتمع المصرى فى أيامنا هذه.. كانت الظروف الموضوعية أيضا لها تأثيرها الحاسم أيضا.. فقد لاحظتُ فى ثنايا الرواية أن تدخل الشرطة فى ذلك الوقت لفَضّ المظاهرات كان محكوما بأوضاع وقوانين تمنع الإفراط فى استخدام العنف.. وتضع خطوطا حمراء أمام قوات الأمن لا ينبغى عليهم تجاوزها..! فقد ألمح المؤلف وهو فى سياق وصفه لمظاهرة قادها طارق فى الجامعة، أن أفراد الشرطة كانوا يراقبون المظاهرات الجامعية من خلف أسوار الجامعة ولا يجرؤون على دخولها.. لا خوفا ولكن لأن القانون فى ذلك الوقت كان يمنعهم من الدخول إلى حرم الجامعة كأنه حرم مقدس..

إن فتحى فارس لم يشهد الأوضاع التى تردت إليها الجامعة اليوم، فلم ينتهك رجال الأمن بأقدامهم الحرم الجامعى فحسب، بل أصبح تدخلهم، يشمل تعيين العمداء ورؤساء الجامعات، وإلقاء القبض على الأساتذة الناشطين فى الاتحادات الأكاديمية، والتدخل فى كل حركة لطلاب الجامعة وفى السكن الجامعى، وانتخابات الاتحادات الطلابية.. وأصبحت الحرية الأكاديمية مجرد أسطورة قديمة تُحكى فى القصص.. فلا غرابة أن ينتهى التعليم الجامعى إلى أوضاعه المزرية التى نشهدها اليوم...

تعكس هذه الرواية إذن صورة واقعية لمصر والمجتمع المصرى، وما جرى فى مصر من أحداث جسام منذ الحرب الفلسطينية حتى انطلاق الثورة؛ فقد شهدت مصر فى هذه الفترة عنفوان حركة شعبية حاولت حكومة عميلة للملك أن تشكمها، فتعمدت فتح كوبرى عباس الذى يربط الجيزة بمنيل الروضة، أثناء مرور مظاهرة طلابية عليه، متجهة إلى قصر عابدين، وكانت حادثة مروعة قتل فيها وجرح مئات من الطلاب غدرا، وقد أصبحت كارثة كوبرى عباس جزءا من تاريخ النضال الوطنى والتضحيات التى تكبدها المصريون فى سبيل الحرية والاستقلال...

تسارعت الأحداث فى مشاهد مروعة: بدأت بحل جماعة الإخوان المسلمين واعتقال الآلاف من قادتها وأعضائها والزّج بهم فى السجون.. ثم تلا ذلك مقتل النقراشى باشا، ولم تمض ثلاثة أشهر حتى تم اغتيال المرشد العام للإخوان الشيخ حسن البنا.. وعادت حكومة الشعب المنتخبة إلى السلطة مرة ثانية، يترأسها النحاس باشا زعيم حزب الوفد ليطلق سراح المعتقلين.. بعد تبرئة المحكمة لهم من التهم التى وُجّهت إليهم.. وعاد الاستقرار إلى البلاد، فقام النحاس باشا بإلغاء معاهدة الصداقة مع بريطانيا.. وكان هو نفسه الذى وقّع عليها سنة ١٩٣٦، وتشتعل الحمى الوطنية ضد الاحتلال الإنجليزى، فتبدأ حركة المقاومة الشعبية ضد معسكراتهم على طول قناة السويس..

كان معظم الفدائيين من طلاب الجامعات، وكانت قصص عملياتهم الجريئة فى اقتحام معسكرات الجيش الإنجليزى وتدميرها تجرى على كل لسان، وفى غضون ذلك تتصدى قوات الشرطة -بأسلحتها الخفيفة- للقوات البريطانية دفاعا عن مبنى محافظة الإسماعيلية الذى استهدف الإنجليز احتلاله، فاستشهد العديد من رجال الشرطة والضباط، واعتصم رجال الشرطة المصرية فى كل موقع، احتجاجا على هذا المسلك الهمجى لقوات الاحتلال.. وفى اليوم التالى اندلع حريق القاهرة المروّع، الذى تحير الجميع فى أسبابه: فقد قيل إنه من تدبير الملك نفسه، وقيل إنه من تدبير الإنجليز، لوقف المقاومة الوطنية فى قناة السويس.. أخذ الملك زمام الأمر بيده فأسقط حكومة الوفد المنتخبة، وعين سلسلة من الحكومات الهزيلة الواحدة بعد الأخرى، فلم تستطع أى واحدة منها إعادة الاستقرار أواحتواء الاضطرابات.. ولم تستمر آخر هذه الحكومات فى السلطة أكثر من ثمانى عشرة ساعة فقط، انتهت بقيام الثورة. فى أثناء ذلك كانت الفوضى مستشرية فى البلاد.. وكان الجو كله معبأ بالغضب الشعبى، والترّقب لانطلاق حدث جلَل يقلب هذه الأوضاع المتردية كلها.. وفى أثناء الترقّب والانتظار، وبينما الناس يضربون أخماسا فى أسداس، أعلن السادات من إذاعة القاهرة البيان الأول لانقلاب عسكرى ضد النظام الملكى فى صباح يوم ٢٣يولية سنة ١٩٥٢...

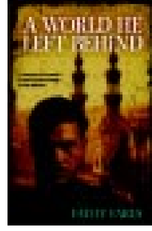
توالت الأحداث المثيرة بعد ذلك: حيث أُجبر الملك على التنازل عن العرش لابنه الطفل أحمد فؤاد..
ثم طُرد الملك من البلاد، ☜



تغطى الرواية
فترة تمتد على مدى
عقدين من الزمن، وبالتحديد سنوات
الأربعينات والخمسينات
من القرن العشرين



العالم الذى خلّفه وراءه!



وأُلغى النظام الملكى، حيث تولى محمد نجيب رئاسة الجمهورية، وتبع ذلك سلسلة من القرارات والقوانين الثورية من أهمها: تحديد الملكية الزراعية، والإصلاح الزراعى، ومجانية التعليم الجامعى، وكان التعليم فى المراحل الأولى مجانيا فى عهد وزير المعارف طه حسين فى حكومة الوفد الأخيرة..

كان التعاون بين الإخوان المسلمين ورجال الثورة واضحا منذ قيام الثورة.. حتى إن عبد الناصر ذهب إلى قبر حسن البنا وألقى عنده خطابا يعدُ فيه بإعادة فتح ملفّ التحقيق فى حادثة اغتياله، وإحضار الجناة للمحاكمة.. ولكن سرعان ما دب الخلاف بين الفريقين وأعلن جمال عبد الناصر فى يناير ١٩٥٤ حل جماعة الإخوان المسلمين، واعتقال أعضائها، بتهمة التآمر على الثورة مع محمد نجيب رئيس الجمهورية، فتمت إزاحته ووضعه تحت الاعتقال المنزلى.. كان محمد نجيب رمزا شعبيا للثورة، محبوبا من الجماهير، ولم يكن أحد يعرف فى ذلك الوقت شيئا عن جمال عبد الناصر، ولا حقيقة دوره فى تدبير الثورة وقيادتها، سوى أنه أحد أبرز أعضاء مجلس قيادة الثورة..

يصف المؤلف كل هذه الحقائق مفصلة تفصيلا دقيقا.. ويصف انطباعات الناس عنها.. وانعكاساتها أولا بأول خلال المناقشات الدائرة فى إطار أسرة السيد المصرى، وتأثيرها على طارق، الذى خيّبت الثورة رجاءه.. فذهب غاضبا إلى الجامعة ليلقى بخطبة ملتهبة، ويهتف بحياة محمد نجيب وسقوط الدكتاتور عبد الناصر.. وتوجه الطلاب المتظاهرون من جامعة القاهرة والجامعات الأخرى إلى قصر عابدين للانضمام إلى المظاهرات الشعبية العارمة التى توجهت إلى القصر.. وهم يهتفون بحياة محمد نجيب ويطالبون بعودته الفورية إلى السلطة..

يبدو أن مجلس قيادة الثورة كان - حتى تلك اللحظة- عازما على تبديد هذه الحركة الشعبية، ومصمما بصفة خاصة ألا يسمح بانضمام جموع الطلاب إلى الحشود المتوجهة إلى قصر عابدين، ومن ثَمّ حاصرتهم قوة عسكرية مدرعة بعد مرورهم من كوبرى قصر النيل، وأمطرتهم بوابل من الرصاص الحى من مدافع لانكستر.. تفرقت المظاهرة فى كل اتجاه، ولكن بعد ساعة تجمع الطلاب مرة ثانية قرب قصر عابدين، ودخلوا الميدان فى عاصفة غاضبة وهم يرفعون بأيديهم مناديل مغموسة فى دماء إخوانهم الذين سقطوا صرعى وجرحى، من جراء القصف العشوائى بالرصاص الحى.. وتحت تأثير المفاجأة وأمام هذا الغضب العارم الذى تفجر بين الجماهير، أسرع رجال الثورة باستقدام محمد نجيب لتهدئة الحشود الغاضبة، وتطمينها على أن مطالبهم قد أُجيبت.. وأن الأمور قد عادت إلى سابق عهدها..

لم تكن قيادة الثورة لتستسلم لضغوط الجماهير بهذه السهولة، فسرعان ما أعيد اعتقال محمد نجيب، وتولى جمال عبد الناصر رئاسة الجمهورية.. وتم تدبير حادثة المنشية بالإسكندرية فى ٢٦ أكتوبر من نفس العام (١٩٥٤)، حيث أطلق أحدهم رصاص مسدسه تجاه عبد الناصر، وهو يلقى خطابا فى ميدان المنشية، ولكنه أخطأ هدفه.. واتّهم الإخوان المسلمون بتدبير حادث الاغتيال، فحُلت جماعتهم وسيق الآلاف من أعضائها مرة أخرى إلى السجون، وحوكم قادتها أمام محاكم عسكرية، وتم إعدامهم، وكان على رأسهم المستشار عبد القادر عودة وكيل الجماعة، الذى قاد المظاهرات الشعبية الحاشدة أمام قصر عابدين...!



فإذا عدنا مع المؤلف إلى انعكاسات هذه الأحداث على أسرة السيد المصرى لنشهد آثارا مروّعة على حياة هذه الأسرة الوطنية، التى لم يرتكب أى فرد فيها جريمة سوى أن ابنها حسن عضو فى جماعة الإخوان المسلمين.. وأن أخاه الأصغر عبّر عن رأيه وهو يخطب فى مظاهرة طلابية..! فى المحاولة الأولى للقضاء على الجماعة فى فبراير ١٩٥٤ اختفى حسن تحت الأرض لفترة من الوقت حتى لا يقع فى يد السلطة الباطشة، فهاجمت الشرطة بيت الأسرة وأخذت طارق رهينة.. فلما سوّيت الأمور بين السلطة والإخوان وكفّت يدها عنهم -فى هدنة مؤقتة- أُطلق سراح طارق من السجن.. وظهر حسن ليمارس حياته المعتادة، ثم أعيدت الكرة مرة أخرى على نطاق أوسع وبوطأة أشد بعد حادث المنشية، فاختفى حسن مرة أخرى تحت الأرض فى مكان لا تعلم الأسرة عنه شيئا.. ولكنها تعرضت لأبشع أنواع التنكيل، فقد تم اعتقال طارق مرة أخرى، وأودع فى سجن القلعة.. ليبقى فيه عدة أشهر، أما رب الأسرة فقد أُجبر على الاستقالة من وظيفته، مصدر رزقه الوحيد.. أحيل إلى المعاش قهرا، ونُقل نادر إلى أسوان.. وبين الاعتقالين الأول والثانى كانت الأسرة قد أصيبت بكارثة شخصية أخرى كادت أن تغطى على جميع الأحداث والمصائب التى تلتها: ففى صباح أحد الأيام دق ضابط الشرطة باب مسكن السيد المصرى وقال له: «آسف لدينا أخبار سيئة لكم.. لقد توفيت ابنتكم الدكتورة فريدة فى حادثة صباح هذا اليوم..» شهق الأب من وقع الخبر وهو لا يكاد يصدق ما يسمع، وكادت الأم أن تفقد عقلها من هول الصدمة.. فأخذت تهرول تفتح أبواب الغرف كلها.. لعلها ترى ابنتها نائمة هنا أو هناك.. ثم فتحت فمها لتطلق صرخة مدوّية ولكن خانها الصوت الذى احتبس فى حلقها، فأغمى عليها... وأطبق الحزن الكئيب على أسرة السيد المصرى..!

فى هذه الأجواء المكفهرة عاشت أسرة السيد المصرى تجتر أحزانها ومآسيها المتلاحقة: ألقى القبض على اثنين من أبنائها هما حسن وطارق، وتعرضت بقية الأسرة لاقتحام قوات الشرطة.. ولزيارات الفجر التى أصبحت تقليدا راسخا لهذه القوات.. وهكذا تحولّت حياة أسرة السيد المصرى إلى جحيم من الرعب والتهديد والاضطهاد...

استقبل المصريون الثورة فى أول الأمر بالترحاب، وفرحوا بمقدمها وبقراراتها الإصلاحية فرحا غامرا، ولم يكن فرح أسرة السيد المصرى بأقل من فرحة الآخرين، ولكن لم يمض أكثر من عامين حتى كشفت الثورة عن وجهها الآخر.. ابتدأ بتنحية محمد نجيب من رئاسة الجمهورية، والانقضاض على جماعة الإخوان المسلمين.. حيث أصيبت الأسرة بتغييب اثنين من أبنائها فى أقبية السجون المصرية سيئة السمعة.. لقد تم الإفراج عن طارق فى المرة الأولى بعد بضعة أشهر.. ثم أعيد إليه مرة أخرى.. وفى كل مرة كانت تُوجّه إليه تهمة مختلفة: مرة بأنه من الإخوان المسلمين ومرة بأنه شيوعى.. ولم ينقذه من الاستمرار فى السجن إلا الاشتباه فى الاسم واضطراب تقارير الأمن حول التهم الموجهة إليه..

فلما تمّ تسريحه من السجن فى المرة الثانية بدأ يواجه ألوانا أخرى من الاضطهاد والمشكلات.. فقد اكتشف أنه مفصول من الجامعة.. وكان بالسنة الأولى فى كلية الهندسة، فبذل محاولات مستميتة للعودة إلى الدراسة، وكان بالجامعة أساتذة يتعاطفون معه، وقد أفهموه أن التقارير الأمنية ترفض عودته رفضا قاطعا.. شعر طارق بأن الأبواب أصبحت مغلقة فى وجه مستقبله التعليمى.. ولم يعد أمامه أمل سوى أن يرحل عن مصر..

استطاع فى ستة أشهر أن يتقن اللغة الألمانية.. وأن يراسل بعض الجامعات فى ألمانيا حتى تمكن من الحصول على مقعد فى إحدى هذه الجامعات.. كما استطاع الحصول على جواز سفر.. سحبته المباحث مرتين وكافح لاسترداده.. شرح ظروفه الخاصة للجامعة الألمانية التى تعاطفت معه وتآزرت مع السفارة الألمانية بالقاهرة فى الضغط على السلطات المصرية لتسمح له بالسفر.. وكانت مصر فى ذلك الوقت على علاقة وثيقة بألمانيا.. تحظى منها بمعاملات خاصة مالية وفنية متعددة الأشكال.. ومن ثم تجنبت تعكير صفو هذه العلاقة بالمعاندة فى موضوع طالب مصرى مقبول للدراسة فى جامعة ألمانية فأعتقته.

صعد طارق إلى السفينة من ميناء الإسكندرية قاصدا ألمانيا عبر ميناء نابولى بإيطاليا.. ودّعته أسرته بالدموع.. ولكنها لم تفقد الأمل فى عودته إليها يوما ما.. كانت لحظات الوداع المشحونة بمشاعر الألم ولوعة الفراق هى خاتمة الرواية.. انتهى الزمن عند نقطة رحيل



هذه إذن رواية واقعية،
بمعنى أنها تصف واقعا
حقيقيا لأسرة مصرية محددة،
يعرف المؤلف أفرادها
معرفة حميمة



طارق بإقلاع سفينته من ميناء الإسكندرية.. وعادت الأسرة إلى القاهرة تطوى فى جوانحها هما ثقيلا.. ولتجترّ مأساة ابنها الآخر الذى ابتلعته سجون مصر لخمس عشرة سنة أخرى من حياته..

رحل طارق الشاب المصرى الذى آثر الفرار بحريته والعيش بكرامة خارج وطنه، بدلا من البقاء مع المعاناة والاضطهاد وامتهان الكرامة.. كان قلبه ساعة الرحيل ممزقا بين حبه لأسرته ووطنه وعلاقاته الحميمة بأهله وأصدقائه من ناحية، وبين رغبته فى الانعتاق إلى الحرية واستكمال دراسته الجامعية من ناحية أخرى.. إنه يمثل فى حقيقة الأمر نموذجا لآلاف الشبان المصريين الذين هاجروا من مصر ولايزالون يخاطرون إلى اليوم بحياتهم للهجرة إلى بلاد أخرى، قد يحظون فيها بالحرية وكرامة العيش الذى يفتقدونه فى وطنهم الأم.. فلنودع طارق عند هذه النقطة الفاصلة، لنتحول إلى فتحى فارس مؤلف الرواية فهو البطل الحقيقى لهذه الرواية...

نقول: لقد طالت رحلة فتحى فارس وتحولت إلى هجرة دائمة، بدأت فى ألمانيا حيث أتم تعليمه الجامعى، وتزوج من ألمانية أنجب منها أيمن أول أبنائه، ثم استقرت الأسرة فى ملبورن بأستراليا حيث أصبح أستاذا فى كلية الهندسة بجامعة موناش.. وزادت الأسرة ابنتين هما نادية وأميرة.. فكان حريصا على أن يتيح لهما فرص التعليم إلى أقصى المدى.. كأنه كان يعوّض فيهما حرمان عمّتهما سميحة قهرا من فرصة استكمال تعليمها كما رغبت...!

قصة رائعة..ممتعة وأصيلة.. مستوحاة من حياة حقيقية وتجارب واقعية عاشها المؤلف بنفسه وعاناها بحلوها ومرها.. ولأننى أعرف المؤلف وأسرته لسنوات طويلة أراه ماثلا أمامى منذ كنا فى المدرسة الابتدائية بالزقازيق.. وقد ظلت علاقاتنا متصلة فى القاهرة حتى رحل إلى ألمانيا.. ثم استُؤنفت مرة أخرى فى أستراليا ولم تنقطع رغم انتقالى وأسرتى إلى كانبرا، وظل هو وأسرته فى ملبورن.. ثم فوجئت بعد ما يقرب من عشرين سنة بخطاب منه مرفقا به أصول رواية من تأليفه، طالبا منى كتابة تقرير عنها كشهادة يقدمها للناشر الأسترالى.. قرأت الرواية وأنا مذهول، فما كنت أتصور أن صديقى فتحى فارس أستاذ الهندسة يمتلك هذه الموهبة الأدبية ليكتب رواية بديعة ومثيرة إلى هذا الحد..! كنت أعلم أنه خطيب مفوه وناظم للشعر فى المناسبات.. يملك ناصية التعبير باللغة العربية.. ثم أتيحت له الفرصة لإجادة اللغتين الألمانية والإنجليزية حديثا وكتابة.. كما كنت أعلم أنه عضو فى اتحاد الكتاب بفكتوريا، وأنه يعكف منذ سنوات على تسجيل مذكرات حياته، ولكن أقصى ما كنت أتوقعه أن يكتب سيرة ذاتية ضافية وصادقة ولكنه فاجأنى بعمل درامى من طراز رفيع..!

تأخذ هذه الرواية قارئها إلى أعماق القلب المصرى حيث تمتزج الحكمة بالجنون.. وترتفع روح الفكاهة الأصيلة بالإنسان المصرى على أحزانه وآلامه.. فى أعماق هذا القلب المصرى الزاخر بالمشاعر والأحاسيس المتضاربة من الأفراح والأتراح والآلام .. فالرواية تمثل مسرحا مفعما بالحياة والحيوية لأسرة مصرية ومجتمع مصرى، تتفاعل فيه مختلف النزعات والعادات والتقاليد، مجتمع تسود فيه عناصر القلق والطموح والتعصبات اللا منطقية، والتدين الرشيد منه والمتشدد.. مع نزعات أخرى، من الرغبة فى الانفلات من قيود الدين والتزاماته الجادة.. سترى الحياة فى المسجد وتفاصيل عن الصلاة والوضوء وتلاوة القرآن لأناس يعشقون الحياة الروحية التى يبعثها المسجد فى أرواحهم.. ويرطّب بها وجداناتهم.. وستجد وصفا مفصلا لمجموعة أخرى من البشر عاكفين على حلقات الذكر.. يهتزون على نغمة رتيبة، وآخرين يرقصون على الدف فى حلقة زار لإخراج الجن الذى استولى على أجسامهم.. وغيرهم.. وغيرهم من أنواع البشر.. يشاركون جميعا فى أنواع مختلفة من الأنشطة.. حياة خصبة ملوّنة بكل ألوان المشاعر، والأحاسيس والأفكار المتضاربة.. كأنك تشاهد خليطا من شعوب متباينة لا شعبا واحدا.. ولكنك لا تعدم مع هذا الخليط المائج نوعا من التمازج، تشده خيوط ثقافة واحدة مشتركة.. مغلفة بروح من النكتة والفكاهة، لا تعدمها فى كل موقع وفى كل موقف.. كأن المصريين قد اتخذوا من النكتة آلية من آليات الدفاع عن النفس، وتحصينا للذات من التّصدع...!

إلى جانب ذلك كله يستشعر القارئ تيارا فكريا متغلغلا فى ثنايا الرواية، واضحا فى حواراتها، يؤكد على قيمة كونية جوهرية، قوامها التعارف والتسامح بين الناس، والتفاهم المتبادل بين الثقافات.. وهى قيمة يعتقد المؤلف أن افتقادها يقف اليوم وراء معظم الاضطرابات والحروب والإرهاب وكل ما يزعزع الأمن والسلم فى المجتمعات الإنسانية... ■

كتاب الزاوية



عندما يتحدث أردوجان

(٤)

تركيا كانت دوما مع السلام فى الشرق الأوسط وقد ساهمت فى الأمن والاستقرار الإقليميين.

كذلك كانت تركيا فى الماضى القريب الدولة الوحيدة التى بذلت الجهد من أجل تطبيع العلاقات بين إسرائيل وكل من فلسطين وسوريا ولبنان. إن إسرائيل الآن تتخذ مواقف تجعلها فى مواجهة أحد أهم المدافعين عن السلام فى المنطقة.

يجب على إسرائيل أن تتخلى عن تبرير أفعالها الجائرة بالمسوغات الأمنية وعن مجونها فى إيضاح ذلك بانتقاداتها لـ"اللاسامية". لقد بلغ السيل الزبى.

على الساحة الآن مفهوم إدارة اتخذت من العنف سياسة وأباحت لنفسها الظلم ولا تتورع عن إراقة الدماء.

لقد بلغت ممارسات الإدارة الإسرائيلية غير المكترثة بالقانون حدا لا يمكن بعده سترها أو تأويلها أو التغاضى عنها.

آن الأوان للمجتمع الدولى لكى يقول كفى. إن إسرائيل تصر على رفضها الاعتراف بقرارات مجلس الأمن الدولى التى تزيد عن المائة. لذا يجب على الأمم المتحدى أن لا تكتفى بقرار الإدانة الذى اتخذته. كذلك عليها أن تقف وراء مطلبها.

لا نستطيع أن نترك إسرائيل التى تدمر أرضية السلام فى الشرق الأوسط مع أفعالها وندع لها الحبل على الغارب. لا نستطيع أن نقول لها: افعلى ما تشائين. إن لكل شىء ثمنا. إن فهما لا يحترم حق الحياة لا يمكنه أن يحترم الحقوق وأن يتخذ مواقف موالية للسلام. إن فهما لا يولى أهمية لحياة الإنسان لا يمكنه أن يحترم الإنسان وحقوق الإنسان.

إن دولة تريد الأمن لشعبها لا يمكنها أن تنجح فى ذلك عن طريق اكتساب كراهية وعداوة الدنيا.

إن الدولة لا تعطى أهمية لشعب غير شعبها لا يمكن أن يكون السلام همها.إن إسرائيل تدمر التروس الدفاعية من حولها الواحدة تلو الأخرى وتفقد نقاط التحالف الواحدة تلو الأخرى وتدفع بنفسها إلى العزلة.

الإدارة الإسرائيلية تنسف السلام الإقليمى بنشرها الكراهية فى الشرق الأوسط وتتحول إلى بؤرة تنشر الاضطراب حولها.

فى الهجـــــــــرة إلــى

حســـــن أبشـــر الطــيـب



[١]

■■ الروائى العالمى المبدع الطيب صالح، شأنه شأن شاعره الأثير أبى الطيب أحمد بن الحسين الملقب بالمتنبئ، ملأ الدنيا وشغل الناس، وتوطدت مكانته فى الآفاق العربية والأعجمية. ومن آيات ذلك أن الكثرة الغالبة من النقاد رأت فى أعماله الروائية فتحاً جديداً فى عالم الرواية العالمية. وتلمس شاهداً على هذه المكانة الرفيعة التى تبوأها بجدارة، وهذا الصيت الرحب الواسع الذى حققه باقتدار، بعلمك أن أعماله الروائية نُشرت وقُرئَت فى أكثر من أربعين لغة حية. كما عدت روايته ذائعة الصيت «موسم الهجرة إلى الشمال» من بين أفضل مائة رواية منذ بداية تاريخ الرواية كجنس فى الأدب. ووصفت أيضاً بأنها أفضل رواية عربية فى القرن العشرين.. فتأمل!

الأستاذ الطيب صالح جدير بهذا الاحتفاء، وأكثر، وبهذه المكانة الرفيعة التى تسنمها بحق وجدارة، فأنت تقرأ أعماله الروائية وغير الروائية فتلمس هذه القدرة على التأليف الأدبى الإبداعى المتكامل الذى يُعنى بالشكل والمضمون فى آن. إنك تعيش فى كل أعماله هذا الفيض الزاخر من الأفكار والأطروحات المبتكرة المتجددة، وتطرب فى الوقت ذاته لعذوبة لغته الشاعرة التى تتسم بالقدرة الباهرة فى التشكيل اللغوى الموحى، والنسيج الشعرى الشجى المرهف الذى يكتسى وهجاً وفناً صادقاً أخاذاً، وقدرة عالية على الإيحاء. وهو فى كل ذلك يعبّر عن قدر وافر من التجارب، احتضنها وتأملها واستكشف معانيها، وصاغها عملاً جديداً مبدعاً خلاقاً، فيه ملامح الواقع ولكنه ليس الواقع الذى يمكن أن تنقله آلة التصوير الصماء بأى حال من الأحوال. إنه واقع أرحب وأعمق وأكثر تعبيراً عما يعتمل فى نفس المؤلف من أفكار ومشاعر.

[٢]

إن القارئ المتأمل لكل من أعمال الطيب صالح الروائية، لا جدال، سيعيش هذا الثراء الفكرى والفنى المبنى على أصالة الفكر، وثراء التجربة الإنسانية، واستقراء وتحليل واستجلاء واستنباط دقائق الحياة، ورحابة الخيال وحب الاستبصار، والتعبير عن كل ذلك بلغة شاعرة تتميز بالرصانة والجزالة والوجدانية المتفردة الموحية.

لقد امتلك الأستاذ الطيب صالح أدوات فنه الروائى المبدع. وشهدت له الكثرة

الطـــــيب صـــــالح

"جـديـر بهـذا الاحتفـاء، وأكثـر، وبهـذه المكـانـة الرفيعـة التـي تسـنمها بحـق وجـدارة"

الغالبة بهذه القدرات المتميزة على بلورة الفكرة رويداً رويداً، وتشييد هذا البناء المتكامل الذى يتداخل فيه الواقع بالخيال، وتتمازج فيه الأحلام مع الواقع الماثل، وتتناغم فيه كل المشاعر على اختلاف منابعها وتوجهاتها. هنا يبرز إلى موقع الصدارة السؤال الهام: ماذا نعنى بالإبداع؟ وما هى أدوات الفن الروائى المبدع التى امتلكها هذا الروائى المتميز الذى أشادوا به، ووصفوه بعبقرى الرواية العربية؟

إن الإبداع لغةً يعنى إنشاء أو ابتكار أو تأليف الجديد، وهو لذلك يستبطن كثيراً من عناصر الرغبة فى الكشف وارتياد آفاق غير مألوفة، وإثارة تساؤلات تستوحى إجابات بكر تنبنى على الجدة. لهذا فإن المفكر المبدع صاحب مقدرة متميزة فى إدراك العلاقات - على تعددها وتنوعها وتشابكها وتناقضها - فى إطار وحدة متكاملة تتسم بالتفاعل والتمازج العضوى المتكامل، تلك هى البصيرة النافذة Insight التى تمثل الركن الأساس للقدرة الإبداعية القائمة على الرؤية الشاملة، ثم اتخاذ المبادرة لإعادة تشكيل الواقع على نحو غير مسبوق فى إطار عمل إبداعى يجسد رؤية وفلسفة المفكر أو الفنان فى أطروحة أو رواية أو قصيدة أو لوحة فنية تشكيلية أو غير ذلك من ألوان الإبداع. جوهر القضية أن العمل الإبداعى بحكم ريادته لا يتبع الطرق النمطية المعروفة الثابتة فى عرض أو تحليل الظواهر أو حلها، إنما تتمثل فى القدرة على تجاوز الإشكاليات الماثلة واستشراف آفاق أرحب حبلى بمعطيات مستقبل أجمل وأفضل.

[٣]

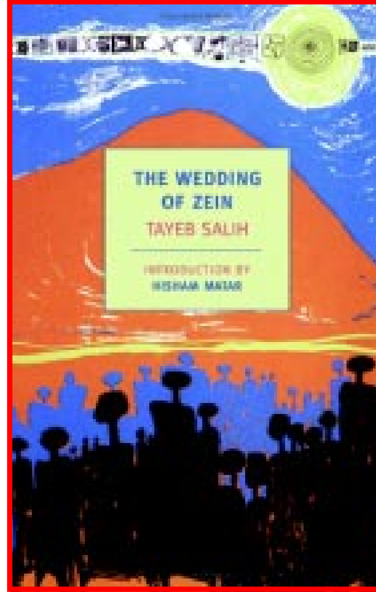
إن التأليف الأدبى الإبداعى المتكامل يعنى بالشكل والمضمون فى آن معاً. إن الذوق اللغوى وقدرته على التعبير الموحى الخلاق يمثل الإطار الإبداعى الذى تتجسد فى منظومته وتداعياته الأفكار والأطروحات المبتكرة المتجددة. يقول الطيب صالح - فى أحد الحوارات الصحفية - مؤكداً أهمية هذا المنظور الذى يعطى للشكل أو الأسلوب أهميته وقيمته الحقيقية: «اللغة مهمة جداً جداً.. فى فترة، عندنا فى العالم العربى حصل لبس بين الشكل والمضمون. بعض الكتاب ظنوا تغليب المضمون يعنى إهمال الشكل، حتى إن كتاباً كباراً جيدين يكتبون بأسلوب أقل ما يقال فيه إن فيه الكثير من الإهمال. اللغة مهمة جداً جداً»[1].

هذه العناية باللغة قد جعلت كل أعمال الأستاذ الطيب صالح شهادات سامقة فى استكشاف عبقرية اللغة العربية. إن أسلوبه يتسم بالقدرة الباهرة فى تأهيل الكلمات، وحسن توظيفها، واستدرار معانيها المتجددة، وانتقاء ما يتسق مع بعضها البعض فى الجرس والنغم، معتمداً فى كل ذلك على امتلاك ناصية اللغة ومحفوظ كبير من الشعر العربى، وذوق رفيع فى تمثله، وبراعة فى نسج المواقف بالكلمات الحبلى. ولهذا فإن الكثير من المقاطع فى روايات الطيب صالح أقرب إلى الشعر منها إلى النثر حيث إنك تشعر وتلمس وتعيش هذا الأسلوب الأدبى المبدع، وما يستكشف من إيحاءات بكر وصور موحية. لا ينقل لك صوراً من الأشياء كما تراها أو كما تنقلها آلة التصوير، إنما يعبر لك عن قدر من التجارب، صاغها فى نفسه عملاً جديداً مبدعاً خلاقاً فيه ملامح الواقع ولكنه ليس الواقع بحال من الأحوال.

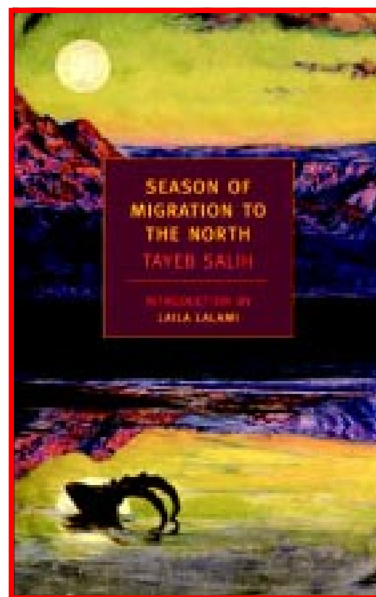
القارئ المتأمل لكل من أعمال الطيب صالح الروائية يجد شاعراً كبيراً يمتلك فى اقتدار أدوات فنه بالقدر الذى جعل له أسلوبه المميز وطريقته المتفردة فى التعبير التى تتسم بالثراء الفكرى والفنى.

ولقد عبر الأستاذ جلال العشرى فى مقالته: زوربا السودانى أو البحث عن الذات الأفريقية، أفضل ما يكون التعبير عن هذه الشاعرية النادرة الأصيلة التى يتميز بها أسلوب الطيب صالح الروائى حيث قال: «على أن ملكة هذا الكاتب لا تقتصر على إدراك أصول اللغة ومعرفة قواعدها؛ بل تتعدى ذلك إلى تفجير ما فى اللغة من طاقات وممكنات. فهنا الصورة الحسية التى تحرك قوة الخيال، والبصر الموحى الذى يثير كوامن النفس، واللقطة الجزئية العابرة التى تفضى بنا إلى المعنى الكلى اللامحدود، وكلها صفات شاعرية استعارها الكاتب من أصالة هذه اللغة الشاعرة ليطعم بها نثره الفنى، فإذا هو نثر فياض بالصور، ثرى بالأضواء والظلال، ملئ بالشحنات الوجدانية الموحية، والعبارات الوصفية الرشيقة، والاستعارات المجازية المنتقاة، وهى جميعها بمثابة الخطوط والألوان التى تتآلف فيما بينها وتتكامل فى لوحة حية كبيرة رائعة، كل ما فيها يصرخ من فرط الحياة، وكل ما فيها يستهدف وحدة الموضوع وقوته وإبراز ما فيه من أبعاد وأغوار»[2].

إن بناء الأفق الشعرى للنثر وما يصحب ذلك من التعبير الروائى فى لغة مشبعة بالحركة والخيال قد كان مذهباً







فنياً للطيب صالح فى جميع أعماله الروائية. ذلك مذهب يدفعه إليه طبعه وذوقه وقدراته الباهرة على التعبير بالقدر الذى جعل الشعر حاضراً وبصورة جلية فى كل ما كتب. يقول الأستاذ الطيب صالح مؤكداً هذه الحقيقة: «ربما قد يكون الشعر حاضراً فى ما كتبت منذ البداية، ويظهر هذا بوضوح فى أسلوبى الذى نميته وتعودت عليه والذى يكشف عن حبى للشعر، ويؤكد أيضاً محبتى للغة العربية التى هى لغة شعرية بطبيعتها. وإذا اعتنى الكاتب - أى كاتب فى اعتقادى - باللغة، بلغته، فلا مفر من أن يجد نفسه يكتب كتابة يمكن أن توصف بأنها شعرية. وأعتقد فى هذا الشأن أن الأدب بمجمله يحتمل هذه الشعرية. وخاصة الأدب العربى، لأن الشعرية نظرة إلى الحياة تختلف عن النظرة العادية. وهذه الشعرية بطبيعة الحال تظهر فى كل كتابة كاتب يهتم بالشعر مثلى، وينظر إلى الدنيا بغير المنظار المألوف»[3].

[٤]

إن العمل الإبداعى ينبنى فى شكله وفى مضمونه على درجة كبيرة من الإدراك والفهم المتكامل للظاهرة التى يعنى بها، وتلك حال لا تتأتى إلاّ بالاستئناس بها وبالتفاعل بما تنطوى عليه من ثراء. ومن هنا يبرز إلى موقع الصدارة أثر البيئة السودانية الريفية فى أدبيات الطيب صالح، فهو يتمثلها فى معظم المواقف، شكلاً وموضوعاً. ولعل ذلك يعود إلى ثلاثة أسباب رئيسة: أولها: تلك الذكريات الدافئة الحميمة التى التصقت بذاكرته عن سنوات طفولته وصباه الباكر التى نعم فيها بالحياة فى قريته تلك الوادعة الهائنة بين أحبائه وأترابه.. قرية تماثل ود حامد فى الشكل والجوهر. وثانياً: إن غربته لسنوات طوال قد عمقت فى ذاته هذا الالتصاق الحميم ببيئته وكشفت اعتزازه بها لانتمائه الصادق لها ولما رأى من تناقضات لا تماثل طبعه وذوقه فى بيئات أخرى. وثالثاً: إن غربته قد منحته الفرصة للنظر من بُعد بغية استقراء واستجلاء دقائق الحياة فى بيئته تلك البريئة الوارفة الظليلة بعطائها الوافر ومواطنيها الطيبين.

لواحد من هذه الأسباب، أو لكل هذه الأسباب مجتمعة، ظل الأستاذ الطيب صالح حفياً ولصيقاً ببيئة قريته الوادعة الخيرة المسترخية على شاطئ النيل، وهو يتمثلها

فى الهجرة إلى الطيب صالح



فى الكثير من المواقف فى كل أعماله الروائية.

ويبدو أثر البيئة بيناً فى أسلوب الطيب صالح حيث إنه لون وتصدر مقاطع شاعرية موحية وكان نبعاً ثراً لإيحاءات بكر، وتشبيهات مبدعة، وتصوير بارع مفعم بالشفافية والقدرة على تجسيد الاستعارة، والاستعارة كما قال أرسطو هى دليل العبقرية. اخترت لك هذه الومضات الإبداعية الخلاقة، دليلاً على التصاق الأستاذ الطيب صالح الحميم بالبيئة السودانية وقدرته على استكشاف عبقرية اللغة العربية للتعبير عنها:

● جاء فى عُرس الزين: «رائحة الأرض.. تملأ أنفك، فتذكرك برائحة النخل حين يتهيأ للقاح. الأرض ساكنة مبتلة، ولكنك تحس أن بطنها ينطوى على سر عظيم. كأنها امرأة عارمة الشهوة تستعد لملاقاة بعلها.

الأرض ساكنة ولكن أحشاءها تضج بماء دافق، هو ماء الحياة والخصب. الأرض مبتلة متوثبة، تتهيأ للعطاء.. وكما يضم رحم الأنثى الجنين فى حنان ودفء وحب، كذلك ينطوى باطن الأرض على حب القمح والذرة.. وتتشقق الأرض عن نبات وثمر».

● ونقرأ فى موسم الهجرة إلى الشمال: «وتفتح جمالها فجأة كما تنتعش النخلة الصبية حين يأتيها الماء بعد الظمأ. كانت ذهبية اللون مثل حقل الحنطة قبل الحصاد». و«ثم رفع وجهه إلى السماء وتمعن فيها دون إحساس، كأنها قطعة أرض رملية لا تصلح للزراعة».

● ولك أن تتأمل فى هذا التصوير المبدع الذى جاء فى بندر شاه: «كان القمر يبتسم بطريقة ما، وكان الضوء كأنه نبع لن يجف أبداً، وكانت أصوات الحياة فى ود حامد متناسقة متماسكة تجعلك تحس بأن الموت معنى آخر من معانى الحياة لا أكثر. كل شىء موجود وسيظل موجوداً. لن تنشب حرب ولن تسفك دماء.. وسوف تلد النساء بلا ألم والموتى سوف يدفنون بلا بكاء».

ولعلك تسمع بفضل روعة هذه اللغة الموحية أصوات وأنغام الفرح البهيج ليلة زواج ضو البيت: «الليلة كل شاب عاشق، وكل امرأة أنثى، وكل رجل أبوزيد الهلالى. الليلة كل شىء حى، فاح العبير، وتم السرور، وشعشع الضوء ولاذت جيوش الكدر بالفرار، كل غصن تثنى، وكل نهد ارتعش، وكل طرف كحيل، وكل خد أسيل، وكل فم عسل، وكل خصر نحيل، وكل فعل جميل، وكل الناس ضو البيت».

هكذا يكون الالتصاق الحميم بالبيئة، والقدرة على تمثلها، والتعبير عن هذا العشق للوطن باستكشاف مواطن الجمال والحسن فيه، بهذه اللغة الشاعرية المبدعة المتفردة.. فتأمل!

[٥]

وتبرز قدرة هذا الفنان البارع على توظيف هذه اللغة الشعرية الموحية لاستكشاف أبعاد مبدعة للعمل الروائى فى رسمه شخصيات نابضة بالحياة، مشبعة بالحركة، قادرة على التفاعل سلباً وإيجاباً مع مقتضيات المكان والزمان. وهو من بعد ومن قبل لا يقدم لنا هذه الشخصيات فى أسلوب سردى تقريرى مباشر، بل يجعلنا نتعرف عليها، ونأنس إليها فى معظم الأحوال من خلال تفاعلها مع مجرى الأحداث وتطورها فى الرواية. يفعل ذلك بمقدرة متميزة تحتفظ لكل من هذه الشخصيات بلغتها الخاصة. ولا جدال أن ذلك لا يتأتى إلا بقدرته على استبطان العالم النفسى لكل من هذه الشخصيات الحية استبطاناً مكنه من تجسيد الرؤى والتصورات والانفعالات الساذج منها والمعقد، الفطرى منها والفلسفى المركب، وعكس كل ذلك فى تفاعلها مع المواقف والأحداث. وحتى فى الحالات القليلة النادرة التى يلجأ فيها الأستاذ الطيب صالح إلى الوصف المباشر لمواقف بعض شخصياته، فإنه يفعل ذلك فى اختزال، وفى لغة مكثفة، كقوله عن بنت عبد الله، التى استهلت الزغاريد فى عُرس الزين: «صوتها عذب وصرختها قوية من كثرة ما زغردت فى أعراس الآخرين. ظلت عانساً عمرها فلم تتزوج، لكنها تفرح لأفراح كل أحد فى الحى».

وأبادر إلى القول بأن العديد من شخصيات الطيب صالح الروائية قد أصبح لها وجود حى ماثل فى نفوس الكثير من القراء، وما كان ذلك إلا لقدرته المبدعة على رسمها رسماً مشبعاً بالحياة والحركة. وتلك سمة تميز بها الكثير من الأعمال الروائية والمسرحية الناجحة، سواء منها ما كتب باللغة العربية أو اللغات الأجنبية. تذكر ذلك فتحضرك شخصية هاملت فى مسرحية شكسبير، والسيد أحمد عبد الجواد وأمينة فى ثلاثية نجيب محفوظ، وعبد الهادى فى الأرض لعبد الرحمن الشرقاوى، وعزيزة فى الحرام ليوسف إدريس، وما ذلك إلاّ غيض من فيض. غير أنه من الأهمية بمكان التأكيد على أن شخصيات الطيب صالح الروائية، كما هو الحال فى كل عمل روائى إبداعى خلاق، ليست بصور لشخصيات حقيقية فى الواقع المعاش. إنها شخصيات روائية. هى بمثابة نماذج لها أصل وشبيه فى الحياة، لكنها فى الرواية غير هذا الأصل الحياتى الواقعى، فالروائى المبدع يعيد خلقها فى الرواية ويرسمها فناً مبدعاً يأخذ من صورة الواقع بطرف ومن رؤية وخيال الفنان بطرف آخر. يقول الأستاذ الطيب صالح: «قد يظن القارئ أن عرس الزين قد حدثت بالفعل، وأن أشخاصها أحياء، وأن الزين شخص حى يرزق. أما بالنسبة لى فإن شيئاً من ذلك لم يحدث، والرواية عالم من تصورى، وأنا المسئول عنه. أما التفاصيل فربما يكون بعضها حقيقياً اعتمدت فيه على واقع استلهمته من ذكريات بعيدة للمكان الذى نشأت فيه»[٤].

هذا ضرب من الفن الروائى الرفيع لا تستطيعه إلا قلة من الروائيين المبدعين الذين يمتلكون هذه القدرة الباهرة على بناء ورسم الشخصيات. وذلك قول يؤمن به الطيب صالح إذ يقول: «كل كاتب يستحق اسمه لابد أن يكون قادراً على خلق شخصياته، وابتكار أجواء وأشكال من حياة ليست بالضرورة مستقاة من حياته الشخصية»[٥].

نعيش ونسعد بلقاء الكثير من الشخصيات النابضة بالحياة فى أعمال الطيب صالح الروائية. يأتى فى طليعتها الزين ومصطفى سعيد. كما نتفاعل أيضاً مع شخصيات: محجوب، سيف الدين، الطريفى ولد بكرى، ود الريس، بت مجذوب، عبد الحفيظ، ود البصير، الطاهر ود الرواسى، سعيد البوم، شيخ عبد الصمد، محيميد، فطومة، إبراهيم ود طه، شيخ على، والإمام، ومريود، وغيرهم.

ولك أن تتأمل هذه القدرة البارعة التى مكنت هذا الفنان الروائى المبدع من رسم شخصيتين متناقضتين، لكل منهما تفردها وخصوصيتها وأثرها الباقى: الزين ومصطفى سعيد.

لم يكن الزين جميلاً. كان يحمل وجهاً مستطيلاً. لم تكن له حواجب أو أجفان. وتحت هذا الوجه رقبة طويلة. كان بدرجة من الدرجات درويشاً مجذوباً. يعرفه أهل ود حامد مهذاراً يكاد أن يكون أبله، غير أن روحه مفعمة بالمحبة وغامرة بالفرح.

فى المقابل كان مصطفى سعيد رجلاً وسيماً مكتمل الخلقة، يمتلك عقلية فذة، لكنه يتحرك برؤية ومشاعر قلب أجوف، تدفعه نزواته الجنسية والمادية، ولا يضىء أركان حياته التعاطف أو الحنان.

كان الزين براً حفياً بموسى الأعرج وعشمانة الطرشاء. كان عالماً بوحدة بين كل العوالم المتناقضة فى قرية ود حامد، يحتضنها جميعاً بمحبته. ولهذا اجتمعت فى عرسه كل تناقضات قرية ود حامد. كان فرحاً كأنه مجموعة أفراح.

فى المقابل فإن مصطفى سعيد - النقيض من الزين - فقد نعمة القدرة على الحب والانتماء والعطاء. اغترب عن بلاده، ولم يراوده الحنين للعودة، فلم تعن بلاده بالنسبة له شيئاً. كانت: «مثل جبل ضربت خيمتى عنده، وفى الصباح قلعت الأوتاد، وأسرجت بعيرى، وواصلت رحلتى». حتى علاقته بأمه كانت كعلاقة مع شخص غريب، جمعته به الظروف صدفة، ولهذا فعندما بلغه نبأ وفاتها وقد كان مخموراً قال: «لم أشعر بأى حزن، كأن الأمر لا يعنينى فى كثير أو قليل». ولكل ذلك فقد أدرك القاضى أن المأساة الحقيقية لمصطفى سعيد تكمن فى عدم قدرته على التعاطف الإنسانى والمحبة أو حتى الإستجابة لها، فقال له: «إنك يا مستر سعيد رغم تفوقك العلمى، رجل غبى. إن فى تكوينك الروحى بقعة مظلمة. لذلك فقد بددت أنبل طاقة يمنحها الله للناس.. طاقة الحب».

هنا بيت القصيد.. هنا تكمن



يبرز إلى موقع الصدارة أثر البيئة السودانية الريفية فى أدبيات الطيب صالح، فهو يتمثلها فى معظم المواقف، شكلاً وموضوعاً

فى الهجرة إلى  الطيب صالح

الرسالة الأساسية التى يبثها الأستاذ الطيب صالح فى كل أعماله الروائية.. قضيته الجوهرية هى تأصيل المحبة والوئام والتسامح. ولعلك كلما ازددت إمعاناً فى شخصية الزين ونقيضه مصطفى سعيد فى رواية موسم الهجرة إلى الشمال ازددت إعجاباً بهذه القدرة على تجسيد المعانى الموحية لرسالة المحبة والتعاطف الإنسانى، بل لعل فى حديث الطاهر ود الرواسى لمحيميد ما يؤكد حرص المؤلف على تجسيد رؤياه للمعانى الظليلة الوارفة المعطاءة لمعانى المحبة: «الإنسان يا محيميد.. الحياة يا محيميد ما فيها غير حاجتين: الصداقة والمحبة. وما تقول لى لا حسب ولا جاه ولا مال. يوم الحساب.. يوم يقف الخلق بين يدى ذى العزة والجلال شايلين صلاتهم وزكاتهم وحجهم وصيامهم وتهجدهم وسجودهم، سوف أقول يا صاحب الجلال والجبروت.. عبدك المسكين الطاهر ود بلال ولد حواء بنت العريبى يقف بين يديك خالى الجراب منقطع الأسباب، ما عنده شىء يضعه فى ميزان عدلك سوى المحبة».

إن مسرح الأحداث لكل أعمال الطيب صالح الروائية قرية ود حامد التى تتمثل فيها ملامح القرى الساكنة على شاطئ النيل فى الجزء الشمالى من السودان. والمتأمل فى أعمال الطيب صالح الروائية، وهى بترتيب صدورها: عرس الزين، وموسم الهجرة إلى الشمال، وبندر شاه بجزئيه ضو البيت ومريود، يجد شخصياته تنمو وتتجدد وفقاً لمتغيرات ومقتضيات الزمان والمكان. فنجد مثلاً شخصية سعيد البوم الذى كان مصدر سخرية فى رواية عُرس الزين وهو القائل لزوجته: «إنها امرأة جيفة.. امشى خدى دروس من بنات الناظر!» نجده فى بندر شاه، بعد أن دار الزمان دورته قد أصبح سعيد عشا البايتات بعد أن كان «بوماً»، وتزوج بنت الناظر، وصار يعتلى مئذنة الجامع داعياً إلى الصلاة، وتغير أسلوب حديثه واهتماماته، وأصبح القائل: «أنا سعيد ود زايد ود حسب الرسول، عربى حُر، علىّ اليمين أهلى فى سودرى يحجبوا ضوء الشمس. مالى أنا مسلم موحد الله». تأمل هذه القدرة الإبداعية المتفردة التى يمتلكها هذا الروائى الفنان الذى استطاع أن يجسد صورة حية لسعيد البوم وعشا البايتات فى مرحلتين مختلفتين من عمره. ولقد تحدث سعيد فى كل حالة بلسانه وفق ما تستوجبه مستوجبات الزمان والمكان.

[٦]

قد استعان الطيب صالح فى رسم شخصياته، فى أحيان أخرى، بالنظر إليهم بعيون الآخرين الذين يتفاعلون معهم، ويعبرون عن مشاعرهم - سلباً وإيجاباً - نحوهم. ولربما كانت شخصية الإمام أكثر الأمثلة شهادة على هذا الذى ذهبنا إليه. لقد كان الإمام بصفة عامة رجلاً متزمتاً، كثير الكلام، ازدواجى التفكير. ولهذا فقد انقسمت قرية ود حامد فى التعامل معه إلى ثلاث جبهات: الجبهة الأولى: يمثلها كبار السن وهم يعاملون الإمام بشىء من الود الذى يشوبه التحفظ، يدعونه للغداء كل يوم جمعة بعد الصلاة ويدفعون إليه بصدقة الفطر فى عيد رمضان. أما الجبهة الثانية: التى تضم الشباب فلا يودون الإمام مطلقاً ويظهرون له العداء فهو فى رأيهم رجل صناعته تذكير الناس بالموت. أما الجبهة الثالثة: فهى عصابة محجوب، الذين يرون الإمام شراً لابد منه. والإمام من بعد ومن قبل يعيش قدراً كبيراً من الازدواجية حيث تتجدد فى حياته بصورة متواترة وملحة رغبته فى الالتزام بقناع من التزمت، ولهذا يحرص على زجر المصلين فى خطبة يوم الجمعة، وكأنه ينتقم لنفسه بهذا الكلام الفصيح عن الحساب والعقاب. فى الوقت ذاته الذى تنطوى عليه نفسه من شبق ورغبات جنسية مكبوتة. فلما رأى من الراقصة سلامة ساقها اليمنى وجزءاً من فخذها الممتلئ وقد رفع عنه الثوب.. «عاد بوجهه إلى محدثه وكانت عيناه مربدتين مثل الماء العكر». تأمل كيف استطاع الأستاذ الطيب صالح أن يجسد أمامنا هذه اللحظة بما فيها من ضعف إنسانى يهزم صلف وتزمت الإمام!

وإنك لتسعد بقدر وافر من المتعة الفكرية، وأنت تعيش حوار هذه الشخصيات النابضة بالحياة، وما يحفل به هذا الحوار فى أحيان كثيرة من مفارقات وملح وعبارات مترعة بالسخرية لها دلالات اجتماعية وسياسية. أتذكر قول ود الرواسى: «قلت لى حاج سعيد: إذاعة السجم دى تنبح طول اليوم أصلها حسها دا ما ينغرش. إنت يا حاج العمال والفلاحين ديل بلدهم وين؟ قال لى: يا مغفل العمال والفلاحين مو ياهن نحن. قلت: أنا أخوك هسع نحن اسمنا العمال والفلاحين. قال لى: أيوه.. طيب أها وزيادة الإنتاج يعنى شنو؟ قال لى: الإنتاج موياهو السجم البنسوى فيه دا، وزيادة الإنتاج يعنى تخت السجم فوق الرماد!».

لقد استطاع هذا الفنان البارع بحسن توظيفه للحوار الذى يعبر عن كل شخصية بلسانها، وبالنظر إلى هذه الشخصيات بعيون الآخرين الذين يتفاعلون معهم، وباستخدام لغة شاعرية مكثفة عند وصف مشاعره وخواطره نحوهم، أن يبنى وينمى علاقات من الألفة والمحبة بيننا وهذه الشخصيات النابضة بالحياة التى تحفل بها كل رواياته.

هذه الشخصيات النابضة بالحياة، المتعددة الأمزجة والقدرات والمواهب، تبرز إلى موقع الصدارة قدرة الأستاذ الطيب صالح على ابتداع شخصياته الروائية. ولعله من المدهش والمفرح فى آن أن بعض هذه الشخصيات جاء من لا مكان. إذ هو نتاج هذا الخيال الجامح للمؤلف، خيال لا يؤمن بالحواجز أو الحدود، بل يطلق للفكر والمشاعر العنان فتبدع بالصورة التى تراها لإثراء الرواية. إنك لتسعد بنتاج هذا الخيال المتفرد بشخصية ضو البيت فى بندر شاه: «الذى خرج من الماء. أبيض اللون، طويل القامة، عيونه خضر. وهو الذى اشتغل كأنه شيطان من نسل إبليس لا يفتر ولا يكل، وطول الليل والنهار لا تجده أبداً قاعداً ولا راقداً. دائماً واقف أو منحنى فوق المعول أو الطورية. يعمل عمل جيش من البشر. بنى فوق القلعة بيت داخل بيت، وديوان وراء ديوان، وحوش فى بطن حوش. وبدل بيوت ود حامد من القش إلى الجالوص».

وهناك أيضاً شخصية بلال فى رواية مريود: «كأنه نزل فجأة من السماء أو انشقت عنه الأرض، أو كأنه طلع من النيل، شخصاً كامل الهيئة والتكوين، فلا إنسان من أهل البلد يذكره طفلاً، ولا أحد يعلم من رباه، ولا أحد يقول لك رأيت بلالاً أو سمعت بلالاً إلى ان ظهر فجأة».

إننا نعيش فى كل أعمال الطيب صالح الروائية، أو قل فى هذه الملحمة أو إذا شئت «الإلياذة»، هذه القدرة للتعبير الروائى فى لغة شاعرية متجددة، ثرية بالواقعية الفنية، حافلة بالخيال الجامح المتفرد، غنية بهذه الشخصيات النابضة بالحياة.

أناقة اللغة ورشاقتها وشاعرية التعبير، وعذوبة جرس الكلمات وإيقاعاتها الداخلية، وشفافية المعنى والمضمون، سمات واضحة تشكل نسق التأليف الروائى الإبداعى للأستاذ الطيب صالح. وتظل الحقيقة ماثلة إن العمل الإبداعى يتميز بالرغبة المتنامية فى الارتياد والكشف عن قضايا ملحة، وإثارة تساؤلات غير مسبوقة، وابتداع إجابات غير نمطية تتصف بالجدة Novelty على هذه التساؤلات. لكل هذه السمات فإن العمل الإبداعى يُعنى بتحقيق الرؤية Vision باتخاذ المبادرة لإعادة تشكيل الواقع على نحو أفضل وأرحب. وبالتالى يمكن القول إن العمل الإبداعى يبرز كوعى للمستقبل، ويمتلك القدرة على تجاوز الإشكاليات الفكرية والعملية الماثلة لوضع محاور لمستقبليات بديلة تمهد لغد أفضل. وفقاً لذلك فإن الإبداع ليس خيالاً صرفاً بل تفكير جاد ورحب.

[٧]

إن مسرح الأحداث لكل أعمال الطيب صالح الروائية قرية ود حامد فى شمال السودان. ود حامد هى الشىء الوحيد الثابت بما تكتنز من رمز لعالم البراءة والعلاقات الدافئة المعافاة والوشائج الإنسانية الفطرية، وما يدخل على كل ذلك من مؤثرات الخير والشر.

إن ثبات قرية ود حامد كمسرح دائم للأحداث يرجع كما يثبت الطيب صالح - فى حواراته - إلى أنه بذلك يقيم جسراً بينه وعالم جميل عاشه فى طفولته وفى صباه يقول: «أعتقد أن الشخص الذى يطلق عليه كاتب أو مبدع يوجد طفل قابع فى أعماقه،



لكل هذه الأسباب،
ظل الطيب صالح حفياً ولصيقاً
ببيئة قريته الوادعة الخيرة المسترخية على شاطئ
النيل، وهو يتمثلها فى الكثير من
المواقف فى كل أعماله الروائية



والإبداع نفسه ربما فيه البحث عن هذه الطفولة، والأدب برمته بحث عن فردوس ضائع، وقد كان عالم الطفولة بالنسبة إلىّ فردوساً، كان هو العالم الوحيد الذى أحببته دون تحفظ، وأحسست فيه بسعادة كاملة، والحسرة الكبرى فى حياتى أن طفولتى فى القرية لن تعود مرة ثانية !!»[٦].

ومن جانب آخر، فإن ثبات قرية ود حامد كمسرح دائم للأحداث تفسره رغبته فى صنع إلياذة. يقول الطيب صالح: «استهدفتنى رغبة خلق ميثولوجيا فى ما سعيت إلى كتابته من سرد قصصى وروائى، وقد زعمت - فى بعض ما قلته وصرحت به فى عدة مناسبات، وعساه يكون زعماً مقبولاً - تحويل شخصيات المنطقة التى عشت فيها إلى شخصيات ميثولوجية ملحمية على غرار شخصيات هوميروس، لأننا كما نعلم شخصيات هوميروس كانت شخصيات عادية، كانوا رعاة ومزارعين، فى بلاد اليونان، ولم أجد أى سبب يمنع من فعل ذلك بدورى، أى تحويل شخصياتى إلى شخصيات ملحمية على غرار الشخصيات التى عرفتها فى شمال السودان، وإن كان من عرفتهم شخصيات عادية»[٧]. عندما تقرأ هذا الرأى الحصيف تقفز إلى ذاكرتك حقيقة أن عظماء الكتاب فى كل الحضارات كانوا دائماً على التصاق حميم ببيئاتهم المحلية، استلهموا من وحيها إشراقاتهم الإبداعية، وأجادوا برؤيتهم النافذة الثاقبة فى عكس هذه البيئات المحلية لتكون فى مصاف الفكر والأدب الإنسانى العالمى الذى لا يقف اختلاف اللغات حاجزاً عن فهمه وتذوقه والتفاعل معه. هنا تبرز القيمة الجوهرية لأدبيات الطيب صالح الذى استطاع أن يضع قرية ود حامد، وأن يضع بالتالى السودان فى دائرة الاهتمام ليس العربى فحسب بل العالمى. والمتتبع لترجمة رواياته إلى كل اللغات الحية يؤمن على هذا الذى نقول.

[٨]

ولك أن تتأمل هذه البراعة فى انتقاء التكنيك الفنى المناسب لكل من أعماله الروائية. تمثل رواية «عُرس الزين» نموذجاً رفيعاً لرواية الحدث أو الحركة التى تقوم على السردية البارعة، المعنية بكل التفاصيل كبيرها وصغيرها، معتمدة فى ذلك على دقة نظره، وملاحظته للأشخاص وللمواقف وللمعالم، وتأمله فى كل ذلك بعمق، وامتلاكه أدوات التعبير التى تجعل القارئ يعيش كل ذلك ويأنس له ويتفاعل معه.

وتعبر «موسم الهجرة إلى الشمال» عن مذهب آخر فى التكنيك الفنى، حيث نجد الأزمنة متداخلة بين الماضى والحاضر والمستقبل. ولهذا يجد القارئ نفسه فى خضم العديد من الأحداث المتعددة والمتنوعة التى يمثل الماضى منها تجربة ما كان، ويعبر حاضرها عن الأثر الفاعل للواقع الماثل، بينما يمثل المستقبل محاولة استقراء أو استشراف ما سيكون. هنا تتداخل الأزمنة وتتمازج التصورات التى يختلط فيها الواقع بالرغبات، والذكريات القديمة بالأحلام، والمناجاة بأصداء الأصوات المعبرة عن تفاعلات الحاضر.

أما بندر شاه بجزئيها «ضوّ البيت» و«مريود» فتعد فتحاً جديداً فى التكنيك الفنى الروائى، حيث نجد المؤلف يبلغ قمة التعبير الروائى الذى تتداخل فيه الأزمنة بين الحقيقة والوهم، وبين الواقع والحلم، وبين عالم الشعور وعالم اللاشعور. منهج فنى مبتكر وغير مسبوق يتسم بالتألق والوهج المتميز. يقول الأستاذ الطيب صالح: «إن فى «بندر شاه» شيئاً جديراً بالنظر، وفيها ما يؤكد ما ذهبت إليه من اشتغالى كعالم أثرى، ففى «بندر شاه» هذا المكان خلطت بين الأسطورة، والحلم، والواقع، والتاريخ، فأريد أن أفهم لماذا هذا المكان؟ وما خصائصه، وأنا أتقصى أيضاً فى قضية العلاقة بالسلطة، لأن بندر شاه - كما تعلمين - بندر المدينة، وإشكالية الحلم، والمشكلة بالنسبة لنا هى المدينة بمعناها الواسع كيف تدار؟ وكيف تحكم؟ وليس المدينة ذات الأبنية الشامخة، وذلك بالرغم من أن الوجوديين يرون أن منزلة الفرد فى المدينة تجسم المنزلة البشرية، وأن فضاء المدينة يغذى شعور الإنسان بالغربة، ويعمّق اقتناعه بعبثية الحياة»[٨].

[٩]

نستطيع من جانب آخر أن نلمس كيف استطاع الطيب صالح فى اقتدار أن يقدم إجابات جديدة مبتكرة للإشكاليات الماثلة، وبالتالى بناء رؤية شاملة تطرح بدائل مستقبلية أفضل، عندما نتأمل فى مضمون أعماله الروائية.

لقد كانت البداية دومة ود حامد حيث عايشنا الجدل والصراع بين الحكومة وأهل قرية ود حامد، وقتئذ أصبح مزار دومة ود حامد رمزاً ليقظة الشعب ضد استكبار الحاكم. وهنا جادت قريحة المؤلف الإبداعية بأن الجدل لا معنى له والصراع لا مبرر له، حيث إنه قد غاب عنهم جميعاً أن المكان يتسع للدومة وللضريح ولمحطة الباخرة، وبالتالى ليس هناك معنى أو مبرر لإلغاء وجهة النظر الأخرى. المكان يتسع للجميع، وكذا النفوس ينبغى أن تكون أكثر رحابة وسعة لتحقيق كل الرغبات والآمال والطموحات.

فى عُرس الزين تتبلور الرسالة الأساسية لملحمة الطيب صالح المتطلعة إلى تأصيل المحبة والوئام والمصالحة والتسامح. الزين يحمل حباً غامراً غمر كل أرجاء قرية ود حامد. لقد استطاع المؤلف أن يعطى الزين نبضاً أسطورياً خاصاً مليئاً بالأسرار. ولعلك تلمس ذلك منذ البداية حين يحدثك عن الحدث الخارق للعادة الذى صحب ميلاد الزين. الأطفال حين يولدون «يستقبلون الحياة بالصريخ. هذا هو المعروف، ولكن يروى أن الزين - والعهدة على أمه والنساء اللاتى حضرن ولادته - أول ما مس الأرض انفجر ضاحكا!» وظل الزين على حاله هذا ضاحكاً مهذاراً مفعماً بالفرح والمحبة لكل أهل قرية ود حامد. لهذا كان عُرس الزين جامعاً لكل العوالم المتناقضة فى ود حامد، تناست هذه العوالم صراعاتها وتناقضاتها وجاءت لتشارك الزين فرحته وبهجته التى هى صورة من فرحها وبهجتها. يقول:

«اجتمعت النقائض فى عُرس الزين». «جوارى الواحة غنين ورقصن تحت سمع الإمام وبصره. كان المشايخ يرتلون القرآن الكريم فى بيت، والجوارى يرقصن فى بيت، والمداحون يقرعون الطار فى بيت. كان فرحاً كأنه مجموعة أفراح. وتقاطر عرب القوز وفريق الطلحة. وجاء الناس من بحرى وقبلى، وغنت فطومة ورقصت سلامة. لم تبق امرأة لم تزغرد ولا رجل لم يهتز ويطرب.. وكانت الدائرة تتسع وتضيق، والأصوات تغطس وتطفو، والطبول ترعد وتزمجر، والزين واقف فى مكانه فى قلب الدائرة، بقامته الطويلة، وجسمه النحيل، فكأنه صارى المركب». الزين أصبح صارياً للمركب يحفظ الاتزان النفسى والروحى ويدفع المركب إلى الأمام بالمحبة.. فتأمل! هكذا أراد الطيب صالح أن تكون أسطورة الزين قوة دافعة لتحقيق التوازن الروحى بين متناقضات قرية ود حامد، وقوة دافعة لتأمين المحبة والوئام وتأصيل مبادئ الوفاق والتسامح.

وتتناول رواية موسم الهجرة إلى الشمال فى تصورى قضيتين مهمتين: أولهما تكمن فى مأساة مصطفى سعيد، فهو على النقيض من الزين يحمل قلباً أجوفاً لا يضيء أركانه المظلمة حب أو حنان، لذلك فقد بدد حياته كلها فى نزواته الجنسية والانتقامية. وفقد نعمة العطاء والمشاركة. أما القضية الثانية وهى التى تعبر عن المحور الرئيسى للرواية فتتمثل فى معالجتها معالجة جديدة ومبتكرة لمشكلة سبق أن عالجها قبله بعض الروائيين العرب بصورة مختلفة. تعالج رواية موسم الهجرة إلى الشمال القضية التى عبر عنها من قبل توفيق الحكيم فى روايته عصفور من الشرق، ويحيى حقى فى روايته قنديل أم هاشم، وسهيل إدريس فى روايته الحى اللاتينى. إنها مشكلة الصراع الدائم المباشر والمستتر بين الشرق والغرب. الطيب صالح ابتدع لروايته مدخلاً جديداً وزاوية مختلفة. فى حين تناول من سبقه من الروائيين هذه العلاقة من مدخل رومانسى يتسم بالدهشة وبدرجة من الإعجاب لما رأوا فى الحضارة الغربية، فقد تناولوها على أساس أنها علاقة صدام ومواجهة.

هذا المدخل الجديد لرواية «موسم الهجرة إلى الشمال» كان موضع إعجاب الناقد المتميز الأستاذ رجاء النقاش حيث قال: «وفى الرواية فوق ذلك كله امتزاج خصب أصيل بين فضائل الرواية التقليدية مثل التصوير الدقيق العميق للشخصيات وخلق الحكاية الممتعة التى تشد الأنفاس حتى النهاية، وفضائل



شخصيات الطيب صالح الروائية، كما هو الحال فهى بمثابة نماذج لها أصل وشبيه فى الحياة، لكنها فى الرواية غير هذا الأصل الحياتى الواقعى



الرواية الحديثة التى تعتمد على تصوير الأحلام والعالم الداخلى للإنسان. لقد استخدم الطيب صالح فى روايته جميع الأساليب المناسبة فى مزيج فنى سليم خصب وأصيل. ولذلك جاءت روايته فى النهاية رواية عصرية من ناحية، ولكنها من ناحية ثانية تفوح بالأصالة والارتباط بالتراث الروائى العربى والعالمى معاً. إنها بعبارات أخرى «رواية عربية متطورة» تمثل خطوة جديدة فى أدبنا الروائى، بل وتفتح فى تاريخ الرواية العربية صفحة جديدة مشرقة... إنها علامة من علامات الطريق فى أدبنا العربى المعاصر»[9].

نجد مصطفى سعيد يدرك أن هناك مواجهة وصداماً بين الشمال والجنوب تكمن مسبباتها الأساسية ودوافعها المتجذرة فى تاريخ الاستعمار الغربى. يقول الطيب صالح: «أسعى دائماً إلى أن أبدأ أى عمل روائى لى وأنا أمتلك أطروحة، أطروحة قد يؤيدها العمل الروائى أو ينفيها، وذلك يساعدنى على خلق محور بينى وبين العمل الذى أكتبه. بدأت موسم الهجرة إلى الشمال بافتراض أن العلاقة بين العالم العربى الإسلامى والعالم الغربى علاقة تقوم على العنف، وليست علاقة رومانسية فى أى شىء كما خيل للبعض أو كما كان يعتقد من هذا الجانب أو ذاك. موسم الهجرة أكد لى هذا الافتراض»[10].

يكفى العمل الإبداعى الهادف أن يثير هذه التساؤلات، وأن يبرز إلى موقع الصدارة أهمية استكشافها وطرحها سعياً إلى تحقيق الإجابات الموضوعية فى إطار ظروف ومقتضيات الزمان.

أما القضية الجوهرية لرواية بندر شاه بجزئيها فتتمثل بشكل بين فى العبارة التى تكررت فى ضو البيت: «لقينا شيئاً وضاع شىء. ذلك النهار لا ندرى البكاء على إيش ولا إيش، على اللقيناه ولا على الضاع». ولعل القارئ يرى فى هذا أن القصد هو استكناه إشكاليات الصدام الحضارى وأطروحات التغيير وما يترتب عليها من نتائج إيجابية وسلبية.

إن جميع أعمال الطيب صالح الروائية ذات سياقات وأزمنة متداخلة، ومفعمة بالأسطورة وطيف الحاضر الماثل فى آن، غير أن هذه السمات تصل أعلى ذراها فى رواية بندر شاه بجزئيها، الوضع الذى يستوجب من القارئ الأناة والتأمل، وإعادة النظر لكى يستكشف الأبعاد الموحية والمتجددة التى تجعلها بحق فتحاً جديداً فى عالم الرواية العربية لما تميزت به فى جانب التكنيك الفنى وما جرؤت على احتوائه من مضامين متعددة متداخلة ومتوازية.

[١٠]

كُتب عن أعمال الأستاذ الطيب صالح الروائية الكثير، ولكن بالرغم من كثرة ما كتب على تعدده وتنوعه وعمقه وأهميته، فلا تزال هذه النصوص الروائية قابلة لإعادة القراءة، وللمزيد من التأمل والتحليل لاستشراف الجديد من الأبعاد الرحبة والغنية التى تقف شاهدة على فرادته وإبداعه وتميزه.

إن طرائق الأستاذ الطيب صالح فى الحكى والسرد غير التقليدى، ومزجه بين الواقع الماثل والأسطورة والخرافة فى سياقات وأزمنة متداخلة، واستشراف مضامين متنوعة ومتجددة وغير مسبوقة وحبلى بأفكار وأطروحات متجددة، والتعبير عن كل ذلك فى لغة شاعرية أنيقة مترعة بالإيقاعات والأنغام الداخلية، يضعه موضعاً متميزاً مفكراً وروائياً مبدعاً، وهو لكل ذلك رائد من رواد الرواية الحديثة لا فى العالم العربى فحسب وإنما فى العالم. ■

هــــــوامــــــش

(١) محيى الدين صبحى: الطيب صالح روائياً وناقداً، حوار مع الأستاذ الطيب صالح، فى كتاب الطيب صالح عبقرى الرواية العربية، دار العودة بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨٤، ص١٢٠.

(٢) جلال العشرى: زوربا السودانى أو البحث عن الذات الأفريقية، فى كتاب: الطيب صالح عبقرى الرواية العربية، دار العودة بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨١، ص١٥٣.

(٣) هكذا حدثنى الطيب صالح، حوار أجراه بشير القمرى مع الأستاذ الطيب صالح بمناسبة تكريمه فى أصيلة فى ١٤ / أغسطس ١٩٩٤، فى كتاب الطيب صالح، منتدى أصيلة رقم ١٣، ص٨.

(٤) تقرير وكالة الأنباء الفرنسية، الطيب صالح يكتشف ذاته، صحيفة الوطن، ١٩يناير ١٩٨٩، العدد ٤٩٩٩ ص٦.

(٥) الطيب صالح للوطن الثقافى، حاوره عبد الستار خليف، صحيفة الوطن، ٢٤ يناير ١٩٩٥، ص٣.

(٦) سوسن الدويك، حوار مع الأستاذ الطيب صالح، فى كتاب: بعد الرحيل، فى تذكر المريود الطيب صالح، تحرير الدكتور حسن أبشر الطيب، الطبعة الأولى يونيو ٢٠٠٩ ص٨١٠.

(٧) هكذا حدثنى الطيب صالح، نفسه ص١٠.

(٨) سوسن الدويك، نفسه ص٨١٦.

(٩) رجاء النقاش: الطيب صالح.. عبقرية روائية جديدة، فى كتاب الطيب صالح عبقرى الرواية العربية، دار العودة بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٨١، ص٩٨.

(١٠) هكذا حدثنى الطيب صالح، نفسه ص١٥.

عندما يتحدث أردوجان
(٥)

إخوتى الأعزاء

اليوم يوم جديد، إنه ميلاد.

من الواضح تماما أنه لا شىء يمكن أن يستمر على حاله.

لا يمكن لدولة عدائية تمارس الجرائم والمجازر علنا أن ترفع بصرها إلى المجتمع الدولى وتنظر فى وجهه وتتمكن من شرح موقفها ما لم تندم وتسائل نفسها عما فعلت. تلك السفن كانت سفن رحمة وحمولتها الضمير الإنسانى.

إن اعتراض سفينة مدنية تبعد ٧٢ ميلا عن المياه الإقليمية وفى المياه الدولية تماما واحتجاز السفينة وركابها هو جريمة فى حد ذاته.

سئمنا من أكاذيبكم

الهجوم المسلح على الناس الأبرياء، إراقة الدماء، القيام بمذابح هو إرهاب دولة بشكل واضح. هم ينكرون ذلك قائلين: لقد أطلقوا علينا النار. لقد سئمنا من أكاذيبكم هذه سئمناها... كونوا صادقين، صادقين.

لا أحد يستطيع تصوير المتطوعين ومن معهم من النواب الأوروبيين والصحفيين الستين وبالطبع ذلك الرضيع البالغ من العمر عاما واحدا مع أمه والذين كانوا على متن السفن، على أنهم يستهدفون غاية غير إنسانية.

مرة أخرى تجلى بوضوح كيف أن إسرائيل ترى فى الظلم غير الإنسانى لفلسطين وغزة أمرا مقبولا لسنوات عديدة.

لقد أظهروا للعالم مرة أخرى -كما سبق أن قلتها من قبل فى وجوههم- أنهم يعرفون القتل جيدا.

إنه قيدوا أيدى الأبرياء الذين أصيبوا بجروح خطيرة جراء طلقاتهم النارية، هل يمكن تبرير ذلك؟ هل رأيتم منظر الجريح على النقالة وهو مكبل؟ هل يمكن تبرير هذا المشهد على ضوء المبادئ الدولية؟ لن يمكنهم أبدا أن يشرحوا للعالم بعد الآن كم هو نصيبهم من الإنسانية.

«تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشـكر الناشـرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.»

النظام القضائى

لطيفة محمد سالم

القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠، جزأين



هو المتمِّم للجزء الأول، حيث يحمل العنوان نفسه ويتابع مباشرة الحقبة الزمنية التالية، والتى تحظى، إذ ارتبطت بالكفاح ضد الإمبريالية بنوعياتها المتعددة والتى منها التسلّط القضائىَ، كما ارتبطت بالاحتلال البريطانى الذى أخذ على عاتقه الدفاع عن مصالحه، واستخدم الطرق جميعها من أجل ذلك.

وفى تلك الأثناء مر القضاء والتشريع بمراحل ثلاث: مرحلة استكمال سياسة القضاء المختلط والقنصلى الخاصة بالسيطرة التقليدية، ومرحلة الانتقال بين اتفاق مونترو ١٩٣٧ وسقوط القضاء المختلط وتحجيم القضاء القنصلىَ عام ١٩٤٩، ثم مرحلة التحوّل وإسباغ السلطة القضائية على القضاء الوطنى الذى أصبح سيد موقفه على الأرض المصرية بعد أن حمل مهمة الولاية القضائية ونجح فى أدائها. ولم يكن ذلك بالأمر الهيِّن وإنما استغرقت المجهودات المضنية سنوات كثيرة من أجل تحقيق استقلال ووحدة القضاء المصرى.

■

رواية «در البحور: سيرة الشريف يوسف روبينسون»

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

تأليف: جون لويس بيركهارت

تحقيق وتقديم وتعليق: عبد الله الدحيات

٢٠١٠

١٤٠ صفحة



بقيت مخطوطة حكاية در البحور سيرة الشريف يوسف روبينسون، التى كتبها الرحالة الشهير جون لويس بيركهارت باللغة العربية الدارجة فى مدينة حلب السورية التى كان يقيم فيها عام ١٨١٠م، طى النسيان إلى يومنا هذا، حيث لم يتم ذكرها أو الإشارة إليها من أى باحث أو فى أى مرجع كان ؛ ولهذا، فإن ما قام به الدكتور عبد الدحيات من تحقيق لهذه المخطوطة وجعلها فى متناول الباحثين والدارسين فى ميدان المعرفة الإنسانية يعد عملاً غير مسبوق فى هذا المجال.

وحكاية در البحور هذه مبنية - كشكل أساسى - على رواية روبينسون كروزو لدانيال ديفو، التى ظهرت أول طبعة منها عام ١٧١٩ فى مدينة لندن. وتعد أول رواية فى الأدب الإنجليزى. وقد أبان المحقق، فى المقدمة، أوجه التشابه والاختلاف بين العملين، كما قام بتوضيح الأسباب التى جعلت بيركهارت يختار روبينسون كروزو لتكون الأساس الذى بنى عليه حكاية الشريف روبينسون. كما شرح فى الهوامش الكلمات الغريبة والإشارات الصعبة التى وردت فى هذه المخطوطة.

■

الصحراء العربية: ثقافتها وشعرها عبر العصور

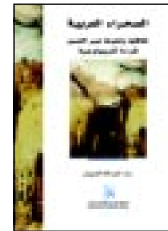
قراءة أنثربولوجية

سعد عبد الله الصويان

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

٢٠١٠

٨١٩ صفحة



إن هذا الكتاب هو محاولة لربط الحاضر بالماضى من خلال تركيزه والتفاته إلى المصادر الشفهية وموروثات الثقافة التقليدية. وهو بذلك يسعى إلى التركيز على أهم المصادر التى تمثّل واقعنا الثقافى والاجتماعى، التى قلّما تنبّه لها من يدرسون التاريخ الاجتماعى والثقافى والأدبى واللغوى فى الجزيرة العربية.

ولمّا كان البدو يشكلون غالبية سكان الجزيرة العربية، خصوصاً فى الوسط والصحراء، فقد سعى الدكتور سعد العبد الله الصويان إلى التعامل فى كتابه مع شعر البادية من جهة، وثقافة الصحراء فى الجزيرة العربية من جهة ثانية، باعتبارهما امتداداً طبيعياً للعصر الجاهلى من حيث شعره ولغته وثقافته. فالشعر هو مرآة تعكس واقع الحياة الطبيعية والاجتماعية عموماً، ومجتمع البادية وثقافة الصحراء خصوصاً، وهذا بدوره يؤكد الترابط بين المباحث اللغوية والأدبية والمباحث الاجتماعية والثقافية، فيتضافر الشعر الجاهلى مع الشعر النبطى ويشكلان مادة ترسم صورة متكاملة لثقافة الصحراء العربية على مر العصور.

إن هذا الكتاب هو مساهمة حقيقية لتصحيح الصورة المشوهة التى تحملها النخب العربية عن التنظيم القبلى وطبيعة الحياة البدوية... بصورة موضوعية وحيادية وعلمية بحتة تستند إلى منهجية جديدة قائمة على مستحدثات العلوم الإنسانية والاجتماعية وموروثات ثقافية تاريخية بعيدة عن السطحية وأقرب إلى الحقيقة والمنطق.

■

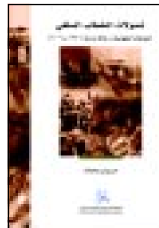
تحولات الخطاب السلفى الحركات الجهادية - حالة دراسة ١٩٩٠ - ٢٠٠٧

مروان شحادة

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

٢٠١٠

٣٥٠ صفحة



هذا الكتاب هو دراسة جادة تُعنى بالتعريف بحركات الإسلام السياسى عموماً، وبالحركات الجهادية الجديدة خصوصاً، وإلقاء مزيد من الضوء على مجمل الأفكار والعقائد المؤسسة لخطابها، وتحاول الوقوف على مدى انتشارها ونفوذها فى العالمين العربى والإسلامى، عبر رصد وتقويم مسار تحوّلات الخطاب السلفى الذى سعى لتغييره «تنظيم القاعدة» بشقّيه الدينى والسياسى من الناحية النظرية والعملية، وأثر هذا التغيير فى بنية العلاقات الدولية.

لذا جاء هذا الكتاب ليحكى قصة قدرة أتباع ومؤيدى الحركات الجهادية على التصدى «للمشروع الأمريكى» الذى يهدف إلى التوسّع والهيمنة والسيطرة، ويحاول الإجابة عن السؤال: هل فشلت تلك الحركات فى تحقيق أهدافها القريبة والبعيدة وعلى رأسها إقامة الدولة الإسلامية «الخلافة»، وإلحاق الهزيمة بالولايات المتحدة الأمريكية وإسرائيل على المدى القريب والبعيد؟

نحن اليوم، كعرب ومسلمين، بحاجة ماسّة إلى إعادة النظر فى تجديد الخطاب الإسلامى، وبلورة مفاهيم قادرة على النهوض والتجدد، آخذين بالاعتبار مجمل التطورات والتقدم الذى حصل فى حقل العلوم الإنسانية التى تمكننا من التخلص من عمليات البتر والتجزىء لمكونات التراث الإسلامى والحداثة، فى سبيل ترسيخ منظومة فكرية إسلامية قوامها الحوار والاختلاف، وبناء فكر إسلامى تداولى محرر على شروط العقلانية المعاصرة، يقيها آفات العنف والجمود والتطرف الذى صبغ حياتنا الاجتماعية والسياسية، وأصبح من أبرز مكونات ثقافتنا العربية الإسلامية.

والكتاب فى الأساس رسالة علمية قدمت استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير فى العلوم السياسية من معهد بيت الحكمة فى جامعة آل البيت/ الأردن.

■

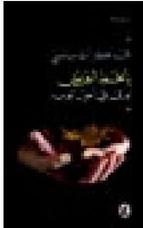
بالخط العريض

شاكر النابلسى

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

٢٠١٠

٢٣٠ صفحة



هذا الكتاب هو عبارة عن مجموعة مقالات مجمعة تم تقسيمها إلى ثلاثة أبواب.

«أولا يوميات الإرهاب» وفيه: هل للقمع الجنسى علاقة بالإرهاب؟ فلسطين بين فكى الأصولية الإسلامية واليهودية.

والباب الثانى «يحدث فى العالم العربى» وفيه: العرب.. من الدكتاتورية السياسية إلى الفاشية الدينية. الفقر وسوء التعليم علّتان عربيتان. التوطين بين الرغبة الإمبريالية والممانعة القومية. ماذا استفاد العرب من ثورة المعلومات؟ بؤس الحقيقة فى العالم العربى. دور الديمقراطية فى ترسيخ دعائم المجتمع المدنى. نواقيس.. نواقيس.. ولا من مجيب. هل حسبتم أنكم فى العصر العباسى؟ قضاة السلطان يشوون سعداً على السفّود. أيتها الجماهير الحمقاء!

وأما الباب الثالث فقد جاء تحت عنوان «نحن والغرب»، وفيه: لماذا أصبح السلام واقعاً دولياً؟ الرسالة الأمريكية فى

الديمقراطية العراقية. هل ما زالت أمريكا تسعى إلى إقامة شرق أوسط جديد؟ هل أصبحت أمريكا دولة إسلامية جديدة؟ بين نابليون الفرنسى ونابليون الأمريكى. هل سيقود الغلاء إلى حرب عالمية؟ استقصاء مثير لمواقف الأغلبية المسلمة الصامتة. أرفعُ قبعتى تحية لهؤلاء الخنازير! سيراً على خطى بلاد الشمس إلى التقدم.

وقال المفكر السورى/الفرنسى المعروف جورج طرابيشى عن هذا الكتاب:

«قرأتُ هذا الكتاب بمتعة، بل وبتلذذ لأسباب ثلاثة:

أولاً، لجرأته وصدامه لموروث القارئ المستكين الى ما يعتبره بديهيات، لا تقبل إعادة النظر.

وثانيًا، للجديد الذى يأتى به الكتاب فى العديد من المقاربات.

وثالثًا، لأسلوب الكاتب فى طرق الحديد وهو مُحمِى، الى درجة قد لا يحتملها القارئ المُدجَن.

لقد قضيتُ بضع ساعات ممتعة مع هذا الكتاب.. ولا أكتم القول أننى فى بعض الأحيان، كنت أتمنى بينى وبين نفسى ككاتب، لو أنى أملك أسلوبًا متدفقًا كأسلوب شاكر النابلسى.

■

مكانة السلطات الأبوية فى عصر العولمة

د. زياد بن عبد الله الدريس
عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر
٢٢٤ صفحة



يكشف الباحث فى هذه الدراسة كيف سارعت قوى العولمة إلى اختراق الحصون التربوية مستندة فى ذلك على إضعاف البعد الفلسفى للتربية وحصرها فى المنحى الاقتصادى للتعليم وتوجيه المعرفة العلمية بحسب القوى التى تملكها.

ويقول عنه الباحث والأديب السعودى عبد المقصود خوجة:

أوقات ممتعة قضيتها فى معية هذا الكتاب، إذ لم يقتصر على السلطة الأبوية فى دائرتها العائلية بل شمل دور مؤسسات التربية والتعليم ودور المدرس / المربى بما كان عليه وما حاق به عصر العولمة.. مع ربط كل ذلك بالهوية والثقافة والتطور الاجتماعى والاقتصادى.

كما قالت عنه صحيفة الاقتصادية:

يناقش الكتاب تأثيرات العولمة على الهوية من منظور كونى عام، ثم تضيق دائرة المنظور لتتناول تأثيرات العولمة على الهوية العربية والإسلامية.

تلك هى الطبعة الثانية من كتاب الدكتور زياد بن عبد الله الدريس وهو باحث متخصص فى سوسيولوجيا الثقافة ويحمل شهادة الدكتوراه من جامعة موسكو. وهو يشغل الآن منصب مندوب دائم للمملكة العربية السعودية لدى منظمة اليونسكو فى باريس منذ عام ٢٠٠٦.

■

حكايات قهوة كتكوت

محمود السعدنى
القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠ ، ٢٢٢ صفحة



ولأنى حمقرى (مزيج من الحمار والعبقرى) فقد كنت أظن أن كل رجل ضاحك رجل هلاّس.. ولأنى حمقرى كنت أرفع شعاراً حمقرياً «أنا أضحك إذن أنا سعيد»، وبعد فترة طويلة من الزمان اكتشفت أن العكس هو الصحيح، واكتشفت أن كل رجل ضاحك رجل بائس، وأنه مقابل كل ضحكة تقرقع على لسانه تقرقع مأساة داخل أحشائه، وأنه مقابل كل ضحكة ترتسم على شفتيه تنحدر دمعة داخل قلبه.. ولكن هناك حزن هلفوت، وهناك أيضًا حزن مقدس.. وصاحب الحزن الهلفوت يحمله على رأسه ويدور به على الناس.. التقطيبة على الجبين، والرعشة فى أرنبة الأنف، والدمعة على الخدين.. ياللى! وهو يدور بها على خلق الله يبيع لهم أحزانه، وهو بعد فترة يكون قد باع رصيده من الأحزان وتخفف، ويفارقه الحزن وتبقى آثاره على الوجه، إكسسواراً يرتديه الحزين الهلفوت ويسترزق..

لكن الحزن المقدس حزن عظيم، والحزن العظيم نتيجة هموم عظيمة، والهموم العظيمة لا تسكن إلا نفوساً أعظم.. والنفوس الأعظم تغلق نفسها على همها وتمضى.. وهى تظل إلى آخر لحظة فى الحياة تأكل الحزن والحزن يأكل منها، ويمضى الإنسان صاحب الحزن العظيم.ككل شىء فى الحياة. يأكل ويؤكل، ولكن مثله لا يذاع له سر، وقد يمضى بسره إلى قبره! ولذلك يقال: ما أسهل أن تبكى وما أصعب أن تضحك.

ولكن هناك أيضًا ضحك مقدس، وهناك ضحك هلفوت.. الضاحك إذا كان حزينًا فى الأعماق صار عبقريًا، وإذا كان مجدبًا من الداخل أصبح بلياتشو يستحق اللطم على قفاه! ونحن أكثر الشعوب حظًا فى إنتاج المضحكين.. مصر العظيمة كان لها فى كل جيل عشرات من المضحكين، ولقد استطاع بعضهم أن يخلد ولمع بعضهم حينًا ثم فرقع كبالونة

إخـــــوان العـــراق



الإخوان المسلمون فى العراق

مجموعة باحثين
مركز المسبار للدراسات والأبحاث
٢٠١٠

هذا الكتاب هو مجموعة من المقالات التى تتناول دراسة حركة الإخوان المسلمين على الصعيد العراقى العربى والتركمانى، وممثلها فى الوقت الحاضر «الحزب الإسلامى العراقى» عربياً و«حزب العدالة» تركمانياً، بعد الاكتفاء بما ورد عن الاتحاد الإسلامى الكُردستانى فى كتاب الإسلامية الكُردية.

بدأ الكتاب بعرض حركة الشيخ محمد محمود الصواف بالأزهر والتى كانت سبيل حركة الإخوان المسلمين إلى العراق، حيث عاد الصواف بعد اللقاء بالشيخ حسن البنا ليبدأ بتأسيس فرع الحركة العراقى، وكيفية عمل فروع الإخوان لا تبدأ الجماعة بتشكيل حزب سياسى، إنما العمل عبر الجمعيات الخيرية، لكنها فترة وجيزة ويحاول الصواف وجماعته الحصول على إجازة لتأسيس حزب سياسى، وقد رفض هذا الطلب طوال فترة العهد الملكى (١٩٢١ -١٩٥٨).

وفى العهد الجمهورى أعيد الطلب، ليرفض، بسبب الانتماء إلى جماعة عاملة فى دولة أخرى هى مصر، التى كانت على خلاف شديد مع العراق، بعدها قُبل الطلب عن طريق المحاكم، ومنحت الإجازة لتأسيس الحزب الإسلامى كواجهة سياسية للإخوان المسلمين، إلا أنها فترة وجيزة ويزج بقيادة الحزب فى السجن، وذلك بسبب تعرضهم للسلطة بقوة، ودعوة الحزب لإسقاط الحكومة وإقامة حكومة تتقيد بالشريعة الإسلامية.

كُتب هذا الملف بأقلام عراقية، ومن داخل العراق فقط، مما يجعله يستطيع أن يعكس واقع الحال بصدق، فالشأن العراقى مازال يكتنفه الغموض على البعيد عن ساحته.

فى هذا الكتاب بحث على وتوت فى صيرورة الإخوان المسلمين، بعد مقدمة وافية عن الإسلام السياسى العراقى السابق، ثم حدد الظهور السياسى للجماعة بالحزب الإسلامى العراقى، ماراً على تاريخ العراق السياسى المعاصر وظروف إقامة الدولة الحديثة وطبيعة المجتمع العراقى، خاتماً بسرد مواقف وعلاقات الإخوان السياسية.

ومن جانبه بحث قحطان أحمد الحمدانى بمادة مهمة وموثقة فى تاريخ الحزب الإسلامى العراقى، كدراسة فى الفكر والتنظيم الحزبى وتبيان المواقف التى تعرض لها الحزب فى مسيرته السرية والعلنية، وقد حدد الفترة (١٩٦٠ -١٩٦٣)، وهى فترة التأسيس الحزبى، والمواجهة السياسة الحادة، باستغلال ليونة السلطة آنذاك، ذاكراً بالتفصيل الجذور التاريخية لوجود الحزب، متعرضاً لجماعة الإخوان المسلمين.

كما كان بحث خميس دهام حميد «الحزب الإسلامى.. دراسة فى التنظيم والأفكار والمواقف» دراسة معمقة فى تاريخ الحزب، بداياته السرية، وعمله العلنى، ثم ما تعرض له الحزب من مواقف بعد سقوط النظام، وتراجع عدد أعضائه، حسب ما يرى الباحث، بدخول مجلس الحكم، ومن المعلوم أن وسطه السنى، بأغلبيته، لا يرى فى ذلك المجلس سوى صنيعة أمريكية، وبالتالى فإن العمل السياسى تحت ظل الاحتلال هو خروج عن الثوابت التى دعا وعمل من أجلها الحزب، وجماعة الإخوان المسلمين عامةً.

وفى دراسة لجواد كاظم البيضانى يظهر دور الحزب الإسلامى العراقى فى المعارضة السياسية، منذ بداية التأسيس وعروجاً إلى ما بعد حرب الخليج الثانية، حيث فى التسعينيات، من القرن الماضى، أعلن الحزب معارضته الصريحة، ليكون قطباً من أقطاب المعارضة، لكن من دون تبنى مشروع من مشاريعها، أو طرقها فى إسقاط النظام السابق، مثلما حدث فى أبريل (نيسان) ٢٠٠٣. كذلك فى تاريخ ومسيرة الحزب الإسلامى العراقى كتب مازن لطيف حول المشهد العراقى المعاصر والحزب الإسلامى.

أما عزيز صمانجى، وهو سياسى تركمانى عراقى، فكتب عن مشاهدة، وأخذ المعلومة من أُصولها، عن فرع الإخوان المسلمين التركمانى فى العراق، ألا وهو حزب العدالة، ذلك الحزب الذى يُعد امتداداً لجماعة الإخوان بكركوك، حيث الكثافة السكانية التركمانية، وظهر الحزب إلى الوجود بعد ٢٠٠٣، وتحت هذا الاسم، شارحاً تفاصيل نشأة جماعة الإخوان فى كركوك منذ ١٩٤٧، مؤكداً أن تلك الجماعة امتدت إلى القوميات العراقية الثلاث: العرب والكُرد والتركمان، أى من أهل السُنَّة.

هذا، ويختتم الكتاب، بدراسة شايع الوقيان تحت عنوان «معنى سؤال التخلف»، يحاول فيه الكاتب شرح السؤال، والوقوف على الحدود بين التطور والتخلف، وماهى عناصر كل منهما، ومَنْ له مقايسة ذلك وتحديده.

منتفخة بالهواء، بعضهم أصيل وبعضهم فالصو، بعضهم مثل الذهب البندقى وبعضهم مثل الذهب القشرة.

■

حياة فى الإدارة

غازى القصيبى

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

٣٦٠ صفحة

الطبعة الرابعة عشرة ٢٠١٠



يقول الدكتور محمد جابر الأنصارى المفكر البحرينى عن هذا الكتاب: «أنها مادة أساسية نادرة.... إضاءات دقيقة حية لا أعتقد أن المؤرخين سيجدونها فى أى مصدر آخر فى التاريخ السعودى المعاصر». أما الصحفى السعودى محمد رضا نصر الله فيقول عنه: «يقتحم قلاع البيروقراطية ومنازلها التقليدية بكثير من الحيوية والشجاعة». وختامًا فإن الأستاذ فؤاد مطر الكاتب اللبنانى المعروف يقول عنه: «يتحدث عن الإنجازات بطريقة توغر صدور عشرات الذين تسلموا مناصب وزارية....

■

شجاعة العقل

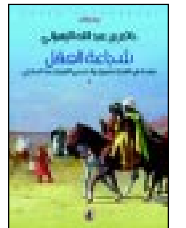
دراسة فى الفكر الشعرى والنسيج اللغوى عند المتنبى

حاتم بن عبد الله الزهرانى

الطبعة الأولى

٢٠١٠

٣٦٨ صفحة



يقول الأستاذ الدكتور صالح بن سعيد الزهرانى عميد كلية اللغة العربية - جامعة أم القرى - مكة المكرمة عن هذا الكتاب:

شجاعة العقل، مقاربة لنص فارس الشعر العربى أبى الطيب المتنبِّى الذى جسّد فروسيّته اللغوية بالقرطاس والقلم أكثر ممّا جسدها بالخيل والليل، وباكورة أعمال باحث شجاع، لديه القدرة على الإضافة النوعيّة للمعرفة النقدية المعاصرة.

تتأسس الدراسة على فكرة مركزية يتجلى فيها النص الشعرى موقفا من العالم، وخصوصية فى تصوره وتصويره، وهذا منطق الرؤية الجديدة لتأويل النصوص الأدبية. فالنص وعى ووعاء، والعلاقة بينهما كالعلاقة بين وجهى العملة، لا وجود لأحدهما بمعزل عن الآخر.

إن حضور العقل فى مدوّنة المتنبى الشعرية ليس حضورا عارضا، إنه حضور جوهرى يمكن من خلاله اكتشاف رؤية المتنبى للعالم وتصويره له، وإدراك لعبقريته فى التصور والتصوير، واكتشاف قوة التلازم بين الفكر واللغة، والرؤية والأداة.

المؤلف هو: حاتم بن عبد الله الزهرانى.

- مواليد ١٩٨٢ م، مكة المكرمة.

- معيد فى قسم الآداب، بكلية اللغة العربية، فى جامعة أم القرى، ابتداء من ٢٠٠٦

- فاز بعدة جوائز شعرية داخل المملكة وخارجها.

- شارك فى عدد من المهرجانات الفنية.

- صدر له عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر أيضًا ديوان شعرى بعنوان «الياء يائى».

■

سيزاباد ورجال الدولة البهية

قصة السيطرة البريطانية على الخليج العربى

مى محمد الخليفة

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الطبعة الثانية ٢٠١٠



يحكى الكتاب تاريخ السيطرة البريطانية على الخليج العربى من خلال رصده لأدوار من يسمون برجال الدولة البهية

سيزاباد أى البقعة الخضراء: تسمية فارسى أطلقها المقيم البريطانى فيلكس جونز على دار المقيمية فى بوشهر،ومن تلك الدار كانت تدار أحداث الخليج بساحليه العربى والفارسى

رجال الدولة البهية هم لويس بيلى: المقيم البريطانى فى بوشهر،من عام ١٨٦٢ وحتى عام ١٨٧٣م. له بحوث ميدانية ودراسات مهمة عن مدن سواحل الخليج تنشر فى هذا الكتاب لأول مرة.

واللورد كرزون نائب الملك فى الهند، ومنظر السياسة البريطانية القائل: «إن بلاد الشرق الأوسط ما هى إلا قطع على لوحة الشطرنج التى ستحدد اللعبة عليها من الذى سيسيطر على العالم».

وبيرسى زكريا كوكس مهندس الحدود الحالية، وصاحب القرار فى مؤتمر العقير.

الميجر كلايف كيرك باتريك ديلى: المعتمد البريطانى فى البحرين من عام ١٩٢١ حتى ١٩٦٢م مع سجله نفتح ملف العشرينات السياسى ونقرأ عن «حكم ديلى».

■

الأوبـــاش

خيرى شلبى

القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٠، صفحة



فى روايته الجميلة هذه، والتى صدرت للمرة الأولى عام ١٩٧٨، يكشف الكاتب الكبير خيرى شلبى صفحة من أسرار ريف الدلتا فى بدايات الخمسينيات. حيث ينسج عالمًا واسع الثراء عن «طلعت» الذى يبحث عن أبيه «القاضى» الذى زار بلدتهم لأيام تزوج فيها الأم «توحيدة»، ثم اختفى ولم يظهر أبداً. وتتبُّع الشرطة والأهالى لحقيبة «الحاج سليم» مقاول الأنفار التى اختفت من بيت عمدة القرية بما تحتويه من «كنز» هائل، أغلب الظن أنه من الحشيش، بعد مقتل المؤذن، الذى كان متوقعًا أن يصبح الشاهد الوحيد على السارق، فى الليلة نفسها. وبلغته التى تعرف هؤلاء الفلاحين، وتنتمى إليهم، وتقبض على حقيقتهم، يحكى لنا خيرى شلبى عما طال الفلاحين من قهر السلطة، ومكرها، وفساد الأفندية الذين يعملون من أجلها. فى «الأوباش» يأسر خيرى شلبى كلا من أبطاله وقرائه بحكايات أخّاذة، وتحقيقات رسمية، وشكاوى كيدية، ونمائم لا تنتهى. فيصحبنا جميعًا إلى عالم ساحر نود لو بقينا فيه رغم ما فيه من آلام.

خيرى شلبى واحد من أهم كتاب الرواية فى العالم العربى. حائز على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عام ٢٠٠٥. له أكثر من سبعين كتابًا ما بين الرواية والقصة والمسرحية والدراسة، من أشهرها: «وكالة عطية»، و«صالح هيصة»، وثلاثية «الأمالى»، و«زهرة الخشخاش»، و«نسف الأدمغة»، و«صحراء المماليك». وقد تُرجمت أعمال خيرى شلبى إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية والروسية والصينية والكورية والأردية.

■

انهيار العولمة وإعادة اختراع العالم

جون رالستون

ترجمة: محمد الخولى

الدار المصرية اللبنانية

٢٠١٠



«انهيار العولمة وإعادة اختراع العالم» هو الكتاب الفائز بجائزة خادم الحرمين الشريفين عبد الله بن عبد العزيز آل سعود العالمية للترجمة، فى دورتها الثالثة ١٤٣٠ هجرية - ٢٠٠٩ ميلادية، فى مجال «العلوم الإنسانية من اللُغات الأخرى إلى اللغة العربية».

يهتم جون والستون سول فى هذا الكتاب بتحليل تاريخ الحضارة، وهيكل السلطة فى الغرب، وما يتفرع من هذه الظواهر من قضايا ثقافية ومعرفية خصوصا فيما يتعلق بما لحق هذه الأوضاع من فساد، تحولت به النظم السياسية إلى خدمة جماعات المصالح واحتكارات القلة على حساب الصالح العام لأوسع قطاعات المواطنين.

يُذكر أن المؤلف حذَّر من تكريس النشاط المالى على حساب الإنتاج ومن اعتبار النقود أصولا أساسية، بدلا من اعتبارها وسائل للتعامل، وأداة للتبادل، وهو ما أفضى إلى الأزمة المالية التى أصابت دوائر وول ستريت فى أمريكا، وما برحت تداعياتها تتردد فى أركان شتَّى من عالمنا.

كما أنَّ المؤلف نبَّه أيضًا إلى خطورة تحويل العولمة من ظاهرة فى التطور الاقتصادى والإعلامى إلى ما يشبه الأيديولوجية أو العقيدة الدينية ؛ حيث المبالغة فى الانفلات من النظم والضوابط، بدعوى تحرير التجارة والاقتصاد، فضلاً عن المغالاة فى دور المديرين ورؤساء مجالس الإدارات على حساب دور الدولة بمؤسساتها وقوانينها التى تكفل فى التحليل الأخير حماية النشاط الاقتصادى للمجتمع من أطماع الأفراد، وتطلعهم إلى الامتيازات المادية والمعنوية على حساب الصالح العام.

ومن أبرز أعماله غير هذا الكتاب الذى أصدرته الدار المصرية اللبنانية: الحضارة غير الواعية، أبناء فولتير غير الشرعيين، معادلة التوازن، كندا عند نهاية القرن العشرين، ثلاثية حقل (رواية)، الطيور الجوارح (رواية). وهو مولود فى كندا من أب كندى وأم بريطانية وقد حصل على درجة الدكتوراه فى الاقتصاد والعلوم السياسية من جامعة لندن.

الكاتب والمترجم الفائز محمد

الخولى، حسب البيان الذى أصدرته الدار المصرية اللبنانية هو كاتب صحفى خبير فى القضايا العربية والشئون الدولية وعمل فى منظمة الأمم المتحدة مترجماً دولياً، ثم كبيراً للمترجمين بمراكز الأمم المتحدة فى كل من بيروت وبغداد وأديس أبابا ثم فى الأمانة العامة للأمم المتحدة فى نيويورك وعمل مديراً للإعلام فى رئاسة مجلس الوزراء المصرى، وشغل مناصب ومواقع إعلامية متعددة:

ومن أهم ترجماته: الحملة الأمريكية (دار الهلال - القاهرة)، القاهرة فى الحرب العالمية الثانية (مؤسسة صوت العرب - القاهرة)، الإسلام والمسلمون فى أمريكا (المجلس الأعلى للثقافة - القاهرة)، جدول أعمال القرن ٢١ مؤسسة البيان - دبى)، أصوات العصر (دار البيان - دبى)، الشرق فى الغرب (المنظمة العربية للترجمة - بيروت)، البحث عن ديمقراطية عربية- بالاشتراك (مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت)، انهيار العولمة وإعادة اختراع العالم (الدار المصرية اللبنانية - القاهرة).

■

الطنطورية

رضوى عاشور

القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠ ، ٤٦٠ صفحة



في روايتها الصادرة حديثا «الطنطورية» (دار الشروق ٢٠١٠)، تتتبع الكاتبة الكبيرة الدكتورة رضوى عاشور مسيرة عائلة فلسطينية أخرجها الاحتلال من بلدها الأصلي «الطنطورة»، ليتلقفها الموت ومخيمات اللاجئين في بيروت والأردن، وذلك في مسيرة تتوازى مع التاريخ الفلسطيني والعربي الحديث. وتقدم الرواية مزجا بين التاريخ وفن الرواية تتناول فيه إلى جوار سير الشهداء الفلسطينيين، وتاريخ المذابح الإسرائيلية، ذلك التاريخ الإنساني لعائلة فلسطينية كلما أفقدها الاحتلال فردا في مذابحه المتتالية منذ ١٩٤٨ إلى بدايات القرن الحالي، أبدلته بجيل جديد. في أحدث روايات رضوى عاشور بقدر ما يكون القارئ مأخوذا بالمحبة تجاه أبطالها بحكاياتهم اليومية وأغانيهم الشعبية ومصائرهم المتدافعة، بقدر ما سيبقى في انتظار مفاجأة غياب أي منهم تحت سنابك جيش الاحتلال.

■

أنيس النقاش: أسرار خلف الأستار

صقر أبو فخر

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

٢٠١٠ ـ (طبعة ثانية منقحة)

٢٢٤ صفحة



اسمه فى حركة فتح «مازن» واسمه فى عملية فيينا «خالد» أما اسمه الحقيقى فهو أنيس النقاش. قال عنه كارلوس شريكه فى عملية فيينا: إنه من الكوادر السياسية والعسكرية التى لا تضاهى... كان بطلا حقيقيا ». لم يتسم أنيس النقاش أى موقع أمنى فى حركة فتح لكنه ساهم فى كثير من العمليات الخاصة. هذا الكتاب يكشف عن كثير من الأسرار التى عرفها أنيس النقاش، أو التى شارك فى صنعها، ويفضح محاولات بعض أجهزة الاستخبارات العربية اختراق أمن المقاومة الفلسطينية فى سبعينيات القرن العشرين، ويعيد رواية تفصيلات التحاقه المبكر بحركة «فتح» وصلته بياسر عرفات وأبو جهاد، وقصة «الكتيبة الطلابية» وحرس الثورة فى إيران ودوره المباشر فى تأسيس هاتين الجماعتين. ويكشف أنيس النقاش بعض خفايا الحرب الأهلية فى لبنان ودوره فى عدد من العمليات الخاصة التى خططها الدكتور وديع حداد مثل محاولة اختطاف مهدى التاجر، ومحاولة اغتيال دين براون، وعملية الاقتحام المثيرة لمقر مؤتمر الأوبيك فى فيينا سنة ١٩٧٥ التى قادها كارلوس وأنيس النقاش وآخرون، فضلاً عن كشف أسرار جمة عن المقاومة الفلسطينية واليسار اللبنانى، وعن اختطاف الإمام السيد موسى الصدر، واغتيال كمال خير بك ومحمد صالح الحسينى، وعلاقاته بمنظمة «بادر ماينهوف» وبمؤسسى حرس الثورة فى إيران. ثم يشرح، بالتفصيل، دوره فى محاولة اغتيال شهبور بختيار فى باريس وتجربة السجن الفرنسى.

هذا الكتاب سجل شامل لوقائع حارة صاخبة احتدمت فى بيروت إبان المرحلة العاصفة التى وسمت المنطقة العربية بميسمها الثورى، أى مرحلة ما بعد هزيمة ١٩٦٧. وهو، فى الوقت نفسه، رصد للعوامل الاجتماعية والثقافية والسياسية التى جعلت جيلاً بيروتياً بكامله تقريباً ينخرط فى النضال الفلسطينى بعدما انخرط فى تيار القومية العربية بنسخته الناصرية.

هذا الكتاب لا يروى سيرة شخص ذى خبرة رفيعة فى عالم الأمن والعمليات الخاصة والسياسات الدولية فحسب، بل سيرة مدينة شهدت أحداثًا مثيرة فى زمن التحولات الكبرى.

■

كـتــــاب الــزاويــــة



عندما يتحدث أردوجان

(٦)

أنا أعلم أن كل شعوب الأرض تدين هذا الظلم الواضح، إلا أن الإدانات لا تكفى. يجب الوصول إلى النتيجة. يجب على كل شعوب العالم المطالبة بالعدالة. وأن يأتى اليوم الذى تسود فيه العدالة عوضا عن القوة، نحن نريد هذا.

تركيا ستستخدم كافة الإمكانات التى يتيحها القانون الدولى وستتحرك مع المجتمع الدولى فى هذا المسار. أود أن ألفت انتباه الإنسانية جمعاء إلى النقطة التالية.

إن إسرائيل بسياستها التى تريق الدماء لن تستطيع أن تبرر هذا العمل غير المشروع الذى قامت به. هذه جريمة، ولن تستطيع إسرائيل أن تنظف يدها من الدماء بأى مسوغ مهما كان.

إن المشكلة الناجمة عن هذا العدوان الدامى ليست مشكلة تخص البلدين فحسب بل تخص العالم كله. إننا نؤمن بأن أى دولة أو مؤسسة دولية تولى أهمية للقيم الإنسانية لا يمكنها أن تقف متفرجة على جريمة بهذه الأبعاد.

بعد هذه المرحلة يجب أن يعرف كل من يتغاضى عن هجمات إسرائيل الدامية أو يتعامى عنها أنه شريك فى الجريمة.

ماتفعله اسرائيل بغزة ليس مكافحة للإرهاب بل هو يعتبر مجزرة فى حق أهل مدينة بأكملها.

إنكم تقصفون أولئك الناس بالقنابل، وتجربون فيهم القنابل الفوسفورية،

وتقصفون المستشفيات والمساجد وتعتدون على المدارس وترمون القنابل فى حدائق الأطفال بالإضافة إلى ذلك تهاجمون مكتب الأمم المتحدة!!!

ولا تكتفون بهذا القدر من «اللاقانونية» بل تحرمون أولئك الناس من سد كافة احتياجاتهم.

فضلا عن أنكم تطبقون وحشيتكم على متطوعى المساعدات الخيرية الذين يحملون لأولئك الناس الأدوية والمواد الغذائية ومواد البناء.

ربما يغمض الجميع عيونهم إزاء هذه «اللاقانونية» وربما يقدم دعمه أيضا بشكل خفى ولكننى أتكلم بصراحة وأؤكد أنه يجب على إسرائيل أن لا تخطئ فى خلط تركيا بدول أخرى حيث إن ثمن هذا الخطأ سيكون باهظا.

Why WE Make Mistakes: How We Look Without Seeing¨† Forget Things in Seconds And Are All Pretty Sure We Are Way Above Average.

لماذا نرتكب الأخطاء: كيف نبدو حين نفتقد الرؤية وفى ثوان ننسى الأشياء وفوق ذلك نمتلك يقينا جميلا بأننا أناسٌ فوق العادة.

Joseph T.Hallian
Broadway Books 2010¨† 283pp
$14.00



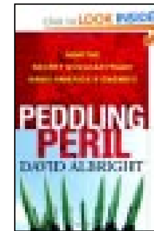
كثير منا ينسى كلمات السر «Passwords» الخاصة به، ويدفع الكثير للذهاب الى الصالات الرياضية بحثا عن جسد «قد لا يصل إليه»، وقد نعتقد بفوزنا بمزيد من السعادة إذا كانت معيشتنا فى كاليفورنيا «وهذا لن يحدث» وقد نعتقد بضرورة توصلنا للإجابات الصحيحة فور دخولنا أى اختبار «ولا يشترط ذلك»، لماذا نقع فى الأخطاء؟ وهل نستطيع أن نؤدى بشكل أفضل ولو قليلاً. إن الكمال للخالق وحده ونحن البشر لدينا نقائصنا فقد تخدعنا عيوننا، وتتغير لدينا القصص كلما أعدنا الحكى، ومعظمنا لديه ثقة متعاظمة فى أنه فوق العادة. فى سياق محاولة الكشف عن أسباب ارتكابنا للأخطاء رسم الصحفى جوزيف هالينان Joseph T.Hallinan الخطوط الرئيسية التى نبدأ من خلالها اقتحام علم الأخطاء البشرية الذى يتناول الكيفية التى نفكر بها ونتذكر وننسى وكيف يتيح ذلك لنا متابعة أخطائنا بشكل متكامل وخاصة الأخطاء صعبة المقاومة. فى سعيه لفهم عيوبنا دلف هالينان إلى بهو واسع ضم بين جنباته علم النفس وعلم الأعصاب والاقتصاد وتوغل إلى علم الطيران وسلوك المستهلك والجغرافيا وكرة القدم واختيار الأسهم وفضلا عن ذلك فقد اكتشف هاليناان أن بعض الصفات التى تجعلنا أكثر كفاءة هى نفسها تجعلنا فى أوقات أخرى نقع فى الأخطاء. لقد تعودنا على الحركة السريعة عبر العالم، إننا ندرك كافة النماذج ونعترف بها ولكن ذلك يتم بشكل فوقى بلا اقتحام للتفاصيل وهذا يفسر السبب الذى يجعل أطفالا فى الثالثة عشرة من العمر يكتشفون أخطاء قد فاتت على علماء ناسا NASA. إن كتاب «لماذا نرتكب الأخطاء» مدعم بقصص من الحياة الواقعية - تنعش ذهن قارئه- لماذا تكون تنبؤات الأرصاد الجوية دقيقة وصادقة أحيانا وبعيدة تماما عن الواقع فى أحيان أخرى، لماذا تتسبب شهادة أحد الشهود فى الزج بأحد الأبرياء فى السجن. يقدم الكتاب نصائح قيمة مثلا للكيفية التى تتذكر بها أين أخفيت أشياءك الثمينة، ويقدم شرحا لفداحة الأخطاء المركبة كما أنه يفسر السبب الذى يجعل الرجال يرتكبون أخطاء قد لا تقع فيها النساء. إنه كتاب يفتح عيون القارئ على الأسباب الكامنة وراء أخطائه وبالتالى سيمكنه هذا من تجنبها.

■

PEDDLING PERIL: HOW THE SECRET NUCLEAR TRADE ARMs AMERICA¨ts ENEMIES

خطر للبيع: كيف تسلح التجارة النووية السرية أعداء أمريكا

David Albright
Free Press¨† 2010¨†304pp
$17.82



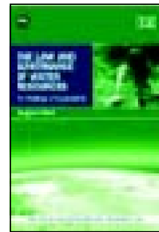
يقدم ألبرايت Albright وهو مؤسس ورئيس معهد العلوم والأمن الدولى عرضا ثمينا وغير مسبوق للتجارة غير المشروعة فى التكنولوجيا النووية والتهديدات التى تشكلها على الأمن الأمريكى. فى رحلته عبر التفاصيل والتى سبقه فى خوضها من قبل جوردون كوريرا Gordon Correra فى كتابه شراء القنابل لعام ٢٠٠٦ يقدم ألبرايت الكيفية التفصيلية التى من خلالها كان التقارب بين المال السهل والتصدير الضعيف يشكل ضابطا يتحكم فى بيع المعدات عالية التقنية التى تستخدم فى التسلح النووى وأيضا يقدم الكيفية التى من خلالها تحول هذا الوضع إلى عاصفة استغلتها تماما كوريا الشمالية، وكذلك مؤسس البرنامج النووى الباكستانى عبد القدير خان الذى أنشأ شبكة من المهربين لبيع إمكانات الأسلحة النووية إلى إيران وليبيا وكوريا الشمالية. فى هذا الكتاب يدرس ألبرايت الجهود التى تبذلها القاعدة من أجل الحصول على أسلحة نووية ولعبة القط والفأر الجارية بين إيران والوكالة الدولية للطاقة الذرية حول طموح إيران النووى. بينما يعترف المؤلف بصعوبة اكتشاف ووقف الانتشار النووى فإنه يحذر من عواقب الهلاك الجماعى المتوقع حين توضع هذه التقنيات العالية فى التسلح فى أيدٍ غير مسئولة.

■

The Law and Governance of Water Resources: The Challenge of Sustainability (New Horizons in Environmental and Energy Law)

قانون وإدارة الموارد المائية: تحدى الاستدامة (آفاق جديدة فى قانون البيئة والطاقة)

Douglas Fisher
Edward Elgar Publishing 2010¨† 385pp $165.00



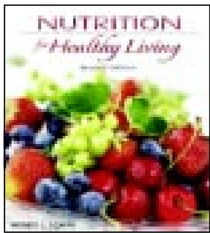
يفتح هذا الكتاب آفاقا مستقبلية تركز على القانون والفقه القانونى فى سياق سياسى أوسع للموارد المائية ويحلل مفهوم الاستدامة. إن تحقيق الاستخدام المستدام وتطوير الموارد المائية يشكل تحديا رهيبا للمجتمعات العالمية والمحلية على حد سواء. وهو يتطلب التزامات من جميع الفئات داخل المجتمعات الدولية والوطنية والمحلية بما لهذه الفئات من وجهات نظر قد تكون متضاربة أحيانا وبدون اتخاذ مجموعة من الترتيبات القانونية المتماسكة التى تهدف إلى ضمان الإدارة الفعالة للموارد المائية واستخدامها المستدام وكذلك التنمية المستدامة فلن يكون من المرجح تحقيق أى نوع من الفوائد. يبحث دوجلاس فيشر Douglas Fisher الكيفية التى تطورت بها الترتيبات القانونية لإدارة الموارد المائية عبر القارات على مدى مئات السنين وهو يستكشف مدى أهميتها بالنسبة للمجتمع المعاصر، وكذلك يبحث الكيفية التى تمكن القواعد القانونية والدولية والوطنية للنظم الحالية من الاستجابة بشكل فعال لتنظيم التعامل مع هذه الموارد بشكل عادل ومنطقى ليقضى على أسباب الخلاف والنقطة بالغة الأهمية فى هذا الصدد هى الكيفية التى يتم بها تنظيم الحقوق والواجبات القانونية لتحقيق الاستدامة فى المستقبل. إن هذا التحليل النصى واللغوى للمذاهب والنصوص القانونية المتعلقة بموارد المياه يعد كنزا لا يقدر بثمن لمحللى سياسات الموارد المائية والدولية والوطنية وكذلك مديرى الموارد المائية والمحامين المتخصصين فى قضايا الموارد المائية فضلا عن الطلاب الدارسين لإدارة الموارد المائية والتنمية المستدامة الذين سيجدون هذا الكتاب ذا أهمية بالغة بالنسبة لهم. المؤلف دوجلاس فيشر هو أستاذ للقانون فى جامعة كوينزلاند للتكنولوجيا Queensland University of Technology بأستراليا.

■

Nutrition for Healthy Living

التغذية من أجل حياة صحية

Wendy Schiff
McGraw-Hill 2010¨† 509pp
$91.13



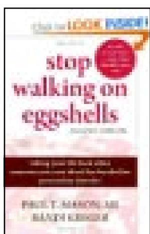
التغذية من أجل حياة صحية كتاب يقدم منهجا مبتكرا من أجل الاستمتاع بمباهج الحياة من خلال صحة ممتازة ناتجة من غذاء جيد يتم انتقاؤه بعناية لتحقيق مبدأ الصحة تاج فوق رءوس الأصحاء. المؤلف ويندى شيف هو أستاذ مشارك فى علم التغذية الطبية فى كلية المهن الطبية بجامعة ولاية أوهايو وحاصل على شهادة الدكتوراة فى التغذية من جامعة ولاية أيوا.

■

Stop Walking on Eggshells: Taking Your Life Back When Someone You Care About has Borderline Personality Disorder.

توقف عن المشى على قشر البيض: عد بحياتك إلى الوراء عندما كان شخص ما يهمك على حافة اضطراب فى الشخصية.

Paul T.Mason¨† Randi Kreger
New Habinger Pubns¨†2010¨†260pp $12.89



هل تشعر بأن الآخرين يتلاعبون بك أو يكذبون عليك أو يتحكمون فيك؟ هل أنت موضع عنف مكثف وغير منطقى؟

إصـــــدارات جـــــديـــدة

هل تشعر وكأنك تمشى على قشر البيض من أجل تجنب المواجهة القادمة؟ لو كانت الإجابات عن كل الأسئلة السابقة «نعم» فأنت على خط حدود الدخول فى شخصية مضطربة إن كتاب «توقف عن المشى على قشر البيض» قد ساعد ما يقرب من نصف مليون شخص يعانون من اضطرابات فى الشخصية عن طريق تعاون الأصدقاء والأهل معهم بمجرد فهمهم لهذا الاضطراب المدمر وذلك من خلال رسم الحدود التى تمكن من يحبونهم من تجنب السلوكيات المدمرة. يتضمن هذا الكتاب أحدث الأبحاث حول اضطرابات الشخصية كما يقدم منهجا لمهارات التواصل والتعامل مع الأشخاص الذين يعانون من هذه الاضطرابات حتى يتسنى مساعدتهم مع الرأفة بحالهم ويقدم الكتاب خطوات مبدئية للعلاج: –

اسحب نفسك خارج دائرة الفوضى.
- دافع عن نفسك وتأكد من احتياجاتك.
- انزع فتيل الحجج والصراعات.
- احم نفسك والآخرين من السلوك العنيف.

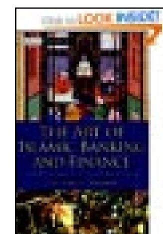
تساعد هذه الطبعة الحديثة والمنقحة من هذا الكتاب الأصدقاء وأفراد الأسرة على التعامل مع ذويهم ممن يعانون من اضطرابات الشخصية من خلال فهم حالتهم تماما والتكيف معها وهذه خطوة هامة على طريق العلاج.



The Art of Islamic Banking and Finance: Tools and Techniques For Community-Based Banking.

فن المعاملات المصرفية والمالية الإسلامية: أدوات وتقنيات المعاملات البنكية على مستوى المجتمع.

Yahia Abdul-Rahman
Wiley 2010¨† 432pp $44.10



بنظرة تفصيلية إلى هذا المجال سريع التنامى من النظام المصرفى والمالى الإسلامى نجد أن هذا النظام الإسلامى فى الخدمات المصرفية والعمليات المالية قد بدأ الأخذ به ضمن اتجاه حديث فى الولايات المتحدة نحو إدراجه ضمن التقنيات المصرفية والاستثمارية اليومية وذلك فى ظل ما تحاول الولايات المتحدة إقراره من أنظمة مصرفية تتوافق مع كافة المعتقدات الدينية. يطلق على هذا النظام Riba- Free RF أى النظام الخالى من الربا. يعتبر يحيى عبد الرحمن مؤلف هذا الكتاب هو الأب الروحى للنظام المصرفى الخالى من الربا فى أمريكا حيث مارس العمل المصرفى فى أمريكا لأكثر من أربعين عاما وهو عالم وإمام للمساجد منذ عام ١٩٦٨ فى أمريكا. بدأ عمله الشاق مع شركة (LARIBA) للتمويل فى باسادينا بكاليفورنيا عام ١٩٨٧ ويعد هذا الكتاب هو الأول على الإطلاق فى هذا المجال الذى يتتبع الأصول التى تحرم تأجير المال بسعر يطلق عليه سعر الفائدة وما يستتبع ذلك من الإفراط فى الانغماس فى الديون.

يستعرض الكتاب بتفصيل شامل الأسس اللاهوتية التى تحرم الفائدة فى الكتاب المقدس اليهودى والكتاب المقدس المسيحى وفى القرآن الكريم. يناقش المؤلف بعد ذلك مسألة الأموال والكيفية التى نشأت بها النقود الورقية ودور مجلس الاحتياطى الفيدرالى والنظام المصرفى فى الولايات المتحدة. يناقش الكتاب لأول مرة على الإطلاق جانبا هاما من النظام المصرفى الإسلامى الخالى من الربا وهو كيفية استخدام مقايسة تمويل للسلع الأساسية ووضع علامات على المواد التى يتم تمويلها للسوق وذلك من أجل تجنب المشاركة فى «الفقاعات» الاقتصادية. يناقش المؤلف كيفية تحكم ذلك فى سير العمل والكيفية التى يؤثر بها هذا الوضع فى سلوك المستهلك وكيف يؤدى ذلك إلى تغيير دور كل من المصرفى والممول. يغطى الكتاب نموذجا جديدا ورائدا يقوم على قانون «الشريعة» وكيف يتم تطبيقها فى كل معاملة من المشروعات المشتركة وإدارة المحافظ الاستثمارية لتمويل القروض العقارية والشخصية. يبين الكتاب كيف يمكن إدماج «الشريعة» فى نظام التمويل والنظام المصرفى الأمريكى. يشير الكتاب الى النظام المصرفى ونظام التمويل الإسلامى الخالى من الربا كطريقتين لتأكيد المسئولية الاجتماعية فى الاستثمار. إن كتاب «فن المعاملات المصرفية والمالية الاسلامية» يشتمل أيضا على مناقشة نشأة ثقافة التعاملات البنكية والمالية الخالية من الربا فى الوقت الراهن، تلك التعاملات التى تقوم فى الأساس على الروح الحقيقية للديانتين اليهودية والمسيحية والدين الإسلامى وهى فعالة للغاية اذا ما قورنت بنماذج القرن العشرين التى استخدمت الهندسة المالية وأساليب الهيكلة للتحايل على القانون والشريعة.

يتضمن الكتاب أيضا دراسات حالة قائمة على الخبرة الفعلية للمؤلف وتحاليل مفصلة لنتائج متميزة تحققت من خلال تطبيق هذا النوع الجديد من الخدمات المصرفية فى التمويل.



FDI in the Arab countries: Foreign Direct Investment Development Policies in the Arab Countries

سياسات تنمية الاستثمارات الأجنبية المباشرة فى الدول العربية

Hussein Alasrag
VDM Verlag
Dr.Muller2010¨†104pp $ 67.00



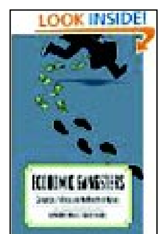
على الرغم من اتخاذ العديد من الإصلاحات فى الدول العربية لجذب الاستثمارات الأجنبية المباشرة فإن هذه الدول تعتبر ضعيفة فى هذا الشأن إذا ما قورنت بدول نامية اخرى مثل المكسيك والبرازيل وهونج كونج وسنغافورة حيث تجتذب هذه الدول نصيب الأسد من الاستثمارات الأمريكية على سبيل المثال فى حين تحصل الدول العربية على نسبة ضئيلة من هذه الاستثمارات، علاوة على ذلك فقد كانت تدفقات الاستثمار الأجنبى فى الدول العربية فى الفترة بين عامى ١٩٩٢-٢٠٠٣ أصغر بكثير من هذه الاستثمارات فى الصين فى عام ٢٠٠٣ فقط. إن الهدف الأساسى من هذا الكتاب هو استعراض وتحليل الدوافع التى تحرك آلية تدفق الاستثمارات الاجنبية الى الدول العربية.



Economic Gangsters: Corruption, Violence, and the Poverty of Nations.

عصابات اقتصادية: فساد، عنف، وفقر للدول

Raymond Fishman¨† Edward Miquel
Princeton University Press
2010¨† 256pp $11.53



تحتفل الأمم المتحدة سنويا باليوم العالمى لمكافحة الفساد وتجرى «منظمة الشفافية الدولية» التى تأسست عام ١٩٩٣ بالتعاون مع مؤسسات ومراكز أبحاث فى دول عدة إحصاءات عن مؤشرات الفساد.

وهذه المؤشرات تتراوح بين قبول الرشوة لدى الموظفين الحكوميين وطلب العمولات غير الشرعية لمنح عقود للشركات الأجنبية والاختلاسات وإهدار الاموال العامة وتعتبر هذه المنظمة الفساد والاختلاسات اكبر عقبة امام التنمية الاجتماعية والاقتصادية كما اصدر البنك الدولى بيانا يعرف فيه الفساد بأنه كالسرطان الذى لا تتمتع أى دولة بمناعة ضده سواء كانت غنية ام فقيرة. يعد كتاب عصابات اقتصادية قراءة شيقة فى هذا الموضوع ويعالج مؤلفاه عالما الاقتصاد والمفكران فيشمان Fishman وميجل Miguel بعض قضايا التنمية فى افريقيا واسيا وامريكا اللاتينية طارحين السؤال التالى:

بعد عقود من الاستقلال والمليارات من المساعدات الأجنبية ما السبب الذى يجعل العديد من الدول النامية ما تزال قابعة فى الفقر الى الآن؟ يرجع المؤلفان السبب فى هذا الوضع إلى عامل واحد هو الفساد وبالنظر إلى نماذج محددة يدرس فيشمان وميجل الأساليب والدوافع المختلفة للفساد وكيف يمكن مواجهتها وماذا تعنى هذه الدوافع وفقا لطبيعة البشر ومصائر الأمم.

يوجز المؤلفان أسباب تفشى ظاهرة الفقر فى الدول النامية فى كبر حجم الأسرة والتضخم وسوء توزيع الدخل والثروات بأسلوب يزيد الأغنياء غنىً والفقراء فقراً والنزاعات الداخلية والخارجية وتدنى المستوى التعليمى والبطالة والتوزيع غير العادل للثروات الوطنية حيث أصبح العالم «جزيرة من الأغنياء تحيط بها بحار من الفقراء» وفقا لقول رئيس جنوب أفريقى فى أحد المؤتمرات وتتشابه ظروف الفقر وعلاقته بالفساد فى الدول النامية حيث ينشأ الفساد من خلال بيرقراطيات تتنامى بالتوازى مع طبيعة أنظمة الحكم منها البيروقراطية الملكية وبيروقراطية الحزب وبيروقراطية الدولة وبيروقراطية العائلة أو العشيرة ويؤدى الاستئثار بالحكم إلى حالة قصوى من الفقر الاجتماعى واستحالة وصول الدعم للفقراء. يرى المؤلفان أن الشواهد المدهشة للفساد كثيرة وهى تبدأ من المخالفات المرورية لتنتهى عند أبشع الجرائم إساءة فى حق المجتمع. إن الفقر والفساد هما وجهان لعملة واحدة وبالرغم من ذلك يتوافر لدى المؤلفين أملا فى الإصلاح فإن وجهة نظرهما أن الفقر ليس قضية مستعصية وأن الفساد بالإمكان القضاء عليه.



كـــــــتـب فـرنـســــيـة

Albert Camus
Fils d'Alger

ألبير كامو
ابن الجزائر
آلان فيركوندوليه
فيارد: ٢٠١٠/١/٦
٩،١٩ يورو - ٣٨٥ صفحة



الجزائر ليست فقط البلد الذى نشأ فيه كامو، بل هى عالم كامل من خياله والتزامه. ومع معضلة النفى، تحولت نوعا إلى فردوسه المفقود، ملقية الضوء، على مر الزمن، على ذلك الجانب الحميم، الذى كان يعتبره «مظلم»، والذى أسف، قبل عام من رحيله، أنه لم يعره اهتماما أكثر من ذلك.

■

La Dernière Utopie
Menaces sur l'universalisme

اليوتوبيا الأخيرة
تهديدات فى مواجهة التنوع
كارولين فوريست
جراسيه: ٢٠٠٩/١١/١٢
٩،٢٠ يورو - ٢٨٧ صفحة

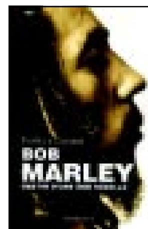


يعتبر صدور كتاب الآن عن التعددية الثقافية، حيث يحتدم النقاش حول الهوية الوطنية، والجدل حول المآذن فى سويسرا، وارتداء النقاب فى الأماكن العامة، أكثر من ضرورى. تؤدى بنا النقاشات غير المجدية واختصار الحلفاء فى نموذج دون الآخر، إلى أن ننسى، أن كل هذه القرارات تعكس مجتمعا أكثر تنوعا. طوال صفحات الكتاب، يدرك المرء الخلط الواقع حول هذا الموضوع الأساسى، بما أنه يتربع فى صميم تعريف مشروع التعايش الوطنى. كارولين فوريست توضح أن النموذج الفرنسى «أسىء فهمه وتصويره» فى كثير من الأحيان. وتشير بنزاهة فكرية واستنادا إلى أمثلة عديدة، إلى أهمية اتباع فرنسا نهجا لا يغفل التنوع. تختار الكاتبة نماذج من جميع أنحاء العالم: من كندا والولايات المتحدة الأمريكية وأستراليا وجنوب أفريقيا، لتدعم تحليلها. وتشير الصحفية بوضوح مذهل، نظرا لتعقيد هذا الموضوع، نقاط الخلاف بين المنظرين ولا تخفى صعوبة إيجاد توازن. ومن بين العديد من موضوعات الكتاب، تفند الحجة القائلة بضرورة إجراء إحصاءات حول الأصول العرقية المختلفة، لمكافحة التمييز، كما تفند تلك الحجة التى تفرق بين مناهضة العنصرية ومناهضة الاستعمار والاستبداد. وتلقى كارولين فوريست الضوء على المفاتيح اللازمة لإيجاد فرنسا تقبل الاختلاف ولا تقع فى كراهية الأجانب، ولا فى التمييز الثقافى. إن إدراج هذا العمل فى مناهج التربية المدنية لطلاب المدارس الثانوية قد يكون أمرا ضروريا إلا أن الأكثر أهمية هو إجبار أعضاء الحكومة على قراءته.

■

Bob Marley
Destin d'une âme rebelle

بوب مارلى
مصير روح متمردة
فرانسيس دوردور
فلاماريون: ٢٠٠٩/١٠/٢٨
٩،٢١ يورو - ٤٠٠ صفحة

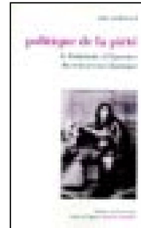


بوب مارلى هو واحد من أبطال القرن العشرين، كان رمزا عالميا للريجيه (نوع موسيقى نتج عن عدة أساليب من الموسيقى الجامايكية الكاريبية الأفريقية). كان مصير نبى الراستا استثنائيا، مع بدايته فى جيتوهات كينجستون (عاصمة جاميكا وأكبر مدنها) وحتى تألقه المستمر حتى الآن فى العالم كله، بعد أكثر من عشرين سنة من وفاته عن ٣٦ عاما بسبب مرض السرطان. فى سنوات قليلة، أصبح مارلى، بسبب تراتيله النضالية، المتحدث باسم العالم الثالث وجميع الأقليات. فى هذه السيرة، يجمع فرانسيس دوردور بين عين المتخصص ووجهة نظره الشخصية باعتباره واحدا ممن أتيحت لهم فرصة مخالطته ليقدم لنا (نوادر غير منشورة). ويزيح الستار عن أسرار مارلى (الهجوم الذى تعرض له قبل عام من وفاته، الجوانب المجهولة من شخصيته)، ويركز الكاتب على إظهار الجزء المخفى من الأسطورة. ويتساءل عن أسباب استمرار ظاهرة مارلى العالمية حتى الآن؛ والأسباب التى دفعت بالمغنى لإحداث ثورة حقيقية، لينبت القدسية فى الدنس والسياسة فى الترفيه. وكيف تحول من كونه مغنيا إلى نبى.

■

Politique de la piété
Le féminisme à l'épreuve du renouveau islamique

سياسة التقوى
الحركة النسوية فى مواجهة الإحياء الإسلامى
صبا محمود
لاديكوفيرت: ٢٠٠٩/١٠/٢٢
٢٦ يورو - ٣١٢ صفحة



منذ السبعينيات، والمجتمع المصرى يشهد نهضة إسلامية (الصحوة). مستلهمة أعمال ميشيل فوكو، جوديث بتلر وبيار بورديو، تحاول صبا محمود تحليل ممارسات التقوى لدى المرأة القاهرية. حيث تضع «سياسة التقوى» تلك بعض من جوانب من النسوية الليبرالية، وبشكل أعم، النظرية الليبرالية السياسية، محل مساءلة.

■

Besancenot, l'idiot utile du sarkozysme

بيزانسينو الأحمق المفيد للساركوزية
رينو ديلى
بورين: ٢٠٠٩/١٠/٨
١٩ يورو - ١٦٠ صفحة



وفقا لرينو ديلى، فرض أوليفييه بيزانسينو نفسه باعتباره الابن البار للثورة. وفقا له أيضا، بدا فى أعين اليسار، باعتباره أفضل منافس لنيكولا ساركوزى. إلا أنه فى الواقع، كان أفضل حليف له من وجهة نظره. الرئيس قال إنه يريد جعل بيزانسينو «لوبان اليسار». والشخص الذى يتلذذ بلعب دور الدمية «الغبى المفيد للساركوزية»، ودفعه للتحقق من خلال محاربة أعدائه الحقيقيين: الحزب الاشتراكى والنقابات المركزية الكبرى. ولكن وراء هذا التواطؤ الذى كان يستهدف، على ما يبدو، تدمير الحزب الاشتراكى، يختبئ، وفقا للكاتب، خطرا أعمق: حيث ينخر ساركوزى وبيزانسينو النموذج العلمانى الجمهورى لفرنسا من كلا الطرفين.

■

Gaza
Le Livre noir

غـــزة
الكتاب الأسود
مراسلون بلا حدود
لاديكوفيرت: ٢٠٠٩/٩/١٧
١٧ يورو - ٢٠٨ صفحة



جمع مراسلون بلا حدود هنا هذه النصوص لمنحها تماسكا إجماليا: التقارير (الكاملة أو مجرد مقتطفات) والوثائق التى نشرتها المنظمات غير الحكومية الدولية لحقوق الإنسان (منظمة العفو الدولية، الفيدرالية الدولية، هيومن رايتس ووتش، أطباء بلا حدود، مراسلون بلا حدود)، وتلك التى نشرتها المنظمات الفلسطينية (اللجنة المستقلة لحقوق الإنسان، المركز الفلسطينى لحقوق الإنسان) إلى جانب تقارير المنظمات الإسرائيلية (بتسيلم، إعلام، قيشف، أطباء من أجل حقوق الإنسان)، إضافة إلى مصادر أخرى (شهادات من الجنود الإسرائيليين، الأونروا... إلخ). هو كتاب ضرورى لفهم أفضل للواقع الذى عانى منه سكان قطاع غزة خلال أسابيع الحرب الأخيرة على غزة، كما أنه يتيح فرصة تقديم المسئولين عن الجرائم التى ارتكبت فى غزة للمحاكمة.

■

8. Eat the Document

كل الوثيقة
دانا سبيوتا
أكت سود: ٢٠١٠/٢/٣
ترجمه من الإنجليزية (الولايات المتحدة): إلودى لوبلاه
٨،٢٢ يورو - ٣٦٥ صفحة



فى وقت مبكر من سبعينيات القرن الماضى، اضطر زوجان من الشباب الناشطين فى النضال ضد الحرب فى فيتنام للفرار، والحياة بهويات جديدة ومنفصلة إلى الأبد. بعد حوالى ثلاثين عاما تقريبا، تواجه مارى التى تعيش فى الضواحى مع ابن فى الخامسة عشرة من

عمره، من خلال هذا الابن، وبعض الشخصيات الأخرى، ثقل التركة السياسية والفلسفية لعصر كامل. من خلال هذه اللوحة التى تنقل لنا ثلاثة عقود من الحياة فى الولايات المتحدة، يتم التعبير عن انحدار كل الراديكاليات.

■

Scènes de vie villageoise

مشاهد من حياة قرية
عاموس عوز
جاليمار: ٢٠١٠/١/١٤
ترجمة عن العبرية: سيلفى كوهين
٩,١٦ يورو – ٢٠٨ صفحات



نحن هنا فى تل إيلان، قرية قديمة عمرها مائة عام أسسها المستوطنون قبل إنشاء دولة إسرائيل. مجتمع قروى صغير يحيا محاطا بمزارع الكروم والبساتين، ويبدو أن الحياة تمر بهدوء. رغم اجتياح سكان المدينة، فى الآونة الأخيرة، لشوارع البلدة فى يوم السبت، ومعهم، المضاربات العقارية والابتذال. إلا أن العجوز فصح كيدم، العضو السابق فى الكنيست، قلق لأسباب أخرى. فهو لا يحب الطالب الشاب العربى الذى تؤويه ابنته راشيل فى ملحق لمنزلهم مشيد فى آخر الفناء. خاصة أنه مقتنع بأن شخصا ما يقوم بالحفر تحت منزله أثناء الليل. فى ثمانية فصول، يبرز عاموس عوز مجتمع القرية، وشكوكه، وأفراحه وأحزانه.

■

L,Ombre de ce que nous avons été

ظل ما كنا عليه
لويس سيبولفيدا
ميتاييه: ٢٠١٠/١/١٤
ترجمه من الإسبانية (تشيلى): برتيل هوسبرج
١٧ يورو – ١٦٠ صفحة

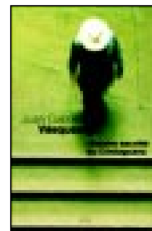


فى مخزن قديم فى حى شعبى فى سانتياجو، ينتظر ثلاثة فى الستينيات من العمر بفارغ الصبر وصول رجل ما، «الأخصائى». الثلاثة جميعهم من اليساريين السابقين، الذين تم نفيهم من قبل انقلاب بينوشيه، ليلتقوا بعد خمسة وثلاثين عاما للمشاركة فى عمل ثورى ينظمه «الأخصائى». إلا أن هذا الأخير، يتعرض لجريمة قتل غريبة، أثناء توجهه لهذا الاجتماع. حيث يلقى حتفه بعد أن تلقى عليه اسطوانة من خلال النافذة أثناء نزاع عائلى. تنهار الخطة بالكامل، حتى يتذكر الشركاء الثلاثة تعبير «الأخصائى» المفضل: «هل سيهزمنا الانقلاب؟».

■

Histoire secrète du Costaguana

التاريخ السرى لكوستاجانا
خوان جابرييل فاسكيز
سوى: ٢٠١٠/١/٧
ترجمه من الإسبانية (كولومبيا): إزابيل جوجنون
٢٢ يورو – ٣٢٠ صفحة



فى المنفى فى لندن، يروى الكولومبى خوسيه التاميرانو لجوزيف كونراد قصة حياته فى بنما، لينشرها فى رواية تحت اسم «نوسترامو». لكن عندما تصدر الرواية، تبدو لالتاميرانو مجرد نسيج من الأكاذيب والسخافات. بعد عشرين عاما على هذه الواقعة، التى كانت بمثابة صدمة، يخبر خوسيه التاميرانو القراء ما رواه لكونراد. يخلط بين الحقيقة التاريخية والخيال، والنتيجة هى رواية تحكى تاريخ كولومبيا وبنما مجدولا بطموح وفساد السياسيين، وقهر وقسوة العسكريين، والجشع المعروف عن القوى الاقتصادية والتوسعية.

■

Le Londres-Louxor

لندن- الأقصر
جاكوتا عليكافازوفيك
أوليفييه: ٢٠١٠/١/٧
٥,١٦ يورو – ١٩٢ صفحة



نسى الجميع (تقريبا) أن حصار سراييفو كان الأطول فى القرن العشرين. فى «لندن-الأقصر»، السينما القديمة حيث يتجمع الشتات البوسنى فى باريس، نتحدث قليلا عن الحرب، وأكثر قليلا عن الأعمال التجارية، والكثير عن الأخوات فيتش: عصمة وأريانة، اللتين كانتا قد انضمتا فى عام ١٩٩٣، بناء على طلب من والديهما، إلى عمهما الذى يعيش فى باريس منذ عدة سنوات، لتصبحا بعد خمسة عشر عاما من الزوار الأساسيين لـ«لندن-الأقصر».

تشتهر أريانا بقدرة خارقة على الإغواء، لكن فى الآونة الأخيرة ، كان الحديث منصبا عن عصمة، التى تجوب البلاد بحثا عن أختها الأكبر التى رحلت دون تفسير. يحرك هذا الاختفاء المريب المجتمع بأسره، ويدفع الجميع للإدلاء بدلوهم فى لعبة غير عادية: تستحضر موطنهم الأصلى، الذى تبعثر تاريخه نتيجة لصور متعددة أو متدرجة من التفتت والخرافات.

■

Olimpia

أوليمبيا
سيلين مينار
دونوويل: ٢٠١٠/١/٥
١٠ يورو – ٩٦ صفحة



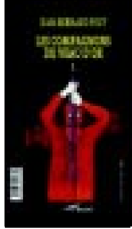
«شغلنى الناس بما فيه الكفاية بإطلاق اسم «بيمبا كاسيا» على، العاقة وعاهرة البابا، التى تغوى الرجال الأبرياء، مصاصة الدماء، المرأة ذات الصولجان، ملكة النحل، لقد تم تلطيخى بالدنس بما فيه الكفاية حتى صرت أستطيع إزالة جيش من المزعجين الأشرار ببذاءة متناهية، وعبور جسر سان أنجيلو، والقطع مع هذه المدينة الثرثارة، تلك الفقاعة الفارغة سان سبيج، التى أصبحت بمعنى الكلمة فارغة، ويريدون الآن طردى منها». كانت أوليمبيا ميدالشينس (١٥٩٢-١٦٥٧) زوجة شقيق البابا إنوسون العاشر، وملهمته، حتى قيل كثيرا فى تلك الفترة من منتصف القرن السابع عشر، إن دونا أوليمبيا هى البابا الحقيقى للكنيسة.

هذا الكتاب، الذى يعتبر سيرة ذاتية لـ«العاهرة العظيمة» التى تسببت، كما يقال، فى لعنة رهيبة على روما، يتيح لنا أن نسمع صوتها قبل أن نسطر تاريخها.

■

Les Compagnons du veau d'or

أصحاب العجل الذهبى
جان برنار بوى
بالين: ٢٠١٠/١/٤
١٠ يورو – ٨٢ صفحة



درانو، الفوضوى الذى يبيع صحيفته «لا إله ولا ربان أو رئيس»، فى سوق ريتشارد لينوار، يذهب إلى رحلة بحث فى بريطانيا بعد أن أخبره صديقه مارسيل بأن إيفا البغى الجميلة الليتوانية التى وقع فى حبها، تم احتجازها فى قصر هناك، تقوم فيه بدور الدمية الجنسية لثمانية من الأشخاص المهمين الذين يتخلصون من ضغوط عملهم الشاق عن طريق التسلى بها. بعد وقت قصير من وصوله إلى بيمبول، يعلم درانو، الذى لا يعرف فى الحقيقة من أين يبدأ البحث للعثور على إيفا؟ عن الاختفاء الغامض لجان فرانسوا لودونيك، أحد حيتان السوق الذى يستنكر بلا كلل جرائم أقرانه. فى الوقت نفسه، تشهد إيفا فى القصر تنفيذ حكم الإعدام فى شخص مجهول!

■

Père des mensonges

راهب الأكاذيب
براين إيفنسون
لو شيرش ميدى: ٢٠١٠/١/٢١
ترجمه من الانجليزية (الولايات المتحدة): هلواز إزكى
١٧ يورو – ٢٤٠ صفحة



بعد أن عانى من الأرق والأحلام المزعجة، قرر الدون فوش، وهو رجل دين محترم، استشارة، ألكسندر فشتج، الطبيب النفسى. وسرعان ما يعترف له بانجذاب آثم للأطفال الصغار. وعندما يتم اغتصاب وقتل فتاة صغيرة فى الأنحاء، يقوم فشتج الذى اشتبه فى قيام فوش بارتكاب الجريمة، بتحذير السلطات الدينية، إلا أن هذه السلطات تفعل كل شىء لتشويه سمعة الطبيب النفسى لتجنب الفضيحة التى تلوح فى الأفق.

■

في عالم بات أكثر تعقيدا ..

نحـو صحـافة أكثـر عمقـا

وضـــــــــاح خـنـفـــــــر

■■ مؤتمرنا لهذا العام سيأخذ منحى جديدا، ففى العام الماضى حاولنا أن نلقى الضوء على منطقة الشرق الأوسط مستصحبين التيارات الدولية صعودا وهبوطا وتأثيرا وانحسارا. فى عامنا هذا نريد أن نغوص فى أعماق ما يُسمى بالعالم العربى والإسلامى من أجل أن نحاول فك تركيب معقد استعصى فى كثير من الأحوال على الفهم، ليس بالمناسبة على الصحفيين والمحللين، بل على الساسة والجنرالات والعسكريين. ولهذا يعيش عالمنا العربى والإسلامى فى حالة هى حالة انتقال أعتقد أنها بدأت منذ الحرب العالمية الأولى ولم تنته بعد، إذ لم يصل عالمنا الذى نعيش فيه إلى يومنا هذا إلى حالة من الاستقرار. والدليل على ذلك أن الخارطة السياسية لعالمنا العربى قد تتغير بعد شهور قليلة إذا ما انفصل جنوب السودان. حالة الانتقال هذه استصحبت معها خوفا مقيما من المستقبل واستصحبت معها فوضى فى التعبير والمصطلح وفوضى فى التحليل والمفهوم. وامتلأ فراغ شاشاتنا بمحللين يرددون شعارات وأفكارا مكررة فى كثير من الأحيان كطقوس دينية تتكرر فى كثير من الأحيان دون فهم عميق ولا تدبر. وهذا ما يدعونا فى هذا المنتدى إلى أن نتوقف لبرهة قصيرة ونحاول أن نمعن النظر فى المصطلح وفى المفهوم وأن نتحاور جميعا: سياسين، محللين، إعلاميين، صناع رأى، وقادة لحركات وتيارات فى العالم العربى والإسلامى.

القضية الأعمق التى تواجه الصحافة اليوم هى السطحية، والسطحية للأسف الشديد تلازم العمل الإخبارى التلفزيونى تحديدا. ولعل الأزمة الاقتصادية الأخيرة أضافت عبئا أكبر إلى ما نعانيه. إذ بدأ المحررون ومدراء المؤسسات الإعلامية يحجمون عن صرف الأموال لمزيد من التغطية الميدانية والتغطية الاستقصائية أو التغطية المعمقة. واكتفينا جميعا بأخبار عابرة ومعلومات مفككة لا تعطى معرفة، بل تزحم العقل بكم هائل من التفاصيل. والناس أمام ذلك محتارون فإما أنهم لا يقدرون على فهم تعقيد وألغاز هذه المعلومات التى تصب فى أذهانهم، وإما أنهم يحجمون عن الفهم مطلقا ويلجأون إلى القبول بما يسمعون دون أن يؤثر فيهم. لذلك أقول إن الخطر الذى يواجه مهنتنا اليوم عالميا خطر كبير لأنه قد يؤدى إلى انفضاض الناس من حولنا كإعلاميين، خصوصا الذين يشتغلون بصناعة الخبر. وأعتقد أن المؤسسات الإعلامية العالمية التى قلصت تغطيتها لعالمنا العربى والإسلامى وبدأت تلجأ إلى ما تذكره وكالات الأنباء وما ينشر ويكرر هنا وهناك والتى بدأت تحجم عن ابتعاث مراسلين ذوى خبرة ليقيموا فى بلداننا ولكى يتمعنوا فى تطوراتها ويغوصوا فى تفاصيلها ويفهموا ثقافتها ومصطلحها ولغتها وعقلها الجمعى، بدأت هذه المؤسسات الإعلامية تحجم عن كل ذلك متجاهلة تطورات هائلة تعصف بهذه البقعة من العالم. هذه التطورات لا تخصنا وحدنا، بل ستنعكس على العالم أجمع بموازين قواه وبتحالفاته، وبأمنه الكونى. ومن هنا أردنا فى هذا الملتقى أن نخصص فقرات محددة لمناطق محددة فى العالم، القرن الإفريقى يشهد تطورات كبيرة سنتحدث عنها فى هذا الملتقى عبر أناس ينتمون إلى القرن الإفريقى. أما أفغانستان وباكستان فالتطورات لا تزال جارية ويبدو أن الأزمة فى أفغانستان تراوح مكانها دون حل منظور مع تكرار عبارات جديدة حول الحوار مع معتدلين أو غير معتدلين من طالبان. فى هذا المنتدى سوف نستمع إلى أناس من تلك المنطقة أيضا نتحدث إليهم ونحاورهم. أما بالنسبة للقضية الفلسطينية فيبدو أن الطقوس الشعائرية فى ذكر الحلول التى صاحبت ما يسمى بالعملية السلمية فى العقود الخمسة أو الستة الماضية لا تزال تراوح مكانها. ليس هناك أفق وليس هناك حلول. هناك عملية وهذه العملية أصبحت مطلوبة بذاتها.



فى منتدانا هذا نسأل سؤالا لكثير من المشاركين:

هل من رؤى بديلة لحل القضية الفلسطينية؟

ولكن أيضا على الصعيد الإيجابى هناك أيضا دور متنام لتركيا فى المنطقة، سنبتدأ ملتقانا هذا بالحديث عنه. سنحاول أن نلقى الضوء مع مسئولين أتراك وصحفيين ومتابعين حول الوضع فى تركيا، وما آلت إليه. وفى إيران كذلك لا تزال الأزمة مستمرة ونريد أيضا بهدوء أن نحاور عددا من المحللين والمفكرين؛ منهم من هو إيرانى ومنهم من هو غربى وعربى، لكى نستطلع حقيقة ما يدور بعيدا عن الشعارات الإخبارية والمؤتمرات الصحفية، والمقولات السياسية التى يرددها السياسيون لحسابات محلية وإقليمية ودولية.

أقول مجددا إن عالمنا العربى فى السنوات العشر القادمة سيشهد تغييرات كبيرة. نحن فى حالة تحول، وفى حالة انتقال، ونأمل من خلال حوار كهذا أن نبدأ فى وضع آلية للفهم والتحليل، ثم لنقل الخبر والتعليق. نأمل فى نهاية المنتدى أن تكون قد اجتمعت لدى المشاركين حصيلة لا نعتقد أنها ستحل كثيرا أو تفك كثيرا من الألغاز والرموز، ولكنها على الأقل سوف تضىء بعض المناطق الداكنة هنا وهناك، نأمل من بعد ذلك أن تستمر جهودنا جميعا من أجل فهم أكبر للعالم العربى والإسلامى. ■

> «القضيــــة الأعمـــق التى تواجـه الصحــافة اليــوم هــى الســطحية.. وازدحـــام شــاشــاتنا بمحـــللين يرددون شـــعارات وأفكــــاراً مكــــررة»

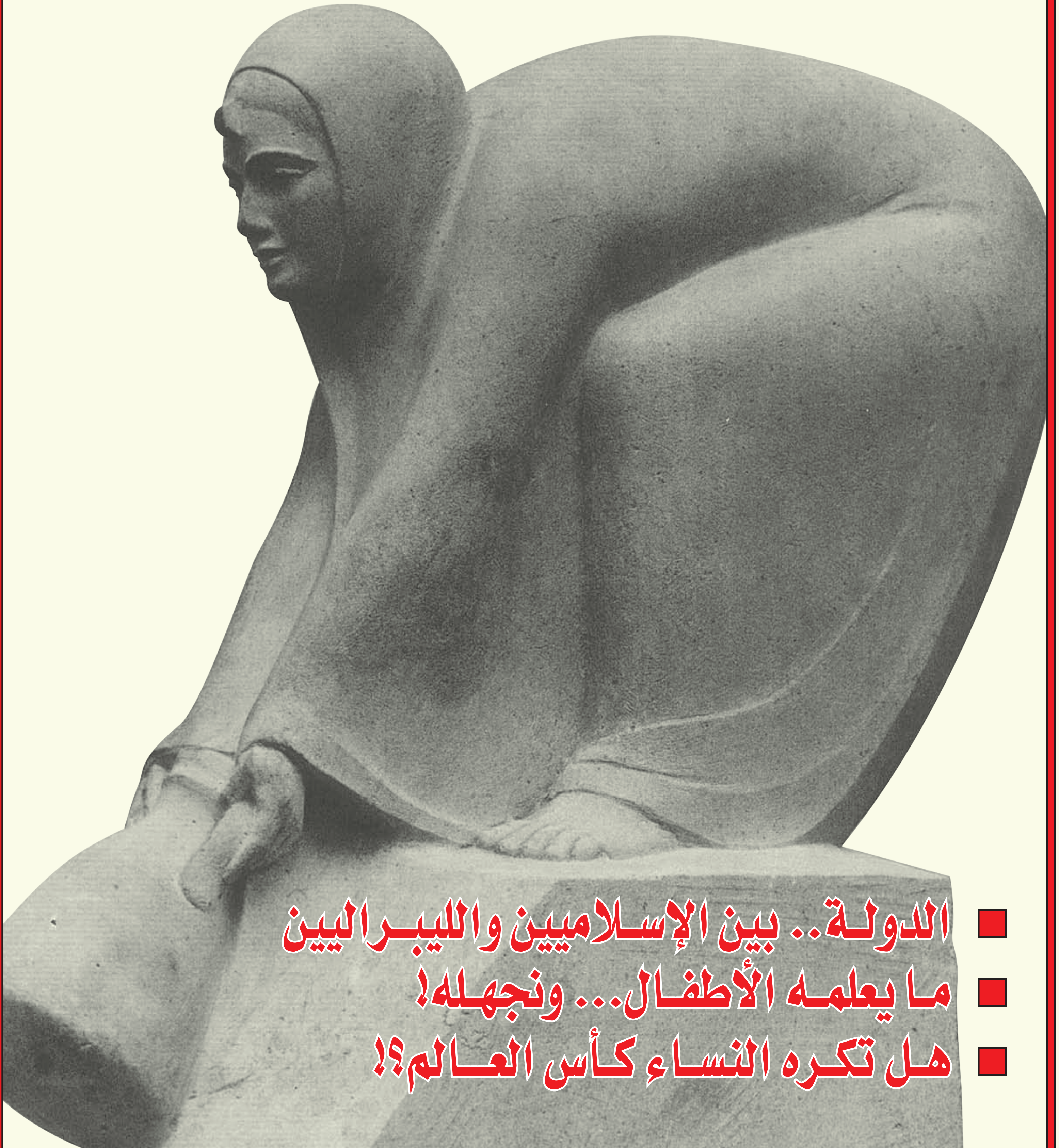
ألقيت هذه الكلمة فى افتتاح «منتدى الجزيرة» الخامس حول: «العالم العربي والإسلامي - رؤى بديلة». الدوحة – ٢٣ مايو ٢٠١٠.

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazer - Volume 12 - Issue 138 - July 2010
مجلة شهرية العدد ١٣٨ - السنة الثانية عشرة - يولية ٢٠١٠ - الثمن عشرة جنيهات

إلى أى عهد فى القرى تتدفق؟!

ميخائيل جورباتشوف/ جون وتربرى / رشدى سعيد/ حسن مكى/ أيمن الصياد



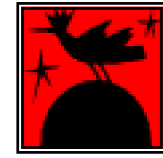
- الدولة.. بين الإسلاميين والليبراليين
- ما يعلمه الأطفال... ونجهله!
- هل تكره النساء كأس العالم؟!

السنة الثانية عشرة
العدد ١٣٨
يوليو ٢٠١٠

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- **أيمن الصياد**.. صحفى
- **أحمد محمد أبو زيد**.. باحث مصرى فى العلاقات الدولية مقيم بدولة الإمارات العربية المتحدة.
- **جليلة القاضى**.. مديرة أبحاث بالمعهد الفرنسى للأبحاث من أجل التنمية
- **جوليت توروم**.. كاتبة ومخرجة أفلام تسجيلية من كينيا
- **جون وتربورى**.. أستاذ العلاقات الدولية بجامعة برنستون، ورئيس سابق للجامعة الأمريكية ببيروت
- **جين ميشيل سيفرينو**.. الرئيس التنفيذى للوكالة الفرنسية للتنمية
- **حسن مكى**.. أكاديمى سودانى، رئيس الجامعة الأفريقية بالخرطوم
- **حسين عبد الله**.. خبير فى اقتصاديات البترول والطاقة
- **رشدى سعيد**.. أستاذ جيولوجيا مصرى مقيم فى الولايات المتحدة
- **رشيد العنانى**.. أستاذ الأدب العربى بجامعة إكستر بالمملكة المتحدة
- **فاروق عبد القادر**.. ناقد أدبى (راحل)
- **محمود الذوادى**.. أستاذ الاجتماع - جامعة تونس
- **معتز الخطيب**.. كاتب وباحث من سوريا
- **ميخائيل جورباتشوف**.. الرئيس الأسبق للاتحاد السوفيتى
- **ميشيل جرينبيرج**.. كاتب عمود فى الملحق الأدبى للتايمز TLS
- **هيننج مانكيل**.. روائى سويدى

رسوم العدد

محمد حجى

(على الغلاف تمثال محمود مختار ١٩٢٨ - حجر جيرى ارتفاع ٥٠ سم)





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب : ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٢٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

«تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة»

أيمن الصياد

مصر... التى كانت

■■ كان العام ١٩٣٣، عندما وقف «الأنيق» محمد عبد الوهاب يزين جيب سترته بمنديله الأبيض المميز على شكل الأهرامات «المصرية» الثلاثة، ليغنى من كلمات أحمد شوقى «النيل نجاشى»[1].

ثم كان العام ٢٠١٠، عندما بدا مثيرا للمتابع للتصريحات الرسمية وللهرولة الدبلوماسية المصرية «المتأخرة»، أن هناك من كان قد نسى الحقيقة الجغرافية البسيطة، التى بدأ بها أحمد شوقى مطلع أغنيته الشهيرة «النيل نجاشى» والتى توارث المصريون الترنم بها منذ أن شاهدوها للمرة الأولى فى فيلم «الوردة البيضاء» لمحمد كريم، قبل حوالى قرن كامل من الزمان.

بين التاريخين تاريخ طويل، وبقدر ما هطل على هضبة الحبشة من أمطار «جرت فى النهر مياه كثيرة»، حسب مايقول التعبير الشائع. كان زمن عرف فيه المصريون أن التاريخ تصنعه الجغرافيا، كما تصنعه «الإرادة». وضع المصريون أيامها «الدائرة الأفريقية» ضمن الدوائر الحاكمة للسياسة الخارجية (راجع «فلسفة الثورة» ١٩٥٣).

وقتها اعتبرت كل الثورات الأفريقية القاهرة عاصمة لها. جاء لومومبا، وتزوج نكروما من «فتحية». وعرف بطرس بطرس غالى طريقه الى كل ركن وكل زعيم قبيلة أو حركة تحرر فى القارة الفتية، كما ذهب عبد الباسط عبد الصمد ليقرأ القرآن هنا وهناك (مازالت تسجيلاته فى جوهانسبرج ١٩٦٦ الأكثر انتشارا على الانترنت).. وكان ذلك كله، وغيره كثير تجسيدا لما يعرفه أساتذة العلاقات الدولية بـ «القوة الناعمة»؛ تقديرٌ ومهابة ونفوذ، لايحتاج الى سلاح، أو الى تهديد به.

صورة بالأقمار الصناعية لحوض نهر النيل من المنبع الى المصب (وكالة الفضاء الأمريكية NASA)

بين التاريخين تاريخ (ذو صلة) طويل. بنى المصريون السد العالى، بالإرادة ـ وفقط ـ بأننا «معا نستطيع». لم يكتف المصريون ـ زمنها ـ بإدراكهم أن «النيل نجاشى»، بل غنوا أيضا «وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبنى قواعد المجد...».



والحاصل أن الرصيد الذى صنعته مصر فى سنوات الصعود منتصف القرن الماضى قد تلاشى فى الثلاثين سنة الأخيرة. انصرفت مصر ـ غفلة أو استدراجا ـ عن القارة (عمقها الجنوبى)، كما انصرفت عن غيرها، بعد أن حسبت أن أمنها وأمانها مرهون فقط برضا واشنطن. وكان لذلك مظاهر كثيرة؛ قامت مصر بإغلاق مكاتبها التجارية فى إفريقيا وبيع منشآتها ومبانيها فى إطار ما سمى بـ«الخصخصة». وغابت القاهرة تدريجيا عن المشاركة الفعالة التى تليق بمكانة (كانت لها) فى مؤتمرات القمة الإفريقية والمؤسسات التابعة لمنظمة الوحدة الإفريقية، وجرى بالتالى انحسار طبيعى للأنشطة الأهلية والمدنية ابتداءً من البعثات الدينية والتعليمية، وانتهاءً بالأزهر الشريف، بل ولحق العطب روابط كانت قوية بين الكنيسة فى إثيوبيا وكنيسة الإسكندرية. (يذكر جيلنا كيف كان الامبراطور هيلاسلاسى ينحنى ليقبل يد البابا كيرلس) ولم تحاول مصر الرسمية «المنشغلة» الإبقاء على شىء من هذه العلاقات، والتى كانت من أهم الروابط بين الشعبين فى كل من مصر وإثيوبيا.

لقد تركت مصر «الجديدة» المنكفئة على ذاتها، والمنشغلة بحساباتها الداخلية، إفريقيا خاليةً من أى دور أو مكانة مصرية. وكان من الطبيعى أن تخلو الساحة للآخرين. جاء الصينيون من الشرق، والايطاليون من الشمال.. وبالطبع كان الفرنسيون والأمريكيون، وحتى الاسرائيليون هناك.

لم تعد مصر اذن هى مصر التى عرفها الأفارقة، كما لم تعد أثيوبيا التى يأتى منها ٨٥٪ من مياه النيل هى الدولة الحليف. ولذلك قصة طويلة، لعبت فيها أطراف كثيرة.

فى عام ١٩٧٤ وصل «منجستو هايلاميريام» بالشيوعيين الى السلطة فى إثيوبيا. فتغيرت سياسة مصر (التى كانت قد اختارت بوضوح الانحياز للمعسكر الغربى) تجاه إثيوبيا من النقيض إلى النقيض. بدأ «السادات» خصومةً غير مباشرة مع إثيوبيا، تبدت فى موقف مصر المعلن وقتها من الصراع حول أوجادين. فضلا عن تأييد بأساليب مختلفة لكل من أريتريا والنميرى.

ثم كان أن جاء «النيل» ليصل بالخلاف المكتوم، الى ذروة العلانية عندما أعلن السادات عن فكرته لتوصيل مياه النيل إلى اسرائيل (١٩٧٩) ليخرج منجستو مذكرا بالاتفاقات التى تمنع مصر من أن تفعل ذلك، ومهددا بأن اثيوبيا ستبنى سلسلة من السدود والخزانات. وقتها هدد السادات بالحرب «للحفاظ على الحقوق المكتسبة والتاريخية فى مياه النيل» ورد منجستو ملوحا بأنهم على استعداد لأن يكون النهر «نهرا من الدماء»..

كان العالم كله وقتها يتغير.. ذهب السادات .. وذهب منجستو. وبقى النيل فى مكانه؛ «نجاشى» يأتى من الحبشة ويجرى الى مصر.. ويغنى له عبد الوهاب.



هل إسرائيل هناك..؟

رغم أن الاهتمام الاسرائيلى بأفريقيا لا يخفى على أحد، ورغم حقيقة أن تل أبيب نجحت (بعد توقيع المعاهدة المصرية) فى اقامة علاقات دبلوماسية مع دول أفريقيا التى لم تكن حتى تعترف بها، ورغم كل ما أعلن من فاصيل لزيارة ليبرمان؛ وزير خارجية تل أبيب لعدد من دول حوض النيل (سبتمبر ٢٠٠٩)، الا أنه من غير المنطقى أو الواقعى الذهاب بعيدا مع الذين

كان ذلك كله، وغيره كثير تجسيدا لما يعرفه أساتذة العلاقات الدولية بـ «القوة الناعمة»؛ تقـــديرٌ ومهـــــابـة ونفـــوذ، لايحتـــاج إلــى ســلاحٍ، أو إلــى تهــديد به



الرئيس جمال عبد الناصر والإمبراطور هيلاسلاسى (من محفوظات مكتبة الاسكندرية)

تركت مصر «الجديدة» المنكفئة على ذاتها، والمنشغلة بحساباتها الداخلية، إفريقيا خالية من أى دور أو مكانة مصرية. وكان من الطبيعى أن تخلو الساحة للآخرين



ينشغلون بالبحث عن الأصابع الاسرائيلية وراء كل قصة.

رغم ذلك، فللاسرائيليين مع النيل قصة يذكرها كل من اهتم بهذا الملف.

فى ١٦ يناير ١٩٧٩ نشرت مجلة «أكتوبر»، ذات العلاقة المعروفة بالرئيس الراحل أنور السادات خطابا من الرئيس المصرى الى مناحم بيجين رئيس الوزراء الاسرائيلى يقول فيه: «سوف نجعل مياه النيل مساهمة من الشعب المصرى باسم ملايين المسلمين كرمز خالد وباق على اتفاق السلام، وسوف تصبح هذه المياه بمثابة مياه زمزم لكل المؤمنين أصحاب الرسالات السماوية فى القدس ودليلا على أننا رعاة سلام ورخاء لكافة البشر». وقالت المجلة إن السادات أعطى بالفعل إشارة بدء حفر الترعة، وطلب عمل دراسة جدوى دولية لتوصيل المياه إلى القدس.

ورغم أن الأستاذ أنيس منصور والذى كان رئيسا لتحرير أكتوبر وقتها (ومقربا من الرئيس السادات) قال بعد ذلك أن السادات لم يكن يقصد، وأن الرسالة لم تكن أكثر من بالون اختبار، الا أن الدكتور بطرس غالى والذى كان وزيرا للدولة للشئون الخارجية أيام السادات، كان قد قال فى مذكراته أن موشى ديان ابلغه موافقة الرئيس السادات على مد مياه النيل لاسرائيل وهنا ابلغ بطرس غالى الدكتور مصطفى خليل رئيس الوزراء بما سمعه وهرع الاثنان للسادات للتأكد من الخبر فأكده لهما!! وهنا أبلغه د.مصطفى خليل ان هذا غير قانونى ويتنافى مع اتفاقيات حوض النيل فقال له السادات. والرواية لغالى. «نبقى نقول لهم المية بتروح فى البحر».

أيا ماكان الأمر، فالفكرة ـ رغم غموض مازال يحيط بكثير من تطوراتها ـ لم تتم. ولكنها بقيت دوما فى خلفية مايجرى. كما بقيت مذكِّرةً دوما بالدور الذى لعبته المياه فى الصراع العربى الاسرائيلى. وبالتذكير به كرقم أساسى فى معادلة الأمن القومى.

فى صفحات التاريخ نقرأ:

● فى مارس ١٩٠٣ ومن نافذة فندق «شبرد»، الذى كان ينزل فيه، تأمل تيودور هيرتزل طويلا نيل القاهرة الذى يجرى أمامه قبل أن يذهب للقاء اللورد كرومر ليقترح عليه «أن نمد فرعا من النيل الى صحراء سيناء لنتمكن من توطين اليهود المهاجرين هناك»، وكانت مسألة توطين اليهود فى سيناء محل بحث وقتها، وموضوعا لمفاوضات ماراثونية يهودية بريطانية اشترك فيها تشامبرلين وزير المستعمرات البريطانية، وغيره من المسؤولين البريطانيين. اصطدمت على الدوام بعدم ترحيب بطرس غالى «الأب» وزير الخارجية المصرى أيامها، قبل أن تنهار تماما على صخرة الأسباب التقنية التى طرحها مهندس الرى البريطانى وليام جارستون الذى كان رأيه أن المشروع «غير عملى. فضلا عن أن البريطانيين أنفسهم لم يرحبوا بإيقاف الحركة فى قناة السويس لحين الانتهاء من حفر نفق لتمر به المياه أسفلها. (Stewart, Desmond "Herzl's Journeys in Palestine and Egypt" Journal of Palestine Studies 3, No. 3 (1974): 18-38)

● فى عام ١٩٦٧، نشبت الحرب التى غيرت نتائجها مجريات الصراع فى الشرق الأوسط. ولم يكن «تحويل مجرى نهر الأردن» ببعيد عن كل ماجرى.

● فى عام ١٩٨٢ وتحت مسمى ربما كان ذا دلالة «عملية الليطانى»، أقدمت اسرائيل على غزو لبنان للسيطرة على نهر الليطانى، والذى وفر لها ٨٠٠ مليون متر مكعب من المياه سنويا.

● فى أوائل التسعينيات من القرن الماضى ظهر كتاب لخبير المياه الاسرائيلى «اليشع كيلى»، يعرض فيه من الناحية التقنية مشروعا متكاملا لتنفيذ فكرة هيرتزل القديمة (Kally, Elisha, and Gideon Fishelson. Water Resources and the Arab-Israeli Peace Process. Westport, Conn: Praeger, 1993)

● فى عام ٢٠٠٢ صدر كتاب آخر تحت عنوان مثير «الصليب والنهر»، يتنبأ فيه كاتبه «الاسرائيلى»بصراع قادم بين مصر وأثيوبيا على مياه النهر (الكتاب عرضناه فى «وجهات نظر» فى مايو ٢٠٠٤)

... وغير ذلك كثير. دون. مرة أخرى. أن نذهب بتوقعاتنا بعيدا. أو أن نقع فى محظور اختزال الأمر كله فى «مؤامرات اسرائيلية» مفترضة. فالحقيقة أن المسألة أبعد من ذلك بكثير، وأننا. وحدنا. نتحمل المسؤولية كاملة.



الثابت إذن أن الماء كان دوما هناك.. كما هو الآن عند كل من يتوقعون أن تكون حروب القرن الحالى «حروب مياه».

والحروب بالتعريف هى رقم فى معادلة السياسة، مثلما القوة والقانون.

هل لمصر حق قانونى فى النزاع الحالى حول مياه النيل؟

الإجابة الواضحة والمختصرة: «نعم» وفى ذلك تفصيل كثير (يكفى مراجعة اتفاقية فيينا لعام ١٩٧٨ الخاصة بالتوارث فى مجال المعاهدات الدولية والتى تقضى بعدم المساس بحقوق الدول النهرية)

ولكن السياسة لم تكن أبدا قانونا فقط. فكما أهدرت السياسة يوما ما، ما أتت به الحرب عام ١٩٧٣، هانحن نراها اليوم تهدر حقا قانونيا لم نعد فى المكان «أو المكانة» التى تمكننا من الحفاظ عليه.

إن أخطر ما فى الاتفاقية الإطارية الجديدة التى تم توقيعها رغما عن مصر، أنها ضمَّت بنداً يشير إلى حق الدول المتشاطئة مع دول حوض النيل فى الحصول على مياهه، بمعنى أن كلا من اسرائيل وليبيا المتشاطئتين مع مصر سوف يكون لهما الحق قانونا فى الحصول على المياه.

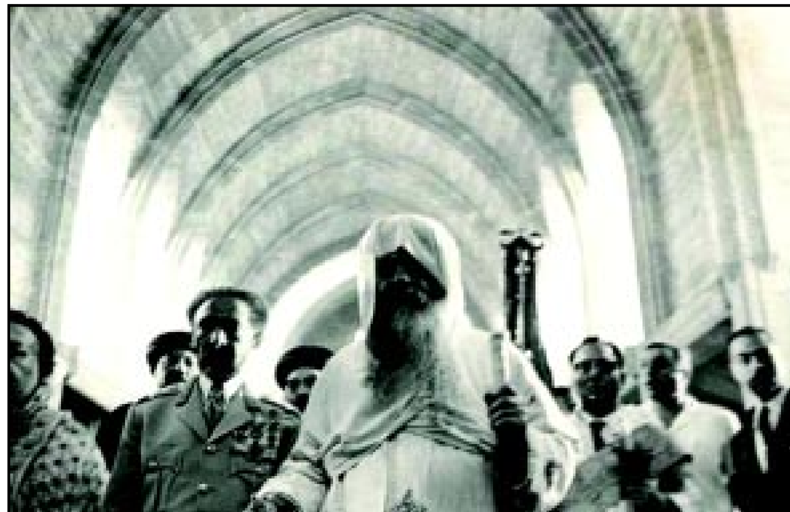
والأشدُّ خطورةً فى الاتفاقية الجديدة أن القانون الدولى يلزم بوجود اتفاقيات جماعية، ويمكن فى هذه الحالة أن يكون عدم اعتراف دول حوض النيل بالاتفاقية الثنائية بين مصر والسودان (١٩٥٩) قانونًا فى حد ذاته.

ويزيد الأمر تعقيدا أن السودان قد يصبح «سودانين» بعد أشهر قليلة، وأن الاتفاقات التى تمهد للأمر ناقشت تقريباً كل شىء عدا قضية المياه.



والخلاصة أن السياسة المصرية تجاه ملف النيل فى السنوات الأخيرة جانبها التوفيق، إذ بدا أنها إما غاب عنها ماللموضوع من أهمية فى ملف الأمن القومى المصرى، أو أنها اطمأنت. كعادتها. إلى «التوقع بالتمنيات». فطوال ١٠ سنوات من المفاوضات لم تنتبه إلى إصرار دول المنبع على مطالبهم، بل ولم نكترث بأن هناك أبحاثا علمية تجرى هناك، ودراسات جدوى، ووفود تذهب وتجىء. لم نر جديدا هناك، رغم أنه كان يطرق بابنا كل يوم. لم يخدعنا أحد، فموقف الآخرين كان «واضحا ومحددا ومعلنا»، لعشر سنوات كاملة. ورغم ماجرى فى كينشاسا قبل حوالى العام من خلاف بدا . لكل ذى عينين . أنه تجاوز خط اللاعودة، الا أن المنهج «الفرعونى» فى التفكير كان كعادته كافيا لعدم رؤية «عصا موسى تتحرك».

تغير العالم.. فرفضنا رؤيته يتغير. ورفضنا أن نعترف ـ ولو أنفسنا ـ أننا تغيرنا، فكان طبيعيا أن يتغير الآخرون. رفضنا أن ندرك أن التمثال القائم فى جوهانسبرج هو لعبد الناصر (الراحل منذ أربعين عاما)، لا لأحد بعده. كما غفلنا عن أن ثلاثين عاما من الابتعاد والتعالى عن القارة «السوداء» التى كنا



امبراطور اثيوبيا مع البابا كيرلس السادس (من محفوظات مكتبة الاسكندرية)

من نافذة فندق «شبرد»، الذى كان ينزل فيه، تأمل تيودور هيرتزل طويلا نيل القاهرة الذى يجرى أمامه قبل أن يقترح على اللورد كرومر «أن نمد فرعا من النيل إلى سيناء»



يوما الهاما لثوارها وقادتها له بالتأكيد تبعاته وآثاره. وبدا مضحكا أن من نسى تاريخه، يتحدث اليوم عن حقه التاريخى.

جاء المصريون متأخرين، ليجدوا أن اثيوبيا/ زيناوى، لم تعد هى الحبشة/ هيلاسلاسى. وأن ماسيسمعونه اليوم فى تلفزيونهم الرسمى، من الحاكم الأثيوبى، لن يكون أبدا تكرارا لما كان أسلافهم يسمعونه من «الامبراطور» فى حضرة «الزعيم» أو فى بهو الكاتدرائية المصرية فى العباسية.

....

....

«كالزواج الذى لايقبل الطلاق» هكذا شبه مليس زيناوى علاقة مصر بأثيوبيا، فى حديث حرص التلفزيون المصرى «الرسمى» على اجرائه لطمأنة المصريين المتجهين بعد ثلاثة أشهر الى صناديق الاقتراع. التشبيه على أية حال - فى نظر كل من يعرف أن ٨٥٪ من مياه النيل تأتى من اثيوبيا - كان دقيقا، وإن بدا أن بعض من احتفى به، لم يسمع الرجل ربما قبل خمسة أسابيع فقط (١٩ مايو) يقول نصاً: «أعرف أن البعض فى مصر لديهم أفكار بالية تستند إلى أن مياه النيل هى ملك لمصر وهى تمتلك الحق فى كيفية توزيع مياه النيل، وأن دول المنبع غير قادرة على استخدام المياه لأنها غير مستقرة وفقيرة».

مضيفا: «هذه الظروف تغيرت، فإثيوبيا فقيرة ولكنها قادرة على تسخير الموارد الطبيعية الضرورية لإقامة أى أشكال من البنى التحتية والسدود على النهر.. لا أرى ما يمنع مصر من الانضمام للركب، لن تستطيع مصر أن توقف إثيوبيا أو تمنعها من بناء سدود على النهر، هذا تاريخ ولن يكون جزءا من الحل، فالحل ليس هو محاولة مصر أن توقف ما لا يمكن وقفه».

قد يكون هذا الكلام «للاستهلاك المحلى» كما قرأه البعض فى القاهرة وقتها. وقد يكون أن أية اجراءات قد تقوم بها أثيوبيا أو غيرها، لن يكون لها تأثير على الأرض قبل عشرين عاما على الأقل، كما طمأن سياسيون مصريون ناخبيهم. ولكن تبقى حقيقة:

١- أن هذه لغة جديدة.

٢- أن عشرين عاما فى عمر النهر، ليست أكثر من طرفة عين.

فى حديثه للتلفزيون المصرى، الذى بدا وكأن مصر الرسمية قد خصصته لاقناع المصريين «بأن للأثيوبيين حقا» كان زيناوى واضحا وصلباً، وقال مانصه.

«لقد قلت ذلك تكرارا ومرارا هناك حل واحد فقط لمشكلة النيل. هذا الحل هو الحل الذى يرضى جميع الأطراف ويراعى مصالحهم دون تمييز. فاذا كان هناك أى طرف خاسر فلا يمكن ان نصل الى حل»، معتبرا أن ماجرى لاعودة عنه: «إذا انضمت مصر والسودان إلينا خلال هذا العام فسوف نبدأ التنفيذ معا فى آن واحد، ولكن إذا لم تنضم مصر والسودان خلال هذا العام فسوف تبدأ الدول الخمس فى تنفيذ الاتفاقية».



أين نحن الآن؟ ربما أمكن تلخيص شىء من الإجابة فى النقاط التالية:

● بعد عشر سنوات من المفاوضات، خسرت مصر معركتها، أو بتعبير أكثر تحديدا: لم تحتفظ القاهرة بالاتفاقية التى كان الاحتفاظ بها هدفها الوحيد، والتى طالما قال مسؤولوها أنها غير قابلة للتعديل «أو اعادة النظر». معتبرة أن الأمر يقع فى صميم «أمنها القومى».

● القراءة (الصحيحة) لحديث ميليس زيناوى للتلفزيون المصرى، توضح أن الرجل صلب فى موقفه، وأن حديثه للجزيرة قبل أسابيع لم يكن لأسباب انتخابية، كما تمنى البعض فى القاهرة وقتها. وأن المصريين خسروا - ربما - بلاعودة - معركة التمسك بالاتفاقات القديمة. فما جرى قد جرى، والدول السبع التى وقعت فى عنتيبى، قد مضت خطوة الى الأمام (كما يقول زيناوى) ولا يعنيها من بعيد أو قريب أن يتمسك البعض باتفاقياتهم القديمة. «نحن نعيش فى قرن جديد» كررها زيناوى إحدى عشرة مرة فى حديثه للتلفزيون المصرى، كأنما يقولها لمن لايريد أن يعترف بحتمية «التغيير».

● الملف الذى ترك عشر سنوات كاملة للفنيين، رغم حقيقة مركزيته فى «الأمن القومى» المصرى، اتضح أنه سياسى بامتياز. ولم يعد العامل الحاسم فى المعادلة هنا، مقياس النيل ارتفاعا وانخفاضا، أو بندا فى اتفاقية هنا أو بندا هناك. وانما «قدرة» كل طرف على أن يصل الى أهدافه. ويعرف التاريخ والعلاقات الدولية أن لهذه القدرة عوامل ومعايير.

● رغم تخوفٍ مشروع من أن دبلوماسية اللحظة الأخيرة جاءت بعد «أن سبق السيف العزل»، الا أن لاشىء غيرها ممكنٌ «وواقعى» الآن. شرط أن يكون لها استراتيجية واضحة، وأن لاتكتفى بالتعامل مع التداعيات دون النظر الى المسببات.

● أن حل مشكلات حوض النيل (بعد أن فات مافات) يتطلَّب النظرة إلى الحوض كوحدة مائية واقتصادية وبيئية واحدة واعتراف كل دولة بحقوق الدول الأخرى، دون حديث استعلائى جرى اختباره فى أزمة الجزائر الأخيرة. يقول الخبراء أن الطاقة الكهربائية فى إثيوبيا التى يمكن توليدها من النيل وحده تكفى كل دول الحوض، وأن إمكانيات السودان الزراعية، والثروة السمكية فى البحيرات الاستوائية تشكل آفاقا واسعة للتعاون. يبقى ذلك كله مرهونا «بالسياسة» وما أدراك بالسياسة فى نظام بدا «وقد وهن العظم منه»، فتعثرت خطواته أو ارتبكت على أحسن تقدير.



وبعد..

فلا أحد يملك بحسابات المسؤولية التاريخية أن يهون من الأمر، فـ «مصر هبة النيل»، ليس مجرد قول مأثور لمؤرخ مشهور، ولا عبارة يبدأ بها التلاميذ مواضيع الانشاء. بل هى حقيقة حفرتها الجغرافيا فى كتاب التاريخ. وعبر آلاف السنين كان النيل دوما أشبه «بالحبل الشوكى/ العصبى» الذى يربط الجسم كله زراعة واقتصادا وتكاملا «ودولة مركزية». يحدثنا المقريزى أن الناس فى مصر «كانت تأكل بعضها بمجرد أن ينقص مقياس النيل لأقل من ١٦ ذراعاً».

ولكن لاأحد يملك اليوم، وأيضا بحسابات المسؤولية التاريخية، أن يتحدث «حديث السادات» مهددا بقصف أديس أبابا «منجستوهيلاماريام»، فتلك لغة «قرن فات»، وارجعوا الى حديث زيناوى واشاراته الإحدى عشرة.

....

....

«النيل نجاشى» نعم منذ أن عرفناه قبل آلاف السنين. ولكن عرفنا أيضا أن أحدا لم يبخل به يوما - حباً أو احتراماً - على مصر .. «التى كانت».

واقرأوا التاريخ. ■



© Roger Viollet

كوبرى بولاق ١٩١٢

هوامش:

(١) النَّجاشِىّ: فى «لسان العرب» هوكلمةٌ للحبَش تُسَمى بها ملوكها.

والكلمة فى اللغة العربية منذ بداية عهد الدعوة الإسلامية، فقد أذِن الرسول ص لعدد من أصحابه الذين لَقُوا الاضطهاد من قريش فى الهجرة إلى أرض الحبشة «فإن فيها ملِكًا لا يُظلَم عنده أحد»، وكان لقب ذلك الملك «النجاشى».

جــــــــــون وتـــــربـــــورى
John Waterbury

فى البحث عن مستقبل

■■ القول بأن المصريين حساسون تجاه القضايا التى تؤثر على جريان نهر النيل هو قول لا يفى الواقع حقه. وكان الرئيس أنور السادات قد أطلق تحذيره الشهير لاثيوبيا بأن تغيير جريان النيل سوف يعتبر بمثابة شن حرب. وكان مصريون بارزون من أمثال إسماعيل سراج الدين وبطرس بطرس غالى قد حذروا من أن المياه عموما ستكون شرارة صراعات عنيفة. وفى أعقاب التوتر الأخير بين مصر والسودان من جانب و دول حوض أعالى النيل من جانب آخر، نقل عن مسؤول مصرى قوله ان النيل لمصر «مسألة حياة أو موت» (د. مفيد شهاب). وعلى أية حال فإن اكثر من ٩٥٪ من مياه مصر تأتى من النيل الذى لا تضيف مصر إلى مياهه شيئا، وليس لديها ملاذ غيره.

هكذا فمن حق المصريين ان يكونوا على هذه الدرجة من الحساسية، وبعد عقود من العيش فى مصر ودراسة ديناميكية النهر، فإنى اشاركهم هذه الحساسية. أول اهتمامى كان فى النيل خارج حدود مصر فى ١٩٧٣. كان هذا حين قررت الأوابيك زيادة أسعار البترول بعد حرب رمضان وما انتجه ذلك من تهديدات أمريكية باستخدام مؤونة الغذاء العالمية كسلاح مضاد. وعلى أثرها انتشر الحديث عن «حروب الطعام». وقد شعرت بعض الدول المصدرة للبترول بالقلق من تعرض استيراداتها من الغذاء للخطر، وشرعت الكويت والمملكة العربية السعودية على الأخص باستكشاف امكانية تحويل السودان إلى «سلة خبز» العالم العربى. ومن موقع مراقبة المصب فى القاهرة فى ذلك الوقت، سألت نفسى ماذا يحدث لو أن الاستثمار العربى فى الزراعة السودانية ادى إلى زيادة هائلة فى استهلاك السودان لمياه النيل؟ ماذا سيعنى ذلك لمصر؟ وماذا سيفعل المصريون حيال ذلك؟

بعد خمس وثلاثين سنة نواجه تقريبا تأثيرات دولية مماثلة. فى ربيع ٢٠٠٨ ارتفعت اسعار الغذاء العالمية، ووضعت دول مصدرة عديدة كوابح لصادراتها الزراعية فيما تسلل الخوف إلى المستوردين الرئيسيين خاصة فى العالم العربى بشأن أمنهم الغذائى. وبدأت صناديق الثروة السيادية فى العديد من الدول المصدرة للبترول فى استكشاف شراء أراض زراعية أو استئجارها لمدد طويلة، فى دول زراعية لم تحسن استغلال اراضيها بضمنها تايلاند ومدغشقر واثيوبيا والسودان. وفى هذه المرة كان هناك لاعبون جدد على مسرح الاحداث، بضمنهم الصين وكوريا الجنوبية وحتى الأردن. ولهذا فقد عاد السؤال الذى سألته لنفسى فى ١٩٧٣ إلى الواجهة مرة أخرى. وربما اتخذت دول حوض أعالى النيل القرار الذى اتخذته فى ضوء هذه الحقائق الجديدة.

ان وعد أو وعيد التنمية الزراعية واسعة النطاق فى السودان فى سبعينيات القرن الماضى لم يتحقق. فالكارثة المالية والاضطراب السياسى والحرب الأهلية جعلت السودان مكانا طاردا للاستثمار الأجنبى. وربما السودان اليوم لا تستخدم من مياه النيل اكثر مما كانت تستخدمه فى ١٩٧٣. هل هذه أخبار طيبة لمصر؟ لا اعتقد ذلك. كما انى لا اعتقد انه إذا تلاشى الاهتمام الراهن بالسودان، سيكون بالضرورة خبرا طيبا لمصر. هناك أكثر من سبيل قادنى إلى هذا الاستنتاج.

هذه ليست مصر آبائك

إن مايشعل جذوة ردود الأفعال المصرية لمبادرات منبع النيل هى صورة البلاد التى لم تعد ذاتها. فى ١٩٥٩ حين وقعت اتفاقية الاستغلال الكامل لمياه النيل بين مصر والسودان، كانت مصر ماتزال دولة يقوم اقتصادها على الزراعة بالدرجة الأولى، ويتمحور حول انتاج القطن حيث كانت جل القوة العاملة تتكون من المزارعين والعمال الذين لا يملكون الأرض. وقد ظلت صورة مصر هذه متجذرة بقوة فى أذهان الكثيرين خاصة المصريين من الأجيال الأقدم. ولكن هذه الصورة لم تعد تنطبق على مصر مطلقا.

فى اتفاقية ١٩٥٩ تمت قسمة استغلال مياه النيل حسب مقياسها عند أسوان بين مصر والسودان. وقد قدر معدل جريان النيل السنوى بـ ٨٤ بليون متر مكعب، ومع توقع بناء السد العالى فى أسوان، تقرر ان تكون حصة الدولتين ٥٥.٥ بليون متر مكعب لمصر و ١٨.٥ بليون متر مكعب للسودان و ١٠ بلايين متر مكعب تفقد بالتبخر والتسرب فى الخزان خلف السد. ولم تمنح حصص لأى دول اخرى فى حوض النيل بموجب اتفاقية ١٩٥٩ وكان هذا سبب التوتر منذ ذلك الحين.

حين بدأ خزان السد العالى فى اسوان يمتلئ بالمياه فى بداية السبعينيات، كان عدد سكان مصر ٣٥ مليون نسمة، وكان القطاع الزراعى يشكل ٣٠٪ من اجمالى الدخل القومى و ٥٤٪ من القوى العاملة. وكان السطح الصالح للزراعة فى البلاد يبلغ ٥.٩ مليون فدان وكان سطح المحصول (بمعنى السطح «الافتراضى» الناتج عن الارض متعددة المحاصيل) حوالى ١٠.٧ مليون فدان كل عام.

وحين امتلأ خزان السد العالى بأقصى طاقته فى خريف ١٩٧٥، كانت القوة الكهربائية التى تولدت تشكل حوالى نصف انتاج الطاقة الكهربائية فى مصر.

ومنذ ذلك الحين لم تتغير حصة مصر من اتفاقية ١٩٥٩ رغم ان كل شىء آخر تغير بشكل مؤثر. فقد تضاعف عدد السكان إلى حوالى ٨٣ مليونا، وتقلصت مساهمة الزراعة فى اجمالى الدخل القومى إلى حوالى ١٣٪ وأصبحت حصة

John Waterbury is a Professor of Politics and International Affairs, Princeton University. He served as president of the American University of Beirut between 1998 and 2008. His books include *The Hydropolitics of the Nile Valley* (1979), and *The Nile Basin: National Determinants of Collective Action* (2002)

ترجمة : بثينة الناصرى

يمكن للتعاون حتى فى أقل درجاته ان يحسن أوضاع معظم أصحاب الحصص بدون أن يتسبب فى تدهور حالة أى واحد منهم



Uganda. Murchison Falls (located on the Victoria Nile between Lake Kyoga and Lake Albert). Expedition to the sources of the Nile by John Hanning Speke (1827-1864)

القوى العاملة الزراعية فى اجمالى القوى العاملة حوالى ٢٤٪.
الأرض المزروعة الان هى ٨.٤ مليون فدان (اى ان هناك ٢.٥ مليون فدان اضافية بفضل الماء المخزون فى أسوان) وسطح المحاصيل المزروعة هو ١٤.٦ مليون فدان اى بإضافة ٤ ملايين فدان من المحاصيل اضافة على مستوى ١٩٧٠.
والمحطة الكهربائية فى اسوان تساهم حاليا بمقدار ١٥٪ من اجمالى انتاج الطاقة و هذه الحصة سوف تتدهور بسرعة فى السنوات القادمة حيث يزداد عدد الوحدات الحرارية التى سوف تستخدم.

ومن هذه الملاحظات، توصلت إلى ثلاثة استنتاجات. الاول أن الاقتصاد المصرى والقوة العاملة قد نمت بعيدا عن القاعدة الزراعية التقليدية فى البلاد. لم تعد الزراعة هى القوة الدافعة فى الاقتصاد المصرى. ولكنها ماتزال تستخدم ٨٨٪ من المياه المتوفرة فى مصر. هذا يعنى ان كل ١ متر مكعب من المياه ينتج ناتجا قوميا بقيمة ١٨ سنتا امريكيا، فى حين ان كل ١ متر مكعب من القطاع غير الزراعى ينتج ماقيمته ١٨ دولارا اى اكثر بخمسين مرة.

الثانى، انه مع كمية ثابتة من المياه نسبيا، نجحت مصر فى زيادة كفاءة استخدام هذه المياه فى الزراعة. وقد ازدادت وفرتها السنوية المؤثرة إلى مايقارب ٧٠ بليون متر مكعب. وهذا يشمل المياه الجوفية ومياه المبازل المدورة ومياه الصرف الصحى المعالجة. والأكثر اثارة للاعجاب هو كمية المياه المستوردة إلى مصر فى الانتاج والمنتجات الزراعية بضمنها اللحم والدواجن. فى السنوات الاخيرة، هذه المياه المسماة «مياه افتراضية» كانت تعادل ٢٠ بليون متر مكعب أو اكثر من ٢٨٪ من الموجود من مياه مصر. ولمصر أن تفخر بكل هذه الإنجازات، ولكن الرسالة التى ترسلها إلى الدول المتشاطئة الاخرى هى ان تعافى اقتصاد مصر لا يشترط بالضرورة كمية مطلقة من مياه النيل.

الثالث، لم يعد السد العالى عنصرا حيويا للطاقة الكهربائية المصرية وستقل أهميته مع مرور الوقت.

لاينبغى النظر إلى هذه التغييرات بعين الاحباط. بل انها علامات ايجابية على التحول إلى اقتصاد قوى ولكنها فى نفس الوقت لا تدعم مطالبة مصر بمقدار حصتها البالغة ٥٥.٥ بليون متر مكعب.

لماذا التعاون؟

تركزت دراسة العلاقات الدولية منذ وقت طويل على مسألة السبب الذى قد يدفع دولا ذات سيادة للتعاون فيما بينها لايجاد حلول لقضايا مثل تلوث الهواء أو البحر، منع التسلح، انبعاثات غازات الدفيئة، وادارة الانهار التى تجرى عبر الحدود. وليس من الصعب التوضيح بكلمات تجريدية،



هناك مبدآن متناقضان فى ما يسمى قانون المياه الدولية العرفى. احدهما يسمى «الحقوق المكتسبة» والآخر «الاستخدام العادل». ويحدث أحيانا بعض التداخل بينهما



كيف يمكن للتعاون حتى فى أقل درجاته ان يحسن اوضاع معظم أصحاب الحصص بدون أن يتسبب فى تدهور حالة اى واحد منهم. وهذا المنطق من المفترض ان يجعل من التعاون مسألة مصلحة شخصية، ولكنه فى الواقع لا يفعل ذلك. وجزء كبير من المشكلة هو انه من أجل تحقيق نتائج تعاون ايجابى، على كل صاحب حصة ان يتنازل عن شيء من حصته أولا. فالنفقات تأتى قبل جنى الارباح. وهذه التنازلات هى التى غالبا ما تشل أصحاب الحصص عن اتخاذ الخطوات الأولى نحو التعاون. اعتقد ان ذلك كان جزءا من المشكلة التى واجهت مبادرة حوض النيل التى اطلقت فى ١٩٩٩ لتشجيع التعاون بين كل الدول العشر المتشاطئة التى تشترك بالحوض. وأكبر التنازلات كانت ستتحملها مصر وربما السودان ايضا حيث انهما اكبر المستفيدين من الأمر الواقع الذى خلقته اتفاقية ١٩٥٩. اى تغيير فى الأمر الواقع هذا سيكون على حساب مصر وحتى الان لم تظهر مصر اى رغبة فى تقديم تنازلات.

دعونا نرجع إلى أوائل السبعينيات من القرن المنصرم وفرضية ان تصبح السودان (سلة الخبز) العربى. لم يتحقق ذلك الحلم ابدا، والسودان نادرا ما تسحب كامل حصتها من نهر النيل. وحتى بعد اكتمال بناء سد كبير مؤخرا على مصب مروى فى الخرطوم على النيل الرئيسى لم تقدم السودان على تجاوز حصتها بموجب اتفاقية ١٩٥٩.

نتيجة لذلك لم يحدث ان وقعت حصة المياه فى مصر تحت ضغط من السودان. ولابد أن هذا كان مصدرا للارتياح لمخططى مشاريع المياه فى مصر، ولكن من وجهة نظرى جاء ذلك بثمن غال. وقد أرى فى أن النمو السريع فى الاقتصاد السودانى وتوسع الاقتصاد الأثيوبى سوف يصبان فى مصلحة مصر على المدى الطويل. فيما بين البلدين المذكورين هناك سوق محتملة يبلغ تعدادها ١٠٠ مليون نسمة، وفى مرحلة قادمة سوف تقود الزراعة النمو الاقتصادى فى هذين البلدين كما كان الحال فى مصر فى اواسط القرن الماضى. فهل على مصر اعاقة أو تشجيع هذا النوع من التطور؟ فإذا ارادت ان تشجع، فهذا قد يتطلب منها اعادة التفاوض بشأن اتفاقية ١٩٥٩ لتشمل الدول المتشاطئة الاخرى على حوض النيل أو الاعتراف بحقوقها الشرعية لحصة ما فى مياه النيل. واعتقد ان هذا سيصب فى مصلحة مصر على المدى البعيد لأنه سوف يسهم فى تطوير اسواق اكثر رفاهية للبضائع والخدمات المصرية فى هذه المناطق. ويمكن ان يساهم فى الاستقرار السياسى فى بلدين مجاورين كبيرين يمكن ان يكون للاضطرابات والعنف المتكرر فيهما أثر كبير سلبى على استقرار مصر.

هناك مبدآن متناقضان فى مايسمى قانون المياه الدولية العرفى. احدهما يسمى «الحقوق المكتسبة» والآخر «الاستخدام العادل». ويحدث أحيانا بعض التداخل بينهما، ولكنى سوف اتظاهر بأن الاثنين مختلفان تماما. الحقوق المكتسبة ينادى بها اصحاب الحصص الذين طال استخدامهم لمصدر مائى.. وهو مبدأ تاريخى يلخص احيانا بمقولة: الحق الاول للمستخدم الاول. ومصر تلجأ إلى هذا المبدأ بكثير من الشرعية. فقد كانت المستخدم الاول من ايام الفراعنة - وليس هناك الكثير من المتنافسين ممن يستطيعون مضاهاة هذه الحجة! ثانيا انها استخدمت ٥٥,٥ بليون متر مكعب لمدة اربعين سنة - وهذه حجة قوية ايضا. بالمقارنة فإن اثيوبيا والسودان يجادلان فى الاستخدام العادل والتطور المحتمل، وهما يستحضران مساحات هائلة من الارض التى لم تستغل بعد أو كان استغلالها بدائيا. بالنسبة لاثيوبيا فهى تدعى ان عرقلة تطورها بالحد من (حقها) فى مياه النيل هو مسألة غير عادلة وأن الحقوق المكتسبة ينبغى ان تفسح الطريق للقسمة العادلة.



وكانت مصر - تقليديا - تجابه هذه المطالب بالاشارة إلى ان المطر الوفير يسقط فى اثيوبيا والى حد ما فى السودان فى حين أن مصر محرومة منه، وأن هاتين الدولتين يمكنهما الاعتماد على الأمطار فى تطوير الزراعة. وهذا لا يعالج قضية بناء السدود والخزانات لتوليد الطاقة الهيدروليكية ولا يعالج حقيقة ان سقوط الأمطار عادة يكون موسميا إلى درجة كبيرة وغير متساو فى توزيعه. وللاستفادة المؤثرة من الامطار ينبغى تخزينها وايجاد وسائل لتوصيلها إلى أنظمة الرى السطحى.

ومن الممكن تماما لمصر ان تدافع عن الأمر الواقع، ولا تقدم اية تنازلات لدول المنبع، فإن تأسيس قضيتها على الحقوق المكتسبة هو موقف قوى. وبنفس المنظور، يمكن لدول المنبع خاصة اثيوبيا ان تتصرف بدون موافقة مصر. وهذا قد يعنى اقامة مشروع أو اكثر لتوجيه المياه للزراعة أو الطاقة الهيدروليكية أو كليهما. فى القانون الدولى وفى التطبيق، الأفعال أحادية الجانب التى تؤثر على دول المصب غير مقبولة. وبالتأكيد لن يمول البنك الدولى مشاريع لا تنال رضا كل الدول المتشاطئة. ولكن بعض الدول قادرة على تمويل مشاريعها من مواردها الخاصة وهناك دول راغبة فى تمويل مشاريع كجزء من اتفاقيات تجارية اوسع حتى فى غياب قبول دول الحوض. ويجب ملاحظة ان «القبول» فى القانون الدولى لايمكن حجبه «بشكل لامعقول». وليس هناك حق مطلق للفيتو فى أحواض الانهار الدولية.

مع أخذ هذه المسائل بنظر الاعتبار، اعود إلى السؤال «لماذا التعاون؟». الجواب هو انه أفضل بديل. إذا تشبثت مصر بالأمر الواقع، فهذا لن يخفف التوتر مع دول أعالى النيل، ويمكن لذلك حتى أن يعرقل النمو الاقتصادى لتلك الدول. وأى من النتيجتين لن تكون فى صالح مصر. وإذا قامت دولة أو اكثر من دول اعالى النيل بمشاريع تخزين مياه احادية الجانب، يمكن لمصر معاقبتها بعدة طرق، رغم انى اعتقد ان شن حرب سيكون خيارا بعيدا جدا وربما يكون أقرب إلى هزيمة النفس.

وقد يمثل اعادة التفاوض على اتفاقية ١٩٥٩ وتوسيعها طريقة للخروج من المعضلة، حيث يكون اصحاب الحصص افضل حالا فى المدى المتوسط والبعيد، ولن يكون اى من اصحاب الحصص اسوأ حالا. ولكن ما يثير الفضول ونادرا ما يتم الاقرار به، ان هذا قد حدث فعلا بين مصر والسودان على مدى عقود عديدة.

حتى عام ١٩٢٩ لم يكن هناك اى ميثاق يحكم استخدام مياه النيل بين



من الممكن لمصر ان تدافع عن الأمر الواقع، ولا تقدم أية تنازلات لدول المنبع. وبنفس المنظور، يمكن لدول المنبع أن تتصرف بدون موافقة مصر. التعاون اذن هو البديل الأفضل



اصحاب الحصص الرئيسيين. وكانت مصر صاحبة حق لا يناقش لكل التدفق الطبيعى لنهر النيل. وكان الانتهاء من بناء سد اسوان القديم فى ١٩٠٢ قد وفر بعض المخزون الموسمى من المياه. ويمكن القول انه فى ذلك الوقت كانت مصر تحصل على ١٠٠٪ من مياه النيل حسب مقياسها فى اسوان.

فى مايو ١٩٢٩ بعد اربع سنوات من اغتيال السردار السير لى ستاك قائد القوات المسلحة السودانية - المصرية المشتركة على ايدى مصريين من حزب الوفد حسب الرواية التاريخية، بدأ تطبيق اتفاقية مياه النيل. كان ذلك نوعا من العقاب لمصر لاغتيال ستاك، نفذه البريطانيون الذين كانوا يحكمون البلدين فى ذلك الوقت. وقد قدرت الاتفاقية ان المياه المسموح باستخدامها من النيل ستكون بمعدل ٥٢ بليون متر مكعب كل سنة، و حدد حق مصر المكتسب عند ٤٨ بليون متر مكعب والسودان ٤ بلايين متر مكعب. أى ان مصر اكتسبت حقا يمثل ٩٢٪ من المياه القابلة للاستغلال وكان حق السودان ٨٪.

دعونا نقفز إلى عام ١٩٥٩. اعيد التفاوض حول الحصص المحددة حيث اصبح حق مصر المكتسب ٥٥,٥ بليون متر مكعب والذى يمثل ٦٦٪ من المياه القابلة للاستغلال وارتفعت حصة السودان إلى ٢٢٪. وحدد ١٢٪ من المياه القابلة للاستغلال للفقدان بالتبخر والتسرب فى خزان السد العالى.

ومضت الاتفاقية أبعد من ذلك حين اقترحت بأن أى زيادة فى التدفق الطبيعى فوق معدل ٨٤ بليون متر مكعب يجب اقتسامها مناصفة من قبل الدولتين وكذلك اى نقصان فى المياه اقل من المعدل. وفى حالة انتهاء مشروع قناال جونجلى المصممة لتحويل جريان المياه من خلال مستنقعات (سود) فى جنوب السودان، سوف تقتسم مصر والسودان المكسب الصافى فى مياه النيل والمقدر له ان يكون ٤ بلايين متر مكعب بالمناصفة ايضا. واكثر من ذلك، كانت الاتفاقية قد تنبأت فى ١٩٥٩ أنه إذا طالبت دول اعالى حوض النيل بحصتها من المياه فإن «الخسارة» سوف تقسم مناصفة بين الدولتين.

وهكذا، من خلال خطاب الحقوق المكتسبة وعلى مدى ثلاثين عاما، كانت الحصة المخصصة التى تتراوح بين ٩٢/ ٨ إلى ٥٠/ ٥٠ موضع المباركة والتطبيق. لا اعرف التاريخ الداخلى للمفاوضات التى توصلت إلى هذه الحصص، ولكنها تتضمن الابتعاد التدريجى لمصر عن التأويل الجامد للحقوق المكتسبة إلى تأويل يرحب بالاستخدام العادل. واذا كان هذا التحول ينظر اليه فى عام ١٩٥٩ على انه فى مصلحة مصر على المدى البعيد، خاصة فى اطار تدعيم العلاقات الودية مع سودان كامل السيادة، فإنى ارى ان نفس المنطق يمكن وينبغى ان يسود اليوم فيما يتعلق بدول اعالى الحوض.

مستقبل ممكن

لمصر اقوى اقتصاد فى حوض النيل. وينبغى ان يكون جيرانها فى المنبع، الأسواق الطبيعية للبضاعة والخدمات المصرية، رغم ان هناك الكثير من المنافسة على هذه الأسواق. مصر تتقدم على جيرانها بمواردها البشرية المتعلمة، تطورها الصناعى، خدماتها فى مجال التقنيات المتفوقة، وبالتأكيد فى زراعتها المتطورة. وقد تعلمت الولايات المتحدة حين بدأت الصين فى غزو اسواقها التقليدية فى المكسيك وامريكا اللاتينية، أن القرب والعلاقات التاريخية لا يمكن ان يضمنا ميزة تجارية، ولكنهما يساعدان بالتأكيد. والأكثر اهمية لمصر ان هذه الاسواق قوية ومتنامية. اذن على مصر ان تنافس للحصول على حصتها من هذا الحراك.

نحتاج إلى ان نفكر بعنصر يمكن ان يؤثر فى تحقيق مثل هذا التطور. لقد اصبحت السودان فى العقود الاخيرة اقتصادا قائما على البترول. ومن المعروف ان صادرات الوقود الأحفورى (البترول) تجلب معها ما يسمى «لعنة النفط» أو ما يطلق عليه الاقتصاديون «المرض الهولندى» حيث تؤدى العائدات من صادرات النفط إلى ارتفاع فى سعر الصرف مما يؤثر سلبا على القطاعات المتداولة فى الاقتصاد (الزراعة والصناعة) والتى بدورها تؤدى إلى انتقال الاستثمار من القطاعات المتداولة إلى القطاعات غير المتداولة (وهى قطاع الخدمات).

وقد تأثر القطاع الزراعى فى بلاد عديدة اصيبت بلعنة النفط (تأمل نايجريا والجزائر والعراق)، وهناك خطر من ان السودان ستكون الضحية التالية. إذا حدث ذلك، ربما لن تتصاعد مطالبتها بمياه نهر النيل للاغراض الزراعية كثيرا، ولكن كما حدث فى منتصف السبعينيات من القرن الماضى، هذه ليست بالضرورة اخبارا طيبة لمصر. فمن مصلحة مصر أن يكون الاقتصاد السودانى متوازنا وسريع النمو فى نفس الوقت.

ماذا يعنى هذا للزراعة المصرية؟ انه يعنى كما أظن ان مصر سوف تتخصص باطراد فى انتاج المحاصيل فائقة القيمة التى يمكن أن تعوض الاستثمارات الكبيرة فى الكفاءة المائية. وجزء مهم من هذا الانتاج سيكرس للتصدير للمساعدة فى دفع اثمان استيراد منتجات زراعية رخيصة، من الجيران ومن العالم عامة. حينها سترحب مصر بتقسيم الانتاج الزراعى فى حوض النيل حيث تتخصص دول أعالى الحوض بعبء انتاج الحبوب وقصب السكر والأرز، فى حين تتولى مصر انتاج محاصيل مرتفعة القيمة مثل الفواكه والخضروات الطازجة والورود لأسواق أوربا والشرق الأوسط.

قطاع زراعى مثل هذا من شأنه أن يقلل من الطلب على المياه المتوفرة فى مصر، مما يسمح للبلاد ان تتنازل عن حصة كبيرة لجيرانها فى حين تقدم مستوى أعلى من المعيشة لسكانها الذين يزدادون عددا. ومع وجود أنظمة توصيل مياه ذات كفاءة، يستطيع قاطن المدينة ان يعيش حياة جيدة على ٥٥ مترا مكعبا من المياه فى السنة. إن فدانا من الأرز المزروع قد يحتاج إلى ٨٠٠٠ متر مكعب، وهى كمية تكفى لتغطية الاحتياجات السنوية لـ ١٤٥ من سكان المدينة. وفدان قصب السكر يستخدم نفس الكمية من المياه التى تكفى ٣٠٠ من سكان المدينة سنويا.

إذن ما تواجهه مصر ليس قضية حياة أو موت فى مسألة وفرة المياه، ولكنها تواجه اختيارات فى قطاع الزراعة تمثل أى طريق تسلك إلى مستقبل أفضل. والتصرف على أساس الإقرار بهذا التحول فى الخيارات يعنى ان كل فرد فى حوض النيل سوف يفيد من اطار عمل جديد للتشارك فى النهر. 



حسن مكى

الصليب والنهر..
مصر وأثيوبيا والنيل

■■ تتجدد الامتحانات والابتلاءات للشعوب والحضارات، لأن الحياة تقوم على فكرة المدافعة والقدرة على الاستجابة للتحديات الشاسعة، ويبدو أن أكبر تحدٍ سيواجه العقل العربى والعقل المصرى على الحضور هو قضية المياه، خصوصاً أن الأمن المائى المصرى، مثلاً قد ارتكز مسترخياً على المعاهدات التى أقامها مع دول المنبع فى شخص الحكومة البريطانية التى كانت تحكم هذه الدول. والجديد فى الأمر أن بعض هذه الدول يرفض الإذعان لمطلوبات هذه الاتفاقيات، كما أن هناك جهوداً علمية مائية ترعاها إسرائيل وأمريكا لخلق عقل مائى جديد وأخذ هذا العقل المائى الجديد يعمل فى أثيوبيا وأوغندا وتنزانيا وكينيا مسلحاً بدراسات ورؤى وكتب، بل إن هذا العقل المائى الجديد دفع حكوماته لتجاوز اتفاقية ١٩٢١م فعلاً لا قولاً، حيث برزت سياسات مائية جديدة، قائمة على الاستخدام المتفرد والحر لمياه النيل وبينما العقل العربى يظل مشدوداً ومحبوساً فى قضية العراق والجدار العازل فى فلسطين، ربما يفاجأ بجدار عازل أخطر وهو الجدار العازل للمياه أو قل الجدر العازلة للمياه التى تقام على الأودية والخيران المغذية للنيل وكذلك تقام على البحيرات التى تشكل الرافد الأهم لمياه النيل وفى هذا الإطار يجىء تسليط الضوء على هذه الدراسة والتى هى واحدة من الدراسات التى برزت عن النيل فى السنين الأخيرة.

وتدور الدراسة حول الصراع الأثيوبى/ المصرى حول مياه النيل حسب رؤية عقل إسرائيلى ويتطرق الدارس إلى دور النيل كمحدد من محددات الهوية فى أثيوبيا ومصر ويعمل الدارس كأستاذ كرسى دراسات الشرق الأوسط وأفريقيا فى جامعة تل أبيب وهو متخصص فى قضايا مياه النيل.

تقع الدراسة فى عشرة مباحث أولها عن أزمة النيل، والثانية عن الإسلام والمسيحية وإشكالية التصورات الأولية. والثالثة حول التراث السليمانى والملوكى، والرابعة عما جد من إعادة الاكتشاف والتصادم المؤسف، والخامس عن القومية والإدراكات المتبادلة، والسادس عن فترة ٣٥/ ١٩٤٢ ومافيها من عواصف إعادة تعريفات، والسابع بعنوان من المساومة إلى المفاصلة، والثامن عن تصورات أثيوبيا عن مصر ١٩٥٩/ ١٩٩١م، والتاسع عن تصورات مصر لأثيوبيا ٥٩/ ٩١ والخلاصة فى أمر التراكم التاريخى ومطلوبات التسعينيات.



ويستهل الكاتب فاتحته بالإشارة إلى أن فكرة كتابة الكتاب بدأت تختمر عنده فى الثمانينيات، حيث كانت مجاعة أثيوبيا الكبرى متقدة متجددة فى الذاكرة، كما أن مياه بحيرة ناصر، انحسرت فى عام ١٩٨٨م، إلى مستوى مقلق، مما أدى ببعض الخبراء لتوقع جفاف الزراعة المصرية وتوقف ضخ الكهرباء، ولكن جاء الخريف فعوض ما فات جزئياً، ثم بدأ الدارس عمله فى كتابة البحث ابتداء من عام ١٩٩٥م وقامت بتمويل البحث كل من المؤسسة الإسرائيلية للعلوم ومعهد السلام الأمريكى.

يشير الكاتب إلى أنه فى السنين القادمة، سيصبح أمر النيل قضية حياة أو موت وجوهر القضية أن ٨٦٪ من موارد مصر النيلية تأتى من أثيوبيا التى تريد استخدام جزء من هذه المياه. التى تتخلق فيها ما بين يونيو وأكتوبر فى فصل الأمطار فى الهضبة الأثيوبية، وهناك خطة لبناء ٢٦ مشروعاً مائياً فى أثيوبيا تتضمن أربعة سدود لحجز المياه وتوليد الكهرباء لأثيوبيا وضبط حركة المياه فى اتجاه السودان ومصر، ولكن ذلك يحتاج لإدارة إقليمية ظلت مفقودة، إذ نهر النيل واهب الحياة للحضارة الإنسانية لايزال يفتقر لهيئة موحدة وبالإشراف عليه وإدارته ولايزال أمره متروكاً للتقلبات السياسية والدولية علماً بأن لكل أنهار الدنيا إدارات تعتنى بها وتعمل على تطويرها وتنميتها.

ويتأمل الكاتب فى شخصية مصر ورؤيتها لأثيوبيا من مناظير مختلفة، منها منظور مصر الإسلامية ومنظور مصر العربية ومنظور مصر العلمانية الوطنية وفى إطار كل منظور تتشكل أثيوبيا أحياناً كصديق وأحياناً كخطر وأحياناً كشرير.

يقوم الفكر السياسى المصرى حول الحقوق الحصرية لمصر بشأن النيل، اعتماداً على تاريخ استخدام المصريين لمياه النهر منذ آلاف السنين وكذلك من الاتفاقيات الدولية الموقعة فى القرن العشرين والتى أشارت إليها الاتفاقية المصرية/ البريطانية. السودانية لعام ١٩٢٩م والتى تم التأكيد عليها فى اتفاقية ١٩٥٩م كما أن الإمبراطور منليك الثانى تعهد للإنجليز بعدم التعرض لتدفق النيل دون رضا الآخرين فى ١٩٠٢م، وقد استقر فى الذهن المصرى أن دول الحوض عاشت طول التاريخ دون التعرض للنيل، لذا فليس هناك جديد ولكن هذا المفهوم بدأ يتغير وأصبح هناك قبول لاعتبار أثيوبيا كشريك فى الحوض ابتداءً من ٨٧/ ١٩٨٨م ولكن ذلك لم يصل إلى حد القبول بالحصص المتساوية، وهو مبدأ مقابل تماماً لمبدأ الشراكة ومعمول به فى كثير من الأودية بين الهند والصين وغيرها، كما نصت عليه اتفاقية هلسنكى.

من جانبها ترى أثيوبيا أن لا مستقبل لها دون استخدام مياه النيل خصوصاً نتيجة لتغير الأوضاع المناخية التى أدت لجفاف فى الإقليم الشمالى الذى يضم إقليم تجرى، كوجام، وولو، بامقدير، وكذلك نتيجة لتوالى النمو السكانى وآخر مرة حكم فيها أثيوبيا أحد أبناء

The Cross and the River

(الصليب والنهر)

Haggai Ertich, 2002

By Lynna Renner Publishers, Inc

ملف خاص

فى عدد مايو ٢٠٠٤، نشرت «وجهات نظر» هذه المراجعة لكتاب يناقش قضية مياه النيل من زاوية ضيقة جداً، ويكاد يختزلها فى ثنائيتين إحداهما جغرافية: «مصر وأثيوبيا»، والثانية عقائدية: «الإسلام والمسيحية». وتكمن أهمية الكتاب (مؤلفه إسرائيلى) فى أهمية أن تعرف كيف يفكر الآخرون.. أو كيف يريد لهم البعض أن يفكروا



الإقليم كان يوحنا الرابع ١٨٧٢/ ١٨٨٩ حينها كانت أثيوبيا تحت إدارة الخديوى إسماعيل (١٨٦٣ . ١٨٧٩) الذى ركز على الأمر المائى مما أدى إلى الحرب المعروفة.

ويقول المؤلف إن النيل ليس واهب الحياة فى أثيوبيا كما هو فى مصر، بل هو سارقها لأنه يعرى التربة (الطمى) ويجرف الأرض ويجرف الإنسان وماشيته كما أنه يذكر بكلمة ممنوع، لأن مياهه محظور استعمالها فى الحبشة إلا بموافقة مسبقة من مصر.

فى شخصية السلطة والحكم:

اكتسبت أثيوبيا الشخصية المسيحية فى القرن الرابع ومنذ ذلك التاريخ أصبحت المشروعية للحكم والمسيحية صنوين كما أصبحت المسيحية الوعاء الجامع للشخصية الأثيوبية فى تقاطيعها ورؤيتها وشهودها للوجود واعتمدت فى ذلك على كرسى الإسكندرية القبطى فى تأسيس رؤيتها الخارجية، حيث ظلت الكنيسة الأثيوبية خلال ستة عشر قرناً. أى حتى عام ١٩٥٩م . جزءاً من المنظومة الثقافية للشرق الأوسط وحتى وفى إطار عزلتها عن الإسلام وخوفها منه وظلت الإسكندرية والقدس هى منافذ أثيوبيا للعالم الخارجى.

لقد كان النيل هو معنى الوجود عند المصريين ولكن هذا المعنى عند الأثيوبيين انحصر فقط فى أبونا المسيحى وكان يتم استبدال المياه بالأب فمصر تصدر المدد الروحى المتمثل فى أبونا وأثيوبيا تصدر مدد الحياة المتمثل فى مياه النيل.

وأثيوبيا ليست مسيحية شرقية فقط ولكنها كذلك قوة أفريقية ولها تفرد شخصية وهوية، ولأسباب تتصل بالدين والعزلة لذا فإن الحصص المتساوية فى مياه النيل هو كارت أثيوبيا فى نادى الشرق الأوسط المفترض وبطاقة التأهل للعضوية والثراء.

فى ١ يوليو ١٩٩٣م وقعت أثيوبيا ومصر اتفاقية للتعاون المائى النيلى على أساس القانون الدولى، واعتبر الأثيوبيون ذلك بمثابة اعتراف ضمنى مصرى بحقوقهم المائية وفى فبراير ١٩٧٧ استضافت أديس أبابا مؤتمر النيل الخامس والذى حضره المئات من المندوبين من ضمنهم ١٦٣ أثيوبياً و١٦ مصرياً . ولم يبرز فى المداولات ما يشير إلى تقارب فى وجهات النظر المصرية/ الأثيوبية. تنبه الدراسة لثلاث قضايا:

. العلاقة السياسية بين متوالية الأنظمة السياسية الأثيوبية والمصرية.

. القصة المتداخلة لتداخل الكنيستين المسيحيتين فى مصر وأثيوبيا.

. ومدى سيطرة فكرة التحكم فى النيل ونيل حصص متساوية فيها على مزاج الشعبين، وإدراك كل بلد للآخر على مستوى النخب وعلى المستويات القاعدية (نبض الشارع).

وتسعى الدراسة لإثارة النعرة الطائفية فى مصر، لأنها تتبنى خط أن على العقل المصرى ألا يسمح للإسلاميين والقوميين بالتأثير على سياسات مصر الخارجية والداخلية والمائية، لأن هؤلاء غير مقبولين إقليمياً ودولياً وعلى الأخص فى أثيوبيا، وأن أثيوبيا محدد مهم من محددات السياسة المصرية. ولأثيوبيا علاقات بالكنيسة القبطية والمجتمع القبطى ولذلك فإن الذين استطاعوا التفاهم مع أثيوبيا هم نموذج وزير الدولة للشئون الخارجية الأسبق بطرس غالى وكأنما يريد أن يقول إن الأقباط شىء ومصر شىء آخر وأن صمام الأمان فى مسألة السياسات المائية أن تكل مصر أمرها لليبراليين وعلى الأخص أبناء الطائفة القبطية.

ويشير إلى أن بطرس غالى هو الذى أبرز فكرة قيام مجلس استشارى لدول حوض النيل التسع فى ٢٤ أغسطس ١٩٨٢م، كأنما بطرس غالى شىء مختلف عن عقل مصر المائى، وأن ذلك أدى لاجتماع الخرطوم لدول حوض النيل للنظر فى وضع الخطط المشتركة ومع أن أثيوبيا اشتركت كمراقب إلا أنه سرعان ما ذاب الجليد بين مصر وأثيوبيا، حتى قيام الرئيس مبارك بزيارة لأثيوبيا فى ١٩٨٥م ورد الرئيس منجستو على الزيارة فى أبريل ١٩٨٧م، أعقبتها زيارة الرئيس مبارك لأثيوبيا فى ١٢ سبتمبر ٨٧ ورد عليها الرئيس منجستو قبل شهور من الإطاحة به فى نوفمبر ١٩٩٠ ولكن رغم هذه الزيارات الفوقية تباينت الرؤى الأثيوبية/ المصرية حول كيفية إعادة بناء الدولة الصومالية وكذلك حول الموقف من الثورة الإرترية وكذلك بالطبع السياسات المائية.

وتشير الدراسة إلى مجاعة عام ١٩٨٥م فى أثيوبيا والموقف العربى والمصرى السلبى منها، مما جعل الأثيوبيين يلعنون قدرهم ويزدرون النيل وعجزهم عن عدم استخدام المياه، كما أن العقل القبطى الأثيوبى المسيحى الحاكم، يرى فى سياسات التعريب والجامعة الإسلامية المنطلقة من مصر مهدداً لحركة الصفوة المسيحية فى أثيوبيا والتى لا تملك إلا أن يكون ردها مائياً لضبط السياسة المصرية.



وما يبدو لى أن العقل المصرى المشغول بالعولمة والروابط مع الغرب والمشاركة فى ثروة الخليج لا ينتبه فى هذه اللحظة التاريخية لجنوبه ولشعوب القرن الأفريقى حيث مصيره والناظر لخريطة النيل يجده كشجرة النخلة جذورها ضاربة فى البحيرات وأثيوبيا وطلعها الهضيم أو ثمرتها هى الدلتا ومصر هبة النيل وما أحوج العقل المصرى لتأسيس رؤية حول النيل، وطمأنة أثيوبيا ومبادلتها حباً وعطاءً، وإخراجها من الدوائر التى تنسج فى القطيعة وتضخم فى المخاوف والأوهام. وما أحوج مصر والسودان للتنسيق فى ذلك ويكفى أعذارا وإنذارات ما فعلته كينيا وتنزانيا وأوغندا بالتلويح بعدم الالتزام باتفاقية ١٩٢٩م. وفى الحقيقة أن هذه الدول تجاوزت الاتفاقيات وبدأت فى تنفيذ سياسات مائية مستقبلية غير مكترثة بالاتفاقيات والمعاهدات بل والكارثة الداهية أن هذه الدراسة تسعى لتغذية العقل الأثيوبى ضد مصر، بل ونتوقع حرباً أثيوبية/ مصرية إن لم يتم التفاهم حول الحصص المتساوية فى مياه النيل.

ولكن ما العمل، الخطوة الأولى هى تشخيص الوضع بعيداً عن الرؤى الأمريكية والإسرائيلية ويمكن فى هذا الإطار أن يتم الآتى:

ـ ندوة علمية عن أوضاع المياه والسياسات المتعلقة بمياه النيل تتبناها مجلة وجهات نظر أو أى مؤسسة مصرية مقتدرة تستقطب العقول المائية على امتداد دول الحوض التى أصبحت عشر دول بقيام جمهورية إريتريا.

ـ أن تتبنى مجلة «وجهات نظر» منبراً شهرياً فى دراسات حوض النيل وأن تصدر عدداً سنوياً خاصاً للأبحاث المتعلقة بالحوض والسياسات المائية.

ـ أن تشرع الحكومة المصرية فى توحيد العقل المائى المستقبلى لدول الحوض وذلك بإقامة جامعة إقليمية عالمية لأبحاث الحوض تستقطب فيها العقول المائية وتندرج فيها صفوة الطلبة من دول الحوض تكون بمثابة مركز معلومات وعقل لكل دول الحوض، تخرج منها الدراسات بمختلف لغات دول الحوض وتدور فيها المؤتمرات وتصبح صوت دول الحوض وصمام أمان لحركة المعرفة العلمية والسياسية والفنية.

ـ تنسيق السياسات المائية على ما هو جار مع دول الحوض وعلى الأخص أثيوبيا.

ـ الإسراع بشق القنوات التى ستزيد من كمية المياه فى الحوض مثل قنوات جنقلى فى أعالى النيل وقناة مشار فى بحر الغزال وقناة البرت فى أوغندا، وإعطاء دول الحوض القسم الأكبر من عائدات هذه القنوات لدول الحوض وعلى الأخص أثيوبيا.

ـ عودة مصر روحياً وفكرياً وثقافياً وسياسياً واقتصادياً إلى أفريقيا فى حضور وفق رؤية مصيرية طويلة الأمد.

ـ وضع خطط مشتركة للتنمية القائمة على مياه النيل تستفيد منها دول الحوض ولا تتضرر منها مصر.

ـ توسيع الدراسات المتعلقة بالمياه الجوفية خصوصاً أنه يقال إن فى أثيوبيا أكبر مخزون للمياه الجوفية فى العالم.

ـ ربط شبكة كهرباء دول الحوض وذلك بالاستفادة من الإمكانيات الهائلة لتوليد الكهرباء فى المساقط المائية ووضع خطة لمشروع اقتصادى اجتماعى وشرف موحد لدول الحوض.

ـ رؤية لطمأنة أثيوبيا حول سياسات مصر الأفريقية تجاه الصومال والسودان وإريتريا وتستند الرؤية على تعزيز الأمن والاستقرار وبناء الدولة الصومالية وتقوية علاقات هذه الدول سياسياً واقتصادياً وحل نزاعاتها. ■

النيل نجاشي

رشـــــدى ســـــعـيـد

"من أى عهد فى القرى تتدفق"
هذا النهر القديم

■■ هذا الكتاب هو جهد سنوات طوال من البحث وقد كتبته أصلاً باللغة الإنجليزية لكى أنشره على المتخصصين من المشتغلين بالعلم كما جرت عادتى خلال تاريخى الطويل فى ميدان البحث العلمى، وعندما أوشكت على الانتهاء من إعداد الكتاب للنشر قررت أن أشذ عن هذه العادة وأن أغير أسلوب الكتاب الذى كان مكتظًا بالمصطلحات العلمية إلى لغة يسهل فهمها على القارئ العادى غير المتخصص، فقد أردت أن أصل إلى عدد أكبر من القراء لكى يشاركونى فى بعض نتائج الأبحاث العلمية التى شغلتنى سنوات طوالاً بدلاً من كتابتها لعدد قليل من المتخصصين. وفى هذا البحث بالذات كانت النتائج التى توصلت إليها مثيرة ومشوقة حقاً. وليس من قبيل المبالغة أن أقول إن الوقت الذى قضيته فى إعداد هذا الكتاب كان من أسعد أوقات حياتى.

وعندما انتهيت من كتابة الكتاب خطر لى أن أقوم بترجمته إلى اللغة العربية وبالفعل بدأت - وفى تردد - ترجمة أجزاء منه كنت أقرؤها على بعض الأصدقاء فوجدت منهم استجابة شجعتنى على المضى فى الترجمة

....

ولنهر النيل جاذبية خاصة فحول ضفافه الدنيا نشأت واحدة من أقدم وأعرق الحضارات التى تركت أثرها على تاريخ الإنسان، كما أن للنهر من المظاهر الطبيعية الفريدة ما يجعله نهراً بلا نظير، فهو النهر الوحيد الذى استطاع أن يحمل جزءاً من مياه أفريقيا الاستوائية إلى البحر الأبيض المتوسط عبر الصحارى والقفار على الرغم من قلة المياه التى يحملها بالنسبة لمساحة حوضه الكبيرة وطوله الهائل، كما أنه ينفرد من بين أنهار العالم الكبرى بانتظامه الرتيب وإيقاعه المنتظم الذى جعل العيش فى ظله آمناً والتنبؤ بأحواله سهلاً وبناء تقويم يبدأ عندما يفيض تحدد فيه الفصول والشهور والسنوات ممكناً.

وقد فتننى نهر النيل منذ شبابى وتقت لمعرفة أسراره وكانت رحلتى إلى منابعه هى أول رحلة أخرج فيها من مصر. أردت أن أعرف كيف نشأ هذا النهر ومتى كانت بداياته وكيف وصل إلى حاله الذى نراه عليه اليوم، وماذا كان شكل الوادى والدلتا قبل أن يصلهما الإنسان ويسويهما حقولاً منبسطة تخترقها الترع التى تنقل الماء إلى كل مكان وتتناثر فيهما القرى كالجزر، هل كان هذا السهل مليئًا بالأحراش والمستنقعات التى احتاجت من الإنسان القديم أن يصرف مياهها على أمد آجال طوال قبل أن يستقر فيها؟ أم أن الوادى والدلتا كانا ممهدين وأرضهما خصبة تتناثر فيها الأشجار والنهيرات والبرك كجنة عدن الأولى التى حلم بها الإنسان منذ القدم؟ ومن هم هؤلاء الناس الذين استقروا فى وادى النيل؟ ومن أين أتوا؟ هذه وأسئلة أخرى كثيرة ظلت معى لسنوات طوال أحاول الرد عليها بالقيام بدراسات حقلية لمعرفة تاريخ النهر وقد امتدت هذه الأبحاث بين سنة ١٩٦٢ وسنة ١٩٧٧ وكان مما ساعدنى فى معرفة بعض أسرار هذا التاريخ انضمام فريد وندورف زميل الدراسة فى جامعة هارفارد وأحد رواد علم ما قبل التاريخ فى العالم القديم إلى هذه الدراسة الحقلية: كان هو يقتفى آثار الإنسان القديم فى الوقت الذى كنت أقتفى فيه التغيرات التى طرأت على بيئة النهر عبر تاريخه الطويل - وفى عام ١٩٧٨ أتاح لى عملى الاستشارى معرفة أسرار دلتا النيل التى كانت قد دقت فيها آبار عميقة وراء البحث عن البترول وصلت ولأول مرة إلى أعمق رواسبه مما فتح أمامى باباً كان مغلقاً عن تاريخ النهر وبدء نشأته التى حدثت قبل وصول الإنسان إلى وادى النيل بعدة ملايين من السنين.

وكان لابد لمذكراتى وملاحظاتى عن النهر والدلتا التى شغلتنى طوال هذه الأعوام أن تنتظر حتى يحين الوقت الذى أستطيع فيه أن أجمعها فى إطار كتاب واحد ومتسق. وقد تأخر هذا الوقت، فقد شغلتنى أمور معائشى بعد أن اضطررت لنقل نشاطى إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى أعقاب ذلك القرار التعس الذى أصدره رئيس مصر السابق بالتحفظ على فى سبتمبر سنة ١٩٨١. وقد جاء هذا الوقت عندما تسلمت دعوة من معهد الدراسات المتقدمة ببرلين لقضاء العام ١٩٨٩ - ١٩٩٠ كزميل بالمعهد وهى دعوة توجه إلى أربعين أستاذاً من المشتغلين بالعلوم كل عام لكى يقوموا بأى عمل علمى يرغبون فيه دون أن يكون عليهم أى التزام أو واجب يؤدونه. وبالإضافة إلى موقع المعهد الخلاب ومكاتبه الأنيقة ومساكنه المريحة ومطعمه الفاخر فإنه يعطى للباحث خدمات ممتازة فى المكتبة والاتصالات وغيرها، فقد قررت أن أقبل العرض وأن أكرس كل وقتى فى هذا العام لكتابة كتاب عن نهر النيل إلا أن الوقت الذى احتاج إليه إعداد الكتاب كان أطول مما تصورت فلم أنته من الكتاب إلا بعد ذلك بسنتين كاملتين.

لقد شغل نهر النيل الناس منذ أقدم الأزمنة وكتب المؤلفون عنه الكثير حتى ليمكن القول أن مجموع الكتب والمقالات التى كتبت عنه تربو على العشرين ألفاً، ومعظم هذه الكتب هى من كتب الرحلات لعل أشهرها هو ما كتبه الكاتب الفرنسى المشهور إميل لودج بعد عودته من رحلته عبر النيل فى سنة ١٩٣٧ وما كتبه آلان مورهيد عن «النيل الأبيض» و«النيل الأزرق» وهما كتابان يحكيان قصة اكتشاف منابع النيل والملابسات التاريخية التى صاحبت هذه الاكتشافات، ومن الكتب ما انشغل بمياه النيل كمؤلفات مشاهير المصريين على مبارك فى كتابه «الخطط التوفيقية» الذى يقع فى عشرين مجلداً والذى صدر فى سنة ١٨٩٩ وأمين سامى «تقويم النيل» الذى يقع فى ستة مجلدات والذى صدر بين سنة ١٩١٥ وسنة ١٩٣٠ وعمر طوسون فى كتابيه اللذين صدرا بالفرنسية فى

للاستزادة:
Rushdi Said, The River Nile:
Geology, Hydrology & Utilization
Pergamon Press, Oxford, UK
نهر النيل، نشأته واستخدام مياهه فى الماضى والمستقبل
رشدى سعيد
دار الهلال - القاهرة

ملف خاص

يمكن القول إنه لولا عبقرية المهندس المصرى القديم والحديث وجهد فلاح مصر ما أمكن لمصر أن تكون لها هذه الكمية من المياه التى تصلها، بل وربما ما وصل إليها النهر أصلا!



OVERFLOW OF THE NILE: REPAIRS OF THE RAILWAY EMBANKMENT BETWEEN TANTAH AND KAFR-ZAYAT ON THE ALEXANDRIA AND CAIRO RAILWAY.

سنتى ١٩٢٢ و١٩٢٥ «تاريخ النيل» و«فروع النيل القديمة». وفى هذه الكتب ثبت بقياسات النيل التى جاءت من مقياس الروضة منذ إنشائه فى أوائل الحكم العربى. ومن الكتب ما انشغل بجغرافية النهر مثل كتاب محمد عوض محمد عن النيل والذى صدر عن دار التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٤ وما جاء من ملاحظات فى كتاب جمال حمدان «شخصية مصر» ومنها من كتب عن تنظيم مياهه مثل رجال الرى وليم ولكوكس وكريج فى كتابهما الشهير «الرى المصرى» الذى صدر فى سنة ١٨٨٧ وأعيد إصداره فى سنة ١٩١٣ وموسوعة نهر النيل التى بدأها هرست وشاركه فيها فيليبس ويلاك وسميكة والتى تصدرها وزارة الأشغال المصرية منذ أوائل القرن العشرين وقد أخرجت هذه المدرسة أساتذة كباراً فى فنون الرى فى مصر. ومن الكتب ما تتناول قبائل أفريقيا أو حيواناتها أو رياضة الصيد فيها.

والموضوع الأساسى الذى يدور حوله هذا الكتاب هو مياه النيل وهو فى أربعة أجزاء يتناول الجزء الأول موضوع نشأة النهر وتطوره حتى اتخاذه شكله الحالى وهذا الجزء شديد التخصص حاولت أن أكتبه بلغة سهلة على قدر ما استطعت ومع ذلك فقد أعددت لأولئك، الذين سيجدون صعوبة فى متابعة هذا الفصل، موجزاً لخصت فيه نتائج هذا الجزء يستطيع القارئ بعد قراءته أن يقفز مباشرة إلى الجزء الثانى إن رغب. ونتائج الجزء الأول مثيرة حقاً فهى تظهر أن النيل بدأ فى مصر خانقاً عظيماً منذ ستة ملايين سنة ولم يتم اتصاله بأفريقيا الاستوائية إلا منذ ٨٠٠ ألف سنة مضت فقط وأن النيل الذى نراه اليوم هو نهر حديث ولد مع أمطار الفترة المطيرة التى أعقبت تراجع ثلوج العصر الجليدى الأخير منذ حوالى عشرة آلاف سنة، وقد قلت المياه التى يحملها النهر منذ أن انكمشت جبهة أمطار هذه الفترة منذ خمسة آلاف سنة حتى ليمكن القول إنه لولا عبقرية المهندس المصرى القديم والحديث وجهد فلاح مصر ما أمكن لمصر أن تكون لها هذه الكمية من المياه التى تصلها، بل وربما ما وصل إليها النهر أصلا!



ويتعلق الجزء الثانى من الكتاب بهيدرولوجية النهر وكمية المياه التى يحملها اليوم وتقلباتها وأسباب هذه التقلبات، أعقبته بفصل رجعت فيه إلى غابر الزمان فى محاولة لمعرفة تقلبات كمية المياه التى حملها النهر الحديث منذ نشأته منذ عشرة آلاف سنة مستخدماً فى ذلك بيانات مقاييس النيل القديم وما كتبه الأقدمون عن أحوال مصر التى كانت شديدة الحساسية لأحوال النيل وعن الهجرات الجماعية لسكان الصحارى وغير ذلك من الأدلة المباشرة وغير المباشرة التى يمكن أن تساعد فى معرفة كمية المياه التى حملها النيل فى الماضى.

ويتناول الجزء الثالث موضوع استخدامات مياه النيل منذ أن نزل الإنسان على ضفاف النهر منذ مئات الآلاف من السنين وكيف استطاع الإنسان أن يستغل بيئة النهر التى تغيرت عبر هذه السنوات الطوال لتطوير معائشه متنقلاً من الصيد وجمع النبات البرى والدرنات وصيد الأسماك إلى الزراعة البدائية، فالزراعة باستغلال ظاهرة الفيضان

ثم بترويض النهر حتى تمام ضبطه بالكامل ببناء السد العالى. وقد حاولت فى آخر هذا الجزء أن أقيم الآثار الجانبية للسد العالى بعد مرور أكثر من عشرين سنة على إتمام بنائه.

ويعالج الجزء الرابع مستقبل استخدامات مياه النيل وموقف الاتفاقية القائمة بين دول الحوض ومصادر المياه والأرض القابلة للزراعة المتاحة لهذه الدول وطريقة استخدامها فى الوقت الحاضر وخطط استخداماتها فى المستقبل لكل دولة من دول الحوض.

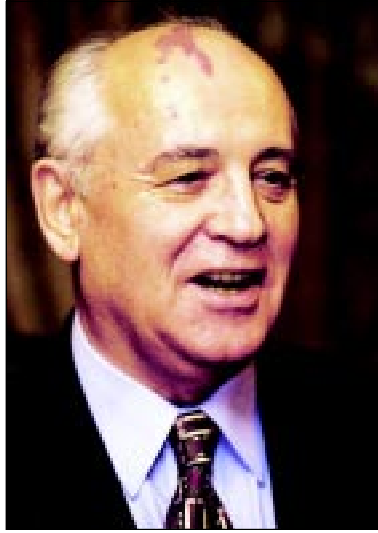
ويمس كتاب بهذا التنوع فى الموضوعات علوماً كثيرة كان على أن أبدأ فى معرفة مبادئها، فضلاً عن تفهم نتائج آخر أبحاثها وقد ساعدنى فى هذا الكثيرون أخص منهم كلاوس فريدريش أستاذ الأرصاد الجوية بجامعة برلين الحرة التى حضرت له أحد مناهجه فى علم الأرصاد الجوية والذى قرأ الفصل الخاص «بالمناخ وتطور النهر» وأجازه كما فعل نفس الشىء ولدونج وكلارا كروير الأستاذان بمتحف برلين للمصريات، فقد زودانى بالأبحاث المناسبة وقرآ الجزء الخاص بتقلبات نهر النيل فى مصر القديمة ورأيا أن الإطار الزمنى الذى استخدمته كان صحيحاً، أما فى ميدان الرى فقد استفدت أكبر الاستفادة من مناقشاتى الكثيرة مع شقيقى نجيب فهمى الذى قضى عمره فى خدمة الرى فى مصر والذى زودنى بالكثير من المراجع وقرأ ما كتبته عن منشآت الرى فى مصر كما استفدت بما زودنى به محمد عبدالهادى راضى رئيس مجلس إدارة هيئة بحوث توزيع المياه وطرق الرى بوزارة الأشغال المصرية من معلومات ومن أبحاثه القيمة عن مستقبل استخدامات مياه النيل ومن مجلة علوم المياه التى يرأس تحريرها والتى تحتوى على بعض نتائج أعمال هيئات وزارة الأشغال المصرية البحثية، أما فى مجال علوم البيئة ونوعية مياه النهر، فقد كانت لى مع الصديق محمد عبدالفتاح القصاص جولات من المناقشات المثيرة والمفيدة. وقد زودنى عبدالعظيم الجزار الملحق الزراعى بالسفارة المصرية بواشنطن ببعض البيانات التى طلبتها منه عن الإنتاج الزراعى فى مصر. وبطبيعة الحال فإن أحداً من هؤلاء لا يمكن أن يتحمل أى خطأ يمكن أن يكون قد حدث فى نقل هذه المعلومات أو تفسيرها فإنى مسئول مسئولية كاملة عما ورد فى هذا الكتاب. ■

ميخائيل جورباتشوف و جين ميشيل سيفرينو

Mikhail Gorbachev and Jean-Michel Severino

انتهت الحرب الباردة
فهل حرب المياه قادمة؟





■■ هل هناك من لم يزعجه تقرير الهيئة متعددة الحكومات لدراسة تغير المناخ بشأن العواقب المترتبة على ظاهرة الاحتباس الحرارى فى بعض أشد مناطق العالم فقراً. حسب التقرير، وكل التقارير التى تلته، من المتوقع أن يعانى مليار إلى ثلاثة مليارات من البشر فى مختلف مناطق العالم من ندرة المياه بحلول العام ٢١٠٠. ذلك أن الاحترار العالمى سوف يعمل على ارتفاع معدلات تبخر المسطحات المائية

ميخائيل جورباتشوف، الرئيس الأسبق للاتحاد السوفيتى، والحاصل على جائزة نوبل لدوره فى انهاء «الحرب الباردة». يشغل حاليا منصب الرئيس المؤسس لمنظمة الصليب الأخضر الدولية، المعنية بالبيئة

جين ميشيل سيفرينو هو الرئيس التنفيذى للوكالة الفرنسية للتنمية

ترجمة: أمين على

وانخفاض معدلات سقوط الأمطار بشدة. بنسبة قد تصل إلى ٢٠٪ فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. بينما من المحتمل أن ينخفض نصيب الفرد من المياه المتاحة فى تلك المناطق إلى النصف بحلول منتصف هذا القرن.

إن الندرة المفاجئة لهذا العنصر الذى لا تقل أهميته الرمزية والروحية عن قيمته المركزية لحياة الإنسان، سوف تتسبب فى إحداث ضغوط شديدة وتؤدى إلى تفاقم الصراعات فى كافة أنحاء العالم. ولسوف تكون أفريقيا والشرق الأوسط ووسط آسيا أولى المناطق المتأثرة بهذه الأزمة. إلا أن العواقب سوف تكون عالمية.



رغم كل ذلك لا تشكل هذه الصورة الكئيبة عذراً للتقاعس عن العمل أو أساساً للتشاؤم. فقد لا يكون بوسعنا تجنب الصراعات؛ ألا أننا قادرون على تجنب الحروب. ولسوف يتوقف نجاحنا فى منع «حروب المياه» من الاندلاع على قدرتنا على توقع التوترات، وإيجاد الحلول الفنية والمؤسسية اللازمة للتعامل مع الصراعات الناشئة. والأنباء الطيبة هنا أن مثل هذه الحلول متاحة بالفعل، وتؤكد على فعاليتها وكفاءتها فى كل يوم.

فالسدود. إذا ما تم تشييدها بالأحجام والتصاميم المناسبة. قادرة على الإسهام فى التنمية البشرية من خلال مكافحة تغير المناخ وتنظيم استهلاك المدد المتاح من المياه. ولكن فى بيئة جديدة تتسم بالندرة، من المتوقع أن تؤدى المشاريع المقامة على المنابع الأصلية للأنهار التى تمر بأكثر من دولة إلى التأثير على نوعية المياه أو الكمية الواصلة منها إلى الدول المجاورة، فيؤدى ذلك بالتالى إلى نشوء التوتر بين الدول.



إن منظمات أحواض الأنهار كتلك التى تأسست للتعامل مع أنهار مثل النيل، والنيجر، أو أنهار السنغال، تساعد فى تيسير الحوار بين الدول التى تتشارك فى المصادر المائية. ومن خلال تكوين رؤية مشتركة لتنمية المجارى المائية الدولية، تعمل مبادرات التعاون الإقليمية هذه على التوصل إلى شكل من أشكال الملكية المشتركة لهذه المصادر، وبالتالى تقليص خطر تصعيد النزاعات الناشئة عن استخدام المياه إلى أعمال عنف أو حروب.

تتمتع أغلب المجارى المائية الدولية بمثل هذه المبادرات الحوارية، ولو أن هذه المبادرات تمر بمراحل مختلفة من التطور ومستويات متفاوتة من الإنجاز. وإذا أخذنا التوقعات الخاصة بتغير المناخ على محمل الجد، فيتعين على المجتمع الدولى أن يحرص على دعم وتقوية مثل هذه المبادرات. ولابد من خلق هذه المبادرات فى كل منطقة تفتقر إليها، وذلك بمشاركة كافة الدول المعنية بالأمر. ومن الممكن أن تعمل مساعدات التنمية الرسمية كحافز إلى التعاون، وذلك من خلال تمويل عمليات جمع البيانات، وتقديم

قدرتنا على منع «حروب المياه» ستـرتـبـط بـقـدرتـنـا عـلـى الـتـفـاهـم والتعـــاون .. «والتنميــة»



المعارف الفنية، أو اعتبار الدخول فى مفاوضات بناءة شرطاً أساسياً للحصول على القروض.

إلا أن النزاعات المرتبطة بالمياه الدولية لا تشكل إلا وجهاً واحداً من وجهى العملة. ذلك أن أشد حروب المياه عنفاً فى أيامنا هذه تحدث داخل البلدان وليس بين البلدان. ففى كثير من الأحوال تؤدى ندرة المياه إلى تغذية الصراعات العرقية، حيث تبدأ المجتمعات فى الخوف على قدرتها على البقاء، فيدفعها ذلك الخوف إلى الاستئثار بالمصادر. ففى دارفور على سبيل المثال، تسببت حالات الجفاف المتكررة فى إفساد العلاقات بين المزارعين والبدو من رعاة قطعان الماشية. والحرب التى نشهدها اليوم بكل عجز ويأس لم تندلع فجأة، بل لقد كانت نتيجة لأعوام من الصراع المتصاعد. واليوم تخاطر جمهورية تشاد بالانزلاق إلى نفس الحلقة المفرغة من العنف.

وعلى هذا فقد بات من الأهمية بمكان أن نسعى إلى إشباع أكثر الاحتياجات الإنسانية أساسية، وذلك من خلال مبادرات التنمية المحلية. وقد تكون المشاريع المائية الريفية، التى تضمن لهذه التجمعات السكانية الوصول إلى المياه على مساحات شاسعة من الأراضى، ناجحة كأداة لمنع الصراعات. كما يتم العمل الآن على تأمين ممرات الرعى بالاستعانة بصور الأقمار الصناعية الحديثة، وتوجيه البدو الرحل وقطعانهم إلى المناطق المناسبة. مثل هذه المبادرات تشكل فرصا نادرة للحوار والتعاون بين المجتمعات المتنافسة. والعامل الرئيسى هنا يتلخص فى توقع الحاجة إلى التحرك العاجل قبل تصاعد التوتر إلى نقطة يصبح التراجع عندها متعذراً.

لابد أيضاً من التعامل مع مسألة استهلاك المياه. تشكل الاستخدامات الزراعية أكثر من ٧٠٪ من استخدامات المياه على مستوى العالم. وتعتبر أبحاث التربة والنباتات والابتكارات الفنية المبدعة على قدر عظيم من الأهمية فى تعظيم كفاءة استخدام المياه فى هذا القطاع، ولابد من تعزيز مثل هذه الأبحاث والابتكارات. إلا أن التعامل مع مسألة ندرة المياه لابد وأن يشتمل على تعديل وتهذيب الممارسات والسياسات الزراعية فى كافة أنحاء العالم من أجل ضمان استمرار هذه السياسات على نحو مستدام.

لم تعد التحديات الخاصة بالتنمية تقتصر على توصيل مياه الرى إلى المناطق المحرومة. وكما يتبين لنا من التقلص الهائل فى مساحة بحر الأرال، وبحيرة تشاد، والبحر الميت، فقد بات لزاماً علينا الآن أن نحافظ على الموارد الطبيعية النادرة وأن نحرص على توزيعها بصورة عادلة بين الاحتياجات المتضاربة. إلا أن الاستخدام المسئول سوف يتطلب توفير الحوافز الاقتصادية الملائمة. وقد يساعد هذا أيضاً فى تخفيف حدة الصراعات على المياه فى غرب أفريقيا، والشرق الأوسط، ووسط آسيا أو الهند.



فى ظل هذه التهديدات غير المسبوقة، لم يعد من اللائق أن نكتفى بالمشاهدة وممارسة أعمالنا كالمعتاد. فقد انتهت الحرب الباردة على نحو سلمى بفضل الواقعية، والبصيرة، وقوة الإرادة. ولابد لنا من التحلى بهذه الصفات الثلاث إذا ما أردنا أن نقى كوكبنا من حروب عظمى بسبب المياه. وهذا التحدى العالمى يتطلب أيضاً قدراً من الإبداع فيما يتصل بحوكمة العالم، وهو ما يدفعنا إلى تأييد إنشاء هيئة دولية للبيئة تابعة للأمم المتحدة، وتتمتع بالصلاحيات القانونية والموارد المالية اللازمة للتعامل مع هذه المشكلة.

يتعين على المجتمع الإنسانى أن يبدأ فى حل هذه المعضلة الآن، فالانتظار لا يشكل جزءاً من الحل بأى حال من الأحوال. ■



كتـــاب الــزاويـــة



أيهـــا النيـــل
أحمد شوقى

مِـن أَيِّ عَـهـدٍ فـي الـقُـرى تَـتَـدَفَّـقُ
وَبِـأَيِّ كَـفٍّ فـي المَـدائِـنِ تُـغـدِقُ
وَمِـنَ الـسَـمـاءِ نَـزَلـتَ أَم فُـجِّـرتَ مِـن
عُـلـيـا الجِـنـانِ جَـداوِلاً تَـتَـرَقـرَقُ
وَبِـأَيِّ عَـيـنٍ أَم بِـأَيَّـةِ مُـزنَـةٍ
أَم أَيِّ طـوفـانٍ تَـفـيـضُ وَتَـفـهَـقُ
وَبِـأَيِّ نَـولٍ أَنـتَ نـاسِـجُ بُـردَةٍ
لِـلـضِـفَّـتَـيـنِ جَـديـدُهـا لا يُـخـلَـقُ
تَـسـوَدُّ ديـبـاجـاً إِذا فـارَقـتَـهـا
فَـإِذا حَـضَـرتَ اخـضَـوضَـرَ الإِسـتَـبـرَقُ
فـي كُـلِّ آوِنَـةٍ تُـبَـدِّلُ صِـبـغَـةً
عَـجَـبـاً وَأَنـتَ الـصـابِـغُ المُـتَـأَنِّـقُ
أَتَـتِ الـدُهـورُ عَـلَـيـكَ مَـهـدُكَ مُـتـرَعٌ
وَحِـيـاضُـكَ الـشُـرقُ الـشَـهِـيَّـةُ دُفَّـقُ
تَـسـقـي وَتُـطـعِـمُ لا إِنـاؤُكَ ضـائِـقٌ
بِـالـوارِديـنَ وَلا خُـوانُـكَ يَـنـفُـقُ
وَالـمـاءُ تَـسـكُـبُـهُ فَـيُـسـبِـكُ عَـسـجَـداً
وَالأَرضُ تُـغـرِقُـهـا فَـيَـحـيـا المُـغـرَقُ
تُـعـيِـي مَـنـابِـعُـكَ الـعُـقـولَ وَيَـسـتَـوي
مُـتَـخَـبِّـطٌ فـي عِـلـمِـهـا وَمُـحَـقِّـقُ
أَخـلَـقـتَ راووقَ الـدُهـورِ وَلَـم تَـزَل
بِـكَ حَـمـأَةٌ كَـالـمِـسـكِ لا تَـتَـرَوَّقُ
حَـمـراءُ فـي الأَحـواضِ إِلا أَنَّـهـا
بَـيـضـاءُ فـي عُـنُـقِ الـثَـرى تَـتَـأَلَّـقُ

هيننج مانكيل
Henning Mankell

"لم يكونوا غير مجموعة

رغم شهرته فى الغرب، ربما لا يعرفه كثير من قراء العربية، الروائى السويدى هيننج مانكيل مبدع «Wallander» والحائز على جوائز أدبية عديدة، كان على متن إحدى السفن المشاركة فى قافلة غزة، والتى تعرضت لهجوم إسرائيلى فى الحادى والثلاثين من مايو الماضى. ونحن هنا - بكل احترام وتقدير - ننشر يومياته التى دونها يوما بيوم من ساعة توجهه إلى مطار نيس فى طريقه إلى نيقوسيا، وحتى عودته إلى ستوكهولم. كما ننشر نص الحوار الذى أجرته معه مجلة DER SPIEGEL الألمانية الشهيرة.

ترجمة: إيمان عبدالهادى الكيلانى

الثلاثاء ٢٥ مايو، نيس Nice

■■ الساعة الخامسة صباحا، أقف فى الشارع انتظاراً لتاكسى يقلنى إلى المطار فى نيسNice. إنها المرة الأولى - منذ وقت طويل - التى يتوافر لى و(E) بعض وقت الفراغ لكى نقضيه معا. فى البداية اعتقدنا أننا قد نستطيع مد إجازتنا معاً إلى أسبوعين ولكنها تقلصت فى النهاية إلى خمسة أيام. يبدو أن السفينة إلى غزة Gaza قد أصبحت جاهزة للإقلاع بشكل نهائى وعلىّ الذهاب إلى قبرص Cyprus للحاق بها كما هو مرتب.

وفقا للتعليمات. لقد جعلت متاعى لا يزيد على حقيبة واحدة ذات وزن لا يتعدى العشرة كيلو جرامات. كان لسفينة غزة هدف محدد بوضوح: هو كسر الحصار الإسرائيلى غير الشرعى.

لقد أصبحت الحياة بعد انتهاء الحرب فى العام الماضى غير محتملة بشكل متزايد بالنسبة للفلسطينيين المقيمين فى غزة، هناك نقص حاد فى الضروريات الأساسية التى تضمن أى نوع من الحياة الكريمة.

ولكن الهدف من الرحلة هو بالطبع أكثر جلاء ووضوحا. الأفعال وليس الكلمات. أعتقد أنه من اليسير أن تقول إنك تؤيد أو تدافع أو تعارض هذا أو ذاك أو هؤلاء ولكن أفعالك فقط هى التى تقدم دليلا على أقوالك.

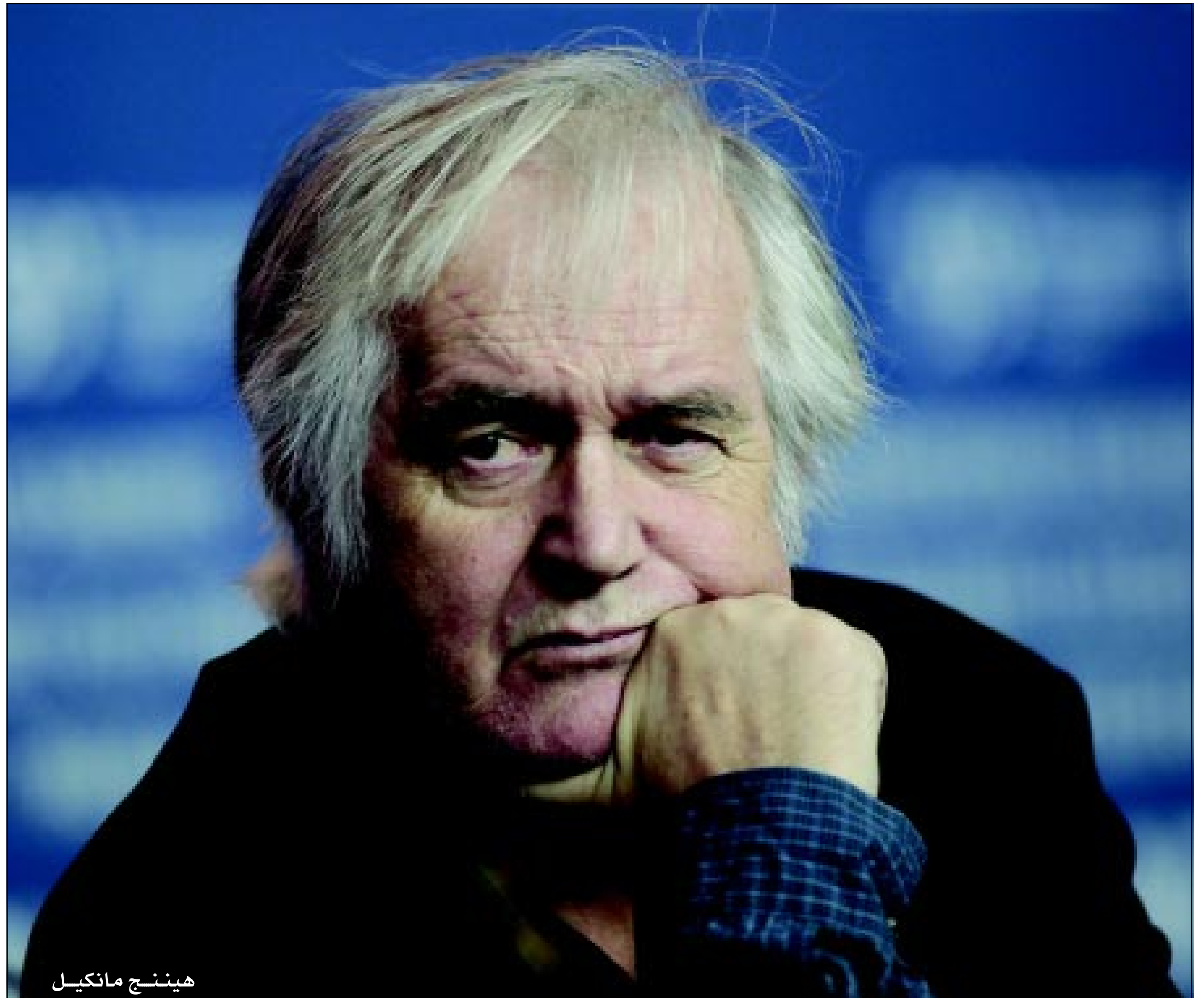
إن الفلسطينيين الذين أجبروا من قبل الإسرائيليين على العيش فى ظل هذا الاحتياج البائس يحتاجون لأن يشعروا أنهم ليسوا وحدهم وأنهم لم يتم نسيانهم. لابد أن يعاد تذكير العالم بوجودهم. نستطيع أن نفعل ذلك بتحميل بعض السفن بما يحتاجون إليه وسوف يكون معظم ذلك من الأدوية ومحطات التحلية لمياه الشرب والإسمنت.

لقد وصل التاكسى ووافقنا على أجرة باهظة! وتحركنا إلى المطار عبر الشوارع الخالية فى الصباح الباكر. لقد جالت بخاطرى ملاحظتى الأولى وأنا الآن فى التاكسى لا أتذكر الكلمات بالضبط ولكنى فجأة أصبت بانزعاج وساورنى شعور بعدم الراحة حيث إن الإسرائيليين يكرهون هذا المشروع وقد يحاولون إيقاف القافلة بأساليب عنيفة.

بمرور الوقت ومع وصولى إلى المطار تلاشت الفكرة وعند هذه النقطة أيضا كان المشروع محددا وشديد الوضوح بالنسبة لى. نحن نستخدم طرقا غير عنيفة ليست هناك أسلحة ولا توجد أية نية للمواجهات الفعلية. وإذا تم إيقافنا فيجب أن يتم ذلك بطريقة لا تعرض حياتنا للخطر.

الأربعاء ٢٦ مايو نيقوسيا Nicosia

إن الجو أكثر دفئا مما كان عليه فى نيس Nice يتجمع هؤلاء- المقرر لهم اعتلاء السفن القابعة هناك فى مكان ما على ساحل قبرص- فى فندق سينتروم Centrum فى نيقوسيا. يبدو الأمر وكأنك فى رواية قديمة لجراهام جرين Graham Greene تجمع من أناس


هيننج مانكيل

«رجلٌ يقتل رمياً بالرصاص. لقد رأيت ذلك حال حدوثه»



غريبة يحتشدون فى مكان مهجور للإقلاع فى رحلة معاً. «نحن ذاهبون لكسر حصار غير شرعى» كلمات يتم تكرارها بلغات عديدة. وفجأة يسيطر شعور كبير من عدم اليقين».

السفن متأخرة، مشاكل متنوعة تنشأ، لم يحدد المنسقون بعد المكان الفعلى للالتقاء. الشىء الوحيد الذى كان مؤكداً هو أنها ستكون فى عرض البحر. قبرص لا ترغب فى استمرار وجود سفننا الست هنا، من المحتمل أن تكون إسرائيل قد فرضت بعض الضغوط.

بين الحين والآخر ألاحظ حدة التوتر بين المجموعات المختلفة التى تشكل قيادة هذا المشروع الثقيل. احتشدت قاعة الطعام بالخدمات كما لو كانت قاعة اجتماعات سرية. تم استدعاؤنا للداخل لكتابة تفاصيل عن الأقارب المقربين للوصول إليهم فى أسوأ

على سفينة مختلفة وأسرع إلى نقطة فى البحر حيث يلتقى المنسقون وهناك سوف نلتحق بالأسطول الذى يضم خمس سفن أخرى حيث ستتم قيادة هذه القافلة من السفن إلى قطاع غزة.

نحن نواصل الانتظار ولكن فى حوالى الساعة ٥ مساءً أعطت لنا السلطات أخيرا الإذن باعتلاء سفينة يطلق عليها «التحدى» Challenge والتى سوف تقلنا بسرعة ١٥ عقدة إلى نقطة الالتقاء حيث سننتقل إلى سفينة البضائع صوفيا. هناك بالفعل الكثير من الناس على متن التحدى.

يبدو أنهم قد شعروا ببعض خيبة الأمل لرؤية ثلاثتنا يحضرون، إنهم كانوا يأملون بوجود أعضاء للحملة Irish أيرلنديين الذين سرعان ما يستسلمون ويتراجعون عن الفكرة عائدين إلى الوطن. لقد اعتلينا

سرعته. الأضواء التى تخفق على مرمى الأفق هى أضواء الملاحة الخاصة بالسفينتين الأخريين فى القافلة. سوف نقبع هنا حتى وضح النهار حينما يكون فى الإمكان نقل الناس إلى السفن الأخرى. ولكنى ما زلت لا أجد مكانا للنوم ويغالبنى النعاس على مقعدى الرطب.

يولد التضامن فى رطوبة وانتظار ولكننا نساعد الآخرين للحصول على أسقف فوق رءوسهم.

الساعة ٨:٠٠

البحر أكثر هدوءا. إننا نقترب من أكبر سفينة فى القافلة إنها عبّارة الركاب. هى ملكة السفن فى القافلة. هناك المئات من الركاب على متنها. كان هناك نقاش كثير حول احتمال قوى لأن تركز إسرائيل جهودها على هذه السفينة تحديدا.

فى الكابينة وكان علينا ممارسة رغبتنا فى القراءة فى وقت آخر.

الساعة ١٦:٠٠ «الرابعة مساء»

لقد تجمعت القافلة. نحن فى اتجاهنا إلى غزة.

الساعة ١٨:٠٠ «السادسة مساء»

لقد تجمعنا فى منطقة الطعام العشوائية الواقعة بين بوابات البضائع والسطح الأعلى للسفينة. كان الرجل اليونانى ذو الشعر الأبيض والمسئول عن الأمن والنظام على متن السفينة يتحدث بهدوء مفعم بالثقة بصرف النظر عن الجوانب الملاحية. لم يعد هناك وجود لكلمات مثل «الانتظار» و«المراقبة» نحن الآن نقترب. والسؤال الوحيد الآن ما الذى نقترب منه؟

لا أحد يعرف ما الذى سيقوم به الإسرائيليون. كل ما نعرفه أن بياناتهم

من اللصـــــوص!!!»

الحالات. كان الجميع منهمكين فى الكتابة ثم طلبوا منا الانتظار. الانتظار والمراقبة Watch and Wait هذه هى الكلمات التى تم استخدامها معظم الوقت وكأنها تعويذة للأيام المقبلة الانتظار ثم المراقبة ثم الانتظار.

الخميس ٢٧ مايو نيقوسيا

الانتظار. المراقبة والانتظار. الحرارة ثقيلة الوطأة.

الجمعة ٢٨ مايو نيقوسيا

بدأت أشعر بالقلق لاحتمال اضطرارى لمغادرة الجزيرة بدون اللحاق بأى سفينة. يبدو أن هناك نقصا فى الأماكن وأن هناك قوائم انتظار لهذا المشروع التضامنى. ولكن (K) عضو البرلمان السويدى و(S) طبيبة النساء السويدية وهما شخصان ودودان كانا مسافرين معى قد ساهما كثيرا فى رفع معنوياتى. أعتقد أن السفر بالسفن قد يتضمن نوعا من المعاناة ونحن نواصل مهمتنا فى الانتظار والمراقبة ثم الانتظار.

السبت ٢٩ مايو نيقوسيا

فجأة أصبح كل شىء يحدث بسرعة كبيرة نحن سنسافر الآن أو ربما اليوم

السفينة وألقينا التحية وسرعان ما تعلمنا القواعد. كانت السفينة ضيقة جدا وهناك كمية كبيرة جدا من الأكياس البلاستيكية المليئة بالأحذية فى كل مكان ولكن المزاج العام كان هادئاً وجيداً يبدو الآن أنه قد تمت الإجابة على كل علامات الاستفهام وبعد قليل دبت الحياة فى محركات الديزل وأخيراً بدأنا فى الحراك.

الساعة ٢٣:٠٠ «الحادية عشرة مساءً»

لقد عثرت على مقعد فى مؤخرة سطح السفينة. الرياح التى تهب ليست شديدة ولكنها كافية لجعل الكثير من الركاب يشعرون بدوار البحر. لقد قمت بلف نفسى فى البطانيات وأشاهد القمر وهو يلقى بضيائه عبر البحر. قلت فى نفسى إن الإجراءات التضامنية من الممكن أن تأخذ أشكالا عديدة. والتذمر يعنى عدم توافر فرص كثيرة للحوار. الآن فقط تظلل الرحلة حالة سلمية ولكنها خادعة.

الأحد، ٣٠ مايو، فى عرض البحر، إلى الجنوب الشرقى من قبرص ٥٥:١

أستطيع رؤية بصيص من الضوء فى اتجاهات مختلفة، أبطأ القبطان - الذى لم أفلح أبدا فى تعلم اسمه- من

أية جهود؟ لقد كان من الطبيعى أن ما فكرنا فيه ملياً منذ بداية هذا المشروع أنه ليس هناك ما يمكننا معرفته على أى قدر من اليقين. هل ستغرق البحرية الإسرائيلية السفن؟ أم ستمنعها بطرق أخرى؟ هل سيمنحنا الإسرائيليون أى فرصة ويصلحون سمعتهم المشوهة؟ لا أحد يعرف. ولكن على ما يبدو أنه من المرجح أن نواجه تحدياً على حدود المياه الإقليمية الإسرائيلية. كان ذلك طبقا لتهديد صادر من مكبرات الصوت من على متن سفن تابعة للبحرية. إذا فشلنا فى التوقف فعلى الأرجح أنهم سوف يضربون لنا المراوح أو الدفة وبعد ذلك سيقومون بسحبنا إلى مكان آخر من أجل الإصلاح.

انتقل ثلاثتنا إلى صوفيا Sofia بواسطة سلم من الحبال. إنها سفينة شحن قديمة ومتهالكة وغنية بالصدأ وبها طاقم ودود، لقد أحصيت عددنا. كنا حوالى خمسة وعشرين فردا. كانت الشحنة تشمل الإسمنت وحديد التسليح والبيوت الخشبية الجاهزة. تم منحى كابينة يشاركنى فيها عضو البرلمان الذى قابلته فى نيقوسيا، توطدت صداقتى به كصداقة قديمة زادت قوتها شيئا فشيئا بمرور الأيام الطويلة. لم تكن هناك إضاءة كهربائية

كانت تهديدا معلنا بأن القافلة سوف يتم منعها بكل الوسائل المتاحة لديها. ولكن ماذا يعنى ذلك؟ هل سيستخدمون طوربيدات؟ أم الحبال الضخمة لشد السفن؟ هل سيهبط جنود من مروحيات؟ لا نستطيع أن نعرف. ولكننا لن نقابل العنف بعنف من جانبنا.

مجرد الدفاع عن النفس بشكل أولى. من ناحية أخرى نستطيع أن نجعل مهاجمتنا أمرا صعبا على مهاجمينا. الأسلاك الشائكة لابد من تمديدها على مدار سياج السفينة ولا بد لنا جميعا من ارتداء سترات النجاة. أعلنت حالة من التأهب والحذر وعين أفراد للمراقبة لإعلامنا بمكان التجمع فى حالة اقتحام جنود أجانب لمتن السفينة. سوف يكون آخر معقل لنا هو الجسر.

ثم تناولنا الطعام. كان الطاهى مصريا ويعانى من ساق مريضة ولكن كان طعامه رائعا.

الاثنين ٣١مايو، عند منتصف الليل

كنت أشارك فى المراقبة على جانب الميناء فى الوقت من منتصف الليل إلى الثالثة صباحا. ما زال القمر كبيرا على الرغم من سحابة كانت تحجبه أحيانا. البحر



هادئ. هناك بصيص من الأضواء الملاحية. لقد مرت الساعات الثلاث بسرعة. عندما جاء شخص آخر ليأخذ دورى فى المراقبة، لاحظت أننى كنت منهكاً. مازال هناك طريق طويل حتى نصل إلى حدود إقليمية يستطيع الإسرائيليون الدفاع المشروع عنها. لابد أن اختطف ساعات قليلة للنوم.

كنت أشرب الشاى وأدردش مع أحد أفراد الطاقم اليونانى الذى يمتلك لغة إنجليزية فقيرة جدا ولكنه يصر على معرفة ما تدور حوله كتبى. كانت الساعة الرابعة تقريبا قبل أن أخلد إلى النوم.

الساعة ٤:٣٠

ما إن غفوت قليلا حتى استيقظت مرة أخرى. خرجت إلى ظهر السفينة ورأيت عبّارة الركاب الكبيرة وهى مضاءة بضوء ساطع. فجأة كان هناك صوت إطلاق نار. لذلك فقد علمت الآن أن إسرائيل قد اختارت طريقة المواجهة الوحشية فى المياه الدولية.

يستغرق الأمر ساعة واحدة بالضبط لقوارب مطاطية سوداء سريعة يستقلها جنود ملثمون لكى تصل إلينا وتعتلى السفينة. لقد تجمعنا أعلى الجسر. كان الجنود غير صبورين وطلبوا منا النزول إلى سطح السفينة. أحد الأشخاص كان يتحرك ببطء شديد تلقى طلقة فى ذراعه وسقط. رجل آخر لم يكن يتحرك بالسرعة الكافية تلقى طلقة مطاطية. إننى أرى كل ذلك يحدث بجانبى. إنه واقع مريع. أناس لم يرتكبوا أى شىء يساقون كالحيوانات بسبب بطء حركتهم.

تم وضعنا فى مجموعة على سطح السفينة. سنبقى لمدة ١١ ساعة حتى تصل السفينة إلى الرصيف فى إسرائيل. فى كل لحظة كان يتم تصويرنا. عندما قمت بتدوين بعض الملاحظات القليلة جاء أحد الجنود فورا وسألنى عما أكتب وكانت هذه هى اللحظة الوحيدة التى أفقد فيها أعصابى وأخبرته أن هذا ليس من شأنه. أستطيع فقط رؤية عينيه ولا أعلم فيم يفكر ولكنه استدار وذهب.

إحدى عشرة ساعة، ونحن غير قادرين على التحرك، محشورون كالقطيع فى جو ساخن. إذا أردنا الذهاب لقضاء الحاجة فعلينا بالحصول على إذن. كان الطعام الذى يقدم لنا هو البسكويت، والبقسماط والتفاح. لم يكن مسموحا لنا بعمل قهوة حتى لو كان ذلك فى مكان جلوسنا. وأخذنا قرارا جماعيا بعدم السؤال حول إمكانية قيامنا بطهى الطعام.

لو فعلنا ذلك لقاموا بتصويرنا، ومن ثم عرض الفيلم كقرينة لإظهار الحفاوة والسخاء اللذين كان الجنود يعاملوننا من خلالهما. لقد تمسكنا بالبسكويت والبقسماط. إنه انحطاط خارج نطاق المقارنة.(وفى أثناء ذلك فقد جذب الجنود الذين كانوا خارج الخدمة المراتب من الكبائن وكانوا ينامون فى الجزء الخلفى من سطح السفينة).

فى خلال هذه الإحدى عشرة ساعة كان لدى الوقت لتقييم الوضع. لقد تعرضنا للهجوم بينما نحن فى المياه الدولية وهذا يعنى أن الإسرائيليين يتصرفون كالقراصنة وليسوا أفضل حالا من أولئك الذين يعملون قبالة ساحل الصومال. ومنذ اللحظة التى بدأوا يوجهون فيها تلك السفينة إلى إسرائيل فنحن نعد مختطفين. إن هذا الحدث برمته غير شرعى. نحن نحاول الحديث فيما بيننا. والعمل على ما قد يحدث وليس فقط ما قد يفعله الإسرائيليون من تصرفات قد تؤدى بهم إلى إلصاق أنفسهم فى ركن الحائط.

الجنود يراقبوننا. البعض يتظاهر بعدم إتقان الإنجليزية. مع أنهم كلهم يفعلون. هناك فتاتان من بين الجنود. يبدو عليهما أنهما الأكثر حرجا. ربما تكونان من النوع الذى يتحطم نفسيا ويتجه إلى الإدمان بعد انتهاء مدة خدمتهم العسكرية. إن هذا كثيرا ما يحدث.

الساعة ١٨:٠٠ السادسة مساء

فى أرض محاذية لرصيف الميناء فى إسرائيل. لا أعلم أين هى. تم اقتيادنا إلى الشاطئ وأجبرنا على الجرى بين درع من صفوف الجنود وكان التليفزيون العسكرى يصورنا. انتابنى شعور بالضغينة تجاههم. لن يحدث أبدا أن أغفر لهؤلاء. فى هذه اللحظة لم أكن أراهم إلا كمجموعة من الخنازير والأوغاد.

تم فصلنا ولم يسمح لأى منا بالحديث مع الآخر. فجأة ظهر رجل من وزارة الشئون الخارجية الإسرائيلية ليكون إلى جانبى. أدركت أنه موجود للتأكد من عدم تعرضى لمعاملة قاسية جدا، فأنا فى نهاية الأمر معروف ككاتب فى إسرائيل وتمت ترجمة أعمالى إلى العبرية وسألنى عما إذا كنت أحتاج إلى شىء.

قلت له: « ماأريده هو حريتى وحريات الآخرين»، فلم يجب. طلبت منه أن يذهب. فتراجع خطوة إلى الخلف ولكنه بقى.

بالطبع لم أعترف بأى شىء، وقيل لى إنه سيتم ترحيلى. الشخص الذى أعلمنى بذلك قال إنه يقدر كتبى كثيرا.

الجو المتهيج والفوضى والتشويش أشياء تخيم على مركز استقبال (asylum-seekers) فى كل لحظة تجد شخصا ما يتم طرحه على الأرض وتقييده وقد تراه مكبل اليدين. لقد فكرت مرات عديدة فى أننى عندما أخبر أحدا بذلك، فلن أجد من يصدقنى ولكن هناك العديد من العيون لكى ترى ما يحدث. سوف يكون هناك العديد من الناس الملتزمين بالاعتراف بأن ما أقوله هو الحقيقة، الكثير منا يستطيع تحمل مسئولية الشهادة.

هناك مثال على ما يحدث. هذا حدث أمامى. فجأة رفض رجل أخذ بصماته. لقد وافق على تصويره ولكنه لا يعتبر أن ما قام به يعد خطأ يستحق بسببه أخذ بصماته. لقد قاوم وتعرض للضرب على الأرض. وقاموا بجره إلى الخارج. لا أعلم إلى أين. أى الكلمات أستطيع اختيارها؟ كريه ؟ لا إنسانى؟ هناك الكثير للاختيار من بينها.

تم اقتيادى ومعى عضو البرلمان والطبيبة إلى سجن لأولئك الذين تلقوا رفضا « لحق الدخول» وهناك تم فصلنا. ثم ألقوا إلينا بعضا من الساندوتشات كريهة النكهة تشبه رائحة منشفة صحون قديمة. يالها من ليلة طويلة لقد استخدمت حذائى الرياضى كوسادة.

الثلاثاء ١ يونيو بعد الظهر

تم أخذى وعضو البرلمان- بدون أى إنذار- إلى طائرة لوفتهانزاLufthansa. سيتم ترحيلنا. رفضنا أن نذهب حتى نعرف ما الذى يجرى مع (S) الطبيبة وعندما تأكدنا أنها هى الأخرى فى طريقها إلى الترحيل غادر كل منا زنزانته.

على متن الطائرة أعطتنى المضيفة الجوية زوجا من الجوارب حيث قام بسرقة جواربى أحد أفراد الكوماندوز الذين هاجموا السفينة التى كنت على متنها.

لقد تحطمت أسطورة الجندى الإسرائيلى الشجاع والمعصوم تماما والآن يمكن أن نضيف: إنهم لصوص معتادون وأنا لم أكن الوحيد الذى تم تجريده من ممتلكاته كالأموال وبطاقة الائتمان والملابس والMP3 والكومبيوتر المحمول فقد حدث ذلك للآخرين معى على نفس السفينة التى هوجمت مبكراً فى الصباح من قبل مجموعة من الجنود الملثمين والذين لم يكونوا أكثر من مجموعة من القراصنة الكاذبين.

فى ساعات متأخرة من الليل عدنا إلى السويد. تحدثت مع بعض الصحفيين. جلست برهة فى الظلام خارج المنزل الذى أعيش فيه. لم تتكلم (E) كثيرا.

الأربعاء ٢ يونيو بعد الظهر

أستمع إلى صوت الشحرور الحزين. أغنية لأولئك الذين لقوا حتفهم.

والآن وحتى لا نغفل الهدف المنشود فإن كل ما حدث كان ضمن تفاصيل محاولة رفع الحصار الوحشى لقطاع غزة. وهذا هو ما سوف يحدث. هناك آخرون يقفون وراء هذا الهدف. إن عملية هدم نظام التمييز العنصرى تستغرق وقتا ولكنها ليست سرمدية. ■



يبدو الأمر وكأنك
فى رواية قديمة لجراهام جرين،
تجمع من أناس غريبة يحتشدون فى مكان
مهجور للإقلاع
فى رحلة معاً




„Erst war es Piraterie, dann Kidnapping“

هل تستطيع منظمة إسلامية مثل حماس بدينها الاستشهادى وازدرائها للمرأة أن تكون شريكا جادا لمفكر يسارى؟

دير شبيجل تسأل هيننج مانكيل

توبياس راب وجيرهارد شبيرل
Tobias Rapp and Gerhard Sporl

■■ شبيجل: السيد مانكيل لقد شاركت فى المحاولة الأخيرة لاختراق الحصار البحرى الإسرائيلى لقطاع غزة ما الذى جعلك تقوم بذلك؟

هيننج مانكيل: لقد دمر الإسرائيليون كل شىء فى غزة عندما هاجموها فى عام ٢٠٠٨ ومنذ ذلك الحين أصبحت حياة الفلسطينيين صعبة إلى حد لا يمكن وصفه. شعرت وبعض الأصدقاء أننا علينا أن نفعل شيئاً حيال ذلك. أردنا أن نعرب عن التضامن معهم، إنهم لا يستطيعون الخروج ولا يسمح لأحد بالوصول إليهم، إنهم لا يملكون شيئا لقد أردنا أن نظهر أن هذا الحصار غير قانونى.

شبيجل: ما هى الكيفية التى نويت الذهاب من خلالها ؟

مانكيل: لقد كنا فى حاجة إلى سفن للقيام بذلك. وكانت الفكرة هى أن نستخدم القافلة فى نقل أشياء إلى هناك تمثل احتياجات ماسة تتراوح بين الإسمنت والدواء والشوكولاتة للأطفال كما أردنا أن يعرف العالم عن المعاناة فى غزة.

شبيجل: من هو الفريق الذى كنت معه؟

مانكيل: كان هناك الكثيرون. أناس متنوعون جداً فى السويد من الكنائس ومنظمات غير سياسية وبعض الأفراد. كان من المفترض لهذه الحملة أن تكون إنسانية بحتة لأننا كنا نعرف أنها لو لم تكن كذلك لحدثت مشاكل.

شبيجل: يتم الحكم فى قطاع غزة من قبل الحركة الإسلامية حماس. ألم يكن من السذاجة تصديق أنكم تستطيعون النفاذ عبر صراع السلطة هناك؟

مانكيل: لقد سئلت مراراً وتكراراً حول هذه المسألة، وكان ردى دائما أننى بطبيعة الحال لا أستطيع ضمان أى شىء. ولكن ما أعدكم به هو أننا نعمل فقط وحصرا مع المنظمات الإنسانية هذا هو الشىء المهم.

شبيجل: هل قمت بالمشاركة فى التجهيزات؟

مانكيل: ليس كثيرا. لقد سمعت عن هذه الحملة لأول مرة منذ عام. وفكرت. إنها فكرة طيبة وعلى الفور وجدت لنفسى دوراً حيث إننى شخص معروف وأعلمت المنظمين السويديين أننى أستطيع أن أكون هناك على الجزء الأخير من الرحلة فقالوا: «إن ذلك رائع».

شبيجل: إنك تقول إن الفلسطينيين فى حالة يرثى لها. هل سبق لك الذهاب إلى قطاع غزة؟

مانكيل: لا، لم يسمحوا لى بالدخول. لقد ذهبت إلى إسرائيل وفلسطين عدة مرات وحضرت مهرجانا أدبيا فلسطينيا فى مدينة الخليل منذ شهر مضى. قمت أيضا بزيارة القدس. لقد حاولنا السفر إلى غزة ولكن منعنا الإسرائيليون. هل تعلم أننى ولدت فى عام ١٩٤٨ وهو نفس عام تأسيس دولة إسرائيل ولذلك فقد رافق هذا الصراع حياتى كلها. بالنسبة لى إن فكرة أن يستمر هذا الصراع إلى أن أموت تعد فكرة لا تحتمل.

شبيجل: هدفك السياسى هو توجيه انتباه العالم إلى الحصار. لقد حققت هذا الهدف ولكن ليس بالطريقة التى كنت تتوقعها. ماهى التجربة التى خضتها على صوفيا Sofia سفينتك؟

مانكيل: كانت القافلة تتكون من ست سفن. وكانت صوفيا هى إحدى أصغر شاحنتين. أنا لم أكن أبداً على متن السفينة الرئيسية مافى مارمارا Mavi Marmara وبدأنا الإبحار من قبرص Cyprus، كنا على مسافة بعيدة فى المياه الدولية عندما هاجمنا الإسرائيليون. لقد كان الوقت متأخراً وكنت متعباً وكنت بالفعل قد أويت إلى فراشى.

شبيجل: فى أى وقت كان ذلك؟

مانكيل: فى الرابعة صباحا بالضبط. وبعد ذلك بنصف ساعة جاء أحد الأشخاص وقال: إن السفينة الرئيسية قد تعرضت لهجوم. ومن مسافة بعيدة رأينا طائرات الهيليكوبتر وجنودا يهبطون إلى سطح السفينة بواسطة الحبال وسمعنا صوت طلقات الرصاص. لم يكن لدينا أى اتصال مع مافى مارمارا ولم أعلم بالقتلى إلا فقط وأنا فى طريقى إلى رحلة طيران لوفتهانزا Lufthansa التى أقلتنى فى عودتى إلى ستوكهولم Stockholm».

ملاحظة من محرر شبيجل: «لقد تم ترحيل مانكيل من قبل السلطات الإسرائيلية».



شبيجل: متى اعتلوا متن سفينتك؟

مانكيل: فى الساعة ٣٥:٥ صباحا. جاءوا فى زوارق سريعة. لقد ذهبنا إلى الجسر وانتظرنا هناك ولم نبد أى مقاومة.

شبيجل: كم كان عدد الأشخاص على متن صوفيا؟

مانكيل: أعتقد أنهم كانوا أربعة وعشرين بما فى ذلك أفراد الطاقم. كان الجنود الإسرائيليون يرتدون الأقنعة الواقية وطلبوا منا أن نذهب إلى الطوابق السفلية. كان البعض منا كباراً فى السن إلى حد ما ولم نكن نتحرك بالسرعة الكافية بالنسبة إلى الإسرائيليين لذلك فقد استخدم الجنود الإسرائيليون أسلحة الصدمات الكهربائية لإجبارنا على السرعة. لقد كان أمرا مروعاً. كان الناس يسقطون. وقد أطلقوا طلقات مطاطية على رجل كان يقف بجانبى. كان الجنود مستعدين لاستخدام العنف ضدنا منذ البداية. وكل هذا تم فى المياه الدولية. حيث لا يوجد أى أساس قانونى لاعتلائهم متن القافلة.

شبيجل: وماذا بعد؟

مانكيل: لقد قاموا بالسيطرة على السفينة ووجهوا مسارها إلى إسرائيل. لقد كان الأمر فى البداية قرصنة وبعد ذلك صار اختطافا.

شبيجل: لقد أصدرت الحكومة الإسرائيلية العديد من التحذيرات بأنها لن تسمح للقافلة بالوصول إلى غزة.

مانكيل: على الأقل كان يجب عليهم أن يتركونا نواصل لمدة ساعتين أخريين حتى نكون على مقربة من الساحل. حينذاك كان يمكنهم القول: إن هذا هو أقصى ما يمكنكم الذهاب إليه. إن الإسرائيليين الآن يدعون أنهم لم يكونوا يريدون إيذاء أو إصابة أى شخص ولكن لماذا - بحق الرب - لم يكتفوا بمجرد تعطيل الرادار أو تحطيم الدفة ؟ لو كانوا فعلوا ذلك لكان الأمر أسهل بكثير ولما تعرض أى شخص للإصابة أو القتل.

شبيجل: وبعد ذلك تم اقتيادك إلى السجن كيف تم التعامل معك ؟

مانكيل: لم أكن أعرف أين سيأخذوننى. لقد وقف الجنود فى صفوف على اليمين واليسار. كان علينا أن نعبر هذه المحنة حيث يقوم المصورون العسكريون بتصويرنا فى أثناء هذه العملية. لقد حولونا إلى معروضات داخل فيلم. ولهذا السبب فأنا لن أغفر للإسرائيليين أبداً. وبعد ذلك أخذوا كل ما نملك من أشياء: الهواتف، المال، الملابس وبطاقات الائتمان. هذه هى الطريقة التى تم من خلالها التعامل معنا. إنهم لصوص.

شبيجل: تدعى الحكومة الإسرائيلية أنها

نص حوار أجرته مجلة DER SPIEGEL الألمانية مع الكاتب السويدى هيننج مانكيل

ترجمة: إيمان عبد الهادى الكيلانى

ديرشبيجل تسأل هيننج مانكيل

فى حالة حرب مع حماس ومن هذه الحالة هى تستمد لنفسها الحق فى التدخل.

مانكيل: إنها غطرسة القوة. إنهم يجرون تلك الحرب إلى أعالى البحار. هل يمكنهم فعل ذلك ؟ لم تكن هناك أية أسلحة على متن القافلة. إنهم مجرد بضعة مدنيين سويديين.

شبيجل: إن الحرب الدعائية اليوم على قدم وساق. لقد بدأ الإسرائيليون فى إطلاق أفلام الفيديو التى تدعم رؤيتهم الخاصة للحادث ويقوم الفلسطينيون بنفس الشىء. إن أشرطة الفيديو المتداولة والتى أخذت على متن مافى مارمارا تظهر مجموعة من الرجال ومعهم مقاليع وهراوات وقضبان معدنية يجهزون أنفسهم للهجوم الإسرائيلى ولكن الصور لا تحكى عما كان يحدث بالفعل.

مانكيل: من يهاجم من هنا ؟ لقد وصلت قوات الكوماندوز فى طائرات هيليكوبتر. لم يكن الناس على ظهر السفينة هم الذين يقلون تلك المروحيات. إلى جانب ذلك فهناك حق الدفاع عن النفس فى المياه الدولية.

شبيجل: ليس من الذكاء ضرب قوات الكوماندوز الإسرائيلية بالهراوات.

مانكيل: أعتقد أن الجنود الإسرائيليين قد استفزوا رد الفعل هذا بشكل متعمد. إنهم كانوا يريدون قتل الناس.

شبيجل: هذا افتراض. ما الذى يجعلك تقول ذلك؟

مانكيل: لقد تحدثت مع سويدى كان على متن مافى مارمارا وقال إنهم أطلقوا النار على فلسطينى فى وسط رأسه. إن هذا يتطلب تحديد الأهداف وهو شىء لابد أن يكون مقصودا.

شبيجل: تجادل الحكومة الإسرائيلية بقولها إن منظمة IHH التركية والتى كانت إلى حد كبير وراء التنسيق والتمويل للقافلة لديها علاقات مع حماس والقاعدة. كما تزعم بوجود أسلحة مخبأة على متن القافلة.

مانكيل: سوف أقص عليكم قصة صغيرة. عندما تجمعنا فى الطابق الأسفل قام الجنود بتفتيش سفينتنا. وعندما عادوا قالوا إنهم عثروا على أسلحة. ماذا كانت تلك الأسلحة؟ إنها شفرات حلاقة وسكاكين الطعام.

شبيجل: أنت معروف بنشاطك الخاص فى أفريقيا. وغالبا ما تقوم برحلات مكوكية بين السويد وموزمبيق. من جهة أخرى فإن دعمكم للفلسطينيين يعد جديدا. كيف تطرقت إلى هذه الفكرة؟

مانكيل: ليست الفكرة جديدة بالنسبة لى فقد قاتلت ضد الظلم طيلة حياتى. كانت أفريقيا هى بؤرة تركيزى ولكننى أبداً لم أتجاهل الصراعات الأخرى.

شبيجل: عندما تتحدث عن الإيدز AIDS والجوع فى أفريقيا فأنت تتحدث عن الحياة والموت. ولكن لا أحد يتضور جوعا فى قطاع غزة على الرغم من العديد من المصاعب.

مانكيل: من وجهة نظرى أن العلاقة بين أفريقيا وفلسطين هى نظام التمييز العنصرى الذى وضعته إسرائيل. لقد عشت تجربة الكيفية التى تم بها تدمير هذا النظام الوحشى فى جنوب أفريقيا. لقد بعث نفس هذا الوحش فى إسرائيل ولكن بشكل مختلف. الفلسطينيون هم مواطنون من الدرجة الثانية. وعندما أرى بعينى الوجه البشع لهذا التمييز العنصرى، فعلى أن أفعل ما بوسعى لتدميره.



شبيجل: بالنسبة للمفكرين الأوروبيين. هناك دولة واحدة فقط فى الشرق الأوسط يستطيعون أن يعيشوا فيها كما يعيشون فى أوطانهم إنها إسرائيل وهى دولة حرة وديمقراطية وذات مجتمع منفتح. ألا تعد مساواتها بجنوب أفريقيا أمرا يشكل مبالغة كبيرة؟

مانكيل: لا أعتقد. لقد حضرت مهرجان الأدب الفلسطينى فى العام الماضى بمدينة الخليل. وكان من المقرر لى أن أتحدث فى حفل الافتتاح بالمسرح الوطنى الفلسطينى بالقدس. وكنا على وشك البداية عندما فتح الباب من قبل الجيش الإسرائيلى الذى عطل الحفل. وقد سألتهم عن السبب فى ذلك فقيل لى إننى أشكل خطراً على الأمن. فتساءلت قائلا: أنا. إننى كاتب؟ وأخبرتهم بأننى كنت هناك من أجل الحديث حول الثقافة. فأجابوا: لن تكون هناك مناقشة. ثم انتهى الحفل. إسرائيل ليست مجتمعا مفتوحا إنها فقط تتظاهر بذلك. إن الناس تتم معاملتهم فيها بالضبط مثلما كان متبعا فى الماضى فى جنوب أفريقيا.

شبيجل: هل تمثل حماس مصدراً للأمل بالنسبة لك كما كان حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى ANC؟

مانكيل: أنا أنتقد حماس بشدة. ولا تروق لى التطورات السياسية فى غزة على الإطلاق ومع ذلك فأنا لا أعرف ما يكفى عن هذه القضية.

شبيجل: هل تستطيع منظمة إسلامية مثل حماس بدينها الاستشهادى وازدرائها للمرأة وعنصريتها حتى أن تكون شريكاً جاداً لمفكر يسارى؟

مانكيل: لقد شاركت فى محاولة إنسانية لكسر الحصار البحرى على قطاع غزة. إنها خطوة هامة للتخفيف من معاناة الفلسطينيين، ولكن لا ينبغى الخلط بينها وبين سياسات حركة حماس. إذا حال انتقادى لحماس دون مشاركتى فى هذه الحملة كونى جزءا منها لفقدت مصداقيتى مع نفسى فكرياً وأخلاقياً، أستطيع أن أفعل شيئا ما ولكن هذا لا يعنى أننى يجب أن أتخلى عن الآخر.

شبيجل: فى جنوب أفريقيا ظهر نيلسون مانديلاNelson Mandela فى اللحظة المناسبة محولاً حزب المؤتمر الوطنى الأفريقى ANC إلى منظمة سياسية قامت بإنشاء دولة مشتركة بين السود والبيض. كيف تتصور مستقبل إسرائيل والأراضى الفلسطينية؟

مانكيل: لسوء الحظ لا يوجد فى إسرائيل أى من مانديلا أو دى كليرك W.F. de Klerk. واقعيا هناك خياران فقط: حل جنوب أفريقياSouth African Solution أو حل الدولتينThe Two-State Solution وأنا لا أعلم ما الذى سيحدث. ولكن إذا استمر كل شىء على ما هو عليه فسوف يحدث انفجار. وهذا هو السبب الذى من أجله يجب أن ينتهى الحصار. إنها الخطوة الأولى إن لم تكن الوحيدة، إنها قد تؤدى إلى حوار حقيقى بين الإسرائيليين والفلسطينيين، أما الكيفية التى سيتم بها ذلك فهى من شأنهم.

شبيجل: إن هذا الصراع معقد بما فيه الكفاية ولكنه ربما لا يشكل أكبر تهديد للسلام فى المنطقة فى الوقت الراهن. هذا التهديد الذى تفرضه إيران من خلال برنامجها النووى المثير للجدل وتنبؤاتها باختفاء إسرائيل من على الخريطة.

مانكيل: إننى قلق للغاية لعدم ثقتى فى هذا الرئيس «محمود أحمدى نجاد» ولا فى رجال الدين هناك. إنهم يريدون أن تكون لديهم أية أسلحة يمكن استخدامها لتدمير إسرائيل. وبطبيعة الحال لا يمكننا قبول ذلك.

شبيجل: ولكن ماذا تريد أن تفعل؟ حملات مثل هذه من الممكن توجيهها ضد دولة ديمقراطية مثل إسرائيل. أما الحكومة الإيرانية فلن تسمح للأمور أن تصل إلى هذا الحد.

مانكيل: لقد وجهت لى دعوة لحضور مهرجان الأدب فى طهران ولكنى رفضتها.

شبيجل: لماذا؟

مانكيل: لأن إيران تزج بالكتاب والمثقفين فى السجن وتجعل بعضاً منهم يختفى. لا أستطيع الذهاب إلى دولة من هذا القبيل.

شبيجل: ولماذا لا تذهب إلى هناك وتفضح هذا القمع؟

مانكيل: لن أكون قادراً على فعل ما أود القيام به وسوف يسيئون استخدامى لأغراض دعائية.

شبيجل: ألم يكن لديك كل هذا القلق بالنسبة لحملة غزة؟

مانكيل: رأيت ما رأيت، شعرت ما شعرت، اعتقدت فيما اعتقدت. لقد رأيت ما حدث للناس وهذا هو ما أود التقرير عنه.

شبيجل: المثقفون الأوروبيون منقسمون بشدة على إسرائيل فعلى أحد الجانبين هناك المنتقدون لإسرائيل مثلك أنت الكاتب السويدى الشهير وعلى الجانب الآخر هناك منتقدو الإسلام مثل الكاتب الهولندى الشهير ليون دى وينترLeon de Winter الذى يلقبك بـ«الأحمق المفيد» لحركة حماس. ماذا تقول له؟

مانكيل: بالطبع أنا لست كذلك. ولكنى أود أن يكون لى نقاش مع أى شخص له وجهة نظر مختلفة سواء كان رئيس الوزراء الإسرائيلى بنيامين نيتانياهو Benjamin Netanyahu أو ليون دى وينتر. ولكن ليس هناك أى معنى لأن نصرخ فى وجوه بعضنا البعض. وبالمناسبة فأنا لدى العديد من الأصدقاء اليهود. كما تنشر كتبى بالعبرية وهى الأكثر مبيعاً، كما أن لدى فرعا يهوديا فى عائلتى.

شبيجل: ما الدور الذى تقوم به فى الوقت الحالى؟ هل ما زلت كاتبا أم أنت سياسى بالفعل؟

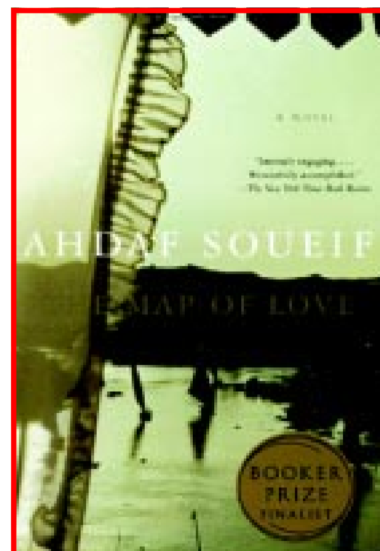
مانكيل: أنا شاهد عيان لأننى كنت هناك. لقد تم بالفعل نشر الكثير من المعلومات الكاذبة، ولذلك فأنا لدى الاستعداد لإعلام الناس بما حدث هناك وماذا يعنى ذلك لأننى كنت على متن إحدى السفن الست. ■

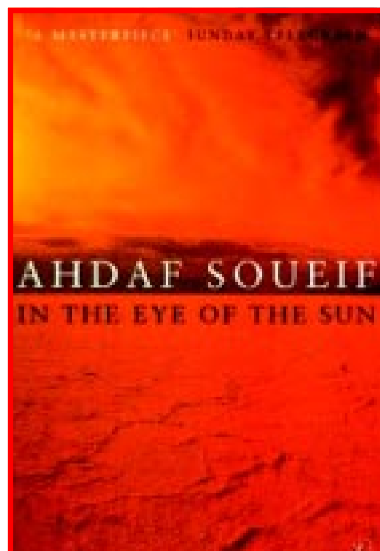
بين استكشاف الذات

رشيد العنانى

■■ أهداف سويف واحدة من الكتّاب الذين يصعب تصنيفهم. فهى مصرية المولد والمنشأ والحساسية ولكن رواياتها المنشورة كُتبت جميعا فى الأصل باللغة الإنجليزية، وأنت إذا ما توجهت إلى إحدى المكتبات الجامعية أو العامة طالبا إحداها، فستجدها مصنفة تحت رقم ٩/ ٨٢٨ وهو الرقم التصنيفى المخصص للأدب الإنجليزى. هكذا حل المكتبيون المشكلة ببساطة: الأدب المكتوب باللغة الإنجليزية هو أدب إنجليزى. لكن المشكلة ليست بهذه البساطة لدى القارئ والناقد.

فاللغة قد تكون إنجليزية لكن الحساسية والخبرة الحياتية والثقافة بمعنييها الأكاديمى والمعاش معا، بل التكوين البيولوجى نفسه بمورّثاته الجينية، والتكوين الاجتماعى بموروثاته من التقاليد والعادات والتقاليد وطقوس الحياة اليومية - كل هذا لا يمت إلى الإنجليزية بصلة. أخطأ المكتبيون إذن، ولنقوّم نحن - النقاد - الخطأ بنزع الكتاب من رفوف الأدب الإنجليزى وإحلاله محله الشرعى بين مصنفات الأدب العربى! على رسلك ! يأتى هاتف آخر. إن المسألة ليست مسألة لغة فقط، فاللغة المكتوبة بها الرواية ليست إلا عارضا لظواهر أخرى من ورائها ولا تقل عنها أهمية. فالثقافة مزدوجة، والنشأة تراوحت ما بين طفولة فى الغرب ويفاعة فى الشرق، والدراسة فى سنى الجامعة وما بعد الجامعة منغرسة فى آداب الغرب، بل إن خير سنوات الشباب والنضج قد عيشت ولا تزال فى الغرب. لقد ألِفنا هذه المشكلة فى أدب المغرب العربى المكتوب قسم كبير منه باللغة الفرنسية لأسباب تاريخية معروفة. وهى مشكلة مألوفة أيضا فى سياق ما يعرف بأدب «الكومنولث»، وهو الأدب الصادر عن المستعمرات البريطانية السابقة باللغة الإنجليزية. أما أن يكتب أدب مصرى باللغة الإنجليزية، فهذا أمر جديد. ومن هنا حيرتنا التصنيفية السابقة. وليس التصنيف بالطبع إلا عنوانا لحيرة أعمق. لمن يتوجه هذا الأدب؟ للقارئ الغربى أم للقارئ العربى؟ لغة الكتابة تستبعد ابتداءً القارئ العربى، لكن القضايا تستهدف هذا القارئ ذاته الذى تستبعده لغتها، فهو يستطيع أن يرى صورة لذاته ولحياته بعيوبها ونقائصها، وأن يستكشف فى ثنايا ذلك رؤية جمالية تصالحه مع ذاته وتشير إلى طريق الخلاص. هو يستطيع ذلك كله ولكن بالإمكان لا الفعل، فالروايات مغلقة أمامه بمتاريس الحاجز اللغوى الغليظة، فهو أمامه الماء ولكن يبقى صاديا غير قادر على الشرب! لا يبقى من حل سوى الترجمة. ولكن فى هذه الحالة أنعدّ هذا أدبا قوميا أم أدبا مترجما؟ إلا أنّ أى ترجمة فى النهاية لا تحاكى الأصل إلا بقدر ما تحاكى صور هذا العالم مُثُلها الأفلاطونية!





الأمر محير وسيبقى محيرا مهما طرحنا حوله من أسئلة ومهما حاولنا الإجابة عليها. ولعل الأجدى من هذا وذاك أن نحاول مقاربة العمل بشىء من الدرس والتحليل كما هو فى ذاته، وأن ندع مشاكل التصنيف والهوية للزمن عله يجد لها مخرجا لا سبيل لنا إليه الآن.

أهداف سويف أديبة مقلّة نشرت روايتها الأولى «عائشة» (Aisha) سنة ١٩٨٣، التى قلّ الحديث عنها، واعترى توصيفها اللبس من حيث النظر إليها باعتبارها رواية أحيانا، وباعتبارها مجموعة من المواقف أو القصص القصيرة المتصلة أحيانا أخرى. بعد «عائشة» بتسع سنوات جاءت رواية سويف الثانية «فى عين الشمس» (In the Eye of the Sun) سنة ١٩٩٢، وبعد تلك بسبع سنوات نُشرت روايتها الثالثة «خارطة الحب» (The Map of Love) سنة ١٩٩٩. والآن وقد انقضت أحد عشر عاما على «خارطة الحب»، ما زلنا ننتظر روايتها الرابعة التى هى فيما نعلم فى طور الكتابة. إلا أننا نسارع فنقول إن العبرة بالنوع وليس بالكم، وأن سويف دائما ما تكافئ قراءها أحسن مكافأة على طول صبرهم. «فى عين الشمس» التى تبقى حتى اليوم للأسف غير مترجمة إلى العربية، عمل كبير تقارب صفحاته الثمانمائة، ومن يطالعها يدرك بغير عناء أى جهد أُنفق فيها وأى صبر وأى بحث من كاتبة كانت وقتها غير متفرغة للكتابة، وإذا كان الإقلال سبيل الإجادة، فهو حرى أن يحسب من المحامد.

«فى عين الشمس» - مثلها فى هذا مثل سابقتها «عائشة» - تنطوى على عنصر كبير من عناصر رواية السيرة الذاتية، وهو ما تقر به أهداف سويف فى مقابلة أجرتها معها صحيفة الـ «صنداى تلغراف» (٢١ يونية ١٩٩٢) حيث تعترف بالتماهى بين سيكولوجيتها وسيكولوجية «آسيا»، بطلة روايتها، وإن كانت تحرص على نفى التطابق الوقائعى بين خبرتها المباشرة وبين خبرة بطلتها، خاصة فى الثلث الأخير من الرواية. وهو أمر طبيعى حيث ينبغى أن يدرك القارئ دائما أن السيرة الذاتية شىء، ورواية السيرة الذاتية (الرواية الأتوبيوغرافية) شىء آخر تماما. فالأولى ليست عملا إبداعيا وإن جاز أن تحتوى على بعض عناصر الإبداع، أما الثانية فعمل إبداعى قائم على المقدرة التخيلية أساسا وإن اعتمد إلى حد كبير على إعادة تشكيل مادة وقائعية ونفسية مستقاة مباشرة من المجال الحياتى للكاتب. وإن كان هذا لا ينفى خلق وقائع وشخصيات جديدة لا أصل مباشرا لها فى حياة الكاتب.

يمكن النظر إلى «فى عين الشمس» باعتبارها نموذجا من ذلك النوع من الروايات الذى يطلق عليه فى الآداب الغربية اصطلاح BILDUNGSROMAN، وهى التى تتبع نشأة الشخصية الرئيسية وتطور وعيها من الصبا إلى النضج، أو إن شئنا المزيد من الدقة فلعلنا نصنفها فى مجال أضيق ونطلق عليها مصطلحا آخر مستعارا أيضا من الألمانية هو

لمن يتوجه هذا الأدب؟ للقارئ الغربى أم للقارئ العربى؟ لغة الكتابة تستبعد ابتداءً القارئ العربى، لكن القضايا تستهدف هذا القارئ ذاته الذى تستبعده لغتها

The Map of Love
Ahdaf Soueif
Anchor, 2000

In the Eye of the Sun
Ahdaf Soueif
Anchor, 2000

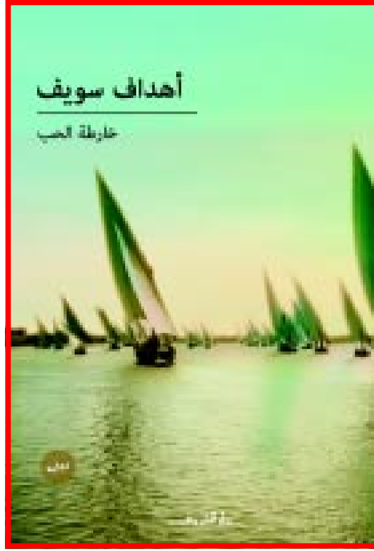
.. واســـتكشـــاف الـوطـــن



لا تنـأى هـذه الحقيقـة
اللغوية الصارمة بالكاتبة قدر أنملة عن ثقافتها الأم، عن مصر وقضاياها
وبشـرها وتاريخهـا



«كونشتلررومان» K?NSTLERROMAN، وهى رواية من نفس النوع السابق إلا أن بطلها الذى تستقصى مراحل وعيه يكون فنانا مبدعا، وغالبا ما تكون «رواية الفنان» هذه رواية سيرة ذاتية فى الوقت ذاته، بمعنى أن سيرة الفنان الذى فى الرواية هى نفسها سيرة كاتب الرواية. ولعل أذيع الأمثلة صيتا على هذا النوع المزدوج هى كلاسية جيمز جويس «صورة الفنان فى شبابه» (١٩١٤-١٩١٥). ومن هذا النوع أيضا فى العربية روايتا توفيق الحكيم «عودة الروح» (١٩٣٣) و«عصفور من الشرق» (١٩٣٨)، وثلاثية نجيب محفوظ (١٩٥٦-١٩٥٧) على سبيل المثال. وهو أيضا النوع الذى نحب أن ندرج فيه رواية أهداف سويف.



تسعى سويف فى روايتها إلى مزج الخاص والعام بحيث تصبح الرواية - التى تمتد عبر رقعة زمنية تقرب الخمسة عشر عاما من ١٩٦٧ إلى ١٩٨١ - فى تقصيها لسنوات نمو البطلة «آسيا» سجلا أو وثيقة للأحداث العامة الكبرى التى مر بها وطنها مصر فى الفترة ذاتها، كما تصبح مدوّنة للعادات الأسرية والتقاليد الاجتماعية لجيل البطلة والجيل السابق عليها الذى تنشأ فى كنفه (وهو ما يجعل منها «رواية أجيال» فى أحد جوانبها تتقصى فعل الزمن فى البشر عبر جيلين إلا أن هذا ليس محورها الرئيسى ولن يتاح لنا التركيز عليه فى هذه المعالجة).

والذى نراه هو أن الكاتبة قد نجحت إلى حد كبير على المستوى الأسرى والاجتماعى فى حين كان حظها من النجاح على المستوى السياسى التاريخى طفيفا. فهى تعطينا صورة حية ودقيقة ومليئة بالتفاصيل عن نشأتها فى كنف أسرة بورجوازية عصرية مثقفة، وثيقة الصلة - من خلال ثقافة أبويها الغربية ومهنتهما فى التدريس الجامعى، وكثرة سفرهما إلى الغرب (حيث قضت آسيا بعض سنوات طفولتها - بأسلوب الحياة الغربية وقيمها الناهضة على التحرر والاستقلالية، وإن بقيت أيضا وثيقة الصلة ببعض القيم الشرقية الأصيلة، خاصة من ناحية التلاحم الأسرى والانتماء القوى إلى العائلة الكبيرة أجدادا وأعماما وأخوالا ... إلخ.

أما على المستوى السياسى التاريخى فالأمر مختلف. تتزامن مراهقة آسيا وسنوات دراستها مع عزّ الفترة الناصرية فى مصر، فتنشأ - مثلها مثل أبناء جيلها كله - عابدة إياه بطلا وطنيا وزعيما عظيما غير منازَع، إلا أن هذا كله ينهار لدى الهزيمة العربية الكبرى أمام إسرائيل فى يونية ١٩٦٧. توثّق الكاتبة حرب ١٩٦٧ (وكذلك حرب ١٩٧٣) فى الرواية عن طريق الإيقاف المتكرر للحدث وإيراد البيانات العسكرية الشهيرة بنصها وفى تسلسلها التاريخى المعروف الذى يبدأ بالأكاذيب والطنطنة الفارغة وينتهى بالإقرار المخذول بالحقيقة المرة. وليس واضحا لماذا تلجأ الكاتبة لهذه التقنية الغريبة. لماذا هذا التجريد والانفصال عن الحدث الشنيع ومراقبته عن بعد فى تغييب كامل لوعى البطلة آسيا التى يصدمها الحدث مثلما صدم الجميع؟ أما كان الأوفق أن ترينا تأثير العام فى الخاص عن طريق دمج الحدث فى وجدان آسيا وكشفه لنا من خلال وعيها المصدوم؟

كذلك نرى آسيا عشية الحرب - التى تقع وسط موسم الامتحانات - تراجع دروس التاريخ ضمن تأهبها للامتحانات القادمة. لكن أى فصول التاريخ تراجع فى تلك الليلة القدرية؟ لا تترك سويف لبطلتها هنا - فى حرصها على التوظيف الكامل لكل الجزئيات - مجالا للاختيار، بل تفرض عليها مراجعة نصوص «اتفاقية سايكس - بيكو» الشهيرة. المغزى واضح.

فالأزمة القائمة والهزيمة الموشكة ليست إلا فصلا جديدا يضاف إلى قائمة النكبات التى جلبتها تلك الاتفاقية المنكودة على المنطقة والتى تتجدد فحواها تجددا تلقائيا غير معلن على مر الأجيال. توظيف بارع ومغزاه واضح بذاته بدون تدخل من الكاتبة. ولكنه يترك إحساسا بأنها البراعة التى تجاوز الحد بإمعانها فى الإخضاع الهندسى للتفاصيل الواقعية فى خدمة الغرض الكلى.



إلا أن الكاتبة توفق توفيقا كاملا فى تفصيل آخر، وذلك حين يغادر خال آسيا منزلهم ذات ظهيرة بعد زيارة، دار النقاش فيها حول الحرب الجارى الاستعداد لها والمشحون الأفق بنذرها. يستقل الرجل سيارته الصغيرة ولا يكاد يمضى بها حتى يتعرض لحادث تتهشم السيارة فيه بين شاحنتين من شاحنات الجيش التى كانت تغص بها الطرقات فى تلك الأيام. يقع الحادث بلا مسئولية إطلاقا على خال آسيا وإنما نتيجة لرعونة السائقين العسكريين ونقص كفاءتهما، وعلى الرغم من أن الرجل لا يقتل إلا أنه يصاب بعجز دائم وتتحطم حياته العملية. حادث واقعى ومقنع تماما فسمعة سائقى الجيش غير الطيبة فى شوارع القاهرة كانت مما يضرب المصريون به المثل. إلا أنه يساق هنا إرهاص بسوء الأداء العسكرى المقبل والذى سيترك أيضا فى جسد الأمة وروحها عاهة فادحة لم تزل بعد تعانى من وبالها. على عكس المثال السابق نرى التوظيف الفنى للجزئيات هنا لا يأتى على حساب الانسياب التلقائى للسياق الروائى.

على أنه بغض النظر عن هذه الجزئية أو تلك يبقى العام والخاص فى الرواية منفصلين. يبقى العام فى عبارة أخرى غير نافذ فى النسيج الروائى، بل عائما فوق طبقاته السطحية. ولعل أحد أسباب ذلك التقنية التى تلجأ إليها الروائية والتى تتمثل غالبا فى التسجيل المحايد الإكلينيكى للوقائع بمعزل عن وجدان البطلة كما أسلفنا. إلا أن السبب الأكبر فى رأيى يرجع إلى كون «فى عين الشمس» رواية ذاتية استبطانية فى المقام الأول تستهدف الاستكشاف المجهرى لأحاسيس بطلتها الحميمة وأدق خلجات وجدانها والتعبير عنه بقدرة وصفية هائلة لا يكاد يعزب عنها شىء. وهذا هو محل تميز الرواية والمجال الذى يكشف أصدق الكشف عن المقدرة الإبداعية للكاتبة.

قصة آسيا ليست قصة ثورة على القيود التقليدية التى ألفنا أن نراها تكبل النساء فى الحياة والفن على السواء، فبطلتنا لا تسعى إلى الانعتاق من أصفاد الأسرة أو المجتمع أو الدين أو النظام السياسى، فلا شىء من هذا يقع فى بؤرة الرواية وإن جاز أن يتواجد بعضه على الهوامش والمسارات الجانبية للحدث. إنما نضال آسيا الأكبر يبذل من أجل التحرر من حب عظيم لكنه مسدود السبيل، حب بلغ من أسره الخانق أن وأد فرديتها وكتم أنوثتها.

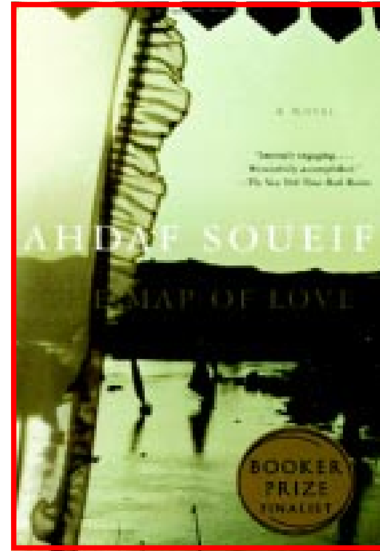
آسيا فتاة جميلة ذكية متفجرة بالحياة، إلى كونها سليلة أبوين مرموقين فى المجتمع. وهى إلى هذا متفوقة فى دراستها وأمامها مستقبل عملى حافل بالوعود. تقع آسيا فى حب «سيف» الذى يكبرها بثمانية أعوام، وتصوره الكاتبة وسيما ذا شخصية ساحرة، ناضجا، واثقا من نفسه، ميسورا ذا عمل مربح، كونه خبيرا فى الحواسب الآلية يومَ كانت تلك خبرة نادرة بعض الشىء فى البلدان العربية. يملك حب



سيف على آسيا مجامع قلبها وتدوم قصة الحب طوال سنى دراستها الجامعية. إلا أنه لا مشكلة هناك، فهو يحبها مثلما تحبه، والأسرتان على اتفاق، وحلم الزواج يتحقق بعد التخرج. ولو بقيت الأمور على ذلك لكانت الدنيا غير الدنيا، ولانتهت الرواية ولمّا تبدأ.

غير أن الأمور لا تبقى كذلك، فالحياة سرعان ما تقطب أساريرها وتنم عن قبحها للفتاة المجدودة من حيث لم تكن تحتسب. ففى ليلة الزفاف يحاول سيف فض بكارة عروسه، إلا أنه حين يرى فرط خوفها من الألم تسيطر عليه أحاسيس الحب والرقة نحوها فينصرف عن إتمام محاولته. عند هذا الحد نكون قد وصلنا من الرواية إلى ثلثها أو أقل قليلا، ويكون لا يزال أمامنا نحو من خمسمائة صفحة وتكون آسيا قد استدبرت نصيبها من بهجة الحياة واستقبلت بكل كيانها آلامها وأحزانها. إلا أن هذه هى اللحظة الفاصلة، اللحظة التى تستتبع كل ما يتتالى من عذاب ووجع قلب. فى تلك اللحظة من تلك الليلة بُذرت بذرة الفساد فى تلك العلاقة الجميلة، فجاءت لحظة تتويجها منزلقا نحو سفح الانفكاك الأليم! وهى مفارقة لا ندركها بالطبع حتى نفرغ من قراءة الرواية ونعيد التأمل فيها.

بعد تلك الليلة ظل سيف يعاود المحاولة إلا أن آسيا - على الرغم من لهفتها على الاتحاد به - كان جسدها فى كل مرة يتقلص وينغلق خوفا من الألم. فى النهاية يكف سيف عن المحاولة وتبقى آسيا زوجة عذراء لسنوات عديدة. وعلى الرغم من هذا يستمر بينهما الحب والولاء والتراعى المتبادل وإن تزايد التوتر غير المعلن، بينما تنمو بذرة الفساد فى بطء ولكن دون انقطاع. ويصعب علينا هنا ألا نلوم الكاتبة التى تتميز منهجها بالتحليل وتقصى دوافع السلوك، والتأمل المتأنى لهواجس النفس، والوصف الدقيق لانسياب الوعى - يصعب علينا وهذا منهجها ألا نلومها لأنها تترك هذا الأمر الجوهرى فى حياة بطلتها وفى بناء روايتها دون تبرير. ما الذى يجعل آسيا المحبة الوالهة المشتهية تتقلص بالرفض مرة بعد مرة؟ لا تعلمنا الكاتبة شيئا عن تربيتها الجنسية، عن تلقينها الخوف من الجنس أو احتقار الجسد، بل الأرجح أنها لم تتعرض لشىء من ذلك لأنها نشأت فى أسرة متحررة



مستنيرة. كما أنه ليست هناك أى محاولة لتفسير الأمر تفسيرا طبيا تشريحيا. ومن جهة أخرى فليست هناك أى شبهة عجز جنسى فيما يختص بسيف (لاحظ المفارقة فى الرمزية الجنسية التى ينطوى عليها الاسم، فهو «سيف» لا يقوم بمهمته الاختراقية. بل إن اسمه الكامل هو «سيف ماضى»، ما يكوّن على المستوى المعنوى عبارة من صفة وموصوف، والسيف الماضى - كما هو معلوم - هو السيف الحاد القاطع، وهو ما يضيف إلى حدة المفارقة فى الاسم. على أن هذا كله رمزية مفقودة لدى القارئ الإنجليزى الذى لن يفهم دلالة الاسم.)

بعد مضى عامين على الزواج تتغير الظروف العملية لآسيا وسيف بما يجبرهما على العيش الواحد بمنأى عن الآخر فلا يلتقيان إلا فى العطلات والمناسبات، ذلك أن عمل سيف يستلزم تواجده فى الشرق الأوسط بينما تسافر آسيا إلى بريطانيا لتحضر لدرجة الدكتوراه فى الأدب الإنجليزى فى إحدى جامعات الشمال. وعلى انفصالهما المعاشى فإن التوتر لا يزول من بينهما فى لقاءاتهما القصيرة، وتبقى المشكلة الجنسية قائمة. وإذ تنفرد آسيا بحياتها فى مناخ شمال إنجلترا البارد الموحش يتفاقم إحساسها بالوحدة والثبوط والأسى لأنوثتها غير المتحققة.

تحت هذه الضغوط كلها تنبذ آسيا عهد الإخلاص لزوجها وتدخل فى علاقة جنسية عارمة مع شاب إنجليزى يُدعى جيرالد ستون، ويتحقق جسديا بينهما فى لحظات ما لم تنجزه معاشرة سنوات مع سيف (ولنلاحظ مرة أخرى أن الاسم ينطوى على إمكانيات رمزية فـ Gerald اسم من أصل جرمانى معناه «الطاعن بالرمح» كما أن Stone تعنى بالإنجليزية «حجر»، وبذلك يجمع الاسم فى مدلوله بين مفهومى «الاختراق» و«الصلابة» مما لا تخفى دلالته فى هذا السياق.) تسيطر هذه العلاقة على الثلث الأخير من الرواية، وتبدو آسيا الطرف الأقوى المسيطر فيها (عكس الحال فى علاقتها مع سيف). وتتسم العلاقة بالحسية الخالصة فلا حب فيها وإنما جسد فقط. يتعلق جيرالد بآسيا ويلاحقها ملاحقة شديدة ولا تتمكن من نبذه فى النهاية إلا بصعوبة بالغة. وتصوره الكاتبة على نحو عام تصويرا لا يبعث على الإعجاب به أو التعاطف معه (عكس تصويرها لسيف). فهو يتمتع بجاذبية حيوانية ولكنه على شىء من السوقية، ويفتقر إلى تهذيب «الجنتلمان»، كما أنه لا يستنكف أن يستغل آسيا ماديا عند سنوح الفرصة. وتتأكد ماديته كون موضوع دراسته «إدارة الأعمال» أو شيئا من هذا القبيل عمليّ التوجه، على حين أن آسيا تدرس الثقافة الحقيقية متتبعة أساليب الشعر الإنجليزى عبر عدة قرون.

هنا يطرح سؤال ذاته فى إلحاح. ما الذى تسعى الكاتبة إلى تصويره من خلال هذه العلاقة؟ أهو تناول جديد للموضوع المتكرر فى الرواية العربية منذ بضعة عقود: اللقاء أو الصدام بين الحضارتين الشرقية والغربية؟ هذا الاحتمال قائم بالتأكيد وإذا كان لنا أن نمعن فى التفسير، فالصفات السالبة لـ«جيرالد» (الغرب) من ناحية، والطبيعة الجسدية المادية الصرف للعلاقة بينه وبين آسيا (الشرق) من ناحية أخرى، تبدو تكريسا فنيا للمقولة الشرقية السائدة (حقا أو باطلا!) بأننا نحن الشرقيين أسمى روحيا من الغرب وأعرق حضاريا، وأن الغرب ليس لديه ما يقدمه لنا سوى أمور المادة ومتطلبات راحة الجسد.

يدرك سيف بحسه الباطنى حين يلتقى بزوجته أن ثمة شيئا غير طبيعى ولا تقوى هى على خداعه فينكشف له كل شىء. ولا يستطيع سيف التعايش مع فكرة تدنّس زوجته فينفصلان بالطلاق إلا أنه يبقى معنا الإحساس بأن حبهما لا يموت بالانفصال. ولكن قبل الفراق وفى سورة الغضب يضاجع سيف زوجته فى مشهد اغتصابى عنيف. ما معنى هذه المفارقة؟ لماذا ينجح سيف الآن فيما فشل فيه طيلة سنوات؟ لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال إجابة مقنعة، ولا أدرى هل هذا بسبب قصور أدواتى التحليلية أم بسبب قصور أدوات الكاتبة التعبيرية، أم بعدُ بسبب تعقيد الرمز. إذا أخذنا آسيا بمعناها الرمزى كممثلة لحضارة الشرق وروحه الحية، فهل يمكن القول بأن الشرق (سيف) لم يعرف قيمة «ذاته» إلا بعد أن انتهكها الغرب «جيرالد» ومهّد له سبيل تناولها؟ أى أن الذات لا تُكتشف إلا عن طريق الآخر؟ هذا الفرض هو غاية ما عندى كناقد، وهو قد يبدو مفتعلا بعض الشىء، إلا أن ترك المفارقة بلا تفسير ذنب أكبر حيث لا يتقبل البناء الرمزى للرواية ذلك.

وإذا كانت العلاقة بين آسيا وجيرالد ذات بعد رمزى كما رأينا، فكذلك العلاقة الأهم بينها وبين سيف. إن سيف كما تصوره الكاتبة فى مواقف علاقته ببطلتها يبدو وكأنه رمز للعقل والمحافظة والبرود، للتدبير المحسوب، للنظرة القاطعة الجازمة التى لا تعرف ترددا أو حيرة بين هذا الخيار وذاك. أما آسيا فتكاد تكون عاطفة خالصة، متوهجة بكل كيانها لمعرفة الحياة، تحركها رغبة جامحة فى أن تعرف وتجرب وتكتشف، فى أن تمارس حقها البشرى اللصيق فى التردد بين الخطأ والصواب. ثمة صراع قيم إذن على الصعيد الرمزى. وبذلك يكون رفض آسيا لسيف فى النهاية احتفالا - فى معنى من معانيه - بانتصار عاطفة الحياة على كوابح العقل والجمود. ولما كان الاسم الكامل لسيف هو سيف ماضى، ولما كانت الأسماء فى هذه الرواية تبدو مختارة بعناية، تُرى هل يكون من الشطط أن نرى فى لقب «ماضى» تضمينا رمزيا آخر إضافة لما رأيناه من حيث صلته الوصفية لاسم «سيف»؟ وإذا كانت آسيا تمثل روح الشرق الحية الوثابة المواكبة لحركة الحياة قُدُمًا، ألا يكون «ماضى» بجموده ومحافظته وأحادية رؤيته للأشياء ممثلا رمزيا لما هو ميت وما هو بائد فى الشرق؟ لما هو عاجز عن مواكبة الحياة المتجددة لكونه «الماضى»؟

فى النهاية تعود آسيا إلى مصر، إلى «الأبواب التى بلا مزاليج، إلى حياة الطفولة التى لم تغيرها حدثان الزمن» على حد قول الشاعر الإنجليزى ريدارد كِبلينغ Kipling الذى تتصدر قصيدته «أغنية الأطفال الحكماء» الفصل الأخير



يبقى العام والخاص

فى رواية «فى عين الشمس» منفصلين. يبقى العام فى عبارة أخرى غير نافذ فى النسيج الروائى، بل عائما فوق طبقاته السطحية



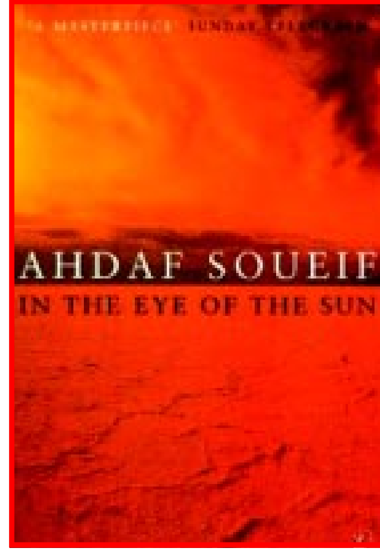
من الرواية. تعود وقد تحررت من أسر سيف ماضى، كما تحررت من علاقتها العابرة بجيرالد ستون. تعود وقد أنجزت دراستها الصعبة رغم ما تعرضت له من عواصف. تعود امرأة جديدة حرة مالكة لزمام نفسها ومشرفة على مستقبل حافل بالوعود. وفى طريق عودتها من رحلة بالسيارة إلى صعيد مصر تتوقف آسيا عند موقع أثرى مهجور قرب بلدة أخميم. هناك ترى تمثالا لأميرة مصرية قديمة مطروحا على الرمال، نصف مستخرج، نصف مدفون. وجه الأميرة يكشف عن نبل وجمال كامل أخّاذ. يقول حارس الموقع لآسيا إن المظنون أن الأميرة كانت محظية من محظيات رمسيس الثانى. تتذكر آسيا ما رأته من صور بشعة لمومياء الملك الجبار، وترى فى خروج الأميرة من ظلمة القبر إلى «عين الشمس» انتصارا على الفناء الذى لم تسلم منه جثة مستعبدها القديم، وتحررا من أسره ولو بعد ثلاثة آلاف من السنين. وبصورة تلقائية يحدث التماهى لدى القارئ بين آسيا وبين الأميرة القديمة. كلتاهما انتصرت على «الماضى» وخرجت إلى نور الشمس والحرية والانعتاق وتحقق الذات وتجددها المستمر إلى غير انتهاء عبر مراحل الحياة والتاريخ. فليست الأميرة إلا آسيا (مصر؟) قبل ثلاثة آلاف من السنين، وليست آسيا إلا الأميرة الراقدة فى الرمال وقد انبعثت جديدا بعد ثلاثة آلاف من السنين!

بلحظة التجلى epiphanic moment هذه، تحتل كل قطعة من قطع أحجية الصور jigsaw موقعها المعلوم فى هذا البناء الكبير. وإن كان الفن يضفى الشكل على هيولية الحياة، أفليس شأن النقد أن يضفى الشكل على هيولية الفن؟

إذا انتقلنا إلى «خارطة الحب» فسنجد أنه ليست أهداف سويف الروائية وحدها التى كتبت هذه الرواية، وإنما شاركتها فيها الدكتورة أهداف سويف الباحثة الأكاديمية، الحاصلة على الدكتوراة من جامعة «لانكستر» الإنكليزية فى أواخر السبعينيات. ويستطيع القارئ أن يتخيل مقدار ما عكفت عليه الكاتبة من تواريخ مصر وتواريخ الإمبراطورية البريطانية فى القرنين التاسع عشر والعشرين، ومن سير أعلامها وساستها من أمثال غوردون باشا واللورد كرومر واللورد كتشنر ومن هو أقل منهم ذيوع صيت، كما يستطيع أن يتخيل مقدار ما زارته من دور الوثائق وأرشيفات الصحف للاطلاع على ردود الفعل المباشرة لأحداث الساعة فى الفترات التاريخية العديدة التى تتعامل معها الرواية. يستطيع أيضا أن يتخيل مقدار ما قرأت من أدب الرحلات ومراسلات الرحالة الإنجليز من النساء والرجال فى أواخر القرن التاسع عشر ومطالع العشرين ليس فقط لاستقاء المادة الروائية، واستكناه ذهنيات الشخصيات، وإنما أيضا لتقمص أساليبها فى الحديث والكتابة. ويستطيع القارئ أيضا أن يتخيل مقدار ما زارته من أماكن ومبان تاريخية وما كابدته فى مراجعة ما تبدو عليه اليوم بما كانت تبدو عليه قبل مائة عام وقت أحداث الرواية حتى تكون صادقة فى وصفها. يستطيع القارئ أن يتخيل كل هذا، فإذا ما فعل فهو على بداية الطريق الصحيح لتصور مدى ما تنطوى عليه «خارطة الحب» من جهد بحثى إضافة إلى جهد الخيال المبدع.

الرواية كما يعلم القارئ مكتوبة أصلا باللغة الإنكليزية مثل روايتها الأسبق «فى عين الشمس»، إلا أن «خارطة الحب» كانت أسعد حظا، إذ نُقلت إلى العربية على يد أستاذتى، الدكتورة فاطمة موسى (١٩٢٧-٢٠٠٧)، الأكاديمية والناقدة الأدبية المعروفة، والتى هى لمن لا يعلم والدة الكاتبة، وصدرت مؤخرا فى طبعة ثانية عن «دار الشروق» فى القاهرة. إلا أن أهداف سويف تدهشنا وهى تكتب باللغة الإنجليزية للمتكلمين بها - تدهشنا إذ لا تنأى بها هذه الحقيقة اللغوية الصارمة قدر أنملة عن ثقافتها الأم، عن مصر وقضاياها وبشرها وتاريخها. تدهشنا هى العائشة فى لندن، المتحركة فى دوائرها الثقافية وفى أوساطها اللامعة منذ ثلاثة عقود من الزمن أو نحوها، تدهشنا بحفاظها على حس مصرى رهيف، بوعيها المتابع لقضايا الناس اللصيقة، بقدرتها على النفاذ إلى شواغل حتى الفلاحين وبسطاء الناس وإنطاقهم فى لسان يميزهم حتى فى اللغة الإنجليزية. ألا فليشهد القاصى والدانى أن الانقطاع عن الأوطان والمقام فى ديار الأغراب إنما يزيد من الانتماء، ويشحذ المحبة، وأن معايشة «الآخر» هى خير سبيل للاقتراب من «الذات».

والحق أن الكاتبة تبدو على وعى



دقيق بأهمية اللغة كأداة للتواصل بين الحضارات، ففى إحدى رسائل لليدى آنا وينتربورن، بطلة الرواية الإنكليزية التى تزوجت مصريا وأثارت سخط قومها فى ذروة السيطرة البريطانية فى مصر، تتمنى لو كان هناك مصرى يستطيع أن يخاطب الرأى البريطانى العام ليقنعه بعدالة القضية المصرية، مصرى «يستطيع أن يستخدم الاصطلاح المناسب، أن يسوق الصورة المعبرة أو يقتطف العبارة الملائمة، مصرى يستطيع أن يعزف النغمة الصحيحة فينفذ إلى قلوب الشعب البريطانى وعقولهم...» (ص٣٩٩ من الطبعة الإنكليزية) ليس هذا صوت الليدى آنا وحدها قبل مائة عام، وإنما هو صوت أهداف سويف اليوم وصوت كل مثقف عربى يعيش فى الغرب ويفهم ثقافته ويفهم كيف يُخاطب الناس وكيف تُحرّك مشاعرهم، وهو ما لا تفهمه الغالبية العظمى من قادة العرب وساستهم، الذين يركزون اتصالاتهم على قواد الغرب، جاهلين أن الطريق إلى أسماع أولئك إنما يمر أولا بالرأى العام لشعوبهم، وهو الطريق الذى يتركه العرب مجالا مباحا لإسرائيل وحدها. والمفارقة أن رواية سويف نفسها هى مصداق أمنية شخصيتها الليدى آنا: فهاهو صوت مصرى عربى يخاطب الجمهور الغربى باللغة التى يفهمها، لغة الفن الرفيع مكتوبا بالإنكليزية، وها هى صفحة من التاريخ البريطانى المصرى العربى تفتح للمراجعة أمام الأجيال المعاصرة من البريطانيين والغربيين عموما علهم أن يفهموا نظرة الآخر إلى تاريخهم الكولونيالى، وعلهم أن يفهموا أيضا مسئوليتهم الأخلاقية عن الإرث غير الطيب المتمثل فى إسرائيل الذى تركته سياستهم فى المنطقة. والجميل فى الأمر أنها صفحة تفتح فى هدوء وموضوعية وبنظرة إنسانية جمالية تستهدف الفهم والإفهام لا التجريم والإدانة، نظرة تترك الغربى فى النهاية مدركا لبشرية الآخر الشرقى ومثليته عن طريق إشراكه فى حياته اليومية، فى آماله وإحباطاته، فى مسراته وأحزانه، فى عاداته وعباداته إلى آخر ما تصوره الرواية من خلال عيون الليدى آنا فى الماضى وإيزابل الأمريكية فى الحاضر.

الليدى آنا وينتربورن تمثل الصوت الآخر فى قصة الإمبراطورية البريطانية من حيث علاقتها بالبشر الخاضعين لحكمها، تمثل الصوت الذى لم يُسمع إبان مجد الإمبراطورية لأنه كان خافتا وكان نادرا، صوت التسامح، صوت الانفتاح على الآخر المخضَع المحكوم، الصوت الراغب فى التعلم، الناقد للذات، المدرك لبشرية الآخر ونديته حتى وهو تحت سيطرته الاستعمارية. هى تذكّر بشخصية مسز مور، فى رواية إى. إم. فورستر (١٨٧٩-١٩٧٠) الشهيرة «رحلة إلى الهند» (١٩٢٤)، والتى تتعامل أيضا مع قضايا العلاقات بين الحضارة الحاكمة المستعمِرة وبين الحضارة المحكومة المستعمَرة على المستوى البشرى الفردى، فمسز مور أيضا كانت من ذلك النوع النادر الذى يشذ عن أخلاق القطيع ويرى بشرية الآخر وإن كان كل من حوله ينغمس فى الفلسفات والممارسات الاستعمارية العنصرية. وليست الليدى آنا الشخصية الإنجليزية الوحيدة فى الرواية من هذا النوع، فهناك حموها السير تشارلز الذى تواليه برسائلها من القاهرة، فهو لم يوافق على خدعة الغزو البريطانى - المصرى للسودان، وكان من منتقدى سياسة بلده فى جنوب إفريقيا، بل هناك إدوارد ابن السير تشارلز وزوج آنا الأول الذى يشارك فى الحملة البريطانية المصرية للقضاء على الثورة المهدية، ثم لا يحتمل ضميره ما رأى وما تورط فى ارتكابه من فظائع فينسحب إلى ظلمة داخلية بعد عودته من السودان مغلقا ذاته على حقيقة مرعبة لم يستطع التعايش معها فاختار أن ينزوى فى صمت.

أهداف سويف تريد أن 

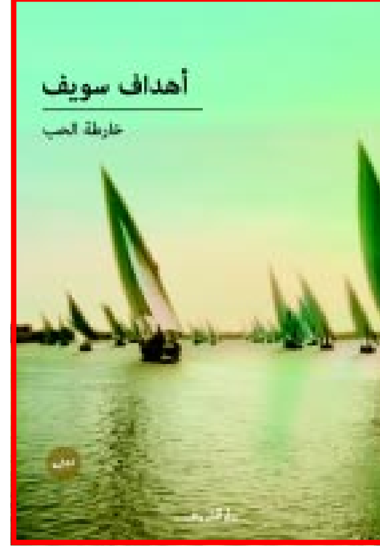


تعد «خارطة الحب» بحق أنشودة فى مدح التعددية على أى مستوى نظرنا إليها، فهى متعددة الأزمان، متعددة البيئات، متعددة الثقافات، وهى تعددية فى تمثيلها لشتى طبقات المجتمع



تبرز من طريق الأدب الروائى ما لم يبرزه التاريخ، وكأنها تريد أن تقول من طريق غير مباشر أن تلك الأصوات التى أهملها التاريخ أو لم يلاحظها إطلاقا لأنه كان مشغولا بالإنصات إلى أمثال اللورد كرومر واللورد كتشنر، وتدوين فظائعهم معتقدا أنها أمجاد كبرى - كأنها تريد أن تقول أن تلك الأصوات هى الأصوات الأجدر بذاكرة التاريخ، أن فعل تلك الضمائر هو الأصلح للتدوين، وأنها هى التى تبقى ونهجها المقرِّب بين البشر هو الذى يسود بعد أن تزول كل الأمجاد الزائفة للغزو والسيطرة والتعصب للذات على حساب إنكار الآخر. «خارطة الحب» تبدو لى تجسيدا فنيا لمسألة الاستشراق بمعناه عند إدوارد سعيد (١٩٣٥-٢٠٠٣)، إذ تحاول سويف أن تنفذ فى الذهنية الإمبراطورية التى جعلت ظاهرة الكولونيالية واستمرارها قرونا أمرا ممكنا. وإن كانت الرواية بتصويرها لنشأة الوطنية المصرية وبتصويرها المثالى الشعرى للأسرة المصرية ولفروسية الأخلاق المصرية، إن كانت بهذا كله تدحض الاستعلاء الاستشراقى وتعرى ادعاءاته العنصرية الزائفة فى ذلك الزمان، فإنها فى الوقت ذاته تبحث عن الجذور التاريخية للتسامح والتوادد البشريين، تبحث عن عناصر اللقاء والتماثل فى أوج لحظات التصادم والتنافر. كم آنا وينتربورن كانت هناك يوم كان جنود الإمبراطورية وإداريوها وتجارها يجوبون أرجاء المعمورة فى صلف المستعمر المتجبر المحتقِر لمحكوميه؟ لا شك أن أمثالها كانوا يعدون على الأصابع، إلا أن سويف تريد أن تؤكد وجودهم ومعناه الرمزى وحتمية انتصاره على المدى الطويل.

تعد الرواية بحق أنشودة فى مدح التعددية على أى مستوى نظرنا إليها، فهى متعددة الأزمان بمراوحتها بين حيوات الأجيال من نهايات القرن التاسع عشر إلى نهايات العشرين، وهى متعددة البيئات بتنقل الحدث بين مصر وبريطانيا وأمريكا، وهى متعددة الثقافات بملاقاتها للحضارتين العربية والغربية، وهى تعددية فى تمثيلها لشتى طبقات المجتمع من أثرياء وفقراء، متعلمين وبسطاء، حكام ومحكومين. أما على المستوى الفنى فينعكس كل هذا التعدد المعنوى فى تعدد أصوات السرد من الليدى آنا وينتربورن الإنجليزية ما بين



مراسلاتها ويومياتها، إلى معاصرتها وأخت زوجها المصرية ليلى البارودى، إلى أمل حفيدة ليلى التى يمزج السرد بين افتتانها بتاريخ آنا الذى وقع بين يديها وبين استخدامها هذا التاريخ لتركيب مفردات حياتها وحياة أسرتها وحياة وطنها فى الأجيال السابقة ولفهم اللحظة الحاضرة فى ضوء الماضى، إلى إيزابل الأمريكية التى تبدو وكأنها امتداد فى الحاضر لآنا البريطانية فى الماضى. وهو تعدد سيمفونى تقوده عصا المايسترو سويف فى تنسيق بديع لا تزاحم فيه نغمة أخرى، وإنما ينصاع كل صوت لقواعد الهارمونية والكونترابُنطية فى تآلف ثرى جميل. هذه التعددية على كل المستويات ليست مصادفة، وإنما هى تنبع من الروح السارية فى أوصال الرواية والتى تقول بأن التاريخ متصل المراحل، وأن حيوات الناس متصلة فى الزمان الواحد، كما فى الأزمنة المتوالية، وفيما وراء بقاع الجغرافيا ورطانات اللغة واختلافات الثقافة. هذه التعددية ظاهرية paradoxical فقط لأن الرواية لا تريد أن تؤكدها أو تبرز ما قد ينجم عنها من تنافر، وإنما تريد أن تؤكد التآلف الكامن فيها والذى تعمى عنه عيون البشر فى بعض لحظات التاريخ الخاصة أو العامة تحت وطأة الطمع وأوهام القوة والسؤدد، إلا من أضاء طريقه الحب فرأى من وراء تلك الحجب التماثل الكامن فى الاختلاف، وهو المثال الذى تقدمه لنا قصة آنا وينتربورن. ولعل هذه لحظة مواتية للتوقف عند عنوان الرواية. إن «خارطة الحب» هى الخريطة التى تريد الكاتبة أن تحلّها محل خرائط الجغرافيا، التى هى خرائط الحدود الطبيعية والحدود السياسية، خرائط الفرقة والصراع والتنافر، أما خريطة الحب، فهى خريطة بلا حدود ولا حواجز ولا نقاط عبور. هى خريطة التآلف والتسامح والتفاهم بين الأفراد والحضارات، وهى الخريطة التى تدعو الرواية البشر أن يترسموا بها الطريق فى رحلة الحياة.

تقوم الرواية فى بنيانها الفنى وفى محتواها الفكرى معا على جدل متواصل بين الماضى وبين الحاضر، فهى - كما رأينا - رواية متعددة الأجيال، يدور حدثها الرئيسى على مستويين منفصلين على الصعيد الزمنى، فأحدهما يسبق الآخر الذى هو اللحظة التاريخية الراهنة بمائة عام ويجرى موازيا له، وأبطال الحدث المعاصر هم أحفاد أبطال الحدث التاريخى. وعن طريق مداولة السرد بين الجيلين واللحظتين - وهو ما تؤديه سويف ببراعة - تتفتق الرؤية ويتضح المعنى. فعلى الرغم من القرن الفاصل فالتشابه بين اللحظتين كبير، فكلتاهما لحظة نضال وطنى وصراع مصيرى: فى الماضى كان الصراع ضد هيمنة الاحتلال البريطانى، وفى الحاضر ضد الهيمنة الإسرائيلية فى المنطقة، وإذا كان شريف باشا البارودى يمثل الوطنية المصرية فى الماضى، فإن عمر الغمراوى، سليله المعاصر الذى تمتزج فى عروقه الدماء المصرية والفلسطينية، الأكاديمى والموسيقار الذى يعيش فى نيويورك ويحير الأمريكان بين الإعجاب بعبقريته والتحفظ من تكريسه جهده الفكرى للقضية الفلسطينية، عمر الغمراوى هذا (والذى يبدو شخصية مُنَمْذَجَة على قالب إدوارد سعيد) هو تجسيد الوطنية العربية فى الحاضر، واغتياله فى سنة ١٩٩٨ هو امتداد لاغتيال شريف باشا فى سنة ١٩١١، وتأكيد على أن النضال الوطنى العربى لا يزال يواجه نفس المأزق المصيرى وإن تغيرت المراحل. هذا التوازى بين التاريخ والحاضر ينطوى على رؤية سوداوية، وإن كان الواقع مصداقها. هى رؤية تنعى ضياع قرن من الزمن دون تعلم درس التاريخ، فالزمن يمضى والإنسان المصرى والعربى يجد ذاته فى نفس الموقع، يواجه اليوم نفس المأزق الذى بُذرت بذوره فى الماضى، وإن تغير اللاعبون. ولا يقتصر الثبات على المواجهة التاريخية بين ذات قاصرة وآخر عدوانى، وإنما يمتد إلى بعض أساسيات المعاش والتنظيم الاجتماعى من قبيل العلاقة بين الدين والدولة، فنجد حوارا يدور فى عام ١٩٠١ حول تكفير أحد رجال الدولة لأنه يؤيد إنشاء مدرسة للفنون فيلقى اتهاما بالكفر من بعض رجال الدين المحافظين حيث إن التصوير والنحت عندهم مما لا يجيزه الدين، وإن كان مثل هذا الجدل ممكن تصوره فى سياق مصر ما زالت تتعثر عند مشارف الحداثة فى مطلع القرن الماضى، فالذى يوجع هو أن الحوار الدائر يبدو ذا رنة عصرية تماما لأننا نعلم أن هذا الجدل أو شيئا شبيها به ما زال ممكنا بل واقعا فى بعض أوساط مصر وغير بلد عربى. على كل مستوى إذن تبرز سويف عن طريق نهجها السردى الذى يقابل الماضى بالحاضر تاريخا ضائعا وفرصا مهدرة ودروسا لم يُستفد منها.



على أن الجدل فى الرواية ليس فقط جدلا زمنيا بين الماضى والحاضر، وإنما هو أيضا جدل بين الخاص والعام، بين العلاقات الفردية والأحداث الكبرى التى تصنع التاريخ وتؤثر فى حياة الأفراد. فعلى المستوى العام، ثمة احتلال بريطانى لمصر، وثمة سخط مصرى على السيطرة الأجنبية يقابله احتقار بريطانى عنصرى يُعلى مبادئ القوة والمصلحة على نوازع الحق والأخلاق. أما على المستوى الفردى فثمة رجل مصرى (شريف باشا البارودى) فى صدارة النضال الوطنى ضد الاحتلال وثمة امرأة بريطانية من علية الطبقة الحاكمة المسيطرة المحتقرة للمصريين يتحابان ويتزوجان فى علاقة رومانسية آسرة تتحدى تلك العوائق العامة الكبرى. لو كان كل البريطانيين مثل الليدى آنا وينتربورن فى سماحتها وانفتاحها ومقدرتها على الحب والفهم وإدراكها العميق لبشرية الآخر وتماثله الأساسى مع الذات من وراء كل الاختلافات الثقافية، لما كان هناك احتلال ولا مشكلة ولكان العالم الذى نعيش فيه عالما أفضل بكثير. إلا أن الليدى آنا كانت الاستثناء الذى يؤكد القاعدة، كانت الفرد الذى

يسبح ضد التيار العام ويدفع الثمن من العزلة والنبذ.

ترى هل ثمة نظرة فلسفية وراء هذا التمثيل الروائى لدى الكاتبة؟ هل تريد سويف أن تذكرنا بأن العام هو مجموع الفردى، وأن التحدى الفردى للنوازع والمسلمات العامة هو أيضا عنصر فاعل فى صياغة التاريخ، وأنه لو استسلم كل فرد لعرامة التيار العام لما تغير شىء أبدا؟ فى رأيى أن الرواية تطرح هذه المقولة بقوة وأنها تُعلى من شأن الضمير الفردى وفعله التراكمى فى مسار التاريخ وفى التطور الأخلاقى للبشر. المنظور التاريخى للرواية يؤكد هذه الرؤية، فأمثال اللورد كرومر فى بريطانيا اليوم قد انقرضوا أو كادوا، فى حين أن أمثال الليدى آنا قد تكاثروا وعموا، بحيث يمكن القول بأن مرور مائة عام قد شهد الاستثناء والقاعدة يتبادلان المواقع. ولعل هذه الثقة الضمنية فى الحركة الإيجابية للتاريخ الناشئة عن الجدل بين العام والخاص أن تكون مصدرا فلسفيا للتفاؤل فى هذه الرواية التى تنبض بالحسرة على الواقع العربى اليوم وما فيه من توازٍ أليم مع الواقع العربى قبل قرن، كما أوضحت فيما سبق.

فى رواية سويف السابقة «فى عين الشمس»، والتى تناولتها أعلاه، كانت البطلة آسيا، التى تمثل الكاتبة فى بعض جوانبها، مشغولة بالبحث عن نفسها. كانت الرواية رحلة استكشاف وسعى إلى إثبات الذات والتحرر من أسر الحب الفاشل والكبت الجنسى والسيطرة الذكورية. وكانت الرحلة أيضا تدور بين وطنين، وطن المنبت (مصر) ووطن المهجر (بريطانيا). لم تكن مصر وقضاياها غائبة فى تلك الرواية، ولكن التجربة الشخصية لآسيا كانت هى بؤرة الاهتمام، ولم يكن المزج بين الخاص والعام على القدر المبتغى. الآن أنظر فى الرواية الحالية وأبحث عن الصلة بين الاثنتين، فأجدها فى غير عناء. أجد آسيا تُبعث من جديد فى «خارطة الحب» حاملة اسم «أمل»، وأجدها قد عادت إلى مصر بعد عشرين عاما من الحياة فى بريطانيا، وأجدها، وقد فرغت من استكشاف الذات وتحديد الهوية، تريد أن تعمق هذا الاستكشاف وتؤصّل جذوره عن طريق رحلة فى الزمان لاستكشاف تاريخ أسرتها وتاريخ وطنها والتلاحم بينهما وبين حاضر الوطن وحاضرها الشخصى. حين كتبت عن رواية «فى عين الشمس» سنة ١٩٩٢ فى مراجعتى لها فى صحيفة «الإندبندنت» الإنكليزية، قلت وقتها فى ختام مقالتى إن الكاتبة قد استنفدت إمكانيات كتابة الرواية القائمة على السيرة الذاتية، وأن تجربتها الروائية ستواصل النضوج بقدر ما تبتعد عن استظهار الشخوص والأحداث من وقائع الحياة الشخصية، وما كان أسعدنى إذ جاءت «خارطة الحب» فى ١٩٩٩ بعد سبع سنوات لتحقق ذلك على نحو باهر حقا.

هذه رواية كبيرة بكل معنى الكلمة، رواية تنطوى على رؤية فلسفية ناضجة للحياة والتاريخ، وتكشف عن إحساس عميق لدى الكاتبة بمعنى الألم البشرى ومعنى الفرح البشرى ومعنى عجز الفرد أمام الموت وأمام القدر وأمام حتمية التاريخ. على أن كل هذا ما كان ليؤثر فينا إلا من خلال أستاذية فى البناء والسرد والتصوير والربط بين الأجزاء، ومن خلال رهافة فى استعمال اللغة الإنكليزية تتمثل فى لغة سرد ترقى إلى الشعر المصفى وتتلون طول الوقت بتلون اللحظة النفسية للشخصية، لغة لا تفقد حيويتها سواء كانت تحاكى لغة الطبقة الأرستقراطية البريطانية فى مطلع القرن العشرين أو تلين وتتشكل وتغير جلدها من أجل إنطاق الفلاح المصرى بتراثه الشعبى الثرى البعيد كل البعد عن المجال الاصطلاحى للإنكليزية.

هل هذه الرواية إذن جزء من التراث الأدبى الإنكليزى بحكم اللغة؟ أم هى جزء من التراث العربى بحكم الكاتبة والثقافة والحساسية وأشياء أخرى كثيرة؟ حيرنى هذا السؤال وأنا أقف حيال «فى عين الشمس» وأجدنى فى نفس الحيرة الآن من جديد. فهذه رواية لا يشك الإنكليز أنها من أدب لغتهم حتى أوشكوا أن يمنحوها جائزة «بوكر» لأفضل رواية عام ٢٠٠٠، إذ وصلت إلى اللائحة القصيرة آنئذ. إلا أنها مع ذلك رواية ينضح كل عصب فيها بحساسية مصرية عربية. فما الحل فى تصنيفها؟ لا أجد من حل سوى أن ألجأ إلى الفلسفة النابعة من الرواية نفسها: فلنستعن بخريطة الحب التى لا تعترف بحدود الجغرافيا واللغة والثقافة، ولنقل إن هذه رواية تنتمى للشرقيين والغربيين على السواء بفنها الرفيع ورسالتها الإنسانية. ■

كتـــاب
الــزاويـــة



أيهـــا النيـــل

أحمد شوقى

دِيـنُ الأَوائِـلِ فـيـكَ دِيـنُ مُـروءَةٍ
لِـمَ لا يُـؤَلَّـهُ مَـن يَـقـوتُ وَيَـرزُقُ
لَـو أَنَّ مَـخـلـوقـاً يُـؤَلَّـهُ لَـم تَـكُـن
لِـسِـواكَ مَـرتَـبَـةُ الأُلـوهَـةِ تَـخـلُـقُ
جَـعَـلـوا الـهَـوى لَـكَ وَالـوَقـارَ عِـبـادَةً
إِنَّ الـعِـبـادَةَ خَـشـيَـةٌ وَتَـعَـلُّـقُ
دانـوا بِـبَـحـرٍ بِـالمَـكـارِمِ زاخِـرٍ
عَـذبِ المَـشـارِعِ مَـدُّهُ لا يُـلـحَـقُ
مُـتَـقَـيِّـدٌ بِـعُـهـودِهِ وَوُعـودِهِ
يَـجـري عَـلـى سَـنَـنِ الـوَفـاءِ وَيَـصـدُقُ
يَـتَـقَـبَّـلُ الـوادي الـحَـيـاةَ كَـريـمَـةً
مِـن راحَـتَـيـكَ عَـمـيـمَـةً تَـتَـدَفَّـقُ
مُـتَـقَـلِّـبُ الـجَـنـبَـيـنِ فـي نَـعـمـائِـهِ
يَـعـرى وَيُـصـبَـغُ فـي نَـداكَ فَـيـورِقُ
فَـيَـبـيـتُ خِـصـبـاً فـي ثَـراهُ وَنِـعـمَـةً
وَيَـعُـمُّـهُ مـاءُ الـحَـيـاةِ المـوسَـقُ
وَإِلَـيـكَ بَـعـدَ الـلَـهِ يَـرجِـعُ تَـحـتَـهُ
مـا جَـفَّ أَو مـا مـاتَ أَو مـا يَـنـفُـقُ
أَيـنَ الـفَـراعِـنَـةُ الأُلـى اِسـتَـذرى بِـهِـم
عـيـسـى وَيـوسُـفُ وَالـكَـلـيـمُ المُـصـعَـقُ
المـورِدونَ الـنـاسَ مَـنـهَـلَ حِـكـمَـةٍ
أَفـضـى إِلَـيـهِ الأَنـبِـيـاءُ لِـيَـسـتَـقـوا
الـرافِـعـونَ إِلـى الـضُـحـى آبـاءَهُـم
فَـالـشَـمـسُ أَصـلُـهُـمُ الـوَضـيءُ المُـعـرِقُ

المفارقة الأولى أن كثيراً من الإسلاميين يُقرّون بعدم وجود نص على الدولة، وأنها ليست مسألة تعبدية، ومع ذلك خاضوا ـ ولا يزالون ـ صراعات عديدة فى سبيلها



بين الإسلاميين والليبراليين

الدولة



معتز الخطيب

■■ ليس من المبالغة القول: إن معضلة الدولة شكلت - ولا تزال- محور النقاشات الدائرة فى الفكرين العربى والإسلامى؛ فقد شكّلت همومُ الدولة وطبائعها وأدوارها مساحة مركزية من التفكير، سواءٌ فى زمن أطروحة الدولة الوطنية التى انشغل بها الإصلاحيون الإسلاميون، أم فى زمن الدولة القومية التى سعى إليها القوميون، أو فى زمن الخلافة التى أمل كثير من الإسلاميين بإقامتها أو استعادتها، ولا يزالون، وصولاً إلى الدولة الإسلامية التى ظهرت كرد فعل على سقوط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م، والدولة الدينية كما نجد مع أفكار الحاكمية وولاية الفقيه.

ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن أصحاب المشاريع المختلفة أو الأيديولوجيات المختلفة، يعلّقون مشاريعهم على الدولة التى يُعطونها هذه الأهمية الاستثنائية والخاصة التى تجعل منها المعبود الحقيقى للمجتمع كما لدى القوميين، أو دولة الخلاص واستعادة الإسلام وحماية الشريعة كما لدى الإسلاميين، أو دولة الديمقراطية والحريات الفردية كما لدى الليبراليين. بل قبل ذلك أيضًا، ساد اعتقاد لدى الإصلاحيين فى القرن التاسع عشر أن الخلل الذى أصاب المجتمعات الإسلامية ومدنيتها إنما يرجع إلى تخلف نظمها السياسية التقليدية، فى حين تقدمت أوروبا وتفوقت بسبب قوة نظمها السياسية (بما تشمله من جيوش ومؤسسات قوية وإدارة فعالة وتنظيم مالى متقدم.. إلخ)، فكان أنْ لجأوا إلى فكرة الدولة الوطنية.

ولعله من المفيد أن نشير هنا إلى مفارقتين فى الحديث عن الصراع على الدولة، تتعلق الأولى منهما بأن كثيرًا من الإسلاميين يُقرّون بعدم وجود نص على الدولة، وأنها ليست مسألة تعبدية، ومع ذلك خاضوا - ولا يزالون - صراعات عديدة فى سبيلها، ربما دفع إليها الاستقطاب الأيديولوجى الذى كان سائداً منذ السبعينيات مع العلمانيين فى هذا الخصوص.

والمفارقة الثانية أن النزاع والسجال الذى يدور حول الدولة بين الإسلاميين والعلمانيين، يقع خارج حدود السلطة الفعلية القائمة وعلى هامشها، التى تارة تنزع إلى هذا ضد ذاك، وتارة تتمسح بذلك ضد هذا، فتأخذ من العلمانية ضغثًا، ومن الإسلامية مثله!. فالدولة القائمة لا هى إسلامية بالمعنى الذى يريده العديدون بمعنى تطبيق الشريعة كاملة، ولا هى علمانية - بالمعنى المعروف للكلمة - التى تفصل الدين عن الدولة وتُلزمه الحياد فلا هو يهيمن عليها ولا هى تستغله لمآربها وتدعيم نفسها!.

وفى الواقع ثمة مشكلة فى التفكير العربى والإسلامى بخصوص الدولة، شخّصه البعض بأنه يعود - فى جوهره - إلى أن الدولة القائمة فى عالمنا اليوم دولة «مستورَدة» - على حد تعبير نزيه نصيف الأيوبى، وبرتران بادى - فُرضت على عالمنا فرضاً من الإمبريالية الغربية، وتضخمت تضخماً شديداً تحت رعاياتها حتى تحقق مصالحها وتحافظ على هيمنتها. ثم جاءت الاستقطابات الأيديولوجية فزادتها تعقيداً واتسعت الهوة، فظهر سيل من الأفكار والنقاشات، يمكن أن يتم النظر إليه من زوايا مختلفة أو متعددة، بعضها سياسى وبعضها معرفى، وبعضها قانونى، إلى غير ذلك.

ومساهمة منا فى هذا النقاش حول الدولة، كان هذا الكتاب الذى يحاول تشخيص مأزق الدولة فى عالمنا العربى وفكرنا الإسلامى، من مواقع مختلفة، يجمعها الهم النقدى، ونُشدان الدولة التى تحقق مصالح الأمة، وتحفظ حقوقهم، وإن اختلفت التصورات وتَفَرَّقت السبل.

فالفصل الأول «الدولة .. معضلة المفهوم والتطبيق» يؤكد التعقيدات التى تكتنف مصطلح «الدولة»، سواءٌ على مستوى المفهوم أم على مستوى الكيانات القائمة والشاخصة فى عالم اليوم.

لكن ثمة اتفاقا تقريبًا - فى هذا الفصل - على أن الدولة «هى آلية لتنظيم الشئون الاجتماعية المشتركة»، و«هى التعبير عن نجاح المجتمع فى الوصول إلى توافقات وبناء مؤسسات تعكس تجاوز تجربة العنف، وتضمن استمرار السلام، ومن ثم الاستقرار والتعايش المديد بين السكان. فكل دولة هى مشروع بناء أمة أو مجتمع متفاهم مع نفسه ومع السلطة المركزية التى يخضع لها طواعية، وتقوم بمهام تنظيم شئونه وإدارة مصالحه» - بتعبير د. برهان غليون -، وهى «تعبير عن جماعة وأداة للحكم بين الناس»، فالدولة ممثلة للجماعة الوطنية، ترعى الشأن العام للمواطن والشعب، أما نظامها السياسى والاقتصادى «فنظام قانونى يناط به الفصل بين الناس بالعدل وإدارة دولاب الحكم» - بتعبير المستشار طارق البشرى -.

وإن كان البشرى يعالج معضلة الدولة القائمة وليس دولة المفهوم والفكرة، ويبحث فى سبل الخروج من حالة الشخصنة التى آلت إليها الدولة اليوم والسبل التى تنمّى الفعل الشعبى الذى من شأنه أن يَرِد من خارج الإطار الرسمى المرسوم من غير توقع ولا حساب.

وإذا أردنا ألا نناقش فى فراغ فلا بد أن نميز - عند النقاش فى موضوع الدولة - النموذج الذى نتحدث عنه، أو نصطلح عليه؛ فكل طائفة أو تيار يَصدرُ عن مفهوم وتصور للدولة، كما يصدر عن مرجعية مغايرة لمرجعية الآخر.

فثمة خلط بين مفاهيم متعددة للدولة، وبين مفهوم الدولة والجماعة السياسية، بل إن نصاب السياسة ليس واحدا، وليست ماهية السياسى متطابقة فى كل العصور والأقطار. كما أن علاقة الدولة بالجماعة السياسية ليست واحدة فى كل الأنماط السياسية، فإذا أضفنا إلى هذا كله ذلك التصور الذى يرى أن التمييز بين السياسة والدين أمر مبتدع لا يجوز القبول به أو الارتهان إليه تفاقم المأزق واستحكمت المعضلة!.

وعليه، يتطلب تحديد مفهوم الجماعة التدقيق فى الدلالات المختلفة لمصطلح الدولة، السلطانية والديمقراطية، وكذلك يتطلب تحديد مفهوم الدولة التدقيق فى استخدام مصطلح الأمة الذى يقضى بالتفريق بين المعنى الدينى والمعنى السياسى، إذا ما احتكمنا إلى الفكر السياسى الحديث، الذى يحتكم إليه برهان غليون.

إن جزءاً مهمًا من الصراع الدائر حول الدولة فى فكرنا العربى منذ أكثر من ثلاثة عقود، يرجع إلى غموض مفهوم الدولة ذاته أو تشوشه فى الوعى العربى العام، وعند معظم الأطراف. وليس من الاستطراد هنا الإشارة إلى أن عبد الإله بلقزيز حينما كتب عن «الدولة فى الفكر الإسلامى المعاصر» (ط. ٢٠٠٢م) لم يتعرض لمفهوم الدولة أصلاً!.

فمصطلح «دولة» يُطلق على نماذج لا حصر لها من الدول، كاملة التكوين أو مُنجزة، وناقصة التكوين، أو غير مستكملة لشروطها، بل ومجهضة كالمولود السّقط. ويُطلق كذلك على أصناف من الدول ذات أشكال من التنظيم للسلطة العامة، وللمجتمع ككل، ووظائف عسكرية أو اقتصادية أو ثقافية واجتماعية، وغايات يمكن أن تتباين من النقيض إلى النقيض.

ولهذا استعرض غليون أنماط وأشكال الدولة فى ذهنيات وتصورات الأطراف المختلفة من إسلاميين وليبراليين وماركسيين، وحتى أولئك الذين لا يؤمنون بالدولة!. كما شخّص الصراع الدائر، وحلل انعكاساته ودلائله، ورأى فيه انعكاساً للطلب الاجتماعى المتزايد على الدولة من حيث هى مؤسسة لمصالح عامة وطنية مقابل المصالح الخاصة، كما رأى فيه انعكاساً لانحلال النظم الوطنية بشعاراتها وأفكارها وقيمها وأهدافها وغاياتها وسياساتها ومناهج عملها وتسييرها.

إن مقالة غليون تساعدنا على فهم أعمق لأساس المعضلة ووجوهها، وفيها

للاستزادة:
مأزق الدولة فى الفكر العربى: أنور أبو طه، برهان غليون، راشد الغنوشى، رضوان السيد، سعد الدين العثمانى، طارق البشرى، عبد الرحمن الحاج، نصر عارف، هانى فحص
تحرير: معتز الخطيب
مكتبة مدبولى ـ القاهرة ٢٠١٠

والمفارقة الثانية أن النزاع والسجال الذى يدور حول الدولة بين الإسلاميين والعلمانيين، يقع خارج حدود السلطة الفعلية القائمة وعلى هامشها

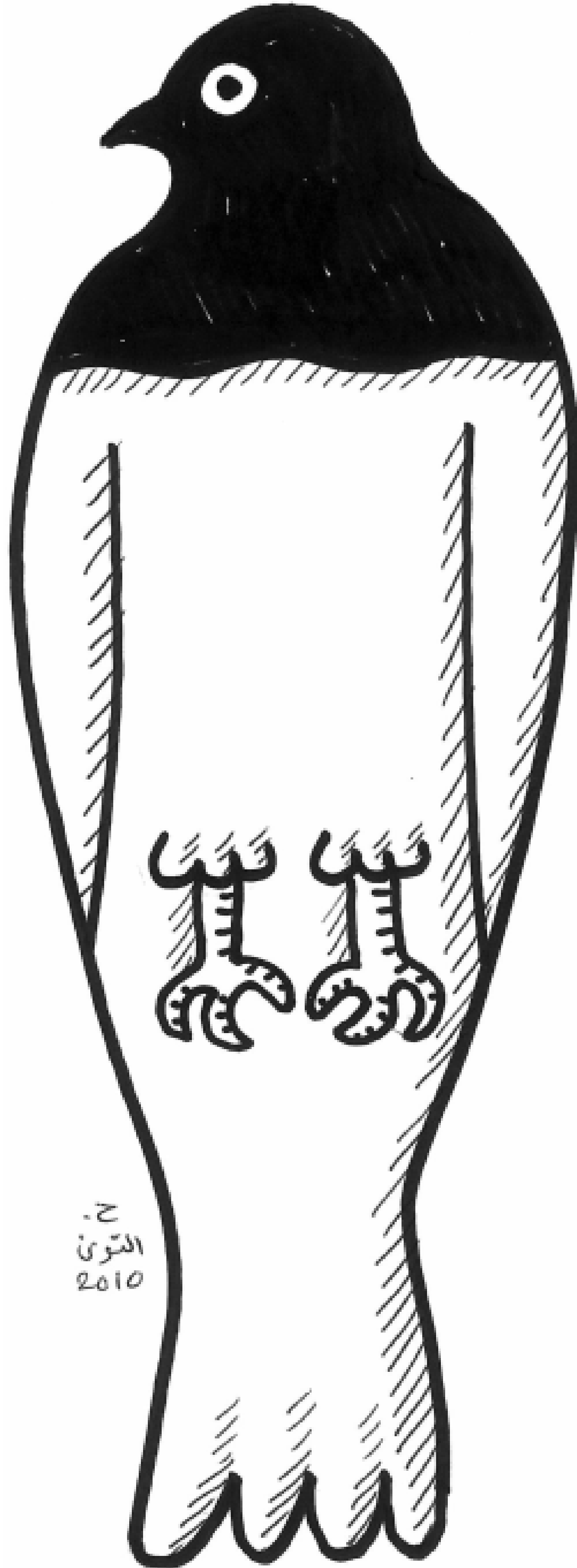


يرى أننا لن نخرج من الطريق المسدود الذى أوصلنا إليه الصراع على الدولة إلا بالانتقال من النقاش فى الدولة الإسلامية أو الديمقراطية إلى النقاش فى المجتمع السياسى الذى نريد إقامته. وعليه فإن الدولة الإسلامية مفهوم يمكن أن يستقيم إذا كانت الجماعة السياسية التى نريد تكوينها ونعتقد بصلاحها هى جماعة إسلامية، فى حين أن الأمر سيتغير إذا كانت الجماعة السياسية التى نريد تكوينها أو ندافع عن فكرة تكوينها، جماعة سياسية من النوع الوطنى/ المواطنى.

وفى هذا السياق تتأكد مقولة هانى فحص عن «امتناع تنميط الدولة»، على معنى اقتراح نمط واحد لها من كل التيارات المتصارعة، لكن هذا الامتناع عنده قد يكون تمهيداً للقول بخصوصية أو بنمط مغاير للدولة «الغربية» -وهو ما سيتضح أكثر فى الفصل الثانى من الكتاب-، فهذا الخطاب يحاول أن يخرج من مأزق عدم وجود «دولة إسلامية» محددة المعالم، فيُقرُّ بأن شكل الدولة وطريقة تشكيلها ليسا شأنَ الدين، لا الإسلام ولا غيره، فلا توجد وصفة دينية ملزمة للدولة، وإنما شأن الدين - بما هو معرفة وسلوك وثقافة وقيم وعلائق وتقوى - هو أداء الدولة، أى عدالتها.

إن هانى فحص يسعى هنا إلى القول بنوع من التمييز بين الدين والدولة وليس الفصل، فهو تمييز يحدد ملامح الوظيفة الفقهية حتى لا تختلط بالوظيفة السياسية، تمييز يسحب من الفقه أو من الفقيه صلاحيات تحديد شكل الدولة أو اقتراح طريقة تشكيلها، إلا فى حدود كونه شريكا متكافئا مع الآخرين من أهل المعرفة بهذا الشأن وأهل الخبرة. وهى فكرة ستزداد وضوحاً فى الفصل الثالث من هذا الكتاب، مع بحثى لمسألة «الفقه والفقيه ومتغيرات السلطة» التى تقرر أن فكرة الدولة الحديثة أو القائمة فى عالمنا قضمت كثيراً من صلاحيات الفقيه لصالح أدوار جديدة فرضتها طبيعة المتغيرات والتراكمات المعرفية ونشأة حقول معرفية جديدة ونشأة أدوار ووظائف اجتماعية لم تكن من قبل.

إن التمييز الذى يقترحه فحص يجعل من الفقه ثقافة معيارية، معيارها الحرية والعدالة، الحق والقانون، أى ديمقراطية تحث على العدل، وتحرض على الجور، وتتعاطى مع مضمون الدولة ومعناها لا مع شكلها ومبناها، ومن موقع إرشادى حاضن، لا من موقع الولاية والوصاية القابضة على زمام الأمور؛ لأن المولى هو الله سبحانه فى المطلق وفى التاريخ، أما الولاية على الأمة فهى للأمة نفسها، وهذا من شأنه أن يعكر صفو الأطروحات السياسية التراثية والحركية المعاصرة التى تجعل من الدولة هى الحاضن للشريعة وليس الأمة.



إلى ذلك ثمة مسألة شديدة الأهمية فى الحديث عن الدولة وضرورتها، فالدولة كما يتضح من الفصل الأول وخاصة فى ورقتى فحص وغليون، ضرورةُ اجتماع، يقتضيها الاجتماع ويبنيها، لا تبنيه، معنى ذلك أن الاجتماع متغير ومتطور تبعاً للأزمنة والأحوال وتطورات انتظامه وتكويناته ومعارفه، فإذا تغيّر وعى الاجتماع لذاته وعلائقه، وتغير وعى الفرد لموقعه فى المجتمع ومسئولياته وحقوقه وواجباته، وتغيرت الأدوار تبعاً لذلك، فلا بد أن يؤثر ذلك فى شكل الدولة، وأدائها، ودورها، ومصدر شرعيتها، وآليات تحقيقها، طبقا للتغيرات الحاصلة فى بنيان المجتمع.

وهذا المعنى سيصادفنا كذلك فى مطلع الفصل الثانى «أطروحة الدولة الإسلامية»، حين يقرر راشد الغنوشى أن التصور الدينى التراثى يجعل الدولة (نصب الإمام الذى هو رأس الدولة) «واجباً دينياً لإقامة الشريعة وضرورة اجتماعية إنسانية لا بديل عنها فى توفير شروط بقاء الجماعة»، وأن الخوارج هم وحدهم الذين شذوا - فى القديم- فجعلوها ضرورة اجتماعية فقط، لكنه لا يلبث أن يقرر أن التصور الوسطى الذى عليه جمهور الإسلاميين يتمثل فى اعتبار السلطة ضرورة اجتماعية وأداة من أدوات الأمة فى إقامة عدل الإسلام، وأنها مجرد أداة اجتماعية توظفها الأمة لحراسة الدين والدنيا، وأن القائمين بها ليسوا سوى خدام عند الأمة؛ إذ هى المخاطب الحقيقى بإقامة الشريعة، بما يجعل شرعيتهم موقوفة على إنفاذهم للشريعة والتوافق مع توجيهاتها كما يرتضيها جمهور المسلمين.

وهذا المسلك كان مدخلاً لقول الغنوشى بضرورة الدولة الإسلامية، ما دام الإنسان اجتماعياً بطبعه، وما دام الإسلام نظاماً شاملاً، وهى دولة الرسالة، ولا تختلف عن الديمقراطيات المعاصرة إلا من حيث علوية المبدأ الخلقى فى إقامة العدل وفق ما جاءت به الشريعة أو وفق ما لا يخالفها، وهو ما أسست له مدرسة الإصلاح كما جاء بيّنًا فى فكر كل رموزها مثل الأفغانى وعبده ورشيد رضا وحسن



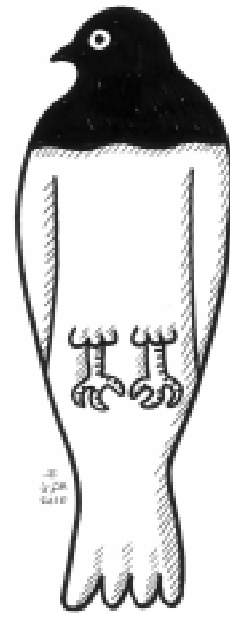
البنا وحسن الترابى والمرجع الشيعى المعتبر المرحوم آية الله محمد مهدى شمس الدين.

هذا التصور الإصلاحى لمدنية الدولة الذى قرره محمد عبده وغيره من الإصلاحيين، وحافظ عليه رواد الحركة الإسلامية من بعده حين قالوا بالدولة الإسلامية، دفع إلى اعتبار الدولة ضرورة اجتماع لا ضرورة دين.

ويحاول الغنوشى مقايسة فكرة الدولة الإسلامية على فكرة الدولة الديمقراطية الحديثة، من خلال بحث أهم مفاهيمها التى تقوم عليها وهو «الشرعية»، فيقرر أن شرعية الدولة الإسلامية تنبع من المرجعية القانونية القيمية العليا المحكومة بالشريعة، والشورى التى تجعل الحاكم المسلم نائبا عن الأمة فى إقامة الشريعة وإنفاذها وفق العقد الذى بينه وبين الأمة، وهذه الدولة يتمتع فيها العلماء وقادة الرأى العام وزعماء العشائر والطوائف وكل ممثلى الشعب بمكانة عظيمة باعتبارهم أهل الحل والعقد، بما يجعل سلطان الحاكم سلطانًا تنفيذيًا محدوداً جداً لصالح سلطان الشريعة والمجتمع وسائر المؤسسات الممثلة لهما.

ودولة الإسلام هذه موكول إليها ومعلّق بها الأمل أن تقوم -وفق تصور الغنوشى- بإنقاذ مركب الحضارة الإنسانية واستعادة المعنى والروح والقيمة.

وإذا كان الغنوشى يقايس على الدولة الحديثة ويحاكيها فى رسم مبادئ السلطة والحكم فى الإسلام، فإن سعد الدين العثمانى يؤكد مجددًا مدنية الدولة الإسلامية، لكنه يسعى من المنطلق ذاته - وهو المقايسة على الدولة الحديثة- إلى البحث عن انسجام مجتمع الإسلام مع دولة مدنية تنبنى فيها الشرعية على إرادة الشعب، وتصدر فيها القوانين من قبل مؤسسات خُوّل لها ذلك بالانتخاب، وفق مصلحة المجتمع، وهى أشبه بعملية توطين لإحدى أفكار الدولة الحديثة فى بيئة الفكر الإسلامى أو تأصيل كما يُعبر عنها أحيانًا، مدخلُها مسألة أصولية معروفة فى أصول الفقه تقوم على مبدأ التمييز بين تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم بحسب الوظائف التى اضطلع بها، والوظيفة التى يتم استدعاؤها هنا هى «الإمامة»، رأى فيها العثمانى أساسًا منهجيًا يلقى الضوء على جوانب لم يُهتم بها بما يكفى لتطوير التجربة السياسية المعاصرة للمسلمين، وللخروج من سجن الكثير من التجارب التاريخية التى ربما تكبل انطلاقة كثير من المسلمين للاستفادة بقوة من التجربة الإنسانية المعاصرة.



الدولة القائمة لا هى إسلامية بالمعنى الذى يريده العديدون بمعنى تطبيق الشريعة كاملة، ولا هي علمانية ـ بالمعنى المعروف للكلمة ـ



فالدولة الإسلامية هنا دولة مدنية، ذات مشروعية شعبية، مكلفة بحماية دين الأمة، كما أن الدولة الوطنية الحديثة، دولة مكلفة بحماية الوطن والدفاع عن مصالحه.

إن محاولة العثمانى تأصيل «مدنية الدولة الإسلامية» تصبّ مجددًا فى صالح الفكرة القائلة بالتمييز بين الدين والدولة، أو الدين والدنيا، وإبعاد الممارسة السياسية عن الممارسة الدينية المباشرة، للقول فى محصلة الأمر: إن الدولة فى الإسلام دولة دنيوية قراراتها بشرية. وقد يُعتَبر هذا تطوراً داخل الفكر الحركى الإسلامى الذى خاض صراعًا حاداً مع العلمانية فى الثمانينيات، دفعه إلى الرفض المطلق والكلى للفصل بين الدين والدولة، بل ربما أخرج القائلين به من دائرة الإسلام كليةً، لكننا وجدنا فيما بعد أطروحات متطورة لا تقول بالفصل العلمانى، لكن تقول بالتمييز بين الشأنين، وهى مقولة لمحمد عمارة أيضًا وآخرين.

لكن نصر عارف انتقد تلك الكتابات الحديثة فى النظام السياسى الإسلامى أو فى الفكر السياسى الإسلامى التى تستبطن النموذج المعرفى الغربى فى علم السياسة وفى التفكير السياسى، وتحاول أن تنسج على منواله. وهو مع ذلك يُقر بأنه لا يمكن الادعاء بأن هناك نظامًا سياسيًا إسلاميًا واحداً محدد المعالم والخصائص والمكونات، بل هناك منظومة معرفية إسلامية تعالج الشأن السياسى وتحدد له الأسس والمنطلقات والمقومات والمقاصد، وعن هذه المنظومة ومنها تنبثق نظم سياسية عديدة مختلفة المكونات والأشكال والوسائل والصيغ.

وعليه فهو يحاول تقديم أسس نظرية عامة لملامح النظم السياسية الإسلامية، وأهم ملامح هذا النموذج الإسلامى المقترح، أنه يتخذ من المجتمع مركزًا له، بينما يهمش - إلى حد كبير - دور الدولة، بالاستناد إلى أن النموذج النبوى يشهد على أسبقية المجتمع على الدولة فى الأهمية والاهتمام، كما أن الجدل الكلامى المبكر الذى أسهم فى تكوين الفرق الاعتقادية انطلق - فى أساسه - من اختلاف بين تيارين أحدهما يرى أولوية الدولة، وكيف أنها أصل من أصول الدين وواجب عليه تعتمد باقى الواجبات. وثانيهما يرى أنها وسيلة لا أصل، وأن الدين يحتضنه ويعبر عنه المجتمع وليس الدولة، وقد كانت السيادة التاريخية من حيث الأغلبية والنفوذ للتيار الثانى. ثم إن مفهوم السياسة فى الإسلام كمنظومة فكرية يجعل معظم الفعل السياسى فعلاً مجتمعيًا غير مقصور على الدولة أو على أجهزتها السلطوية، فجوهر هذا المفهوم هو الإصلاح أو المصلحة، تأسيسًا على معناه اللغوى.

الفصل الثالث «إشكالات الدولة الإسلامية»، ينصبّ فى الأساس على محاولة تحديد معالم الدولة الإسلامية عند القائلين بها، ودراسة علاقة الدين بالدولة والدولة بالدين، بدءاً من التراث السياسى الإسلامى وصولاً إلى حركات الإسلام المعاصر، ليقدِّم رؤى نقدية فى أطروحة الدولة الإسلامية ويبلور بعض إشكالاتها، بالاستناد إلى قراءة التجربة التاريخية فى محاولة لإزالة اللبس الذى وقع فيه القائلون بأطروحة الدولة الإسلامية.

وفى هذا الفصل، يعيدنا د. رضوان السيد إلى ناحية استعراض التجربة التاريخية للدولة الإسلامية بعد زمن النبوة؛ لأن هذا الاستعراض سيُفيدنا مع الإسلاميين بأنْ يضعَ الأمورَ فى سياقِها المعتبر لدى المسلمين فى أزمنة الخلافة والسلطنة وعلى مدى عدة قرونٍ استقرتْ فيها المفاهيمُ والآليات، مفاهيمُ علاقة الدين بالدولة، والآليات التطبيقية للنصوص وللاجتهادات وللأفهام. يبدأ السيد من تعريف الإمامة لدى الماوردى وغيره بأنها «موضوعة لخلافة النبوة فى حراسة الدين وسياسة الدنيا»، وهو تعريف محشوّ بالإيديولوجيات، وبصراعات العقائد والمذاهب والسياسات حتى أيامه. وبالرغم من أن الماوردى يَعتبر منصب الإمامة أو السلطة الإسلامية يستند إلى «الوضع» وليس النص؛ ما يعنى أنها منصب مدنى «وضع» بإجماع الصحابة، إلا أنه باعتباره الإمامة أداة أو وسيلة أو سلطة لحراسة الدين - بالإضافة إلى الوظيفة المتعارف عليها للسلطة - يكون قد أعطى الخلافة صلاحيات وطابعًا دينيًا؛ فهى إمامة وخلافة «عن النبوة»، وهى تقوم بالإضافة إلى سياسة الدنيا (وهى المهمة المتعارف عليها لأى سلطة)، بمهمة دينية كبرى هى حراسة الدين. وحين ذكر الماوردى وأبو يعلى الحنبلى المؤسسات الفرعية التى تشرف عليها الخلافة؛ كان من بينها ولايات دينية بحتة: الولاية على إمامة الصلوات، والولاية على الحج، وولاية الصدقات، وأحكام الحسبة، وولاية النقابة على الأنساب.

لكن رضوان السيد لاحظ أمرين اثنين: الأول صراع طبقة العلماء والفقهاء مع السلطة السياسية طوال القرن الثانى الهجرى على المرجعية فى الدين، وتجلى الصراع الثانى مع المحدثين أو أهل الحديث والسنة فى (المحنة)، أى الخلاف بين المأمون العباسى من جهة، وأحمد بن حنبل وزملائه من جهة ثانية، حول من يتولى تحديد طبيعة التعامل مع القرآن، وهل هو الخليفة (الذى قال: إن القرآن مخلوق) أم أهل السنة والجماعة (أصحاب الحديث) الذين قالوا: إن القرآن كلام الله غير مخلوق! ومما له دلالته أن أهل السنة هؤلاء كانوا يقولون بوجوب الطاعة للسلطان فى الشأن السياسى، ولا يرون طاعته فى الشأن الدينى (لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق).

إن وقوف الفقهاء فى وجه الصلاحيات التشريعية للسلطة، ووقوف المحدثين فى وجه المرجعية الدينية للسلطة السياسية، هذان الموقفان يتصل أحدهما بالآخر، لكن موقف المحدثين كان أكثر جذرية، وأوضح لجهة التمييز بين المجالين الدينى والسياسى. وقد كان من نتائج هذا الصراع، أن استقل المجال الدينى عن المجال السياسى بعد منتصف القرن الثالث الهجرى، فتولى العلماء (ورثة الأنبياء) الشأن الدينى، وانفردت

هناك من يرى أن الدولة القائمة فى عالمنا اليوم دولة «مستوردَة»، فُرضت على عالمنا فرضــاً مــن الإمبــريالـيــة الغربيـــــة



السلطة بالشأن السياسى، وبقيت المرجعية العليا للإسلام، كما بقيت المرجعية القانونية والمؤسسات للسلطة السياسية، كما فى كل دولة.

وبالعودة إلى الدولة أو الإمامة ذات الطبيعة الدينية نجد أن المقايسة بين علاقة الدين (الزرادشتى) بالدولة وعلاقة الإسلام بالدولة، هو الذى أفضى إلى تلك الصياغة (حراسة الدين وسياسة الدنيا)، وهى صياغة يراها رضوان السيد «وهمية».

استمرت الخلافة حتى مطلع القرن الرابع الهجرى، إلى أن فوجئ الفقهاء بظهور الدولة السلطانية، وهذه الظاهرة الجديدة، التى بلغت ذروتها عام ٣٣٣هـ/ ٣٣٤هـ بدخول البويهيين إلى بغداد، دفعت الفقهاء وكتاب الآداب السلطانية، والفلاسفة وغيرهم إلى كتابة قراءات لأوضاع الخلافة فظهرت ثلاثة كتب فى «الأحكام السلطانية» ما بين ٤٤٠هـ و٤٧٠هـ: كتاب الماوردى، وكتاب أبى يعلى الحنبلى، وكتاب إمام الحرمين الجوينى. أما الماوردى وأبو يعلى فيعترفان بالتغير وبالوقائع الجديدة، ويعتبران أن الحل المؤقت الذى جرى التوصل إليه (ألا يباشر الخليفة الأمور بنفسه، بل من خلال تفويض أمير الاستيلاء) هو الوحيد الممكن والمعقول، لأنه يحافظ على وحدة الدولة (لا على وحدة السلطة)، ويترك الأمل والباب مفتوحاً لتصحيح الأوضاع باتجاه توحد السلطة (الدستورية) والقوة من جديد. لكن الجوينى يختلف معهما، بل ويهاجم معاصره الماوردى دون أن يسميه. فالخليفة العباسى صار عبثاً ولم يعد ميزة، ولا حاجة لهذه الازدواجية السلطوية، ولا حاجة أيضاً لبقاء الخليفة لسبب دينى، فالشأن الدينى يتولاه الفقهاء والعلماء. أما السياسة (تدبير الشأن الداخلى)، والشوكة (الجهاد والدفاع عن دار الإسلام)، فيتولاها السلطان، سواء أسميناه خليفة أم لا.

لكن الاتجاه التقليدى المؤسسى هو الذى انتصر فى الظاهر، فقد بقى الخليفة، وحَكَم السلاطين، وظلوا يطلبون التكليف منه مهما بعدت أقطارهم.

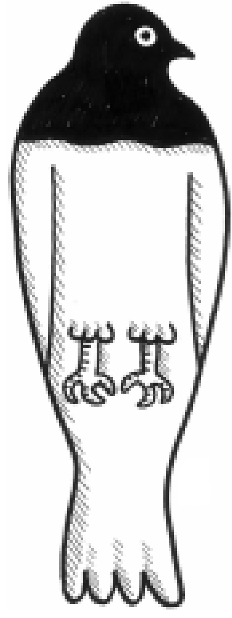
واستنادا إلى هذا الإدراك للمتغيرات، تشبث الفقهاء بالأمر الدينى والشعائرى وما يتصل بهما، ولجأوا فى المجال العام إلى تطوير ما اعتبروه «سياسة شرعية» للخروج من الضرورى والطارئ إلى الصالح والشرعى. فجرى - بعد انتصار القوة والشوكة فى الدولة - الانتقال من «الأحكام السلطانية» إلى «السياسة الشرعية»، أى أن المصلحة صارت مصدراً شرعياً، كان على الفقهاء الانصراف إلى تقنينه وضبطه بالقدر الذى تسمح به السلطة والظروف.

فاضطر الفقهاء إذن لشرعنة إمارة الاستيلاء وسلطنة التغلب، حفظاً للوحدة، ودرءاً للانقسام، واعتبروا أنه ما دامت الخلافة قائمة فإن المشروعية التأسيسية متحققة، والخلل إنما داخل شرعية المصالح؛ وهذا يمكن تلافيه بالإصرار على العدالة. وهذه النزعة يجعلها د. القرضاوى معبِّراً عن واقعية الفقه الإسلامى، وأنه لا يعيش فى الهواء بل فى الواقع ويتفاعل معه.

وبقى الأمر على هذا الحال حتى مشارف العصور الحديثة، إذ أُعيد القول فى الفقه والفكر السياسيين، مع صدمة الغرب وظهور الدول الحديثة، ثم مع سقوط الخلافة الإسلامية سنة ١٩٢٤م، فقد طوَّر الشيخ محمد عبده أُطروحة الدولة المدنية فى الإسلام فى سياق الجدال مع فرح أنطون حول العلمانية، ثم تأسست الحركات الإسلامية العاملة لاستعادة الدولة الإسلامية التاريخية، والتى تطورت لديها فى خمسينيات وستينيات القرن العشرين مقولةُ (الدولة الإسلامية) التى تكتسبُ اسمَها هذا من (تطبيق الشريعة)، فى مقابل تيارين آخرين، يرى أحدهما ضرورة إعادة الخلافة، ويرى الآخر ضرورة القول بالعلمانية. والصراع إنما قام ويقوم بين هذه التوجهات الثلاثة.

لكن أنور أبو طه يركز تحليله على دولة الإخوان المسلمين تحديداً؛ لكونها كبرى الحركات الإسلامية، وهى الحاضرة بقوة فى ساحة الفكر والعمل السياسى، فيرى أن ولادة جماعة الإخوان المسلمين كان مبعث ظهورها أنها ردّ فعل على غياب النظام السياسى الإسلامى، فكانت تتويجاً عملياً ذا مَنْحى نضالى لدفاعات الفكر الإسلامى منذ عصر النهضة ضد الفكر «التغريبى». ويقرر أن حسن البنا لم يكن امتداداً خالصاً للاتجاه السلفى التقليدى لعصر النهضة ممثَّلاً بمحمد رشيد رضا الداعى إلى نظام الخلافة، فالبنّا أضاف تصوراً جديداً أَدخل العقلَ الإسلامى فى مساحات التفكُّر الفعَّال، كما أَدخل تعديلاً مهمّاً فى مفهوم «الجماعة المسلمة» التى عصفت بها التحولات فى دول ما بعد الاستقلال، وتحديداً مفارقات التفارق والتحوُّل بين مفهومى «المجتمع الإسلامى»، و«الجماعة المسلمة».

الفكرة المركزية التى انطلق منها البنا - كما هو معروف - هى أن الإسلام نظام شامل، دين ودولة، وانطلاقاً من شمولية الإسلام اعتبر البنّا أن علاقة الدين بالسياسة هى بمنزلة «الأصل الأساسى» الذى تمّ تضييعه، بل إنه يقفز قفزة نوعية فى النظر إلى مكانة الحكم فى الإسلام فيقول: «والحكم معدود فى كتبنا الفقهية من العقائد والأصول، لا من الفقهيات والفروع، فالإسلام حكم وتنفيذ، كما هو تشريع وتعليم، كما هو قانون وقضاء، لا ينفك واحد منها عن الآخر». وهذا النص - بحسب أبو طه - يُعتبر تأسيساً أولياً لقداسة السلطة، فهو قد وضع بذور فكرة «الحاكمية» التى تبنَّتها كافة تيارات وجماعات السلفيّة الحركية لاحقاً، التى اعتبرت أن الدولة الإسلامية مسألة عَقَديّة من مسائل أصول الدين، ولذلك نرى الخطاب الإسلامى السياسى الحركى أسبغ طابعاً قدسياً على تلك العلاقة بين الدولة والدين، مُشابهاً الموقف الفقهى الشيعى فى مسألة الإمامة التى تتحول إلى أصل من أصول الاعتقاد!.





ظهر سيل من الأفكار والنقاشات، يمكن أن يتم النظر إليه من زوايا مختلفة أو متعددة، بعضها سياسى وبعضها معرفى، وبعضها قانونى



هكذا تمّ مَرْكَزَة المسألة السياسية لدى الحركة الإسلامية «الأم»، مما أدى إلى بروز نزعة التسييس، وإعلاء الشأن السياسى العملى فى عموم الفكر الإسلامى وتياراته وحركاته، حتى إن الفكر الإسلامى الحديث ربط قوام «الأمة» وتحقُّق وجودها التام بالدولة، ونقل المرجعية من الأمة إلى الدولة التى تطبق الشريعة، وهذه إحدى مشكلاته الكبرى بحسب الكثيرين.

لم يغادر البنا تصور الخلافة كليةً، فهو قد جعل من «فكرة الخلافة والعمل لإعادتها»، على رأس أولويات الإخوان المسلمين، ولكنه يعتقد أن الأمر يحتاج إلى «كثير من التمهيدات التى لا بد منها، وأن الخطوة المباشرة لإعادة الخلافة لا بد لها أن تسبقها خطوات».

إنه بالرغم من كثرة الحديث عن نظام إسلامى، ودولة إسلامية، نجد إقراراً مستمراً بأن الكلام يتعلق بالمضمون والمرجعية لا بالشكل أو المسمّيات؛ لأن الإسلام - حسب البنا وغيره - لا يتدخل فى تفاصيل وجزئيات الحياة الدنيوية البحتة، وإنما فى المسألة السياسية بما هى اشتغال فى القيام على الدنيا بما يصلحها، لكنهم مع ذلك حين يرسمون وظيفة الدولة أو مهماتها نجدهم يتحدثون عن «وظيفة عقدية للدولة الإسلامية» كما هو عنوان كتاب لحامد عبد الماجد، بل إن البنا والغنوشى يتحدثان عن وظيفة الدولة فى نشر الإسلام وتبليغ دعوته الحكيمة للناس، وهداية الناس جميعاً، وهذا يتجاوز مسألة وجود الدولة لضرورات اجتماعية لتحقيق النظام وتسيير المعاش وتحقيق إجماع الحد الأدنى فى الجماعة السياسية وغير ذلك.

وفى الواقع ثمة شبه اتفاق بين العديد من مقالات هذا الكتاب على أن مفهوم الدولة الإسلامية يلفّه غموض شديد، والتباس بمفاهيم الدولة الحديثة، والخلافة، وقد سبق لنزيه نصيف الأيوبى أن أكد فى كتابه «العرب ومشكلة الدولة» (ط١، ١٩٩٢م) أنه ليس فى الفكر السياسى الإسلامى مفهوم محدد للدولة، وأن عشرات الكتب التى تتحدث عن مفهوم «الدولة فى الإسلام» وتستمد مادتها من الأدبيات الإسلامية التقليدية إنما تتحدث عن «الحكم» أو عن «السياسة»، وليس عن «الدولة» بالمفهوم النوعىّ والمعنى المتكامل؛ ذلك أن تصنيف «الدولة» فى الفكر السياسى التقليدى هو تصنيف لضروب الصَّنْعة السياسية، وليس لأنواع «الدولة».

إلى ذلك، إن مفهوم الدولة الإسلامية تُحيط به إشكالات عديدة، أهمها التباس العلاقة بين الدين والسياسة، وهو جوهر المعضلة. وفى هذا المعنى



كتاب الزاوية



أيها النيل

أحمد شوقى

وَكَأَنَّما بَينَ البِلى وَقُبورِهِم
عَهدٌ عَلى أَن لا مَساسَ وَمَوثِقُ
فَحِجابُهُم تَحتَ الثَرى مِن هَيبَةٍ
كَحِجابِهِم فَوقَ الثَرى لا يُخرَقُ
بَلَغوا الحَقيقَةَ مِن حَياةٍ عِلمُها
حُجُبٌ مُكَثَّفَةٌ وَسِرٌّ مُغلَقُ
وَتَبَيَّنوا مَعنى الوُجودِ فَلَم يَرَوا
دونَ الخُلودِ سَعادَةً تَتَحَقَّقُ
يَبنونَ لِلدُنيا كَما تَبني لَهُم
خِرَباً غُرابُ البَينِ فيها يَنعَقُ
فَقُصورُهُم كوخٌ وَبَيتُ بَداوَةٍ
وَقُبورُهُم صَرحٌ أَشَمُّ وَجَوسَقُ
رَفَعوا لَها مِن جَندَلٍ وَصَفائِحٍ
عَمَداً فَكانَت حائِطاً لا يُنتَقُ
تَتَشايَعُ الدارانِ فيهِ فَما بَدا
دُنيا وَما لَم يَبدُ أُخرى تَصدُقُ
لِلمَوتِ سِرٌّ تَحتَهُ وَجِدارُهُ
سورٌ عَلى السِرِّ الخَفِيِّ وَخَندَقُ
وَكَأَنَّ مَنزِلَهُم بِأَعماقِ الثَرى
بَينَ المَحَلَّةِ وَالمَحَلَّةِ فُندُقُ
مَوفورَةٌ تَحتَ الثَرى أَزوادُهُم
رَحبٌ بِهِم بَينَ الكُهوفِ المُطبِقُ
وَلِمَن هَياكِلُ قَد عَلا الباني بِها
بَينَ الثُرَيّا وَالثَرى تَتَنَسَّقُ

يأتى مقال عبد الرحمن الحاج ليقدم قراءة تاريخية للفكر الإسلامى السياسى تلحظ تحولات الوعى بمفهوم الدولة تحديداً، وتأثيرات الميراث السياسى الفقهى والتاريخى عليه، ويرى فيه أن مفهوم الدولة الإسلامية مفهوم هجين يختزن مضموناً نضالياً لاستعادة الإسلام عبر استعادة الخلافة، أو لاستعادة الخلافة من أجل استعادة الإسلام، وأن ظل الخلافة لم يفارق تصورات الدولة الإسلامية، فلاهوت الخلافة الثاوى فى عبارة «الدولة الإسلامية» يمثل القاسم المشترك لكل الحركات الإسلامية، والفارق بينها أن بعضها يعيد مفهوم «الدولة الإسلامية» إلى أساسه (الخلافة)، مثل حزب التحرير والحركات الجهادية، فيما يفسر البعض الآخر الدولة الإسلامية بمنطق تلفيقى بالدولة المدنية. وقد عزز ظل الخلافة ومكن للاهوتها فى الوعى الإسلامى الصراع الإيديولوجى ومساعى الحفاظ على الهوية فى مواجهة ما سمى بـ«التغريب» و«الغزو الفكرى» و«الاستلاب» وغير ذلك، حتى كاد يصبح مفهوم «الدولة الإسلامية» مسلمة من مسلمات الوعى الإسلامى برمته فى نهاية السبعينيات، وخصوصاً بعد الثورة الإسلامية فى إيران عام ١٩٧٩م. لكن الحاج لا ينفى أن ثمة بوادر لإعادة التفكير فى مفهوم الدولة الإسلامية خارج إطار لاهوت الخلافة، بشكل يقترب أكثر من مفهوم الدولة الحديثة خارج الأيديولوجيا.

ثمة إشكالات عديدة تحيط بمفهوم الدولة الإسلامية فى أعين نقادها، كما يتضح فى الفصل الثالث، فرضوان السيد يقول ناقداً: صحيح أن الحاكم فى الدولة الإسلامية غير معصوم، لكن غير المعصوم هذا يقوم على تطبيق الشريعة المعصومة، فما الفائدةُ من التأكيد على (مدنية) الحاكم ما دامت (مدنية) الدولة منكورةً أو غير مصونة؟! ويستدلُّ دُعاةٌ كبارٌ على ضرورة إقامة الدولة الإسلامية بأنَّ الإسلامَ عقيدةٌ وشريعة، والقائلُ بذلك لا بد أن يُقِرَّ أنَّ الإسلامَ دينٌ ودولة! بيد أنَّ (الشريعة) لا تعنى المشروعَ السياسى، كما أنها فى الحقيقة لا تنفصلُ عن العقيدة، بل هما شىءٌ واحدٌ، ذلك أنَّ الشريعة تملكُ جوانب اعتقادية أيضاً، وكذلك أورد برهان غليون فى الفصل الأول جملة إشكالات على أطروحة الدولة الإسلامية فى الفصل الأول، منها أنه يرى فيها شكلاً من أشكال الدولة الدينية التى تجاوزها الجميع باتجاه الدولة الديمقراطية التى تكفل قيام الحق والقانون، وترسخ مبدأ المواطنة كأساس للتعامل بين الجميع، وإن كان العديد من المفكرين الإسلاميين ينفون هذه الصيغة عن الدولة الإسلامية، وقاموا بتوطين فكرة المواطنة داخل الفكر السياسى الإسلامى، بما يكفل مبدأى المساواة والعدل.

والواقعُ أنَّ منظِّرى الإسلاميين بعد أن صاروا أحزاباً سياسيةً، ومارسوا المشاركة، سيطر فى أوساطهم أحدُ منزعين: إمَّا تصوير «الدولة الإسلامية» الموعودة بصورة تقرِّبُ بها من «الدولة المدنية»، أو العكس، أى تصوير الدولة المدنية باعتبارها اختراعاً من اختراعات المسلمين فى العصور الوسطى، قلَّدهم فيها الغربيون المُحْدَثون.

لكن المقال الأخير فى الفصل الأخير من الكتاب، يخطو خطوة متقدمة فى إدراك مشكلة الدولة الإسلامية من داخل التفكير الإسلامى نفسه، إذ يوضح أن هناك تفريقًا وتمييزًا بين شمولية الإسلام ووظيفة الفقه والفقهاء، كما أن هناك تمايزًا بين الفقه والسياسة، إلا أن متغيرات الواقع السياسى أدت إلى اضطراب كبير فى «الأدوار» طاول وظيفة الفتوى ومجالها وحدودها، بل وظيفة الفقه والفقيه، والذى لم يتم الانتباه إليه أن شمولية الإسلام لم تعن شمولية الفقيه فى ذاته بحيث يصبح هو - وحده - المتحكم بالمجال العام.

لكن التطور الذى حدث فى العصر الحديث هو ذلك الانفصال بين الشريعة والسياسة فى بناء تصور ومرجعية الدولة الحديثة، بما هى مهيمنة على تفاصيل حياة البشر، وفى هذا السياق حدثت تحولات كبيرة فى وعى تلك الفكرة المركزية فى الإسلام، وهى «النظام الشامل»، فتحولت من إطار دولة مجسدة لها وقائمة بها، إلى إطار جماعة أو تنظيمات إسلامية، فجرى الدمج بين الإسلام بوصفه نظاماً شاملاً، وبين ما سمى لاحقاً بـ«الإسلام السياسى» على معنى المشاركة فى السلطة، أو السعى إليها.

فاشتمال الشريعة الإسلامية على مسائل السياسة أمر لا مفرَّ من الإقرار به، وهو ما يشهد به ذلك النتاج الفقهى الضخم، والتاريخ الإسلامى أيضاً، بل ويشهد به التحليل المنطقى عن تعريف الفقه الإسلامى وبناء تصوراته، لكن الجديد والطارئ هو مَنْ يمارس تلك السلطة، ويقوم على تطبيق تلك التصورات. هنا حدث - ويحدث - الكثير من الاضطراب منذ نشأة الدولة الوطنية الحديثة والصراع على السلطة والمرجعية أيضاً. ■

حول السياسة البترولية فى مصر

حسين عبدالله

■■ يجرى التنقيب عن البترول والغاز فى مصر على أساس اتفاقية لاقتسام الإنتاج تبرم مع شركة أجنبية وتصدر بقانون. وبمقتضاها يقوم الشريك الأجنبى بالإنفاق وحده على جميع العمليات. فإذا لم يتحقق اكتشاف تجارى خلال فترة أولية (٦-٨ سنوات) يغادر دون استرداد ما أنفقه. وهذا هو وجه المخاطرة التى يتعرض لها الشريك الأجنبى ويتقاضى فى مقابلها نسبة من الإنتاج كربح إذا تحقق اكتشاف تجارى. ففى تلك الحالة يمتد العقد لنحو ٣٥ عاما ويبدأ الشريك الأجنبى فى استرداد نفقاته من نسبة معينة من الإنتاج الكلى (عادة ٤٠٪) يحصل على قيمتها نقدا أو فى صورة عينية تقوّم بالدولار بضربها فى سعر تصدير البترول أو الغاز. ويستمر حصوله على تلك النسبة عاما بعد آخر إلى أن يكتمل السداد.

أما ما يتبقى بعد حصة سداد النفقات فإن الشريك الأجنبى يحصل منه على نسبة إضافية كربح صاف (عادة ٢٥٪ مما يتبقى بعد حصة استرداد النفقات أى نحو ١٥٪ من الإنتاج الكلى)، ثم تحصل الدولة المضيفة (مصر) على ما يتبقى. وبذلك يبلغ إجمالى ما يحصل عليه الشريك الأجنبى أثناء فترة استرداد النفقات نحو ٥٥ ٪ من الإنتاج الكلى، بينما تحصل مصر خلال تلك الفترة على ٤٥ ٪.

وفى ضوء التجارب الفعلية التى شملت جميع الشركات الأجنبية العاملة فى مصر على امتداد فترات غطت استرداد النفقات، يختلف الرأى حول متوسط نصيب مصر من الإنتاج الكلى، إذ يرى بعض الخبراء أن هذا النصيب لا يتجاوز النصف، بينما يرى قطاع البترول أنه يقارب ثلثى الإنتاج.

وسواء كان النصف أو الثلثين، فإن الأرقام الفعلية للإنتاج والاستهلاك المحلى، كما وردت فى تقارير الجهاز المركزى للمحاسبات، تؤكد أن مصر صارت مستوردا صافيا للبترول والغاز، إذ يتجاوز استهلاكها المحلى نصيبها من الإنتاج الكلى، مما يلجئها إلى تغطية العجز بالشراء من نصيب الشريك الأجنبى وبالعملة الأجنبية، كما هو حاصل فعلا منذ سنوات وترتب عليه تراكم الديون المستحقة للشركات الأجنبية ودفعها للتهديد بالتوقف عن تنمية الحقول المكتشفة ما لم تحصل على مستحقاتها.

ولبيان حجم مشتريات مصر من أنصبة الشركات الأجنبية لأغراض الاستهلاك المحلى، فقد بلغ إنتاج البترول والغاز عام ٢٠٠٥ نحو ٥٨ مليون طن بترول مكافئ، كما بلغ نصيب مصر ٣٩ مليون طن، بينما بلغ الاستهلاك المحلى ٤٩ مليون طن، وبذلك غطى العجز البالغ ١٠ ملايين طن بالشراء من نصيب الشريك الأجنبى. وفى عام ٢٠٠٧ بلغ الانتاج نحو ٧٦ مليون طن ونصيب مصر نحو ٤٧ مليون طن بينما قدر الاستهلاك المحلى بنحو ٦٠ مليون طن، وبذلك بلغ العجز نحو ١٣ مليون طن. وفى العام المالى ٢٠٠٨/٢٠٠٩ بلغ إنتاج البترول والغاز نحو ٨١ مليون طن بترول مكافئ Toe يقدر نصيب مصر منها بنحو ٥٠ مليون Toe، بينما بلغ الاستهلاك المحلى من الغاز والسوائل البترولية نحو ٦٣ مليون Toe. وبذلك يبلغ العجز الذى غطى بالشراء من أنصبة الشركات الأجنبية نحو ١٣ مليون Toe. وكانت النتيجة كما تؤكد تقارير الجهاز المركزى للمحاسبات تراكم الديون المستحقة للشركات والتى يمكن أن تستخدمها للضغط لتحقيق مطالب غير مستحقة مثل رفع سعر الغاز الذى تشتريه مصر من الشركات، كما سنوضح فيما بعد.

وبدون التعرض لتفاصيل تخرج عن نطاق هذا البحث الموجز، فإن المتوقع أن تتحول مصر إلى مستورد لكامل احتياجاتها من البترول والغاز بحلول ٢٠٢٠ أو بعد ذلك بسنوات قليلة على اختلاف فى التوقيت بين البترول والغاز، إذ قد يسبق البترول الغاز الذى قد يمتد التحول لاستيراده بالكامل لفترة أطول بحكم أن احتياطياته تمثل أربعة أمثال احتياطيات الزيت الخام، وأن استهلاك مصر منهما فى الوقت الحاضر يبلغ نحو ٦٣ مليون Toe موزعة مناصفة بين المصدرين. ويتزايد الاستهلاك المحلى بمعدل لا يقل عن ٥٪ سنويا فى المتوسط ليبلغ بحلول ٢٠٢٠ نحو ١٠٣ ملايين Toe وهو ما يعادل ٧٥٠ مليون برميل بترول مكافئ سنويا.

ويستخلص مما تقدم أن الإسراف فى الإنتاج والتصدير يعرض مصر للاشتباك فى صراع متوقع بين الدول للحصول على احتياجاتها من البترول والغاز المتجهين للنضوب المبكر، وبأسعار لا تحتملها مصر. فالمتوقع أن لا يقل سعر البترول عن مائة وعشرين دولارا للبرميل بحلول ٢٠٢٠، ومن ثم فإن تحول مصر إلى مستورد لكامل احتياجاتها من البترول والغاز، يمكن أن يلزمها بدفع فاتورة لا تقل عن ٩٠ مليار دولار سنويا، قابلة للزيادة. ولا يختلف الأمر إذا كان البديل طاقة نووية، إذ ترتفع تكلفتها ومخاطرها فوق هذين المصدرين، ويتجاوز المكون الأجنبى الذى يسدد لمن يمتلك التكنولوجيا النووية ٧٠٪ من تكلفتها. فكيف يمكن تدبير هذه المبالغ، أخذا فى الاعتبار ضآلة حصيلة الصادرات المصرية غير النفطية وازدياد الاعتماد على الاستيراد لتوفير احتياجات أساسية عديدة غير نفطية؟ وماذا يحدث إذا عجزنا عن توفير احتياجاتنا من الطاقة والتى يطلق عليها بحق «شريان الحياة» Life blood؟

على تلك الخلفية نستعرض فيما يلى موقف الشركات الأجنبية العاملة فى مصر، ومدى استجابة قطاع البترول لمطالبها غير المستحقة. ونبدأ بما تتمتع به تلك الشركات من ميزات فى مصر قلما تجدها فى دول أخرى، ومنها على سبيل المثال:



(١) أن الشريك الأجنبى لا يتحمل الإتاوة التى هى حق للدولة مقابل نضوب الحقول، بصرف النظر عن الأرباح أو الخسائر التى تتحقق بعد الإنتاج، إذ تتحمل الهيئة العامة للبترول الإتاوة نيابة عنه.

(٢) كذلك لا يتحمل الشريك الأجنبى ضرائب الدخل التى تتحملها الهيئة نيابة عنه وتغنيه عن الخضوع مرة ثانية للضرائب الأمريكية، وهو ما يعنى احتفاظه بأرباحه معفاة من ضرائب الدولتين.

(٣) ويعفى الشريك الأجنبى أيضا من الجمارك على جميع وارداته من الخارج وهى ما تمثل الجانب الأكبر من النفقات، كما يعفى من عدد كبير من القوانين المهمة التى تحكم أنشطة الشركات غير البترولية العاملة فى مصر.

(٤) وإذا صح ما يشيعه قطاع البترول أن معدلات النجاح فى التنقيب عن البترول فى مصر تعتبر من أعلى معدلات العالم، فإن المخاطر والنفقات التى يتحملها الشريك الأجنبى لا بد أن تكون أقل ما يمكن ومن ثم ينبغى أن تنعكس عند التفاوض فى صالح مصر.

(٥) كذلك يتوفر فى مصر عمالة مدربة، وبنية أساسية متقدمة كخطوط الاتصالات والمواصلات والطرق، وموقع جغرافى متميز، ومناخ جوى ملائم... إلخ.

(٦) كما يتوفر فى مصر مناخ استثمارى مستقر نسبيا، فلا توجد قبائل تدمر معدات الإنتاج وتقطع خطوط ضخ البترول والغاز أو تهدد حياة العاملين فى الحقول كما يحدث فى نيجيريا واليمن وغيرهما.

وكان من مقتضى توفر تلك الميزات وغيرها كثير، إمكانية حصول الجانب الوطنى على شروط جيدة فى الاتفاقيات التى تبرم مع الشركات الأجنبية، وأن تكف تلك الشركات عن المطالبة بمكاسب إضافية لا تستحقها، ولكننا بالعكس نجد أن تلك الشركات تحاول تعظيم مكاسبها على حساب الجانب الوطنى وتحصل على ما تريده فى أغلب الأحوال. ومن أمثلة ذلك:

(١) يتم التفاوض على عقد اقتسام الإنتاج الذى يبرم مع الشريك الأجنبى فى ضوء الظروف السائدة وقت التفاوض. وإذ يمتد العقد إلى ٢٥ عاما قابلة للامتداد إلى ٣٥ عاما، فإن أغلب الدول التى تتبنى ذلك النوع من العقود تتحسب لما قد يحدث من متغيرات خلال تلك المدة الطويلة ما يستدعى تعديل الشروط، ولذلك تصر على أن يتضمن العقد نصا يتيح إعادة التفاوض وتصحيح اقتسام الإنتاج وغيره من الشروط إلى الوقت الذى تم فيه التوقيع على العقد، وبخاصة سعر البترول الذى كان سائدا فى ذلك الوقت والذى يتحدد على أساسه نصيب الشريك الأجنبى من الإنتاج الكلى مقابل الربح. ويمكن أن يستعاض عن ذلك الشرط بإدخال معدل الربح الداخلى على الاستثمار Internal Rate of Return IRR كعنصر تفاوضى بحيث يسمح للشريك الأجنبى بمعدل للعائد على استثماراته يتراوح بين حدين أدنى وأعلى، إضافة إلى قيامه باسترداد كامل نفقاته. وبذلك لا ينفرد الشريك الأجنبى بالأرباح الاستثنائية التى تهبط عليه نتيجة لارتفاع غير متوقع لأسعار البترول فى السوق العالمية كما حدث خلال السنوات ٢٠٠٣-٢٠٠٨.

(٢) جاءت العقود المصرية خلوا من هذين الشرطين، وبذلك استبعد معيار تغير سعر البترول فى الأسواق العالمية من معادلة اقتسام الإنتاج. ولذلك لم تقم مصر باتخاذ إجراء يتيح لها مقاسمة الشركات الأجنبية فى الأرباح الاستثنائية التى حصلت عليها وحدها نتيجة لارتفاع أسعار البترول خلال الفترة ٢٠٠٣-٢٠٠٨ مع أن

الإسراف فى الإنتاج والتصدير يعرض مصر للاشتباك فى صراع متوقع بين الدول للحصـــول على احتياجاتهـــا مـــن البتـــرول والغاز المتجهين للنضوب المبكر



الكثير من الدول، ومن أمثلتها الجزائر، قام بفرض ضرائب استثنائية على الأرباح الاستثنائية ومقاسمة الشركات الأجنبية العاملة فى الجزائر فى تلك الأرباح حتى بدون نص يسمح لها بفرض تلك الضرائب، اعتمادا على المبادئ القانونية المستقرة فى هذا المجال.

(٣) وفى مقال لنا أوضحنا تلك المبادئ القانونية المستقرة والتى من مقتضاها أن تغير الظروف التى تحكم العقود الطويلة الأجل يستلزم إعادة التفاوض لإعادة توازن العقد إلى ما كان عليه وقت التوقيع، وهو نص متبادل ولكن ما أدخل منه فى العقود المصرية يتيح للشريك الأجنبى وحده الانتفاع به. وحتى مع خلو العقود المصرية من عمومية النص فقد تبنت لجنة الصناعة والطاقة بمجلس الشعب مقترحنا فى هذا المجال، فطالبت قطاع البترول باتخاذ إجراءات لمقاسمة الشركات فى الأرباح الاستثنائية التى لم تكن متوقعة وقت إبرام الاتفاقية، إلا أن قطاع البترول أغفل تنفيذ تلك التوصية وترك الشريك الأجنبى ينفرد بها دون جهد منه أو القيام باستثمارات جديدة تبرر حصوله عليها (ينظر توصية لجنة الصناعة والطاقة بمجلس الشعب فى تقرير لجنة الرد على بيان رئيس الحكومة - يناير ٢٠٠٨ ص ٢٠٨).

(٤) لم تكتف الشركات الأجنبية بالانفراد بالأرباح الاستثنائية بل طالبت قطاع البترول بسداد ثمن ما يحصل عليه من أنصبتها لتغطية العجز فى احتياجات مصر من البترول بالسعر العالمى، متضمنا الأرباح الاستثنائية، وبالعملة الأجنبية. وكان الأجدر بتلك الشركات الاكتفاء بثمن يعادل السعر الذى كان سائدا وقت التوقيع على العقد، وكفاها الانفراد بالأرباح الاستثنائية التى تجنيها من صادراتها البترولية للخارج وسكوت قطاع البترول عن مقاسمتها فيها. أما المطالبة بالسعر السائد وقت شراء البترول اللازم للاحتياجات المحلية فمعناه أن مصر لم تخسر فقط نصيبها فى تلك الأرباح، وإنما تحملت أيضا جانبا مما تحصل عليه الشركات من تلك الأرباح الاستثنائية.

(٥) أما بالنسبة لأسعار الغاز الذى تشتريه مصر من أنصبة الشركات الأجنبية لأغراض الاستهلاك المحلى، والتى حددت فى الاتفاقيات الصادرة بقوانين بما لا يتجاوز ٢,٦٥ دولار للمليون وحدة حرارية بريطانية Btu، فقد طالبت الشركات برفع السعر واستجاب لها قطاع البترول فارتفع فى بعض العقود إلى مستويات تتراوح بين ٣,٧٠ دولار و٤,٧٠ دولار ويقال إن ثمة مطالب تصل إلى ثمانية دولارات. ويبدو وجه الغرابة أن السعر الذى يشترى به قطاع البترول، من أنصبة الشركات الأجنبية من الغاز، الكميات اللازمة لمواجهة العجز فى احتياجات مصر، يتجاوز بمراحل سعر تصديره، والذى يحتفظ قطاع البترول بسريته دون مبرر.

(٦) كذلك تحاول الشركات الأجنبية الالتفاف حول التزامها بتزويد السوق المحلية بالغاز عبر قطاع البترول وبالسعر المحدد فى الاتفاقيات الصادرة بقوانين، إذ تطالب الشركات بتزويد الصناعات المصرية مباشرة وبأسعار تتجاوز السعر المحدد بالاتفاقيات. وبذلك تحتفظ كل شركة أجنبية بمركز احتكارى تجاه عملائها المصريين إذ لا يوجد لأى منها بديل فى مد خطوط الأنابيب التى تغذيهم بالغاز.

(٧) وتبرر الشركات طلبها رفع سعر الغاز الذى تتزود به السوق المصرية من أنصبتها بأن تكلفة التنقيب والإنتاج فى المياه العميقة بالبحر المتوسط ارتفعت كثيرا فى ظل ارتفاع أسعار البترول واحتدام المنافسة بين الشركات لاقتناء معدات البحث والإنتاج فى المياه العميقة. وهنا كان ينبغى الرد عليها بأن الشركات تسترد ما تنفقه - سواء ارتفع أو انخفض - من الإنتاج الكلى دولارا بدولار ولا علاقة لارتفاع النفقة بما تتزود به مصر من أنصبتها. وإذا كانت تكلفة الغاز لا تتجاوز ٧٠ سنتا للمليون وحدة حرارية كما يعلن قطاع البترول فبأى حق تتقاضى الشركة أربعة دولارات كربح فوق تلك التكلفة؟



(٨) وإذ تشير اقتصاديات الطاقة النووية إلى أنها لا تصبح منافسة للغاز إلا إذا تجاوز سعر الغاز ستة دولارات للمليون وحدة حرارية بريطانية Btu، فإننا نوصى بأن يقتصر إنتاج الغاز المصرى على ما يكفى فقط لتغطية الاستهلاك المحلى والتوقف تماما عن التصدير، مع شراء نصيب الشريك الأجنبى بالكامل بالسعر الوارد فى الاتفاقيات الصادرة بقوانين (وحده الأقصى ٢,٦٥ دولار للمليون وحدة حرارية)، وهو ما يعادل نصف تكلفة الطاقة النووية، فضلا عن أن الغاز يعتبر أكثر أمانا ولا يثير ما تثيره الطاقة النووية من مشاكل دولية وسياسية واجتماعية.

(٩) كذلك تطالب الشركات ويستجيب لها قطاع البترول بتعديل نسب توزيع الإنتاج الكلى بحيث ترتفع حصة الشريك الأجنبى التى يحصل عليها كربح ويزداد ما يحصل عليه من الإنتاج الكلى على امتداد فترة العقد خصما من نصيب مصر من ذلك الإنتاج. فالعقد التقليدى يقضى بتخصيص ٤٠٪ من الإنتاج الكلى لاسترداد قسط النفقات إلى أن يكتمل السداد ثم تتوقف، وعادة لا تتجاوز تلك المدة خمس سنوات. أما الباقى (٦٠٪) فيوزع بحيث يحصل الشريك الأجنبى على ٢٥٪ منه كربح (أى ١٥٪ من الإنتاج الكلى)، ويؤول الباقى لقطاع البترول. أما ما يطلبه الشريك الأجنبى، كمثال، فهو خفض الحصة المخصصة لاسترداد النفقات إلى ٣٥٪ من الإنتاج الكلى وهو ما يكفى لتغطية القسط المستحق بعد ارتفاع أسعار البترول. وبالمقابل ترتفع حصة ربح الشريك الأجنبى من ٢٥٪ إلى ٣٥٪ مما يتبقى. بذلك، وبافتراض ٢٠٪ من الإنتاج الكلى كمجمل النفقات بعد اكتمال سدادها، فإن ما يتبقى وهو ٨٠٪ يوزع وفقا للعقود قبل تعديلها بحيث يحصل الجانب الوطنى على ٦٠٪ والشريك الأجنبى على ٢٠٪ كربح صاف. أما بعد التعديل الذى يطلبه الشريك الأجنبى فإن ما يحصل عليه كربح يرتفع من ٢٠٪ إلى ٢٨٪ حيث يستمر انتفاعه به إلى نهاية العقد (٣٥ سنة) بينما ينخفض نصيب الجانب الوطنى من ٦٠٪ إلى ٥٢٪.

(١٠) وأما تهديد الشركات بعدم تنمية الحقول المكتشفة ما لم تتحقق مطالبها، فيجاب عليها بتطبيق مبدأ المسئولية المنفردة Sole risk المتضمن فى العقد والذى يجيز للجانب الوطنى الانفراد بتنمية ما يتراخى الشريك الأجنبى فى تنميته والحصول وحده على كامل الإنتاج. ولن يكون من العسير على الجانب الوطنى القيام بهذه المسئولية بعد أن تم اكتشاف الحقل ويمكن الاقتراض لتنميته بضمان جانب من الإنتاج. ولعل الأغرب من ذلك أن يوافق قطاع البترول خلال مايو ٢٠١٠ على مشروع لتعديل اتفاقيات سبق صدورها بقوانين حيث يجيز التعديل انفراد إحدى الشركات الأجنبية بتنمية وإنتاج الغاز من حقول اكتشفت شمال الإسكندرية وذلك كشرط للاستمرار فى العمل، مع تعديل نسب اقتسام الإنتاج لصالح الشركة الأجنبية (٦١٪ لصالح الشركة و٣٩٪ لهيئة البترول). ويجوز للشركة الأجنبية تصدير نصيبها، باستثناء ما قد يحتاجه الاستهلاك المحلى من هذا النصيب وبسعر يتم الاتفاق عليه مع هيئة البترول. ومن المؤكد أن هذا السعر سوف يزيد على السعر المحدد بالاتفاقيات الأصلية الصادرة بقانون وهو ٢,٦٥ دولار للمليون وحدة حرارية، والذى تحاول الشركات جاهدة الإفلات منه إضرارا بمصر.

(١١) نادينا فى العديد من الدراسات والمقالات المنشورة عبر السنوات العشرين الماضية أن يقتصر إنتاج البترول والغاز على ما يغطى الاحتياجات المحلية، ولو قمنا بشراء كامل نصيب الشريك الأجنبى، وذلك تأجيلا لما يمكن أن يحل بمصر من مخاطر إذا اضطرت للاشتباك مع دول أخرى لتدبير احتياجاتها من الطاقة من الأسواق وبالأسعار العالمية، فى وقت تتأكد فيه احتمالات النضوب المبكر للاحتياطيات العالمية، وبفاتورة لا تقل قيمتها عن ٩٠ مليار دولار بحلول ٢٠٢٠. غير أن قطاع البترول لم يستجب فقط لهذه الدعوة بل قام ويقوم بتصدير الغاز بأسعار غاية فى التدنى، دون أن تتضمن عقود التصدير الطويلة الأجل (٢٠ عاما) نصا يجيز تعديلها مع التغيرات الجوهرية التى تطرأ على أسواق الغاز. وبالمقابل استطاعت دولة مثل قطر أن تدخل على عقودها الطويلة الأجل نصا يتيح لها تحويل Diversion الشحنة المتجهة للمستورد المتعاقد إلى أية جهة يرتفع السعر فيها فوق السعر المتعاقد عليه. وبذلك تستطيع الدولة المصدرة الاستفادة من ارتفاع السعر فى الأسواق الفورية دون أن تلتزم بالتصدير بالسعر التعاقدى المتدنى.

(١٢) أما ما يقال عن عزوف الشركات عن الاستثمار فى الدول التى لا تستجيب لمطالبها أو تطالبها بحق مشروع، فيرد عليه بأن العالم يواجه ندرة متزايدة فى الإمدادات البترولية مما يدفع الأسعار إلى الارتفاع عبر المستقبل المنظور. والمشاهد أن الشركات صارت تتنافس فيما بينها للحصول على عقود للتنقيب فى الدول البترولية وتقبل شروطا لم تكن تقبلها فى الماضى، ولكن يلزم لذلك أن تجد أمامها مفاوضا قويا. كذلك تشهد الساحة البترولية ظهور دول تعانى من عجز فى احتياجاتها البترولية مثل الصين والبرازيل والهند وتتجه للتعاقد على التنقيب فى دول بترولية مع استعدادها لتقديم تنازلات وامتيازات فوق ما تقدمه شركات البترول التقليدية. ولن تكون مصر بما لديها من ميزات، سبقت الإشارة إلى بعضها، ممن يخشى انصراف الشركات عنها إذا طالبت بنصيبها المشروع فى الأرباح الاستثنائية وأعرضت عن الاستجابة لمطالب غير مستحقة للشركات.

لا غرابة إذن، مع ما تقدم ذكره وغيره من مغريات فى غاية السخاء، أن تقبل الشركات الأجنبية على اقتناص الفرص المتاحة لها فى مصر. ولا مجال للقول بأن هذا الإقبال مصدره مهارة قطاع البترول ونجاحه فى اجتذاب الشركات، لأن المهارة الشخصية لا تساوى شيئا فى حسابات الشركات العالمية التى تسعى فقط لتحقيق مصالحها الذاتية والتى تملك مفاتيحها ممثلة فى الأرقام والمعلومات التى يتوفر منها لديها ما يفوق بمراحل ما يتوفر لدى الدول المضيفة بصفة عامة. ومن ثم ينبغى أن تتوقف حملات المفاخرة الإعلامية التى يقوم بترويجها بعض الصحفيين المأجورين، تغطية لاستجابة قطاع البترول لمطالب غير مستحقة للشركات. ■

تعديلات مجحفة

■ ■ أجاز مجلس الشعب خلال يونيو ٢٠١٠ مشروعا لتعديل اتفاقيتين ابرمتا مع الشركة البريطانية للبترول BP (المقاول) للبحث عن البترول والغاز وانتاجه فى مناطق مغمورة شمال الاسكندرية، صدرتا بقانون عام ١٩٩٢ وعام ١٩٩٩. ولاينقص مشروع التعديل لكى يصبح قانونا غيرتصديق رئيس الجمهورية ثم نشره فى الجريدة الرسمية.

ويبدأ مشروع التعديل بالتزام يبدو فى ظاهره ايجابيا، وهو ان المقاول بعد ان أتم التزامه بالاتفاق على البحث وأوشك على البدء بتنمية الحقول المكتشفة، فانه يلتزم بان يسلم لهيئة البترول كل الانتاج بسعر للغاز حده الأدنى ٣ دولارات وأقصاه ٤٫١ دولار لكل مليون وحدة حرارية بريطانية Btu (أو الف قدم مكعبة)، وبسعر يبدأ بنحو ١٤٠ دولارا لبرميل المتكثفات. أما ما يخفيه هذا الالتزام فهو ان المقاول شأنه شأن باقى المقاولين - لا يلتزم بتغطية العجز فى احتياجات الاستهلاك المحلى بالسعر المذكور الا فى حدود نصيبه من الانتاج الكلى. ومعنى ذلك ان ما يزيد من الانتاج على هذا الالتزام يحتفظ به المقاول لكى يسال فى معمل ادكو ويتم تصديره لحسابه. ومن ذلك يتضح ان التسليم للهيئة ثم الاستلام منها بقصد التصدير لحساب المقاول ليس الا عملية صورية، لأن الغاز لا يخزن كالزيت فى صهاريج يسحب منها عند الحاجة وانما يتدفق الغاز دون توقف الى مقصده النهائى Destination فى نفس لحظة انتاجه. وهذا ما يقتضى الاتفاق مقدما بين الهيئة والمقاول على حجم وتوقيت اتجاه الغاز، ويؤكده ما ورد بالتعديل الذى يقضى بان يقوم المقاول باعداد جدول انتاج سنوى طبقا لعقد تسليم الغاز والمتكثفات. وبذلك يصبح التسليم للهيئة والاستلام منها مسألة دفترية لا أكثر.

بهذه المقدمة الموجزة نتحول الآن لتناول أهم المخاطر والأضرار العملية والتى يمكن ان تصيب قطاع البترول المصرى، وتهدد استقلاله فى ادارة أهم ثروات البلاد الطبيعية:

تخضع الاتفاقيتان الأصليتان قبل تعديلهما لنموذج اقتسام الانتاج السائد فى مصر ومن مقتضاه قيام الشريك الأجنبى بالإنفاق وحده على جميع العمليات. فاذا لم يتحقق اكتشاف تجارى خلال فترة محددة يغادر دون استرداد ما أنفقه. أما اذا تحقق اكتشاف تجارى خلال تلك الفترة فان العقد يمتد لنحو ٣٥ عاما ويبدأ الشريك الأجنبى فى استرداد نفقاته من نسبة معينة من الإنتاج الكلى (عادة ٤٠٪) تقوّم بالدولار بضربها فى سعر تصدير البترول أو الغاز. ويستمر حصوله على تلك النسبة عاما بعد آخر الى ان يكتمل السداد. أما ما يتبقى بعد حصة سداد النفقات فان المقاول يحصل منه على نسبة اضافية كربح صاف (عادة ٢٥٪ مما يتبقى أى نحو ١٥٪ من الانتاج الكلى)، ثم تحصل الدولة المضيفة (مصر) على ما يتبقى. وبذلك يبلغ اجمالى ما يحصل عليه المقاول أثناء فترة استرداد النفقات نحو ٥٥٪ من الإنتاج الكلى، بينما تحصل مصر خلال تلك الفترة على ٤٥٪. وفى ضوء التجارب الفعلية التى شملت جميع الشركات الأجنبية العاملة فى مصر على امتداد فترات غطت استرداد النفقات، يعلن قطاع البترول ان نصيبه فى المدى الطويل، وبعد سداد النفقات وأرباح المقاول، يقارب ثلثى الإنتاج، ولكنه يقوم نيابة عن المقاول بسداد اتاوة الحكومة وضرائب الدخل المستحقة عليه.



يشير مشروع التعديل الى ان المقاول أتم التزامه فيما يخص عمليات البحث بانفاق نحو ٨٠٠ مليون دولار، وان ما تحت يده الآن ويطلق عليه «احتياطيات أولية» يعادل ٥ تريليون قدم مكعبة من الغاز ونحو ٥٥ مليون برميل من المتكثفات. أما ما يزيد على ذلك فيطلق عليه «احتياطيات اضافية» وان كان حجمها لم يذكر فى التعديل. ولكى يتمكن المقاول من تنمية وانتاج الاحتياطيات الأولية والاضافية فانه يلزم انفاق نحو ٩ مليارات دولار وفقا لتقدير المقاول، وذلك ابتداء من يناير ٢٠٠٦ والى ان يتم اكتمال التنمية والانتاج (أى بنهاية مدة العقد بحسب تعريف عقود التنمية والانتاج وهى ٢٠ عاما يضاف اليها فترتان طولهما ١٥ عاما باختيار المقاول).

فى مقابل ما أنفقه وسوف ينفقه المقاول عبر الأفق الزمنى للتعديل (٣٥ عاما) فان التعديل يجيز له حق الانفراد بحصيلة «الاحتياطيات الأولية»، كما يرفع نصيبه من الاحتياطيات الاضافية الى ٦١٪ مقابل انخفاض نصيب هيئة البترول ٣٩٪، وهو تقريبا عكس الاقتسام الذى تقضى به الاتفاقيات الأصلية الصادرة بقوانين قبل تعديلها. وينطبق على الاحتياطيات الاضافية ما يحدث بالنسبة للاحتياطيات الأولية من حيث التسليم الصورى للهيئة واعادة استلام المقاول لنصيبه منها بقصد التصدير. وأما بالنسبة للمتكثفات وما قد يعثر عليه من الزيت الخام وهى كميات ضئيلة، فان مشروع التعديل يوزعهما مناصفة بين المقاول والهيئة. والواضح ان الهيئة سوف تشترى نصيب المقاول منهما لأغراض الاستهلاك المحلى بسعر بدايته ١٤٠ دولارا لبرميل المتكثفات وبسعر السوق بالنسبة للزيت الخام.

وهنا نبدأ بسؤال بسيط وهو: ما هى مبررات ادخال هذا التعديل على اتفاقية صدرت بقانون ويمتد سريانها لنحو ٣٥ عاما، ولا يمكن تعديلها الا وفقا لما ورد بها من نصوص سنعرض لها فيما بعد. وينبثق من هذا التساؤل سؤال ثان وهو: من من طرفى الاتفاقية الأصلية الذى طلب ادخال هذا التعديل وهل كان يسعى لمصلحته أم لمصلحة الطرف الآخر؟ ان الاجابة واضحة، فالمقاول هو الذى أصر على ادخال التعديل مهددا - اذا لم تتم الاستجابة لطلباته - بالتوقف عن تنمية حقول اكتشف أولها عام ٢٠٠٠ وأكتشف أهمها (حقل رافين) فى مايو ٢٠٠٤.

من شأن الرضوخ لمطالب المقاول هدم مبدأ اقتسام الانتاج السائد فى مصر منذ نهاية الستينيات من القرن الماضى، والذى شرحنا أهم أبعاده فى الفقرة (١)، وتشجيع جميع الشركات العاملة فى مصر على المطالبة بتعديلات مماثلة، وبذلك لا تصبح الاضرار الناتجة عن هذا التعديل محدودة بتلك الحقول وانما تمتد لتغطى كافة الحقول فى مصر.

وكان الأجدر ان يرد على تهديد المقاول بعدم تنمية الحقول المكتشفة منذ أكثر من خمس سنوات ان يطبق مبدأ المسئولية المنفردة Sole risk الذى تضمنته الاتفاقية الأصلية ويجيز للجانب الوطنى الانفراد بتنمية ما يتراخى المقاول فى تنميته والحصول وحده على كامل الانتاج. ولن يكون من العسير على الجانب الوطنى القيام بهذه المسئولية بعد ان تم اكتشاف الحقل ويمكن الاستعانة بالخبرات الأجنبية المتقدمة على أساس عقود الخدمة (التى سنعرفها فيما بعد)، والاقتراض لتنمية الحقول بضمان جانب من الانتاج.

يقضى مشروع التعديل بانفراد المقاول بكامل حصيلة الاحتياطيات الأولية وبحصيلة حصته فى الاحتياطيات الاضافية. ويبرر المقاول انفراده بهاتين الحصيلتين بضخامة ما يتحمله من نفقات متضمنة ما يلزم لتنمية وانتاج الاحتياطيات بنوعيها، والتى يقدرها بنحو ٩ مليارات دولار ابتداء من يناير ٢٠٠٦ والى ان يتم اكتمال التنمية والانتاج (أى بنهاية مدة العقد والتى تصل الى ٣٥ عاما). وهنا يلاحظ ان المليارات التسعة قام بتقديرها المقاول وانها تغطى أفقا زمنيا ممتدا، بينما الواقع انه يصعب تقدير نفقات التنمية والانتاج الى أبعد من خمس سنوات، ويكاد يكون مستحيلا تقديرها على امتداد ٣٥ عاما حيث يتغير خلالها الكثير من العوامل الحاكمة وبالأخص التقدم التكنولوجى. ولذلك لا يستبعد ان يميل المقاول الى المبالغة فى تقدير تلك النفقات المستقبلية لتبرير ما يطلبه فى مشروع التعديل وهو الانفراد وحده بحصيلة الاحتياطيات الأولية واقتسام الاحتياطيات الاضافية بصورة تخالف ما جاء بالاتفاقيات الأصلية والتى كانت هيئة البترول تحصل فى ظلها على أكثر من ٦٠٪ من الانتاج.

فى ظل الاتفاقيتين الأصليتين الخاضعتين لنموذج اقتسام الانتاج والصادرتين بقانون فى ١٩٩٢ وفى ١٩٩٩، توجد رابطة واضحة ومحددة بين النفقات بعد انفاقها، وتحديد حجمها بالفعل، وبين ما يحصل عليه المقاول من الانتاج كاسترداد للنفقات والأرباح. أما مشروع التعديل فيقضى بالغاء آلية استرداد التكاليف والاجراءات والنظم المصاحبة لها سواء كانت صريحة او ضمنية. ومن شأن هذا التعديل انفصام الرابطة الواضحة المحددة بين حجم النفقات ونصيب المقاول من الانتاج، اذ تقدر نفقات التنمية والانتاج المستقبلية بمعرفة المقاول وبصورة هلامية، ولا يلتزم المقاول بانفاق المليارات التسعة التى قد تقل او تزيد عبر الاطار الزمنى الممتد. وبالمقابل فان مشروع التعديل ينطوى على التزام تعاقدى واضح ومحدد بالنسبة لانفراد المقاول بحصيلة الاحتياطيات الأولية وحصيلة نصيبه من الاحتياطيات الاضافية بصرف النظر عن حجم ما سوف يتحقق بالفعل من نفقات عبر الاطار الزمنى الممتد. بذلك، وبدلا من استرداد المقاول للنفقات بعد انفاقها بالفعل على أقساط، وان

يستهدف التعديل هدم مبدأ اقتسام الإنتاج السائد فى مصر، وتمكين الشركات من الانفراد بالإنتاج مقابل إتاوة ١٠٪ وضريبة دخل خفضت إلى ٢٠٪، ولا يتجاوز مجموع الالتزامين نسبة ضئيلة من الحصيلة الكلية التى ينفرد بها المقاول، بينما يخلو التعديل مما يشير إلى وضع حد أقصى لما يتقاضاه المقاول كعائد على الاستثمار. وبذلك ينفتح المجال أمام الشركات الأخرى للمطالبة بالمثل وتتسع الأضرار المتوقعة للتعديل.

امتدت، واقتسام ما يفيض من الانتاج كل عام بين المقاول والهيئة كما تقضى بذلك الاتفاقيات الأصلية، فان المقاول يستهدف بمشروع التعديل التعجيل باسترداد استثماراته وأرباحه غير المحددة تحديدا واضحا عند بداية سريان التعديل.

وقد كان يغنى عن ذلك ان يذكر فى مشروع التعديل رقم محدد كمعدل للعائد على الاستثمار Internal rate of return، ولكن المشروع أغفل ذكر هذا المعدل خلافا لما يشيعه قطاع البترول من ان عائد هذا المقاول لا يتجاوز ٩٪ فى حين يبلغ العائد فى دول أخرى مثل ليبيا والعراق نحو ٢٥٪. والواقع ان العراق - حتى فى ظل الاحتلال الأمريكى - قد اختار التعاقد مع الشركات الأجنبية على اساس عقود الخدمة Service contract التى تحصل الشركة الأجنبية بمقتضاها على مبلغ مقطوع Fee يتراوح بين دولار ودولارين عن كل برميل يضاف الى الانتاج الحالى، بينما تتسلم الدولة كامل الانتاج لتسويقه محليا وعالميا بمعرفة شركتها SOMO المعروفة بخبرتها فى مجال التسويق.

وفى مقابل ما تم انفاقه بالفعل على عمليات الاستكشاف (٨٠٠ مليون دولار) وما سوف ينفق عبر فترة سريان التعديل على تنمية وانتاج الاحتياطيات الأولية والاضافية وهو ٩ مليارات دولار وفقا لتقدير المقاول كما ذكرنا، فان ظاهر الأرقام يوحى ان المقاول يمكن ان يحصد ما يزيد على ٢٠ مليار دولار ممثلا فى حصيلة تسويق الاحتياطيات الأولية التى ينفرد بها، بالاضافة الى حصيلة تسويق نصيبه من الاحتياطيات الاضافية، سواء تم التسويق محليا أم بالتصدير عبر الاسالة بمعمل ادكو. وقد قدرت تلك الحصيلة على أساس السعر الوارد بمشروع التعديل (٤.١ دولار للمليون وحدة حرارية بريطانية)، بينما المتوقع ان يرتفع هذا السعر الى آفاق شاهقة عبر الأفق الممتد لاتفاقية التعديل ويمكن ان ينفرد المقاول بالزيادة برفع سعر ما يقوم بتصديره من الغاز.

أما قيام المقاول بتسويق ما يحصل عليه من الانتاج، سواء من الاحتياطيات الأولية أو الاضافية، فان مشروع التعديل يتيح له الاختيار بين السوق المحلية أو السوق العالمية أيهما أعلا ربحا. ولبيان ذلك نقدم النموذج التالى باعتباره أقرب ما يكون الى الواقع. فالاحتياطيات الكلية للغاز والتى يقدرها قطاع البترول بنحو ٧٨ تريليون قدم مكعبة، وبفرض صحتها رغم اختلاف الخبراء حول ذلك التقدير، فانها لا تخضع كلها للتنمية والانتاج فى الوقت الحاضر وانما الأرجح وفقا لتقدير بيت الخبرة العالمى وود ماكنزى ان حجم احتياطيات الغاز فى الحقول المنتجة لا يتجاوز ٣٥ تريليون قدما مكعبة ويقدر انتاجها السنوى بنحو ٥٥ مليون طن نفط مكافئ Ton of oil equivalent (toe). واذ يعلن قطاع البترول ان انتاج الغاز سوف ينمو بمعدل ٥٪ سنويا، وهو ما يؤدى الى بلوغ الانتاج من تلك الاحتياطيات عام ٢٠١٥ نحو ٦٤ مليون toe، فان الانتاج من الاحتياطيات الأولية (٥ تريليون قدم مكعبة) والتى يتوقع المقاول ان يبدأ فى يوليو ٢٠١٤ يمكن ان يبلغ نحو ٩ ملايين toeمقدرا بنفس نسبة الانتاج الى حجم الاحتياطى. وبذلك يبلغ اجمالى الانتاج عام ٢٠١٥ نحو ٧٣ مليون toe. واذ يتراوح العجز فى احتياجات السوق المحلية من الغاز خلال السنوات الأخيرة حول ١٠ مليون toe، كما يلتزم كل منتج بتغطية جانب من هذا العجز كل بنسبة انتاجه الى مجمل الانتاج، فان التزام المقاول قد لا يتجاوز ١٢٪ من ذلك العجز أى ١.٢ مليون toe. وبذلك يبقى تحت يده نحو ٧.٨ مليون toe لتسويقها فى الخارج كغاز طبيعى مسال LNG وبالأسعار التى يراها دون رقابة أو مشاركة من الجانب الوطنى.

ويقضى مشروع التعديل بان يتحمل المقاول بالنسبة لغاز التصدير الاتاوة التى تدفع للحكومة بمعدل ١٠٪ من ذلك الغاز، مع ان تلك النسبة ترتفع فوق ذلك كثيرا فى معظم الدول النفطية، كما يتحمل المقاول أيضا بالنسبة لغاز التصدير ضرائب الدخل التى خفضت الى ٢٠٪ بعد ان كانت تتجاوز ٤٠٪. أما الغاز الذى تشتريه الهيئة لسد فجوة العجز فى الاستهلاك المحلى بسعر يتراوح بين ٣ و٤.١ دولار للمليون وحدة حرارية، فان الهيئة تتحمل نيابة عن المقاول كلا من الاتاوة وضريبة الدخل المستحقة عليه، كما كانت تتحملها فى ظل الاتفاقيات الأصلية. ومن ذلك يتبين ان حقيقة السعر الذى تشترى به الهيئة جانبا من غاز المقاول يزيد عما ورد بالتعديل سواء بالنسبة للحد الأدنى أم الحد الأقصى، اذ يضاف اليه ما تتحمله الهيئة من اتاوة وضرائب دخل المقاول بالنسبة لهذه المشتريات.

تقضى الاتفاقية الأصلية الصادرة بقانون بحق الدولة المضيفة (مصر) فى الحصول على احتياجاتها من غاز المقاول لأغراض الاستهلاك المحلى بسعر لا يتجاوز حده الأقصى ٢.٦٥ دولار لكل مليون وحدة حرارية Btu، بينما يرتفع هذا الحد الأقصى فى التعديل المطلوب الى ٤.١ دولار، كما يتجاوز الحد الأدنى فى مشروع التعديل، وهو ٣ دولارات، الحد الأقصى السابق تحديده فى الاتفاقيات الأصلية. وعموما فان الادعاء بان رفع سعر المشتريات المحلية من نصيب المقاول يرجع الى ارتفاع التكاليف فى المياه العميقة خلال الفترة ٢٠٠٤-٢٠٠٨ التى شهدت ارتفاعا غير متوقع فى أسعار النفط والغاز، فيرد عليه بان المقاول كان يسترد نفقاته دولارا بدولار وفقا لآلية استرداد النفقات المتضمنة فى الاتفاقية الأصلية، ومن ثم لا يوجد مبرر لرفع سعر الغاز الذى تشتريه الهيئة من المقاول.



كذلك يقضى مشروع التعديل بان مايحتاجه الاستهلاك المحلى من نصيب المقاول من الزيت الخام (وهو نصف الانتاج) يتم تسعيره بما يعادل السعر فى السوق العالمية، مع ان العادة جرت على منح الدول المضيفة خصما من ذلك السعر، أوحتى بسعر التكلفة، مراعاة لما اتاحته له من أرباح سخية، ولما يوفره استلام الزيت محليا من نفقات كان سيتحملها المقاول لاقامة تسهيلات باهظة لتصدير كميات قليلة من الزيت مما يعتبر غير اقتصادى.

واذ يدرك المقاول ان المتكثفات لا يوجد لها استخدام غير اضافتها للزيت الخام لخفض درجة لزوجته وتحسين نوعيته، وان الهيئة هى المشترى الوحيد لهذا المنتج، فقد حرص المقاول على ان يتضمن مشروع التعديل سعرا للمتكثفات يبدأ بنحو ١٤٠ دولارا للبرميل. واذ يضم برميل المتكثفات نحو ٦ ملايين وحدة حرارية بريطانية، فان سعر المليون وحدة والتى مصدرها المتكثفات يمكن ان يصل الى نحو ٢٣ دولارا. كذلك يعتبر سعر ١٤٠ دولارا لبرميل المتكثفات سعرا غريبا فى الوقت الحاضر بالمقارنة بسعر أفضل الزيوت الخام والذى يتراوح حول ٧٠-٨٠ دولارا للبرميل.

ويجيز التعديل المعروض اعادة التفاوض لتعديل السعر وغيره من المتغيرات كل خمس سنوات، ولكن بشروط أهمها وجود «تغيرات جوهرية» وبحيث لا يتجاوز التعديل ١٥٪ مما كان قبله. ومن مقتضى ذلك ان أية زيادة فى سعر التصدير خلال السنوات الخمس السابقة على أى تعديل (وهو المتوقع فى ضوء النضوب المبكر للاحتياطيات العالمية) ينفرد بها المقاول فى تسعير صادراته من الغاز، كما ينفرد بالاحتياطيات الأولية (٥ تريليون قدم غاز و٥٥ مليون برميل متكثفات) نظير ما يقوم بانفاقه. وبذلك ينهدم الركن الأساسى فى اتفاقيات اقتسام الانتاج الذى كانت هيئة البترول تحصل بموجبه على اكثر من ٦٠٪ من الانتاج، وان تحملت الاتاوة وضرائب الدخل المستحقة على المقاول نيابة عنه.

ويتضمن مشروع التعديل، كما تتضمن الاتفاقية الأصلية، نصا مؤداه انه اذا حدث تغيير فى التشريعات او اللوائح القائمة والمطبقة على البترول مما يكون له تأثير هام فى غير صالح المقاول يتفاوض الاطراف لاعادة التوازن الاقتصادى لاتفاق التعديل الذى كان موجودا فى تاريخ السريان. وبالمقابل لا يتضمن التعديل نصا مماثلا يتيح للجانب الوطنى المطالبة باعادة التوازن الى العقد اذا طرأت تغيرات جوهرية، باستثناء ما سبق ذكره عن جواز التعديل كل ٥ سنوات وبشروط مقيدة. ومن ذلك يتبين انه لم يكن ثمة داع لرفع سعر

مشتريات الهيئة من غاز المقاول اذ لم يطرأ أى تغيير فى التشريعات او اللوائح المصرية يبرر هذا التغيير. وهنا تجدر الاشارة الى ان اللجنة المشكلة بمجلس الشعب للرد على بيان رئيس مجلس الوزراء كانت قد أوصت (فى تقريرها المؤرخ يناير ٢٠٠٨ ص ٢٠٨) بفرض ضريبة استثنائية على الأرباح التى تجنيها شركات البترول العاملة فى مصر نتيجة للارتفاع غير المتوقع فى اسعار البترول، وذلك أسوة بالدول التى نجحت فى اقتناص جانب من تلك الأرباح الاستثنائية مثل الجزائر. غير ان قطاع البترول لم يتخذ للآن أى اجراء لتنفيذ تلك التوصية.



يقضى مشروع التعديل بان يقوم المقاول بالتنمية والانتاج وان يعهد الى مديره العام ونائبه بادارة تلك العمليات. واذا كان التعديل ينص على تشكيل لجنة مشتركة للتنمية من ٨ أعضاء يعين كل جانب نصفهم الا ان اغلب اختصاصات تلك اللجنة يحمل الصفة الاستشارية اذ ينص فى الكثير من المواقع ان كلمة المقاول تعتبر نهائية. وبالمقارنة فان العقود الأصلية تعهد بعمليات التنمية والانتاج الى شركة مشتركة يرأسها مصرى مثل شركة جابكو. وتبدو أهمية هذا الموضوع من الناحية الفنية فى ان المقاول الذى يستهدف التعجيل باسترداد استثماراته وأرباحه يميل الى تجاوز ما يعرف فنيا بالحد الأقصى للانتاج الرشيد Maximum efficient rate (MER) وهو ما من شأنه التأثير سلبيا على معامل الاستخلاص Recovery Factor معبرا عنه بنسبة ما يستخلص من النفط او الغاز الموجود فى باطن الأرض على امتداد عمر الحقل.

ويضم مشروع التعديل الكثير من الأمور التى يحتاج مضمونها الى توضيح دقيق. ومن ذلك كمثال ما يرتبط بتنمية وانتاج وتسويق الاحتياطيات الاضافية، حيث لا يتضح حجمها ولا متى يبدأ تنميتها وانتاجها، وهل تتزامن تلك التنمية والانتاج مع تنمية وانتاج الاحتياطيات الأولية أم تتراخى الى ما بعد نضوب الاحتياطيات الأولية..الخ. كذلك اقتصر مشروع التعديل على تعريف عقد تسليم الغاز والمتكثفات، رغم انه يمثل نقطة محورية، بأنه عقد مكتوب بين الهيئة والمقاول ابرم وفقا لاتفاق التعديل هذا والذى يحتوى على النصوص والشروط الخاصة بالتصرف فى الغاز والمتكثفات وتسليمهما من المقاول الى الهيئة من عقود التنمية. أى انه عقد سوف يكتب بعد اقرار مشروع التعديل ويتضمن شروطا مهمة بينما كان ينبغى ان يرفق كواحد من الملاحق وان يعرض على مجلس الشعب أثناء مناقشة المشروع.

والخلاصة ان عقود اقتسام الانتاج السائدة فى مصر جاءت كخطوة متقدمة بالنسبة لعقود الامتياز التقليدية التى كانت سائدة فى منطقة الخليج خلال وقبل خمسينيات القرن الماضى، حيث تقوم الشركة الأجنبية بجميع العمليات من بحث وتنمية وانتاج ثم تستحوذ على كامل الانتاج بعد ان تضع فى يد الحكومات عائدا مقطوعا (٣٠ سنتا لكل برميل). وقد طرأ بعد عقود اقتسام الانتاج تحسينات لصالح الدولة المضيفة باستخدام عقود المقاولة وعقود الخدمة التى تقوم فيها الدولة المضيفة بالتعاقد مع الشركات التى تمتلك الخبرات الفنية المتقدمة مقابل فئات مقطوعة Fees ثم يتسلم الجانب الوطنى كامل الانتاج لتسويقه بمعرفته، محليا او فى الأسواق العالمية كما فعل العراق حتى وهو فى ظل الاحتلال الأمريكى. أما التعديل المطلوب من قطاع البترول المصرى ادخاله على اتفاقيتى انتاج الغاز شمال الاسكندرية فانه يعيد الأمور الى نظام عقود الامتياز التقليدية اذ ينفرد المقاول بجميع العمليات والانفاق عليها كما كان عليه الحال قبل ٦٠ عاما، ثم يضع فى يد الحكومة اتاوة لا تتجاوز ١٠٪ من الانتاج، وهى ما تقل عن الاتاوة التى كانت سائدة وقتذاك، ثم ضريبة الدخل التى خفضتها وزارة المالية الى ٢٠٪ بعد ان كانت تتجاوز ٤٠٪. وحتى بالنسبة لما تحتاجه مصر من انتاج المقاول لسد العجز فى الاستهلاك المحلى فان المقاول يفرض أسعارا مبالغا فيها ولا تراعى ما يحققه على أرضها من أرباح سخية وظروف مواتية للعمل لا تتوفر فى دول أخرى. ■

كتاب الزاوية



أيهـــا النيـــل
أحمد شوقى

مِـنـهـا المُـشَـيَّـدُ كَالـبُـروجِ وَبَـعـضُـهـا
كَـالـطَـودِ مُـضـطَـجِـعٌ أَشَـمُّ مُـنَـطَّـقُ

جُـدُدٌ كَـأَوَّلِ عَـهـدِهـا وَحِـيـالَـهـا
تَـتَـقـادَمُ الأَرضُ الـفَـضـاءُ وَتَـعـتُـقُ

مِـن كُـلِّ ثِـقـلٍ كـاهِـلُ الـدُنـيـا بِـهِ
تَـعِـبٌ وَوَجـهُ الأَرضِ عَـنـهُ ضَـيِّـقُ

عـالٍ عَـلـى بـاعِ الـبِـلـى لا يَـهـتَـدي
مـا يَـعـتَـلـي مِـنـهُ وَمـا يَـتَـسَـلَّـقُ

مُـتَـمَـكِّـنٌ كَـالـطَـودِ أَصـلاً فـي الـثَـرى
وَالـفَـرعُ فـي حَـرَمِ الـسَـمـاءِ مُـحَـلِّـقُ

هِـيَ مِـن بِـنـاءِ الـظُـلـمِ إِلا أَنَّـهُ
يَـبـيَـضُّ وَجـهُ الـظُـلـمِ مِـنـهُ وَيُـشـرِقُ

لَـم يُـرهِـقِ الأُمَـمَ المُـلـوكُ بِـمِـثـلِـهـا
فَـخـراً لَـهُـم يَـبـقـى وَذِكـراً يَـعـبَـقُ

فُـتِـنَـت بِـشَـطَّـيـكَ الـعِـبـادُ فَـلَـم يَـزَل
قـاصٍ يَـحُـجُّـهُـمـا وَدانٍ يَـرمُـقُ

وَتَـضَـوَّعَـت مِـنـكَ الـدُهـورِ كَـأَنَّـمـا
فـي كُـلِّ نـاحِـيَـةٍ بَـخـورٌ يُـحـرَقُ

وَتَـقـابَـلَـت فـيـهـا عَـلـى الـسُـرُرِ الـدُمـى
مُـسـتَـرديـاتِ الـذُلِّ لا تَـتَـفَـتَّـقُ

عَـطَـلَـت وَكـانَ مَـكـانُـهُـنَّ مِـنَ الـعُـلـى
بَـلـقـيـسُ تَـقـبِـسُ مِـن حُـلاهُ وَتَـسـرِقُ

وَعَـلا عَـلَـيـهُـنَّ الـتُـرابُ وَلَـم يَـكُـن
يَـزكـو بِـهِـنَّ سِـوى الـعَـبـيـرُ وَيَـلـبَـقُ

الديموقراطية...................

أحمد محمد أبوزيد

■■ فى أوائل شهر مايو عقد فى إمارة الشارقة بالقرب من شاطئ الخليج العربى لقاءان فكريان على جانب عظيم من الأهمية. الأول هو المؤتمر السنوى العاشر لجريدة الخليج ومركز الخليج للدراسات التابع للجريدة، متخذاً من عنوان «التحديات العربية الداخلية» محوراً للمناقشة. والثانى هى المحاضرة التى ألقاها المفكر العربى الكبير دكتور عزمى بشارة، والتى كان عنوانها «نحو مشروع عربى ديمقراطى». وكعادة الأفكار والأعمال الجادة، فإنها دائما ما تثير الجدل حولها Debate وتطرح العديد من الأسئلة أكثر مما تقدمه من أجوبة Controversial. وهنا سنحاول تقديم رؤية نقدية (نظرية بالأساس) للأفكار والأطروحات التى نوقشت وطرحت فى كلتا المناسبتين، باعتبارهما نموذجا يعكس مسار الفكر العربى السائد، بكافة طوائفه وأطيافه، خاصة الفكر القومى (الواقعى) والليبرالى. الذى لاحظ الباحث أنه مازال متأرجحاً وتائهاً بين أيهما له الأولوية: التنمية أم الديمقراطية. ومن جانب آخر تحديد وتقييم مدى واقعية الاتجاه الفكرى للنخبة الفكرية العربية المهتمة بالمستقبل العربى (دولاً وشعوباً) فى ظل وجودها فى نظام دولى واقعى لا يعترف سوى بسياسات القوة Power Politics وبميكانيزم المساعدة الذاتية Self-help.

وهذه الدراسة تنقسم إلى ثلاثة أجزاء. الجزء الأول يتعامل مع الجدل النظرى الذى دار منذ ما يقارب نصف قرن بين التيارات الفكرية والثقافية العربية حول خيارات المستقبل العربى، والبدائل المتاحة والفرص المتوفرة نحو بناء مستقبل عربى أفضل للأجيال القادمة. والجزء الثانى يتناول تأثير العوامل الاقتصادية وأسباب فشل الدول العربية فى التعامل مع الأزمة المالية الأخيرة التى ضربت النظام الاقتصادى العالمى. أما الجزء الثالث فسنتناول فيه بالنقد الأطروحات السابقة، ونطرح فيه أجندة عمل قومية للنهوض بالدول والمجتمعات العربية فى ظل تواجدنا فى عالم لا يعترف إلا بالأقوياء.

هذه مراجعة للأوراق البحثية التى ألقيت فى المؤتمر السنوى العاشر لمركز الخليج للدراسات التابع لجريدة الخليج الإماراتية (٨ـ ٩ مايو ٢٠١٠). والتى ستصدر قريبا فى كتاب من إصدار دار الخليج للصحافة والطباعة والنشر تحت عنوان: «التحديات العربية الداخلية: بحوث ومناقشات أعمال المؤتمر السنوى العاشر لمركز الخليج للدراسات». تقديم وتحرير د. يوسف الحسن، تنفيذ أ. ليلى سعيد

[١]

ماذا يريد العرب: جدل نظرى

الجدل الفكرى الرئيسى الدائر بين المفكرين العرب (خاصة الليبراليين منهم والقوميين- الواقعيين) منذ ما يقرب من قرن يدور جله حول أيهما يريد العرب، الديمقراطية أم التنمية؟ فالبعض يجادل بأن التنمية هى قاطرة الديمقراطية، بينما يجادل الفريق الآخر بأنه لا تقدم ولا تنمية بلا ديمقراطية. ولم يستطع أحد الفريقين تدعيم أطروحته بصورة كاملة وكفيلة بإقناع صناع القرار العربى بتبنيها، أو تعبئة الجماهير العربية الغفيرة نحو تحقيق هذه الرؤية.

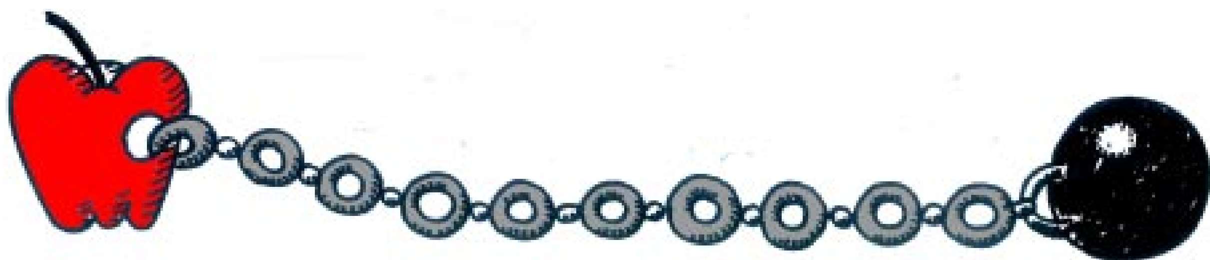
إن النخبة الفكرية العربية تائهة بين ما تحبه (الديمقراطية) وبين ما تريده (التنمية). وقد كان محمد حسنين هيكل محقاً تماماً عندما وصف أحوال العرب فى مطلع الألفية الثالثة بأنهم تائهون وحائرون ولا يعرف ماذا نريد[1]!

ولنبدأ مع ما نحبه، وهو الديمقراطية. حيث يروج الليبراليون العرب[2] أن التقدم الاقتصادى والتنموى دعامته الحرية الاقتصادية، متمثلة فى تبنى اقتصاديات السوق وتشجيع المشروع الفردى والملكية الخاصة، والحرية السياسية، متمثلة فى احترام حقوق الإنسان، سيادة القانون، الأمة هى مصدر السلطات، الشرعية الدستورية، الانتخابات الحرة النزيهة، وغيرها من أسس الديمقراطية الليبرالية. إن إطلاق العنان لحرية حركة الأموال والبضائع والأفراد، وتشجيع المبادرة الفردية وتنمية القدرات الإبداعية الفردية من جانب، واحترام آدمية الإنسان وكرامته، وتوفير دعائم الأمن والاستقرار الاجتماعى والنفسى له عن طريق تدعيم قوة القانون وسيادة مبدأ الشفافية والرقابة على عمل الأجهزة والمؤسسات الحكومية هو ما يحقق التقدم والتنمية ورفع مستوى معيشة الأفراد ورفاهيتهم. إن الليبراليين العرب يدعون بأن غياب مقومات ودعامات وجود مجتمع ليبرالى عربى هو السبب وراء تردى الأوضاع التى نحيا فى الحين، ولن تتغير هذه الأوضاع إلا بتغيير الثقافة المحلية (الاجتماعية والسياسية والاقتصادية) العربية، وتغيير النخب السياسية التسلطية الحاكمة بأخرى ليبرالية تؤمن بالتعددية وبالتداول الطوعى والسلمى للسلطة وحماية حقوق الإنسان. وذلك عن طريق التحول التدريجى نحو المقرطة Democratization (وليس الدمقرطة كما هو شائع) بإدخال تعديلات جزئية فى نوعية النظم السياسية العربية القائمة، فأول الغيث قطرة.



وكما أثبتت التجربة التاريخية منذ نهاية الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩- ١٩٤٥) فإن التحول الديمقراطى كان هو قاطرة التقدم والنمو الاقتصادى والتنموى. حيث شهد النظام الدولى أربع موجات من التحول الديمقراطى - كما جادل بألمعية البروفيسور الراحل صامويل هانتنجتون - بدأت الموجة الأولى لها فى أوروبا عقب نهاية الحرب مباشرة، ثم فى أمريكا اللاتينية فى سبعينيات القرن الماضى، والموجة الثالثة شهدتها دول الكتلة الشرقية عقب انهيار الاتحاد السوفيتى فى بداية العقد الأخير من القرن العشرين، والموجة الرابعة التى وقعت فى دول جنوب شرق وغرب آسيا فى تسعينيات القرن العشرين. وظلت المنطقة العربية والصحراء الأفريقية هى الاستثناء من دون مناطق النظام الدولى (ما أسماه فريد هاليداى ومايكل هدسون بالاستثنائية الإسلامية أو الاستعصاء الإسلامى). حيث يروج الكثير من الخبراء وعلماء نظم الحكم والسياسة المقارنة بأن هناك عداء وعدم توافق بنيوى Structural بين العرب (والمسلمين بصورة عامة) والديمقراطية، ويرون أن تردى الأوضاع الاجتماعية والتنموية العربية مرجعه غياب الديمقراطية والتحرر الاقتصادى.

أما ما نريده فهو التنمية. وكما يجادل الواقعيون والقوميون العرب[3] (أمثالنا) فإن التحدى الرئيسى (ويكاد يكون الوحيد) الذى واجه، ومازال يواجه، الدولة القطرية العربية منذ طردها للاستعمار الغربى وحصولها على استقلالها الوطنى منذ ما يقرب من نصف قرن هو «بناء الدولة Nation Building» وتحقيق التنمية والاعتماد على الذات وتوفير الاحتياجات الأساسية Basic Needs التى يحتاجها المواطن العربى من مأكل ومشرب وتعليم وعمل وبنية تحتية وصيانة كرامته وحماية السيادة الوطنية من التدخلات الخارجية. ففترة وجود الاستعمار فى هذه الدول قد حرم شعوبها من نعم مواكبة التقدم العلمى والتكنولوجى والاستقلال الوطنى والسيادة وبناء مستقبل أفضل لأبنائها. إن جل ما يحتاجه العرب - يجادل الواقعيون - فى وقتنا الراهن وأكثر من أى وقت آخر هو تحقيق الاعتماد على الذات واستقلالية القرار السياسى. إن سعى القوى الغربية (الأبدى) وراء الموارد الطبيعية والمواد الخام الموجودة فى العالم الثالث (فى حالة العرب هو النفط) وسعيها الدءوب



.... أم التنمية؟

خيـــارات الـعـــرب الصـــعبة!!!

للتحكم فى المناطق الجغرافية ذات الأهمية الاستراتيجية والجيوبولتيكية - لدواعى توازن القوى العالمى وسياسات القوة Power Politics - يجعل الدول العربية (وغيرها بالطبع) مستهدفة من جانب هذه القوى، لأسباب سياسية واقتصادية واستراتيجية بالأساس. ولن تستطيع الدول والشعوب العربية مواجهة هذه التحديات والانكشاف أمام هذه القوى العدوانية إلا بتحقيق استقلالها السياسى والاقتصادى، الذى سيمكنها من مقاومة ومواجهة الإغراءات التى تقدمها لها هذه القوى للالتحاق بها ومجاراتها والسير فى مواكبها.

إن التنمية هى قاطرة الحرية والتقدم. فكيف يذهب المواطنون لصناديق الاقتراع فى انتخابات حرة ونزيهة، بينما استقلالية وسيادة الدول ذاتها يتم توجيهها من واشنطون أو باريس. إن من يملك قوته ... يملك حريته.

إن الليبراليين العرب محقون تماماً فى تركيزهم على ضرورة التحول الديمقراطى والتحرر الاقتصادى كشرط مسبق نحو التقدم والنمو الاقتصادى والاجتماعى، فلا تقدم بلا حرية. ولكن يعاب على هذه الرؤية بعدها عن آمال وأحلام الشارع العربى والجماهير العربية الحقيقية، التى تعانى قطاعات عريضة منها من البطالة والإحباط، ناهيك عن الفقر الشديد وانخفاض كافة مؤشرات التنمية البشرية عبر امتداد الوطن العربى (باستثناء دول مجلس التعاون الخليجى). وهو ما يجعل أطروحات الليبراليين - على الرغم من أهميتها الجوهرية - مجرد خطاب إنتلجيسى (نخبوى) نظرى لا وجود له على أرض الواقع، وبلا مناصرين أو قوة دفع ذاتية تساعده على تحقيق ما يرجو تحقيقه من تحولات جذرية فى المجتمعات العربية. الانتقاد الآخر الذى يوجه لتلك الرؤية هو إغفالها متغيرات البيئة الإستراتيجية الدولية والإقليمية. فالمنطقة العربية (الشرق الأوسط) وطبقاً لتقارير التوازن العسكرى الصادرة عن معهد IISS ومؤشرات السلام والصراع الصادر عن جامعة ميرلاند ويشرف عليه عالم الصراع القدير تيد روبرت غار، تعتبر من أكثر المناطق فى العالم Region اضطراباً وعدم استقرار، والتدخل الخارجى فى شئونها متشعب ومتجذر، ولا يتفوق عليها سوى منطقة الصحراء الكبرى[4].

وهو ما يجعل دعوة الليبراليين لضرورة التركيز على عملية التحول الديمقراطى ترفاً ليس هذا توقيته المناسب فى ظل هذه الأوضاع السياسية والإستراتيجية الساخنة. من جانب ثالث، تركيز الليبراليين المبالغ فيه على الدور الخارجى فى تدعيم عملية التحول الديمقراطى فى بلادهم، واستقوائهم بالقوى الخارجية على أوطانهم الأم يدعو منتقديهم لاتهامهم بالعمالة والترويج للنموذج الغربى والأمريكى فى الحكم والإدارة. أخيراً، دعوة بعض غلاة الليبراليين العرب إلى الاستعانة بالقوى العسكرية وبالضغوط والتدخلات الخارجية من أجل فرض الديمقراطية قسراً على بلادهم، وهو خطيئة أخلاقية فى المقام الأول، وأطروحة غير صحيحة بالمرة. وتتناقض مع السجل التاريخى والنظرى الذى يشير إلى أن الديمقراطية والتحول الديمقراطى لم يتم إنجازها بطريقة سلمية عبر التدخل الخارجى أو بفرضها قسراً على الدول، وإنما تتم هذه العملية عن طريق التغيير التدريجى المتصاعد للثقافة السياسية والاجتماعية والفكرية المحلية، فلا ديمقراطية بلا ديمقراطيين كما يجادل عن حق البروفيسور غسان سلامة[5]. وعليه، فإن الأطروحة الليبرالية فى نظر الكثيرين من منتقديها «حق يراد به باطل» حتى يحول الليبراليون خطابهم السياسى نحو الداخل، بصورة تجعل الشعوب العربية فى صدر اهتماماتهم وجل تركيزهم، وليس الخارج كما هو حالهم الآن. من جانب آخر، العمل على إجراء تحولات هيكلية فى بنية المجتمع العربى وليس تغييرات سطحية، كالتوسع فى إنشاء منظمات المجتمع المدنى والتركيز على الانتخابات دون غيرها من مكونات نظرية الديمقراطية الليبرالية. فذلك تبسيط مخل وتسطيح لهذه النظرية. إن جوهر الديمقراطية الليبرالية هو التركيز على الإنسان، ويبدو أن الإنسان العربى (العادى) لا وجود له فى أطروحة الليبراليين العرب.



القوميون أيضا على حق. ويرون أن الغرض من إقامة مؤسسات الدولة وأجهزتها هو العمل على توفير الاحتياجات الأساسية للشعب، حمايته والدفاع عنه والحفاظ على كرامته. ويجب أن تكون هذه الأهداف هى جل ما يجب أن تسعى الدول لتحقيقه، وبأن أى أهداف أخرى تأتى فى مرتبة متأخرة عنها. ولكن تعانى هذه الرؤية من عيب خطير للغاية وهو عدم اكتراثها الكافى بفكرة الديمقراطية والحرية السياسية. فبتركيزها على «بناء الدولة» وحماية البلاد والعباد من الأعداء الخارجيين والسعى نحو تدعيم مكانتها الخارجية من جانب، وسعيها الدءوب لإنشاء البنية التحتية والخدمية وتوفير الاحتياجات الأساسية للإنسان من مأكل ومشرب ومسكن وتعليم وعمل ورعاية صحية والدفاع عن كرامته ... إلخ قد تراجعت قيمة وأهمية أفكار مثل الحرية السياسية والاقتصادية والحرية الفردية لمراتب متأخرة فى جدول أعمال الدول، تأتى بعد أهداف الاستقلال والتنمية والسيادة والاعتماد على الذات وتحقيق الاكتفاء الذاتى. ولكن، قد يكون لهذا الكلام تبرير موضوعى ومنطقى (بل أخلاقى) نظراً للظروف التاريخية والأوضاع الجغرافية والسياسية الخاصة بمنطقتنا العربية. ولكن ذلك لا يبرر أبداً استمرار عدم المبالاة وتجاهل دعاوى الإصلاح السياسى والاقتصادى. فالإنسان العربى الذى بنى وعمر وأنشأ المصانع والسدود وطرد المحتلين وأقام طفرة حضارية متميزة، ومن أجل إدامة هذه التجربة وتوسيع نطاقها، فمن حقنا عليه وواجبنا نحوه أن نوفر له الحياة الكريمة والعيش فى منظومة سياسية واجتماعية ليبرالية ومتحررة، تطلق العنان لخياله وإبداعه. ومن ناحية أخرى، فإن الحرية والديمقراطية لا غنى عنهما من أجل إعادة تقييم التجربة ورقابتها وتصحيح أخطائها. أما الانكباب على هدف رئيسى دون غيره أثبت أن له عواقبه الوخيمة. خاصة أن صاحب هذا الفكر نوع من التسلطية السياسية والانغلاق الاجتماعى والتقييد الاقتصادى، وسادت فيه أجواء الفساد وعدم احترام القانون والدستور، حيث ستتحول التجربة بأكملها لتكون كابوساً مفزعاً. إن الفارق بين التجربة التنموية الوطنية والاعتماد على الذات والتجربة القومية المتطرفة (الفاشية والنازية) خيط رفيع للغاية. فشتان بين ما فعله ناصر ونهرو لأوطانهما وبين ما فعله هتلر وموسولينى وصدام حسين بأوطانهم.

على سبيل التخيل أو الافتراض، لو أننا سألنا (أى) مواطن عربى عادى عن (أى) وضع يفضل أن يعيشه داخل وطنه، هل يفضل أن يحيا فى دولة ليبرالية تجرى فيها الانتخابات الحرة ويحترم فيها القانون ولا تنتهك فيها آدميته، ولكن هناك قوى عظمى تحدد لبلاده وترسم لها سياساتها العامة، ومن جانب آخر كل شىء فى هذه البلاد خاضع لقانون العرض والطلب، والفجوة بين الأغنياء والفقراء كالمحيطات. أم أنه يفضل العيش فى مجتمع يعتمد على ذاته، محققاً اكتفاءه الذاتى من الغذاء والطاقة، ذات سيادة واستقلالية فى القرار السياسى (الخارجى والداخلى)، تحاول حكوماته توفير احتياجاته الأساسية من مأكل ومشرب ومسكن وتعليم وعمل، ولكن



قد يكون هناك بعض التجاوزات وبعض من التضييق على الحريات. بالتأكيد فإن إجابة المواطنين العرب على مثل هذا التساؤل (التخيلى) هى خير حكم على أى نظام أو رؤية تريد الحكم، وتحديد نوعية الدولة التى يفضلون أن يحيوا فيها. فالأمة هى مصدر السلطات، والشعب هو المعلم.

[٢]

الدولة العربية والتملص من المسئولية

فى الورقة التى قدمها الدكتور عبد الرازق فارس - مدير مجلس دبى الاقتصادى عن البطالة والفقر فى الدول العربية(١)، ومدى قدرة الدولة القطرية العربية على التصدى للأزمات والعواقب الاقتصادية التى تواجهها، فإننا نجادل بأن السبب وراء هذا الفشل العربى فى التصدى لهذه التحديات الاقتصادية (الداخلية) يرجع إلى تملص الدولة القطرية العربية من تحمل مسئولياتها التقليدية التى تتلخص فى (الإشراف، الرقابة، التخطيط والتنفيذ) للمشروعات العامة وتوفير الخدمات والاحتياجات العامة لشعوبها، كما سنتطرق لاحقاً. خاصة فى ظل الأزمة الاقتصادية التى تعصف بالنظام الاقتصادى العالمى القائم.

فى دراسة لصندوق النقد الدولى صدرت فى أواخر عام ٢٠٠٨ عن فترات امتداد ومكوث الأزمات الاقتصادية والمالية التى مر بها النظام الاقتصادى العالمى فى الفترة من ١٩٦٠-٢٠٠٧ استخلصت هذه الدراسة أن الحد الأقصى لأى أزمة اقتصادية تراوح بين ستة أشهر وخمسة عشر شهراً. ومن بين ١٢٢ أزمة شهدها النظام الاقتصادى العالمى عبر ما يقرب من خمسين عاماً، كانت أطول فترة للأزمات الاقتصادية حوالى ٣٠ شهرا. أى إننا نظريا قد تخطينا مرحلة الأزمة وفى طريقنا نحو الانتعاش مرة أخرى. ولكن مهلا... هذا ليس صحيحاً كلياً.

لعل إحدى أهم النتائج التى خرجنا بها من هذه الأزمة هى أن ما بنى على باطل فهو باطل، إن كل ما تم استخلاصه وتم تشخيصه كان خاطئاً، لأن هذه الاستخلاصات والتشخيصات قامت على قراءة خاطئة لأسباب بزوغ الأزمة. فطوال أغلب فترة الأزمة (التى استمرت حوالى خمسة عشر شهراً) سادت موجة خاطئة من التحليلات التى تصدت لمحاولة تشخيص ماهية وجذور وأسباب الأزمة. وهو ما قاد إلى سلسلة ممتدة من التحليلات الكابوسية والمتشائمة (الخاطئة) بخصوص مستقبل النظام الاقتصادى العالمى والقوة الأمريكية على وجه الخصوص. ففى مقالته الرائعة لخص رئيس تحرير دورية «السياسة الخارجية» موسى نعيم مجمل هذا التيار المتشائم والخاطئ، عندما فند وفكك الأطروحات التى ذهب إليها بعض كبار «أساتذة» علم الاقتصاد السياسى الدولى مثل البروفيسور نيل فيرغسون - الأستاذ فى جامعتى هارفارد وأكسفورد - والذى توقع بأن يقود الانهيار الاقتصادى الأمريكى إلى اضطرابات سياسية وجيوبوليتيكية عبر العالم، نتيجة لتزايد أعداد العاطلين عن العمل وحالات الطرد من العمل وانهيار أسعار العقارات... وغيرها من الأسباب. بصورة أصبح العالم من وجهة نظر فيرغسون كالمقبل على يوم القيامة، وهو ما لم يحدث (اللهم إلا فى اليونان المتهالك اقتصادها من عقد أو أكثر) لسبب بسيط - فى رأينا - هو الخطأ فى قراءة وتحليل وتفسير أسباب هذه الأزمة الحالية.

قلنا فى مقالتنا السابق الإشارة إليها أن السبب وراء اندلاع هذه الأزمة «كان نتيجة أخطاء تشريعية وإدارية بالأساس» عندما تملصت الدولة Passed-Bucks من تحمل مسئوليات دورها الرقابى والتوجيهى والإشرافى على المؤسسات والمنظمات المالية والنقدية المحلية، وغياب وجود محددات قانونية وتشريعية فعالة وكافية لمراقبة عمل هذه المنظمات والتأكد من مدى التزامها بالقواعد القانونية وتحرى النزاهة فى حساباتها وميزانياتها وحجم تعاملاتها الحقيقية، والحد من التدخل والتداخل بين المؤسسات المالية والنقدية الخاصة وتلك المملوكة للدولة. كانت النتيجة الحتمية لهذا التملص (كما هو معروف فى أدبيات العلاقات الدولية والاقتصاد السياسى الدولى) هو تلاعب هذه المؤسسات المالية الخاصة، عدم النزاهة، عدم التدقيق فى حساباتها نتيجة غياب الرقابة الرسمية. ومن جانب آخر، جشع وطمع بعض المسئولين والمديرين التنفيذيين وتطاولهم على المال العام والأموال المملوكة لحاملى الأسهم ونهبها. وعليه، فكانت تلك الأزمة نتيجة تراكم أخطاء إدارية وتشريعية ورقابية تعمدية، تراكمت عبر سنوات حتى وصلت لمرحلة لم تتمكن هذه المؤسسات من تحملها.



وقد ساهم التشابك والارتباط المعقد Complex Interdependence بين الاقتصاديات ورءوس الأموال العالمية فى انتقال الأعراض والآثار الجانبية للاقتصاد الأمريكى المنهك إلى هؤلاء الأقارب (وكلما كان الارتباط أقرب كانت العواقب أوخم مثلما حدث فى دبى) إن هذه الأزمة لم تحدث نتيجة حرب أو تضخم أو انهيار أسواق مالية أو نتيجة هبوط أسعار الأسهم (فقد كانت كل هذه المتغيرات نتاجاً للأزمة أكثر منها مسبباً لها) بقدر ما كانت نتيجة تملص الدولة من تحمل مسئولياتها. وهو ما غفل عنه الكثيرون، وقاد إلى كل هذه التحليلات والتفسيرات الطائشة التى ذهبت مع الريح.

والسؤال الآن، هل تعلمت الدول من هذه الأزمة؟ وهل ستقودنا السياسات المستحدثة التى اتخذتها الدول كاستجابة للأزمة نحو خروج آمن من هذه الأزمة؟ وأخيراً، كيف السبيل للعمل على التأكد من عدم تكرار حدوث هذه الأزمات؟

بالنسبة لموضوع هل تعلمت الدول من هذه الأزمة فالإجابة بالإيجاب. فالقرارات والسياسات التى قامت الدولة باتخاذها طوال العام الماضى وخلال الأشهر الثلاثة الأولى من هذه السنة تدل على صحة أطروحتنا التى قدمناها منذ عام. حيث تسابقت الدول إلى إعادة التدخل Re-intervention فى الشئون الاقتصادية والرقابة على عمل الأجهزة والمؤسسات المالية والنقدية والمصرفية، بل واللجوء إلى الاستحواذ (تأميم) على بعض المؤسسات المنهارة منعاً لانهيار المنظومة الاقتصادية بالكامل، واحتواءً لمناطق الخطر والتهديد. فالرئيس الأمريكى أوباما على سبيل المثال قام بضخ ما يقارب من ثلاثة تريليونات دولار لإنقاذ المؤسسات الاقتصادية والمالية والمصرفية المتعثرة، وقام كذلك بإجراء تعديلات تشريعية وقانونية تساهم بصورة أكبر فى رقابة ومساءلة رؤساء المؤسسات الاقتصادية والتأكد من سلامتها واستقامة إجراءاتها وعملياتها ووضعها المالى. وكذلك فعل الكثيرون عبر العالم مثل فرنسا وبريطانيا وألمانيا وكوريا الجنوبية والإمارات العربية المتحدة، التى كانت من أوائل الدول التى نجحت فى قراءة الأزمة وتفسيرها تفسيراً صحيحاً، حيث أمر صاحب السمو رئيس الدولة الشيخ خليفة بن زايد مبكراً بضخ ما يقارب ٢٠٠ مليار درهم فى القطاع المالى والمصرفى لمساعدته على الخروج من أزمته وتعثره.

فى رأينا، ومن وجهة نظر واقعية Neo-realistic Perspective هذه السياسات هى بداية الطريق نحو الخروج من الأزمة، ولكنها ليست المنقذ منها. فالدول التى تقوم فيها الحكومات بدور كبير فى تحديد مسارات واتجاهات السياسة الاقتصادية، وتقوم بمراقبة حركة الأسواق لم تتأثر بصورة كبيرة بالأزمة التى شهدها النظام الاقتصادى



الجدل الفكرى الرئيسى الدائر بين المفكرين العرب (خاصة الليبراليين منهم والقوميين ـ الواقعيين) منذ ما يقرب من قرن يدور جله حول أيهما يريد العرب، الديمقراطية أم التنمية؟



التحدى الرئيسى (ويكاد يكون الوحيد) الذى واجه، ومازال يواجه، الدولة القطرية العربية حصولها على استقلالها الوطنى منذ ما يقرب من نصف قرن هو «بناء الدولة»



العالمى كالصين والهند وحكومة أبو ظبى. ولكن بالنسبة للتساؤل حول مدى مساهمة هذه السياسات فى إخراج هذه الدول من هذه الأزمات فإن ذلك يتوقف على مدى التزام هذه الدول وفترات إدامة العمل بهذا النهج فى المستقبل. فبتتبع تكرار الأزمات عبر القرن الماضى كله نجد أن هناك نمطا تكراريا Pattern مشتركا فى أغلب هذه الأزمات، وهو أن هذه الأزمات كان منبعها الرئيسى نتيجة تراجع الحكومات الوطنية عن الإجراءات السياسية والاقتصادية التى كانت قد قامت باتخاذها للخروج من أزمات سابقة، والتى ما لبثت أن تخلت عنها بفعل حركة الانتعاش النسبى وتراجع حدة الأزمة، وقيامها باتخاذ إجراءات سلبية تؤدى فى المستقبل لنشوء أزمات جديدة، وهكذا دواليك.

الخلاصة: إن للأزمات آثارها الإيجابية كما لها عواقبها الجسيمة. فهى تعتبر بمثابة أفضل مختبر لقياس مدى متانة النظام الاقتصادى الدولى، وتحسين الأوضاع القائمة الخاطئة، فهى تضىء لنا نقاطا معتمة كنا نتغافل عن وجودها ولا نشعر بخطورتها بفعل النجاح الهش والوهم بقدرة الدولة على مواجهة أوضاع تثبت الأيام عجزها عن مواجهتها. وهو ما أثبتته هذه الأزمة لكافة المراقبين والدارسين.

ليس من المجدى أن يكون الجدل فى المستقبل حول من كان مصيباً ومن كان مخطئاً، ماركس أم سميث، ريكاردو أم كينز أم ميلتون فريدمان أو غيرهم؟ ولكن المجدى حقاً هو الاستفادة مما حدث، والعمل على كشف نقاط الضعف والخلل فيما حدث، والعمل على تجنبه وتحاشيه فى المستقبل، والقيام بطرح بدائل متعددة ومتنوعة تكون قادرة على مواجهة مثل هذه الأزمات فى المستقبل. فالمستقبل هو خير اختبار لصحة أى نظرية، وتحقيق راحة الإنسان وتأمين متطلبات حياته واحتياجاته، والحفاظ على أمنه هو الغاية العليا التى يتوجب أن يسعى خلفها كل ذى عقل، وليس أى شىء آخر.

[٣]

العربى التائه: بين مطرقة الماضى وسندان المستقبل

« العربى التائه » هذا الوصف الدقيق هو ما خلص إليه مفكرنا العظيم محمد حسنين هيكل فى أحد كتبه الأخيرة. ونحن بالفعل تائهون وحائرون. فمن يرفض الحرية والديمقراطية يرضى بالديكتاتورية، ومن يرفض التنمية يرضى بالتبعية. وهذا هو جوهر المأزق والمعضلة السياسية العربية. فنحن فى حيرة. يماثل وضعنا الفتاة الجميلة التى يتقاتل على حبها شابان، وهى من جانبها مترددة فى الاختيار والمفاضلة بينهما. فهى من ناحية تحب أحدهما ولكنها تريد الآخر، فهى فى حيرة بين من تريده ومن تحبه. ولن يخرجها من أزمتها هذه إلا تحديدها ماذا يتوجب عليها أن تفعله، وتحدد اختياراتها وأن تتحمل تبعاته.



إن الخروج من المأزق الحضارى (الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والثقافى) الذى يحيا فيه العرب اليوم لن يكون إلا عبر دعامتين هما الحرية والتنمية، سوياً وليس بإحداهما دون الأخرى. إننا نجادل بأن كلتا الرؤيتين (الليبرالية والقومية) مصيب ولكنهما ناقصان. فالليبراليون عليهم توسيع نطاق استهدافهم والجمهور الموجه له خطابهم السياسى ليشمل العمال والفلاحين والمهنيين وبالطبع الطبقة الوسطى (مفرخة التحولات الاجتماعية) وتخفيف الاعتماد والتوجه للعنصر الخارجى والاتكال عليه فى عملية التحول الديمقراطى، وثالثاً توسيع نطاق التحولات والتغيرات المراد إجراؤها فى المجتمع لتشمل ترسيخ مبادئ احترام القانون، توسيع نطاق الحريات، ترسيخ مبدأ الأمة مصدر السلطات، التعددية الحزبية والتداول السلمى الطوعى للسلطة ... وغيرها من دعائم الديمقراطية الليبرالية التى لا تقوم على الانتخابات الحرة وحدها وإنما - وكما جادل عن حق البروفيسور مصطفى كامل السيد مؤخراً - على أسس الحكم الرشيد[٧]. أما القوميون العرب (الواقعيون) فعليهم التشبث بنموذجهم الوطنى فى التنمية واستكمال مسيرتهم نحو تحقيق الاكتفاء الذاتى والاعتماد على الذات، ومقاومة التدخل الخارجى فى شئوننا الداخلية. ولكن يتوجب عليهم كذلك التخلى عن فكرة الاقتصاد المركزى والمخطط، وإذا أرغمتنا الأوضاع الدولية والشروط البنائية فى النظام الدولى على انتهاج اقتصاديات السوق فليكن النموذج الصينى لاقتصاديات السوق (رأسمالية الدولة) أو (الاقتصاد الحر المخطط) هو البديل لهذا النظام الضار للغاية بالدول الصغيرة. وثالثاً عليهم التركيز على الجانب الليبرالى فى أطروحاتهم، ففى التحليل الأخير فإن التنمية (الاعتماد على الذات) والحرية من جانب آخر هما جناحا العرب اللازم للتحليق فى فضاء نظام دولى ملىء بالضوارى والنسور والصقور، وحيث لا مكان للحمائم. ■

---

(١) محمد حسنين هيكل: » نهايات طرق: العربى التائه ٢٠٠١ ». (القاهرة: الشركة المصرية للنشر العربى والدولى، ٢٠٠٢).

(٢) نقصد هنا بالليبراليين العرب «مجموعة معينة من المفكرين والاقتصاديين والمثقفين العرب الذين يؤمنون ويروجون لدعاوى أن الحرية السياسية والتحول نحو اقتصاد السوق هو قاطرة التقدم والتطور العربى المنتظر». وهو ما مثلته فى حالتنا هذه محاضرة الدكتور عزمى بشارة المعنونة: «محاولة فى الإجابة عن سؤال ما العمل: نحو مشروع عربى ديمقراطى». نص محاضرة ألقيت فى جريدة الخليج - الشارقة (الشارقة: مركز الخليج للدراسات، ٩ مايو ٢٠١٠). والتى قال فيها بصراحة الدكتور بشارة إنه لا ينظر لنفسه كقومى عربى بقدر ما هو ليبرالى. والورقة العلمية التى قدمها الدكتور على محمد فخرو: «تحديات المشاركة السياسية ». ورقة بحثية مقدمة للمؤتمر السنوى العاشر لمركز الخليج للدراسات. (الشارقة: مركز الخليج للدراسات، ٨ مايو ٢٠١٠).

(٣) نقصد هنا بالقوميين العرب «مجموعة المفكرين والمثقفين وأصحاب الرأى الذين يؤمنون بأن أفكاراً مثل التنمية الوطنية والاستقلال الوطنى والسيادة القومية والوحدة العربية باعتبارها دعامات بناء أمة عربية ودول قومية متقدمة ». وتمثله فى حالتنا هذه، إلى حد كبير، والأوراق البحثية التى قدمها كل من الدكتور عبد الرازق فارس الفارس: «البطالة والفقر فى الوطن العربى ». ورقة بحثية مقدمة للمؤتمر السنوى العاشر لمركز الخليج للدراسات. (الشارقة: مركز الخليج للدراسات، ٨ مايو ٢٠١٠). والبحث الذى قدمه الدكتور: عبد الحسين شعبان: «تحديات الانقسامات العرقية والطائفية: الهوية والاختلاف ». ورقة بحثية مقدمة للمؤتمر السنوى العاشر لمركز الخليج للدراسات. (الشارقة: مركز الخليج للدراسات، ٨ مايو ٢٠١٠).

(4) Ted Robert Gurr and Monty Marshall: “Peace and Conflict 20005: ،A Global Survey of Armed Conflicts and،Self–Determination Movements . (Center of International»Democracy Development and Conflict CIDCM: Maryland،Management 2006).، Collage Park،University International Institute for Strategic .»Studies: “The Military Balance 2008 ،(New York: Oxford University Press 2009). Anthony Cordesman: “Arms and Regional، Arms Control،Sells .»Security in the Middle East (Washington D.C.: Center for Strategic 2006).،and International Studies

(5) Ghassan Salame (ed.): “Democracy without Democrats? The Renewal of .«Politics in the Muslim World 1994).،(London: I.B. Tauris

(٦) الدكتور عبد الرازق فارس الفارس: «البطالة والفقر فى الوطن العربى ». ورقة بحثية مقدمة للمؤتمر السنوى العاشر لمركز الخليج للدراسات. (الشارقة: مركز الخليج للدراسات، ٨ مايو ٢٠١٠).

(٧) مصطفى كامل السيد: «لماذا يغيب الحكم الرشيد فى مصر؟» جريدة الشروق المصرية، ١٣ فبراير ٢٠١٠، صـ. ١١. وكذلك انظر المقال البديع للراحل البروفيسور حسن بكر - أستاذ العلوم السياسية بجامعة أسيوط - فى جريدة الوفد المصرية عام ٢٠٠٦ بعنوان: «أعمدة الديمقراطية السبعة». الوفد، (٢٧ مارس ٢٠٠٦) صـ. ١٧.



هذه الروح المشتركة التى تجمع بشكل خاص بين المدن الساحلية لضفتى المتوسط مثيرة للبلبلة فى كثير من الأحيان عند المرء أثناء تسكعه على الكورنيش... يتساءل فى لحظة إذا كان فى الإسكندرية أم فى نيس أم فى نابولى؟



جليلة القاضى

ثقافة المتوسط

لايمكن إغفال مفهوم الأثر التاريخى والتراث فى مجال العمارة والعمران فى ارتباطه بالوعى التاريخى والفكرة القومية والهوية. وتأتى هنا أهمية مناقشة مفهوم «التراث المشترك»



■ ■ يضم هذا الكتاب إحدى وعشرين مقالة من ضمن خمس وسبعين تمت مناقشتها خلال المؤتمر باعتبارها الأكثر تعبيراً عن المحاور الثلاثة الأساسية للمؤتمر وهى: المفهوم وتحديات الثقافة والهوية، الأمكنة: الذاكرة والتأثيرات المتبادلة، وإدارة التراث. وتغطى هذه المقالات معظم دول جنوب حوض البحر المتوسط (مصر، سوريا، لبنان، تونس، المغرب، الجزائر) وبعض دول الشمال، على وجه الخصوص إيطاليا وإسبانيا.

قبل عرض محتوى المحاور الثلاثة ولكى نفهم السياق الذى أدى فى العديد من دول الجنوب إلى تبنى سياسات للحفاظ على المدن والأحياء والمنشآت العامة والبنى التحتية التى شيدت فى الفترة التى امتدت منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى نهاية الأربعينيات من القرن الماضى، تجدر التذكرة بالخطوات التى اتخذت على المستوى الإقليمى والعالمى وأثرت على عملية اتخاذ القرار على المستوى المحلى وكذلك تعبئة الوعى الثقافى والذاكرة الجمعية. يرتكز هذا العرض على مقالتى رون فان اويرز وجلال عبد الكافى (المحور الأول)

تطور الاهتمام بالتراث المشترك:

– فى عام ١٩٧٦ كما يذكرنا جلال عبد الكافى، قررت الدول المطلة على البحر المتوسط أن تعمل سوياً لمكافحة التلوث والاستخدام السياحى المفرط والعمران العشوائى والمعوقات الأخرى التى تعيق التنمية فوقعت مع المجموعة الأوروبية اتفاقية برشلونة التى تشير مقدمتها إلى القيمة الفريدة للتراث الثقافى لحوض البحر المتوسط وأطلقت الأطراف المتعاقدة خطة عمل دول حوض البحر المتوسط plan action Mediterranée, PAM التى يتولى سكرتاريتها العامة برنامج الأمم المتحدة الاقتصادى PNUE.

– وفى سبتمبر ١٩٨٥ أعلنت نفس هذه الأطراف المتعاقدة فى إعلان جنوه الأهداف الكبرى التى تطمح فى تحقيقها وحددت سلسلة من الأعمال التى يجب اتخاذها من بينها «تحديد وحماية الأماكن السياحية ذات الاهتمام المشترك» ووفقا للمبادئ العامة ومعايير الانتقاء التى أعلنها المجلس العالمى للآثار والمواقع «Icomos». كما تم فى عام ١٩٨٧ إعداد قائمة مبدئية تحتوى على ١٠٠ موقع.

– وفى يناير ١٩٨٩ عقد فى مرسيليا الاجتماع الأول لمسئولى الأماكن السياحية ذات الاهتمام المشترك فى دول حوض البحر المتوسط. وقد تمخض الاجتماع عن إعلان ميثاق يوضح «ضوابط الاعتراف والحفاظ والتخطيط وحماية الأماكن التاريخية ولوضع هذه الضوابط موضع التنفيذ تقرر إنشاء شبكة فى إطار الـ PAM تتولى أمانتها العامة بلدية مرسيليا التى تتعامل من خلال أتيليه التراث.

ووفقا لميثاق مرسيليا يهدف خطاب PNUE / PAM إلى حماية الثروات الثقافية والطبيعية داخل بيئتهم ليس «بوصفها تحفا نادرة من صنع الإنسان ولكن كشهود لا تقدر بثمن على الهوية الثقافية لدول حوض البحر المتوسط ».
وفى نفس العام، قام المجلس الأوروبى بتحديد ورصد المشكلات التى تواجه «التراث الحديث» على مستوى العالم من ضعف للإطار التشريعى الذى يوفر لها الحماية وعدم التقدير الكافى لها بين المواطنين. وقد قام المجلس الأوروبى Council of Europe بطرح سلسلة من الأنشطة والتوصيات على مستوى العالم ركزت جزئياً على رفع الوعى العام بأهمية هذا التراث.



– مع بداية عام ٢٠٠١، قام مركز التراث العالمى لليونسكو UNESCO والمجلس العالمى للآثار والمواقع ICOMOS، والمركز العامل للتوثيق والحفاظ على المبانى والمجاورات للحركة الحديثة Docomomo بتأسيس برنامج مشترك بتمويل من الحكومة الهولندية تتلخص أهم أهدافه الأساسية فى التعريف والتوثيق والتعهد بالحفاظ على تراث القرنين التاسع عشر والعشرين تحت مسمى: «برنامج التراث الحديث»
Program of Modern Heritage»

وقد ركز هذا البرنامج على تنمية ورفع الوعى بأهمية التراث المعمارى والعمرانى وتصميم المواقع الخاصة بالفترة الحديثة. وعقد أول لقاء فى إطار هذا البرنامج فى باريس فى نفس العام شارك فيه أربعون متخصصاً من مختلف أقاليم العالم. وكان الهدف الرئيسى من الاجتماع هو مناقشة وتحديد رؤية واضحة حول كيفية التعامل مع تراث القرنين التاسع عشر والعشرين، وتطوير خطة لتحديد وتوثيق هذا التراث.

ومنذ ذلك الحين، فإن هناك شراكة قد تأسست بين مركز تراث العالم ICOMS Docomomo وأيضاً (شبكة العمارة الآسيوية الحديثة) بهدف جمع ما تم إنجازه فى هذا المجال وإدخاله فى منظومة التراث العالمى الحديث. وقد صدق اجتماع أكتوبر ٢٠٠١، على أنه لمزيد من الفهم لهذه الشريحة من التراث، فإنه يجب تأسيس معايير محددة للمواقع التى تندرج تحت هذه الشريحة. وذلك من خلال إنشاء إطار فكرى واضح لتجديد هذا التراث.

وبالتالى فقد تم عقد خمسة اجتماعات إقليمية للتراث الحديث كالآتى:

● الاجتماع الإقليمى الأول لتراث أمريكا اللاتينية فى ديسمبر ٢٠٠٢، ناقش قضايا تختص بكيفية تحديد وحماية والحفاظ على المبانى والمواقع المبنية فى أمريكا اللاتينية خلال القرنين السابقين.

● الاجتماع الإقليمى الثانى للتراث الحديث فى آسيا والباسيفيك، عقد فى شاندبجار (الهند) فى فبراير ٢٠٠٣. ركزت خلاله المناقشات على مفهوم «المولّد» أو «المهجن» «Hybrid» كخاصية هامة من خصائص التراث الحديث فى آسيا.

– الاجتماع الإقليمى الثالث للتراث الحديث فى أفريقيا، عقد فى أسمرة (إريتريا) فى مارس ٢٠٠٤. أثيرت خلاله عدة قضايا مثل ما إذا كان التراث الحديث يضم التراث



Patrimoines partagés de la Méditerrané,
(Shared Mediterranean Heritage: concept, management & collective memory)
تحرير جليلة القاضى وسحر عطية، فرنسى–إنجليزى، مكتبة الإسكندرية، ٢٠٠٩



لا كازا ماركيز دى فيلامارتا ـ أشبيلية. ١٩١٧ ـ تصوير جليلة القاضى

الاستعمارى، أم يضم أيضاً العمارة التلقائية ؟ وحاول المجتمعون تحديد الفترة التى يغطيها تراث أفريقيا الحديث وربطها بالتاريخ والهوية القومية. وخلص المجتمعون إلى أن التراث الحديث لأفريقيا يضم البيئة المصنوعة التى ترجع إلى حوالى ٢٠٠ عام.

- الاجتماع الإقليمى الرابع للتراث الحديث، نوفمبر ٢٠٠٤. الشمالية عقد فى ميامى - الولايات المتحدة. تناول قضايا تحقيق وحماية والحفاظ على المبانى والمواقع الحديثة فى أمريكا الشمالية.

وقد انتهت هذه الاجتماعات بمؤتمر الإسكندرية والسابق الإشارة إليه. فى ظل تلك المعطيات يصبح من العسير الفصل بين التوجهات العالمية والإقليمية وتأثيرها على «حالة التراث» على المستويات المحلية. ففى الفترة الواقعة بين عام ١٩٧٦ (تأسس الـ PAM) وعام ٢٠٠٥ حيث عقد مؤتمر الإسكندرية - أى فى غضون ثلاثة عقود - تدفقت كثير من المياه فى الأنهار. توسع مفهوم التراث فى معظم دول جنوب حوض البحر الأبيض المتوسط ليشمل مدناً أو أجزاء من المدن (السابقة على القرن التاسع عشر) بعد أن كان يقتصر فقط على المنشآت العامة - الدينية والمدنية -، وتم وضع فاس وحلب والقاهرة الفاطمية وتونس والقيروان على سبيل المثال - لا الحصر - على قائمة تراث الإنسانية. ثم توسع المفهوم مرة أخرى فى بداية الألفية الثالثة ليشمل بعض منشآت العمارة الحديثة فى القاهرة والإسكندرية والجزائر وتونس وسوريا. كما تم إصدار العديد من القرارات التى تمنع هدم المبانى ذات القيمة التى ترجع لتلك الفترة وكذلك الشروع فى عمل حصر وتصنيف من أجل توثيقها ووضع المعايير المناسبة للحفاظ عليها. أما قائمة المائة أثر وموقع التى حددت فى عام ١٩٨٧ فى إطار الـ (PAM)، فقد ضمت العديد من المواقع الأثرية التى ترجع إلى الحقبات الإغريقية والرومانية والتى كان قد تم الاعتراف بها من قبل الدول الجنوبية إبان القرن الماضى - ومن بينها بالمير فى سوريا وماجنا وسبراطة فى ليبيا وبترا فى الأردن وفاس فى المغرب... إلخ.

تراث الإنسانية والتراث المشترك:

وعلى الرغم من أن تلك التوجهات قد أدت إلى توسع مفهوم التراث ليشمل إرث الآخر، الذى اعتبر مرة تراثا مشتركا للإنسانية (قائمة اليونسكو) أو تراثا مشتركا لدول حوض البحر المتوسط (قائمة المائة موقع) إلا أننا نجد أنه من الضرورى أن نفرق هنا بين الإيديولوجية التى توجه اليونسكو وتلك التى أفرزت «ميثاق مرسيليا PAM». ترتكز إيديولوجية اليونسكو للحفاظ على مبدأ يدعو لتجاوز الذات للتقدم نحو الآخر لبناء الحضارة العالمية. بينما يرتكز الـ PNUE / PAM على إيديولوجية التضامن والاشتراك فى المساحة والزمن المتوافقة مع أفكار التنمية المستدامة - كما عبر عنها



يبرهن على رأفت على أن مفهوم التراث المشترك تحصيل حاصل، لأنه يستمد شرعيته من هذه السمات المشتركة لأن أصل هذه الشراكة يرجع إلى العصر الفرعونى



ميشيل باتيس «Michel Batisse» رئيس الخطة الزرقاء «Plan bleu» - نتيجة لتجاوز سكان دول البحر المتوسط لكل الاختلافات السياسية والاقتصادية والثقافية واقتناعهم أخيراً بحاجتهم الملحة إلى برنامج عمل مشترك يساهم فى إيقاف عوامل التدهور فى حياتهم». وتعتبر دعوة التضامن والتشاور التى أطلقها الـ PAM دعوة واقعية لأنها ترتكز على أدلة فعلية مقلقة. ذلك أن الثروات الثقافية والطبيعية لشواطئ البحر المتوسط التى تعتبر شاهداً على التاريخ وتعبيراً عن الحضارات المنتهية بالنسبة للبعض والتى مازالت حية بالنسبة للبعض الآخر قد وقعت فى شراك هموم التزايد السكانى وتدافع مظاهر العمران والتنمية السياحية وتهالك البنية الاجتماعية الاقتصادية وأضرار التلوث المختلفة التى تفسد البيئة..

إلا أن التحرك من أجل تحقيق فكرة «الشراكة» للحفاظ على إرث ثقافى أو طبيعى يعبر عن حضارة من أهم الحضارات الإنسانية - والعمل على توعية السكان بأهمية ذلك الحفاظ - لا يمكن أن يتم فى ظل إغفال مفهوم الأثر التاريخى والتراث فى مجال العمارة والعمران فى ارتباطه بالوعى التاريخى والفكرة القومية والهوية. وتأتى هنا أهمية مناقشة مفهوم «التراث المشترك».

المحور الأول: التراث المشترك وتحديات الثقافة والهوية

ست مقالات تناولت هذا الموضوع من مناهج وزوايا ومستويات ومرجعيات زمنية وجغرافية مختلفة. على الرغم من هذا التنوع فبإمكاننا تمييز منهجين رئيسيين:

أولا: منهج التحليل التاريخى الذى يلقى الضوء على التأثيرات المتبادلة بين الحضارات التى تتابعت على مر العصور التى أدت إلى تميز عمارة حوض البحر المتوسط بسمات إقليمية متفردة تظهر بجلاء فى الأنماط والطرز المعمارية وتقنيات البناء والزخارف من جانب ومن جانب آخر، نشأة طرز تلقيطية محلية نتجت من عمليات التهجين بين الوافد والموروث. فى هذه الحالة يصبح مفهوم التراث المشترك تحصيل حاصل، لأنه يستمد شرعيته من هذه السمات المشتركة لأن أصل هذه الشراكة يرجع إلى العصر الفرعونى كما

مقر شركة أدريياتيكا - أشبيلية، ١٩١٣ - تصوير جليلة القاضى



يعتبر القاضى أن اتجاهات العمارة العالمية المعاصرة، التى تتجلى فى البنايات الشاهقة فى نيويورك، شنغهاى أو دبى، على سبيل المثال، تعبر عن القوة والسيطرة و التفوق التكنولوجى



يبرهن على رأفت فى مقاله تحت عنوان: «البحر المتوسط، بحيرة للتقارب الثقافى». يتتبع رأفت ترحال الطرز المعمارية خلال الغزوات منذ انتقال الطراز الفرعونى فى العصر البطلمى إلى بلاد شرق المتوسط وفارس حتى حقبة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين التى شهدت انتشار طرز الآرت ديكو والآرت نوفو التى جلبها المهندسون الفرنسيون والإيطاليون من غرب أوروبا إلى كل مدن جنوب البحر المتوسط. يعزو رأفت هذه التبادلات إلى منظومة متشابكة من العوامل الأيكولوجية والاقتصادية وعلى وجه الخصوص السياسية تجلت فى علاقات القوى والسلطة والهيمنة التى بسطت نفوذها فى حوض المتوسط من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب. ويشارك رون فان اورز فى مقاله سابق الذكر رأفت الرأى وينضم إليهم كزافييه مالفرتى واليت بيكار فى مقالهما بعنوان «التراث المعمارى الاستعمارى فى الجزائر: تطور الدلالات والممارسات»، غير أنهم قاموا فقط بالتركيز على الحقبة الاستعمارية (١٨٥٠-١٩٦٠) والطرز التلقيطية المحلية فى سياق جغرافى محدود.

ثانياً: منهج المادية الجدلية الذى يعتمد على التحليل الديالكتيكى وصراع المتناقضات متناولا العلاقة الجدلية بين التراث وتشكيل الهوية وملقيًا الضوء على التناقضات، من جانب، بين الخطاب العولمى المعظم للتنوع الثقافى وحوار الحضارات والنظريات والممارسات على الصعيدين الإقليمى والمحلى ومن جانب آخر، بين الخطاب الرسمى المحلى المتجاهل للتراث المشترك والممارسات الحكومية التى تهدف للحفاظ عليه بل وتنميته. فى أولى وأهم المقالات لهذا المحور مقال هشام القاضى عن «تقاليد القوة لعمارة نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين». يعتبر القاضى أن اتجاهات العمارة العالمية المعاصرة، التى تتجلى فى البنايات الشاهقة فى نيويورك، شنغهاى أو دبى، على سبيل المثال، تعبر عن القوة والسيطرة والتفوق التكنولوجى وتؤدى إلى إقصاء التراث المعمارى الناتج من حوار الثقافات فى خلفية الصورة الحضرية. وفى الوقت الذى تسوق فيه قوى العولمة الجديدة مفهوم التنوع الثقافى فهى تقف عاجزة عن حماية شواهده المادية كما حدث فى البوسنة (تدمير مدينة موستار)، وفى أفغانستان (تدمير تماثيل بوذا)، بل وتشارك أيضاً فى هذا الائتلاف (تخريب ونهب متحف بغداد). ويشير القاضى إلى مسألة فائقة الأهمية، وهى المرجعية العرقية أو الدينية لمفهوم التراث مما يجعل التراث المادى عرضة للدمار عند نشوب أى صراع مسلح. وبالتالى فالقاضى يشدد على ضرورة استبدال المرجعية العرقية بالمرجعية المكانية، أى ربط التراث بالمكان الذى نشأ وتجذر فيه ويطلق عليه «حق الأرض» فى مواجهة «حق الدم». فى هذه الحالة فقط يمكن لمفهوم التراث المشترك لحوض البحر المتوسط أن يكتسب شرعيته. على نفس خطو القاضى، يتساءل جلال عبد الكافى فى مقاله السابق الإشارة إليه حول مفهوم التراث المشترك الذى دعا إليه المؤتمر ويرى أنه فى حاجة إلى مراجعة لأنه يجب علينا أن نتأمل قدرة حوض البحر المتوسط على اقتسام قيم متشابهة ونحن نعلم جيدا أن تبادل الأفكار بينهم شبه معدوم وأن اتصالاتهم تخضع لرقابة صارمة وأن حوارهم يجرى بالمصادفة وإذا تم فبواسطة طرف ثالث: الاتحاد الأوربى أو الولايات المتحدة الأمريكية مثلا. والغريب أنه فى الوقت الذى تدعو فيه قوى غربية إلى حوار الثقافات تسدل بعض الأفكار الجامعية الستار على هذا الموضوع وتعلن عن تصادم الحضارات. يصبح إذن فى ظل «صراع الحضارات» هذا من العسير الحديث عن أى أشياء مشتركة بين القوى الاستعمارية القديمة - والمجموعات الوطنية - فهذه الأشياء - بغض النظر عن قيمتها المادية والجمالية والثقافية والوظيفية - تمثل فى نفس الوقت مجموعة لهذا الوجود الاستعمارى القديم - الذى دخل مرة أخرى «فى صراع» مع الشرق طغى على فترة السلام القصيرة التى اتسمت بسيادة الحوار. ومن هنا، يغدو من الصعب تصنيف تلك المدن والأحياء - على مستوى القيمة الرمزية - كتراث. ويوضح رشيد سيدى بومدين[1] من خلال تحليل الخطاب الرسمى فى الجزائر والتدخلات الفعلية فى الأرض أن عمارة وعمران الحقبة الاستعمارية التى مثلت الركيزة المادية للسلطات الحاكمة بعد الاستقلال قد وفرت لها انطلاقها وبالتالى فقد حظيت بالكثير من العناية فى مقابل إهمال ما يعتبر من ثوابت «الهوية القومية» وهى المدينة القديمة التى عانت من التهميش وأصبحت مأوى لبؤس وشقاء السكان الأصليين ثم كمحطات انتقالية فى منظومة الهجرة من المناطق الريفية والمدن الصغيرة إلى المدن. ويمكننا تطبيق هذا الوضع على معظم المدن العربية قبل أن يتنامى الوعى بضرورة الحفاظ على الأنوية التاريخية السابقة على منتصف القرن التاسع عشر. فى هذا السياق، يشير سيدى بومدين إلى عدة مفارقات تتمثل فى أن نشأة وتنامى الوعى بضرورة الحفاظ على التراث المصنف والمسمى بالقومى فى دول حوض جنوب البحر المتوسط - قد تم تبنيها منذ البداية من قبل أكاديميين وصفوة ثقافية غربية، لحقت بها صفوة محلية ليبرالية. وقد تضافرت جهود هؤلاء لوضع هذه المواقع على قائمة تراث الإنسانية.





إذا استخدمنا التعريف الإيديولوجى/ السياسى أى العمارة الكولونيالية فذلك لا يمكن أن ينطبق بأى حال من الأحوال على مصر أو سوريا



مبنى فى مركز مدينة دمشق ـ تصوير كارين صباغ



مما يعنى أن ثوابت «الهوية القومية » قد خرجت من الإطار المحلى والإقليمى لتدخل فى إطار أوسع يشمل كل دول العالم. وبالتالى أصبحت إرثا مشتركا بين دول الجنوب والدول الأخرى بما فيها الاستعمار القديم! ومن بين هذه الدول - دول لا علاقة لها تاريخياً بدول جنوب حوض البحر المتوسط ولم تنصهر معها حضارياً وثقافياً فى بوتقة واحدة كما كان الحال فى ظل الحضارات المختلفة التى توالت على هذا المكان. وفى المقابل فإن كل الإرث الإنسانى، يمكن اعتباره، طبقاً لإيديولوجية اليونسكو، راعية التراث الإنسانى، هو إرث أيضاً لدول جنوب الحوض. فى هذه الحالة تصبح أهرامات الجيزة ومدينة حلب إرثا مشتركا بين مصر وسوريا من جانب وجميع الدول من جانب آخر، كذلك برج إيفل أو حى الماريه Marais فى باريس، يعتبران أيضاً إرثا مشتركا بين فرنسا وبين دول العالم التى نحن جزء منها. يغدو إذن من واجبنا الدفاع عن تلك المنتجات إذا تعرضت إلى أية مخاطر طالما قبلنا توقيع الاتفاقيات المختلفة للحفاظ على تراث الإنسانية.

إن نفس الصفوة السياسية / الثقافية التى تبنت من قبل، فى نهاية السبعينيات قضية الحفاظ على التراث «القومى» - هى نفسها التى تنادى اليوم بالحفاظ على التراث المشترك لحوض البحر المتوسط، ولن ندخل هنا فى جدل ماهية التراث القومى وطبيعته - حيث جزء منه تم اعتباره مشتركا مع بقية دول العالم، وجزء آخر مع دول حوض البحر المتوسط طبقاً لمعايير وإيديولوجيات مختلفة كما أشرنا من قبل. ونظراً لأنه من العسير فصل «التراث» عن ارتباطه بالهوية، فإن الاعتراف بالهوية البحرأوسطية لشعوب البحر المتوسط خاصة الجنوبية، قد أصبحت موضع شك نتيجة للأجواء التصارعية التى تسيطر حالياً على الساحة العالمية ودول حوض البحر المتوسط على وجه الخصوص. هذه الأجواء تصل أحياناً إلى حد الاحتقان والإثارة بسبب تعبيرات على شاكلة «صدام الحضارات» أو بسبب تعسف المحتل الإسرائيلى الذى يجد كل الدعم من قبل دول الشمال. وفى الوقت الذى يتم فيه حث دول الجنوب على الاندماج والمشاركة مع العالم أو على المستوى الإقليمى، تتم إدانتها واستبعادها من هذا العالم من خلال الإبقاء على حجج واتهامات مختلفة (وضع النساء - تطبيق الديمقراطية - تأثير الدين... إلخ). فى هذا الجو المشحون تطفو أهمية وواجب حماية الأنسجة العمرانية للقرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. وتبرز هنا صعوبة تعريف هذه المدن والأحياء - نظراً لاختلاف الأحوال فى مدن جنوب حوض البحر المتوسط.



فإذا استخدمنا التعريف الإيديولوجى/ السياسى أى العمارة الكولونيالية، فذلك لا يمكن أن ينطبق بأى حال من الأحوال على مصر أو سوريا - على سبيل المثال - حيث ترجع نشأة تلك المدن فى الأولى قبل الانتداب البريطانى بثلاثة عقود، وفى الثانية فترجع بدايات إدماجها إلى الحقبة العثمانية. كما أن التنوع المعمارى والجغرافى والوظيفى والتايبولوجى والمورفولوجى لتلك المدن والأحياء يقف حائلاً فى مواجهة هذا التصنيف المخل. فهى تظهر على المستوى العمرانى كأحياء مركزية وبنى تحتية أو مجموعات عمالية أو ضواح مكونة من فيللات أو منشآت اقتصادية وثقافية. وعلى المستوى المعمارى تختلف درجة التهجين أى إدماج العناصر المحلية والعناصر الوافدة لتفرز طرزا متجذرة فى المكان والزمان. أما فى حال التصنيف الذى يعتمد على القيم الجمالية والمعمارية كمبان وأحياء ذات قيمة تحمل كل واحدة منها فى طياتها وبأسلوب منفرد دروسا معمارية ملهمة، فإن القيمة الرمزية لتلك الأعمال تقف حائلاً دون تخطى العائق السياسى والإيديولوجى والنفسى وتمنع الاعتراف بتلك الثروات الثقافية كتراث رفيع القيمة - فما بالنا بالاعتراف به كتراث مشترك مع شركاء أصبح الحوار معهم معلقا وقتياً. إلا أن كل ذلك لا يلغى بأى حال من الأحوال كون هذه المنتجات هى التعبير المادى للحضارات التى توافدت على هذا الحوض. وقد ظلت الآثار العتيقة شامخة مستمرة ثابتة على مر العصور - حتى تم الاعتراف بها كإرث قومى، ثم إقليمى فعالمى تعبر فى كثير من الأحيان عن الهويات القومية - وتفخر بها شعوبها - مثل البتراء وجرش فى الأردن، بعلبك فى لبنان، بالمير فى سوريا، سبراطة وماجنا فى ليبيا، الكاتاكومب الرومانية فى الإسكندرية... إلخ. كما أن هناك العديد من المنشآت العامة الحديثة التى تحمل الطوابع المحلية وصممت من قبل مهندسين غربيين، قد تم وضعها على قائمة التراث القومى مثال بنك مصر فى القاهرة (لاشياك ١٩٢٩) ومعهد الموسيقى العربية (فيروش ١٩٢٣) على سبيل المثال لا الحصر. تبدو إذن هنا مشكلة فى معايير التصنيف، التى تعتمد على الطابع أو الطراز فى حالة العمارة الحديثة بينما لا يدخل هذا المعيار فى الاعتبار فى حالة العمارة العتيقة Antique ويرجع هذا التناقض ربما إلى قرب الفترة محل اهتمامنا هنا - أى منتصف القرن التاسع وبداية القرن العشرين. وإذا لم يكن هناك خلاف جوهرى حول القيم الجمالية والوظيفية لمدن وأحياء ومنشآت تلك الفترة، ولا حول أهمية الحفاظ عليها، المتحققة بالفعل فى العديد من الحالات، فإن الخلاف الأساسى يظل حول تعريفها، وتصنيفها.



عمارة طازى شمال ١٩٣١ ـ عمارة بندهان على اليمين ١٩٣٥ ـ كازابلانكا عن كارت بوستال

فهى إرث مشترك يعبر عن حضارات دخلت فى« طور الأفول»، بالنسبة لصفوة سياسية وثقافية ذات توجهات ليبرالية وتؤمن بالتعدد الثقافى، ولكنها فى صراعها لانتزاع الوعى بهذا التعدد وإثارة الوعى به مثلها مثل «دون كيخوتة» تصارع طواحين الهواء.

وهى إرث وافد يعبر عن ثقافة الآخر، المرفوضة فى الخطاب الدينى المتشدد، أو الخطاب القومى الضيق وبدون أن تكون هناك أية نية لإلغائها أو القضاء عليها، بل على العكس يتم استغلالها بل وتحظى باهتمام تحسدها عليه التجمعات الأقدم أو رموز «الهوية القومية».

وهى بالنسبة للعامة، مدن وأحياء ذات قيمة عقارية مرتفعة، تمثل جزءا هاما من الفراغ العمرانى أو بؤرا معمارية بصرية تعرف هذا الفراغ وترتبط بالذاكرة الجمعية للأماكن ولكنها لا تعنى شيئاً على مستوى الهوية المشتركة مع الآخرين.

أما التوجهات الحديثة للحفاظ على تلك المدن والأحياء كمدن وأحياء «ذات قيمة» كما يطلق عليها، فمما لا شك فيه أنها تعتبر خطوة هامة لاستمرار تواجد إرث «مشترك» لشعوب البحر المتوسط سوف ينمو الوعى به مع انحسار الصراعات والاحتقانات التى تسيطر على هذا الحوض.

تبدو إذن هنا مشكلة فى معايير التصنيف، التى تعتمد على الطابع أو الطراز فى حالة العمارة الحديثة بينما لا يدخل هذا المعيار فى الاعتبار فى حالة العمارة العتيقة



المحور الثانى: الأمكنة: الذاكرة والتأثيرات المتبادلة

ضَم سبع مقالات تتوزع على مجموعتين: الأولى (أربع مقالات) تناولت ذاكرة الأمكنة والثانية (ثلاث مقالات) ألقت الضوء على العمران والمعمار كمعبر عن حوار الثقافات والتبادل بين الشعوب فى حوض البحر المتوسط. فى مقالات المجموعة الأولى يحتل مركز المدينة الصدارة كوعاء للذاكرة الجمعية، لذاكرة الوطن، يختزن البصمات الثقافية لكل الحضارات التى تتابعت على المكان، ما زالت تنعكس فى المبانى والشوارع ومسمياتها وآلاف القصص والحكاوى التى تتناقلها الأجيال جيلا بعد جيل عن الأحداث الجسام التى شهدها المركز، مواكب ومصادمات، أفراح وأتراح...عن سيرة العظماء والعامة وأماكن لقاء مازالت جدرانها تردد أصداء ثرثرتهم وتشع بدفء تواجدهم فيها... تطويها بين صفحاتها مئات الكتب. مركز المدينة هو قلبها النابض وعقلها المفكر بما يحويه من أنشطة لاتخاذ القرار، هو مكان التعددية الثقافية تذوب فيه كل الاختلافات العرقية والدينية، لذا فالقضاء على هذا التنوع يمر على أشلاء المركز، مثل ما حدث خلال الحرب الأهلية لمركز مدينة بيروت، تناولته مقالتان فى هذا الكتاب. الأولى لوفاء عامر حول «المبنى والمعنى والذاكرة المجتمعية والهوية» تنطلق من تحليل مشروع إعادة إعمار المركز طارحة السؤال الجوهرى التالى: هل الحفاظ على مركز المدينة يؤدى إلى حفاظ حقيقى على التراث وعلى الهوية أم أن هناك عوامل أخرى ثقافية واجتماعية هى الكفيلة بصيانة ذاكرة المدينة؟ لا تجيب عامر عن هذا السؤال ولكنّها تثير مجموعة من القضايا المرتبطة بالعلاقات الجدلية بين الذاكرة الجمعية والتجربة الشخصية، بين روح المكان وتعريف المدينة، وبين الاستمرارية التاريخية وتداعيات التجديد المفاجئ. وتمثل تلك القضايا ورقة عمل تضع إطاراً عامًا لبحث مستقبلى. ويتعرض أيضاً روبير صليبة لإعادة إعمار مركز بيروت دون الخوض فى العلاقة بين الذاكرة المادية والذاكرة المعنوية متناولا فقط منهج إعادة إحياء منطقتى فوش واللنبى اللتين شيدتا فى فترة الانتداب الفرنسى وتضمان





فيللا فلسطين ١٩٠٠ مرسيليا عن هيئة الآثار ـ تونس



جادتا فخرى بك واللنبى وسط بيروت ـ تصوير سمير سعدى

مركز المدينة هو قلبها النابض و عقلها المفكر بما يحويه من أنشطة لاتخاذ القرار، هو مكان التعددية الثقافية تذوب فيه كل الاختلافات العرقية و الدينية



معظم المبانى الإدارية والتجارية المهيمنة التى أعيد ترميمها طبق الأصل، فاستعادت وظائفها السابقة مما أدى إلى الحفاظ على التراث وذاكرة المكان. ونترك بيروت للقاهرة حيث تم تناول مركز المدينة فى مقالتين. الأولى لجلال عبادة تطرقت إلى شارع قصر النيل كمسار تاريخى هام فى وسط البلد يحمل العديد من القيم معمارية ورمزية وثقافية تنعكس فى الإضافات والتعديلات التى نالت من الواجهات والفراغات العامة على مر السنين. تلك هى الذاكرة الإنتربولوجية للشارع التى يجب الحفاظ عليها، نأتى للمقالة الأخيرة فى هذه المجموعة لجليلة القاضى عن «الأزبكية، موت حديقة». وهو عنوان ذو دلالة عن الاحتضار المادى لمكان ضارب بجذوره فى عمق تاريخ المدينة منذ العصور الوسطى. تغوص فيه القاضى وتزيل الطبقات المتراكمة وتعيد ترتيبها زمنيا فتتجلى مراحل تطور الأزبكية منذ النشأة فى القرن العاشر كبركة، مرورا بتحولها إلى حديقة مركزية للمدينة ووصولها إلى أوج ازدهارها فى الربع الأول من القرن الماضى حيث أصبحت فى قلب المركز الحديث ثم بداية الأفول التدريجى على إثر انتقال الأنشطة الخدمية العليا إلى الغرب تجاه النيل مخلفة وراءها لربوع الأزبكية وظائف الترفيه والثقافة التى بدأت تهجرها بدورها بعد حريق القاهرة لتتوالى الضربات القاضية بعد ذلك: استقطاع أجزاء منها، حريق الأوبرا، بناء كوبرى الأزهر وهدم السور ومكتباته، اجتثاث الباسقات المورقات أثناء بناء خط المترو الثانى، وأخيرا تدمير ما تبقى من أجل خط المترو الثالث. تخلط القاضى خلال استعراضها وتحليلها لهذه المراحل، ذاكرة المكان بتجربتها الشخصية التى تتقاطع مع الذاكرة الجمعية متسائلة: من من جيل الخمسينيات لم يتجول فى الحديقة وتظلل بأشجارها أو استمتع بعزف فرق موسيقى الشرطة وقضى الساعات فى مكتبات السور باحثًا عن كتاب نادر...وتنهى القاضى مقالتها بإطلاق صرخة لإنقاذ الأزبكية. فى مقالات المجموعة الثانية لهذا المحور يتألق نص دليلة الكردانى عن مدينة المنصورة الذى يلقى الضوء على دور الجاليات الأوروبية المختلفة الوافدة التى عاشت فى هذه المدينة منذ منتصف القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين بجوار البورجوازية المحلية فى تعمير مركز المدينة الحديث. أضفى تفاعل الثقافات على مدينة المنصورة طابعا مميزا لعمارة ذات طرز متنوعة نيو كلاسيكية ومختلطة تظهر بجلاء فى واجهات المنشآت الاقتصادية والمبانى التعليمية وقصور الأعيان التى تعبر عن ذوق رفيع ووعى بأهمية العمارة. تمثل هذه المنتجات الآن التراث الحديث للمدينة. ومنها من وضع على قائمة الإرث القومى مثل قصر الشناوى. إلا أنها تعكس فى المقام الأول التفاعل الثقافى بين شعوب حوض البحر المتوسط الذى نجده أيضًا فى مدن الشاطئ الشمالى حيث يأخذنا طارق العقاد إلى إشبيلية عاصمة مقاطعة الأندلس من خلال مقالته عن العمارة الإسلامية فى إشبيلية. وإذ يشير العقاد بداية إلى قلة المنشآت التاريخية المتبقية من فترة حكم العرب لإسبانيا، فإنه فى المقابل يثير دهشتنا بتعدد نماذج العمارة المختلطة لبداية القرن الماضى. قام العقاد بتحليل دقيق للعمارة الكلاسيكية لتلك الفترة والتى طعمت بعناصر معمارية تستلهم خطوطها من الطرز الأموية الأولى والأندلسية اللاحقة وتظهر فى أشكال الفتحات المعقودة والكرانيش والزخارف الجصية. وإذ توارى هذا الاتجاه فى النصف الثانى من القرن الماضى نتيجة لسيادة تيارات العمارة الحديثة، فقد تم إحياؤه من جديد فى مرحلة ما بعد الحداثة بأشكال مختلفة مما أدى لاستعادة روح المكان. هذه الروح المشتركة التى تجمع بشكل خاص بين المدن الساحلية لضفتى المتوسط مثيرة للبلبلة فى كثير من الأحيان عند المرء أثناء تسكعه على الكورنيش... يتساءل فى لحظة إذا كان فى الإسكندرية أم فى نيس أو فى نابولى؟ عن «كورنيش الإسكندرية كمكان للحوار العمرانى والثقافى» كانت مقالة فيليب سعد. حوار مجازى دائر منذ أكثر من قرن بين واجهات المبانى المتشابهة التى تواجه بعضها البعض على ضفاف المتوسط، وحوار حقيقى بين مرتادى الكورنيش متعددى الثقافات.

المحور الثالث: الحفاظ على تراث منتصف القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، السياسات، الفاعلون والإدارة

تتوزع المقالات الثمانى التى ضمها هذا الفصل على محورين فرعيين. أولا: سياسات الحفاظ، تطرقت لها ليلى عمار فى بحث تناولت فيه «تاريخ حى لا بتيت سيسيل فى تونس والتحديات التى يواجهها». ترجع نشأة هذا الحى على مقربة من الميناء إلى نهاية القرن التاسع عشر واستوطنته عمالة مهاجرة من جزر سردينيا وسيسيليا الواقعة فى جنوب إيطاليا. ويؤم الحى حاليًا الطبقة العاملة التونسية، وتتميز عمارته المختلطة بتجانس شديد لم يؤخذ فى الاعتبار فى مشاريع التخطيط المستقبلى. لذا فقد تحركت جمعيات الحفاظ على التراث من إجل إفشال هذا المخطط وطرحت مشروعًا بديلا يأخذ فى اعتباره القيم التراثية للحى ومبادئ التنمية المستدامة. من جانب آخر فغياب سياسات الحفاظ لأكثر من نصف قرن أدى، فى حالة مدينة الإسكندرية التى تناولها ياسر عارف، إلى تدهور شديد لمركزها التاريخى. يعزو عارف تفاقم هذا الوضع إلى عدة عوامل على رأسها تغير ثقافة المكان وظهور مراكز حديثة فى الضواحى على غرار النموذج الخليجى الذى نشأ فى مدن دول بلا تاريخ أو ذاكرة. أما مجال إدارة الحفاظ على التراث فقد استحوذ على ست مقالات تناولت ثلاث منها الجوانب المؤسسية والقانونية والثلاث الأخرى عمليات الترميم وإعادة الإحياء. تستعرض سحر عطية فى

عمارة عابد مركز مدينة دمشق - تصوير كارين صباغ



مقالها عن حالة التراث الحديث فى مصر المراحل التى مرت بها عملية وضع الإطار القانونى والمؤسسى للحفاظ على التراث، حيث تم الشروع فى حصر وتصنيف المبانى وتحديد المقاييس القيمية من أجل تصنيف المبانى ذات القيمة المعمارية العالية توجت بإنشاء الجهاز القومى للتنسيق الحضارى وسن القانون رقم ١٤٤ لـ ٢٠٠٦. أصبح إذن للتراث الحديث الذى ظل يتيماً لعقود مؤسسة ترعاه وقانون يمنع العبث به. ولا تنسى عطية الإشادة بجهود الباحثين أجانب ومحليين فى إثارة الوعى بهذا التراث ودعم متخذ القرار. وعلى الرغم من إيجابية الخطوات التى اتخذت للحفاظ على هذا التراث فما زالت هناك بعض أوجه القصور تتمثل فى غياب ميكانيزمات تطبيق القوانين وتداخل المسئوليات بين الجهات المعنية وضغوط رأس المال العقارى. هذا وقد ركزت كارين صباغ على أوجه القصور تلك فى مقالها عن الحفاظ على التراث والتخطيط الحديث استناداً على حالة دمشق. وشددت خلال تحليلها للصراع الدائر بين متطلبات تحديث المدينة وضرورة الحفاظ على التراث المعمارى والعمرانى على حتمية تعميق الوعى المجتمعى بأهمية استمرار تواجد الماضى فى الحاضر كتعبير عن التنوع الثقافى والحضارى وأيضاً عن خصوصية المكان. إلا أن منهج إدارة التراث لا يكتمل دون التطرق إلى إعادة توظيف المنشآت التاريخية التى تناولها بيارو ميكليوتو فى دراسته عن ترميم وإعادة توظيف مسرح تونيولو فى فينيسيا. ويعتبر إعطاء وظيفة جديدة للمبنى بعد ترميمه من أهم أركان إدارة الحفاظ على التراث. ففضلا عن القيمة المضافة فالاستخدام المستحدث للأثر، سواء كان ثقافيا، تعليميا أو ترفيهيا يعطى معنى للمكان ويوسع دائرة المنتفعين به ومن ثم يرسخ الوعى بأهمية الحفاظ عليه والدفاع عنه. إلا أن ميكليوتو لا يشير إلى هذه القضايا بل يشدد على ضرورة الالتزام الصارم بمواصفات الترميم حتى لا يفقد الأثر طابعه الأصلى ويتحول إلى مسخ فينتفى بالتالى الهدف من الحفاظ وإعادة التوظيف فى تعزيز الوعى والاستحواذ الجماعى على التراث. ويمثل مقال أنتونيلا جويدا عن مبنى المطافئ فى مدينة بوتنزا جنوب إيطاليا، دراسة حالة أخرى تتبنى نفس المنهج السابق مركزة على الجوانب التقنية واختيار أفضل الوسائل التى تضمن عدم المساس بالسمات الجوهرية للمبنى. ويعكس هذا المنهج الفجوة الزمنية التى تفصل دول جنوب الحوض عن دول الشمال حيث ترسخ فى تلك الأخيرة الوعى بأهمية الحفاظ على التراث منذ عقود مضت ولم تعد هناك حاجة لبذل جهد مضن لاتباع أبجديات منهج إدارته بدءاً من التعريف به والحث على التأمل ومن ثم التقييم والحصر والتصنيف ...إلخ، جهد يؤدى فى أغلب الأحوال إلى الحصول على القليل. غير أن هذا القليل يعتبر إنجازاً فى حد ذاته فى ظل سياق مضطرب لم يحسم فيه بعد الجدل الدائر حول علاقة هذا التراث بالهوية القومية أو بالهوية المتوسطية المفترضة. وتجدر الإشادة والإشارة هنا للمقالة المتميزة لمونيك إيليب وجان لوى كوهين عن «اكتشاف وحماية مكان للحداثة بامتياز».

المكان المعنى هو مدينة كازابلانكا، العاصمة الاقتصادية للمغرب، ويحتوى مركزها الحديث على مجموعة من البنايات شيدت فى النصف الأول من القرن العشرين ووضع تصميماتها كبار المعماريين الأوربيين. قام ايليب وكوهين بدراسة هذه المبانى وأظهرا تنوع طرزها المعمارية وقيمتها التاريخية والجمالية ونايا بضرورة الحفاظ عليها محذرين من المخاطر التى تتعرض لها، كالتدهور أو الإزالة. وقاد الباحثان حملة ثقافية استطاعت خلق رأى عام ونشأة جمعية أهلية للحفاظ على هذا التراث ضغطت على متخذ القرار ودفعته لسن تشريعات تؤمن ترميم وحماية أهم خمسة عشر مبنى. تؤكد هذه التجربة مرة أخرى على أهمية دور الباحثين فى التعريف بالتراث وإثارة الوعى الجمعى بجمالياته والحث على حمايته. هذا ما يدلل عليه المقال الأخير لهذا المحور ليف الرشيدى ومجدى يعقوب عن «عمارة القرن التاسع عشر لمدينة مصرية فى جنوب الوادى: خطوات تجاه الحفاظ والتنمية المستدامة». تعتبر تلك الدراسة إطلالة مدهشة على تراث معمارى فريد ومجهول لمدينة نجادة. إلى جانب الصرخة التى يطلقها الرشيدى ويعقوب من أجل إنقاذ هذا التراث من الاندثار، فهم يلقون الضوء على الدروس الملهمة التى تحويها تلك العمارة الصديقة للبيئة ويمكن الاستفادة منها فى إبداع عمارة معاصرة متجذرة فى المكان ومتوغلة فى الزمان. ■

(١) التراث المعمارى الاستعمارى فى الجزائر - تطور العروض والممارسات - رشيد سيدى بومدين

كتاب الزاوية



أيها النيل

أحمد شوقى

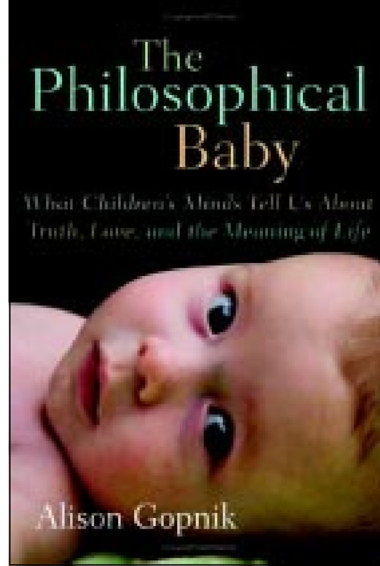
حُجُراتُها مَوطوءَةٌ وَسُتورُها
مَهتوكَةٌ بِيَدِ البِلى تَتَخَرَّقُ
أَودى بِزينَتِها الزَمانُ وَحَليِها
وَالحُسنُ باقٍ وَالشَبابُ الرَيِّقُ
لَو رُدَّ فِرعَونُ الغَداةَ لَراعَهُ
أَنَّ الغَرانيقَ العُلى لا تَنطِقُ
خَلَعَ الزَمانُ عَلى الوَرى أَيّامَهُ
فَإِذا الضُحى لَكَ حِصَّةٌ وَالرَونَقُ
لَكَ مِن مَواسِمِهِ وَمِن أَعيادِهِ
ما تَحسِرُ الأَبصارُ فيهِ وَتَبرَقُ
لا الفُرسُ أوتوا مِثلَهُ يَوماً وَلا
بَغدادُ في ظِلِّ الرَشيدِ وَجِلَّقُ
فَتحُ المَمالِكِ أَو قِيامُ العِجلِ أَو
يَومُ القُبورِ أَوِ الزَفافُ المونِقُ
كَم مَوكِبٍ تَتَخايَلُ الدُنيا بِهِ
يُجلى كَما تُجلى النُجومُ وَيُنسَقُ
فِرعَونُ فيهِ مِنَ الكَتائِبِ مُقبِلٌ
كَالسُحبِ قَرنُ الشَمسِ مِنها مُفتِقُ
تَعنو لِعِزَّتِهِ الوُجوهُ وَوَجهُهُ
لِلشَمسِ في الآفاقِ عانٍ مُطرِقُ
آبَت مِنَ السَفَرِ البَعيدِ جُنودُهُ
وَأَتَتهُ بِالفَتحِ السَعيدِ الفَيلَقُ
وَمَشى المُلوكُ مُصَفَّدينَ خُدودُهُم
نَعلٌ لِفِرعَونَ العَظيمِ وَنُمرُقُ

مـــا يـعـلـمـــــــــــــــــــــــه

■■ إن أبعد فترة عن منالِنا هى ما تجرى أحداثها بين الميلاد والخامسة من العمر. بغموض وبعوامل غيبية تحاط مرحلة طفولة المهد والطفولة المبكرة - لاحقاً فى الحياة - بفجوة غريبة فى الذاكرة، تتخللها ومضات من ذاكرة لا إرادية تأتى إلينا فى معظمها من خلال سياق لا يمكن الوثوق به أو الاعتماد عليه. ما يبدو على هذه الذكريات بما لها من انبعاثات حسية وخلوية أنها تتواجد فى الجسد أكثر من تواجدها فى العقل ومع ذلك فإنها تعد مركزاً لما نكنه لأنفسنا من أحاسيس.

جزء من الجوانب الفاتنة فى التحليل النفسى أنه خلال سعيه للعثور على الطفل المختبئ داخل الشخص البالغ قد يحدث تحويل لهذا الشخص البالغ إلى طفل يمارس لعبة وقتية مع محلله النفسى حيث يتم تنظيم الوقت عبر مسرحية خيالية تتسم بالمشاركة المطلقة والحرة والحوار ذى النهاية المفتوحة الذى يمكن أن ينتهى فى أى لحظة، وعلى غرار المسرحية الخيالية فإن الميعاد مع المحلل النفسى يستتبعه سلسلة من القواعد الصارمة. إن الهدف هو الإلمام بما تم كبته واستخراج ما تم دفنه لنملأ به الفجوة أو الفراغ الحاصل فى حكاياتنا حول أنفسنا. اكتشفت أليسون جوبنيك Alison Gopnik وزملاؤها المتخصصون فى علم النفس المعرفى أن تلك السنوات تعد استعادتها صعبة للغاية ليس بسبب الكبت ولكن بسبب أن حالات الوعى والذاكرة التى نمر بها فى طفولتنا المبكرة تختلف جداً عن مثيلاتها فى مرحلة لاحقة.

فى جولة عبر آخر نتائج العلوم المعرفية حول عقول الأطفال الصغار تكتب جوبنيك فى كتابها «الطفل الفيلسوف» Philosophical Baby «إن الأطفال والبالغين هم أشكال مختلفة من الجنس البشرى» والسبب فى ذلك



ميشيل جرينبيرج
Michael Greenberg

تقول جوبنيك فى كتابها «الطفل الفيلسوف» Philosophical Baby «إن الأطفال والبالغين هم أشكال مختلفة من الجنس البشرى»



شيء واحد هو أن الفص الجبهى الأمامى للمخ - والذى يتحمل الدور الأكبر فى عرقلة المثيرات الخارجية عن التأثير فى الأجزاء الداخلية للمخ وكذلك المسئول عن تعزيز باعث الانتباه الداخلى - يعد غير متطور لدى الأطفال الصغار ولا يتخذ شكله الكامل فى النمو عند معظم الناس حتى يبلغوا العشرينيات من العمر. ويذهب البحث المعرفى إلى أن الباعث الداخلى للانتباه لا يعد من القدرات التى يكتسبها الأطفال بالكامل على الأقل حتى بلوغهم الخامسة من العمر. إن ما يثيرهم هو ما يكون أمام عيونهم وهو يشكل الدفعة الأولى من المعلومات حول السبب والنتيجة فى العالم المادى.

إن الأجزاء النشطة للغاية فى أدمغة الأطفال الرضع هى قشرة مؤخرة الرأس فى الجزء الخلفى من المخ والذى يوجه الانتباه إلى العالم المرئى وكذلك القشرة الجدارية والتى تساعد الإنسان على التكيف مع الأحداث الجديدة. إنه ليس من المستغرب أن نرى بالتصوير المغناطيسى للبالغين - أثناء انهماكهم فى مشاهدة فيلم - هاتين القشرتين تضيئان فى نفس الوقت الذى يكون فيه الفص الجبهى الأمامى فى حالة سكون. تتحدد الملامح الرئيسية لتصرفات الأطفال الرضع بشكل تقريبى فى حالة من الذهول المعلق والتوجه السريع لدفعة هائلة من المثيرات المرئية غير المتوقعة.

تتكهن جوبنيك بأن مرحلة الطفولة المبكرة تقوم بإعدادنا للإبداع فى الفن وتقديره، فلعبة المسرحية الخيالية بين الأطفال قد تصقل قدراتهم على الاستمتاع بما هو بعيد عن الواقع وهو عبارة عن عوالم بديلة يتم من خلالها الابتكار والفن من أى نوع. إنها تتطلب الانضباط من أجل تقمص الدور الذى يفترضه الطفل لنفسه وتجعله يقتحم المعانى ويتشكل بها نفسيا لكى يجيد أداء دوره سواء كان الأم أو رجل المطافئ أو الجندى أو السجين، تعد لعبة المسرحية الخيالية بروفة للأطفال تمكنهم من فهم عقول ونوايا الآخرين وهى مهارة أساسية لابد من اكتسابها من أجل البقاء.

تعد هذه ادعاءات صعبة الإثبات ولكن جوبنيك لديها حجة جيدة وحماسة لإثبات صحتها. فإن الخلايا العصبية الخاصة بالجهاز العصبى للكائن البشرى والتى تبلغ مائة بليون خلية تكون كلها تقريبا تامة النمو عند الميلاد وفى الطفولة المبكرة تتميز نقاط التشابك العصبى - وهى نقاط الاتصال بين الخلايا العصبية التى توقد الذاكرة وتثير الإحساس - إلى حد كبير بالوفرة. إن النضج ليس إلا عملية تهذيب عصبية على نطاق واسع، تهدف إلى تكثيف وتنظيم الوعى من أجل إنجاز المهمات الحياتية اليومية - مثل قيادة السيارة أو التفاوض فى السوبر ماركت - على أحسن وجه إن هذه العملية متاحة وسهلة وتتم بشكل لا إرادى، إن حياتنا فى معظمها قائمة على التكرار أكثر من قيامها على التجديد والخلايا العصبية الأقل كفاءة وجودة تضعف وتموت كشكل من أشكال النسيان.

تذكرنا جوبنيك Gopnik بأن عقول الأطفال تقوم - من أجل استيعاب تحولات الانتباه السريعة - بإنتاج كميات ضخمة من المرسلات الكولينية العصبية Cholinergic neurotransmitters والتى يتم إطلاقها فى الأجزاء المختلفة من المخ حيث تقوم بتشغيل معلومات محددة. وفى العمليات الجراحية لكى يتم التخدير بكفاءة فلابد من العمل على هذه المرسلات وهذا يفسر احتياج الأطفال إلى تركيز عال نسبيا من قبل الأطباء عند تخديرهم قبل إجراء الجراحات لهم. تطرح جوبنيك فكرة آسرة وهى أن الأطفال هم أكثر وعياً من البالغين ولكنهم أيضا أقل قدرة على فقدان الوعى لأن لديهم سلوكيات تلقائية أقل.

إن هذه الحالة المتزايدة من استيعاب وتفهم ذلك الوضع تشير إلى ما تطلق عليه جوبنيك «التقسيم المتطور للعمل بين الأطفال والبالغين» فى إطار هذا التعاون سوف ينطلق العنان لفترة عدم النضج الممتدة لدى الطفل لأنها سوف تتيح له إنجاز أنواع من التجارب بشكل غير مكبوت، هذه التجارب نفسها يؤديها البالغون بتثاقل لا شعورى مما يجعلهم يستهدفون التغيير أو على الأقل معالجة واقع عالمهم وطبقا لهذه الصيغة فإن الطفل «لا يعد محصورا فى هنا والآن» يرى أرسطوتيليان Aristotelian أن الطفل ليس مهما فى حد ذاته ولكن تنبع أهميته من قدراته وتختلف معه جوبنيك فى الرأى حيث ترى أن الطفل شريك كامل

The Philosophical Baby: What Children,s Minds Tell Us About Truth, Love, and the Meaning of Life
By Alison Gopnik
Farrar, Straus and Giroux,288 pp.,$25.00

بترتيب خاص مع:
THE NEW YORK REVIEW OF BOOKS

ترجمة: إيمان عبدالهادى الكيلانى

الأطفـــــال .. ونجهــــله!

Albert Einstein (1879 - 1955) German-Swiss mathematician, Relativity Einstein and his sister Maja as small children



لديه عقل يختلف عن عقل البالغين يتسم بسعة ومرونة أكبر وقدرة عالية ومتناغمة لاستقاء المعلومات الجديدة «إن الطفل هو المؤلف والبالغ هو المنتج».

وفقا لكلمات جوبنيك تدور الفكرة المحورية فى العلوم المعرفية حول المقولة الآتية «إن لدينا عقولاً هى فى واقع الأمر أنواع من الكومبيوترات على الرغم من كونها أقوى بكثير من أى كومبيوتر فعلى» تستدل جوبنيك على ذلك قائلة «إن الأطفال مثلهم مثل بعض الكومبيوترات لديهم خارطة سببية فطرية تقوم بإمدادهم بفهم دقيق للكيفية التى من خلالها يعمل العالم كنتيجة لهذه الخارطة».

تتكون لدى الأطفال بشكل يومى أفكار حول العالم - أفكار يومية حول علم النفس والبيولوجيا والفيزياء، تتشابه هذه النظريات مع النظريات العلمية ولكنها تتسم بارتباطها باللا وعى أكثر من الوعى عند هؤلاء الأطفال - يتم اختزان هذه الأفكار فى شكل رموز وأكواد فى عقول الأطفال بدلاً من تسجيلها فى شكل كتابة على ورق أو تقديمها فى هيئة بحث فى مؤتمر علمى.

حتى الأطفال الرضع لديهم حساسية للنماذج الإحصائية. إن تعلم اللغة فى مراحلها المبكرة ينطوى على تنبؤات إحصائية لأى الأصوات التى من المرجح أن تتبع أصواتاً أخرى وهذا يعد ممارسة غير واعية لنظرية الاحتمالات. تجادل جوبنيك قائلة بأن هذه المقدرة على اكتشاف نماذج الاحتمالات تتجاوز اللغة إلى النغمات الموسيقية فى عمر الثمانية أشهر على سبيل المثال وليس هذا مقصوراً على جزء مخصوص فى المخ كما يعتقد نعوم تشومسكى Naom Chomsky وآخرون.

اكتشفت إحدى الدراسات المبهرة - والتى يكمن سر إبهارها فى مفهومها الغريب - أن الأطفال ذوى الخمس سنوات الذين ينتمون لثقافات مختلفة يؤمنون جميعا بمذهب الحيوية فى الحياة وهذا المذهب يشبه إلى حد كبير الطب الصينى واليابانى التقليدى:

يعتقد هؤلاء الأطفال أن هناك قوة حيوية واحدة - مثل تشى Chi الصينى - هى التى تبقينا على قيد الحياة. وهم يتوقعون أنك إذا لم تأكل ما يكفيك - على سبيل المثال - فإن هذه القوة ستتضاءل مما يدفع بك إلى المرض. وهم يعتقدون أيضا أن الموت هو فقدان لهذه القوة لا رجعة فيه. ويتوقعون أن الحيوانات التى

ما يعلمه الأطفال.. ونجهله!





تموت لا يمكن أن تعود للحياة مرة أخرى.

بين الأطفال الصغار هناك تفاعل معقد بين القواعد والأخلاق، لديهم حساسية عالية للنوايا عندما يتم كسر القواعد وتقدير دقيق لحقيقة أن بعض النوايا أهم والبعض الآخر أقل أهمية. تقول جوبنيك إن المعرفة الأخلاقية هى معرفة خيالية وهى نتاج مباشر للتعاطف الذى يحصل عليه الأطفال الرضع ويمارس معهم بشكل أو بآخر منذ لحظة ولادتهم. تستشهد جوبنيك بدراسة قامت بها عام ١٩٨٠ جوديث سميتانا Judith Smetana وهى عالمة متخصصة فى علم النفس التطويرى وتناقض بها فرضية عالم النفس السويسرى جان بياجيه Jean Piaget والتى يقول فيها إن المعرفة الأخلاقية الحقيقية لا تتطور حتى سن المراهقة لأن الأطفال يفتقدون المقدرة على تصور وجهات نظر الآخرين.

قدمت سميتانا قصصا ومواقف مختلفة لمجموعة من الأطفال ذوى العامين والنصف من العمر، فى بعض هذه المواقف يتم كسر القواعد فى مرحلة ما قبل المدرسة مثل عدم التزام الأطفال بوضع ملابسهم فى المكان المألوف أو الكلام فى وقت التزام الهدوء. وفى مواقف أخرى يتم ضرب الطفل أو مضايقته وقد تتم سرقة شىء ما. ما ذكر فى تقرير جوبنيك: أن الأطفال يختلفون - حتى الصغار منهم - فى تقييمهم للقواعد والأذى إنهم يرون أن القواعد يمكن تغييرها وقد لا يتم تطبيقها فى مدرسة أخرى ولكنهم مصممون على الاتفاق على أن التسبب فى الضرر دائما خطأ جسيم بغض النظر عن المكان أو ما تمليه القواعد.

علاوة على ذلك فقد أظهرت الدراسات أن الأطفال يفهمون طبيعة القواعد نفسها فإذا كانت القواعد تحدد بعض الالتزامات فأنت لابد أن تتصرف بالطريقة التى تحددها القاعدة. وعندما تحدد القواعد بعض المحظورات فأنت لا تستطيع أبداً القيام بهذه المحظورات. وعندما تتاح لك بعض المسموحات فلك أن تقرر وعلى أساس مستقل ما إذا كنت ستتصرف بهذه الطريقة أم لا.

الأطفال من عمر التسعة أشهر دائما يظهرون حساسية للنوايا: فهم يبدون استجابات فارغة الصبر إذا ما حجبت عنهم لعبة بدون سبب واضح لهم - وهذا يغاير الكبار الذين تكون لديهم قدرة أكبر على الصبر فى حالة منعهم من أشياء بشكل خارج عن إرادتهم.

يقوم الأطفال الرضع بالتقليد، والتقليد يعد طريقة لإسقاط الانفعال على ذات الفرد. فالفرح يعكس الفرح والحزن يثير الحزن ولا يتم ذلك كتعبير على الوجه فقط بل يتم كحالة شعورية كاملة بين الطفل الرضيع ومن يقوم برعايته، تكتب جوبنيك - بعد أن سمحت لنفسها بلمسة من إسقاط غير علمى:

من الممكن القول بأن الأطفال ببساطة لا يرون فرقا بين آلامهم وآلام الآخرين. ربما يود الأطفال الرضع إنهاء كل الآلام بغض النظر عن مكان تلك الآلام فبالنسبة لهم الألم هو الألم والبهجة هى البهجة. لقد اقترح المفكرون الأخلاقيون - من بوذا Buddha إلى دافيد هوم David Hume إلى مارتن بوبر Mrtin Buber - أن قدرتك على محو الحدود بين نفسك وبين الآخرين بهذه الطريقة تشكل أساسا مدعماً للأخلاق. نحن نعلم أن تصور الأطفال لاستقلال ذواتهم يتطور ببطء فى خلال السنين الخمس الأولى من العمر.

بناء على ذلك فإن سمات التقمص العاطفى والأخلاقى لا يمكن فصلهما ولا مفر من وجودهما عند الأطفال وبالرغم من أن التقمص العاطفى يبدو فطرياً والتصرفات العفوية المنبئة بالإيثار تبدو شائعة لدى جزء من الأطفال - فالأطفال ذوو الثمانية عشر شهراً يحاولون بشكل غريزى مساعدة الشخص الغريب عند احتياجه برغم عدم تعلمهم فعل ذلك - فإن ازدهار التعاطف لا يمكن ضمانه طوال الوقت، فقد يتم تدعيمه وقد يتم إلغاؤه وفقاً لخبرات وعلاقات محددة. إن توفير وتأمين الحب للطفل الرضيع خلال أشهره الستة الأولى أمر حيوى ففى خلال الساعات الأولى من الميلاد يتعلم الطفل الرضيع ملامح وجه أمه ويفضل النظر إليها عن النظر إلى الغرباء. وفى سياق هذا التبادل فإن قيام الشخص البالغ برعاية طفل رضيع يعزز وقد يوقظ لديه السلوكيات الأخلاقية. تشير جوبنيك إلى الرقى والسمو الأخلاقى كنتيجة منبثقة عن حالة تكثيف الحب بين الآباء والأبناء. إنها علاقة حب يتدفق بغزارة فى كلا الاتجاهين. إن المدخل الأكثر فعالية إلى الأخلاق - كما تقترحه جوبنيك هو العلاقة بين الطفل ومن يتولى رعايته. إن أعظم النظريات الأخلاقية فى الفلسفة والقانون تنبع من فهم أساسى فى الطفولة لما يقوم الآخرون بأدائه لنا سواء أكثر أم أقل من توقعاتنا يقوم هذا الفهم على أساس عاطفى.

بطبيعة الحال المحاكاة ليست فقط الطريق إلى التقمص العاطفى ولكنها أيضا وسيلة لاستبعاد الآخرين، إنها وسيلة لتشكيل ما يسميه علماء الاجتماع «المجموعات الدنيا» حيث يتسبب كم ضئيل من التمييز التعسفى فى إحداث العداوة. فى بعض التجارب ذكر أطفال ممن يبلغون ثلاثة أعوام أنهم يفضلون اللعب مع أطفال لهم نفس لون الشعر ونفس لون «التى شيرت» الذى يلبسونه عن اللعب مع أطفال بألوان مختلفة فى الشعر أو الملابس، ولوحظ الامتناع عن الاهتمام المعنوى بالطفل ذى الألوان المختلفة والإحجام عن التعاطف معه. لاتباع منطق مرحلة الطفولة المبكرة واعتباره مخططا لسلوكيات لاحقة فإن ديناميكية هذه المجموعة الصغيرة - التى تشكل جزءاً من مجموعة أكبر - تمتد إلى الملعب وإلى الجيران فى الشارع أو الحى الواحد كشكل من أشكال العنف الذى تمارسه العصابات وتمتد إلى العالم الأوسع فى شكل «التطهير العرقى».

ليس من المستغرب أن نعلم بأن القدرة على الكذب بفعالية لا تأتى لمعظمنا قبل سن الخامسة، عندما يتسع لدينا الشعور بالذات الداخلية. يعد الكذب فى إطار هذا السياق مقياسا للتطور فالكذاب لكى يجعل كذبته قابلة للتصديق فلابد له أن يفهم عقلية الشخص الذى يريد خداعه. تستشهد جوبنيك بتجربة تم إجراؤها على بعض الأطفال الذين عرض عليهم صندوق مغلق وتم إخبارهم بوجود شىء ما بداخله وأيضا تم التنبيه عليهم بعدم النظر داخل الصندوق. ثم خرج الباحث من الحجرة وبطبيعة الحال قام الأطفال باللعب فى الصندوق لرؤية ما بداخله وعندما عاد الباحث أصر الأطفال ذوو الثلاثة أعوام على عدم رؤيتهم لمحتوى الصندوق وفى الوقت نفسه تحدثوا مع الباحث عن اللعبة التى بالداخل! أما الأطفال ذوو الخمسة أعوام فكانت لديهم قدرة أفضل على إتقان الخدعة.

مما تذكره جوبنيك عن الأطفال أنهم بطبيعة الحال عرضة للكذب والسبب الأساسى فى ذلك كما تقول هو فقدانهم لمصدر الذاكرة فهم ينسون المصدر الذى جاءت منه معتقداتهم. فى مختبرها جاءت جوبنيك بمجموعة من الأطفال وعرضت عليهم خزانة بها تسعة أدراج كل درج يحتوى على شىء مختلف واطلع الأطفال على محتويات الأدراج ولم يجدوا صعوبة فى تذكرها. ولكن الأطفال ذوى الثلاثة أعوام غالبا ما كانوا يخبرون بوجود البيضة - مثلا - فى الدرج فقط إذا ساعدهم أحد ولقنهم بوجود البيضة بالرغم من رؤيتهم لها. من ناحية أخرى استطاع الأطفال ذوو الخمسة أعوام الإخبار بما يعرفونه وكذلك التجارب المحددة التى أدت بهم إلى هذه المعرفة.

هذه الهوة بين تصورات الأطفال ذوى الثلاث سنوات وأطفال الخمس سنوات تكشف الكثير عن الكيفية التى يتغير بها وعى الأطفال أثناء تطور شعورهم الشخصى وذاكرتهم الذاتية مع تعاقب الزمن. يبدو أن الأطفال قبل سن الخامسة يمارسون حياتهم بطريقة مختلفة إنهم قادرون على النسيان التام لأحداث مرت

أن الأطفال مثلهم مثل بعض الكومبيوترات لديهم خارطة سببية فطرية تقوم بإمدادهم بفهم دقيق للكيفية التى من خلالها يعمل العالم كنتيجة لهذه الخارطة



بهم منذ دقيقة وفضلاً عن ذلك فإنهم قادرون على نسيان الحالة النفسية التى كانوا عليها وقت وقوع هذه الأحداث يبدو أنهم يفكرون بشكل ترابطى ربما هو أقرب إلى حالة النعاس التى يدخل فيها الإنسان عند إخلاده للنوم منه إلى حالة مرتبة ومرتبطة بخط الزمن سواء كان ماضيا أم حاضرا أم مستقبلا.

حاولت جوبنيك أن تجد ما يتشابه مع هذا الشكل المختلف من الوعى، وقدمت وصفا لتجربة «الاعتقاد الخاطئ» والتى من خلالها يشاهد الأطفال علبة حلوى مغلقة هى فى واقع الأمر مملوءة بأقلام الرصاص.

ما كان واضحاً على الأطفال أن هذا الاكتشاف كان سببا فى دهشتهم فضلاً عن خيبة أملهم. ولكن بسؤالهم عما كانوا يظنون بوجوده فى العلبة فى المرة الأولى فقد كان جوابهم أنهم كانوا يعرفون بوجود الأقلام فى العلبة بالرغم من حالة الدهشة التى أصابتهم عند اكتشاف تلك الحقيقة منذ دقائق قليلة مضت. لقد استطاعوا داخليا نسيان اعتقادهم الخاطئ السابق.

إن هذا هو السبب الذى يجعل الأطفال عرضة للتأثير عليهم بشكل خطير وشهاداتهم فى معظم الحالات تكون غير مقبولة فى المحاكم. إن لديهم ذاكرة تفصيلية ممتازة إذا تم تلقينهم لتذكر حدث معين من خلال سؤال يرشدهم أو يوجههم، ولكن الاستدعاء الحر للذاكرة يعتبر مهمة غريبة عنهم لأنها تتطلب الاعتماد على الوعى الداخلى والذى لم ينته تكوينه لديهم بالشكل الكامل. مما يؤخذ فى الاعتبار أن الكبار أيضا قابلون للتأثير عليهم من خلال الأسئلة التوجيهية وقد اتضح ذلك من خلال تحليل حول هيستيريا الاعتداء الجنسى فى مراكز الرعاية النهارية فى الفترة ما بين ١٩٨٠ إلى ١٩٩٠ حين تم توجيه استجواب مدروس للأطفال والآباء والأمهات والعاملين فى مراكز الرعاية النهارية فى حالات مختلفة أدينوا فيها بالتورط فى ممارسة طقوس شيطانية والاغتصاب والتعذيب والعربدة. أشارت جوبنيك إلى أن الكبار هم أيضا عرضة للتأثر بالأسئلة الإيحائية فى التحليل النفسى على سبيل المثال أو فى خلال استجواب المحامين ويترتب على ذلك روايات كاذبة تعطى إحساسا مشابهاً للذاكرة الحقيقية وله تفاصيل حسية حية وكاملة تعطى للمتذكر اقتناعاً كاملا بأنها حدثت بالفعل.

إن الجانب المحير فى عقول الأطفال هو فشلهم فى الاعتراف بأن الأحداث التى مروا بها فى شكل تجربة مباشرة تحمل أهمية شخصية أعظم من تلك التى تعلموها بطرق أخرى.

حينما يتذكرون أن شيئا ما قد حدث فإنه لا يبدو عليهم أنهم يتذكرون ما كانوا يعتقدونه حول ذلك الشىء أو مشاعرهم نحوه، ولا يبدو عليهم أيضا أن لهم توقعات لحالتهم المستقبلية، إنهم لا يخططون لما سيفكرون أو يشعرون به لاحقاً.

حينما يتم التأكيد على مصدر المعلومات فحتى الأطفال من ذوى الأربع سنوات يكونون أقل عرضة للتلاعب بهم أو تضليلهم. ومع ذلك فإن أطفال الثلاث سنوات لا يتوافر لديهم أصلاً إدراك لمفهوم مصدر المعلومات وأيضا مفهوم المعتقدات المنطقية النابعة من دوافع داخلية يكون غريبا عليهم. ينكر أطفال الثلاثة والأربعة وحتى الخمسة أعوام وجود أفكار معينة فى عقل أحدهم إذا لم يتم تركيز انتباهه على تصرف أو فعل بعينه أو يطلب منه إنجاز مهمة ملموسة بالنسبة له، لقد قدم طفل فى الرابعة وصفاً بليغاً للباحث حول آلية الوعى لديه حيث قال:

«فى كل مرة أفكر فيها هناك شىء ما يظهر وشىء آخر يختفى أحيانا شىء ما يظهر لمدة دقيقتين ثم بعد ذلك بدقائق معدودة لا يكون هناك أى شىء».

تلاحظ جوبنيك أنه طبقا لهذه الحالة فإن الجوانب الأساسية التى نسلم بها حول الوعى مثل فكرة أننا نعرف ما كنا نفكر فيه منذ بضع ثوان أو أن الوعى لدينا هو تيار واحد غير منقطع أو أن لدينا نفساً موحدة، إن هذه الأفكار كلها سوف تتراجع.

بمرور الوقت يتراجع الطفل الصغير عند معظم الناس حول سن السادسة ويصبح غريباً وإلى حد كبير يتحول إلى مجرد صورة تجريدية منسية، وتقوم الذاكرة الذاتية - والتى من خلالها نستطيع تصميم قصة متماسكة ذات حبكة حول أنفسنا - تقوم هذه الذاكرة بدور الحارس الداخلى للذات أو «الأنا» التى تظل محتفظة بالنقاء والفطرية بنسب متفاوتة فيما تبقى من حياتنا. يبدو أن هناك تداخلا كبيرا بين الذاكرة الذاتية واللغة فبدون اللغة المشتركة لن نستطيع التواصل مع الآخرين وفهم نفسياتهم وربما لا نستطيع حتى فهم أنفسنا.

هذا ما تم إثباته عن غير قصد فى إحدى التجارب التى أجريت على بعض الأطفال الصم فى نيكاراجوا Nicaragua ويلاحظ أنه حتى عام ١٩٧٠ لم تقم نيكاراجوا بإنشاء مدرسة خاصة للأطفال الصم وقبل ذلك الوقت كان معظم الصم منعزلين عن بعضهم البعض وكذلك عن الناس حيث إن هؤلاء الأطفال لهم آباء وأمهات يستطيعون السمع والكلام ولكن يفقدون التواصل مع أبنائهم. عندما افتتحت المدرسة ابتكر الأطفال لغة الإشارة الخاصة بهم. واكتسب أطفال الجيل الثانى لهذه المدرسة نفس لغة سابقيهم من تلقاء أنفسهم.

يصف أطفال هذا الجيل الثانى كم المعاناة والتعاسة التى كان يعانيها أصدقاؤهم الأكبر سناً فى التعامل مع الآخرين. إن مما يذكر عن أفراد هذا الجيل الأول كدليل على حالة الانعزال التى كانوا فيها أنك لو طلبت من أحدهم وصف فيلم فيديو عن رجل شارد الذهن يأخذ الدب «تيدى» من فوق الشماعة ويضعه على رأسه بديلاً عن القبعة فإنهم لن يذكروا أبدا أنه قام بتصرف خاطئ، إن عزلتهم تفقدهم القدرة على تقييم التصرف الخاطئ من الصائب.

بالرغم مما يلاحظ على أطفال الجيل الأول من عدم الفهم للرابطة بين التفكير والعمل فإنه مما يذكر لهم أنهم نجحوا فى ابتكار لغة وظيفية لهم من نقطة الصفر.

إن كتاب الطفل الفيلسوف Philosophical Baby الذى يجمع بين كونه علميا وكونه رومانسياً يعد ثمرة لرغبة جوبنيك المفتونة بالأطفال الصغار فى تخيل نفسها داخل وعيهم مقتحمة عالمهم. إنها تقارن بين الوعى النورانى للطفولة وبين الوعى ذى البريق المعتاد للبالغين.

عندما تجد نفسك على دراية بكل الأمور بدون التركيز على أمر على وجه الخصوص يتكون لديك إحساس بالرفعة والسعادة لا يترافق هذا الإحساس إلا مع مرورك بهذه التجارب.

تشبه جوبنيك الوعى النورانى بالشعر الرومانسى، وبالمثاليات التى تؤثر فى الفنان، وبالمثل الأعلى للديانة البوذية زين Zen الذى يتأمل فيه معتنقو هذه الديانة ويحاولون تقريب «الأنا» الداخلية لهم منه، وتقول عن الأطفال الرضع إنهم مثل بوذا مسافرون فى حجرة صغيرة وتكتب عن ذلك الوعى النورانى الذى يستثير فينا ذلك الشعور «بفقدنا الإحساس بأنفسنا بعد أن أصبحنا جزءا من العالم».

إن علماء النفس الذين يؤكدون على الترابط يجدون تجارب جوبنيك شديدة الإحكام ويرونها مصممة لفك رموز أنماط التفكير الشبيهة بالكومبيوتر وإنها تتجنب المواقف الأكثر انفتاحا والتى تتيح للأطفال اتباع نزعاتهم الطبيعية بحرية(*). وترد جوبنيك بقيام علماء النفس بتطوير علم من الخيال وتقول إنها لاحظت تلك الحقيقة المثيرة للدهشة وهى أنه فى عام ١٩٦٧ كان هناك فى موسوعة الفلسفة المئات من الإشارات إلى الملائكة ونجمة الصباح ولم تكن هناك أية إشارة إلى الأطفال والرضع والأسر والوالدين سواء الأب أو الأم. فى خلال السنوات العشر الماضية تراكمت المعلومات فى العلوم المعرفية حول أكثر السنوات غموضا فى حياة الإنسان وهى الخمس الأولى وأحدثت تحويلا فى النظرة التقليدية للأطفال الصغار من صورة ذهنية مرتبطة «بالجزرة الباكية» إلى صورة أخرى مرتبطة بكائن بشرى متطور عالى المهارات صورة تؤكد أن الطفل الرضيع يتمتع بأعلى درجات الوعى. ■



إن تعلم اللغة فى مراحلها المبكرة ينطوى على تنبؤات احصائية لأى الأصوات التى من المرجح أن تتبع أصواتاً أخرى وهذا يعد ممارسة غير واعية لنظرية الاحتمالات



ملاحظات

(*) لقد وفرت لى بات كريمينز Pat Cremens وهى خبيرة فى تنمية الطفولة المبكرة رؤية لا تقدر بثمن حول ذلك المجال الواسع.

فـــــــاروق عـبـد الـقــادر

”ثـلاث سـنوات كاملة - دون أن ندرى أو نشـعـر - خـاصـمـنى شخصيا، وخاصم هذه المجلة؛ الراحل النبيل فاروق عبد القادر. والحكاية أنه هاتفنا يوما، وترك رسالة شفهية ضلت «سهوا» طريقها، فلم نردَّ الاتصال. فكان أن تصور أننا أهملنا رسالته. وكان - اعتـزازا بنفسـه - أن توقـف تمـاما عن الاتصـال. والحاصل أننى عندما علمت بالأمر مصادفة من الصديق العزيز عبدالله عبد السلام، وكان الراحل الكريم يكن له احتراما خاصا، حرصت على أن أذهب إليه بنفسى موضحا، تقديرا لاعتزازه بنفسه.

لم يبخل فاروق عبد القادر بالثمن الغالى الذى كان عليه أن يدفعه دائما، لاحترامه لذاته، وحرصه على استقلاليته. تخرج من جامعته متفوقًا - يحكى لنا بهاء طاهر - إلا أنهم لم يعينوه فيها كما جرت العادة مع أقرانه.. ثم كان طبيعيا - ومخجلا - أن تقف الأجهزة الأمنية حائلا دون تعيينه لاحقا فى وظائف كان جديرا بها. فكانت النتيجة أن اختار بنفسه ألا يكون «موظفًا» أبدًا، لا عند الحكومة، أيا ماكانت هيئاتها، ولا حتى عند غيرها.

اعتقد عبد القادر أن استغناءه عن الوظيفة، سيضمن لقلمه موضوعيته النقدية، وحريته «المطلقة». إلا أن ذلك لم يكن أيضًا ممكنًا على الدوام. فمقالاته فى مجلة «إبداع» توقفت عندما هاجم رشاد رشدى (مثقف الرئيس السادات) عندما اعتبر أنه خرب الثقافة المصرية فى السبعينيات. وهو ماحصل أيضا لكتاباته فى «روز اليوسف» عندما انتقد مسرحية «وطنى عكا» لعبد الرحمن الشرقاوى... وغير ذلك كثير.

ربما لا يذكر الكثيرون لفاروق عبد القادر «الناقد الحقيقى» أنه هو الذى عرف القراء بالمبدع الراحل عبد الرحمن منيف كما بسعد الله ونوس وغيرهما ممن لم نكن نعرفهم فى مصر التى كانت قد انكفأت على ذاتها. كما قد لايعرف آخرون أنه الوحيد ربما فى «زمن المصالح» هذا الذى كان حريصًا على أن يقدم لنا أقلامًا جديدة لا يعرف أصحابها. ولايهمه من أمرهم غير أنهم يقدمون إنتاجا يستحق. ويذكر قارئ هذه المجلة مراجعته النقدية الجادة والمتفردة فى نوعها لمجموعة من الأعمال الجديدة لروائيين فى بداية الطريق (يوليو وأغسطس ٢٠٠٢)

كما قد لايعرف الكثيرون أيضا أن الراحل النبيل لم يكن فقط ناقدا للأدب، بل كان أيضًا «قارئًا» جيدًا لتيارات فكرية، مافتئت تحرث الساحة الفكرية لهذا الوطن. فى عدد يوليو ٢٠٠٥ من «وجهات نظر» كتب لنا فاروق عبد القادر دراسته تلك عن مااعتبره فى حينه «وجوها لثقافة الاستسلام»

رحم الله الراحل النبيل.. وشكرا للأستاذ سلامة أحمد سلامة الذى عرف قدره فقدمه لقارئ «وجهات نظر»

... الصيـاد 

وجـــوه مـــــن ”ثقـــــا

ثقافة الاستسلام. قراءة نقدية فى كتابات: كنعان مكية. حازم صاغية. صالح بشير. العفيف الأخضر. أمين المهدى
بلال الحسن
بيروت: رياض الريس، يناير ٢٠٠٥

■ ■ على أهمية هذا الكتاب فى المشهد العربى الراهن، ورغم صدوره أول هذا العام، فلم أقع على عرضٍ له أو مناقشة فى صحافتنا المصرية على الأقل (ربما كان الاستثناء ما كتبه الأستاذ فهمى هويدى، أهرام ١٨/١/٢٠٠٥). وجه الأهمية أن صاحب الكتاب: الأستاذ بلال الحسن، الصحفى والباحث الفلسطينى (ولد فى ١٩٣٩، تخرج فى كلية الآداب، جامعة دمشق، وعمل بالصحافة فى «المحرر» و«الحرية» و«البلاغ» و«السفير»، وأنشأ فى باريس مجلة «اليوم السابع» ورأس تحريرها من ١٩٨٤ حتى توقفت فى ١٩٩١. من كتبه المنشورة: «السلام الأجوف، عن اتفاق أوسلو، و«الخداع الإسرائيلى» عن مفاوضات كامب ديفيد الثانية) عمد إلى جمع مقالات عدد من الكتاب فى صحيفة «الحياة» اللندنية، نشرت خلال السنوات الخمس الأخيرة، تدور كلها حول الصراع العربى - الإسرائيلى، وأخضعها للون من «القراءة النقدية». ويقول فى تقديم كتابه إنه تجنب مناقشة كثير من الأفكار التى يختلف معها حول قضايا مثل التراث والحداثة والعولمة والسلام مع إسرائيل.. «لأننى أعتبر الخلاف حول هذه القضايا أمرًا طبيعيًا (...) لقد اخترت أن أناقش نوعًا خاصًا من الأفكار، يبدو فى ظاهره ثوريًا وراديكاليًا وحداثيًا، ولكنه، فى العمق، مغرق فى الرجعية وفى الدعوة لتدمير الذات. فكر يجاهد لكى يصوغ نظرية تبرر الانحناء أمام كل مستعمر، وتعتبر خطيئة المستعمر نابعة من ذاتنا نحن، نحن الذين يجب أن نتبدل كى تصبح نظرتنا إلى المستعمر نظرة إيجابية..». والكُتاب الخمسة الذين اختار مناقشة أفكارهم هم، حسب ترتيب فصول الكتاب، كنعان مكية (عراقى)، حازم صاغية (لبنانى)، صالح بشير والعفيف الأخضر (تونسيان) وأخيراً أمين المهدى (مصرى). وقد نجد أنفسنا فى النهاية. كما وجد بلال نفسه. أمام «منظومة فكرية متكاملة تسعى إلى قبول الهيمنة الأمريكية، وإلى قبول إسرائيل باعتبارها أداة أساسية فى عملية الهيمنة..».



ولعل كنعان مكية أن يكون أكثر هؤلاء الكتاب إيغالاً فى السياسة العملية، وتفيد المعلومات المتوفرة عنه أنه عراقى شيعى ابن مهندس معمارى معروف، وقد درس. بدوره. الهندسة المعمارية فى «معهد ماساتشوسيتس»، وعمل فى مكتب أبيه، غادرت العائلة بغداد عقب استيلاء البعثيين على السلطة فى ١٩٦٨، حصل على الجنسية البريطانية ثم توجه



السلطة الأمريكية لم تسلم السلطة إلى أحمد الجلبى (القائد السياسى) ولم تسلمها إلى كنعان مكية (المنظِّر)، فأصيب بخيبة أمل. علَّق كاتب عراقى على خيبة الأمل هذه فقال: «لن ننخدع بمن كان مخدوعًا..»، أما نحن فنقول المثل المعروف فى عاميتنا: «آخر خدمة الغز...»!





فتنة الاستسلام

للإقامة فى الولايات المتحدة. فى عام ١٩٩٠ نشر كتابه «جمهورية الخوف». حلَّل فيه طبيعة النظام العراقى وما يحمله من خوف على مستوى الفرد والجماعة، وكان يستخدم اسماً للكتابة هو سمير الخليل، بهذا الاسم أيضاً نشر كتابيه الثانى «القسوة والصمت» والثالث «النُّصب». أما كتابه الرابع، وهو رواية تدور حول بناء قبة الصخرة وقد صدر فى ٢٠٠١، فحمل اسمه الحقيقى «وشاع قبل ذلك بسنوات أنه مؤلف الكتب الثلاثة الأولى..».

يروى باحث عراقى (طارق الدليمى) أنه بعد حرب الخليج الثانية فى أوائل ١٩٩١، وقيام الانتفاضة الشعبية ثم القضاء عليها ظهر مقال بقلم سمير الخليل يدور حول مسألة تغيير النظام فى العراق، وتناول فى جانب منه التكوين الإثنى والمذهبى فيه، وقضية العروبة وضرورة التخلص منها، وجاء بفكرة عجيبة فحواها أن العروبة فى العراق شأن سُنى، أما الشيعة فهم أقل انجذاباً للقضية القومية. وتلاقت هذه الأفكار مع دراسات وتحليلات منشورة فى بعض الدوريات السياسية والإستراتيجية، مهدت لقيام التنظيم الذى عُرف فيما بعد باسم «التجمع الوطنى العراقى»، ويتابع الدليمى خطوات تكوين هذا التجمع والاجتماعات المتتالية التى عقدت فى ٩١ و٩٢ (يلفت النظر هنا وجود سعد الدين إبراهيم فى الاجتماع الأول الذى عقد بإحدى ضواحى العاصمة النمساوية فيينا!)، وكان لأعضاء هذا التنظيم اتصالاتهم بأركان الإدارة الأمريكية، وتمخضت الدراسات والأبحاث عن وضع خطة لإسقاط النظام العراقى وإقامة نظام جديد.

وانهمك كنعان مكية فى أنشطة متعددة، تتوتر كلها نحو هذا الهدف طوال السنوات التالية: باحثاً وبروفيسوراً وعضواً فى منظمات عديدة لعل أهمها أنه كان أحد أعضاء «فريق عمل المبادئ الديموقراطية» المؤلف من حوالى ثلاثين عراقياً يجتمعون ضمن إطار «مشروع مستقبل العراق» التابع للخارجية الأمريكية. وبلغت هذه الأنشطة أوجها فى ٢٠٠٢/١٠/٣ حين انعقدت فى «معهد أميركان إنتربرايز American Enterprise Institute» ندوة تبحث مستقبل العراق بعد حرب أمريكية جديدة ضده.. «وكان للبحث الذى ألقاه مكية فى الندوة تأثير خاص، ولقى تقبلاً من الإدارة الأمريكية. وخلاصة البحث: غزو أمريكى للعراق، وإقامة نظام فيدرالى فيه، وبناء عراق «عراقى» غير عربى، وبلغ من إعجاب الإدارة الأمريكية بموقف مكية أن الرئيس جورج بوش الابن استقبله يوم ١٢/١/ ٢٠٠٣ فى البيت الأبيض.. (..) وبعد إنجاز الاحتلال الأمريكى للعراق قام كنعان مكية بزيارة علنية لإسرائيل (زارها سراً قبل ذلك ثلاث مرات حسب قوله) واحتفت به جامعة تل أبيب ومنحته شهادة الدكتوراه الفخرية، وأجرى أثناء الزيارة مقابلة مع صحيفة «يديعوت أحرونوت» أعرب فيها عن أمنيته فى امتداد أمد احتلال أمريكا للعراق..».

ولم تكن ندوة «أميركان إنتربرايز» مجرد ندوة بحثية، كانت فى الحقيقة ندوتين: ندوة عسكرية تليها ندوة سياسية. تحدث فى الأولى ضباط عراقيون ومحللون عسكريون أمريكيون، وكان ضرورياً صياغة الكلمات العسكرية الخشنة والفظة بلغة سياسية، وحسب اللغة البحثية السائدة. وهذا ما فعله كنعان مكية فى الندوة الثانية حين دعا إلى قيام «عراق غير عربى»، أى عراق ينعزل عن محيطه العربى، عراق لا يكون له دور فى الصراع العربى. الإسرائيلى.. «وهذه مجموعة الأفكار التى تم الأخذ بها لتكون الهدف الإستراتيجى للاحتلال الأمريكى للعراق، والتى برع بول بريمر فى تنفيذها بعد إنجاز الاحتلال فى ٢٠٠٣/٤/٩».

خابت آمال كنعان مكية. صحيح أن الأمريكيين استمعوا بشغف إلى آرائه، واستندوا إليها، فكانت أفضل تغطية سياسية ممكنة: إنهم يشنون الحرب بناءً على رغبة العراقيين واستجابة لطلب عراقى، ولكن مع اقتراب موعد بدء العمليات أخذت بعض خطط الإدارة الأمريكية تظهر للعلن، وفوجئ مكية بأن الأمريكيين ينوون استلام السلطة فى العراق مباشرة، وبواسطة حكومة عسكرية يعينونها» وفهم أنه وزملاءه لن يكونوا رجال السلطة الجديدة كما توهم وتوهموا، فبادر إلى كتابة مقال بالإنجليزية (فقط) شن فيه حملة عنيفة ضد قرارات الإدارة دون أن يتخلى عن إعجابه الشديد بها وبقيمها، طالباً الدعم من

الأمريكيين، ومن الرئيس الأمريكي بالذات..».

بقيت نقطة الخلاف كما هي: أن السلطة الأمريكية لم تسلم السلطة إلى أحمد الجلبي (القائد السياسي) ولم تسلمها إلى كنعان مكية (المنظّر)، فأصيب بخيبة أمل وأخلد للصمت وعكف على تبويب «الأرشيف العراقي».

علّق كاتب عراقي على خيبة الأمل هذه فقال: «لن ننخدع بمن كان مخدوعاً..»، أما نحن فنقول المثل المعروف في عاميتنا: «آخر خدمة الغز...»!.

ولعل الفصل الخاص بالكاتب حازم صاغية أن يكون أهم فصول الكتاب، فبعد مناقشة مقالين كتبهما حازم بالاشتراك مع صالح بشير: أحدهما في ١٩٩٧ والثاني في ٢٠٠٠، ويرى أنهما ينطلقان من أفكار كنعان مكية، ويصلان بها إلى نهاياتها «فتضيف بعض المستلزمات الفكرية الجديدة، وتناقش بعض المواضيع السياسية المباشرة، وتكون الخلاصة تبني مفاهيم إسرائيل حول التسوية والتي تنطلق من مفهوم الأمن لإسرائيل، والتنظير لضرورة التطبيع مع إسرائيل قبل الوصول إلى تسوية، كي نطمئنها ونهدئ من روعها الأمني..». بعد مناقشة هذين المقالين يفرغ بلال الحسن لمناقشة أفكار صاغية باهتمام واضح، وهو لا يخفي مبررات هذا الاهتمام.

من البداية يقدم بلال الحسن حازم صاغية بهذه الكلمات: «حازم صاغية شخص متميز وصوت متميز، نشأ في كنف عائلة مهاجرة إلى أفريقيا، وجاء إلى بلده لبنان من هناك، ورغم هجرته فإنه تمكن من اللغة العربية تمكنًا ملحوظًا، يحظى بصفات شخصية إيجابية، فهو نظيف وصادق وذكي وودود وقلق، وقد لعب القلق دور المحرك في بناء ثقافته.. لكن لديه نزعة تهتم بالأفكار أكثر مما تهتم بالواقع والوقائع، هذا الاهتمام بالأفكار بعيداً عن الواقع، جعله دائم التنقل بينها..»، ويتابع بلال هذا التنقل: من التأثر بالحزب «السوري القومي الاجتماعي» الذي غادره بسرعة إلى تبني الفكر الماركسي خارج نطاق الأحزاب الشيوعية، ويقول بلال إنه عرفه شخصياً في تلك المرحلة (١٩٧٤)، وكان له - لبلال - دور في اجتذابه لعالم الصحافة، الذي دخله كاتباً لا صحفياً، ولا يزال. وتابع بلال تحوله الفكري عند نجاح ثورة الخميني، فتبنى «الخمينية» بحماسة كبيرة، وكتب دراسة طويلة عنها نشرها في كتاب مستقل (بعنوان «ثقافات الخمينية، ١٩٩٥»)، شيئاً فشيئاً بدأت هذه الحماسة تضعف، ولم يعد يرى أن الخمينية تصلح منهجاً للعمل في الساحة العربية، وبدأ يركز على أن العمل القومي هو الأساس، وبدأت «مرحلة قومية في تفكيره وكتاباته.. لفت نظري فيها تصنيف مبتسر لأهم زعماء الحركة الوطنية العربية الحديثة بأنهم إما جواسيس لبريطانيا أو جواسيس لفرنسا..». في التسعينيات بدأت علاقة

مقالات حازم صاغية حين يتعلق الموضوع بالنضال، وبالصراع العربي - الإسرائيلي، وبمواجهة إسرائيل، وبالانتفاضة الفلسطينية، تنضح بنزعة تميل إلى التشهير والشماتة والقسوة اللغوية

حازم صاغية مع الفكر الليبرالي، ويرى بلال أن المشكلة ليست في الليبرالية لكنها في الشطط في استخدام منهجها. هذه المرحلة في مسيرة حازم صاغية الفكرية شهدت كتابه «وداع العروبة» (صدرت طبعته الأولى في ١٩٩٩)، ثم شهدت دراسته عن «أم كلثوم». يصفها بلال - أي الدراسة - بأنها «حاقدة»، ويرى أنها تفيد في فهم «حالة» حازم صاغية بأكثر مما تفيد في فهم حالة أم كلثوم!، وقد اتسمت كتاباته «بحدة تدميرية مستفزة، وربما يكون هو ساعياً وراء هذا الاستفزاز ومرتاحاً له.. وبدا ميله الواضح إلى تدمير الرموز العربية..»، وأخيراً يسجل بلال لصاغية أنه. في كل هذه التحولات. كان «صادقاً مع نفسه، فأعلن قطيعة فكرية مع ماضيه كله، ومارس نقداً علنياً لقطيعته تلك..».

(أفتح قوساً لأشير إلى أن هذا العرض يكتمل بإضافة صغيرة عن كتاب حازم صاغية الأخير: «بعث العراق، سلطة صدام قياماً وحطاماً..» ٢٠٠٣. عكف حازم على دراسة العراق في مرحلة تمتد من أوائل الخمسينيات حتى سقوط نظام صدام، وفي تقديمه يقول: «إن أي عمل عن العراق لا يستطيع، مطلقاً، أن «يغطي» العراق باختلافاته، كما بتحولاته، ولا أن يتسلل إلى الأمكنة التي حجبتها أسوار صدام وغموض نظامه.. والحال إن الفصول اللاحقة لا تحمل هذا الزعم، زعم التغطية الشاملة، بقدر ما تهدف إلى كتابة قصة العراق البعثي: وهي شيّقة مثلما هي مأساوية، لكنها، مثل كل قصة، يخونها الإلمام ببعض التفاصيل لمصلحة التعويل المبالغ فيه على تفاصيل أخرى، وعلى العموم تبقى الوجهة العامة للسرد، كائنة ما كانت التفاصيل المختارة، المحك الأول لقيامها والحكم عليها..»، وهكذا تمضي فصول السرد، من الأول بعنوان «التأسيس السوري» إلى السابع عشر بعنوان «ختام بلا مسك».)

وكان العامان ٢٠٠٠ و٢٠٠١ مسرحاً مناسباً لحازم صاغية كي يقدم عرضه المنفرد المتواصل (٨ مقالات في الشهر في المتوسط) عن موضوع واحد هو الموضوع الفلسطيني، فقد شهد هذان العامان مفاوضات كامب ديفيد الثانية (باراك. عرفات) واندلاع الانتفاضة الفلسطينية وصعود اليمين الإسرائيلي إلى السلطة في إسرائيل، وسوف يكتب حازم عن هذا كله، وسيكرر أفكاره بإصرار وإلحاح.

ويوجز بلال الحسن رؤيته النقدية لكتابات حازم صاغية على النحو التالي:

«أولاً: من ناحية الأسلوب: فمقالات حازم صاغية حين يتعلق الموضوع بالنضال، وبالصراع العربي. الإسرائيلي، وبمواجهة إسرائيل، وبالانتفاضة الفلسطينية، تنضح بنزعة تميل إلى التشهير والشماتة والقسوة اللغوية، وهي نزعة تؤدي إلى تحويل النقد عن هدفه، فبدلاً من أن يكون نقداً، ولو قاسياً، هدفه الإصلاح والتطوير والتحسين، يصبح نقداً مغشوشاً هدفه التدمير والإيذاء والاستخفاف بتضحيات المناضلين.

ثانياً: من ناحية المضمون: فانتقادات حازم صاغية تنصب على الفلسطينيين والعرب، وتعفي من ذلك إسرائيل، وإذا حدث وانتقد إسرائيل في موقف ما، فإنما ليتكئ على هذا النقد ليصب جام غضبه على النضال الموجه ضد إسرائيل، وحين يمضي في هذا المنهج نحو هدفه النهائي، نجد أن هذا الهدف يتلخص في قبول كل ما تريده إسرائيل أو تعرضه في المفاوضات، وآنئذ يتحول كل رفض، وتتحول كل معارضة إلى موقف مدان ينغز فيه حازم صاغية بسهام تُدمي.

ثالثاً: من ناحية الهدف والغاية: فما يعرضه حازم صاغية على القارئ في النهاية، إلى جانب الإشادة بإسرائيل والإعجاب بها، هو ضرورة الخروج من الذات، وقبول المفاهيم الغربية المعروضة، والأمريكي منها بخاصة، ليس في إطار الثقافة فحسب، وإنما في إطار المواقف السياسية المرافقة لها أيضاً (العولمة والحداثة حتى بمفهومها الاستعماري)..» (ص ٧٠-٧١).

هذه الأحكام الموجزة يدلل عليها بلال الحسن في المناقشة التفصيلية التي تعقبها من خلال هذه الموضوعات: هدم فكرة الثورة. الترويج للاستعمار. الدولة . الأمة (هدم فكرة الوحدة العربية). تشويه المفاهيم (الأرض. القضية). تشويه المفاهيم (التطبيع. الاستشهاد). الترويج للتراجع السياسي (اقتراحات باراك في كامب ديفيد). الترويج للتراجع السياسي (القدس). تحليل الانتفاضة (دعوة لليأس). التهليل «لشارون الجديد». وأخيراً تهميش القضية الفلسطينية (مضمون التطبيع الثقافي).



ولنقف، لحظة، عند هذا العنوان الأخير: نشأ الإدراك العربي العام بأن دولة إسرائيل تشكّل خطراً إستراتيجياً على المنطقة كلها منذ تأسست في ١٩٤٨، ولم يكن الفلسطينيون منبع هذا الإدراك، بل العرب جميعاً، وكانت الهجرة اليهودية إلى فلسطين تحمل معها النذُر بالتوسع، وهو ما تحقق في ١٩٦٧. ولفترة طويلة ظلت إسرائيل تقوم بدور «وظيفي» لصالح الولايات المتحدة الأمريكية، فهي قاعدتها العسكرية الأكبر في المنطقة، وهي التي ستتولى مهمة إشغالها ومنع أية تغييرات لا تتفق والمصالح الأمريكية. حاربت كل مشروعات الوحدة أو التقارب وعملت على تطويق المنطقة كلها بتحالفات تتغير أطرافها، وشاركت في شن الحروب إرضاءً للنزعات الاستعمارية (١٩٥٦)، ووضعت خطة للسيطرة على المياه في الأرض العربية، مما دفع إلى حرب ١٩٦٧.

كل هذه العوامل قد بلورت الإدراك العربي (دولاً وشعوباً) بالخطر

الإستراتيجى الكامن فى دولة إسرائيل، ومن ثم اعتبر العرب قضية فلسطين مركزية فى نضالهم من أجل الاستقلال والتحرر. تلك الحقائق البدهية النابعة عن تاريخ المنطقة تصطدم برغبات الداعين إلى «التطبيع الثقافى» الذى يريد تغيير الأسس والمفاهيم العربية، وتقديم تصور مختلف لتاريخ الصراع العربى. الإسرائيلى. وحسب هذا التطبيع يجب النظر إلى وجود إسرائيل لا باعتباره «أمراً واقعاً» بل باعتباره «حقاً فى الوجود». بعبارة ثانية: إسرائيل لها حق الوجود فى المنطقة العربية كمثل حق السوريين واللبنانيين والعراقيين، من حيث إن وجودها هو من نتائج الحرب العالمية الأولى، كما أن وجود سوريا ولبنان والعراق (كدول) هو من نتائج هذه الحرب كذلك. نقطة ثانية: لأن وجود إسرائيل هو من نتائج «المحرقة النازية» أثناء الحرب العالمية الثانية، والتى هى «مأساة إنسانية كبرى»، ومن ثم فعلى العرب أن يتعاطفوا معها.. «ليس من أجل استفظاعها وإدانتها والبحث فى وسائل عدم تكرارها فقط، بل من أجل فهم الأسباب والمبررات الأخلاقية لقيام دولة إسرائيل، حماية لهم من اللاسامية الألمانية والأوروبية..» (عن مقال لحازم صاغية وصالح بشير بعنوان «عولمة المحرقة أو كسر الاحتكار اليهودى لها»).

ويفترض هذا التطبيع الثقافى، أيضاً، تقديم وجهة نظر «واقعية» إلى المنطقة «تنطلق من مفهوم «الدولة. الأمة»، حيث تعبِّر الدول والأقليات والطوائف عن تعددية يجب الحرص عليها، وإسرائيل جزء من هذه التعددية، وإلا.. فإن المنطقة ستندفع نحو الحروب، ونحو الاستبداد. ومن مطالب هذا النهج أيضاً أن يكف الفلسطينيون وأن يكف العرب، عن اعتبار القضية الفلسطينية قضية مركزية، ذلك أن. بالنص. «الانحصار فى قضية واحدة هو من سمات الاستبداد..». عن علاقة قضية فلسطين بقيم يعتبرها مبتذلة يكتب: «فى لبنان مثلاً يشكل الشهداء والشهادة العمود الفقرى لنظام القيم المعمول به»، ويعلِّق بلال: «وكأن تحرير لبنان من الاحتلال الإسرائيلى يمكن أن يتم دون شهداء، وإذا وجدوا فمن الأفضل نسيانهم، والتركيز على قيم مثل تعلم الكومبيوتر، مع أن «الشهداء» أثبتوا أنهم كانوا خبراء فى الكومبيوتر، وعن نظام القيم «الفاسد» فى سوريا يقول: «فى سوريا تنعقد البطولة لرجالات القضية الواحدة كعدنان المالكى وجول جمال..»، ولا أدرى ما الذى يزعج حازم صاغية فى استذكار أبطال الشعب السورى فى مقاومة إسرائيل.. (..) ثم يوسِّع حازم صاغية نطاق استهزائه بقيم القضية الفلسطينية شاملاً بذلك أبطال التاريخ الإسلامى، فيقول: «حين يُستحضر من التاريخ الإسلامى خالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبى، يستحضرون من داخل هذا التأويل وفى سياقه..»، إذ من الأفضل، حسب منهجه، القول بأن صلاح الدين الأيوبى لم يحرر القدس.

إن دعوة حازم صاغية إلى تغيير سلم القيم هذا، هو جوهر الترجمة المطلوبة لشعار التطبيع الثقافى الذى يبشرون به، والمدخل هو عدم التركيز على قضية مركزية عربية». (ص ١٢٥-١٢٩).

يلى حازم صاغية فى الأهمية التونسى العفيف الأخضر. من البداية يقدم بلال الحسن لوحة لتحولاته: «لقد قضى حياته ماركسياً من نوع خاص، يؤمن بالماركسية ويرفض اللينينية، يؤمن بالاشتراكية ويرفض تجربة الاتحاد السوفيتى، وأنفق ردحاً طويلاً من عمره يعاشر الأقليات السياسية.. تحمس لتروتسكى وباكونين وروزا لوكسمبورج.. كان محرضاً رئيسياً على الدعوة إلى حلول الثورة الفلسطينية مكان النظام الأردنى.. ثم تخلى عن هذه التجربة يائساً، عاش بعد ذلك فترة طويلة فى حالة كمون، غازل الرئيس الجزائرى السابق أحمد بن بللا وهو فى منفاه فى فرنسا، وتقمص دعوته الإسلامية فى المجلة التى كان يصدرها، ورافقه فى رحلة العودة إلى الجزائر.. وحين اكتشف أن الجماهير الجزائرية لم تخرج لترحب بعودة بن بللا المخلِّص، فضل التخلى عن التجربة كلها والعودة إلى باريس.. ثم اختار أن يغازل النظام التونسى. وهو الذى قضى حياته معارضاً له.. فجأة عاد الأخضر إلى دائرة الضوء (٩٨-١٩٩٩): ليبراليًا متحمسًا لكل ما هو عولمة أمريكية.. ووجد فى التحليل النفسى ملجأه الأيديولوجى الجديد، بدلاً من الماركسية، وهو يعتبر أن التحليل النفسى يصلح، بشكل خاص، لفهم المجتمعات المتأخرة، وشعوب الشرق (العرب والمسلمون) هم هذه الشعوب المتأخرة، ليس تأخراً اقتصادياً، بل تأخراً ثقافيًا وفكريًا بالطبع..».

يلخص العفيف الأخضر فرضيته الأساسية: «فرضيتى هى أن المقاربة النفسية لسيكولوجيا الجماهير وزعمائها مفيدة، خصوصاً فى المجتمعات المتأخرة التى ما زالت مسرحاً للصراعات الإثنية والحروب الدينية..»، ويعتبر أن غريزة الموت هى المحرك لشعوب بأكملها: «أبسط تعبير عن غريزة الموت هو الانتحار، أما أفظعها فهو نحر الأبرياء أفراداً وجماعات كما يفعل الإرهابيون، وشعوباً وأمماً كما يفعل القادة بقراراتهم الجنونية.. (هؤلاء القادة عنده هم هتلر. رغم أنه ليس وليد الشعوب المتأخرة، بل وليد «الحداثة» الغربية، ووليد نظام ديموقراطى أيضاً، ثم عبد الناصر وصدام حسين)، ويبلغ العفيف الأخضر فى تطبيقه لمسلمته هذه مدى من الهزل الخالص. إنه يكتب: «فى اليوم الأخير من القرن العشرين تمرد أصحاب السيارات فى مصر على قرار وجوب وضع حزام الأمان.. بماذا نفسر ذلك إن لم يكن بالرغبة فى الاستشهاد على قارعة الطريق؟..» قل ما شئت عن رغبة آلاف قائدى السيارات فى الانتحار الجماعى، لكنه لون من العماء الفكرى وبؤس الالتزام بمنهج لا يقر صحته سوى صاحبه!.

ويوسِّع العفيف من تطبيقاته، لتشمل التاريخ العربى الحديث كله، فى أوج انتفاضة الأقصى، فى ديسمبر ٢٠٠٠، نشر مقالاً بعنوان فرعى «بورتريه سوسيولوجى لفتيان الانتفاضة..»، بدأ بحملة نابليون على مصر حين «تحول العربى فى عيْن نفسه من فاتح إلى مفتوح، وترتب على ذلك انهيار ثقته بنفسه، لذلك بات مهووساً بمنقذ، بإنسان أعلى، ببطل..»، ثم يعدد الحركات والثورات التى أيدها «العربى» و«المثقف» فى سبيل التماس العلاج، وكيف انهارت كلها، وعاد إليه مرضه أشد وأقوى:

❖ انتصار الجزائر على فرنسا ضمَّد الجرح النرجسى، لكن هزيمة ١٩٦٧ أعادت فتح الجرح.. فعاد المثقف إلى استصغار ذاته منذ ذاك. وأصبحت حاجته إلى البطل الفردى والجماعى هاذية..

❖ تم العثور على البطل فى الثورة الفلسطينية، لكن هزيمة أيلول الأسود (الأردن، ١٩٧٠)، ثم اجتياح إسرائيل للبنان (١٩٨٢) صبا، مجدداً، الملح على الجرح.

❖ فى ١٩٧٩ تعرَّف المثقف، خصوصاً الإسلامى، على نفسه فى الخمينى الذى هزم الشيطان الأكبر.. «والإسلامى الذى أسقط على الخمينى تخييلاته التى عجز عن تحقيقها بنفسه..» انضم إلى المثقف القومى، ليبايعا معًا، صدام حسين بطلاً منقذاً، لكن هزيمته الصاعقة فى ١٩٩١ «جعلتهما فى حالة يُتم وحداد..».

❖ وجدا (الإسلامى والقومى) منقذهما فى الانتفاضة (١٩٨٧-١٩٩٣)، لكن اتفاق أوسلو وضع حداً للأوهام الخلاصية.

❖ فى الفترة الجدباء من كل بطولة (١٩٩٣-٢٠٠٠) انسحب الجيش الإسرائيلى مهزوماً من جنوب لبنان، فغدا «حزب الله» هو المهدى المنتظر، واندفعت الانتفاضة (٢٠٠٠) «التى تشرَّبها وعى المثقفيْن الإسلامى والقومى كميلاد لحزب الله وجرعته السحرية على أرض فلسطين، فتماهى الجميع معها ....الخ». (الصفحات من ١٤٥ إلى ١٥٥).



هذا ملخص التصور الذى يقدمه العفيف الأخضر للنضال العربى الحديث: إنه مرض نفسى، حتمٌ مقدر لا سبيل إلى دفعه، يلاحقنا عبر القرون، ويسكننا دائمًا، نحمله داخلنا، فلا خلاص. لكن السؤال يطرح نفسه: لماذا يجد العفيف تأييد العرب لثوراتهم وانتفاضاتهم ضد العدو الإسرائيلى مرضاً نفسياً؟ ولماذا يتجاوز الحقائق الموضوعية (مثالان لهذا التجاوز: حين

انتقادات حازم صاغية تنصب على الفلسطينيين والعرب، وتعفى من ذلك إسرائيل، وإذا حدث وانتقد إسرائيل فى موقفٍ ما، فإنما ليتكئ على هذا النقد ليصب جام غضبه على النضال الموجه ضد إسرائيل

ينتقد العفيف وقوف الشعب الفلسطينى فى وجه إسرائيل، يدعو إلى نبذ فكرة الثورة وضرورة التماهى مع العدو الإسرائيلى والأمريكى، يبرر هذه الدعوة بتوازن القوى، لكنه يحولها لنظرية سياسية ثابتة

يقرر أن «المثقف الإسلامى انضم إلى القومى، وبايعا معًا صدام حسين»، فهذا لم يحدث أبدًا على ارض الواقع، ثم حين يقرر أن الانتفاضة الفلسطينية.. «ميلاد لحزب الله وجرعته السحرية على ارض فلسطين»، رغم كل وجوه الاختلاف الموضوعى بين التجربتين، بشهادة الواقع، وشهادة أطراف التجربتين ذاتيهما).

ويتابع بلال الحسن مناقشة أفكار العفيف الأخضر تحت هذه العناوين: تشويه تاريخ فلسطين. اللاجئون: التحريض ضد حق العودة. الوطن والحذاء. السلام والمفاوضات: دعوة للتماهى مع الجلاد. الانتفاضة: مرحلة باراك. الانتفاضة: مرحلة شارون، ثم هجاء الثوار. ولنقف، لحظة، عند هذا العنوان الأخير: ينتقد العفيف وقوف الشعب الفلسطينى فى وجه إسرائيل، يدعو إلى نبذ فكرة الثورة وضرورة التماهى مع العدو الإسرائيلى والأمريكى، يبرر هذه الدعوة بتوازن القوى، لكنه يحولها لنظرية سياسية ثابتة، وكالمألوف عنده يلوى وقائع التاريخ والواقع من أجل إثبات صحتها. يكتب (فى مقالة بعنوان «لماذا ينتظرنا، فلسطينيين وعربا، مستقبل أكثر بؤسا؟»): «الأمير عبد القادر الجزائرى كان مسئولاً عن هزيمة شعب أمام الاحتلال الفرنسى، عندما فضل، بفتوى من مفتى فاس، الخيار الانتحارى، أى الجهاد حتى آخر راشد، رافضًا عرض اقتسام الجزائر مع المحتلين.. (..) وبدوره اختار عرابى المقاومة اليائسة على مفاوضة المحتلين البريطانيين للحد من الخسائر..»، ثم يصل إلى دعواه الأخيرة والتى من أجلها ساق هذين المثالين من التاريخ: «ومزق عرفات مقترحات كلينتون، ممتطياً الانتفاضة الانتحارية، ليقود شعبه إلى الطريق المسدود..».

تعليقًا على هذه «الجردة التاريخية» يكتب بلال: «فما دامت فرنسا قد احتلت كل أرض الجزائر فلماذا لا نقبل نصف الأرض فى الجبال العالية والصحراء القاحلة ونترك لهم الساحل وسهوله وموانئه ومدنه فقط؟ أية حماقة تلك التى دعت الأمير عبد القادر كى يرفض هذا العرض المغرى؟.. (..) وإذا كان الأمير مدانًا فى نظر العفيف الأخضر لأنه لم يقبل التنازل عن نصف وطنه، فإن إدانته لأحمد عرابى تتم دون وجود مساومة استعمارية على نصف أرض الوطن.. (..) قامت بريطانيا بحملتها الاستعمارية لاحتلال مصر، فقاد جيش بلاده ضد عملية الاحتلال، وقد نجح فى بعض المواجهات لكنه خسر الحرب فى النهاية.. (..) يختصر العفيف الأخضر هذا التاريخ كله بجملة واحدة تقول: «اختار المقاومة اليائسة على مفاوضة المحتلين للحد من الخسائر..»، كان مطلوباً، إذن، من أحمد عرابى، وهو العسكرى، ووزير الدفاع، والثائر على تفشى النفوذ الأجنبى، أن يقبل، رسمياً وبإرادته، الاحتلال البريطانى لمصر، وأن يوقع مع القوات الغازية صك القبول المصرى بالاستعمار والترحيب به وإعطائه الشرعية الكاملة، وهذا ما لم يفعله عرابى، فاستحق لعنات العفيف الأخضر!..».

أما إدانته لعرفات فتمتد إلى ما هو أشمل وأعمق من مجرد رفض مقترحات كلينتون، تمتد إلى إدانة فكرة الثورة المسلحة الفلسطينية، بدءاً من الثورة الفلسطينية ضد الاحتلال البريطانى فى ١٩٣٦، وانتهاءً بمواجهة الفلسطينيين الشجاعة للهجمات الإسرائيلية على بيروت فى ١٩٨٢. إنه يكتب، متنفجًا ومتباهياً: «نحن الذين طالما حللنا مخاطر الكفاح المسلح على الشعب الفلسطينى سواء فى فلسطين ١٩٣٦ أو فى الأردن ١٩٧٠ أو فى لبنان ١٩٨٢»!.



الختام. بلا مسك، على حد تعبير حازم صاغية. هو الكاتب المصرى أمين المهدى. ولأسباب ضرورية يقدم بلال تعريفاً به، جاء فيه: «لم يُعرف أمين المهدى ككاتب أو ناشط سياسى.. فى الجامعة لم يكن له نشاط طلابى بارز، وفى النشاط الحزبى كان مجرد عضو عادى فى «حزب التجمع»، وبسؤال العارفين.. أكدوا أنهم لا يعرفون عنه إلا القليل.. قالوا إنه كان يعمل فى صيانة المطابع فى دار «أخبار اليوم».. ويقولون إنه تزوج فى القاهرة سيدة فلسطينية أقنعته بالذهاب معها إلى بيروت أواخر السبعينيات؛ وتعرَّف عن طريق تلك السيدة إلى صلاح خلف (أبو إياد) مسئول الأمن الموحد فى الثورة الفلسطينية، وعاد بعد فترة مع زوجته إلى القاهرة حيث أنشأ مطبعة ودار نشر، وشاع. دون تأكيد من أحد. أن «أبو إياد» كان ممول تلك الدار، وساءت بعد ذلك علاقته مع زوجته فطلقها، بينما كانت قيادة الثورة الفلسطينية قد انتقلت إلى تونس أواخر العام ١٩٨٢.. ويقولون أنه بعد توقيع معاهدة السلام المصرية. الإسرائيلية وبروز موجة «التطبيع» ذهب إلى إسرائيل، وتعاقد مع وزارة المعارف من أجل ترجمة عدد من الكتب إلى العربية، وبالعكس.. ويقولون إنه ذهب إلى الجزائر لفترة، ساعدته أن يكتب عن التجربة الإسلامية فى الجزائر، وأصدر كتاباً فى الموضوع كتب مقدمته الدكتور رفعت السعيد، اليسارى المعروف.. ويقولون إنه حاول فى فترة التسعينيات تأسيس جماعة صداقة مصرية. إسرائيلية ولكن محاولته لم تكلل بالنجاح، ويقولون إنه لم يُعرف فى مصر ككاتب، ولم يكتب أو ينشر فى أية جريدة مصرية.

ويقف العارفون فى ذكر معلوماتهم عند هذا الحد، وتمر سنوات دون حدث يذكر إلى أن ظهر فجأة كاتباً شبه منتظم فى جريدة «الحياة» ومبشراً بالسلام مع إسرائيل، وكان ذلك أواخر العام ١٩٩٩.. واستمر يكتب فى «الحياة» حتى مطلع العام ٢٠٠١ ثم أخلد للصمت إلى أن ظهر من جديد كاتباً فى الموقع الإلكترونى لصحيفة «يديعوت أحرونوت» الإسرائيلية بدءاً من ٢٠٠٢/٨/٢٥ (مقالان)، ثم نشر له الموقع مقالاً ثالثاً وأخيراً فى ٢٠٠٢/١١/١١..».

فماذا يكتب أمين المهدى؟

أول كل شىء أن يخترع تاريخاً خاصاً للصراع العربى الإسرائيلى، فيطرح أن تيارين كانا موجودين لدى كل جانب من بدء الصراع: تيار الحرب وتيار السلام، وقد انهزم تيار السلام لدى الجانبين، فخلا الميدان لقادة التيار العسكرى ليتصارعا، ويطرح أن هذين التيارين وُلدا.. «مع بداية الصراع الشامل فى ١٩٤٨..»، يريد الوصول إلى أن تيار السلام حين يبرز اليوم فهو استمرار لتيار قديم، ويعيد. من ثم. إنتاج المقولة القديمة. الجديدة بأن المتطرفين فى الجانبين هم سبب المشكلة، وأنهما وجهان لعملة واحدة، وأنهما يضيعان شرعية متبادلة يمنحها كل طرف للآخر.

ولكن.. هل بدأ الصراع، حقًا، فى ١٩٤٨؟ يكتب بلال الحسن: «ألم يبدأ هذا الصراع رسمياً عام ١٩١٧ الذى صدر فيه وعد بلفور..؟ ألم يبدأ هذا الصراع، رسمياً، عام ١٩١٩ الذى صدر فيه قرار عصبة الأمم المتحدة بوضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى؟ ونص قرار الانتداب بتنفيذ وعد بلفور على الأرض؟ ألم يبدأ هذا الصراع، رسمياً، عام ١٩٣٦ حين أطلق الفلسطينيون ثورتهم الكبرى ضد بريطانيا، بسبب احتلالها، وبسبب انحيازها إلى جانب الحركة الصهيونية ورعايتها للهجرة اليهودية إلى فلسطين؟..»، لماذا إذن يختار أمين المهدى ١٩٤٨ لبداية الصراع؟ يواصل بلال: «هو العام الذى شهد ولادة دولة إسرائيل، يريد أمين المهدى أن يبدأ النقاش من هنا، ليلغى تاريخ الصراع، ولينزع عن إسرائيل صفتها كجزء من المشروع الاستعمارى الكبير، وليجعل من وجود دولة إسرائيل حقيقة ثابتة نبتت هكذا دون صراع ومقاومة، ويصبح التفكير بعد ذلك بمواجهتها أمراً عبثياً، ويكون التفاهم والسلام، دون شروط، هو قاعدة التفكير والعمل، وهنا يبرز موضوع السلام (التطبيع) كنتيجة طبيعية، ويتحول موضوع المواجهة إلى نتيجة غير طبيعية..»، ومن أجل أن يحرر المهدى تاريخه المزيف يقسم الإسرائيليين إلى دعاة سلم ودعاة حرب، ويثبت قوائم لكل طرف، ويناقش بلال هذه القوائم فى ضوء الحقائق الموضوعية الثابتة فى سيرهم وأعمالهم، ويخلص إلى أن «محاولات أمين المهدى لاختراع تاريخ خاص للصراع العربى. الإسرائيلى، يجعل من السلام مقولة أزلية تآمر عليها دعاة الحرب من الجانبين، هى محاولات مضحكة، لا علاقة لها بالتاريخ ولا بالسياسة..».

يقول أمين المهدى إن «الفاشية» العربية هى التى ساعدت الحركة الصهيونية على إقامة دولة إسرائيل، ويتساءل بلال الحسن فى مناقشته: لماذا تخلو «نظرية» أمين المهدى من أى ذكر لدور الاستعمار الأجنبى أو حتى لمجرد وجوده؟ لماذا يغيب دور بريطانيا وفرنسا منذ انتهاء الحرب الأولى وحتى ١٩٤٨؟ لماذا يغيب أى ذكر لدور الولايات المتحدة الأمريكية، وقرار الرئيس الأمريكى ترومان بدءاً من ١٩٤٦ بدعم الحركة الصهيونية دعماً مطلقاً؟ والجواب، ببساطة، هو أن «إبراز هذه الوقائع ينسف «نظرية» أمين المهدى «التاريخية»، وهو لذلك يتجاهلها عمداً، ثم يختار الوقائع التى تقود إلى دعم موقفه السياسى الراهن، إنها عملية تزوير بدائية..».

كما يحلو لأمين المهدى، ولغيره من الكتاب، وحين يبحثون بضرورة التطبيع مع إسرائيل فقط، سرد سلسلة من الأوصاف للأنظمة العربية القائمة، تتصدرها لفظة «الفاشية». فهل يمكن وصف هذه الأنظمة بالفاشية حقاً؟ يقدم بلال. فى مناقشته. تعريفاً علمياً للفاشية (يستعين فيه، عامداً، بموسوعة أمريكية المصدر والتحليل والعقلية)، ويورد ألوانها المختلفة والسمات الخاصة بكل لون منها، وينتهى إلى أن أمين المهدى يقدم تعريفاً خاصاً به للفاشية يجعل من كل التيارات الفكرية، الدينية أو الوطنية أو القومية أو العرقية، تيارات فاشية. إنه يكتب: «الفاشية فى تصورها العدمى للذات، تهدف إلى الاندماج والتلاشى فى الزعيم أو المخلِّص، أو فى فكرة الخلاص الواحدة: الدينية أو الوطنية أو القومية أو العرقية، أو فكرة خليط من بعض أو كل ذلك..». بهذا التعريف «الخاص» تصبح الحركات الدينية مهما كان نوعها، والحركات الوطنية العاملة للتحرر من الاستعمار (على امتداد آسيا وأفريقيا فى القرن العشرين) والحركات القومية الساعية إلى توحيد بلادها (على امتداد أوروبا القرن التاسع عشر)، كلها حركات فاشية مدانة!.

ويمضى أمين المهدى إلى ما لم يجرؤ واحد من فرسان التطبيع على بلوغه: إلى الغزل الواضح بالحركة الصهيونية وبإسرائيل. «باعتبار أنهما يمثلان الحضارة والحداثة والديموقراطية والنزعة الإنسانية، يقابل عملية الغزل هذه كراهية عميقة للفلسطينيين والعرب، باعتبارهم فلاحين وبدواً وفاشيين..». عن الصهيونية يقول إنها جاءت. من البداية «بنظام ديموقراطى لصناعة النخبة فى كل المجالات، وفى إطار قومى علمانى صرف..» ويقول: «تبلورت الأسس الاجتماعية للاستيطان فى إطار فكر متحرر أوروبى النشأة..»، ويقول: «جاءت الصهيونية إلى بلاد العرب عبارة عن أيديولوجية خلاصية شعبية، وهنا تكمن دوافعها وجوانبها الإنسانية.. وسلكت الصهيونية فى التنفيذ مسلكاً علمانياً عقلانياً مؤسسياً وديموقراطياً..»، ويقول أخيراً: «تنبأت الصهيونية بانتصار الغرب والتطور الرأسمالى، فاختارت موقعها ضد القوميات (!) وضد النازية والفاشية والستالينية، وهكذا راهنت على معسكر المنتصرين وانتصرت معهم..».

على كل هذه الأقوال يعلق بلال: «ومن يكون معجباً بالحركة الصهيونية إلى هذا الحد، ولا يرى هدفها الاستعمارى والإجلائى لشعب آخر، والاستيلاء على أرضه بالقوة، يكون من حقه أن يعجب بدولة إسرائيل، وأن يعادى العرب لأنهم «يعتدون» على هذا الصرح الحضارى الشامخ، وأن يكرس نفسه، بعد ذلك، للركوع والخضوع أمام المخطط الإسرائيلى للهيمنة العسكرية والاقتصادية، وأن يطلق على ذلك اسم «التطبيع»..».

فى مقابل هذا الغزل الواضح بالصهيونية وإسرائيل، ثمة هجائية، واضحة أيضاً، للفلسطينيين والعرب: من تبرير لقدوم الاستعمار واستيلائه على الأرض العربية فى المشرق والمغرب، إلى تبرير قدوم الصهيونية واستيلائها على فلسطين، إلى الاستخفاف بالبنية الاجتماعية للشعب الفلسطينى، وادعاء العلم بتاريخ فلسطين القديم والحديث... إلخ.

على قاعدة مثل هذا الفكر، وانطلاقاً من مثل تلك الجرأة على اختراع تاريخ خاص ومزيف، ينتقل أمين المهدى من الصحافة العربية (صحيفة «الحياة») إلى الموقع الإعلامى الإسرائيلى، فيظهر كاتباً فى موقع صحيفة «يديعوت أحرونوت» الإلكترونى، ومن هذا الموقع يواصل حربه ضد الانتفاضة الفلسطينية والقيادة الفلسطينية، مبرئاً إسرائيل من جريمة تدمير مؤسسات الشعب الفلسطينى، ملقياً بالمسئولية كاملة كلها على الانتفاضة.

ويوجز بلال الحسن حكمه على كل هذا المسعى: «أما الخاتمة لهذا كله فهى تمجيد الاستعمار (..). وهكذا يبدأ التحليل بنقد السياسة الفلسطينية وينتهى بالترويج للاستعمار، والترويج بينهما للاستعمار الإسرائيلى للشعب الفلسطينى. أى انحدار هو هذا؟..».

فى نهاية مقاله الذى سبقت إليه الإشارة يكتب فهمى هويدى: «إن المشكلة . للأسف . ليست فقط فى الترويج لهذه الثقافة البائسة، ولكنها أيضاً فى الأجواء التى هيأت مناخاً مواتياً لإطلاق ذلك القدر من السموم من خلال المنابر الإعلامية العربية، ويتضاعف الأسف إذا أدركنا أن تلك الجرعة من السموم جرى بثها من منبر واحد، فما بالك إذا جمعنا الكتابات المماثلة التى حفلت بها المنابر الأخرى؟..».

والحقيقة أن جهداً أكبر يجب أن يبذل فى هذا الاتجاه، اتجاه فضح كُتاب هذه الثقافة المسمومة: ثقافة الاستسلام، على نحو ما فعل بلال الحسن فى هذا الكتاب. ■

كتـــاب الــزاويــة



أيهـــا النيـــل

أحمد شوقى

مَـمـلـوكَـةٌ أَعـنـاقُـهُـم لِـيَـمـيـنِـه
يَـأبـى فَـيَـضـرِبُ أَوْ يَـمُـنَّ فَـيُـعـتِـقُ

وَنَـجـيـبَـةٍ بَـيْـنَ الـطُّـفُـولَـةِ والـصِّبا
عـذراء تَـشْـرُبُـهـا الـقُـلـوبُ وتـعـلَـقُ

كانَ الـزِّفـافُ إلـيْـكَ غَـايَـةَ حَـظِّـهـا
والـحَـظُّ إنْ بَـلَـغَ الـنِّـهـايَـةَ مُـوْبِـقُ

لاقَـيْـتَ أعْـراسـاً ولاقَـتْ مَـأْتَـمـاً
كـالـشَّـيْـخِ يَـنْـعَـمُ بـالـفَـتَـاةِ وتَـزْهَـقُ

فِـي كُـلِّ عـامٍ دُرَّةٌ تُـلْـقَـى بــلا
ثَـمَـنٍ إلـيْـكَ وَحُـرَّةٌ لا تُـصْـدَقُ

حَـوْلٌ تُـسـائِـلُ فِـيْـه كُـلُّ نَـجـيـبَـةٍ
سَـبَـقَـتْ إلـيْـكَ مَـتَـى يَـحُـولُ فَـتَـلْـحَـقُ

والمَـجْـدُ عِـنْـدَ الـغَـانِـيـاتِ رَغِـيْـبَـةٌ
يُـبْـغَـى كـمـا يُـبْـغَـى الجَـمـالُ ويُـعْـشَـقُ

إنْ زَوَّجُـوكَ بِـهِـنَّ فَـهْـوَ عَـقِـيْـدَةٌ
وَمِـنَ الـعَـقَـائِـدِ مَـا يَـلُـبُّ ويَـحـمـقُ

مـا أَجْـمَـلَ الإيمـانَ لـولا ضَـلَّـةٌ
فـي كـلِّ ديْـنٍ بـالـهِـدايَـةِ تُـلْـصَـقُ

زُفَّـتْ إلـى مَـلِـكِ المُـلُـوكِ يَـحُـثُّـهـا
ديْـنٌ وَيَـدْفَـعُـهـا هَـوًى وتَـشَـوُّقُ

وَلَـرُبَّـمـا حَـسَـدَتْ عَـلَـيْـكَ مَـكـانَـهـا
تِـرْبٌ تَـمَـسَّـحُ بـالـعَـرُوسِ وَتُـحْـدِقُ

مَـجْـلُـوَّةٌ فـي الـفُـلْـكِ يَـحْـدُو فُـلْـكَـهـا
بِـالـشَّـاطِـئَـيْـنِ مُـزَغْـرِدٌ وَمُـصَـفِّـقُ

هموم لغة الضاد

محمود الذوادي

عولمة مشكلة اللغة العربية في الوطن العربي

■■ يمثل قرار المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة/ الألكسو ٢٠١٠ لجعل غرة شهر مارس من كل عام يوم اللغة العربية إشارة واضحة إلى أن اللغة العربية ليست بخير فى المجتمعات العربية. إن الدارس لأقطار العالم العربى فى المشرق والمغرب يجد وضع اللغة العربية الفصحى غير سليم عند المتعلمين وحتى عند الجامعيين والمثقفين. أى أن مشكلة العرب مع لغتهم الوطنية مشكلة عامة اليوم. ومع ذلك، فهناك اختلافات فى بعض المعالم للمشاكل المتفرعة عن المشكلة العامة كما سوف نرى[١].

تواجه اللغة العربية مشاكل متنوعة بين أهلها وذويها فى الأقطار العربية المختلفة. ونقتصر هنا على ذكر بعضها ومحاولة فهم وتفسير ومناقشة أسبابها. نركز هنا على معلمين رئيسيين لا يكادان يذكران فى دراسة وضع اللغة العربية فى الوطن العربى ناهيك عن تحليلهما ومناقشتهما فى البحوث والدراسات. نطرح ونحلل فى الجزء الأكبر من هذا البحث ما نسميه ضعف التعريب النفسى فى المغرب العربى الذى يمثل الجزء الثانى من عنوان مقالتنا. إنه مفهوم جديد يساعد كثيرا على فهم وتفسير حال اللغة العربية فى المجتمعات المغاربية. أما المعلم الثانى (ندرة الحديث بالفصحى بالمشرق) المسكوت عنه عموما فى ما كتب عن تردى لغة الضاد فى بلاد العرب فهو ما يشير إليه الجزء الأول من عنوان هذه الدراسة. ونختم المقالة بطرح إطار فكرى تنظيرى يعتمد على مقولة التعريب النفسى فى تفسير حال اللغة العربية فى المجتمعات المغاربية على الخصوص.

لغة الضاد فى المشرق والخليج العربيين

إن أول ما يشد الانتباه فى الساحتين المشرقية والخليجية فى العالم العربى هو الغياب شبه الكامل لاستعمال العربية الفصحى فى التدريس بما فيه على مستويات التعليم العالى. فالعاميات العربية أصبحت هى وسائل التدريس فى كل الجامعات العربية المشرقية والخليجية. ومن نتائج ذلك انتشار ظاهرة المتعلمين بكل أصنافهم الذين لا يقدرون على قراءة نص عربى فصيح بدون أخطاء نحوية وصرفية لا تكاد تحصى وبلكنة قراءة هى أقرب إلى عامية بلدان المتعلمين والمثقفين منها إلى القراءة السليمة للعربية الفصيحة. فمنظور علم الاجتماع اللغوى يرى أن انتشار استعمال العاميات العربية بدل العربية الفصحى أصبح هو العرف اللغوى الاجتماعى الذى يعتبر الانحراف عنه سلوكا لغويا شبه غير مقبول من طرف الأغلبية المتعلمة والمثقفة فى المجتمعات العربية الخليجية والمشرقية. وهكذا لايكاد هؤلاء المتعلمون والمثقفون يستعملون العربية الفصيحة السليمة حتى فى مناقشات رسائل الماجستير والدكتوراة أو الندوات والمؤتمرات الفكرية. يمثل هذا الوضع بكل بساطة نوعا من الاغتراب بينهم وبين لغة الضاد من شأنه أن يضعف من حماسهم لصيانة اللغة العربية الفصحى عن طريق إتقان نحوها وصرفها وتبنى موقف قوى يغار عليها ويدافع عنها لكى تكون لغة الاستعمال البارزة فى المجتمعات العربية بما فيها تدريس العلوم فى الجامعات العربية[٢].

فالفصحى أصبحت فى تلك المجتمعات العربية مجرد لغة كتابة لا لغة حديث. ومصير اللغات المكتوبة فقط لا يبشر بخير لحاضر ومستقبل لغة الضاد كما يشهد على ذلك حال اللغة اللاتينية فى العصر الحديث. ورغم أن للعربية الفصحى من العوامل التى لا تكاد تجعلها معرضة بالكامل لنفس مصير اللغة اللاتينية، فإنها تحتاج من الناطقين بها إلى تشخيص واقعى يسمح بفهم مشاكلها المتعددة اليوم فى مجتمعات الوطن العربى. هناك من دعا ويدعو إلى تبنى العاميات العربية، بدل العربية الفصحى، كلغات رسمية فى بلدان العالم العربى[٣]. وهو أمر صعب التحقيق لأنه يتطلب ضمنيا التخلى عن لغة القرآن على المدى الطويل. وهذا ما لا يقبله المسلمون العرب الذين يمثلون الأغلبية الساحقة لسكان الوطن العربى. وبالتالى، فهو ليس بالحل الديمقراطى الذى سيجد مشروعية واسعة فى معظم مجتمعات الوطن العربى. وهكذا، فالمخرج من هذا المأزق ليس فى الإقصاء الكلى للعربية الفصحى، لغة القرآن. وإنما الحل فى المحافظة عليها صحبة العاميات العربية فى نفس الوقت. وهذا ليس بالأمر الغريب فى عالم أنساق اللغات البشرية. فالكثير من هذه الأخيرة هى لغات مكتوبة ومنطوقة. وطالما تكون هناك اختلافات بين خطاب الكتابة وخطاب الحديث. ويكمن الحل لهذه الثنائية فى التقارب بين أسلوب هذين الخطابين. وفى حال اللغة العربية الفصحى، فإن عملية التقارب تتطلب أن تكون فى اتجاه لغة القرآن لا فى الاتجاه المعاكس:أى ليس لصالح العاميات العربية. إذ بذلك تستطيع اللغة العربية الفصحى كسب رهان المناعة التى تمكن المسلمين العرب وغير العرب من فهم آيات كتابهم المقدس: القرآن الكريم. وبعبارة أخرى، تصبح المحافظة على لغة القرآن/ اللغة العربية الفصحى ثابتا من ثوابت الأمتين العربية والإسلامية. فإتقان هذه اللغة كتابة وحديثا يعتبر، إذن، أمرا مطلوبا وواجبا ليس على العرب المسلمين فحسب، وإنما على كل العرب لأن العربية الفصحى هى لغة التراث الزاخر للحضارة العربية الإسلامية.

ومن اللافت للنظر بهذا الصدد أن الوطن العربى يمثل اليوم ظاهرة غريبة فى العالم تتمثل فى عدم استعماله اللغة العربية لتدريس العلوم فى معظم مؤسسات التعليم العالى. وهو وضع معرقل لنهضة اللغة العربية فى المجتمعات العربية. ولغة الضاد يمكن أن تشفى من إعاقتها لو أن كل الجامعات ومعاهد التعليم العالى بتلك المجتمعات يتبنى نظام الجامعات السورية السباقة فى تدريس حتى الطب باللغة العربية.

التعريب فى المغرب العربى

أما مشكل اللغة العربية فى معظم بلدان المغرب العربى فيتجلى فى معالم أخرى. فمصطلح التعريب، مثلا، يعنى فى هذه المجتمعات استعمال اللغة العربية بدل الفرنسية فى الإدارات والمدارس ومعاهد التعليم العالى والجامعات وغيرها من القطاعات فى تلك المجتمعات. ويتطلب هذا التغيير التعريبى إتقان اللغة العربية الفصحى نحوا وصرفا وإملاء وتعبيرا. ويمكن تسمية ذلك بالجانب الشكلى أو الظاهرى لعملية التعريب فى تلك المجتمعات المغاربية. لأن عملية التعريب الكاملة هى أكثر من مجرد الجانب الشكلى للتعريب. يتمثل الجانب الآخر لعملية التعريب فى العلاقة النفسية الحميمة التى تربط الأفراد ومؤسسات هذه المجتمعات باللغة العربية (اللغة الوطنية). فمن جهة، إن إعطاء مواطنى ومؤسسات المجتمعات المغاربية المكانة الأولى للغة العربية على المستوى النفسى يشير إلى وجود علاقة وثيقة إيجابية بينها وبين اللغة العربية/اللغة الرسمية الوطنية. ومن جهة ثانية، فإن ضعف أو غياب مثل تلك العلاقة يدل على أن عملية التعريب منقوصة. إذ إنها لم تتجاوز عتبة الجانب الشكلى أو الظاهرى




بسم الله الرحمن الرحيم



للتعريب. ومن ثم، فمن الخطأ الاعتقاد بأن مجرد استعمال اللغة العربية أو إتقانها يؤدى بالضرورة إلى كسب رهان العلاقة الحميمة معها بحيث تتمتع بالمكانة الأولى فى قلوب واستعمالات المواطنين المغاربيين مزدوجى اللغة على الخصوص. والأمثلة الميدانية عديدة على ذلك من عينات المغاربيين مزدوجى اللغة فى عهدى الاستعمار والاستقلال. فدعنا، إذن ، نتعرف على ما نسميه ضعف التعريب النفسى فى المجتمعات المغاربية الحديثة. وهو جانب مجهول ومسكوت عنه لدى العامة والخاصة فى هذه المجتمعات بعد خروج الاستعمار الفرنسى.

مفهوم ضعف التعريب النفسى

إن الباحث فى المسألة اللغوية بالمجتمع التونسى الحديث ونظيريه الجزائرى والمغربى يجد فقدانا كبيرا للتعريب النفسى لدى أغلبية التونسيات والتونسيين والجزائريات والجزائريين والمغربيات والمغربيين[٤]. ويعنى مفهوم ضعف التعريب النفسى فى منظورنا أن اللغة العربية (اللغة الوطنية) بتلك المجتمعات المغاربية الثلاثة لا تحتل نفسيا عند معظم المتعلمين والمثقفين منهم على الخصوص المكانة الأولى فى قلوبهم وعقولهم واستعمالاتهم. فمن منظور علم النفس الاجتماعى يمكن القول بأنه يوجد اليوم موقف نفسى جماعى عام لدى جل هؤلاء لا يسمح لهم بتطبيع علاقتهم مع لغة دساتيرهم التى تؤكد فى أول فقراتها أن اللغة العربية هى لغة الجزائر والمغرب وتونس. ويعنى التطبيع هنا أن تصبح العلاقة بين مواطنات ومواطنى هذه البلدان وبين اللغة العربية من نوع العلاقة العضوية التى تربط عادة بين المجتمعات ولغاتها الوطنية والمتمثلة فى استعمال اللغة الوطنية فى كل قطاعات المجتمع، من ناحية، والشعور نفسيا بالاعتزاز الكامل باستعمال اللغة الوطنية والدفاع عنها فى دوائر العلاقات الخاصة وفى المجالات العامة، من ناحية ثانية.

الازدواجية اللغوية الأمارة بالمغرب العربى

نعتبر أن الازدواجية اللغوية الأمارة[٥] هى مفهوم جديد مثله مثل مفاهيمنا السابقة : التخلف الآخر، التعريب النفسى، الفرانكوأراب الأنثوية، والرموز الثقافية، الشخصية التونسية المستنفرة. وفى رأينا، فالعلوم الاجتماعية فى المجتمعات العربية لا يمكن لها أن تتقدم حقا بدون الظفر بكسب رهان ابتكار مفاهيم وأطروحات ونظريات جديدة مستلة من واقع تلك المجتمعات، وبالتالى فهى صالحة أكثر من غيرها المستورد لفهم وتفسيرما يوجد فى هذه المجتمعات من ظواهر وما يجرى فيها من أحداث[٦].

نستعمل كلمة الأمارة بالمعنى الذى ورد فى وصف القرآن الكريم للنفس البشرية. فيفيد المصطلح القرآنى للنفس الأمارة أنها تلك النفس التى تجنح إلى فعل السوء. ومن المؤكد أن الأغلبية الساحقة من المغاربيات والمغاربيين خاصة المثقفين والمتعلمين منهم سوف يتعجبون من وصف الازدواجية اللغوية بأنها أمارة بالسوء بالنسبة للغة العربية. ألم يذهب الجزائرى كاتب يسين إلى القول «إن اللغة الفرنسية غنيمة حرب للجزائريين»؟[٧] ولا بد أن يغضب فعلا الكثير من هؤلاء على إطلاقنا مثل تلك الصفة على الازدواجية اللغوية. وليس من الصعب على عالم النفس الاجتماعى تفسير مثل رد الفعل ذلك من طرفهم جميعا. فعالم النفس الاجتماعى يرى أن الناس يتعلمون معظم الأشياء بعد ولادتهم فى محيطهم الاجتماعى الصغير والكبير. ومن الواضح أن اللغة هى من أولى الأشياء التى يتعلمها الأفراد فى الأسرة والمجتمع. فالمغاربيون والمغاربيات تعلموا ويتعلمون فى عهدى الاستعمار والاستقلال فى أسرهم ومدارسهم وجامعاتهم ومجتمعاتهم بأن تعلم اللغة الفرنسية/ الأجنبية مكسب كله كله كله خير. فهذا المكسب شديد الخير عندهم هو مسلمة من المسلمات غير قابلة للتساؤل والتشكيك. فهم لا يكادون يتصورون أى مشاكل وأخطار يمكن أن تأتى من الازدواجية اللغوية، بينما تشير البحوث الجادة إلى أن الازدواجية اللغوية ذات تحديات كثيرة[٨]. وينبهنا بهذا الصدد علماء النفس والاجتماع بمفارقة تتمثل فى أن البشر ومجتمعاتهم ليسوا قادرين فقط على تبنى الأشياء الخاطئة والعيش عليها وإنما الأكثر من ذلك أنهم مستعدون أيضا للدفاع عنها والمقاومة من أجلها بكل حماس.



إن ظاهرة الازدواجية اللغوية الأمارة هى ما يلاحظه اليوم الباحث فى المسألة اللغوية لدى أغلبية مواطنات ومواطنى مجتمعات المغرب العربى



الازدواجيتان اللغويتان بالمغرب العربى

يعنى مصطلح الازدواجية اللغوية معرفة الشخص أو المجتمع للغتين: اللغة الأم/الوطنية ولغة ثانية. ومعروف فى الظروف العادية أن يكون للغة الأم/ الوطنية المكانة الأولى فى قلوب وعقول واستعمالات مواطنى المجتمع. فهذا الصنف من الازدواجية اللغوية يجعل الناس ومجتمعهم يغارون على لغتهم ويتحمسون للدفاع عنها، فيلوم بعضهم البعض حتى على ندرة عدم احترام البعض منهم للغة البلاد. ونود تسمية هذا النوع من الازدواجية اللغوية بالازدواجية اللغوية اللوامة. فهذه الأخيرة تحرص كل الحرص وبحماس كبيرعلى المحافظة على مناعة اللغة الأم/ الوطنية وتطورها ونموها متخذة من أجل ذلك كل السبل الضرورية من توعية مجتمعية باللغة الوطنية كرمز وطنى مقدس مثل علم البلاد ومن المطالبة بتبنى سياسات لغوية تصون اللغة الأم/ الوطنية من انحدار مكانتها نفسيا واجتماعيا إلى المرتبة الثانية أو الثالثة بين أهلها وذويها.

وفى المقابل، أشرنا أعلاه إلى صنف آخر من الازدواجية اللغوية يذهب فى الاتجاه المعاكس لما رأيناه فى الازدواجية اللغوية اللوامة. نطلق على هذا الصنف الثانى من الازدواجية اللغوية مصطلح الازدواجية اللغوية الأمارة. إنها تلك الازدواجية اللغوية التى لا تكون فيها للغة الأم/الوطنية المكانة الأولى فى قلوب وعقول واستعمالات مزدوجات ومزدوجى اللغة. أى أن اللغة الأم/الوطنية لاتحتل المرتبة الأولى عند هؤلاء على المستوى العاطفى والنفسى وعلى المستوى الذهنى والفكرى وعلى مستوى الممارسة والاستعمال. فعكس ما يتصف به أصحاب الازدواجية اللغوية اللوامة، فإن أصحاب الازدواجية اللغوية الأمارة تجدهم غير متحمسين كثيرا للذود عن لغتهم الأم/الوطنية وغير مبالين إزاء عدم استعمالها فى شئونهم الشخصية وفى ما بينهم فى أسرهم واجتماعاتهم ومؤسساتهم بحيث تصبح عندهم فى حالات عديدة لغة ثانية أو ثالثة. إن ظاهرة الازدواجية اللغوية الأمارة هى ما يلاحظه اليوم الباحث فى المسألة اللغوية لدى أغلبية مواطنات ومواطنى مجتمعات المغرب العربى. وعلى سبيل المثال، يكتب معظم هؤلاء صكوكهم المصرفية/شيكاتهم باللغة الفرنسية بديلا عن اللغة العربية/لغتهم الوطنية. ويكاد النساء المغاربيات المتعلمات والمثقفات على الخصوص لا يستعملن إلا اللغة الفرنسية فى حديثهن عن الألوان ومقاييس الملابس وغيرها. يوضح هذان المثالان أن معرفة الفرنسية قليلا أو كثيرا يجعل المرأة والرجل المغاربيين شبه متآمرين ضد استعمال لغتهما



همــوم لغـــة الضاد

الوطنية بسبب عدم إعطائها أولوية الاستعمال بينهما في البلدان المغاربية، كما يفعل المواطنون والمواطنات في المجتمعات المتقدمة، مثلا. ومن ثم، ولد مفهومنا للازدواجية الأمارة.

وكما رأينا، فإن علاقة المواطنات والمواطنين بلغتهم الوطنية ينتظر أن تكون علاقة حميمة بحيث تكون لها المكانة الأولى في قلوبهم وعقولهم واستعمالاتهم فيغارون عليها ويدافعون عنها بكل تحمس ورباطة جأش في الدوائر الخاصة والعامة في المجتمع. وهذا ما لا نكاد نجده عند أغلبية كبيرة من مواطنات ومواطني الشعوب المغاربية بعد عدة عقود من الاستقلال.

العجز عن التحرر الحقيقي

إن المفاهيم الواردة في طرح هذه المقالة تصف وضعا غير طبيعي للغة العربية/الوطنية في مجتمعات المغرب العربي الثلاثة. فهناك غياب كبير للازدواجية اللغوية اللوامة بين معظم الفئات المتعلمة والمثقفة لشعوب هذه المنطقة. وفي المقابل ثمة حضور قوي للازدواجية اللغوية الأمارة المرتبطة شديد الارتباط بضعف التعريب النفسي عند أغلبية سكان هذه المجتمعات. وبالتالي فهي مجتمعات تشكو من مشكلة حقيقية تتمثل في علاقتها بلغتها الوطنية. فمن الناحية الموضوعية، يمثل هذا الوضع مشكلة خطيرة لأن اللغة الوطنية هي العمود الفقري لوجود المجتمعات والمحافظة على هويتها. ويجوز القول إن طغيان سلطان الازدواجية اللغوية الأمارة بين أفراد ومؤسسات البلدان المغاربية بعد أكثر من نصف قرن من الاستقلال يحرمها من الفوز الحقيقي بالاستقلال التام. إذ لا يقبل موضوعيا الحديث عن كسب رهان الاستقلال الحقيقي والكامل بينما يستمر فيها الاستعمار اللغوي والثقافي على قدم وساق. وما الحضور القوي والمنتشر للازدواجية اللغوية الأمارة إلا ملمح لهذا الاستعمار. إنه استعمار خبيث وفيروسي يمثل في نهاية المطاف صنارة استلاب وخدش لروح وهوية الشعوب في المغرب والمشرق. فهل تنجح القيادات السياسية والنخب الثقافية وكل الطبقات الاجتماعية في المجتمعات المغاربية على المدى المنظور في عملية التلقيح ضد فيروس الازدواجية اللغوية الأمارة وبالتالي ضد وباء الاستعمار اللغوي الثقافي المتفشي بين المغاربيات والمغاربيين ومؤسساتهم في عهدي الاحتلال والاستقلال؟ ذلك هو السؤال كما قال شكسبير.

تونس والتحرر اللغوي الثقافي

وبعد تحليل وضع اللغة العربية غير السليم في بلاد المشرق والمغرب العربيين نسلط الآن الأضواء على حال هذه اللغة بالمجتمع التونسي الحديث. يفسر منظور العلوم الاجتماعية الوضع غير الطبيعي في علاقة التونسيات والتونسيين باللغة العربية بعدة عوامل. فهو يعود في المقام الأول إلى عوامل سياسية. فقد غرست القيادة البورقيبية،



لمـــاذا تغـــيب بالكامــل مثـــل تلــك العبـــارات فـــي المجتمـــع التـونـسـي المسـتـقـل وتحـضـر بـقـوة فـي المـقـابـل عبارات ومناسبات عيد الجلاء العسكرى وعيد الاستقلال السياسى



بسبب تعليمها المزدوج اللغة الأمارة، في عقلية التونسيين فكرة أن الاستعمار اللغوي الثقافي الفرنسي ليس بالاستعمار. أي أنه غنيمة كما أكد على ذلك كاتب ياسين. ومن ثم، فليس من الصواب التحرر منه كما هو الشأن بالنسبة للتحرر من الاحتلال العسكري والسياسي والفلاحي. ونتيجة لذلك فإن تحليل خطاب التونسيين بكل أصنافهم تقريبا لفترة ما بعد الاستقلال لا نجد فيه عبارات «الاستقلال اللغوي الثقافي» أو «التحرر اللغوي الثقافي». والسؤال المعرفي الذي يطرح نفسه بكل مشروعية في منظور العلوم الإنسانية والاجتماعية: لماذا تغيب بالكامل مثل تلك العبارات في المجتمع التونسي المستقل وتحضر بقوة في المقابل عبارات ومناسبات عيد الجلاء العسكري وعيد الاستقلال السياسي وعيد الجلاء الفلاحي (استرجاع التونسيين لأراضيهم من المعمرين الفرنسيين)؟

والإجابة المباشرة على ذلك هي أن القيادة البورقيبية لم تكن، كما رأينا، تعتبر الاستعمار اللغوي الثقافي الفرنسي أمرا سيئا بل أمرا حسنا بالنسبة للتونسيات والتونسيين. بينما نجد الأمر مختلفا في الجزائر في عهد الرئيس هواري بومدين. إذ نادى هذا الأخير وقيادته بأن التحرر اللغوي الثقافي من الاستعمار الفرنسي هو جزء لايتجزأ من عملية التحرر الوطني الحق. سمح هذا الموقف القيادي السياسي الجزائري بانتشار وعي لا بأس به بين الجزائريات والجزائريين بأهمية الاستقلال اللغوي الثقافي عن المستعمر الفرنسي. ومنه جاء مثلا تعريب لافتات المحيط الجزائري كأفضل ما رأيت شخصيا في مدن وقرى أقطار الوطن العربي في بداية الثمانينيات من القرن الماضي. ولا بد أن تأسيس الجمعية الجزائرية للدفاع عن اللغة العربية قد تأثر برؤية قيادة بومدين على نشر وعي أكبر بين الجزائريات والجزائريين



للنضال من أجل كسب رهان التحرر اللغوي الثقافي كأعز معلم من معالم الاستقلال والتحرر الوطني الكامل.

اعتراف بمشكل العربية في المجتمع يمكن القول إن ضعف التعريب النفسي عند التونسيين المشار إليه أعلاه يمثل مشكلة في المجتمع التونسي الحديث. وكيف لا والحال أن هذا المجتمع ليس في حالة سليمة مع لغته الوطنية وذلك بعد أكثر من نصف قرن من الاستقلال(9) ومن هنا تفهم مشروعية القرار الرئاسي لعام 1999 الذي يهدف إلى إنهاء المشكلة اللغوية في الإدارات التونسية الحكومية وذلك بجعل اللغة العربية إجباريا هي لغة تلك الإدارات. أي تطبيع العلاقة بينها وبين اللغة العربية/ اللغة الوطنية. فجاء القرار الرئاسي وكأنه اعتراف بأن هناك مشكلة لغوية طال أمدها في عهد الاستقلال. فوجب ،إذن ، أخذ القرار من أعلى هرم السلطة السياسية دون تأخير إضافي لحلها حتى تكسب تونس سيادتها اللغوية في القطاع الإداري الحكومي الحيوي بالنسبة لمسيرة البلاد الساعية إلى كسب رهان التقدم.

تشخيص لمشكل اللغة

العربية في هذا المجتمع

والسؤال العلمي المشروع هو: ما الذي أدى إلى حالة اختلال العلاقة العضوية بين اللغة العربية والمجتمع التونسي الحديث ؟ هناك ثلاثة عوامل رئيسية وراء هذا الوضع غير السليم في علاقة المجتمع التونسي بلغته الوطنية/ اللغة العربية:

1- أدخل الاحتلال الفرنسي للبلاد التونسية لغته في الإدارات والمدارس التونسية وفي المجتمع التونسي المحتل بصفة عامة.

2- وكما أشرنا، لم تكن القيادة البورقيبية لمدة ثلاثة عقود متحمسة لصالح التحرر/ الاستقلال اللغوي الثقافي. بل يمكن القول أنها كانت تعتبر المحافظة على الاستعمار اللغوي الثقافي الفرنسي أمرا إيجابيا. وبالصدفة، يتفق هذا مع ما نادى به في فبراير 2005 بعض أعضاء الجمعية الوطنية الفرنسية من أن للاستعمار الفرنسي دورا إيجابيا le rôle positif du colonialisme في المجتمعات التي احتلتها فرنسا ونشرت فيها لغتها وثقافتها.

3- يتلقى معظم التونسيين تعليما مزدوج اللغة والثقافة (عربية- فرنسية) أثناء





الفترة الاستعمارية وبعدها. وتحظى اللغة الفرنسية وثقافتها عموما فى نظام التعليم هذا بمكانة وسمعة اجتماعيتين أكثر من اللغة العربية وثقافتها عند أغلبية التونسيين المتعلمين. يلاحظ أن المدرسين التونسيين فى مختلف مراحل التعليم يواصلون بعد الاستقلال بث صورة أكثر إيجابية للفرنسية وثقافتها منها للغة العربية وثقافتها. وبعبارة عالم الاجتماع الفرنسى بورديو فهم يعيدون إنتاج أنفسهم. وتتجلى هنا أخطار الازدواجية اللغوية الأمارة. إذ هى لا تمد التونسيين بما نسميه مناعة لغوية ثقافية وطنية تحفظ المعالم العربية والإسلامية فى الهوية التونسية من التصدع والاغتراب. ومن هنا، فكأن هذه الازدواجية تتآمر على العناصر الأساسية المكونة لمنظومة هوية التونسيات والتونسيين.

إن العاملين الثانى والثالث المذكورين أعلاه هما أهم من العامل الأول فى تفسير موقف ضعف التعريب النفسى عند معظم التونسيين اليوم. فمما لا شك فيه أن اللغة هى أبرز معلم لهويات الشعوب. فمن يستبدل لغته بلغة غيره يضع قطعا هويته فى حالة ارتباك واضطراب على الأقل. فاللغة هى عنوان الهوية وإحدى أدوات تشكيلها. من هنا يكون التنازل على اللغة الوطنية (اللغة العربية) أخطر مما نتصور. إنه تنازل يقترب كثيرا من التنازل عن الهوية ذاتها. ويمثل ذلك بالتأكيد مدخلا واسعا لافتقاد بوصلة الانتماء الثقافى والحضارى فى عصر العولمة وحوار الثقافات على الخصوص.

أمثلة أخرى على ضعف التعريب النفسى

إن التشخيص المختصر لبعض معالم وأسباب فقدان أو ضعف التعريب النفسى لدى معظم التونسيين بعد أكثر من نصف قرن من الاستقلال تعكسه السلوكات اللغوية اليومية التى لا تكاد تحصى. فالحروف التى تستعملها أغلبية التونسيين فى كتابة الشيكات وفى إمضاءاتهم هى الحروف اللاتينية. وينطق معظمهم بالفرنسية أرقام هواتفهم وأرقام وسائل النقل مثل الحافلات والمترو. ولانكاد نرى التونسيات والتونسيين يحتجون على غياب الحروف العربية فى أغلبية الهواتف الجوالة بالبلاد التونسية أو فى الكثير من لافتات المراكز التجارية الكبرى بالعاصمة والمدن والقرى التونسية.

يصف الصحافى التونسى محمد ابن رجب فى جريدة الصباح (١٤ أغسطس ٢٠٠٧) مدى انسلاخ التونسيات عن اللغة العربية لغتهم الوطنية كما تعكس ذلك اللهجة التونسية اليوم. فينقل لنا النص الحرفى للهجة التونسية التى تحدثت بها تونسية إلى المذيعة التى سألتها عن انطباعاتها عن حفلة المغنية التونسية صوفية صادق فى قرطاج «الحفلة السوارى طيارة فريمون لا شانتوز صوفية عندها بالوفواسى فرايمون فورميدا بل يلزم التوانسة يحبوا الفودادات متاعهم أون أمارمن لى ليبانى الجدد سى فريمون طيارة صوفية طيارة طيارة والسوارى ميرفا يوز» ونظرا للكمية الكبيرة من الكلمات والجمل الفرنسية فى إجابة تلك التونسية بالعامية التونسية، فإن ترجمة إجابتها تصبح ضرورية للناطقين بالعربية من غير التونسيين والتونسيات: (حقيقة الحفلة ممتازة. فالمغنية صوفية لها صوت جميل. إنه حقا قوى الجمال. وعلى التونسيين الافتخار بمطرباتهم. كفانا من المغنين اللبنانيين الجدد. فصوفية حقا ممتازة ممتازة والحفلة رائعة) ويعلق ابن رجب على هذا الوضع «إنها (اللهجة التونسية) الآن تتشكل شيئا فشيئا وتكتسح اللهجة الدارجة التونسية مفقدة إياها روحها وعمقها وانغراسها فى العمق الاجتماعى والشعبى. وما يزعج حقا أن لا أحد يعمل على إيقاف هذا التيار الذى يتحرك بقوة جارفا اللهجة التونسية التى يعتبرها المختصون أقرب لهجة إلى اللغة العربية الصافية» إن تلك الممارسات اللغوية التونسية تعكس بالتأكيد الكثير من التحقير للغة العربية / اللغة الوطنية. تؤكد دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية بأن اللغة الوطنية هى بطاقة التعريف لهويات الشعوب. يمثل الاتحاد الأوروبى نموذجا لاحترام لغات شعوبه وبالتالى هوياتهم.



اللغة ليست مجرد وسيلة تخاطب مع الآخرين فقط بل لها انعكاسات واسعة على هوية الأفراد والجماعات والمجتمعات



الطلبة الأجانب وتعلم العربية

يأتى الطلبة الأجانب إلى تونس لتعلم اللغة العربية فى معهد بورقيبة للغات الحية على الخصوص. تفيد اللقاءات والحديث مع هؤلاء الطلبة أن معظمهم لا يعتقدون أن البلاد التونسية هى القطر العربى الأمثل لتعلم لغة الضاد. وليس ذلك بسبب عدم كفاءة الأساتذة التونسيين فى اللغة العربية ولا فى مناهجهم البيداغوجية. وإنما بسبب موقف عام منتشر بين التونسيين يكرر ذكره هؤلاء الطلبة ويتمثل فى أن أغلبية التونسيين لا تستعمل العربية الفصحى بل اللغة الفرنسية فى الحديث مع هؤلاء الطلبة الذين يحاولون الكلام بلغة الضاد. ومن المتوقع أن تكون لهذا السلوك اللغوى التونسى انعكاسات سلبية على رغبة هؤلاء الطلبة فى تعلم اللغة العربية. فمن ناحية، لا تتحسن بالتأكيد قدرة الطالب الأجنبى فى تعلم اللغة العربية باستعمال معظم التونسيين للفرنسية بدل العربية فى الحديث معه. ومن ناحية ثانية، لا يشجع مثل ذلك الموقف هؤلاء الطلبة على تعلم اللغة العربية بسبب أن أهلها لا يرغبون حتى فى الحديث البسيط بها معهم. وقد عبر البعض من هؤلاء الطلبة على موقف التونسيين من لغتهم العربية قائلين أنه يغلب على التونسيين تحقير اللغة العربية/لغتهم الوطنية.



العلاقة الحميمة بين اللغة والهوية

ولا يقتصر الأمر هنا على وضع اللغة العربية بالمجتمع التونسى. تفيد بحوث العلوم الاجتماعية والإنسانية أن العلاقة غير السليمة بين الناس ولغتهم تؤثر على هوياتهم وانتماءاتهم الثقافية والحضارية. إذ اللغة ليست مجرد وسيلة تخاطب مع الآخرين فقط بل لها انعكاسات واسعة على هوية الأفراد والجماعات والمجتمعات[١٠]. ومن ثم، فمن الخطإ الاعتقاد أن آثار الازدواجية اللغوية كلها خير للتونسيين وغيرهم من مواطنى المجتمعات المغاربية. فالمعطيات الواقعية الميدانية لا تساند ذلك عندما تكون اللغة الأجنبية صاحبة المكانة الأولى فى قلوب وعقول واستعمالات مزدوجى اللغة. ففى هاته الحالة يولد موقف نظرة التحقير للغة الوطنية، من جهة، وتصاب هويات الشعوب بالتصدع والارتباك والتذبذب، من جهة ثانية.

ومما لا شك فيه أن القيادة البورقيبية أثرت كثيرا فى ميلاد وتصلب علاقة غير طبيعية بين المجتمع التونسى واللغة العربية. وربما يصدق قول Didrot على سياسات القيادة البورقيبية إزاء اللغة العربية «Quand on suit une mauvaise route ,plus on marche, plus on s'egare». «عندما نبدأ سيرنا فى طريق خاطئ فكلما نتقدم فى المشى نتوه أكثر».

إطار فكرى تنظيرى للبحث

بعد إلقاء الضوء على مقولة هذا البحث من خلال معطيات وتحليلات

عديدة كما وردت أعلاه، نود الآن النظر إلى إمكانية إنشاء منظور فكرى تنظيرى لموضوع هذه المقالة. وللقيام بذلك نحتاج إلى معرفة معنى النظرية فى العلوم الاجتماعية والإنسانية على الخصوص، من جهة، والمنهجية التى بواسطتها يمكن التوصل إلى بناء نظريات فى هذه العلوم، من جهة أخرى.

أما بالنسبة لتعريف النظرية، فيوجد عدد هائل من التعاريف لكلمة «نظرية» فى العلوم الاجتماعية. يعتبر أحد هذه التعاريف أن النظرية هى مجموعة من المفاهيم والفرضيات التى تهدف إلى تفسير ظواهر معينة[١١]. ويرى تعريف آخر أن النظرية الاجتماعية social theory هى محاولة لتفسير معالم الحياة الاجتماعية[١٢].

وبخصوص إقامة بناء فكرى نظرى، فتتفق خطوات مسيرة هذه الدراسة مع روح ومنهجية البحوث العلمية الحديثة فى علوم الإنسان والمجتمع. فعلى سبيل المثال، يرى علم الاجتماع وجود علاقة وثيقة بين ميلاد المفاهيم عند الباحث الاجتماعى، من ناحية، وإمكانية وصوله إلى إنشاء نظرية حول الظواهر المدروسة، من ناحية ثانية. تعرّف كلمة المفهوم فى علم الاجتماع بأنها عبارة عن مصطلح يشير إما لوجود علاقات بين الأشياء أو هى تصف خاصيات لها. ومن ثم، فالمفاهيم ليست بالأقوال التفسيرية حول الأشياء، وبالتالى فهى ليست بالأقوال الصادقة أو الكاذبة حولها بل تتمثل وظيفة المفاهيم فى تقديم مجموعة مفردات لغوية لنظرية ما وتحديد موضوعها. وعند العثور على وجود نسق فى العلاقات بين المفاهيم، فإن ذلك يبشر بظهور معالم نظرية جديدة[١٣]. وهكذا تتجلى أهمية ابتكار المفاهيم والنظريات فى تطور وتقدم مسيرة العلوم الإنسانية والاجتماعية وغيرها من العلوم. يرجع الأستاذ فريد العطاس تخلّف العلوم الاجتماعية والإنسانية فى آسيا وفى العالم الثالث بصفة عامة إلى ما يسميه بالتبعية الأكاديمية والفكرية للعلوم الاجتماعية الغربية التى يتبناها العلماء والباحثون فى المجتمعات النامية[١٤].

من الواضح أن بحثنا يقدم بعض المفاهيم المبتكرة فى دراسة المسألة اللغوية فى المشرق والمغرب العربيين. فالتعريب النفسى والازدواجية اللغوية الأمارة والازدواجية اللغوية اللوامة هى مفاهيم جديدة فى العلوم الإنسانية والاجتماعية العربية والغربية على حد سواء. وكما أشرنا سابقا، فمنظور علم الاجتماع يرى إمكانية وجود علاقة وثيقة بين ميلاد المفاهيم وإنشاء النظريات. فحسب تعريف النظرية المشار إليه أعلاه، فإن النظرية الاجتماعية هى إطار فكرى يساعد على تفسير ظاهرة أو أكثر فى المجتمع. ومن ثم، فهل يمكن الظفر بنظرية ذات علاقة وثيقة بالمفاهيم الرئيسية الجديدة فى هذا البحث وقادرة فى نفس الوقت على تفسير وضع اللغة العربية المتردى فى المشرق والمغرب العربيين؟ فالطريق إلى إنشاء نظرية من هذه المفاهيم تنطلق من البحث عن نوعية العلاقة التى يمكن أن توجد بين التعريب النفسى وكل من مفهومى الازدواجية اللغوية الأمارة والازدواجية اللغوية اللوامة. وللتعرف على طبيعة تلك العلاقة دعنا نحدد نوعين من التعريب النفسى:

١ ـ التعريب النفسى العادى والمتمثل فى وجود علاقة حميمة قوية فى المجتمع العربى بين المواطنين واللغة العربية/الوطنية. وهذه هى العلاقة الطبيعية بين الشعوب ولغاتها الوطنية.

٢ ـ التعريب النفسى الضعيف الذى يوجد بسبب ضعف أو فقدان العلاقة الحميمة القوية بين العرب ولغتهم الوطنية. ويرجع ضعف التعريب النفسى خاصة فى المجتمعات المغاربية إلى أكثرمن سبب:

أ ـ تعلم لغة أجنبية/الفرنسية وإتقانها أفضل من اللغة الوطنية/العربية.

ب ـ تمثل اللغة الأجنبية/الفرنسية لغة المستعمر أثناء الاستعمار وفى عهد الاستقلال.

جـ ـ تمتع اللغة الأجنبية/الفرنسية بسمعة ومكانة اجتماعية أفضل من اللغة الوطنية/العربية. فحضور اللغة/اللغات الأجنبية مع اللغة العربية بتلك الصفات الثلاث يفترض أن يكون عامل تشويش وإرباك لعلاقة المغاربيين باللغة العربية/الوطنية[١٥]. وكنتيجة لذلك، يلاحظ أن أسباب التعريب النفسى الضعيف (أ، ب، جـ) تقترن بوجود الازدواجية اللغوية الأمارة. أى أنه كلما كان التعريب النفسى ضعيفا وهشا لدى المواطنين المغاربيين كلما كان جنوحهم إلى الازدواجية اللغوية الأمارة قويا وجذابا كما شرحنا ذلك خاصة فى الحالة التونسية. والعكس صحيح : كلما كان التعريب النفسى قويا لدى أفراد المجتمعات المغاربية (كما هوالحال عند المتعلمين والمثقفين الزيتونيين فى تونس) كلما كانت الازدواجية اللغوية اللوامة قوية الحضور وسائدة لدى الأغلبية الساحقة فيها. وبعبارة أخرى، فهاتان الازدواجيتان اللغويتان هما نتيجتان لقوة أو ضعف التعريب النفسى لدى الأفراد والجماعات والطبقات الاجتماعية والمؤسسات فى المجتمعات المغاربية. فالفرضية المطروحة هنا ترى أن العلاقة بين التعريب النفسى والازدواجيتين اللغويتين هى من نوع العلاقة السببية. أى أن ضعف أو قوة التعريب النفسى هو المحدد وبالتالى المفسر لطبيعة الازدواجية اللغوية السائدة فى المجتمعات المغاربية. وبالتأكيد توجد كذلك علاقة سببية متينة بين ضعف التعريب النفسى واستمرار كتابة الشيكات والإمضاءات ورسائل الهواتف الجوالة باللغة الفرنسية من طرف أغلبية التونسيين والجزائريين والمغاربة. والقائمة طويلة للسلوكات اللغوية المهينة للغة العربية التى يؤثر فيها بقوة عامل ضعف التعريب النفسى لدى هؤلاء المواطنين العرب. إذن، فهناك مشروعية صلبة لتبنى فكرة التعريب النفسى كإطار فكرى/نظرية لتفسير العديد من الظواهر اللغوية التى يعرفها العالم العربى اليوم ضد أو لصالح لغة الضاد. ويجوز تلخيص مقولة نظرية التعريب النفسى فى هذا البحث بشىء من التصرف فى بيت أحمد شوقى:

صلاح أمر لغة الضاد للتعريب النفسى مرجعه

فياليتنا نقوم به تردى حال لغتنا فتستقم ■



هـــــوامــــــش

(١) نظرا لوجود بعض الاختلاف فى مشاكل اللغة العربية فى الأقطار العربية، نرى من المناسب جدا أن تطلب الألكسو من مواطنى المغرب العربى أن يكتبوا شيكاتهم فى أول مارس ٢٠١١ بالحروف العربية تحسيسا لهم. انظر أيضا: اللسان العربى وإشكالية التلقى/ سلسلة كتب المستقبل العربى ٥٥ ، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية ٢٠٠٧.

(٢) تقود السيدة سوزان تلحوق جمعية فعل أمر بلبنان لتوعية الشباب العربى لكى لا يخجل من لغته.

(٣) جحفة، عبد المجيد ، تقرير عن ندوة الأبعاد السياسية للإشكالية اللغوية فى المنطقة المغاربية، المستقبل العربى، العدد ٣٥٣ ، ٢٠٠٨ ص ١٤٩ ـ ١٥٨.

(٤) نضع كلمة التونسيات قبل التونسيين ونظيرتيها بالجزائر والمغرب بسبب اكتشافنا أن المرأة التونسية والجزائرية والمغربية يميل سلوكها اللغوى أكثرمن سلوك نظيرها الرجل إلى الرغبة فى استعمال اللغة الفرنسية. انظرآخر دراساتنا لهذا الموضوع فى الآداب /٣.٢.١ / ٢٠١٠ ص ١٧.

(٥) إن الدراسات الغربية حول الازدواجية اللغوية لاتذكر فى العادة عامل الاستعمار فى تشكيل طبيعها مثل ما هو الأمر فى الازدواجية الأمارة، كما سيتضح ذلك فى هذا البحث. انظر هذا الكتاب المرجع الذى تغيب فيه الإشارة إلى الاستعمار فى فصوله حول الازدواجية اللغوية.
Handbook of Bilingualism/ J.Kroll, A.De Groot (Editors) Oxford, Oxford University Prss 2005.

(6) Alatas, F., Alternative Discourses in Asian Social Science⁄: Responses to Eurocentrism, New Delhi, Sage Publications, 2006.

(٧) الذوادى ، محمود ، اللغة الفرنسية فى المغرب العربى ، غنيمة حرب أم استلاب هوية ؟ المستقبل العربى ، العدد ٣٦٨ ، أكتوبر ٢٠٠٩ ، ص ٧٢ . ٨٥ .

(8) Abdelilah –Bauer, B., Le défi des enfants bilingues, Paris, La Découverte, 2008.

(٩) الذوادى، محمود ، التخلف الآخر: عولمة أزمة الهويات الثقافية فى الوطن العربى والعالم الثالث، تونس ، الأطلسية للنشر ٢٠٠٢.

(١٠) جوزيف جون : اللغة والهوية : قومية ، إثنية، دينية ، الكويت ، عالم المعرفة ، العدد ٣٤٢ ، ٢٠٠٧

(11) Dortier, J.F, Le dictionnaire des sciences humaines, Auxerre Cedex, 2004, p.812

(12) Encyclopedia of Sociology, Guilford, Conn/USA, 1974, p.274.

(١٣) المصدر السابق ، ص ٥٥.

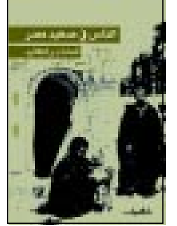
(١٤) Alatas مصدر سابق ، ص ٥٧ ـ ٧٩

(١٥) ميدانيا يلاحظ هذا التشويش والإرباك للعلاقة الحميمة/التعريب النفسى مع اللغة العربية/الوطنية لدى ثلاثة أصناف من المتعلمين التونسيين مزدوجى اللغة (عربية فرنسية) فى عهدى الاستعمار والاستقلال، ويتمثل هؤلاء فى الفترة الاستعمارية فى: ١ . الصادقيين الذين يعرفون اللغتين بشىء من التساوى ٢ ـ خريجى المدارس الفرنسية الذين لا يكادون يعرفون اللغة العربية. ٣ ـ خريجى المدارس التونسية العامة بعد الاستقلال والذين يتصف مستوى معرفتهم للفرنسية بالضعف. تصلح العوامل أ . ب، جـ فى المتن لتفسير فقدان التعريب النفسى لدى الأصناف الثلاثة رغم اختلاف تكوينهم اللغوى المزدوج.

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

الناس فى صعيد مصر.. العادات والتقاليد

تأليف: وينيفريد بلاكمان
ترجمة: أحمد محمود
القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠ ، ٣٣٢ صفحة



هذا الكتاب لا يمثل سوى جزء من العمل الذى قمت به أثناء إقامتى بمصر التى دامت ست سنوات. كنت أقضى سنوياً ستة أشهر. تقريباً. وأنا أعيش معيشة كاملة بين الفلاحين. وأحب أن أوضح لقرائى أن العادات والمعتقدات، والأسلوب العام للحياة، كما جاءت فى هذا الكتاب، لا تمثل إلا الفلاحين وحدهم. فقد تخلصت الطبقات العليا من كل ذلك منذ زمن طويل. وهذه العادات والمعتقدات لها قيمتها الكبيرة فى حد ذاتها. ولكن كون معظمها شديد القدَم، يجعل دراستها وتسجيلها بصورة صحيحة أمراً لا بد منه. لقد ألقت أبحاثى الضوء على نقاط ظلت قبل ذلك غامضة لدارسى مصر القديمة. لذا فكل أملى فى ألا يكون هذا الكتاب إسهاماً فى علم الأنثروبولوجيا فحسب، بل كذلك مساهمة منى فى علم المصريات.

إن هدفى هو وصف حياة سكان وادى النيل المحدثين بأبسط ما يمكن، مع أخذى فى الاعتبار الابتعاد عن اللغة الاصطلاحية. فغرضى من كتابة هذا الكتاب هو مخاطبة الجمهور العام الذى أقدم له وصفاً مقروءاً، وصحيحاً فى الوقت ذاته، عن فلاحى مصر.

■

تاريخ النقود فى نهاية العصر العباسى خلال فترة بدر الدين لولو

هشام البساط
مركز دراسات الوحدة العربية
٢٠١٠



فى أواخر العصر العباسى الأول، تغير وضع ضرب النقود، حيث تعددت دُوُر السك، وأصبح سكّ النقود غير خاضع للسلطة المركزية فى بغداد. وقد ترافق هذا مع نشوء بعض الدويلات الإسلامية، التى راحت تضرب نقودها الذهبية، أو الفضية، أو النحاسية، الخاصة بها، لكنها استمرت بالمحافظة على ذكر اسم الخليفة العباسى، مع ذكر الحاكم المحلى، ولقبه على نقودها.

وهذا الكتاب، يسلّط الضوء على مرحلة من مراحل ضرب النقود الإسلامية، خلال فترة حكم بدر الدين لولو (٦٣١ - ٦٥٧ هـ / ١٢٣٣ - ١٢٥٨ م) الذى كان حاكماً لإمارة الموصل. وقد ربط الكتاب بين تطور عرفه ضرب النقود، ودراسة أضاءت، لأول مرة، تاريخ بدر الدين لولو الذى كان رقيقاً، ثم أصبح مملوكاً لدى نور الدين أرسلان شاه (الأول)، ثم وصياً على ابنه الملك القاهر مسعود (الثانى)، ومن بعده على ولدَى القاهر، القاصرين. وبعد موتهما، أصبح لولو أتابكاً على الموصل؛ فنقش اسمه على النقود، مجاوراً أسماء آخر الخلفاء العباسيين: المستنصر ثم المستعصم. كما جاور نقش اسمه الملوك الأيوبيين: الكامل والأشرف والصالح نجم الدين أيوب والناصر يوسف (الثانى)، إضافة إلى اسم سلطان سلاجقة الروم كيخسرو بن كيقباء (الثانى)، وأخيراً الحاكم المغولى منكوقاآن الأعظم.

دراسة شيقة، شغوفة بدراسة شخصية بدر الدين لولو فى بيئتها السياسية والثقافية والاجتماعية، وفى مراحل حكمها، من خلال دراسة النقود التى ضربت فى ذلك التاريخ الحافل بالأحداث المتسارعة والمصيرية.

■

دفاعا عن العقل

خالد منتصر
دار العين للنشر
٢٠١٠ - ١٧٣ صفحة



وصف «أبو العلاء المعرّى» العقل بأنه الإمام الناطق فى الكتيبة الخرساء، وبحثًا عن هذا الإمام الغائب كُتبَ هذا الكتاب الذى هو حصيلة معارك خاضها «خالد منتصر» دفاعاً عن العقل والتنوير والمنهج العلمى فى التفكير، وذلك فى عموده الصحفى بجريدة المصرى اليوم، كان الهجوم على المقالات من قوى التخلف شرسًا وعدوانيًا، ولكنه تحمل وواجه فمعركة الدفاع عن العقل لم تعد ترفًا بل صارت قضية حياة أو موت، فعندما يتحول التطرف من ضيف عابر إلى صاحب بيت، وعندما يتحول خفافيش الظلام من قتل المفكر إلى قتل التفكير، تصير الكتابة قبضاً على الجمر وسيراً فى حقل الألغام، ولكن قد آن الأوان لأن ننقذ العقل ونداقع عن وجوده، ولانهتم باتهامات البعض بأننا نصدمهم، فأحيانًا تعالج الصدمات الكهربائية مرضى الفصام أو الشيزوفرينيا، وأحيانًا يستخدم الديناميت لشق الطرق وسط الجبال، وهذا الكتاب يطرح علامات استفهام من الممكن أن تستفز البعض وتقلقهم، ولكنه «استفزاز» التغيير للأفضل، وقلق الخوف على المستقبل.

فهل حقًا سينطق إمام العقل فى كتيبتنا الخرساء؟

■

المشروع النهضوى العربى

مركز دراسات الوحدة العربية
٢٠١٠



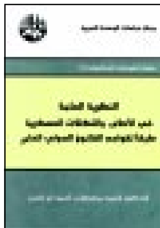
بدأت فكرة المشروع النهضوى العربى فى التبلور منذ عام ١٩٨٨ فى أعقاب انتهاء مركز دراسات الوحدة العربية من إنجاز مشروعه العلمى الكبير الذى حمل اسم «مشروع استشراف مستقبل الوطن العربى»، وطرحت توصياته الحاجة إلى مشروع نهضوى. وقد عقد المركز ندوة فى هذا الخصوص فى فاس عام ٢٠٠١ شارك فيها ما يزيد على المائة باحث من كافة التيارات الفكرية تناولت بحوثها ومناقشاتها القضايا النهضوية الست التى تشكل أهداف المشروع وهى الوحدة العربية، والديمقراطية والتنمية المستقلة، والعدالة الاجتماعية، والاستقلال الوطنى والقومى، والتجدد الحضارى.

ثم استغرق الأمر عقداً من الزمن تقريباً للانطلاق من أعمال هذه الندوة نحو الصياغة النهائية للمشروع مع الحرص على مشاركة مئات من المفكرين والمثقفين والباحثين العرب بإبداء الرأى فيه بحيث جاء عملاً جماعياً بامتياز يخرج اليوم إلى النور فى كُتَيِّب، يحمل اسمه، صادر عن مركز دراسات الوحدة العربية. ويتضمن المشروع فى صياغته ثمانية فصول، يتحدث أولها عن ضرورة النهضة فى مواجهة التراجع العربى العام وغياب مشروع نهضوى عربى معاصر، ثم تتناول الفصول الستة التالية الغايات النهائية للمشروع وقد تحددت بالتجدد الحضارى، والوحدة، والديمقراطية، والتنمية المستقلة، والعدالة الاجتماعية، والاستقلال الوطنى والقومى. ويظهر إمعان النظر فى هذه الفصول الستة كيف تمثل تجديداً حقيقياً فى الفكر القومى العربى يستند إلى ثوابت الأمة ومنطلقاتها، ثم يأتى الفصل الثامن والأخير ليتحدث عن آليات تحقيق المشروع سواء من منظور القوى الاجتماعية والسياسية التى يمكن أن يستند إليها، وكذلك الوسائل النضالية التى يجب أن يلجأ لها، أو من منظور الآليات التى من شأنها تجسيد المشروع النهضوى فى الواقع العربى. ويثق مركز دراسات الوحدة العربية من أن طرح هذا المشروع فى المرحلة الراهنة التى تجابه فيها الأمة تحديات خطيرة سوف يكون دافعاً قوياً لنضال أبنائها وقواها الحية من أجل تجسيد أهدافه الستة فى الواقع العربى، وناظماً فعّالاً لهذا النضال.

■

النظرية العامة فى الأحلاف والتكتلات العسكرية طبقاً لقواعد القانون الدولى العام

السيد مصطفى أحمد أبو الخير
مركز دراسات الوحدة العربية
٢٠١٠ ـ ٤٠٠ صفحة



تُعدُّ الأحلاف والتكتلات العسكرية أول لَبِنَة فى بناء التنظيم الدولى؛ فهى كانت أول صورة من صور التنظيمات الدولية. وقد أُطلق على العصر الذى نعيشه: «عصر التكتلات الدولية»، وهو الذى مثلت الأحلاف العسكرية نواته، لأن مصطلح «الأحلاف العسكرية» من مصطلحات القرن الماضى. أما فى عصرنا الحالى، فقد تمّ استعمال مصطلح «التكتلات العسكرية»، وأطلق البعض على هذا العصر: «عصر التكتلات الدولية».

وقد تضمَّن الكتاب ثلاثة أقسام؛

اختص الأول منها بدراسة الأحلاف والتكتلات العسكرية فى القانون الدولى العام، من حيث التعريف والأنواع. وانتهى إلى أن التكتل العسكرى عبارة عن عصبة أيديولوجية عسكرية تعمل حتى فى أوقات السلام، وفى جميع مجالات الحياة، بخلاف الحلف الذى يعمل عسكرياً، فى وقت الحرب فقط. واختص القسم الثانى بدراسة حلف شمال الأطلسى (الناتو)، بدءاً بميثاقه، ثمَّ عضويته فى أثناء الحرب الباردة وبعدها. وخلص الباحث، هنا، إلى أن انتهاء الحرب الباردة أثر فى هذا الحلف فجعله أكثر مرونة واتساعاً، كما تغيَّرت وظيفته، من الدفاع إلى الهيمنة والسيطرة. وعُنى القسم الثالث بدراسة التحالفات الدولية الجديدة إبّان حربى الخليج الثانية والثالثة.

ويذهب الباحث إلى أن «التكتلات العسكرية»، رغم أهميتها، لم تنل من الدراسة فى القانون الدولى العام ما يناسبها؛ وأن الفقه الدولى فرّق بين الأحلاف والتكتلات العسكرية، وأن هذه الأخيرة شهدت تغييراً فى وظيفتها من الدفاع إلى الهيمنة والسيطرة، وأن التحالفات الدولية الجديدة لم تلتزم بقواعد القانون الدولى العام، وأنها انحرفت بقرارات المنظمة العالمية عن أهدافها الأساسية، لتحقيق أهدافها الخاصة، الأمر الذى أدىَ إلى انتهاك الشرعية الدولية.

■

أيام العرب الأواخر
أساطير ومرويات شفهية فى التاريخ والأدب

من شمال الجزيرة العربية

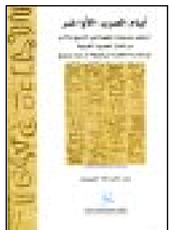
مع شذرات مختارة من قبيلة آل مرة وسبيع

سعد عبد الله الصويان

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

٢٠١٠

٩٥٣ صفحة



هذا الكتاب هو عبارة عن سوالف ومرويات شفهية بدأ المؤلف بتسجيلها منذ عام ١٩٨٢ واستمر عدة سنوات، إذ استطاع أن يجمع مادة غزيرة وصلت إلى مئات الساعات وبلغت آلاف الصفحات.

لقد تطرّق الباحث فى كتابه، أيام العرب الأواخر، إلى قبائل لم يسبق أن تطرّق إليها أحد قبله، وخصوصاً ما يتعلق ببعض قبائل الشمال.

وهكذا تضافرت الوسائل والجهود، وتواجد الإخباريون الأكفّاء الذين لم يترددوا فى الإدلاء بما لديهم من سوالف وقصائد ومعلومات، انطوت عليها صفحات كتابنا هذا، بكل ما فيها من توالى الأجيال وحقب التاريخ والتغيّرات الثقافية والاجتماعية واللغوية.

وعلى الرغم من الصعوبة التى قد يجدها القارئ فى فهمه لهجة هذه المرويات والسوالف، أو حتى تصوّر الحياة والبيئة التى تتحدث عنها، إلا أن هذا لن يقلّل من الأهمية العلمية لجمع مثل هذه المادة واستكشاف مواطن الجمال فيها وتذوقها فنياً وأدبياً.

■

فريدة ملكة مصر

تأليف: فاروق هاشم

القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠ ، ٤١٠ صفحة



التقى الكاتب بالملكة المصرية «فريدة» عندما كان يعمل مستشاراً بسفارتنا المصرية بلندن فى يونيو ١٩٧٦ عند افتتاح مهرجان حضارة العالم الإسلامى الذى افتتحته الملكة إليزابيث ملكة إنجلترا وكان الكاتب ممثلا لبلاده للإعداد لهذا الحدث العالمى.

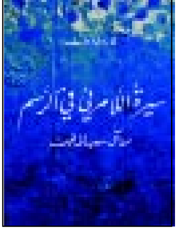
تعددت اللقاءات والأحاديث والأسفار على مدى سنوات فى عواصم عديدة من العالم فكانت هذه الصفحات التى يضمها هذا الكتاب تروى فيها فريدة قصتها مع الحب والعرش والفن لحقبة من أهم الفترات فى الحياة المصرية عاشتها فريدة زوجة للملك فاروق ورافقته أحد عشر عاماً تجلس بجواره على عرش مصر.

وفى هذا الكتاب أيضًا تسلط الضوء على القضايا السياسية ورجالها والصراعات الحزبية وزعمائها، وكذلك تروى فريدة كيف واجهت الحياة بعد الطلاق من الملك فاروق واشتغالها بالفن، وتصف أحزانها وقلقها لبعدها عن بناتها الأميرات وعلاقاتها برؤساء مصر بعد الثورة.

إن أهمية هذا الكتاب أن الملكة وثقت بالكاتب، وارتبطا بصداقة عائلية متينة ففتحت قلبها وعقلها لتحكى كل أسرار حياتها منذ طفولتها حتى لقاء ربها، وتكلمت بكل صراحة ولم تُخفِ شيئًا أو تتحفظ على سر وهى التى رفضت قبل ذلك عشرات العروض للحديث من كتّاب مصريين وعرب وأجانب.

والكاتب المستشار فاروق هاشم شارك فى الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر، وله اهتمامات بقضايا المجتمع المصرى والعربى والإسلامى، وتقلد عدة مناصب فى الداخل والخارج، وزار معظم

قراءة فى تاريخ الحركة التشكيلية الحديثة



سيرة اللامرئى فى الرسم من آل سعيد إلى هيمت

فاروق يوسف

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

٢٠١٠ بيروت - عمان

عدد الصفحات ٢٠٨

يتناول هذا الكتاب الذى وضع نصه الناقد التشكيلى فاروق يوسف علمين بارزين فى الحركة التشكيلية العراقية المعاصرة هما الفنان الراحل شاكر حسن آل سعيد والفنان هيمت محمد على المقيم فى باريس (من أصل كردى).

يستعرض الكاتب هذه العلاقة الفريدة التى جمعت بين الفنانين شاكر حسن آل سعيد بهيمت محمد . وعلى ضوء قراءته لهذه العلاقة أعاد قراءة تاريخ الحركة التشكيلية الحديثة، فوضع فى كفّة التجارب الفنية التى شقّت، فى ريادة جواد سليم، وهو أبو الحداثة العراقية بامتياز، طريقاً نحو الحداثة ومفاهيمها، وفى الكفة الأخرى وضع حداثة شاكر حسن وريادته. من هذه البدايات - عند مطلع الخمسين من القرن الماضى - نشأت علاقة جواد سليم ابن مدينة بغداد بشاكر حسن آل سعيد القادم من ريف السماوة، وهو ما يمثّل لدى فاروق يوسف لقاء البرجوازى ابن المدينة (جواد) بالريفى شاكر . فى ضوء هذه الحقيقة، يبنى فاروق قراءته الفنية والأسس الجمالية التى اعتمدها كل منهما من منظور تاريخى اجتماعى. بعدها يتناول الكاتب تجربة شاكر حسن ورسومه ورؤاه الفكرية والجمالية بدءاً من تصويره الموضوعات الشعبية والريفية، وعنايته الخاصة بالزخارف، إذ: «ظل عاكفاً على توتر عالمه الداخلى ورؤى أبطاله الذين يقفون بحيرة بين منطق الشك واليقين». لا بد من التنويه هنا بأن هذه البدايات المميّزة التى وضعت شاكر حسن فى مساواة مع تجربة جواد التى تسبقه بسنوات، أن شاكر قد توصل إلى صياغة تجربته الفذّة الأولى من خلال ارتباطه بجواد صديقاً وزميلاً نداً ومعلّماً ومنظّراً. لكنه، بفطنته وموهبته وثقافته، مضى يبنى عالمه الفنى الخاص ويبلور مفاهيمه بمعزل عن التيارات الأخرى التى سادت الوسط الفنى العراقى. ولعل فاروق يوسف، فى معرض مقارنته بين جواد سليم وشاكر حسن آل سعيد، يضع يده على المفصل حين يؤكد «الفرق العميق بين رؤية جواد البصرية الخارجية ورؤية آل سعيد الباحثة عما وراء الصورة بتوجهها الميتافيزيقى».

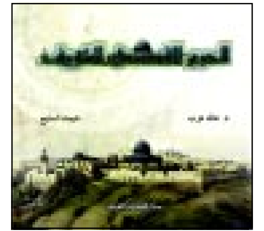
فتجربة شاكر حسن بحسب قول الكاتب: «جمالياً، تقيم فى مكان أمين لا يجمعه بأحد. وحين نشر بيانه التأملى فى ١٩٦٦ اتسعت الهوّة التى تفصله عن بقية مكوّنات المشهد الفنى فى العراق». ثم يقول: «تجربة آل سعيد الفنية وحدها ظلت بعيدة... لأنها تقيم فى مكان آخر غير ذلك المكان المرئى الذى كانت فيه التجارب الفنية تتناسل وتتلاقح وتتكاثر» يخلص فاروق يوسف، الذى ربطته علاقة وثيقة بشاكر، إلى أن: «آل سعيد لا يرى بعينه المباشرة... اليد لا ترسم هى التى تعيد نتاج مشاهد لم ترها العين بل عاشها الجسد بشغف روحى ووله هذيانى... الرسم لديه عبارة عن مهارة بصرية تخترق المرئى إلى ما يليه من مشاهد تتشكل فى الخفاء من غير أن تشير إلى مصادرها». فالتعاويذ والطلاسم والأوفاق والخروق والحروق، وما زخر به سطح لوحة آل سعيد جميعها وسائل للبحث عما وراء سطح الأشياء. ويقف الباحث عند تجربة البعد الواحد وقيمتها التاريخية والفنية فى تجربة آل سعيد. كان آل سعيد يومها يسعى لزعامة فنية لم تلق استجابة لما فيها من تأويل خاص ذى بعد دينى. ويرى فاروق يوسف أن آل سعيد مضى فى نظريته لمسألة البعد الواحد إلى أمداء قصيّة يوم «رأى العدم بصفته وجوداً... إنه قوّة المطلق: البعد الواحد هو الله فى وحدته... وهو مفهوم إلهامى غامض لا يمكن القبض عليه من خلال سطح تصويرى». يستند فاروق يوسف فى قراءته لأعمال شاكر حسن إلى أدبيات شاكر التى رأى فيها كشفاً لأسرار فنه ومصادر وحيه: ... «لم يكن يعنيه المحيط الذى يعيش فيه إلا بقدر ما كانت هذه الإشارات العابرة والعفوية تستهويه». من أجل ذلك كان أبداً مستغرقاً فى تأملاته وأفكاره يبحث عن ذلك الهارب المتخفى من الظواهر. ظلّ آل سعيد بلا أتباع وتلاميذ حتى ثمانينيات القرن الماضى، عندما التقى هيمت محمد على، يومها: «شعر شاكر بشىء من الأمل، شىء له علاقة بما كان ينتظره منذ زمن طويل، رسام لا يشبهه غير أن رسومه تستجيب لرؤاه». جاء من مدينته كركوك إلى بغداد قاصداً التعرف إليه، ومن بعد واظب على مراجعته شهرياً. كان نتيجة ذلك التواصل أن تبنى شاكر حسن آل سعيد تجربة هيمت وسعى إلى تقديمها فى معرض شخصى أقيم فى قاعة الرشيد فى بغداد ١٩٨٢، وكان أول معرض شخصى لهيمت. هكذا يدخل هيمت وفن هيمت مدار بحث فاروق يوسف، وإذ يتلمس خيوط الوشائج التى تربط بين الاثنين بعقد مقارنات بينهما، متوصلاً إلى أن: سطوح شاكر تنم عن مراجع ثقافية معرفية، أما سطوح هيمت فمرجعها الطبيعة: وكلاهما مرآة خيال المكان. السطح لدى شاكر مجموعة متراكبة ينزلق بعضها على البعض الآخر؛ سطح هيمت مجموعة متجاورة ينزلق بعضها على البعض الآخر. وفى كلا الحالين هى سطوح غير ساكنة ولا نهائية بل تتقاطع وتتداخل حدودها بدعة. كلاهما أدرك أن الوهم الذى يطاردان أشباحه لا يقيم فى صورة المكان بل فى أعماق مرآة خيال ذلك المكان. أحدهما، شاكر، يحفر فى السطح ويغور ويثقب ويحرق بحثاً عن الماوراء، والثانى، هيمت، يقيم سطحاً يبنى فوقه ويكرر ويصقل. الإيقاع فى بناء السطح التصويرى لدى شاكر إيقاع تكرارى حزين بكائى حسينى له بعد تاريخى معرفى، أما إيقاع هيمت فهو تكرارى غنائى صادر عن وله عفوى بالطبيعة وبخيالها. هيمت لديه تنوع موسيقى بإيقاعات مختلفة، غنائيات لا تقطعها الأسئلة. كلاهما كائنان ريفيان قدما حاملين حلولاً جمالية لمشكلاتنا الجمالية المستعصية. هيمت استلهم من شاكر ذلك التشبث الشاعرى بما هو عصى على النظر والتفسير والتأويل المباشر. شاكر انتهى فى تجربته إلى اتخاذ موقف عدائى من المعنى، أما هيمت فقد بدأ تجربته الفنية متأثراً بما وصل إليه المعلّم. كلاهما مسحور بفكرة أن الجمال لا يقيم فى هيئة بعينها: وكلاهما يروح ويجىء بين الأبدية والزوال. هكذا يريد فاروق أن يقول إنهما تجربتان متعاقبتان أصيلتان ومتكاملتان لا تتقاطعان، إحداهما تدعم الأخرى وتكملها. ولعل فاروق مثل شاكر وهيمت، حين يتطلع إلى الشىء المرئى لا يرى ما يظهر منه على السطح بقدر ما يبحث عن الغائر فيه والغائب عنه. فهو الشاعر الممسوس بروح الشعر أبداً يبحث عن الهارب اللامرئى. تلك هى روح الشىء المتخفى وسر حيويته. ليس من الغريب إذاً أن يبدع نصاً يتمتع بهذا القدر من الجدّة والعمق. يسترسل فاروق يوسف بنصّه مستمتعاً بلغته التى تحاول الغوص فى مكنونات أسرار الجمال لدى هيمت، وفى معضلة الغياب والحضور لدى شاكر حسن آل سعيد، ليترك بين يدينا نصاً غنياً بلغته وأفكاره واكتشافاته وهو يحاول أن يمسك ما لا يمكن الإمساك به متماهياً فى ذلك مع هيمت فى رسم ما لا يرسم وشاكر حسن فى تصوير ما لا يصوّر.

دول العالم وشارك فى الكثير من المؤتمرات، وتشرف بمقابلة العديد من الملوك والرؤساء والمسئولين فى هذه الدول.

■

الحرم القدسى الشريف

إعداد: د. خالد عزب، شيماء السايح
دار الكتاب العربى،
بيروت لبنان، ٢٠١٠
عدد الصفحات: ٨٣ صفحة.



توالى الاهتمام بالحرم القدسى الشريف منذ عهد خليفة أمير المؤمنين عمر ابن الخطاب، وفى العصر الأموى حيث بناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وقد ظل اهتمام خلفاء بنى العباس به، إلا أنه تعرض لانتكاسة معمارية مع الحروب الصليبية، ليعود له بريقه مع فتح صلاح الدين للقدس وتحريرها من الصليبيين، ويستمر هذا الاهتمام لتشهد مدينة القدس أوج ازدهارها العمرانى والمعمارى فى العصر المملوكى، ليضاف إلى الحرم القدسى مدارس وأسبلة ومنشآت لخدمة زوار الحرم ولتعزيز العلم به؛ هذا مايتناوله كتاب «الحرم القدسى الشريف» والذى يتناول فى مقدمته وصفاً مفصلاً عن تاريخ مدينة القدس وتطور الحياة العلمية بها، وقد ورد ضمن تلك المقدمة أبرز المؤسسات التعليمية فى القدس، ومنها المدرسة النصرية والمدرسة الوفائية، والمدرسة الكريمية وغيرها من المدارس وموقع كل منها، كما تناول هذا الجزء أبرز علماء مدينة القدس فى الطب والرياضيات وعلم التصوف ونبذة عن أشهر مؤلفاتهم.

ثم تنطلق صفحات الكتاب لتسرد لنا روعة عمارة الحرم وما يتضمنه من منشآت معمارية جاء على رأسها عمارة «المسجد الأقصى» متناولة تاريخ بنائه وتكوينه المعمارى، تلا ذلك وصف مفصل لعمارة قبة الصخرة «قلب الحرم القدسى» مستعرضاً زخارفها ونقوشها الكتابية، كذلك حفظ لنا هذا الكتاب بين طياته وصفاً لعدد من المنشآت المعمارية الإسلامية التى يضمها الحرم القدسى الشريف والتى بنيت على فترات تاريخية مختلفة، ومنها الأسبلة كسبيل السلطان سليمان، وسبيل قايتباى، والقباب كقبة سليمان وقبة المعراج وقبة السلسلة، والمآذن والتى منها مئذنة الغوانمة ومئذنة السلسلة والمئذنة الفخرية، بالإضافة إلى عدد هائل من المدارس كالمدرسة الفارسية والمدرسة الأشرفية، وغيرها من الأبنية والعناصر المعمارية التى ألحقت بالحرم القدسى الشريف كالمصلى المروانى، والكأس الذى يقع بين المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وصهريج الملك المعظم، ومنبر برهان الدين الذى يقع فى صحن قبة الصخرة، وجامع النساء الذى أنشأه السلطان الناصر صلاح الدين، والزاوية الختنية، ودار الخطابة، والخانقاة الفخرية، ومهد عيسى، بالإضافة إلى أبواب الحرم كباب الحطة أقدم أبواب الحرم، وباب القطانين، وباب المطهرة، وباب العتم الذى دخل منه الخليفة عمر بن الخطاب للقدس، وحائط البراق، وأخيراً فقد ألحق بهذا الكتاب مجموعة هائلة من اللوحات والصور الملونة والمخططات والمساقط توضيحاً لكل منشأة معمارية وردت ضمن صفحات هذا الكتاب، بالإضافة إلى عدد من صور الرحالة الذين زاروا القدس فى فترات زمنية مختلفة عبروا من خلالها عن عبق التاريخ الإسلامى المتواصل بها.

■

حقيبة الرسول

محمد صالح البحر
دار العين للنشر
٢٠١٠
١٣٤ صفحة



من رواية حقيبة الرسول للكاتب محمد صالح البحر.

«ما الذى أفعله وحيداً فوق سن الجبل بعد فراغ الحدوتة؟

أأبحث عن الخلاص وأتأمل فى فراغ الحكاية، مَنْ يستطيع الجزم بفراغ الحدوتة واهم حقيقى، إذ ليس للحكايات أن تنتهى، إنها فعل ممتد فى الزمن، فعل مواز لفعل التاريخ، والتاريخ لا ينتهى أبداً، تأخذنى الحكاية كما يأخذنى الحنين، وتجرنى كما تجرنى الذكرى إلى بحور لزجة لا تفضى إلا إلى الموت، وليس من سبيل للخلاص سوى الصدق مع النفس مجدافا مركب وطوق نجاة.

شَدَّنى أبى إلى الجبل وهو يَدَّعى أن الرؤية الشاملة من فوقه، لكن مريم ربطتنى إليه بسلسلة حديدية أتمنى ألا فكاك منها، وقالت:

انْظُر بشكل صحيح فأنتَ صاحب العينين وحر فيما ترى».

محمد صالح البحر

روائى وقاص وكاتب سيناريو من مواليد قنا ١٩٦٨، له مجموعتان قصصيتان هما «أزمنة الآخرين» ١٩٩٩ عن الهيئة العامة لقصور الثقافة، و«ثلاث خطوات باتجاه السماء ٧ وروايات أخرى عديدة»

■

سلمى وليلى

قصة لجلالة الملكة رانيا العبدالله مع كيلى ديبوتشيو
رسومات: تريشا توسا
القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠ ، ٣٢ صفحة



كانت سلمى وليلى صديقتين حميمتين، وكانتا تحبان الأشياء نفسها، وكانتا دائما تتناولان الغداء معا. ولكن ليلى تأكل زبدة الفول السودانى، بينما تأكل سلمى الحمص. هل يمكن أن يؤثر الأكل على صداقتهما؟ نعم، ففجأة بدأت معركة طعام فى المدرسة!

فى هذه القصة الرقيقة تحكى جلالة الملكة رانيا مع كيلى ديبوتشيو قصة مستوحاة من طفولة جلالة الملكة.

من الساندويتشات فهمت سلمى وليلى معنى التسامح وقبول الآخر، فالتفاصيل الصغيرة قد تفرق بيننا، لكن الصداقة أقوى من أى اختلاف.

■

تأثير الفكر الناصرى على الخليج العربى، ١٩٥٢ - ١٩٧١

نور الدين بن الحبيب حجلاوى
مركز دراسات الوحدة العربية
٢٠١٠ ـ ٣٥٤ صفحة



يتضمن هذا الكتاب جهداً للتعرف إلى مدى تأثير الفكر الناصرى وإنجازات ثورة تموز/يوليو المصرية فى منطقة الخليج العربى على المستويين الشعبى والرسمى، أو بعبارة أخرى يمكن أن نلخص هذه الدراسة فى الإجابة عن السؤال التالى: إلى أى مدى أسهم الفكر الناصرى فى إيقاظ الحس الوطنى والشعور القومى ضد الاستعمار الغربى بشكل عام، والوجود البريطانى بشكل خاص؛ ذلك الفكر الذى طالما حاربته كل من بريطانيا والولايات المتحدة بغير وسيلة للحؤول دون وصوله إلى منطقة الخليج العربى التى عانت أكثر من غيرها من النير الاستعمارى؟

ينطوى الإطار الزمنى للدراسة على المرحلة الممتدة بين عامى ١٩٥٢ و١٩٧١، على أساس أن البداية تمثل قيام ثورة ٢٣ تموز/يوليو كحدث قومى بارز فى الحياة العربية، تهدف بالدرجة الأولى إلى تحرير كامل الوطن العربى من النفوذ الاستعمارى كخطوة أولى نحو بناء المجتمع العربى الاشتراكى الموحد، فى حين يمثل العام ١٩٧١ انسحاب بريطانيا من الخليج العربى، واستقلال كل من البحرين وقطر، ثم قيام دولة الإمارات العربية المتحدة، وقبلها تغيير نظام الحكم فى عُمان، وبعدها بدأت منطقة الخليج العربى مرحلة جديدة نحو التحديث وبناء الدولة.

توزع الكتاب على أربعة فصول. الأول، خلفية تاريخية. الثانى، تأثير الفكر الناصرى على العربية السعودية. الثالث، تأثير الفكر الناصرى على الكويت والبحرين وقطر. الرابع، الناصرية فى إمارات الساحل العمانى وعمان.

■

الإصلاح السياسى فى الفكر الإسلامى
المقاربات، القوى، الأولويات، الاستراتيجيات

محمد أبو رمان
الشبكة العربية للأبحاث والنشر.
٣٢٠ صفحة



شهدت العقود الخمسة الأخيرة صعوداً ملحوظاً للإسلاميين فى المشهد العربى، سياسياً وثقافياً واجتماعياً، وباتت الحركات الإسلامية فاعلاً نسبياً فى المعادلات الداخلية والإقليمية، بل حتى الدولية.

الاشتباك الإسلامى مع المجتمع والسياسة ولّد جملة كبيرة من المواقف المؤيدة والمعارضة، وأدى إلى سجالات

واسعة فى الفضاء الإعلامى والفكرى، نجم أغلبها عن تساؤلات وجدليات بنيوية، يتمثّل أبرزها: فيما إذا كان الفكر الإسلامى المعاصر يحمل فى ثناياه «بديلاً سياسياً» أفضل من الواقع الحالى، وفيما إذا كان يمثّل إضافة نوعية على التيارات والحركات السياسية الموجودة على الساحة أم أنه حالة نكوص وردّة إلى وراء..

من المشكلات الأساسية فى التناول الإعلامى، وحتى المعرفى، للمقاربات الإسلامية هو الاختزال والتعميم، الذى يقفز عن الألوان المختلفة والمتباينة من المقاربات والأفكار الإسلامية فى موضوع الإصلاح السياسى..

لكن وسط هذه الخريطة المتشعّبة والواسعة من الرؤى والأفكار والتصورات حول الإصلاح السياسى فى الفكر الإسلامى المعاصر، تبدو هناك مقاربات رئيسة تجمع كل منها مثقفين وكتّاباً ومجموعات وجماعات إسلامية، فى مقولاتها المفتاحية وحججها وأفكارها العامة، وقد ركّز هذا الكتاب على عدة مقاربات أساسية: الثقافية، السياسية، وأخيراً الحركية.

■

اعترافات جرّاح.. جنى الخبرة

الجزء الأول
على حلمى
الدار المصرية اللبنانية
٢٠١٠



هذا الكتاب هو سيرة ذاتية لواحد من أعلام الجراحة والطب فى مصر، تسابقت عليه كل جامعات العالم ليعمل لديها، لكنه فضل وطنه العربى الكبير حيث استقر به المقام فى السعودية مواطنا وجراحاً مصرياً فى بلد عربى منحه لفرط تفوّقه جنسيته، وأسهم بنبوغه وعبقريته فى تطوير الطب فى المملكة، وكان تخصصه فى أمراض المسالك البولية والضعف الجنسى، وبلغ فى هذا المجال ذروة ما يمكن أن يطمح إليه إنسان أو طبيب فصار أشهر جرّاح عالمى فى أمراض الضعف الجنسى، ونال فى هذا المجال أربع براءات اختراع من أمريكا وأوروبا واليابان.

الكتاب ليس سيرة تقليدية، يحكى تجربة إنسان طموح، فهذا مما يتوافر للكثير من البشر، إنما هو دراسة تشخيصية لأوضاع التعليم والطب فى العالم العربى، امتلك صاحبها من الوعى والإدراك السياسى والاجتماعى ما مكنه من الفرار من الفخاخ الصغيرة التى توضع فى طريق كل نابغة، وحينما اختلط الطب بالسياسة وصراع الإرادات، وانهار كل شىء فى مصر بعد حرب ٧٣، قرر مرغماً الهجرة من مصر إلى بلد قدّر مواهبه وإمكاناته، ومنحه كل ما يريد من تجهيزات حتى بلغ ما هو عليه الآن، ذلك أنه أدرك مبكراً «أن هذا البلد قد نخر سوس الروتين فى عظامه، وأصبح مقبرة لكل المواهب، وتعوّد الكبير فيه امتصاص الصغير.. يمتص جهده وأفكاره ثم يطمسه ويسحقه ويدفنه..» فأدرك بحس المحارب الشجاع الذى عاش حرب أيلول الأسود فى الأردن طبيباً مبعوثاً من مصر لمعالجة الإخوة الفلسطينيين، وحين أحس أن القتل مشاع بين الجميع، لا يعرف قاتل من يقتل، أو قتيل من قاتله، أدرك أن المشكلة أكبر من أن تكون خاصة بقطر عربى واحد، بل هى أزمة وطن يقتل ويأكل أبناءه ومواهبه، وحينما كان القرار: «آن لى أن أرحل.. لكننى عائد أيها الكلاب.. فرحيلى مؤقت ووطنى هو أمى لا أتركها للضباع تنهش لحمها».

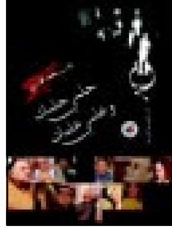
تتبع السيرة فنياً البنية الدائرية، حيث تقع فى ثلاثين فصلاً، معنونة بـ«جنى الخبرة»، يكشف فيها ما يمكن أن يتعرض له الشباب المتعلم فى بداية حياته العملية لاسيما إذا كان متفوقاً، فى وسط يكره النجاح، فقد بدأت الرحلة من قرار الرحيل عن مصر وما بين اتخاذ القرار وتنفيذه نعرف من أين يأتى الفساد وكيف يحارب الخاملون الناجحين، لتضعنا السيرة أمام رحلة طويلة لنفس بشرية حين حدثتنا عن حالها، أخبرتنا عن حالنا وأوضاعنا، وكيف أن الفساد كامن فى أصل الشجرة.

يقول د. على حلمى ملخصاً فلسفته فى الحياة: إن أردت أن تصنع شيئًا فى عالمنا العربى - المصنف عالمياً درجة ثالثة - اعتمد على نفسك، ليس لأنك لن تجد من يساعدك لكن تجنباً وخوفًا من أن يصيبك من يعطلك، الرجل المصنف عالمياً كأشهر طبيب مصرى - سعودى فى جراحة الضعف الجنسى، ومشكلات تشوّه الأعضاء التناسلية وصاحب الاختراعات العديدة التى بهرت العالم يرى أن المكان الحقيقى هو بجوار مريض.. يحتاج رعايته والقيمة الحقيقية له هى نجاحه فى علاج مريض يحتاج كفاءته وكان شعاره دائماً إن المريض أبقى من المنصب.

■

حلمى حلمك وعلمى علمك

حنان مفيد فوزى
الدار المصرية اللبنانية
٢٠١٠



«الأحلام هى الشاشة الخفية التى نرى فيها حقيقة أنفسنا دون رتوش وبعيداً عن رقابة المجتمع وسيطرته، والحلم هو مفتاح الشخصية الحقيقى الذى يفك أسر الذّات» بهذه الكلمات تفتتح حنان مفيد فوزى كتابها الجديد «حلمى حلمك وعلمى علمك» الصادر حديثًا عن الدار المصرية اللبنانية وفيه تواصل حنان مفيد فوزى طريقتها الفريدة فى التعامل مع الأحلام، فهى تنقلها فى تصورات نظرية يراها المرء أثناء نومه، ثم سرعان ما ينساها، إلى واقع وحقيقة وذلك من خلال مناقشتها مع أصحابها، وهو المنهج الذى اتبعته فى كتابيها السابقين «نجمك فى السما» بجزءيه الأول والثانى.

هذه المرة فى «حلمى حلمك وعلمى علمك» ذهبت حنان مفيد فوزى إلى نجوم الفن والثقافة واستمعت إلى أحلامهم وحاولت تفسيرها، ومن هذا التفسير أمكنها أن تقف على طبيعتهم الشخصية، فليس مثل الأحلام دليلً على شخصية الإنسان بشكل عام والفنان أو المثقف بشكل أخص، منها نعرف ما يفكر ومايحلم بتحقيقه لنفسه ولمجتمعه ولفنه وهل تؤثر الشخصيات التى يتقمصها الممثل - مثلاً - فى أحلامه؟ وكيف تأتيه، أما المثقف ذو الوعى المثقل بهموم مجتمعه وأمته فغالباً ما تكون أحلامه كوابيس، حاولت المؤلفة الوقوف على أسبابها وهل يحلم المثقفون مثل بقية البشر، وكيف تكون أحلامهم.

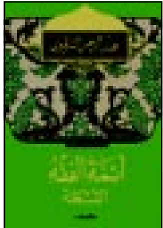
قسمت المؤلفة كتابها إلى ثلاثة فصول كبيرة جاء الأول منها بعنوان «الوسادة الخاوية» وفيه تناولت كيف أن الحلم عضو حسى، وتكرار الأحلام بصيغة معينة، وطبيعة أحلام اليقظة، وفوائد السفر الروحى السبعة، ومنه انطلقت بعد أن وضعت المقدمة النظرية لمشروعها لتتعرف على أحلام أهل الفن والثقافة وذلك فى الفصل الثانى، فاستمعت إلى الفنانين مثل: هند صبرى، ونيللى، ومنه شلبى، ويسرا، وإلهام شاهين، وليلى علوى، ومحمد صبحى،ولميس الحديدى، ومن المثقفين استمعت إلى بهاء طاهر، وأحمد فؤاد نجم، ثم وقفت فى الفصل الثالث أمام الرموز التى تأتى فى أحلام هؤلاء جميعاً، ومدى تكرارها ودلالاتها مثل: الأحداث والأفعال والانفعالات والعواطف، والحلم والجنس والأعداد والأرقام، والألوان والأماكن.

الكتاب مناسبة وفرصة لندخل إلى عالم هؤلاء المشاهير السرى، ونتعرف على مناطقهم النفسية ومشاعرهم، ما يفرحهم وما يخيفهم، وفى الحقيقة نحن نرى أنفسنا فى أحلام الآخرين، ومن تفسيرها نعرف طبيعتنا كبشر ليشكل الكتاب فى مجمله رحلة ممتعة لقارئة فى عالم الأحلام سواء أحلام النوم أو أحلام اليقظة.



أئمة الفقه التسعة

تأليف: عبد الرحمن الشرقاوى
القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠ ، ٣٨٤ صفحة



فى هذا الكتاب القيم الذى تنشره دار الشروق فى إطار إصدارها للأعمال الكاملة لعبد الرحمن الشرقاوى، يتناول الكاتب الكبير سيرة وتأثير تسعة من أهم فقهاء الإسلام الذين نشأوا فى البلاد الإسلامية المختلفة بعد أن توسعت الفتوحات وتعددت الأمصار وتراكمت مصالح البشر وأوجب التاريخ أن يخرج من بطون هذه الأمصار من العلماء المجتهدين من يصوغون صورة الإسلام الحنيف الذى يستجيب لحاجات البشر ويراعى مصالح العباد. فى أئمة الفقه التسعة يتناول الشرقاوى سير كل من الإمام زيد بن على زين العابدين، والإمام جعفر الصادق، والإمام أبو حنيفة النعمان، والإمام مالك بن أنس، والإمام الليث بن سعد، والإمام الشافعى، والإمام أحمد بن حنبل، والإمام ابن حزم الأندلسى، والإمام العز بن عبد السلام. وبهذا الكتاب يكمل الشرقاوى مسيرته فى كتب السير الإسلامية التى أصدر منها بالإضافة إلى هذا الكتاب كلا من «محمد رسول الحرية»، و«الصديق أبوبكر» و«الفاروق عمر» و«عثمان ذو النورين» و«على إمام المتقين» و«ابن تيمية الفقيه المعذب». وقد أصدرت دار الشروق طبعة جديدة من جميع هذه الكتب



إصـــــــــدارات جـــــــــديـــدة

Footie's Black Book: A Guide To International Association Football (World Cup Soccer 2010 Edition)
Darril and George Fosty

الكتاب الأسود لكرة القدم: دليل لاتحاد كرة القدم الدولى (طبعة كأس العالم لكرة القدم ٢٠١٠)

داريل وجورج فوستى
سترايكر- إنديجو للنشر: ٢٤ فبراير ٢٠١٠
٩٩,٢ دولار
١٦٨ صفحة



دليل جيب ثورى لكأس العالم ٢٠١٠، مصمم فى حجم كف اليد، لتضعه فى جيب القميص، أو المحفظة. يتنافس اثنان وثلاثون من أفضل فرق العالم على الكأس الذهبية لكرة القدم فى جنوب إفريقيا بين ١١ يونيو و١١ يوليو ٢٠١٠. يحلل الكتاب الأسود لكرة القدم نقاط القوة والضعف، ويقيم اللاعبين الرئيسيين فى نفس الوقت الذى يقيم فيه كفاءة المدربين، ويتوقع الأهداف التى يمكن لكل فريق إحرازها. باختصار يقدم لك دليل الجيب السنوى هذا، النظرة العامة والتحليل اللازمين، لمتابعة المسابقة الدولية، سواء كنت مشجعا هاويا أو مخضرما لكرة القدم.

■

Dreams and Goals - The World Cup and World Football 1990-2010
Alistair Berg

الأحلام والأهداف: كأس العالم وعالم كرة القدم ١٩٩٠-٢٠١٠

اليستير بيرج
دوى لويس للنشر: ١ أبريل ٢٠١٠
٤٨ دولارا
٢٨٨ صفحة



يعد كتاب «الأحلام والأهداف: كأس العالم وعالم كرة القدم ١٩٩٠-٢٠١٠» احتفالا فوتوغرافيا رائعا فى حب عالم كرة القدم، يلتقط ثقافة المشجعين بكل مرحها، وخطورتها وعبثها فى بلاد مختلفة بطول الأرض وعرضها.

يضم الكتاب وقائع فريدة من نوعها، حدثت خلال فترة الـ٢٠ عاما الأخيرة التى شهدت تغييرات هائلة فى ثقافة كرة القدم، كما شهدت زيادة ضخمة فى الدعم العالمى للعبة. الصور التى يضمها الكتاب لا تغطى فقط، نهائيات كأس العالم لكرة القدم، فى السنوات الخمس الأخيرة، ولكنها تشمل أيضا صورا محلية بل شعبية، بدءا من فرق الحانات، ودورى مدارس الأحد، وحتى مباريات لأطفال حفاة فى شوارع البرازيل وقرى جنوب أفريقيا.

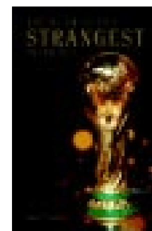
تم التقاط صور من كل القارات، وتم تقسيمها فى فصول يتناول كل منها ملمحا من ملامح كأس العالم. يحتوى الكتاب أيضا على قسم مطول من الصور الفوتوغرافية التى تركز على كرة القدم فى أفريقيا قبل كأس العالم ٢٠١٠ فى جنوب أفريقيا.

■

The World Cup's Strangest Moments: Extraordinary But True Tales from 80 Years of World Cup Football (Strangest series)
Peter Seddon

أغرب لحظات كأس العالم: حكايات غريبة ولكن حقيقية حدثت خلال ٨٠ عاما من مباريات كأس العالم لكرة القدم (سلسلة أغرب الحكايات)

بيتر سيدون
كتب أنوفا: ١ مايو ٢٠١٠
٩٥,١٤ دولار
٣٠٥ صفحات



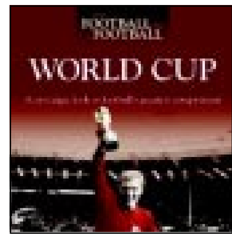
ستعرف من خلال هذا الكتاب كيف قام كلب يدعى بيكلز «مخللات» بمساعدة اتحاد كرة القدم، ولماذا ألقى القبض على قائد منتخب انجلترا على يد الشرطة الكولومبية، وأين بدأت الموجة المكسيكية حقا، ولماذا تتهكم الجماهير الألمانية على مثيلتها الهولندية بشتائم عن الأجبان، ومن هو المدافع الذى اغتيل بعد أن سجل هدفا فى مرماه. وستجد قصصا من كل مسابقة منذ المسابقة الافتتاحية لكأس جول ريميه تروفى عام ١٩٣٠ وحتى يومنا هذا، تم تجميع هذه القصص الحقيقية والمسلية، والغريبة، والصادمة جنبا إلى جنب مع حكايات الحكام المراوغين، والتمائم غريبة الأطوار، والمديرين الفنيين المهووسين.

■

When Football was Football: World Cup: A Nostalgic Look at Football's Greatest Competition
Adam Powley

عندما كانت كرة القدم كرة القدم: كأس العالم: نظرة حنين إلى مسابقة كرة القدم الأعظم

أدم بولى
هاينز للنشر: ١٥ سبتمبر ٢٠١٠
٩٥,٢٧ دولار
٢٠٨ صفحات



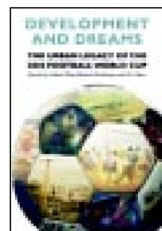
تحتفل أكبر المسابقات الرياضية على هذا الكوكب بعيد ميلادها الـ٨٠ فى عام ٢٠١٠، ويقدم هذا الكتاب المصور احتفالا حيا بالعيد الذهبى لكأس العالم لكرة القدم. معتمدا على أرشيف الصور الفوتوغرافية الواسع لصحيفة الديلى ميرور، فإنه يركز على بطولات الماضى، ليعيد للحياة زمن الرياضة النقية، والفرجة والمجد.

■

Development and Dreams: The Urban Legacy of the 2010 Football World Cup
Orli Bass/Udesh Pillay/Richard Tomlinson

التنمية والأحلام: التراث الحضارى لنهائيات كأس العالم ٢٠١٠ لكرة القدم

أورلى باس، أوديش بيلاى، ريتشارد توملينسون
مجلس بحوث العلوم الإنسانية: ١ سبتمبر ٢٠٠٩
٩٥,٣٦ دولار
٣٢٨ صفحة



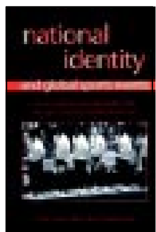
متضمنة لآثار استضافة جنوب أفريقيا لبطولة كأس العالم ٢٠١٠، فإن هذه الدراسة تسعى لفهم أكبر للمنافع المحتملة لنهائيات كأس العالم فى ٢٠١٠، رافضة التشاؤم الأفريقى ومؤكدة على الهوية الإفريقية المعاصرة فى الداخل وعلى الساحة العالمية على حد سواء. تم صياغة هذا الدليل من قبل الأكاديميين والممارسين، ليقدم وجهة نظر متعددة التخصصات بشأن العواقب المحتملة لنهائيات كأس العالم بالنسبة لاقتصاد جنوب أفريقيا، ومدنها، بدءا من تطوير البنية التحتية وحتى تسليط الضوء على الثقافة والهوية الأفريقية. وتولى الدراسة اهتماما بمجموعة من المواضيع بما فى ذلك الإدارة والتكاليف والفوائد المرتبطة بنهائيات كأس العالم ٢٠١٠، والفوائد غير المباشرة على صعيدى الاقتصاد والتشغيل؛ نتيجة لاختيار أماكن الملاعب، والاستثمار فى البنية التحتية، والسياحة، والحدائق العامة. يكشف أيضا الكتاب عن الأحلام والطموحات المرتبطة بكأس العالم عام ٢٠١٠، وما يعنيه الحديث عن الكأس الإفريقى، والثقافة والهوية الأفريقية. يعد هذا المجلد رفيقا لا يقدر بثمن لواضعى السياسات والمخططين، وللطلاب بشأن استعداد جنوب أفريقيا لاستضافة أكبر حدث رياضى فى العالم.

■

National Identity And Global Sports Events: Culture, Politics, And Spectacle in the Olympics And the Football World Cup (Suny Series on Sport, Culture, and Social Reforms)
Alan Tomlinson/Christopher Young

الهوية الوطنية والأحداث الرياضية العالمية: الثقافة والسياسة، والفرجة فى دورة الألعاب الاولمبية وكأس العالم لكرة القدم (سلسلة جامعة ولاية نيويورك عن الرياضة والثقافة، والإصلاح الاجتماعى)

آلان توملينسون، كريستوفر يونج
مطبعة جامعة ولاية نيويورك الصحافة: يونيو ٢٠٠٦
٩٥,٢٢ دولار
٢٤٤ صفحة



ينظر «الهوية الوطنية والأحداث الرياضية العالمية» إلى مغزى الأحداث الرياضية الدولية، ولسبب توليدها لكم هائل من الجماهير فى جميع أنحاء العالم، مع التركيز على الألعاب الأولمبية وكأس العالم للرجال لكرة القدم. يبحث المساهمون فى دراسة التأثيرات السياسية والثقافية والاقتصادية، والأيديولوجية

التى تؤطر هذه الأحداث. ويضم الكتاب دراسات حالة مختارة تشمل دورة الألعاب الأولمبية ١٩٣٦ التى أقيمت فى برلين النازية، ونهائيات كأس العالم ١٩٣٤ فى إيطاليا، والحالة الفريدة من نوعها لدورة ألعاب ميونيخ ١٩٧٢، ودورة الألعاب فى لوس أنجلس ١٩٨٤، ونهائيات كأس العالم الآسيوية فى ٢٠٠٢، وغيرها. وتوضح دراسات الحالة كيف توفر دورة الألعاب الأولمبية ونهائيات كأس العالم أساسا لصياغة الأيديولوجيات السياسية الراسخة والسائدة، وتشجع على الاستمرار فى الشعور بالهوية الوطنية، كما تكون بمثابة أداة لقياس المناخ الأيديولوجى المتغير فى عالمنا الحديث والمعاصر الذى يزداد يوما بعد يوم ميلا نحو العولمة. ومن خلال تحليلات علمية دقيقة، يعمل المساهمون فى الكتاب على تسليط الضوء على الأهمية المتزايدة للأحداث الرياضية الكبرى على الساحة الدولية.

■

8. Football in Sun and Shadow: An Emotional History of World Cup Football
Eduardo Galeano

كرة القدم فى الشمس والظل: التاريخ العاطفى لنهائيات كأس العالم لكرة القدم

إدواردو جاليانو
السلطة الرابعة للنشر: ١ يناير ١٩٩٧
١٩,٠ دولارا
٢٤٠ صفحة



بالنسبة لمشجع كرة القدم النقى، يعد حتى الفوز والخسارة أهمية ثانوية، مقارنة بتلك اللحظات عندما تتاح لمحة لكرة القدم تبلغ حد الكمال، وتزداد المتعة مع انتظار هذه اللمحات لساعات طويلة دون إمكانية للتنبؤ بلحظة حدوثها، ويصبح الأمر أكثر تشويقا مع الأخطاء التراجيدية والكوميدية التى تسبقها. تحكى مثل هذه الحالات، من الاغتباط واليأس، فى هذا الكتاب، الذى يعد عرضا لجميع اتجاهات كرة القدم الدولية. بكنباور، ياشين وزيكو الجميع هنا بوصف مفصل لتحركاتهم المبهرة التى تشبه رقص الباليه. هنا أيضا يوجد لاسكوبار المأساوى، الذى أخطأ بالتصويب فى مرماه (كولومبيا) ليقتل رميا بالرصاص فى شوارع مدينة ميديلين نتيجة لذلك، وفريق دينامو كييف الذى حذر من الفوز على النازيين فى أى مباراة، إلا أنه لم يستطع مقاومة التغلب فى ملعب لكرة القدم على من يضطهده فى مسرح الحياة: ليتم قتل الـ ١١ لاعبا وهم مرتدون فانلة كييف مباشرة بعد المباراة.

■

Game Apart: The Real A Story Behind the World Cup ٢٠١٠ in South Africa,
Neal Collins

بصرف النظر عن اللعبة: القصة الحقيقية وراء نهائيات كأس العالم فى جنوب أفريقيا، ٢٠١٠

نيل كولينز
أوثر هاوس للنشر: ديسمبر ٢٠٠٩
٤٩,١٤ دولار
٢١٦ صفحة



تقام أعظم بطولة لكرة القدم على وجه الأرض فى قارة أفريقيا للمرة الأولى الآن، والتى بدأت مع نهائيات كأس العالم فى جوهانسبرج يوم ١١ يونيو. يحاول «بصرف النظر عن اللعبة» تفسير كيف أن هذه الحقيقة البسيطة تعد فى حكم المعجزة. استنادا على ما شاهده الكاتب بنفسه عندما كان طالبا، ولاعب كرة قدم وصحفيا رياضيا، تقديم وصف صادق - ولكن خيالى - لما كان يمكن أن يكون عليه لعب كرة القدم فى جنوب أفريقيا قبل تطبيق الديمقراطية عند وصول نيلسون مانديلا للحكم فى ١٩٩٣. كانت هناك مشاكل على أرض الملعب، مشاكل فى الشوارع، ومشاكل على الشواطئ. رحل الفصل العنصرى والاضطراب سويا. ويبقى الكثير من الدعاية السلبية المحيطة ببطولة كأس العالم الحالية، مع التركيز على الجريمة والفساد. أما تصور المؤلف فهو مختلف جدا. فهو يؤكد أن هذا البلد قد تغير نحو الأفضل وعلى نطاق واسع خلال الـ ١٦ سنة القصيرة الماضية. يبدو أنه انتظر طوال هذه السنوات ليجعل ذكرياته تفيض، ويبدو أن كأس العالم كان الوقت المناسب لكتابة الرواية التى، كما يأمل، ستساعد الناس على تذكر ما كانت عليه هذه الأمة المتعددة الأعراق كقوس قزح. قد تكون هذه الرواية مزعجة للبعض، إلا أنها سترضى دون شك آخرين. كل ما يطلبه المؤلف هو أن يدرك القارئ كيف كان كشاب انكليزى ينظر إلى جنوب أفريقيا التى ترعرع فيها: بلد غريب ولكن الجميل تعصف به القسوة وعدم الثقة، يواجه ثورة دموية... حتى يتم الإفراج عن مانديلا فى عام ١٩٩٠. وبالنسبة لأولئك الذين يزورون البلاد، وبالنسبة لأولئك الذين شاهدوا بعض التفاصيل على شاشة التلفزيون، وبالنسبة لأولئك الذين قد يكونون قد قرأوا عن ذلك فى الصحف، يأمل أن يقدم وجهة نظر من الداخل. لا ينبغى أن ننسى أبدا الفصل العنصرى، وإلا قام شخص ما بتكرار العملية. لا يجب أبدا أن نسمح بحدوث ذلك.

■

World Cup Football (Inside Sport)
Clive Gifford

كأس العالم لكرة القدم (داخل الرياضة)

كلايف جيفورد
هودر وايلاند للنشر: ٢٥ فبراير ٢٠١٠
٩٥,٢٢ دولار
٤٨ صفحة



مع نص بسيط وملىء بالمعلومات فى آن واحد، يبعث هذا الكتاب الرياضة للحياة. حيث يلقى نظرة عميقة على هذه الرياضة، بدءا من تاريخها وبداياتها، وحتى المباريات الحديثة، كيف لعبت، ومن لعبها والقواعد التى حكمتها. كل ذلك ممزوجا بالحقائق، والإحصائيات وصور فوتوغرافية بالألوان الطبيعية، ليصبح هذا الكتاب دليلا لا غنى عنه.

■

Soccer Empire: The World Cup and the Future of France
Laurent Dubois

إمبراطورية كرة القدم: كأس العالم ومستقبل فرنسا

لوران دوبوا
مطبعة جامعة كاليفورنيا: ١ يونيو ٢٠١٠
٥٠,٢٧ دولار
٣٥٢ صفحة



عندما استضافت وفازت فرنسا بكأس العالم فى عام ١٩٩٨، تم بث صورة لاعبها النجم زين الدين زيدان، ابن المهاجرين الجزائريين، على قوس النصر. وخلال نهائيات كأس العالم ٢٠٠٦، فاجأ زيدان البلاد بانتهاء مسيرته الرائعة بالاعتداء على لاعب إيطاليا. الإمبراطورية فى كرة القدم، لوران دوبوا يلقى الضوء على الروابط التى تجمع الإمبراطورية والرياضة من خلال تتبع قصة كأس العالم لكرة القدم، بدءا من الكأس الذى نظمته فرنسا فى الثلاثينيات، مرورا بأفريقيا ومنطقة البحر الكاريبى والعودة مرة أخرى.

كما يروى بوضوح حياة اثنين من لاعبى كرة القدم الأكثر شهرة، زيدان وزميله فى الفريق ليليان تورام. يعمق دوبوا فهمنا للمخلفات الإمبراطورية التى لا تزال قائمة فى أوروبا ويلتقط ببراعة قوة كرة القدم فى تغيير الأمة والعالم.

■

Going Oriental: Football After World Cup 2002 (Mainstream Sport
Mark Perryman

الذهاب شرقا: كرة القدم بعد نهائيات كأس العالم ٢٠٠٢

مارك بيريمان
مينستريم للنشر: ٩ أغسطس ٢٠٠٥
٩٩,١٦ دولار
١٩٢ صفحة



تصفيات مونديال ٢٠٠٢ استغرقت ٣١ يوما هزت عالم كرة القدم، وكان المشجعون يلهثون فى كل مكان طلبا للمزيد. يمكن القول أنه لم يكن هناك قط بطولة كتلك، كانت هناك مفاجأة تنشأ كل يوم تقريبا.

عادت فرنسا حامل كأس البطولة للوطن دون تسجيل هدف واحد، وخسرت البرتغال أمام الولايات المتحدة الأمريكية، وتم القضاء على إيطاليا بمعرفة كوريا الجنوبية. هذه كانت أيضا بطولة كأس عالم للكثير من الرقم واحد: فهى الأولى فى الألفية الجديدة، والأولى التى تعقد فى آسيا.

وقد ساعدت عاطفة المشجعين اليابانيين والكوريين الجنوبيين على استعادة أخلاقيات اللعبة الشعبية فى مسابقة كان يمكن أن تتحول إلى ساحة للشركات.

■

كــأس العـــالم .. والنســـاء

جـــــولـيـيـت تـــــــــــوروم
Juliet Torome

■ ■ نيروبى . عندما ولِدت قبل خمسة وعشرين عاماً كان من النادر. بل وحتى من المحرمات. أن تناقش امرأة أفريقية كرة القدم. ولكن هذا هو ما نفعله أنا وصديقاتى الآن على وجه التحديد.

لقد نشأت فى كينيا، حيث يتابع أبناء بلدى الدورى الإنجليزى بحماس، ولعل ذلك يرجع إلى ارتباطنا بإنجلترا فى عصر المستعمرات. إن أهل كينيا شديدو الارتباط عاطفياً بالدورى الإنجليزى الممتاز، حتى أن أحد مشجعى فريق الأرسنال، سليمان أوموندى، شنق نفسه فى العام الماضى بعد خسارة فريقه لصالح مانشستر يونايتد. وفى هذا العام طعن مشجع آخر لفريق الأرسنال أحد مشجعى فريق مانشستر يونايتد فى مدينة لامو الساحلية.

والنساء الكينيات يحببن كرة القدم أيضا. فأنا من مشجعى فريق تشيلسى، وكذلك أغلب صديقاتى. ونحن نادراً ما نختلف. وكل منا تعزى الأخريات حين يخسر فريق تشيلسى، ونقلق معاً عندما يلاعب فريقنا نادياً كبيراً، كما حدث مؤخراً حين لعب ضد ليفربول، وهو الفريق المنافس الرئيسى الوحيد الذى يحول بين تشيلسى وحصوله على اللقب الإنجليزى. ولقد فاز فريق تشيلسى فى تلك المباراة لحسن الحظ.

ولكن مع بلوغ نهائيات كأس العالم لكرة القدم مرحلة مباريات ربع النهائى ونصف النهائى، بدأت أنا وصديقاتى فى المجادلة. ورغم أننا لا نتبادل اللكمات مثل الرجال، فإننا لا نقل عنهم انفعالاً، خاصة أن البطولة الرياضية الأكثر شهرة على مستوى العالم تستضيفها قارتنا فى هذا العام. وفى بعض الأحيان يبدو أننا نقضى فى المجادلة حول كرة القدم وقتاً أكثر مما نمضيه فى الثرثرة عن الرجال.

مع انطلاق البطولة بدا الأمر وكأننى وصديقاتى من غير الممكن أن نتفق على الفريق الذى يتعين علينا أن نشجعه. فهل نختار بين الجزائر والكاميرون وكوت ديفوار وغانا ونيجيريا وجنوب أفريقيا، وهى البلدان التى تمثل أفريقيا؟ وكنا فى الواقع محيرات بين الغريزة الطبيعية التى تدعونا إلى تشجيع أخواننا الأفارقة وبين الرغبة فى الانحياز إلى منتخبات مثل الأرجنتين، أو البرازيل، أو إيطاليا، أو ألمانيا، وغيرها من المنتخبات التى بدا أنها صاحبة الحظ الأوفر فى الفوز. وفى البداية كنت أشجع فرنسا لأننى أحب لاعب تشيلسى نيكولاس أنيلكا، رغم أننى باعتبارى امرأة أفريقية لم يكن بوسعى أيضاً أن أقاوم

ترجمة : مايسة كامل



الرغبة فى الغناء بابتهاج كلما كان الفوز من نصيب فريق أفريقى.

والواقع أن تزايد أحاديثنا نحن الشابات الأفريقيات عن الرياضة يشكل بارقة أمل لكرة القدم النسائية فى قارتنا. ومؤخراً أخبرنى مراسل كبير يعمل فى إحدى الصحف الكينية اليومية بأن النساء فى هذه المرة مهتمات بتعلم قواعد اللعبة ومعرفة المزيد عن اللاعبين ومراكزهم فى الملعب. فهن يردن أن يستمتعن باللعبة بدلاً من مجرد الجلوس بصحبة أقاربهن من الذكور وهن جاهلات لما يحدث على أرض الملعب.

ولكن هل تشكل بطولة كأس العالم لكرة القدم لعام ٢٠١٠ بالنسبة للنساء الأفريقيات أكثر من مجرد مادة للقيل والقال؟ كانت استضافة الولايات المتحدة لكأس العالم لكرة القدم فى عام ١٩٩٤ سبباً فى زيادة شعبية اللعبة هناك وإنشاء اتحاد لكرة القدم فى عام ١٩٩٦. وفى عام ١٩٩٩، استضافت الولايات المتحدة ثانى بطولة لكأس العالم لكرة القدم للسيدات وفازت بها، الأمر الذى أدى إلى ثورة فى كرة القدم النسائية فى البلاد. وبات لقب "أمهات كرة القدم" شائعاً فى الولايات المتحدة، مع إدخال المزيد من الأمهات هناك لأطفالهن إلى معسكرات كرة القدم. تُرى هل تؤدى استضافة أفريقيا لأعظم حدث رياضى على مستوى العالم إلى إثارة اهتمام مماثل لدى نساء القارة الأفريقية؟

شجعتنى إحدى صديقاتى مؤخراً على القراءة عن سيمبيوى دلودلو، وهى اللاعبة التى أصبحت واحدة من أبرز الشخصيات الرياضية فى جنوب أفريقيا. ولقد وجه إليها الاتحاد الدولى لكرة القدم (الفيفا) الدعوة للمساعدة فى تنظيم حفل افتتاح بطولة كأس العالم لكرة القدم. كانت دلودلو تلعب كرة القدم منذ كانت فى العاشرة من عمرها، وهى تزاول مهنتها حالياً فى نادى كرة القدم التابع لجامعة بريتوريا، حيث تدرس فى الجامعة أيضاً. وفى عام ٢٠٠٦ تلقت دلودلو أول دعوة للانضمام إلى فريق بانيانا بانيانا، وهو الاسم الذى يطلق على فريق كرة القدم النسائية فى جنوب أفريقيا، والذى فاز بنحو ٣٣ بطولة. والواقع أن نجاحه يؤكد أن لاعبات كرة القدم النسائية الأفريقية من الممكن أن يصلن إلى مكانة كبيرة. ولكن الأمر ليس بهذه البساطة بالنسبة لأغلب النساء والفتيات الأفريقيات.

ورغم أن كرة القدم النسائية فى أفريقيا قديمة قدم الجمهوريات الأفريقية ذاتها (ظهرت أوائل الفرق فى غرب أفريقيا فى مطلع عام ١٩٦٠)، فإن كرة القدم فى القارة ما زالت رياضة يحتكرها الرجال. والواقع أن أغلب نساء أفريقيا يرهبن هذا الموسم، فقد يتحولن إلى أرامل نتيجة لكرة القدم، حيث يتقاطر أزواجهن على البارات. وفى كل يوم على العشاء، يسأل الأطفال أمهاتهن عما إذا كان آباؤهم ما زالوا يعيشون فى المنزل.

وحتى زوجات الرجال الذين يشاهدون المباريات فى المنازل يتعين عليهن أن يتعاملن مع قضايا أخرى. على سبيل المثال، تزوجت جويس، زميلتى السابقة فى العمل، برجل من أشد المتعصبين فى تشجيع فريق مانشستر يونايتد. وفى كل موسم يكسر زوجها قطعة أثاث واحدة على الأقل فى المنزل حين يخسر فريقه، ناهيك عن الأرائك الملطخة بالبيرة، والتى لا تسلم من الركلات التى يوجهها إليها وهو يشجع فريقه المفضل. ولقد غيرت أثاث بيتها مرتين على الأقل منذ تزوجت ذلك الرجل قبل أربعة أعوام.

ونظراً لهيمنة الرجال على السياسة الأفريقية وكرة القدم، فإن أى فرصة لتحسين حالة الرياضة فى القارة نتيجة لاستضافتها لبطولة كأس العالم لعام ٢٠١٠ من شأنها على الأرجح أن تفيد الرجال. وهذا لأن حتى فرق الرجال الوطنية تناضل فى أغلب بلدان أفريقيا. ذلك أن معسكرات كرة القدم للشباب الذكور أو اتحادات كرة القدم إما متواضعة للغاية أو لا وجود لها.

وإلى أن تصبح فرق كرة القدم الأفريقية النسائية على مستوى يسمح لها بالتنافس فى البطولات الدولية خارج أفريقيا، فسوف تستمر معاناة هذه الفرق. ونظراً للفساد المتفشى الذى ابتليت به قارتنا فقد يستغرق الأمر قرناً من الزمان قبل أن نرى فرق كرة القدم للرجال تدار وتمول بكفاءة.

لقد نجحت فرق النساء الأميركية فى تحسين اللعبة لأن أمهات كرة القدم لا يعتمدن بشكل كبير على أزواجهن فى تمويل تدريب بناتهن. ومع استمرار المزيد من النساء الأفريقيات فى تلقى المزيد من التعليم، فأنا أحلم بيوم حين نصبح نحن أيضاً قادرات على اتخاذ القرار بأنفسنا.

ولكننى تشجعت كثيراً حين علمت أن نساءً من جيل أمى فى جنوب أفريقيا يلعبن فى إطار اتحاد لكرة القدم النسائية منذ خمسة أعوام. وبعد انتهاء بطولة كأس العالم فمن المقرر أن يسافر فريق الجدات، وهو فريق يتألف من نساء تتراوح أعمارهن ما بين ٥٠ إلى ٤٨ عاماً، إلى الولايات المتحدة للعب فى إطار كأس قدامى اللاعبات. وقد لا يفوز شبابنا فى جنوب أفريقيا، ولكن ربما يستطيع فريق الجدات أن يريهم كيف يكون الفوز. ■

الكتب وجهات نظر

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazer - Volume 12 - Issue 139 - August 2010

مجلة شهرية العدد ١٣٩ - السنة الثانية عشرة - أغسطس ٢٠١٠ - الثمن عشرة جنيهات

إسلامى نعم .. ولكن

ليس فنا دينيا!

▪ العرب واليهود فى أمريكا / بيتر بينارت وأحمد أبوزيد

▪ حتى لو عرفنا.. لن نعرف! / دافيد ليندى ونجيب الحصادى



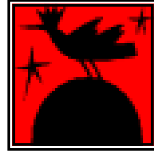
▪ هل هناك اقتصاد «أخضر»؟ / بول كروجمان

▪ ثورة الآيباد / سو هالبيرن

السنة الثانية عشرة
العدد ١٣٩
أغسطس ٢٠١٠

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

محتويات العدد:

كتَّاب العدد:

- أحمد أبوزيد... باحث فى العلاقات الدولية
- أيمن الصياد... صحفى
- بول كروجمان... حاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد عام ٢٠٠٨
- بيتر بينارت... أستاذ الصحافة بجامعة سيتى - نيويورك
- حسن عجمى... كاتب لبنانى
- حسين الشرقاوى... أستاذ بكلية طب الفم والأسنان - جامعة القاهرة
- حلمى محمد القاعود... أستاذ الأدب والنقد بجامعة طنطا
- دافيد لندلى... عالم فى الفيزياء النظرية، يعمل فى جامعة كمبريدج
- سو هالبيرن... باحث
- عزة هاشم... مترجمة وباحثة نفسية
- كريس باتن... رئيس جامعة أكسفورد
- محمد المهدى... مستشاردار الآثارالاسلامية بالكويت
- محمد فريد عبد الخالق... من الرعيل الأول لجماعة الاخوان المسلمين
- نجيب الحصادى... أستاذ للفلسفة، ومترجم. حاصل على الدكتوراة من جامعة وسكانسن، ماديسون
- وليد محمود عبد الناصر... كاتب مصرى

رسوم العدد

محمد حجى - Stephane Peray - Nerilicon





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

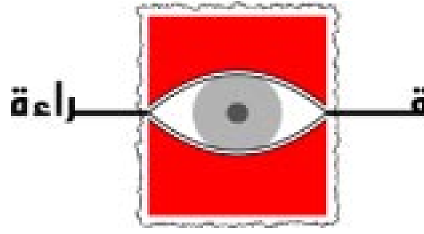
الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



«مصر التى كانت»

محمد يوسف الرفاعى

أيمن الصياد

■■ حينما كانت الأيامُ غيرَ أيامنا تلك، وحينما كنتُ بعدُ فى الحادية عشرة من العمر، كانت معلمتنا تطلب منا أسبوعياً أن نلخص مقال محمد حسنين هيكل الشهير «بصراحة» لتختارَ منا من يقرأ الملخص أمام زملائه صباح السبت. كنا وقتها فى الصف الخامس الابتدائى. وكان هكذا مستوى تعليم «القراءة» والكتابة والإلقاء...

لا أملُّ ترديدَ الحكاية لدلالتها. ولا تملُّ هى أن تُطلَّ - فى كل مناسبة - من ثنايا تلافيفِ ذاكرةٍ أخشى أن تكون تجعدت أو بهتت، بحكمِ الذى جاء والذى راح، تفاصيلُها.

آخر تلك المناسبات، كان يوم سرتُ فى جنازة ذلك الرجل الفاضل: محمد يوسف الرفاعى/ المعلم الذى يَصْدُق عليه دون أدنى مبالغة بيتُ الشعر الشهير[1].

كانت الأيامُ غير الأيام. وكنا - ونحنُ بعدُ فتيةٌ قد يغرينا أىُ شىء إلا القراءة - نمضى كثيرا من أمسياتنا مع مدرس اللغة العربية الفاضل، على جانب حقل أو شاطئ ترعة أو حتى فى فناء المدرسة. لا لدرس خصوصى، وإنما لنناقشه فى كتاب قرأه أحدُنا أو لنجادله ونقارعه الحجة بالحجة فى معنى بيت شعرى أو تفسير آية قرآنية.

لم تكن «مصرُ/ التعليم» وقتها تعرف قانون: «من يدفع.. يأخذ»، كان العلم يُسعى إليه.. ولا يَسعى إلى أحد. ولم يكن من المتصور أن «الإعلانات» عن المدرسين ستأخذ مكانها يوماً إلى الجدران فى الشوارع «مع المضاربة فى الأسعار». ولم تكن العلاقة بين المعلم وتلاميذه يمكن لها أن تقبل أن يمد «صاحب الفضل» يده إلى من يُفترض أنه جاء إليه طالبا العلمَ والمعرفة. لم يكن «سوسُ السوق» قد نخر فى كل شىء. كنا جميعا نستظلُّ بمظلةٍ وارفةٍ - أخشى أن أغصانها جفت - منَ الحبِ والتقدير والاحترام. كنا نعرفُ قيمة أن نتعلم... ويعرفُ معلمونا لدورهم قدره ومكانته. وكان المجتمعُ كله يُقر بذلك، ويتعارفُ عليه.

كانت مصرُ.. غير التى نراها الآن.



أذكر أيامها كيف كنت أغافل والدى، لأقلبَ فى خزانته، الحريص دوما على تنظيمها وتبويبها. ثم أهرب بكنزى «ذى الورق القديم الأصفر»، لأحاول قراءته فلا أفهم كثيرا من العبارات والألفاظ. أذكر تحديدا كم استهوانى سجعُ المنفلوطى فى «نظراته» و «عبراته»[2]، ولكنى أذكر أيضا كم استغلقت على فهمى كثيرٌ من ألفاظها. ولم يكن البحثُ فى المعاجم سهلا وقتها كما هو الآن فى زمن الحاسوب والإنترنت. ولكنى، كما رفاق تلك الأيام، لم نكن نكف عن المحاولة. وعندما نفشل، وكنا كثيراً ما نفشل، كان ملاذنا الأخير هذا الرجل / المُعلم محمد يوسف الرفاعى؛ يجيبُنا .. أو يدلُنا على الطريق الذى علينا أن نحاوله بحثًا عن إجابة.

علّمنا محمد الرفاعى القراءة. وربما لم يكن ذلك صعباً رغم بساطة الحال وندرة الكتب والمصادر. فنمطُ الحياة التى عرفنا أيامها يختلف كليًا عما نعرفه الآن. أتذكرُ، ما أشرت إليه هنا سابقًا، كيف كان «المقهى» الرئيس فى بلدتنا الصغيرة «السنطة» - وهى كانت أيامها تقفُ ما بين القرية والمدينة قبل أن يلحقها ما لحق وادى النيل كله من «تشويه سبعينى» - يضمُ بين جنباته «مكتبة» يتنافسُ مثقفو البلدة على مدها بما يستطيعون من كتب. كما يتنافسون على مراوغة راعيها وصديقهم «حمدى عبد الرازق بركات» ليفوزوا بيوم زائد على فترة الاستعارة المسموح لهم بها. أتذكرُ تلك الأيام البعيدة وأنا أرى كيف يحتفل تلاميذنا الآن بنهاية العام الدراسى بإشعال النار فى «مختصراتهم الدراسية» المصورة وفى كتبهم المدرسية التى يكرهونها.

أحببنا القراءة صغاراً. وفوق ذلك سقانا محمد يوسف الرفاعى «الدرعمى» حبَ «العربية» قطرة قطرة، أفهمنا المنفلوطى، واستحضر لنا المتنبى، لا نصًا يُحفظ، بل جمالا وإعجازا «نطرب» له. وأكثر من ذلك علّمنا أن نحترم اللغة، وأن ندرك معنى أنها «هوية» تعيش فينا ونعيش بها.. نقوى بها وتقوى بنا. تذكرتُ ذلك، وأدركت كيف أن «اللغة سلطة فى ذاتها..» حين قرأت كتاب العلامة اللغوى عبد السلام المسدى «السياسة وسلطة اللغة» (عرضناه فى عدد مارس ٢٠٠٨ من «وجهات نظر») وتذكرته أيضا حين اطلعت على كتاب Louis-Jean Calvet المهم «حرب اللغات» والذى يشرح فيه كاتبه كيف كانت اللغة عبر التاريخ «أداةً للسيطرة». وكيف كان انتصارُ غليوم الفاتح فى Hastings عام ١٠٦٦ واحتلاله إنجلترا إثر ذلك، فاتحة لأن تسود «اللغة» الفرنسية العالم القديم لقرون. ثم كيف انتقل «صولجان اللغة» إلى الإنجليزية،

يومها كانت القيم السائدة مختلفة، وكان الكل يشعر بأن قيمته فى عمله، وفيما يقدم لمجتمعه، لا فيما يأخذ منه «أو ينهب»



بعد أن تسيدت الولايات المتحدة الأمريكية العالم، أو كادت.

أتذكرُ كيف علّمنا الرفاعى العربية أيامها، حين أرى حالا وصلت إليه اللغة فى مؤسساتنا التعليمية الآن، وأرى كيف يتبدى ذلك حولنا فى كل مكان؛ من مانشتات الصحف إلى أفيشات الإعلانات.

أدينُ له بالتأكيد، كما أدين لغيره من معلمى هذا الزمان، ولمناخ «مختلف» كان يسود «مصر التى كانت»، بكثير مما وفقنى الله إليه. كما يدين له مثلى تلاميذه الذين انتشروا فى الأرض ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ..﴾ أذكر منهم ـ ما قد تسعفنى إليه ذاكرةٌ أعياها الصخب اليومى ـ الزملاء: دكتور عصام نصر سليم أستاذ الإعلام بجامعة الشارقة، واللواء رزق بلال مفتش الداخلية «المهذب»، والمهندس محمد سليمان السرتى، الذى لم يتصل بى يوما من فانكوفر / كندا التى هاجر إليها، إلا وسأل عن صحة «الأستاذ الرفاعى» ثم الدكاترة والأطباء: مجدى الجمل، وأحمد شاهين جراح العظام المشهور، ومحمد علام الذى اختار الاستقرار فى بلاد الحرمين، وقبل كل أولئك المهندس جلال بركات الذى يُذكرنا جميعًا برابطة ـ أو بالأحرى ـ بروابط تجمعنا معا. ثم الصديق محمد مصطفى العيسوى الذى لابد أنه ـ وبحكم المهنة ـ أكثرَ من يمكنه المقارنة بين التعليم الآن وذلك الذى كان فى «زمن الرفاعى».



وأنا أجلس فى عزاء الرجل / المعلم أطالعُ وجوهَ بعضًا من تلاميذه الذين حضروا إلى قريته الصغيرة «بلكيم» التى تجاهد للحفاظ على نقائها القديم، تذكرت كتاب الراحل النبيل: رؤوف عباس «مشيناها خطى» والذى دون فيه ـ بصراحة غير مألوفة فى مجتمعاتنا «المزيفة» ـ سيرته الذاتية. وهى تجربة لأستاذ جامعى تروى بحق قصة التحول الاجتماعى فى مصر فى نصف القرن الماضى، وما جرى من «انقلابات» فى التعليم «والتربية» ومنظومة القيم المجتمعية.

كانت الأيامُ قطعًا غيرَ الأيام. يحكى لنا عباس ـ وكان قد وُلد لأسرةٍ فقيرة شأنها شأن السواد الأعظم من المصريين عندئذ ـ رحلتَه «المُعَلِّمة» من المساكن الفقيرة جداً لعمال السكك الحديدية الملاصقة لشريطها، إلى أن أصبح أستاذ أساتذة التاريخ المعاصر فى مصر.

يحكى لنا المؤرخ الذى اضطر للعمل طفلا «ليقيمَ أوده»، كيف «تسلل» للجامعة بعد أن تلقى تعليمه على يد مدرسى «ذلك الزمان» فى مدرستىْ السيدة حنيفة السلحدار، وطوخ الإعدادية الثانوية. فرغم أنه، وكان قد حصل على الثانوية العامة بمجموع مرتفع يمكّنه من التقدم إلى مكتب التنسيق (الذى كان من جهود ثورة يوليو الإصلاحية لضمان عدالة توزيع الطلاب على الجامعات، دون الارتهان إلى وساطة أو محسوبية كما كان عليه الحال فى العصر الملكى)، إلا أن حلمه اصطدم بحقيقة أن مصروفات الجامعة، والتى كانت تبلغ ثمانية عشر جنيهًا ونصف، تزيد عن إجمالى راتب والده بحوالى خمسة جنيهات. فكان أن استدان ـ سراً ـ من قريبة لأبيه منحته «كلَّ» ما كانت قد ادخرته للزمن (خمسة جنيهات كاملة) مكنته بداية من دفع رسوم ودمغات أوراق التقدم لمكتب التنسيق، قبل أن يحصل على المجانية فى عامه الجامعى الأول، بوصفه من غير القادرين على سداد المصروفات. ثم يحافظ عليها بعد ذلك حتى التخرج لتفوقه، بفضل القواعد التى كانت وضعتها ثورة يوليو للقبول بالجامعات، والتى ركزت على التحصيل الدراسى، ففتحت باب التعليم الاجتماعى أمام فئات اجتماعية لم تكن تحلم فى عهد الملكية بالوقوف أمام باب الجامعة فضلا عن الالتحاق بها. وكان صاحبنا من ضمن هؤلاء .. والتوصيف والتشخيص للمؤرخ الراحل فى سيرته.

وأتذكر أن صاحب السيرة (والذى شرفنا بالكتابة يوما لهذه المطبوعة) كان فى زيارتى قبل حوالى خمس سنوات. وأخذتنا أطراف الحديث ليقص لى بعضا مما أورده بعد ذلك فى كتابه. كان يتحسر على «مصر التى كانت». وكانت المناسبة حادثة الأزهر التى فجر فيها طالب متفوق بكلية الهندسة نفسه فى الشارع المزدحم بالسائحين والباعة المتجولين (أبريل ٢٠٠٥).

ينتمى الطالب الجامعى حسن بشندى (١٨ سنة) إلى الطبقة الاجتماعية ذاتها التى كان ينتمى إليها رؤوف عباس وغيره من طلبة الجامعة قبل أربعين أو حتى ثلاثين عامًا. كما أنها الطبقة ذاتها التى كان ينتمى إليها كثيرٌ من جيلنا الذى تعلم على يد محمد الرفاعى اللغةَ العربية والتسامح «والأمل».. حين كان التعليم أداةً فعالةً وحقيقية للحراك الاجتماعى. يومها كان الأملُ موجوداً فى كل أفق. وكان «الحلم بغد أكثر إشراقًا» كفيلاً بأن يحنوَ، وأن يربت على الكتف.. وأن يمسحَ العرق عن الجباه. يومها كان الاعتقادُ راسخًا «ومطمئنًا» بأن «من جَدَّ وجد». يومها كانت القيم السائدة مختلفة، وكان الكل يشعر بأن قيمته فى عمله، وفيما يقدم لمجتمعه، لا فيما يأخذ منه «أو ينهب».

فى ٢٠٠٥، حين فجر بشندى نفسه ـ وأعود هنا لما سجلته وكتبته فى حينه ـ لم أجد، للأسف شيئًا من هذا اليقين ـ المطمْئِن لصاحبه والحامى للآخرين. فى نقاشات شباب هذا الجيل الذى حرصت على محاورته لأيام على الإنترنت بعد الحادثة المؤلمة.

أحدهم ذكرنى بما جاء على لسان والدة طالب الهندسة بأنه لم يكن يمتلك غير قميصين (الأهرام ١٣أبريل) وبأنه عندما تقدم للحصول على إعانة يتم منحها للطلبة غير القادرين، رفضت إدارة الكلية طلبه. وبعضهم سخر من تصريح عميد الكلية «المعين كغيره من قبل الأمن» والذى سارع بغسل يديه معلنًا أن «الكلية؛ إدارةً وأساتذةً وطلبةً يتبرؤون من حسن بشندى..!». هكذا ... وكفى الله المؤمنين القتال.

على منتديات النقاش الشبابية الإنترنتية تلك ـ أذكر ـ كان هناك حديثٌ عن البطالة التى صارت «قَدرًا» بعد أن ضاقت فرص العمل لتصبح حكرًا على «الوارثين» أو على أولئك الذين «اشتروا» بأموالهم فرص تعليم متميز. وكان هناك تذكيرٌ بعبد الحميد شتا؛ ذلك الشاب المكافح المتفوق الذى رفضوا تعيينه ملحقًا تجاريا رغم حصوله على المركز الأول بين كل من تقدموا للوظيفة، لا لسبب إلا لأن والده مزارع بسيط. (يومها لم يجد أمامه غير الانتحار) وكان هناك حديث عن «مجانية التعليم» والتى تحولت ككل شؤون حياتنا إلى لافتة وشعار أجوف بعد أن كانت قد فقدت فعليا معناها ودورها المطلوب فى بناء الأمة والمجتمع. وكان هناك كلام كثير عن الفساد.. والإفساد. وتآكل الطبقة الوسطى.. وشيوع «ثقافة البلطجة» يحترفها المجرمون، ويضطر إليها ـ فى غياب آليات القانون ـ أصحاب الحقوق.. وتمارسها الدولة أو أجهزتها الأمنية كروتين يومى.

صحيح لم يكن هناك حنين لـ «مصر التى كانت» كما كان فى حديث ضيفى يومها (رؤوف عباس)، إلا أن ذلك لم يكن إلا لأنهم ـ بحكم الشريحة السنية ـ لم يعرفوها. ولكن باختصار، كانت الصورة قاتمة. وهى بحكم االشريحة السنية أيضًا، تلقى بظلالها «القلقة» حتمًا على الأيام القادمة.



حديث الفساد الذى ساد، ومنظومة القيم التى تبدلت، تذكرته أيضا فى مجلس العزاء الذى كان مفعما بمشاعر الإخلاص، لا غيرها. كان محمد الرفاعى المعلم الراحل شاهدا بدوره ـ دون أن يقصد ـ على ما جرى. فبحكم قيم وتقاليد عرفناها، ترهبن محمد يوسف الرفاعى «الأخ الأكبر» ليتفرغ لتربية أخيه الأصغر، حتى أنهى دراسته الجامعية مهندسا. ويذكر كل المقربين من الأخوين، عندما شرع الأخ الأكبر فى بناء بيته (وكان أخوه المهندس هو المسؤول أيامها عن تصاريح البناء، وعن صرف حصص الأسمنت الذى كان يصرف وقتها بنظام معين) أن الأخ الأكبر «المربى» لم يطلب من أخيه استثناءً، بل أن أمره أن يحرر له «مخالفة» لشرائه الأسمنت من السوق السوداء، وهو الأمر الذى كان ممنوعا وقتها..(!) وقد كان.. كما كان أيضًا أن فقد الأخ الأصغر ـ الذى أحسن أخوه تربيته ـ حياته بعد ذلك بسنوات، فى حادثة شابها كثيرٌ من الغموض، وكان وقتها مسؤولا بحكم وظيفته عن محاولة منع فساد كان قد صار فى قطاعه كالهواء الذى نتنفسه.

رحم الله الرفاعى الأصغر والأكبر..

ورحم الله أيامنا التى كانت ■

هوامش:

(١) القصيدة لأمير الشعراء أحمد شوقى (١٨٦٨ – ١٩٣٢م) ويقول فى مطلعها:
«قُمْ للمعلـمِ وَفِّـهِ التبجيـلا
كادَ المعلمُ أن يكونَ رسولا»
«أعلمتَ أشرفَ أو أجلَّ من الذى
يبنى وينشئُ أنفسًا وعقولا»

(٢) مصطفى لطفى المَنْفَلُوطى (١٨٧٦ – ١٩٢٤م) أديب مصرى من أم تركية . كتاباه «النظرات» و«العبرات» يعتبران من أبلغ ما كتب بالعربية فى العصر الحديث.

بيتـــــــــــر بيـنـــــــــارت
Peter Beinart

فشــــــــــــــــــــــــل

■■ منذ سبع سنوات، قام عدد من أبرز المتبرعين اليهود بتوظيف خبير الاستطلاعات الجمهورى فرانك لونتز ليفسر السبب وراء قلة حماس طلاب الجامعات من اليهود الأميركيين تجاه التصدى للانتقادات التى توجه إلى إسرائيل فى الحرم الجامعى. وعليه فقد كتب فرانك لونتز عن غير قصد لائحة اتهام تعد أكثر ما رأيته فى حياتى

Peter Beinart is Associate Professor of Journalism and Political Science at the City University of New York, a Senior Fellow at the New America Foundation, and Senior Political Writer for The Daily Beast. His new book, *The Icarus Syndrome: A History of American Hubris* (June 2010)

بترتيب خاص مع:
The New york Review of Books

ترجمة: مازن النجار

إدانة لمجتمع المنظمات اليهودية الأميركية.

أراد المتبرعون معرفة آراء الطلاب اليهود بشأن إسرائيل. أمريك؛ ووجد لونتز أنهم فى الغالب لا يفكرون فيها. وذكر فى تقريره: «ست مرات اجتمعنا مع طلاب يهود كمجموعة لنتحدث عن يهوديتهم وما يربطهم بإسرائيل. وفى المرات الست لم تتطرق المجموعة إلى موضوع إسرائيل إلا عندما تتم إثارته. كما استخدم هؤلاء الشباب اليهود ضمير «هم» بدلا من «نحن» لوصف الموقف فى المرات الست».

لم تكن اللامبالاة التى لقيها لونتز مفاجئة. ففى السنوات الأخيرة، كشف العديد من الدراسات، على حد قول كل من ستيفن كوهين من كلية الاتحاد العبرى وآرى كلمان من جامعة كاليفورنيا فى ديفيز، أن «الشباب اليهود غير الأرثوذكس، بصفة عامة، يشعرون بقلة الروابط التى تجمعهم بإسرائيل أكثر ممن هم أكبر سنا، فيما يصرح الكثير منهم «بعدم وجود أى مشاعر إيجابية تقريبا تجاه إسرائيل». فى ٢٠٠٨، رفض اتحاد الطلاب فى جامعة برانديز، الجامعة غير الطائفية الوحيدة التى يرعاها اليهود فى أميركا، قرارا بالاحتفال بالذكرى السنوية الستين لقيام الدولة اليهودية.



كانت مهمة لونتز هى تشخيص أسباب المشكلة. ولدى استطلاع آراء الطلاب بشأن إسرائيل، واجهته بعض الأفكار الثابتة. أولا: «أنهم يحتفظون بحقهم فى مُساءلة الموقف الإسرائيلى»، ويوضح لونتز قائلا: «هؤلاء الشبان اليهود يقاومون أى شىء يعتبرونه (تفكيرا جماعيا)، فهم يريدون نقاشا مفتوحا وصريحا عن إسرائيل وعيوبها». ثانيا: الشبان اليهود يريدون بشدة تحقيق السلام. عرض عليهم لونتز مجموعة من الإعلانات، كانت واحدة من أشهرها بعنوان «الدليل على أن إسرائيل تريد السلام» وسرد العروض التى قدمتها الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة للانسحاب من الأراضى المحتلة. ثالثا: بعض هؤلاء الشبان يتعاطفون مع محنة الفلسطينيين. عندما عرض عليهم لونتز إعلانات تصور الفلسطينيين على أنهم يتسمون بالعنف والكراهية، انتقد العديد من المشاركين فى المجموعة هذه الإعلانات ووصفوها بالنمطية والظالمة، واستشهدوا بما يعرفونه من أصدقائهم المسلمين.

بعبارة أخرى، كان معظم الطلاب ليبراليين بصفة عامة. فقد تشربوا بعض القيم المميزة للثقافة السياسية الأميركية اليهودية ومنها: الاعتقاد بالنقاش المفتوح، والشكوك حول جدوى القوة العسكرية، والالتزام بحقوق الإنسان. ونظرا لـ«براءتهم»، لم يدركوا أن عليهم التخلص من هذه القيم عندما يتعلق الأمر بإسرائيل. كانت النسخة الوحيدة من الصهيونية التى وجدوها جذابة هى الصهيونية التى تعترف بأن الفلسطينيين يستحقون



كانت المؤسسة اليهودية تطلب من اليهود الأميركيين التخلص من ليبراليتهم عندما يتعلق الأمر بالصهيونية، والآن يثير رعبها أن تجد العديد من شباب اليهود يتخلصون من صهيونيتهم



الكرامة وأنهم قادرون على تحقيق السلام، كما كان هؤلاء الطلاب اليهود على استعداد تام لإدانة أى حكومة إسرائيلية لا تشاركهم هذه الاعتقادات. لكن لونتز لم يفهم هذه المفارقة. فقد كانت النسخة الوحيدة من الصهيونية التى وجدوا فيها جاذبية هى الصهيونية التى ظلت المؤسسة اليهودية الأميركية تقاومها لسنوات طوال.

من بين اليهود الأميركيين فى الوقت الحاضر، هناك عدد كبير من الصهاينة - لاسيما بين الأرثوذكس- الموالين بشدة لدولة إسرائيل. وهناك عدد كبير من الليبراليين -خاصة بين اليهود العلمانيين- مخلصين بشدة لحقوق الإنسان لكافة الناس، ومنهم الفلسطينيون. بيد أن هوة الاختلاف بين الفريقين فى اتساع مستمر. يتناقص عدد الصهاينة بين الأميركيين اليهود الليبراليين بدرجة كبيرة، خاصة بين صفوف الأجيال الشابة، كما يزداد الاختلاف بين الفريقين. أحد أسباب تزايد الاختلاف هو أن المؤسسات الرائدة الأميركى الأكبر فى وقتنا الحاضر هو إنقاذ الصهيونية الليبرالية فى الولايات المتحدة، حتى يمكن للأميركيين اليهود أن يساعدوا فى إنقاذ الصهيونية الليبرالية فى إسرائيل. وهذا التحدى يبدأ من حيث يريده طلاب لونتز أن يبدأ: التحدث بصراحة عن الحكومة الإسرائيلية الحالية، والتوقف عن غض الطرف.

منذ التسعينيات الماضية، والصحفيون والدارسون يصفون التشعب فى المجتمع الإسرائيلى. وعلى حد قول خبير العلوم السياسية بالجامعة العبرية يارون إزراحى: «بعد عقود مما أطلق عليه لاحقا التوافق القومى، تفسخت الرواية الصهيونية للتحرر إلى عدة نسخ تفند كل منها الأخرى علنا». تقوم النسخة الأولى على ذكرى طويلة من التعرض للاضطهاد والإبادة الجماعية، وصراع مرير من أجل البقاء. تتسم هذه النسخة بالتشاؤم والتشكيك فى غير اليهود ولا تؤمن سوى بالقوة والتضامن اليهودى. والنسخة الأخرى تغذيها نسخ من الرؤى الإنسان فى القوانين الأساسية لإسرائيل. كما نستشعرها أيضا فى الاستعداد الواضح لرئيس الوزراء الإسرائيلى السابق إيهود باراك للتخلى عن جزء كبير من الضفة الغربية فى ٢٠٠٠ وبدايات ٢٠٠١.

لكن هذه النسخة الصهيونية «الإنسانية العالمية» لا تحسن استخدام السلطة فى اسرائيل اليوم. بل نجدها تكافح لأجل البقاء. ولإدراك عمق تناقض قيم هذه الصهيونية مع قيم حكومة رئيس الوزراء بنيامين نتنياهو، يجدر النظر إلى قضية إيفى إيتام (وزير سابق و«بطل» حرب يتمتع بكاريزما عالية).



اقترح إيفى القيام بتطهير عرقى للفلسطينيين فى الضفة الغربية. وصرح فى ٢٠٠٦: «سيكون علينا أن نطرد الغالبية العظمى من عرب الضفة غزة فى ٢٠٠٨-٢٠٠٩ من الترشح للكنيست. وصرح بوجوب إعدام أعضاء الكنيست العرب الذين التقوا ممثلين لجماعة حماس. كما دعا لسجن العرب الذين يعلنون الحداد فى يوم الاستقلال الإسرائيلى، وصرح بأنه يأمل فى الحرمان الدائم للعرب من دول أخرى والذين يتزوجون مواطنين عربا إسرائيليين من الحصول على الجنسية الإسرائيلية.

لا يتطلب الأمر أن يكون المرء مصابا بجنون الشك ليلاحظ العلاقة بين وجهات النظر الحالية والسابقة لليبرمان. فكلما حرمت عرب إسرائيل من الحماية القانونية وكلما اتهمتهم بالخيانة، زادت القدرة على تحقيق سياسة الطرد.

عادة ما يشير المدافعون الأميركيون عن ليبرمان إلى أنه يدعم نظرياً قيام دولة فلسطينية. ما ينسى هؤلاء المدافعون أن يقولوه بالنسبة لليبرمان أن حل الدولتين يعنى إعادة رسم حدود إسرائيل بحيث يجد جزء كبير من عرب

المؤســـــــــــــة!

ليهود أميركا ترفض تعزيز - بل تعارض بفعالية- الصهيونية التى تتحدى السلوك الإسرائيلى فى الضفة الغربية وقطاع غزة وتجاه المواطنين من عرب إسرائيل. ولعشرات السنوات، كانت المؤسسة اليهودية تطلب من اليهود الأميركيين التخلص من ليبراليتهم عندما يتعلق الأمر بالصهيونية، والآن مما يثير رعبها أن تجد العديد من شباب اليهود يتخلصون من صهيونيتهم، بدلا من ذلك.

أخلاقيا، تجد الصهيونية الأميركية نفسها فى دوامة تجذبها إلى أسفل. وإذا كان قادة جماعات مثل لجنة الشئون العامة الأميركية الإسرائيلية (إيباك)، ومؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأميركية الكبرى لن يغيروا طريقهم، فسيستيقظون ذات يوم ليجدوا أمامهم قيادات صهيونية شابة غالبيتهم من الأرثوذكس يثير عداؤهم الصريح للعرب والفلسطينيين الخوف فى نفوس هؤلاء القادة أنفسهم، بينما يراوح اليهود الأميركيون العلمانيون بين اللامبالاة والفزع مما هو آت. إن التحدى اليهودى التبشيرية العلمانية وفكرة التقدم التنويرية. تظهر هذه النسخة شعورا عميقا بحدود القوة العسكرية والتزاما بالقيم الليبرالية الديموقراطية. فى كل البلاد يوجد شىء من الانقسام الأيديولوجى، إلا أن الهوة بين الاتجاهات الأيديولوجية فى إسرائيل المعاصرة من أكبرها فى العالم.



وكما لاحظ إزراحى وغيره، فإن الصهيونية الليبرالية الديموقراطية، بجانب تسببها فى زيادة النزعة الفردية الجديدة خاصة بين الإسرائيليين العلمانيين، تسببت أيضا بزيادة الطلب على حرية التعبير وزيادة الشكوك حول السلطة القسرية. يمكننا استشعار هذه الروح عند «المؤرخين الجدد» مثل توم سيجيف الذى نقب بشجاعة زوايا الماضى الصهيونى، والرئيس السابق للمحكمة العليا أهارون باراك الذى أسقط قوانين الكنيست التى تنتهك ضمانات حقوق الغربية من هنا وطرد عرب إسرائيل من النظام السياسى». فى ٢٠٠٨، قام إيتام بدمج حزبه الصغير «آهى» فى حزب الليكود بزعامة نتنياهو. وفى العام الدراسى ٢٠٠٩-٢٠١٠، كان إيتام هو مبعوث نتنياهو الخاص إلى المشاركات الجامعية بالخارج. بهذه الصفة، زار إيتام عشرات المدارس الثانوية والكليات الأميركية فى الخريف الماضى نيابة عن الحكومة الإسرائيلية. وسميت المجموعة التى نظمت جولته «قافلة من أجل الديموقراطية».

كان لوزير الخارجية الاسرائيلى أفيغدور ليبرمان نفس وجهات نظر إيتام. ففى شبابه، التحق لفترة وجيزة بحزب «كاخ» الذى حُظِر لاحقا، وكان يتزعمه مائير كاهانا. كان هذا الحزب يدعو لطرد العرب من الأراضى «الإسرائيلية». الآن يمكن توصيف موقف ليبرمان بـ«موقف ما قبل الطرد». فهو يريد سحب الجنسية من عرب إسرائيل الذين يرفضون القسم على الولاء للدولة اليهودية. كما حاول منع اثنين من الأحزاب العربية التى عارضت الحرب التى شنتها إسرائيل على إسرائيل أنفسهم منفيين إلى بلد آخر بدون موافقتهم.

عمل ليبرمان رئيسا لديوان الموظفين فى حكومة نتنياهو الأولى. وعندما يتعلق الأمر بالضفة الغربية، نجد سجل نتنياهو أكثر تشددا من سجل موظفه ليبرمان. فى كتابه «مكان بين الأمم» المنشور سنة ١٩٩٣، لم يكتف نتنياهو برفض فكرة الدولة الفلسطينية، وإنما أنكر أن هناك ما يسمى بالفلسطينيين. فى الواقع، كرر نتنياهو تصريحه يساوى المحاولات الفلسطينية لإقامة دولة بالنازية. كما أعلن أن إسرائيل إن انسحبت من الضفة الغربية ستكون «دولة غيتّو» بحدود أوشفيتز (نسبة إلى معسكر الإعتقال النازى). كما شبه الجهود المبذولة لنزع يهودا والسامرة (الضفة الغربية) من إسرائيل بمحاولات هتلر لانتزاع منطقة سوديت الناطقة بالألمانية من تشيكوسلوفاكيا فى ١٩٣٨. ويصر نتنياهو على أنه ليس عدلا مطالبة إسرائيل بالتخلى عن مزيد من الأراضى، حيث إنها قامت فعلا بتقديم تنازلات كبيرة



وصعبة للغاية. أى نوع من التنازلات؟ لقد تخلت إسرائيل عن مطالبتها بالأردن والتى هى حق عادل لإسرائيل وينبغى أن تكون جزءا من الدولة اليهودية!

فى جناح اليسار من ائتلاف نتنياهو يوجد حزب العمل الضعيف بزعامة إيهود باراك، وأيا كانت احتمالات الاعتدال فيه، نجد أن حزب شاس يوازنها والذى يُعد فى بعض النواحى الشريك الأكثر بعدا عن الليبرالية فى التحالف، وهو حزب أرثوذكسى متطرف يمثل يهود شمال أفريقيا والشرق الأوسط. فى لحظة ما، كان حزب شاس مثل بعض نظرائه من أحزاب الأشكناز الأصولية المتشددة مستعدا لمناقشة تفكيك المستوطنات. لكن فى السنوات الأخيرة، انتقل الإسرائيليون المتشددون الأرثوذكس الحريصون على إيجاد سكن لعائلاتهم الكبيرة إلى الضفة الغربية، والتى وجدوا أن الحياة فيها أرخص بكثير بفضل دعم الحكومة. وليس صدفة أن تتحول الأحزاب السياسية التى ينتمون إليها تحولا صارما ضد فكرة التنازل عن الأراضى. وقد فعلوا هذا بخبث يعكس عداء الأرثوذكسية اليهودية المتطرفة العميق للقيم الليبرالية. كان الحاخام عوفاديا يوسف، الزعيم الروحى لحزب شاس، قد وصف العرب بأنهم «أفاعى»، و«ثعابين»، و«نمل». وفى ٢٠٠٥، بعد أن اقترح رئيس الوزراء الاسرائيلى أريئيل شارون تفكيك المستوطنات فى قطاع غزة، دعا عوفاديا يوسف عليه أن «يطرحه الله أرضا». وتطلق صحيفة شاس الرسمية مؤخرا على الرئيس أوباما لقب «إسلامى متطرف».

بروفيسور الجامعة العبرية زئيف ستيرنهل خبير فى الفاشية وحائز على «جائزة إسرائيل» المرموقة. كتب ستيرنهل تعليقا على ليبرمان وقادة شاس بصفحة الرأى فى صحيفة هآرتس قائلا: «آخر مرة كان لسياسيين (أوروبيين) وجهات نظر مشابهة لوجهات نظر (قادة شاس)، وكانوا على رأس السلطة فى أوروبا الغربية بعد الحرب العالمية الثانية، كان ذلك فى أسبانيا فى عهد فرانكو». وأضاف: «فبـ(مباركتهم) تشن حملة صريحة ومتعددة المظاهر على أسس النظام الديموقراطى الليبرالى». كان عليه أن يأخذ حذره بناء على معرفته هذه، ففى سبتمبر/ أيلول ٢٠٠٨، أصيب ستيرنهل عندما أطلق أحد المستوطنين قنبلة على منزله.

تتعاقب الحكومات الإسرائيلية فتأتى وتذهب، إلا أن ائتلاف نتنياهو هو نتاج اتجاهات مخيفة طويلة المدى فى المجتمع الإسرائيلى: سكان أرثوذكس متطرفون يتزايدون سريعا، وحركة استيطان تزداد تطرفا وتغلغلا بالإدارة الحكومية والجيش الإسرائيلى، ومجتمع مهاجرين روس يميلون بوجه خاص للعنصرية المعادية للعرب. فى ٢٠٠٩، كشف استطلاع للرأى العام الإسرائيلى أجراه المعهد الإسرائيلى للديمقراطية أن ٥٣ بالمائة من يهود إسرائيل (و٧٧ بالمائة من المهاجرين الجدد من الاتحاد السوفياتى السابق) يؤيدون تشجيع العرب على مغادرة إسرائيل. ويلاحظ أن توجهات الشباب هى الأسوأ فى إسرائيل. فعندما أجرت المدارس الثانوية الإسرائيلية انتخابات وهمية العام الماضى، فاز ليبرمان. وفى مارس/آذار ٢٠١٠، كشف استطلاع للرأى أن ٥٦ بالمائة من طلاب المدارس الثانوية اليهود الإسرائيليين، وأكثر من ٨٠ بالمائة من طلاب المدارس الثانوية الدينية اليهودية، ينكرون حق عرب إسرائيل فى الترشيح لانتخابات الكنيست. ووصف مسؤول بوزارة التعليم هذا الاستطلاع أنه «إشارة تحذير كبيرة فى ضوء الاتجاهات المتزايدة للرؤى المتطرفة بين الشباب».

قد تعتقد أن مثل هذه الاتجاهات والتعاطف الذى أظهره البعض فى الحكومة الإسرائيلية نحوها سيتسبب فى الكثير من القلق العام حيالها (أو حتى الغضب) بين قادة منظمات اليهود الأميركيين. بيد أنك ستكون مخطئا فى هذا. ففى إسرائيل نفسها، تتصاعد أصوات من اليسار (وحتى الوسط) محذرة بأصوات عالية من الأخطار التى تهدد الديمقراطية الإسرائيلية. (كان كل من رئيسى الوزراء الأسبقين إيهود أولمرت وإيهود باراك -على حد سواء- قد حذرا من أن إسرائيل تخاطر بتحولها إلى «دولة فصل عنصرى» إذا ما واصلت السيطرة على الضفة الغربية. فى أبريل/نيسان من العام الحالى، عندما أجبر المستوطنون إحدى المكتبات الإسرائيلية الكبرى على وقف بيع كتاب ينتقد الاحتلال الإسرائيلى، علقت شولاميت ألونى، الزعيم السابق لحزب ميرتس الداعى للسلام، أن إسرائيل «لم تعد ديموقراطية منذ هذه اللحظة». لكن جماعات أميركية كلجنة الشئون العامة الأميركية الإسرائيلية (إيباك)، ومؤتمر رؤساء كبرى المنظمات اليهودية الأميركية، تراقب الخطاب العام وتوبخ من يعارض رؤيتها لإسرائيل باعتبارها دولة ديموقراطية، يعتز كل قادتها بالديموقراطية ويتوقون للسلام.



والنتيجة: مفارقة رهيبة. فنظريا، لا تزال المنظمات اليهودية الأميركية ملتزمة بالنسخة الليبرالية من الصهيونية. وعلى موقعها الإليكترونى، تحتفى إيباك بالتزام إسرائيل «بحرية التعبير وحقوق الأقليات»، ويعلن مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأميركية الكبرى أن إسرائيل والولايات المتحدة الأميركية لهما ذات القيم السياسية والأخلاقية والفكرية، بما فيها «الديمقراطية والحرية والأمن والسلام». هذه المجموعات لا يمكن أن تقول كما يقول البعض فى تحالف نتنياهو أن عرب إسرائيل لا يستحقون المواطنة الكاملة، وأن الفلسطينيين فى الضفة الغربية لا يستحقون التمتع بحقوق الإنسان. لكنهم عمليا، بدفاعهم تقريبا عن أى شىء تفعله الحكومة الإسرائيلية، فإنهم بهذا يجعلون من أنفسهم حراسا فكريين للقادة الإسرائيليين الذين يهددون ذات القيم الليبرالية التى يعلنون إعجابهم بها.

بعد الانتخابات الإسرائيلية فى فبراير/شباط ٢٠٠٩، أوضح مثلا مالكولم هوينلين، نائب الرئيس التنفيذى لمؤتمر رؤساء كبرى المنظمات اليهودية الأميركية، أن أجندة أفيغدور ليبرمان «أكثر اعتدالا بكثير مما تقدمه وسائل الإعلام». وأكد أبرَهَم فوكسمان المدير الوطنى لرابطة مكافحة التشهير (ADL) على أن ليبرمان لا يشعر بالعداء تجاه عرب إسرائيل، وصرح فوكسمان لوكالة أنباء التلغراف اليهودية (JTA) بأن: «(ليبرمان) لا يقول اطردوهم، ولا يقول عاقبوهم». (واضح أنه بالنسبة لهم فإن الحرمان الدائم من الجنسية الإسرائيلية لأزواج أو زوجات عرب إسرائيل أو سجنهم إذا ما أعلنوا الحداد فى يوم استقلال إسرائيل لا يعد عقوبة). انتقدت رابطة مكافحة التشهير التعصب ضد العرب فى الماضى، أما اللجنة اليهودية الأميركية(JAC) فيحسب لها أنها حذرت من أن يمين الولاء الذى يقترحه ليبرمان سوف «يضر النقاش السياسى الديمقراطى فى إسرائيل». إلا أن جريدة فورورد Forward اليهودية الأميركية لخصت الاستجابة العامة لقيادة الطائفية الأميركية اليهودية فى أحد عناوينها الرئيسية قائلة: «القادة اليهود يلتزمون الصمت إلى حد كبير فيما يتعلق بدور ليبرمان فى الحكومة».

لم يقتصر الأمر على أن الجالية اليهودية الأميركية المنظمة تتجنب فى الغالب الانتقادات العلنية للحكومة الإسرائيلية، لكنها أيضا تحاول منع الآخرين من التحدث بصراحة، ومن توجيه مثل هذه الانتقادات. فى السنوات الأخيرة، شنت المنظمات اليهودية الأميركية حملة لتشويه سمعة أكثر جماعات حقوق الإنسان احتراما فى العالم. فى عام ٢٠٠٦، وصف فوكسمان تقريرا أصدرته منظمة العفو الدولية حول قتل إسرائيل لمدنيين لبنانيين بأنه: «متعصب، ومتحيز، ويكاد يقترب من



يعلن مؤتمر رؤساء المنظمات اليهودية الأميركية الكبرى أن إسرائيل والولايات المتحدة الأمـيركيـة لهمـا ذات القيـم السياسية والأخـلاقيـة والفكـريـة



من أجل الحفاظ على الصهيونية التى لا تقبل الانتقاد، تحتاج المنظمات اليهودية الأميركية إلى البحث عن مكان آخر لتجديد صفوفها

حافة معاداة السامية». أما مؤتمر رؤساء كبرى المنظمات اليهودية فقد أعلن أن «المنظمات غير الحكومية المنحازة تتضمن منظمة العفو الدولية وهيومان رايتس ووتش، وهيئة المعونة المسيحية، ومنظمة إنقاذ الأطفال». فى صيف ٢٠٠٩ قال متحدث باسم إيباك أن منظمة هيومن رايتس ووتش «برهنت مرارا على موقفها المتحيز ضد إسرائيل». وعندما منحت إدارة أوباما وسام الحرية الرئاسى لمارى روبنسون، المفوضة السامية السابقة لحقوق الإنسان فى الأمم المتحدة، احتجت كل من إيباك ورابطة مكافحة التشهير مستشهدين بأنها ترأست المؤتمر العالمى لمكافحة العنصرية سنة ٢٠٠١ فى ديربان بجنوب أفريقيا. (المسودات الأولى لتقرير المؤتمر كانت تتهم إسرائيل ضمنا بالعنصرية. وساعدت روبنسون على حذف هذا الاتهام المشين، مما أثار غضب سوريا وإيران).

إن هيومن رايتس ووتش ومنظمة العفو الدولية ليست معصومة من الخطأ. ولكن عندما تعمد جماعات مثل إيباك ومؤتمر رؤساء كبرى المنظمات اليهودية إلى تجنب كل انتقاد علنى تقريبا يوجه ضد الممارسات الإسرائيلية - موجهين غضبهم فقط إلى الدول المجاورة لإسرائيل- فإنهم يضعون أنفسهم فى وضع ضعيف لا يسمح لهم بتوجيه الاتهامات للآخرين بالتحيز. كذلك، حين تدعى الجماعات اليهودية الأميركية أن كل ما يفعلونه هو الدفاع عن إسرائيل ضد أعدائها، فإنهم بالفعل يقفون فى صف أحد الأطراف فى الصراع الدائر داخل إسرائيل بين الرؤى الصهيونية المختلفة جذريا. وبنفس لحظة ادعاء رابطة مكافحة التشهير بأن روبنسون تضمر «عداء تجاه إسرائيل»، قام تحالف يضم سبع جماعات اسرائيلية لحقوق الإنسان بتهنئتها علنا على الجائزة التى حصلت عليها. العديد من هذه الجماعات مثل منظمة بتسيليم التى تراقب الممارسات الإسرائيلية بالمناطق المحتلة والفرع الإسرائيلى لمنظمة «أطباء من أجل حقوق الإنسان» انتقدت على الأقل نفس درجة انتقاد منظمة العفو الدولية وهيومن رايتس ووتش للممارسات الإسرائيلية فى لبنان وغزة والضفة الغربية.

كل هذا يثير سؤالا مزعجا: إذا كانت الجماعات اليهودية الأميركية تدعى بأن انتقادات حقوق الإنسان الموجهة لإسرائيل من الخارج تنبع من التحيز المعادى لإسرائيل، إن لم يكن معاد للسامية، فما الذى يمكن قوله عمن يوجه انتقادات فى مجال حقوق الإنسان من داخل إسرائيل نفسها؟

المعنى الضمنى واضح: لابد أنهم مرضى بكراهية الذات، إن لم يكونوا خونة. لا يقول الزعماء اليهود الأميركيون هذا بصفة عامة، إلا أن حلفاءهم بحكومة نتنياهو يقولونه. فى صيف ٢٠٠٩، وصف موشى يعلون، نائب رئيس وزراء إسرائيل، جماعة «السلام الآن» المناهضة للاحتلال بأنها «فيروس». وفى يناير/كانون الثانى ٢٠١٠، اتهمت جماعة يمينية تدعى «إيم ترتيزو» منظمات حماية حقوق الإنسان الإسرائيلية بأنها قدمت معلومات إلى لجنة غولدستون التى تولت التحقيق فى الحرب الإسرائيلية على غزة. كما سارع أحد أعضاء الكنيست - من حزب الليكود الذى يتزعمه نتنياهو- بتوجيه تهمة الخيانة لناعومى شازان، رئيس صندوق إسرائيل الجديدة الداعم لبعض جماعات حقوق الإنسان، وأطلق أحد أعضاء حزب ليبرمان تحقيقا بهدف الحد من التمويل الأجنبى للمنظمات الإسرائيلية غير الحكومية.

ولكن يُشهد لفوكسمان وغيره من الزعماء اليهود الأميركيين أنهم يعارضون هذه الحركة، مما تسبب ربما فى إضعاف جهودهم أنفسهم. لكنهم حصدوا ما زرعوه. فإذا كانوا اتهموا الاتجاه نحو انتقاد الحكومة الإسرائيلية لممارساتها فى مجال حقوق الإنسان بأنه نابع من العداء تجاه دولة إسرائيل أو تجاه اليهود بصفة عامة، فإنهم بهذا يقدمون الدعم والعون لإسرائيليين يوجهون ذات الاتهامات ضد الانتقادات الموجهة لإسرائيل حول حقوق الإنسان، من داخل إسرائيل نفسها.

فى المؤسسة اليهودية الأميركية اليوم، تم تفريغ لغة الليبرالية الصهيونية من أى معنى، بكل تعبيراتها الاصطلاحية الخاصة بحقوق الإنسان وحقوق المواطنة المتساوية والتسوية القائمة على تقسيم الأرض. إلا أنها تظل لغة مشتركة جزئيا لأسباب تتعلق بالأجيال، لأن الكثير من الصهاينة الأميركيين المسنين لا يزالون يرون أنفسهم كليبراليين إلى حد ما، ويعطون أصواتهم للديموقراطية؛ وغير متأثرين بالمطالبات التوراتية بالحق فى الضفة الغربية؛ ويرون عموم الفلسطينيين باعتبارهم شعبا طيبا تعرض للخيانة من بعض القادة الأشرار؛ كما أن الكثير من الصهاينة الأميركيين علمانيون. ولا يريدون للمنظمات اليهودية أن تنتقد جناح اليسار بإسرائيل، كما لا يريدون للمنظمات اليهودية أن تكون عميلة لليمين الاسرائيلى.



هؤلاء الصهاينة الأميركيون، هم إلى حد كبير، نتاج عصر معين. شكلت توجهات كثير منهم الأيام المرعبة التى سبقت حرب الأيام الستة فى ١٩٦٧، (عندها كان يبدو أن إسرائيل سيتم اجتياحها)، والعواقب المريرة لحرب يوم الغفران (أكتوبر ١٩٧٣)، (عندها بدا أن معظم العالم انقلب على إسرائيل). فى هذه المحنة، صارت إسرائيل تمثل هويتهم اليهودية، فى معظم الأحيان إضافة لمحرقة الهولوكوست، حيث ساعدت حربا ١٩٦٧ و١٩٧٣ فى جعلها محورية فى حياة اليهود الأميركيين. اعتنق هؤلاء اليهود الصهيونية قبل أن تصبح حركة الاستيطان قوة رئيسة فى السياسة الإسرائيلية، وقبل الحرب اللبنانية عام ١٩٨١، وقبل الانتفاضة الأولى. لقد أغرموا بإسرائيل فى وقت كانت فيه أكثر علمانية وأقل انقساما وأقل تشكلا بالثقافة والسياسة والنظرية الدينية للاحتلال. وبالتقليل من أهمية أفيغدور ليبرمان والمستوطنين وحزب شاس، تتيح الجماعات الصهيونية الأميركية لهؤلاء الصهاينة الأميركيين كبار السن مواصلة اعتبار أنفسهم جزءاً من إسرائيل، كما كانت فى شبابهم تتسم بتماسك داخلى أكبر و«براءة» أكثر. إسرائيل تلك لم تعد موجودة إلا فى ذاكرتهم.

ولكن هؤلاء الصهاينة العلمانيين لا يعيدون إنتاج أنفسهم، فليس لدى أبنائهم ذكريات احتشاد الجيوش العربية على حدود إسرائيل، ونجاة إسرائيل التى كانت جزئيا بفضل المساعدة العسكرية الأميركية العاجلة. بل نشأوا وهم يرون إسرائيل قوة مهيمنة إقليميا وسلطة احتلال. لذلك، هم أكثر وعيا من آبائهم بمدى انتهاك السلوك الإسرائيلى للمُثل الليبرالية، وهم أقل استعدادا لمنح إسرائيل استثناء لأن بقاءها يبدو معرضا للخطر. ولأنهم ورثوا الليبرالية عن آبائهم، فهم لا يستطيعون اعتناق صهيونية لا تقبل الانتقادات. ولأن ليبراليتهم حقيقية، يمكنهم إدراك أن ليبرالية المؤسسة اليهودية الأميركية زائفة.

لذلك ومن أجل الحفاظ على الصهيونية التى لا تقبل الانتقاد، تحتاج المنظمات اليهودية الأميركية إلى البحث عن مكان آخر لتجديد صفوفها. ستكون بحاجة للبحث عن الشباب اليهودى الأميركى الذين نضج خلال فترة احتلال الضفة الغربية، لكنهم غير منزعجين من الاحتلال. سيأتى هؤلاء الشباب من اليهود الأميركيين الأرثوذكس أكثر من غيرهم.

ولأنهم يتزوجون مبكرا، وقليلا ما يتزوجون خارج طائفتهم، وينجبون أطفالا أكثر، تزداد نسبة اليهود الأرثوذكس بسرعة بين اليهود الأميركيين. وفقا لدراسة مسحية أجرتها اللجنة اليهودية الأميركية، لا يشكل اليهود



عندما تعمد جماعات مثل إيباك ومؤتمر رؤساء كبرى المنظمات اليهودية إلى تجنب كل انتقاد علنى يوجه ضد الممارسات الإسرائيلية فإنهم يضعون أنفسهم فى وضع ضعيف لا يسمح لهم بتوجيه الاتهامات للآخرين بالتحيز

فشــــــــل المــؤســـــــــسة!

الأرثوذكس سوى ١٢ بالمائة من اليهود الأميركيين فوق سن الستين، بينما يشكلون ٣٤ بالمائة من الشريحة العمرية بين ١٨ و٢٤ عاما. بالنسبة للمنظمات الصهيونية بأميركا، يعد هؤلاء الشبان الأرثوذكس جائزة كبيرة محتملة. ويتعلم هؤلاء الولاء لإسرائيل فى المدارس الدينية منذ نعومة أظافرهم؛ وبصفة عامة يقضون عاما فى الدراسة الدينية بعد المرحلة الثانوية، وغالبا ما يكون لديهم أقارب وأصدقاء هاجروا إلى إسرائيل. وأظهرت دراسة اللجنة اليهودية الأميركية أن ١٩ بالمائة فقط من اليهود البالغين غير الأرثوذكس ممن تقل أعمارهم عن أربعين عاما يشعرون «بعلاقتهم القوية بإسرائيل»، بينما تصل هذه النسبة إلى ٧٩ بالمائة بين اليهود الأرثوذكس. وبينما يفقد اليهود العلمانيون صلاتهم بالمؤسسات الصهيونية فى أميركا تدريجيا، يأتى نظراؤهم الأرثوذكس ليحلوا محلهم. يوضح صموئيل هيلمان وهو عالم الاجتماع بجامعة مدينة نيويورك: «لا يزال (الأرثوذكس) مهتمين بالمخاوف اليهودية ضيقة الأفق، وهم من بين آخر الناس الذين بقوا فى البيت اليهودى، لذلك فهم الآن يسيطرون على الأضواء».

لكن ضيق الأفق هذا بذاته -الالتزام العميق بالمخاوف اليهودية، والتى غالبا ما تفوق المخاوف الأعم- يعطى الصهيونية الأرثوذكسية اليهودية شكلا واضحا غير ليبرالى. كشف الاستطلاع الذى أجرته اللجنة اليهودية الأميركية فى ٢٠٠٦ أن ٦٠ بالمائة من الأميركيين اليهود غير الأرثوذكس الذين تقل أعمارهم عن ٤٠ عاما يؤيدون قيام الدولة الفلسطينية، وتنخفض النسبة إلى ٢٥ بالمائة بين اليهود الأرثوذكس. فى ٢٠٠٩، عندما سأل تيودور ساسون مجموعات نقاش من الأميركيين اليهود عن إسرائيل، وجد أن الأفراد المشاركين بهذه المجموعات من اليهود الأرثوذكس أقل تأييدا لأن يكون تفكيك المستوطنات جزءا من اتفاقية للسلام.

أما الأكثر إثارة للعجب فهو أن اليهود الإصلاحيين والمحافظين وغير المنتمين لأى أيديولوجية أخرى يميلون للاعتقاد بأن عموم الفلسطينيين يريدون السلام، لكنهم لم يتلقوا العون الكافى من زعمائهم. على النقيض، من المرجح أن ينظر اليهود الأرثوذكس للشعب الفلسطينى كعدو، وينكرون أن عامة الفلسطينيين لديهم أى قيم أو مصالح مشتركة مع عموم الإسرائيليين أو اليهود.

للمذهب اليهودى الأرثوذكسى فضائل عظيمة، تتضمن مشاعر التقارب الطائفى والتزاما بالتعاليم اليهودية لا مثيل له بالمجتمع اليهودى الأميركى. (أنا منحاز فى رأيى هذا حيث إن أسرتى تنتمى لمعبد أرثوذكسى). لكن إذا ما استمرت الاتجاهات الراهنة، سيؤدى التأثير المتزايد لليهود الأرثوذكس فى المؤسسات الطائفية اليهودية الأميركية لتآكل قشرة الديموقراطية الليبرالية التى تغطى الصهيونية اليهودية حاليا. فى ٢٠٠٢، رعت المنظمات اليهودية الرئيسة بأميركا تجمعا كبيرا تضامنا مع إسرائيل فى مول واشنطون. فى هذا اليوم، أغلقت المدارس الدينية اليهودية بطول الساحل الشرقى، مما ضاعف المشاركة المقدرة لليهود الأرثوذكس فى الحشد لتقترب من ٧٠ بالمائة. عندما خاطب بول وولفويتز، نائب وزير الدفاع آنذاك، هذا التجمع قائلا: «الفلسطينيون الأبرياء يعانون ويموتون كذلك»، قوبل بصيحات استهجان من المحتشدين.



يتعين على زعماء اليهود فى أميركا التفكير مليا بشأن ذلك التجمع. فما لم يغيروا مسارهم، فإن الأمر ينذر بمستقبل تكون فيه: حركة صهيونية أميركية لا تكلف نفسها حتى بالتظاهر بأنها تهتم بالكرامة الفلسطينية، وقطاع أوسع من اليهود الأميركيين لا يكلف نفسه حتى التظاهر بالاهتمام بإسرائيل. حتى أن أطفالى أنا شخصيا، نظرا لنشأتهم، قد ينتهى بهم الأمر محتشدين يطلقون صيحات الاستهجان أو فى مجموعات النقاش التى درس لونتز آراءها. كلا الاحتمالين يملؤنى رعبا.

فى ٢٠٠٤، وفى محاولة لمنع تهريب السلاح من مصر، قامت الدبابات والجرافات الإسرائيلية بتدمير مئات المنازل فى مخيم رفح للاجئين جنوبى قطاع غزة. شاهد معلق وسياسى إسرائيلى مخضرم يدعى تومى لابيد على شاشة التلفاز امرأة عجوزا فلسطينية تحبو على يديها وقدميها باحثة عن أدويتها بين أنقاض منزلها. وقال إنها تذكره بجدته.

فى هذه اللحظة، استطاع لابيد تصوير الروح التى تختنق فى المنظمات اليهودية الأميركية. بادئ ذى بدء، كان لابيد يشاهد الحدث. ومن واقع تجربتى، ينتشر وباء عدم المشاهدة بين الصهاينة الأميركيين اليوم. فهناك أحداث مقيتة لا يشاهدها أحد منهم مثل: دراسة لمنظمة الصليب الأحمر بشأن سوء التغذية فى قطاع غزة، ومشروع قانون بالكنيست يسمح للأحياء اليهودية بمنع عرب إسرائيل من دخولها، وتقرير لجمعيات حقوق الإنسان الإسرائيلية حول قيام مستوطنين بإحراق حقول الزيتون الفلسطينية، وإطلاق النار على ثلاثة مراهقين فلسطينيين. أصبح تبرير معاناة الفلسطينيين والتقليل من شأنها لعبة. وفى تقرير صدر مؤخرا حول كيفية تعزيز الصهيونية بين شباب أميركا، حث لونتز الجماعات اليهودية الأميركية على استخدام كلمة «(العرب) وليس (الفلسطينيين)»، نظرا لأن مصطلح (الفلسطينيين) يستحضر صورا لمعسكرات اللاجئين، وللضحايا، وللظلم، بينما يعبر مصطلح (العرب) عن الثروة والنفط والإسلام.

بطبيعة الحال، فإنه فى بعض الأحيان لابد لإسرائيل، مثل الولايات المتحدة، أن تتخذ إجراءات صعبة من الناحية الأخلاقية دفاعا عن نفسها. لكن هذه الإجراءات لا تكون صعبة إلا إذا سمحت لنفسك ببعض الاتصال الإنسانى بالطرف الآخر، وإلا فإن الحفاظ على الأمن يبرر كل شىء. على رؤساء لجنة الشئون العامة الأميركية الإسرائيلية (إيباك)، ومؤتمر رؤساء كبرى المنظمات اليهودية أن يسألوا أنفسهم ما هو الحد الذى يجب أن يصل إليه قادة إسرائيل فيما يقولونه أو يفعلونه ليصرخوا فيهم معترضين. ففى النهاية، ليبرمان لا يزال وزيرا للخارجية؛ وإيفى إيتام لا يزال يقوم بجولاته فى الجامعات الأميركية؛ والمستوطنات تنمو بثلاثة أضعاف معدل نمو سكانها؛ ونصف طلاب المدارس الثانوية اليهود بإسرائيل يريدون منع العرب من الترشح للكنيست.

إذا لم تكن الحدود قد تم تجاوزها الآن، فأين هى تلك الحدود؟!

ما أثار غيظ النقاد حول تعليق لابيد هو أن جدته توفيت فى معتقل أوشفيتز. فكيف يجرؤ هو على تدنيس ذكرى الهولوكوست؟ بالطبع، الهولوكوست هو أسوأ بمراحل ولا يمكن قياسه بأى شىء فعلته إسرائيل أو حتى ستفعله. لكن على الأقل استخدم لابيد معاناة اليهود ليتواصل مع معاناة الآخرين. فى عالم إيباك، لا يتوقف التذكير بالهولوكوست أبدا، والرسالة التى ينقلونها هى دائما واحدة: أن ما قدمه اليهود من ضحايا يجيز لهم ألا يقلقوا إلا على أنفسهم فقط. يعتقد الكثير من مؤسسى إسرائيل أنه مع قيام دولتهم اليهودية، يمكن أن يتم الحكم على اليهود من طريقة معاملتهم لغير اليهود ممن يعيشون تحت سيطرتهم. فى ١٩٤٨، صرح عضو الكنيست بنحاس لافون: «للمرة الأولى، سنكون أغلبية نعيش مع أقلية. وسيطلب منا أن نقدم قدوة ومثالا ونثبت كيف يمكن أن يعيش اليهود مع أقلية».

بيد أن الرسالة التى تقدمها المؤسسة اليهودية الأميركية وحلفاؤها بحكومة نتنياهو هى العكس تماما، وفحواها: حيث إن اليهود هم الضحايا الدائمون



«للمرة الأولى، سنكون أغلبية نعيش مع أقلية. وسيطلب منا أن نقدم قدوة ومثالا ونثبت كيف يمكن أن يعيش اليهود مع أقلية»



على مر التاريخ، يعيشون دائما على حافة الانقراض، لذلك فإن المسؤولية الأخلاقية تعد رفاهية لا تملكها إسرائيل. فمسؤوليتها الوحيدة هى البقاء على قيد الحياة. كما أشار المتحدث السابق فى الكنيست أفراهام بورغ فى كتابه الرائع والذى صدر عام ٢٠٠٨ بعنوان (انتهت الهولوكوست؛ وعلينا النهوض من رمادها)، حيث قال: «المظلومية تحررك».

هاجس المظلومية هو جوهر سبب الذى يجعل الصهيونية تموت بين الشباب اليهودى العلمانى فى أميركا، لأنها ببساطة لا علاقة لها بخبراتهم المعاشة، أو بما يرونه من خبرات تعيشها إسرائيل. تواجه إسرائيل بالفعل تهديدات من حزب الله وحماس. نعم الإسرائيليون قلقون قلقا مفهوما من إيران النووية. لكن معضلات تواجهها وأنت تمتلك عشرات أو مئات الأسلحة النووية، بينما خصمك - مهما كان شره- من المحتمل أن يحصل على سلاح نووى واحد، لا تقارن بمعضلات غيتو وارسو. إن ٢٠١٠ ليس كما ادعى بنيامين نتنياهو كعام ١٩٣٨. إن دراما مظلومية اليهود (وهى دراما تبدو طبيعية للعديد من اليهود الذين مروا بأحداث ١٩٣٨ و١٩٤٨ وحتى ١٩٦٧) يراها معظم الشباب اليهودى فى أميركا اليوم على أنها مسرحية هزلية.



لكن هناك دعوة صهيونية مختلفة، ذات صلة وطيدة بهذا الموضوع. تعود جذور هذه الدعوة إلى إعلان استقلال إسرائيل، الذى وعد بأن الدولة اليهودية: «ستقوم على أساس مبادىء الحرية والعدالة والسلام التى تعلمناها من الأنبياء العبريين». وفى رسالة كتبها ألبرت أينشتاين وحنا أردنت وآخرون ونشرت فى ديسمبر/كانون الأول ١٩٤٨ بصحيفة نيويورك تايمز احتجاجا على زيارة مناحم بيغن الزعيم الصهيونى اليمينى إلى الولايات المتحدة فى أعقاب المذبحة التى شنتها الميليشيات المسلحة لحزبه على المدنيين العرب فى قرية دير ياسين. إنها دعوة للاعتراف بأنه فى عالم تغيرت فيه مقادير اليهود بشكل جذرى، فإن أفضل الطرق لتخليد ذكرى تاريخ المعاناة اليهودية هو من خلال الاستخدام الأخلاقى للقوة اليهودية.

منذ عدة أشهر، تذهب مجموعة من الطلاب الإسرائيليين كل يوم جمعة إلى حى الشيخ جراح فى القدس الشرقية، حيث تعيش عائلة الغاوى الفلسطينية فى الشارع خارج منزلهم الذى عاشوا فيه ثلاثة وخمسين عاما، والذى طردوا منه ليسكنه مستوطنون يهود. رغم اعتقال هؤلاء الطلاب لقيامهم بمظاهرة بدون تصريح، ورغم أن اليمين الإسرائيلى أطلق عليهم نعوت الخونة وكارهى أنفسهم، إلا أنهم يستمرون فى القدوم حتى تصاعد عددهم ليصل إلى الآلاف. ماذا لو أن المنظمات اليهودية الأميركية أتت بهؤلاء الشباب ليتحدثوا فى اجتماعات منظمة هليل الطلابية اليهودية وفروعها بالجامعات الأميركية؟ ماذا إذا كان هذا هو وجه الصهيونية الذى يراه الشباب اليهودى فى أميركا؟ ماذا إذا كان الطلاب فى مجموعات لونتز للنقاش قد تم إخبارهم بأن جيلهم يواجه تحديا بالغ الأهمية فى التاريخ اليهودى: إنقاذ الديموقراطية الليبرالية فى الدولة اليهودية الوحيدة على وجه الأرض؟

كتب أفراهام بورغ قائلا: «لسنوات طويلة جدا، عشت فى الأحضان الدافئة للمراوغة المؤسسية، وكنت جزءا منها. كنت مرتاحا للغاية هناك». وأعرف أننى كنت مرتاحا هناك أيضا. إلا أن الصهيونية المريحة قد صارت تنازلا أخلاقيا.

دعونا نأمل أن يكون طلاب لونتز، فى تضامنهم مع نظرائهم فى حى الشيخ جراح، قادرين على تبنى صهيونية غير مريحة، صهيونية غاضبة مما تخاطر إسرائيل بأن تصير إليه، وفى حب لما لا يزال ممكنا لإسرائيل أن تكونه. دعونا نأمل أن يهتموا بالمحاولة بما فيه الكفاية. ■



ماذا لو أن المنظمات اليهودية الأميركية أتت بهؤلاء الشباب ليتحدثوا فى اجتماعات منظمة هليل الطلابية اليهودية بالجامعات الأميركية؟

كتاب الزاوية



«الكواكب الدرية فى مدح خير البرية» «البردة»

للإمام شرف الدين أبى عبدالله محمد البوصيرى

ولد البوصيرى بقرية «دلاص» إحدى قرى بنى سويف من صعيد مصر، فى (أول شوال ٦٠٨هـ - ٧ من مارس ١٢١٣م) لأسرة ترجع جذورها إلى قبيلة «صنهاجة» إحدى قبائل البربر، التى استوطنت الصحراء جنوبى المغرب الأقصى، ونشأ بقرية «بوصير» القريبة من مسقط رأسه، ثم انتقل بعد ذلك إلى القاهرة حيث تلقى علوم العربية والأدب.

وقد تلقى البوصيرى العلم منذ نعومة أظفاره؛ فحفظ القرآن فى طفولته، وتتلمذ على عدد من أعلام عصره، كما تتلمذ عليه عدد كبير من العلماء المعروفين، منهم: أبو حيان أثير الدين محمد بن يوسف الغرناطى الأندلسى، وفتح الدين أبو الفتح محمد بن محمد العمرى الأندلسى الإشبيلى المصرى، المعروف بابن سيد الناس... وغيرهما.

ونظم البوصيرى الشعر منذ حداثة سنه وله قصائد كثيرة، ويمتاز شعره بالرصانة والجزالة، وجمال التعبير، والحس المرهف، وقوة العاطفة، واشتهر بمدائحه النبوية التى أجاد استعمال البديع فيها، كما برع فى استخدام البيان، ولكن غلبت عليه المحسنات البديعية فى غير تكلف؛ وهو ما أكسب شعره ومدائحه قوة ورصانة وشاعرية متميزة لم تتوفر لكثير ممن خاضوا غمار المدائح النبوية والشعر الصوفى.

وقد جارى البوصيرى فى كثير من شعره شعراء عصره فى استعمال الألفاظ المولدة، كما كانت له تجارب عديدة فى الأهاجى المقذعة، ولكنه مال - بعد ذلك - إلى النُسُك وحياة الزهد، واتجه إلى شعر المدائح النبوية. وتعد قصيدته «البردة» من أعظم المدائح النبوية، وقد أجمع النقاد والشعراء على أنها أفضل المدائح النبوية بعد قصيدة «كعب بن زهير» الشهيرة «بانت سعاد».

فــى مســــــــألــة الـلـــــــــــوبــى

العرب واليهود فى أمريكا؟



أحـمـد مـحـمـد أبـــو زيـــد

■■ فى شهر مارس من العام ٢٠٠٦ قدم الأستاذان فى جامعتى شيكاغو وهارفارد جون ميرشايمر وستيفن والت ورقة بحثية تقع فى حوالى ثمانين صفحة من الحجم الكبير نشرت على الموقع الالكترونى لمعهد بليفر للعلوم والشئون الدولية BCSIA التابع لمدرسة جون كيندى لدراسة نظم الحكم بجامعة هارفارد KSG، عن تأثير اللوبى «الإسرائيلى» (وليس اليهودى) على السياسة الخارجية الأمريكية تجاه منطقة الشرق الأوسط. ومن وقتها انقلبت الدوائر الأكاديمية المتخصصة فى دراسات الشرق الأوسط ولم تهدأ حتى الآن.

وفى العام ٢٠٠٨ طور الباحثان الواقعيان هذه الدراسة بعد عاصفة من الجدل حولها إلى كتاب يقع فى أكثر من ستمائة صفحة، حقق أعلى المبيعات ولقى نقداً وتنقيحاً وتجريحاً لم تنله دراسة أكاديمية منذ زوبعة دراسة «صدام الحضارات» للبروفيسور القدير صامويل هانتنجتون فى العام ١٩٩٣. انكب الجدل حول هذه الدراسة فى جحدها ومحاولة

العرب واليهود فى أمريكا
حسن بكر
مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية ـ القاهرة ١٩٩٩

The Israel Lobby and U.S. Foreign Policy
John J. Mearsheimer, Stephen M. Walt
Farrar, Straus and Giroux; 1st edition (September 2, 2008)

إثبات خطئها الأكاديمى (نظرياً وعملياً). بينما انكب الجدل العربى حولها فى الترحيب بها وتبجيلها ورفعها لعنان السماء (ترجمت الدراسة للعربية عبر أكثر من عشر مؤسسات ومراكز دراسات ومواقع الإنترنت). ولكن الملاحظ أن الجدل العربى حولها تجاهل نقطتين فى غاية الأهمية، وهما كيفية الاستفادة من هذه الدراسة فى البدء لإنشاء لوبى عربى قوى فى واشنطون يوازن قوة اللوبى الإسرائيلى. والنقطة الثانية هى مدى مساهمة هذه الدراسة فى تقديم رؤية تحليلية وتفسيرية لكيفية عمل النظام السياسى الأمريكى وميكانيزم عملية صنع وتنفيذ قرار السياسة الخارجية الأمريكى تجاه الشرق الأوسط.



إننا هنا نجادل بأن العرب يمتلكون من مقومات ومصادر وعوامل القوة (السياسية والاقتصادية والثقافية والسكانية) ما يمكنهم من إعادة توجيه مسار Re-orientation السياسة الخارجية الأمريكية تجاه القضايا والمصالح الوطنية العربية، بصورة متوازنة عما هو سائد الحين. ولكن ما يعوق تحقيق هذا التأثير يتمحور فى غياب وجود هذا اللوبى العربى «القوى» فى الولايات المتحدة الأمريكية من جانب، وجهل النخبة الفكرية والسياسية والدبلوماسية العربية بميكانيزم عمل النظام السياسى الأمريكى وعملية السياسة الخارجية الأمريكية.

لم تكن دراسة الأستاذين ميرشايمر ووالت رائدة بقدر ما كانت نافذة Influential. فقد سبقتها دراسات أكاديمية وعملية موضوعية وعميقة التأثير والمنظور التحليلى، مثل دراسة عالم السياسة الأمريكى إدوارد تيفنان الرائدة «اللوبى» ودراسة عضو الكونجرس السابق بول فندلى «الذين جرؤوا على الكلام» فى ثمانينيات القرن الماضى، بل يمكن القول بثقة بأن الدعوة حول ضرورة إعادة تقييم العلاقة بين الولايات المتحدة وإسرائيل قد بدأت فى ستينيات القرن الماضى عندما لاحظ رئيس لجنة العلاقات الخارجية فى الكونجرس السيناتور « ويليام فولبرايت» تنامى تأثير الأقلية اليهودية على عملية صنع وتنفيذ القرار السياسى الأمريكى تجاه الشرق الأوسط. وحتى عربياً، فهناك دراسات أكاديمية لا تقل مستوى ومنهجية عن دراسة ميرشايمر ووالت. مثل دراسات البروفيسور الراحل حسن بكر ١٩٩٢ و١٩٩٩ والدكتور زياد أبو عمر ١٩٩١، الدكتورة هالة سعودى، الدكتور يوسف الحسن وغيرها من الدراسات المكتوبة بلغة الضاد، التى حللت بصورة رائدة عوامل ومصادر قوة العرب من أصل أمريكى داخل المجتمع الأمريكى ومدى نفوذ بعض الأنظمة السياسية العربية الماهول داخل واشنطون مثل مصر والمملكة العربية السعودية، ونقاط ضعف وتشرذم وعدم فاعلية هذه المقومات. ولكن النخبة الفكرية العربية ظلت جاهلة بهذه الدراسات «فمغنى الحى لا يطرب».

فى دراستهما حدد ميرشايمر ووالت مصادر قوة اللوبى الإسرائيلى فى واشنطون فى خمسة محددات هى:

التأثير على السلطة التشريعية/ الكونجرس.
التأثير على السلطة التنفيذية/ الرئيس.
التلاعب بوسائل الإعلام.
توجيه مراكز الأبحاث والدراسات.
الهيمنة على الحقل الأكاديمى والجامعى.

وفى دراسته الرائدة عن «العرب واليهود فى أمريكا» أضاف البروفيسور بكر إلى جانب ما سبق ثلاثة عوامل جديدة هى (الصوت الانتخابى اليهودى، التنظيم، رأس المال والتمويل) كأحد أهم عوامل قوة ونفوذ اللوبى الإسرائيلى فى واشنطون. وبينما يستنتج الأستاذان الأمريكيان أن على صناع القرار الأمريكى إعادة التفكير فى مسار العلاقات الثنائية والتدقيق وفحص تأثيرها السلبى على المصالح الأمريكية الحيوية فى منطقة الشرق الأوسط والعالم الإسلامى، فإن دراسة البروفيسور بكر تشرح وتفكك مصادر قوة اللوبى الإسرائيلى بالتفصيل، ويقدم مقترحات لتغيير صور التوازن بين العرب واليهود فى أمريكا، التى اختطفت السياسة الخارجية الأمريكية تجاه الشرق الأوسط (ما اصطلح على تسميته بإسرائيلية Israelization السياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط). ونحن من جانبنا - كأحد المتخصصين فى العلاقات الدولية والسياسة الخارجية - سنطرح هنا (وانطلاقاً من موقف ودافع وطنى وقومى بحت) مقومات إقامة لوبى عربى قوى فى الولايات المتحدة الأمريكية، ليس حباً





A young boy wearing prayer shawl and holding book, East Side, New York City. 1911



الدول تحصل على غايتها وفقاً لما تملكه وتحوزه من قدرات ومصادر القوة وليس وفقاً لما تتمناه أو تريده



فى واشنطون بقدر ما هو محاولة صادقة للدفاع عن المصالح والحقوق العربية فى ظل عالم تسيطر فيه الولايات المتحدة (باعتبارها القوى العظمى الوحيدة الباقية فى النظام الدولى) على مجمل الساحة الدولية. وذلك لأننا نؤمن بأن أهم العوامل تأثيراً على الأوضاع الداخلية العربية ومصالحها الخارجية هو شكل ونوعية علاقتها مع القطب الأوحد بالأخص، ومع باقى القوى الدولية الكلاسكية والصاعدة بالعموم. فنحن فى التحليل الأخير لا نحيا وحدنا فى هذا الكوكب، الذى تحكمه وتحركه سياسات القوة Power Politics والتفاهم فيه يتم بلغة المصالح أكثر منه بلغة التقارب والحوار. فالدول تحصل على غايتها وفقاً لما تملكه وتحوزه من قدرات ومصادر القوة وليس وفقاً لما تتمناه أو تريده.

تنقسم هذه الدراسة لثلاثة أجزاء. القسم الأول منها سنتطرق فيه للخلفية النظرية والتاريخية لماهو المقصود باللوبى، أو جماعات الضغط والمصالح Interest Groups كما يعرف فى أدبيات النظم السياسية المقارنة. وتوقيت ظهوره وتأثيره على عملية صنع وتنفيذ القرار السياسى الأمريكى. وفى القسم الثانى سنتطرق بالتحليل والتفكيك لماهية مصادر ومقومات القوة اليهودية فى الولايات المتحدة، وكيف ساعدهم قدم تواجدهم التاريخى على الأراضى الأمريكية فى تبوؤ هذه المكانة النافذة فى السياسة الأمريكية. أما فى الجزء الثالث فسوف نتطرق فيه بالمقارنة بين مقومات ومصادر القوة المملوكة للعرب الأمريكيين وتلك المملوكة لليهود وحلفاء إسرائيل فى الولايات المتحدة الأمريكية. وماهية الصعوبات والعوائق التى تمنع قيام لوبى عربى قوى فى الولايات المتحدة، الذى نؤمن تماماً بأنه أول خطوة نحو إعادة توجيه المسار الأمريكى فى التعامل مع القضايا العربية بعيداً عن الهيمنة الإسرائيلية الراهنة.

[١]

دور اللوبى (جماعات الضغط) فى النظام السياسى الأمريكى.

تكاد الولايات المتحدة تنفرد من دون دول العالم بظاهرة جماعات الضغط Pressure Groups، فلم يعرف العالم نفوذاً لهذه الجماعات مثل ما عرفها فى الولايات المتحدة. فمنذ قيام الولايات المتحدة - بعد منتصف القرن الثامن عشر وتحديداً فى عام ١٧٧٦ - كان أصحاب المصالح ينتظرون الرئيس الأمريكى أثناء مروره بين تقاطع شارع بنسلفانيا وشارع ١٦- حيث يوجد البيت الأبيض - متجها إلى مبنى الكونجرس والرئاسة Capital Hall عبر شارع الدستور، فى صالة فندق «ويلارد هوتيل». ومن هنا جاء مصطلح اللوبى (Lobby) ليكثر تداولها مع صعود الولايات إلى قمة هرم العلاقات الدولية فيما بعد الحرب العالمية الثانية. وبعد صدور قانون يقنن هذا النوع من جماعات الضغط عام ١٩٤٦ Lobby's Act من قبل الكونجرس، ليمسى النظام السياسى الأمريكى أسيرا لهذه الجماعات، تحركه وتتحكم فى توجهاته المحلية وسلوكه تجاه دول العالم المختلفة، بما يتوافق ويتماشى ويحقق مصالحها.

وتتبع جماعات الضغط «اللوبى» فى الولايات المتحدة عدة أساليب للتأثير على مراكز صنع القرار الأمريكى مثل:

تمويل الانتخابات العامة، الانتخابات الرئاسية أو أنتخابات الكونجرس، أو أى أنتخابات عامة، وبسخاء واضح.

الاتصال المباشر وغير المباشر بمراكز صنع القرار الأمريكى.

العمل على مستوى القاعدة الشعبية بواسطة المنظمات الجماهيرية Gross-rood Organizations وبذلك تضمن تحقيق مصالحها سواء بطرق شرعية أو غير شرعية عن طريق الالتفاف حول ثغرات القانون الأمريكى واستغلالها لصالحها. مثل استغلال اللوبى اليهودى لقانون الإعفاء الضريبى للأنشطة الثقافية. حيث ينص القانون الأمريكى على اقتطاع ٣٠ ٪ من قيمة الضرائب الموجهة للأنشطة الثقافية، وهى الأموال التى تصب فى خزائن الايباك وغيرها من المنظمات اليهودية والصهيونية. فى ظل غياب شبه كامل لأى لوبى عربى أو مصرى فعال داخل مراكز صنع القرار الأمريكى.



كإحدى جماعات المصالح Interest Groups التى لها نفوذ وتأثير سياسى نافذ داخل أروقة ودهاليز البيت الأبيض والكونجرس، خاصة تلك المرتبطة بصناعات السلاح والبترول والصناعات التكنولوجية والميديا والبيئة وإسرائيل - فيما يتعلق بشئون الشرق الأوسط. تتحكم بصورة شبه تامة فى عملية صياغة السياسة الخارجية الأمريكية. فعلى سبيل المثال لا الحصر، كان للوبى السلاح والبترول اليد العليا فيما حدث من تغيرات سياسية فى العديد من دول العالم. من شيلى ١٩٧٣ إلى العراق ٢٠٠٣، ومن البلقان ١٩٩٥ إلى أفغانستان٢٠٠١. إلى جانب سلسلة طويلة جدا من المناطق التى تورطت فيها الولايات المتحدة فيما بعد الحرب العالمية الثانية جراء الضغط المنظم الذى تقوم به هذه الجماعات على صناع القرار.

تستخدم جماعات المصالح عدة وسائل للتأثير على القرار السياسى الأمريكى، فمن تواجد موفديها الدائمين Lobbyists داخل أروقة الكونجرس إلى تعبئة الرأى العام وخلق اتجاه عام مؤيد لمصالحها، بل ومنحاز ومدافع عنها أمام صناع القرار. وذلك عن طريق الترويج لهذه المصالح على أنها مصالح الأغلبية الأمريكية داخل الكونجرس. فمندوب جماعة المصالح داخل الكونجرس يقوم بعرض الموضوع المقرر تنفيذه على الموظف المختص فى الكونجرس، الذى يقوم تلقائيا بتسجيل الموضوع رسمياً وتسليمه إلى العضو المناسب لمناقشة هذا الموضوع سواء من حيث الدائرة الانتخابية المختصة أو الميول والتأييد. فالموضوعات تقدم لنفس نواب الدائرة الانتخابية التابع لها الطلب. ثم يقوم هذا العضو بتبنى وطرح الموضوع على اللجنة المختصة، والتى تقوم بدورها بتحويله إلى إحدى اللجان الفرعية المختصة التى تقوم بدراسته وتعقد له لجنة أستماع من المتخصصين من داخل وخارج الكونجرس، ثم تعد هذه اللجنة تقريراً للجنة الرئيسية التى تقوم بطرحه فى إحدى جلسات مجلس النواب عن طريق رئيس المجلس The Speaker أو رئيس الأغلبية. فإما أن يتم إقرار القانون أو موته. فى حالة إقرار القانون من مجلس النواب يتم عرضه على مجلس الشيوخ ليمر بنفس الخطوات. وفى حالة موافقة مجلس الشيوخ يرفع القرار إلى الرئيس، الذى يقوم بالتوقيع عليه - فى حالة الموافقة - ليصبح قانوناً سارياً. أما فى حالة موت القرار يقوم المندوب باستمرار عرض الموضوع حتى تتم الموافقة عليه. وإذا رفض فإن الكونجرس يعقد لجنة مشتركة من مجلسى النواب والشيوخ لدحض قرار الرئيس الرافض للقانون وإقراره مرة أخرى، ليصبح سارى المفعول. أما عن التنفيذ، فهو يخضع لوجهة نظر الرئيس وتقييمه لمدى صلاحية القانون فى خدمة المصالح الأمريكية من عدمه، أو تحت تأثير إحدى جماعات الضغط «اللوبى». حتى أصبح القرار الأمريكى لا يمر أو يسن سوى بطلب من إحدى جماعات المصالح. وهو ما أستغلته دول مثل إسرائيل جيداً من أجل مصالحها. بل إن إسرائيل قد نجحت فى جعل مصالحها أمرا سياسيا أمريكيا داخليا، سواء للمواطنين أو لصناع القرار الأمريكى.



[٢]

قصة اليهود فى الولايات المتحدة

يتعجب الكثير فى العالم العربى والإسلامى عامة، والمصرى خاصة، من

فى مسألة اللوبى



من حق أى مسيحى تفسير الكتاب المقدس دون أدنى وصاية من أحد، فالعصمة للكتاب المقدس فقط



الانحياز الأمريكى لليهود ولإسرائيل. وللأسف فإن كثيرا من هؤلاء من المسئولين الحكوميين، صناع القرار، مثقفون بل وأحيانا متخصصون فى العلوم السياسية والعلاقات الدولية والسياسة الخارجية. متجاهلين التاريخ اليهودى للولايات المتحدة الأمريكية. فاليهود من أوائل المهاجرين إلى العالم الجديد - الولايات المتحدة ساعة اكتشاف «كولومبوس» لها. بل إن البعض يرى أن الولايات المتحدة تدين بوجودها إلى اليهود الذين جعلوا الولايات المتحدة تصل إلى وضعها الحالى بفضل الروح اليهودية (التراث المسيحى اليهودى) التى نبتت وترعرعت فى الولايات المتحدة منذ اكتشافها.

يرى بعض المؤرخين أن الولايات المتحدة قد تم اكتشافها بأموال اليهود. فالرواية السائدة أن الملكة «ايزابيلا» ملكة إسبانيا قد باعت المجوهرات الخاصة بها من أجل القيام بالرحلة المنتظر أن يقوم بها «كولومبوس» لاكتشاف جزر الهند الغربية قد ثبت زيفها. والحقيقة أنه كان فى البلاط الملكى الإسبانى ثلاثة من كبار أثرياء اليهود السريين - نسبة إلى مدينة سرين الإسبانية - وهم «لويس دو سانتجيل» رئيس ديوان الضرائب الملكية، « جابرييل سانشيز» أمين الخزائن الملكية و«خوان كلبريرو» رئيس البلاط الملكى. عمل هؤلاء الثلاثة بكافة الطرق لجعل الملكة «ايزابيلا» تحفز القيام بهذه الرحلة، وذلك عن طريق تخويف الملكة من قرب نضوب الخزائن الملكية، وإيهامها بأن هذه الرحلة قادرة على إعادة ملء هذه الخزائن بالذهب الذى سوف يكتشفه «كولومبوس».

قام «دو سانتجيل» بإقراض الملكة حوالى ١٧٠٠ دوكات - وهو ما يزيد اليوم على ٢٠٠ مليون دولار- ليقوم «كولومبوس» بالرحلة بأموال يهودية خالصة. وتم تحديد يوم ٣ أغسطس ١٤٩٢ لمغادرة السفينة إسبانيا فى طريقها للغرب. إلا أنه قبل الرحلة بيوم واحد - ٢ أغسطس - قامت الملكة «ايزابيلا» بطرد ما يزيد على ٣٠٠ ألف يهودى. ذهب بعضهم إلى الشرق العربى، وذهب البعض الآخر تجاه أوروبا الشرقية، والقلة القليلة جداً ذهبت مع «كولومبوس» فى رحلته الاستكشافية. صادق «كولومبوس» بعض هؤلاء اليهود وكان يعتبرهم السبب الرئيسى فى تدشين هذه الرحلة .

كانت أول قدم تطأ «أرض أمريكا» هى أقدام «لويس دى توريز» المترجم اليهودى الشخصى لكولومبوس. انتشر اليهود فى الولايات المتحدة بعد توالى الهجرات الوافدة إلى العالم الجديد من أوروبا انتشار النار فى الهشيم. وتركز تواجدهم فى الساحل الشرقى خاصة فى مدينة نيو يورك. فقد استشف اليهود أن مدينة نيويورك ستصبح منجم الذهب الاقتصادى الوليد، وكذلك ستكون البوابة التى سيتم من خلالها فرض ضرائب على معظم صادرات وواردات أمريكا. وهو الأمر الذى جعل اليهود يرفضون ترك نيويورك أثناء الثورة الأمريكية فى نصف القرن الخامس عشر رغم حوادث الاعتداء الرهيبة والاضطرابات العنيفة التى تعرضت لها المدينة أثناء هذه الثورة. واستمر بقاء اليهود فى نيويورك حتى أمست معقلا لهم . فأغلب الأراضى والعقارات الاقتصادية فى نيويورك مملوكة لليهود، بل إن بعض اليهود اعتبر نيويورك بمثابة القدس الجديد New Jerusalem وجبال روكى هى جبال صهيون Zion المذكورة فى التوراة. فى نيويورك يوجد أكبر جالية يهودية فى العالم خارج إسرائيل.

هذه الخلفية التاريخية المبسطة قد تعطى تفسيراً جزئياً عن أسباب انحياز الولايات المتحدة الأمريكية لصالح وجهة النظر اليهودية والإسرائيلية فى الشرق الأوسط. إلا أن هناك بعض الأسباب والمتغيرات الأخرى غير تقادم تواجد اليهود على الأراضى الأمريكية تفسر هذا الانحياز الأعمى لصالح إسرائيل، لدرجة أن يصبح الأمريكيون يهوداً أكثر من اليهود أنفسهم. ومنها:

أولا: المسيحية الصهيونية Christian Zionism

ظلت المسيحية، وبعد وفاة النبى «عيسى» عليه السلام تعتبر اليهود مارقين وقتلة المسيح، وأن الله قد أختارهم من دون الشعوب كى يكونوا ملعونين جزاء لما فعلوه بالمسيح. بل إن الملوك المسيحيين فى العصور الصليبية وما قبلها قاموا بمذابح جماعية ضد اليهود خاصة فى أسبانيا وإيطاليا (محاكم التفتيش). واستمرت هذه المعاملة حتى جاء «مارتن لوثر» فى أوائل القرن السادس عشر داعياً فى كتابته - خاصة كتابه «المسيح ولد يهوديا» إلى إعادة النظر فى المعاملة المسيحية لليهود. فأيد اليهود وأدان موقف المسيحيين والكنائس منهم قائلا: «إن هؤلاء اليهود والمسيحيين ينحدرون من أصل واحد، وأن المسيح ولد يهوديا».

كانت الدعوة التى أطلقها «لوثر» فيما بعد ١٥١٦ تهدف إلى تحويل اليهود إلى المسيحية البروتستانتية، حيث كان «لوثر» يؤمن بأن إنقاذ إسرائيل وشعبها اليهودى - كما ذكرت نبوءة التوراة - سوف يتحقق وسيعود المسيح مرة أخرى ويقيم مملكته الألفية بعد أن يقضى على أعداؤه.



رفضت الكنيسة الكاثوليكية آراء «لوثر» واعتبرتها هرطقة وتجديفا. وبدأت حملات اضطهاد البروتستانت فى ألمانيا وإنجلترا وغيرهما. وهو الأمر الذى جعلهم يهاجرون إلى العالم الجديد «الولايات المتحدة» مصطحبين معهم أفكارهم ومعتقداتهم التوراتية عن إسرائيل وإنقاذها ومساندتها بكافة الطرق والسبل. فالطائفة المسيحية الجديدة قامت على عدة أسس إيمانية مثل:

من حق أى مسيحى تفسير الكتاب المقدس دون أدنى وصاية من أحد، فالعصمة للكتاب المقدس فقط.

إن اليهود هم شعب الله المختار والمفضل، ويجب على المسيحيين مساعدتهم ومساندتهم دائما.



فلسطين هى الوعد الإلهى لبنى إسرائيل واليهود التى وعدهم الرب إياها، ولابد من عودتهم إليها مهما طال الزمن أو قصر تحقيقا لتنبؤات التوراة.

تعتبر هذه الأسس الإيمانية الأساس الذى قامت عليه المسيحية الصهيونية Christian Zionism. وهو الأمر الذى أدى لصياغة قالب دينى مسيحى جديد قائم على « قاعدة مسيحية - يهودية» أساسها:

(١) التراث المسيحى اليهودى المشترك.
(٢) الأخلاق المسيحية اليهودية المشتركة.
(٣) الالتزام الأدبى - الأخلاقى بدعم إسرائيل.

هذا الأمر جعل البعض يلاحظ أن المهاجرين الوافدين للعالم الجديد من هذه الطائفة المسيحية الجديدة كانوا متأثرين تأثيراً بنيوياً باليهودية (لاهوتياً، تاريخياً، سياسياً). فقد لوحظ أن العلاقة بين أتباع هذه الطوائف والجالية اليهودية كانت أكثر قرباً من علاقاتهم مع أقرانهم من المسيحيين الموجودين فى الولايات المتحدة. وهو الأمر الذى يفسر سبب إطلاق المهاجرين البروتستانت والبيورتيين أسماء يهودية على المدن التى أنشأوها فى الولايات المتحدة مثل (شالوم، مينوبوليس، هبرون، كنعان . . . وغيرها). وكذلك إطلاق أسماء يهودية على أبنائهم مثل (سارة، آبرامز، ديفيد، أيزاك . . . الخ). بل إن الأمر وصل إلى حد أن أول كتاب طبع فى الولايات المتحدة كان كتاب «مزامير داود - Psalm» وكانت أول رسالة جامعية تناقشها جامعة هارفارد تحت عنوان «اللغة العبرانية.. اللسان الأم». والأكثر من ذلك جعل اجتياز اختبار فى اللغة العبرية شرطا من شروط الألتحاق بهذه الجامعة الناشئة، كما يذكر الدكتور يوسف الحسن فى كتابه المرجع عن الجماعات اليهودية والصهيونية فى الولايات المتحدة الأمريكية.

لقد اعتبر المهاجرون البيورتيون (المتطهرون) أمريكا بمثابة ارض الميعاد Promise Land وأن الهنود الحمر هم الكنعانيون، وشبهوا دخولهم لأمريكا وطردهم من أوروبا بالخروج الأول الذى حدث مع النبى «موسى» عليه السلام، فأطلقوا على

فى مسألة اللوبى



الدين والإيمان فى الولايات المتحدة إنما هو إيمان سياسى ذو تأثير واسع جداً على صنع القرار السياسى الأمريكى، خاصة تجاه القضايا الداخلية وقضايا الشرق الأوسط



الملك «جيمس الأول» ملك إنجلترا لقب «الفرعون الإنجليزى». وهكذا تكونت الأدبيات الدينية التى تجعل من اليهود مؤتمنين على الخطة الإلهية التى يتحدد بمقتضاها مصير البشر جميعا، وجعلت المسيحية الصهيونية من إقامة دولة إسرائيل وتدعيم اليهود تمهيدا لعودة المسيح الثانية واجباً على كل فرد أمريكى من الرئيس الأمريكى حتى رجل الشارع العادى.

بدأ تأثير المسيحية الصهيونية قبل صدور قانون اللوبيات عام ١٩٤٦، عندما قامت «لجنة فلسطين المسيحية الأمريكية- Christian American Palestine Committee بمطالبة إدارة الرئيس «ترومان» بزيادة المساعدات الأمريكية المقدمة لإسرائيل من ٢٣ مليون دولار إلى ١٥٠ مليون دولار عام ١٩٤٧، أى قبل خروج دولة إسرائيل إلى الوجود رسمياً. وطالبت هذه اللجنة أيضا بمنع تصدير السلاح الأمريكى إلى الدول العربية عامة ومصر خاصة، إلا بعد إرغام هذه الدول على عقد اتفاقية سلام مع إسرائيل.

ساهمت حرب ١٩٦٧ وانتصار إسرائيل على ثلاث دول عربية - منها مصر- فى صعود مدوى للمسيحية الصهيونية فى الولايات المتحدة الأمريكية. حيث روج أنصارها لقرب تحقق تنبؤات الرب التى ذكرت فى التوراة عن قرب نهاية التاريخ البشرى واقتراب موعد إقامة مملكة الرب على أرض إسرائيل الكبرى.

الغريب فى هذا أن الولايات المتحدة، وكما هو مذكور فى المادة الأولى للدستور الأمريكى «من أن الولايات المتحدة الأمريكية (دولة علمانية) إلا أن الدولة الأمريكية تعتبر أكبر دولة مسيحية على وجه الأرض فى الوقت الراهن. وأيضا من أكبر الدول تديناً، فما يربو على ٩٠٪ من البالغين يعلنون إنهم يؤمنون بالله، وأكثر من ٥٠ ٪ يرتادون أماكن العبادة. كان من الممكن أن تكون هذه الأرقام عادية جداً فى أى دولة فى العالم إلا الولايات المتحدة، وذلك لأن الدين فى الولايات المتحدة يتخذ خطاً آخر غير خط الإيمان الشخصى أو حتى الإيمان الجماعى. فالدين والإيمان فى الولايات المتحدة إنما هو إيمان سياسى ذو تأثير واسع جداً على صنع القرار السياسى الأمريكى، خاصة تجاه القضايا الداخلية وقضايا الشرق الأوسط. ومنذ عهد الرئيس «جونسون» وحتى الآن يحضر قس إنجيلى- بروتستانتى اجتماعات مجلس الأمن القومى الأمريكى NSC ليرى مدى توافق السياسات الأمريكية فى الشرق الأوسط مع تعاليم وأهداف ومصالح الجماعات الصهيونية ومصالح وأمن إسرائيل. فالتركيز التوراتى جعل الكثير من صناع القرار الأمريكى، بل والشارع الأمريكى، ينظر لما يحدث فى الشرق الأوسط على أنه انعكاس لما هو مذكور فى التوراة ولإرادة الرب. وهو الأمر الذى جعل البعض يطلق على السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط مفهوم «إسرائيلية السياسة الخارجية Israelization Process.

يوجد فى الولايات المتحدة ما يزيد على ٧٦ مليون بروتستانتى ينتمون إلى ما يزيد على ٢٠٠ طائفة، أكثرها موالاة لإسرائيل الطائفة التدبيرية Indispensationalism ويبلغ عدد أتباعها حوالى ٤٠ مليون شخص اغلبهم من الـــواســــب «White Anglo Saxon Protestant WASP-». وهم السكان الأمريكيون من أصل أوروبى، وهى الطائفة الأكثر عدداً ونفوذاً فى الولايات المتحدة. فهذه الطائفة تضم أكثر الشخصيات الأمريكية بروزاً فى المجتمع الأمريكى (سياسياً، اقتصادياً، تربوياً، إعلامياً وعسكرياً ...الخ). وغالبا ما كانت هذه الطائفة هى الحاكمة فى الولايات المتحدة.

بدأ تكاثر اليهود والصهاينة منذ إدارة الرئيس «ترومان» ووصلوا إلى الذروة أثناء



إدارة الرئيس «بيل كلينتون» (حوالى ٩٣ منصبا). فعندما توزع كتب قس صهيونى مثل «هال ليندسى» والمقصود كتابه «كوكب الأرض العظيم الراحل The Great Late Planate Earth» على صناع القرار الأمريكى، وعندما يؤدى الرئيس الأمريكى القسم أمام قس صهيونى أخر مثل «بيلى جراهام» فإن الأمر يتجاوز حدود الإيمان الدينى، ويتحول إلى مانفيستو يقود السياسة الأمريكية تجاه الشرق الأوسط، بواسطة أفكار ونظريات فلاسفة يهود وصهاينة مثل «ليو شتراوس» وهرطقة أشخاص مثل «جيرى فولويل» و«بيلى جراهام». الذين يعتبره البعض أول عصبة فى التاريخ تتسلح بأحدث الأجهزة العلمية من أجل ماذا؟ بناء إمبراطورية أمريكية أبدية، والتحضير لنهاية العالم أعتمادا على خرافات وأساطير توراتية! فأمريكا تنفذ أخلاقيات وأوامر القساوسة دون أن يحكموها. أى أن أمريكا تسمح بأن تحكمها أخلاق القساوسة دون أن يتولوا الحكم.



ثانيا: الكنائس الإلكترونية sElectric Churuch

تنفرد الولايات المتحدة بهذه الظاهرة الإعلامية الدينية الغريبة عن باقى دول العالم. والكنائس الإلكترونية عبارة عن بث مواد إعلامية ذات محتوى دينى من أفلام، مسلسلات، أفلام كرتونية، محاورات وبرامج دينية، تبث على أكثر من ١٤٠٠ محطة تلفزيونية دينية وحوالى ٥٠٠ محطة إذاعية. يعمل فى هذه الكنائس الإلكترونية ما يقرب من ٨٠ ألف قس. وتعتبر هذه الكنائس إسرائيل تجلياً إلهياً وتجسيداً لإرادة الرب ونعمته على الولايات المتحدة من أجل قيادة الخلاص البشرى عبر تأييدها لإسرائيل ولليهود.

تقوم هذه الكنائس بطباعة ملايين الأفلام والوسائل الإعلامية والرسائل الإلكترونية والمنشورات، وتقوم بإرسالها الى ما يزيد على ١٠٠ مليون أمريكى المؤيد منهم والمعارض أيضا. ومن أشهر المنظمات الكنسية التى تقوم بالأعمال المؤيدة لإسرائيل واليهود منظمة «الأغلبية الأخلاقية Maral Majority» التى يقودها القس الصهيونى «جيرى فولويل». وتعتبر هذه المنظمة صوت إسرائيل الإعلامى الصاخب فى أمريكا.

ويتضح مدى تأثير هذه الكنائس عندما نعرف أن عدد مشاهدى برامجها يدنو من ١٠٠ مليون شخص، وهو الأمر الذى يؤثر جداً على الشعب الأمريكى، الذى يكاد يجهل ما يدور خارج حدود ولايته. هذه الكنائس لا تخبئ أهدافها وإنما تعلنها فى برامجها ومواقعها الإلكترونية. ألا وهو تقديم الدعم اللانهائى لإسرائيل ولليهود، لدرجة أن اسم أحد أكثر البرامج الدينية مشاهدة فى الولايات المتحدة هو «إسرائيل مفتاح بقاء أمريكا». مستفيدة بذلك من مناخ الحرية الموجود فى الولايات المتحدة، وفى ذات الوقت، محاربة أى شخص أو مؤسسة، أو حتى دول، إن هى وجهت أى نقد للسياسات الإسرائيلية أو لليهود. فمقصلة «معاداة السامية» جاهزة لإعدام كل من تسول له نفسه بذلك.

ثالثا: اللوبى اليهودى Jewish Lobby

لا يوجد فرق كبير بين اللوبى اليهودى واللوبى الصهيونى (اللوبى الإسرائيلى بلغة ميرشايمر ووالت) هذا إذا لم يكونا لوبى واحدا. فالاختلاف الوحيد فى الديانة. فاللوبى اليهودى Jewish Lobby يساند إسرائيل من المنظور اليهودى، أما اللوبى الصهيونى Zionism Lobby فيساند إسرائيل من المنظور المسيحى. ولكن الأهداف واحدة. وهى «مساندة إسرائيل إلى الأبد». فاليهود ومنذ صدور قانون حرية تنظيم جماعات الضغط السياسى، والذى أستفاد اليهود منه أكثر من الأمريكيين أنفسهم، يقدر عدد المنظمات اليهودية والصهيونية فى الولايات المتحدة بحوالى ٥٠ ألف منظمة بعضوية تزيد على ٤٠ مليون عضو كما يذهب البروفيسور الراحل حسن بكر. عملت هذه المنظمات على ربط المصالح الإسرائيلية - اليهودية بالمصالح الأمريكية فى الشرق الأوسط، بل وجعل هذه المصالح تأتى أحيانا قبل المصالح الأمريكية.

فى سبيله للتأثير على صنع القرار الأمريكى فى الشرق الأوسط يعمل



يرتبط التنظيم فى الولايات المتحدة بالقيم المسيحية البروتستانتية. حيث يركز اللوبى اليهودى على صناعة العقل، فمن السينما إلى الصحافة إلى التلفزيون



اللوبى (الإسرائيلى) على محورين أساسيين هما:

المحور الأول: ويشمل المنطقة الممتدة من نيويورك شمالاً حيث الازدهار التجارى والفنى، مروراً بالقلاع الصناعية العملاقة فى فلادليفيا وبلتيمور- معقل التأثير السياسى على العالم فى واشنطون العاصمة - وصولا إلى لوس أنجلوس بالجنوب، حيث توجد أضخم قلاع الصناعة الثقافية فى التاريخ - هوليود. ويمثل هذا الخط «الصناعى - الثقافى» المحور الليبرالى والمهتم أساساً بالقضايا الخارجية. ففى نيويورك حيث توجد «المؤسسة الشرقية Eastern Establishment» الليبرالية والمستنيرة وعلى رأسها الكاثوليك، وفى الجنوب حيث «المؤسسة الغربية Western Establishment» التقليدية والمحافظة Conservative. تمتد هذه المؤسسة من أقصى جنوب الغرب فى « كاليفورنيا» إلى «تكساس» وحتى «فلوريدا». وهى المركز الرئيسى والأساسى للوبى اليهودى. حيث تمركز وامتلاك اليهود لأغلب وسائل الإعلام الجماهيرى من صحافة، إذاعة، تلفزيون وسينما.

المحور الثانى: ويتمثل هذا المحور الخط الزراعى التقليدى-المحافظ Conservatives - Traditional. وهو الخط الممتد من «ميريلاند» شرقا حتى « اوريجون» فى أقصى الغرب. ويمثل هذا الخط القيم الأمريكية الأصلية التقليدية وما تمثله من مصالح كبار الملاك الزراعيين وأصحاب المزارع. حيث ينصب التركيز هناك على التجارة الزراعية. وتتميز هذه المناطق بانتشار الروح العدائية تجاه اليهود، الذين لا يُرى فيهم سوى كونهم خدما وعبيدا، وكذلك الأمر بالنسبة إلى باقى الأقليات الأخرى. وتنتشر الجماعات العنصرية المتطرفة ضد الأقليات بصورة عامة وضد اليهود خاصة. ولذلك ينصب أهتمام اللوبى اليهودى على المحور الأول.

إن اللوبى اليهودى-الصهيونى وذراعه الطويلة الايباك AIPAC «لجنة العلاقات الأمريكية-الإسرائيلية العامة» يعملان على نقل العمل الجماعى اليهودى من الولايات الخمسين إلى واشنطون، وهو الأمر الذى يجعل الرأى العام الأمريكى دائما متذكرا إسرائيل، على العكس تماما مما تفعله الدول الأخرى، من استئجار شركات ومؤسسات علاقات عامة للترويج لسياساتها. فاللوبى اليهودى يقوم بتصعيد القرارات التى يريدها وتريدها إسرائيل بداية من الناخب الأمريكى فى منزله وحتى أعضاء الكونجرس وصناع القرار الأمريكى إلى الحد الذى جعل الأمريكيين إسرائيليين أكثر من الإسرائيليين أنفسهم.

يعتمد اللوبى اليهودى على أربع وسائل أساسية فى التأثير على السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط. تتدرج من الناخب الأمريكى إلى صناع القرار. وهى الوسائل التى أثبتت فعالية كبيرة جدا حتى الآن. وتتلخص هذه الوسائل فى الآتى:

التنظيم: يعتبر التنظيم الفضيلة الأولى فى المجتمعات الرأسمالية. ويعنى التنظيم «التخصص وتقسيم العمل وتقديس الحرية الشخصية القائمة على حرية الاختيار وحرية الملكية». ويرتبط التنظيم فى الولايات المتحدة بالقيم المسيحية البروتستانتية. حيث يركز اللوبى اليهودى على صناعة العقل، فمن السينما إلى الصحافة إلى التلفزيون. وقد وصل التنظيم اليهودى بفضل الايباك لدرجة عدم القدرة على أنتقاد إسرائيل أو اليهود فى أى مجال علنى، وإلا فتهمة معاداة السامية جاهزة. إلى جانب وجود عناصر يهودية فى كل الأجهزة الأمريكية الحيوية، فمن أقصى الولايات إلى البيت الأبيض ومن المقاطعات وحتى الكونجرس، لدرجة إنه خلال فترتى حكم الرئيس الديمقراطى « كلينتون » لم يجرؤ عضو فى الكونجرس على انتقاد إسرائيل. فالرئيس «كلينتون» يعتبر من أكثر الرؤساء الأمريكيين الذين أدخلوا اليهود فى البيت الأبيض، حيث وصل عدد اليهود فى إدارته لأكثر من ١٢٠ يهوديا. حتى أصبح العرف السائد الآن فى واشنطون، وتعبيرا عن مدى النفوذ الذى يتمتع به اليهود إنه: (إذا أردت قضاء مصالحك حول العالم فعليك أن تذهب إما إلى هاليبرتون أو لوكهيد مارتن - فى إشارة إلى لوبى البترول والسلاح - أما إذا أردت قضاء مصالحك فى الشرق الأوسط فلا تذهب إلا إلى ايباك).

الصوت الانتخابى اليهودى: يصل عدد الناخبين اليهود إلى حوالى ٢ مليون صوت أنتخابى من إجمالى ٩,٥ مليون يهودى فى الولايات المتحدة، وهى نسبة لا تقارن بأى أقلية أخرى. فالعرب الأمريكيون والمسلمون على سبيل المثال حوالى١٠ ملايين صوت أنتخابى إلا أن الفرق يتحدد فى أن نسبة التصويت اليهودى تتجاوز ٨٥٪ بينما متوسط التصويت فى الولايات المتحدة لا يتجاوز٦٠٪ - على الرغم من أن يوم الانتخابات هو يوم إجازة رسمية فى الولايات المتحدة. ولذلك يتكالب الحزبان الجمهورى والديمقراطى على أصوات اليهود. وهو الأمر الذى يجعل الايباك تقوم بتوجيه اليهود من خلال الدعاية أو الضغط أو حتى الإرغام على تأييد مرشح معين أو إسقاط مرشح أخر لديه موقف غير مؤيدة لإسرائيل أو اليهود، مثلما حدث مع «وليام فولبرايت، بول فندلى، تشارلز بيرسى...» وغيرهم.



المال اليهودى: المقصود بالأموال هنا هى «تلك المبالغ التى يتبرع بها اليهود خلال الحملات الانتخابية سواء من اللوبى اليهودى أو الجالية اليهودية أو الصهاينة». فاليهود وحلفاؤهم يقومون بتأييد مرشح معين مقابل عقد غير مكتوب بين الطرفين (المرشح/اليهود) فحواه «إنه فى حالة نجاحه فإنه يتعهد بتقديم كافة أشكال التأييد إلى إسرائيل واليهود». فعلى سبيل المثال لا الحصر،



فقد تبرع اليهود خلال الحملة الانتخابية لإعادة ترشيح «كلينتون» بحوالى ٦٠ مليون دولار من إجمالى ٢٠٠ مليون دولار هى إجمالى التبرعات لحملته الانتخابية - حوالى٣٠٪ من الإجمالى العام. وهو الأمر الذى يفسر حصول إسرائيل على ١٧ بليون دولار عام ١٩٩٧ من الولايات المتحدة كمساعدات ومنح اقتصادية. هذا إلى جانب تأييد بعض المرشحين للانتخابات المحلية وانتخابات الكونجرس.

وسائل الإعلام: هناك سجل يهودى لا يتفوق عليه أى جماعة ضغط فى الولايات المتحدة فى هذا المجال. فاليهود يحتكرون صناعة الإعلام، فهم إما ملاك أو شركاء أو مستأجرون - يمنع القانون الأمريكى على أى شركة أحتكار أكثر من ٣٠٪ من حجم السوق الأمريكى فى أى مجال اقتصادى. فاليهود يركزون استثمارهم المالى فى مجال الاقتصاد الوسيط، الذى يرتكز بصورة أساسية على مجالات البنوك والأعمال الفنية ووسائل الاتصال الجماهيرى المباشرة وغير المباشرة.

فمنذ الثورة الصناعية الثالثة فى سبعينيات القرن العشرين ومجيء الثورة الرابعة - المعلوماتية فى التسعينيات من القرن العشرين التى شهدت تحول الوسائل الإعلامية - سواء المطبوعة أو المرئية أو المسموعة - من وسائل لإثارة الفكر والنقاش وكشف الحقائق، إلى سلع وأداة للترفيه وتغييب العقل كما يجادل إدوارد هيرمان ونعومى تشومسكى. وهنا أستغل اليهود حرية الرأى والتعبير الموجودة فى الولايات المتحدة ليقوموا بأكبر عملية غسيل مخ فى التاريخ. فالولايات المتحدة وشعبها، ذات الأغلبية المسيحية، يقدمان أكبر دعم لليهود على الرغم من العداء المتأصل بين الشعبين والديانتين. وإننا إذا نظرنا إلى الخريطة الإعلامية الأمريكية فسوف نعرف مدى تغلغل اليهود ونفوذهم الإعلامى المختبئ تحت ستار الليبرالية والحرية والديمقراطية، لتكون المحصلة فى التحليل الأخير لصالح اليهود وتبرير انتهاكات وممارسات إسرائيل ضد العرب.

لقد أثبتت بعض الدراسات التى أجريت على كيفية معالجة الإعلام الأمريكى



إن أجهزة الإعلام الأمريكية إما يملكها يهود أو يشاركون فى ملكيتها أو مستأجرون لها. فى ظل غياب عربى كامل عن الساحة الإعلامية الأمريكية



للممارسات الإسرائيلية ضد العرب والفلسطينيين عدة نتائج يجب الوقوف أمامها، مثل:

أن هذه الأجهزة تتبنى وجهة النظر اليهودية-الإسرائيلية، متجاهلة تماماً وجهة النظر العربية. هذا إذا عرضتها من الأساس. حيث يشدد الايباك على هذه الوسائل منع استضافة المسئولين أو العلماء العرب - المسلمين من أصل أمريكى.

أن أجهزة الإعلام الأمريكية إما يملكها يهود أو يشاركون فى ملكيتها أو مستأجرين لها. فى ظل غياب عربى كامل عن الساحة الإعلامية الأمريكية. فاليهود يمتلكون ما يربو على ٦٠٪ من إجمالى أجهزة الميديا الأمريكية سواء فى السينما، التلفزيون، الإذاعة والصحافة. موزعة كالآتى:

أولاً: مجال الإذاعة والتلفزيون

حيث يلعب التلفزيون والإذاعة دوراً أساسياً فى الحياة الأمريكية. مستهدفة المواطن الأمريكى الذى يعمل من الساعة التاسعة صباحاً إلى الساعة الخامسة مساء، ثم تبدأ بعدها ساعات الذروة من الخامسة إلى العاشرة مساء، التى غالباً ما يعرض فيها التلفزيون إما أفلاما عن الهولوكوست أو مسلسلاً معادياً للعرب أو برامج تعمق حب إسرائيل واليهود، ثم تعقبه النشرات الإخبارية التى تعامل إسرائيل على اعتبار أنها دولة حليفة للولايات المتحدة مثلها مثل إنجلترا وفرنسا وربما أقرب. أما فى أوقات الأزمات الإسرائيلية فإن أجهزة الإعلام الأمريكية تكون فى حالة استنفار دائم ضد أى هجوم على إسرائيل خاصة من العرب الأمريكيين.

توجد فى الولايات المتحدة ثلاث شركات تلفزيونية رئيسية هى (ABC¨ NBC¨ CBS) ويتبع هذه المحطات الثلاث تقريباً ٨٥٪ من المحطات التلفزيونية الفرعية فى داخل الولايات المتحدة يضاف إليها الشبكة الإخبارية العملاقة C.N.N. هذه الشبكات مرتبطة تجارياً مع شركات السينما الأمريكية ودور الصحف والنشر العملاقة. فشبكة C.N.N يملكها الملياردير الصهيونى « تيرنر» الذى يتعامل مع بارون الصحافة والإعلام المرئى « روبرت ميردوخ» اليهودى الأسترالى الذى يملك أكثر من ٦٠٪ من هذه الأجهزة فى الولايات المتحدة منها شركة «فوكس القرن العشرين». وبالنسبة لشبكة A.B.C فالذى يرأس مجلس إدارتها «ليونارد جولدنسون». وترتبط هذه الشبكة مع صحيفة «الواشنطن بوست» الواسعة الانتشار والنفوذ. أما شبكة N.B.C فإن أغلب قياداتها من اليهود والصهاينة فمن «ديفيد سارتوف، آرون سلجنستاين وروفن فرانك... وغيرهم». والمحطة الرابعة هى محطة المثقفين P.B.S التى تقوم كبرى الشركات العملاقة بتمويلها. وعلى الرغم من أن هذه القناة تحصل على دعم فيدرالى - قناة ذات منفعة عامة - إلا أنها تقوم بعرض البرامج الوثائقية والأفلام التاريخية التى تتناول إبادة اليهود على أيدى النازى - الهولوكوست -لاستدرار العطف الأمريكى المستمر على اليهود، وكذلك تعرض القناة أفلاماً عن ما يدعى بالدور اليهودى فى بناء الحضارة الغربية، وعظمة الحضارة اليهودية وفضلها على العالم وارتباطها بالحضارة المسيحية. ويرأس هذه القناة «لورانس جروسمان» وأغلب المذيعين والمعدين بالقناة صهيونيون معروفون وسط الإعلاميين الأمريكيين.

يبدأ ارتباط هذه الشبكات بشركات الإنتاج العملاقة فى هوليوود مثل «وارنر بروس WB، فوكس FOX ، يونيفرسال Universal، كولومبيا Columbia وبارامونت Paramount ومترو جولدن ماير MGM... وغيرها «باعتبارها المنظمات الأم التى تمدها بالأفلام والبرامج الوثائقية وتقوم بتدوير إنتاجها. وعلى الطرف الآخر، ترتبط هذه المحطات بدور صحف ووكالات أنباء دولية تقدم لها النشرات الإخبارية والتقارير الصحفية بكل حيادية وموضوعية، فيما عدا الأخبار المتعلقة بإسرائيل .



كل الأسماء السالف ذكرها من اليهود وحلفائهم من المسيحيين الصهيونيين بيدهم السلطة العليا ولهم القرار النهائى فى برمجة ما يسمعه ويراه الملايين من الأمريكيين والعالم يوميا سواء عن طريق الأقمار الصناعية أو عن طريق شبكات الأنباء العالمية.



ثانياً: السينما

السينما الأمريكية سينما عالمية تسيطر ليس فقط على سوق الإنتاج العملاق فى الغرب والعالم بل تصنع العقل العام والضمير الجمعى الدولى. وقد سعى اللوبى (السينمائى) اليهودى بعد الحرب العالمية الثانية بحركة دءوبة للتغلغل فى السينما الأمريكية من إنتاج، إخراج، تمثيل، توزيع وسيطرة على السوق الدولى. فأسماء مثل «أنجريد برجمان، ميل بروكس، شارلى شابلن، كيرك وابنه مايكل دوجلاس، بول نيومان، أودى الن، باربرا أسترايسند، ستيفن سبيلبيرج، توم هانكس، بروس ويلز، داستين هوفمان واليزابيث تيلور إلى جانب مئات الأسماء الأخرى من الممثلين، المخرجين، المنتجين، الفنيين والموزعين هم نجوم دوليون معروفون أغلبهم يهود - بعضهم غير لقبه اليهودى ولكن لم يغير أبدا موقفه تجاه إسرائيل. والبعض الآخر مسيحى صهيونى يتعاطف مع إسرائيل من منظور دينى أصولى أو كرها بسبب ارتباط حياتهم على الشاشة باللوبى السينمائى اليهودى.

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية تغيرت صورة اليهودى فى السينما الأمريكية تماماً. فبعد أن كان اليهودى (بخيلاً، كريهاً، حقوداً وغيرها من الصفات الشكسبيرية التى تطلق الآن على العرب) تحولت تدريجيا إلى صفات (المكافح، الليبرالى، خفيف الظل، الأمريكى الوطنى، الخارج للتو من المحرقة/الهولوكوست) على حد قول مارلون براندو فى مذكراته.

تقوم شركات الإنتاج السينمائى العملاقة مثل «وارنر، فوكس، مترو جولدن ماير وكولومبيا وغيرها» إلى جانب شركة «والت ديزنى» بدور الواجهة الأمريكية لسينما صهيونية متغلغلة فى عقول البشر وقلوبهم، ومتلائمة فى الوقت ذاته مع أفكارهم وقيمهم. مع إضافة بعد واحد - حتى لو كان خارج السياق العام للفيلم - وهو صورة اليهودى الطيب المنبوذ والمكروه لكونه يهودياً. وصورة إسرائيل المقهورة، واحة الديمقراطية وسط مستنقع الهمجية العربية. وتصوير الشعب الإسرائيلى على صورة الشعب الديمقراطى المكافح والساعى إلى السلام، ولكن قوى الشر التى تلاحقه منذ محارق النازية ومحارق الهمج العرب الذين يريدون إلقاء اليهود فى البحر، وهو الأمر الذى لابد على العالم التكفير عنه بطريقتين هما:

ضرورة تعويض اليهود مالياً عن ما تعرضوا له على أيدى النازى والعرب، وكذلك ضرورة تقديم كافة أنواع التدعيم المالى والمعنوى اللامحدود لإسرائيل واليهود.

ترك اليهود يقيمون فى بلادهم التى وعدهم بها الرب «إسرائيل».

هذا الأمر الذى جعل اليهود يكثفون الدعاية الثقافية، وعلى رأسها السينما. فمنذ فيلم الخروج وبن هور فى الخمسينيات مروراً بفيلم كليوباترا وحتى أفلام قائمة شندلر، أكاذيب حقيقية وأمير من مصر لليهودى الصهيونى ستيفن سبيلبيرج يبقى البعد الإسرائيلى مغموسا بالدم فى أكبر عملية تزييف وغسيل مخ تقوم به نخبة يهودية - صهيونية مثقفة وسط مجتمع مسيحى أنجلوساكسونى. وهو الأمر الذى قام بالتغطية على أكاذيب السياسة الإسرائيلية، وحافظ على استمرار زيادة الدعم والمساندة لإسرائيل بمبرر وبدون مبرر.

ثالثاً: الصحف والمجلات

إذا كان التلفزيون يلعب دور رب البيت فى الولايات المتحدة وتلعب السينما دور الصديق فإن الصحافة تلعب دور ربة البيت. فالصحف الأمريكية تبيع أكثر من ٧٠ مليون نسخة يومياً وتصدر هذه الصحف عن أكثر من ١٧٤٥ دار نشر، تحتكرها خمس شركات صحفية كبرى،



الهدف الأساسى من هذه الدراسات التى تقوم بها هو البحث عن أفضل الطرق لخدمة المصالح الأمريكية عامة والمصالح الإسرائيلية على وجه الخصوص



يمتلك اليهود نصفها ويشاركون فى أمتلاك النصف الآخر مع المسيحيين الصهيونيين. هذه الشركات الكبرى هى:

شركة نيوهاوس New House: تستمد هذه المؤسسة العريقة اسمها من المهاجر الروسى اليهودى «صموئيل نيوهاوس». وتصدر حوالى ٥٠ صحيفة منها ٢١ صحيفة تصدر يوم الأحد فقط. وتوزع حوالى ٢٥ مليون نسخة، إضافة إلى حوالى ٢٠ مجلة لعل أشهرها «جلامور، هاوس جاردن، سيف باريد... وغيرها». فضلا عن امتلاكها لما يزيد على ٢٠٠ محطة تلفزيونية رئيسية وفرعية فى معظم أنحاء الولايات المتحدة الأمريكية.

صحيفة نيويورك تايمز The New York Times: أضخم صحيفة فى نيويورك وفى الولايات المتحدة وفى العالم كله. تصل يوميا إلى كل مؤسسة وإدارة أمريكية وإلى أكثر من ٤٠٠ مليون شخص حول العالم (الطبعة الدولية للنيويورك تايمز هى جريدة الانترناشيونال هيرالد تريبيون). وتعتبر هذه الجريدة مرجعاً أساسياً للمعلومات، تقتبس منها أغلب محطات الإذاعة والتلفزيون ووسائل الإعلام فى العالم كله. فهى تبث أخبارها إلى ما يقرب من ١٠٠٠ مؤسسة صحفية وإعلامية على مستوى العالم. ومؤسس الصحيفة هو «هنرى ريموند». وعندما أفلست فى أوائل القرن العشرين اشتراها اليهودى «أدولف آوخس» بثمن بخس. والمالكون الحاليون لهذه المؤسسة هم عائلة «سلزبورج» اليهودية، والتى تمتلك إلى جوار نيويورك تايمز ١٢ صحيفة ومجلة أخرى، لعل أشهرها مجلة تايمز TIMES Magazine والتى توزع ما يزيد على ١٥ مليون نسخة أسبوعيا على مستوى العالم ويرأس تحريرها «هنرى جروون وورنر» وهو يهودى متعاطف مع الصهيونية. إلى جانب عدد آخر من المجلات الشهيرة والواسعة الانتشار مثل «لايف، فورتشن، مونى، سبورتس اليستريد، بيبول... وغيرها» إلى جانب عدد كبير من المحطات التلفزيونية. وبعد الصفقة الأسطورية التى انضمت بها مؤسسة تايمز إلى مؤسسة وارنر بروس (تايم - وارنر Time-Warner Corporations) تحكمت هذه الشركة الوليدة فى ما يزيد على ٤٠٪ من مجال الإعلام الأمريكى، حيث يزيد رأس مال المؤسسة الجديدة على ١٢٠ بليون دولار.

الواشنطون بوست The Washington Post: تأتى بعد النيويورك تايمز من حيث الانتشار والنفوذ. وهى ذات تأثير محورى على صانعى ومتخذى القرار الأمريكى بسبب وجودها إلى جوار البيت الأبيض والكونجرس والبنتاجون. اكتسبت هذه الجريدة سمعة طيبة واحتراماً كبيرين بعد كشفها لعدد من قضايا الفساد السياسى داخل الولايات المتحدة، لعل أشهرها قضية ووتر جيت فى أوائل السبعينيات. ويوجد داخل هذه الجريدة أكبر لوبى ليبرالى موال لإسرائيل داخل الولايات المتحدة، وتمدها إيباك بكل ما تحتاجه من معلومات وما لا تحتاجه أيضا.



أتضح أمامنا الآن أهمية الإعلام وسر تكالب اليهود على الاستثمار فى المجال الإعلامى والاتصالى والمعلوماتى. فاليهود نجحوا فى توظيف الإعلام لصالح إسرائيل، فهم لم يلتزموا بالأخلاق المهنية الواجب العمل بها فى مجال الإعلام وإنما عملوا على (كما يجادل بألمعية البروفيسور جاك شاهين) تشويه تاريخ الشعوب العربية بالكامل، إلى جانب بعض الانتهاكات المهنية الفادحة مثل:

الاحتكار وتركيز ملكية وسائل الإعلام فى أيدى قلة قليلة منهم (ميردوخ، تيرنر، كونراد بلاك وغيرهم) الذين يمتلكون ما يقرب من ٦٠٪ من أجهزة الإعلام الأمريكى.

خلط الإعلام مع الإعلان بما يخدم مصالح إسرائيل فى التحليل الأخير.

الاعتماد على الحكومة، رجال الإعلام، الخبراء والعلماء كمصادر للأخبار. وذلك من أجل إضفاء نوع من المصداقية لدى المشاهد، بغض النظر عن مدى صدق هذه الأخبار من كذبها أو انتماءات وجنسية أصحابها.

الإرهاب الاتصالى، فمن يعارض أهدافهم أو يعيق تحقيق مصالحهم ترفع مئات الدعاوى وتنهال آلاف الشكاوى ضد هذا المعارض، هذا إذا لم يصل الوضع إلى حد تصفيته جسديا - مثلما حدث مع العالم المصرى الدكتور/ إسماعيل الفاروقى الذى واجه أنصار هذه المنظمات وأفحمهم على الهواء فقتلته إحدى هذه المنظمات - جيش الدفاع اليهودى JDA المتطرفة. فتفتح الملفات القديمة - مثلما حدث مع الرئيس «كلينتون» بعد كل الخدمات التى قدمها لليهود ولإسرائيل فلم يغفروا له خطيئة واحدة. فالويل لمن يخالف، والذهب لمن يشارك ويساند.

لقد نجح اللوبى اليهودى فى تنقية (فلترة) الأخبار من كل ما لا يصب فى مصلحة اليهود ومصلحة إسرائيل - التى أصبحت بالضرورة مصلحة الولايات المتحدة - لتوصل ما تريد أن يصل إلى الجمهور، لا الحقيقة. فهذا اللوبى الذى يحتكر الحياة الإعلامية الأمريكية ويمتلك أكثر من ١٥٠٠ محطة تلفزيونية، ١٥٠٠ جريدة يومية، ١١ ألف مجلة، ٦٠٠٠ محطة إذاعية، ٢٤٠٠ ناشر و٧ أستوديوهات ضخمة للإنتاج السينمائى (حسب أرقام البروفيسور حسن بكر) وهو العدد الذى قارب حوالى ٣٠ ألف منظمة ومؤسسة إعلامية يسيطر اليهود منها على حوالى ٦٠٪ منها، لتتحول الولايات المتحدة إلى الصورة التى يريدها اليهود وإسرائيل بثها للعالم. لتتحول من الولايات المتحدة الأمريكية إلى الولايات المتحدة الإسرائيلية.

خامسا: مراكز الفكر THINK TANKS: تتلخص مهمة مراكز الفكر - دبابات الفكر فى المعنى الحرفى لها مثلما عرفها الأستاذ هيكل أو كتائب الفكر بلغة الدكتور عبد المنعم سعيد - فى إصدار الدراسات الموجهة، عقد الندوات وورش العمل، إصدار التقارير وإسداء النصح لصناع القرار الأمريكى، من أجل اتباع منهج معين فى السياسة الخارجية عامة وتجاه الشرق الأوسط على وجه الخصوص. وعلى الرغم من أن هذه المراكز حيادية وعلمية الاتجاه (نظرياً) إلا أنها لا تلتزم بالحياد العلمى ولا بالموضوعية. فالهدف الأساسى من هذه الدراسات التى تقوم بها هو البحث عن أفضل الطرق لخدمة المصالح الأمريكية عامة والمصالح الإسرائيلية على وجه الخصوص.



ترتبط هذه المراكز ارتباطا وثيقاً مع صناع القرار الأمريكى - سواء الحاليين أو السابقين، الرسميين منهم واللارسميين. فمن كيسنجر وبرجنسكى اللذين يعملان فى «معهد الدراسات الاستراتيجية الدولية IISS» إلى لورانس ايجلبرجر وولتر مونديل ودينيس روس الذين يعملون فى «معهد واشنطن لسياسة الشرق الأوسط WINEP» والصهيونى مارتن أنديك مدير مركز صبان لدراسات الشرق الأوسط بمؤسسة بروكينجز العتيدة. إلى جانب عدد كبير جدا من المسئولين الرسميين السابقين، الذين انتقلوا بعد انتهاء فترة خدماتهم الرسمية للعمل كخبراء ومتخصصين فى مراكز الفكر الموالية لإسرائيل.

يزيد عدد المؤسسات والمعاهد والمراكز العلمية المؤيدة لإسرائيل واليهود فى الولايات المتحدة على ١٥٠٠ مؤسسة ومركز ومعهد علمى (أيضا هذه أرقام البروفيسور حسن بكر) وفى واشنطون العاصمة وحدها حوالى ٥٠٠ منظمة مؤيدة لإسرائيل. وأخطر هذه المعاهد هى «معهد واشنطن لدراسة سياسات الشرق الأوسط WINEP» - الذى يعد الواجهة العلمية لمنظمة إيباك. هذا المعهد ملىء باليهود والصهاينة والإسرائيليين. فالسيدة التى أسسته وترأس إدارته هى «باربى واينبرج» «الرئيس السابق للاتحاد اليهودى، والمدير التنفيذى السابق هو السفير «مارتن انديك» الغنى عن التعريف، ومدير الأبحاث فيه اليهودى الصهيونى «روبرت ساتلوف» إلى جانب وجود عدد كبير من المسئولين الرسميين السابقين. ومن أهم أعمال هذا المعهد قيامه بعمل





حتى نهاية الحرب العالمية الأولى لم يرد أى ذكر لأى تنظيم سياسى عربى فى الولايات المتحدة فى الأدبيات السياسية التى تؤرخ لهذه الفترة



دراسة قدمت إلى الرئيس «جورج بوش الأب» أصبحت فيما بعد المرجع الأساسى فى السياسة الأمريكية تجاه عملية السلام فى الشرق الأوسط، ونقصد دراسة: البناء من أجل السلام: الإستراتيجية الأمريكية للشرق الأوسط Building For Peace: U.S. Strategy in Middle East والتى أشرف عليها وزير الخارجية «جيمس بيكر» فى الفترة من ١٩٨٨-١٩٩١.

هناك أيضا معهد «الشرق الأوسط لدراسات الإعلام MEMRI» الذى يقوم بعمل جرد دورى لأجهزة الإعلام العربية عامة، والمصرية على وجه الخصوص، وينتقى منها الأجزاء التى يرى فيها مهاجمة للولايات المتحدة ولإسرائيل. ويقوم المعهد بإعادة صياغتها وتقديمها لصناع القرار الأمريكى كدليل على معاداة العرب والمسلمين الولايات المتحدة ومعاداتهم للسامية وكراهية اليهود. ويشرف على المعهد زوجة الصهيونى «اليوت ابرامز».

أخيراً وليس آخراً هناك معهد «المشروع الأمريكى» American Enterprise Institute" AEI ومؤسسة بروكنجز Brookings Institution ومئات غيرها. وتضم هذه المراكز صفوة العلماء والخبراء السياسيين والمتخصصين فى شئون الشرق الأوسط، المسئولين السابقين من المحافظين الجدد Neo-Conservatives الذين يسيرون على نهج عالم الأنثروبولوجى والفيلسوف اليهودى الألمانى «ليو شتراوس». الذى تدور مجمل أفكاره حول جعل الولايات المتحدة القائد الوحيد للعالم عن طريق القوة ولا شىء غير القوة، ودون أدنى مشاركة من أى أطراف دولية أخرى، اللهم إلا إسرائيل. وهو ما جعل بعض المعلقين (مثل جهاد الخازن) يسميهم «عصابة الليكود Lickoud Gang. وأطلقت كاتبة أخرى على استراتيجية الولايات المتحدة فى ظل تحكم وهيمنة هؤلاء المحافظين الجدد إنها سعى من أجل لكودة العالم Lickoudization the World.

هذه المراكز الفكرية هى التى تحدد وترسم السياسة الخارجية الأمريكية، بل وتصنعها منذ البداية، فهى بالأساس مصانع أفكار. تدعمهم وتمولهم مؤسسات ضخمة، ومن يحاول فضح توجهاتهم فالويل كل الويل له - تماماً كما فعل مع البروفيسور إدوارد سعيد، رشيد الخالدى، جون ميرشايمر ووالت وغيرهم. حتى بعد شن الحرب على العراق - مارس ٢٠٠٣ - وخروج الشعب الأمريكى عبر الولايات والمدن الأمريكية احتجاجاً ورفضاً لتلك الحرب، بعد أن اتضح له زيف الأدلة التى قدمتها إدارة المحافظين الجدد والمراكز العلمية التابعة لها لتبرير الحرب على العراق، بقيادة منظمة A.N.S.W.E.R إلا أن الإدارة الأمريكية لم تعر الشعب الأمريكى ولا العالم بالاً، واستمرت فى ممارساتها وتابعت هذه المراكز دراساتها وأعمالها مثل الحال ما قبل الحرب... بل وأشد واطراً.

[٣]

قصة العرب فى الولايات المتحدة

إذا كان اليهود تواجدوا فى الولايات المتحدة قبل اتحادها، بل وقبل ما يوجد ما يسمى بالولايات المتحدة، فإن العرب لم يرد ذكرهم فى العالم الجديد - الولايات المتحدة فيما بعد - إلا فى بعض كتب الرحالة العرب فى أوائل القرن السابع عشر والثامن عشر. ثم توالت الرحلات العربية - المصرية خاصة - للولايات المتحدة منذ منتصف القرن التاسع عشر عندما أرسل سعيد باشا فرقة عسكرية مصرية إلى جنوب الولايات المتحدة (المكسيك) لمساندة الإمبراطور الفرنسى «نابليون الثالث» فى



أثناء الحرب الأهلية الأمريكية. وهى الفرقة التى بذرت بذرة الوجود المصرى فى الولايات المتحدة. ثم توالت الرحلات والهجرات العربية عامة واللبنانية خاصة منذ ثمانينيات القرن التاسع عشر. إلا أن هذه الرحلات كانت لعائلات فى أغلب الأوقات، ولم تعرف الشكل التنظيمى. وكانت الهجرات إما لأسباب سياسية أو دينية أو اقتصادية بحتة، مثلما سبقهم الرواد الأوائل قبل ثلاثة قرون.

حتى نهاية الحرب العالمية الأولى لم يرد أى ذكر لأى تنظيم سياسى عربى فى الولايات المتحدة فى الأدبيات السياسية التى تؤرخ لهذه الفترة. فلم يكن معروفا إلا أدباء مدرسة شعراء المهجر «كجبران خليل جبران والأخوان معلوف... وغيرهم». بل إن صورة العربى فى المخيلة الشعبية الأمريكية ومنذ البداية - وحتى الآن - لم تخرج عن إطار العربى القادم من الأساطير الزمنية الشرقية القديمة كألف ليلة وليلة، مصباح علاء الدين السحرى... إلخ. فالعربى مازال أداة للسخرية والأستهزاء. فعلى سبيل المثال فإن السينما الأمريكية لا تظهر العربى إلا فى صورة الإرهابى، المتخلف عقلياً، السادى، المتوحش، غير مفهوم اللغة (ما أطلق عليه إدوارد سعيد أستراتيجية P5). فالعرب ولأسباب كثيرة لم يتأقلموا مع نمط الحياة الأمريكى مثلما فعل اليهود. فالعرب ما زالوا فى طور الجيل الثانى أو الثالث على أفضل الأحوال، أما اليهود فهم فى الجيل السادس أو السابع على الأقل. ولعل من أهم الأسباب وراء عدم فعالية الجالية العربية فى الحياة السياسية الأمريكية الداخلية وفى التأثير على السياسة الخارجية الأمريكية تجاه أوطانهم الأم هى:

عدم فهم العرب لمداخل تحليل آليات عمل النظام السياسى الأمريكى: من حيث نوع الدولة الأمريكية كدولة فيدرالية، تقوم كل ولاية بصياغة قراراتها بنفسها دون الرجوع للعاصمة، إلا فى حالات تقدير المصالح الأمريكية القومية. ومن حيث إن الولايات المتحدة دولة مؤسسات منفصلة تتقاسم السلطات فيها، بمعنى أن العلاقة بين السلطات الثلاث بها أساسها التخطيط والتوازن والرقابة، وقبل هذا كله مصلحة الولايات المتحدة. وطبيعة الأحزاب السياسية الأمريكية التى تختلف تماما عن الحياة النيابية الحزبية الأوروبية الكلاسيكية. لأن الحزبين فى الولايات المتحدة «الجمهورى والديمقراطى» كل منهما عبارة عن كيان مخصص لغرض الفوز فى الانتخابات دون أن يكون لهما جدول أعمال ثابت، وإنما تتحدد أجندته بعد فوزه فى الانتخابات على العكس تماماً من الأحزاب الأوروبية. والأهم من هذا كله أن الولايات المتحدة، ومنذ صدور قانون اللوبى عام ١٩٤٦ أصبحت الحياة السياسية فيها أسيرة جماعات المصالح والضغط سواء فى البيت الأبيض أو فى الكونجرس. فتصاغ القوانين والقرارات على أساس مدى قوة وتركيز الضغط. كل هذه المداخل والآليات تجهلها الدول العربية والإسلامية لأنها ما زالت تعيش فى ظل النظم السياسية الأوروبية الكلاسيكية - على حد قول الرئيس كارتر. وهو عهد مضى وانقضى، بل إنه تغير فى البلدان الأوروبية ذاتها ليتلاءم مع آليات عمل النظام السياسى الأمريكى الحديث. فالهدف الحقيقى من وراء خلق الاتحاد الأوروبى هو العمل على إنشاء ما يمكن أن يسمى «الولايات المتحدة الأوروبية».

عدم إدراك العرب أن عصر الدبلوماسية الرسمية الكلاسيكية الجافة قد ولى بلا رجعة: فالولايات المتحدة يتحكم فيها جماعات المصالح عن طريق ما يسمى «بالدبلوماسية الشعبية Public Diplomacy». فأى رئيس أمريكى أو حتى أى سيناتور عندما يستيقظ من نومه ويرى آلاف الرسائل (سواء المكتوبة أو الإلكترونية) التى تهاجمه، فإنه بديهيا يحاول إصلاح سياساته ليكسب ود هذه الجماهير لا إغضابها، وذلك لأن هناك عقدا غير مكتوب بينه وبين الناخبين مفاده: «إذا لم تراع مصالحنا... فلن نصوت لك». وهو أيضاً ما لا تدركه البعثات الدبلوماسية العربية والإسلامية الرسمية التى عفى عليها الزمن. ويرجع السبب فى ذلك لعدم تخصصها، أى أنها من خارج التخصص السياسى (أطباء، مهندسون، محامون أو عسكريون) ولأنها ما زالت تعتمد على حفلات الشاى والكوكتيلات وحفلات استقبال وتوديع الدبلوماسيين وتلقى الأوامر من رؤساء الدول الذين



قال مردوخ: «يجب أن نتذكر أن ما يحدث فى الشرق الأوسط هو صراع بين الديمقراطية والديكتاتورية، لذا علينا مساندة إسرائيل»



يبعدون عنهم آلاف الأميال دون أدنى اهتمام للجاليات العربية والإسلامية والأقليات المتعاطفة مع الحق العربى من أجل استغلالهم فى التأثير على صنع القرار فى الولايات المتحدة.

عدم إدراك العرب بعد لدور الإعلام فى صياغة السياسة الأمريكية: وذلك لأننا مازلنا نعتقد أن وسائل الإعلام مجرد وسائل للتسلية أو مجرد تابع للحكومة لتلميعها وتأييدها. ففى الولايات المتحدة حوالى ١٧٤٥ دار نشر نصف هذه الدور مملوكة ليهود وصهاينة والنصف الآخر مشاركون فيه. هذه الدور تنشر ما يزيد على مائة مليون نسخة يومياً داخل الولايات المتحدة فقط، أى أن الصهاينة يتحكمون فى صياغة ثقافة الأمريكيين والعالم يومياً. فهم يملكون أشهر الجرائد والمجلات فى العالم كله مثل The Washington Post¨ The New York Times¨ L A. Times.، أما عن التلفزيون فيكفى أن نعرف أن أغلب سكان الولايات المتحدة البالغ عددهم أكثر من ٢٨٠ مليون نسمة يشاهدون ثلاث محطات رئيسية هى CBSABC¨ NBC، إلى جانب المحطة الاخبارية العملاقة CNN. يملك هذه المحطات الثلاث « ميردوخ، دوارنسن، وليام بيلى». هذه المحطات الثلاث هى أكبر المحطات التلفزيونية الفرعية فى الولايات المتحدة، وهؤلاء المالكون الثلاثة من أكبر داعمى ومساندى إسرائيل. فمثلاً روبرت ميردوخ عندما اختاره المجلس اليهودى الأمريكى AJC المنعقد فى نيويورك عام ١٩٨٣« كرجل الإعلام العالمى « صرح قائلاً «إذا كانت حرب إنجلترا فى الأرجنتين من أجل جزر فوكلاند، فإننا يجب أن نتذكر أن ما يحدث فى الشرق الأوسط هو صراع بين الديمقراطية والديكتاتورية، لذا يجب علينا مساندة إسرائيل». هذا هو ميردوخ صاحب أكبر إمبراطورية إعلامية فى التاريخ المعاصر. الذى يكفى أن تذكر ما قاله أحد الكتاب الإنجليز عنه لنعرف مدى صهيونية الرجل ومدى مساهمته فى مساندة دولة إسرائيل الصهيونية فيقول: «لقد رأيته مرة واحدة» يقصد ميردوخ « ولم أكن قد رأيته من قبل ولكنى رأيت كما من الشر الصهيونى لم أره فى أى وجه بشرى عرفته».

أما السينما فحدث ولا حرج. وعندما نريد أن نعرف مدى تغلغل الصهيونية داخل هوليوود ونيويورك ولوس أنجلوس من منتجين، مؤلفين، مخرجين، فنيين وممثلين لندرك مدى سيطرة اليهود على هذه الصناعة الهامة جداً فكرياً. فلأن العرب مازالوا ينظرون إلى الصحافة والتلفزيون والسينما، وخاصة الأخيرة، على أنها مجرد أدوات للتسلية وإثارة الغرائز ووسيلة للتربح السريع، وليست كأداة للتفكير وصياغة الأفكار والثقافة العامة الموجهة. لذلك فإننا لا نجد شركاء عربا فى هذه الصناعة مع الصهيونية اليهودية أو المسيحية، حتى الذى يتجرأ على الكلام، أو يبدى معاداته واعتراضه فإنهم يخرسونه تماماً ويبعدونه عن الأضواء ويشوهون سمعته ويحاربونه فى مصدر رزقه، مثلما حدث مع «مارلون براندو، كيفين كوستنر، أنطونى كوين، سوزان ساندرون وتوم روبنز... وغيرهم». ولذلك فإننا نرى الحملات الصهيونية الموجهة تتم بمساندة إعلامية ضخمة ويشترك فيها كبار الممثلين العالميين «توم هانكس، داستن هوفمان، ستيفن سبيلبيرج، وودى آلن وغيرهم» مما يكسبها الطابع الشعبى، على عكس السياسة المتخلفة للعرب والمسلمين الذين مازالوا يتبعونها من شراء صفحات قراءة فى هذه الصحف الإعلان «المدفوع الأجر» فى الصحف الصهيونية وهى أقل الصفحات قراءة فى هذه لمعرفة القراء إنها كتابات مدفوعة الثمن لتجميل الصورة أو تأجير شركات للعلاقات العامة للترويج لسياستنا الخارجية.

أما فى الجانب الآخر من الرؤية، فإننا لا نملك صحفا أمريكية/ عربية تعبر عن رأى الأمريكيين العرب، على العكس من اليهود والإسرائيليين الذين يمتلكون أعرق وأهم الصحف والمجلات العالمية. والدليل على هذا التحكم الإسرائيلى فى الولايات المتحدة بلغ من القوة والتأثير حتى أننا قد أوهمنا أنفسنا بتفسير الانحياز الأمريكى لإسرائيل « بأن أمريكا أصبحت صهيونية» دون محاولة منا لجعلها «أمريكا عربية». فالمقارنة بين إمكانيات الإسرائيليين (فكرياً، مالياً، اقتصادياً، سياسياً) وبين إمكانيات العرب والمسلمين المماثلة - غير المحدودة - ومقارنة كيفية استخدام الإسرائيليين لإمكانياتهم فى مقابل جهل العرب والمسلمين بإمكانياتهم ودورهم التأثيرى على صياغة الولايات المتحدة وسياساتها لصالح اليهود ودولتهم اليهودية.

إن سر تفوق اللوبى الصهيونى فى الولايات المتحدة يتركز فى «التنظيم. التعداد. رأس المال - المصالح وسوف نقارن بين الصهاينة والعرب والمسلمين فى نفس النقاط لنرى مدى التأثير من الجانبين . وهنا سنتطرق لمقومات ومصادر القوة التى يمتلكها العرب من أصل أمريكى والعرب عامة، والتى تؤهلهم - فى رأينا - لموازنة قوة اللوبى الإسرائيلى لو أحسن استخدام وتوظيف هذه القدرات والمقومات. وثانياً سنحاول إلقاء مزيد من الضوء على بعض المعوقات والمقيدات التى تحول دون قيام هذا اللوبى.



التنظيم: إن المرء ليصاب بالدهشة عندما يرى تكالب الحزبين الجمهورى والديمقراطى على أصوات اليهود وحلفائهم من المسيحيين الصهاينة، مع أن إجمالى أصوات اليهود لا تزيد على ١.٧ مليون ناخب من إجمالى ٢٠٠ مليون ناخب ولكن لأن نسبة تصويتهم تبلغ حوالى ٨٠- ٩٠٪ فى بلد لا تبلغ نسبة الحضور فيه للتصويت ٥٠٪ ، على الرغم من أن يوم الانتخابات إجازة رسمية فى الولايات المتحدة، يفسر سر هذا التكالب. أما العرب والمسلمون،



ولأننا مازلنا نعيش فى عصور الظلام حيث لا قيمة للفرد ولا احترام لحقوقه فى بلاده، وبالتالى فهم يأخذون هذه الصفات معهم فى بلادهم الأمريكية، فلا نرى تجمعات تنظيمية تجمع العرب على الرغم من أن عدد العرب الأمريكيين يصل لحوالى ٦ ملايين نسمة والمسلمين لحوالى ٥٠ مليون أمريكى. ولكننا لا نرى منظمة تجمعهم على الرغم من أننا نرى الـ ٥.٩ مليون يهودى وصهيونى لديهم أكثر من ٥٠ ألف منظمة ومؤسسة تجمعهم، ليكون فى تجمعهم وتنظيمهم دوره التأثيرى الضخم على الإدارات الأمريكية لصالح إسرائيل ولصالح الصهيونية.

التعداد: عندما نطلع على الإحصاءات الديموغرافية فى الولايات المتحدة الأمريكية عن أعداد اليهود فى الولايات المتحدة الأمريكية نجدهم حوالى ٥.٩ مليون نسمة يهودى مقابل ٦ ملايين عربى. ويصل عدد الصهاينة المتعاطفين مع اليهود لحوالى ٤٠:٥٠ مليون نسمة. أما عدد المسلمين الأمريكان فيصل لحوالى ٦٠ مليون نسمة ويقدر عدد المتعاطفين معهم «زنوج .أفارقة. لاتينيين. آسيويين» بحوالى مائة مليون أمريكى. وعلى الرغم من كل هذا، فإن المرء ليعتقد بديهيًا أن العرب والمسلمين هم الذين يتحكمون فى الولايات المتحدة، ولكن هنا منبع الجنون. فإن هؤلاء الخمسة وخمسين مليون نسمة يتحكمون فى سياسة القوة الأعظم فى العالم فيما يتعلق بالشرق الأوسط، لأن العرب والمسلمين ليس لديهم أى استراتيجيات للتحرك. فهم فى العالم كله بأعداد كثيرة جداً، ولكنهم كغثاء السيل، نظراً لكثرة عصور الظلام، الكبت، الديكتاتورية والاحتلال التى عاشوا فيها. فمنذ سقوط الخلافة العباسية والحضارة الإسلامية فى الأندلس لم يحيوا من وقتها إلى الآن فى أى جو ديمقراطى. فلا احترام لحقوقهم ولا لحرياتهم، وليس لهم الحق فى أن يقيم أى تجمع أو منظمة أو حتى حزب فى بلادهم، وبالتالى فإنهم قد ورثوا هذه المعاملات فى بلادهم التى هاجروا إليها. فنراهم فى الولايات المتحدة أكبر الاقليات عدداً وأقلها تأثيراً .

وليس ذلك فحسب، بل إنهم



فى مســـــــــألـة اللـــــــوبـى



إن أصحاب هذه البنوك يأخذون الأموال البترولية ليستثمروها ويأخذون أرباحها ليساهموا بها فى تجميل صورة إسرائيل



يعتبرون الأقلية الأكثر تعرضًا للأذى والتحرش الجسدى أو اللفظى.

رأس المال (المصالح): إن الشخص العادى ليتساءل فى براءة: «لماذا تضحى الولايات المتحدة الأمريكية بمصالحها مع أكثر من ٥٥ دولة عربية وإسلامية من أجل عيون إسرائيل؟» والرد، العلمى والعملى، على هذا التساؤل هو أن الخمس وخمسين دولة عربية وإسلامية لا يوجد من يدافع ويرعى مصالحها ويحاول تنميتها من خلال الضغط على الولايات المتحدة لترعى مصالح الأمة العربية والإسلامية فى مقابل رعاية الدول العربية والإسلامية لمصالحها الحيوية فى هذه المنطقة الحيوية من العالم. وهو ما تفعله الدولة العبرية بالضبط. على الرغم من أنه لا يوجد أى وجه للمقارنة بين مصالح أمريكا مع إسرائيل ومصالحها مع العرب والمسلمين، فيكفى فقط مصالحها البترولية فى دول الخليج العربى، الكفيلة بجعل دفة السياسة الخارجية الأمريكية تميل ناحية الدول العربية والإسلامية. ولكن لأن الولايات المتحدة تضمن وصول البترول وباقى مصالحها حتى الباب «خدمة توصيل المصالح للمنازل Home delivery» فلا داعى للتفكير فى مصالح العميل الضعيف. على العكس من إسرائيل ومؤيديها من اليهود والصهاينة الذين يملأون الدنيا صراخًا على أقل تعدٍ على مصالحهم فى المنطقة. إن رأس المال العربى - الأمريكى يزيد حجمه على ٨٠٠ مليار دولار أمريكى موجودة داخل البنوك الأمريكية، وبالتالى فإن أصحاب هذه البنوك يأخذون الأموال البترولية ليستثمروها ويأخذون أرباحها ليساهموا بها فى تجميل صورة إسرائيل، ويساعدون بها على تشويه صورة العرب والمسلمين عبر العالم، وزيادة المخزون العسكرى الإستراتيجى الإسرائيلى على حساب العرب.

فعلى الرغم من ترويج اللوبى الصهيونى بأن الصهاينة هم ملوك العالم اقتصادياً ومالياً، فمن ميردوخ لروتشيلد، ومن جورج سورس وروكفيلد إلى كونراد بلاك وعشرات غيرهم، وإن كانت هذه المقولة فيها جزء من الحقيقة، إلا أن العرب حقيقة يملكون أضعاف ما يملك حلفاء إسرائيل، ولكن العرب لا قيمة لأموالهم، فالأمة العربية والإسلامية لم تستفد شيئا من هذه الأموال. على عكس إسرائيل، التى تعتبر الأثرياء اليهود والصهاينة بمثابة الضلع الثانى، بعد الدور السياسى لليهود ولحلفائهم، فى إقامة دولة صهيون فى فلسطين العربية الإسلامية. فنحن العرب والمسلمين لا نقدر حتى على سحب أموالنا من البنوك الغربية، ولو حتى جزء منها. وهكذا فإن إمكانياتنا اللامحدودة بفضل جهل العرب وضعفهم أصبحت عقبة أمام تحقيقنا لمصالحنا ولأهدافنا.

الغريب أن العرب الأمريكيين يعتقد البعض منهم أنهم لا يملكون شيئا يمكنهم التأثير به على السياسات الخارجية للولايات المتحدة تجاه أوطانهم الأم. ولكن الذى لاشك فيه أن هناك إمكانيات ومقومات «فكرية، مالية، بشرية.. إلخ» تغدو موارد أساسية لإقامة لوبى عربى فى الولايات المتحدة، وهى على النحو التالى:

المقومات الفكرية: إن الحضارة الغربية نهضت على أكتاف الحضارة العربية الإسلامية، عن طريق انتقال شعلة الحضارة إلى أوروبا قبيل عصور النهضة الأوروبية - قبل القرن الخامس عشر - من خلال بؤر الثقافة فى البحر المتوسط مثل صقلية، الأندلس، كريت وغيرها من قناطر نقل الحضارة من القاهرة وبغداد ودمشق وغرناطة وقرطبة إلى أوروبا، ومن أوروبا إلى العالم الجديد. هذه الحقيقة هى التى جعلت الرئيس «توماس جيفرسون» أبو الدستور الأمريكى - يطبع صورة الأهرام الفرعونية القديمة على الدولار الأمريكى بعين سحرية اعترافاً أمريكياً بوجود حاسة سادسة فى خلق الحضارة أساسها فى بلاد العرب والمسلمين عامة وفى مصر على وجه الخصوص. فرؤية الحضارة العربية كمصدر إنسانى رئيسى للتنوير يعد مقوماً أساسياً فى عملية بناء أى لوبى عربى فى الولايات المتحدة.



المصالح: ونحن فى غنى عن شرح هذه المصالح (اقتصادياً وإستراتيجياً) فأى مدرك ومتابع لخريطة المصالح الأمريكية فى العالم يعرف موقع الشرق الأوسط فى الإستراتيجية الأمريكية الكونية Grand Strategy. فالمصالح الأمريكية - العربية لا تقارن بها أى مصالح لأى دولة أو لوبى آخر داخل الولايات المتحدة. إن حجم المصالح الأمريكية مع العرب يبلغ أضعاف أضعاف ما هو مع إسرائيل، وكذلك حجم حلفائهم فى واشنطون (لوبى السلاح ولوبى البترول) اللذان يتفوقان على اللوبى الإسرائيلى من حيث النفوذ والتأثير مئات المرات. ولكن هذا المقوم ضائعة جهوده هباء للأسباب السالف ذكرها.

المقومات البشرية: إن عدد العرب الأمريكيين يتفوق على عدد اليهود الأمريكيين (عدد اليهود الأمريكيين حوالى ٦ ملايين أما العرب وحلفاؤهم فيصل تعدادهم لحوالى ٥٦ مليونا، منهم ٥٠ مليون مسلم وحوالى ٦ ملايين أمريكى من أصول عربية) ولكن التفوق اليهودى يأتى فى الكيف وليس فى الكم. فعند عقد مقارنة بين اليهود والعرب فى الولايات المتحدة سنرى العجب العجاب، فالعرب متفوقون من كل النواحى تقريبا (التعداد، المصالح، رأس المال) ولكن اليهود يتفوقون فى ناحية واحدة هى التنظيم - الأساس الحركى للعمل السياسى فى الولايات المتحدة.

على الرغم من أن المنظمات اليهودية ظهرت منذ بدايات القرن العشرين، وقبل صدور قانون حرية إقامة مجموعات الضغط عام ١٩٤٦، فإننا على الطرف الآخر نجد أن الولايات المتحدة الأمريكية شهدت ولادة أول تنظيم عربى فعال فى صورة لوبى عام ١٩٧٢ وهو «المنظمة العربية القومية للعرب الأمريكيين AAAN» وهى أقدم المنظمات العربية فى الولايات المتحدة. ثم أسس السيناتور «جيمس أبو رزق» العربى الأصل مع البروفيسور «جيمس زغبى» فى العام ١٩٨١ «اللجنة العربية المناهضة للتمييز العنصرى ADC» كأكبر وأضخم تنظيم عربى فعال على الأراضى الأمريكية (ما يقرب من ٣٠ الف عضو). ثم انفصل البروفيسور «زغبى» وأسس منظمة «المعهد العربى الأمريكىAAI» عام ١٩٨٥ ليكون بمثابة العقل المفكر للوبى العربى فى الولايات المتحدة. إلا أن تلك المحاولات ظلت دون المستوى الكافى.

نجحت هذه المنظمات من خلال تشابكاتها Networking مع الاتحادات والمنظمات الأمريكية المؤيدة للحقوق العربية فى انتزاع اعتراف قانونى بالجالية العربية، وما يصاحب ذلك الاعتراف من نهضة سياسية واقتصادية كبرى لهؤلاء العرب الأمريكيين، إلى جانب القدرة التنظيمية الشرعية باعتبارها لوبى مسجلا فى الكونجرس ليعبر عن الأقلية العربية وعن مصالحها والمطالبة بحقوقها. وقد سجلت هذه المنظمات نقاط انتصار كثيرة منذ إنشائها، لكنها مازالت فى طور التكوين والنهوض، وما زال الطريق طويلاً جداً.

إننا نرى أن العرب والمسلمين الأمريكيين يمتلكون عدة مقومات من شأنها تفعيل المشاركة السياسية لهم داخل الأراضى الأمريكية كأقلية مؤثرة على القرار السياسى الأمريكى تجاه أوطانهم الأصلية. ومن هذه المقومات:

التنوع والتعدد الدينى والعرقى داخل الولايات المتحدة، وهو ما يتيح لكافة العرقيات والأقليات حرية الحركة بما فيهم بالطبع الأقلية العربية والمسلمة.

عدم ارتباط العرب والإسلام فى المخيلة الجمعية Common Consciousness الأمريكية بأى خطر أو تهديد للقيم الأمريكية - قبل أحداث سبتمبر ٢٠٠١ - على العكس من أقليات أخرى كالأقليات الألمانية أو اليابانية أو الروسية واليابانية.

إن العرب والمسلمين الأمريكيين لا ينتمون إلى جماعة اثنية أو عرقية واحدة، وإنما هم مزيج من أكثر من ستين

دولة أو أكثر. هذا التنوع يعطى الحركة العربية والإسلامية داخل الأراضى الأمريكية فعالية قد لا تتوفر لأقليات أخرى.

إن غالبية الأقلية العربية ذات مستوى تعليمى عال جداً، بل وبات الأمر فى الولايات المتحدة أن الشخص العربى يعنى بالضرورة «أن يكون أكاديميا» وهى الحقيقة التى تضع الأقلية العربية فى وضع اجتماعى ومالى جيد، وهو ما يخدم ويسهل من تحركات الأقلية العربية فى المجال السياسى أو الاجتماعى الأمريكى.

إن أغلبية العرب والمسلمين فى الولايات المتحدة، وهذا هو المهم، يتمتعون بحق المواطنة الأمريكية ويقيمون إقامة شرعية فى البلاد. فالأغلبية منهم تحمل الجنسية الأمريكية، وهو الأمر الذى يجعل القوى السياسية داخل الولايات المتحدة تتصارع على أصوات الناخبين العرب، سواء فى الانتخابات الرئاسية أو انتخابات الكونجرس أو حتى انتخابات الولايات.

هناك عدة أسباب تعيق تقدم وفعالية اللوبى العربى فى الولايات المتحدة، وتجعلها - أى الولايات المتحدة - تتبنى وجهة النظر العربية والإسلامية فى الاعتبار ما يلى:

جهل العرب والمسلمين بمدخلات Inputs وميكانيزم عمل النظام السياسى الأمريكى (شعبياً، رسمياً، مؤسسياً، إعلامياً).

عدم مبالاة أغلب النظم العربية بمصالحها القومية. وإنما نرى أهتماماتهم تنصب على مصالحهم القطرية أو المصالح الفردية والشخصية (البقاء فى السلطة) مما يؤدى لعدم جدوى أى محاولات فردية لموجة الضغط اليهودى- الإسرائيلى فى أمريكا.

عدم إدراك وعدم تصديق العرب للمخططات التى يعدها لهم علماء السياسة والاقتصاد والاستراتيجيون الأمريكيون والإسرائيليون، لانعدام قيمة العلم فى هذه المجتمعات وعدم إعطاء أى دور فعال للدراسات السياسية مختلفة الاتجاهات فى هذه البلدان. فأصبحت السياسات الخارجية لها تصاغ بطريقة رد الفعل أو سد الذرائع أو بأسوأ الأحوال بصورة مزاجية.

على الرغم من كل هذه المميزات التى تتمتع بها الجالية العربية بالولايات المتحدة إلا أن الطريق أمام تفعيل الدور العربى فى الولايات المتحدة مازال طويلاً. ومازال مطلوبا من العرب الأمريكيين ومن قبلهم الحكومات ورجال الأعمال والدبلوماسيين والفنانين والعلماء العرب الكثير من الجهد والعمل الجاد من أجل تفعيل دور اللوبى العربى والجالية العربية فى الولايات المتحدة، فهى خير سند وأفضل مدافع عن المصالح العربية على الأراضى الأمريكية. فمن عرف لغة قوم أمن مكرهم. ■

مراجع مختارة

زياد أبو عمر: «بنوك الفكر والموقف الأمريكى فى الشرق الأوسط». مجلة السياسة الدولية، (أكتوبر ١٩٩١).

إدوارد سعيد: «أمريكا الأخرى». وجهات نظر، (أبريل ٢٠٠٣).

يوسف الحسن: «البعد الدينى فى الصراع العربى الإسرائيلى: دراسة فى الحركات المسيحية الأصولية الأمريكية». (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠).

Edward Tivnan: “The Lobby: The Jewish Political Power and The . (New York:,American Foreign Policy Simon & Schuster¨† 1983).

Edward Herman and Naomi Chomsky: “Manufacturing Consent: The Political . (London;,Economy of The Mass Media Vitage Books¨† 1994).

Ben H. Bagdikian: “The Media . (Boston; MAS: Beacon, Monopoly Press¨† 1995).

Jack Shaheen: “Reel Bad Arabs: How . (Canada,Hollywood Vilifies A People Oliver Branch¨† 2003).

Paul Findly: “They Dare to Speak out: People¨† Institutions and Confront of . (West Port¨† Lowrance,Israeli Lobby Hill¨† 1985).

.,Rogina S. Sherif: “Non Jewish Zionism (London; Zed Press¨† 1985).

Ralph Reed: “Active Faith: How Christians are changing the Soul of . (New York; Free,American Politics Press¨† 1996).

Zionism Propaganda in,Fayez Sayegh: . (New York¨† 1983).,U. S. A

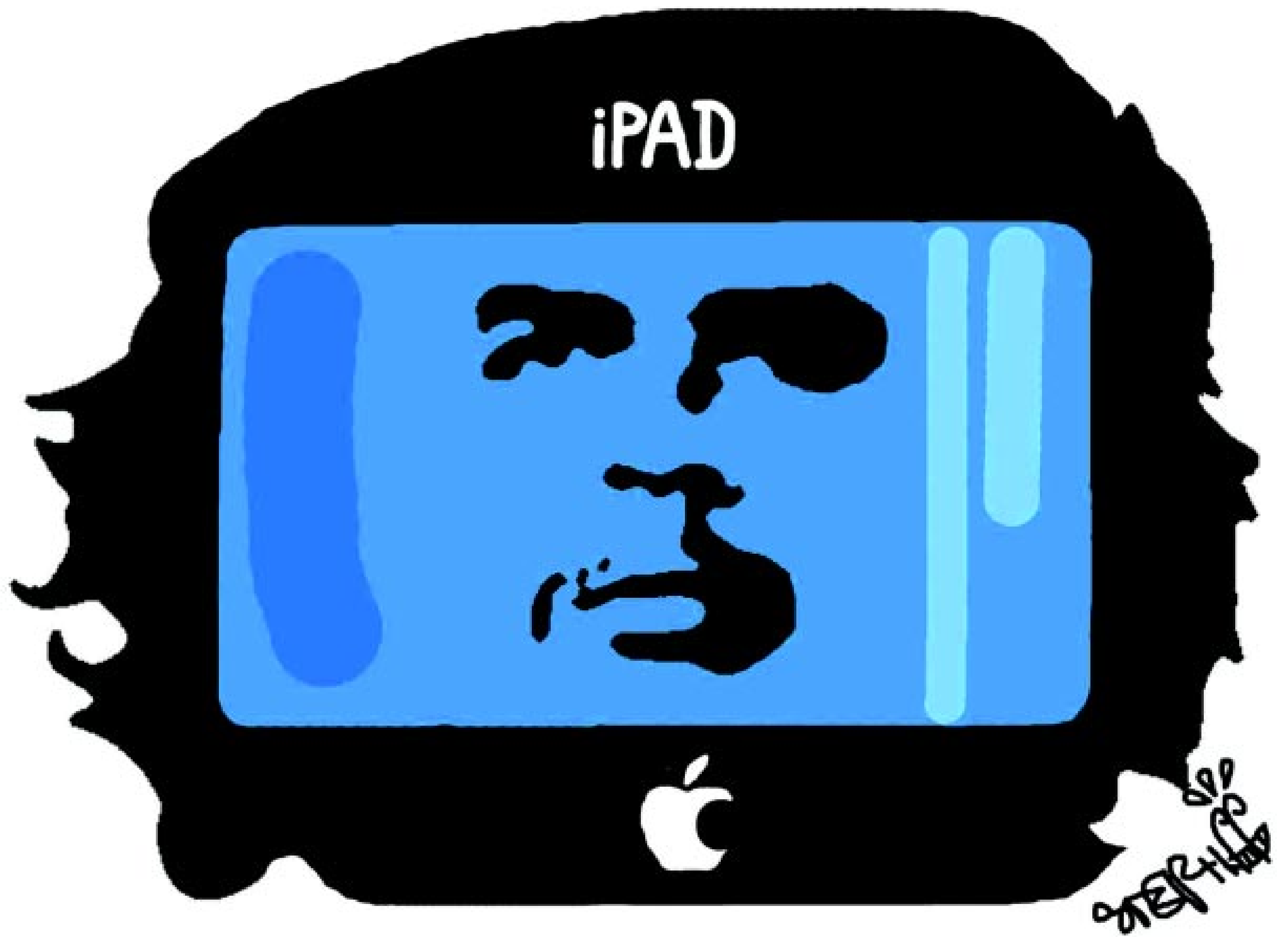
(*) هذه الدراسة مهداة لروح البروفيسور حسن بكر أحمد، أستاذ العلاقات الدولية والعلوم السياسية بجامعات أسيوط، الإمارات العربية المتحدة، ميرلاند، جورج مايسون بالولايات المتحدة الأمريكية. الذى رحل عنا فى أواخر مايو ٢٠٠٨. تغمده الله برحمته وجزاه خيراً بما عمل.

كتاب الزاوية



بردة البوصيرى فى العشق

أمنْ تذكر جيرانٍ بذى سلم
مزجْتَ دمعا جَرَى من مقلةٍ بدم
أمْ هبَّتِ الريحُ مِنْ تلقاءِ كاظمة
وأومض البرق فى الظَّلماءِ من إضم
فما لعينيك إن قلت اكْفُفا هَمَتا
وما لقلبك إن قلت استفق يهم
أيحسب الصبُّ أنّ الحب منكتمٌ
ما بين منسجم منه ومضْطَّرم
لولا الهوى لم ترق دمعاً على طللٍ
ولا أرقْتَ لذكر البانِ والعَلَم
فكيف تنكر حباً بعد ما شهدتْ
به عليك عدول الدمع والسقم
وأثبت الوجدُ خطَّىْ عبرةٍ وضنى
مثل البهار على خديك والعنم
نعمْ سرى طيفُ منْ أهوى فأرقنى
والحب يعترض اللذات بالألم
يا لائمى فى الهوى العذرى معذرة
منى إليك ولو أنصفت لم تلم
عَدتْكَ حالِىَ لا سِرِّى بمستترٍ
عن الوشاة ولا دائى بمنحسم
محضْتنى النصح لكن لست أسمعهُ
إن المحب عن العذال فى صمم
إنى اتهمت نصيحَ الشيب فى عذَل
والشيبُ أبعدُ فى نصح عن التهم



ثـــورة

ســـــو هـــــالــــبــــيـــــرن

Sue Halpern

■■ لا يوجد على سطح البسيطة من لم يصله الخبر. أطلقت شركة أبل للكومبيوترApple Computer فى ٣ أبريل جهاز آيباد iPad وهو كومبيوتر قرصى وصف بأنه ثورى ومغير لقواعد اللعبة وسحرى، حدث ذلك بعد سنوات من الشائعات تعود عقداً الى الوراء ولكنها بدأت تأخذ الشكل الجاد منذ فبراير ٢٠٠٦. عندما تقدمت أبل بمجموعة من براءات الاختراع التى تلمح إلى نيتها فى الانتقال إلى الحوسبة اللمسية. وبالرغم من أن هذا ينبئ بكونه مقدمة وتمهيداً للآيفون iPhone فقد بدأت شائعات الأقراص تتكون مرة أخرى فى خلال صيف وخريف ٢٠٠٨وأوائل (٦) ٢٠٠٩ بالرغم من النفى الدائم من قبل الشركة. وبإتباع الأساليب الغرامية القديمة - غازل، تدلل، لا تكرر الدعوة مرة أخرى ثم المزيد من الغزل - استطاعت أبل بنجاح أن تحول حب الاستطلاع إلى رغبة: يتوافر هنا جهاز لم تتم رؤيته من قبل وهناك عدد كبير من الناس يرغبون فيه ويعتقدون تماماً بضرورة امتلاكهم له حتى لو لم يعرفوا ماهية قيمته أو ماهية وظيفته.

فى أكتوبر ٢٠٠٩ وفى نفس الوقت الذى بدأت فيه دوامة الشائعات حول قرص أبل الخيالى ولكن قبل أن تمتصه وسائل الإعلام أصدرت بارنز آند نوبلزBarnes and Nobles إعلاناً بملكيتها لمنتج جديد وكان هذا اقتحاماً للأعمال التجارية الخاصة بقارئ الكتاب الالكترونى. (مرة أخرى بعد مرور عشر سنوات على فشلها فى إطلاق Rock Book) وكان ذلك من خلال جهاز صغير يسمى نوك Nook وهو يذكرنا بقارئ الكتب الالكترونى الشهير كيندلKindle لدى أمازونAmazon الذى كانت هيمنته تعنى التحدى. وعلى الرغم من إعلان صحيفة وول ستريت جورنالWall Street Journal عن حماسها للمنتج الجديد فى أحد المؤتمرات التى عقدت بالطابق السفلى فى قاعة Chelsea Piersالرياضية فى مانهاتن Manhatten وبالرغم من تزايد طلبات الشراء على جهاز نوك قبل حلول العطلة فقد أعلنت أبل قبيل الكريسماسChristmas عزمها على التخطيط لعمل إعلان واسع النطاق لمنتجها مع بداية العام وكان الشىء المثير حقاً هو دخول منافس جديد إلى ساحة الكتاب الإلكترونى.

إزاء واقعة نوكNook كان هناك حديث كثير عن صناعة الكتاب ومستقبل الكتب والوعد بالكتب الالكترونية. أشار ستيفن ريجيو Stephen Riggio الرئيس التنفيذى لشركة بارنز آند نوبلز إلى أن النشر ما زال يمثل عملاً تجارياً ضخماً: فهو يقدر بنحو ٣٠ بليون دولار سنويا، إنه أكبر من صناعتى الموسيقى والأفلام كما أنه لاحظ أن القراء يريدون الكتب بالطلب المسبق، وهذا ما سيوفره لهم نوك - بدخوله إلى قائمة بارنز آند نوبلز فضلاً عن أكثر من مليون من الكتب العامة الممسوحة ضوئياً والتى تدخل ضمن العرض من خلال مواقع الإنترنت المختلفة، وبالأخص ملايين الكتب التى وعدت جوجل بتسوية أمرها.

أشار ريجيو إلى كل النقاط التى يختلف فيها الكيندل عن النوك. إنه يعتمد على نظام تشغيل جوجل ذى المصدر المفتوح (Android)، إنه يستخدم تنسيق Pub e ذا الملكية غير المسجلة، إن

Sue Halpern is a scholar in residence at Middlebury. Her most recent book is Can't Remember What I Forgot: Your Memory, Your Mind, Your Future. (August 2010)

بترتيب خاص مع
The New York Review of Books

ترجمة إيمان عبدالهادى الكيلانى

بحلول الوقت الذى تولى فيه ستيف جوبز مركز يربا بوينا كان من الواضح أن موقفه من القراء والقراءة كان خاطئاً. وأنه كان مخطئا حول الكيندل نفسه

به كلاً من نظام لاسلكى وخاصية ٣ G للدخول إلى الإنترنت، إن له لونا أنيقا وشاشات باللمس ويمكن استخدامه لتشغيل الموسيقى. لم يكن من المفترض له أن يذكر ذلك فى الوقت الذى يتم فيه تداول ثلاثة ملايين كيندل. ولكن بارنز آند نوبلز كانت تلاحق أمازون فى اللعبة. بصرف النظر عن توافر شاشة صغيرة باللمس بدلاً من لوحة المفاتيح فإن نوك يبدو مطابقاً لمنافسه، ولذلك فإن هذه الشاشة لاتبدو عاملا مساعدا. يقول ديفيد بوج David Pouge وهو أحد المستخدمين للجهاز من قراء نيويورك تايمزNew York Times أن المحاولات الأولى منه تبدو مكررة كما أن البرمجيات «Soft Ware» التى يقوم عليها تعد بطيئة ومملة وفيما يتعلق بالتوريد فإن الشركة لم تستطع وضع أجهزة نوك تحت شجرة عيد الميلاد، ولم يتم شحن الجهاز حتى فبراير. قيل ذلك بعد أن أعرب ستيف جوبزSteve Jobs عن ابتهاجه بكشف النقاب عن آيباد فى مركز يربا بوينا Yerba Buena Center فى سان فرانسيسكوSan Francisco فى ٢٧ يناير ولكن قبل أن يضع أحدهم يده على آيباد حينما تتعاظم الرغبة فيه والطلب عليه.

المائة من الشعب الأمريكى يقرءون كتاباً أو أقل فى العام، لقد تصاعد مفهوم هذا الخلل إلى القمة لأن الناس لن تقرأ بعد الآن».

تخيل دهشته بعد مرور عامين من ذلك عندما تجاوز عدد أجهزة قراءة الكتب -وهى الكتب الممكن قراءتها على آيفون أو آيباد - عدد أجهزة الألعاب فى متاجر شركة أبل وتزايدت معدلات بيع الكتب الرقمية مثل كيندل Kindle وسونى ريدرSony Reader إلى ثلاثة أضعاف وما يزيد عن ٣١٣ مليون دولار أمريكى وطبقاً لتحليلات فى بنك جولدمان ساكس Goldman Sachs يتوقع أن تزيد مبيعات الولايات المتحدة من الكتب الالكترونية إلى ٣.٢ بليون دولار بحلول عام ٢٠١٥. وسوف تفوز أبل بثلث هذه الكعكة. فالغالبية العظمى من الناس قد لا تقرأ، ولكن يبدو على هؤلاء الذين يهتمون بالقارئ الرقمى أنهم يقرءون كثيراً.

فى عام ٢٠٠٨ قام زوار متاجر Apple iTunes بتحميل كتاب الكترونى واحد فى مقابل ستة من تطبيقات الألعاب. فى العام الماضى كانت هذه النسبة واحدا إلى أربعة. بحلول الوقت الذى تولى فيه

بوكibook . وبينما كان يصف المرحلة ويسلط الضوء على الدور الوظيفى للكتاب الالكترونى إذ انفجر الجمهور فى تصفيق تلقائى حتى عندما أصبح واضحاً أن الآى بوك سيكون فقط للقراءة على الآيباد، وحتى عندما أعلن عن عمل أبل مع الناشرين بشكل مباشر، وأن الناشرين سوف يحددون الاسعار بأنفسهم وهى غالبا ما ستكون أعلى من أسعار أمازون بثلاثة أو أربعة أو خمسة دولارات ، قد يؤدى ذلك إلى عدم قدرة الكتب الالكترونية على منافسة الكتب التقليدية. ولكنها الأسعار والسياسات هى التى تعطى للناشرين أفضلية على المستهلكين على المدى القصير، وهذا ما يعتبره الناشرون حيوياً لصحة صناعاتهم وأعمالهم.

لا يستوجب أن تكون لديك فوبيا التكنولوجيا أو أن تنتمى لجماعة لاديت Luddite – هى جماعة من العمال الإنجليز عمدت فى القرن ١٩ إلى تحطيم ماكينات المصانع لاعتقادها بأن هذه الماكينات ستؤدى إلى نقص الطلب على الأيدى العاملة «المترجمة» – لكى تصرف النظر عن فكرة الاعتماد على آلة للقراءة. قد تتميز هذه الآلات بذاكرة

حازت Wolf Hallعلى جائزة بوكر Booker Prize فكل ما ستفعله هو أن تقوم بتحميل عينة على الآى فون الخاص بك. سوف تكون مبتهجاً لإتاحة القراءة لك فى أى وقت وبدون عناء كل ما عليك هو أن تضغط زر «اشتر» وبمنتهى السهولة سيكون الكتاب بين يديك. وهكذا ستبدأ.

حتى الآن هناك طريقتان لعرض الكلمات على شاشة صغيرة وهما تقدمان عرضاً مختلفا للتجارب التى قد تؤثر على القارئ وتحدد ما إذا كانت القراءة على كتاب الكترونى محمولاً باليد مرضية أم لا. هناك الحبر الالكترونى «E Ink» وهو الذى يعكس الضوء بدلاً من انبعاثه منه. المدهش أنه يبدو مثل الحبر العادى على الرغم من أن الصفحة نفسها رمادية والتناقض فيها أقل. وهناك شاشة LCD بيكسل مليئة ببلورات سائلة مرتبة فى مواجهة مصدر ضوئى قد يكون خافتاً أو ساطعاً. يستخدم كل من كيندل ونوك الحبر الالكترونى بالرغم من أن كليهما أحادى القراءة. وتوجد شاشة صغيرة باللمس فى النوك تمكن من رؤية صورة صغيرة لغلاف الكتاب. توجد LCD لكل من الآى فون والآيباد ولكل منهما شاشة

الآيباد

ولذلك فبينما لم يتغلب آيباد على نوك عند وصوله، كما أن المبيعات المبدئية للجهاز كانت حوالى ٦٠.٠٠٠ وحدة وهذا لا يعد كافياً لاختبار تفوق كيندل. إذا كانت هذه هى المحاولات المتوقعة للاستحواذ على حصة من السوق المتنامى للكتاب الالكترونى فلنلق إذاً بطوق نجاة لصناعة النشر.

كان ستيفن ريجيو يعمل ببيانات قديمة عندما تحدث فى ذلك اليوم فى تشيل سى بيير، ووفقا لرابطة الناشرين الامريكيين فقد انخفضت مبيعات الكتب بنسبة ٢٪ تقريبا فى العام الماضى إلى ٢٣.٩ بليون دولار ووقع الضرر الاكبر على الكتب التعليمية والكتب ذات الأغلفة الورقية. يبدو أن هذا التدهور يؤكد ما قاله ستيف جوبز للنيويورك تايمزNew York Times فى أوائل عام ٢٠٠٨ عندما علق بالرفض للكيندل الذى كان حينذاك اختراعاً جديداً وقال: «إن هذا الاختراع لن يذهب بعيدا لأن الأمريكيين قد توقفوا عن القراءة» «لايهم مدى جودة أو رداءة المنتج، فالحقيقة أن الناس لم يعودوا يقرءون»، «أربعون فى

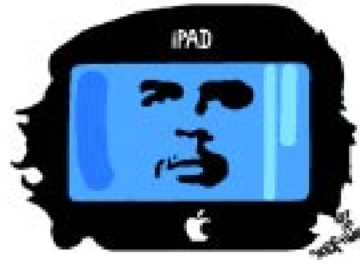
ستيف جوبز مركز يربا بوينا كان من الواضح أن موقفه من القراء والقراءة كان خاطئاً. وأنه كان مخطئا حول الكيندل نفسه. كان لديه كيندل تحت اسم Mea Culpa وكان يعرضه على شاشة كبيرة خلفه مع كلمات «هذا قارئ الكتاب الالكترونى. والآن قامت أمازون بدور عظيم فى ريادة هذا الدور الوظيفى لجهاز كيندل الخاص بها، ونحن سوف نقف فى أكتافهم وربما نسبقهم». ذكر جوبز ذلك أثناء تقديمه للكتاب الالكترونى الخاص بأبل كشكل من أشكال تطبيقات الآيباد يطلق عليه آى

عضلية ولكن هناك إشباعا حقيقيا يتحقق من خلال الكتاب المعتاد. كتاب مصنوع من الورق يضمه غلاف سواء كان صلبا أم رقيقا . تستطيع تدوين ملاحظاتك داخله، وتقلب صفحاته وتتصفحه من البداية إلى النهاية. أما الكتب الالكترونية فعلى النقيض. فمهما بلغت درجة التنظيم التى تقدمها فهى سريعة الزوال. نعم، تستطيع الاحتفاظ بآلاف الكتب فى جيبك ولكن ما الذى سوف تعرضه منها؟ وما الذى سوف يملأ رفوف مكتبتك؟ سوف تجد نفسك فى يوم من الأيام ماكثاً فى منزلك وبينما

خلفية تتسبب فى صعوبة إن لم يكن استحالة القراءة فى الخارج فى ضوء الشمس المباشر. وهناك مرآة عاكسة مثبتة على الشاشة مما يفرض أن يكون وجه القارئ ثابتاً على وضع معين أثناء القراءة حتى يتمكن من الرؤية. هناك صعوبة بل استحالة الرؤية فى الإضاءة الخافتة – انسوا تماماً القراءة تحت الأغطية – لا يوجد أى منهما أفضل من الآخر ففى كليهما عيب. سوف تظهر تكنولوجيا جديدة «لما وراء الانعكاس» لسد هذه الفجوة، ولكن ذلك سوف يكون فى المستقبل.

عندما تم الإعلان عن نوك إذا بصوت عال يحذر بأنه سوف يقضى على كيندل. ولكن هذا لم يحدث لأنه بمرور الوقت حدث تحسن فى موديل أمازون. فعلى سبيل المثال أصبح من السهل التنقل به فهو تقريبا مثل النوك فى أنه صغير، خفيف الوزن يمكن وضعه فى الجيب، له عمر طويل وهو قارئ كتب أبيض وأسود، كلاهما سهل التشغيل وكلاهما يسهل الدخول إلى مئات الآلاف من العناوين . كل ما فى

الأسعار والسياسات هى التى تعطى للناشرين أفضلية على المستهلكين على المدى القصير، وهذا ما يعتبره الناشرون حيوياً لصحة صناعاتهم وأعمالهم



ثـــــــورة الآيـبـــــــاد

الموضوع أن كيندل يباع من خلال أمازون بينما يباع نوك من خلال بارنز آند نوبلز. ولكننى أفضل نوك لأنه قابل للتوصيل إلى الانترنت من خلال كل من خاصيتى Wi-Fi و G ٣ الجيل الثالث بعكس كيندل الذى يحمل فقط خاصية الجيل الثالث للتوصيل ولا يمكن تشغيله بدون توصيله بالكومبيوتر وبالتالى لا يمكن تحميل الكتب إلا وفق أوضاع معينة مما يجعل القراءة تجربة غير شيقة.

فى الحقيقة أن نوك تتوافر فيه القدرة على الاستماع الى الموسيقى ووفقاً لأحدث تطويرات برنامجه يمكن ببساطة تصفح الويب فى أثناء اللعب بلعبتين، ولكن هذه ليست هى الميزات الأروع فيه. الاختلاف الأوضح بين الجهازين والأكثر أهمية هو أن نوك قد تم تصميمه بناء على تنسيق ePub مما يتيح حرية وانفتاحا للدخول على أى جهاز. بعكس كيندل الذى تم تصميم خواصه لكى يتوافق مع نفسه فقط. إن تنسيق ePub يستخدم من قبل كل أجهزة القراءة الالكترونية ماعدا كيندل. يعد هذا التنسيق نقطة بيعية بالغة الأهمية بالنسبة لجوجل التى تنوى عرض الكتب الالكترونية على نطاق واسع فى هذا الصيف على الانترنت مما يسمح بالقراءة على أى عدد من الأجهزة وهذا قد يعنى فى نهاية هذا العام تقديم جوجل للكومبيوتر القرصى الخاص بها. وسوف يتيح تنسيق ePub للقراء الدخول إلى ملايين الكتب إن النشر الالكترونى يمكن الآن تعميمه وسوف يتيح ذلك خيارات واسعة أمام الكُتاب لنشر وبيع كتبهم. وكما أشارت لوس أنجيلوس تايمز Los Angeles Times بالقول «نظرياً يستطيع أى كاتب أن يبتكر كتاباً الكترونياً معتمداً على تنسيق النشر الالكترونى ePub ويطلقه للنشر من المنزل». لقد أصبحت الآثار المترتبة أكثر عمقاً.

عندما أعلن عن إطلاق آيباد كان عنوان النص الاعلانى «الآيباد تفضح الكيندل» وقد كان. عندما تولى ستيف جوبزSteve Jobs مشروع ترويج الصورة الذهنية للآيباد كان الكيندل خارجاً عن إطار الزمن بشكل هزلى ومتخلف يماثل فى تخلفه حالة المقارنة بين تليفزيون أبيض وأسود مع تليفزيون بلازما HD ثمانية وخمسين بوصة عالى الوضوح. وفى تحليل استثمارى قام به بنك نيدهامNeedham مع الشركة حيث تم وضع كيندل للعرض بعد مرور أسبوع على عرض آيباد الذى تم بيع ما يزيد على نصف مليون وحدة منه. كانت النتيجة التى تم التوصل إليها أن كيندل ليس منتجاً مقنعاً للغاية. وحتى مع ذلك فقد توقع ستيف وعدد من المحللين أن يتم بيع ما يزيد على ثلاثة ملايين من الكيندل فى العام القادم. (وفقاً لأبلApple تم بيع مليون جهاز من آيباد فى الشهر الأول.)

إن ما يوحى به ذلك هو أنه لا تزال هناك أسباب وجيهة لاقتناء جهاز قراءة غير مقنع مثل كيندل بدلاً من اقتناء قرص أبل المصقول المسلى والرائع، حيث إن أجهزة القراءة نوعا ما أصغر حجما وأخف وزناً والمساحات التى يمكن أن تشغلها تعد إلى حد ما أصغر مما يحتاجه الكتاب الورقى التقليدى. وعلى النقيض يعد الآيباد لوحة كبيرة إلى حد ما. إن حجمه مثل حجم صفحة مخطوطة ويصل وزنه إلى ١.٥ باوندات إنه بالتأكيد أثقل. تعتبر أجهزة القراءة الالكترونية بالتحديد أقل تكلفة من آيباد والمرجح لها أن تخفض أسعارها للحفاظ على قدرتها التنافسية، (لقد بدأت أمازون فى تقديم أجهزة القراءة الالكترونية كهدايا لمشترى الكتب الأكثر نشاطاً، وهذا بالطبع سيجعل هؤلاء يستمرون فى شراء أجهزة القراءة الالكترونية من أمازون. وبالإمكان استخدام أجهزة القراءة فى الأماكن المفتوحة وكذلك فى الأماكن المغلقة، وربما تكون النقطة الأهم هى أنه على الرغم من إمكانية إضافة عملية تصفح الانترنت فإن أجهزة القراءة الالكترونية ما زالت حتى الآن تقلل من إغراء الدخول إلى الإيميل «البريد الالكترونى» أو نتيجة البيسبول أو أسعار البورصة أو عناوين التويتر أو كل ما سبق كل بضع دقائق. كما أن القارئ يستطيع أن يتصرف بالطرق المعتادة لمعظم القراء من حيث الرغبة فى قفز بعض الصفحات. لا يهم أن تكون الصفحات ورقية ولا يهم أن يكون الحبر مجرد شحنات كهربية.

على النقيض من ذلك يحتفى الآيباد بالرياضة العقلية فأنت تستطيع الاطلاع على الايميل الخاص بك وتستمع إلى الإذاعة وتشاهد فيلما وتلعب البوكر وتقرأ عناوين الصحف وتأخذ صوراً وتؤلف أغانى وتشاهد متجراً للأحذية وتتابع السعرات الحرارية وتبحث عن وصفات وهكذا الكثير والكثير. تستطيع أن تقرأ كتاباً وتكتب آخر. (على الرغم من أن الكتابة على شاشة بها لوحة مفاتيح يمثل مشقة وفوضى فالتحرير على برنامج أبل باللمس، يماثل فى فوضويته ما تستشعره من فوضى عند الأكل بالأصابع - يبلغ سعر هذا البرنامج ٩.٩٩ دولار)، ما لن تستطيع القيام به - مع وجود استثناءات قليلة - هو أن تفعل هذه الأشياء فى وقت واحد. فقد ترغب فى الاطلاع على بريدك الالكترونى فى خلال الوقت الضائع فى عرض إعلان تجارى ولكن الضغط على أيقونة البريد الالكترونى سيتسبب فى إطفاء أيقونة الرمز ABC . قد تحتاج إلى تحويل دولارات إلى كرونرKroner فى أثناء البحث عن فنادق فى أوسلوOslo ولكن إذا أردت البحث عن هذه الفنادق فى كاياكKayak فسوف تختفى فور وضع إصبعك على مكان آخر. إن تعددية المهام - والتى قد نراها عن قريب فى الآيفون - لا وجود لها هنا مما يجعل آيباد أقل من الكومبيوتر ولكنه أفضل من آيبود ذى الحروف الكبيرة باللمس.

حسناً، إن هذا ليس عادلاً تماماً. فهناك عدد من التطبيقات الفريدة التى تم تطويرها خصيصاً للتميز على خواص الآيباد من حيث الحجم ووضوح الصورة والرسوم وهى إما أنها لا تتشابه مطلقا مع أى شىء مما رأيناه من قبل أو أنها مختلفة بدرجة كافية لتجعلها تبدو أصلية وجديدة. والعدد يتزايد يومياً. هناك أيضا طبعة منقحة لقصائد لشكسبيرShakespeare على جهاز يطلق عليه فوكVook وهو عبارة عن كتاب مرفق به فيديو يعد هذا الجهاز أحد تطبيقات النت فليكسNetflix وهو يتيح للمشتركين إمكانية عرض الأفلام وبه ترجمة رائعة ثلاثية الأبعاد تقدم شرحاً للمحسنات البديعية والجمل معقدة التركيب. أما المجلات فلم تضع بصماتها بعد (تكلفة وضع قضية واحدة من العلوم العامة على الآيباد هى خمسة دولارات فى حين أن الاشتراك السنوى للمطبوعة يبلغ ١٢ دولارا) على الرغم من أن هذا الوضع قد يتغير خلال الأشهر القادمة حينما يقوم بعض الناشرين مثل كوندى ناستConde Nast بعقد صفقات من أجل النشر على الآيباد. يبدو اختيار رئيس تحرير النيويورك تايمز ضعيفاً وعلى وجه الخصوص بالمقارنة مع الانترنت ولكنه قد يكون باعثاً لمزيد من الاشتراكات المعتمدة على هذه التطبيقات فى المستقبل.

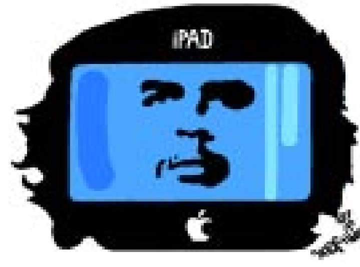
فى غضون ذلك تستعرض المؤسسات الإعلامية مثل هيئة الإذاعة البريطانية BBC، وإن بى آر NPR ورويترز Reuters إمكانيات آيباد التكنولوجية، من حيث توفير التقارير الإخبارية الفورية على الاحداث اليومية وذلك بجودة عالية ومذهلة فى أحيان كثيرة وبالطبع بالصوت والصورة. على موقع البى بى سى على سبيل المثال تستطيع أن تستمع إلى الإذاعة الحية فى خلال التنقل بين البرامج اليومية. فى حين أن التطبيق البارع لإن بى آر NPR يتيح لك قراءة وعرض الصور والاستماع إلى قطع من البرامج الإذاعية العامة. إن هذه الإضافات الناتجة عن تغيير قواعد اللعبة ستتحدد قدرتها فى إنعاش المجلات والصحافة المطبوعة، وهذه القدرة سوف تعتمد - وهذا ليس من المدهش- كالمعتاد على مدى إبتكارية هذه التطبيقات وقدرتها على جذب كل من المستهلكين والمعلنين لدفع المال الحقيقى فى هذا المحتوى. فى الوقت الحالى معظم المواقع الإخبارية مجانية وخالية من الإعلانات وهذا لا يتوافر فى مجال ثورة الآيباد أو غيرها من التطبيقات إن الأمر يبدو «خياليا».

لقد سطعت تطبيقات الآيباد وكان أكثرها سطوعاً هو آيبوك لم يكن الضرر الذى أوقعته أبل بأمازون هو وضع تصميم التطبيق فحسب. فقد وجدت أفضل تطبيق لكتاب الكترونى للآيفون iPhone وأطلقت عليه كلاسيك Classics الذى رفعت فيه الميزات إلى



إن تعددية المهام ـ والتى قد نراهــا عــن قــريب فى الآيفــون ـ لا وجود لها هنا مما يجعل آيباد أقل من الكومبيوتر ولكنــه أفضــل من آيبــود ذى الحـــروف الكـبيــــرة باللمـــس





ثـــــورة الآيـبــــــاد

الأفضل - حيث يوجد به ما يشبه رف كتب جزئى ملىء بحافظات للكتب وبه صفحات قابلة للإدارة والتحويل مثل الصفحات الورقية - وعندما تدير الآيباد أفقيا فسوف يظهر على الكتاب الذى على الشاشة الصفحات اليمنى واليسرى وإذا تمت إدارته إلى الوضع الرأسى فسوف تظهر صفحة طويلة منفردة. وإذا نقرت الشاشة بأصابعك فسوف تتحرك الصفحة وإذا نقرت مرة أخرى فستسمع صوت طى الصفحات. إنه جديد ولكن التآلف معه يتم سريعاً. على الرغم من أن الإمساك بكتاب مصنوع من الزجاج والمعدن والتعامل معه يعد أمراً غريبا إلى حد ما. على الرغم من محدودية أماكن التخزين الفعلية لآيبوك وهى تقل عن ٦٠ ألف وحدة نصفها تعد ملكية عامة لمشروع جوتنبرج والباقى عبارة عن روايات بوليسية وروايات مثيرة ومذكرات للمشاهير التى تحتل قمة قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، إلا أن هذا الرقم سوف يزداد مع توقيع الناشرين تعاقدات مع أبل التى تعد أكثر استيعاباً لمصالح الناشرين من أمازون من خلال ترك الفرصة لهم لتحديد الأسعار ومواعيد النشر. فضلاً عن اعتماد تنسيق ePub ، أما كيفية عمل إصدارات جوجل مع iBook فهى ما زالت غير واضحة. من خلال النشر الالكترونى من السهل اقتناء كتب مجانية واختيارها من على الانترنت ومن مشروع جوتنبرج أو كتب جوجل ويمكن أيضا تنزيل ملفات PDFوإرسالها إلى الآيبوك أوإظهارها على قوائمه تمهيداً لقراءتها وفضلا عن ذلك فهناك قائمة بالكتب المجانية التى يمكن الاختيار من بينها.

فى العادة تكون الكتب المجانية إما منشورة ذاتياً أو تم نشرها قبل عام ١٩٢٣ وتعد من كتب المجالات العامة، مثل «أليس فى بلاد العجائب» و«كبرياء وتحامل» و«كاما سوماترا» فجميعها ذات شعبية كبيرة ولكن بالنسبة للجزء الأكبر من القراء الذين يطلبون الكتب الرقمية فإنهم يبحثون عن عناوين معاصرة إن لم تكن جديدة. ما يمكن توافره فى حالة كيندل وتطبيقاتها التى تعمل باللمس هو البيع على دفعات فى حالة كون السعر صحيحاً، أما البيع الفورى وهو البيع بمجرد الضغط على الزر ثم ظهور الكتاب على الشاشة حالاً، فهذا لن يتحقق إلا بانخفاض السعر.

بطريقة ما - ربما بواسطة جماعة من الناشطين أو ربما مجرد حظ - حددت أمازون نقطة السعر المثالى بـ٩.٩٩ دولار وصنعت ملصقات الأسعار لمعظم عناوين كتبها، على الرغم من أن أسعار الكتب الورقية كانت فى الغالب أعلى من ضعف هذه الأسعار وبالرغم من ضياع المال عليها وبرغم اعتقاد معظم الناشرين أن هذه الكتب الالكترونية الرخيصة سوف تقلل من حجم مبيعات التجزئة وتحرمهم من الرزق الذى يحصلون عليه من هذه التجارة، أياً كان الأمر أفضل أو أسوأ فقد كانت جودة الكتاب ذى الـ٩.٩٩ دولار أفضل من الأغنية ذات الـ٩٩ سنتاً. بحلول مايو ٢٠٠٩ شكلت تنزيلات كيندل ٣٥٪ من مبيعات الكتب لأمازون وذلك عندما كانت طبعة الكيندل متاحة وكان معظم الناس فى أبل يدركون أن هذه الزيادة فى المبيعات قد جاءت من تطبيقات كيندل وليس من كيندل نفسها.

فى خلال أيام من الدخول إلى عالم الأعمال التجارية للكتب الالكترونية أعلنت أبل - وكأنها تجيب عن سؤال حول ما إذا كان ارتفاع أسعار الكتب الالكترونية سوف يعطل عمليات الشراء - أنه قد تم تحميل ٢٥٠.٠٠٠ كتاب على ٣٠٠.٠٠٠ جهاز. ويبدا هذا الإعلان كنوع من التلفيق الذى يشوبه التشويش، فإن استخدام كلمة «تحميل» لوصف سلوك القراء بدلاً من «الشراء» جعل من الصعب التمييز بين الكتب التى أضيفت إلى أجهزة آيباد بدون تكلفة - أى الكتب المجانية وعينات الكتب - مقابل تلك التى تكلف مالاً . مازال يتعين الإجابة على السؤال حول ارتفاع الأسعار واحتمالية تعطيله لعملية بيع الكتاب الالكترونى. فى الوقت نفسه فإن القراء الذين يرفضون دفع قسط المال لقراءة كتب من خلال آيبوك يمكنهم شراء الكتب على آيباد من خلال استخدام تطبيق الكيندل أو من خلال الكوبو Kobo Books وهو بائع كتب كندى فى حين أن أشكالهم ليست أنيقة مثل آيبوك وليس من المعتاد أن تجد كتاباً يباع بتخفيض دولارين فى هذه المواقع وبمجرد أن يقوم أحد بالمقارنة بين أسعار تطبيقات الكتب فإن هذا النوع من التسوق سيكون أسهل بكثير.

بالطبع ليست هناك معلومات حول سماح أبل لمثل هذه التطبيقات بالتواجد فى متاجرها لأنها تحكم السيطرة تماماً على كل ما يمكن بيعه هناك، فجميع البرامج الخاصة بالآيباد والآى فون والآى بود باللمس تمر من خلال عملية فحص طويلة ولابد من الموافقة عليها من قبل الشركة. تستطيع أبل رفض أى برنامج طالما اعتبرته منافساً قوياً لمنتجاتها أو إذا رأته غير مناسب أو إذا رأت فقط أنه لا يروق لها- إنها عملية تعسفية كما اتضح من رفض أبل للتطبيق الذى ابتكره رسام الكارتون السياسى مارك فيور «Mark Fiore» لأنه يسخر من الشخصيات العامة، إن ذلك يعد حقا لها وهذا لا يختلف عن النشر (فرؤساء التحرير يرفضون المحررات بشكل روتينى) وأيضا لا يختلف عن البيع بالتجزئة (وهذا ما أوجد المشترين المحترفين.)

ومع ذلك فإن هذا التمحيص الذى تقوم به أبل يعد نقيضاً للانفتاح الذى أطلق شرارتى الإبداع والبراعة اللتين ميزتا الانترنت وماعُرف عنها من المعرفة والقيادة. لقد أصبحت الانترنت ملعباً حراً ومتاحاً لأى شخص منذ إطلاق أول متصفح منذ سبعة عشر عاماً. إن انفتاح النت هو الذى جعل بعض الحكومات تخشاها وجعل بعض الشركات تتعرض للتهديد من خلالها وجعل مطرباً مغموراً يبيع ملايين الألبومات وجعل مراهقاً صغيراً فى مومباى يساهم من خلال رمز كومبيوترى فى صنع برنامج يتم تطويره فى امستردامAmsterdam لكى يوزع على صعيد عالمى.

إن حرية الفكر النابعة من مصدر مفتوح ومبادئ الابتكار العامة أصبحتا لصيقتين بالأساس القائمة عليه حرية الإنترنت. إنها تفاوتات تسمح لأصحاب التصاميم وصناع الأفلام السينمائية والمطربين والحرفيين وبعض من الكتاب والناشطين السياسيين ورجال الأعمال بنشر وتطوير أفكارهم مع إن معظمهم من الهواة. تخيل ما الانترنت وتخيل حياتنا وماذا أصبحت بعد اختراع مستعرضMosaic للويب فى عام ١٩٩٣والذى لا يرغب أى من مارك أندرسون Mark Andreessen وإريك بينا Eric Bina فى أن يشتريه المستخدمون فقط بل إنهم يرغبون فى دفع المال لهم فى مقابل كل نقرة وكل تحميل بل كل عرض لصفحة.

حاول أن تتخيل كيف يمكن خصخصة الانترنت وتطويرها إلى شبكة نقدية وأنت لا تستطيع اللحاق بتطوراتها نتيجة لأن مسارها التطورى أصبح مختلفاً. إن تطبيقات أبل قد تكون عبقرية وقد تكون ممتعة ومسلية وقد تكون مفيدة .ولكن مالا تستطيع أن تكون عليه هو كونها متحررة من سيطرة أبلApple .

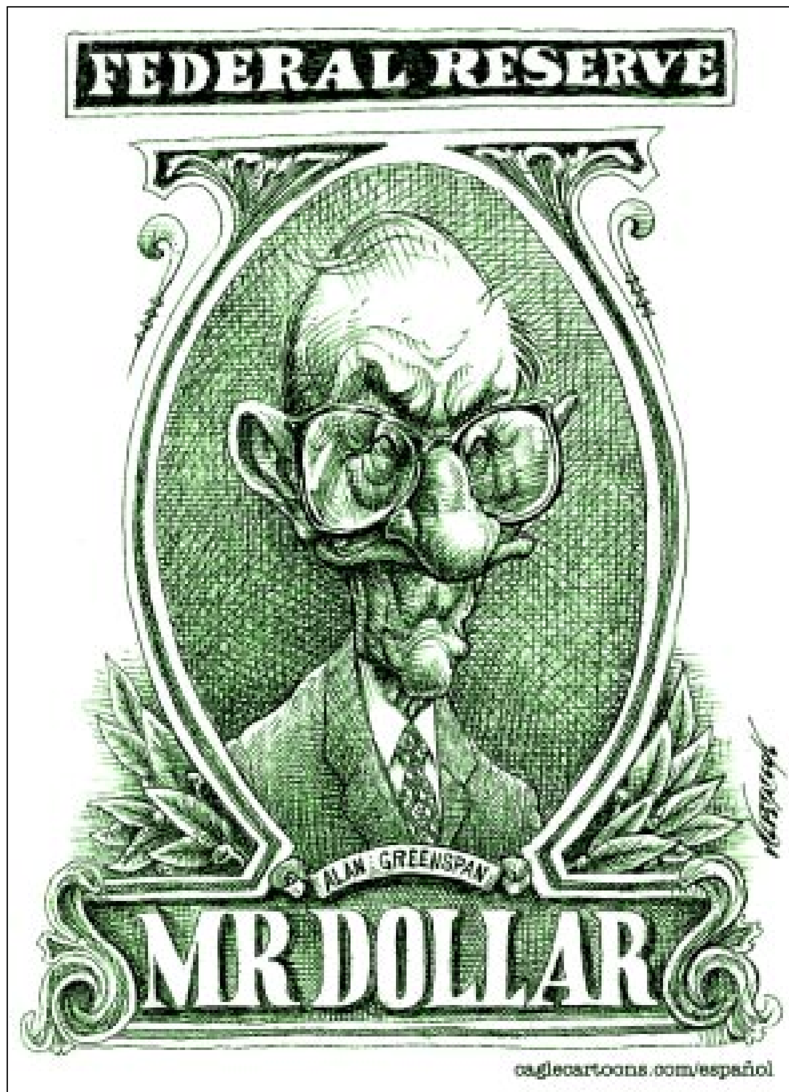
من الصحيح أن الآيبادiPad ومثله الآى فونiPhone والآى بود باللمس ipod Touch يعدون من تطبيقات مستعرض الويب التى تنقل المستخدم مباشرة إلى الانترنت وبهذا يمكن القول أن هذه الأجهزة قابلة للمقارنة مع أى كومبيوتر وتجعل الشكوى حول حراسة البوابة موضع نقاش. ولكن فى الواقع فإن تصفح الانترنت على الآيباد يعد أقل مثالية، فالإبقاء على أكثر من نافذة واحدة مفتوحة فى نفس الوقت يعد غير ممكن. كما أن رفض أبل لإدخال الفلاش Flash - وهو عبارة عن جزئية من برنامج تمتلكه وتحتكره شركة أدوب سيستمز Adobe Systems ويكمن هذا البرنامج وراء العديد من المواقع وهو يتيح الرسوم والفيديو- يعنى هذا الرفض أن تلك المواقع القائم تشغيلها على الفلاش لن يتم توظيفها بالكامل أو قد تكون غير متاحة على الاطلاق. ولكن لماذا نتكبد عناء الذهاب من خلال متصفح للدخول إلى اليو تيوبYou tube أو لقراءة عناوين الصحف أو لمعرفة الطقس ما دام هناك تطبيق لكل من هؤلاء؟ إن هذا حقاً هو الشىء الثورى والتغيير الحقيقى لقواعد اللعبة حول الآيباد. فإذا وجد تطبيق يجمع بين كل الأشياء فسوف يكون هذا التطبيق ملكاً لموقع أبل Apple وليس للعالم أجمع. ■

إن حـــرية الفكـــر النابعـــة مـن مصـــدر مفتـــوح ومبـادئ الابتكـار العـامة أصبحتـا لصيقتين بالأســاس القــائـمـــة عليــه حــــرية الإنتـــرنت

الاقتصاد الأخضر

بول كروجمان
PAUL KRUGMAN

إذا كنت تستمع إلى علماء المناخ - بالرغم من الحملات التى تشن بلا هوادة للنيل من أعمالهم- فقد آن الأوان لأن تفعل شيئا بشأن انبعاث ثانى أكسيد الكربون وغيره من الغازات المسببة للاحتباس الحرارى. فهؤلاء العلماء يقولون، أننا إذا واصلنا العمل كالمعتاد، سنواجه بارتفاع فى درجات الحرارة العالمية، يؤدى فى وقت قصير إلى نهاية العالم. ولتجنب هذا المصير، يجب أن «نفطم» اقتصادنا عن استخدام الوقود الأحفورى، وفى خطوة أولى، الفحم. ولكن هل من الممكن إجراء تخفيضات جذرية فى انبعاث الغازات المسببة للاحتباس الحرارى دون تدمير اقتصادنا؟ كما يبدو فى حالة النقاش حول تغير المناخ نفسه، يبدو النقاش حول اقتصاديات المناخ شديد الاختلاف من الداخل عما يحدث، فى كثير من الأحيان، فى وسائل الإعلام الشعبية. حيث يمكن للقارئ العابر، أن يكون انطباعا متشككا فى إمكانية الحد من الانبعاثات دون إلحاق أضرار جسيمة بالاقتصاد. فى الواقع، بمجرد «فلترة» الضوضاء الناتجة عن جماعات المصالح الخاصة، تكتشف أن هناك اتفاقا واسع النطاق بين خبراء الاقتصاد البيئى حول إمكانية تحقيق نتائج كبيرة عن طريق تطبيق برنامج، قائم على آليات السوق، ويتعامل مع خطر تغير المناخ - حيث يحد من انبعاثات الكربون عن طريق وضع ثمن لها - بتكلفة متواضعة وإن لم تكن تافهة. غير أن هناك قدرا أقل بكثير من الاتفاق حول السرعة التى ينبغى أن نتحرك بها، سواء ببدء جهود رئيسية فورية، أو بزيادتها تدريجيا على مدى عقود عديدة. فى ما يلى، سوف أقدم دراسة موجزة عن اقتصاديات تغير المناخ، أو على نحو أدق، اقتصاديات الحد من تغير المناخ. وسأحاول أن أحدد مجالات الاتفاق واسعة النطاق وكذلك تلك التى لا تزال موضع نزاع كبير. بالبدء بواحد من أمهات الكتب فى الاقتصاد الأساسى لحماية البيئة. الاقتصاد البيئى الجزئى إذا كانت هناك فكرة واحدة مركزية فى الاقتصاد، فهى فكرة: أن هناك مكاسب متبادلة تجنى عن طريق إبرام معاملات بين بالغين وبرضاهم. فإذا كان سعر سلعة ما هو ١٠فى، وقمت أنا بشراء هذه السلعة، فيجب أن يكون ذلك بسبب أن هذه السلعة تساوى أكثر من ١٠فى بالنسبة لى. وإذا قمت أنت ببيع هذه السلعة بهذا السعر، فيجب أن تكون تكلفة تصنيعها، بالنسبة لك، أقل من هذا السعر. وبذلك يكون الشراء والبيع فى سوق سلعة افتراضية لصالح كل من المشترين والبائعين. علاوة على ذلك، فإن بعض التحليل الدقيق يبين أنه إذا كانت هناك منافسة فعالة فى سوق هذه السلعة الافتراضية، بحيث يتوقف السعر عند تطابق عدد الأشخاص الذين يرغبون فى الشراء مع عدد الأشخاص الذين يريدون البيع، تصبح النتيجة هى تعظيم المكاسب الإجمالية للمنتجين والمستهلكين. ومعنى أن الأسواق الحرة «فعالة»، فى الاقتصاد، هو ذلك الوضع الذى لا يمكن تحقيق مزيد من المكاسب لأى طرف دون أن يتأثر طرف آخر سلبا. الآن، لم تعد الكفاءة هى كل شىء. خاصة، أنه لا يوجد سبب لافتراض أن الأسواق الحرة سوف تتمخض عن النتائج التى نعتبرها منصفة أو عادلة. فوضعية السوق الكفء لا تخبرنا شيئا، عما إذا كان يجب أن يكون لنا، مثلا، شكل من أشكال التأمين الصحى المضمون، أو عن ضرورة تقديم دعم للفقراء، وهكذا دواليك. لكن منطق الاقتصاد الأساسى يلزمنا بمحاولة تحقيق أهداف اجتماعية من خلال تدخلات «ما بعد البيع». وهذا يعنى، أنه ينبغى أن ندع الأسواق تقوم بعملها، عن طريق استخدام كفء لموارد البلاد، ثم نستفيد من الضرائب والمعونات فى مساعدة أولئك الذين تتجاهلهم الأسواق. ولكن ماذا لو تمت صفقة بين بالغين بالتراضى لتفرض تكاليف على أناس ليسوا جزءا من عملية التبادل؟ ماذا لو قمت أنت بتصنيع سلعة ما، وقمت أنا بشرائها، لمصلحتنا المتبادلة، وكانت عملية إنتاج هذه السلعة تتضمن إلقاء نفايات سامة فى مياه شرب الآخرين؟ عندما تكون هناك «عوامل خارجية سلبية» - تكاليف يفرضها أطراف الاقتصاد الفاعلون على الآخرين دون أن يدفعوا ثمنا لهذا الفعل- فإن الافتراض يقوم على ترك اقتصاد السوق لتدابيره الخاصة، سيؤدى بنا لإلقاء القرارات الصائبة من النافذة. ماذا نفعل إذا؟ يتلخص الاقتصاد البيئى فى الإجابة عن هذا السؤال. هناك طريقة للتعامل مع العوامل الخارجية السلبية بوضع قواعد تمنع أو على الأقل تحد من السلوك الذى يفرض بوجه خاص تكاليف باهظة على الآخرين. هذا ما قمنا به فى أول موجة كبيرة من التشريعات البيئية فى أوائل السبعينيات: كان على السيارات أن تلبى معايير الانبعاثات بالنسبة للمواد الكيميائية التى تسبب الضباب الدخانى، وطلب من المصانع الحد من حجم المخلفات التى تلقى فى المجارى المائية وهلم جرا. وكان نتاج اتباع هذا النهج؛ أن الهواء والماء فى أمريكا أصبحا أكثر نظافة فى العقود التالية. لكن فى حين أن التنظيم المباشر للأنشطة التى تسبب تلوثا يكون منطقيا فى بعض الحالات، يكون له عيوب خطيرة فى حالات أخرى، لأنه لا يتيح أى مجال للمرونة والإبداع. بالنظر فى أكبر قضية بيئية فى الثمانينيات، وهى قضية الأمطار الحمضية. اتضح أن انبعاثات ثانى أكسيد الكبريت الناتجة عن محطات توليد الطاقة، تميل، عند اختلاطها بالماء والمخلفات النباتية والحيوانية، عند تحركها مع اتجاه الريح، إلى تكوين حمض الكبريتيك المدمر. فى عام ١٩٧٧، فرضت الحكومة أول إجراء لمواجهة المشكلة، حيث أوصت جميع المحطات الجديدة التى تعمل بالفحم بتركيب أجهزة تنقية للغاز لإزالة ثانى أكسيد الكبريت من انبعاثاتها. كان فرض معيار صارم على جميع المحطات، مثار جدل، لأن التعديل التحديثى لبعض المحطات القديمة كان مكلفا للغاية. فى المقابل فوتت الحكومة بتنظيم المحطات

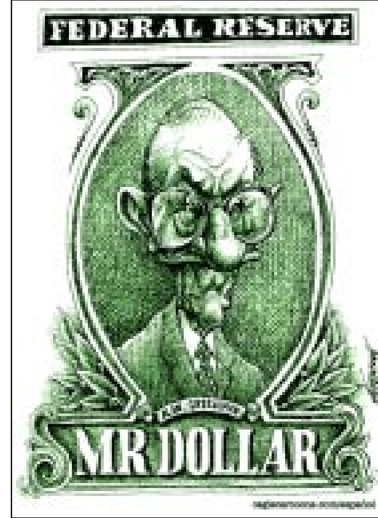




بول كروجمان كاتب عمود فى التايمز وحائز على جائزة نوبل عام ٢٠٠٨ فى العلوم الاقتصادية. آخر مؤلفاته كتاب بعنوان «عودة اقتصاد الكساد وأزمة عام ٢٠٠٨».

ترجمة: جيهان شعبان

الجديدة فقط، فرصة رخيصة للسيطرة على التلوث الناتج عن المصانع التى كان من السهل تحديثها فى الواقع. وأصبحت الصورة كالتالى، افتقار لسيطرة فدرالية فعلية على صناعة الطاقة، مع إصدار مسئولين فدراليين تعليمات محددة لكل مصنع. كيف كان يمكن حل هذا اللغز؟ دعونا نستعرض كتاب آرثر سيسيل بيجو، أحد رؤساء الجامعات البريطانية فى أوائل القرن العشرين، «اقتصاد الرفاهة»، الذى صدر عام ١٩٢٠، وينظر إليه عادة باعتباره النص الأصلى للاقتصاد البيئى. المثير للدهشة، نظرا لمكانته الحالية باعتباره عراب الاقتصاديات المتطورة لحماية البيئة، هو أن بيجو لم يؤكد فى الواقع على مشكلة التلوث. فبدلا من التركيز مثلا، على ضباب لندن الشهير (ضباب دخانى شديد الحدة، ناتج عن الملايين من حرائق الفحم)، افتتح مناقشاته بمثال، لا بد وأنه بدا طريفا حتى بمعايير عام ١٩٢٠، عبارة عن حالة افتراضية لـ «تضمن نشاط صاحب محمية للحيوانات البرية، لاجتياح الأراضى المجاورة بواسطة الأرانب». لا بأس! ما عبر عنه بيجو بهذا المثال هو مبدأ: أن الأنشطة الاقتصادية التى تفرض تكاليف على الآخرين دون حصولهم على مكسب، لا تكون دائما محظورة، ولكن ينبغى عدم التشجيع عليها. والطريقة الصحيحة، فى معظم الحالات، للحد من هذا النوع من النشاط، هو وضع ثمن له. لذلك اقترح بيجو أن يدفع أولئك الذين يتسببون فى وقوع عوامل خارجية سلبية، رسوما تعكس التكاليف التى يكبدونها للآخرين - وهو ما أصبح يعرف باسم ضريبة بيجوفيان Pigovian tax. أبسط نسخة من ضريبة بيجوفيان هو رسم النفايات السائلة: حيث يفرض على أى شخص يقوم بإلقاء الملوثات فى نهر، أو يسربها فى الهواء، دفع مبلغ يتناسب مع الكمية الملقاة. ظل تحليل بيجو فى معظمه خاملا لنصف قرن تقريبا، حيث قضى الاقتصاديون وقتهم فى التصارع مع قضايا بدت أكثر إلحاحا، مثل الكساد الكبير. لكن مع ظهور التنظيم البيئى، أزاح الاقتصاديون الغبار عن تحليل بيجو وبدءوا الضغط من أجل نهج يقوم على آليات السوق، يعطى القطاع الخاص حافزا، من خلال الأسعار، للحد من التلوث، فى مقابل حل «القيادة والتحكم» الذى يصدر تعليمات محددة فى صورة لوائح. كان رد الفعل الأولى لهذه الفكرة، من جانب العديد من الناشطين فى مجال البيئة، معاديا لحد كبير لأسباب أخلاقية. كانوا يشعرون أن التلوث، يجب أن يعامل كجريمة، وليس كشىء لك الحق فى القيام به ما دمت تدفع ما يكفى من المال. إذا نحينا المخاوف الأخلاقية جانبا، تظل هناك شكوك كبيرة حول مدى نجاح حوافز السوق فى الحد من التلوث. وحتى اليوم، فإن الضرائب المفروضة وفقا لتحليل بيجو، تعد نادرة نسبيا. كان أكثر مثال نجاحا، استطعت العثور عليه، هو الضريبة الهولندية على تصريف المياه التى تحتوى على مواد عضوية. ما انتشر بدلا من ذلك، كان شكلا مختلفا اعتبره معظم الاقتصاديين معادلا تقريبا لطرح بيجو: وهو نظام تصاريح الانبعاثات القابلة للتداول cap and trade. فى هذا النموذج، يصدر عدد محدود





مع التنظيم البيئى، أزاح الاقتصاديون الغبار عن تحليل بيجو وبدءوا الضغط من أجل نهج يقوم على آليات السوق، يعطى القطاع الخاص حافزا، من خلال الأسعار، للحد من التلوث، فى مقابل حل «القيادة والتحكم»



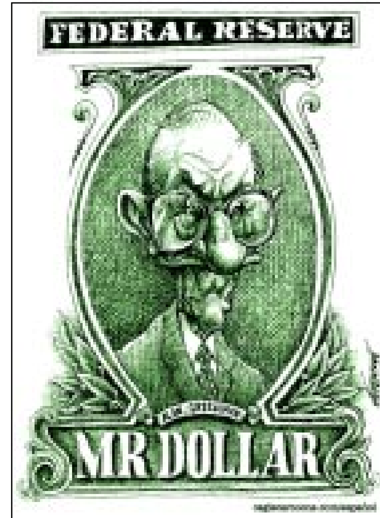
لا يعد التبرع بالتراخيص للصناعة أمرا سيئا تماما، لأنه يوفر وسيلة تعويض جزئى لبعض الجماعات التى ستتأثر مصالحها إذا تم اعتماد سياسة تتخذ فى الحسبان موضوع تغير المناخ بشكل جدى



من التراخيص لانبعاث ملوث محدد، مثل ثانى أكسيد الكبريت. ويمكن للمشروع التجارى الذى يريد خلق قدر من التلوث يفوق ما رخص له، شراء تراخيص إضافية من أطراف أخرى؛ شركة لديها عدد من التراخيص يزيد عن ما تنوى استخدامه، فتستطيع بيع هذا الفائض. هذا يعطى الجميع حافزا للحد من التلوث، ذلك لأن المشترين لن يكون عليهم الحصول على كم كبير من التراخيص إذا تمكنوا من خفض الانبعاثات، كما يمكن للبائعين بيع التراخيص بكميات كبيرة إذا فعلوا الشىء نفسه. فى الواقع، يولد هذا النظام، من الناحية الاقتصادية، نفس الحوافز للحد من التلوث التى تولدها ضريبة بيجوفيان، مع الاستخدام الفعال لسعر التراخيص كضريبة على التلوث. فى الواقع هناك بضعة اختلافات مهمة بين نظام تصاريح الانبعاثات وضريبة التلوث. أحدها هو أن النظامين ينتجان أنواعا مختلفة من عدم اليقين. فإذا قامت الحكومة بفرض ضريبة على التلوث، سيعرف الملوثون السعر الذى سيكون عليهم دفعه، ولكن الحكومة لن تعرف كم التلوث الذى سيتولد. وإذا فرضت الحكومة حدا أقصى للتصاريح، ستعرف مقدار التلوث، ولكن الملوثين لن يعرفوا سعر الانبعاثات. وثمة فرق آخر مهم له علاقة بإيرادات الحكومة. فضريبة التلوث هى من الضرائب التى تفرض تكاليف على القطاع الخاص بينما تولد عائدا للحكومة. إلا أن نظام تصاريح الانبعاثات يعد أكثر تعقيدا. فإذا كانت الحكومة تصدر ببساطة التراخيص وتجمع العائدات، لكان مثله مثل الضريبة. إلا أن نظام تصاريح الانبعاثات غالبا ما ينطوى على منح توزيع بعض التصاريح فى صورة منح، وفى هذه الحالة تذهب الإيرادات المحتملة للصناعة بدلا من الحكومة. من الناحية السياسية، لا يعد التبرع بالتراخيص للصناعة أمرا سيئا تماما، لأنه يوفر وسيلة تعويض جزئى لبعض الجماعات التى ستتأثر مصالحها إذا تم اعتماد سياسة تتخذ فى الحسبان موضوع تغير المناخ بشكل جدى. وهو ما يمكن أن يجعل من إصدار التشريعات أمرا مجديا. ربما تفسر هذه الاعتبارات السياسية لماذا تم حل مأزق المطر الحمضى عن طريق نظام تصاريح الانبعاثات، ولماذا تم توزيع التراخيص مجانا على شركات الطاقة. ومن الجدير بالذكر أنه تم تمرير مشروع قانون واكسمان- ماركى، وهو نظام لتصاريح الغازات المسببة للاحتباس الحرارى يبدأ بمنح الصناعة العديد من التراخيص ويطرح فى سنوات لاحقة أعدادا متزايدة عبر مزادات علنية، من قبل مجلس النواب فى العام الماضى، لأنه كان من الصعب تخيل قيام ضريبة تفرض ضد التلوث على نطاق واسع، بالشىء نفسه لسنوات عديدة. هذا لا يعنى أن ضرائب الانبعاثات، تعد حلا غير مقبولا بشكل مطلق. فقد طرح بعض أعضاء مجلس الشيوخ مؤخرا اقتراحا بنوع من أنواع الحل الهجين، نظاما لتصاريح الانبعاثات لأجزاء من الاقتصاد، وضرائب على الكربون بالنسبة لأجزاء أخرى - خاصة صناعة النفط والغاز. المنطق السياسى وراء هذا الاقتراح، أن فى صناعة النفط يعتقدون أن المستهلكين لن يلوموهم على ارتفاع أسعار الغاز إذا كانت هذه الأسعار تعكس ضرائب صريحة. على أية حال، تشير التجربة إلى نجاح ضوابط الانبعاثات المستندة إلى آليات السوق. التجربة الأخيرة مع الأمطار الحمضية تبين ذلك. فقد أدخل قانون الهواء النظيف لعام ١٩٩٠، نظاما لتراخيص الانبعاثات، يمكن بمقتضاه لمحطات توليد الطاقة شراء وبيع الحق فى انبعاث ثانى أكسيد الكبريت، وترك الأمر للشركات الخاصة لإدارة مشاريعها ضمن الحدود الجديدة. متأكدا بما فيه الكفاية، أن انبعاث ثانى أكسيد الكبريت من محطات توليد الطاقة سينخفض تقريبا للنصف، بتكلفة أقل بكثير مما توقع أشد الناس تفاؤلا؛ فقد انخفضت أسعار الكهرباء بدلا من أن ترتفع. لم تختف مشكلة الأمطار الحمضية، ولكنها خفت بشكل كبير. لقد أثبتت النتائج، على ما يبدو، أنه يمكننا التعامل مع المشاكل البيئية عندما نضطر لذلك. ها قد وصلنا، أليس كذلك؟ إن انبعاث ثانى أكسيد الكربون وغيره من الغازات المسببة للاحتباس الحرارى، لا تزيد عن كونها أحد العوامل الخارجية السلبية الكلاسيكية - «أكبر فشل للسوق واجهه العالم على الإطلاق»، على حد قول نيكولاس شتيرن، مؤلف تقرير حول الموضوع للحكومة البريطانية. تقول لنا التجربة الحقيقية وكتب الاقتصاد الدراسية، أنه لابد أن يكون لدينا سياسات للحد من الأنشطة التى تولد العوامل الخارجية السلبية، ومن الأفضل بشكل عام الاعتماد على نهج قائم على آليات السوق. مناخ من الشك؟ هذا مقال عن اقتصاديات المناخ، وليس عن علم المناخ. لكن قبل أن نصل إلى الاقتصاد، الأمر يستحق أن نؤسس لثلاثة أمور عن حالة النقاش العلمى. الأول هو أن الكوكب بالفعل يتعرض لظاهرة الاحتباس الحرارى، ولتقلبات الطقس. ونتيجة لذلك يسهل الإشارة إلى سنة ما باعتبارها حارة على غير العادة بالمقارنة بالماضى القريب، علما أن الجو قد يكون أكثر برودة الآن، مصورا أن: «كوكب الأرض يزداد برودة، وليس العكس!»، ولكن إذا نظرتم إلى الأدلة بطريقة صحيحة - بأخذ متوسط الحرارة على مدى فترات طويلة بما يكفى للتخفيف من أثر التقلبات الجوية - سوف تجدون اتجاها تصاعديا للحرارة لا لبس فيه: فكل عشر سنوات متتالية منذ السبعينيات كانت أكثر دفئا عن سابقتها. ثانيا، لقد توقعت النماذج المناخية ما حدث فى وقت مبكر جدا، حتى أنها توقعت مدى ارتفاع درجة الحرارة بدرجة صحيحة تقريبا. ففى حين يكون من السهل نسبيا «سلق» تحليل يتوافق مع بيانات معروفة، يكون من الصعب جدا خلق نموذج يتوقع المستقبل بدقة. وهو ما يعطى النماذج المناخية، التى تنبأت بالاحتباس الحرارى بنجاح منذ ٢٠ سنة، مصداقية هائلة. لكن هذا ليس ما قد تستنتجه عبر تقارير وسائل الإعلام العديدة التى تركز على مسائل مثل اختراق البريد الإلكترونى أو علماء المناخ الذين يتحدثون عن «خدعة» ما «لإخفاء» انخفاض شاذ فى أحد سلاسل البيانات أو يعبرون عن رغبتهم فى رؤية أوراق كتبت من قبل المشككين ولم يتم استخدامها فى الأبحاث المتداولة. غير أن الحقيقة هى أن هذه الفضائح



الافتراضية تبخرت عند فحصها عن كثب، لتكشف أن باحثى المناخ هم مجرد بشر. نعم، يحاول العلماء إبراز النتائج التى توصلوا إليها، إلا أنه لم يتم حجب أى بيانات. نعم، يكره العلماء نشر تفاصيل عن العمل الذى تعمدوا التعتيم عليه. ما هو الجديد غير ذلك؟ لا شىء يوحى بأن هناك ما يمنع فى الاستمرار فى الدعم القوى لأبحاث المناخ. وهذا يقودنى إلى النقطة الثالثة: تشير النماذج المبنية على أساس هذا البحث إلى أنه لو واصلنا إضافة الغازات المسببة للاحتباس الحرارى للغلاف الجوى كما نفعل، سوف نواجه فى نهاية المطاف بتغيرات جذرية فى المناخ. لنكن واضحين. نحن لا نتحدث عن بضعة أيام أخرى ساخنة فى الصيف أو ثلوج أقل فى فصل الشتاء، نحن نتحدث عن أحداث تدميرية على نطاق واسع، على غرار تحول جنوب غرب الولايات المتحدة إلى وعاء من الغبار الدائم على مدى العقود القليلة القادمة. الآن، وبالرغم من المصداقية العالية للنماذج المناخية، لا تزال هناك شكوك كبيرة حول التوقعات على المدى الطويل. لكن كما سنرى قريبا، عدم اليقين يجعل أهمية العمل أقوى، وليس أضعف. إذ يتطلب تغيير المناخ تحركا. فهل يكون نظاما لتصاريح الانبعاثات على غرار النموذج الذى استخدم للحد من ثانى أكسيد الكبريت هو الطريق الصحيح للتحرك؟ تأتى المعارضة الجدية لنظام تصاريح الانبعاثات عموما فى شكلين: حجة أن اتخاذ إجراءات أكثر مباشرة - على وجه الخصوص، فرض حظر على محطات الطاقة التى تعمل بالفحم - سيكون أكثر فعالية، وحجة أن فرض ضريبة على الانبعاثات سيكون أفضل من الاتجار فى تصاريحها. (لنترك جانبا أولئك الذين يرفضون علم المناخ كليا، وأولئك الذين يعارضون فرض أى قيود على انبعاث الغازات المسببة للاحتباس الحرارى، فضلا عن أولئك الذين يعارضون استخدام أى نوع من أنواع العلاج القائم على آليات السوق). هناك وجاهة فى الحجتين، ولكن ليس بالقدر الذى اعتقده أصحابهما. فعندما يتعلق الأمر بالعمل المباشر، يمكنك أن تجعل من قضية حب خبراء الاقتصاد للأسواق ليس فقط عملا حكيما ولكن أيضا جيدا، لأنهم يكونون على استعداد تام لافتراض أن تغيير حوافز الناس المالية قادر على إصلاح كل المشاكل. خاصة أنه لا يمكن وضع سعر على شىء ما لم تتمكن من قياسه بدقة، وهو ما يمكن أن يكون صعبا ومكلفا. ولذلك يفضل ببساطة فى بعض الأحيان وضع بعض القواعد الأساسية حول ما يمكن للناس أن يفعلوه وما لا يمكنهم فعله. بالنظر إلى انبعاثات السيارات، على سبيل المثال. هل يمكننا وهل ينبغى علينا تحميل كل مالك سيارة برسم يتناسب مع الانبعاثات التى تصدر من ماسورة العادم الخاصة بسيارته؟ بالتأكيد لا. لأنه سيكون عليك تركيب معدات مراقبة مكلفة على كل سيارة، كما سيكون عليك القلق من احتمال الاحتيال. سيكون من الأفضل بالتأكيد أن تقوم بما نقوم به فى الواقع، وهو فرض معايير للانبعاثات على جميع السيارات. هل هناك حجة مماثلة يمكن نسجها بشأن الغازات المسببة للاحتباس الحرارى؟ كان رد





إن السبيل الوحيد لحمل الناس على تغيير سلوكهم بشكل مناسب هو وضع سعر على الانبعاثات حتى يتم دمج هذه التكلفة فى كل شىء آخر بالطريقة التى تعكس الآثار البيئية القصوى



ما من شك فى أن فرض ضريبة مباشرة سيكون له العديد من المزايا مقارنة بتشريعات مثل قانون واكسمان- ماركى، الملىء بالاستثناءات والحالات الخاصة

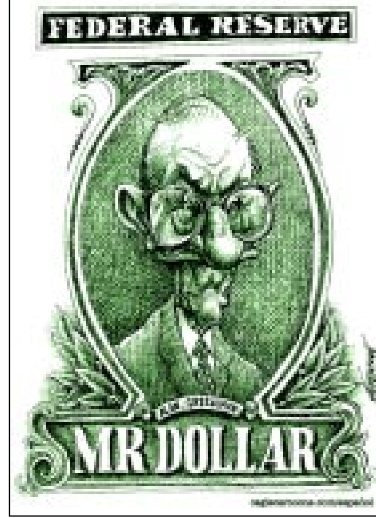


فعلى الأولى، والذى أظن أن معظم الاقتصاديين سيشاركوننى فيه، هو أن وسع النطاق وتعقد الوضع يتطلبان حلا مبنيا على أساس آليات السوق، سواء كان ذلك عن طريق نظام لتصاريح الانبعاثات أو بفرض ضريبة عليها. فالغازات المسببة للاحتباس الحرارى، فى النهاية، هى نتاج مباشر أو غير مباشر لكل ما ينتج فى الاقتصاد الحديث، من أول المنازل التى نعيش فيها حتى السيارات التى نقودها. وسوف يتطلب الحد من انبعاث هذه الغازات حمل الناس على تغيير سلوكهم بطرق عديدة ومختلفة، من المستحيل تحديد بعضها حتى يكون لدينا فهم أفضل بكثير للتكنولوجيا الخضراء. فهل يمكننا حقا إحراز تقدم ملموس بأن نقول للناس على وجه التحديد ما سوف يكون مسموحا به وما لن يسمح به؟ الاقتصاد الجزئى يخبرنا - بشكل صحيح على الأرجح - أن السبيل الوحيد لحمل الناس على تغيير سلوكهم بشكل مناسب هو وضع سعر على الانبعاثات حتى يتم دمج هذه التكلفة فى كل شىء آخر بالطريقة التى تعكس الآثار البيئية القصوى. عندما يذهب المتسوقون إلى محل بقالة، على سبيل المثال، سوف يجدون أن الفواكه والخضروات المستوردة أغلى من المنتجات المحلية، مما يعكس جزئيا تكلفة تراخيص الانبعاثات أو الضرائب التى تدفع لنقل هذه المنتجات عبر البحر. وعندما تقرر الشركات مقدار ما ستنفقه على العزل، ستأخذ فى الاعتبار تكاليف التدفئة وتكييف الهواء التى تشمل سعر تراخيص الانبعاثات أو الضرائب المفروضة على توليد الكهرباء. وعندما تختار مرافق كهربائية من بين مصادر الطاقة، فإنها يجب أن تأخذ فى الاعتبار السعر الأعلى لرسوم التراخيص أو الضرائب المرتبطة باستهلاك الوقود الأحفورى. وهكذا بطول الطريق. ومن شأن نظام قائم على آليات السوق أن يخلق حوافز لامركزية لاختيار الخيار الصحيح، وهو السبيل الوحيد للقيام بالأمر. ومع ذلك، قد تكون بعض القواعد لازمة. جادل جيمس هانسن، عالم المناخ الشهير الذى يستحق الكثير من الفضل فى جعل مسألة الاحتباس الحرارى مطروحة من الأساس، بقوة أن معظم مشكلة تغير المناخ تعود لشىء واحد فقط، هو حرق الفحم، وأنه بغض النظر عما نفعل غير ذلك، يجب علينا التوقف عن حرق الفحم خلال العقود القليلة القادمة. رد فعلى كاقتصادى هو أن فرض رسوم صارمة من شأنه أن يثنى بشدة عن استخدام الفحم فى كل الأحوال. ولكن استخدام نظام قائم على آليات السوق قد يحوى بعض الثغرات - وخيمة العواقب. لذلك أود أن أدعو لإضافة، عناصر تحكم مباشر على حرق الفحم، إلى المثبطات القائمة على آليات السوق. وماذا عن فرض ضريبة على انبعاثات بدلا من نظام التصاريح؟ ما من شك فى أن فرض ضريبة مباشرة سيكون له العديد من المزايا مقارنة بتشريعات مثل قانون واكسمان- ماركى، الملىء بالاستثناءات والحالات الخاصة. ولكن هذه المقارنة ليست مفيدة حقا: بالطبع يبدو فرض ضريبة مثالية أفضل من نظام التصاريح الذى أقر بمجلس النواب مع كل ما صاحبه من تنازلات. والسؤال هو

هل ستكون الضريبة التى يمكن أن تفرض أفضل فعلا من نظام التصاريح؟ لا يوجد أى سبب يدعو إلى للاعتقاد أنها ستكون كذلك - فى الواقع، لا يوجد أى سبب للاعتقاد بأنه يمكن فرض ضريبة واسعة النطاق من خلال الكونجرس. لكى نكون منصفين، فقد جادل هانسن بحجة معنوية مثيرة للاهتمام ضد نظام التصاريح، حجة أكثر تعقيدا بكثير من النظرة القديمة القائلة بأنه من الخطأ أن تسمح للملوثين بشراء الحق فى التلويث. هانسن لفت الانتباه إلى حقيقة أنه فى عالم نظام التصاريح، لا تسهم الفضيلة الفردية فى تحقيق الأهداف الاجتماعية. فإذا اخترت أن تقود سيارة مهجنة hybrid أو أن تشترى منزلا يتمتع بأثر كربونى محدود، فإن كل ما تقوم به هو تحرير التصاريح لشخص آخر، مما يعنى أنك لم تفعل شيئا للحد من خطر تغير المناخ. وجهة نظر وجيهة. لكن الإيثار لا يتعامل بفعالية مع تغير المناخ. يجب أن يكون أى حل جدى يعتمد أساسا على إيجاد نظام يعطى الجميع مصلحة ذاتية لإنتاج قدر أقل من الانبعاثات. إنه لأمر مخز، ولكن يجب أن يتراجع الإيثار أمام مهمة تطبيق مثل هذا النظام. خلاصة القول، إذن، هى أنه فى حين أن تغير المناخ قد يكون مشكلة تفوق بكثير الأمطار الحمضية، إلا أن منطق الاستجابة هو إلى حد كبير واحد. ما نحتاج إليه هو حوافز السوق للحد من انبعاثات الغازات المسببة للاحتباس الحرارى - مع بعض الضوابط المباشرة على استخدام الفحم - ونظام التصاريح يعتبر وسيلة معقولة لخلق تلك الحوافز. ولكن هل يمكننا أن نفعل ذلك؟ وبنفس القدر من الأهمية، هل يمكننا تحمل عدم الفعل؟ تكاليف التحرك كما أن هناك توافق تقريبى بين النماذج المناخية حول المسار المحتمل لدرجات الحرارة إذا لم نتحرك لخفض انبعاثات الغازات المسببة للاحتباس الحرارى، هناك توافق تقريبى بين النماذج الاقتصادية حول تكاليف الحد من هذا الخطر. يمكن تلخيص هذا الرأى العام على النحو التالى: سيؤدى تقييد الانبعاثات إلى تباطؤ النمو الاقتصادى - ولكن ليس بدرجة كبيرة. خلص مكتب الميزانية بالكونجرس، اعتمادا على بحث النماذج، إلى أن اقتراح واكسمان- ماركى «من شأنه أن يقلل متوسط المعدل السنوى المتوقع لنمو إجمالى الناتج المحلى بين عامى ٢٠١٠ و٢٠٥٠ من ٠.٠٣ إلى ٠.٠٩ نقطة مئوية». ذلك لأنه، سيؤدى فى أسوأ الأحوال، لانخفاض متوسط النمو السنوى إلى ٢.٣١٪، من أصل ٢.٤٪. على كل، خلص مكتب الميزانية، إلى أن تغيرا شديدا فى سياسات المناخ سيؤدى لانخفاض الاقتصاد الأميركى ما بين ١,١٪ و ٣.٤٪ بحلول عام ٢٠٥٠ عما كان يمكن أن يكون عليه دون هذه السياسات. وماذا عن اقتصاد العالمى؟ بصفة عامة، تميل النماذج إلى إيجاد أن سياسات تغير المناخ ستؤدى إلى انخفاض الإنتاج العالمى بنسبة أقل بعض الشىء مقارنة بالنسبة للولايات المتحدة. والسبب الرئيسى هو أن الاقتصادات الناشئة مثل الصين تستخدم الطاقة حاليا على نحو غير فعال إلى حد ما، وذلك جزئيا نتيجة للسياسات الوطنية التى حافظت على أسعار منخفضة

جدا للوقود الأحفورى، ويمكنها بالتالى تحقيق وفورات كبيرة للطاقة بتكلفة متواضعة. وقد أشارت إحدى المقالات الأخيرة إلى أن التقديرات المتاحة تحدد تكاليف سياسة مناخ قوية جدا - إلى حد كبير أكثر قسوة من المقترحات التشريعية الحالية - بما بين ١ و٣٪ من الناتج العالمى الإجمالى. تأتى هذه الأرقام عادة من نموذج يجمع بين جميع أنواع تقديرات السوق والتقديرات الهندسية. وهو ما سيشمل على سبيل المثال، على أفضل حسابات المهندسين لتكاليف توليد الكهرباء بالطرق المختلفة، من الفحم والغاز والطاقة النووية والطاقة الشمسية، باستخدام نفس الموارد. وسوف يتم تقدير، استنادا إلى التجربة التاريخية، كم المستهلكين الذين سيخفضون من استهلاك الكهرباء إذا ارتفع سعرها. ويتم اتباع نفس العملية لأنواع الطاقة الأخرى، مثل وقود السيارات. ويفترض النموذج أن كل شخص يختار الخيار الأفضل فى ضوء البيئة الاقتصادية - تختار مولدات الكهرباء الوسائل الأقل كلفة لإنتاج الكهرباء، فى حين يوفر المستهلكون الطاقة طالما كان المال الذى سيوفرونه نتيجة لشراء كهرباء أقل، يفوق ما يتكبدونه من مصاريف أخرى أو من عدم شعور بالراحة، نتيجة لاستخدامهم لطاقة أقل. بعد كل هذا التحليل، فإنه من الممكن التنبؤ بالكيفية التى سيكون عليها رد فعل المنتجين والمستهلكين للطاقة فى مقابل السياسات التى تفرض ثمنا على الانبعاثات ومدى تأثر الاقتصاد ككل نتيجة لردود الفعل تلك. هناك، بطبيعة الحال، إمكانيات عديدة لخطأ مثل هذا النوع من النماذج. إذ تستند على كثير من التقديرات المتضاربة إلى حد ما، فلا أحد يعرف حقا، على سبيل المثال، ما ستكون عليه تكلفة الطاقة الشمسية عندما ستكون مطروحة للاستخدام على نطاق واسع. وهناك أيضا ما يدعو للشك فى افتراض أن الناس سيقومون بالخيارات الصحيحة: وجدت العديد من الدراسات أن المستهلكين لا يتخذون تدابير للحفاظ على الطاقة، مثل تحسين العزل، حتى ولو كان هذا يؤدى لتوفير المال. ولكن رغم احتمال عدم صحة هذه النماذج فى كل شىء، فمن الجيد الرهان عليها بدلا من المبالغة فى التقليل من التكاليف الاقتصادية للتحرك من أجل الحد من تغير المناخ. ما استفدناه من تجربة تصاريح الانبعاثات فى حالة الأمطار الحمضية: أن التكاليف جاءت أقل بكثير من التوقعات الأولية. وبشكل عام، ما يمكن للنماذج أن تأخذه أو لا تأخذه فى الاعتبار هو الإبداع، فبالتعامل بجدية مع اقتصاد يتضمن مكافآت نقدية كبيرة للحد من انبعاث الغازات المسببة للاحتباس الحرارى، سيتوصل القطاع الخاص إلى سبل للحد من الانبعاثات لم توجد فى أى نموذج. مع ذلك، فكل ما تسمعه من المعارضين المحافظين لسياسة تغير المناخ، هو أن أى محاولة للحد من الانبعاثات ستكون مدمرة اقتصاديا. فقد استجابت مؤسسة التراث، لتقديرات مكتب الميزانية بشأن واكسمان- ماركى بانتقادات مركزة عرفت بـ « O.B.C. Grossly Underestimates Costs of Cap and Trade». قالت فيها، أن الآثار الحقيقية، ستكون مدمرة بالنسبة للأسر

الاقتصـــاد الأخضـــر





وجدت العديد من الدراسات أن المستهلكين لا يتخذون تدابير للحفاظ على الطاقة، مثل تحسين العزل، ولو كان يؤدى لتوفير المال. ولكن رغم احتمال عدم صحة ذلك فى كل شىء، فمن الجيد الرهان عليها



إن الدول المتقدمة تعد مسئولة فقط عن نحو نصف الانبعاثات المسببة للاحتباس الحرارى، وهذه النسبة ستتناقص على مر الزمن. ولا يمكن إيجاد حل لتغير المناخ ما لم يشارك فيه بقية العالم بشكل كبير

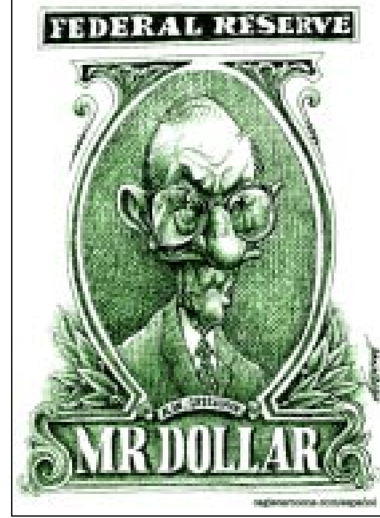


وتوفير فرص العمل. يتعارض رد الفعل هذا - وهذا التشاؤم المفرط حول قدرة الاقتصاد على التعايش مع تصاريح الانبعاثات - إلى حد كبير مع الخطاب المحافظ النموذجى. ففى النهاية، يعبر المحافظون الجدد عن ثقة عميقة تكاد تكون صوفية فى فعالية حوافز السوق - رونالد ريجان كان يحب الحديث عن «سحر السوق». هم يؤمنون بأن النظام الرأسمالى يمكنه التعامل مع كل أنواع القيود، وأن التكنولوجيا، على سبيل المثال، يمكنها التغلب بسهولة على أى قيود يفرضها الترشيد فى استخدام النفط أو الموارد الطبيعية الأخرى على النمو. إلا أنهم يستسلمون لفكرة أن هذا القطاع الخاص نفسه، سيكون غير قادر على التأقلم عموما مع وضع حد للانبعاثات، حتى ولو كان هذا الحد سيقوم، من وجهة نظر القطاع الخاص، إلى حد كبير، بتغذية محدودة لموارد، مثل الأرض. لماذا لا يؤمنون بأن ديناميكية الرأسمالية ستحفز على إيجاد سبل للنجاح فى عالم يخفض من الانبعاثات الكربونية؟ لماذا يعتقدون أن السوق سيفقد سحره بمجرد استدعاء حوافز السوق لصالح الحفاظ على البيئة؟ ومن الواضح أن المحافظين يتخلون عن كل الثقة فى قدرة الأسواق على التكيف مع سياسة تغير المناخ لأنهم لا يريدون التدخل الحكومى. سياسة التشاؤم التى يعلنونها عن تكلفة سياسة الحد من تغير المناخ هى فى الأساس حيلة سياسية بدلا من أن تكون رأيا معللا اقتصاديا. وتعد الهبات هى الحجة الأقوى التى يستخدمها المحافظون، عن سوء نية. فقد اتهمت انتقادات مؤسسة التراث مكتب الميزانية بالكونجرس بالوقوع فى أخطاء منطقية أولية، لكن إذا قرأت فعلا تقرير المكتب، سيتضح أن المؤسسة قرأته، عن عمد، قراءة خاطئة. كان الساسة المحافظون أكثر وقاحة. فقد أصدرت اللجنة الوطنية الجمهورية فى الكونجرس، على سبيل المثال، عدة نشرات صحفية تنقل بالتحديد عن دراسة أعدها معهد ماساتشوستس للتكنولوجيا كأساس للادعاء بأن نظام التصاريح من شأنه أن يكلف الأسرة الواحدة ٣.١٠٠٪، على الرغم من المحاولات المتكررة لواضعى الدراسة للتأكيد على أن الرقم الفعلى لم يكن سوى نحو ربع هذا المبلغ. والحقيقة هى أنه لا يوجد أى بحث ذى مصداقية يشير إلى أن اتخاذ إجراءات قوية بشأن تغير المناخ يعد بعيدا عن قدرة الاقتصاد. وحتى لو كنت لا تثق تماما بالنماذج - ولا ينبغى عليك ذلك - فإن التاريخ والمنطق يشيران على حد سواء إلى أن النماذج تبالغ، ولا تقلل، من تكاليف الحد من تغير المناخ. يمكننا إذا تحمل فعل شىء حيال تغير المناخ. لكن هذا ليس كقول أن علينا فعل ذلك. فالعمل سيكون له تكاليف، وهو ما يجب مقارنته بتكاليف عدم التحرك. قبل التطرق لهذا الموضوع، اسمحوا لى أن أتطرق إلى المسألة التى ستصبح مركزية إذا تحركنا فعلا فى طريق سياسات المناخ: وهى كيفية إقناع بقية العالم بالتحرك معنا. متلازمة الصين تظل الولايات المتحدة هى أكبر اقتصاد فى العالم، مما يجعل البلد واحدا من أكبر مصادر الغازات المسببة للاحتباس الحرارى فى العالم. ولكنها ليست الأكبر. فالصين، التى تحرق فحما لكل دولار من الناتج المحلى الإجمالى بما يفوق ما تحرق الولايات المتحدة بكثير، تفوقت علينا فى هذا الموضوع قبل نحو ثلاث سنوات. على كل، فإن الدول المتقدمة - نادى الأغنياء يضم أوروبا وأمريكا الشمالية واليابان - تعد مسئولة فقط عن نحو نصف الانبعاثات المسببة للاحتباس الحرارى، وهذه النسبة ستتناقص على مر الزمن. باختصار، لا يمكن إيجاد حل لتغير المناخ ما لم يشارك فيه بقية العالم بشكل كبير، ولاسيما الاقتصادات الناشئة. حتما سيشير أولئك الذين يقاومون معالجة المناخ إلى الطابع العالمى للانبعاثات كسبب لعدم التحرك. فحد الانبعاثات فى أمريكا لن ينجز الكثير، ويجادلون، بعدم قيام الصين ودول أخرى بالتنسيق مع جهودنا. ويسلطون الضوء على تعنت الصين فى مفاوضات كوبنهاجن كدليل على أن الدول الأخرى لن تتعاون. والواقع أن الاقتصادات الناشئة تشعر بأن لها الحق فى أن تنتج انبعاثات دون الحاجة إلى القلق بشأن الآثار - وهو ما واصلت البلدان الغنية القيام به لقرنين من الزمان. وبذلك لا يمكن الحصول على تعاون عالمى بشأن تغير المناخ، تستمر الحجة، وهو ما يعنى عدم وجود جدوى من اتخاذ أى إجراء على الإطلاق. بالنسبة لأولئك الذين يعتقدون أن من الضرورى اتخاذ إجراءات، فالسؤال الصحيح هو كيفية إقناع الصين وغيرها من الدول الناشئة على المشاركة فى الحد من الانبعاثات. الجزرة، أو حوافز إيجابية، هى واحدة من الإجابات. تخيل تطبيق نظام للتصاريح فى الصين والولايات المتحدة - ولكن بالسماح بالتجارة الدولية فى التصاريح، حتى يمكن للشركات الصينية والأمريكية التجارة فى حقوق الانبعاثات. وعن طريق وضع نظام شامل للتصاريح عند مستويات مصممة لضمان قيام الصين ببيع عدد كبير من التصاريح للولايات المتحدة، نكون فى واقع الأمر قد دفعنا الصين لخفض انبعاثاتها. وبما أن الأدلة تشير إلى أن تكلفة خفض الانبعاثات ستكون أقل فى الصين مما هى عليه فى الولايات المتحدة، ستكون هذه صفقة جيدة بالنسبة للجميع. ولكن ماذا لو أن الصينيين (أو الهنود أو البرازيليين، أوغيرهم) لا يريدون المشاركة فى مثل هذا النظام؟ إذا سنكون بحاجة إلى العصا جنبا إلى جنب الجزرة. على وجه الخصوص، سنحتاج لفرض رسوم على استخدام الكربون. وسيتم فرض هذه الرسوم فى صورة ضريبة على السلع المستوردة بما يتناسب مع الكربون المنبعث فى صناعة تلك السلع. لنفترض أن الصين ترفض أن تخفض من الانبعاثات، فى حين تعتمد الولايات المتحدة سياسات تفرض ١٠٠٪ على كل طن من انبعاثات الكربون. فإذا قامت الولايات المتحدة بفرض رسوم على السلع الكربونية المستوردة، سيتم إضافة ١٠٠٪ على أى شحنة من البضائع الصينية عند وصولها إلى الولايات المتحدة، بخلاف أى مصاريف أخرى، لو كان إنتاجها يتضمن طنا من انبعاثات الكربون. وباعتماد هذه التعريفات من قبل الجهات الفاعلة الرئيسية - ربما الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى - نعطى البلدان غير المتعاونة حافزا قويا لإعادة



النظر فى مواقفها. ماذا يمكن الرد على من يعترض على مثل هذه السياسة من باب أن الحمائية، تشكل انتهاكا لمبادئ التجارة الحرة؟ الحفاظ على الأسواق العالمية مفتوحة صحيح أمر مهم، ولكن تجنب وقوع كارثة للكواكب أكثر أهمية بمراحل. مع ذلك، يمكنك القول، فى كل الأحوال، أن التعريفات التى تفرض على الكربون تدخل فى الإطار الجيد لقواعد العلاقات التجارية الطبيعية. فطالما كانت الرسوم المفروضة على الواردات المحتوية على الكربون تعادل تكلفة تراخيص الكربون المحلى، يصبح الأثر هو تحميل المستهلكين فى بلدك بسعر يعكس الكربون المنبعث فيما يشترونه، بغض النظر عن مكان صنعه. وهو ما يجب أن يكون قانونيا بموجب قواعد التجارة الدولية. فى الواقع، حتى منظمة التجارة العالمية التى تقوم بضبط السياسات التجارية، نشرت دراسة تشير إلى إمكانية الحشد على تمرير فرض رسوم على استخدام الكربون. غنى عن القول، أن العمل الفعلى من أجل الحصول على تعاون دولى بشأن تغير المناخ سيكون أكثر تعقيدا ويخضع للنوايا المبيتة أكثر بكثير مما تقترح هذه المناقشة. ومع ذلك، فإن المشكلة ليست مستعصية على الحل كما تسمع فى كثير من الأحيان. وإذا قررت الولايات المتحدة وأوروبا المضى قدما فى سبيل سياسة للمناخ، يكاد يكون من المؤكد أنهما سيكونان قادرين على إقناع ومناورة بقية العالم بالتدريج للانضمام إلى هذا الجهد. وهو ما بوسعنا فعله. تكاليف التقاعس فى النقاشات العامة، اكتسب المشككون فى تغير المناخ، بشكل واضح، أرضية على مدى العامين الماضيين، على الرغم من أن الرأى المقابل بدا وجيها فى الآونة الأخيرة، فعام ٢٠١٠ يكاد أن يكون أدفأ عام على الإطلاق. ولكن النماذج المناخية نمت فى حد ذاتها لتكون متشائمة بشكل متزايد. ما كان فى السابق أسوأ السيناريوهات تحول ليكون خط البداية للتوقعات، مع مضاعفة عدد من المنظمات لتوقعاتهم بشأن ارتفاع درجة الحرارة على مدار القرن الـ ٢١. يكمن وراء هذا التشاؤم الجديد تزايد القلق بشأن آثار ردود الفعل - على سبيل المثال، انبعاث غاز الميثان، وهو غاز مسبب للاحتباس الحرارى، من قيعان البحار والسهول الجرداء مع ارتفاع درجة حرارة كوكب الأرض. عند هذه النقطة، فإن التوقعات لتغير المناخ، مع افتراض مواصلة العمل كالمعتاد، تتمحور حول توقع زيادة درجات الحرارة بنحو ٩ درجات مئوية فى عام ٢١٠٠ عما كانت عليه فى عام ٢٠٠٠. وهو رقم كبير جدا - أى ما يعادل الفرق فى متوسط درجات الحرارة بين نيويورك ووسط ولاية مسيسبى. ومثل هذا التغير الضخم سيكون مدمرا للغاية. والمشاكل لن تتوقف: فدرجات الحرارة ستستمر فى الارتفاع. علاوة على ذلك، لن تقتصر القصة، بأى حال من الأحوال، على تغير متوسط درجة الحرارة. فأنماط هطول الأمطار ستتغير هى الأخرى، لتصبح بعض المناطق أكثر رطوبة والبعض الآخر أكثر جفافا. كما تتوقع العديد من النماذج حدوث عواصف أكثر كثافة. لترتفع مستويات البحار، مع تكثيف تأثير تلك العواصف: الفيضانات الساحلية، تعتبر

الاقتصاد الأخضر





مثل هذا التغير الضخم سيكون مدمرا للغاية. فدرجات الحرارة ستستمر فى الارتفاع. ولن تقتصر القصة، بأى حال من الأحوال، على تغير متوسط درجة الحرارة. فأنماط هطول الأمطار ستتغير هى الأخرى



لو كان المجتمع الأمريكى يعيش فى عصر ما قبل الصناعة، ويعتمد على الزراعة، لكانت التغيرات المناخية القصوى كارثية. ولكن لدينا اقتصاد متقدم، أثبت قدرة كبيرة على التكيف مع الظروف المتغيرة



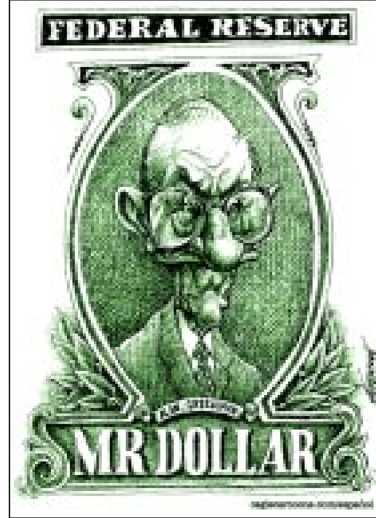
بالفعل مصدرا رئيسيا للكوارث الطبيعية، وسوف تصبح أكثر تواترا وشدة. وربما يؤدى تحول مسارات التيارات البحرية إلى تغييرات جذرية فى مناخ بعض المناطق. وسيكون من المفيد أن نضع فى اعتبارنا أن لندن تقع على نفس خط عرض لابرادور، وبدون تيار الخليج، ستصبح أوروبا الغربية بالكاد صالحة للسكن. بالرغم من إمكانية وجود بعض الفوائد من ارتفاع درجة حرارة المناخ، يبدو من المؤكد تقريبا أن اضطرابات على هذا النطاق من شأنها جعل الولايات المتحدة، والعالم ككل، أكثر فقرا عما كان يمكن أن تكون عليه دون ذلك. إلى أى مدى أفقر؟ لو كان المجتمع الأمريكى يعيش فى عصر ما قبل الصناعة، ومقام بشكل أساسى على الزراعة، لكانت التغيرات المناخية القصوى كارثية بشكل واضح. ولكن لدينا اقتصاد متقدم، من النوع الذى أثبت تاريخيا قدرة كبيرة على التكيف مع الظروف المتغيرة. إذا بدا ذلك مشابها لحجتى بأن تكاليف الحد من الانبعاثات ستكون مقبولة، فينبغى أن: تساعدنا، بعض الشىء، المرونة التى يمكن أن تتيح لنا التعامل مع سعر أعلى بكثير للكربون، على التعامل مع ارتفاع متوسط درجة الحرارة. ولكن هناك سببين على الأقل لأخذ التقييمات المتفائلة لعواقب تغير المناخ بشىء من الريبة والحذر. الأول، كما أشرت للتو، هو أن المسألة تتجاوز زيادة درجة الطقس - فالكثير من تكاليف تغير المناخ من المحتمل أن تنجم عن الجفاف والفيضانات والعواصف الشديدة. والآخر هو أنه فى حين أن الاقتصادات الحديثة قد تكون قابلة للتكيف إلى حد كبير، فلن يكون نفس الشىء صحيحا بالنسبة الأنظمة الإيكولوجية. المرة الأخيرة التى شهدت فيها الأرض ارتفاعا فى درجة الحرارة بالوتيرة التى نتوقعها الآن، كانت خلال ما عرف بظاهرة الحرارة القصوى فى العصر الحديث الأسبق، قبل حوالى ٥٥ مليون سنة، عندما ارتفعت درجات الحرارة بمقدار ١١ درجة فهرنهايت على مدى حوالى ٢٠٠٠٠ سنة (بمعدل أبطأ بكثير من المعدل الحالى للاحترار). وقد ترافقت تلك الزيادة مع انقراض شامل، وهو ما يمكن أن نعبر عنه بعبارة ألطف، «ربما لن يكون أثر ذلك الاحترار إيجابيا بالنسبة لمستويات المعيشة»! كيف يمكننا وضع بطاقة سعر على آثار ظاهرة الاحتباس الحرارى؟ أكثر ما تم تداوله على نطاق واسع من تقديرات، على غرار الموجودة فى النموذج الديناميكى المتكامل حول المناخ والاقتصاد، المعروف باسم DICE، والمستخدم من قبل نوردهاوس وويليام بيل، وزملاءه، تعتمد على تخمين الخبراء لقيمة الآثار السلبية لظاهرة الاحتباس الحرارى فى عدد من المجالات الحيوية، خاصة الزراعة، وحماية السواحل، وتحاول تحديد مخصصات للتداعيات الأخرى المحتملة. وجادل نوردهاوس أن ارتفاع درجات الحرارة فى العالم بمقدار ٥,٤ درجة فهرنهايت - وهو ما اتفقت الآراء بشأنه بالنسبة لعام ٢١٠٠ - من شأنه أن يقلل إجمالى الناتج العالمى بما يقل قليلا عن ٢٪. ولكن ماذا سيحدث إذا ارتفعت درجة الحرارة الفعلية لضعف هذا الرقم، كما يشير عددا متزايدا من النماذج؟ لا أحد يعرف حقا كيفية إجراء هذا الاستقراء.لكن نظرا لأهمية الأمر، قدر نموذج نوردهاوس ما سيسببه ارتفاع درجة الحرارة بمقدار ٩ من خسائر بحوالى ٥٪ من الناتج العالمى الإجمالى. إلا أن العديد من الخبراء يقولون، أن التكلفة قد تكون أعلى من ذلك بكثير. وعلى الرغم من عدم اليقين، فإنه من المغرى إجراء مقارنة مباشرة بين الخسائر المتوقعة وتقديرات ما ستكلفه سياسات التخفيف من الانبعاثات: تغير المناخ سيؤدى إلى انخفاض إجمالى الناتج العالمى بنسبة ٥٪، ووقفه سيكلف ٢٪، لذلك دعونا المضى قدما. فللأسف الحساب ليس بهذه البساطة لأربعة أسباب على الأقل. أولا، لإن الاحترار العالمى قد تم «خبزه» بالفعل «، نتيجة لانبعاثات الماضى، وحتى مع سياسة مناخية قوية فإن الأكثر احتمالا هو تواصل ارتفاع كمية ثانى أكسيد الكربون فى الغلاف الجوى لسنوات عديدة. وحتى لو تمكنت دول العالم من التصرف فى مسألة تغير المناخ، سوف يكون علينا دفع ثمن التقاعس عن العمل فى الماضى. ونتيجة لذلك، يمكن أن تفوق توقعات نوردهاوس للخسارة الأرباح الناتجة عن التحرك. ثانيا، إن التكاليف الاقتصادية الناجمة عن الحد من الانبعاثات ستبدأ عندما تدخل السياسة حيز التنفيذ وستصبح فقط جوهرية، وفقا لأغلب المقترحات، بعد نحو ٢٠ عاما. فى نفس الوقت، إذا لم نتحرك، فإن التكاليف الكبيرة ستأتى على الأرجح فى أواخر هذا القرن (على الرغم من بعض الآثار، مثل تحول جنوب غرب أمريكا إلى وعاء من الغبار، قد يحدث فى وقت أقرب بكثير).

إذا فالكيفية التى تقارن بها التكاليف تعتمد على تقييمك للتكاليف التى من الممكن أن نتكبدها فى المستقبل البعيد مقارنة بالتكاليف التى سيكون عليك الوفاء بها فى وقت أقرب بكثير. ثالثا، بالتحول للاتجاه المعاكس، إذا لم نتحرك، فإن الاحترار العالمى لن يتوقف فى عام ٢١٠٠: وسوف تستمر درجات الحرارة، والخسائر، فى الارتفاع. فإذا كنت ترجح كفة الانتظار للمستقبل، البعيد حقا، يجب أن تعى أن ما يدعونا للتحرك يفوق حتى تقديرات ٢١٠٠. وأخيرا والأهم هو مسألة عدم اليقين. فنحن غير متأكدين من درجة تغير المناخ، الذى لا مفر منه، لأننا نتحدث عن وصول مستويات من ثانى أكسيد الكربون إلى الغلاف الجوى بدرجة لم تحدث خلال ملايين السنين. المضاعفة الأخيرة للعديد من نماذج لتوقعاتها بشأن ٢١٠٠ هو فى حد ذاته دليلا على نطاق عدم اليقين؛ ومن يعرف ما سيحدث من تنقيحات فى السنوات المقبلة. هناك ما هو أبعد من ذلك، فلا أحد يعرف حقا ما مدى الضرر الذى سينشأ من ارتفاع درجات الحرارة بالدرجة التى تعتبر الآن محتملة. قد تعتقد أن هذا الشك يضعف الدافع للتحرك، ولكنه فعليا يعززه. فكما قال مارتن فايتسمان من جامعة هارفارد فى العديد من الصحف المؤثرة، إذا كان هناك احتمال كبير لحدوث كارثة مطلقة، فهذا الاحتمال - وليس ما سيحدث على الأرجح - هو ما يجب أن يهيمن على حسابات التكاليف والفوائد. وحدوث كارثة مطلقة يبدو إمكانية واقعية، حتى لو لم تكن النتيجة الأكثر ترجيحا. فايتسمان يقول - وأنا أتفق معه - أن الخطر من وقوع كارثة،

وليس تفاصيل حسابات التكلفة والفوائد، هو ما يجعل من ضرورة العمل على سياسة قوية للمناخ قضية شديدة التماسك. تعتبر التوقعات الحالية لظاهرة الاحتباس الحرارى فى غياب التحرك قريبة جدا من سيناريوهات يوم القيامة. وسيكون من عدم المسئولية - من المغرى القول من عدم المسئولية الجنائية - عدم التراجع عن ما يمكن أن يتحول بسهولة إلى حافة الهاوية. إلا أن هذا يترك المجال لمناقشة كبيرة حول وتيرة العمل. المنحدر فى مقابل الانفجار الكبير يتوافق خبراء الاقتصاد الذين يحللون السياسات المناخية على بعض القضايا الرئيسية. فهناك توافق واسع حول حاجتنا لتسعير انبعاثات الكربون، وأن هذا الثمن يجب أن يكون فى نهاية المطاف عاليا جدا وأن الآثار الاقتصادية السلبية الناتجة عن هذه السياسة ستكون ذات حجم معقول.

بعبارة أخرى، يمكننا، وينبغى علينا العمل على الحد من تغير المناخ. ولكن هناك مناقشة حامية بين المحللين حول توقيت رفع أسعار الكربون لمستويات كبيرة. على جانب هناك خبراء الاقتصاد الذين عملوا لسنوات عديدة على ما أطلق عليه النماذج المتكاملة للتقييم، والتى تجمع بين نماذج لأضرار الاحتباس الحرارى وتكاليف خفض الانبعاثات. تعد رسالة الجزء الأكبر من هؤلاء الاقتصاديين، نسخة مناخية من صلاة القديس أوغسطين الشهيرة «أعطنى العفة والزهد، ولكن ليس الآن». حيث يقول نموذج نوردهاوس DICE أن سعر انبعاثات الكربون لابد أن يرتفع فى نهاية المطاف إلى ما يزيد على ٢٠٠٪ للطن، وهو ما يفوق أربعة أضعاف سعر الفحم، على أن تأتى معظم هذه الزيادة فى نهاية هذا القرن، مع اقتراحه بفرض رسم أولى أكثر تواضعا بكثير يقدر بحوالى ٣٠٪ للطن. دعا نوردهاوس التوصية بسياسة تبنى تدريجيا على مدى فترة طويلة بـ «منحدر سياسات المناخ». على الجانب الآخر دخل الميدان فى الآونة الأخيرة، من يعملون على نماذج مشابهة أوصلتهم إلى استنتاجات مختلفة. أشهرهم، نيكولاس ستيرن، الخبير الاقتصادى فى كلية لندن للاقتصاد، الذى جادل فى عام ٢٠٠٦، بتحرك سريع وقاس للحد من الانبعاثات، وهو ما يعنى على الأرجح فرض أسعارا أعلى بكثير على الكربون. هذا الموقف البديل لا يبدو أن له اسما قياسيا، لذلك اسمحوا لى بتسميته «الانفجار الكبير لسياسات المناخ». وجدت أنه من الأسهل مقارنة الحجج المختلفة عن طريق التفكير فى سياسات حد انبعاثات الكربون باعتبارها مشروعا للاستثمار العام: تقوم بدفع الثمن الآن لتأتى المكاسب فى صورة أضرار أقل للكوكب فى وقت لاحق. ولقد عنيت باللاحق، المستقبل البعيد؛ فانبعاثات اليوم سوف تؤثر على كمية الكربون فى الغلاف الجوى لعقود وربما لقرون، فى المستقبل. ولذلك إذا كنت ترغب فى تقييم ما إذا كان قرار الاستثمار فى تخفيض الانبعاثات جديرا بالاتخاذ، يجب عليك أن تقدر الأضرار التى سيتسبب فيها طن إضافى من الكربون للغلاف الجوى، ليس فقط فى هذا العام ولكن لمدة قرن أو أكثر فى المستقبل، ويجب عليك أيضا أن تقرر مدى الأهمية التى توليها للأضرار التى سوف تستغرق وقتا طويلا لتحدث. يجادل دعاة سياسة المنحدر بأن الأضرار التى يلحقها طن إضافى من الكربون للغلاف الجوى تعد منخفضة إلى حد ما عند التركيزات الحالية؛ لن تكون التكلفة حقا كبيرة حتى يصبح هناك قدر أكثر بكثير من ثانى أكسيد الكربون فى الهواء، وهذا لن يحدث حتى وقت متأخر من هذا القرن. ويجادلون بأن تكاليف ما سيحدث فى مستقبل بعيد لهذه الدرجة لا يجب أن يكون لها تأثير كبير على السياسة اليوم. ويشيرون إلى عائدات السوق على الاستثمار، والتى تشير إلى أن المستثمرين يقيمون وزنا قليلا للمكاسب أو الخسائر التى يتوقعونها فى المستقبل البعيد، ويجادلون بأن السياسات العامة، بما فى ذلك سياسات المناخ، يجب أن تقوم بنفس الشىء. فى المقابل يجادل دعاة الانفجار الكبير بأن الحكومة يجب أن تتخذ وجهة نظر أبعد بكثير عما يتخذه المستثمرين فى القطاع الخاص، ويجادل ستيرن، على وجه الخصوص، بأن واضعى السياسات يجب أن يعطوا نفس الوزن لرفاهية الأجيال القادمة كما نعطى لهؤلاء الذين يعيشون الآن. علاوة على ذلك، فإن مؤيدى التحرك السريع يتمسكون بأن ضرر الانبعاثات قد يكون أكبر بكثير مما تشير إليه تحليلات سياسة المنحدر، إما بسبب أن درجات الحرارة فى العالم أكثر حساسية لانبعاثات الغازات المسببة للاحتباس الحرارى عما كان يعتقد سابقا، أو بسبب أن الأضرار الاقتصادية التى ستنجم عن ارتفاع كبير فى درجات الحرارة ستكون أكبر بكثير من التقديرات التخمينية فى نماذج المنحدر. باعتبارى خبيرا اقتصاديا، أجد هذه المناقشة مؤلمة. هناك أشخاص أذكياء، ولهم نوايا حسنة على الجانبين - بعض منهم، بالصدفة، أصدقاء قدامى وأساتذة لى -سجل كل من الجانبين بعض النقاط الأساسية. لكن لسوء الحظ، لا يمكننا إعلان أى منها كنتيجة مشرفة، لأنه يوجد قرار يجب أن يتخذ. أنا شخصيا أميل لوجهة نظر الانفجار الكبير. يمكن أن تكون حجة ستيرن الأخلاقية بضرورة محبة الأجيال القادمة كما نحب أنفسنا مبالغا فيها، ولكن هناك قضية ملحة وهى أن السياسات العامة ينبغى أن تكون بعيدة النظر مقارنة بما يحدث من الأسواق الخاصة. بل أن الأهم من ذلك، هو أن وصفات سياسة المنحدر تبدو كثيرا مثل إجراء تجربة محفوفة للغاية بالمخاطر للكوكب بأسره. تثبت سياسة نوردهاوس المفضلة، على سبيل المثال، تركيز ثانى أكسيد الكربون فى الغلاف الجوى عند مستوى يساوى حوالى ضعف متوسطات عصر ما قبل الصناعة. فى هذا النموذج، تكون هناك تأثيرات طفيفة على الرفاهية العالمية، ولكن إلى أى مدى يمكننا أن نكون على ثقة من ذلك؟ كيف نكون متأكدين أن تغير من هذا النوع فى البيئة لن يؤدى إلى كارثة؟

سأجاوب بأننا لن نكون متأكدين بما فيه الكفاية، وبالذات لهذا السبب، لم تستطع النماذج المناخية تكوين تقديراتها لارتفاع درجات الحرارة فى المستقبل إلا فى العامين الماضيين فقط. إذا ما أنتهى إليه هو أساسا حجة مارتن فايتسمان: وهو أن احتمال وقوع كارثة غير تافهة هو ما يجب أن يهيمن على تحليلاتنا السياسية. وهى تلك الحجة التى تدافع عن ضرورة القيام بتحركات حادة للحد من الانبعاثات، فى أقرب وقت.

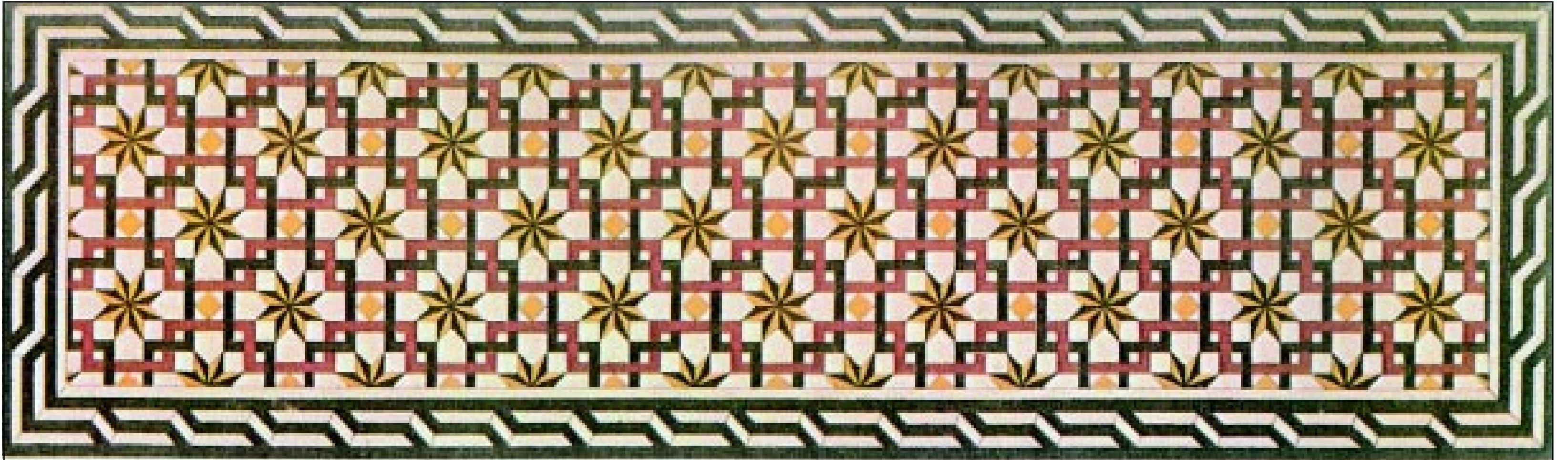


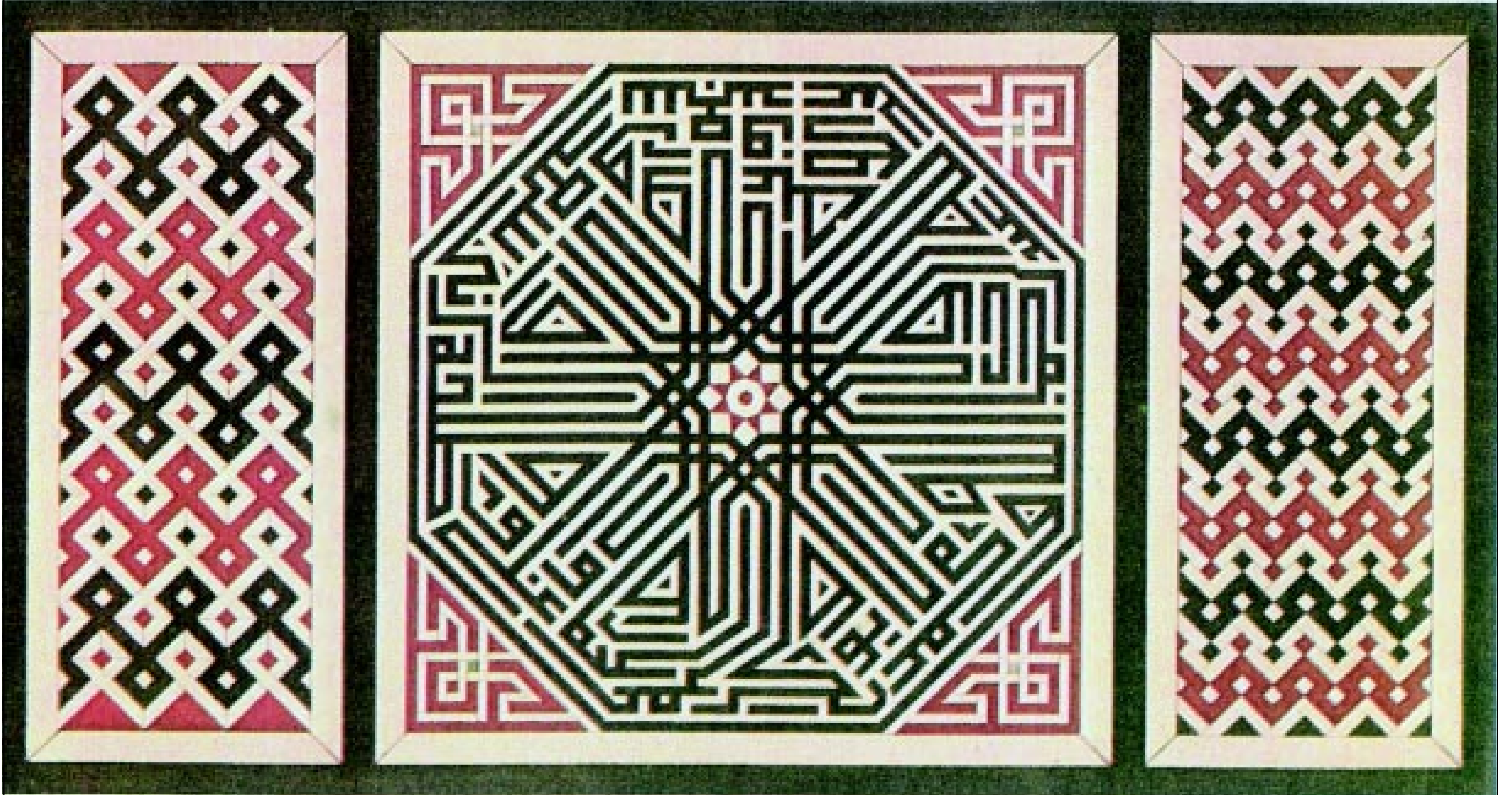
إذا كنت ترغب فى تقييم ما إذا كان قرار الاستثمار فى تخفيض الانبعاثات جديرا بالاتخاذ، يجب عليك أن تقدر الأضرار التى سيتسبب فيها طن إضافى من الكربون للغلاف الجوى

إن السياسات العامة ينبغى أن تكون بعيدة النظر مقارنة بما يحدث من الأسواق الخاصة. بل إن الأهم من ذلك، هو أن وصفات سياسة المنحدر تبدو مثل إجراء تجربة محفوفة بالمخاطر

المناخ السياسى

كما ذكرت، وافق مجلس النواب بالفعل على واكسمان- ماركى، وهو مشروع قانون قوى إلى حد ما يهدف للحد من انبعاثات الغازات المسببة للاحتباس الحرارى. هو ليس بقوة ما يقترحه دعاة الانفجار الكبير، ولكنه يبدو أن التحركات التى يقترحها ستكون أسرع من مقترحات سياسة المنحدر. إلا أن التصويت على مشروع واكسمان- ماركى، والذى أجرى فى يونيو الماضى، كشف عن أن الكونجرس منقسم للغاية. حيث صوت ٨ فقط من الجمهوريين لصالحه، فى حين صوت ٤٤ من الديمقراطيين ضده. و الغريب أنه لم يكن ليمر لو خضع للتصويت اليوم. وتعد الاحتمالات فى مجلس الشيوخ، حيث يلزم ٦٠ صوتا لتمرير معظم التشريعات، أسوأ من ذلك. كما صوت عدد من أعضاء مجلس الشيوخ الديمقراطيين، الذين يمثلون الولايات الزراعية والمنتجة للطاقة، ضد تصاريح الانبعاثات (يعد قطاع الزراعة الأميركى الحديث كثيف فى استخدامه للطاقة). فى الماضى، دعم بعض أعضاء مجلس الشيوخ الجمهوريين تصاريح الانبعاثات. ولكن مع ارتفاع الروح الحزبية، غير معظمهم من لهجة خطابه. كان جون ماكين أبرز من غير رأيه بشكل كامل، مع إنه كان قد لعب دورا رائدا فى الدعاية لتصاريح الانبعاثات، فى معرض تقديمه فى ٢٠٠٣ لمشروع شديد التماثل مع قانون واكسمان- ماركى. ينتقد ماكين اليوم الفكرة سواء كانت فى صورة تصاريح أو ضرائب، لاستيائه من مساعديه السابقين. وها هو الشتاء الثلجى على الساحل الشرقى للولايات المتحدة يعطى المتشككين بشأن تغير المناخ شعورا بالانتصار، حتى وإن كان هذا الشتاء على الصعيد العالمى واحدا من أكثر فصول الشتاء دفئا على الإطلاق. هذا يعنى أن توقعات التحرك الفورى للحد من تغير المناخ لا تبدو واعدة، على الرغم من الجهود المتواصلة من قبل ثلاثة من أعضاء مجلس الشيوخ - جون كيرى، جوزيف ليبرمان وليندسى جراهام - من أجل الوصول لحل وسط. (يخططون لاستحداث تشريعات فى وقت لاحق من هذا الشهر). ومع ذلك فإن الفرصة لم تضع. فهناك فرصة جيدة لأن تستمر درجات الحرارة فى تسجيل أرقاما قياسية هذا العام فى أنحاء العالم، خارج واشنطن، حارمة المتشككين فى تغير المناخ واحدة من حججهم الرئيسية. بمعنى أعم، فى ضوء تقلبات السياسة الأميركية فى السنوات الأخيرة - منذ عام ٢٠٠٥ تحولت الهيمنة المألوفة من هيمنة جمهورية دائمة إلى هيمنة ديمقراطية دائمة إلى مالا يعلمه إلا الله - يجب أن تكون هناك فرصة حقيقية فى إحياء الدعم السياسى للتحرك من أجل الحد من تغير المناخ. لو تحقق هذا، سيكون التحليل الاقتصادى جاهزا. نحن نعرف كيف نحد من انبعاثات الغازات المسببة للاحتباس الحرارى. ولدينا تقدير جيد للتكاليف - وأنها ستكون معقولة. كل ما نحتاج إليه الآن هو الإرادة السياسية. ■







إسـلامى نعـم.. ولكـن

ليس فنًا 'دينيًا'

محمد المهدى

بدءاً من القرن الثامن الميلادى، ومع انتشار الإسلام، بدأت تتشكل المعالم الأولى للفن الإسلامى. ومع تتابع أزمنة الحضارة الإسلامية تبلورت أسس الفن الإسلامى

■■ جاءت دعوة القرآن الكريم للعرب داخل الجزيرة العربية لتلغى المفاهيم الوثنية القديمة فى القرن السابع الميلادى. جاءت الدعوة الإسلامية للتسليم بوحدانية الله سبحانه وتعالى، وهجر الرابطة القبلية، واستبدالها بالرابطة العقدية الإسلامية (لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى).

وضمت دعوة التقوى إلى جوار الوحدانية والمساواة بين البشر، دعوة الحرية فى حدود التسليم بمبادئ الإسلام. وانطلقت الإبداعات الأدبية والعلمية والفنية على أساس أخلاقى جديد. وحمل الإسلام هذه المفاهيم الجديدة لتصبح قاعدة الحضارة الإسلامية داخل وخارج جزيرة العرب. من حدود الصين شرقًا، وإلى حدود فرنسا غربًا.

جاء نزول القرآن الكريم باللغة العربية تكريماً للعرب، وتكريماً للحرف العربى، والخط العربى بطبيعة تاريخه رمزى. فالعرب عرفوا الشعر الرصين، والقصائد الرائعة قبل التدوين بالحروف. ذلك أن طبيعة الصحراء، وضرورة التنقل الدائم دعت إلى أن تكون الثروة الثقافية والإبداعية شفاهية تحملها الرؤوس مع التنقل، وتنقلها الأجيال مع الأزمنة. ولذلك حينما سعوا إلى التبارى الشعرى احتاجوا إلى التدوين، أى كتابة القصائد المميزة لتعليقها تقديراً لها، وتعريفاً بها على جدار الكعبة.

وجاء التدوين، أى استخدام الحروف لذلك رمزًا تذكيرياً. يستكمله ذهن المستمع بالمخزون فى ميراثه. ولذلك تنوعت أشكال الحروف النبطية المستخدمة فى تعريفات جمالية. وعندما خشى الخلفاء فى صدر الإسلام على النص القرآنى من التحريف بعد انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية، كان الاجتهاد التنقيط والتشكيل فوق الحروف. وساعد ذلك على إثراء شكل الحرف العربى، وتفرده كفن سجل نصاً مقدساً ويحوى قيماً جمالية خصبة.. لذلك عرف فن الحرف العربى بفن العرب الأول.

وتنوعت مع الزمن أنواعه، وطرق كتابته فى كل منطقة دخلها الإسلام. بدءاً من القرن الثامن الميلادى، ومع انتشار الإسلام، بدأت تتشكل المعالم الأولى للفن الإسلامى. ومع تتابع أزمنة الحضارة الإسلامية تبلورت أسس الفن الإسلامى الآتية:

أولاً: الترابط

بين المفهوم الدينى، والمفهوم الدنيوى وذلك على خلاف الحضارة اليونانية وحضارة الغرب بشكل عام رغم اعتناق المسيحية.

كان لحضارات الشرق القديمة قبل الإسلام والتى نزلت فيها الديانات السماوية تصور لعالم آخر يسمو على الآنى. وكان ذلك تمهيداً إلهياً مهد واكتمل فى سدرة منتهى الإسلام كعقيدة.

ثانياً: الوحدة مع التنوع

الوحدة حول العقيدة الإسلامية، والتنوع بتنوع الحضارات التى دخلت الإسلام. كما أنه لا توجد حدود سياسية أو قومية أو عرقية فى الإنتاج الجمالى، فقد ساهم العديد من أصحاب الملل والعقائد والأصول العرقية فى إنتاج هذا الفن.

ثالثاً: الحركة

حركة داخلية تمور فى يد الفنان تشكل بالتكفيت، والتزجيج، والتغشية، والنقش، والرقش، والطلاء، والصب، والحفر، والنفخ، والتزيين، والختم، والكتابة، والخط، والنسخ، والتذهيب.

وحركة خارجية آمنة تحمل فى الحل والترحال. القوارير، والمشكاوات، والمصابيح، والمزهريات، والأباريق، والطسوت، والأوانى، والجرار، والشمعدانات، والصناديق، والاسطرلابات، والمحابر، والأقلام، والقماقم.

رابعاً: الشمولية

اللوحات الجدارية فى الفنون القديمة، والتكوينات التجريدية، والخط العربى، والوحدات الزخرفية الهندسية أو النباتية، كلها فنون مرتبطة بالعمارة، ولا يمكن فصلها. وإحساسنا بهذه التكوينات يختلف عند الالتقاء بها داخل عمارتها الأصلية لأنها جزء من التكوين العام، عن إحساسنا بها عند وضعها فى إطار بشكل مباشر، أو إعادة تشكيلها بتقنية غربية داخل إطار كما هو شائع الآن فى كثير من التجارب التشكيلية المعاصرة.

خامساً: التمثل

التشكيلات التجريدية أو الرمزية تتمثل فى الوحدة الجمالية الصغيرة، بقدر تمثلها فى الوحدة الكبيرة، تتمثل فى النسيج من ثوب الإنسان الصغير، بقدر تمثلها فى العمارة، ثوب الإنسان الكبير.

سادساً: المصاحبة

المشاركة فى جميع مناحى الحياة وأدوات الاستخدام اليومى. فالوحدات الجمالية نجدها فى طراز الملابس، ونجدها فى صحون الطعام، والمقاعد، وأدوات الزينة، وعمارة السكن، وبناء المساجد، والمدارس والبيمارستان (المستشفى)، وزاوية العبادة، والأضرحة، وأدوات البحث العلمى، وأدوات التعامل التجارى.. بل وأدوات القتال. أى أنه فن يصاحب الإنسان فى حياته الخاصة، وحياته العامة.

سابعاً: الامتزاج

ليس هناك ما يسمى بالعمل الفنى ومتذوقه، فالجميع يمكنهم المشاركة فى الإنتاج، أو إقامة العمل كل بقدر إمكانياته، أو الاستخدام بحسب ظروف حياته، وبالتالى يمكن الاستمتاع بالإنتاج الفنى ودوماً لارتباطه بالحياة اليومية. ويظهر ذلك فى الفارق بين مفهوم المرسم (الأتيليه) فى الفن الغربى، ومفهوم المحترف فى الفنون الإسلامية.

ثامناً: التلازم

لا يوجد فى فنون الحضارة الإسلامية ما



المصور فى مرسمه. الفنان فيرمير (القرن ١٧م) الاحتفاء بفن المرسم. أى الفن الفردى



حفر بارز من العصر الفاطمى (القرن ١١م) تجريدية لها حضور واقعى



يسمى بالمعرض أو المتحف (أى المكان الذى تذهب إليه الصفوة المتعلمة أو العامة لتنهل من منابع الإبداع الفردى) ليس قصوراً أو غفلة، ولكن لأن المنابع الفنية التلقائية هى أدوات استخدام جمالية تلازم الجماعة فى الحياة العامة والحياة الخاصة. ولا يعنى ذلك إغفالنا اليوم لدور المتحف أو المعرض، ولكن علينا توظيفها لصالح مفهومنا التراثى المتفرد.

تاسعًا: الاستحضار

التصوير فى الرؤية الفنية الإسلامية ينفرد بمعالجة خاصة. على سبيل المثال فى المخطوطات الإسلامية هناك تناغم وتكامل مع منظومة الفنون المرئية فى العمارة، وفى أدوات الاستخدام اليومى. فى المنمنمات يقوم الفنان بعمل قطع رأسى للبناء المصور فى المخطوطة ليستحضر روايته ورؤيته الفنية، مع الاحتفاظ بشكل الهيكل العام، واقتضى ذلك المداخلة فى تناغم وفى داخل العمل الواحد بين التسطيح ببعدين، والتجسيم بالبعد الثالث.

عاشراً: الإحاطة

انداح التكوينات الجمالية بأقصى اتساع مكانى، وبالتالى يوفر للمحفل الجمالى الإحاطة بالمتلقى من ست جهات، الأربع المعروفة مضافًا إليها الأرضية والسقف. وذلك على خلاف العمارة الغربية التى تشغل جدرانها بجداريات أو لوحات تتحدث كل واحدة عن وحدة جمالية مستقلة. ومن هنا جاء الاحتفاء والاهتمام بالوحدات الزخرفية فى الفنون الإسلامية لقدرتها على الامتداد والإحاطة بالإنسان بجو جمالى متسق موحد.

مع الغرب

فى الفترة التاريخية التى تبلورت فيها مفردات وأسس الفن الإسلامى فى ظل ازدهار الحضارة الإسلامية، عاشت أوروبا فترة العصور الوسطى المعروفة بالحقبة المظلمة عندهم والتى بدأت فى القرن الخامس الميلادى وامتدت إلى

منمنمة (سبحة الأبرار) للجامعى. فارس القرن ١٦م.. الجمع بين البعدين الثالث والثالث (دار الآثار الإسلامية) الكويت

القرن الرابع عشر الميلادى. عاشت فى تخلف سياسى واقتصادى واجتماعى. وضعف أدبى وعلمى وفنى نتيجة سيطرة الكنيسة على حرية التفكير والإبداع، وسيطرة الملكية والإقطاع على المقدرات السياسية والاقتصادية.

وكانت هناك عدة عوامل ساعدت أوروبا على النهضة أو إعادة الميلاد كما كانت تسمى Renaissance بدأت من القرن الرابع عشر الميلادى وكانت قمتها فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلاديين. كان موضع النهضة فى إيطاليا، فضلاً عن الشمال فى الأراضى الواطئة أو ما يعرف الآن بدول البنيلوكس (هولندا، بلجيكا، لوكسمبورج). وساعد النقل عن الحضارة العربية الإسلامية على هذه النهضة فكرياً، وعلمياً، وأدبياً، وفنياً.

وقد وصلت إبداعات الحضارة الإسلامية إلى أوروبا عن طريق:

١- الأندلس فى إسبانيا.

٢ - صقلية وجنوب إيطاليا.

٣ - الحروب الصليبية فى الشام ومصر.

ويتصف فن عصر النهضة الأوروبية بالآتى:

١ - إعادة ميلاد الفنون اليونانية القديمة.

٢ - الاهتمام باللوحات المنحوتات المتابعة للحياة اليومية. أى الخروج عن الاهتمامات الكنسية.

٣ - كنوع من المواءمة بين اليونانية والكنسية، رسمت الموضوعات الدينية بالأسلوب اليونانى حتى داخل الكنائس.

٤ - العودة للاهتمام بالتشريح الفنى كما هو فى الواقع أو ما يسمى بالمقياس الذهبى.

٥ - الاهتمام بموضوع الفن للفن، والفن للاقتناء، وتميز طبقة الفنانين.

٦ - مثل هذه الكلاسيكية الجديدة الثلاثة الكبار دافنشى، ومايكل أنجلو، ورفائيل.

والملاحظ على هذه الحقبة هو اقتصار مؤثرات فنون الحضارة الإسلامية، فى فنون الغرب على الشكل فقط دون المضمون.

تحـــول هـــام

استمرت مفاهيم عصر النهضة الأوروبية تحكم الإنتاج الفنى الغربى إلى القرن التاسع عشر.

ويعرف القرن التاسع عشر 

جاكلين والورود. لوحة بيكاسو ١٩٥٤. تجاهل البعد الثالث تأكيد للمعنى. وتأثر واضح بالفن المصرى القديم



إيجازية الخط العربى ساهمت فى الوصل الطبيعى بين فنون التجريد قبل الإسلام والفنون بعده



فى تاريخ الفن الغربى بقرن القرون. فقد جمع العديد من المدارس الفنية المستفيدة من عدة قرون سابقة. كما أنه تميز بتحرر الفنان من سطوة السلطة الدينية الكنسية. وسطوة السلطة الدنيوية الملكية والإقطاع. ظهرت الطبقة الوسطى وأسقطت سلطة الملك وسلطة الإقطاع فى الثورة الفرنسية. وتمرد الفنان على فنون هذه السلطة الكلاسيكية. وتتابعت المدارس الآتية: الرومانسية، فالواقعية، فالتأثيرية، فالتعبيرية، فالتكعيبية، فالتجريدية. ونتوقف عند التجريدية.. كانت تطويرا للتكعيبية فهى تحلل المرئيات وتجردها وتحولها إلى وحدات لا تتضح فيها أصولها كما تراها العين فى الحياة.. وبالتالى اقتربت هذه المدرسة فى الرؤية الجمالية من التجريدية فى الفن الإسلامى.

إذن يتمثل فى القرن التاسع عشر لقاء أو حوار فنى مهم. تم فيه لأول مرة منذ ما يقرب من ألفين وستمائة عام التحول الغربى من مفهوم الالتزام بمرئيات الواقع لإنتاج الفن. أو ما يسميه (هربرت ريد) نظرية (المشابهة التعيسة) بتأسيس يونانى، وتأكيد من عصر النهضة، أو تسميتها الصحيحة والتى تكشف عن مغزاها ورسالتها (الرينسانس) أى إعادة الميلاد.. إعادة ميلاد الحضارة اليونانية. ثم هذا التحول أو ما يمكن أن نسميه دون مبالغة انقلابا أساسيا فى فنون الغرب لصالح رؤية جديدة تعيد تشكيل المرئيات بتجريدات لا تلتزم بالمرئيات المباشرة، ولكن تلتزم بمرئيات رسالة الفن التى تخترق بإنسانيتها حجب الزمان والمكان.

من هنا جاء التقدير، بل التأثر المباشر فى الغرب بالمعالجة الجمالية فى فنون الحضارات القديمة، والتى شاءت الحكمة الإلهية أن تجعلها مقدمة تنصب فى الرؤية الفنية الإسلامية لتصدر متوازنة الإهاب، لا شرقية، ولا غربية.

ولكن علينا أن ننتبه فى هذا التقدير إلى أن هذا التحول المهم أو كما أسلفت الانقلاب المهم فى فنون الغرب، لا يجب أن يدعونا إلى الاستعلاء الحضارى لأسباب:

أولاً: أننا بذلك نعيد خطأ الحضارة اليونانية التى استعلت على غيرها من الحضارات وشكلت بالتالى مجتمعًا آثينيا بديمقراطية يونانية عنصرية

رأس فتاة من الأسرة الحديثة. مقبرة (منا) الأقصر. تجاهل البعد الثالث لاثبات المعنى الدائم

الخلية. وهنا أذكر بأول لقاء بين الشرق والغرب حضاريًا وجماليًا وهى المرحلة الهيلينستية ونعرف أنها أنتجت فنًا هجينًا مع احتفاظ كل منها برؤيته الخاصة. أى أنه كان حوارًا منقوصًا. أما عن بقايا هذه النظرة اليونانية فى عصر النهضة الأوروبية وما تلاها فقد بينا كيف أن الفنان الغربى نفسه تمرد عليها وشعر بمحدوديتها فى القرن التاسع عشر.

ثانيًا: لا يجب أن يدعونا ذلك من طرف آخر إلى التفكير فى تدمير كل ما أنتجته فنون الحضارات السابقة شرقية كانت أو غربية، أو الإقلال من شأنها، أو وضعها فى دونية فنية أو محدودية تاريخية. ولكن علينا حتى ندرك أهمية ما أنتجته أن نخرجها من محدودية زمانها. أن نتأمل مفردات هذه الفنون بعين المجردات الجمالية. علينا أن ندرب الوجدان البصرى من خلال تدريب الوجدان التأملى على رؤية التناغمية فى الكتل والخطوط والألوان دون الرجوع إلى نصوص الزمان أو المكان الزائلين. وأذكر فى هذا بحوار دار بين (مايكل أنجلو) وأحد الباباوات. أى فى قمة الأخذ بنظرية المشابهة. قام (أنجلو) بعمل نحت لأحد الباباوات السابقين وعندما عرضه على البابا الذى كلفه بعمله قال له: إنه لا يشبه البابا الذى كلفتك بعمل نحت له، فقال (أنجلو): نعم لا يشبهه الآن، ولكن سيشبهه بعد مائة عام.

ثالثًا: أن فكرة الاستعلاء الحضارى أو الفنى تعنى وبشكل مباشر تناقضًا مع دعوة الإسلام نفسه الذى جاء داعيًا لإلغاء القبلية لصالح التسليم بعقيدة الإسلام، ولا نبالغ إذا قلنا إن المجتمع الأثينى أو ما يسميه مؤلف معاصر (أثينا السوداء) كان قرشيًا فى قبيلته. كما كان المجتمع القرشى قبل الإسلام أثينى النزعة فى ديمقراطيته.

يقول عز من قائل

بسم الله الرحمن الرحيم

«الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح. المصباح فى زجاجة. الزجاجة كأنها كوكب درى توقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية. يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار، نور على نور. يهدى الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شىء عليم».

صدق الله العظيم ■



تمرد الغرب على الرينسانس فنيًا عندما تبين أنه وصل مصطنع بين وثنية يونانية ومســـيحية إيمـانيـــة



فى قصيدة مجهولة لباكثير

أدب البشارة



حلمى محمد القاعود

[١]

■■ يظل الأديب الراحل على أحمد باكثير (١٣٢٨ ـ ١٣٨٩ هـ = ١٩١٠ -١٩٦٩ م) نموذجا للأديب العربى المسلم الذى عاشت قضايا أمته فى خلاياه الدموية، وكان يتنفسها شعرا ونثرا، يعيشها فى حياته الخاصة والعامة، كان مهموما بقضايا الأمة ومتاعبها وأحلامها وآمالها، كان منذ بداياته مشغولا بكل ما هو مهم وحيوى وإنسانى.. أضنته فرقة العرب، وشغفته وحدتهم وقوتهم ونهوضهم، رثى للمسلمين فى خيباتهم وخسارتهم أمام أعدائهم، وغنى للأمل الذى قد يتبدى هنا أو هناك، من خلال موقف أو حالة، هاجر إلى التاريخ ليعالج الواقع والمستقبل الذى يعيشه العرب والمسلمون، ويبث فيهم روح العمل والصلابة والصمود والتحدى من خلال الآباء والأجداد الذين كانوا منارة للعزة والكرامة والحرية والاستقلال..

كانت مواهبه المتعددة فى القصة والرواية والمسرح والمقالة والملحمة والشعر ميدان تعبيره عن آلام الناس وأحلامهم فى العشرات من الكتب والمؤلفات التى طالعها الناس على امتداد ثمانين عاما تقريبا، فى أوراق منشورة أو على خشبة المسرح أو عبر أثير الإذاعة أو شاشات التلفزة، وكان فيها منحازا لدينه وأمته وعالم العرب والمسلمين والإنسانية بمفهومها الواسع العريض.

كانت قضية فلسطين التى تزامنت مأساتها مع مولده ونشأته، وتطورت محنتها مع بداياته ونضجه، ووصلت إلى ما يشبه الغاية فى قسوتها وشدتها مع قمة عطائه ورحيله، هى الهاجس الذى يسكن وجدانه وخلاياه الدموية، ولذا وقف عليها معظم إنتاجه المسرحى والشعرى والقصصى وخصص لها جانبا مهما من كتاباته بصفة عامة، وأود أن أضع هنا شهادة مهمة للكاتب والمترجم الفلسطينى الراحل خيرى حماد تكشف عن تعلقه بفلسطين، وإدراكه لما يخططه الأعداء لها، ويحذر من سقوطها فى أيديهم، وللأسف فقد تحقق ما توقعه وحذر منه. يقول حماد:

«كان على أحمد باكثير رحمه الله من أوائل إخوتنا الأدباء العرب الذين تفهموا قضية فلسطين ووعوا خطرها قبل نكبة سنة ١٩٤٨م. ويتفرد باكثير بأن يكون الأديب العربى الوحيد الذى أعطى لقضية فلسطين جل اهتمامه فى مسرحياته، وتنبأ بقيام دولة إسرائيل فى مسرحية «شيلوك الجديد» التى كتبها سنة ١٩٤٥م، وحذر من الهجرة اليهودية والدعم الذى يقدمه كل من الغرب والشرق لإسرائيل فى مسرحياته التالية وفى العديد من التمثيليات القصيرة. وكل هذا يفضى بوعيه العميق وإحساسه الإسلامى العربى الصادق بمأساة فلسطين، لأنه رأى فيها لا مأساة العرب وحدهم وإنما مأساة المسلمين جميعاً. وهذا كله يجعله رائد قضية فلسطين فى فن المسرحية العربية لا يدانيه فى هذه الريادة أديب آخر.

رأيت دموع باكثير وكنا فى خان يونس كما أذكر عندما جاءنى بعض أبناء البلدة وكنا نعقد ندوة أدبية يطلبون منى أن يستمعوا إلى الأستاذ باكثير الذى قرءوا له مسرحياته عن فلسطين ورجوته أن يتكلم فى تلك الندوة وكان كريماً فلبى الدعوة، فأخذ بألباب السامعين وانطلق يتحدث إليهم عن قضية فلسطين وفهمه لها ووعيه بها ويحذرهم من الأخطار المحدقة بهم ويشرح لهم الواجب الملقى على الأمة العربية والإسلامية كلها، وكأنه كان يطلع على الغيب ويعرف أن نكبة عام ١٩٤٨م ستلحق بنكسة عام ١٩٦٧م ويضيع ما تبقى من أرض فلسطين. وذهبنا فى اليوم التالى كما أذكر إلى «بيت حنون»

وكانت «بيت حنون» هى الحد الفاصل بين قطاع غزة والأرض التى تحتلها إسرائيل، ووقفنا هناك على الحدود كلنا معشر الأدباء وأبصرت بالدمعات تتساقط من عينى الأستاذ المرحوم الفقيد الغالى باكثير وهو يقف عند ذلك الشريط وعلى بعد أمتار قليلة فيرى الثكنة الإسرائيلية وقد ارتفع عليها العلم الإسرائيلى، رأيت عبرات باكثير فلم أعجب فلقد أحب باكثير فلسطين كما أحب وطنه حضرموت والقاهرة وكل وطن عربى، بل إن لفلسطين مكانة خاصة فى نفسه رافقته طوال حياته،

فلقد أحب باكثير فلسطين حباً عميقاً برز فى كتبه وبرز فى تلك الرحلة التى نعمنا بلقياه فيها على أرض فلسطين. وتحدثنا فى تلك الليلة عن ذلك المنظر الذى شاهدناه على شريط الحدود مع إسرائيل فى الصباح، وقال باكثير. وإنى أذكر حديثه إلى الآن: يا أخى إنى أرى أن البقية الباقية من فلسطين ستضيع ما دمنا على هذه الحال، وصمت، وكان إحساسه صادقاً فما مضى عام حتى أخذت إسرائيل كل فلسطين.

الأمنية الأخيرة لفلسطين: وكان لقائى الأخير بباكثير قبل خمسة أعوام من وفاته، وكان معنا فى دار اتحاد كتاب فلسطين. جاء فى إحدى زياراته إذ لم يكن ينقطع عن زيارة الدار بل يؤمها من فترة لأخرى، وجلسنا فى الحديقة نتحدث فقال لى إنه يعتزم أن يكتب مسرحية جديدة عن المقاومة الفلسطينية وأنه يطمع قبل الشروع فى كتابتها فى القيام بزيارة لمنطقة الأغوار فى خط المواجهة مع إسرائيل على نهر الأردن ليعيش أياماً مع الفدائيين، فقلت له: ومن أحق منك يا أخى باكثير بالذهاب إلى هناك؟

وبالفعل وجهت فى اليوم التالى رسالة إلى قيادات الكفاح المسلح على نهر الأردن أطلب الإعداد لزيارة الأستاذ باكثير لخط المواجهة مع إسرائيل، ولكن المنية سبقتنا واختاره الله إلى جواره فى الوقت الذى عزم فيه على المواجهة بنفسه. فليحتسبه الله جل وعلا شهيداً من شهداء فلسطين، فلقد جاهد بقلمه وبنفسه طوال حياته، ونسأل الله أن يجمعه بمن أراد لقياهم من الشهداء والصديقين والأبرار»[1].

شهادة خيرى حماد لا تحتاج إلى شرح أو تعليق، لأنها واضحة بما فيه الكفاية، وتقدم الرجل الذى عاش حياته لفلسطين، ودمعت عيناه قبل عام ١٩٦٧م؛ وهو يرى العلم الصهيونى مرفوعا على ثكنة عسكرية بالقرب من بيت حنون، وخشى أن تسقط بقية فلسطين نتيجة للأوضاع العربية السيئة، لكنه أيضا كان هو الرجل الذى شهد الكارثة عام ١٩٦٧م، حيث سقطت كل فلسطين وسيناء والجولان وبعض الأراضى الأردنية واللبنانية التى صارت رهينة بيد الغزاة النازيين القتلة، فكانت دموعه هذه المرة صامتة ومكتومة، ولكنه ترجم عنها فى هذه المخطوطة التى تضم قصيدته الطويلة حيث تبدو مشروع ملحمة شعرية، ولكنه اكتفى بمقاطعها التى تصل إلى سبعة وعشرين مقطعا، توقع فيها أن ينتصر العرب، وأن يكسروا شوكة العدو، وأن يستعيدوا أمجاد الآباء والأجداد منذ معركة بدر فى صدر الإسلام حتى معركة حطين التى قادها صلاح الدين الأيوبى وحرر من خلالها القدس وطرد الصليبيين، وأعاد للأمة الإسلامية كرامتها وعزتها.



قصيدة باكثير المخطوطة موضوع الدراسة «نكون أبدا أو لا نكون»؛ تدور في إطار ما يعرف بأدب النبوءة أو التوقع ، والتبشير بالنصر فى زمن الهيمنة



[٢]

كان باكثير فى شعره الغزير الذى لم يجمعه فى حياته وتركه مخطوطا بحكم

كانت قضية فلسطين التى تزامنت مأساتها مع مولده ونشأته، هى الهاجس الذى يسكن وجدانه وخلاياه الدموية





أنه كان يلقيه فى مناسبات جماهيرية أو اجتماعية، أو منشورا فى بطون المجلات والصحف[٢]، مرتبطا بما يجرى على الساحة السياسية والوطنية والقومية، ولذا نجده يوظف المناسبات المختلفة لتناول هموم الأمة وآمالها، وقد أتيح لى قبل سنوات بعيدة تقرب من ثلاثين عاما أن أنشر قصيدة مخطوطة له حصلت عليها من بعض أقاربه فى القاهرة، وكانت معارضة لقصيدة البوصيرى «البردة» فى مدح الرسول الأعظم - صلى الله عليه وسلم - فوجدته يوظفها فى عرض أحوال العرب فى زمانه (ما بين العشرينيات والثلاثينيات فى القرن الماضى)، وكان باكثير يومها فى سن باكرة نسبيا؛ ولكنها تنبئ عن وعى حاد بما يجرى للأمة وما ينتظرها وما يتوقع منها. كانت قصيدته الطويلة «نظام البردة» قراءة مبكرة لما تعانيه الأمة داخليا وخارجيا، وأملا يحلم بتحقيقه على يد أبنائها، وكان يقول فيها عن العرب والمسلمين والإسلام:

أرنو إلى يعرب ـ والدهر يعرضها
رواية البؤس بعد العز والنعم
تقاسمتها شعوب الغرب تدفعها
إلى المهالك سوق الشاء والنعم
وأرمق الدين والأعداء توسعه
فتكا يضاف إلى أدوائه القدم

ولا ينسى أن يرصد ما يجرى فى وطن آبائه الصغير (الأحقاف)، ويرى قانون التقدم والتخلف منطبقا عليه كما هو منطبق على موطن أمته الكبير، فالجهل والظلم والترف، والبعد عن الدين، والفرقة وغيرها عناصر تخلف وضعف وانهيار وهزيمة ويقول فيها:

وأرجع الطرف إلى الأحقاف غارقة
فى الجهل فوضى بلا عدل ولا نظم
تفننت فى ملاذ العيش، تاركة
ما تقتضيه، لم تفطر ولم تصم
والخلف محتكم فيها، يمزقها
حتى يغادرها لحما على وضم

والقصيدة بصفة عامة تشير إلى نضج فنى وفكرى لدى باكثير الذى كان آنئذ فى الخامسة والعشرين من عمره، وهو امتياز تحقق لا يتحقق لغيره أو أمثاله فى هذه السن، وقد نشرت القصيدة مفردة فى كتيب، وضممتها بعدئذ فى كتابى القصائد الإسلامية الطوال فى العصر الحديث[٣].

ونلمس فى نظام البردة مدى تدفق مشاعره الحارة تجاه أمته، حيث يشعر بالسعادة عندما يراها سعيدة، والعكس عندما تنكسر أو تشقى:

أنا السعيد إذا ما أمتى سعدت
حالا وفى ذلها ذلى ومهتضمى
إذا أملت ففى آمالها أملى
وإن ألمت ففى آلامها ألمى!

ويلاحظ أن باكثير ـ كما سبقت الإشارة ـ يحرص على الإفادة فى كل المناسبات الممكنة ليشير إلى قضايا الأمة أو تاريخها أو مستقبلها، فمثلا عندما ذهب إلى استانبول عام ١٩٦٩م قبيل وفاته، نظم قصيدة عن مآذن استانبول، وأشار إلى سلاطين آل عثمان، ودورهم فى خدمة الإسلام وإعزازه، يقول فيها:

وكم بالأستانة من معان
أثارت فى حناياى الشجونا
معانٍ ليس تعدلها معان
تفجر فى الفؤاد هدى مبينا
مآثر من بنى عثمان شادت
من الدين الحنيف بها حصونا
تزيد الكافرين أسىً وغيظا
إذا نظروا وترضى المؤمنينا

ويختتمها بقوله وكأنه يشير إلى إحدى قصائد محمد عاكف شاعر تركيا الأشهر فى العصر الحديث:

كأن قبابها خوذات صلب
لمعن على رءوس مجاهدينا
ومن ينظر مآذنها يجدها
رماحا فى صدور الكافرينا

وقد خصص باكثير عددا كبيرا من القصائد المباشرة فى تناول القضايا الوطنية والقومية والإسلامية، تحدث فيها عن أحوال الأمة وأمانيه بالنسبة لها، ومنها قصائد تؤكد على اهتمامه بقضايا الحرية والتحرر والاستقلال منذ زمان بعيد كما نرى فى قصيدته المؤيدة لثورة اليمن عام ١٩٤٨م، وقصيدته فى تحية المجاهدين المغاربة ضد الاستعمار الفرنسى من خلال تحية علال الفاسى، ومنها على سبيل المثال قصائد أخرى متنوعة: تحية العهد الجديد، آه يا مصر أحبك، على لسان شهيد، العضو الذى فسد، فى ظلام السجن، بين الصمود والذهول، نداء العروبة والدين... وله قصيدة بعنوان «يا من لليل العرب»، يهجو فيها العرب لتقصيرهم فى حق أنفسهم، ويرى أن أبناءهم سبب أمراضها ونكستها، وهم الذين يمكّنون الأعداء من أنفسهم بتفرقهم وخلافاتهم وعداوتهم لبعضهم بعضا، وجاء فيها:

يا من لليل العرب طا
ل فهــل فجر فينظر؟
أفكلما نهض الفتى
منهم بأمتــه، تعثر؟
أو كلما ابتسم الزمـا
ن بســيد منهم تنكرْ
ويح العــروبة داؤهـا
أبناؤهـا فيهــم تضرّرْ
نبذوا الإخاء فبعضهمْ
للبعض من أعدائهم شرّ
يتعللــون بمذهــــب
والحق مثل الصبح أنور
الديــن ديــن الله فى
قرآنه السامى مسطّر
هبوا بنى العرب الكرام
فكــل شعب قد تثوّر
عــزت شــعوب الأرض
والعربى ممتهن محقّر...

وفى كل الأحوال، فإن باكثير يبث روح الثورة فى نفوس العرب لينهضوا مثلما ثارت شعوب الأرض وعزت وتقدمت، ولا يبقون محقرين أذلاء.

ويعد باكثير من أنصار الوحدة العربية بمفهومها الإسلامى عبر عن ذلك فى شعره ونثره على السواء، فمع حبه للأحقاف أو حضرموت موطنه الأصلى، فقد أحب الحجاز وأهلها، وكانت له علاقات وصداقات عبر عنها شعرا ونثرا، وفى مصر التى ضمت رفاته وعاش فيها معظم حياته؛ فإنه كان واحدا من أبنائها؛ يحبها ويغار عليها، حتى تلك البلاد العربية والإسلامية البعيدة كان لها مكان فى نفسه، بحكم أن بلاد العرب واحدة، وبلاد المسلمين تضم أمة واحدة.

[٣]

وقصيدة باكثير المخطوطة موضوع الدراسة «نكون أبدا أو لا نكون»؛ تدور فى إطار ما يعرف بأدب النبوءة أو التوقع، والتبشير بالنصر فى زمن الهيمنة، وقد كانت بالفعل صرخة داوية فى وقت بدا فيه أن الظلام الحالك الذى حل بأرض العرب والمسلمين، لن يزول، ولن يفارقهم، فحجم الهزيمة الساحقة التى جرت فى الخامس من يونيو ١٩٦٧م، كان فوق أى توقع، وكان الانهيار النفسى والعصبى لدى العرب على مستوى الشعوب والأفراد عاتيا ورهيبا، كانت القلوب ممزقة، والأكباد مفتتة، والنفوس مجروحة، والأجساد مجرد هياكل مثخنة بالجراح، لا روح فيها ولا حياة، ومن كان يراقب منظر الجنود العائدين من جبهات القتال، كان يرى المهانة فى أبشع الصور التى عرفها الناس، وانكمش الناس على أنفسهم، وانعزلوا بعيدا عن بعضهم وراحوا ينوحون على وطن مفقود، ومقدسات ضائعة، وكرامة مهدرة، وشرف قد تلوث..

ولكن باكثير كان ابن الرؤية الإسلامية الناضجة، التى تمتص الصدمات، وتتجاوز الواقع الجريح، وتصمد وتواجه وتعمل للانتصار على الهزيمة، وبالفعل كانت قصيدته التى كانت إذاعة القاهرة تبث مقاطعها الطويلة يوميا من خلال برنامج صباحى عقب الهزيمة بأيام قليلة، جعلت من مهمتها الأولى بث الأمل فى النفوس، وتضميد الجراح،

والتهيئة للمقاومة والمواجهة، ومن يتأمل عنوان القصيدة «نكون أبدا أو لا نكون»، يجد هذه المهمة ضمنيا؛ فالكينونة هى الوجود، والوجود مرادف هنا للنصر، وكسر شوكة العدو لنظل على قيد الحياة، وإلا فإننا سنكون مع الموتى إن لم ننتصر، والعنوان كما نرى يستخدم الفعل المضارع الذى يعنى الاستمرار والمضى نحو المستقبل، ولعل اختيار الشاعر لبحر الرجز الذى يشير فى جانب أساسى منه إلى السير الحثيث والتدفق السريع منح قصيدته بعدا فنيا يتطابق مع حركة الكينونة والوجود..

ومضمون القصيدة الذى يحتفى بفكرة البشارة بالغد الآتى، كان أكثر إيجابية، من القصائد الأخرى التى قيلت آنئذ؛ وهى التى لم تستطع التخلص من النواح، والوقوف عند الجوانب السلبية بالبكاء على ما يجرى للمهزومين، أو إدانة المقصرين، أو هجاء السلطات وممارساتها القمعية والفساد الذى يعشش فى أرجاء الإدارات الحكومية والقيادات السياسية والعسكرية.. باكثير كان يستشرف المستقبل، ويسارع إلى التبشير برؤية متفائلة، فى قلب الجراح الغائرة، ولهذا كانت فكرة الزمن التى شغلت باكثير طويلا متلاقية مع فكرة النبوءة أو البشارة بمعنى أدق، وفكرة الزمن عند باكثير قائمة فى أشعاره بصورة ملحوظة، منذ زمان بعيد، وربما من بداياته الأولى، وهو ما لاحظه عبده بدوى - رحمه الله - حيث رأى أن باكثير معنى بالزمن الماضى والزمن الحاضر، فإذا كان شعراء عصره مشغولين بالزمن الماضى وحده، فهو مشغول بالزمن الماضى، ويأتى بالزمن الحاضر الذى يعنى أنه يتناول أشياء كثيرة، والزمن عند باكثير ليس الزمن الوجودى عند سارتر وغيره وعند عبد الرحمن بدوى، فالزمن عنده هو الزمن الإسلامى، وهو زمن أشعرى باقلانى كما هو معروف عند الأشعرى الذى يقول: «الزمن هو توال غير مستمر للذرات الزمنية، وأن الله يخلق العالم فى كل ذرة زمنية ويظل يخلق أبدا»، وهذا المعنى متكرر فى قصائد كثيرة لباكثير..

ويشير عبده بدوى إلى أن باكثير يتكلم بما يسميه الزمن العربى وينتهى إلى أنه كان للعرب زمن عظيم رائع ويحاجج ويرفض الزمن الخاص بالأوربيين، ويقول: «نحن الذين أنشأنا الزمن» أو ما معناه أننا الآن خارج الزمن، ولكننا كنا قبل ذلك الزمن[٤]..

وقصيدة نكون أو لا نكون، قصيدة زمنية بامتياز، يتجاور فيها الماضى مع الحاضر والمستقبل، وتبدأ منذ سطورها الأولى بطرح قضية الزمن طرحا مباشرا يتكرر بعدئذ فى ختام كل المقاطع بما يعطى دلالة على عمق الفكرة الزمنية فى تفكير باكثير، وهيمنتها عليه. إن القصيدة تبدأ هكذا:

غدا بنى قومى وما أدنى غدا
إما نكون أبدا
أو لا نكون أبدا

إنه يبدأ القصيدة مباشرة بالحديث عن الزمن، ويستدعى المستقبل عبورا فوق الحاضر، ودون التفات إلى الماضى، وفى تكرار لفظة «غدا» ما يفيد اهتمامه بالمستقبل الذى ستنعقد فيه رايات الظفر والانتصار، وينادى بنى قومه مع حذف أداة النداء بوصفه فى قلبهم وليس بعيدا عنهم، ويستخدم أفعل التفضيل ليقينه أن النصر قادم بأسرع مما يتصور أكثر المتفائلين «وما أدنى غدا»، وهو بالطبع لا يعنى أن ننتحر إذا لم ننتصر، فالرجل يعنى أن ننتصر فى الميدان، أو تكون الشهادة هى النجاة من الواقع المهزوم، وعلى الأمة أن تهيئ نفسها لذلك، وباكثير يجعل من ندائه لبنى قومه لازمة تتكرر على امتداد القصيدة ليؤكد أن الغد سيكون لنا بإذنه تعالى.

والانطلاق إلى المستقبل قضية مسلمة، يشرحها ببساطة شديدة، فإما نكون أمة من أعظم الأمم ترهبنا الدنيا وترجونا القيم، ولا يقال للذى نريد لا، ولا يقال للذى نأبى نعم ، ويشير أن السر فى ذلك هو: «تدفعنا الهمم، لقمم بعد قمم» والبديل لهذا هو التقاعس والتخاذل فنصير قصة من العدم «تُحكى كما تحكى أساطير إرم!». ومن ثم يكرر مطلع القصيدة فى ختام المقطع، ليذكر العرب بأن مسألة المستقبل أمر لا يحتمل النقاش، وأن صناعته بالانتصار والحضور القوى لا مفر منها:

غدا وما أدنى غدا لو تعلمون
إما نكون أبدا أو لا نكون

[٤]

يلاحظ أن باكثير يحرص فى قصيدته على استخدام منهج النقاش المنطقى للإقناع برؤيته المتفائلة المبشرة بالنصر والكرامة، وذلك عبر عملية التخيير التى يقدمها لنا نحن العرب، وباستخدام الضمير الجمعى «إما.. أو» نكون كذا أو لا نكون، وعلينا أن نختار، والتخيير هنا تأتى نتيجته عادة لصالح اختيار الطرح الأول، وهو ما يصب فى إطار الكينونة والوجود، أما خيار العدم والتلاشى فيرفضه كل ذى حس سليم، وفطرة طبيعية..لنتأمل ما يقوله فى بداية المقطع الثانى:

قد وضح الصبح لذى عينين
لم يبق من شك ولا من مين
أين الخلاص أين أين؟
لم يبق بين بين
إما نحوز الغايتين
أو نخسر الكرامتين؟
إما نكون أبدا
أو لا نكون أبدا
غدا وما أدنى غدا لو تعلمون
إما نكون أبدا أو لا نكون!

ففى قوله «وضح الصبح لذى عينين»، يؤكد على حقيقة مطلقة لا تقبل الشك؛ وهى أن المسألة لم تعد تحتمل الموقف الرمادى أو الحالة الغائمة، ولكنها فى الأفق العقلى السليم تحتم الاختيار بين النصر والكرامة أو مقابلهما الذل والهزيمة، ويطرح فى ختام المقطع لازمته التى تتكرر فى مقاطع القصيدة كلها عن الكينونة والعدم، ولا ثالث لهما:

إما نكون أبدا
أو لا نكون أبدا
غدا وما أدنى غدا لو تعلمون
نكون أبدا أو لا نكون

إن النقاش المنطقى القائم على التخيير والتكرار يظل هو الخيط الرابط الذى يشد المقاطع التى تنتظم القصيدة لإثبات نبوءته بالنصر والكرامة فى قلب المأساة التى تعيشها الأمة وإحساسها المريع بالهوان واليتم والعار، ولذا يلعب على فكرة الزمن التى سبقت الإشارة إليها، فإذا كانت فكرة التخيير والتكرار تقيم على صناعة المستقبل، فإن استدعاء الماضى ليكون بجوار الحاضر يصب فى النهاية لخدمة هذا المستقبل والتبشير بالأمل من خلاله.

وإذا كان الجهاد من أوليات الطريق إلى النصر، فإن باكثير يفلسفه برؤية إسلامية تتجاوز القتال فى الميدان لمجرد تأمين العيش أو الحياة، إلى الارتباط بالإيمان بالله، وأن المسألة تدخل فى صميم الموقف العقدى الذى يعلم أن الموت رحلة إلى الله مالك الحياة والأجل جميعا.. لذا فالموت من هذه الناحية مقبول، ويكون السعى إليه فى ارتياح وجزل، ولا خوف منه أو وجل:

أفى سبيل العيش نمضى للجهاد؟
كلا بنى قومى فماذا بالسداد
العيش كله إلى نفاد
والعيش لا يثبت للموت لدى الجلاد
بل فى سبيل الله نمضى للجهاد
لله فى المبدأ والمعاد...

إن باكثير مع استدعائه للجهاد بوصفه فكرة تشير إلى الماضى الأغر فى صدر الإسلام ترتبط بتحقيق الانتصارات والأمجاد، لا يلبث أن ينتقل إلى الحاضر، رصدا ورفضا، بل وهجاء، فهو يشير إلى قادة الغرب الذين أيدوا العدوان الصهيونى على العرب عام ١٩٦٧م، وخاصة ليندون جونسون- رئيس الولايات المتحدة، وهارولد ويلسون - رئيس الوزراء البريطانى، ويصفهما بالحقارة والمهانة، ويرى أن ما حل بالعرب على يد العدوان الاستعمارى، وهو شديد، حيث حكم بالحديد والنار، لو عاد مرة أخرى فسوف يزول، لأن تحكم المغير لن يدوم، وكما حط يوما سيطير:

لكنها كارثة الدهور
أن يغصب اليهود أرضنا الطهور
فيدمغوها بالفجور
ويجعلوها أرضهم إلى الأبد
ونحن فى الأرض بدد
مشردون كالنقد
من بلد إلى بلد





أحب باكثير فلسطين حباً عميقاً برز في كتبه وبرز فى تلك الرحلة التي نعمنا بلقياه فيها على أرض فـــلـــســـطـــين



في كل الأحوال ، فإن باكثير يبث روح الثورة فى نفوس العرب لينهضوا مثلما ثارت شعوب الأرض وعزت وتقدمت ، ولا يبقون محقرين أذلاء

لا أحد يلوى على أحد
لا لن نكون بددا
إما نكون أبدا
أو لا نكون أبدا
غدا وما أدنى غدا لو تعلمون
إما نكون أبدا أو لا نكون

إذا المحنة الكبرى وكارثة الدهور كما يراها باكثير هى اغتصاب اليهود لأرضنا الطهور، وجعلها أرضهم بينما يتشرد العرب، ويتفرقون بددا، فهذا الاغتصاب أشد من الاستعمار الغربى المعروف، لأنه يهوِّد الأرض، ويخليها من أهليها، ويشردهم فى المنافى والملاجئ ، وتتعدد الإشارة إلى الحاضر فى أكثر من مقطع بالقصيدة، وذلك من خلال رفض الصلح مع الغزاة القتلة اليهود مهما كانت الأحوال فى غير صالحنا، فنحن نملك قوة الوحدة العربية، ونملك البترول، ونملك الإيمان قبل ذلك، وفى التاريخ نماذج وأمثلة عديدة، تؤكد سلامة ما يذهب إليه ويدعو، ومهما فعل اليهود فإن مصيرهم إلى الهزيمة لا مفر، ولذا كان تأكيده وإصراره على رفض الصلح، ومن المفارقات آنئذ أن مؤتمر القمة الذى انعقد بالخرطوم عقب هزيمة ١٩٦٧م، أصدر قراره المشهور باللاءات الثلاث: لا صلح، لا اعتراف، لا مفاوضات.. وكأنه أخذ بفكرة باكثير التى كانت أسبق الجميع فى عز المعمعة والانهيار:

لا صلح يا قومى وإن طال المدى
وإن أغار خصمنا وأنجدا
وإن بغى وإن طغى وإن هددا
وروع القدس وهدّ المسجدا
أو شاد فى مكانه هيكله الممردا
وشرد الألوف من ديارهم وطرّدا
وذبح الأطفال والنساء والشيوخ ركعا
وسجدا
يلتمس العدو صلحنا سدى
لا لن يكون سيدا
ولن نكون أعبدا...

والمفارقة أن باكثير كان سابق أوانه يرد على الذين تصوروا أن الصلح مع العدو سيحيل حياتنا إلى حياة رخية غنية وسنستمتع بالطعام والغذاء والكساء والسلاح.. لسبب بسيط وهو أن أمريكا تعطى بيد وتأخذ أضعاف ما تعطى باليد الأخرى، ثم إنه يضع الصلح مع العدو فى خانة واحدة مع الكفر بالله:

هيهات أن نكفر بالله الصمد
فنقبل الصلح مع الخصم الألد
وإن وعدنا برخاء ورغد
ومدد إثر مدد
من الطعام والكساء والسلاح والعدد
فإن أمريكا التى تعطى بيد
تسلبنا أضعاف ما تعطى بيد

ثم إنه متنبه للغاية لما تصنعه أمريكا، فهى تعطى ما تأخذه منا إلى اليهود تقوية لهم ومعونة حتى يستمروا فى عدوانهم، وفجورهم:

وتمنح اليهود من ثروتنا ما ليس
يحصى أو يعد

ومن هنا فالقبول بالصلح والرضا بما تقوله أمريكا هو سبة وذلة وضيعة وكفر بل أشد من الكفر:

هيهات أن نقبل سبة الأبد
وذلة البلد
وضيعة الولد

إن قبول الصلح كفر بل أشد...

إن الدعوة إلى الصلح هى دعوة إلى الموت وليس الحياة، ولذا فلن يقبل هذه الدعوة أحد، وستكون دعوة سدى، لأن أحدا لن يصغى إليها.

[٥]

التخيير بين إرادة الحياة والموت، ورفض الصلح مع العدو مهما كانت المغريات، يمهدان للدعوة الحماسية التى يطلقها باكثير حاملة البشارة والنبوءة بالانتصار الأقدم، مهما مارس اليهود من قهر ومن فجور، ويشير عبده بدوى إلى أن باكثير يبدو متأثرا بحماسة أبى تمام، والحماسات الأخرى التى عرفها الشعر العربى القديم مثل حماسة البحترى والحماسة البصرية والحماسة البغدادية وحماسة الظرفاء إلى آخر هذا النوع من الحماسات[٥]، وهذا النوع من أغراض الشعر عرفته الحضارة العربية الإسلامية، بوصفة حالة إيجابية تتعلق بالدفاع عن الوجود العربى الإسلامى، وتبذل فى سبيله كل غال ونفيس، حتى تتحقق العزة والكرامة والهيبة، لذا نجد باكثير يطرح فى بقية المقاطع حالة من الاستنفار بدعوة أبرز الدول العربية إلى الجهاد والدفاع عن فلسطين والمقدسات وتحريرها من قبضة الغزاة القتلة، إنه يخاطب خادم الحرمين ويخبره أنه إذا كان غيره عليه واجب فعليه هو واجبان مقدسان، كلاهما دنيا من المجد ودين، فقد ذل المسجد الثالث وهان وسلمه الأمريكان إلى اليهود عداوة منهم لدين المسلمين وكتابهم وانبعاثهم، بوصف ذلك حلقة جديدة من حلقات الزحف الصليبى اللعين. وينتقل إلى الأردن فيمدح الملك حسين فتى الفتيان، ويدعو له أن يعيش بطلا طليق اليدين فهو قائد المعركتين ومليك الضفتين، فليبق سندا للعرب. ثم يحيى بالريحان دولة الكويت وشعبها، قلعة العرب، والسد الهائل الذى يحمى كيان العرب، ويشيد بحكومة الكويت حين أهابت بملوك الزيت (النفط) أن يقطعوه عن لصوص الزيت، الطغاة المجرمين عبيد صهيون حتى يخروا راكعين، ويتوقف عند أمير الكويت ودوره فى معركة النفط. ثم يتجه إلى الجزائر فيلقى عليها السلام العاطر؛ لأنها موطن عبد القادر، مسجل المآثر ومنبت الشعب الأبى الثائر، شعب المليون شهيد، وبعد الجزائر يأتى السودان فيلقى عليه تحية مسكيَّة السلام الذى آمن بوحدة العرب فى مواجهة العدو، وفى ثوان أرسل جيشه إلى الميدان وسحب أرصدته من بنك الصليبى الجبان وقطع العلاقات مع الذين ساندوا العدوان، وصاح بالعودة إلى الإيمان وتكوين الكيان العربى الموحد القوى لمواجهة العدوان، ويوجه أزكى السلام للجنوب المستقل (جنوب اليمن الذى كانت تحتله بريطانيا) الذى يقاوم ويصنع ملحمة





كان باكثير في شعره الغزير، مرتبطا بما يجري على الساحة السياسية والوطنية والقومية



الاستقلال، ويقدم أسمى التحيات للعمال العرب، العدة الكبرى والجيش اللجب، الآخذين بحلوق المعتدين والقاطعين منهم الوتين من غير مدفع ولا طيارة، وسلاحهم الإرادة الجبارة التى تضىء كالشرارة..

إن هذا التحشيد والتحميس الذى يجمع العرب على فكرة الجهاد ليس لمجرد العيش أو الاستقلال، ولكن من أجل الغاية الإيمانية التى تجعل المسلم يسعى إلى الآخرة، والرضا الإلهى، تعززه رؤية مستقاة من الماضى وفقا لإحساسه بفكرة الزمن، فهو على سبيل المثال، يرى أن من واجبنا بوصفنا أمة الحق المبين أن ندفع الظلم عن المستضعفين مثلما فعلنا فى الماضى ورحمنا الناس من صولة الفرس وبغى الروم، فإنه يتوجب اليوم أن نريح العالم من صهيون ومن عبيده الملاعين الطغاة:

صبرا بنى قومى فما أحسب
إلا أنه شاء القدر
أن تنهضوا اليوم بما قام به يوما عمر
إذ جاهد الطغاة فى العالم فانتصر
وحرر البشر
من مجرمى البشر
ووطد السلام فى الأرض
وعدله انتشر...

وإذا كانت الهزيمة ساحقة فى يونيه ١٩٦٧م، فإن التاريخ يقدم كثيرا من الأمثلة التى انهزم فيها المسلمون، ولكن الهزيمة لم تقض عليهم، بل نهضوا بعد انسحاق، وحققوا النصر، وانطلقوا يبنون ويعمرون ويقدمون للإنسانية أروع النماذج للسلام والعدل والحرية..

فى يوم أحد انهزم المسلمون، وفى يوم حنين انهزموا أيضا فى بداية المعركة، ولكن الهزيمة كانت مؤقتة، عرف بعدها المسلمون سبب هزيمتهم أو تقصيرهم فعالجوه، واستطاعوا أن يصنعوا انتصارات أكبر وأعظم:

المسلمون انهزموا يومى حنين وأحد
من غفلة بالمسلمين واغترار بالعدد
والمصطفى يذود عنهم ويصول كالأسد
هل ضعف الإسلام من بعد حنين
وأحد؟
لا بل علا سلطانه بعد حنين وأحد
وأنجز الرحمن ما وعد
وانتشر الهدى

ويضيف إلى هذا المقطع الذى يستدعيه من الماضى رؤيته للمستقبل، الذى يراه حقيقة ماثلة أمامه رأى العين، مكررا

اللازمة التى يختم بها مقاطع قصيدته، مؤكدا على حتمية الوجود الظافر، وإلا فالعدم سيكون هو البديل:

لا لن تهيضنا الخطوب
أو يخيفنا الردى
إما نكون أبدا
أو لا نكون أبدا
غدا وما أدنى غدا لو تعلمون
إما نكون أبدا أو لا نكون

وما بين استدعاء الماضى واستشراف المستقبل، يلح باكثير على التجييش والتحميس، من خلال بث الحمية فى نفوس العرب، والتبشير بهزيمة العدو اللعين:

يا ويل إسرائيل من يوم عصيب
يعلو نحيبها به لو كان
فى إمكانها النحيب
دامى الضحى مخضب المغيب
يثنى به البحر على الكثيب...

إن باكثير يستشرف اليوم الأغر الذى يترقبه، والعرب يترقبونه أيضا، من خلال الانقضاض على العدو ودحره تماما فى مواجهة فاصلة:

لابد من يوم أغر
ننقض فيه كالقدر
على عدونا الأشر
على اليهودى الذى فجر
حتى يلوذ بالجدر
فليس تأويه الجدر
وما له منا مفر...

وهناك دعوات مبثوثة ومباشرة للقتال ضد العدو، لردعه وسحقه وتخليص العدو من ويلاته وشروره، مع التأكيد على عدم التخوف أو التهيب من طغيانه أو جبروته، وأيضا مع تقديم الحيثيات التى تستوجب قتاله ومواجهته:

فقاتلوا يا عرب
أئمة الكفر ولا تهيبوا
أئمة الطغيان
الحاكمين الآن
فى دول العدوان
ليس لهم أيمان
ولا مواثيق تصان...

ويرى باكثير أن القتال ضد العدو هو التحدى الأكبر الذى لا مفر للعرب من قبوله، حتى يأتى اليوم الأغر:

هذا التحدى الأكبر
قد جاءنا على قدر
يكمن فيه الخطر
وما لنا منه مفر
سيروا بنى العرب إليه
وقاتلوا بين يديه
حتى يتم الظفر
ويشرق اليوم الأغر





ويعد باكثير من أنصار الوحدة العربية بمفهومها الإسلامى عبر عن ذلك فى شعره ونثره على السواء



يومئذ نخر ساجدين
لله شاكرين حامدين...

[٦]

من أبرز الظواهر الفنية فى القصيدة المطولة لباكثير بالإضافة إلى ظواهر التكرار والتخيير والعرض المنطقى، ظاهرة التأثر القرآنى تضمينا أو تناصا، ويرجع ذلك إلى ثقافة الشاعر، وانتمائه إلى الثقافة الإسلامية، وانحيازه إليها، وهى ثقافة أساسها القرآن الكريم دستور الأمة ومنهجها الأساسى، والتأثر الشعرى بالقرآن الكريم مبثوث فى ثنايا القصيدة، ويستطيع القارئ للقصيدة أن يلمسه فى أكثر من موضع، فإذا قرأنا المقطع الختامى سنجده، يستدعى قوله تعالى «إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون»[٦]، وقوله تعالى «والطور. وكتاب مسطور. فى رق منشور. والبيت المعمور»[٧]، وقوله تعالى: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله..»[٨]، وقوله تعالى: «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين»[٩].. يقول المقطع الختامى:

لا والذى يقول كن لما يشاء فيكون
وقسما ببيته المحرم المصون
لمثلما كنا قديما سنكون
ومثلما أرادنا كتابنا سوف نكون
أعزة مناضلون!
وأقوياء عادلون !
لا لن نذل أبدا ولن نهون
وإن تواطأ الطغاة أجمعون
فليسمعوا.. هل يسمعون؟
وليشهدنّ العالمون
إنا علينا أن نكون
أعزة أو لا نكون

إن استحضار الإرادة الإلهية المطلقة أو طلاقة المشيئة الإلهية، يعنى أن الهزيمة والضعف والهوان ليست أمورا أبدية، ولكنها أمور مؤقتة، تتغير حين يأخذ العرب بالأسباب ويرتبطون بالإيمان؛ سوف يجدون عندئذ النصرة الإلهية فى معيتهم، إن الشاعر يقسم بمن يملك القدرة الإلهية، ومن يقول للشىء كن فيكون، ثم يقسم بالبيت المعمور، المحرم المصون، حيث يأتى جواب القسم حادا ومحددا وعنيفا ومرعبا؛ لمن وقفوا ضد المنهج وضد التوحيد والقدرة الإلهية والبعث والحساب، واستمرءوا الظلم والبغى والعدوان: «إن عذاب ربك لواقع. ما له من دافع. يوم تمور السماء مورا. وتسير الجبال سيرا. فويل يومئذ للمكذبين»[١٠]، إن استدعاء القسم بالبيت المعمور، المحرم المصون،ليس مجرد قسم عادى، وإنما هو قسم له ما بعده يؤكد على انتصار العرب أو تحقيق الوعد بالنصر، وما يتبع ذلك من هزيمة تلحق بالمعتدين «إن عذاب ربك لواقع..»، ومثلما كنا قديما سنكون ومثلما أرادنا القرآن الكريم «كنتم خير أمة..» سنكون أعزة وأقوياء «إنا علينا أن نكون، أعزة أو لا نكون»..

هكذا يأتى الحضور القرآنى تضمينا ذا دلالة تمنح المعنى، بعدا إيمانيا من ناحية، وتأكيدا على تحقيق مضمون القسم بالكينونة والوجود من ناحية أخرى. وإشارة إلى عمق الوعى بالقرآن الكريم وآياته لدى الشاعر، ورهافة إحساسه بدلالة الآيات الكريمة وموهبته الساطعة فى استخدامها فى مواضعها لتخدم الفكرة أو الأفكار التى يريد أن يبثها، ويرسلها إلينا نحن القراء.

وبصفة عامة فإن التأثر بالقرآن الكريم فى القصيدة يتفاوت عمقا وسطحية بحسب الموقف الانفعالى للشاعر، والظرف الذى كتب فيه المقطع الشعرى، فقد يأتى التأثر عميقا كما رأينا فى المثال السابق، وقد يأتى فى إطار مباشر كما نرى فى قول الشاعر تعبيرا عن اليوم الأغر الذى تنهزم فيه قوى العدوان وتلوذ بالجدر:

وما له منا مفر
نصليه من نار سقر
والنار لا تبقى ولا تذر
إلا جسوما فى الحفر
كأنها أعجاز نخل منقعر..

والأبيات تصوير لحال المنهزمين اليهود فى اليوم الأغر المأمول، ومعظمها يشير إلى آيات قرآنية مشهورة، فالبيت الأول «وما له منا مفر» يذكر بقوله تعالى «يقول الإنسان يومئذ أين المفر؟»[١١]، والبيت الثانى والبيت الثالث «نصليه من نار سقر، والنار لا تبقى ولا تذر»، يستدعيان قوله تعالى «سأصليه سقر. وما أدراك ما سقر لا تبقى ولا تذر»[١٢]، والبيت الخامس «كأنها أعجاز نخل منقعر» هو تشبيه طبق الأصل من قوله تعالى: «تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر»[١٣]، والآيات المؤثرة تصب كلها فى سياق ترهيب المخالفين لمنهج الله، والمتحدين لقدرته، والمشركين به، حيث يعرض عليهم ما يجرى بعد البعث من أهوال لا يستطيعون منها فرارا، وعذابا لا طاقة لهم به.

ونستطيع أن نلمح هذا التفاوت فى التأثر القرآنى عبر القصيدة الطويلة، فى مواضع عديدة يدركها القارئ الذى يحفظ القرآن الكريم، ويفهم أبعاده الدلالية والمعنوية، ومنها قول الشاعر عن ضرورة استخدام سلاح البترول ضد الأمريكان والدول المساندة للعدوان الصهيونى على العرب:

فالطم بكف النفط وجه الأمركان
واقطع به من كفهم كل بنان
هم العدا لا بد من ضرب العدا...

أو يشبه يوم الحساب بالنسبة لمن يمتنعون عن استخدام النفط، ويخونون عهد العرب والإسلام بقوله:

وهو أمام الله مسئول غدا يوم تصير
وردة مثل الدهان

أو يصور المستعمرات اليهودية فى النقب بجنوب فلسطين بقوله:

وفى رمال النقب فى الجنوب
مستعمرات جوها كئيب
أصابها من السماء حاصب فهى
حصيب
جوارح الطير بها تلوب على موائد
غنية بلا نضوب...

أو فى تصوير حال العربى اليوم:

والعربى اليوم إما مؤمن بربنا أو بهبل
إما يقول: الله أعلى وأجل

أو فليقل بملء فيه: اعل هبل
من شاء فليكفر ومن شاء اهتدى
إما نكون أبدا
أو لا نكون أبدا...

[٧]

ولا شك أن مسيرة باكثير فى القصيدة تؤكد على عمق إدراكه للصراع بين العرب، والمسلمين عموما وبين الغرب الاستعمارى من خلال صنيعته الصهيونية فى فلسطين المحتلة، وقد ساعده على ذلك ثقافة أصيلة فى جانبيها الإسلامى الناضج، والأجنبى المضىء، فقد تربى على القرآن الكريم والحديث الشريف والعلوم الشرعية فى صباه، ثم درس اللغة الإنجليزية وآدابها فى شبابه من خلال كلية الآداب جامعة القاهرة، ثم ذهابه إلى إنجلترا ليستوعب الثقافة الغربية فى بيئتها الأصلية، وهذا أهله ليقرأ القضايا التى يعالجها قراءة تفقه المقدمات جيدا، ويصل إلى نتائج دقيقة جعلت مسرحياته وقصصه وشعره، تدخل فى سياق ما يعرف بأدب النبوءة أو استشراف المستقبل، والتبشير بالنصر، وهزيمة العدوان، وقد أكدت الأحداث قيام دولة العدوان النازى اليهودى؛ كما تنبأ بذلك فى مسرحيته «شيلوك الجديد»، وسقوط الشيوعية كما تنبأ باكثير فى روايته «الثائر الأحمر» قبل عقود من سقوطها أوائل التسعينيات من القرن العشرين، وعودة الشعوب الشيوعية إلى الدين مرة أخرى، وكانت مطولته التى بين أيدينا «نكون أبدا أو لا نكون» بشارة بالعبور فى رمضان ١٩٩٣ هـ = أكتوبر ١٩٧٣م، وكسر ذراع الصهيونية الطويلة، وهدم سد بارليف الحصين الذى قالت التقديرات العسكرية الأجنبية إن اختراقه يحتاج إلى ثلاثة قنابل نووية، ولكن الإيمان بالله وإعداد القوة المستطاعة، واستخدام سلاح البترول كما طالب باكثير، حققت جميعا نصرا تاريخيا، ومعركة فريدة فى التاريخ مازالت تدرس فى الأكاديميات العسكرية العالمية حتى اليوم.

وللأسف فقد توفى باكثير قبل أن يرى العبور أو يرى العلم المصرى مرفوعا على الضفة الشرقية لقناة السويس، وفرار اليهود الغزاة، وأسرهم منكسى الرءوس..

وللأسف فإن النصر الذى تحقق، لم يمض فى الاتجاه المتنامى، وجاءت المبادرات، والانتكاسات التى أعادت العرب إلى المربع الأول، ولكن رؤية باكثير تبقى هى الرؤية الأصوب، وتظل الانتكاسات التى يعيشها العرب بعد حرب رمضان بما يقرب من أربعين عاما، مجرد انتكاسات مؤقتة وعارضة، لأن العدو ومن يدعمونه لا يريدون سلاما ولا إعادة لحقوق العرب والمسلمين، ولذا سيظل الصراع قائما حتى ينهض العرب والمسلمون مرة أخرى وفق ما تصوره باكثير من ضرورة الجهاد فى سبيل الله، واتخاذ الوسائل الممكنة، والوقوف فى وجه الداعمين للصهاينة وقفة تليق بالعرب والمسلمين وعزتهم وكرامتهم.

وكما قال باكثير فى ختام مطولته:

لا لن نذل أبدا ولن نهون
وإن تواطأ الطغاة أجمعون
فليسمعوا.. هل يسمعون؟
وليشهدنَ العالمون
أنا علينا أن نكون
أعزة أو لا نكون. ■

الهوامش:

(١) من كلمته التى ألقاها فى حفل تأبين باكثير باسم الاتحاد العام لكتاب فلسطين بالقاهرة، ١٩٧٠، نقلاً عن كتاب: محمد أبوبكر حميد، على أحمد باكثير فى مرآة عصره، مكتبة مصر، القاهرة، د. ت. ص

(٢) اهتم محمد أبوبكر حميد بنشر إنتاج باكثير المخطوط، وتجميع المنشور فى المجلات والصف، وخاصة الشعر، فنشر: ديوانه «أزهار الربا فى شعر الصبا»، الدار اليمنية للنشر والتوزيع، توزيع دار المنهل، بيروت، ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٧٨ م، ثم «سحر عدن وفخر اليمن»، مكتبة كنوز المعرفة، جدة / السعودية، ودار حضر موت بالمكلا /اليمن، ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م، وهناك ديوانان آخران فى طريقهما إلى النشر أولهما صبا نجد وأنفاس الحجاز، ووحى ضفاف النيل، والدواوين الأربعة تغطى مراحل حياته فى حضر موت وعدن والحجاز ومصر.

(٣) نشرت القصيدة أولا ضمن دراسة طويلة فى كتيب صدر عن نادى جازان الأدبى ـ السعودية عام ١٩٨١م، ثم ظهرت مع الدراسة فى كتابى «القصائد الإسلامية الطوال فى العصر الحديث ـ قراءة ونصوص» فى طبعات متعددة، أحدثها الصادرة عن دار النشر الدولى ـ الرياض، ١٤٣٠ هـ ـ ٢٠٠٩ / (طبعة مزيدة ومنقحة).

(٤) كتاب الحكمة، وثائق مهرجان باكثير، دار الحداثة، بيروت،١٩٨٨م، ص ١٠٢- ١٠٣.

(٥) السابق، ص ١٠١.

(٦) سورة النحل : ٤٠، وانظر سورة مريم: ٣٥، ويس: ٨٣، وغافر: ٦٨.

(٧) سورة الطور: الآيات ١-٤.

(٨) سورة آل عمران: الآية١١٠.

(٩) سورة المنافقون: ٨.

(١٠) سورة الطور: الآيات ٧ ـ ١١.

(١١) سورة القيامة: الآية ١٠.

(١٢) سورة المدثر: ٢٦ ـ ٢٨.

(١٣) سورة القمر: ٢٠.

كتاب الزاوية



بردة البوصيرى
فى التحذير من الهوى

فإنَّ أمَارتى بالسوءِ ما اتعظت
من جهلها بنذير الشيب والهرمِ
ولا أعدّتْ من الفعل الجميل قرى
ضيفٍ ألمّ برأسى غيرَ محتشمِ
لو كنتُ أعلم أنى ما أوَقرُه
كتمتُ سراً بدا لى منه بالكتمِ
منْ لى بردِّ جماحٍ من غوايتها
كما يُردُّ جماحُ الخيلِ باللُّجُمِ
فلا ترمْ بالمعاصى كسرَ شهوتها
إنَّ الطعامِ يقوى شهوةَ النَّهمِ
والنفسُ كالطفل إن تُهْملهُ شبَّ على
حب الرضاعِ وإن تفطمهُ ينفطمِ
فاصرفْ هواها وحاذر أن تُوَليَهُ
إن الهوى ما تولَّى يُصْمِ أو يَصِمِ
وراعها وهى فى الأعمالِ سائمةٌ
وإنْ هى استحلتِ المرعى فلا تُسِمِ
كمْ حسنتْ لذةً للمرءِ قاتلةً من
حيث لم يدرِ أنَّ السم فى الدسمِ
واخش الدسائس من جوعٍ ومن شبع
فرب مخمصةٍ شر من التخمِ
واستفرغ الدمع من عين قد امتلأتْ
من المحارم والزمْ حمية الندمِ
وخالف النفس والشيطان واعصِهما
وإنْ هما محَضاك النصح فاتَّهِمِ
ولا تطعْ منهما خصماً ولا حكما
فأنت تعرفُ كيدَ الخصم والحكمِ
أستغفرُ الله من قولٍ بلا عمل
لقدْ نسبتُ به نسلاً لذى عُقُمِ
أمرتُك الخيرَ لكنْ ما ائتمرْتُ به
وما استقمتُ فما قولى لك استقمِ
ولا تزودتُ قبل الموت نافلةً
ولم أصلِّ سوى فرضٍ ولم أصمِ

حتى لو عرفنا.. لن نعرف..!

■■ بلغة لا تصعب على من ألف حدا أدنى من مفردات علم الفيزياء، وبأسلوب شائق لا نعهده فى كتب تأريخ العلم، يعرض هذا الكتاب ملحمة تشكيل نظرية الكم وركائزها العلمية والتطورات التى مرت بها والصيغ التى انتهت إليها، ويعرج على تفاصيل شخصية واجتماعية وسياسية تضع هذه الملحمة فى سياق ثقافى عام، وآخر فلسفى خاص، يركز على حالة الجدل التى أثارتها نظرية الكم، ويعنى بالمضامين الميتافيزيقية والمعرفية والحمولات القيمية والمنهجية التى يعتمل بها مبدأ الريبة، قطب رحى هذه النظرية ومركز عود ثورتها على الفيزياء التقليدية.

ثمة حقيقة بدهية، وإن ظلت مؤسية، مفادها أن الكائنات البشرية ليست كلية العلم. لم يسبق لأحد من البشر أن عرف كل شىء، ومن غير المرجح أن يتسنى لأحد منهم أن يعرف كل شىء. هذا حكم يختلف الفلاسفة على تسويغه، لكنهم قد لا يجمعون على شىء قدر إجماعهم عليهم. حتى فى السياقات العلمية، حيث توظف أدوات ضبط غاية فى الإحكام، تعانى النتائج التجريبية من عوز فى الدقة، فيما تؤسس الفروض العلمية على شواهد تقصر عن ضمان صحتها.

غير أنه لا يبدو أن هناك ما يحول من حيث المبدأ دون هتك حجب الجهل البشرى حال تيسر الأدوات المناسبة لهتكها. الراهن أن هذا مؤدى مذهب أشياع الحتمية، الخصوم التقليديين لمبدأ الريبة. إذا عرف الإنسان كل الأوضاع الراهنة فى الكون وأدرك مجمل النواميس التى تحكم ظواهره، سوف يستطيع الدراية بجميع أوضاع مستقبله. بيد أن هذا الحكم يبدو بدهيا وغاية فى الضعف، أقلّه لأنه يقال بصيغة شرطية يصعب استيفاء أشراطها.

مكمن خطر مبدأ الريبة أنه إنكار مؤسس علميا للمذهب الحتمى الذى بدا لقرون غاية فى البداهة. لقد عبر ماركيز دى لابلاس أبرز دعاة عن هذا المذهب بقوله إن «المفكر الذى يعرف فى كل لحظة كل القوى التى تبث الحياة فى الطبيعة والمواضع المتبادلة التى تتخذها الكائنات التى تتألف منها هذه الطبيعة، إذا كان عالما بما يكفى لتحليل البيانات، سوف يستطيع أن يكشف فى معادلة واحدة حركة أجسام الكون الأعظم وحركة أخف ذراته؛ عند هذا المفكر، لا شىء موضع ارتياب، والمستقبل، مثل الماضى، سوف يكون ماثلا أمام عينيه.»

المثال اللابلاسى، وإن لم يضمن المعرفة الكلية واقعا ملموسا، يتضمن وعدا بها، وعدا بفردوس اليقين، يرتهن تحقيقه بتبنى خيار العلم واستمرار الحياة الدنيا أبد الآبدين. هذا ما يجعل الحتميين واثقين من تراكمية العلم، من «أن طواحينه سوف تطحن دقائق متعاظمة الصغر»، ومن أنه لا شىء يحول دون المعرفة الكلية سوى فناء الجنس البشرى. باختصار، الطبيعة وفق هذا المثال قابلة لأن تعرف، «وإذا حدث أن تعثر مشروع الفهم العلمى المطلق، فلأن العقل البشرى لم يكن قادرا على إنجاز هذه المهمة، وليس لأن الطبيعة لم تكن قابلة للفهم.»

البشارة الحتمية إذن قاطعة لا مواربة فيه: إذا انتظرنا ما يكفى من الوقت، سوف نعرف كل شىء. وعلى حد تعبير أينشتين، فإن «أشد الأشياء استغلاقا على العقل هو أن العالم يمكن تعقله»، ما يعنى أن كل شىء فى الطبيعة قابل للفهم، إلا كونها قابلة للفهم.

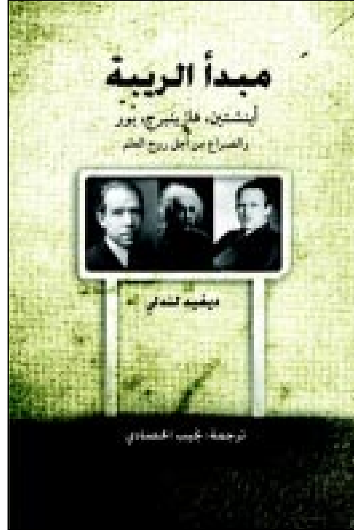
غير أن هايزنبرج، صاحب مبدأ الريبة، يشكك فى هذه البشارة. حتى لو استطاع البشر معرفة الأوضاع الراهنة فى الكون، لن يتمكنوا من التنبؤ بمستقبله. تحديدا، كلما كان الملاحظ أكثر دقة فى قياس طاقة حدث كمومى ما، قلّت قدرته على تحديد زمن هذا الحدث؛ وكلما جاهد فى الحصول على معلومات عن موضع الإلكترون، قل احتمال درايته بكمية حركته؛ وكلما ازداد تيقننا من كمية حركته، استعصت عليه معرفة موضعه. ليس هذا «مجرد قيد على الانتشار الإحصائى لنتائج القياس، بل مبدأ يقنن ما يمكن قوله عن الجسيمات بوجه عام». إنه يشى بعجز بشرى متأصل عن فهم العالم الفيزيقى. لا شىء يمكن أن يعرفه البشر بمعنى نهائى، لأن كل ما يوجد إنما يوجد بوصفه احتمالا (Steve J. Bissel).

يقال إن ارنست رذرفورد سأل نيلز بور عما يسبب تحول الإلكترون من وضع إلى آخر، وإن بور أمضى معظم ما تبقى من حياته فى محاولة توضيح أن السؤال غير مهم. لا شىء «يسبب» تحول الإلكترون، والأمر برمته لا يعدو أن يكون دالة احتمالية. يبدو أن مبدأ الريبة يبشر بأن عهد السببية قد ذهب إلى غير رجعة وأن عالمنا شىء عارض تماما، أنه «ببساطة واحد من تلك الأشياء التى تحدث بين الحين والآخر» (Edward Tryon).

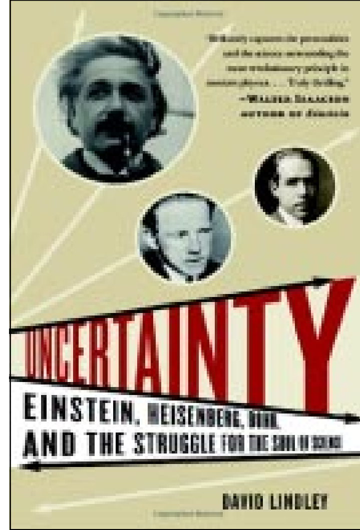
هناك إذن هشاشة فى البنية التحتية، فى مواضع بدت آمنة على نحو بدهى، وثمة جهل محتم مأتاه أن القياسات التى يقوم بها العلماء ليست تصورات خاملة لعالم موضوعى، مفارق ومعتصم باستقلاليته، بل تفاعلات عاملة يسهم فيها المقاس بقدر ما تسهم فيها الطريقة التى تم بها القياس.

غير أن مبدأ الريبة الذى يقول به هايزنبرج ليس مجرد تأكيد لشىء نعرفه أصلا، إن حضور الملاحظ يؤثر بطريقة ما فى سلوكيات ما يقوم بملاحظته، فهذه نتيجة أسفرت عنها منذ أمد بعيد دراسات إنسانية واجتماعية عديدة. الجديد فى هذا المبدأ هو أن القياس لا يزعج المقاس فحسب بل يقوم بتحديده. حقيقة أن ما نحصل عليه من القياس يتوقف على ما اخترنا قياسه لا طرافة فيها؛ الطريف هو «أن قياس جانب من النسق يوصد الباب فى وجه ما يمكن اكتشافه من أشياء أخرى، ومن ثم فإنه يقيد بشكل محتم المعلومات التى يمكن لأى قياس مستقبلى أن يفضى إليها».

هذا يختلف عن الحكم البدهى أن البشر يعرفون أشياء ولا يعرفون أخرى، وعن الحكم الحتمى أننا لو عرفنا أشياء لعرفنا كل شىء. إن مبدأ الريبة يقر أن معرفتنا بأشياء مأتى جهلنا بأخرى؛ كما لو أن العلم يحتم الجهل. فى العلم قبل ميكانيكا الكم، «لكل شىء موضع، وثمة موضع لكل شىء»، وإمكان فهم العالم مؤسس على إمكان التعرف



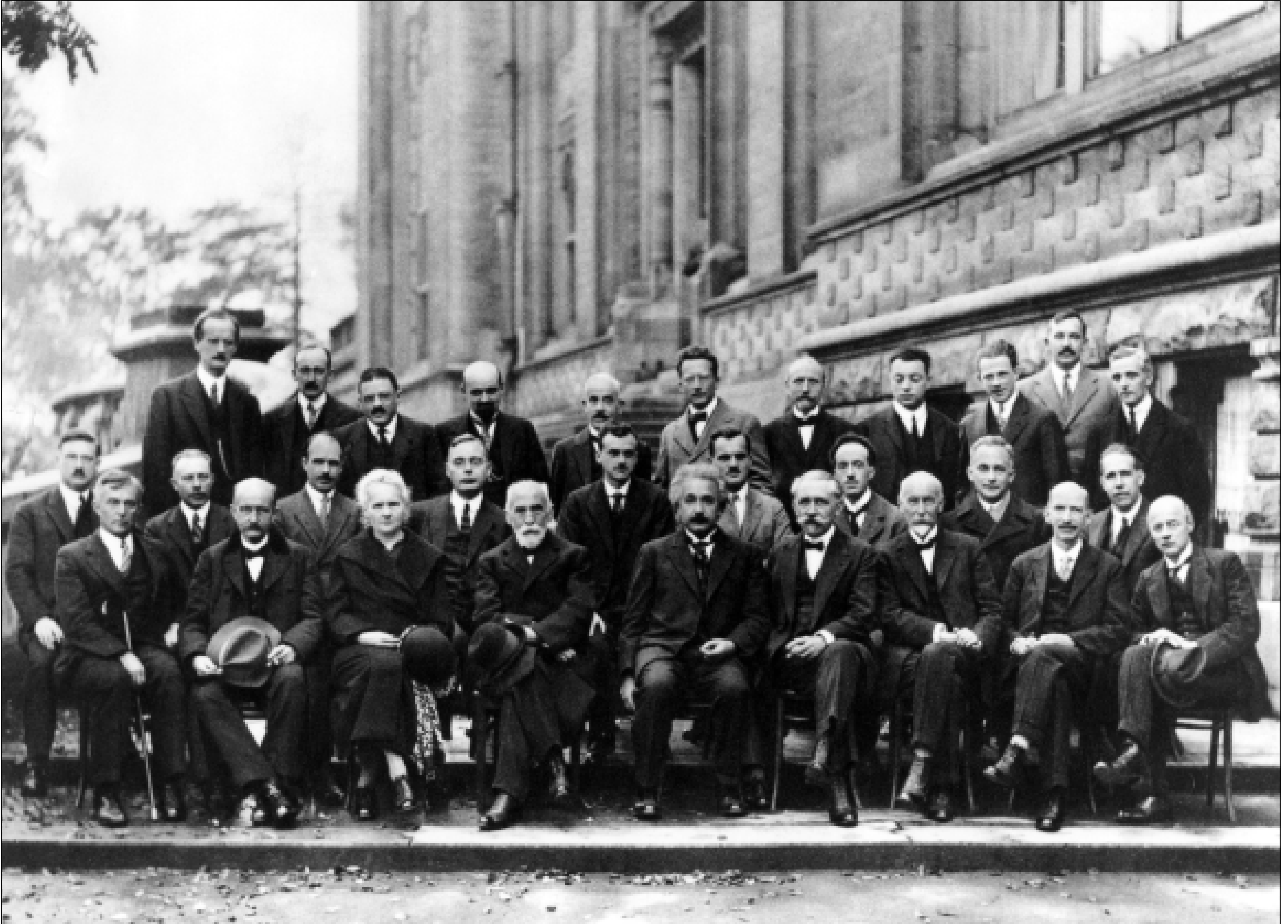
مبدأ الريبة، والصراع من روح العلم
دافيد لندلى
ترجمة: نجيب الحصادى
دار العين للنشر، القاهرة
كلمة، أبو ظبى



Uncertainty: Einstein, Heisenberg, Bohr, and the Struggle for the Soul of Science
David Lindley
Doubleday, 2007

لم يسبق لأحد من البشر أن عرف كل شىء، ومن غير المرجح أن يتسنى لأحد منهم أن يعرف كل شىء

نجيب الحصادى



في عام ١٩١١ قام إرنست سلوفاي عالم الكيمياء ورجل الصناعة البلجيكي بتأسيس محفل علمي أطلق عليه مجلس سلوفاي Conseil Solvay و يُعد أول مؤتمر فيزياء عالمي. أسس المجلس في بادئ الأمر لحل المسائل المعلقة في الفيزياء والكيمياء. وتعقد مؤتمراته كل ثلاث سنوات. والصورة (أعلى) أخذت عند نهاية المؤتمر الخامس لسلوفاي الذي عقد في أكتوبر ١٩٢٧، والذي ساد التوتر أجواءه، بعد أن اختلف أينشتاين مع هايزينبرج حول مبدأ الريبة Uncertainty Principle الذي وضعه الأخير. كما اختلف الحضور أيضا حول بحثٍ من نايلز بوهر وجماعة ممن وافقوه حول تفسير كوبنهاجن للذرة the Copenhagen interpretation of atom في مقابل جماعة أخرى أكثر محافظة كان على رأسها آينشتاين. في النهاية كان لرأي بوهر وجماعته الغلبة.

يذكر أن ١٧ من بين الـ ٢٩ الذين حضروا مؤتمر سلوفاي ١٩٢٧ والظاهرين في الصورة فازوا بجائزة نوبل

First Row (l to r): Irving Langmuir, Max Planck, Marie Curie, Hendrik Lorentz, Albert Einstein, Pierre Langevin, Charles Eugene Guye, C. T. R. Wilson, Owen W. Richardson
Second Row (l to r): Peter Debye, Martin Knudson, W. Lawrence Bragg, Hans Kramer, Paul Dirac, Arthur Compton, Louis de Broglie, Max Born, Niels Bohr
Third Row (l to r): Auguste Piccard, Emile Henriot, Paul Ehrenfest, Edouard Herzen,Théophile de Donder, Erwin Schrodinger, Jules-Emile Vershaffelt, Wolfgang Pauli, Werner Heisenberg, Ralph Howard Fowler, Leon Brillouin.
Seventeen of the twenty-nine attendees were or became Nobel Prize winners.

على أجزاء المادة ومواضعها وطاقتها وكمية حركتها. أما فى العلم الكمومى، فالعالم غير قابل للفهم لأنه لا رجاء فى معرفة كل هذه الأشياء فى آن واحد.

غير أن الاستحالة هنا ليست منطقية، إذ لا تناقض منطقيا فى إمكان أن يعرف البشر كل شىء؛ كما أنها ليست سيكولوجية، لأن إقرار عجز البشر عن المعرفة الكلية لا ينهض فى هذا السياق على قصور قدراتهم الذهنية أو ضعف استعداداتهم العقلية. إنها استحالة فيزيقية، بمعنى أن طبيعة العالم نفسها لا تسمح بها. إن هذا المبدأ لا يقول إن البشر قد خلقوا على نحو يحول دون قدرتهم على فهم العالم، بل يقول إن العالم قد خلق على نحو يحول دون قدرتهم على فهمه.

هكذا تقلق الريبة النظام القديم، ليس فقط فى حالة الدقائق المجهرية، بل حتى فى إحصاءات الجريمة، وشؤون الحرب والقتال، وحركة الأجرام السماوية فى مجرات الكون القصية. فجأة أصبحت كل اليقينيات موضع شك، وبغتة بدا الأمل فى المعرفة زائفا. لقد استبين فى نهاية المطاف، وخلافا لما اعتقد أينشتين، أن ثمة من يلعب بالنرد؛ أن ثمة من يرمى به حيث لا يراه أحد (Stephen Hawking).

العلم إذن ظنى لأسباب مغايرة لقصور الشواهد البشرية، ولضعف قدرات البشر الذهنية، بل مغايرة حتى لقلة حيلة الإنسان أمام رغائبه وأهوائه. العلم ظنى لأسباب كامنة فى الطبيعة نفسها. المناقب التى ظلت العلوم الطبيعية تستعلى بها قرونا على العلوم الإنسانية، الموضوعية والدقة وضبط المتغيرات، والناجمة جزئيا عن كونها تتعامل مع جوامد لا إرادة حرة لديها ولا مواقف عاطفية يتخذها العلماء إزاءها، تفقدها فجأة، وتفقد معها مبرر

نظرتها الدونية للإنسانيات. هذا مكمن خطر مبدأ هايزنبرج فى الريبة؛ لم يعد هناك ما يسمى بالعلوم الدقيقة.

بيد أن مبدأ الريبة لا يتطلع إلى جعل «الصحافة أو الأنثروبولوجيا أو النقد الأدبى تخصصات علمية، بل يخبرنا أن المعرفة العلمية، مثل فهمنا العادى للعالم اليومى الذى نعيش فيه، يمكن أن تكون عقلانية وعارضة، هادفة وطارئة.» إنه لا يجعل التخصصات الأقل علمية أكثر علمية، بل يجعل التخصصات التى بدت لقرون علمية أقل علمية مما توهمنا. إنه باختصار مدعاة للمزيد من الاحتراز فى إصدار الأحكام.

وفق هذا، لم يعد هناك براح لليقين والإطلاق والجزم، ولم يعد ثمة حق لأحد فى أن يزعم أن للحقيقة وجها واحدا أو بأن جهة دون غيرها قد عرفت هذا الوجه. يحدث هذا فى العلم، معقل الملاحظة والتجريب وإعمال أشد معايير الاختبار صرامة وإحكاما؛ فما عسى أن يكون عليه الأمر حين يرتهن بمسائل ميتافيزيقية أو أخلاقية أو سياسية أو أدبية؟ يظهر أن النزعة الدوجماطيقية بمختلف تمظهراتها تلقى مصارعها على يد هذا المبدأ، وأن بقاءها إلى يومنا هذا لا يثبت سوى عناد أنصارها.

ثمة عناية خاصة يوليها مؤلف الكتاب لما يسميه باستراتيجيات التنظير. هناك علماء يجدون حرجا فى قول ما لا يستطيعون التعبير عنه فى معادلات رياضية، لأنهم يجدون فى قابلية الفرض لأن يعبر عنه بطريقة صورية استحقاقا أساسيا لعلميته (بورن). فى المقابل، ثمة من يشترط قابلية الفرض للتجريب واقتداره على حل المشاكل (سمرفيلد)، دون أى احتفال بالأناقة الرياضية أو العمق الفلسفى. غير أن هناك من يعترض على بعض الفروض العلمية لأنه وإن فهمها بعقله لم يفهمها بقلبه (هايزنبرج)، كما لو أن للقلب أسبابا مشروعة لا يدركها العقل (بسكال)؛ وهناك أيضا من يقيم اعتبارا خاصا للمعايير الاستاطيقية، كالبساطة والأناقة فى العرض (أينشتين)، فيما يرى أحد رواد ميكانيكا الكم أنه لا يستطيع «أن يفهم معنى أن تكون النظرية جميلة، إذا لم تكن صحيحة» (بور). وبطبيعة الحال، فإن هذا التنوع فى إستراتيجيات التنظير يسهم فى إثراء النشاط العلمى، ويكرس المسحة الظنية التى تشوب عملياته، ويشكك فى صحة الوعود الحتمية. من منحى آخر، فإن نقاش هذه الاستراتيجيات يسهم فى تفسير عنوان الكتاب الفرعى؛ ثمة رؤى مختلفة فى العلم، صراع من أجل روحه، وكل طرف فى هذا النزاع يزعم أنه الظافر بهذه الروح.

هناك ملمح آخر يسم عمل ديفيد ليندلى. إنه يعرض شخصيات ملحمة تشكيل نظرية الكم بأسلوب سيكو - سوسيولوجى (نفس - اجتماعى). هناك عناية بالعواطف والأمزجة والسجايا والأطوار الغريبة، بمشاعر البهجة والحسد والألم والمعاناة، وبقيم المثابرة والجلد والإخلاص والولاء، وبميول التشبث والعناد والاستعلاء والمكابرة. الراهن أن كتاب «الريبة» لا يزعزع ثقتنا فى مفاهيم «الكلمة الفصل»، و«الحل النهائى»، و«الحقيقة المطلقة» فحسب، بل يزعزعها فى العلماء الكبار، من سلمنا بأنهم قدوة يتأسى بها فى الموضوعية والنزاهة والحياد.

وأخيرا، يتبدى أن مآل الخوض فى دلالات علم ميكانيكا الكم أن يثير أسئلة معرفية ووجودية قد لا يرى كثير من العلماء طائلا من ورائها. غير أنها تظل أسئلة مهمة. إنها تبين كيف أن العلم نشاط مقلق وأن أحكامه حمّالة أوجه ومثيرة للخلافات القيمية، وأن كل هذا إنما يجعله نشاطا إنسانيا بامتياز. هذا أيضا ما يجعل كتاب الريبة استثنائيا من أوجه عديدة. إنه يلبى فى آن شغف العالم والفيلسوف والفنان؛ وقبل كل ذلك وبعده، شغف الإنسان.



بقى أن أنوه إلى أنى آثرت الريبة ترجمة لعنوان الكتاب Uncertainty على اللاتيقن لعدة اعتبارات: أولها لغوية، فأداة التعريف لا تدخل على أدوات النفى؛ وثانيها أن اللاتيقن موقف سلبى خامل، فى حين أن الريبة موقف إيجابى عامل، وهذا ما أراده صاحبه منه؛ وثالثها أن حالة عدم التيقن قد تنتاب كل البشر، ولكن الريبة لا تليق إلا بالعلماء والمفكرين؛ ورابعها، أن «بعض الفلاسفة، ممن اعتقدوا أن البحث عن تصور موضوعى فى الطبيعة مجرد وهم، اعتبروا مبدأ الريبة دليلا على أن العلم نفسه يؤكد الآن شكوكهم،» ما يعنى أن هذا المبدأ يرتبط بالنزعة الارتيابية Skepticism حدا يسوغ عدّه تعبيرا علميا عنها، ويبرر ترجمة عنوان الكتاب على النحو الذى آثرت. ■

حدود «النظام»

دافيد لندلى

■■ إذا كان العلم محاولة لاستنباط النظام من الفوضى، فإنه فى بداية عام ١٩٢٧ قد جنح شطر طريق لم تكن فى حسبان أحد. ففى مارس ذلك العام، شكل فرنر هايزنبرج Werner Heisenberg، الذى كان عالم فيزياء لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، وإن حظى بشهرة عالمية، استدلالا علميا بسيطا وبارعا ومدهشا بالقدر نفسه. لم يكن فى وسع هايزنبرج نفسه أن يزعم معرفة ما قام به. لقد كدّ فى البحث عن كلمة مناسبة تعبر عن معناه. فى معظم الأحيان، كان يستخدم كلمة ألمانية تسهل ترجمتها إلى «عدم الدقة» inexactness، وفى موضعين، وبقصد يختلف اختلافا طفيفا، استخدم كلمة «اللاتحددية» indeterminancy. غير أنه تحت ضغوط لا تقاوم من أستاذه ومشرفه العلمى نيلز بور Niels Bohr، أكره هايزنبرج على إضافة ملحق طرح فيه تعبيرا جديدا على المشهد: الريبة (اللاتيقن). وهكذا أصبح اكتشاف هايزنبرج يعرف بشكل راسخ بمبدأ الريبة.

لم يكن هذا التعبير الأكثر مناسبة. الحال أن الريبة لم تكن عام ١٩٢٧ جديدة كلية على العلم. لقد كانت النتائج التجريبية تعانى دوما من عوز فى الإحكام. جودة التنبؤات النظرية إنما تكون بجودة الافتراضات التى تتكئ عليها. إبان السعى أشواطا بين التجربة والنظرية، الريبة محدد ما يتوجب على العالم القيام به. تستدعى التجارب باستمرار تفاصيل أكثر دقة، فيما تخضع النظريات لعمليات تعديل وتنقيح مستمرة. وحين يحسم العلماء أمر مستوى من الخلاف، فإنهم ينتقلون إلى مستوى آخر. الحال أن الريبة، والتعارض، وعدم الاتساق من ضمن تجهيزات كل تخصص علمى حيوى.

وفق هذا، لم يكن هايزنبرج أول من طرح الريبة فى العلم. ما قام بتغييره، بطريقة معمقة، هو طبيعة هذه الريبة ومعناها. لقد بدا العلم دوما عدوا يمكن قهره. منذ كوبرنيكس وجاليليو، كبلر ونيوتن، تطور العلم عبر تطبيق الاستدلال المنطقى على الحقائق والبيانات التى يمكن التحقق منها. لقد قصد من النظريات، المعبر عنها بلغة الرياضيات الصارمة، أن تكون تحليلية ودقيقة. إنها تؤمّن نسقا، بنية، تصورا شاملا يستبدل العقل والسبب بالغموض والمصادفة. فى العالم العلمى، لا شىء يحدث ما لم يكن هناك شىء يجعله يحدث. ليست هناك تلقائية، ولا نزوية. قد تكون ظواهر الطبيعة معقدة بشكل استثنائى، ولكن يتعين على العلم فى نهاية المطاف أن يكشف النقاب عن النظام والقابلية للتنبؤ. الحقائق حقائق، والقوانين قوانين، ويستحيل أن تكون هناك استثناءات. إن طواحين العلم، مثل ما حلت محله، سوف تطحن دقائق متعاظمة الصغر، وعلى نحو لا يقل كمالا.

لقرن أو قرنين، بدا أن الحلم قابل للتحقق. وإذا كان فى وسع علماء جيل ما، يراكم على الجيل الذى سبقه، أن يروا أنهم لم يحققوا بعد مثالهم، فإنه فى وسعهم أيضا أن يعتقدوا بأنه سوف يكون بمقدور أخلافهم أن يكملوا المهمة. لقد اقتضت قوة العلم حتمية التقدم. سوف يصبح العلم أكثر مهابة وأوسع نطاقا، لكنه سوف يصبح فى الوقت نفسه أكثر تفصيلا وتدقيقا. لقد كانت الطبيعة قابلة لأن تعرف. وإذا كانت قابلة لأن تعرف، فمحتم أن يأتى اليوم الذى تعرف فيه.

فى القرن التاسع عشر، أصبحت هذه الرؤية التقليدية، التى انبثقت عن العلوم الفيزيائية، النموذج المهيمن على كل صنوف العلم. علماء الجيولوجيا (علم طبقات الأرض)، علماء البيولوجيا (علم الأحياء)، وحتى أول أجيال علماء النفس، تصوروا العالم الطبيعى برمته فى شكل آلة معقدة لكنها معصومة عن الخطأ. وعلى هذا النحو تطلعت كل العلوم إلى المثال الذى أمّنته الفيزياء. لقد تعينت المهمة فى تعريف العلم المعنى وفق الملاحظات والظواهر المهيأة للوصف الدقيق. أى القابلة لأن يعبر عنها فى شكل أرقام. ثم العثور على

القوانين الرياضية التى تربط هذه الأرقام فى نسق ملزم.

لا ريب أن المهمة كانت عسيرة، وإذا حدث أن طموحات العلماء قد روّعتهم، فإن السبب يعود إلى شدة تعقّد الآلة التى كانوا يحاولون تفكيكها وليس لأى سبب آخر. قد تكون قوانين الطبيعة أوسع من أن تقدر عقولهم على سبر غورها. ولعل العلماء سوف يكتشفون أن فى وسعهم تدوين قوانين الطبيعة فقط ليكتشفوا عوزهم القدرة التحليلية والحسابية اللازمة للعمل على هذه النتائج. وإذا حدث أن تعثر مشروع الفهم العلمى المطلق، فلأن العقل البشرى لم يكن على مستوى المهمة، وليس لأن الطبيعة لم تكن قابلة للفهم.

هذا ما جعل حجة هايزنبرج مقلقة. لقد استهدفت هشاشة لم تكن موضع اشتباه فى صرح العلم. ضعفا فى البنية التحتية، فى جزء من الأساس لم يتعرض للفحص لأنه بدا آمنا على نحو بدهى.

لم يجادل هايزنبرج فى كمال قوانين الطبيعة، بل عثر فى حقائق الطبيعة نفسها على صعوبات غريبة وتهدد بالخطر. لقد تعلق مبدؤه فى الريبة بأكثر أفعال العلم أولية: كيف نحصل على معرفة بالعالم، كيف نحوز على نوع المعرفة الذى نستطيع تعريضه للتدقيق العلمى؟ وفيما يتعلق بمثال الجسيمات الذى عنى به، كيف نعرف موضع شىء ما ومدى سرعته؟ لقد كان من شأن هذا السؤال أن يربك أسلاف هايزنبرج. فى أى وقت، للشىء المتحرك سرعة بعينها وموضع محدد. ثمة سبل لقياس أو ملاحظة السرعة والموضع. وكلما كانت الملاحظات أفضل، كانت النتيجة أدق. أى شىء آخر يمكن قوله؟

أكثر بكثير، أو هكذا اكتشف هايزنبرج. لقد تم التعبير عن خلاصة ما توصل إليه، الغاية فى الثورية والغرابة، بكلمات كادت تصبح شائعة. تستطيع أن تقيس سرعة الجسيم، أو قد تستطيع أن تقيس موضعه، غير أنك لا تستطيع أن تنجز المهمتين معا. أو: كلما كنت أكثر دقة فى معرفة الموضع، غدوت أقل قدرة على معرفة السرعة. أو، بتعبير أقل مباشرة ووضوحا: فعل الملاحظة يغير الشىء الملاحظ.

ومهما يكن من أمر، بدا فى النهاية أن الحقائق ليست الأشياء البسيطة الصلبة التى افترضنا. يسلّم التصور الكلاسيكى للعالم الطبيعى الذى يعتبره آلة ضخمة بقابلية كل الأجزاء العاملة فى هذه الآلة للتحديد بدقة لا متناهية، وبأنه بالمقدور فهم روابطها البينية على وجه الضبط. لكل شىء موضعه، وثمة موضع لكل شىء. لقد بدا هذا أساسيا وجوهريا فى آن واحد. كى تأمل فى فهم الكون، يتعين عليك أولا أن تفترض أن فى وسعك التعرف على ماهية كل مكون من مكوناته، قطعة قطعة، والدراية بما يقوم به. يبدو أن هايزنبرج كان يقول إنك لا تستطيع فهم كل ما تود معرفته؛ حتى قدرتك على وصف العالم الطبيعى مقيدة. وإذا لم يكن يتسنى لك وصفه كما أملت، فكيف لك أن تأمل فى استنباط قوانينه.

كان الغموض يلف مضامين اكتشاف هايزنبرج، الذى جاء بعيد تبصر ليس أقل مدعاة للدهشة والإرباك كان طرحه قبل عامين، حين رأى فى ومضة رؤية كيفية استحداث نظرية أصبحت تعرف بميكانيكا الكم. وبينما كان سائر عالم الفيزياء يحاول اللحاق، كان هايزنبرج، بصفاء رؤية فتى يافع، يتطلع إلى المضى قدما، يعيد كتابة قواعد الفيزياء الأساسية بلغة نظرية جديدة وصعبة لم يكن فى وسعه هو نفسه زعم فهمها كاملة. غير أن نيلز بور، المجبول على ردود الفعل البطيئة والمثيرة أحيانا للسخط، استشعر الحاجة إلى استيعاب الجديد فى القديم. لقد اكتشف أن هناك مهمة عسيرة، لكنها أساسية، تتعين فى فهم فيزياء الكم الجديدة دون الاستغناء عن النجاح الصعب الذى حقق فى العصر السابق. لقد تجادل مع هايزنبرج بشكل مضن حول أفضل سبل تصوير العلم الطالع، الذى ظل موضع خلاف.

غير أن هناك صوتا آخر شارك فى هذا الجدل. حين أعلن هايزنبرج عن مبدئه، كان آلبرت أينشتين قد قارب الخمسين من عمره. كان أحد ثقات العلم الأبرز؛ يحترم، ويوقر، وإن لم يعد يحظى دوما بالاهتمام. وفى حين كان العلماء الأصغر سنا يقومون بالعمل المهم، كان أينشتين يقوم بدور المعلق المستعلى على الجميع. كان هو الآخر، فى زمنه، ثوريا. فى عامه العظيم، ١٩٠٥، أطاحت نظريته فى النسبية بالفكرة النيوتونية القديمة القائلة بمكان وزمان مطلقين. الحوادث التى يراها ملاحظ متزامنة تبدو لآخر متتابعة، الواحدة تلو الأخرى. غير أنه قد يتسنى لملاحظ ثالث أن يرى تلك السلسلة المتتابعة معكوسة. لقد استخدم هايزنبرج مبدأ أينشتين الثورى بطريقة مرنة فى دعم مبدئه: الملاحظون المختلفون يرون العالم بشكل مختلف.

غير أن أينشتين اعتبر هذا إساءة تأويل بشعة لأعظم إنجازاته. صحيح أن النسبية تسمح بمنظورات مختلفة، غير أن مفاد مجمل نظريته يتعين فى كونها سمحت بالمصالحة بين ملاحظات تبدو متناقضة على نحو بمقدور كل الملاحظين قبوله. أما فى عالم هايزنبرج، أقلّه وفق فهم أينشتين، فإن فكرة الحقيقة الصادقة نفسها بدت تتفتت فى شكل تنويعة من وجهات النظر غير القابلة للمصالحة. وهذا، فيما يقول أينشتين، غير مقبول إذا كان العلم يعنى أى شىء جدير بالثقة. هذا صراع فكرى ضار آخر، يحارب فيه هايزنبرج وبور هذه المرة فى جبهة واحدة ضد المعلم القديم.



فى النهاية، انبثق عن هذا الجدل المتحول ثلاثى الأطراف تعريف عامل عملى لمبدأ الريبة ظل معظم علماء الفيزياء يجدونه مناسبا وقابلا بشكل معتدل للفهم. طالما لم يفضلوا التفكر أكثر مما يجب فى الصعوبات الفلسفية أو الميتافيزيقية التى لم تحل والتى يثيرها ذلك التعريف. لقد سلّم أينشتين على مضض بصحة النسق الذى طرحه هايزنبرج وبور من وجهة نظر فنية. غير أنه لم يكن فى وسعه قبول أنه يقول الكلمة الفصل. لقد ظلت الفيزياء الجديدة عنده، إلى حين مماته، تسوية غير مرضية، إجراء مؤقتا يتعين فى النهاية تعزيزه بنظرية تنهض على المبادئ القديمة التى تعلّق بها. وهكذا تشبث أينشتين بفكرة مؤداها أن ريبة هايزنبرج إنما تشى بعجز بشرى عن فهم العالم الفيزيقى، عوضا عن أن تكون مؤشرا على شىء غريب يتعذر الوصول إليه بخصوص العالم نفسه.

نتج عن استهجان أينشتين الشديد لنوع الفيزياء الذى استحدثه بور وهايزنبرج ما شكل فى واقع الأمر صراعا من أجل روح العلم. والآن، وبعد أن انتهت المعركة، يبدو هذا تعبيرا ميلودراميا (مبالغا فيه). غير أنه فى عشرينيات القرن الفائت، حين كانت تلك الفيزياء فى طور الانبثاق، استبين تماما أن أسس العلم الفيزيائى كانت تتعرض إلى فحص وتدقيق غير مسبوقين. لقد تم اكتشاف بعض الصدوع، وبإشراف بور وهايزنبرج على المهمة، أعيد بناء الأسس. أو، كما كان لأينشتين أن يقول، وضعت بعض الدعائم . فى حين ظلت البنية الفوقية بدرجة أو أخرى على حالها. إن إعادة التأهيل اللافتة هذه تشكل لب القصة التى يرويها هذا الكتاب. لم تكن هناك، ضمن الشخصيات الرئيسة، أصوات محايدة. أيضا فإن المسألة لم تتعين فى تحديد طرف بشكل واضح قبالة آخر، فالولاءات تتحول، والرؤى تتغير. الراهن أن روح أينشتين المرتابة تظل إلى يوم الناس هذا تحوم فوق الانتصار الظاهرى الذى زعمه بور وهايزنبرج.

لهذه القصة المركزية ملحق وتوطئة.

أصبح مبدأ الريبة عبارة جذابة تصف صعوبة عامة، ليس فقط فى العلم، تواجه تأسيس معرفة لا تشوبها شائبة. حين يقر الصحفيون أن رؤاهم قد تؤثر فى القصص التى يعدون تقارير بخصوصها، حين يأسى علماء الأنثروبولوجيا على أن حضورهم يؤثر فى سلوك الثقافات التى يقومون بتقصيها، سوف يكون مبدأ هايزنبرج فى متناولهم: الملاحِظ يغير الشىء الملاحَظ (بالكسر ثم الفتح). حين يقر منظّرو الأدب أن النص يعرض تنويعة من المعانى، وقفا على مزاج ومحاباة قراء مختلفين، يكون هايزنبرج مختبئا فى الوراء: فعل الملاحظة يحدد ما يلاحظ وما لا يلاحظ.

هل يتعلق هذا بأية طريقة بالفيزياء الأساسية؟ بالكاد! فلماذا إذن تحمست فروع معرفية أخرى لتبنى مبدأ هايزنبرج؟ سوف أقترح لاحقا أن هذا الضم لفكرة غريبة لا يرجع إلى كون الصحفيين وعلماء الأنثروبولوجيا يتوقون إلى العثور على تبرير علمى مشكوك فى أمره لأحكامهم، بل لأن مبدأ الريبة يجعل المعرفة العلمية نفسها أقل ترويعا لغير العلماء، ويقربها من نوع المعرفة الغامضة والمراوغة التى نتشبث بها يوميا.

غير أن الوصول إلى هذا الجزء من القصة يتطلب أولا فهم مصادر ريبة هايزنبرج. الثورات العلمية، مثل أى نوع آخر من الثورات، لا تأتى من فراغ، بل لديها جذور ومقدمات. الريبة إنما تمثل تتويجا لميكانيكا الكم، التى سبق لها أن أطاحت قبل حلول عام ١٩٢٧ بالكثير من معتقدات فيزياء القرن التاسع عشر الكلاسيكية. غير أن ميكانيكا الكم نفسها كانت استجابة لمشاكل لم تستطع الفيزياء الأقدم التعامل معها. لقد ظل اليقين فى العلم دوما مسألة مشحونة، ورغم أن نظرية الكم وريبة هايزنبرج شكلا تاجا للقرن العشرين، فإن إرهاصاتهما المبكرة بدأت قبل ذلك بما يقرب من مائة عام. هذا ما يجعل القصة تبدأ فى عقود القرن التاسع عشر الأولى. ■

سؤال فى الفلسفة.. أم فى العلوم الطبيعية

الفطـــرة

عـــــــزة هـــــاشـــــم



«أول شىء جذب انتباهى إلى تنكاى كان ابتسامته، إنها ابتسامة مطمئنة، وصافية، وذكية، ولكنها ليست مغرورة، إنها ابتسامة شخص يحيا فى حالة من السلام مع نفسه ومع العالم المحيط به، ابتسامة إنسان شاهد الكثير ولكن لازالت لديه الدهشة باقية



■■ «جين الله: كيف يتمركز الإيمان فى جيناتنا «هو عنوان شديد الجاذبية لكتاب قد تتنبأ قبل قراءته وقبل تصفحه أنه يتعدى جميع الخطوط الحمراء ويدخل إلى منطقة المحرمات، وغالبا عندما نجد أى كتاب يقترن فيه لفظ الجلالة «الله» بمصطلح علمى، نسارع فى إصدار أحكامنا المسبقة على الكتاب ونتهم كاتبه بالإلحاد، ومحتواه بالكفر، وكأن العلم فى حرب مع الدين، بينما إذا تصفحت كتاب «جين الله» لن تجد سوى كتاب علمى ثقافى يحاول البحث عن إجابات لأسئلة حيرت عقولنا، ولجأنا فى محاولة الإجابة عنها إلى علماء الدين والفلاسفة وعلماء الاجتماع، ونحن على يقين من أنها أبعد ما يكون عن علم البيولوجى، وهو ما يؤكده مؤلف الكتاب « دين هامر» بأن الدين والروحانية هما أبعد ما يكونان عن مجال تخصصه البيولوجى.

ولقد سافر دين هامر إلى اليابان متوجها إلى مركز «هوسنجى زن» الذى يقع فى قرية يابانية صغيرة، ويوفر مكان إقامة للزوار من جميع البلاد والديانات ليكتسبوا معلومات عن البوذية الزنية والمشاركة فى الأنشطة اليومية للمركز، ولكن هامر لم يذهب إلى المركز بحثا عن الروحانية وإنما بهدف آخر وهو فهم إذا ما كان هناك أسس بيولوجية للدين والجوانب الروحانية. ولقد التقى هناك بتنكاى،الشخصية التى وصفها قائلا: «أول شىء جذب انتباهى إلى تنكاى كان ابتسامته، إنها ابتسامة مطمئنة، وصافية، وذكية، ولكنها ليست مغرورة، إنها ابتسامة شخص يحيا فى حالة من السلام مع نفسه ومع العالم المحيط به، ابتسامة إنسان شاهد الكثير ولكن لازالت لديه الدهشة باقية، إنها ابتسامة روحانية »، ولقد أجرى لقاءات وحوارات مع تنكاى ليتعرف على أصل ما وصل إليه هذا الرجل من روحانية وان كان للبيولوجيا والوراثة دور فى هذا.

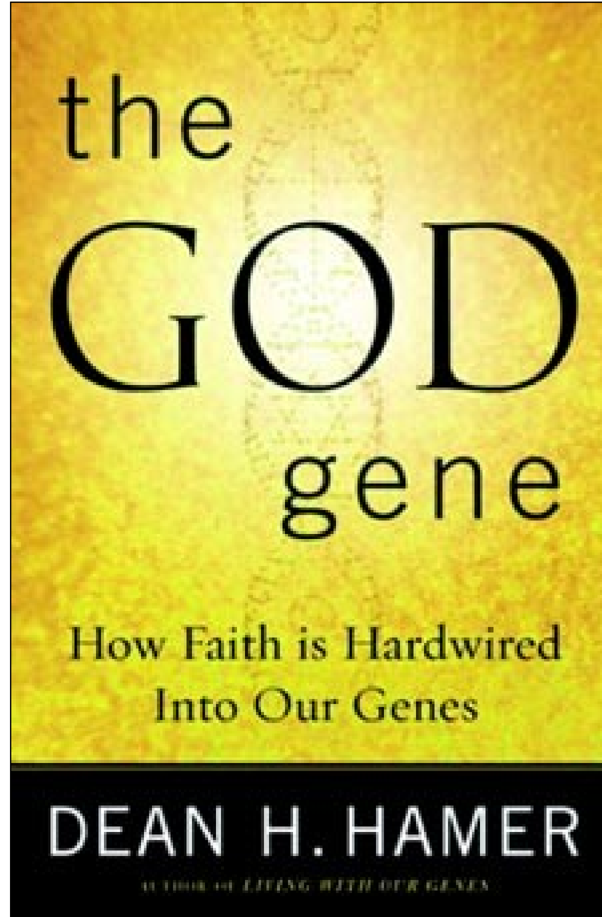
منذ بزوغ فجر النوع البشرى ولدى البشر اعتقادات دينية أو روحانية، منذ أكثر من ثلاثين ألف عام مضت وأجدادنا قد أعدوا قبورهم للحياة الأخرى، وقناعاتنا الدينية مازالت باقية حتى الآن، ففى دراسة مسحية أجريت فى الولايات المتحدة الأمريكية وجد أن أكثر من ٩٥ ٪ من الناس يؤمنون بوجود الله، ٩٠ ٪ يؤدون الشعائر، ٨٢ ٪ منهم يؤمنون بأن الله هو صانع المعجزات، و ٧٠٪ يعتقدون فى الحياة بعد الموت، حتى فى الصين والاتحاد السوفيتى، حيث تبذل الحكومات قصارى جهدها لاستبدال الإله بالشيوعية، سنجد أن أكثر من نصف الشعب لا زالوا محتفظين بعقائدهم الدينية، وقوى الديانات الأخرى سواء كانت مسيحية أو يهودية أو إسلامية تنتشر عبر أرجاء الأرض من أمريكا الشمالية إلى الشرق الأوسط إلى أفريقيا.

ويؤكد هامر أنه «لا يبحث عما إذا كان هناك دين أم لا، ولكنه يبحث عن سبب وجود واستمرار الدين». ويرى هامر أنه ليس من الضرورى أن ينعكس مدى قوة معتقداتنا الدينية على حضورنا الكنيسة، وأدائنا للشعائر الدينية، حيث إن الذهاب إلى الكنيسة قد تضاءل للغاية فى أوروبا، ففى انجلترا وهولندا نجد فقط ٥ ٪ من الناس يحضرون الشعائر الدينية وينظرون إليها بوصفها أساسا أو شيئا ضروريا، حتى فى إيطاليا نجد أن معظم الناس على خلاف مع البابا فى قضايا مثل الطلاق والإجهاض وغيرها. وبالرغم من ارتباط الروحانية بالدين، فإن الدين فى المجتمع البشرى الآن أضحى بعيدا تماما عن أن يكون تعبيرا عاما عن الروحانية. إن المؤسسات الدينية تسلك كمدارس ومحاكم، وملاجئ، ومالكة للأراضى، بالإضافة إلى كونها أماكن للصلاة والعبادة.

وربما يرجع عدم التزام الأفراد بالذهاب إلى الكنيسة إلى شعورهم بأن الكنيسة أضحت مكانا يحكمه النظام الشديد والصرامة، وهى أجواء ليست مؤهلة لأى شعور بالروحانية، ولعل ذلك التناقض بين تضاؤل نسبة الحضور إلى الكنيسة أو أداء الشعائر والإيمان بوجود الله قد يرجع فى الحقيقة إلى أن الروحانية لا تخضع لوصاية دين بعينه، حيث إن أكثر من ثلاثة أرباع الناس يشعرون أنهم يستطيعون التواصل مع الله بطرق مختلفة وعديدة.

وإذا تطرقنا إلى النظرية التى يتبناها المؤلف والتى أطلق عليها «نظرية جين الله» فنجده فى البداية يتساءل: لماذا يكون للروحانية هذه القوة وتلك السيطرة على العالم؟ لماذا يعتقد الناس فى أشياء لا يستطيعون رؤيتها، استنشاقها، لمسها، تذوقها؟

ولقد ناقش الإجابة على هذه التساؤلات قائلا: إن الروحانية أو على الأقل جزء منها تتمركز فى جيناتنا الوراثية، فهى فى الأساس واحدة من



The God Gene
by Dean H. Hammer
Doubleday, 2004

«لو أنى أصغيت إلى صوت الفطرة وتركت البداهة تقودنى لأعفيت نفسى من عناء الجدل ..... ولقادتنى الفطرة إلى الله»

مصطفى محمود



الجوانب الأساسية للوراثة البشرية، إنها فى الحقيقة «غريزة». وربما قد يُنظر إلى الغريزة على أنها كلمة غريبة ومن الصعب اقترانها بالدين، إننا عادة ما ننظر إلى الغريزة باعتبارها تعبر عن ردود أفعال آلية ولا شعورية أو سلوكيات يتم فعلها بدون تفكير أو تدريب، فالطيور تعرف الطيران لأعلى بالغريزة، وأنت تغلق عينيك عندما أوجه أحد أصابعى نحوهما بالغريزة، والطفل الوليد يلتقط حلمة ثدى أمه بالغريزة، ليس لأنه قد تعلم هذا. إنه شىء غريزى أن تستثار عندما تتعرض لمثير جنسى، ولكن السلوك الروحانى على العكس فهو ليس سلوكا آليا أو سلوكا لا شعوريا، إنه نشاط متعمد ومتعلم. ولكن هذا لا يعنى أن الدين أو الروحانية عبارة عن غريزة بسيطة مثل الرضاعة أو الجنس، فهى غريزة معقدة متداخلة تتمركز فيها جوانب وراثية، وأنماط بيولوجية من الاستجابة، وحالات شعورية تمتزج مع نواح تاريخية واجتماعية وثقافية، إنه المزج بين البيولوجيا والخبرة هو الذى يصنع الروحانية.

ولعل فكرة أن سمات وخصائص معقدة تتأثر بواسطة الجينات والبيئة فى نفس الوقت ليست ببعيدة عن الروحانية والدين. هناك العديد من الأمثلة المعروفة جيدا والتى تدلل على الامتزاج بين الطبيعة والتنشئة فى الكثير من الصفات حتى بين الحيوانات.

وحسب نظرية «جين الله» فإننا نمتلك استعدادا وراثيا للاعتقاد الدينى أو الروحانى يتم التعبير عنه والاستجابة له وتشكيله بواسطة الخبرة الشخصية والبيئة الثقافية، وهو يرى أن هذه الجينات تعمل بتأثير قدرة المخ على معالجة الأنماط العديدة والأشكال المختلفة من الشعور والتى تصبح كأسس للخبرة الروحانية.

ومصطلح «جين الله» هو فى الحقيقة تبسيط للنظرية أو اختصار لها، فبالطبع ليس جينا واحدا هو الذى يحدد أو هو المتضمن فى الدين أو الروحانية، وهو لا يغفل أهمية التأثيرات البيئية والتى لها نفس أهمية تأثير الوراثة. وفى النهاية فهو ينظر إلى الروحانية بمعناها الواسع باعتبارها أكثر من مجرد اعتقاد أو إيمان بإله بعينه، فمعظم المؤمنين الذين التقى بهم وناقشهم لا يؤمنون أو يعتنقون دينا بعينه.

ولعل إثبات أن هناك عنصرا وراثيا فى الروحانية ليس بالشىء البسيط، إنه ليس مثل لون الشعر أو العين الذى يتم توريثه من جيل إلى جيل بطريقة واضحة وجلية. حيث إنه من بين خمسة وثلاثين ألف جين موجود فى الجينوم البشرى، فإننا لا نعرف سوى وظائف ثلث هذه الجينات. ونظرا إلى أن وظائف جينات عديدة غير معروفة، فإننا نظل لا نستطيع أن نستنتج أو نستدل على الكثير بواسطة النظر إلى الحامض النووى(DNA) للفرد ؛ حيث لا نستطيع مثلا تحديد طول الشخص بالرغم من أننا نعرف بعض الجينات المتضمنة فى صياغة الطول، إذن لن يكون مفاجئا أننا ببساطة لا نستطيع أن ننظر إلى تسلسل الجينوم ونقول ببساطة أين هى جينات الله؟ الجينات التى تخلق الاستعداد للروحانية، حتى لو كنا نعلم الوظائف البيوكيميائية لجميع الجينات. إننا نحتاج لأكثر من هذا ؛ حيث نود أن نعلم كيف تعمل هذه الجينات وكيف تتواصل مع بعضها البعض ومع البيئة أيضا، وجدير بالذكر أن سر الحامض النووى لا يكمن فى خواصه الفيزيائية ولكن يكمن فى ماهية المعلومة التى يحملها، إن جزيئات الحامض النووى مثل شرائح الكومبيوتر تبدو جميعها متشابهة فى الشكل ولكن لها وظائف مختلفة كثيرة ولعل ذلك يعتمد على الكيفية التى يتم برمجتها بها.



ولكن من أين تأتى جينات الله؟

قد يبدو هذا السؤال سؤالا فلسفيا أو سؤالا دينيا وليس سؤالا علميا، ولكن الإجابة عليه شديدة الوضوح والبساطة والعلمية، وهى أن هذه الجينات تأتى من الوالدين والوالدان يأخذانها من الأجداد والأجداد من الأجداد وهكذا فى خط تطورى حتى نصل إلى بداية الحياة على سطح الأرض، وعبر العصور بالطبع تتطور الجينات، وفى كل خطوة تساعد الجينات أصحابها أو حامليها على البقاء وإعادة الإنتاج والتمرير من جيل إلى جيل آخر، وبالتالى فإن الجينات غير الصالحة لا تبقى بشكل ناجح فى الجيل التالى، فالجينات التى بقيت واستمرت وأعيد إنتاجها هى التى وصلت إلينا اليوم.

ولكن كيف تتطور جينات الله؟ وما الفائدة التى تمنحها للبشر؟ هذه أسئلة لا يوجد لها إجابة معروفة حتى الآن، ومن الممكن ألا نجد لها أسئلة على الإطلاق.



ويعتقد الكاتب أن استعداداتنا الوراثية للإيمان ليست مجرد شىء عبثى أو خاضع للصدفة، إنها تزودنا بالإحساس بأن هناك هدفا ما من وجودنا وتمنحنا الأمل فى البقاء والأبدية. إيماننا يمنحنا التفاؤل لاجتياز ما قد نمر به من محن. ولكن هل للإيمان وظيفة أكثر من كونه مشبعا لاحتياجاتنا النفسية؟ هل له تأثير على الجوانب الفيزيقية فى حياتنا أيضا؟

والإجابة تكمن فى القوة العلاجية أو الشفائية للإيمان، ولعل واحدة من الفوائد أو المميزات الهامة لجينات الله ربما تكمن فى قدرة الإيمان على تحسين الصحة وإطالة العمر، والأمثلة على ذلك كثيرة وعديدة. فقد أثبتت الدراسات أن المتدينين يحيون لمدة أطول، فعلى سبيل المثال وبتحليل ٣٩٦٨ من المعمرين الذين عاشوا فى نورث كارولينا بالولايات المتحدة الأمريكية بين عام ١٩٨٦ وعام ١٩٩٢ وجد أن ٣٧ ٪ منهم كانوا يحضرون إلى الكنيسة مرة على الأقل أسبوعيا، وهم الذين عمروا خلال هذه السنوات، وقد كانت نسبة الوفاة بين الذين يواظبون على الحضور إلى الكنيسة أقل بنسبة ٤٦ ٪ عن الذين لا يترددون باستمرار على الكنيسة، وبالتالى فإن الذين يترددون باستمرار على الكنيسة يحيون أطول.

وفى دراسة مثلها فى الولايات المتحدة الأمريكية أجريت على ٢١٠٠٠ أمريكى وجدت أن معدل الوفيات أعلى بنسبة ٥٠ ٪ بين من لا يترددون على الكنيسة عمن يترددون باستمرار على الكنيسة، ولعل السؤال الذى يجب على العلماء أن يسألوه هو: لماذا؟ لماذا ترتبط الصحة بالتدين؟

وهناك سبيلان نستطيع من خلالهما الإجابة على هذا التساؤل، الأول: أن المؤسسات الدينية تجتذب هؤلاء الذين لديهم عادات صحية جيدة (على سبيل المثال هؤلاء الذين لا يدخنون السجائر)، وفى هذه الحالة تكون القضية قد تحولت لتصبح أن الأصحاء هم المتدينون وليس أن المتدينين هم الأصحاء، والإمكانية الثانية: أن الدين يتضمن تنمية أو تشجيع لسلوكيات كهذه، أو على الأقل يساعد الناس على الاحتفاظ بعادات أكثر صحية. وبالتالى فإن كونك متدينا لا يرتبط ذلك فقط بالصحة الجيدة وإنما ينميها أو يحسنها كذلك، ولعل هذا يدلل على القيمة البقائية للجينات والتى تنمى أو تدعم احتياجنا للإيمان بشىء ما أعظم من ذواتنا - أو ما أسميه «جينات الله»- والذى يؤدى بدوره إلى تحسين الصحة وإطالة العمر. حيث إنه إذا كان الأفراد الذين يملكون جينات تطور أو تنمى الإيمان والروحانية يكون لديهم ميل أقل للمرض أو الموت، فإنهم لديهم احتمالية أكبر لأن يمرروا جيناتهم هذه إلى أبنائهم وبدورها إلى أحفادهم.

وتحت عنوان «الدواء المعجزة: أسرع، أسرع، استخدم العقار الجديد قبل أن تنفد فعاليته فى العلاج «يتساءل الكاتب قائلا: لماذا أصبحت المعجزات التى تم إقرار حدوثها عبر تاريخ الأديان شديدة الندرة الآن؟

ويجيب على هذا التساؤل قائلا: «ربما لأن الناس يعتمدون بشكل أكبر على الأطباء والعقاقير عن رجال الدين والنواحى الإيمانية والروحانية ».

ولتوضيح ما يعنيه بهذا استدل بالعقار الوهمى[1]، حيث كانت المفاجأة أن هذا العقار الوهمى غالبا ما يؤدى وظيفة فعالة، فهو يمكن أن يداوى مرضا، أو يخفف من أعراض معينة، وذلك عندما يعتقد المرضى أنهم قد تناولوا عقارا أو





إن جزيئات الحامض النووى
مثل شرائح الكومبيوتر تبدو جميعها
متشابهة فى الشكل ولكن لها وظائف مختلفة
كثيرة ولعل ذلك يعتمد على الكيفية
التى يتم برمجتها بها



علاجا حقيقيا، ولعل أكثر الآثار وضوحا للعقار الوهمى تم رصدها فى العلاجات السيكاترية مثل مضادات الاكتئاب. وفى إحدى التجارب أظهر العقار الوهمى أثرا ايجابيا تمثل فى التحسن الكامل لـ ٥٠ ٪ من المرضى، ومن المثير للعجب أن الدواء الحقيقى أدى إلى نسبة تحسن ٢٥٪ فقط، وكذلك كان له نفس الأثر تقريبا فى مداواة الألم وغيرها العديد من الأمراض التى كان للعقار الوهمى فيها أثر شديد الفعالية، ولعل هذه الفعالية للعقارات الوهمية ترجح أن إيمان الفرد يمكن أن يكون فعالا بشكل كاف لعلاج أنواع مختلفة من الأمراض.

يقول وليم جيمس «يعتقد العديد من الناس أنهم يفكرون عندما يكونون لا يفعلون شيئا سوى إعادة تنظيم أحكامهم المسبقة»، إن الجانب الروحانى لدى أى شخص هو مسألة شديدة الخصوصية، إنها مسألة تكمن فى مشاعرنا ومعتقداتنا الداخلية. ولعل السؤال عن جذور أو أصول وتطور الدين قد حير الفلاسفة، وعلماء الدين، وعلماء التاريخ لقرون من الزمان. ومن الواضح أنه لم يكن منشغلا هنا بالإجابة عن سؤال كيف ينمو أو يتطور الدين أنه - على حد قوله - فقط عالم متخصص فى وراثة السلوك، حيث يعتقد أن هناك رؤى معينة فى علم النفس وعلم البيولوجى يمكن أن تساعد فى رؤية الدين برؤية جديدة ومفيدة.

هل الأفراد يصبحون مسلمين أو مسيحيين أو يهوديين أو بوذيين لأنهم تربوا بهذه الطريقة أم أن جيناتهم هى السبب؟ أى هل دين الشخص متعلم أم وراثى؟

لاختبار هذا الفرض قام العلماء فى استراليا بتحليل بيانات ٧٠٥ أزواج من التوائم الذين يعيشون معا ومع والديهم، و٣٠٢٥ من التوائم الذين تركوا المنزل وانفصلوا عن آبائهم وعن توائمهم. وقد ملأ جميع الآباء والتوائم استبيانات، حيث طلب منهم أن يصنفوا أنفسهم كإنجليكانيين (وهو الدين الأكثر انتشارا فى استراليا) أو يهوديين أو مسيحيين، أو بروتستانتيين، أو أرثوذوكسيين، ومن تحليل البيانات اتضح أنه - وكما هو متوقع - التوائم الذين نشأوا معا ومع والديهم كانوا يعتنقون نفس الديانة، ولقد وجدت الدراسة أن هناك اتجاهين مهمين للتغير فى المعتقدات الدينية لدى الذين نموا بعيدا عن آبائهم وعن بعضهم البعض، حيث كانوا لازالوا يعتنقون نفس الدين الذى يعتنقه آباؤهم ولكن كلما نموا فى العمر كلما زاد اختلافهم عن آبائهم، بعبارة أخرى التوائم الذين نموا بعيدا عن بيوت أهاليهم كانوا يميلون لتبنى أفكار جديدة، واتجاهات جديدة، و أصدقاء جدد أو أشياء أخرى مختلفة عن التى يتبناها آباؤهم وأمهاتهم،. أما عن التغير الثانى الذى تمت ملاحظته فقد كان تأثيرا غير متوقع حيث بدا واضحا التأثير الذى تلعبه الجينات فى صياغة معتقداتهم، وان كان التأثير ضعيفا، ولكن هل هذا يعنى أن هناك «جينات كاثوليكية» أو «جينات إسلامية»؟ ويرجح الكاتب أن الإجابة على هذا السؤال هى النفى. بينما عندما يكون لدى والدين يملكان نفس الدين والمعتقدات والممارسات فإنهم يميلان بشكل أكبر لأن يمررا هذا إلى أطفالهما بواسطة كل من التعليم والوراثة، وبالتالى يتعرض الأطفال لتأثير مزدوج من البيئة ومن الوراثة، وهذا هو السبب فى أن الأسر التى تقيم معا تصلى أيضا معا.



العديد من المعتقدات الدينية مثل الاعتقاد فى الحياة الأخرى بعد الموت موجودة منذ عصور ما قبل التاريخ، ولعل واحدة من أهم العوامل التى تكمن خلف قوة وبقاء هذه الأفكار تكمن فى التحامها أو تماسكها والذى يتحقق بطريقتين، الأولى أن معظم المعتقدات الدينية إحداها تدعم الأخرى أو تدعم بعضها البعض، على سبيل المثال الاعتقاد بأن «الله يستمع إلى صلاتك» يدعم أيضا اعتقاد أن «الله يسمع ما يصيبك من بلاء»، والطريقة الثانية تكمن فى الحض على الزواج وإنجاب الأطفال ونقل الإيمان إلى هؤلاء الأطفال. وهذا الاعتقاد يمكن ملاحظته بشكل أوضح خلال تاريخ الديانة اليهودية.

صحراء سيناء مكان خشن وقاس، انها حارة فى النهار وباردة فى المساء وجافة أو قاحلة طول الوقت، لا توجد خضرة لتخفف من حمرة وبنية الصخور والرمال وفى منتصف شبه الجزيرة بين ايلات فى الشمال وشرم الشيخ فى الجنوب خليج العقبة فى الشرق وخليج السويس فى الغرب يقع جبل موسى، وطبقا للكتاب المقدس فهو المكان الذى قاد اليه موسى ال اسرائيل منذ ما يقرب من ثلاثة آلاف عام من قبل حيث اقاموا مخيماتهم او معسكراتهم عند سفح جبل سيناء واثناء وجودهم هناك قام الاله بتوجيه عرض اليهم فحواه «اذا قمتم بعبادتى وطاعة اوامرى العشرة والتوراة فسوف اقودكم خارج الفقر الى الأرض الموعودة «وقبل اليهود، ولم يكن لديهم اختيارات كثيرة،ففى الخلف يترصدهم المصريون الغاضبون، وفى عهد موسى وعد الله اليهود بأنه سيمكنهم فى الأرض والتى تشمل «من حدود مصر الى نهر الفرات «اذا كانوا أمناء وأطاعوه، وذلك طبقا لكتابهم المقدس، ولقد كان هذا اتفاقا صعب لليهود، حيث إن الإسرائيليين رفضوا التحرك الى كنعان لانهم خافوا من سكانها ولقد انتقم الله منهم بسبب نقص ايمانهم بأن جعلهم يعيثون فى الصحراء اربعين عاما قبل ان يصلوا الى الارض الموعودة وبعدها تتبع الكاتب مسيرة اليهود عبر العصور وانتشارهم فى مختلف البلدان حتى وصل الى منتصف القرن العشرين حيث «الهولوكوست» او المحرقة والتى لقى فيها ستة ملايين يهودى من الرجال والنساء والاطفال حتفهم على يد النازيين.

وبسبب انتشار اليهوديين فى ارجاء الارض سنجد انهم تبنوا عادات وملبس وسلوك اهل البلاد الاصليين التى سكنوها وببطء ولكن بثقة بدأوا فى التشابه والاختلاط بالسكان الاصليين والذى ادى بهم الى الانقسام الى مجموعتين يهوديتين رئيسيتين وهما: الأشكينازيم (اليهود الغربيون) الذين اصبح مظهرهم كالاوروبيين. والسيفارديم (اليهود الشرقيون) الذين اصبح مظهرهم كالعرب.

وبحلول وقت اعادة تاسيس دولة اليهود فى عام ١٩٤٨ - فيما اسماه اليهود «حرب الاستقلال» بينما اسماه الفلسطينيون «النكبة او الكارثة»- اصبح الوضع شديد الغرابة حيث اذا تسكعت فى شوارع وطرقات القدس او تل ابيب سوف ترى شعوبا يهودية من جميع الاحجام والاشكال والالوان: سوف ترى يهودا بشعر احمر وعيون خضراء وترى يهودا بشعر اشقر وعيون زرقاء وترى ايضا يهودا بشعر أسود وعيون بنية ويهودا بعيون مستديرة ويهودا بعيون لوزية الشكل، انهم نفسهم اليهود الذين تراهم فى واشنطن وروما والقاهرة ونيويورك حيث يعبرون جيدا عن المكان الذى اتوا منه، وعندها لا تملك نفسك الا ان تطرح على ذهنك سؤالا ملحا: هل بالفعل هؤلاء الناس لديهم نفس الاساس والاحساس الوراثى؟، ويحاول من خلال دراسته لعينات من الحامض النووى لليهود التوصل الى أنهم جميعا ينتمون الى نفس الجذور أو أنهم من أصل واحد، وهو ما يدعى المؤلف أنه توصل اليه، وان كانت تلك النتيجة عليها كثير من التحفظ.

واللافت للانتباه أن المؤلف وبالرغم من أنه استعان بالديانتين اليهودية والمسيحية لاثبات صحة نظريته فهو لم يتعرض للدين الاسلامى الا بشكل سطحى وعابر، ولكن وبعد تواصلى بشكل شخصى معه من خلال البريد الالكترونى تبين لى أن معلوماته عن الاسلام قليلة للغاية، وربما يكون هذا هو السبب فى عدم استعانته بالنموذج الاسلامى فى تأكيد نظريته.

وفى النهاية وبالرغم من الهجوم الذى تعرض له الكتاب من الكنيسة لمحاولة اخضاعه الدين للدراسة العلمية، الا أنه كتاب جدير بأن يقرأ. ■



هل الأفراد يصبحون مسلمين أو مسيحيين أو يهوديين أو بوذيين لأنهم تربوا بهذه الطريقة أم أن جيناتهم هى السبب؟ أى هل دين الشخص متعلم أم وراثى؟



(١) وهو عقار يستخدم فى التجارب العلمية عندما يتم اختبار فعالية عقار معين حيث تتناول واحدة من المجموعتين العقار الحقيقى بينما يتناول أفراد المجموعة الثانية عقارا وهميا وذلك لملاحظة الفارق بين المجموعتين مع تفادى أثر العوامل الدخيلة.

ظلم الولاة.. وفساد ذوى الجاه

محمـــد فــريد عبدالخالق

صاحب هذه الأطروحة من الرعيل «الأول» لجماعة «الإخوان المسلمين»، وبالأحرى كان عضوا فى الهيئة التأسيسية للجماعة. ولد دكتور محمد فريد عبد الخالق فى فاقوس (شرقية) بمصر فى ٢٠ نوفمبر ١٩١٥، قبل أن ينتقل إلى مدينة القاهرة حيث تخرج عام ١٩٣٦ من معهد التربية العالى. عمل مديرا لدار الكتب والوثائق القومية، ثم وكيلا لوزارة الثقافة. جمع فى دراسته العليا بين العلوم والرياضيات والشريعة قبل أن يقدم على إعداد أطروحة الدكتوراة تلك ليناقشها وهو فى الرابعة والتسعين من العمر (!) مذكرا بالحديث الشريف: «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا يقوم حتى يغرسها فليفعل»



■ ■ الحمد لله الذى أتم على البشرية بالإسلام نعمته، وكرم الإنسان واستخلفه، وجعل من شرعته ومنهاجه ضماناً لحقه وحريته، وأوجب على الأمة الاحتساب على ذوى الجاه والسلطان؛ محاربةً للفساد فى الأرض والطغيان.

والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ أول من احتسب على المنكر فى أمته، ونهى الحاكم عن ظلم رعيته، وحرم الفساد والغش فى ملته، أما بعد.

فقد يجد الباحث نفسه فى موضوع عنوانه «الاحتساب على ذوى الجاه والسلطان»، يقف وجهاً لوجه أمام علاقة محفوفة بالمخاطر منذ زمن سحيق بين الحاكم والمحكومين، ومعادلة أزلية الصعوبة بين العدل الذى يطلب من الأول والطاعة التى تطلب من الآخرين، وهى حقوق والتزامات متقابلة حددها القرآن الكريم فى آيتين متقابلتين، دلالة على الارتباط العضوى والقانونى بين طرفى المعادلة فى قوله تعالى مخاطباً الحاكمين: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (النساء: ٥٨)، ثم يتبعها بخطابه إلى المحكومين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء:٥٩)، وفى ترابط الآيتين ما ينبئ بأن طاعة المحكومين وأولى الأمر من الأمة إنما تكون للحاكم العدل، الذى يؤدى ما ألزمه الشارع به من أداء الأمانات إلى أهلها والعدل فى الحكم، لا ولاة الجور الذين لا يؤدون ما أمروا به، ثم يحيلهم إلى المرجع فى الخلاف الذى فى الآية السابقة: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ (النساء:٥٩). فهى إذن واجبات وحقوق متبادلة ومتوازنة ومتكاملة أقرتها شريعة الإسلام.

بل يجد الباحث نفسه - محكوماً بإطار الموضوع - فى مواجهة صريحة أمام حق بل وواجب مقاومة جور الحكام والحكومات وفساد المترفين المفسدين من ذوى الجاه، وهم عادة ظل السلطة وأعوانها فى جذورها وفسادها؛ ابتغاء مصالحهم، يحرفون الكلم حسب أهواء الحاكمين وما يخدم مصالحهم ولو كانت على حساب مصالح الشعوب، وليس معنى ذلك بالضرورة أن كل الحاكمين جائرون. وأن كل ذوى الجاه مفسدون.

ولكن الواقع وطبيعة الأشياء وحركة التاريخ تشير جميعها إلى غلبة ظهور الجور من هؤلاء والفساد من أولئك على التزام العدل والإصلاح منهما، ولاسيما مع غياب العمل بالشورى ومساءلة الحاكمين وتغيير منكراتهم، ويقع الجور والفساد منهم فى كثير من الأحوال والأزمان والبلدان إلاّ من عصم الله.

ولما كانت الحقوق فى الإسلام غير مطلقة وإنما هى مقيدة بأصول كلية ومبادئ عامة؛ ليتحقق مقصود الشريعة وهو تحقيق مصالح العباد ودرء المفاسد. كان لابد من اجتهاد الأصوليين وفقهاء القانون فى إيجاد الصيغ أو الأنظمة القانونية التى تنظم ممارسة الأمة لحقها وواجبها فى مقاومة جور الحكومات والحاكمين وفساد المفسدين من ذوى الجاه فى ضوء متغيرات العصر، وذلك فى معنى قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:١٠٤)، فجعل مساءلة الحاكم وتغيير منكر به فرضياً على كل فرد -كفايةً بإطلاق، وعينياً لمن نصب له-، ولا يزال يلاحق الأمة كافة حتى تغيير المنكر ويزول الفساد.

لقد وضع لنا النبى ﷺ نموذجاً رائعاً، حيث لم يحدد من الخليفة بعده وترك ذلك إلى اجتهاد الصحابة؛ لأنه لو وضع أسس اختيار الخليفة لكان ذلك سنة واجبة التطبيق، ولكن فطن النبى ﷺ أن الصيغ التى يتعامل بها المسلمون تتغير بتغير الزمان.

ويظهر هنا ما يمكن أن تلعبه المؤسسات الدستورية فى الأنظمة الديمقراطية النيابية من دور فاعل فى ضمان الحقوق الأساسية والحريات العامة للمواطنين. وهو صحيح شرعاً ولا يعارض أصلاً من أصول الإسلام - كما نرى- من قبول بالديمقراطية والمجالس النيابية فى التصدى لمساءلة الحاكم وإزالة منكراته.

ونظام الحسبة فى الإسلام نظام قانونى فذ، قابل للتطور، يعتمد فى أساسه على نصوص من القرآن والسنة للاحتساب على ذوى السلطان وتغيير المنكرات



«الاحتساب على ذوى الجاه والسلطان» ملخص أطروحة دكتوراه فى القانون مقدمة من الباحث: د. محمد فريد عبد الخالق إلى كلية الحقوق ـ جامعة القاهرة.
شكلت لجنة المناقشة والحكم على الرسالة من: أ.د. يوسف قاسم رئيسا ومشرفا، وأ.د. محمد سليم العوا عضوا، وأ.د. محمد نجيب عوضين عضوا
جرت المناقشة فى ١٧ نوفمبر ٢٠٠٩

التى تقع منهم على حقوق الله فى مفهوم العصر، كالاعتداء على مبدأ الشورى والحرية والمساواة وكرامة المواطن... وغير ذلك من المنكرات السياسية التى لم تكن محل الاهتمام الكافى فى مباحث العلماء المتقدمين فيما يسمى-بلغة فقهاء العصر- علوم السياسة الشرعية أو القانون العام.

إننا نحاول فى هذه الدراسة إبراز الدور السياسى الذى يمكن أن تلعبه الحسبة -كنظام إسلامى يحقق رقابة شعبية- فى تنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم من منظور مقارن بالمؤسسات الدستورية فى الأنظمة الديمقراطية النيابية الحديثة والتشريعات الوضعية، فى مجال لم يستوفه البحث المعاصر فى مجال السياسة الشرعية فى الإسلام حقه.

ومن أجل تحقيق هذا الهدف العام فإن الدراسة تُعنى بتحقيق عدد من الأهداف الفرعية التى يمكن. ومن خلال تضافرها معاً أن تسهم فى الوصول إلى الأهداف الكبرى التى يطمح إليها الباحث، وهى على النحو التالى:

١- إبراز الدور الرقابى الشعبى على السلطات -المتمثل فى نظام الحسبة- ولاسيما السلطة التنفيذية ورئيس الدولة.

٢- طرح نظام احتسابى جماعى ومؤسسى لمقاومة جور وفساد السلطات التنفيذية ورئاسة الدولة يجنبنا العنف فى ممارسة الحسبة غير المنضبطة فى مرتبة تغيير المنكر باليد بشكل عشوائى.

٣- إلقاء الضوء على الضوابط الشرعية للحسبة فى الإسلام، وعلى شروط المحتسب والمحتسب فيه.

٤- إبراز احترام الإسلام لمبدأ الفصل بين السلطات.

٥- عدم النظر للحسبة باعتبارها ضمن قضاء المظالم، وإنما باعتبارها قوى شعبية معارضة لجور الحاكم.

٦- عدم التعامل مع الحسبة باعتبارها ولاية بوليسية، وإنما إدخالها فى الفقه السياسى الإسلامى كمبدأ يمارسه المواطنون كفرض كفاية، والمؤسسات الدستورية المعنية كفرض عين، وعلى رأسها المجالس التشريعية البرلمانية والأحزاب السياسية وسائر منظمات حقوق الإنسان والجمعيات الأهلية المعنية بالحفاظ على حقوق الإنسان الأساسية وحرياته العامة من اتحادات ونقابات.

٧- تبيان عمومية تطبيق الحسبة فى كل البلدان.

٨- إمكانية رفع دعاوى الحسبة على الحاكم الجائر، وما يقع من الحكومات من بغى أو فساد أو مخالفة للدستور والقانون دون التزام بشرطى الصفة والمصلحة الملتزم بها فى سائر الدعاوى القضائية، وهو ما ذهب إليه القانونيون تيسيراً لإمكانياتها وتحقيقاً لمقصدها. ولقد ذهبنا إلى أن شرطى الصفة والمصلحة متحققان فى دعوى الحسبة فى قوله تعالى: ﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾ حيث جعل الآدمية هى الصفة وتحقيق كرامة الآدمى هى المصلحة، وكرامة الآدمى هنا مطلقة فى عمومها فى مختلف مجالات الحياة، سياسية واقتصادية واجتماعية.

٩- الإشارة إلى إمكانية عولمة نظام الحسبة الإسلامى وتدويله، بناءً على عالمية الإسلام سبقت بالناس إلى ذلك وحيث قال الله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً﴾ (سبأ: ٢٨)، ﴿وأرسلناك للناس رسولاً وكفى بالله شهيداً﴾ (النساء: ٧٩)، ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ (الأنبياء: ١٠٧) وكرامة الآدمى لب رسالة الإسلام قال تعالى: ﴿ولقد كرمنا بنى آدم﴾ (الإسراء: ٧٠) فلا غرو أن نجد عولمة الحسبة على الظالمين وتغيير منكراتهم سبقت عولمتها فى الغرب، كما نرى فى هذا الزمان ضد كل حاكم ظالم مرتكب لجرائم الحرب ما يقبل وما يرفض وما يطور منها.

١٠- تحليل التطبيقات المستحدثة الجارية لممارسة الحسبة فى الوقت الراهن.



ومما يجدر الإشارة إليه كذلك أن المحتسب عليهم -فى موضوع بحثنا- يقتصرون على شريحة محدودة من شرائح المجتمعات، هى الطبقة الحاكمة بنفوذ السلطان أو المؤثرة فى مجريات الأمور بنفوذ الجاه أو المال، وهما مناط الصلاح والفساد بالدرجة الأولى فى المجتمع -الإصلاح إن هم عدلوا وأصلحوا، والإفساد إن هم بغوا وأفسدوا- والأصل فيهم -بحكم السلطان والجاه- حمل الناس على فعل المعروف وترك المنكر، كجزء من الأمة.

ولأننا -فى هذا البحث- نحاول الوصول إلى تصور صحيح ومقبول لنظام الحسبة فى الإسلام فى وقتنا الحاضر، يمكن أن يؤدى دوره فى الاحتساب على ذوى الجاه والسلطان فى ضوء دراسة المبادئ التى قررها الإسلام فى المجال الدستورى والسياسى وأصول الفقه الإسلامى، والتى على أساسها يقوم نظام الحسبة، وواجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لمقاومة الظلم بكافة صوره من سياسى واجتماعى واقتصادى، وجور الحكام ومحاربة أنواع الفساد التى تقع من ذوى الجاه والشوكة فى المجتمع.

وكذلك نحن غير بعيدين عن دراسة بعض صور تطبيقاتها فى عصور مختلفة، وفى غير مجافاة للنصوص الملزمة والقواعد العامة التى جاءت فى الكتاب والسنة، ولا للمبادئ الكلية للنظام السياسى فى الدولة الإسلامية. وما نظام الحسبة فى الإسلام إلا جزء من كل فى بناء المجتمع المسلم والدولة الإسلامية، متعرضين لما تقدمه النظم القانونية الوضعية السابقة من تصورات ونظريات ومصطلحات فى مجال الفقه السياسى الدستورى ذات صلة بموضوع بحثنا، ولها فائدة فى إدراك أصالة قيمنا، وتحريرها من الاختلاط بغيرها، وربطنا بأصول تراثنا وهويتنا الحضارية المتميزة، من منظور الدراسة المقارنة بالأنظمة المشابهة فى التشريع الوضعى، فى حدود ما يخدم موضوعنا، وفى غير تفصيل تتوه فى زحمته الخطوط الأساسية.

ولذا بدأنا الدراسة بفصل تمهيدى نتحدث فيه عن قضايا ومفاهيم أساسية تشكل منطلقات رؤيتنا، ونبحث فيها حق مقاومة جور الحاكم، ودستورية الحسبة، وغموض مصطلح التغيير باليد، وسوء تطبيقه، بالإضافة إلى تناولنا الدراسات السابقة والمقارنة والحديثة وتميز دراستنا عنهم.

ثم قمنا بتقسيم الدراسة إلى ثلاثة أبواب رئيسية، الباب الأول ويتناول الاحتساب عموماً ويركز على مفهومه السياسى ونفض ما تعلق به من مفاهيم شائعة عنه تحاول إخراجه من الدور السياسى الجوهرى الذى يلعبه هذا النظام وتحويل دوره إلى دور قضائى وبوليسى.

وقد قسمنا الباب الأول إلى أربعة فصول أساسية، نتحدث فى الفصل الأول عن معنى الحسبة وعن التأصيل الفقهى لسند الحسبة الشرعى، والحديث عن وظائف الحسبة، مع التركيز على الوظيفة الأساسية السياسية لها. فى الفصل الثانى نتحدث عن أحكام الحسبة، وخصصنا الفصل الثالث للتفرقة المهمة بين نظام الحسبة ونظام القضاء وديوان المظالم. وفى الفصل الرابع نقارن بين الحسبة كنظام اتهام وبين الأنظمة المشابهة فى التشريع الوضعى.

وفى الباب الثانى تناولنا الحسبة من حيث علاقتها بالدولة والحكم موضحين بعض المفاهيم الأساسية، فجاء الفصل الأول للتعريف بالمحتسب عليهم أو ذوى السلطان والجاه. وفى الفصل الثانى تناولنا أنظمة الحكم، والسياسة الوطنية، وأشرنا بوجوب الحسبة فيها على ذوى السلطان، أما الفصل الثالث فقد قارنا فيه بين الحسبة فى الإسلام والتشريع الوضعى، فقارنًا بين نظام الحسبة ونظام المفوض البرلمانى والمدعى العام، واعتبرناها مشاركة سياسية تستهدف العدالة الاجتماعية. وفى الفصل الرابع تحدثنا عن مدى علاقة مبدأ الفصل بين السلطات بالحسبة على ذوى السلطان.

أما الباب الثالث فخصصناه لمناقشة الأنظمة السياسية المعاصرة، والمقصود الاحتسابى فيها، موضحين ضرورة الحسبة، فقسمنا هذا الباب إلى أربعة فصول، فجاء الفصل الأول ليبين المقصود الاحتسابى للأنظمة السياسية الديمقراطية، وفى الفصلين الثانى والثالث تحدثنا عن الحسبة فى نظام الجمهورية الرئاسى، والحسبة فى النظام السياسى النيابى، وأخيرا نتحدث فى الفصل الرابع عن خاتمة تقييمية جاءنا فيها ببعض النماذج التطبيقية التى طبقت فيها الحسبة وتعليقنا عليها.

وقد ختمنا دراستنا بمجموعة من النتائج والتوصيات التى توصلنا إليها وأهمها:

● إن مقاومة الظلم والاحتساب على الحاكم واجب دينى. ومن أجل ذلك شرع الإسلام مقاومة الظلم، وأوجب على الأمة الإنكار على حكام الجور ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً.

● إن جوهر الديمقراطية مقبول فى الإسلام، مع الإقرار بأن ثمة فوارق من أهمها أن سلطة الأغلبية -التى هى إحدى ركائز نظام الحكم الديمقراطى النيابى- ليست مطلقة فى الإسلام، وإنما هى محكومة بما قدره الإسلام من مبادئ وأصول جاءت بها نصوص القرآن والسنة على وجه القطع والإلزام التشريعى.

● إن الإسلام لم يفرض نظماً مفصلة تحكم نشاطات الحياة المختلفة سواء بالنسبة لنظام الحكم -على أهميته القصوى- أو بالنسبة لغيره من الأنظمة السياسية أو الاقتصادية أو الاجتماعية، ونظام الحسبة فى الإسلام لم يشذ عن هذه القاعدة، فما هو إلا واحدٌ من هذه الأنظمة التى عرف أساسها، وجرت ممارستها منذ العهد النبوى.

● إن أعمال الحسبة الرقابية على السلطة الحاكمة ما يقوم به فى نظامنا الحاضر جهات متعددة على رأسها المجالس النيابية وما خوله الدستور لها

من حقوق ووسائل لأداء دورها الرقابى، وهو احتسابى، وكذلك المعارضة أحزاباً وصحافة ونقابات وجماعات وغيرها.

كما أن للقضاء العادى والإدارى دوره فى الحسبة، حيث يمكن اعتبار دعاوى الإلغاء أمام المحاكم الجنائية صوراً لدعاوى الحسبة المعروفة فى الفقه الإسلامى.

● إنه إلى جانب الوظائف التقليدية للحسبة، فإن لها وظيفة سياسية فى المجتمع والدولة على السواء بالغة الأهمية والحيوية، بحيث يمكن أن نعتبرها جزءاً أساسياً من المشروع الحضارى الإسلامى المتكامل الذى يستهدفه المسلمون عامة، وعلماء الأمة ومفكروها الإسلاميون خاصة، ويجدون فى إحياء وظيفة الحسبة عامة، وعلى ذوى الجاه والسلطان خاصة، أداتنا الإسلامية للإصلاح السياسى بل والاقتصادى والاجتماعى كذلك، وهى فى الوقت نفسه أداتنا للإصلاح الدستورى من منظور الديمقراطية الحقيقية.

● إن الحسبة على ذوى السلطان تشكل كبرى الضمانات الشرعية للحريات العامة والحقوق الأساسية للإنسان، أو المبادئ التى تحمى الأفراد من طغيان الدولة واستبداد الحكام وهو المطلب العاجل والملح الذى تتطلع إليه الشعوب، لاسيما الواقعة منها فى دائرة الدول النامية، ودولنا العربية والإسلامية داخلة فيها.

● إن الضرورة تجعل المحظور جائزاً، لذلك فإن الحكومة - الخلافة- التى لا تتوفر فيها جميع الخصائص المميزة للحكومة الصحيحة تصبح رغم ذلك جائزة -أى شرعية- طالما أنها تمثل أخف الضررين؛ لأن احتمال قيام نظام مشوب بعيوب الحكومة الناقصة أقل ضرراً وخطورة من غياب كامل لأى نظام للحكومة الإسلامية -الخلافة-.

● إن مبدأ الفصل بين السلطات فى الإسلام إضافة إلى مبدأ الشرعية الإسلامية -بمعنى سيادة الشريعة- يكونان أكبر سند شرعى لوظيفة الحسبة على ذوى السلطان؛ لما يتضمنان من تقييد السلطة التنفيذية بمهمتها الدستورية وهى التنفيذ لا التشريع، ومن غلق الباب أمام الحكام دون حق استصدار قوانين ظالمة.

● إن المقاصد التى تخدم الأمة العربية والإسلامية من خلال هذا الموضوع ترتبط ارتباطاً وثيقاً بكيفية مشاركة الحاكم للمحكوم، وكيفية مشاركة المحكوم للحاكم، مما يجل المسئولية التى تقع على عاتق الاثنين.

أما إذا ظلم الحاكم وجحد لقوله تعالى: ﴿كَلا إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى ● أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى﴾ (العلق٦-٧). نجده فى هذه الحالة مستغنيا عن الشعب، وأن عنده من الأجهزة المعاونة ما تجعله يبطش ويظلم، مما يترتب على ذلك عدم وجود دور ورأى عام قوى للمحكومين.

ونحن نرى أن إدارة الأمة لواجبها فى المشاركة فى الحكم ومساءلة الحاكم يولد عندها رأى عام قوى، وإذا تأصل عند المحكومين هذا الدور تولد عند الحاكم أن للمحكومين رأيا عاما قويا ومعارضة قوية تجعل الحاكم يعمل لذلك ألف حساب.

ولعل خير ما أختم به موضوع بحثنا، أن أنبه إلى نقاط أساسية جوهرية راجعتها فى الكتاب والسنة تبين أهمية وعى الأمة بدينها -لاسيما فى مجال موضوعنا- ومدى الحاجة إلى النهوض بها لاستعادة وحدتنا وتقدمنا فى كل مجالات الحياة، وذلك للنهوض المنشود بأمتنا ونحملها ما حملت من أمانات بها صلاح أولها وإصلاح البشرية أنظمة وجماعات على اختلاف مكانتها وتفاوت حالاتها بين القوة والضعف والتقدم والتخلف كما يلى:

١- أن الإسلام عنى عناية كبرى بازدهار المسلمين رجالاً ونساء، ودعاهم للوحدة ونبذ الخلاف، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَـذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ (الأنبياء:٩٢)، وقال سبحانه: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُواْ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال:٤٦).

٢- أن أمة الإسلام موصوفة بالعزة، وعزتهم من عزة الله كما فى قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون:٨)، وقوله سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً﴾ (النساء: ١٣٩)، وقوله: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ (فاطر:١٠)، وقوله عزوجل: ﴿وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلّهِ جَمِيعاً هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (يونس:٦٥).

٣- أن المسلم لا يكون مسلماً إلا إذا اهتم بأمر أمته لينقلها من ضعف إلى قوة، ومن تخلف إلى تقدم كما فى قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ● إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ● إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر: ١-٣). ■

كتاب الزاوية



بردة البوصيرى
فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم

ظلمتُ سنَّةَ منْ أحيا الظلام إلى
إنِ اشتكتْ قدماه الضرَ من ورمِ
وشدَّ من سغبٍ أحشاءه وطوى
تحت الحجارة كشْحاً مترف الأدمِ
وراودتْه الجبالُ الشمُ من ذهبٍ
عن نفسه فأراها أيما شممِ
وأكدتْ زهده فيها ضرورتُه
إنَّ الضرورة لا تعدو على العِصَمِ
وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورةُ من
لولاه لم تُخْرِج الدنيا من العدمِ
محمد سيد الكونين والثقليـن
والفريقين من عُرْبٍ ومنْ عجمِ
نبينا الآمرُ الناهى فلا أحدٌ
أبرَّ فى قولِ لا منه ولا نعمِ
هو الحبيب الذى ترجى شفاعته
لكل هولٍ من الأهوال مقتحمِ
دعا إلى الله فالمستمسكون به
مستمسكون بحبلٍ غير منفصمِ
فاق النبيين فى خَلقٍ وفى خُلُقٍ
ولم يدانوه فى علمٍ ولا كرمِ
وكلهم من رسول الله ملتمسٌ
غرفاً من البحر أو رشفاً من الديمِ
وواقفون لديه عند حدهم
من نقطة العلم أو من شكلة الحكمِ
فهو الذى تم معناه وصورته
ثم اصطفاه حبيباً بارئُ النسمِ
منزهٌ عن شريكٍ فى محاسنه
فجوهر الحسن فيه غير منقسمِ

> ❞ رأيى صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب ❝
>
> الإمام الشافعى

فى الرهان على
الاعتدال!



وليد محمود عبد الناصر

■■ بناء على مبادرة أطلقها فى يناير ٢٠٠١ «يوهاى كونو» وزير خارجية اليابان فى ذلك الوقت، ورئيس مجلس النواب اليابانى بعد ذلك، خلال جولة له فى منطقة الشرق الأوسط،بدأ «الحوار الحضارى الاسلامى اليابانى». وقد انعقدت الجولة الأولى فى العاصمة البحرينية المنامة فى ربيع ٢٠٠٢، بمشاركة اليابان وعدد من الدول الأعضاء فى منظمة المؤتمر الإسلامى. وقد كان لى فرصة المشاركة فى الوفد المصرى إلى هذه الدورة الأولى، والذى تضمن أساتذة كبارا بحجم الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد الفقيه القانونى الدولى المعروف ووزير الإعلام والشباب المصرى الأسبق، وكذلك الأستاذ الدكتور محمد السيد سليم الأستاذ بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، ومؤسس مركز الدراسات الآسيوية بالكلية.

وكانت فلسفة الحوار، ولا تزال، هى أن يمثل وسيلة لإطلاق حوار منتظم ودورى وله طابع مؤسسى بين الجانبين اليابانى والإسلامى بهدف إيجاد أرضية مشتركة بين أبناء الثقافتين والحضارتين، علماً بأن الثقافة اليابانية تحتوى بداخلها على مؤثرات من الديانتين البوذية والشينتوية بشكل أساسى، بالإضافة إلى بقية الديانات الموجودة فى اليابان مثل المسيحية بطوائفها المختلفة والإسلام.

وقد انعقدت ست دورات للحوار بين دورة المنامة ودورة طوكيو الأخيرة فى كل من طهران وتونس والرياض والكويت وطوكيو أيضاً.

وفى الدورة الأخيرة، شهدت الجلسة الافتتاحية كلمات ونقاشاً لا يخلو من دلالة، فقد أخذ البعض على الحوار أنه لا يتضمن الطرف الأساسى المفترض وجوده من الجانب الإسلامى، ألا وهم المتطرفون أو الأصوليون. وأشار من طرح هذه النقطة التى لا تخلو من منطق إلى أنه لا توجد أى مشكلة لدى التيارات المعتدلة من المسلمين فى القبول بالحوار والتعايش والتعاون بين العالم الإسلامى واليابان، ولكن من يجب أن يكون الطرف فى الحوار هم المتشددون الذين لديهم مشكلة أصلاً فى الاعتراف بالآخر أو الإقرار بوجوده، بل يؤمنون بأن هناك طريقة واحدة صحيحة للحياة. كما أن رئيس جامعة الأمم المتحدة حرص فى كلمته الافتتاحية على تناول الفكر الإسلامى الأصولى المتشدد، وتعرض تحديداً لآراء المفكر الإسلامى المصرى الراحل سيد قطب كنموذج لذلك. ومن جانب ذلك تعرض مشاركون من الدول الإسلامية إلى نماذج أخرى مثل الإمام الشافعى، الذى عاش منذ أكثر من ١٢٠٠ عام، وفكره السمح، حيث غير من فقهه بعد انتقاله من العراق لمصر فى ضوء تأثره بالواقع المصرى، كما أطلق مقولته الخالدة: «رأيى صواب يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب». وتلا ذلك جدل عن مدى مصداقية الرهان على الاعتدال، ليس فقط فى حالة الحوار الحضارى اليابانى الإسلامى، بل بشأن مجمل قضايا الحوار فيما بين الثقافات والأديان على الصعيد العالمى، وأيضاً داخل العالم الإسلامى ودوله ومجتمعاته.

وفى الجلسة ذاتها، تناول النقاش حالة الإسلام فى منطقة جنوب شرق آسيا على سبيل الخصوص. وجاء ذلك طبيعياً ومتوقعاً فى ضوء الأهمية الإستراتيجية لهذه المنطقة لليابان وأمنها القومى ومصالحها الوطنية العليا، وفى ضوء كونها منطقة دول مصدرة للعمالة، الآن وفى المستقبل، لليابان، ولأن قطاعاً هاماً من سكانها من المسلمين.

كما عرض المتحدثون فى الجلسة الافتتاحية والتى تلتها لمسألة هامة تثار عادة فى أى ملتقيات للتحاور بين العالم الإسلامى وغيره من ثقافات وأديان العالم، خاصة مع الغرب، ألا وهى إعادة النظر فى مناهج التعليم ومراجعتها بغرض تنقيتها مما يكون متضمناً فيها من تحريض على أديان أو ثقافات أخرى أو أتباعها أو الحض على كراهيتها أو التقليل من شأنها أو احتقارها، والإحلال محل ذلك بإشارات ومضامين تعلى من قيم قبول الآخر والتسامح والاحترام المتبادل وغيرها من قيم التفاعل البناء.

وأجمع المشاركون على أنه فى المراحل التعليمية المختلفة توجد صور مشوهة عن الحضارات الأخرى مما يبنى أو يعزز مشاعر عدائية تجاه «الآخر»، وأشار هؤلاء إلى أن التعليم الإجبارى بدأ فى الغرب وفى اليابان فى القرن التاسع عشر، وتم توظيف هذه الآلية لجعل كل أمة متفوقة وجعل المواطنين فخورين بانتمائهم لأوطانهم، وتطور مفهوم «الدولة/الأمة»، ولكن فى خضم ذلك تمت الإساءة إلى الحضارات والثقافات الأخرى، سواء من خلال تجاهل الحقائق أو التركيز على واقعة واحدة وإخراجها من سياقها ونسيان ما دونها.

وهناك نقطة أخرى تم تناولها فى الجلسة الافتتاحية والتى تلتها، وهى أهمية مد دعوة حوار الحضارات والثقافات والأديان بشكل خاص إلى قطاعات النشء والشباب، خاصة فى اليابان وبلدان العالم الإسلامى. وقد ترجم الحوار الحضارى اليابانى الإسلامى هذا الاهتمام إلى واقع ملموس من خلال تكريس جلسة خاصة ومطولة فى إطار الدورة الثامنة للشباب من اليابان والعالم الإسلامى.

ومن جانبهم، تطرق المشاركون إلى تحديات جادة تتهدد الإنسانية جمعاء، بغض النظر عن الثقافة والدين والعرق واللون والجنس، مثل مكافحة ظاهرة تغير المناخ وتداعياتها السلبية، والتدهور البيئى بشكل عام، وما يرتبط بذلك من زيادة سكان الأرض ومخاطر ذلك، وفى نفس السياق ومرتبطاً به النقص المتزايد فى مصادر الطاقة والمياه والغذاء على حد سواء. وكل ذلك يستوجب الحوار فيما بين الأطراف الفاعلة فى النظام العالمى، بما فى ذلك بطبيعة الحال بين اليابان والعالم الإسلامى.

وقد تميزت الدورة الثامنة للحوار الحضارى اليابانى الإسلامى بتكريس

الحوار الحضارى الإسلامى اليابانى
الدورة الثامنة
جامعة الأمم المتحدة - طوكيو
يناير ٢٠١٠

جلسة خصصت لأستاذ فى الأديان المقارنة بجامعة طوكيو، هو «سيزومى شيمازونو»، تناول تقديم عرض سردى وتحليلى للديانة الشينتوية فى اليابان، وهى ديانة اليابان الأصلية، وعلاقتها بالدولة فى اليابان ودورها فى المجتمع اليابانى. وارتبط موضوع هذه الجلسة بأمر آخر شديد الأهمية وهو الرد على سؤالين، الأول هو: إلى أى درجة يعتبر المجتمع اليابانى علمانياً؟ أما السؤال الثانى فهو: هل الاعتقاد الغالب بأن اليابانيين لا يؤمنون بأى دين صحيح؟

وهنا قد يكون من المفيد التعرض بإيجاز للديانة الشينتوية، التى يربط اليابانيون نشأتها بنشأة اليابان ذاتها. ففى اليابان يوجد حوالى ثمانية آلاف ضريح شينتوى، وهو مكان العبادة المقدس لدى أتباع الديانة، وهناك أضرحة محلية مرتبطة بمناطق معينة وأخرى خاصة بطوائف معينة، وتوجد طوائف عديدة داخل الشينتوية، بعضها يندرج ضمن ما تسمى بالطوائف التقليدية والبعض الآخر يسمى بالطوائف الشينتوية الجديدة. ويصل عدد أتباع بعض هذه الطوائف إلى ما بين نصف مليون إلى مليون من أتباع الطائفة الواحدة. وترتكز الديانة الشينتوية فى أسسها على تقديس الإمبراطور من منطلق أنه من نسل الآلهة. ويعتبر الضريح الشينتوى الموجود فى مدينة «إيسى» هو بمثابة «كعبة» الديانة الشينتوية والمؤمنين بها، و«قدس أقداس» هذا الضريح لا يسمح بالدخول إليه سوى للإمبراطور فقط، بينما على ولى العهد ذاته التوقف فى مرحلة سابقة على المرحلة الأخيرة من الضريح. ويوجد بالشينتوية حوالى ثمانية ملايين «مقدس»، وهو ما يتم ترجمته فى بعض الترجمات إلى «آلهة»، وفى ترجمات أخرى إلى «أرواح»، وهى فى غالبيتها مستقاة من الطبيعة على اعتبار أن الديانة الشينتوية تقوم أصلاً على تقديس الطبيعة. والثابت تاريخياً أن الأسرة الامبراطورية اليابانية استقت تقاليدها من الديانة الشينتوية. وما بين دخول البوذية إلى اليابان، أساساً من الصين، فى القرن السادس الميلادى، حتى ثورة الـ «ميجى» عام ١٨٦٨، كانت شعائر الأسرة الإمبراطورية تقوم على الشينتوية والبوذية معاً. إلا أنه بمجىء الإمبراطور «ميجى» إلى الحكم وقيامه بثورته الإصلاحية تلك، عادت الشينتوية وحدها لتمثل شعائر العائلة الإمبراطورية. ولأول مرة منذ الانقطاع فى القرن الثامن الميلادى، قام الإمبراطور «ميجى» بزيارة الأضرحة الشينتوية. ومن هذه الشعائر الشينتوية ما يرتبط بموسم الحصاد، خاصة أن الديانة قائمة على تقديس الطبيعة. كما أن هناك شعائر متعلقة بتولى إمبراطور جديد وتسليمه «الثروة المقدسة» لضريح «إيسى». بل إن بعض الشعائر الشينتوية للأسرة الإمبراطورية أصبحت أعياداً قومية فى اليابان. وقد تعززت التوجهات الدينية الشينتوية فى المدارس اليابانية بشكل متزايد حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وكان من معالم ذلك إيجاد نماذج مصغرة من الأضرحة الشينتوية داخل المدارس اليابانية.

وعقب هزيمة اليابان فى الحرب العالمية الثانية واستسلام الإمبراطور، تم إصدار قانون فى ديسمبر ١٩٤٥ ألغى اعتبار الشينتوية الديانة الرسمية لليابان. وجاء هذا القانون بعد شهرين من إصدار توجيه شينتوى، وقبل أحد عشر شهراً من صدور دستور اليابان الجديد الذى أكد لأول مرة حرية العقيدة، أياً كانت هذه العقيدة، وهو ما لم يكن متوفراً من قبل. وطبقاً لهذا الدستور الجديد، تم الفصل بين الدولة والدين الشينتوى، وتوقف الدعم المادى الذى كانت تقدمه الحكومات اليابانية المتعاقبة فى السابق للأضرحة الشينتوية. وبالمقابل، استمر الدعم الذى تقدمه الأسرة الإمبراطورية لتلك الأضرحة.



وعلى الجانب الآخر، فقد بقيت، بشكل طوعى، بعض الأعمال التى يقوم بها المؤمنون الشينتويون باعتبارها جزءاً من عباداتهم وطقوسهم. ومن تلك الأعمال على سبيل المثال مسألة الوقوف على نظافة القصر الإمبراطورى، وذلك من منطلق تقديس الإمبراطور على أرضية دينية. كما استمر الإمبراطور فى القيام بزيارات لضريح «إيسى»، حيث توجد رفات الأباطرة السابقين، بل تعتبر تلك الزيارات، خاصة فى الأعياد الشينتوية، أحد واجبات الإمبراطور، كما أنها لا تعتبر بالمقابل انتهاكاً لعلمانية الدولة المذكورة فى الدستور اليابانى. بل ولا تزال بعض الجمعيات الدينية الخاصة، أى غير الحكومية، فى اليابان تدعو إلى توسيع الدور الدينى للإمبراطور. ومن هذه الجمعيات «اتحاد الأضرحة الشينتوية» الذى تأسس عام ١٩٤٦ كجمعية دينية خاصة، وأصدر الاتحاد دستوره عام ١٩٨٠ ونص فيه على المسعى لجعل الشينتوية دين الدولة فى اليابان من جديد. كذلك نص نفس الدستور على أنه يعمل على الحفاظ على التقاليد الشينتوية والترويج لشعائر الديانة وتوسيع رقعة أتباع المبادئ الأخلاقية وتحفيز المؤمنين للصلاة من أجل رفاهية الإمبراطور وأسرته، وللإسهام فى تحقيق السلام العالمى.

وفى الجلسات اللاحقة للدورة الثامنة للحوار الحضارى اليابانى الإسلامى، كانت الولايات المتحدة الأمريكية هى الحاضر الغائب، حيث تم التعرض لعلاقة كل طرف من الطرفين اليابانى والإسلامى بالولايات المتحدة، وإذا ما كان للولايات المتحدة كطرف فاعل ثالث دور، ولو خفى، فى العلاقة بين اليابان والعالم الإسلامى. وفى هذا السياق، نستطيع القول أن أحد هذه الأدوار حقيقة أن معظم التغطية الإعلامية التى تحظى بها أخبار اليابان لدى العالم الإسلامى وأخبار العالم الإسلامى لدى اليابان، تأتى أساساً عبر وسائل إعلام غربية، خاصة أمريكية، مما يجعل للإعلام الأمريكى على وجه الخصوص دوراً، قد يكون غير مرئى بما يكفى، فى تشكيل وعى كل طرف بالآخر. وطرح البعض التساؤل الخاص بكيفية





مساهمة تجربة كل طرف مع الولايات المتحدة الأمريكية فى تعميق التفاهم المشترك بين اليابان والعالم الإسلامى، بما فى ذلك تعرف الطرفين على وجود هوية مشتركة بينهما، خاصة فيما بين الثقافة الإسلامية والثقافات الآسيوية، وهل يمكن أن يكون من ضمن هذا المشترك النموذج الاقتصادى الرأسمالى ولكن بخصوصيات معينة، على اعتبار أن الثقافتين تروجان، طبقاً للتفسيرات الغالبة لهما، لهذا النموذج، بما يحتويه من تعظيم لقيم الفردية (مسئولية الفرد عن أعماله فى كل من الثقافتين)؟

ولم يفت المشاركون التعرض للتعددية داخل كل طرف، خاصة الطرف الإسلامى، وهو ما حرصت من جانبى على إبرازه لتفادى أى سوء فهم من الجانب اليابانى بأن الثقافة الإسلامية والفكر والخطاب المرتبطين بها هى عينة واحدة، هى الأكثر تشدداً أو تطرفاً أو انغلاقاً على الذات، وربما تكون هى الأعلى صوتاً، بينما أن الواقع هو وجود تنوع واسع داخل هذا الإطار الأوسع للثقافة الإسلامية، كما أن هناك أيضاً ثقافات إسلامية فرعية فى سياق الثقافة الأعم، لكل منها خصوصيتها، وكذلك ما طرأ من تغيرات على الثقافة الإسلامية عبر المراحل التاريخية المتعاقبة، خاصة فى العقود الأربعة الماضية. ويرتبط هذا الأمر بتعدد الدول التى تنتمى للثقافة الإسلامية، وبالتالى تعدد التيارات الفكرية والثقافية بداخلها، مقابل كون الثقافة اليابانية، بروافدها المختلفة، ممثلة فى دولة واحدة هى اليابان.

وقد اعتبر المشاركون بلا استثناء أن الالتقاء وجهاً لوجه، حتى ولو لم يؤد إلى نتائج فورية ملموسة، يمثل تقدماً فى حد ذاته، على أن يشمل ذلك التركيز على جمع شخصيات، ليس فقط من المنفتحين بالطبيعة أو الانتماء الفكرى على «الآخر»، بهدف المشاركة فى المعرفة والخبرات، مع إبراز ضرورة أن يعمل الحوار الحضارى اليابانى الإسلامى على جذب رجال الدين والسياسيين والصحفيين والإعلاميين من الجانبين للمشاركة فى الحوار، وذلك على خلفية الدور والتأثير الذى تمارسه هذه الفئات فى مجتمعاتها، وما تمتلكه من أدوات لتوظيفها فى نشر المعارف حول الثقافة الأخرى بين أبناء مجتمعاتها، خاصة أن أحد المعوقات الرئيسية للحوار هو غياب المعلومات الكافية على الجانبين. ويصب فى ذات الاتجاه العمل لتعزيز التبادل السياحى والطلابى بين الجانبين. وفى هذا السياق، طرحت وزارة الأوقاف الكويتية مبادرة بدعوة عشرة طلاب يابانيين للكويت كل عام للبقاء لعام دراسى للتعرف عن قرب وبشكل مباشر على الثقافة الإسلامية، كما هى موجودة هناك. كذلك من الممكن البحث فى إقامة مشروعات ذات طابع اقتصادى من جهة تحقيق عائد مادى، مثل إقامة مدارس على الجانبين يتم فيها تدريس لغات وفلسفات وثقافات وتاريخ والمنظومات القيمية للطرفين، بحيث يتعلم الأطفال على الجانبين أشياء جديدة ومختلفة عن ومن الطرف الآخر. ولتحقيق نفس الهدف، دعا المشاركون إلى تدريس الإسلام، كثقافة وتاريخ فى المدارس اليابانية، وإلى تدريس الفلسفات والتاريخ والثقافة اليابانية فى مدارس البلدان الإسلامية، باعتبار ذلك يساهم فى تعريف كل طرف بأن المشترك بين شعوب الثقافتين أكبر بكثير من مواضع الاختلاف، جزئياً لأن هناك مساحة مشتركة واسعة وعريضة فيما بين كافة البشر، وجزئياً باعتبار أن الثقافتين تنتميان لثقافات الشرق القديمة. وعلى الجانب الآخر، يظهر هذا التفاعل أن الاختلافات والفروق والخلافات محدودة وتقتصر على أقلية من الموضوعات.

وكان الحوار فرصة سانحة لمناقشة مسائل تتعلق بمواقف الثقافتين تجاه الحرب والسلام. فعلى الجانب اليابانى، عرض المشاركون للنقاش الدائر فى اليابان منذ عقود، وخاصة فى العقد الأخير، حول الأصوات الداعية إلى تعديل المادة التاسعة من الدستور اليابانى، والتى تحظر على اليابان إرسال قوات الدفاع الذاتى اليابانية (الجيش اليابانى) إلى خارج الحدود اليابانية للمشاركة فى أى أعمال ذات طابع قتالى. والنقاش ليس ذا طابع فنى، بل سياسى بحت ويعكس أنساقا مفاهيمية مختلفة، ما بين تيارات قومية أو دينية تسعى من خلال تعديل تلك المادة إلى إحياء النزعة العسكرية اليابانية التى كانت سائدة حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، وتيارات يسارية أو سلمية تتحسب لفتح الباب لأى تعديل لهذه المادة تخوفاً من أن يكون ذلك مقدمة لتعديلات أخرى تنهى الطابع السلمى ليابان ما بعد الحرب العالمية الثانية.

على الجانب الآخر، فإن الطرف الإسلامى طرح مقارنات ذات قيمة ودلالة مع الجانب اليابانى، ومنها المقارنة بين ما تعرضت له مدينة هيروشيما فى الحرب العالمية الثانية من دمار بالسلاح النووى الأمريكى وما تعرض له قطاع غزة خلال الحرب الإسرائيلية على القطاع فى ديسمبر ٢٠٠٨ ويناير ٢٠٠٩. كما تحدث بعض المشاركين من الجانب الإسلامى عن عدم وجود ما يسمى بـ «قنبلة نووية إسلامية»، نظراً لأن أى سلاح نووى هو فى يد الدولة التى تمتلكه وليس فى أيدى حضارة بأسرها! بل ذهب هؤلاء إلى اعتبار السلاح النووى فى حد ذاته خطراً على الإنسانية ككل، وبالتالى لا يجب أن يكون مصدر فخر بل هو محرم من وجهة نظر إسلامية ويجب عدم السماح بوجود أى سلاح نووى، أياً كانت جنسيته أو ديانته. وقد اتفق هذا الموقف مع فتوى كان قد أصدرها فضيلة الدكتور على جمعة مفتى الديار المصرية عام ٢٠٠٩ بتحريم الأسلحة النووية من منظور إسلامى.



وقد عمد المشاركون اليابانيون إلى عرض تقييمهم للتطورات السياسية التى شهدتها اليابان فى انتخابات ٣٠ أغسطس ٢٠٠٩، والهزيمة التى نالها الحزب الليبرالى الديمقراطى بعد حوالى ٥٤ عاماً فى الحكم منفرداً أو فى إطار قيادته لائتلاف حاكم، وانتصار الحزب الديمقراطى اليابانى. واتفقت معظم الآراء على أن اليابان وصلت بانتهاء الحرب الباردة فى نهاية الثمانينيات ومطلع التسعينيات من القرن العشرين إلى منتهى تحقيق أهدافها الوطنية كما حددتها لنفسها عقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، ولكن الحزب الليبرالى الديمقراطى لم يبلور برنامجاً جديداً بأهداف جديدة، واكتفى، على حد قول هؤلاء، بالتماشى مع ما أسماه بعض المشاركين اليابانيين بـ «أمركة ما بعد الحرب الباردة»، وجاء فوز الحزب الديمقراطى بالانتخابات الأخيرة ليعكس رغبة فى بناء هوية يابانية جديدة وإنهاء حالة التمزق لليابان بين الشرق والغرب.

وعلى صعيد القضايا السياسية أيضاً، أكد المشاركون من الجانب اليابانى أن اليابان فى حالة حوار منذ سنوات طويلة مع الفلسطينيين وتقدم المساعدات لهم، وفى الوقت ذاته حافظت اليابان على الاتصال بالجانب الإسرائيلى مما مكن اليابان من التأثير على الأوضاع فى الشرق الأوسط. ولكن العديد من المشاركين من الجانب الإسلامى اختلفوا مع هذا الطرح واعتبروا الدور السياسى اليابانى فى الشرق الأوسط، خاصة تجاه الصراع العربى الإسرائيلى، أقل مما تفرضه مصالح اليابان فى المنطقة وتتيحه إمكانيات اليابان وتطلعها للعب دور عالمى أكبر.

وركز المتحدثون فى هذا المحور من جانب العالم الإسلامى على ضرورة توخى الحذر والحرص تجاه استخدام تعبيرات معينة مثل «الإرهاب»، والحرص على عدم ربطه بالإسلام أو بأى دين، لأن الأديان لا تدعو للإرهاب بل إلى السلام، خاصة مع تبيان أنه فى العالم الإسلامى لا يوجد أصلاً اعتراف بما يسمى فى الغرب «الحرب على الإرهاب». وأشار هؤلاء إلى رفض بعض الجماعات المتهمة غربياً بـ «الإرهاب»، مثل حركة «حماس»، تعبير الإرهاب أو إطلاقه على العمليات التى تقوم بها. إلا أن عدداً من المشاركين من الجانب الإسلامى سعى للتذكير بأن جماعات مثل «القاعدة» و«طالبان» و«حماس» و«حزب الله» هى جماعات تأسست أصلاً على يد الغرب بشكل أو بآخر. إلا أن الجميع رفض الحديث عن وجود «إرهاب جيد» و«إرهاب سيئ»، فالإرهاب بجميع صوره وأشكاله مرفوض.

واتسمت مداخلات بعض اليابانيين بالصراحة والنقد الذاتى، ومنهم البروفيسير/إيتاجاكى، صاحب الفكرة الأصلية لهذا الحوار والأستاذ الفخرى بجامعة طوكيو، حيث أوضح أن التاريخ الإنسانى شهد خلطاً فى العديد من الحالات بين المناضلين ضد الاستعمار والإرهابيين، وأن الأمر يتوقف على موقع المشاهد للصراع، منبهاً إلى أن السياسيين عادة ما يلجأون لتشويه الصراعات حتى لا تظهر حقيقتها، كما أن الصراعات تعالج عبر مصالحات توفيقية فى أغلب الأحوال وليس بالضرورة عبر حلول عادلة، مقراً بأن لليابان تاريخا استعماريا وعنصريا، خاصة فى محيطها الجغرافى، وفى التاريخ الحديث، وأن هذا التاريخ كان نتيجة ما أسماه بـ «العقلية العسكريتارية»، مشيراً



ركز المتحدثون فى هذا المحور من جانب العالم الإسلامى على ضرورة توخى الحذر والحرص تجاه استخدام تعبيرات معينة مثل «الإرهاب»



إلى أن سيادة هذه العقلية لفترة من الزمن أفضت إلى أن هدف اليابان الأساسى خلال تلك الحقبة كان سحق إرادة السكان الأصليين للبلدان الأخرى، بل وإبادتهم وإفنائهم، وإقامة مستعمرات فى بلدانهم، ونهب الشعوب الأخرى، واستمرار هذه الممارسات لعدة قرون، على حد قول البروفيسير «إيتاجاكى»، واعتبر أن هذه الخلفية شكلت البيئة الاجتماعية والتاريخية والذهنية المحيطة بالإعلام اليابانى، مشيراً إلى أن الإعلام اليابانى كان فى هذه الحالة فى واقع الأمر الضحية وليس الفاعل. وضرب البروفيسير مثالاً على ذلك بانعقاد مؤتمر المؤرخين اليابانيين والكوريين الذى انعقد فى عام ٢٠٠٩، وتزامن ذلك مع الذكرى المئوية لاغتيال سياسى يابانى على يد ناشط سياسى كورى، ذاكراً أن اليابانيين اعتبروا حينذاك من قام بالاغتيال إرهابياً بينما اعتبره الكوريون تعبيراً عن الوطنية الكورية، ويحتفل الكوريون به سنوياً، كما أنه بمرور الوقت صار بعض اليابانيين يقبلون أيضا به باعتباره مناضلاً وطنياً كورياً وليس إرهابياً. وأفصح البروفيسير «إيتاجاكى» عن هدفه من ضرب هذا المثال عندما أشار إلى التشابه مع الصراع بين إسرائيل والشعب الفلسطينى، حيث تحول الإسرائيليون عن اعتبار منظمة التحرير الفلسطينية منظمة إرهابية إلى الاعتراف بها والتفاوض معها. ولكن البروفيسير «إيتاجاكى» لم يذكر إن كان يتوقع أن يتطور الموقف الإسرائيلى تجاه منظمات مثل «حماس»، «الجهاد الإسلامى»، و«حزب الله»، فى اتجاه مماثل فى المستقبل؟ وفى نفس السياق أشار متحدث من الجانب الإسلامى إلى اتهام الأمريكيين للفيتناميين بالإرهاب وهم يقاتلون من أجل الاستقلال الوطنى، وقبل ذلك بقرون اتهم البريطانيون الأمريكيين بالإرهاب لأنهم كانوا يحاربون للحصول على حريتهم، بل إن البريطانيين اتهموا «المهاتما غاندى» بالإرهاب عندما كان يناضل من أجل استقلال الهند عن بريطانيا، وذلك بالرغم مما عرف عن غاندى من أنه كان من دعاة المقاومة السلمية، بل والسلبية.

إلا أن المشاركين من الجانبين أبدوا حرصاً على الابتعاد عن الخوض خلال الحوار فى المسائل الدينية والسياسية البحتة التى قد تثير حساسيات هنا أو هناك، والتركيز أكثر بالمقابل على المسائل ذات الطابع الثقافى والاجتماعى والاقتصادى، خاصة أن الكثير من المشاركين أعربوا عن انطباع مفاده أنه جرى التركيز على الموضوعات السياسية خلال الدورات السابقة للحوار بأكثر مما ينبغى. وخلال الدورة الأخيرة مثلاً أثيرت مسائل تتعلق بالمأكولات التقليدية على الجانبين، واندرج فى هذا الإطار المأكولات «الحلال» على الجانب الإسلامى، وانتشارها فى اليابان مؤخراً، والاقتصاديات المرتبطة بها، مع شرح مكونات المأكولات «الحلال» ومعاييرها وشروطها. وفى السياق نفسه، فإن غياب المعلومات والمعرفة الكافيتين لدى كل طرف عن عادات الطرف الآخر دفع إلى اقتراح إعداد قائمة بالأسئلة الأساسية المثارة والمكررة لدى كل طرف عن الطرف الآخر والإجابات عليها. ولا يقتصر هذا على الجانب اليابانى، بل يمتد إلى الجانب الإسلامى الذى لا يعرف مثلاً كثيراً عن فن «المانجا» اليابانى (قصص الرسوم الكاريكاتورية) ودلالاته المجتمعية والثقافية، أو عن فن ترتيب الزهور «الإكيبانا» وارتباطه بالثقافة اليابانية تاريخياً وحالياً، ويندرج الأمر نفسه على الرقصات والموسيقى التقليدية اليابانية، وما لها من ارتباطات بالديانتين الشينتوية والبوذية، خاصة ما يسمى بـ «موسيقى ورقصات القصر»، فى إشارة إلى القصر الإمبراطورى، والتى نشأت محتضنة من قبل الأسرة الإمبراطورية وبرعايتها. ويدخل تحت نفس العنوان موضوعات أخرى مثل شرح مفهوم «القبلة» لدى المسلمين ودلالاته الدينية والتاريخية، وتأثير ذلك على الوحدة المعنوية بين المسلمين، وعلى شعيرة الحج وما تمثله من مؤتمر سنوى عام لمسلمى العالم، وما يرتبط بها من أنشطة اقتصادية وثقافية وفكرية واجتماعية تجسد الحوار والتفاعل الدائرين فيما بين المسلمين عبر العالم.

وقد كرست الدورة الثامنة من الحوار الحضارى اليابانى الإسلامى جزءاً هاماً من فعالياتها تمثل فى جلستين كاملتين، كان لى شرف رئاسة إحداهما، للأبعاد الاقتصادية والاجتماعية للحوار. وكان الباعث الرئيسى من ذلك لدى الجانب اليابانى حالة اهتمام بالغة ومتزايدة من جانب اليابان، حكومة وقطاعات اقتصادية ومصرفية ومراكز أبحاث وجامعات وإعلاماً، فى الفترة الماضية، بمايسمى بـ «النظام المصرفى الإسلامى». وقد بدا ذلك جلياً من تركيز المحور الاقتصادى والاجتماعى، سواء فى تدخلات اليابانيين أو المشاركين من الدول الإسلامية، على موضوع المعاملات المالية الإسلامية وعلاقتها بحالة التنوع فى الاقتصاد العالمى، وكيفية تجنب غالبية المصارف الإسلامية معظم أوجه الأزمة المالية العالمية منذ خريف عام ٢٠٠٨، وما تعكسه ظاهرة المصارف الإسلامية من تنوع القيم على الصعيد العالمى، وهل هى ظاهرة ذات طابع محلى أو إقليمى تقتصر على العالم الإسلامى، أم يمكن أن تتسم بالعالمية ويمكن أن تطبقها دول وبنوك غير إسلامية، وأخيراً علاقة ما يسمى بـ «النظام المصرفى الإسلامى» بكل من عمليات التمويل واحتياجاتها من جهة والسوق ومتطلباته من جهة أخرى. ومن جانبهم، أشاد المشاركون اليابانيون بما أسموه بشفافية «النظام المصرفى الإسلامى» وتوثيق معاملاته.



وقد تحدث فى إطار هذا المحور أحد أساتذة جامعة طوكيو المتخصصين فيما يطلق عليه «الاقتصاد الإسلامى»، وأحد المديرين التنفيذيين لمؤسسة استشارية يابانية كبرى فى المجال المصرفى، وأحد المسئولين التنفيذيين فى بنك التنمية الإسلامى وأحد مسئولى مؤسسة أغاخان العالمية من المسئولين عن الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية.

وأظهرت الكلمات والنقاش الذى أعقبها اهتماماً خاصاً من الجانب اليابانى بما ذكره المتحدثان وبعض المشاركين من الجانب الإسلامى عن اهتمام الإسلام بالقيم والأخلاق ضمن النشاط الاقتصادى والمالى وليس الكسب المادى فقط، وكذلك ضرورة الالتفات لأهداف النهوض بنوعية الحياة وضمان استمرارية النمو وليس فقط التركيز على المعايير الكمية مع العمل على بلورة معايير بديلة لتقييم مدى تقدم المجتمع، وطبيعة المشاركة فى المشروعات، سواء فى تحمل المخاطر أو المسئولية عن الإدارة أو فيما يتعلق بالمكسب أو الخسارة. وأكد المتحدثان من الجانب الإسلامى أن ما يسمى بـ «النظام المصرفى الإسلامى» يتفاعل مع آليات السوق ومؤسساته، سواء كانت محلية أو إقليمية أو دولية، مبرزين فى هذا الخصوص إمكانية تطبيق مبادئ هذا النظام على مجتمعات غير إسلامية ومن قبل مؤسسات مصرفية غير إسلامية باعتباره ليس نظاماً مرتبطاً بالدين بقدر ما هو منهج تعامل مع الأعمال من منطلق أخلاقى. وقد قام المتحدث عن بنك التنمية الإسلامى بتحليل أزمة الاقتصاد اليابانى فى نهاية الثمانينيات فيما كان يعرف بـ «اقتصاد الفقاعة» من منظور «إسلامى» معتبراً أن السبب فى تلك الأزمة، بل وحتى فى الأزمة المالية العالمية التى نشأت من الولايات المتحدة الأمريكية فى خريف ٢٠٠٨، هو عدم ارتباط القطاع المصرفى بالاقتصاد الحقيقى وإنما باقتصاد افتراضى، والتوسع المفرط فى الإقراض مقارنة بالنقود الحقيقية المتاحة فعلياً، وغياب الاعتبارات الأخلاقية والاجتماعية عن قرارات الاستثمار، وأخيراً المبالغة فى المضاربات. وقد عمد هؤلاء إلى شرح الفارق بين الفائدة كجوهر الاقتصاد اللاإسلامى مقابل المشاركة كجوهر الاقتصاد الإسلامى، ونفس الشىء بالنسبة للفارق بين نظام التأمين المعمول به حالياً ونظام «التكافل» الإسلامى. وشرح بعض المشاركين من الجانب الإسلامى الفارق بين المضاربة فى النظام الغربى وتلك الموجودة فى الاقتصاد الإسلامى، موضحين أنه فى الحالة الثانية فإن المضاربة هى شراكة بين صاحب رأس المال وصاحب الخبرة (ممثلاً فى المصرف).

كذلك لم يفت بعض المشاركين من الجانب الإسلامى الإشارة إلى مؤسسة «الأوقاف» الإسلامية ودلالاتها الاقتصادية والاجتماعية، سواء من منظور تاريخى أو فى الوضع الراهن والآفاق المستقبلية. وذكر بعضهم تجربة بنك «جرامين» أو ما يعرف بـ «بنك الفقراء» فى بنجلاديش الذى أسسه محمد يونس واكتسب شهرة دولية كبيرة ويقدم القروض الميسرة للمشروعات الصغيرة أو متناهية الصغر بشروط تفضيلية وتسهيلات ممتدة وواسعة، وحقق اختراقاً نوعياً فى التعامل مع قضية الفقر وما يرتبط بها من قضايا مثل البطالة وغيرها.

ولكن كان اللافت على الجانب الآخر أن المشاركين من الجانب الإسلامى نفوا التصور السائد لدى الجانب اليابانى بأن «النظام المصرفى الإسلامى» لم يتأثر بالأزمة المالية العالمية فى خريف ٢٠٠٨، بل أوضحوا أن هذا النظام هو فى نهاية الأمر جزء من الاقتصاد العالمى، وبالتالى يتأثر سلباً بكل ما يدور من متغيرات تؤدى إلى تباطؤ أداء



إن البريطانيين اتهموا «المهاتما غاندى» بالإرهاب عندما كان يناضل من أجل استقلال الهند عن بريطانيا، بالرغم من أنه كان من دعاة المقاومة السلمية





الاقتصاد العالمى ومؤشراته الرئيسية. كما نبه هؤلاء إلى ضرورة توفير حوافز مؤثرة وفعالة للمؤسسات لضمان نجاح المشروعات والأنشطة التى تقوم بها، معتبرين أن الحكومات وحدها هى الأقدر على تقديم مثل هذه الحوافز. ولكن الأهم كان إقرار المتحدثين من الجانب الإسلامى بحدوث حالات فساد أو أخطاء «إنسانية» أو حالات عجز عن السداد فى سياق «النظام المصرفى الإسلامى»، ولكنهم أرجعوا ذلك إلى أحد أمرين: أولهما أن من يقوم بتطبيق هذا النظام هم فى نهاية الأمر من البشر الذين يمكن أن يخطئوا أو يضعفوا لسبب أو لآخر، والثانى سوء إدارة بعض هذه المصارف الإسلامية وهو ما حدث على أرض الواقع فى العديد من الحالات.

وهنا تكمن الإشارة إلى أن الاهتمام الآسيوى بتجربة المصارف الإسلامية عموماً جاء متأخراً عن وتالياً للاهتمام الأوروبى بها الذى بدأ مبكراً، حيث انطلق من المملكة المتحدة وتلتها فرنسا ثم فى فترة لاحقة كل من أسبانيا وإيطاليا. أما فى آسيا غير الإسلامية فكانت البداية بسنغافورة ومن ثم هونج كونج وجاءت اليابان تالية.

وإذا كان الجانبان اليابانى والإسلامى قد اتفقا فى التقدير بأن العالم بأسره يعيش فى سفينة واحدة فيما يتعلق بالأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، خاصة نتيجة تأثيرات العولمة فى طورها الراهن، كما أقروا بأن الاختلافات تتعلق أساساً بالتعامل مع نفس الموضوعات والقضايا فى مناطق مختلفة جغرافياً وثقافياً فى العالم من زوايا مختلفة، فإن المشاركين اليابانيين لم يخفوا اهتماماً كبيراً بحجم الفوائض النفطية لدى الدول العربية والإسلامية، خاصة فى منطقة الخليج، بما فى ذلك ما هو موجود فى «الصناديق السيادية»، فأشاروا إلى أن نصف ما هو فى الصناديق السيادية فى العالم موجود لدى دول عربية وإسلامية وأكثر من ثلث هذا النصف موجود فى مصارف إسلامية، دائماً بحسب المتحدثين والمشاركين اليابانيين. وكان إسهام المشاركين اليابانيين أوسع من ذلك، حيث أحاطوا المشاركين من العالم الإسلامى بتطورات هامة حدثت فى اليابان فى إطار الاهتمام بما يعرف بـ «الاقتصاد الإسلامى» و«المصارف الإسلامية»، مثل إصدار مؤسسة «نويوتا» اليابانية العملاقة لصكوك وطرحها فى بورصة ماليزيا فى عام ٢٠٠٩، وكذلك قيام بورصة طوكيو يومياً بإصدار مؤشرات الأسهم التى يتم تداولها وفقاً للشريعة الإسلامية، وهما تطوران بالغا الدلالة بشأن الاهتمام اليابانى بهذه الحالة «الإسلامية» فى الاقتصاد والتمويل.

ولوح المشاركون اليابانيون بفرص وإمكانات التعاون بين البلدان الإسلامية واليابان فى ضوء ما رأوه تكاملاً بين الجانبين: فاليابان تمتلك عوامل الكفاءة والفاعلية فى الإنتاج والتصدير، بينما العالم الإسلامى يملك ما يجعل لهذا الإنتاج وما يرتبط به من أنشطة معانى تفوق الطابع المادى الملموس بشكل مباشر. وعلى الصعيد الاقتصادى أيضاً، حرص عدد من المشاركين اليابانيين على أن المساعدات اليابانية الإنمائية الرسمية، والتى تقدم عادة عبر وكالة التعاون الدولى اليابانية (الجايكا)، لم تميز بين أى من الدول النامية بصفة عامة على خلفية أية اعتبارات تمييزية دينية أو حضارية.

وبالمقابل، أقر أغلب المشاركين اليابانيين بأن العالم على أعتاب مرحلة جديدة، وإن اعتبروها فى الإطار العام لتطور النظام الرأسمالى، ولكنهم أبدوا تفهمهم أنها نتيجة للأزمة المالية العالمية وما تلاها من تداعيات اقتصادية سلبية، مشيرين إلى أن الأخيرة كانت أزمة غير مسبوقة فى تاريخ الرأسمالية العالمية، ومؤكدين حاجة العالم إلى إعادة تنظيم نظامه الاقتصادى.



ولم يقتصر الحديث على الأنشطة الاقتصادية البحتة كما ذكرنا آنفاً، بل امتد ليتناول القضايا الاجتماعية وفى مقدمتها مسعى القضاء على الفقر أو تخفيف حدته، خاصة من منظور تنموى، وارتباط ذلك فى الإسلام بارتكاز التنمية الاقتصادية على أسس أخلاقية واجتماعية واعتبارها عملاً طويل المدى. وتطرق هذا الحديث بالضرورة إلى الأنشطة الخيرية والجمعيات الأهلية القائمة بها. وتم التعرض لمناطق معينة فى العالم الإسلامى تعتبر الأكثر فقراً مثل افريقيا جنوب الصحراء وجنوب آسيا وكذلك آسيا الوسطى. وبرزت المساهمات اليابانية فى هذا الاتجاه باعتبارها شريكاً تنموياً لعدد كبير من الدول الإسلامية. ومن جهة أخرى، برز الاهتمام بالنتائج التى تحققت من جراء تلك الجهود، ومدى المشاركة المجتمعية فيها على الأصعدة المحلية، وارتباط ذلك بالمشاركة السياسية واللا مركزية من جهة اتخاذ كل قرية أو حى فى مدينة للقرارات المتعلقة باحتياجاته وأولوياته من مشاريع وبرامج. وأبرز بعض المتحدثين التأثير السلبى لسياسات الدعم المتبعة فى بعض الدول على قضايا الفقر، وبالمقابل أهمية العمل لمساعدة المنتجين الفقراء على الوصول إلى الأسواق والنفاذ إليها. وفى هذا الإطار، تم إبراز العديد من التجارب الناجحة فى عدد من الدول الإسلامية فى مجال مكافحة الفقر والحد منه عبر توظيف أدوات اقتصادية بما يحقق مضاعفة لمتوسط الدخل ولمعدلات الادخار للفرد ضمن الفئات الاجتماعية الفقيرة والمهمشة فى تلك المجتمعات، سواء فى الحضر أو فى الريف، وتمت مناقشة إلى أى مدى يمكن اعتبار هذه التجارب نماذج قابلة للتطبيق فى بلدان ومناطق أخرى من العالم الإسلامى.

وفى السياق الاقتصادى/الاجتماعى أيضاً، أبرز المشاركون المبادئ الأخلاقية العامة التى من المفترض أن تحكم المعاملات المالية والاقتصادية الإسلامية ولها دلالاتها الاجتماعية البناءة مثل تحريم الغش والاحتكار والخداع وإبراز أهمية الأمانة وتأديتها إلى أهلها ودفع المقابل العادل لقيمة العمل، بالإضافة إلى محورية الجانب العقائدى الإسلامى ودوره فى الاقتصاد، وفى المقدمة منه مفهوم «الاستخلاف»، خاصة فى المال، وترجمته العملية فى شكل تأكيد أنه ليس ملكاً للإنسان ملكية مطلقة بل هو مستخلف فيه بشتى صوره من ملكية خاصة وغيرها، فهو مال الله وبالتالى يجب تنفيذ أمر الله فيه، وما يترتب على ذلك من وجود «حق» مثلاً للسائل والمحروم فى المال، وضرورة التقيد بعدم الإسراف أو التبذير فى الإنفاق من جهة وعدم حبس المال بل تدويره عبر الاستثمار من جهة أخرى، وضرورة الاستثمار فى الصدقات باعتبار ذلك نشاطاً اقتصادياً له مردود اجتماعى وإنسانى إيجابى على أرض الواقع.

وقد أظهر النقاش الذى دار فى هذا المحور عدداً من الإشكاليات الهامة، أولها يتعلق بطبيعة تشكيل ودور مجالس الشريعة داخل المؤسسات المالية الإسلامية وحدود ولايتها، وجدلية العلاقة بين الاعتبارات والمناهج المثالية والأخلاقية والعقائدية من جهة والعملية والميدانية واليومية من جهة أخرى فى إدارة مثل هذه المؤسسات، وتساؤلات من جانب بعض المشاركين اليابانيين عما إذا كان فى الواقع، وبغض النظر عن اختلاف المسميات أو الحدود للمعاملات المختلفة، توجد هناك فروق كبيرة بين «النظام المالى أو الاقتصادى الإسلامى» وغيره من النظم الموجودة فى عالمنا الآن، وفى حالة وجود مثل هذه الاختلافات كيفية مصالحة هذه النظم المختلفة ببعضها البعض بحيث تتعايش وتتعاون وتتفاعل فى عالم واحد واقتصاد عالمى واحد. وهنا برز أن عدداً من المشاركين من الدول الإسلامية، بمن فيهم من مؤسسات مالية إسلامية، أقروا بأنه فى حقيقة الأمر فإن الاختلافات فى المعاملات ذاتها جزئية وثانوية بين «النظام الاقتصادى والمالى الإسلامى» وغيره من النظم، وأن الاختلافات أساساً تكمن فى الحكمة من وراء هذه المعاملات والتفسيرات الخاصة بها والمقاصد لهذه المعاملات والمبادئ الحاكمة لها وارتباطها بمسائل عقائدية وأخلاقية وكيفية تكييفها معها وتوظيفها فى سياقها لتحقيق غايات بعيدة المدى تتعلق بمهمة الإنسان فى إعمار الأرض وإسعاد البشر عبر تلبية احتياجاتهم المادية والمعنوية المشروعة دينياً وأخلاقياً.

أما الجزء الأخير من الدورة الثامنة للحوار الحضارى اليابانى الإسلامى التى عقدت بطوكيو فى الأسبوع الأخير من فبراير ٢٠١٠، فكان لموضوع شديد الأهمية فيما يتصل بالحوار وهو دور الإعلام. وفى هذا الإطار، طالب المشاركون من الدول الإسلامية الجانب اليابانى بضرورة عدم التأثر بالمنظور الغربى لقضايا العالم الإسلامى وعدم الاعتماد على مصادر الإعلام الغربى فى تغطيته لأخبار العالم الإسلامى. واتهم بعض المشاركين من العالم الإسلامى الإعلام خارج العالم الإسلامى بالتعبير عن العالم الإسلامى بشكل سلبى فى الأغلب، بينما المفترض أن تقوم وسائل الإعلام بالترويج للتفاهم مع «الآخر» بعد أن تكون وسائل الإعلام تلك فهمت هى نفسها «الآخر» بالفعل.

وفتح هذا النقاش الباب على مصراعيه لحوار صريح حول معايير وصف جماعات العمل السياسى ذات المنطلقات الدينية، وهل هى جماعات إسلامية أم أصولية أم راديكالية؟ وأبرز الجميع أن



برزت المساهمات اليابانية فى هذا الاتجاه باعتبارها شريكا تنمويا لعدد كبير من الدول الإسلامية

القنوات التليفزيونية أصبحت قادرة على تغيير صورة المجتمعات والثقافات واتسع تأثيرها فى عصر الفضائيات إلى العالم بأسره على امتداده. وبالمقابل، لفت بعض المشاركين من الجانب الإسلامى إلى أهمية الحوار، ولو عبر الإعلام، مع الأطراف التى لا نود التحدث إليها فى الأحوال العادية. ودعا المشاركون اليابانيون بالمقابل إلى أن تفتح وسائل الإعلام العربية من صحافة وتليفزيون ووكالات أنباء مكاتب بطوكيو، مشيرين إلى عدم التناسق بين الكثرة النسبية لعدد المراسلين اليابانيين فى العالمين العربى والإسلامى ومحدودية عدد المراسلين من جانب وسائل إعلام الدول الإسلامية. وبالمقابل، دفع الجانب الإسلامى رداً على ذلك بارتفاع التكاليف فى اليابان لفتح مثل هذه المكاتب أو حتى مجرد تعيين مراسلين.

وانتقد البعض الحديث عن وسائل إعلام «إسلامية» وطالبوا بنسبة وسائل الإعلام إلى جنسيتها، أى إلى دولة بعينها وليس إلى دين.

وفى إطار الحديث عن دور الإعلام فى الحوار، دعا المشاركون من الجانبين إلى الاهتمام فى التغطية الإعلامية بالمسائل التى تهم النشء والشباب، وتقليل الاهتمام بالمسائل السياسية المباشرة التى ينزعج منها المتابعون لوسائل الإعلام. وعلى صعيد المشاركين من العالم الإسلامى، أقر البعض بأن الإعلام لدى الدول الإسلامية لا يقوم بتغطية أخبار اليابان على النحو الأمثل الذى يحقق تعلم شعوب البلدان الإسلامية من التجربة اليابانية، خاصة أن اليابانيين كانوا بدورهم قد تعلموا منذ حوالى قرن ونصف من تجربة النهضة فى مصر فى عهد محمد على باشا والخديوى إسماعيل. وفى ضوء اتهام بأن الإعلام التابع للدول الإسلامية إما تابع للحكومات أو لرجال الأعمال فى معظم الحالات، فإن بعض المشاركين اليابانيين أثاروا مسألة عدم اهتمام وسائل الإعلام فى العالم الإسلامى فى معظمها كثيراً بالتواصل مع اليابان أو التعلم منها، ولو حتى على المستوى الحرفى. ولكن رد الجانب الإسلامى كان بدء وجود تمثيل لوسائل إعلام تابعة لدول إسلامية فى اليابان، وذلك فى ضوء الاتجاه المتزايد تجاه الشرق خلال السنوات الأخيرة من جانب العالم الإسلامى، وذلك على حساب التوجه للغرب.

وانتقد بعض المشاركين اليابانيين غياب وجهة النظر اليابانية عن الرأى العام فى الدول الإسلامية بشأن بعض القضايا الحساسة للجانب اليابانى، مثل قضية «ضريح ياسوكونى» المدفون فيه من يتهمهم الغرب والصين وكوريا بمجرمى الحرب العالمية الثانية من اليابانيين، بينما ترى دوائر قومية يابانية فى هؤلاء وطنيين يابانيين، وأرجع هؤلاء المشاركون اليابانيون ذلك إلى اعتماد الشعوب الإسلامية على التلقى من وسائل إعلام غربية وصينية، أى أن الاتهام صار معكوساً! لذا دعا المشاركون اليابانيون إلى زيادة التواجد الإعلامى للدول الإسلامية فى اليابان.

ولم يقتصر النقاش على وسائل الإعلام التقليدية، وإنما انتقل إلى وسائل الإعلام الأحدث مثل «الانترنت» و«اليوتيوب». وكما كان متوقعاً، قفزت إلى الواجهة مسألة المقارنة بين اليابان والصين من المشاركين العرب فيما يتعلق بتوجه وسائل الإعلام نحو العالمين العربى والإسلامى، فبينما يوجد لدى الصين وكالات أنباء لها خدمات باللغة العربية، كما أطلقت الصين محطة فضائية باللغة العربية وموقع إلكترونى بنفس اللغة، فإن الأمر نفسه يغيب عن وسائل الإعلام اليابانية بمختلف أطيافها.



وتطرق النقاش أيضاً إلى طبيعة الإعلام بشكل عام ودوره، حيث أشار بعض المشاركين من الجانبين إلى أنه فى حقيقة الأمر لا يوجد إعلام حر أو صحافة حرة بشكل مطلق، نظراً لأهمية دور الراعى والممول، ففى العالم الغربى ذاته المسمى من طرف أنصاره منذ نهاية الحرب العالمية الثانية بـ «العالم الحر» لا يوجد إعلام حر تماماً، فهناك الحرص على عدد المستمعين أو المشاهدين أو القراء، والهدف دائماً هو زيادة عدد هؤلاء، لأنه كلما ارتفع هذا العدد، تحسنت الفرصة للحصول على ممول أو راع أفضل، وبناء على ذلك، يركز الإعلام على الظواهر السلبية مثل الإرهاب والكوارث والحروب، أى اللافت للانتباه والمثير للاهتمام، كما يركز على الحوادث الصغيرة والهامشية ويعظم منها، خاصة جوانبها السلبية. واعتبر المشاركون من الجانب الإسلامى أن هذه السمات تنطبق فى العديد من جوانبها على الإعلام اليابانى. واتفقت الآراء على أن الإعلام يتحدث عن الموضوعات التى تهم الطبقة التى يقبض منها تمويله.

وختاماً نقول، وبالرغم من أن الحوار الحضارى اليابانى الإسلامى ينعقد مرة واحدة سنوياً، فإن الثابت أن مجرد اللقاء والحوار هو أمر مفيد للغاية فى حد ذاته، مع إمكانية التفكير فى اقتراحات وأفكار تحقق فاعلية الحوار وتضمن استمراريته وتواصله وحيويته، ومنها تطوير وتحسين الموقع الإلكترونى الخاص بالحوار على أن يتم تحديثه باستمرار عبر مساهمات المشاركين وغير المشاركين من المعنيين بالعلاقات اليابانية مع العالم الإسلامى، وكذلك النظر فى إقامة سكرتارية دائمة للحوار، ولو صغيرة الحجم، لخدمة الحوار، خاصة فى فترات ما بين انعقاد الحوار السنوى، مع إمكانية تنظيم ورش عمل ما بين انعقاد الحوار السنوى، يركز كل منها على موضوع بعينه ويشارك فيه المتخصصون من الجانبين بحيث يخرج بتوصيات وربما مشروعات محددة وقابلة للتنفيذ، ويمكن أن ترفع لاعتمادها خلال دورات الحوار السنوى.

ومن جانب آخر، فإن الجولة الثامنة للحوار أبرزت مجدداً أن تركيب العالم الإسلامى أكثر تعقيداً للتنوع والتعددية بداخله، وذلك مقابل الطرف اليابانى الذى تمثله دولة واحدة. كذلك فإن التنوع لدى بلدان العالم الإسلامى هو بين دول تستضيف أماكن مقدسة، ودول أخرى لديها ثروات طبيعية، ودول ثالثة لديها ثروات بشرية، ومجموعة رابعة لها إسهامات حضارية وثقافية، بالإضافة إلى تباين جغرافى بين دول إسلامية فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا أى دول عربية، وأخرى فى آسيا الوسطى، وثالثة فى جنوب آسيا، ورابعة فى جنوب شرق آسيا، وخامسة فى آسيا الوسطى، وسادسة فى أوروبا والبلقان، وسابعة فى أفريقيا جنوب الصحراء. ومن المهم أيضاً التفكير فى أنه إذا ما كان المعيار هو انتماء الدولة لمنظمة المؤتمر الإسلامى، أليس من المناسب التفكير فى دعوة أمانة المؤتمر الإسلامى أيضاً للمشاركة فى الحوار؟ ولكن السؤال المقابل الذى يطرح نفسه فى هذه الحالة هو: ألن يعنى هذا استبعاد الجاليات الإسلامية الضخمة خارج حدود العالم الإسلامى، بما فى ذلك الجالية الإسلامية فى اليابان، مع محدودية عددها؟ ويرتبط تعريف العالم الإسلامى طبقاً لأى من الدوائر المذكورة فى الفقرة السابقة بالخبرات المتراكمة لدى من يقوم بالتعريف والمعلومات المتوافرة لديه.

كذلك فمن الهام أن يتسم الحوار بالجمع بين النظرى والمفاهيمى والعملى، بين الحضارى والثقافى والسياسى والاقتصادى والاجتماعى. كما أنه من الواجب أن يقوم الإعلام على الجانبين بشكل مباشر بنقل التعددية الموجودة لدى كل طرف فى الحوار إلى الطرف الآخر، بالإضافة إلى نقل المشترك العام بين الطرفين، مما يغذى ويوسع ويعمق من الأرضية الداعمة للحوار الحضارى اليابانى/الإسلامى.

والواقع أن اليابان تمثل حالة مثالية لبناء حوار بينها وبين العالم الإسلامى، ويعود ذلك فى الأساس إلى أنه لا توجد مشاعر معادية للمسلمين والإسلام لدى اليابانيين، وإن كانت أحياناً توجد مخاوف ناتجة عن التأثر برؤى غربية عن الإسلام، أو عن أفعال وأقوال بعض المسلمين أنفسهم ممن يسيئون لدينهم وأمتهم عبر التشدد غير المحمود أو المؤصل. كذلك فإن الجهات الرسمية والحكومية اليابانية تبدى تفهماً وحرصاً على تعزيز الفهم للعالم الإسلامى وقضاياه، كما تبدى مثلاً من خلال دعوة وزارة الخارجية اليابانية لمفتى الديار المصرية، فضيلة الدكتور على جمعة، لزيارة اليابان، وهى زيارة تمت بالفعل فى مارس ٢٠١٠، فى سابقة هى الأولى فى تاريخ اليابان التى يتم فيها توجيه دعوة رسمية لقيادة دينية إسلامية لزيارتها، والثانية بعد الحرب العالمية الثانية عقب توجيه الدعوة للزعيم التبتى الصينى «الدالاى لاما». وبالتالى، فالظروف مواتية لنجاح الحوار الحضارى اليابانى الإسلامى للوصول إلى تفاهم أفضل بين الثقافتين. كما أن هناك حواراً موجوداً بالفعل فى اليابان بين الثقافة اليابانية والثقافة الإسلامية متمثلة فى اليابانيين المسلمين، وهم فى حدود عشرة آلاف شخص بحسب معظم التقديرات، أو المسلمين الذين أتوا من بلدان إسلامية كثيرة واستقروا فى اليابان، وإما حصلوا على الجنسية اليابانية أو اكتسبوا إقامة دائمة بها، وهو حوار أشار مشاركون فى الدورة الثامنة من الحوار الحضارى اليابانى الإسلامى إلى ضرورة تطويره وضمان انتظامه واستمراره. ■



يرتبط تعريف العالم الإسلامى بالخبرات المتراكمة لدى من يقوم بالتعريف والمعلومات المتوافرة لديه



هــل هــو حــقـــا

■■ فى رواية ألدوس هكسلى «عالم جديد شجاع» والتى كتبها فى عام ١٩٣٢ والتى تحولت إلى عدة أفلام سينمائية، وأستمد عنوانها من رواية لشكسبير باسم «العاصفة» والتى جاءت على لسان إحدى بطلاته وهى ميراندا فى معرض حديثها عن مدى روعة العالم الجديد الشجاع الذى نعيش فيه، ليضع فيها تصوراته عن الحياة فى المستقبل وتحديداً فى القرن السادس والعشرين، والتى تنبأ فيها بالتغيرات الجديدة التى سوف تظهر فى المدنية الحديثة، وشدد على تفكك الأسرة، وعدم تركيز العاطفة الجنسية على شخص واحد، وأن استخدام كلمة الأب والأم فى الكلام سوف يثير فى هذا المجتمع مشاعر الخجل والحياء، وتحمر لدى سماعها الوجوه وكأنها عيب أو عار..!، وتوقع حدوث تطورات مذهلة فى تكنولوجيا الأبحاث، والتخليق، والقدرة على التنويم. وفى هذه الرواية يرى هكسلى أن الإنسانية سوف تصل إلى مرحلة لم تعد فيها تهتم بأى شىء ولا يعنيها أى شىء ، يتمتع كل الأشخاص فى هذه المدينة بالصحة الجيدة وبالتقدم التكنولوجى .. وتم استئصال الحرب والفقر نهائياً.. ليعيش كل البشر سعداء..!!

وقد تم تحقيق ذلك عن طريق استئصال عدة أشياء مثل الأسرة والاختلافات الثقافية بين الأفراد،فكل الناس متشابهون مثل الماكينات، ومنع الفن والأدب، فقد منعت روايات شكسبير،فليس هناك مكان للعواطف التى يصفها،كما تم تقليص دور العلم والدين والفلسفة.. وقد أصبح المجتمع منشغلاً بتحقيق اللذة عن طريق المخدرات والجنس..!.

والمجتمع أو «دولة العالم» كما ورد اسمها فى هذه الرواية يسعى لأن يكون جميع أعضائه مستهلكين جيدين لكل السلع التى يقدمها النظام لهم، ليسهم ذلك فى نمو الاقتصاد، معتبراً أن مقياس النجاح الوحيد هو النمو الاقتصادى، وكل المواطنين متوقع منهم الاندماج مع بعضهم البعض، وغير مسموح لهم بقضاء فترات بمفردهم أو التفكير فى أمورهم الشخصية، والتعددية الجنسية وعدم الارتباط بشخص واحد فى هذه العلاقات هو النموذج السائد فى هذا المجتمع، والجميع يجب أن يستخدم عقاقير مضادة للاكتئاب (كان يرمز لها فى الرواية بالسوما، توزع على المواطنين فى مراكز التسوق..!!) تدخل من يتناولها فى غيبوبة لذيذة تمتد لبضع ساعات أو حتى بضعة أيام ، يزول خلالها هذا الشعور بعدم الرضا ، ويعود هذا الشخص إلى ممارسة حياته الطبيعية مثلما يمارسها سائر الناس ،أى يشعر الجميع بالسعادة..!!.

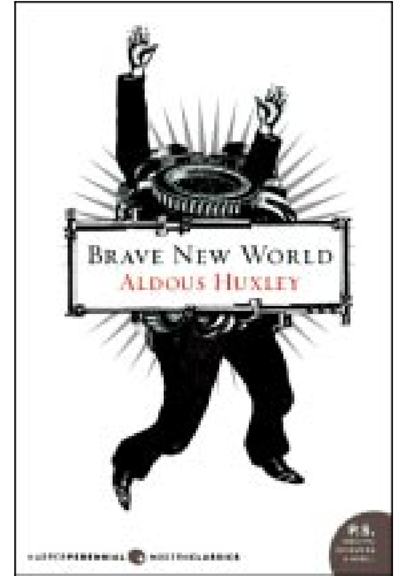
على أن أهم ما ورد فى هذه الرواية هو طريقة دولة العالم كما أسماها هكسلى فى روايته فى السيطرة على البشر، والطريقة التى اتبعتها القلة المسيطرة على مقاليد الحكم فى هذه الدولة فى حشر المعلومات المراد إدخالها فى عقول الأطفال أثناء النوم. وتعتمد هذه الطريقة على محاولة نقل المعلومات للشخص النائم عن طريق تشغيل شريط تسجيل أثناء نومهم وهى ما يطلق عليها الآن فى علم النفس «تعلم الأفكار أثناء النوم Sleep-learning» وهو ما يؤدى فى النهاية إلى ما يسمى بالتشريب الحكومى Government Indoctrination وهو ما يعنى قدرة النظام على تشريب وتشكيل المجتمع بأفكار ما وتوجهات معينة حتى ولو كانت تجافى العقل والمنطق. مما يخلق جيوشا من الناس المتشبعين بهذه الأفكار يعملون بها ولا يفكرون فيما يعملون، ويعيشون بطريقة رد الفعل وليس بطريقة الفعل القائم على العقل وتدبر الأمور، مثلهم مثل كلاب بافلوف الذين لا يفكرون فى ردود أفعالهم، وتصبح تصرفاتهم مجرد أكليشيه ثابت ودليلا على انتهاء قدرتهم على التفكير Thought-terminating Clichés وهو ما يؤدى بهؤلاء البشر للوقوع فى براثن العبودية الجديدة، عبودية الرأى الواحد والشخص الواحد والحزب الواحد والطريقة الواحدة والمنهج الواحد..!

وقد فطن هكسلى إلى هذا الاعتداء الصارخ على إنسانية الإنسان بكل ما تعنيه الإنسانية من خصوصية فى التكوين سواء الشكلى أو النفسى أو الأخلاقى، وتفرد وتميز أى إنسان عن الآخر فى كل شىء ،فمعاملة البشر وكأنهم وحدات متماثلة يجوز عليهم ما يجوز على الأجسام المادية والجامدة المجردة من الحياة كفيل بترسيخ هذا الاعتداء وتكريسه، وتنبأ بأن هذا التوجه قد يصيب الإنسانية فى مقتل ، ويفقدها ما يستحيل تعويضه ..!

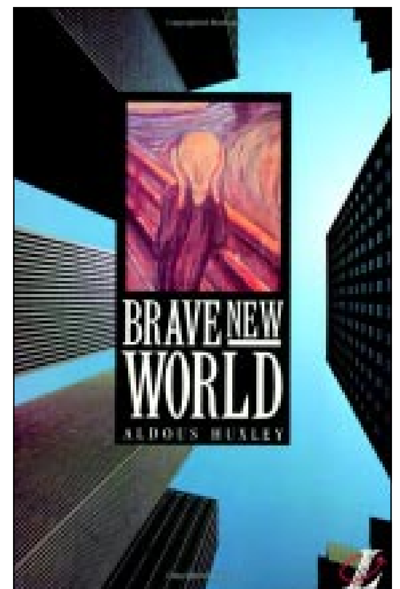
أن عالم هكسلى الجديد الشجاع الذى تنبأ به قبل خمسة وسبعين عاما وسخر منه وعبر عن عدم رضائه عنه، قد تحقق وقد حدث بالفعل فى كل تفصيلاته الصغيرة وكأن رؤيته قد تحققت كاملة رغم أنه كتب عن الثورة الجينية مثلاً قبل أن تتحقق فعلياً على يد العالمين واتسن وكريك اللذين اكتشفا تركيب الحامض النووى DNAبعشرين سنة ، وكتب عن الهندسة الوراثية قبل أن تصبح أحد الممارسات العلمية المعاصرة ، وما يقال عن الهندسة الوراثية يمكن أن يقال عن الاستنساخ وأطفال الأنابيب وتكنولوجيا المعلومات وغيرها .

وما تنبأ به فى العلم حدث ما يماثله فى السياسة والإعلام وغيرها من المجالات، ففى عالم السياسة أصبحت فكرة سيطرة القائمين على الحكم على الناس هى النموذج الأكثر تطبيقاً فى جميع الأنظمة الحاكمة، وزادت درجة التدخل فى حياة الناس بالتنظيم والضبط والربط والتجسس والملاحقة والتتبع بطريقة غير مسبوقة، كما أصبح الإعلام أيضاً لا يكف عن تكرار أخبار ملفقة وتعليقات كاذبة وتفسيرات واحدة،ولكنها مدروسة بعناية، تجعل تصديق مثل هذه الأخبار والتعليقات أمراً حتمياً، تفيد توجهات القائمين على الحكم فقط، بحيث أصبح مجرد الشك فيها مستحيلاً، والخروج عن ما تم حشره فى عقول الناس جريمة، والتفكير فى غير الاتجاه السائد يستلزم العقاب، وأصبحت صناعة القبول والرضا manufacturing of consent هدف الإعلام الحكومى، وكما تنبأ هكسلى فى روايته بأن من يتشكك فى أن ما يسمعه لا يطابق الحقيقة بالضبط سوف يعزل فى جزيرة منعزلة، نجد أن ما يحدث الآن من القائمين على السلطة فى التعامل مع أى رأى مخالف يفوق بمراحل ما توقعه هكسلى فى هذا الشأن..!

وليت هذا التسلط على البشر وقدرتهم على التفكير بأنفسهم لأنفسهم، وتغيير مفاهيمهم ومعتقداتهم، والإقناع الجبرى، وحشر وتشريب عقولهم بالتوجهات الحكومية، يأتى من جهة الحكومات الاستبدادية فقط، ولكن أصبح الإملاء وفرض الفكر، وغسيل الأدمغة يأتى من الكتب التى يصرح بنشرها والتى نقرؤها كل يوم، والتى أصبحت أقرب إلى المنشورات الحكومية الدعائية، وتقليل فرص الوصول إلى المصادر الطبيعية والصحيحة للمعلومات، وبرامج التليفزيون الموجهة التى نراها والتى تغذى السلبية والتنميط،وهمها الأول إغراق الناس فى عالم من المتع والملذات والتشويق، وأفلام السينما التى تميل إلى ترويج العنف والرعب والإثارة التى تمجد أسطورة الأقوى الذى لا يقهر، وتبرير العنصرية والاستغلال والانتهازية، وإعلانات التليفزيون (التى تسوق المشاهد ليصبح مستهلكا مسيطرا عليه



HarperCollins Publishers 2006



Longman 1991

BRAVE NEW WORLD
Aldous Huxley
HarperCollins Publishers 2006

حسين الشرقاوى

«عالم شجاع»؟!



(Aldous
Leonard Huxley
(1894-1963

تماماً،وخاضعاً تماماً لقوانين السوق، وكلما زاد حجم السلع التى تباع وتشترى، تضاعف حجم الثروة وبالتالى يقاس النجاح)، وألعاب الفيديو التى تزرع فى نفوس الشباب بطولة زائفة بدون جهد أو فكر أو عرق، وتدريبهم على نماذج تكتيكية للقتل لمجرد التسلية وإحراز مزيد من النقاط..!، والجماعات الدينية التى أعلنت نفسها المالك الوحيد للحقيقة، وكفرت كل ما هو غيرها، والجماعات السياسية والأحزاب التى تعتقد أنها الوحيدة التى تعرف خارطة الطريق، وأنها الوحيدة التى تستطيع أن تأخذ بأيدى الناس الذين لا يستطيعون السير فى طريقهم بدون أيدى بابا النظام وماما الحكومة..!!

ولكن ما يعنينا فى رواية هكسلى، قدرة المثقفين الهائلة - الموجودة دائماً فى كل مجتمع - على قيادة فكر هذا المجتمع، فصرخة الغضب والاحتجاج التى أطلقها هكسلى وغيره كثيرون - قبله وبعده- هى التى جعلتنا نفكر ونتدبر فيما حولنا، وقدرته على فضح أساليب القهر سواء القهر المادى المعروف على مدى العصور، أو القهر المعنوى، عن طريق ما أصبحت عليه وسائل الإعلام والاتصال الحديثة من تأثير واضح فى عقول الناس وميولهم وغسيل أدمغتهم وتشريب عقولهم بما يريد الحكام نشره من أفكار ومعتقدات ومعلومات، هى التى جعلتنا نصحو من غفوتنا، نتلفت حولنا لنجد أن مقادير أمورنا ليست بأيدينا، ونرتعب خوفا مما يمكن أن يأتى به المستقبل..!.

إن القدرة على الرؤية السليمة للأمور تعطينا أملاً فى قدرتنا على استشراف المستقبل والتعامل معه بشجاعة، إذا عرفنا كيف نفك شفرته ونحل طلاسمها.. فرواية هكسلى لا تقصد مجتمعاً معيناً أو ثقافة معينة، وإنما تعنى رواية هكسلى بكل البشر فى كل مكان وزمان، وأزمة الحرية فى كل العصور، لقد أنهى هكسلى روايته بأحد الأطفال الذى كان دائماً ما يتشكك فى كلام مدرسته عن عدم قيمة الدين و الأسرة والفن، بأن قرر وضع سدادة فى أذنيه قبل النوم حتى لا يسمع ما يريدونه أن يسمع..! إن تلك النهاية القوية الموحية هى التى تؤكد على أنه مازالت هناك شجاعة فى هذا العالم الجديد الذى نحياه، وأن هناك أملا مادام هناك عقل يفكر وأياد تعمل، وبدون تلك الرؤية الواضحة لما يجب أن نفعل حتى نغير من واقعنا ومستقبلنا لكى لا نصبح مجموعة أخرى من كلاب بافلوف التى تعيش بطريقة رد الفعل، فإننا سنظل نعيش فى عالم قديم جبان!! ■

لماذا يرفض العرب الديموقراطية؟



حسن عجمى

نطرح فى هذا البحث فلسفة السوبر حداثة وديمقراطيتها، فنقارن بين ديمقراطية السوبر حداثة والديمقراطيات الأخرى كى نجد ما هو النظام الأفضل من بينها. ثم نسأل: «لماذا نحن العرب نرفض الديمقراطية ونتجاهلها؟» إلى أن نصل إلى علاقة العلم بالديمقراطية. ونختم هذه الرحلة المعرفية بديمقراطية الكون والوجود.



السوبر حداثة

■■ ديمقراطية السوبر حداثة هى الديمقراطية التى تعتمد على اللا محددً فى بناء مجتمعها. وتفصيل ذلك هو التالى: إذا كان النظام الديمقراطى يوزع الثروة من خلال أخذ بعض مال الأغنياء وتوزيعه على الفقراء، فحينها يتم خرق حق بعض الناس، أى الأغنياء فى حرية الاحتفاظ بما يملكون. أما إذا كان النظام الديمقراطى لا يأخذ مالاً من الأغنياء ويوزعه على الفقراء، فحينها يتم خرق حق بعض الناس أى الفقراء فى العيش الكريم. من هنا، لابد من توزيع الثروة فى المجتمع بحيث يكون من غير المحددً مَن المستفيد منها، وهذا مبدأ ديمقراطية السوبر حداثة. فعندما يكون من غير المحددً مَن المستفيد من توزيع الثروة، حينها سيكون من غير المحددً ما إذا كان الأغنياء أم الفقراء سوف يستفيدون من توزيع الثروة، وبذلك لن يكون النظام الديمقراطى موجهًا ضد حق الأغنياء فى حرية الاحتفاظ بما يملكون أو ضد حق الفقراء فى العيش الكريم. مثل نظرى على التوزيع اللا محددً للثروة فى ديمقراطية السوبر حداثة هو التالى: لابد من إنشاء المؤسسات على أساس أن يتم توزيع ثروتها بشكل غير محددً. أى لا بد أن يكون من غير المحددً من المستفيد من المؤسسات المختلفة، وبذلك قد يستفيد الغنى والفقير معًا فلا يتم خرق أى حق لهما. أما النظام الذى يأخذ مالاً من الأغنياء لتوزيعه على الفقراء فهو موجّه ضد حرية الأغنياء فى التصرف بما يملكون، بينما النظام الذى يُبقى الوضع على ما هو عليه فيحافظ الغنى على غناه والفقير على فقره، فهو موجّه ضد حق الفقراء فى الاستفادة والحياة الكريمة. لكن ديمقراطية السوبر حداثة غير موجهة ضد طبقة أو أخرى لأنه من غير المحددً من سيستفيد من توزيع ثروتها، وبذلك تتفوق ديمقراطية السوبر حداثة على الديمقراطيات الأخرى.

أما التطبيقات العملية لمبدأ ديمقراطية السوبر حداثة فقد تتنوع وتختلف. فمثلاً، من الممكن أن تخصص المؤسسات الاقتصادية أو الاجتماعية جوائز مالية قيمة للأكثر نجاحًا فى المدارس والجامعات. والأكثر نجاحًا قد يكون فقيرًا أو غنيًا. وبذلك لا يتم خرق حق الفقير أو حق الغنى. كما من الممكن أن تقدّم الدولة معاشًا شهريًا للأدباء والمفكرين والفنانين، وهؤلاء قد يكونون أغنياء أو فقراء، وبذلك يغدو من غير المحددً من سيستفيد، ما يتضمن عدم خرق حق الغنى أو الفقير. وعلى هذا الأساس من الممكن تطوير مبادئ لتوزيع الثروة من دون خرق أية حقوق كونها مبادئ من غير المحددً من يستفيد منها. هكذا تحافظ ديمقراطية السوبر حداثة على العدالة فى المجتمع فلا تميّز بين الطبقات الاجتماعية المختلفة وتسمح بانتقال الفقراء إلى وضع أفضل من دون خرق حقوق الأغنياء.

بالنسبة إلى السوبر حداثة، اللا محددً يحكم العالم. من هذا المنطلق، ديمقراطية السوبر حداثة تعتمد على اللا محددً فى صياغة مجتمعاتها. تختلف السوبر حداثة عن الحداثة وما بعد الحداثة. تقول الحداثة إن الكون محددً ولذا من الممكن معرفته، بينما تعتبر ما بعد الحداثة أن الكون غير محددً لكن رغم ذلك من الممكن معرفته؛ فمن خلال لا محدودية الكون من الممكن تفسيره. هكذا تفترق السوبر حداثة عن الحداثة وما بعد الحداثة. للسوبر حداثة تطبيقات عدة فى الميادين المعرفية المختلفة منها التطبيق التالى: من غير المحددً أية نظرية علمية هى النظرية الصادقة، لذا من المتوقع وجود نظريات علمية عديدة كلها ناجحة فى تفسير الكون ووصفه رغم أنها تعارض بعضها البعض. من هنا، تنجح السوبر حداثة فى تفسير: لماذا توجد نظريات علمية ناجحة رغم التعارض فيما بينها، وبذلك تكتسب السوبر حداثة قدرتها التفسيرية فمقبوليتها. فمثلاً: من غير المحددً ما إذا كانت النظرية النسبية لأينشتاين أم نظرية ميكانيكا الكم هى النظرية الصادقة، ولذا من غير المستغرب أن تكون النظريتان ناجحتين فى تفسير العالم رغم أنهما تعارضان بعضهما البعض. فبالنسبة إلى النظرية النسبية لأينشتاين الكون حتمى، بينما بالنسبة إلى ميكانيكا الكم الكون غير حتمى، وبذلك تعارضان بعضهما البعض. لكن كلاً منهما نظرية ناجحة بامتياز. من هنا، لابد أن نسأل: كيف من الممكن أن تكونا نظريتين ناجحتين معًا رغم تعارضهما؟ وجواب ذلك فى يد السوبر حداثة التى تقول إنه من غير المحددً أية نظرية منهما هى النظرية الصادقة ما يحتّم نجاحهما رغم تعارضهما واختلافهما.

تتمكن السوبر حداثة أيضًا من تفسير لماذا تنجح الديمقراطية. الديمقراطية نظام ناجح؛ فكلما أعاقتها مصيبة كالانهيار الاقتصادى ترمم ذاتها وتستعيد نشاطها. فلا نجد

لمـــاذا يرفــض الـعـــرب «الديموقراطيــــة»؟

انهياراً للأنظمة الديمقراطية، بل فقط عملية تصحيح مستمرة لها ولقوانينها وأهدافها، بينما انهارت أنظمة أخرى كالفاشية والدكتاتورية. لذا لابد أن نسأل: لماذا تنجح الديمقراطية وتستمر؟ تجيب السوبر حداثة على هذا السؤال على النحو التالي: الديمقراطية ناجحة لأنها نظام غير محدَّد. ففي الأنظمة الديمقراطية من غير المحدَّد من سيحكم وكيف لأن فيها يتم انتخاب الحاكم والحكومة لمدة زمنية قصيرة ومن ثم يتم استبدالهما بحاكم آخر وحكومة أخرى مختلفة. من هنا، من غير المحدَّد من الحاكم في النظام الديمقراطي. ولا محدودية النظام الديمقراطي تجعله قادراً على التغير والتكيف مع الظروف المختلفة كونه نظاماً غير محدَّد. أما إذا كان النظام محدَّداً سلفاً فلن يتمكن من التغير والتأقلم مع الظروف المتغيرة. على هذا الأساس تكتسب الديمقراطية نجاحها؛ فبفضل لا محدوديتها تسمى الديمقراطية عملية تصحيح دائمة لذاتها ما يكفل استمرارها وتفوقها على الأنظمة الأخرى. فمثلاً: في النظام الدكتاتوري من المحدَّد من الحاكم وما مشروعه، لذا تفشل الدكتاتورية في التغير والتكيف مع الظروف المستجدة ما يحتِّم فشلها وانهيارها.

بالإضافة إلى ذلك، لا تكتفي السوبر حداثة بتفسير نجاح الديمقراطية والدعوة إلى صياغة اللا محدَّد في نبض الديمقراطية، بل تدعو أيضاً إلى النظر إلى الديمقراطية على أنها خالقة للتعددية بدلاً من أن تكون مجرد محافظة عليها. من مبادئ الديمقراطية التقليدية أنها تحافظ على التعددية أي تعددية الثقافات والجماعات والأحزاب والأديان، بحيث يكون لكل جماعة حرية التصرف والتفكير والتعبير على ضوء معتقداتها. لكن ديمقراطية السوبر حداثة تضيف أنه لابد على الديمقراطية أن تخلق التعددية. هذا لأنه إذا لم تخلق الديمقراطية التعددية في مجتمعها سوف تحد من حرية اختيار الفرد لأية جماعة أو ثقافة سوف ينتمي، فيبقى المجتمع ذو الثقافة الواحدة من دون تعددية الثقافات واختلافها. كما أن الأنظمة التي تحافظ على التعددية من دون أن تسعى إلى بناء ثقافات متعددة تعاني من الطائفية وصراعات طوائفها كما في النظام اللبناني. لكن إذا سعت الأنظمة إلى إنشاء ثقافات مختلفة سوف تضمن حرية الأفراد في اختيار ثقافاتهم، وهذا يمهد لزوال الطائفية والعنصرية. فخلق التعددية يغدو هو الطبيعي والمُكافأ من قبل مؤسسات الدولة بدلاً من تقوقع الفرد في جماعته. على هذا الأساس، ديمقراطية السوبر حداثة تهدف إلى خلق التنوع في الجماعات والثقافات بدلاً من أن تكون مجرد محافظة على التنوع القائم في حال وجوده. وتختلف آليات خلق التعددية منها تشجيع هجرة الأجانب المنتمين إلى ثقافات عدة مختلفة إلى النظام الديمقراطي. كما أن خلق التعددية الثقافية في المجتمع السوبر حداثي يجعله مجتمعاً غير محدَّد؛ فمن غير المحدَّد إلى أية ثقافة ينتمي بسبب تعدد ثقافته واختلافها. هكذا المجتمع السوبر حداثي غير محدَّد في بنيته وثقافته ما يجعله منفتحاً على الحريات كافة وما يمكنه من التكيف والتأقلم مع الظروف المختلفة فينجح ويستمر بسبب لا محدوديته.

للديمقراطية مبادئ عدة تعرِّفها منها: ضمان الحريات كحرية التصرف والتعبير والتفكير وحرية اختيار الفرد لعمله وحرية التملك... إلخ، والفصل ما بين العام والخاص بحيث العام يُسأل الفرد عنه كعقود الفرد مع الآخر، بينما الخاص لا يُسأل الفرد عنه كاعتقاده الديني أو إلحاده أو اعتقاده السياسي، والفصل ما بين السلطات القضائية والتنفيذية والتشريعية للحد من التفرد بالسلطة والاستبداد بها. ومن مبادئ الديمقراطية أيضاً محدودية وقصر المدة الزمنية لحكم الرئيس والحكومة، وانتخاب الشعب لرئيس البلاد وحكومته بشكل أو بآخر، واستبدال الرئيس بآخر، حيث لا يجوز أن يبقى في الحكم لمدة طويلة تماماً كما لا يجوز ذلك للحكومة، ما يحد من إمكانية استبداد الحاكم أو استغلاله لمنصبه... إلخ. لكن رغم هذه المبادئ المتفق عليها تتنوع الديمقراطية وتنقسم إلى ديمقراطيات مختلفة منها ديمقراطية الفقراء وديمقراطية الأغنياء.

ديمقراطية الفقراء في مواجهة ديمقراطية الأغنياء

يحاول الفيلسوف جون رولز أن يوحِّد بين الحرية والمساواة فيقدِّم نظريته على أنها العدالة كإنصاف. يدعونا رولز إلى أن نتصوَّر أنفسنا خلف حجاب يحجب عنا كل ما نعرف عن أنفسنا والآخرين، فلا نعرف مثلاً إذا كنا فقراء أم أغنياء. والمطلوب منا أن نختار المبادئ التي تحكمنا وتشكِّل مصائرنا. في هذا الاختيار النظري يبدو أن كل فرد منا سوف يختار أولاً مبدأ الحريات الأساسية كحرية المعتقد والتعبير والتصرف لأننا طبعاً لا نرغب في أن نكون عبيداً للآخرين. ومن ثم سنختار ثانياً مبدأ المساواة في الفرص وأن تكون اللا مساواة الاقتصادية والاجتماعية مبررة فقط في حال أنها موجهة نحو إفادة الأقل حظاً من بيننا كالفقراء. هكذا هذه الديمقراطية هي ديمقراطية الفقراء. فمثلاً: بالنسبة إلى رولز، لابد من بناء المؤسسات بحيث يستفيد منها الفقراء والضعفاء في المجتمع. وسوف نختار هذا المبدأ الثاني لأننا لا نعلم في الاختبار النظري السابق ما هو وضعنا في المجتمع فلا نعرف ما إذا كنا أغنياء أم فقراء، وبذلك لابد من أننا سنوافق على المبدأ الثاني الذي يفيد الفقراء والضعفاء لأنه من الممكن أن نكون من بينهم. يضيف رولز: بما أننا نوافق على هذين المبدأين، إذن هما مقبولان من أجل تشكيل ديمقراطيتنا المنشودة. ومن ثم يؤكد رولز على أسبقية المبدأ الأول (أي مبدأ الحريات) وأولوية تحققه لأننا نختاره أولاً (John Rawls: A Theory of Justice. Revised Edition 1999, Belknap Press of Harvard University Press).

لكن نظرية رولز تعاني من مشكلة تواجه معظم النظريات الاشتراكية أو شبه الاشتراكية ألا وهي المشكلة التالية: إذا كانت المؤسسات لا بد أن تبنَى بحيث يستفيد منها الفقراء والأقل حظاً في المجتمع، فهذا يتضمن خرق حرية تصرف الأغنياء بما يملكون. فمؤسسات الأغنياء لابد أن تتوجه لخدمة طبقة الفقراء والأتعس حظاً، وبذلك يتم تقييد حرية تصرف أصحاب المؤسسات فيما يملكون. فقد يرغبون في خدمة طبقات أخرى كالطبقة الوسطى أو طبقتهم بالذات، وقد يرغبون في خدمة العلوم المجردة التي لا نستفيد منها اليوم عملياً كتطوير الأبحاث في نظرية الأوتار العلمية أو الرياضيات المجردة. هكذا تخرق نظرية رولز حقاً أساسياً ألا وهو حرية تصرف الفرد بما يملك. وبذلك تبقى ديمقراطية السوبر حداثة هي الأفضل والأقوى.

أما الفيلسوف روبرت نوزيك فيقدِّم ديمقراطية معارضة لديمقراطية جون رولز، ومن الممكن تسميتها بديمقراطية الأغنياء. فبينما ديمقراطية رولز يستفيد منها الأفقر والأقل حظاً وبذلك هي ديمقراطية الفقراء، ديمقراطية نوزيك يستفيد منها الأغنى والأكثر حظاً، ولذا هي ديمقراطية الأغنياء. يضع روبرت نوزيك مبادئ للعدالة كمبدأ اكتساب الأشياء ومبدأ تبادلها. وتفصيل هذه المبادئ هو التالي: لكل فرد الحق في امتلاك ما يصنع ويفعل كما لديه الحق في امتلاك الأشياء التي يحسِّنها أو يجعلها صالحة ولم تكن ملك أحد من قبله. ولكل فرد حق في أن يعطي للآخرين ما يملك أو بعضاً مما يملك؛ فلكل إنسان حرية اختيار ما يفعل بما يملك. كما لكل شخص حق مطلق في أن يكون حراً من تسلط الآخرين أو الدولة، وحق مطلق في أن يكتسب الأشياء ويمتلكها أو يقدمها لآخرين شرط ألا يخرق حقوق الآخر. هذا لأن لكل شخص حقاً فيما يملك من مواهب وقدرات، وبذلك له حق في امتلاك ما يفعل ويصنع ويكتسب أو يشتري بمجهوده سواء أكان ذلك من خلال مساعدة الآخرين له أو من خلال الصدفة أو الحظ. على هذا الأساس، يشرِّع نوزيك الميراث؛ فلكل فرد حق في أن يورِّث ما يشاء من ملكه لمن يشاء (Robert Nozick: Anarchy, State, and Utopia, 1974, Basic Books)

يضيف نوزيك أن أي توزيع للثروة في المجتمع هو توزيع عادل فقط في حال كان لهذا التوزيع تاريخ مقبول بحيث يحدث هذا التوزيع للثروة على ضوء حقوق أو قوانين الاكتساب والتبادل المذكورة سابقاً. من هنا، من الخطأ إعادة توزيع الثروة



الديمقراطيــة نظـــام ناجـــح؛ فكلمـا أعاقتهـا مصيبـة كالانهيار الاقتصادي ترمم ذاتها وتستعيد نشاطها. فلا نجد انهياراً للأنظمة الديمقراطية



وإلا يتم خرق حقوق الأفراد. بالنسبة إلى نوزيك، توزيع الثروة في المجتمع الحر يتم ويجب أن يتم من خلال التبادل الحر بين الأفراد لما يملكون. وبذلك إذا كانت الثروة غير موزعة بالتساوي بين الأفراد فهذا لا يدل على لا عدالة النظام السياسي والاجتماعي في حال مراعاة حقوق الأفراد في التملك والتصرف بحرية فيما يملكون. يؤكد نوزيك على موقفه قائلاً: من غير المقبول استخدام أي فرد من أجل تحقيق مصالح الآخرين؛ فلا يوجد مجتمع مجرد ومتعالٍ ومختلف عن أفراده كي نضحي بهذا الفرد أو ذاك من أجله (المرجع السابق). لكن هذه الديمقراطية التي يدافع عنها روبرت نوزيك تخرق حق الفقراء والأضعف حظاً في الاستفادة من مجتمعاتهم وفي العيش الكريم. هذا لأنها تقبل باللا مساواة في توزيع الثروة وتدافع فقط عن حقوق التملك والاكتساب والتبادل وبذلك يستفيد منها الأغنياء والأكثر حظاً، هكذا تظل ديمقراطية السوبر حداثة أفضل من غيرها لأنها لا تخرق حق فقير أو غني.

حياة الديمقراطية وموتها

لكن الديمقراطيات تتنوع أيضاً عبر التاريخ. هذا ما يوضحه عالِم السياسة جون كين في كتابه «حياة الديمقراطية وموتها» حيث ينسف بعض الأفكار التقليدية المهيمنة ويقدِّم تحليلات جديدة لمفهوم الديمقراطية وتاريخها. نرصد هنا نتائج أبحاثه الأساسية، ومن ثم نتساءل: لماذا نحن العرب اليوم نرفض الديمقراطية وحقوق الإنسان؟

تسيطر على عقولنا نظرية أن الديمقراطية قد نشأت في اليونان القديم زمن سقراط وأنها اختراع يوناني، بل غربي بامتياز، لكن جون كين يرينا أن هذه النظرية كاذبة. بالنسبة إليه وكما أظهر البحث التاريخي العلمي، نشأت الديمقراطية في الشرق الأوسط، ومن ثم امتدت إلى الهند وإلى الفينيقيين إلى أن وصلت إلى أثينا. هذه الديمقراطية هي ديمقراطية التجمع أو المجتمعين. في هذه الديمقراطية يحق للعديد من الأفراد أن يجتمعوا في اجتماع علني وأن يحكموا أنفسهم على ضوء قوانين يتفقون عليها. بالنسبة إلى ديمقراطية المجتمعين، يتمكن العديد من المواطنين من تنظيم أنفسهم كمتساوين في الحقوق والواجبات والمكانة. ديمقراطية التجمع هي حكم الذات من قبل أفراد

يحاول الفيلسوف جون رولز أن يوحّد بين الحرية والمساواة فيقدّم نظريته على أنها العدالة كإنصاف



بينما ديمقراطية رولز يستفيد منها الأفقر والأقل حظًا وبذلك هي ديمقراطية الفقراء، فإن ديمقراطية نوزيك يستفيد منها الأغنى والأكثر حظًا



متساوين؛ فالحكم لم يعد في أيدي الآلهة أو الطغاة (John Keane: The Life and Death of Democracy, 2009, Simon & Schuster)

يميِّز كين بين أصناف متنوعة من الديمقراطية التي نمت في أزمنة مختلفة، فبالإضافة إلى ديمقراطية التجمع توجد ديمقراطية التمثيل وديمقراطية الرقابة. لقد ظهرت ديمقراطية التجمع أولاً منذ حوالي خمسمائة سنة قبل الميلاد وامتدت إلى العصور الوسطى رغم سيطرة الملوك والأمراء على معظم هذه الأزمنة. ومن ثم نشأت ديمقراطية التمثيل منذ حوالي أربعمائة سنة في أوروبا وأمريكا إلى أن ولدت اليوم ديمقراطية الرقابة؟ تتجسد ديمقراطية التمثيل في أن الشعب حر في اختيار من يمثله. وبذلك الحكم فيها هو حكم ممثلي الشعب. وهؤلاء النواب الذين يختارهم الشعب يناقشون المسائل العالقة ويصنعون القوانين ويقررون من سيحكم وكيف سيحكم من أجل مصلحة الشعب. كما تعتمد ديمقراطية التمثيل على دساتير مكتوبة ومحاكم قضائية مستقلة وقوانين تضمن ازدهار الحريات المدنية ونمو المجتمع المدني (المرجع السابق).

أما الديمقراطية المعاصرة فهي ديمقراطية الرقابة. منذ أكثر من خمسين سنة تطورت التكنولوجيا فأنتجت آلات مراقبة دقيقة ما جعل من الممكن توثيق حركة الحكم والحاكم. فمثلاً: الثورة الإعلامية المتمثلة في التليفزيون وفضائياته والإنترنت أفسحت المجال أمام التدقيق المباشر فيما يحدث في عوالم السياسة والساسة. فأصبح الحقل السياسي والاجتماعي مراقباً بعناية. كما أن المحاكم المحلية وبرلمانات الأقليات، ومحاكم المواطنين، والأبحاث الاجتماعية المستقلة، واقتراحات الخبراء ونصائحهم... إلخ هي آليات مراقبة أساسية للحكم والحكام. هذه الآليات تستطيع فضح الحكم وحكامه أو تصويب أحكام الحاكم، وبذلك آليات المراقبة تحد من السلطة ما يعزز أفق الحريات المدنية. على هذا الأساس، يستنتج جون كين أن ديمقراطية الرقابة هي السلاح البراجماتي ضد التفرد بالسلطة وتمركزها. هكذا تكمن ديمقراطية الرقابة في حكم المواطنين ورقابتهم لأصحاب القرار (المرجع السابق).

من جهة أخرى، ديمقراطية الرقابة من دون توزيع عادل للثروة في المجتمع هي ديمقراطية فارغة من محتواها. هذا لأنه إذا لم تكن الطبقات المحدودة الدخل والقدرات قادرة على مراقبة ما يحدث في المجتمع والسلطة، إذن ستموت ديمقراطية الرقابة قبل أن تولد. ولا تتمكن هذه الطبقات المحدودة القدرات والدخل من أن تراقب أصحاب النفوذ والقرار سوى بتمكنها من ثروة ما تجعلها قادرة على الاستعانة بالتكنولوجيا المعاصرة وأن تتحد في هيئات مدنية فاعلة. على هذا الأساس، لا ديمقراطية مراقبة من دون توزيع عادل للثروة في المجتمع، وهذا التوزيع العادل للثروة هو ما تسعى ديمقراطية السوبر حداثة إلى تحقيقه من دون أن تخرق حق أي فرد. هكذا لا غنى عن ديمقراطية السوبر حداثة لكي تقوم ديمقراطية الرقابة أصلاً.

لكن هل سوف تنتصر الديمقراطية وتسيطر على العالم أم ستنهزم؟ يؤكد جون كين على أن التاريخ مازال مفتوحاً أمام إما انتصار الديمقراطية وإما انهزامها؛ فقد تبني البشرية نظاماً أفضل منها وقد لا تتمكن من ذلك. التاريخ له الكلمة النهائية والحاسمة. فمثلاً، يقول كين إن ديمقراطية الرقابة لن تخلق الجنة على الأرض؛ فالديمقراطية اليوم تعاني من انهيار الأسواق الاقتصادية وعدم المساواة الاجتماعية. هل سوف تتمكن من حلِّ مشاكلها أم لا؟ يجيب كين قائلاً: لا نعلم فالديمقراطية مشروع لم ينتهِ بعد. رغم ذلك، بالنسبة إليه، الديمقراطية اليوم هي الأفضل لأنه من الممكن أن تصحح ذاتها ولأنها قادرة على إدراك نقاط ضعفها وتحاول باستمرار علاج أمراضها بفضل الحريات المتاحة فيها (المرجع السابق). لكن مازال علينا أن نجيب على السؤال التالي: لماذا نحن العرب نرفض أي نوع من أنواع الديمقراطية؟

السوبر تخلف

نحن نرفض الديمقراطية لأننا نرفض العلم؛ فالعلم أساس الديمقراطية. وجوهر سوبر تخلفنا يكمن في معاداتنا للديمقراطية والعلم. أما الدليل على أن العلم أساس الديمقراطية فهو التالي: العلم عملية تصحيح مستمرة بحيث تستبدل النظريات العلمية بنظريات علمية أخرى عبر التاريخ، وبذلك لا يؤمن العلم باليقينيات بل يقاتلها. على هذا الأساس، إذا قبلنا العلم وشاركنا في إنتاجه سوف تزول يقينياتنا عما هو صادق وكاذب وعما

إذا سعت الأنظمة إلى إنشاء ثقافات مختلفة سوف تضمن حرية الأفراد فى اختيار ثقافاتهم، وهذا يمهد لزوال الطائفية والعنصرية



هو خير أو شر ما يتضمن قبول الآخر المختلف عنا فى معتقداته وسلوكياته. وقبول الآخر أساس الديمقراطية لأن الديمقراطية لا تحدد ما هى المعتقدات الصادقة وما هى السلوكيات الفاضلة بل تدع لكل جماعة أو فرد حرية اختيار معتقداته وسلوكياته. من هنا، العلم أصل الديمقراطية وأساسها.

الديمقراطية هى حكم الحقوق كحق أن نكون أحراراً وأن نحيا حياة كريمة. فلو أن الديمقراطية هى حكم الأكثرية وقراراتها لتم خرق حقوق الأقلية وقراراتها. ولو أن الديمقراطية هى حكم الأقلية وقراراتها، لتم خرق حقوق الأكثرية وقراراتها. من هنا، لابد أن تكون الديمقراطية حكم الحقوق الإنسانية. لكننا نرفض الحقوق الإنسانية ما يتضمن رفضنا للديمقراطية؛ فكل أنظمتنا العربية ديكتاتورية ومن ضمنها النظام اللبنانى الدكتاتورى فى طائفيته. ونحن نرفض الحقوق الإنسانية لأننا نرفض الإنسان أصلاً؛ فالإنسان مجموعة حقوق. ونحن نرفض الإنسان لأننا نرفض العلم وما يحتوى من منطق ومعرفة؛ فالعلم أيضاً ميزة الإنسان الأساسية. لكن ما الذى يجعلنا اليوم نرفض العلم؟ يكمن الجواب فى أننا نؤمن باليقينيات. فالعلم عملية تصحيح مستمرة، ولذا لا يقينيات فى العلم. من هنا، اعتقادنا باليقينيات جعلنا أعداء العلم والمنطق. على أساس كل هذا أمسينا سوبر متخلفين. نحن اليوم سوبر متخلفون لأننا نرفض العلم والمنطق ونستخدم العلوم من أجل التجهيل.

ثمة فرق أساسى بين التخلف والسوبر تخلف. الشعب المتخلف هو الشعب الذى لا ينتج ما هو مفيد للعالم والبشرية، بينما الشعب السوبر متخلف، هو الشعب الذى يطوِّر التخلف من خلال استعمال العلم من أجل نشر الجهل. وهذا ما نقوم به. فمعظم مدارسنا وجامعاتنا ووسائل إعلامنا لها وظيفة واحدة هى ترويج الجهل والعداوة بين القبائل المذهبية والطائفية المختلفة. وكل قبيلة طائفية لها مدارسها وجامعاتها ووسائل إعلامها الخاصة التى تسعى إلى تحقير سلوكيات ومعتقدات القبائل الطائفية الأخرى وتدعيم العداوة معها. لسنا سوبر متخلفين فقط، بل نحن أيضاً سوبر إرهابيون. والفرق شاسع بين الإرهاب والسوبر إرهاب. الإرهاب قتل أجساد الأبرياء، بينما السوبر إرهاب هو قتل إنسانية الإنسان. وهذا ما نجيد فعله. يتجسد سوبر إرهابنا فى أنه لا يوجد إنسان فى عالمنا العربى؛ لقد خسرنا إنسانيتنا لأننا رفضنا حقوق الإنسان، فالإنسان مجموعة حقوق. ومن معالم سوبر إرهابنا أيضاً أننا خصخصنا الثقافة فخصخصنا «الإنسان». فالفرد لدينا أمسى خاصة هذا الطاغية الكبير أو الصغير. وحين يغدو الإنسان خاصة هذا الطاغية أو خاصة تلك المؤسسة الثقافية أو الاقتصادية... إلخ يفقد إنسانيته. من هنا، يتجلى السوبر إرهاب أيضاً فى خصخصة الثقافة والإنسان؛ فمثقفونا عبيد سيد المال والسلطة كما باقى فئات مجتمعنا الكاذب.

السوبر إرهاب أصل السوبر تخلف. فبما أن السوبر إرهاب قتل إنسانية الإنسان، والسوبر تخلف هو استخدام العلم من أجل التجهيل، وفقط الفاقد لإنسانيته يستخدم العلم من أجل التجهيل، إذن السوبر إرهاب أصل السوبر تخلف ومصدره. فى زمن السوبر إرهاب والسوبر تخلف ليس من المستغرب أن نرفض الديمقراطية وحقوق الإنسان. والطريق الوحيد نحو قبول الحقوق الإنسانية والتحوّل إلى الديمقراطية كامن فى قبول العلم والمشاركة فى إنتاجه لأن العلم أساس الديمقراطية.

العلم فى الديمقراطية

يطرح عالم السياسة مارك براون فى كتابه «العلم فى الديمقراطية» قضية تسييس العلوم. فالعلم أمسى مُسيّساً ما جعله يفتقر إلى عناصره الأساسية كعنصر حرية التفكير واختيار ميدان البحث. هكذا تتدخل الإدارات السياسية ومؤسساتها فى هذا الحقل العلمى أو ذاك، وتوجه البحث المعرفى كى يخدم مصالحها الآنية أو المستقبلية. فمثلاً، كل ميدان علمى كالبيولوجيا أو الكيمياء أو الفيزياء يحتاج إلى رأس مال ضخم لينتج العلماء أبحاثهم. وعادةً ما يتدفق رأس المال هذا من الدولة أو بعض مؤسساتها كوزارة الدفاع، فتختار مساعدة المجالات العلمية المفيدة لأهدافها وتتخلى عما لا يفيدها رغم إفادته للمجتمع ككل. يؤكد مارك براون على التداخل الوثيق بين السياسة والعلوم. فمثلاً: عدم الاهتمام السياسى بمشكلة زيادة حرارة الأرض بفضل ما ننتج ونستهلك من مواد أدى إلى تفاقم هذه المشكلة وعدم معالجتها من خلال إنتاج معارف قادرة على بناء تكنولوجيات تشبع حاجاتنا من دون أن تلوّث كوكبنا. من هنا، أصبح القرار السياسى حاكم العلم والعلماء. يشير براون إلى وجود اتجاهين أساسيين لمواجهة تسييس العلوم. الاتجاه الأول: يدعو إلى فصل السياسة عن العلم بحجة أنه إذا كان المجتمع يشكّل العلوم فستفشل العلوم فى تمثيل أو مطابقة الطبيعة. لكن هذا الاتجاه قد فشل فى تحقيق أهدافه؛ فالعلم مازال مسيّساً ويُعاد تسييسه دوماً. الاتجاه الثانى: يدعو إلى مشاركة المجتمع بكل أعضائه فى التفاعل مع العلوم وصياغة أهدافها ومضامينها إن أمكن ما قد يضمن سياسة علمية تمثّل المجتمع وطموحاته. هذا الاتجاه فشل أيضاً لأن مشاركة العامة من الناس لم تتمكن من تغيير سياسة العلوم. على ضوء هذه الاعتبارات، يقترح مارك براون اتجاهاً ثالثاً مفاده الدعوة إلى جعل العلوم ديمقراطية (Mark Brown: Science in Democracy, 2009, The MIT Press)

يقول براون إن الحل الوحيد لمجابهة تسييس العلوم كامن فى جعلها أكثر ديمقراطية. فالديمقراطية تعتمد على تمثيل الشعب من خلال انتخابه لممثليه فى الحكم كما تتضمن عناصر عدة منها مساءلة أصحاب القرار والنفوذ ومشاركة الأفراد والجماعات فى اتخاذ القرارات المصيرية ومناقشة المسائل والقضايا العامة وانتقال السلطة وتبادلها بين الأطراف السياسية المختلفة. وثمة مؤسسات متنوعة ضمن النظام الديمقراطى كالمؤسسات التشريعية والتنفيذية والقضائية ومؤسسات المستشارين والجمعيات المدنية والأهلية... إلخ. كل هذه العناصر والمؤسسات سمح بتمثيل الشعب ككل ومشاركته فى تشكيل الحكم وتحد من تسلط مؤسسة على أخرى أو طغيان أصحاب القرار السياسى. من هنا، يستنتج براون أن جعل العلوم ديمقراطية سيمكّن العلم من التحرر من تسلط سياسات معينة عليه وسيسمح بحرية أكبر للعلماء فى صياغة مواقفهم ونظرياتهم وتطوير أبحاثهم من دون أن ينسوا مصالح مجتمعاتهم. كما ستكفل ديمقراطية العلم مشاركة المجتمع فى تشكيل سياسة العلوم من دون تقييد تحرك العلماء نحو تحقيق أهدافهم العلمية تماماً كما تضمن الديمقراطية حرية الأفراد وحقوقهم (المرجع السابق).



يؤكد براون على أن تحويل العلم إلى ديمقراطى يتفق تماماً مع ماهية العلم. فبينما الديمقراطية نتيجة تفاعل السلطات المختلفة ومشاركة المجتمع وتمثيله من قبل الخبراء والاختصاصيين، العلم نتيجة تفاعل مجهود العقل البشرى مع ما يوجد فى الكون من حقائق كما يعتمد العلم على مشاركة المجتمع من خلال ممثليه أى العلماء. وبينما تصورات العلم عن الطبيعة تتم بواسطة ممارسات اجتماعية وآلات مخبرية، تتمثل مصالح المجتمع الديمقراطى وأفكاره بواسطة ممثليه فى الدولة. بالنسبة إلى براون، العلم بناء فكرى مجرد تتم صياغته من قبل عمليات مختلفة منها عبقرية ومبادرات العلماء والمؤسسات العلمية والاجتماعية والتكنولوجية وما يوجد حقاً فى الطبيعة والكون. فالنظريات العلمية تبنَى بفضل تجريد العقل العلمى لما هو فى الواقع فتمثل الواقع الطبيعى رغم أنها بناءات فكرية مجردة. هكذا يحاول براون تخطى الموقف النسبى فى العلم والموقف الواقعى المغالى. بالنسبة إلى الموقف النسبى فى العلم، كل المعارف نسبية ونتيجة للسياق الاجتماعى الخاص بها، بينما الموقف الواقعى المغالى يعتبر أن العلم يطابق الواقع ولا يتأثر بمواقف العلماء المُسبَقة والمجتمع الذى ينمو فيه. أما الاتجاه البنائى الوسطى الذى يدافع عنه براون فيصرّ على أن العلم نتيجة تزاوج مطابقة الواقع وقرارات العلماء والمجتمعات ومسلّماتهم (المرجع السابق).

لكن إذا طبقنا ديمقراطية السوبر حداثة فستتحرر العلوم تلقائياً، ففى ديمقراطية السوبر حداثة ثمة توزيع غير محددٍ للثروة، فللسلطة ما يتضمن لا محدودية مَن المستفيد من الفئات الاجتماعية كافة ومن بيده القرار. وهذا بدوره يؤدى إلى لا محدودية مَن سيؤثر فى العلوم وتشكيل سياساتها ما يكفل حرية أكبر للعلماء فى طرح آرائهم ومواصلة أبحاثهم التى يرغبون فى تطويرها. فلو كان القرار السياسى والاقتصادى



تسيطر على عقولنا نظرية أن الديمقراطية قد نشأت فى اليونان القديم زمن سقراط وأنها اختراع يونانى، بل غربى بامتياز، لكن جون كين يرينا أن هذه النظرية كاذبة



محدداً فى يد الحاكم أو تلك المؤسسة لتحدد العلم وتقيد بقرارات هذا الحاكم أو تلك المؤسسة. من هنا، التوزيع غير المحدد للثروة والسلطة يكفل جعل العلم ديمقراطياً.

من جهة أخرى، يعتبر الفيزيائى لى سمولن أن العلم ديمقراطى بالفعل. فالعلماء يشكلون جماعة ذات نظام ديمقراطى. مثل ذلك أن لكل عالم صوتاً واحداً فى انتخابات هذه النظرية العلمية أو تلك على أنها صادقة، ما يجعل الاختيار العلمى للنظريات شبيهاً بالانتخابات الديمقراطية لرئيس الدولة والنواب. يوضح سمولن أيضاً تطابق العلم مع النظام الديمقراطى قائلاً إن العلماء يتناقشون ويتصارعون فيما بينهم، لكنهم يتفقون على أن الأجيال الجديدة من العلماء ستقرر من كان على صواب. هذا يشابه تماماً ما يحدث فى الديمقراطية حيث يتناقش السياسيون والأحزاب ويتنافسون فيما بينهم لاكتساب العدد الأكبر من الأصوات، وفقط أصوات المستقبل تقرر فشل أو نجاح الإدارات السياسية الحالية والماضية. كما أن كل عالم حر فى بناء نظريته العلمية تماماً كما تضمن الديمقراطية حرية كل فرد (Lee Smolin: The Trouble With Physics, 2006, Houghton Mifflin Harcourt)

يضيف سمولن: لا يوجد منهج علمى موحد، بل العلماء يستغلون أى منهج يخولهم الإجابة على أسئلتهم. وبذلك عليهم الموافقة على أخلاقيات مشتركة مثل أن يظهروا نتائج أفكارهم ومشاهداتهم كما هى وأن يبحثوا عن الحقائق بحرية وبأنفسهم وأن يحترموا العلماء الآخرين ومواقفهم العلمية من دون أن ينسوا الثورة على تعاليم السلطات المعرفية التقليدية. هكذا كل عالم حر لكنه مرتبط بجماعة من خلال احترامه للعلماء الآخرين. وهذا يوافق حرية الأفراد فى النظام الديمقراطى وارتباطهم العضوى فيما بينهم من خلال احترام حقوق بعضهم البعض. هكذا العلم ديمقراطى (المرجع السابق). لكن إذا كان من الممكن للعلم أن يكون ديمقراطياً، هل من الممكن للديمقراطية أن تكون أو تصبح علمية؟

السوبر ديمقراطية

السوبر ديمقراطية هى تحول الديمقراطية إلى نظرية علمية. لم تعد الديمقراطية نظاماً سياسياً فقط، بل

يميّز كين بين أصناف متنوعة من الديمقراطية التي نمت فى أزمنة مختلفة، فبالإضافة إلى ديمقراطية التجمع توجد ديمقراطية التمثيل وديمقراطية الرقابة



يؤكد جون كين على أن التاريخ مازال مفتوحاً أمام إما انتصار الديمقراطية وإما انهزامها؛ فقد تبني البشرية نظاماً أفضل منها وقد لا تتمكن من ذلك



أصبحت أيضاً نموذجاً علمياً على ضوئها يبنى العلماء نظرياتهم المختلفة. فالديمقراطية والعلم زوجان لا فراق بينهما. سنوضح هذه الفكرة من خلال بعض الأمثلة؛ فالعلماء يفسرون الحياة والعقل والكون من منطلق الديمقراطية ذاتها.

تقول نظرية دارون إن الكائنات الحية تحيا فى صراع دام فيما بينها وفقط الأقوى فى صفاته والأفضل فى التكيف يبقى. تؤكد النظرية الداروينية على أن الصفات الأفضل للبقاء هى التى تتوارثها الأجيال، لأن الأفضل ينتصر على الأسوأ فيستمر. هذا النموذج فى تفسير الحياة وصفاتها هو نفسه النموذج المسيطر فى النظام الديمقراطى. ففى الديمقراطية ثمة سوق حر من السلوكيات والأفكار المتصارعة، وفقط الفكر كما السلوك الأفضل فى صفاته وقدراته يبقى على أن الأفضل مفيد لنا أكثر. من هنا، من الممكن أن نرى نظرية داروين على أنها تعبير صريح عن النظام الديمقراطى؛ فالنظرية الداروينية تطبيق للديمقراطية على الحياة وبيولوجيتها.

أما بالنسبة إلى علم النفس المعاصر فلا يوجد فى العقل ملك أو حاكم فرد تجتمع بين يديه كل السلطات. العقل ليس مسرحاً للأفكار والمشاهدات، وبذلك لا يوجد سلطان يشاهد ما يحدث على المسرح العقلى. بل كل نيورون (أى خلية عصبية) فى الدماغ حاكم وسلطان بحيث تتوزع قدرات العقل على أجزاء الدماغ المختلفة (Daniel Dennett: Consciousness Explained, 1992, Back Bay Books) هذا يطابق مبدأ فصل السلطات التنفيذية والتشريعية والقضائية فى النظام الديمقراطى، كما يطابق المساواة بين المواطنين وتعاقب الإدارات فى السلطة والحكم وتنوعها. هكذا أمست الديمقراطية نموذجاً علمياً على أساسه يتم تفسير العقل.

بالإضافة إلى ذلك، الديمقراطية كنظرية علمية تساهم بقوة فى تفسير الكون، فمثلاً: نظرية ميكانيكا الكم تعتمد على الديمقراطية فى تشكيل أطروحتها. بالنسبة إلى ميكانيكا الكم، الجسيم يعبر كل الممرات الممكنة فى الوقت نفسه، وبذلك كل جسيم يملك كل التواريخ الممكنة. هكذا من منظور ميكانيكا الكم لا يوجد ممر أفضل من ممر آخر، بل كل الممرات التى قد يسلكها الجسيم متساوية فى إمكانيتها وتحققها (Stephen Hawking: The Universe in a Nutshell, 2001, Bantam Books) هذا يطابق مبدأ المساواة بين الأفراد فى النظام الديمقراطى، كما يطابق عدم تفضيل معتقد أو سلوك على آخر ما يضمن حرية التفكير والتعبير والتصرف فى الأنظمة الديمقراطية. وبذلك ميكانيكا الكم تعبير صادق عن الديمقراطية ما يشير إلى أن الديمقراطية هى العامل النظرى الأساس فى تصور وصياغة ميكانيكا الكم كنظرية علمية. هكذا تحولت الديمقراطية إلى نموذج علمى.

كما أن نظرية النسبية لأينشتاين تعبر عن مبدأ أساسى فى الديمقراطية، ولذا يبدو أن الديمقراطية هى العنصر الجوهرى فى بناء نظرية أينشتاين. بالنسبة إلى النظرية النسبية، الزمن نسبى؛ فمثلاً زمن الذى يراقب قطاراً يعدو مسرعاً يختلف عن زمن الفرد الجالس فى ذلك القطار لأن الزمن يختلف مع اختلاف السرعة. فالأب الذى يسافر إلى الفضاء بسرعة هائلة وقريبة جداً من سرعة الضوء ومن ثم يعود إلى الأرض يغدو حينها أصغر من ابنه. هكذا الزمن نسبى وليس مطلقاً (المرجع السابق). لكن نسبية الزمن فى نظرية أينشتاين تطابق نسبية السلوك الحق والفاضل ونسبية الفكر أو المعتقد الصادق أو المقبول فى النظام الديمقراطى. فكما أن الزمن نسبى كذلك السلوك الفاضل نسبى والمعتقد الحق نسبى فى الديمقراطية، ولذلك لا تحدد الديمقراطية ما هو العمل الخير أو ما هى التقاليد والمعتقدات الحقة وتدع لكل فرد ولكل جماعة حرية اختيار سلوكياتها وأفكارها وثقافتها. من هنا، نظرية أينشتاين تعبير دقيق عن الديمقراطية ما يجعل الديمقراطية ملهمة أينشتاين الأولى.

كل هذا يرينا أن العلوم المعاصرة تتأسس على ضوء النموذج الديمقراطى ما أدى إلى تحول الديمقراطية إلى نموذج علمى، بالإضافة إلى كونها نظاماً سياسياً. وبذلك رفض العلم للديمقراطية والعكس صحيح، وهذا ما قمنا به بالفعل فاكتسبنا صفة السوبر تخلف وخسرنا الإنسان والحضارة. لكن إذا كنا غير ديمقراطيين، فهل الله والكون ديمقراطيان؟

هل الله ديمقراطى؟

يبدو أن الله ديمقراطى بامتياز؛ فهو لم يخلق عالمنا الواقعى فقط، بل خلق كل الأكوان الممكنة العديدة والمختلفة فى

حقائقها وقوانينها الطبيعية. وبذلك لم يميِّز بين كون وآخر ولم يفضِّل عالمًا على آخر ما يتضمن المساواة بين كل الأكوان الممكنة؛ فكلها متحققة وواقعية بالفعل. هكذا الله ديمقراطى.

تؤكد النظريات العلمية المعاصرة فى الفيزياء على أنه توجد أكوان ممكنة متنوعة. هذه الأكوان ليست المجرات المختلفة فى عالمنا، بل هى منفصلة عن عالمنا وعن بعضها البعض، وكل كون منها له حقائقه وقوانينه الطبيعية المختلفة عن حقائق وقوانين الأكوان الممكنة، فمثلاً: يقول الفيزيائى آلن غوث إن الكون قد نشأ من العدم من جراء التقلبات الكمية التى تصيب الفراغ. يتكوّن العدم من طاقات متعارضة وبذلك تختزل بعضها البعض فيتشكّل العدم. ولأنه لا يوجد ما هو ثابت من جراء التقلب الكمى الخاص بنظرية ميكانيكا الكم، إذن قد تنجو طاقة من العدم ولا يتم اختزالها ما يحتّم نشوء عالمنا. وإذا جمعنا طاقات عالمنا سنجدها تساوى صفراً لأن الطاقة الإيجابية لعالمنا تساوى طاقته السلبية. من هنا يستنتج الفيزيائى «غوث» أنه يوجد الوجود لأنه عدم؛ فجمع طاقات الكون يساوى صفراً. يضيف آلن غوث قائلاً: بما أن عالمنا وُلِد من نقطة من العدم، وبما أن العدم يتشكّل من نقاط عدة إن لم تكن لا متناهية فى العدد، إذن من الممكن أن تنمو أكوان ممكنة عديدة إن لم تكن لا متناهية فى العدد من نقاط العدم المختلفة. هكذا يصر الفيزيائى «غوث» على أرجحية وجود أكوان ممكنة عديدة ومتنوعة (Alan Guth: The Inflationary Universe, 1998, Basic Books)

بالإضافة إلى ذلك، يستنتج العلماء أنه توجد أكوان ممكنة على ضوء نظرية ميكانيكا الكم، بالنسبة إلى ميكانيكا الكم، من غير المحدَّد سرعة الجسيم ومكانه فى آن كما من غير المحدَّد ما إذا كان الجسيم جسيماً أم موجة. ويعبر الفيزيائيون عن ذلك أيضاً بقولهم إنه من غير المحدَّد ما إذا كانت قطة شرودنغر حية أم ميتة. لكننا نعلم أن أية قطة لابد أن تكون إما حية وإما ميتة ما يعارض ميكانيكا الكم بشدة. على هذا الأساس حلَّ بعض العلماء هذه الإشكالية من خلال الموقف التالى: قطة شرودنغر حية فى كون ممكن، لكنها ميتة فى كون ممكن آخر، وبذلك تتجنب ميكانيكا الكم مشكلتها السابقة. هكذا تؤدى نظرية ميكانيكا الكم إلى نتيجة أنه توجد أكوان ممكنة عديدة ومختلفة (Michio Kaku: Parallel Worlds, 2005, Doubleday)

يعبر الفيزيائى ميشيو كاكو عن النتيجة ذاتها بطريقة أخرى هى التالية: بالنسبة إلى ميكانيكا الكم، يوجد الإلكترون فى كل الأمكنة الممكنة حول نواة الذرة بدلاً من أن يوجد فى مكان معين حول النواة. لكن العالم كان أصغر من الإلكترون قبل الانفجار العظيم. وبذلك إذا طبقنا ميكانيكا الكم على الكون كله سيتضمن ذلك وجود الكون فى كل الحالات الممكنة المختلفة تماماً كما يوجد الإلكترون فى كل الأمكنة الممكنة حول النواة. وما هذه الحالات المختلفة للكون سوى الأكوان الممكنة المتنوعة فى حقائقها وقوانينها الطبيعية. هكذا نصل أيضاً إلى نتيجة أن الأكوان الممكنة من خلال ميكانيكا الكم (المرجع السابق).

كما يوضح الفيزيائى كاكو كيف أن نظرية الأوتار العلمية تؤدى إلى نتيجة أنه توجد أكوان ممكنة عدة. بالنسبة إلى نظرية الأوتار، يتكوّن الكون من أوتار وأنغامها. فمع اختلاف ذبذبات الأوتار، تختلف مواد الكون وطاقاته. لكن ثمة بلايين من الحلول لمعادلات نظرية الأوتار، وكلها حلول ناجحة رغم اختلافها وتعارضها. بذلك كل حل منها يصف عالمًا ممكنًا مختلفًا عن الأكوان الممكنة الأخرى التى تصفها الحلول الأخرى لمعادلة نظرية الأوتار. هكذا تصل بنا نظرية الأوتار إلى نتيجة مقبولية السوبر حداثة. فبينما السوبر حداثة تدرس الأكوان الممكنة، تؤكد النظريات العلمية السابقة على وجود تلك الأكوان الممكنة وبذلك تشرِّع أبحاث السوبر حداثة.

تحيا الديمقراطية فى نبض الكون والوجود؛ فكل الأكوان الممكنة متساوية فى تحققها ووجودها ولا تفضيل لكون على آخر. من المنطلق نفسه، تسعى السوبر حداثة إلى أن تصبح نظرية فلسفية ديمقراطية. لذا السوبر حداثة تدرس الأكوان الممكنة فتبنى نظريات من الممكن أن تكون صادقة لأنها نظريات تصف الأكوان الممكنة نفسها. لكن إذا نظرنا إلى الأكوان الممكنة مجتمعة، ولكونها مختلفة ومعارضة لبعضها البعض فى حقائقها وقوانينها، إذن سيبدو اللا محدَّد على أنه حاكم الوجود وسيده. من هنا، تعتمد السوبر حداثة على اللا محدَّد من أجل تحقيق المعرفة وتنسج إمكانية قيام ديمقراطيتها الخاصة ألا وهى ديمقراطية السوبر حداثة حيث اللا محدَّد يحررنا بمعارفه. ■

كتاب الزاوية



بردة البوصيرى
فى مدح النبى صلى الله عليه وسلم

وكيف يُدْرِكُ فى الدنيا حقيقتَه
قومٌ نيامٌ تسلوا عنه بالحُلُمِ

فمبلغ العلمِ فيه أنه بشرٌ
وأنه خيرُ خلقِ الله كلهمِ

وكلُ آيٍ أتى الرسل الكرام بها
فإنما اتصلتْ من نوره بهمِ

فإنه شمسُ فضلٍ هم كواكبُها
يُظْهِرنَ أنوارَها للناس فى الظُلمِ

أكرمْ بخَلْقِ نبىّ زانه خُلُقٌ
بالحسن مشتملٍ بالبشر متَّسمِ

كالزهر فى ترفٍ والبدر فى شرفٍ
والبحر فى كرمٍ والدهر فى هِمَمِ

كأنه وهو فردٌ من جلالته
فى عسكرٍ حين تلقاه وفى حشمِ

كأنما اللؤلؤ المكنون فى صدفٍ
من معْدِنَى منطقٍ منه ومُبْتَسمِ

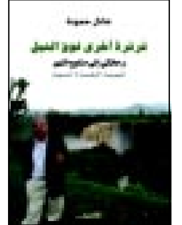
لا طيبَ يعدلُ تُرباً ضم أعظُمَهُ
طوبى لمنتشقٍ منه وملتثمِ

إصـــــــــدارات جـــــــــديـــدة

«تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.»

ثرثرة أخرى فوق النيل

تأليف: عادل حمودة
الناشر: دار الشروق٢٠١٠
عدد الصفحات ١٧٦ صفحة



«إن النيل الذى ينبع من عيون الأثيوبيين والأوغنديين يصب فى قلوب المصريين.. وليست صدفة أن أخلاق الشعوب هنا وهناك متشابهة.. وربما متطابقة.. طيبة إلى حد التفريط.. وخبث خفى إلى حد التضليل.. سلوك يتجنب العنف.. ويخشى السلطة.. وينافقها.. ويمشى فى ركابها.. ويصلى وراءها.. دون أن يثق فيها.. أو يؤمن بها.. صفات مشتركة بين أمتين تختلفان فى كل شىء ولا يجمعهما سوى النهر...

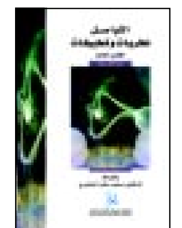
ولكن.. بقاء الحال من المحال.. والمصالح الدولية والإقليمية المتشابكة تتغير.. وألعاب القوى الخفية لن تنتهى.. والمعاهدات الدولية لو لم تجد قوة تحميها تفقد صلاحيتها.. وهو ما حدث بالضبط فى دول المنبع والمجرى التى تمردت على كل ما فات وطالبت بصفحة جديدة.. ومعاهدة جديدة.. وأنصبة مياه جديدة.. وهو ما فجر أزمات بينها وبين مصر.. كانت الأخيرة فى صيف ٢٠٠٩ الأكثر حدة.. وبدأت تداعياتها الخطرة تتوالى.

ولنبدأ من أول السطر.. من أول قطرة فى النهر».

■

التواصل: نظريات وتطبيقات

إشراف الدكتور محمد عابد الجابرى
الشبكة العربية للأبحاث والنشر
الكتاب الثالث من سلسلة فكر ونقد
٢٨٨ صفحة



فمفهوم التواصل من المفاهيم التى تحيل على دلالات عديدة، وهو فى الأصل علم من العلوم القليلة التى تعتبر ملتقى العلوم المتنوعة. فإن تناول موضوع التواصل من حيث نظرياته وتطبيقاته يجب أن ترفده جملة من الموضوعات فى مجال الفلسفة والسياسة واللغة والتقنية..إلخ والتى بدورها تتضافر لتضفى على موضوع التواصل رؤى جديدة وأبعاداً تجعله ذا قيمة محورية، ودافعاً لبروز مدارس وتيارات واتجاهات مختلفة.

يضم الكتاب مجموعة مختارة من مقالات نشرت فى مجلة فكر ونقد، كتبها نخبة من المفكرين، وأشرف على تفاصيلها الدكتور الجابرى، اجتمعت كلها فى مادة تميزت بالعرض الدقيق والمكثف لنظرية التواصل وتطبيقاتها.

يتوزع الكتاب على ثلاثة أقسام: القسم الأول بعنوان «نظريات فى التواصل»، والقسم الثانى، بعنوان «التواصل والتقنية»، أما القسم الثالث والأخير فهو بعنوان «مجالات التواصل».

الدكتور محمد عابد الجابرى (١٩٣٦-٢٠١٠)

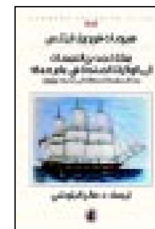
من أعلام الفكر العربى، حاصل على دكتوراه الدولة فى الفلسفة عام ١٩٧٠ من كلية الآداب بالرباط. له عدة مؤلفات، منها:

- مدخل إلى القرآن الكريم (٢٠٠٦)
- فهم القرآن الحكيم (٢٠٠٩)
- فى غمار السياسة فكراً وممارسة (٢٠٠٩)
- الإسلام والغرب (الأنا والآخر) (مشرف) (٢٠٠٩)

■

«بعثة أحمد بن النعمان إلى الولايات المتحدة فى عام ١٨٤٠»

رحلة السفينة السلطانة إلى مدينة نيويورك
هيرمان فريديريك إيلتس
ترجمة : صالح البلوشى
الطبعة الأولى ـ ١٤٠ صفحة
المؤسسة العربية للدراسات والنشر



يقول مترجم الكتاب د. صالح البلوشى فى مقدمة الكتاب :

لقد كتب المقالة الأصلية (هيرمان فريدريك ايلتس) ونشرت باللغة الإنجليزية فى شهر أكتوبر من عام ١٩٦٢ فى مجلة معهد اسكس، وبقيت فى الظل لحوالى خمسة عقود.

وقد أقنعتنى بضرورة ترجمتها الى اللغة العربية ثلاثة أسباب وجيهة تمثلت فى أن البلاد فى عام ٢٠١٠ ستحتفل بالذكرى الأربعين لتولى صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد مقاليد الحكم فى البلاد وهى مناسبة لا شك عزيزة كذلك يتزامن العام ذاته مع الذكرى السنوية الـ١٧٠ لوصول السفينة (سلطانة) الى مدينة نيويورك وهو حدث تاريخى بكل المقاييس اضافة لذلك فإن المعلومات المتوافرة لدينا عن الرحلة شحيحة لا تتطرق لتفاصيل يتوجب معرفتها كل ذلك حتم على ترجمتها وإظهارها إلى حيز الوجود بلغة أصحابها وصانعى ذلك التاريخ المجيد.

بأمر من سلطان عمان، السيد سعيد ابن سلطان، أبحرت السفينة «سلطانة» من مسقط متجهة إلى مدينة نيويورك لتصلها فى صبيحة يوم الخميس الثلاثين من شهر إبريل عام ١٨٤٠ مؤذنة بوصول أول مبعوث عربى وأول سفينة عربية إلى السواحل الأمريكية.

هذا الكتاب يورد - ولأول مرة - حقائق باللغة العربية عن هذه الرحلة التاريخية التى أرخ لها فى مذكراته ويتحدث عن وقائع خالدة سطرها أجدادنا، ويسلط الضوء على أمور لا يعلم بتفاصيلها الكثيرون ليسهم فى إبراز حقائق وتوضيح حوادث كاد الزمن أن يتناساها، كما يجيب عن أسئلة عديدة منها على سبيل المثال لا الحصر:

لماذا أبحرت السفينة سلطانة من مسقط إلى نيويورك؟

ما يوميات السفينة سلطانة خلال هذه الرحلة الشراعية الطويلة؟

كيف كان نظام السيد سعيد فى بيع البضائع التى كان يستوردها على متن سفنه؟

لماذا اختيرت السفينة سلطانة من بين سفن السيد سعيد للسفر إلى أمريكا؟

ماذا كتبت الصحافة الأمريكية عن السيد سعيد وعن السفينة سلطانة وطاقمها؟

ما هى الشائعات التى أثيرت عن السفينة سلطانة عند رسوها فى ميناء نيويورك؟

كيف كان استقبال الحكومة الأمريكية للسفينة؟ وكيف كان استقبال الأمريكيين للطاقم؟

ما هى الأماكن التى زارها الربان أحمد بن النعمان وضباطه فى نيويورك؟

ما هى البضاعة التى حملتها السفينة سلطانة فى رحلة الذهاب إلى نيويورك؟ وماذا حملت معها فى رحلة العودة؟

هى الهدايا التى قدمها السيد سعيد إلى الرئيس الأمريكى؟ ولماذا رفض استلامها؟

ما هى تفاصيل المعركة البرلمانية التى دارت فى واشنطن حول الهدايا؟

ما هى الهدايا التى قدمها الرئيس الأمريكى إلى السيد سعيد؟

ما هو الحادث المؤسف - غير المتوقع - الذى وقع للسفينة سلطانة قبيل رجوعها إلى زنجبار؟

كيف قضى أحمد بن النعمان أيامه الأخيرة؟

ماذا كان مصير السفينة سلطانة؟

■

رغم الفراق

نور عبد المجيد
مكتبة الدار العربية ٢٠١٠
٣٦٠ صفحة



تنتمى الرواية إلى الكتابة النسوية العربية، ورغم تصنيفها ذلك فإنها تنجو من كل فخاخ الكتابة النسوية، فلم تتكئ على تيمة الجسد، ولم تتعامل مع المرأة باعتبارها كائناً مهمشاً أو مهضوم الحق، بل وضعت بطلاتها النساء فى موقف الند مع الرجل، كذلك لم تقع فى فخ النواح والبكاء على البكارة الإنسانية التى دنسها الرجل، بل إن الجميع فى الرواية شخصيات حية ونابضة وفاعلة ومتفاعلة فى ومع محيطها، هى أخذت من الكتابة النسوية خصوصية القضايا التى عالجتها واللغة الحساسة الشفيفة التى تكنز الكثير من المعانى فى أقل المفردات عدداً.

ومنذ الإهداء تدخل بنا الرواية إلى عالمها الواسع الخصيب، ولعلها من المرات النادرة التى نرى فيها رواية تصدّر بإهداءين يشكلان البوابة الأولى لفهم عالمها الإنسانى، حيث تقول فى الأول : إلى أخى وصديقى الوحيد.. إلى قطعة من قلبى وروحى.. إلى من أشعر دوماً أننى أمة رغم أننى لم ألده، وأنه أبى رغم صغر سنه.. إلى من أمسكت القلم كتبت وطبعت ونشرت لأنه وحده أراد لى تحقيق الحلم.. إلى من كان معى وأنا فى الظلام، ويوم أصبحت فى دائرة الضوء ابتعد وتركنى.. إلى من علمنى فراقه أن الفراق ليس أبداً نهاية الحب والصداقة.. من علمنى أن

الحب يصبح أكبر، وأن اللقاء يستمر رغم الفراق.. إلى صديقى رفيق القلم والحلم.. إلى هانى عبد المجيد.

ومن هذا العالم الواسع عالم الأخوة والصداقة ورفقة الحلم، تدخل بنا الرواية إلى الإهداء الثانى، فى محاولة منها للسيطرة على عالمها، بإهداء العمل إلى نور وكريم : نور، الرجل الصغير الذى علمنى أن أفتح عينى كل صباح وأنا أبتسم لأننى أعلم أن فى أيامى رجلا لن يخذلنى أبداً، وكريم، الرائع الذى كلما أقض الأرق مضجعى ألجأ إلى ذراعيه لأغفو وأنام فى هدوء كالأطفال.

وهكذا تحاول الراوية فهم عالمها والسيطرة عليه، بالكتابة عنه، لأنها تؤمن أن النفس الإنسانية دائمًا واحدة و عندما أحدثك عن نفسى، فأنا أحدثك عن نفسك، ومن هنا تطرح الرواية كل الأسئلة البسيطة والبديهية التى نظن أننا عرفنا إجاباتها بخبراتنا وسعينا فى الحياة، رغم أننا لم نصل إلى أية إجابة، وليس هناك إجابة نهائية وقاطعة أبداً فى مسيرة الحياة، بل كلها محاولات وسعى للوصول إلى الراحة وإلى الحلم المستحيل : السعادة. وفى سبيلها قد نرتكب الأخطاء، ونضل الطريق، نظن أننا اقتربنا وإذا بنا أبعد ما نكون عما نحلم به، وفى لمسة سريعة وضربة قوية موفقة تضعنا الرواية أمام مآزقها الكثيرة والمتعددة والمتراكمة، أمام المشاعر الإنسانية المتناقضة وإن اقتربت، والمتآلفة وإن ابتعدت، فالروح لها قانونها الخاص الذى لا يمكن القياس عليه، كل روح متفردة فى عالمها، لا يشبهها شىء، ولا تشبه شيئًا، لا يقاس عليها شىء وتقاس بنفسها، ولا أحد منا يستطيع أن يعرف بالتحديد أين تكمن سعادته تقول الرواية : أومن أن هناك رجالا ونساءً يقتسمون بيتًا واحداً ووعاءً واحداً وفراشًا واحداً لكنهم أبداً لا يلتقون. وأومن أن هناك لقاءات وأحاديث نجوى وأسراراً تبدأ ولا تنتهى بين رجال ونساء، كل منهم فى قارة بعيدة، أومن أن هناك مشاعر تشتعل وتحيا وتثمر خيراً وعطاءً بعد الفراق، أومن أن قلوبنا رغم الفراق بالحب تحيا، وأومن أنه بالعقل وحده يشقى الإنسان.

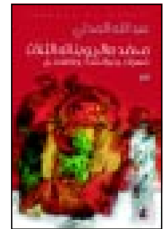
تحفل الرواية بالعديد من الثنائيات التى تحكم حياتنا وكأنها قدرنا الذى لا فكاك منه، فبجانب ثنائية العقل والمشاعر هناك ثنائية الحنان والقسوة، البناء والهدم فالمشاعر الإيجابية بناء، ونقيضها المشاعر السلبية هى التى تهدم، وثنائية الحب والزواج، الفشل والنجاح تغتنى عوالم الرواية بصراع من نوع خاص يغلف كل أحداثها، وهو ما فرض على السرد أن يختار العديد من التقنيات، مثل السرد المستقيم، والرسائل والاتصال الهاتفى، الوصف والحوار، اللغة الفصحى، المخلوطة بالعامية، فى لحظات الثورة التى لا تحتمل تزويق اللغة أو اللجوء إلى البلاغة الطنانة، تتقشف اللغة فى بعض المواقف لتصل إلى حدودها الدنيا، الإخبار فقط، حيث المشاعر الصادقة تضيق عن وصفها العبارات، وتتجلى اللغة فى أحيان أخرى لتصل إلى غاية الدقة فى وصف المواقف والمشاعر الداخلية لأبطال العمل، استفادت الروائية كثيراً من كتابتها للشعر من ناحية، ومن عملها الصحفى فى أحيان أخرى، وهى قبل ذلك وبعده دراسة لعلم النفس دراسة منهجية، خبرت النفس الإنسانية فى حالى الصحة والمرض، عرفت أن الفرق بين العقل والجنون لحظة من المشاعر المتفجرة.

يبقى أن نور عبد المجيد، روائية وكاتبة سعودية حاصلة على ليسانس الآداب لغة إنجليزية من جامعة أم القرى بالمملكة العربية السعودية ودبلوم فى التربية وعلم النفس من جامعة عين شمس بالقاهرة، وعملت فى الصحافة حيث شغلت منصب مسئول تحرير مجلة «مدى» السعودية لمدة عامين، ومنصب مساعد رئيس تحرير مجلة «روتانا» لمدة عام واحد، ولها الآن عمود ثابت فى مجلة كل الناس الأسبوعية، وصدر لها من قبل ديوان شعرى بعنوان: «وعادت سندريللا حافية القدمين»، ورواية نساء ولكن» ولها تحت الطبع رواية: «أريد رجلا».

■

«محمد صالح وبناته الثلاث»

شهربان، وخير النساء، وفاطمة جل
تأليف : عبدالله المدنى
الطبعة الأولى
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
١٤٤ صفحة



فى رحلة عودتهما من بومبى توقفت السفينة هذه المرة، فى البحرين التى كان من ضمن أمنيات محمد صالح ولطيفة أن يحلا بها ويتعرفا شخصيا على كل ما سمعاه عنها من جمال وتحضر ومدنية وتقدم وانفتاح على علوم العصر واختراعاته وصراعاته.

فى البحرين أقاما فى فندق عبد النور البستكى. تسوقا بالقرب من باب البحرين هو اشترى لنفسه قميصا أبيض ماركة أرو من متجر خوشابى، هى اشترت لنفسها ساعة أنيقة مذهبة ماركة فافر لوبا من المتجر العربى الجديد. تنزها فى حديقة عذارى، أكلا الكباب والتكة فى مطعم أمين الشعبى. التقطا لأول مرة صورة فوتوغرافية تجمعهما معا فى ستوديو خلفان.

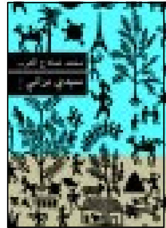
ذهبا بالصورة الى فنان يدعى عزيز نور لتلوينها يدويا، قهقها حينما مرا على متجر غريب متخصص فى الترويج للزواج ويرفع فوق جداره شعار «حصنوا بناتكم وأولادكم بالزواج». عبرا جسر الشيخ حمد الى المحرق لشراء الحلوى البحرينية المعروفة من أجل تقديمها كصوغة لأهلهما فى الشارقة. زارا العديد من أقاربهما من العوائل البحرينية ذات الأصول الهولية فى فريجى العوضية والفاصل ومنطقتى الحورة والقضيبية بالمنامة وفريجى ستيشن والشيوخ بالمحرق.

وبينما كان محمد صالح يبحث عن الغريب والجديد ليضيفه الى تجارته أو يدخن القدو فى مقهى معرفى الشعبى، كانت لطيفة تتسوق فى سوق الذهب والصاغة أو تتردد على مكتبة الهلال للحصول على آخر أعداد مجلتى الكواكب والمصور، وشراء الجديد من الكتب عن زعيمها المحبوب جمال عبد الناصر وثورته وانجازاته، أو تجلس أمام التلفزيون فى غرفتها الفندقية للاستمتاع بما كانت تبثه محطة التلفزيون أرامكو من الظهران كل مساء من برامج متنوعة، ولا سيما افلام السينما المصرية التى كانت قد قرأت عنها دون أن تراها.

■

سيدى برانى

تأليف: محمد صلاح العزب
الناشر: دار الشروق ٢٠١٠
عدد الصفحات ٢٠٤ صفحة



سأحكى لك يا صغير حكاية جدك التى لن تسمعها مرتين بالطريقة نفسها، لا أحد يعرف اسمه سواه، لو أخبر أحداً به يموت ولا يحيا مرة أخرى، الأسماء لا تهم ما دمت ترى الصورة، كنتُ موجوداً منذ البداية، أعلم شيئًا عن كل شىء، وأخاف عليك يا صغير من أن تكون مثلى، خيطًا ممتداً بلا نهاية، ومطراً ينزل ليصير مياهًا ثم يصعد إلى السماء فيتحول سحاباً ثم مطراً ثم مياهاً ثم سحاباً ثم مطراً، فتظل تجرى ولا تصل، وتحاول أن تخرج فتفشل، وحين تمل وترتمى على الأرض لا تجد من يرفعك من طوق ثوبك لتواصل الطريق.

كل ما له بداية له نهاية، لكن ما لا أول له ليس له آخر، وتظل حبيس السؤال: ثم ماذا بعد؟ فتكتشف أنك مربوط بالوقت، لا قبل ولا بعد، لا أمام ولا وراء، عليك أن تصنع من كل لحظة حياة كاملة لا تنتهى بالموت وإنما بالحياة».

■

«القراءة والتوماهوك ويليه المثقف والاغتيال»

عدنان الصائغ
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠١٠
٧٨٠ صفحة



يتساءل المؤلف فى كتابه : ما الذى يمكن أن يقوله أو يفعله شاعرٌ، إزاء ما جرى ويجرى، لوطنه وشعبه وثقافته، بكل ما يخطر وما لم يخطر؛ ببال.

وأين يقف، كذلك، من اصطراع العالم واضطراباته: سطوة التاريخ، وأبواق السياسة، وتابو الجنس، وطواحين الدين. لقد اختنق العالم ولم يعد له من منقذ أو هواء إلاّ الشعر، بوصفه أعلى درجات السمو البشرى، والحرية، والجمال، والتمرد، والتجدد.

فى هذين الكتابين، محاولة؛ لأن يؤسِّس الشعرُ مملكته، والتى لن يطردَ منها افلاطونَ، ولا الفقهاء والسياسيين - كما طردوه - بل لن يطردَ أحداً..

محاولة؛ لبناء مملكة الإنسان، بعيداً عن الحروب، عن الطغاة والغزاة، والظلاميين، عن الجهل والجوع والخنوع، وعن الشعارات أيضاً.

ليكون العالم - الوطن - الروح؛ واحةً مفتوحةً للخضرة والإبداع والشمس.

.. وهذا لا يتأسّس إلاّ بالحبّ الذى لا يتأسّس إلاّ بالإنسان الذى لا يتأسّس إلاّ بالحرية التى لا تتأسّس إلاّ بالوعى الذى لا يتأسّس إلاّ بالمعرفة التى لا تتأسّس إلاّ بالقراءة التى لا تتأسّس إلاّ بالكتاب الذى لا يتأسّس إلاّ بالكاتب الذى لا يتأسّس إلاّ بالحياة التى لا تتأسّس إلاّ بالجمال الذى لا يتأسّس إلاّ بالفن الذى لا يتأسّس إلاّ بالإبداع الذى لا يتأسّس إلاّ بالتجريب الذى لا يتأسّس إلاّ بالبحث الذى لا يتأسّس إلاّ بالاستشراف الذى لا يتأسّس إلاّ بالانفتاح الذى لا يتأسّس إلاّ بالأمان الذى لا يتأسّس إلاّ بالسلام الذى لا يتأسّس إلاّ بالقانون الذى لا يتأسّس إلاّ بالعدل الذى لا يتأسّس إلاّ بالمساواة التى لا تتأسّس إلاّ بالحق الذى لا يتأسّس إلاّ بالضمير الذى لا يتأسّس إلاّ بالأخلاق التى لا تتأسّس إلاّ بالتربية التى لا تتأسّس إلاّ بالتعليم الذى لا يتأسّس إلاّ بالتطور الذى لا يتأسّس إلاّ بالحوار الذى لا يتأسّس إلاّ بالفكر الذى لا يتأسّس إلاّ بالحرية التى لا تتأسّس إلاّ بالاستقلال الذى لا يتأسّس إلاّ بالإنسان الذى لا يتأسّس إلاّ.....

... وهلم جرا، دوراناً أزلياً: صعوداً، أو هبوطاً؛ فى فلك رقى الحضارات، أو اندحارها.

■

إصـــــــــــدارات جـــــــــــديـــدة

Nice Girls Don"t Get the Corner Office: 101 Unconcious Mistakes Women Make That Sabotage Their Careers

الفتيات الجميلات لا يشغلن المناصب القيادية: ١٠١ من الأخطاء اللاإرادية تقع فيها النساء وتتسبب فى تخريب نجاحهن المهنى.

Lois P.Frankel

Business Plus" 2010" 288pp

$10"19



لابد لأى امرأة تحلم بالريادة فى عالم الأعمال أن تقرأ هذا الكتاب. إنه برنامج تدريبى مكثف ورائع فى كيفية تواصل المرأة مع الآخرين فى مجال العمل والصورة التى يجب أن تكون عليها وقدرتها على الحصول على النفوذ .هذا الكتاب هو خلاصة خبرة خبيرة فى الموارد البشرية وكاتبة ثاقبة. أشياء تفعلها النساء كل يوم تلقائياً وتتسبب فى خلق أحد انطباعين عنهن إما بالقوة والذكاء والكياسة وإما بالضعف والتردد والسلبية. إذا كنت تعملين بدون توقف، تقلقين بشأن اختلافك عن الآخرين وتعطين آراءهم فيك وزناً هائلاً، تتراجعين بسهولة. تمضين الكثير من الوقت فى التفسير عند سؤالك عن أى معلومة، تعجزين عن اتخاذ أى قرارات تخصك قبل أن تجرى استطلاعاً للرأى بين أصدقائك حول خصوصياتك. فرص الترقيات التى خسرتها بسبب إعرابك عن آرائك. تجاهل أفكارك أحياناً. سلوكيات بناتية طفولية ناقصة النضج قد تخرب عليك احترافك ونجاحك المهنى. تكشف د. لويس فرانكل Lois Frankel عن ١٠١ من الأسباب التى رصدتها المؤلفة بحكم تميزها وتأثيرها هذه الأسباب هى فى واقع الأمر عادات تتعلمها المرأة وهى فتاة صغيرة وتستمر معها لتعرقلها عند الكبر، فى هذا الدليل تعرض المؤلفة الكيفية التى يتم بها إزالة هذه العوائق من اللاوعى والتى تؤدى إلى التراجع والتدهور وتقدم بديلاً عنها. لمحات تدريبية رائعة تطور مهاراتك الاجتماعية والعملية. سيدتى إذا أدركت السلوكيات الصادرة من فتيات وليس من نساء ناضجات فسوف تبدئين بداية حقيقية ومبهرة من اقتناص فرص النجاح من الحياة، سوف تجدين بين يديك فرصاً كنت تؤمنين باستحالة حصولك عليها وسوف تحصلين على الصورة التى كنت تحلمين بها من حيث القوة والمعرفة والخبرة التى تقدم لك مراكز الصدارة فى العمل على طبق من ذهب. هذا هو جوهر الكتاب الذى يتكون من ثمانية فصول تفتح الآفاق للمرأة العاملة كى تستخرج أجمل وأرقى ما لديها لتتحرز به النجاح الوظيفى وتتغلب على العوائق التى تعطلها.

■

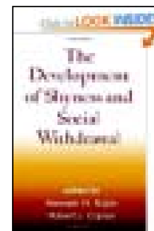
The Development of shyness and Social Withdrawal (social" Emotional" and personality Development in context)

تطور الخجل والانسحاب الاجتماعى (تطور الشخصية فى سياق اجتماعى وعاطفى)

Kenneth H.Rubin phd" Robert J.Coplan phd

The Guilford Press" 2010" 336pp

$44.00



لا تشير كلمة الخجل إلى معنى واحد محدد بل تستخدم بطرق مختلفة لتصف جوانب عديدة من حالة الفرد النفسية أثناء تفاعلاته فى المواقف الاجتماعية فعادة ما يوصف الشخص بأنه خجول إذا كان يميل إلى الصمت وهو بصحبة آخرين ويشعر بالضيق والتوتر عند تواجده وسط جماعة من الأفراد ويكره أن تسلط عليه الأضواء أو يكون موضع ملاحظة الآخرين واهتمامهم ويشعر بالتردد والخوف إذا كان بصدد مقابلة شخص يراه ولم يسبق له التعامل معه. هذه السلوكيات والمشاعر السلبية تمثل سمة أساسية لشخصية الإنسان الخجول والشخص الذى يتسم بتلك السمة تجده من الصعب عليه أن يكون مقداماً جريئاً منفتحاً على الآخرين شاعراً بالهدوء والاسترخاء بل هو دائماً قلق متحفظ قليل الكلام والشخص الخجول غالباً ما يسلك مسلكاً دفاعياً وينأى بذاته عن مواقف التفاعل الاجتماعى والتواصل مع الآخرين. يقدم هذا الكتاب تفسيراً واضحاً ومتعدد الجوانب لظاهرة الخجل. كما يتسم بقيمته العالية والفائدة الجمة التى سيحصل عليها من يطلع عليه من علماء النفس والأخصائيين النفسيين الذين يتمحور عملهم على علاج الأطفال، ويعرض الكتاب أسلوباً علاجياً يعتمد على نموذج اللياقة الاجتماعية Social Fitness وهو يماثل تماماً نموذج اللياقة البدنية فالهدف من العلاج هو أن يصل الفرد إلى أعلى درجات الرضا عن الذات والحياة الإيجابية positive Well-being وليس مجرد التغلب على ما يشكو منه من الخجل وكذلك يتوجه العلاج إلى زيادة متعة الأفراد وشعورهم بالإنجاز من خلال ما يمارسونه من تفاعل اجتماعى ويقوم هذا الأسلوب على تكنيك العلاج الفردى والجمعى.

■

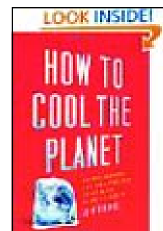
How to cool the Planet: Geoengineering and the Audacious Quest to fix earth"s climate.

كيف نبرد الكوكب: هندسة الأرض وسعىٌ جرىء لإصلاح مناخها.

Jeff Goodell

Houghton Mifflin Harcourt

2010" 272pp $17.16



إنها فكرة تقوم على التلاعب مع مناخ الأرض لتقليل أخطار الاحتباس الحرارى، قد تحمل نوعا من الخطورة والمغامرة وقد تكون ضرباً من الجنون ولكن على أى حال فأنا أزعم أننا سوف نحتاج لتنفيذها يوما ما. ما سبق هو ما جاء على لسان أحد العلماء وهو صاحب الكتاب وقد أدلى بذلك القول عندما ناقش معه الصحفى جيف جوديل مضمون كتابه. عندما وقعت عينا جوديل على مصطلح هندسة الأرض Geoengineering لأول مرة أصابه شعور غامض بإمكانية تنفيذه وإيجاده على أرض الواقع كوسيلة لحل مشكلة الاحتباس الحرارى. برغم هذا الغموض فقد فتن بهذا المصطلح الذى يحمل الأمل فى خلاص كوكبنا من متاعبه فهل تقدم لنا «هندسة الأرض» المساعدة.

إجابة هذا السؤال هى ما تنطوى عليه صفحات هذا الكتاب. إن التغيرات المناخية قد تعد أسوأ المشاكل التى تتعرض لها الانسانية الآن. قد تزداد درجات الحرارة فى بعض المناطق على سطح الأرض لتزيد على خمس عشرة درجة مئوية عن معدلاتها الطبيعية. سيتسبب هذا فى ارتفاع مستويات البحار والجفاف الشديد. ماذا لو حدثت هذه التغيرات بسرعة؟ فى الواقع أننا نحتاج إلى الإسراع فى محاولة إعادة مناخ الأرض إلى طبيعته قبل أن يتحول إلى كارثة حقيقية.

يرى جوديل إن هندسة الأرض تعد ضرورة حتمية لإنقاذ الكوكب ولابد من تطبيقها ولو بحشد الإرادة السياسية لها. إنه يقول أن مجرد الحد من انبعاثات الصوبات الزراعية لم يعد كافيا للتقليل من كارثة المناخ. إن هذا دفع بعض العلماء إلى التفكير فى استخدام آلات ضخمة لشفط ثانى أكسيد الكربون CO_2 من الجو وآلات أخرى لتنقية السحب وعكس ضوء الشمس عن الأرض إنهم يفكرون فى ابتكار براكين صناعية من شأنها أن تعكس الحرارة الزائدة فى شكل جزيئات تندفع إلى الغلاف الجوى.

فى كيفية تبريد الأرض يعرض المؤلف الجوانب العلمية والسياسية والمالية والأخلاقية المتعلقة بهندسة الأرض فكيف نستطيع تغيير المناخ إذا كنا لا نستطيع حتى التنبؤ بدرجات الحرارة لأسبوع قادم. ماذا لو كان التحكم فى المناخ وسيلة للسيطرة من جانب الدول الغنية والمتقدمة ضد الدول الفقيرة مادياً وعلمياً؟ ماذا يحدث إذا كانت علاقتنا بالطبيعة يخيم عليها إرهاب ضخم؟ إن خياراتنا تتضاءل وهذا يحتم علينا اتخاذ هندسة الأرض بمحمل الجدية كخطة بديلة لإنقاذ كوكب الأرض وإذا فعلنا ذلك فلابد أن ننفذه بالشكل الصحيح.

■

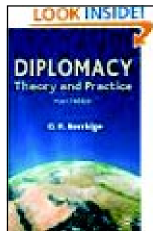
Diplomacy: Theory and Practice.

الدبلوماسية: النظرية والممارسة

Berridge.R.G

Palgrave Macmillan 2010"

272pp $28.63



هذا كتاب شيق يتمحور حول الدبلوماسية بمعناها الواسع وقد تمت ترجمته إلى ست لغات بعد تحديثه وإضافة فصول جديدة عليه. تدور هذه الفصول حول القنصليات والدبلوماسية العامة والمبعوثين الخاصين وكيفية الوصول إلى اتفاقيات ويضم نظرة فاحصة ومتعمقة لما تسميه الكاتبة بالاتفاقيات الجائرة. يتفرع الكتاب الى فرعين أساسيين الأول هو فن المفاوضات الذى يقدم شرحاً لمرحلة ما قبل المفاوضات والإعداد الذى يتم من أجل التفاوض و«المفاوضات حول المائدة» ومراحل صياغة المفاوضات والفرع الثانى من الكتاب هو الأساليب الدبلوماسية ويناقش بعض القضايا مثل دبلوماسية الأزمات والدبلوماسية الروتينية والدبلوماسية الثنائية والدبلوماسية التعددية وفن الوساطة الدولية. إنه مرجع قيم للعاملين فى السلك الدبلوماسى والطلبة الدارسين لمجال العلوم السياسية. المؤلفة هى Berridge.R.G أستاذ فخرى للسياسة الدولية فى جامعة ليستر بالمملكة المتحدة

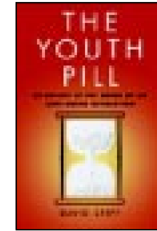
ولـهـا الـعـديـد مـن المـؤلـفـات حـول الدبلوماسية.

■

The Youth Pill: Scientist at the Brink an Anti-Aging Revolution

أكسير الشباب: العلماء على شفا ثورة ضد الشيخوخة

David Stipp
Portfolio Hardcover 2010¨ 320pp
$17¨79



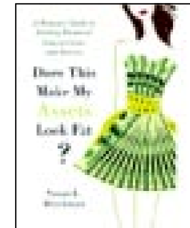
إمكانية إطالة فترة الشباب ولو لعقد من الزمان هى جوهر دراسة قام بها العلماء مؤخراً فى علم الشيخوخة. دافيد ستيبDavid Stipp المراسل العلمى السابق لوول ستريت جورنالWall Street Journal يقدم فى هذا الكتاب عرضاً للأبحاث التى تناولت عوامل إطالة عمر الشباب وتأجيل الشيخوخة كالاعتماد على المواد المضادة للأكسدة وتقليل السعرات الحرارية فى الغذاء.

■

Does This Make My Assets Look Fat? A woman¨s Guide to finding Financial Empowerment and Success.

هل يجعل هذا ممتلكاتى تبدو سمينة؟ دليل المرأة للعثور على التمكين المالى والنجاح

Susan L. Hirshman
St.Martins Press 2010¨ 336pp
$16.49



برغم تزايد عدد النساء صاحبات السيطرة على مصادر الثروة إلا أن الحقيقة التى أثبتتها الدراسات هى أن المعرفة والخبرة المالية لدى النساء مازالت قاصرة. سوزان هيرشمان المستشارة المالية التى تقدم دائما نصائح للمستثمرين حول أموالهم الخاصة تعاتب بعض النساء قائلة «إن الرجل ليس مخططاً مالياً» وهى تستهدف بهذا العتاب نصيحة النساء بالاستقلال المالى عن الرجل وبضرورة أن تكون المرأة شريكا مساوياً للرجل فى تمويل حياتهم الزوجية وعدم اتخاذ مبدأ الاعتماد الكامل على الرجل لما فيه من سلبية. يقدم الكتاب الكيفية التى يتم بها وضع أهداف واقعية قابلة للتحقيق وكيفية اتخاذ القرارات المالية الذكية وكيفية تحديد أفضل وسيلة للاستثمار وارتباط ذلك بشخصية المستثمر. يزيل هذا الكتاب كل عوامل الخوف والقلق التى تظهر عند ذكر مصطلح التمويل الشخصى والاستثمار ويوفر للمرأة كل المعلومات التى تحتاجها من أجل السيطرة على موقفها المالى إلى الأبد. تقول المؤلفة أن القواعد التى تتبع لإدارة الأموال بشكل ناجح لا تختلف كثيرا عن القواعد التى تتبع لتطبيق حمية غذائية فعالة وما أكثر ما تقوم به النساء من حميات غذائية مما يسهل عليهن إتباع نفس القواعد لتشغيل أموالهن واستثمارها.

■

Yemen: Dancing on the Heads of snakes

اليمن: الرقص على رؤوس الثعابين

Victoria Clark
Yale University Press 2010¨
328pp $13.60



«اليمن هو الحصان الأسود للشرق الأوسط، دائما ما يرتبط ذكره فى عناوين الصحف بالإنذارات بالخطر، علاقات مع تنظيم القاعدة، اختطاف الغربيين، وانفجار فى النمو السكانى وعلامات كثيرة من الغموض تكتنف هذا البلد، إننا ما زلنا نجهل مدى الخطر المحدق بنا من هذه الدولة وهى الأفقر بين الدول العربية والتى ما تزال تهيمن عليها تركيبتها القبلية. لقد أصبحت هذه الدولة أرضا خصبة للإرهاب والحركات المسلحة.» ما سبق هو رأى فيكتوريا كلاركVictoria Clark مؤلفة الكتاب التى عادت إلى البلد الذى ولدت فيه لتكتشف دولة بلغت حداً خطراً من الهشاشة – على حد قولها – تستحق المزيد من الفهم والاهتمام. على مدى سلسلة من الزيارات لليمن فيما بين ٢٠٠٤-٢٠٠٩ التقت خلالها بالعديد من السياسيين ورجال القبائل ذات النفوذ والعاملين فى النفط والجهاديين وكذلك المواطنين اليمنيين العاديين. تقول فيكتوريا قبل التوغل فى دور هذه الدولة فى كل من تنظيم القاعدة وحركة الجهاديين كان لابد لى من دراسة تاريخ تلك الدولة، قدمت فيكتوريا عرضاً حياً وواضحاً ومجازياً للأحداث لدولة تعانى من حالة مزمنة من عدم الاستقرار. فيكتوريا هى صحفية سابقة ومديرة مكتب الأوبزيرفرObserver فى موسكو والآن هى صحفية مستقلة وكاتبة مساهمة فى كل من مجلة ايندبندنت بروسبكت Independent Prospect وتابلت Tablet.

■

The Art of War

فــن الحــرب

Sun Tzu
Createspace 2010¨ 64pp $6.94



قام المؤلف سان تزو بجمع أقدم أطروحات وتكنيكات الحروب منذ القرن السادس قبل الميلاد. إنها أساليب قتالية تصلح للتطبيق لمواجهة التحديات المختلفة فالمعارك ليست جبهة القتال فقط ولكنها كل ما يواجه الإنسان من مصاعب تعرقل نجاحه إنها أساليب تحتاج إليها مجالس إدارات المؤسسات والمدربون الرياضيون والقادة والمحامون والفنانون والمتسابقون وكل من يبحث عن النجاح تلبية لغريزة الصراع من أجل البقاء.

■

Paris Under Water: How the city of Light Survived the Great Flood of 1910.

باريس تحت الماء: كيف نجت مدينة النور من فيضان ١٩١٠ العظيم

Jeffrey Jackson
Palgrave Macmillan 2010¨
272pp $17.82



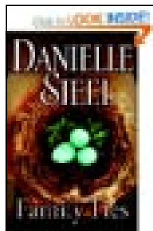
باعتباره الناقل الرئيسى للناس والبضائع فقد ساعد نهر السين على تحويل باريس إلى مركز تجارى ضخم. ولكن هذا النهر كما جلب الخير للمدينة فقد جلب أحيانا لها الدمار والموت من خلال فيضاناته فى فصل الشتاء. فى القرن التاسع عشر تم بذل الكثير من الجهود لتنظيم النهر والسيطرة عليه وكان الاقتراح الرئيسى هو رفع مستوى جدران الأرصفة البحرية. ولكن بحلول الأسبوع الثانى من شهر يناير لعام ١٩١٠ جاء الفيضان أعلى من قدرات الباريسيين على كبح جماحه. وأجبر المواطنون على ترك قراهم ومغادرة منازلهم التى هاجمتها مياه النهر وعاثت فيها فساداً. نالت منطقة بيرسى Bercyالنصيب الأوفر من الدمار والتخريب وكانت هذه المنطقة معروفة بإنتاجها لأفخر أنواع النبيذ. أسس المواطنون الممرات الخشبية للعبور الى الضفة الأخرى من النهر بينما قام الجنود بحماية الناس وإنقاذهم بدون تعرض المدينة للنهب. من خلال مجموعة من الصور ترافق النص يقدم الكتاب عرضاً لمعركة تاريخية من معارك الإنسان مع الطبيعة. إن الكوارث الطبيعية قديمة قدم التاريخ ولن تنتهى وهى دائما فى مواجهة الإنسان المطالب دائماً بالانتصار والتغلب عليها.

■

Family Ties

روابط عائلية

Danielle Steel
Delacorte Press 2010¨ 336pp
$15.12



إنها رواية لطيفة تنتمى إلى مجموعة الروايات الحائزة على أعلى معدلات المبيعات. تتشابك خيوطها حول فكرة عالية القيمة وهى الروابط العائلية الوثيقة وتنساب أحداثها حول آن فيرجسونAnnie Ferguson التى تغادر أختها الحياة فى حادث تحطم طائرة تاركة لها تركة مكونة من ثلاثة أطفال تهب لهم حياتها. تقوم بتربيتهم فى الوقت الذى تطور فيه وضعها كمهندسة معمارية. لقد اختارت آن التضحية بأشياء جميلة من أجل أطفال أختها حتى لو كان ثمن ذلك هو التنازل عن بعض أحلامها. وعندما كبر الأطفال بدأت مشاعر القلق تسيطر على آن حيث ظهرت لها مشكلات مختلفة اعترضت هدفها وقضيتها فى الحياة وهى العلاقات الضارة والتشابكات الثقافية والصعوبات التى واجهت الأطفال الذين غدوا شباباً عندما بدأ كل منهم يشق طريق حياته. ولكن آن استطاعت بهدوء معهود لها واتزان أن تأخذ بيد الأطفال إلى بر الأمان وأيضا أن تعثر على سعادتها الشخصية. إنها رواية تسلط ضوءاً ساطعاً على معنى راقٍ وهو العلاقات العائلية القوية.

■

فـــى سِـــجن غــــزة

كـــريـــس بـــاتـــن
Chris Patten

■■ إذا حاولت دخول سجن مشدد الحراسة فقد لا تواجهك المصاعب والأهوال التى لابد أن تمر بها إذا حاولت دخول ذلك الشريط من الأرض. الذى يمتد لخمسة وأربعين كيلومتراً طولاً، وربما ثمانية كيلومترات عرضا ـ الذى يسكنه ١.٥ مليون فلسطينى من أهل غزة. دخلت غزة محاطاً بجدار بغيض وأبراج مراقبة كئيبة ومنطقة عازلة قاتلة، بتأشيرة دخول حصلت عليها بشق الأنفس عند معبر ايريز ـ بوابات حديدية، واستجوابات من قبل ضباط هجرة شباب متبرمين، وأجهزة استكشاف. وعلى الجانب الآخر عبرت ممشى مسيجا يمتد طوله كيلومتراً واحداً ويؤدى إلى هذا الجزء من فلسطين، المحصور بين إسرائيل ومصر والبحر الأبيض المتوسط. واللامبالاة العجيبة من جانب المجتمع الدولى.

إن المشاهد التى يراها العابر لهذا القفص الطويل (الممشى المسيج). تحت حرارة الشمس اللافحة. مروعة: مجموعات صغيرة من الفلسطينيين يكسرون بقايا البنية الأساسية الصناعية التى قصفتها إسرائيل فى غزة. الكتل الخرسانية المتناثرة على الأرض الرملية الممتدة. إنهم يحاولون تكسير هذه الكتل لاستخراج الحصى وأسياخ الصلب داخلها. ثم يحملون ما يمكنهم استخلاصه على عربات تجرها خيول أو حمير متهالكة. وهذا هو كل ما تبقى تقريباً من الصناعة فى قطاع غزة.

إن العالم يفيق بشكل دورى على أهوال الحياة فى غزة، ثم يعود إلى مشاهدة مباريات كأس العالم أو التخطيط للعطلة الصيفية. فقد أفقنا، على سبيل المثال، على فظائع الهجوم العسكرى الذى شنته إسرائيل على قطاع غزة فى ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٨ ويناير/كانون الثانى٢٠٠٩، والذى راح ضحيته أكثر من ١٣٠٠ قتيل فلسطينى (بما فى ذلك ثلاثمائة طفل) وثلاثة عشر إسرائيليا. ثم تابعنا قصة الرعب الطويلة هذه مرة أخرى فى شهر مايو/أيار حين هاجمت قوات الدفاع الإسرائيلية الأسطول التركى الصغير الذى كان يحمل إمدادات إغاثة إلى غزة، فأسفر الهجوم عن مقتل تسعة من المدنيين.

كريس باتن آخر حاكم بريطانى لهونج كونج ومفوض الاتحاد الأوروبى الأسبق للشئون الخارجية، ويشغل حالياً منصب رئيس جامعة أكسفورد.

ترجمة: أمين على

والحق أن المرء لابد أن يكون حريصاً فى انتقاء الألفاظ حين يناقش هذه التصرفات الإسرائيلية. فهؤلاء الذين يزعمون أن غزة تعانى من أزمة إنسانية لا ينبغى لهم أبداً أن يقارنوا بين الوضع هناك وما يحدث فى أثيوبيا أو السودان بسبب الجفاف أو الحروب. فالظروف فى غزة بالغة القسوة، وأهلها يعانون أشد المعاناة. ولقد نفت الحكومة الإسرائيلية أن الناس هناك يتضورون جوعاً، وأكدت أنها خففت القيود المفروضة على الواردات. ولكن الحصار لم يكن المقصود منه تجويع أهل غزة، كما أكد دوف وايزجلاس مساعد أرييل شارون سابقاً فى تعليقه الشهير: «كان الهدف من الحصار فرض نظام غذائى على الفلسطينيين».



كانت النية وراء فرض هذا الحصار العقاب الجماعى للفلسطينيين، رداً على سيطرة حماس سياسياً على غزة. كانت حماس قد فازت فى انتخابات عام ٢٠٠٦فى كامل مناطق فلسطين المحتلة، ثم شكلت حكومة وحدة وطنية مع منظمة فتح. ولكن سرعان ما بادرت أميركا وإسرائيل وأغلب المجتمع الدولى إلى نسف ذلك الترتيب. والعجيب أن كل الأمور كانت تسير على خير ما يرام. إلى أن فاز الجانب «الخطأ» بالانتخابات.

ومع التغييرات التى طرأت على ضوابط الاستيراد المفروضة على غزة. هناك الآن قائمة بما لا يُسمح بدخوله بدلاً من القائمة القديمة بالبنود التى يمكن إدخالها. فلابد أن يكون بوسع الفلسطينيين استقبال المزيد من السلع الآن. ولكن القدرة على شراء الأنواع المختلفة من المرملاد (مربى الفاكهة)، وحبوب الإفطار، والخل البلسمى، وحلوى الليمون، وهى السلع التى رأيتها فى أحد متاجر غزة الكبيرة، لن تفيد كثيراً أهل غزة العاديين، الذين يعتمد ٨٠٪ منهم على معونات غذائية طارئة.

فضلاً عن ذلك فإن أهل غزة لا يستطيعون إعادة بناء مساكنهم ومدارسهم، وذلك لأن مواد البناء لا تزال محظورة، أو يقتصر النزر اليسير المسموح به منها على مشاريع الأمم المتحدة. ولا يُسمح بدخول أى مواد خام قد تسمح بإحياء القطاعين التجارى والصناعى فى غزة.

وكل هذا يشكل جزءاً أساسياً من السياسة الإسرائيلية، التى تتحدى بكل وضوح وصفاقة القانون الدولى وكافة القواعد والأعراف التى تحكم السلوك المتحضر. والآن بعد السماح بدخول الشوكولاتة والهيل إلى قطاع غزة، فإن إسرائيل تمارس لعبة حصار" أكثر ذكاء"، الهدف منها إبقاء الفلسطينيين هنا يعانون العزلة والفقر ويعتمدون على المساعدات، ولكنهم لا يتضورون جوعا!

عندما زرت غزة قبل الانتفاضة الثانية، شاهدت العديد من الأمثلة على النشاط التجارى. والمصانع والمزارع. ولكن أغلب ما شاهدته آنذاك أصبح الآن حطاماً وخرابا. فمع نهاية الهجوم على غزة فى عام٢٠٠٩، قامت الجرافات العسكرية الإسرائيلية بتسوية المصانع بالأرض. كما التهمت المنطقة الحدودية العازلة نحو ٢٩٪ من الأراضى الزراعية فى القطاع.

ولكن إسرائيل ومصر. الشريكان فى الحصار. يغضان الطرف فى أغلب الوقت عن الأنفاق (التى قد يصل عددها إلى ألف) التى تمتد تحت الحدود المصرية عند رفح، وتمر عبرها سلع السوق السوداء، التى تفرض عليها حماس الضرائب. أما طبقة رجال الأعمال الفلسطينيين المحترمين (العمود الفقرى للطبقة المتوسطة) فقد زالت من الوجود، وازدهرت طبقة من المهربين والمبتزين. لقد أسفرت هذه السياسة الهزلية المحبطة عن إنتاج اقتصاد أشبه برواية «أليس فى بلاد العجائب».



وبوسعك أن ترى بعض المشاكل الإنسانية الناجمة عن الحصار بشكل أكثر وضوحاً حين تزور المستشفيات، كما فعلت مع أعضاء الجمعية الخيرية الطبية لمساعدة الفلسطينيين، والتى أتولى رئاستها. فالأدوية المنقذة للحياة هناك غير متوفرة على الإطلاق، والمعدات الطبية لا تعمل غالباً بسبب انقطاع الطاقة الكهربية أو غياب قطع الغيار الضرورية. ويحتاج المرضى الذين يعانون من حالات مرضية خطيرة إلى الحصول على إذن للعلاج فى مستشفيات الضفة الغربية، بل وتزعم بعض التقارير أن هؤلاء المرضى يتعرضون لضغوط شديدة لحملهم على التعاون مع أجهزة الأمن الإسرائيلية فى مقابل السماح لهم بالخروج. ولا يستطيع الأطباء والطلاب مغادرة غزة إلا فى حالات نادرة لحضور المؤتمرات أو للالتحاق بجامعات فى الخارج.

قبل عام واحد كنت من أشد المعارضين للدعوة الدولية إلى مقاطعة الجامعات الإسرائيلية. ولكن حصار غزة يعنى أن إسرائيل تقاطع الحياة الأكاديمية الفلسطينية. ولقد حان الوقت الآن لكى ترفع إسرائيل قبضتها الغاشمة التى تخنق بها غزة.

ولكن يبدو أن البعض فى إسرائيل، مثل وزير الخارجية افيجدور ليبرمان، راغبون فى قطع غزة تماماً عن الضفة الغربية، فى مخالفة واضحة لاتفاقات أوسلو (وقتل كل احتمالات حل الدولتين)، ودفعها فى اتجاه مصر. ولكن غزة تظل تشكل جزءاً لا يتجزأ من فلسطين. وهو جزء متنام أيضا. فمع تزايد عدد سكان غزة بنسبة ٣.٥٪سنوياً فإن تعداد أهلها سوف يتضاعف فى غضون خمسة عشر عاماً تقريبا (وهو نفس التاريخ الذى قدرت منظمة الصحة العالمية أن غزة بحلوله لن تجد من المياه ما يكفى لتغطية احتياجات سكانها).

أى عالم هذا الذى سوف يرثه هؤلاء الأطفال الذين نراهم بأعداد هائلة فى غزة؟ تُرى هل يساهم العقاب الجماعى فى دفعهم إلى الاعتدال وتحويلهم إلى عبيد مذعنين مطيعين للقانون؟ إن التاريخ لا يقف فى صف هذا النوع من وضاعة الفكر والفجور.

إننى أود أن أرى إسرائيل مجتمعاً ديمقراطياً حراً، يحترم قيمه الأصلية ويراهن على السلام مع جيرانه. ولكن من المؤكد أن إسرائيل لن تحقق هذه الغاية من خلال السياسة المروعة التى تنتهجها فى غزة. ويتعين على العالم. بدءاً بإدارة الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى. أن ينقل هذا إلى إسرائيل. ولكن لا أظن أننا نستطيع أن ننتظر الكثير من عالمنا الصامت المتخاذل. ■

وجهات نظر الكتب

في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazer - Volume 12 - Issue 140 - September 2010

مجلة شهرية العدد ١٤٠ - السنة الثانية عشرة - سبتمبر ٢٠١٠ - الثمن عشرة جنيهات

من أوسلو إلى واشنطن ... حكايا الدائرة المفرغة

أيمن الصياد - نصير عروري - عزام التميمي - عبدالله إبراهيم - إليز أغازريان

النشر أو الموت .. كيف يمكن انقاذ صناعة الكتاب / كين أوليتا

كافكا على الشاطئ، الرحلة، والخطيئة.. والموت / خيري شلبي



عبد الناصر في ذكراه الأربعين .. رؤية غربية

وليد محمود عبد الناصر

السنة الثانية عشرة
العدد ١٤٠
سبتمبر ٢٠١٠

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- اليز اغازريان .. كاتبة وباحثة فلسطينية مقيمة فى هولندا
- أيمن الصياد .. صحفى
- خيرى شلبى .. روائى
- سلطان بن محمد القاسمى .. حاكم الشارقة، ويحمل درجتى دكتوراه الفلسفة فى التاريخ من جامعة إكسيتر، والجغرافيا السياسية من جامعة درم ـ المملكة المتحدة
- عبدالله إبراهيم .. كاتب وأكاديمى عراقى
- عزام التميمى .. مدير معهد الفكر الإسلامى بلندن
- على جمجوم .. باحث فى فلسفة الرياضيات
- غازى القصيبى .. أديب سعودى (راحل)
- فكرى أندراوس .. كاتب مصرى مقيم فى الولايات المتحدة الأمريكية
- كين أوليتا .. كاتب متخصص فى المعلوماتية بمجلة «نيويوركر»
- محمد المهدى .. مستشار دار الآثار الإسلامية بالكويت
- معتز خورشيد .. نائب رئيس الجامعة البريطانية فى مصر
- نصير عرورى .. أستاذ فخرى للعلوم السياسية بجامعة ماساشوستس، دارتموث
- نيكولاس شتيرن .. أستاذ الاقتصاد والعلوم السياسية فى LSE ورئيس معهد Grantham للبحوث البيئية
- وليد محمود عبدالناصر .. كاتب مصرى

رسوم العدد

محمد حجى ـ Angel Boligan - Ares - Milt Priggee





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

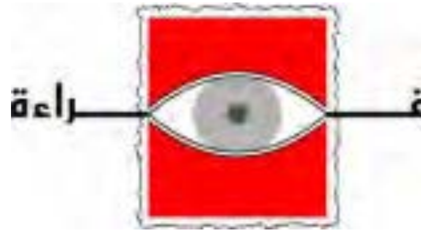
الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١٫٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١٫٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١٫٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



من أوسلو إلى واشنطن

حكايا الدائرة المفرغة

أيمن الصياد



«الدولة» التى يبحث عنها أكثر الفلسطينيين اعتدالا و«يأسا»، لا علاقة لها البتة بالدولة التى يتحدث عنها الإسرائيليون



■■ مرتديًا كوفيته التقليدية، وزيّه العسكرى الذى لم يخلعه أبدا، صعد ياسر عرفات إلى منصة الأمم المتحدة بنيويورك صباح الثالث عشر من نوفمبر ١٩٧٤ ليلقى «الخطاب الفلسطينى الأول» أمام المجتمع الدولى. معلنًا: «جئتكم أحمل غصنَ الزيتون فى يد، وبندقية الفدائى فى اليد الأخرى، فلا تسقطوا غصن الزيتون من يدى..» ومؤكدا: «الحربُ تندلع من فلسطين.. والسلمُ يبدأ من فلسطين».

قديمة هى بداية القصة التى تبدو بلا نهاية. فى ١٣ ديسمبر ١٩٨٨، سافر عرفات إلى جنيف (مباشرة من الرياض) ليلقى خطابه الثانى أمام جلسة خاصة للجمعية العامة، انعقدت فى المدينة السويسرية بعد أن رفض جورج شولتز وزير الخارجية الأمريكى منحه تأشيرة دخول تمكنه من تلبية دعوة المنظمة «الدولية».

فى خطابه، وكان السادات قد ذهب إلى القدس، وكانت مصرُ ـ الرقم الأصعب ـ قد خرجت من المعادلة، كما كان عرفات نفسه قد أُخرج من بيروت (آخر حدوده مع العدو والوطن) أعلن عرفات قبوله قرار الجمعية العامة «المجحف» رقم ١٨١ الصادر عام ١٩٤٧ والقاضى بتقسيم فلسطين[1]، وقرارى مجلس الأمن الدولى ٢٤٢ و٣٣٨ (الأرض مقابل السلام) كأساس للتفاوض مع إسرائيل فى إطار مؤتمر دولى.

Peace Is Possible: Conversations with Arab and Israeli Leaders from 1988 to the Present
by S. Daniel Abraham, with a foreword by former U.S. President Bill Clinton. Newmarket Press.
March 13, 2006

السلام ممكن: حوارات متصلة مع قادة عرب وإسرائيليين
دانيال إبراهام
المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية مدار
رام الله ٢٠٠٧

■ ■ ■

سلام متخيل
ليف جرينبرج
ترجمة: جواد الجعبرى
المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية مدار
رام الله – ٢٠٠٧

فى ١٣ سبتمبر ١٩٩٣، وكانت حربُ الخليج الأولى قد أطاحت بكل المتبقى من الثوابت العربية، ذهب زعيم منظمة التحرير الفلسطينية إلى واشنطن ليوقع مع إسحاق رابين إعلان المبادئ الذى تبلور فى «أوسلو»، ولتلف العالم كله صورة المصافحة الأولى بين الرجلين فى حديقة البيت الأبيض.

السلام «الممكن»

فى العام ذاته ١٩٨٨ الذى ذهب فيه عرفات إلى جنيف ليبدأ معركته «الدبلوماسية»، بدأ دانيال إبراهام Danial Abraham.S، وهو رجل أعمال أمريكى (يهودى) شملته قائمة Forbes 400 لأكثر الأمريكيين ثراء، مهمته «المقدسة» للبحث عن السلام فى الشرق الأوسط. وعلى مدى خمسة عشر عاما تفرغ فيها للمهمة، قام إبراهام برفقة عضو الكونجرس الأمريكى عن ولاية يوتا «المورمونى الملتزم» وين أوينز Wayne Owens، بأكثر من ستين رحلة إلى المنطقة، التقى فيها بعدد كبير من القادة العرب، منهم حسنى مبارك وحافظ الأسد وعبد الله بن الحسين وولى العهد السعودى آنذاك (الملك حاليا) عبدالله بن عبد العزيز، وبالطبع ياسر عرفات ومحمود عباس. بالاضافة إلى رؤساء وزراء إسرائيل من اليمين واليسار؛ إسحاق شامير وإسحاق رابين وشيمون بيريز وبنيامين نتنياهو وايهود باراك وكذلك أريل شارون.

فى لقاءاته ورحلاته المكوكية، استخدم رجل الأعمال الناجح، والذى يعتبر نفسه «صهيونيًا ملتزمًا» كل خبرته ومهاراته فى مجال الأعمال ومفاوضات الـ «بيزنيس» لدفع «الصفقة» قدما سواء فى لقاءاته مع القادة، والتى حرص وقتها على أن تظل بعيدا ما أمكن عن الاهتمام الإعلامى، أو تلك المطولة والأقل رسمية (على طاولات العشاء أو فى ملاعب الجولف) مع اللاعبين المؤثرين فى الكواليس من أمثال بندر بن سلطان وأسامة الباز.



رجل الأعمال الناجح، والمؤمن بأنه لا صفقة مستحيلة وبالتالى فـ«السلام ممكن» اختار التعبير التقريرى عنوانا لكتاب مهم ضمنه قصص لقاءاته ورحلاته، والتى تحكى تفاصيلها جانبًا من قصة «الدبلوماسية الموازية» التى تعددت مساراتها فى البحث عن حل لمشكلة تبدو ـ على بساطتها ـ مستعصية على الحل. صدرت الطبعة الأولى للكتاب بتقديم من الرئيس الأمريكى الأسبق بيل كلينتون فى ٢٠٠٦، كما صدرت ترجمة عربية له فى رام الله فى فبراير / شباط ٢٠٠٧ عن المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية «مدار». وهو أحد كتابين (مختلفين فيما يذهبان إليه) فضلتُ أن أعود إليهما استعدادا لمتابعة الجولة القادمة من المفاوضات، والتى بالتأكيد لن تكون الأخيرة، رغم المهلة التى أعطتها هيلارى كلينتون للطرفين، «للانتهاء من كل التفاصيل»، ورغم كل الأجواء الاحتفالية، ورغم أنهم أطلقوا عليها رسميا مفاوضات «الحل النهائى».

قد تختلفُ مع مايذهب إليه إبراهام «الصهيونى الملتزم» فى كتابه من ناحية تكييفه لطبيعة الصراع وأسبابه، وهذا طبيعىٌ ومفهوم. ولكن الأكثر إثارة أنك ـ من واقع حكاياته، ومن قراءة واجبة لما بين السطور ـ ستختلف معه أيضا فيما يذهب إليه من تفاؤل مفرط بأن السلام «بالطريقة التى يفهمونها» ممكنٌ ووارد.

يحكى ملياردير الوجبات السريعة[2] كيف أنه ورفيقه عضو الكونجرس فشلا فى إقناع صائب عريقات (والذى كان عرفات واقفا فوق رأسه) فى الإقرار بأن «المسجد المقدس لدى المسلمين بنى على أنقاض الهيكل اليهودى» وأن عليهم التسليم بذلك. ويوضح كيف أن

٦٣ عاما على قرارالتقسيم ١٨١ , و٤٣ عاما على قرار مجلس الأمن ٢٤٢ , و٢١ عاما على مؤتمر مدريد، و١٧ عاما على أوسلو، و١٠ أعوام على فشل كامب دافيد الثانية، و٧ أعوام على نشر خارطة الطريق. ثم.. لاشىء يبدو فى الأفق



اسحاق رابين وموشى ديان يدخلان الى مدينة القدس «القديمة» - يونيو١٩٦٧ © Str Old / Reuters

الحل - على طريقة عرفات - سيؤدى عمليا إلى أن تصبح إسرائيل دولة ذات أقلية يهودية وسط أغلبية عربية، وهو الأمر الذى لايمكن لإسرائيلى واحد أن يقبله.

يقول دانيال أنه صُدم فى عرفات بعد أن انهارت محادثات كامب دافيد ٢٠٠٠ التى استضافها الرئيس كلينتون فى محاولة لتحقيق تسوية نهائية. وأنه بدأ يتذكر ماكان الإسرائيليون يقولونه دائما من أن زعيم منظمة «التحرير» الفلسطينية، لم يكن غير مراوغ «تكتيكى» ماكر عندما ادعى رغبته فى السلام بذهابه إلى أوسلو. ويتذكر كيف أنه كان يكتم غيظه كل مرة يصر فيها عرفات على أن «يحكى لنا عن طفولته فى القدس»، وكيف أنه - أى عرفات - أخبر دينيس روس وفريقه المفاوض المكون بشكل أساسى من اليهود: «لقد صليت هناك عند حائط المبكى أكثر منكم».

من حواراته مع أكثر من ألف شخصية من الجانبين على مدى الأعوام الخمسة عشر، يكتشف رجل الأعمال «المتفائل» أن الفلسطينيين والإسرائيليين يسكنون فى عالمين مختلفين كلية. فكل جانب يؤمن تماماً أنه يملك الحق، وأن أى شىء يقدمه للطرف الآخر، يمثل تضحية من جانبه.

أوسلو ــ واشنطن

أيا ماكان الأمر، فالعائدون إلى واشنطن اليوم، بدعوة/ تعليمات من كلينتون «الزوجة»، بحثا عما تبقى من أوسلو، يعرفون لماذا انهارت كامب دافيد ٢٠٠٠ رغم الجهود المحمومة لكلينتون «الزوج». كما يعرفون أكثر من غيرهم أننا اليوم - وبغض النظر عن مهلة وزيرة الخارجية الأنيقة الطموح - أبعد مانكون عن الاتفاق. فالإسرائيليون المطمئنون فى «جيتواهم» خلف الجدار، فقدوا أى إحساس بالإلحاح فيما يتصل بالمشكلة الفلسطينية. «وكأنما هى تحدث على الجانب المظلم من القمر» كما يقول مستنكرا وزير خارجيتهم الأسبق شلومو بن عامى فى مقال أخير له.



والفلسطينيون المستقطَبون فى خلافاتهم، فقدوا عمليا «القدرة على الإيلام» الكفيل بإيجاد «الحاجة» إلى الاتفاق لدى الطرف الآخر.

ثم إنهم بالضرورة يذكرون، كما نذكر متى ذهبنا فى البداية إلى أوسلو.. وعلى ماذا تم الاتفاق هناك. كانت أوسلو التى تم توقيعها فى ديسمبر ١٩٩٣ بعد مباحثات ماراثونية مضنية، تقضى بأن يتم الاتفاق على الحل النهائى فى غضون خمسة أعوام.. أكرر «خمسة أعوام». الآن، وقد مرت سبعة عشر عاما كاملة، أين أصبحنا..؟ دماءٌ كثيرة جرت فى النهر.. لا «ماء» كما يقول التعبير الشهير.

ذهبت بنا معظم التصريحات الرسمية (على الجانبين)، والتعليقات غير الرسمية (أيضا على الجانبين) إلى الاكتفاء دوما بتعليق الجرس فى رقبة الآخر، أو فى رقبة من نرغب - لسبب أو لآخر - أن نلومه؛ عرفات الذى رفض أن يوقع فى كامب دافيد «مضيعاً الفرصة الأخيرة» (!) أو شارون الذى دخل بسنابكه إلى الأقصى، مستفزا و«هادما للمعبد» على من فيه. أو حماس التى رفضت أوسلو منذ البداية، ثم تمسكت بنتائج انتخابات «ديموقراطية»، لم يرغب فى الالتزام بها أى من الأطراف ذات العلاقة.

وربما لم يكن هناك جهد كاف (إلا من بعض الأكاديميين هنا أو هناك) لفهم وتفسير الواقع الذى من شأن معطياته (لا أوهامه وتخيلاته) أن يؤدى حتما إلى هذه النتيجة. رغم مئات الصور والابتسامات فى شرم الشيخ أو واشنطن، وعشرات التفاهمات وخرائط الطرق التى لم تؤد بكل من وثق بها إلا إلى قفار «التيه».

من بين أولئك ليف جرينبرج Lev Grinberg وهو أكاديمى إسرائيلى (يسارى) متخصص فى علم الاجتماع السياسى أعد دراسة مهمة حول ديناميات الفضاء السياسى فى إسرائيل وفلسطين، نشرها فى كتاب ترجمه إلى العربية المركز الفلسطينى للدراسات الإسرائيلية - مدار، ويصل فيه إلى أن أوسلو أتاحت لكل طرف أن «يتخيل السلام» وفق ما يريده، رغم البون الشاسع بين مايريده كل منهما. الأمر الذى أدى فى نهاية المطاف بالطرفين إلى مواجهة عنيفة ومتجددة، أشد شراسة ربما من أى وقت مضى.

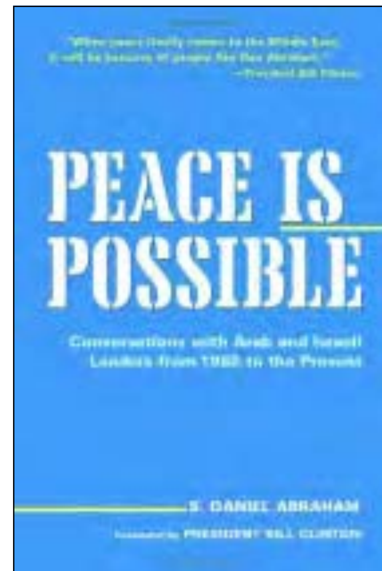
لأكاديميتها، تغرق الدراسة الوافية المتعمقة (٦٠٦ صفحات) فى التفاصيل. إلا أنك لابد أن تخرج منها بأن أوسلو لم تكن ضحية من عارضوها فقط، بل كانت فى الأغلب ضحية من «حلموا» بقدرتها على الإتيان بمعجزات فى غير زمن المعجزات. أولئك الذين ساعدهم «إرجاء البت فى كل شىء» للانطلاق بخيالاتهم الخاصة، وتوقع أن الحل النهائى الذى يرغبون فيه (أو بالأحرى الذى يقبلونه) هو الذى ستأتى به المسيرة فى نهاية المطاف.

حلم الفلسطينيون - أو معظمهم على الأقل - بدولة مستقلة ذات سيادة، ولم يرغب «الحالمون» أن يعكِروا صفو أحلامهم بحقيقة تلك المئات من البؤر الاستيطانية «السرطانية»[٣] وبخرائط الجدار الأفعى (٧٢٥ كم) الذى يقطع أوصالَ الدولة «المفترضة». كما رفضوا أن يفسدوا هدوءَ أحلامهم بالاستماع إلى «نشاز» ماقاله رابين «عراب السلام» منذ اليوم الأول للمسيرة وبوضوح قاطع: «أيا ما كان الأمر فلا عودة لحدود٦٧».



على مدى ١٥ عاما التقى دانيال بكل الزعماء العرب المعنيين، كما حرص على على الاقتراب من المؤثرين فى الكواليس، مثل «الأمير» بندر، و«المستشار» أسامة الباز





على الضفة الأخرى من نهر الأردن، أو بالأحرى من الجسر الذى أسمته فيروز، ومعها جيلنا كله «جسر العودة»، بنى الإسرائيليون «خيالاتهم» على القول القديم لـ Alexander Keith (١٧٩٥ - ١٨٧٣): «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»[٤] وبدوا كأنهم اطمأنوا إليه.. وصدقوه. فباتوا يتحدثون عن دولة «يهودية خالصة» (!) وعن حقوق توراتية لاتقبل المساومة فى «يهودا والسامرة»[٥]

لم يكن هناك أبداً طريق واحد، ولا خريطة لذلك الطريق.



فور أن قام رابين بمصافحة يد عرفات «الممدودة» فى صباح ذلك اليوم من عام ١٩٩٣، انطلق آلاف الفلسطينيين فى شوارع القدس الشرقية يحملون أعلاما فلسطينية، لايعرف أحدٌ أين كانوا يخبئونها، ولأية مناسبة. وبدا واضحا تماما أن السلام الذى يحتفلون به فى واشنطن يعنى لدى هؤلاء الذين انطلقوا إلى الشوارع «الاستقلال».. ولا شىء غيره. أما بالنسبة إلى الإسرائيليين، حمائمهم مثل صقورهم، فلم يكن يعنى ذلك بالضبط. وذلك ماسمحت به الاتفاقات المكتوبة التى كان جرى توقيعها، والتى تركت كل المسائل مفتوحة للمفاوضات المستقبلية؛ الأرض، والحدود. واللاجئين، فضلا عن وضع القدس التى هى «العاصمة» فى الخطاب السياسى لكلا الطرفين. وحسب الاتفاق، فكل تلك الأمور كان يفترض أن يتم حسمها نهائيا فى غضون خمسة أعوام لاغير (!)

جرى اغتيال رابين (نوفمبر ١٩٩٥)، وبغض النظر عما إذا كان ذلك قد غير من الأمر شيئا، فسرعان ماذهبت «سكرة» أنخاب التوقيع فى البيت الأبيض. وبدأ الجميع يتعثر فى «صخور الحقائق» على الأرض. كان طبيعياً أن يستمر النضال / البحث الفلسطينى عن «الدولة» التى وُعدوا بها فى أوسلو. وخاصة أنهم يعتقدون أن رابين لم يذهب إلى هناك إلا مضطرا بعد أن فشلت سياسته فى «تكسير العظام» فى إجهاض الانتفاضة الأولى. وكان أن أدى استمرار الإذلال اليومى للاحتلال، وعجرفة المستوطنين، وسياسة مصادرة الأراضى وتدمير المنازل، بالفلسطينيين إلى اليأس من تحقيق السلام الذى وعدت به أوسلو. وبعد سبعة أعوام كاملة (كان يفترض أن يكون قد انتهى فيها كل شىء) اندلعت الانتفاضة الثانية. وسرعان ماجرى توصيفها والتعامل معها إسرائيليا - حتى بين أوصاف النخبة الثقافية - بوصفها «حربا على البيت». مماكشف بوضوح أن الإسرائيليين «الذين حلموا بالسلام» لم يكونوا على استعداد أبدا لأن يعتبروا أن ثمنه هو عودة الأرض التى لم يتخلوا أبداً عن فكرة أنها باتت «جزءا من بيتهم». وسرعان مابدا أن لافارق «محسوسا» هناك بين الصقور والحمائم. فاليمينيون الذين عارضوا أوسلو منذ البداية، اعتبروا أن الانتفاضة «ضد الاحتلال» دليلُ على أن «لا أمن» مع الفلسطينيين. أما اليساريون الذين بنوا أوهامهم على أن الفلسطينيين سيكتفون بماهو «أقل من دولة ذات سيادة»، فقد أعلنوا أنهم «أفاقوا» من أوهامهم بخصوص الفلسطينيين.

صيغة بيجين

الحاصل إذن أن رابين اغتيل (رغم تعهده القاطع بعدم العودة إلى أراضى ٦٧)، وساد وقتها فى المجتمع الإسرائيلى «الهش» والذى يستمد قوته من «وحدته» أن الاغتيال كان نتيجة للاستقطاب داخل الشعب. وعليه فقد أصبحت هناك ضرورة لاستعادة اللحمة، كما يذهب جرينبرج فى تحليله. وكان الأسهل بالطبع الاحتماء «بالميثولوجيا». والأساطير هنا لاتنحصر فى ما هو شائع من مفاهيم عقيدية حول «الوعد التوراتى» وأرض إسرائيل الكبرى.. إلخ، بل تمتد إلى ماهو أبعد من ذلك. كما يشرح جرينبرج - لتشمل الإيمان الراسخ بأن اليهودى «مهدَّدٌ دائما» بمن حوله، الأمر الذى يجعل من هاجس الأمن أسطورة حاكمة لايتورع السياسيون عن استغلالها فى كل مناسبة.

هل من أفق إذن أمام شعار «الأرض

مقابل السلام»، كما نفهمه، والذى ترتكز عليه العملية السلمية برمتها، منذ بدأها الرئيس السادات قبل ثلاثة عقود؟ على الذين يحاولون إجابة واقعية على هذا السؤال أن يعودوا إلى وثائق «كامب دافيد» المصرية، ليروا كيف أن المفهوم الإسرائيلى الثابت للتعامل مع «الأراضى» التى احتلتها عام ١٩٦٧ أو «المناطق» باللغة الإعلامية الإسرائيلية الرسمية، بدا واضحا (أو ربما مخفياً) فى الصياغة التى حاكها مناحيم بيجين «الداهية» فى اتفاقات السلام مع مصر. تعترفُ نصوص «إطار السلام فى الشرق الأوسط» الذى جرى توقيعه فى كامب دافيد فى السابع عشر من سبتمبر/أيلول ١٩٧٨ بالحقوق المشروعة «للشعب» الفلسطينى. وأنه سيجرى توفير حكم ذاتى «لسكان» الضفة الغربية وغزة (البند: أولا-أ)

كان الحكم الذاتى الذى اقترحه بيجين للسكان «دون السيطرة على الأرض». وهنا تكمن المشكلة، ومن ثم كل تداعياتها؛ استمرت إسرائيل فى الإتيان بكل الممارسات البغيضة للاحتلال على «الأرض»، دون أى مسؤولية قانونية حيال سكانها. كما استمرت فى بناء المستوطنات فى الضفة وغزة، وهى الصخرة التى يبدو أن المفاوضات ستنهار عليها هذه المرة. لقد كانت «صياغة بيجين» للاتفاق الإطارى فى كامب دافيد، حلا بارعا للتناقض الداخلى لأسطورة الوعد المتعلقة بالأرض، والتى بموجبها تعهد الليكود «بفرض السيادة الإسرائيلية على كل أراضى يهودا والسامرة». كما أنها تقدم حلا للهاجس الديموجرافى المؤرق لمستقبل الدولة الصهيونية. فالسيطرة الكاملة على الأرض دون الضم القانونى للمناطق «تكفينا شر الديموجرافيا، وتعفينا حرج الأبارتهايد، حيث لن نكون مضطرين لأن يتمتع السكان بأى من حقوق المواطنة» وستبقى إسرائيل فى التحليل النهائى «ديموقراطية» كما يريد العلمانيون. كما ستبقى «بلاحدود» نهائية، كما يريد الدينيون الذين لن يقبلوا التنازل عن حقهم فى «أرض الميعاد».

(يعتبر جرينبرج أن وجود الحدود قبل ١٩٦٧ كان من الممكن أن يسمح عمليا، من زاوية الرؤية الإسرائيلية بتخيل السلام دون أن «نعتبره الآن مهدداً لأرض إسرائيل التاريخية»)

تكشف القراءة المتأنية للفكر الإسرائيلى متمثلة فى كتابات المثقفين الإسرائيليين من اليمين واليسار عن أننا صرنا بصدد أسطورتين تبرران استمرار السيطرة على «المناطق». احداهما يمينية دينية تستند إلى «الوعد التوراتى»، والأخرى يسارية علمانية تستند إلى «الأمن». وفى الحالتين فالدولة «يهودية» وينبغى أن تظل كذلك، كما أن «المناطق هى ممتلكات لنا». الأمر الذى من شأنه بالضرورة أن يطرح اشكالية «الديموجرافيا»، بسؤالها المحرج لأولئك الحداثيين: «كيف ستتم المحافظة على الديموقراطية؟ وكيف سيمكن تعريف الحقوق المدنية والسياسية للسكان الفلسطينيين، فى حال جرى ضم «أرض إسرائيل» لدولة إسرائيل؟

وجد الإسرائيليون الحل دائما فى صيغة «بيجين-كامب دافيد» الجهنمية. وتتضح لنا من قراءة جرينبرج كيف تعاملت الحكومات المتعاقبة، دون فارق بين يسار ويمين، بطريقة مزدوجة على الدوام مع المناطق «يهودا والسامرة وغزة يشع». حيث استمرت بالإبقاء على الحدود، و«طمسها» فى آن واحد. أبقى الإسرائيليون على وصف «المناطق» - بلغتهم - كخارجية عن الدولة، وبالتالى لايصبح لسكانها أية حقوق مدنية، إلا أنها فى الوقت ذاته، طمست الحدود عن طريق بناء شبكة هائلة من المستوطنات، يسكنها اليهود «المواطنون» والذين هم بالتالى «المسيطرون»، والتعبير للكاتب الإسرائيلى ذاته. والذى يعتقد أن ذلك الوضع لابد أن يدفع بالفلسطينيين «المقهورين» إلى العنف. الأمر الذى من شأنه بالتالى أن يعزز إيمان الإسرائيليين - الخائفين تاريخيا من الإبادة - بأسطورة الأمن. وهكذا تدور الحلقة الجهنمية بلا نهاية.

عشية سفره إلى واشنطن لاستئناف «المسيرة»، ووسط اجتماع «تحضيرى» لمجلس وزرائه، قال نتنياهو مستنكرا أن يطالبه الفلسطينيون بتجميد البناء فى المستوطنات: «إننا نتركهم يبنون مدينة بكاملها فى يهودا والسامرة (يقصد الضفة)، ومعنا ينازعون فى كل بيت». نتنياهو إذن الذاهب إلى واشنطن بزعم البحث عما





«صياغة بيجين» فى كامب دافيد، قدمت للإسرائيليين حلا عبقرياً للتناقض الداخلى بين أسطورة الوعد المتعلق بالأرض، والهاجس الديموجرافى المتعلق بالمكان



تبقى من أوسلو، يعتبر أن أرض الضفة «أرضه» يبنى فيها مايشاء وقتما يشاء. وهو «يَمُنُّ» على الفلسطينيين/ السكان أنه سمح لهم بالبناء (!) عقيدة «بيجين» هى إذن التى سبق أن ترسخت فى «كامب دافيد».

على أية حال لابد أن نلاحظ أن حكومات الليكود لم تعمل أبدا على تنفيذ وعدها الانتخابى بضم «يهودا والسامرة»، لأنها إذا فعلت، كانت ستقيم بيدها «دولة ثنائية القومية»، وهى إطارٌ سيكون بمقدور الفلسطينيين فى داخله المطالبة بالمساواة فى الحقوق على غرار صيغة جنوب أفريقيا، الأمر الذى سيؤدى فى نهاية المطاف عمليا إلى نهاية إسرائيل كدولةٍ يهودية.

هذا المفهوم «غير الطبيعى» للحدود، القائم على صيغة «بيجين - كامب دافيد» يبدو أنه سيكون محورا للصيغة الإسرائيلية التى سيتم تسويقها للحل النهائى فى الجولة القادمة. مما سيجعلنا فى النهاية بصدد «بنتوستانات» مثلما كان قائما فى أواخر عهد التمييز العنصرى فى جنوب أفريقيا؛ أى دولة - أو بالأحرى - دويلات، محاطة فى كل حدودها من جانب الدولة الأم البيضاء.

ماذا سيبحث إذن العائدون إلى واشنطن «دون شروطٍ مسبقة»؟

أغلب الظن أن هذا هو كل ماسيقدمه الإسرائيليون إلى الفلسطينيين الذاهبين إلى المفاوضات (مع مكافأة ترويجية Promotional Offer فى موضوع الأسرى وربما أجزاء من ضواحى القدس) وإن كان من غير المستبعد إعادة إحياء الأفكار القديمة لعبد السلام المجالى وطاهر المصرى حول الصيغة الأردنية. وفى المقابل، وك «حل نهائى» سيكون على الفلسطينيين (ومعهم كل العرب) الاعتراف بإسرائيل «كدولة يهودية»، الأمر الذى ينتفى معه عمليا الكلام عن «حق العودة»، وإن كان من الوارد الحديث عن تعويضات. كما سيكون على الفلسطينيين التخلى عن أى مطالب فى المستقبل، واعتبار أن القضية «منتهية».

أن تحصل على شىء، أفضل من أن لا تحصل على أى شىء على الإطلاق»، منطقٌ قديم لاجديد فيه. ولاغبار عليه، ولكن أن يصبح ذلك مقابل أن تتنازل نهائيا عن «كل شىء»، يصبح الأمر بالضرورة مدعاة للسؤال. وربما لما هو أكثر. ■

هــوامــش

(١) أعطى القرار ٥٦,٥٪ من مساحة فلسطين التاريخية لليهود الذين لم يكن عددهم يتجاوز ٣٣٪ من السكان ولايملكون أكثر من ٧٪ من الأرض

(٢) دايال إبراهام هو المؤسس والرئيس السابق لشركة Slim-Fast للوجبات السريعة، وإليها تعود ثروته.

(٣) ٢١٧ بؤرة استيطانية إسرائيلية داخل الأراضى المحتلة عام ١٩٦٧ وحوالى نصف مليون مستوطن (Land Research Center LRC & the Applied Research Institute - Jerusalem ARIJ)

(٤) اشتهرت العبارة بعد أن رددها الكاتب البريطانى اليهودى Israel Zangwill (١٨٦٤-١٩٢٦)، ثم جولدا مائير وغيرها من زعماء الصهيونية.

(٥) «يهودا والسامرة» هو الاسم الذى يطلقه اليهود على «الضفة الغربية»، فى إطار سياسة التهويد المستمرة، ونحن نستخدمه هنا أحيانا للتوثيق وحسب مقتضيات السياق.

لن تكون سياسة الولايات المتحدة قادرة على التوفيق بين الطموحات المعلنة لجورج ميتشل والتى تسعى إلى تسوية عن طريق التفاوض، وطموحات الجنرال كيث دايتون الذى كان يعمل على تصعيد الحرب الأهلية بين حماس وفتح



المحـــو!!

نصــــيرعـــــروری

Naseer Aruri

Naseer Aruri is an American professor and author of several books on the Israeli-Palestinian conflict. He is the Chancellor Professor (Emeritus) of Political Science at the University of Massachusetts, Dartmouth. He is the author of Dishonest Broker: Americas Role in Israel and Palestine (South End Press, 2003)

ترجمة: مازن النجار

■■ فى حين لا يزال هناك الكثير ممن يؤمنون بإمكانية تطبيق فكرة دولتين لكل منهما سيادتها: إسرائيل وفلسطين، بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط؛ إلا أن التاريخ والسياسة والجغرافيا جعلت هذا الحل بعيد المنال بالنسبة لبعض الناس؛ مهما كانت تغيرات الصيغ اللغوية البلاغية فى السياسة الخارجية الأميركية والتى قد تأتى بها إدارة أوباما. - فى الواقع، إذا ما كان تعامل أوباما وسفيرة بلاده فى الأمم المتحدة سوزان رايس مع تقرير جولدستون (حول جرائم الحرب الإسرائيلية على غزة) مثالا، فإن الفارق بين بوش وأوباما فى مسألة فلسطين/إسرائيل ربما يكون محض خيال.

نجد الآن أن الحركة الصهيونية والدولة الإسرائيلية فى المراحل الأخيرة من تحقيق السيادة الفعلية على كل أراضى فلسطين التاريخية تقريبا. كانت ملكية اليهود للأراضى الفلسطينية بأكملها شرطا أساسيا لا غنى عنه للدولة الإسرائيلية ومؤسسيها من قادة الحركة الصهيونية ومنذ البداية. - كان هذا الهدف الرئيس يتوارى باستمرار بين حيل وقضايا أخرى كثيرة منها: «الأمن»، والاعتقاد الأبدى بكونهم ضحايا، والمحرقة النازية، ومطالب «الاعتراف» بكل من حق إسرائيل فى الوجود عموما، وبوصفها دولة يهودية تحديدا.

دخل المصطلح اليهودى «تهويد» الأرض لأول مرة إلى الخطاب العام فى عام ١٩٧٦، خلال المصادرات الهائلة للأراضى من مواطنى البلاد الفلسطينيين فى الجليل. - ويجب أن نعترف بأننا نشهد الآن تهويد ما تبقى للفلسطينيين من فلسطين التاريخية (مع استثناء محتمل لقطاع غزة).

إن الفشل فى فهم عملية التهويد، من جهة، وما يصاحبه من محو للوجود الفلسطينى بجميع أشكاله من جهة أخرى، يحكم علينا جميعا بأن نواصل منح إسرائيل وأنصارها القوة لإنجاز عملية إلغاء الهوية الفلسطينية وحلم إقامة الدولة الفلسطينية؛ حيث تواصل إسرائيل اقتلاع وتجريد أكبر عدد ممكن من الفلسطينيين من أراضيهم وحقوقهم. - فى حين يستمر الحكم الذاتى محض وهم، تبقى المناورات «القانونية» والمصادرة والطرد واستخدام القوة الغاشمة هى الحقيقة الواقعة.

فى نيتى أن اتجنب الرطانة التقليدية والعبارات المستهلكة والتأكيد على الحقيقة التى نواجهها الآن، وذلك من خلال: أولا، دراسة وإلقاء الضوء على الوجود الفلسطينى الراهن فى فلسطين التاريخية؛ وثانيا، بواسطة التتبع النزيه للعملية التاريخية لتهويد البلاد؛ وثالثا، من خلال استكشاف الأدوار المتاحة للناس الذين يسعون لتحقيق العدالة للشعب الفلسطينى.

ومن ثم فإننا لا نبحث عن مانشيتات العناوين المثيرة، فى محاولة منا لأن نظل «ملتزمين بالموضوع الذى نتحدث فيه»؛ ولكن الالتزام الحقيقى بالموضوع يجب أن يقتصر على جوهر الأهداف الصهيونية بصرف النظر عما يختار نتنياهو أن يقوله ذات يوم عن الدولة الفلسطينية، أو ما قد يقوله أوباما عن بناء إسرائيل للمستعمرات (فى القدس والضفة الغربية).. قبل نحو تسعة أشهر، طلب الرئيس الأميركى الجديد من قادة إسرائيل تجميد بناء المستوطنات. ووفقا لصحيفة هآرتس الإسرائيلية، كانت إدارة أوباما قد وافقت فى نهاية أغسطس/آب (٢٠٠٩) على طلب اسرائيل باستثناء القدس الشرقية من المفاوضات الجارية بشأن التجميد «الوشيك» للمستوطنات. - وبحسب مسؤولين إسرائيليين ودبلوماسيين غربيين على حد سواء، اعترف جورج ميتشل المبعوث الأميركى للشرق الأوسط بحقيقة أن رئيس الوزراء الاسرائيلى بنيامين نتنياهو لن يعلن عن تجميد الاستيطان فى القدس الشرقية. - وقال المسؤولون أن الولايات المتحدة لن تؤيد بناء مستوطنات جديدة هناك، لكنها لن تطلب من تل أبيب أن تعلن عن تجميدها.



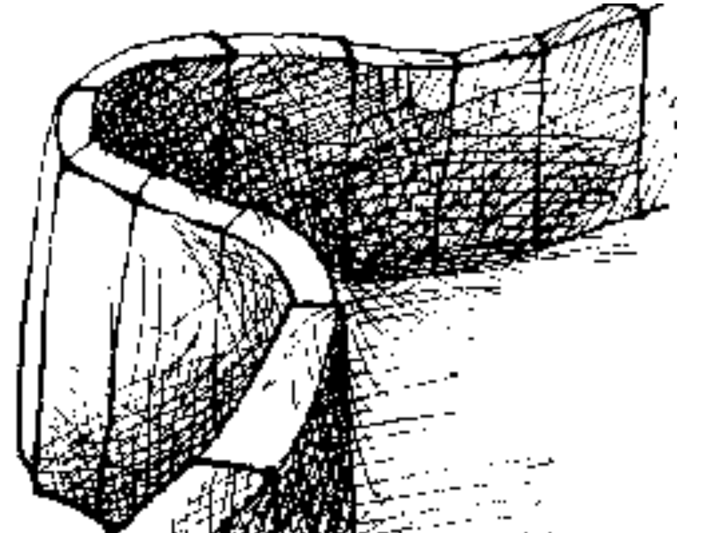
مصطلح تجميد المستوطنات غير موجود فى قاموس نتنياهو ولا فى قواميس أى من وزراء حكومته؛ فبرنامجهم الذى حجر الأساس فيه هو الاستيطان الاستعمارى والتطهير العرقى يحول دون التوصل إلى تسوية فيما يتعلق بالأرض. - فهم يؤمنون أن الأراضى الممتدة بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط لا مكان فيها إلا لدولة واحدة فقط هى إسرائيل. ومن ثم، فإن انتظار ما سيفعله أوباما ليحصل للفلسطينيين على استقلالهم يعد ضربا من العبث.

وهذا بالفعل هو ما نتعلمه من استعراض سياق التاريخ الصهيونى قبل وبعد عام ١٩٦٧.. فقد كانت الاهتمامات الأساسية لدى إسرائيل هى الأرض والماء والخصب والمواقع الاستراتيجية وأقل عدد ممكن من السكان الأصليين لصالح «الأمن» الديموغرافى.. ومرة أخرى نجد أن التسوية فيما يتعلق بالأرض لا تلوح فى الأفق.

فى الوقت نفسه، لن تكون سياسة الولايات المتحدة قادرة على التوفيق بين الطموحات المعلنة لجورج ميتشل والتى تسعى إلى تسوية عن طريق التفاوض، وطموحات الجنرال كيث دايتون الذى كان يعمل على تصعيد الحرب الأهلية بين حماس وفتح، وتدريب ميليشيات حركة فتح لتكون قوى مكافحة للمقاومة. كما لم تتخل الولايات المتحدة عن أساليب ومكائد إليوت أبرامز التى تنتمى لزمن فضيحة إيران كونترا، رغم تغير الشخصيات الفاعلة فى البيت الأبيض. - تولى الجنرال دايتون التأكد من أنه بينما تواصل إسرائيل التوسع ويصير الاحتلال أشد وأقسى، - يتم تحويل المقاومة الفلسطينية إلى عملاء للعدو.. الهدف من تكوين ميليشيات دايتون ومحمد دحلان ليس مواجهة الاحتلال؛ وإنما التصدى للمقاومة، وهذا ما يوصف رسميا بأنه فرض للقانون والنظام.

ومع عدم وجود توجهات نحو تسوية سلمية حقيقية، لاتزال إسرائيل مستمرة فى الاستيلاء على الأراضى، ولايزال الفلسطينيون يعانون من نكبة مستمرة، قد يفضل البعض تسميتها بالنكبة الثانية. - فما هى النكبة الأولى فى الأصل؟ ألم تكن فقدان الأرض والماء، والتطهير العرقى، والاقتلاع، والتهويد؟ - هذا هو بالضبط ما يجرى فى الوقت الحاضر... استمرارا لما حدث عام نكبة ١٩٤٨.. فاستعمار مناطق رأس العمود والشيخ جراح فى القدس الشرقية عام ٢٠٠٩ لا يختلف كثيرا عن استعمار قطمون وشارع يافا والطالبية وباقى ما أصبح يعرف باسم القدس الغربية بعد عام ١٩٤٨.

خلال الأسبوع الأخير من أغسطس ٢٠٠٩، وافقت السلطات الإسرائيلية على خطط لبناء مئات الوحدات الاستيطانية فى قلب القدس الشرقية العربية.. تقع المستعمرات الجديدة فى هذه الخطط فى قلب حى رأس العمود العربى المكتظ بالسكان ولذلك فهى تستبعد أى احتمال لأن تصير القدس الشرقية عاصمة المستقبل للدولة الفلسطينية المرتقبة.. ومن هنا تأتى أهمية أحداث ١٩٤٨ والحاجة لدراسة التوسع الإسرائيلى الراهن فى سياق النكبة. - كذلك، لم يحدث أى تحسن جدى فى رد فعل القادة الفلسطينيين المعنيين ذاتيا تجاه هذا الاستعمار الاستيطانى والتطهير



العرقى، حيث تعتمد استراتيجية القيادة الحالية على انتظار أن تقدم لهم واشنطن الاستقلال وتكبح التوسع الإسرائيلى.. وعلى الرغم من كل هذا لا تزال إسرائيل تطالب العرب بالتطبيع الذى يعد أسوأ من الرضوخ - ويساوى التواطؤ على الفلسطينيين فى النكبة الثانية.

كان المؤتمران الفلسطينيان اللذان عقدا فى بيت لحم ورام الله فى شهر أغسطس/آب ٢٠٠٩، قد عقدا تحت رقابة الاحتلال.. وسمح فقط لأعضاء حركة فتح الموالين لمحمود عباس بدخول الضفة الغربية والمشاركة فى انتخاب مندوبى المجلس الثورى واللجنة المركزية لحركة فتح. - وعلى نفس النحو، تم السماح فقط للموالين بحضور اجتماع المجلس الوطنى الفلسطينى الذى عقد على عجل فى رام الله لملء الأماكن الشاغرة بالموالين لعباس.

بعد أن انضوت اثنتان من أعلى الهيئات الفلسطينية تحت جناح عباس وبموافقة ضمنية من نتنياهو ودايتون، تم ضمان الاحتواء الكامل للمقاومة واستمرار النكبة الثانية. - وفيما لا يختلف الحال اليوم عنه فى عام ١٩٤٨، تتخبط القيادة الفلسطينية؛ وتتصاعد الإمبريالية والهيمنة الأميركية. - فإسرائيل يحكمها أتباع سياسة الجدار الحديدى، ومن ثم فلا يمكن كبح جماحها.. والدول العربية التى كانت تتصف بعدم الكفاءة فى عام ١٩٤٨، صارت متواطئة الآن بكل معنى الكلمة. - فبعضها لا تقوم فقط بفرض الحصار الإسرائيلى على المدنيين فى غزة، ولكنها أيضا توفر معسكرات تدريب لحركة فتح التى باعت وطنها، من أجل تمكينها من أداء مهمة الجيش الإسرائيلى والتمويه على الاحتلال. - يحمل تصنيف المدن الفلسطينية بالمنطقة المصنفة «ألف» فى اتفاقية أوسلو مظهرا مخادعا للحياة الطبيعية فى ظل تخطيط دايتون العسكرى، وفى إطار الإصلاحات البيروقراطية لرئيس الوزراء سلام فياض، وفى ظل «سلام» نتنياهو الاقتصادى.

أصبح من الواضح على نحو متزايد أن الشلل الدبلوماسى الطويل والعوائق التى تحول دون التوصل إلى حل سلمى (يمكن أن يفضى إلى دولتين مستقلتين متجاورتين تعيشان جنبا إلى جنب فى الشرق الأوسط)، صار هذا الشلل جزءا لا يتجزأ من «عملية السلام» التى تظهر حالة الجمود بها عجزا عن الحل، وفى الإجماع الصهيونى على أن فلسطين ما قبل ١٩٤٨ من نهر الأردن إلى البحر الأبيض المتوسط هى دولة واحدة تحت السيادة الإسرائيلية الخالصة.. طالما أن إنهاء الاحتلال الإسرائيلى ليس على جدول الأعمال الإسرائيلى القائم، وطالما أن القوى السياسية فى إسرائيل متحدة فى رفضها لدولة فلسطينية مجاورة تملك مقومات البقاء وممكنة الحدوث عمليا، وتعيش جنبا إلى جنب فى سلام مع إسرائيل؛ فسيظل أطول احتلال فى التاريخ مستمرا بلا هوادة..

إن السلام إذن لن يكون وشيكا - مادامت عملية السلام المتعثرة هذه فاشلة فى إدماج أساسيات القضية الفلسطينية: لم يتم الاعتراف بنكبة ١٩٤٨ على ما هى عليه كشكل من أشكال التطهير العرقى، ومشروع استيطانى يطمع فى أرض بدون شعب.. كذلك، يظل السلام أيضا بعيد المنال ما دام احتلال ١٩٦٧ لا يزال راسخا كشكل من أشكال ما يسميه عالم الاجتماع الإسرائيلى الراحل باروخ كيمرلينغ عملية «الإبادة السياسية» فى كتابه الذى يحمل عنوانه نفس التعبير، حيث يعرفها بأنها عملية هدفها النهائى هو إنهاء وجود الشعب الفلسطينى ككيان وطنى

المحـــــــــــــــــــــــــــــو!!

واجتماعى واقتصادى مشروع، وهو ما قد يتضمن أيضا التطهير العرقى الجزئى أو الكلى.

الإبادة السياسية التى تكمل عملية المحو هى عملية تتضمن نطاقا واسعا من الأنشطة الاجتماعية والسياسية والعسكرية والبيروقراطية تهدف إلى تدمير الوجود السياسى والوطنى لمجتمع بأسره ومن ثم تنكر عليه حقه فى تقرير مصيره. هذا هو ما ظلت إسرائيل تفعله بالشعب الفلسطينى بإصرار منذ عام ١٩٤٨ وإلى الآن. ـ حيث تقوم بتدمير نسيج الشعب الفلسطينى وطمس الوجود الفلسطينى. ـ يلخص جارى زاتسمان الفارق الرئيسى بين نظام الفصل العنصرى وبين الصهيونية فى مجلة Dissident Voice (٢٠٠٥)، قائلا:

«على الرغم من كل الشرور الخطيرة المؤكدة والجرائم العديدة ضد الإنسانية التى ارتكبت باسم نظام الفصل العنصرى الأبيض فى جنوب أفريقيا، بما فيها المجازر الفعلية، إلا أنه لم يكن قائما على ارتكاب الإبادة الجماعية.. أما الصهيونية من الجهة الأخرى فقد عمدت منذ البداية إلى إنهاء التواجد الاجتماعى والثقافى والسياسى والاقتصادى للشعب الفلسطينى؛ أى إبادته إبادة جماعية، على الأقل منذ الوقت الذى أوصى فيه ثيودور هرتزل فى يومياته أن يتم نقل السكان الفلسطينيين المعدمين إلى مكان آخر بسرية وحذر».

لاتزال هذه العملية جارية، حيث تم تضمينها فى حروب ١٩٦٧، و١٩٧٦، و١٩٨٢، و٢٠٠٢ (مجزرة جنين)، ٢٠٠٦ (الحرب على لبنان)، وفى الآونة الأخيرة مجزرة غزة (٢٠٠٨/٢٠٠٩). ـ فعلى مدار ثلاثة أسابيع، قدر كم المتفجرات التى ألقتها إسرائيل بأكثر من مليون ونصف طن على قطاع غزة الذى يقطنه ١.٥مليون نسمة، وهو ما يعد من أكثر مناطق العالم كثافة سكانية حيث يكون من الصعب التمييز بين المدنيين والمقاتلين.

خلال ٢٢ يوما من قصف بلا هواده، قدر المركز الفلسطينى لحقوق الإنسان عدد القتلى الفلسطينيين بنحو ١٤١٧ منهم ٩٢٦ مدنيا، فيهم ٣١٣ طفلا و١١٦ من النساء.. وكان عدد القتلى من رجال الشرطة المدنية ٢٥٥، وعدد المقاتلين ٢٣٦ وهو ما يمثل نسبة ١٦.٧٪ من إجمالى الوفيات. ـ يشمل عدد القتلى من المدنيين ١٦ مسعفا وأربعة صحفيين.. فى حين يقدر عدد المصابين بما يقرب من ٥٥٠٠ جريح، ثلثاهم من المدنيين.. وتعرضت للتدمير الكامل العديد من المدارس والمساجد والمستشفيات والمبانى السكنية والتجارية والمرافق التابعة للأمم المتحدة.

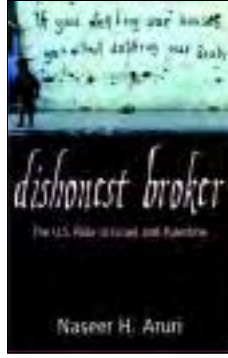
فى تقرير مطول لمجموعة الأزمات الدولية (ICG) من ٤٩ صفحة تحت عنوان «المهمة التى لم تكتمل فى غزة» والذى نشر يوم ٢٣ أبريل/نيسان ٢٠٠٩، حذرت فيه المجموعة من أن الموقف فى غزة سيصل مرة أخرى إلى ذروته.. فغزة –على حد وصف التقرير– عبارة عن انفجار وشيك الوقوع.. يسجل التقرير ضحايا الهجوم الإسرائيلى العنيف الذى استمر لمدة ٢٢ يوما فى ديسمبر/كانون الأول ٢٠٠٨ ويناير/كانون الثانى ٢٠٠٩ قائلا أنه خلّف ١٤٣٠ قتيلا من سكان غزة و٥٣٠٠ جريح و٩٠ ألفا بلا مأوى.. كما أورد التقرير أنه تم تدمير سبعة مصانع كبيرة للمنسوجات فى غزة مما أدى إلى إغلاقها، بالإضافة إلى تدمير ٢٢ من أصل ٢٩ مصنعا للخرسانة، ودكت مناطق صناعية كاملة، وتم تخريب ٦٠ بالمائة من الأراضى الزراعية المحاذية للحدود مع إسرائيل، مما أدى إلى توقف فعلى للنشاط الزراعى بها.

يجب أن ينظر إلى رد إسرائيل الذى تعمدت أن يكون غير متناسب مع صواريخ حماس المحلية الصنع على أنه محاولة منها لكسر إرادة المقاومة لدى الفلسطينيين.. إذا ما كان هذا هو الهدف بالفعل، فقد منى بالفشل، بيد أن حلم قيام الدولة الفلسطينية لم يقترب أيضا من التحقق.. ما حدث فى العدوان على غزة فى ٢٠٠٨/٢٠٠٩ ليس إلا نكبة أخرى. إلا أنها هذه المرة تمت بتصريح من أكبر قوة عظمى فى العالم.

لطالما عارضت الولايات المتحدة الأمريكية حل الصراع الفلسطينى الإسرائيلى بما يتفق مع الإجماع الدولى المتمثل فى: الانسحاب الكامل إلى حدود ١٩٦٧، إقامة دولة فلسطينية كاملة السيادة متصلة الأراضى، والإقرار الفعلى لحل الدولتين وليس فقط بالخطاب والتصريحات السياسية، وإلغاء ضم القدس الشرقية. لكن على النقيض من ذلك، لم تأخذ أى حكومة إسرائيلية منذ عام ١٩٦٧ ولا أى إدارة أميركية مسألة الانسحاب الكامل على محمل الجد، ولم تستجب للمطالبات العالمية فى هذا الصدد.

قال القاضى غولدستون أمام لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان أثناء تقديم تقريره: «استمرت ثقافة الإفلات من العقاب لفترة طويلة للغاية.. ووصل عدم المساءلة عن جرائم الحرب والجرائم المحتملة ضد الإنسانية إلى حد الأزمة». ـ وأضاف قائلا: «إن إدارة أوباما، ووسائل الإعلام الأميركية وكلتا القيادتين فى الكونغرس الأمريكى جميعهم جزء من المشكلة.. لذلك فإن أمريكا لم تكن ولن تكون جزءا من الحل». ■

فـــى المــكــتــبـــــــــــــــــــــة



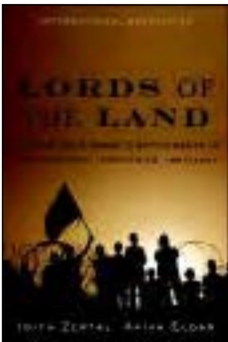
Dishonest Broker: The role of the United States in Palestine and Israel
Nasser Aruri
South End Press; 2nd edition (April 1, 2003)

آخر أعمال نصير عرورى Naser Aruri، يركز الكتاب على فشل «عملية السلام» فى الشرق الأوسط. فى كتابه، يحلل عرورى العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والخصمين الأساسيين. الفلسطينيين وإسرائيل. ويجادل بأن سياسة الولايات المتحدة الرافضة للمشاركة الفلسطينية والحقوق الفلسطينية انخرطت فى التركيز على «عملية» السلام مما ألهاها عن التركيز عن السلام فى حد ذاته.

يجادل عرورى أيضا بأن العلاقة الخاصة بين الولايات المتحدة وإسرائيل، والتى تحولت إلى تحالف استراتيجى بعد حرب ١٩٦٧أدت إلى استبعاد دور الولايات المتحدة كوسيط محايد من جهة. وإلى إقصاء كل الآخرين الذين كان من الممكن أن يلعبوا دورا فى صنع السلام. وللأسف، لايزال احتكارا للولايات المتحدة الدبلوماسى يمثل الوسيلة الأكثر فاعلية لتحقيق أهداف إسرائيل. إنها تحافظ على إسرائيل وتحميها من المساءلة الدولية وتُهندس الجمود السياسى الذى يسمح للحكومة الإسرائيلية بالتفاوض إلى ما لا نهاية.

وقد قامت أحداث ١١/ سبتمبر (أيلول) بتعزيز موقف الولايات المتحدة فى صالح إسرائيل حتى تقاربت السياستان إلى حد التطابق، فأصبحت سياسة إسرائيل هى بعينها سياسة الولايات المتحدة.





Lords of the Land: The War for Israel's Settlements in the Occupied Territories, 1967-2007
Idith Zertal
Nation Books (25 Oct 2007)

يحكى الكتاب القصة المأسوية للاستيطان اليهودى فى الضفة الغربية وقطاع غزة. فى أعقاب حرب ١٩٦٧ وانتصار إسرائيل المدمر على جيرانها العرب، حين حلت كارثة على روح ونفس دولة إسرائيل.

استناداً إلى سنوات من البحث، يركز هذا السرد على المستوطنين أنفسهم، ويظهر الدور الذى لعبته الدولة الإسرائيلية فى رعايتهم من خلال مساعدات اقتصادية وقانونية واسعة النطاق. يعتبر الكاتب بأن الاحتلال قد غير أُسس المجتمع الإسرائيلى، اقتصاده، جيشه، تاريخه، لغته ومكانته الدولية. يلاحظ زيرتال Zertal أن: «الغالبية العظمى من الـ٥,٦ مليون إسرائيلى الذين يعيشون فى بلدهم لا يعرفون أى واقع آخر». ويضيف: «الغالبية العظمى من الـ٣,٥ مليون فلسطينى الذين يعيشون فى المناطق المحتلة لا يعرفون أيضا أى واقع اخر». الاحتلال العسكرى المطول، والمستوطنات اليهودية المعززة إياه، أطاحت بحكومات إسرائيلية وأودت بالديمقراطية الإسرائيلية وثقافتها السياسية إلى حافة الهاوية.





One State, Two States: Resolving the Israel/ Palestine Conflict
Benny Morris
Yale University Press (March 23, 2010)

«أكثر ما هو لافت فى أعمال موريس Morris كمؤرخ أنه لا يجامل، ولايجمل من تحيز أى شخص، وبالأخص تحيزه هو» هكذا وصفه دافيد ريمنيك David Remnick فى مقالته فى الـ New Yorker،

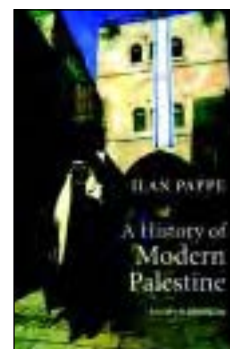
والتى تزامنت مع نشر موريس Morris لكتابه «١٩٤٨: A History of the First Arab-Israeli War».

الآن، وبنفس الالتزام والموضوعية التى طالما ميزت نهجه، حول موريس Morris اهتمامه إلى تراث أحداث ١٩٤٨، والإختيارات الملموسة لمستقبل فلسطين وإسرائيل.

يتناول الكتاب ويدقق فى تاريخ أهداف الحركة الوطنية الفلسطينية والحركة الصهيونية، ثم ينظر فى مختلف الاقتراحات سواء المروجة لدولة واحدة أو لدولتين، والتى تتبناها تيارات مختلفة داخل الحركتين. وينظر أيضاً الكتاب فى رغبة (أو عدم رغبة) الحركات المختلفة على إيجاد حل مبنى على التضحية. يقيم موريس Morris امكانية تحقيق وعملية الحلول المقترحة فى ظل الوقائع المعقدة والقاسية.

طوال حياته المهنية الرائدة، قام موريس Morris بتشكيل فهم الصراع العربى الإسرائيلى. وهنا، مرة أخرى، يصل إلى طريقة جديدة فى التفكير فى الخلاف، موجداً بصيصا من الأمل فى منطقة هى فى أمس الحاجة إليه.

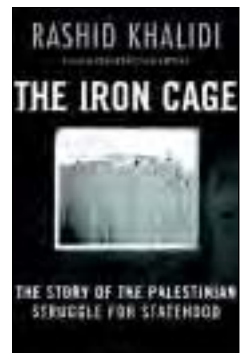
■



A History of Modern Palestine: One Land, Two Peoples
Ilan Pappe
Cambridge University Press; 2nd edition (July 31, 2006)

كتاب ايلان بابيه Ilan Pappe هو قصة فلسطين، أرض يسكنها شعبان وهويتان وطنيتان. تبدأ القصة بالعثمانيين فى أوائل القرن التاسع عشر، فى عهد محمد على، وتتتبع مسار المنطقة مع قدوم الصهاينة الأوائل، مروراً بالانتداب البريطانى، وإنشاء دولة إسرائيل فى ١٩٤٨، حتى الحروب والنزاعات اللاحقة والتى بلغت ذروتها فى الانتفاضتين (١٩٨٧و٢٠٠٠). تقدم هذه الاحداث الخلفية اللازمة لسرد وشرح بناء «القوميتين» الصهيونية والفلسطينية، ولكن تظل القصة فى الأساس قصة أناس عاشوا خلال هذه الأوقات. إنها قصة معنى التعايش والتعاون، كما انها قصة عن القمع والاحتلال. اشتهر ايلان بابيه Ilan Pappe بكونه من المؤرخين الجدد ومعلق سياسى فى القضية الفلسطينية الاسرائيلية. كتابه هذا هو مساهمة فريدة من نوعها فى تاريخ هذه الارض التى كثر عليها النزاع، وهو كتاب مهم لكل المعنيين بأمور المنطقة. يدُرس ايلان بابيه Ilan Pappe السياسة بجامعة حيفا بإسرائيل، وقد كتب على نطاق واسع فى قضايا السياسة فى الشرق الأوسط، وهو شهير بكونه من المؤرخين الجدد وبانتقاده لسياسة إسرائيل تجاه الفلسطينيين. من بين مؤلفاته The Making of the Arab-Israeli Conflict,1951 The Israeli-Palestine Question.

■



The Iron Cage: The Story of the Palestinian Struggle for Statehood
Rashid Khalidi
Beacon Press; Reprint edition (September 1, 2007)

يعرض رشيد خالدى Rashid Khalidi، وهو مؤرخ وخبير بارز فى شؤون الشرق الأوسط والنزاع الاسرائيلى الفلسطينى، وجهة نظر مهمة للمحاولات الفلسطينية لتحقيق الاستقلال واقامة دولة فلسطينية. يركز خالدى khalidi على فترة الانتداب البريطانى (١٩٢٠-١٩٤٨) والتى وضعتها عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى، ويصف الطريقة التى تغلبت بها أقلية يهودية أوروبية حديثة الوصول إلى المنطقة. بالمساعدة من حليفتها الامبريالية. على مطالب وحقوق السكان الأصليين من الأغلبية العربية فيما أصبح إسرائيل والأراضى المحتلة. يُلقى خالدى khalidi الضوء على حال الفلسطينيين فى ظل الانتداب البريطانى وعلى العقبات النظامية والمؤسسية والدستورية التى واجهوها فى تطوير أى كيان شبيه بالدولة. خلافاً للوعود البريطانية بالاستقلال العربى والمادة ٤ من ميثاق عصبة الأمم. وفى الوقت ذاته، أمكن للأقلية اليهودية الاعتماد على نظام متحيز لصالحها لتقوم بتطوير الهياكل والمؤسسات التى أصبحت الحكومة الإسرائيلية فى ١٩٤٨ فى ظل طرد قسرى لأكثر من نصف السكان الأصليين. فى سرده لهذا التاريخ، يحرص خالدى khalidi أيضا على أن يرصد اخطاء الفلسطينيين وقياداتهم.

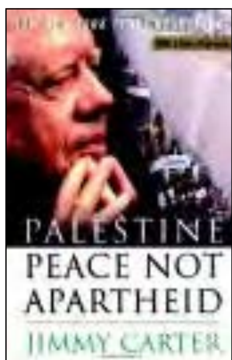
■



Politicide: Ariel Sharon's War Against the Palestinians
Baruch Kimmerling
Verso (July 2003)
(from Publishers Weekly)

يركز كميرلنج kimmerling، وهو واحد من الأكاديميين الإسرائيليين اليساريين المعروفين، فى هذا العمل على رئيس وزراء إسرائيل الأسبق آرييل شارون. ويتهمه بممارسة «الإبادة السياسية»، والتى يعُرفها بالأنشطة التى تسعى إلى «تدميرالوجود السياسى الوطنى لمجتمع بأكمله وبالتالى حرمانه من تحديد مصيره». ويقول كميرلنج Kimmerling أن هذه السياسة لطالما كانت هدفا من أهداف شارون، سواء فى أعوامه كقائد فى غارات انتقامية فى الخمسينيات أو فى حرب لبنان فى ١٩٨٢ أو فى سياساته كرئيس للوزراء. استخدم شارون، كما يضيف كمرلنج Kimmerling، آخر خطة سلام ـ «خارطة الطريق» المدعومة من قبل إدارة بوش ـ كذريعة: أنه يعتمد على الفلسطينيين ليعطوه عذراً للتمادى فى أهدافه. حرب ١٩٦٧ هى اللحظة الحرجة فى تحليل كمرلنج Kimmerling. ففوز إسرائيل بالحرب منحها السيطرة على الضفة الغربية، كما أنه شجع المتعصبين من القوميين على صم أذانهم عن الفلسطينيين وحقوقهم الأساسية. وكانت النتيجة تصلبا فى المواقف حال فى نهاية الأمر دون التوصل إلى معاهدة سلام مرُضية.

■



Palestine: Peace Not Apartheid
Jimmy Carter
Simon & Schuster (September 18, 2007)

من الصعب استخدام معايير قياسية لتقييم هذا الكتاب. الرئيس الأسبق كارتر ليس بقارئ جيد، ولا هو بـ literary stylist. ليس هناك موسيقى أو بلاغة فى جمله المتواضعة. لكن يشعر كارتر بقوة بأن ما لديه أن يقوله غائب عن الخطاب العام والقرارات السياسية، كما هو يعرف أن وضعه وصوته كفيلان باعطاء قيمة لرأى لولاه كان لابد أن يرفض بصورة قاطعة، بعد أن يتم ادراجه تحت بند الدعاية المناهضة لإسرائيل. يوضح كارتر أن إسرائيل لم تلتزم ابدا بقرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢ وغيره من القرارات الأخرى، وأنها لم ترق إلى مستوى الاتفاقات التى تعهدت بها على مر السنين فى واشنطن وأوسلو وغيرها. فهى تواصل الاستيلاء على الأراضى الفلسطينية وسجن الآلاف من الرجال الفلسطينيين والنساء والأطفال. ومع أنه لايعفى عرفات من بعض المسؤولية، إلا أن كارتر يلوم بوضوح الإسرائيليين ومؤيديهم فى واشنطن، ويعتبرهم مسؤولين عن الحالة الراهنة، وخاصة بوش ورايس اللذين كتما الحقائق المرتبطة بهذا الموضوع طوال ستة أعوام، وحتى أثناء غزو لبنان. سيشكك الكثيرون فى الحقائق التى يستند إليها كارتر، كما سيقومون بمعارضة أرائه، ولكن يستمر كارتر فى موقفه الذى يبدو أنه يقتنع به تماما؛ أنه إذا كنا نريد بالفعل فهم وتشجيع التغيير فى المنطقة، فعلينا أن نعرف كلا الجانبيين من القصة.

■



المهاجرون اليهود يصلون
إلى حيفا ـ ١٩٤٨
© Dmitri Kessel

فتاة من مسيحيى
فلسطين ـ ١٩٤٧

فن الممكن!

عـــــزام التـمـيـمـــى

بسبب موقعها بين الإمبراطوريتين الإسلامية والبيزنطية، اعتنقت الصفوة الخزرية الملحدة الديانة اليهودية فى أواخر القرن التاسع كوسيلة للحفاظ على استقلالها السياسى

أسطورة العرقية اليهودية

■■ «فى بداية القرن السادس، تحول ملك اليمن - ويدعى «ذو نواس» - وربما أيضا جزء من شعبه، إلى الديانة اليهودية. وقد غير اسمه إلى «يوسف» وأخذ على عاتقه مهمة الدفاع عن اليهود» (سولومون جرايزيل Solomon Grayzel، تاريخ اليهود A History of the Jews، طبعة جديدة منقحة، دار نشر ميريديان Meridian، نيويورك، ١٩٨٤، صفحة ٢٢٥. وطبقا لابن إسحق، المؤرخ الشهير وكاتب سيرة النبى (عليه الصلاة والسلام)، كان «ذو نواس» ابنا لـ «تبان أسعد أبو كرب»، المعروف أيضا بـ «التبع»، والذى غزا يثرب (المدينة) وعاد منها باثنين من الحاخامات من بين سكانها من اليهود. وقد تحول جزء من شعب اليمن - من بينهم «ذو نواس» - إلى الديانة اليهودية على أيدى هذين الحاخامين. مقتبس بواسطة «ابن كثير» فى تفسيره للقرآن، الجزء الرابع، صفحة ٤٩٥).

«بحلول القرن السادس، كان اليهود قد وصلوا إلى مكة ويثرب، المدينتين الهامتين فى الجزيرة العربية، وما حولهما. لم يكن هذا الجزء من العالم منظما من الناحية السياسية فى وحدة واحدة؛ كان سكانه ما زالوا منقسمين إلى قبائل، حتى عندما عاش الناس متقاربين فى المدن. كما انقسم يهود الجزيرة العربية إلى حوالى ست قبائل مختلفة تمزقها الأحقاد وتلجأ للحرب من حين إلى آخر. كانوا مختلفين عن جيرانهم العرب الوثنيين فى الدين فقط» (المصدر نفسه، صفحة ٢٢٧).

فى عهد النبى (عليه الصلاة والسلام) كانت هناك ثلاث قبائل يهودية كبرى، هى بنو النضير وبنو قريظة وبنو قينقاع، تقطن فى ضواحى المدينة. وتشير حقيقة أن النبى (عليه الصلاة والسلام) عقد معهم حلفا دفاعيا اضطراريا من أجل سلامة المدينة إلى أنهم كانوا عنصرا هاما فى الحياة السياسية فى ذلك الوقت. كان لدى تلك المستعمرات معلموها ومراكز الدراسة الدينية الخاصة بها. ومن خلال النماذج القليلة الباقية من أشعارهم، يمكن الحكم بأن هؤلاء اللاجئين، من خلال التواصل بشعب يمت إليهم بصلة قرابة، قد أصبحوا عربا من ناحية اللغة والعاطفة. ومع ذلك، فإنهم بقوا يهودا فى العامل الأكثر أهمية، ألا وهو الدين، وربما مارسوا تأثيرا قويا على العرب لصالح التوحيد» (الشيخ/ عناية الله، الفكر العربى قبل الإسلام Pre-Islamic Arabian Thought، من كتاب م.م. شريف «تاريخ الفلسفة الإسلامية A History of Muslim Philosophy، المؤتمر الفلسفى الباكستانى Pakistani Philosophical Congress، ١٩٦٣؛ الجزء الأول، صفحة ١٣٤).

«كان للرخاء والنفوذ السياسى اليهودى فى ذلك الوقت (القرن التاسع) أثره على إمبراطورية الخزر التى كانت قد نمت وتطورت على ساحل بحر قزوين. وبسبب موقعها بين الإمبراطوريتين الإسلامية والبيزنطية، اعتنقت الصفوة الخزرية الملحدة الديانة اليهودية فى أواخر القرن التاسع كوسيلة للحفاظ على استقلالها السياسى والاندماج فى الشبكة التجارية اليهودية (أبرامسكى Abramsky وآخرون، ١٩٨٦: ١٦، مقتبس عن جون روز John Rose، أساطير الصهيونية The Myths of Zionism، مطبعة بلوتو Pluto: ٢٠٠٤؛ صفحة ٤٨).

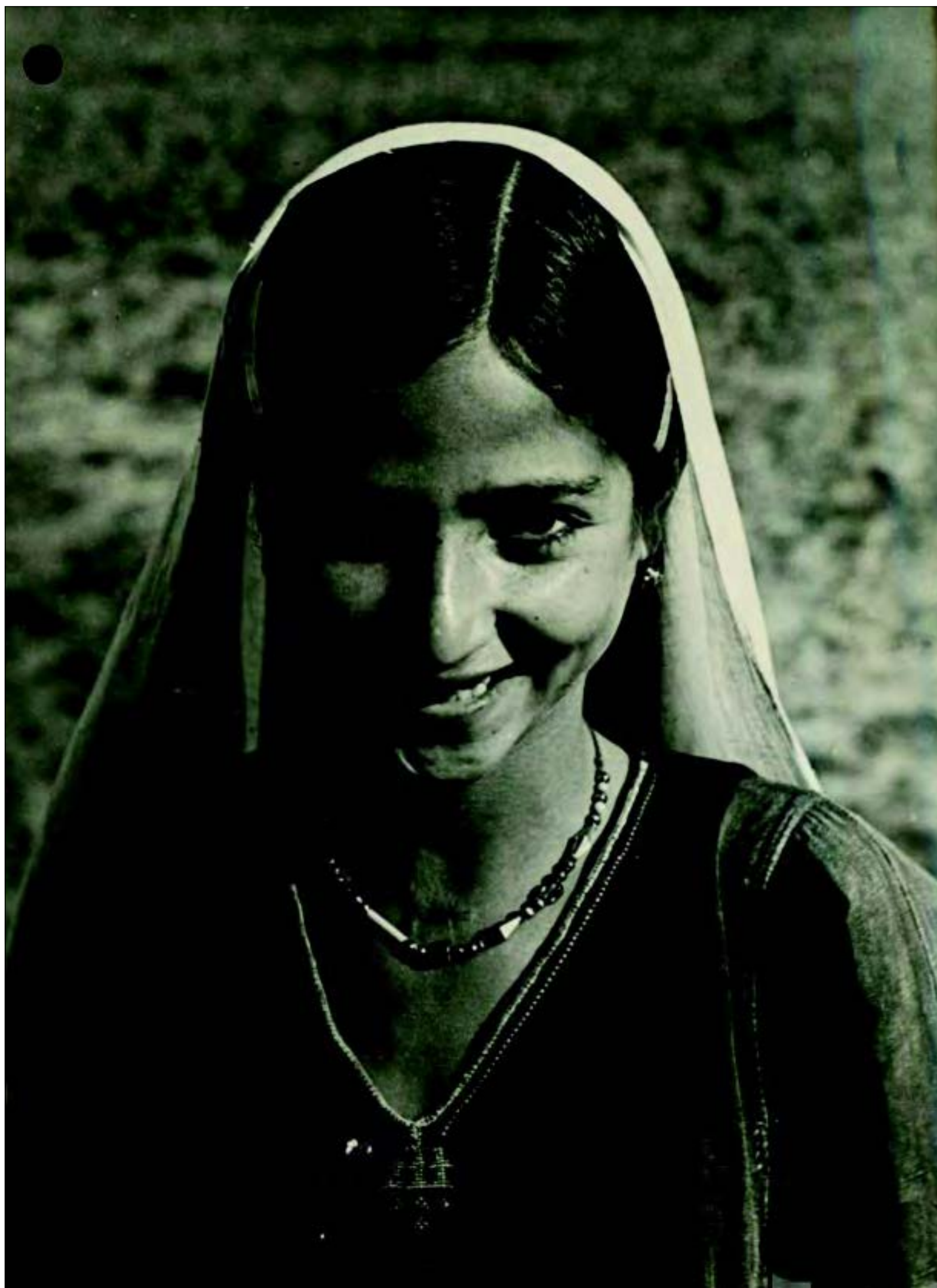
ليست تلك سوى أمثلة قليلة من الدلائل العديدة على أن إدعاء العرقية اليهودية ليس له أساس على الإطلاق. والمسلمون على وجه الخصوص لا يعترفون بأن اليهود يشكلون شعبا منفصلا أو أمة متميزة.

وهناك ثلاثة مصطلحات

Azzam Tamimi is a British Palestinian academic and political activist. He is currently the director of Institute of Islamic Political Thought in London and a member of the Muslim Association of Britain. His latest book is Hamas: A History from Within (2007).

ورقة مقدمة إلى المؤتمر المنعقد برعاية معهد الحوار العالمى
The Institute for Global Dialogue
والمركز الأفرو ـ شرق أوسطى
The Afro-Middle East Centre
فى الفترة من ١٢-١٥ أبريل ٢٠١٠ - بريتوريا ـ جنوب أفريقيا

ترجمة عادل فتحى



«فــــن الممكـــــن!»

فى السياق القرآنى ذات علاقة هنا: بنو إسرائيل؛ واليهود؛ وأهل الكتاب. يتضمن المصطلح الأول مفهوما موروثا واضحا، ويشير إلى المتحدرين فعلا من «يعقوب» (إسرائيل) (عليه السلام) بن «إسحق» بن «إبراهيم». ويؤكد القرآن حقيقة أن هذا العرف الدينى قد بدأ بالإسرائيليين المتحدرين من «يعقوب» (عليه السلام):

«وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانا وذى القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسنا وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ثم توليتم إلا قليلا منكم وأنتم معرضون» (سورة البقرة، الآية ٨٣).

مع ذلك، فطبقا للقرآن، فإن هذا التراث الدينى لا ينتهى باليهود أو المسيحيين فيما يتعلق بهذا الأمر. ففى القرآن، قيل للمسلمين الذين يؤمنون أن محمدا (عليه الصلاة والسلام) هو رسول الله وخاتم الأنبياء: «قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون» (سورة البقرة، الآية ١٣٦).

ويشير المصطلح الثانى، اليهود، إلى أولئك الذين اعتنقوا التراث المنسوب إلى موسى (عليه السلام). «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون» (سورة البقرة، الآية ٦٢).

إن معظم من يؤمنون بكتاب اليهود المقدس ليست لهم صلة مباشرة بالسلالة الإسرائيلية؛ إن الأمر الوحيد الذى يشتركون فيه - بخلاف الإخوة الإنسانية - هو التراث الدينى نفسه. لقد عرف المسلمون يهودا من كافة الأصناف والألوان. وكان اليهود من منطقة معينة يشتركون مع المسلمين أو المسيحيين من نفس المنطقة فيما هو أكثر مما يشتركون فيه مع اليهود من مناطق أخرى (لم يسبق لأحد أن كتب عن هذا الموضوع أكثر أو أفضل من البروفيسور المصرى الراحل/ عبد الوهاب المسيرى. وهو قد خصص الجزء الثانى من موسوعته باللغة العربية ذات الأجزاء الثمانية عن اليهود واليهودية والصهيونية، خصصه لمناقشة المشاكل والتعقيدات المرتبطة بالجماعات اليهودية. كما أنه نشر أيضا كتابا منفصلا عنوانه باللغة العربية: من هو اليهودى؟).

أما «أهل الكتاب»، فهو تصنيف أكثر شمولا يضم كل غير المسلمين ممن يؤمنون بالوحى الإلهى. وهو عادة ما يشير إلى المسيحيين واليهود. ويؤمن المسلمون أن كلتا الجماعتين الدينيتين قد ضلتا الطريق وانحرفتا عن السبيل الذى رسمه لهما الأنبياء، بداية من «موسى» (عليه السلام) وحتى «عيسى» (عليه السلام) اللذين أرسلهما الله إليهما. وعلى الرغم من رفضهما قبول «محمد» (عليه الصلاة والسلام) كنبى، والذى كانت رسالته استكمالا لرسالات من سبقه، فقد سمح لكلتا الجماعتين بالتعايش والعبادة فى حرية. وقد منحت القاعدة القرآنية الهامة «لا إكراه فى الدين» (سورة البقرة، الآية ٢٥٦، ونصها: «لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم») الحق للأفراد والجماعات التى تعيش فى العالم الإسلامى فى الاختيار بحرية. وكانت تلك القاعدة نفسها هى التى أفادت الإسلام أعظم فائدة. فقد أدى التسامح الدينى إلى انفتاح تلك الجماعات أمام الدين الجديد ووفر مناخا آمنا للحوار والتفاعل. والحرية التى تمتع بها اليهود والمسيحيين فى ظل الإسلام لم تكن لتتوافر فى أى مكان آخر فى العالم حتى وقت قريب. وبينما بقى بعض اليهود والمسيحيين على ولائهم لمعتقداتهم الموروثة، فقد تأثر الكثير منهم بالإسلام وسلوك المسلمين حتى أنهم اختاروا اعتناق الإسلام طواعية. وفى العديد من أجزاء العالم الإسلامى، من المألوف أن تجد مسلمين ومسيحيين ويهودا متحدرين من نفس القبائل أو العائلات. إن الاعتراف الإسلامى باليهودية كديانة «إلهية» وباليهود كـ «أهل كتاب» قد هيأ المناطق التى يحكمها المسلمون لتشكل ملاذات آمنة لليهود المعرضين للقمع فى مناطق غير إسلامية - وقد سعت نسبة كبيرة من اليهود المنفيين من وطنهم فى أسبانيا عقب سقوطها فى أيدى المسيحيين فى أواخر القرن الخامس عشر إلى اللجوء إلى المناطق الإسلامية فى شمال أفريقيا أو فى تركيا العثمانية.

لذلك فليس من الغريب أنه حتى أقل من قرن مضى، عرف العالم الإسلامى اليهود كجماعات دينية شكلت جزءا لا يتجزأ من الحياة الاجتماعية والثقافية للمجتمعات الإسلامية التى عاشوا فيها (روز، المصدر نفسه، صفحة ٦٤). ففى المناطق المتحدثة بالعربية، لم يكن الناس يتحدثون عن العرب واليهود، بل عن العرب كمسلمين أو مسيحيين أو يهود.

قد تجادل قلة من الناس فى حقيقة أنه حتى بداية القرن العشرين كان المسلمون والمسيحيون واليهود يتعايشون فى سلام فى الكثير من أنحاء العالم الإسلامى. فقد وفرت الخلافة الإسلامية التى امتدت عبر ثلاث قارات مناخا من التسامح فى ظل نظام يضمن الحماية لليهود والمسيحيين. وقد اعترف الإسلام بهم كمجتمعات شرعية تشارك على قدم المساواة مع المسلمين فى بناء الحضارة العربية-الإسلامية التى قامت على ركائزها العلمية والفلسفية الحضارة الغربية الحديثة.

المسلمون واليهود والصهاينة

لم تتغير نظرة المسلمين لليهود باعتبارهم «أهل كتاب» تمشيا مع «ميثاق من الله ورسوله» حتى جاءت الحركة الصهيونية التى ظهرت فى أوروبا وبدأت فى تجنيد اليهود فى الأراضى العربية لمشروع اعتبره المسلمون انقضاضا استعماريا على دينهم ووطنهم. وجاء تحول الموقف الإسلامى تجاه اليهود كرد فعل لمزاعم الحركة الصهيونية بأنها تمثل اليهود وتخدم اليهودية. ورغم الجذور العلمانية للمشروع الصهيونى وإلحاد العديد من مؤسسيه الأوائل، فقد برر الخطاب الصهيونى إقامة دولة إسرائيل فى فلسطين وتجريد الفلسطينيين من حقوقهم بعبارات دينية. وقد لجأ الصهاينة الرواد إلى الإنجيل، رغم أن القليل منهم آمنوا به فعلا أو أظهروا له شيئا من الاحترام، فى محاولة لإضفاء شرعية دينية على مشروعهم والحصول على دعم يهود العالم الذين كانت غالبيتهم معارضة للصهيونية السياسية (للجذور العلمانية والمبررات الإنجيلية للصهيونية السياسية، راجع ما يلى: عبد الوهاب المسيرى، أرض الميعاد: دراسة نقدية للصهيونية السياسية؛ مطبعة نيوبرونزويك New Brunswick، نيوجيرسى، ١٩٩٧؛ ومايكل بريور Michael Prior، الإنجيل والاستعمار: دراسة نقدية أخلاقية The Bible and Colonialism: a Moral Critique؛ مطبعة شيفيلد الأكاديمية Sheffield Academic Press، ١٩٩٧؛ وجون روز، أساطير الصهيونية).

بمقتضى توسل الصهاينة باليهودية وتبرير مشروعهم الاستعمارى باسم إنقاذ اليهود من معاناتهم، يشير الفلسطينيون والعرب إلى الإسرائيليين - وهذا مفهوم تماما - باعتبارهم «يهودا». وتنتشر مصطلحات مثل «صهيونى» أو «إسرائيلى» بسرعة فى كتابات وحوارات الصفوة الفلسطينية ذات الثقافة العلمانية والمنتبهة للضرر الذى يمكن أن يلحقه بالقضية استخدام لغة سياسية غير سليمة. فالمصطلحات السياسية السليمة ليست سائدة فى اللغة الجارية، وكانت غائبة على وجه الخصوص عن الخطاب الإسلامى حتى وقت قريب. وبغض النظر عن الدقة السياسية، فإن الفلسطينيين لا يطلقون على الإسرائيليين سوى ما يعلن الإسرائيليون عن أنفسهم: اليهود. وعندما يترجم الأدب العربى إلى اللغات الأوروبية، بإشاراته إلى الإسرائيليين كيهود، فربما يبدو معاديا للسامية، مما يوفر للصهاينة الذخيرة اللازمة للهجوم على منتقديهم الفلسطينيين.

من الأمثلة الجيدة لشرح تلك الحالة خطاب حماس تجاه الصراع فى فلسطين. فمن خلال حلقات برنامج «شاهد على العصر» المذاعة على قناة

إن معظم من يؤمنون بكتاب اليهود المقدس ليست لهم صلة مباشرة بالسلالة الإسرائيلية؛ إن الأمر الوحيد الذى يشتركون فيه ـ بخلاف الإخوة الإنسانية ـ هو التراث الدينى نفسه



فــــن الممكـــــن!

© Paul Schutzer



الجزيرة العربية الفضائية ما بين ١٧ أبريل إلى ٥ يونيو عام ١٩٩٩، أشار مؤسس حماس، الشيخ/ أحمد ياسين، إلى الإسرائيليين فى بعض الأحيان كـ«الإسرائيليين» وفى أحيان أخرى كـ«اليهود». وفى الحلقة الثانية من «شهادته» المذاعة فى ٢٤ أبريل عام ١٩٩٩، قال: «الإسرائيليين عادة بيتعاملوا مع الشعوب .. مع الشعب الفلسطينى فرادى، ما بيتعاملوش بشكل جماعى، حتى فى السجون كانوا ما بيرضوش يتعاملوا إلا فرادى، لكن إحنا فرضنا عليهم إرادتنا غصب عنهم، ولم نتعامل معهم إلا جماعى، حسب قيادة منتخبة من فلسطينيين وتواجه اليهود وتحل المشاكل معهم».

بالمثل يستخدم معظم الفلسطينيين والعرب بلا وعى كلا المصطلحين بالتبادل. وتلاحظ «ليا تسيميل Leah Tsemel»، وهى محامية إسرائيلية تدافع عن الفلسطينيين أمام المحاكم الإسرائيلية منذ ما يقرب من ثلاثين عاما، أن زبائنها عادة ما يصفون الجنود أو المستوطنين بـ «اليهود». فهم يشكون على سبيل المثال من أن «اليهود أخذوا هويتى» أو «اليهود ضربونى» أو «اليهود دمروا هذا أو ذلك». وهى تشير بقلق إلى حقيقة أن إسرائيل أصبحت مرتبطة فى أذهان الضحايا الفلسطينيين بكافة اليهود فى العالم، وتخشى أنه نتيجة لذلك سوف ينظر إلى كل يهود العالم باعتبارهم جنودا ومستوطنين (http://www.phoblacht.net/leahoccupation.html). من المفارقة أن ما يعتبره بعض اليهود عداء عربيا للسامية لا يعد شيئا بالمقارنة باللغة المعادية للعرب السائدة فى الدوائر السياسية والدينية الإسرائيلية. وللاستشهاد بمثال واحد، فى أغسطس عام ٢٠٠٠، وصف الحاخام «أوفاديا يوسف Ovadia Yosef»، كبير الحاخامات السفارديم فى إسرائيل، العرب بأنهم «ثعابين»، مضيفا أن «الله نادم على خلقه للفلسطينيين»).

لو أخذنا فى الاعتبار حقيقة أن نسبة كبيرة من الشتات اليهودى مرتبطة بإسرائيل وتستقطب لها دعما عالميا ضد الفلسطينيين، فإن الشخصية اليهودية وأصل المشروع الصهيونى يترسخان أكثر فأكثر فى أذهان الفلسطينيين.

لا تقتصر تلك المشكلة على الفلسطينيين، بل تمتد عبر المنطقة التى عاش فيها اليهود يوما ما بأعداد كبيرة ولكنهم - باستثناءات قليلة - رحلوا عنها منذ زمن بعيد. وفى أعقاب قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، جرى تشجيع - بل ترويع فى بعض الأحيان - اليهود الذين يعيشون فى مختلف الدول العربية للهجرة إلى إسرائيل التى كانت فى أمس الحاجة لزيادة عدد سكانها بعد أن طردت ما يقارب مليون فلسطينى (رواية شخصية لشاهد عيان عن كيفية توجيه اليهود العراقيين للهجرة إلى فلسطين، راجع كتاب نعيم جلعادى Naeim Giladi «فضائح بن جوريون: كيف قامت الهاجاناه والموساد بقتل اليهود Ben Gurion's Scandals: How the Haganah & the Mossad Eliminated Jews»، دار نشر جليليت Glilit Publishers؛ يوليو ١٩٩٥. عن هذا الكتاب يقول «نعيم جلعادى»: «أكتب هذا الكتاب لأخبر الشعب الأمريكى، وخاصة اليهود الأمريكيين، أن اليهود من الدول الإسلامية لم يهاجروا إلى إسرائيل طواعية؛ وأنه لإجبارهم على الرحيل قام يهود بقتل يهود؛ وأنه لشراء الوقت لمصادرة المزيد من الأراضى العربية، فقد رفض اليهود فى العديد من المناسبات مبادرات سلام حقيقية من جيرانهم العرب. أنا أكتب عما أطلق عليه أول رئيس وزراء لإسرائيل «الصهيونية القاسية». أكتب عن ذلك لأنى كنت جزءا منه». يطرح «جلعادى» الحقيقة المؤلمة عن الاغتصاب الصهيونى لفلسطين وغرس العداء للسامية عمدا فى المجتمعات اليهودية العراقية إبان الحكم السياسى لـ «ديفيد بن جوريون» لإقناع اليهود العراقيين بالهجرة إلى إسرائيل. كان هدف الصهاينة هو استيراد عمالة يهودية غير ماهرة من الشرق الأوسط لحرث وزراعة الأراضى التى أخليت حديثا من سكانها الأصليين. كما كانت القوات العسكرية بحاجة إلى مجندين للدفاع عن الأراضى المنهوبة. وبسبب حظر الكتاب فى كل من الولايات المتحدة وإسرائيل عند نشره للمرة الأولى، فقد أعيد نشره بواسطة دار دانديليون للكتب Dandelion Books عام ٢٠٠٣).



وفر اليهود العراقيون واليمنيون والمغاربة مصدرا للعمالة الرخيصة وعملوا بالوظائف التى «لا تناسب» الأشكيناز (يهود أوروبا الشرقية) الذين تولوا مقاليد المشروع الاستعمارى الصهيونى فى فلسطين واعتبروا أنفسهم مواطنين من الدرجة الأولى فى الدولة «اليهودية» حديثة الإنشاء، مقابل اليهود السفارديم الذين جاءوا من الدول العربية (عانى اليهود السفارديم طوال عقود من التمييز فى إسرائيل. فقد عوملوا كمواطنين من الدرجة الثانية، وكان عليهم القبول بمستوى متدن من الإسكان ومستويات أدنى كثيرا من الخدمات التعليمية والصحية. ووفقا لـ «فيليس بينيس Phyllis Bennis» رئيسة مشروع الشرق الأوسط فى معهد الدراسات السياسية فى واشنطون العاصمة «هناك أربعة مستويات للمواطنة داخل إسرائيل، المستويات الثلاثة الأولى منها هى مستويات مختلفة من المشاركة اليهودية فى المجتمع اليهودى الذى تهيمن عليه العنصرية. على قمة الهرم هناك الأشكيناز، وهم اليهود الأوروبيون البيض. وعلى مستوى النفوذ، فإن الحشد الهائل للمهاجرين الروس الجدد - الذين يشكلون الآن حوالى عشرين بالمائة من اليهود الإسرائيليين - يندمجون فى قطاع الأشكيناز الأوروبيين، رغم احتفاظهم بهوية ثقافية متميزة للغاية. والمستوى الأدنى التالى، الذى ربما يشكل الآن الجزء الأكبر من المجتمع اليهودى، هم اليهود المزراحيون أو السفارديم القادمون من الدول العربية. وفى قاع الهرم اليهودى يأتى يهود أثيوبيا ذوو البشرة السوداء. تستطيع أن تذهب إلى أفقر مناطق القدس الغربية اليهودية لتكتشف أن غالبية سكانها من الأثيوبيين. لقد تجسدت تلك الطبقية الاجتماعية والاقتصادية طوال السنوات الخمسين السابقة عندما



«فــــن الممكـــــن!»

جاءت جماعات مختلفة من اليهود من مناطق مختلفة من العالم إلى إسرائيل لأسباب مختلفة تماما. ولذلك فبينما عكست التصنيفات الجذور القومية، فإنها تكشف نهجا عنصريا واضحا. وقد واجه يهود اليمن على وجه الخصوص تمييزا غير عادى. فقد تم نقلهم من اليمن إلى إسرائيل بصورة قسرية تقريبا. وعند وصولهم، احتجزوا فى معسكرات بدائية، واختطف العديد من الأطفال اليمنيين الرضع من أمهاتهم لتتبناهم عائلات الأشكيناز. وقد بدأت فى بداية التسعينيات حملة كبرى لمحاولة لم شمل بعض تلك العائلات المشتتة. وتحت كل تلك الطبقات من اليهود يأتى المواطنون الفلسطينيون». المصدر: «لليهود فقط: العنصرية داخل إسرائيل For Jews Only: Racism Inside Israel»؛ مقابلة مع فيليس بينيس بواسطة ماكس إلباوم Max Elbaum. http://www.zmag.org/meastwatch/for_jews_only.htm).

لا عجب إذن أن نسبة كبيرة من المسلمين والعرب والفلسطينيين ينظرون إلى المشكلة فى فلسطين باعتبارها صراعا دينيا بين اليهود والمسلمين. إن الربط المستمر بين إسرائيل واليهود وبين اليهود وإسرائيل لا يؤدى سوى إلى تأكيد قناعة العديد من المسلمين بأن الصراع فى الشرق الأوسط بين الفلسطينيين والإسرائيليين هو بالفعل صراع دينى. ويصعب على الكثير من العرب والمسلمين تصديق أن هناك يهودا معادين للصهيونية ينتقدون إسرائيل، بل ويرفضون أيضا الاعتراف بشرعيتها (فى حدث غير مسبوق على محطة تليفزيونية عربية، استضافت قناة الجزيرة الفضائية فى الأول من مايو عام ٢٠٠٢ الحاخام/ إسرائيل ديفيد وايس Yisroel Dovid Weiss المتحدث الرسمى لمنظمة «ناطورى كارتا الدولية - يهود ضد الصهيونية Neturei Karta Jews Against - International Zionism». وكان ظهوره لمدة تسعين دقيقة على الهواء فى برنامج أحمد منصور الأسبوعى «بلا حدود» صدمة للكثير من المشاهدين. وقد تشكك البعض منهم لدرجة أنهم اعتقدوا أن الضيف ربما كان عضوا بحماس متخفيا فى صورة حاخام. ويمكن مشاهدة البرنامج عبر الوصلة http://www.aljazeera.net/programs/n...002/5/5-3-1.htm. عند إعلان ميثاق حماس، كان مجرد التفكير فى التقاء شخصية قيادية من حماس مع حاخام يهودى أمرا غير وارد. ولكن فى الحادى والعشرين من مارس عام ٢٠٠٦، استقبل الدكتور/ عزيز دويق، المنتخب حديثا كمتحدث رسمى باسم منظمة التحرير الفلسطينية، فى مكتبه بالمجلس التشريعى الفلسطينى فى رام الله وفدا من منظمة «ناطورى كارتا الدولية» برئاسة الحاخام/ موشيه هيرش Moshe Hirsh. وفى المقابلة التى تمت تغطيتها على موقع منظمة التحرير الفلسطينية، أكد «دويق» أن الشعب الفلسطينى لا يمكن أبدا أن يكون ضد اليهود والشعب اليهودى. وأضاف: «إن شعبنا ضد الحركة الصهيونية وليس ضد اليهود». وقد أوضح أن المسلمين لا يمكن أن يفكروا فى إلحاق الأذى باليهود أو المسيحيين، وأن اليهود قد عاشوا فى الدول العربية والإسلامية طوال قرون فى سلام وتفاهم متبادل. واستطرد مؤكدا أن مشكلة الشعب الفلسطينى هى مع الحركة الصهيونية التى ترفض الاعتراف بشعبنا وبحقوقه الوطنية المشروعة. المقابلة مغطاة على: http://www.pal-plc.org/news/MainAnnounce2.asp?key=١٩٠).



إن ميثاق حماس الذى يعادى اليهودية بوضوح يعبر فقط عن القناعة العامة للإسلاميين الفلسطينيين وقت إعلانه. ويحاول الميثاق فى عدد من فقراته تفسير الصراع من منظور نظرية مؤامرة عالمية. ولا شىء يبدو أكثر إقناعا من «بروتوكولات حكماء صهيون». وهى وثيقة مجهولة الأصل يزعم أنها تمثل أفكار مجتمع سرى من الحكماء اليهود لغزو العالم. تفسر البروتوكولات بامتياز لماذا احتل اليهود فلسطين وطردوا شعبها. والذى أراد مؤلف ميثاق حماس أن يوصله هو الربط المباشر بين سعى يهودى مستمر للهيمنة العالمية وبين احتلال فلسطين. وقد استرشد المؤلف بالقرآن وحديث النبى (عليه الصلاة والسلام) - متبعا نهجا شائعا بين الكتاب المسلمين - لتأكيد زعمه بوجود مؤامرة يهودية مستمرة ضد الإسلام والمسلمين تعود جذورها للوراء إلى الأيام الأولى للإسلام.

على النقيض من تصوير ميثاق حماس للصراع فى فلسطين باعتباره دينيا، عبر قادة حماس عن وجهة نظر مختلفة. فقد قال الشيخ/ أحمد ياسين مؤسس الحركة: «أود أن أعلن للعالم كله أننا لا نحارب اليهود لأنهم يهود! إننا نحاربهم لأنهم اعتدوا علينا وقتلونا وسلبوا أرضنا ومنازلنا؛ لقد هاجموا أطفالنا ونساءنا؛ لقد شتتوا شملنا. كل ما نريده هو حقوقنا. لا نريد أكثر من ذلك» (الشيخ/ أحمد ياسين، متحدثا إلى طلاب الجامعة الإسلامية فى غزة؛ ٢٢ أكتوبر عام ١٩٩٧. فى الساعات الأولى من صباح الاثنين ٢٢ مارس ٢٠٠٤، قامت طائرة هليوكوبتر إسرائيلية بإطلاق صاروخ على الشيخ/ أحمد ياسين بينما كان يدفع على كرسيه المتحرك فور مغادرته مسجد الحى الذى كان قد أدى فيه لتوه صلاة الفجر بعد ليلة من القيام. وقد تناثرت أشلاء الشيخ والعديد من المصلين).

«هذا كفاحنا» هو عنوان وثيقة وضعها المكتب السياسى لحماس فى منتصف التسعينيات. كان الهدف من الوثيقة أن تكون ردا من حماس على سؤال طرحته على قيادة الحركة بعثة دبلوماسية أوروبية فى عمان بشأن ما تمثله حماس. تستهل الوثيقة بالتأكيد التالى: «حركة المقاومة الإسلامية (حماس) هى حركة تحرير وطنية فلسطينية تكافح لتحرير الأراضى الفلسطينية المحتلة وإقرار الحقوق الفلسطينية المشروعة (تمت ترجمة النص الكامل للوثيقة ونشره كملحق رقم ١ فى كتابى «حماس، فصول لم تكتب Hamas Unwritten Chapters» (نشر فى الولايات المتحدة تحت عنوان «حماس، تاريخ من الداخل Hamas a History from Within»). راجع أيضا الملحق رقم ٢ فى الكتاب نفسه. تلك هى الترجمة الإنجليزية لوثيقة أخرى أحدث لحماس وضعت عام ٢٠٠٤ بهدف تقديم الحركة للعالم).

قبل عشرة أيام فقط من اغتياله فى السابع عشر من أبريل عام ٢٠٠٤، أوضح الدكتور عبد العزيز الرنتيسى أهم قادة حماس فى قطاع غزة أن «إستراتيجية حماس المعتمدة لديها ترتكز إلى مرتكزات محددة: أولاها: أن لنا وطنا مغتصبا بكامله، وأننا لا نستطيع التنازل عن شبر منه. وثانيها: أن هناك اختلالا واضحا فى موازين القوى لصالح العدو الصهيونى، فلا نملك من الترسانة العسكرية ما يملك. وثالثها: أننا نملك عقيدة تتولد عنها إرادة لا تعرف التقهقر أمام العدو أو التراجع دون بلوغ الأهداف، عقيدة فى ظلها تهون التضحية بكل شىء إلا بالعقيدة والوطن. ورابعها: أن هناك أمة عربية وإسلامية تعيش حالة من الضعف والوهن والانكسار لا تستطيع معها نصرة شعب فلسطين، وأن هناك مجتمعا دوليا معاديا لأمانى وطموحات الشعب الفلسطينى، وداعما للإرهاب الصهيونى.

وقد استطرد للتأكيد على أن «إستراتيجية حماس تسير فى خطين متوازيين: الخط الأول: مقاومة الاحتلال والتصدى للعدوان الصهيونى؛ والخط الثانى: الحفاظ على وحدة الشارع الفلسطينى، وحماية الصف الفلسطينى من خطر الاقتتال الداخلى الذى من شأنه أن يصرف الجميع عن مقاومة الاحتلال (عبد العزيز الرنتيسى، مقابلة مع رئيس تحرير موقع القسام؛ نشرت على الموقع بتاريخ ٧ أبريل عام ٢٠٠٤).

وقد أخبر خالد مشعل، أحد قادة حماس، معبرا عن إصرار على مواصلة الكفاح لتحرير فلسطين واستعادة الحقوق الفلسطينية، أخبر صحفى تليفزيونى كندى أن تحرير فلسطين «لا يعنى أن الشعب الفلسطينى أو نحن فى حماس نرغب فى قتل اليهود أو إلقائهم



إن المسلمين لا يمكن أن يفكروا فى إلحاق الأذى باليهود أو المسيحيين، وإن اليهود قد عاشوا فى الدول العربية والإسلامية طوال قرون فى سلام وتفاهم متبادل



«فـــن الممكـــــن!»

فلســـطينيات ـ ١٩٤٧ ـ

فى البحر كما تزعم إسرائيل». وقد نفى تماما أن تكون تلك حربا ضد اليهود، حيث أضاف «كلا، نحن لا نقاتل اليهود لأنهم يهود. نحن نقاتلهم لأنهم اغتصبوا أرضنا وشتتوا شعبنا؛ لقد قاموا بالعدوان. نحن نقاوم هذا المشروع الصهيونى المعادى لنا». وبالنسبة لليهود الذين لا يقاتلون الفلسطينيين، ذكر مشعل: «ليست لدى مشكلة معهم، تماما كما أنه ليست لدى مشكلة مع المسيحيين أو المسلمين المسالمين». واستطرد موضحا أنه «إذا ما هاجمنى مسلم واغتصب أرضى، فإن لدى كل الحق أن أرد العدوان. وينطبق ذلك على الآخرين جميعا بغض النظر عن عرقهم أو هويتهم أو دينهم. تلك هى فلسفتنا» (خالد مشعل، مقابلة مع أوليفيا وارد Olivia Ward فى بيروت فى ديسمبر ٢٠٠٤. وقد وردت أجزاء من المقابلة المصورة فى فيلم وثائقى أنتجته «شيلى سايويل Shelley Saywell» بعنوان «حماس خلف القناع Hamas Behind the Mask».

فى مقال نشر فى «الجارديان The Guardian» عقب فوز حركته بالانتخابات التشريعية فى غزة والضفة الغربية عام ٢٠٠٦، بعث خالد مشعل بالرسالة التالية إلى الإسرائيليين: «إننا لا نقاتلكم بسبب انتمائكم إلى دين معين أو ثقافة بعينها. فقد عاش اليهود فى العالم الإسلامى ثلاثة عشر قرنا بسلام وانسجام، وهم فى ديننا «أهل الكتاب» الذين يتمتعون بعهد من الله تعالى ونبيه محمد (عليه الصلاة والسلام) بأن يحظوا بالاحترام والحماية. إن صراعنا معكم ليس دينيا وإنما هو صراع سياسى. وليس لدينا أى مشكلة مع اليهود الذين لم يعمدوا إلى مهاجمتنا، وإنما مشكلتنا هى مع أولئك الذين قدموا إلى أرضنا، وفرضوا أنفسهم علينا بالقوة، وقوضوا مجتمعنا وأبعدوا أبناء شعبنا (خالد مشعل، مقال بعنوان «لن نبيع شعبنا أو مبادئنا مقابل المساعدات الخارجية We will not sell our people or principles for foreign aid» فى الجارديان؛ لندن، ٣١ يناير عام ٢٠٠٦).

حـمـاس كـبـديـل

بعد أن ولدت حماس فى انتفاضة عام ١٩٨٧، أعلنت أنها جاءت «لتحرير فلسطين، كل فلسطين» (إبراهيم غوشة، مقابلة مع المؤلف، عمان: ٢١ أغسطس عام ٢٠٠٣).

ظهرت الحركة إلى الوجود كرد فعل للمعاملة الجائرة التى عانى منها الفلسطينيون فى ظل الاحتلال الإسرائيلى فى الضفة الغربية وغزة، ولأن فتح – حركة التحرير الوطنية الفلسطينية – قد تهاوت. ومثلما كانت فتح من قبل، فإن معظم أعضاء حماس ومؤيديها كانوا من اللاجئين أو أبناء اللاجئين الذين لم تكن منازلهم الحقيقية هى تلك المعسكرات المروعة التى ولدوا أو نشأوا فيها. بل إن منازلهم الحقيقية هى على الجانب الآخر من «الخط الأخضر» المزعوم الذى يستعمره الآن المهاجرون اليهود الذين جاءوا من أوروبا وجميع أنحاء العالم. ومثل ملايين الفلسطينيين داخل فلسطين وفى الشتات، شعر مؤسسو حماس بالخيانة عندما قررت قيادة فتح التى استولت على منظمة التحرير الفلسطينية أن تتنازل عن حق العودة لوطنهم. فقد رضخت فتح للضغط الدولى ووافقت على الاعتراف بحق



«فـــــن الممكـــــن!»

إسرائيل فى الوجود فى مقابل وعد بإقامة دولة فلسطينية بجوار إسرائيل على منطقة سوف يجرى لاحقا التفاوض بشأن حجمها وحدودها. وهذا وضع يعتبره غالبية الفلسطينيين غير مقبول. من هنا جاءت حماس كبديل، حيث تستمد شرعيتها فى الأساس من إنكار إسرائيل ورفض الاعتراف بحقها فى الوجود على أى جزء من فلسطين.

ورغم أن الصراع فى فلسطين - فى الأساس - ليس حقا صراعا دينيا، إلا أن فلسطين لها دلالة دينية. فهى ليست فقط أرضا إسلامية يجب مقاومة احتلالها بواسطة قوة أجنبية، ولكنها بالإضافة لذلك تضم ثالث المساجد المقدسة فى الإسلام، ألا وهو المسجد الأقصى. وهذا يجعل من القضية مشكلة إسلامية وليست فقط فلسطينية أو عربية. وقد عبر العلماء المسلمون باستمرار - باستثناء القليل منهم - عن معارضتهم المطلقة للاعتراف بشرعية قيام «دولة يهودية» فى فلسطين. وطوال القرن الماضى، أصدر العلماء المسلمون العديد من الفتاوى التى تعلن بطلان وإلغاء أى اتفاق يضفى شرعية على احتلال أى جزء من فلسطين. والفتوى الجماعية الأولى حول تلك القضية تسبق قيام دولة إسرائيل فى فلسطين. ففى السادس والعشرين من يناير عام ١٩٣٥، توافد أكثر من مائتى عالم مسلم إلى القدس من أنحاء فلسطين لإصدار فتوى تحرم التنازل عن أى جزء من فلسطين للصهاينة. وقد عقدت مؤتمرات وصدرت فتاوى مماثلة فى مناسبات مختلفة فى تاريخ الصراع فى الشرق الأوسط. وأثناء الحقبة الناصرية فى مصر (١٩٥٢-١٩٧٠) تمسكت مؤسسة الأزهر الإسلامية المهيبة فى القاهرة بموقف تحريم الاعتراف بدولة إسرائيل أو أى سلام معها. وقد أعلن الشيخ/ يوسف القرضاوى - أحد أهم العلماء الموثوقين فى العصر الحديث - هذا الموقف مرارا، مؤكدا تبنيه بالإجماع من قبل أكثر من ثلاثمائة من علماء الإسلام من أنحاء العالم الإسلامى أثناء اجتماع المجلس التشريعى الإسلامى فى الكويت فى منتصف التسعينيات. وقد أوضح أن الفتوى التى تحرم الاعتراف بإسرائيل تستند إلى اعتبار أن «فلسطين أرض إسلامية لا يمكن التنازل عنها طواعية». وقد أضاف أن نفس الفتوى قد صدرت مرة ثانية فى مؤتمر تشريعى إسلامى لاحق فى البحرين (الشيخ يوسف القرضاوى، مقابلة مع العزب الطيب الطاهر، جريدة الراية القطرية، الدوحة: ٢٧ يناير ١٩٩٩. لم ترد فى المقابلة تواريخ المؤتمرات).

لا تستطيع حماس - توافقا مع هذا الموقف الإسلامى - قبول أى تسوية تتضمن الاعتراف بإسرائيل ككيان شرعى. فى مقاله بالجارديان، خاطب خالد مشعل قراءه الإسرائيليين: «لن نعترف أبدا بحق أى سلطة فى سرقة أرضنا وإنكار حقوقنا الوطنية علينا. لن نعترف أبدا بشرعية دولة صهيونية أسست على أرضنا تكفيرا عن خطايا الآخرين» (خالد مشعل، المصدر نفسه).

مع ذلك تستطيع حماس شرعا أن تعرض تسوية مؤقتة تقوم على هدنة طويلة. لقد قدم مقال مشعل بالجارديان فرصة سانحة للإسرائيليين لتعليق الصراع: «إذا كنتم راغبين فى قبول مبدأ هدنة طويلة، فإننا على استعداد للتفاوض حول الشروط. حماس تمد يد السلام إلى المهتمين حقيقة بسلام يقوم على العدالة».



يعود عرض حماس للهدنة مع إسرائيل إلى أوائل التسعينيات. ويعتقد أن أول من طرحه هو موسى أبو مرزوق رئيس المكتب السياسى لحماس المتمركز فى عمان فى ذلك الوقت. وقد نشر اقتراحه فى فبراير من عام ١٩٩٤ فى «السبيل»، وهى دورية أسبوعية تصدر فى عمان عن الحركة الإسلامية الأردنية. وجاءت أول إشارة مماثلة للهدنة من داخل فلسطين فى نفس الفترة تقريبا من عام ١٩٩٤ على لسان مؤسس حماس الشيخ/ أحمد ياسين من زنزانته بالسجن. وقد اقترح الهدنة كحل مؤقت للصراع بين الفلسطينيين والإسرائيليين. وقد كرر كل من أبو مرزوق والشيخ/ ياسين العرض فى العديد من المناسبات فيما بعد، ولكنهما فشلا فى جذب اهتمام الإسرائيليين. وفى الآونة الأخيرة تكررت الإشارة إلى الهدنة بواسطة عدد من المتحدثين باسم حماس.

ينظر إلى الهدنة فى الشريعة الإسلامية كعقد شرعى ملزم يهدف إلى وقف القتال مع العدو لفترة من الزمن يتفق عليها. وقد تكون الهدنة قصيرة أو طويلة اعتمادا على الاحتياجات أو المصالح المشتركة (الشيخ/ يوسف القرضاوى، المصدر نفسه). ويختلف اتفاق الهدنة عن «تفاهمات أوسلو للسلام» التى اعترفت منظمة التحرير الفلسطينية بموجبها بدولة إسرائيل وحقها فى الوجود. يكمن الاختلاف فى أنه فى ظل شروط الهدنة فإن مسألة الاعتراف نفسها لن تطفو إلى السطح لأن حماس - ببساطة - لا تستطيع من ناحية المبدأ الموافقة على أن الأرض التى استولى عليها الإسرائيليون من الفلسطينيين قد أصبحت ملكا لهم؛ فالحركة لا تملك تفويضا بالتخلى عن حق الفلسطينيين فى العودة إلى الأراضى والمنازل التى طردوا منها عام ١٩٤٨ أو فى أى وقت بعد ذلك. مع ذلك يمكن للحركة القول بأنه فى ظل الظروف الحالية فإن أفضل ما تستطيعه هو استعادة بعض الأراضى المسلوبة وتأمين إطلاق سراح السجناء فى مقابل إيقاف الأعمال العدائية. قد يتشابه ذلك إلى حد ما مع موافقة الجيش الجمهورى الأيرلندى على التفاوض لإنهاء الصراع فى شمال أيرلندا دون الاعتراف بالسيادة البريطانية على المنطقة. وما زال الكاثوليك الأيرلنديون يأملون أو يحلمون بأن أيرلندا بكاملها سوف تتحد يوما ما وأن ينتهى الحكم البريطانى. ولم يشترط التفاوض لإنهاء العنف فى شمال أيرلندا على الجيش الجمهورى الأيرلندى أبدا التخلى عن حلمه بإعادة توحيد أيرلندا؛ ولو حدث ذلك لما ساد السلام أبدا.

لتبرير الهدنة، ينظر قادة حماس إلى نموذج ما حدث بين المسلمين والصليبيين فى العقد الأخير من القرن الثانى عشر. فقد استمر الصراع بين الجانبين فى فلسطين وحولها لمدة مائتى عام تقريبا. وما تهتم به حماس تحديدا فى هذا الخصوص هو معاهدة رام الله التى أبرمها صلاح الدين الأيوبى مع «ريتشارد قلب الأسد» فى الأول من سبتمبر عام ١١٩٢. وقد عقدت الهدنة - التى أنهت الحملة الصليبية الثالثة - لمدة ثلاث سنوات وثلاثة أشهر، احتفظ الصليبيون خلالها بالسيطرة على الساحل من يافا إلى عكا وسمح لهم بزيارة القدس وتمتعوا بحرية مزاولة أنشطتهم التجارية مع المسلمين.

من المعتاد أيضا الإشارة إلى الهدنة الأولى فى تاريخ الإسلام والمعروفة باسم صلح الحديبية، وهو اسم مكان فى ضواحى مكة عقدت فيه الهدنة. وقد شهدت الاتفاقية توقف الأعمال العدائية بين المجتمع المسلم بزعامة النبى (عليه الصلاة والسلام) وقبيلة قريش داخل مكة. وكانت مدة الهدنة التى وافق عليها الطرفان عشر سنوات. ومع ذلك انتهت الهدنة بعد أقل من عامين عندما خرقتها قريش بقتلها - بدون وجه حق - بعض الأفراد من قبيلة خزاعة التى كانت متحالفة مع الجانب المسلم.

بمجرد عقد الهدنة فإنها تعد مقدسة ويصبح الوفاء بالتزاماتها واجبا دينيا؛ وما دام الطرف الآخر يحترمها فإن الجانب المسلم لا يستطيع خرقها، حيث يعد ذلك إثما كبيرا. وكما هو الحال فى المعاهدات الدولية الأخرى، تكون الهدنة عند انتهاء مدتها قابلة للتجديد بموافقة مشتركة.

بالنسبة للهدنة الشاملة طويلة الأمد التى تقترحها حماس، فإنها تنص - كشرط أول - على انسحاب إسرائيلى إلى حدود ٤ يونيو عام ١٩٦٧، بما يعنى استعادة جميع الأراضى التى احتلها الإسرائيليون نتيجة لحرب الأيام الستة، بما فى ذلك القدس الشرقية (فى الخامس من يونيو عام ١٩٦٧، وجهت إسرائيل ما تزعم أنها «ضربة دفاعية وقائية» ضد مصر وسوريا والأردن



يفترض عادة أن الهدنة طويلة الأمد قد تستمر لمدة ربع قرن أو أكثر. وتبدو تلك فترة طويلة جدا كى يتوقع المرء ما قد يحدث بعد ذلك



استمرت ستة أيام واحتلت أثناءها ما تبقى من فلسطين (قطاع غزة والضفة الغربية) وشبه جزيرة سيناء ومرتفعات الجولان. ونتيجة لذلك تحول أكثر من ربع مليون فلسطينى إلى لاجئين). ويتضمن مثل هذا الإجراء إبعاد جميع المستوطنين اليهود من تلك المناطق (تم بالفعل إخلاء وتفكيك المستوطنات اليهودية فى قطاع غزة. وقد شهد الخامس عشر من أغسطس عام ٢٠٠٥ بداية تنفيذ الخطة التى أنهت الاحتلال الإسرائيلى - وليس السيطرة الكاملة رغم ذلك - على القطاع. وقد قرر رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق «آرييل شارون» خطة لانسحاب أحادى الجانب بعد أن أصبح استمرار الاحتلال الإسرائيلى لقطاع غزة مكلفا للغاية لإدارته من الناحية الاقتصادية والسياسية. وعند انتهاء الانسحاب الإسرائيلى، ادعت حماس أنها انتصرت، زاعمة أن قرار إسرائيل يرجع إلى نجاح إستراتيجيتها العسكرية). بالإضافة لذلك، سيكون على إسرائيل أن تطلق سراح كافة الفلسطينيين المحتجزين فى سجونها ومعسكرات اعتقالها. ومن غير المرجح على الإطلاق أن تقبل حماس بأقل من ذلك مقابل هدنة طويلة الأمد قد تستمر لمدة ربع قرن أو أطول من ذلك.

وبينما ترك قادة حماس الذين يفضلون الهدنة مدتها مفتوحة، معتبرين ذلك أمرا خاضعا للتفاوض مع الإسرائيليين إذا ما قبلوا المبدأ، فإنهم عامة يقترحون أن المستقبل يجب تركه للأجيال القادمة.

يفترض عادة أن الهدنة طويلة الأمد قد تستمر لمدة ربع قرن أو أكثر. وتبدو تلك فترة طويلة جدا كى يتوقع المرء ما قد يحدث بعد ذلك. وسيكون هناك دائما احتمال انتهاء الهدنة قبل أوانها بسبب خرقها. ولو حدث ذلك فمن غير المرجح على الإطلاق أن يأتى الخرق من جانب حماس، لسبب بسيط، هو أن الجانب المسلم ملتزم دينيا باحترام الاتفاق حتى النهاية، ما لم ينتهكه الطرف الآخر. وإذا ما استمرت الهدنة حتى نهاية المدة المنصوص عليها، فأحد السيناريوهات المتوقعة هو أن المسئولين فى ذلك الوقت - ببساطة - سوف يتفاوضون بشأن تجديدها.

وهناك سيناريو آخر يسود تفكير بعض أوساط حماس الفكرية، وهو أن العالم سوف يتغير كثيرا جدا، بحيث أن إسرائيل - ككيان صهيونى - ربما لا ترغب فى البقاء أو لا تملك القدرة على الاستمرار. ومن ناحية المبدأ، يستطيع المسلمون والمسيحيون واليهود العيش معا فى المنطقة كما عاشوا معا لقرون عديدة فى الماضى. إن ما يفكر فيه الإسلاميون عادة هو دولة إسلامية، خلافة، تضم جزءا كبيرا من الشرق الأوسط، كتعويض عن التفتت الذى فرض على المنطقة نتيجة للاستعمار فى القرن التاسع عشر ثم تطبيق اتفاقية «سايكس-بيكو Sykes-Picot» عام ١٩١٦. وقد تحولت الكيانات الناتجة عن العملية إلى «دول إقليمية» منفصلة عقب انهيار النظام العثمانى فى العقد الثانى من القرن العشرين. وبينما تمثل إسرائيل - كدولة تقتصر على اليهود فى فلسطين - كيانا لا يمكن أبدا لحركة إسلامية مثل حماس أن تعترف بشرعيته، فإن اليهود يمكن بسهولة أن يندمجوا كمواطنين شرعيين فى دولة متعددة الأديان والأعراق يحكمها الإسلام. أما سيناريو ما بعد إسرائيل، والذى أصبح مثار نقاش داخل الحركة، فهو يرى دولة فلسطين أو شرق أوسط متحد، به سكان من اليهود ولكن بلا صهيونية سياسية. وتلك رؤية مستلهمة من نموذج المصالحة فى جنوب أفريقيا الذى أنهى التمييز العنصرى ولكنه أبقى على تعايش جميع المجتمعات مع بعضها البعض. عادة ما تقارن الصهيونية بالتمييز العنصرى، ويعتبر القضاء عليها أمرا محتما إذا كان مقدرا على الإطلاق للمسلمين والمسيحيين واليهود أن يتعايشوا فى سلام بالمنطقة. وسيكون من المستحيل ترجمة مثل هذا السيناريو إلى واقع بدون هدنة طويلة الأمد توفر على مدى حياة جيل قادم الفرصة للمجتمعات والشعوب فى المنطقة لاستعادة جزء من الحياة الطبيعية.

أولئك المتشككون بشأن الهدنة ربما يجادلون بأنها لا تعدو أن تكون مقدمة للقضاء على إسرائيل تماما. ولكن بدون الهدنة أيضا سوف يستمر الفلسطينيون فى حلمهم باليوم الذى تتحرر فيه فلسطين وطنهم ويستعاد حقهم فى العودة لمنازلهم. وبدون هدنة لا يوجد ضمان فى توقفهم عن محاولة تحقيق ذلك الهدف باستخدام أية وسائل تتاح لهم. وميزة الهدنة أنها توقف سفك الدماء والمعاناة، بسبب الالتزام بذلك لمدة محددة من الزمن. ولندع فى الوقت نفسه كلا الطرفين يحلمان بالمستقبل الذى يتمنيانه، تاركين الباب مفتوحا لجميع أنواع الخيارات. وفى الظروف العادية فإن الخيار الأفضل هو الخيار الأقل كلفة. ■

كتاب الزاوية



«لا تسقطوا غصن الزيتون من يدى»
خطاب عرفات فى الأمم المتحدة
١٣نوفمبر١٩٧٤

بعد عدد من العمليات الفدائية التى هزت العالم بعد انطلاق حركة فتح، وإنشاء منظمة التحرير الفلسطينية، سلم المجتمع الدولى بأن مشكلة اللاجئين الفلسطينيين نشأت بسبب حرمانهم من حقوقهم غير القابلة للتصرف بموجب ميثاق الأمم المتحدة والإعلان العالمى لحقوق الإنسان. وفى أيلول سبتمبر من العام ١٩٧٤اقترحت ٥٦ دولة أعضاء فى الأمم المتحدة إدراج قضية فلسطين بندًا فى جدول أعمال الجمعية العامة ودعت ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير الفلسطينية ليلقى خطابًا أمام الاجتماع الذى انعقد فى ١٣ نوفمبر من العام نفسه. وكانت هى المرة الأولى بعد النكبة التى يستمع فيها ممثلو المجتمع الدولى لممثل عن الشعب الفلسطينى صاحب القضية الأكثر تعقيدا فى التاريخ الدبلوماسى الحديث.

وهنا ننشر مقتطفات من الخطاب. الذى يدعو فيه إلى «دولة واحدة ديمقراطية»، يعيش فيها المسيحى واليهودى والمسلم فى كنف المساواة والعدل والإخاء:

«إنها ايديولوجية استعمارية استيطانية عنصرية تمييزية رجعية تلتقى مع اللاسامية فى منطلقاتها، بل هى الوجه الآخر للعملة نفسها. فعندما نقول ان تابعى دين معين، هو اليهودية، أيًا كان وطنهم، لا ينتسبون إلى ذلك الوطن، ولا يمكنهم ان يعيشوا كمواطنين متساوين مع بقية المواطنين من الطوائف الأخرى، فان ذلك التقاء مباشر مع دعاة اللاسامية. وعندما يقولون ان الحل الوحيد لمشكلتهم هو ان ينفصلوا عن الأمم والمجتمعات التى هم جزء منها عبر تاريخ طويل، ثم يهاجرون ليستوطنوا أرض شعب آخر ويحلون محله بالقوة والإرهاب، يأخذون من غيرهم الموقف نفسه الذى اخذه دعاة اللاسامية منهم».

عبـــــد الـلـه إبـراهـيـــــم

عـــن الــهـــــــــــويــة

■■ سعى الكاتب الإسرائيلى «عاموس عوز» فى سيرته «قصة عن الحب والظلام» إلى تعديل مفهوم الهوية اليهودية التى قامت على جمع المتناقضات، إذ اختصت بها جماعة مشتّتة فى أكثر من قارّة، وهو أمر تعذّر حدوثه مع أية جماعة أخرى عبر التاريخ؛ فالمكان الحاضن للجماعة يعد معطى أساسيا من معطيات الهوية، لكن اليهود نجحوا فى اعتبار المكوّن الدينى هو الركيزة الأولى فى هويتهم، وفى ظل حقبة انتقالية لمفهوم الهوية من وضع الشتات إلى وضع الاستقرار لابد أن تستعاد أحداث الماضى بوصفها تجربة اعتبارية داعمة للمفهوم الجديد، وترفق بالحدث الانتقالى الخاص بالظروف الحاضنة لمفهوم الهوية، وهو توفّر «وطن» ضامن للهوية بعد غيابه مدة طويلة، وأخيرا الإشارة الرمزية إلى الاحتمالات الممكنة فى المستقبل.

عرض «عاموس عوز» تفاصيل الرواية الصهيونية لنشأة إسرائيل بوصفها دولة عبرية أعادت لمّ الشتات اليهودى، فلم يتوقف على الآلام التى نتجت عن هذا الحدث، إنما انصرف اهتمامه إلى الاحتفاء ببطولة المتطرّفين الذين أنجزوا وعدهم فى محو الوجود العربى من الأرض، وتثبيت اليهود فيها. فلم يتطرق إلى الحق التاريخى، فعلى أرض فلسطين جرى استبدال جماعة بجماعة، وهوية بهوية.

أخفت الكتابة السردية الناعمة حقيقة المصائر التى انتهى إليها ملايين من الذين أبعدوا عن أرضهم، إذ جعل «عاموس» من أسرته اليهودية المركّبة من عدة أفرع وأجيال فى بلاد شرق أوربا ووسطها مركزا للسرد طوال صفحات الكتاب الكبير، فأخفى التتبع الدقيق لقدوم أفرادها إلى فلسطين أمر طرد أهلها الأصليين عن أرضهم، فوصول المهاجرين اليهود إلى الأرض الموعودة بالتوراة أخفى إبعاد الفلسطينيين عنها، وقد جاء الاستبدال على خلفية بطولة دينية - قومية طمست فى السرد الحقيقة التاريخية لوجود الخاسر. فلم يكن ثمة نزاع بين رواية منتصر ومهزوم، إنما هو تقريظ دينى لأبطال عملوا جادّين زمنا طويلا من أجل استعادة وطن توراتى انتزع منهم منذ ألفى عام.

A Tale of Love and Darkness
Amos Oz,
Mariner Books (2005)

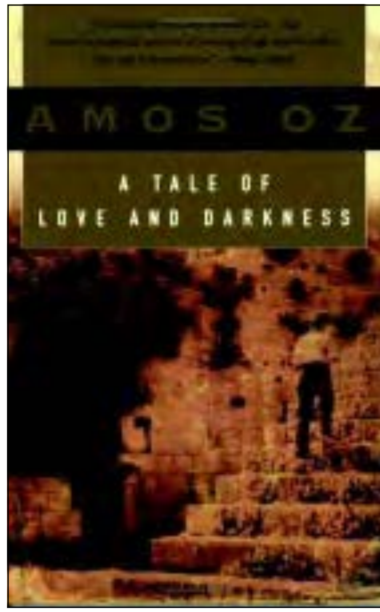
> **لُقّن «عاموس عوز» فى طفولته أفكارا عن الخوف من الآخر، وتشرّب بكراهية غير اليهود، فارتسم العالم خارج الأرض المقدّسة فى خياله معاديا، ومصدر خطر مؤكد**



من الصحيح أن سيرة «عاموس عوز» ركّزت الاهتمام على عائلته وخلفياتها الثقافية المتنوعة، وهى تعيد توطين نفسها فى أرض موعودة، لكنها لم تعن بالخلفية الحقيقية لمجريات الأمور، إذ اعتبر الحدث برمّته تعديلا لخطأ قديم اقترف بحق اليهود منذ التخريب الثانى للهيكل. وإعادة الحق لا تلزم الوقوف على التداعيات الجانبية المؤلمة التى ترافقه، فلا ينبغى أن تحجب آلامُ أفراد أبعدوا عن أرضهم بطولةَ الأمة اليهودية؛ فذلك يخدش الفعل الملحمى العبرانى، وجاءت الرواية الدينية التى قدمها عن نشأة إسرائيل جريئة ومباشرة لأنها لم تخف التعصب، ولم تبال بالتاريخ، وشاحت بوجهها عن شبكة الوقائع المؤلمة التى رافقت ذلك وأعقبته، فكأنها رواية لاهوتية منقطعة عن سياق التاريخ العالمى المعاصر، وتصادف ذلك مع بداية مراهقته حينما كان يتلقّى سيلا من الإيحاءات المتطرفة بصهيونيته ما جعله يحلم بتدمير العالم من أجل حماية اليهود.

لُقّن «عاموس عوز» فى طفولته أفكارا عن الخوف من الآخر، وتشرّب بكراهية غير اليهود، فارتسم العالم خارج الأرض المقدّسة فى خياله معاديا، ومصدر خطر مؤكد، فالناس «لا يحبون اليهود لأنهم فطنون..ولا يحبون مشروعنا فى أرض إسرائيل لأنهم يحسدوننا حتى على قطعة أرض صغيرة كلها مستنقعات وصخور وصحارى. هناك فى العالم جميع الحيطان كانت مغطاة بالكتابات المعادية «أيها اليهودى الحقير، اذهب إلى فلسطين» وها قد ذهبنا إلى فلسطين والآن كل العالم يصرخ علينا» أيها اليهودى الحقير، اخرج من فلسطين».

بدأ الصغير «عاموس» حلمه الطويل فى أن يكون محاربا يهوديا يقود جيوشه لإبادة الأعداء فى كل مكان، ورفع العلم العبرى إثر كل انتصار، وقد خص العرب والأقوام الشرقية بكثير من خياله الحربى، فقادته أحلام اليقظة إلى تكوين حلف



مقدّس يقف فى «وجه موجات الهمجية الشرقية، ملتوية الأحرف، ومعوجّة السيوف، والمتوهجة والمبحوحة، والتى تهدد بالانطلاق من الصحراء لتذبحنا وتنهبنا وتحرقنا وهى تعول وتصرخ بعويل وصراخ يجمد الدماء فى العروق».

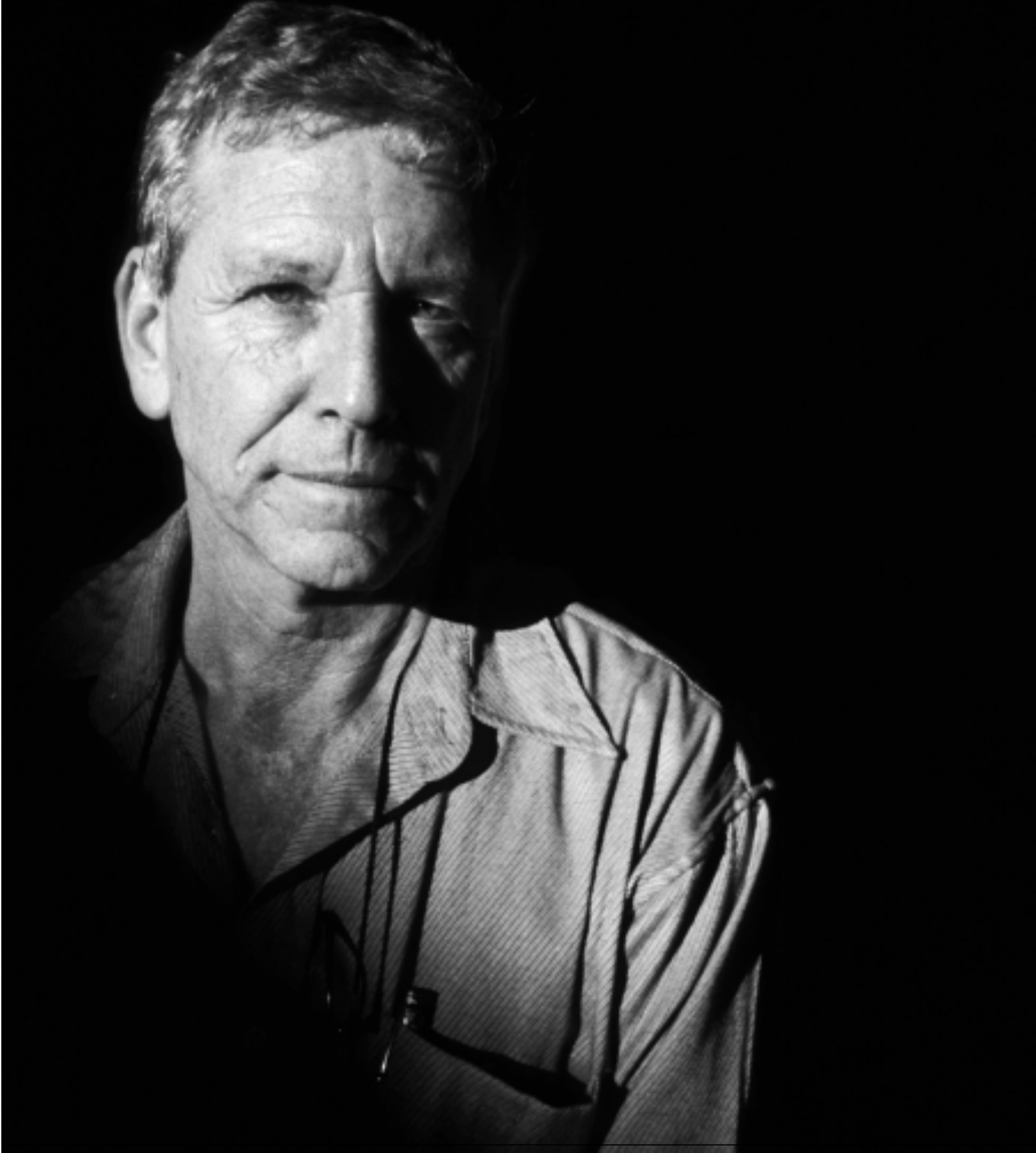
تشرّب الطفل بهذه الأحلام صغيرا فى جوّ عائلى مشبع بالخوف من الآخرين، ومولّد للكراهية ضدهم؛ تبنّى العالم كراهية مركّبة لليهود، لأنهم أذكى بنى آدم، فيكون الفطنون، والنابهون موضوعا لكراهية البلهاء، وفيما كانت شعوب الأرض كلها تعيش فى أوطان سعيدة فقد بخست حق اليهود فى إحياء أرض صغيرة مهجورة وجعلها وطنا لهم، فعبّرت عن كراهية مجردة عن أى سبب، وأطلقت نداء عاما تحقّرهم فيه وتطلب إليهم أن يذهبوا إلى فلسطين من أجل التخلص منهم، وحينما أخذ اليهود بذلك، وأقاموا فى تلك الديار، عاد العالم يصرخ بأن يخرج اليهود من فلسطين. جرح العالم الخارجى وجدان اليهودى، فقد أغرب بوجهه عن أمة ذكية لا وطن لها، فلا يريد أن يكون لها موقع تحت الشمس.

أخفى هذا النمط من التربية التى تلقّاها «عاموس» كل ما ينبغى أن يصرّح به، إذ طمست الوقاحة كل الحقائق الصلبة، وبمكانها وضعت نسقا متهافتا من الافتراءات جاءت بصورة شكاوى وأوجاع لاستدراج العطف، فكيف يستقيم أمر عالم ينكر على خيرة أبنائه وطنا؟ وما دام العالم يرتع فى جهل بدائى فهو غير مؤهل للحكم على مصير النخبة الفطنة فيه، إذ لم يقدّر قيمتها، واستكثر عليها الاجتماع فى أرض هشة قوامها المستنقعات والجبال والصحارى، وحتى حينما استجابت لنداء الطرد واستوطنت تلك الأرض، فقد نكث العالم بما أراده وعاد يطالبها بالنزوح عن تلك الأرض. لا يضمر العالم الغاطس فى جهله غير كراهية مطلقة لخيرة الجنس البشرى. وما دام الأمر بهذه الصورة البشعة والمتقلّبة فلا يلزم اليهود أن يعيروا انتباها لعالم يفتقر لكل المعايير السوية، وعليهم أن يتفردّوا بإقرار مصيرهم، ويمارسوا القوة ضد الآخرين، ويعيدوا تعريف هويتهم بالسلاح.

وعن هذه المقدمة الزائفة تمخضت نتيجة خاطئة صمت عليها «عاموس عوز» وقامت عليها فكرة الاستيطان، وهى الادعاء بخلو فلسطين من أهلها، فهى مستنقعات وجبال وصحارى، فلا بأس، والحال هذه، من إعمارها وتحقيق الوعد التوراتى بامتلاكها. لقد جرى محو الفلسطينيين من العالم المتخيل للنص، ولم يأت على ذكرهم إلا بصورة عابرة بوصفهم نماذج منتزعة من سياق لا يراد له الحضور فى السرد. على أن تلك الكراهية كانت جامعة شملت العالم، فلم يستثن أحد من ذلك، إذ غطيت جدران العالم كله بالشعارات المعادية لليهود، مرة يطلب إليهم الذهاب إلى فلسطين من أجل إبعادهم والتخلص منهم، وأخرى تريد منهم ترك تلك الأرض التى بنوها بالجهد والدم والمال. يا له من عالم تافه ينبغى عدم الالتفات لكل ما يصدر عنه، ذلك ما تشبّع به الطفل من مسلّمات وهو يعيش مع والديه فى القدس ببيت معتم لا تزيد مساحته على ثلاثين مترا مربعا حيث تلقّن فيه الأفكار الصهيونية.

على أن تفاصيل بناء تلك الهوية كانت معقّدة، وفيها كثير من استبعاد المؤثرات الثقافية الخارجية، وتحصين النفس من أخطارها، وتضخيم الذات اليهودية وتغذيتها بالمرويات الدينية، فقد ذكر «عاموس» أن أباه كان يقرأ بنحو سبع

قراءة فى سيرة عاموس عوز



عشرة لغة، ويتحدّث بإحدى عشرة، أما أمه فتتحدّث بخمس، وتقرأ بسبع أو ثمان، ولكن الأبوين أصرا على الحديث فيما بينهما بالروسية أو البولندية ليخفيا عنه أفكارهما وخصوصياتهما، أما «أحلامهما فى الليل فقد كانت بالتأكيد بالإيديش».

امتنع الأبوان عن تعليم الطفل أية لغة ما خلا العبرية التى لم يكونا يجيدانها خشية عليه من أن معرفة اللغات الأخرى قد تكشف له مغريات أوربا، فالأجيال اليهودية الجديدة ينبغى عليها أن تحبس فى معتقد وثقافة ووطن، ولا يجوز لها معرفة المعتقدات والثقافات والأوطان الأخرى. أراد الأبوان للابن أن يكون الابن يهوديا نقيا غير ملوث بأية ثقافة ما عدا الثقافة التى أصبحت اللغة العبرية وسيلة التعبير عنها، وهى الثقافة اليهودية بحسب التعريف الصهيونى لها.

ارتبط ظهور العبرية بتجمع اليهود فى مكان واحد لتكون اللغة المشتركة بينهم، حيث كانوا يعتبرون أن اللغة الواحدة من ضرورات اجتماعهم تحت سقف وطن واحد وعلم واحد، جرى التخلّى عن «الأيدشية» لأنها ملوثة بالجرمانية، وهى لغة قوم نكّلوا باليهود فلا يصح أن تكون وسيلتهم للتعبير عن أنفسهم، فكانت العبرية الحديثة هى البديل المناسب لنشوء أمة جديدة على وطن جديد. ليس «عاموس» وحده منْ ينبغى عليه اجتناب التركة المريرة للشتات بلغاته وثقافاته إنما ينبغى على «جيل الاستقلال» بكامله أن يلد ولادة جديدة بلغة ووطن وثقافة. فمن أجل تحقيق فكرة الانتماء لا بد من ممارسة عنف ضد اللغات الأخرى، والإعلاء من شان لغة واحدة تصبح علامة على الهوية.

لا يخفى التوازى بين اللغات الكثيرة التى أجادها الأبوان وتعدد البلاد التى قدما منها، والاقتصار على العبرية والإقامة فى أرض الميعاد بالنسبة للابن، فمن أجل إنشاء وطن لليهود فيه مواطن يجيد لغة واحدة ينبغى استبعاد كل ما يتصل بشتات اللغات الأجنبية وبلادها، وإذا كان توزع اليهود بين البلاد واللغات قد هدّد بطمس هويتهم الدينية، فيلزم الابن أن يتمرّس بلغة أهله ويقيم فى وطنه، فذلك يعصمه عن أى ذوبان محتمل أمام الحراك العالمى الذى يلتهم الهويات الصغرى، ويفكّك الأواصر الدينية والعرقية.

لم ترد فى سيرة العائلة أية إشارة تعيق فعالية هذه المُسلّمة، فالأجداد والآباء من النساء والرجال تشبّعوا باللغات والثقافات والمنافى، وعلى الطفل وحده أن يخوض هذه التجربة، فلا يسمح له إلا بلغة واحدة ووطن واحد، ذلك هو مضمون الفكر الصهيونى الذى وجد سبيله للظهور فى الكتاب من خلال عائلة «كلاوزنر» وهى عائلة «عاموس» قبل أن يغير هو اسمه. ولكن على خلفية الإطار الواسع لوقائع تلك السيرة ارتسم تفكك داخلى، فقد تمزقت الأواصر الداخلية للأسرة الصغيرة التى تألفت من الطفل وأمه وأبيه بعد «الاستقلال»، ففيما رسم الكتاب الظروف الأيدلوجية والتاريخية والسياسية التى جمعت شمل اليهود فى فلسطين، وتأسيس دولة حامية لهم، وصهر اليهود فى جماعة واحدة تحامى عن نفسها الأخطار الخارجية كلها، وقع التمزق فى صلب الأسرة بعد تحقيق كل ذلك، فقد انتحرت الأم يائسة، وخرج الابن إلى معسكر العمل الزراعى «كيبوتس جولدا» وهو فى الخامسة عشرة من عمره رافضا السلطة الأبوية، ثم اخفق الأب فى تحقيق حلمه فى أن يكون باحثا ذا شأن فى الثقافة اليهودية وشغل بزواج ألهاه عن ذلك حتى سقط ميتا بسكتة قلبية.

نقض التفكك العائلى فكرة لمّ الشمل اليهودى، فإذا كانت فكرة جمع الشمل قد ربطت بين الشتات اليهودى، والوعد التوراتى، والكراهية التى نشأت ضد اليهود فى أوربا بين الحربين العالميتين، فإن التفكك العائلى حدث بعد زوال تلك الأسباب، وانطفاء الأحلام المرجأة، ومواجهة الظروف المباشرة للحياة على أرض الآخرين. لقد جرى الاحتفاء بإعادة تعريف الهوية اليهودية، وأُهملتْ نذر الخطر التى لاحت فى الأفق، فحينما لا يقع اعتراف بحق الآخر فهذه هى الوسيلة الوحيدة لجعله ممكنا. ■

إن قيادة المرأة المنفية للبشرية قد أوشكت على أن تكون زيتونة لا شرقية ولا غربية، لا قروية ولا مدنية، لا برجوازية ولا بروليتارية، لا عالمة ولا جاهلة، لا خارجية ولا داخلية، لا ذكرية ولا أنثوية، لا واقعية ولا خيالية وإنما كينونة حيوية جدلية...

زهرات جَدّتي .. ومَدائن عمّتي



صنـــاعة امـــرأة عصـــرية



اليـــــــز اغــــــازريـــان

■■ عرفتها وهى تعدّ قهوتها الصباحية بأغانيها التركية المليئة باللوعة لأشياء ضائعة... كانت تصر على أن نتكلم الأرمنية على الرغم من كون العثمانلية هى أولى اللغات التى نطقت بها عن والدتها التى أنجبتها على الحدود بعد تهجيرها من إحدى القرى الأرمنية المحاذية للمتوسط قبل قرابة قرن. ولدت فى الإسكندرونة، بين تركيا وسوريا، وانتهى بها المطاف إلى القدس. كانت الفرنسية لغتها الأخرى. تعلّمتها فى المدرسة الداخلية بعد وفاة والدها، وقبل إرسالها إلى بيت الزوجية وهى طفلة. كانت تشعر بمودة معيّنة للغة «الحضارة» تلك. كانت تعلّمنا بعض الأغانى الميلادية بالفرنسية ونحن أطفال، تستمتع هى بمذاقها، بينما نتبسّم نحن بخبث استعداداً لمحاكاتها. أما العربية، لغتها الرابعة، فقد كانت بالنسبة لها مرتبطة بترقب ما. كنت أستشعر ذلك الوهج المرتبط باللغة العربية كلما رأيتها هى وعمتى تتابعان الأخبار عبر صوت المذياع أو التلفاز بسجائر عمتى وقهوتها الملازمة لها، وكلما رأيتهما تتابعان الأفلام العربية الملونة بتدرجات الأبيض والأسود. العربية أيضاً، التى يتخللها من هنا ومن هناك كلمات من لغات أخرى، كانت لغة السياسة، موضوعا صاخبا فى منزلنا المشترك، بمناظراته وسجالاته المفعمة بالصخب والضوضاء. فاللغة العربية، التى بزغت فى حياة جدتى نانا وعمتى هايجانا، قد ارتبطت بالثورة على معتقدات النظام العثمانى، نحو أفق واعد بـ «التقدم» و«الاستقلال» و«تحرير المرأة».

كانتا تربطان حرفتهما بواجب وطنى: صناعة امرأة «عصرية» منخرطة فى المجتمع (على شاكلة أدوار بعض بطلات أفلامهما مثل ماجدة وفيروز وفاتن حمامة...). كانتا تؤمنان بالمرأة «الحديثة» و«الأنيقة» و«المنخرطة فى المجتمع» و«الموهوبة». وكان معقل نشاطهما «حى الزهراء» فى القدس الشرقية. حى عُرف يوماً بحداثته. تصلين إليه بعد أن تمرى من شارع السلطان سليمان ثم حى صلاح الدين من جهة، وشارع الرشيد من جهة أخرى ومتحف روكفلر البريطانى الفلسطينى، ومن دكانة «زهرة المدائن»... أسماء تقرّب المرء من دكانة جدتى وعمتى الصغيرة المليئة بالحبكات والزهور وماكينات «سنجر» للخياطة.

تدخل «المدامات» الدكان ويخترن «الموضة» عبر مجلة «بوردا» الألمانية وبعض المجلات الفرنسية. تبدأ جدتى بتفحص جسد «المدام»، ثم بتشخيص الحالة والتكتيك، ثم يبدأ الحديث عن ألوان وأنواع القماش الملائمة، والأقمشة الجديدة المتوفرة فى محلات «بطشون» و«أبو خلف» للقماش، يتخللها أخبار سياسية واجتماعية، لتبدأ عملية جدتى وعمتى هايجانا وزميلتهما رويدة الماهرة على القماش. تتفحصها عمتى بعناية فى الطابق الثانى واضعة نظاراتها السميكة السوداء، وتأخذ بدراسة وهندسة تفاصيل القماش بمسطرتها الطويلة وكستبانها والخيط المتناغم مع لون القماش وصابونها الأبيض. تبدأ بعد ذلك بسلخ القطع وإعادة تناسخها إلى أن يحين موعد «البروفا»، حين تدخل «المدام» فى أجواء من القهقهات والتعليقات والأقنعة، ونظر مستمر إلى المرآة، لتجرب مسودة الرداء الذى سرعان ما يتحول شيئاً فشيئاً إلى ثوب حديث. أما رويدة، الفارسة الثالثة فى الدكان، والمنحدرة من عائلة مقدسية من مدينة الخليل، فقد عاشت روايات النسوة المختلفة عبر أباريق الشاى الدافئة التى كانت تخرج من يديها الجميلتين وعبر حبكاتها المتفانية وهدوئها المتكلم.

عهد من عرف جدتى من سلالة والدى على تسميتها بـ «الست أليس» وعهدنا نحن على تسميتها بكلمة «نانا»، لتمييزها عن جدتنا من سلالة أمى «إنصاف» الحنضلية التلحمية التى تصغرها بقرابة عقد من الزمن، وتدعوها قلوبنا بكلمة «تيتا»، والتى كثيراً ما استشعرت بالجنة تحت قدميها، وروتنا منذ الطفولة بتراث المريمية. إنصاف التى تحمل بجبها منجماً من الحكايات الشعبية الفلسطينية، وتعرف كيفية التخلص من «العين» بالتعاويذ، وكيفية فتح الفنجان (مع سجائر «فريد» وحبها الدفين لفريد شوقى وفريد الأطرش الذى تعبر عنه بقهقهة حياء)، وصوفيتها وصلاتها المسيحية المستمرة التى تحكى حكايا التراب. كثيراً ما أشعرها حية أزلية بين الأشجار والأرض والمريمية والنعنع والملوخية والدوالى والكعك والسمسم والصعتر والكوسا والصفرم والثوم والكشك والجبن والبخور .... عالمها الحيوى النابض الذى ورثته أمى وسأروى حكاياته فى ملف آخر حينما يحين الوقت.

كانت «نانا» تستمتع بسلطة فحص البروفا. تشرف على تناغم الأجساد والأقمشة والخيوط والخرز والأزرار الملونة التى ستخرج من مصنعها بعناية، وتقوم بدراسة مسودة الرداء لملاءمة جسد المرتدية. أخبرتنى أن حلمها بأن تصبح طبيبة لم يتحقق نظراً لتزويجها القسرى، فأخذت تعبر عن ولعها بالطب من خلال «فن الأزياء» (الذى يتطلب أيضاً التشريح، ويتضمن دوراً ومكانة إن لم يكن سلطة ما تجذبها). كانت تستمتع سراً بالإطراء على أدائها بعد أن يجهز الرداء، فتراقب وجه «المدام»، وردة فعلها، وتأخذ خلسة بالنظر إلى المنتوج من خلال الصورة المنعكسة عبر المرآة التى تواجهها للتأكد من أن كل شىء على ما يرام، ثم يبدأ تعليقها بالعربية أمام الزبونة (وبالأرمنية والعثمانلية والفرنسية مع عمتى) فيما يتعلق بالملف المالى.

تخبرنى أن حى الزهراء كان حديثاً أو «موديرن» (تنطقها باللهجة الفرنسية). ففيها تم تأسيس أول فنادق القدس، وكان هناك سينما ودكاكين جميلة، و«كانت النساء يجبن الطريق ببدلاتهن وقبعاتهن الزاهية». تقف اليوم بعض المكاتب وشركات السياحة، ومحل قرطاسية، ومقهى، ومحل للتصوير ودكانة تبيع مستودعات ومساحيق للتجميل، وبعض المطاعم والمحال التى عاشت تاريخها. «أما اليوم، فقد تغيّر طابع الحى» تشير باغتراب برجوازى: أصحاب حوانيت يبيعون إكسسوارات ومناديل صينية وتركية، ومحلات ملابس وأحذية ومنتوجات غذائية إسرائيلية، وأشرطة دينية وملابس تبيع الجلابيب، وشرائط عربية منسوخة لفنانات يظهرن أحياناً عبر الفضائيات. لم ينسجم أى من ذلك مع رؤى «المرأة العصرية» التى كانت أشبه بموقف عقائدى بالنسبة لنانا وعمتى هايجانا. ولذلك لا يمكن إخفاء اغتراب هذه السيدة وغيرها من السيدات فى جيلها من التحول فى الأيديولوجيا الدينية فى القدس فى أواخر الثمانينيات وبدايات التسعينيات. كان نمط الحياة هذا بالنسبة لها كطعنة فى ظهر المبادئ التى ثارت هى وصديقاتها من أجلها فى صراعهن مع أمهاتهن ذوات النزعات العثمانية. غير أنها أخذت تتعود على الفكرة مع الوقت، بل كانت فى السنوات الأخيرة قبل مرضها تخيط بعض الملابس الدينية، وخاصة مع رغبة بعض الملتزمات بالزى الشرعى تصميم أزياء على أهوائهن، ووفقاً لما يشعرن بأنه يلائمهن.

كنا أثناء طفولتى نعيش تحت سقف واحد. كان منزل جدتى وعمتى هايجانا فى قعر البلدة القديمة، يطل «السطوح» على «المشهد»: بيوت متراصة، الكنيسة التى أعدم فيها القديس يوحنا، كنيسة القيامة وجامع عمر، قبة الصخرة والمسجد الأقصى، كنيسة الموارنة، وقلعة داود، ومن بعيد يطل جبل الزيتون ومستشفى المطّلع، التى يحكى أنه بناها القيصر وليام الثانى تكريماً لزوجته أوغستا فيكتوريا. وعلى الطرف الآخر بركة سليمان، مركز النفايات فى البلدة القديمة التى تروى جدتى أن الملك سليمان رأى امرأة تستحم هناك، فأرسل زوجها للحرب



زهرات جدتيّ ..  ومدائن عمتي

ليتزوجها، ومدرسة مار يوسف الأنيقة وكنيسة الروم الكاثوليك وفندق البتراء. قيل إن المنزل كان فى الماضى نزلاً أقام فيه بعض الكتاب والشخوص مثل هرمان ميلفيل ومارك توين وغيرهما. كانت جدتى نانا تنزعج من صوت الأذان قرب غرفتها الذى أخذ يعلو أكثر فأكثر فى الثمانينيات، والذى تخبرنا أنه يعيق من قدرتها على النوم والحلم. «الإيمان صار عنيفا وبس مظاهر. كان زمان أعمق». كان موقفها هذا يؤدى إلى جدل حاد مع والدى الذى كان يصر أنه طقس يحبه فى المدينة، والذى كان أثناء طفولتى يعلمنى بعض الآيات القرآنية كى ألمس بعض جمالية اللغة العربية، ويعرفنا دوماً على مختلف «رفاقه» من كافة الأطياف والأديان، ويخبرنا الحكايات والطرائف والترودسكيين والقدس الذى تماهى مع حجارتها.

كانت كل زهرة تحوكها نانا تستغرق بعض الوقت. أما تركيب الخرز على الأقمشة، فقد كان يستهلك أياماً، وجهداً جهيداً وتركيزاً بصرياً ويدوياً. ولذا، لا عجب أن تحتقر خياطة المصانع وسرعتها التى تفوق البصر. يختلف ذلك عن الطقوس الزمانية والمكانية لمختبرها: فقد تضمن ذلك التعرف على السيدة، مراسم شرب القهوة، اختيار الأقمشة وملحقاتها، وفحص جسد السيدة، ثم البدء بالعملية وملاءمة القماش للمرأة، مع حذف وإضافة من هنا وهناك، ليتحول إلى مرافق أنيق للجسد.

خلال سنوات الثمانينيات، برز لدى «نانا» عداء دفين للبنطال. فبالنسبة لها، لم يقم البنطال فقط بإبعاد زبوناتها عن سطوتها، بل اقترن أيضاً بمرحلة أدت إلى تغيير صورة «المرأة العصرية»، بل وتغيير الأحلام البنفسجية التى آمنت بها، نحو نظام جديد أكثر أسرلة وأمركة وأسلمة. فقد أخذت النسوة يخفين أجسادهن شيئاً فشيئاً، وأخذت الألوان الزاهية تخبو. وبدلاً من ملاءمة القماش للجسد، أخذت النسوة يفعلن العكس من خلال برامج الحمية لتناسب «الحواضر» المصنعة فى إسرائيل، أو المستوردة من تركيا والصين والولايات المتحدة. «ولكن هذا أكثر تحرراً من التنورة» كنا نقول لها. غير أنها لم تقتنع بعنادها المعهود. أما بنطال «الجينز»، فلم تتقبله كلية فى البداية، بل كانت تشعر أنه «اختراع أمريكى عنيف وغير أنيق». أثناء مراهقتنا، كثيرا ما واجهت الأمرين منى ومن أختى وابنة إحدى عماتى مع إصرارنا على لبس بنطال الجينز، وكانت تحاول إغواءنا بتصميم أى ثوب نريده، مهما كان قصيراً، بشرط ألا نلبس بنطال الجينز.

ومع إصرارنا على الثورة على معتقداتها «البرجوازية»، ومع شيوع بنطال الجينز، حتى من قبل بعض زبوناتها المحببات، ومن منطلق ضرورة كون المرأة أحياناً «سبورت» على حد قولها، سرعان ما تعودت على الفكرة.

منذ أواخر التسعينيات، أخذ ارتياد الزبونات إلى المحل يخبو، باستثناء بعض النسوة المتعلقات بصومعة مصنع «المرأة العصرية» أو الراغبات بتعديل أجزاء من ملابسهن أو تصميم فساتين على أهوائهن. «كان دكانى معهداً» تقول بنبرة مبالغة. «فى زمنى لم يكن عادياً بالنسبة للمرأة أن تعمل. ثرت على المجتمع وتمكنت من فتح دكانة وإدارتها لوحدى». تروى لى عن «تلك الأيام التى كانت البنات يدرسن الخياطة فى الدكان ويحصلن على شهادات». «كنت أنظم عروض أزياء تظهر فى صالات السينما»، «كان هناك محل قرب دكانى يبيع قبعات وأحذية تنسجم مع الفساتين»... تنتقل كعادتها إلى الحديث عن حياة زبوناتها، وطالباتها، وشخوصهن، وفساتينهن، وأذواقهن، وقصص حبهن، وعلاقاتهن مع القضاء والقدر، وأزواجهن، وأحفادهن وكأنهن زهرات من الزهور التى تصنعها بالقماش.



كانت لها سطوة ما... يتخوّف منها نساء ورجال العائلة. تتفحص المرء بعناية بنظاراتها البنية السميكة. ثم تبدأ بالمقايضة على ما تريده، مستجدية العطف حيناً والقسوة حيناً أخرى. كان يتسنى لى أحياناً مشاهدة وجه آخر من وجوهها العديدة. من ذلك عندما كانت تقص علىّ حكايات أرمنية قديمة حول القضاء والقدر، وأحداثاً تاريخية. فكونها قد ولدت فى الربع الأول من هذا القرن قد جعلها تعاصر أحداثاً مثيرة، مثل قيام إسرائيليين بوضع قنابل فى القدس أثناء الانتداب التى أودت بحياة إحدى صديقاتها. فى إحدى الأيام، أخبرتنى حكاية اسمنا المشترك. «والدتى حبلت بأختى وبى بعد أن تم قتل كل أبنائها السبعة.... ظنت أنّ معجزة ما قد حدثت وأن أبناءها الأموات سيعودون إلى الحياة. فأسمت الأولى ماكروهى والثانية اليز. اليوم ماكروهى فى بغداد وأنا فى القدس».

تحاول فى بعض المناسبات ارتكاب الحيل. من ذلك التمارض متى شاءت ممارسة سطوتها أو فرض بعض رغباتها، أو تضخيم الجانب الشبابى من شخصيتها متى أرادت كشف أسرار أحفادها من الشباب «كنت أرقص الشارلستون مع الفتيات فى مدرسة الأيتام أثناء طفولتى. كنت من البارعات» كانت تتباهى هى وكنا لا نستطيع نحن تخيلها ترقص. كثيراً ما عبرت عن اغترابها عنا، وسلطت عدساتها على ضرورة زواجنا نحن الحفيدات، الأمر الذى ضاقت ذرعاً منه، ثم مع الوقت حول ضرورة قيامنا بإنجاب أولاد ذكور كى لا يفنى الشعب الأرمنى، والذى أيضاً كان يثير غضبنا... فتذكرنا بالإبادة الجماعية للذكور الأرمن والسريان خلال المجزرة، وبقاء النساء وحدهن ليعبرن صحراء دير الزور ويعانين الصعاب التى لم تنته مذاك.

كانت تحدثنى دوماً عن صديقتها المقدسية المقربة «خالتكم أم محمد الإمام...» والتى تشاركها ثقافة اصطلاحية مشتركة. وكان هناك تبادل مشترك معها ومع صديقاتهن المختلفات: نورا وعيدا وسميرة وسعاد وغيرهن اللواتى على شاكلة عمتى مزجن بين الأناقة والمشاركة المجتمعية، إضافة إلى بعض الأصدقاء من أبو غوش، والجيران أراكسى وأنطون بحسهم الفنى المرهف وطهيهم اللذيذ والصور الجميلة التى يلتقطونها للقدس.

كان لنانا أيضاً صديقة يهودية من عائلة «خازان» تزورنا ونحن أطفال. «كانت أهوفا خازان صديقتى قبل تأسيس دولة إسرائيل» تروى لى جدتى، «عاشت عائلة أهوفا فى فلسطين منذ مئات السنوات وليست من القادمات الجدد». كانت أهوفا تصبغ شعرها دوماً وتزدهى بالحلى، وتضع كف خمسة (كف فاطمة) على رقبتها وكانت مفعمة دوماً بالحيوية. كانت روحها فلسطينية وتحمل الروح اليهودية الجميلة التى تحاول إسرائيل تدميرها. توفيت أهوفا من مرض السرطان قبل نحو عقد من الزمن. تتذكر جدتى «تلك الأيام» بأسى، وتتحدث عن أهمية التسامح.

عمتى «هايجانا» التى أطلق اسم الدكان على اسمها، لم تؤيد مع «نانا» فى كل شىء: «كنت من أوائل السيدات فى القدس اللواتى ارتدين البنطال». كان لها مقدرة جيدة على الاستماع، وكانت دوماً ملازمة للأخبار السياسية التى عصف بها منزلنا المشترك أثناء طفولتى. كانت أيضاً تتابع فى الماضى بعض المجلات المصرية التى تعالج قضايا المرأة. تلازمنى ذكراها بأغنية زهرة المدائن. فقد كان لها ارتباط خاص بالطقوس المقدسية. كانت تروى لى عن تلك الأيام التى كانت فيها القدس «مفتوحة»، يأتى الحجاج الأقارب خلال عيد الفصح، ويبيتون فى منزل العائلة القريب من كنيسة القيامة. كان يجذبها شىء غامض إلى فكر القوميين العرب المصرى، والفكر السورى القومى الاجتماعى، والملازم لها مثل سجائر «امبيريال» ومواقفها المعادية للامبريالية، وقهوتها «الأرمنية» بطقوسها الخاصة (قهوة بن محروق غامق بلا هيل ومطحون من قبل «الحاج منيب») الذى تشربه مع «سكر قليل»، وراديو مونتى كارلو، وشعرها الأنيق دوماً على طراز «شينيون»، الذى يقوم «سركيس» الماهر (الذى كانت ترقص معه أيام الشباب) بتسريحه كل أسبوع. حتى أوائل التسعينيات كانت هاتان السيدتان تتابعان الأخبار عبر قناة «إسرائيل». فالاستماع إلى الأخبار هى من إحدى شيم «الحداثة العصرية» التى آمنت بها جدتى: «على المرأة تذكر المناسبات ومتابعة الأخبار». كانت نانا تصدق ما يقال، بما أن ذلك يأتى من «التلفاز» ومبنى على «وقائع عقلانية» و«ليس خطابات»، بينما كانت عمتى تطلق إيماءات تهكمية وتنظر بطريقة نقدية فاحصة. فى منتصف التسعينيات انتقلتا إلى قنوات الأردن والمستقبل وLBC وأبو ظبى وبعد الانتفاضة الثانية، باتت قنوات الجزيرة والعربية والمنار والمستقبل ونور

كانتا تربطان حرفتهما بواجب وطنى: صناعة امرأة «عصرية» منخرطة في المجتمع (على شاكلة أدوار بعض بطلات أفلامهما مثل ماجدة وفيروز وفاتن حمامة...)

زهرات جدتىّ ..  ومدائن عمتى

سات وسورية جزءاً وثيقاً من أجوائهما ولا تنفصل عن موبيليا منزلهما.

اقترن اكتشافى لعمتى بالانتفاضة الأولى. فقد كنت طفلة صامتة أراقبها تعود من دكان المرأة العصرية مبكراً على غير عادتها، وتروى لنا بمزاج مفعم بالحياة ما شهدته من أحداث مثيرة، من مولوتوف فى الشارع الذى تعمل فيه، إلى اعتقالات، إلى طالبات خفن فاختبأن عندهن فى الدكان، إلى مظاهرات،... كانت تلتزم بالإضرابات بقناعة وقراءة ما يرد من بيانات «الانتفاضة». لم يتسن لها المشاركة فى السياسة أو الزواج نظراً لاضطرارها للعمل لمساعدة جدتى منذ شبابها، ولكنها كانت تعبّر عن اهتماماتها السياسية بطريقتها الخاصة، الأمر الذى يضفى على حياتها وحياتنا طاقة وسحراً ما. كانت فى الانتفاضة أنباء حيوية ودعوة لثورة ما، مستقبل غير محدد، مشاركة ما، دور ما، وقت أوسع، معنى ما يجذبها كامرأة مثلما كان يجذبنا كأطفال. وقد كان تأثر عمتى بالإعلام كبيراً. كانت المواسم المقدسية المختلفة جزءاً من إيقاع حياتها. تتابع منع المسلمين من الصلاة أيام الجمعة بتضامن، وتحتفل بليلة القدر، وتأكل القطايف فى رمضان معنا جميعاً. كثيراً ما كنا نجلس على نافذتها المطلة على «المشهد»، فتأخذ بوصف الأفق وتنقل لى تراثها. أثناء طرقها على ماكينة خياطتها، كنت أتعرف على نظرتها المستهزئة المعارضة كلما تفوه أحدهم بعبارات لا تنسجم مع رؤاها. كنت حينما يتقرر حدوث إضراب أو تعليق عن العمل أو الدراسة غداة تحولات سياسية شتى، أقرر زيارتها. فتبدأ بتزويدى بكافة التفاصيل والحقائق من مختلف القنوات والفضائيات على مائدتها الطيبة فى قعر البلدة القديمة وبين زهورها اليانعة. فتأخذ جدتى بالاشتكاء من إرهاقها من السياسة وتطلب منها وضع قناة فرنسية أو قناة نورسات اللبنانية الكاثوليكية. كان وجود صدى فرنسى يذكر نانا بثقافتها الاصطلاحية وطفولتها، التى أخذت بعد عامها الثمانين بالحنين إليها، وكان مسمى «لبنان» منطبعاً فى وجدانها كانعكاس لعدة أمور «حضارية» تحبها، و«تلك الأيام» التى كانت تشترى أقمشة وحاجيات الخياطة من لبنان والالتقاء مع الجاليات الأرمنية هناك. أما عمتى، فقد كانت عيونها تبرق غدو سماعها اسم عبد الناصر وجورج حبش و«سوريا» و«الجنوب» فتتذكر المشروع الوحدوى الذى يتخطى الحدود، بأحلامه التى ترعرعت عليها. «ولكن هل تريدين فعلاً نظاماً شمولياً آخر؟ ألا تخافين من دولة قائمة على الدين؟» كان الجيل الجديد فى العائلة يسأل فيعاود الصخب المعهود.

زادت فى السنوات الأخيرة صحة نانا توعكاً. لم تعد قادرة على التحرك أو الذهاب إلى مختبر المرأة العصرية، ولكنها تكرر علينا حكاياها التى لا تبخل علينا بها مع ذاكرتها التى باتت ترفض تذكّر ما يحدث من جديد من توالى أحداث فى المشهد الفلسطينى، وتبدد الوعود العربية الذى كشفه واقع فشل الأنظمة السياسية فى معظم الأقطار العربية. ما زالت ذاكرتها ومرض الأمنيزيا الذى تعانى منه مرتكزة فى مرحلة ما: المدرسة الفرنسية والرؤى والأحلام والنساء بالقبعات الزاهية، وغضبها على تزويجها وهى طفلة، وفخرها على الثورة التى أحرزتها وذكريات «فلسطين»، وذلك الترقب. توفيت أختها التى تعيش فى العراق غداة الاجتياح الأمريكى على العراق. أما هى، فلم تعد تتعرف على الأماكن والجدار والمشاهد والأجساد والسيدات اللواتى يتم بثهن عبر التلفاز. لا يتسنى لها الخروج من المنزل نظراً لكونها مقعدة لبضع سنوات الآن. تفكر ببيع الدكان إذ باتت كسيحة. عمتى ورويدة ما زالتا هناك. أتساءل: ماذا سيحل بالمختبر إذا غادرتاه؟!

اضطرتنى ملحمة ما على الابتعاد عن القدس، قدسنا. فاتنى هذا العام مشهد الغيث الأول المنهمر كل خريف، وإيقاع الحياة، والإضرابات المتناثرة، واصطلاحاتنا الخاصة، والدروب الرمزية المرتبطة بجسد المدينة من المرور الروتينى، إلى التسوق، إلى صخب القدس الشرقية، إلى التوغل غرب المدينة والمقاهى الإسرائيلية، إلى مراسم عيد انتقال السيدة العذراء، إلى حيوية رمضان، إلى أحد الشعانين، إلى العشاء الأخير، إلى رؤية اليهود يحتفلون بعيد الظلال وينتظرون المطر المنتظر فى عيد «السوكوت»، إلى درب الصليب وسبت النور فالقيامة التحررية، وتلك المراقبة وذلك اليأس والاستكشاف، والحياة اليومية العادية اللا عادية لنساء مدينتنا، بشخصياتهن وقناعاتهنّ ورواياتهنّ وهوياتهنّ وهواياتهنّ وعاداتهنّ ونزواتهنّ وانتماءاتهنّ الطبقية المتعددة.

لست أدرى ماذا سيحل بيوتيوبيا «المرأة العصرية» التى عاشتها «نانا» الأرمنية العثمانلية، أو بيوتيوبيا الفكر القومى العربى والتوجه التقدمى الفلسطينى الذى عاشته عمتى هايجانا، أو بالتعاويذ والأمثال الشعبية والخضروات وكائنات الأرض الفلسطينية التى ارتبطت بها «تاتا». لا أعلم ماذا سيحدث بمصير الأجساد والأشكال والمعالم التى كانت جدتى وعمتى ورويدة تعمل معها. يحوطنى عالم آخر، من ازدراء يلقيه بعض الأوروبيين نحوى معتقدين بأنى «مهاجرة مسلمة»، بصورهم النمطية الاستشراقية، إلى إقصاء دينى أخلاقوى من قبل بعض المهاجرين هنا فى مواسم هجراتهم إلى الشمال. يعتقدون أن النضال من أجل فلسطين هو نضال «دينى» ضد «اليهود» و«الصليبيين» و«النصارى» وضرورة «إعادة الخلافة». خطابهم مزيج من اللهجة الذكورية واللهجة الغربية-اللا غربية القاطعة. فأجد المواساة فى سورتى يوسف ومريم، وأحلم بأحد عشر كوكباً لفلسطين أخرى وأخاف من البئر.

تطاردنى بعض الصور المؤلمة، مثل التعرض للتفتيش المستمر مع غيرى من الأخوات الفلسطينيات فى حواجز وخطوط التعذيب الجماعية، وقيام الأجهزة الأمنية الإسرائيلية بشل حركتنا وحياتنا، وذلك الشعور بالرعب، حتى عندما نكون بعيدات. صراخ الجنود والجنديات علينا، قيظ الصيف وبرد الشتاء المؤلمان أثناء الانتظار، الخوف على أوراقنا، مطاردتهم لأصواتنا، حتى فى أوروبا والعالم العربى. غير أننى أشكر اللطيف على ما حصلت عليه من تعرف على أخوات، وأم وأمهات وزميلات ورفيقات وجدات أكن لهن بالحياة. يزعجنا عنف «المختصين» القادمين من دول أو توجهات «غربية» «أكثر تحضرا» تنتزع أصواتنا وتتعامل معنا بفوقية استعمارية، وكذلك التوجهات «الشرقية» بخطاباتها القطبية («الأكثر أخلاقية» أو «الأكثر محلية») التى يبدو أنه حتى «المفكرين الثوريين» قد استكانوا إليها. كل من التيارين يحاول تصنيفنا «بعقلانيته اللا عقلانية» ومكائده «الروحية». يحلمون بفلسطين مختلفة عن تلك التى رأيناها فى رؤانا الجماعية المحلية، فتتحقق التعويذة الدرويشية كما أقرأها «أنتِ منذ الآن غيركِ».

أحيا مع رفيقاتى رؤانا وطقوسنا واصطلاحاتنا ومكائدنا وحيلنا ومقاومتنا ولا مقاومتنا المقاومة. قد نكون بطرقنا المختلفة لاجئات ومنفيات ومتحولات ومتمردات. نحاول متابعة ما يمكن من عنف الأدلجة الاجتماعية والبيئية الخاطفة. تحوطنا أجساد ومعالم وأشجار ومدن تتشرذم أو تصبح كسيحة أو تتلاشى أو تتحول إلى واقع افتراضى أو يوتيوبى، ومعالم نلمسها ولا نشك أنها واقعية وأزلية، على الأقل فى لحظة ما، فنتشبث بها، خوفاً من القادم المجهول. نثور على الموروث ونرتوى منه، ونعيد سرده بطرق متنوعة ومتناقضة باستمرار. قد نكون كياناً شاهداً على الحدث ومتابعاً للجدليات والتناقضات والتحولات فى جو تختلط فيه الحياة مع الموت والابتعاد مع الالتقاء.



لا أستطيع التخلص من ذكريات تعريتى من قبل موظفات الأمن الإسرائيلى فى أحد المطارات الأوروبية الربيع الماضى، ووضع أجهزتهن على مختلف أجزاء جسدى كما يفعلن لمختلف المسافرات الفلسطينيات. هناك وأنا أرتجف، أخذت أتذكر مصنع المرأة العصرية. فمع أنها كانت فى الماضى تثير اشمئزازى أحياناً، أخذت أشعر برغبة جامحة لاقتراض قماش ملون أجوب به وأتحرك دون خوف من رقابة عسكرية أو اجتماعية. وسمعت فى منفاى الأوديسى نداء اللغة العربية الخارجة من نير الدولة العثمانية تحتضننى وتدعونى إلى فردوسها، بل وتحاول الخروج من نير الدولة العربية السلطوية ومن نير كل من أخذ بنفينا تحت مسميات مختلفة. وأخذت أتحرك بهذه الأناشيد وألبس رؤى تقدمية متجددة. لم تكن بحزم مصنع أليس أو بعراقة إنصاف الحنضلية أو بأناقة مدائن عمتى أو بلذة خبز أمى الحبيبة، ولكن يبدو أنه ما زالت هناك فسحة متبقية من الترقب فى هذه اللغة. ■



تطاردنى بعض الصور المؤلمة، مثل التعرض للتفتيش المستمر مع غيرى من الأخوات الفلسطينيات في حواجز وخطوط التعذيب الجماعية، وقيام الأجهزة الأمنية الإسرائيلية بشل حركتنا وحياتنا



NASSER

فى ذكراه الأربعين

رؤيــــة أخـــرى

■■ تمر هذه الأيام الذكرى الأربعون لغياب الزعيم المصرى والعربى الراحل جمال عبد الناصر. ودائماً وفى كل عام، سواء عندما تحل هذه الذكرى أو ذكرى ثورة ٢٣ يوليو يتجدد النقاش الذى لا يكاد ينقطع، سواء داخل مصر أو على امتداد العالم العربى أو العالم الثالث أو حتى على مستوى العالم بأسره، حول تقييم الدور الذى لعبه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر على كافة هذه الأصعدة والبصمة التى تركها، إيجاباً أو سلباً. وتختلف الرؤى والتقديرات بقدر اختلاف الانتماءات الأيديولوجية والسياسية، وتتباين زوايا الرؤية والحكم بحسب تباين المصالح الاقتصادية والاجتماعية والجيواستراتيجية، ولكن يبقى تواصل هذا الجدل بالرغم من مرور السنين، بل والعقود، دليلاً حياً على أهمية ومحورية وحيوية الدور الذى لعبه جمال عبد الناصر فى تشكيل الواقع السياسى والاجتماعى والثقافى والاقتصادى فى بلده مصر، وكذلك التأثير الذى مارسه على امتداد دوائر العلاقات الدولية، عربياً وأفريقياً وإسلامياً ومتوسطياً وعالم ثالثياً، بل وعالمياً.

وكانت الشكوى المستمرة لسنوات طوال من جانب مؤيدى الرئيس الراحل ومحبيه وأنصاره أنه على المستوى الدولى، وخاصة فى الغرب، فإن معظم الكتابات عنه كانت محملة بتحيزات مسبقة نتيجة مواقفه السياسية التى ينظر إليها غالباً باعتبارها عادت الغرب وسعت للإضرار بمصالحه. ولكن هذه الشكوى بالتأكيد ليست دقيقة، خاصة إذا صدرت على إطلاقها، حيث إن عدداً لا بأس به من هذه الكتابات اتسم بالموضوعية، ولو بدرجات متفاوتة، وراعى أصول المنهج العلمى فى البحث والتحليل، علماً بأنه فى نهاية المطاف، فإننا يجب أن نسلم بأن العلوم الاجتماعية والإنسانية، والعلوم السياسية هى بالطبع أحد مكوناتها، يستحيل اتصافها بالحياد المطلق أو فصلها عن شخص الباحث أو الكاتب أو انتماءاته الفكرية أو مكونات خلفياته، وإن تعددت.

ونعرض اليوم لكتاب نزعم بأنه

Nasser (Life&Times)
Anne Alexander
London: Haus Publishing

تقوم المؤلفة عبر الكتاب بتناول بانورامى، لا يخلو من تحليل متعمق، وإن كان بالطبيعة وبالضرورة موجزاً، لواقع المجتمع المصرى منذ ما قبل ميلاد الرئيس الراحل وحتى بعد وفاته بسنوات طوال، وينطبق الأمر نفسه على السياسات العربية والإقليمية





غـــلاف الكتـــاب

يتصف بقدر كبير من الإنصاف والطابع العلمى فى تناول سيرة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، ويربط هذه السيرة بمسار تطور الأحداث فى مصر والأقاليم التى تنتمى إليها، خاصة العالم العربى، والعالم بأسره، كما يتميز بالاتساق مع المنهج الموضوعى الذى وضعته المؤلفة منذ بداية الكتاب، دون أن ينفى ذلك بالطبع وجود ولاءات فكرية للكاتبة انعكست أصلاً فى اختيار منهج الدراسة، ولكنها، بحسب رأينا المتواضع، لم تؤثر بشكل واضح أو مؤثر على موضوعية التناول لسيرة الرئيس الراحل ومواقفه والسياسات التى اتبعها والبيئات المحيطة بكل ذلك وتطوراتها.

والكتاب بعنوان «ناصر»، ومؤلفته هى الكاتبة والباحثة والإعلامية البريطانية «آن ألكسندر» المتخصصة فى الشئون العربية، والتى تسهم بمقالاتها فى دورية «ميدل إيست إنترناشيونال» المعروفة لكل المتابعين لشئون منطقة الشرق الأوسط والعالم العربى، كما عملت لسنوات فى قسم الخدمات الإعلامية العالمية التابع لإذاعة الـ «بى بى سى» البريطانية الشهيرة.

وبالرغم من أن الكتاب يحدد هدفاً له يتمثل فى تناول سيرة الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر، كما أنه يقع فى حجم معقول وصديق للقارئ لا يكاد يصل إلى مائتى صفحة، فإنه فى واقع الأمر أكثر شمولاً فى التناول بكثير من مجرد سرد وعرض وتقييم السيرة الذاتية للرئيس الراحل جمال عبد الناصر، بل تقوم المؤلفة عبر الكتاب بتناول بانورامى، لا يخلو من تحليل متعمق، وإن كان بالطبيعة وبالضرورة موجزاً، لواقع المجتمع المصرى منذ ما قبل ميلاد الرئيس الراحل وحتى بعد وفاته بسنوات طوال، وينطبق الأمر نفسه على السياسات العربية والإقليمية وكذلك، وإن بدرجة ربما تكون حتى أكثر إيجازاً، على منظومة العلاقات الدولية السائدة وما شهدته من تغييرات. كذلك وفى الإطار نفسه، فإن الكاتبة حافظت، من وجهة نظرنا، على القيمة العلمية والأكاديمية للكتاب من خلال تفادى الإسراف فى معالجة جزئيات وتفاصيل تتعلق بالحياة اليومية للرئيس الراحل، كما حدث مثلاً فى حالة سير ذاتية أخرى عديدة، والاكتفاء بالاتجاهات العامة ومراحل التحول المفصلية فى حياته وأفكاره وسياساته ومعاركه.

عرضت المؤلفة لنظافة اليد، وبساطة حياة «الرئيس» وأسرته فى حياتهم اليومية. وحرصه على ابعاد أسرته عن الحياة السياسية. وحساسيته البالغة تجاه مجاملة أى من أفراد عائلته، من منطق «القرابة» للسيد الرئيس. وحزمه تجاه أى بادرة للفساد بين حاشيته



وليد محمود عبد الناصر

وأولى المحطات التى أظهرت مصداقية الكاتبة وموضوعية المنهج الذى اتبعته هى الحديث عن تحويل الرئيس الراحل عبد الناصر وجهته بشكل تدريجى فى البداية ثم جذرى لاحقًا، وتحديدًا بدءًا من عام ١٩٥٥، نحو الاقتراب من الاتحاد السوفيتى السابق والكتلة الاشتراكية التى كان يقودها، وبعيدًا عن الولايات المتحدة والغرب الذى كان يبدو أنه يسعى لكى يقترب منه ويتقارب معه فى العامين الأولين بعد انتصار «الحركة المباركة» للجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢، والتى تحولت إلى ثورة بفعل السياسات التى تبناها جمال عبد الناصر فى الداخل والخارج فى السنوات التالية. وتنفى الكاتبة أى طابع أيديولوجى عن هذه التحولات مركزة بالمقابل على الدوافع السياسية والبراجماتية المرتبطة بتباطؤ الغرب فى تلبية تطلعات القيادة المصرية، سواء فيما يتعلق بمتطلبات توفير التسليح للجيش المصرى لمواجهة الاعتداءات الإسرائيلية المتكررة على قطاع غزة عام ١٩٥٥، أو تقديم القروض والدعم الفنى المطلوبين لبناء السد العالى فى أسوان لدفع عجلة التنمية فى مصر ومساعدة الثورة على أن تفى بوعودها الاقتصادية والاجتماعية لقاعدتها الشعبية من جماهير العمال والفلاحين والطبقة الوسطى التى شكلت العمود الفقرى لاستقرار النظام الثورى لأكثر من عقد ونصف، أو دعم المسعى الناصرى للعب دور قيادى إقليمى، خاصة على صعيد الدائرة العربية، بل ومواجهة هذا المسعى والعمل بالمقابل لإحباطه عبر سياسات و تدابير مضادة واقتراح مبادرات من عينة «حلف بغداد» ثم «مبدأ أيزنهاور» والترويج لها إقليميًا. وفى كل هذه الحالات ترصد الكاتبة الدافع السياسى المرتبط برؤية القيادة الناصرية للمصلحة الوطنية المصرية وتعريفها لها، سواء سياسيًا أو تنمويًا، داخليًا أو خارجيًا على حد سواء. وبالتالى، انضمت المؤلفة للمؤكدين، وهم كثر، على عدم وجود أى دافع أيديولوجى لدى جمال عبد الناصر فى التقارب مع الكتلة السوفيتية، بل ووضعت هذا الاقتراب فى سياق عالمى أعم شمل العديد من زعماء حركات التحرر الوطنى وقادة الدول المستقلة حديثًا فى بلدان العالم الثالث فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية لمدة أكثر من عقدين من الزمان.

وتوضح الكاتبة التزامها بالمنهج الذى اختارته ويظهر ذلك جليًا أيضًا من خلال تفسيرها لسعى الرئيس الراحل لإبقاء الخطوط مفتوحة مع الغرب دائمًا، ومع الولايات المتحدة على وجه الخصوص، حتى فى أحلك اللحظات مثل قبيل حرب ٥ يونيو ١٩٦٧، ثم تناولها لتحرك الرئيس الراحل مجددًا فى اتجاه الولايات المتحدة فى أعقاب «ضجره» من تسويف الاتحاد السوفيتى السابق فى تزويد الجيش المصرى باحتياجاته من السلاح بشكل متزايد فى أعقاب حرب الأيام الستة، وهو ما بلغ قمته، بحسب المؤلفة، فى قبول عبد الناصر لمبادرة «روجرز» قبل وفاته بأسابيع عام ١٩٧٠، مما أكد على غياب التشابه الأيديولوجى بين عبد الناصر والاتحاد السوفيتى أو الشيوعية العالمية، وإن كان هذا التفسير يختلف، بدرجات متفاوتة، عن تفاسير أخرى نعرفها، منها ما أرجع قبول مبادرة روجرز إلى رغبة الرئيس الراحل فى كشف الغطاء عن الإدارة الأمريكية وتفريغ حججها بأن العرب هم الذين لا يريدون التوجه نحو تسوية سلمية للصراع العربى/ الإسرائيلى، ومنها ما اعتبر قبول المبادرة اختبارًا لمدى قدرة الولايات المتحدة على ممارسة ضغوط على إسرائيل للسير فى طريق التسوية، ومنها ما نظر إلى قبول المبادرة باعتباره سعيًا لهدنة من جانب الرئيس الراحل حتى يستطيع استكمال بناء القوات المسلحة المصرية وسعيًا لالتقاط الأنفاس عقب حرب الاستنزاف حتى تكون مستعدة لحرب تحرير، وأخيرًا منها ما اعتبر قبول المبادرة وسيلة ضغط مارسها الرئيس الراحل على السوفييت حتى يقوموا بموافاة القوات المسلحة المصرية باحتياجاتها من السلاح وفى التوقيتات التى تقدرها القيادة المصرية للاستعداد لحرب التحرير.

وترتبط بتلك المحطة أيضًا ارتباطًا عضويًا محطة أخرى تتصل بتفسير الكاتبة لتحول التوجهات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لمصر تحت زعامة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر على الصعيد الداخلى بعيدًا عن الرهان على التعددية الحزبية والاقتصاد الحر ونحو ما سمى بـ «رأسمالية الدولة» أو «الاشتراكية العربية»، بحسب الموقع الفكرى للمراقب، ومدى ارتباط هذه التحولات فى الداخل والخارج بتغييرات على مستوى القناعات الفكرية للرئيس الراحل، وهو الأمر الذى تحرص الكاتبة مرة أخرى على نفيه، وانطلاقها من خلفية اعتبارات تتصل بحسابات سياسية بحتة تمحورت حول الرغبة فى إحكام قبضة حكومة الثورة، وقبضة الرئيس جمال عبد الناصر شخصيًا، على الأوضاع داخل مصر واحتواء، بل ربما القضاء على، أى طبقة لها استقلالية اقتصادية واجتماعية وتتطلع للعب دور سياسى أو لمزاحمة السلطة السياسية، وهو الأمر الذى دفع باتجاه تحولات مثل تمرير ثلاثة قوانين متتالية للإصلاح الزراعى لتحجيم البرجوازية الزراعية والتى تنفى عنها الكاتبة صفة «الإقطاع» بتعريفه المتعارف عليه فى الغرب دون أن تعفيها من مسئوليتها عن ارتكاب ممارسات سلبية تقترب كثيرًا من تلك التى مارسها الإقطاع فى الغرب تاريخيًا ومثل التأميمات الصناعية والتجارية بأفواجها المتتالية فى سياق ما عرف بـ «القوانين الاشتراكية» بدءًا من يوليو ١٩٦١ ثم ١٩٦٤ وما تلاهما، وهى التى نالت من وضعية البرجوازية الصناعية والتجارية المصرية إلى حد كبير.



ولكن موضوعية الكاتبة تنبع من عدم قصرها الغرض من هذه الإجراءات على إحكام القبضة السياسية فقط دون غيرها، وإلا كانت زعامة جمال عبد الناصر شبيهة أو حتى مماثلة لزعامة قادة الانقلابات العسكرية فى بلدان أمريكا اللاتينية فى مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية وخاصة طوال عقدى الخمسينيات والستينيات من القرن العشرين. فالكاتبة تقر بالبواعث الوطنية، ولكن مرة أخرى ليست الأيديولوجية، لتلك الإجراءات. ففشل البرجوازية الوطنية فى إنجاز المهام الاقتصادية المتوقعة منها من حكومة الثورة بالرغم مما قدمته الأخيرة من فرص تمثلت فى الحماية وتمصير الممتلكات الأجنبية، وبالتالى إزاحة المنافس الأجنبى المحلى من طريق الرأسمالية المصرية، وكذا استعجال جموع الطبقات الدنيا والوسطى لتحقيق نتائج سريعة على صعيد التنمية وتوفير فرص العمل تلبية لوعود الثورة وقيادتها لجماهيرها، وقرب نفاد صبرها. فكل ما سبق مثل عوامل رأت الكاتبة أنها شكلت اعتبارات موضوعية أدت بالرئيس المصرى الراحل عبد الناصر إلى تغيير البوصلة. وكما نرى فالمؤلفة ربطت هذه التحولات بمسألتين شديدتى الأهمية والحساسية، وهما المسألة الاجتماعية والمسألة الديمقراطية، والأخيرة سنتناولها بقدر أكبر من التفصيل فيما بعد فى هذا المقال.

وفى الحالتين، أى فى الانتقال نحو الاقتراب من المعسكر الشرقى على حساب المعسكر الغربى وفى التحول داخليًا إلى سياسات «رأسمالية الدولة» أو «الاشتراكية العربية» بعيدًا عن ليبرالية ورأسمالية منقوصتين، لم يكن لدى جمال عبد الناصر أى دوافع تتصل بنزوعه الأيديولوجى نحو الاشتراكية أو اليسار، بقدر ما أملى الأمر عليه اعتبارات تتصل برؤيته للمصلحة الوطنية لبلاده وكذا رغبته فى عدم وجود قوى داخلية مناهضة لسياساته يتوفر لديها مصدر مستقل للدعم، على الأقل داخليًا، أو قوى خارجية ترسم له حدود وقيود دوره وتحركه فى الاتجاه الذى يخدم مصالح تلك القوى بالأساس إقليميًا ودوليًا. وأكدت الكاتبة غياب الباعث الأيديولوجى اليسارى لدى جمال عبد الناصر فى سياساته الداخلية والخارجية على حد سواء من خلال إبراز خلافه الكبير مع الاتحاد السوفيتى والشيوعيين العرب، أو على الاقل قطاع كبير منهم، على هامش الوحدة المصرية السورية (١٩٥٨ - ١٩٦١)، وهى موضوع سنتعرض له تفصيلاً ضمن المحطة التالية لتناولنا لكتاب «ناصر» لمؤلفته «آن ألكسندر».

والمحطة الثالثة التى سنتوقف عندها فى الكتاب محل المعالجة هنا عن الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر، تخص البعد القومى العربى ومسألة الوحدة العربية: موقعهما فى فكر عبد الناصر، دوره فى التقدم نحو تحقيق الوحدة العربية، والإرث الذى تركه فى هذين المضمارين. ويمكن مرة أخرى أن نصف منهج الكاتبة بأنه تحلى بدرجة متقدمة من الموضوعية عند تناول هذا الملف. فقبل تناولها لظهور جمال عبد الناصر على مسرح الأحداث كلاعب عربى رئيسى، حرصت المؤلفة على عرض صورة



حرصت المؤلفة على عرض صورة موجزة، عن حالة العالم العربى والوضعية التى كانت عليها فكرة الوحدة العربية قبل ظهور عبد الناصر

NASSER

موجزة، ولكنها متكاملة بدرجة كبيرة، عن حالة العالم العربى والوضعية التى كانت عليها فكرة الوحدة العربية قبل ظهور عبد الناصر على الساحة العربية. كما أنها مزجت بين الاعتبارات الذاتية وتلك الموضوعية فى تناول دور عبد الناصر فى الدفع نحو الأمام بفكرة القومية العربية وبمشروع الوحدة العربية. ومن الطبيعى أن يكون تركيز الكتاب على تجربة الوحدة المصرية السورية فى فبراير ١٩٥٨ على اعتبار أنها أول تحقيق فعلى لبناء وحدة عربية اندماجية منذ انهيار الخلافة العثمانية فى العقد الثالث من القرن العشرين، بل هى التجربة الوحيدة حتى اليوم إذا استثنينا الوحدة اليمنية لعام ١٩٩٠ والتى لها خصوصيتها باعتبارها تمت بين شطرى شعب واحد ووطن واحد تاريخياً.

وقد ذكرت المؤلفة العديد من العوامل المرتبطة بتحقيق الوحدة المصرية السورية من جهة وانهيارها من جهة أخرى بما اتسم بالتوازن بين تناول العوامل المرتبطة بمصر وبحثها، بعد إنجاز مهمة استقلالها الوطنى، عن ضمان أمنها القومى والانطلاق نحو دور قيادى فى منطقتها وطموحات الرئيس الراحل عبد الناصر فى الزعامة القومية العربية وتحقيق هدف الوحدة، وبين تحليل العوامل الداخلية فى سوريا من دور للجيش والسياسيين التقليديين وحزب البعث العربى الاشتراكى وتقلباته وتصاعد قوة الحزب الشيوعى السورى وتخوف القوى الثلاث الأولى من استيلاء الأخير على السلطة، وقراءة واعية ومتأنية لمجمل الظروف الإقليمية عربياً وشرق أوسطياً التى كانت قائمة قبل الوحدة وخلالها بما فى ذلك بيئة الصراعات وأنماط التحالفات العربية العربية ودور الأطراف غير العربية، خاصة إسرائيل، ولكن أيضاً تركيا وإيران، وأخيراً تفاعلات القوى الكبرى حينذاك مع تلك الوحدة وتطوراتها والتحفظات التى طورها كل منها، خاصة كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى السابق، تجاهها، كل لأسباب مختلفة تماماً عن الآخر.

وبالرغم من أننا نتفق فى المجمل إلى حد كبير مع الأسباب التى أوردتها المؤلفة لانفصال سوريا فى سبتمبر ١٩٦١ وكذلك العناصر التى أدت لنجاح هذا الانفصال، إلا أن العامل الوحيد الذى نرى أن الكاتبة ركزت عليه بشكل قد يكون مبالغاً فيه ويفوق حجمه الحقيقى هو ما أسمته بـ «سيطرة المصريين على سوريا» تحت مظلة الوحدة أو «استعمار» مصرى لسوريا، وهو ما ركزت فيه على البعد السياسى لهذه «الهيمنة» المصرية، بحسب رؤيتها(!)، حيث إنها أقرت فى مواضع عديدة من الكتاب بأنه على الصعيد الاقتصادى حققت الوحدة منافع للاقتصاد السورى بنفس القدر الذى استفاد به الاقتصاد المصرى من الوحدة. وقد أحسنت الكاتبة بإبراز تأثير قوانين يوليو الاشتراكية فى ١٩٦١ نحو الإسراع بدفع القوى المناهضة للوحدة والرئيس الراحل عبد الناصر داخل سوريا للتحرك للإطاحة بالجمهورية العربية المتحدة بعد ثلاث سنوات وعدة أشهر فقط من الوحدة، وفى ظل دعم قوى إقليمية ودولية تقاطعت مصالحها معاً ومع القوى الداخلية فى سوريا التى أشرنا إليها آنفاً فى لحظة تاريخية معينة لإسقاط تجربة الوحدة والسعى لتحجيم مصر ودورها الإقليمى والدولى عبر إعادتها إلى داخل حدودها القطرية، وأخيراً وليس آخراً، توجيه ضربة لجمال عبد الناصر شخصياً وزعامته الإقليمية، بل وربما داخل مصر أيضاً.

كما تتبعت المؤلفة بقية مسلسل محاولات إنجاز حلم الوحدة العربية فيما بقى من حياة عبد الناصر، متوقفة أمام محادثات الوحدة الثلاثية بين مصر وسوريا والعراق عام ١٩٦٣ وبدايات التقارب المصرى الليبى السودانى فى سياق ميثاق طرابلس لعام ١٩٦٩، إلا أنها ركزت أكثر على مباحثات الوحدة الثلاثية لكى تعزز وجهة نظرها التى دفعت بها عبر الكتاب بشأن رفض الرئيس الراحل عبد الناصر لأى مزاحمة من أى تيار سياسى آخر له إطار تنظيمى على السلطة، حتى لو تشابه معه فى الأفكار أو الأهداف أو كليهما، وهو ما تمثل فى حالة مباحثات الوحدة الثلاثية فى حزب البعث العربى الاشتراكى فى كل من سوريا والعراق، حيث سعى الرئيس الراحل إلى حمل الدولتين على حل الأحزاب بهما كشرط مسبق لإتمام الوحدة، بينما اعتبر مسئولو البلدين أن هذا الإلغاء يعيد إنتاج سيناريو الوحدة المصرية السورية لعام ١٩٥٨، معتبرة أن إلغاء الأحزاب فى الحالة الأولى كان سبباً من أسباب فشل الوحدة. ولا تنكر المؤلفة أن المسئولين البعثيين فى سوريا والعراق كانوا فعلياً يدافعون عن وجود الحزب وقوته، وبالتالى وجودهم ذاته وسلطاتهم، ويرفضون تكرار تجربة ١٩٥٨ حيث حل الحزب نفسه فى سوريا فانتهى به الأمر خارج السلطة كلية. إلا أن «آن ألكسندر» تركز أكثر على استخلاص نتيجة أساسية مفادها أن جمال عبد الناصر لم يتغير، بالرغم من الانفصال فى سوريا عام ١٩٦١، واستمر متشبثاً بالانفراد بالسلطة بدون شريك أو منازع كضمان لتنفيذ سياساته، وهو أمر أفضت الكاتبة بالتفصيل فيه فيما يتعلق بالنظام السياسى الداخلى فى مصر، حسبما سنعرض فى المحطة التالية من تناول الكتاب محل الدراسة والبحث هنا.

ففى المحطة الرابعة التى سنتوقف أمامها هنا بشأن كتاب «ناصر» للمؤلفة «آن ألكسندر»، سنتعرض لمعالجة الكاتبة لمواقف الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر إزاء قضية السلطة السياسية وطبيعة وشكل النظام السياسى المصرى والعلاقة بينه وبين القوى والأطراف السياسية الأخرى الفاعلة داخلياً على الساحة المصرية، وما يرتبط بذلك من موقف الرئيس الراحل إزاء مسألة الديمقراطية السياسية. ولم تبدأ المؤلفة فى تناول موقف جمال عبد الناصر من موضوع الصراع على السلطة بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢، بل بدأت معه مبكراً منذ بدء نشاطه السياسى فى نهاية ثلاثينيات القرن العشرين، وخاصة منذ تأسيس تنظيم الضباط الأحرار فى نهاية أربعينيات القرن نفسه، من خلال معالجة علاقته بزملائه فى التنظيم وشرح إستراتيجيته قبل وخلال عملية اتخاذ القرار داخل التنظيم.



ولكن جوهر معالجة المؤلفة لهذا الجانب فى شخصية وحياة الرئيس الراحل يكتسب أبعاداً أوسع بعد نجاح ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، خاصة فى الصراع المتصاعد داخل مجلس قيادة الثورة بين عبد الناصر ومنافسيه، سواء الرئيس محمد نجيب أو ضباط سلاح الفرسان، حيث تركز المؤلفة على تحليل هذا الصراع فى إطار كشف ما تؤكده عن عدم اقتناع الرئيس عبد الناصر بالديمقراطية بل استخدامها تكتيكياً لإحراج خصومه، ثم تتناول تحول الرئيس الراحل تدريجياً فى علاقته بزملائه أعضاء مجلس قيادة الثورة، وبعد إبعاد الرئيس نجيب وأنصاره، من «الأول بين متساويين» إلى «الريس» فوق مرءوسين، وتتتبع المؤلفة تفاصيل متعلقة بمراحل لاحقة فى هذه العلاقة فى عقد الستينيات من القرن العشرين، خاصة عقب حرب ٥ يونيو ١٩٦٧، مع كل من السيد/ زكريا محيى الدين والسيد/ عبد اللطيف البغدادى. ولكن معالجة المؤلفة لمواقف جمال عبد الناصر من السلطة لم تقف عند حدود رفاق السلاح والثورة، بل تخطته بعيداً لتناول خصومته السياسية مع التيارات السياسية والتنظيمية الأخرى فى مصر خلال فترة حكمه، سواء جماعة الإخوان المسلمين أو الشيوعيين على تعدد تنظيماتهم أو حزب الوفد وغيره من أحزاب ما قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢، أو حتى النقابات المستقلة من عمالية وغير ذلك.

ويرتبط تحليل المؤلفة دائماً لتلك الصراعات على السلطة فى مصر الناصرية بالمسألة الديمقراطية وانعكاساتها على الواقع المصرى وعلى المنطقة العربية. ولا تعفى المؤلفة منافسى الرئيس الراحل عبد الناصر من السعى لنفس الهدف: أى السلطة، وتشكك فى مصداقية التزامهم بالديمقراطية أو حرصهم عليها أو السعى لتحقيقها بحسب دفوعهم، حينذاك والآن، حيث تلجأ إلى أمثلة محددة وعديدة فى هذا الصدد، بالإضافة إلى إبرازها للتناقضات، بل والعداءات، داخل كل من هذه القوى وفيما بينها، وفشلها فى بناء تحالفات صلبة، ولو مرحلية أو تكتيكية، بغرض مواجهة شعبية جمال عبد الناصر المتزايدة وقيادته الكاريزمية من جهة وسيطرته المحكمة على مؤسسات الدولة من جهة أخرى، ومن ثم الاتفاق على برنامج ديمقراطى بديل. إلا أنه فى واقع الأمر، فإن كل فصيل سياسى سعى لمصالحه السياسية الضيقة، وتراوحت مواقف كل فصيل بين رفع لواء الدعوة للديمقراطية والاقتراب من نظام الرئيس عبد الناصر بحسب تلك المصالح وبعيداً عن أى اقتناع حقيقى بالديمقراطية، وخصت الكاتبة هنا بالذكر كلاً من الإخوان المسلمين والشيوعيين.

وتأخذنا المحطة السابقة إلى محطة خامسة، ذات صلة بما سبق ولكنها أكثر تخصيصاً، نتوقف عندها فى عرضنا وتحليلنا لكتاب «ناصر» لمؤلفته «آن ألكسندر»، وهى العلاقة بين موقف الرئيس الراحل جمال عبد الناصر تجاه الدين من جهة ومدى ارتباط ذلك بتطور نمط علاقته مع جماعة الإخوان المسلمين من جهة أخرى، إذا ما كانت أصلاً ثمة علاقة بين العاملين. فالكاتبة تبرز عبر الكتاب، ومن خلال أمثلة محددة



كانت الكاتبة حريصة على إظهار أوجه مشرقة وإيجابية فى هذا السلوك الشخصى للرئيس الراحل جمال عبد الناصر

وكثيرة، ما تعتبره «تدين» الرئيس الراحل، سواء اتصلت هذه الأمثلة بأخلاقيات معينة أو سلوكيات أو عبادات، خاصة أداءه فريضة الحج، وكذلك ما ارتبط بقناعة الرئيس الراحل بـ «الدائرة الإسلامية» ضمن سلسلة دوائر انتماء مصر ودوائر التحرك فى سياستها الخارجية، حسبما ذكر فى كتابه «فلسفة الثورة»، مع التركيز على إقدام جمال عبد الناصر على «إصلاح» الأزهر الشريف والأوقاف فى مطلع ستينيات القرن العشرين، وتوظيف الأزهر ومؤسسات نشأت فى إطاره، مثل المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ومدينة البعوث الإسلامية، ليس فقط لخدمة الدائرة الإسلامية فى السياسة الخارجية المصرية وتوسيع دائرة التأثير والنفوذ المصرى فى العالم الإسلامى، بل أيضاً لخدمة نشر الدعوة الإسلامية بشكل عقلانى وبصورة معتدلة ومستنيرة ومتقدمة، خاصة فى دول أفريقيا وآسيا غير العربية، بما كان يتسق مع التوجهات العامة لمصر فى الحقبة الناصرية.

وبالطبع نستطيع أن نستنتج من الفقرة السابقة أن الكاتبة تنفى قطعياً أى علاقة بين موقف الرئيس عبد الناصر تجاه الدين، والإسلام تحديداً، الذى تعتبره إيجابياً وفاعلاً كما تناولنا فى الفقرة السابقة، وبين علاقاته بجماعة الإخوان المسلمين فى مراحلها المختلفة وبتحولاتها المتتالية مداً وجزراً، سواء قبل أو بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢. فالكاتبة حزمت أمرها منذ مرحلة مبكرة من الكتاب بتصنيف الجماعة كحركة سياسية وليست دينية أو دعوية - منذ نشأتها فى الدوافع والمبادئ والمحددات والتوجهات والأهداف، سواء فى عهد الملكية أو الجمهورية فى مصر، كما أنها أيضاً وبالدرجة نفسها صنفت الصراع بين جمال عبد الناصر وجماعة الإخوان المسلمين بأنه صراع سياسى بحت وليس أيديولوجياً أو دينياً بأى حال من الأحوال، بل عرفته بشكل أكثر تحديداً على أنه صراع من أجل الإمساك بزمام السلطة وفرض قبضة أى من الطرفين عليها. ومع ذلك لم تنكر الكاتبة فى أى مرحلة فى كتابها أن كل طرف كان يسعى للسلطة رغبة فى تحقيق مشروعه العقائدى أو الفكرى، فى حالة الإخوان، أو السياسى، فى حالة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وليس لمجرد الهيمنة على النظام السياسى أو لاعتبار السلطة هدفاً فى حد ذاتها فقط.

وتنقلنا المحطة السابقة إلى محطة سادسة وأخيرة نتوقف عندها فى تناولنا لهذا الكتاب الهام والممتع عن سيرة الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر، بالرغم من أن الكتاب يحتوى على الكثير مما يغرى بالتوقف أمام المزيد والمزيد من محطات عرض ما به من رؤى ومراجعته وتحليله وتقييمه، وهى محطة تتعلق بأخلاقيات الرئيس الراحل وتعامله مع أسرته وأصدقائه ومعارفه ومجمل سلوكياته ومعاملاته مع الآخرين. وهنا كانت الكاتبة حريصة على إظهار أوجه مشرقة وإيجابية فى هذا السلوك الشخصى للرئيس الراحل جمال عبد الناصر، وبما لا ينفصل عن تقييمها الإيجابى لتدين الرئيس الراحل كما عرضنا فى الفقرة السابقة. كما أن الكاتبة من خلال استعراضها لهذه الخصائص الإيجابية فى السلوك الشخصى لجمال عبد الناصر تقودنا إلى المفارقة بين ذلك من جهة وبين لجوء الرئيس الراحل، بحسب الكاتبة، إلى أساليب تآمرية ومكيافيلية، واتباع استراتيجيات اتصفت أحياناً بالحدة والعنف، فى التعامل السياسى، سواء داخل مصر أو على صعيد السياسات العربية والإقليمية، مع خصوم فعليين أو محتملين، أو منافسين، داخل دائرة السلطة أو خارجها.

وفى هذا السياق، حرصت «آن ألكسندر» فى كتابها «ناصر» على إبراز المكانة الكبيرة التى منحها الرئيس الراحل لدور الأسرة والقيم التى تجسدها، ومدى التصاقه بأسرته، ممثلة فى زوجته وأبنائه، ورعايته لها ولأعضائها واهتمامه بشئونها بالرغم من انشغالاته التى لم يكن لها حدود أو نهاية. ولكن فى ذات الوقت تبرز الكاتبة رفض الرئيس الراحل وحساسيته البالغة تجاه محاولة أى من أعضاء أسرته الصغيرة أو عائلته الكبيرة فى استغلال النفوذ من منطلق القرابة من الرئيس للتربح وكسب المغانم والأموال أو التحصل على المناصب أو ممارسة النفوذ، واتخاذ الرئيس الراحل لإجراءات حازمة بحق أى من اقاربه، مهما كانت درجة قرابته له، لوأد أى فساد من هذا النوع فى مهده.

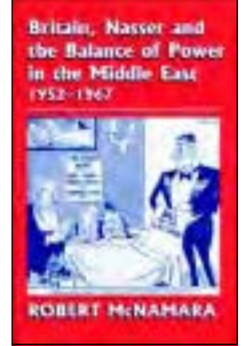
وفى الإطار نفسه، وارتباطاً بما سبق، عرضت المؤلفة لبساطة حياة الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وأسرته فى حياتهم اليومية، وتقشفه الكامل وزهده فى المتع الدنيوية المعتاد كثيراً من القادة والزعماء الإقبال والتهافت عليها والرغبة فى اقتنائها، وينطبق ذلك على الأشياء ذات القيمة المحدودة مثل المأكولات والمشروبات، بنفس القدر الذى ينطبق به على أشياء أكبر مثل السيارات والتحف والمقتنيات الثمينة، أو على مستوى أعلى مثل الحسابات فى البنوك الأجنبية والأملاك من أراض وعقارات خارج حدود الوطن. وتضرب الكاتبة هنا أمثلة دقيقة على هذا، وهى فى هذا لم تجد صعوبة تذكر حيث أن هذه المسألة لا تكاد أن تكون موضع خلاف بين مختلف الكتاب والمراقبين والمحللين الذين تناولوا السيرة الذاتية للرئيس الراحل جمال عبد الناصر، بل اتفقت غالبيتهم العظمى فى معالجاتهم على نزاهة الرئيس الراحل وابتعاده عن أى شبهة فساد، فيما يتعلق بمسائل المال أو النساء أو ما شابه ذلك.



وفى ختام هذا المقال/ العرض لكتاب «ناصر» للكاتبة «آن ألكسندر»، فإنه يتعين علينا الإقرار بأن تصفح صفحات الكتاب يكشف لنا عن أن المؤلفة لم تبد أى ضغائن شخصية أو أيديولوجية أو سياسية أو ثقافية مبيتة ولم تظهر فى كتابها أنها تحمل أى تحيزات مسبقة ضد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ومشروعه السياسى والاجتماعى مصرياً وعربياً ودولياً، وهو ما انعكس فى عدم إحساسنا خلال قراءة الكتاب بأى قيم أو معايير أو مرجعيات مفروضة علينا من جانب المؤلفة عبر كتابها من منطلق «التمحور الغربى حول الذات»، ولكنها بالمقابل اتبعت مناهج عرض وتحليل متعددة التزمت بها طوال الكتاب، أحياناً متداخلة، وأحياناً أخرى مكملة لبعضها البعض، وأحياناً ثالثة كاشفة لزوايا مختلفة لنفس الحدث أو الحالة أو الظاهرة. وقد نجحت الكاتبة فى الجمع بين أكثر من منهج واحد فى الوقت نفسه بما حقق درجة متقدمة من تكامل الرؤى وتعدد الزوايا فى معالجة سيرة الرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر بما تتضمنه من أفكار ومواقف وسياسات وسلوكيات ومعتقدات وأفكار وتوجهات. وهدف هذا التعامل مع موضوع الكتاب إلى تقديم مختلف جوانب الصورة للقارئ، وبشكل يكفل درجة متقدمة من الموضوعية والإنصاف ذى العمق العلمى والأكاديمى، خاصة إذا ما أخذنا فى الاعتبار أن الكتاب صادر باللغة الإنجليزية، وبالتالى موجه فى الأساس إلى القارئ غير العربى، وبشكل أكثر تحديداً ربما نستطيع القول بأنه موجه للقارئ الغربى، أوروبياً كان أم أمريكياً.

ونلحظ بوضوح على مدار الكتاب أن المؤلفة ربما اعتمدت منهجاً قائماً على وحدة «الطبقة»، أى منهج اقتصادى/ اجتماعى، من منطلق قدر لا بأس به من التعريف اليسارى لهذا المفهوم، فى محاولتها تفسير أحداث دارت خلال حياة الرئيس الراحل، خاصة داخل مصر، بل وفى مناطق أخرى من العالم العربى، وأحياناً بشأن أحداث عالمية هامة، وهو الأمر الذى عكس من جانب الكاتبة وعياً بالأبعاد الاقتصادية والاجتماعية وأهميتها، التى قد تفوق أهمية المسائل السياسية، فى المجتمعات النامية فى بلدان العالم الثالث مثل الحالة المصرية. كما أن «آن ألكسندر» اعتمدت منهجاً موازياً معتمداً على توازنات القوى من منطلق «السياسة الواقعية»، ولكن المؤلفة لم تتجاهل العقائد والأيديولوجيات والأفكار والدور الذى تلعبه والتأثيرات التى تحدثها، وأدمجتها بشكل متجانس مع بقية المناهج التى وظفتها. كما أن المسألة الديمقراطية، وإن شغلت حيزاً من اهتمامات المؤلفة فيما بدا أنه شكل مرجعية لقياس أفكار الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وما اتبعه من سياسات وإجراءات، ولاستخلاص أحكام بشأنها، ومعيار لتقدير مدى ما حققه الرئيس الراحل إيجاباً أم سلباً، فإن قراءة الكتاب بشكل متكامل ومتوازن توضح أن المؤلفة لم تسمح بأن تستغرقها أو تستوعبها المقولات التقليدية للديمقراطية الليبرالية الغربية وإنما أدمجت الأبعاد الاقتصادية والاجتماعية والأطر الثقافية وسياق التطور التاريخى وخصوصياته للمجتمع المصرى بانتماءاته العربية والإسلامية فى الديمقراطية السياسية ومعاييرها ومتطلباتها. كذلك استخدمت الكاتبة منهجاً مرناً فى التعامل مع مسألة القومية العربية وفكرة الوحدة العربية بما لم ينغلق على ذاته فى إطار التعريفات التقليدية الغربية للقومية التى تتجاهل فى أغلب الأحوال دور الدين فى تشكيل القوميات والثقافات، بل استوعبت معطيات وخصوصيات القومية العربية ومشروعها الوحدوى بدرجة كبيرة، وإن لم تتعرض لما يقال عن دور القوى الغربية تاريخياً فى الدفع بالطرح القومى العربى. ■

بالدور الذي لعبه في انهاء الامبراطوريات الاستعمارية الحديثة، وبريادته لحركات التحرر في آسيا وأفريقيا، وبزعامته للعالم العربي، ثم بطموحه الذي أودى به في النهاية، كان عبد الناصر من أكثر الذين أثروا على السياسة الدولية في النصف الثاني من القرن العشرين. ومن ثم كانت حياته وسياساته ومعاركه موضوعا لكثير من الدراسات الأكاديمية الغربية والكتب التي نقدم هنا مثالا لها.



Britain, Nasser and the Balance of power in the Middle East,1952-1967: From the Egyptian Revolution to the Six-Day War (Cass Series-British Foreign and Colonial Policy)
Robert McNamara
Routledge, 2003, 312 pp $106.93

هذه دراسة تعد وثائقية أرشيفية لتاريخ السياسة البريطانية تجاه مصر الناصرية. تستعرض الدراسة تاريخ السياسة البريطانية في عهد حكومات تشرشل Churchill، إيدن Eden، ماك ميلان Macmillan، ويلسون Wilson. التركيز الأساسي لهذه الدراسة يدور حول أسباب الحرب الباردة الإنجليزية- المصرية Anglo-Egyptian Cold War منذ عام ١٩٥٢ إلى عام ١٩٦٧. إن الأزمات المتكررة والعداء المتبادل الذى كان يميز علاقة الحكومة البريطانية بنظام حكومة القومية العربية للرئيس المصرى السابق جمال عبد الناصر- كان يعتمد على بعض أوجه الشبه الملحوظة والمشتركة بين الحكومتين. هذا ما يذكره ماك نامارا McNamara مؤلف هذا الكتاب ويضيف أن كلا من عبد الناصر والحكومات البريطانية المتعاقبة كانت لهما طموحات توسعية إقليمية (لا تعكس بالضرورة القوة الحقيقية) التى جعلت من الصراع أمرا لا مفر منه. وكانت الطموحات الإقليمية مستندة إلى جوانب جيوسياسية متشابهة ففى مفهوم تشرشل كانت بريطانيا Britain تقف فى مركز ثلاث دوائر تتألف من امبراطورية دول الكومونولث British Commonwealth Empire، الدول الحليفة الناطقة بالانجليزية English- speaking Alliance، وأوروبا تماما كما أعلن عبد الناصر عن وقوف مصر فى مركز العالم العربى والعالم الأفريقى والعالم الإسلامى كثلاث دوائر مناظرة. روبرت ماك نامارا هو باحث وزميل للجامعة الوطنية فى أيرلندا National University of Ireland.

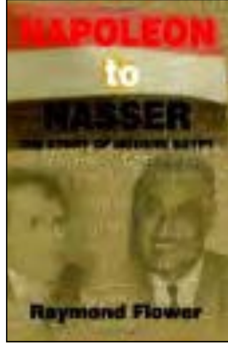
■



Nasser: The Last Arab
Said K.Aburish
Gerald Duckworth and Co Ltd 2004, 432pp $50.34

عندما يتعلق الأمر بشخصية غير عادية تكون ردود الافعال غير عادية، أثبتت الإحصاءات أن شخصية جمال عبد الناصر من أكثر الشخصيات التى تم تناول سيرتها الذاتية بالبحث والتحليل سعيا وراء إجابات تشبع حالة الاندهاش. سيد أبوريش الصحفى المقيم بلندن هو احد من تناولوا السيرة الذاتية لجمال عبدالناصر الذى كانت فترة حياته بين (١٩١٨- ١٩٧٠). يستعرض أبو ريش القصة بدءا من النداء الذى وجهه العقيد المصرى للشعب المصرى من أجل خلع ملك غير مرغوب فيه. قام ناصر بطرد بريطانيا من قناة السويس ومول بناء سد أسوان ولكن أبو ريش يقول أن عبد الناصر لم يستطع أن ينتشل مصر من التخلف والفساد والتطرف الإسلامى. يشتمل هذا العرض للسيرة الذاتية على الجوانب السياسية بشكل يغطى على الجوانب الحياتية ومع ذلك فإنه ينوه أحيانا عن عبد الناصر الزوج الصالح والأب المثالى والإنسان النزيه الرافض للفساد والذى عانى مبكرا من مشاكل فى القلب ومرض السكرى الذى عانى منه حتى وفاته عن ٥٢ عاما. يقول أبو ريش عن ناصر أنه القائد الأعظم فى المنطقة العربية منذ صلاح الدين. يمثل الكتاب محاولة لشرح متناقضات جمال عبد الناصر فيما يتعلق بالعلاقات مع أمريكا America ووكالة الاستخبارات المركزية CIA وروسيا Russia وإسرائيل Israel والجيران من العرب.

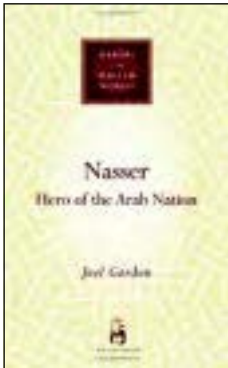
■



Napoleon to Nasser: The Story of Modern Egypt
Raymond Flower
Author House 2002,260pp $14.50

إن قصة مصر الحديثة تعد أعمق بكثير من مجرد مجموعة من الشخصيات الحاكمة ذات الألوان المختلفة. والطريقة العقلانية لاكتشاف الشخصية المصرية واختراقها لما تحت الجلد لا تتم إلا بمعرفة الضغوط التى تعرض لها المصريون. إن التاريخ مثقل بأنواع المظالم التى تعرض لها المصريون من نزع سلطة الحكم فى بلادهم من بين أيديهم وتجريدهم من ممتلكاتهم وأراضيهم على يد قوات محتلة أجنبية. لقد أوصلت الاستهانة بالمصريين الأمور إلى نقطة الانفجار التى لا تراجع فيها. منذ اللحظة التى جلب فيها نابليون أوروبا إلى مصر فى عام ١٧٩٨ فقد أثار توجهات العديد من المناطق فى العالم وساهم فى خلق وتجديد الأطماع حول هذه الأرض العريقة، كان حلم نابليون فى المجد قصير المدى ولكنه فتح الطريق ومهده لمحمد على الذى كانت مصر تمثل لديه نقطة جذب لتحقيق خريطة التوسعات التى رسمها للدولة العثمانية. كان ابنه سعيد أقل دهاء منه عندما خدعه ديليسبس بتوقيعه على امتياز قناة السويس. ثم كان الخطأ الفادح لحفيده اسماعيل والذى جلب الاحتلال البريطانى الذى كان مصدر ازدهار وأمان لملوك مثل فؤاد وفاروق وفى الوقت نفسه كان باعثا لشعور متزايد بالإحباط الشامل الذى ساد جموع الشعب المصرى. وأخيرا انطلق جمال عبد الناصر واضعا النهاية للنظام القديم وطاردا الأوروبيين من جديد لكى يتبوأ دوره ويبدأ فى الشروع فى مسيرته كزعيم وقائد للعالم العربى. من خلال هذا الكتاب الشيق قام ريموند فلاور بعرض بانوراما للأحداث منذ وصول نابليون وحتى وفاة عبد الناصر ليس فقط كمجرد وجهة نظر ورؤية لمؤرخ ولكنها أيضا رؤية رجل الشارع فى مصر، فقد عاش ريموند فترة طويلة فى مصر ولذلك كان مؤهلا تماما لتغطية أحداث تلك الفترة. كان عالما بالكثير من الشخصيات البارزة فى أيام الملك فاروق فضلا عن معرفته الخاصة بالعديد من الشخصيات الثورية فى مصر وبالتالى فلا تخفى قدرته على تقديم عرض متوازن وشامل لهذه الفترة من التاريخ الحديث.

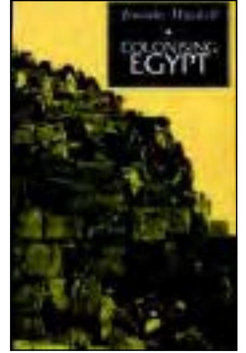
■



Nasser: Hero of the Arab Nation (Makers of the Muslim World)
Joel Gordon
Oneworld Publications, 2006, 160 pp $31.05

«يعد جمال عبد الناصر بما يمتلك من وجه تكسوه الملامح المصرية الأصيلة أول مصرى يحكم مصر منذ كليوباترا» هذه هى عبارة جويل جوردون الذى يضيف قائلا أن ناصر بعد أن قام بعزل الملك فاروق الفاسد وإلغائه للنظام الملكى وتفاوضه مع بريطانيا على انسحاب قواتها، أصبح حقا حبيبا لملايين المصريين حتى بعد وقوع كارثة حرب الأيام الستة لعام ١٩٦٧ وإحساسه بالإذلال الذى على أثره أعلن تنحيه عن منصبه وماتبع ذلك من رد فعل حميم من جانب جماهير شعبه التى انطلقت إلى الشوارع مطالبة بعودته. يدرس جويل جوردون نظام ناصر أشهر الأنظمة الأوتوقراطية ويعترف بمحاولته التزام الحياد فى هذه الدراسة بالحرص على عرض تحفظاته على النظام كحرصه على عرض نقاط القوة فيه. جويل جوردون هو أستاذ مساعد فى التاريخ الحديث والثقافة الشعبية فى جامعة ولاية أركنساس University of Arkansas وهو مؤلف كتاب حركة ناصر المباركة ضباط مصر الأحرار وثورة يوليو.

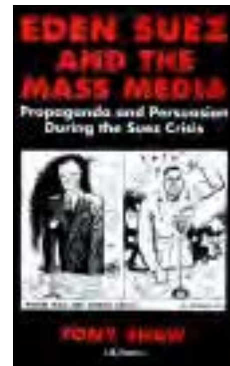
■



Colonising Egypt
Timothy Mitchell
University of California Press 1991,
230 pp $24.70

يمثل هذا الكتاب إضافة هامة وأصيلة لدراسات الشرق الأوسط ويركز على التأثير الفكرى والسياسى لأوربا على مصر فى القرن التاسع عشر من خلال الحركات الاستعمارية. ويمتد إلى دراسة حالة الرفض القاطع للمصريين لتقبل الاستعمار بأى شكل من أشكاله وتتسبب حالة الرفض هذه فى خلق أجيال من المتحمسين للوطن رافعى شعار الحرية والاستقلال، يختص الكتاب بدراسة شخصية عبد الناصر كأحد الشخصيات التى ظهرت فى القرن العشرين ممثلة علامة بارزة ورمزا يصعب تكراره.

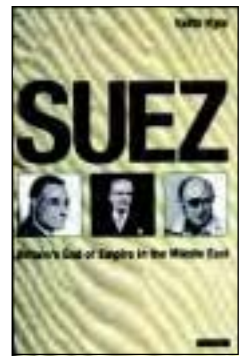
■



Eden, Suez and the Mass Media Propaganda and Persuasion During the Suez Crisis
Tony Shaw
I.B.Tauris 2009, 288 pp $28.24

يعد استخدام وسائل الإعلام فى صناعة وتوجيه الرأى العام من أقدم الأدوات المستخدمة من قبل الأنظمة السياسية. يتناول هذا الكتاب الطريقة التى استطاعت من خلالها بريطانيا استخدام وسائل الإعلام فى وقت الأزمة كوسيلة للدعاية. من خلال دراسة معركة إيدن من أجل الاستحواذ على قلوب وعقول الشعبين الانجليزى والأمريكى أثناء أزمة السويس عام ١٩٥٦. يقضى تونى شو على الأسطورة القائلة بأن هيئة الإذاعة البريطانية BBC وفليت ستريت Fleet Street كانتا مجرد مراقبين سلبيين للأحداث وأن المهمة الموكلة إليهم كانت مجرد عكس الرأى العام بصدق. يؤكد تونى شو بوثائق حكومية رسمية وبمصادر إعلامية مؤكدة عزم حكومة إيدن بذل جهود لتجهيز الرأى العام الإنجليزى والأمريكى لتقبل فكرة اتخاذ إجراء عسكرى ضد مصر وما أعقب ذلك من حرب الأعصاب التى تم شنها ضد عبد الناصر.

■



Suez: Britain's End of Empire in the Middle East
Keith Kyle
I.B.Tauris 2002, 728 pp $23.62

فى يوليو عام ١٩٥٦ قام الرئيس جمال عبد الناصر بتأميم قناة السويس وطرد المسئولين البريطانيين عن البترول وكذلك طرد مسئولى السفارة بعد أن تراجعت بريطانيا عن وعدها بتمويل مشروع بناء سد اسوان. كان تصرف عبد الناصر دافعا للكثير من الأحداث التاريخية كان أولها غزو اسرائيل للأراضى المصرية(حملة سيناء) ووجهت كل من بريطانيا العظمى وفرنسا قوات عسكرية لاستعادة السيطرة على القناة، كما أسفر التدخل من جانب الأمم المتحدة عن التوصل إلى هدنة. يقدم المؤلف عرضا عميقا لتفاصيل الأزمة ويوضح أهمية الدور الأمريكى فى إشراك الأمم المتحدة U.N.. وتوضح هذه الدراسة كيف خرج جمال عبد الناصر من هذه الأزمة بمكانة أرقى وأعلى فى العالم العربى وكيف صمد امام العدوان الثلاثى المكون من اسرائيل واثنتين من القوات الامبريالية، والكيفية التى قام من خلالها بكسر روح الاستعمار وإذكاء حلم الوحدة العربية. يكتب كايل فى شكل سردى تاريخى كيف أدى تصاعد الأحداث إلى تشكيل أزمة السويس عندما تحالفت فرنسا وبريطانيا مع اسرائيل فى محاولة لإسقاط جمال عبد الناصر وإعادة سيطرتها الاستعمارية فى الشرق الأوسط. يبحث المؤلف صعود إيدن إلى القيادة السياسية فى بريطانيا العظمى وينتقل إلى تآكل القيادة السياسية فى بريطانيا وفى الوقت نفسه يبحث التطورات فى بلدان رئيسية أخرى هى فرنسا والولايات المتحدة وإسرائيل ومصر. فى لغة حية وأسلوب واضح يلقى المؤلف الضوء على الأحداث. هذا الكتاب يعد مرجعا جيدا لفهم أفضل لتطورات الحرب الباردة واستمرار الاحباط السياسى فى العالم العربى.

■



Containing Arab Nationalism: The Eisenhower Doctrine and The Middle East (The New Cold War History)
Salim Yaqub
The University of North Carolina press
2006, 408 pp $24.26

تعهدت الولايات المتحدة بموجب مبدأ آيزنهاور بتقديم المزيد من المعونات الاقتصادية والعسكرية للدول الراغبة فى ذلك فى الشرق الاوسط وتعهدت أيضا بتوفير الحماية- من خلال قوات عسكرية أمريكية إذا لزم الأمر- والسلامة الإقليمية لهذه الدول وحماية استقلالها السياسى من تهديد الشيوعية الدولية International Communism يقول سالم يعقوب أنه على الرغم من أن الهدف الرسمى المعلن للولايات المتحدة كان حماية الشرق الأوسط من التعدى السوفيتى إلا أن مبدأ آيزنهاور كان ينطوى على مهمة غير معلنة وهى احتواء النزعة القومية الراديكالية العربية للرئيس المصرى الراحل جمال عبد الناصر الذى كان يعتبره آيزنهاور وكيلا غير متعمد للتوسع السوفيتى. من خلال تقديم العون والحماية كانت إدارة آيزنهاور تأمل فى اقناع غالبية الحكومات العربية بالإنحياز إلى الغرب فى الحرب الباردة. وبالتالى عزل عبدالناصر وتقليل احتمالات أن يقع الشرق الأوسط تحت سيادة الاتحاد السوفيتى. يستخدم سالم يعقوب مجموعة واسعة من المصادر الأرشيفية السرية المصرية والأمريكية والإنجليزية لاستعراض الجهود الديناميكية والشاملة التى قام بها آيزنهاور لمواجهة ومقاومة الافتتان بالناصرية فى جميع أنحاء الشرق الأوسط. وفى تحد للتفسيرات التى تؤكد وجود تنافر ثقافى وقيم متضاربة بين الولايات المتحدة والعرب وما كان لذلك من أثر على العلاقات بينهم يقول يعقوب إن الخلاف السياسى بين الولايات المتحدة والحركة الناصرية كان واقعا ضمن إطار أخلاقى مشترك، هذا النمط الذى لا يزال يصف الاختلافات الموجودة بين الولايات المتحدة والعرب فى الوقت الراهن.

■



A Revolutionary Year: The Middle East in 1958 (Library of Modern Middle East Studies)
Roger Owen،Wm.Roger Louis
I.B.Tauris,2002, 256 pp $ 87.00

يعد هذا الكتاب مرجعا قيما لكل من له اهتمامات جدية بالتاريخ الحديث للمنطقة العربية والشرق الأوسط فى عام ١٩٥٨ عندما كان الشرق الأوسط والعالم العربى يمران بأزمة تاريخية حيث كانت لبنان فى حالة اضطراب مدنى وكانت الثورة قائمة فى العراق وكان البادى على العالم العربى هو محاولته الانشقاق على الغرب والانضمام إلى العالم الشيوعى. يحتوى الكتاب على مجموعة من المقالات تتناول المسائل التى أثارتها أحداث هذا العام والنتائج التى ترتبت عليها.

■

النـــشــــ

■■ فى صباح يوم ٢٧ يناير الماضى، أى منذ دهر بمعايير عالم التكنولوجيا، كان على ستيف جوبز الظهور فى مركز يربا بوينا للفنون، فى وسط مدينة سان فرانسيسكو، لكشف النقاب عن جهاز أبل الجديد، الـ«آى باد». وعلى الرغم من التكهنات الضخمة حول الجهاز، كان عدد قليل من الجمهور يعرف اسمه ووظيفته بالضبط، وكانت التوقعات التى تسود الغرفة فى حجم آمال الجحافل التى تصطف خارج كهف لورد[١]. انتظر مئات من الصحفيين والضيوف، بما فى ذلك آل جور، يويو ما[٢]، وروبرت إيجر، الرئيس التنفيذى لشركة ديزنى، ملتفين حول المسرح، فى انتظار جوبز ليظهر. وكان ينبعث من السماعات مزيج من أغانى بوب ديلان[٣]. خفت الصوت مع إضاءة خشبة المسرح ليظهر جوبز، وسط تصفيق الحشود.

Ken Auletta has written Annals of Communications columns and profiles for The New Yorker magazine since 1992. He is the author of eleven books, including: Three Blind Mice: How the TV Networks Lost Their Way; The Highwaymen: Warriors of the Information Super Highway; andGoogled, The End of the World As We Know It.

بترتيب مع
The NewYorker

ترجمة جيهان شعبان

فى الأسابيع التى سبقت هذا اللقاء، كانت صناعة الكتاب كلها أمل وتفاؤل غير معهود؛ وأشير للجهاز، فى بعض دوائر النشر، باسم «حبة يسوع». كانت الصناعة فى أمس الحاجة لمنقذ. فبين عامى ٢٠٠٢ و٢٠٠٨، لم تزد المبيعات السنوية إلا بنسبة ١.٦٪ فقط، وكانت هوامش الربح آخذة فى الانكماش. ومثل غيرها من الصناعات التى تشق طريقها بصعوبة، خفض الناشرون النفقات والدعاية وسرحوا المحررين، وأعطوا فرصا أقل للكتاب غير المشهورين.

كان أمل الصناعة الأكبر، هو قيام الـ«آى باد» بتوصيل الكتب الإلكترونية للجماهير والمساعدة فى جعلها مربحة. فالكتب الإلكترونية فى ازدهار. على الرغم من أنها لا تمثل سوى ما يقدر بـ٣-٥ فى المائة من السوق، ازدادت مبيعاتها ١٧٧٪ فى عام ٢٠٠٩، وكان من المتوقع أن تمثل فى نهاية المطاف ما بين ٢٥ و٥٠٪ من كل مبيعات الكتب. ولكن دور النشر كانت قلقة من أن يؤدى انخفاض الأسعار لتقليل الربح. حيث تشترى مكتبة أمازون، العديد من الكتب الإلكترونية من الناشرين بحوالى ١٣$ وتبيعها بـ٩.٩٩$، مع خسارة فى كل كتاب من أجل الحصول على حصة أعلى من السوق ولتشجيع مبيعات جهاز القراءة الإلكترونية، كيندل. وبحلول نهاية العام الماضى، استأثرت أمازون بـ٨٠٪ تقريبا من مجموع مبيعات الكتب الإلكترونية، وبدا أنه تم الاعتراف بمبلغ الـ٩.٩٩ $ كسعر للكتاب الإلكترونى فذعر الناشرون. قال ديفيد يونج، رئيس مجلس الإدارة والرئيس التنفيذى لمجموعة هاشيت للكتاب بالولايات المتحدة الأمريكية: «تسعيرة الـ٩.٩٩ $ هى الهم الأكبر، وهى هم هائل، لأنها سمحت بأن يترسخ فى ذهن المستهلك أن الكتاب يستحق عشرة دولارات، فى رأيى، هذه هى نهاية هذه الصناعة».

فى مركز يربا بوينا، استغرق الأمر بعض الوقت لأن يذكر جوبز الكتب، وعندما فعل قال إن «أمازون قامت بعمل عظيم» مع جهازها كيندل. وأضاف «سنقف على أكتافهم لنصل أبعد قليلا مما وصلوا إليه». ربما كان من الأصح القول أن جوبز خطط للوقوف على عنق أمازون والضغط عليها بكل قوته، وسط تصفيق الناشرين. يعد قرار الدخول فى مجال النشر انقلابا بالنسبة لجوبز، الذى قال قبل عامين إن صناعة الكتاب غير قابلة للإنقاذ. فقد قال: «لا يهم مدى سوء أو جودة المنتج، الحقيقة أن الناس لم تعد تقرأ». «لقد قرأ أربعون فى المائة من سكان الولايات المتحدة كتابا واحدا أو أقل فى العام الماضى». ولكن رغم أن قراءة الكتب تأتى فى ترتيب متأخر على قائمة الأشياء التى يمكن للـ«آى باد» القيام بها، فإنها تظل على القائمة، مما يعنى أن أمازون قد أصبحت منافسا. قال مستشار لجوبز أن «هناك سخونة شديدة بين أبل وأمازون وجوجل». وقال مصدر مطلع فى أبل أن «ستيف يكن احتقارا للجميع، ما لم يسيطر عليهم». «إنه يعتقد أن أمازون غبية، وأنها ارتكبت خطأ رهيبا بإصرارها على تسعير الكتب بـ٩.٩٩$».



على خشبة المسرح، أوضح جوبز انه سيُعرض أمازون ومديرها التنفيذى، جيف بيزوس، لتحد خطير. وقال للحشد إن خمسة من «الناشرين الستة الكبار» قد وافقوا على بيع كتبهم الإلكترونية من خلال منفذ أبل للكتب الإلكترونية، الذى سيفتتح فى أبريل. وقال إن أبل، قد تمكنت، من خلال متاجرها الإلكترونية وبرنامج آى تونز iTunes[٤]، من الوصول إلى ١٢٥ مليون بطاقة ائتمان، ستسهل على المستهلكين شراء الكتب بضغطة زر. وبدا بوضوح أن الـ«آى باد» يعد جهازا أكثر تنوعا: حيث أنه يتيح استخدام الألوان والصوت والفيديو، فى حين أن كيندل لا يتيح سوى عرض النصوص بالأبيض والأسود فقط.

كان انتهاء جوبز من عرضه، إيذانا بانتقال الضيوف إلى مبنى مجاور لاختبار الـ«آى باد». وكان من بين الضيوف كارولين ريدى، الرئيس والمدير التنفيذى لسايمون أند شوستر. بابتسامة عريضة،

ـــــر... أو المـــــوت!!

Publish or Perish



هل يمكن للـ iPad أن يطيح بالقارئ الإلكترونى كيندل Kindle، وينقذ صناعة الكتاب؟

كيـن أوليـتـا
Ken Auletta

قالت ريدى، «إنه رائع! أريد واحدا!» وقالت إنها تأمل أن يتيح الجهاز الجديد « الكتب الرقمية لـ١٢٥ مليون شخص». وأضافت أن من شأنه أيضا أن «يخلق منافسا» لأمازون، ويوفر للناشرين القدرة على رفع سعر الكتب عن العشرة دولارات.

دار جوبز حول الغرفة، ليتوقف عند واحدة من الطاولات العديدة المكدسة بالـ«آى باد» لإجراء محادثة مع والت موسبرج، كاتب عامود متخصص فى التكنولوجيا فى جريدة الوول ستريت جورنال. وعلى خشبة المسرح، وقف جوبز، يشرح كيف ستقوم أبل ببيع الكتب؛ اختار كتاب إدوارد كينيدى «البوصلة الحقيقية»، وقام بالنقر على أيقونة «شراء» وإلى جانبها سعر ١٤,٩٩$. سأل موسبرج، لماذا سيقوم المستهلكون «بدفع ١٤,٩٩$ لأبل بينما يمكنهم شراء الكتاب نفسه من أمازون بـ٩,٩٩$؟».

رد جوبز «لن يكون الأمر كذلك». وأضاف بثقة زائدة «سوف يكون الثمن متساويا». طلب موسبرج منه التوضيح. لماذا سترفع أمازون الأسعار، فى الوقت الذى يقوم فيه المستهلكون بشراء عدد كبير من الكتب؟». رد جوبز «لأن الناشرين قد يحجبون كتبهم عن أمازون.. فهم مستاءون».

فى اليوم التالى، وكان يوم جمعة، طار جون سارجنت، المدير التنفيذى لماكميلان (تكتل ناشرين يضم فارار، وستراوس وجيرو، وسانت مارتن بريس)، من نيويورك إلى سياتل للاجتماع مع أمازون. ماكميلان هو الأصغر من بين الناشرين الستة الكبار، الذين يقومون بنشر ٦٠٪ من مجموع الكتب التى تباع فى الولايات المتحدة. وعلى غرار نظرائه، يعتمد ماكميلان اعتمادا كبيرا على أمازون، التى تبيع نحو ١٤٪ من كتبه والغالبية العظمى من كتبه الإلكترونية. لكن سارجنت كان مصمما على إجبار أمازون على تغيير طريقتها فى العمل.

تقليديا، يبيع الناشرون الكتب للمتاجر، بسعر جملة يساوى ٥٠٪ من سعر الغلاف. ويحصل الكُتّاب على حوالى ١٥٪ من سعر الغلاف مقابل حق التأليف. يمكن حساب نسخة مبسطة من تكاليف أحد الناشرين على النحو التالى: بالنسبة لكتاب جديد ثمنه المطبوع على الغلاف ٢٦$، يحصل الناشر عادة على ١٣$. ويحصل الكاتب على حق تأليف مساو لنحو ١٥٪ من سعر الغلاف، أى حوالى ٣,٩٠$. وربما يذهب ١,٨٠$ مقابل تكاليف الورق والطباعة والتجليد، ودولار للتسويق و١,٧٠$ للتوزيع. يجب أن يكفى المبلغ المتبقى وقدره ٤,٦٠$ لدفع الإيجار، وأجور المحررين، وموظفى المبيعات، وتسديد أى دفعات لم تسدد للكاتب. وتقوم المكتبات بإعادة حوالى ٣٥٪ من الكتب التى اشتروها، ليتحمل الناشرون تكلفة إنتاج هذه الكتب. النتيجة تكون هوامش ربح ضئيلة.

على الرغم من كون هذا الوضع أقل من مثالى، فقد استمر، بشكل أو بآخر دون تغيير، على مدى عقود. لتضع الكتب الإلكترونية النظام برمته موضع تساؤل. فإذا لم يكن هناك كتاب ملموس، كيف يمكن تحديد السعر؟ اتفق معظم الناشرون، مع قدر من عدم الاقتناع، على إعطاء الكتاب ٢٥٪ مقابل حق التأليف، وبدءوا سلسلة طويلة من المفاوضات مع أمازون حول التسعير. لعدة أشهر قبل زيارة سارجنت، كانت دور النشر تتحدث عن فرض «نموذج للوكالة» للكتب الإلكترونية. وفقا لنموذج من هذا القبيل، يمكن اعتبار الناشر هو البائع، أما من يقوم بالبيع عن طريق الإنترنت مثل أمازون، فيكون بمثابة «وكيل» مقابل ٣٠٪. حتى الآن، لا يبدو أن أيا من الناشرين اعتقد أنه يمكنه التحرك بمفرده، أما إذا قاموا بتقديم طلب مشترك لأمازون، فيخشى أن يتعرضوا للاتهام بتحديد الأسعار والتواطؤ.



فى سياتل، اجتمع سارجنت مع روس جراندينتى، نائب الرئيس المسئول عن محتوى كيندل، وقال له أنه فى حالة عدم قبول أمازون لنموذج الوكالة، سيقوم ماكميلان بسحب كتبه الإلكترونية. كان سارجنت يوجه إنذارا: فقد بنت أمازون أعمالها على الشمولية، فإذا قام ماكميلان بسحب كتبه، لن تعود قادرة على الادعاء بأنها أفضل متجر لبيع الكتب فى العالم. لم تستجب أمازون كما أمل سارجنت. وقبل نزوله من الطائرة، عائدا إلى نيويورك، فى مساء يوم الجمعة ذاته، كان قد أوقف بيع جميع كتب ماكميلان. ولكن، كما ألمح جوبز، كانت أربع دور نشر كبرى أخرى هى: سايمون أند شوستر، وهاربر كولينز، وبنجوين، وهاشيت، تخطط بهدوء لتحذو حذو سارجنت. بعد ظهر يوم الأحد، عكست أمازون مسارها، وأعلنت على موقعها على الإنترنت «سيكون علينا الاستسلام وقبول شروط ماكميلان لأن ماكميلان يحتكر الكتب التى يقوم بنشرها، ونحن نريد أن نقدمها لكم حتى بأسعار نعتقد أنها مرتفعة بلا داع بالنسبة للكتب الإلكترونية».

كان هذا بيانا خفيا نوعا ما، ألا تحتكر كل شركة المنتجات الخاصة بها؟ فسر الناشرون ما حدث بطرق مختلفة. قال أحد التنفيذيين أن أمازون استسلمت من أجل إظهار أن «التسعير كان خارجا عن إرادتها»، وهذا يعنى، إلقاء اللوم على الناشرين لارتفاع الأسعار. وقال رئيس دار نشر آخر، «كانت أمازون متقدة بالغضب. تحولوا لأنهم عرفوا أنه إذا ما سحب جميع الناشرين كتبهم لكانت النهاية بالنسبة لأعمال أمازون. أيا كان التفسير، كان إعلان أمازون خبرا سارا بالنسبة للناشرين. أطلق جون سارجنت على المفاوضات مع أمازون «لعبة الشطرنج»، ويبدو أنه فاز بالمناورة الافتتاحية.

النـــشـــــــر... أو المـــــــوت!!



رغم نجاح تكتيكات سارجنت، بدا على الناشرين أنهم غير متأكدين من قدرتهم على الاستمرار. قال لى رئيس واحدة من دور النشر الكبرى: «لست متأكدا من أن (نموذج الوكالة) هو أفضل». فقد يجمع الناشرون أموالا أقل بهذه الطريقة؛ حوالى ٩$ للكتاب، بدلا من ١٣$. كانت المفاضلة غير جذابة؛ التنازل عن بعض الربح من أجل تحديد الحد الأدنى للسعر. قال أحد الناشرين «أجبرتنا أمازون على ذلك». «لقد اختاروا فعل شىء غير منطقى، خسروا المال من أجل الحصول على الاحتكار. وكان ذلك تدميرا للناشرين وتجار التجزئة والمؤلفين. هذا هو ما جلبوه على أنفسهم».

يحيا النشر فى حالة مستمرة من التنبؤ بالزوال؛ ففى واحدة من دور النشر الكبرى، هناك نكتة رائجة تقول أن ثانى كتاب نشر فى جوتنبرج برس كان عن نهاية صناعة النشر. انشغال الناشرين بأمازون يذكرنا بمخاوفهم من بارنز ونوبل، التى بدأت فى الثمانينيات إنتاج الكتب الخاصة بها، مما سبب للناشرين قدرا كبيرا من القلق دون أن يؤثر ذلك كثيرا على أعمالهم. خلافا لبارنز أند نوبل، تولد أمازون أكثر من نصف إيراداتها، التى تبلغ قيمتها حوالى ٢٥ بليون دولار سنويا، من منتجات أخرى غير الكتب.يعتقد كثير من الناشرين أن أمازون تنظر للكتب باعتبارها مجرد سلعة أخرى للبيع بأرخص سعر ممكن، وأنها تعتبر الناشرين كعنصر يمكن الاستغناء عنه. قال مدير إحدى دور النشر: «لا تنس أن بيزوس قد أعلن عن وفاة الكتب والمكتبات المادية».

افتتحت أمازون دوت كوم أعمالها فى سياتل فى يوليو ١٩٩٥. وعلى الرغم من نشاط المبيعات، استغرق الأمر سبع سنوات كاملة لتوليد الأرباح، بينما تبارى المحللون فى توقع انهيارها. إلا أن بيزوس تجاهل الانتقادات. وعندما طلب منه تشارلى روز، فى عام ٢٠٠٩، أن يصف أبرز مواهبه، لخص الأمر فى التركيز على المدى الطويل و«الاستعداد لأن يساء فهمى». مثل غيرها من شركات الإنترنت الناجحة، أكدت أمازون على كسب ثقة المستهلكين. قال بيزوس مرات عديدة: «رؤيتنا هى أن نكون أكثر شركة تركز على إرضاء العملاء فى العالم»، وجزء من رضاء المستهلكين يعود إلى انخفاض الأسعار؛ باعت أمازون العديد من الكتب، ولاسيما أكثر الكتب مبيعا، بسعر يزيد قليلا عن سعر الجملة، أو حتى بالخسارة. ويعتقد بيزوس، أن انخفاض الأسعار، سيؤدى على المدى الطويل، إلى توسيع حصة أمازون فى السوق، وزيادة أرباحها وسعر أسهمها.

كان لأمازون تأثير عميق على أعمال الناشرين، بخلق مكان موثوق به، يمكن للعملاء العثور فيه على الكتب التى لم يعد يروج لها فى المتاجر. تعتبر هذه الكتب القديمة التى تباع بفاعلية مع مرور الوقت، أمرا حيويا لدور النشر. فى دار رندم للنشر، تأتى أكثر من ٥٠٪ من الإيرادات من كتب مثل «النبى» و«إتقان فن الطبخ الفرنسى»، التى توفر أرباحا ثابتة تسمح بجعل الناشرين أكثر ميلا للمغامرة والمقامرة على الكتب الجديدة. قال ديفد يونج من دار هاشيت للنشر أنه مع أمازون، «يستطيع الناس العثور على الكتب القديمة». «لم يعد عليك بعد الآن أن تأمل أو أن تصلى لكى تجد كتابا معينا على الرف». وقالت كارولين ريدى أنه فى فترة تبلغ ثلاثة أشهر يتم عبر الإنترنت فى العادة بيع نسخ من ٢٥٠٠ عنوان لسايمون أند شوستر، لم تعد المكتبات تحتفظ بها.

كان بيزوس قد ابتكر طريقة أكثر فعالية لشراء الكتب. ومع وصول الكتب الإلكترونية، بدأ التفكير فى طرق لإحلال الورق تماما. كان للكتب الإلكترونية مزايا لا يمكن إنكارها بالنسبة للناشرين. فمعها لن يكون هناك المزيد من العوائد ورسوم التخزين، ونفقات الطباعة، أو تكاليف الشحن. إلا أن العقبة كانت أن لا أحد يعرف كيف ينبغى قراءة الكتب الإلكترونية. لم تكن شاشات الكمبيوتر قابلة للحمل بالقدر الكافى، وبالنسبة لكثير من القراء كانت الهواتف المحمولة صغيرة جدا. وبذلك ظلت الكتب الإلكترونية سوقا متخصصة، وفى الغالب مهملة من قبل الناشرين الكبار.

فى أواخر عام ٢٠٠٧، أصدرت أمازون جهاز كيندل، الذى قدم صورة زائفة لائقة للصفحات المطبوعة، والذى كان بإمكانه تحميل كتاب كامل لاسلكيا فى ستين ثانية. قال آرثر كليبانوف، المؤسس المشارك والمدير التنفيذى لدار نشر الكتب الإليكترونية روزيتا بوكس، إنه بمجرد أن أصبح كيندل متاحا، «استغرق الأمر من أمازون تسعين يوما من يوم انطلاق الجهاز لتحقيق إيرادات، عن كتبى القديمة الـ١٠٠، تفوق ما أحققه من كل منصات التوزيع الأخرى مجتمعة». ويقدر عدد أجهزة كيندل المستخدمة الآن بنحو ثلاثة ملايين جهاز، ويوجد على أمازون قوائم لأكثر من ٤٥٠ ألف كتاب إلكترونى. وإذا كان نفس الكتاب متوفرا فى صورة ورقية وإلكترونية، تقول أمازون، أن ٤٠٪ من عملائها يطلبون النسخة الإلكترونية. ويقول روس جراندينتى، نائب رئيس أمازون، أن كيندل زاد من مبيعات الكتب فى كل مكان. «فى المتوسط»، كما يقول، يشترى مستخدمى كيندل «٣,١ ضعف عدد الكتب التى كانوا يشترونها منذ اثنى عشر شهرا».

إلا أن الناشرين أدركوا أيضا التشابه بين إستراتيجية أمازون، وتلك الخاصة بأى تيونز. قال أحد الناشرين: «أحصل على حصة من السوق، وعندما تسبق الجميع يكون من الصعب اللحاق بك. كانت لعبة بيزوس، مثل جوبز من قبله، تتلخص فى الحصول على الجهاز وتوزيع ما بين ٨٠ إلى ٩٠٪ عليه، للفوز باللعبة».



ما يطبق حتى الآن، هو قياس على صناعة الموسيقى. ما فعله أى تيونز هو إحلال الاسطوانة باعتبارها الوحدة الأساسية للتجارة، فبدلا من الاضطرار لشراء ألبوم كامل للحصول على الأغنية التى تريدها فعلا، يمكنك شراء الأغنية بمفردها. لكن لا أحد، مع الاستثناء المحتمل للطلبة، يريد شراء فصل واحد من معظم الكتب. أما قلق الناشرين الحقيقى فهو أن السعر المنخفض للكتب الرقمية سوف يدمر المكتبات، عملاءهم الأوليين. فتحت ثقل الإيجار والكهرباء وغيرها من التكاليف، يصبح من غير المحتمل أن تقدم المتاجر المبنية بالطوب والمونة الأسعار التى يمكن أن تتنافس مع أسعار بائعى الانترنت. قالت روكسان كوادى، التى تملك أرجى جوليا بوكسيلرز، إضافة إلى مكتبة مستقلة فى ماديسون، بكونيكتيكت: «قطاع بيع الكتب يشبه، فطيرة قطرها ثمانى بوصات، يتوالى غرز المزيد من الشوك فيها. كانت السلاسل هى أول شوكة بالنسبة لنا، وانخفاض معدلات القراءة كانت الشوكة الثانية. وكانت أمازون هى الشوكة الثالثة. أما الشوكة الحالية فهى التنزيلات الرقمية».

وفقا لرابطة بائعى الكتب الأمريكية، انخفض عدد المكتبات المستقلة من ٣٢٥٠ إلى ١٤٠٠ مكتبة منذ عام ١٩٩٩؛ وتمثل مبيعات المكتبات المستقلة الآن ١٠٪ فقط من إجمالى المبيعات. بينما تستحوذ سلاسل مثل بارنز ونوبل وبوردرز على حوالى ٣٠٪ من السوق، وتساوى حصة المتاجر العملاقة مثل تارجتس وول مارت، إلى جانب أندية مثل كوستكو ٤٥٪، على الرغم من أنها تعرض فى العادة عددا قليلا من العناوين. يتعرض الناشرون نتيجة لذلك، على غرار استوديوهات هوليوود، لضغوط هائلة لخلق المزيد من الأعمال الناجحة، كتب مثل Twilight «الشفق»، وعدد أقل من الروايات المحلية الهادئة أو الكتب القيمة عن الفقر أو السياسة التجارية.

محلات بيع الكتب، خاصة المكتبات المستقلة، تعمل على مقاومة هذا الاتجاه من خلال مناصرة الكتاب الذين يؤمن بهم الموظفون. يقول جوناثان بورنهام، النائب الأول للرئيس وناشر هاربر كولينز: «فى محل لبيع الكتب، هناك عنصر سار هو المشاركة فى التصفح». «المكتبات المستقلة تكون بمثابة مركز اجتماعى. نسير فيها ونعرف الناس الذين يعملون هناك، ونود أن نسمع توصياتهم بالقراءة».

ولكن تكلفة الحفاظ على الموظفين المطلعين وعلى مساحة للتصفح تساهم فى ارتفاع الأسعار، التى لا يرغب الكثير من المستهلكين فى دفعها. يباع كتاب من أكثر الكتب مبيعا مزود بغلاف مقوى بـ١٧$ فى أمازون دوت كوم بينما يصل سعره فى العادة لـ٢٨$فى محل لبيع الكتب. قال مستشار أبل، «تتيح الانترنت كل شىء، بأرخص الأسعار. أقارن المكتبات بمحلات الفيديو قبل عشر سنوات. الآن أستخدم نتفليكس[٥] أو أقوم بتحميل الأفلام». من المفهوم أن المشترين يريدون مميزات الموقع الإليكترونى، والعلاقة الحميمة المتاحة فى المكتبات. إلا أن هذا يلزم الناشرين بإدارة نوعين من الأعمال فى وقت واحد: دار نشر تقليدية تبيع رزم الكتب للمكتبات ودار نشر إليكترونى تبيع الكتب الرقمية على الإنترنت. ويقول بيرنهام: «أعتقد أن المستهلكين، مثلهم مثل الناشرين، يعيشون فى عوالم متوازية». «تعود المستهلكون على الحصول على أعداد كبيرة من الخيارات. مازالوا يحبون الذهاب للمكتبات، فى حين يريدون كل شىء متاحا على شبكة الإنترنت أيضا».

تيم أوريلى، مؤسس والمدير التنفيذى لأوريلى ميديا، التى تقوم بنشر حوالى ٢٠٠ كتاب إلكترونى فى السنة، يعتقد أن النموذج القديم للناشرين (معيب من أساسه). وأضاف «إنهم يعتقدون أن المكتبات هى زبائنهم». «لا يبنى الناشرون أبدا البنية التحتية اللازمة للاستجابة للعملاء». بدون المكتبات، سيستغرق الأمر سنوات حتى يعرف الناشرون كيفية بيع الكتب مباشرة للمستهلكين. لا يقومون

يقول روزنتال أن الـ«آى باد»: «قد يفتح الباب أمام احتمال التعامل مع كتاب غير ثابت. فهو يتيح إمكانيات هائلة»



بأبحاث للسوق، لديهم بيانات قليلة عن عملائها، وليس لديهم أى خبرة فى مجال تجارة التجزئة المباشرة. مع الاستثناء المحتمل لهارلكوين رومانس وكتب بنجوين للجيب، لا توجد رابطة خاصة بين القراء وأى ناشر؛ فى مجال الكتاب، المؤلف هو العلامة التجارية. لجذب المستهلكين، يجب على الناشرين بناء موقع إليكترونى تعاونى لبيع الكتب الإلكترونية، وهى فكرة جايسون إبستين، مدير التحرير السابق لراندوم هاوس، روج لها لسنوات دون نجاح. ولكن، حتى إذا وضعنا جانبا صعوبات تعلم كيفية تشغيل تجارة تجزئة، قد يواجه مثل هذا الموقع مشاكل مع بروتوكول مجلس الأمن، هذا إذا لم تقم أمازون باتهام الناشرين بتحديد الأسعار أولا.

يبدو أن محلا للكتب الإليكترونية يوفر الحل، وهو ما يساعد على تفسير سبب توقيع خمسة من الناشرين الستة الكبار من دون أى تردد واضح. العقبة الوحيدة كانت راندوم هاوس، أكبر الستة الكبار. قال ماركوس دوهل، رئيس مجلس الإدارة والمدير التنفيذى، إنه يشاطر القلق بشأن أسعار الكتب الإلكترونية ولكنه يعتقد أن الناشرين تسرعوا فى تبنى نموذج للوكالة مع آبل أو أمازون. وأضاف: «سيستغرق التحول الرقمى من ٥ إلى ٧ سنوات. «بالنسبة لى هى ليست مسألة أسبوع، أو مائة يوم».

بزغ دوهل، ٤١ سنة، فى منصب تنفيذى فى مجال الطباعة فى برتلسمان إيه جى، الشركة الأم لراندوم هاوس، وانتقل إلى الولايات المتحدة فى عام ٢٠٠٨. وأعرب عن اعتقاده بأنه يستطيع أن يرى من الخارج التحديات التى تواجه هذه الصناعة بشكل أكثر وضوحا». وأضاف: «إذا كنت تريد اتخاذ القرار الصحيح فى المستقبل، فإن الخوف ليس بالمستشار الجيد». قبل القبول «بتغيير جوهرى فى نموذج الأعمال التجارية»، يريد أن يأخذ وقته «لإجراء محادثات مع جميع شركائنا»، بما فى ذلك الكُتاب، الوكلاء، والمكتبات. «بالنسبة لنا فى صناعة النشر»، يقول: «كانت أمازون العميل الأسرع نموا. أعتقد أنها شركة عظيمة». وهو يرحب بدخول آبل إلى عالم النشر الإلكترونى، ولكنه يقول: «إذا قمت بعقد صفقة مع شركة آبل وفقا لنموذج الوكالة، فإن ذلك يعنى أن عليك القيام بصفقات وكالة مع جميع المكتبات الإلكترونية الأخرى».

مايكل شاتكنز المدير التنفيذى لأيديا لوجيكال، وهى شركة استشارات إعلامية، يعتقد أن راندوم هاوس متمسكة بالحصول على صفقة أفضل. وكذلك يعتقد الكثير من أقرانه فى دوهل. لكن شاتكنز، الذى يكتب مدونة عن النشر، أشار على مدونته أن عن طريق الحفاظ على الوضع الراهن، أى بيع الكتب الإلكترونية لأمازون بأسعار الكتب الورقية وترك أمازون تخسر، ستستفيد راندم هاوس استفادة قصوى فيما يخص المبيعات والأرباح على المدى القصير. فقد كتب: «ستحصل راندوم هاوس عن كل كتاب إلكترونى يباع على مبلغ يفوق ما قد يجمعه أى من منافسيها فى حين أن الجمهور سوف يقوم بدفع مال أقل عن كل كتاب إلكترونى من راندوم هاوس».



قاومت دوهل أيضا الـ«ويندووينج» ممارسة تأخير الإفراج عن الكتب الإلكترونية، والتى أصبحت شائعة بين الناشرين الآخرين. ويندووينج ليست بالفكرة الجديدة؛ فقد حجب الناشرون طويلا الكتب القديمة لتشجيع مبيعاتها، وفى صناعة السينما، غالبا ما تظهر أقراص الفيديو الرقمية بعد عام من العرض السينمائى. ولكن استخدام هذا الأسلوب مع الكتب الإليكترونية يمكن أن يعمل ضد مصالح المؤلفين والناشرين. ففى ١١ يناير، أصدرت دار هاربر كولينز الطبعة الورقية من Game Change «تغيير اللعبة» تأليف جون هاليمان ومارك هالبرين، ولم تطرح النسخة الإليكترونية للبيع حتى ٢٣ فبراير. فى البداية تمت طباعة ٧٠ ألف نسخة ورقية، سرعان ما نفدت بعد طرحها فى الأسواق بقليل، وظلت المكتبات، فى جميع أنحاء البلاد، لما يقرب من ثلاثة أسابيع دون أى نسخة. فحرم المؤلفان والناشر من الدخل، بما أن القراء المحتملين قد اشتروا كتبا أخرى.

يعتقد روس جراندينتى من أمازون أن «الويندووينج» خطأ فادح. ويقول أنه «لا ينجح». «مع مرور الوقت، سوف يقرأ الناس ما يريدون. وعندما يطرح كتاب ما، يحتاج المؤلفون إلى كل الدعاية التى يمكن أن يحصلوا عليها. وضع عائق تعسفى وإبقاء الكتاب بعيدا عن أيدى شخص قد يناصر هذا العمل هو بالتأكيد قرار تجارى سيئ بالنسبة للمؤلف. ناهيك عن إحباط العملاء».

ووفقا لجراندينتى، يطرح الناشرون الأسئلة الخطأ. حيث يقول: «التنافس الحقيقى، لا يكون فى رأينا، بين الكتاب الورقى والكتاب الإليكترونى». «التلفزيون والأفلام وتصفح الإنترنت وألعاب الفيديو تتنافس جميعا على وقت الناس الثمين. وإذا لم يكن الكتاب منافسا جيدا، نعتقد أنه مع مرور الوقت سوف تعانى هذه الصناعة. انظروا إلى أسعار السلع الرقمية الأخرى. لقد قرأت الصحف هذا الصباح عبر الإنترنت، ولم يكلفنى ذلك شيئا. انظروا إلى أسعار استئجار الأفلام. انظروا إلى سعر الموسيقى. من نواح كثيرة، يعد تعويد الزبون على دفع عشرة دولارات مقابل كتاب إليكترونى إنجازا كبيرا».

من وجهة نظر جراندينتى، يرتكب الناشرون مثل غيرهم من التنفيذيين فى المجالات الإعلامية الأخرى، نفس الخطأ الذى ارتكبته شركات السكك الحديدية منذ أكثر من قرن من الزمان: فقد كانوا ينظرون لأنفسهم باعتبارهم يعملون فى مجال القطارات بدلا من كونهم يعملون فى قطاع النقل والمواصلات. ولتتمكن صناعة النشر من الازدهار، جراندينتى يعتقد، أن على الناشرين إعادة تصور الكتاب كواحد من الوسائط المتعددة الترفيهية. يقول ديفيد روزنتال، ناشر سايمون آند شوستر، أن شركته تتسابق «لتضمين الصوت والفيديو وغيرها من المزايا ذات القيمة المضافة فى الكتب الإلكترونية. يمكن أن يكون ذلك عبارة عن حوار لمؤلف يناقش كتابه، أو مقطع من فيلم يتناول موضوع الكتاب». ويعمل الناشرون الرئيسيون الآخرون على مشاريع مماثلة، يجربون الموسيقى والفيديو واللقطات الإخبارية، والرسوم المتحركة. ويأمل الناشرون فى أن يكون المستهلكون على استعداد لدفع المزيد فى مقابل الميزات المضافة. يقول روزنتال أن الـ«آى باد»: «قد يفتح الباب أمام احتمال التعامل مع كتاب غير ثابت. فهو يتيح إمكانيات هائلة».

ويظل السؤال المطروح هو ما إذا كان المستهلكون المعتادون على دفع ٩٫٩٩$ للحصول على الكتاب الإلكترونى سيكونون على استعداد لدفع ١٣٫٩٩$، أو أكثر، بغض النظر عن إضافات. وجد تيم أوريلى، ناشر الكتب الإلكترونية، أنه كلما انخفض السعر كلما زادت الكتب التى يبيعها. تبيع شركة أوريلى الكتب الإلكترونية كتطبيقات للآى فون بـ٤٫٩٥$، ويقول أنهم ينتجون «كمية أكبر بكثير» ويحققون ربحا يفوق ما تخسره شركته من مبيعات الكتب الورقية.

يعتقد جايسون إبستين أن الناشرين حصلوا على فرصة ذهبية. فنموذج الوكالة، كما يقول، هو فى الواقع شكل آخر من أشكال الائتلاف التى اقترحها منذ عقد من الزمان: «سيقوم الناشرون ببيع الكتب الإلكترونية مباشرة إلى الـ«آى باد». سيستخدمون الـ«آى باد» كمستودع كونى». وبذلك، يخلقون فرصا لتقليص تكاليف المرتبات والنفقات العامة. وقال إبستين أن الكتب الإلكترونية يمكن أيضا أن تستعيد الاستقلالية التحريرية. فقد قال: «عندما ذهبت للعمل فى راندوم هاوس، كان يدير المكان عشرة محررين». وأضاف: «وكان لدينا مدير للمبيعات، ومندوب مبيعات، وكاتب حسابات، ومسئول دعاية، ومدير إدارى. وكان سير العمل ناجحا بشكل كبير. لم نكن بحاجة لـ١٨ طبقة من الموظفين التنفيذيين. الرقمنة ستجعل من ذلك ممكنا مرة أخرى، بل ستجعل منه أمرا حتميا».

يبدو أن أمازون تعتقد أنها فى العالم الرقمى قد لا تحتاج الناشرين على وجه الإطلاق. فى ديسمبر باع ستيفن كوفى، كاتب سايمون أند شوستر، أمازون الحقوق الرقمية الحصرية لاثنين من أكثر كتبه مبيعا، «٧ عادات لأكثر الناس فعالية» و«القيادة المرتكزة على المبدأ». تم بيع الكتب على أمازون عن طريق روزتا بوكس، وحصل كوفى على أكثر من نصف العائدات الصافية. وقال أحد الناشرين: «كان أثر ذلك هو التأكيد على أن أمازون ترى نفسها منافسا كتاجر تجزئة. إن لديهم طموحات ليصبحوا دارا للنشر».

أوضح ذلك بشكل صارخ، أحد المقربين من بيزوس قائلا: «ما كانت أمازون تريد القيام به فعلا، هو جعل ثمن الكتب الإلكترونية منخفضة لدرجة تصرف الناس عن شراء الكتب الورقية. وكانت خطتها بالنسبة للخطوة التالية هى القطع مع الناشرين والتوجه للمؤلفين مباشرة». فى العام الماضى، وفقا لعدة وكالات أدبية، طلب مدير تنفيذى كبير فى أمازون اقتراحات حول اسم الشخص الذى يمكن أن تعينه أمازون لكسب المؤلفين. كانت قد بدأت برنامجا يدعى أُنكور Encore لنشر كتب المؤلفين الذين ينشرون أعمالهم بأنفسهم، وتم إرسال عروض جيدة لأعمالهم إلى أمازون دوت كوم. وفى يناير عرضت على المؤلفين الذين يبيعون الحقوق الإلكترونية مباشرة إلى أمازون ٧٠٪ من الأرباح، شريطة أن يوافقوا على أسعار تتراوح بين ٢٫٩٩$ و٩٫٩٩$. وكان الهدف من



النشـــــر... أو المـــــوت!!



العرض، كما عبر أحد الناشرين الغاضبين: «التحريض ضد الناشرين».

أقر جراندينتى بأن أمازون حاولت عقد المزيد من الصفقات المباشرة مع المؤلفين: «نحن نبحث باستمرار عن طرق تمكننا من أن نفعل شيئا بكفاءة أكثر». وقال أن لا جديد فى الأمر: «هناك تاريخ طويل لبائعى الكتب فى مجال النشر»، مشيرا إلى بارنز أند نوبل. أشار إلى أن جميع دور النشر الكبرى، تبيع الكتب مباشرة للمستهلكين على مواقعها الإليكترونية. وأضاف: «يبدو أنهم يقومون بأعمالنا، إنها حقا لحجة غريبة أن يرى البعض فى الاتجاه العكسى ما يدعو للقلق». إلا أن مبيعات الناشرين من خلال مواقع الويب الخاصة بهم لا تذكر، وعلى الرغم من أن برنامج بارنز أند نوبل للنشر استعدى الناشرين، إلا أنه لم يهدد بتخفيض قيمة منتجات بائعى الجملة. يعتقد أوريلى أن لدى الناشرين سببا وجيها للقلق. «أمازون هو منافس استثنائى، بعيد النظر، قوى، وبلا رحمة»، كما يقول. وأضاف: «لا اعتقد أننا شهدنا، فى فضاء التكنولوجيا، شركة بهذه القدرة التنافسية منذ مايكروسوفت».

فى الوقت الحاضر، منح دخول أبل إلى سوق الكتاب مهلة للناشرين. قال مساعد مقرب من بيزوس: «كانت أمازون تفكر فى النشر مباشرة، حتى أن ظهر جهاز أبل. الآن، أصبح هناك ما يكفى من التهديد لإجبار أمازون على التفاوض مع الناشرين».

عند سؤالها وصف أكبر مخاوفها، قالت كارولين ريدى، من سايمون أند شوستر: «فى العالم الرقمى، من الممكن للمؤلفين النشر من دون ناشرين. لذلك يتعين علينا أن نثبت كل يوم قيمة جهدنا للمؤلفين». إلا أن الناشرين كانوا بطيئين فى تناول التكنولوجيات الجديدة التى قد تساعد المؤلفين. يعبر أندرو سافاكاس، نائب الرئيس للمبادرات الرقمية فى أوريلى، عن صدمته من عدم قيام الناشرين بفعل شىء يذكر لتطوير تطبيقات رقمية لكتبهم الإليكترونية، قائلا: «لا شىء يمنع الناشرين من وضع تطبيقات للكتب على الآى فون». وأضاف «هناك ٥٠ مليون آى فون فى العالم. هذه قاعدة عملاء كبيرة». قلل الناشرون شديدو التأثر بالميزانية أيضا من خدمات التحرير والتسويق وغيرها من الخدمات التى كانوا يقدمونها للكتاب، مما ترك للآخرين فراغا للملء. لدى أوثور سوليوشان، وهى شركة للنشر الذاتى فى بلومينجتون، إنديانا ٩٠ ألف عميل من المؤلفين. بالنسبة للكتب التى تجذب اهتماما تجاريا، تحالفت الشركة مع ناشرين مثل هارلكوين لإصدارها من خلال القنوات التقليدية، ولكن مع منح حقوق للمؤلف أكثر سخاء.

جين فريدمان، التى شغلت منصب الرئيس والمدير التنفيذى لهاربر كولينز، غادرت فى عام ٢٠٠٨، وأنشأت أوبن رود إنتجريتد ميديا، وهو مشروع للكتاب الإلكترونى. هى تخطط للحصول على الحقوق الالكترونية للكتب القديمة، والتوقيع مع مؤلفين جدد (بنسبة تقاسم أرباح تساوى ٥٠٪)، كما تخطط لتكوين قسم للنشر الذاتى. قالت فريدمان: «إن الناشرين يخافون من تاجر التجزئة الذى يمكنه أن يحل محلهم». وأضافت: «إن المؤلف يحتاج من الناشر الرعاية والتحرير والتوزيع والتسويق. إذا كان الناشرون يقلصون من نفقات التسويق، وهو ما يعتبر أهم شكاوى المؤلفين، وتبقى أمازون محتفظة بـ٨٠٪ من سوق الكتاب الإلكترونى، لماذا تحتاج إلى ناشر؟»».

يبقى الناشرون على جهل الشركات الرقمية بالعملية الإبداعية للكتب. قال ناشر رئيسى فى أمازون: «إنهم لا يعرفون كيف يفكر المؤلفون. لا توجد هذه الخاصية فى حمضهم النووى». لا تملك أمازون ولا أبل ولا جوجل خبرة اكتساب المؤلفين ورعايتهم وتقديم خدمات التحرير والتسويق لهم. يعد تسليم صفحات الكتب امتحانا كابوسيا لكفاءة الخبراء؛ يشكر المؤلفون بشكل روتينى المحررين والناشرين: للموافقة على منحهم سنة إضافية لاستكمال مخطوطاتهم، أو للرد على مكالماتهم الهاتفية فى وقت متأخر من الليل، أو لمنحهم قرضا لشراء منزل صيفى. هذه الأنواع من اللفتات من غير المحتمل أن يتم الترحيب بها فى ظل ثقافة تتمحور حول مهندسين أكفاء.

يجد ويصقل الناشرون الجيدون مؤلفين، لا يكون بعضهم فى الأساس واعدا من الزاوية التجارية. كما أنهم يمنحون مقدمات لحقوق التأليف. بدون هذه المقدمات لن يستطيع معظم المؤلفين تحمل إجراء الأبحاث اللازمة لكتبهم غير الأدبية. تنتج الصناعة أكثر من ١٠٠ ألف كتاب سنويا، ٧٠٪ من بينها لن تربح المال الذى حصل عليه المؤلفون كمقدمات؛ تعد حقوق التأليف حتى الآن هى أكبر نفقات الناشرين. وعلى الرغم من أن النقاد يجادلون بأن نشر الكتب التقليدية يكبد المؤلفين الكثير من المال، فى الواقع تذهب الأرباح التى حققتها نسبة صغيرة نسبيا من المؤلفين، تدر كتبهم مالا، أساسا لدعم مؤلفين أقل نجاحا تجاريا. قد يكون هذا النظام غير فعال، ولكنه يدعم فئة من الكتاب المحترفين، لم تكن لتوجد لولا هذا النظام.

عملت مادلين ماكينتوش، مدير راندوم هاوس للمبيعات والعمليات والشئون الرقمية، لكل من أمازون وناشرى الكتب، ووجدت الاثنين مختلفين بشكل لافت للنظر. حيث قالت عن الناشرين: «أعتقد أننا، كصناعة، نتكلم كثيرا». وأضافت «نتوقع أن يكون الحوار مفتوحا. إنها ثقافة غداء العمل. لا تلعب أمازون وفق تلك الثقافة» لديها «انضباط لا يصدق فى الإجابة على الأسئلة من خلال الاعتماد على الرياضيات، والنظر فى الأرقام، والبحث فى البيانات... يعد هذا تصادما هائلا بين الثقافات، تصادما مع ثقافة غداء العمل المبنية على الكلمة والإقناع. الثقافة التى تركز على المؤلف».



لا يثق معظم الناشرين فى أمازون، ويعتقدون أنها تعتمد السرية دون داع. لا تقول لهم تفاصيل حول عادات العملاء، أو عدد أجهزة كيندل المباعة، أو تكاليف صناعة هذا الجهاز. لا تكشف حتى عن النسبة المئوية، التى تمثلها مبيعات الكتب من إجمالى الإيرادات، وتكتفى بالقول أن «الميديا»، السينما والموسيقى والكتب مجتمعة، تمثل ٥٢٪ من إجمالى مبيعات عام ٢٠٠٩.

يقول الناشرون إن المفاوضات مع شركة أبل كانت أقل إثارة للجدل. كانت هناك حجج حول أسعار الكتب الإلكترونية، أراد الناشرون تحديد السعر الأقصى للكتاب بـ١٧$ بينما كانت أبل تصر على ١٥$. قال أحد الناشرين: «بمجرد إعلان أبل عن أنها فى طريقها لقبول نموذج الوكالة، أصبحت صارمة للغاية: إما القبول أو الرفض». لكن أناس أبل «كان لديهم شعور بالتواضع يفوق بكثير ما لدى ناس أمازون. قالوا إنهم سوف يتيحون لنا بعض بيانات المستهلكين الذين يقومون بشراء الكتب الإلكترونية. ليس لدينا مثل هذه البيانات من أمازون».

أصبح للناشرين مؤخرا حليف جديد: جوجل، الذى كانوا يعتبرونه حتى وقت قريب تهديدا قاتلا. فى أكتوبر ٢٠٠٤، دون الحصول على إذن من الناشرين أو المؤلفين، أعلنت جوجل أنها، من خلال برنامجها جوجل بوكس، ستقوم بمسح كل كتاب نشر فى أى وقت مضى، وستتيح أجزاء من الصور الضوئية من خلال محرك البحث. غضب مجتمع النشر، مدعيا أن جوجل كانت تسرق عمل المؤلفين. رفع مجموعة من الناشرين، جنبا إلى جنب مع نقابة المؤلفين، دعوى قضائية، لم تحل سوى فى خريف ٢٠٠٨، عندما وافقت جوجل على دفع ٢٥ مليون دولار للمؤلفين والناشرين لاستخدام مواد يملكون حقوق طبعها ونشرها. قال جون سارجنت، الذى كان من ضمن فريق التفاوض عن الناشرين، إن الاتفاق كان إنجازا ضخما. فقد قال: «قبل أكبر لاعب فى مجال الإنترنت بضرورة الحصول على ترخيص ودفع الثمن من أجل الحصول على المحتوى، كما قبل بأن صاحب حقوق الطبع والنشر هو المسيطر على المحتوى». سواء قبلت محاكم الولايات المتحدة بهذه التسوية أم لا، ستقوم جوجل بافتتاح مخزن للكتب الإلكترونية على شبكة الإنترنت، يدعى جوجل إدشن، بحلول منتصف هذا العام»، قال دان كلانسى، المهندس الذى يدير جوجل بوكس، والذى سيكون أيضا مسئولا عن جوجل إدشن.

قال كلانسى إن متجر الكتب الإلكترونية، خلافا لمتاجر أمازون أو أبل، سوف يكون فى متناول المستخدمين على أى جهاز. وقال إن جوجل إدشن سيتيح للناشرين تحديد أسعار كتبهم، كما سيقبل بنموذج الوكالة. وبتحويله ١٢ مليون كتاب للصورة الرقمية، بما فى ذلك عناوين نفدت طبعتها، سوف يكون لجوجل مجموعة مختارة أكبر بكثير من أمازون أو أبل. ستتيح جوجل أيضا الكتب الإلكترونية للبيع فى المكتبات، مع منح «الغالبية العظمى» من الإيرادات للمكتبة. وأضاف كلانسى أنه فى محاولة للسيطرة على السوق اتخذت أمازون وأبل نهجا خاطئا للعمل عبر الإنترنت، حيث قال: «إنه بمثابة نظام بيئى مفتوح، حيث تجد للمكتبات المبنية بالطوب والمونة وسيلة للمشاركة فى المستقبل فى العالم الرقمى للكتب». وأضاف: «نحن مرتاحون للغاية بوجود مجموعة متنوعة من تجار التجزئة الماديين، فى حين أن معظم اللاعبين الآخرين يودون الحصول على مساحة تتمتع بقدر أقل من المنافسة، لأنها ترغب فى السيطرة».

الآن، يعتقد العديد من الناشرين أنهم فازوا فى مباراة الشطرنج التى بدأها

«يمكنك محاولة وضع أجنحة وتحدى الجاذبية، ولكن فى النهاية سوف تهوى إلى أسفل»



سارجنت. قال المدير التنفيذى لإحدى دور النشر: «لدينا ثلاث شركات عملاقة تتنافس الآن، وهكذا لن تستطيع واحدة منهما أن ترغمنا على القيام بأى شىء ما لم يتوافق معه الآخرون». تعد المبيعات الأولية للـ«آى باد» واعدة: قالت أبل إن أكثر من ٣٠٠ ألف جهاز بيع فى اليوم الأول، وخمن المحللون أن ما بين خمسة وسبعة ملايين جهاز ستباع هذا العام.وكانت عشرات من أجهزة القراءة الرقمية الأخرى قد عرضت فى معرض الأجهزة الالكترونية الاستهلاكية فى لاس فيجاس، فى يناير، واضعين كيندل تحت المزيد من.

لدى الناشرين سبب آخر للأمل .فلقد غير الركود من تفكير شركات وادى السليكون، بهز ثقتهم فى كون الدعاية هى مصدرهم الوحيد للدخل. بدأ يوتيوب فى فرض رسوم على بعض الأفلام المستقلة، وذلك فى محاولة للتنافس مع نتفليكس، ويعلم مديروها أن النجاح يتطلب إنتاجا مهنيا لمحتوى يرغب المعلنون والمستهلكون، فى دفع ثمنه. ما إن بدأت الشركات الرقمية فى فرض رسوم على المحتوى، حتى التقت فى منتصف الطريق مع شركات إعلام قديمة تبحث عن سبل لفرض أسعار على ما ينتجونه. يبدو أن مصالح شركات الإعلام القديمة والجديدة فى تشكيل شراكات قد تلاقت.

قال مصدر مطلع من شركة أبل: «فى نهاية المطاف، تعمل أبل فى مجال الأجهزة وليس فى مجال المحتويات». وأضاف: «ستيف جوبز يريد التأكد من أن أناس المحتوى هم شركاؤه. ستيف ينتمى لمدرسة أنا أفوز/ وأنت تفوز. فى حين أن جيف بيزوس ينتمى لمدرسة أنا أفوز/ وأنت تخسر». التقى جوبز مؤخرا بصحف نيويورك تايمز، وول ستريت جورنال، وممثلى شركة تايم إنكوربوريشن، كل على حدة، لإثبات إمكانية الـ«آى باد» على توليد المال للصحف والمجلات. قال المصدر المطلع: «جوبز الذى خضع لعملية زرع كبد فى العام الماضى والذى خاض معركة مع سرطان البنكرياس، بدأ التفكير فى إرثه. وأضاف: «إنه فى عجلة من أمره ليحقق فى العامين المقبلين ما كان يفكر فى تحقيقه فى السنوات العشر القادمة. إن رؤيته تبقى على قدرته على الحركة. ليس هناك ما هو قادر على إيقافه، إلا الموت»، وقال إن جوبز كان مسرورا من تأييده للناشرين: «إنه يشعر وكأنه بطلهم».

حتى هذه اللحظة، يعتبر جوبز أفضل حليف للناشرين. قال المصدر المطلع: «ستيف فخور جدا بتوجيه ماكميلان مسدسا إلى رأس أمازون». لكن على المدى الطويل لن تكون أبل أو جوجل بالضرورة شركاء أفضل من أمازون. ففى يوم ما، سوف يشكون هم أيضا من بطء عملية النشر، أو المغالاة فى الأسعار. قبل بضعة أيام من طرح الـ«آى باد» للبيع، فى ٣ أبريل، كانت هناك شائعات بأن أبل ستطرح أكثر الكتب مبيعا بأقل من ٩.٩٩$. لقد وافقت شركة آبل على نموذج الوكالة لسنة واحدة فقط، وكما تدرك دور النشر تماما، لدى جوبز تاريخ، مع شركات الموسيقى والتلفزيون، فى القتال من أجل خفض الأسعار. قال أحد الناشرين: «ربما تريد أبل أن تعود خلال السنة، للتفاعل معنا بقسوة وبوقاحة». يمكن أن يجعل الـ«آى باد» أمازون قادرة على الوصول إلى فئات جديدة من المستهلكين. تتيح أبل الآن نحو ٦٠ ألف كتاب إلكترونى، أقل بقليل عما يتيحه كيندل، كما أطلقت أمازون تطبيقا يسمح لها ببيع الكتب الإلكترونية على الـ«آى باد». و بغض النظر عن المكان الذى يشترى منه المستهلك الكتاب، فهو يعتقد أن الوسائل الالكترونية ينبغى أن تكلفه أقل، إن شيئا لا يمكنك الإمساك به لا يجب أن يكون سعره غاليا. ردا على سؤال حول جهود الناشرين لرفع الأسعار، قال وكيل أدبى متشككا: «يمكنك محاولة وضع أجنحة وتحدى الجاذبية، ولكن فى النهاية سوف تهوى إلى أسفل». ■

هوامش المترجم:

(١) يُعد مزار كهف لورد فى جنوب فرنسا من أشهر المزارات التى يتوافد عليها الحجّاج وخاصة المرضى من كل مكان من العالم للصلاة وطلب الشفاء والحصول على تلك المياه المقدسة التى تفجّرت كعلامة سماوية لظهور مريم العذراء.

(٢) أمريكى من أصل صينى، يعتبر واحدا من أهم عازفى التشيلو فى العصر الحديث. وهو ملحن أوركسترالى، حائز على جوائز جرامى متعددة.

(٣) هو مغن وملحن وشاعر يتمتع بصوت رائع ومرن، وكلمات أغانيه فيها من الحكمة والاحتجاج الشىء الكثير لأنه كان من الطبقة العاملة والمضطهدة بأمريكا.

(٤) هو برنامج من شركة أبل يشتمل على متجر إلكترونى وإمكانية مزامنة الملفات مع ثلاثة أجهزة من شركة أبل وهى آى بود، آى فون وآى باد. وتبيع أبل من خلال المتجر الإلكترونى الموسيقى والأفلام والبودكاست وتطبيقات نظام تشغيل آى فون وتوجد أيضاً بعض المواد المجانية.

(٥) برنامج لتشغيل الأفلام والمسلسلات.

كتاب الزاوية



«لا تسقطوا غصن الزيتون من يدى»
خطاب عرفات فى الأمم المتحدة

(٢)

واسمحوا لى أن أوجز بعض الحقائق التالية حولها:

كان عدد سكان فلسطين، عند بداية الغزو عام ١٨٨١ وقبل قدوم أول موجة استيطان، حوالى نصف مليون نسمة كلهم من العرب، مسلمين ومسيحيين، ومنهم حوالى عشرون ألفًا من يهود فلسطين يعيشون جميعًا فى كنف التسامح الدينى الذى اشتهرت به حضارتنا.

وكانت فلسطين أرضًا خضراء معمورة بشعبها العربى الذى يبنى الحياة فى وطنه، ويغنى ثقافته.

وعمدت الحركة الصهيونية إلى تهجير حوالى خمسين الف يهودى أوروبى بين عامى ١٨٨٢ و١٩١٧، لاجئة إلى شتى اساليب الاحتيال لتغرسهم فى أرضنا. ونجحت فى الحصول على تصريح بلفور من بريطانيا، فجسد التصريح حقيقة التحالف الصهيونى الاستعمارى. وعبر هذا التصريح عن مدى ظلم الاستعمار للشعوب حيث اعطت بريطانيا، وهى لا تملك، وعدًا للحركة الصهيونية، وهى لا تستحق. وخذلت عصبة الأمم بتركيبها القديم شعبنا العربى، وتبخرت وعود ومبادئ ويلسون فى الهواء، وفرضت علينا، قسرًا، الاستعمار البريطانى بصورة الانتداب. وتعهد صك الانتداب الذى اصدرته عصبة الأمم المتحدة، صراحة، بالتمكين للغزوة الصهيونية من أرضنا.

وعلى مدى الثلاثين عامًا بعد صدور تصريح بلفور، نجحت الحركة الصهيونية مع حليفها الاستعمارى، فى تهجير مزيد من يهود أوروبا، واغتصاب أراضى عرب فلسطين. وهكذا أصبح عدد اليهود فى فلسطين عام ١٩٤٧ حوالى ستمائة الف، يملكون أقل من ٦٪ من أراضى فلسطين الخصبة، بينما كان تعداد عرب فلسطين حوالى مليون وربع المليون نسمة.

إن أردت أن تحطـــــــــــــــــــم شـــــــــــــــــعبا

غرناطة أمريكية!

هاواى فى الحرب ١٩٤٢



حطم ثقافته

فكرى أندراوس



هاواى ينــاير ١٩٤٨

غرناطـــــــة أمريكيـــــــة!

"قـــابـيــــل.. قـــابـيــــل.. مـــاذا فـعـــلـــت بـــأخـيـــك هـــابـيـــل؟"

التوراة: سِفْر التكوين

Emma, Queen of Sandwich Islands - Hawai'i (1836-1885) © Mathew Brady, Library of Congress



■ هاواى.. ليست فقط ذلك المنتجع الساحر، ولكنها قصة أخرى (تكررت عبر التاريخ) لأقدم تراجيديا إنسانية «حين قتل قابيل أخاه هابيل» جغرافيا هى ولاية أمريكية فى وسط المحيط الهادئ، ولكنها تختلف كثيراً عن باقى أمريكا. فهناك على الأقل عشر أقليات بينهم بعض العرب والمسلمين يعيشون فى وِفَاق ظاهر. تذكرنا هاواى الحالية بغرناطة إسبانيا فى القرون الوسطى. لقد كانت غرناطة منارةَ أملٍ لعالم يتحول بالاختلاط بين الشعوب واحتكاك أو امتزاج بين الحضارات.

فكما لكل عملةٍ وجهان

فلجُزُر هاواى قِصَّتَان

كان لجمَال وسحر جُزُر هاواى وتاريخها سواء الحَقيقى أو الذى أوهمَنا به بَعضُ الكتاب الأوائل من المستشرقين(*) وبعض المبشرين الغربيين، أن ألهم كل ذلك مِئَات الكُتَّاب وصُنَّاع الأفلام فى الإيحاء بصورةٍ جميلة لتلك الجُزُر وتَغَاضى الكَثير منهم عن النقاط السوداء فى ذلك التاريخ. فى هذا المقال سأتعرض لوجهى هاواى. وسأتعرَّض قليلاً للجالية العربية والإسلامية بتلك الجزر، ولتلك الفتاة الأمريكية الجميلة والتى كانت أغنى امرأةٍ فى العالم والتى عشقَت الفَن الإسلامى وعشقَت هاواى فأنشأت مُتحفاً إسلامياً فى هاواى يُعد أحد أجمل المتاحف الإسلامية فى بقعةٍ رائعة الجَمَال وعاشت فى ذلك المتحف، وبعد وفاتها عام ١٩٩٣ أوصت بتحويله لمُتحَف إسلامىٍ ولدراسَة الفن الإسلامى وثقافة الشرق الأوسط.

[١]

جزر هاواى تعد حديثة فى تاريخ تكوينها الجيولوجى، فعمرها حوالى ٧٠ مليون سنة فقط وتكونت من براكين انبثقت من قلب الأرض فى وسط المحيط الهادئ، وما زال بها بعض أكبر البراكين النشطة فى العالم، وهى أحد أسباب السياحة لتلك الجزر، إضافةً إلى جبالها وجمال شواطئها وطبيعة مناخها المعتدل على مدار العام. من الصعب العثور على هاواى فى خريطة العالم؛ حيث إنها ليست أكثر من نقطة فى المحيط الهادئ. يعتقد علماء الأنثروبولوجى بناءً على دراسة فقه اللُّغَة التاريخى (philology) وبعض الأغانى القَديمة والتُراث الشفهى المتوارث

كان نتيجةُ انعزال جزر هاواى أن تكوَّنَ بها نظامٌ طَبَقِىٌّ يشابه ما كان سائدا فى العَالَم فى القرون الوسطى. كَانَت طَبَقَة الحُكَّام، فَطَبَقَة رجَالُ الدين، ثم باقى الناس، فطبقة العبيد أو الطبقة المستعبدة. كان من الصعب أن تتداخل الطبقات، فمن وُلِد فى طبقةٍ مَا ظل بها حتى وَفاته



أن أهالى هاواى الأوائل جاءوا أصلاً من جَنوب شَرق آسيا لجُزُر تاهيتى، ومنها لجُزُر هاواى على بُعد آلاف الكيلومترات منذ حوالى القرن الرابع. جاءوا فى مَرَاكِب بسيطة وأصبحوا سكان هاواى الأصليين. ربما كان هؤلاء البَشَر أول من سافر مسافات طَويلَة على مراكب بسيطة لآلاف الكيلومترات، فلا بُد أنهم كانوا على دراية بالبحار وببعض عُلُوم الفلك والرياح واستخدامها فى الملاحة، لقد كانوا قادرين على التمييز بين أكثر من ٥٠ نوعاً من الرياح. استمرت خطوط الملاحة بين هاواى وتاهيتى، فأحضروا معهم بعضاً من نَبَاتَاتِهم، ومن ضمنها نباتٌ شَديدُ الشَّبَه بـ «القلقاس» وأصبح مَادَة الغذاء الرئيسية. أحضروا بذور بعض الأشجار، ومن ضمنها المانجو والجوافة ونخيل جوز الهند، وكذلك بعض الدواجن والحيوانات، وتمرَّسوا فى فن صيد الأسماك. لأسباب غير معروفة توقَّفَت الملاحَة بين جُزُر هاواى وتاهيتى مُنذُ القَرن الثالث عَشَر وأصبحَت تلكَ الجُزُر معزولةً تماماً عن العالم، إلى أن اكتشفها بالمصادفة جيمس كوك المستكشف الانجليزى عام ١٧٧٨.

كان نتيجةُ انعزال جزر هاواى أن تكوَّنَ بها نظامٌ طَبَقِىٌّ يشابه ما كان سائداً فى العَالَم فى القرون الوسطى. كَانَت طَبَقَة الحُكَّام، فَطَبَقَة رجَال الدين، ثم باقى الناس، فطبقة العبيد أو الطبقة المستعبدة. كان من الصعب أن تتداخل الطبقات، فمن وُلِدَ فى طبقة مَا ظل بها حتى وَفاته. كانَ الشُيوخ أو السَادة يهتمون بالبيئة الهَشَة للجزيرة فاحترموا الطبيعة، واستخدموها دون الإضرار بها. كان يُمنع صيد الأسماك فى بعض الأماكن حتى لا تستنفد مصادره، واتُّبع نفس النظام فى الزراعة حتى لا تجهد الأراضى ويقل أو ينعدم الإنتاج.

اكتشفت أوروبا الصناعة، وبَنَت الأساطيل واستفحل نظامها الرأسمالى. اكتشفت أوروبا الأمريكتين، استراليا، نيوزيلندا وجزر هاواى، فصدَّرَت بعضاً من متاعبها (من قبيل الأقليات الدينية والفقراء، ونزلاء السجون أحيانا) للعالم الجديد، واستوردَت ثروات طائلة، فزادت قوةً وجَشَعَاً. استعمرت أيضاً أفريقيا بأكملها تقريباً والشرق الأوسط ومناطق شاسعةً من آسيا، إمَّا عسكرياً أو أوقَعَتها تحت نفوذها اقتصادياً وعسكرياً، ومن ضمن ذلك الصين والهند وأندونيسيا واليابان. أما عن جزر هاواى- وكانت ثمانى جُزُر- فلم تتغير أحوالُها إلى أن اكتشفها جيمس كوك سنة ١٧٧٨ بالمُصادفة، فلم تكُن أكثَر من نُقطة فى المحيط الهادئ الشاسع. كان انفتاح هاواى على العالم الغَربى يُمثِّلُ تياراً جارفاً، لم يكُن من الممكن لتلك الحضارة البسيطة أن تَقِف أمامه. اكتَشَفَ حُكَّام هاواى أن للغربيين أسلحةً من سيوف وبنادق ومدافع، فاستغلوا ذلك لمزيد من السيطرة على الأهالى. لم يكُونُوا على معرفة بالمعادن وكان مجرد مسمار من الحديد يمثل عملاً إعجازياً بالنِّسبة للأهالى، وقِس على ذلك الكثير. كان لا بد للثقافة الغربية الهادرة أن تكتَسح تلك الحضارة الزراعية البسيطة بمدافع النظام الرأسمالى كما سبق لها أن اكتسحت حضارات الأمريكتين قبل اكتساحها هاواى.

أصبحت هاواى محطة تمويل بالماء والغذاء لصيادى الحيتان والسفن المُسافرة إلى الصين واليابان للتجارة. أصبحت هناك تجارة فى صورة مُقايَضَات، فالجُزُر لم تعرف المَال ولا التجارة من قبل. كان من نتيجة ذلك أن عَرفَ أهل هاواى معنى الملكية الفردية، وبدأت طبقة الحُكَّام تَستغلُ الأهالى للحصول على مايريدون من سفن الغرب، وما يحملون من سلع غربية مقابل تموينهم بالماء والغذاء أولاً، وامتد ذلك لبعض منتجات الجزيرة من أخشاب. ففى فترة بسيطة سَخَّر الحُكَّام الأهالى فى قَطْع ونَقل أخشاب شجر الصندل ذى الرائحة الذكية والمستخدم فى البخور فى المعابد فى أماكنَ عَديدة من العالم القديم. ازداد الطلب على أشجار الصندل من هاواى لتصديره للصين، مما أدى إلى اختفاء أشجار الصندل من الجزيرة اختفاءً يكادُ يكون تاماً نتيجة الطبيعة الهشة لأراضيها. ثم تنبه بعضُ الغربيين لصلاحية هاواى لزراعة القصب من أجل صناعة السكر. قيل للأهالى وللحكام إن ذلك سيدخل لهم العملة «الصعبة» ليشتروا ما يريدون من المنتجات الغربية التى لم يكونوا فى احتياج لها من قبل ومن ضمنها الخمور (لاحظ أن ذلك كان قبل البنك الدولى و«مشتقاته» بقرابة قرنين من الزمان) باختصار دخلت هاواى فى الفَلَك الاقتصادى للدول الغربية.

مع دخول الغرب لهاواى دَخَلَت بعضُ الأمراض مثل الحصبة والجُدَرى والأمراض الجنسية ولم يكن للأهالى مناعة طبيعية لتلك الأمراض ففتكت بالعديد من الأهالى. كانت تلك الأمراض - والتى لم تؤثر على سكان العالم القديم- أحد الأسباب التى فتكت بالسكان الأصليين للعالم الجديد سواء فى الأمريكتين أو استراليا أو نيوزيلندا أو جزر هاواى.



استخدم صيادو الحيتان هاواى كمحطة للراحة والتموين والمتعة الجنسية مع الأهالى. ثم جاء المبشرون بالمسيحية بدايةً من سَنَة (١٨٢٠) من أمريكا نتيجة صلاتهم الوثيقة بصيادى الحيتان، والتى كانت متمركزةً فى شَمَال شَرق أمريكا مركز نشاط المبشِّرين وصَيَّادى الحيتان. تبع المبشرون الأمريكان مبشرون أوروبيون وكانوا أساساً مُتشابهين. كان الكثير من الدمار الذى أصاب هاواى من وراء هؤلاء المبشرين، فرغم حُسن نَوايا البعض، إلا أن البعض- إنْ لَم يكُن الكثير منهم- عنصريون، والتحموا بباقى الأوروبيين الذين بدأوا إنشاء مزارع قصب السكر وتصنيعه. لقد نسى هؤلاء المبشرون أن المسيحية- كما فى الأديان السَمَاويَّة الأخرى- قد أوصَت الإنسان بأخيه الإنسان، إلا أن ذلك قد نسيهُ أو تناساه الكثيرون. لقد ترك البعض من المبشرين مهمتهم الأساسيَّة كُليَّةً واتجهوا إلى التجارة وامتلاك الأراضى. كان خطر المبشرين الأكبر هو نجاحهم فى السيطرة على الطَبَقَة الحَاكِمَة، وأصبحوا مستشاريهم والمُتحكِّمين فيهم ولم يستطع هؤلاء المبشرون أن يروا أىَّ شىء جيد فى تلك الثقافة البسيطة غير المادية والمحبة للآخر بالفطرة. إن كلمة ألوها (Aloha) والمُستَخدَمَة كثيراً فى التراث الشعبى، وللآن، جزءٌ من مُعتقَد الأهالى الدينى وتعنى «أهلاً وسَهلاً»، و«وداعاً»، وتعنى أيضاً «الحب» عَامةً والحُبُ للفَرد أيضاً. ثقافة وإن كانت قد ميَّزَت بين الرجل والمرأة إلا أنهُ كان تمييزاً مُختَلفاً عما كان سائداً فى الغرب- بل وفى باقى العالم القديم. فمثلاً كانت الأسماء لا تُفرِّق بين الذكر والأنثى، وكان من حق الأنثى فى الأسرة الحاكمة أن ترثَ الحُكم وأن تصبح ملكة تحكُم بالفعل.

إن دخول المبشرين الغربيين عادةً ما كان يتبعهُ احتلالٌ عَسكَرِىٌّ، حدث ذَلكَ فى بَعض البلاد العربية ومن ضمنها مصر والشام وكذلك الهند والصين واليابان وبعض الدول الإفريقية. ولم يكونوا فى هاواى يختلفون عن ذلك. إن العلاقة بين رجال الدين والنظام الحاكم غالباً ما تَكون قويةً. بدأ المبشرون فى هاواى بإقناع الحُكَّام بضرورة وجود حيازات ملكية للأراضى، ولم تكن موجودةً من قبل فامتلك الحكام والمبشرون أفضل الأراضى وتجلى ذلك أكثر فى أجيال أولاد المبشرين وأحفادهم، وملكوا الأبعديات للزراعة والصناعة. امتلك الأجانب فى فترة بسيطة حوالى ٨٠٪ من الأراضى الصالحة للزراعة. أنشأ المبشرون المدارس، وكانت نوعين: أحدهما للتعليم الخاص، ويشمل أبناء الأجانب والطَبَقَة الحاكمة والآخر تعليمٌ عامٌ لبقية الناس. كان من الطبيعى نتيجة ذلك أن ينال أبناء الأجانب الوظائف الكبرى والقياديَّة وأن يَتَحكَّموا فى البلاد. وإن كان من مزايا بعض المبشرين أنهُم كَتَبُوا لُغَة الأهالى بالحروف الإنجليزية فحفظ ذلك البعض من ثَقَافَة الأهالى وتُراثهم وحتى الآن، بالإضافة إلى تعليم الأهالى القراءة والكتابة. الكثير من أسماء الشوارع والأماكن احتفظت بالأسماء القديمة للأهالى. باختصار أصبح المُبشِّرون جزءاً من أداة استعمارية.

«إن أردتَ أن تُحطِّمَ شعباً حطم ثَقَافَتَه». تحطيم أو استبدال الدين، بالإضافة لسيادة اللغة الإنجليزية، بل وتَحريم تَدريس لغة الأهالى اعتباراً من سَنَة ١٨٩٣، تغلغل الحضارة الغربية فى المأكل والمَشرب، ثم إزاحة الملكة ليليوكالانى (Liliuokalani) وإنهاء حكومتها، فكانت آخر ملكة من الأسرة الحاكمة وكانت مُتعلمةً ومحبوبةً من الأهالى، ساهمت كل تلك العوامل فى انهزام وتَحطيم الإنسان وحضارته أمام هذا الزحف الكاسح. لم تكن تلك سياسة الماضى فقط بل موجودة وتمارس للآن فى



إن دخول المبشرين الغربيين عادةً ما كان يتبعهُ احتلالٌ عَسكَرِىٌّ، حدث ذَلكَ فى بَعض البلاد العربية ومن ضمنها مصر والشام وكذلك الهند والصين واليابان وبعض الدول الإفريقية



غرناطة أمريكية!

عالمنا المعاصر أحياناً بقصد وبدون قصد أحياناً. فيجد البعض فى دول العالم النامى- ومن ضمنها منطقتنا العربية- صعوبةً فيما يجب أن يستقطع من الحضارة الغربية المتقدمة وما يجب أن يُرفض وخصوصاً فى زمن العولمة. يعتقد جلال أمين أن أكثر ما فقدناه من علاقتنا مع الغرب فى القرنين الماضيين أو ما يُسمَّى بالتَّغريب ما هو فى حقيقة الأمر إلا « اغتراب حضارى وثقافى»[٨]. لذلك يجد بعض المثقفين عندنا (ليس من ضمنهم جلال أمين) أن الحل للمحافظة على ثقافتنا هو التمسك بصور سلفية من الإسلام.

فى هاواى دُمِّرَت ثَقَافَةُ الإنسان، وكان من نتيجة ذلك أن بدأ الأهالى يختفون من سطح الأرض. وقد عبَّر عن ذلك أحد الأهالى فقال: « لقد صرفَ الناسُ أرواحَهُم وقرروا الموت» (مرجع ١ ص ١٠) فى الربع الأول من القرن العشرين كانت نسبة الوفيات بين أطفال الأهالى أكثر من خمسة أضعاف المعدل العالمى فى ذلك الوقت. قُدِّر عدد الأهالى فى هاواى عندما اكتشفها كوك سنة ١٧٧٨ بحوالى ثلاثمائة ألف، إلا أن الاعتقاد السائد الآن أنَّ عدد الأهالى كان حوالى مليون نَسَمَة. تناقص العدد سنة ١٩٣٠ إلى ما يقارب ستين ألفاً فَقَط (المرجع السابق). هذا الرقم ليس ذا قيمة الآن إلا من الناحية التاريخية؛ فمن بقى من الأهالى اختلط مع المستعمر الأبيض بالزواج، وحدث نفس الشىء مع كل من استوطن الجزيرة فيما بعد، وهم كثيرون وسنتحدث عن ذلك. تعداد الأهالى الذين لم يختلطوا مع الأجانب بالزواج أقل من الألف وهم فى طريقهم إلى الاختفاء بالذوبان فى باقى الثقافات. نعم كانت هناك مُقَاوَمَة لهذا التدخل ثم الاستعمار ولكنها لم تكن متكافئة وسنرى ذلك.

كان من نتيجة تغلغل الأوروبيين أن أصبحت هاواى مملكةً ولها دستور وبرلمان يشابه النظام الإنجليزى من حيث المظهر فقط. زاد تعداد الأوروبيين، وزاد نفوذهم، واستجابت الحكومة لكثير من مَطَالِب الأوروبيين ولكن عندما أصبحت القوّة الحقيقية فى أيدى الأوروبيين بدأت المملكة تُحاول الحد من ذلك النفوذ. فى ذلك الوقت فَرَضَت الحكومة الأمريكية ضَرَائِبَ على السُكَّر المُستورَد من هاواى بعد أن كانت مُلغاةً. ظهرت كوبا كمصدر آخر لصناعة السكر، أو كَمَزرعة أمريكيَّة لصناعة السكر، فَكَانَت هُناك مُنَافَسَة. كانت النتيجة أن رجَال الأعمال «أولاد وأحفاد المُبشِّرين- هكذا سموا أنفسهم» رأوا أن الحل يكمن فى أن تصبح هاواى مُستعمَرَةً أمريكيَّة، بذلك تُلغى الضَرَائب على السُكَّر والذى أصبح شريان الحياة لهاواى. رَتَّب رجال الأعمال انقلاباً ضد المملكة، وأعلنت جمهورية سنة ١٨٩٤، وأُعلِنَ دُستورٌ جديد يعطى الأوروبيين مزيداً من القوّة وعملياً حَرَمَ الأهالى من الاشتراك فى الانتخابات. ويكاد الدستور الجديد لا يَعتَرِف بوجود أجانبَ سوى الأوروبيين، على رُغم وُجُود الكَثير من الآسيويين، ويشابه هذا ما فَعَلتهُ حُكُومَة جنوب إفريقيا البيضاء. ترددت الحكومة الأمريكية أن تصبح هاواى مستعمرة، وأرسلت لَجنَةً لتقصّى الحقائق وقرّرت إعادة النظام الملكى كما كان وأُدينَ الانقلاب. ولكنّ أولاد المبشرين أو رجال الأعمال الجُدُد رَفَضُوا ذلك، وتتوالى الحَوَادِث سريعاً، ففى عام ١٨٩٨ قَرَّرَت الحُكُومة الأمريكية أن تعكس رأيها وتضم هاواى لممتلكاتها نتيجة ما سُمِّىَ بالحرب الأمريكية الإسبانية. قررت الحكومة الأمريكية أن تَتَّجِه غَرْباً وأن تزيح إسبانيا من كُلٍّ من كوبا وبورتوريكو وجزر الفلبين وتحل محلها. استغرقت تلك الحرب أربعة أشهر فقط، وأدت إلى إزاحة إسبانيا من نادى الكبار وبداية انحدارها. لكل ذلك كان ضم هاواى لممتلكات أمريكا أمراً حيوياً. اتَضَح الوجه الاستعمارى الحقيقى لأمريكا وبدأ نُفوذُها يَتَّسِع وحلّت مَحَل الاستعمار القديم بوجه جديد وبعبارات رنانة من قبيل «حق تقرير المصير» و«الديمقراطية» و«حقوق الإنسان» وما إلى ذلك. وإن كانت تلك العبارات الجذابة والمهمة خالية تماماً من الإرادة الفعليّة للسياسة الأمريكية، بل كانت السياسة الأمريكية أحياناً تفعل عَكسَ ذلك تماماً.

[٢]

يجعلنا بعضُ الكُتّاب الغربيّين القدامى نَعتَقِد أن استسلام أهالى هاواى كان بدون مقاومة، ولكن ذلك إمّا عن جهل بالتاريخ أو تزييفه. بَعضُ البَاحثين الجُدُد من أمثال «Noenoe K. Silva» وآخرين وجدوا وثائق كثيرةً تدل على مُقَاومَة الأهالى لضم بلدهم لأمريكا. قد يكون أهم تلك الوثائق عرائض من ٥٥٦ صَفحَة مُوقَّعَة من الأهالى لمعارضة ضم بلادهم لأمريكا. أطلق على حركة اسم مقاومة الاحتلال والتدخل اسم حب الارض (aloha aina) عارضت المَلِكَة وأيّدها الأهالى فى أن تصبح هاواى مُستعمَرَةً أمريكية ورَفَع الأهالى قَضايا أمام المَحكَمة الدستورية العليا بأمريكا، وكذلك محكمة العدل الدولية، ولكن بدون جدوى. كانت هناك صور أخرى لمُقَاوَمَة شعبية سلميّة. أخيراً فى عام ١٩٥٩ أصبحت هاواى الولاية الأمريكية رقم ٥٠.

ازداد عدد الأجانب الأوروبيين الذين استوطنوا هاواى منذ أواخر القرن السابع عَشَر، انهزمت الثقافة الأهلية، ولكن لم يكن انهزاماً تاماً، فقد بقىَ تُراثٌ من ذَلك، تَراه فى بعض الصور الثقافية من كلمات وأسماء كَثيرة، وكذلك فى بعض المَدَارس والجَامعات، تَراه فى بعض المراجع المرصودة فى هذا المقال وإن كَانت هُناك مَراجع أخرى ودوريات كثيرة. كل ذلك يُذَكِّرنَا بِمَا فَعَلَ الإنسانُ بأخيه الإنسان. لم يكُن ذَلكَ بجديد فى تاريخ الإنسانية، ولكن الجديد كان مدى سيطرة الغرب - القليل العدد نسبياً- على مقادير وثروات بقية العالم وغالباً للآن.

[٣]

المستعمر لم يُغيِّر الثَقَافَةَ بالمدافع والعساكر فقط، بل غيَّرَهَا بالفكر أيضاً، وكان إدوارد سَعيد أحد رُواد تلك المدرسة(*) وصفَ بعض الغربيين- ومن ضمنهم المبشرون بالمسيحية- الأهالى «بالمتوحشين» والذين كان على الرَجُل الأبيض عبء تحديثهم وتمدينهم، وإدخالهم إلى حظيرة العالم المسيحى ولو بالقوة. وقد نَجَحُوا فى ذلك، فأعطوهم الإنجيل وسلبوا ثرواتهم، كما حَدَث فى مناطق أخرى. جيمس كوك، الذى اكتشف الجزر بالمصادفة، قتلهُ الأهالى، فاتُّهِم الأهالى بالوحشية، ولم يذكر الكثير من الكُتّاب القُدامى أن كوك كان قد قتل أحد الأهالى قبل أن يُقتَل وكان ذلك سبب قتله، وأن بَحَّارَته بعد قتله بيوم واحد قد انتقموا بقتل العديد من الأهالى بدون تمييز بين كبير وصغير. لقد كانت مذكرات كوك والتى نشرت سنة ١٧٨٤، والتى لقيت انتشاراً واسعاً فى أوروبا وأمريكا بها الكثير من المغالطات والكذب الذى كشفه بعض المؤرخين الجدد من أمثال : « Wood, Okamura, and Silva». لقد أشيعَ مَثلاً أن الأهالى قد قَتَلوا كوك وأكلوا لَحمَهُ، كما أُشيع عن بعض القادة الأفارقة، وجاء تعبير «آكلى لحوم البشر». يعتبر كوك أهم مُستكشف فى عصره فقد اكتَشَفَ للغرب استراليا، وأجزاء من نيوزيلندا وجُزُرا أخرى وسُمِّيَت باسمه بعضُ البلدان والمناطق والجبال.

تناقَصَ عددُ الأهالى كثيراً، واحتَاجَت مَزَارع القَصَب والتى أُنشِئَت فى النَصف الثانى من القرن الثامن عشر لكثير من العُمَّال، فاتَّجَه أصحابُ الأراضى الجُدُد من الغربيين إلى استيراد عُمال من الخارج. كانت تجارةُ العَبيد من إفريقيا قد أُوقِفت بحُكم القَانون فى أمريكا فى مُنتَصَف القَرن السَابع عَشَر، وإن كَانَت قد استَمرَّت بصُورة غير قانونيّة بعد ذلك، إلا أنها أُوقِفَت تماماً خلال الحرب الأهليّة الأمريكية سنة١٨٦١- ١٨٦٥. كان لا بُد من إيجاد وسيلة أُخرَى لاستيراد العمالة. كانت الوسيلة الأخرى هى استجلاب عُمَّال «التراحيل» من بعض الدول الآسيوية الفقيرة، كانت مُدَّة العقد ثلاث سنوات بأجر قدره ثلاثة دولارات بالشهر، بالإضافة إلى مكان للسكن. كانت تلك الظروف لا تختلف كثيراً عمَّا كَان يُمنَح للعبيد السُود بأمريكا إلا فى وجود عقد بانتهاء العبودية بعد ثلاث سنوات. كانت الغالبية العظمى من عُمَّال التراحيل آسيويين من الصين واليابان والفلبين وكوريا وغيرها. كان لذلك تأثيرٌ جيدٌ على الأمد الطويل حيثُ إن بَعض عُمَّال التَراحيل قد عادوا إلى بلادهم، إلا أن الكَثير منهم قد استقروا نهائياً فى هاواى وأصبحوا جزءاً مُهماً فى الموزاييك البَشَرى الذى نَرَاهُ فى تلكَ الجُزُر. فكما كان لهجرة الأوروبيين لأمريكا أن لُوِّنت ولايات أمريكا الشَمَاليّة بلون أوروبى، أو كَمَا لُوِّنَت تكساس وكاليفورنيا بطابع مكسيكى إسبانى، فقد وسمَ الآسيويون جُزُر هاواى بطابع آسيوى، وأعطوها طابعاً خاصاً له مُميِّزات إنسانيّة تَفتقدها أمريكا أحياناً.

فى بداية الأمر كَانَ أغلبُ المُهاجرين لهاواى أوروبيين، ومع الحاجة للعمَالة جاء الآسيويون، وبمرور الوقت تزاوج الأهالى مع البيض والآسيويين وغيرهم فأصبحت نسبةُ البيض حسب إحصاءات سنة ٢٠٠٠، ٢٤٪، اليابانيين ١٧٪، الفلبينيين ١٤٪، الصينيين ٧٪، الكوريين ٥٪ (مرجع ٥ ص ٢٣).

إذا نظرنا إلى المَنَاصب الإدارية والدَخل العام سنجد أن اليابانيين والكوريين والبيض والصينيين يكادون يكونون متقاربين، بينما الأهالى الأصليون والفلبينيون والسود يأتون فى المَرتَبَة التَالية (مرجع ٥ ص ٤٤ و ص ٥١). إذا نظرنا لدخل العائلة نجد أن العَائلة اليَابانية فالصينية دخلهما أكبر قليلاً من دَخل العَائلة للبيض وإن كانَ الفَرقُ بينَ دَخلِ كُل الطوائف يتراوح ما بين ٦٩ ألف دُولار فى العام إلى ٤٢ ألف دولار فى العام؛

كانت الغالبية العظمى من عمَّال التراحيل آسيويين من الصين واليابان والفلبين وكوريا وغيرها. كان لذلك تأثيرٌ جيدٌ على الأمد الطويل حيثُ عاد بعضهم إلى بلادهم، بينما استقر الكثيرَ منهم نهائياً فى هاواى وأصبحوا جزءاً مُهماً فى الموزاييك البَشَرى فيها



وهى نسبة متقاربة جداً إذا ما قُورنَت بباقى الولايات المتحدة الأمريكية، بل وبباقى العالم. أصبَحَ من المُستحيل فى المناخ السياسى الحالى أن تَستأثِر إحدى الطَوائف بالقيادة السياسية أو الاقتصادية أو بالمَناصب المُهمَّة، فأصبَحَت كُل طائفة تعملُ حسابَ الطوائف الأخرى بالإضافةِ للنسبَةِ العالية للتزاوج بين الطوائف المختلفة. لقد أصبح محافظ هاواى وممثلوها فى الكونجرس الأمريكى يمثلون ذلك الخليط البشرى بدون تمييز من أصول يابانية، فليبينية، صينية، بيضاء، أو من الأهالى. كل ذلك أدى إلى أن تُصبِح هاواى مُوزاييك بشرياً فريداً ولكن ليسَ بدون بعض المشاكل والتى منها أن الأهالى الأصليين نصيبهُم من دَخلِ بِلادهِم وفى التعليم ما زال فى ذيل القَائمة وإن كانت الفروق كما سبق أن أشرتُ ليست شاسعة كما فى باقى الولايات الأمريكية. على رغم كل الإيجابيات المذكورة عن هاواى المُعاصرَة، إلا أن السكان الأصليين يشعرون بالإحباط- ولهم الحق - أنهم فى ذيل المُجتمع اقتصادياً وثقافياً وفى التعليم أيضاً. بدأت تظهر بعض الجرائم وإن كانت ما زالت قليلة العدد- بل فردية- إلا أنها مُؤشِّرٌ يَحتاجُ إلى الاهتمام. ولكن مع كل ذلك إذا نظرنا إلى هاواى ككل، فهى تعد نموذجاً طيباً للتعايُش السلمى لمجموعات مُختَلِفَة كثيراً. هناك وعىٌ عامٌ فى المُحافَظة عَلى حالَة التَوافُق والانسجام الموجودة فى هاواى. فى جامعة هاواى يوجد قسمٌ يهتمُ بدراسة العلاقات الاثنية بين المجموعات المختلفة Ethics Department ويرأس هذا القسم «إبراهيم عودة» العربى، وله العديد من الأبحاث والكتب.

إحدى مُميِّزَات هاواى المُعاصرَة اهتمامها بالبيئة الهشة للجزيرة، وهو ما اهتَمَّ بهِ السُكَان الأصليون، ولكن تدهورت الأحوال عندما سيطر المستعمر وحولها إلى مزرعة للأناناس وقصب السكر وتصنيعه، وأُهملت احتياجات الطعام، الذى أصبحَ يُستورَد أغلبُه من الخارج. بعد ذلك توقفت صناعة السكر أو كادَت واهتَمَ حُكَّامُ الجَزيرة بالسياحة. الآن تُحاوِل هاواى أن تُعيد بَعضَ التَوازن بزراعة بعض الخضروات والفواكه بدون استخدام مبيدات مُصنَّعَة كيميائياً وتهتم أيضاً بالزراعة «الهيدروبونية» وهى الزراعة فى قليل من الماء. هَذا النوع من الزراعة راده الرُوس فى ستينيات القرن الماضى وزاد بِهِ مَحصول الطماطم مثلاً خمسة أضعاف، ويصبح أيضاً الاحتياج إلى الماء قليلاً. هذا النوع من الزراعة يُناسِبُ مِصر وبعض الدول العربية ذات الكثافة السكانية العالية والتى تعانى من قلة المياه. هاواى استخدمت المبادئ القديمة بأساليب تكنولوجية جديدة. كل ذلك أصبح معروفاً ومتاحاً ويَحتاجُ إلى تكنولوجيا بسيطة.

[٤]

بدأ العربُ هِجرات فَردية للولايات المتحدة منذ القرن السابع عشر، وكان أغلبها من منطقة الشام. كانت هناك هجرات من اليمن «استوردَتها» مَصَانع الحَديد



اهتمت دوريس بالفن عموماً وخصوصاً الإسلامى منه منذ طفولتها، حيث اعتادت العائلة زيارة متاحف لندن وباريس بالإضافة إلى مُتحف المتروبوليتان بنيويورك، الذى افتتح مجموعته الإسلامية سنة ١٩٣٢ وكانت العائلة تسكن بالقرب من المتروبوليتان



لصناعة السيارات؛ حيث قيل لصانعى السيارات إن اليمنيين يتحملون درجات الحرارة العالية، وما زالت هناك جالية يمنية وعربية كبيرة فى ولاية ميتشيجان، مركز صناعة السيارات. لم تبدأ هجرات عددية كبيرة من الدول العربية إلا فى منتصف القرن الماضى، وبعد أن تغيرت قوانين الهجرة الأمريكية للسماح بذلك، لأنها قبل ذلك كانت تُفضل الأوروبيين. ساعد على ذلك أيضاً زيادة مطردة فى عدد السكان، مما أثر على الدخل الفردى بالإضافة إلى بعض القوانين الاشتراكية، والتى أثرت على بعض الأغنياء، وكان هؤلاء أول من هاجر.

تعداد العرب الأمريكيين حوالى ٤ ملايين، وتجد أغلبهم مركزين فى الولايات الكبيرة مثل نيويورك، كاليفورنيا، فلوريدا، ميتشيجان، وتكساس. وإن كنت تجدهم فى كل الولايات، ولكن بأعداد قليلة نسبياً. أما جُزُر هاواى فعدد العرب فيها قليل، وإن كان أغلبهم قد هاجروا إليها من الولايات الأمريكية الأخرى، البعض منهم أساتذة فى الجامعات وأصحاب أعمال ناجحة وإن كان البعض مجندين فى الجيش والبحرية الأمريكية لوجود قواعد عسكرية كبيرة أهمها «بيرل هاربر» والتى دمرها اليابانيون خلال الحرب العالمية الثانية. تجد فى هاواى جامعاً ومركزاً اسلامياً واحداً وكنيسة قبطية واحدة، يمثلان مركز تجمع العرب والمسلمين. فى العام الماضى تقرر أن يُحتفل بيوم إسلامى فى الولاية، وصوت لصالح القرار ٢٢ ممثلاً، ولم يصوت ضد القرار إلا ثلاثة أصوات فقط. وكانت حيثيات القرار مبنيةً على مساهمة المسلمين فى الحضارة الإنسانية، وأن هاواى لا تُميز بين الأقليات الدينية أو الاثنية.

تعداد المسلمين بهاواى حوالى ٣٠٠٠، ما يجمعهم هو الإسلام، وما يفرقهم هو ما يفرق المجتمعات الإسلامية والمجتمعات المسيحية عامةً؛ فثقافة المسيحيين فى السويد خلاف ثقافة المسيحيين فى بوليفيا مثلاً. تجد فى المركز الإسلامى بهاواى مسلمين أصولهم من كل أركان المعمورة. فى مناخ هاواى المتسامح نتوقع أن يستطيع المسلمون أن يحلوا ما بينهم من خلافات ثقافية قد لا تمت للإسلام بصلة حقيقية، بل قد تكون من قبيل بعض العادات التى اكتسبت مظهراً إسلامياً فقط. ولكنك تجد مثلاً بعض المحافظين الذين يرفضون تغيير ما اعتادوا عليه فى موطنهم الأصلى بل قد يصبحون أكثر تزمتاً اعتقاداً منهم بالمحافظة على هويتهم، بينما آخرون أكثر تحرراً ويريدون أن يندمجوا فى البلاد التى يعيشون فيها مع المحافظة على دياناتهم وعلى ثقافة إسلامية مستنيرة. فمثلاً تجد خلافاً حول الحجاب وخلافاً فى بعض المفاهيم الإسلامية الأخرى والتى قد تكون فى حقيقتها ثقافية، اعتقد البعض أنها إسلامية. يهتم البعض بالطقس وبالشكل الخارجى (للنساء فقط) على حساب الجوهر، ليميزوا أنفسهم عن الآخرين، وهذه مشكلة تعانى منها الأقليات الإسلامية فى المهجر. ثقافة الإسلام تختلف من بلد لآخر، بل وتختلف فى البلد الواحد. لقد أعطى نجيب محفوظ أمثلة عديدة من ذلك فى قصته الشيقة «رحلات ابن فطومة». فمثلاً الصينيون المسلمون فى شمال غرب الصين لهم أصول تُركية إيرانية بوذية صينية (يسمون Uigur وتنطق ويجر) فنساؤهم ورجالهم يرقصون معاً ومع ذلك يختلفون عن أغلب مسلمى الغرب، بينما مثلاً بعض النساء فى منطقتنا العربية عبارة عن خيام سوداء متحركة.

إن هذا الاختلاف إثراء للثقافة، وليس إضعافاً لها، ومثال ذلك ما يحدث فى هاواى. تعتقد منى درويش- وهى باحثة كانت تعيش فى هاواى (مرجع رقم ٧) أن على بعض المسلمين أن يكفوا عن فرض اعتقاداتهم على الآخرين من المسلمين، وأن يحترموا بعضهم بعضاً قبل أن يطلبوا من الآخرين أن يحترموهم. ونفس الشىء ينطبق على مجتمعاتنا العربية والإسلامية. هاواى ولاية بها الكثير من التسامح واحترام الآخر، تعتقد منى درويش أننا يجب أن نتعلم منهم، وأن الإسلام يحتمل تفسيرات عديدة ترتبط بثقافة المكان ويجب علينا احترام تفسير الآخرين حتى يحترموا هم تفسيراتنا.

[٥]

الجزء الأخير من هذا المقال يخص امرأةً أمريكيةً ثرية، فى شبابها عشقت الفن الإسلامى وعشقت هاواى وبنت منزلها فوق ربوة تُطل على المحيط الهادئ كمتحف إسلامى على مساحة قدرها خمسة هكتارات. هذا المنزل خلّد ذكراها أكثر بكثير من الملايين التى ورثتها أو التى تركتها بعد وفاتها سنة ١٩٩٣. سُمِّىَ ذلك المنزل المتحف شانجريلا «Shangri La». الاسم مقتبس من مكان فى رواية جيمس هيلتون (الأفق المفقود) «Lost Horizon» والتى كانت مقررة على طلبة المرحلة الثانوية فى مصر فى أواخر الخمسينيات. والاسم فى تلك الرواية يشير إلى منطقة خيالية فى رواية هيلتون بعيدة عن العمران فى مكان غير مطروق يعيش فيه بعض الرهبان البوذيين لأعمار خيالية.. حياة سعيدة بعيدة عن التعصب، إنها الجنّة الخفيةّ. هذا ما تمنته دوريس ديوك لمنزلها أو لمتحفها. وإن كانت دوريس نفسها لم تحقق الخلود؛ فالمتحف الذى تركته لنا حقق لها ذلك.

وُلدت دوريس ديوك لثروة خيالية، فكان جدها ثم والدها أكبر زارعى وتجار الدخان، بالإضافة إلى أعمال أخرى. اهتمت العائلة بكثير من المشروعات الخيرية والتى قد يكون أهمها إعطاء ٤٠ مليون دولار لجامعة «ترينيتى» سنة ١٩٢٤، ويُعد ذلك المبلغ ثروةً خرافيةً فى ذلك الزمان. تغير اسم الجامعة بعد ذلك لتصبح «جامعة ديوك» والتى أصبحت واحدة من أهم جامعات أمريكا. كانت دوريس الطفلة والوريثة الوحيدة لتلك الأسرة. والدها جيمس بيوكانون ديوك توفى سنة ١٩٢٥ وابنته لم تتجاوز الثانية عشرة. ترك لها ثروةً جعلتها أثرى امرأة «فى الحقيقة أثرى طفلة» فى العالم. أصبحت مصدر اهتمام الصحافة والإعلام، ولكنها عاشت حياتها بعيداً عن الأضواء.

اهتمت دوريس بالفن عموماً وخصوصاً الإسلامى منه منذ طفولتها، حيث اعتادت العائلة زيارة متاحف لندن وباريس بالإضافة إلى مُتحف المتروبوليتان بنيويورك، الذى افتتح مجموعته الإسلامية سنة ١٩٣٢ وكانت العائلة تسكن بالقرب من المتروبوليتان. منذ صغرها كانت تزور مع والديها أثرياء نيويورك، فكانت ترى الغُرف أو الأركان الأندلسية، المغربية، الإيرانية، التركية، والهندية. ولا بد أن ذلك ترك انطباعاً لديها منذ الصغر. عندما كان عمر دوريس ٢٢ عاماً تزوجت من جيمى كروموبل وكان أكبر منها بستة عشر عاماً ويعمل بالسياسة. سافروا حول العالم فى شهر العسل، والذى استمر عشرة أشهر. خلال شهر العسل شاهدت الكثير من المناطق الإسلامية فى الشرق الأوسط وشمال إفريقيا والهند حيث تبلور لديها حب الفن الإسلامى حين شاهدت تاج محل فى أجرا، وتعرضت للفن الإسلامى الهندى. انتهت رحلة شهر العسل فى

نيكسون فى هاواى (أغسطس ١٩٦٠)

© Hank Walker



غرناطـــــة أمريكيـــــة!

هاواى فوقعت فى غرامها وامتدت إجازتها فى هاواى، وفكَّرت أن تبنىَ قصراً فيها.

تعرفت دوريس على آرثر أوبهام بوب، وكان خبيراً وعاشقاً للفَن الإيرانى الذى رتَّبَ لها رحلةً لإيران عام ١٩٣٨ وبدأت تشترى التحف الإسلامية من الهند، إيران، تركيا، مصر، سوريا، إسبانيا والمغرب. لم تكن تشترى ما يروق لها فقط، بل كلفت بعض الصنَّاع المهرة بتصنيع ما يماثل التحف التى لم تستطع شراءها مثل بعض الحوائط والأسقف المزخرفة. اشترت الكثير من التحف من غُرف كاملَة، إلى أرضيات وأسقُف، إلى قطع فَنيَّة رَائعة من الأخشاب والمَعادن المُطَعَّمَة، والزُّجاج المُلَوَّن، إلى نوافير وأعمدَة وتماثيل وشبابيك وأبواب. صُنِعَت خصيصاً لَهَا غرفة نومها وكذلك الحمام لتشبه زخرفة تاج محل الشهيرة والتى بناها الامبراطور شاه جيهان المغولى كمقبرة لزَوجته المحبوبة محل ممتاز والتى توفيت أثناء الوضع سنة ١٦٣١ بعد زواج دام تسعة عشر عاماً. تاج محل استغرق بناؤها ٢٢ عاماً وتكلفت حوالى ٤٠ مليون روبية، وهى إحدى مَفَاخر الفَن الإسلامى الذى يجمع بين عناصر هندية وتركية وإيرانية، وتُمثِّل أجمل صور الفن والحب والوفاء. فلم يكُن غريباً أن تُعجَب دوريس بتاج محل، وأن تَرغب فى قطعة منها فى منزلها، فأُنشئت غرفة نومها وكذلك حمامها الذى صُنِعَت أجزاؤه فى الهند خصيصاً لها، فكانت الأحجار الرخامية البيضاء مطعمةً بالأحجار الملونة الكريمة وشبه الكريمة مثل اللازورد والجيد والملاكيت. بالإضافة إلى النوافذ التى على هيئة ستائر مصنوعة من المصيص والتى تسمح فقط بنفاذ الضوء خلال فتحات صغيرة أو قطع من الزجاج الملون لتعطى النافذة أشكال بعض الزهور أو الأشكال الهندسية الإسلامية. وكما فعلت مع غرفة نومها والحمام اللذين صُنِعا فى الهند.. كانت الرباط فى المغرب تصنع لها سقف حجرة الجلوس من الخشب المُطَعَّم. لم تكن التكاليف تمثل أى عقبة. احتوت شانجريلا على حوالى ٣٥٠٠ قطعة تمثل أرقى ألوان الفن الإسلامى. تتفوق هذه المجموعة على ما هو موجود فى متاحف نيويورك، وتُعد خامس وأهم متحف إسلامى بأمريكا (مرجع رقم ٩). بالإضافة إلى التُحَف الإسلامية، فقد جعل الموقعُ الخُرافِى والنَوافِير وحمام السباحة ونخيل جوز الهند الرشيق..كل هذا جعل المكان كأنه الجنة.

كانت دوريس تشترى وتتخيل أين سيكون موضع ما تشتريه فى مَنزلها.

بجوار كل هذه التحف اشترت الأقمشة من أسواق الهند ومصر وإيران لعمل الستائر وأغطية الكنب والمَقَاعد لتناسب الفن الإسلامى، بالإضافة للسجاجيد الشرقية القديمة. استمرت دوريس فى جمع التحف الإسلامية لقرابة ستة عقود. كانَت تُقَرِّر أينَ وكَيف توضع تلك التحف على رغم وجود العديد من المتخصصين فى الديكور. كانت القطع متناسقةً ومتسقة مع بعضها بعضاً وكأنها أغنية أو سيمفونية رائعة.

قررت دوريس ديوك فى وصيتها أن يُفتَح مَنزلُها للعَامَّة والمهتمين بالفن والثقافة الإسلامية فأنشأت مؤسسةً للفنِّ الإسلامى وأوقفت على كل ذلك الكثير من المال، ومن الممكن أن تشاهد بعض صور هذا المتحف على الإنترنت على مَوقع www.shangrilahawaii.org. هذه قصةُ امرأة عشقت هاواى والفن والثقافة الإسلامية، وتركت للعالم مثالاً لما يمكن أن يقدمه الإنسان المقتدر. وليس بغريبٍ أن يحدُث ذَلك فى هاواى بلد الجمال والتسامح. ■

المــــــراجــــــع

(*) إن كلمة «الاستشراق» والتى استخدمها إدوارد سعيد كثيراً لتعرية طرق الغرب الاستعمارية وأُلِّف وأُلِّفَت عنها الكثير من الكتب، أصبحَت تُستَخدَم استخداماً عاماً للتدليل على ثقافة الغزو الفكرى الغربى ليس فى الشرق الأوسط فقط بل فى مناطق كثيرة دخلها الاستعمار الغربى. انظر مرجع ٢ ص ٢، ٥، ١٥، ١٦٥ وكذلك مرجع ٣ ص ٣.

(1) People And Culture of Hawaii. Edited by John. F. Mcdermott, Jr. Wen-Shing Tseng , and Thomas W. Maretzki. The University Press of Hawaii 1980.

(2) Aloha Betrayed , Noenoe K. Silva, Duke University Press , Durham & London . 2004

(3) Displacing Natives , Houston Wood, Rowman & Littlefield Publisher inc. 1999.

(4) Doris Duke's Shangri La, Doris Duke Foundation of Islamic Art , Honolulu Academy of Arts, 2008.

(5) Ethnicity and Inequality in Hawaii, Jonathan Y. Okamura, Temple University Press. 2008

(6) Documentary movie on the last queen of Hawaii produced by PBC , 1997

(7) Review 15/ Spring 2005 Mona Darwich-Gatto, ISIM

(٨) جلال أمين، العولمة، دار الشروق ٢٠٠٩، ص ٢٢٥.

(9) Doris Duke's Changri La, Hinilulu Academy of ART , Dris Duke Foundation of Islamic Art , 2002 page 35

كتــــاب الـــزاويـــة



«لا تسقطوا غصن الزيتون من يدى»
خطاب عرفات فى الأمم المتحدة

(٣)

وبفعل تواطؤ الدولة المنتدبة مع الحركة الصهيونية، ودعم الولايات المتحدة لهما، صدر عن هذه الجمعية، وهى فى بداية عهدها، التوصية بتقسيم وطننا فلسطين فى ٢٩ نوفمبر (تشرين الثانى) ١٩٤٧، وسط تحركات مريبة وضغوط شديدة، فقسمت ما لا يجوز لها ان تقسم، أرض الوطن الواحد. وحين رفضنا ذلك القرار، فلاننا مثل ام الطفل الحقيقية التى رفضت ان يقسم سليمان طفلها حين نازعتها عليه امرأة أخرى. ومع ذلك، فقد منح قرار التقسيم المستوطنين الاستعماريين ٥٤٪ من أرض فلسطين، وكأن ذلك لم يكن كافيًا بالنسبة إليهم، فشنوا حربًا إرهابية ضد السكان المدنيين العرب واحتلوا ٨١٪ من مجموع مساحة فلسطين، وشردوا مليون عربى، مغتصبين بذلك ٥٢٤ قرية ومدينة عربية، دمروا منها ٣٨٥ مدينة وقرية تدميرًا كاملا محاها من الوجود – وحيث فعلوا ذلك أقاموا مستوطناتهم ومستعمراتهم فوق الأنقاض وبين بساتيننا وحقولنا.

ومن هنا، يبدأ جذر المشكلة الفلسطينية. ان هذا يعنى ان أساس المشكلة ليس خلافًا دينيًا أو قوميًا بين دينين أو قوميتين، وليس نزاعًا على حدود بين دول متجاورة. انه قضية شعب اغتصب وطنه وشرد من أرضه لتعيش اغلبيته فى المنافى والخيام.

وقد استطاع هذا الكيان الصهيونى، وبدعم من دول الاستعمار والإمبريالية، وعلى رأسها الولايات المتحدة الأميركية، ان يتحايل على هيئة الأمم لقبوله فى عضويتها، ومن ثم على شطب قضية فلسطين من جدول اعمالها، وتضليل الرأى العام العالمى بتصوير المشكلة كمشكلة لاجئين بحاجة إلى عطف المحسنين أو إعادة توطينهم فى بلاد الآخرين.

كـــــافـــــكـــــا

خيـــــــرى شـــــلبـــى

[١]

■■ منذ أيام قليلة انتهيت من قراءة رواية يابانية جديدة لكاتب كبير لم أكن أعرف عنه شيئًا برغم متابعتى الدءوبة للأدب اليابانى المترجم إلى العربية، مع أنه كاتب معروف للعالم منذ وقت طويل مضى واسمه: «هاروكى مورا كامى». ترجمت أعماله إلى ٣٤ لغة، وحصل على العديد من الجوائز. أما الرواية فعنوانها: (كافكا على الشاطئ). وقد صدرت بالعربية مؤخرًا عن المركز الثقافى العربى (كلمة)، فى مجلد ضخم يضم نحو ثمانمائة صفحة من القطع الكبير؛ ترجمة: «إيمان حرز الله» ومراجعة: «سامر أبو هواش»؛ وهى ترجمة تبدو دقيقة، ولغتها العربية ترقى إلى مستوى الأدب الرفيع؛ مثلما يرتقى النص اليابانى إلى مستوى الأدب العظيم، أى المحرض للإنسان على تغيير نفسه وتطهيرها. ذلك أدب يرج النفس رجا، فيتبعثر المحتوى النفسى للقارئ ليصبح مرئيًا له، وما كان مختبئًا فى الأركان المظلمة من عقد نفسية أو طبقية أو تربوية، ومن رواسب راسخة ناتجة عن قناعات ربما كانت عتيقة وبالية، وتثور فى الوجدان عواطف كانت مخبوءة أو معطلة، وتبزغ فى العقل أضواء على قضايا وآراء ومعتقدات قد تكون على كثير من الخطل أو عدم الفهم أو لعلها من الضلالات. حسب الرواية العظيمة أن تثير فيك ما تثيره من بعثرة تتيح لك الرؤية والمراجعة والفهم؛ تقلقك بالكشف عن الحقائق مهما عظمت بشاعتها، بتسمية الأشياء بأسمائها الصحيحة، باقتحام حقول الأشواك واختراق التابوهات المحرمات بفعل بشر من أهالينا القدامى لا تزال تحكمنا بقدسية مجانية بل هى تمنعنا من فض مغاليق الأمور والنظر فى كل مخبوء حتى وإن كان قبيحًا؛ ففى فضح القبح تكريس للجمال وتحريض عليه، وفى التخلص من القمامة حماية للصحة من براكين تفريخ الجراثيم القاتلة فى نفوسنا.

رواية (كافكا على الشاطئ) تفعل شيئًا من هذا: تفضح جرائم الحضارة الغربية التى فُرضت على العالم منذ عصر النهضة الأوروبى إلى اليوم، حضارة الميكنة التى غزت العالم المتقدم ثم حاصرته أخيرًا بمنجزات التكنولوجيا الحديثة؛ وما فعلته بإنسان العصر الراهن. تقدم الرواية مأساة إنسان العصر فى واحدة من كبريات دول العالم الصناعى المتقدم: اليابان. إنسان العصر الذى قامت نهضته على قتل الأب. الإلحاد يعنى. نرى ملامحه الدرامية مكتملة فى هذا الصبى بطل الرواية البالغ من عمره خمسة عشر عاما. ثمة إشارات فنية بارعة مبثوثة فى تفاصيل السياق وحاشية الحوار تربط بين تراجيديا أوديب الأسطورة الشهيرة جدًا فى الميثولوجيا الإغريقية وفى الأدب العالمى وبخاصة فى صيغتها الشكسبيرية على وجه التحديد، وبين هذا البطل الصبى. وأخرى تربط بين هذا الصبى المدعو: «كرو»، والروائى العالمى الشهير «فرانزكافكا» ذى الأصول التشيكية وكان يكتب بالألمانية. ذلك أن كلمة «كافكا» فى التشيكية تعنى: الغراب الرحال، بينما كلمة: «كرو» فى اليابانية تعنى: الغراب. وهذا الصبى هو الذى اختار لنفسه اسم كافكا بدلاً من كرو ليتعامل به مع المجتمع حينما قرر فجأة أن يواجه الحياة بمفرده، أن يتمرد على سلطة أبيه النحات الشهير أو بمعنى أدق يقتله معنويا يعنى يلغيه وينفيه من حياته؛ أن يثور على واقعه الرتيب الراكد القاحل. إنه وأبوه فقط فى البيت وفى الحياة. ذلك أن أمه اختلفت مع أبيه ذات يوم بعيد جداً فانفصلت عنه وغادرت المدينة كلها؛ لم تتورع عن ترك ابنها هذا وعمره أربع سنوات فى حضانة أبيه وأخذت ابنتها التى تكبر أخاها بقليل. انشغل الأب النحات عن الحياة بمجده الشخصى. وكانت السنون تمضى فتتسع مساحة الانفصال بينهما.



قامت حرب باردة بين عملاقين
آثمين يريدان اقتسام العالم ويا حبذا لو أبعد أحدهما
الآخر ولو بالقضاء عليه نهائيا



الولد ما إن بلغ عمره خمسة عشر عامًا حتى كاد الشعور بالخواء يقضى عليه يسحق إنسانيته من فرط الجفاف العاطفى الذى يعانيه فى البيت وفى المدرسة وفى الأندية الرياضية وفى المجتمع من حوله؛ حيث الناس من فرط الانخراط فى ماكينة العمل وفى جهامة الحياة المكبلة بالقوانين الصارمة، ولا ملاذ له ولكثيرين من أمثاله سوى القراءة والرياضة البدنية؛ يقرأون بغزارة، يبحثون فى الكتب عن عالم مفقود، عن ملاذ آمن، عن خلاص. كانت الحرب العالمية الثانية قد تركت الخراب والدمار فى أنحاء مختلفة من العالم؛ ضُربت اليابان بأول قنبلة ذرية فى أربعينيات القرن العشرين، فتخلفت عنها كائنات شوهاء؛ أصيب الكثيرون بالعته والصمم والفصام والجنون، ناهيك عن التشوهات الخلقية. ساد العنف أنحاء العالم، وقرينه الإرهاب، وقامت حرب باردة بين عملاقين آثمين يريدان اقتسام العالم ويا حبذا لو أبعد أحدهما الآخر ولو بالقضاء عليه نهائيا. كل ذلك من أجل الاستئثار بمصادر الطاقة وخيرات الشعوب المتخلفة.

فلتكن الحياة ما تكون خارج عالم الصبى المحدود؛ لكنها ستكون بالقطع متاعا لتحرره. فلسوف يجد نفسه، وسوف يكون: «أعظم فتى فى الخامسة عشرة من عمره فى العالم». سوف يهرب من هذا البيت، من المدرسة، من حياة أبيه، تماما مثلما فعلت أمه منذ أحد عشر عاماً. ولئن كانت أمه قد رحلت دون أن تترك أية صورة لها فانمحت ملامحها من ذهنه وسقطت هى من ذاكرته فإنه سيفعل هذا مع الخمسة عشر عاما الماضية من عمره. وهكذا، فى يوم عيد ميلاده رتب للعيش فى مدينة بعيدة جداً عن طوكيو عاملاً فى إحدى المكتبات العامة، يقرأ ويعمل بلا حدود، يمارس الحرية لعله يصل إلى بكارة الحياة البدائية، بكارة الطبيعة الطاهرة البريئة من التلوث ومن طغيان الآلة والأسمنت. كانت تطن فى ذهنه عبارة اعتاد أبوه أن يؤنبه بها، تأنيب أب يشعر أن ابنه الوحيد غير راض عن حياته غير مستقر النفس غير جاد فى الدراسة فيختار نبوءة بشعة يرميه بها بقصد إرعابه حتى يرعوى ويرتد عن الوقوع فى الضلال. كان يقول له: «سوف تضاجع أمك وأختك ذات يوم». ربما لم يكن يقصد النبوءة حرفيًا بقدر ما كان يشعره بأنه سوف يضل ويتوه فى الحياة إذا هو ركب الشطط وتمرد على واقعه. كانت هذه النبوءة لا تنى تلفت نظر الصبى من زاوية الدهشة والسخرية فحسب لكنه يتذكرها دائماً. وحين شرع فى الهرب اختلس من درج أبيه مبلغا من المال يكفيه إلى أن يستقر فى عمل، وأخذ هاتف أبيه المحمول، وأخذ ما يهمه من ثياب، والسرير الذى يُطوى مثل حقيبة، أمسكها بيده، وعلق الهاندباج فوق ظهره، واتخذ لنفسه اسم كافكا تامورا.



ولكن ما الحكمة فى اختياره لاسم كافكا بالذات؟ هل لأنه مرادف لاسمه: كرو فى اللغة اليابانية أى أن كليهما غراب ومن ثم يكون اسم كافكا هو الأليق والأكثر انطباقا على حالته باعتباره سيكون الغراب الرحال بالفعل؟ ربما يكون هذا هو المبرر الفنى الظاهرى؛ ولكن ثمة مبررًا موضوعيًا نستشعره فى السياق وفى تلميحات الحوار العابرة.. ذلك هو أن كافكا، فرانز كافكا الروائى، جزء أصيل فى تركيبة الرؤية الفنية التى بنيت بها هذه الرواية. فروايات وقصص كافكا كانت فى الواقع أول وأخطر صرخة أدبية فنية هزت العالم ونبهته إلى جرائم الثورة الصناعية وما بنى عليها من تقدم اجتماعى مدنى أنشأ مجتمعا مركبا بعلاقات معقدة فقدت فيه الحياة معناها والأحلام مذاقها الإنسانى؛ بات الإنسان تعيسا بائسًا، مجرد ترس فى ماكينة عنيفة قاسية؛ بل الأسوأ من ذلك أنه بات متهما فى قضية مجهولة لا يعرف عنها أى شىء قط بله أن يكون مسئولا عنها لكنه مع ذلك مطلوب للمحاكمة، وهو ينزل من بيته ذات يوم مخفورا إلى المحكمة فلا يعود، يظل طول عمره فى دوامة يومية لا نهاية لها. ما الحياة عند فرانز كافكا الروائى إلا محاكمة غاشمة عنيفة لإنسان ذلك العصر. وهاروكى مورا كامى يريد أن يذكر قارئ روايته: (كافكا

كافكا على الشاطئ
تأليف: هاروكى مورا كامى
ترجمة: إيمان حرز الله
مراجعة: سامر أبو هواش
كلمة ـ المركز الثقافى العربى
٦٧٢ صفحة من القطع الكبير

عـــــــلى الشـــــــــاطئ

على الشاطئ) بالرؤية الكفكاوية للعالم الحديث. فكأن هاروكى مورا كامى يتبنى هذه الرؤية من طرف خفى، ليتناغم معه فى رؤية جديدة للعالم أقل عدمية أقل عيشة ذات عصب عقلانى خفى كامن فى المعمار الفنى.

[٢]

الغراب الرَحَّال يسعى إلى الخطيئة

ما تلبث النبوءة التى دأب أبوه على رميه بها. والتى كانت محض أسطورة. حتى تخطو معه نحو المواقع منذ خروجه من البيت كأنها القدر المصاحب له أينما ذهب، كأن شروعه فى الترحال شروع فى تحقيق تلك التراجيديا الأسطورة على أرض الواقع الراهن. لقد استقر عزمه على السفر إلى مدينة تاكا ماتسو فى أقاصى اليابان تشبه السلوم عندنا أو مرسى مطروح. فالمسافة من طوكيو إليها يقطعها باص الرحلات الطويلة فى يوم وبعض يوم. فى استراحة الطريق تقاربت منه فتاة كانت وحيدة ومسافرة إلى تاكا ماتسو لتعمل كوافيرة فى أحد محلاتها وفى نفس الوقت تستروح نسمات البحر وهواءه النقى لعدة أشهر تعود بعدها لطوكيو. سرعان ما قامت بينهما علاقة استلطاف وانجذاب، فنقلت كرسيها فى الحافلة إلى جوار كرسيه، وأمنت إليه، فنامت تاركة رأسها ينحدر على كتفه. انشغل بأمرها، تدور فى خلده خواطر مستخلصة مما حكته له بسرعة عن وضعها وظروف حياتها، وما بين وضعيهما من تشابه فى كثير من السمات والوضع العائلى؛ أوعزت إليه بأن هذه الفتاة ربما كانت أخته التى رحلت مع أمه ذات يوم بعيد.. ثم استراح إلى هذا الاستنتاج ربما لأنه كان يريده، ولأن هناك شواهد دعمت هذا الاستنتاج، فمجرد انجذابها إليه دون جميع الركاب بدا كأنه التقاء أخت بأخيها بعد فراق طويل؛ ثم إنها اكتشفت من أول وهلة أنه تلميذ هارب من المدرسة ومن أهله، فاهتمت بأمره كما تهتم الأخت بأمر أخيها، أعطته رقم هاتفها، عرضت عليه أن يتصل بها إذا احتاج لمساعدتها، أبدت استعدادها لأن تستضيفه فى الشقة التى ستسكن فيها إذا ما تعذر عليه أمر المبيت، مذكرة إياه بأنها مخطوبة وتحب خطيبها ولا تستطيع إقامة علاقة جنسية مع أحد سواه مهما كانت الظروف والأحوال. وقد أعجبه منها هذا الوضوح وهذه الثقة فى نفسها؛ كما أنه لم يكن يفكر فى علاقة كهذه باعتباره قد شعر بأنها ربما كانت أخته؛ ثم إنه كان ميالا إلى الوحدة والاستقلال. احتجز لنفسه غرفة فى فندق رخيص لعدة أيام. ثم راح يتعرف على المدينة حتى عثر على أهم مكانين يطلبهما: النادى الرياضى ليمارس فيه ألعاب القوى، ومكتبة عامة ذات شهرة واسعة فى المدينة، تمتلكها عائلة من كبار الأثرياء، ورثتها عن أب مثقف كان معنيا بشئون الثقافة والعلم؛ فلما رحل نفذوا وصيته بتحويل مكتبته الخاصة إلى مكتبة عامة، وخصصوا لها هذا المبنى الفاخر بحديقته، وعينوا لها مديرة حسناء تَمُتّ إليهم بصلة صداقة عائلية قديمة، وموظف استقبال، ووفروا كل وسائل الراحة، وفتحوها للباحثين والدارسين والقراء بجميع مشاربهم واهتماماتهم.

دخل الفتى المكتبة بلهفة من عثر على ضالته. قرأ بنهم. أقام علاقة ود مع موظف الاستقبال الشاب اللبق المثقف. بضعة أيام وأوشكت نقوده على النفاد، فراح يقتصد فى الطعام ويكثر من التجوال فى الحدائق العامة. وذات مساء أخذته سنة من النوم على أرض الحديقة استيقظ منها مفزوعا مجهدا يدق قلبه بعنف. فوجئ بأن قميصه ملوث بالدم!.

ظنها بقعا لونية حمراء فلما حاول إزالتها بالماء اتضح أنه دم تقرح فى نسيج القميص!.

عندئذ وقر فى وهمه أنه لا بد قد ارتكب جريمة قتل فى غيبوبة منه. عبثا حاول التذكر؛ لكنه ظل على شىء من اليقين الغامض بأنه قاتل وأنه إن عاجلا أو آجلا سيقع فى قبضة الشرطة. تعاظم شعوره بالوحدة والخوف، إنه فى أشد الاحتياج إلى رفيق يبادله الرأى فى هواجسه لعله يعاونه على الفهم أو يملأ خواءه الداخلى. فى الحال تذكر الفتاة «ساكورا» رفيقة المشوار التى اعتبرها أخته. هاتفها، فأذنت له بالمجىء. فى شقتها شديدة التواضع غسل ثيابه وشرب القهوة وحدثها عن هواجسه. فاندهشت، لكنها طمأنته بأنه لا جريمة بدون جسم للجريمة. نامت على سريرها، وفرد هو سريره الحقيبة على الأرض ورقد فى داخله يحاول استدرار النوم دون جدوى. وكانت هى الأخرى قلقة لقلقه. فنادته لينام بجوارها على السرير لعل دفء كليهما يجلب النوم للآخر. وحينما تمدد بجوارها ذكرته بخطيبها الذى لا يمكن لها أن تخونه. هو أيضًا كانت خواطره المتوترة مركزة على ما هو فيه من ورطة إضافة إلى اعتبارها أخته التى أخذتها أمه معها عند رحيلها الغامض. إلا أنه حينما احتضنته كأخت واستسلمت لبوادر النوم ضخ جسدها الكهرباء فى جسده وبشكل استحال عليه إخماده. أشفقت هى عليه؛ ببساطة عرضت عليه أن تساعده كأنثى فى تفريغ توتره. وهكذا مارست له الجنس دون أن يدخلها. وهكذا أفاق فى الصباح على أنه يعتبر قد



مارس الجنس مع أخته.. أى أن خطوة من نبوءة أبيه قد تحققت. وفى الواقع لم تكن هذه الخطوة هى الأولى فى تحقيق النبوءة؛ إنما قد سبقها بساعات قليلة. ربما فى اللحظة التى استيقظ فيها الصبى على بقع الدم فى قميصه. جريمة قتل الأب واقعيا وبفعل فاعل بالطبع..

ففى تلك الأثناء كنا قد شاهدنا جريمة قتل فى الحى الذى يسكن فيه والد الفتى كرو فى طوكيو، اغتيل فيها دكتور من علية القوم كان مهموماً يجمع القطط من الشوارع ليذبحها فى معمله ويأكل أكبادها وقلوبها ثم يحنط الجسد ويحتفظ به فى ثلاجة تمهيداً لاستخدامها فى مشروع علمى مهم. فى المقابل كان هناك رجل من عامة الشعب مصاب بفقدان الذاكرة لكنه طيب القلب ملىء بالنوازع الخيرة ويعيش على معونة ضئيلة من محافظ طوكيو. هو مع ذلك ذكى جداً وإن كان يتهم نفسه بالغباء دائماً. كثيراً ما يجىء كلامه بمثابة حكم وأمثال دامغة معبأة بخبرات الحياة. أعطاه الله موهبة فريدة: التحدث مع القطط، يفهم كلامها ويتحدث معها حديث الصديق للصديق. هو بوجه عام رجل يحيطه الغموض الأسطورى الجذاب. فيه أشباه كثيرة من المتصوفة والمجاذيب الدراويش والمكشوف عنهم الحجاب فى التراث الشعبى الفولكلورى؛ كل ذلك على أرض من الطيبة والبراءة. وكانت إحدى سيدات الحى المصونات العاطفات عليه قد كلفته بالبحث عن قطتها الضائعة؛ فراح يسأل عنها القطط حتى أفادته تحرياته بأن هذا الدكتور المدعو جون واكر قد استدرجها فى الحديقة الفلانية وأخذها فتلك هى هوايته المفضلة. لم يكد يهتم بالبحث عن عنوان هذا الدكتور حتى فوجئ فى الحديقة بكلب مهيب يتمسح فيه ثم يستدرجه إلى الطريق. قاده الكلب إلى قصر الدكتور، فدخل عليه فإذا هو فى انتظاره وقد بعث كلبه لاستدعائه. قال له الدكتور إنه يهدف من وراء جمع القطط إلى صنع ناى من أرواحها، يصنع نايا كبيراً بحجم خرافى لكى ترج أنغامه الأرض والصخر!. ثم فتح الثلاجة وعرض عليه القطط المحنطة. لم يتعرف العجوز على قطته بين القطط المحنطة فاطمأن قليلا؛ لكن الذهول جمده فى مكانه حين قال له الدكتور إنه قد سئم الحياة ويبحث عمن يقتله لأنه جبان يعجز عن قتل نفسه. واتبع كلامه باستلال سكين كبيرة أعطاها للعجوز قائلا إنه سيذبح أمامه خمس قطط ستكون آخرها قطته؛ سيذبح واحدة بعد أخرى وعلى العجوز أن يحزم أمره بين كل قطة والتى تليها فإن لم يقتله سيذبح قطته أمامه. وبدأ بالفعل فذبح القطة الأولى وشق بطنها وأكل ما فى جوفها؛ ثم الثانية، فالثالثة، فالرابعة، فلم يشعر العجوز صديق القطط بما فعل؛ أفاق فجأة على حقيقة أنه قتل الدكتور بالفعل وها هو ذا ملقى على الأرض غارقًا فى دمه. غير أنه أخذ قطته وغادر القصر فى هدوء كأن شيئًا لم يحدث لأن القصر كان خالياً تماماً إلا منه والدكتور والكلب الرابض على الباب البعيد. ذهب إلى الشرطة ليبلغ عن نفسه، فاستغرب الضابط كلامه وشكله فعامله كملتاث ثم صرفه. على أن هذا الحادث عندما اكتشفته الشرطة وعرضته الصحافة اتضح أن هذا الدكتور العجيب هو النحات الشهير كيوتشى تامورا، والد الصبى الهارب كافكا تامورا. وكانت الشرطة قد تتبعت مكالمات هاتفية جرت من هاتف النحات المحمول الذى سرقه الفتى واستخدمه أثناء ترحاله. المهم أن الشرطة عرفت اسم حامل الهاتف وتفقدته فى الفنادق فى تاكا ماتسو فعرفت أنه يتردد على هذه المكتبة. فى نفس الوقت نشرت الصحف أن للنحات ابنا فى الخامسة عشرة من عمره هارب من البيت قبل الاغتيال بساعات، وأنه مطلوب من الشرطة لاستيفاء بعض البيانات قد تساعد فى الوصول إلى قاتل أبيه.

[٣]

الأسطورة ـ النداهة ـ تحاصر كافكا

رأى موظف الاستقبال أوشيما أن الصبى كافكا يمكن أن يكون مساعدا له. لقد أحبه وأعجب بطموحه فى القراءة. بواسطته وافقت إدارة المكتبة على أن يعمل فى إعادة ترتيب الكتب فى أماكنها بعد عودتها من الاستعارة، وفى تنظيف الأرفف وكنس الأرض وصنع القهوة للآنسة سايكى مديرة المكتبة. وكان أوشيما فى العشرينيات الأولى من عمره؛ يتعامل معه كافكا باعتباره رجلا كامل الرجولة؛ إلى أن جاء إلى المكتبة سيدتان تفتشان على المكتبة ومدى استيفائها للشروط الصحية ومدى ما تقدمه للقراء من تيسيرات وخدمات وما إلى ذلك من أوضاع تلتزم بها جميع المكتبات العامة؛ فاحتدت المناقشة بين أوشيما وبينهما، فاتهمته إحداهما بأنه مثال للرجل الذكورى المتعصب؛ فإذا به ـ بكل وضوح وأريحية ودونما وجل أو خجل ـ يستدرك عليها شارحا وضعه الجنسى على هذا النحو:

ـ «جسدى أنثوى فيزيائيا، أما عقلى فذكورى تماما.. شعوريا أحيا كرجل. ولهذا أظن أن رؤيتكما بخصوص كونى مثالا تاريخيا ربما كانت صحيحة. ومن يدرى ما إذا كنت عنصرية فاحشة، لكننى لست سحاقية، برغم ملابسى هذه. ومن ناحية الجنس أفضل الرجال. بمعنى آخر، أنا أنثى، لكننى لوطية. ولا تأتينى العادة الشهرية. إذًا تجاه من أنا عنصرية؟ هل لأحد أن يوضح لى؟».



رأى موظف الاستقبال أوشيما أن الصبى كافكا يمكن أن يكون مساعدا له. لقد أحبه وأعجب بطموحه فى القراءة

وطبعا لم يوضح له أحد. ذلك أن حالته الفريدة تلك ربما كانت من تأثير الإشعاع الذرى الذى ضرب الجينات الوراثية فى الشعب اليابانى فأحدث بها مثل هذا الخلل ضمن ما أحدثه من تشوهات كثيرة فى الأبدان وفى النفوس وفى كل شىء على الأرض. ولقد أحبه كافكا لما فى نفسه وذهنه من صفاء يتميز بها أبناء الأقاليم اليابانية البعيدة التى لا تزال متصلة بالطبيعة فى عنفوانها البدائى البكر، المتمثلة فى الغابات الكثيفة هائلة الأحجام، والبحر المحيط الهادر، والشمس القوية الحنونة فى آن.

كان على كافكا أن ينام فى غرفة نوم فى الطابق الثانى من مبنى المكتبة، فيها سرير وتسريحة ومكتب صغير، فرشها وأثاثها بسيط لكنه ثمين وتفوح منه العراقة والرومانسية والأنفاس العطرة، لها شباك عريض يفتح على الحديقة ويتصدى للقمر فيستضيفه فى الحجرة، وفى ليالى اختفائه يدخل ضوء فانوس العمود الواقف فى الحديقة. ما كاد كافكا يألف النعيم فى هذه الغرفة وحلاوة العمل فى المكتبة حتى فوجئ بأوشيما يشير عليه بضرورة الاختفاء مؤقتا من المكتبة لأن الشرطة اتصلت بالمكتبة واستفسرت عن وجوده، وأن أوشيما أجابهم ـ تلقائياً ـ بأن كافكا لم يعد يتردد على المكتبة. وصحيح أن سؤال الشرطة كان عابرا وأن كافكا ليس مطلوبا القبض عليه بل استيضاح بعض البيانات عما إذا كان لأبيه خصوم؛ إلا أن أوشيما لا يحب أن تعرف الشرطة طريقها إلى المكتبة؛ كما أنه مقدر لحالة كافكا وخوفه من تسليم نفسه للشرطة، وفى نفس الوقت يخشى أن تعتبر الشرطة اختفاءه دليلا على تورطه فى الجريمة؛ لكنه اقتنع بابتعاده عن يد الشرطة مؤقتا لعلهما يفكران فى حل آخر أو ينجلى الموقف عن مفاجآت جديدة. وفى الواقع كان كافكا منذ بلوغه خبر اغتيال أبيه قد غرق فى شعور بالذنب، بل وقر فى يقينه أنه هو القاتل الحقيقى؛ الدليل على ذلك بقع الدم على قميصه الذى عجزت المغسلة عن إزالة أثره؛ حتى وإن كان من المستحيل بداهة أن يسافر من تاكا ماتسو إلى طوكيو مسيرة يوم وبعض يوم ثم يقتل أباه هناك ويرتد عائداً إلى تاكا ماتسو لينام مرهقا فى الحديقة!.. إنما المقصود الذى يبلغنا من السياق أنه القتل المعنوى؛ فمجرد أن يترك أباه وحيدا ويهرب، مجرد التمرد على سلطة أب هو نوع من القتل؛ أى أنه يعتبر نفسه قد قتل أباه بالفعل لحظة خروجه من البيت هاربا. ولئن كان أوديب

كان اللحن حزيناً وبسيطا وجذابا.
أما الكلمات فكانت رمزية تأملية يصعب فهمها. فأضفى هذا التناقض على الأغنية بعض الروحانية والحميمية



فى الأسطورة قد قتل أباه الملك. وهو لا يعرف مسبقا أنه أبوه. ليكون ملكا على البلاد بدلاً منه؛ فإن كافكا قتل أباه. وهو يعرف مسبقا أنه أبوه. ليستقل بنفسه قبل الأوان. أوديب قد فُرض عليه القتل أما كافكا فقد اختاره؛ تماما مثلما اختارت الثقافة الأوروبية الحديثة أن تلحد بالله وتجنب الكنيسة التحرر من سلطتها المانعة لأى تقدم علمى. غير أن المأساة فى النهاية لابد أن تقع نتيجة لقتل الأب ماديا كان أو معنويا: ينتقم أوديب من نفسه شر انتقام حينما اكتشف الحقيقة ولم يحتمل بشاعتها.. ويقع إنسان النهضة الأوروبية، بل تقع الحضارة الغربية كلها فى خواء روحى فادح؛ تتقطع العلاقات الإنسانية، تجف الينابيع العاطفية فيزداد الإنسان عنفا وشراسة ويبرع فى التفكير الشرير فيخترع الأسلحة القتالة الجالبة للدمار الشامل تستخدمها ضد شعوب آمنة غير شريرة؛ وتعقم اللغة فتصبح أداة بلبلة وتضليل بدلاً من كونها أداة اتصال.

يدبر أوشيما لكافكا منتجعا فى أحضان الطبيعة البكر، يبعد عن تاكا ماتسو نحو ثلاثمائة ميل أو أكثر؛ فى نفس المنطقة الريفية التى تقيم عائلة أوشيما المشتغلة بالزراعة. يقود أوشيما سيارته إلى كوخ مكون من حجرتين ومطبخ وحمام وردهة وشرفة خارجية كبيرة، داخل قطعة أرض كبيرة تملكها أسرة أوشيما، مسورة وذات بوابة خارجية كبيرة. كلها مزروعة بمختلف أنواع الشجر والزهور؛ وهى كذلك جزء مقتطع من غابة كثيفة مترامية الأطراف لا حدود مرئية لها. حذره أوشيما من التوغل فيها لأنه إن فعل لن يستطيع العودة إلى الكوخ بسهولة وقد يقع فى متاهة يبقى فيها إلى أن يموت جوعا وعطشا. وذكره بأن الجيش اليابانى قد تخندق فيها أثناء إحدى معاركه الحربية، أو لعله كان ماراً بها، فتاه منه جنديان لم يعثر عليهما أحد حتى الآن برغم مضى هذا الزمن الطويل، ولا أحد يعرف عنهما شيئا، ولا تستطيع طائرات أن تحلق فوق الغابة أو تجوس فيها بأى حال. ولكن كافكا يقع تحت إغراء التحذير؛ فقد جاس فى الغابة قليلا، ووضع علامات يسترشد بها فى طريق العودة؛ ثم عاد حينما شعر بأنه وقع فريسة لسحر الغابة وجاذبية التجوال فيها كمغناطيس يشد الخطوات بغير وعى أو تبصر. هذا هو العالم البدائى البكر الذى لا بد أنه كان يبحث عنه، حيث لا زيف ولا زواق ولا تعقيدات ولا قوانين وضعية ولا أى سلطة تكبل حرية الإنسان. هنا يستطيع الإنسان أن يدبر حاله؛ سيعلمه المكان كيف يتواءم وكيف يجد كل ما يحتاجه لكى يعيش فى أمان، حراً كامل الحرية. إلا أنه بعد بضعة أيام، وكانت الشرطة قد صرفت النظر عن المكتبة؛ جاءه أوشيما بسيارته فأخذه عائدا به إلى المكتبة.

اتضح أن الحجرة التى ينام فيها كافكا هى الحجرة التى كانت مخصصة ذات يوم بعيد جداً لمبيت حبيب الآنسة سايبكى مديرة المكتبة الآن. كانت سايبكى فى طفولتها ذكية متفوقة وماهرة فى تأليف الموسيقى وفى الرياضيات، تجيد العزف على البيانو، كانت دائمًا هى الأفضل فى كل ما تفعله أو تجربه. وكانت إلى ذلك جميلة جداً ولا تزال جذابة حقا على الرغم من كونها تكاد تكون فى سن أبيه. وحينما كانت فى المدرسة الإعدادية كان لها حبيب هو الابن الأكبر لعائلة كومبورا أصحاب هذه المكتبة التذكارية الضخمة. كانت ثمة قرابة بعيدة تربطها بالأسرة. وكانت وحبيبها فى نفس العمر. ولقد شكلا معًا ثنائيًا رائعا، روميو وجوليت نموذجيان. عاشا لصق بعضهما فلم يفترقا أبداً. وعندما كبرا وقعا فى أسر الغرام، باتا كروح واحدة فى جسدين. وعندما بلغ حبيبها الثامنة عشرة من عمره سافر إلى طوكيو لكى ينتسب إلى الجامعة إذ كان متفوقا هو الآخر فحصل على منحة دراسية فى المجال الذى أراد دراسته؛ وكان شغوفا برؤية المدينة العاصمة. أما هى. سايبكى. فانتسبت إلى جامعة الإقليم المحلية وتخصصت فى دراسة البيانو. لقد نشأت فى أسرة محافظة وكانت هى طفلتها الوحيدة، ولذا لم يوافق أبواها على أن تسافر إلى طوكيو. فكان ذلك فراقهما الأول، فكأن الله قد شطرهما بسكين.

[٤]

عبور البرزخ بين الجنس والأمومة

برغم الفراق كانت الآنسة سايبكى وحبيبها يتراسلان يومياً وهما على يقين من أن اتحادهما معاً غير قابل للكسر. وحينما صارت الآنسة سايبكى فى التاسعة عشرة من عمرها كتبت قصيدة ولحنتها وغنتها على البيانو. كان اللحن حزيناً وبسيطا وجذابا. أما الكلمات فكانت رمزية تأملية يصعب فهمها. فأضفى هذا التناقض على الأغنية بعض الروحانية والحميمية. وبالطبع كانت الأغنية بكلماتها ولحنها تعبر عن النداء المكتوم فى داخلها لحبيبها البعيد. ولقد غنتها مرات قليلة أمام الناس إذ كانت بطبيعتها خجولة؛ لكنها محبة للغناء؛ فانضمت إلى فرقة موسيقى بوب فى الجامعة. وقام أحد المعجبين بالأغنية بتسجيلها على شريط كاسيت وأرسلها إلى صديق له يملك شركة تسجيلات موسيقية؛ فأحب الأغنية وأقنع سايبكى بأن تسجلها فى الاستديو الخاص به فى طوكيو. وكانت زيارتها الأولى لطوكيو حيث التقت حبيبها هناك فنهلا من الحب حتى الثمالة. ثم إذا بالألبوم يحقق نجاحا كاسحا، بيعت منه ملايين النسخ وحقق لسايبكى ثروة هائلة تكفيها مدى الحياة تنفق ببذخ كيفما تشاء. كان هذا حوالى عام ١٩٧٠ حينما أذيعت الأغنية فى كافة محطات الراديو، يعنى قبل أن يولد كل من أوشيما وكافكا.

تلك هى الحكاية التى حكاها أوشيما لكافكا. لقد أدهشته؛ ولكن دهشة كافكا بلغت ذروتها المذهلة حينما سأل أوشيما عن اسم تلك الأغنية ففاجأه أوشيما قائلا: «عنوانها: كافكا على الشاطئ!». ردد كافكا العنوان مذهولا: كافكا على الشاطئ؟! قال أوشيما: «نعم كافكا على الشاطئ! كافكا تامورا! اسمك أنت! صدفة عجيبة أليس كذلك؟!». يرد كافكا: «ولكن كافكا ليس اسمى الحقيقى ومع هذا فتامورا هو اسمى الحقيقى». قال أوشيما: «لا يهم فقد اخترت أنت اسم كافكا أليس كذلك؟». فأومأ كافكا: «لقد حسمت أمرى منذ فترة أن كافكا هو الاسم الصحيح لشخصيتى الجديدة». فيعلق أوشيما: «وهذا هو بيت القصيد!».



سيعلمه المكان كيف يتواءم وكيف يجد كل ما يحتاجه لكى يعيش فى أمان، حراً كامل الحرية





ثم يستطرد مواصلا سرد بقية القصة: مات حبيب الآنسة سايبكى وهو فى العشرين من عمره ميتة مجانية عبثية بشعة؛ فى الوقت الذى كانت فيه أغنية كافكا على الشاطئ فى أوج نجاحها الباهر. مات الحبيب فى مظاهرة طلابية حيث اشتبه فيه زملاؤه فداسوه بالأقدام ومزقوا جثته. فتوقفت سايبكى عن الغناء نهائيا، عزلت نفسها عن الناس تماماً وانقطع ذكرها، حتى أبواها لا يعرفان عنها أى شىء سوى أن ثروتها العالية من حصيلة الأغنية تكفيها للعيش حياة كريمة فى أى مكان. قيل لقد حاولت الانتحار فى الأدغال فأودعت فى مصحة نفسية. وقيل إن البعض شاهدها تعمل فى بعض المؤسسات. وقيل بل تزوجت وأنجبت طفلا. وبعد خمسة وعشرين عاما ظهرت الآنسة سايبكى مرة أخرى فى مدينة تاكا ماتسو بعد وفاة والدها. ثم بعد رحيل أمها باعت المنزل الذى ولدت وتربت فيه وانتقلت إلى شقة فى وسط المدينة. ثم إنها تحدثت مع شقيق حبيبها الذى أصبح كبير العائلة، فعينها مديرة لمكتبة كومبورا. وها هى ذى لا تزال إلى اليوم رشيقة وجميلة كما فى صورتها على غلاف ألبوم كافكا على الشاطئ ولكن بعد فقدان ابتسامتها إشراقتها. أصبحت تحيط نفسها بجدران عالية تبعد الآخرين عن اقتحامها. كل عالمها منحصر فى الشقة والمكتبة وسيارتها الفولكس فاجن. وطوال وجودها فى مكتبها بالمكتبة لا تكف عن الكتابة لا أحد يدرى ماذا تكتب. ولما كانت الآنسة سايبكى صديقة لأم أوشيما فقد أعجبت بحبه للقراءة والموسيقى فألحقته بالمكتبة مساعدا لها. وبفضل هذه الصداقة احتفظت أم أوشيما بنسخة من ألبوم كافكا على الشاطئ؛ وبأريحية نزل أوشيما على رغبة كافكا الحارقة فأتى له بالألبوم ليسمعه، بل استطاع أن يستنسخ له النوتة الموسيقية.

ولكن لماذا كانت المكتبة مهمة بالنسبة للآنسة سايبكى كأنها المعبد بالنسبة للمتدين الورع؟. الواقع أن حبيبها كان دائم الإقامة فيها يقرأ بشغف ونهم، ويبيت فى هذه الغرفة

هـــذه الغـــرفة البديعـــة
الـموحيـــة كـانـت مـهـد الـعـشـق فـى عـز صـبـاه وعـنـفـوانـه بـيـن الآنـســة سـايـيـكـى وحبيبهـــــا الفقيـــد



التى يبيت فيها كافكا الآن. وكانت سايكى تزوره فيها كل يوم يمارسان الحب ويدرسان ويستمعان إلى الموسيقى. ثم يقول أوشيما: «توقفت حياة ساييكى بشكل أساسى وهى فى العشرين حين مات حبيبها. دفنت عقارب الساعة فى روحها وتوقفت هناك، الوقت الخارجى طبعا يمضى حولها كالمعتاد لكنها لا تتأثر به. بقيت دائماً جذابة صبية يحوطها لون من الغموض الساحر الجذاب هو الآخر».

وإذاً فهذه الغرفة البديعة الموحية كانت مهد العشق فى عز صباه وعنفوانه بين الآنسة ساييكى وحبيبها الفقيد. ولئن كان كافكا تامورا قد انجذب إلى الآنسة ساييكى وعالمها السحرى الغامض فإنه بعد أن استمع إلى قصتها من أوشيما انبثقت فى داخله وشائج راح يتوقف عندها طويلا؛ منها هذه الصورة المعلقة فى برواز على الحائط لطفل يقف بالمايوه على شاطئ البحر، تكاد تتطابق مع صورة مماثلة تركها فى بيتهم هى الصورة التى جمعته بأخته على الشاطئ؛ ولعل الطفل الذى فى هذه الصورة وحده على الشاطئ هو كافكا بطل الأغنية، هو حبيبها طفلا، والأرجح أن يكون هو نفسه: كرو أو كافكا تامورا. ثمة شعور داخلى غامض يوحد بينهما فى الصورتين.

ومن هذه الوشائج كذلك أن الفترة التى غابتها ساييكى عن مدينتها وأهلها هى نفس الفترة التى تزوج فيها أبوه. إن عيشها فى طوكيو، وزواجها، وإنجابها طفلا، وعودتها إلى أهلها، كل ذلك يشى بأن الآنسة ساييكى هذه ربما تكون أمه التى. بنفس الغموض. تزوجت من أبيه ثم أنجبته وأخته ثم انفصلت وغادرت بشكل مبهم لا يعرف كافكا أسبابه ولا أى شىء عن ظروفه. شىء ما فى قلبه يوشك أن يقنعه بأن هذه الشخصية هى تلك. ثم إن إنجذابها إليه والرقة فى التعامل معه إلى حد التباسط وإلغاء الحواجز، ودعوتها له للجلوس إليها كلما قدم لها قهوة المساء، واستماعها إليه بأريحية؛ كل ذلك يشعره بأنه الدم يحن إلى نفسه إذا وجد نفسه فى شخص آخر مجهول الهوية بالنسبة له. ولقد شجعه ذلك على البوح لها بهواجسه، فراح يلف ويدور حول الموضوع بأسئلة ملفوفة يوجهها إليها. فلما عرف منها أنها كانت فى طوكيو تجرى بحثا اجتماعيا عن مخلفات الحرب على الجنود وأهاليهم فى طوكيو؛ تذكر أن أباه هو الآخر كان معنيا بهذا الموضوع عناية فائقة؛ وإذاً فلا بد أنهما تلاقيا على سكة ذلك البحث ثم قام الاستلطاف بينهما فتزوجا، إلا أنها فى تحليله. حسب ما فهمه عن شخصيتها بعد استماعه إلى قصتها. لم تكن مستعدة نفسيا لإعطاء نفسها لشخص آخر غير حبيبها الفقيد الذى كان وهى روحا واحدة فى جسدين؛ وبناء عليه شعرت أنها تكذب عاطفيا على زوجها؛ فكانت صادقة مع نفسها حينما تأكدت من استحالة التواؤم المستقر مع شخص آخر، فانفصلت بقوة وبحسم لا يقبل التراجع لدرجة أنها تخلت فى سبيل الانفصال عن ابنها البالغ من عمره أربع سنوات؛ ولعلها رفضت الطفل لأنه ليس من صلب حبيبها وإن كانت قد تعاطفت مع الابنة فأخذتها ولا بد أنها انفصلت عنها بدورها أو لقيت مصيراً مجهولاً. جعل يصرح بخواطره هذه شيئًا فشيئًا؛ فإذا بها تقول له بوضوح: «إن نظريتك هذه التى تريد أن تثبت بها أننى ربما أكون أمك ليست صحيحة». ولكنها. فى نظره. لم تكن مقنعة فى قولها؛ لم يكن صوتها ينضح بالصدق بل باللباقة فى التخلص من مأزق الخوض فى هذا الموضوع من أساسه بما أنها لا تقبل الخوض فى سيرتها الذاتية من قريب أو بعيد؛ فهى لا تنفى ولا تؤكد، ولا تظهر عليها أية عاطفة؛ الأمر الذى وضع كافكا بين شعورين كلاهما جامح وعنيف: الجنس والأمومة، وكلاهما من مصدر واحد؛ فحرمانه من الأمومة لا يضارعه فى القوة سوى حرمانه من الجنس؛ غير أن احتياجه للأمومة كان هو الأقوى بطبيعة الحال. لقد كان ولوعا باكتشاف أمه بقدر ولعه بالرغبة فى التحرر من الأسرة برمتها!

[٥]

وأخيراً.. كيف تغدو جزءاً من عــالــم جــديــد؟

ما إن بدأ يألف الغرفة التى خصصت لنومه؛ تلك الغرفة التى كانت الآنسة ساييكى تتذاكر فيها مع حبيبها ابن صاحب المكتبة فى زمن الصبا والشباب؛ حتى بدأ يرى شبحا مجسدا يظهر فى الغرفة بانتظام فى الثالثة صباحا كل ليلة: ساييكى وهى صبية يافعة، تجلس إلى المكتب محدقة فى اللوحة المعلقة فوق رأسه على الحائط: لوحة لطفل يقف على الشاطئ وكان يراها رؤية العين ويشعر بوجودها؛ حتى إذا ما انبثق ضوء الفجر من النافذة المطلة على الحديقة تنهض وتمشى نحو الباب ثم تختفى قبل الولوج من فتحته الموارية. لقد أدمن هذه الزيارة الليلية وقد وقر فى وجدانه أن هذه الفتاة بجمالها ذاك المثال الراقى هى النموذج الذى يتمناه لكى يعيش فى سلام وبهجة. غير أنه ذات ليلة فتح عينيه فى نفس الميعاد فيرى الشبح وقد أضيفت إليه ظلال كبرت بها ملامحه سرعان ما اتضح له أنها الآنسة ساييكى الحالية، الكبيرة، فى وجود.... مسموع الأنفاس عبق الرائحة الزكية الشهية. كانت تحدق فى اللوحة، ثم نهضت واقتربت من سريره كمن يمشى وهو نائم. صوت خطواتها على خشب الأرض، أنفاسها، وجودها الكثيف يغمره وهو مضطجع



على السرير. جاست أناملها فى شعره. قبلته فى جبينه. خلعت ملابسها وتمددت بجواره واحتوته فى حضنها. الذهول يكبله. يريد أن ينبهها. لكن جسدها العريان ألهبه. ثم إنها قامت بالفعل كله حتى الثمالة. ثم ارتدت ملابسها وغادرت الغرفة من الباب.

وبذلك تكون نبوءة الأب قد تحققت بالكامل: قتل الأب ومعاشرة الأخت ثم الأم؛ على مذبح رحلة خلاص ضالة، رحلة بحث عن الذات المثقلة.. وكأن ذلك خطيئة عظمى يرتكبها الإنسان. وكان كافكا يظن أن ما فعلته ساييكى معه خطيئة عابرة تمت أثناء نومها؛ ولكن الفعل تكرر بعد ذلك بوعى كامل منهما معًا: تقول له وهما مستلقيان على الشاطئ: «لا أعرف إذا كان ما فعلناه خطأ أم صوابا، لكننى قررت ألا أجبر نفسى على أن أحكم على أى شىء. أعتقد أننى قررت أن أترك القدر يحملنى إلى حيث يشاء». عندئذ يسألها: «أعتقد أنك تحاولين اللحاق بالوقت الضائع؟». ترد مندهشة: «ربما كنت مصيبا ولكن كيف تعرف ذلك؟». يقول: «لأننى أفعل نفس الشىء. أشياء كثيرة سرقت من طفولتى وعلىّ الآن أن أستعيدها». تسأله: «لكى تستمر فى العيش». يقول: «هذا ضرورى، الناس بحاجة إلى مكان يرجعون إليه. وأعتقد أنه لا يزال ثمة وقت لذلك بالنسبة إلى كلينا». تغمض عينيها لبرهة ثم تسأله فى دهشة: «من أنت؟ ولماذا تعرف الكثير عن كل شىء؟». يرد وهو مدرك أنها تعرف بالتأكيد من هو: «أنا كافكا على الشاطئ حبيبك وابنك. الفتى المدعو كرو. وكلانا لا يستطيع أن يكون حرا. كلانا عالق فى دوامة، تجرى ويجرى وراء الزمن. وكلانا، بطريقة ما، صعقنا البرق. لكنه ليس البرق الذى يمكنك رؤيته أو سماعه». وحين يحكى لها عن هروبه من العالم الذى ودعه فى طوكيو ضائقاً به تسأله: «إذاً هل صرت تحب هذا المكان من العالم الآن؟». يجيبها بأنه لا يعرف بعد. إنما هو فى نظرها يكرر رحلة هروبها المشابهة إلى حد كبير؛ ولهذا تقول له: «كنت صغيرة أتوق إلى الرحيل بعيدا، إلى مكان آخر حيث ينتظرنى شىء مميز، وحيث سأقابل ناسا أكثر تشويقا». فيجيبها أنه كان عليه أن يرحل فحسب وإلا كان واثقا من أنه سيدمر تماما لو بقى فى طوكيو. تقول له بهدوء شديد: «كان هذا إحساسى عندما رحلت من هنا فى العشرين من عمرى. كان علىّ أن أرحل لكى أنجو بنفسى وكنت مقتنعة أننى لن أرى هذا المكان مرة أخرى طيلة حياتى.



لقد أدمن هذه الزيارة الليليـــة وقد وقـر فى وجـدانه أن هذه الفتاة بجمالها ذاك المثال الراقى هى النموذج الـذى يتمنـــاه لكـــى يعيـــش فى ســـلام وبهجـــة



ولم أفكر فى الرجوع قط، ولكن حدثت أمور، وها أنذا وكأننى أبدأ من جديد. أمور عجيبة لا يمكن تصديقها تحدث فى الحياة». عندئذ يسألها فى انتباه وتركيز: «أتعنين أننى قد أعود من حيث بدأت؟». تقول: «هذا عائد لك؛ فى وقت ما فى المستقبل؛ لكننى أعتقد أن مكان مولد الشخص أو سماته مهم جداً. لا يمكنك أن تختار أين تولد، لكنك تستطيع أن تختار أين تموت، إلى حد ما».

الرواية إذًا ذات شكل فنى دائرى كالكرة الأرضية تدور حول محور ثابت ولا بد لحركتها الدائرية أن تعود ذات لحظة إلى نقطة البداية، لا لكى تتوقف عندها بل لتتجاوزها وهكذا دواليك. غير أن حركة الإنسان فوقها لا يوقفها إلا الموت؛ ومن هنا أهمية أن تختار أين تموت. وفى نفس الحوار بين سايكى وكافكا يذكر لها نبوءة أبيه التى رماه بها: ستضاجع أمك وأختك. قد تسأله ممتعضة: «ولماذا أنزل والدك بك هذه اللعنة؟». يقول: «لا بد أنه أرادنى أن أحقق إرادته». تسأله: «أن ترغب فىّ، أهذا ما تعنيه!». يقول: «هذا صحيح». تحدق فى فنجان القهوة ثم تنظر إليه: «وهل هذا صحيح؟ هل ترغب فىّ؟». يومئ بالإيجاب، فتجفل قليلا: «تعنى أنك، نظريا، ترغب فىّ». ويرد على الفور: «لا، بعيدا عن النظرية، أنا راغب فيك، وهذا يتجاوز كثيراً جميع النظريات». تعود فتسأله: «أترغب فى ممارسة الجنس معى؟». يومئ بالإيجاب. تجفل ثانية: «أسبق لك أن مارست الجنس مع فتاة من قبل؟». كاد يقول لها إنها هى المرأة الأولى فى حياته، أى أنها هى التى فضت بكارته. لكنها تستشعر ذاك من نظرته فتزفر قائلة: «كافكا، أعرف أنك تدرك هذا، إنك فى الخامسة عشرة وأنا تجاوزت الخمسين». يقول: «الأمر ليس بهذه البساطة، نحن لا نتكلم عن هذا النوع من الزمن هنا. أنا أعرفك حين كنت فى الخامسة عشرة. وأنا واقع فى حبك حين كنت فى تلك السن. إننى متيم بك، عبرها هى، أنا متيم بك أنت، تلك الفتاة الصغيرة التى لا تزال فى داخلك، نائمة فى داخلك، ما أن تنامى أنت حتى تدب فيها الحياة. لقد رأيتها». عندئذ تبدو عليها الحيرة، ترجوه برقة أن يتركها الآن وحدها. فلما قام لينصرف اقترب منها، مد يده فلمس شعرها. اندهشت وارتبكت؛ لكنها بعد قليل من التردد وضعت يدها على شعره، قالت: «فى كل الأحوال، أنت ونظريتك. تقصد نظريته التى يحاول بها إثبات أنها أمه. ترميان إلى هدف بعيد جداً. أتعنى هذا؟». يومئ: «أعرف، ولكن يستطيع المجاز اختصار المسافة». تقول: «نحن لسنا مجازا». يقول: «أعرف، لكن المجاز يساعد على إزالة الحاجز بينى وبينك». تبتسم فى حيرة: «هذه أغرب عبارة عفوية سمعتها فى حياتى». يقول: «الكثير من الأشياء الغريبة تستمر فى الحدوث لكننى أشعر باقترابى من الحقيقة». تسأله بدهشة: «تشعر باقترابك فعليا من حقيقة مجازية؟ أم تقترب مجازيا من حقيقة فعلية، أو لعلهما يكملان بعضهما البعض؟». يرد: «أى منهما. لا أظن أننى قادر على تحمل هذا الحزن الذى أشعر به الآن». تقول: «وأنا أيضًا لدىَّ هذا الشعور». يسألها: «لقد عدت إذن لكى تموتى؟». تقول: «لا أكون صادقة، لست أحاول أن أموت، بل أنتظر أن يأتى إلى الصوت فحسب، كالجلوس على مقعد فى المحطة فى انتظار القطار». ثم تقول: «لقد استهلكت نفسى هباءً، ولا أخشى الموت أنا أعرف بالتحديد متى سيحين الوقت».

و... لكأن قطار الموت الذى تنتظره قد تمثل فى المركبات التى استقلها ذلك العجوز صديق القطط الذى شاهدناه يقطع الرحلة الشاقة من طوكيو إلى تاكاما تسو دون أن يدفع أجرا. كانت رحلة غامضة مليئة بالإثارة والدلالات المدهشة. ظللنا لا نعرف هدفه منها إلى أن توقف أمام المكتبة التى يعمل فيها كافكا؛ إنها المكان الذى سعى إليه. صعد إلى مكتب الآنسة سايكى المديرة. اندهشت من اقتحامه المفاجئ. قال لها كلمة سر مبهمة فاحترمته إلى حد التبجيل، ثم انفردت به وحدثته عن أحوالها؛ اعترفت له بأنها أخيراً مارست الجنس مع صبى، ثم تعطيه الأوراق التى كانت منشغلة فى كتابتها وطلبت منه أن يحرقها. يرحل العجوز بالأوراق ثم يحرقها بالفعل فى مكان ما. بعد ذلك مباشرة تموت سايكى نتيجة مرض مزمن مجهول؛ فى الوقت الذى وجد فيه كافكا نفسه مجبرا على العودة إلى مسقط رأسه فى طوكيو. فى القطار يقول له الفتى المدعو كرو: «لقد فعلت الصواب، أنت الفتى الأصلى، أقوى فتى فى الخامسة عشرة فى العالم». فتقول شخصية كافكا المستعارة: «لكننى ما زلت لا أعرف شيئًا عن الحياة». فيرد عليه كرو: «انظر إلى لوحة كافكا على الشاطئ واستمع إلى الرياح. من الأفضل أن تنام قليلا وحين تصحو، ستغدو جزءاً من عالم جديد». وهذا ما قد حدث له بالفعل بعد صحوه من غفوة عميقة بعض الشىء.

«انتهى» ■

كتاب الزاوية



«لا تسقطوا غصن الزيتون من يدى»
خطاب عرفات فى الأمم المتحدة

(٤)

السيد الرئيس،

ان لهذا العدو الذى نواجهه سجلا حافلا ضد اليهود أنفسهم، فهنالك فى داخل الكيان الصهيونى تمييز عنصرى بشع ضد اليهود الشرقيين. وإذا كنا نحن ندين بكل ما أوتينا من قوة، مذابح اليهود تحت الحكم النازى، فان القادة الصهاينة كان يبدو ان همهم الاكبر حينذاك هو استغلالها لتحقيق الهجرة إلى فلسطين.

سيدى الرئيس،

لو كان تهجيرهم إلى فلسطين بهدف العيش كمواطنين متساوين معنا بالحقوق والواجبات، لكنا أفسحنا المجال لهم ضمن امكانات وطننا، كما حدث مع عشرات الآلاف من الارمن والشركس الذين ما زالوا بيننا اخوة مواطنين مثلنا تماماً. أما ان يكون هدف ذلك اغتصاب أرضنا وتشريدنا وتحويلنا إلى مواطنين من الدرجة الثانية وانزال المعاملة نفسها بنا، فهذا ما لا يمكن ان ينصحنا احد القبول به أو الاذعان له. ولهذا، فان ثورتنا منذ البداية لا تقوم على اسس عرقية أو دينية عنصرية، وليست موجهة للانسان اليهودى من حيث كونه انسانًا، وانما هى موجهة ضد العنصرية الصهيونية وضد العدوان. وبهذا المعنى، فان ثورتنا هى ايضًا من اجل الانسان اليهودى. اننا نناضل من اجل ان يعيش اليهود والمسيحيون والمسلمون بمساواة فى الحقوق والواجبات وبلا تمييز عنصرى أو دينى.

أ - اننا اذن، يا سيادة الرئيس، نفرق بين اليهودية وبين الصهيونية. وفى الوقت الذى نعادى الحركة الصهيونية الاستعمارية، فاننا نحترم الدين اليهودى. واننا نحذر اليوم، وبعد قرابة قرن من بروز هذه الحركة العنصرية، من ان خطرها يتزايد ضد اليهود فى العالم، وضد شعبنا العربى، وضد أمن العالم وسلامته. فالصهيونية لا تزال متمسكة بتهجير اليهود من اوطانهم واصطناع قومية لهم يستبدلون بها قومياتهم الاصلية.

ما نحتاج حقا لمعرفته

نيكولاس شتيرن
Nicholas Stern

Nicholas Stern is Chair of the Grantham Research Institute on Climate Change and the Environment and I.G.Patel Professor of Economics and Government at the London School of Economics and Political Science. He is the author, most recently, of *The Global Deal*. (June 2010)

Eaarth: Making a Life on a Tough New Planet
By Bill McKibben
Times Books, 253pp.,$24.00

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة إيمان عبد الهادى الكيلانى

■ ■ يمثل الكتاب الجديد لبيل ماك كيبين Bill McKibben استغاثة غاضبة وصرخة مدوية من كاتب كرس جهوده من أجل التحذير من المخاطر التى يشكلها التغير المناخى الذى حدث بفعل الإنسان. إنه يصف التحديات التى سنواجهها إذا لم نتحرك للحد من الانبعاثات - سواء من حيث الآثار التى حدثت للبيئة بالفعل أو من حيث الآثار التى سوف تترتب على انبعاثات الاحتباس الحرارى الصادرة بالفعل أو التى ستحدث فى العقود القادمة. ولكن فى حين أن ماك كيبين يصر على أهمية التحرك القوى لتقليل هذه المخاطر فإنه يكافح من أجل إيجاد مبررات للتفاؤل وكثيراً ما يميل إلى التشاؤم الذى يميز الأعمال الأخيرة للمتخصصين البيئيين الآخرين مثل جيمس لافلاك James Lovelock .

يلخص عنوان الكتاب (الأرض: إيجاد حياة على الكوكب الجاف الجديد) (Eaarth: Making a life on a Tough New planet) الفكرة الأساسية لدى ماك كيبين وهى أننا قمنا بتغيير المناخ إلى درجة قد جعلت هذا الكوكب لم يعد له وجود بالشكل الذى كنا نعرفه، مما يستدعى تسميته باسم جديد Eaarth . الفكرة هى أننا يجب علينا إيجاد طريقة للاعتراف بأن التأثيرات الرئيسية للبشر على الأرض لم تعد جديدة. لقد اقترح باول كروتزون Paul Crutzen - الذى تقاسم جائزة نوبل للكيمياء عام ١٩٩٥ لإيضاحه كيف تسببت مركبات الفلورين والكلور الكربونية المنتشرة فى الأدخنة فى إحداث ثقب فى طبقة الأوزون - منذ عشر سنوات مضت أن يطلق على الحقبة البيولوجية الحالية اسم «انثروبوسين Anthropocene» من أجل تأكيد الدور المركزى للبشرية فى الجيولوجيا والبيئة.

فى عام ٢٠٠٧ أطلق ماك كيبين تنظيم ٣٥٠.org× وهى مجموعة مهمتها الدعوة إلى تثبيت تركيزات ثانى أكسيد الكربون فى الغلاف الجوى عند ٣٥٠ جزءا فى المليون. وبالتالى البقاء على قدر الإمكان قريباً من المستويات التى كانت قائمة فى بضعة آلاف سنة مضت قمنا خلالها ببناء حضارتنا. ويقارن ذلك بمستويات الكربون فى مرحلة ما قبل التصنيع حيث كانت نسبة التركيز حوالى ٢٨٠ جزء فى المليون وفقاً لمركز تحليل المعلومات حول ثانى أكسيد الكربون التابع للحكومة الأمريكية US government¨s Carbon Dioxide Information Analysis Centre.. وإذا أخذنا فى الحسبان الغازات الأخرى المنبعثة والمرتبطة بالاحتباس الحرارى مثل الميثان فيكون المستوى الكلى لثانى أكسيد الكربون وما يكافئه هو ٤٣٥ جزءا فى المليون. ولهذا السبب فإن معظم السياسات المقترحة والرامية إلى السيطرة على تغيرات المناخ قد ركزت على تثبيت مستوى ثانى أكسيد الكربون ومكافئاته عند ٤٥٠ جزءا فى المليون على أساس أن هذا هو أفضل ما يمكن عمله للحد من المخاطر الكبيرة من جراء تغير المناخ.



من المحتمل لنا فى غضون العقد القادم أن نتجاوز هذا المستوى ولكن باتخاذ إجراءات قوية فإن تركيزات غازات الاحتباس الحرارى قد تصل إلى ذروتها فى هذا العقد ولكن بمرور فترة طويلة من الوقت ومع استمرار الإجراءات القوية فإن المستوى سوف يعود إلى ٤٥٠ جزءا فى المليون وقد يقل عن ذلك. أما إن كان سلوكنا ينم عن استمرار الوضع على ما هو عليه فربما نصل فى نهاية هذا القرن إلى تركيزات من شأنها أن تضمن لنا فرصة عالية ربما قد تزيد عن ٥٠٪ لزيادة درجة حرارة العالم بمقدار ٥ درجات أو أكثر عن مستواها فى القرن التاسع عشر. وتعد هذه درجة حرارة لم تتم رؤيتها على هذا الكوكب منذ ٣٠ مليون سنة. ربما يتم بشكل جذرى إعادة رسم خريطة الأماكن التى يستطيع الإنسان العيش فيها وهذا قد يعنى على سبيل المثال تحول بعض المناطق إلى صحارى ومناطق أخرى قد تغمرها المياه وقد تحدث تغيرات جذرية فى أنماط الطقس أو فى مواقع وتدفقات الأنهار. وهذا قد يعنى بدوره حدوث تحركات لمئات أو ملايين أو مليارات البشر ويشير التاريخ إلى أن تحركات الناس على هذا النطاق سوف تتضمن صراعات عالمية حادة وموسعة.

يفسر ماك كيبين استنتاجه بشأن تغير المناخ بأنه يعتمد على عرض قام بتقديمه عالم ناسا NASA المميز جيمس هانسين James Hansen فى مؤتمر علمى عقد فى ٢٠٠٧ والذى زعم فيه أن ٣٥٠ جزءا فى المليون لابد أن يكون هو الحد الأعلى من تركيزات ثانى أكسيد الكربون فى الغلاف الجوى وأننا بالفعل قد تعدينا المستوى الذى يمكن وصفه «بالآمن» وبعدم وجود احتمالية كبيرة للعودة إلى أقل من ٣٥٠ فإن كتاب ماك كيبين يعد محاولة لإيضاح الكيفية التى يجب أن تتغير بها حياتنا لأن الأرض التى عرفناها - الأرض الوحيدة التى لم نعرف غيرها - قد ولت.

فى الفصل الافتتاحى يقتحم ماك كيبين القارئ من خلال مجموعة من الإحصاءات والحقائق حول التغيرات الواضحة بالفعل. يركز مجهوده ويسعى إلى مواجهة ما يسميه بالمحاولات المضللة لرسم صورة التغيرات المناخية كمشكلة للأجيال المقبلة فقط. تتسم معظم قوائم نتائجه بأنها مدعمة بالهوامش والملاحظات التفسيرية وبالرغم من ذلك فقد يتعرض ماك كيبين للنقد بسبب اعتماده كثيراً على التقارير الإعلامية بدلاً من المراجع العلمية. سوف يحاول البعض من خصومه بلا شك تقويض كتابه من خلال تشريح ما فيه من حقائق ومعلومات ولكن أطروحته الشاملة التى نراها شاهدة على التغيرات المناخية واسعة النطاق تعد صحيحة مدعمة بالأدلة العلمية القوية.

نظرة متأنية إلى التحليل العلمى والأدلة تشير إلى وجود حجة قوية تؤكد على أن عدم










السيطرة على التغيرات المناخية يشكل مخاطر هائلة. فى عام ١٨٢٤ لاحظ جوزيف فوريرJoseph Fourier أن سطح الأرض أكثر دفئاً مما لو قيست حرارته بدون غلافه الجوى. منذ مائة وخمسين عاما أوضح جون تيندالJohn Tyndall من خلال سلسلة من التجارب أن وجود الغازات مثل ثانى أكسيد الكربون هو المسئول عن إحداث تأثير الاحتباس الحرارى، من حيث محاصرة الغلاف الجوى لضوء الشمس والحرارة.

فى أواخر القرن التاسع عشر بدأ العالم السويدى سفانت أرينيوسSvante Arrhenius فى حساب الحجم المحتمل للحرارة التى ستنجم عن زيادة غازات الاحتباس الحرارى فى الغلاف الجوى وفى منتصف القرن العشرين تم فهم بعض الآليات الفيزيائية وراء تأثير الاحتباس الحرارى. جوهر ما يحدث هو أن جزيئات غازات معينة عالقة فى الجو تتداخل مع الإشعاع ذى الأطوال الموجية الأكبر والذى ينشأ عند انعكاس أشعة الشمس من على سطح الأرض مما ينتج عنه محاصرة حرارة الشمس داخل الغلاف الجوى. فى الأربعينيات انتقل Walter Elsassar إلى رؤية نابعة من علم الظواهر والأحوال الجوية آخذاً فى الاعتبار ما ساد حول ظاهرة الامتصاص فى العشرينيات والثلاثينيات.

نحن الآن نعلم أن تركيز ثانى أكسيد الكربون فى الغلاف الجوى يزيد بمقدار الثلث عما كان عليه قبل أن نبدأ فى حرق الفحم وغيره من مواد الوقود الخام على نطاق كبير مع ظهور التصنيع وأكثر مما كان عليه على الأقل منذ ٨٠٠٠٠٠ سنة. كنتيجة لذلك فقد بدأت معدلات درجات الحرارة فى التزايد على مستوى العالم بحوالى ٠.٧ درجة فى المائة سنة الماضية. وسوف تستمر درجات الحرارة فى التزايد على الأقل فى خلال العقدين القادمين استجابة للمستويات الحالية من غازات الاحتباس الحرارى حتى لو أوقفنا انبعاثاتها اليوم. ومع ارتفاع درجات الحرارة فإن التغيرات القادمة لن تكون فى الطقس والحرارة القصوى فقط ولكنها تغيرات حاسمة فى المياه والفيضانات والجفاف وتدفقات الأنهار وارتفاع منسوب مياه البحر. بعبارة أخرى تغيرات فى المحددات التاريخية الأساسية لكيف وأين نعيش حياتنا.

وهكذا فإن ظاهرة الاحتباس الحرارى ليست شيئاً وهمياً وليست محاولة لشرح بعض العلاقات المتضاربة، إنها علم أساسى تم بناؤه فى خلال ما يقرب من مائتى سنة. ولقد تراكمت الأدلة فى المعامل من خلال الملاحظة وكانت مدعمة للنظرية الأساسية ومتفهمة للآثار الرئيسية. كانت الأدلة تتضمن البيانات الأساسية للجليد والتى تعود إلى ٨٠٠٠٠٠ سنة ماضية وتشمل تقديرات تقريبية لكل من ثانى أكسيد الكربون ودرجة الحرارة ودرجات حرارة أكثر تفصيلاً على مدى مائة وخمسين سنة ماضية والقياسات الأخيرة الأكثر دقة لمستويات انبعاث الغازات المسببة للاحتباس الحرارى فى الغلاف الجوى.



يترنح هذا النموذج على حافة القبول ويتطلب تعديلات خاصة وإضافات للإبقاء عليه كلما ظهرت أدلة أكثر صعوبة. على النقيض من ذلك فهناك أساس علمى من خلال رؤية نظرية تنمى بقوة أدلة مختلفة الأنواع من التراكمات. إنها ادعاءات مختلفة من قبل المتشككين يتضح عليها عدم القدرة على تفسير البيانات مثل الادعاء بأن ذلك هو نتيجة لحرارة الجزر الحضرية أو التقلبات قصيرة الأجل مثل النينو والنينا El Nino-La Nina وهكذا. لم تستطع أى من هذه المحاولات تفسير كوامن هذا الاتجاه العالمى القوى.

وفى الوقت نفسه يجب علينا أن نعترف بأن التنبؤات لابد أن تعنى المخاطر وعدم اليقين والاحتمالات. فهناك شك حول الانبعاثات فى المستقبل، وحول إمكانيات امتصاص غازات الاحتباس الحرارى بواسطة الأراضى والغابات والمحيطات وحجم السخونة الناشئة عن تغير مستويات غازات الاحتباس الحرارى وحول الآثار المترتبة على تغيرات المناخات المحلية على المستوى العالمى. إن المسألة بالنسبة للسياسة هى كيفية إدارة الخطر. مع الأخذ فى الحسبان بالدليل العلمى القوى أن المخاطر يمكن أن تكون كبيرة جداً. ليس الموقف هو وجود احتمالات صغيرة لمجرد شىء مقزز وكريه ولكن هناك احتمالات كبيرة لشىء كارثى.

إن إنكار الحاجة الملحة إلى اتخاذ إجراءات قوية فى مواجهة كل الأدلة يشكل خطراً ويمثل ردة فعل غير علمية ولا عقلانية. إنه يعد غير علمى لأنه يرفض صوت العلم والدليل المبنى على مدى فترة طويلة. ويعد غير عقلانى لأن مثل هذا الإنكار يتطلب الاستعلام عن جوانب قد تكون أكثر من مجرد جوانب علمية. إنه يتطلب قدراً عالياً من الثقة فى أن النتائج العلمية خاطئة وأن المخاطر صغيرة حيث ستكون عواقب الاعتراف بأن العلم على صواب أم على خطأ مختلفة جداً.

التصرف من منطلق خطأ الأدلة العلمية سوف يؤدى بنا إلى مستويات من ثانى أكسيد الكربون تحمل مخاطر هائلة إذا كان العلم صائباً. التصرف من منطلق أن النتائج العلمية صحيحة قد يدفعنا إلى الإفراط فى الاستثمار فى تطوير تكنولوجيات منخفضة الكربون والمبالغة فى حماية الغابات إذا كانت النتائج العلمية مائلة إلى الخطأ. ولكن هذه الإجراءات لا تخلو من كونها تحمل فوائد أخرى كبيرة فى مجال تأمين الطاقة وكفاءتها والتنوع البيولوجى إلى آخره. أخيراً، فإن إنكار الحاجة الملحة لاتخاذ إجراء قوى يمثل خطورة لأن العملية التى من خلالها تتزايد تركيزات الانبعاثات لها تأثير يتزايد تدريجياً وتأخير اتخاذ الإجراء من شأنه أن يؤدى إلى المزيد من التركيزات مما يصعب من نقطة البداية.

هناك الكثير من العمل العلمى للقيام به ومن المرجح أن تبقى العديد من الشكوك. ولكن الأدلة قاطعة بأن المخاطر كبيرة وأن التأجيل يمثل خطراً. إن ما تمثله هذه النظرية من وزن وأدلة بدون شك هو ما يجعل هؤلاء المنكرين للتغيرات المناخية الناشئة عن الاحتباس الحرارى ملزمين باللجوء إلى تكتيكات شبيهة بتلك التى استخدمت منذ عقود قليلة مضت لتفنيد تأثير التدخين على الصحة. أحد هذه التكتيكات هى العثور على بحث أو اثنين من الأبحاث العلمية الضعيفة أو غير الصحيحة من بين الآلاف من الأبحاث الجيدة واستخدامهما كتشهير ضمنى على البقية الباقية. تكتيك آخر هو الاستفادة من حجة غير منطقية تقول بأن الشكوك الباقية تعنى أن الافتراض الأفضل هو أن المخاطر تكاد لا تذكر. تكتيك ثالث بالمحاولة المتعمدة لتشويش اتجاهات ودوائر التفكير وكما هو الحال بالنسبة لقضية التدخين فهناك مصالح خاصة وقوية على استعداد لتمويل زرع بذور الشك.

فى الفصلين الثانى والثالث من كتابه يعرض ماك كيبين تحليله للكيفية التى وصلنا بها إلى الوضع الحالى ويحدد لحظة ما فى عام ١٩٧٠ حيث كان بالإمكان أن نرسم مساراً مختلفاً. تنقل كلمات ماك كيبين حزناً حقيقياً عندما يفسر كيف قادت حركة النمو الاقتصادى القائمة على النفط والغاز فى العقود التالية الكوكب إلى نقطة الانهيار.

فى الفصول الثلاثة الافتتاحية من الكتاب يبتكر ماك كيبين رؤية مروعة تطرح سؤالاً حول السبب الذى يجعلنا نتكبد عناء محاولة تقليل الانبعاثات الآن. وفى الفصل الأخير فقط يقدم «لمحات» خاطفة من التفاؤل. وهو ينتقد سعى المشروعات الوطنية الطموحة



إن العالم يحتاج تقييماً دقيقاً للخيارات التى سوف تطرح للتعامل مع الأطراف الرئيسية لأى اتفاق ولابد من حدوث هذا قبل أن تجرى أية مفاوضات بناءة



لتحقيق النمو ليس فقط بسبب تفاقم مشكلة التغير المناخى ولكن لاحتمال خلق أزمة فى الطاقة مع تناقص احتياجات النفط. إن الحل المقترح لديه هو العودة إلى الاقتصادات المحلية على نطاق أصغر بهدف القوة بدلاً من التوسع.

يروى ماك كيبين قصة قوية بوضوح عالٍ وإقناع عميق. بالنسبة لشخص من خارج الولايات المتحدة فقد يكون الأمر محبطاً أن يقدم وجهة نظر حول التحدى العالمى لتغير المناخ والذى يركز بشكل حصرى على الولايات المتحدة. ليس هناك شك فى أن العمل من جانب الولايات المتحدة وهى ثانى أكبر مكان للانبعاثات يعد أمراً حيوياً إذا كان العالم يتعاون فى الحد من الانبعاثات إلى النطاق المطلوب. وهناك دول أخرى تنظر للولايات المتحدة كرائدة وذلك نظراً لثرواتها وتكنولوجياتها وارتفاع انبعاثاتها فى الوقت الراهن والماضى. ولكن حدث تباطؤ فى اتخاذ الإجراءات بسبب الشكوك بين العامة من الجمهور حول حجم بل وجود هذه المشكلة. هذه الشكوك تم تدعيمها من قبل الحجج المشوهة التى يسوقها أصحاب المصالح فى إبقاء الوضع على ما هو عليه فالولايات المتحدة صاحبة جمهور حاسم.

بينما كان ماك كيبين يصف كيف يؤثر تغير المناخ فى وطنه الأم ولاية فيرمونتVermont فقد فاتته الفرصة لتسليط الضوء على حقيقة أن هؤلاء الذين تعرضوا للضرر الأسوأ والأسرع وهم الفقراء والمستضعفون فى الدول النامية. وفى هذا الصدد فربما يشكل هجومه على النمو الاقتصادى نداء لبعض الأغنياء الموسرين فى الدول الغنية ولكنه لا يشكل طريقة واقعية للمضى قدماً بالنسبة للدول النامية. تشكل التنمية الاقتصادية السبيل الوحيد للخروج من الفقر بالنسبة لمليارات من البشر. مما لا شك فيه أنه يجب فهم التنمية الاقتصادية أكثر من ارتفاع الاستهلاك الذى كان يقاس بشكل تقليدى وفى الوقت نفسه فيجب أن نرى أن التقدم فى التعليم والصحة والبيئة ومختلف أبعاد التنمية قد يكون أسهل فى إدارته إذا كان هناك نمو فى الاستهلاك والدخل.

فى عدد من النقاط يشيد ماك كيبين بأحد الإصدارات التى نشرت فى عام ١٩٧٢ ويعتبرها على رأس المنحنى إنها«حدود النمو» Limits of Growth التى صدرت بتكليف من نادى روماClub of Rome مع التركيز على النمو الاقتصادى الهائل الذى تحكمه قيود ثابتة مثل توافر البترول. هنا توجد قضية أساسية عملية وتحليلية قد اختلف فيها مع ماك كيبين وهى أن المضى قدماً على طريق الاقتصاد ذى الكربون المنخفض يحتاج إلى إيجاد طرق جديدة للاستهلاك والإنتاج وبالتحديد فى استبدال الغاز والنفط. وهذا يعنى الابتكار والاستثمار فى تكنولوجيات جديدة وأنشطة من شأنها توفير الموارد وعدم إنتاج المزيد من غازات الاحتباس الحرارى أو إزالة الموجود منها بالفعل فى الجو.



إن إمكانيات العثور على بدائل للنفط والغاز وإيجاد التقدم التكنولوجى الأخضر كان أهم ما أكد عليه«Limits of Growth» وهكذا فإن هذه الافتراضات تسمح لمؤلفى هذا الكتاب بالادعاء بأنه يمكن للنمو بل ينبغى له أن يتوقف وهذا ما يجب علينا مواجهته من أجل خلق اقتصاد الكربون المنخفض. فإذا توقف الاقتصاد عن النمو الآن مع استمرارنا فى استخدام التكنولوجيات الحالية. فإن المستويات الحالية من الانبعاثات العالمية السنوية التى تقترب من خمسين مليار طن مترى من معادلات ثانى أكسيد الكربون سوف يشتمل على تركيزات فى الغلاف الجوى تصل إلى ٧٠٠ جزء فى المليون فى غضون قرن من الزمن وهذا ينطوى على مخاطر كبيرة.

يتمثل التحدى فى كسر الرابطة بين الإنتاج الاقتصادى والانبعاثات وإذا كنا نستطيع (وفى الواقع إننا نستطيع بل يجب علينا) فإن النمو قد يستمر لبضعة عقود أخرى، وهذا لا يعنى إلى أجل غير مسمى كما قال وودى ألينWoody Allen «إن الخلود حقاً طويل وخاصة قرب النهاية.» ولكن بضعة عقود من النمو الاقتصادى مع سياسات مصاحبة تركز على التنمية ولا سيما بين الفئات الأشد فقراً- لستة مليارات من الفقراء الذين يعيشون فى الدول الفقيرة (مقارنة بمليار واحد ممن يعيشون فى الدول الغنية)- من شأن ذلك أن يتيح إلى حد كبير للفقراء الفوز فى المعركة ضد الفقر.

إن المدافعين عن «حدود النمو» Limits of Growth والآخرين الذين يقولون بأن نمو الكربون-المنخفض يعد مكلفاً وأننا نستطيع أن نستمر فى نمو الكربون العالى، كلاهما يقع فى نفس الخطأ. إنهم يتبنون وجهة نظر تجسد «إحلالا محدودا» و«تقييد نطاق الاستثمار فى التكنولوجيات المتغيرة» إنهم يتبنون نظريات نمو تعود إلى القرن العشرين. إن ما نحتاجه الآن هو النظريات الاقتصادية لأواخر القرن العشرين وأوائل القرن الواحد والعشرين والتى تظهر أننا نستطيع الاستثمار فى اكتشاف ونشر التكنولوجيات الجديدة وهذا النشر فى حد ذاته سوف يكون له آثاره فى توفير الطاقة كما أن الناتج التكنولوجى والبيئة الطبيعية مرتبطان معاً بشكل وثيق ويعتمد كل منهما على الآخر.

نحن أيضاً نحتاج إلى أدلة عملية لما هو ممكن، والذى سوف يكون أساسياً لتوليد التغيير. على سبيل المثال إن تكلفة رأس المال للكهرباء الشمسية تتجه بسرعة نحو الهبوط كما أن شبكات DC×× للضغط العالى توفر تكلفة نقل الكهرباء إلى حد كبير. إن الطاقة المتجددة من مناطق متفرقة (بتقلبات مختلفة فى الشمس والرياح) يمكن نقلها بناء على ذلك على مدى مسافات طويلة. مع كهرباء خالية من الكربون نستطيع أن نحصل على نقل برى خالٍ من الكربون ولأن التقدم التكنولوجى يمضى سريعاً فسوف نجد العديد من هذه التطورات على طول الطريق. إن قوة هذه الأمثلة بالغة الأهمية ويتوجب علينا أن ننظر بشكل خاص للدول الغنية بثرواتها الأعظم وتكنولوجياتها الواجب عليهم أن يقدموها.

لقد بدأنا بالفعل فى توظيف ما سيمثل طاقة أكثر ديناميكية وابتكاراً إنها تعد ثورة صناعية فى تاريخنا الاقتصادى: إنها الانتقال إلى النمو منخفض الكربون Low-Carbon Growth، وهذا النمو سوف يتميز بوفرة مصادر الطاقة وأمانها وهدوئها ونظافتها وتنوعها البيولوجى الأكثر. أما النمو عالى الكربون High-Carbon Growth فسوف يقتل نفسه لسببين الأول التكلفة العالية الناجمة من استخدام النفط والغاز والثانى والأكثر عمقاً هو ما يخلفه من معاداة للطبيعة.

ليس هناك شك فى صدق ماك كيبين وقدرته على التواصل مع حجم المخاطر التى نواجهها. ولكنه لديه تكهنات منذرة بكارثة ومتشائمة حول إمكانية تجنب حتى التغيرات المناخية الوخيمة الناجمة عن الاحتباس الحرارى بسبب التطورات الأخيرة على المستوى المحلى والعالمى. على الرغم من كون مؤتمر الأمم المتحدة للتغيرات المناخيةUnited Nations climate change conference – والذى عقد فى كوبنهاجنCopenhagen – مخيباً للآمال فى نواحٍ كثيرة إلا أنه كان من الممكن أن يكون أسوأ بكثير. لقد وضع اتفاق كوبنهاجن الذى شاركت فيه كل من البرازيلBrazil، الصينChina، الهندIndia، جنوب أفريقياSouth Africa، والولايات المتحدةUS أسساً- اتسمت بالهشاشة – للمناقشات حول معاهدة دولية، فلن تكون عملية بناء اتفاقية





إن ظاهرة الاحتباس الحرارى ليست شيئاً وهمياً وليست محاولة لشرح بعض العلاقات المتضاربة، إنها علم أساسى تم بناؤه فى خلال ما يقرب من مائتى سنة



عملية سهلة ولكن تقدماً ملموساً تم إحرازه فى الشهور الأولى من ٢٠١٠. يقر الاتفاق بأن السياسات المناخية لابد أن تسعى إلى الحد من الارتفاع فى متوسط درجات الحرارة العالمية بما لا يزيد عن ٢ درجة مئوية فوق مستويات ما قبل الصناعة. أظهر تحليل من قبل زملائى - فى معهد بحوث جرانثام حول تغير المناخ والبيئةGrantham Research Institute on climate change and Environment فى كلية لندن للاقتصادLondon school of Economics - أنه للوصول إلى فرصة معقولة مثل فرصة ٥٠٪ للتوصل إلى هدف ٢ درجة مئوية لابد أن تقل الانبعاثات السنوية العالمية من غازات الاحتباس الحرارى من ٤٧ مليار طن مترى من معادلات ثانى أكسيد الكربون إلى ٤٤مليارطن مترى عام ٢٠٢٠ ثم إلى أقل بكثير عن ٣٥ مليار طن مترى عام ٢٠٣٠ ثم إلى أقل بكثير عن ٢٠ مليار طن مترى عام ٢٠٥٠ .

أعلنت حتى الآن أكثر من مائة دولة من الدول المتقدمة والنامية انتسابها إلى اتفاقية كوبنهاجنCopenhagen Accord وسجلت خمس وسبعون دولة - وهم مسئولون بشكل جماعى عن ٨٠٪ من الانبعاثات العالمية الحالية لغازات الاحتباس الحرارى- الأهداف والإجراءات التى تعتزم اتخاذها وهى الآن موثقة فى ملاحق الاتفاقية.

إذا أعربت الدول عن نواياها العالية فى التخفيض وكانت الخطط المقدمة لدى اتفاقية كوبنهاجن تتضمن انبعاثات سنوية عالمية تبلغ ٤٨ مليار طن مترى من معادلات ثانى أكسيد الكربون فى ٢٠٢٠، وبينما ينطوى ذلك على أن الانبعاثات سوف تصل إلى الذروة عام ٢٠٢٠ إلا أنه مع ذلك قد تنخفض إلى المستهدف من «المسئولية المناخية» وهى ٤٤مليار طن مترى. قد تظل الانبعاثات السنوية ٤٨ مليار طن مترى كامتداد وستكون متسقة مع هدف الدرجتين المئويتين برغم اشتمالها على المزيد من الصعوبات والتكاليف المرتبطة بالتخفيض السنوى للانبعاثات خلال العقود بعد ٢٠٢٠. تمثل الإجراءات المقترحة من الآن وحتى ٢٠٢٠ فى ملاحق الاتفاقية تخفيض ما يتراوح بين ٧-٨ مليارات طن مترى مقارنة بمستوى تقريبى للإنبعاثات يبلغ ٥٥-٥٦ مليار طن مترى تحت المستوى المعتاد من العمل. وهكذا فإن الإجراءات المخططة ستأخذنا على ثلثى الطريق من ٥٦ مليار طن مترى إلى ٤٤ مليار طن مترى.

فى حين أننا نحقق بداية إلا أنها ما هى إلا بداية متواضعة وليس هناك حتى الآن ما يبدو أنه اعتراف كاف بحجم التحدى المتمثل فى التكيف وأخطار التأجيل. يجب ألا يزيد متوسط انبعاثات العالم عن ٤ طن مترى للفرد الواحد من معادلات ثانى أكسيد الكربون بحلول ٢٠٣٠ وحوالى ٢ طن مترى للفرد بحلول ٢٠٥٠، المتوسط الحالى هو سبعة أطنان للفرد الواحد. بالنسبة للولايات المتحدة فإن المتوسط يزيد عن عشرين طن مترى، فى أوروبا المتوسط من عشرة إلى اثنى عشر طن مترى، فى الصين ما يقرب من ستة طن مترى والهند أقل من اثنين طن مترى وفى جزء كبير من الصحراء الكبرى فى أفريقيا المتوسط أقل من طن مترى واحد للفرد. وفى الوقت نفسه يجب أن ندرك ان التغيير ليس فقط ممكناً ولكن التحول سوف يكون ديناميكياً وخلاقاً مع الابتكارات الدافعة للنمو. إن هدف اقتصاد الكربون المنخفض يعد طريقة جذابة للاستهلاك والإنتاج. إن كتاب ماك كيبين سوف يساعد بالتأكيد على تحسين التفاهم بين شعب الولايات المتحدة.



عندما غادر زعماء العالم وفرق التفاوض الخاصة بهم كوبنهاجن فى ديسمبر الماضى، لم يكن واضحاً مدى صلابة البرنامج الذى خلقته الاتفاقية. حيث لم يكن من المضمون أن يقدم ذوو الإنبعاثات الأعلى خطط عمل بحلول ٣١ يناير ولكن هذا قد حدث. فضلاً عن ذلك وعلى النحو المبين فى الاتفاقية فقد تم تأسيس مجموعة استشارية رفيعة المستوى معنية بتغيرات المناخ-High Level Advisory Group on Climate Change بتمويل من قبل الأمين العام للأمم المتحدة تحت الرئاسة المشتركة لرؤساء وزراء أثيوبيا والمملكة المتحدة وقد بدأت عملها بالفعل. كان اقتراح المجموعة الاستشارية توفير مائة مليار دولار سنوياً بحلول عام ٢٠٢٠ بما فى ذلك الموارد من القطاعين العام والخاص وسوف تتدفق هذه الأموال من البلدان المتقدمة إلى البلدان النامية من أجل دعم التكيف مع تخفيض الانبعاثات والتخفيف من الآثار المترتبة على ذلك.

يجرى إحراز تقدم يتعلق بهيكل العمل من أجل الحفاظ على الغابات وزراعتها، تم ذلك من خلال اجتماع بناء عقد فى مارس بقيادة فرنسا والنرويج وبمشاركة واسعة من قبل العديد من الدول الاخرى، بما فى ذلك الدول ذات الغابات المطيرة. عموماً فقد تم وضع اللبنات الأساسية لاتفاقية سياسية حساسة وذلك تمهيداً للاجتماع المقبل للأطراف المعنية والذى سيكون فى إطار اتفاقية الأمم المتحدة بشأن تغير المناخ United Nations Conviction on Climate Change والذى سوف يعقد فى كانكونCancun بنهاية هذا العام.

إن العالم يحتاج تقييماً دقيقاً للخيارات التى سوف تطرح للتعامل مع الأطراف الرئيسية لأى اتفاق ولابد من حدوث هذا قبل أن تجرى أية مفاوضات بناءة. فيما يتعلق بقضايا التمويل وحماية الغابات فإن هذا التحليل والتقييم سوف يجرى من خلال طرق دولية موثوق بها من قبل المجتمع الدولى. هناك حاجة ملحة لآليات المطابقة من أجل التطوير والمشاركة التكنولوجية ومن أجل القياس الموضوعى للانبعاثات من جانب الدول. إذا كان فى الإمكان تنفيذ عمليات تقييم خيارات التعامل مع هاتين المسألتين بسرعة. فإن العالم سوف يكون قد أعد نفسه لمناقشات سليمة ومثمرة فى كانكونCancun . فى غياب مثل هذه التحضيرات الأساسية فإن المفاوضات التى يقوم بها الموظفون الدوليون - حول القضايا التى تتطلب أسساً فنية وتقييماً لمخاطر السياسات المعقدة - سوف تكون فوضوية ومضللة وغير مثمرة. ولكن إذا وضعنا الأسس، فإن الدول من جميع أنحاء العالم تستطيع أن تمضى قدماً ولديها ثقة بوجود ردود بناءة لأكبر اثنين من التحديات التى تواجهنا فى قرننا هذا، التغلب على الفقر وإدارة تغير المناخ.

سوف يضيف كتاب ماك كيبين اللافت والمقنع الكثير إلى الشعور بعجلة والحاح وأهمية الأمر وسوف يضيف الواقعية إلى حالة من التكيف القوى مع التغيرات التى جلبتها أفعالنا السابقة والحالية إلى عالمنا الطبيعى، ولكنه يهدد بتقويض الثقة فى استطاعتنا إيجاد طريقة للتقدم إلى الأمام. وليست هذه نية ماك كيبين كما ذكر ذلك بصراحة بالغة. ومع ذلك فإنه شديد التشاؤم فيما يتعلق بقدرة العالم على الاستجابة، ربما يكون هذا التشاؤم جزءاً من التكوين الذاتى له. نستطيع بشكلٍ جذرى تقليل المخاطر التى نواجهها من خلال تحليل الصوت، خيال المتعلمين، القيادة القوية والروح التعاونية، هذه الأشياء تستطيع أن ترسم الطريق لثلاثة أو أربعة عقود من الابتكار والإبداع العظيم وإرساء الأسس من أجل عالم أوفر حياةً وأكثر تعاوناً وأكثر إنصافاً. ■

إن الدول من جميع أنحاء العالم تستطيع أن تمضى قدماً ولديها ثقة بوجود ردود بناءة لأكبر اثنين من التحديات التى تواجهنا فى قرننا هذا، التغلب على الفقر وإدارة تغير المناخ

ملاحظات:

● ٢٠١٠/١٠/١٠ يوم له أهمية خاصة فهو احتفال بيوم عمل عالمىGLOBAL WORK PARTY من أجل الأرض، بدأ أعضاء فريق تنظيم ٣٥٠.org وغيرهم من الأعضاء المنتسبين للتنظيم من جميع أنحاء العالم فى تجهيز مقترحاتهم بشأن الحلول التى تستهدف إعادة إصلاح المناخ سوف يكون هذا اليوم بمثابة ورشة عمل عالمية هدفها الأساسى هو إعادة مستوى ثانى أكسيد الكربون إلى المستوى الآمن«٣٥٠ جزءا فى المليون» بدلاً من المستوى الحالى «٣٩٢ جزءا فى المليون» وفقاً لأحدث القياسات./المترجمة

●● شبكات DC "direct current grids» هى شبكات تعتمد على توليد الكهرباء اعتماداً على قوة الرياح./ المترجمة

لمـــاذا... لمـــاذا...

مـــأزق التفكيــر بهـــذه الطريقـــة

عـــلى جمـجـــوم

■■ هو أكثر قوانين أو مبادئ العقل ألفة وأصالة منذ فجر التاريخ - ذلك هو قانون أو مبدأ السببية - لهذا فإن البحث فيه عسير - ومما يزيد فى عسرته أننا سوف ننتقده - أى سوف ننقد قانون السببية ونبين أنه قانون خاطئ - لكن المفارقة تكمن فى أننا سوف ننقده فى هذا البحث بأدوات وفعاليات فى التفكير أهم مقوماتها هو هذا القانون - قانون السببية!.

ولبيان ذلك فى عجالة نقول إنه لعمل أى بحث لابد من طرح تساؤلات من قبيل كيف؟ لماذا؟ وهذا معناه أننا نسأل عن أسباب أو علل لنجيب عليها أى أننا نفكر بشكل سببى - فإذا كان هذا البحث هدفه هو بيان تهافت قانون السببية اتضحت المفارقة على الفور - وبالرغم من ذلك فإننى أطالب بإلغاء كلمتى لماذا وكيف فى مجال معين من الأبحاث المتعلقة بفيزياء الكوانتا Quantum Physics.

وهكذا كُتِبَ علينا أن نفكر ونبحث بشكل فصامى - شكل يرفض مبدأ السببية وفى نفس الوقت لا يستطيع أن يبحث ويفكر إلا بمبدأ السببية - بعبارة صريحة نقول: إن عقلنا يعمل بقانون السببية حتى فى رفضه لقانون السببية!

لقد أصبح من آليات الذهن البشرى منذ فجر التاريخ أن كل حادث فى الطبيعة لابد أن يكون له مُحدث - وعلى هذا سأل الإنسان عن من الذى أحدث أو خلق الكون - فكانت الإجابة عبر ديانات كثيرة على رأسها المسيحية والإسلام - إنه الله. فإذا سأل أحد مواصلاً تطبيق قانون السببية: ومن الذى خلق الله؟ كان كافراً إذا كان المحاور متزمتاً دينياً وفكرياً - أما إذا لم يكن فإنه سيصاب بالحيرة - لماذا؟

لأنه طبقاً لقانون السببية فإن الذى خلق الكون هو الله - ولابد أن يكون هناك خالق لله وليكن س - وهلم جرا لابد أن يكون هناك خالق لـ س هو ص مثلاً - ولن تنتهى السلسلة - هذا ما يفضى بنا إليه التفكير بقانون السببية بخصوص هذه القضية: من خلق الكون؟ الفيلسوف يستطيع الخروج من هذا المأزق بأن يسأل الأسئلة التالية:

١- من المسئول عن هذا المأزق؟

الجواب: التفكير بقانون السببية.

٢- هل من المعقول أن نكون قد ولدنا من أرحام أمهاتنا ونحن نفكر بهذا القانون اللعين - قانون السببية؟

الجواب: فى الغالب لا.

٣- وما الذى جعلنا نفكر بهذا القانون اللعين الذى أوصلنا لهذا المأزق.

الجواب: الطبيعة وسننها - أحداث الطبيعة كلها تحقيق وتجل لقانون السببية - فحادث سقوط الأمطار له أسباب - ووجود الشجر أسبابه معروفة ألا وهى وجود بذرة فى التربة وسقوط المطر على التربة فسبّب ذلك نمو البذرة فأصبحت شجرة - وقل مثل ذلك على كل أحداث الطبيعة - مثلاً وُجِدَ رجل مقتول بسكين بطعنة فى قلبه والسكين مرشوقة فى قلبه - إذن لابد من وجود شخص ما قد قام بقتله.. وهلم جرا.

وعلى هذا فإن أحداث الطبيعة قد علمتنا أن لكل حادث مُحدِثا - أى علمتنا الطبيعة أن نفكر بقانون السببية.

لهذا سألنا: من خلق الطبيعة ومن خلق خالق الطبيعة - أى أن طريقة التفكير بقانون السببية ليست فطرية أو قبلية - ولكنها تجريبية مكتسبة.

ما معنى كل ما سبق؟

معناه أنه قد يكون تطبيق طريقة التفكير بقانون السببية على مسألة من خلق الله خاطئة - لماذا؟ لأننا قد تعلمنا طريقة التفكير هذه - أقصد التفكير بقانون السببية من خلال تفاعلنا مع جزء صغير جداً من الكون هو الطبيعة (أو العالم الماكروسكوبى - العالم الكبير - عالم الحواس) ونحن نجهل بقية أجزاء الكون - بل نجهل الكثير جداً من خصائص المادة - أليس من الممكن أن تعلمنا بعض أجزاء الكون المجهولة لدينا الآن قوانين فى التفكير يمكن أن يكون ضمنها قانون لا يلزمنى بالتفكير بقانون السببية - أى يكون قانونا لا سببيا؟

الجواب (بافتراض عدم العلم): جائز جداً.

كما أنه ليس مستبعداً أن نكتشف بعض خصائص للمادة تعلمنا التفكير بشكل لا سببى.

ما عرضناه إلى الآن يبين إلى أى مدى كان ولا يزال التفكير بقانون السببية غائراً فى العقل البشرى - وأقول لا يزال لأننى ببساطة لم أبين ما بنيته إلى الآن إلا وعقلى يعمل بقانون السببية. معنى ذلك أن العقل يرتاب فى نفسه - لأجل هذا فأنا أقول إننى لا أعرف فيلسوفاً فى تاريخ الفلسفة كله حقق ثورة عقلية بضخامة الثورة التى حققها الفيلسوف الإنجليزى الفذ ديفدهيوم (١٧١١-١٧٧٦). ذلك لأنه تجرأ وثار على أكثر مبادئ العقل ألفة وأصالة منذ فجر التاريخ - ألا وهو مبدأ السببية - بحيث نستطيع أن نقول إنه أول فيلسوف يستطيع أن يخرج خارج العقل ويعاينه من الخارج - وللأسف لم تستثمر هذه الثورة إلى نهايتها - ربما لأن أفق العصر الذى عاش فيه هيوم كان لا يحتمل مثل هذا الاستثمار - علاوة على أن الأقدار قيدت له فيلسوفا عظيما آخر معاصراً له ولكن أقل عظمة منه - على الأقل من وجهة نظرى أنا - هو إمانويل كانط (١٧٢٤-١٨٠٤) ليقضى على فرص استثمار هذه الثورة على قانون السببية لهيوم - ذلك لأن كانط وضع نظرية فى المعرفة قوامها أن العقل له دور فعال فى المعرفة بما يمتلكه من قوالب (سماها مقولات) قبل التجربة الحسية أو قبل الخبرة الحسية - هذه القوالب أو المقولات مع الإحساسات هى شرط للمعرفة - وإحدى هذه المقولات مقولة اسمها السببية - مما يمثل نكوصاً لنظرية هيوم بخصوص قانون السببية حيث أصبح قانون السببية مفهوما أو مقولة أو مبدأ قبليا





> **لا أعرف فيلسوفًا فى تاريخ الفلسفة كله حقق ثورة عقلية بضخامة الثورة التى حققها الفيلسوف الإنجليزى الفذ ديفدهيوم**

للمعرفة. يقول كانط فى مستهل كتابه «نقد العقل الخالص» فى الطبعة الثانية له ما يأتى:

«كتب على العقل الإنسانى أن يتسم بهذه السمة المميزة، وهي أنه – فى جانب من جوانب علمه – مُثقلٌ بأسئلة، ومحتومٌ عليه بحكم طبيعته نفسها ألا يُهملها؛ لكنه فى الوقت نفسه لا يستطيع الإجابة عنها، لأنها تجاوز حدود قدراته كلها – وإذا اضطر العقل إلى الرجوع إلى مبادئ تجاوز حدوده، فهو بذلك يطوح بنفسه فى الظلام والمتناقضات»[1].

الفقرة السابقة تبين أن كانط طالما عقله مُثقلٌ بأسئلة (مثلنا نحن أيضاً) فإنه لم يتخلص من كلمة «لماذا» وكلمة «كيف» (مثلنا أيضاً) – اللتين تعنيان «ما السبب فى كذا» و«كيف حدث ذلك» – أى رجع بنا كانط مذكراً إيانا بالقانون الغائر فى عقل الإنسان – قانون السببية الذى ثار عليه هيوم وجاء هو ليعطل مسيرة ثورة هيوم هذه.

الفرق بين هيوم وكانط فى مسألة قانون السببية هو أن هيوم استطاع أن يخرج خارج عقله ليرى ماذا يعنى قانون السببية ويحلله – يحلل كيف آن للبشر أن يعتقدوا أن الأمور والأحداث تجرى بضرورة وشمول حيث لا ضرورة ولا شمول قبل الخبرة ولا بعدها – فالمسألة لا تعدو تتابع بين حدثين (أ)، (ب) وانتظام فى التتابع بين (أ)، (ب) – أحدهما (أ) يسمونه السبب – والثانى (ب) يسمونه المسبَّب أو النتيجة – لا لم يستطع كانط ولم يجرؤ على هذا الخروج من دائرة المألوف كما فعل هيوم – إن قانون السببية بشكله الفج فى عقول العامة كالشىء البديهى – ارتاب فيه هيوم بينما لم يستطع كانط – لهذا كان هيوم فى رأيى أكثر عبقرية من كانط على الرغم من أن هيوم فكر بقانون السببية – لأنه حلل قانون السببية – لينتقد قانون السببية.

هيوم ارتاب فى البدهى حيث لم يستطع كانط – لذلك فعبارة ديفيد لندلى مؤلف كتاب «مبدأ الريبة والصراع من أجل روح العلم ترجمة: نجيب الحصادى» تنطبق على هيوم هنا فهو يقول رغم أنه كان يقصد العالِم هايزنبرج: «إن الارتياب المستنير فى البدهى قد يكون علامة العبقرية».

قبل أن نعرض فلسفة هيوم الثورية الخاصة بقانون السببية أود أن أشير إلى نقطة هامة جداً – سأطلق عليها كلمة «الأسر اللغوى» – التى تعتبر عقبة كأداء فى الثورات العقلية الكبيرة – سواء أكانت هذه الثورة فى ميدان العلم أو فى ميدان الفلسفة – وسأضرب مثلاً اخترته لأنه شديد الوضوح بالنسبة لما أريد أن أقول. هذا المثل متعلق بتطور علم الفيزياء من مرحلتها الكلاسيكية ووصولها إلى مرحلة الفيزياء الحديثة – الفيزياء الكمية – أو نظرية الكوانتا – حيث أُنتُهِكَت فى فيزياء الكوانتا قوانين للمنطق ما كان أحد فى مرحلة الفيزياء الكلاسيكية يتصور أنها يمكن أن تُنتَهك – أعنى بذلك:

انتهاك قانون الثالث المرفوع وقانون عدم التناقض ومبدأ الحتمية وقانون السببية نفسه – مما يتطلب تطورا فى المفاهيم والصياغات اللغوية كان ولا يزال صعباً على استيعاب نخبة من العلماء – ناهيك عن الناس العاديين – لما يتطلبه هذا التطور من قبول أمور يصعب أو يستحيل تخيلها – وبالتالى ستكون الصياغة اللغوية لها ضد ما هو مألوف – هذا واضح فى مجال الميكروفيزياء أشد ما يكون وضوحاً مثل اعتبار الإلكترون موجة وجسيما فى نفس الوقت – أى الإلكترون «جسيم ولا جسيم» فى نفس الوقت – أى قانون عدم التناقض قد أُنتُهِكَ.



نحن فى حاجة إلى أن ندرب العقول على حقيقة أن التطور العلمى يثقف العقل ويقتضى تغييراً فى اللغة والمعانى التى تم الاتفاق عليها قبل حدوث مثل هذا التطور العلمى والتطور الفلسفى المصاحب. أقول ذلك هنا لأوضح أن طريقة استعمال اللغة التقليدية الخاصة بقانون السببية قبل هيوم وثورته كانت قد أرست دعامات لمفاهيم لغوية خاصة بهذا القانون وتم الاتفاق عليها – بحيث عندما جاء هيوم بثورته الانقلابية الخاصة بقانون السببية – كانت هناك صعوبات مفاهيمية وبالتالى لغوية – صعوبة فى زحزحة اللغة القديمة – لغة ما قبل ثورة هيوم حتى تستقيم مع ما أحرزه هيوم من تطور.

فقد كان التحليل التقليدى قبل هيوم لقانون السببية الذى يقول إن س سبب ص هو:

الانتظام فى التتابع والرابطة الضرورية. أى الاقتران المستمر بين السبب س والنتيجة أو المسبَّب ص – أو التتابع المستمر بين س، ص – وأن هناك ضرورة منطقية قبل التجربة توجب أن تكون س سبب وص نتيجة ضرورية – علاوة على أن المفهوم كان معناه أن السبب س يمتلك من معنى مثل: «ضرورة»، «قوة»، «يجعل»، «يُحدث»... إلخ كمؤثر فى إحداث النتيجة ص[2].

وقد كان دور هيوم هو بيان أن مسألة الرابطة الضرورية هذه ما هى إلا وهم توهمه العقل البشرى منذ فجر التاريخ – صحيح أن جون لوك قد سبقه فى هذا – لكن هيوم هو أول من طبق هذا المبدأ بصرامة. هذا ما سنوضحه الآن.

قبل هيوم – إذا تعرض شمع للحرارة يذوب – فكان يقال ليس فقط أن الحرارة يعقبها ذوبان الشمع، بل كان يُفتَرض أن ذلك لابد أن يحدث وأن هذه الضرورة هى التى تجعلها تحدث باستمرار. فالنتيجة لا تعقب السبب فحسب، بل إن السبب هو الذى يُحدث النتيجة. فأحدهما يمارس قوة أو سلطة على الآخر، فالشمس مثلاً تؤثر فى الشمع.

فكلمة «التأثير» هى لفظ آخر يستخدم للتعبير عن فعل السبب فى المسبَّب – فأحدهما يؤثر فى الآخر.

دعنا نتأمل المثال المذكور آنفاً وهو أن شمع تعرض للحرارة فذاب – فكان يقال قبل هيوم: إن الحرارة «لابد» أن تذيب الشمع.

إن الذى شاهدناه شمع تعرض للحرارة هذا حدث مُشاهَد – والحدث التالى الذى أعقب الحدث الأول هو ذوبان الشمع – فنحن إذن لم نشاهد هذه «اللابد» فى التجربة التى كان يقال فيها: الحرارة «لابد» أن تذيب الشمع.

المسألة أنه قد وُجِدَ أنه إذا تعرض شمع للحرارة (وحرارة بدرجة معينة) فهو يذوب – مسألة تتابع لا أكثر ولا أقل. لا وجود لأية ضرورة منطقية تحتم حدوث ما حدث – بحيث لو كانت المشاهدة أن البرودة تذيب الشمع لقبلها العقل. المسألة لا تعدو كونها ظاهرة طبيعية بحيث لا يصح سؤال كهذا: لماذا من المحتم أن تذيب الحرارة الشمع؟ – هذا سؤال خاطئ من الوجهة المنطقية مثل سؤال كهذا:

لماذا يشتعل الهيدروجين؟

أو لماذا لا يشتعل الأكسجين ولكنه يساعد على الاشتعال؟

من الواضح سخف تلك الأسئلة لأنها لا تعدو كونها محاولة تعليل ظواهر طبيعية كذلك قولنا إن اللهب هو القوة المؤثرة فى غليان الماء. وهكذا نجد أنه لو كانت هناك كرة بلياردو متحركة تضرب كرة أخرى كانت ساكنة، فبدأت الكرة الثانية تتحرك بناء على ذلك، فإننا لا نقول فحسب إنه عندما ضربت الكرة الأولى الكرة الثانية بزاوية معينة وسرعة محددة، فإن الكرة الثانية سوف تتحرك باستمرار، كحقيقة واقعة، بزاوية معينة وسرعة محددة (الانتظام فى التتابع) – لكننا نقول أيضاً: إن الكرة الأولى «أثرت» بقوة فى الكرة الثانية.

وهكذا إن ما كان يعنيه هيوم بمفهوم الناس قبله عن علاقة السببية هو أنهم كانوا يؤمنون برابطة ضرورية بين السبب والمسبَّب أو السبب والنتيجة أو بين س، ص – وهى أن س سوف يتبعها ص بالضرورة وأن الترابط ليس مجرد مصادفة.

الترابط الذى حدث هو مجرد صدفة لأن العقل المجرد لا يقضى بضرورة أن تتحرك الكرة الأخرى الساكنة إذا ما مستها الأولى المتحركة – لماذا؟ لأنه ممكن عقلاً تصور أن تسكن الكرتان معاً، وممكن عقلاً تصور أن تصدم الكرة المتحركة الكرة الساكنة وبدل أن تحركها تعود هى مرتدة، أو تقفز فوقها ثم تسير فى أى اتجاه – هذه كلها أوضاع عند العقل الصرف، ولا مبرر – من حيث التفكير العقلى الخالص – يجيز لنا أن نفضل حالة على أخرى من هذه الحالات التى يتساوى إمكانها عند حكم العقل؛ وإذن فيستحيل علينا الحكم «قبل» الخبرة ماذا تكون عليه الحال فى مثل هذه الظروف؛ وإنما الذى يقضى لنا فى الأمر، بحيث نختار أحد الممكنات دون سائرها، هو الخبرة الحسية التى تدلنا على ما قد يقع فعلاً، فنتوقع حدوثه – لا لأنه ضرورة عقلية محتومة – بل لأنه هو الذى شهدت به التجربة كما وقعت فى الحس واحتفظت به الذاكرة[3].

كما أنه لا يصح أن يسأل سائل هذا السؤال:

لماذا حركت الكرة المتحركة الكرة الساكنة عندما اصطدمت بها؟ لأن ذلك مثل الظواهر الطبيعية – تماماً مثلما يشتعل الهيدروجين فلا أحد يسأل ولا يصح أن يسأل: لماذا يشتعل الهيدروجين؟

وهكذا كانت النظرية التقليدية فى السببية قبل هيوم تعنى هذين الأمرين

معاً: الانتظام فى التتابع، والرابطة الضرورية. لقد اتجه التحليل الجديد لهيوم على أن يبين لنا أنه على الرغم من أن الانتظام فى التتابع هو حقيقة واقعة فإن الرابطة الضرورية هى محض اختلاف، فليس فى العالم ما يسمى بالرابطة الضرورية.

والسؤال الآن: ما هى ثورة هيوم؟ أو ماذا فعل هيوم ليغير من النظرة التقليدية فى السببية؟

هذا ما سنجيب عنه حالا.

سوف أعرض عليك عدة أمثلة بها علاقات سببية - ثم سأقوم بالتعليق عليها بعد ذلك - كل ما أرجوه عزيزى القارئ أن تصبر بقدر ما تستطيع لأن جلاء الأمر يحتاج إلى صبر وإنعام للفكر:

١- تسخين دورق به ماء عند سطح البحر إلى درجة حرارة مائة درجة مئوية يسبب غليان الماء.

٢- إذا تعرضت قطعة من المعدن للحرارة - أى تم تسخينها باللهب فإن قطعة المعدن تتمدد - أى أن الحرارة تسبب تمدد قطعة من المعدن.

٣- احتقان اللوزتين لإنسان يسبب ارتفاع درجة حرارة جسم الإنسان.

الأمثلة الثلاثة السابقة تمثل علاقة سبب بمسبِّب - أو سبب ونتيجة - وهى كانت علاقة ضرورية قبل ديفد هيوم كما أسلفنا - وأقصد بالضرورة هنا الضرورة المنطقية - وهى أصبحت انتظاما فى التتابع بعد ديفد هيوم وما قبل مبدأ الريبة لهايزنبرج Uncertainty Principle سنة ١٩٢٧ - لأنه بعد هذا المبدأ انهار الانتظام فى التتابع الذى يشكل مبدأ السببية بعد هيوم ومبدأ الحتمية بشكل عام - حيث من المعروف فى العالم الماكروسكوبى (العالم الكبير) أنه إذا كُرِّرت تجربة عدة مرات تحت نفس الظروف - فإنه لابد فى كل مرة أن تعطى نفس النتائج - هذا انهار فى مجال نظرية الكوانتا (الفيزياء الكوانتية) فى العالم الميكروسكوبى (العالم المتناهى فى الصغر مثل عالم الذرة) - حيث تُكَرَّر التجربة تحت نفس الظروف وفى كل مرة تعطى نتيجة مختلفة - لا يتسع المقام هنا للكلام عن هذا الموضوع - لكننا أردنا أن نشير إلى موقع مبدأ السببية فى عصرنا الراهن. حسبنا الآن أن نستكمل موضوعنا الذى كان قبل هذا الاستطراد. وهاك الآن نشرح الأمثلة الثلاثة السابقة وفقاً لفلسفة هيوم الثورية الخاصة بقانون أو مبدأ السببية:





«كتب على العقل الإنسانى أن يتسم بهذه السمة المميزة، وهى أنه «فى جانب من جوانب علمه» مُثقلٌ بأسئلة، ومحتومٌ عليه بحكم طبيعته نفسها ألا يُهملها؛ لكنه فى الوقت نفسه لا يستطيع الإجابة عنها، لأنها تجاوز حدود قدراته كلها «وإذا اضطر العقل إلى الرجوع إلى مبادئ تجاوز حدوده، فهو بذلك يطوح بنفسه فى الظلام والمتناقضات»

زكى نجيب محمود



١- أنت ترى اللهب تحت الدورق، ثم ترى الماء يغلى - ويعطيك ذلك فكرة التتابع - ويمكنك أيضاً أن تلاحظ أن ذلك يحدث بانتظام، فكلما حدثت «س» (اللهب) أعقبتها «ص» (غليان الماء) ويعطيك ذلك فكرة «الانتظام فى التتابع».



يمكن القول أيضاً إنه لو أول إنسان على وجه الأرض قد سخن دورقا به ماء - عند سطح البحر - أى وضع اللهب تحت دورق الماء - وحدث أنه عند درجة حرارة مائة درجة مئوية وجد الماء قد تجمد وأصبح جليداً - هل كان سيرفض مثل هذه النتيجة؟ بالطبع كان سيقبلها - لأنه لا يوجد أى مانع منطقى قبل التجربة يمنع تصور مثل هذه النتيجة إن حدثت - إذن الرابطة الضرورية مجرد وهم.

المثال السابق نستنتج منه أن:

«تسخين الماء عند مائة درجة مئوية «يسبب» غليانه» - أود أن أقول إن كلمة «يسبب» فى القضية السابقة توحى بأن السبب (وهو التسخين عند مائة درجة مئوية) يمتلك من التأثير على المسبَّب (وهو الماء) ليغلى - هذه لغة مضللة والأفضل من وجهة نظرى أن نستغنى عن كلمة سبب ويسبب وكل اشتقاقات كلمة سبب (على الأقل فى الكتابات العلمية) ونقول القضية السابقة كالآتى:

إنه قد وُجِدَ أن الماء يغلى إذا سُخِّنَ حتى مائة درجة مئوية. لأن المسألة هى حدثان متتاليان وانتظام فى التتابع (طالما كنا نعمل فى العالم الماكروسكوبى).

والآن سنقوم بشرح المثال الثانى:

٢- هذا المثال يقول إن المعادن تتمدد بالحرارة - قبل ثورة هيوم فى السببية كانوا يقولون: «المعادن لابد أن تتمدد بالحرارة».

هناك حدثان متتابعان الحرارة س وتمدد المعدن ص.

نحن لا نرى إلا س يتلوها ص ولا نرى هذه «اللابد» ولا غيرها.

ولو تصورنا أن أول إنسان سخن قطعة من المعدن ولتكن قطعة حديد مثلاً ووجد أنها تنكمش بالحرارة كلما سخنها - لقبل هذه النتيجة دون تردد. أتصور عقلا معاصرا الآن يتهمنى بالجهل وأنا أشرح هذا المثال على هذا النحو قائلاً: نعم لابد أن يتمدد الحديد أو المعدن بالحرارة - لأن الحرارة تعطى إلكترونات ذرة الحديد طاقة «تسبب» انتقالها إلى مدار إلكترونى أعلى مما «يسبب» تمدد المعدن - حديداً كان أو غيره.

والرد بسيط كالآتى:

ذرة المعدن ولتكن حديداً بعد التسخين تكتسب طاقة - الملاحظة بينت أنه عند حدوث ذلك فإن الإلكترونات تقفز إلى مدارات أعلى - لكن إذا كانت الملاحظة تبين أنها تهبط إلى مدارات إلكترونية أدنى عند تسخين الحديد فكنا سنقبل ذلك - ليس هناك أى ضرورة منطقية للقول إنه إذا حصل إلكترون فى ذرة معدن على كمية من الطاقة الحرارية أنه لابد سيقفز إلى مدار أعلى - لأنه إذا تصورنا أن العكس قد حدث لكنا قبلناه.

أيضاً قضية أن تسخين المعدن «يسبب» تمدده يحسن كتابتها كالآتى: إنه قد وُجِدَ أنه عند تسخين معدن فإنه يتمدد.

والآن ننتقل لشرح المثال الثالث:

٣- احتقان اللوزتين «يسبب» ارتفاع درجة حرارة جسم الإنسان - هناك سبب هو «احتقان اللوزتين» وهناك مسبَّب أو نتيجة هى «ارتفاع درجة حرارة جسم الإنسان» - إنه تتابع أو اقتران غير ضرورى ضرورة منطقية لأنه يمكن تصور عكس ذلك إذا حدث عند العقل المحض ويقبله.

ولكى نحتفظ بعقل مفتوح - عقل يناسب تطور العلم المستمر - يحسن أن نكتب القضية التى يمثلها المثال (٣) بدلاً من:

«احتقان اللوزتين «يسبب» ارتفاع درجة حرارة جسم الإنسان» هكذا:

«إنه قد وُجِدَ أنه عند احتقان اللوزتين عند الإنسان فإن درجة حرارة جسمه ترتفع» - هكذا تخلصنا من كلمة «يسبب» التى تحمل شحنات من المعانى التاريخية التى توحى بفعل «التأثير» من قبل السبب على النتيجة - وهذا خطأ علمى ومنطقى وفلسفى يعوق تقدم المعرفة العلمية. ■

الهوامش

١- د. زكى نجيب محمود موقف من الميتافيزيقا - الطبعة الثالثة ١٩٨٧ - دار الشروق - صفحة ٥٠.

٢- ولترسيتس: الدين والعقل الحديث - ترجمة: د. إمام عبد الفتاح إمام - مكتبة مدبولى ١٩٩٨ من صفحة ١٨٣ حتى صفحة ١٩٧.

٣- د. زكى نجيب محمود: ديفد هيوم - سلسلة نوابغ الفكر الغربى - العدد ٧ - دار المعارف - صفحة ٧٢.

النيل .. وسيناء .. وهرتزل

أثارت مجلة وجهات نظر فى عدد يوليو الأخير قضية وطنية فى ملف خاص تحت عنوان (النيل نجاشى). استهل رئيس التحرير الملف بمناقشة أبعاد متشعبة عميقة تعود لعام ١٩٠٣.. أعادت إلى الذاكرة ما طرحه الكاتب الراحل كامل زهيرى فى كتاب صدر عام ١٩٨٠ تحت عنوان (النيل فى خطر.. وثائق تنشر لأول مرة).

من خلال هذا الكتاب يقدم هذا المقال طرفًا مما أثاره المقال والكتاب فى نفسى من شجون وأبعاد مأساوية مازلنا نعيش فى ظلالها.

.. المهدى

■■ شوارع القاهرة مزدحمة .. خبر ليس فيه جديد ..كل العواصم مزدحمة. ولكن أن يكون الناس وسط الزحام شبه مساطيل.. يتلقون الخبطات واللكزات، وتحف بهم السيارات والدراجات والعربات وهم فى عالم ولى النعم الذى يرص أرجيلة يوزعها فى قصة ثرثرة فوق النيل .. فهذا هو الجديد . هل هو الحر، والمشاكل، والهم، وتشابك الخيوط، والاعلام، والبحث عن الرزق فى العاصمة. قديماً قالوا كل الانهار تجرى إلى البحر، والبحر ليس بملآن. أهل الريف يفدون إلى القاهرة، ولكن القاهرة امتلأت.. أكتظت.. ضاقت.. اختنقت.. تخدر اهلها، صاروا فى ذهول. وليس هناك من يحل أو يفسر أو يقنع. ليس هناك إلا الذهول.. الذهول ممن.. لا أحد يدرى. ومن يدرى يصرخ.. ومن يصرخ لا أحد يسمعه، فالذهول أعم وأشمل.. القاهرة نموذج للعالم الثالث.

وتعزى نفسك فتقول القاهرة ليست هى مصر، ويقول الفرنسيون الشانزيليزيه ليس باريس، ويقول الانجليز أكسفورد ليس لندن. عليك بالريف ومجاورة النهر. الانهار لها قدسية خاصة فى انحاء العالم، بطوله تاريخيا، وبعرضه جغرافياً. وعندما قتل راسبوتين وجدت جثته فى النهر، ورغم ما عرف عنه من حياة المجون إلا أن أسطورته لم تهدم كقديس إلا حينما ردد الناس: القديسون لا يموتون غرقاً.

وريف مصر معروف لمجاورته لنهر مشهور. أطلق عليه المصريون قديما اسم (حابى). النيل جعل الفلاح مطمئنا فهو يجرى كل عام، وحينما ينقطع فى النادر من الأحوال تكون كارثة، قال الفلاح القديم عنه أنه النيل قوام العدل الذى يحبه الناس، يغمطه من يقرنه بالبحر الذى لا ينبت قمحا ولا طيرا. يحط فى الصحراء. وما دام الناس لا يأكلون اللازورد الحر فالشعير أحسن. ولكن الشعير بدأ يقل، وكذلك القمح، وزاد عدد السكان. وتجد أميل لودفيج فى كتابه عن النيل يقول عن الخصب: ألا ما أحق تربة مصر بأن تخلط بالرمل كما كتب جغرافيو القرن ١٨، والا جاوزت حد الغنى الى درجة تخصب معها الاناث حتى لتلد الشاة مرتين فى العام، وتنجب النساء فى الغالب توائم.

ولك أن تبتسم فى سخرية. ولكن لتعلم أن النهضة الصناعية والزراعية التى بدأت على يد محمد على فى مطلع القرن التاسع عشر واكبت نهضة مشابهة فى اليابان. وابتسم مرة أخرى إذا اردت المقارنة ولكن لا تنس التراكمات والتراكمات التى حملها الاقتصاد المصرى وازدادت كثافته فى السنوات الأخيرة.

وقديماً كان الحاكم والمستعمر يتحكمان بالعسكر، ويتحكمان فى الريف بإدارات الرى. ويبدو أنه درس افاد. وذهب المستعمر...والتقدير الموضوعى يقول أنه لن يعود رغم المثل الذى يتحدث عن عودة من يشرب من ماء النيل. واليهودى الذى خرج من مصر وشارك فى احتلال أرض فلسطين يقول الآن، انهم خدعوك فقالوا إن اليهود يريدون أرضا من النيل إلى الفرات، والحقيقة أننى لا أريد العوده للنيل، ولكن بالصداقة والتعاهد والسلام تستطيع أن تحضر إلى معسكرى فى النقب ماء النيل.



يا للمصيبة.. ألا يكفى ما أصاب القاهرة، حتى نبحث عن خراب الريف. المشروع أثير كما نعرف ١٩٨٠. وكان قد طرحه اعلاميا مهندس اسرائيلى اسمه (اليشع كلى) فى مجلة اوت عام ١٩٧٤. وعادت إلى التذكير به جريدة معاريف فى سبتمبر عام ١٩٧٨، وكشفت النقاب عن اتفاق حوله بين مصر واسرائيل بعض الصحف. والقصة لها جذور تستطيع أن تقرأها فى كتاب أو بحث الراحل الكاتب الكبير المعروف كامل زهيرى والذى صدر فى صيف عام ١٩٨٠ بعنوان (النيل فى خطر): وثائق تنشر لأول مرة.

وثيقة كامل زهيرى وثيقتان : الأولى نص مشروع الامتياز الذى أعده هرتزل عام ١٩٠٣ لعرضه على لورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر للحصول على حق استيطان اليهود فى شبه جزيرة سيناء لمدة ٩٩ سنة قابلة للتجديد. والوثيقة الثانية نص تقرير البعثة الفنية التى ارسلتها الحكومة الانجليزية خلال شهرى فبراير ومارس عام ١٩٠٣ بالاتفاق مع هرتزل، وتشمبرلين وكرومر، وبطرس باشا غالى، لتحديد كيفية تنفيذ المشروع، وكيفية ايصال الماء اللازم إلى سيناء من ماء النيل.

هرتزل لم يكن أول من دعا لإقامة وطن لليهود. وردت الفكرة أيام كروموبل، وذكر كتاب (الصهيونية) أنها جاءت ايضا على لسان نابليون لاعادة القدس القديمة. وسبق دزرائيلى ايضا فى عرضها على مؤتمر برلين باسم المسألة الصهيونية فى المسألة الشرقية.

وطبيعى أن يفكر دزرائيلى فى بحث مشكلة اليهود. كتب فى شبابه قصصا تتحدث عن جدوده، وزار الشرق، وأعطى ملكة انجلترا لقب أمبراطورة الهند، وحصل من روتشيلد على القروض لشراء ١٧٧,٠٠٠ سهم من أسهم قناة السويس عام ١٨٧٥. واعتبرت الملكة هذه الصفقة أكبر خدمة اداها لانجلترا فحصل على لقب لورد.

وفى أواخر القرن التاسع عشر كان هرتزل ينشط فى دعوته الصهيونية وكان مصطفى كامل ينشط فى الدفاع عن وطنه ضد الاحتلال الانجليزى وانتقل الأول لتحقيق احلامه من الاستانة إلى برلين إلى فيينا، واستقر اخيرا فى لندن. بينما اتجه الثانى إلى تركيا ثم فرنسا ثم المانيا، والتقى الاثنان فى النمسا فكتب هرتزل فى مذكراته يقول : أن سليل مضطهدينا فى مصرايم أى مصر يتنهد الان من عذاب الرق، وتقوده طريقه إلى أنا اليهودى طالبا مساعدتى الصحفية. اشعر رغم اننى لم اخبره بذلك بأن مايفيد قضيتنا ان يضطر الانجليز لمغادرة مصر. فانهم سينظرون انذاك بحثا عن طريق آخر الى الهند بدل قناة السويس التى ستضيع منهم، أو على الاقل تصبح غير مأمونة. آنذاك تصبح فلسطين اليهودية الحديثة مناسبة لهم فى الطريق من يافا الى الخليج الفارسى، بيوت المال اليهودية كانت تمد أوروبا باحتياجات الحرب، وتمدها ايضا باحتياجات السلم. فحمل اوراقه وذهب بها إلى روتشيلد وانهى كتيبه بهذه العبارة سوف يتحرر العالم بتحررنا، وسوف يثرى بثرائنا، وسيعظم قدره بعظمتنا.

فى لندن حدد هرتزل الابعاد؛ روتشيلد هو المعبر إلى التمويل، وتشمبرلين وزير المستعمرات البريطانية هو المعبر إلى مصر، وكرومر المعتمد البريطانى فى مصر هو المعبر إلى سيناء. ويذكر كتاب (النيل فى خطر) لقاء هرتزل مع روتشيلد نقلا عن مذكرات هرتزل.. يعرض الأخير فكرة الحصول على مستعمرات من انجلترا لاقامة الوطن فيجيبه روتشيلد:

- خذ اذن أوغنده.

يتناول هرتزل ورقة ويكتب عليها حتى لا ينطق الاسماء فى قاعة الطعام.

- شبه جزيرة سيناء، فلسطين المصرية، قبرص.

ويقول هرتزل لقد عرض السلطان وادى الفرات (العراق).

تبدو الدهشة على وجه روتشيلد فيتساءل :

- وهل رفضت.

- نعم

روتشيلد رجل المال لا يعنيه المكان.. وهرتزل رجل كتيب الأفكار يصر على المكان، فيتجه إلى وزير المستعمرات البريطانية تشمبرلين يعرض أفكاره.

وكان من ابرز الاسماء التى تنتسب إليها هذه البيوت البارون (دى هيرش) والبارون (دى روتشيلد). اتجه هرتزل إلى دى هيرش وعرض أفكاره، ولكنه لم يتفق معه على اقامة الوطن فى الأرجنتين يقول له وزير المستعمرات :

- إذا اشرتم على بأى جزء آخر من الممتلكات البريطانية التى لا يوجد بها سكان بيض (يقصد قبرص) فإننى على استعداد للمناقشة.

هرتزل : إذا استطاعت شركة يهودية وضع اقدامها فى سيناء والعريش فلا شك أن القبارصة انفسهم سيبهرهم الذهب السائل الذى سيتدفق على المنطقة. وقد يذهب المسيحيون الى اليونان وجزيرة كريت، كما يذهب المسلمون إلى تركيا ويكونون سعداء لو باعوا لنا أراضيهم بأسعار سخية.

هنا يحيل تشمبرلين مفاوضه الى اللورد كرومر الملك غير المتوج فى مصر، والذى كان الخديوى توفيق يصفر وجهه هلعا عندما يعلم انه قادم لزيارته. ويستكمل هرتزل نسيج احلامه فى مذكراته فيقول ربما استطعنا أن نروى الصحراء من النيل. مثلا خط أنابيب بسيط، ولكن هذا مستحيل بسبب قناة السويس. أن الماء يجب أن يضخ من فوق

النيل فى خطر
كامل زهيرى
الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٠

تعقيبات

محمد المهدى

علو السفن، أو يضخ من تحت عمق كبير وهذه الطريقة الثانية تبدو أسهل بكثير، وقد يكلف هذا الضخ مليونا، ولكن ليس هذا بكثير على مثل هذا المشروع. أو يؤخذ الطمى على سفن ويوضع فى العريش، أو تبنى سفن خاصة يصفى فيها الطمى فيرسب فى أعماقها ويرسل إلى العريش. وقد تكون هناك وسائل أخرى لتحقيق ذلك. يرسل هرتزل البعثة العلمية لدراسة المشروع على أرض الواقع ويجعل اعضاءها يوقعون تعهدا يحرم عليهم النشر أو مجرد الحديث عن أى شىء يتعلق بمهمتهم.. مهمتهم فى الواقع توطين اليهود من خلال الحركة الصهيونية، وعلى الورق توطين الأوروبيين من خلال شركة استصلاح الأراضى، ويعرف الانجليز ازدواجية اللعبة ويتكتمون الخبر، ويفرضون الرقابة الواجبة.

أنتهت البعثة من مهمتها فى ٢٥ مارس عام ١٩٠٣ واوصت بعد دراسة منطقة سهل الفرما وجنوب بحيرة البردويل ووادى العريش ومنطقة التيه بالآتى:

أولاً : حدود المستعمرة المقترح شاطئ البحر الأبيض المتوسط شمالاً، والحدود التركية شرقاً، والحدود الجنوبية مساقط مياه وادى العريش ومرتفعات التيه أى خط عرض ٢٩ تقريباً، تكون الحدود الغربية هى قناة السويس والخليج خليج السويس.

ثانياً: يحصل المشروع على السلطات اللازمة من الحكومة المصرية لتنفيذ مشروعات الرى، والطرق الحديدية، والمرافق ، واقامة السدود وتخزين المياه.

ويعلق الكتاب بالملاحظات الآتية على المشروع:

١- اخفت اللجنة أن المشروع لتوطين اليهود.

٢- كانت مغرضة فى تقليلها من عدد سكان سيناء.

٣- أوراق هرتزل تثبت أن هناك تقارير أخرى كانت ترفع اليه لم يعثر عليها للآن.

ويضيف الكتاب أن اللجنة قد حددت المنطقة التى تطالب بها وهى تصل إلى خط عرض ٢٩ تقريباً أى ما يوازى (ابو زنيمة) وهو يكشف عن فداحة أطماع الصهيونية فى سيناء، وفى مياه النيل، بل يكذب ما اشتهر فى الكتب النادرة التى تناولت هذا المشروع بأن اهدافه مجرد توطين اليهود فى العريش.

وصلت السفينة النمساوية سمير أميس إلى مصر فى ٢٣ مارس عام ١٩٠٣، وكان أخطر ركابها هرتزل رغم إهمال شانه فى الصحافة. وكتب فى مذكراته يقول : الحالة الراهنة كما يلى: أن الوجود فى شبه جزيرة سيناء مختلطة



بشكل هو فى صالحنا. يجب أن أوضح ما يتلخص فى : امتلاك قوة حق. الامتلاك بيد الحكومة المصرية. والقوة بيد الحكومة الاجنبية، أما الحق فللحكومة التركية. لذلك يجب أن أحصل على الملكية من الحكومة المصرية ثم الحكومة الانجليزية بأكثر ما يمكنها اعطاؤه. وأخيراً أحصل على الحق من الحكومة التركية بأى بقشيش.

يقابل هرتزل كرومر فيحيله إلى (جارستين) وكيل الاشغال الذى كلفه بدراسة المشروع، ثم يقابل بطرس غالى باشا ، ثم يحضر محاضرة يلقيها (ويلكوكس) بعنوان (مصر الجديدة) ويكتب معلقا (لعل أعظم ما اثار اهتمامى هو العدد المذهل من الشبان المصريين الاذكياء الذين امتلأت بهم القاعة. إنهم سادة المستقبل، ومن الغريب أن الانجليز لا يبصرون ذلك. فهم يعتقدون انهم سيتعاملون مع فلاحين إلى الابد. أن قواتهم اليومية التى يبلغ عددها ١٨ الفا تكفى لهذا البلد الكبير ولكن إلى متى سيستمر ذلك؟.

جاء تقرير جارستين مخيبا للآمال فقد انتقد المشروع من الناحية الفنية، وأوصى برفضه. يسرع هرتزل إلى لندن حتى يعاود الكرة مع وزير المستعمرات البريطانية الذى ينصحه بقبول اوغنده كموطن ولكنه يجيب:

- يجب أن تكون قاعدتنا فلسطين، ثم نستطيع بعد ذلك أن نستوطن فى اوغندا ذلك ان هناك عددا كبيرا جدا من اليهود يودون الهجرة ولكن يجب أولا أن نضع اساسا قوميا. ولهذا فكرنا فى العريش لوضع سياسة جذابة. ولكنهم لا يفهمون ذلك فى مصر. ولم استطع أن اوضح لهم الأمور كما افعل هنا فى لندن.. ويجب أن أوضح اننا لن نضع أنفسنا تحت حكم مصرى، ولكننا نريد حكما بريطانياً.

يلخص لنا الكتاب اسباب الرفض لمشروع هرتزل فى نقطتين : الأولى المنظور الاستعمارى البريطانى الذى كان ما يزال متبنيا لخطة الحفاظ الشكلى والقانونى للدولة العثمانية، ولا يريد الدخول فى صراع مع القوى الدولية الأخرى : روسيا وفرنسا والمانيا، وهى الخطة التى كان طبيعيا أن تتبدل بعد الحرب الأولى وبالتالى صدور وعد بلفور عام ١٩١٧. والثانية خطة انجلترا الاقتصادية التى كانت تتعارض مع التفريط فى أى متر مكعب من ماء النيل من الممكن أن يخدم باستثماره زراعياً الصناعة الانجليزية.



دار هرتزل دورة أخرى مع اليهود للوصول إلى الهدف .. هدف الحصول على أرض استيطانية من ممتلكات انجلترا الاستعمارية.. يقول الكتاب ان الاهرام نشرت فى ١٩ ديسمبر من نفس العام ١٩٠٣.. أن الخواجة سوارس (من كبار اثرياء اليهود المصريين انذاك والخواجة ارنست كاسل قد ابتاعا من الحكومة المصرية ٣٠ ألف فدان من سهول (كوم أمبو) بالقرب من أسوان لاستصلاحها فى مقابل ٢٠ قرشا للفدان. واذا نجحوا فى استصلاحها خلال العشر سنوات القادمة يكون لهم الحق فى أخذ بقية السهل أى مائة ألف فدان بنفس الثمن.

ويضيف الخبر أنهم عهدوا إلى المهندس اسماعيل بك سرى للقيام بالمهمة بمرتب كبير ولكنه رفض. وأن الهدف من استصلاح هذه الأراضى هو اقامة مستعمرة صهيونية يقوم على زراعتها الاسرائيليون كما فعل روتشيلد فى فلسطين. ويضيف الكتاب وقد حدث

تغيير فى اتجاه المشروع اذ إننا نلاحظ أن الملكية بقيت للأجانب، ولكن هجرة جموع الفلاحين اليهود المعسرين على حد قول الاهرام قد اتجهت فى عام ١٩٠٧ فى الموجه الثانية لهجرة اليهود إلى فلسطين على الشاطئ الغربى لبحيرة طبرية.

ونعود إلى مشروع المهندس اليهودى اليشع كلى لشراء ماء النيل الذى طرحه عام ١٩٧٤، والذى أعيد الحديث حوله فى عام ١٩٧٩.. نلخص أبعاده الخطيرة كما طرحها وكشف جذورها كتاب كامل زهيرى أو صرخته الوطنية فى الآتى:

يقول اليشع ان اسرائيل لا تحتاج لأكثر من ١٪ من مياه النيل سنويا (٠,٨ مليار متر مكعب فى السنة من حوالى ٨٠ مليار متر مكعب).

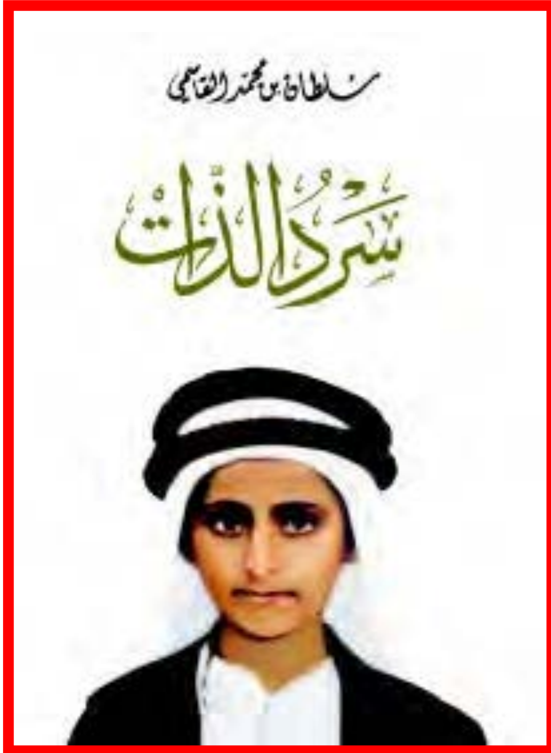
وتقتطع مصر ٥٫ ٥٥ مليار متر مكعب. وإذا قارنا بين عدد سكان مصر الذين يتزايدون بسرعة تلتهم كل الاصلاحات الزراعية، وجدنا أنفسنا امام كارثة.

- مشاريع اسرائيل لتحويل نهر الاردن حتى يقوم على خدمة صحراء النقب، تتفق مع ما تحاوله من استجلاب ماء النيل إلى نفس المنطقة تحقيقا لهدف التوسع فى صحراء النقب بشريا، وزراعيا، وصناعيا، وذريا (لان ديمونا تقع فى شرقى بير السبع).
- استمرار وجود اسرائيل كدولة محمية من الولايات المتحدة لضمان تحقيق أهدافها التوسعية تحت شعار الامتداد الحضارى.
- طموح اسرائيل فى تحويل عدد من العمال المصريين إلى مرتزقة باجتذابهم للعمل فى مشاريعها بالنقب بما يعيد مأساة المليون عامل الجزائرى فى فرنسا بصورة أسوأ.
- باستصلاح النقب وهى ثلث مساحة اسرائيل تستطيع أن تهجر اربعة ملايين يهودى. وبذلك تخل بصورة غير طبيعية بالتوازن البشرى لدول المنطقة حتى التوازن الذى يفترضه القرار ٢٤٢.

فى نهاية حديثى اسجل هذه الكلمات التى وردت فى نهاية الكتاب تعبيرا عما اصاب العقول من زحمة وذهول وتداخل فى الخطوط، كزحمة وذهول شوارع القاهرة وقد هبطت علينا أخيرا بعض الكتابات (العربية) للأسف ويتحدثون فيها عن احتمالات المستقبل للعالم العربى عام ٢٠٠٠ على ضوء التسوية الثنائية أو التسوية الشاملة!.

ومن المضحك المبكى أن تضع هذه الكتابات كل الاحتمالات وتتناول كل التفاصيل من تأثير كامب ديفيد على التغيير الاجتماعى أو السياسى بل واحيانا على بنية المجتمع الاسرائيلى، وأن تهمل فى نفس الوقت هذا المشروع المحورى الخطير. ■

في الخليج و القاهرة و التاريخ



سلطان بن محمد القاسمي

لا تشبه الليلة البارحة .. نعم، بأي حال من الأحوال.

الليلة: تقول الأخبار أن حجم الاستثمارات القطرية في بريطانيا العظمى؛ التي لم تكن تغرب عنها الشمس بلغ ١٠مليارات جنيه استرليني (العرب القطرية ١٠يناير ٢٠١٠)

الليلة، نقلت وسائل الإعلام كلها حفل الافتتاح المبهر لبرج خليفة (برج دبي) أعلى بناية على سطح الأرض.

الليلة: لامكان للحديث عن القوميين، أو الوحدويين، أو عبد الناصر.

في البارحة، التي لانكاد نذكر، يبدو كل شيء غير الذي بتنا نعرف. الخليج؛ مجتمعا وحياة، وبريطانيا؛ التي كانت (هناك)، والسياسة؛ التي ماعاد من ملامحها غير الصور.. وبعض الذكريات.

خمسون عاما لا أكثر، تفصلنا عن هذه الأيام، التي تبدو اليوم وكأنها بعيدة جدا (كأنها لم تكن أبداً!) والتي يحكي لنا بعضا من تفاصيلها ومشاهدها الشيخ سلطان بن محمد القاسمي حاكم الشارقة (الذي مشي يومها في تظاهرات مؤيدة للقومية العربية ولعبد الناصر) في سيرته الذاتية سرد الذات التي صدرت أخيرا عن دار الشروق ونقدم هنا بعضا من صفحاتها.

المحـــرر

إذا ما حلّ المساء، أخذ القوم يحتشدون أمام الحصن، ليستمعوا لنشرة أخبار الحرب، من مذياع فى إحدى نوافذ الطابق العلوى للحصن



غواصون، وبيوت من سعف، وحرب عالمية

الحِصْن

■■ يقع ذاك الحصن إلى الجنوب من بيتنا، لا يفصله عنه إلاّ الطريق الواسعة المؤدية إلى أسواق المدينة، حيث نوافذ مجلسنا تطل عليه، فتمر من خلاله القوافل فى الغدو والرواح محملة بالبضائع لمن باع وابتاع.

هذا رجل يسوقه عسكرى يحمل بندقية ويدفعه إلى الأمام عندما يحرن فى مشيته، مُساقًا إلى الحصن، وذاك عائد منه مُطأطئًا لا تسمع منه إلاّ النشيج. وهذا رجل يتبختر فى مشيته، وقد هندم هيأته، مشغول الفكر، ينمّق الكلمات التى سيلقيها على الشيخ، فإذا عاد تعلوه الابتسامة فقد أجزل له فى العطاء، أما إذا كان مبرطمًا فقد عاد خائب الرجاء، ونحن نرقب كل ذلك صباحًا ومساءً.

حصن الشارقة مبنى مربع الشكل له أربعة أركان مهمة: أولها الغرفة، وهى أحد أركان الحصن، حيث تستعمل كمجلس للخاصة، وهى فى الجنوب الشرقى من الحصن. يليها «المشرف»، وهو برج مربع يطل على الجنوب الغربى من الحصن، ويستعمل للحراسة. وإلى الشمال الغربى يوجد «الكبس»، وهو برج دائرى، ويستعمل للحراسة أيضًا. أما «المحلوسة» فكانت برجًا ضخمًا، وهى على اسم على مسمى، حيث كانت غريبة فى بنائها، يُستعمل الجزء العلوى منها للحراسة، أما الجزء السفلى فكان سجنًا مرعبًا..أما واجهة الحصن فتطل على ساحة الحصن، حيث تُشاهَد بوابة الحصن الضخمة المزينة برءوس المسامير على هيئة كرات برونزية متلألئة. بين تلك البوابة والمحلوسة، وُضع فى مكان ظلها عصرًا كرسى خشبى كبير له مساند خشبية كذلك، ويُصعد إليه بدرجات من الخشب فى جهتين منه..ومدفع كبير على عجلات من خشب، يسمى «الرقاص»، وآخر أصغر منه على عجلات كذلك.

أما إلى اليسار من البوابة فهناك سجن التوقيف، له شباك يطل على الساحة، يستطيع السجين أن يتحدث منه إلى أقربائه. وبين السقف والشباك فتحة صغيرة للتهوية. أما باب ذلك السجن فينفتح فى الصالة الداخلية التابعة للبوابة، يُقال لها الإصباح، حيث الحراسة مشددة. كان فى سجن التوقيف أحد المتهمين، وكان ذا سوابق فى السرقة، قُطعت يده اليمنى فى سرقات سابقة، وإذا به يقوم ليلا بسرقة مدفع برونزى صغير، يصعُب على شخص بيد واحدة وذاك الجسم الضئيل أن يحمل ذاك المدفع ويخرج به من فتحة التهوية العلوية، ويهرب من السجن. فتتبعوه، فوجدوه مختفيًا فى كومة من الحشائش، وهو يحتضن المدفع.

يلى ذاك السجن مخزن التموين، والذى يديره أحد موالى الشيخ، ويُدعى ابن كلبان، يوزع الكيروسين والفحم وبعض الأطعمة على بيوت العائلة المالكة. ويليه مرآب السيارات، والذى كان يفتح بابه فى إسطبلات الخيول.

فوق تلك الأماكن الغرفة التى يجلس فيها الشيخ، وأمامها السطح المكشوف يليه الساباط المسقوف وكلها تطل على الساحة الأمامية للحصن، حتى إذا ما حلّ المساء وتجمّع إخوة الشيخ سلطان مع أبنائهم لتناول طعام العشاء، أخذ القوم يحتشدون أمام حصن الشارقة، زرافاتٍ ووحدانا؛ ليستمعوا لنشرة أخبار الحرب، وكانت فى أواخرها سنة ١٩٤٥م، فكان صوت المذياع (الراديو) يأتيهم من إحدى نوافذ الغرفة بالطابق العلوى للحصن.

هؤلاء القوم نصفهم كان مؤيدًا للحلفاء والنصف الآخر كان مؤيدًا للمحور، فكانت الأخبار من الإذاعة الألمانية بصوت المذيع العراقى سليط اللسان، يونس بحرى، تُغضب مؤيدى الحلفاء..وكذلك الأخبار الآتية من هيئة الإذاعة البريطانية لخدمة الشرق الأوسط، بصوت المذيع الشامى منير شما، تغضب مؤيدى المحور. ومن النوافذ المطلة على الساحة الأمامية للحصن نشاهد الشجار بين الفريقين.

أما بقية الأماكن فى الحصن، ففى الجزء الجنوبى كانت تسكن والدة الشيخ صقر ابن سلطان القاسمى، أما الجزء الشمالى فقد كان مخصصًا لسكنى الشيخ صقر بن سلطان القاسمى وزوجته وأولاده.



أمام واجهة الحصن مبنى كبير، نصفه مبنى بالكامل، وبه نوافذ، والنصف الآخر عبارة عن سقيفة. يقال لذلك المبنى «الساباط»، تنزل به أعداد كبيرة من البدو ضيوفًا على الشيخ. وإلى الجهة الشمالية من الساباط بئر للاغتسال، أما الجهة الجنوبية منه فكانت مناخًا للإبل. بين الحصن والساباط غُرزت سارية غليظة، طرفها العلوى متفحم، يُربَط الخارجون على القانون من سُرّاق ومجرمين عليها، يُقال لها «حطبة التوبة». عندما كان يُربط السارق أو المجرم على السارية، نتحلق نحن الصبية حول السارية، حينما يجلد السارق والمجرم، ويحدث الجدل بيننا حول الجزء المتفحم من السارية، وقد قال بعض الصبية: «تشعل النار فى هذا الجزء العلوى من السارية، وتأخذ بالاشتعال إلى أسفل ناحية السارق. فإذا أحس باقتراب النار إليه اعترف مباشرة».

قلت لهم: «نحن يوميًا هنا نشاهد هذه العقوبات، ولم نشاهد نارًا أُشعلت، وهذا الجزء المتفحم موجود منذ أن وعينا».

سألت والدى عن ذاك الجزء المتفحم من السارية. فروى لى الحكاية التالية:

يقول والدى: «فى عهد والدى الشيخ صقر بن خالد القاسمى حاكم الشارقة، كان هناك رجل أدكن أعمى، يُقال له «باسيدوه»، يسكن فى حارة آل على فى الشارقة. فى يوم عاصف بريح يقال لها السهيلى، وهى جنوبية، خرج باسيدوه فيه يستدل على طريقه بعكازه إلى سوق السمك، ليسترزق سمكًا من الصيادين، حتى إذا ما رجع إلى خيمته المتهالكة بسعفها وخيشها، وأوقد النار ليشوى أسماكه فى خيمته اشتعلت الخيمة نارًا، فاحترق باسيدوه ومات محترقًا.

النار لم تكتفِ بباسيدوه وخيمته، بل طالت بيوت السعف وأرسلت إلى الغرب منها لهبًا، يتراقص على البيوت المشتعلة، ثم يتناول عنان السماء ليلفظ إليها ما خف وزنه، بعد أن لاكت النار وابتلعت تلك البيوت، وخلّفت غنمًا وأبقارًا متفحمة فى مرابطها. كانت تلك المواد المتطايرة، منها المتفحم والمشتعل، تنقلها الرياح الشديدة ناحية خور الشارقة، حيث كان هناك بالقرب من الشاطئ سفينة للغوص لاستخراج اللؤلؤ، تُسمى «غالب»، مالكها ابن مذكور، فالتصقت قطعة مشتعلة من التى تقذفها الرياح بقمة سارية السفينة، وإذا بالنار تقضم تلك السارية من قمتها متجهة إلى الأسفل، حتى إذا ما وصلت النار إلى ارتفاع قامة أو تزيد من ظهر السفينة، شوهد الشيخ صقر ابن خالد القاسمى، حاكم الشارقة، قادمًا على حصانه من جهة طريق السيف، فأمر أن تُقطع الحبال التى تثبت السارية فى السفينة، ويُرمى الجزء المتبقى من السارية فى البحر لتنطفئ النار بماء البحر. ثم أمر أن يُنقل الجزء المتبقى من السارية إلى أمام الحصن ليُغرز بالأرض هناك، ليُربط بها السارقون والمجرمون، وقد عُرفت بحطبة التوبة».

بالأمس كان ذاك الجزء من سارية السفينة يُربط به الغواصون الذين يتمارضون عن النزول لقاع البحر لاستخراج اللؤلؤ، خوفًا من أسماك القرش، التى كانت تهاجم الصيادين، أو قلة النَفَس،





كانت الأخبار من الإذاعة الألمانية بصوت المذيع العراقى سليط اللسان، يونس بحرى، تُغضب مؤيدى الحلفاء.. وكذلك الأخبار الآتية من هيئة الإذاعة البريطانية، بصوت المذيع الشامى منير شما، تغضب مؤيدى المحور

سرد الذات
سلطان بن محمد القاسمى
دار الشروق ٢٠١٠ ـ ٢٩٥ صفحة



شـاهـدت جـمـيـع الـبـيـوت، ومـعـظـمـهـا مـن الـسـعـف، قـد تـسـاوت مـع الأرض



حيث يخرج الغواصون وهم يهذون بما تخيلوه عن حياة الجن فى قاع البحر، أو تأثر طبلات آذانهم لشدة ضغط الماء عليها، فيوسمون تحت آذانهم.. واليوم يُربط بها المتهمون ويُجلدون لانتزاع الاعتراف بذنوبهم.

إلى الجنوب من حطبة التوبة مجموعة من المدافع القديمة، مسندة أطرافها ناحية فوهاتها على جذع نخلة، ولم تكن تستعمل ألبتة. وكان المدفع الذى يستعمل لإطلاقه لتحية ضيف أو إعلان عيد هو المدفع الصغير ذو العجلات الخشبية. كان ضيف الشارقة ذات مرة الأمير سعود بن عبد العزيز آل سعود، وقد كان فى طريقه إلى الهند، ماراً بمطار الشارقة، حيث دعاه الشيخ سلطان بن صقر القاسمى حاكم الشارقة لتناول القهوة فى مجلسه فى الحصن. كانت الأوامر قد صدرت للعسكرى المكلف بإطلاق المدافع أن يطلق طلقة واحدة عند نزول الضيف من السيارة أمام باب الحصن. حاول ذاك العسكرى مع مجموعة من العساكر دفع المدفع الصغير، والموجود بقرب بوابة الحصن، حيث نزول الضيف من السيارة، إلى مسافة بعيدة من البوابة، لكنهم لم يستطيعوا تحريك المدفع فقد حرن فى مكانه.

نادى بنا العساكر أن نساعدهم، وكنا مجموعة من الصبية تجمّعنا لمشاهدة الضيف القادم إلى الحصن. وكان يقف إلى جوارنا رجلان كانا مرافقين للشيخ محمد بن حمد الشامسى، شقيق الشيخ راشد بن حمد الشامسى، شيخ بلدة حماسة، كان قد نزل ضيفاً على والدى، وأقام هو ومرافقاه فى المجلس الخاص فى بيتنا. كان أحد الرجلين يدعى «الحاس»، والآخر يدعى «جميع»، واشتركا معنا فى دفع المدفع، والذى أبى أن يتحرك. عندها قرر العسكرى المكلف بإطلاق المدافع أن يستعمل أحد المدافع القديمة، والمسنودة إلى جذع نخلة.. أخذ العسكرى يحشو المدفع القديم بالبارود وقطع الخيش. وكنا جميعنا من حوله، والصدأ يتناثر من سطحه الخارجى، ويتجمع على الأرض تحته، حتى إذا ما انتهى من حشو المدفع، وضع كمية من البارود على الفتحة الضيقة فى مؤخرة المدفع، وعندما وصل الضيف وضع جمرة فى طرف جريدة نخل، وطلب منا أن نبتعد عن المدفع. و ما إن وضع الجمرة على مؤخرة المدفع، حتى انفجر، وتناثر شظايا فى غيمة من الدخان، وإذا بـ«جميع» يسقط على الأرض، وقد أصابته شظية أزالت لحم أحد خديه، وكشفت عن أسنانه.

فى مناخ الإبل كان الإنجليز يأتون بالسينما مرة كل أسبوع ليعرضوا انتصاراتهم فقط وليس هزائمهم فى الحرب العالمية الثانية.

كان ذلك المكان مليئًا بالقراد والحَلم، وهو أكبر من القراد، تساقطت هناك من الإبل. وعلى فترة عرض الفيلم، كان الحضور يحكّون سيقانهم وأرجلهم من قرض القراد والحَلم الذى كان يمصّ الدم من أجسادهم.



تفتح بوابة الإسطبلات، الملاصقة للحصن من الجهة الجنوبية، والتى سورها الغربى من بقايا سور الشارقة، فى ساحة مسجد البدو. كنت أتدرب على ركوب الخيل فى حوش الإسطبلات.. وعندما حان خروج أبناء عمى بخيولهم إلى الصحراء، والذين هم أكبر منّى سنًا، طلبت من «سعيد الخيل»، وهو المسئول عن تدريبنا على ركوب الخيل، أن أخرج معهم، فوافق، لكنه خاف أن تجمح بى الخيل، فقرر أن يأخذنا جميعًا فى جولة فى طرقات بلدة الشارقة، ومنها السوق. فإذا ما وصلنا إلى سوق السمك الغربى، وإذا بصف من النساء يفترشن الأرض بأنواع من الخضروات: فجل وبصل وطماطم وبطيخ وشمام وريحان. كانت خيلى أقرب للنسوة اللاتى تركن خضرواتهن وابتعدن. فأخذت خيلى تلتهم تلك الخضروات، وتغوص حوافرها فى البطيخ والشمام، ولم أكن أستطيع أن أسيطر على الخيل، أسرع «سعيد الخيل» بحصانه ليدفع بخيلى إلى وسط مجموعة الخيول، لكن حصانه أخذ يرقص على ما تبقى من خضروات.

تعالت أصوات الناس فى السوق وأخذوا يلوحون بأيديهم مما أخاف الخيل فأفلتت، وانطلقت فى السوق.. وقدر الله لم يصب أحد بأذى. اشتكت الناس لدى الشيخ سلطان بن صقر القاسمى، فوبّخ الجميع منا، وعوّض المتضررين، وأصدر أمرًا بعدم دخول الخيول أسواق الشارقة وطرقاتها. ■

عاصفــــة وأمطـــــار

■ ■ فى الأسبوع الأول من مارس من عام ١٩٤٨م، قرر والدى زيارة الشيخ حميد بن محمد القاسمى، شقيق الشيخ صقر بن محمد القاسمى، الحاكم الجديد لرأس الخيمة فى رأس الخيمة.

وعندما كنا هناك، هبت عاصفة شديدة، مما اضطر والدى إلى أن يبيت تلك الليلة فى بيت الشيخ حميد بن محمد القاسمى برأس الخيمة.

نام السائق عبد الله بندرى والمرافق العسكرى عيد بن خصيف فى المجلس الخارجى، أما أنا فقد نمت مع والدى فى غرفة داخلية بالبيت، وهى غرفة الشيخ حميد نفسه. وفى الصباح الباكر عندما فُتح باب تلك الغرفة شاهدت الساحة الداخلية لذلك البيت وقد أصبحت بركة ماء. فسألت والدى عما حدث ليلتها فقد كنت نائمًا طوال الليل. نادى والدى على عيد بن خصيف وأمره أن يحملنى إلى خارج البيت لأرى ما حل بالمدينة.

ما إن خرج بى عيد من البيت حتى شاهدت جميع البيوت، ومعظمها من السعف، قد تساوت مع الأرض، وإذا بالشاطئ أصبح قريباً من بيت الشيخ حميد، والبحر يشاهد من هناك.

كانت هناك بين ثلاثة إلى أربعة بيوت من السعف بين بيت الشيخ حميد والبحر، وقد جرفتها الأمواج، وإذا بالآبار المطوية، التى كانت بالبيوت قد جرف البحر ما حولها من رمال، وتركها كأعمدة على ذلك الشاطئ العريض، بعد أن تناهى البحر فى الجزر.

أخذت أنا وعيد نهرول على الشاطئ إلى جهة الشمال، وإذا بالشاطئ يأخذنا ناحية الشرق، ويوصلنا إلى الخور.

كانت البيوت فى شمال بلدة رأس الخيمة قد أزالتها أمواج البحر العالية، بعد أن أوصلت البحر الهائج بخور رأس الخيمة.

كان والدى مشغول البال على الأهل فى منطقة الخرّان، فركبنا السيارة وأخذنا طريقنا إلى هناك، حتى إذا ما وصلنا لم نجد بيتنا قائماً، وكان مكونًا من عدة خيام. وإذا بشقيقى خالد والخدم يتقدمون لاستقبالنا، وإذا بالوجوه عليها بشاشة: «الحمد لله ليس هناك مكروه»، قالها والدى وهو ينزل من السيارة.

تقدّم والدى، وكلنا معه، إلى القلعة، فإذا بغدان منصوب هنا وآخر هناك. وثالث بعيداً قليلا لملابس النساء، تتدلى منها الملابس المبلولة بمياه الأمطار.

روى شقيقى خالد لوالدى ما جرى تلك الليلة، فقال: «كنا نائمين فى الخيمة الكبيرة، والدتى وشقيقتى شيخة وناعمة وشقيقى الطفل عبد الله وأنا، فعصفت العاصفة، فما وجدنا إلا وأطناب الخيمة الكبيرة تقتلع من الأرض من كل الجهات لتبقى الخيمة محمولة على العمودين الأوسطين، فلما انكشفت الخيمة عنا، أخذت أنا وشقيقتى شيخة نجرى نحو القلعة فى الظلام الدامس، حتى إذا ما أبرقت السماء وجدنا شقيقنا الطفل عبد الله يحبو فى الصحراء فحملناه معنا إلى القلعة».

يقول شقيقى خالد، وهو يحدّث والدى:

«عندما دخلنا القلعة فوجئنا بعدم وجود والدتى وشقيقتى ناعمة، فأخبرت خالى سالم ابن خميس بذلك، وخرجت معه نبحث عنهما فى الخيمة، التى افترشت الأرض».

أخذ خالى وأنا ننادى عليهما، فسمعنا أصواتًا من تحت الخيمة الملتصقة بالأرض، فرفعنا طرفًا منها لنصل إلى موقعهما، وإذا بوالدتى تسأل عن عبد الله، فقلت لها: «عبد الله معنا فى القلعة».

قالت والدتى: «كنا نبحث عن عبد الله تحت الخيمة، التى كانت مبلولة وثقيلة، وكلما حاولنا أن نحبو ألصقتنا بالأرض، لكن المصيبة هنا يا محمد!».

والدى: «خير إن شاء الله».

والدتى: «بعد أن نمنا، نحن وزوجة خالك وطفلها فى القلعة، وإذا بالماء المملوء بالطين ينزل علينا من فتحة سلالم القلعة، بعد أن احتبس فوق سطحها، ليغرقنا فى بحيرة من الطين».

قال والدى: «لنرتحل إلى الشارقة، اجمعوا ملابسكم واركبوا فى السيارة، واتركوا كل شيء، سيأتى به الخدم».

ركبنا السيارة متجهين إلى الشارقة، وفراق تلك المنطقة الجميلة يملأ قلوبنا. ■



كانت الشارقة، ومنذ أسبوع، قد اكتست بالأعلام والأقواس



فارسى أم عربى أم إنجليزى

عبدالخالق حسونة فى الخليج



حصن الشارقة

■■ فى أكتوبر عام ١٩٦٤م أعلن عبد الخالق حسونة الأمين العام لجامعة الدول العربية أنه سوف يرأس بعثة لإقامة علاقات رسمية بين إمارات الخليج وجامعة الدول العربية، لأجل دراسة السبل الكفيلة بالمحافظة على الهوية العربية. وقد تقررت الزيارة، التى سيقوم بها عبد الخالق حسونة الأمين العام لجامعة الدول العربية، فى يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٦٤م. كانت الأيام التى قضاها عبد الخالق حسونة فى الإمارات كالتالى:

يوم الأربعاء الثامن والعشرون من أكتوبر ١٩٦٤م:

كانت الشارقة، ومنذ أسبوع، قد اكتست بالأعلام والأقواس. أما دبى فقد أصبحت فى ذلك اليوم فى أجمل مظهر من مظاهر الزينة، حيث كان العمل ليلة وصول الوفد مستمراً حتى الفجر برفع الأعلام وتثبيت الأقواس. وقد رُفعت الزينة أيضاً فى الإمارات الأخرى.

فى صباح ذلك اليوم، احتشد فى مطار دبى ما يقارب من ثلاثة آلاف فرد من أهالى دبى والإمارات الأخرى، وخليط من أجناس متعددة.

وصلت الطائرة المقلة لعبد الخالق حسونة فى تمام الساعة العاشرة صباحاً، وعندما نزل عبد الخالق حسونة والوفد المرافق له،





أمام حصن الشارقة: الشيخ سلطان بن صقر القاسمى ـ حاكم الشارقة، وإلى يمينه الشيخ سيف بن محمد بن مجلاد، وإلى يساره ضيف إنجليزى، وإلى يسار الضيف الوزير السيد إبراهيم بن محمد المدفع



أخذ المشاركون فى المظاهرة يهتفون بالنصر لجمال عبد الناصر، والسقوط للإمبريالية..



والمكوّن من سيد نوفل نائب الأمين العام ومندوبى السعودية والكويت والعراق لدى الجامعة، تقدم الشيخ راشد بن سعيد المكتوم حاكم دبى لاستقبالهم، فتدافعت الأعداد، مما استدعى الشرطة للتدخل حماية للوفد الضيف.

بعد تناول المرطبات فى مطار دبى، توجه الوفد إلى الفندق بدبى.

كانت هناك مظاهرة صغيرة، مكونة من عشرين فرداً، رافقتها شرطة دبى إلى الفندق، حيث يقيم الوفد.. عندها أصبح عددها مئة فرد. أخذ بعض أفراد من المتظاهرين فى التصرفات غير اللائقة، مما دفع الشرطة إلى توجيه المتظاهرين إلى أرض فضاء بالقرب من الفندق، حيث المحال التجارية مغلقة.. ثم قامت الشرطة بتفريق المتظاهرين بالهراوات، مما دفعهم إلى رشق الشرطة بالحجارة.

ربما لم يلاحظ أعضاء الوفد ما جرى خلف الفندق.. ولكنهم لاحظوا تلك السيارات المكتظة بالعمال اليمانيين والعدنيين وبعض طلبة المدارس، الذين قدموا من الشارقة، وأخذوا يهتفون بالنصر لجمال عبد الناصر، والسقوط للإمبريالية..

وخلال اليومين اللذين أمضاهما الوفد فى دبى، تم تكريمه بالولائم وحفلات الشاى من قبل الشيخ راشد بن سعيد المكتوم حاكم دبى، ومن مكتب الكويت فى دبى، ومن بلدية دبى. وأخيراً كان تكريم الوفد من الشيخ أحمد بن على آل ثانى حاكم قطر.

يوم الجمعة، الثلاثون من أكتوبر ١٩٦٤م:

كان ذلك يوم زيارة الوفد إلى الشارقة، حيث انتشرت قوات ساحل عُمان فى كل جزء من أجزاء المدينة.

معظم السيارات بالشارقة توجهت إلى دبى لاصطحاب الوفد إلى الشارقة. أما أنا ومعى مجموعة من المتظاهرين فقد كنا فى استقبال الموكب عند مشارف مدينة الشارقة. كنت يومها أتحدث للجماهير من خلال مكبر للصوت، ومن على ظهر إحدى السيارات حتى مدخل «المضيف»، حيث يوجد مجلس الشيخ صقر بن سلطان القاسمى حاكم الشارقة.

كان هناك طلبة المدارس، والمدرسون يوجهونهم بالهتافات وتحريك الأعلام التى كانوا يرفعونها. كانت الساحة أمام المضيف والحصن مزدحمة بالمواطنين من الشارقة، يتخللهم بعض العرب والعمال من بلوش وإيرانيين.

عقد الوفد اجتماعاً مع الشيخ صقر ابن سلطان القاسمى، وتم بحث موضوع المساعدة المطلوبة.

بعد تلك المحادثات انتقل الوفد إلى البيت الذى أُعد لإقامة الوفد فيه، وقد سُمى «بيت حسّونة»، بالقرب من شجرة الرولة.

....

يوم السبت الحادى والثلاثون من أكتوبر ١٩٦٤م:

توجّه وفد الجامعة صباح ذلك اليوم إلى عجمان، حيث استقبلهم الشيخ راشد ابن حميد النعيمى حاكم عجمان، وجمع غفير من المواطنين الذين أخذوا يهتفون ضد إيران.

التفت السيد عبد الخالق حسونة للشيخ راشد بن حميد النعيمى وطلب منه أن يخبر مواطنيه بأن لا يهتفوا ضد أى دولة، لأن جميع الدول صديقة لجامعة الدول العربية.

عاد وفد الجامعة من عجمان إلى دبى مباشرة للإقامة هناك.

يوم الأحد الأول من نوفمبر ١٩٦٤م:

زيارة هادئة لأم القيوين.

يوم الاثنين الثانى من نوفمبر ١٩٦٤م:

زيارة الوفد لرأس الخيمة.

يوم الثلاثاء الثالث من نوفمبر ١٩٦٤م:

زيارة الوفد لكلباء والفجيرة.

يوم الأربعاء الرابع من نوفمبر ١٩٦٤م:

مغادرة الوفد من مطار دبى.

تم الاتفاق بين وفد الجامعة العربية وحكام الإمارات على إرسال بعثة فنية لدراسة احتياج المنطقة من المشروعات الضرورية.

بين الوزير البريطانى ومساعد الأمين العام لجامعة الدول العربية

قرر المجتمعون بجامعة الدول العربية إرسال الدكتور سيد نوفل، مساعد الأمين العام لجامعة الدول العربية، إلى الإمارات للحصول على موافقة خطية من كل حاكم على حدة.

سارعت السلطات البريطانية فى الخليج لإنشاء صندوق بديل عن صندوق جامعة الدول العربية.

....

فى العاشر من مايو من عام ١٩٦٥م، وصل إلى دبى الدكتور سيد نوفل مساعد الأمين العام لجامعة الدول العربية، وبعد أربع وعشرين ساعة وصل إلى دبى «جورج تومسون» (George Thomson) وزير الدولة البريطانى للشئون الخارجية.

لم يبدد سيد نوفل الوقت هدراً، فقد زعم أن هنالك مبلغ ٩٠٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى موجودة بالفعل تحت إمرته، و٢٥٠,٠٠٠ أخرى من الكويت، ومثلها أيضاً من العراق، و٤٠٠,٠٠٠ جنيه إسترلينى من الجمهورية العربية المتحدة.

فى صباح اليوم الحادى عشر من مايو من عام ١٩٦٥م، قام سيد نوفل بزيارة الشيخ صقر بن سلطان القاسمى حاكم الشارقة فى مجلسه فى الشارقة.

وبعد محادثات مطولة، حمل معه الرسالة التالية للأمين العام لجامعة الدول العربية:

«تأكيداً للمحادثة التى جرت هذا اليوم بينى وبين الدكتور سيد نوفل، مساعد أمين عام الجامعة، أحب أن أعرب عن شكرى وامتنانى للجامعة لخطط التنمية التى وضعتها، وأنا أرحب بالبدء فوراً بتنفيذها، وكذلك للترتيبات التى وضعت لإنشاء مكتب فى إمارة الشارقة».

فى صباح اليوم الثانى عشر من مايو من عام ١٩٦٥م، ذهب الشيخ صقر بن سلطان القاسمى متوجهاً إلى دبى لحضور اللقاء الذى رتبه الوكيل السياسى البريطانى فى دبى بين وزير الدولة البريطانى «جورج تومسون» وحكام إمارات الساحل، فى الوكالة البريطانية فى دبى، بالتتابع - لم يحضر حاكم الفجيرة،حيث كان فى الحج.



كان حديث الوزير البريطانى يدور حول الموضوعات التى تبناها كل من المقيم السياسى البريطانى فى الخليج «سير وليام لوس» والوكيل السياسى البريطانى فى دبى، وهى كالتالى:

أ - لقد صممت حكومة صاحبة الجلالة على البقاء فى منطقة الخليج، وصيانة اتفاقياتهم والتزاماتهم تجاه الحكام.

ب- إن الضغط المتزايد والعدائى على موقعنا، وكذلك على الحكام، يجعل من الضرورة بمكان أن يتعاون الحكام مع بعضهم بعضاً ومعنا. فالمصريون والعراقيون سوف يستثمرون أية خلافات لإلحاق الأذى بالجميع. وبالتالى ستعمل حكومة صاحبة الجلالة على تشجيع الحكام، وحثهم لتجاوز ودفن خلافاتهم، وأن يجدوا المجالات التى تستوعب تعاونهم مع بعضهم بعضاً.

ج- وعلى وجه الخصوص، يجب على الحكام أن يقفوا جميعاً داعمين ومساندين لقرارات مجلس الإمارات المتصالحة، حسبما تقرر فى اجتماع الأول من مارس، والإصرار على أن يكون كل دعم يأتى من الخارج عبر قنوات صندوق تطوير الإمارات.

من خلال اللقاءات كان حاكم رأس الخيمة الذى يفترض أن يقابل السيد نوفل إثر ذلك، قد تلكأ وعقد ما بين حاجبيه.. أما حاكم الشارقة، الذى لم يفصح حتى ذلك الوقت عما كان قد اتفق حوله مع سيد نوفل، فقد بدا غير لطيف وكان قاسياً نوعاً ما.

فى مساء اليوم نفسه، قام سيد نوفل بزيارة كل من الشيخ راشد بن حميد النعيمى حاكم عجمان، والشيخ أحمد بن راشد المعلا حاكم أم القيوين، والشيخ صقر بن محمد القاسمى حاكم رأس الخيمة.

فى مقابلة الشيخ راشد بن حميد النعيمى حاكم عجمان، كان سيد نوفل يلح على الشيخ راشد بن حميد أن يعطيه رسالة شبيهة برسالة الشيخ صقر بن سلطان القاسمى، لكن الشيخ راشد بن حميد النعيمى بيّن أن الحكام قد اتفقوا على إنشاء صندوق لمجلس التطوير، توضع فيه كل المنح المقدمة للإمارات.

وتحت إصرار سيد نوفل، منحه حاكم عجمان رسالة شبيهة برسالة الشيخ صقر بن سلطان القاسمى، باستثناء الجملة الأخيرة بخصوص فتح مكتب لجامعة الدول العربية.

وفى مقابلة سيد نوفل للشيخ أحمد بن راشد المعلا حاكم أم القيوين، تسلّم الرسالة التالية، الموجهة للأمين العام لجامعة الدول العربية:

«يسرنى أن أرسل لسعادتكم ترحيبى بالمساعدة التى يعتزم القائمون فى الجامعة العربية تقديمها إلينا ولإخواننا فى ساحل عُمان. ونشكر سعادتكم للتعاطف والاهتمام الذى أحطتمونا به، ونسأل الله التوفيق لنا ولكم».

أما الشيخ صقر بن محمد القاسمى حاكم رأس الخيمة، فقد كتب الرسالة التالية للأمين العام لجامعة الدول العربية:

«اليوم زارنا سعادة الدكتور نوفل، ولقد سرنا ما قاله لنا.



سارعت السلطات البريطانية بإنشاء صندوق بديل عن صندوق جامعة الدول العربية



وتأكيداً لمحادثتنا معه يسرني أن أبلغ سعادتكم أننا نرحب بجميع جهودكم في مساعدة هذا الجزء من الوطن العربي.

وإننا نعلن موافقتنا على إمكانية فتح مكتب الجامعة العربية في رأس الخيمة. وفي هذا السياق يسعدنا أن نقدم للجامعة العربية كهدية متواضعة إحدى بناياتنا الجديدة في شارع عُمان، متمنياً أنها ستكون مناسبة المواصفات كي تتخذ كمكتب للجامعة في الإمارة».

مقابلة بين حاكم الشارقة والـوزيـر الـبـريـطـانـي

كان وزير الدولة البريطاني قد قبل دعوة الشيخ صقر بن سلطان القاسمي حاكم الشارقة، لتناول الشاي معه في اليوم التالي الموافق للثالث عشر من مايو ١٩٦٥م؛ حيث قرر الوزير تأجيل المواجهة الختامية مع الشيخ صقر حتى ذلك الوقت.

وأثناء حفلة الشاي، التي أقامها الشيخ صقر في المجلس العام في المضيف بالشارقة، عُقد اجتماع بين الشيخ صقر والوزير البريطاني «جورج تومسون».

إلى جانب الوزير البريطاني، حضر الاجتماع «سير وليام لوس» المقيم السياسي البريطاني في الخليج، والسيد «بلفور بول» الوكيل السياسي البريطاني في دبي، الذي تولى الترجمة بين الحاكم والوزير البريطاني.

قال الوزير البريطاني: «لقد حذرتك سابقاً من العمل مع الجامعة العربية، وبلغتني بأنك تؤيد هذا التعاون، وستوافق على فتح مكتب للجامعة في الشارقة. وأريد أن أتحدث اليوم عن هذا الأمر مرة ثانية. بطريقة رسمية».

وأود أن أسألك: «هل أعطيت الدكتور سيد نوفل رسالة توافق فيها على خطط الجامعة العربية؟».

الحاكم: «نعم، أعطيته رسالة أوافق فيها على التعاون مع الجامعة، وقد تم حسم الأمر».

الوزير البريطاني: «إن المعاهدة المبرمة بينك وبين بريطانيا تمنعك من الاتصال بأي أجنبي، فيما يتعلق بالشئون الخارجية، إلا من خلال المقيم السياسي البريطاني في الخليج، أو في منطقتك. وكما تعلم، فإن مصالحنا هي مصالحكم، ويجب المحافظة عليها».



في كلية الآداب بجامعة القاهرة في سنة ١٩٦٩م

الحاكم: «نحن جوعى وعطشى، والجائع يقبل المساعدة من أي دولة تعرضها».

الوزير البريطاني: «هذا لا يقع في حدود اختصاصك».

الحاكم: «جاءت بعثة الجامعة العربية قبل ستة شهور..لماذا لم تعترضوا عليها في ذلك الوقت؟».

الوزير البريطاني: «نحن نهتم بمصالحكم».

الحاكم: «هل تهتمون بمصالحكم أم بمصالحنا؟».

الوزير البريطاني: «دعنا نعود إلى الموضوع مجدداً. هل لا تزال مصرّاً على ما قلته للجامعة العربية؟».

الحاكم: «لقد تم حُسم الموضوع؟».

الوزير البريطاني: «إن هذا يتعارض مع المعاهدة المبرمة بيننا».

الحاكم: «لست أول من وافق على التعاون مع الجامعة العربية. وإنني أطلب ألاّ تكتفي بريطانيا بالنظر إلى قدميها فقط، بل تنظر للمستقبل، وإلا فإن مشكلة ستنشأ مثل مشكلة عدن أو البحرين».

الوزير البريطاني: «ألم توافق مشيختكم على عدم إجراء أي اتصالات خارجية قبل التشاور مع المقيم السياسي؟».

الحاكم: «لقد تعهدت بأن أهتم بمصالح بلدي قبل كل شيء آخر».

الوزير البريطاني: «ولكنك ملزم بالمعاهدة. وتنص المعاهدة على أن تدير بريطانيا شئونكم الخارجية لكم».

الحاكم: «هذه ليست معاهدة عادلة، لأنها أبرمت بين طرف ضعيف وطرف قوي، ويجب إعادة النظر فيها».

الوزير البريطاني: «نحن نُصرِ على عدم فتح مكتب الجامعة العربية في المنطقة».

الحاكم: «هناك مكاتب لدول غير عربية في المنطقة، ولدى الكويت مكتب في المنطقة».

الوزير البريطاني: «إن المكتب الكويتي موضوع قديم».

وأضاف قائلا: «إنني أطلب منك أن تفكر في الأمر ملياً، إنه موضوع خطير».

الحاكم: «إنني لا أفكر ملياً في الوقت الحاضر في أمور خطيرة أو غير خطيرة.. فالذي يهمّني هو تطوير بلدي».

الوزير البريطاني: «لقد كنت موافقاً وموقعاً على





بعد ٢٤ ساعة من وصول سيد نوفل، وصل إلى دبى وزير الدولة البريطانى للشئون الخارجية



قرارات مجلس الإمارات، حسبما تقرر فى اجتماع الأول من مارس، على أن كل دعم يأتى من الخارج لابد من مروره عبر قنوات صندوق تنمية الإمارات».

الحاكم: «اعتبره أمراً لاغياً وغير ملزم».

وأعقب ذلك فترة صمت، نظر خلالها الوزير البريطانى حوله فى الغرفة، ومن ثم استؤنف النقاش.

الوزير البريطانى: «إنك تقيم فى منزل جميل، به كل التسهيلات».

الحاكم: «لست مهتماً بالمنزل، سواء كان جميلا أو قبيحاً، ولكننى لا أريد أن أسمع الناس وهم يلعنون أبنائى بعد أن أذهب».

الوزير البريطانى: «نحن ننفق الملايين سنوياً على مئة ألف نسمة فى الإمارات».

الحاكم: «هل تقصد ما تنفقونه على الجيش أو كشافة ساحل عُمان المتصالح؟».

الوزير البريطانى: «لقد أُنشئت كشافة ساحل عُمان المتصالح لحماية الحاكم، فى المقام الأول، وأنابيب النفط فى المقام الثاني».

الحاكم: «ليس لديّ من شيء كي أشكر الحكومة البريطانية عليه، على مرّ السنين».

الوزير البريطاني: «للمرة الثالثة، أطلب منك التفكير مجدداً فى هذا الأمر: نحن لا نريد فتح مكتب للجامعة العربية».

الحاكم: «كلا، لا أستطيع أن أسحب موافقتى. وتستطيعون أن تفعلوا ما تريدونه بالقوة. وعموماً، أود أن أذكركم أن نائباً بريطانياً قال مؤخراً فى البرلمان البريطانى: إن الإمارات مستقلة، ومسئولة عن تصرفاتها الخاصة، ونحن لسنا مسئولين عن تخلفها».

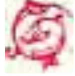
الوزير البريطانى: «كنت أنا الذى تحدث فى البرلمان. ولكننى قلت إنكم مستقلون فى الشئون الداخلية، وأما بالنسبة للشئون الخارجية والدفاع فالتى تتولاهما هى بريطانيا. ويجب عليَّ أن أبقى مصراً على عدم فتح مكتب للجامعة العربية».

الحاكم: «لا أنا ولا أى حاكم عربى يستطيع أن يمنع الجامعة العربية من المجيء إلى الساحل أو يمنع المساعدات الأخوية من الوصول إلى هنا، بينما تسمحون بالمعونات الأجنبية منكم ومن آخرين».

الوزير البريطانى: «تستطيع أن تقترض من أى مصدر، ويمكنك قبول العون من روسيا أو الصين أو أى مكان آخر، ولكننا لن نسمح بفتح مكتب للجامعة العربية، وسنمنع حدوث هذا بكل قوتنا».

الحاكم: «لقد أصبحت صداقة بريطانيا طعنة فى الظهر، وحاجزاً أمام تقدمنا. ثم ما الذى يجعل بريطانيا تفتح مكتب تطوير الآن؟ إذا كان سبب ذلك الحب، فلماذا يحدث هذا الآن؟ وإذا كان الدافع هو الخوف، فالعرب هم إخواننا، ونحن لن نرفض عونهم».

الوزير البريطانى: «أشكرك على صراحتك. ولكن لا تتعجل فتح مكتب للجامعة العربية. وسأرفع أفكارك إلى رئيس الوزراء».



على مدى أكثر من شهر، حاولت السلطات البريطانية بالترغيب والترهيب تغيير موقف الشيخ صقر بن سلطان القاسمى تجاه جامعة الدول العربية، وجعله يسحب الرسالة التى سلمها لسيد نوفل مساعد الأمين العام لجامعة الدول العربية، أو إرساله إلى الأمين العام لجامعة الدول العربية رسالة يقول فيها بأنه يقبل مساعدة جامعة الدول العربية لإمارته، على أن يحول أى تبرع من الدول الأعضاء فى الجامعة إلى صندوق تطوير الإمارات.

لكن الشيخ صقر بن سلطان القاسمى كان قد أحرق جميع سفنه، ولا عودة له عما اتخذه من قرارات. ■

الساحة أمام المضيف والحصن مزدحمة بالمواطنين من الشارقة لاستقبال السيد عبدالخالق حسونة الأمين العام لجامعة الدول العربية

فى القاهرة



حرب يونيو ١٩٦٧م

■ كانت الاستعدادات للحرب قائمة، وما إن بدأ شهر يونيو سنة ١٩٦٧م حتى بدأت معه امتحانات الفصل الثانى للسنة الثانية فى كلية الزراعة.

كنا قد امتحنا فى بعض المواد، عندما سمعنا صوت المدافع ظهر يوم الخامس من يونيو ١٩٦٧م. خرجت إلى الشارع فوجدت الناس تهلل وتكبر، وكان آخرون ينظرون إلى السماء، محاولين مشاهدة بعض الطائرات الحربية، وهى تحلق على ارتفاع عالٍ فى يوم مغبر.

توجهت إلى حى العجوزة، وإلى بيت يوسف الحسن ورياض أبو محمود، وهو زميلى فى كلية الزراعة، ومن هناك إلى مبنى الاتحاد الاشتراكى لمقابلة السيد فتحى الديب.

وهناك تجمّع الطلبة من جميع البلاد العربية، وتقرر أن ننضم إلى المتطوعين من الرجال الذين يطلبون نقلهم إلى الجبهة. لم نكن قد خضعنا لأية دورة عسكرية تدريبية، فلذلك تقرر نقلنا إلى معسكر بنى يوسف فى الهرم. وعلى مدى يومين تعلمنا وتدربنا على السلاح، ثم أتت الأوامر بنقلنا إلى المعسكر المقام فى نادى الجزيرة.

وبعد يومين آخرين من التدريبات، جاءت المفاجأة مساء يوم التاسع من يونيو ١٩٦٧م: تنحى الرئيس جمال عبد الناصر!

خرجت الجماهير الغفيرة تتدافع بعد أن ملأت الشوارع، وغابت شمس ذلك اليوم ودخلنا فى ظلام دامس؛ حيث أطفئت جميع الأنوار، فلم أستطع أن أتقدم أى خطوة للأمام لوجود كتل من البشر تملأ الشوارع، فجلست على دكة برصيف شارع الجيزة، من بعد جسر الجلاء، وكانت الناس تمر أمام ناظرى، فجادت القريحة:

بلادى فيك سر عجيب
صاحب الدار فيك غريب
من أولج الفجر فيك بالمغيب
من أذاب الضحك فيك بالنحيب
إنه منى ومنك ومن كل قريب
من عدو أشهر اليوم سهامه
يا ندامه يا بلادى، يا ندامه

لاظوغلى

عدت إلى القاهرة لأكمل دراستى فى المواد المتبقية من السنة الدراسية الثانية (١٩٦٧/١٩٦٨م) فى كلية الزراعة، فأرسل لى شقيقى الشيخ خالد بن محمد القاسمى سيارة مرسيدس بيضاء اللون، طرازها للعام ٦٨، وقد نزل فى الأسواق مبكرًا.

وكان لدىّ من المواد الدراسية عدد قليل، لذلك استثمرت الوقت لدراسة النقوش الإسلامية على المساجد والمبانى التراثية. كانت سيارتى لافتة للنظر، تتوقف كثيراً أمام المساجد والمبانى التراثية، ينزل منها شاب يتفحص تلك المبانى بنظره ومن ثَم يدخلها، ومرات يصعد كومة زبالة قد غطت جزءاً من المبنى. تعب رجال المخابرات الذين كانوا مكلفين بمراقبتى؛ حيث كانت سيارتى أسرع منهم، مما اضطر المباحث العامة إلى أن تكلف الرائد شوكت حسنى - المكلّف بمتابعة نشاط الطلبة العرب، وقد التقيته مرات عدة فى بعض المناسبات، وكان اللقاء بالتحية فقط - أن يتصل بى، حيث قال لى: «أريد أن أتعرف عليك!».

قلت: «بشرط، أن تزيل الظل الذى يتبعنى!».

قال: «ذاك أمره لدى «الراجل الكبير».

قلت: «من؟! عبد الناصر؟!».

قال: «لا.. الراجل بتاعنا فى لاظوغلى».

قلت: «أين؟!».

قال: «فى المباحث العامة».

رتّب لى الرائد شوكت حسنى لقاء اللواء محمود شعراوى؛ رئيس شعبة مجموعة النشاط العربى، فاستقبلنى استقبالا حسنًا، ثم طلب أحد الموظفين، فلما حضر، قال له: «هات لى ملف سلطان».

قلت: «هو أنا لى ملف عندكم؟».

قال: «طبعًا، لكل واحد ملف».

وفى لمح البصر حضر الملف، وكأنما قد كان محضراً لذاك اللقاء..

فتح الملف، وأخذ اللواء محمود شعراوى يقلب صفحاته، ويقرأ أجزاءً منه قائلا: «فى يوم كذا زار المكان كذا».

وأخذ يعد الأماكن التى كنت أزورها، ثم قال: «أنت بتعمل إيه؟».

قلت: «أتعرف على مصر».

قال: «تتعرّف على مصر من هذه الأماكن؟».

قلت: «تريدنى أن أتعرّف عليها من شارع الهرم؟!».

(شارع الهرم ملىء بالملاهى الليلية).

قال: «استغفر الله!».

وقف مودعًا، وما زال الملف مفتوحًا..

قلت: «هل سيبقى الملف مفتوحًا؟».

همّ بإغلاق الملف، قائلا: «سنغلقه!».

قلت: «بالطريقة الأخرى؟!».

قال: «وبالطريقة الأخرى كذلك». ■

نظام التعليم العالى المصرى لا يخدم الاحتياجات الراهنة، وإن لم يحدث إصلاح واسع النطاق فسوف يحول دون تحقيق التقدم الاقتصادى والاجتماعى فى مصر»

من التقرير

التعليم العالى المصرى رؤية دولية



معتـز خورشـيد

■■ بدعوة من الحكومة المصرية أعد فريق بحثى من خبراء البنك الدولى ومنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية OECD دراسة مستقلة ـ صدرت فى النصف الاول من عام ٢٠١٠ ـ لتقييم نظام التعليم العالى المصرى وإسداء المشورة بشأن تطويره فى المستقبل، وهو توجه يتعين تهنئة الحكومة المصرية على الأخذ به. وتنبع أهمية التقرير من درجة شموله لقضايا التعليم العالى المصرى واختلالاته الهيكلية وتوجهاته الاستراتيجية ومدى تأثيره المباشر وغير المباشر على أهداف التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى مصر، ومن ثم متطلبات إصلاحه وتحديثه.

إذا يؤكد التقرير ـ فى ملخصه التنفيذى ـ أن «نظام التعليم العالى المصرى لا يخدم الاحتياجات الراهنة، وإن لم يحدث إصلاح واسع النطاق فسوف يحول دون تحقيق التقدم الاقتصادى والاجتماعى فى مصر». ويشير فى مجال آخر إلى حتمية إجراء إصلاح جوهرى فى نظام التعليم العالى المصرى وإن «النظام الراهن فى حاجة إلى إعادة بناء وتطوير، ولا يزال انتاجه موجهًا إلى حد كبير نحو اقتصاديات الماضى، وتُعبر توقعات المجتمع المحلى منه عن فهم لدوره عفى عليه الزمان».

ويضيف التقرير أن النهج الاصلاحى الجارى اتباعه ـ برغم الجهود التى تبذلها الحكومة المصرية فى هذا الصدد ـ يركز بصفة رئيسية على التغيرات الإجرائية، ومن ثم فإنه يتعين إيلاء المزيد من العناية للاصلاحات الهيكلية وتغيير الثقافة المؤسسية وزيادة قدرة النظام على المساهمة فى تحقيق الأهداف الانمائية على المستوى القومى وهو ما يتطلب ـ بطبيعة الحال ـ إعادة النظر فى الاستراتيجيات طويلة الأجل ووضع سياسات وبرامج على درجة عالية من الاتساق والشمول ودعم عملية التحسين المستمر لجودة نظام التعليم ما قبل الجامعى وفعاليته.

ويتعين على الحكومة المصرية ـ فى هذا المجال ـ أن تولى التقرير درجة عالية من الأهمية بما يتضمنه من رؤى استراتيجية وإصلاحات هيكلية، ومناقشته بشكل موسع مع خبراء التعليم، والمهتمين بشئون التنمية البشرية، وأساتذة الجامعات، ولجان التعليم بمجلسى الشعب والشورى، والأحزاب السياسية ومؤسسات المجتمع المدنى ذات العلاقة.

ويفرق التقرير ـ بشكل عام ـ بين الضغوط التى تنشأ من مناخ التعليم العالى الجديد بالألفية الثالثة وخصائصه المغايرة، وبين الاختلالات الوظيفية المتراكمة التى يتعين التصدى لها من قبل متخذ القرار التعليمى المصرى، ومن ثم يقترح حزمة السياسات والإجراءات المطلوبة لتحديث منظومة التعليم العالى المصرية وتصحيح مسارها بغية تحقيق أهداف التنمية البشرية. حيث تشهد منظومة التعليم العالى ضغوطًا تنشأ من حاجة مصر إلى مواكبة التطورات الحديثة فى مناخ التعليم العالى بالالفية الثالثة من خلال ما يلى:

تحسين قدراتها التنافسية للتفاعل مع النقلة النوعية فى مجال العلم والتكنولوجيا والابتكار البحثى والاقتصاد العالمى القائم على المعرفة، من خلال تكثيف استثماراتها فى تنمية رأس المال البشرى والمعرفى كأحد عناصر الإنتاج الحديثة بالالفية الثالثة.

مواجهة الطلب المتزايد على التعليم العالى من خلال زيادة عرض الخدمات التعليمية للطلاب وفق متطلبات سوق العمل.

الحد من التفاوتات الاجتماعية الناجمة عن تباين فرص التعليم.

ويتطلب التوجه الأول ضرورة صياغة مشروع قومى تنموى للانتقال إلى مجتمعات الحداثة والاقتصاد المعرفى فى ظل خطة استراتيجية حاكمة للمسار المستقبلى لمصر. وهو مشروع يحتاج بالأساس إلى تعبئة الجهود الوطنية نحو تحقيق الغايات الانمائية طويلة الأجل ويتطلب قناعة جميع شرائح المجتمع المصرى بحتميته.

أما التوجه الثانى فيتطلب إعادة هيكلة منظومة التعليم العالى لمواجهة الزيادة المتوقعة فى الطلب على خدماتها كنتيجة للزيادة السكانية والطبيعة الشبابية للهيكل العمرى فى مصر من ناحية، وللأخذ فى الاعتبار بالتوجه العالمى لديمقراطية التعليم العالى من حيث عدالة توزيع خدماته وإتاحتها لشرائح المجتمع دون استثناء، من ناحية أخرى. ويواكب هذه الزيادة فى الطلب على خدمات التعليم العالى ـ بالالفية الثالثة ـ تنوع وتمايز فى فرص العمل بالأسواق الاقتصادية يتعين اتباع السياسات التعليمية الملائمة للتفاعل معها. أى أن منظومة التعليم العالى فى عصرنا الراهن يجب أن تتسم بدرجة عالية من المرونة والتنوع فى برامجها الأكاديمية وأنظمتها التعليمية وهياكلها المؤسسية لمقابلة الطبيعة الديناميكية لأسواق العمل بالألفية الثالثة. ومن هنا فقد ربط التقرير زيادة عرض الخدمات التعليمية بتنوعها وقدرتها على مواكبة الطلب فى أسواق العمل المحلية والعالمية.

وأخيرًا يؤكد التوجه الثالث الحد من التفاوتات الاجتماعية الناشئة عن الاختلافات فى فرص التعليم. وفى اعتقادى أن الدور الحكومى ـ بمسئوليته المباشرة عن التعليم العام واشرافه على التعليم الخاص ـ لابد أن يضع السياسات والتدابير التى تُحد من هذا التباين فى فرص التعليم من خلال توفير مستويات جودة ملائمة فى برامج التعليم العالى لمن لديه القدرة العلمية والكفاءة الأكاديمية بصرف النظر عن قدراته المالية. ومن المفروض ألا يؤدى هذا التوجه إلى أى تقليل فى دور القطاع

يتضح من المؤشرات التحليلية للتعليم العالى أن الجامعات الحكومية تتسم بشمولها لمعظم التخصصات العلمية دون النظر إلى التميز النسبى والقدرات التنافسية لكل منها



يتعين اتباع سياسات جديدة واستراتيجيات مغايرة من أجل تعظيم مهارات الخريج من حيث القدرة على التوظف والمتطلبات المهنية بأسواق العمل المحلية والأجنبية



حيث إن العاملين فى مجالات البحث العلمى من الجامعات يمثلون نحو ٧٣٪ من جملة قوة العمل البحثية فى مصر، فعلى منظومة العمل الجامعى أن تتصدى لهذا الاختلال الوظيفى وإيجاد الحلول المناسبة للتغلب عليه

الخاص لاستكمال الطاقة الاستيعابية لمنظومة التعليم العالى وتحقيق التنوع المرغوب فى برامجها الأكاديمية، بل من المطلوب أن يتوجه الدور الرسمى للدولة إلى تحسين التوجيه والتنسيق على الصعيد الوطنى لضبط أوتار منظومة التعليم ووضع المعايير الحاكمة لمعدلات إتاحة فرص التعليم العالى وعدالة توزيعها على جميع شرائح المجتمع الطلابى، وهو ما اصطلح على تسميته بالبعد الاجتماعى للعملية التعليمية.

أما الاختلالات فى هيكل التعليم العالى ووظائفه المجتمعية، فقد حددها التقرير فى أربع نقاط تتمثل فى الآتى:

١- قلة المجالات المتاحة للطلاب وفرص الوصول إليها. إذ يتضح من المؤشرات التحليلية للتعليم العالى أن الجامعات الحكومية تتسم بشمولها لمعظم التخصصات العلمية دون النظر إلى التميز النسبى والقدرات التنافسية لكل منها. غير أن هذا التعدد يتركز - فى غالب الأحيان - فى التخصصات التقليدية التى تراجع الطلب عليها فى أسواق العمل بالالفية الثالثة، وليس فى البرامج الحديثة الأكثر رواجاً وطلباً. أما الجامعات الخاصة والاهلية التى كان من المفروض أن تتوجه إلى استكمال التخصصات العلمية المقدمة من الجامعات الحكومية وطرح برامج أكاديمية جديدة - وفق احتياجات أسواق العمل فى الاقتصاد العالمى القائم على الإنتاج المعرفى والابتكار البحثى - فقد وقعت فى فخ تكرار البرامج الدراسية التى تقدمها الجامعات الحكومية.

٢ - رداءة نوعية المدخلات وعدم كفاءة العمليات التعليمية. إذ إن أى استراتيجية لتعزيز قدرات التعليم العالى لابد أن تتعثر فى ظل تدنى المستوى العلمى لخريج المرحلة الثانوية وسوء تنظيم العملية التعليمية الجامعية وأساليب إدارتها وتخطيطها المستقبلى. ومن ثم فإن تطوير وتحديث أساليب حوكمة الجامعات وتحسين مستويات جودة مدخلاتها - من خلال اعادة هيكلة منظومة التعليم ما قبل الجامعى - يمثل أحد العوامل الحاكمة لتحقيق الأهداف القومية فى مجال تعزيز قدرات التعليم العالى وتنمية الموارد البشرية المصرية.

٣- أوجه القصور فى مخرجات التعليم مقارنة باحتياجات سوق العمل. من المسلم به أن ارتفاع مستويات البطالة لا ينتج فقط عن النقص فى فرص العمل المتاحة (أى الطلب على خريجى التعليم العالى)، بل أيضاً لقصور مؤسسات التعليم العالى المصرية فى توفير الخريج القادر على التفاعل مع معطيات مجتمعات المعرفة والمنافسة مع أقرانه من حيث مستوى مهارته وقدراته المهنية. ومن المؤكد ايضاً أن منظومة التعليم العالى المصرى تحتاج إلى المزيد من التوازن بين المعروض من خريجى الجامعات ومخرجات التعليم الفنى والمهنى وهو ما يمكن أن يساهم فى توفير المهارات العملية المتصلة باحتياجات سوق العمل. يضاف إلى ما سبق، ضرورة توافر قواعد معلومات تُنتج مؤشرات تحليلية فى الوقت المناسب عن قوى العرض ومصادر الطلب فى سوق العمل.

٤- عدم كفاية تطوير القدرات البحثية الجامعية وربطها مع نظم البحث والابتكار الوطنية. وهى قضية متعددة الأبعاد تبدأ بالحاجة إلى التوسع فى نشر ثقافة البحث العلمى فى الجامعات وقطاعات الانتاج السلعى والخدمى، وبضرورة إجراء إصلاحات هيكلية فى منظومة البحث العلمى والتكنولوجيا فى مصر وتنتهى بحتمية تطوير القدرات والمهارات البحثية بما يواكب التطورات العالمية الحديثة. وحيث إن العاملين فى مجالات البحث العلمى من الجامعات يمثلون نحو ٧٣٪ من جملة قوة العمل البحثية فى مصر، فعلى منظومة العمل الجامعى أن تتصدى لهذا الاختلال الوظيفى وإيجاد الحلول المناسبة للتغلب عليه.

ولمواجهة الضغوط الناشئة عن النظام التعليمى العالمى الجديد بالألفية الثالثة والاختلالات الوظيفية التى يعانى منها هيكل التعليم العالى. فثمة ضرورة - وفق مقترحات التقرير - إلى توجيه ما يتخذ من سياسات وإجراءات إصلاحية نحو ما يلى:-

الحد من الجمود الهيكلى فى نظام التعليم العالى.

تحسين التوجيه والتنسيق على المستوى الوطنى.

توسيع نطاق الاختيارات المتاحة للطلاب.

زيادة قدرة ومرونة سياسات مؤسسات التعليم العالى فى ظل نظام أكثر تنوعاً.

تحسين توافر المعلومات لتوجيه الطلاب فى اختياراتهم.

تمويل النظام بأسلوب يتسم بمزيد من العدالة والكفاءة بما يسمح بالاستدامة المالية.

وحيث أن هذه القضايا الاصلاحية قد طُرحت فى أكثر من مجال وتمت مناقشتها على المستويين الرسمى والخاص، فإنه من الضرورى ربطها بتوجهات محددة لاصلاح التعليم العالى وتعديل مساره فى اتجاه تحقيق الاهداف القومية، وهو ما طرحه التقرير من خلال اقتراح حزم من السياسات التعليمية ترتكز على المحاور التالية:-



أولا: توضيح القدرات المتوقعة من مخرجات التعليم العالى.

يحتاج الطالب والخريج والمؤسسة التعليمية وأولياء الأمور وأرباب العمل جميعاً إلى قاعدة بيانات تحليلية تتضمن مؤشرات وإحصاءات أكثر وضوحاً وشمولا عن أهداف التعليم العالى المصرى فى التخصصات العلمية المختلفة، وتعريف بالمؤهلات العلمية ودورها فى دعم التنمية الاقتصادية والاجتماعية وتلبية احتياجات أسواق العمل، ومعايير انجاز الخريج على المستويين العلمى والمهنى والمهارى.

ويتطلب ذلك - بالضرورة - وضع محددات للمؤهلات العلمية ومسارات الأفراد فى كل منها. وأخيراً فإنه يتعين اتباع سياسات جديدة واستراتيجيات مغايرة من أجل تعظيم مهارات الخريج من حيث القدرة على التوظف والمتطلبات المهنية بأسواق العمل المحلية والأجنبية.

ثانياً: التوازن بين مخرجات التعليم العالى واحتياجات سوق العمل

تمثل هذه القضية اختلالا وظيفياً هاماً يعانى منه نظام التعليم العالى المصرى وقضية ذات بعد استراتيجى، ومن ثم فإنه يتعين على مصر أن تركز جهودها - فى هذا الصدد - لتحقيق الأهداف التالية:

١ - المزيد من الاتساق بين خريجى الجامعات العامة والخاصة من ناحية وخريجى التعليم الفنى والمهنى من ناحية أخرى بغية الارتقاء بنسبة الخريجين المتمتعين بالمهارات والقدرات المهنية المطلوبة فى سوق العمل.

٢ - التوسع فى الفرص المتاحة للطلاب لإجراء دراسات من الممكن أن تساهم فى زيادة معدلات الالتحاق بأسواق العمل، وهو ما يتطلب دراسات متعمقة عن حركة ومسار قوى العرض واتجاهات الطلب بالأسواق المصرية والاقليمية.

٣ - دعم استقلال الجامعات وإعطاؤها المزيد من السلطات التقديرية لتقديم ورش عمل ودورات تاهيلية تستجيب لرغبة الطالب فيما يتصل بفرص التوظف فى أسواق العمل.

٤ - إضفاء بعد عملى على المقررات الاكاديمية بالجامعات من خلال مشاركة أصحاب العمل والهيئات المهنية والنقابية فى تصميم هذه المقررات وتقييمها.

٥ - توفير المعلومات والمؤشرات التحليلية والإسقاطات المستقبلية فى الوقت المناسب عن قوى العرض واتجاهات الطلب فى سوق العمل.

٦ - تطوير نظم للتوجيه وإسداء المشورة بشأن عرض

الوظائف وفرص العمل للمساهمة فى دعم الطلاب وأولياء أمورهم فيما يخص إجراء اختيارات تعليمية مستنيرة.

ثالثًا: تعزيز القدرة الوطنية للتوجيه والتنسيق

يرى التقرير المعد من قبل خبراء منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية والبنك الدولى انه يتعين اتخاذ خطوات جادة لتحقيق المزيد من التوازن الفعلى بين التنظيم الذاتى المؤسسى والتنسيق الحكومى الشامل فيما يتصل بجودة نظام التعليم العالى وتكلفته فى مصر. ويُقترح - فى هذا الصدد - إنشاء مجلس أعلى للتعليم العالى بالاضافة إلى المجلس الأعلى للجامعات الحكومية ومجلس الجامعات الخاصة والاهلية ومجلس المعاهد العليا، وذلك لضمان حد أدنى من الإشراف على منظومة التعليم العالى على المستوى الوطنى. وبالطبع سيختص هذا المجلس الاعلى بوضع الاستراتيجيات والسياسات الكلية وتقديم خدمات المعلومات الداعمة للتعليم العالى فى مصر. وتجدر الاشارة فى هذا المجال إلى أن وزارة التعليم العالى قد قدمت - منذ ثلاثة أعوام - مقترحا مماثلا لم يلق قبول الجامعات الخاصة والاهلية ونوادى أعضاء هيئة التدريس فى ذلك الوقت وتراجعت الحكومة المصرية عن تنفيذه.

رابعًا: تنويع المعروض من فرص التعليم العالى

يقترح خبراء البنك الدولى ومنظمة التعاون والتنمية الاقتصادية - من أجل تلبية احتياجات كيان طلابى متنام ذى احتياجات وقدرات ودوافع متباينة - أن يتوجه الاصلاح الهيكلى إلى تحديث التعليم الفنى والمهنى، والتوسع فى نشاط القطاع الخاص وما يقدمه من خدمات تعليمية، واستخدام تكنولوجيات التعليم الحديثة - من خلال زيادة الاعتماد على التعليم الالكترونى والتعلم عن بعد - ودمجه مع منهجيات التدريس وجهًا لوجه. ويقترح التقرير أيضًا فتح المجال أمام بدائل أخرى مثل مؤسسات التعليم العالى الأجنبية. أى أن الهيكل التعليمى الحالى المعتمد على الجامعات الحكومية - اساسًا - مع مشاركة من مؤسسات التعليم الخاص، لا يستطيع فى الوقت الراهن تلبية متطلبات كيان طلابى متنام ومتعدد الاحتياجات.

ويتعين على الحكومة المصرية - فى هذا المجال - اعادة النظر بالكامل فى نظام التعليم الفنى والتدريب المهنى القائم، حيث أنه يلقى تقديرًا ضعيفًا من شرائح المجتمع المصرى ويعتبر بديلا غير جذاب فى شكله الحالى. ومن هنا فإن





زيادة الاستثمارات العامة فى مجال التعليم وزيادة نصيب الإنفاق على التعليم من الناتج المحلى الإجمالى ومن الإيرادات العامة



إحدى أولويات تطوير التعليم العالى تكمن فى تحديث نظام التعليم الفنى والتدريب المهنى من خلال تحسين مكانة مؤهلاته، وتحديث امكاناته المادية وتنمية موارده البشرية، والارتقاء بقيمة المهارات الفنية فى المجتمع.

خامسًا: زيادة المرونة المؤسسية والقدرة على الإدارة الذاتية

يمكن لمنظومة التعليم العالى المصرى أن تتجه تدريجيًا نحو نظام اكاديمى أكثر تنوعًا ومرونة ينبع اساسًا من احتياجات الطلاب ومتطلبات سوق العمل. وفى هذا النظام المقترح يستطيع الطلاب ممارسة حقهم فى اختيار مكان دراستهم ولما يدرسونه، وتستطيع المؤسسات التعليمية - ومنها الحكومية - أن تمارس الاستقلال فى قبول الطلاب وفق رؤيتها المستقبلية ورسالتها وأهدافها الانمائية وقدراتها التعليمية. ومع الابقاء على دور الدولة فى تحديد العدد الاجمالى للملتحقين بالتعليم العالى - وفق الرؤية الاستراتيجية فيما يتصل بدور التعليم فى تحقيق الاهداف الانمائية لمصر - يمكن لفرادى المؤسسات أن تحدد المزيج الامثل والأعداد الملائمة للمقيدين بها. وحتى يمكن مواءمة الجامعات المصرية مع نظيراتها الدولية، يُقترح أن يتولى إدارة الجامعات الحكومية - بالاضافة إلى مجلس الجامعة - مجلس أمناء له سلطة الاشراف على توجهاتها الاستراتيجية وشئونها الاكاديمية وفقًا لاهدافها التعليمية ورسالتها المتفق عليها، مع وضع إطار شامل يتضمن اساليب مناسبة للمساءلة من قبل وزارة التعليم العالى. وتنبع فكرة مجلس الامناء - الذى يضم إلى جانب الادارة العليا للجامعة مجموعة من الشخصيات المهتمة بقضايا التعليم والتعلم والبحث العلمى وشئون السياسة والاقتصاد والثقافة - من الحاجة إلى اضافة بعد أكثر شمولا على العملية التعليمية والبحثية مع إضفاء درجة اعلى من المرونة فى اتخاذ القرار الاكاديمى والاشراف على العملية التعليمية بالجامعة.

سادسًا: تكلفة التعليم والتعلم

يقترح التقرير تقاسم تكاليف العملية التعليمية بمزيد من العدالة وتخفيف الاعباء المالية على الحكومة ودافعى الضرائب بوجه عام من خلال مشاركة المستفيدين من العملية التعليمية فى التكاليف الدراسية. ولضمان كفاءة منظومة تمويل التعليم العالى واستدامتها، فإن الحكومة المصرية فى حاجة لتبنى استراتيجية تعتمد على خمسة عناصر:

زيادة الاستثمارات العامة فى مجال التعليم وزيادة نصيب الإنفاق على التعليم من الناتج المحلى الاجمالى ومن الايرادات العامة.

تنويع ايرادات مؤسسات التعليم العالى عن طريق زيادة تقاسم التكاليف وتعظيم سبل التمويل الذاتى، وهو ما يتطلب التوسع فى إنشاء وحدات ومراكز تعليمية مولدة للدخل وبرامج متخصصة أو متميزة برسوم دراسية.

التوسع فى انشاء الجامعات الخاصة والاهلية وزيادة طاقتها الاستيعابية وتعظيم مساهمتها فى منظومة التعليم العالى.

زيادة معدلات القيد بقطاع التعليم الفنى والتدريب المهنى.

التوسع فى استخدام تكنولوجيات التعليم الحديثة المعتمدة على تقنية المعلومات والاتصالات، مثل التعلم الالكترونى والتعليم من بعد والجامعات الافتراضية.

ومن الضرورى فى هذا السياق، أن يواكب الزيادة فى الرسوم الدراسية توسع مماثل فى تقديم منح دراسية ووضع نظم متطورة للقروض الدراسية للطلاب.

سابعًا: التوسع فى معايير القبول وتنوع القدرات

برغم شفافية الاعتماد الكامل على نتائج امتحانات اتمام الدراسة الثانوية كأساس وحيد للقبول فى الجامعات، يقترح فريق الدراسة توسيع نطاق معايير قبول الطلاب فى التعليم العالى، من خلال استكمال نتيجة الطالب بمرحلة التعليم الثانوى بمهاراته الذهنية والفكرية وقدراته المهنية ودعم تفضيلاته فيما يخص اختيار البرامج الاكاديمية والمؤسسات التعليمية.

ثامنًا: جودة مدخلات العملية التعليمية

يتطلب تحقيق جودة التعليم العالى زيادة المخصصات المالية لدعم الامكانات الاكاديمية والمادية وتنمية قدرات اعضاء هيئة التدريس والهيئة الادارية بالجامعات.

وتنبع الحاجة إلى مستويات اعلى من الإنفاق إلى التوسع المرغوب فى تطبيق التكنولوجيات الحديثة للتدريس وتوفير الامكانات المعلوماتية (مثل المكتبات الرقمية) وتطوير المعامل البحثية.

بيد أن الأمر يتطلب أيضًا تطوير الادارة الذاتية لمؤسسات التعليم العالى وتطبيق نظم وممارسات الجودة والاعتماد وربط المقابل المادى بمعدلات الاداء وتنمية القدرات على جميع المستويات. ويمثل انشاء هيئة قومية لضمان جودة التعليم والاعتماد خطوة هامة لتحقيق أهداف الجودة والاعتماد الاكاديمى للمؤسسات التعليمية على المستوى المحلى.

تاسعًا: تدعيم قدرة البحث الجامعى

يقترح التقرير - كخطوة أولى فى هذا المجال - ان يتم رسم خريطة تحدد نقاط القوة البحثية فى الجامعات الحكومية والخاصة. ثم توجيه الدعوة إلى عدد محدد من الجامعات - ذات التميز البحثى - للتقدم من خلال برنامج تنافسى لانشاء معاهد للدراسات العليا أو مراكز بحثية فى المجالات التى تحقق الاهداف البحثية لمصر على المستوى القومى. وبرغم أهمية هذا المقترح فإن قضية البحث العلمى بالجامعات تعد - فى واقع الامر - مشكلة متعددة الابعاد ويتعين التصدى لها على مستويات مختلفة، تبدأ بمراجعة السياسات الخاصة بعرض الخدمات البحثية الجامعية من موارد بشرية وامكانات مادية وبنية معلوماتية وهياكل مؤسسية وقدرات تنظيمية - مع التركيز على ما أفرزته الألفية الثالثة من هياكل مؤسسية بحثية حديثة مثل مراكز

التميز البحثى المستقلة والمنتجعات البحثية ومراكز الابتكار العلمى والحضانات التكنولوجية - وتنتهى بالتصدى لقضية الطلب على الخدمات البحثية الجامعية من منطلق ارتباط العملية البحثية بمتطلبات القطاعات الانتاجية والخدمية الوطنية ومدى مساهمة الجامعات فى حل المشاكل البحثية المجتمعية. أى ان الأمر يتطلب ثقافة بحثية حديثة تتواءم مع متطلبات الالفية الثالثة سواء اختص ذلك بمقدم الخدمة البحثية أو المستفيد منها.

عاشراً: تبنى استراتيجية لتدويل التعليم العالى.

تتبنى منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) تطبيق استراتيجية لتدويل التعليم العالى والبحث العلمى. ويعرف التدويل بأنه نشاط يؤدى إلى إضفاء بعد دولى. متعدد الثقافات - على العملية التعليمية والبحثية بالجامعات بغية الارتقاء بها وتعزيز قدراتها. ويخضع التعليم العالى والبحث الجامعى فى جميع انحاء العالم - فى الوقت الراهن - لعملية تدويل على نطاق غير مسبوق وبمعدلات سريعة. ويتعين على الحكومات ومؤسسات التعليم فى كافة أرجاء العالم ان تتكيف مع هذا الواقع الجديد وفق أبعاده المتعددة. ويقترح التقرير وضع استراتيجية تدويل أكثر شمولا للتعليم العالى المصرى ترتكز على مايلى:

إدماج القدرة على التدويل فى البيانات المتعلقة بمواصفات الخريج المصرى المتوقعة.

إعداد برامج توأمة مؤسسية بغرض إجراء البحوث ومنح الدرجات العلمية المشتركة.

التشجيع على تعلم لغة ثانية وثالثة فى كافة ارجاء نظام التعليم.

الترويج بطريقة مهنية لمصر بوصفها وجهة لطلاب البلدان الاخرى.

متابعة ورصد الحراك الاكاديمى للطلاب وأعضاء هيئة التدريس عبر الحدود والافادة عنها بصورة منتظمة.

الحد من الاجراءات التنظيمية البيروقراطية غير الضرورية المرتبطة بالتعاون الدولى.

تقديم الدعم المالى والعينى لطلاب مرحلة الليسانس والبكالوريوس لقضاء فترة دراسية بالخارج.

ويقترح فى هذا الصدد اضافة توجهين للتدويل هما:

المشاركة فى التجمعات الجامعية الاقليمية والدولية وشبكات الجامعات البحثية والتعليمية المتخصصة.

تشجيع زيارات أعضاء هيئة التدريس للمعامل والمراكز البحثية المتطورة بالخارج والاطلاع على التطورات الحديثة فى النظم والبرامج الاكاديمية.

حادى عشر: النماذج الرائدة والمشروعات النموذجية.

يؤكد التقرير فى نهايته، أن التحول من الاساليب القديمة والهياكل القائمة حاليًا إلى منظومة تعليمية أكثر حداثة وانفتاحًا على العالم الخارجى يحتاج إلى البدء بمشروعات نموذجية مصغرة قبل اعتمادها على نطاق واسع. وهى تجربة أثبتت نجاحها فى العديد من دول العالم لتقليل التكلفة المرتبطة بالابتكارات والافكار الحديثة قبل التوسع فى تطبيقها على المستوى الوطنى. ويمكن ان تتضمن هذه المشروعات النموذجية فى مصر - على سبيل المثال - اعداد معايير قبول متنوعة، وتحديث المناهج بمشاركة أرباب العمل والهيئات المهنية، واتباع اسلوب تنافسى لإنشاء عدد مختار من معاهد الدراسات العليا، وانشاء عدد محدد من الاطر المؤسسية البحثية بالجامعات ذات القدرات البحثية المتطورة مثل مراكز الابتكار البحثى والتطوير التكنولوجى.

ثانى عشر: ادارة المرحلة الانتقالية.

نظرًا لوجود فجوة واسعة بين السياسات والممارسات الراهنة للتعليم العالى فى مصر وتلك التى يجرى اعتمادها فى الأمم الرائدة، وبالنظر إلى الظروف الاقتصادية والاجتماعية التى تعيشها مصر، فمن غير المتوقع سد هذه الفجوة بخطوة فورية واسعة واحدة. ومن ثم فإنه ينبغى التوجه نحو القيام بعملية تدريجية لتنفيذ مبادرات إصلاح محددة عن طريق التجربة لاختبار مدى قابلية وجدوى عملية التطبيق، ولبناء التأييد والقبول لدى شرائح المجتمع المشاركة فى والمستفيدة من التعليم العالى.

وبرغم ذلك، يتعين على مصر أن تكون واضحة فى تحديد أهدافها طويلة الأجل، وأن تركز جهودها على التحرك إلى الامام، وان تدير بشكل فعال عملية التحول نحو نظام وطنى للتعليم يتسم بالدينامية والاتساق والاستدامة. ■

المراجع:

١. منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية والبنك الدولى، «مراجعات لسياسات التعليم الوطنية - التعليم العالى فى مصر»٢٠١٠.

٢. معتز خورشيد «التعليم العالى بين التنوع والهوية» مجلة وجهات نظر، السنة الثانية عشرة، العدد ١٣٦، مايو ٢٠١٠.

٣. معتز خورشيد «التعليم العالى فى مصر... من الاتاحة إلى الجودة» مجلة وجهات نظر، السنة التاسعة، العدد السابع والتسعون، فبراير ٢٠٠٧.

كتاب الزاوية



«لا تسقطوا غصن الزيتون من يدى»
خطاب عرفات فى الأمم المتحدة

(٥)

لقد ناضل اليهود، يا سيادة الرئيس، فى أوروبا وهنا فى اميركا، من اجل أوطان لا طائفية تنفصل فيها الدول عن الكنيسة، وقاتلوا ضد التمييز على أساس الدين. فكيف يمكن لهم ان يرفضوا هذا النموذج الانسانى المشرف على الأرض المقدسة، أرض السلام والمساواة؟ وكيف يمكن لهم ان يستمروا فى دعم اكثر دول العالم انغلاقًا وتمييزًا وتعصبًا.

اننى اعلن امامكم هنا، كرئيس لمنظمة التحرير الفلسطينية وقائد للثورة الفلسطينية، اننا عندما نتحدث عن آمالنا المشتركة من اجل فلسطين الغد، فنحن نشمل فى تطلعاتنا كل اليهود الذين يعيشون الآن فى فلسطين ويقبلون العيش معنا فى سلام ودون تمييز على أرض فلسطين.

اننى، بصفتى رئيسًا لمنظمة التحرير وقائدًا لقوات الثورة الفلسطينية، أدعو اليهود فردًا فردًا ليعودوا النظر فى طريق الهاوية الذى تقودهم عليه الصهيونية والقيادات الاسرائيلية، وهى التى لم تقدم لهم غير النزيف الدموى الدائم والاستمرار فى خوض الحروب واستخدامهم كوقود دائم لها.

اننا ندعوكم للخروج إلى مجال الاختيار الرحب، بعيدًا عن محاولات قيادتكم لغرس عقدة المأساة وجعلها قدرًا لكم.

اننا نقدم لكم أكرم دعوة، ان نعيش حقًا فى اطار السلام العادل فى فلسطيننا الديمقراطية.

من غازى القصيبى إلى نزار قبانى الذى سأل:

متى يعلنــون وفـاة العــرب؟

■■ نزار أزف إليك الخبر..
لقد أعلنوها وفاة العرب
وقد نشروا النعْيَ.. فوق السطورِ
وبين السطور.. وتحت السطورِ
وعبْرَ الصُوَرْ!!
وقد صدَرَ النعىُ..
بعد اجتماعٍ يضمُ القبائلَ
جاءته حميْرُ تحدو مُضَرْ
وشارون يرقص بين التهاني
تَتَابَعُ من مَدَرٍ أو وبَرْ
و«سامُ الصغيرُ».. على ثوره
عظيمُ الحبُورِ.. شديدُ الطَرَبُ

■ ■ ■

نزار! أزفُ اليك الخَبَرْ!
جادَ بها زعماءُ الفصاحة..
أتبتسمُ الآن؟!
هذى الحضارةُ!
ندفعُ من قوتنا
لجرائد سادتنا الذابحينْ
ذكاءٌ يحيّرُ كلّ البَشَرْ!

■ ■ ■

نزارُ! أزفُ إليك الخَبَرْ!
وإيّاكَ ان تتشرَب روحُك
بعضَ الكدَرْ
ولكننا لا نموتُ... نظلُ
غرائبَ من معجزات القَدَرْ
إذاعاتُنا لا تزال تغنّي
ونحن نهيمُ بصوت الوترُ
وتلفازنا مرتع الراقِصات
فكَفَلٌ تَثَنَى.. ونهدٌ نَفَرْ
وفى كل عاصمة مؤْتمرْ
يباهى بعولمة الدُلِ
يفخر بين الشعُوبِ
بداء الجرب
ولَيْلاتُنا... مشرقاتٌ ملاحُ
تزيّنها الفاتناتُ المِلاحُ
إلى الفجرِ...
حين يجىء الخَدَرْ
وفى «دزنى لاند» جموعُ الأعاريبِ
تهزجُ... مأخوذة باللُعَب
ولندن. مربط أفراسنا!
مزادُ الجوارى... وسوقُ الذَهَبْ
وفى «الشانزليزيه».. سَدُدنا المرور
منعنا العبورَ...
وصِحنْا: «تعيشُ الوجوهُ الصِباحُ!»

■ ■ ■

نزارُ أزفُ إليك الخَبَرْ!
يموتُ الصغارُ... ومَا منْ أحدْ
تُهدُ الديارُ... ومَا منْ أحدْ
يُداس الذمار.. ومَا منْ أحدْ
«لبيريز»...
انتصرْ
وجيشُ «ابن أيوبَ»... مُرتَهنٌ
فى بنوكِ رُعاة البَقَرْ
و«بيبرْس» يقضى إجازتهُ
فى زنود نساء التترْ
ووعّاظُنا يرقبُون الخَلاصَ
مع القادمِ... المُرتجَى.. المُنْتَظَرْ

■ ■ ■

نزارُ! أزفُ إليكُ الخَبَرْ
سئمتُ الحياةَ بعصر الرفات
فهيَّىءْ بقُرْبِكَ لى حُفرة!!
فعيش الكرامةِ تحتَ الحُفَر.
ووعّاظُنا يرقبُون الخَلاصَ
مع القادمِ... المُرتجَى.. المُنْتَظَرْ

■ ■ ■

نزارُ! أزفُ إليكُ الخَبَرْ
سئمتُ الحياةَ بعصر الرفات
فهيَّىءْ بقُرْبِكَ لى حُفرة!!
فعيش الكرامةِ تحتَ الحُفَر. ■

غازى القصيبى



عن ٧٠ عاما و٢٠ كتابا مثيرا للجدل، رحل غازى القصيبى. صاحب «شقة الحرية» التى تحكى واقع الشباب العربى فى منتصف القرن الماضى، فترة المخاض العربى الصعب وسط أجواء عاصفة بسياسات وتوجهات فكرية عدة.

ذهب القصيبى الوزير السعودى الذى كاد أن يرحل وكتبه أو معظمها ممنوعة من التداول فى بلده، إلى أن أصدر الدكتور عبدالعزيز خوجة وزير الثقافة توجيهاته قبل حوالى شهر من وفاة القصيبى بإتاحة جميع مؤلفاته.

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazer - Volume 12 - Issue 141 - October 2010
مجلة شهرية العدد ١٤١ - السنة الثانية عشرة - أكتوبر ٢٠١٠ - الثمن عشرة جنيهات



الرقص مع الفساد!

محمد رؤوف حامد
حسن أبشر الطيب

■ مئات الوثائق والبيانات والصور
لماذا كفرت؟
Aaron David Miller

■ أكذوبة «المجتمع الذكورى»
أيام النساء قادمة!
Hanna Rosin

■ أموال .. ومؤمرات ..وأجهزة أمنية
رجلنا في فلسطين
Nathan Thrall

■ **إلى أين يذهب المسيحيون العرب!**
كمال الصليبى

السنة الثانية عشرة
العدد ١٤١
أكتوبر ٢٠١٠

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتَّاب العدد:

- **آرون ديفيد ميلر**.. مستشار سابق لشئون الشرق الأوسط بالخارجية الأمريكية
- **باميلا باول**.. صحفية أمريكية متخصصة فى قضايا الأسرة
- **توماس باورز**.. كاتب أمريكى متخصص فى شئون الاستخبارات
- **جيفرى جولدبرج**.. صحفى أمريكى متخصص فى شئون الشرق الأوسط
- **حجاج أبو جبر**.. مدرس بأكاديمية الفنون بمصر
- **حسن أبشر الطيب**.. مستشار إدارى – السودان
- **عبدالله إبراهيم**.. ناقد وأكاديمى من العراق
- **كمال الصليبى**.. رئيس سابق لدائرة التاريخ وعلم الآثار فى الجامعة الأمريكية فى بيروت
- **محمد رءوف حامد**.. رئيس سابق لهيئة الرقابة الدوائية فى مصر
- **محيى الدين عميمور**.. أديب وسياسى جزائرى. وزير سابق للثقافة والاتصال
- **نيثان ثرول**.. صحفى أمريكى يكتب لنيويوركر ونيوريبابليك
- **هانا روزين**.. كاتبة أمريكية تكتب لنيويوركر وأتلانتيك مانثلى

رسوم العدد

محمد حجى - J. Howard Miller - Dave Granlund
Petar Pismestrovic - Kerry Waghorn





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

❝ تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة ❞

The False Religion of Mideast Peace And why I'm no longer a believer.

لمـــــاذا كفـــــرت؟

آرون ديـفـيـــــد مـيـــــــلـر
Aaron David Miller



مثل كل الأديان، أسست عملية السلام Peace Process عقيدة فكرية صلبة، ذات مبادئ غير قابلة للتغيير، حتى عندما بدأت الحقائق التي تستند عليها هذه المبادئ في التغير. ترسخت هذه المبادئ واعتنقها رؤساء الكهنة في معبد الأمن القومي وفيهم الموظفون المخضرمون بوزارة الخارجية من أمثالي، ومحللو الاستخبارات. على مدى العقدين الماضيين، كتبتُ هذه المبادئ مئات المرات لرؤسائي ممن يشغلون مناصب عليا بوزارة الخارجية الأميركية والبيت الأبيض؛ كانت هذه المبادئ بمثابة تعاليم دينية مقدسة يمكننا جميعا أن نتلوها عن ظهر قلب.
إنني أتساءل: إذا لم يكن هذا هو تعريف الإيمان الحقيقي، فماذا يمكن أن يكون؟

■■ فى الثامن عشر من أكتوبر/تشرين الثانى ١٩٩١، خلافا لكل الاحتمالات، وأمام حشود الصحفيين المتشككين، أعلن وزير الخارجية الأميركى جيمس بيكر الثالث ووزير الخارجية السوفيتى بوريس بانكين أنه قد تمت دعوة العرب والإسرائيليين لحضور مؤتمر للسلام فى مدريد.

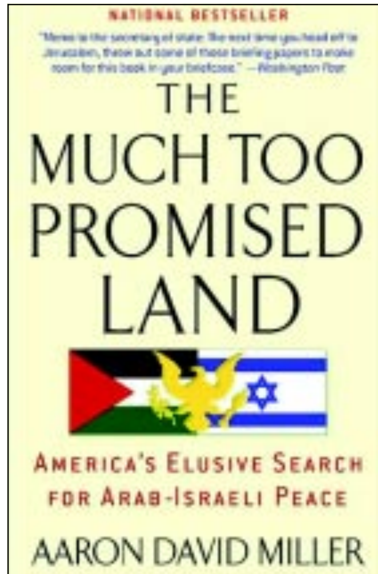
فى ذلك اليوم، كنت واقفا فى آخر القاعة بفندق الملك داوود فى القدس، معجبا بما أنجزته أميركا. ففى غضون ١٨ شهرا، وهو تقريبا الوقت الذى استغرقه هنرى كيسنجر للتفاوض على ثلاثة اتفاقات لفك الاشتباك بين العرب وإسرائيل، والذى استغرقه جيمى كارتر للتوسط فى معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، فى غضون فترة مماثلة خاضت الولايات المتحدة حربا قصيرة ناجحة. من أفضل نوع. لإخراج صدام حسين من الكويت. وصارت الولايات المتحدة الآن فى وضع جيد، يؤهلها لدفع العرب والإسرائيليين للسير فى المسار الدبلوماسى حتى عبور خط النهاية.

أو هكذا كنت أعتقد.

كان بيكر. الذى اعتاد أن يبخس قيمة كل شيء. حذرا على نحو خاص. صرح بيكر لعدد منا نحن المستشارين فى جناحه بعد مؤتمر صحفي: «يا شباب، إذا أردتم النزول من القطار، قد يكون الآن هو الوقت المناسب، لأننا من هنا سنبدأ فى نزول المنحدر». إلا أننى لم أكن أنصت. فقد استخدمت أميركا قوتها لشن الحرب، والآن، ربما يمكننا أن تستخدم هذه القوة لتحقق السلام. وسأكون مؤمنا بهذا السلام.

لكننى لم أعد مؤمنا به.

يقول المتخصصون فى علم دراسة أصل الكلمات أن كلمة (religion) أى «دين» بالانكليزية قد يكون أصلها هو المصدر اللاتينى (religare) والذى يعنى الالتزام أو التقيد. وهو اشتقاق رائع. فالإيمان مغر وجذاب فى تعبيراته الدينية والعلمانية على حد سواء، وتحديدا لأنه يأتى من الافتراضات التى تلزم أو تقيد المؤمن بمجموعة قوية من الأفكار التى يتم تبريرها منطقيا أو روحيا، إلا أنها ملزمة دائما.



وهكذا كان ولا يزال الأمر بالنسبة لالتزام الولايات المتحدة بعملية السلام بين العرب وإسرائيل على مدى الأربعين عاما الماضية، وبالتأكيد منذ أن تمخضت حرب أكتوبر/تشرين الثانى ١٩٧٣ عن ولادة المساعى الدبلوماسية الأميركية وذلك المصطلح الخطير «عملية السلام» (الذى صك هذا التعبير هو على الأرجح هارولد سوندرز، المساعد اللامع المخضرم لوزارة الخارجية الأميركية لشئون الشرق الأوسط) الذى رأى أن الكلمة مناسبة ليستخدمها كيسنجر فى بدايات جولاته المكوكية. ومنذ ذلك الحين يرتكز نهج الولايات المتحدة على مثلث لا ينفصم من الافتراضات كأنها أركان الإيمان الحق. فى التسعينيات أسست هذه المبادئ «دينا» لعملية السلام، سلسلة منطقية مقدسة، أجبرت معظم رؤساء الولايات المتحدة على إقحام أنفسهم فى القضية العربية الإسرائيلية. آخر المعتنقين لهذا الدين هو الرئيس باراك أوباما، وبكل المقاييس تحول هو أيضا إلى مؤمن «متعصب»، حيث تعهد فى غضون أيام من توليه الحكم بأن «يسعى سعيا دؤوبا ونشطا لتحقيق سلام دائم بين إسرائيل والفلسطينيين، وكذلك بين إسرائيل وجيرانها العرب».

مثل كل الأديان، أسست عملية السلام عقيدة فكرية صلبة، ذات مبادئ أولية غير قابلة للتغيير. على مدى العقدين الماضيين، كتبتُ هذه المبادئ مئات المرات لرؤسائى ممن يشغلون مناصب عليا بوزارة الخارجية الأميركية والبيت الأبيض؛ كانت هذه المبادئ بمثابة تعاليم دينية مقدسة يمكننا جميعا أن نتلوها عن ظهر قلب.

أولا: يعتبر السعى لتحقيق سلام شامل عنصرا جوهريا فى مصالح الولايات المتحدة فى المنطقة، إن لم يكن

بترتيب مع:
Foreign Policy
ترجمة :مازن النجار

Aaron David Miller served as an advisor on the Middle East to Republican and Democratic secretaries of state. He is currently a public policy scholar at the Woodrow Wilson International Center for Scholars and the author of The Much Too Promised Land: America's Elusive Search for Arab-Israeli Peace.

MIDEAST TALKS

ABBAS

NETANYAHU

DAVE GRANLUND © www.davegranlund.com

هو جوهرها، وتحقيقه هو السبيل الوحيد الأكيد لحماية مصالح الولايات المتحدة. ثانيا: لا يمكن للسلام أن يتحقق إلا من خلال عملية تفاوضية جادة تستند إلى مبادلة الأرض بالسلام. ثالثا: أميركا فقط يمكنها مساعدة العرب والإسرائيليين على تحقيق هذا السلام على أرض الواقع.

كما يليق بأى عقيدة دينية، كان هناك فارق صغير. وبينما لم يعتنق الجميع هذا الدين (فقد سعى رونالد ريجان وجورج بوش الابن وراء أولويات أخرى فى الشرق الأوسط، على الرغم من أن كلا منهما سلم فى لحظة ما، على الأقل، ببعض المبادرات التى تعكس كما يراها معارضوهما درجات متفاوتة من الأفعال القليلة المتأخرة). لكن هذه الاستثناءات تؤكد القاعدة. دفع هذا المثلث الحديدى ريتشارد نيكسون، وجيرالد فورد، وجيمى كارتر، وجورج بوش، وبيل كلينتون، والآن باراك أوباما إلى إعطاء القضية العربية . الإسرائيلية مثل هذه الأولوية العليا، وهكذا أثبت مثلث الإيمان هذا أنه دائم وينطبق على كلا الحزبين الجمهورى والديمقراطى. هذه المبادئ اعتنقها رؤساء الكهنة فى معبد الأمن القومى وفيهم الموظفون المخضرمون بوزارة الخارجية من أمثالى، ومحللو الاستخبارات، ومعظم كبار الخبراء بالسياسات الخارجية الأميركية من خارج الحكومة. وهكذا، ترسخت هذه المبادئ وازدهرت، وحتى عندما بدأت الحقائق التى تستند عليها هذه المبادئ فى التغير.

إننى أتساءل: إذا لم يكن هذا هو تعريف الإيمان الحقيقى، فماذا يمكن أن يكون؟

وها هو أوباما، رئيس ينوء بحربين فى أماكن أخرى وبأخطر أزمة اقتصادية منذ الكساد العظيم، يخرج ساعيا إلى القضية العربية الإسرائيلية بصوت أعلى، وعزم أقوى، وسرعة أكبر من كل أسلافه، ليكون شاهدا رائعا يدل على مدى رسوخ هذا الإيمان، الإيمان الذى أعلنه على الملأ عندما ترأس شخصيا الإعلان عن تعيين جورج ميتشل مبعوثا له فى الشرق الأوسط، فى حفل نظم بوزارة الخارجية بعد يومين من تنصيبه رئيسا للولايات المتحدة.

فى البداية، كان يبدو أن أوباما . الرئيس الداعى إلى تعاون أميركا مع العالم . قد وجد قضية تناسب تماما رؤيته للدبلوماسية؛ قضية زادها أهمية إهمال سلفه لها، وتعلق العرب والمسلمين بها. وحتى قبيل اندلاع الحرب على غزة قبل تنصيبه بثلاثة أسابيع، تلقى أوباما وابلا من الدعوات من الخبراء والحكماء الذين يحثونه على تجديد التركيز على الشرق الأوسط، باعتباره وسيلة لاستعادة هيبة أميركا ومصداقيتها، بعد ما تعرضت له من اهتزاز فى سنوات حكم بوش الابن. وبسرعة ظهر الرئيس الجديد فى وسائل الإعلام العربية على أنه المتعاطف الأول معهم رافعا سقف توقعاتهم حتى بينما كان الإسرائيليون يعتبرونه يدير آذانا صماء لاحتياجاتهم.

يحيط أوباما نفسه بشخصيات مهمة مثل رَحم إيمانويل كبير موظفى البيت الأبيض، وهيلارى كلينتون وزيرة الخارجية، واللذان يؤمنان إيمانا راسخا بـ«دين السلام». اختار أوباما جورج ميتشل ليكون المخطط الأول للسلام، وهو رجل ذو مكانة وخبرة حقيقية فى التفاوض، واختار «الجنرال» جيمس جونز ليكون مستشاره للأمن القومى، وهو ذاته مبعوث سابق للشرق الأوسط والذى كان قد أعلن تصريحا مذهلا فى العام الماضى عندما قال: «إذا كانت هناك مشكلة واحدة سأوصى الرئيس بحلها فإنها هذه المشكلة».

لم يكن كل هؤلاء القادة المخضرمين من المؤمنين بدين السلام فحسب، وإنما كان لديهم أيضا سبب إضافى فى تشجيع موقف أكثر تشددا حيال إسرائيل؛ وهو أنهم شاهدوا فيلم بنيامين نتنياهو من قبل، وكانوا مصممين على عدم ترك فرصتهم فى تحقيق السلام فى الشرق الأوسط تنتهى بذات الطريقة، كما حدث من قبل. فى فترته الأولى كرئيس للوزراء فى التسعينيات، كاد المتهور المتشدد نتنياهو يدفع بيل كلينتون إلى الجنون. (أذكر اطلاعى على أول اجتماع لهما فى ١٩٩٦، والذى زمجر بعده الرئيس قائلا: تبا، من هى



يرتكز نهج الولايات المتحدة على مثلث لا ينفصم من الافتراضات كأنها أركان الإيمان الحق. آخر المعتنقين لهذا الدين هو الرئيس باراك أوباما، وبكل المقاييس تحول هو أيضا إلى مؤمن «متعصب»



لماذا كفرت؟

لقد فقدنا القدرة على أن نكون مستقلين عن إسرائيل، لنتمكن من أن نكون صادقين معها عندما تقوم بأشياء لا تعجبنا، من الصعب أن تكون وسيطا محايدا مع مثل هذه المعوقات



القوة العظمى هنا؟). وفى المواجهة للمرة الثانية مع نتنياهو، لم يحتج أوباما وفريقه تشجيعا للتحدث بنبرة حادة بشأن المستوطنات الإسرائيلية المتنامية فى الضفة الغربية. وهى قضية تتعالى أصوات الخبراء من داخل الحكومة، ومن خارجها، مطالبة أوباما بإثارتها باعتبار أنها أول خطوة فى سعيه مجددا لأجل تحقيق السلام.

فى ذات الوقت، يبدو الأمر كأنه تقارب سحرى بين القائد واللحظة: تبدو القضية العربية الإسرائيلية مثالية تماما لأهداف أوباما التحويلية وأسلوبه فى عقد الصفقات. إذا ما أراد أوباما بأن يبدأ فى «إعادة صنع أميركا»، فلماذا لا يحاول أن يعيد صياغة سياسات السلام المضطربة، أيضا؟ فهو فى النهاية الرئيس المتعاون، الذى يؤمن إيمانا عميقا بقوة المفاوضات.

طبعا لم يكن أوباما وحده مؤمنا بهذا. فلقد استمرت عملية السلام طويلا لأنها كانت إلى درجة كبيرة تعنى الكثير وتتفق مع مصالح الولايات المتحدة. والسؤال هو: هل لا تزال عملية السلام كذلك؟ هل التفكير القديم حول صنع السلام ينطبق على الحقائق الجديدة؟ هل لا يزال الصراع العربى الإسرائيلى هو القضية الجوهرية؟ وبعد عقدين من الآمال المبالغ فيها تلتها أعمال العنف والإرهاب، والآن يعقبها ركود لا اتجاه له، هل لا يزال بإمكاننا أن نؤمن بأن المفاوضات ستؤتى أكلها؟

للأسف، يبدو أن الإجابات على كل هذه الأسئلة واضحة جدا هذه الأيام. والأشهر الخمسة عشر الأولى التى مرت على أوباما بعد إيمانه بالعقيدة القديمة تنبئكم بالسبب.

فى ٢٠٠٩، حث الرئيس أوباما الإسرائيليين والعرب والفلسطينيين على الاستمرار فى المفاوضات وتلقى رفضا من الأطراف الثلاثة. صرح الرئيس فى وقت لاحق لمجلة «تايم» بأسف قائلا: «لقد بالغنا فى تقدير قدرتنا على الإقناع». فى مارس/آذار من ذات العام، استفز أوباما إعلان حكومة نتنياهو عن عزمها بناء وحدات سكنية جديدة فى القدس الشرقية، وهو الأمر الذى كان بمثابة صفعة للأميركيين، خاصة أنه تم أثناء زيارة جو بايدن نائب الرئيس الأميركى لإسرائيل، ومن ثم فقد دفع أوباما الإسرائيليين مجددا، بشدة هذه المرة برغم افتقاره للاستراتيجية، للاستفادة من الأزمة.

صمم أوباما بوضوح على عدم القبول بالرفض ردا. وبينما كان منتشيا بانتصاره فى قضية الرعاية الصحية، عاد ليكون ملك العالم مجددا وليس فى مزاج يسمح لملك إسرائيل بإحباط خططه. جاء هذا العناد مثيرا للإعجاب، وما يجعله أكثر حتمية هو انخراطه فى الإيمان بأن يمنح ذلك الدين القديم رؤية جديدة، ليس بناء على ما هو ممكن فحسب بل بناء على ما هو محتمل. لا يحق لنا التخلى عن الأمل، إلا أننا نتحمل مسئولية إطلاق أوهامنا، أو التخفيف منها على الأقل.

لا أستطيع أن أعد فى السنوات العشرين الماضية، باعتبارى محلل استخبارات، وواضع خطط للسياسة، ومفاوضا، تلك المرات التى كتبت فيها مذكرات لشخصيات على درجة عالية من الأهمية، مؤكدا على مركزية القضية العربية الإسرائيلية، والأسباب التى تجعل الولايات المتحدة بحاجة إلى أن تحلها. وقبل أن أعمل بوزارة الخارجية بفترة طويلة، كان السابقون لى فى ذات الموقع قد أكدوا جميعا ذات الأمر. فعدم حل الصراع العربى الإسرائيلى قد يفجر حربا مدمرة ويزيد النفوذ السوفيتى، ويضعف المعتدلين العرب، ويعزز المتطرفين العرب، ويهدد فرص الحصول على نفط الشرق الأوسط، ويقوّض نفوذ الولايات المتحدة بشكل عام من الرباط إلى كراتشى.

بين الأربعينيات والثمانينيات، كانت القوة التى يتردد بها صدى القضية الفلسطينية فى العالم العربى تنال من هيبة أميركا ونفوذها. فى ذلك الحين، كانت لا تزال المذكرات التى كتبتها بخط يدى والتوقعات المنذرة بالشؤم تعد مغالى فيها. لقد حذرت ذات يوم تحذيرا متشائما. وليس صحيحا. من أننا قد نتعرض لهجمات إرهابية فلسطينية لا تتوقف على الولايات المتحدة، إذا لم نحرك هذه القضية. خلال تلك السنوات نفسها، نجحت الولايات المتحدة فى الدفع قدما بمصالحها الجوهرية فى الشرق الأوسط: فقد احتوت السوفيات، وعززت العلاقات مع إسرائيل والدول العربية الرئيسة مثل مصر والأردن والمملكة العربية السعودية، واحتفظت بقدرتها على الحصول على النفط العربى، بل إن الولايات المتحدة ظهرت فى السنوات التالية لحرب أكتوبر/تشرين الثانى ١٩٧٣، باعتبارها الوسيط الرئيس لعملية صنع السلام بين العرب وإسرائيل.



اليوم لا يمكننى كتابة تلك المذكرات ذاتها أو أى شيء يماثلها بضمير مستريح أو بوجه جامد المشاعر. وبرغم أن معتقدات الكثير من الخبراء لم تشهد تغيرا، إلا أن المنطقة تغيرت وكان تغيرا دراماتيكيا حيث صارت أكثر خطورة، كما تغيرت أولويات ومصالح الولايات المتحدة وصارت أكثر تعقيدا. مقولة بأن هناك حلا واحدا أو حلا بسيطا لحماية تلك المصالح. مثل جرعة أو رصاصة أو أكسير سحرى. قد يؤدى إلى تحسين جميع الأمور تعد فكرة خاطئة تماما، ناهيك عن فكرة أن السلام بين العرب وإسرائيل قد يؤدى لنفس النتيجة. ففى منطقة ممزقة تموج بالغضب وتعانى مشكلات كثيرة. من نظم اقتصادية راكدة جائرة إلى حكومات متسلطة تنتهك حقوق الإنسان وتنكر سيادة القانون إلى ثقافة شعبية غارقة بمستنقع التآمر والإنكار. يعد جرًا لحدود السذاجة إلى نقطة الانهيار أن نقول بأن الصراع العربى الإسرائيلى هو القضية الأكثر أهمية، أو أن من شأن حله أن يضمن بطريقة ما استقرار الشرق الأوسط.



نجح الأميركيون فى المساعى الدبلوماسية العربية الإسرائيلية، عندما كانت قوة ونفوذ الولايات المتحدة تؤخذ بمحمل الجد



لا يزال عدم حل الصراع العربى الإسرائيلى يمثل مشكلة كبيرة بالنسبة لأميركا وأصدقائها: فهو يشعل غضبا عارما تجاه الولايات المتحدة، وأثبت بالفعل وجود خطر المواجهة والحرب (حرب لبنان ٢٠٠٦، وغزة ٢٠٠٨)، ويؤرق إسرائيل بالكابوس الديموغرافى. إلا أن هناك ثلاث قضايا أخرى على الأقل ظهرت متنافسة على موقع الصدارة، وقد تكون أكثر تعبيرا عن مصير نفوذ وقوة وأمن الولايات المتحدة أكثر من القصة الحالية التى صرت أدعوها «أرض الميعاد الموعودة أكثر من اللازم».

أولا: هناك حربان فى العراق وأفغانستان، حيث يتعرض عشرات الآلاف من الأميركيين للخطر، ومن المرجح أن يظلوا كذلك لبعض الوقت. أضف إلى هذا الوضع الخطير بباكستان لتتمكن من رؤية التقلب والتهديد والعواقب التى تتجاوز فلسطين بكثير.

ثانيا: رغم أن السياسة الخارجية للولايات المتحدة الأميركية لا يمكن أن تظل مرهونة بالحرب على الإرهاب (أو أيا كان ما يطلق عليها الآن)، إلا أن هجمات ١١ سبتمبر/أيلول كانت نقطة تحول أساسية لأميركا التى كانت تشعر دوما بأنها آمنة داخل حدودها.

وأخيرا: هناك إيران التى تعد تطلعاتها النووية أولوية أكثر إلحاحا بالنسبة للولايات المتحدة أكثر من فلسطين. فإذا ما فشلت العقوبات والحلول الدبلوماسية، فلا يمكننا استبعاد موقف افتراضى، أى عمل عسكرى تقوم به إسرائيل أو حتى الولايات المتحدة، مع ما سينتج عنه من عواقب مهولة للمنطقة والعالم بأسره. وعلى أية حال، من الصعب أن نتخيل قيام نتنياهو باتخاذ أى قرارات كبيرة، فيما يتعلق بعملية السلام حتى يتوافر المزيد من الوضوح حول امتلاك إيران لقنبلة نووية، حيث يراه هو ومعظم الإسرائيليين تهديدا لوجودهم.

كما تدبر أوباما حساباته، لابد أن التحرك سريعا بمسار السلام العربى الإسرائيلى سيساعد الولايات المتحدة فى التعامل مع هذه القضايا. بيد أن هذا الربط لم يكن مقنعا عندما استخدمه بوش ليوحى بأن النصر فى العراق سوف يجعل حل الصراع العربى الإسرائيلى أسهل؛ كما أنه ليس مقنعا الآن كاستراتيجية للخروج من العراق، كما لو كان الانخراط فى المساعى الدبلوماسية العربية الاسرائيلية سيسهل على العرب

لمــــــــــــــاذا كــفــــــــــرت؟

لا يزال عدم حل الصراع العربى الإسرائيلى يمثل مشكلة كبيرة لأميركا وأصدقائها؛ فهو يشعل غضبا عارما تجاه أميركا، كما أنه يؤرق إسرائيل ديموغرافيا



قبول الفوضى المحتملة التى سنخلفها وراءنا فى العراق. كما أنه لا يمكن استخدام القضية العربية الإسرائيلية بفعالية لحشد العرب ضد إيران، لأن الولايات المتحدة لا يمكنها أبدا أن تبذل جهودا دبلوماسية كافية (أو فى وقت قريب بما يكفى) لتحدث فارقا حقيقيا. وأخيرا، فإن ربط استعداد الولايات المتحدة لمساعدة الإسرائيليين فى تعاملهم مع إيران باستعدادهم لتقديم تنازلات فيما يتعلق بقضيتى القدس والحدود ليس أيضا بالاستراتيجية الصحيحة. فهو على أقل تقدير يخاطر بفقدان الولايات المتحدة لنفوذها على إسرائيل فيما يتعلق بالمسألة الإيرانية، ويزيد احتمالات تصرف إسرائيل وحدها.

بالتأكيد يمكن للولايات المتحدة أن تفعل ما هو أكثر من شىء واحد فى كل مرة، وهذا فى السياسة الخارجية يعادل المشى ومضغ العلكة (اللبان) بذات الوقت. ولكن يتعين على أميركا أن تنجح أيضا فى القيام بالعديد من الأمور. فلا يمكن أن يكون لأوباما نهجا يبدو قليل العمق بالغ الاتساع لكنه سريع التلاشى، وفيه يلتزم أوباما بكل شىء بدون تقدير قاسى لا يرحم لما هو ممكن حقا وما هو غير ذلك. كما لا يمكن للولايات المتحدة أن تتحمل فشلا آخر عالى المستوى بناء على ما أخبرنا به كلينتون الرائع والملتزم قبل فترة وجيزة من ذهابنا إلى كامب ديفيد (٢٠٠٠)، قائلا: «يا رجال، إن المحاولة والفشل أفضل بكثير من عدم المحاولة على الإطلاق». هذا شعار مناسب لفريق كرة قدم فى مدرسة ثانوية؛ لكنه ليس بديلا عن وضع استراتيجية مدروسة جيدا لأعظم قوة فى العالم. كان أوباما قد أعلن التزامه للشعب الأميركى بإنهاء حربين، وتأمينهم فى بلادهم، ومنع إيران من الحصول على سلاح نووى، ناهيك عن التصدى لتحديات الركود الاقتصادى الشديد والعجز المالى المتزايد.

إن الحكم يتعلق بالاختيار؛ بتحديد أولوياتك، وإدارة سياساتك، والتفكير استراتيجيا، واختيار مواقعك، والبحث عن الفرص الأصلية التى يمكن استغلالها. وليس بمحاربة طواحين الهواء. فى هذه الأيام، تعد عملية صنع السلام بين العرب وإسرائيل عبارة عن طاحونة كبيرة جدا.

حتى لو كان بإمكانك أن تبرهن على مركزية الصراع العربى الإسرائيلى، فهل يمكنك أن تصنع السلام؟

الأميركيون متفائلون. فالمثالية والبراجماتية الأميركية والإيمان بأولوية الفرد تقنعنا بأن العالم يمكن أن يصير مكانا أفضل. وخلافا للكثير من البلدان التى تتصارع مع أسئلة وجودية عن الهوية السياسية والبقاء المادى، لا يعيش الأميركيون اليوم فى حالة من الترقب (مهما كانت بداياتهم البروتستانتية البيوريتانية أو الكالفينية)، وليس لديهم رؤية حتمية مظلمة للطبيعة البشرية.

كل هذا يدفع قناعتنا بأن الحديث أفضل من إطلاق النار. وكما رودنى كنغ، نحن نعتقد أنه إذا ما جلس الناس فقط وناقشوا خلافاتهم بعقلانية وقاموا بتسويتها، فسيمكنهم التوصل إلى وسيلة لاستيعاب وجهات النظر المتعارضة. ففى النهاية، أميركا هى خيمة كبيرة تعيش فى ظلها الكثير من المجموعات الدينية والسياسية والعرقية التى نجحت فى التعايش بود ملحوظ. لعل أفضل ما يجسد هذه الروح هو جورج ميتشل مبعوث أوباما للشرق الاوسط، الذى أخبرنى ذات مرة أن أى نزاع أوجده البشر، يمكنهم حله. ميتشل مقتنع حقا بأنه يمكن التوصل إلى حلول وأن المساعى الدبلوماسية الجادة هى ما يمكنك أن تفعله حتى يحين هذا الوقت. إلا أنه أنهى أولى جولاته فى المساعى الدبلوماسية بين العرب وإسرائيل بثلاثة لاءات مؤكدة: من إسرائيل للتجميد الشامل للاستيطان، ومن المملكة العربية السعودية للتطبيع الجزئى، ومن الفلسطينيين للعودة إلى المفاوضات.

يبدو أن الكثير من خبرتنا السابقة فى العالم المعقد لعملية السلام بين العرب وإسرائيل يعزز قناعة ميتشل الأولى. فى الفترة من حرب ١٩٧٣ إلى ١٩٩١، نجح اثنان من وزراء الخارجية الجمهوريين (كيسنجر وبيكر)، ورئيس ديموقراطى واحد (كارتر) فى التوصل إلى سلسلة اتفاقات بين العرب والإسرائيليين، رسخت سمعة أميركا باعتبارها وسيطا فعالا وأمينا حتى- وهو ما يبدو مؤكدا لصحة الافتراض البسيط بأن المفاوضات يمكن أن تنجح.

إذا ما كان هناك أحد يمثل الإيمان بهذا الافتراض، فهو أنا. أذكر أننى أدليت بحديث فى القدس فى خريف عام ١٩٩٨، بعد أن توسط الرئيس كلينتون فى اتفاقات واى ريفر (لم توضع قيد التنفيذ أبدا)، أكدت فيه أن المفاوضات بين العرب وإسرائيل والتحرك نحو السلام صارا الآن أمر لا رجعه عنه. دفع هذا التصريح. وهو أحد أكبر الغلطات المضحكة فى ذلك العقد. أفرايم هاليفى الذى كان حينها نائب رئيس الموساد إلى إلقاء ملاحظة يتساءل فيها عن صحة منطقى، وله الحق فى هذا. وبرغم أن هاليفى كان مهذبا للغاية فلم يقل هذا فى ملاحظته، إلا أنه تساءل أيضا عن مدى صحة حكمى على الأمور. لكننى كنت لا زلت مؤمنا.

استمر إيمانى هذا، على طول الخط خلال التسعينيات، وهو العقد الوحيد فى النصف الثانى من القرن العشرين الذى لم تندلع فيه حرب كبرى بين العرب وإسرائيل. بل كان هو العقد الذى شهد انعقاد مؤتمر مدريد، وتوقيع اتفاقيات أوسلو، ومعاهدة السلام بين إسرائيل والأردن، والاتفاقات الاقليمية بشأن القضايا الاقتصادية، والمحاولة التاريخية فى السنة الأخيرة من فترة حكم الرئيس بيل كلينتون للتفاوض بشأن اتفاقات السلام بين إسرائيل وسوريا والفلسطينيين. ولكن لأسباب مختلفة ليس أقلها عدم رغبة العرب والفلسطينيين والإسرائيليين و(الأميركيين) فى الاعتراف بالثمن الذى على كل طرف دفعه لتحقيق هذه الاتفاقات، انتهى العقد على نحو سيئ، تاركا حمامة السلام وراءه نازفة مثقلة بالجراح مكسورة الجناح. ولعل أخطر الخسائر هو فقدان الأمل فى أن المفاوضات يمكنها بالفعل أن تعطى العرب والإسرائيليين ما يريدونه.

وكانت هذه هى الحبكة الدرامية منذ ذلك الحين: هناك «عملية» أكثر منها سلاما.

واستشرافا للمستقبل، تبدو تلك العملية أصعب بكثير جدا، ويبدو السلام بعيد المنال أكثر فأكثر لثلاثة أسباب.

الأول: هو أن صنع السلام بين العرب وإسرائيل محفوف بالمخاطر سياسيا، ويمثل تهديدا للحياة. فلننظر إلى اغتيال الرئيس المصرى أنور السادات ورئيس الوزراء الإسرائيلى إسحاق رابين. فى كامب ديفيد، سمعت الزعيم الفلسطينى ياسر عرفات يقول لما لا يقل عن ثلاث مرات: «أنتم أيها الأميركيون لن تسيروا وراء نعشي». لا يخوض القادة المجازفات إلا عندما ترغمهم احتمالات الألم والمكسب على هذا. زعماء الشرق الأوسط اليوم. نتنياهو فى إسرائيل، وبشار الأسد فى سوريا، ومحمود عباس فى فلسطين. ليسوا انتحاريين. وفى النهاية، لقد كان نتنياهو هو من قال لى ذات مرة: «أنت تعيش فى تشيفى تشيس. فلا تغامر بمستقبلنا».

ثانيا: القرارات الكبيرة تتطلب قادة أقوياء. فلنتذكر العاهل الأردنى الملك حسين، أو مناحم بيغن الإسرائيلى. لأن القضايا المطروحة على مائدة المفاوضات تتعلق بجوهر هويتهم السياسية والدينية وببقائهم على قيد الحياة. وهذا يتطلب قادة يتمتعون بالشرعية والسلطة والتمكن من سياساتهم لضمان تنفيذ الاتفاق. إلا أن المجموعة الحالية منهم سجناء لجمهور أنصارهم لا سادة عليهم. فنتنياهو يرأس تحالفا منقسما ودولة ليس لديها توافق فى الآراء بشأن الثمن الذى يمكن أن تدفعه إسرائيل مقابل التوصل إلى اتفاقات مع الفلسطينيين وسوريا؛ أما عباس فهو جزء من الحركة القومية الفلسطينية المنقسمة ويشارك حماس فى السيطرة على السلاح والسلطة والشرعية فى فلسطين. إنه لمن الصعب أن نرى كيف يمكن لأى منهما حشد الإرادة والسلطة لاتخاذ القرارات الكبيرة.

ثالثا: حتى مع القادة الأقوياء، لا زلنا نحتاج إلى مشروع لا يتجاوز الطاقة الاستيعابية لأى من الطرفين. فى الماضى نجحت دبلوماسية الولايات المتحدة بسبب اتفاقيات فض الاشتباك بعد حرب ١٩٧٣،





ها هو أوباما، رئيس ينوء بحربين فى أماكن أخرى وبأخطر أزمة اقتصادية منذ الكساد العظيم، يخرج ساعيا إلى القضية العربية الإسرائيلية



لماذا كفرت؟

إنها لمفارقة مذهلة أنه باستثناء معاهدة السلام بين إسرائيل والأردن عام ١٩٩٤، لم يأت أى اتفاق ناجح آخر من مفاوضات مباشرة



وهو اتفاق منفصل بين مصر وإسرائيل، ومؤتمر السلام فى مدريد الذى استمر لمدة ثلاثة أيام، وكان متماشيا مع قدرات كل من الجانبين. أما اليوم فإن قضايا مثل القدس (باعتبارها عاصمة للدولتين)، والحدود (على أساس حدود يونيو/حزيران ١٩٦٧)، واللاجئين (الحقوق والعودة والتعويض) تمثل تحديات سياسية وأمنية عملاقة للعرب والإسرائيليين. سيكون من الصعب بما يكفى عقد اتفاق واحد. فى حين أنه يبدو من شطحات الخيال أن نأمل: فى التفاوض على سلام شامل يختم بثلاثة اتفاقات بين إسرائيل والفلسطينيين، وبين إسرائيل وسوريا، وبين إسرائيل ولبنان؛ وفى تفكيك المستوطنات فى مرتفعات الجولان والضفة الغربية؛ وفى الانسحاب إلى الحدود المرسومة على أساس حدود يونيو/حزيران ١٩٦٧.

خلاصة القول: يمكن أن تنجح المفاوضات، ولكن من الضرورى أن يكون كل من العرب والإسرائيليين (والقادة الأميركيين) مستعدين وقادرين على دفع الثمن. وهم ليسوا كذلك.

فى ظل هذه الظروف، يكرر الناس فى كثير من الأوساط أنه على أميركا أن تنقذ الموقف. وإذا ما كان العرب والإسرائيليون أضعف أو أكثر تمردا من أن يكونوا قادرين على اتخاذ القرار، فإن الولايات المتحدة عليها أن تدعمهم أو تدفعهم إلى عقد الاتفاق.

نجحت مثل هذه الدبلوماسية الأميركية الفعالة من قبل. وفى الواقع، إنها لمفارقة مذهلة أنه باستثناء معاهدة السلام بين إسرائيل والأردن عام ١٩٩٤، لم يأت أى اتفاق ناجح آخر من مفاوضات مباشرة، وإنما نتيجة لوساطة الولايات المتحدة. اتفاقات أوسلو والتى غالبا ما تمتدح بصفتها المعجزة التى أتت نتيجة للمباحثات المباشرة بين الإسرائيليين والفلسطينيين، انتهت إلى الفشل الذريع. ويستمر الجدال ليصل إلى أن كل ما ينقصنا الآن هو الإرادة الأميركية.

وأنا أفهم منطق هذا الرأى، وبعد أن أمضيت أكثر من عشرين عاما فى محادثات محبطة مع العرب والإسرائيليين، يمكننى أن أرى أيضا كيف يمكن أن يكون أيضا مريحا نفسيا. ولكن لأننى أعرف شيئا أو اثنين عن الفشل ولا أريد أن أرى الولايات المتحدة تفشل (مرة أخرى)، فإننى ببساطة لا أقبل هذا المقولة. إذا ما كنت أؤمن حقا أنه بإمكان أميركا أن تفرض وتوفر حلا من خلال الدبلوماسية القوية، كنت سأصبح أكثر تعاطفا. لكننى لا أومن بهذا. وإليكم السبب:

الملكية: لارى سومرز، كبير مستشارى أوباما الاقتصاديين، صاغها بأفضل ما يكون، قائلا: فى تاريخ العالم، لم يحدث أبدا أن قام أحد بغسل سيارة مستأجرة. نحن نهتم فقط بما نملك. وما لم يكن العرب والإسرائيليون يريدون عقد الاتفاقات السياسية وتحقيق السلام، ويمكنهم أن يستثمروا بما يكفى فى هذه الاتفاقات لمنحها فرصة للنجاح، فلن يمكننا بالتأكيد القيام بهذا الدور. تتناثر فى الشرق الأوسط الأوسع نطاقا بقايا وركام قوى عظمى اعتقدت خطأ أن بإمكانها أن تفرض إرادتها على القبائل الصغيرة. العراق وأفغانستان وإيران... هل أنا بحاجة إلى الاستمرار؟ ستظل القبائل الصغيرة أكثر إزعاجا وصرامة وأطول نفسا من الدبلوماسيين الأميركيين، فالأمر يتعلق بمنطقتهم وببقائهم على قيد الحياة؛ وسيكون لديهم دائما مصلحة كبيرة فى نتائج نضالهم أكبر من مصلحة القوة العظمى التى تبعد آلاف الأميال وعليها القيام بالكثير من الأمور الأخرى. هل تريد أن ترى الفشل بعينيك؟ جرب أن تحاول إجبار الإسرائيليين والفلسطينيين على قبول الحل الأميركى بشأن القدس.

سحر المفاوض: لقد ذهب، على الأقل فى الوقت الراهن. عندما نجح الأميركيون فى المساعى الدبلوماسية العربية الإسرائيلية، حدث هذا لأنهم كانوا يحظون بالاحترام والإعجاب وحتى الخشية. كانت قوة ونفوذ الولايات المتحدة تؤخذ بمحمل الجد. أما اليوم، فقد ذهب الكثير من السحر: لقد أفرطنا فى التوسع، وتضاءلت قيمتنا، وتعثرنا. وأستعين مرة أخرى بتعليق لسومرز: هل يمكن لأكبر دولة مقترضة فى العالم أن تظل أكبر قوة فى العالم؟ إن أصدقاءنا يتنابهم القلق حول متانتنا (موثوقيتنا)؛ وخصومنا، بما فيهم حماس وحزب الله وإيران يعتقدون أن بإمكانهم استخدام سياسة النفس الطويل، ليحققوا مكاسب على حسابنا. كما لا يبدو أن هناك أى تكاليف أو عواقب للقول لا بوجه الدولة العظمى. بعد مرور السنة الأولى من جهود غير مثمرة لأوباما وميتشل، أخشى أن سحر الوسيط الذى كان يتمتع به كيسنجر وبيكر، أو العناد والقوة الدافعة التى كان يتمتع بها كارتر، لن يتكرر بسهولة.



السياسة الداخلية: للجماعات الموالية لإسرائيل فى الولايات المتحدة صوت مسموع، ويرجع هذا فى المقام الأول إلى تأثيرها على مشاعر ومبادرات الكونغرس (ومساعدة إسرائيل على وجه الخصوص)، إلا أنه ليس لديها حق الاعتراض على السياسة الخارجية الأميركية. تمارس جماعات الضغط دورها؛ وهذه هى الطريقة الأميركية، فى السراء والضراء. أما الرؤساء فمن المفترض بهم أن يقودوا. وعندما يفعلون هذا وفقا لاستراتيجية حقيقية تحقق المصالح القومية لأميركا، فإنهم يستخدمون السياسة الداخلية كورقة رابحة. ومع ذلك فإن السياسة الداخلية تضيق، وخاصة إذا ما كان الرئيس يعتبر ضعيفا أو -بعبارة أخرى خاضعا للاحتلال. الوقت يداهم هذا الرئيس، ومن المرجح أن يواجه حزبه خسائر كبيرة فى الانتخابات النصفية هذا العام ٢٠١٠. إذا كان من الممكن أن تكون هناك فرصة جادة لتحقيق تقدم فى عملية السلام، فسيستفيد منها. لكن هل من حسن الفطن أن يخاطر محاولا إيجاد هذه الفرصة؟ آخر شيء يحتاجه أوباما الآن هو صراع دائر مع الإسرائيليين ومؤيديهم، أو ما هو أسوأ، مثل فشل كبير بالسياسة الخارجية.

العلاقات الأميركية الإسرائيلية: أميركا هى أفضل صديق لإسرائيل ويجب أن تظل هكذا. فى صميم هذه العلاقة نجد أن القيم المشتركة، والعلاقة الحميمة مع إسرائيل تعطينا القوة والمصداقية فى صنع السلام عندما نستخدمها على نحو صحيح. إلا أن هذه العلاقة الخاصة مع الإسرائيليين، والتى يمكن أن تخدم مصالح الولايات المتحدة، صارت علاقة خصوصية لا تحقق ذلك. لقد فقدنا القدرة على أن نكون مستقلين عن إسرائيل، لنتمكن من أن نكون صادقين معها عندما تقوم بأشياء لا تعجبنا، ولنفرض عليها المساءلة، ولنتخذ مواقف فى المفاوضات قد تحيد عن مواقف إسرائيل. من الصعب أن تكون وسيطا محايدا مع مثل هذه المعوقات.

العراك مع إسرائيل هو واقع مهنى. فهو جزء من الوصف الوظيفى للوسيط. وكل رئيس أو وزير خارجية أميركى ممن نجحوا (وبعض ممن لم ينجحوا) لابد أن يكون قد مر ببعض المناوشات. وبعضها خطيرة. مع إسرائيل. (تذكرون كيف استخدم بوش الأب وبيكر ضمانات قروض الإسكان؟ ففى ١٩٩١، رفضت الولايات المتحدة إقراض إسرائيل المليارات قرضا بأسعار فائدة مخفضة بسبب عزم رئيس الوزراء إسحاق شامير على بناء المستوطنات). إلا أن العراك يجب أن يأتى بشيء ذى قيمة. مثل مؤتمر مدريد. يُحسن من صورة الولايات المتحدة، ويحقق أيضا تقدما كبيرا بالمفاوضات. باختصار، نحن بحاجة لاستراتيجية تتمتع باحتمالات الصلاحية للتطبيق. وإلا فلماذا يريد أى رئيس للولايات المتحدة أن يلحق أضرارا بحليف وثيق له جمهور محلى قوى من الأنصار.

كانت هذه هى مشكلة النبرة الحادة لأوباما مع إسرائيل حول المستوطنات. فلم يكن فقط الهدف الذى وضعه. تجميد المستوطنات بما فى ذلك النمو الطبيعى لها. غير قابل للتحقيق، ولكنه أيضا لم يكن جزءا من استراتيجية أوسع نطاقا من شأن أرباحها أن تجعل المعركة تستحق الخوض. إن ملاحقة بناء الإسرائيليين المجزأ للمستوطنات لإرضاء العرب أو لنجعل أنفسنا نشعر بالتحسن لن ينجح إلا إذا كان لدينا طريقة لإحراز تقدم. وهكذا انتهى أوباما



يحتاج المؤمنون «بدين السلام» لإعادة النظر فى عقيدتهم، خاصة عندما تُفرِط أميركا فى التمدد والانتشار



لماذا كفرت؟

بنبرته الحادة إلى التراجع عندما قال نتنياهو لا لتجميد بناء المستوطنات الشامل، مما يشى بأهمية وجود استراتيجية واسعة النطاق.

ولا يزال هذا هو التحدى الذى يواجه الرئيس بعد الضجة التى أثارها بايدن حول بناء وحدات سكنة فى القدس. ونحن الآن فى ربيع عام ٢٠١٠، نجد أنفسنا بعيدون عن إحراز أى تقدم، ومع ذلك نحن فى وسط خلاف كبير مع الإسرائيليين. وما لم نحقق شيئا كبيرا، فسوف ينظر إلينا على أننا تراجعنا مرة أخرى. وحتى إذا ما تمكن الرئيس من انتزاع شيء فى مسأله القدس، فإن الاحتمالات ستقل كثيرا فى أن نتنياهو سيكون قادرا على اتخاذ خطوة أكبر فى قضايا جوهرية مثل الحدود. ما لم يكن الرئيس يحاول التخلص من نتنياهو (وبناء تحالف جديد)، فلن يكون أمامه خيار آخر سوى إيجاد وسيلة للتعاون معه.

لذلك فإن أوباما يواجه الآن معضلة. فهو رئيس رائع متعاطف بالإضافة إلى حصوله على جائزة نوبل للسلام، اعتنق المثلث الحديدى، وجعل أميركا مركز تنسيق العمل والمسئولية للقضية العربية الإسرائيلية، فى وقت تبدو فيه الولايات المتحدة أقل قدرة على أن تفعل شيئا حيال هذه القضية.

إن محاولة التعويض عن غياب الإلحاح، والإرادة، والقيادة بين العرب والإسرائيليين بإدراج إلحاحك وإرادتك وقيادتك، لطالما كانت مهمة صعبة. الحقيقة المؤلمة هى أن الإيمان بقدرة أميركا على حل القضية العربية الإسرائيلية كانت دائما إيمانا مبالغا به. فليس بالتأكيد من قبيل المصادفة أن يكون كل تقدم يحدث فى القضية من المعاهدة بين مصر وإسرائيل إلى اتفاقات أوسلو إلى اتفاق السلام بين إسرائيل والأردن، كانت كلها نتيجة للقاءات سرية عقدت فى البداية بينما كانت الولايات المتحدة آخر من يعلم عنها شيئا. وعندها فقط، بمجرد أن يكون هناك ملِكية محلية أو أزمات إقليمية يمكن للولايات المتحدة أن تستغلها، سنكون نحن قادرين على دفع الأمور قدما.

والآن، ليس لدى أميركا الفرصة . بصراحة. ولا الجرأة على أن تتخذ إجراءات كبيرة حقا فى مسار صنع السلام بين العرب وإسرائيل. قد تكون آلهة الحظ لا تزال تنقذ الرئيس. وقد ينتهى نظام الملالى فى طهران إلى الانفجار من الداخل. وقد يتصل السوريون والإسرائيليون ببعضهم سرا، أو ربما قد تشتعل مواجهة عنيفة للخروج من المأزق.

ولكن بدون تحولات جذرية فى مكان ما، سيكون من الصعب إعادة الأيام الخوالى عندما كان الزعماء الشجعان الأبطال العرب والإسرائيليون يخطون إلى مسرح التاريخ بخطوات واسعة، جنبا إلى جنب مع الأميركيين، مستعدين وقادرين على الصنع الجدى للسلام.

أتذكر حضورى لجنازة رابين فى القدس فى ١٩٩٥، ومحاولتى لإقناع نفسى بأن أميركا يجب عليها وبإمكانها أن تنقذ عملية السلام التى كان اغتياله قد قوضها بدرجة كبيرة للغاية. أنا لست من أنصار نظرية أفول نجم الولايات المتحدة. فما زلت أومن بقوة المساعى الدبلوماسية الأميركية عندما تكون قوية وذكية وعادلة. لكن الحماسة والتوهج والعاطفة تنحت لصالح رؤية أكثر تعقلا لما هو ممكن. والفشل يمكنه أن يفعل ذلك.

يحتاج المؤمنون «بدين السلام» لإعادة النظر فى عقيدتهم، خاصة عندما تُفرِط أميركا فى التمدد والانتشار. تحتاج الولايات المتحدة إلى فعل ما تستطيعه، بما فى ذلك العمل مع الإسرائيليين والفلسطينيين على التفاوض بشأن القضايا الجوهرية للوضع النهائى (خاصة ما يتعلق بالحدود، حيث فجوات اختلاف الآراء بينهما فى هذا الأمر ضيقة)؛ ومساعدة الفلسطينيين على تطوير مؤسساتهم ودفع الإسرائيليين إلى المساعدة عن طريق السماح للفلسطينيين ببعض الحرية فى المجال الاقتصادى وتوسيع سلطتهم والحفاظ على الهدوء فى غزة حتى إن كانت تحاول التخفيف من اليأس والشعور بالحصار من خلال تلقى المساعدة الاقتصادية. إلا أن أميركا عليها أيضا أن تدرك ما ليس بمقدورها أن تفعله، بقدر ما عليها إدراك ما يمكنها أن تفعله.

لقد صاغها بأفضل طريقة اللورد تنيسون ألفرد، الشاعر الإنجليزى بالعصر الفيكتورى، والذى ربما لم يعرف الكثير عن الشرق الأوسط، عندما قال: «صدقونى: هناك إيمان فى الشك الصادق أكثر مما يوجد فى نصف الأديان». وربما ليس هذا بالأمر السيئ، إذا ما أدى هذا إلى تفكير أكثر واقعية، عندما يتعلق الأمر برؤية أميركا لصنع السلام بين العرب وإسرائيل. ■

كتاب الزاوية



محمد عفيفى مطر
الفلاح

«هل هناك من علاقة تذكر بين الفلاحة والكتابة الإبداعية؟ سؤال قد يكون وقعه غريباً على البعض ممن لا يدركون أبعاد العلاقة بين المبدع والطبيعة من ناحية، وبين دور الفلاح فى استنبات الأرض، ودور المبدع فى استنبات اللغة من ناحية ثانية. الفلاح يستنبت الأرض حَبّاً وثماراً وزهوراً ويظل يراقب هذه المستنبتات إلى أن تستوى ويحين موعد حصادها. وكذلك المبدع يستنبت اللغة أفكاراً وصوراً ويظل يتابعها إلى أن تستوى وتتحدد ملامحها، ويرتضى لها الخروج...

العلاقة إذاً، وطيدة ووثيقة بين الفلاح والأرض، وبين المبدع واللغة. ومن حسن حظ الشاعر محمد عفيفى مطر أنه قد جمع بين الفلاحتين، فلاحة الأرض وفلاحة الوجدان، وحقق بذلك هدفاً لم يحظ بتحقيقه من المبدعين سوى عدد قليل. وعندما زرته ذات يوم من أيام أوائل السبعينيات فى موكب من أصدقائه الشعراء إلى قريته (رملة الأنجب) استقبلنا عفيفى وهو عائد من الحقل مرتدياً جلباب الفلاحين وبيده اليمنى معول والأخرى عصا. كان يتصبب عرقاً... وهو خارج من بين الأشجار يلوِّح بيديه مُرَحِّباً وقد اكتسى وجهه لون الأرض التى أحبها وتماهى مع مفرداتها القريبة إلى وجدانه».

هذا بعضٌ مماكتبه الدكتور عبد العزيز المقالح الأديب والناقد اليمنى الكبير فى رثاء محمد عفيفى مطر «عفيف اليد واللسان» كما يصفه سعدى يوسف. رحل عنا هذا الصيف «الشاعر اليسارى»، تاركا وراءه تراثه الغزير الذى اختتمه بذلك الديوان الذى يتضوع بعبقه الإسلامى الفريد وقد أهداه محمد عفيفى مطر إلى «محمد سيد الأوجه الطالعة، وراية الطلائع من كل جنس منفرط على أكتافه كل دمع ومفتوحة ممالكه للجائعين وإيقاع نعليه كلام الحياة فى جسد العالم».

«وجهات نظر» تخصص زاويتها هذا العدد لسطور من أعماله (والتى نشرتها كاملة دارالشروق)

رجـــــــــــــلنا فـــى

Our Man In Palestine

نـيـــثــــــان ثــــــــــرول

Nathan Thrall

■■ فى ٣١ أغسطس، فى الليلة التى سبقت عشاء الرئيس اوباما الذى افتتح به مباحثات مباشرة بين الزعماء الإسرائيليين والفلسطينيين، اطلق مسلحون من حماس النار وقتلوا مستوطنين يهود فى الخليل، وهى المحافظة الأكبر والأكثر زحاما فى الضفة الغربية. وقد ادان المسئولون الفلسطينيون والاسرائيليون الهجوم الذى وصف بأنه الاشد فتكا ضد مواطنين اسرائيليين خلال أكثر من سنتين، قائلين ان المقصود من الهجوم افشال المفاوضات القادمة. ولكن طبقا لمتحدث باسم حماس، كان الغرض من اطلاق النار أكثر تحديدا: لتوضيح عقم التعاون الحديث بين قوى الامن الإسرائيلية والفلسطينية. وكان هذا التعاون قد وصل إلى مستويات غير مسبوقة تحت التوجيه الهادئ لجنرال أمريكى يحمل ثلاث نجوم، هو كيث دايتون الذى كان يقود مهمة أمريكية غير معلن عنها كثيرا لبناء قوى امنية فلسطينية فى الضفة الغربية[1].

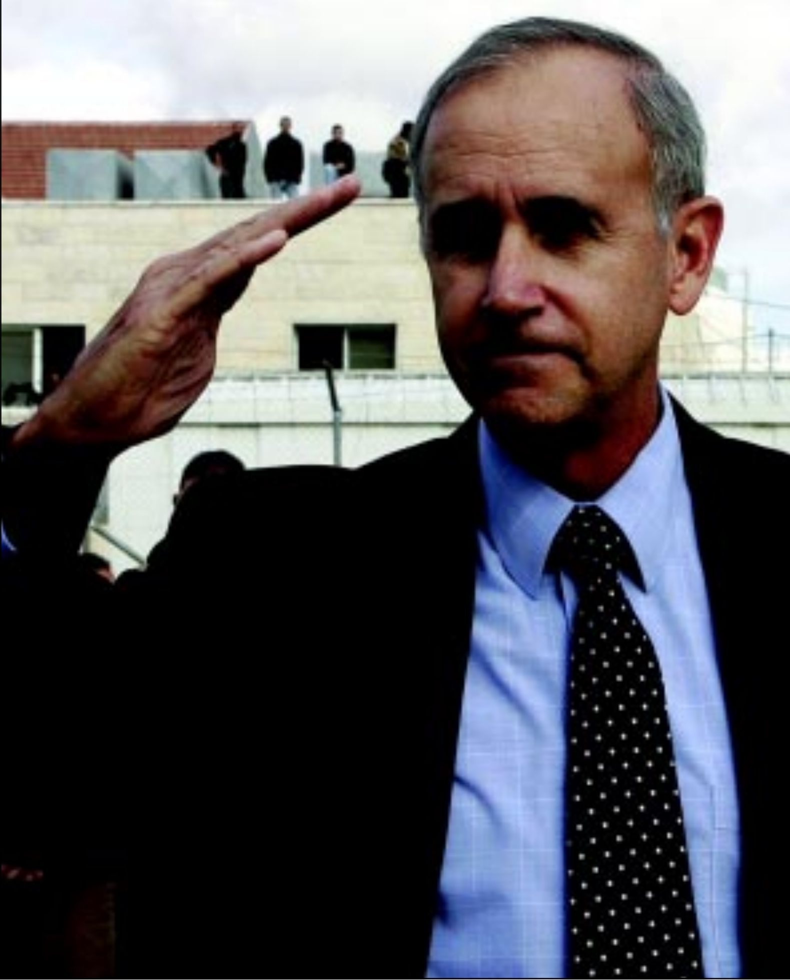
تخضع اجهزة الأمن الفلسطينية، التى تسميها حماس «قوات دايتون»، رسميا لسلطة محمود عباس، الرئيس الفلسطينى ورئيس منظمة فتح المنافسة لحماس، ولكنها عمليا تحت سيطرة سلام فياض رئيس الوزراء غير المنتخب، وهو تكنوقراط لين العريكة، ضئيل الجسم. وكان عباس قد عين فياض عقب استيلاء حماس على غزة فى يونيو ٢٠٠٧، والذى حدث بعد سبعة عشر شهرا عقب فوز الحزب الإسلامى فى انتخابات يناير ٢٠٠٦ البرلمانية. وأوكل اليه مهمة منع حماس من الاستيلاء على الضفة الغربية. فياض حاصل على شهادة الدكتوراه فى الاقتصاد من جامعة تكساس فى اوستن وتبوأ مناصب فى بنك الاحتياط الفدرالى فى سانت لويز والبنك الدولى وصندوق النقد الدولى قبل ان يصبح وزير المالية فى عهد الرئيس ياسر عرفات. وقد ضمنت سمعته كمدير موثوق به وأهل للمسئولية، انتظام تدفق المساعدات الدولية التى يعتمد عليها الاقتصاد الفلسطينى. ورغم انه لايملك شعبية ولا دعم حزب سياسى كبير (لم يحصل حزبه (الطريق الثالث) الا على ٢,٤ بالمائة من اصوات الناخبين فى انتخابات ٢٠٠٦ التشريعية)، فإنه اليوم مسئول تقريبا عن كل جانب من الحكومة الفلسطينية. ومع هذا فإنه لا يشارك فى المفاوضات حول التسوية مع إسرائيل حيث انها من مهام منظمة التحرير الفلسطينية (وفياض ليس عضوا فى مجلس قيادتها) ويعالجها رئيسه عباس البالغ من العمر خمسة وسبعين عاما.

فياض يحصد القدْح فى الداخل لنفس الأسباب التى ينال عنها المدْح فى الخارج. انه يدين العنف ضد إسرائيل لأنه فى اعتقاده يتعاكس مع طموحات شعبه الوطنية، وهو يرى انه يمكن اعادة توطين اللاجئين الفلسطينيين ليس فى إسرائيل ولكن فى دولة فلسطينية مستقبلية واقترح ان تقدم هذه الدولة المواطنة لليهود أيضا[2]. وقد كسب ثناء صفحات الرأى فى واشنطن بوست وول ستريت جورنال ونيويورك تايمز ويحتفظ بعلاقات طيبة مع القادة الأجانب غير المحبوبين فى فلسطين: فى أول زيارة لفياض إلى المكتب البيضاوى فى عام ٢٠٠٣ رحب به جورج بوش، بضم قبضته ورفع اصبعيه السبابة والخنصر فى اشارة إلى (الثور طويل القرنين) رمز جامعة تكساس فى اوستن «hook,em horns». وحين تزوجت ابنة رئيس موظفى رئيس الوزراء الإسرائيلى الاسبق ايريل شارون قبل عدة سنوات، جلس فياض إلى جوار شارون فى حفل الزفاف وتحدث معه لوقت طويل[3].

فى فبراير تحدث فياض أمام المؤسسة الأمنية الإسرائيلية فى مؤتمر هرتزليا السنوى، حيث قارنه الرئيس الإسرائيلى شيمون بيريز بديفد بن غوريون[4]. وكان جل خطاب فياض يتعلق بخطته الطموح التى اعلنها فى أواخر أغسطس ٢٠٠٩ لاقامة دولة الأمر الواقع الفلسطينية من جانب واحد بحلول اغسطس ٢٠١١. فى ذلك الحين طبقا لفياض «سوف تفرض حقيقة دولة فلسطينية نفسها على العالم»[5] وقد نالت خطة فياض لبناء دولة . وليس اعلانها. مصادقة من الرباعية (الولايات المتحدة والاتحاد الأوربى والأمم المتحدة والاتحاد الروسى) ودعما كبيرا من المانحين الدوليين.

رفض بعض الفلسطينيين هذه الخطة على أساس انها تشابه كثيرا فكرة رئيس الوزراء الإسرائيلى بنيامين نتانياهو عن (السلام الاقتصادى) التى تقترح ان يسبق التطور الاقتصادى الاستقلال، كما ابدى عدد من الإسرائيليين شكوكهم بأن فلسطين سوف تسعى للحصول على اعتراف بدولتها من الأمم المتحدة حين تكتمل الخطة. وحذر افيجدور ليبرمان وزير الخارجية الإسرائيلى من ان اية خطوات احادية الجانب يتخذها فياض نحو بناء دولة سوف تدفع إسرائيل إلى الغاء الاتفاقات السابقة والحاق اجزاء من الضفة الغربية[6].

وكان فياض قد اعلن ان خطته لبناء دولة جديدة «تهدف إلى توليد ضغط» على المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية، والموعد النهائى للمحادثات المباشرة بين الطرفين التى بدأت لتوها، هو اواخر صيف ٢٠١١ وهو موعد يواكب خطة فياض[7]. وقد اخبرنى مايك هرتزوج رئيس الموظفين السابق لوزير الدفاع الإسرائيلى ايهود براك « فى نهاية الأمر اعتقد ان فياض يحسب ان



الجنرال كيث دايتون

© AFP, m USA Al-Shaer

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة بثينة الناصرى

Nathan Thrall, aformer member of *The New York Review's* staff, is a contributing editor to Tablet
He has also written for *GQ, Slate, The New Republic, and The New York Times*
Our Man In Palestine

فلســــــطين !!

فياض يحصد القدْح فى الداخل لنفس الأسباب التى ينال عنها المدْح فى الخارج. إنه يدين العنف ضد إسرائيل لأنه فى اعتقاده يتعاكس مع طموحات شعبه الوطنية، وهو يرى أنه يمكن إعادة توطين اللاجئين الفلسطينيين ليس فى إسرائيل ولكن فى دولة فلسطينية مستقبلية واقترح إن تقدم هذه الدولة المواطنة لليهود أيضا





دكتور سلام فياض © AFP, Abbas Momani

المفاوضات السياسية سوف لن تنجح وخطته (لاقامة دولة) ستكون اللعبة الوحيدة فى المدينة. الخطر الذى يتهدد إسرائيل والسلطة الفلسطينية على السواء هو ماذا يمكن ان يحدث اذا فشلت المفاوضات واذا لم تنتج خطة فياض انفصالا كاملا عن إسرائيل. يقول هرتزوج «لن ننسحب من مناطق معينة لمجرد وجود اعلان أو قرار من الأمم المتحدة» فى حالة حدوث ذلك سوف تكون حماس قادرة على تقديم حجة مقنعة وهى ان العنف هو الطريقة الوحيدة لتحقيق تحرير وطنى. «فياض يضع توقيتا اعتباطيا ويقول «حسنا، الان اكسروا رؤوسكم كلكم اذا اردتم تجنب كارثة». ان ما فعله مجازفة شديدة ولكنها ذكية جدا».

حتى الان ستراتيجية فياض ناجحة. لقد بدأت ادارته بتنفيذ أكثر من الف مشروع تطوير يتضمن رصف طرق وزرع اشجار وحفر آبار وبناء مبان جديدة معظمها فى المدينتين التوأم رام الله والبيرة[٨]. وقد قلل من الاعتماد على المعونة الاجنبية وبدأ تنفيذ خطط لبناء مستشفيات جديدة ومدارس ومحاكم ومنتزهات صناعية واسكان وحتى مدينة جديدة «روابى» بين رام الله ونابلس. ولكن كما اخبرنى غسان خطيب المتحدث باسم السلطة الفلسطينية «اصلاح القوات الامنية هو اهم جزء فى خطة فياض. والعديد من انجازات الحكومة مثل النمو الاقتصادى كان نتيجة لذلك».

قدمت حكومة فياض لمواطنيها اصلاح الشرطة والقوات الأمنية الاخرى بالدرجة الاولى كمسألة فرض القانون والنظام واعتقال العصابات الاجرامية وتوحيد الاجهزة الامنية المتنافسة ومنع مظاهر حمل الاسلحة بين العامة وتحديد اماكن السيارات المسروقة. ولكن برنامجها «لمكافحة الارهاب» الموجه بشكل رئيسى ضد حماس ويعتبر فى نظر الكثير من الفلسطينيين تعاونا مع إسرائيل هو اهم عنصر: يستهدف اعضاء حماس والمتعاطفين المشتبه بهم بهدف إبعاد امكانية سيطرة حماس على الضفة الغربية وهو يساعد فياض على تقديم حجة مقبولة بأنه يمسك بزمام الامور وانه يمكن لاسرائيل ان تنسحب بأمان من المنطقة.

فى ٢٠٠٩ اشتركت القوات الفلسطينية والاسرائيلية فى ١٢٩٧ نشاطا منسقا، ومعظمه ضد جماعات فلسطينية مقاتلة، بزيادة ٧٢ بالمائة عن السنة السابقة[٩]. وقد عملا معا على تفكيك ألوية شهداء الأقصى، وهى ميليشيا فتحاوية رئيسية وهاجما خلايا الجهاد الإسلامى وقضيا على معظم مؤسسات حماس الاجتماعية والترتيبات المالية والانشطة العسكرية فى الضفة الغربية.

طبقا لأحدث تقرير سنوى للشين بيت وهو الإف بى آى FBI الإسرائيلى، فإن «نشاط مكافحة الارهاب المستمر الذى تقوم به اجهزة الامن الإسرائيلية والفلسطينية قد خفض الهجمات الفلسطينية ضد الإسرائيليين فى الضفة الغربية والقدس الشرقية إلى اقل مستوياتها منذ عام ٢٠٠٠[١٠]. ويقول هيرتزوج ان مستوى التعاون اليوم «افضل حتى من قبل الانتفاضة الثانية بل انه ممتاز». وقد اخبرتنى منى منصور وهى نائبة حمساوية فى البرلمان الفلسطينى وارملة قائد كبير للحركة تم اغتياله «لقد نجحت السلطة الفلسطينية أكثر من الإسرائيليين فى القضاء على حماس فى الضفة الغربية».

فى مركز الاصلاحات الأمنية للحكومة الفلسطينية عدد كبير من «الكتائب الخاصة « للقوات الامنية الوطنية (NSF) وعديدها ثمانية آلاف فرد وهى تشكل اكبر وحدة فى القوات المسلحة الفلسطينية المتكونة من ٢٥ الف فى الضفة الغربية[١١]. الضابط المسئول فى الاختيار والتدريب والتسليح والتخطيط الستراتيجى لهذه الكتائب الخاصة هو اللفتنانت جنرال كيث دايتون المنسق الامريكى (USSC) لاسرائيل والسلطة الفلسطينية.

فى مدينة صحراوية تبعد ستة عشر ميل جنوب شرق عمان (الأردن) انهى أكثر من ثلاثة آلاف فلسطينى دورات عسكرية مدتها تسعة عشر اسبوعا بإشراف دايتون فى المركز الاردنى الدولى لتدريب الشرطة، وكان قد انشىء بتمويل أمريكى فى ٢٠٠٣ لتدريب الشرطة العراقية. وفى الخليل وجنين واريحا ورام الله،تنظم بعثة دايتون بناء وتجديد الحاميات العسكرية ومدارس التدريب ومرافق وزارة الداخلية ومقرات الامن، بعضها، مثل الذى زرته على قمة تل فى وسط الخليل، كانت قد دمرت بالهجمات الإسرائيلية خلال الانتفاضة الثانية. ويخطط مكتب المنسق الأمريكى لبناء معسكرات جديدة فى بيت لحم ورام الله وطوباس وطولكرم. وتقدم دورات قيادة لمدة شهرين لكبار ضباط السلطة الفلسطينية وقد صنعت وعينت مستشارين لمديرية التخطيط الستراتيجى فى وزارة الداخلية[١٢]. على مدى السنوات الثلاث الماضية، رصدت وزارة الخارجية الاميركية مبلغ ٣٩٢ مليون دولار لبعثة دايتون و١٥٠ مليون دولار اخرى طلبت لعام ٢٠١١[١٣].

فى مقرها فى مبنى حجرى يعود تاريخه للقرن التاسع عشر وداخل القنصلية الامريكية فى القدس الغربية، يعمل لدى بعثة المنسق الأمريكى خمسة واربعون شخصا هم طاقم العمل المتكون رئيسيا من امريكيين وكنديين وايضا بريطانيين وضباط من الجيش التركى. اضافة إلى ذلك، تستعين البعثة بثمانية وعشرين مقاولا خاصا من شركة داينكورب الدولية ومقرها ولاية فرجينيا[١٤]. وتتطلب قواعد وزارة الخرجية الأمريكية ان يتحرك موظفى الوزارة فى البعثة فى قوافل مسلحة تسليحا كثيفا رغم ان هذه التقييدات لا تطبق على مقاوليها الامنيين الأهليين وضباط الجيش الاجانب وبعضهم يستقر فى رام الله. فى اواخر ٢٠١١ وهو توقيت يترافق مع الموعد النهائى لخطة فياض. تخطط بعثة المنسق الامريكى ان تكون قد أتمت الاشراف على تدريب عشرة كتائب من قوات الامن الوطنية الفلسطينية، كتيبة لكل محافظة فى الضفة الغربية ماعدا القدس[١٥].





خطاب فياض فى أغسطس ٢٠٠٩ لإقامة دولة الأمر الواقع الفلسطينية من جانب واحد بحلول أغسطس ٢٠١١



الجنرال دايتون مسئول مباشرة أمام وزيرة الخارجية هيلارى كلنتون والاديرال مايك مولين رئيس هيئة الاركان المشتركة. ويقدم المشورة لجورج ميتشيل Mitchell المبعوث الخاص لسلام الشرق الاوسط وقد أطنب فى مديحه اعضاء مؤثرون فى مجلس الشيوخ والكونغرس ومحللو الشرق الاوسط الذين ينظرون إلى عمل بعثة المنسق الامريكى باعتبارها انجازا فريدا[١٦]. وقد منحت إسرائيل مسئولية اعظم لقوات الامن الفلسطينية موسعة رقعة عملياتهم جغرافيا، ومشاركتهم فى المعلومات الاستخباراتية ذات النوعية العالية ورفع حظرالتجول بالنسبة لهم المفروض من منتصف الليل إلى الساعة الخامسة مساء فى عدد من اكبر مدن الضفة الغربية[١٧]. وطبقا لمكتب الأمم المتحدة للتنسيق فى الشؤون الانسانية فإن إسرائيل قد قلصت ايضا وقت السفر بين معظم المراكز الحضرية فى الضفة الغربية بفتح طرق وارخاء السيطرات فى نقاط التفتيش ورفع متطلبات ترخيص مرور المركبات وازالة الحواجز والتى من المتوقع تخفيضها فى المستقبل القريب إلى أقل عدد منذ ٢٠٠٥[١٨].

كتب الكولونيل فيليب جى ديرمر Dermer وهو عضو سابق فى مكتب المنسق الامريكى فى تقرير مارس ٢٠١٠ الذى وزع على كبار موظفى البيت الابيض والجيش بأن «بعثة المنسق الأمريكى قد حققت تقدما على الارض أكثر من اى مجهود أمريكى آخر فى عملية السلام الإسرائيلية الفلسطينية»[١٩] وقال مايكل اورين سفير إسرائيل إلى الولايات المتحدة «يمكنكم ارسال جورج ميتشيل رائحا غاديا إلى ومن الشرق الاوسط كما تشاءون ولكن توسيع مايفعله الجنرال دايتون فى الجانب الامنى إلى قطاعات اخرى من الحكومة الفلسطينية والمجتمع هو فعلا النموذج الصحيح الوحيد للتقدم» [٢٠].

وصل أول منسق أمنى أمريكى اللفتنانت جنرال وليام «كب» وارد Ward فى القدس فى مارس ٢٠٠٥. وقد اخبرنى اليوت ابرامز Abrams نائب مستشار الامن القومى الامريكى السابق للرئيس جورج بوش بأن بعثة وارد قد جاءت كرد فعل على ثلاثة وقائع صادفت فى وقتها: اعادة انتخاب بوش فى نوفمبر ٢٠٠٤ والذى اراد بناء القوات الامنية الفلسطينية كجزء من خارطة الطريق لسلام الشرق الاوسط فى ٢٠٠٣، وموت ياسر عرفات بعد تسعة ايام وكان قد قاوم المحاولات الامريكية لاصلاح جهاز الامن الفلسطينى، وفوز المرشح المفضل امريكيا محمود عباس فى الانتخابات الرئاسية فى يناير ٢٠٠٥.

ركزت بعثة وارد اساسا على الاصلاح الامنى ولكن سرعان ما اقتصرت على التحضير لانسحاب رئيس الوزراء الإسرائيلى شارون من غزة واربعة مستوطنات فى شمال الضفة الغربية فى اغسطس وسبتمبر ٢٠٠٥[٢١]. وقد جرى الانسحاب سلسا بالنسبة لاسرائيل ولكن وارد فشل فى منع العنف من الجانب الفلسطينى. وقد نهبت زراعات محمية تابعة للمستوطنين واحرقت معابد يهودية فارغة وبدأ الفلسطينيون فى القتال مع بعضهم البعض من اجل السيطرة على غزة[٢٢].

بعد أسابيع من احلال دايتون محل وارد فى نهاية ٢٠٠٥ هزمت حماس فتح فى انتخابات يناير ٢٠٠٦ البرلمانية. وبين ليلة وضحاها تغيرت مهمة دايتون من اصلاح القوات الامنية إلى منع حكومة حماس من السيطرة على تلك القوات. وقد سعى محامو وزارة الخارجية الاميركية إلى استنباط طرق لاستمرار مساعدة القوات الامنية للسلطة الفلسطينية التى تسيطر عليها فتح والتى سوف تؤول إلى حماس وهى جماعة أعلنتها الولايات المتحدة منظمة ارهابية. كان الحل هو ارسال مساعدة مباشرة للرئيس عباس الذى كان قد انتخب بشكل منفصل ويعتبر بعيدا عن حكومة حماس القادمة والبرلمان. وعلى عكس سياستها الثابتة من الضغط على الرئيس الفلسطينى لمنح سلطة لمجلس الوزراء، نصحت الولايات المتحدة عباس ان يصدر قرارات ويجرى تعيينات تحد من سلطة الحكومة الجديدة خاصة على القوات الأمنية[٢٣]. كان رد فعل حماس هو انشاء جهازها الامنى الخاص. وقد حظر عباس ذلك الجهاز بقرار اعتبره مجلس الوزراء آنذاك غير شرعيا. وخلال السنة التالية انخرطت حماس وفتح فى سلسلة من الاشتباكات العنيفة اغتيل فيها زعماء من الجانبين[٢٤].

فى هذه الأثناء كان دايتون يشرف على تجنيد وتدريب وتسليح القوات الأمينة التابعة لعباس والتى تتسارع فى توسعها[٢٥]. القى خالد مشعل رئيس اللجنة التنفيذية فى حماس خطابا ناريا يدين فيه «الانقلاب الأمنى» على انه «مؤامرة» يدعمها «الصهاينة والأمريكان» وهى تهم نفتها فتح[٢٦]. فى فبراير ٢٠٠٧ وعلى حافة حرب أهلية سافر زعماء فتح وحماس إلى مكة حيث اتفقا على شكل من حكومة الوحدة الوطنية، وهى صفقة عارضتها الولايات المتحدة لأنها كانت تفضل ان تستمر فتح فى عزل حماس. اصبح فياض وزير المالية فى الحكومة الجديدة، رغم ضغط الأمريكيين عليه لئلا ينضم إلى الحكومة كما قال[٢٧]. وقد كتب الدبلوماسى من بيرو الفارو دى سوتو مندوب الأمم المتحدة السابق إلى الرباعية فى تقرير سرى بعنوان (نهاية المهمة) بأنه كان يمكن تجنب العنف بين حماس وفتح، لولا المعارضة الأمريكية القوية للمصالحة الفلسطينية. قال فى التقرير «من الواضح ان الولايات المتحدة كانت تدفع لمواجهة بين فتح وحماس»[٢٨].

قبل شهر من سقوط غزة فى ايدى حماس فى يونيو ٢٠٠٧، هاجمت قوات حماس القوات المدربة من قبل بعثة المنسق الأمريكى فى معسكرها قرب حدود غزة مع إسرائيل، وقتلت سبعة ولم تنسحب الا بعد ظهور ثلاث دبابات اسرائيلية[٢٩]. وقد زعم دايتون فى شهادته أمام الكونغرس فى الاسبوع التالى بأنه تم صد الهجوم وأنكر ان تكون قوة حماس فى تصاعد. وهو توقع خاب خلال الاسابيع التالية[٣٠]. يقول راجى صورانى مدير المركز الفلسطينى لحقوق الانسان «لم يستغرق الأمر من حماس الا بضعة أيام لطرد جهاز أمن السلطة الفلسطينية وقوامه ٥٣ الف رجل والذى كان استثمارا غربيا لمدة اربع عشرة سنة»[٣١].

ورغم ان العديد من اعضاء ادارة بوش قالوا لاحقا ان استراتيجية برمتها كانت خاطئة، فإن هزيمة قوات فتح المدعومة امريكيا قدمت درسا مختلفا نوعا ما للدائرة الصغيرة المؤثرة على مكتب المنسق الامريكى[٣٢]. يقول ابرامز «لم نعتبر هذا دليلا على ان المشروع كان فاشلا بل على أن هناك حاجة للمشروع».

ضاعت غزة، ولكن مع قيام عباس بتعيين مجلس وزراء طوارىء يرأسه سلام فياض، شعرت الولايات المتحدة ان هذه «افضل حكومة سلطة فلسطينية فى التاريخ». هذا ما قاله لى ديفد ويلش Welch مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الاوسط والذى ساعد فى الاشراف على بعثة دايتون حتى ديسمبر ٢٠٠٨. انهت ادارة بوش حصارها الذى استمر اربعة عشر شهرا للسلطة الفلسطينية واطلقت إسرائيل ٥٠٠ مليون دولار من ضرائب محتجزة وازداد التنسيق بين القوات الامنية الفلسطينية والاسرائيلية، ووسعت بعثة المنسق الامريكى من عملياتها بسرعة. فى أول ثلاثة أشهر ونصف من رئاسة فياض لمجلس الوزراء، من منتصف يونيو إلى اكتوبر ٢٠٠٧، أدارت السلطة الفلسطينية حملة فى الضفة الغربية ضد الهيئات الخيرية والشركات والوعاظ والموظفين التابعين لحماس، واعتقلت حوالى ١٥٠٠ من اعضاء الحركة والمتعاطفين المشتبه بهم[٣٣]. يقول ويلش «حالما اصبح واضحا ان حماس فازت فى غزة، كان الواجب تنظيف الضفة الغربية».

فى أواخر اكتوبر ٢٠٠٧، كانت الحكومة تبذل جهودا مكثفة للحفاظ على النظام فى نابلس، احدى اشد المدن العنيفة فى الضفة الغربية. فى جنين فى مايو التالى قادت كتيبة خاصة دربتها بعثة المنسق الامريكى، اكبر عملية امنية قامت بها السلطة الفلسطينية[٣٤]. وقد لاقت كلا الحملتين قبولا من السكان المحليين الذين كانوا ممتنين لتحسن الأمن. ولكن هذه المشاريع لم تكن بشكل عام تعتمد فقط على ضبط النفس من قبل حماس والجهاد الإسلامى ولكن ايضا على دعم إسرائيل، التى أعلنت العفو عن مسلحى فتح[٣٥].

يرى الكثير من الفلسطينيين أن الحملات التى تقوم بها القوات الأمنية



«لقد نجحت السلطة الفلسطينية أكثر من الإسرائيليين فى القضاء على حماس فــى الضفـــــة الغربيـــــــــة»





كان يمكن تجنب العنف بين حماس وفتح، لولا المعارضة الأمريكية القوية للمصالحة الفلسطينية



اليوم هى جهد يهدف إلى قمع حماس المنتصرة فى انتخابات حرة ونزيهة. وكذلك لمنع الهجمات ضد إسرائيل. وقد قال لى غيث العمرى وهو مستشار سياسة خارجية سابق لعباس «التحدى الذى يواجه فياض وعباس هو ان العنف ضد إسرائيل فى نظر الكثير من الفلسطينيين، جهد وطنى محترم» وهذه وجهة نظر اكدتها ردود الأفعال لمعظم التفجيرات الانتحارية الأخيرة فى إسرائيل. فى مركز تسوق فى ديمونة فى فبراير ٢٠٠٨ واطلاق النار بعد شهر على ثمانية طلاب فى يشيفا فى القدس الغربية. وقد اظهر استفتاء بأن أكثر من ثلاثة ارباع الفلسطينيين يؤيدون الهجمات التى امتدحتها حماس وادانتها السلطة الفلسطينية[٣٦].

وخلال السنة التالية، استمرت السلطة الفلسطينية بمساعدة بسيطة من حماس فى زيادة نفور الجمهور منها. فى قاعدة اسرائيلية شمال رام الله فى سبتمبر ٢٠٠٨، حضر الصحفى الإسرائيلى ناحوم برنية لقاء بين القادة العسكريين الفلسطينيين والاسرائيليين، وفى مقالة ترجمت لاحقا ونشرت فى الصحافة الفلسطينية، كتب برنية فى يديعوت احرونوت وهى اوسع الصحف الإسرائيلية انتشارا، بأن رئيس الاستخبارات العسكرية الفلسطينية قال «اننا نتكفل بكل مؤسسة تابعة لحماس طبقا لتوجيهاتكم»[٣٧].

ضربة اخرى لشعبية السلطة الفلسطينية جاءت بعد شهر ونصف. بعد أن أخلت القوات الإسرائيلية حوالى مائتين من اليهود من مبنى متنازع عليه فى الخليل، قام المستوطنون الاسرائيليون فى المنطقة بتدمير سيارات اسعاف وجوامع واحرقوا سيارات ومنازل واطلقوا النار وأصابوا سكانا فلسطينيين. وقد قال رئيس الوزراء ايهود أولمرت انه «يشعر بالخجل لمشاهد فتح النار من قبل يهود على عرب أبرياء» وقد وصف الواقعة بأنها «مجزرة»[٣٨] (الكلمة المستخدمة هى pogrom وتعنى حرفيا: المجزرة والفرهود والشغب والعنف المنظم خاصة ضد اليهود. المترجمة). وحين انتشرت أعمال الشغب إلى جزء المدينة الواقع تحت السيطرة الفلسطينية، راقب سكان الخليل قواتهم الأمنية تختفى بهدوء[٣٩]. وقد أبلغنى كل من حاكم المدينة السابق وهو الان رئيس موظفى عباس وقائد القوات الامنية الوطنية فى الخليل، وهى من معاقل حماس، بأن الجنود الإسرائيليين غالبا مايقومون بالتغلغل فى المناطق الخاضعة للسلطة الفلسطينية ويجبرون. كما قال حاكم المدينة القوات الفلسطينية «المذلة والمهانة» للانسحاب إلى ثكناتها. وقد قال الرجلان ان معرفة الناس بالتعاون بين السلطة الفلسطينية واسرائيل، يزداد بتكرار قيام الأخيرة بالاعتقال الفورى للاشخاص الذين تفرج عنهم السلطة الفلسطينية من سجونها.

أكبر ضرر أصاب سمعة القوات الامنية الفلسطينية حدث خلال الحرب الإسرائيلية فى غزة التى بدأت فى ديسمبر ٢٠٠٨. حيث أحاط الضباط الفلسطينيون فى الضفة الغربية وهم بملابس مدنية وعسكرية بالجوامع ومنعوا الشباب من الاقتراب من نقاط التفتيش الإسرائيلية واعتقلوا المحتجين الذين كانوا يهتفون بشعارات حماس وفرقوا المتظاهرين بالعصى ورشاش الفلفل والغاز المسيل للدموع[٤٠]. كانت الثقة بين القوات الإسرائيلية والفلسطينية من الشدة كما قال دايتون حتى أن «جزءا كبيرا من الجيش الإسرائيلى ذهب إلى غزة»[٤١]. وقد حدثنى باراك بن زور وهو رئيس سابق لوحدة مكافحة الارهاب فى الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية ولاحقا معاون خاص لمدير الشين بيت بأنه «فى المدن العربية الإسرائيلية كانت تظاهرات الاحتجاج ضد الحرب اكبر منها فى الضفة الغربية «بفضل» الهدوء التام الذى فرضته أجهزة الأمن الفلسطينية» كما قال لى وزير الخارجية افيجدور ليبرمان فيما بعد: «كان محمود عباس بنفسه يهاتفنا ويطلب منا ويضغط علينا ان نستمر فى حملتنا العسكرية للاطاحة بحماس»[٤٢].

بعد عدة أشهر من انتهاء الحرب فى غزة تحدث دايتون أمام مجموعة مؤثرة من السياسيين والمحللين فى معهد واشنطن لسياسة الشرق الادنى حيث تفاخر بانجازات بعثته: بناء قوة عملت ضد حماس وتعاونت مع إسرائيل اثناء الحرب، وخلق «رجال جدد» من خلال تدريب البعثة للقوات الفلسطينية. وقال أن القادة العسكريين الإسرائيليين يسألونه ماهى السرعة التى يستطيع بها إنتاج المزيد من هؤلاء الرجال الجدد[٤٣]. لم تجد تعليقاته هذه ترحيبا فى فلسطين حيث دعمت صورة العمالة لأمريكا وإسرائيل. وفى الأشهر التى تلت خطابه ذاك، ارسلت السلطة الفلسطينية شكوى رسمية للولايات المتحدة حول تصريحات دايتون «غير المقبولة» ورفض مسئولون فلسطينيون كبار بضمنهم فياض حضور اللقاءات مع دايتون وطبقا لمجلة جينز ديفينس الاسبوعية Jane's Defence Weekly «بسبب التوتر فى العلاقات بين الجنرال دايتون والقيادة الفلسطينية المدنية، تم تقليص دوره»[٤٤].

بالنسبة لفياض، لم يكن هناك توقيت أسوأ من توقيت خطاب دايتون، فقد جاء اثر اعلان استطلاع نشر على نطاق واسع، أظهر تدنى شرعية السلطة الفلسطينية بين سكان الضفة الغربية كما حدث بعد اسابيع فقط من قيام الفلسطينيين بأكبر مظاهرات احتجاج على اتهام القوات الامنية الفلسطينية بمحاولة اغتيال الشيخ حامد البيتاوى وهو احد قادة حماس البارزين فى الضفة الغربية[٤٥]. وكان البيتاوى وهو نائب فى البرلمان ورئيس رابطة علماء المسلمين الفلسطينيين ورجل دين معروف بخطبه فى المسجد الأقصى فى القدس، قد نجا من هجوم آخر نفذه مجهولون فى خريف ٢٠٠٨[٤٦]. ومنعته السلطة الفلسطينية هذا الصيف من الوعظ واعتقلت اثنين من ابنائه فى يوليو. ورغم ذلك فقد قال البيتاوى انه على ثقة بأن حكومة فياض لن تستمر[٤٧]. وقد ابلغنى فى نابلس «سوف تسقط فتح والسلطة الفلسطينية لسببين: الفساد والتعاون مع الإسرائيليين».

فى ديسمبر الماضى، اثناء وجود القوات الإسرائيلية فى نابلس، ويقال انه حسب بلاغ من الاجهزة الامنية الفلسطينية قتلت ثلاثة متشددين فلسطينيين مشتبه بهم فى مقتل حاخام فى الضفة الغربية، وقد حضر أكثر من ٢٠ الف فلسطينى الجنازة التى تحولت إلى احتجاج هائل ضد التعاون الامنى بين السلطة الفلسطينية واسرائيل[٤٨]. بعد عدة أيام اذاعت قناة الأقصى التابعة لحماس فيلم كارتون وفرقة تنشد «قسما لن يرهبنا دايتون». وكانت الشخصية الرئيسية فى الكارتون «بهلول» تمثل قائد قوات امنية وطنية فلسطينية يقبل احذية الجنود الإسرائيليين ويرتدى بيريه تحمل اسم «دايتون» وهو يدعى انه لا يمثل اى فصيل سياسى، قبل لحظات من سقوط بنطلونه ليكشف ملابسه الداخلية الملونة بلون علم فتح الاصفر.

فى اليوم الذى عرض فيه فيلم الكارتون على التلفزيون، قال عباس فى حوار تعليقا على صورته التى قدمها الكارتون بشكل دمية يحرك خيوطها جندى اسرائيلى «اننا لسنا حراس أمن إسرائيل» بعد اسبوع قال يوسف القرضاوى الواعظ التلفزيونى الذى يستقر حاليا فى الدوحة ويصل جمهوره إلى عشرات الملايين، فى خطبة اذيعت فى التلفزيون القطرى «إذا ثبت أن عباس هو الذى حرض إسرائيل على ضرب غزة فإنه لايستحق الإعدام فقط وانما يستحق الرجم حتى الموت».

لم يكن الاسلاميون النقاد الوحيدين لدايتون والقوات الأمنية. فى العام الماضى، فى مقالة افتتاحية بعنوان «الشرطة السرية فى اريحا» كتب باسم عيد رئيس المجموعة الفلسطينية لمراقبة حقوق الانسان «أود أن اقترح بأن لا يدرب الجنرال دايتون العناصر فقط فى استخدام الاسلحة والضرب والتعذيب، ولكن ايضا يدربهم على كيفية التصرف وسط شعبهم». إن القوات الأمنية الوطنية المدربة من قبل دايتون غير مخولة بالاعتقالات ولكنهم يقودون بانتظام عمليات مشتركة مع اجهزة الأمن الفلسطينية التى تم تدريب كبار قادتها من قبل مكتب المنسق الأمريكى وقد مارس هؤلاء طبقا لمنظمة مراقبة حقوق الانسان (هيومان رايتس ووتش) وجماعات حقوق الانسان الفلسطينية، التعذيب. وبعد سنة من عهد فياض تحدث ممدوح العكر وكان فى حينها المفوض العام للهيئة المستقلة لحقوق الانسان



قال لى ليبرمان: «كان محمود عباس بنفسه يهاتفنا ويطلب منا أن نستمر فى حملتنا العسكرية للإطاحة بحماس»





لم يستغرق الأمر من حماس إلا بضعة أيام لطرد جهاز أمن السلطة الفلسطينية وقوامه ٥٣ الف رجل



التابعة للسلطة الفلسطينية، عن «عسكرة» الحكومة وأكد أن «دولة اللاقانون تنزلق إلى نوع من دولة امنية، دولة بوليسية».

ومنذ ذلك الحين تصاعدت الاتهامات بالشمولية. وظل عباس الذى انتهت فترة حكمه خلال الحرب فى غزة، يحكم بموجب قرار رئاسى. ولم تكن ثمة هيئة تشريعية منذ يونيو ٢٠٠٧ والاحكام القضائية يتم تجاهلها من قبل الأجهزة الأمنية. وكان فياض، رغم كل التزامه بالمحاسبة والشفافية يحظى فى استطلاعات الرأى المتكررة بشرعية اقل مما يحظى بها رئيس وزراء حماس فى غزة اسماعيل هنية، وفى الخارج كانت الحكومة حسب مؤشر النزاهة العالمى قد حازت مع العراق مرتبة السادسة فى أكثر الحكومات فسادا فى العالم.

فى جوانب أخرى ايضا وقعت ممارسات السلطة الفلسطينية تحت طائلة الانتقاد الشديد. طبقا لشعوان جبارين مدير «مؤسسة الحق» وهى منظمة حقوق انسان فلسطينية، أصبح التعذيب فى الأشهر الأخيرة روتينا. وبينت استطلاعات للرأى اجريت على فترات منذ تسنم فياض مهام منصبه، ان سكان الضفة الغربية يشعرون دائما بأمان أقل من الغزاويين الذين يعيشون. فى جوانب كثيرة. ظروفا اسوأ تحت حكم حماس. وتقوم وزارة الشؤون الدينية بإملاء خطب الجمعة ليقرأها الأئمة. اما الصحفيون الفلسطينيون فطبقا لمنظمة العفو الدولية، فقد تعرضوا للاعتقال والتهديد خلال حرب غزة بسبب كشفهم القمع الحكومى. وفى تقارير منظمة صحفيين بلا حدود، حظيت السلطة الفلسطينية، منذ رئاسة فياض الوزارة، فى مؤشر الحرية الصحفية مرتين بالمرتبة الأدنى من أية دولة عربية اخرى. والان تمنح دار الحرية Freedom House للحقوق السياسية فى السلطة الفلسطينية نفس التقييم الذى تمنحه للحريات المدنية فيها: «ليست حرة».

حاول فياض ان يعزز مصداقيته لدى الفلسطينيين بالمساهمة فى انشطة «المقاومة السلمية». التظاهرات ضد الجدار الأمنى الإسرائيلى واحراق المنتجات المصنوعة فى المستوطنات الإسرائيلية. ولكن سام بحور رجل الاعمال الفلسطينى وداعية الحقوق المدنية اخبرنى بأن قرار الحكومة الاخير «لتبنى عنصر صغير واحد» للمقاطعة القائمة والأكثر شمولا هو مجرد «تزيين الفاترينة» الذى يهدف إلى التغطية على «دولة بوليسية أهدافها الرئيسية هى تحجيم حماس وانتقاد الحكومة. فى ٢٥ اغسطس، حين قامت الاحزاب السياسية اليسارية والمستقلة بالتجمع ضد المحادثات المباشرة مع إسرائيل التى بدأت بعد اسبوع من ذلك، اتخذت قوات أمن السلطة الفلسطينية اجراءات عنيفة لفض التجمع.

فى الشتاء والربيع الماضيين، استعدت السلطة الفلسطينية لانتخابات المجالس المحلية فى يوليو والتى أعلنت حماس نيتها مقاطعتها بسبب القمع السياسى. وقد اخبرنى خليل الشقاقى أبرز المستطلعين السياسيين بأن الغرض من الانتخابات كان «لمزيد من اضعاف حماس وتعزيز شرعية الحكومة «وحين حالت انقسامات فتح الداخلية دون الموافقة على قائمة مرشحين، ألغت السلطة الانتخابات نافية ان ذلك كان بسبب خشية فتح من خسارتها. ولكن شعوان جبارين قال لى بأن نفى الحكومة لم يكن صادقا:

فى مايو ويونيو، علمنا ان عشرات أو مئات من الحالات التى استجوب فيها اتباع حماس من قبل القوى الامنية حول انتخابات المجالس المحلية وقد وجهت اليهم اسئلة عما اذا كانوا سيرشحون انفسهم أم لا، اذا كانوا يريدون ان ينتخبوا ام لا، ولمن يريدون اعطاء اصواتهم.

وفى مكتبه فى رام الله قال الشقاقى بأنه بسبب شعور الناس فى غزة بحرية اكبر فى التعبير عن ميولهم السياسية لفريق الاستطلاع « حصلنا على اجابات أدق فى غزة عمن انتخبوهم فى الانتخابات الاخيرة مما حصلنا عليه هنا».

كتب الكولونيل ديرمر فى تقريره الذى وزع على كبار موظفى البيت الأبيض والبنتاغون فى اوائل هذا العام، يقول «فى حين ان المسئولين الإسرائيليين والأمريكيين ينظرون إلى نجاحات السلطة الفلسطينية الاخيرة فى الميدان. بقصر نظر على انها انتصار ضد الإرهاب، يراها الفلسطينيون الحذرون على انها حماية جديدة لنظام السلطة.» ومن أخطاء الجهود الأمريكية كما يعتقد هو «الطبيعة الغامضة لبعثة المنسق الأمريكى ونوع الدولة المطلوبة. هل الهدف هو ان تسود السلطة الفلسطينية وتهزم حماس عسكريا؟ أم هو الثأر لفقدان غزة؟ أم للحفاظ على الأمن لحساب إسرائيل؟ ام هل هو وضع اسس الامن لدولة فلسطينية مستقلة وديمقراطية؟» وقد اخبرنى غاندى امين وهو مدير فى المفوضية المستقلة لحقوق الانسان، التابعة للسلطة الفلسطينية «ليس لدى أمل فى خطة فياض. انى انظر إلى الأرض ولا ارى الا دورا متصاعدا لأجهزة الأمن».

فى اكتوبر، سوف يتقاعد دايتون ليحل محله جنرال بثلاث نجوم من القوة الجوية هو مايكل مويلر. خلال السنة القادمة، من المتوقع أن يُعهد إلى مويلر بأكبر التخصيصات المالية فى تاريخ مكتب المنسق الأمريكى. سيكون عليه، مع اقتراب الموعد النهائى لكل من خطة فياض وانتهاء المفاوضات الإسرائيلية الفلسطينية، ان يدفع بهدفين متضاربين: بناء قوى فلسطينية يمكن ان تضمن الأمن الإسرائيلى وفى نفس الوقت التغطية على الدعم الامريكى الشديد لما اصبح سكان الضفة الغربية، مثل السياسى المستقل مصطفى البرغوثى، يصفونه بأنه ليس احتلالا واحدا وانما اثنين. ■



التعاون بين السلطة الفلسطينية وإسرائيل، يزداد بتكرار اعتقال الأخيرة من تفرج عنهم السلطة الفلسطينية من سجونها



الهوامش

(١) للاطلاع على تقرير ممتاز عن الاصلاح الامنى الفلسطينى انظر «تربيع الدائرة: الاصلاح الامنى الفلسطينى تحت الاحتلال» مجموعة الازمات الدولية، ٧ سبتمبر ٢٠١٠

(٢) «فياض: يمكن لليهود ان يكونوا مواطنين متساوين فى دولة فلسطينية « هاآرتز ٥ يوليو ٢٠٠٩

(٣) للاطلاع عن مثال لنوع المديح الذى كيل لفياض انظر عدة اعمدة حديثة للكاتب روجر كوهين الذى وصف فياض بأنه «أهم ظاهرة فى الشرق الاوسط» وتوماس فريدمان الذى صاغ مصطلحا لنوعية «الشفافية والادارة المسؤولة «التى يمثلها فياض هو «الفياضية Fayyadism» التى كما يرى «أكثر الافكار اثارة فى تاريخ الحكم العربى». روجر كوهين «هزيمة الثقب الاسود فى الشرق الاوسط» صحيفة انترناشينال هيرالد تربيون، ٢٧ ابريل ٢٠١٠. توماس فريدمان «اطلاقات خضراء فى فلسطين» نيويورك تايمز ٤ اغسطس ٢٠٠٩

(٤) اكيفا ايلدار «يوم فى حياة بن غوريون الفلسطينى» هاآرتز ١١ فبراير ٢٠١٠

(٥) فادى السلامين «فياض: ابن ابن رغم الاحتلال» The Palestine Note ٣٠ يوليو ٢٠١٠

(٦) ميراف ميكايلى «ليبرمان: الاشارات الإسرائيلية للفلسطينيين جوبهت بلطمات على الوجه» هاآرتز ١٣ مايو ٢٠١٠

(٧) فادى السلامين «فياض:ابنِ ابنِ رغم الاحتلال»

(٨) تم تضخيم تقرير لصندوق النقد الدولى يقول ان الناتج المحلى الاجمالى فى الضفة الغربية قد ازداد بنسبة ٥,٨ بالمائة فى ٢٠٠٩. للاطلاع على مصدر يجادل بأن تقرير صندوق النقد الدولى بالغ كثيرا فى النمو الاقتصادى بالضفة الغربية، انظر باسم خورى «وضع العربة الفلسطينية قبل الحصان» موقع فورين بوليسى ١ يوليو ٢٠١٠

(٩) «اجراءات اتخذتها إسرائيل دعما لتطوير الاقتصاد الفلسطينى، الهيكل الاجتماعى الاقتصادى والاصلاحات الامنية « تقرير حكومة إسرائيل المقدم إلى لجنة التنسيق فى ١٣ ابريل ٢٠١٠

(١٠) «الموجز السنوى لعام ٢٠٠٩: بيانات واتجاهات الارهاب الفلسطينى « وكالة الامن الإسرائيلية ٢٠٠٩. انظر ايضا تقارير الوكالة السابقة و «اربع سنوات من النزاع:حرب إسرائيل ضد الارهاب» وزارة الخارجية الإسرائيلية ٣ اكتوبر ٢٠٠٤

(١١) حول حجم قوات الامن الوطنى، انظر تقديرات مذكورة فى «السلطة الفلسطينية:المعونة الامريكية هى تدريب وتجهيز القوات الامنية ولكن البرنامج يحتاج إلى قياس التقدم ويواجه تقييدات لوجستية» مكتب المحاسبة الحكومية مايو ٢٠١٠. و «تربيع الدائرة: الاصلاح الامنى الفلسطينى تحت الاحتلال» الرقم المستخدم فى هذه المقالة يقع بين الارقام المذكورة فى هذين التقريرين ويمثل تعديلا ضئيلا قدم لى من قبل المتحدث عن (بعثة شرطة الاتحاد الأوربى للمناطق الفلسطينية) فى ابريل ٢٠١٠، لتقدير سابق اصدره المسئولون الامريكان. انظر «الضفة الغربية: قوات الامن الفلسطينية» فريق محارب الطريق للتنسيق الامنى الامريكى، يونيو ٢٠٠٨.

(١٢) هذه الدورات مفتوحة لاعضاء كل من اجهزة الامن السبعة: قوات الامن الوطنى الحرس الرئاسى الشرطة المدنية. الدفاع المدنى وثلاثة اجهزة استخبارات: الاستخبارات العسكرية. المخابرات العامة. الامن الوقائى.

(١٣) «السلطة الفلسطينية:المعونة الامريكية هى تدريب وتجهيز القوات الامنية ولكن البرنامج يحتاج لقياس التقدم ويواجه تقييدات لوجستية»

(١٤) نفس المصدر اعلاه

(١٥) تتوقع وزارة الخارجية الامريكية على اية حال نشر القوات فى تسع محافظات فقط، مع الاحتفاظ بكتيبة كقوة احتياط (قطاع الأمن فى



رغم أن فياض لايملك شعبية إلا أنه اليوم مسئول تقريبا عن كل جانب من الحكومة الفلسطينية



السلطة الفلسطينية يعتبر محافظتى جنين وطوباس كوحدة واحدة) انظر «المعونة الامنية الامريكية للسلطة الفلسطينية» جهاز بحث الكونغرس ٨ يناير ٢٠١٠ و«تربيع الدائرة» مجموعة الازمات الدولية، ٧ سبتمبر ٢٠١٠ الصفحة ١١

(١٦) خدم دايتون إلى جانب مستشار الامن القومى الجنرال جيمس جونز الذى كان المندوب الخاص لأمن الشرق الاوسط فى ٢٠٠٧ ـ ٢٠٠٨، كتب دعاية متوهجة لكتاب حديث شارك فى تأليفه دنيس روس، المدير فى مجلس الامن القومى والمستشار الخاص للرئيس، وقد قدم عروضا توضيحية لأعضاء مجلس شيوخ مؤثرين وأعضاء من كونغرس ومجموعات المصالح التى كانت تزور إسرائيل.

(١٧) «تربيع الدائرة:الاصلاح الامنى الفلسطينى تحت الاحتلال»

(١٨) «تحديث الحركة والتنقل فى الضفة الغربية «مكتب الأمم المتحدة لتنسيق الشئون الانسانية، الاراضى الفلسطينية المحتلة، يونيو ٢٠١٠

(١٩) الكولونيل فيليب جى ديرمر «ملاحظات رحلة عند العودة إلى إسرائيل والضفة الغربية: انعكاسات على صنع السلام الامريكى، بعثة الامن، وماذا يجب فعله» صحيفة الدراسات الفلسطينية المجلد ٣٩ الرقم ٣ (ربيع ٢٠١٠) Journal of Palestine Studies

(٢٠) جيمس كتفيلد Kitfield «يسقطون متحدين يقفون متفرقين» ناشنال جورنال ٢٨ مارس ٢٠٠٩

(٢١) بعد وقت قصير من وصول «وارد « اشتكى وزير الداخلية الفلسطينى للهيئة التشريعية من أن جهود اصلاحاته واصلاحات وارد قد ضربت بالطوربيد من قبل القوات الامنية واجهزة الاستخبارات الاجنبية التى دفعت لهم. اخبرنى جارات تشوبرا Jarat Chopra مستشار سابق لمنظمة التحرير الفلسطينية وقد رأس مجموعة خدمت كذراع عملياتى لمكتب التنسيق الامريكى «اكبر التحديات التى يواجهها وارد تأتى من إسرائيل والسى آى أى CIA فكلاهما،حماية لعلاقاتهما مع رؤساء الامن الفلسطينيين، عرقلا الاصلاح وشجعا عقلية الاقطاعيات التى زرعها عرفات بين أكثر من دستة اجهزة امن متنافسة « انظر بنحاس انبارى ودان دايكر «مقتل موسى عرفات والمعركة من اجل غنائم غزة» مركز القدس للشئون العامة، ١٠ اكتوبر ٢٠٠٥. انظر ايضا خالد أبو طعمة «المسلحون الذين ترعاهم السلطة الفلسطينية يحرضون على الفوضى» جيروساليم بوست ١٤ يونيو ٢٠٠٥.

(٢٢) ابن عم عرفات، موسى عرفات البالغ من العمر خمسة وستين عاما وهو رئيس سابق للمخابرات العسكرية جرّ وهو بملابس النوم من بيته واطلق عليه الرصاص خمس عشرة مرة خارج مكاتب منظمة الأمن الوقائى، وهى اكبر مستلم فلسطينى لمساعدة السى آى أى والتى يرأسها منذ وقت طويل خصمه محمد دحلان.

(٢٣) «الفلسطينيون واسرائيل والرباعية: التراجع عن الحافة» مجموعة الأزمات الدولية، تقرير الشرق الاوسط رقم ٥٤ فى ١٣ يونيو ٢٠٠٦ صفحة ٧ «قال لى اليوت ابرامز «هل تستطيع اصدار قرار رئاسى يقول: أقول بهذا أن هذه القوة. القوة ١٧. لم تعد تحت سيطرة وزير الداخلية؟ ولكن السؤال كان دائما أكثر قانوية ورسمية. فى العالم الواقعى، نحن وعباس وفتح والسلطة الفلسطينية ومنظمة التحرير الفلسطينية. كنا مسيطرين طوال الوقت»

(٢٤) نشر القوات كان يجابه بنشر مضاد، يتبعه اصطدامات واغتيالات وتضاعف اسعار M١٦ ومنع تجول مفروض ذاتيا فى غزة. انظر ادام انتوس وهيثم التميمى . «نزاع حماس وعباس يطلق سباق تسلح فلسطينيا» رويترز ٨ يونيو ٢٠٠٦. خالد أبو طعمة «ينبغى ان ينتهى هذا قبل ان يكون مثل العراق» جيروساليم بوست ٢٠ ديسمبر ٢٠٠٥

(٢٥) ادام انتوس «عباس يبنى القوات وسط ازمة فلسطينية» رويترز ٥ اكتوبر ٢٠٠٦. ديفد ويلش مساعد سابق لوزيرة الخارجية لشئون الشرق الادنى والذى ساعد على الاشراف على بعثة دايتون حتى ديسمبر ٢٠٠٨ قال لى: «نحن اساسا نحاول نحت ارض وسطية قلقة بين تطهير القوات الامنية وهزيمة العدو» وثائق مسربة وقد نشرتها صحيفة اردنية وهى مكتوبة بخط دايتون تنص على انه بين ٧ ديسمبر ٢٠٠٦ و٢٨ فبراير ٢٠٠٧ بدأ تدريب اساسى لعدد ٣٧٠٠ فرد أمنى فى غزة ولعدد ١٤٠٠ فرد امنى فى الضفة الغربية. اضافة إلى ذلك كما تنص الوثيقة، فقد بدأ فحص واختيار ١٥ الف عنصر امنى وطنى فى غزة و٥٠٠٠ فى الضفة الغربية.

(٢٦) انظر ديفد روس Rose «الدليل هو فى الوثائق الورقية « فانيتى فير ٥ مارس ٢٠٠٨. الجنرال محمد عراج قائد القوات الامنية الوطنية المدربة من قبل دايتون، فى الخليل اخبرنى بأن كتيبته بدأت التدريب فى ٢٠٠٦. قال لى مسئول كبير فى ادارة بوش «قدم المصريون والاردنيون دعما عينيا فى حين ان اكبر الداعمين ماليا كانوا الاماراتيين. كما قدم السعوديون التمويل لبعض الوقت».

(٢٧) خطاب خالد مشعل رئيس المكتب السياسى: لن ننحنى للضغوط الامريكية والاسرائيلية وفتح لنكون تابعين للصهاينة «شبكة اخبار فلسطين ٢٢ ابريل ٢٠٠٦. فى خريف ٢٠٠٦ نشرت صحيفة هآرتز الإسرائيلية اليومية ان دايتون خطط لدفع عباس لمواجهة حماس فى غزة: فى زيارة ويلش وابرامز إلى إسرائيل فى اوائل نوفمبر «وصلا بخطة طموح رسمها الجنرال كيث دايتون .. تريد الولايات المتحدة ان تدفع ابو مازن إلى مواجهة عسكرية فى غزة للاطاحة بحكومة حماس» الوف بين Aluf Benn «كلمات كلمات كلمات» هآرتز ٢ نوفمبر ٢٠٠٦

(٢٨) «دولة فلسطينية فى سنتين: حوار مع سلام فياض» صحيفة الدراسات الفلسطينية، خريف ٢٠٠٩

(٢٩) الفارو دى سوتو «تقرير نهاية المهمة» مايو ٢٠٠٧. قبل اسبوع من اجتماع مكة، كتب دى سوتو «اعلن المبعوث الامريكى مرتين فى لقاء المبعوثين فى واشنطن كم «احب هذا العنف» واخبرنى ويلش «لقد قلت هذا ولكن ما قلته كان «حيث لايوجد عنف فإن ذلك يعنى ان الرجال الطيبين لابد قد استسلموا « بعد يوم من تشكيل حكومة الوحدة الوطنية عين عباس خصم حماس المقيت محمد دحلان مستشارا للامن القومى، وقد قال قائد حماس محمود الزهار «لن ننسى ابدا ان هذا هو الرجل الذى احرق لحانا وعذبنا» ويمكن الاطلاع على الاقتباس من الزهار فى كتاب بيفرلى ملتون ادواردز وستيفن فاريل «حماس» (بولايتى ٢٠١٠) صفحة ٢٨٠.

(٣٠) فى نهاية ابريل ٢٠٠٧ نشرت صحيفة اردنية وثائق أمريكية مسربة. انظر هامش ٢٥. تلخص ستراتيجية لتقويض حكومة الوحدة الوطنية وتقوية فتح والقضاء على القوة الامنية الجديدة لحماس. سيقول مسؤولو حماس فيما بعد ان هذه الخطط مع وصول قوات من مصر تدربت على ايدى دايتون شجعتهم على المضى فى الهجوم على غزة فى اواخر الربيع. وقد نشرت فى الاصل على الانترنيت بالعربية على موقع (المجد) فى ابريل ٢٠٠٧ ونشرت بعد ذلك بالانجليزية على مدونة اسمها Missing Links

(٣١) انظر روس «الدليل هو فى الوثائق الورقية» انظر ايضا «بعد غزة» مجموعة الازمات الدولية، تقرير الشرق الاوسط رقم ٦٨ فى ٢ اغسطس ٢٠٠٧ صفحة ١١ وملاحظات بقلم محمود الزهار وفوزى برهوم فى مقالة ديفد روس «قنبلة غزو» المنشورة فى فانيتى فير، ابريل ٢٠٠٨

(٣٢) ابراهيم برزك «حماس تقتل ٧ فى اشتباك على الحدود مع غزة» اسوشيتد برس ١٥ مايو ٢٠٠٧

(٣٣) «المعونة الامريكية للفلسطينيين» جلسة استماع أمام اللجنة الفرعية حول الشرق الاوسط وجنوب آسيا للجنة الشئون الخارجية، مجلس النواب، الكونغرس ١١٠ فى ٢٣ مايو ٢٠٠٧

(٣٤) كتاب «اقتل خالد» (نيو بريس ٢٠٠٩) لمؤلفه Paul MacGeough (آثرت وضع اسم المؤلف بالانجليزية لأن لاسم عائلته ايرلندية الاصل طريقتين للنطق، فبعض الايرلنديين ينطقونه ماكجيو وبعضهم ماكجوف، وهكذا طالما لم يتفق قومه على طريقة واحدة لنطق الاسم وبما انى لا اعرف كيف ينطق المؤلف اسمه، اضعه بلغته الاصلية . المترجمة).

(٣٥) ذهب ديفد ورمسر، مستشار الشرق الاوسط لنائب الرئيس تشينى بعيدا فى قوله «ماحدث لم يكن انقلابا من حماس وانما محاولة انقلاب من فتح ولكنها اجهضت قبل ان تحدث» انظر روس «قنبلة غزة» وانظر ايضا اقتباسات من جون بولتون المندوب الامريكى السابق إلى الأمم المتحدة فى نفس المقالة «بعد فشلهم فى اتباع التحذير بعدم اقامة الانتخابات، حاولوا تجنب النتيجة من خلال دايتون» وقد اخبرنى العديد من مسئولى ادارة بوش بأن ورمسر وبولتون لم يكن لهما تأثير على السياسة التى ينتقدانها.

(٣٦) «حكم فلسطين الجزء ٢: نموذج الضفة الغربية ؟» مجموعة الازمات الدولية تقرير الشرق الاوسط رقم ٧٩ فى ١٧ يوليو ٢٠٠٨ صفحة ٤

(٣٧) محمد نجيب «الضباط الفلسطينيون يتخرجون من دورة تدريب اردنية على العمليات الخاصة» جينز ديفينس ويكلى ٢ مايو ٢٠٠٨

(٣٨) كانت عمليات مكافحة الارهاب التى قام بها الجيش الإسرائيلى مسئولة ايضا عن تحسن الحالة الامنية. فى فبراير ٢٠٠٨ أبلغ الميجور جنرال غادى شامنى وكان فى حينها رئيس القيادة المركزية الإسرائيلية، الرئيس شيمون بيريز «بدون وجود جيش الدفاع الإسرائيلى المكثف فى الضفة الغربية سوف تستولى حماس على مؤسسات واجهزة السلطة الفلسطينية خلال ايام»

(٣٩) أيد هجوم ديمونة ٧٧٪ من الفلسطينيين وهجوم القدس ٨٤٪ «استطلاع الرأى الفلسطينى رقم ٢٧» المركز الفلسطينى للبحوث السياسية والمسحية، ٢٤ مارس ٢٠٠٨

(٤٠) ناحوم برنية «الفرصة الأخيرة» يديعوت احرونوت، ١٩ سبتمبر ٢٠٠٨ «التفاصيل الصادمة للاجتماعات الامنية الفلسطينية الإسرائيلية» Palestine Times ٢٩ سبتمبر ٢٠٠٨. جون ايلمر «وصفة للحرب الاهلية» الجزيرة ٨ فبراير ٢٠١٠.

(٤١) «الخليل: الهجر الإرادى لقوات الامن» بتسيليم Tselem'B ١٠ ديسمبر ٢٠٠٨. ايثان برونر «القوات الإسرائيلية تخلى مستوطنين فى الضفة الغربية» نيويورك تايمز ٤ ديسمبر ٢٠٠٨. «اولمرت يدين مجزرة قام بها المستوطنون» بى بى سى ٧ ديسمبر ٢٠٠٨.

(٤٢) جاريد مالسن Malsin «شهود: الشرطة الإسرائيلية والجنود:متورطون بعمق فى هجمات يقوم بها مستوطنون» وكالة معا الاخبارية، ٧ ديسمبر ٢٠٠٨. تونى كارون وأرون كلاين «شباب المستوطنين الإسرائيليين يرتكبون اعمال شغب فى الخليل» تايم ٥ ديسمبر ٢٠٠٨

(٤٣) روبرت بليتشر Blecher «عملية صب الرصاص فى الضفة الغربية» صحيفة الدراسات الفلسطينية المجلد ٣٨ رقم ٣ (ربيع ٢٠٠٩) ينص تقرير حديث صادر عن مجموعة الازمات الدولية «فى الخليل. خلال حرب غزو. صور مستطرق بالفيديو قائد لواء فلسطينى (من قوات الامن الوطنى) يضرب متعاطف مع حماس اعزل بالعصا. انظر «تربيع الدائرة: اصلاح الامن الفلسطينى تحت الاحتلال»

(٤٤) اللفتنانت جنرال كيث دايتون «السلام من خلال الامن: دور امريكا فى تطوير اجهزة الامن التابعة للسطلة الفلسطينية» برنامج ندوة سوريف Soref Symposium خطاب مايكل شتاين حول سياسة الشرق الاوسط الامريكية، معهد واشنطن لسياسات الشرق الادنى، ٧ مايو ٢٠٠٩

(٤٥) ميكايلى «ليبرمان: اشارات إسرائيل للفلسطينيين تجابه بلطمات على الوجه»

(٤٦) دايتون «السلام من خلال الامن: دور امريكا فى تطوير اجهزة الامن التابعة للسلطة الفلسطينية «

(٤٧) محمد نجيب «السلطة الفلسطينية تسعى إلى تغيير التدريب الامنى « جينز ديفينس ويكلى ٥ اغسطس ٢٠٠٩ و «السلطة الفلسطينية تنوى الخروج من برنامج التدريب الامريكى» نفس المصدر ١٧ مارس ٢٠١٠

(٤٨) «استطلاع الرأى الفلسطينى رقم ٣١» المركز الفلسطينى للسياسة وابحاث المسح، ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٨. «تظاهرات حمساوية هائلة تدين اطلاق النار على البيتاوى كمحاولة اغتيال» وكالة اخبار معا، ١٩ ابريل ٢٠٠٩



فى الشتاء والربيع الماضيين، استعدت السلطة الفلسطينية لانتخابات المجالس المحلية فى يوليو والتى أعلنت حماس نيتها مقاطعتها



قــــــراءة جـــديـــــدة

فــى كـــتـــب قــديمـــــة

"الطـــــريــق المـصــــــرى إلى القـــدس"

محيــى الــديـن عـمـيــمــور

■■ بعد قراءة أكثر من ثمانين صفحة من كتاب الأستاذ محمد حسنين هيكل «كلام فى السياسة» استعرض فيها بعض معطيات الكتاب الذى أصدره الأستاذ الجامعى ووزير الدولة السابق والأمين العام الأسبق لمنظمة الأمم المتحدة، الدكتور بطرس بطرس غالى: «طريق مصر إلى القدس»، قررت أن أقرأ الكتاب واستنتج بنفسى الخطأ والصواب من كتاب المثقف الذى كان أحد كبار مهندسى الاتفاق المنفرد بين مصر وإسرائيل، والذى أراه بداية البداية لكل ما عرفته المنطقة حتى نهاية العشرية الأولى من القرن الميلادى الجديد.

والكتاب يتميز بنزاهة الأستاذ الجامعى، الذى يستعرض الوقائع كما عاشها ويُثمن الرجال كما عرفهم، ولا يحاول، بأى حال من الأحوال، أن يكون غير ما هو بالفعل، ولا يبالى بما يمكن أن يفلت منه من أحكام أو إفضاءات، حتى ولو كان يمكن أن تسىء له بإظهاره كمن يعانى من عقدة معينة، وسيلاحظ القارئ هذا عند كل إشارة من الكاتب لأسرته العريقة، أو لتعامل زملائه معه.

وأتصور أن هذه النزاهة هى من أهم ما يُذكر للكتاب، الذى رأيت أن أستعرض صفحاته لذلك السبب على وجه التحديد بأسلوب انتقائى غير مألوف، يعتمد على اختيار فقرات كاملة (وأقول فقرات كاملة لا تعانى من بتر تعسفى أو حذف يُخل بمعناها) وهكذا أتمكن من رسم رؤية الكاتب، بقلمه وبتعبيراته نفسها، وبالطبع مع الحرص الكامل على ألاّ تُبتر سطور عن سياقها الطبيعى بما يمكن أن يُشوه مضمونها، وهكذا مارست ما يسمى فى المدارس الابتدائية عملية «قص ولصق».

ولتسهيل الأمر على الباحثين سأشير بانتظام إلى أرقام الصفحات، وسأشير إلى أمكنة الحذف والاقتباس(..) وسأتفادى، بقدر طاقتى على التزام الصمت، كل محاولة للتعليق على الفقرات التى سأختارها لأننى لا أريد أن أتدخل فى الحكم النهائى للقارئ، لكننى سأشير بعلامتى استفهام أضعها بين قوسين لفقرات أتصور أنها تستحق لفت الانتباه، وقد تكون لى وقفات سريعة لتسجيل ملاحظة أراها هامة لعلم القارئ. وسأحتفظ لنفسى بحق التعقيب النهائى بعد إكمال هذه الدراسة المرهقة التى أقوم بها للمرة الأولى فى حياتى.

البـــــــدايــة

قبل الدخول فى صلب الموضوع أسجل انطباعى بأن أسلوب التعبير فى الكتاب قد يوحى بأن تفكير الكاتب عند صياغته لم يكن دائما باللغة العربية.

وهكذا، وتحت عنوان «السادات يختارنى» كتب الدكتور غالى يقول:

«بدأ يوم الثلاثاء ٢٥ أكتوبر ١٩٧٧ كأى يوم عادى فى حياتى الجامعية (..) فى عصر ذلك اليوم زرت معرضا للوحات الزيتية أقامته فنانة أمريكية فى المكتبة الأمريكية بغاردن سيتى، وكان ابن شقيقى قد ألح علىّ بقوة فى أن أفعل ذلك، إذ أن الفنانة هى زوجة الأستاذ المشرف على رسالته للدكتوراه فى الاقتصاد بمعهد ماساشوشتس للتكنولوجيا (؟؟) وبعد ذلك توجهت إلى مطار القاهرة الدولى لمقابلة زوجتى، التى كانت عائدة من إيطاليا عندما دخلت مبنى المطار لمحتنى من بعيد هدايت عبد النبى الصحفية بالأهرام، فركضت نحوى منفعلة وهى تقول: إن رئاسة الجمهورية كانت تبحث عنك فى كل مكان. أين كنت؟ ألف مبروك يا دكتور على الوزارة.

وبمجرد أن وصلت زوجتى، ليا، ورأت التعبير الذى علا وجهى، سألتنى ماذا حدث لى فأجبتها أنى مهدد بمصيبة يمكن أن تقلب حياتها وحياتى رأسا على عقب (..) وقررت أن أتجه على الفور إلى رئاسة مجلس الوزراء لإنهاء الموضوع وشرح أسبابى فى الرفض لرئيس الوزراء.

دخلت المجلس القائم فى قصر الدوبارة، الذى كان من قبل قصر الأميرة شويكار أولى زوجات الملك فؤاد والمسؤولة عن التنظيم البديع لحفلات الملك فاروق (؟؟) وكانت الأميرة صديقة حميمة لأمى التى كانت مخلصة فى ولائها للأسرة المالكة، وقد سبق لى فى صباى أن سعدت بحضور حفلات فى ذلك القصر على شرف الملك فاروق.

كانت الساعة الحادية عشرة مساء عندما استقبلنى ممدوح سالم رئيس الوزراء (..) وممدوح سالم رجل طويل القامة ذو شخصية مؤثرة، معروف بالأمانة وضبط النفس وقلة الكلام واختيار الكلمات بعناية. وهى مجموعة صفات يندر وجودها فى العالم العربى(؟؟)

وظهرت مشاعرى الحقيقية عندما أبديت له العقبات العديدة التى تحول دون هذا التعيين. قلت: كيف يمكن أن أقبل هذا المنصب؟ إن جميع القوانين الاشتراكية قد طُبقت علىّ(..) إن ثروة زوجتى قد وضعت تحت الحراسة، والحارس الحكومى يدفع لها مرتبا شهريا ضئيلا، وقد تعرض أفراد عائلتى لمعاملة مماثلة، وعلى ذلك نحن لا نتمتع بسمعة طيبة لدى من قاموا بالثورة (..) إن قوانينكم جعلتنى عدوا للشعب (؟؟).

كان صبر ممدوح سالم قد بدأ ينفذ (..) فقال «الوقت قد تأخر يا دكتور. ويجب أن تستعد فكريا للمنصب الجديد. والمرسوم الجمهورى بتشكيل الوزارة، وأنت عضو فيها، أذيع بالفعل» السادات فى سعيه لتوثيق العلاقات مع الغرب لم يكن لديه اعتراض على استخدام شخصيات ينظر لها على أنها موالية للغرب، حتى إذا كانت تنتمى إلى «النظام القديم».

فى يوم الأربعاء ٢٦ أكتوبر ١٩٧٧ توجهت إلى قصر عابدين لأداء اليمين (..) وانتابنى الانفعال والخوف من ألاّ أتمكن من ترديد القسم بلا خطأ (..) خلعت نظارتى وتلوت اليمين متمهلا وعدت إلى مكانى. وفجأة انتشر شعور بالمرح، وشرع زملائى الوزراء فى تهنئة بعضهم بعضا، واجتمعنا فوق السلم العريض لالتقاط الصورة التقليدية.

وكان الزملاء الجدد يقومون بمناورات إستراتيجية مدروسة لشغل موقع ظاهر فى الصورة، وبسبب عدم انتباهى وجدت نفسى فى بقعة متواضعة فـى الصـف الأخيـر.(؟؟)1 sdfootnote1sym

فى مصر، ومن العصور الفرعونية حتى اليوم، ما زالت التقاليد تمجد الحاكم، فالمرء إمّا أن يكون من الحكام أو لا يكون شيئا، ولذا فإن أعلى منصب يطمح فيه المرء هو خدمة الحاكم.

فى الصباح التالى قمت بزيارة رسمية للبطريرك قداسة الأنبا شنودة رئيس الكنيسة المسيحية القبطية. وكانت الكاتدرائية القبطية الجديدة قد بنيت ملاصقة للكنيسة البطرسية التى أقيمت إحياء لذكرى جدى بطرس غالى رئيس الوزراء (..) وقد كانت الكنيسة القبطية فى وقت من الأوقات من كبار ملاك الأراضى فى مصر وتتمتع بثراء كبير. ولكن بعد الثورة تضاءلت ممتلكاتها بسبب قوانين الإصلاح الزراعى المتعاقبة».

وقفة سريعة: اغتال وطنى مصرى مسلم اسمه الوردانى بطرس غالى الكبير، جد مؤلف الكتاب الذى أصبح يصر على الانتساب للجد، وربما كنوع من العناد أكثر من كونه موقفا سياسيا.

«وقضيت الأيام التالية فى زيارة زملائى للاستفسار عن واجباتى، وقام أحد الموظفين بتوجيهى إلى الغرفة المخصصة لى، وهمس بأنى تأخرت فى اختيار أحسن غرفة لنفسى، وقال إن وزير الدولة الآخر، الدكتور نعيم أبو طالب، حضر مبكرا ذلك الصباح واختار أوسع الغرف وأجملها، وحاولت إقناعه بأنى



إذا تضمنت كلمة الرئيس السادات فى الكنيست أية إشارة إلى منظمة التحرير الفلسطينية فذلك لن يجعل من السهل سيادة الجو الجديد من المصالحة الذى نريد تشجيعه





مهتم بالعمل الذى سأؤديه ولست مهتما بنوع الغرفة التى أشغلها. ولم يأخذ كلامى على محمل الجد.

بنهاية ذلك اليوم بات واضحا لى أن وزير الدولة هو وزير بلا وزارة، وأن عليه أن يُكافح حتى يجد ما يعمله (..) وبذلك تأكدت مخاوفى.(..) نحن وزراء الدولة الثلاثة ليست لنا مهام محددة، ولم يكن هناك مل يبرر تعييننا فى تلك المناصب.

كان اهتمامى الأول أن أذهب صباح كل يوم لمتابعة تجهيز مكتبى، وكان وكيل الوزارة لشؤون المشتريات يستقبلنى كل يوم قائلا: ألف مبروك، تمّ طلاء الجدران.... ألف مبروك، تمّ تركيب الستائر.... ألف مبروك، تم تركيب التليفون.... ألف مبروك...

وفى عصر يوم الأربعاء ٩ نوفمبر ذهبت إلى قاعة مجلس الشعب وجلست مع زملائى ننتظر حضور الرئيس السادات الذى كان متوقعا أن يُلقى خطابا بالغ الأهمية. وكان ياسر عرفات حاضرا ويجلس فى المقدمة (..) وأثناء إلقاء الرئيس السادات خطابه قال «إننى على استعداد حتى للذهاب إلى آخر نقطة فى العالم سعيا إلى السلام العادل (..) بل إننى على استعداد حتى للذهاب إلى الكنيست الإسرائيلى لأننا لا نخشى السلام، ولأننا أيضا لا نخشى المجابهة مع إسرائيل» (..) وكان الرئيس عرفات أول من انفجر بالتصفيق لهذه الكلمات.

ولم يكن عرفات ولا زملائى ولا أنا قد فهمنا تداعيات ما قاله الرئيس.

وفى يوم الأربعاء ١٦ نوفمبر أصبح مكتبى الجديد جاهزا لشغله أخيرا، وتلقيت مكالمة تليفونية تطلب منى التوجه لمقابلة رئيس الوزراء، وبطريقة غريبة وبها شىء من التباهى (؟؟) طلب منّى ممدوح سالم أن أذهب على الفور إلى قصر العروبة، مقر نائب الرئيس حسنى مبارك فى مصر الجديدة (..) ودخلت أحد الصالونات إلى يمين المدخل، وبعد دقائق قليلة دخل مبارك مبتسما ودودا، وقال «الرئيس السادات معجب بكتاباتك السياسية والفكرية، ويعرف اتصالاتك بالدوائر الدولية، ولذا قرر أن يُكلفك بعمل هام وسرى، فهو يطلب منك إعداد الخطوط العامة لكلمة يلقيها يوم الأحد المقبل. فى إسرائيل. كلمة يلقيها رئيس مصر أمام الكنيست الإسرائيلى». وكانت دهشتى مزدوجة، فلأول مرة أعرف أن الرئيس السادات يعتزم فعلا الذهاب إلى إسرائيل.

قبل ذلك بأيام قليلة، عندما كنت أحاول أن أعثر على مكتبى الوزارى وأُنظّمه، كان واحد من الأمريكيين اليهود الذين يُمثّلون حركة «السلام الآن» قد جاء يسألنى ما إذا كنت أستطيع أن أقنع السادات بأن يبعث برسالة تحية إلى مؤتمر «السلام الآن» الذى سيُعقد فى القدس برئاسة بيير منديس فرانس رئيس وزراء فرنسا الأسبق. وقلت لمحدثى «لا بدّ أنك لست فى وعيك. لا يمكن أن يُوافق السادات على شىء كهذا» ومع ذلك بعثت بتلكس إلى الرئاسة بشأن هذا الطلب، وبعد ثلاث ساعات تلقيت برقية من السادات نصها: «أوافق. قُم بإعداد نَصّ الكلمة» (..) وعلى الرغم من هذه البادرة من جانب السادات، لم أدرك ما كان يُفكّر فيه.

أمّا الإسرائيليون فقد رأوا فى تلك البرقية أول طيور الربيع. وقد اكتشفت فيما بعد أن يدا قد أزالت تلك الكلمة من الأرشيف، والأرجح أن ذلك بسبب قيمتها التاريخية (؟؟)

فى يوم الجمعة ١٨ نوفمبر ١٩٧٧ (..) عندما دق جرس التليفون، كان المتحدث مكتب مبارك يبلغنى أن نص الخطاب مطلوب على الفور (..) دق جرس التليفون ثانية، كان مكتب مبارك أيضا، بدأت أعتذر عن التأخير ولكنه قاطعنى قائلا: إنى لم أطلبك بشأن الخطاب، هناك مسألة أخرى مهمة، فقد صدر قرار جمهورى بتعيينك فى منصب وزير دولة للشؤون الخارجية، وقائما بأعمال وزير الخارجية، وبهذه الصفة ستنضم إلى الوفد المصاحب للرئيس فى زيارته لإسرائيل غدا، السبت. (..)

كان المعروف أن إسماعيل فهمى ومحمد رياض، اللذين كان أولهما وزيرا للخارجية وثانيهما وزيرا للدولة للشؤون الخارجية، قد آثرا الاستقالة على مرافقة الرئيس إلى القدس (..) وكانت الصحف العربية تكتب عبارات مسمومة، كانت تقول ليس هناك مسلم يقبل مصاحبة الرئيس، ولذا اختار المسيحى بطرس غالى المتزوج من يهودية.(..) وغمرت الأضواء سلم الطائرة المصرية التى كانت قد هبطت فى المطار الإسرائيلىّ (..) انتهت مراسيم الاستقبال الرسمى على عجل، وفى سيارة تنطلق إلى القدس جلس إلى يسارى موشى دايان وزير خارجية إسرائيل (..) قال إنه يريد منى أن أنقل رسالة إلى الرئيس السادات، وكانت كالتالى: إذا تضمنت كلمته فى الكنيست أية إشارة إلى منظمة التحرير الفلسطينية فذلك لن يجعل من السهل سيادة الجو الجديد من المصالحة الذى نريد تشجيعه.

استيقظنا فى الفجر. ذهبنا إلى المسجد الأقصى حيث صلّى الرئيس ومرافقوه، وقفت على مقربة منهم بينما كان المصلون ينحنون ويركعون (؟؟) أمام عظمة العلىّ القدير (..) كنت على وشك البكاء، وللتغلب على ذلك، أرغمت نفسى على التفكير فى الحذاء الذى تركته خارج المسجد، وما يمكن أن يحدث إذا لم أجده فى الكومة الكبيرة الموجودة هناك (؟؟) بعد ذلك ذهبنا إلى كنيسة القيامة (..) وألقى المطران خطبة نارية هاجم فيها الاحتلال والممارسات الإسرائيلية (..) واستمع الرئيس السادات إلى المطران بلا انفعال (..) ثم بدأ الرئيس السادات خطابه التاريخى. وكنت حتى تلك اللحظة أتصور أنه سيلقى الخطاب الذى أعددت مسودته. لكن الخطاب البديع الذى ألقاه كان مختلفا تماما (..) وأدى الخطاب الذى ألقاه السادات إلى خيبة أمل المستمعين. (وخلال جلسة جمعت الوفدين) بدأ وايزمان الحديث فتكلم عن ذكرياته عن القاهرة التى عرفها عندما كان طيارا فى سلاح الطيران الملكى البريطانى فى الحرب العالمية الثانية، وأجبته بأن قاهرة الأربعينيات ليست هى قاهرة السبعينيات، وأن القاهرة التى عرفها وايزمان كانت مدينة أوروبية أنيقة، أمّا الآن فقد أصبحت عاصمة آسيوية مزدحمة.

ركبت مرة أخرى سيارة موشى ديان فى طريقنا إلى المطار فى بداية رحلة العودة، وحاولت أن أقنعه بأن الدبلوماسية المصرية تهدف

إلى إبرام سلام شامل (..) أجاب ديان ساخرا: كيف تتمكنون من التفاوض باسم الفلسطينيين والسوريين إذا كانوا يرفضون مبدأ التفاوض؟.

أجبت بأن مهمة مصر هى إقناع الأطراف العربية بضرورة التفاوض.

بعد ذلك جاءت مفاجأة أخرى من جانب الرئيس السادات، فقد أعلن فى مجلس الشعب أنه يدعو إلى عقد اجتماع غير رسمى فى القاهرة تمهيدا للعودة إلى مؤتمر جنيف، وقال إنه يريد أن يدعو إلى القاهرة: إسرائيل والولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وسوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية.

وكان مؤتمر جنيف المعنى بالشرق الأوسط قد عُقد فى ٢١ ديسمبر ١٩٧٣ (..) لم يكن الرئيس السادات معارضا لمؤتمر جنيف المنعقد برئاسة مشتركة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى (..) وعندما طلب منى أن أعد لمؤتمر غير رسمى تمهيدا لجنيف، هل كان فى الواقع يُخفى عزمه على التفاوض الثنائى مع إسرائيل وتجاهل العرب؟ (..) ثم التقيت بالدكتور الدجانى (..) وسلمته الدعوة الموجهة إلى المنظمة للاشتراك فى مؤتمر القاهرة التمهيدى (..) وقد استخدمتُ هذه الرسالة منذ ذلك الحين كثيرا لأثبت للفلسطينيين أنهم ضيعوا فرصة الحديث المباشر مع إسرائيل (..) ولكنى عندما أراجع الأحداث الآن أجد أنه لا بد من أعترف (..) بأن المحادثات التى اقترحناها فى مينا هاوس كانت سابقة لأوانها.2 sdfootnote2sym

وبينما كان مؤتمر القاهرة معرضا لكل هذا الهجوم كان البيروقراطيون (؟؟) فى الحكومة المصرية، ومن بينهم بعض الوزراء الذين لا ترتبط مسؤولياتهم بأى شكل بالموضوع، يحاولون إقحام أنفسهم فى كل التفاصيل المتعلقة بالمؤتمر.

فى عصر يوم ٦ ديسمبر عقدت ثانى مؤتمراتى الصحفية، وكان الغرض منه أن أشرح أسباب اتخاذ مصر لقرار قطع العلاقات الدبلوماسية مع الجزائر وسوريا وليبيا واليمن الجنوبى.

كان الرئيس السادات، دون التشاور مع أحد (؟؟) قد قرر قطع علاقاتنا مع كل من عارضوا مبادرته (..) اتصل بى رئيس الوزراء ليبلغنى أنه قرر إغلاق قنصليات الاتحاد السوفيتى فى بور سعيد وأسوان والإسكندرية (..) وقال لى أن الرئيس السادات عقد العزم على الردّ بشدةٍ على كل من أدانوا مبادرته، وكانت تلك فى رأيى ذريعة، إذ أن السادات كان يكره السوفييت.

فى يوم السبت ١٠ديسمبر توجهت فى الصباح الباكر إلى فندق هيلتون النيل لأصحب سيروس فانس، وزير خارجية الأمم المتحدة، إلى القناطر الخيرية للقاء الرئيس، ركبنا سيارة مصفحة. وكان معنا هيرمان أيلتس الذى أطلع فانس أثناء الطريق على حجم المعارضة العربية للسادات، ولا سيما بين الشيوعيين والأصوليين الإسلاميين. (؟؟)

اجتمع الرئيس السادات مع الوزير فانس وحدهما، ثم دعينا إلى الاشتراك معهما.

من الجانب المصرى كان هناك حسنى مبارك وممدوح سالم والفريق عبد الغنى الجَمَسى (..) أما القضايا الحقيقية فكانت تناقش بين الرجلين وحدهما وجها لوجهه (؟؟) وأبلغ فانس بعد ذلك زملاءه بما قيل وراء الأبواب المغلقة، أما نحن فكلما سألنا السادات قال إنه لا يتذكر، ولم أعرف إلا فيما بعد أن الأمريكيين اعتبروا ذلك الاجتماع من الاجتماعات المهمة لأن السادات أقنعهم بأن على استعداد للسير فى طريقه ولو منفردا.

وفى يوم الأحد ١١ ديسمبر اجتمعت بلجان الشؤون العربية وشؤون الخارجية والدفاع فى مجلس الشعب، ورأس الاجتماع الدكتور جمال العطيفى، وهو محام من أعضاء الحزب ذوى الطموح السياسى، وكنّا قد مررنا معا بأوقات صعبة فى ظل نظام عبد الناصر.

(..) أجبت وأنا أنتقى كلماتى بعناية أن أول دعوة وجهت لحضور مؤتمر القاهرة أرسلت إلى السيد ياسر عرفات، وأكدتُ اعتراف مصر بمنظمة التحرير الفلسطينية باعتبارها الممثل الشرعى للشعب الفلسطينى، ولكن تحسبا للمستقبل تجنبت استعمال تعبير «الممثل الوحيد» (..) فإذا استمرت مبادرة السادات قد تجد مصر نفسها عند نقطة معينة أن عليها أن تتفاوض باسم الفلسطينيين بموافقة الفلسطينيين من خارج المنظمة (؟؟).

يوم السبت ٢٤ ديسمبر طلب منى الرئيس السادات أن أقابله فى الإسماعيلية، وهى فى منتصف قناة السويس، حيث كان سيقابل رئيس الوزراء مناحم بيغين (..) جلسنا حول مائدة طويلة (..) ثم تلوت مشروع إعلان مشترك يصدر بعد اجتماع الرئيس مع بيغين، عندما انتهى الاجتماع سألت ممدوح سالم عمن يكون وزير الخارجية الجديد (..)

عدت إلى القاهرة وإلى بيتى حيث وجدت صديقا انتقدنى بقسوة وسألنى «كيف يمكن أن تقبل العمل تحت رئاسة محمد إبراهيم كامل؟ (..) كيف تسكت على هذا الإذلال؟».



فى عصر ذلك اليوم بعد عودتى إلى القاهرة حضرت اجتماع مجلس الوزراء، وأعلن رئيس الوزراء أن مؤتمر الإسماعيلية الذى سيعقد فى اليوم التالى بين الرئيس السادات ورئيس الوزراء بيغين سيؤدى إلى اتفاق على أهم أسس السلام، ووجدت من واجبى، من باب الأمانة الفكرية والسياسية، أن أعلق على ذلك، فطلبت الكلمة وقلت إن مفاوضات السلام تستغرق وقتا طويلا (..) وأن محادثات الإسماعيلية ستقوض مبدأ الوحدة العربية وتضحى بمصالح الفلسطينيين.

لم يلق ما قلته قبولا لدى رئيس الوزراء ممدوح سالم.



كان الرئيس السادات، دون التشاور مع أحد (؟؟) قد قرر قطع علاقاتنا مع كل من عارضوا مبادرته



السادات ليس له صبر على التفاصيل، وهو يُفضّل أن يترك القرار فيها لمساعديه



فى الإسماعيلية (..) بعد نصف ساعة خرج بيغين والسادات لكى ينضما إلينا، وبدا رئيس الوزراء الإسرائيلى سعيدا ومستريحا، وأقلقنى ذلك، ولم ألبث أن عرفت أن بيغين حصل على موافقة السادات على تشكيل لجنتين على المستوى الثنائى، إحداهما عسكرية والثانية سياسية.

وما أن علمتُ بهذا الاتفاق «عصابة» وزارة الخارجية، كما كان الإسرائيليون يسموننا، حتى سعينا إلى تغيير تشكيل اللجنتين بحيث تصبحان شاملتين بدلا من أن تُعقدا على المستوى الثنائى حيث تكون مصر فى وضع أضعف (..) نجحنا فى تحويل اللجنة السياسية إلى هيئة رباعية تشمل أيضا الأمم المتحدة والولايات المتحدة، لكن اللجنة العسكرية ظلت ثُنائية (..) ولكن جهودنا تعرضت للفشل مرة أخرى لأن العرب رفضوا مبادرة السادات، ولأن الإسرائيليين ظلوا يضغطون علينا من أجل صلح منفرد مع مصر يُستبعد منه الفلسطينيون. (؟؟)

(..) بدا لى أنه ليس ثمة شك فى أن اجتماع الإسماعيلية قد فشل، فقد اتسم بالارتجال وبعدم تنظيم المفاوضات، وكنّت قد أعددنا دراسات ومذكرات وملخصات وأبحاثا، لكنها لم تُقرأ ولم تستخدم. غلبنى شعور بالفشل والاكتئاب. وكشف لى اجتماع الإسماعيلية جوانب متعددة من شخصية السادات (..) السادات ليس له صبر على التفاصيل، وهو يُفضّل أن يترك القرار فيها لمساعديه، مما يسمح له أن يتخطاهم أو يُغيّر ما اتفقوا عليه فى اللحظة الأخيرة (..) الهدف الوحيد للسادات هو استعادة الأراضى المصرية (..) السادات استخلص أن مصر لا تستطيع أن تبذل جهدا أساسيا لكسب الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى ما دامت هناك أرض مصرية تحت الاحتلال الإسرائيلى، وعلى النقيض من ذلك كنت على يقين من أنه لا يمكن لأى معاهدة للسلام أن تدوم إلا إذا تضمنت تدابير لحقوق الفلسطينيين، حدها الأدنى تقرير المصير (..) السادات لا يتمسك بمؤتمر جنيف، ومن الواضح أن مؤتمر مينا هاوس ليس فى رأيه تحضيرا للعودة إلى جنيف بل تمهيدا لمفاوضات مباشرة بعيدة عن الهيكل الشامل الذى يضم جميع الأطراف المتمثل فى مؤتمر جنيف.

وقد بات واضحا أن هدف إسرائيل هو عقد صلح منفرد مع مصر (..) ولم يلبث بيغين أيضا أن أدرك أن أسلوب السادات فى التفاوض يتيح لإسرائيل الفرصة لإثارة الخلافات بينه وبين مساعديه (..) وأخيرا كانت إسرائيل عاقدة العزم على



Egyptian President Anwar al-Sadat (c) surrounded by (l-r) Aliza Begin, Rosalyn Carter, Israeli Premier Menachem Begin, US President Jimmy Carter, Israeli Foreign minister Moshe Dayan and Israeli Defence minister Ezer Weizman as they walk10 September 1978 in Gettysburg during the Camp David Israeli-Egyptian peace negotiations. Boutros Boutros-Ghali, minister of state in Egypt's foreign ministry is standing between Sadat and Dayan and Elyahu Rubinstein, an Israeli advisor, is standing between Dayan and Weizman

التوصل إلى اتفاق حول النتائج العملية لاتفاق السلام (..) إذ كان المفاوضون الإسرائيليون يريدون حرمان المفاوضين المصريين من أهم ورقة فى أيديهم (..) وكان موقف المفاوض المصرى ضعيفا، وأسلوبنا فى التفاوض يزيد من هذا الضعف. وكان موقف إسرائيل فى التفاوض قويا، والمفاوضون الإسرائيليون يتحركون وفقا لخطة مدروسة من أجل تحقيق أهداف واضحة تتعلق بكل من الأمد المتوسط والطويل.

وفى ٢٧ ديسمبر حضرت مأدبة العشاء التى أقامها الرئيس السادات فى قصر عابدين تكريما لهيلموت شميت مستشار ألمانيا الاتحادية، وكان الطعام سيئا، غير لائق برئيس دولة أو حتى بمطعم من الدرجة الثانية.(..)

فى أوائل يناير ١٩٧٨ سافرت مع محمد إبراهيم كامل إلى أسوان (..) وأدهشنى أن أعرف أنه خلال عمله الدبلوماسى الطويل لم يقم بزيارة بلد عربى آخر، وأن معرفته بالعالم العربى والقضية الفلسطينية لا ترتبط كثيرا بالواقع، وأدت بى محادثاتنا إلى توقع صعوبات جديدة داخل الوفد المصرى.

وفى وقت مبكر من صباح الأربعاء ٤ يناير كنا فى مطار أسوان ننتظر وصول الرئيس جيمى كارتر (..) وقبل إقلاع الطائرة أصدر الرئيس الأمريكى بيانا يعلن فيه لأول مرة اعتراف الولايات المتحدة بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطينى وحقه فى المشاركة فى المفاوضات التى تقرر مصيره.



وكان ذلك إعلانا مهما ناقشته مع موسى صبرى (..) وهو صحفى غزير الإنتاج، يتصف بالأمانة والشجاعة، وهما أمران نادرا ما يجتمعان فى العالم العربى (؟؟) (..) واتفقنا هو وأنا على أننا يجب أن نسعى لتوجيه انتباه الصحافة إلى أن الولايات المتحدة تدعو الآن إلى مشاركة الفلسطينيين، وليس مجرد الحديث عن «مستقبلهم».

وبعد ذلك بأسبوع ذهبت مرة أخرى إلى أسوان لأكون من بين مستقبلى صاحب الجلالة محمد رضا بهلوى شاه إيران (..) كان كل من السادات والشاه فى ذروة قوتهما، وبدا واضحا أنهما إذا أقاما تحالفا فسوف يسيطران على الشرق الأوسط بكامله، باعتبارهما الدولتين العظميين فى المنطقة (..) ففى حرب أكتوبر ١٩٧٣ كان الشاه وحده هو الذى حافظ على استمرار تدفق النفط إلى مصر (؟؟)3
sdfootnote3sym

فى يوم الثلاثاء ١٧ يناير بدأ عمل اللجنة السياسية (فى القدس) بمشاركة سايروس فانس (..) فى المساء أقام بيغين حفل عشاء فى فندق هيلتون (..) وبعد العشاء ألقى كلمة طويلة هاجم فيها الموقف المصرى، وخاطب وزير الخارجية بلهجة التعالى واصفا إياه بأنه «صديقى الشاب» (..) ولم تكن عباراته ودية بل جارحة، وأغضبت الكلمة محمد كامل الذى نهض على الفور ليعلن أن حفل العشاء ليس هو المكان المناسب لإجراء مناقشات سياسية (..) ثم جلس ورفض أن يخاطب أيا من الجالسين بجواره، وعندما عرض بيغين نخبا رفض المشاركة (..) وتلاشت الحماسة للتفاوض مع الإسرائيليين (..) وصلنا إلى القاهرة قرب الفجر، مرهقين ومستائين لفشل المهمة. (..) غادرت القاهرة فى ٢٨ يناير متجها إلى يوغوسلافيا (..) كان القائم بالأعمال المصرى (؟؟) فى بلغراد من تلاميذى السابقين (..) وأطلعنى على صورة من الخطاب الذى وجهه تيتو إلى السادات بتاريخ ٢٤ يناير والذى كان سببا فى رحلتى إلى بلغراد، وكنت لا أصدق أن يتم إرسالى إلى بلغراد دون أن أطلع فى أى وقت على ذلك الخطاب، فوزارة الخارجية لم تتلق منه نسخة من رئاسة الجمهورية».

وقفة سريعة:لم يقل الدكتور كيف وصلت صورة الخطاب إلى القائم بالأعمال، بدون المرور بالخارجية ولماذا هو مجرد قائم بالأعمال وليس سفيرا فى بلد بحجم يوغوسلافيا.

«كان خطاب الرئيس تيتو شرحا مطولا لاقتناعه بأن إسرائيل ليست على استعداد لإبرام اتفاق للسلام مع الدول العربية، لأنها لا تعترف بالشعب الفلسطينى وبحقه فى تقرير المصير.

وقال تيتو أن مبادرة الرئيس ستؤدى فى النهاية إلى وضع فى غاية الخطورة وهو التمزق الداخلى للعالم العربى (..) ودعا

الرئيس السادات للعودة إلى التضامن العربى، وقال إن زعماء العرب الآخرين يرغبون فى عودة مصر إلى دورها القيادى فى الجبهة العربية المشتركة.(..) وأخذونى إلى قصر الرئيس تيتو (..) وبعد لحظات دخل كلبان صغيران يتبعهما الرئيس (..) عندما فرغت من عرضى بدأ تيتو يتحدث على مهل (..) تحدث عن شكه فى أن إسرائيل ستنسحب من شبه جزيرة سيناء بكاملها، وقال إن إسرائيل ستضغط على مصر للحصول على المزيد من التنازلات (..) فإسرائيل تعتمد على تفوقها العسكرى، وهى تعرف أن الولايات المتحدة تفتقر إلى الإرادة اللازمة لممارسة ضغط فعال عليها (..) بينما كان تيتو يتحدث عن التوازن بين الدولتين العظميين كان أكثر ما لفت نظرى أن حديثه حافل بالتعبيرات الماركسية الأصيلة (..) وقلت إنه لا يمكن أن يكون هناك شك بشأن صلابة الموقف المصرى فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطينى (..)

وتذكرت رأى صديق جزائرى كان قد قال لى: «أنا لا أفهم لماذا لا تهتمون أنتم فى مصر بالإيديولوجية (..) إن الإيديولوجية بالنسبة للبلدان التى تفتقر إلى القوة الاقتصادية أو التكنولوجية أو العسكرية هى بديل للقوة، فالإيديولوجية تقدم تفسيرا لتخلفها، وهى أداة فى علاقاتها الدولية، وعون لها فى السياسة العالمية، وحلم بالنسبة للمستقبل، وبدون حلم كهذا تكون حياة الفقراء غير محتملة4 .sdfootnote4sym

فى اليوم التالى قابلت وزير خارجية يوغوسلافيا ميلوس مينيك. قال لى أنه قرأ النص الحرفى للقائى بالرئيس تيتو. وانتقل ذهنى على الفور إلى أن تسجيلات مقابلات الرئيس السادات تصل إلى الوزارة المعنية بعد أسبوع على الأقل أو عشرة أيام، هذا إذا وصلت أصلا. وأغضبنى أن عدم كفاءة النظام المصرى تجعلنى فى وضع أضعف من نظرائى».

وقفة سريعة: لا أتصور أن هذا التعليق، وهناك غيره، كان ضروريا فى صلب هذا الكتاب، لأنه لا يضيف شيئا يرتبط بالقضية التى يطرحها، وهو إساءة مجانية لجهاز ربما كانت له عيوبه ولكن المؤكد أنه يمثل كفاءات هائلة.

«غادرت بلغراد فى المساء مدركا أننى أتحدث فى واد بينما يتحدث اليوغوسلاف فى واد آخر (..) ولم يُعلق السادات بشىء، كان يبدو بعيدا وغير مهتم، وشعرت بأن رحلتى إلى يوغوسلافيا فشلت من ناحيتين، فشلت فى إقناع تيتو، وفشلت فى إقناع السادات بأهمية موقف تيتو. (...)

عندما أدت المعارضة لمبادرة السادات إلى زيادة عزلة مصر فى العالم شرعت فى سلسلة طويلة من الأسفار إلى جنوب آسيا وإفريقيا (..) فى نيودلهى قادونى إلى القصر السابق لنظام حيدر أباد.

ذكرنى هذا المبنى بقصر عمَى واصف (؟؟) فى كولومبو قابلت وزير الخارجية الذى قارن بين موقفى كمسيحى فى دولة مسلمة وموقفه كمسلم فى دولة بوذية (..) فى سفارة مصر أصر سفيرنا مصطفى راتب وهو رجل متشدد ذو شخصية صعبة، على أن أستشير مُنَجِّماً (..) وعندما غادرت جنوب آسيا على متن طائرة «سويس إير» شعرت كأنَى وصلت فعلا إلى سويسرا (..) وأدركت أننى بينما أنتمى بقوة إلى العالم الشرقى والعربى فإن ارتباطى بالثقافة الأوربية لا انفصام له (؟؟).

وفى ٢٤ إبريل استقبلت فى مكتبى غوشو نكومو قائد جبهة التحرير الوطنى فى زمبابوى (كان اسمها روديسيا) وكان وزن نكومو يبلغ نحو ٢٧٠ رطلا، وقد انهار الكرسى الذى جلس عليه تحت وطأة وزنه (..) وكان من شأن البيروقراطية المصرية أن استغرق إصلاح الكرسى ستة أشهر.(..)

وفى اليوم التالى بدأت رحلتى إلى العواصم الإفريقية (..) كنت منذ أمد طويل أناصر قيام اتحاد فيدرالى بين مصر والسودان (..) ولكن بعد سقوط رئيس السودان نميرى فى ١٩٨٩ انقطعت شعرة معاوية، إذ قام نظام أصولى فى الخرطوم، وهذا النظام يمثل خطرا حقيقيا على استقرار كثير من الدول العربية والإفريقية (..) وبعد طيران ساعتين وصلت إلى نيامى عاصمة النيجر (..) وفى يوم الاثنين افتتح الرئيس كونتشى الدورة الجديدة للمؤتمر الوزارى (..) عند خروجى من مبنى المؤتمر كان بصحبتى (؟؟) على التريكى وزير خارجية ليبيا. قال لى (..) إن حكومة ليبيا مستعدة للتعاون مع مصر إذا تخلت عمّا تفعله من التفاوض المباشر مع إسرائيل (..) قلت إن مصر ليست فى حاجة إلى نصيحة من ليبيا، فمكانة مصر فى العالم قاطبة وفى العالم العربى لا تحتاج إلى توضيح لمن يريدون أن يفهموا، وأعطيت ظهرى للتريكى وتركته واقفا.



قابلت بعد ذلك وزير خارجية المغرب (..) كان كل اهتمامه موجها إلى مسألة الصحراء الغربية، وهى مستعمرة إسبانية بها عدد قليل من السكان يسعون إلى الانضمام إلى المغرب، بينما تسعى مجموعة أخرى من السكان تعيش فى المنفى فى الجزائر إلى الاستقلال (...) وبمجرد عودتى أعددت تقريرا تفصيليا قدمته إلى الرئيس السادات. قلت إن زعماء إفريقيا يُقدرون مبادرته، ولكنهم يريدون إبقاء النزاع العربى بشأن مبادرة السلام بعيدا عن قمة الخرطوم المقبلة.(..) وفى اليوم التالى عُقدت الجولة السادسة لاجتماعات اللجنة الوزارية المعنية بالوحدة بين مصر والسودان (..) وكان الوفد السودانى برئاسة رشيد الطاهر نائب الرئيس (..) وقام الوفد السودانى بتوزيع مجموعة مختارة من الهدايا على أعضاء الوفد المصرى، مثل القمصان الفاخرة والمصنوعات الجلدية، وكانت الألوان رديئة الذوق (؟؟) بحيث أعطيت نصيبى من الهدايا لمن معى من الحراس، وبسبب هذه العادة فى إعطاء الهدايا كان الحراس دائما أكثر منى حرصا على حضور تلك الاجتماعات.

كان مؤتمر الخرطوم محاولة من جانب نميرى لاكتساب مكانة دولية (..) وصل الرئيس السادات فى الساعة الحادية عشرة، وكان معه على نفس الطائرة حسن كامل واللواء حسن التهامى وفوزى عبد الحافظ والدكتور محمد عطية، طبيب السادات وطبيبى أيضا، و «حاشية» كبيرة غير محددة، وفريق كبير للأمن. همس فى أذنى فوزى عبد الحافظ المساعد الشخصى للرئيس بأنه يريد أن يبلغنى برسالة مهمة: «يجب ألاّ تنسى أن تأخذ معك التبغ الذى يحتاجه الرئيس لغليونه عندما تنتهى الجلسة ويغادر قاعة الاجتماع. استمعت إليه بأدب وأدركت أن كيس التبغ والغليون لهما لدى هذا الشخص أهمية تتجاوز بكثير قرارات المؤتمر. كنت أراقب باهتمام تعبيرات وجه الرئيس.كان يبدو غير مهتم بالجلسة، كما لو كان غارقا فى التفكير فى مسائل أخرى.

عندما انتهت الكلمات وغادر الرؤساء القاعة كدت أنسى كيس التبغ والغليون، لكنى تذكرت فى آخر لحظة المهمة التى أوكلت إلىّ، ولكن سكرتير الرئيس انتزع منى بسرعة كيس التبغ والغليون كأنه يتصور أنى لست جديرا بهذه المهمة، ولعله خشى أن أنافسه إذا قمت بالمهمة بمهارة.

(..) عندما انتهى فالدهايم من كلمته وقف السادات وقال إنه سيغادر الجلسة، وطلب منى أن أبقى وأمثله فى غيابه، وأثناء انسحابه (؟؟) من القاعة كان زملائى، بقية أعضاء الوفد الرئاسى، يركضون وراءه، حاولت أن أقنعهم بالبقاء دون جدوى وأوضحت لهم أن المقاعد الخالية للوفد المصرى ستكون صورة سيئة، ولكنهم رفضوا البقاء قائلين: «إنك كفيل بأداء المهمة يا بطرس».

وهكذا وجدت نفسى وحيدا فى الجزء المخصص لمصر. وعندما انتبه الدبلوماسيون الذين يُشكلون الوفد المصاحب لى للموقف المحرج سارعوا إلى قاعة الاجتماع وانضموا إلىّ.

(..) عندما انتهت كلمة سيكوتورى تقدم الرئيس (السادات) إلى المنصة فدافع عن مبادرته ببلاغة وقوبل بتصفيق من وفود المؤتمر (؟؟) ولم يكد الرئيس يرجع إلى مقعده حتى قرر مغادرة



لا يمكن أن يكون هناك شك بشأن صلابة الموقف المصرى فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية وحقوق الشعب الفلسطينى



عندما انتهت كلمة سيكوتورى تقدم الرئيس (السادات) إلى المنصة فدافع عن مبادرته ببلاغة وقوبل بتصفيق من وفود المؤتمر



الجلسة. ومرة أخرى سارعت حاشيته، التى كانت قد عادت إلى الظهور فجأة فى وقت إلقاء كلمته، إلى مغادرة القاعة، ومرة أخرى وجدت نفسى وحيدا فى المقاعد المخصصة للوفد المصرى ومستاء من موقف الحرص على «مرافقة السيد» الذى يتخذونه. (..) وكانت الدول الراديكالية بقيادة بنين ومدغشقر والجزائر تُسيطر على مجرى المناقشات (..) ثم استقبل السادات الرئيس سينى كونتشى رئيس النيجر الذى بدأ الاجتماع بالإشادة بى قائلا: «إن وزير الخارجية المصرى أشبه بكبار الكهنة إنه واحد من حكماء إفريقيا!» وشعرت بعدم الارتياح. واكتفى السادات بالابتسام وهز رأسه (..) بعد مقابلة جوليوس نيريرى رئيس تانزانيا اتجه السادات نحوى وقال: «إن هذا الرجل شبيه بكبار الكهنة، وهو بلا شك واحد من حكماء إفريقيا!!» (..) وبينما كان نميرى والسادات يتبادلان الفكاهات وأجلس بجوارهما صامتا، دخل أحد المساعدين ليقول إن سفير المغرب، أحمد العراقى، يطلب مقابلة عاجلة مع الرئيسين (..) وخرج نميرى مع سفير المغرب، وعند ذلك انتقد السادات سفير المغرب لعدم سيطرته على نفسه، وقال: «إن السفراء الذين يمثلون الملوك مدللون وفاسدون وليسوا قادرين على العمل الجاد فى المؤتمرات الدولية».

(..) كان هناك مرشح واحد لمنصب الأمين العام (..) وأجرى التصويت ولكن كوجو لم يحصل على الأغلبية اللازمة (..) وعند ذلك رأيت أن الدول الراديكالية أرادت أن تبين أنها تسيطر على المنظمة، وأنها، إذا أرادت، تستطيع أن تمنع الأخذ بأى سياسة لا تتفق معها (..) لقد كان هذا الاستقطاب هو أقوى انطباعاتى عن الخرطوم، إذ كان فى قدرة مجموعة راديكالية متماسكة تتحرك بسرعة أن تسيطر على ثلث أعضاء المنظمة، وهم يُشاركون فى كل الاجتماعات، ويسهمون فى مناقشة كل مسألة، ويتدخلون باستمرار، ويظلون جالسين فى مقاعدهم حتى الفجر دون أن يبدو عليهم الملل والتعب، وفى نفس الوقت فإن «الأغلبية الصامتة» من المعتدلين كانت تفتقر إلى الوحدة والالتزام، وتفضل الدردشة أثناء احتساء كوب من البيرة. كانوا نادرا ما يتكلمون فى الجلسات، وعندما يتكلمون تكون حججهم ضعيفة واقتراحاتهم غير موحدة وبياناتهم غير مقنعة».

وقفة سريعة: أمانة الجامعى كانت تفترض التساؤل عن السبب، والذى يتلخص فى أن الوفود التى أسماها راديكالية، ومن بينها الجزائر، كانت تؤمن بما تفعله وتناضل من أجله.

«وفى يوم الأربعاء ٢٦ يوليو ١٩٧٨ أخذت الطائرة إلى بلغراد حيث كان يعقد المؤتمر الوزارى لدول عدم الانحياز (..) وفى يوم السبت ٢٩ يوليو اقتحم أحد الشبان من أعضاء الوفد المصرى منفعلا اجتماعا كنت أحضره ليبلغنى أن ممثل كوبا بدأ يهاجم مصر، استأذنت وتوجهت على الفور إلى الجلسة، وأعطانى رئيس المؤتمر الكلمة تطبيقا لمبدأ حق الرد (..) وبدا أن كلماتى أوقفت الهجوم الكوبى (..) وقد علمت فيما بعد أنها لم تكن كلمتى التى أنقذت الموقف بل الذى أنقذه قرار اتخذه العراق وسوريا وغيرهما من الحكومات العربية بأن الوقت لم يحن بعد لإدانة مصر، وكان توقف المفاوضات المصرية الإسرائيلية قد أعطى هذه الدول أملا فى أن السادات قد يتخلى عن مبادرته ويعود إلى الأحضان العربية. عُدت إلى القاهرة وأبلغت السادات أن الدبلوماسية المصرية تمكنت من احتواء الرافضين. والواقع أن المعركة كانت قد تأجلت فحسب. (وكانت المشاركة فى جنازة البابا) واتصل بى السفير شافعى عبد الحميد سفير مصر فى الفاتيكان بالتليفون. كان مهتما جدا بالملابس الرسمية التى يجب أن أرتديها فى جنازة البابا بولس السادس (..) وقال إنه استأجر لى بدلة «فراك» من روما، وبعد ذلك أصبح الاهتمام الرسمى للسفير هو الأوسمة التى أضعها على صدرى (..) وكان شافعى عبد الحميد يضع على صدره عددا كبيرا من النياشين والميداليات. وقد رحب أحد القساوسة الذين حضروا الجنازة بالسفير على أنه هو وزير خارجية مصر، وشعر عبد الحميد بالحرج وأشار إلىّ (..) وعرض علىّ السفير أن يُقرضنى بعض أوسمته، ولم أستطع أن أعرف ما إذا كان يرغب حقًا فى أن يحفظ ماء وجه وزيره أم أنه كان يسخر فحسب وفى يوم الخميس التقيت بالكاردينال بينيدولى (..) وكان من بين أفراد المجموعة الصغيرة التى يُتوقع أن يتم اختيار البابا الجديد منها وفقا لرأى السفير شافعى عبد الحميد (..). بطبيعة الحال لم يُصبح أى من الكرادلة الذين زرتهم فى روما هو البابا الجديد، وكانت تنبؤات شافعى عبد الحميد خاطئة.



(....) فى يوم الخميس الموافق ٢٤ أغسطس ١٩٧٨ أجريت محادثة طويلة مع محمد إبراهيم كامل حول المؤتمر القادم فى كامب دافيد. لم نكن ندرى كيف نُعدّ للمؤتمر. كان هناك كثير من الأوراق والوثائق والتحليلات، ولكن الإستراتيجية العامة التى نؤسس عليها حركتنا لم تكن واضحة (..) غير أن صفقة منفردة مع إسرائيل من أجل سيناء بدت غير واردة. ذلك أن مصر زعيمة العالم العربى، ونحن لا نستطيع التخلى عن الوحدة العربية لمجرد استعادة أراضينا فى حين تظل الأراضى العربية الأخرى تحت الاحتلال الإسرائيلى. إلاّ أننى لم أكن واثقا من أن السادات بالرغم من تأكيداته المتكررة يشارك هذا الرأى. فمصر بالنسبة له تأتى أولا. وبعد أن تعرض للإدانة العربية بسبب مبادرته بدأ يهزأ ببقية العالم العربى باعتباره مجرد بركة بجوار النهر، وكانت «عصابة» وزارة الخارجية قلقة من أن إستراتيجية السادات لاستعادة سيناء أولا، بهدف إحراز القوة التى تمكنه من استرداد بقية الأراضى العربية فيما بعد، لن تنجح. وكنّا نخشى من أن الخطوة الأولى لن تتتبعها الخطوة الثانية، بسبب الإجهاد والمعارضة، ولأننا لا نحمل تفويضا من الفلسطينيين لمواصلة مرحلة ثانية. وغادرنا القاهرة إلى باريس (..) وفى مأدبة عشاء لنا فى وزارة الخارجية تحدث محمد إبراهيم كامل بالإنجليزية متناولا العموميات، ولكن حسن التهامى احتكر الحديث، وكان بمثابة عرّاف السادات وسمير الرئيس و«رجل بَركة» ورافع للمعنويات. لقد كان التهامى ضابطا عسكريا كبيرا جسورا ولامعا فى الثورة (؟؟) ثم أصبح أشبه بالصوفى، مؤمنا بأنه يتلقّى فى الأحلام تعليمات خاصة من الرسول (..) وكان السادات يرتاح إلى وجوده ويستمتع بصحبته (..) وقد سافر التهامى سرا إلى المغرب لملاقاة دايان، ووصف هذه الرحلة بأنها مهدت الطريق لمبادرة القدس الساداتية (..)

وعندما عُدنا إلى طائرة الرئاسة دعانا الرئيس إلى صالونه الخاص، إذ أن أسرته بقيت فى العاصمة الفرنسية، وتناولنا الغداء معه (..) كان السادات على ثقة من الأمر كله سينتهى قريبا. فهو سيعرض موقفه. وسترفض إسرائيل هذا الموقف. وسيؤيد الرأى العام الأمريكى مصر. وسيرى كارتر أن موقف مصر جيد وموقف إسرائيل سيئ. ومن ثمّ تقوم الولايات المتحدة بالضغط على إسرائيل لقبول ما قدمه السادات. وقال إنه أمر بسيط. وكنت أعتقد أن الأمر ليس بمثل هذه البساطة، وأخشى أن الأمريكيين لن يضغطوا على إسرائيل، وأن السادات سيقوم فى هذه الحالة بتقديم تنازلات.

(..) وقام التهامى بتوزيع قطع صغيرة من العنبر على أعضاء الوفد المصرى، شارحا بأن علينا إذابتها فى الشاى وبأنها ستمنحنا القوة على مواجهة الإسرائيليين (..) ولم تكن الترتيبات المادية مشكلتنا الرئيسية، وإنما هو أسلوب السادات الذى أربكنا. فكلما التقى مع كارتر أو بيغين لم نكن نُبلغ على الإطلاق بما قاله، فى حين كنا نلاحظ أن الزعيمين الأمريكى والإسرائيلى يحيطان وفديهما علما بالأمر قبل كل اجتماع وبعده، وكنت أخشى أن السادات بغرض استعادة سيناء قد يقدم تنازلات ضخمة (..) كانت الأجواء المحيطة بنا غريبة والسادات لا يمكن التنبؤ





لم يُصبح أى من الكرادلة الذين زرتهم فى روما هو البابا الجديد، وكانت تنبؤات شافعى عبد الحميد خاطئة



سافر التهامى سرًا إلى المغرب لملاقاة دايان، ووصف هذه الرحلة بأنها مهدت الطريق لمبادرة القدس الساداتية



بأفعاله، وبدا التهامى فى حالة عدم توازن وفى يوم السبت ٩ سبتمبر عقدنا جلسة عمل فى كوخ السادات. ودارت مناقشة حامية بين السادات ومحمد كامل. لم يكن السادات يثق فى دبلوماسييه. وكان كامل على حق (..) وكان واضحا أن السادات يريد لاجتماعات كامب دافيد أن تنتهى بوثيقة دولية مهما كان الثمن. إذ كان السادات يدرك أنه دون مثل هذه الوثيقة سوف تبدو رحلته للقدس والمبادرة الدبلوماسية اللاحقة فاشلة».(..)

وقفة سريعة: كنت أتمنى أن أعرف ما إذا كانت المخابرات المصرية، التى تتوفر على كفاءات عالية وتجهيزات ملائمة، قد قامت بتأمين مكان الاجتماع ضد التنصت واستراق السمع.

«(..) وكان السادات يعتبر غزة مسؤولية مصر بحكم الواقع، وأنه سوف يُعطيها للأردن، الأمر الذى يوفر للأردن ميناء على البحر المتوسط، علاوة على جموع من الغزاويين الغاضبين ومع مرور الأيام بدت كامب دافيد كمعسكر اعتقال (..) وفى ساعة متأخرة من يوم الأحد ١٠ سبتمبر تردد أن الجانب الأمريكى يعتزم تقديم ورقة أمريكية للرئيس السادات، وطلبتُ نسخة لدراستها مقدما، ولكننى لم أنجح فى الحصول عليها. وفى صباح اليوم التالى دعانا السادات إلى كوخه. وسلمنى وثيقة وطلب منى قراءتها بصوت عالٍ على أعضاء الوفد. إنها الورقة الأمريكية. وبدت فى قراءتها طويلة ومعقدة بصورة لا تطاق. وعندما فرغت من قراءة النص، طلب السادات إلى كل منّا تقديم ملاحظاته وآرائه، وبينما نحن نقوم بذلك أصبح واضحا أن السادات لا ينتبه لما كنا نقوله. واقترح محمد كامل أن ننسحب جميعا لنعكف على دراسة الوثيقة بعناية (..) ولدى عودتنا إلى كوخ السادات، هاجم السادات المشروع الأمريكى (..) وأعلن بأنه سوف ينسحب من المحادثات (..) وعندما ألححت عليه بالبقاء فى كامب دافيد استشاط غضبا وقال: إنك لا تفهم فى السياسة (..) لقد صُدم السادات حقا بالمشروع الأمريكى وأراد بالفعل أن يُغادر المكان، وفى الوقت نفسه كنت أخشى أنه إذا غير السادات رأيه وبقى فى كامب دافيد فقد يضعف موقفه التفاوضى ويجعله أكثر قابلية لتقديم تنازلات. ولدى عودتنا إلى كوخنا المشترك تحدث محمد كامل طويلا عن السادات (..) كانت أعصابه منهكة بوضوح وكان متشائما للغاية، وأوضحت أن دورنا ثانوى، وأن القرار السياسى سيتم اتخاذه شئنا أم أبينا (..)

وبسرعة قام فانس بالجمع بين كارتر والسادات فى محاولة لوقف انهيار المفاوضات. وعندما خرج السادات قال إن كارتر أبلغه بأنه إذا انهارت محادثات كامب دافيد فإنه لن يُعاد انتخابه رئيسا للولايات المتحدة. أما إذا نجحت محادثات كامب دافيد. كقول كارتر للسادات. فإنه فى فترة الرئاسة الثانية سوف يضمن له أن يحقق الاتفاق كل تطلعات السادات.(..) وانتابنى شعور بأن السادات كان راغبا فى الاقتناع والرجوع عمّا قاله وبإعادة قراءة المشروع الأمريكى رأيت أنه لم يكن شاملا وإنما كان مضطربا (..) فالقسم الأول من المشروع .وهو الانسحاب من الأراضى المصرية. لا يتبعه بالضرورة القسم الثانى، وهو الانسحاب من الأراضى الفلسطينية. ولم تكن الأجزاء مترابطة، الأمر الذى يعنى بأن مصر قد تتهم بتوقيع سلام منفصل مع إسرائيل وبأنها تتخلى عن العرب. غير أن السادات بدا غافلا عن ردود الفعل العربية.

كان يريد من الأمريكيين أن يضمنوا نجاح مبادرته، وكنت أخشى من أن الأمريكيين يخدعون أنفسهم، وأن السادات بدوره سوف يخدع العرب.

كنت ألح على السادات بمقابلة دايان ليس فقط استجابة لطلب وايزمان(..) وكان السادات يرفض، ولم أجد بداً من نقل الرفض لوايزمان، وإزاء حساسيته للمشكلة تدخل الرئيس كارتر وتقدم بنفس الطلب، وفى هذه الحالة وافق السادات على لقاء ديان «علشان خاطر كارتر». وحظيت هذه العبارة بشعبية وسط المندوبين المصريين، فكل طلب نراه ضد المصالح العربية صار يوصف بأنه «علشان خاطر كارتر».

وشعر المندوبون المصريون بالصدمة إزاء الأحكام المتعلقة بسيناء الواردة فى الوثيقة الأمريكية، فشبه الجزيرة المصرية ستكون منطقة منزوعة السلاح تشرف عليها قوات الأمم المتحدة ووكالة دولية لحفظ السلام. وتضَمّن المشروع عشرات من القيود على السلطة المصرية. وكانت تلك الشروط مهينة لمصر (..) وعندما خرج كارتر كان واضحا أن السادات وافق على البقاء، والحقيقة أنه قد وافق على وثيقة معدلة لم يعرف أى منا شيئا عن مضمونها (..) غير أن وليام كوانت أبلغنى بعد ذلك بوقت طويل بأن السادات كان قد نقل سراً موقفه «المتراجع» إلى الأمريكيين (..) ثم قام نائب الرئيس والتر مونديل بزيارة السادات. ولم يقف أى منا على ما دار أثناء هذا اللقاء (..) وفى وقت متأخر اجتمعنا فى كوخ السادات (..) وكان واضحا لى أننا، أعضاء الوفد، بمثابة كَمّ مهمل، وأن علينا الانتظار لحين إعلان النتائج النهائية.



وبعد الظهر جاء نبيل العربى إلى كوخنا حيث أشار إلى عبارة وردت فى الوثيقة أحس بأنه لا يمكن قبولها. وأجبناه جميعا: «لا تخبرنا نحن، اذهب إلى الرئيس السادات وأخبره». لقد فقدنا الأمل فى إقناع السادات، وتوجه نبيل العربى إلى كوخ الرئيس، وسرعان ما عاد إلينا مضطربا مهزوما، لقد أثارت ملاحظته غضب السادات الذى انفجر فيه.

وحان وقت الرحيل (..) وعندما عدنا

(..) تأكد نبأ استقالة محمد كامل، وصعدنا إلى الدور الثالث حيث كان السادات يرتدى البيجاما يحيط به الصحفيون المصريون (..) قال: «إننى أعتبر محمد كامل أخا صغيرا لى (..) إننى أعذره لأن أعصابه لم تتحمل الضغوط العنيفة التى واجهناها، كما أن بعض الأولاد فى وزارة الخارجية سمّموا الجوّ (..) واحد منهم جاءنى بعد ظهر ذلك اليوم ليُسدى إلىّ النصح» وتساءل السادات «هل معقول أن يتدخل موظف فى وزارة الخارجية فى أمور السياسة الدولية؟» (..) ووصلنا إلى القاهرة عند الظهر حيث تجمعت الآلاف المؤلفة من المستقبلين فى المطار لتحية السادات بالهتافات والشعارات (..) والمؤكد أنه استقبال مُدبّر(..) وفى ٣١ أكتوبر علمت بانتخاب الجمعية العامة للأمم المتحدة الدكتور عبد الله العريان قاضيا فى محكمة العدل الدولية. وأقبل أعضاء الوفد المصرى (فى نيويورك) يهنئون عبد الله بحرارة، وشعرت بأن حماسهم قد لا يكون بعيد الصلة عن حقيقة مغادرة عبد الله إلى لاهاى مما يؤدى إلى خلوّ منصب السفير فى برن، الذى يطمعون فيه كثيرا (؟؟) ووصلت إلى القاهرة فى التالى ولدى وصولى علمت أن الرئيس السادات كان قد رفض استقبال وفد من وزراء خارجية الدول العربية أرسله مؤتمر القمة العربى فى بغداد إلى القاهرة.

ثم يقول الدكتور بطرس: كانت زيارة الشاه (لمصر) تحذيرا بأن الأصولية أصبحت خطرا يتهدد العالمين العربى والإسلامى، وسألت موسى صبرى: «هل هناك خطر امتداد الثورة الإيرانية إلى مصر؟» وأجاب صبرى، وهو أحد الصحفيين القلائل الذين جرءوا على انتقاد الإخوان المسلمين فى جريدته اليومية واسعة الانتشار، قائلا: «إن الثورة الإيرانية مرض لا يمكن انتشاره فى مصر، ذلك أن مصر بلد سنى بينما إيران شيعية».

وقفة سريعة: يتضح هنا بعض خلفيات الموقف المتشدد ضد الثورة الإيرانية فى بداياتها، وأتصور أن اختيار ذكر موسى صبرى بالذات (وهو مسيحى) خطأ.

«(..) كنت أتمنى أن تدرك القيادة المصرية ضرورة أن أصبح وزيرا للخارجية (..) فلم يتردد عباس حلمى الثانى فى تعيين جدى بطرس غالى وزيرا للخارجية ثم رئيسا للوزراء (؟؟) قبل قرن من الزمان تقريبا (..) ولم يتردد سعد زغلول بموافقة الملك فؤاد فى تعيين عمى واصف بطرس غالى وزيرا



كان السادات يدرك أنه دون مثل هذه الوثيقة سوف تبدو رحلته للقدس والمبادرة الدبلوماسية اللاحقة فاشلة



وافق السادات على لقاء ديان «علشان خاطر كارتر». وحظيت هذه العبارة بشعبية وسط المندوبين المصريين



للخارجية، أما اليوم وفى الربع الأخير من القرن العشرين، يتردد السادات فى تعيين شخص غير مسلم وزيرا لخارجية مصر. (..) أثناء الرحلة إلى واشنطن عكفنا، مصطفى خليل وأنا، على تحليل المفاوضات. ولم أكن متفائلا، وقلت إن الفشل أكثر احتمالا من النجاح (..) فالسادات وحده هو القادر على اتخاذ القرارات المهمة، والفرق أن السادات قد يتنازل أما بيغين فلا يتنازل.

وفى يوم ٦ مارس وعلى متن الطائرة التى تحملنى إلى القاهرة وجدت نفسى جالسا إلى جوار محمود رياض الأمين العام للجامعة العربية، الذى تحدث معى بلا انقطاع عن النزاع بين مصر والعرب، وراح يكرر المرة بعد الأخرى بأنه أمر ضار للجامعة العربية وللتضامن العربى.

وحاولت متابعة حديثه ولكن رغبتى فى النوم كانت قوية للغاية.

كارتر فى مصر (..) وتوجهنا إلى الإسكندرية بقطار خاص كان يستخدمه الملك فؤاد (؟؟) وبدا أن المحادثات فى الإسكندرية لن تصل إلى شىء، ولكن الرأى السائد وسط الوفد المصرى أن السادات على استعداد للتنازل من أجل معاهدة السلام (..) وانتابنى القلق وقلت للسفير ايلتس: «هل تضغطون على الرئيس للتوصل إلى معاهدة سلام على حساب التزامات مصر العربية؟ إن ثمن الاستجابة لضغوطكم ستدفعه مصر والرئيس السادات.(..) وأخيرا وفى ١٤ مارس كان نص المعاهدة جاهزا (..) وطبقا لأحكام المعاهدة الثانية المتعلقة بالضفة الغربية وغزة، فإن الأردن والفلسطينيين سيشاركان فى المفاوضات، وفى حالة عدم اشتراكهما فإن مصر ستتفاوض نيابة عنهما (؟؟) وصباح الأحد تابعت القنوات التليفزيونية الأمريكية الثلاث حيث ظهر كل من بيغين وديان وكيسينغر يتحدثون واحدا بعد الآخر عن المعاهدة، ولم يُسمع للمصريين أو للعرب صوتا (..) وبدت المعاهدة بمثابة انتصار للدبلوماسية المصرية، ولكننى شعرت بأنها ستضر بنا، فمما لا شك فيه أن هذا النصر أمكن تحقيقه بتهميش الفلسطينيين وإضعاف تأثير مصر على مستقبل الضفة الغربية وغزة، فمصر ستحصل على السلام ولكن الفلسطينيين لن يحصلوا على حقوقهم (..) وبدا من الصياغة أن مصر وحدها قد تخرق المعاهدة، وأن الولايات المتحدة فى هذه الحالة ستقدم معونة «عاجلة» لإسرائيل (..) وبعد مغادرة فانس بعث الدكتور مصطفى خليل مذكرة إلى فانس يقول فيها إن مصر فى غاية الإحباط لاكتشافها أن الولايات المتحدة دخلت فى اتفاقية مع إسرائيل، الأمر الذى نعتبره موجها ضد مصر (..) وعندما قام الدكتور مصطفى خليل بإبلاغ الرئيس السادات بالالتزام الأمريكى لإسرائيل، لم يُبدِ السادات، كما توقعت، أىّ اهتمام. فبالنسبة للسادات فإن شيئا لم يكن ليستطيع أن يُنقص من سحر الاحتفال الذى سيجرى فى الساعات القادمة(..) بعد سنوات طويلة أبلغنى هيرمان ايلتس بأن كيسينغر سأله فى ذلك اليوم: لماذا وقع السادات هذه المعاهدة؟» لقد كان فى وسعى أن أحصل له على ما هو أكثر كثيرا» (..) وبعد ظهر ذلك اليوم، وأثناء جلسة عمل مع الأمريكيين، نشب خلاف رهيب بين مصطفى خليل وسايروس فانس. كان خليل قد قرر نشر الخطابين المصريين اللذين يعترضان على الاتفاق الإسرائيلى الأمريكى، وللمرة الأولى فى حضورى يفقد فانس أعصابه. فقد اسودّ وجهه وقال: «هذان الخطابان وثائق سرية وليسا للنشر!» (..)

فى يوم أول أبريل ١٩٧٩ أبلغتنى الرئاسة بأننى سوف أرأس بعثة الشرف المرافقة أثناء زيارة رئيس الوزراء الإسرائيلى للأهرامات وأبى الهول (..) ولاحظ الجميع غياب مصطفى خليل الذى قال إنه مريض (..) وكان واضحا على وجه حسنى مبارك والسيدة قرينته أنهما أيضا متضايقان لتكليفهما باستقبال هذا الضيف. ولم أكن وحدى الذى يشعر بأن إسرائيل هى الرابحة ومصر هى الخاسرة فى هذه المعاهدة.(..) وبنهاية مراسم الاستقبال عدت إلى مكتبى وهناك وجدت فى انتظارى برقية من صديق وزميل لسنوات طويلة، وهو جورج طعمة مندوب سوريا السابق لدى الأمم المتحدة، يقول فيها: «إن رئاستك لبعثة الشرف المرافقة لمجرم الحرب بيغين هى صفعة على وجه كل عربى (..) وأفاض نص البرقية فى وصف دور بيغين كإرهابى (..) وجاء فى البرقية (..) وبدلا من أن تكون ضمن المطالبين بمحاكمة بيغين كمجرم حرب فإنك اليوم تستقبله كرئيس للوزراء (..) فلا الشعب العربى النبيل ولا الإنسانية تغفر لك صنيعك ولا لتبريرات رئيسك السادات» (...) ولو أننى تسلمت هذه البرقية قبل ذلك، لكنت طلبت دون تردد وبفخر أن أرأس وفد الشرف المرافق لمناحم بيغين (!!!).



وفيما أنا أستقل سيارتى عائدا إلى بيتى رحت أفكر بأن مصر قد ضحت بما فيه الكفاية، من حياة أبنائها وأموالها، من أجل العرب والفلسطينيين، وقد حان الوقت لأن تفكر مصر فى نفسها، وأن التزام السادات بمصر أولا له ما يبرره (..) وعندما استأنف مجلس الشعب مناقشاته حول المعاهدة (..) اقترح محمود أبو وافية، عديل الرئيس والمحامى بالأقاليم، إرسال محاضر مناقشات مجلس الشعب الحالية إلى جميع الدول العربية، وناولت جارى الجالس إلى جانبى قصاصة صغيرة كتبت فيها: «إن العضو المحترم يغفل حقيقة أن إخواننا العرب لن يقرءوها، مثلهم فى ذلك مثل أولئك الذين هاجموا إطار كامب دافيد دون أن يقرءوا تلك الوثيقة».

(..) واختلطتُ بالجماهير وتساءلت لماذا هم سعداء إلى هذا الحد. قال بعضهم إنهم فقدوا أبناء فى المعركة ولن تكون هناك حروب أخرى بعد الآن، وقال آخرون أن الأمريكيين سيقومون ببناء المصانع فى مصر (..) ولقد أسعدنى سماع تلك العبارات. إنها صادقة.

وسافرت إلى الإسماعيلية لاستقبال الرئيس تشاوشيسكو (..) واقترح، كما كان يدعو منذ بعض الوقت، عقد مؤتمر دولى لمناقشة القضية الفلسطينية، ولم يبد السادات اهتماما بذلك، أما أنا فقد أيدت الفكرة، واعتقدت أنه (..) فى حالة فشل معاهدة السلام وكامب دافيد فإن المؤتمر الدولى سيوفر لنا وسيلة التراجع. ولكنى لم أقل ذلك بصراحة للسادات (..) الإسرائيليون يرفضون تبادل وثائق التصديق لأنها تتضمن وثيقتين (..) وقال الإسرائيليون أن برلمانهم وافق فقط على معاهدة السلام وليس على الاتفاق الآخر (الخطابات الخاصة بالحكم الذاتى الفلسطينى) وهمست فى أذن الدكتور مصطفى خليل بأن عملية التبادل فى سيناء تواجه مأزقا بسبب اعتراضات إسرائيلية، وقام هو بإبلاغ السادات (..) وقال مصطفى خليل منفعلا: «إن كل شىء يسير على طريق الخطأ، وهو قول، على ما يبدو، لم يعجب السادات (..) وفى صباح اليوم التالى، ولأسباب لا أعلمها، اختفى الحراس من مدخل عمارتنا السكنية، وانزعجت زوجتى وصار الجو متوترا. وعندما استعلمت قيل لى إن اليوم هو الجمعة وإنهم ذهبوا إلى المسجد للصلاة (؟؟)

فى ذلك العام أقيم احتفال عيد العمال فى سفاجا (..) وكنا، مصطفى خليل وأنا، نرجو ألاّ يثير خطاب السادات حفيظة الدول العربية (..) فقد كنّا نتفاوض بهدوء مع بعض الحكومات العربية حول مصانع السلاح المملوكة ملكية مشتركة (..) وألححت على موسى صبرى الذى كان عاكفا على كتابة الخطاب أن يتأكد من أن شيئا من هذا لن يحدث (..) توجه السادات إلى المنصة (..) فجأة أزاح الخطاب المكتوب جانبا ليتحدث بدون مذكرات، ونظر مصطفى خليل نحوى وبادلته النظرة فى أسى. وشرع السادات فى شن هجوم عنيف على الزعماء العرب الآخرين، يشجب تقاعسهم وغدرهم وانعدام تأثيرهم،. ونتيجة لذلك انهارت المفاوضات الخاصة بالمصانع المشتركة للسلاح. وعندما قررت جيبوتى، وهى دولة متناهية الصغر تقع تحت النفوذ الفرنسى سياسيا واقتصاديا وعسكريا، قطع علاقاتها مع مصر، قلت للسفير الفرنسى فى القاهرة إن فرنسا كان فى استطاعتها الحيلولة دون ذلك (..) كانت لطمة مريرة لكبرياء مصر.

وفى تلك الليلة تناولت العشاء بالسفارة البريطانية





الرأى السـائد وسـط الوفد المصرى أن السادات على استعداد للتنازل من أجل معاهدة السلام



إن رئاستك لبعثة الشرف المرافقة لمجرم الحرب بيغين هى صفعة على وجه كل عربى



(فى مصر) وعلى العشاء قابلت محمد حسنين هيكل (..) وقال لى بقلق كبير: «رويدا رويداً! لابدّ أن تفرمل السادات، فليس هناك ضرورة على الإطلاق لإجراء التطبيع مع إسرائيل بهذه الخطوات السريعة»، وهيكل أحد المفكرين المصريين الراديكاليين الذين لا يستطيعون قبول فكرة الحوار مع إسرائيل.

وفى يوم السبت تناولت العشاء فى دار الدكتور زهير فريد بمناسبة مغادرة هيرمان ايلتس لمصر. وتحدث ضيف الشرف معى لأول مرة دون اعتبار لمنصبه كسفير للولايات المتحدة، معلنا أن: «اتفاقيات كامب دافيد كارثة» (..) وكنت قد أبلغت أجهزة الإعلام بأنه وفقا للمعاهدة فإن التطبيع بين مصر وإسرائيل لن يبدأ قبل نحو تسعة شهور (..) وبعد ذلك بيومين (فى العريش) حدثت خطوة جديدة نحو التطبيع بين إسرائيل ومصر (..) ونهض السادات ليعلن قراره بفتح الحدود بين مصر وإسرائيل (..) أدليت بحديث إلى مراسل» لوموند» فى القاهرة، وتضمنت أسئلته استفسارا عن ابن عمى، إبراهيم أمين غالى، الذى فصله عبد الناصر من وزارة الخارجية لخدمته الدبلوماسية لنظام الملك فاروق. (؟؟)

(..) وأجبت الرئيس (..) صار معلوما الآن لدى الكافة بأننى أتحدث جهارا لصالح القضية الفلسطينية (..) ولكننى كإنسان واقعى (..) أعلم أنه إذا لم تتابع مصر مصالح الفلسطينيين فإننا سنخسر زعامتنا للعالم العربى، كما أن السلام مع إسرائيل سيحيق به الخطر (..) وبدا أن كل أسباب انزعاج العالم العربى لا تنصب على المعاهدة المصرية الإسرائيلية، التى تعنى إعادة الأرض العربية من إسرائيل، وإنما كان يُخشى أن يكون وراء المعاهدة حلف سرى بين إسرائيل ومصر بمساندة الولايات المتحدة، تصبح مصر بمقتضاه الزعيمة السياسية، وإسرائيل الزعيمة التكنولوجية، والولايات المتحدة السند المالى (..) لم يكن هناك أى ظل للحقيقة فى هذا الادعاء» (؟؟)

وقفة سريعة: لم يكن هناك عربى واحد يجادل فى أحقية مصر كزعيمة ورائدة، والتعليق هنا يُخلّ، إلى حد ما، بالأسلوب العلمى، لأنه مضاربة سياسية، بجانب أن العالم يعرف بأن أمريكا لم تكن أبدا سندا ماليا لأحد، بل هى تريد أن تكون هى الآمرة بصرف الأموال عربية المصدر.

«فى يوم الأربعاء ٤ يوليو ١٩٧٩ سافرت لحضور مؤتمر القمة الإفريقى فى مونروفيا، وكنت أتوقع الأسوأ (..)

وتناولت العشاء بمنزل عادل خير الدين سفير مصر (..) وكان يأمل أن تؤدى علاقتنا الشخصية إلى توليه منصب فى أوروبا (..) وبالرغم من شكاواه التى لم تنقطع أبدا كان الجو فى العشاء مبهجا. (..) اجتمعت مع حسن كامل لمناقشة القائمة التى كنت قد أعددتها لرؤساء الجمهورية الأفارقة الذين يجب على السادات أن يجتمع بهم، وقال حسن كامل بعجرفة: «إن رئيس الجمهورية لن يقوم بطبيعة الحال بأى زيارات» (..) وعندما استقبلنى السادات (..) وأبلغته بما هو مطلوب، ووافق على الفور على زيارة الرؤساء الآخرين (..) ثم جاء الدور على أحمدو أهيدجو رئيس الكاميرون (..) وكنت أقوم بالترجمة من العربية إلى الفرنسية، مفصلا فى أماكن متفرقة كلمات السادات، وذلك بالموافقة الصريحة من جانب الرئيس، الذى كان يهز رأسه بالموافقة عند كل نقطة عندما كان يلاحظ إسهاماتى فى بلورة كلماته (؟؟) واستقبلنى فى نيويورك الدكتور عصمت عبد المجيد وطلبت منه أن يساعدنى فورا بشأن تقديم اقتراح بتنقيح قرار مجلس الأمن ٢٤٢ لكيلا يُشار إلى الفلسطينيين على أنهم لاجئون فحسب، ولكن كشعب له حق تقرير المصير (..) غير أنه عندما عرف الإسرائيليون بهذه الفكرة عارضوها بعنف (..) وكان السادات نفسه يخشى من أن يؤدى تعديل القرار إلى إضعاف اتفاقات كامب دافيد (..) وقد أبلغ السادات بوب شتراوس بهذه المخاوف، ونتيجة لذلك، حاول شتراوس بكل نشاط أن يقتل مبادرتنا (؟؟)

واتصل الدكتور مصطفى خليل بى هاتفيا من القاهرة ليقول إن معارضة السادات لتغيير القرار ٢٤٢ قاطعة.

وتركت نيويورك متوجها إلى هافانا (..) كان الشعور العام أننا نواجه خطرا (..) غير أن الرئيس السادات لم يكن يعبأ بذلك. فلم تكن حركة عدم الانحياز تهمه. فهو يعتزم تحقيق الانسحاب الإسرائيلى من سيناء مهما كان الثمن الدبلوماسى بالنسبة لمصر.(..)

وقفة سريعة للعلم: لا أذكر أن الرئيس السادات حضر قمة عدم الانحياز السابعة فى هافانا، عاصمة كوبا.



وفى ساعة متأخرة من ذلك المساء طرق السفير محمود أبو النصر، المصرىّ المُعار إلى سلطنة عُمان ليعمل ممثلا لها فى الأمم المتحدة، باب غرفتى، وقال إن سوريا قد طلبت من المجموعة العربية أن تشجب وترفض اتفاقات كامب دافيد (..) وطلب منى أن أبقى على اجتماعنا سرا».

وقفة سريعة: أتصور أن الدبلوماسية المصرية كان يمكن، بحد أدنى من التنسيق والتفاهم والتفهم المشترك، أن تستثمر التنديد العربى فى مساومة الإسرائيليين والأمريكان، وكلما زاد الهجوم العربى كلما أمكن انتزاع مكاسب أكثر من الطرف الإسرائيلى، بشرط الاتفاق المسبق بين القادة العرب.

«(..) وقال رودريغويز (نائب الرئيس الكوبى) أن صديقه هوارى بومدين قد ذكر له أكثر من مرة أنه، وبرغم أى خلافات، يجب ألاّ ينسى المرء أبدا أن مصر هى أهم دولة فى العالم العربى (..) تناولت مهدئا وتوجهتُ إلى سريرى، غير أن التليفون بدأ فى الرنين، وكان المتكلم

سيسيل دونيس (وزير خارجية ليبيريا ورئيس المجموعة الإفريقية) وقال إنه يريد مقابلتى فورا (..) وقال وهو يصرخ: «بطرس أخى، صديقى، كيف يمكن أن أدافع عن مصر وسياساتها فى الوقت الذى يُحرّض فيه الرئيس السادات الرأى العام العالمى ضد مصر؟. وقال إن السادات قد توجه لتوه إلى إسرائيل فى زيارة رسمية، وعلى مسمع ومرأى العالم، وفى الوقت الذى ينبغى له أن يشترك فى مؤتمر هافانا (..) وأضاف أن الأكثر من ذلك أن «السادات قال فى تصريح نقلته جميع وكالات الأنباء، إن مصر سوف ترسل جنودا إلى المغرب لمساعدة الملك الحسن الثانى فى حرب الصحراء الغربية» (؟؟)

(..) ووجهت برقية عاجلة إلى مصطفى خليل رئيس الوزراء، ورويت له القصة، لقد أردت أن يعرف السادات لماذا يتعين علىّ أن أتنصّل من تصريحاته، آملا فى ألاّ يُغضبه ذلك.

وشن فيديل كاسترو هجوما عنيفا على الإمبريالية (..) ووصف اتفاقات كامب دافيد بأنها خيانة للعالم العربى (..) بمن فى ذلك المصريون أنفسهم. واشتعلت غضبا وقلت لعصمت عبد المجيد إنه لابد من أن أردّ على وقاحة هذا الرجل فورا (؟؟) وساد القاعة الكبرى صمت تام. كيف يجرؤ هذا المنشق على إلقاء محاضرة على فيديل كاسترو، رئيس جمهورية كوبا، ورئيس مؤتمر القمة، الماركسىّ وإله عدم الانحياز، بهذه الطريقة. ولم يدل كاسترو بأى تعقيب على ما قلته (..) وبعد ذلك أعلن أن المؤتمر وافق على شطب كلمة ممثل مصر من محاضر الجلسة، وضجت القاعة بالتصفيق المدوّى، وتعالت صيحات النصر بين الدول الرافضة واليسارية، أما الوفود التى اختارت عدم الاستحسان فقد انكمشت على نفسها بأمل أن تمر العاصفة دون أن تؤذيها. وفى ذلك المساء أقام كاسترو حفلا لرؤساء الوفود (..) وعندما كنت أصافحه قال: «لقد سمعت قبل وصولك أنك خصم خطير، ولقد تجلت لى حقيقة ذلك اليوم». وأضاف مبتسما أنه يتمنى لى إقامة سعيدة فى هافانا. ولم تؤدّ روح المودّة التى أبداها إلا لزيادة هياجى، لأنها نقلت إلىّ ثقة كاسترو بأن مصر خسرت قضيتها.

وبعد الظهر قمت بزيارة كورت فالدهايم فى استراحته، وأشار إلى كلمتى وقال إنه ربما حان الوقت لعقد مؤتمر دولى بشأن أزمة الشرق الأوسط (..) واستمعت إلى فالدهايم دون أن أفصح عن رأيى بأن السادات لن يقبل عقد مؤتمر دولى فى هذه المرحلة (..) وبالرغم



إذا لم تتابع مصر مصالح الفلسطينيين فإننا سنخسر زعامتنا للعالم العربى



لا أذكر أن الرئيس السادات حضر قمة عدم الانحياز السابعة فى هافانا، عاصمة كوبا



مما كنت قلته فى كلمتى فإننى كنت أعرف أن فكرة عقد مؤتمر دولى فى غزة أو العريش، والتى ذكرها السادات فى مونروفيا منذ شهر، لم تكن سوى مناورة دبلوماسية لإرباك الرافضين العرب (؟؟)

وفى ذلك المساء رجعت إلى فندقى لانتظار رئيس وزراء المغرب، الذى كان قد طلب أن يجتمع بى فى غرفتى دون تكتم، ووصل المسؤول المغربى حوالى الساعة العاشرة مساء، مرتديا عباءة بيضاء طويلة ونظارة سوداء، كما لو كان متوجها إلى حفل أزياء، ودخل هو والسفير المغربى لدى الأمم المتحدة إلى غرفتى بعد أن ألقيا نظرات شمالا ويمينا خشية أن يراهما أحد.

وبعد مناقشات كثيرة (..) رفض المغاربة طلبى بأن يعلنوا أنه لا صحة للرواية التى تقول إن مصر سوف ترسل جنودا إلى المغرب بطلب من الرباط (..) وعندما غادر رئيس الوزراء غرفتى وضع على عينيه النظارة السوداء مرة أخرى، وهرع خارجا خلسة» (؟؟)

وقفة سريعة: كنت فى هافانا آنذاك، وكنّا على علم بزيارة المسؤول المغربى، فلا يمكن كتمان شىء فى مؤتمر دولى كهذا، والمؤسف أن الدكتور بهذا الاستعراض لملكاته الوصفية البوليسية يخرج عن إطار الموضوعية الجامعية، فالمغاربة لم يكونوا فى حاجة للتنكر فى مؤتمر كل ما فيه مكشوف.

«وصبيحة اليوم التالى قمت بزيارة الرئيس تراورى رئيس جمهورية مالى (..) وقال فى غيظ: «إذا كان أعداء مصر لا يفهمون السياسة المصرية، وأصدقاء مصر لا يفهمون السياسة المصرية، فهل لا تتفق معى على أن هناك خطأ ما يتعلق بالسياسة المصرية؟ (..) وقد اجتمعت سرا مع ممثل الإمبراطور بوكاسا، إمبراطور جمهورية إفريقيا الوسطى، فى مرحاض للرجال وفى طريق عودتى عن طريق باريس تقابلت مع وزير الخارجية الفرنسى الجديد جان فرانسوا بونسيه. قال، وهو يعدل ياقة معطفه ويتكئ إلى الخلف بمقعده،: «موشى دايان كان يجلس فى هذا المكتب الذى تجلس فيه، منذ فترة قصيرة. وقال لى ديان دون مواربة إن ما تم إبرامه بين مصر وإسرائيل ليس سوى سلام منفصل، وأنه عندما تتفاوض إسرائيل حول الضفة الغربية وقطاع غزة فلن يكون الموضوع هو السيادة على هذه المناطق بل فقط إعطاء الحكم الإدارى للفلسطينيين، ولا شىء غير ذلك «وأضاف» إنه بذلك يكون ديان قد أكد نية إسرائيل فى الاحتفاظ بالضفة الغربية، وأن الدبلوماسية الأمريكية قد أخطأت، لأنه بينما كان انسحاب إسرائيل من الأراضى المحتلة أمرا مُفترضا فيما مضى فإنه أصبح الآن موضوعا للتفاوض. وكدتُ أسرّ لوزير الخارجية الفرنسية أننى ربما أشاركه رأيه.

وعند عودتى للقاهرة (..) استدعانى الرئيس للاجتماع به (..) وهاجم بشراسة الدول فى الخليج وإفريقيا التى ليست سوى زمرة صغيرة لا قيمة لها سياسيا أو ثقافيا أو اقتصاديا.

كان السادات قد قرر ترتيب استعراض كبير ليبين أن فترة مفاوضات الحكم الذاتى، التى كانت قد استمرت شهورا، قد حققت تقدما. إلاّ أن الحقيقة كانت على خلاف ذلك.

وسافرت إلى الإسكندرية (..) وبدأت المفاوضات فى قاعة فندق سان استفانو (..) ووصلت إلى مطعم سان جيوفانى وذلك لاستقبال الضيوف بدلا من مصطفى خليل، وحول المائدة كان يجلس يوسف بورج (رئيس الوفد الإسرائيلى) إلى يمينى وشارون إلى يسارى، وكانت المواجهات التى حدثت أثناء النهار قد تركت آثارها علينا جميعا (..) وعالج بورج وشارون سماجة الموقف عن طريق تكديس الطعام فى أطباقهما (..) وأثناء العشاء اقترب منى السفير محسن الديوانى رئيس البروتوكول ليبلغنى بأنه تم ترتيب عرض فنى، وبدأ العزف، ثم ظهرت راقصة شرقية وبدأت تؤدى رقصاتها بطريقة إيقاعية، وتوقف جارى آرييل شارون، عن تناول الطعام، وعكست أسارير وجهه مشاعر الاغتباط والسعادة، والتفت إلىّ وتكلم بمودة: «يا دكتور غالى، لو أنك أرسلت ثلاث راقصات مثل هذه الراقصة إلى إسرائيل، فلن تحتاج إلى أى سلاح آخر أو دبابات لغزو بلدى» (؟؟؟!!!!!) وضحك، وضحكت أنا (..) وعندما كان يحدث ذلك وجدت أن بورج قد اختفى (..) لقد ترك القاعة فزعا (..) ونظر إلىّ نظرة مرتاعة، وقال: «ألا تعرف أننى رئيس لحزب دينى، وإن وجود راقصات نصف عاريات يقمن بإيحاءات جنسية ينتهك التعاليم الدينية؟» (..) واعتذرت له».

وقفة سريعة: أتساءل ما الذى كان يمكن أن يحدث لو أن الأمر تعلق بزعيم سياسى مسلم غادر لنفس السبب مائدة الرئيس، ألن تقوم القيامة على هذا الأصولى المتعصب؟



«وفى الصباح كانت المناقشة تدور حول نص البلاغ المشترك، واتفقنا على أن أفضل طريقة لإخفاء فشل الجولة هو إعلان مواعيد الاجتماعات التالية (..) وكان كل ذلك من أجل إخفاء عدم تحقيق أى تقدم، وطمأنة الرأى العام على توافر الإرادة والزخم لدى الجانبين من أجل مواصلة المفاوضات (..) وكنت مقتنعا بأن الإسرائيليين لا يسعون أبدا من أجل إيجاد حلٍّ للمسألة الفلسطينية، فقد كانوا يستخدمون المفاوضات لكسب الوقت بينما يحققون السيطرة الكاملة على الضفة الغربية وغزة من خلال سلسلة المستوطنات التى يقومون ببنائها (؟؟) فى المناظرة المصرية الإسرائيلية فى ستراسبورغ (..) مضى ديان قائلا إن «اتفاقات كامب دافيد لا تتضمن إمكانية قيام دولة فلسطينية» (..) وقلت «السيد دايان على حق (..) غير أنه لم يذكر أى شىء يحظر إقامة دولة فلسطينية.

(..) تلقيت مكالمة هاتفية من إبراهيم نافع رئيس تحرير الأهرام، الذى أبلغنى أن السادات غاضب جدا من التصريح للذى أدليت به لإذاعة مونتى كارلو والذى استنكرت فيه موقف الإسرائيليين من الفلسطينيين (..) وطلب الصحفيون الإسرائيليون عقد اجتماع عاجل معى، وأبلغونى أن السيد بيغين طلب من السادات أن يتخلص من الوزير بطرس غالى (..) وفى المطار لم يوجه الرئيس لى التحية والتفت بعيدا وكأنه لا يرانى، وقد لاحظ ذلك زملائى ومرافقو السادات، وفى قاعة المطار جلست بمفردى يحوطنى الصمت، حتى العاملين فى خدمة المسافرين بدوا كما لو كانوا يقاطعوننى، ولم يقدموا لى القهوة (..) واقتربت من الرئيس وقلت بهدوء» لقد أحاط بيغين الصحافة علما بأنك قدمت تنازلات جديدة من أجل الإسراع بعملية التطبيع بين مصر وإسرائيل، وأن الخطوط الجوية سوف تبدأ رحلاتها بين البلدين... غير أننا لم نحقق أى تقدم فيما يتعلق بالمشكلة الفلسطينية. وقاطعنى السادات بصوت غاضب وعال: «لقد تعيّن علىّ أن أقدم هذه التنازلات لكى أحدّ من الأضرار الناجمة عن تصريحاتك الأخيرة للصحافة الدولية، لقد جاء بيغين لمقابلتى صباحا ولم يكن قد نام طول الليل، وهو متكدر للغاية وشاحب الوجه جدا، وهو يشعر بالإساءة نتيجة لتصريحاتك الغبية. وقد اضطررت إلى تهدئته وتقديم تنازلات للتعجيل بعملية التطبيع (؟؟)

(..) وبحلول شهر أكتوبر نجحت الولايات المتحدة فى إعادة مباحثات الحكم الذاتى، ولكنها كانت عاراً. لقد كانت ستارا لعدوان إسرائيلى (..) وفى نوفمبر انتخب ريغان (..) وشعر السادات بخيبة أمل، حيث كان يأمل فى إعادة انتخاب صديقه جيمى كارتر. وكنت قبل بضعة أسابيع قد اتصلت بالسادات وقلت له أنه من المحتمل ألاّ يُعاد انتخاب كارتر. وغضب السادات وقال: «يا بطرس، إنك تنصت دائما للشائعات، وتعتقد أنها حقيقة». والآن (..) اتصل بى السادات (..) وقال: «تعرف يا بطرس، كنت أعلم أنه لن يُعاد انتخابه» وبطبيعة الحال لم أذكره بتحذيراتى السابقة.

وفى اليوم التالى لانتخاب ريغان ذهبت (..) لاستقبال وفد حزب العمل الإسرائيلى (..) لقد شعرت بأن هؤلاء الإسرائيليين ليس لديهم فهم للموقف الذى تجد مصر نفسها فيه (..) وقلت إن الثمن الذى دفعته مصر مقابل معاهدة السلام ليس هو عزلة مصر عن العالم الثالث





كنت مقتنعا بأن الإسرائيليين لا يسعون أبدا من أجل إيجاد حل للمسألة الفلسطينية



مضى ديان قائلا إن «اتفاقات كامب دافيد لا تتضمن إمكانية قيام دولة فلسطينية»



بقدر ما هو عجزها عن القيام بالدور الذى كانت تقوم به أثناء السنوات العشر الأخيرة (..) ولأننا لم نحصل على شىء، فالحقيقة أن حالة الفلسطينيين أصبحت أسوأ بعد معاهدة السلام مما كانت عليه قبلها.(..) وأبلغ بيغين الصحفيين أننى تعرضت للتوبيخ من جانب السادات (..) ولاحظت الصحيفة أن تصريحاتى لا تدخل السرور على قلب من يسمعونها من الإسرائيليين، فهم لا يستطيعون استيعاب حقيقة أن العالم العربى مهم جدا بالنسبة لمستقبل مصر بدرجة تفوق أهمية إسرائيل، وأنه لأسباب إيديولوجية وعملية لا يمكن لمصر أن تترك الفلسطينيين دون اهتمام بهم. وكان واضحا أن السادات لم ينس تصريحاتى التى أثارت غضب بيغين، وقد رأى ليا (زوجى) وقال لها «قولى لبطرس اقفل بقك وتوقف عن الإدلاء بتصريحات».

سافرت يوم الأربعاء إلى تل أبيب لبدء الدورة الثامنة من المفاوضات المتعلقة بالحكم الذاتى الفلسطينى (..) وباستثناء الاتفاق على اتباع جدول زمنى مكثف، والتعبير عن التقدم الذى تم حتى الآن، لم يتضمن البلاغ أى شىء على الإطلاق.

وفى كل يوم كان الإسرائيليون يواجهوننا بتطور جديد، فهم يدمرون المنازل الفلسطينية، ويصادرون المزيد من الأراضى الفلسطينية، ويزجون فى السجون بالزعماء الفلسطينيين أو يطردونهم (..) وبالرغم من عوامل الإحباط هذه لم يكن لدينا خيار سوى مواصلة المحاولة (..) ولو فشلنا فسيعنى ذلك نشوب أزمة بين مصر وإسرائيل تؤدى إلى وقف الانسحاب الإسرائيلى من سيناء يكون ذلك انتصارا للرافضين.(؟؟) (..) وفى ختام الجلسة العامة كنا جميعا منهوكى القوى وفى حالة اكتئاب، وقد تلى البيان الختامى، وبالرغم من لهجته المتفائلة، فإن شيئا لم يتحقق.

وكان يوم ١٥ مايو هو المرة الرابعة خلال ثلاث سنوات التى قام فيها السادات بتغيير الحكومة (..) وكان السادات فى حالة نفسية سيئة جدا، إذ أنه انتقد جميع الوزراء الذين أدوا اليمين لتوهم (..) اشتدت هواجس السادات تجاه الشيوعية (..) وكان ما يعقد حياتى حينذاك هو أن عداءه للشيوعية قد امتد أيضا ليشمل منجستو هايلى ماريام (..) وكانت مصر توفر الدعم العسكرى والمالى للصومال 5 sdfootnote5sym، عدو إثيوبيا (..) وكنت أرى أن مصلحة مصر تتطلب منا أن نقيم علاقات مع إثيوبيا، حيث تنبع أصلا ٨٥ فى المائة من مياه النيل6 sdfootnote6sym (..) وفى مساء يوم ما، وبعد حديث هاتفى طويل، وافق السادات على الكتابة إلى منجستو (..) وقد وافق السادات على طلبى باصطحاب أنيس منصور معى (..) وكان السادات، من أجل إقناع الإسرائيليين بإعادة الضفة الغربية وغزة، قد عرض عليهم تزويدهم بمياه النيل من أجل مشاريع الرى الخاصة بهم، وقد أثار ذلك ضجة فى مصر، فضلا عن الدول المطلة على النيل، التى استشاطت غضبا لأن السادات عرض مياه النيل دون موافقتها. وأخيرا أصبحنا فوق أديس أبابا. ومما بعث هلعنا أن المطار رفض التصريح لنا بالهبوط (..) وأصدرت تعليماتى إلى قائد الطائرة: «أبلغوا المطار بأن الوقود بدأ ينفد وأننا سنهبط هبوطا اضطراريا» (..) وكان السفير يبدو قلقا، أو حتى خجلا، وهمس إلى بالعربية: «إنه أمر غير مفهوم. إن منجستو يرفض مقابلتك».

وعند عودتى إلى القاهرة علمت (..) أنه، عشية سفرى إلى إثيوبيا، أصدر السادات بيانا صحفيا انتقد فيه منجستو ونظامه الفاسد، بل وهدد بالتدخل العسكرى إذا ما تجرأ على المساس بمياه النيل (..) غير أن إهانة منجستو لمبعوث السادات لم يرد ذكرها لا فى الصحف المصرية ولا الإثيوبية» (؟؟)

وقفة سريعة: ليست عندى معلومات عن هذه القضية ولكن تصورى، مما أعرفه عن مؤامرات القمم، هو أن هناك مسؤولا مصريا معينا أراد إفشال مهمة غالى والحيلولة دون تقارب مصرى إثيوبى قد يؤثر على الدعم المصرى لنظام زياد برى فى الصومال، الذى كان يتحطم تدريجيا بحرب الأوغادين ويمتص طاقة إثيوبيا فى الوقت نفسه.

«دعت معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل، الموقعة فى ٢٦ مارس ١٩٧٩، الطرفين إلى مطالبة الأمم المتحدة بأن توفر مراقبين من أجل الإشراف على عودة سيناء إلى السيادة المصرية (..) بيد أنه الآن، بعد مضى عام، أدت المعارضة القوية من جانب الدول العربية والاتحاد السوفيتى ودول أخرى لاتفاق كامب دافيد إلى إعاقة إنشاء قوة تابعة للأمم المتحدة (..) وأبلغنا روى آثرتون بأن الولايات المتحدة سوف ترسل ألف رجل إلى سيناء، وأنها أقنعت دولة فيجى (؟؟) بالموافقة على إضافة بضع مئات من الجنود كى ما تكون القوة «متعددة الجنسيات». وكان هذا أمرا مضحكا!



وقد أعربت للسفير عن احتجاجى بأقوى العبارات، وقلت: «إنه سيكون لدى الرأى العام المصرى مبرر لأن يقول إن الاحتلال الإسرائيلى لسيناء قد استبدل بقوة احتلال أمريكية (..) ورد آثرتون: «لو أردتم تشكيلا مختلفا للقوة متعددة الجنسيات، فإنه يتعين عليكم أن تضطلعوا بالمسؤولية عن العملية كلها (..) ولكن احصلوا على موافقة إسرائيل بالنسبة لجنسيات الوحدات المشاركة (..) وتم إطلاع الرئيس السادات على ما قلته لآثرتون. وقال السادات إنه «مادام بطرس هو الذى أثار المشكلة فلندعه يحلها» ولم يكن حل المشكلة سهلا. لقد كان آثرتون على حق. فإن إسرائيل لن تقبل أى قوات من دولة لا تقيم معها علاقات دبلوماسية. وكانت غالبية الدول الإفريقية والآسيوية قد قطعت علاقاتها بإسرائيل (..) أما الدول الأوروبية، التى ظلت بمنأى عن عملية السلام، فقد أصدرت «إعلان فينيسيا» الذى ركز على منظمة التحرير الفلسطينية (..) ولذا كان أملى الوحيد هو دول أمريكا اللاتينية.(..)

وهكذا، فى مطلع شهر يوليو ١٩٧٩ توجهت مرة ثانية، وبصحبتى ليا، إلى أمريكا اللاتينية بهدف واضح، هو: الحصول على وحدات من أمريكا اللاتينية تشترك فى قوة متعددة الجنسيات غير تابعة للأمم المتحدة (؟؟) وقد بدأت بأوروغواى (..) حيث أوضح وزير خارجية أوروغواى أن حكومته سوف تنظر باهتمام فى الدعوة المذكورة. وكان رد الأرجنتين هو الرفض وفشلت مرة أخرى فى فنزويلا، ثم مضيت إلى بوغوتا (..) وقد جاءنى سفير الولايات المتحدة لكى يهمس فى أذنى بأن موقف الحكومة الكولومبية إيجابى جدا بالنسبة لمهمتى، غير أنى لم أحصل على أى التزام. وقد بدأت زيارتى الرسمية لبنما يوم الاثنين، عندما وضعت باقة من الزهور عند النصب التذكارى الوطنى، وعزفت الموسيقى العسكرية السلام الوطنى المصرى القديم والذى كان يرجع إلى أيام الملك فاروق (؟؟) وبعد الحفل عاتبت السفير المصرى، وهو لواء متقاعد، بسبب هذا الخطأ الكبير. ورد السفير بهدوء بأن حكومة بنما ليس لديها سوى موسيقى هذا السلام الوطنى السابق، وأنه بدلا من عدم عزف أى سلام، فقد فضلوا عزف موسيقى الملك السابق. ثم أضاف وهو يبتسم: «إن القاهرة بعيدة عن بنما، ولا يعرفون بهذه الواقعة، وربما تكون أعادت إلى سعادتك ذكريات أيام الشباب».

وقفة سريعة: أتمنى أن أعرف ماذا حدث فيما بعد لهذا السفير.

«وفى ٢٩ يوليو وصلت إلى غواتيمالا (..) وأثناء خطبته أعلن الرئيس لوكاس غارثيا أن هناك ضيف شرف حاضرا هذا الحفل. وقال «إنه وزير خارجية... «ثم تردد وأضاف «... إسرائيل!» (..) وكانت فترة بقائى فى غواتيمالا هى أفضل عطلة أشهدها لسنوات طويلة (؟؟) ولكنها لم تحقق شيئا لمصر.

وفى ٥ أغسطس، فى مكسيكو سيتى (..علمت أنه) لن يكون باستطاعة المكسيك الاشتراك، حتى بشكل رمزى، فى القوة المتعددة الجنسيات (..) غير أنه فى صبيحة عودتى أبلغت أن كولومبيا قد وافقت (..) وبعد أسابيع لاحقة، أعلنت أوروغواى أنها هى أيضا، سوف تشترك فى



أدت المعارضة القوية من جانب الدول العربية والاتحاد السوفيتى ودول أخرى لاتفاق كامب دافيد إلى إعاقة إنشاء قوة تابعة للأمم المتحدة



«لو أردتم تشكيلا مختلفا للقوة متعددة الجنسيات، فإنه يتعين عليكم أن تضطلعوا بالمسؤولية عن العملية كلها



القوة متعددة الجنسيات (..) وبحلول شهر سبتمبر كانت إسرائيل راضية عن قوة متعددة الجنسيات تتكون من الولايات المتحدة وفيجى ودولتى أمريكا اللاتينية، فى مطلع ١٩٨١ كانت حملة الانتخابات الإسرائيلية على أشدها (..) كان بيغين قد استغل انتهاء مجابهة إسرائيل مع مصر لكى يتحول بدرجة أشد عدوانية تجاه أعدائه فى الشمال. وقد وصلت الأمور إلى حد الأزمة فى شهر أبريل عندما حركت سوريا قذائف سوفيتية من طراز «سام» إلى موقع قريب من زحلة. وشعر العالم العربى، بصورة يمكن فهمها، بأن إسرائيل خدعت مصر وجرتها إلى سلام منفصل بغية إطلاق حرية إسرائيل للقتال فى مكان آخر.

وفى ٧ يونيو ١٩٨١ دمرت طائرات السلاح الجوى الإسرائيلى مرفقا نوويا عراقيا فى أوزيراك (..) ولم تبرز صحف القاهرة معارك إسرائيل مع الدول العربية الأخرى، فقد كنا نخشى أن تؤدى هذه الأنباء إلى تقويض التأييد الجماهيرى المصرى لعملية السلام (..) وفى يوليو ١٩٨١ قصفت الطائرات المقاتلة الإسرائيلية عن عمد أهدافا فلسطينية فى لبنان، وفى اليوم السابع عشر قُصفت بيروت أثناء غارة أسفرت عن مقتل نحو ثلاثمائة شخص، وأصابت ثلاثة أضعاف هذا العدد بجراح. وبالرغم من ذلك مضى السادات فى محاولته إنجاح عملية السلام (..) وفى مطلع شهر سبتمبر تم الاتفاق بين بيغين والرئيس ريغان فى واشنطن على مبدأ أمريكى . إسرائيلى جديد، أطلق عليه اسم «التعاون الاستراتيجى»، بما فى ذلك المناورات العسكرية المشتركة. وتعالى عُواء المعارضة العربية لمصر لشعورها بالإحباط.

بالرغم من عدم مبالاة الرأى العام أو موقفه المعادى تجاه فكرة المفاوضات مع إسرائيل، فإننا استأنفنا محادثات الحكم الذاتى فى ٢٢ سبتمبر ١٩٨١، وشعرت بالإحباط جدا لدرجة أن فكرة استئناف المفاوضات ذاتها كانت باعثة على الاكتئاب.(..) وبعد الظهر، وبعد مفاوضات مضنية، توصلنا إلى حل وسط، فبدلا من اعتماد جدول أعمال نقوم باعتماد بلاغ مشترك، تُذكر فيه جميع الموضوعات بطريقة السرد، ومن ثمَ، فإننا نقول إن شارون قد بيَن التدابير المتخذة من أجل إنشاء جو جديد من الثقة بين الفلسطينيين، ونقول إن تدابير تتخذ من أجل تشجيع الفلسطينيين على الاشتراك فى عملية السلام وفقا لاتفاقات كامب دافيد (..) وكانت جلسة اليوم الثانى مضنية، فقد نشب بيننا شجار حول نص البلاغ المشترك (..) وهمس كمال حسن على فى أذنى بحلول وسط، وقلد صوت السادات: «يا بطرس، بطّل تغيظ الإسرائيليين» (..) وخرجنا بحل وسط أخرق لتغطية فشلنا، وأحسست بالمرارة والإحباط (؟؟)... والآن وبعد مضى أربع سنوات، حدث ما كنت أخشاه. لقد قتل السادات نفسُ النوع من المتعصبين الذين قتلوا جدى فى عام «١٩١٠»

وقفة أخيرة: لم ترهقنى دراسة قمت بها كما أرهقتنى هذه القراءة الانتقائية لكتاب من أهم الكتب التى قرأتها، فلقد كنت حريصا، وأنا أختار هذا الأسلوب الجديد فى تقديم الكتاب إلى القارئ بنفس كلمات وتعبيرات كاتبه، على أن أحترم اختيارات بطرس غالى الأدبية واللغوية، علما أن بعضها يتناقض مع قناعاتى، بالإضافة إلى التناقضات السياسية. ولقد احترمت النقاط والفواصل، ولم أحذف كلمة واحدة ترتبط بسياق الجملة التى أوردها أو بالفكرة التى يستعرضها الملف. ولن أفسد ما اطلع عليه القارئ بالتحليلات، فقد يكون أقدر منى على التحليل الموضوعى وقد وضعت أمامه أهم عناصره. لكننى للأمانة أنصح القارئ المهتم بالإطلاع على الكتاب نفسه وقراءته أكثر من مرة، لأنه يرسم بصدق وبنزاهة غير مألوفة فى الكتابات السياسية صورة واضحة عن عصر غامض.

وأعتذر للدكتور بطرس بطرس غالى عن كل تقصير فى تقديم جهده الكبير للقارئ. ■

---

1. sdfootnote1anc المألوف فى هذه الحالات أن الوزراء لا يتركون لمبادراتهم بل يوضع اسم كل منهم أو رقم يشير له على درجات المنصة المخصصة للتصوير وبالتالى فأنا أتصور أن تصرف غالى هنا هو نوع من التصوير الكاريكاتورى للموقف لزوم الدراما اللغوية.
2. sdfootnote2anc رُفع علم فلسطين فى البداية على واجهة الفندق ثم نزع بطلب من السفير الإسرائيلى ساسون
3. sdfootnote3anc أثبت الأستاذ هيكل كذب هذا الادعاء.
4. sdfootnote4anc يُعتقد أن الصديق هو الأخضر الإبراهيمى وزير الخارجية الجزائرى الأسبق.
5. sdfootnote5anc فى تناقض مع احترام مبدأ الحدود الموروثة عند الاستقلال والذى أقرته منظمة الوحدة الإفريقية.
6. sdfootnote6anc تبدو هنا أهمية النظرة المستقبلية لبطرس غالى فيما يتعلق بمياه النيل.

كتاب الزاوية



محمد عفيفى مطر

(٢)

الأرض القديمة

رأيتُها فى صكوكِ الإرثِ مكتوبه
سفْراً من الإنسانِ والإزميل
والحجر
رأيتُها من شقوقِ الصيفِ
مسكوبه
غابات أيد ترعرعُ فى دم الشجرِ
وأوْجُهاً من حميم الطمى مجلوبه
منسوجة بالفروعِ الخُضَر والثمرِ
وأعظُماً غالبتْ أكفانَها، انقلبتْ
فراشةً حمراءَ مخضوبه
بالنار والغيم والرّهَج الدوّارِ فى
السفرِ..
كانت صكوكُ الإرث مختومه
بخاتم ملتهب وأحرفٍ مشوّيه
وكان فى أطرافها من سلّة الأيامْ
زخرفةٌ كوفيّه
وأثَرُ القوافلِ المغبرّة الأعلامْ
والزحمةُ التى تشبهُ عشّ البومه
وطرّةُ السيّافِ والإمامْ
والصرخةُ المكتومه !
حين تقصّفتْ أصابعى ويبستْ
مفاصلُ الراحلة الملعونه
وقفتُ فى الصحراء تحت الشمسْ
أنتظرُ الطغراءَ والأوامرَ الميمونه
كى أستطيع الهمسْ.
وقفتُ فى الصحراء واجماً مُقنّعاً
أنظر جلْدَ الأرضْ
مستبدلاً منتسخاً مرقّعا
وكلما ثبّتت الشمسُ رماحَها
الحمراءَ فى جمجمتى
قطعتُ رحلةَ الوقوفِ بالقراءه..

"يا عــــزيزى كلنـــــــا..."

محمـــــد رءوف حــــامد

رغم أن لعمليات الفساد، مهما تعددت صوره، نفس الجوهر (أو الطبيعة)، إلا أن الحس بالفساد، بمعنى التمكن من فهمه والإحاطة بأبعاده بشكل صحيح، ليس بالأمر السهل. السبب فى ذلك يرجع إلى أن الحس الصحيح بالفساد يتطلب القدرة على رؤيته من خلال أبعاده الحقيقية، ذلك بينما هذه الأبعاد تبزغ وتتشابك عبر منظومة من الحركيات المتعددة والمعقدة داخل السياق الأكبر، وهو السياق المجتمعى العام.



■■ من هذا المنظور فإن الفهم الصحيح للفساد يظل مسألة خاضعة للتطور بإستمرار، من خلال المزيد والمزيد من الدراسات النظرية والعملية. وعليه، فإن التوصل إلى الحد الأدنى المناسب من الفهم والإدراك للفساد بأبعاده المختلفة، يصعب أن يتحقق بنجاح بالاعتماد على رؤية (أو نظرية) واحدة بذاتها. ولأن التنظير للفساد يتزايد حاليا بشكل مكثف، فإن من المتوقع أن تطرأ على نظريات الفساد إضافات وتحويرات تصل بها إلى مزيد من النضج. ذلك التوجه (أو الشأن) يجعل هناك حاجة، ليس فقط لاستيعاب أكثر من نظرية واحدة عن الفساد، على غرار النظريتين المشار إليهما فى الجزء السابق (الفصل الأول - ثالثا)، نظرية «العدوى»، ونظرية «الانحطاط الحلزونى»، ولكن أيضا الإحاطة، بقدر مناسب، بالعديد من الأبعاد الرئيسية والتنظيرات الأولية، التى تكشف تفاصيل أكثر عن حركيات وسياقات الفساد، والتى هى، إما تساهم فى فهم نظريات موجودة بالفعل، أو من المتوقع أن يكون لها أثر رئيسى فى تطوير هذه النظريات والارتقاء منها إلى نظريات جديدة أكثر اكتمالا. ذلك فضلا عن الحاجة الأساسية للقائمين على (والمساهمين فى) عمليات مجابهة الفساد ورفضه، إلى التسلح بالقدرة الذاتية على الفهم والتفسير (والتوقع) لأية مستجدات يستحدثها المفسدون، فى سعيهم (والتفافهم) الدائم لتوسيع ونشر حركيات الفساد.

من أجل ذلك نختار للتناول هنا ثلاثة أبعاد رئيسية، تمثل تفاصيلها شروحات ضرورية فيما يتعلق بالبنية الرئيسية للفساد.

أولاً: التبرير - قوة دفع وتغطية:

ربما يمكن تصنيف الممارسين للفساد إلى نوعين. النوع الأول، من يمكن اعتبارهم فاسدين أصليين، ذلك بمعنى أنهم يسعون لممارسة الفساد، ويعملون على تطوير ممارستهم له، وتعظيم مكاسبهم من خلاله، بل وتطوير الفساد ذاته. لا أحد من هؤلاء يمكن أن يقر ويعترف بأن ما يمارسه يعتبر فسادا. إنهم يتقنون فن التبرير. وأما النوع الثانى، فيشمل هؤلاء الذين يمارسون الفساد فى سياق من الاتباع، و/أو قلة الحيلة، و/أو الاستسهال. إنهم - إلى حد ما - يمثلون مستوى الأشخاص العاديين فى الشارع. هم يعرفون أن ما يمارسونه يعتبر فسادا، وبعضهم، إن لم يكن معظمهم، يقرون بذلك. غير أن كلا منهم يبرر انحرافه بالقول: «حسنا، إذا كان الجميع يمارسون الفساد، لماذا يجب على أنا ألا أمارسه»، تماما كما أشار إلى ذلك جونار ميدرال السويدى الحاصل على جائزة نوبل، فى كتاب له صدر عام ١٩٦٨، وكان من أوائل من أشاروا إلى مكانة «التبرير» فى ممارسة الفساد (Mydral، ١٩٦٨).

الحقيقة أن التبرير حجر زاوية فى ممارسة الفساد. له أشكاله وله دوره، سواء فيما يتعلق بحماية المفسد والتغطية على العملية الإفسادية، أو فيما يختص بتطوير الممارسات الإفسادية كما وكيفا.

وهكذا، يمكن الإشارة إلى مكانة «التبرير» فى ممارسات الفساد من خلال عرض لبعض أشكاله، وحجم الدور الذى يلعبه.

أ) أشكال (وأساليب) التبرير:

١- أساليب التبرير عند القيادات:

لاحظت اللجنة العليا المسئولة عن إعمال القانون والتسيير الإدارى فى الولايات المتحدة أن «المسئولين عن استفحال الفساد هم عادة من شاغلى المناصب القيادية فى مؤسساتهم، وأن ممارساتهم تؤسس لنموذج بشأن الانتهاك الأخلاقى للقانون، وإعطاء الفرصة للمخالفين للقانون لتبرير سلوكهم (Cressey، ١٩٧٨).



لقد وجد أن قيام القيادات (الفاسدة) بدعم النزعة التبريرية عند مرؤوسيهم من الخارجين عن الالتزام بالقانون، يتم فى سياق تضافرى تحت مظلة قيام القيادات ذاتها بممارسة السلوك التبريرى لما يقومون هم به (القيادات) من سلوكيات فساد. لقد تم رصد ثلاث طرق تبريرية مختلفة تلجأ إليها القيادات لتمرير انحرافاتهم فى توجيه الأمور (Werner، ١٩٨٣).

الطريقة الأولى تتمثل فى تنصيب القيادات لأنفسهم باعتبارهم الوحيدين القادرين على التمييز بين العطايا (أو الميزات) التى يُعد قبولها مشروعاً (أى لا يخرج عن الأمانة) وتلك التى يعتبر قبولها غير مشروع.

وأما الطريقة الثانية فهى ادعاؤهم (القيادات) بأن سياقات وظروفا معينة تدفعهم إلى تغيير القواعد، وأن تلك هى مسئوليتهم، أن يقبلوا ما يمكن أن يعتبر فسادا، طالما أن ذلك يجرى من أجل المصلحة (أو الخير) للمؤسسة (والتى يتعاملون مع أمورها كما لو أنها مملكتهم الخاصة).

وأما إذا وقعت الممارسة الإفسادية، فإن ذلك يكون مدعاة للقيادات لاستعمال الطريقة الثالثة، والتى تتمثل فى اللجوء إلى تجنب المسئولية عن الفساد باستخدام «التقنيات القانونية» (وذلك بمعنى الهروب من خلال القانون). إنهم عندها، يلعنون المنظومة ولا يجدون أنفسهم مسئولين عن أى ذنب. هذه الطريقة الثالثة فى التبرير تعد مدخلا عمليا لإساءة استخدام منظومات العمل.

هنا، تجدر الإشارة إلى اتجاه جرى إستفحاله مؤخرا، وهو أن بعض القيادات يجلبون مستشارين قانونيين للعمل فى مؤسساتهم تكون مهمتهم الأساسية (والخاصة جدا) المساعدة فى تمكينهم من استخدام الطريقة الثالثة سالفة الذكر (التغطية على الفساد والهروب من المحاسبة باستخدام القانون).

٢- الاحتماء بالقائد الأعلى:

يمارس هذا الميكانيزم التبريرى بواسطة أفراد ذات عزم فوق العادى فى ممارسة الفساد. إنهم يلجأون إلى الاحتماء بالسلطة الأعلى من السلطة المباشرة لهم (Zyglidopoulos et al، ٢٠٠٨). تو أن يكتشف خروجهم فى تصرفاتهم عن الممارسات الصحيحة فى العمل فإنهم يتقدمون بالتظلم إلى السلطة الأعلى مختلقين ادعاءات غير حقيقية. عادة إذا كانت السلطة الأعلى على دراية وخبرة وأمانة، فإن التعامل مع الموضوع يجرى داخل سياقاته وأطره التنظيمية القائمة، وبشكل نزيه، ولا يتأثر بأى ادعاءات لصاحب السلوك المنحرف. وأما إذا كانت السلطة الأعلى قليلة الخبرة، فإنها قد تخدع بواسطة ادعاءات الشخص المنحرف، ويكون فى تصرفاتها قدر من التردد وعدم الحسم، الأمر الذى يخلق أمام الأخير فرصة لتخطى (أو تخفيف) المحاسبة. غير أن هناك إحتمالا ثالثا، وهو أن تكون السلطة الأعلى هى الأخرى ذات نزعة إفسادية. عندها فإن القائد (الإفسادى) يعتبر نفسه قد اكتشف ثروة. لقد اكتشف

يصدر قريبا للمؤلف كتاب حول الموضوع ذاته، عن دار العين للنشر - القاهرة

الـــــرقـــــص مـــع

عنصرا فاسداً بطبيعته (أو على استعداد للتمادى فى الفساد) داخل إحدى منظومات العمل. النتيجة تكون، ليس فقط مساندة من القائد للشخص المنحرف بمساعدته على المواءمة التبريرية للخروج من تحت طائل المحاسبة والردع، وإنما استخدام الشخص المنحرف فى مهمة تغيير قيم ونواميس العمل فى المنظومة الأدنى، بحيث يتزايد عدد المنحرفين داخل هذه المنظومة، ويتم تعضيدهم. الهدف هنا يكون إضعاف وإنهاك التوجهات الانضباطية فى المنظومات الأدنى، وبالتالى إطلاق إمكانات وفرص أكبر للممارسات الإفسادية على المستوى المنظومى (المؤسسى) الأكبر.

٣. ذريعة عدم الحاق الأذى بأحد:

الهدف الأساسى من اللجوء إلى السلوك التبريرى هو اكتساب سلامة فى الموقف تجاه الآخر، بحيث يصبح هذا الموقف لا غبار عليه من قبل الآخرين، وبالتالى يبدو الموقف (أو الشخص) لهؤلاء الآخرين وكأنه غير مشكوك فى سلامته (أو أمانته). المفسدون يبذلون جهدا تبريريا خارقا من أجل المحافظة على عدم الشك فى سلوكياتهم، بحيث تكتسب هذه السلوكيات الإيحاء بأنها عادلة. الإيحاء بذلك أمر فى غاية الأهمية والحيوية عند المفسدين. إنه يساعدهم على المحافظة على اتساق وتكامل نفسى، وبالتالى يساعدهم على الاستمرار فى الظهور بمظهر مقبول عند الآخرين، الأمر الذى يتيح لهم التواصل فى سلوكياتهم الإفسادية، وفى جنى ما يحصدونه منها من فوائد شخصية. إضافة إلى ذلك فإن تأمين هذا المناخ التبريرى يحقق لهم تجنب المساءلة. المدخل المهم، والبسيط فى نفس الوقت، الذى يستخدمه المفسدون لكى يحافظوا على قبول الآخرين لتصرفاتهم وعدم تضررهم منها هو الادعاء والترويج والدفع بأن «سلوكهم لم يرجع بالأذى على أحد».

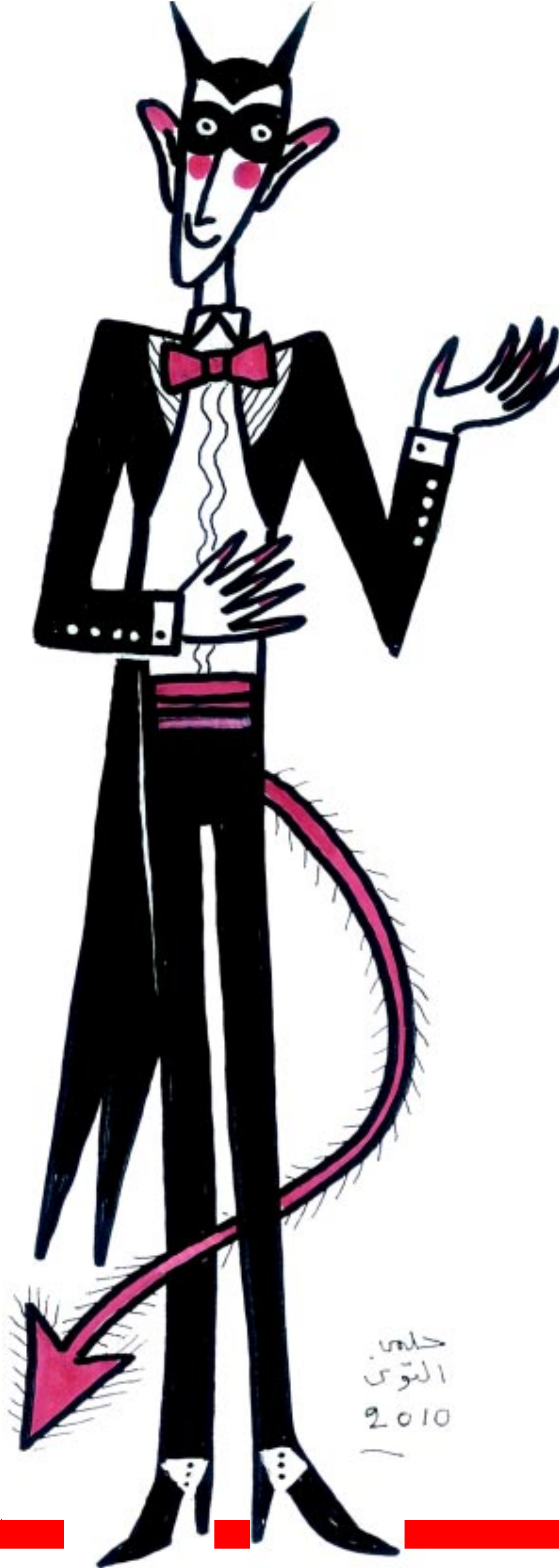
قبول هذا الدفع يرجع عادة إلى سببين رئيسيين. السبب الأول هو القصور فى الثقافة والإدراك، الأمر الذى يحجب - عن المتلقى - رؤية التداعيات المنظومية وتلك طويلة المدى من جراء حصول فرد أو كيان على فوائد لا يستحقها (هنا يمكن للقارئ أن يرجع إلى الجزء الخاص بانعكاسات الفساد فى الفصل السابق. وأما السبب الثانى (والذى هو مكمل للسبب الأول)، فيكمن فى أنانية المتلقى، حيث هو هنا لا يدرك الضرر، إلا إذا وقع عليه بشكل شخصى ومباشر وعاجل.

٤. توقع طريقة لعب المباراة بواسطة الآخرين:

فى الألعاب الجماعية، مثل رياضة كرة القدم، تكون هناك إستراتيجية للعب، ويمارس اللاعبون أدوارهم فى إنجاز هذه الإستراتيجية عن طريق أعباء مختلفة (لكن متكاملة) يؤديها كل منهم. إستراتيجية (أو طريقة) اللعب هنا، تعتمد على قيام كل لاعب بالواجبات المكلف بها، فهذا يحرس المرمى، وهذا يقوم بجهد دفاعى من ناحية اليمين وذاك يراقب لاعبا معينا فى الفريق الآخر بطريقة يسمونها رجل لرجل، وثالث يقود الهجمات من منتصف الملعب... الخ.. الخ.

إذا كان موقف اللاعبين فى مباريات كرة القدم يصنع فى إطار عمل جماعى، أو ما يسمى إستراتيجية فريق العمل، فإن مواقف اللاعبين فى أنواع أخرى من المباريات (أو الأحداث الحياتية)، تختلف اختلافا جذريا. فى أحداث (أو مباريات) الفساد يحدد اللاعب (أو الفرد عضو المؤسسة أو عضو المجتمع) موقفه، أو طريقة لعبه (أى طريقة تفاعله مع الأحداث) بناء على ما يمكن أن يتوقعه هو عن الإستراتيجية (أو المنطق) الأكثر احتمالا للعب (أو للاتباع) بواسطة كل الآخرين. هذا التفاعل بين منطق الفرد الواحد، وما يتوقعه هذا الفرد الواحد أن يكون المنطق الأكثر احتمالا عند كل فرد من الآخرين هو ما يطلق عليه «مفهوم التمنطق التفاعلى»، إذا جاز التعبير (Interactive rationality concept)، والذى وضع عام ٢٠٠٥ بواسطة كل من روبرت أومان (الحاصل على جائزة نوبل) وجاك دريز (Aumann and Dreze، ٢٠٠٥). من الناحية العملية، يمكن أن يطلق على هذا المفهوم «مفهوم التفاعل التبريرى».

أساس فكرة «أومان ودريز» أن اختيار الفرد للإستراتيجية التى يلعب بها تختلف كثيرا، بناء على تصوره عن الإستراتيجية التى يمكن أن يقع عليها إختيار كل فرد من كافة الآخرين. لقد وجد



الفســـاد!!

بوروسشتاين (Rothstein, 2007) فى هذا المفهوم تفسيرا للنزعة التبريرية للفساد عند الأفراد.

فى هذا الإطار فإن الموقف (موقف الفرد/ كل فرد) من من ممارسة الفساد (أو عدم الأمانة) يكون كالتالى:

«أعتقد ان باستطاعتك أن تكون أمينا، وذلك إذا كنت أعتقد أنك أنت تعتقد أننى يمكن أن أكون أمينا».

وبتعبير آخر، إنه (أى الموقف من ممارسة الفساد) يتبع المنطق التبريرى التالى:

«السبب فى اعتقادك أن معظم الآخرين سوف يتصرفون بأمانة (أو بعدم أمانة)، هو أنك أيضا تعتقد أن آخرين مثلك سوف يتصرفون بأمانة (أو بعدم أمانة)».

من الواضح أن دوافع ما، تقود الأفراد إلى اتباع هذا المفهوم، مفهوم «التمنطق التفاعلى» أو «التفاعل التبريرى» المؤدى إلى الفساد. من هذه الدوافع يمكن الإشارة إلى:

إحساس المواطن الفرد برغبة الجميع فى تحقيق فوائدهم (أو منافعهم) الخاصة.

إحساس المواطن الفرد بعدم جدوى أن يكون اللاعب الوحيد الذى يلعب بأمانة، حيث لن يغير نتيجة المباراة (الخاصة بالفساد).

وعليه، فإن تفسير الفساد من منظور هذا المنطق التبريرى (والذى يرجع الفضل فيه إلى بو روزشتاين، وأومان، ودريز) يعنى القبول بالافتراضات التالية:

أن الفساد (أو عدم الفساد) ظاهرة تتمتع بدفع ذاتى.

أن التحول على المستوى المؤسسى (أو المجتمعى) من حالة ممارسات الفساد إلى عكسها (حالة الأمانة)، مسألة لا يمكن حدوثها إلا بتوقف معظم الأفراد (أعضاء المؤسسة أو المجتمع) عن الاستناد التلقائى إلى (أو اللعب بطريقة) المنطق التبريرى المؤدى إلى الفساد.

أن الخلاص من حالة الفساد يمكن أن يكون أمرا متاحا إذا ما تحول الأفراد إلى استخدام المنطق التبريرى فى اتجاه مضاد للفساد، بمعنى أن معظم الآخرين يتصرفون بأمانة.. الخ.

أن شيوع المنطق التبريرى المؤدى إلى الفساد ناتج عن واقع حياتى (مؤسسى أو مجتمعى)، وعليه فلا يمكن أن يتوقع تحول الأفراد عن هذا المنطق تحولا مؤثرا على استمرارية هذا الواقع ما لم يتغير الواقع ذاته. هنا تأتى الإشارة إلى الأثر السلبى الحاد لشيوع الفساد على مستوى قيادات حكومية و/أو قيادات فى الحزب الحاكم.

أن تغيير الواقع المؤسسى (أو المجتمعى) إلى اتجاه يجعل الأفراد يتحولون إلى إستخدام المنطق التبريرى فى اتجاه مضاد للفساد هو أمر ليس منوط بالأفراد العاديين، ولا يتوقع أن يبادروا باتخاذه، حيث لا يتصور. عمليا. أن يأتى هذا التحول من جانبهم إلا كانعكاس لتغير جذرى (مؤسسى أو مجتمعى) يحسون به على مدار اليوم وفى كافة شئون حياتهم.

المسألة إذن أن تفسير الفساد بـ «طريقة لعب المباراة» إنما يعنى لزوم حدوث تغيير مؤسسى أو مجتمعى على المستوى القيادى بقدر وبطريقة يكون من شأنهما انسياب وتغلغل لسلوكيات مضادة للفساد عبر كافة المستويات والوحدات فى المؤسسة أو المجتمع. فى هذا الخصوص، من الوارد أن ينطبق تعبير «المستوى القيادى»، ليس فقط على القيادات السياسية الرسمية الحكومية، بل وأيضا، وبشدة، على القيادات الفكرية والشعبية (ومعها أو من بينها قيادات الفكر الدينى والتعليم والإعلام).

٥ ـ التذرع بفساد المنظومة (أو السيستيم):

كلما اشتدت سيادة الفساد على



إذا جوبه خطأ ما برد فعل تبريرى، فإن التبرير هنا قد يكون من شأنه التغطية على الخطأ





مجريات أمور المؤسسة (أو المجتمع ككل) كلما إزداد ضلوع الأفراد العاديين فى الممارسات الإفسادية. وإذا كانت نسبة منهم قد تجد تحقيقا لذاتها فى هذه الممارسات، فإن النسبة الأكبر تحتفظ بموقف داخلى ذاتى غير راض عن الفساد رغم ممارسته. هؤلاء الذين يعتبرون الفساد خطأ أخلاقيا، رغم ممارستهم له، يتذرعون فى اضطرارهم للضلوع فيه بفساد المنظومة ككل. إنهم لم يتغيروا داخليا بعد (Karklins, 2005)، وهم على ثقة بأنهم يمكن أن يتوقفوا عن المشاركة فى ممارسات إفسادية إذا ما توقف الآخرون عن ممارستها، أو بمعنى آخر، إذا ما رجع النظام (أو المنظومة) عن الفساد.

(ب) وظيفة التبرير:

إذا جوبه خطأ ما برد فعل تبريرى، فإن التبرير هنا قد يكون من شأنه التغطية على الخطأ. وأما إذا كان الخطأ يتمثل فى ممارسة لفساد ما، فإن القصد من التبرير يكون، ليس فقط لتغطية وتمرير الفساد، وإنما أيضًا لتعظيم الممارسات الإفسادية بوجه عام. حدوث تعظيم لممارسات إفسادية بواسطة «التبرير» يحدث من خلال ما يقدمه التبرير من مهام تالية.

١ـ إحداث خروج عن الشرعية المتضمنة فى النظم واللوائح والقوانين:

مع استمرار النهج التبريرى بخصوص عمليات الفساد تزداد وقائع الخروج عن الشرعية كما وكيفا، بحيث يصبح الفساد هو المتحكم فى مجريات الأمور عن طريق نظم ولوائح وقوانين إفسادية غير مكتوبة، لكنها معروفة ومعرفة.

٢ـ الترابط مع بزوغ الفساد وتطوره:

إذا كان التبرير يقصد التغطية على الخروج على القواعد والقوانين المرعية، وبالتالى السماح بتواجد الفساد، فإنه يجدر الإنتباه إلى وجود تشارك وترابط بين كل من بزوغ الفساد ونشأة التبرير. الفساد يحتاج إلى التبرير، والتبرير يغطى على الفساد، ومع تطور الفساد يتطور التبرير المطلوب، بحيث مع تضخم قدر الفساد والمفسدين يمكن أن يصل التبرير إلى نهاية عظمى ينقلب بعدها (أو يتحول) إلى وسيلة أخرى بديلة، قد تتضمن عنفا مباشرا. إنه عنف متعدد الاتجاهات، فهو عنف فى ممارسة الفساد، وعنف ضد الراصدين والمجابهين والرافضين له. العنف ضد الآخر هنا قد يصل إلى حد تلويث السمعة والعنف الجسدى.

٣ـ التكبير المتزايد (أو التعظيم التعويضى) للفساد:

عندما يقوم الممارس للعملية الإفسادية بممارسة التبرير، فإن جهده التبريرى لا يكون فقط بالقدر اللازم للتغطية التى يمكن أن تكافئ القدر الذى قام (أو يقوم) به من فساد. إن تبريره يكون أكثر من المتوقع أو أعلى من القدر الذى يمكن أن يعادل الفعل التعضيدى للتغطية. زيادة الشحنة التبريرية (فى موقف التغطية) يكون له عائدان إستراتيجيان لصالح الفساد والمفسدين. العائد الأول يتمثل فى التغطية ،أكثر وأكثر، على فساد آخر يكون قد تم فى الماضى. وأما العائد الآخر فيكون إتاحة (أو الحصول على) مزيد من الفرص لممارسة فساد أكبر قدراً وحجماً فى أوقات لاحقة، أنظر الشكل رقم ٥. بمعنى آخر، فإن زيادة المستوى التبريرى عن قدر (أو حجم) الفساد ينشئ إمكانية القفز إلى فساد أكبر فى المستوى وأعلى فى الحجم. إنها ظاهرة غاية فى الأهمية يطلق عليها «الأثر التعويضى الزائد عن الحد» Overcompensation8 Zyglidopulos (etal, 200).

وهكذا، من خلال القفزات المتتابعة للممارسة الإفسادية بالاعتماد على التبرير، يكون للتبرير دور فى تمدد الفساد وتطويره تطويراً متسارعاً.



والآن، بعد هذا العرض الموجز بخصوص أشكال وأدوار التبرير بالنسبة للفساد، فإن من أهم ما يجدر الانتباه إليه فى هذا الشأن هو أن التبرير هنا يعتبر ـ فى الأساس ـ وسيلة. وعليه، فمن المفيد النظر إلى التبرير كعنصر رئيسى فى المدخلات in puts إلى الفساد وكذلك فى حركيات الفساد. معنى ذلك أن فهم التبرير (كطبيعة وأشكال ودور) يعتبر عاملا مساعدا مهما فى أية مقاربات وجهود لمجابهة وتحجيم الفساد الأمر الذى جرت مقاربته فى بحوث عديدة من أبعاد إدارية ونفسية واجتماعية سياسية مختلفة (Darley 1992, Audi 1983 and Ashforth and Brief et al 2003 Anand 2001).

فى هذا الخصوص قد يكون من الملائم الالتفات إلى نقطتين.

النقطة الأولى: أن نهج تساهل القيادات مع التبرير (رغم خطورته)، بمعنى قبوله وتمريره، هو أمر لا يمكن حدوثه، والاستمرار فى حدوثه، على مجرد خلفية من تبادل للمصالح الخاصة (أى الفساد المشترك) مع القيادات المتساهلة، أو الغباء والعته من جانب هذه القيادات. حيث ،فى كلتا الحالتين، الفساد المشترك أو الغباء والعته، فإن فساد المنظومة الأعلى (أوالحكومة و/أو النظام السياسى) هو المسئول عن اختيار القيادات واستمرارها، فضلاً عن ارتقائها.

أما النقطة الثانية فهى أن التبرير، كوسيلة، هو أداة تمكين للمفسدين. وإذا ما تم للمفسدين ،كأفراد وكشبكة، استنفاد كل الاستفادات الممكنة من هذه الوسيلة، فإنهم سيلجئون. بهدف مواصلة تعظيم الفساد ـ إلى وسيلة أو وسائل أخرى، والتى ستكون أكثر مباشرة. الاحتمال الأكبر هنا هو أن الوسيلة (أو الوسائل الأخرى) ستكون أكثر عنفا كما أشرنا فى السطور أعلاه. قد يكون العنف هنا فيزيائيا مباشرا (مثلا: ضد المضادين للفساد من الإداريين ورجال القضاء والمفكرين). أيضًا قد يأخذ العنف صورة التمكن من شراء أصوات من يمكن أن يكون لهم صوت، سواء عند إتخاذ القرار فى منظومات العمل، أو فى أية ممارسات لها طابع الرأى، مثل الإنتخابات أو الإستفتاءات .. الخ.

ثانيًا: حركيات تمدد

و«فوران» الفساد

إذا ما تُرِكَ وعاء على اللهب لفترة أطول من اللازم (أى بعد الوصول إلى درجة الغليان) دون مراقبة، فإن حجم اللبن يزداد، ويستمر فى الازدياد حتى ينسكب خارج الوعاء فيملأ المكان.

بالتأكيد يستحيل هنا أن نشبه الفساد باللبن، إنما يمكن أن نشبهه بعملية الفوران ذاتها، وما يصاحبها من تمدد وإنسكاب.

هذا حقيقى، الفساد إذا وُجد (أو سُمح له بالبزوغ) فإنه لا يظل على حاله، فى حجمه، أو درجته، أو شدته. إنه، أى الفساد، لا يعيش (طالما وُجد) إلا بالتمدد والتكاثر والانتشار.

حالة ازدياد الفساد من خلال تمدده تُعرف فى الكتابات المتخصصة بتعبير Spill over. البعض يترجم هذا التعبير بلفظة «وفورات»، إننا نحس به أكثر عندما نشير إليه باعتباره «تمددات أو امتدادات» أو «فورانات».

هذا ويمكن تناول خاصية «إمتدادت» الفساد من خلال ما يلى:

(أ) طبيعة الانتشار الذاتى للفساد:

الفساد ذاتى التغذية. إنه يتضخم ذاتيًا. طالما وُجد فإنه (أى الفساد) كفيل بذاته، قادر على خلق وتفعيل وتكبير أدوات حفظه ونموه. فى هذا الخصوص، بعض الخبراء يشبهون الفساد بالسرطان. إنه يزيد من الخلل التنظيمى والفوضى واللانظام أينما وجد، لكنه هو نفسه يكبر ويستفحل. استفحاله وتفاقمه يجريان بالتوازى تمامًا مع ما يحدث حوله، ويخلقه (ويخلفه)، من معاناة وكوارث.

الفساد إذن يمنع التطور والإصلاح (مؤسسيًا ومجتمعيًا)، وحتى إذا ما جرت محاولات للإصلاح فى وجود الفساد، فإنها تتحول. بسهولة. إلى عمليات فساد. ذلك، وكأن الأضرار الناجمة عن الفساد تكاد تستحيل معالجتها، حيث الفساد، طالما وجد، فإنه يكون وسيطًا (أو وسطًا) للمزيد من الفساد.

فى هذا الصدد توجد أمثلة كثيرة، يمكن أن يجدها المواطن حوله، إذا ما كان يعيش فى أحد المجتمعات التى تتخلف (فى المؤشرات الإنسانية)، مع مرور الزمن. ذلك إضافةً إلى أمثلة من نموذج حى سنرجع إليه فى مكان آخر من هذا الإصدار.

(ب) دور «الأمير» فى الانتشار الأسموزى للفساد:

الأمير هنا هو «القائد» أو «المدير» أو «الرئيس». لقد جرت الإشارة فى سطور سابقة إلى الأشكال التبريرية التى يمارسها القائد. وبينما تمثل هذه الأشكال ركيزة لإحداث امتدادات للفساد، فإن هناك بعدا آخر أكثر أهمية ينبغى أخذه فى الاعتبار، وهو أن للقائد إمكانات فذة فى انتشار الفساد، ينبع أهمها من مجرد أنه هو القائد، أو (الأمير).

هنا (فى هذا المقام، وخاصة فى المجتمعات المتخلفة)، تصدق مقولة مكيافيللى: «ما يفعله الأمير سيفعله عديدون آخرون غيره، حيث الأمير وأفعاله يكونان دائمًا فى عيونهم». (مرجع: Werner, ١٩٨٣).

بمعنى آخر للقيادات وزن كبير فى تشكيل الرأى والسلوك من حولهم (مؤسسيًا ومجتمعيًا)، إن لقيمهم ولممارستهم تأثيرات وانعكاسات مباشرة على كافة مرؤوسيهم.

هذه التأثيرات على المرؤسين تشمل ولاءهم للعمل، ونوع القيم التى يحترمونها ويلتزمون بها، وبالتالى هى تشمل مدى تكاملهم مع مهامهم، وأيضاً تكاملهم الداخلى الذاتى كأفراد.

من هذا المنظور، منظور تأثير القائد على المحيطين به فى منظومة العمل، يكون للقائد امتداداته الإفسادية المتنامية دومًا، إذا ما كان يتبع سلوكيات فاسدة.

وفى المقابل تكون له مكانته فى تحجيم الفساد إذا ما كان قائداً جيداً.

فى هذا الخصوص، سبقت الإشارة إلى ملاحظة لجنة حكومية عُليا فى الولايات المتحدة. كانت الملاحظة تقول بمسئولية القيادات الفاسدة عن إضعاف وإنهاك الأسس الأخلاقية للقانون فى مؤسساتهم، وذلك بالقدر الذى أعطى للخارجين عن الشرعية فى سلوكياتهم الفرص لتبرير هذه السلوكيات.

وهكذا الحركيات الامتدادية للفساد، تحت تأثير القائد الفاسد، تحدث من خلال كونه، «نموذجا للآخرين» باعتباره قائدا، وكذلك من خلال تبريراته لنفسه، وسماحه وتعضيده للتبريرات الإفسادية الصادرة من الآخرين.

هذه الحركيات جعلت البعض يصف دور القائد بشأن امتدادات الفساد بأنه يجعل الفساد ينتشر بطريقة «أسموزية»، أى ينتشر بسرعة دون أى عوائق عبر الأفراد والمجموعات، ووحدات العمل. الإنتشار الأسموزى للفساد يعنى عبوره إلى حيث تكون مستويات الفساد قليلة أو منعدمة، فى أية مجالات أو منظومات، الأمر الذى يجعل جسم المؤسسة (أو المجتمع أو الدولة)، يعج بدرجات متكافئة من الفساد فى غضون فترات زمنية وجيزة.

الحقيقة أن من أبرز الخصائص التى تكشف القيادات العليا الفاسدة هى وجود فجوة واضحة بين ادعاءاتهم الإعلامية من ناحية، وممارستهم على أرض الواقع من ناحية أخرى، من أمثلة ذلك تلك الفجوة ادعائهم محاربة الفساد، بينما هم من الناحية العلمية يعملون ضد من هم ضد الفساد. (Halaya, 1975)

(ج) الفساد الصامت:



المشكلة بالنسبة للكثيرين أن هناك فساداً صامتًا، غير مرئى، وغير محسوس به، ولا يستوجب العقاب من منظور المسئولين العموميين





الفساد الزاعق.. أى المباشر الواضح، يسهل على الجميع ملاحظته والحس به واتخاذ موقف منه أو معه، ولأنه واضح ومحسوس به، (حتى لو وُجِد وانتشر من خلال التبرير)، فإنه من ناحية اللون يكون مرئيًا، أحيانا يكون رماديًا، وأحيانًا يكون أسود، وذلك طبقًا لشدته، واحتمالية التنبه إليه، وانعكاساته، ودرجات تكاثره.

المشكلة بالنسبة للكثيرين أن هناك فساداً صامتًا، غير مرئى، وغير محسوس به، ولا يستوجب العقاب من منظور المسئولين العموميين (Werner, 1983).

من خصائص هذا النوع من الفساد، والذى يطلق عليه أحيانًا الفساد الأبيض، أنه يتم. شكلاً. من خلال الصداقة وحُسْن النيـّة (أو ما يبدو أنه كذلك، حيث الحقيقة أن هذه الصداقة تبزغ وتتطور فى إطار ومن خلال الفساد والمصالح الخاصة غير الشرعية). من خصائصه أيضًا أنه يظهر وكأنه غير مؤذ، حيث يصعب تحديد شخص بذاته يكون قد تعرض للأذى من جرائه.

إضافةً إلى ذلك فإن هذا الفساد الصامت أو الأبيض يصعب إعتباره مضاداً للقانون وإن كان يستفيد من ثغرات أو فجوات فيه (أى فى القانون) بحرفيّة بالغة. إنه يستعمل (أو يوظف) القانون لصالحه.

ولأنه يبدو صغيراً (فى حجمه وتبعاته كسلوك)، ويقع على الحدود بين الخطأ والصواب، فإنه يكون من السهل تبريره، وهكذا، تكون النتيجة تهميشه وإهماله، بينما هو يتزايد ويتكاثر، ويضر بالمصلحة العامة.

ذلك إضافةً إلى مساهمته فى تسهيل ممارسة الفساد الصريح، وتحوله هو نفسه إلى فساد مباشر وأكثر قتامة.

ربما تكون هناك حاجة للإشارة إلى أمثلة لسلوكيات الفساد الأبيض، (أو الفساد الصامت)، والتى توجد على غرارها ممارسات عديدة تجرى من حولنا دون انتباه مناسب.

فيما يلى نشير إلى بعض الأمثلة:

مثال (١):

استخدام رئيس مؤسسة حكومية للصلاحيات الإجرائية الممنوحة للمؤسسة بشأن استيراد (أو استجلاب) بعض المستلزمات من الخارج، وذلك بأن يستجلب أشياء ليست خاصة بالمؤسسة وإنما خاصة باستخدامات «بيزنس» له، أو لأحد معارفه.

صحيح أن المؤسسة لا تخسر شيئا ماليا مباشرا لأن رئيسها يقوم بتسديد كافة التكاليف، لكن أسئلة عديدة يمكن أن تثار هنا، ويكون من شأنها أن تدل على فساد لم يكن فى



حسبان أعضاء المؤسسة. من أمثال هذه الأسئلة نورد ما يلى:

ما هى مصالح المؤسسة فى استهلاك جزء من وقتها وجهدها (جهد ووقت العاملين فيها) فى تأدية مهام «بزنسة» ليست خاصة بالمؤسسة (وبالطبع ليست مهام خيرية)؟

ما نوع المصالح التى تعود على شخص رئيس المؤسسة كعائد لاستخدام المؤسسة فى استجلاب مستلزمات من الخارج سواءً لشخصه أو لغيره؟

هل فى استخدام المؤسسة لاستجلاب هذه المستلزمات ضياع حق ما (أو التداخل مع واجب ما)، يختص بجهة ما فى الدولة، مثل مصلحة الضرائب، أو التعبئة والإحصاء.... الخ؟

إلى أى حد يمكن لعملية استخدام المؤسسة فى أداء مهام أخرى (تخرج عن أهدافها ومصالحها) أن ينعكس على عدالة التنافسية بين أصحاب الأعمال، ذلك حيث إن أحدهم (سواء رئيس المؤسسة أو صديق له) استخدم (واستفاد من) ميزة ليست متاحة لمنافسيه؟ إضافة إلى ذلك، إذا لجأ منافسوه للتصرف بما يشبه تصرفه، أى استخدام جهة حكومية كوسيط، أليس فى ذلك تداخل مع مهام الجهات الحكومية، وشبهات لفوائد خاصة (أى فساد) لصالح رؤسائها (و/أوبعض معاونيه)؟

ثم، أليس فى كل ما سبق تعميم لخروج عن الشرعية، حتى وإن لم ينتبه القانون (لسبب أو لآخر)؟

وأيضاً، من الطبيعى التساؤل عن تلك القيم والسلوكيات التى يمكن أن يكتسبها بعض العاملين فى المؤسسة وهم يرون خروجا عن الشرعية يمارس فى مؤسساتهم بواسطة رئيسها؟!!؟

مثال (٢):

حظوة تسريع إجراءات رقابية ما، تختص بأحد المنتجات، وذلك لأن هذه المنتجات تخص شركة معينة، لرئيسها علاقات صداقة مع رئيس المؤسسة الرقابية.

أيضاً فى هذا المثال، رغم أن العملية تبدو بعيدة عن شبهة الفساد، حيث هى مجرد صداقة أو محبة بين رئيسى الجهتين، الشركة المنتجة، والجهة الرقابية، فإن أسئلة عديدة يمكن أن تثار، ويكون من شأنها أن تدل على فساد لم يكن فى حسبان العاملين فى الجهة الرقابية، وذلك على غرار ما يلى:

أليس من التسريع فى إنجاز المتطلبات الرقابية لمنتج شركة ما، بسبب صداقة رئيسها مع رئيس المؤسسة الرقابية، مايشكل إجراء مخالفا لقواعد التنافسية بين الشركات؟

وكيف يكون لمؤسسة رقابية، من واجباتها «الضمنية» الحفاظ على عدالة التنافسية بين الشركات، أن تنحاز إلى طرف دون ـ أو على حساب ـ بقية الأطراف؟

هل يا ترى تتأثر دقة العملية الرقابية على المنتجات التى يجرى تسريع اعتماد تقاريرها الرقابية بسبب علاقة الصداقة المشار إليها، سواء كان ذلك بتدخل من رئيس الجهة الرقابية، أو بتكرم ما من أحد معاونيه (رغبةً فى حظوة ما)؟

من يستطيع أن يؤكد أو ينفى أن يكون التسريع فى العملية الرقابية لمنتجات الشركة المشار إليها (بصرف النظر على مدى الالتزام بدقة الإجراءات الرقابية) يجرى أو لا يجرى فى إطار تبادل منفعة، وليس مجرد محبة وصداقة بين رئيس الجهة الرقابية ورئيس الشركة؟

وحتى لو افترضنا أن كل ذلك يتم فى إطار المحبة، والصداقة، فكيف يمكن القبول بأن تستغل (أو تستخدم) حظوة المحبة والصداقة فى التأثير على الإجراءات الرقابية؟

بل وهناك تساؤل آخر يتصاعد إلى ذهن من يهمه الأمر، هل يا ترى يوجد مردود لهذه الصداقة بشكل ما على رئيس الجهة الرقابية؟، وإذا حدث ارتفاع فى هذا المردود (نتيجة تسريع «خصوصى» فى الإجراءات الرقابية)، ألا يعتبر ذلك، رغم أنه صداقة!!، ورغم عدم تعارضه شكلاً مع القانون!!، استثماراً ما للمكانة الوظيفية للرئيس ؟!!، سواء كان ذلك الاستثمار من جانب رئيس الجهة الرقابية، أو من جانب رئيس الشركة، أو من كليهما ؟؟؟

ولأن الأمر لا يحدث فى الخفاء، حيث المعلومات تنتشر داخل الجهة الرقابية، وكذلك خارجها، فهل يكون لمعنى الحظوة المشار إليها تداعيات مثل: حرص رؤساء بقية الشركات على عقد صداقة مع رئيس الجهة الرقابية؟..... ومن جهة أخرى، ألن يحدث من بعض معاونى رئيس الجهة الرقابية التجرؤ فى اتجاه السعى لعمل صداقات ما مماثلة (فى التتابعات والمعانى والعائدات)، مع مندوبين للشركات التى تجرى رقابة لمنتجاتها ؟؟؟

الحقيقة، فى هذا المثال، تماما كما فى المثال رقم ١، تساؤلات كثيرة تتصاعد وتتفرع، لكن التساؤل الأم لكل التساؤلات يمكن أن يكون: هل يا ترى يمكن للجهة الرقابية باعتبارها الجهة المنوط إليها قانونياً أن تراقب منتجات ما، أن تظل ـ رغم هذه الصداقات وتتابعاتها ـ قادرة على أداء مهامها الرقابية، كما ينبغى لها أن تكون؟؟؟

وفى نفس الوقت يتبع هذا التساؤل الأم تساؤل آخر، وهو: هل إذا كانت مسارات العمل فى الجهة الرقابية منضبطة بحق تكون هناك حاجة لرؤساء إحدى الشركات لأن يسعى لتسريع الإجراءات الرقابية لمنتجات شركته؟، أو يكون لرئيس جهة رقابية ما أن يؤدى واجب صداقة بتسريع الرقابة على منتجات لشركة يرأسها أحد أصدقائه.

قد يوافقنا القارئ على ما يتضح من المثالين السابقين من تأهب للخروج عن الشرعية، أو خروج عن الشرعية بالفعل (أى إفساد)، من خلال سلوكيات تكاد تبدو للجميع خالية من أية أغراض خاصة بينما هى فى الحقيقة «حاضنة ذكية» لتبادل المنافع الخاصة، على حساب ـ ومن وراء ـ الانضباط المنظومى والصالح العام.

هناك عامل مشترك فى المثالين السابقين، وهو أن الاحتضان الذكى لإمكانات وعزم الخروج عن الشرعية ينزل بقوة دفع من المستوى الفوقى للمنظومة (أو المجتمع)، ويُبث إلى باقى مستويات المنظومة، أو إلى بقية قيادات المنظومات الموازية.

النتيجة تكون حدوث أنواع ودرجات متفاوتة من الخلل أو الإتلاف لمناخات العمل فى سائر المنظومات.

ما نشير إليه فى المثال التالى، هو ما يمكن اعتباره نموذجا لأنواع من «الفساد الصامت»، تنشأ من مستويات وسطى فى المنظومة، (وليست من القيادات العليا).

لكن ما يجدر الانتباه إليه بشأن هذا المثال أمران مهمان.

الأمر الأول: هو أن هذا النموذج لم يكن لينشأ، (وينتشر)، إلا فى ظل وجود تلوث فى مناخ المنظومة، أى «تلوث فى قيم ومسارات وسلوكيات العمل»، وبالطبع لم يكن ليحدث هذا التلوث المنظومى، وينتشر بعيداً عن مسئولية القيادة.

أما الأمر الثانى: فهو أن الفساد الصامت الذى ينشأ من مستويات وسطى فى المنظومة لا ينجح فى البزوغ والتواجد بغير «تغميض العين» و/أو تعضيد من المستويات القيادية الأعلى، وسوء فهم، أو عته، أو تقاعس، أو سوء نية (بمعنى رغبة مماثلة فى القيام بفساد مماثل) من مستويات وسطى، أو مستويات أدنى.

مثال (٣):

حدوث ترقى الباحثين فى الجامعات ومراكز البحوث من خلال تبادل المنفعة عند تقديم ملفات بحوثهم إلى اللجان المعنية بفحص الإنتاج العلمى.

هنا، يجدر بنا فى البداية أن نضع بعض المحاذير عند التعامل مع هذا المثال.

أول المحاذير أن ليس كل الباحثين يفعلون مثل ذلك، حيث لا يزال هناك باحثون شرفاء كثيرون، (بل ونتعشم أنهم الغالبية)، وثانى المحاذير أن عضوية اللجان العلمية للترقى مليئة بالعديد من الكوادر التى لا ينطلى عليها الانحراف العلمى، ولا تقبله فى حال اكتشافه، وثالث المحاذير أننا نظن، ونتمنى أن نكون محقين فى ظننا أن المؤسسات العلمية الموجودة، سواء كانت داخل الجامعات أو خارجها، هى فى أغلبها ما تزال ماسكة على الجمر، بمعنى أنها لا تزال حريصة على «قيمة» عدم قبول الفساد العلمى، بالرغم من تعاظم مناخ الفساد على وجه العموم، ودخوله ـ بالطبع ـ إلى حيز عامة المؤسسات، ومن بينها المؤسسات العلمية.

لكننا ـ برغم هذه المحاذير ـ نعود وننبه إلى أن المثال الذى نعرضه هنا هو مجرد مثال خفيف وصامت، وأن أمثلة أخرى عديدة أشد رمادية وسواداً تطل من وقت لآخر.

جوهر هذا المثال هو قيام بعض الباحثين بالتعضيد الثنائى لبعضهم بعضاً، ذلك بمعنى أن يقوم الباحث بعمل بحث، وعند نشره يضم معه فى قائمة أسماء مؤلفى البحث اسما لباحث آخر لم يكن مشاركا فى البحث.

وفى المقابل، فإن الباحث الآخر يفعل نفس الشىء فى قائمة الأسماء الخاصة ببحث له، حيث يضم اسم الباحث الأول.

النتيجة هنا تكون أن كلا من الباحثين قد أضاف إلى قائمة بحوثه بحثاً جديداً لم يقم به.



النتيجة تكون حدوث أنواع ودرجات متفاوتة من الخلل أو الإتلاف لمناخات العمل فى سائر المنظومات





وهكذا، ربما تضم قائمة البحوث للباحث الواحد، من هذا النوع من الباحثين أكثر من بحث لم يشارك فى إجرائه، لكن عند الترقى فإن هذه البحوث التى تنتسب إليه بينما هو لم يقم بها، تشكل جزءاً من مجمل البحوث التى يترقى بها!!!

فى هذا النموذج من تبادل المنفعة يبدو - عند البعض - أن ليس هناك ضرر أو أذى قد وقع على أى شخص.

ربما أيضاً يرى - هذا البعض - أن ما حدث هو عمل تعاونى، إذ قد تبادل كل من الباحثين الاستفادة دون إيقاع أى ضرر على آخرين!؟!



المسألة لاتقف عند هذا المثال، هناك عديد من الخلفيات والأسباب الأخرى التى تدفع بباحث لأن يضع اسم باحث آخر على بحثه دون أن يكون ذلك الباحث المضاف ضالعاً فى إجراء البحث، لا ذهنياً ولا عملياً، وتكون النتيجة الواقعية أن باحثا قد ترقى إلى أعلى سلم الألقاب العلمية بأبحاث لم يشارك فيها.

من هذه الأسباب أن يكون الباحث المضاف قد أعطى مادة كيميائية للباحث صاحب البحث، إنها مادة متوفرة لديه، أو حتى قد اشتراها خصيصاً من أجل إعطائها للآخر مقابل إضافة اسمه، أو ربما يكون الباحث المضاف قد أتاح للباحث الآخر استخدام وسيلة بحثية كانت متاحة لديه، ولم تكن متاحة لصاحب البحث، كجهاز مثلاً، أو حيوانات تجارب.... الخ

وبينما يظل البعض يرى أن مثل هذه السلوكيات لا غبار عليها، طالما لم يقع أذى على أحد، ولم يتقدم أحد بشكوى يدفع فيها بالتضرر، فإنه يمكن أيضاً جذب الانتباه إلى أنه، حتى لو تقدم أحد بشكوى فمن المتوقع أن يُفاجأ برد فعل غريب من المؤسسة العلمية يكون مفاده بأن عليه أن يلجأ إلى القضاء.

التفكر فى النموذج المشار اليه، والأمثلة التى على غراره، يدفع إلى عديد من التساؤلات والتعليقات نذكر منها التالى:

هل من المعقول أن تتضمن البيانات الشخصية لباحث، قائمة بحوث، من المفترض أنها تشكل مجموع الأبحاث التى قام بها، وبالتالى تعكس خبراته الحقيقية، ذلك بينما بعض هذه الأبحاث ليست له على الإطلاق، وأن قائمة الأبحاث المرفقة المتضمنة فى بياناته الشخصية تعطيه خبرة أكثر من المستوى الذى يستحقه؟؟؟

هل من المقبول أن يترقى باحث على سلم ألقاب البحث العلمى، من مدرس إلى أستاذ مساعد، ثم من أستاذ مساعد إلى أستاذ، ذلك بينما بعض البحوث التى يترقى على أساسها هى ليست بحوثه؟؟؟. أى بحوثا لم يبذل جهدا أكاديميا فى أدائها، وأن إضافة اسمه تأتى فقط من خلال تبادل المنفعة؟؟؟.

نفس التساؤل السابق يمكن توجيهه بطريقة أخرى مبسطة:

إذا كان الترقى من درجة مدرس إلى درجة أستاذ مساعد - مثلاً - يتطلب ارتقاء الباحث إلى مستوى ما من الكفاءة البحثيّة، وإذا كان من الممكن أن نرمز لهذا المستوى بالرمز «س»، وإذا كان من المتطلبات (أو الشروط)، المعمول بها والخاصة بالترقى إلى المستوى «س»، أن يكون الباحث قد أنجز عدد خمسة أبحاث «مثلاً»، فإذا حدث أن كان الباحث قد تقدم للترقى بعدد الخمسة أبحاث، وكان إنجازه فيها هو إنجازه لثلاثة فقط، وليس خمسة، عندها هل سيعتبر إنجازه البحثى مكافئا تماماً للمستوى «س»، أى بدرجة مائة فى المائة؟ أم إنه سيكون معادلا فقط لدرجة ٦٠٪، من المستوى المطلوب «س»، وهى الدرجة التى تكافئ الثلاثة أبحاث (من الناحية الكمية ومع الإعتذار عن التبسيط)!؟

استكمالاً للتساؤل السابق يبرز التساؤل التالى:

إذا كانت القدرة البحثية للباحث تمثل فقط ٦٠٪ من المستوى الذى يفترض أنه يجتازه، فهل يجوز عندها أن تقبل المؤسسة العلمية إجازة ترقية الباحث، طالما أنه استطاع بطريقة أو بأخرى أن يضيف إلى قائمته ٤٠٪ من الكفاءة المطلوبة ببحوث ليست هى بحوثه، وبجهود ليست هى جهوده.

مثل هذا الأمر يحدث، بين حين وآخر، هنا أو هناك، لقد استمر ويستمر، وسيستمر فى الحدوث طالما لم يظهر أن أحد قد وقع على شخصه أذى أو ضرر يدفعه لرفع دعوى قضائية؟؟؟

ولكن هل حقيقةً لم يقع أذى أو ضرر على أحد؟...... إنه سؤال محورى، بل ومصيرى بالنسبة لأمانة وحيوية البحث العلمى، فى هذا الصدد نعقب بالإشارة إلى ما يلى:

أن تقنين حصول شخص على شىء ليس مؤهلا له هو انحراف بالسلطة.

أن أى شخص يوهم السلطات باستحقاقه لشىء هو لا يستحقه، ويستخدم من أجل ذلك مستندات علمية هى ليست فى الحقيقة تخصه، إنما هو يمارس انحرافا، ولذلك الانحراف مسمياته التى يعرف بها، مثل التزوير.

أن عملية وضع اسم باحث على بحث ما، باعتباره مشاركا فى تأليف هذا البحث، بينما هو فى الحقيقة لم يشارك ذهنياً ولا عملياً فى إجراء البحث، إنما تمثل فعلاً فاضحاً فى المجال العلمى، تماماً مثل أى فعل فاضح فى المجالات أخرى مثل: الآداب العامة، والبيع، والشراء........الخ.

أن استمرار الانحرافات فى الوسط العلمى من نوع الفعل الفاضح المشار إليه أعلاه، إنما يعنى أن منظومة البحث العلمى فى بلادنا أصبحت - فى بعض مكوناتها- دون الحد الأدنى اللائق بأنشطة البحث العلمى، باعتبارها أنشطة تقوم على السعى بأخلاقيات البحث العلمى.

ربما رغم هذه الإشارات يظل البعض على الموقف الذى يرى أنه طالما لم يصب أحد بأذى فلنترك الأمور كما هى عليه، وليرتق من يرتقى، طالما هو استطاع جمع الكم المطلوب من الأبحاث المناسبة.

هنا، نقدم لهذا البعض الملاحظات التالية، والتى نتصور أنها ستساعد فى إستيعاب قدر العواقب التى تحدث، وستستمر فى الحدوث، طالما ساد الصمت تجاه مثل هذه الانحرافات.

إذا كان ارتقاء باحث علمى إلى مستوى علمى أعلى، يعنى ارتقاء مسئولياته العلمية تجاه تلاميذه من شباب تواقين إلى البحث العلمى، وكذلك تجاه المؤسسة العلمية التى يعمل بها (وتجاه الوسط العلمى بوجه عام)، وأيضاً تجاه المعرفة ذاتها كمنتج متنام ومتغير باستمرار، فهل يا ترى إذا ارتقى «أستاذ مساعد» إلى وظيفة «أستاذ» بينما هو ليس حقيقةً بأستاذ، وقد يكون قد ارتقى من قبل ذلك إلى الدرجة الأسبق (أى درجة أستاذ مساعد)، بينما هو أيضاً لم يكن مستحقًا لها، هل يا ترى هذا «الأستاذ» سيكون قادراً على القيام بمسئولياته العلمية تجاه تلاميذه وتجاه المؤسسة العلمية، وتجاه المعرفة ؟!



هل من المعقول أن تتضمن البيانات الشخصية لباحث، قائمة بحوث، من المفترض أنها تشكل مجموع الأبحاث التى قام بها





الإجابة على السؤال السابق تكون قطعاً بالنفى، هنا يبرز تساؤل آخر: إذا كان المستوى العلمى للأستاذ، الذى ليس بأستاذ هو أقل من المستوى الذى يؤهله للقيام بمسؤولياته العلمية، إذاً كيف سيغطى هذا النقص فى إمكانياته، وعلى حساب من؟، هل سيعترف لتلاميذه أنه أقل من المستوى؟، هل سيطلب المساعدة والدعم من الأساتذة الحقيقيين حتى يقوى على أداء مهامه؟، هل سيتراجع قليلاً للوراء ويترك الفرصة لمن هم أساتذة بحق لأن يُسيروا المنظومة العلمية ويكتفى هو - على إستحياء - بمجرد حصوله على اللقب؟

المتوقع عادة، طبقا للواقع العملى، أن الأستاذ الذى ليس هو بأستاذ، سيجتهد بكل الطرق الممكنة، (وغير المشروعة بالطبع)، لتحقيق كل الفوائد لنفسه (منح، ومشروعات، وعلاقات، ومناصب...الخ)، باتباع نفس الأساليب التى استخدمها فى الترقى. إنه عندما كان أصغر كان يمارس الالتواء بخصوص متطلبات الترقى، (وقطعاً بخصوص أشياء أخرى)، غير أنه الآن قد وصل إلى أعلى درجات سلم الألقاب العلمية (الأستاذية)، وسيكون التواؤه أكثر صراحة، وأكثر شراسة، وموجها تجاه أولويات أخرى لن تتضمن المصالح العلمية، لا تلك الخاصة بطلاب العلم، ولا تلك المرتبطة بالمؤسسة العلمية، ولا أى مصالح حقيقية تتعلق بالمعرفة العلمية. أولوياته ستكون مصالحه هو المادية المباشرة، بل وأكثر من ذلك، سيجتهد فى الارتقاء فوق كل الأكفاء فى المؤسسة العلميّة، بل وفوق المؤسسة ذاتها.

والآن نأتى إلى ما يمكن أن نعتبره ملاحظة ختاميّة، على الأقل فى السياق الحالى. ببساطة شديدة نقول أنه يكفى فى أى مؤسسة علمية أن يكون هناك أستاذ واحد غير حقيقى، أى يكون قد ارتقى إلى الدرجة العلمية دون وجه حق، حتى تتحول هذه المؤسسة إلى حالة من اللانظام والمنظرة وتبديد الطاقة. التفاحة الفاسدة تفسد قفص تفاح، والأستاذ الفاسد



يفسد مؤسسة علمية بأكملها، فما بالنا لو أن هناك أكثر من أستاذ غير حقيقى قد تمكن من منصب الأستاذية فى كل مؤسسة علمية؟!؟

علينا إذن أن نكف عن الاندهاش والتندر بضعف مؤسساتنا العلمية، لقد أشرنا إلى سبب واحد للفساد الصامت فى هذه المؤسسات، فما بالنا وهناك أوجه عديدة لهذا النوع من الفساد الصامت، ناهيك عن الأنواع الأخرى الأكثر قتامة.

وهكذا، كخلاصة لما تم عرضه بخصوص الفساد الأبيض، أو الفساد الصامت، يمكن استنتاج ما يلى:

الفساد الصامت يمثل خروجا عن الشرعية برغم القانون وباستخدام مايعرف بثغراته، وكذلك باستخدام ثغرات فى الإدارة.

الفساد الصامت يؤذى الأفراد. إنه يؤذيهم من خلال الإضرار بالمؤسسات، وبالعلاقات المؤسسية، حيث هذا الإضرار يعود بالأذى المباشر وغير المباشر على كافة أفراد المجتمع على المدى الطويل.

القبول بالفساد الصامت يعضد التمكين والتقوية للأنواع الأكثر حدة وسواداً من الفساد، ذلك حيث الفساد الصامت هو المدخل (أو بداية الطريق) إلى الفساد الزاعق.

(د) دور «البيزنس» فى توليد وإدارة الفساد:

لم تكن مجرد صدفة أن يفاجأ العالم بفضائح فساد كبرى فى مؤسسات أمريكية عالمية (مثل لوكهيد وإمرون). ثم لم تكن صدفة بعد ذلك أن تتوالى انكشافات عمليات فساد كبير، فى مؤسسات كبرى، فى مناطق مختلفة من العالم، وصولا إلى الأزمة المالية العالمية الأخيرة (٢٠٠٨/ ٢٠٠٩)، والتى بدأت بذرتها من البنوك وشركات التمويل العقارى فى الولايات المتحدة، ثم انعكست تبعاتها السلبية (وتبعات سلوكيات مثيلة فى مؤسسات الدول المتقدمة) على العالم كله تقريباً.

كل هذا الفساد الذى ملأ (وامتد إلى) العالم بأسره جاء كنتيجة لممارسات فساد فى عمليات اتخاذ القرار بواسطة المديرين الكبار فى المؤسسات الأمريكية (والعالمية) المشار اليها (الإدارة.. الإشكالية المنسية إشتراكيا ورأسماليا، جريدة البديل، عدد ٢٠٠٨/١١/٢٢).

ولكن، ما الذى دفع ويدفع المديرين الكبار فى تلك المؤسسات الكبرى لممارسة الفساد فى اتخاذ القرارات ؟ ولماذا لم يحدث بروز لمثل هذا الفساد كظاهرة عالمية قبل العولمة الحديثة (أى قبل تسعينيات القرن العشرين)؟

لقد جاءت العولمة الحديثة لتعلى من شأن (بل وتعملق من إمكانات) ما يسمى باقتصاد السوق. وبالتوازى مع حدوث تضخم لثقافة اقتصاد السوق Market economy، كانت الهيمنة تتصاعد من جانب العوامل والاعتبارات المتحكمة فى السوق (التنافسية والتراكمات المالية)، على القرارات الإستراتيجية الكبرى للبعض من المديرين الكبار. إنها أخلاقيات البيزنس، والتى تغلبت على الضرورات الإستراتيجية للقرارات المؤسسية الاقتصادية. لقد أدى ذلك إلى ظواهر شديدة المرضية pathogenic (بينما كان المديرون الكبار يعتبرونها ظواهر صحية)، وذلك مثل ظاهرة العملقة والاستحواذ (والمتعلقة باندماج الشركات الكبرى) عندما تكون مصحوبة بموجات من التسريح للآلاف من العاملين (وخاصة العاملين فى قطاعات البحوث)، بينما المديرون الذين يكونون قد رتبوا لبيع واندماج شركاتهم يخرجون كأفراد بغنائم خيالية من الأموال.

ما حدث من تضخم لثقافة اقتصاد السوق، ساعد على ركوب إعتبارات السوق على أى اعتبارات إنسانية أو اقتصادية طويلة المدى. كان ذلك يعنى وجود تحول فى طبيعة القرارات الاستراتيجية. التحول حدث (ويحدث) فى سياق أن



لم تكن مجرد صدفة أن يفاجأ العالم بفضائح فساد كبرى فى مؤسسات أمريكية عالمية (مثل لوكهيد وإمرون)





عوامل السوق أكثر أهمية عما عداها. وكامتداد لهذا التحول، كان هناك تحول مماثل فى القرارات الاستراتيجية للشركات، إذ أصبحت مصالح البيزنس الخاص للشركة (أو المؤسسة)، هى أكثر أهمية (من أجل التنافسية والتراكم المالى) عما عداها.



وهكذا، بالتدريج، حدث تحول فى الأطر الأخلاقية لاتخاذ القرارات على مستوى الإدارة العليا، إذ أصبحت المصلحة الخاصة مبررا شديد القوة فى الدفع إلى اتخاذ قرارات خارجة عن الكود الشرعى والقانونى الرسمى، وذلك - تبريريا - من أجل صالح الشركة أو المؤسسة.

لقد تحولت الشركات إلى كيانات تمارس التنافس بأساليب تنتهك الأخلاقيات والقوانين واللوائح. صار التنافس فى هذا السياق، سياق الخروج على المعايير السائدة، دافعا رئيسيا ضاغطا من أجل صالح الشركة (أو المؤسسة) ومن أجل سمعة ومكاسب وتنافسية المديرين.

المسألة إذن أن تدرج الانحراف فى طبيعة ودوافع عمليات اتخاذ القرار عند كبار رجال البيزنس قد أدى إلى وقوع الفساد.. وعندما حدثت أزمات نتيجة الفساد، حدث الافتضاح لعمليات الفساد، وتوالت سلاسل التداعيات، تداعيات الفساد، من أكبر وأقوى دول العالم المتقدم إلى أضعف وأصغر الدول «الأقل من النامية». إنها سلسلة الأذى الناجم عن الفساد فى قمة مستويات إدارة البيزنس.

هنا، يجدر جذب الانتباه إلى استنتاجين مهمين، يشيران بشكل مباشر إلى دور البيزنس بشأن إحداث إمتدادات (ووفورات) وفورانات للفساد.

الاستنتاج الأول، هو أن ما حدث من انحراف أخلاقى فى عمليات اتخاذ القرارات فى الشركات والمؤسسات الكبرى (مثل البنوك) جاء - فى طبيعته المتعلقة بالمصلحة الخاصة والتنافسية - امتداداً لثقافة اقتصاد (وعوامل) السوق. أى أن الهيمنة المتصاعدة شبه المطلقة لاعتبارات اقتصاد السوق قد أوجدت سياقات انحرافية فى المناخات الخاصة بالقرارات الإستراتيجية للشركات والمؤسسات الكبرى، الأمر الذى كان له امتدادات، ظهرت فى شكل الخروج على الأعراف والقوانين، فى عمليات اتخاذ القرارات بواسطة المديرين الكبار. ومن ثم، حدوث فساد بواسطة هؤلاء المديرين، وذلك تحت ستار المصلحة الخاصة للشركة (و/أو للمدير) اولاً.

أما الاستنتاج الثانى فهو توجه كبار رجال البيزنس، فى ظل السياقات المشار اليها أعلاه، إلى الفصل فى قراراتهم وخططهم بين عمليات اتخاذ (وتطبيق) القرارات الإستراتيجية من جهة، والأسس الأخلاقية لصناعة القرار من جهة أخرى. فى هذا الإطار، تصل عمليات اتخاذ القرار إلى استهداف إستراتيجيات لا ترى غير تكبير البيزنس (تحت مظلة اعتبارات السوق)، بصرف النظر عن أية اعتبارات أخرى. هذه «الروح» فى عمليات إتخاذ القرار تكفل الاستعانة بكل الوسائل والأشكال الممكنة للتبرير، بل والتنافسية الحادة فى هذا الاتجاه، اتجاه الخروج على الأعراف واللوائح والقوانين، ويصير من الطبيعى أن يتداخل الخاص مع العام (لمصلحة الخاص)، وأن تتفاقم عمليات الفساد.

وهكذا، فى ظل الاستنتاجين السابقين، يمكن تفهم وجود علاقة وثيقة، ومن ثم انتفاء للصدفة، بشأن ازدهار معدلات وتنوعات الفساد وعملياته، فى ظل التوحد فى أنشطة رجال البيزنس مع عمليات اتخاذ القرار السياسى، وكذلك فى ظل تولى رجال الأعمال مناصب القيادات السياسية فى الحكومة (أى مناصب الوزراء).

الحقيقة أن خروج كبار رجال الأعمال (هؤلاء المديرين الكبار للشركات الكبرى) عن مراعاة الأبعاد الأخلاقية عند اتخاذهم لقراراتهم، قد وصل إلى حد وجود مناداة فى الوسط الأكاديمى لعلوم الإدارة، بأن هذا الوضع الجديد الخاص بخروج القرارات الإدارية العليا عن الشرعية، إنما يشكل تحديا جديدا أمام بحوث الإدارة. هذا التحدى، كما جاء فى رسالة دكتوراه نوقشت فى الولايات المتحدة عام ٢٠٠٥ (Roy, 2005)، يتمثل فى «وجوب إيجاد حلول شرعية Legitimate Solutions، لتوكيد الشرعية الاجتماعية للمؤسسات، فى التعامل مع ما يجرى من عدم القانونية، أو عدم الأخلاقية، أو عدم الشرعية، أو الممارسات الأكثر فظاعة للبيزنس».

هذا التحذير الذى صدر عن رسالة لدكتوراه الفلسفة منحت عام ٢٠٠٥، أى قبل الأزمة المالية العالمية الأخيرة، والذى يحذر من دور قيادات البيزنس فى الإفساد، إنما هو جدير بأقصى انتباه ممكن فى مجتمعات الدول النامية ومن بينها المجتمعات المصرية والعربية، حيث يتم إسناد أدوار قيادية حكومية على المستوى القومى لكبار رجال البيزنس، الأمر الذى ينعكس سلبا على هذه المجتمعات، من خلال امتدادات الفساد والابتعاد بقوة عن التوجهات المجتمعية القومية للتنمية.

الفساد الصامت إذن هو المدخل (أو بداية الطريقة) للفساد الزاعق. ■



عــولمة الفـــــاد!

حـــسـن أبــشـــر الــطـــيـــب

■ ■ إن الفساد كظاهرة اقتصادية واجتماعية موجود منذ قرون ممعنة فى القدم، غير أنه قد زاد مع التوسع المتزايد فى تدخلات الدولة فى كافة أوجه الحياة العصرية. وأصبحت للفساد العديد من الأشكال والألوان لاسيما فى البيروقراطيات المركزية التى تمثل الإدارة الرئيسة للدولة فى تنظيم وتوزيع الموارد والخدمات. إن السلطات التقديرية التى يحظى بها البيروقراطيون، وسوء استعمالها من فئات منهم هى النافذة التى يدخل منها الفساد على مختلف أوجه الحياة اليومية فى معظم الدول على تعدد مستويات تقدمها ونموها.

ما عاد هناك ما يمكن تسميته بالمجتمع الفاضل الذى يخلو تماماً من كل أشكال والوان الفساد. فالاختلاف بين الدول لا يعدو أن يكون اختلافاً نسبياً فى كم وعمق وممارسات ظاهرة الفساد المقوضة لكل القيم المجتمعية الحضارية الثقافية الفاضلة.

أما إذا تأملنا فى ظاهرة الفساد فى المجتمع العربى بشكل خاص، فسنجد أن الدكتور محمود عبد الفضيل يثير انتباهنا بقوله: (إن القضية التى تشغل بال المجتمع العربى هذه الأيام، ليست بالتحديد وجود قدر من الفساد فى معاملاتنا اليومية، بل حجم الفساد واتساع دائرته وتشابك حلقاته وترابط آلياته بدرجة لم يسبق لها مثيل من قبل، مما يهدد مسيرة التنمية ومستقبل مجتمعنا العربى المعاصر فى الصميم. ولعل ما أفصحت عنه بعض وقائع قضايا الفساد المالى والإدارى خلال السنوات الأخيرة فى العديد من الأقطار العربية يدل على مدى تغلغل قيم الفساد وممارساته فى كافة مناحى حياتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والإدارية)[1].

إن النظرة المتأملة فى تنامى ظاهرة الفساد قطريا تبرز حقائق أساسية. من أهمها حقيقة أن الطابع المميز للدولة فى مراحل نشأتها الأولى قد كان مبنياً على وظائف محدودة نسبياً، من أبرزها: كفالة الأمن الداخلى، والدفاع، وصون نظام معين للعلاقة بين طبقات المجتمع، وحماية المصالح المشتركة. وظل هذا المنظور المحدود لوظائف الدولة يتطور تدريجياً من حقبة لأخرى، تماشلاً مع تطور المجتمعات وما يتصل به من احتياجات ورغبات، الأمر الذى قاد عالمنا المعاصر إلى تدخل الدولة فى العديد من الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى كانت سلفاً متروكة للمبادرات والجهود غير الحكومية.

لقد تعاظم دور الدولة فى مجتمعنا المعاصر بالقدر الذى جعلها فى العديد من النظم، لاسيما فى البلاد النامية، السلطة المهيمنة، والمنسقة لكافة الوظائف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، الأمر الذى قاد بعض المفكرين إلى القول أن هذا العصر هو عصر تدخل الدولة، نسبة لتدخلها المتزايد والمتنامى فى كافة شؤون المجتمع.

إن الدولة العصرية تنهض بوظائفها المتعددة والمتنوعة من خلال الإدارة الحكومية المتمثلة فى مؤسساتها السياسية والتشريعية والقضائية والتنفيذية. ومن هنا تبرز الحقيقة الجوهرية، وهى أن السمة اللازمة والمميزة للدولة الحديثة هى أنها دولة مؤسسات بالقدر الذى أصبح فيه بناء الدولة وتأصيل سبل النمو والتجديد الحضارى فيها يعتمد اعتماداً أساسياً على كفاءة، وشفافية، ونزاهة، وعدالة، وفعالية مؤسساتها.

وعلماً بهذا الدور الأساسى المتميز للحكومة، وما ينتظمها من مؤسسات كأداة حركية للدولة العصرية فى بلورة إرادتها المجتمعية، وتنفيذ سياساتها العامة فى مختلف شؤون المجتمع، فإن قدرات وإمكانات الدولة الآنية والمستقبلية رهينة بتأصيل حالة كفاءة وشفافية ونزاهة وفعالية دائمة ومنتظمة فى كل مؤسساتها على تعددها وتنوعها. وما ذلك بالهدف اليسير التحقيق، لاسيما إذا تأملنا فى تأثير عناصر متعددة تتجاذب سلباً وإيجاباً هذه الحالة المأمولة فى كفاءة وفعالية وشفافية الأجهزة الحكومية.

ونسبة لتنامى دور المؤسسات فى مختلف أوجه الحياة العصرية فقد تضخمت البيروقراطية من جانب، وتضاءلت كفاءة وفعالية نظم المساءلة والمحاسبة من جانب آخر. وتعددت معوقات التنمية فى معظم دول العالم الثالث. وبرزت إلى موقع الصدارة قضية الفساد كمعوق أساسى لمشروعات التنمية. تشير إلى هذه الظاهرة السلبية الدكتورة هدى متكيس بقولها: (برغم تعدد معوقات التنمية فى دول العالم الثالث، إلا أن قضية الفساد الإدارى والسياسى تشغل موقعاً من مواقع الصدارة بما يحتم ضرورة مواجهتها للحد من آثارها السلبية المحتملة على المسار التنموى، وهو ما يستوجب بطبيعة الحال ضرورة التعرف على أسباب تفشى هذه الظاهرة فى كثير من دول العالم الثالث، والنظر فى مختلف إستراتيجيات المكافحة، إلى جانب تقصى سبل العلاج ودور كل من الشفافية والمساءلة فى هذا الشأن.

ونتيجة خطورة ظاهرة الفساد تعددت الدراسات التى تناولتها بالفحص والتحليل، وتوصل معظمها إلى نتيجة هامة مؤداها أن استفحال الفساد يرجع فى أحد جوانبه إلى احتكار القوة من قبل المسئولين إضافة إلى تدنى مستوى الشفافية وتراجع نطاق المساءلة. وعلى هذا النحو تتمثل معادلة الفساد على النحو التالى:

الفساد = احتكار القوة + الافتقار إلى الشفافية . المساءلة)[2].

وتظل الحقيقة قائمة إن الحكم الراشد والأداء الفعال للأجهزة الحكومية لا يتأتى إلا بتحقيق المشاركة المجتمعية، وتأكيد الشفافية والمساءلة من خلال القانون، ومتابعة تنفيذها تطبيقياً وفعلياً بحيث لا تكون ظاهرة رسمية شكلية لا تعبر عن الواقع الفعلى. ووفقاً لهذا المنظور المتكامل فإن الحكم الراشد Good Governance يعنى بالدرجة الأولى بالآليات والعلاقات والمؤسسات الفعالة التى تمكن كل المواطنين من تحقيق مصالحهم المشروعة وممارسة حقوقهم وواجباتهم. إن مؤسسات الحكم الراشد المتمثلة فى: الحكومة والقطاع الخاص، ومنظمات المجتمع المدنى، لابد لها أن تكون متفاعلة متمازجة من أجل تحقيق التنمية المستدامة، وذلك لا يتأتى إلا بتأصيلها للظروف السياسية والتشريعية والاجتماعية الملائمة لعدالة توزيع الموارد.

إن تحقيق الحكم الراشد يستوجب بالضرورة تحقيق التوازن بين واجبات الحكومة، وفعاليات المجتمع وتمكينها من أداء أدوارها دون قيود تحد من طاقاتها وإمكاناتها وفعالياتها.

[٢]

جوهر القضية إن مصطلح الحكم الراشد يعنى التفاعل الحقيقى والحى والمتجدد بين الكيانات المجتمعية داخل الدولة، ويرتبط بمفاهيم ثلاثة رئيسية وهى:

أولاً، الشرعية، وتشير إلى حق الدولة بإلزام جميع الأطراف بالتقيد بالقواعد العامة المشتركة والمثبتة فى الدستور والقوانين.

ثانياً، المساءلة، تعنى الكفاءة والفعالية والنفوذ فى محاسبة الجميع دون استثناء، لوضع الأمور فى وضعها المطلوب.

ثالثاً، الشفافية، بما يعين على توافر القنوات والآليات والنظم التى تؤمن الفهم المشترك والتنفيذ فى الإطار الموحد.

ومن بين أوجه التعريف الكثيرة لمصطلح الفساد يبرز نمط محدد من أنماط السلوك يمكن وصفه بأنه النمط السلوكى الفاسد أو السلوك فاسد الطبع، وهى الممارسات التى لا يمكن التغاضى عنها بالرغم من اختلاف المواقف والاتجاهات والمعايير السائدة فى المجتمعات المختلفة، وتتمثل فى المحسوبية والمحاباة والرشوة والابتزاز والسرقة وانتهاك الإجراءات المتبعة لتحقيق مصالح



الـرقــص مــع  الـفــســــــاد!!

شخصية، والتغاضى عن أنشطة غير قانونية، واستخدام الموارد العامة لتحقيق مكاسب شخصية، وغيرها من الأعمال التى تتعلق بسوء استخدام السلطات والاختصاصات والإمكانات.

وتظل الإدارة غير الأخلاقية هى النقيض للإدارة المسؤولة القائمة على المساءلة. وعندما يتم التغاضى والتنازل عن فكرة المسؤولية العامة والثقة، وترجح كفة استغلال المنصب الوظيفى بهدف تحقيق مكاسب خاصة تتهيأ الظروف المناسبة لظهور الفساد المؤسسى المنظم. فتأمل!

وإنه لمن المحزن حقًا أن يصبح الفساد فى عدد من البلاد العربية ظاهرة مؤسسية. إن القضية لم تعد تتمثل فى سوء الاستخدام الفردى للعمل الوظيفى، بل فى ممارسة الفساد المؤسسى الذى يشكل تدميرًا للمصلحة العامة. فى مثل هذه الحالات قد أصبحت ممارسات الفساد. كما قدم الدكتور سالم زرنوقه عبر تحليله لعدة قضايا. ليست ممارسات فردية معزولة، وإنما ممارسات تتم من خلال أطر شبكية هى أقرب إلى تكوين «مافيات منظمة». وبالتالى فقد اكتسبت تلك الممارسات الفاسدة نظامًا مؤسسيًا يتشكل فى إطار تلك المنظومات الشبكية[٣].

يضاف إلى ذلك إن الفساد عادة تصاحبه ديناميات تغذيه وتدعمه بالقدر الذى يشكل ما يمكن أن نطلق عليه ثقافة الـفـســــاد Culture of Corruption. وبالتالى فإننا نجد سلسلة متصلة الحلقات يغذى بعضها بعضًا ويكمل بعضها البعض الآخر، وبما يشمل النظام الاجتماعى الثقافى، والنظام الاقتصادى، والنظام الإدارى، والنظام السياسى.

إن تأثير ديناميات الفساد سلبيًا على قيم وممارسات النظام الاقتصادى، والنظام الاجتماعى الثقافى، وبطبيعة الحال يكون كل ذلك انعكاسًا سلبيًا على النظام السياسى والإدارى. ومن تداعيات كل هذه المؤثرات السلبية أن يصبح الفساد ظاهرة مقبولة لدى عدد ليس بالقليل، ويلبسوا أفعالها بعض المعانى التى لا تتسق مع قبحها وتأثيرها السلبى على المجتمع بصفة عامة وعلى مقومات الحكم الراشد بصفة خاصة. فى إطار هذا المناخ الفاسد تلبس الرشوة مثلاً لبوس ومعانى الإكرامية والهدية والحافز. وينظر إلى المرتشى بأنه الشخص المتفهم والمرن والمساير للعصر. فتأمل!

وتجدر الإشارة إلى أن الفساد يعيد تشكيل أوجهه وتأثيراته من حين لآخر استجابة للمتغيرات فى العوامل الاجتماعية والاقتصادية والإدارية والسياسية. وبذات القدر الذى تؤثر فيه هذه المتغيرات على تشكيل صورة الفساد فإنه يؤثر فيها أيضًا بدرجة من الدرجات، الوضع الذى تنتج منه فى بعض الحالات تعديلات ذات أثر كبير فى منظومة القيم والاتجاهات المجتمعية.

إن النظرة المتقصية فى ظاهرة الفساد فى العالم العربى تبرز شواهد عديدة ومتلاحقة تجسد أزمة فى الشفافية والنزاهة ومنها على سبيل المثال: تزايد حالات الفساد المالى التى يتم الكشف عنها من حين لآخر فى البنوك وقطاع الشركات، وتزايد حالات وحجم غسيل الأموال داخل حدود الدولة وخارجها، والغش فى مواصفات الجودة للعديد من السلع المطروحة فى الأسواق، وما تتناقله الصحف والدوريات، العربية والأجنبية، من شبهات الفساد فى خصخصة بعض المشروعات العامة ذات الإنتاجية والربحية العالية، وغيرها. يضاف إلى ذلك أن مؤشرات الفساد الاقتصادى والاجتماعى المدرك فى دول الوطن العربى، تعتبر الأعلى فى العالم وفقًا لتقارير منظمة الشفافية العالمية Transparency International، كما تعتبر من جانب آخر معدلات النموّ فيها من أدنى معدلات النموّ فى الدول النامية.

[٣]

ماعاد بالإمكان استمرارية تبنى تعريف البنك الدولى لماهية الفساد، الذى يعرفه بأنه: (استغلال أو إساءة استعمال الوظيفة العامة من أجل مصلحة شخصية)[٤] فقد تجاوز الفساد، نتيجة للآثار السلبية المتعددة والمتنوعة للعولمة، هذا المفهوم المحدود. وأصبحت اشكاله ومراميه وآثاره على الصعيد العالمى ذات أبعاد سلبية عميقة على كافة الأنظمة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. لقد كان وسيظل للعولمة وآلياتها المتعددة أثرها السلبى المباشر على تصاعد ظاهرة الفساد بمختلف أشكالها على المستويات القطرية والإقليمية والدولية. يثبت ذلك الدكتور داود خير الله بقوله: (لعل نموّ الفساد وانتشاره على صعيد عالمى من أهم الآثار السلبية للعولمة. فالاكتشافات العلمية والتسهيلات التجارية بين الدول، والتى ترافقت مع الحد من الضوابط القانونية والإجرائية قد ساعدت على إطلاق مخيلة الشبكات الإجرامية على صعيد دولى، وسهلت لها إمكانية تحقيق الثراء عن طريق أعمال غير مشروعة. فقد اخترقت ظاهرة الفساد التى كانت سائدة فى دولة أو دول معينة الحدود الدولية مستفيدة من الفرص الملائمة التى تجعل احتمالات الاحتفاظ بثمار العمل الجرمى تفوق احتمالات العقاب الرادع عليه)[٥].

إن عالم اليوم أصبح كقرية كونية، تعيش نتيجة لثورة الاتصالات والمعلومات فى تبادل وتكامل حيّ ليس على مدار اليوم أو الساعة بل على مدار الثانية. وما عاد بإمكان دولة أن تعيش كجزيرة منعزلة بمعزل عن تأثير التحولات والتغييرات العالمية. لقد تعولم كل جانب من جوانب الحياة، وأصبح الترابط والتأثير الاقتصادى ملحوظًا بدرجة أكبر وأوضح مما كان عليه فى عقود ماضية. ويتضح ذلك كما يشير باتريك جلين وآخرون، فى مقالتهم الموسومة تعولم الفساد فى ثلاثة متغيرات متصلة ببعضها اتصالاً عضويًا ولها أكبر الأثر فى تنامى ظاهرة الفساد وهى: (أولاً، يزيد توسيع التكامل الاقتصادى العالمى وتعميقه من احتمال شيوع آثار الفساد فى الاقتصاد العالمى بأكمله، وتردد أصداؤها خلاله... وتحد إمكانيات النفاذ المتزايدة من الحدود الوطنية من مجال تطبيق الولاية القضائية الوطنية، وتجعل عزل الاقتصادات أو السياسات الوطنية عما حولها، أى فصل المحلى عما هو دولى، مستحيلاً. وثانيًا، يعمل بزوغ نظام مالى دولى متشابك الكترونيا على زيادة فرص الفساد بشكل ملحوظ، وعلى صعوبة السيطرة عليه، وعلى الأضرار التى يحتمل أن يلحقها. وثالثًا، حدثت زيادة لافتة للنظر فى عدد التحالفات التعاونية الاستراتيجية، داخل البلدان وعبر الحدود على حد سواء. وفى كثير من القطاعات الاستراتيجية، يمثل الاقتصاد العالمى الناشئ شبكة عالمية معقدة من الاتفاقات المعقودة فيما بين الشركات. ويزيد الطابع الارتباطى لهذه التحالفات من صعوبة ممارسة كل المديرين وصناع السياسات العامة للسيطرة إلى حد كبير... ويؤثر التعولم على كل المشكلة وحلها: فالحقائق العالمية الجديدة تيسر الفساد، علاوة على العمل على فضحه وكبحه بطرق أخرى)[٦].

وتعضيدًا لهذا الرأى الذى يوضح أثر التكامل الاقتصادى على احتمالات استشراء الفساد يقدم باتريك جلين مثالاً واقعيًا عن دور بعض الشركات المتعددة فى تنامى ظاهرة الرشاوى: (تعرض الشركات المتعددة الجنسيات فى البلدان الصناعية الرشاوى بشكل معتاد على المسؤولين فى الدول النامية كوسيلة للفوز بصفقات الأعمال. ولا يسمح الكثير من الدول المتقدمة بتلك الرشاوى من الناحية القانونية فحسب، وإنما يسمح للشركات أيضًا بخصمها باعتبارها نفقات مشروعة لتصريف الاعمال. ولا يعتبر ذلك مثالاً للفساد واسع الانتشار وشنيعًا فقط، وإنما يعتبر أيضًا ممارسة تشجع بها البلدان الصناعية، فعليًا، على الفساد فى العالم النامى وتساهم فيه)[٧].

إن تعولم الفساد قد وسع دائرة انتشاره وآثاره السلبية فى معظم الدول، فى القطاع العام وفى القطاع الخاص الذى ظل يزداد نفوذًا وأثرًا فى السياسات العامة المالية والاقتصادية نتيجة لسياسات الانفتاح الاقتصادى التى تنتهجها حاليًا معظم الدول العربية. ونتيجة للتنامى المطرد لممارسات الفساد، فقد ظل مردود





تعرض الشركات المتعددة الجنسيات فى البلدان الصناعية الرشاوى بشكل معتاد على المسؤولين فى الدول النامية كوسيلة للفوز بصفقات الأعمال



التشريعات العربية الهادفة لتحجيمه ذات مردود عملى محدود وغير مواكب لموجة العولمة المتصاعدة. ويبدو جليًا أن العقبة الأولى التى تحول دون فعالية التشريعات العربية الحالية فى مكافحة الفساد متمثلة، كما يثبت د. عادل عبد اللطيف فى: (إن آليات ضبط الفساد ليس لها كيان مادى موحد، فهى عبارة عن مجموعة من القوانين والقرارات والأنظمة المبعثرة بشكل أساسى بين القانون الإدارى، والقانون المصرفى، والقانون المالى والضريبى، والقانون الجزائى، بالإضافة إلى السياسات التى تدعمها، والمؤسسات المتعددة التى ترعى تطبيقها وتفسيرها. وبالتالى فإن النظر فى مدى فعالية هذه المنظومة المعقدة، وفى قدرتها على الإستجابة لمتطلبات الاقتصاد العالمى الجديد، يحتم علينا البحث فى مدى تواجد نصوص مكافحة الفساد فى التشريعات العربية أولاً، ومن ثم الانطلاق إلى البحث فى جدية تطبيقها وقدرتها، فى ظل إطاريها الإجرائى والمؤسسى الحاليين، على مكافحة الفساد، ولاسيما بوجهه الجديد المتعولم)[٨].

[٤]

ليس من اليسير رصد وتحديد كل أشكال والوان الفساد على الصعيد الدولى، علمًا بأن مخيلة المفسدين قادرة على إبتكار أساليب جديدة بغية اقتناص الفرص للكسب المادى غير المشروع. وتجدر الإشارة إلى أن معظم ممارسات الفساد على النطاق الدولى تدخل فى إطار الجريمة المنظمة، باستثناء قطاع مشاريع الأشغال العامة والبناء التى تشترك فى تمويلها وتنفيذها الشركات متعددة الجنسيات، والشركات الأجنبية بصفة عامة، وتدعمها الوكالات الدولية المتخصصة. لقد ظلت هذه المشاريع بالرغم من أنها أكثر القطاعات إثارة وجذبًا للفساد، كما تشير تقارير منظمة الشفافية العالمية، خارج إطار ما اصطلح عليه على الصعيد العالمى بالجريمة المنظمة.

وغنى عن القول أن الجريمة المنظمة على تعدد وتنوع أشكالها قد تنامت وتفاقمت وإزدادت آثارها المدمرة عمقًا على كافة الأصعدة القطرية والإقليمية والدولية فى ظل انتشار العولمة. يثبت ذلك أدام بيلوكس بقوله: (لقد نمت الجريمة المنظمة وتفاقمت تحت مظلة التطور التقنى وانتشار العولمة. فالعديد من الدراسات الميدانية تظهر العلاقة الوثيقة بين استشراء الجريمة المنظمة على الصعيد الدولى والتقدم المتصل فى وسائط الاتصالات الإلكترونية التى أتاحت وسهلت وسائل الاتصال بين المنظمات المنسقة والداعمة للجرائم الدولية. كما أعانت من جانب آخر منظمات الجريمة الدولية فى سرعة نقل الأموال عبر الحدود بين الدول)[٩].

وبالرغم من أنه ليس من اليسير رصد وتحديد كافة أوجه الفساد على المستوى العالمى ذات العلاقة بالجريمة المنظمة عبر الحدود، علمًا بأن هذه الأوجه فى تنوع وتفاقم مستمر نتيجة لاستحداثات متجددة من قبل المفسدين، إلا أننا نستطيع أن نخلص باستقراء الوضع الدولى حاليًا إلى أربعة أوجه تمثل المنظومة ذات الثقل الأكبر فى الفساد العالمى المرتبط بالجريمة المنظمة وهى:

التجارة غير المشروعة فى السلاح.

تجارة المخدرات.

الإتجار بالإنسان.

تبييض المال.

[٥]

تمثل الأسلحة الخفيفة الأداة الرئيسية للجريمة المنظمة فى التجارة غير المشروعة فى السلاح. ويقوم عادة تجار الأسلحة بدور رئيسى فى تحريكها وعقد الصفقات بين المصدرين والمستهلكين الذين عادة ما يمثلون إما دولاً منتجة للأسلحة يبيعونها لثوار أو جماعات مناوئة أو معارضة لحكومات محددة، أو يصدرونها لجماعات مسلحة تعمل كمافيات للجريمة المنظمة العابرة لحدود الدول والمعتمدة على تجارة المخدرات، أو استغلال الفقراء والإتجار بهم، أو القائمون على عمليات تبييض المال. وعادة ما يصاحب الإتجار غير المشروع فى السلاح، فى كل حالاته، الرشاوى لضمان تواطؤ المسئولين الرسميين الذين من المفترض أن يشكلوا حرسًا وحاجزًا حائلاً دون اختراق هذه التجارة غير المشروعة لحدود الدول.

ولقد ظلت التجارة غير المشروعة فى السلاح بمثابة الملتقى والمركز لنشاطات العديد من شبكات الجريمة المنظمة، بل إن بعضها قد قام فى الأساس على إذكاء وتأجيج الفتن والنزاعات بين الاثنيات والطوائف والدول بهدف إنشاء أسواق جديدة للإتجار بالأسلحة الخفيفة. ولقد كان من نتائج إضرام نار تجارة الأسلحة أن استعصى فى كثير من الحالات إيجاد الحلول الناجعة للنزاعات داخل الدولة الواحدة أو بين الدول المتجاورة.

لاجدال أن ملحق اتفاقية الأمم المتحدة الذى يتناول الحظر على تصنيع السلاح النارى والإتجار غير المشروع به يمثل مساهمة رائدة ومفيدة ضد جريمة الإتجار بالسلاح، غير أنه يحتاج إلى قدر كبير من التدابير لتفعيله ووضعه موضع التنفيذ العملى، وماذلك بالأمر اليسير. يضاف إلى ذلك أهمية ابتداع مزيد من الاتفاقيات والنظم والإجراءات الإقليمية والدولية التى تدعمه وتقوض وتحد من آفة التجارة غير المشروعة فى الأسلحة.

[٦]

لقد أصبح ما يعرف أحيانًا باقتصاد المخدرات فى تنام مطرد نتيجة عمليات إنتاج وتسويق المخدرات التى تنتظم فى إطارها بعض الدول، وبعض المؤسسات، وعصابات إجرامية منظمة، ينال كل منها نسبة من الثراء غير المشروع تؤثر تأثيرًا عميقًا ومهدرًا لإمكانات النمو الاقتصادى والاجتماعى. يضاف إلى ذلك ما يرتبط بهذه التجارة غير المشروعة من نشاطات إجرامية لإفساد البعض من: أجهزة الأمن، وأجهزة الشرطة، وضباط الجمارك، وحرس الحدود، وغيرهم من المسئولين. بل إن جرأة تجار المخدرات وطموحاتهم قد مكنتهم فى بعض الاحيان، من تبوء مراكز رسمية فى بعض الحكومات استخدموها استخدامًا بشعًا فى إضفاء درجة من التجميل الاجتماعى لزيادة نفوذهم واتساع تجارتهم الفاسدة.

إن العديد من الاتفاقيات الإقليمية والدولية والمعاهدات الثنائية، تشير إلى الاهتمام المتزايد على الصعيد العالمى بالتصدى لآفة الإتجار بالمخدرات والحد من آثارها التدميرية على كافة المحاور السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ومن أهم هذه الاتفاقيات الدولية ثلاث حظيت بالمصادقة والتوقيع من عدد كبير من الدول، وهى: «الاتفاقية الرئيسية للمخدرات للعام ١٩٦١»، و«اتفاقية المؤثرات العقلية لسنة ١٩٧١» و«اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الإتجار غير المشروع بالمخدرات والمؤثرات العقلية لعام ١٩٨٨».

ويظل ميدان تجارة المخدرات محتاجًا إلى مزيد من الاهتمام ومزيد من الاتفاقيات والنظم والتدابير التى تحد من هذه التجارة ذات الآثار التدميرية ليس على الاقتصاد العالمى واقتصاديات الدول فحسب، بل على صحة وقيم المجتمعات الحالية وما تحلم به من قيم فاضلة ورفاهية للأجيال القادمة.

[٧]

إن الفقر المدقع والعوز المادى القاهر من جانب، والشره للإثراء المادى بكل آليات الفساد من جانب آخر، قد قاد إلى تجارة واسعة فى الإنسان عبر الحدود القطرية، بإرادة هؤلاء الفقراء أحيانًا وبغير إرادتهم فى أحيان أخرى. وتشمل هذه التجارة غير الإنسانية الرجال والنساء والأطفال. ويتم نقل هؤلاء الضحايا طوعًا فى بعض الاحيان، وقسرًا فى معظم الاحيان، ليعملوا كخدم للمنازل، أو عُمال مرتهنين، أو فى البغاء. كما يتم دفعهم أحيانًا لحمل السلاح فى





تمثـــــل الأســـــلحة
الخفيفــــة الأداة الرئيســـــية
للجـريمــــــة المنظـــــــمة فى التجـــــارة
غيـــــــر المشــــــــروعــــة
فـــــى الســـــــلاح



الــرقـــص مـــع  الـفـســـــاد !!

حروب لا يعرفون من أسبابها شيئًا، ليكونوا وقودها وأكثر ضحاياها. يضاف إلى ذلك إن الضائقة الاقتصادية التى تعانى منها بعض الدول قد جعلها دولاً طاردة لمواطنيها الذين يتطلعون إلى فرص مواتية وجاذبة فى دول أخرى، الوضع الذى أدى إلى زيادة شبكات الجريمة المنظمة فى تهريب المهاجرين بصورة غير قانونية.

ومما يبعث على الأسى أن الإتجار بالإنسان قد تعولم، فاتسعت شبكات المافيا التى كانت تعمل فى مناطق محدودة، وسعت لإنشاء أسواق جديدة عبر الحدود لكى يتحقق لها السيطرة وتأمين توافر كل الاحتياجات من هذه التجارة الفاسدة.

ولا يزال علاج هذه المشكلة محدوداً، الوضع الذى مكن مقترفى هذه الجريمة من توسيع تجارتهم غير الإنسانية دون الخشية من تطبيق قوانين أو إجراءآت رادعة. غير أنه من الاهمية بمكان الإشارة إلى أن هذا المجال ظل يحظى باهتمام مطرد من المجتمع الإقليمى والدولى فى العقود الأخيرة. وكان نتيجة هذا الاهتمام العديد من الاتفاقيات على الصعيد الإقليمى، واتفاقية الأمم المتحدة ضد الجريمة المنظمة عبر الحدود التى نصت على مجموعة من الإجراءآت لمواجهة ومكافحة الإتجار بالإنسان لاسيما النساء والأطفال، ومعاقبة كافة مرتكبى أنواع الإتجار بالإنسان. وغنى عن القول أن هذا المجال الذى يتسم ببشاعة تجارة غير إنسانية لايزال محفوفًا بالمخاطر وبالمخازى وبالمفاسد، ويحتاج إلى تفعيل الإتفاقيات والمزيد من التدابير والنظم الإقليمية والدولية لاجتثاث مسبباته وإنزال عقوبات رادعة على مرتكبيه.

[٨]

إن مصطلح تبييض المال يعنى إخفاء المصدر الأساسى للمال باتخاذ سلسلة من الإجراءات تكون نتيجتها أن يظهر المال كأنه آت من مصدر شرعى، وبذلك يتمكن من حصلوا عليه بطرق فاسدة وبإقتراف جرائم منظمة عبر الحدود، من استعماله بحرية ومن دون التعرض لملاحقات قضائية.

ولقد كان تبييض المال فى بدايته مرتبطاً بجريمة الإتجار بالمخدرات بشكل خاص، إلا أنه الآن ونسبة لنتائج العولمة الاقتصادية قد أصبح مرتبطاً بمعظم الجرائم الاقتصادية المنطلقة من كل بؤر الفساد والجرائم المنظمة على تعددها وتنوعها. لقد استغل المفسدون فى هذا الجانب توسع السوق المالى على المستوى العالمى، واستفادوا من الفوارق بين أنظمة وأساليب الرقابة المالية المطبقة داخل الدول، واقتنصوا فرص سرعة نقل المال بالأساليب الإلكترونية، فأنشأوا وأداروا شركات تبدو فى ظاهرها قانونية لكنها تعمل فعليًا فى إطار جريمة غسل المال.

وتشير الدراسات الميدانية فى المستويات القطرية والإقليمية والدولية إلى أن الجرائم المالية الملتصقة بغسل المال هى أكثر الجرائم نمواً فى العالم لارتباطها الوثيق بكافة أشكال الفساد والجرائم المنظمة عبر الحدود.

ولا تزال النظم والتدابير لمكافحة جريمة تبييض المال محدودة، علماً بأن التطورات الناتجة من الأنظمة المالية العالمية فى عصر العولمة قد جعلت القدرة على اكتشاف وحجز المال غير المشروع أمراً فى غاية الصعوبة، غير أن ذلك ليس بمستحيل متى ما تضافرت الجهود فى كافة الأصعدة الإقليمية والدولية، وخلصت النوايا لتفعيل الاتفاقيات والأنظمة التى تحد من أخطار ومهالك غسيل المال الذى يدعم ويغذى ويروج لمفاسد متعددة ويحمى شبكات الجريمة المنظمة.

[٩]

يهدف هذا الجزء من الدراسة لإبراز أهمية التخطيط فى إطار الدولة لمواجهة الفساد العالمى بكل اشكاله وألوانه. ذلك جهد فى رأينا يستوجب رؤية متكاملة تعنى بالتخطيط لمواجهة ومكافحة الفساد العالمى بالاستعانة بأربعة محاور أساسية وهى:

بناء منظومة النزاهة على مستوى المجتمع.

بناء وتطوير وتجديد الأنظمة والتدابير الإدارية الداعمة للنزاهة والعدالة.

إنشاء المؤسسات المستقلة الهادفة لمكافحة الفساد الإدارى.

الانضمام إلى الاتفاقيات الدولية والإقليمية، وتبنى رؤى ومشروعات المؤسسات الدولية الهادفة لمواجهة الفساد فى كافة أشكاله ومستوياته.

فى إطار بناء منظومة النزاهة على مستوى المجتمع نرى أهمية وضع الاعتبار الواجب لهذه المكونات والمقومات الأساسية:

أولاً، التزام القيادة السياسية فى كل مستوياتها بمحاربة الفساد فى جميع الكيانات السياسية والأجهزة التشريعية والتنفيذية والقضائية، وإصدار القوانين التى تحرم الفساد وأن تحرص على تطبيقها بحزم.

ثانياً، العمل على توافر بيئة سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية وإدارية تؤدى فى إطارها الخدمات دون أية تدخلات رسمية.

ثالثًا، تأمين سيادة القانون واستقلالية القضاء.

رابعًا، تأكيد حرية الصحافة بنشر الحقائق وانسياب المعلومات وعدم التعتيم على جرائم المفسدين أيًا كان مستواهم.

خامسًا، بث ثقافة مجتمعية تعظم من قيم الشفافية، والنزاهة، والإتقان، والأمانة، والصدق والعدالة.

سادسًا، تمكين مؤسسات المجتمع المدنى ذات العلاقة بالممارسات المهنية من مباشرة الرقابة والمتابعة للنظم والممارسات بالقدر الذى يؤمن استيفاءها لمقومات النزاهة والعدالة.

سابعًا، تفعيل دور التجمعات المهنية مثل الغرف التجارية والاتحادات الصناعية والجمعيات الرقابية لمباشرة دورها الرقابى، ومجابهة الفساد، وتأمين النزاهة فى كل الممارسات.

ثامنًا، العمل لتوافر القنوات الفعالة لتمكين الجمهور من عرض شكاواهم المتعلقة بالخدمات العامة غير الملائمة أو غير العادلة، وتحديد سقف زمنى للأجهزة المعنية للرد على هذه الشكاوى.

تاسعًا، العمل بإقرار الذمم المالية للممتلكات والاستثمارات فوق سقف معين للمسئولين الحكوميين، وبما فيها المبالغ بأسماء المعالين، والإقرار بالمصالح المتناقضة إن وجدت لدى موظفى القطاع العام، والتأكيد على ضرورة خضوع موظفى الخدمة العامة وكذلك المسئولين السياسيين للمساءلة عن مصادر هذه الممتلكات.

أما محور بناء وتطوير الأنظمة والتدابير الإدارية الداعمة للنزاهة والعدالة فينبغى أن يهدف إلى تأصيل المقومات والمكونات التالية:

أولاً، التركيز فى البرامج التأهيلية والتدريبية لكل المستويات الوظيفية على تأصيل وتطوير أخلاقيات ومسئوليات الوظيفة العامة.

ثانيًا، اعتماد نظام التدوير الوظيفى Job Rotation خاصة فى الوظائف ذات العلاقة المباشرة مع الجمهور، وتقتضى طبيعتها اللجوء إلى السلطة التقديرية فى بعض الأحيان.

ثالثًا، مراقبة ومتابعة عمليات اتخاذ القرارات بما يمكن من توزيع العمل وتطوير نظم المساءلة بهدف الحد من ممارسات الفساد.

رابعًا، مراجعة القوانين لإجراء التعديلات التشريعية والإدارية لتعزيز نظم المساءلة القانونية والمالية والإدارية للحد من فرص الفساد.

خامسًا، إتاحة فرصة التظلم بوسائل سريعة وحاسمة.

سادسًا، مصادرة الممتلكات التى تم الحصول عليها بطرق فاسدة وغير مشروعة.

سابعًا، التعاون المشترك على المستوى الإقليمى والدولى لمحاربة الفساد، والسعى للاستفادة فى إطار المقياس المعيارى Marking Bench من الأجهزة التى أثبتت الكفاءة والفعالية فى محاربة الفساد.

ويأتى فى طليعة المؤسسات المستقلة





يهـــدف هـــذا الجـــزء
مـــن الدراســـــة لإبـــــراز
أهميــة التخطيـط فى إطـار الدولـة لمواجهـة
الفســـــاد العـــــالمـــى بكــــل
اشـــــكاله وألـــوانه



الــرقــص مــع  الــفــســــــاد!!

الهادفة لمواجهة ومكافحة الفساد الإدارى مؤسسة الرقيب الإدارى أو ما يعرف أحيانًا بمكتب الادعاء العام والتحقيق فى الشكاوى، وهو يمثل جهداً إبداعياً بادرت به السويد عام ١٨٠٩ فى محاولة للتوفيق بين جوانب المعادلة الصعبة: السياسة، والإدارة، والمساءلة. لقد رأت السويد قبل غيرها من البلاد فى عام ١٨٠٩ أن البيروقراطية تلعب دوراً أساسياً، وأن نفوذها وسطوتها تزيد يوماً بعد آخر، وسيظل هذا الدور ينمو ويتضخم مع كل صبح جديد. ومادامت الإدارة الحكومية ضرورة لايمكن لاى بلد متحضر الإستغناء عنها يصبح الحل الوحيد استحداث نظم تواكب تطورها وتراقب سلطاتها. لهذا رؤى أن نظام الرقيب الإدارى (Justitie Ombudsman) هو النظام الأفضل الذى يحفظ حق المواطن وذلك عن طريق البحث فى الشكاوى التى تقدم اليه عن ظلم وقع فى أى جهاز حكومى. كما أن له الحق فى تفتيش المكاتب الحكومية كى يضمن الإنصاف فى جميع المسائل التى يعالجها الموظفون فى عملهم اليومى.

فى ضوء هذا التصور برهن نظام الرقيب الإدارى فعالية فى السويد، وكسب ثقة بلاد أخرى، فطبقته فنلندا فى عام ١٩١٩ ثم الدنمارك فى عام ١٩٥٥، ونيوزيلندا فى عام ١٩٦٢، ثم المملكة المتحدة، وبعدها الولايات المتحدة، وبعض الدول النامية.

والرقيب الإدارى مستقل إستقلالاً كاملاً عن الحكومة. ولايقتصر إستقلاله عن الحكومة فقط، بل حتى عن البرلمان، وهو الوحيد الذى يقرر القضايا التى يريد بحثها وليس لاحد الحق فى نصحه لإنتهاج طريقة معينة. ونجد أن السلطات التى منحت للرقيب الإدارى فى السويد لم تتغير منذ وضعها، وهى كما أشرنا تشمل الهيئة القضائية والخدمة المدنية.

ولكى يقوم الرقيب بعمله على الوجه الأفضل فقد أعطى الحق فى الاطلاع على جميع الوثائق والمكاتبات الحكومية حتى السرى منها. كما أن له الحق فى حضور أى إجتماع أو مناقشة يراها ضرورية لإستكشاف أبعاد جديدة فى أى قضية يقوم بدراستها. وللرقيب التفويض الكامل لإجراء أى تفتيش يراه مناسباً لكى يلمس بنفسه كيفية سير الحياة اليومية فى دواوين الحكومة.

أما المحور الرابع المنادى بالإنضمام إلى الإتفاقيات الدولية والإقليمية وتبنى رؤى المؤسسات الدولية الهادفة لمواجهة ومحاربة الفساد فى كافة أشكاله تبرز حقيقة أن الفساد قد أصبح بمثابة الوباء الذى اخترق كل الدول، وأصبح بالتالى لابد من التصدى له، وتضافر كل الجهود لمواجهته وتحجيمه والعمل على إزالة كل أسبابه وآثاره التدميرية. وتتمثل الخطوة الرئيسية فى هذا الشأن فى الإنضمام والمصادقة على كافة الاتفاقيات والمعاهدات الإقليمية والدولية الهادفة لمواجهة الفساد العالمى، والعمل فى ذات الوقت لاتخاذ كل التدابير والإجراءات التى تضع نصوص هذه الإتفاقيات والمواثيق الدولية موضع التنفيذ الفعلى.

وتأتى فى صدارة هذه الاتفاقيات إتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد التى تبنتها الجمعية العامة للأمم المتحدة، وتم التوقيع عليها فى المكسيك فى ديسمبر من عام ٢٠٠٣. وقد اعتمدت هذه الاتفاقية توصيفاً للأعمال الإجرامية المعبرة عن السلوك الفاسد.

ومن جانب آخر فإن منظمة الأمم المتحدة ووكالاتها المتخصصة قد عنيت بإعداد وإبرام اتفاقيات خاصة للتصدى لمواجهة الفساد المتمثل فى الجرائم المنظمة العابرة للحدود، ومنها الإتفاقيات والمواثيق المعنية بمواجهة ومحاربة تجارة المخدرات، والإتجار بالإنسان، والتجارة غير المشروعة فى السلاح، وكل أوجه الاحتيال والفساد الماثلة والمتوقعة فى تبييض المال. ولا جدال، أن المصادقة والانضمام والعمل بموجب هذه الاتفاقيات لا غنى عنه لأى دولة تريد أن تقوم بدور ملتزم وجاد فى محاربة كل أشكال الفساد العالمى.

وتظل الضرورة ماثلة على مستوى الدول العربية لتفعيل كل الاتفاقيات الثنائية والإقليمية التى أبرمتها لمواجهة الفساد، ووضعها موضع التنفيذ الفعلى. كما عليها من جانب آخر النظر فى الثغرات التى يطل منها الفساد على نحو جديد وغير مسبوق. ومن هذه الثقوب التى تقوض فى معظم الأحيان جهود الدول العربية فى مواجهة الفساد عدم تكامل معايير الولاية القضائية. يثبت ذلك د. داود خير الله بقوله: (يكتسب طرح إشكالية عدم تكامل معايير الولاية القضائية فى بعض الدول العربية أهمية إضافية فى ظل العولمة الاقتصادية، وتحول الشركات الكبرى من وطنية إلى غير وطنية. فتكامل هذه المعايير من شأنه أن يُضيق الخناق على مرتكبى أفعال الفساد بحيث يمكن السلطات المختصة من ملاحقتهم بغض النظر عما قد يلجأون إليه من وسائل احتيالية للنفاذ من قبضة الاختصاص القضائى لسلطة دولة ما. فكثيراً ما نرى مرتكبى جرائم الفساد يستفيدون من ثغرات تشريعية توفر إمكانية تملصهم من ولاية القضاء، إما لنقص فى قواعد الولاية القضائية، وإما لتوزع أركان وأفعال جرائم الفساد المنظم بين أكثر من دولة)(١٠).

[١٠]

يمكننا أن نخلص إلى القول بأن العالم قد شهد منذ منتصف القرن الماضى اتساعاً لدائرة الفساد، وازدياد حلقاته، وترابط آلياته، وعمق تأثيره السلبى الخطير على كل القطاعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية، وفى مختلف الأصعدة القطرية والإقليمية والدولية. ويعود هذا الانتشار السرطانى للفساد فى المكان الأول لنتائج العولمة القائمة على زيادة وتوسيع التكامل الاقتصادى العالمى بالقدر الذى يجعل عزل الاقتصادات الوطنية عما حولها أمراً مستحيلاً. لقد أصبح عالم اليوم بمثابة قرية كونية تعيش نتيجة لثورة الاتصالات والمعلومات فى تبادل وتكامل، وما عاد بإمكان أى دولة أن تعيش كجزيرة منعزلة بمعزل عن تأثير التحولات والتغييرات العالمية.

أزاء هذا الوضع أصبحت ظاهرة الفساد وما تستبطنه من ممارسات غير مشروعة وجرائم مخترقة للحدود بين الدول، فى موقع الصدارة وموضع الاهتمام على كافة الأصعدة القطرية والإقليمية والدولية. لهذا لابد من تضافر جهود الحكومات، والقطاع الخاص، ومنظمات المجتمع المدنى، والمؤسسات والوكالات الدولية والإقليمية بغية ابتداع ما يمكن من اتفاقيات، وتدابير ونظم وإجراءات لمواجهة وتحجيم الفساد. ■





كثيــــراً مـــا نـــرى مرتكبـــى جـــرائم الفســـاد يســـتفيدون من ثغـــرات تشـــريعية توفـــر إمكانيـــة تملصهـــــــم مـــن ولايـــة القضــــاء



هـــــوامــــــــــش

- د. محمود عبد الفضيل: مفهوم الفساد ومعاييره، مجلة المستقبل العربى، العدد ٣٠٩، نوفمبر ٢٠٠٤، ص (٣٤).
- د. هدى متكيس: الشروط السياسية للتنمية، فى كتاب الفساد والتنمية، قضايا التنمية (١٤)، مركز دراسات وبحوث الدول النامية، القاهرة ١٩٩٩، ص(٢٨).
- د. صلاح سالم زرنوقة: تحليل قضايا الفساد فى مصر، فى كتاب الفساد والتنمية، قضايا التنمية (١٤)، مركز دراسات وبحوث الدول النامية، القاهرة ١٩٩٩، ص (٢٩٦ ـ ٣٠٠).
- W. Pattii Amaah & others, Corruption (World, Washington D.C. Bank, ١٩٩٩) P. (٢).
- د. داود خير الله: الفساد كظاهرة عالمية وآليات ضبطها، مجلة المستقبل العربى، العدد ٣٠٩، نوفمبر ٢٠٠٤، ص (٦٦).
- باتريك جلين وآخرون: تعولم الفساد، فى كتاب الفساد والاقتصاد العالمى، تحرير كيمبرلى آن اليوت، ترجمة محمد جمال إمام، القاهرة، مركز الإهرام للترجمة والنشر، عام ٢٠٠٠م، ص (٢٦).
- باتريك جلين وآخرون: نفس المرجع السابق، ص (٣٢).
- د. عادل عبد اللطيف: الفساد كظاهرة عربية وآليات ضبطها، مجلة المستقبل العربى، العدد ٣٠٩، نوفمبر ٢٠٠٤، ص (١٠٠).
- Adam Bouloukos & others: A Transnational Organized Crime in Europe and North America: Towards a Framework for Prevention in: Report on the Sixth United Nations Survey on Crime Trends and Criminal Justice Criminal Justice, (New York, Systems Press 2003) P. 176.
- د. داود خير الله: نفس المرجع السابق، ص (١٠٦).

من يقدر على إيـــــــران؟

نـقـطــــــة اللا عــــــودة

جـيـفـرى جــولــدبــرج
Jeffrey Goldberg



من المؤلم لإدارة أوباما تصور إيران كدولة نووية فى المستقبل ـ فإن ذلك سوف يخلق تحديات قومية ـ أمنية كبيرة وجديدة، وسوف يحطم أيضا حلم الرئيس فى إنهاء الانتشار النووى. ولكن المشهد من جانب القدس كان أكثر كآبة: إن إيران النووية تمثل إلى جانب أشياء أخرى تهديدا حقيقيا لوجود إسرائيل. وفى المسافة ما بين رؤى واشنطن والقدس لإيران يكمن السؤال التالى: من ـ إذا كان هناك بالفعل أحد ـ الذى سيمنع إيران من أن تكون دولة نووية وكيف؟ وبينما يقوم كل من واشنطن والقدس بدراسة بعضهما البعض عن كثب، نقدم لكم هنا نظرة من الداخل (داخلية) على الحسابات الإستراتيجية لكل جانب ـ وكيف ستكون الضربة الجوية الإسرائيلية إذا ما استمرت الأحداث على ماهى عليه.



■■ إن العقوبات الاقتصادية المدمرة التى فُرضت على جمهورية إيران الإسلامية قد تقنعها فى وقت ما خلال الاثنى عشر شهرا القادمة بالكف عن البحث عن أسلحة نووية. ومن الممكن أيضا أن تحل الحركة الخضراء الإيرانية التى تنادى بالإصلاح محل النظام الذى يقوده الملالى بطريقة ما أو على الأقل تكتشف وسائل تستطيع بواسطتها أن تعدل من التطرف الأيديولوجى للحكم. ويمكن أيضا تنفيذ «عمليات إحباط» بقيادة وكالات الاستخبارات الإسرائيلية والأمريكية والبريطانية والقوى الغربية الأخرى. وهى برامج صممت لتدمير الجهود النووية الإيرانية من خلال عمليات تخريب وفى بعض الأحيان تنفيذ عمليات ناجحة يختفى فيها علماء نوويين. مما يعيق تقدم إيران بدرجة كبيرة. ومن الممكن أيضا أن يقوم الرئيس أوباما، الذى أعلن فى مناسبات عدة أنه يعتبر فكرة إيران نووية «شىء غير مقبول»، بضربة عسكرية ضد المنشآت النووية ومفاعل تخصيب اليورانيوم.

ولكن كل هذه الأفكار لا تبدو ممكنة الحدوث فى الوقت الحالى، خاصة وإنه من المستبعد أن يقوم باراك أوباما بشن عملية عسكرية ضد إيران، لأن إشعال حروب جديدة فى الشرق الأوسط ليست من أهداف سياسته الخارجية. ولكن من الأرجح أن يقوم المستشار القومى والأمنى الإسرائيلى عوزى أراد ووزير الدفاع الإسرائيلى يهود باراك فى أحد أيام الربيع المقبل بالاتصال هاتفيا فى وقت متزامن مع نظرائهم فى البيت الأبيض والبنتاجون لإعلامهم بأن رئيس وزرائهم بنيامين نتنياهو قد أصدر أمرا فى التو لحوالى مائة طائرة اف ١٥E، اف ١٦I واف ١٦C وطائرات أخرى من القوات الجوية الإسرائيلية بالطيران شرقا فى اتجاه إيران. إما عبر المملكة العربية السعودية أو بمحاذاة الحدود بين سوريا وتركيا أو غالبا بالطيران مباشرة عبر المجال الجوى العراقى بالرغم من أن ذلك المجال مزدحم بالطائرات الأمريكية. (إن المجال الجوى العراقى فى الواقع مزدحم لدرجة أنه عندما سألت القيادة المركزية الأمريكية المسئولة عن الشرق الأوسط الكبير البنتاجون عما يجب عمله إذا قامت إسرائيل بغزو هذا المجال الجوى، كانت الإجابة طبقا لمصادر عديدة «لا تطلق النار عليهم»). وفى هذه الأحاديث المشحونة سوف يخبر الإسرائيليون نظراءهم الأمريكيين أنهم قد أخذوا هذه الخطوة العنيفة لأن إيران النووية تمثل أخطر تهديد لبقاء الشعب اليهودى منذ هتلر. وسوف يؤكد الإسرائيليون أنهم يعتقدون أنهم بذلك سوف يخلقون فرصة معقولة لتعطيل البرنامج النووى الإيرانى على الأقل لمدة تتراوح من ثلاث إلى خمس سنوات. سوف يقولون لزملائهم الأمريكان إنه لم يكن لدى إسرائيل أى خيار آخر.

فور انطلاق الطائرات الإسرائيلية بشكل جماعى من قواعدها عبر إسرائيل لتبدأ فى قصف أماكن تخصيب اليورانيوم فى ناتانز وموقع التخصيب السرى السابق فى قم ومركز الأبحاث النووية فى أصفهان ومن الممكن أيضا قصفها لمفاعل بوشير بالإضافة للمواقع الرئيسية الأخرى فى البرنامج النووى الإيرانى، يصبح متاحا لهم فرصة تغيير الشرق الأوسط إلى الأبد. بغض النظر عما إذا نجحوا فى تدمير أجهزة الطرد المركزى الإيرانية ومصانع الصواريخ والرؤوس النووية أو حتى إذا فشلوا تماما فى إحداث أى تأثير سلبى بسيط فى البرنامج النووى الإيرانى.

قد يسبب ذلك إشعال أعمال عنف شرسة أو حرب إقليمية واسعة النطاق ينتج عنها قتل آلاف الإسرائيليين والإيرانيين وربما عرب وأمريكان أيضا؛ قد يسبب ذلك أزمة حرجة لباراك أوباما لتقزيم حرب أفغانستان فى الأهمية والتعقيد؛ قد تمزق العلاقات بين القدس وواشنطن التى تعتبر الحليف المُجدى الوحيد؛ قد ترسخ عن غير قصد حكم الملالى الضعيف نسبيا فى طهران؛ قد يسبب ذلك ارتفاعا كارثيًا فى أسعار البترول فينطلق الاقتصاد العالمى فى فترة من الاضطرابات لم يشهدها العالم منذ خريف ٢٠٠٨ أو حتى منذ صدمة البترول فى عام ١٩٧٣؛ قد يضع مجتمعات فى جميع أنحاء الشتات اليهودى فى خطر مميت وذلك بجعلهم أهدافا للهجمات الإرهابية التى تمولها إيران بطريقة محدودة ولكنها مميتة كما كانوا فى الماضى؛ وأخيرا يكون ذلك سببا فى تعجيل تحول إسرائيل من ملاذ محترم لشعب مضطهد إلى كيان منبوذ من الشعوب الأخرى.

أما إذا نجحت الضربة فى إصابة البرنامج النووى الإيرانى بالشلل تكون إسرائيل قد نجحت. بالإضافة إلى إحداث خليط من الكوارث العديدة التى تم تحديدها سابقا. فى إزالة الشبح الملح والمسلح نوويا. المدفوع بوازع دينى ومعاداة السامية. من قائمة مخاوفها؛ وقد تحصل لنفسها على شكر سرى ـ على الرغم من الإدانة العامة من الأنظمة العربية المعتدلة فى الشرق الأوسط التى تخشى القنبلة النووية الإيرانية بالقدر الذى تخشاه إسرائيل فى بعض الحالات. وسوف تنجح إسرائيل فى التصدى لانتشار الأسلحة النووية فى الشرق الأوسط وذلك لكونه الهدف الرئيسى للشخص المتحمس الذى يسكن حاليا فى البيت الأبيض، ولاستخدامها للمقاومة المسلحة التى لها ما يبررها فى هذا السياق.

عندما أناقش معقولية والعواقب المحتملة لهجوم إسرائيلى على إيران، فأنا لا أمارس تدريبات ذهنية أو لعبة حرب الرجل الواحد، ولكن إسرائيل كانت قد قامت من قبل بهجومين ناجحين حطمت

بترتيب مع:
The Atlantic Monthly

ترجمة: ميسون شعث

Jeffrey Goldberg is a national correspondent for *The Atlantic*. Author of the book Prisoners: *A Story of Friendship and Terror*, he has reported from the Middle East and Africa. He also writes the magazine's advice column.







ينبغى عدم السماح لأى خصم إقليمى بتحقيق التكافؤ النووى مع الدولة اليهودية التى ولدت من جديد ولا تزال محاصرة



عندما يمسك المؤمن الجرىء بزمام السلطة وأسلحة الموت الشامل، على العالم أن يشعر بالقلق



«إذا افترضنا أنه لن يتغير شىء فى هذه التقديرات، هذا يعنى أن علينا أن نبدأ التفكير فى خطوتنا التالية ابتداء من مطلع العام القادم»



فيهما البرنامج النووى للعدو. فى عام ١٩٨١ عندما قامت الطائرات الإسرائيلية بقصف المفاعل العراقى فى أوزيراك وأنهت بذلك وللأبد كما اتضح. الطموح النووى لصدام حسين؛ وفى عام ٢٠٠٧ عندما حطمت الطائرات الإسرائيلية المفاعل النووى الذى أقامته كوريا الشمالية فى سوريا، وبالتالى فإن الجديد فى الهجوم على إيران هو فقط بعدها الجغرافى والتعقيدات التى حولها.

منذ سبع سنوات عندما قمت بزيارتى الأولى لطهران فى محاولة لفهم الرغبة الإيرانية للحصول على أسلحة نووية ورغبة النظام الناتجة عن دوافع دينية ليرى الشرق الأوسط وقد تم تطهيره من الدولة اليهودية وأنا أحاول استكشاف إمكانية حدوث مثل هذه الضربة، خصوصا منذ مارس ٢٠٠٩ عندما دخلت فى مناقشة مطولة مع بنيامين نتنياهو بخصوص البرنامج النووى الإيرانى وكان ذلك قبل أن يحلف اليمين ليكون رئيس وزراء إسرائيل ببضع ساعات. وفى الأشهر التى تلت هذا النقاش قمت بعمل لقاءات مع أكثر من أربعين إسرائيليا من صناع القرار الحاليين والسابقين وكذلك مع مسئولين عرب وأمريكان لمناقشة إمكانية حدوث ضربة عسكرية. وطرحت أثناء معظم هذه اللقاءات سؤالا بسيطا هو: ما هى النسبة المئوية فى أن تقوم إسرائيل بمهاجمة البرنامج النووى الإيرانى فى المستقبل القريب؟ لم يجب الجميع على السؤال ولكن توافقت الآراء بأن الفرصة تزيد على خمسين بالمائة بأن تقوم إسرائيل بضربتها هذه فى شهر يوليو المقبل. وبالطبع أنه فى مصلحة إسرائيل أن تجعل العالم يدرك أنها تفكر فى عملية عسكرية وإن لم يكن لسبب آخر سوى أن تحظى بتركيز اهتمام إدارة أوباما. ولكنى اختبرت توافق الآراء هذا بالحديث إلى مصادر متعددة داخل وخارج الحكومة، والأحزاب السياسية المختلفة، وبسبب الحساسية غير العادية فى هذا الموضوع، تحدث معظمهم على مضض، وطلبوا عدم نشر أسمائهم. لم يكونوا جزءا من حملة علاقات عامة، لذا كان المنطق التى تحدث به صناع القرار الإسرائيلى غير معقد: إيران تبعد من ٣.١ سنوات على الأكثر، من إمكانية الوصول إلى قدرات نووية (فهى غالبا ما ستكون القدرة على تركيب أكثر من جهاز نووى لصواريخ جاهزة فى غضون ثلاثة أشهر تقريبا بعد صدور قرار القيام بذلك). لقد جعل النظام الإيرانى نفسه العدو الأكثر تعصبا لإسرائيل من خلال تصريحاته وأفعاله،لأن أهم عنصر فى عقيدة الأمن القومى الإسرائيلى الذى يعود إلى ١٩٦٠. عندما استطاعت إسرائيل تطوير قدراتها النووية كرد على تجربة اليهود خلال المحرقة. وهو أنه ينبغى عدم السماح لأى خصم إقليمى بتحقيق التكافؤ النووى مع الدولة اليهودية التى ولدت من جديد ولا تزال محاصرة.

فى حديثنا قبل أدائه اليمين، رفض نتنياهو أن يضع هذه القضية فى إطار التكافوء النووى حيث سياسة إسرائيل الأميموت amimut، أو الغموض، تحظر الاعتراف بوجود ترسانة نووية للبلاد، والتى تتألف من أكثر من ١٠٠ قطعة سلاح، وهى أساسا أجهزة حرارية ذات مرحلتين يمكن إرسالها بواسطة صاروخ أو قذيفة مقاتلة أو غواصة (اثنتان منها متمركزتان حاليا فى الخليج الفارسى حسب أقوال مصادر مخابراتية)، بدلا من ذلك، صرح نتنياهو أن البرنامج الإيرانى يشكل تهديدا ليس فقط لإسرائيل بل لمجمل الحضارة الغربية.



قال «لا نريد سيطرة دين رهيب messianic على قنابل ذرية، «ثم أضاف «عندما يمسك المؤمن الجرىء بزمام السلطة وأسلحة الموت الشامل، على العالم أن يشعر بالقلق، وهذا ما يحدث الآن فى إيران». ثم قال لى نتانياهو أن إسرائيل قلقة من مجموعة مشكلات معقدة، وليس فقط أن إيران، أو أحد وكلائها، قد يدمر تل أبيب، ولكنه مثل معظم القادة الإسرائيليين، قال انه يعتقد انه إذا امتلكت إيران سلاحا نوويا، فإنها ستستخدم قوتها الجديدة فى دعم عملائها الإرهابيين فى محاولاتهم لجعل الحياة صعبة وخطيرة، وأنه يخشى أن تتزعزع مكانة إسرائيل كملاذ لليهود إلى الأبد، ومعها سينتفى سبب وجود التجربة الصهيونية ذات المائة عام.

أثناء هذا اللقاء، رفض نتنياهو مناقشة جدوله الزمنى للعمل، أو ما إذا كان حتى يفكر فى عملية وقائية عسكرية ضد البرنامج النووى الإيرانى. ولكن ساعدنى آخرون من هم على دراية بطريقة تفكيره لفهم نظرته العالمية. يعتقد نتنياهو أن إيران ليست مشكلة إسرائيل وحدها، بل هى مشكلة العالم بأكمله، وبالتالى أنه من واجب العالم، بقيادة الولايات المتحدة، التعامل معها. ولكن نتنياهو لا يضع ثقة كبيرة فى العقوبات، وخاصة العقوبات الضعيفة نسبيا التى صدرت مؤخرا من قبل مجلس الأمن للأمم المتحدة، ولا فى العقوبات الأكثر صرامة التى فرضتها الولايات المتحدة وحلفاؤها الأوربيون. والأشخاص القريبون منه يقولون أن نتنياهو يدرك أن الرئيس أوباما. الذى تربطه به علاقة صعبة شابها التوتر والبرود بشكل متقطع، وإن كان الجليد قد بدأ فى الذوبان فى الآونة الأخيرة. يعتقد أن العقوبات الصارمة، جنبا إلى جنب مع مختلف الإغراءات للتعامل مع الغرب، يمكن أن توفر لإيران ما وصفه لى أحد المسئولين فى الإدارة الأميركية «خطوة محترمة تضطر إيران اتخاذها للهروب من المنحدر».

ولكن، استنادا إلى ما قيل لى من قبل صانعى القرار الإسرائيلى، فإن هذه الفترة من التسامح والصبر، الذى ينتظر نتنياهو خلالها لمعرفة ما إذا كانت أساليب الغرب غير العسكرية يمكن أن توقف إيران، سوف تنتهى فى ديسمبر (كانون الأول) المقبل. وكان قد قال روبرت جيتس، وزير الدفاع الأمريكى، فى حزيران / يونيو الماضى خلال اجتماع لوزراء دفاع حلف شمال الأطلسى أن معظم التقديرات الاستخباراتية تتوقع أن تنتهى إيران فى غضون ثلاث سنوات من بناء سلاح نووى. احد صانعى السياسة الإسرائيلية قال لى «لقد سمعنا فى إسرائيل أن بناء سلاح نووى فى إيران سيتم بعد تسعة أشهر بدءا من حزيران/ يونيو، وبعبارة أخرى، سيتم ذلك فى آذار/ مارس من عام ٢٠١١». «وإذا افترضنا أنه لن يتغير شىء فى هذه التقديرات، هذا يعنى أن علينا أن نبدأ التفكير فى خطوتنا التالية ابتداء من مطلع العام القادم».

بدأت حكومة نتنياهو بالفعل بتكثيف جهودها التحليلية ليس فقط بالنسبة لإيران، ولكن على موضوع آخر يجد العديد من الإسرائيليين صعوبة فى فهمه: الرئيس أوباما. يكافح الإسرائيليون لإيجاد إجابة لما هى بالنسبة لهم المسألة الأكثر إلحاحا: هل هناك أى ظرف من الظروف التى بموجبها يستطيع الرئيس أوباما أن ينشر القوات لمنع إيران من امتلاك أسلحة نووية؟ كل شىء يتوقف على الإجابة.

يقول الإسرائيليون إن إيران تطالب باهتمام عاجل من المجتمع الدولى بأسره، وخاصة من الولايات المتحدة

بقدرتها التى لا مثيل لها فى نشر قوات عسكرية. هذا هو موقف العديد من القادة العرب المعتدلين أيضا. وقبل أسابيع قليلة، فى تصريحات مباشرة غير عادية، قال لى سفير دولة الإمارات العربية المتحدة لدى الولايات المتحدة، يوسف العتيبى، فى منتدى عام فى مهرجان أسبن للأفكار أن بلاده تؤيد توجيه ضربة عسكرية لمنشآت إيران النووية. وقال أيضا انه إذا سمحت أميركا لإيران دخول المجال النووية، فلن يكون للدول الصغيرة فى الخليج العربى أى خيار أمامهم سوى مغادرة الفلك الأميركى، والتحالف مع إيران لحماية أنفسهم. قال «هناك العديد من البلدان فى المنطقة الذين، إذا كانت تفتقر إلى ضمانات بأن الولايات المتحدة مستعدة لمواجهة إيران، سوف يهرعون نحو إيران لحماية أنفسهم»، ثم أضاف قائلا: «إن البلدان الصغيرة، الغنية والضعيفة فى المنطقة لا تريد أن تكون الشخص الذى يضع أصبعه فى عين الغول الكبير، إذا لن يأتى أحد لنجدتهم».

يقترح العديد من القادة العرب أن موقف أميركا فى الشرق الأوسط يتوقف على استعدادها لمواجهة إيران. كما يناقشون من منظور ذاتى أن هجوما جويا على عدد محدود من المنشآت النووية الإيرانية لن يكون معقدا أو فوضويا مثل غزو العراق. صرح لى وزير خارجية عربى «هذا ليس نقاشا حول غزو إيران. نحن نأمل فى ضربة دقيقة ومحددة لعدد من المنشآت الخطرة. تستطيع أميركا أن تفعل ذلك بسهولة بالغة».

وقال لى ذات مرة مستشار الأمن القومى الإسرائيلى، عوزى اراد، أن رئيس الوزراء أحيانا يقول مازحا أثناء إحاطة الزوار الأجانب بأهمية اتخاذ إجراءات ضد البرنامج النووى الإيرانى «اسمحوا لى أن أقول لكم سرا. إن الجيش الأميركى اكبر من جيش إسرائيل».

لقد صرح باراك أوباما فى العديد من المناسبات أنه سيعتبر امتلاك إيران أسلحة نووية أمرا «غير مقبول». ولقد تجاهل بعض المسؤولين الإسرائيليين تصريحات أوباما القوية فى هذا الموضوع لأنه كان قد أدلى بها أثناء حملته الانتخابية للرئاسة عند زيارته لسديروت، بلدة فى جنوب إسرائيل، التى كانت هدفا متكررا للهجمات الصاروخية من جانب حماس عندما قال «على العالم أن يمنع إيران من الحصول على سلاح نووى»، ثم أضاف قائلا: «لن ألغى أى خيار مطروح على الطاولة فى التعامل مع هذا التهديد الإيرانى المحتمل. إنى أطلب منكم محاولة فهم جزء من المنطق هنا. وجود إيران نووية سوف يخلق وضعا لتغيير قواعد اللعبة، ليس فقط فى الشرق الأوسط، ولكن فى جميع أنحاء العالم، وأعتقد أن ما تبقى من إطارنا فى منع الانتشار النووى سيبدأ فى التفكك. وبالتالى سنجد أن عددا من دول الشرق الأوسط سيكون لديها الحاجة المحتملة للحصول على أسلحة نووية».

لكن الإسرائيليين يتشككون أن يستطيع الرجل الذى وضع نفسه على نقيض جورج بوش، صاحب الغزو على كل من أفغانستان والعراق، شن هجوما وقائيا على دولة إسلامية.

صرح لى مسئول إسرائيلى كبير، «لقد استمعنا لخطابه فى القاهرة» فى إشارة إلى خطاب أوباما الذى ألقاه فى حزيران / يونيو ٢٠٠٩ فى محاولة لإعادة العلاقات مع المسلمين من خلال التأكيد على روح التعاون والاحترام الأمريكى للإسلام. وأضاف قائلا «أننا لا نعتقد انه هذا الرجل الذى سيشن ضربة جريئة على إيران. ونخشى أن يتبنى سياسة لاحتواء إيران النووية بدلا من مهاجمتها».



ولاحظ هذا المسؤول أن حتى بوش قد أحجم عن مهاجمة المنشآت النووية الإيرانية، ولم يشجع الإسرائيليين على تنفيذ الهجوم من تلقاء أنفسهم. (كان بوش فى بعض الأحيان يسخر من مساعديه والمعلقين الذين دعوا لشن هجوم على إيران، وكان يشير إلى الكتاب الصحفيين المحافظين تشارلز كراوتهامر ووليام كريستول باسم «الأولاد المفجرين»، وفقا لاثنين من الناس الذين تحدثت معهم وكانوا قد سمعوا هذا التعليق).

علق مسؤول إسرائيلى أن «بوش كان قبل عامين، ولكن البرنامج الإيرانى مازال هو نفسه، والقصد هو نفسه. لذلك لا أتوقع شخصيا أن يكون أوباما أكثر من بوش نفسه».

وإذا كان الإسرائيليون قد وصلوا إلى استنتاج راسخ بأن أوباما لن يقوم، تحت أى ظرف من الظروف، بشن هجوم على إيران، إذا لابد أن يبدأ العد التنازلى لهجوم إسرائيلى من جانب واحد. «إذا كان الخيار هو بين السماح لإيران امتلاك سلاح نووى، أو أن نقوم نحن فى محاولة عمل ما لن يحاول أوباما عمله، إذا على الأرجح سوف نقوم به نحن». هذا ما قاله لى المسؤول الإسرائيلى.

وهو ما يقودنا إلى السؤال الثانى الذى له علاقة بطبيعة الرجل الذى يفكر فى عمل عسكرى: هل من الممكن أن يجازف نتنياهو. رئيس الوزراء المتفهم جيدا للدور الأساسى والجوهرى الذى تلعبه أمريكا فى تأمين وجود إسرائيل. بعمل قد يقطع العلاقة الحميمة مع أمريكا إلى الأبد لكى يقوم هو بمحاولة محفوفة بالمخاطر لوقف إيران؟ (تخرج نتنياهو من مدرسة شلتنهام الثانوية، فى ضواحى مدينة فيلادلفيا، ومعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وهو أكثر رئيس وزراء متأمرك فى تاريخ إسرائيل، وأكثر بكثير من جولدا مائير التى ترعرعت فى ميلووكى). إذا ما هجمت إيران ضد القوات الأمريكية فى العراق أو أفغانستان، فإن العواقب على العلاقة بين إسرائيل والقيادة العسكرية الأميركية ستكون كارثية. (وبالطبع، فإن نتنياهو سيخاطر بأكثر من علاقته مع الولايات المتحدة: المسؤولون فى الاستخبارات الإسرائيلية يعتقدون أن الهجوم على إيران يمكن أن يثير ضربة انتقامية شاملة من جانب حليف إيران اللبنانى. حزب الله. الذى يمتلك الآن حسب أغلب التقديرات الاستخباراتية، عدد صواريخ يصل إلى ٤٥٠٠٠ صاروخ وهو على الأقل ثلاثة أضعاف ما كانت تمتلكه فى صيف عام ٢٠٠٦، خلال الجولة الأخيرة من القتال بينا وبين وإسرائيل).

«السبب الوحيد لبيبى (لنتانياهو) الذى من شأنه أن يضع علاقة إسرائيل مع أمريكا فى خطر هو إذا كان يعتقد أن إيران تشكل تهديدا مثل المحرقة»، هذا ما قاله لى مسؤول إسرائيلى يمضى وقتا طويلا مع رئيس الوزراء. وأضاف «فى الحرب العالمية الثانية، لم يمتلك اليهود قوة لوقف هتلر من إبادتنا. وقد تم ذبح ستة ملايين يهودى. اليوم، يعيش ستة ملايين من اليهود فى إسرائيل، وهناك من يهددهم بالفناء. ولكن الآن لدينا القوة لوقف هذه المذبحة. ويعلم بيبى أن هذا هو الخيار».

وأشار العديد من المعلقين والمحللين الإسرائيليين أن نتنياهو ليس وحده من يفهم هذا التحدى، العديد من رؤساء الوزراء الذين سبقوه طرحوا تهديد إيران بنفس المصطلحات. ولكن نتنياهو مختلف. لقد أخبرنى مايكل اورين سفير إسرائيل لدى الولايات المتحدة أن نتنياهو «لديه إحساس عميق لدوره فى التاريخ اليهودى».

لكى نفهم لماذا نتنياهو يملك هذا الحس العميق، ولماذا فهمه للتاريخ اليهودى قد يقوده لمهاجمة إيران بالرغم من اعتراضات أوباما، فمن الضرورى فهم بن صهيون نتانياهو والد نتنياهو الذى يبلغ من العمر مائة عام.

بن صهيون نتنياهو. يعنى اسمه الأول «ابن صهيون»، هو أول مؤرخ فى العالم لمحاكم التفتيش الاسبانية كما كان سكرتيرا لفلاديمير جابوتنسكى، مؤسس الفرع العنيد «والمعدل» للصهيونية. وهو والد البطل الإسرائيلى المأساوى، يونتان نتنياهو، الذى توفى فى عملية الإفراج عن الرهائن اليهود فى عنتيبى عام ١٩٧٦. والأب أيضا لبنيامين، الذى يسعى لأن يكون عظيما فى عينى والده ولكنه فى بعض الأحيان يصيبه بخيبة الأمل، خاصة عندما خضع فى فترة ولايته الأولى كرئيس للوزراء فى أواخر ١٩٩٠، للضغوط الأمريكية وسحب القوات الإسرائيلية من معظم مدينة الخليل فى الضفة الغربية، وهى ثانى أقدس مدينة يهودية. والمعروف فى معظم الدوائر إن بنيامين نتنياهو لا ينظر للمسائل المتعلقة بالفلسطينيين بمرونة، بالرغم من أنه فى الآونة الأخير حاول تلبية بعض مطالب باراك أوباما فى دفع عملية السلام إلى الأمام.

قال لى احد أصدقاء رئيس الوزراء «أن بن صهيون دائما يسيطر على تفكير بيبى» وأضاف «أنه دائم الخوف من أن يعتقد والده انه ضعيف».

من أهم أعمال بن صهيون نتنياهو كتابه «أصول محاكم التفتيش فى اسبانيا فى القرن الخامس عشر»، الذى قلب مفاهيم جذور ذلك الفصل القاتم فى التاريخ اليهودى التى أجمع عليها العلماء. وقال إن كراهية الأسبان لليهود انطلقت من مبدأ sangre de limpieza، أى نقاء الدم. الذى هو أساس الفكر النازى، وبعبارة أخرى، لم يحرك محاكم التفتيش الوازع الدينى. وقال بن صهيون أيضا أن محاكم التفتيش تتوافق مع المبدأ القائل بأن الاضطهاد لمعاداة السامية يسبقه فى جميع الحالات حملات تشهير طويلة تجرد اليهود من آدميتهم كتبت بعناية لضمان القضاء عليهم فى نهاية المطاف. بالنسبة لبن صهيون الدروس المستفادة من التاريخ اليهودى واضحة وملحة.

كان أبناء بن صهيون يعبدونه فى طفولتهم بكل المقاييس، واليوم، بنيامين الذى يبلغ من العمر ستون عاما، والمعروف عنه التصرف







نحن نسمع تهديدات من الجانب الإيرانى الذى يتعهد بالقضاء على الحركة الصهيونية فى العالم قريبا



حلفاء نتنياهو فى الكنيست قال لى: إن إقامة دولة فلسطينية مستقلة لن تتحقق إلا بعد وفاة بن صهيون



أن كلمات محمود أحمدى نجاد عن المحرقة وإسرائيل لا تعبر عن رأيه الشخصى ولكنها تعبر عن رأى الحكومة



بطرق سخيفة، يتمسك بشكل واضح بالوصية الخامسة عندما يتناقش مع والده. فى حفل بمناسبة عيد ميلاد بن صهيون المائة، الذى أقيم فى شهر مارس الماضى فى مركز مناحيم بيجين للتراث فى القدس وأمام جميع الحاضرين الذى كان بينهم رئيس إسرائيل، شمعون بيريس،تحدث بنيامين عن والده الذى كان له الفضل فى التنبؤ بالمحرقة. كما أكد أن والده فى بداية عام ١٩٩٠ توقع أن «المسلمين المتطرفين سيحاولون نسف برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك»، لكنه ذكر أيضا بعض القصص العائلية بأسلوب أكثر دفئا واصفا والده بأنه أب محب، على الرغم من مظهره المتجهم المخيف للأغراب، فهو يستمتع بمشاهدة أفلام رعاة البقر ويلعب كرة القدم مع أبنائه.

بعد مناظرة قصيرة بين بن صهيون وأكاديمى بارز حول تفسيرات تنافسية لمحاكم التفتيش، وصف بينى، مناحيم بيجين الابن. وهو وزير بدون حقيبة فى حكومة نتنياهو. الاحتفال «أنه احتفال غير عادى بمناسبة عيد ميلاد المائة عندما يثار نقاش حول محاكم التفتيش». ثم نهض بن صهيون ليلقى خطبة الوداع، وعلى عكس كلمة ابنه، كانت الخطبة مختصرة ومجردة من أى مشاعر كما كانت شديدة الوضوح.

«إن احتفالنا هذا المساء يفرض على الحديث عن التعليقات الأخيرة التى تدور حول استمرار وجود دولة إسرائيل والتهديدات الجديدة من قبل أعدائها لتدميرها الآتى»، هكذا بدأ بن صهيون كلمته «نحن نسمع تهديدات من الجانب الإيرانى الذى يتعهد بالقضاء على الحركة الصهيونية فى العالم قريبا وفى غضون أيام، وبالتالى يفترض أن نستنتج من هذا أنه سوف يتم إبادة جميع يهود أرض إسرائيل، بينما يقال تلميحا ليهود أميركا، التى يرفض قادتها الضغط على إيران، أن إبادة اليهود لن تشملهم».

وتابع حديثه قائلا «إن الشعب اليهودى قد وضح موقفه ووضع الثقة فى قواته العسكرية. دولة إسرائيل تظهر للعالم اليوم كيف يمكن لدولة أن تتصرف عندما تقف أمام ما يهدد وجودها: يجب مواجهة الخطر والتفكير بهدوء فى ما ينبغى القيام به وما يمكن القيام به. كما يجب أن يكون جاهزا لدخول المعركة فى اللحظة التى تظهر فيها فرصة معقولة للنجاح».

وقال لى كثير من الناس فى أوساط حزب الليكود أن الذين يقللون من نفوذ بن صهيون على ابنه يعرضون أنفسهم للخطر. «إن هذا والد يعطى ابنه أوامر للمضى» قالها احد الحضور «لقد شاهدت بيبى أثناء حديث والده، كان مستغرقا تماما». (واحد من حلفاء نتنياهو فى الكنيست قال لى بطريقة غير مهذبة ولكن ربما بدقة شديدة، أن فرصة التحرك نحو إقامة دولة فلسطينية مستقلة لن تتحقق إلا بعد وفاة بن صهيون. «لا يمكن لبيبى أن ينسحب أكثر من ذلك من يهودا والسامرة .الأسماء التى تطلق على الضفة الغربية فى التلمود، ثم يواجه والده»).

يرى بنيامين نتنياهو أن إيران هى سبب الأزمة من نفس المنظور التاريخى لوالده. صرح لى نتانياهو بأن «إيران قد هددت بإبادة دولة». «من الناحية التاريخية، فإن هذا شىء مذهل. أنها إساءة هائلة تحدث بفاعلية دون اعتراض أو منازع من الرأى العام. من المؤكد أن هناك إدانات فاترة دون حماس، ولكن ليس هناك اتهامات ولا هناك صدمة»، واستطرد قائلا أن من دروس التاريخ البالغة الأهمية هى أن «الأشياء السيئة تزداد سوءا إذا لم يتم اعتراضها فى وقت مبكر». وأضاف «أن القادة الإيرانيين يتحدثون عن تدمير إسرائيل أو اختفائها وفى نفس الوقت يصنعون الأسلحة لضمان اختفائها».



أحد الجوانب الأكثر تعاسة فى المواجهة بين إيران وإسرائيل هى أن الحضارات الفارسية واليهودية لم تكن دائما على خصام؛ احد أبطال الكتاب المقدس كان الملك الفارسى قورش، الذى أعاد اليهود إلى أرض إسرائيل بعد أن حررها من أسر البابلى منذ ٢٥٠٠ سنة مضت. (وبعد سنوات قليلة منح هارى ترومان الاعتراف بالدولة الوليدة إسرائيل فى عام ١٩٤٨ وأعلن: «أنا قورش»).

كانت إيران موطنا لمجتمع يهودى قديم حيث عاشوا هناك منذ أن نفاهم البابليون وقبل وصول أتباع محمد بالإسلام إلى بلاد فارس بمائة عام. وفى العصر الحديث، احتفظت إيران وإسرائيل بعلاقات دبلوماسية وثيقة بين البلدين قبل سقوط الشاه فى عام ١٩٧٩. ومن الواضح أن دعم إسرائيل للشاه قد اغضب أعداءه، رجال الدين الذين تمكنوا من السلطة حديثا فى طهران، ولكن هذا لا يكفى لتفسير مدى عمق الكراهية الإيرانية الرسمية لإسرائيل واليهود ؛ لابد أن يكون هناك سبب آخر يفسر المشاعر التى أعرب عنها محسن رضائى، القائد السابق للحرس الثورى الإيرانى، الذى قال فى عام ١٩٩١. أى أربعة عشر عاما قبل ظهور محمود أحمدى نجاد، السياسى الإيرانى الذى ارتبط اسمه ونظامه فى الغرب بعدائه الصارخ للسامية. أحدهم قال «سيأتى اليوم الذى لن يجد اليهود فيه مكانا للعيش فى أى بقعة فى العالم، مثل سلمان رشدى».

قد نجد الجواب فى سطر من كتب المسلمين الشيعة الذين يرون عقائديا أن اليهود ملوثون، وهى وجهة نظر مستمدة جزئيا من تصوير القرآن الكريم لليهود كأعداء خانوا النبى محمد. كما يروى روبرت ويستريش فى كتابه الجديد عن تاريخ العداء للسامية، «الهوس القاتل»، فى القرن ١٧ و١٨ كان يرى رجال الدين الشيعة اليهود كأنهم «مرضى جذام الخلق» و«أقذر الناس فى الجنس البشرى». سألت ذات مرة على أصغر سلطانية، وهو دبلوماسى إيرانى بارز الذى يعمل حاليا سفيرا لإيران لدى الوكالة الدولية للطاقة الذرية، لماذا قيادة إيران تصر على وصف إسرائيل كنوع من الأمراض المعدية وليس كمجرد مجرم إقليمى؟ فسألنى «هل تختلف فى الرأى» ثم أضاف «ألا ترى أن هذا صحيح؟».

فى خطاب ألقاه فى حزيران / يونيو، أوضح أحمدى نجاد، الرئيس الإيرانى، تاريخ الشرق الأوسط على هذا النحو: «منذ ستين عاما قاموا بتجميع مجموعة من أكثر الناس إجراما وأقذرهم من جميع أنحاء العالم لا يمتون إلى الآدمية إلا بمظهرهم فقط وذلك عن طريق ذريعة مصطنعة وزائفة، وتلفيق معلومات واختراع قصص. تم تنظيمهم وتسليحهم، ووفرت لهم وسائل الإعلام وتم دعمهم عسكريا. وهكذا، احتلوا الأراضى الفلسطينية، وشردوا الشعب الفلسطينى وكانت القصة المختلقة بالطبع هى المحرقة». يدعم جهود أحمدى نجاد لإنكار الحقيقة التاريخية للمحرقة مسؤولون رسميون على مستوى عال: صرح وزير الخارجية الإيرانى، منوشهر متقى فى عام ٢٠٠٥، «أن كلمات محمود أحمدى نجاد عن المحرقة وإسرائيل لا تعبر عن رأيه الشخصى وليست مجرد عبارات معزولة، ولكنها تعبر عن رأى الحكومة».

وربما كان أفضل تعبير عن وجهة نظر

القيادة الإيرانية عن الأخطار النووية هو تعليق الرئيس الإيرانى السابق على اكبر هاشمى رافسنجانى فى عام ٢٠٠١، الذى أطلق فكرة أن زوال إسرائيل يمكن أن تحدث بطريقة خالية نسبيا من الألم للعالم الإسلامى. «إن استخدام قنبلة نووية ضد إسرائيل سيدمر إسرائيل بالكامل فى حين أى هجوم نووى ضد الدول الإسلامية سوف يتسبب فى أضرار فقط».

إن هذا الخط من التفكير، مما يوحى بأن نظرية الردع العقلانى، أو التهديد بالدمار المتبادل المؤكد، قد لا ينطبق فى حالة إيران، التى تضع الحكومة الإسرائيلية على حافة السكين. هذه النظرية لا تقلق فقط جناح اليمين فى إسرائيل، ولكن حتى حزب ميرتس اليسارى الذى يدين سياسات نتنياهو تجاه الفلسطينيين بكثير من الشدة، يعتبر برنامج إيران النووى تهديدا لوجود إسرائيل.

ليس بالضرورة أن يعتقد صانعو السياسة الإسرائيلية أن إيران سوف تطلق صاروخا على تل أبيب فور حصولها على أسلحة نووية. قال لى مسؤول إسرائيلى فى وزارة الدفاع «فمن ناحية، تود إيران أن يختفى اليهود من الوجود، ولكن من ناحية أخرى، هم يعلمون أن لدى إسرائيل القدرة على الانتقام غير المحدود». هذه كناية إسرائيلية لتوجيه ضربة ثانية للبلاد وترسانتها النووية. «وبالرغم مما يقوله رافسنجانى وآخرون، ولكن نحن نعتقد أنهم يعرفون أنهم يضعون الحضارة الفارسية فى خطر».

وقال نتنياهو «إن التحديات التى تشكلها إيران النووية هى أكثر مكرا من هجوم مباشر»، وأضاف «العديد من النتائج السيئة سوف تنبثق من هذا التطور الوحيد. أولا: أن وكلاء إيران المتشددين قادرون على إطلاق صواريخ والانخراط فى أنشطة إرهابية أخرى وهم يتمتعون بمظلة نووية. وهذا ما يثير المخاطر فى أى مواجهة سوف يفرضونها على إسرائيل. وبدلا من أن يكون الحدث محليا مهما كان مؤلما، فإنه يصبح مشكلة عالمية. ثانيا: أن هذا التطور سوف يشجع المتشددين الإسلاميين على نطاق واسع وفى قارات عديدة، وهم يعتقدون أن هذه هى إشارة من العناية الإلهية أن هذا التطرف فى نهاية طريقه إلى الانتصار».

ثم أضاف «أنك تخلق تغييرا هائلا فى ميزان القوى فى منطقتنا، لأن إيران بأسلحتها النووية سوف تحاول إقناع الدول العربية تجنب صنع السلام مع إسرائيل، وأن ذلك من شأنه أن يشعل سباقا إقليميا للتسلح النووى. إن منطقة الشرق الأوسط مشتعلة بما فيه الكفاية، ولكن مع سباق التسلح النووى، سوف تصبح صندوقا من البارود».

زعماء إسرائيليون آخرون يعتقدون أن مجرد التهديد بهجوم نووى من قبل إيران. إلى جانب التهديد المزمن للمدن الإسرائيلية من قبل صواريخ حماس وحزب الله. سوف يقوض تدريجيا قدرة البلاد على الاحتفاظ بمواطنيها الأكثر إبداعا وإنتاجية. وقال لى ايهود باراك وزير الدفاع أن هذا هو خوفه الكبير على مستقبل إسرائيل.



وأضاف «أن التهديد الحقيقى للصهيونية هو التخفيف من الجودة. اليهود يعلمون أنهم يستطيعون أن يقفوا على أقدامهم فى أى ركن من العالم، ولكن الاختبار الحقيقى بالنسبة لنا هو جعل إسرائيل مكانا جذابا، مكانا متطورا فى المجتمع البشرى، وفى مجال التعليم والثقافة والعلوم. يجب أن نخلق نوعية مميزة للحياة تحفز حتى الشباب الأميركى اليهودى على أن يأتى إلى هنا». وقال باراك «أن هذه الرؤية مهددة من إيران وحلفائها. يستطيع شبابنا أن يقرروا الذهاب إلى أماكن أخرى بكامل وعيه، إذا كانوا يكرهون العيش تحت تهديد هجوم نووى، يستطيع أفضل شبابنا أن يقرروا البقاء بعيدا عن هنا بكامل اختيارهم».

وفقا لاستطلاعات الرأى العديدة إن الإحساس بالوطنية فى إسرائيل مرتفع جدا، ويبدو لى أنه ليس من المرجح أن مجرد الخوف من إيران قد يدفع يهود إسرائيل إلى البحث عن ملاذ فى مكان آخر. ولكن افرايم سنيح. وهو جنرال سابق ونائب وزير الدفاع السابق وأحد المؤيدين البارزين لهجوم إسرائيلى على المنشآت النووية الإيرانية. مقتنع انه إذا دخلت إيران فى المجال النووى، ستكون مجرد فكرة وجود إسرائيل معرضة للخطر. ويقول افريم سنيح أن «هؤلاء الناس مواطنين صالحين وشجعان، ولكن القوى المحركة للحياة هى تلك التى إذا حصل شخص ما على منحة دراسية لمدة سنتين فى الجامعة الأمريكية وقدمت له تلك الجامعة سنة ثالثة، سوف يقول الآباء له، «امض قدما فى طريقك وابق هناك». فقال لى سنيح عندما التقيت به فى مكتبه خارج تل أبيب منذ وقت ليس ببعيد، «إذا حصل شخص ما على درجة الدكتوراه وعرضوا عليه وظيفة فى أمريكا، سوف يبقى هناك. لن يكون المشهد كما لو كانوا جميعا يهرعون إلى المطار ولكن القرار على مستوى الأسرة تدريجيا سوف يكون لصالح البقاء فى الخارج. خلاصة القول أنه سيحدث استنزاف متنام للعقول فى إسرائيل، وأن إسرائيل التى لا تقوم على الالتزام، والتى لا ترتكز على التميز، لا يمكن أن تكون إسرائيل اليوم».

وأضاف سنيح قائلا بنبرة ناقدة، إذا لم يعد الستة ملايين مواطن يهودى قادرين على فهم إسرائيل بالإضافة إلى حوالى ٧ ملايين يهودى يعيشون خارجها على أنها «الملاذ الآمن الطبيعى»، إذا مبرر وجودها يكون قد انتفى. ووجه انتباهى إلى صورة معلقة على جدار مكتبه لثلاث طائرات من سلاح الجو الإسرائيلى. F15 وهى تحلق فوق معسكر أوشفيتز فى بولندا. كانت قد دعت القوات الجوية البولندية فى عام ٢٠٠٣ الإسرائيليين للقيام فى هذه الرحلة الرمزية للغاية. لم تكن الصورة جديدة بالنسبة لى، لقد كنت قد رأيتها من قبل على جدران العديد من مكاتب وزارة الدفاع الإسرائيلية فى تل أبيب. ثم سألنى سنيح: «هل ترى هذه الطائرات؟ هذه هى الصورة التى أنظر إليها طول الوقت. عندما يقول شخص ما أنهم سوف يمحون اليهود من الوجود، يجب علينا حرمانه من الأدوات. المشكلة فى الصورة هى أننا كنا هناك فى وقت متأخر جدا».

لكى نفهم لماذا الإسرائيليون من تنظيمات سياسية مختلفة يرون إيران على أنها من المحتمل جدا أن تكون أكثر وأهم تحد واجههم فى الـ ٦٢ عاما من تاريخهم، يجب علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن الاحتكار النووى الإسرائيلى فى أذهان الجمهور يقترب من القدسية. إن الرواية الإسرائيلية الوطنية باختصار، تبدأ بالحرقة، وهى تعنى بالعبرية «الكارثة»، وتنتهى بكلمة «تكومة» أى «النهضة». وبالنسبة للإسرائيليين ترمز ترسانة إسرائيل النووية إلى نهضة وطنية، وشىء آخر أيضا: لقد خرج اليهود من الحرب العالمية الثانية بدرس واحد على الأقل، وهو ثمن العجز.

فى كتابه الجديد، «أسوأ سر لم يذع: المساومة بين إسرائيل والقنبلة»، كتب أفنير كوهين، مؤرخ بارز عن برنامج إسرائيل النووى، أن دافيد بن جوريون، رئيس وزراء إسرائيل الأول، استحوذ على تفكيره ضرورة تطوير أسلحة نووية كضامن أكيد لعدم تكرار مذبحة أخرى. وقال «إن ما قام به آينشتاين، أوبنهايمر، وتيلير. كلهم من اليهود. للولايات المتحدة، ويمكن أيضا أن يقوم به العلماء فى إسرائيل، لشعبهم»، ويضيف كوهين أن بن جوريون قد أعلن إن المظلة التى نشأت عن الاحتكار النووى الإسرائيلى قد أتاحت للدولة العبرية أن تتعافى من جروح المحرقة».

ولكن هذه الجروح لا تلتئم، كما يقول سنيح. «إن المحرقة ليست نوعا من العقد النفسية، إنها درس تاريخى. كان جدتى وجدى من بولندا، وكان والدى ضابطا فى الجيش البولندى ثم هرب فى عام ١٩٤٠. بقى أجدادى ولكنهم قتلوا على يد الفلاح البولندى الذى كان من المفترض أن يقدم لهم المأوى فى مقابل كثير من المال. لهذا السبب أنا لا أثق بالغوييم. مرة واحدة تكفى. لن أضع حياتى فى أيدى الغوييم».

ذات ليلة الاثنين فى أوائل الصيف، جلست فى مكتب رام ايمانويل الذى لم يكن بالتأكيد جوييم، وهو رئيس موظفى البيت الأبيض. واستمعت هناك إلى عدة مسئولين فى مجلس الأمن القومى، كانوا مجتمعين على طاولة المؤتمرات فى شرح مطول لماذا يجب على الدولة اليهودية أن تثق فى رئيس من غير اليهود فى الولايات المتحدة لمنع إيران من الدخول إلى المجال النووى.

«إن عبارة كل الخيارات مطروحة على الطاولة تعنى إن كل الخيارات مطروحة على الطاولة» قال لى ذلك إيمانويل قبل الاجتماع، بطريقة توحى بالتصميم والعصبية من أولئك الذين يعتقدون إن الرئيس يفتقد حلا من هذا القبيل. وكان اجتماع المجموعة الذى نظمه، نوعا من ندوة للتداول حول التحديات التى تطرحها إيران ؛ ناقش ستة من المسؤولين نفس الموضوع بطرق مختلفة، وهو أن الرئيس اوباما يتحدث معظم الوقت مع الزعماء الأجانب بخصوص إيران أكثر من أى موضوع آخر.

واحد من الجالسين على طاولة، بن رودس وهو نائب مستشار للأمن القومى، وهو المؤلف الرئيسى «لأحدث إستراتيجية للأمن القومى للولايات المتحدة»، والذى كتب كذلك خطاب الرئيس التصالحى بالقاهرة، اقترح إن برنامج إيران النووى يمثل تهديدا واضحا للأمن الأميركى، وأن إدارة أوباما تستجيب







«ماذا فعلنا لكى نسمح لك بالوصول إلى أننا نعتقد أن وجود إيران نووية من شأنه أن يمثل حالة مقبولة؟»



نحن نتفق مع هذا التقييم الأميركى، ونتفق أيضا مع جيتس بأن إيران ستدخل المجال النووى فى غضون عام



ستطول هذه العقوبات جميع المجالات. سوف تبدأ هذه العقوبات من داخل سوء الإدارة الإيرانية



لتهديدات الأمن القومى على طريقة الإدارات الأخرى. «نحن ننسق إستراتيجية متعددة الجوانب لزيادة الضغط على إيران، ولكن هذا لا يعنى إننا أزلنا أى خيار من على الطاولة»، وقال رودس أيضا «لقد أظهر هذا الرئيس مرارا وتكرارا أنه عندما يعتقد أنه من الضرورى استخدام القوة لحماية مصالح الأمن القومى الأمريكى، قام بذلك بالفعل. نحن لن نناقش افتراضات حول متى وإذا كنا سنستخدم القوة العسكرية، ولكن أعتقد أننا قد أوضحنا بأننا لن نزيل خيار القوة فى أى موقف قد يؤثر على أمننا القومى».

كان هناك سمة شائكة فى هذه الجلسة بشكل متقطع، وليس فقط لأنها كانت تستضيف عمانوئيل، وهو دائما ساخط بطبيعته، ولكن لأكثر من عام، ومسؤولو البيت الأبيض يتصدون للاتهام بأن رئيسهم يرفض مواجهة العواقب المحتملة لامتلاك إيران أسلحة نووية. وإنهم محبطون بسبب ما يعتقدون أنه صورة كاريكاتورية لموقفه. (قال لى مسؤول سابق فى إدارة الرئيس جورج بوش أن رئيسه كان يواجه مشكلة معاكسة: غرق بوش مرتين فى مستنقع الحروب ولأنه كان يعتقد أن إيران لم تكن قريبة من الوصول إلى الطاقة النووية، عارض استخدام القوة ضد برنامج إيران، وشرح وجهة نظره بوضوح، «ولكن لم يصدقه»).

فى فترة ما، كنت قد طرحت رأيا يقول أنه لأسباب عديدة واضحة، أن قلة فقط من الناس يعتقدون أن باراك أوباما من شأنه أن يفتح جبهة ثالثة فى الشرق الأوسط الكبير. ورد أحد المسؤولين على بحماس: «ماذا فعلنا لكى نسمح لك بالوصول إلى استنتاج مفاده أننا نعتقد أن وجود إيران نووية من شأنه أن يمثل حالة مقبولة؟».

حقيقة لا يمكن إنكارها، أن الإدارة قد ظهرت فى بعض الأحيان على أنها غير جادة فى هذه القضية. وانتقد الرئيس الفرنسى، نيكولا ساركوزى، أوباما باعتباره بائع أمل بدون أساس. قال ساركوزى فى مجلس الأمن للأمم المتحدة فى سبتمبر الماضى: «أنا أؤيد هذه اليد الممدودة من الأميركيين، ولكن ما هى الفائدة التى عادت على المجتمع الدولى من مقترحات لفتح الحوار؟ غير المزيد من تخصيب اليورانيوم وتصريحات صدرت عن قادة إيران للقضاء على دولة عضو فى الأمم المتحدة من على الخريطة»، قال هذا فى إشارة إلى إسرائيل.

قد أشار مسئولو إدارة أوباما، خاصة فى وزارة الدفاع الأمريكية، مرات عديدة إلى عدم رضائهم عن إمكانية ضربة عسكرية استباقية فى نيسان / ابريل، صرحت وكيل وزارة الدفاع للشؤون السياسة، ميشيل فلورنوى، للصحفيين أن القوة العسكرية ضد إيران «ليست مطروحة على الطاولة فى المدى القريب». ولكنها تراجعت عن هذا التصريح فى وقت لاحق. ولكن انتقد الأدميرال مايكل مولين، رئيس لهيئة الأركان المشتركة، فكرة مهاجمة إيران. وأضاف مايكل «إن حصول إيران على سلاح نووى من شأنه أن يزعزع الاستقرار بشكل لا يعقل. ولكن مهاجمتهم من شأنها أن تخلق أيضا النتائج فى منطقة غير مستقرة كهذه الآن، لسنا فى حاجة إلى أكثر من ذلك».



وكان الهدف من الاجتماع فى مكتب ايمانويل هو توصيل عدد من الرسائل الواضحة لى، بما فى ذلك تلك التى كانت أكثر تشددا من التى قالها الأدميرال مولين: لم يستبعد الرئيس أوباما بأى حال من الأحوال مكافحة الانتشار النووى بالقوة. كان من المفترض أيضا أن يبلغنى الاجتماع أن وراء محاولة التواصل التى بدأها أوباما تجاه الإيرانيين لم يكن يحركها دوافع ساذجة، ولكن من الرغبة فى اختبار نوايا طهران بطريقة متعمدة. وأن الرئيس يدرك أن القنبلة النووية الإيرانية ستؤدى إلى سباق تسلح فى المنطقة قد يدمر برنامجه لمنع الانتشار النووى. كما علمت أن التقييم الأمريكى والإسرائيلى للبرنامج النووى الإيرانى قد تم بأسلوب متزامن بطرق لم تستخدم من قبل. كما أخبرنى جارى سامور، مسؤول فى مجلس الأمن القومى الذى يشرف على برنامج الإدارة فى مكافحة الانتشار النووى، الذى كان فى الاجتماع، قائلا أن الإسرائيليين يتفقون مع الأمريكان فى تقييمهم لبرنامج إيران لتخصيب اليورانيوم بأنه محفوف بالمشاكل.

قال سامور «ومن أهم طرق قياس قدرة الأسلحة النووية هو مدى سرعة تمكنهم فى بناء المواد المستخدمة فى صنع الأسلحة، ومن هذا المنطلق نستطيع أن نحكم، استنادا إلى تقارير الوكالة الدولية IAEA أن الإيرانيين لا يبلون بلاء حسنا فى هذا المجال. إن أجهزة الطرد المركزى الخاصة التى تقوم بتشغيل المنشآت تستند إلى تكنولوجيا متخلفة، ويواجهون بعض الصعوبات التقنية، ويرجع ذلك جزئيا إلى العمل الذى قمنا به لمنعهم من الوصول إلى المكونات الأجنبية. وعندما يصنعون هذه الأجزاء بأنفسهم، فهم يصنعونها دون أن يكون لديهم مقياس لمراقبة الجودة». عندما ذكرت هذا التعليق إلى مسؤول إسرائيلى رفيع المستوى، قال: «نحن نتفق مع هذا التقييم الأميركى، لكننا نتفق أيضا مع جيتس بأن إيران سوف تدخل المجال النووى فى غضون عام».

وقال دينيس روس، المفاوض السابق للسلام فى الشرق الأوسط والذى يشغل حاليا منصب أحد كبار مسؤولى مجلس الأمن القومى، خلال الاجتماع انه يعتقد إن الإسرائيليين يدركون أن الإجراءات الأمريكية التحريضية قد أخرت التقدم الإيرانى، وان الإدارة تعمل على إقناع الإسرائيليين. وغيرها من الأطراف فى المنطقة. أن إستراتيجية العقوبات «لديها فرصة للنجاح».

وقال «قال الرئيس انه لم يلغ أى من الخيارات المطروحة، ولكن دعنا نلقى نظرة على السبب الذى يجعلنا نعتقد أنه من الممكن أن تنجح هذه الإستراتيجية. لدينا بيانات مهمة على امتداد العام الماضى، حول محاولة إيران فى إزاحة الضغط عندما ظنوا أن الضغوط قادمة، مما يوحى بأن قدرتهم على حساب التكاليف والفوائد حقيقية جدا. فى حزيران / يونيو الماضى، عندما لم تستجب إيران للمناشدة الثنائية، قال الرئيس سوف نقيم الموضوع فى أيلول / سبتمبر. أسبوعين قبل انعقاد مؤتمر مجموعة العشرين. اجتماع رؤساء أكبر عشرين دولة اقتصادية فى العالم. «صرح الإيرانيون أنهم على استعداد للمحادثات، بعد أن كانوا يقاوموا الدخول فى أى محادثات حتى تلك اللحظة. ولم يفعلوا ذلك لأنهم فجأة شاهدوا الضوء، ولكنهم فعلوا ذلك لأن الضغوط كان قادما. إنهم قادرون على التفكير فى ما يهم بالنسبة لهم».

ذهب روس إلى القول إن العقوبات التى تواجه إيران الآن قد تؤثر على تفكير النظام. «ستطول هذه العقوبات جميع المجالات. سوف تبدأ هذه العقوبات من داخل سوء الإدارة الإيرانية. سيضطر الإيرانيون قطع المعونات فى مجال الغذاء والوقود، وبدأوا يعانون من عزلة شعبية. هناك انقسام فى أوساط النخبة، وبين النخبة وبقية الشعب. إنهم يبحثون فى تكاليف محاولة الحفاظ على السيطرة

على جمهور ساخط. أرادوا تجنب العقوبات لأنهم كانوا يعرفون أن العقوبات ستكون مشكلة. وهناك احتمال حقيقى أيضا أن تؤثر العقوبات على حساباتهم. أننا نتبع منهاجا الآن يؤدى إلى بعض الاحتمالات. هذا لا يعنى أننا لا نفكر فى شىء آخر، ولكننا على الطريق».

السؤال الوحيد لا يبدو أى مسؤول فى الإدارة حريص على إجابته هو: ما الذى سوف تفعله الولايات المتحدة إذا فشلت العقوبات؟ واشتكى لى العديد من المسؤولين العرب أن إدارة أوباما لم تبلغ نواياها لهم، ولا حتى بالخطوط العريضة. ولا يبدو أن أيا من المسؤولين العرب الذين تحدثت معهم يعتقد بأن الإدارة تتفهم الطموحات الإقليمية لعدوهم الفارسى. وقال أحد وزراء الخارجية العرب انه يعتقد أن إيران تستغل اعتدال موقف أوباما.

قال وزير الخارجية: «يبدو أن ناخبى اوباما يشعرون بالراحة عندما تشير الإدارة إلى أنها لا تريد محاربة إيران، ولكن هذه ليست قضية سياسية داخلية، وأضاف أن إيران سوف تستمر فى هذا المسار المتهور، ما لم تبدأ الإدارة فى الكلام غير المعقول. إن أفضل طريقة لتجنب ضرب إيران هو جعل إيران تعتقد أن الولايات المتحدة على وشك توجيه ضربة لإيران. وعلينا أن نعرف نوايا الرئيس بشأن هذه المسألة، ونحن حلفاؤه»). ووفقا لمصادر اثنين من الإدارة، فإن هذه المسألة قد سببت توترا بين الرئيس أوباما ومدير الاستخبارات الوطنية الذى تم فصله مؤخرا وهو الأدميرال دنيس بلير. ووفقا لهذه المصادر، بلير، الذى كان تركيزه كبيرا على تهديد إيران قال للرئيس أوباما: إن حلفاء أميركا العرب فى حاجة إلى مزيد من الاطمئنان. ومن الواضح أن أوباما لم يقدر هذه نصيحة»).

فى إسرائيل، بطبيعة الحال، بذل المسؤولون جهدا هائلة لفهم الرئيس أوباما، رغم الضمانات التى تلقوها من ايمانويل وروس وغيرهم. قامت وفود كثيرة من مكتب نتنياهو ومن وزارات الدفاع والخارجية، وكذلك من أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية بزيارات منتظمة إلى واشنطن مؤخرا، كما قال مسؤول إسرائيلى «نحن نحزم حقائبنا ونملؤها بموازين الحرارة ونذهب إلى واشنطن لقياس درجة حرارة الجميع».

إن زيادة وتيرة هذه الزيارات ليست سوى علامة واحدة من أجل تعميق الاتصالات بين إسرائيل وأميركا كلما اقتربت إيران من الحصول على سلاحها النووى. ويقال أن رئيس هيئة الأركان فى الجيش الإسرائيلى الجنرال جابى اشكنازى يتحدث مع نظيره الأميركى، الأدميرال مولين، بشكل منتظم. مؤخرا قام مولين بزيارة إسرائيل لهدف رئيسى واحد، وفقا لمصدر إسرائيلى: «للتأكد من أننا لم نفعل أى شىء فى إيران قبل أن يظنوا أننا لا يمكن أن نفعل شيئا فى إيران».

منذ وقت ليس ببعيد، قام رئيس الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية الميجور جنرال عاموس يادلين، بزيارة سرية إلى شيكاغو للقاء ليستر كراون، الملياردير الذى تملك أسرته جزءا كبيرا من «جنرال داياناميكس»، شركة المقاولات العسكرية. ومن المعروف أن كراون هو واحد من مؤيدى إسرائيل البارزين فى الجالية اليهودية الأميركية، كما كان واحدا من أوائل مؤيدى باراك أوباما وأكثرهم صمودا. ووفقا لمصادر أمريكية وإسرائيلية، طلب الجنرال يادلين من كراون توصيل مخاوف إسرائيل على وجودها مباشرة إلى الرئيس أوباما. وعندما اتصلت هاتفيا بكراون أكد لى أنه اجتمع مع يادلين، لكنه نفى أن يكون الجنرال قد سافر إلى شيكاغو لتقديم هذه الرسالة. وقال «ربما كان لديه ابن عم فى شيكاغو أو أى شىء من هذا القبيل». ولكنه قال أن يادلين قد ناقش معه موضوع «الساعة الإيرانية». الوقت المتبقى قبل أن تتوصل إيران إلى قدراتها النووية. وقال إنه يتفق مع يادلين أنه يجب على الولايات المتحدة أن توقف إيران قبل أن تصبح نووية. «أنا مع الإسرائيليين بالشعور أن لدينا بالتأكيد القدرة العسكرية وأنه يجب أن يكون لدينا الإرادة لاستخدامها. صعود إيران ليست فى مصلحة الولايات المتحدة».

قال كراون «أنا أؤيد الرئيس» وأضاف «لكن أود لو أن مسؤولى الإدارة كانوا أكثر جراءة من ذلك بقليل فى الطريقة التى يتحدثون فيها. سأشعر بالراحة أكثر إذا علمت أن لديهم الإرادة فى استخدام القوة العسكرية، كملاذ أخير. لا يمكنك تهديد أى شخص بمجرد خدعة. يجب أن يكون هناك إرادة لتحقيق ذلك».

فى زيارتى الأخيرة لإسرائيل، سئلت ما يقرب من اثنتى عشرة مرة من قبل كبار المسؤولين والجنرالات المتقاعدين إذا كان بإمكانى شرح باراك أوباما ومشاعره نحو إسرائيل. كما سألنى العديد من المسؤولين إذا كنت أعتقد أن أوباما معاد للسامية. كنت قد أجبت على هذا السؤال من قبل مستخدما كلمات ابنير ميكفا الشهيرة. وهو عضو الكونجرس السابق والقاضى الفيدرالى، ومستشار أوباما، الذى قال فى عام ٢٠٠٨، «اعتقد أنه عندما ينتهى الموضوع بأكمله، سوف يقول الناس أن باراك أوباما هو أول رئيس يهودى»، أوضحت أن أوباما قد تشبع بأعمال الكتاب وعلماء القانون، والمفكرين، وأن عددا كبيرا من أصدقائه ومؤيديه ومساعديه من اليهود. لكن التعاطف مع السامية لا تعنى بالضرورة وجود نفس التعاطف مع حزب الليكود بزعامة نتانياهو، وبالتأكيد ليس بين اليهود الأميركيين، الذين، كما هو حال الرئيس الذى صوتوا له بأعداد هائلة، يدعمون بشكل عام حل الدولتين، ومتشككون بشأن الاستيطان اليهودى فى الضفة الغربية.



وعندما أبديت هذه النقاط لمسؤول إسرائيلى كبير قال: «هذه هى المشكلة. إذا كان من مجموعة يهود شارع J، إذا نحن فى ورطة». جى ستريت هى منظمة ليبرالية موالية لإسرائيل أسست لمواجهة نفوذ ايباك «AIPAC» وغيرها من المنظمات. وأضاف «نحن قلقون أن يكون تفكيره مثل اليهود الأميركيين الليبراليين الذين يقولون، إذا أزلنا بعض المستوطنات، سوف تنتهى مشكلة التطرف ومشكلة إيران».

اقترح رام ايمانويل إن الإدارة تحاول وضع الخيط فى ثم الإبرة: لتوفير دعم «لا يتزعزع» لإسرائيل ولحمايتها من تداعيات القنبلة النووية الإيرانية، ولكنها بذلك تدفع إسرائيل باتجاه التسوية مع الفلسطينيين. ناقش ايمانويل فى لقائنا وقال إن إسرائيل غير قادرة على المضى قدما فى عملية السلام طالما إيران تلوح بتهديداتها بإزالة إسرائيل. وبدأ يستعرض رؤساء الوزراء الإسرائيليين الستة الماضين، بما فى ذلك نتنياهو وكيف قام خلال فترة ولايته الأولى فى أواخر الستينيات، مثيرا استياء والده، بالدخول فى تسوية مع الفلسطينيين، لدعم قضيته. أضاف رام ايمانويل أن كلا من «رابين، بيريس، نتنياهو، باراك، شارون وأولمرت، قد سعى إلى شكل من أشكال التسوية عن طريق التفاوض، الذى كان فى مصلحة إسرائيل الإستراتيجية الخاصة، كانت هناك الكثير من التهديدات الأخرى بينما الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة اتبعت عملية السلام. ليس هناك شك فى إن إيران تشكل تهديدا كبيرا، لكنهم لم يبدءوا برنامجهم النووى سوى منذ عام فقط».

وكان لدى ايمانويل رسالة أخرى لتوصلها: من أجل أسباب عملية كثيرة، يجب على إسرائيل أن تدرس بعناية ما إذا كان توجيه ضربة عسكرية سوف تستحق المشاكل التى سوف تثيرها، فقال «لست متأكدا لو منحنا إيران مدة زمنية، بغض النظر عن ما هى هذه المدة، فإنها لن توقف برنامجها النووى. «كل ما هناك سوف يتم تأجيله».

وعندئذ أدركت أن فى بعض المواضيع، لا يزال الإسرائيليون والأميركيون لا يتحدث كل منهم للآخر. فالأميركيون يعتبرون تأجيل برنامج إيران النووى مؤقتا سيكون ذات قيمة مشكوك فيها. أما الإسرائيليون لا يرون ذلك. لقد قال لى أحد وزراء الحكومة «عندما قام مناحيم بيجن بقصف أوزيراك (فى العراق)، كان قد قيل له أن ضربته هذه سوف تعطل العراقيين سنة»، وأضاف «ولكنه قام بها على أى حال».

خلال محادثاتى مع الجنرالات السابقين فى السلاح الجوى الإسرائيلى والاستراتيجيين، كانت اللهجة السائدة حذرة. وكثير من الناس الذين قابلتهم كانوا مستعدين للحديث، بشرط عدم نشر أسمائهم، عن لماذا هجوم على المواقع النووية الإيرانية سيشكل صعوبة على إسرائيل. وبعض جنرالات إسرائيل، على غرار زملائهم الأميركيين، شككوا فى فكرة مجرد وقوع هجوم. فقال لى أحد الجنرالات «سيكون من الأفضل أن نضغط على باراك أوباما للقيام بهذا الهجوم بدلا من إهدار الوقت فى محاولة ذلك بأنفسنا». «نحن نجيد مثل هذا النوع من العمليات، ولكنها سوف تكون خطوة كبيرة بالنسبة لنا. بالمقارنة يمكن أن يقوم الأميركيون بذلك بحد أدنى من الصعوبة، هذه عملية كبيرة جدا بالنسبة لنا».

وقد أمر رؤساء الحكومة الإسرائيلية المتعاقبون وزراءهم التكتيكيين والعسكريين بوضع خطة لتوجيه ضربة لإيران، وبالطبع استجابت القوات الجوية الإسرائيلية. ولكن من المستحيل أن نعرف على وجه اليقين كيف سيقوم الإسرائيليون فى تنفيذ مثل هذه العملية، ولكن تبادل المسئولون فى كل من واشنطن وتل أبيب أشركونى فى بعض الافتراضات.

الافتراض الأول هو أن





الاستخبارات الإسرائيلية والأمريكية تتفق على أن الإيرانيين يأملون الحفاظ على حزب الله حتى تدخل إيران المجال النووي»



لقد اقترح اثنان من المسئولين بأن تقوم إسرائيل بالتنبيه مسبقا إلى الهجوم عددا من المرات قبل أن تهجم بالفعل



لا نريد أن يعتقد جيراننا أننا بلا حول ولا قوة ضد امتلاك إيران لقنبلة نووية



إسرائيل سوف تقوم بمحاولة واحدة فقط. ستحلق الطائرات الإسرائيلية على ارتفاع منخفض فوق المملكة العربية السعودية،ثم تقوم بقصف الأهداف فى إيران ثم العودة إلى إسرائيل بالطيران مرة أخرى فوق الأراضى السعودية، وقد يهبطون فى الصحراء السعودية للتزود بالوقود، وربما يتم ذلك بالتعاون السرى مع السعودية، هذا إذا صدقت تكهنات الأوساط الاستخبارات. ويجب على هذه الطائرات العودة إلى إسرائيل على وجه السرعة، لأن المخابرات الإسرائيلية تعتقد أن إيران سوف تطب فورا من حزب الله إطلاق صواريخ على المدن الإسرائيلية كرد فعل لهذه الضربة، وبالتالى ستكون القوات الجوية الإسرائيلية مطلوبة على الفور لمطاردة فرق حزب الله الصاروخية.

عندما قمت بزيارة الميجور جنرال جادى ايزنكوت، والقائد المسؤول عن قيادة المنطقة الشمالية الإسرائيلية، فى مقره بالقرب من الحدود اللبنانية، قال لى انه فى حال توجيه ضربة إسرائيلية من جانب واحد على إيران، ستكون مهمته محاربة قوات حزب الله الصاروخية. وقال ايزنكوت أن حرب عام ٢٠٠٦ بين حزب الله وإسرائيل، والتى بدأت عندما عبر مقاتلى حزب الله الحدود وهاجموا دورية إسرائيلية، اعتبرها الممول الإيرانى للحزب خطأ استراتيجيا. «إن الإيرانيين غضبوا من حزب الله لهجومهم المفاجئ هذا»، وأضاف ايزنكوت قائلا «إن المسؤولين فى الاستخبارات الإسرائيلية والأمريكية يتفقون على أن الإيرانيين يأملون الآن الحفاظ على حزب الله كقوة احتياطية حتى يمكن لإيران أن تدخل المجال النووى».

ويصر ايزنكوت على رأيه بأن حرب عام ٢٠٠٦ كانت انتكاسة لحزب الله. «حزب الله عانى الكثير خلال هذه الحرب، لقد فقد الشيخ حسن نصر الله، زعيم حزب الله، الكثير من رجاله، وهو يعرف انه ارتكب خطأ. وهذا هو أحد الأسباب التى أدت إلى أربع سنوات من الهدوء. ولكن التغير الذى حدث فى الأربع سنوات هذه هو إن حزب الله زاد من قدراته الصاروخية، ولكننا نحن قمنا أيضا بزيادة قدراتنا». وخلص إلى القول، فى إشارة إلى ضربة إسرائيلية محتملة على إيران، «إن استعدادنا يعنى أن إسرائيل تمتلك حرية التصرف».

وحتى وإن قامت القيادة الشمالية الإسرائيلية بمواجهة الهجمات الصاروخية لحزب الله بنجاح فى أعقاب غارة إسرائيلية، فإن القيود السياسية لن تسمح لإسرائيل بطلعة جوية متكررة على إيران. «سوف يسمح لنا السعوديون أن نعبر مرة واحدة» قالها احد الجنرالات. «يمكنهم غلق الرادار عندما نكون فى طريقنا إلى إيران، ونعود بسرعة. مشكلتنا ليست الدفاعات الجوية الإيرانية، لأن لدينا وسائل لتحييدها. ولكن مشكلتنا هى أن العالم سوف يعتبر السعوديين مذنبين جدا إذا ما واصلنا التحليق فوق أراضيها».

أميركا أيضا، سوف تبدو متواطئة مع الهجوم الإسرائيلى، حتى لو لم تكن على علم بهذا الهجوم. فى كثير من الأحيان، ولكن ليس دائما، يكون الافتراض، أن إسرائيل لا تقوم بأى عمل إلا بموافقة من الولايات المتحدة صحيحا. وهى سمة من سمات الحياة فى منطقة الشرق الأوسط التى يأخذها الإسرائيليون فى الاعتبار. لقد تحدثت مع عدد من المسئولين الإسرائيليين الذين يحاولون التعامل مع هذه المسألة، من بين أمور أخرى: ماذا لو تعلم المخابرات الأمريكية النوايا الإسرائيلية ساعات قبل الموعد المقرر لإطلاق هجوم؟ وقال أحدهم «انه كابوس بالنسبة لنا، ماذا سيحدث إذ قام الرئيس أوباما بالاتصال ببيبى ويقول له.. نحن نعرف ما تفعلونه. توقف على الفور! هل نتوقف؟ قد نكون مضطرين لذلك. كان قد اتخذ قرارا بأننا لا يمكن أن نكذب على الأمريكيين بخصوص خططنا. نحن لا نريد إعلامهم مسبقا. وكان ذلك من أجلهم ومن أجلنا. فماذا نفعل؟ هذه هى الأسئلة الصعبة». لقد اقترح اثنان من المسئولين بأن تقوم إسرائيل بالتنبيه مسبقا إلى الهجوم عددا من المرات قبل أن تهجم بالفعل: وبالتالى بعد المرة الخامسة أو السادسة، ربما لن يعتقد أحد أننا حقا سنقوم بالهجوم».

سؤال آخر يقلق مستشارى التخطيط فى إسرائيل: كيف يعرفون أن هجماتهم قد دمرت فعلا عددا كبيرا من أجهزة الطرد المركزى وغيرها من التى يصعب استبدال أجزائها فى البرنامج السرى الإيرانى؟ وقال اثنان من الخبراء الاستراتيجيين بأن إسرائيل سوف تضطر إلى إرسال قوات كوماندوز لإنهاء المهمة، إذا لزم الأمر، والعودة بدليل على تدميرها. قد ينطلق الكوماندوز من أراضى الحكم الذاتى الكردى فى شمال العراق ووفقا لمصادر استخباراتية، سوف يواجهون تحديا غادرا، ولكن قال مخطط عسكرى كنت قد تحدثت معه أن الجيش الإسرائيلى لن يكون له أى خيار سوى أن يرسل هؤلاء الكوماندوز.

كما قال «من المهم جدا أن نكون قادرين على إعلام الشعب الإسرائيلى بما حققناه»، كثير من الإسرائيليين يعتقدون إن الإيرانيين يقومون ببناء أوشفيتز. علينا أن نخبرهم أننا قد دمرنا أوشفيتز، أو عليهم أن يعرفوا أننا حاولنا وفشلنا».

هناك، بطبيعة الحال، قادة إسرائيليون يعتقدون أن مهاجمة إيران محفوفة بالخطر. لقد قالت مصادر عديدة أن جابى اشكنازى، رئيس أركان الجيش الإسرائيلى، متشكك من جدوى الهجوم. وهناك الجنرالات الآخرون الذين تحدثت معهم قلقون لأن الحديث عن «التهديد الوجودى» هو فى حد ذاته نوع من التهديد الوجودى للمشروع الصهيونى، التى كان من المفترض أن يمنع مثل هذه التهديدات ضد الشعب اليهودى. وأضاف «إننا لا نريد أن يضعنا السياسيون فى موقف سيئ بسبب كلمة المحرقة، ولا نريد أن يعتقد جيراننا أننا بلا حول ولا قوة ضد امتلاك إيران لقنبلة نووية، وذلك لأن إيران قد تمتلك القنبلة يوما ما. ليس هناك ما يضمن أن إسرائيل لن تفعل ذلك، أو أن أمريكا لن تفعل ذلك».



بعد التحديق فى صورة الجسر الجوى للقوات الإسرائيلية فوق أوشفيتز أكثر من عشر مرات مختلفة فى أكثر من اثنى عشر مكتبا مختلفا، استطعت أن أرى جوهر التناقض. ماذا لو أن علماء الفيزياء اليهود، الذين أنشأوا ترسانة إسرائيل النووية، استطاعوا عمل ثقب فى الفضاء للتواصل مع الزمن لإرسال سرب من المقاتلات إلى عام ١٩٤٢ لكانت مشكلة أوشفيتز قد حلت فى عام ١٩٤٢. وبعبارة أخرى، فإن إنشاء قدرة عسكرية يهودية خطيرة. لنقل قنبلة نووية، أو السلاح الجوى الإسرائيلى. خلال الحرب العالمية الثانية استطاع أن يضع نهاية أسرع للمحرقة. ومن الإنصاف القول، إذن، أن وجود سلاح الجو الإسرائيلى، وترسانة إسرائيل النووية، تعنى بصورة بديهية أن البرنامج النووى الإيرانى لا يتساوى مع أوشفيتز.

وضعت هذه الصيغة أمام افرايم سنيح، الجنرال السابق والمؤيد القوى لهجوم إسرائيلى. «لقد خلقنا توازنا استراتيجيا لصالحنا، لكن إيران قد تطلق صاروخا ذاتى الدفع بقنبلة نووية،

ولن تمنع ذلك هذه الطائرة إف ١٥ الموجودة فى الصورة».

هذه مشكلة شيطانية. وقد تسببت هذه المشاكل الشيطانية فى بعض الأحيان إلى تجاوز إسرائيل.

ويشعر بنيامين نتنياهو، لأسباب تتعلق بالأمن القومى، انه إذا فشلت العقوبات، سوف يضطر إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة. ولكن هجوما إسرائيليا على المنشآت النووية الإيرانية، سواء كانت ناجحة أم لا قد تدفع إيران إلى مضاعفة جهودها. وهذه المرة مع قدر من التعاطف الدولى. لإنشاء ترسانة نووية. وقد يسبب ذلك حالة من الفوضى للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط. واحد من القلائل الذين تحدثت معهم فى إسرائيل كان يبدو هادئا إلى حد ما ورابط الجأش تجاه التهديد النووى الإيرانى، وهو رئيس البلاد شيمون بيريز وهو آخر عضو من جيل مؤسسى إسرائيل الذى لا يزال فى الحكومة. بيريس يرى البرنامج النووى الإيرانى كارثة متوقعة بلا شك. لكنه يدعو إلى فرض «عقوبات معنوية» يعقبها عقوبات اقتصادية، ثم إنشاء «مغلف حول إيران من أنظمة مضادة للصواريخ لكى لا تكون صواريخ إيران قادرة على الطيران». وعندما سألته إذا كان يؤمن بالخيار العسكرى، أجاب: «لماذا ينبغى لى أن أعلن شيئا من هذا القبيل؟» وأشار إلى انه غير مرتاح من فكرة العمل الإسرائيلى من جانب واحد، واقترح أن إسرائيل تستطيع أن تعترف بقصورها، لأنه يعتقد، على عكس كثير من الإسرائيليين، أن الرئيس أوباما، سوف يكافح بطريقة أو بأخرى التهديد الإيرانى، ولكن ليس لحساب إسرائيل (رغم انه قال انه يعتقد أن اوباما سيأتى للدفاع عن إسرائيل إذا لزم الأمر)، ولكن لأنه يدرك أنه بالنسبة للتحدى الإيرانى، فان مصالح أميركا وإسرائيل (والغرب، والدول العربية المتحالفة مع الغرب) تسير فى خط متواى وبشكل طبيعى.

واستنادا إلى مقابلات عديدة استمرت عدة أشهر، ولقد وصلت إلى الاعتقاد بأن الإدارة تدرك أنه من شبه المؤكد إن إسرائيل ستتعامل قريبا مع إيران إذا لم يقم أحد أو شىء بإيقاف البرنامج النووى الإيرانى. بعلم أوباما ومساعديه. وغيرهم فى وزارتى الخارجية والدفاع. أوضحا لى أن إيران المسلحة نوويا تمثل تهديدا خطيرا لمصالح الولايات المتحدة، والتى تشمل أيضا حلمه فى عالم خال من الأسلحة النووية. اتفقت فى وقت سابق من هذا العام، مع كثيرين، بمن فيهم العديد من الإسرائيليين والعرب والإيرانيين الذين يعتقدون أنه لا يوجد أى احتمال أن يلجأ أوباما فى أى وقت إلى القوة لمنع إيران. وما زلت لا أعتقد أن هناك فرصة كبيرة ليتخذ أى إجراء عسكرى فى المستقبل القريب لأنه من المعروف أن وزارة الدفاع غير متحمسة لهذه الفكرة. لأنه من الواضح أن أوباما غير متحمس لهذه القضية. متفهمة أن أفضل طريقة لتفادى توجيه ضربة عسكرية لإيران هو جعل التهديد بالضربة من قبل الأميركيين يبدو حقيقيا، قامت إدارة أوباما عن عمد بتصعيد الموقف. منذ أسابيع قليلة،قال لى دنيس ماكدونو، رئيس هيئة الأركان فى مجلس الأمن القومى، «ما ترى فى إيران الآن هو تقاطع عدد من الأولويات الرئيسية للرئيس، الذى يرى تهديدا خطيرا لنظام منع الانتشار النووى العالمى، تهديدا من الأنشطة النووية المتتالية فى منطقة مضطربة، وتهديدا لإسرائيل الصديق الوثيق للولايات المتحدة. أعتقد أنك ترى كيف تتجمع هذه التيارات العديدة معا، بما يفسر السبب الذى يجعل هذا الموضوع مهما جدا بالنسبة لنا».

عندما سألت بيريز عن رأيه فى الجهد الذى يبذله نتنياهو ليجعل إسرائيل قضية مميزة فى إدارة أوباما، أجابنى كعادته بسرد قصة رمزية، قصة تقترح أن بلاده يجب أن تعرف مكانتها، والأمر متروك بعد ذلك للرئيس الأميركى، وللرئيس الأميركى فقط، أن يقرر فى النهاية أفضل طريقة للحفاظ على مستقبل الغرب. وكانت القصة عن أستاذه، ديفيد بن جوريون.

وقال بيريز «بعد فترة وجيزة من انتخاب جون كينيدى رئيسا، التقى به بن جوريون فى فندق والدورف استوريا فى نيويورك، وبعد اللقاء، رافق كينيدى بن جوريون إلى المصعد، وقال له' السيد رئيس الوزراء، أريد أن أقول لك أننى انتخبت بسبب شعبك، لذلك ماذا يمكننى أن افعل لك فى المقابل؟» شعر بن جوريون بالاهانة لهذا السؤال. وأجاب قائلا: «ما يمكنك القيام به هو أن تكون رئيسا عظيما للولايات المتحدة. يجب أن تفهم أن وجود رئيس عظيم للولايات المتحدة هو حدث كبير».

واستمر بيريز فى شرح ما يراه فى مصلحة إسرائيل الحقيقية قائلا: «إننا لا نريد الفوز على الرئيس، بل نريد من الرئيس أن يفوز». ■

كتاب الزاوية



محمد عفيفى مطر

(٣)

هذا الليل

هذا الليل يبدأ
دهر من الظلمات أم هى ليلة جمعت سواد
الكحل والقطران من رهج الفواجع فى الدهور!
عيناك تحت عصابة عقدت وساخت فى
عظام الرأس عقدتها،
وأنت مجندل يا آخر الأسرى...
ولست بمفتدى..
فبلادك انعصفت وسيق هواؤها وترابها سبياً
وهذا الليل يبدأ،
تحت جفنيك البلاد تكومت كرتين من ملح الصديد
الليل يبدأ
والشموس شظية البرق الذى يهوى إلى
عينيك من ملكوته العالى،
فتصرخ، لا تغاث بغير أن ينحل وجهك جيفة
تعلو روائحها فتعرف أن هذا الليل يبدأ،
لست تحصى من دقائقه سوى عشر استغاثات
لفجر ضائع تعلو بهن الريح جلجلة
لدمع الله فى الآفاق..
هذا الليل يبدأ
فابتدئ موتا لحلمك وابتدع حلما لموتك
أيها الجسد الصبور
الخوف أقسى ما تخاف.. ألم تقل؟!
فابدأ مقام الكشف للرهبوت
وانخل من رمادك، وانكشف عنك،
اصطف الآفاق مما يبدع الرخ الجسور..

معتقل طرة ١٩٩١

كيف أفلتوا بفعلتهم

قوة القنبلة 'الكامنة'

تـومـاس بـاورز
Thomas Powers

■■ لا يخبرنا «جارى ويلز» ما الذى جاء أولا فى تصوره لكتابه الجديد - الحيرة الشديدة لأن الرؤساء الأمريكيين أفلتوا بقراراتهم الخاصة بشن الحروب فى كوريا وفيتنام والخليج الفارسى والعراق؟ أم هى اللحظة فى أواخر عام ٢٠٠٨ عندما ذكر «ديك تشينى» - نائب الرئيس فى ذلك الوقت - مشاهدى قناة فوكس للأخبار بالسلطة الهائلة الممنوحة للرؤساء الأمريكيين منذ اختراع القنبلة؟

لقد أصاب «تشينى» كبد الحقيقة فيما يتعلق بمؤسسة الرئاسة الحديثة. فالرئيس وحده يستطيع أن يأمر باستخدام سلاح نووى ضد عدو يحدده هو، وفى لحظة يختارها هو، ولأسباب يراها هو ملائمة. ليست تلك السلطة نظرية فقط؛ ففى سبيل منحها تأثيرا عمليا يرافق الرئيس دائما مساعد يحمل حقيبة تحتوى على شفرات التفويض التى لا يمكن بدونها تجهيز أى سلاح نووى أمريكى للاستخدام.

لـ «تشينى» تاريخ طويل كبطل لقوة الرئاسة. وليس هناك الكثير - فى اعتقاده - مما لا يستطيع رئيس فعله، ويشاركه فى هذا الموقف على نطاق واسع الجمهوريون الجدد الذين منحوه منزلة نظرية تحمل اسمى. التنفيذى الوحدوى. ولكن دعك من المزاح. كما يقول الديمقراطيون. فقد رأينا التنفيذى الوحدوى سابقا. فهو يمنح كل رئيس ما اعتقد «ريتشارد نيكسون» أنه بحوزته - يد طليقة تماما. وقد فسر «نيكسون» لمساعديه إبان أزمة «ووترجيت»: «عندما يفعلها الرئيس فإنها ليست بجريمة».

لم يدع الديمقراطيون «نيكسون» يفلت فى ذلك الوقت، وهم لا يريدون أن يدعوا الجمهوريين الجدد يفلتون الآن. ولكن ليس هناك خلاف كثير حول النقطة الجوهرية التى طرحها «تشينى» على قناة فوكس للأخبار. فقد منح الرئيس سلطة الحياة والموت فى استخدام القنبلة. قال «تشينى»: ليس عليه أن يرجع إلى أى شخص».

«ويلز» هو الذى ينبهنا إلى كلمات «تشينى». فبالنسبة له، تلك هى المعضلة. من الممكن تأليف كتاب طويل حول سلطة الاستخدام النووى يستعرض العديد من القيود والمؤهلات، ولكن مثل هذا الكتاب سوف يتوافق مع «تشينى» فى النهاية. لقد حصل الرؤساء الأمريكيون - وزعماء الأمم الأخرى بدورهم - على سلطة هائلة فورية من اختراع القنبلة، وقاموا لاحقا بزيادة سلطتهم لتطوير أنظمة حمل خاصة بها أكثر سرعة ودقة.

لا ينتهى الأمر هنا. يجادل «ويلز» بأن «عالم الطوارئ المستمرة» الذى صنعته قوة القنبلة يفرض سلطات أخرى عديدة على مؤسسة الرئاسة، أهمها السيطرة على المعلومات. كانت القاعدة الأولى للرجل الذى أدار مشروع اختراع القنبلة. الجنرال «ليزلى جروفز» - هى الحد من معرفة تطوير القنبلة. لقد أراد من العلماء أن «يقوموا بعملهم المعتاد» ويجعلوا الأداة تعمل، ولكن

Thomas Powers is the author of Secrets:The Man Who Kept the Richard Helms and the CIA (1979), and Intelligence Wars: American Secret History from Hitler to al-Qaeda (2002; revised and expanded edition, 2004). He won a Pulitzer Prize for National Reporting in 1971 and has contributed to The New York Review of Books, The New York Times Book Review, Harper>s, The Nation, The Atlantic, and Rolling Stone.

Bomb Power: The Modern Presidency and the National Security State
by Garry Wills
Penguin, 278 pp., $27.95

Why Intelligence Fails: Lessons from the Iranian Revolution and the Iraq War
by Robert Jervis
Cornell University Press, 238 pp., $27.95

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books

ترجمة: عادل فتحى



ليس رعب «هيرماجيدون» المألوف كله تماما هو ما يقلق «ويلز»، وإنما تأثير جانبي جرى إغفاله عموما، ألا وهو إعادة كتابة دستور الولايات المتحدة بصورة استبدادية تحت وطأة إلحاح التسليح النووي



لم تكن تسمية رد فعله بـ «حرب على الإرهاب» مجرد تلاعب للرئيس بالألفاظ للإشارة إلى اتخاذ قراره. فالحرب مصطلح قانوني. وباستخدامه فقد استولى «بوش» على النطاق الكامل للسلطات الهائلة التي كانت للرؤساء السابقين في حروب الماضي



يدعوا الآخرين يقررون ماذا يفعلون بها. كان الرئيس «روزفلت» يعلم القليل عن «مشروع مانهاتن»، ولم يكن «ترومان» نائب الرئيس يعلم عنه شيئا حتى تمت إحاطته علما بعد وقت ليس بالقصير من وفاة «روزفلت». في نهاية الحرب، علق «دين أتشيسون»: لقد أفرخ الحفاظ على السر الأصلي «دولة منفصلة بها الآلاف من الأسرار».

استغرق الأمر عقدا من الزمن لتتطور الدولة المنفصلة إلى دولة الأمن القومي، جهاز هائل للـ «دفاع» يهدد بتحويل الأمر إلى الشأن الأول لأمريكا. يحدد «ويلز» خمسا وعشرين علامة فارقة منفصلة طوال الطريق، بداية من إعادة تنظيم منظمات استخبارات الحرب العالمية الثانية. ويحدد تاريخه الحافل نصف دستة خطب ومقالات محورية وتمرير العديد من القوانين وتشكيل مكاتب حكومية جديدة لإدارة شئون الحرب والسلام وصياغة المعاهدات والغزوات الأولى لأنشطة الاستخبارات السرية - وكل ذلك يشكله تنافس سياسي عالمي مع الاتحاد السوفيتي يحمل في طياته إمكانية الهلاك بسبب حقيقة القنبلة وعواقبها. إن علامات التاريخ الموجز لـ «ويلز» عن الحرب الباردة مألوفة جميعا، ولكن حجته جديدة وهامة.

كان هناك العديد من الكتب حول القنبلة. الذي يميز كتاب «قوة القنبلة» هو مصدر مخاوف «ويلز». ليس رعب «هيرماجيدون» المألوف كله تماما هو ما يقلق «ويلز»، وإنما تأثير جانبي جرى إغفاله عموما، ألا وهو إعادة كتابة دستور الولايات المتحدة بصورة استبدادية تحت وطأة إلحاح التسليح النووي. وهو يعلق: «إن دولة الأمن القومي في أزمة دستورية دائمة». ما يعنيه هو أن الرؤساء - باسم الأمن القومي - قد منحوا أنفسهم نطاقا يزداد اتساعا من سلطات غير مخولة، وفي بعض الأحيان محظورة بوضوح بواسطة الدستور. بداية من الأعلى، نجد السلطة الحقيقية لـ «إعلان» أو شن الحرب، والتي يمنحها الدستور للكونجرس؛ وتقرير أي المعلومات تكون سرية، ومن الذين يجب أن يعلموا بشأنها، وما القدر الذي يجب أن يعلموه؛ والدخول في تحالفات واتفاقيات أجنبية بقليل أو بلا تبصر؛ وتعليق الحقوق الدستورية بالأمر التنفيذي (كما فعل «روزفلت» عندما اعتقل الأمريكيين من أصول يابانية في زمن الحرب العالمية الثانية)؛ وتجاهل القوانين التي سنها الكونجرس كليا أو جزئيا بإعلان عقد النية على ذلك من خلال «توقيع بيانات»، وإنفاق النقود بدون - أو ضد - تفويض من الكونجرس.

لا يجادل «ويلز» بأن الحصول على تلك الحقوق أو السلطات المختلفة تحقق كله عقب صعود القنبلة إلى المسرح السياسي الأمريكي. فالسلطة الرئاسية كانت مثار الكثير من الجدل أثناء المؤتمر الدستوري، عندما أدى الخوف الحذر من الطغيان إلى تبني العديد من الضوابط على حرية الرئيس في العمل. ليست هناك بنود في الدستور أكثر وضوحا من ذلك الذي يحتفظ للكونجرس بحق إعلان الحرب، ولم يتعرض بند للتلاعب والتحريف والانتهاك أكثر من هذا البند نفسه، بداية من قرار الرئيس «جيفرسون» عام ١٨٠١ بـ «إبلاغ» الكونجرس أنه بصدد إرسال قوة بحرية لمهاجمة قراصنة البربر على سواحل طرابلس. ربما كان النقض الأشهر - والأكثر تداولا - للدستور بواسطة أمر تنفيذي قد جاء مبكرا إبان الحرب الأهلية، عندما علق الرئيس «لينكولن» حق الإفراج القضائي. يبدو أن التعليق كان محتما بالنظر إلى ما مضى؛ هل كان يجب منح السجناء الانفصاليين حق الحصول على محامين والوصول إلى القضاء لمعارضة احتجازهم؟ لقد تمسك الرؤساء اللاحقون بتلك السابقة واستخدموها، مؤكدين على حقهم - من وجهة نظر «ويلز» - في «إصدار الأوامر لأي شيء يريدونه».

عبر السنين، أراد الرؤساء العديد من الأشياء. ففي مواجهة مطالب الإيرانيين بفدية للرهائن الأمريكيين، منح «جيمي كارتر» نفسه حق الوصول إلى موارد مالية اقتصادية خاصة بالطوارئ لدفع الفدية. وبصورة مشابهة، شكل «نيكسون» وكالة حماية البيئة وأنشأ «كينيدي» فيلق السلام، وكلاهما بالأمر التنفيذي. وقد تم منع رؤساء آخرين، مثلما حدث مع «هاري ترومان» عندما أراد فض إضراب للسكة الحديد بالتجنيد الإجباري للعاملين في الجيش عام ١٩٤٦، وعندما أراد تأميم مصانع الصلب لإنهاء إضراب آخر عام ١٩٥٢.

ولكن «ويلز» لم يخض كل تلك الصعاب كي يضرب على يد «نيكسون» و«ترومان». إن ما يقلقه هو النطاق الهائل للسلطات التي احتفظ بها «جورج دبليو بوش». فقد بدا أن «بوش» و«تشيني» يعلمان فورا كيف يستخلصان مكسبا من الفشل. كان الغبار ما زال يخيم على الجزء الأدنى من «مانهاتن» عندما أعلن «بوش» أن الولايات المتحدة «في حالة حرب» مع إرهابيي القاعدة الذين دمروا مركز التجارة العالمي عام ٢٠٠١. ولم تكن تسمية رد فعله بـ «حرب على الإرهاب» مجرد تلاعب للرئيس بالألفاظ للإشارة إلى اتخاذ قراره. فالحرب مصطلح قانوني. وباستخدامه فقد استولى «بوش» على النطاق الكامل للسلطات الهائلة التي كانت للرؤساء السابقين في حروب الماضي. في الوقت نفسه، فإنه جعل من نفسه «رئيس حرب» ملقيا بذلك عبئا ثقيلا على المعارضة السياسية للالتفاف حوله والتخلي عن الحزبية لمصلحة البلاد.



استخدم «بوش» سلطاته «في زمن الحرب» للقيام بالعديد من المبادرات الجريئة، كما أنه استخدم سلطته لتصنيف المعلومات لإخفاء ما فعله. لقد تمت الإطاحة بالقانونين الأمريكي والدولي والتلاعب بهما من خلال اختطاف أشخاص مطلوبين من أراض أجنبية («أداء خارق للعادة»)، ومراقبة مواطنين أمريكيين بدون إذن قضائي حسبما يتطلب القانون، وسجن مواطنين أمريكيين دون اتهام قانوني، وإقامة سجون سرية في دول أجنبية بموجب اتفاقيات سرية مقابل وعود لا يعرفها أحد بعد، واعتقال السجناء في سجن بخليج «جوانتانامو»، والتنصل من اتفاقيات جنيف، وانتهاك التقاليد والقانون الأمريكيين بإجازة تعذيب السجناء.

ولكن أهم مبادرات «بوش» كانت غزو أفغانستان والعراق، وهي أعمال تندرج تماما تحت تصنيف الحرب التي ينص الدستور على أنه يمكن إعلانها فقط بواسطة الكونجرس. لا يحتاج الأمر إلى التلاعب بالقانون أو العدالة لتبرير غزو أفغانستان لمطاردة المجرمين الذين هاجموا الولايات المتحدة، ولكن ما الذي برر غزو العراق؟ إن صدام حسين لم يهدد (نح البلاغة جانبا) أو يهاجم الولايات المتحدة أو حلفاءها، ولم تخول هيئة دولية اللجوء للحرب، ولم يعلن الكونجرس الحرب.

ما فعله الكونجرس استجابة للطلب العاجل المقدم من الرئيس «بوش» كان تمرير قرار مشترك في أكتوبر عام ٢٠٠٢ يستند أساسا إلى سلسلة من احتمالات «إذا» المفزعة. «إذا» كان العراق في الواقع «يسعى بجدية للحصول على قدرات أسلحة نووية»، و«إذا» نجح العراق في تلك الجهود، و«إذا» هاجم العراق الولايات المتحدة بأسلحة نووية، أو «إذا» سلمها العراق إلى منظمات إرهابية، و«إذا» استخدمها الإرهابيون، عندئذ فإن «مقدار الضرر الهائل الذي قد ينتج» قد يبرر اللجوء الوقائي للهجوم العسكري. كان ينقص الكونجرس الحضور الذهني لمناقشة سلسلة «إذا» تلك، وقام بالتصويت - ليس بالإجماع ولكن بغالبية ساحقة - على منح الرئيس «بوش» سلطة «استخدام القوات المسلحة للولايات المتحدة حسبما يقرر هو الضرورة الملائمة لكي... يدافع عن الأمن القومي للولايات المتحدة».

كان قرع الإدارة الأمريكية المتواصل لطبول الحرب أحد أسباب انصياع الكونجرس. كما أن الخوف من مظنة الضعف، والاعتقاد بأن الرئيس يعلم شيئا ما بالتأكيد، والفزع القائم بسبب احتمالات «إذا» المخيفة، والرغبة في الاقتصاص من شخص ما مقابل آلام الحادي عشر من سبتمبر، وهياج الجماهير - كل ذلك بلا شك لعب دورا في لا مبالاة الكونجرس في تسليم ما طلب منه. إن «ويلز» يرفض التفسيرات العديدة عدا واحدا فقط. كتب يقول: «السبب الرئيسي هو القنبلة». ويعتقد «ويلز» أنه في اللحظة الحاسمة فإن الكونجرس سوف يستنتج دائما أن القنبلة هي أخطر مما يمكن العبث بها، وسوف يحيل الأمر إلى المسئول الوحيد الذي ربما «يعلم شيئا» لا تعلمه بقيتنا.



حسبما يرى «ويلز»، فإن «القنبلة» - عموما - هي التي

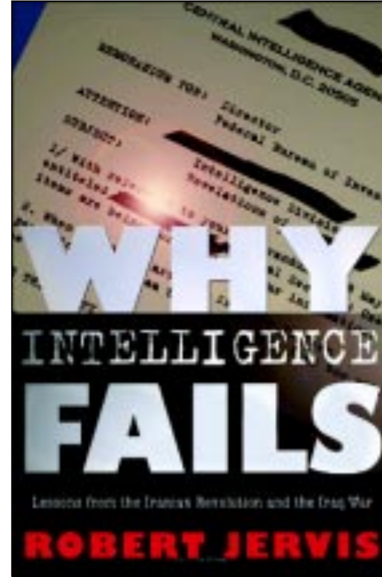
كان من العسير فى السنوات الأخيرة من الحرب الباردة جعل أى شخص يبذل مزيدا من الجهد

تمنح الرؤساء حرية التصرف، ولكن فى حالة العراق، كان الخوف من قنبلة معينة يجرى تصنيعها فى الورشة النووية لصدام حسين هو الذى أخمد الشكوك فى الكونجرس. ما من رئيس أمريكى على الإطلاق صرح بأنه «يعلم شيئا» بوضوح وثقة أكثر مما فعل «بوش» و«تشينى». أما المدهش فهو قدر النجاح الذى تحقق. كان تاريخ الحرب الباردة تطورا مرعبا بعد الآخر. «فجوة القاذفات» فى بداية الخمسينيات، و«فجوة الصواريخ» فى أواخر الخمسينيات، والقدرة على توجيه الضربة الأولى المتوقعة من الصواريخ السوفيتية ذات الرؤوس المتعددة، ومنظومات الرادار السوفيتية غير الشرعية التى يمكنها توجيه نظام صاروخى مضاد للقذائف البالستية، كل ذلك هدد بـ «انفلات إستراتيجى» - تحول مفاجئ فى التوازن العسكرى للرعب وتعريض الولايات المتحدة للخطر بين يوم وآخر. لقد تم تطوير الكثير من المعدات الجديدة طوال عقود، ولكن لم يتبع ذلك انفلات. وكان من المحتم أن يؤدى تضخيم التهديد إلى استنزافه التهديد؛ كان من العسير فى السنوات الأخيرة من الحرب الباردة جعل أى شخص يبذل مزيدا من الجهد.

تغير ذلك عام ٢٠٠٢. لم يشك أحد أن أسامة بن لادن سوف يستخدم سلاحا نوويا لو كان يملك واحدا. وقد أثبت صدام حسين أنه رجل ذو حقد دفين وعناد لا يهدأ. وفى مزاعمهما العديدة أن صدام حسين كان «يسعى بجدية» إلى الحصول على أسلحة نووية، فإن «بوش» و«تشينى» لم يبد عليهما الشك، بل صرحا بلا تحفظ أنهما يعلمان شيئا. وفى أواخر عام ٢٠٠٢ كشفت وكالة الاستخبارات المركزية ما تعرفه فى تقييم استخباراتى قومى خاص. ولكن كل ذلك كان مجرد خدعة كبيرة. فكما هو معروف تماما الآن، لم تكن هناك أسلحة دمار شامل عراقية أو برامج جادة لبنائها.

إن توضيح تلك الحقيقة المجردة يجابه المؤرخين بخيار مؤلم، بل ربما كان خطيرا للغاية: هل سيرفعون القبعة للبيت الأبيض ويصفون تلك الأخطاء الفادحة باعتبارها هفوات غير مقصودة، تاركين بذلك «بوش» و«تشينى» يفلتان؟ أم سيقول المؤرخون صراحة ما تعلنه الحقائق - أن البيت الأبيض أراد الحرب وكان يحتاج إلى تبرير معقول ظاهريا للحرب، وقرر أن برامج أسلحة الدمار الشامل العراقية هى ذلك المبرر، وانتزع «التقديرات» اللازمة عنوة من وكالة الاستخبارات المركزية واستخدمها للضغط على الكونجرس للانصياع؟

فى كتابه الجديد «لماذا تخفق الاستخبارات»، يطرح «روبرت جيرفيس» سؤالين يكشفان حيرة المؤرخين. الأول هو لماذا أخفقت وكالة الاستخبارات المركزية فى



التنبؤ بالغليان المتزايد للأحداث عام ١٩٧٩ والذى أطاح بشاه إيران. الفرص وفيرة هنا لإلقاء اللوم على مجهولية عملية إجراء التقييمات. ويقدم السؤال الثانى مجالا أقل تأرجحا: لماذا قامت وكالة الاستخبارات المركزية ببناء كل تلك المزاعم الكاذبة على مثل هذا الدليل الواهى؟

«جيرفيس» أستاذ للسياسة الدولية فى جامعة كولومبيا، وخبير متمرس فى الاستخبارات، مع معرفة عميقة بالمنظمات التى تشكل مجتمع الاستخبارات الأمريكى. جميع تلك الوكالات على درجة احترافية من الكفاءة وممولة جيدا، ولكنها تتعثر باستمرار فى الحقائق التى تعقد حياة المحللين - قدرة الخصوم على إخفاء ما يفعلون؛ ومقاومة أصحاب المناصب العليا للأنباء السيئة؛ والصعوبة الضمنية فى الإجابة عن أى سؤال يبدأ بكلمة «متى»؛ والأنظمة الصديقة التى لا ترغب فى أى تطفل على باحتها الخلفية؛ وأعطال المعدات فى اللحظات العصيبة؛ والطقس المتقلب؛ والمشاكل الصاخبة فى أحد أرجاء العالم والتى تصرف الانتباه عن المشاكل

الهادئة فى مكان آخر. القائمة طويلة. فمنذ أواخر الأربعينيات، ومن وقت لآخر، كانت وكالة الاستخبارات المركزية على وجه الخصوص على خطأ فيما يتعلق بكل شىء عمليا، مرسخة بذلك نوعا من التاريخ الطبيعى للأساليب الخطأ التى أخفق محللو الاستخبارات تماما من خلالها فى قراءة الأحداث.

فى عام ١٩٧٩، كان «جيرفيس» خبيرا مقيما فى مكتب التقييمات التابع لوكالة الاستخبارات المركزية فى ذلك الوقت، وهو المركز القومى لتقييم الاستخبارات الأجنبية، عندما طلب منه دراسة فشل المركز فيما بين صيف ١٩٧٧ وأواخر عام ١٩٧٨ فى ملاحظة أن شاه إيران كان يترنح على عرشه. فالقراءات شديدة التفاؤل للتأييد الشعبى للنظام لم تتوقف سوى قبل أشهر قليلة من طرد الشاه إلى المنفى، مما أنهى عقدين كانت إيران خلالهما سدا منيعا للسياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط. لم تكن وكالة الاستخبارات المركزية هى التى قضت على نظام الشاه أو جاءت بآية الله خومينى إلى السلطة أو قصرت فترة «جيمى كارتر» على مدة واحدة فى البيت الأبيض، ولكن الخطأ المستمر للوكالة فى قراءة الأحداث ساعد البيت الأبيض فى إرجاء اللجوء إلى خيارات مؤلمة حتى فات الأوان.



لم يكن الهدف من دراسة «جيرفيس» تفسير لماذا اندلعت الثورة الإيرانية، وإنما لماذا أخفق المركز القومى لتقييم الاستخبارات الأجنبية فى التنبؤ بها. وكانت مصادر الخطأ التى أوردها مألوفة جميعا لدارسى الاستخبارات الأمريكية. ومن بينها: عدم وجود متحدثين تقريبا باللغة الفارسية، وعدد قليل جدا من العملاء على الساحة، وعدم وجود اتصال مع معارضى الشاه، وقلة التواصل مع خبراء الشأن الإيرانى خارج الوكالة، والجهل بالحقائق الأساسية بما فى ذلك

خسارة الشاه لمعركته ضد مرض السرطان، وتاريخ من الأخطاء بشأن قدرة الشاه على البقاء. وعلى نفس القدر من الأهمية. كما وجد «جيرفيس». كانت التصورات المسبقة للمركز القومى لتقييم الاستخبارات الأجنبية. فقد كان لدى المركز ميل علمانى لاستبعاد الدين باعتباره عاملا غير هام، مفترضا أن الأنظمة المدعومة أمريكيا مهددة فقط من جهة اليسار، وكان المركز واثقا من قدرة الشاه على اتخاذ «إجراءات صارمة» عندما تتأزم الأمور. وكان توجيه كافة الأحكام إلى الاتجاهات الخطأ هو نتيجة للخبرة الشاملة لواضعى التقييمات بأن من الأسلم دائما التنبؤ بأن شيئا لن يتغير.

بالكاد ذكر «جيرفيس» حقيقتين جليتين - العزوف البيروقراطى الشديد للإدارة عن التخلى عن الشاه، و«الجهد الجماعى» الفاتر لوكالة الاستخبارات المركزية لمعرفة ما يحدث. لا متحدثين بالفارسية؟ لا عملاء فى الميدان؟ لا مساعى لتقصى ما كان الخومينى يقوله فعلا فى خطبه المسجلة المتداولة فى الأسواق؟ لا جهد يبذل لفهم أسباب استمرار التجار فى إغلاق حوانيتهم لدعم المقاومة؟ هل يمكن الإقرار بفضل وكالة الاستخبارات المركزية فى البحث عن الحقيقة بينما هى لم تبذل جهدا يذكر للكشف عنها؟

لا يحتاج المرء للنظر بعيدا فى حالتنا هذه بحثا عن الكلب الذى لم ينبح. إنه البيت الأبيض الذى لم تصدر عنه طلبات غاضبة لمعلومات أفضل حتى فات الأوان. يسلم «جيرفيس» بأن التقييمات المتفائلة كانت «عموما... متسقة مع سياسة الولايات المتحدة»، ولكنه يستنتج أن المحللين «لم يكونوا على وعى» بالضغوط لكتابة تقييمات حسب الطلب. كان من الصعب التفكير فى أسلوب أكثر لطفا للإفصاح عن عدم وجود محلل على استعداد لذكر ما قد يعتبره أى بيروقراطى أمرا مسلما به - فالترقيات لا تأتى إلى صغار المحللين الجالسين فى مكاتب بلا نوافذ والذين يخبرون الرؤساء بما يعرف الجميع أن الرئيس لا يود سماعه.

لا تزال بصمات البيت الأبيض دليلا أكثر وضوحا على الاستنتاجات «شديدة الثقة» لوكالة الاستخبارات المركزية بشأن عدم وجود أسلحة دمار شامل عراقية أثناء الأشهر الستة التى مهدت لاندلاع الحرب فى مارس عام ٢٠٠٣. لقد دار جدل شديد حول ذلك الأمر، ولكن يبدو أن «جيرفيس» لم يلحظ أو يقر بالكم المتزايد باستمرار من الدلائل على ممارسة البيت الأبيض للضغط. على سبيل المثال كحقيقة أن نائبة مدير الوكالة للاستخبارات، «جامى ميسيك»، هددت بالاستقالة إذا لم يتوقف البيت الأبيض عن محاولة إكراه وكالة

لم يكن الهدف من دراسة «جيرفيس» تفسير لماذا اندلعت الثورة الإيرانية، وإنما لماذا أخفق المركز القومى لتقييم الاستخبارات الأجنبية فى التنبؤ بها

إن حالات الطوارئ القومية مثل الحرب الأهلية والكساد قد أضفت سمة حمائية على أي شيء

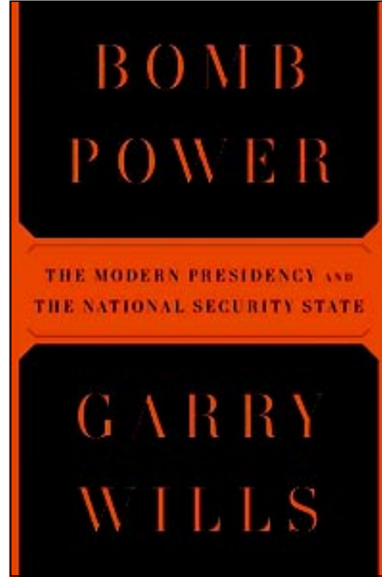
الاستخبارات المركزية للإبلاغ عن وجود «صلة» بين العراق وهجمات الحادى عشر من سبتمبر. لقد قام نائب الرئيس «تشينى» بثمانى رحلات على الأقل لمقر الوكالة لمناقشة ذلك وشئون أخرى خاصة بالعراق. ولم يتخل مساعد «تشينى»، «سكوتر ليبى»، و«بول وولفويتز» من مكتب وزير الدفاع، عن الأمر. فـ«ستيفين هادلى»، مستشار الأمن القومى، كان لا يزال يحاول إجبار «ميسيك» لتغيير صيغة وثيقة عن «الصلة» قبل شهرين فقط من اندلاع الحرب.

لكن من الغريب أن «جيرفيس» يطالب بدليل دامغ على تدخل البيت الأبيض. فمن الواضح أن تهديد «ميسيك» بالاستقالة لا يصلح دليلا لأنها لم تقم فعلا بتسليم الصيغة التى طلبها «هادلى»، كما أنها لم تتهم البيت الأبيض رسميا بمحاولة الضغط عليها. كما جرى أيضا استبعاد أو الإقلال من أهمية المعالجة الغريبة للتقارير الواردة من «الكرة المنحرفة» (الاسم الرمزى لـ «رافد أحمد علوان» الذى فر من العراق عام ١٩٩٩، المترجم)، المصدر غير الجدير بالثقة للمزاعم بأن العراق كان يبنى معامل متنقلة للأسلحة البيولوجية؛ وكذلك الإصرار الخاطئ لواضعى التقييمات على أنه لا يوجد سوى تفسير واحد لشراء العراق لأنابيب الألمونيوم ـ ألا وهو استخدامها فى أجهزة الطرد المركزية لجمع مواد تصلح للقنبلة من اليورانيوم الطبيعى.

يتجاهل «جيرفيس» أيضا إشارة إدارة «بوش» الواضحة إلى ما كانت تريده من التقييم الاستخباراتى القومى ـ ألا وهو تقارير مرعبة تصلح أساسا للحرب. عند النظر بترو وفى لحظة هدوء ـ كما كان يجب على «روبرت جيرفيس» أن يفعل ـ فمن الواضح أن الدليل على برامج أسلحة الدمار الشامل العراقية المذكور فى التقييم الاستخباراتى القومى ليست له طبيعة محددة، ويأتى من مصادر مشكوك فيها، ويشير ـ على الأكثر ـ إلى أن صدام حسين كان «يسعى» إلى القنبلة، وليس أنه حصل أو كان على وشك الحصول على واحدة. بل إنه من المبالغة مجرد القول بأنه كان «يسعى بجدية» وراء القنبلة. ولكن فى أغسطس عام ٢٠٠٢ ـ وقبل كتابة التقييم الاستخباراتى القومى، طرح «تشينى» الشكوك جانبا وصرح فى خطبة أمام الفيلق الأمريكى: «من المؤكد ببساطة أنه ليس هناك شك فى أن لدى صدام حسين الآن أسلحة دمار شامل». لم يكن البيت الأبيض بحاجة إلى أدلة دامغة، وقامت الوكالة «بثقة عالية» بتسليم أكثر ما فى جعبتها رعبا.

من الواضح أن «جيرفيس» يعشق عملية التحليل الاستخبارى بكاملها. فهو يعيد تكرار قصة أسلحة الدمار الشامل بأسلوب هادئ ومعقول، معددا الطرق الرائعة العديدة التى يمكن من خلالها أن يخطئ رجال شرفاء، ولكنه يتخلى عن الأشياء التى تطيح باللعبة. يبرز ثلاث من تلك للعيان. الأول هو عدم وجود سبب للهاجس المفاجئ بشأن العراق ـ وهو اكتشاف هام له دلالات خطيرة. من المفترض أن يأتى السبب أولا ـ وهو مبرر لأن نهتم بشىء «الآن»، مثل اكتشاف أن السفن السوفيتية كانت تقوم بتسليم أشياء ضخمة وطويلة إلى كوبا عام ١٩٦٢. لقد استدعى ذلك تفسيرا. لم يظهر أى جديد عام ٢٠٠٢ بشأن برامج الأسلحة العراقية؛ كان الحادى عشر من سبتمبر وصياح البيت الأبيض هما ما جعلا القضية ملحة. ثانيا، هناك حقيقة أن الدليل الذى روجت له الإدارة كان موحيا تماما ولم يكن مؤكدا. وإذا ذكرنا الآن مثالا مشينا، فإن الخليط الخام من أكاسيد اليورانيوم من النيجر يشير إلى اهتمام باليورانيوم؛ أما المادة القابلة للانشطار والصالحة للاستخدام فكانت لا تزال على بعد سنوات عديدة، والذى كان سيكون صحيحا أيضا حتى لو كانت أنابيب الألمونيوم مطلوبة لأجهزة الطرد المركزى.

ثالثا ـ والأكثر أهمية ـ إخفاق وكالة الاستخبارات المركزية فى إبلاغ مفتشى الأمم المتحدة فى العراق أين يجدون ما بحوزة صدام من أسلحة الدمار الشامل أو المعامل أو المصانع اللازمة لتصنيعها. وقد خاطب «كولين باول» ـ وزير الخارجية فى ذلك الوقت ـ الأمم المتحدة فى فبراير عام ٢٠٠٣، وكان من الواضح لأى شخص منتبه أن وكالة الاستخبارات المركزية لم تكن تعلم أين تجد أى شىء له علاقة بأسلحة الدمار الشامل فى العراق، وكانت تعلم أنها لا تعلم (وتلك حقيقة أكدها حوالى سبعمائة تفتيش للأمم المتحدة لحوالى خمسمائة موقع، بما فى ذلك أكثر من ثلاثين موقعا أبلغت بها وكالات الاستخبارات المفتشين، قبل أن تطلب الولايات المتحدة منهم الرحيل). منذ تلك اللحظة، لا يمكن وصف أى زعم بوجود خطر وشيك بأنه أمين من الناحية المنطقية. ربما يتجاهل



«جيرفيس» تلك الحقيقة لأن الفشل أصبح لا يمكن إنكاره فقط بعد نشر التقييم الاستخباراتى القومى فى أكتوبر عام ٢٠٠٢، ولكنه كان واضحا قبل أشهر من بدء الحرب. لماذا لم يتكلم أحد فى ذلك الوقت ولماذا لا يقول «جيرفيس» شيئا الآن، تلك شهادة صامتة على سلطة البيت الأبيض فى المضى فى طريقه.

السلطة الرئاسية هى أحد أسرار النظام السياسى الأمريكى. إن حالات الطوارئ القومية مثل الحرب الأهلية والكساد الكبير قد أضفت سمة حمائية على أى شىء يكون الرئيس جريئا بما فيه الكفاية ليصر على ضرورة عمله. إن الشخص الذى يقتحم طريقه إلى مقدمة طابور التذاكر يحصل عادة على ما يريد، والرئيس المدعوم من قبل حزب سياسى مع جيش من المتحدثين الرسميين ووسائل إعلام مدربة على إبراز حجته فى مقدمة كل رواية إخبارية يظهر فيها، يمكن أن يشق طريقه طويلا فى أى اتجاه يريد المضى فيه قبل أن يستجمع الخصوم قواهم لإبطائه. وحتى بدون المخاطر النووية، فإن الرؤساء تكون لديهم الأفضلية لصالحهم منذ البداية. أضف القنبلة ـ كما يجادل «جارى ويلز» فى كتابه النشيط المزعج ـ ولن تجد بالكاد شيئا يوقفهم.

يبدو أن «روبرت جيرفيس» يدرك ما حدث لتقييمات وكالة الاستخبارات المركزية عن أسلحة الدمار الشامل، ولكنه لن يوصل النقاط ببعضها. وهو يستشهد بـ «جنيفر جلودمانز» ـ وهى محللة بوكالة الاستخبارات المركزية قدمت وصفا حيا للتسييس فى جلسة استماع عام ١٩٩١: «التسييس مثل الضباب. فعلى الرغم من أنك لا تستطيع الإمساك به فى يديك أو تثبيته على حائط فإنه موجود وحقيقى ويؤثر على سلوك الناس». فى بعض الأحيان، كتب «جيرفيس» أن «بوش» كان مذنبا بـ «إرهاب الاستخبارات وتجاهلها» وبـ «تحريف الأدلة» وبـ «انتقاء ما يحلو له» وبـ «تجميع» أجزاء من المعلومات لدعم «الرسائل التى يريد للعامة أن يصدقوها». الرؤساء «يحتاجون» الاستخبارات التى «تتوافق تماما» مع سياستهم. وعندما امتنعت وكالة الاستخبارات المركزية عن تأكيد الصلة بين العراق والقاعدة «مارست الإدارة ضغوطا هائلة على الاستخبارات كى تخرج برؤية مختلفة». فالرؤساء لديهم «متطلبات ووجهات نظر تختلف عن محللى الاستخبارات»، وسوف يؤدى ذلك إلى «ممارسة الضغوط على الاستخبارات وتحريفها».

قد تبدو تلك الملاحظات تمهيدا للاستنتاج بأن وكالة الاستخبارات المركزية قد «خضعت للضغوط لإبلاغ صناع السياسة ما أرادوا أن يسمعوه». كيف بغير ذلك يمكننا أن نفسر لماذا انحازت «جميع» استنتاجات المحللين إلى الاتجاه الذى تريده الإدارة، وكانت «جميعها» على خطأ؟ إن التوصل إلى رؤية مختلفة سليمة وأمينة من الناحية المنطقية قد يتطلب نقضا شديدا من قبل «جيرفيس»، ولكنه فقط يهمس بما توصل إليه. يقول «جيرفيس» أن التقارير الرسمية بشأن الفشل الذريع لقصة أسلحة الدمار الشامل «ترفض» إلقاء التبعة على الضغط السياسى، ويضيف: «أعتقد أن التقارير الرسمية صحيحة إلى حد بعيد».

إن الدخول فى معركة مع رئيس هو أمر خطير، ولا يقل خطورة بالنسبة للأكاديميين عندما يحين الوقت لكتابة التاريخ عما كان بالنسبة لبيروقراطيى الاستخبارات أثناء وطيس الأحداث. وبناء على استنتاجه المعتدل، يرفع «جيرفيس» القبعة للبيت الأبيض، ملقيا باللوم على وكالة الاستخبارات المركزية لأخطائها، مثلما فعل «بوش» و«تشينى» تماما، مؤكدا بذلك ما يمكن أن نطلق عليه قاعدة «جارى ويلز»: يفسح الناس العاديون الطريق عندما يستدعى رئيس القنبلة لما ينوى عمله. ■



عندما امتنعت وكالة الاستخبارات المركزية عن تأكيد الصلة بين العراق والقاعدة «مارست الإدارة ضغوطا هائلة على الاستخبارات كى تخرج برؤية مختلفة»



في بدايات هذا العام، شكلت النساء - للمرة الأولى في تاريخ الولايات المتحدة ـ الغالبية العظمى من القوى العاملة. الآن معظم المديرين من النساء. في هذا العام مقابل حصول كل رجلين على شهادة جامعية سوف تقوم ثلاث نساء بنفس الشيء. لسنوات عديدة كان تقدم المرأة يمثل نضالاً من أجل المساواة ولكن ماذا عن الوضع الآن. يبدو أن المساواة لم تكن هي نقطة النهاية؟ هذا حول انعكاس الأدوار وعواقبه الثقافية الواسعة



هـــــانــــا روزيــــــن
Hanna Rosin

نهـــَـــاية الرجـــــال
The End of Men

■■ في السبعينيات أتى عالم الأحياء رونالد إريكسون Ronald Ericsson بطريقة لفصل الحيوانات المنوية الحاملة للكروموسوم واي Y المنتج للذكور عن الحيوانات المنوية الحاملة للكروموسوم إكس X . لقد أطلق إريكسون نوعي الحيوانات المنوية للسباحة في أسفل أنبوبة زجاجية بها حواجز زلالية سميكة. كان الحيوان المنوي ذو الكروموسوم X يتميز برأس كبير وذيل طويل وما كان واضحاً عليه هو تعثره وغوصه في السائل اللزج. أما الحيوانات المنوية ذات الكروموسوم Y فقد كانت أصغر حجماً وأسرع وكانت قادرة على السباحة إلى أسفل الأنبوبة بكفاءة أكثر. كانت نشأة إريكسون في مزرعة بولاية ساوث داكوتاSouth Dakota حيث ترعرع متشرباً زهو وخيلاء رعاة البقر في الغرب القديم. كانت العملية كما ذكر أشبه بعملية فصل الماشية عند البوابة حيث كانت الماشية المحتجزة خلف البوابة ممثلة في الحيوانات المنوية ذات الكروموسوم X وكان ذلك مبعث رضا لديه، وكان في بعض الأحيان يبرهن على صحة هذه العملية باستخدام غضروف من عضو ثور كمؤشر.

في أواخر السبعينيات قام إريكسون بتأجير «فكرته» إلى العيادات في جميع أنحاء الولايات المتحدة واصفاً إياها بأنها أول طريقة مثبتة علمياً لاختيار جنس الطفل. بدلاً من معطف المختبر، ارتدى إريكسون حذاء وقبعة رعاة البقر وبدأ في نظم الشعر الخاص بهم. وقد اقترحت عليه مجلة بيبول People Magazine ذات مرة عمل مسلسل قصير حول نشأته أطلقت عليه اسم (راعي بقر في المختبر Cowboy in the Lab).

إن الوصفة الحقيقية للحياة كما يقول إريكسون هي «الفطور في الساعة الخامسة والنصف صباحاً ثم اعتلاء السرج في السادسة ولا مكان للسيد ذي المعصم الرخو». في عام ١٩٧٩ استخدمت مزرعته في إعلانات مارلبورو كخلفية لأيقونة إعلان ريف مارلبورو Marlboro Country بعد أن أعارها إريكسون لمنظمي الحملة الإعلانية إيماناً منه بأهمية تمركز الصورة الذهنية للحملة حول». رجل يمتطي جواده بحرية بموازاة النهر، لا وجود للروتين والجمود، لا وجود للقوانين» وقد أشار عندما تحدثت إليه في هذا الربيع إلى أنه «المهيمن» وصاحب هذا العمل «The Boss» فقد التقط المصورون ما يزيد على ٦٥٠٠ صورة وهو عدد يتجاوز الحدود مما يجعل إريكسون يحمل اعتزازاً عظيماً لها.

لم تشعر نساء هذا العصر بارتياح ولا استلطاف لإريكسون ولا لأيقونته «رجل مارلبورو Marlboro Man» ذو المظهر المخادع. بالنسبة لهن فإن راعي بقر المختبر وأداته في فصل الحيوانات المنوية ينبئان عن واقع مرير من الإنتاج الضخم للبنين. في ملف الشعب لإريكسون لعام ١٩٨٤«People Profile of Ericsson» أدلت الراهبة روبرتا شتاينباتشر Roberta Steinbacher – وهي أخصائية اجتماعية تحولت إلى طبيبة نفسية بدلوها قائلة «عليكم أن تشعروا بالقلق إزاء مستقبل جميع النساء». «ما من شك في وجود تفضيل عالمي للأبناء الذكور» هذا ما أضافته شتاينباتشر في سياق شكواها حول حصر النساء كمواطنات من الدرجة الثانية في حين ما زال الرجال يسيطرون على مناصب الهيمنة والنفوذ، وقالت أيضا (أعتقد أن النساء لابد أن يسألن أنفسهن «أين سيتوقف هذا؟» ما كانت للكثيرات منا كينونة في الوقت الراهن إذا تم تنفيذ هذه الممارسات منذ سنين مضت).

يبلغ إريكسون Ericsson من العمر الآن ٧٤ عاماً وهو يضحك عندما أقرأ له بعض مقتطفات من أقوال خصومه القدامى «نادراً ما يكون سهلاً إثبات خطأ التنبؤات المؤلمة». في التسعينيات عندما كان إريكسون يتفحص الحالات التي ترد إلى ما يقرب من ٢٤ من العيادات التي استخدمت طريقته اكتشف وكان هذا مثيراً لدهشته أن الأزواج يطلبون المزيد من الفتيات عن الأولاد وقد زادت الفجوة حتى بعد أن أعلن إريكسون أن هذه الطريقة فعالة أكثر لإنتاج الأولاد. ذكر إريكسون أن نسبة الطلب على الفتيات تتراوح من ٢-١ في بعض العيادات ولكن مازالت بيانات الاقتراع على تفضيل جنس معين في أمريكا متناثرة ولا تدل على تفضيل واضح للبنات. ولكن الصورة من مكتب الطبيب أكثر وضوحاً وتؤكد بدون لبس تفضيل البنات. يجري الآن إتمام التجارب السريرية من حيث إدارة الغذاء والدواء وذلك من أجل إقرار طريقة جديدة لفصل الحيوانات المنوية إنها طريقة الميكروسورت أو التزاوج المجهري Microsort يتراوح الطلب على الفتيات وفقاً لهذه الطريقة حول ٧٥٪.

أكثر الأشياء التي سببت إرباكاً لإريكسون هي أنه قد أصبح من الواضح أن اختيار جنس الجيل القادم قد أفلت من بين يديه وأنه لم يعد المهيمنThe Boss كما كان يقول. خاصة بعد أن زاد المتحدثون عن التغيير الذي أحدثته عملية الميكروسورت. يقول إريكسون «إن النساء هن من يقدن كل القرارات» ويضيف أن النساء اللائي ارتدن عيادته في البداية كن يعتذرن بحياء عن رغبتهن في فتاة مفسرات الأمر بمبرر أن لديهن بالفعل ولدين والآن يرين أن لهن الحق في فتاة «أنا أتمنى





من هو الرجـــــل الآن؟..
يتصــــــاعد اللـــغـــــط...
«في الحقيقة أنها هي الرجل»



بترتيب مع:
The Atlantic

ترجمة: إيمان عبدالهادي الكيلاني



J. Howard Miller's "We Can Do It!" 1942, The picture later became associated with Rosie the Riveter(1)

نهاية الرجال



فتاة». إن هؤلاء الأمهات ينظرن إلى حيواتهن ويعتقدن بأن بناتهن سوف يجدن مستقبلاً باهراً لم يتوافر لأمهاتهن ولا لجداتهن إنه حتى مستقبل أكثر إبهاراً من مستقبل أبنائهن. ولذلك فلماذا لا تختار فتاة ؟

لماذا لا تختار فتاة؟ Why Wouldn"t You Choose a Girl سؤال مثل هذا عندما يتم التلفظ به بشكل عرضى سواء من قبل إريكسون أو غيره حول ذلك الشأن فإن هذا يعد أمراً هائلاً. فتقريباً منذ تواجد الحضارة كان نظام المجتمع الأبوى بما يفرضه من حقوق للابن البكر هو النظام المبدئى السائد مع استثناءات قليلة. كان الرجال فى اليونان القديمة يقومون بربط الخصية اليسرى فى محاولة لإنجاب الورثة من الذكور وكانت النساء تنتحر أو تُقتل فى حالة فشلها فى إنجاب الذكور. فى كتابها الشهير «الجنس الثانى The Second Sex» ١٩٤٩ قالت الفرنسية سيمون دى بوفوار Simone de Beauvir «Feminine Condition» ولذلك ينظرن إلى بناتهن الوليدات نظرة توتر واشمئزاز. الآن بدأت النظرة التفضيلية للأبناء والتى امتدت لقرون فى الانحسار أو حتى الانعكاس. تقول إحدى النساء مبتهجة لمجلة كوكى Cookie Magazine «النساء من جيلنا يتمنين البنات على وجه التحديد لأننا نحب ما نحن عليه». حتى إريكسون العجوز الماجن العنيد يستطيع أن يتنفس الصعداء ويوقع على انتهاء حقبة من الزمن فيقول مجيبا «هل ما زالت هيمنة الذكور موجودة؟ بالطبع هى كانت موجودة ولكن يبدو أنها انتهت الآن وقد ولت تماماً مرحلة الابن البكر».

تعد الأسرة الممتدة لإريكسون مثالاً جيداً للتحولات السريعة واسعة المدى مثله مثل الآخرين. فحفيدته ذات الستة وعشرين ربيعاً وهى فارعة القامة، رشيقة، أكثر توهجاً من الجحيم، ولها شخصية منطلقة متخصصة فى الكيمياء الحيوية وتعمل فى التسلسل الجينى. لديه ابنة أخ درست الهندسة المدنية فى جامعة جنوب كاليفورنيا University of Southern California. يقول عن أحفاده الذكور إنهم يتميزون بالإشراق والوسامة ولكن كثيرا ما تزوغ أعينهم فى المدرسة. ويضيف قائلاً : يجب على أن أقول لهم «فقط لا تتصرف بحماقة وتهور فتحطم سيارتك البيك أب وتتسبب فى حمل فتاة وتخرب حياتك». كان إريكسون مؤخرا- يمزح مع الطلبة الكبار فى إحدى المدارس الابتدائية قائلاً إنه ينوى إجراء عملية تغيير للجنس». فالنساء يعشن أكثر من الرجال. وأداؤهن أفضل فى الاقتصاد. الكثير منهن جامعيات. يذهبن إلى الفضاء. ويفعلن كل ما يفعله الرجال بنفس الكفاءة بل أحياناً أفضل - ما أقصده بالجحيم هو الخروج عن الطريق- فهؤلاء النساء سوف يدفننا نحن الذكور تحت التراب».

منذ بزوغ فجر البشرية كانت السيادة لجنس الرجال. ولكن وللمرة الأولى فى تاريخ البشرية يحدث التغيير وبسرعة مذهلة. عادة ما تدعم التغيرات الثقافية والاقتصادية كل منهما الأخرى. يتطور الاقتصاد العالمى بطريقة تؤدى إلى تآكل التفضيل التاريخى للأطفال الذكور على مستوى العالم. على مدى قرون عديدة كانت كوريا الجنوبية South Korea على سبيل المثال تشكل واحداً من أكثر المجتمعات الأبوية صرامة على مستوى العالم. تعرضت الكثير من الزوجات اللائى فشلن فى إنجاب الورثة الذكور للتعذيب وتمت معاملتهن كخادمات فى المنازل. بعض العائلات كانت تصلى للأرواح من أجل قتل الأطفال البنات. تبنت الحكومة بعد ذلك فى السبعينيات والثمانينيات ثورة صناعية وشجعت النساء على الدخول فى سوق العمل. انتقلت المرأة إلى المدينة والتحقت بالجامعات. لقد تقدمن بسرعة من الوظائف المهنية إلى الوظائف الكتابية ثم إلى العمل الاحترافى. بعد فترة وجيزة بدأ النظام التقليدى فى الانهيار. فى عام ١٩٩٠ تم تنقيح قوانين الدولة مما أعطى للمرأة الحق فى الاحتفاظ بحضانتها للأطفال بعد الطلاق فضلاً عن حقها فى الإرث. فى عام ٢٠٠٥ صدر حكم المحكمة بإمكانية قيام المرأة بتسجيل الأطفال باسمها. بينما أعربت - مؤخراً فى ١٩٨٥ نصف النساء فى دراسة استقصائية وطنية عن رغبتهن فى إنجاب « ابن» فقد تناقصت هذه النسبة ببطء حتى عام ١٩٩١ ثم انخفضت بعد ذلك إلى ما يزيد قليلا على ١٥٪ بحلول عام ٢٠٠٣. لقد «انتهى» تفضيل الذكور فى كوريا الجنوبية تذكر ذلك مونيكا داس جوبتا Monica Das Gupta وهى خبير ديموجرافى مختصة بآسيا فى البنك الدولى World Bank . «لقد حدث ذلك بسرعة فائقة. من الصعب تصديق ذلك، ولكنه حدث». لقد بدأ نفس التحول يحدث فى الدول ذات التطور الصناعى السريع كالهند والصين.



إلى حد ما فإن الأسباب الكامنة وراء هذا التحول تعتبر واضحة وتتبلور حول تفوق التفكير والقدرة على التواصل على القوة البدنية والقدرة على التحمل كمفاتيح للنجاح الاقتصادى، فقد استطاعت تلك المجتمعات أن تحظى بميزة الاستفادة من مواهب كل البالغين لديها وليس نصفهم فقط كان لها السبق فى ذلك. وبسبب الجغرافيا السياسية وبسبب أن الثقافة العالمية معظمها- داروينية Darwinian «نسبة إلى تشالرز داروين صاحب المذهب الداروينى وهو مذهب يؤمن بأصل الأنواع/ المترجمة» - فقد حذت باقى المجتمعات حذو كوريا الجنوبية حين قضت على تهميش المرأة. فى عام ٢٠٠٦ طورت منظمة التعاون الاقتصادى والتنمية The Organization for Economic Cooperation and Development قاعدة بيانات الجنس والمؤسسات والتنمية Gender" Institutions and Development Database والتى تقوم بقياس القوة الاقتصادية والسياسية للمرأة فى ١٦٢ دولة. باستثناءات قليلة تبين أنه « كلما زادت قوة المرأة زاد النجاح الاقتصادى للدولة». بدأت وكالات المعونة الاعتراف بهذه العلاقة ودفعت إلى وضع نظام الحصص السياسية فى مائة دولة مستهدفة فى الأساس الإجبار على إدخال النساء فى السلطة فى محاولة لتحسين وإنجاح هذه الدول. فى الدول التى مزقتها الحروب تقف النساء ويؤدين المهام كفريق من الأمهات المنقذات. منذ خمس سنوات مضت صورت إلين جونسون سيرليف Ellen Johnson Sirleaf رئيسة ليبيريا Liberia بلدها فى حملتها الانتخابية كطفل مريض يحتاج إلى رعايتها. فى رواندا ما بعد الإبادة الجماعية Postgenocide Rwanda كانت الانتخابات لصالح المرأة بهدف مداواة الدولة وأصبحت رواندا أول دولة ذات أغلبية نسائية فى البرلمان.

تشكل هذه التغيرات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى الأوساط النسائية شكلاً بطيئاً وشاقاً من محاولات اللحاق بالركب فى خضم النضال من أجل المساواة للمرأة.

أما النساء فهن مبرمجات على إيجاد ممول لحياتهن وعلى حسن رعاية أطفالهن ويتجلى ذلك فى التغذية الأفضل والسلوك الأكثر مرونة، إنهن مائلات إلى الحياة العائلية بشكل قدرى غريزى وهذا التفكير يشكل إطار إحساسنا بالنظام الطبيعى للحياة. ولكن ماذا لو لم يلزم الرجال والنساء أنفسهم بالضرورات البيولوجية واستبدلوها بأدوار اجتماعية تستند إلى ما كان أكثر كفاءة خلال حقبة طويلة من التاريخ البشرى؟ وماذا لو وصلت تلك الحقبة إلى النهاية الآن؟ إلى حد أكثر دقة. ماذا لو كانت اقتصادات الحقبة الجديدة أكثر ملاءمة للمرأة؟

بمجرد أن تفتح عينيك على هذا الاحتمال سوف تجد الأدلة حولك. من الممكن أن تعثر عليها فى الحال داخل حطام الكساد الكبير حيث فقدت ثمانية ملايين وظيفة كان ثلاثة أرباعها عبارة عن وظائف مفقودة من قبل الرجال. كانت الصناعات الأكثر تضرراً هى الرجالية والتى كانت تتسم بكونها



هل ما زالت هيمنة الذكور موجودة؟ بالطبع هى كانت موجودة ولكن يبدو أنها انتهت الآن وقد ولت تماما





من بين ١٥ فئة وظيفية مخطط لها
أن تكون الأكثر نمواً فى الولايات المتحدة فى العقد القادم
سوف تشغل النساء ١٣ من هذه الوظائف



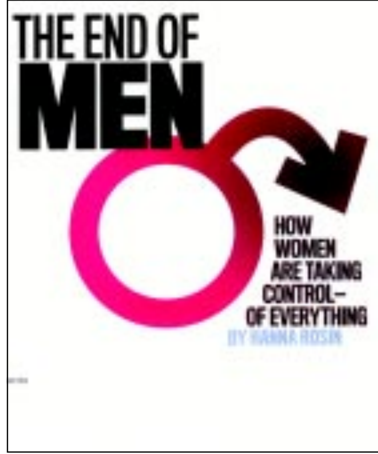
معتمدة على القوة العضلية مثل التشييد والبناء والتصنيع والتمويل عالى المستوى. سوف تعود بعض من هذه الوظائف ولكن النمط العام للاضطراب الذى حدث لا يعد مؤقتا ولا عشوائيا. ما قام به الكساد هو مجرد كشف للتحول الاقتصادى العميق الذى يحدث منذ ثلاثين عاماً على الأقل وقد يكون أكثر فى بعض النواحى إنه لم يكشفه فقط بل أدى إلى تسارعه.

لقد رجح الميزان- فى بدايات هذا العام وللمرة الأولى فى التاريخ الأمريكى- لصالح النساء اللائى يشغلن الآن معظم وظائف الدولة. النساء فى هذه الأيام يهيمن على الكليات والمدارس المهنية. فى مقابل حصول كل رجلين على درجة البكالوريوس هذا العام سوف تحصل ثلاث من النساء على نفس الدرجة. من بين ١٥ فئة وظيفية مخطط لها أن تكون الأكثر نمواً فى الولايات المتحدة فى العقد القادم سوف تشغل النساء ١٣ من هذه الوظائف بشكل مبدئى. فى حقيقة الأمر إن الاقتصاد الأمريكى بطريقة أو بأخرى سوف يكون داخل إطار حركة نسائية فقد غادرت نساء الطبقة العليا المنازل والتحقن بسوق العمل ليخلقن فرص عمل محلية أخرى لغيرها من النساء.

ما يبدو على اقتصاد ما بعد التصنيع أنه لا يكترث بحجم ولا قوة الرجال. فالسمات الأعلى قيمة اليوم هى الذكاء الاجتماعى والتواصل بحرية والقدرة على الجلوس بتركيز وانتباه ، هذه السمات ليست سائدة رجالياً ولكن العكس هو الصحيح. تتعلم النساء فى المناطق الفقيرة فى الهند اللغة الانجليزية بشكل أسرع من الرجال لمقابلة احتياجات مراكز الاتصال العالمية. تمتلك النساء أكثر من ٤٠٪ من حجم الأعمال الخاصة فى الصين، حيث أصبحت السيارة الفيرارى الحمراءRed Ferrari رمزا يشير إلى المكانة الجديدة لسيدات الأعمال. فى العام الماضى انتخبت ايسلندIceland رئيسة الوزراء جوهاناJohanna Sigurdardottir كأول رئيسة مثلية معلنة على مستوى العالم، وهى التى قامت بحملة صريحة ضد النخبة من الذكور الذين زعمت أنهم قد دمروا النظام المصرفى للبلاد وقد أعلنت نهاية عصر التستوستيرون» The Age of Testosterone» التستوستيرون هو هرمون الذكورة/ المترجمة.

نعم ما تزال هناك فجوة فى الأجور فى الولايات المتحدة، فجوة يمكن تفسيرها ولو جزئيا وعلى الأقل- بالتمييز. نعم ما تزال المرأة تقوم بمعظم الرعاية للأطفال. نعم ما يزال الرجال يهيمنون على المراكز العليا فى المجتمع. ولكن قيامهم بمنح النساء القوة والأدوات الدافعة للاقتصاد يعطى شعورا بلحظات الاحتضار بدلاً من الإحساس بديمومة الحياة والاستمرار. العشرات من النساء اللائى أجريت معهن حوارا بشأن هذا المقال ذكرن أنه من الممكن جداً أن يذهبن إلى أعمالهن بينما يبقى الأزواج فى المنزل انتظارا لفرصة عمل أو لرعاية الأطفال. لقد أبدى لى أحد الرجال ملاحظته قائلا: «إن الرجال هم كرة السلة الجديدة» قد يحدث هذا ببطء وبشكل غير متكافئ ولكنه يحدث- بدون أى مجال للخطأ- على المدى البعيد سيصبح الاقتصاد الحديث هو المكان الذى تمسك فيه المرأة بكل الكروت.

فى كتابه الأخير كتلة العزاب The Bachelors¨ Ball الصادر فى عام ٢٠٠٧ يصف عالم الاجتماع بيير بورديو Pierre Bourdieu ديناميكيات التغيرات بين الجنسين فى منطقة بيرن Bearn بالجنوب الغربى لفرنسا France حيث نشأته. فى بيرن كان الأبناء الأكبر سناً يتمتعون بمزايا الولاء الوراثى وميراث الأبناء وعلى مر العقود أدى تغيير القوى الاقتصادية إلى تحويل هذه المزايا إلى لعنات. فبالرغم من أن الأرض لم تعد تدر الدخل الذى كانت تدره من قبل إلا أن الرجال كانوا مجبرين على رعايتها. فى غضون ذلك تجنبت النساء العصريات حياة الريف وانجذبن بعيدا إلى حيث فرص العمل والمغامرة فى المدينة. ومن حين لآخر كانت النساء تعود إلى الحياة



التقليدية فى الريف ولكن كان الرجال الذين ينتظرونهن قد فقدوا هيبتهم وأصبحوا غير صالحين للزواج منهن. الصورة التى طالما جالت بخاطرى طبقا لوصف بورديو فى كتابه كتلة العزاب هى رجال على وعى بتراجع وضعهم يقفون مكتوفى الأيدى بينما تتحرك النساء فى حرية وانطلاق.

إن انعكاس الأدوار الجارى بين الرجال والنساء الأمريكيين يظهر بوضوح وبشكل أكثر إيلاما فى الطبقة العاملة. فى السنوات الأخيرة ظهرت مجموعات دعم الذكور فى جميع أنحاء منطقة «حزام الصدأ[٢] « Rust Belt والمناطق الأخرى حيث قام اقتصاد ما بعد التصنيع بقلب الأدوار العائلية رأساً على عقب. بعض المجموعات قدمت دعما للرجال لمواجهة البطالة، مجموعات أخرى ساعدتهم على معاودة التواصل مع أسرهم بعد حالة الانعزال عنهم. قاد مصطفى الصقرىMustafaa El-Scari وهو مدرس وعامل اجتماعى بعضا من هذه المجموعات فى مدينة كانساس Kansas City . قام الصقرى بدراسة اجتماعية للرجال والأولاد الذين يعيشون بلا هدف واعتبر أن هديته الخاصة لهم هى حملهم على الانفتاح والتفكير فى وضعهم الجديد. فى بدايات هذا العام وفى اليوم الذى قمت فيه بزيارته فى أحد فصوله كان يواجه مقاومة خاصة من الجماهير.

قليل من الرجال- نحو ثلاثين- يجلسون فى أحد فصول مدرسة بوسط مدينة كانساس جاءوا من أجل تبرعات خيرية لصالح الكبار. كانوا قد فشلوا فى دفع تأمينات أطفالهم وخيرهم القاضى بين السجن وبين حضور محاضرات أسبوعية حول «الأبوية» فاختاروا حضور المحاضرات كصفقة أفضل لهم. كان الدرس المقرر فى دفتر عمل هذا الأسبوع عنوانه «إطفاء ظمأ الأبQuenching the Father Thirst) كان مضمون هذا الدرس هو كتابة خطاب لابنة افتراضية مبعدة تبلغ من العمر أربعة عشر عاما وتدعى كريستال والتى تركها والدها عندما كانت طفلة رضيعة. كان للصقرى فكرته الخاصة حول الكيفية التى من خلالها يتم اقتحام هذه المجموعة المتشككة من الرجال الذين يفيقون بالكاد ولا تستطيع خطابات كريستال أن تفعل حيالهم أى شىء.

لقد نشأ مثلهم تماما- يذكر الصقرى موضحا كيف أنه نشأ وهو يشاهد رمزا مجازيا يدعى بيل كوسبىBill Cosby» رجل وامرأة وحفنة من الأطفال السعداء يقفون فى حمى سياج أبيضWhite Picket Fence»- «حسناً لقد انقرضت وتلاشت هذه الصورة تماما « هذا ما قاله الصقرى ثم استمر فى قراءته لورقة العمل « دعونا نرى ما هى الأنواع الأربعة للسلطة الأبوية؟ إنها الأخلاقية والعاطفية والاجتماعية والمادية. ولكنكم لم تعد لكم أى من هذه السلطات فى منازلكم. إن كل ما كنتم تمثلونه هو أنكم مجرد شيكات للدفع والآن فحتى هذا لم تعودوا تمثلونه. إذا حاول أى منكم ممارسة سلطاته فسوف تتصل «هى» بنمرة الإنقاذ «٩١١» . بماذا تشعر حيال هذا الوضع؟ من المفترض أنك صاحب السلطة ولكنها سوف تقول لك» اذهب خارج المنزل أيها «الساقطة» سوف تدعوك بالساقطة!

هؤلاء الرجال كانوا من البيض والسود وكانت أعمارهم تتراوح ما بين ٢٠-٤٠ عاماً. كان يبدو على اثنين منهم أنهم قد قضوا



كان الرجال فى اليونان القديمة يربطون الخصية اليسرى فى محاولة لإنجاب الذكور وكانت النساء ينتحرن أو يُقتلن إذا فشلن فى ذلك



نهاية الرجال



ليلة أو اثنتين فى الشوارع والباقى كان يبدو عليهم أنهم يعملون أو معتادون العمل. الآن يضعون مشروباتهم بعد أن جذب الصقرى انتباههم بما يملكه من القليل من الفلسفة» من يفعل ماذا؟ «سألهم ثم أضاف» ما هو دورنا؟ الجميع يقولون لنا أنه من المفترض لنا أننا أرباب الأسر النووية، ولذلك فأنت تشعر بأنك قد تمت سرقتك. إنه وضع يجهزنا للفشل. كتب الصقرى على السبورة ٨٥.٠٠٠ دولار وقال «هذا هو راتبها» بعد ذلك كتب ١٢.٠٠٠ دولار وقال « هذا هو راتبك» من هذا الرجل التافه الحقير؟ من هو الرجل الآن؟.. يتصاعد اللغط ««فى الحقيقة أنها هى الرجل».

استناداً إلى الرجال الذين تحدثت معهم بعد ذلك على ما يبدو أن الصقرى قد عزف على وتر حساس تماما لدى جمهوره. دارين هندرسون Darren Hendrson كان يعمل فى إحدى الصناعات المعدنية نظير ٣٣ دولارا فى الساعة حتى حدوث الأزمة العقارية حينئذ كانت خسارته فى فقد وظيفته. ثم فقد بيته ذى الطابقين- وهو يمثل جزءا من الحلم الأمريكى ثم فقد سيارته وأخيراً فقد عجز تماماً عن تأمين نفقات ابنته. فى الواقع، هو لم يتكاسل، بل بذل كل محاولة ممكنة. وكدليل على مجهوده فقد تقدم لبرنامج التشغيل الجديد للحصول على رخصة قيادة تجارية الا أن ذلك لم يفده فى ايجاد فرصة عمل. تحصل والدة طفلته على ٥٠.٠٠٠ دولار سنوياً نظير وظيفتها وتعد للحصول على درجة الماجستير فى العمل الاجتماعى. أما هو فقد وقع للتو للحصول على طوابع الغذاء والتى تعد تقريبا البرنامج الوحيد من برامج الرعاية الاجتماعية التى يستطيع الفرد الحصول عليها بسهولة. لقد رأته والدة طفلته مؤخرا منتظراً على محطة الأوتوبيس ونظرت إليه فى عينيه ثم أكملت القيادة ومضت.

كان الرجال فى هذه الغرفة بدون استثناء هم ضحايا نهاية مرحلة التصنيع. معظمهم واصلوا العمل بأيديهم بالرغم حتى من تناقص الطلب على العمل اليدوى. منذ عام ٢٠٠٠ فقد التصنيع حوالى ستة ملايين وظيفة أى ما يقرب من ثلثى القوى العاملة الإجمالية لديه. وأصبح يعتمد على قليل من العاملين الصغار. استطاعت مشروعات الإسكان الوهمية أن توارى هذا الواقع لفترة من الزمن حيث خلقت فرصا للعمل فى التشييد والصناعات المرتبطة به، العديد من الرجال الذين تحاورت معهم عملوا كهربائيين أو بنائين أحدهم أصبح وكيلا عقاريا ناجحا. الآن حتى هذه الوظائف ذهبت. أمضى هندرسون أيامه فى رحلات مكوكية بين مكاتب البطالة ومقابلات التوظيف متسائلا فى كل لحظة عما يمكن أن يفعله مع ابنته. فى عام ١٩٥٠ تقريبا كان هناك رجل من بين عشرين فى سن العمل مثل هندرسون لا يعمل. الآن زادت النسبة إلى ما يقرب من واحد من بين كل خمسة رجال وهو يعد أعلى معدل.

هناك خمس عشرة فئة من الوظائف المتوقع لها أن تكون الأكثر نموا فى العقد القادم. يسيطر الرجال على اثنين منها فقط. هما وظيفتا البواب ومهندس الكومبيوتر. تتمتع النساء بباقى الوظائف الأخرى كالتمريض والمساعدة الصحية المنزلية ورعاية الأطفال وإعداد الطعام. تقول هيزر باوشى Heather Boushy من مركز التقدم الأمريكى Center of American Progress «إن استبدال الأشياء التى اعتادت المرأة القيام بها مجانا بنوع من العمالة لا يعد عالى التكلفة قد أدى إلى تراكم أنواع من الوظائف تمثل إضافة إلى اقتصاد أكثر ملاءمة للنساء من الرجال.

إن قوائم الوظائف المتنامية قد تزايد فيها الثقل على نوعية الوظائف المرتبطة بالرعاية والتربية والتى استفادت منها المرأة للمفارقة بسبب الصور النمطية والعادات. نظريا لا يوجد أى سبب يجعل الرجال غير مؤهلين لهذه الوظائف ولكنهم أثبتوا بشكل ملحوظ عدم قدرتهم على التكيف. على مدى القرن الماضى دفعت الحركة النسوية المرأة للقيام بأعمال ضد طبيعتها فى البداية دخلت المرأة سوق العمل فى فترة ما قبل الزواج ثم واصلت العمل بعد الزواج ثم استمرت فى العمل حتى مع وجود أطفال صغار فى المنزل. إن العديد من المهن التى بدأت خاصة بالرجال أصبحت مليئة الآن فى معظمها بالنساء، يتبادر إلى الذهن الآن مهنة السكرتيرة والمدرسة. لقد حاولت كليات التمريض بشكل جاد إلحاق الرجال فى السنوات القليلة الماضية وحققت الحد الأدنى من النجاح. وكانت الكليات التربوية حريصة على إلحاق الذكور وإيجاد دور لهم للحصول على المدرس القدوة ولكنها مرت بوقت عصيب. لقد حدث تغير قليل نسبيا فى الأدوار الذكورية المقبولة لقد ضاق مدى هذه الأدوار بسبب خجل الرجال من بعض الوظائف التى احتلتها النساء مما جعلهم ينأون عنها. كما كتبت جيسيكا جــروس Jessica Grose فى «الصخرSlate» يبدو على الرجال أنهم مقيدون بقيود ثقافية وبمرور كل يوم فإنهم يتراجعون خطوة إلى الوراء.

سوف تعود بعض الوظائف الذكورية التقليدية عندما نتعافى من الركود الكبير Great Recession - فى حالات الانكماش الاقتصادى يكون الرجال فى العادة أكثر تضررا من النساء لأن وظائف التشييد والتصنيع تعد أكثر انكماشا من الوظائف الخدمية ولكن ذلك لن يغير الاتجاه على المدى البعيد. يقول جيمى لادجJamie Ladge أستاذ إدارة الأعمال بجامعة نورث إيسترنNortheastern University «عندما ننظر إلى الوراء إلى تلك الفترة سوف نرى أنها نقطة تحول للمرأة فى القوة العاملة».

إن تحول القوة الاقتصادية والثقافية من الرجال إلى النساء سوف يكون ملحوظا إلى حد كبير حتى لو لم يتجاوز حدود الطبقة العاملة فى أمريكاAmerica. ولكن المرأة بدأت أيضا فى السيطرة على الإدارة الوسطى وعلى عدد مذهل من الوظائف المهنية فضلا عن ذلك. طبقا لإحصاءات مكتب العمل فى بيرو Bureau of Labor Statistics تشغل المرأة الآن ٥١.٤ ٪ من الوظائف الإدارية والفنية لقد ارتفعت تلك النسبة التى كانت ٢٦.١ ٪ فى عام١٩٨٠ تشكل النساء ٥٤٪ من المحاسبين ويشغلن ما يقرب من نصف وظائف البنوك والتأمينات. حوالى ثلث الأطباء الأمريكيين الآن من النساء وكذلك ٤٥٪ من الأعضاء المنتسبين للشركات القانونية من النساء وكل من هاتين النسبتين فى ارتفاع سريع. إن اقتصاد الياقات البيضاء A White-Collar Economy يقيم القدرات الفكرية والتى يمتلكها الرجال والنساء بشكل متساو، إنه يتطلب أيضا مهارات الاتصال والذكاء الاجتماعى وهى مساحات قد أحرزت فيها المرأة – طبقا للعديد من الدراسات تفوقا طفيفا .ربما يكون الأكثر أهمية الآن هو حصول المرأة على شهادات التعليم المعتمدة رسميا والتى أصبحت النساء حريصات على اكتسابها فى سن البلوغ لفتح المزيد من الفرص. المهنة الوحيدة التى ما زالت تمثل فيها النساء أقلية صغيرة هى الهندسة وحتى فى هذا المجال فقد حققت المرأة مكاسب قوية منذ السبعينيات.

لقد تكيفت النساء مع العمل المكتبى بشكل متزايد ومطرد لفترة ثلاثين عاما أو أكثر مما نجم عنه إعادة تشكيله من قبلهن. يلتقط جويل جارووJoel Garreau هذه الظاهرة فى كتابه الصادر عام ١٩٩١ المدينة النائيةEdge City والذى يستكشف فيه صعود الضواحى كموطن لمكاتب الأعمال فقد بدأت الشركات فى التحرك إلى خارج المدينة ليس فقط بحثا عن إيجار أقل ولكن أيضا بحثا عن عاملين أفضل تعليما وأكثر وعيا واستقرارا فى العمل. لقد عثروا على أفضل الكفاءات من بين الإناث غير العاملات من الطبقة المتوسطة التى تعيش على هامش المجتمعات الحضرية القديمة. عندما يعرض جارو الأحداث بتسلسلها الزمنى فإنه يؤكد على عام ١٩٧٨ باعتباره العام الذى انطلقت فيه شرارة مكاتب العمل فى الضواحى وباعتباره عام الذروة لاقتحام المرأة لسوق العمل. عندما أعد جارو قوائم متطلبات العمل كانت النساء لهم الأفضلية على



يتطور الاقتصاد العالمى
بطريقة تؤدى إلى تآكل التفضيل التاريخى
للأطفال الذكور على مستوى العالم





الأسباب الكامنة وراء هذا التحول تعتبر واضحة وتتبلور حول تفوق التفكير والقدرة على التواصل على القوة البدنية والقدرة على التحمل كمفاتيح للنجاح الاقتصادى



الرجال لما يتمتعن به من الذكاء والطاعة التى تجعل أصحاب الأعمال يثقون فيهن ويعتمدون عليهن. فى عام ١٩٩٩ صور فيلم فراغ فى المكتب Office Space حجم مشاعر الإحباط والغربة التى يمكن أن تسيطر على الرجال داخل العمل مما يجعلهم يشمئزون من وظائفهم ورؤسائهم. كان بيترPeterوزميلاه فى الفيلم يختلسون المال وينامون فى أوقات العمل. فى نهاية الفيلم قام زملاء العمل من الذكور بإحراق المكاتب وتخلى بيتر عن عمله المكتبى من أجل وظيفة كعامل بناء.

بالقرب من قمة الهرم الوظيفى تتمركز المسيرة التصاعدية للمرأة ومن أبرز الرؤساء التنفيذيين فى الماضى والحاضر- وهن قليلات إلى حد إمكانية إحصائهن ومعرفة أسمائهن بمجرد الاطلاع على صفحات الأعمال- هن ميج وايتمانMeg Whiteman فى eBay ، كارلى فيورينا Carly Fiorina فى Hewlett-Packard، آن ملكاهىAnne Mulkahy وأروسولا بيرنزUrsula Burns فى زيروكسXerox ، إيندرا نويىIndra Nooyi فى شركة Pepsi. الإنجاز غير العادى الذى يجب أن يؤخذ فى الاعتبار هو أن كلا من Whiteman ËFiorina تستخدمان وظائفهما كأساس للحملات السياسية. تقريبا ٣٪ فقط من مديرى شركة Fortune ٥٠٠ من النساء ولم يزد الرقم عن ذلك.

الآن وحتى مع تشكيل إطار هذه القضية فإنه من الواضح أن إمساك الرجال بالسلطة فى دوائر النخبة قد يتم التقليل منه. فى دوائر الأعمال يوصف النقص فى عدد النساء على القمة بنزيف العقولBrain Drain وأزمة الاحتفاظ بالمواهب Talent Retention وبالرغم من ندرة النساء كرؤساء تنفيذيين فى كبرى الشركات الأمريكية إلا أنهن يحققن أرباحا تفوق فى قيمتها ما يربحه نظراؤهن من الرجال.

وحتى حول المسائل الحساسة المتعلقة بالأمهات العاملات فإن طريقة الحوار قد تغيرت. ففى العام الماضى فى الحديث حول الرضاعة الطبيعية كنت أشكو من مسألة أن السنوات الأولى من تربية الطفل تعوق المرأة عن الاحتفاظ بمواقع السلطة. ولكن مفهوم كلمة الأمومة أخذ فى التحول البطىء إلى مفهوم آخر أكثر مرونة يرتبط بالحيادية بين الجنسين ويعكس التغيرات فى القوى العاملة. فبالنسبة لخريجى الجامعات من الجنسين فإن ترتيبات العمل المرنة توجد على رأس قائمة مطالب القوى العاملة وذلك طبقا لدراسة نشرت العام الماضى فى مجلة هارفارد بيزنس ريفيوHarvard Business Review وكانت الرغبات الأساسية للشركات هى اجتذاب العاملين الموهوبين والاحتفاظ بهم. بدأت شركة ديلويت Deloitte للاستشارات على سبيل المثال برنامجا يعتبر الآن من البرامج النموذجية يسمى التعديل المهنى للجماهيرMass Career Customization والذى يسمح للموظفين بتعديل ساعات عملهم طبقا للمرحلة الحياتية لهم. يقدم البرنامج شرحا للكيفية التى يتم بها حل تلك القضية المعقدة والتى قد لايمكن تصنيفها كقضية للمرأة فقط.

«تطرق النساء على باب القيادة فى اللحظة المناسبة عندما تتوافق مواهبهن بشكل جيد مع متطلبات اليوم» هذا هو ما كتبه دافيد جيرجنDavid Gergen فى مقدمة كتابه «القوة المستنيرة كيف يمكن للمرأة تغيير ممارسة القيادةEnlightened Power: How Women Are Transforming The Practice of Leadership» ولكن ما هى هذه المواهب؟ كان من المعتقد أن القادة يجب أن يكونوا عدوانيين وتنافسيين والحقيقة أن الرجال يمتلكون هاتين الصفتين بقوة وبشكل طبيعى. ولكن الأبحاث النفسية قد عقدت هذه الصورة. ففى الدراسات المعملية القائمة على محاكاة المواقف التفاوضية يقف الرجال والنساء على قدم المساواة فى المنافسة وان اختلفت الأسباب. فالرجال يميلون إلى إثبات أنفسهم عن طريق السيطرة على الأمور، ولهذا فائدته التفاوضية. ولكن فى الوقت ذاته تميل النساء إلى أخذ حقوق الآخرين فى الحسبان، ولهذا أيضا فائدته. كلا الأسلوبين له فعاليته. هذا ما كتبه عالما النفس أليس إيجلىAlice Eagly وليندا كارلىLinda Carli فى كتابهما «عبر المتاهة Through the Labyrinth» الصادر عام ٢٠٠٧.

على مر السنين كان الباحثون يبالغون أحيانا فى عرض الاختلافات بين الجنسين وكانوا يصفون المواهب المميزة للمرأة كمجرد صور نمطية مرتبطة بالنوع أو الجنس مثل أن النساء أكثر تعاطفا أو إنهن أفضل من يسعى إلى الاتفاق فى الآراء أو إنهن يتمتعن بتفكير جانبى أفضل وأن لديهن حساسية معنوية فائقة وقدرة تحمل فى عالم الأعمال الذى لا يرحم. فى التسعينيات كان ما يبدو فى هذا المجال الخاص بنظرية العمل النسائية أنه يقوى هذه الفكرة ولكن بعد الأزمة المالية الأخيرة أصبح لهذه الأفكار صدى أكبر.

إننا إلى الآن لا نعرف على التحديد ما إذا كان التستوستيرون يؤثر بشدة على صناعة القرارات فى مجال العمل. ولكن مفهوم قائد العمل المثالى قد بدأ فى التغير. أصبح النموذج القديم للقيادة والسيطرة- قائد واحد يمسك بيده كل سلطات صناعة القرار- يعد نموذجا ضيقا ومحدود التفكير. أما النموذج الجديد فهو ما يطلق عليه النموذج «ما بعد الملحمىPost heroic» أو «التحولى Transformational». وفقا لما يقوله جيمس ماك جريجور بيرنزJames Mac Gregor Burns المؤرخ وخبير القيادة إن الهدف هو أن تتصرف وكأنك مدرب جيد، وأن توجه الكاريزما التى لديك لتحفز الآخرين على العمل الدؤوب الخلاق. لا يمثل هذا النموذج تعريفا واضحا للقيادة النسوية ولكن يعكس صدى أدبيا للاختلافات بين الذكور والإناث. على سبيل المثال يقوم أحد البرامج بكلية كولومبيا للأعمال بتدريس القيادة الحساسة والذكاء الاجتماعى متضمنا ذلك قراءة أفضل لتعبيرات الوجه ولغة الجسد. (حاولى تطوير أدائك الأنثوى نحن لا نقول ذلك صراحة ولكن فى الحقيقة إن هذا هو ما نحثهن عليه) هذا هو ما ذكره جيمى لادجJamie Ladge

فى عام ٢٠٠٨ حاولت إحدى الدراسات قياس تأثير هذا الأسلوب الإدارى الأكثر أنثوية. قام الباحثون فى كلية كولومبيا للأعمالColumbia Business School وجامعة مارى لاندUniversity of Maryland بتحليل بيانات عن أكبر ١٥٠٠ شركة أمريكية فى الفترة ما بين ١٩٩٢-٢٠٠٦ لتحديد العلاقة بين أداء الشركات ومشاركة المرأة فى الإدارة العليا. كان أداء الشركات التى احتلت فيها النساء مناصب عليا أفضل. وكان هذا فى الشركات التى اتبعت نظاما أطلق عليه الباحثون «تكثيف الابتكار» والذى من خلاله يقولون أن «الإبداع والتعاون قد يكون لهما أهمية خاصة» وهذا يعد وصفا ملائما لاقتصاد المستقبل.

قد يكون الوضع هو أن النساء يعززن أداء الشركات وقد يكون الوضع أن الشركات ذات الأداء العالى لديها رفاهية وإمكانات تعيين النساء ذوات الكفاءة العالية والإبقاء عليهن. ولكن الاستنتاج الواضح هو أن الشركات الناجحة والمبدعة هى من تشجع المرأة. صنفت نفس دراسة كولومبيا مارى لاند الصناعات الأمريكية من خلال نسبة الشركات التى تعين النساء كمديرين تنفيذيين وكانت شركات بناء السفن والعقارات والفحم ومصانع الصلب والآلات فى آخر القائمة.

إذا كنت تريد أن تعرف إلى أين يتجه العالم فإن النظر إلى القوى العاملة حاليا يمكن أن يتيح لك ذلك. لكى تعرف مستقبل القوى العاملة اقتصاديا وثقافيا عليك أن تمضى بعض الوقت فى الكليات والمدارس المهنية الأمريكية حيث تجرى هناك ثورة هادئة. أصبحت الكليات- أكثر من أى وقت مضى- هى طريق النجاح الاقتصادى وشرط ضرورى للانتقال للطبقة فوق المتوسطة أو حتى إلى الطبقة المتوسطة. إنها الطبقة الوسطى الواسعة التى تميز مجتمعنا. إننا نستطيع أن نرى بوضوح شديد أن المرأة سوف تحتل السيادة تماما على تلك الطبقة





من الرائع أن نرى الفتيات يحققن النجاح مستقبلا ولكن أن نسمح للذكور بالنمو وهم يشعرون باللامبالاة فإن هذا لا يعد وصفة لمستقبل سلمى



نـهـــــايـــة الــرجــــــال



المتوسطة من حيث الجانب الديموجرافى.

لقد سمعنا جميعا عن الفجوة الجماعية بين الجنسين ولكن لم يتم بعد استيعاب تأثيرات تلك الفجوة. الآن حصلت النساء على ٦٠٪ من درجات الماجستير، ٤٢٪ من الدرجات العلمية فى الطب والقانون، و٦٠٪ من درجات البكالوريوس وهى الحد الأدنى الذى يتيح حياة رغدة أصبحت من نصيب النساء وفى تراجع صارخ منذ السبعينيات أصبحت احتمالات حصول الرجال على شهادة لا تزيد عن دبلوم المدارس الثانوية أكثر من النساء. يقول توم مورتينسونTom Mortenson وهو باحث متميز فى معهد بيل لدراسة فرص التعليم العالىPell Institute for Study of Opportunity in Higher Education قد يعتقد المرء أن الرجال يتحتم عليهم أن يتصرفوا بطريقة عقلانية ويحصلوا على التعليم الذى يحتاجونه للمضى قدما فى حياتهم ولكنهم فى الغالب يفشلون فى التكيف.

فى ربيع هذا العام قمت بزيارة إلى بعض المدارس فى جميع أنحاء مدينة كانساسKansas Cityلكى أتحسس الشعور حول ديناميكيات كلا الجنسين فيما يتعلق بالتعليم الأعلى. كانت بدايتى فى الحرم الجامعى لكلية ميتروبوليتان للمجتمع بوسط المدينةMetropolitan Community Collage . تعد ميتروبوليتان مكانا يذهب إليه الناس لكى يتعلموا مهارات العمل وليكونوا مجارين للتغيرات الحادثة فى الاقتصاد. وكما هو الحال فى معظم كليات المجتمع هذه الأيام كان غياب الرجال هو الأمر الواضح. فى فترة ما بعد الظهر فى أحد الأيام كنت فى الدور السفلى لأحد المقاهى وكانت هناك العديد من النساء المنهمكات فى الدراسة فى مادة الأحياء وفى نفس الوقت كانت معظمهن تتجاهل رسائل المحمول القادمة من مربيات أطفالهن. امرأة واحدة فقط كانت فى رداء مساعد طبيب كان يبدو عليها الشعور بالإعياء للدرجة التى توحى بأنها على وشك الانهيار فى المصعد من جراء ضغط العمل.

عندما تولى برنارد فرانكلينBernard Franklin منصب رئيس الجامعة فى عام ٢٠٠٥ تأمل الوضع ثم أخبر موظفيه بأن أولوياتهم الجديدة هى توظيف «المزيد من الأولاد» ، قام بتأسيس برامج توجيه للرجال ومجموعات للدراسة وجمعيات طلابية من الرجال فقط. لقد بذل مجهودا خاصا لكى يدعم الطلاب الذين أطلقوا عليه لقب « الملاذ» وهو يذكر أن هذا الأمر قد سبب إزعاجا لمعارفه من النساء. الآن وبعد سنوات قليلة فإن موجات المد النسائية ما زالت تكتسح المدارس فالفتيات يشكلن ٧٠٪ من الطلاب إنهن يأتين لكى يتدربن على مهن التمريض والتدريس. فالنساء الأمريكيات من أصل أفريقى يتعلمن برغم تجاوزهن للسن التقليدية لطلبة الكليات والطبقة العاملة من النساء البيض تأتى من الضواحى بهدف البحث عن وسائل لكسب الرزق فى حين يتخلف الكثير من الرجال عن التعليم ويأتون بالكثير من الأعذار والمبررات.

ربما يكون هناك انطباع بأن النساء يتجهن إلى الكليات المجتمعية بنسبة أكبر من الرجال- فى الواقع فإن هذا يشمل كل الكليات. تحصل النساء اللائى يتراوح أعمارهن بين ٢٥-٣٤ ولديهن شهادة دبلوم المدارس الثانوية فقط على متوسط دخل ٢٥,٤٧٤ دولار بينما يحصل الرجال الذين يحملون نفس المؤهلات على ٣٢,٤٦٩دولار. لقد اختفت تقريبا الوظائف التى توفر الكسب الجيد مدى الحياة فعلى سبيل المثال فى مدينة كانساس تحولت الصناعات من الحديد الصلب إلى الصناعات الصيدلانية وتكنولوجيا المعلومات. تقول جاكلين كينجJacqueline King من المجلس الأمريكى للتعليمAmerican Council on Education «إن الاقتصاد لم يعد بجانب الرجال كما كان من قبل». « قد تعتقدون أن الرجال والنساء يذهبون إلى هذه الكليات بنفس المعدلات ولكن هذا لا يحدث فى حقيقة الأمر».



تزايد عدد النساء غير القادرات على العثور على رجال بنفس الدخل والتعليم جعلهن يتخلين تماما عن فكرة الزواج



فى عام ٢٠٠٥ أجرى فريق كينج دراسة على البالغين من ذوى الدخل المنخفض فى الكليات. يمر الرجال بوقت عصيب لكى يتمكنوا من الالتزام بالحياة الدراسية. إنهم يتمنون الانتظام فى الحياة الأكاديمية ولكنهم يشعرون بالضجر أو الخوف أحيانا من العمل الدراسى. لقد كانوا يشعرون بالعزلة والفشل فى اكتساب زملاء دراسة أو الانضمام إلى مجموعات دراسية أو حتى التعامل مع المستشارين لمساعدتهم على التكيف. تذهب الأمهات إلى المدرسة ويعتبرن أنفسهن قدوة لأطفالهن بينما يقلق الآباء من القيام بذلك لخوفهم أن يؤثر ذلك على مسئولياتهم عن اكتساب الرزق.

بدأت الفجوة بين الطلاب من الجنسين تشكل أزمة لبعض الناس فى أوساط التعليم العالى فى منتصف عام ٢٠٠٠ عندما بدأت تظهر آثارها ليس فقط فى الكليات المجتمعية أو كليات الفنون الليبرالية ولكن فى الجامعات العامة والرئيسية مثل ¨UC¨ SUNY UNC. تتجه جامعة ميسورى Missouri فى مدينة كانساس مثل الكثير من الجامعات إلى استحواذ النساء على الدراسة فيها، هى جامعة بحثية يزيد عدد الطلبة فيها عن ١٣ألف طالب تقريبا ٦٠٪ منهم من النساء وهذا من شأنه أن يغير الجو العام للدراسة وخاصة عند احتلال النساء لمناصب قيادية فى الجامعة. فى فبراير/ شباط قمت بزيارة لأشلى بيريز Ashley Burress رئيسة الهيئة الطلابية فىUMKC - مع ملاحظة أن رؤساء الهيئات الطلابية الحكومية الآخرين كانوا أيضا من النساء- كانت بيريز ذات الأربعة وعشرين ربيعا فتاة لطيفة أمريكية من أصل أفريقى تعد للدكتوراة فى الصيدلة وكانت لها نفس الشكوى التى استمعتها من الكثير من الفتيات وهى أن الفتيان يشعرون بالفخر ويحيون بعضهم البعض عندما يحصلون على تقدير «مقبول C » بينما تشعر الفتيات بخيبة أمل ويواسين أنفسهن عندما يحصلن على تقدير «جيدB» يلعب الأولاد ألعاب الفيديو فى غرفهم الخاصة بينما تتزاحم البنات فى قاعات الدراسة. تقول بيريز «فى عام ٢٠١٢ سوف أكون الدكتورة بيريز هل يمكن حينذاك أن أتعامل مع رجال لا يحملون حتى البكالوريوس، إننى أتمنى أن تكون لى علاقات ولكنى فى الواقع أضع نفسى داخل دائرة صغيرة حقا».

تعد مدرسة UMKC خاصة بالطبقة المتوسطة العاملة حيث لا تعد الأدوار التقليدية بين الجنسين شيئا بغيضا. ومع ذلك فقد أدركت- عندما تحدثت فى هذا الربيع مع الطلاب كم وكيف التحولات التى حدثت فى التوقعات بين الرجال والنساء. لقد قامت أمهات العديد من الطالبات بتكوين كيانهن الوظيفى فى وقت لاحق فى الحياة - أحيانا فيما بعد الطلاق- وبالطبع قدمن النصيحة لبناتهن بتكوين كيان وظيفى مبكرا.

فيكتوريا Victoria، ميتشيل Michelle، إيرين Erin ثلاث صديقات فى أحد الأندية النسائية. تعمل والدة فيكتوريا نادلة- نصف الوقت- فى أحد الفنادق. تدرس فيكتوريا علم الأحياء وتتمنى أن تكون طبيبة جراحة ولذلك تخطط للالتحاق بكلية الطب. لا ترغب فى الأطفال لفترة ما فى عمرها لأنها تعرف أنها ستكون مرتبطة بالعمل فى المستشفى بما لا يقل عن مائة ساعة أسبوعيا وحتى عندما يكون لديها أطفال فسوف تكون «هى» الطبيبة البارعة فى العمل وسوف يكون «هو» - أيا كان اسمه- فى المنزل يلاعب الأطفال.

ميتشيل تصف نفسها بالكمال ولديها خطة مرسومة بدقة لحياتها تتخصص فى علم النفس وتتمنى أن تكون معالجة أسرة بعد الدراسة فى الكلية سوف تتقدم إلى الدراسات العليا وتبدأ فى تدريب عملى إنها على دراية كاملة بمصادر الاستشارات المهنية فى الجامعة ولكن ماذا عن خطيبها؟

ميتشيل: لقد قام بتغيير تخصصه ما يقرب من ١٦ مرة.الأسبوع الماضى كان



أصبحت صورة رجل مارلبورو للقوة غير معقولة حتى فى الإعلانات وأصبحت الصورة البديلة لها هى صورة الرجال المتقزمين فى إعلان Dodge Charger



يرغب فى تخصص طب الأسنان هذا الأسبوع غير تخصصه إلى العلوم البيئية.

إيرين: هل قام بالتغيير هذا الأسبوع مرة أخرى؟ عندما يكون لديكم أطفال بالتأكيد سوف يمكث فى المنزل. ماذا يريد أن يفعل بشكل جاد؟

ميتشيل: هذا يتوقف على أى يوم نحن فيه من أيام الأسبوع! إن الأمر بالفعل مضحك.

تختفى إلى حد كبير الفجوة بين الجنسين بين الطلاب الذين ينتمون إلى عائلات ذات دخل كبير. ولكن القصة ليست بهذه البساطة، يميل الطلاب الأغنياء إلى الالتحاق بمدارس النخبة الخاصة، هذه المدارس لها قواعدها الخاصة لقد قاموا بهدوء بفتح جبهة جديدة من العمل الإيجابى. فى عام ٢٠٠٣ أظهرت دراسة قام بها الاقتصاديان Sandy Baum و Ebang Goodstein أنه من بين الكليات الانتقائية للفنون الليبرالية تزداد فرص قبول المتقدمين بنسبة تتراوح من ٦,٥٪- ٩٪ فى حال كونهم ذكورا. والآن فقد صوتت لجنة الولايات المتحدة للحقوق المدنية U.S Commision on Civil Rights للتحقيق بشأن ما وصفه بعض الأكاديميين «بالسر المكشوف» حيث تقوم بعض المدارس الخاصة بالتمييز فى القبول من أجل الحفاظ على ما يعتبرونه توازنا ملائما بين الجنسين.

تقول Jennifer Delahunty المسئولة عن القبول والمنح المالية فى كلية كينيون فى ولاية أوهايو فى مقال لها بالنيويورك تايمز إن مشكلة التوازن بين الجنسين مازالت موجودة- كالفيل المحبوس فى غرفة ولم تذهب هذه المشكلة بعيدا. فالطالبات المتقدمات ينجحن فى إدارة شئونهن بأنفسهن ويتخطين المقابلات الشخصية ويقمن بزيارات ناجحة لأعضاء هيئة التدريس. ولكن لاحظت الكلية على العديد من الذكور جلوسهم فى المدرجات الخلفية مغمضى العيون منتظرين أوامر الأمهات بماذا يفعلون وأين يذهبون. أحيانا نقول « يا له من مقال جميل كتبته ماما» إنها تذكر ذلك بسخرية لا تخلو من مسحة حزن.

من أجل تفادى تجاوز- نسبة ٦٠٪ - البغيضة بدأ المسئولون عن الالتحاق بالجامعات يبتكرون لغة لتفسير عجز الذكور منها « عدم نضوج المخ واكتماله»، «عدم الوصول إلى ذروة النمو» وما إلى ذلك. وفى الوقت نفسه أصبحت Delahunty قلقة بشأن الإناث ذوات التعليم الفائق والذكور ذوى التعليم الناقص لقد تحول الوضع من نكتة إلى وضع خطر أشبه بالمؤامرة. لقد طلبت من أختها طبيبة الأطفال أن تساعدها فى تفسير الوضع» ربما يكون هؤلاء الأولاد مثل عصافير الكناريا المحبوسين داخل منجم فحم مما تسبب فى استنشاقهم للسموم والأشياء الضارة من البيئة مما تسبب فى تغيير الحمض النووى DNA لهم ربما يكونون مثل الضفادع الأكثر عرضة للتشويه من غيرهم».



من الواضح أن هناك نسبة من الأولاد يكونون غير متكيفين مع الالتحاق بالكليات خاصة فيما بين ١٨-٢٠ عاما، يمر الأولاد بوقت عصيب ليجدوا لأنفسهم مكانا هذه الأيام. «منذ أربعين أو ثلاثين سنة مضت إذا كنت واحدا من هؤلاء الذين لا يروق لهم التعليم فى المدارس الثانوية حينئذ كانت لديك قنوات من خلالها تستطيع الدخول إلى تيار الاقتصاد الرئيسى» يذكر ذلك Henry Farber الخبير الاقتصادى فى Princeton ويضيف « عندما تستيقظ كنت تجد حولك وظائف، كانت هناك العديد من الوظائف الصناعية الجيدة، كنت تستطيع أن تكون من ذوى الياقات الزرقاء وتصنع لنفسك كيانا وظيفيا جيدا الآن ولت تلك الوظائف».

منذ بدايات الثمانينيات اكتسحت النساء الكليات بينما كان التحاق الذكور يتم ببطء شديد. كانت الفوارق موجودة قبل مرحلة الكليات وانطلق الكتاب والباحثون فى تفسيراتهم لفشل الذكور فى التعليم بمراحله المختلفة وقاموا بتحديد الجناة فى هذه الواقعة. كان أولهم هو المفاهيم النسوية الخاطئة التى تتعامل مع الأولاد الطبيعيين مبدئيا على أنهم متحرشون Christina Hoff Sommers، الثانى هو اختلاف كيمياء المخ Michael Gurian، الثالث المناهج الشفهية التى تركز على أشياء لا تتطابق مع اهتمامات الذكور Richard Whitemire ولكن مرة أخرى فإنه ليس من الواضح حدوث أى نوع من التغيير بالنسبة للذكور الشىء الوحيد الواضح هو أن المدارس الآن مثلها مثل الاقتصاد أصبحت تعطى قيمة لضبط النفس والتركيز واللباقة فى الحديث والتى فى معظمها تكتسب بسهولة لدى الفتيات الشابات.

اقترح الباحثون العديد من الحلول. تتنامى الحركة لكى تغطى كل مدارس البنين وكذلك تحترم كل أنواع التعليم الفردى للأولاد. يعتقد البعض أن الأولاد لابد أن تكون لهم الحرية فى التحرك داخل الفصول أو أن يحصلوا على المزيد من الوقت فى الاختبارات أو أن يدرسوا فى كتب تتوافق مع اهتماماتهم. فى محاولة للتواصل مع الأولاد شكلت بعض الكليات فرقا لكرة القدم وتزامن ذلك مع البدء فى تدريس برامج هندسية. إن وضع الأولاد بالفعل يعد نذيرا بالخطر.

سواء تغير الأولاد أم لا، فقد تجاوزنا الوقت لبدء المحاولات والتجارب. من الرائع أن نرى الفتيات والشابات يحققن النجاح فى السنوات المقبلة ولكن أن نسمح لأجيال من الأولاد بالنمو وهم حاملين هذا الشعور باللامبالاة فإن هذا لا يعد بأية حال وصفة لمستقبل سلمى. لدى الرجال جماعات دعم طبيعية تفيدهم بقليل من الرعاية الاجتماعية، ولكن جماعات حقوق الرجال المتواجدة فى الولايات المتحدة تقف على شفا موجة من الغضب والمشاعر المعادية للمرأة. نظام الزواج على وشك الانهيار أو أن الزواج لا يحدث أصلا، الأطفال ينشأون بدون آباء. إن تعالى قوة المرأة يعد تهديدا أكثر من كونه أمرا يحتفى به.

كيف يكون شكل المجتمع الذى تعتلى فيه المرأة القمة؟ نحن لدينا ملامح طفيفة. فلأول مرة يضم المجتمع الأمريكى فى الفئة العمرية من ٣٠-٤٤ سنة نساء جامعيات أكثر من عدد الرجال الجامعيين وقد تسببت آثار ذلك فى قلب ديناميكيات الحياة الأسرية رأسا على عقب. فى عام ١٩٧٠ كانت المرأة تساهم بما قيمته ٢٪-٦٪ من دخل الأسرة. الآن يبلغ الدخل الذى تأتى به الزوجة ٤٢,٢ ٪ وحوالى ٦ من بين كل ١٠ سيدات- معظمهن عازبات هن المعيل الأساسى لأسرهن. تقول هيزر بوشى Heather Boushy من مركز التقدم الأمريكى» إن السؤال حول مسئولية المرأة عن العمل لم يعد له موقع لأن النساء أصبحن بالفعل يعملن لقد تلاشت تماما فكرة أن يعمل الرجل وتبقى المرأة فى المنزل».

لقد تغير مفهوم الزواج بشكل جذرى منذ عام ١٩٧٠. أصبح دخل النساء هو المحدد الرئيسى الذى يحدد إمكانية صعود الأسرة على سلم الطبقات أم ركودها. كما أن تزايد عدد النساء- غير القادرات على العثور على رجال بنفس الدخل والتعليم جعلهن يتخلين تماما عن فكرة الزواج. فى عام ١٩٧٠ كانت ٨٤٪ من النساء فى الأعمار من ٣٠-٤٤ متزوجات. الآن ٦٠٪ فقط. فى عام ٢٠٠٧ كانت ٤٣٪ من النساء دون دبلوم المدارس الثانوية متزوجات. إن الخاسر الوحيد فى المجتمع الآن هو الرجل الذى حقق مكاسب اقتصادية طفيفة منذ السبعينيات وحتى الآن سواء كان هذا الرجل غنيا أم فقيرا ذا تعليم جامعى أم دون ذلك.

أمضت عالمة الاجتماع كاثرين إيدين Kathreyn Edin خمس سنوات فى الحديث مع أمهات ذوات دخل منخفض فى الضواحى الداخلية لمدينة فيلادلفيا. ووجدت أن هذه الأحياء قد تحولت إلى النظام الأمومى الذى تكون فيه السلطة الكاملة للمرأة التى تملى على الرجال ما يجب أو لا يجب أن يفعلوه. إن ما كان غائبا عن نصيرات الحركة النسائية هو مدى القوة التى تكتسبها المرأة عندما لا تكون مرتبطة برباط الزواج.

تقول إيدين إن المرأة تصنع 



لقد قفزت نسبة الأطفال المولودين خارج إطار الزواج إلى ٤٠٪ فى خلال السنوات القليلة الماضية





نهاية الرجال

كل القرارات بدءا من إنجاب طفل وكيفية تربيته ومعيشته هو والأسرة إن المبدأ السائد لدى النساء هو «إما طريقى وإما الرحيل My Way or The High Way » (والمقصود هو فرض المرأة رأيها قسرا/ المترجمة). تقول إيدين منذ ثلاثين سنة مضت وطبقا للمعايير الثقافية حينذاك كان يستطيع الزوج أن يقول «حسنا.. اتبعينى إن استطعت» الآن فقد تغير الحال فالنساء بالرغم من احتياجهن الشديد لأب لأطفالهن فإنهن متشائمات حول إمكانية أن يحقق لهن الرجال توقعاتهن الأخرى. النساء لا يرغبن فيهم كأزواج وهم ليس لهم دخل ليقدموه لذلك فمافائدتهم اذن؟؟

تقول إيدين «لا شىء.. إنهم لا يملكون أى شىء. لقد تمت إبادة الرجال فى فترة ركود التسعينيات ولن تتحسن الأوضاع أبدا إن الوضع بغيض جدا». وتضيف أن هذا الوضع لا يشكل أبدا السعادة النسائية القصوى. كما أن ظاهرة الأطفال الذين يولدون لآباء غير متزوجين قد انتشرت فى الأحياء والضواحى الصغيرة والأرياف وما زالت فى التزايد والانتشار بعد أن مرت بفترة من الركود. لقد قفزت نسبة الأطفال المولودين خارج إطار الزواج إلى ٤٠٪ فى خلال السنوات القليلة الماضية. ومعظم الأمهات يكافحن من أجل المال وأكثرهن نجاحا من تعمل وتدرس وتفنى نفسها من أجل إطعام الأطفال وأخيرا تسقط فى نعاس فى مصعد الكلية التى تدرس بها. ومع ذلك فهى المسئولة. يقول W Bradford Wilox رئيس مشروع جامعة فيرجينيا الوطنى للزواج « إن التغيرات الأسرية فى العقود الأربعة الماضية كانت سيئة بالنسبة للرجال والأطفال ولكن ليس من الواضح أنها كانت كذلك بالنسبة للنساء».

اقترح الباحثون- على مر السنين نظريات مختلفة لتفسير تآكل الزواج فى الطبقات الدنيا منها ارتفاع تكاليف الحياة أو اختفاء فرص العمل وكذلك اختفاء الرجال القادرين على الزواج. ولكن تعتقد إيدين أن النظرية الأكثر إلحاحا هنا هى أن الزواج اختفى لأن النساء بدأن فى وضع الشروط وكانت هذه الشروط أعلى بكثير مما يستطيع الرجال حولهن تحقيقه. « كنت أتمنى فارس الاحلام الوسيم المغوار ذا الحصان الأبيض ولكنى لم أجد فيمن عرفتهم من الرجال من يرقى إلى هذا الفارس ولذلك فقد صنعت من نفسى المرأة والأم والأب والراعى والممول» هذا هو ما قالته إحدى النساء لإيدين. ما يبدو على مستقبل الدولة كلها إنه يتشابه مع حاضر الطبقات الدنيا من الأمريكان الأفريقيين حيث بدأت النساء يشببن عن الطوق ولكن لا يتبعهن الرجال. سوف تتبع النساء البيض من الجامعيات نظيراتهن من السود فى شكل جديد من الطبقة المتوسطة حيث تتزايد ندرة الزواج.

مثل الانقلاب الذى حدث فى النظام التقليدى فإن بوادر اضطراب عميق ظهرت فى أماكن أخرى غريبة. فاليابان تواجه حالة من الذعر الوطنى من جراء ظهور جماعة «العشبيين Herbivores» وهم مجموعة من الشباب المعارضين للصورة النمطية للرجل السكير المعتمد فى حياته على مرتب ثابت تلك الصورة الخاصة بآبائهم وبدلا من ذلك فإنهم يزرعون الحدائق وينظمون حفلات الشاى ويقلدون النساء بشكل تهكمى ساخر ويرفضون الجنس. إنهم يطلقون على الفتيات من نفس جيلهم فى اليابان اسم «آكلات اللحوم Carnivors» وأحيانا «الصائدات».

لقد أنتجت ثقافة البوب POP الأمريكية اختلافات لا نهاية لها حول الذكور، فنموذج الرجل العاطل الذى يواجه تحديات برغم رومانسيته ويكون دائما خاسرا أحيانا يتم تصويره فى شكل مراهق كبير كما فى فيلمى «عذراء فى الأربعين» و«Knocked Up» لجود أباتوس Judd Apatow، وقد يتم تصويره فى شكل قبيح معاد للإنسانية كما فى «جرينبرج» لنوح باومباخ Noah Baumbach» إن شخصية الرجل يمكن تصويرها بمذاقات مختلفة كالحلو والمر والحنون والساخر ولكن الشكل الوحيد الذى لا تجسده هو كيف يكون رجلا. يقول Ben Stiller أحد الشخصيات فى جرينبرج : نحن ننادى بعضنا البعض «يا رجل» ولكن هذا النداء لا يزيد عن كونه مزحة كتقليد للآخرين. فى الوقت نفسه فقد الروائى الأمريكى الذكورى الروح المعتادة التى تستخدم الجنس كوسيلة لإثبات الهيمنة الذكورية لشخصياته. تقول كاتى روفى Katie Roiphe فى مقالها «العارية والمصارع» إن النمط الجنسى الحالى يعد أكثر اقترابا من الطفولة فالبراءة تعد صيحة أحدث من الرجولة ومجرد العناق يعد أفضل من الجنس.



فى الوقت نفسه ظهر نوع جديد من النساء المسيطرات. نوع مثير للقلق وأحيانا للمخاوف كان ظهور الأسد الأفريقى Cougar كرمز مجازى للنساء العجائز اليائسات مجرد مزحة والآن فقد تحول إلى اتجاه سائد حتى فى هوليوود التى تعد موطنا لما يزيد عن خمسين منتجا من صانعى النجوم. تتخذ كل من سوزان ساراندون Susan Sarandon وديمى مور Demi Moore رفقاء من الشباب الصغار بهدف الترفيه ويطلقون عليهم لقب الولد اللعبة Boy Toy النجم آرون جونسون Aaron Johnson بطل فيلم «Kick- Ass» البالغ من العمر تسعة عشر عاما فخور بكونه الولد اللعبة للمرأة التى اكتشفته وهى تبلغ أربعة وعشرين عاما. مؤخرا كتب جيل كولينز Gail Collins الصحفى بالنيويورك تايمز عن ظاهرة الكوجار «الأسد الأفريقى» قائلا يبدو أن هذه الظاهرة لم تعد خاصة بالنساء اليائسات فقط بل هى أيضا للرجال الأمريكيين الشباب الذين يعتمدون على نساء أكبر منهم سنا وبالطبع يحصلن على المقابل. يتضمن فيلم «عاليا فى الجو Up in the Air» خلفية من عهد الركود الاقتصادى وتسريح العمال والنقطة المحورية التى يركز عليها الفيلم هى تحطيم غرور الرجل الأمريكى. الشخصية الأساسية فى الفيلم يقوم بأدائها النجم جورج كلونى George Clooney هى شخصية رجل يعانى من فقدان جاذبيته فى عيون رفيقته الشابة بسبب فرق العمر وبعد ذلك يتم رفضه من قبل امرأة أكبر منه سنا بعد أن تبادلا الحب وكان السبب كونها متزوجة. جورج كلونى ! أكثر الرجال جاذبية فى الحياة يتم رفضه مرتين فى فيلم يؤدى فيه مشاهد حميمية ، إذا حدث هذا مع جورج كلونى فماذا يتبقى من أمل لغيره من الرجال؟

فى الحقيقة أنه كلما زادت هيمنة النساء زادت أنماطهن السلوكية فى التصرف كجنس مسيطر. لقد ارتفعت معدلات العنف التى ترتكبها النساء فى منتصف العمر منذ الثمانينيات ولا أحد يعرف السبب. نساء قتلة على مستوى عال من الاحتراف تظهر أخبارهن بشكل منتظم فى نشرات الأخبار. Amy Bishop أستاذة القتل فى الاباما، Jihad Jane وصديقتها Jihad Jamie أحدث جيل من الأرامل السود Black Widows ومسئوليتهما عن التفجيرات الانتحارية فى روسيا. فى رواية Roman Polanski الكاتب الشبح The Ghost Writer تمت كتابة شخصية زوجة السياسى بشكل يصورها كقاتلة بدم بارد فى مؤامرة الشر. لقد أعادت الليدى جاجا Lady Gaga كتابة Thelma and Louise كقصة تدور ليس حول فكرة تمكين المرأة كموضوع بعيد المنال ولكن حول سلطة امرأة لا ترحم فبدلا من قتل أنفسهما فقد قامت هى وصديقتها بقتل صديقها Beyonce وغيره بشكل عشوائى فى موجة قتل ثم قامتا بالفرار فى شاحنة صغيرة هى سيارتهما البيك أب الصفراء ثم صاحت مفاخرة « لقد فعلناها يا نحلة العسل».

فى الوقت نفسه فقد أصبحت فيما يبدو صورة رجل مارلبورو الممثلة للرجل المتوحش أسد البرية بعيدة المنال وغير معقولة حتى فى الإعلانات وأصبحت الصورة البديلة لها هى صورة الرجال المتقزمين فى إعلان Dodge Charger التى تم بثها فى فبراير/ شباط هذا العام



الزواج اختفى لأن النساء بدأن فى وضع الشروط وكانت هذه الشروط أعلى بكثير مما يستطيع الرجال حولهن تحقيقه



فى إطار المسابقات الرياضية. قد يعتقد المرء أن يوم الأحد الرياضى هو اليوم الأنسب لإقامة الاحتفالات السينمائية بالرجل مفتول العضلات، فالرجال فى إعلانات المسابقات الرياضية يستطيعون رمى الكرات والدخول فى سباق الدراجات النارية والقيام بكل ما يتخيلون إمكانية القيام به فى حالة غياب النساء عن كبح جماحهم.

بدلا من رجل مارلبورو كانت الصورة لأربعة من الرجال يحدقون فى الكاميرا متجهمين لا يتحركون فيما عدا قليل من الترنح الذى يعطى انطباعا بتعاطيهم للمهدئات، أو كما لو كانوا بالكاد يمنعون أنفسهم من الشجار. لا تتحرك شفاههم ولكن الأصوات الصادرة تكاد تعبر عن حالة الغضب والاحتقان المسيطرة عليهم. لقد تم إخراسهم من قبل أصحاب الأعمال والفاشيين والنساء. على وجه الخصوص النساء» سوف أضع مقعدى وأهدأ، سوف أكف عن الغضب وقد أحمل ملمع الشفاه الخاص بك« كل ما سبق يتم التعبير عنه بتعبيرات مكتومة باردة. يلمح الإعلان إلى حجم المشاعر المكبوتة والمحتقنة ضد المرأة وينتهى بصورة خيالية غير مقنعة للرجال وهم يقفون فى جراة مشيرين إلـ Dodge Charger وهو يتجه نحو الكاميرا معلنين شعارMan's Last Stand فمن أين جاءت هذه الجرأة لرجال يتسمون بالصمت والسلبية طوال العرض. إن الأمر المتوقع حقا هو أن نرى امرأة ذات شفاه لامعة وهى تقود هذا الوحش. ■

هـــــوامـــــش

(1) Rosie the Riveter is a cultural icon of the United States representing the six million women who worked in manufacturing plants which produced munitions and material during World War II while the men (who traditionally performed this work) were fighting in the pacific and European Theaters. This "character" is now considered a feminist and a herald of women's.icon in the US economic power to come.

(٢) حزام الصداRust Belt هى منطقة فى أجزاء من شمال وشرق الولايات المتحدة جاءت هذه التسمية عندما انخفض حجم الصناعة فى السبعينيات فى هذه المنطقة وعندما أغلقت المصانع، كانت محاطة ببوابات أصبح يعلوها الصدأ وزادت معدلات البطالة فى هذه المنطقة./ المترجمة

هـــل مـــن ضـــرورة للآبـــاء

Are Fathers Necessary?

بـامـيــــلا بـــــاول

Pamela Paul

■■ كيفما كان عنف وشدة وإيلام الصفعة التى تلقاها وغيره الكثيرون من جراء الركود الاقتصادى تلك الصفعة التى تسببت فى تعثره وتضاؤل فعاليته فسيظل الرجل هو روح الأسرة وصاحب الدور الحاسم فيها وسيبقى مفاخرا بهذا الدور. هذا هو ما ألمح إليه باراك أوباماBarak Obama فى سياق خطابه فى عيد الأبFather,s Day فى عام ٢٠٠٨ عندما أكد على حيوية دور الأب كأساس لكل أسرة. ما قاله أوباما عن الرجال أنهم هم المعلمون والمدربون والموجهون والقدوة وهم أمثلة النجاح كما أنهم يدفعوننا باستمرار إليه.

لا يعد أيا من هذه الأدوار مثار جدل خاص حتى فى ظل الإحصاءات المتشائمة. أسهب أوباما فى الحديث عن الأطفال الذين ينشأون بدون آباء فهؤلاء لديهم خمسة أضعاف من احتمالات ارتكابهم للجرائم ولديهم تسعة أضعاف من احتمالات التسرب من المدرسة ولديهم عشرون ضعفا من احتمالات الزج بهم فى السجون. يعد أوباما- شديد التأثر بفقدان الوالد حالة استثنائية مبهرة فى وسط فاقدى الأب ولكنه شديد الإحساس بهم. يستشهد أوباما بدراسة من أحدث الدراسات التى نالت قبولا بشكل عام فى حديثه عن الأطفال فاقدى الأب وما يتعرضون له من مشاكل متمثلة فى عدم حصولهم على فترة كافية من الرضاعة الطبيعية وقابليتهم فى أثناء نموهم لحدوث مشاكل نقص الانتباه أو فرط النشاط وعدم قدرتهم على تكوين علاقات مترابطة وافتقارهم إلى احترام الذات وتعرضهم للحوادث و أزمات الربو والسمنة المفرطة.

تتوق الأمهات من الحركة النسائية التحررية إلى عودة الأمور إلى نصابها ويتمنين مشاركة الرجال فى عملية تربية وتنشئة الأطفال ويؤمن بصعوبة هذه العملية التى يسهلها الدور الثنائى المتبادل بين الأم والأب فالآباء لهم مزاياهم الفريدة.

إن المشكلة الوحيدة الموجودة فى هذه الدراسة هى أن نتائجها ليست مثبتة. فى عدد فبراير/ شباط من مجلة الزواج والأسرةJournal of Marriage and Family أكد كل من جوديث ستاسىJudith Stacey أستاذ الاجتماع فى جامعة نيويورك New York University وتيموثى بيبلارزTimothy Biblarz وهو ديموجرافى من جامعة جنوب كاليفورنيا University of Southern California على أهمية دور الجنسين معا فى تربية الأطفال. يشير كل من ستاسى و بيبلارز إلى أن أفكارنا حول الوالدين وما يقدمانه للأبناء تستند مبدئيا على الاختلافات الموجودة بين الوالدين المتزوجين أو النساء الفرادى وكذلك التوجه الجنسى والوضع العائلى ونوع الزواج من حيث كونه زواج المثليين أو المثليات أو زواج ذوى الميول الغيرية وأيضا وضع الزوج بمفرده أو الزوجة بمفردها. كل هذه عوامل تؤثر فى تربية الأبناء ولكن معظم المعلومات المتوافرة تعجز عن التمييز بين الأب وبين ما يقدمه من ماديات وكذلك تعجز عن التمييز بين وجود الأب أو ووجود الوالد الثانى أيا كان جنس هذا الوالد.



طبقا لدراسات مقارنة موثوق بها يذهب مورفى براونMurphy Brown إلى أننا نستطيع القول بأن الأمهات العازبات يملن إلى المشاركة الأكثر مع أطفالهن، إنهن يضعن القواعد ويتواصلن معهم بشكل أفضل يتيح مزيدا من القرب من الأطفال وهذا لا يتم توافره مع الآباء العزاب الذين يجدون صعوبة فى متابعة الأطفال وصداقاتهم وتطور أدائهم الدراسى. يؤدى أطفال الأمهات العازبات بشكل أفضل فى الاختبارات القياسية ويحصلون على أعلى الدرجات. فى الغالب يكون المراهقون من أبناء الأمهات العازبات أقل عرضة للانخراط فى سلوكيات جانحة تستدعى العقاب بالمقارنة بهؤلاء من أبناء الآباء العزاب.

يدعى بيبلارز وستاسى أن الأهم حقا هو الكيفية التى يكون عليها الوالدان وليس نوع جنسهما ويذكران أن التحدى الأساسى لهذه الفكرة حول الأب الحقيقىThe Essential Father قد يكون هو الأمهات المثليات ويزعمان أن هؤلاء الأمهات يقضين وقتا مع أطفالهن أكثر من الآباء و إنهن قادرات على احتواء النزاعات بين الأطفال وأن الوضع أقل توترا مقارنة مع الأزواج مختلفى الجنس والمشاركة فى تربية الأطفال تتم بانسجام وارتياح أكبر. يلمس أطفالهن تواجدهن ويعتمدون عليهن بشكل أكثر مما يتاح للأطفال من الأزواج مختلفى الجنس، وأطفال المثليات يناقشون المزيد من القضايا العاطفية مع« والدتيهم» وتكون مشاكلهم السلوكية أقل ويظهرون اهتماما أكثر بالدراسة ويبذلون المزيد من الجهد فى المدرسة.

طبقا لادعاءات ستاسى وبيبلارز «يبدو أنه عندما تقوم اثنتان من النساء باختيار بعضهما البعض لتكونا والدتين فإنهما تقدمان جرعة مضاعفة من الطرق الأنثوية فى ممارسة الوالدية» ويستنتجان طبقا لهذا الزعم« أنه يمكن الافتراض العلمى بأنه فى المتوسط تكون امرأتان والدتين أفضل من امرأة ورجل أو على الأقل أفضل من امرأة ورجل بالتقسيم التقليدى للأدوار فى الاسرة».

آه.. يبدو أن هناك نقد لاذع، فالجميع من أصحاب الاتجاه المعاكس يزمجرون. إن معظم ذوى الميول الجنسية الغيرية يحبون التقسيم التقليدى للأدوار. إن المتمسكات بحالة الوالدين مختلفى الجنس يقدمن عرضا مغريا للرجال» أيها الآباء إن كل ما تريدونه هو الشجار والصخب فى البيوت، بينما سنظل نحن الأمهات حارسات لهذه البيوت وسوف نقوم بالباقى , وقد نعطى لكم بعض التعليمات التفصيلية التى نتوقع مبدئيا فشلكم فى الالتزام بها« حتى النساء اللائى ينشدن المزيد من مشاركة أزواجهن فى تربية الأطفال لا يردن أن يتخلين عن دورهن التقليدى ما سبق هو ما ذكرته ستيفانى كونتزStephanie Coomtz مديرة الأبحاث فى مجلس العائلات المعاصرةCouncil on Contemporary Families .

فضلا عن تفضيلنا الواقعى لهذه الأدوار فإننا ما زلنا نعيش فى ظل ثقافة لديها فكرة متأصلة عن ماهية دور الأب تلك الفكرة التى تقف خلفها الكثير من الأيادى المتشبثة بها رجالا ونساء وأطفالا.

الخبر السيئ للأب هو أنه على الرغم من هذا التصور العام إلا أنه بالفعل وبكل الموضوعية فإن دوره لم يعد حيويا. أما الخبر السار فهو أننا بالفعل قد تعودنا على تواجده. ■

رحيـــل مفكـــر شـــائك

عـــبـــدالـــلـــه إبـــراهـــيـــم

■ تلقيت نبأ وفاة الصديق المفكر محمد أركون بذهول وعجب، فلطالما عهدته حيويا فى حركته وأفكاره حتى اللحظات الأخيرة التى جمعتنا فى باريس أو الدوحة، وكنت أتابع مقالاته الفكرية العميقة إلى وقت قريب جدا من غيابه، ولعلها الرغبة القديمة الكامنة فى أعماقى قارئا له أن أبادر إلى دعوته إلى الدوحة أكثر من مرة، وقدمته فيها لجمهور مترقب لأفكاره النقدية الخلافية حول الظاهرة الإسلامية التى أمضى كثيرا من عمره فى تقليب صفحاتها محللا وناقدا. ومع أن لأركون شخصيته المهيبة، وأفكاره الصارمة، لكنه مرح وأليف وحيوى فى جلساته الخاصة، وإن نسيت، فلن أنسى دعوته لى للعشاء فى منزله فى باريس مع أدونيس حيث أمضينا شطرا طويلا من الليل فى حديث فكرى عميق حول رهانات الظاهرة الإسلامية المعاصرة. ثم سهراتنا المشتركة الطويلة فى مجالس نخبة من رجال قطر، كان من نتيجتها أن جرى الاهتمام به بما يستحق، وقد استقبل، وكرم، بوصفه مفكرا نقديا رائدا.

على أن الصلة الشخصية التى جمعتنا خلال السنوات الأخيرة لم تبعد عنى أبدا القيمة الفكرية التى صاغها لنفسه طوال أكثر من نصف قرن، وقد كتب عنها الكثير، وسيكتب عنها أكثر فى المستقبل، إنما عززتها بعد كل لقاء أو إثر قراءة كل كتاب جديد له، فقد أحدث أركون تغييرا حاسما فى موقف الفكر من الظاهرة الدينية التى كانت محورا ثابتا فى سجله الفكرى. وظل يقلّب وجوه الصلة بين الأديان السماوية الكبرى ومنها الإسلام للوصول إلى المشترك الأعلى فيها، وهو الديانة الإبراهيمية، فالمرجعية الإبراهيمية تمثل رأس المال الرمزى للعقائد السماوية، وهى اللحظة الكبرى التى انبثقت عنها التأملات الدينية اللاحقة. وفى كل هذا أراد أركون أن يزحزح سوء التفاهم بين الأديان، ويوقف التأثير السلبى للصور المتخاطئة التى تشكلها كل عقيدة عن غيرها، وهذه الخلفية صاغت مفهومه لحدود حرية التعبير، لكن أهميته الفكرية تكمن أيضا فى أمور أخرى كثيرة، منها أنه أبطل مفعول الاستشراق التقليدى فى دراسته للإسلام، وأقترح منهج (الاسلاميات التطبيقية) وأجهز على الفكر المدرسى الضيق، وأفاد من منهج الأفكار الحديث إذ حلل الظاهرة الدينية عبر مستويات كثيرة، ونقد التعصب، والانغلاق، وفكك



الجمود العقائدى، وأطلق مفاهيم مهمة مثل (اللامفكر فيه) و(المسكوت عنه) وبحثهما بالتفصيل فى الفكر الإسلامى. وبالإجمال فأركون من أبرز المستفيدين من كشوفات اللسانيات، وعلم الاجتماع فى مجال الدراسات الثقافية، ولعله أول من قدم نقدا للتفكير الخرافى المعارض للمعرفة، وبدد هيمنة الأسطورة فى العقل العربيالإسلامى، وقد دفع ثمنا كبيرا جراء سوء الفهم الذى تعرضت له أفكاره لأنه حفر فى المنطقة المجهولة، وذهب إلى الأصول.



وما يلفت الاهتمام فى التجربة الفكرية لأركون تأكيده أن الحداثة تجربة غربية ظهرت فى سياق الثقافة الغربية فى العصر الحديث، ومع أنه قدم نقدا جذريا لهذه الحداثة التى لم تنجز كثيرا من وعودها، فإنه دعا بقوة للإفادة منها، وبخاصة فى الطريقة التى مارس فيها العقل نقده للظواهر الاجتماعية والدينية. وربما يكون هذا الموقف النقدى هو الذى قاده إلى دراسة التجربة الثقافية الإسلامية حيث وقع صراع بين اللاهوتى والعقلى، وهو صراع استغرق قرونا من السجال والجدل، وقد انتصر للعقلانية، وربطها بالفكر الإنسانى الذى بلغ أعلى ذرى تجلياته فى القرن الرابع الهجرى.

من المعلوم أن أركون فرّق الظاهرة القرآنية والظاهرة الإسلامية، فالظاهرة الأولى هى القرآن والحاشية النبوية عليه، أما الثانية فهى التراث السجالى من تفاسير وشروح ولاهوت ومذاهب، وهو موروث ضخم جدا تراكم حول الكلام الإلهى المقدس، وإذا كنا فى عصرنا ملزمين بالظاهرة القرآنية، أى آخذين بالقرآن والحديث الصحيح، فقد أصبحنا، فيما انتهى أركون إليه، أقل حاجه للالتزام الكامل بالظاهرة الثانية، أى بالشروح القديمة التى أنتجتها العصور الماضية، وخلفها رجال مضوا، وآن الأوان لتجديد تصورنا للإسلام بالإفادة من علوم ومناهج عصرنا. وقد شكلت هذه الفكرة ركيزة مفهومه للعلمانية، فالعلمانية لا تهدف إلى تهديد الدين، واستبعاده، ومحوه، إنما، على العكس من ذلك، تسعى للحفاظ عليه كقوة روحية عليا وسامية موجهة للأخلاق العامة، وفى هذا بدد الغيوم الداكنة التى أحاطت بالعلمانية فى ثقافتنا الحديثة.

وقد أفضى تبحّر أركون الواسع فى الثقافة العربية الإسلامية إلى تركيز الاهتمام على العروبة الثقافية وليس العروبة العرقية، فاللغة العربية طوال قرون وقرون كانت وسيلة التعبير الأساسية للأفكار والعلوم، فقد كان يفكر بها ويكتب عدد كبير من الأقوام غير العربية، ولهذا تركت بصمات لا تمحى فى سائر ثقافات البحر المتوسط وفى أسيا وإفريقيا، فهى الغطاء الثقافى لكثير من الشعوب والأقوام، والهوية الدالة عليها. وفى كلمته الوافية التى ألقاها إثر نيله جائزة ابن رشد للفكر الحر عام ٢٠٠٣ قدم أركون مجملا لأفكاره، فقد رسم الإطار العام لها، وذكر معظم محطات حياته الفكرية، ثم توقف على ظاهرة العنف التى تعد أبرز ملامح زمننا، فقال: كأن العنف ظاهرة طارئة علينا، كأنها لم توجد فى جميع المجتمعات منذ بدء الخليقة، فالعنفُ بعدٌ مكوّنٌ للحياة البشرية، بعدٌ عريقٌ بيولوجيًا فى جسدنا، ونظامنا العصبى، وهو المغذّى الفكرى لأبنائنا الصغار فى المدارس، فلا يمكنهم الرد على معلمهم، وليس بمقدورهم التصريح أنه يعلمهم الجهل، والمعلّم مافتئ يقمع التلميذ،ويعلمه الجهل. ولا سبيل إلا أن نربى الأجيال الطالعة على تعرف علمى على ظاهرة العنف، فالعنف أصبح قيمةً سياسيةً لا مهرب منها. فالثورات التى عرفناها إثر الحرب العالمية الثانية فى سائر أنحاء العالم، بما فيها الثورات والحروب التحريرية قامت كلها على مفهوم العنف، وعلى هذا أصبح العنف يُنتج الأبطال، ويخلق الزعماء الذين يتولون قيادة الشعوب. والمجتمعات تعرف أن هذا العنف يتغير من كونه قيمة سياسية يفرضها التاريخ إلى قيمة أخلاقية، وإلى قيمة وطنية يأخذ بها الجميع، وتحتفل بها الشعوب. ■

الفكر الاسلامي: نقد واجتهاد
محمد اركون
دار الساقي ـ ٢٠٠٩
٣٤٠ صفحة



«مساهمة تجديد من محمد أركون في مجال الفكر العربي والإسلامي، ركيزتها الفحص والنقد وسبر أغوار الحدث في مساره التاريخي وعلى ضوء معطيات معاصرة.

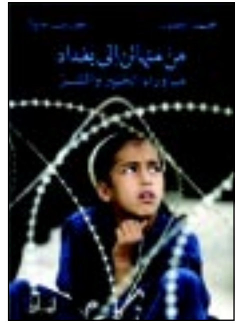
تزداد أهمية المحاولة حين يُنظر إليها من منظور ما نشهده الآن، حيث الاهتزاز والاضطراب والتساؤل.

الكتاب يضع المرويات في مواجهة الصيغ النظرية للفكر الحديث هادفاً من ذلك إلى إنشاء رؤية نقدية في ميادين العلوم الإنسانية، بما يتجاوز التفاسير المتداولة.

فالمطلوب، في عرف الباحث، إعادة تحديد المفهوم الغربي ذاته بصفته فضاء تاريخياً وثقافياً. وإعادة التحديد تتعدى المثال الإسلامي لكنها، في رأيه، تتمّ بفضل هذا المثال».

■

من منهاتن إلى بغداد: ما وراء الخير والشر
محمد اركون ـ جوزيف مايلا
دار الساقي ـ ٢٠٠٨
٢٨٠ صفحة



هذا الكتاب هو حوار بين مختصّين في شؤون العالمين العربي والإسلامي، هما محمد أركون وجوزيف مايلا. ويرمي إلى تبيان معاني اعتداءات ١١ أيلول/سبتمبر، التي أيقظت الفوارق والاختلافات الكثيرة التي تباعد بين «الشرق» و«الغرب»، وأعادت إلى الأذهان سلسلة من التساؤلات التي لا تنتهي حول مستقبل الإسلام.

ويستعرض هذا الحوار، النقاش، مواجهة الدين مع الحداثة، والمسائل الجيو. سياسية التي تثيرها سياسة الولايات المتّحدة في أفغانستان والعراق، ويحاول أن يحدّد وظيفة السياسة الأوروبية المطلوبة في غمار هذه الأحداث.

ويسعى المفكّران إلى فهم أبعاد تحوّل الفكر الإسلامي عن مساره، ويسألان إن تمّ تجنيد الحركات الإسلامية وتوظيفها بقصد هذا التحوّل. ويدعوان إلى إعادة اكتشاف تاريخ الإسلام، وقراءته بلغة جديدة لا تغفل كمّ الأحداث الهائل الذي عصف بالعالم الإسلامي، وتسعى إلى انخراط الإسلام في مسار التاريخ العالمي.

■

العرب والسياسة: اين الخلل؟
محمد اركون ومحمد جابر الانصاري
دار الساقي ـ ٢٠٠٠
٢٣٩ صفحة



على الرغم من التألق الروحي والعقلي للحضارة العربية الإسلامية فإن تاريخها السياسي يمثل أضعف عناصرها إطلاقاً.

فهي ظلت تعاني «فقر دم» سياسياً في التطبيق والنظم، منذ التأزّم المبكر للخلافة الراشدة إلى الإجهاض السياسي لمشروعات «النهوض» العربي في عصرنا.

لقد ظلت «المثاليات» المؤدلجة تبشر المؤمنين بغد أفضل، غير أن الواقع المقيم بقي أقوى نقض لها. كما لم يحدث ربما في تاريخ أية أمة أخرى. ما عمق حالة الفصام بين اليوتوبيا والواقع المعيش للأمة.

وكلما اتسع الانفصام بين خدر الوعي وبؤس الواقع أمعنت اليوتوبيات في ادعاء المثالية المستحيلة دون أن يمتدّ جسر للعبور بين الوعد والإنجاز، وبين النظرية والواقع.

وإلى يومنا تبدو الأمة العربية، بكل طاقاتها الهائلة، جسماً عملاقاً برأس سياسي في منتهى الصغر.

إنها ظاهرة التقزم السياسي المزمن لجسم عملاق! ولا بد من الاعتراف بأن الحالة بدأت قبل ظهور «الامبريالية» و«الصهيونية» بقرون، ولم تقتصر على أنظمة بعينها.

ولكي يستعيد العرب «قدرهم السياسي» بيدهم لا بد من «اختراق معرفي» لهذا الحاجز السياسي، وذلك ما يهدف إليه هذا الكتاب عبر معالجاته.

■

أين هو الفكر الإسلامي المعاصر؟
محمد اركون
دار الساقي ـ ٢٠٠٦ ـ ١٩٨ صفحة



يحاول محمد أركون، هنا، أن يثير من خلال العنوان ذكرى الغزالي وابن رشد.وهو يفعل ذلك عن قصد لكي يبيّن حجم الفارق بين جدية المناظرات الفكرية التي حصلت أثناء الفترة الكلاسيكية المبدعة من تاريخ العرب والإسلام، وبين الوضع المؤسف الذي تردّى إليه الفكر الإسلامي المعاصر. لكن أركون لا يثير ذكرى هذين المفكرين لكي يتوقف عندهما أو لكي يتبنى مواقفهما الفكرية ويطبقها على العصر الراهن: فهذا مستحيل. ذلك أن مناهجهما وأدواتهما المعرفية ورؤيتاهما أصبحت تنتمي إلى عصر آخر والفضاء العقلي القروسطي، لكن روحهما الفكرية القلقة والجادة في البحث عن الحقيقة تبقى ملهمة لنا.

وهكذا يقدم لنا أركون مثالاً واضحاً وعملياً على كيفية الاتصال بالماضي والانقطاع عنه في الوقت ذاته. وهو في هذا الكتاب يستخدم المنهجية التاريخية. الأنثربولوجية قبل أن يسمح لنفسه باستخلاص نتائج عامة أو حكم فلسفية. إنه يستخدم المنهجية المقارنة والمحسوسة التي ترفض أن تسجن الإسلام في خصوصية ثبوتية وجوهرية تكاد تكون عنصرية، كما ترفض الرؤية «الأسطورية» أو الأيديولوجية التي يعيشها التقليديون عن الإسلام والتي تكاد تزيل عنه كل صبغة تاريخية.

■

الفكر الاصولي واستحالة التأصيل: نحو تاريخ آخر للفكر الاسلامي
محمد اركون
دار الساقي ـ ٢٠٠٧ ـ ٣٥٢ صفحة



يطرح هذا الكتاب قضية تأصيل أنواع الخطابات والأحكام.

ويركّز على النقد المعرفي العميق لمفهوم التأصيل ذاته، كما مارسه العقل الديني، وكما حلّله العقل الحديث في آن.

ويعتبر أن ما كان يصلح للعصور الإسلامية الأولى لم يعد يصلح للعصور الحديثة، وما يُدعى حالياً بالحركات الأصولية ليس في الواقع تأصيلياً. فهذه الأخيرة اكتفت بالنضال السياسي أو الحركي دون أيّة إعادة نظر أو تأويل أو تجديد في ذلك الفكر.

يتابع أركون في هذا الكتاب عمله على قضايا التاريخ الإسلامي متسلّحاً بما توصلت إليه فلسفة العلوم الحديثة. ويرى أن العمل على تأصيل الأصول بشكل مطلق يبقى مستحيلاً في زمن لا يكفّ عن التغيّر والتغيير.

■

الاسلام، أوروبا، الغرب: رهانات المعنى وارادات الهيمنة
محمد اركون
دار الساقي ـ ٢٠٠١ ـ ٢٥٩ صفحة



هذا الكتاب عبارة عن حوار بين الإسلام والغرب من خلال رمز بارز للفكر التنويري في الفكر الإسلامي المعاصر (محمد أركون)، ورمز الحزب الليبرالي الهولندي (بولكستاين). إنه مقارعة حامية بين المواقع الفكرية للتراث الإسلامي، وبين أكثر القيم الغربية حداثة ورسوخاً: كالعلمنة، والحرية، والديموقراطية، والتعددية الدينية والسياسية، والعقل النقدي، وحقوق الإنسان، إلخ... ولا ريب في أن هذا الحوار سوف يشغلنا طيلة العقود المقبلة، وربما تحوّل عن طابعه السياسي والعسكري إلى طابع فكري وسجالي. ذلك أننا نعيش الآن منعطفاً تاريخياً حاسماً قد يفتح صفحة جديدة في علاقتنا مع الغرب عموماً ومع أوروبا خصوصاً.

إن الأسئلة الأساسية التي يطرحها هذا الكتاب هي من نوع: هل يمكن إدخال العلمنة إلى ساحة الإسلام من خلال التفاعل الداخلي والصريح مع التجربة الثقافية والتاريخية للدين الإسلامي؟ بمعنى آخر: هل يمكن أسلمة العلمنة أو علمنة الإسلام؟ كيف يمكن أن نقيم المصالحة بين القيم الروحية والثقافية العالية للدين الإسلامي، وبين قيم الحداثة العالمية؟ وما هو هذا الإسلام الليبرالي الذي يتحدث عنه محمد أركون؟ وهل صحيح أن الإسلام ضد العلمنة جذرياً كما يتوهّم الغربيون والمسلمون التقليديون في آن معاً؟

■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتَّاب والمؤلفين الذين يساعدونها فى ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

ســـاعات

المؤلف: جمال الغيطانى
القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠ ، ١٨٨ صفحة



فى عام تسعة وستين من القرن الماضى، صدرت المجموعة الأولى لجمال الغيطانى «أوراق شاب عاش منذ ألف عام». لم تكن ميلاداً لكاتب كبير، مجدد، تمكَّن من تحقيق خصوصيته فى فن القص منذ سن مبكرة، إنما كانت فتحًا جديدًا لاتجاه جديد، ورؤية مغايرة للتعامل مع الموروث الأدبى. منذ ذلك الحين لم يكف الغيطانى عن التجريب، خلال رحلته الإبداعية التى تتجاوز نصف القرن الآن تطورت القصة القصيرة عنده، واتخذت آفاقًا عديدة. فى إبداعه ارتبط الخاص بالعام، ولاحت القضايا الكبرى التى تشغله مثل الحرية، العدالة، إدانة القهر، مع طرح الأسئلة الكبرى بين الثنايا. فى مجموعته «ساعات» التى كتب نصوصها خلال السنوات العشر الأخيرة، تبدو خلاصة التجربة والرؤية النافذة إلى جوهر الوجود، والوجود الإنسانى، وأشواق الروح. وحيرة الإنسان تجاه الزمان، حيث ترى البصيرة عمق الرؤى فى العادى المألوف. خاصة الزمن وما ينتج عنه الذى حيَّر الغيطانى طوال رحلته الإبداعية وما زال.

■

ذاكرة الورق
ستون عامًا من تاريخ العراق الحديث فى يوميات

محمود خالص
وليد محمودخالص
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ٢٠١٠
١٧٠٠ صفحة



ذاكرة الورق ستون عامًا من تاريخ العراق الحديث فى يوميات محمود خالص «ويقول د. هذا الكتاب يوميات رجل أمضى فى القضاء العراقى قرابة أربعين سنة، متنقلاً بين مراتبه المختلفة، ومتجولاً فى مدن العراق من جنوبه إلى شماله، وهو، وإن كان منبعه شخصيًا، إلا أنه يفسح مجالاً رحبًا للنوازل الجسام، والتفاصيل الدقيقة التى مرت بالعراق والوطن العربى والعالم، تلك النوازل التى بدلت أنظمة وغيرت وجوها، كما قدمت التفاصيل لوحات من الحياة القضائية والاجتماعية والثقافية، التى كانت تلون المجتمع العراقى على مدى سنوات متعاقبة، فهو، بهذه الصورة التى هو عليها، سجل حافل بالأحداث والشخصيات والصور من منظور شخصى، لعل الإنصاف فيه هو أبهى آياته».

■

الخروج من ليوا يليه فى ديار الشحوح

أمجد ناصر
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ٢٠١٠
٢٩٨ صفحة



«ليس هدف هذه الرحلة أبعد من تقليب صور العادى فى نظر المقيمين فى المكان، فلن أكتشف أرضًا لم تطأها قدم من قبل، ولن أقطع البلاد طولاً وعرضًا على ظهر ناقة كما فعل رحالة أجانب فى فترة التحول من بيت سعف النخيل إلى بيت الباطون والحجر، ومن الجمل إلى سيارة الدفع الرباعى، ومن القلة فى كل شىء إلى وفرة حولت المكان معرضًا مفتوحًا لكل ما ينتج فى العالم.

لا، ليس هذا مقصد هذه الرحلة، أولاً: لأن المكان الظبيانى (والخليجى عموما)، الذى وصفه أولئك الرحالة الأجانب، لم يعد كما كان عليه، وثانيًا : لأن الفتنة بالصحراء والبداوة، عند بعض هؤلاء الرحالة، كانت ضربًا من «التطهر» من«أدران» الحضارة والمدينة، أو درسا أنثروبولوجيًا استشراقيًا، بينما البداوة، فى نظرى، مرحلة من مراحل التطور الاجتماعى والاقتصادى للمكان سواء أحببنا هذا التطور أم كرهناه.

هذا ما يقوله الشاعر والكاتب الأردنى أمجد ناصر فى كتابه هذا، حيث يأخذك بقلم شاعرى متمكن وعين يقظة فى رحلة فى الماضى (أبو ظبى) وحاضرها، وفى رؤوس الجبال مازجًا بين التاريخ والحاضر، المكان الأول والمدنية الحديثة، الاجتماعى والحس الشعرى بخلجات الرمل والأعشاب...

«الخروج من ليوا يليه فى ديار الشحوح» هو الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطه للأدب الجغرافى التى يمنحها الشاعر محمد السويدى لأفضل كتاب فى أدب الرحلة المعاصرة.

■

أسئلة الثقافة العربية وحرية التعبير

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بالتعاون مع مؤسسة عبد الحميد شومان
٢٠١٠ ـ ٣٢٤ صفحة



يضم هذا الكتاب عشرين ورقة تراوحت بين البحوث العلمية والنصوص المنسجمة التى أعدت لتكون محاضرات. لكنها جميعها تجسد رؤى كتابها لقضايا راهنة ملحة فى الثقافة العربية والحرية والابداع واللغة والنقد، وتقدم محاولات بينة للإجابة عن أسئلة مهمة فى هذا الاطار. ومن الجدير بالذكر أن هذه الاوراق رتبت ترتيبًا زمنيًا فى الأغلب الأعم، فهى تبدأ بآخر ورقة القيت فى المنتدى تليها التى سبقتها، وهكذا..

غير أن خيطًا ناظمًا واحدًا يجمعها، هو الثقافة العربية فى عصرنا هذا وما يتصل بها من أسئلة الحرية والابداع والعولمة والحوار ودور المثقف والتعليم والتربية ومواجهة التحديات والتغيير والخصوصية الإسلامية والتعايش والصراع والصدام والترجمة والشعبوية والنخبوية واللغة والأدب والنقد. ويمكن القول إن قسمًا من هذه الاوراق اعتمدت على تقرير التنمية البشرية (٢٠٠٢/ ٢٠٠٥).

شارك فى هذا الكتاب كل من: صلاح فضل، انطون سيف، حسين جمعة، عزمى طه، حسين المحادين، إبراهيم أبو هشهش، خالد الجبر، جابر عصفور، سالم سارى، على أومليل، فيصل دراج، خيرى الذهبى، سليمان عبد المنعم، خليل الشيخ، طلال عتريسى، ناصر الدين الأسد، فهمى هويدى، فاروق شوشة، فهمية شرف الدين، عبدالقادر الرباعى ومراجعة وتقديم خالد الجبر.

■

العرب بين الليبرالية والأصولية الدينية

شاكر النابلسى
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت وعمان ـ ٢٠١٠
١٧٦ صفحة



(العرب بين الليبرالية والأصولية الدينية) هو الجزء الأول من ثلاثية (الليبرالية السعودية بين الوهم والحقيقة).. وسيصدر الجزءان الآخران تباعًا. ويحتوى هذا الكتاب على ثلاثة أبواب: الأول، بعنوان(فى الليبرالية والأصولية) ويتحدث عن مفهوم الليبرالية للأصولية، والعرب بين الليبرالية والأصولية الدينية، والحداثة بين الليبرالية والأصولية، والليبرالية والفكر النقدى، والليبرالية كمنهاج للحسم. وواجب الانتقال من ليبراليات الخاصة إلى الليبراليات الشعبية. والتعريف بوظيفة المثقف الليبرالى. وأن لا ليبرالية دون سلطان. ويتساءل: هل سيكون القرن ٢١ عصر الليبرالية؟ ويتحدث عن أثر الليبرالية عند أم كلثوم وطه حسين. أما الباب الثانى (فى العلمانية والدين والدولة والعلم) فيتساءل: هل العلمانية أداة لهدم الإسلام؟ ويقول أن فصل الدين عن الدولة.. هراء تردده الببغاوات! ويتحدث عن دور السياسة فى خصومة العلم والدين. أما الباب الثالث (الليبرالية والأصولية فى مرآة الآخرين) فيخصصه النابلسى للآخرين من معارضين ومناصرين لإبداء وجهات نظرهم المختلفة فى الليبرالية، وذلك من أجل إغناء البحث، وتطبيق مقولة الليبرالية عن ضرورة الرأى والرأى الآخر.

ويقول النابلسى إن الليبرالية العربية تتقدم، رغم كل المصاعب. وهو ما يُعبِّر عنه فى مقدمة كتابه بقوله:

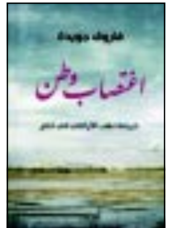
«إن لم يكن هناك من دليل ملموس على تقدم الليبراليين فى العالم العربى خلال الفترة السابقة، واكتسابهم لمزيد من المواقع والمنابر والأصوات، ودحضهم لفلول الأصوليين الإرهابيين فى كل مكان من الشرق الأوسط، غير ما يتعرَّض له الليبراليون هذه الأيام، من هجوم إعلامى كاسح من قبل الجماعات الأصولية الإرهابية، ومن قبل الإعلام الأصولى الإرهابى الذى يروج لهذا الخطاب.

وقد أهدى النابلسى كتابه إلى المفكر التنويرى الليبرالى السعودى إبراهيم البليهى.

■

اغتصاب وطن

المؤلف: فاروق جويدة
القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠، ٢٢٨ صفحة



فى السنوات الأخيرة حدثت جريمة كبرى فى مصر بسبب التوزيع العشوائى للأراضى.. لقد تم توزيع ملايين الأفدنة على مجموعة من الأشخاص دون سند قانونى أو دستورى أو إنسانى.. ووجدنا الأراضى المصرية تسقط فريسة عمليات تخصيص غريبة كان من أخطر نتائجها ضياع ثروة مصر من الأراضى؛ وقد تناولت هذه القضية من جوانب كثيرة، ورصدت كل ما أحاط بها من القرارات والأخطاء والتجاوزات، وفى هذا «الكتاب الوثيقة» جمعت معظم ما كتبت حول استيلاء مجموعة من البشر على مساحات هائلة من الأراضى دون وجه حق..

إن اختلال منظومة العدالة الاجتماعية فى مصر كان نتيجة هذه الجريمة البشعة التى ارتكبها عدد من المسئولين ورجال الأعمال فى حق أجيالنا القادمة، ومثل هذه الجرائم لا تسقط بالتقادم، ولعل هذا الكتاب وما فيه من حقائق يكون وثيقة تاريخية كاملة الإدانة لمرحلة اختلت فيها منظومة العدالة وجعلت مجموعة من الأشخاص ينهبون ثروة شعب.. مثل هذه الجرائم لا تموت لأن الحساب قادم.

■

ألم يبق منهم أحد

مى مظفر
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
الطبعة الأولى ـ ٢٠١٠
١٣٦ صفحة



الكاتبة مى مظفر هى شاعرة وكاتبة عراقية مقيمة فى عمان.!

من أجواء هذه المجموعة القصصية: بغداد نائية جداً.. قريبة جداً. تكاد اليوم تتوارى وتصبح مجرد وهم. عشق سرى يضىء نوره الأعماق. أناسها رحلوا، أو هاجروا وتشتتوا تاركين أصداءهم تتردد خافتة بين حين وآخر. تخلوا مكرهين عن دورهم ونهرهم وأنماط حياتهم ليتحولوا فى أصقاع الأرض الى نبات بلاجذور. من جمرة هذا العشق ولدت قصص هذا الكتاب. إنها حكايات بغدادية كمنت طويلاً داخل ذاكرة مهملة. أناسها لم يصنعوا التاريخ الكبير، مع أنهم جوهر هذا التاريخ وأول ضحايا أحداثه الجسام. على قاماتهم ارتكزت المدينة ونهضت، وبغيابهم انحدرت وذوت كأنها ما كانت ولم تكن. ولكن، ألم يبق منهم أحد؟

■

الجريمة، الفن، وقاموس بغداد

على بدر
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
٢٠١٠ ـ ٤٠٠ صفحة



يصف الروائى العراقى على بدر المقيم الآن فى بروكسل اجواء روايته الجديدة بالقول:

بعد وصول الرسالة الثالثة والخمسين من رسائل أخوان الصفا على ظهر السفينة مراد مرسومة بريشة الرسام يحيى الواسطى، ينشب نزاع بين رؤساء الطائفة الخواجية وقضاة بغداد، وبعد وشاية تصل إلى القضاة، يحكم الوزير العباسى بالموت على رئيس الطائفة عماد الدين، وهو أحد أعضاء مثلث الحكمة الذى يتربع على رئاسة الطائفة مع الخواجة عباس والخواجة سنان، غير أن الخواجة عباس يتهم الخواجة سنان بهذه الوشاية فيرسل أحد أعضاء الطائفة من المشهورين بالولاء له وهو الخواجة نصر الدين لاغتيال الخواجة سنان، وفى طريقه إلى تنفيذ هذه الجريمة يستعيد الخواجة نصر الدين قصة الطائفة الخواجية وهى طائفة سرية نشأت فى السنوات الأخيرة من العصر العباسى، تؤمن بالفن والحكمة الأزلية وتستوحى أفكارها من السلسلة الذهبية للفيثاغوريين الإسلاميين مثل الفارابى وجابر بن حيان وثابت بن قرة، وتعتمد فى نظامها على قاموس بغداد وهو كتاب سرى موضوع فى صندوقٍ من السفرجل المزخَرف بالذهب والفضة، تعده هذه الطائفة أعظم تركة فى الحكمة والفن، لاحتوائه على أسرار بغداد وقصة بنائها. تستعيد هذه الرواية قصة المدارس والحركات السرية فى بغداد العباسية، مكتوبة بأسلوب يحاكى فن المنمنمات والزخرفة العربية الإسلامية.

■

البنكى مفككًا

رنده فاروق
قطاع الثقافة والتراث الوطنى فى مملكة البحرين
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
الطبعة الأولى ـ ٢٠١٠ ـ ٤٢٤ صفحة



يضم الكتاب مقالات ودراسات مختارة للناقد البحرينى محمد أحمد البنكى .

يقول البنكى و إذا كان من غير الممكن لأى شعب من الشعوب أن يتوقف عن مناقشة تاريخه، فإن الظرف الحاضر الذى نعيشه يضع مسئولية كبرى على كل مقاربة لهذا التاريخ ترنو إلى جعل تدخلها تأويلاً منتجا وحوارا خصباً لالتماس العبرة والدرس. واستشراف الغد والمستقبل المتأمل العاقل يصغى لصوت الموضوعية ويلجم العواطف المتفلتة قدر المستطاع لأن تأويل التاريخ يحتمل النقد هنا أو هناك. والأشخاص الذين وجدوا على مسرح الأحداث بشر يخطئون ويصيبون. والأحداث والوقائع التاريخية حمالة أوجه وهى ما زالت ـ وستظل ـ بعيدة عن صدور الكلمة الأخيرة فيها ومن هنا نحتاج إلى الجرأة وسعة الصدر معًا من أجل الإقبال على التاريخ بأريحية مختلفة.

يقع الكتاب فى مجلد من القطع الكبير.

■

وحدها شجرة الرمان

تأليف : سنان أنطون
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ـ ٢٠١٠ ـ ٢٨٠ صفحة



من اجواء الرواية نقرأ: «لا يكتفى الموت منى فى اليقظة، ويصر على أن يلاحقنى حتى فى منامى. ألا يكفى أننى أكد طوال النهار معتنيًا بضيوفه الأبديين وبتحضيرهم للنوم فى أحضانه؟ هل يعاقبنى لأننى ظننت أننى كنت قادراً على الهرب من براثنه؟ لو كان أبى حياً لسخر منى ومن أفكارى وما كان سيسميه دلعاً لا يليق بالرجال. ألم يمض هو عقوداً طويلة فى مهنته يوماً بعد يوم دون أن يشتكى مرة من الموت؟ ولكن الموت فى تلك السنين كان مقلاً وخفراً بالمقارنة مع موت هذه الأيام الذى أدمن علينا حتى كأن هوساً قد أصابه. لكن قد يكون البشر - والرجال بالذات طبعاً - هم الذين أدمنوه حتى تسنى لهم أن ينادموه بلا رقيب ليل نهار! أكاد أسمع الموت يقول: أنا أنا، لم أتغير أبداً. لست إلا ساعى بريد. إذا كان الموت ساعى بريد فأنا واحد من الذين يتسلمون طوابع الموت ويجففها ويعطرها متمتماً بما لا يؤمن به تماماً ثم يلفها بعناية بالأبيض كى تصل بسلام إلى قارئها الأخير: القبر».

سنان أنطون: روائى وشاعر عراقى. ولد فى بغداد عام ١٩٦٧م. أصدر مجموعتين شعريتين ورواية «إعجام» ترجمت إلى الإنجليزية والألمانية والنرويجية والإيطالية والبرتغالية، وهذه روايته الثانية.

■

الخطاب الأشعرى

مساهمة فى دراسة العقل العربى الإسلامى
سعيد بن سعيد العلوى
منتدى المعارف ـ ٢٠١٠ ـ الطبعة الثانية
٣١١ صفحة



يسعى هذا الكتاب إلى الكشف عن الآليّات المعرفية التى تحكم الخطاب الأشعرى فى عصره الكلاسيكى، إذ أنه بالدرجة الأولى يساهم فى دراسة الثقافة العربية الإسلامية فى دائرة الفكر السنّى، فى العصر الوسيط الإسلامى وفى زمان مرجعى معلوم. كما يسعى إلى التعرف على التراث العربى الإسلامى.

إن هذا الكتاب، وبحكم المنهج الذى التزمه المؤلف فيه، لا يتوخّى التقويم وإصدار الأحكام ولا يسعى إلى المفاضلة بين رأى وآخر أو الانتصار لمذهب على آخر، وإنما يجتنب هذه الوجهة اجتناباً كلياً عن طريق سلوك سبيل المواكبة بالرصد والتسجيل وتدوين ما يلزم من الملاحظات فى ذلك، بهدف عدم تجاوز هدف محدد ودقيق: وهو الوقوف، فى خطاب الأشاعرة، عند الثابت والقارّ، والوقوع على الكلّى والمشترك فى أقوالهم.

وحيث يبدو أن تعيين سبيل هذا المنهج يحتاج إلى مزيد بيان وخطته تستدعى مزيد توضيح، يبادر المؤلف فيشرح، بعض الشرح، ما يقصده فى هذا القول بمعانى: العصر الكلاسيكى، ومغزاه، والفكر السنّى، ثم الخطاب وكيف تحليله. فإذا حصلت هذه الغاية كان لموضوع الكتاب، وغائيته فى الوقت نفسه، أن يظهرا فى صورتهما الدقيقة.

■

كـــــــتـب فـرنـســـــيـة

Antoine et Isabelle

أنطوان وايزابيل

Vincent Borel Roman de:
Sabine.wespieser
2010



فى قراءتنا لهذه الرواية نشعر لأول وهلة ان كاتبها ينتمى لأربعينيات القرن الماضى ليس فقط لما تحمله من تجسيد حى لسنوات الحرب العالمية وما بعدها، ولكن أيضا لأن كاتبها فينسان بوريل الكاتب المعاصر الذى ولد عام ١٩٦٢ اختار لهذا النص شكلا كلاسيكيا حيث يتتابع الايقاع ببطء، والتتابع الزمنى التقليدى الواضح موجود على مدار فصول الرواية، بالاضافة الى وصف المشاهد بشكل تفصيلى مما يجعل تلك الرواية تنتمى شكلا الى حقبة أربعينيات القرن الماضى بكلاسيكيته الأدبية.

افتقد الأدب الفرنسى منذ أكثر من نصف قرن هذا النوع الأدبى.

لذلك كان اختيار الكاتب لرواية تحمل الشكل الفنى الكلاسيكى بآليات سرد ولغة معاصرين، اختيارا رائعا ولكن به الكثير من المخاطرة لصعوبة تلقى القارئ المعاصر له.

أهمية هذه الرواية الوثائقية تكمن فى اختلافها عن الطريقة التى يتناول بها الأدب القصصى الحديث مسألة الحرب بشكل عام.

حيث ان الروائيين الفرنسيين المعاصرين دائما ما يتناولون تلك المرحلة بالتلميح لها من خلال ذكريات الراوى، أو من ذكريات أحد الشخصيات ومن خلال تساؤلاتهم، مما يجعل الأحداث ذات طابع شخصى ونسبى ومما يضفى على النص فى بعض الأحيان طابع مجزأ وغير متماسك .

لكن فى هذا العمل وبرغم استحضار الكاتب مسار عائلتين من تلك الحقبة إلا أن موضوعه الأساسى هو الحرب ومنطقها، واعتمد بشكل أساسى على الحكى الموضوعى بلا أى علامة استفهام ودون أى تساؤل عن أسباب الحرب وكأنه مؤرخ أو راصد لتلك الفترة.

فلقد أصر الكاتب على مدار الرواية على إدخال الأحداث اليومية للشخصيات فى نسيج تلك الحقبة ليحافظ على تماسك النص وليحاول تقديم رؤية واضحة ومتجانسة عن القرن الماضى مما يعتبر طموحا نادرا فى الروايات الفرنسية المعاصرة.

لتجسيد هذا العصر اختار الكاتب أن يروى مصير عائلتين وجدتا بالفعل فى تلك الحقبة احداهن أسبانية لجأت الى فرنسا بعد هزيمة ١٩٣٦، وهى عائلة انطوان وايزابيل اللذان ظلا يكافحان ضد النازية حتى اعتقال انطوان فى أحد معسكرات النازى بالنمسا.

أما العائلة الأخرى وهى احدى العائلات الفرنسية المدانة بدعمها لهتلر أثناء الحرب بتوفيرها الموارد والغاز له فى معسكرات الإعتقال.

ومن خلال خيوط شديدة الدقة تتشابك أقدار الشخصيات المتباعدة بشكل كبير.

■

La guerre des cancers
Un lycee au Coeur de la Resistance

حرب المشاغبين
مدرسة فى قلب المقاومة

Bertrand matot
Preface de Patrick Modiano
Perrin
2010



فى أثناء الحرب العالمية وبعدها،كانت مدرسة ليسيه رولين نموذجا مصغرا لفرنسا ساهمت بطلابها فى الكثير من الحركات الفرنسية السياسية والثقافية والفنية على سبيل المثال فى مرحلة ما بعد الحرب تأسست حركة أدبية جديدة من خريجيها وطلابها تحت اسم «مجموعة شارع سان بنوا» وفى السينما نشأت منها حركة الموجة الجديدة ولكن مايركز عليه الكاتب برتراند ماتو هو مدى مشاركة طلاب وخريجى المدرسة فى المقاومة الفرنسية فى الحرب الأخيرة من خلال شهادات استثنائية وأرشيف موثق.

فإذا أردنا أن نطلق على هذا الكتاب عنوانا آخر فمن الممكن أن يكون «مائة وجه للمقاومة».

يستعرض الكاتب من خلال مجموعة كبيرة من البورتريهات كم الرجال والنساء الذين قاوموا ضد ألمانيا الهتلرية وايطاليا الموسولينية.

كما يلقى الضوء على خلفيات كل منهم ومرجعياتهم المختلفة تماما.

يتضمن الكتاب مائة سيرة شديدة الحيوية وشديدة التشويق،تتناول ليس فقط دوافعهم الحقيقية للمشاركة فى المقاومة أو شكل النموذج والمثال الذى تركوه ولكن أيضا تفاصيل معاركهم الجريئة فى المدن وفى صفوف فرنسا الحرة وفى جيش أفريقيا.

وجوه عديدة من المقاومة خصوصا الطلابية على سبيل المثال مارك بلوك، بيير بروسولت،جيرمان تيللون، وبالطبع من بينهم أشهر وجوه المقاومة الفرنسية شارل ديجول.

هذا الكتاب يعتبر ألبوم لحيوات يفتقدها الفرنسيون حيث انها شكلت التاريخ الفرنسى وهو لكل من يريد فهم تلك الصفحات البطولية من تاريخ فرنسا

■

insomnie des etoiles L

أرق النجوم

Marc Dugain
Gallimard
2010



«خريف ١٩٤٥، سيحتل الحلفاء برلين وباقى ألمانيا وحملة من الجنود الفرنسيين متوجهة إلى جنوب البلاد وبالقرب من المدينة التى يجب أن يحتلوا أحياءها، فتاة مراهقة تجذب انتباههم فماريا ذات الخمسة عشر عاما تعيش وحيدة فى مزرعة تبدو منفية عن باقى المدينة ليس لها رفيق سوى الخيول، ولكن قائد الحملة العسكرية يكتشف وجود جسد محروق لرجل لم يعد يستطيع تبرير أسباب جثته هنا، فيأمر بالقبض على الفتاة لانه استشعر أن هناك سرا أكبر وأكثر أهمية من كون هذا الرجل أصابته حادثة أو انه مجرد كارثة يومية من كوارث الحرب»

تحكى رواية أرق النجوم عن مدى فظاعة الحروب وما بها من جرائم ليست فقط قاسية ولكنها تمت بمنتهى البرود كمايصف الكاتب فى روايته فترة الحرب انها أفظع كابوس عاشته الأرض.

■

Purge

التطهـــــير

Sofi oksanen
Sebastien cagnoli
La cosmopolite
Stock
2010



رواية التطهير للكاتبة الفنلندية الإستونية صوفى أوكسانن هى الرواية الحاصلة على جائزة فناك للرواية عام ٢٠١٠

فى عام ١٩٩٢ انهار الاتحاد السوفيتى، واحتل الشعب الاستونى برحيل الروس.

ولكن السيدة العجوز أليد لم تكن تعبأ إلا بخوفها من حالة الفوضى ومخاطر السلب والنهب وقررت الرجوع إلى بيتها الذى يقع فى الأرياف النائية.

عادت حيث وجدت امرأة شابة غريبة لم تشاهدها فى الجوار من قبل تبدو المرأة فى ضيق شديد وكما لو كانت فارة أو تم طردها من مكان ما.

تتردد أليد فى البداية فى أن تفتح لزارا بابها ثم تأخذ السيدتان فى التعارف على بعضهما البعض وسر ثقيل عند كل منهما سينكشف.

استخدمت صوفى أوكسانن التاريخ لتبنى تراجيديا عائلية ساحرة مفزعة فى بعض الأحيان كأفلام هيتشكوك.

تطرح الرواية تساؤلات عديدة عن الحياة تحت الاحتلال وثقل الاكراه والقيود،وعن أحكامنا على الخيانة أو بمعنى آخر التعاون مع المحتل.

كما تعرض الرواية لاستونيا من ١٩٣٩ الى عام ١٩٩٢ بشكل تاريخى وسياسى وجغرافى أيضا حيث إن استونيا تقع ما بين ألمانيا وروسيا.

■

Mourir de dire la honte

الموت بوحا بالعار

Boris Cyrulnik

Odile Jacob

2010



يحلل هذا الكتاب مفهوم شعورنا بالخجل أو العار فى بعض الأحيان
حيث يفسر الكاتب إن الاحساس بالعار دائما ما يحدث بسب تصرف غير مقبول اجتماعيا أو غير لائق فى نظر المحيطين وفى نظر أنفسنا.
ويضيف أن هذا الاحساس يولد من من المعانى والدلالات الموجودة فى سياقنا الثقافى وتاريخنا الشخصى فهو ليس شعورا نقيا وفطريا كالغضب والمتعة، انه احساس مركب ومختلط يسحقنا لانه يصورنا أمام أنفسنا كدودة حقيرة.
رغم ذلك فى الوقت ذاته يجعلنا هذا الشعور بالانسحاق نرى أنفسنا فى مرتبة أخلاقية أعلى لاننا لم نسحق أحدا ولكننا ضحية وفى أغلب الأحيان كوننا ضحية يجعلنا بشكل خفى نشعر بالتطهر.
يقول الكاتب : أعرف بعض المواد الكيمائية التى تجعلنا نشعر بالغضب دون أى سبب حقيقى وبعض المشروبات الكحولية التى تشعرنا بالسعادة والنشـــوة أيضـــا دون أى ســــبب حقيقى.
ولكن لم أرى أبدا أى شئ، ينتج الشعور بالخجل أو العار لانه دائما ما يولد فى تقديم صورة عن أنفسنا.
يظهر أيضا فى «مسرحنا الشخصى» حيث نضع فى المشهد ما لا نستطيع قوله على الملأ.
هذا المسرح الشخصى للخجل هو موضوع كتاب بوريس كيرلينيك.
الخجل من كونك سعيدا من الحياة أو احساسك بالعار من كونك فقيرا للغاية خجلنا مما فعلناه أو مما لم نجرؤ على فعله.
عارا دائما ما يخبأ سرا ما.
كيف اذا يتحول مصيرنا من «مصير مسيطر علينا، إلى مصير خاضع لنا» كما يقول مالروا.
هذا ما يشرحه الكاتب من خلال بيولوجية العار مرورا بسيكولوجيته عند البدائيين الأوائل من الطفولة المبكرة إلى المراهقة فى الجوانب الجنسية والعائلية.
ثم ينتقل إلى شرح سيكولوجية الخجل والاحساس بالعار عند الناجين من المذابح والجرائم الجماعية.
يصاحبه دائما هذا التساؤل : كيف لا نسجن فى ردود أفعالنا العاطفية المتعددة التى تولد عند كل منا.
وكيف نجد الحرية والفخر بالذات مرة أخرى دون الوقوع فى «فخ غياب الخجل» الذى يعنى عدم اهتمامنا برأى الأخرين تماما لان غالبا هذا المفهوم يؤدى الى الأسوأ.
بوريس يعمل دكتور أمراض نفسية وعصبية ومدير التعليم فى جامعة «طولون وهو مؤلف للعديد من الأعمال التى حازت إعجابا واسعا.

■

economie ordinaire entre L songe et mensonges

الاقتصاد التقليدى بين الطموح والكذب

Gilbert rist

sciences po

Presses

2010



لماذا نخضع لحتميات الاقتصاد؟
هل الرؤية العالمية التى تطرح علينا هذا النظام واقعية بالفعل ؟
هل نستطيع أن نرى و ندرس ظاهرة الانتاج، والاستهلاك والتبادل بشكل مغاير؟
من منطلق تاريخى وانثربولوجى يتساءل هذا العمل عن مدى صحة فرضيات الاقتصاد التقليدى.
فيفترض الكاتب إن علم الاقتصاد الذى انتشر وبدأ تحديدا فى القرن التاسع عشر و الذى كان متوافقا مع تغيرات العلم والصناعة أنذاك نستطيع اعتباره اليوم انه عفى عليه الزمن.
كما يتساءل :
هل المكافحة ضد الندرة وسيطرة السوق وهاجس التضخم يؤدى فى الواقع الى الوفرة والرخاء أم الى التدهور العام؟
هذا الكتاب يطرح طريقة أخرى فى التعامل مع المجتمع ومشاكله وفى مواجهة مشاكلنا البيئية.
يلقى نظرة مختلفة على الأزمة الاقتصادية والمالية وأزمات الطاقة وكوارث نقص الغذاء التى تهدد العالم
كما ينادى الكاتب ببناء نموذج اقتصادى مغاير.

■

Chine ou japon quel leader pour l'Asie

الصين واليابان و زعامة آسيا

Claude meyer

Sciences po

les presses

2010



عجلت الأزمة الاقتصادية الأخيرة بانتقال مركز الاقتصاد العالمى الى قارة أسيا، حيث اننا نستطيع فى عام ٢٠٣٠ أن نعتبر الصين واليابان والهند من الأربع دول الكبرى الأولى فى العالم.
يتنافس كل من بكين وطوكيو على الزعامة الاقتصادية فى منافسة غير متكافئة تماما.
حيث الصعود الذى لا يقاوم للصين الديناميكية، الغازية على حد تعبير الكاتب.
فى مقابل ذلك الانخفاض الحتمى لنجم اليابان التى بدأت تشيخ اقتصاديا مقارنة بالصين.
فى ضوء تلك الرؤية المستقبلية للاقتصاد العالمى، يحلل الكاتب بدقة شديدة شرعية حصول الصين واليابان علـــى الســـيادة الاقـتـصـاديـة والاستراتيجية فى آسيا، ثم يطرح سيناريو الزعامة الاقتصادية الذى يراه متوقع الحدوث فى خلال العشرين عام القادمة
يرى الكاتب ان تلك الدراسة هدفها الأساسى أن يحفز الأوروبيين غير المبالين على فتح مناقشة حول مستقبلهم الاقتصادى، أى حول مصير أوروبا وصناعاتها وحول دور جامعتها أيضا بطوكيو وبكين فى دراسة المستقبل الاقتصادى للمجتمع الأسيوى.
كلود ماير أستاذ اقتصاد دولى فى جامعة sciences po وفى خارج فرنسا باحث فى العلوم الاقتصادية عمل ببنوك يابانية وله عدة مقالات ودراسات عن الاقتصاد الأسيوى.

■

Les politique de la diversite Experiences anglaise et americaine

سياسات التعدد

تجارب إنجليزية وأمريكية

Emmanuelle le Texier ¨Olivier esteves ¨denis lacorne

Science po

les presses

2010



مهندس رأفت النشار

كيف يندمج المهاجرون الجدد فى المدن والأحياء سواء فى الولايات المتحدة الأمريكية أو المملكة المتحدة؟
أى إستقبال سيلاقونه من المواطنين الأصليين؟ ما هى التغييرات الملحوظة على المستوى المدنى والعرقى فى البلدين؟
انطلاقا من بعض الأفكار النقدية التى تخص البناء الاجتماعى للهويات العرقية والثقافية والدينية المختلفة يحاول هذا العمل الكشف عن أزمة تعدد ثقافات تظهر بشكل جلى فى الضغوط والاحتقانات اليومية بين الأغلبية والأقلية وأحيانا تظهر بشكل أعنف بين الأقليات المختلفة. أحيانا تكون مصحوبة بأعمال عنف مما يهدد الترابط الاجتماعى.
رغم ذلك، يرى البعض ان المثلين المحليين فى الأراضى الأمريكية والانجليزية قادران بشكل كبير على تخطى هذا الانقسام باتخاذ القرارات التى تدعم الصالح العام وبإيجاد طرق جديدة للخروج من الأزمة.
ترجع أهمية هذا الدراسة لانها تحمل بعض الحلول التى اتبعتها انجلترا وأمريكا لحل بعض الأزمات المشابهة لأزمات المجتمع الفرنسى الآن.

■

إصـــــــــــــــدارات

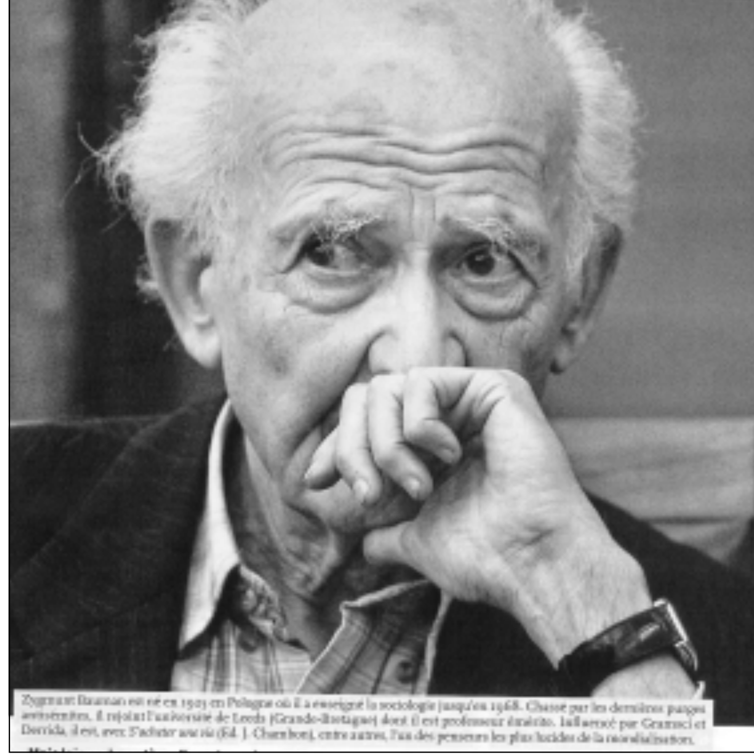
ليســـــت يهـــــودية أو ألمانيـــــة

حـجــــاج أبـوجــــبر

■■ ربما يكون أستاذنا عبد الوهاب المسيرى هو أول من فطن إلى أهمية كتاب الحداثة والهولوكوست لمؤلفه زيجمونت باومان. وتظهر أهمية باومان فى أنه مفكر يهودى أدرك أن إسرائيل تستغل الهولوكوست لإضفاء الشرعية على وجودها وجرائمها وأن الهولوكوست ليست مشكلة يهودية أو ألمانية، وأن الصهيونية وليدة الحداثة الغربية، وعندما طرد باومان من وطنه وجرد من جنسيته البولندية أثناء حملة شرسة ضد الشيوعيين والجماعات اليهودية، اضطر إلى السفر إلى إسرائيل، لكنه لم يستطع أن يمكث هناك أكثر من ثلاث سنوات لأنه اكتشف، كما تروى زوجته جانينا باومان، أن إسرائيل دولة قومية عنصرية. وظل يؤكد باومان فى حواراته النقدية أن خلفيته اليهودية تحددها بشكل كبير الفظائع التى ترتكبها إسرائيل، وهى جرائم وحشية تؤلمه ألمًا يفوق كل ألم تتسبب فيه فظائع الدول الأخرى. وعندما أراد المسيرى أن يطور نموذجه التفسيرى للحداثة الغربية من خلال الخطاب النقدى السوسيولوجى المعاصر، أفاد من أعمال باومان أيما إفادة، وأشار إليه فى أعماله، وامتدحه فى ثنايا سيرته الفكرية وفى ثنايا مجلدين عن«العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة". ناهيك عن الإشادة به فى مقدمة كتابه الصهيونية والنازية ونهاية التاريخ، وكذلك إشارته فى قائمة مراجع هذا الكتاب إلى أهمية أعماله عن الحداثة فى تشكيل النماذج التفسيرية التى قدمها للقارئ العربى.

ظهرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٨٩، وصدرت منه حتى الآن إحدى عشرة طبعة. يقع كتاب الحداثة والهولوكوست لمؤلفه زيجمونت باومان فى سبعة فصول، إضافة إلى تمهيد وخاتمة. يخصص باومان التمهيد للتنديد بالاستغلال الإسرائيلى للهولوكوست لإحراز مكاسب سياسية، ويشير إلى انقسام المؤرخين الذين كتبوا عن الهولوكوست إلى معسكرين: معسكر المدرسة القصدية ومعسكر المدرسة الوظيفية. يصر أنصار المعسكر الأول على أن قتل اليهود من البداية كان قرار هتلر فى المقام الأول، ذلك القرار الذى لم يظهر للعيان إلا عندما سنحت الفرصة. أما أنصار المعسكر الثانى فيعتقدون بأن هتلر كان لديه فكرة عامة لإيجاد حل للمسألة اليهودية، لكنها كانت تتسم بالغموض والتخبط من حيث الخطوات العملية للتنفيذ. ومهما تكن النتيجة النهائية لذلك الجدل، فليس هناك مجال للشك فى أن الفجوة التى تفصل بين الفكرة وتنفيذها قد قامت البيروقراطية الحديثة بسدها. فمهما بلغ

Modernity and the Holocaust
Zygmunt Bauman
Cornell University Press,2001



زيجمــونت باومـــان

خيال هتلر من الحيوية، لم يكن لينجز إلا قليلا لولا أن تولى الجهاز البيروقراطى الضخم هذا الخيال وترجمته إلى عملية علمية عقلانية.

وفى كل فصل يستخدم باومان المنهج التفكيكى النقدى ويخرج على القوالب السائدة فى فهم الحداثة وعلاقتها بالهولوكوست. ويمثل الكتاب صدمة حقيقية للقارئ الغربى، وأيضا لدعاة التنوير فى العالم العربى، فهو يكشف الوجه الآخر للحداثة، ولاسيما وجهها القبيح الذى لازمها منذ نشأتها. بل إنه يوقظ المتشدقين بأفكار التنوير والعقلانية من سباتهم ويواجههم بحقيقة الهولوكوست، فهى ليست مجرد انجراف عن الصراط المستقيم الذى سارت عليه الحداثة، وإنما هى إمكانية كامنة ظهرت فى مجتمع الحداثة العقلانى التنويرى الذى يتسلح بالعلم والتكنولوجيا.

ولد باومان فى بولندا عام ١٩٢٥ لأسرة يهودية فقيرة اضطرت إلى الرحيل إلى روسيا عندما اجتاحت القوات الألمانية بولندا إبان الحرب العالمية الثانية، وبذلك نجا باومان وأسرته من معسكرات الاعتقال والإبادة النازية. وقد تشكل الوعى السياسى والفكرى لباومان فى فترة ما بعد الحرب عندما كان مدلول الشيوعية يشير إلى محاولة إعادة بناء ما دمرته الحرب وإلى مد يد العون لمن بطشت بهم الآلة العسكرية فى وارسو وغيرها من المدن. بيد أن باومان لم يستمر فى إنجاز هذا المشروع الإنسانى وبناء الدولة البولندية على الطريقة السوفيتية الشيوعية بعد تعرضه هو وبعض زملائه لضغوط سياسية وعنصرية أدت إلى حرمانهم من جنسيتهم البولندية وحرمانهم من حقهم فى التدريس بجامعة وارسو، وانتهت هذه الضغوط بطردهم من بولندا ورحيلهم أو ترحيلهم إلى إسرائيل. وهناك استقر باومان مع زوجته وابنته الكبرى التى كانت تحيا حياة مستقرة مع زوجها باسرائيل وتعمل أستاذة جامعية بإحدى جامعاتها. وخلال إقامته فى إسرائيل قام باومان بالتدريس بعدة جامعات فى حيفا وتل أبيب، لكنه قرر هو وزوجته الرحيل بعد ثلاث سنوات فقط، وقبل عرضا للتدريس بجامعة ليدز فى بريطانيا لأنه أيقن أنه ضحية دولة قومية عضوية عنصرية، ولم يرد أن يقترف الجرم ذاته فى دولة قومية عضوية عنصرية أخرى. وهذا ما أفصحت عنه زوجته جانينا باومان عندما قالت: «لقد كانت اسرائيل دولة تحكمها العصبية القومية، وها نحن قد فررنا توا من القومية، ولذا لم نرض أن نتحول من ضحايا دولة قومية إلى من يقترف الجرم ذاته فى دولة قومية أخرى».

وقد نال باومان عن كتاب الحداثة والهولوكوست جائزة أمالفى الأوروبية فى علم الاجتماع والعلوم الاجتماعية، وكان لهذه الجائزة صدى واسع لأنها لفتت الأنظار إلى أعماله، وربما كانت سببا أيضا فى فوزه بجائزة تيودور أدورنو عام١٩٩٨ . ويرجع الفضل إلى جانينا باومان فى ظهور هذا الكتاب إلى الوجود لأنها كتبت مذكراتها فى مجلدين، وأصدرت المجلد الأول عام ١٩٨٥ بعنوان الشتاء فى الصباح: حياة فتاة فى جيتو وارسو و ما بعده،١٩٣٩ ـ ١٩٤٥ ، وفى هذا المجلد عرضت جانينا الأعمال الوحشية التى تعرضت لها أسرتها والجماعات اليهودية فى جيتو وارسو، مؤكدة أن افتقار السياسة للبعد الاخلاقى يغرق الحضارة الانسانية فى مستنقع البراجماتية النفعية، ولاسيما إذا لم يعد يؤمن الانسان بمرجعية دينية متجاوزة أو الأسس الأخلاقية للعمل السياسى. هذا ما دفع باومان إلى دراسة الهولوكوست حتى توصل إلى حقيقة ظل العالم الغربى يتجاهلها، حيث رفض التعامل مع الهولوكوست على أنها مسألة يهودية أو خطيئة ألمانية.

يعد الفصل الأول مقدمة لأطروحة المؤلف، وهو يقع تحت عنوان «مقدمة: علم الاجتماع بعد الهولوكوست»، وفيه يكشف المؤلف عن أوجه القصور التى تعترى الدراسات السوسيولوجية التى تعالج الهولوكوست، ويقرر أن يتناول الهولوكوست بوصفها اختبارا نادرا، وأيضا هاما وموثوقا به، للإمكانات الخفية للمجتمع الحديث. ويذهب باومان إلى أن الهولوكوست لم تتعارض فى أى مرحلة من مراحل تنفيذها مع مبادئ العقلانية والحداثة. فالثقافة البيروقراطية الحديثة هى التى تدفعنا إلى أن نرى المجتمع بوصفه مجالا للإرادة، ومجموعة من المشكلات المتعددة التى لابد من إيجاد حلول لها، أو بوصفه طبيعة جامدة لابد من السيطرة عليها والتحكم فيها وتطويرها أو إعادة تشكيلها، وبشكل عام بوصفه بستانا لابد من تصميمه والحفاظ على جماله وانسجامه ولو بالقوة والعنف. ولا يتردد باومان فى مخاطبة القارئ الغربى ومواجهته بما لا يرضى من القول عن الحداثة والتنوير، يقول باومان فى الفصل الأول من هذا الكتاب:

«إن الروع الكامن فى ضميرنا والمتغلغل فى ذاكرتنا الجمعية بشأن الهولوكوست ..هو الظن المؤنب بأن الهولوكوست يمكن أن تكون أكبر من مجرد شذوذ، أكبر من مجرد انحراف عن الطريق المستقيم للتقدم، أكبر من مجرد ورم سرطانى فى الجسم السليم للمجتمع المتحضر، أى أن نقول، وباختصار، أن الهولوكوست ليست نقيضا للحضارة الحديثة وكل شىء يرمز إليها (أو نعتقد نحن أنه يرمز إليها). إننا نخشى (حتى ولو رفضنا الاعتراف بذلك) أن تكون الهولوكوست قد استطاعت أن تكشف وجها آخر لنفس المجتمع الحديث الذى يروقنا وجهه المألوف. ونخشى أن يكون الوجهان ملتصقين على أكمل وجه بنفس الجسم. ولعل أشد ما نخشاه هو أن أحد الوجهين لا يستطيع أن يوجد دون الآخر تماما مثل وجهى العملة».

يقع الفصل الثانى تحت عنوان «الحداثة والعنصرية والإبادة(١)، وفيه

الصهيـــــــونـيـة والحـــــــــــداثـة

يكشف المؤلف عن الخلل الذى يعترى الدراسات التى تتناول الهولوكوست بوصفها ذروة معاداة السامية، أو بأنها مشكلة ألمانية وحسب، أو بوصفها جريمة اقترفها الألمان بحق الجماعات اليهودية وحدها، أو بأنها جريمة اقترفها مجموعة من المجانين والمعتوهين. وتكمن أهمية هذا الفصل فى تفكيك مصطلح «معاداة السامية» وإعادة تركيبه، بحيث تنحصر دلالته فى «معاداة اليهود» منذ ظهور المسيحية وحتى عصر الحداثة الغربية. وفى الفصل الثالث، الذى يحمل أيضا عنوان الفصل الثانى، يحاول الكاتب إبراز العلاقة بين المعاداة الإقصائية لليهود من جهة والتحولات الثقافية والسياسية والاجتماعية من جهة أخرى. وهنا يشير المؤلف إلى أن العنصرية ترتبط بشكل حتمى باستراتيجية الإقصاء. فإذا ما كانت الظروف مواتية، فإن العنصرية تستوجب التخلص من الجماعة الضارة خارج نطاق الأرض التى تقطنها الجماعة التى تواجه الضرر. وإذا لم تسمح الظروف، فإن العنصرية تستوجب التصفية الجسدية للجماعة الضارة. فالطرد والتدمير عبارة عن طريقين تبادليين للإقصاء. ويرى الكاتب أنه من الصعب، وربما من المستحيل، أن يصل أحد إلى فكرة إبادة شعب بأكمله دون وجود صور إدراكية عرقية، أى دون رؤية للمرض المميت والمزمن، الذى يستعصى على العلاج. إنه أيضا من الصعب، وربما أيضا من المستحيل، أن يصل أحد إلى مثل هذه الفكرة دون الممارسة الدقيقة للطب (الطب بمعناه الحرفى، والذى يهتم بجسد الأفراد من الجنس البشرى، وكذلك الإيحاءات المجازية الهائلة لهذا المفهوم)، وكذلك نماذجه للسلامة البدنية والصحة العقلية، وكذلك استراتيجيته فى الفصل والإقصاء وتقنياته فى العمليات الجراحية. إنه من الصعب، أن يتصور أحد هذه الفكرة بمعزل عن النزعة الهندسية نحو المجتمع. لكل ما سبق، ينظر المؤلف إلى النزعة الإبادية لمعاداة اليهود بوصفها ظاهرة حديثة تماما. فالعنصرية وحدها، حتى وإن ساندها التوجه التكنولوجى للعقل الحديث، يصعب أن تصنع ما صنعته الهولوكوست. فإذا ما أرادت العنصرية تحقيق ذلك، لابد لها أن تمتلك القدرة على تأمين العبور من النظرية إلى التطبيق، وذلك ربما يعنى تعبئة عمالة بشرية كافية، من خلال القوة التعبوية للأفكار، للتعامل مع حجم المهمة ودعم تفانيهم للوظيفة طوال الفترة التى تتطلبها المهمة. فمن خلال التدريب الأيديولوجى، تقوم العنصرية بتعبئة الجماهير من غير اليهود بمشاعر الكراهية والاشمئزاز من اليهود بصورة قوية لإثارة أفعال عدوانية ضد اليهود أينما كانوا.

يقع الفصل الرابع تحت عنوان «الهولوكوست بين الأيقنة والأنسنة»، وفيه



عبدالوهاب المسيرى

يحدد المؤلف السمات التى تميز الهولوكوست عن كافة الجرائم التاريخية الأخرى. فقد وقعت الهولوكوست فى وقت اعتقدنا أننا تصالحنا مع الحضارة الغربية، وفى وقت أدركنا بواطن بواعثها وآفاق مستقبلها! وهنا يسوق المؤلف أنماط العمل البيروقراطى التكنولوجى ذى الصبغة الحداثية، وكذلك العقلية التى تؤسسها وتولدها وتعززها وتعيد إنتاجها. فقد قللت الهولوكوست من حجم كل صور الشر الأخرى فى الذاكرة والتاريخ، حيث اتضح فجأة أن أبشع صور الشر فى تاريخ الإنسان لم ينشأ من كسر النظام، بل من اتباع النظام بشدة وبلا أخطاء، ولم يكن عملاً من قِبل مجموعة من الغوغاء بل مجموعة محترمة ومنظمة ترتدى زيًا رسميًا وتتبع القانون والتعليمات. كما يتناول هذا الفصل دور العلماء فى ارتكاب الهولوكوست بطريقة مباشرة أيضاً. فالعلم الحديث عبارة عن مؤسسات عملاقة ومعقدة، والأبحاث تحتاج إلى تكاليف باهظة لأنها تتطلب مبانى ضخمة ومعدات باهظة الثمن وعددا كبيرا من الخبراء الذين يتقاضون مبالغ طائلة. العلماء يقودهم الفضول ويثيرهم المجهول. أما عن الأسباب التى جعلت العقلانية الأداتية والشبكات الإنسانية التى سخرت لخدمتها ماتزال تفقد بصيرتها الأخلاقية حتى هذه اللحظة تماما مثلما حدث فى الماضى، فإنها لم تتغير. ففى عام ١٩٦١، أى بعد ما يزيد على عشرين عاما على فضح جرائم النازية، صمم مجموعة من العلماء البارزين مثالاً علمياً بارزاً ومشروعا من نتاج العقلانية، وهو مشروع ساحة الحرب الالكترونية كى يستخدمه القادة العسكريون فى حرب فيتنام.

يقع الفصل الخامس تحت عنوان «استجداء تعاون الضحايا»، وفيه يكشف المؤلف عن التعاون بين النازيين والمجالس اليهودية. لقد استخدمت المجالس اليهودية قوة لا حدود لها، وبالتالى قد لعب الصفوة من اليهود دوراً وسيطًا ذا أهمية بالغة فى السيطرة على الجماعات اليهودية، وهو أمر غير مألوف ومفارقة عجيبة. فالشعب المُستضعف هنا أُقحم فى العملية بأسرها، بل وشارك فيها وأُسندت إليه المهام والأدوار، وكانت أمامه ظاهريًا اختيارات متعددة يختار من بينها. كانت اللعبة التى أقحم النازيون اليهود فيها هى لعبة الموت والبقاء. ومن ثم كانت تصرفاتهم العقلانية تهدف إلى زيادة فرص الهروب من الدمار أو تقليل نسبة الدمار. وأُختزِل عالم القيم إلى قيمة واحدة، ألا وهى البقاء على قيد الحياة.

أما الفصل السادس «مبادئ الطاعة: قراءة فى ميلجرام»، فيركز على نتائج أبحاث ميلجرام عن العنف. ووفقا لهذه النتائج، من الصعب أن نؤذى شخصًا نلمسه، وإلى حد ما، من الأسهل أن نوقع الضرر بشخص نراه عن بعد، ومن الأسهل من هذا وذاك شخص نسمعه فقط، ومن السهل للغاية أن نتصرف بعنف مع شخص لا نراه ولا نسمعه. يمكن تفسير سبب أن البعد عن الضحية يسهل ارتكاب العنف بسهولة من الناحية النفسية: حيث يُجنب الجانى عذاب مشاهدة نتيجة أفعاله. وربما حتى يقوم بخداع نفسه ويتصور أنه لم يحدث أى شىء مدمر وهكذا يقلل من تأنيب الضمير. لكن هذا ليس التفسير الوحيد. فالأسباب ليست نفسية فقط. بل مثلها مثل كل العوامل الأخرى التى تفسر السلوك البشرى فهى أسباب اجتماعية أيضًا. تتطلب لغة الأخلاق مفردات جديدة داخل نظام السلطة الإدارى. فهى مليئة بمبادئ مثل الولاء والواجب والانضباط- كلها تشير للرؤساء على أنهم الجهة العظمى المسئولة عن الأخلاق وهم فى ذات الوقت السلطة الأخلاقية العليا.

يناقش الفصل الأخير، «نحو نظرية اجتماعية للأخلاق»، المشكلة التى نشأت فى نهاية الفصل السابق، ألا وهى إنتاج المجتمع للسلوك غير الأخلاقى، فلا يكتمل أى تحليل للهولوكوست دون تقديم دراسة شاملة للعلاقة بين المجتمع والسلوك الأخلاقى. وزادت الحاجة لدراسة مثل هذه عندما أثبتت كل النظريات المتاحة فى علم الاجتماع عن الظواهر الأخلاقية عدم قدرتها على تقديم تفسير شامل للهولوكوست. والغرض من هذا الفصل هو توضيح بعض الدروس الهامة والاستنتاجات من هذه التجربة التى يجب أن يُصاغ لها نظرية مناسبة عن الأخلاق وخالية من النقص الموجود فى النظريات المتاحة.

أما الخاتمة التى تقع تحت عنوان «إعادة النظر: العقلانية والخزى»، فهى عبارة عن محاضرة بعنوان «استغلال المجتمع للأخلاق»، والتى ألقاها المؤلف بمناسبة فوزه بجائزة أمالفى الأوروبية عن كتابه الحداثة والهولوكوست. وفيها يؤكد على أن الحكم النازى قد انتهى منذ زمن بعيد، لكن ميراثه السام لم يمت بعد. ذلك لأننا حولنا الأخلاقيات إلى شىء بلا معنى ولا فائدة، وقبلنا السلطة التى تعمل بحساب التكاليف والفعالية ضد القيم الأخلاقية..

وقد كان لهذا الكتاب أثر كبير على معالجة أستاذنا الراحل عبد الوهاب المسيرى للحداثة وأبعادها المعرفية عندما اتجه إلى نفس الرأى وأكد أن الإبادة النازية هى إحدى أبرز العواقب التى أفرزتها الحداثة الغربية، وأنها ليست مسألة يهودية أو مشكلة ألمانية؛ لأن الحضارة التى رسخت مبادئ العقلانية والحداثة هى التى خرج من رحمها «الإمبريالية والشمولية والمنفعة المادية والداروينية، وفلاسفة العرقية الحديثة، وهى الحضارة التى أفرزت رؤية إبادية وصلت إلى قمتها فى اللحظة النازية. ومن ثم، فإن الإبادة النازية تعبر عن شىء حقيقى أصيل لا فى التشكيل الحضارى الألمانى وحده وإنما فى الحضارة الغربية، وليست مجرد انحراف عن تاريخ ألمانيا أو تاريخ الغرب الحديث». ■

عناصر الفكر الصهيوني اليميني

قضايا اسرائيلية
العدد ٧٣-٨٣
المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية «مدار» - رام الله



يضم العدد المزدوج من المجلة الفصلية «قضايا إسرائيلية» محوراً خاصًا حول «عناصر الفكر الصهيوني اليميني».

يبدأ المحور بدراسة للباحث الفلسطيني محمد أبو سمرة حول« زئيف جابوتنسكي والقضية الفلسطينية»، يسعى فيها إلى قراءة محاولات جابوتنسكي والحركة التصحيحية والصهيونية عامة الرامية إلى التأسيس الفكري والسياسي والأخلاقي لنهج تحقيق المطالب القومية اليهودية في فلسطين، وفي الوقت ذاته إلى سلب ذات الحقوق القومية من الفلسطينيين، أصحاب الحق الطبيعي في وطنهم. كما يحاول الوقوف على موقف جابوتنسكي من المسألة الفلسطينية وذلك من خلال رصد وتحليل كتاباته السياسية والأدبية والتركيز على المفاهيم والمنطلقات السياسية والفكرية التي أثرت على صوغ وبلورة مواقفه تجاه القضية الفلسطينية والصراع على فلسطين. ومن المعروف أن منظمات عسكرية مثل «الإيتسل» و«الليحي» وحركات سياسية وحزبية مثل «حيروت» و«الليكود» حملت أفكاره السياسية وعملت على تحقيقها، كما أن شخصيات سياسية وثقافية إسرائيلية مختلفة اعتبرت نفسها وريثة مخلصة لأفكاره الأيديولوجية ولتوجهاته السياسية. وتقدم المجلة ترجمة خاصة لمقالة «عن الجدار الحديدي» لزئيف جابوتنسكي، والتي تشكل خلفية لأفكاره وتوجهاته، وقد أكد فيها أنه ليس ثمة مجال للحديث، لا في الحاضر ولا في المستقبل المنظور، عن «تصالح بين عرب فلسطين وبيننا يتحقق عن طيب خاطر». وبناء على ذلك «يتعين على الاستيطان الصهيوني أن يتواصل ضد رغبة السكان الأصليين، وبمقدوره أن يتواصل ويتطور بحماية قوة مدافعة مستقلة عن السكان المحليين - جدار حديدي لن يكون بمقدور السكان المحليين اختراقه».

كما يشتمل المحور الخاص على المواد التالية:

مقابلة (أجراها بلال ضاهر) مع البروفسور غادي إلغازي، رئيس قسم التاريخ العام في جامعة تل أبيب، يجيب فيها عن أسئلة تتعلق بالخريطة السياسية الحزبية الراهنة في إسرائيل في ظل هيمنة اليمين، ويسلط الضوء على أجندة هذا اليمين في الحلبات المدنية والسياسية والعسكرية، ويؤكد من جملة أمور أخرى أن لا أحد يمكن أن يقنعه أن باراك أكثر يسارية من ليفني أو نتنياهو، كما يؤكد أن «اليسار الصهيوني» يفتقر إلى إستراتيجي سياسية لمقاومة اليمين، وأن أحد الأمور المستجدة في إسرائيل خلال الأعوام الأخيرة يتمثل في المزج بين مشاريع أيديولوجية يمينية وبين مبالغ مالية خارجية كبيرة.

دراسة حول «إسرائيل وتهديد الإرهاب النووي» أعدها د. تشاك فرايليخ، الذي كان يشغل منصب نائب رئيس مجلس الأمن القومي في إسرائيل، تسلط الضوء على ما يسمى «تهديد الإرهاب النووي» الذي تواجهه إسرائيل، وتستعرض السيناريوهات المحددة التي قد يتحول فيها التهديد إلى حقيقة واقعة. وتستعرض الدراسة بعد ذلك الخيارات السياساتية المتاحة أمام إسرائيل للتعامل مع هذا التهديد، سواء كان ذلك بمفردها أو بالتعاون مع الولايات المتحدة الأميركية.

المقاطع الرئيسة من دراسة أعدها «مركز الفكر الصهيوني، اليهودي، الليبرالي والإنساني- متسيلاه»، وصدرت باللغة العبرية في كتيب خاص تحت عنوان «ورقة موقف: اتجاهات ديمغرافية في إسرائيل»، وتبحث في الاتجاهات الديمغرافية السائدة في إسرائيل ولا سيما الاتجاهات الجديدة التي ظهرت في السنوات الأخيرة، متفحصة أسبابها وانعكاساتها المحتملة على مستقبل إسرائيل والأغلبية اليهودية فيها، وعلى بقائها كـ «دولة يهودية متطورة ومزدهرة»!

وفي زاوية «متابعات» كتب مهند مصطفى عن «المؤسسة الأكاديمية الإسرائيلية بين صراعها الداخلي والصراع مع وزارة المالية»؛ وكتب أنطوان شلحت «فصول في دليل الاستملاك الصهيوني للقدس وفلسطين»؛ وقدم برهوم جرايسي قراءة في تقرير جديد صدر مؤخرًا عن «معهد تخطيط سياسة الشعب اليهودي» التابع للوكالة اليهودية، ويتضمن تصورات خبراء عملوا ضمن المعهد فيما يتعلق بأوضاع اليهود في العالم حتى العام ٢٠٣٠.

كما نشرت المجلة فصلاً من تقرير صدر مؤخرا عن «مركز طاوب لدراسة السياسة الاجتماعية في إسرائيل» بعنوان «تقرير حالة الدولة، المجتمع، الاقتصاد والسياسة ٢٠٠٩». وهو بقلم رئيس المركز وأستاذ الاقتصاد في جامعة تل أبيب، البروفسور دان بن دافيد. ويتناول أساسًا العلاقة بين التعليم وبين الوضع الاقتصادي والاجتماعي لإسرائيل، وفقًا لوجهة نظر تؤكد أن أحد العوامل الرئيسة المسببة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية السائدة في إسرائيل يتمثل في جهاز التعليم.

أما في زاوية «قراءات» فقدمت سلافة حجاوي قراءة في كتاب «المفاهيم الصهيونية للعودة: أساطير وسياسات ودراسات إسرائيلية» لغابرييل بيتربيرغ، والذي قامت الكاتبة بترجمته إلى اللغة العربية وصدر عن مركز مدار. وقدم بلال ضاهر عرضًا لكتاب «أسطورة نيوبي - الأخلاق والعنف في الأساطير المعاصرة»، الذي يتناول أيديولوجيات العنف على أنواعها، ويستعرض عنف الدولة والعنف في الفكر الفلسفي الأوروبي القديم والحديث والمعاصر. وقدم تحسين يقين قراءة في كتابين جديدين صدرا مؤخرا عن المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية- مدار: الأول- «الفلسطينيون في إسرائيل- سياسات الأقلية الأصلية في الدولة الإثنية»، من تأليف د. أسعد غانم ومهند مصطفى؛ الثاني- «المؤسسة العسكرية في إسرائيل (تاريخ، واقع، إستراتيجيات وتحولات)»، من تأليف د. جوني منصور وفادي نحاس. ■

الكتب وجهات نظر

إلـى المحـرر

ترحب «وجهات نظر» بما يرد لها من رسائل تعليقًا على ما ينشر بها من موضوعات ومقالات. وتحرص على نشرها. مع التأكيد على أن ما تتضمنه من آراء. مثلها مثل المقالات ذاتها. لا تعبر بالضرورة عن رأى المجلة أو هيئة تحريرها

الياء والألف المقصورة ومجلدات «وجهات نظر»

أكتب إليكم اليوم لأعبر عن شكري لجهودكم (...)، وأود أن أضع بين أيديكم بضع ملاحظات، وأولها متعلقة بالتصحيح الطباعي للحروف فقد اعتادت «وجهات نظر» على تجاهل حرف الياء (ي) في نهاية الكلمات، والتي ينبغي أن تكون منقوطة لتمييزها عن الألف المقصورة وهو ما يقلب المعنى رأساً على عقب، وهذا الأمر يضيق منه صدري فأرجو أن يتم الانتباه له، ومن الأمثلة على ذلك: من صفحة رقم ١٦ فى العدد ١٣٠ الصادر في نوفمبر ٢٠٠٩ ما يأتي:

«ساركوزى» وصحتها «ساركوزي»

«وفى» وصحتها = «وفي»

«يعنى» وصحتها «يعني»

«بأيدى» وصحتها «بأيدي»

أما الملاحظة الثانية فهى عبارة عن استفسار حول عدم نشر عروض الكتب الصادرة فى المغرب العربى والاكتفاء بمطبوعات دور النشر المشارقية المعروفة لدى القارئ.

ولي سؤال أخير؛ لماذا لا يتم تضمين العدد الأخير من كل عام كشافا متكاملا للمجلة؟ وإن تعذر فلماذا لا تتوفر نسخة إلكترونية على الإنترنت من الكشاف الكامل؟ وهل بالإمكان إصدار الأعداد كاملة فى مجلد؟

فكري الرعدي

باحث جامعي وكاتب صحفي

محافظة إب. اليمن



«فى مسألة اللوبى العرب و اليهود فى أمريكا» تصويبات ضرورية

تقديرا منا على مانعرفه من حرص «وجهات نظر» على الدقة والمصداقية، نود أن نلفت نظر قرائها الى عدد من الأرقام والتعبيرات غير الدقيقة التى وردت فى مقال «العرب واليهود فى أمريكا» والمنشور فى عدد ٩٣١ (أغسطس ٢٠١٠).

١. ذكر الكاتب أن عدد المسلمين فى الولايات المتحدة يصل الى ٥٠ أو ٦٠مليونا، فى تذهب كل التقديرات المعروفة الى أن العدد لا يتجاوز بحال الـ ٧ ملايين (تقدير مجلس العلاقات الاسلامية الأمريكية CAIR) بينماتقدرهم المصادر غير الاسلامية بـ ٢ مليون فقط.

٢ ـ لم تكن الثورة الأمريكية فى «منتصف القرن الخامس عشر» كما ذكر الكاتب. فأمريكا لم تكتشف، على يد كريستوفر كولمبوس، إلا فى نهاية القرن الخامس عشر و بالتحديد فى عام ١٤٩٢.

اما الثورة الأمريكية على الإمبراطورية البريطانية و التى انتهت بالاستقلال وإعلان الولايات المتحدة فكانت فى القرن الثامن عشر من ١٧٧٥ وحتى ١٧٨٣.

٣ ـ يقول الكاتب «...بل إن الملوك المسيحيين فى العصور الصليبية وما قبلها قاموا بمذابح جماعية ضد اليهود خاصة فى أسبانيا و إيطاليا (محاكم التفتيش)». والحقيقة أن التعبير المستخدم، وهو «العصور الصليبية» تعبير غير دقيق. و كان من الممكن أن نقول «فترة الحروب الصليبية» أو «عصر الحروب الصليبية» (مثلاً)، أو إذا كان المقصود تحديد عصر تاريخى فيكون الاصح أن نقول «العصور الوسطى»، و ليس «العصور الصليبية». عند استخدام هذه التعبيرات فلابد من مراعاة ما اصطلح عليه المؤرخون، وليس من المعقول أن نبتكر تعبيرات جديدة لوصف العصور التاريخية.

هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن فترة الحروب الصليبية، والتى شهدت مذابح لليهود، امتدت منذ سنة ١٠٩٦ وحتى سنة ١٢٩١، بينما محاكم التفتيش الأسبانية الشهيرة، وما صاحبها من اضطهاد للمسلمين واليهود، فهى فترة مختلفة بدأت فى القرن الخامس عشر(١٤٧٨).



(بالرغم من وجود جذور تاريخية قديمة لـ Inquisition، إلا أنه يبدو من السياق أن تلك الجذور لم تكن هى التى يقصدها الكاتب).

٤ ـ يشار عادة لمبنى الكونجرس الأمريكى بإسم «Capitol Hill» و ليس «Capital Hall» كما جاء فى المقال. ولعلها خطأ مطبعى.

مهندس أشرف سعيد عاشور

كندا



«أفول العصر الأمريكى» أكتوبر ٢٠٠٩

.......قد يكون مفيدا أن أبدأ بتقديم نفسى كقارئ لـ «الكتب وجهات نظر» منذ صدور أول عدد (......) ولقد هممت أكثر من مرة أن أكتب لكم معبرا عن تقديرى لهذه النافذة الواعية على آخر منتجات الفكر الإنسانى من كتب ومقالات.كنت أتمنى أن تكون أول رسائلى لكم من باب الشكر والمديح اللذين تستحقونهما بكل جدارة، ولكن يبدو أن دافع القدح دائما أقوى من حافز المدح، (....) حيث اطلعت على مقال كنتم قد نشرتموه تحت عنوان «أفول العصر الأمريكى» استثارنى فيه أمر إلى حد الحرج الذى لا أستطيع بعده السكوت. (...) والمقال ترجمة لمقال كان قد نشره إمانويل ولارشتين على موقع Agency Global بعنوان «العاصفة النارية القادمة The Firestorm Ahead»، ولما كنت قد قرأت هذا المقال من قبل، بل وكتبت عنه ملخصا فى إحدى الجرائد الالكترونية، فقد وجدت أن هناك تغييبا واضحا لأهم نقطة فى المقال الأصلى تكاد تكون نقطته المركزية!، النقطة المركزية هى تأكيد ولارشتين بنص مقاله: « ما لا تدركه الحكومة الإسرائيلية هو أن لا حماس ولا حزب الله يحتاجان لإسرائيل. إن إسرائيل هى التى تحتاج إليهما، وتحتاجهما بشدة. إذا لم ترد إسرائيل أن تصبح ولاية صليبية ينتهى أمرها بالزوال، فإن فقط حماس وحزب الله هما القادران على ضمان بقاء إسرائيل. فقط عندما تصبح إسرائيل قادرة على الاتفاق معهما، باعتبارهما المتحدثين الرسميين الأكثر تجذرا عن الفلسطينيين والقومية العربية، تصبح إسرائيل قادرة على البقاء فى سلام». والنقطة المركزية هنا تشتمل على نقطتين فرعيتين، الأولى والأهم هى تنبؤ ولارشتين بزوال دولة إسرائيل فى حال عدم تفهمها لمحركات التاريخ بالمنطقة، والثانية هى اقتناع ولارشتين بأهمية دور كل من حماس وحزب الله فى معادلة القوى فى المنطقة. وقد فوجئت بغياب تام لتلك الفقرة وعدم الإشارة حتى إلى أى من محتوياتها فى ترجمة الأستاذ مازن النجار لمقال ولارشتين!، هذا مع العلم أن تلك الفقرة كانت هى الجزء المقتطع فى أعلى المقال باعتباره جوهر فكرته!! ولما كان تقديرى للمترجم يمنعنى من الاعتقاد بأن الأمر لايعدو كونه سهوا أو خطأ غير مقصود، فلايبقى أمامى، احتراما لعقلى، إلا استنتاج أن الحذف المتعمد فى أقصى تقدير، أو «الانتقاء المخل» فى أقل تقدير، هو أمر مقصود لذاته، ولكن الذى لم أستطع أن أستنتجه هو السبب المباشر لهذا «الانتقاء المخل»، هل هو موقف مبدئى أو توجه أيديولوجى ضد ما تمثله حماس وحزب الله؟ أم هو قسوة ووضوح ولارشتين فى التنبؤ لإسرائيل بأنها ستكون « آخر ولاية صليبية» (...)؟؟! أظن أنه يحق لى بعد ثقة دامت أكثر من عشر سنوات فى مجلتنا « الكتب وجهات نظر»، أن أتساءل عن، ولا أقول أشكك فى مدى أمانة النقل والترجمة لما أقرأه بثقة مطلقة على صفحات مجلتنا..

عميد مهندس متقاعد
مسعد غنيم

مدير تحرير الجريدة الالكترونية «مصرنا»

من مقاتلى أكتوبر «الذى كان»!

المسيحيون العرب

كمال الصليبى

■ يعزّ عليَّ كثيراً، كونى عربياً أنتسب إلى المسيحية، (...) أن أكون الشخص الذى اختير ليطرح موضوعاً درجت تسميته بتراجع الدور المسيحى فى لبنان، أو فى المشرق العربى، أو فى عالم العرب عموماً، أو مهما يكن الأمر. وكأن المسيحيين فى ديارنا ليسوا سوى بقية باقية من شعب منقرض: بقية تنتظر دورها لتنزلق فى متاهات الزوال. إن مجرد طرح هذا الموضوع من قبل العرب المسيحيين هو فى رأيى افتراض فى غير محلّه لأنه يتجاهل حقائق تاريخية وحضارية ووجودية ولأنه يعنى، ضمنا، أن العربى المسيحى لا يعتبر نفسه عربيا بكامل معنى الكلمة لمجرد وجوده حيث هو، مهما كان موقف العربى الآخر منه.

الموضوع الذى يجب أن يُطرح ليس هذا، بل موضوع آخر أكثر منه خطورة. وهو سؤال يلزم طرحه ليس فقط فى البلاد العربية حيث للعرب المسيحيين وجود، بل أيضاً فى تلك البلاد التى ليس لهم فيها وجود أو حضور دائم، سواء فى مشارق بلادنا أو فى مغاربها. هذا السؤال البالغ الأهمية يمكن إيجازه كالآتى: ما هو مصير العرب كشعب تاريخى فى حال زوال النصارى من بينهم، مع الأخذ بالاعتبار أن مثل هذا الزوال للنصارى العرب، فى صورة أو أخرى، أمر يمكن تخيلّه؟ الذى سيحدث هو أن العرب لن يبقوا عرباً، فى حال زوال النصارى مما يُطلق عليه حتى الآن اسم العالم العربى. لن يبقى العرب عرباً على أرضهم التاريخية. بل ان الأمر يتخطى ذلك بكثير ويتجاوزه. مع مثل هذا الزوال المفترض للنصرانية العربية، لن يكون هناك شىء فى العالم اسمه عرب بالمعنى الكيانى التاريخى الوجودى المطلق ودون تحفظ. وبعبارة أخرى، لن يبقى هناك فى أى مكان من العالم كينونة عربية قائمة بذاتها لا تتصف إلا بعروبتها.

كمال الصليبى هو أستاذ جامعى ومؤرخ تاريخى لبنانى. قام بأبحاث تاريخية أثارت كثيرا من الجدل حول تاريخ وجغرافيات التوراة. كان رئيسا لدائرة التاريخ وعلم الآثار فى الجامعة الأميركية فى بيروت. وفى عام ١٩٩٤ وبطلب من الأمير حسن بن طلال أسس المعهد الملكى للدراسات الدينية فى عمان.

النصرانية فى ديار العرب جاءت سابقة للإسلام بحوالى ستة قرون، مما يجعل منها أصلاً وليس فرعاً للكينونة العربية التاريخية، على عكس الرأى السائد بين العامة من النصارى والمسلمين والقائل بأن العروبة مرتبطة أصلا بالإسلام. والواقع أن للمسيحية فى تاريخ العرب على مر العصور دوراً واضحاً وجلياً. قرون من الحروب بين المسلمين والروم، ثم بين المسلمين والفرنجة وإلى ما ذلك، لم تؤثر فى هذا الدور ولا هى تمكنت من إلغائه أو تحجيمه.

من نصارى ما قبل الإسلام من كان على رأس شعراء الجاهلية الذين هذّبوا لهجات لغة الأعراب وصقلوها فى ما نظموا من روائع الشعر، فخلقوا بذلك اللغة العربية الفصحى، واضعين الأسس الأولى لتراثها المستمر الذى يبقى حتى هذا اليوم المفخرة التى يجتمع حولها مجمل العرب.

جميع ممالك العرب وإماراتهم، فى زمن ما قبل الإسلام، كان نصرانياً، إن لم يكن يهودياً. ثم جاء الإسلام فحلّ مكان النصرانية باستئثاره بالطليعة العربية ومُثلها من مروءة وفروسية وشهامة، فكلل بذلك نجاحه التاريخى الباهر.

هذا النجاح كان ظاهرة تاريخية ما زال العرب المسيحيون وغيرهم فى حيرة من أمرها حتى يومنا هذا. الإسلام، تاريخياً، استأثر بالعروبة وتملكها، وهو ما زال حتى اليوم مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً ومتبادلاً مع هذا الإرث الأصيل. أما آن الأوان لنا، نحن العرب النصارى الذين ما زلنا نعتز بعروبتنا، أن نقول، بكل صدق مع أنفسنا: مضى ما مضى؟ أمِنَ الضرورى أن نجعل من الأمور التاريخية التى وصفها أحد رواد العالم الحديث جورج فورد بكونها Bunk أى هراء، ما يعكر صفو عيشنا الجميل مع رهطنا أو ربعنا العربى على تنوعه، وما أحلاه؟

هذا أمر يبقى لكل واحد من نصارى العرب أن يقرره لنفسه ويدخله فى قناعاته ويقينه: هل يريد أن يبقى فى دياره التاريخية، مقيماً مع رهطه من العرب حيث كانوا بتوافق وتآلف أخويين، أم انه يفضّل الهجرة إلى الخارج ليعيش مع ربع أقرب إليه مسلكاً وروحية، كما يتصور؟ إذا قرر الهجرة فهذا شأنه وما لنا إلا أن ندعو له بالتوفيق. لكن إذا هو قرر أن يجعل من وجوده مشكلة لنفسه ولمجتمعه تتحدى الحل، فهذه مسألة أخرى لا بد أن يحاسب عليها أمام التاريخ. وبالنهاية لن يصيب العرب المسيحيين حيث وجدوا فى بلاد المشرق إلا ما يشاءونه أو يصنعونه هم لأنفسهم.

سوف أطلق هنا العنان لخيالى فأقول: لبنان، بالنسبة الى العرب، هو آخر معاقل النصرانية فى ديارهم. ومنذ عشرين سنة تقريباً، عندما بدا للعرب من أقصى مشارقهم الى أقصى مغاربهم، ان النصرانية فى لبنان توشك على الانهيار، تملكهم الخوف وهبوا جميعا لوضع حد لهذا الانهيار، لا بل لمنعه من الحصول. فكانت وثيقة الطائف: هذه الوثيقة التى يتصدى لها من نصارى لبنان فريق ويرى فيها مساً بالمصالح المسيحية ونيلاً من حقوق يعتبرونها خاصة بالمسيحيين. وكان على رأس المتحمسين لمنع انهيار المكانة الخاصة بالمسيحيين فى لبنان من كان على خصومة معهم من مسلمى البلاد منذ تأسيس الدولة اللبنانية عام ١٩٢٠ وحتى أواخر الحرب الأهلية.

(...)

لو لم يكن المسؤولون العرب فى ذلك الوقت، مدركين كامل الإدراك، فى سريرتهم ان لم يكن جهراً، أهمية النصارى العرب، ونصارى لبنان تحديداً، للكينونة العربية التاريخية برمتها، هل كان حدث مثل مؤتمر الطائف يعقد أصلا، بل يستمر منعقداً حتى الوصول الى نتيجة تبقى النصارى فى البلاد على رأس الهرم، وان بصلاحيات لا تستفز غيرهم من اللبنانيين كما كان الواقع فى السابق؟ هل هذا الحدث التاريخى الفريد من نوعه. الذى هو انعقاد مؤتمر الطائف للبت العربى فى أمر لبنان. يعنى أن نصارى لبنان بقية من شعب منقرض غير مرغوب فى استمرار وجوده وفعاليته فى العالم العربى؟ هل يعى نصارى لبنان الى الحد الكافى ان عالمهم العربى الذى تهب عليه الرياح من كل صوب، لم يتحرك جدياً حتى الآن إلا لنصرة لبنان والوضع الخاص للنصرانية فيه. وهل من أهمية للبنان إلا كونه. فى نهاية المطاف. وبسبب التركيبة الديموغرافية الخاصة به. محجة لا محجة بعدها للعالم العربى؟

نعود الى الموضوع الذى طلب منى معالجته: تراجع الدور المسيحى فى لبنان وبلاد المشرق والعالم العربى. وأنا أرد على هذا الافتراض بطرح سؤال آخر: ما هو هذا الدور المسيحى الذى نتحدث عنه؟ هل لدى العرب المسيحيين فى الوقت الحاضر ميزات عقلية أو تقنية أو غير ذلك تجعل منهم عنصراً لا يستغنى عنه فى ديار العرب؟ ربما كان ذلك صحيحاً فى الماضى فى بعض الفترات وعلى بعض الصعد. لكننا نتحدث عن اليوم أى، أولاً، بعد زوال الحدود فى انتقال المعلومات بين الشرق والغرب فى العالم عن طريق وسائل الاتصال الالكترونية، وثانياً، بعد انحسار الفارق فى التقدم الحضارى بين المسيحيين وغير المسيحيين فى العالم العربى، وانفتاح العرب عموماً على طروحات ومتطلبات العالم الحديث والعلاقات الدولية الحديثة.

اليوم، وبعد كل هذه التغيرات التى جاء بها العالم المعاصر، يبقى لنصارى لبنان وبلاد المشرق العربى خصوصية تتمثل أكثر ما يكون فى كينونتهم واستمرار وجودهم على أرضهم التاريخية إن هم شاءوا ذلك فعلياً. و«الحجر على أرضه قنطار»، كما يقال. أما إذا نقلنا هذا الحجر الى الخارج، فعند ذلك يصح فينا قول زهير بن أبى سلمى، من شعراء الجاهلية (وثمة من يعتقد انه كان من نصارى ذلك العصر):

ومن يكُ ذا فضل ويبخل بفضله
على قومه يستغن عنه ويذمم

اعتداد العرب المسيحيين بالمهاجرين والمغتربين منهم هو فى نظرى ظاهرة مساوئها أكثر من محاسنها، إن لم يكن لشىء فلأنه يشجع نصارى بلادنا ضمناً، وغيرهم، على الهجرة. والهجرة هى من أهم أسباب تناقص أعداد النصارى فى بلادنا نسبياً ومطلقاً، إن لم يكن أهمها. هذا التناقص فى الأعداد هو السبب الأساسى للتخوف العام (وليس المسيحى فقط) من تراجع الدور المسيحى فى جميع بلاد المشرق العربى، والأصداء السلبية المنتظرة لمثل هذا التراجع.

المسيحيون الباقون حتى اليوم فى ديارهم العربية، والى جانب رهطهم، هم وحدهم من حماة هذه الديار، ان هم أرادوا ذلك فعلياً. المطلوب منهم هو. فقط. استمرار وجودهم حيث هم، حتى تستمر الظاهرة التاريخية التى اسمها العرب النصارى، التى بدونها لن يكون هناك شىء اسمه عرب. فهل ندرك عمق المسؤولية التاريخية والحضارية المنوطة بنا وخطورتها؟

إذا شئنا نحن المسيحيين البقاء على مستوى هذا الاستحقاق التاريخى الذى من خلاله يتقرر حضورنا ومصيرنا، فواجب علينا تجاه أنفسنا بادئ ذى بدء فهم أوضاعنا على حقيقتها على اننا جزء من كل، والكف عن العيش فى الأوهام، واعادة الثقة الى أنفسنا، بهويتنا العربية التى نستمد منها كل ما نتميّز به. ■

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazer - Volume 12 - Issue 142 - November 2010 مجلة شهرية العدد ١٤٢ - السنة الثانية عشرة - نوفمبر ٢٠١٠ - الثمن عشرة جنيهات

محمود الخضيرى و فكرى أندراوس

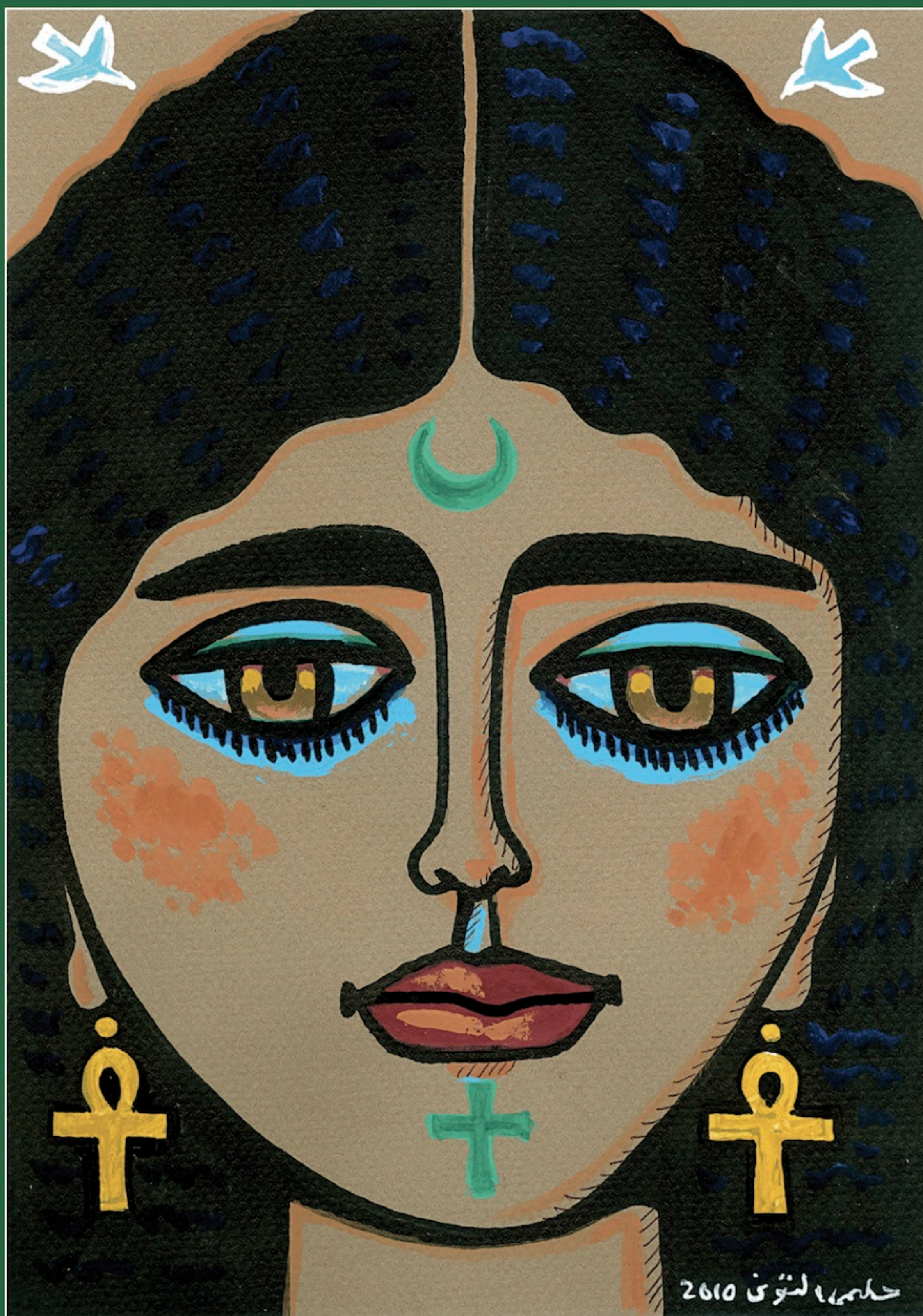
مشاكل الأقباط/مشاكل المسلمين

أنا الآن مسلمة .. لماذا هذه الضجة ؟

أفلام المدينة

Bob Woodward Behind Closed Doors

Revolution Tweeting?

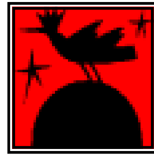


السنة الثانية عشرة
العدد ١٤٢
نوفمبر ٢٠١٠

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- **السيد أمين شلبى**.. سفير مصرى سابق، المدير التنفيذى للمجلس المصرى للشئون الخارجية
- **أمة العليم السوسوة**.. الأمين العام المساعد للأمم المتحدة.
- **أيمن الصياد**.. صحفى.
- **باربرا كيفيات**.. صحفية تكتب لمجلة تايم.
- **ثيودور إى. ماكاريك** .. رجل دين كاثوليكى ـ واشنطن.
- **رشيد قويدر**.. كاتب فلسطينى.
- **روبرت دارنتون**.. أستاذ فى جامعة هارفارد، ومدير مكتبة الجامعة.
- **زكى سالم**.. كاتب مصرى يحمل درجة الدكتوراه فى الفلسفة.
- **ستيف كول**.. صحفى؛ مدير تحرير سابق لواشنطن بوست، ويكتب حاليا لنيويوركر.
- **فكرى أندراوس**.. كاتب مصرى مقيم فى الولايات المتحدة الأمريكية.
- **لورين بوث**.. صحفية وناشطة بريطانية.
- **مازن النجار**.. كاتب وباحث فلسطينى، يحمل درجة الدكتوراة فى الهندسة.
- **مالكولم جلادويل**.. صحفى يكتب لمجلة نيويوركر.
- **محمود الخضيرى**.. نائب رئيس محكمة النقض السابق فى مصر.
- **محمود قاسم**.. صحفى مصرى.

رسوم العدد

عماد حجاج ـ محمد حجى
Deng Coy - Michael Kountouris - Monte Wolverton - Pavel Constantin





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

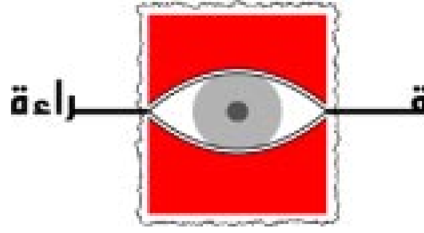
الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١,٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١,٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



المسلمون.. والأقباط ... والـــوطـــن



أيـــمـــــن الصـــيـــاد

■ ■ ليست هذه هى المرة الأولى التى تفتح فيها «وجهات نظر» هذا الملف .ولا نحسبها الأخيرة، وإن كنا نتمنى ذلك[1]. فقبل أن يجف مداد البيان المشترك لشيخ الأزهر والبابا، كانت قرية «النواهض» / أبو طشت، محافظة قنا تحترق. أو إن شئنا الدقة، كان بعض «الجيران» قد أشعلوا النار فى ٢٠ منزلا ومحلا تجاريا لجيرانهم «الشركاء فى الوطن» والسبب كالعادة قصة أو شائعة ـ لافرق كبير ـ «عاطفية».

وأظن أن كلنا بات متيقنا أن هذه الحادثة، سواء عظم الاهتمام الإعلامى بها (كما جرى فى حادثتى فرشوط ونجع حمادى)، أو تضاءل؛ لأسباب باتت مفهومة. فإنها لن تكون الأخيرة .طالما بقى وراء الأكمة ماوراءها؛ من حقائق «على الأرض»، ومصالح للبعض.. وحسابات للآخرين.

كيف وصلنا الى هنا؟

القصة طويلة، وكنا قد أفردنا للنظر فيها صفحات من هذه المجلة قبل أشهر (عدد فبراير ٢٠١٠) نشرنا فيها للأستاذ هيكل وللمستشار البشرى ونصا لكلمة للبابا شنودة .ولأن لكل قصة ذروة Plot كما يقول أساتذة الدراما، فربما كانت الذروة فى تلك القصة التى تعود فصولها الأولى ربما إلى أربعة عقود مضت، كانت يوم أقحم البعضُ الرقمَ القبطى فى حساباتِ السياسة، فلم يتورع عن الترويج لحالة من «الفزع» لدى أقباط هذا الوطن .بعد أن نجح عدد من الإسلاميين فى الوصول عبر صناديق الاقتراع قبل خمس سنوات إلى البرلمان.

ويومها ـ وأيضا لحساباتٍ أمنيةٍ قصيرة النظر ـ أجهض «أصحاب القرار» محاولة سكندرية لتفاهم إسلامى مسيحى أساسه «المواطنة». كان قد بادرَ بها أولئك الذين أزعج البعضَ وصولهم للبرلمان، وكان من شأنها ـ لو اكتملت ـ أن توجدَ مناخًا «أفضل» بالتأكيد من ذلك الذى بدا غيما لايرجى له انقشاعا.

فى الملف أوراق كثيرة.. وللأسف أصابع كثيرة .ولكن يبقى على هامشه وربما فى صلبه عدد من الملاحظات والحقائق ـ نكررها ـ تأكيداً:

● أن للمناخ «المحتقن» تاريخ من الأزمات التى تركت ندوبا هنا وجروحا هناك. كما كان الاحتكام بشأنها إلى غير القانون «المجرد»، كفيلا بإثارة شكوك بقيت فى النفوس، بعد أن تصور القائمون على الأمر أنهم «بالمواءمات» أو بدفن الجمار الملتهبة تحت الرماد البارد، قد نجحوا فى «احتواء الأزمة». وأن الزمن كفيل بدفن التفاصيل. والأمر، يعرف المتصفحون للإنترنت والمترددون على غرف المحادثة Chat Rooms، أنه لم يكن أبدا هكذا.

● لابد أن ندرك جميعا أن التنوع ـ بحكم قوانين الطبيعة ـ ثراء .وأن الاختلاف والتباين من سنن الخلق.. «ولذلك خلقهم» (هود١١٩). ويعلم المتخصصون أن التنوع يفترض وجود حالة من «التوازن الطبيعى» وأن لامشكلة «طبيعية» هناك، مالم تتدخل يدٌ تعبث بهذا التوازن.ثم أن المشكلة لم تكن أبدا فى التنوع، وإنما فى كفاءة المجتمع/ الدولة فى إدارة هذا التنوع. وأن لاسبيل لذلك إلا باعتماد ديموقراطية «حقيقية» وباحترام «مجرد» للقانون.

● أن الذين يتصورون أن «تهميش الدين» يمكن أن يكون حلا لما نراه من استقطاب طائفى، ربما لا يكون رأيهم صحيحا بالضرورة .فالحكمة ليست فى إنكار اختلافات هى موجودة فى الحقيقة، وإنما فى ترويج ثقافة احترام الآخر؛ الذى هو «مختلفٌ» بحكم كونه «آخر». ولاغضاضة أبدا فى ذلك. إذ ليس المطلوب طبعا أن «يؤمن» المسلمُ بأن المسيحى على حق فيما يؤمن به، كما أنه من غير المطلوب طبعا أن «يشهد» المسيحى بأن محمدا رسول الله. فلكل دين عقيدته التى هى بالضرورة تختلف عن الأخرى فيما تراه «كفرا» وماتحسبه من «مقتضيات» الإيمان. وعليه، يصبح من باب التزيد، أن يتحسس بعضهم من مقال «فقهى» كتبه محمد عمارة فى مجلة الأزهر، أو أن يعترض الآخرون على مايقوله القسس فى مدارس الأحد .أو أن تندلع «مظاهرات القصاص» احتجاجا لما قاله الأنبا بيشوى.. «لكم دينكم ولى دين» أظنه القول الفصل الكفيل إدراكنا الحقيقى له بنزع فتيل أزمات كثيرة، إذ لا جديد، بالتأكيد، فيما كتبه عمارة أو فيما قاله بيشوى، فالكلام موجود ومعروف منذ أربعة عشر قرنا. ماهو الجديد إذن؟ لعله المناخ. أو بالأحرى لعلها تبعات السياسة.

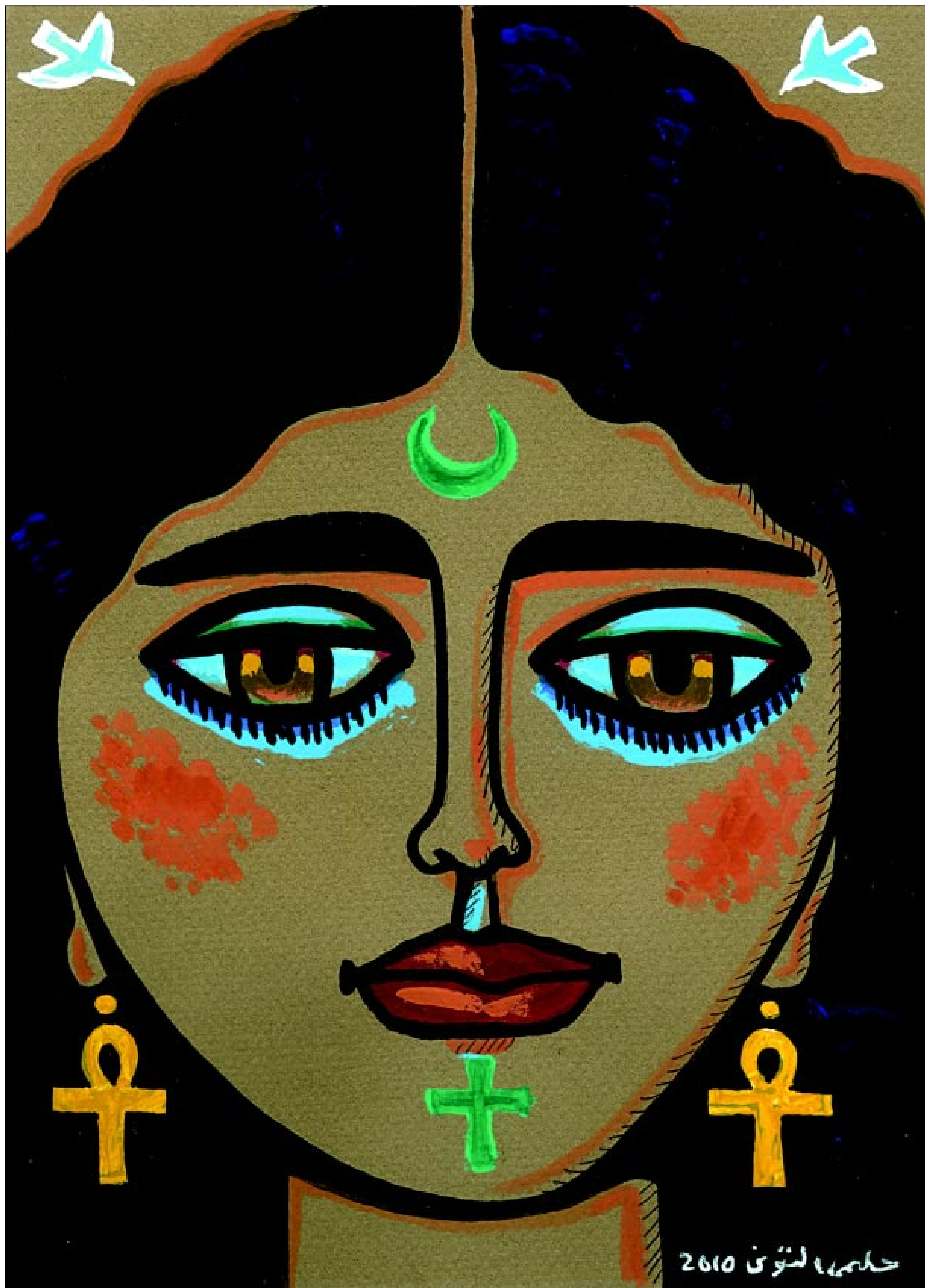
....

....

وبعـــد،

نعيد القول بأنه يخطئ من يعتقد أن مايجرى هنا وهناك «محض شأن طائفى.. لاغير»، كما يخطئ من ينظر إلى صورة تظاهرات الكنائس أو الجوامع، أو الدماء المهدرة فى شوارع نجع حمادى الفقيرة، أوالنيران التى اشتعلت فى منازل «النواهض» الأكثر فقرا، بمعزل عن المشهد السياسى العام المسكون بالعنف واليأس و«التعصب». كما يخطئ ـ وربما قبل ذلك كله ـ من يعتمد «الإقصاء» سياسةً، أيًا من كان المستهدف بها؛ أقباطا أو أخوانا مسلمين.. ثم يخرج علينا ليتحدث عن وطن «للجميع». ■

(١) تنشر «وجهات نظر» فى عدد قادم عرضًا لدراسة أكاديمية عن العنف الطائفى فى مصر فى عامين ٢٠٠٨: ٢٠٠٩.


حلمي التوني 2010



لو وجدنا حلولا لمشاكل المسلمين الحقيقية
لاختفت مشاكل الأقباط



مشاكل المسلمين
مشاكل الأقباط



محمود الخضيرى

■ ■ عندما أهدانى صديقى الأستاذ فكرى أندراوس مؤلفه «المسلمون والأقباط فى التاريخ» أثناء زيارتى لأمريكا رحبت بهذا الإهداء حيث إنه من موضوعات الساعة فى مصر والشغل الشاغل لكثير من أهلها سواء المسلمين أو المسيحيين المحبين لوطنهم الراغبين فى رفعة شأنه المؤمنين بأنه لا تقدم ولا رقى لمصر ما لم يتحد عنصرا الأمة، وهما فى الحقيقة متحدان لا يفرقهما إلا الوشاية ومحاولة الوقيعة بينهما - وهو عادة ما يفرق بين الأخوة - بدليل أنه عند وجود خطر يمس سلامة الوطن لا تجد إنسانا يفكر فى هذا الأمر وكيف يفكر فيه وهو يرى يد العدو لا تفرق فى العدوان بين مسجد وكنيسة أو بين مسلم ومسيحى الكل أمام قنابل العدو أهداف يريد القضاء عليها.

هذا هو الشعور العام بين أفراد الشعب المصرى فى أوقات الشدة وهى الأوقات التى يظهر فيها العدو الحقيقى والصديق الوفى.

عندما شرعت فى قراءة الكتاب بعد عودتى من أمريكا كنت أتوقع أن أبذل جهدا فى متابعة موضوعه حيث إن مادته يمكن أن تكون سببا فى أن يجد القارئ نفسه يبذل الجهد فى متابعة الموضوع إلا أننى فى الحقيقة لم أجد أنى فى حاجة إلى بذل جهد كبير فى متابعة موضوعاته بل على العكس وجدت سهولة ويسر فى المتابعة جعلنى أصطحب الكتاب معى أينما ذهبت حتى أشغل كل وقت فراغ فى القراءة لدرجة أن بعض المقربين منى كان يلفت أنظارهم حرصى الدائم على وجود الكتاب معى أينما ذهبت مما كان يدفعهم إلى تصفحه وإبداء الرغبة فى قراءته بعد أن أفرغ منه، والحقيقة أن طريقة وأسلوب الكتاب يكاد يتطابق مع شخصية مؤلفه فهى شخصية ودودة بسيطة ينفذ إلى قلبك من أول لقاء وقد أحسست فى المرات القليلة التى التقيته فيها أننا صرنا أصدقاء نتمازح كأننا تعارفنا منذ أمد بعيد.



يبدأ المؤلف حديثه فى مقدمة الكتاب التى هى فى نفس الوقت الفصل الأول منه عما حدث لمصر بعد هزيمة ١٩٦٧وهو عندما يتحدث عن هذه الهزيمة يذكرنى بشبابى فى هذا الوقت حيث كانت سنى وقتها سبعا وعشرين عاما حيث إنى من مواليد يناير سنة ١٩٤٠وكان كل مصرى فى هذا الوقت يشعر بمرارة فى فمه لا يعرف لها سببا، وإن كان السبب فى الحقيقة معروفا وهو إحساس المصرى ذى السبعة آلاف سنة حضارة كما يحلو لحكامه التفاخر دوما. إحساس المصرى أنه مستعمر من إسرائيل أصغر وأحقر دولة فى العالم وهو إحساس مرير - لم يكن ذلك إحساسنا يوم أن كنا مستعمرين من إنجلترا سيدة العالم فى هذا الوقت التى كانت تستعمر نصف بلاد الدنيا، أما اليوم فإن إحساس المهانة شديد بل قل هو أشد من أن يحتمل. وإذا كان الشعب المصرى قد انتصر فى حرب ١٩٧٣ فليس ذلك بسبب السلاح والعتاد بل بسبب عزيمة الشباب والرجال الذين كان الدافع الأول لهم على النصر هو هذا الإحساس بالذل والعار.

يقول المؤلف فى مقدمة كتابه إنه «إذا نظرنا لتاريخنا سنجد أن هذا الاحتقان والتشنج الذى نراه الآن وخصوصا فى حركات التطرف الدينى، ظاهرة تنتاب الدولة كوباء الطاعون فى حالة ضعف الدولة أو وجود تهديد خارجى، ونحن نعانى من كليهما الآن» والمؤلف ينقل هذا الكلام من كتاب شخصية مصر لجمال حمدان وهو قول أعتقد أنه صادق ثم يقول المؤلف: «لقد انعكست ظروف محلية وإقليمية وعالمية على علاقة الأقباط والمسلمين وقد ساعد تصرف إسرائيل على ذلك لتفتيت المنطقة حتى تستطيع أن تعيش كأقلية أخرى فى المنطقة بدلا من أن تكون وحيدة فى محيط عربى إسلامى، ولكن يجب ألا نلوم إسرائيل على كل ما يحدث لنا دون نظر لأنفسنا أولا، أعتقد أن الأقباط - مسيحى الشرق عموما - يجب ويستطيعون أن يكونوا سندا مهما للوطن فى هذا الصراع الدائر كما كانوا خلال الثورة المصرية فى أوائل القرن الماضى - ويمتد ذلك لمسيحى شرقنا العربى - لتحقيق الاستقلال ولكن يجب أن تتاح لهم الفرصة...

إن علاقة الأقباط والمسلمين المتعثرة ما هى إلا إحدى مشاكل مصر الثانوية، إن مصر تغلى بمشكلات أكثر أهمية، إن مشاكلنا الحقيقية هى غياب الديموقراطية الحقيقية، وغياب المؤسسات المستقلة، وسوء التعليم بجميع فروعه وألوانه، بل قد يكون أهمها التعليم الدينى والإعلام السيئ وخصوصا ما يوصف بأنه قومى، والفساد، والقهر السياسى، وعدم قدرة الدولة على خلق فرص اقتصادية لتوفير العمالة للكثيرين، تآكل الطبقة الوسطى، والانحدار الخلقى رغم مظاهر التدين الكثيرة والكاذبة... وبعد ذلك تأتى مشاكل الأقباط والمسلمين. إننا لو وجدنا حلولا لمشاكل المسلمين الحقيقية

للاستزادة:
المسلمون والأقباط فى التاريخ
فكرى أندراوس
دار الثقافة الجديدة
القاهرة ـ ٢٠١٠

مشاكل المسلمين  مشاكل الأقباط

لاختفت مشاكل الأقباط». هكذا يقول فى مقدمة كتابه وهى قولة حق ونظرة صادقة لحقيقة مشاكل مصر ومشاكل المسيحيين والأقباط فيها. بعد هذه المقدمة يدخل المؤلف إلى صلب الموضوع يبدأ المؤلف حديثه من الفصل الثانى عن دخول المسيحية لمصر فيقول: دخلت المسيحية مصر منذ القرن الأول حيث كانت العلاقة بين أورشليم والإسكندرية قوية وسريعة بفضل التجارة ووجود الجالية اليهودية الكبيرة بالإسكندرية، وكانت المسيحية فى أوائل أيامها موجهة لليهود وتقول التقاليد الكنسية المصرية إن القديس مرقص هو الذى أدخل المسيحية لمصر وانتشرت المسيحية بمصر وفى حوض البحر الأبيض منذ القرن الأول، إلا أن عدد المسيحيين لم يزد كثيرا إلا فى أوائل القرن الثالث وقد بدأ اضطهاد المسيحيين بنيرون سنة ٥٤ إلى ٥٩، حين أحرق مدينة روما ومن أجل إرضاء الجماهير اتهم المسيحيين بحرقها وقد كان هذا الإمبراطور مختلاً عقليا ويستمر المؤلف فى استعراض أحوال المسيحيين فى مصر من علو وانخفاض تبعا لشخصية الحاكم حتى يأتى إلى الفصل الثالث عن دخول الإسلام إلى مصر على يد عمرو بن العاص فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب، ويقول عن هذه الفترة: وإن كان العرب لم يتدخلوا فى شئون العقيدة إلا أن الخطر الأكبر جاء فيما بعد من تحول البعض ثم الكثير من المصريين للإسلام لظروف كثيرة ليصبح الأقباط أقلية عانت فى بعض الأوقات بلاء عظيما، كان بقاء الأقباط فى مصر لليوم رغم اختفائهم من بلاد أخرى كثيرة، يعكس طبيعة الشعب المصرى بما يملك من رواسب حضارية وتسامح واعتراف الإسلام بأهل الكتاب خصوصا مسيحى مصر. ويطلق المؤلف على فتح مصر، تعبير احتلال مصر، وهو تعبير يختلف معه فيه الكثيرون من المؤرخين. ويستعرض تاريخ هذا الفتح ويقول عن عمرو بن العاص قائد هذا الفتح: «كان مركز عمرو يزداد قوة، وكان يحصل الخراج والجزية التى تقررت ولكنه لم يأخذ شيئاً من أموال الكنيسة، كما أنه لم ينهبها، بل حماها طوال فترة حكومته كما قال حنا النقيوسى، والحقيقة أن عمرو كان لديه حس سياسى ويعد أفضل من حكم مصر من العرب خلال حكم الخلفاء الراشدين، ثم خلال حكم الأمويين والعباسيين، كما يقول وبعد أن استقرت الأمور لعمرو أصدر بيانا يعلن فيه عهد الحماية والأمان على البطريرك بنيامين، فعاد من مخبئه ودخل الإسكندرية بمظاهر ترحيب من الأقباط بعد غياب ثلاث عشرة سنة».

من استعراض جميع فصول الكتاب نجد المؤلف فى حيدة تامة يستعرض ما حدث للأقباط من بعض الحكام سواء من إنصاف أو اضطهاد، ويشعر منه القارئ أن علاقة الأقباط بالمسلمين فى مصر على مر العصور كانت تمر بأزمات ومنعطفات صعبة أحيانا وجيدة أحيانا أخرى وكان ذلك يرجع إلى عوامل عدة منها أن الحاكم الظالم كان ظلمه يمتد ليشمل الاثنين معا المسلمين والمسيحيين مثل الحاكم بأمر الله الفاطمى، وأن الحاكم العادل كان الاثنان يستظلان بعدله وأن اضطهاد الأقباط ليس أمرا نابعا من تعاليم الإسلام وقيمه، بل هو على العكس فهم خاطئ لتعاليم الإسلام، وأن التعصب من كلا الجانبين هو أمر مخالف للشريعة الإسلامية والمسيحية، وأن الأزمات والعدوان الخارجى كانا هما العاملان اللذان يوحدان جميع عناصر الأمة المصرية كما حدث فى عهد قريب فى ثورة ١٩١٩ كما يحكى لنا التاريخ الذى سجله المؤلف بكل دقة وأمانة، وأن الحاكم الظالم المستبد والمستعمر الغاشم أول ما يفكر فيه هو التفرقة بين عنصرى الأمة لأن فى اتحادهما سويا قوة يضعف أمامها قوة الاستبداد والظلم، ونشاهد فى أيامنا هذه محاولات من الحكومة المصرية لتفريق عنصرى الأمة وضربهما ببعض وصولا إلى زعزعة الاستقرار حتى تتخذه الحكومة ذريعة لاستبداد وتزوير الانتخابات حتى تظل تسيطر على البلاد ونظل نحن يضرب بعضنا رقاب بعض.

عندما يتعرض المؤلف للاختلاف فى معاملة الأقباط فى ظل الحكام المسلمين المختلفين فى الدولة الأموية والعباسيين ووقوع بعض الاضطهاد للأقباط يسأل المؤلف عن صلة كل ذلك بمبادئ الإسلام ويجيب فى موضوعية: أعتقد أنه لا توجد أى علاقة، مبادئ الإسلام كانت بعيدة عن ذلك تماما، كانت كل تلك المصائب نتيجة سوء الإدارة وفساد وجهل بعض الحكام، والحاجة لجمع المال وكانت النتيجة هى تدهور مصر والمصريين، مع إهمال الإصلاحات العامة، ثم يستطرد فى موضع آخر إلى القول بعد أن ذكر ما فعله يزيد بن معاوية بأهل المدينة ومكة: «لم يكن هناك فرق كبير بين ما فعله بعض الحكام من تعسف وبطش ضد الأهالى، سواء كانوا مسلمى مكة والمدينة أو أقباط مصر فى سبيل الحفاظ على قوتهم ومكانتهم وتحصيل المال».



يحدثنا المؤلف عن أمر كنا نسمع عنه فى الصغر فى صعيد مصر وكنا نستنكره كمسلمين أشد الاستنكار لعلمنا أنه خارج تماما من تعاليم الإسلام وهو ما سماه المؤلف لبس الغيار ويقول: «إن لبس الغيار كان يفرض أحيانا وكان بعض الفقهاء والحكام يتفننون فى طرق الإذلال على الرغم أن لبس الغيار لم تكن له أصول فى أيام الإسلام الأولى كما سبق أن أشرت، والمقصود بلبس الغيار أن يخالف لبس أهل الذمة لبس المسلمين، كان اللون الأزرق فى الغالب للمسيحيين، والأصفر لليهود وإن كانت الألوان تتغير حسب أهواء المتحكمين فى الأمر، كان المهم ألا تتشابه مع ملابس علماء المسلمين، وكان التميز أحيانا يمتد إلى ركوب الدواب ومنع أهل الذمة من ركوب الخيل، ويمتد ذلك أيضا إلى دخول الحمامات العامة كل ذلك لإشعار القبطى أنه دون المسلم لإعلاء شأن المسلم والإسلام، وكأن الإسلام فى حاجة إلى ذلك، وكان لبس الغيار يفرض على أهل الذمة أحيانا حتى يحصل الحكام على رشاوى لإلغاء العمل بلبس الغيار». هكذا كان الجهال من حكام المسلمين يتصرفون بالطريقة التى تخالف تعاليم الإسلام وتسىء إليه.

ويقول المؤلف عن أحداث الفتنة الطائفية فى عهد العثمانيين والمماليك نقلا عن محمد عفيفى: «إن حوادث الفتنة الطائفية لا تقوم إلا فى ظل إدارة ضعيفة أو معاناة اقتصادية مصحوبة بظلم من الإدارة تنعكس آثاره على الرعية، لم يكن ذلك صحيحا فى تلك الفترة فقط، بل كان صحيحا على طول التاريخ بدون تحديد من تكون الأقلية ومن تكون الأكثرية، ولأن الحكام مماليك كانوا أم أتراكا أجانب عن المصريين فأحيانا استغلوا سياسة فرق تسد بين الأقباط والمسلمين».

ويحدثنا المؤلف عن الأخوة التى سادت بين المصريين فى عهد الخديوى إسماعيل حيث انتخب أقباط فى مجلس الشورى ويرصد المؤلف عن المستشار طارق البشرى قول محمد الشواربى فى أحد اجتماعات المجلس: إن الأقباط لن يخرجوا عن كونهم من أبناء الوطن، ولذلك يجب أن يكونوا ضمن المدارس التى تعمل بالمديريات ولا يكونوا خارجها متى أرادوا دخولها، ولم يكتف بترشيح الأقباط وانتخاب بعضهم فى مجلس الشورى، بل تم تعيين بعضهم قضاة فى المحاكم، لقد شهد بعض الزوار الأجانب تلك الفترة بروح المساواة التى سادت ذلك العصر، فتقول لوسى دون جوردون: «إن أهالى ببا ومعظمهم مسلمون انتخبوا جرجس القبطى عمدة لهذه البلدة، وكان بعض الأقباط يحضرون الاحتفالات بسفر المحمل مندوبين عن الخديوى وقد قررت الحكومة خلال وزارة بطرس غالى الاحتفال بأول السنة الهجرية».

يحدثنا المؤلف عن رأى الأقباط فى تمثيل الأقليات فى المجالس الشعبية وخاصة البرلمان فيقول: «وقف الوفد كتلة واحدة ضد تمثيل الأقليات، كان الأقباط يمثلون قسما هاما ممن رفضوا مبدأ التمثيل الطائفى سواء كان على أسس وطنية أو علمانية، وكان يصدر عن ثقة فى مستقبل مصر بعد ١٩١٩ وهو مستقبل يستحيل على العامة أن تتخيله وقتها بغير الوفد وكان لسعد زغلول رأى قديم فى عدم تمثيل الأقليات عند مناقشة قانون الجمعية التشريعية، أما أعضاء الوفد البارزين من الأقباط من أمثال ويصا واصف، راغب إسكندر، 

«الاحتقان والتشنج الذى نراه الآن وخصوصا فى حركات التطرف الدينى، ظاهرة تنتاب الدولة كوباء الطاعون فى حالة ضعف الدولة أو وجود تهديد خارجى، ونحن نعانى من كليهما الآن»

وسلامة ميخائيل وغيرهم، فقد عارضوا مبدأ تمثيل الأقليات وبعضهم هاجم دوس لرأيه فى وجوب تمثيل الأقليات، وقد رد سلامة موسى على رأى توفيق دوس ينبهه إلى أن تمثيل الأقليات لا يفيد الأقباط، لأن النظام البرلمانى هو نظام حكم الأكثرية، ولا تجدى الأقلية فى البرلمان إلا أن يكون لديها الأمل فى أن تصبح أكثرية، ولا يتوافر ذلك إلا للأقليات السياسية ولن يفيد القبط ما يحفظ لهم من مقاعد مادامت الأكثرية لا تسلم بمطالبهم فى مشروع ما».

ويقول المؤلف: «انتهت مشكلة تمثيل الأقباط برفضها الجماهيرى الواسع على نطاق المصريين عامة والأقباط خاصة، وجاءت اللجنة العامة للدستور فرفضتها بالأغلبية». هكذا كانت الروح بين الأقباط والمسلمين فما بالنا نرى عكس ذلك فى أيامنا هذه، وهكذا نجد المؤلف يتنقل تاريخيا عبر العصور واصفا حالة الأقباط مع حالة المسلمين فى موضوعية تكاد لا تفارقه ثم يختم المؤلف كتابه بالقول: «لقد تخطى الأقباط والمسلمون ظروف أصعب بكثير مما نراه الآن، يجب أن نستعيد ثقتنا فى أنفسنا وأن نعرف تاريخنا بموضوعية، إن مشاكل الأقليات عويصة وتحتاج إلى زمن طويل لحلها، ولن يجدى استيراد حل من الخارج لأنه لا يوجد ما يماثل حالتنا، هذه كلها حلول طويلة المدى ولكن لا أعتقد أنه يوجد بديل لها». وهو بذلك يشير على بعض الاحتقان القائم الآن والذى لا يجدى فيه مجرد جلسات صلح يتم فيها تبادل الكلمات والأحضان ثم الانصراف كل إلى حال سبيله وفى النفوس ما فيها بل إن الحل يكون بتحسين التعليم لبث الإحساس بأن الأقباط جزء من نسيج هذه الأمة وأنهم ليسوا أقلية نزحت من الخارج، وبتحقيق التساوى باندماج الأقلية فى الأكثرية وليس بالانعزالية بل بتشجيع الأقباط على أعمال الخدمة العامة، الخدمة العامة تبدأ فى مجال العمل ومجال السكن قبل الترشح للمجالس النيابية، بعض أقباط المهجر يجب أن يكونوا أكثر مسئولية وأن يفكروا فى مصر ككل، وأنا أقول بعض أقباط المهجر وأعنى ذلك، فإن أغلب الأقباط شأنهم شأن أغلب المسلمين يمثلون الأغلبية الصامتة حتى الآن، إن من يقول الشعب القبطى يجب أن يعلم أنه مصطلح طائفى للتفريق، هناك شعب واحد هو الشعب المصرى. ■

لماذا يعيش بعض الأقباط بهذا الخوف؟ لماذا يخشى الأقباط من تنفيذ مبادئ الشريعة الإسلامية، مع أن التفسير المستنير للشريعة لا يضُر الأقباط لأنه لا يُفرض على غير المسلمين ما يفرضه عليهم دينهم؟



الأقباط والمسلمون فى مصر

أسئلة الهوية

فكرى أندراوس

■ ■ كنت أنا ومجموعة من الشباب لا ندرى ماذا نفعل خلال حرب ١٩٦٧، فكنا نسهر الليالى قلقين على مصير الحرب والوطن، كنا نمشى فى الشوارع نلصق الإعلانات المشجعة على الحوائط من أمثال «حنحارب» بالإضافة إلى «طفى النور» وكأننا بذلك ساهمنا فى المجهود الحربى. وعندما لاحظ صديقٌ قبطى تحَمسى الذى اعتبره زائداً قال لى: «هل تدرى أنهم لو طردوا اليهود من فلسطين فسيطردوا الأقباط من مصر بعد ذلك». لم أصدق ما قاله صديقى واعتبرتهُ حين ذلك وللآن مجرد هراء؛ فالأقباط كانوا فى مصر منذ القدم والاستعمار الصليبى الصهيونى لفلسطين ليس له علاقة بذلك. ولكن ما بقى معى من ذلك الحديث هو: كيف ولماذا فكر صديقى على هذا النحو؟ والغريب أن هذا الصديق له علاقات عذبة مع أصدقائنا المسلمين، بل ولم ألاحظ أى تعصُب فى تصرفاته، بل ولم أره مرةً واحدةً يذهب إلى الكنيسة!

لماذا يعيش بعض الأقباط بهذا الخوف؟ لقد تزايد هذا الخوف بعد الازدياد فى المد الإسلامى السياسى بعد ١٩٦٧. والآن لماذا يخشى الأقباط من تنفيذ مبادئ الشريعة الإسلامية، مع أن التفسير المستنير للشريعة لا يضُر الأقباط لأنه لا يُفرض على غير المسلمين ما يفرضه عليهم دينهم؟ حيث إن الأديان الإلهية تلتقى فى محتوى العقيدة فإنها تتمايز من حيث شرائعها وأحكامها.

كانت حرب ١٩٦٧ نقطة محورية فى تاريخنا الحديث. قبل تلك الحرب لم تكن هناك مشاكل تذكر بين الأقباط والمسلمين، وكانت هناك حكومة قوية يساندها برنامج وطنى لاقى التأييد العام. أما بعد هزيمة ١٩٦٧ ووضوح فشل بعض نواحى النظام الحاكم بالإضافة إلى تغيرات إقليمية وعالمية، كان من بعض نتائج ذلك أن هزيمة ١٩٦٧ قد هزّت الكيان المصرى وما زالت. الهزيمة فى حد ذاتها قد لا تمثل الخطر الأكبر، حيث إن الدول تستطيع - إن أرادت - أن تحُقق النصر بمعالجة الأسباب الحقيقية للهزيمة، ومصر فى إمكانها ذلك (لقد قال عزيز صدقى رئيس الوزراء السابق ورائد الصناعة المصرية الحديثة: «إنّ مصر إنْ أرادت فعلت») ولكن ما هى إرادة مصر الحقيقية الآن؟



لقد خشى من لهم رؤية مستقبلية من أمثال طارق البشرى أن تلك الهزيمة إن لم تُعالج أسبابها قد تترك ظلالها على قوة التماسك فى المجتمع المصرى، وقد تفتتت صلابته[1]. للأسف إن بعضاً من ذلك قد حدث فعلاً. بدأ الوطن يتحول من كيان واحد إلى جزر منعزلة وضللنا الطريق. لقد أصبح من السهل اهتزاز الوطن بأكمله لمجرد حادث بسيط قد لا يستحق الكثير من الاهتمام من أمثال اعتناق شخص ما ديناً غير دينه فيثور الكثيرون ثم تهدأ العاصفة دون أن نحل أى إشكالٍ جذريًا أو أن نَتَعمق فى أسباب المشكلة الحقيقية والتى قد يكون أهم أسبابها الخوف والقلق اللذان أصبحنا نعيش فيهما.

بعد سنين من قصة صديقى الذى خشى أن يطرد المسلمون ألاقباط من مصر، وبعد أن بدأت أدرس تاريخ مصر وأنا فى المهجر، وجدت بعضاً من أسباب قلق أو خوف صديقى من أن يُطرد الأقباط من مصر. وجدت أن هناك ثغرات واسعة فى وعينا بالتاريخ؛ هذه الفجوات المظلمة فى العقل الجمعى أشبه ما تكون بالتمزقات فى ذاكرة الأمة، هكذا وصفها غالى شكرى[2]. يعتقد غالى شكرى أن النقص الثقافى والتشوه الذى يصيب البنية الذهنية يأتى فى مقدمة الأسباب التى تؤدى إلى الاحتقان الطائفى الذى نراه ليس فى مصر فقط بل فى محيطنا العربى. هذة الثغرات أو الجُزء المتغاضى عنه أو المنسى من تاريخنا يكمن وراءه الخوف الزائد لدى البعض. قد يكون ذلك بصورة أكبر لدى الأقباط حيث إن الأقليات عموماً تُغالى فى الشعور بالخطر، يدفعها لذلك غريزة حب البقاء. خصوصاً فى وجود رؤى مختلفة ومتباعدة عما يعنيه الإسلام السياسى وتنفيذ الشريعة.

ما زال هذا الجزء المفقود من تاريخنا والذى أشار إليه غالى شكرى موجوداً فى العقل الباطن بصورة ما، يُسترجع عند الشعور بالخطر. ويقول رشدى سعيد- وهو على حق- إنه على طول التاريخ لم تحدث الفتنة الطائفية إلا فى أوقات متباعدة نتيجة حاكم ضعيف يحاول أن يشغل الناس عنه وعن فساده وفشله[3].

ورغم قلة هذة الحوادث إلا أنها بقيت فى العقل الباطن بصورةٍ ما، بل أحياناً بصورةٍ غير موضوعية، كما حدث لصديقى خلال حرب ١٩٦٧. لا أعتقد أنه



يوجد حاكمٌ واحد فى تاريخنا الطويل أضر بالأقباط دون أن يضر بالمسلمين أو يضر بمصر. ولكنَ هناك اختلافًا فى مدى تأثير الضرر على كل من الأقلية والأكثرية. الأكثرية أكثر قدرةً على تخطى مساوئ الحاكم الذى يسىء إليها عن الأقلية لاختلاف مستوى التأثير. فى العقود الأخيرة ولأسباب غير خفية ساعدت بعض أعمال العنف ضد الأقباط فى حدوث شرخ فى علاقة الأقباط بالمسلمين. ومن ناحية أخرى كان هناك تصاعد وتضخيم لما يحدث من قبل بعض المصريين بالمهجر. ساعد على ذلك وجود واسترجاع بعض من هذه الذاكرة المدفونة وأصبح كل ذلك عقبةً فى سبيل الوحدة الوطنية وبدأ الخلاف يتصاعد والشرخ يتسع. إن العنف والإرهاب الذى نراه أحيانًا من قبل المتطرفين الإسلاميين هى حوادث مازالت فردية لا تمثل عامة الشعب المصرى، بل هى موجهة أساسًا ضد النظام الحاكم لقلقلته ولإحراجه، ولها ضحايا من الأقباط والمسلمون.

بعد حرب ١٩٦٧ بدأت بعض قيادات الدولة تنهج اتجاهًا دينيًا لأسباب سياسية. مع بداية رئاسة السادات للدولة أصبحت هناك مزايدات بين بعض المتطرفين إسلامياً وبعض رجال الدولة أيهما أكثر «تأسلمًا». وأصبح هناك خوف بين بعض المسلمين من الأقباط نتيجة تشويه إعلامى أو جهل بالوقائع أو بالتاريخ. منها على سبيل المثال أن «الأقباط أغنياء ويحاولون إفقار المسلمين»، «الأقباط يحاولون إعادة مصر دولةً قبطيةً بمساعدات خارجية»، «العمل على تحديد نسل المسلمين وزيادة عدد الأقباط من أجل أن تعود مصر قبطيةً كما كانت». بالإضافة لبعض الإشاعات والمعلومات المغرضة تمامًا من قبيل «ميليشيا قبطية» و«الأسلحة التى تملأ الأديرة»، «هؤلاء الأقباط غُرباء عنا.. ماذا يفعلون فى مصر؟» ومن ناحية أخرى هناك من يربط بين المسيحية المصرية والشرقية عموماً وبين مسيحية أوروبا الاستعمارية التى بدأت بالحروب الصليبية وطردت المسلمين من الأندلس. إن خلق إسرائيل ما هو إلا حروب صليبية جديدة وإن كانت أخطر بكثير من الحروب السابقة. كل ذلك يثير خوف المسلمين من الأقباط أو من المسيحيين عموماً دون تمييز بين المسيحية الشرقية والمسيحية الغربية. إن ذلك الخوف غير الحقيقى ينم عن جَهل ويجب أن يزول.

لقد قال فهمى هويدى[٤]: «إننا بإزاء موقف يتهدد المسلمين وغير المسلمين، الاستسلام له سيقود الجميع إلى قاع اليم، والسكوت عليه اشتراك فى الجريمة يقترب من التواطؤ والتستر، وليس أمامنا إذا أردنا لأنفسنا بقاءً واستمرارًا، إلا أن نستجمع القوى، ونتشبث بما تبقى من خير وعقل لدى هذه الأمة، لنثبت ونقاوم ونمسك بالزمام قبل أن ينفلت».

ما هى هوية الشعب المصرى الآن؟ وهل هى للوطن أم للدين؟ قد يبدو هذا التساؤل سخيفًا حيث المفترض أن يتلاقى الوطن مع الدين حتى إن اختلفت الأديان.

لقد قارن جلال أمين[٥] بين ما حدث للطبقة الوسطى فى مصر فى النصف الأول من القرن الماضى وبين ما حدث فى النصف الثانى من القرن وحتى الآن. لقد كان الشعور الدينى فى النصف الأول من القرن على وفاق تام مع الشعور بالانتماء الوطنى، بينما نجد الآن شيئًا يشبه التنافر أو حتى القطيعة بين الانتماء الدينى والانتماء للوطن، وكأن الولاء للوطن قد أصبح من نصيب العلمانيين او المدنيين (أو بعضهم). لقد كانت الطبقة الوسطى فى الماضى أكثر عقلانية وأقل تمسكًا بالمظاهر منه بجوهر الدين، كان من الممكن أن يجتمع شعورٌ دينى قوى مع فهم عقلانى للحياة. ويستنتج جلال أمين أن التغير الذى حدث فى طبيعة الخطاب الدينى المعاصر ساعد على وجود شقاق بين الولاء للدين والوطن وطبعًا ليزيد الشقاق بين المسيحيين والمسلمين. لقد ساعد الخطاب الدينى المعاصر على نمو مناخ يساعد على انتشار الفساد بدلاً من أن يضيّق من نطاقه، وأصبح من السهل أن يجتمع القيام بعمل فاسد مع التمسك بشكليات الدين. لقد دخل فى الخطاب الدينى تيارٌ لاعقلانى يهتم بالمعجزات والخرافات ويعلى من شأن الطقوس على حساب الأخلاق والمثل، ويجعل بعض المسلمين على استعداد للتنكيل بالأقباط بلا سبب ويشيع فى الأقباط شعوراً بالتوجس والخوف بسبب وبلا سبب[٦].

أعتقد أن معرفتنا بالتاريخ بموضوعية والبحث عند الجذور عن أسباب بعض الصعاب بين أقباط مصر ومسلميها هى الخطوة الأولى لتغيير مسارنا المنحدر. نحتاج لكثيرٍ من البحث فى تاريخنا وتحليل حوادثه وأن نكُف عن انتقاء ما يناسب وجهة نظر معينة، ولعلنا نستطيع أن نفهم بعض الحساسية الزائدة التى نراها الآن والتى تثير المصاعب وعدم الثقة فى علاقاتنا والتى تستنزف الكثير من طاقاتنا وتعيق تقدمنا. إن لنا أعداء يهمهم استقطاب أية مشاكل يعانى منها الوطن وهى كثيرة. إن توتر العلاقات بين الأقباط والمسلمين يجب ألا يكون مشكلة تعانى منها الأمة، فهناك مشاكل أهم من ذلك بكثير وتحتاج لتكاتف كل طاقات المصريين.



حاولت فى كتابى أن أهتم بعلاقة الأقباط والمسلمين من سياق التاريخ العام ومدى تأثيره، محاولا رسم صورةً أكبر من مجرد العلاقة الخاصة التى تربطنا إلى الإطار العام لما كان يحدث فى مصر. إن التاريخ القديم الذى يغفل عنه البعض عن قصد أو عن غير قصد أو بحكم البعد الزمنى له تأثير فيما يحدث الآن. عامة الشعب المصرى لم يعرف تاريخ العلاقات بين الأقباط والمسلمين وخصوصاً القديم منها إلا عن طريق الأقاصيص التى اعتمدت على وجهات نظر معينة يؤيدها انتقاء أجزاء بعينها من تاريخنا. أعتقد أن التاريخ القديم قد يفسر لنا بعض أسباب الاحتقان الطائفى والحساسية الزائدة لدى البعض. ولأن بعض التاريخ القديم قد يكون غير سار- كما هو الحال فى كل دول العالم- فقد يحاول بعض الأقباط أو المسلمين إخفاءه أو التغاضى عنه، إلا أن هذا جهل وخطأ مُضر. أولاً لأن تاريخنا فى أغلبه به فترات كثيرة تمثل منارةً للحُب والأخوة، فعامة المصريين كانوا دائمًا وما زالوا متجاورين وتشاركوا فى الأفراح والأحزان. ومن ناحية أخرى يجب ألا نحمل الأجيال الحديثة مسئولية ما حدث من أخطاء الماضى مهما كانت. يجب أن نعرف التاريخ القديم ونعيه حتى يمكننا أن نتخطاه، وحتى إن بقى فى ذاكرتنا فسيكون بموضوعية. نحن لن نغيِر التاريخ ولكن معرفتنا به، حتى وإن كان به بعض المغالاة أو السلبيات سيساعدنا على تفهم الأنا والآخر وسيساعدنا على تخطى عقبات الماضى. ومن ناحية أخرى فإن التاريخ القديم يجب ألا يؤخذ ككتب التاريخ الحديثة، حيث إن كُتَاب التاريخ وحتى العصور الوسطى عندنا وفى أوروبا مزجوا التاريخ بالدين مزجًا شديداً. نرى ذلك بوضوح فى سرد الأساطير والقصص العجيبة والخوارق والكرامات. مثال ذلك صور القديسين والشهداء التى تقطر زيتًا أو دمًا. وليس هذا قاصراً على الأقباط وإن كان الأقباط قد غالوا فى ذلك. نحن نرى نفس النوع من المغالاة فى بعض التاريخ الإسلامى المصرى، إننا نرى محمد بن طغج الإخشيدى مثلاً يكرم رجلاً من دمياط قيل إن يده كانت مقطوعةً وإنه غاب عن البلد زمانًا وعاد ويده صحيحة. ويذكر على بركات بعضًا من تلك الأمثلة[٧]. الأمثلة من هذا النوع يصعب حصرها وهى تمثل نوعًا من الأدب الشعبى اختلقها البعض لظروف كثيرة ومعقدة. مغالاة الأقباط فى تلك الكرامات كان الغرض منه الاستمساك بدينهم وتقوية روحهم المعنوية خلال زمن الاضطهاد والمعاناة[٨]. سيرى القارئ بعضًا من تلك الأمثلة فى سياق ما سيذكر، وأرجو أن يراعى أن تلك الأمثلة قد يكون بها بعض أو كثير من المغالاة.

يهتم الكتاب بما كتبه المؤرخون القُدامى من أمثال حنا النقيوسى فى القرن السابع، البلاذرى وابن عبد الحكم فى القرن التاسع، الطبرى والمسعودى وساويرس بن المقفع فى القرن العاشر، الكندى





يقول رشدى سعيد ـ وهو على حق ـ إنه على طول التاريخ لم تحدث الفتنة الطائفية إلا فى أوقات متباعدة نتيجة حاكم ضعيف يحاول أن يشغل الناس عنه وعن فساده وفشله



إن مشاكلنا الحقيقية هى غياب الديمقراطية الحقيقية وغياب المؤسسات المستقلة، سوء التعليم، الإعلام السيئ، الفساد، القهر البوليسى، تآكل الطبقة الوسطى، الانحدار الخلقى رغم مظاهر الدين الكثيرة والكاذبة



المصرى فى القرن الثانى عشر، المقريزى فى منتصف القرن الخامس عشر، ابن إياس فى أوائل القرن السادس عشر، والجبرتى فى أوائل القرن التاسع عشر وآخرين كثيرين غيرهم. ولكنه يهتم أيضاً بكثير من الكُتّاب المحدثين من أمثال ألفريد ج. بتلر فى كتابه عن الفتح العربى لمصر، وعبد العزيز جمال الدين فى «موسوعة تاريخ مصر من القرن الأول إلى القرن العشرين»، سوريال عطية فى الموسوعة القبطية باللغة الإنجليزية، طارق البشرى فى كتابه المرجعى «المسلمون والاقباط فى إطار الجماعة الوطنية»، جاك ناجر فى كتابه «أقباط ومسلمون»، وأبو سيف يوسف فى كتابه «الأقباط والقومية العربية»، وغالى شكرى فى كتابيه «الأقباط فى وطن متغير» و«أقنعة الإرهاب»، وفهمى هويدى فى كتابة «مواطنون لا ذميون» بالإضافة لآخرين. بالإضافة إلى بعض المصادر الأجنبية. يقتبس الكتاب بعض الفقرات من تلك المراجع القديمة بالإضافة إلى ذكر المرجع ليتأكد القارئ مما كتبه بعض القدماء. ولكن يجب ألاّ ننسى أن ليس كل ما كتبه القدامى بالضرورة تاريخ حقيقى، وسيرى القارئ أمثلةً من ذلك. حتى كتب الأديان ليست بالضرورة كتب تاريخ. لقد قال الإمام محمد عبده فى «تفسير المنار» إن القرآن كتاب هداية وليس كتاب تاريخ، ولا أعتقد أن الأناجيل تختلف عن ذلك.

يخطئ من يعتقد أن نقد أى حاكم مُسلم أو بعض من مشايخ وزعماء الإسلام أو بعض رؤساء الكنيسة وزعماء الأقباط المهمين فى تاريخنا هو نقد للإسلام أو للمسيحية. هناك أيضاً فرقٌ كبيرٌ بين الدين والفقه الدينى. إن الفقه الدينى مجهود بشرى يحتمل الخطأ والصواب والتغير، تعاليم الدين يختلف تفسيرها باختلاف العصر وثقافته. لقد أصبحنا نعيش فى عالم معقد قد لا تناسبه تفسيرات بسيطة ومخلة وردت حين كان العالم جزراً متباعدة. لقد قال على بن أبى طالب «إن القرآن لا ينطق، بل ينطق به الرجال». وأعتقد أن مفهوم الإنجيل لا يختلف عن ذلك، وهو ما قاله أوريجانوس المصرى فى أوائل القرن الثالث. الفرد مهما كان حسن نيته وعلمه واجتهاده فهو خلاف الدين. لقد قال الإمام الشافعى «إن رأيى صوابٌ ولكنه يحتمل الخطأ ورأى غيرى خطأ يحتمل الصواب» بل قال ايضا «إنى أدين بتغير رأيى إلى ما رأيته الحق».

إن ظاهرة الأقلية والأكثرية أصبحت ظاهرة عالمية تكاد تكون موجودة فى كل دول العالم وتسبب مشاكل يروح ضحيتها الآلاف والملايين. خصوصاً أنه أصبح الآن ما يحدث فى قرية صغيرة يراه العالم أجمع وفى نفس الوقت تقريباً. لقد اهتم العلماء بدراسة الخلافات الإثنية والدينية فى المجموعات أو فى الأوطان، وهناك الكثير من الدراسات الجدية فى هذا المجال، من الطبيعى أن يكون الاقتصاد عاملاً مهماً فى العلاقات الإنسانية، ولكن قد يكون أهم تلك النواحى الحديثة هى العوامل السيكولوجية ودور المخ فى امتصاص عناصر «الأنا والآخر» والتى قد تؤدى إلى التمييز ثم التعصب فالاضطهاد. كيف تستخدم تلك المعلومات الحديثة لتساهم فى تخفيف حدة التوتر بين الأقلية والأكثرية؟ وإن كان الأقباط أقلية عددية إلا إنهم والمسلمين من نسيج واحد أصلاً، فالمسلم شأنه شأن المسيحى جذوره فى مصر الفرعونية، بل وتعود لبداية التاريخ ومن دخل مصر من الغرباء وهم قلة قليلة انصهروا فيها. إلا أنه حديثاً تستطيع أن تفرق بين من هو مسلم ومن قد يكون غير مسلم. فلو سرت فى أى شارع فى أى بلد فى مصر فستستطيع أن ترى ذلك. لقد نقل ذلك مرحلة اختلاف الدين إلى أولى مراحل الصراع وهى التمييز. وأقصد بأولى مراحل الصراع، أنها مرحلة قلقة إما تتصاعد لتصل لحالة عنف عام أو قد تتراجع لمجرد اختلاف دينى لا يتعدى ذلك، أو كما قال اللورد كرومر حاكم مصر إبان فترة الاحتلال البريطانى إن أقباط مصر ومسلميها متماثلون فى كل شىء إلا أن أحدهم يذهب للجامع والآخر يذهب للكنيسة.

أولى مراحل الصراع مرحلة قلقة غير مستقرة، ولا بد أن تتغير صعوداً أو هبوطاً، هذا من ناحية، ولكن من ناحية أخرى وقد تكون الأهم أن الدين أصبح هو القناة الوحيدة المفتوحة للتعبير عن الرفض لما يحدث فى مصر، حتى الحجاب والذقون والجلاليب ما هى إلا صور لذلك الرفض.

لقد حدث فى الماضى البعيد أن دمرت كل أو أغلب كنائس مصر فى فترة وجيزة. قتل البعض، اضطر البعض للتحول الاسلام بدلا من المسيحية بينما اضطر آخرون لترك وطنهم (أذكر: هذا من أحداث الماضى البعيد). لقد تخطى المصريون بشقيهم تلك المحن فى الماضى. هل ما نراه الآن على أرض الوطن بداية لنهاية الأقباط بمصر، أم إنها محنة سنتخطاها؟ إن فى مصر الآن من يرى أن المسيحية يجب أن تنتهى من مصر كما انتهت من دول إسلامية أخرى. يعتقد البعض أن الأقباط هم الأعداء وأن على الأقباط أن يدفعوا الجزية وألاّ يخدموا فى جيش بلدهم. بل هناك بعض المشايخ والمتعلمين تعليماً عالياً يحض المسلمين على عدم التعامل مع المسيحيين جاهلين أو متجاهلين أن مقياس تحضر الأمة يقاس بمدى معاملة الأكثرية للأقلية. لقد قال ذلك مهاتما غاندى خلال حركة استقلال الهند والتى أدت إلى أقلية مسلمة فى الهند وأقلية غير مسلمة فى باكستان وكثير من الضحايا وحتى الآن.

كان نتيجة كل ذلك أن تقوقع الأقباط حول الكنيسة والتى أصبحت تمثلهم ولكن بدون فاعلية حقيقية، وإن كان لا يوجد أيضاً من يمثل مصالح المسلمين الحقيقية فى نظامنا السياسى المعاصر. ظهرت جماعات مسيحية متشددة فى الداخل. أما فى الخارج فقد تفاعل بعض مصريى المهجر مع ما يحدث، وبعضهم تخطى تطاوله ما يرتكب البعض من عنف أو الدولة من قصور إلى مهاجمة الإسلام، وأنا أقول «بعض مصريى المهجر» وأعنى ذلك. حيث إن أغلب المصريين وإن استاء من بعض ما يحدث فى مصر - وهذا أمر طبيعى - إلا أنهم يمثلون الأغلبية الصامتة، شأنهم شأن باقى مصريى المهجر أو فى الوطن الأم، سيان، مسيحيين أو مسلمين.

مما لا شك فيه أن هناك الكثير من المستنيرين المسلمين والمسيحيين الذين يرون خطورة ما يحدث ويعارضونه قولاً وفعلاً. ولكن أين الدولة من كل ذلك؟ لقد قال محمد حسنين هيكل «رئيس الدولة فى مصر أياً كان اسمه وفى أى زمان عليه مسئوليتان بالدرجة الأولى: ١- وحدة الديانتين وتعايشهما فى الوطن الواحد. ٢- جريان ماء النيل إلى الوادى بأمان ويسر». (انظر عددى «وجهات نظر» مارس ٢٠٠٠، وفبراير ٢٠١٠).

هناك مشاكل كثيرة ومتراكمة من حوالى نصف قرن وعلينا مواجهتها وإلا أصبحنا كالنعامة التى تدفن رأسها حتى لا ترى الخطر. أو كما وصفه فهمى هويدى «هو بمثابة ألغام مزروعة فى الجسم العربى والإسلامى». يجب علينا مواجهة الواقع، وليس هناك بديلاً من معرفة تاريخنا والبحث عند الجذور[٩]. إن ما يفعله بعض المسئولين الآن مثل صور لعناق رؤساء الأديان أو لكاهن يعانق شيخاً أو موائد الإفطار الرمضانية التى يقيمها الكهنة والمطارنة والبابا لكبار المسلمين، كل ذلك لفتات طيبة ولكنها من قبيل «الديكور».

إن سياسة الدولة الرسمية توحى إلينا خلال الإعلام المحكوم أن كل شىء على ما يرام، ولم يكن فى الإمكان أحسن مما كان!! إن الوحدة الوطنية الآن مستهدفة. جاء بعض الاستهداف من الخارج لمحاولة تفتيت المنطقة لصالح إسرائيل والغرب. لقد ساعد على ذلك بعض أعمال العنف «الإسلامى والصهيونى». دعاوى حماية الأقليات الآتية من الغرب بعضها ذات دوافع سياسية للتدخل فى الشؤن الداخلية للدول. وجاء الاستهداف أيضاً من التيار الوهابى وإن كانت أفكاره للأسف قد وجدت تربةً لا بأس بها، ليس فى مصر فقط بل فى دول أخرى عربية وإسلامية نتيجة لأسباب اقتصادية واجتماعية وسياسية.

إذا نظرنا لتاريخنا سنجد أن هذا الاحتقان الطائفى والتشنج الذى نراه الآن وخصوصاً فى حركات التطرف الدينى، ظاهرة تنتاب الدولة كوباء



أين ذهبت قولة اللورد كرومر حاكم مصر إبان فترة الاحتلال البريطانى: «إن أقباط مصر ومسلميها متماثلون فى كل شىء إلا أن أحدهم يذهب للجامع والآخر يذهب للكنيسة»؟





الطاعون فى حالة ضعف الدولة أو وجود تهديد خارجي، ونحن نعانى من كليهما الآن. هذا كان وصف جمال حمدان لما تعانيه مصر من جراء التطرف الدينى فى آخر مقابلة صحفية له[10]. يعتقد جمال حمدان أن الإسلام السياسى يخص الماضى. إنه يشبه تشنج واهتزاز الدجاجة المقطوعة الرأس قبل سكونها للأبد. هذه النظرة المستقبلية هى نظرة من تمرّس فى تاريخ مصر. أعتقد أن ما قاله جمال حمدان سيكون صحيحًا تاريخيًا. لقد رصد لنا هذا العالم فى مشروعه الكبير لحظات الضعف فى تاريخ مصر وأحصى آلياتها بما يدعنا إلى أن نعيد النظر إلى داخلنا وخارجنا. يعتقد جمال حمدان أن ما نراه على الساحة هو بمثابة رجعيّة سياسية وجهل مدنى وجاهلية دينية أما فى القرن الحادى والعشرين فهو خرافة من مخلفات التخلف وكابوس مخيف، ومن ثم فالإسلام السياسى المعاصر ليس أكثر من صحوة الموت. ولكن هناك كثيرين يختلفون مع رأى جمال حمدان، وخصوصاً أننا نرى الآن ازدياداً فى المد الإسلامى السياسى لأسباب محلية، إقليمية، وعالمية.

إن ازدهار السلفية الدينية ذات الأهداف السياسية ما هو إلا نتيجة تراكم سقوط دولة محمد على ودولة إسماعيل ومحاولة عرابى ثم ثورة ١٩١٩ وأخيراً ثورة ١٩٥٢. وستكون تلك المرحلة، إن قُدّر لها أن تكون، مرحلة أخرى من مراحل السقوط إلى أن نتمكن من الوصول إلى الطريق السليم وهو الدولة الحديثة، الدولة المدنية الديمقراطية موضوعاً وليس مجرد شكل. نحن لا نعرف ما يخبئه لنا المستقبل، هل ستكون هناك دولة دينية فى مصر؟ وإن كانت كذلك فكيف ستكون؟ إن الاسلام لم يعرف الدولة الدينية فى تاريخه الطويل إلا فى فترة الرسول وبعض الخلفاء الراشدين، فيما عدا ذلك كان الحكم أقرب ما يكون للحكم المدنى. هناك خلافٌ كبيرٌ بين المفكرين الإسلاميين المعاصرين، ولا توجد أيديولوجية واحدة مطروحة على الساحة- ولن توجد- وهذا أمر طبيعى، لأنها مجهود بشر. إن الإسلام السنى خالٍ من الكهنوت أو الملالى، ولا توجد عندنا ولاية الفقية كما لدى الشيعة. هذا الخلاف بين الشيعة والسنة يُثير بين المسلمين اختلافًا أكثر مما يثير اتفاقًا. رغم إعجاب الكثيرين منا بما يحدث فى إيران وبحزب الله فى لبنان، ليس لنجاح النظام الإيرانى فى إدارة إيران وتطويرها، أو لنجاح حزب الله النسبى فى صراعه مع إسرائيل، بل لمعاداة هذا النظام للغرب وإسرائيل فى وقت تبدو فيه بقية الدول العربية ضعيفةً ومتخاذلة. وإن كان الحكم فى الماضى أقرب إلى الحكم المدنى، إلا إن هذا لا يعنى أن نظام الحكم لم يراع مبادئ الدين بل التزم بها طبقًا لاحتياجات العصر. وكان لبعض رجال الدين الإسلامى القدامى من أمثال الأشعرى والشافعى و الغزالى تأثير واضح فى زمانهم، ولكن الكثير من ذلك بقى معنا للآن. ولكن زماننا مختلف.



إن الإسلام المعاصر يبحث عن نفسه فى عالم شديد وسريع التغير، يبحث عندالجذور ولا يريد أن يفقد ذاته لأن هذا يعنى الضياع، ولكن لا بد من التحديث، إن استخدام الدين فى السياسة كارثة للدين وكارثة للسياسة وهناك أمثلة كثيرة لذلك فى تاريخ المسيحية والإسلام واليهودية المعاصرة وفى كتابى أتعرض لبعض من ذلك. هذا لا يعنى أننا سننحى الدين جانباً. إن أساسيات ومبادئ الدين- أى دين -كانت وستكون أحد مكونات الدولة، أى دولة.

إننى أُقدّر تماماً أن بعضاً من صعوبة العلاقات بين الأقباط والمسلمين أو بين مسيحيى الشرق ومسلميه تعود إلى عدم قدرة البعض على التمييز بين مسيحية الشرق ومسيحية الغرب. يعتقد البعض بسبب قصور التعليم عندنا أن مسيحية الشرق ما هى إلا امتداد لمسيحية الغرب. بل يعتقد البعض بسبب ذلك، أنهم لا يجب أن يثقوا فى الأقباط أو فى مسيحيى الشرق، وينعكس ذلك على بعض القيادات وخصوصا فى مناصب الدولة العليا. لقد اختفى المسيحيون أو كادوا من بيت لحم.. مكان مولد المسيح، وهو ما لم يحدث منذ ظهور المسيحية. هل أصبح بقاء المسيحيين فى منطقتنا بهذة الصعوبة؟

لقد انعكست ظروف محلية وإقليمية وعالمية على علاقة الأقباط بالمسلمين، وقد ساعد تطرف إسرائيل على ذلك لتفتيت المنطقة حتى تستطيع أن تعيش كأقلية أخرى فى المنطقة بدلاً من أن تكون وحيدةً فى محيط عربى إسلامى، ولكن يجب ألا نلوم إسرائيل على كل ما يحدث لنا دون أن ننظر لأنفسنا أولاً. أعتقد أن الأقباط -ومسيحيى الشرق عموماً- يجب ويستطيعون أن يكونوا سنداً مُهماً للوطن فى هذا الصراع الدائر، كما كانوا خلال الثورة المصرية فى أوائل القرن الماضى - ويمتد ذلك لمسيحى شرقنا العربى- لتحقيق الاستقلال ولكن يجب أن تتاح لهم الفرصة. خلال ثورة سعد زغلول كان العدو واضحاً وهو الاستعمار، أما الآن فمن هو العدو الحقيقى؟ إنه ليس المسيحية أو الإسلام، إنه نحن ومن يريد منا أن يستغل الدين فى السياسة. إن القومية العربية فى ظل الظروف الراهنة، هى الدرع التى يمكن أن تقينا من الهجوم الغربى الاستعمارى والإسلام أحد مكونات القومية العربية المهمة ولكن يجب أن تكون مسيحية الشرق أيضاً أحد هذه المكونات، وقد كانت كذلك فى الماضى القريب والبعيد.

إن علاقة الأقباط والمسلمين المتعثّرة ما هى إلا إحدى مشاكل مصر الثانوية. إن مصر تغلى بمشكلات أكثر أهمية. إن مشاكلنا الحقيقية هى غياب الديمقراطية الحقيقيه وغياب المؤسسات المستقلة، سوء التعليم- بجميع فروعة وألوانه- بل قد يكون أهمها التعليم الدينى، الإعلام السيئ وخصوصًا ما يوصف بأنه قومى، الفساد، القهر البوليسى، وعدم قدرة الدولة على خلق فرص اقتصادية لتوفير العمالة للكثيرين، تآكل الطبقة الوسطى، الانحدار الخلقى رغم مظاهر الدين الكثيرة والكاذبة و....و...وبعد ذلك تأتى مشاكل الأقباط والمسلمين. إننا لو وجدنا حلولاً لمشاكل المسلمين الحقيقية لاختفت مشاكل الأقباط.

لقد ترددتُ كثيراً قبل كتابة هذا الكتاب لما لموضوعه من حساسية واحتمال الانتقاء أو التأويل الخاطئ وأتمنى ألاّ يحدُث ذلك. أعتقد أنه لا مفر من إعادة النظر إلى تاريخ علاقة الأقباط بالمسلمين حتى نستطيع أن نتخطى بعض المشاكل التى أصبحت جزءاً من حياتنا والتى أصبحت سهلة الاستفزاز. حاولت أن أكون موضوعيا قدر استطاعتى. قد يختلف معى البعض، وأتوقع ذلك، فالحقيقةُ ليست حكرًا على أحد، ولكن لعلنا نكون موضوعيين فى اختلافنا. فى غياب الموضوعية تندفع الأكاذيب والأساطير والمفتريات لتملأ عقولنا. إن الموضوع الذى قررت أن أتصدى له فى هذا الكتاب استحوذ على قدرٍ كبيرٍ من تفكيرى ولسنين عديدة، قبل أن أقدمه للقارئ كمصرى أولاً وأخيراً ولعلنى أكون وُفقت فى أن أكون موضوعياً، ولكن الحكَم الأخير هو القارئ. ■



المشكلة أن البعض لم يتعلم أن يميز بين المسيحية المصرية والشرقية عموماً وبين مسيحية أوروبا الاستعمارية التى ابتدأت بالحروب الصليبية وطردت المسلمين من الأندلس



هوامش

(١) طارق البشرى. المسلمون والأقباط فى إطار الجماعة الوطنية، دار الوحدة. سنة ١٩٨٢. ص٥.
(٢) غالى شكرى. الأقباط فى وطن متغير. كتاب الأهالى رقم ٢٩. سنة ١٩٩٠. ص٧.
(٣) حوار مع رشدى سعيد أجراه حمدى رزق. جريدة الدستور. فبراير سنة ١٩٩٨.
(٤) فهمى هويدى. مواطنون لا ذميون. دار الشروق. الطبعة الأولى. سنة ١٩٨٥ ص ٩.
(٥) جلال أمين. مصر والمصريون فى عهد مبارك. (١٩٨١ -٢٠٠٨) دار ميريت. سنة ٢٠٠٩. ص ٤٠.
(٦) جلال أمين. مصر والمصريون فى عهد مبارك. مرجع سابق. ص ٥٢.
(٧) على بركات. رؤية الجبرتى لأزمة الحياة الفكرية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٨٧. ص ٥٨.
(٨) تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة لساويرس بن المقفع. إعداد وتحقيق عبد العزيز جمال الدين. مكتبة مدبولى سنة ٢٠٠٦. الجزء الأول ص ١٧.
(٩) فهمى هويدى. مواطنون لا ذميون. دار الشروق. الطبعة الأولى. ١٩٨٥. ص ٧.
(١٠) مقابلة صحفية أجراها حلمى النمم مع جمال حمدان. مجلة المصور. ١٥ أبريل سنة ١٩٩٤.

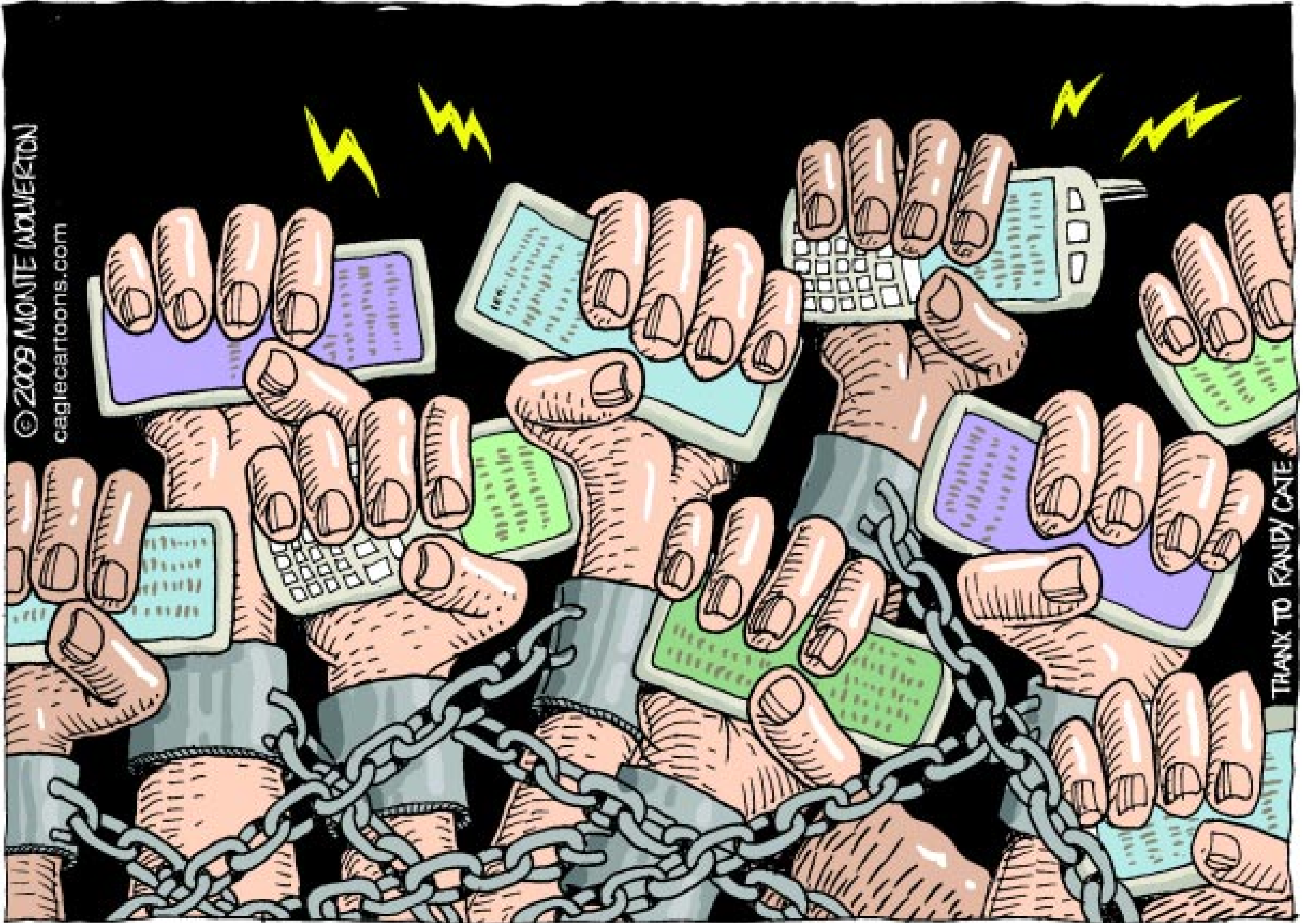
‘Why the revolution will not be tweeted?’

Twitter & Facebook

ولكن..
لا ثـــــورة هنـــــاك!

مـــالـــكـــولـــم جـــلادويـــل

Malcolm Gladwell



يقال لنا إن العالم فى وسط ثورة، فمع الفيسبوك وتويتر وما شابه، تغيرت العلاقة التقليدية بين السلطة السياسية والإرادة الشعبية مما سهل من التعاون والتنسيق بين الضعفاء، وجعل صوتهم مسموعا



■■ فى الرابعة والنصف بعد ظهر الاثنين الأول من فبراير عام ١٩٦٠، جلس أربعة طلبة جامعيون على منضدة الغداء فى الوول وورث فى وسط مدينة جرينزبورو، نورث كارولينا. كانوا طلبة فى الصف الأول فى جامعة إيه أند تى نورث كارولينا، وهى جامعة للسود على بعد ميل تقريبا.

قال أحدهم وهو أيزيل بلير إلى المضيفة: «أريد فنجانًا من القهوة من فضلك».

فأجابته «لا نخدم الزنوج هنا».

كانت منضدة الغداء فى الوول وورث عبارة عن منضدة طويلة على شكل حرف L يمكن أن يجلس عليها ستة وستون زبونا، وعند أحد طرفيها يوجد مقصف لتناول الوجبات الخفيفة وقوفًا. كانت المقاعد للبيض. ومقصف الوجبات الخفيفة للسود. اقتربت موظفة أخرى وهى امرأة سوداء كانت تعمل على طاولة عرض الطعام البخارية وحاولت تحذيرهم لكى يبتعدوا. وقالت لهم «إنكم تتصرفون بغباء أيها الجهلاء». لكنهم لم يحركوا ساكنًا. فى حوالى الخامسة والنصف، أغلقت أبواب المتجر الأمامية والأربعة لا يزالون فى أماكنهم. وفى النهاية غادروا من باب جانبى. وكان حشدا صغيرا قد تجمع فى الخارج ومن بينهم مصور فوتوغرافى من صحيفة جرينزبورو ريكورد. فقال أحد الطلاب «سأعود غداً ومعى طلبة جامعة إيه أند تى».

وفى الصباح التالى، ازداد عدد المحتجين ليصل إلى سبعة وعشرين رجلًا وأربع سيدات معظمهم من نفس سكن الطلاب الذى يسكن فيه الأربعة الأصليون. كان الرجال يرتدون البدل وأربطة العنق. وأحضر الطلبة معهم فروضهم الدراسية، وذاكروا وهم جالسون على المنضدة. وفى يوم الأربعاء انضم إليهم طلاب المدرسة الثانوية للـ«زنوج» بجرينزبورو، مدرسة دادلى هاى، فارتفع عدد المحتجين ليصل إلى ثمانين. وبحلول يوم الخميس، وصل عدد المحتجين ثلاثمائة – من بينهم ثلاثة سيدات بيضاوات – من حرم جامعة نورث كارولينا بجرينزبورو. وبحلول يوم السبت، وصل عدد المعتصمين إلى ستمائة. انتشر الناس فى الشارع. ولوح مراهقون بيض بالأعلام الكونفيدرالية. وألقى أحدهم بواحدة من الألعاب النارية. وعند الظهيرة، حضر فريق كرة إيه أند تى. وصاح أحد الطلبة البيض «ها قد أتى فريق الخراب».

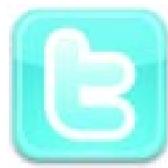


بحلول يوم الاثنين التالى، انتشرت الاعتصامات فوصلت إلى ونستون سالم التى تبعد خمسة وعشرين ميلًا، ودورام على بعد خمسين ميلًا. وفى اليوم التالى، انضم طلبة من كلية فييت فيل للمدرسين التابعة للولاية ومن كلية جونسون سى.سميث فى شارلوت، ولحق بهم فى يوم الأربعاء طلبة من كلية سانت أوجستين وجامعة شاو فى رالى. وفى الخميس والجمعة، عبر الاحتجاج حدود الولاية، ليظهر فى هامبتون وبورتسموث بفرجينيا، وفى روك هيل بساوث كارولينا، وفى تشاتنوجا بتينيسى. بنهاية الشهر، كانت الاعتصامات منتشرة فى جميع أنحاء الجنوب ووصلت غربا إلى تكساس. وقد كتب المُنظر السياسى مايكل والتزر Michael walters فى مجلة ديسينت Dissent. «لقد سألت كل طالب قابلته كيف كان يبدو اليوم الأول من الاعتصام فى حرم جامعته»، «وكانت الإجابة واحدة دائمًا: 'لقد كانت مثل الحمى. الجميع أرادوا الذهاب». فى نهاية المطاف شارك ما يقرب من سبعين ألف طالب. اُعتقِل الآلاف وأصبح آلاف أخرى أكثر راديكالية. أصبحت تلك الأحداث فى أوائل الستينيات حربا بخصوص الحقوق المدنية غمرت الجنوب لنهاية العقد، ووقعت دون بريد إلكترونى أو رسائل نصية أو فيسبوك أو تويتر.

يقال لنا إن العالم فى وسط ثورة، فوسائل الأعلام الاجتماعية الجديدة أعادت خلق الفعالية الاجتماعية. فمع الفيسبوك وتويتر وما شابه، تحولت العلاقة التقليدية بين السلطة السياسية والإرادة الشعبية مما سهل من التعاون والتنسيق بين الضعفاء وبعض، وجعل صوتهم مسموعا فيما يتعلق بشئونهم. فعندما لجأ عشرة آلاف محتج إلى الشوارع فى مولدوفا فى ربيع عام ٢٠٠٩ للاحتجاج على حكومة بلدهم الشيوعية، أطلق على هذا الحدث ثورة تويتر بسبب الوسيلة التى جمعت المحتجين معًا. وبعد ذلك ببضعة شهور، حين هزت احتجاجات الطلبة طهران، أقدمت وزارة الخارجية على خطوة غير اعتيادية بمطالبة تويتر بتعليق صيانة موقعها المحدد موعدها سلفا، لأن الإدارة لم تريد تعطيل هذه الوسيلة التنظيمية الحاسمة فى ذروة المظاهرات. وقد كتب لاحقًا مارك فايفل Mark pfeifle مستشار الأمن القومى السابق» بدون تويتر لم يكن الشعب الإيرانى ليشعر بالتمكن والثقة للدفاع عن الحرية والديمقراطية» مطالبا بترشيح تويتر لنيل جائزة نوبل للسلام. كان النشطاء يُعرفون فيما مضى بحسب قضاياهم، أما الآن فيُعرفون بحسب وسائلهم. محاربو الفيسبوك يتواجدون على شبكة الإنترنت للضغط من أجل التغيير. وفى حديث لجيمس ك.جلاسمان James K. Glassman المسئول السابق بوزارة الخارجية إلى حشد من نشطاء الإنترنت فى مؤتمرعقد مؤخراً برعاية فيس بوك وإيه أند تى وهاوكاست وإم تى فى وجوجل، قال: «أنتم أفضل أمل لنا جميعًا». وقال جلاسمان إن مواقع مثل الفيس بوك «تعطى الولايات المتحدة ميزة تنافسية هامة على الإرهابيين. لقد قلت فى وقت سابق إن القاعدة 'كانت تتناول غداؤنا على الإنترنت. لكن هذا لم يعد الحال. إن القاعدة عالقة فى شبكة ١.٠. فالإنترنت الآن هو التفاعل والمحادثة.»

هذه المزاعم هائلة ومحيرة. ما المهم فى تحديد مَن يتناول غداء مَن على شبكة الإنترنت؟ هل الأشخاص الذين يدخلون على صفحتهم على الفيس بوك هم فى الحقيقة أفضل أمل لنا جميعًا؟ فبالنسبة لما سمى بثورة تويتر فى مولدوفا، يشير إيفجينى موروزوف Evgeny Morozov العالم بجامعة ستانفورد وأكثر المنتقدين للتبشير الرقمى مثابرة أن تويتر لم يكن له سوى أهمية داخلية ضئيلة فى مولدوفا، تلك الدولة التى يوجد بها القليل جداً من حسابات تويتر. كذلك لم يبدو أنها كانت ثورة، ومن أسباب ذلك – لكنه ليس أقل الأسباب أهمية بالتأكيد – أن الاحتجاجات ربما كانت حقا جزء من مسرحية ملفقة من قبل الحكومة، كما أشارت آن أبلباوم Anne Applebaum فى الواشنطن بوست Washington Post. «فى بلد تعانى من الارتياب والذعر من الانتقام الرومانى، لوح المحتجون بعلم رومانيا فوق







إنها تمكن النشطاء من التعبير عن أنفسهم بطريقة أسهل، لكنها تجعل قدرة هذا التعبير على التأثير أصعب



Gladwell came to The New Yorker from the Washington Post, where he started as a staff writer in 1987, first reporting for the business section and then on the sciences. In 1993, he became the newspaper's New York City bureau chief. He was a 1995 National Magazine Award finalist for an article on mammography published in The New Republic.

بترتيب مع
THE NEW YORKER

ترجمة: وليد سليم

ولكـــــن.. لا ثـــــورة هنـــــاك



كتب مارك فايفل «بدون تويتر لم يكن الشعب الإيرانى ليشعر بالتمكن والثقة للدفاع عن الحرية والديمقراطية»



مبنى البرلمان». وفى نفس الوقت، من كانوا يرسلون رسائل تويتر عن المظاهرات فى حالة إيران كان معظمهم فى الغرب. «لقد حان الوقت لفهم دور تويتر فى أحداث إيران بشكل سليم» كما كتبت جولناز إصفندياري Golnaz Esfandiari فى الصيف الماضى فى مجلة فورين بوليسى Foreign Policy، فببساطة: لم تكن هناك ثورة تويترية داخل إيران». وتابعت أصفندياري قائلة إن كوادر المدونين البارزين - مثل أندرو سوليفان Andrew Sullivan الذى دافع عن دور وسائل الإعلام الاجتماعية فى إيران - أساءوا فهم الوضع. فكتبت أن «الصحفيين الغربيين الذين لم يستطيعوا الوصول للناس على الأرض فى إيران (أولم يكلفوا أنفسهم عناء الوصول إليهم) لم يقوموا إلا بتصفح رسائل تويتر المكتوبة باللغة الإنجليزية الموسومة بكلمة «انتخابات إيران». «وفى خضم كل هذا، لا يبدو أن أحداً قد تساءل عن السبب الذى قد يجعل أشخاصا يحاولون تنسيق الاحتجاجات فى إيران يكتبون بأى لغة غير الفارسية».

يجب توقع بعض من هذه المبالغات. فالمبتكرون يميلون إلى يتسموا بالأنانية. هم يريدون فى كثير من الأحيان إقحام كل تجربة وواقعة شاردة فى نموذجهم الجديد. كما كتب المؤرخ روبرت دارنتون Robert Darnton «أنتجت عجائب تكنولوجيا الاتصالات فى الوقت الحاضر وعيا زائفا عن الماضى، بل وحتى إحساساً بأن الاتصالات ليس لها تاريخ أو لم يكن وضعها فى الاعتبار مهما على الإطلاق قبل عصر التليفزيون والإنترنت». لكن هناك عاملاً آخر هنا فيما يتعلق بالحماسة الزائدة لوسائل الإعلام الاجتماعية. فبعد خمسين عاماً من إحدى أكثر خبرات الاضطراب الاجتماعى استثنائية فى التاريخ الأمريكى، يبدو أننا نسينا ما هى الفعالية.

كانت جرينزبورو فى أوائل الستينيات من القرن العشرين من ذلك النوع من الأماكن التى يُواجه فيها التمرد العرقى دائما بالعنف. فالطلاب الأربعة الذين كانوا أول من جلس على منضدة الغداء كانوا مرعوبين. وقد قال أحدهم فيما بعد: «أعتقد لو أن أى شخص كان قد جاء من خلفى وأطلق صيحة ما كنت سأقع من فوق الكرسى». فى اليوم الأول أبلغ مدير المطعم رئيس الشرطة، الذى أرسل للتو ضابطين إلى المتجر. وفى اليوم الثالث حضرت مجموعة من المشاكسين البيض إلى منضدة الغداء ووقفت بعنجهية خلف المحتجين مدمدمين بصفات ذميمة مثل «أيها الزنجى ذو الرأس البشع». وظهر كذلك أحد قادة الكوكلاكس كلان المحليين. وفى يوم السبت مع تصاعد التوتر، صاح شخص ما محذرا من وجود قنبلة مما استلزم إخلاء المتجر.



كانت المخاطر أوضح فى مشروع صيف الحرية فى المسيسيبى فى عام ١٩٦٤، وهو حملة أخرى من حملات حماية حركات الدفاع عن الحقوق المدنية. جندت اللجنة التنسيقية السلمية للطلبة المئات من المتطوعين الشماليين وكان معظمهم من البيض غير مدفوعى الأجر لتشغيل مدارس الحرية وتسجيل الناخبين السود وزيادة الوعى بالحقوق المدنية فى الجنوب الأدنى. وصدرت إليهم تعليمات تقول: «لا يجب أن يذهب أى شخص إلى أى مكان بمفرده، لكن بكل تأكيد لا يجب أن يفعل هذا فى سيارة أو ليلا». فى غضون أيام من وصولهم إلى المسيسيبى اختطف وقتل ثلاثة متطوعين هم مايكل شويرنر وجيمس شانى وأندرو جودمان. وخلال الفترة المتبقية من الصيف، كانت النار قد أضرمت فى سبعة وثلاثين كنيسة للسود وألقيت القنابل على العشرات من المنازل الآمنة؛ وضُرب المتطوعون وأطلق عليهم النار واعتقلوا وطاردتهم شاحنات صغيرة مليئة برجال مسلحين. وانسحب ربع المشتركين فى البرنامج. إن الفعالية التى تتحدى الأوضاع القائمة، والتى تهاجم المشاكل عميقة الجذور ليست لضعاف القلوب.

ماذا يجعل الناس قادرين على الانخراط فى مثل هذا النوع من الفعالية؟ قارن أستاذ علم الاجتماع بجامعة ستانفورد، دوج ماك آدم Doug McAdam، بين المشاركين الذين انسحبوا من برنامج صيف الحرية والذين بقوا، واكتشف أن الفارق الأساسى لم يكن، كما يمكن أن نتوقع، الحماس الأيديولوجى. وقد خلص إلى «أن كل المتقدمين. المشاركين والمنسحبين على حد سواء. اتضح أنهم ملتزمون بشكل كبير، ومساندون فصيحون لأهداف وقيم برنامج الصيف». الأمر الأكثر أهمية هو درجة الارتباط الشخصى بين الشخص وحركة الحقوق المدنية. فقد طُلب من كل المتطوعين تقديم قائمة بالعلاقات الشخصية (أى الأشخاص الذين أرادوا أن يبقوا على علم بأنشطتهم)، وكان للمشاركين أصدقاء مقربون يذهبون للمسيسيبى هم أيضا أكثر من المنسحبين. استنتج ماك آدم أن الفعالية عالية الخطورة هى ظاهرة تتسم بـ«الروابط القوية».

هذا النمط يظهر مراراً وتكراراً. ففى دراسة عن الألوية الحمراء، الجماعة الإرهابية الإيطالية التى نشطت فى السبعينيات، وجد أن سبعين فى المائة من المجندين كان لديهم بالفعل صديق مقرب على الأقل فى المنظمة. وينطبق الشىء نفسه على من انضموا للمجاهدين فى أفغانستان. حتى الأعمال الثورية التى تبدو تلقائية، مثل مظاهرات ألمانيا الشرقية التى قادت إلى سقوط حائط برلين، هى فى جوهرها ظواهر تتسم بقوة الروابط. تألفت حركة المعارضة فى ألمانيا الشرقية من عدة مئات من المجموعات، كل مجموعة بها دستة أعضاء تقريبا. وكان اتصال كل مجموعة بالأخرى محدودا، ففى ذلك الوقت لم يكن سوى ثلاثة عشر فى المائة فقط من الألمان الشرقيين يمتلكون هاتفا. كل ما عرفوه أن الناس يتجمعون مساء أيام الاثنين أمام كنيسة القديس نيكولاس فى وسط مدينة ليبزج للتعبير عن غضبهم من الدولة. وكان المحدد الرئيسى لمن كان يحضر هو «الأصدقاء المنتقدون»، فكلما زاد عدد أصدقائك المنتقدين للنظام كان من المرجح أن تنضم للاحتجاج.

وهكذا كانت هناك حقيقة أساسية بخصوص الأربعة الطلاب المستجدين الذين جلسوا على منضدة غداء جرينزبورو (داڤيد ريتشموند وفرانكلين ماكين وأزيل بلير وجوزيف ماكنيل)، ألا وهى علاقتهم ببعض. كان ماكنيل زميل بلير فى الغرفة فى سكن طلاب إيه أند تى سكوت هول، وكان ريتشموند يسكن فى نفس الغرفة مع ماكين فى الطابق الذى يعلوهما. وارتاد بلير وريتشموند وماكين جميعا مدرسة دادلى الثانوية. وكان الأربعة يهربون البيرة إلى السكن ويجتمعون فى غرفة بلير وماكنيل فى وقت متأخر من الليل ليتحدثوا. وكانوا جميعا ليتذكروا مقتل إيميت تل عام ١٩٥٥ وحملة مقاطعة أوتوبيس مونتجومرى فى نفس العام والمواجهة التى حدثت فى ليتل روك عام ١٨٥٧. وكان ماكنيل هو من طرح فكرة الاعتصام فى الوول وورث. وناقشوا هذه الفكرة لمدة تقرب من الشهر. ثم جاء ماكنيل إلى الغرفة وسأل الآخرين إن كانوا مستعدين. سكتوا قليلا، وقال ماكين،





عندما لجأ عشرة آلاف محتج إلى الشوارع فى مولدوفا فى ربيع عام ٢٠٠٩ للاحتجاج على حكومة بلدهم الشيوعية، أطلق على هذا الحدث ثورة تويتر بسبب الوسيلة التى جمعت المحتجين معًا



ولكن.. لا ثورة هناك



كان النشطاء يُعرفون فيما مضى بحسب قضاياهم، أما الآن فيُعرفون بحسب وسائلهم



بطريقة لا تصلح إلا بالنسبة لمن يتحدثون سويا فى وقت متأخر من الليل: «هل أنتم جبناء أيها الرفاق أم ماذا؟» ازدادت الجرأة لدى أزيل بليرفى اليوم التالى لطلب فنجان من القهوة لأنه كان محاطاً بزميل غرفته واثنان من الأصدقاء المقربين من المدرسة الثانوية.

إن طبيعة الفعالية المرتبطة بوسائل الإعلام الاجتماعية لا تتشابه مع هذا على الإطلاق. فمنابر وسائل الإعلام الاجتماعية مبنية على روابط ضعيفة. فتويتر عبارة عن وسيلة لكى تتتبع أشخاصاً قد لا تكون قابلتهم أبدا (أو أن يتتبعوك هم). والفيسبوك هو أداة تدير بها بفعالية معارفك الشخصية، وتبقى على اتصال بالأشخاص الذين ما كنت لتستطيع البقاء على اتصال معهم أبدا. لهذا تستطيع أن يكون لك ألف «صديق» على الفيسبوك، وهو ما لا يمكنك فعله أبدا فى الحياة الحقيقية.

يعتبر هذا من عدة جوانب شيئًا رائعًا. فهناك قوة فى الروابط الضعيفة، كما لاحظ عالم الاجتماع مارك جرانوفيتر Mark Granovetter. فمعارفنا . وليس أصدقاؤنا هم أعظم مصادرنا للأفكار والمعلومات الجديدة. فالإنترنت يتيح لنا استغلال قوة مثل هذا النوع من الاتصالات البعيدة بكفاءة رائعة. فالإنترنت رائع فى نشر الابتكارات والتعاون بين الاختصاصات المتعددة، والتوفيق السلس بين المشترين والبائعين، والمهام اللوجيستية فى عالم اللقاءات الغرامية..لكن الروابط الضعيفة نادراً ما تقود إلى فعالية عالية الخطورة.

فى كتاب جديد بعنوان «أثر اليعسوب: طرق سريعة وفعالة وقوية لاستغلال وسائل الإعلام الاجتماعية فى دفع عملية التغيير الاجتماعى» يروى مستشار الأعمال أندى سميث Andy Smith وجنيفر أكر Jennifer Aaker الأستاذة بكلية الأعمال بجامعة ستانفورد قصة سامير بهاتيا وهو مدير شاب فى سيليكون ڤالى أصابه سرطان الدم النخاعى الحاد. وهو مثال نموذجى على قوة وسائل الإعلام الاجتماعية. احتاج بهاتيا لزراعة نخاع عظمى، لكنه لم يستطع العثور على متبرع يتطابق معه من بين معارفه وأصدقائه. كانت أفضل فرصة لنجاح الزرع هى أن يكون المتبرع من نفس الأصل العرقى، وكان يوجد القليل من الجنوب آسيويين فى قاعدة بيانات النخاع العظمى. لهذا أرسل شريك بهاتيا فى العمل رسالة بالبريد الإليكترونى شارحًا فيها حالة بهاتيا إلى أكثر من أربعمائة من معارفهم، الذين أرسلوها بدورهم إلى معارفهم. وكُرست صفحات على الفيسبوك وفيديوهات على اليوتيوب لحملة «ساعدوا سامير». فى نهاية المطاف، سُجل ما يقرب من خمسة وعشرين ألف شخص جديد فى قاعدة بيانات النخاع العظمى، ووجد بهاتيا متبرعًا متطابقًا معه.

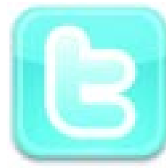
لكن كيف نجحت الحملة فى جعل الكثير من الأشخاص يسجلون أنفسهم؟ عن طريق طلب شيئًا محدود منهم. إنها الطريقة الوحيدة التى يمكنك أن تحمل بها شخص لا تعرفه بشكل حقيقى على أن يفعل شيئًا ما لصالحك. يمكنك جعل الآلاف من الأشخاص يسجلون أنفسهم كمتبرعين، لأن عمل ذلك سهل للغاية. فعليك إرسال مسحة من الخد، ولو حدث الاحتمال البسيط جدا وكان نخاعك العظمى متوافقاً بشكل جيد مع شخص ما يحتاج له ستقضى بضع ساعات فى المستشفى. التبرع بالنخاع العظمى ليس أمرا بسيطا، لكنه لاينطوى على مخاطر مالية أو شخصية. فهو لا يعنى أن تقضى الصيف مُطارداً من قبل رجال مسلحين داخل سيارات نقل خفيفة. ولا يتطلب منك أن تواجه مبادئ وممارسات اجتماعية راسخة. فى الواقع إنه نوع من الالتزام لن يجلب إليك سوى الإطراء والإشادة الاجتماعية. لا يفهم المبشرون بوسائل الإعلام الاجتماعية هذا الفارق، فيبدوا أنهم يؤمنون بأن صديق الفيسبوك مثل الصديق الحقيقى وأن تسجيل الدخول كمتبرع فى السيليكون ڤالى فى الوقت الحاضر هو فعالية بنفس المعنى المقصود عند الحديث عن الجلوس فى منضدة غداء خاضعة للفصل العنصرى فى جرينزبورو عام ١٩٦٠. كتبت آكر وسميث «إن الشبكات الاجتماعية فعالة بشكل خاص فى زيادة الحافز». لكن هذا غير حقيقى. فالشبكات الاجتماعية فعالة فى زيادة المشاركة عن طريق تخفيض مستوى الحافز الذى تتطلبه المشاركة.



يوجد على صفحة التحالف من أجل إنقاذ دارفور على الفيسبوك ١٢٨٢٣٣٩ عضو والذين تبرعوا بتسعة سنتات فى المتوسط لكل عضو. وثانى أكبر مجموعة للتبرع من أجل دارفور على الفيسبوك تضم ٢٢٧٩٧ عضواً تبرعوا فى المتوسط بـ٣٥ سنتاً للعضو. وصرح أحد المتحدثين باسم التحالف من أجل إنقاذ دارفور لمجلة النيوزويك Newsweek, قائلاً «لا نقيم أهمية شخص ما فى حركة المساندة بناء على ما يدفعه بالضرورة. هذه آلية قوية لإشراك هذا القطاع الهام من السكان. فهم يمدون مجتمعاتهم بالمعلومات ويحضرون الفعاليات ويتطوعون. وهذا ليس بالأمر الذى يمكنك أن تقيمه بالنظر فى دفتر حسابات». بعبارة أخرى، لا تنجح الفعالية على الفيسبوك عن طريق تحفيز الأشخاص لعمل تضحية حقيقية، وإنما بتحفيزهم على القيام بأمور يقوم بها الناس عندما يكونون غير متحفزين بالقدر الكافى لعمل تضحيات حقيقية. فنحن بعيدون جدا عن مناضد غداء جرينزبورو.

إن الطلبة الذين شاركوا فى الاعتصامات فى مختلف أنحاء الجنوب خلال شتاء ١٩٦٠ وصفوا الحركة بأنها «حمى». لكن حركة الحقوق المدنية كانت أقرب إلى الحملة العسكرية منها إلى عدوى. فى أواخر الخمسينيات، حدث ستة عشر اعتصاماً فى مدن عديدة فى جميع أنحاء الجنوب، خمسة عشر منها نظمتها بشكل أساسى منظمات الحقوق المدنية مثل الجمعية الوطنية لتقدم الملونين ومنظمة كوور CORE. كان يتم استكشاف مواقع يمكن القيام بالنشاط العام فيها، ووضع خطط، وكان نشطاء الحركة يعقدون جلسات التدريب ومعتزلات للراغبين فى الاشتراك فى الاحتجاجات. كان طلاب جرينزبورو الأربعة نتيجة لهذا الأساس: فقد كانوا جميعًا أعضاء فى مجلس شباب الجمعية الوطنية لتقدم الملونين. وكانت تربطهم علاقات وثيقة برئيس الفرع المحلى للجمعية الوطنية لتقدم الملونين، وشرحت لهم الموجة السابقة من الاعتصامات فى دورنهام، وشاركوا فى مجموعة من اجتماعات الحركة فى الكنائس النشطة. وعندما انتشرت حركة الاعتصامات من جرينزبورو إلى جميع أنحاء الجنوب لم تنتشرعشوائياً. فقد انتشرت فى تلك المدن التى كان بها «مراكز للحركة» موجودة من قبل انتشار حركة الاعتصامات، وهذه المراكز كانت عبارة عن نواة من النشطاء المخلصين والمُدربين المتأهبين لتحويل «الحمى» إلى فعل.

كانت حركة الحقوق المدنية فعالية عالية المخاطر. وكانت أيضاً نشاطا عاما استراتيجيا بشكل حاسم، بمعنى أنها تحدى للمؤسسة منظم بدقة وانضباط. كانت الجمعية الوطنية لتقدم الملونين P.C.A.A.N. منظمة مركزية تدار من نيويورك





يشير إيفجينى موروزوف العالم بجامعة ستانفورد وأكثر المنتقدين للتبشير الرقمى أن تويتر لم يكن له سوى أهمية داخلية ضئيلة فى مولدوفا، كذلك لم يبدُ أنها كانت ثورة





يجب توقع بعض من المبالغات. فالمبتكرون يميلون إلى أن يتسموا بالأنانية



وفق إجراءات تشغيل رسمية للغاية. وفى منظمة مؤتمر القيادة المسيحية الجنوبية the Southern Christian Leadership، كان مارتن لوثر كينج، الابن، Martin Luther King, Jr هو السلطة التى لا يعترض عليها أحد. وكانت الكنيسة السوداء فى قلب الحركة، وكان لديها تقسيم للعمل حدوده مرسومة بدقة وبها لجان دائمة متنوعة ومجموعات منضبطة كما يشير الدون دى موريس Aldon D. Morris فى دراسته الرائعة عام ١٩٨٤ The Origins of the Civil Rights Movement أو (جذور حركة الحقوق المدنية). كتب موريس أن «كل مجموعة كانت موجهة نحو مهمة محددة وتنسق أنشطتها من خلال هياكل للسلطة». «وكان الأفراد يحاسبون على المهام الموكلة إليهم، والخلافات المهمة كان الكاهن، الذى كان عادة يمارس سلطة مطلقة على الجماعة، يقوم بحلها».

هذا هو الفرق الثانى الحاسم بين الفعالية التقليدية والبديل لها على الإنترنت، فوسائل الإعلام الاجتماعية لاعلاقة لها بهذا النوع من التنظيم الهرمى. فالفيسبوك وما شابهه يُعتبر أدوات لبناء شبكات والتى على النقيض من التنظيم الهرمى فى الهيكل والأسلوب. فالشبكات ليست تحت سيطرة سلطة مركزية واحدة، بخلاف التنظيمات الهرمية بقواعدها وإجراءاتها. فالقرارات تُتخذ من خلال إجماع الآراء، والروابط التى تربط الأشخاص بالمجموعة بدون تنظيم.

هذا الهيكل يجعل الشبكات مرنة وقابلة للتكيف بشكل هائل فى المواقف منخفضة المخاطر، والويكيبيديا مثال جيد على ذلك. فليس لها رئيس تحرير يجلس فى نيويورك يوجه ويصحح كل بند يتم إدخاله. ويتم تنظيم جهود تجميع كل البنود معا بشكل ذاتى. فلو مُحيت كل الموضوعات التى على الويكيبيديا غداً، ستتم استعادة المحتوى بسرعة لأن ذلك مايحدث عندما تكرس شبكة من آلاف الناس وقتهم لمهمة ما بشكل تلقائى.

مع ذلك، توجد العديد من الأمور لاتقوم بها الشبكات كما يجب. فشركات السيارات تفكر جيدا حين تستخدم شبكة الإنترنت فى تنظيم المئات من مورديها وليس فى وضع التصميمات لسياراتها.

لايعتقد أحد أن صياغة فلسفة تصميم متماسكة تتم بأفضل ما يكون عن طريق نظام مترامى الأطراف بلا اتساق وبلا قيادة للتنظيم. ولأن شبكات الانترنت لا تملك هيكل قيادة مركزى وخطوط واضحة للسلطة، يكون لديها صعوبة حقيقية فى الوصول إلى توافق الآراء ووضع الأهداف. فالشبكات لا تستطيع التفكير بطريقة إستراتيجية؛ فهى عُرضة بشكل مزمن للصراع والخطأ. فكيف يمكنك اتخاذ اختيارات صعبة بشأن الوسائل أو الاستراتيجيات أو التوجه الفلسفى حين تتساوى أوزان آراء الجميع؟



نشأت منظمة التحرير الفلسطينية كشبكة، وقد طرح عالما العلاقات الدولية ميت آيل ستريب. سان چيوڤانى Mette Eilstrup-Sangiovanni وكالڤرت چونز Calvert Jones فى مقالة نُشرت مؤخراً فى مجلة International Security أو (الأمن الدولى) أن هذا هو ما جعلها تقع فى مثل هذه المتاعب عندما كبرت. فقد «جعلت «السمات الهيكلية النموذجية فى الشبكات (مثل غياب السلطة المركزية، واستقلالية الجماعات المتنافسة بدون ضوابط عليها، وعدم القدرة على الفصل فى المنازعات من خلال آليات رسمية) منظمة التحرير الفلسطينية عرضة للتلاعب الخارجى والصراع الداخلى بشكل مفرط».

ويواصل سان چيوڤانى وچونز قائلين إنه فى ألمانيا فى السبعينيات «اتجه الإرهابيون اليساريون الأكثر اتحادا ونجاحا إلى التنظيم هرميًا بإدارة محترفة وتقسيمات واضحة للعمل. لقد كانوا مركزين جغرافيًا فى الجامعات، حيث يستطيعون تأسيس قيادة مركزية وثقة ورقابية عبر لقاءات منتظمة تتم وجهًا لوجه». ونادراً ما كانوا يخونون رفاق السلاح أثناء تحقيقات الشرطة. أما نظرائهم فى اليمين فكانوا منظمين كشبكات لامركزية، ولم يكن لديهم نفس درجة الانضباط. وكانت تلك المجموعات تخترق طوال الوقت، فحالما يتم القبض على الأعضاء يتخلون عن رفاقهم بكل سهولة. وعلى نحو مشابه، كانت القاعدة أكثر خطورة عندما كانت عبارة عن تنظيم هرمى موحد. والآن وقد تشتت وتحولت إلى شبكة، ثبت أن فاعليتها أقل بكثير.

إن نواقص الشبكات تصبح قليلة الأهمية لو كانت الشبكة غير مهتمة بالتغير الشامل، أى لو كانت لا تريد سوى إثارة الخوف والإهانة أو عمل بعض الإثارة، أو لو كانت لا تحتاج إلى التفكير بشكل استراتيجى. لكن لو كنت تبنى مؤسسة قوية ومنظمة فيجب أن تكون بالشكل الهرمى. لقد تطلبت حملة مقاطعة أوتوبيس مونتجومرى مشاركة عشرات الآلاف من الأشخاص الذين يعتمدون على النقل العام للوصول من وإلى العمل كل يوم. لقد استغرقت عاما. ومن أجل إقناع هؤلاء الأشخاص بالبقاء أوفياء للقضية، كلف منظمو حركة المقاطعة كل كنيسة سوداء محلية بالحفاظ على الروح المعنوية، وتنظيم خدمة مجانية بديلة وهى سيارة التجمع الخاصة، مع ثمانية وأربعين مراسل واثنين وأربعين محطة للشاحنات الصغيرة. وقال كينج لاحقًا إن مجلس المواطنين البيض اعترف بأن نظام سيارة التجمع كان يعمل بـ«دقة عسكرية». وبحلول الوقت الذى قدم فيه كينج إلى برمنجهام فى ذروة المواجهة مع مفوض الشرطة يوچين (بول) كونور Eugene (Bull) Connor، كان لديه ميزانية تقدر بمليون دولار ومائة موظف يعملون بدوام كامل ميدانياً ومقسمين إلى وحدات عملياتية. وكانت العملية نفسها مقسمة إلى مراحل تتصاعد باطراد مخططة مسبقا. وظل الدعم مستمراً من خلال اجتماعات جماهيرية متوالية تتعاقب من كنيسة إلى كنيسة فى جميع أنحاء المدينة.

تعتبر حملات المقاطعة والاعتصامات والمواجهات غير العنيفة (التى كانت الأسلحة المفضلة لحركة الحقوق المدنية) استراتيجيات عالية المخاطر. فهى تترك مساحة بسيطة جدا للصراع والخطأ. ففى اللحظة التى ينحرف فيها ولو محتج واحد عن السيناريو ويستجيب للاستفزاز، تتعرض الشرعية الأخلاقية للاحتجاج برمته للخطر.

إن المتحمسين لوسائل الإعلام الاجتماعية دون شك كانوا سيحاولون جعلنا نعتقد بأن مهمة كينج فى برمنجهام كانت ستصبح أسهل بكثير لو كان قادراً على التواصل مع أتباعه عبر الفيسبوك، واكتفى برسائل التويتر من سجن برمنجهام. لكن الشبكات تتسم بالفوضى: فكر فى النمط المتواصل من التصحيح والمراجعة والتعديل والنقاش الذى يميز الويكيبيديا. لو أن مارتن لوثر كينج الابن، حاول أن ينظم حملة المقاطعة فى مونتجومرى عن طريق الويكيبيديا لسحقته بنية سلطة البيض. وما الفائدة من وسيلة اتصال رقمية فى مدينة يمكن الوصول إلى ثمانية وتسعين بالمائة من مجتمع السود





إن الصحفيين الغربيين الذين لم يستطيعوا الوصول للناس على الأرض فى إيران (أو لم يكلفوا أنفسهم عناء الوصول إليهم) لم يقوموا إلا بتصفح رسائل تويتر المكتوبة باللغة الإنجليزية



صباح كل أحد فى الكنيسة؟ إن الأشياء التى كان كينج يحتاج إليها فى برمنجهام (وهى الانضباط والاستراتيجية) أشياء لاتستطيع وسائل الإعلام الاجتماعية على الإنترنت توفيرها.

يعد كتاب كلاى شيركى Clay Shirky، Here Comes Everybody أو (هنا يأتى الجميع) بمثابة الكتاب المقدس لحركة وسائل الإعلام الاجتماعية. فقد أخذ شيركى - الذى يُدرس فى جامعة نيويورك - يبين القوة التنظيمية للإنترنت، وبدأ بقصة إيفان الذى كان يعمل فى الوول ستريت، وصديقته إيفانا، بعد أن تركت هاتفها الذكى، أحد هواتف السايد كيك غالية الثمن، على المقعد الخلفى فى تاكسى بمدينة نيويورك. قامت شركة الهاتف بنقل البيانات من هاتف إيفانا المفقود إلى هاتف جديد، وهكذا اكتشفت هى وإيفان أن هاتفها أصبح الآن بين يدى مراهقة من كوينز كانت تستخدمه فى التقاط صور لنفسها ولأصدقائها.



عندما أرسل إيفان رسالة بالبريد الإلكترونى للمراهقة، ساشا، يطلب فيها استعادة الهاتف أجابته أن «مؤخرته البيضاء» لا تستحق استعادته. أنشأ إيفان وهو فى قمة الاستياء صفحة على الإنترنت مع صورة لها ووصف لما حدث. وأرسل الرابط لأصدقائه، الذين أرسلوه بدورهم لأصدقائهم. ووجد أحدهم عنوانها على الإنترنت وقام بتصوير منزلها بالفيديو أثناء مروره بسيارته، وقام إيفان بنشر الفيديو على الموقع. والتقطت القصة موقع نيوز فلتر ديج، ووصل عدد رسائل البريد الإلكترونى التى يتلقاها إيفان إلى عشرة رسائل فى الدقيقة. فقام بتصميم لوحة نشرت على الإنترنت لقرائه ليشاركوا بقصصهم، لكنها انهارت تحت وطأة الردود. ذهب إيفان وإيفانا إلى الشرطة، لكن الشرطة حررت المحضر تحت عنوان «فقد» بدلا من «سُرق»، مما يعنى بالضرورة إغلاق القضية. ويكتب شيركى: «وعند هذة المرحلة أصبح ملايين من القراء يترقبون، وقامت العشرات من وكالات الأنباء الرئيسية بتغطية القصة». وخضوعًا للضغوط، أعادت إدارة شرطة نيويورك تصنيف الملف تحت بند «سُرق». وتم القبض على ساشا، واستعاد إيفان هاتف صديقته.

ما يطرحه شيركى هو أن هذا النوع من الأشياء لم يكن ليحدث فى عصر ما قبل الإنترنت، وهو على حق. فما كان إيفان ليتمكن من الإيقاع بساشا، وما كانت قصة الهاتف لتنتشر على الإطلاق، وما كان ليحتشد جيش من الأشخاص لشن هذه المعركة. وما كانت الشرطة لتخضع لضغط شخص واحد أضاع شيئًا تافها كالهاتف الخلوى. وهذه القصة توضح - بالنسبة لشيركى - «السهولة والسرعة التى يمكن بها حشد مجموعة من الأشخاص من أجل القضية المناسبة» فى عصر الإنترنت.

يعتبر شيركى هذا النموذج من الفعالية على أنه ترقى. لكنه ببساطة شكل من التنظيم يكون أفضل مع الاتصالات ضعيفة الروابط التى تتيح لنا الوصول إلى معلومات عن الاتصالات قوية الروابط التى تساعدنا على المثابرة فى وجه الخطر. إنه يحول طاقاتنا عن التنظيمات التى تشجع الأنشطة الاستراتيجية والمنضبطة ونحو التنظيمات التى تشجع المرونة والقابلية للتكيف.

إنها تمكن النشطاء من التعبير عن أنفسهم بطريقة أسهل، لكنها تجعل قدرة هذا التعبير على التأثير أصعب. إن وسائل الإعلام الاجتماعية مناسبة إلى حد بعيد لجعل النظام الاجتماعى الحالى أكثر كفاءة. إنها ليست عدوا طبيعيا للوضع القائم. إذا كنت ممن يعتقدون أن كل ما يحتاجه العالم هو القليل من التهذيب، فلا يجب أن يزعجك هذا. لكن لو كنت تعتقد بأنه لايزال هنالك مناضد غداء تحتاج للدمج، فمن المحتمل أن يجعلك تتردد.

وينهى شيركى قصة الهاتف الضائع متسائلًا بطريقة تبشيرية: «ماذا سيحدث بعد ذلك؟»، ولا شك أنه تخيل موجات مستقبلية من المحتجين الرقميين. لكنه أجاب على السؤال بالفعل. ما سيحدث بعد ذلك هو المزيد من الشىء نفسه. فالعالم ضعيف الروابط المتشابك جيد فى أمور مثل مساعدة العاملين فى الوول ستريت على استعادة هواتفهم من الفتيات المراهقات. تحيا الثورة. ■

كتاب الزاوية



المدائح النبوية

زكى مبارك

كانت المدائح النبوية أول الأمر، كما يقول الأديب الكبير الراحل زكى مبارك فى مقدمة كتابه «المدائح النبوية فى الأدب العربى» نوعًا من المدائح التى تجرى على الطرائق الجاهلية مثل دالية الأعشى ولامية كعب وقصائد حسان. ثم حدث تطور لهذه المدائح وتوسع، بحيث نشأ مدح أهل البيت، وقد ترعرع هذا الفن فى البيئات الإسلامية المتعددة، وهو ما أوضحه زكى مبارك فى كتابه.

ويقول المؤلف إنه لم يرد الاستقصاء إنما اكتفى بالكلام عن آثار الشعراء الفحول فتناول الكميت بدراسة وافية وأتبع ذلك بفصل عن دعبل ثم الشريف الرضى ومهيار والبوصيرى.

وزكى مبارك من أدباء النصف الأول من القرن العشرين، ولد عام ١٨٩٢ بقرية سنتريس بالمنوفية وتعلم بالأزهر، ثم الجامعة المصرية، ومنها نال الدكتوراة عن بحثه فى «الأخلاق عند الغزالى» عام ١٩٢٤، ثم نال الدكتوراة الثانية من باريس عن النثر الفنى فى القرن الرابع سنة ١٩٣١، وبعد ذلك حصل على الدكتوراة الثالثة من الجامعة المصرية عن التصوف الإسلامى. وقد عمل بالتدريس فى الجامعة المصرية ودار المعلمين العالية فى بغداد وترك تراثًا رائعًا من الدراسات والتأملات ودواوين الشعر.

وقد اخترنا بعض قصائد من المدائح النبوية تناولها زكى مبارك فى كتابه الذى أعادت الهيئة العامة لقصور الثقافة فى مصر إصداره عام ٢٠٠٣.

السـيـد أمـيـن شـلـبـى

أسئلة الوجوه المتعددة

بالنسبة لكثيرين فى العالم الإسلامى بدت الحرب ضد الإرهاب حرباً ضد الإسلام والعالم الإسلامى، ونُظر إلى أمريكا باعتبارها منخرطة فى محاولة استعمارية جديدة لإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط

■■ جون إسبوسيتو john Esposito هو أستاذ العلاقات الدولية والدراسات الإسلامية فى جامعة جورج تاون، وعلى مدى عشرين عاماً أصدر إسبوسيتو عدداً من الدراسات عن الإسلام والمسلمين، كان أبرزها «الإسلام والسياسة» عام ١٩٨٤، «الإسلام الطريق المستقيم» Islam straight path عام ١٩٨٨، غير أن أهم إصداراته كان كتابه «التهديد الإسلامى.. أسطورة أم واقع Islamic threat: myth or reality» عام ١٩٩٩، والذى ناقش فيه وفند عدداً من المفاهيم الخاطئة عند الغرب عن الإسلام، وفى سياق الاهتمام والقلق الغربى من الأصولية الإسلامية وعلاقاتها بالإسلام كعقيدة، أوضح أنه إذا كان العالم يربط الأصولية بالإسلام، فإن فيه نسبة صغيرة من المسلمين هى التى تنتمى إلى هذه المجموعة، كما ركز على أن الإسلام هو أكثر تنوعاً من مجرد مجموعة تروج للإرهاب، ودلل إسبوسيتو على ذلك أن وجود أطباء وأساتذة ومهندسين مسلمين نابغين يقدم أساساً صلباً على التنوع والطيبة الآمنة للإسلام.

وأخيراً فقط، فبراير ٢٠١٠، أصدر إسبوسيتو كتابه الجديد «مستقبل الإسلام» فى هذا الكتاب يناقش إسبوسيتو نطاقاً عريضاً من القضايا والأسئلة التى تتعلق بالإسلام والمسلمين فى أمريكا الغرب ويجيب عنها، ويوضح من خلال التاريخ والواقع الإسلامى الالتباسات والتشوش الذى يحيط بهما الغربُ الإسلام.

ومن هنا كان الكتاب مناقشة لأسئلة تسيطر على رؤية أمريكا والغرب للإسلام:

John L. Esposito, "The Future of Islam, forwarded By" Karren Armstrong. Oxford University press. 2010.

لماذا لم يكن هناك إصلاح فى الإسلام؟ وأين الإصلاحيون المسلمون؟ ولماذا لا يتكلمون؟ وما موقف الإسلام من الديمقراطية، والمرأة وتمكينها فى المجتمع، ولماذا يكره المسلمون الغرب؟ ولماذا لم يدن المسلمون وعلماؤهم أحداث ١١ سبتمبر وأحداث الإرهاب الأخيرة؟ وما مكان ودور الجماعات المسلمة فى أمريكا والغرب، وهل اندمجوا فى هذه المجتمعات واحترموا قوانينها وقيمها، وإذا كانوا لم يفعلوا ذلك فلماذا، وإذا كانوا قد فعلوا، فإلى أى مدى؟

ويبدأ إسبوسيتو كتابه بتأثير هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية وكيف أنها حولت القرن الواحد والعشرين إلى عالم تسيطر عليه الحرب التى تقودها أمريكا ضد الإرهاب العالمى، وقدمت صورة الإسلام كدين وشعب يجب أن يُخاف منه وأن يُحارب، وفى هذا، تحدث البعض عن صدام الحضارات، وتساءل آخرون: ما الخطأ؟ ولماذا يكرهوننا؟ وبالنسبة لكثيرين فى العالم الإسلامى بدت الحرب ضد الإرهاب حرباً ضد الإسلام والعالم الإسلامى، ونُظر إلى أمريكا باعتبارها منخرطة فى محاولة استعمارية جديدة لإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط فى ضوء مصالحها السياسية والاقتصادية. وجاءت إجراءات الاعتقال بلا محاكمة، وسوء معاملة المسجونين الإسلاميين والإسهامات بتدنيس القرآن والحط من شأن الإسلام وتعذيب سجناء أبو غريب وجوانتانامو، وتآكل الحريات المدنية للمسلمين من خلال الشهادات السرية ومواد قانون الوطنية Patriot act. جاء كل هذا لكى يقوض ادعاءات إدارة بوش بأنها تدافع وتروج للديمقراطية وحقوق الإنسان.

وينبه إسبوسيتو أنه من المهم من البداية أن نتذكر أن موضوع الإسلام والمسلمين هو موضوع سياسى ودينى، فالإسلام اليوم ليس فقط عقيدة تلهم التقوى الشخصية ويقدم معنى ومرشد لهذه الحياة والآخرة، ولكنه أيضاً أيديولوجية ووجهة نظر عالمية تعلم السياسات الإسلامية والمجتمع، وتناشد الحكومات الإسلامية، وكذلك حركات المعارضة والقادة الدينيين الذين يستخدمون العقيدة لإضفاء الشرعية على معتقداتهم وسياساتهم وأفعالهم، وحيث تستقطب المجتمعات الإسلامية اليوم بين الاتجاهات العلمانية والاتجاهات الأكثر تديناً.

ويقول إسبوسيتو إنه يكتب عن الإسلام باعتباره مستقبلنا جميعاً، فالإسلام والمسلمون اليوم هما لاعبان متكاملان فى التاريخ العالمى، كما أنه فى عالم نخضع فيه جميعاً لثنائية «نحن»، «هم» وهو ما يدفعنا إلى العلو عليه، وإن لم ننكر خلافاتنا، وتأكيد إنسانيتنا المشتركة، وأن نتأكد أننا «نحن»، سواء كرهاً أو اختياراً، متصلون بعضنا ببعض ومعتمدون على بعضنا ونخلق بشكل مشترك مجتمعنا وعالمنا، ويُذكر إسبوسيتو بأنه فى الثقافة الغربية، إذا كانت مجموعة من اليهود أو المسيحيين مسئولين عن ضرب مركز التجارة العالمى، فإن قلة فقط هى التى سوف ترجع هذا إلى معتقدات التيار الدينى الرئيسى Main stream لليهودية أو المسيحية، فبينما لم ينسب اغتيال رئيس الوزراء الإسرائيلى رابين بواسطة أصوليين يهود إلى التيار الرئيسى لليهودية، كذلك لا يوصف هؤلاء اليهود أو المسيحيون الذين يرتكبون جرائم شنيعة على أنهم يمثلون المسيحية أو اليهودية، والأفراد الذين يرتكبون هذه الجرائم يرفضون غالباً كمتطرفين أو مجانين أكثر من وصفهم كأصوليين مسيحيين أو يهود. وعلى النقيض من هذا فإنه غالباً ما تصور بيانات وأفعال المتطرفين المسلمين والإرهابيين على أنهم جزء لا يتجزأ من التيار الرئيسى للإسلام، ولا ينكر إسبوسيتو أن مسلمين يرتكبون أعمال عنف تثير الغضب ولكنه يتساءل عن الطريقة التى تحدد وتسوى هذه الأعمال مع عقيدة معظم المسلمين.

ويريد إسبوسيتو أن يروى قصة كيف وصلنا إلى ما نحن عليه، وما الذى نريد أن نفهمه وأن نفعله لكى نحقق ما أسماه الرئيس أوباما «طريق جديد إلى الأمام» فمن الأسئلة العديدة التى يطرحها فى هذا السياق هى: هل مستقبل الإسلام فى الإصلاح أم فى الثورة؟ وهل يتعارض الإسلام مع الحداثة Modernity، وما مدى تمثيل الأصولية الإسلامية؟ وهل هى تهديد للمجتمعات الإسلامية وللغرب؟ وما الذى يعنيه الإسلام بالنسبة للمساواة بين الجنسين، وحقوق الإنسان؟ وهل يمكن أن تكون الأقليات المسلمة مواطنين على ولاء للبلاد التى يعيشون فيها فى أمريكا والغرب؟

وفى الفصل الأول «الوجوه المتعددة للإسلام والمسلمين» يقدم شكلا موجزا للإسلام مقابل الغرب، والإسلام فى الغرب، وعند إسبوسيتو أن ما هو أساسى فى فهم مستقبل الإسلام هو تنوعه دينياً وثقافياً وسياسياً، وهو يتساءل: من وأين المسلمون؟ وماذا يعتقد المسلمون، كذلك يعتبر أنه من المهم الإجابة عن التساؤلات: لماذا لم يتكلم المسلمون (أحداث ١١ سبتمبر)، وهل هناك خطر فى أن الإسلام سوف يكتسح أوروبا ويحولها إلى ما أسماه البعض Eurobia؟ وللإجابة عن هذه الاهتمامات يتطلب نظرة حادة على المسلمين فى الغرب، وما هى التجارب والتحديات التى يواجهها المسلمون الأمريكيون والأوروبيون؟ وهل تكيفوا؟ وإن لم يكن فلماذا؟ وإذا كانوا قد تكيفوا فكيف؟

وينبه إسبوسيتو إلى أنه فى الوقت الذى يتحدث فيه عن «الإسلام» فإنه يوجد

فى هذا الكتاب يناقش إسبوسيتو نطاقًا عريضًا من القضايا والأسئلة التى تتعلق بالإسلام والمسلمين فى أمريكا والغرب



أكثر من إسلام وتفسير للإسلام، فصور واقع الإسلام والمسلمين متعددة ومتنوعة: دينيًا، وثقافيًا، واقتصاديًا، وسياسيًا، والمسلمون أغلبية فى ٥٧ بلدًا، وهم يمثلون عدة قوميات ولغات وعرقيات ومجموعة قبلية. ويناقش إسبوسيتو ظاهرة الإسلام فوبيا فيعتبرها عبارة جديدة عن ظاهرة تنتشر الآن، إلا أنه ليس هناك عبارة مقارنة لوصف العداء والتحيز والتميز الموجه للإسلام وللبليون ونصف البليون مسلم. وعندما أجرت مؤسسة جالوب استطلاعًا عام ٢٠٠٥ تضمن سؤالاً عما يعجبون به فى الإسلام، أجاب ٥٧٪ من الأمريكيين «لا شىء» أو «لا أعلم». ومن المفهوم أن الكثير من الاتجاهات السلبية قد تأثرت بأحداث ١١ سبتمبر وتهديد الإرهاب العالمى، ولكن الفجوة فى معرفة أمريكا والغرب، الإسلام والمسلمين فى عالم ما بعد ١١ سبتمبر قد ملئت بجانب واحد وغالبًا بمعلومات مثيرة تؤدى بنا إلى الخوف ونبذ هؤلاء «الغرباء» ويلاحظ إسبوسيتو أن اندماج Integration المسلمين فى أوروبا أكثر صعوبة منه فى أمريكا، فعلى النقيض من المسلمين الذين جاءوا إلى أمريكا بخبرة وتعلم ومهارات، فإن الذين هاجروا إلى أوروبا تحت ظروف مختلفة جدًا من العمال ومن ذوى الياقات الزرقاء عندما كانت أوروبا فى حاجة شديدة للعمال الأجانب، ونتيجة لذلك فإن المسلمين فى ألمانيا وبريطانيا وفرنسا وهولندا يعيشون فى أحياء منغلقة Ghettos ومنغمسون فى الفقر والجريمة والعصابات، وفى أوروبا فإن الروايات الصحفية والإعلامية تصور أوروبا الفانية المهددة الإسلام على أنه الديانة التى تنمو بسرعة وحيث نما المسلمون فى أوروبا من ١٢ إلى ٢٠ مليونًا، كما نما عدد المساجد فى بلدان مثل بريطانيا وألمانيا وإيطاليا بشكل دال.

ويطرح إسبوسيتو سؤالاً حاسمًا وهو: لماذا لم يُدن المسلمون الإرهاب؟ ويجيب أنه منذ ١١ سبتمبر تحدث مع نطاق عريض عبر أمريكا وأوروبا من الرسميين والإعلاميين، ويقارن الدينيين والأكاديميين والجمهور، وحينما يثور نفس السؤال من جانب الكونجرس وخريجى الجامعات لا يثار كقضية مفتوحة للنقاش ولكن كاتهام محدد ونهائى: لماذا لم يُدن اتحاد المسلمين هجمات ١١ سبتمبر والإرهاب الإسلامى؟

وفى الوقت الذى ساهم فيه الإعلام بشكل مباشر وغير مباشر يربط المسلمين بصورة سلبية، فإن ما تم تجاهله هو صدمة التيار الرئيسى للمسلمين، ووفقًا لاستطلاع جالوب فإن ٩١٪ من المسلمين الذين جرى سؤالهم اعتبروا أن الهجمات غير مبررة أخلاقيًا، كذلك كان ما تم التعتيم عليه حقيقة أن ٣٥٨ موظفًا مسلمًا قتلوا فى مركز التجارة العالمى. وقلة من وسائل الإعلام هى التى غطت عندئذ آلاف بيانات القادة المسلمين والمنظمات الذين ارتفع صوتهم وسارعوا فى إصدار بيانات علنية تدين الهجمات الإرهابية ومعبرين عن تعازيهم. ويتساءل إسبوسيتو لماذا لم تسمع هذه الأصوات؟ ويجيب: إن بيانات المواقف العلنية للأغلبية فى التيار الرئيسى الإسلامى ليست أخبارًا تصنع مانشتات الصحف، وغالبًا ما تعتبر أنها لا تستحق، أما الذين يبشرون بالسلام وحل الصراعات فإنهم يلقون تغطية قليلة وربما تدفن فى الصفحات الأخيرة، وكان من نتيجة ذلك هذا الاعتقاد والتمسك بأن المسلمين لم





إذا كان العالم يربط الأصولية بالإسلام، فإن فيه نسبة صغيرة من المسلمين هى التى تنتمى إلى هذه المجموعة

يتحدثوا ضد العنف والإرهاب. وهكذا فإن أفعال الأقلية الخطرة من المتطرفين المسلمين والإرهابيين أصبحت هى المنظار المشوه والذى يرون ويفهمون من خلاله المسلمين وديانتهم.

ويعدد إسبوسيتو ما صدر عن شخصيات مثل فرانكلين جراهام، وتوماس فريدمان عن صمت رجال الدين المسلمين وعدم اعتذارهم للشعب الأمريكى وعدم تأكيدهم أن هذا ليس هو الإسلام الحقيقى وأن هؤلاء الأفراد لا يعملون باسم الله والإسلام. ورد إسبوسيتو على هذه المقتطفات من بيانات صدرت عن شخصيات إسلامية بارزة تدين الهجمات من بينهم الشيخ عبدالعزيز الشيخ مفتى السعودية، وذكى بدوى عميد الكلية الإسلامية فى لندن، والمفتى شارمازى من باكستان، ومنظمة المؤتمر الإسلامى، والشيخ محمد سيد طنطاوى شيخ الأزهر، ومصطفى مشهور مرشد الإخوان المسلمين ومفتى بنجلاديش، والشيخ أحمد ياسين رئيس حركة حماس، ورشيد جهنوش رئيس حركة النهضة بتونس، وفاضل نور رئيس الحزب الإسلامى فى ماليزيا، وأكثر من أربعين باحثًا إسلاميًا آخرين وسياسيين كانوا بنفس القوة من الإدانة.. وقد أوضح إسبوسيتو أن العديد من القادة المسلمين ومنظماتهم قد استمروا فى الرد على كل هجوم إرهابى، فبعد هجوم لندن ٢٠٠٥، وجلاسجو ٢٠٠٧، وبومباى ٢٠٠٨، أصدر قادة مسلمون ومنظماتهم العالمية بيانات تدين الإرهابيين وأعمالهم، فبعد هجمات لندن أصدر أكثر من خمسة آلاف قادة مسلمين بريطانيين فتوى ضد هذا الهجوم، معبرين عن تعازيهم لعائلات الضحايا ومتمنين لهم شفاء عاجلاً ومقررين أن الإسلام يدين العنف وتدمير حياة الأبرياء، واعتبروا أن العمليات الانتحارية محرمة بشدة، واعتبر شيخ الأزهر هجمات لندن أنها أعمال إجرامية لا تمثل الإسلام ولا تفهم رسالته وبعد ٩/١١ اشترك مسلمو أمريكا الشمالية وأوروبا، الذين صعقتهم هذه العمليات، والخوف من أن السلام فوبيا بين تجمعاتهم وخبراتهم وأماكن عملهم سوف ينمو مع جرائم الكراهية والتميز والمزيد من تآكل الحريات المدنية، وقد تحققت مخاوفهم، فقد ظل كل المسلمين الأوروبيين يعيشون فى ظل تيارات من الشكوك والعداء المتزايد الأمريكية والأوروبية غير أن هذه الخبرة قد أجبرت المسلمين الغربيين أن يعيدوا تقييم هويتهم وإعادة فحص فهمهم للإسلام، وكان من بين النتائج الإيجابية تصاعد الجدل الداخلى من المسلمين حول مكان المسلمين فى مجتمعاتهم غير المسلمة وإلى المزيد من الانغماس فى الانتخابات والشئون العامة فى هذه المجتمعات.

ويطرح إسبوسيتو تساؤلات حول كيف وصلنا إلى الحد الذى اعتبر فيه أن الحرب الأمريكية على الإرهاب هى حرب ضد الإسلام والمسلمين؟، وما هى الأسئلة التى يمكن تعلمها، وما هى الأحداث الكبيرة التى صاغت السياسات الإسلامية وتصوراتها عن الإسلام والعالم الإسلامى؟ وهل الحركات الإسلامية السياسية والاجتماعية تمثل وحدة متراصة ومتماسكة Monolithik الآن وفى المستقبل؟ وما الأسباب الرئيسية للإرهاب، وما هو الدور الذى يلعبه الدين؟ وماذا يعنى التحول من الجهاد المحلى أو العالمى بالنسبة للأجيال القادمة؟ وكيف أثرت السياسة الخارجية الأمريكية فى الصورة عن أمريكا ومستقبل العلاقات مع الإسلام؟

وبداءة يقرر إسبوسيتو أن الكثيرين فى العالم الإسلامى يرون حرب أمريكا على الإرهاب العالمى كذريعة لتوسيع طموحاتهم الإرهابية الجديدة. وخلق نظام عالمى جديد وإعادة رسم خريطة الشرق الأوسط لاستغلال موارد العالم الإسلامى، ووفقًا لهذا التصور فإن العداء لأمريكا قد تنامى بشكل كبير ليس فقط من الأقلية المتطرفة ولكن أيضًا من أغلبية التيار الرئيسى للمسلمين الذين يدعون المسلمين المعتدلين والذين أصبح وجودهم موضع تساؤل. وعند إسبوسيتو فإن قدراً كبيراً قد تغير فى أوائل القرن الواحد والعشرين، فقد انتشر التطرف الدينى والإرهاب العالمى بتصاعد تدخل الولايات المتحدة والغرب فى العالم الإسلامى، حيث يزداد العداء لأمريكا بشكل كبير، وانتشرت الهجمات الإرهابية فى العراق وأفغانستان وباكستان، وأن أمريكا وأوروبا وفشل الحكومات العراقية والأفغانية والميليشيات الأجنبية فى تحقيق السلام والتنمية قد ضاعف من تهديد المتمردين وطالبان، ورغم دعم إدارة بوش لمزيد من الديمقراطية فإن الكثير من حلفاء أمريكا خاصة مصر وباكستان أصبحوا أكثر شمولية، بينما آخرون مثل مراكش والأردن حددوا خطوات إلى الخلف فى طريقهم للديمقراطية، وكان الفشل فى الاستجابة للأسباب الجذرية للإرهاب قد غير كثيراً شكل تصورنا للعالم ولسياستنا الخارجية.

ويذكر إسبوسيتو الرئيس الأمريكى الأسبق رونالد ريجان وكيف أنه جاء إلى الحكم يحمل فلسفة إحياء Revival أمريكا وإرجاعه مشكلتها إلى أنها هجرت القيم والمبادئ التى أرساها الآباء المؤسسون، وكان الإصلاح عنده هو أن على أمريكا أن تجدد نفسها وإعادة التمسك بهويتها وقيمها وبمعنى آخر فإن ريجان قد دافع عن نوع ما من الأصولية الأمريكية وربما إلى العودة إلى هذه القيم والمبادئ الأصولية التى سوف تعيد من جديد طريق القوة الأمريكية والثروة بشكل يمكنها من أن إعادة مواصلة مصيرها كقائد عالمى.

ويعتبر إسبوسيتو أن إعادة الأحياء الرئيسية فى أمريكا والعالم الإسلامى ليس فقط حول الدين، وإنما هى استجابة لفشل سياسى واقتصادى واجتماعى وفقدان الإحساس بالهوية والمعنى وتبديد الوهم العميق أو اليأس، ما فى رواية الأحياء هو عودة لما هو مثالى أو رومانسى وللقيم والمعتقدات ذات التوجه الإلهى والإحساس بالهدف والمعنى والنجاح.

كذلك استخلص الكثير فى العالم الإسلامى أن الاعتماد الزائد على الغرب كنموذج للتقدم قد يضعف أكثر من أن يقوى العالم الإسلامى، هذه الأزمة فرضت شعوراً سائداً بالعجز والدونية لكن الكثير من المسلمين الذين كانوا نتاجاً لقرون من السيطرة الأوروبية والتى تركت كراهية عميقة لتوغلها واستغلالها، كل هذا هو الذى غذى دعوة الكثيرين للعودة إلى المبادئ الإسلامية والإصرار على أن المسلمين يجب أن يستعيدوا ميراثهم العربى والإسلامى وثقافتهم وقيمهم، هذا الطلب أو السعى لهوية تاريخية حقيقية هو الذى أشعل إعادة إحياء الدين والسياسة والمجتمع عبر العالم الإسلامى، وهى القوة التى تستمر فى التأثير على السياسة الإسلامية اليوم، وهى السبب فى أن الانتخابات الديمقراطية التى جرت قد أنتجت مرشحين لهم توجه إسلامى فى المستويات العليا للحكومات، وهو ما حدث فى تركيا - حصن العلمانية - وماليزيا وإندونيسيا، وقد استمر هذا الاتجاه فى القرن الواحد والعشرين.



الكتاب مناقشة لأسئلة تسيطر على رؤية أمريكا والغرب للإسلام: لماذا لم يكن هناك إصلاح فى الإسلام؟ وأين الإصلاحيون المسلمون؟ ولماذا لا يتكلمون؟



ويعالج إسبوسيتو قضية مهمة هى علاقة الدين بالعنف والحرب، وفى الوقت الذى يرفض فيه جماعات العنف، فإن الواقع أن معظم الديانات والأمم قد عادوا أو لجأوا للعنف فى نضالهم وحروبهم وثوراتهم «العادلة»، وكذلك حروب الإنجيل المقدسة والحملات الصليبية، وكذلك الحروب الفرنسية والأمريكية والجهاد الأفغانى - فى كل هذا فإن التمييز الحرج هو بين الاستخدام المشروع أو غير المشروع للدين لتبرير استخدام العنف - ويبرز الكتاب دور الإسلام الوهابى والسلفى، فبينما كانت الأصولية الإسلامية هى التعبير المستخدم لتجديد الإسلام الراديكالى قبل ١١ سبتمبر، فإنه بعد ١١ سبتمبر استبدل هذا التعبير بعبارات أكثر تحديداً وهو «الإسلام الوهابى»، «الإسلام السلفى».

وتعلى الوهابية والسلفية من عهد النبى محمد وأصحابه باعتباره يعرف الفساد بالنسبة للمجتمع الدينى وهم يعتقدون أن الإسلام قد انحدر بعد الأجيال الأولى نتيجة للتحديات الدينية غير الإسلامية، وأن الإحياء الإسلامى يتطلب تقليد الأجيال الأولى والتطهر من التأثيرات الأجنبية.

وهم يدينون الممارسات الإسلامية باعتبارها شركًا، ويعارضون الصوفية والشيعية ومعظم الحركات الإسلامية التى يعتبرونها كتجديدات لـ«الإصلاح الصحيح»، وهى بهذا هرطقة. ورغم أن التفسيرات الوهابية والسلفية بقيت قوية، ولأنها ليست شائعة ومسيطرة فى معظم البلدان الإسلامية، فإن اتجاههم إلى الإقصاء والعزلة واللاهوتية غير المتسامحة ليسوا أكثر خطورة من الأصوليات فى العقائد الأخرى، ولكن أتباعهم سوف يظلون بالتأكيد غير مهيأين للاستجابة للحاجة إلى التعددية الإسلامية فى عالم تتزايد عولمته، عالم يعيش فيه ملايين بين المسلمين من بلدان ذات أغلبية غير مسلمة.

ومع هذا فإن الحركات الجهادية إنما تشكل تهديداً مستمراً ومباشراً لأمن البلدان الإسلامية والغرب وسوف تستمر فى دعم الذين يرون الإسلام كمشكلة، والجهاد العالمى كتهديد بارز.



ينبه إسبوسيتو أنه من المهم من البداية أن نتذكر أن موضوع الإسلام والمسلمين هو موضوع سياسى ودينى

وفيها يتعلق بالتساؤل حول لماذا يتحول الجهاد من جهاد محلى إلى جهاد عالمى، وعما يعنى هذا التحول بالنسبة للأجيال مقاومة؟

يجيب إسبوسيتو أنه رغم أن الجهاد كان مصدر إلهام للمسلمين عبر القرون، إلا أن النصف الأخير من القرن العشرين قد شهد عولمة جهاد «جديد» الذى استغل عالميًا للتجنيد القوى للأفراد، وكذا للتحركات السياسية والاجتماعية سواء من التيار العام أو بين المتطرفين، وكان وجهًا أساسيًا فى المقاومة والنضالات من أجل التحرر والحروب المقدسة وغير المقدسة، وليس هناك دلالة أن مستقبلها سوف يقل فى المستقبل، فما هى أصول الجهاد العالمى اليوم، وكيف ولد الجهاد الجديد؟

لقد شنت الحرب الأفغانية ـ السوفيتية ١٩٧٩ ـ ١٩٨٩، خلال الحرب الباردة فى نفس الوقت الذى كان فيه الغرب وعديد من الأمم المسلمة تخشى ليس فقط الشيوعية ولكن أيضًا تصدير الثورة الخومينية، وكانت الحرب الأفغانية ذات طابع خاص بسبب البلدان التى أيدتها، ووسائل الإعلام الجماهيرية التى غطتها، والطريقة التى جعلت منها وسائل الإعلام واقعًا مباشرًا، وفى الوقت الذى كان فيه الكثيرون فى أمريكا وأوروبا وباكستان والسعودية ودول الخليج تخشى جهاد إيران الشرير كان كل من البلدان العربية والإسلامية قد احتضنت وكانت شغوفة بتأييد الجهاد الأفغانى «الطيب» بالمال، والأسلحة والمستشارين وكان هذا التأييد يرى بوضوح من خلال التغطية الإعلامية العالمية فى الحال والتى رفضت العرب والمسلمين لتأييد هذا النضال بحق، وكانت التغطية المباشرة قد ساعدت فى رفع وعى المسلمين وتجديد الإحساس بالانتماء إلى مجتمع عالمى وهو «الأمة»، وقدم هذا دافعًا للعمل، حيث بعث العديد من المسلمين مساهماتهم المالية، وذهب البعض إلى أفغانستان للاشتراك فى الجهاد، وقد أدت عولمة الحرب الأفغانية والانتصار الملهم للجهاديين ضد السوفييت الأقوياء، إلى تشجيع المسلمين على استخدام رموزهم الإسلامى فى النضالات العديدة الأخرى التى كانوا منخرطين فيها عالميًا، وسواء كانت حركات مقاومة أو إرهاب، ودينية أم علمانية أو حروب مقدسة أو غير مقدسة فى البوسنة، وكوسوفا شيشينيا أو كشمير، العراق أو فلسطين، فقد ماتوا شهداء، وعن غير قصد قدمت الحرب الأفغانية أرضًا واقعية لتدريب الجهاديين فى المستقبل والذين أصبحوا يعرفون بالعرب الأفغان، وكذلك شجعتهم خبرتهم وانتصارهم فى المعركة على أن يبحثوا عن ميادين أخرى للجهاد فى الداخل أو فى أراض إسلامية أخرى.

وقد أثبتت سياسات العديد من الحكومات الإسلامية أنها عامل مساعد للراديكالية والإرهاب الموجه مباشرة إلى بلادهم وتجاه مؤيديهم الغربيين.

ويتعرض الكتاب للسنة والشيعة، وكيف أن الحرب على الإرهاب أدت إلى تجاهل التنوع بين المسلمين والبلدان الإسلامية، وكان عدم فهم الأصول البارزة للطائفتين السنية والشيعية فى العالم الإسلامى إلى نتائج كارثية فى غزو واحتلال العراق وتهديد قدرتنا فى المستقبل على التناول الفعال للسياسات السنية والشيعية فى قضايا العالم الإسلامى، خاصة فى الخليج وباكستان، وكانت نفس الإدارة التى خططت لغزو العراق قد تعامت عن الدور الذى سوف يلعبه الإسلام الشيعى وشيوخه وميليشياته بعد «الصدمة والرعب» وقد أثبتت السنوات الأولى من الاحتلال الأمريكى مدى عدم فهم إدارة بوش وبول بريمر للسياق التاريخى والسياسى، ولم يكونوا يستطيعون حتى تحديد الأصدقاء والأعداء المحتملين بين القادة الشيعيين الرئيسيين، وفى وقت كان فيه الوعى بالعنف الطائفى المستمر فى العراق وتعقد السياسات السنية والشيعية والصراعات المحتملة فى الخليج وباكستان أمرًا أساسيًا.

ويناقش إسبوسيتو مصادر العداء الأمريكى وتلازم السياسة الخارجية الأمريكية مع العمل العسكرى وتوسيع نطاق الحملة العسكرية، وتحديد ما سمى «محور الشر» الذى يتكون من أقطار معظمها مسلمة وغزو واحتلال العراق، وفشلت إدارة بوش فى الصراع الفلسطينى ـ الإسرائيلى وحروب لبنان وغزة، كل هذا أدى إلى إزكاء مشاعر العداء لأمريكا ينظر إليها كدولة إمبريالية التى استخدمت قوتها الفائقة العسكرية والسياسية وبشكل انفرادى وبعدم تناسب وبلا تمييز.

وهكذا فإن العداء لأمريكا قد غذى ليس فقط حجج الإرهابيين ولكن أيضًا سيادة الإحباط من السياسة الخارجية الأمريكية بين المجتمعات العربية والإسلامية والرسميين والصحفيين، وبين المسلمين الديمقراطيين الذين يعتقدون أن الديمقراطية مهمة لتقدم مجتمعاتهم، وكانت نسبة ضئيلة جداً من ٥٪ ـ ١٠٪ هى التى اعتقدت أن أمريكا جديرة بالثقة والمصداقية وتعامل الآخرين باحترام. وهكذا كان فشل الحكومات العربية والغربية وما نتج عنها من اشتعال العداء لأمريكا والغرب هو الذى غذى المتشددين وهدد أمن المجتمعات الإسلامية والتيارات الرئيسية فيها، لذلك يصبح التحدى الحالى هو صياغة وتطبيق إصلاحات عقائدية وتعليمية فى المدارس والجامعات والتى تستجيب بشكل أكثر فعالية لتحديات العولمة فى القرن الواحد والعشرين وحاجة كل العقائد الدينية التى تبنى صيغًا استيعابية وليست إقصائية والتى تدعم التفاهم والاحترام التعددية الدينية.

ويخصص الكتاب فصلاً يناقش فيه التساؤل الذى يدور فى أمريكا حول الإصلاحيين الإسلاميين وغيابهم ولماذا لا يظهرون. ويؤكد إسبوسيتو وجود هؤلاء الإصلاحيين من أمثال عمرو خالد، وطارق رمضان، وعلى جمعة، ومصطفى سيريك وتوم بنثر وهبة رؤوف الذين يعملون ويتكلمون حول قضايا الدين السياسى والعلاقة بين الإسلام والغرب. وفى تفصيل ذلك يروى إسبوسيتو تجربة له فى اليابان حين واجه جمعًا من رجال الأعمال والدبلوماسية اليابانيين الذين دارت أسئلتهم حول عدم توافق الإسلام مع العلم الحديث، إذا كان المسلمون يستطيعون التوفيق بين «مكة»، «الميكنة» mecca and mechanization أو أن دينهم وثقافتهم تمكنهم من تبنى الحداثة، وقد أخبرتهم أنى كصبى صغير كان أملى يخيب عندما أتلقى هدية من اليابان، حيث كانت الحكمة السائدة أن المنتج «صنع فى اليابان» كان رخيصًا ومتدنيًا أمام أى شىء صنع فى أمريكا، ولم يكن نتصور أن اليابانيين يمكنهم يومًا أن يتحدوا تفوق أمريكا تكنولوجيًا، والآن أفتخر أنى أملك السيارة ليكسوس. وحول التساؤل «هل الإسلام قابل للإصلاح»، وهل هناك إسلاميون إصلاحيون يعتبرها إسبوسيتو أسئلة غريبة وحتى سخيفة، حيث إنها تبدأ باقتراض «الاستثنائية الإسلامية» والاعتقاد أن الإسلام لا يشبه أى ديانة أخرى، وكأى دارس لتاريخ الديانات يقول إن كل الديانات الكبرى قد تغيرت واستمرت فى التغيير، وباعتبار الطبيعة البشرية والسياقات التاريخية والسياسية الديناميكية فإن التغيير أمر حتمى، والقضية حتى بين المحافظين والأصوليين، لم تكن ماذا كان التغيير سوف يتحقق ولكن على أى مدى ونوع، وبعد ١١ سبتمبر، فإن الدعوة إلى الإسلام، ودعم صلاحيته فى عالم يتغير بسرعة فى القرن الـ٢١ قد اشتدت، فإذا قال البعض إن الإسلام هو دين كامل ولا يحتاج لتغيير أو تكيف، فإن آخرين يؤكدون أن الإسلام ديناميكى فى طبيعته وأن إعادة التفسير والإصلاح أساسيان فى التجاوب مع متطلبات عصرنا، وكذلك لتهميش المتطرفين وإعادة المساواة بين الجنسين والتعددية الدينية وحقوق الإنسان، هذا الجدل قد ازداد بفعل عدة قوى ابتداء من التكنولوجيا الحديثة، ووسائل الاتصالات الجماهيرية إلى نمو التطرف الدينى والإرهابى باسم الإسلام، فإذا كان هذا هو الحال فمن هم وأين المصلحون الإسلام أو مارتن لوثر؟

ويجيب إسبوسيتو على هذه التساؤلات بأنه لعدة عقود فإن عدداً من المثقفين الإسلاميين والقادة الدينيين من إفريقيا إلى آسيا ومن أوروبا إلى أمريكا قد ناقشوا دور الإسلام فى المجتمع المعاصر: كيف يساهم الدين والقانون الإسلامى فى الأمة ـ الدولة الحديثة؟

وكيف نطبق القيم الإسلامية على القضايا الرئيسية اليوم مثل الديمقراطية والعلمانية، والمساواة بين الجنسين، وحقوق الإنسان، واقتصاديات السوق الحرة، والبنوك الحديثة، وما هو دور العلماء ulma، وهل هم الأصوات ذوى المصداقية للتحدث باسم الإسلام؟

إن الإصلاحيين هم علماء ومثقفون وحداثيون يمكن أن تجدهم فى المعاهد الدينية والجامعات والمؤتمرات الدينية والأكاديمية فى المناقشات البرلمانية، كما تنتشر أفكار

ما مكان ودور الجماعات المسلمة فى أمريكا والغرب، وهل اندمجوا فى هذه المجتمعات واحترموا قوانينها وقيمها، وإذا كانوا لم يفعلوا ذلك فلماذا؟ وإذا كانوا قد فعلوا، فإلى أى مدى؟



يقول إسبوسيتو إنه يكتب عن الإسلام باعتباره مستقبلنا جميعاً، فالإسلام والمسلمون اليوم هما لاعبان متكاملان فى التاريخ العالمى

الإصلاحيين فى مئات الكتب والمقالات والفضائيات وافتتاحيات الصحف وفتاوى رجال الإفتاء وعلى الإنترنت، وكما هو الحال مع المسيحية فإن التغيير فى الإسلام لم يعد محصوراً فى المناقشات حول العقيدة والقانون ولكن يتضمن أيضاً الاتصال فى السياسة والمجتمع فى وقت العنف والإرهاب. ويذكر إسبوسيتو أن الكثيرين فى أمريكا والغرب قد نسوا أن المسيحية قد ناضلت بقوة عبر العديد من القرون لإصلاح الكاثوليكية الرومانية حول قضايا متنوعة مثل البابوية والقساوسة وصكوك الغفران، وهو النقاش والجدل الذى نتج عنه التنوير، ومثل المسيحيين فإن المسلمين يمثلون توجهات متعددة من الحرفيين Litralistics والأصوليين، والمحافظين والتقليديين والعلمانيين والإصلاحيين، وعلى النقيض من الإصلاح المسيحى الذى نما وتقدم فى المقام الأول بالظروف فى الغرب عبر عدة قرون فإن الإسلام والمسلمين لديهم فقط عقود وليس قرون لتحقيق تقدم مهم فى عالم معولم، ويتميز بالتقدم الغربى السياسى، والعسكرى، والهيمنة الاقتصادية.

واليوم فإن العديد من المسلمين يتبعون الإصلاح ليس من موقع القوة والسلطة، ولكن من موقع ضعف نسبى ويناضلون من أجل التغيير فى وجه نظم سلطوية والقهر وحرية محدودة للتعبير فى بعض حالات الحرب الأهلية.

ويوضح إسبوسيتو أن الإصلاح كان جزءاً متكاملاً من تاريخ الإسلام، وقد ناضل النبى المصلح محمد ومجتمعه المبكر لتحسين عالمهم بتأسيس نظام إسلامى، وفى كل عصر فإن التباين سواء كان حقيقياً أو متصوراً بين إرادة الله وبين حالة العلم قد ألهمت الإصلاحيين الدينيين (المجددين) والحركات التى دعت المسلمين لإصلاح مجتمعهم واتباع الإسلام بشكل أكثر صدقاً، وكان هذا الاعتقاد مؤيداً من الحديث الذى قال إن الله يرسل لمجتمعه من يجدد دينه، وفى وقت الانقسام والانحدار كان معظم الباحثين الدينيين من التيار الرئيسى ولكن بعضهم من المتطرفين قد ظهروا لدعوة مجتمعهم للعودة إلى رسالتها الأصلية، ومنذ أيامه الأولى امتلك الإسلام تقليداً غنياً من الإصلاح ومفهوماً للتجديد كان من المكونات الأصيلة لوجهة نظر الإسلام العالمية المتجذرة فى القرآن وسنة النبى، واليوم يعتمد الإصلاحيون بشكل كبير على أفكار واستراتيجيات طورها القادة المسلمون الذين واجهوا أزمة الاستعمار الأوروبى والسيطرة فى نهاية القرن الـ ١٩ ووسط انحدار سياسى واقتصادى، فإن الإصلاحيين المسلمين من شمال إفريقيا إلى جنوب شرق آسيا دعوا إلى الاجتهاد والإسلام فى الوقت الذى كانوا يجاهدون لتلبية متطلبات الحياة الحديثة وقبل العلمانيين المسلمين فإن الإصلاحيين المسلمين كانوا متأثرين بتحدى وتهديد «نجاح الغرب»، وحيث كان الغرب قوياً والمسلمين ضعفاء يخضعون للسيطرة الغربية، وقد دعوا إلى النهضة الإسلامية لكى تستجيب بشكل ملائم للأفكار والمؤسسات العربية الحديثة، واعتقدوا أن مثل هذه النهضة الإسلامية سوف تكون الخطوة الأولى على طريق إحياء الإسلام واستعادة القوة الإسلامية والحصول على الاستقلال الوطنى.

وقد جادل الحداثيين الإسلاميين بأن انحدار المجتمع لا يرجع إلى أى ثغرة فى الإسلام نفسه ولكن إلى الابتعاد عن العقيدة الديناميكية وسلوك النبى محمد والمجتمع المسلم الأول والأسماء التى ظلت حية حتى يعود مثل جمال الدين الأفغانى (١٨٣٨ ـ ١٨٩٧)، ومحمد عبده (١٨٤٩ ـ ١٩٠٥)، وفى شبه الجزيرة الهندية سيد أحمد خان (١٨١٧ ـ ١٨٩٨)، ومحمد إقبال (١٨٧٦ ـ ١٩٣٨)، وجميعهم دعوا إلى النقاء وإعادة البناء وتجديد الإسلام لكى يحل محل الركود السائد وجهة النظر العالمية للقرون الوسطى. وكانت هناك دعوات للتطور التعليمى، والعلمى، والثيولوجى أى إصلاح إسلامى.

ومع نهاية القرن الـ ١٩ جادل سيد أحمد خان إلى الحاجة إلى خطاب دينى جديد قال «اليوم كما كان فى الأيام السابقة نحن نحتاج إلى خطاب ونبى جديد يوفق بين معتقدات علم عقيم وبين نظريات الإسلام الصحيحة».

وقد كرس أحمد خان حياته ليس فقط للإصلاح الدينى، ولكن أيضاً التعليمى ومؤسسا لجامعة aligarh والتى كانت مناهجها الحديثة على غرار جامعة كامبريدج، وبعد ذلك بعقود وفى جنوب الهند فإن محمد إقبال الشاعر الفيلسوف الذى نال درجة القانون من لندن، والدكتوراه من ألمانيا ودعا بوضوح إلى إصلاح إسلامى «نحن نحتاج إلى خطاب دينى جديد وخبرة شبيهة بالإصلاح البروتستانتى ودرس حركة لوثر لا يجب أن يفقد».

ويركز إسبوسيتو أن الحداثيين المسلمين ركزوا على عدم تعارض الإسلام مع العقل والعلوم والتكنولوجيا، واستدعوا التراث الإسلامى فى الرياضيات والجبر والفلك والطب والعلوم لكى يظهروا أن الإسلام هو دين العقل والتقدم، كما دعوا إلى إعادة تفسير جرىء والاجتهاد فى التعاون والخطاب الدينى الإسلامى وشكل يميز بين مراعاة القانون الإسلامى غير المتغير مثل الصلاة والصوم والحج، وبين التشريع الاجتماعى المتغير مثل الزواج والطلاق والعقود وفى النظام السياسى، والتى يمكن إعادة إصلاحها وتغييرها بشكل يواجه متطلبات المجتمعات المتغيرة والحياة الحديثة. ومما يثير الاهتمام أن معظم الإصلاحيين ليسوا بالضرورة باحثين دينيين تقليديين ولكن متعلمين ومهنيين قاوموا سلطة العلماء المحافظين باعتبارهم الحفاظ الوحيدين، وهم يعيدون تفسير الآيات القرآنية لكى يروجوا لمزيد من المساواة بين الجنسين وتغيير تعدد الزوجات والحق المتفرد للزوج والطلاق، وتنمية تعليم النساء، ورغم هذا فإن تأثيرهم يحد منه النظم السلطوية والمؤسسات الدينية المتحصنة، وزيادة على ذلك فإن معظم الإصلاحيين فشلوا فى فهم الحاجة إلى منظمات إصلاحية قوية، ولهذا فإن أفكارهم لم تتحول بشكل سريع إلى حركات جماهيرية شعبية، ورغم هذا فإن قوة إعادة تفسيرهم للإسلام شكلت أساساً قوياً بنى عليه الكثيرين اليوم، فميراث محمد عبده وإقبال وخان مازال حياً بين الإصلاحيين الذين يعملون لإضفاء الشرعية وأسلمة الأفكار الحديثة عن الديمقراطية والحكومات البرلمانية وحقوق الإنسان والمساواة بين الجنسين والإصلاحات لتأسيس مؤسسات تعليمية تجمع بين «المناهج الحديثة» والدراسات الإسلامية، وقد دخلت الأفكار والقيم الإسلامية الحديثة فى تيار الخطاب الإسلامى وأصبحت جزءاً من التيار الرئيسى للفكر الإسلامى.

ويعتبر إسبوسيتو أن من التحديات الكبيرة بالنسبة لكل الإصلاحيين أهمية ربط وإظهار الاستمرارية بين التغيرات المقترحة وبين العقائد التى طال الاعتقاد فيها والتقاليد، ولكن ليس غريباً أن الإصلاحيين يؤكدون دائماً على أنهم يدافعون عن شىء جديد جذرياً وأن التقليد الإسلامى قد اعترف دائماً بالحاجة لإعادة تفسير مصادره فى ضوء الواقع الثقافى والاجتماعى، وشأن المسلمين الحداثيين لأواخر القرن الـ ١٩ وأوائل القرن العشرين، فإن معظم الإصلاحيين اليوم يميزون بشكل حاد بين الفرائض لله وبين الأمور الدينية مثل الزواج والطلاق والميراث والعقود وفوائد البنوك والرهونات والتى يمكن أن تتغير استجابة للظروف الجديدة. ويمكن لإصلاحيين مثل طارق رمضان ونور شوييش Nour Chopich أن يرفضوا من جانب العلماء المحافظين ومسلمين آخرين باعتبارهم رجالاً عاديين تتأثر أجندتهم بتعليمهم وتأثرهم بالغرب، ولكن هناك أيضاً علماء بارزين الذين يعكسون أفكاراً إصلاحية، فقد أعلن الشيخ على جمعة مفتى مصر أن الله قد منح الحرية لكل البشرية وهذا يتضمن الحق فى اختيار دينهم دون أن يفرض عليهم من الخارج، ولكن على جمعة يؤكد أن الحرية تعنى المسئولية. كذلك يدعى القرضاوى أن كل شىء مقبول أو حلال ما لم يثبت أنه حرام بنص واضح من القرآن أو الحديث، الأمر الذى لا يضعه فقط باعتباره باحث دينى تقليدى حديث، ولكن أيضاً فى صراع مباشر مع المسلمين السنة وغلاة المحافظين والأصوليين الذين يعتبرون أن كل شىء ممنوع ما لم يثبت أنه مقبول.

ويذكر إسبوسيتو بأن سيطرة المخاوف من الإرهاب والتطرف فى الغرب يجعلنا ننسى أحياناً أن مثل هذا العنف يمثل أيضاً قوة تدميرية أكبر ضد المسلمين، وأنهم ليس فقط أغلبية الضحايا فى الهجمات الإرهابية ولكن أيضاً أن استمرار العنف عبر العالم يربط عقيدتهم بكل ما هو شرير ومهدد. لذلك أدان العديد من القادة المسلمين هجمات ١١ سبتمبر وأعمال الإرهاب الأخرى وأقاموا خطاً فاصلاً بين الإسلام «الحق» وبين الإسلام «المتطرف» ومع هذا فإنهم يختلفون حول تحديدهم للعنف المشروع وغير المشروع وما يشكل الإرهاب وظلت الهجمات الانتحارية فى



من الأسئلة العديدة التى يطرحها فى هذا السياق هى: هل مستقبل الإسلام فى الإصلاح أم فى الثورة؟ وهل يتعارض الإسلام مع الحداثة؟



وما هى التجارب والتحديات التى يواجهها المسلمون الأمريكيون والأوروبيون؟ وهل تكيفوا؟ وإن لم يكن فلماذا؟ وإذا كانوا قد تكيفوا فكيف؟



فلسطين مسألة مختلف عليها، ويمثل Timathy winter الزعيم الدينى المسلم والأستاذ بجامعة كامبريدج الكثير من المسلمين فى رفضه الواضح والمباشر للمتطرفين من القاعدة باعتبارها غير شرعية أو أصيلة إسلامياً، وكان الشيخ القرضاوى واحداً من أوائل الباحثين الإسلاميين الذين أدانوا هجمات ١١ سبتمبر الإرهابية وشجع المسلمين أن يتبرعوا بالدم للضحايا، فالمسلمين ليس مسموحاً لهم بقتل أى شخص ما عدا هؤلاء الذين يحاربون المسلمين بشكل مباشر، موضحاً أنه من غير الأخلاق قتل الأبرياء نتيجة لأخطاء حكوماتهم.. واعتبر وينتر أن الإرهاب العالمى هو نتاج المتطرفين المسلمين والغربيين، والمسئولون الكبار هم المحافظون الجدد الأمريكيون وصقور الحرب والإرهابيون المسلمون الذين يشتركون فى سمات صارخة، وكلاهما استولوا على الماضى لتمجيد الحاضر.

بينما أخذ القرضاوى اتجاهاً مختلفاً جداً مرجعاً التطرف الدينى للغطرسة والضحالة الثقافية والافتقاد للمعرفة والبصيرة الدينية.

وتشير الهجمات الانتحارية التى تستهدف المدنيين الأبرياء وغير المحاربين جدلاً حاداً بين السلطات الدينية الإسلامية، فبينما يعتبرها الشيخ أحمد ياسين وعكرمة صبرى مفتى القدس ومعهم العديد من القادة العرب والمسلمين أنها ضرورية ومبررة لمواجهة احتلال إسرائيل غير شرعى إلا أنه فى تناقض حاد، فإن عبدالعزيز الشيخ مفتى السعودية أدان كل الضربات الانتحارية بدون استثناء باعتبارها غير إسلامية وشجبها الإسلام كذلك، فإن الشيخ محمد سيد طنطاوى مفتى مصر السابق وشيخ الأزهر أعلى سلطة دينية حالياً قد فرق بشكل حاد بين الضربات الانتحارية والتى تمثل التضحية بالنفس والدفاع عن النفس، وبين قتل غير المحاربين «إن الهجوم على الأبرياء ليس عملاً شجاعاً وسوف يعاقب عليه يوم القيامة، إنه ليس من الشجاعة مهاجمة الأطفال الأبرياء والنساء والمدنيين، إنه من الشجاعة أن تحمى الحرية والدفاع عن النفس».

ولم يكن طنطاوى وحده، فقد أعلن الشيخ محمد عبدالعزيز السبيل إمام المسجد الكبير فى مكة: أن أى هجوم على الأبرياء ليس شرعياً ومناقض للشريعة، أن المسلمين يجب أن يحموا الأرواح وشرف وممتلكات غير المسلمين الذين تحت حمايتهم والذين عقدوا معهم اتفاقيات سلام، أن الهجوم عليهم مناقض للشريعة.

وينتقل إسبوسيتو إلى قضية أخرى وسؤال آخر:

هل فصل الدين عن الدولة ممكن فى الإسلام؟ وهل لا يتفق الدين مع الديمقراطية؟

ويقول إن الإصلاحيين اليوم لديهم الكثير الذى يقولونه حول هذا الموضوع، فهؤلاء الذين يتهمون أن الإسلام والديمقراطية متعارضان إنما يعتمدون على حقيقة أن عدداً قليلاً من الدول الإسلامية ديمقراطية، والعديد منهم نظماً أوتوقراطية تستند شرعيتهم واستقرارهم على قواتهم العسكرية والأمنية أكثر منها على الانتخابات والإرادة والشعبية، نجد أن هذا النقد يتغافل عن دور البلدان الأوروبية فى إقامة أو الموافقة على العديد من القادة السلطويين والدور المستمر الذى يلعبونه فى دعم هذه النظم التى تستحق المعارضة، وزيادة على ذلك فإن العديد من الدول الإسلامية من مثل تركيا وبنجلاديش وباكستان وماليزيا وإندونيسيا، كما يمثلون فى الواقع تنوعاً من «الديمقراطيات» وبعض الديمقراطيات «الموجهة» مع رؤساء دول منتخبين، مثل هذه الحقيقة يجب أن توضع ضمن مزيج الانطباعات حول الإسلام والديمقراطية.

فى مثل هذه الظروف فإن الناشطين السياسيين الإسلاميين فى الحقب الأخيرة أصبحوا لاعبين كبار فى السياسات الانتخابية وتولوا مراكز مهمة فى الحكومة وفى الوقت الذى حاول فيه الحكام التعاون معهم أو احتوائهم، وحظرهم، فقد حصلوا على تأييد شعبى وتأييد سلطات دينية كبيرة مثل يوسف القرضاوى، ورغم هذا فإن على جمعة مفتى مصر وصف المنظمات الإسلامية مثل الإخوان المسلمين ومنظمات وبيوت الاستثمار بأنها غير إسلامية، وهو يميز بشكل حاد بين وظيفتين للسياسة، الأولى هى النظر فى الشئون الداخلية والخارجية للبلد وهو أمر إسلامى، وبين الحصول على السلطة والذى هو عمل الأحزاب السياسية «الحديثة»، الأمر الذى يعتبر أنها غير مقبولة كلية، وعنده أنه من الأمور الكريهة للإسلام أن تدعى جماعة ما احتكار الدين وبشكل يصبح فيه من هم خارج هذه الدائرة غير دينيين. وفى الوقت الذى يدعو فيه الإسلاميين لإقامة دولة إسلامية وينتقدون أو يدينون الديمقراطية، فإن مصطفى سيريك مفتى البوسنة والهرسك يعتبر أن الديمقراطية هى إحدى المزايا العظيمة التى صنعتها الدولة الحديثة، وهو يدين المسلمين الذين يعارضون الديمقراطية وتعدد الأديان والحياة القومية التعددية ملاحظاً أن القرآن يقرر عدة مرات أنه لو شاء الله أن يجعلكم أمة واحدة، ولكن يريد أن يجعلكم أمماً مختلفة. ومن خبرات نور شويش مجيد الداعى للديمقراطية، وفى تعامله مع نظم سوكارنو وسوهارتو فى إندونيسيا، جعلته يعترض بعقم معارضة الأحزاب السياسية فى الدولة، إضافة إلى أن التجارب وعدم قدرة الأحزاب السياسية للعمل معاً قادته لأن يستخلص أن خلط الدين بالدولة هو أمر يأتى بآثار عكسية، كان شعاره المعروف جيداً «الإسلام نعم».. الأحزاب السياسية الدينية لا»، وهو كذلك يرفض اقتناع الإسلاميين الحداثيين بأنه من الضرورى فرض الشريعة لجعل مجتمع إندونيسيا أكثر إسلامية، وفى رفضه «للدولة الإسلامية» فإن مجيد يواصل دفاعه عن الديمقراطية فى اعتقاد أن الديمقراطية لها سوابق قرآنية والأفكار القرآنية والتقاليد الإسلامية فى المشاورة والشورى، ومع هذا فإن البلدان المختلفة تحتاج لأن تضع نماذج مناسبة لبيئتها.

أما عن التساؤل المهم حول ما إذا كان المسلمون فى الغرب يستطيعون أن يكونوا مواطنين على ولاء لمجتمعاتهم الجديدة؟ وهل يستطيع الفرد منهم أن يكون أمريكياً أو أوروبياً؟! أم أن الإسلام يتطلب منهم أن يكونوا مجرد مسلمين يعيشون فى أمريكا وأوروبا؟ ويجيب إسبوسيتو على هذه التساؤلات بأن عملية الاندماج Integration وليس اختيار العزلة أو التشدد هى عملية تستفيد وتعتمد إلى حد كبير على الفكر الإسلامى. وثمة مجموعة من الباحثين الإسلاميين والقادة الدينيين فى أوروبا وأمريكا هم أصوات فعالة فى عملية الاندماج وهم يناقشون قضايا العقيدة والهوية والاستيعاب Assimilation والتعددية الدينية والتسامح. وثمة تطورات مهمة تأتى من مسلمين أوروبيين مثل البريطانى وينتر والسويسرى رمضان، وكذلك سيريك فى البوسنة والهرسك، وهم فى رفضهم لوجهة نظر استقطابية والتى تضع «المسلمين» ضد «الغرب»، فإنهم يدافعون عن هوية أوروبية أو أمريكية مركبة تقوم على القيم المشتركة.. ورغم اعترافهم بالخلافات الدينية والثقافية، إلا أنهم مع هذا يؤكدون على التوافق الجوهرى للإسلام والغرب وينبهون أن مثل هذه الخلافات يمكن أيضاً أن توجد بين الكاثوليك فى هولندا والنمسا، أو بينهم وبين الكنائس المسيحية، وعلى هذا فهى أشكال مختلفة للإسلام. ولكن هل هناك صدام للقيم الأساسية بين الإسلام الأوروبى والأمريكى وبين القيم الغربية والعلمانية؟ إن كلا من رمضان وسيريك يتحدثون عن القيم المشتركة (الإسلامية والغربية) كأساس للمواطنة فأخلاقيات المواطنة تتطلب أن توضع القرارات باسم المبادئ المشتركة وليس على أساس واحد من الهوية الدينية. ويعتقد رمضان أن تبنى الإسلام والمجتمع المفتوح ليس خيانة للمبادئ الإسلامية، فهى تمكن كل المواطنين أن يعيشوا معاً، وهذا الشرط الضرورى للحرية الدينية للمسلمين والآخرين، وهكذا فهو يدعو المسلمين الأوروبيين لنشر رسالتهم فى الداخل والخارج «فنحن نعيش فى ديمقراطية ونحترم الدولة وحكم القانون ونحترم الحوار السياسى ونريد ذلك لكل المسلمين».

ويعتبر رمضان أن السؤال «هل تستطيع أن تكون أوروبياً مسلماً سؤالاً مضى عليه الزمن passe فليس هناك فى القرآن أو سنة النبى أو الدساتير الأوروبية ما يمنع المسلم من أن يكون كلا منهما: مسلم مشارك وأوروبى موال، كملايين المسلمين الذين يعيشون ويعملون ويصوتون فى أوروبا هم شهادة حية أن الفرد يستطيع أن يكون مسلماً وأوروبياً فى نفس الوقت فليس هناك تناقض. ورغم هذا يعتقد رمضان أن الاندماج لا يعنى استيعاباً كاملاً، فالمسلمون يجب أن يسمح لهم أن يطوروا هويتهم وثقافتهم الأوروبية المسلمة، فمثلما فعلت العقائد والجماعات العربية الأخرى قبلهم، والتكامل هو قبول المسلم للدستور والقانون والإطار العام لأى بلد أوروبى

ما مدى تمثيل الأصولية الإسلامية؟ وهل هى تهديد للمجتمعات الإسلامية وللغرب؟ وهل يمكن أن تكون الأقليات المسلمة مواطنين على ولاء للبلاد التى يعيشون فيها فى أمريكا والغرب؟



إن المواجهة الناجحة بين الإسلام والغرب لها متطلبات متداخلة، فالمسلمون يجب أن يحتضنوا هويتهم الأوروبية، والحكومات الأوروبية يجب أن تسهل اندماج المسلمين

يعيش فيه المسلمون ويعكس هذا الاعتقاد موقف رمضان من الفتيات المسلمات اللاتى يرتدين الحجاب فهو يصر «أن أحداً لا يجب أن يجبر اختيار المرأة أن ترتدى الحجاب أو لا ترتديه»، ولهذا فقد رفض الحظر الفرنسى على الحجاب، ومع هذا فهو ينصح فتيات المدارس المسلمات أن يحترموا القانون الفرنسى، وحتى يمكن تغيير القانون يمكن استبدال حجابهم برداء أكثر قبولاً، وأن على المسلمين أن يكونوا واضحين لمواطنيهم وللمسلمين حول العالم: إننا نحترم القانون حتى لو اختلفنا معه. ويقرر رمضان أن كل ما يسمى مشكلات إسلامية: مثل الأحياء الفقيرة slums، والجريمة والبطالة والتى تقدم كمثال لعدم توافق الإسلام مع الغرب ليست فى الحقيقة متصلة بالدين، ولكنها تعكس عدم مساواة اجتماعية واقتصادية وتعليمية والتى تواجهها الجماعات الإسلامية المهاجرة، ولهذا وبسبب طبيعتها وأسبابها الأولى، فإنها تتطلب حلاً اجتماعياً وليس دينياً. وبالنسبة لمصطفى سيركى كما هو الحال مع رمضان، فإن المواجهة الناجحة بين الإسلام والغرب لها متطلبات متداخلة، فالمسلمون يجب أن يحتضنوا هويتهم الأوروبية، والحكومات الأوروبية يجب أن تسهل اندماج المسلمين من خلال التعايش على أساس مؤسس على حاجاتهم الدينية.



وتحت عنوان الإسلام والغرب: «مواجهة أيديولوجية الخوف»، يذكر إسبوسيتو بقول مصطفى سيريك فى عام ٢٠٠٥: «أخشى أننا على حافة أن نرى موقفاً سيتطور بحيث يمكن أن يكون جريمة أن تكون مسلماً فى أوروبا. وقد جعلت أحداث ١١ سبتمبر الأمور أسوأ.. فليحمنا الله»، ولذلك ليس غريباً عندما سئل كيف يرى مستقبل الإسلام فى أوروبا؟ قال «ليس جيداً جداً». مشيراً إلى صعود الفاشية وموقف رسمى يؤيد ما هو غير معقول حول الإسلام، غير أن هذا ليس معناه أن يتحكم فينا مفهوم «نهاية الزمان»ودعا المسلمين أن يكونوا أقوياء ومنظمين حتى إن قوتهم فى دولة ما سوف يدعم الجماعات الإسلامية فى بلدان أخرى «ذلك أننا نعيش فى عصر كل أفعالنا لها انعكاسات عالمية، فإذا كنت قوياً ومتحداً ومنظماً هنا فسوف نكون بالطبيعة أقوياء ومتحدين ومنظمين فى البوسنة وكشمير وفلسطين وبقية العالم..» وكواقعى وصوت ضد التطرف الدينى حذر طارق رمضان المسلمين وغير المسلمين معاً «أن أول نتيجة تراجيدية لأيديولوجية الخوف هى أن تحول المجتمعات وأعضائها إلى ضحايا». ويرى رمضان مفهوم «الضحية» كخوف مشترك وخطر مشترك وخطير «أن إصرار العالم الإسلامى أنه ضحية دائمة على أيدى الغرب هو رد فعل عنيف لاتهامات الغرب أن المسلمين يعملون على تدمير القيم والحريات الدينية. وقد أصبحت عقلية الضحية عند المسلمين، والتى تفترض أن أى عمل من جانب الغرب مدفوع بكراهية عميقة للإسلام، عقلية خطيرة مثل الأيديولوجية التى تنمى العنف فى أمريكا وأوروبا وتفترض أن سكوت المسلمين مدفوع بالكراهية ورفض الغرب. وهكذا كان الفشل فى أن تظل وفياً للمبادئ الديمقراطية فى مناخ الخوف يخاطر بخسارة أكثر للمظاهر الجوهرية للديمقراطية الغربية، فالخوف المتبادل ومفهوم الضحية يدعم رؤية «نحن»، «هم» للعالم الذى يمنع فهم الأسباب وراء أفعال «الآخر».

ويعالج إسبوسيتو قضية مهمة فى فهم الإسلام وهو دور المرأة والمجتمعات الإسلامية وتمكينها، فهو يرى أن الاشتراك الكبير اليوم للمرأة فى المجتمع يمكن أن يرى على عدة جبهات، فبعض الحركات الإسلامية مثل الإخوان المسلمين فى مصر والأردن والنهضة فى تونس ولبنان والكويت وتركيا وماليزيا وإندونيسيا قد أكدت فرصاً متزايدة للتعليم وفرص عمل واسعة للمرأة، كذلك أصبحت النساء موجودات بشكل أكثر فى مجال المنظمات الإسلامية والمرشحين الإسلاميين، كما توجد المرأة المسلمة بشكل متزايد فى المهن المختلفة، الأطباء والصحفيين والمحامين والمهندسين والعمال الاجتماعيين وأساتذة الجامعات. وترى هبة رؤوف الأستاذة بجامعة القاهرة والناشطة الاجتماعية والتى تلقت تعليمها فى القاهرة ولندن أن المرأة المسلمة المعاصرة قد ناضلت بجرأة لكى توازن الطبيعة الأبدية للقرآن وطريقة تطبيقها فى سياق تاريخى وثقافى، وتشير أنهم يفعلون ذلك مثلما فعل باحثون بارزون للإسلام وأعضاء الحركات الاجتماعية الإسلامية، وكرجال الإفتاء النشطين الذين يعتبرون فحص الآراء الدينية الكلاسيكية المسيطرة وينتجون تفسيرات جديدة، وتؤكد أنه من حق المرأة وواجبها أن تشترك فى هذا النضال وأن تقود نهضة إسلامية وإعادة بناء العقل المسلم، «وإصلاح فهمنا للقرآن والنبى لفهم الإسلام وممارسته». وتشير هبة رؤوف أنه على عكس ما قد يتوقعه المرء فى العالم الغربى من أن دخول المرأة فى قوة العمل سوف يؤدى بالطبيعة إلى زيادة حق التصويت فى السياسة، ففى العالم العربى فإن دخول المرأة المتزايد فى المراكز التنفيذية والاشتراك فى القضايا الاجتماعية قد سار موازياً لابتعادهم فى نفس الوقت عن الأحزاب السياسية والنقابات، فمثلاً فى مصر فإن ٦ أو ٧٪ من عينة عشوائية للنساء الذين يتولون مراكز تنفيذية فى الأجهزة الرسمية وقطاع الأعمال الخاص هم أعضاء فى الأحزاب السياسية، وبالنسبة لرؤوف فإن تمكين المرأة سياسياً يتطلب عدم تمكين النظم السلطوية، وهى تتساءل عما إذا كان تعيين المرأة فى مراكز رئيسية فى الحكومة يعكس حقاً تغييراً ديمقراطياً فى نفس الوقت الذى تشير تقارير منظمات مثل العفو الدولية وتقرير الشفافية الدولية إلى أنها كانت ضد المرأة وحقوقها الإنسانية الأساسية فى نفس البلدان.

ويخصص إسبوسيتو الفصل الأخير من الكتاب لبناء طريق جديد للمستقبل لعلاقة أمريكا بالعالم الإسلامى، وهو يعتبر أن صناع السياسة الأمريكية يميلون إلى الاعتماد فى تحديد العلاقة مع العالم الإسلامى على آراء الخبراء والحكام المسلمين والصفوة، غير أن ثمة سؤالاً حرجاً حول صياغة السياسة الخارجية الأمريكية وهو: ما الذى يفكر فيه المسلمون عالمياً، خاصة التيار الرئيسى بينهم ذلك أنه لكى نرسم طريقاً جديداً إلى الأمام نحتاج أن نعرف ما الذى يقوله كل فرد عن اتجاهات المسلمين وعقائدهم ومظالمهم وآمالهم ورغباتهم، ولكن ما الذى تقوله الأغلبية السائدة. وعبر السنوات أثير سؤال بشكل متكرر: لماذا يكرهوننا؟ والإجابة العامة كانت «أنهم يكرهون طريقتنا فى الحياة، وحريتنا وديمقراطيتنا ونجاحنا»، وفى الوقت الذى يعتقد فيه الكثيرون أن معاداة أمريكا ترتبط بخلافات دينية وثقافية لا يمكن تجاوزها، فإن الحقيقة تقوض هذه الإجابة المبسطة والتى لا تخدم إلا نفسها.. فنحن فشلنا فى أن نميز بين كراهية المتطرفين وبين الكراهية الواسعة لأمريكا من هؤلاء الذين يعجبون بإنجازاتنا وقيمنا وكلهم يدينون ما يرونه تكبراً ومشاريع الهيمنة.. وفى الوقت الذى يريد فيه المتطرفون قتلنا فإن معظم المسلمين يريدون منا أن نتوقف عن جعل العالم مكاناً خطيراً.



إن مستقبل الإسلام والمشروعات السطحية والفاشلة مثل «إنهم يكرهون طريقتنا فى الحياة»، والتى تهبط بالعلاقة بين العالم الإسلامى والغرب إلى «صدام» حتمى بين الحضارات والقيم والمصالح.. إن كل أمريكى وأوروبى يعلم أن الغرب وحدة متراصة monolithic وكذلك ليس هناك عالماً إسلامياً واحداً، وفى الوقت الذى ينادون فيه بالحرية وتعميم الديمقراطية، فإنهم لا يرون أن هذه القيم تطبق فى معاملة المسلمين، وهذه الفجوة بين سياسات الولايات المتحدة وبين المبادئ الأمريكية ينتج عنها اتهام الولايات المتحدة قد اتبعت معايير تميزية مزدوجة فى ترويجها للديمقراطية وحقوق الإنسان.. ويطرح إسبوسيتو سؤالاً عن: ماذا يريد المسلمون؟ ويجيب أن أعداد كبيرة من المسلمين عبر العالم غير سعداء مع الوضع الراهن ويريدون بوضوح ديمقراطية أوسع. إن الحكومات الغربية التى تدافع عن حق تقرير المصير والديمقراطية تحتاج إلى أن تثبت بسياستها وكذلك بياناتها أنها تحترم حق جميع الحركات والأحزاب السياسية، فالترويج للديمقراطية بالأفعال وليس مجرد الكلمات يمكنها أن تتغلب على «الاستثنائية الديمقراطية» فاحترام وتأييد عملية الديمقراطية.. وحقوق الإنسان يجب أن ترى على أنها عالمية حقاً. ويلاحظ إسبوسيتو أن العديد من الرسميين والحكوميين العلمانيين والمحللين السياسيين والصحفيين فى الغرب عندما يسمعون المسلمين يتكلمون عن دور الدين



أصبحت النساء موجودات بشكل أكثر فى مجال المنظمات الإسلامية، كما توجد المرأة المسلمة بشكل متزايد فى المهن المختلفة، الأطباء والصحفيين والمحامين والمهندسين والعمال الاجتماعيين وأساتذة الجامعات



الإسلام والمسلمون
أسئلة الوجوه المتعددة

فى السياسة والمجتمع فإنهم يطلقون على هؤلاء المسلمين «أصوليين» بما يعنى أنهم جميعًا جامدون ومعادون للحداثة، ومتخلفون يريدون فقط إقامة الدولة الإسلامية.

ومثل هذا الاتجاه يدعم ويستخدم بعض الحكومات السلطوية والنخبة العلمانية فى العالم الإسلامى ليس فقط بسبب اهتمامهم الأمنى والاستقرار، ولكن أيضًا لأن الانتخابات المفتوحة وبدائل سياسية بما فيها الأحزاب الإسلامية إنما تهدد سلطتهم وامتيازاتهم.

ومثل هذه المخاوف قد أثرت فى بعض المفكرين الليبراليين الذين فشلوا فى التمييز بين الحركات الإسلامية المتطرفة وبين التيار الرئيسى للمسلمين الذين يعتقدون أن الديمقراطية تتفق مع مبادئهم وقيمهم الدينية.. ويذكر إسبوسيتو أمريكا والغرب أننا ننسى أن الديمقراطية عملية غريبة الأطوار Erratic وخطرة، وأن الخبرة الأوروبية كانت عملية تخضع للتجربة والخطأ مصحوبة بالحروب الأهلية والصراعات الدينية والثقافية وأن الديمقراطية الأمريكية كانت نتاج ثورة مسلحة وحتى حربًا أهلية دامية، وتقريبًا مر قرنان قبل أن نعترف بالحقوق المتساوية للنساء الأمريكيين الإفريقيين.. وبالمثل فى الشرق الأوسط، فالمجتمعات التى تحاول المشاركة، وكذلك دور الهوية والقيم الدينية سوف تمر فى كثير من الحالات بعملية من التجربة والخطأ وحيث ستكون الأخطار القصيرة الأجل هى ثمن مكاسب طويلة الأجل.. وقد تستطيع الحكومات الأوتوقراطية أن تؤخر أو تخنق عملية التغيير لأنهم فى هذا مما يؤجلون فقط ما هو حتمى.

ويدعو إسبوسيتو أنه فى الوقت الذى لا يجب أن يكون فيه تسامح مع الإرهابيين، فإنه يجب أن نسمح للتيار الرئيسى من المسلمين، خاصة الأحزاب السياسية أن يتواصلوا مع حكوماتهم والأمم الغربية، فإذا ما منعوا أو قهروا ولم يسمح لهم أن يصوتوا أو يمارسوا السلطة السياسية فإن النتيجة المحتملة هى المزيد من الاغتراب والتطرف.. ومع العلاقة بين أمريكا والغرب يعتبر إسبوسيتو أن الاحتلال الإسرائيلى لفلسطين يعتبر اهتمامًا رئيسيًا فى العالم الإسلامى وحجر عثرة فى علاقات أمريكا مع المسلمين، ورغم هذا فإن التوصل إلى تقدم مهم سيكون أشبه بصراع سيزييف نحو القمة.

ويطالب إسبوسيتو بأن على السياسة الأمريكية أن تكون مدفوعة بشكل أقل باللوبيات الداخلية الإسرائيلية وحلفائهم الصهاينة المتشددين ونفوذهم فى الكونجرس، وسوف يواجه الرئيس أوباما تحديًا أن يتبع إسرائيل استراتيجية قصيرة وطويلة الأجل لم يتبعها رئيسًا أمريكيًا، وهذه الإجراءات تتضمن ليس فقط تأييد وجود وأمن إسرائيل، ولكن قيام دولة فلسطينية آمنة ومدعمة اقتصاديًا وهى أيضًا الإذعان لقرارات الأمم المتحدة: إعادة الأراضى الفلسطينية التى احتلت عام ١٩٦٧، والرجوع عن ضم الأراضى والمبانى وبناء المستوطنات غير الشرعية، وإدانة العنف غير المشروع الذى يرتكبه ليس فقط الفلسطينيون ولكن أيضًا العسكرية الإسرائيلية.

وهكذا يواصل البروفيسور إسبوسيتو جهده النزيه والموضوعى والذى بدأه منذ كتابه «التهديد الإسلامى: أسطورة أم واقع»، وهو بكتابه الجديد يقدم للمجتمعات الأمريكية والغربية العديد من الحقائق حول الإسلام والمسلمين وينبههم إلى تيار المصلحين والمجددين الذين يلقون تغطية ضئيلة فى الصحافة الغربية، وكما عبرت كارن أرمسترونج فإنه بعد إسبوسيتو لم يعد هناك عذر بالجهل بأعمال هؤلاء الإصلاحيين الذين يفصحون عن تيار مهم فى التفكير الإسلامى يتحدى الرؤية الغربية للإسلام، ويدرك أن القوانين والعادات كانت محكومة بالظروف التاريخية التى تطورت فيها ويجب أن يعاد تفسيرها فى ضوء هذا الفهم، وهو - شأن التيار الرئيسى فى المجتمعات الإسلامية - يمقت الإرهاب والعنف. ولعل من أهم ما أفصح عنه الكتاب هو أن فشل السياسة الخارجية الأمريكية والأوروبية كانت أحد أسباب الوعكة الراهنة فى العالم العربى والإسلامى، وسوف تستفيد أمريكا والغرب كثيرًا لو استمعوا إلى نصيحة إسبوسيتو أن ما يحدث فى غزة وأفغانستان اليوم من المحتمل أن يكون له انعكاساته غدًا فى لندن أو واشنطن، وأن الإصرار على أن كل الشعوب الإسلامية تؤيد الإرهاب وتعارض الديمقراطية وتعادى بشكل سلفى الحرية ليس له فقط آثار عكسية على المصالح الغربية، ولكنه يناقض الواقع، مثل هذا التحذير يجعل قارئ الكتاب يستخلص أن مستقبل الإسلام لا يعتمد ببساطة على فعالية قلة من الإصلاحيين المسلمين ولكن أيضًا على الولايات المتحدة والغرب، وكما عبرت أرمسترونج أيضًا فإنه إذا كانت وجهة النظر القصيرة للسياسات الغربية قد ساعدت على خلق المأزق الراهن فإنها إن لم تصحح فسوف يظل لها تأثير سلبى على المنطقة وسوف تضعف قضية الإصلاح وتقوى من دعاوى وقوى التطرف. ■

كتاب الزاوية



كعب بن زهير

المدائح النبوية

وقال كل خليل كنت آمله
لا ألفينك إنى عنك مشغول
فقلت خَلُّوا سبيلى لا أبا لكم
فكل ما قدر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
يومًا على آلة حدباء محمول
أنبئت أن رسول الله أوعدنى
والعفو عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذى أعطاك نافلة الـ
قرآن فيها مواعيظ وتفصيل
لا تأخذنى بأقوال الوشاة ولم
أذنب وإن كثرت فىّ الأقاويل
إن الرسول لنور يستضاء به
وصارم من سيوف الله مسلول
فى عصبة من قريش قال قائلهم
ببطن مكة لما أسلموا زولوا
زالوا فما زال أنكاس ولا كشف
عند اللقاء ولا ميل معازيل
شم العرانين أبطال لبوسهم
من نسج داود فى الهيجا سرابيل

أنـــــا الآن مســــــــلمة

لـــــوريـــــن بـــــوث
Lauren Booth



لورين بوث (٤٣ عاما) هى شقيقة زوجة رئيس الوزراء البريطانى السابق تونى بلير. تحولت إلى الإسلام قبل أسابيع، بعد أن كانت قد زارت غزة (٢٠٠٨) والدوحة وإيران أخيراً. وكان لخبر اعتناقها الإسلام دوى كبير، بسبب علاقة القرابة التى تربطها بالرجل الذى كان الحليف الأول لجورج دبليو بوش فى حربه على العراق، قبل أن يتولى ملف الشرق الأوسط كمبعوث للرباعية الدولية. السيدة البريطانية «البسيطة» كتبت فى «الجارديان» تتسائل: لماذا كل هذه الضجة؟

وهنا ترجمة للمقال:



■■ لقد مرت خمس سنوات على زيارتى الأولى لفلسطين، وعندما وصلت إلى المنطقة للعمل جنبًا إلى جنب مع المؤسسات الخيرية فى غزة والضفة الغربية، ذهبت ومعى تلك الأفكار التى تعتقدها عادة النساء البيض من الطبقة الوسطى (سواء فى الظاهر أو سرا) نحو المرأة المسلمة المسكينة، وهى المرأة التى افترضت أنها أكثر قليلا من تلك «الصورة الذهنية» لملابسها السوداء، وكامرأة متحررة غربية كنت أتوقع أننى سأتعامل مهنيًا بالضرورة مع الرجال وحدهم، ففى النهاية، هذا هو العالم الإسلامى، أليس كذلك؟

ثم كان أن أدركت من خلال صرخات الرعب التى تلقيتها من زملائى كتاب الأعمدة بعد سماعهم نبأ اعتناقى الإسلام، أن تلك النظرة النمطية لا تزال سائدة تجاه أكثر من نصف مليار امرأة تعتنق الإسلام حاليًا.

خلال أول رحلة إلى رام الله، وما تلاها من زيارات إلى فلسطين ومصر ولبنان والأردن، تعاملت بالفعل مع رجال يعملون بالسلطة، ويا عزيزى القارئ، كان واحد أو اثنان منهم بتلك اللحية المُرعبة التى نراها فى نشرات الأخبار المتلفزة التى تأتينا بالصور من أماكن بعيدة قمنا بقصفها قبل أن تتحول إلى أشلاء. الغريب (بالنسبة لى) أنى بدأت أيضاً فى التعامل مع الكثير من النساء من جميع الأعمار، نساء مختلفات، ليس فقط فى طريقة حجابهن، بل أيضاً هن مختلفات باختلاف كل أنواع أغطية الرأس التى يرتدين، وبعضهن تولى مناصب فى السلطة، فالمرأة المسلمة، صدقوا أو لا تصدقوا، يمكن أن تكون متعلمة، وتعمل بنفس عدد ساعات العمل القاتلة لدينا، وترأس زوجها حتى أمام أصدقائه وتستطيع فى بعض الأحيان أن تطلب منه مغادرة الغرفة لتنتهى من إعداد العشاء.



فهل يكفى هذا المدى من الاستعلاء بالنسبة لكم؟ أتمنى ذلك!، فلقد كان اعتناقى للإسلام ذريعة لانطلاق حملة من التعليقات الساخرة تمثل وجهات النظر التى تنظر للمرأة المسلمة باستعلاء فى كل مكان، وبدرجة كبيرة لدرجة أنه فى طريقى إلى حضور اجتماع حول موضوع الخوف من الإسلام «الإسلاموفوبيا» فى الإعلام هذا الأسبوع، فكرت بكل جدية أن أقوم بشراء أى شىء متعلق بأبو حمزة. وبعد كل ذلك، إذا حكمنا من خلال رد فعل كتاب الأعمدة النساء، فأنا أشكل صيداً سميناً لمناصرى حقوق المرأة.

دعنا نأخذ نفسًا عميقًا وسأعطيك لمحة عن العالم الآخر للإسلام فى القرن الـ٢١.

بالطبع، لا يمكننا أن نستبعد الطريقة المُروعة التى يتعرض لها النساء وسوء المعاملة ضدهم من قبل الرجال فى بعض المدن والثقافات المسلمة. فالنساء اللاتى يتعرضن لسوء المعاملة والاستغلال من قبل أقاربهن الرجال يتعرضن لتلك المعاملة من الرجال وليس من الله، خرجت كثير من الممارسات والقوانين الإسلامية من البلدان التى لا تمت بصلة لأصول الإسلام، وتقوم بدلاً من ذلك على الممارسات الثقافية أو التقليدية الذكورية، وهى العادات التى تم حقنها فى هذه المجتمعات، على سبيل المثال، فى المملكة العربية السعودية، لا يسمح للنساء بقيادة السيارات.

هذا القانون من اختراع نظام الحكم فى السعودية، الحليف الوثيق لحكومتنا فى الأسلحة وتجارة النفط. ولكن الكفاح من أجل حقوق المرأة يتم تكييفه - للأسف - بما يتوافق مع احتياجات ومصالح حكوماتنا.

بدأ مسارى فى الاتجاه إلى الإسلام عندما أدركت الفجوة بين مفاهيمى الخاطئة عن حياة المسلمين وبين ما رأيته فى الواقع.

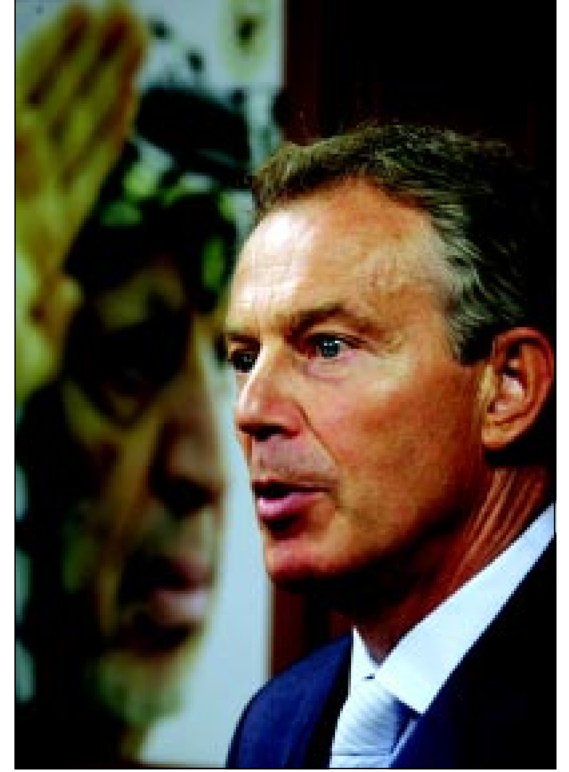
هؤلاء الذين نتحدث عنهم هم فى النهاية بشر، خلال زيارتى لإيران فى سبتمبر الماضى، ما لاحظته من الوضوء والسجود، وما رددوه من تلاوات الصلاة فى المساجد التى زرتها جعلنى أتذكر رأى الغرب فى عقيدة أخرى غير الإسلام، عقيدة تنبذ العنف وتحتضن السلام والحب من خلال التأمل الهادئ، ثم سرعان ما أصبحت صرعة «مودة» لدى نجوم السينما مثل ريتشارد جير الذى كان من السهل عليه أن «يعترف» باعتناقه البوذية فى العلن، فى الحقيقة إن الانحناء والسجود والخشوع فى الإسلام أثناء الصلاة تتعالى معه كلمات تحمل السلام والطمأنينة. فكلها تبدأ بـ«بسم الله الرحمن الرحيم»، وتنتهى بعبارة «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

يواجه معتنقو الإسلام الجدد

ترجمة: محمد عبدالسلام رضوان

I'm now a Muslim. Why all the shock and horror?





صعوبات خاصة بطبيعة لغة الصلوات ولغة القرآن، وبالنسبة لى مثلت هذه المسألة صعوبة بالغة، ولكنى تخطيت تلك العقبة دون أن ألاحظ، ثم تعرضت لنوع من المد والجزر العاطفى سببه صحبتى للمسلمين الآخرين الذين شعرت معهم بشعور مفعم بالانفتاح والدفء، على الأقل كان الأمر كذلك بالنسبة لى، على أى حال.



وبعد ذلك، اتضح لى مدى قسوة أصدقائى غير المسلمين، أتساءل: لماذا لا يمكننا البكاء أو العناق فى العلن وأمام الجميع ونقول لبعضنا: «أحبك» أو «أحبكم» لصديق أو أصدقاء جدد، دون أن تواجه ذلك بالشك أو السخرية، فلقد كنت أشاهد تلك العواطف الجياشة فى البيوت وأرى الأسر تتبادل التحيات وسط صوانى الحلويات.

وأتساءل إذا كان قانون الله قائم على الخوف، فلماذا لا يتخلى أصدقائى الذين أحببتهم واحترمتهم، عن ممارستهم ويبدأون فى الشراب، لكى يحصلوا على المتعة الحقيقية كما نفعل فى الغرب، ونحن نفعل ذلك فعلا، أليس كذلك.

وأخيرا، شعرت بما يشعر به المسلمون عندما يكونون فى الصلاة الحقيقية: انسجام حقيقى، ورجفة من الفرح والامتنان لكل شىء. لدىّ مثل أطفالى، يقين بأننى لست بحاجة إلى أى شىء أكثر من الصلاة، لكى أشعر بالطمأنينة.

ولقد قمت بالصلاة فى أحد المزارات فى إيران بعد أن قمت بالوضوء وطهرت وجهى ورأسى وقدمى وساعدىّ بالمياه، وعندها اختلف كل شىء. نعم.. الأمر بهذه البساطة. وقال لى الشيخ الذى تحولت على يده إلى الديانة الإسلامية فى مسجد فى لندن قبل بضعة أسابيع: «لا تتسرعى، يا لورين! خذى وقتك، الله ينتظرك، تجاهلى هؤلاء الذين يقولون لك: «يجب عليك أن تقومى بكذا أو كذا، عليك ارتداء كذا، يجب أن يكون شعرك هكذا»، وغيره، فقط اتبعى أحاسيسك وما تشعرين به، واتبعى القرآن الكريم، وسيهديك الله!».

ولقد لمحت الآن الكذبة الكبيرة المتعلقة بحياتنا العصرية، وأن المادية والاستهلاك والجنس والمخدرات ستجلب لنا السعادة الدائمة، ولكن لمحت أيضًا وجوداً ساحراً وخصبًا للسلام والحب والأمل، ففى الوقت الحالى، أعيش حياتى اليومية العادية وأقوم بطهو العشاء وأشاهد برامج تلفزيونية عن فلسطين، وأقوم بالصلاة لحوالى نصف ساعة فى اليوم.

ويبدأ يومى مع صلاة الفجر حوالى الساعة السادسة صباحا، وأقوم بالصلاة مرة أخرى فى الواحدة والنصف بعد الظهر، وأخيراً فى العاشرة والنصف مساء، انتهيت من قراءة ٢٠٠ صفحة من القرآن. وطلبت المشورة من الأئمة والمشايخ وآيات الله، لكن كلاً منهم قال إن رحلة كل شخص مع الإسلام تخصه وحده، فالبعض يقرأ القرآن بأكمله قبل أن يتحول إلى الإسلام، أما بالنسبة لى فإن قراءة القرآن ستتم ببطء وعلى وتيرتى الخاصة بى.



ولقد حاولت فى الماضى الإقلاع عن المشروبات الكحولية، لكن كل محاولاتى فشلت، ولكن الآن، ومنذ لحظة اعتناقى للإسلام، لا أستطيع أن أتخيل فكرة تعاطى الكحوليات مرة أخرى، وأنا على يقين بأن هذا سيستمر للأبد.

هناك الكثير لتعلمه والاستمتاع به فى الإسلام، منذ بضعة أيام قال لى بعض المتحولات من النساء للإسلام إن هذه مجرد البداية، وأنهن لازلن يحببون حتى بعد ١٠ أو ٢٠ سنة.

وإليكم ملاحظة أخيرة، أود أن أقترح عليكم ترجمة سريعة للاختلاف بين الإعلام الغربى والثقافة الإسلامية، التى قد تساعدكم على تحمل صدمة البعض منكم بسبب تغييرى لحياتى، فعندما يظهر المسلمون على شبكة «البى بى سى» الإخبارية فى مكان ما فى الشرق الأوسط وهم يهتفون: «الله أكبر»، فنحن الغربيين اعتدنا على الاعتقاد أنهم يقولون: «نحن نكرهكم أيها البريطانيون الجالسون فى منازلكم. وها نحن فى طريقنا لنفجر أنفسنا فى «Lidl» عندما تتوجهون لشراء بقالتكم الأسبوعية».

فى الواقع، ما نقوله نحن المسلمين هو أن «الله هو الأكبر» محاولين تعزية أنفسنا فى مواجهة ما تقوم به الأمم غير المسلمة عندما تهاجم قرانا، وعادة ما تعلن هذه العبارة رغبتنا فى العيش فى سلام مع جيراننا، إخوتنا البشر مسلمين وغير مسلمين، وإذا تعذر ذلك، مثلما هو الحال الآن، فإنها مجرد رغبة لتركنا نعيش وحدنا فى سلام. ■

ليست فقط ندرة فى المياه

أسئلة العرب المناخية

أمة العليم السوسوة

■■ تحتل قضية تغيّر المناخ مكانة هامة فى جدول أعمال السياسات الدوليّة وتعد قضيّةُ التّنمية البشريّة المميِّزةُ لجيلنا. وقد توثّق بشكلٍ حاسمٍ أنّ حرارةَ سطحِ الكُرة الأرضيّة ارتفعت فى المتوسط بما يقرب من درجة مئوية على مدى القرن الماضى. ويُتوقّع ارتفاعُ متوسّط درجة الحرارة العالميّة بمقدار أربع درجات مئويّة بحلول نهاية القرن الحادى والعشرين. ويُنسَب هذا التّغيُّر فى درَجات الحرارة على نحوٍ قاطع إلى انبعاث غازات الدّفيئة.

منطلَقُنا هو أنّ تَغيُّر المناخ حقيقة قائمةٌ. فدرجةُ حرارة الأرض فى ارتفاع، مطلِقةً سلسلةً من التأثيرات البيئية التى بدوْرها تتفاعل مع غيرها من التحدّيات لتُحدث عقبةً رئيسية أمام التنمية البشرية. هناك بعضُ الأصوات التى تشكك فى ذلك، لكنّ ثمّةَ توافقًا فى الآراء بين الأوساط العلمية عموماً على أنّ الاحترار العالميّ موجود؛ كما أنّ الحكومات أيضًا متّفقةٌ على كون هذا الأمر إحدى القضايا الرئيسية على جدول أعمال السياسات الدّولية.

وفى الواقع، تَعمل حكوماتُ العالم باطّراد على بناء تلك الأرْضية المشترَكة منذُ انطلاق اتفاقية الأمم المتحدة الإطارية بشأن تَغيُّر المناخ؛ فى ريودى جانيرو ١٩٩٢، وما تلاها من اجتماعات واتفاقات فى كيُوتو، ومراكش، وبالى، وكوبنْهاجن، وقريبًا فى كانكون. وتم إنشاء أُطُر عمل لتخفيف حدّة هذه الانبعاثات أو احتباسها. والغرضُ من هذه الجهود، المعروفة باسمها الجامع: التّخفيف Mitigation، هو الحدُّ من الانبعاثات الإجماليّة فى أقرب وقت ممكن، ومع الوقت، من أجل تجنُّب أسوأ السّيناريُوهات لوطأة التّغيُّر المناخىّ فى المستقبل. ومع أنّ التّخفيف لازمٌ لمنْع أسوأ السّيناريُوهات فى المستقبل، فإنه لن يَحمى النّاسَ من مستوى التّغيُّر المناخىّ الذى أصبح بالفعل أمرًا لا مفرَّ منه بسبب التّراكُم الحالىّ والمستمر للانبعاثات فى الغلاف الجوىّ. وفى الواقع، حتى فى أفضل السّيناريوهات، لن يبدأ التّخفيفُ بإحداث فرقٍ إلاّ فى نحْو العام ٢٠٣٠ فصاعداً. حتى ذلك الحين، يجب على البلدان اتّخاذُ إجراءات مسبقة لتخفيض المخاطر والحد من الأضرار التى يسبّبها تغيُّر المناخ. وهذا التّكيُّفُ ضرورىٌّ على المدى العاجل والآجل لمعالَجة الآثار الناتجة من الاحترار الذى سيَحدث حتى بحسب السّيناريُوهات المقدّرة لأدنى استقرار.

ويشعر الكثير من السكان فى مختلف أنحاء العالم بمفاعيل التّغيُّر المناخىّ، والأفقرُ بينها هى المتأذّيةُ حاليًا أكثرَ من غيرها. فالأشخاصُ والمجموعاتُ من ذَوى الموارد القليلة نسبيًا هم الأقلُّ عدّةً و قدرة للتكيف وللتّعافى من التّدمير الممكن نتيجةً للحالات المناخيّة القُصوى كالعواصف، والفيَضانات، وتآكُل السّواحل، وموْجات الحرّ، وحالات القحط. والخسارةُ اللاحقة من المياه النقيّة للشّرب، وفقدانُ الظّروف الإنتاجيّة للزراعة، وانتشارُ الأمراض الناتجة عن المناخ تولّد أخطاراً على الصحّة والحياة السليمة. ولهذه التّغيُّرات تأثيراتٌ فى كلّ المجتمعات تُراوح من تخفيض النّموّ الاقتصادىّ إلى زيادة عدم الاستقرار، وتاليًا تُمثّل تحدّيات استراتيجيّةً تُضاف إلى تحدّيات المساعدة الإنسانيّة.



والخسائر من تغيّرات المناخ والحالات المناخيّة القصوى الحاليّة والمتوقعة مستقبلا هى بالفعل كبيرةٌ، ومتزايدة. والاستجاباتُ المنفردة، وغيرُ المنسَّقة، والتى هى ردود فعل ليست كافية. فحمايةُ المكاسب ومواصلةُ الارتقاء بالتّنمية البشريّة فى جميع أنحاء العالم سوف يتطلّبان بذْلَ جهود منسَّقة واسْتباقيّة لبناء القدرة على تَحمُّل تَغيُّر المناخ.

والمجتمعات فرادى ليست فى وضْع يُمكّنها من الاختيار بين التّكيُّف Adaptation أو التّخفيف Mitigation، إذْ ليس فى وُسْع أىٍّ منهما وحدَه تجنُّبَ جميع وطآت التّغيُّر المناخىّ. لكنّ فى استطاعة كلٍّ منهما أن يُكمل الآخَر، بحيثُ يُمكنها معاً تعزيزُ المناعة فى مواجهة تغيّر المناخ إلى حدٍّ كبير. فليس الهدفُ الأشمل هو التّكيُّف ذاته ولا التّخفيف ذاته، بل التّنميةُ البشريّةُ المستدامة بمعناها الأوسع.

إننا نشهد تأثيرات تَغيُّر المناخ كلَّ الوقت. فقد لا يكون ممكنًا القول بيَقين مطلَق إنّ الفيضانات فى باكستانَ التى تسبّبت فى تشريد نحو ١٤ مليونَ نسَمة هى تأثيرٌ مباشر لتَغيُّر المناخ؛ كما لا يمكن للمرء قولُ ذاك الأمر عن الفيضانات الأخيرة فى الصين أو النيجر أو تْشاد، أو موجات الحرّ فى روسيا. لكنْ إذا كانت تلك الموجاتُ الحارةُ والفيضاناتُ أموراً يُبنى عليها، فإنها تُعطينا مذاقَ ضخامة ما يُمكن أن يأتى – وما يمكن أن يأتى على نحوٍ أكثرَ تَواتُرًا – إن لم يتم الالتزام باتخاذ إجراء حاسم بشأن التخفيف والتكيُّف على حدٍّ سواء.

الأسئلةُ المطروحة، فى الواقع، هى:

كيف سيكون ردُّ فعْلنا تجاه تَغيُّر المناخ؟ إن كنّا نرى فيه تهديداً، فهل سنتفاعل معه أم لا؟ هل سنتّخذ تدابيرَ للتخفيف من تأثيراته والتكيُّف معها، أمْ ننتظر حتى حدوث المزيد من المآسى قبل اتّخاذ أيِّ إجراء؟

فى البلدان العربية، ما زالت هذه الأسئلةُ بلا إجابةٍ إلى حدٍّ كبير. صحيحٌ أن هناك عدداً من الاستجابات الملحوظة والمتزايدة فى السنوات الأخيرة. ولكن، من الصّعب جداً تكوينَ تصورٍ واضحٍ حول كيفية اعتزام الدول العربية التعامل مع ظاهرة تغير المناخ بجوانبها المختلفة والمتشعبة، وما نعرفه على العموم عن وضع المنطقة واحتمالات تأثر بلدانها بتغير المناخ لا يبعث كثيرا على الاطمئنان.

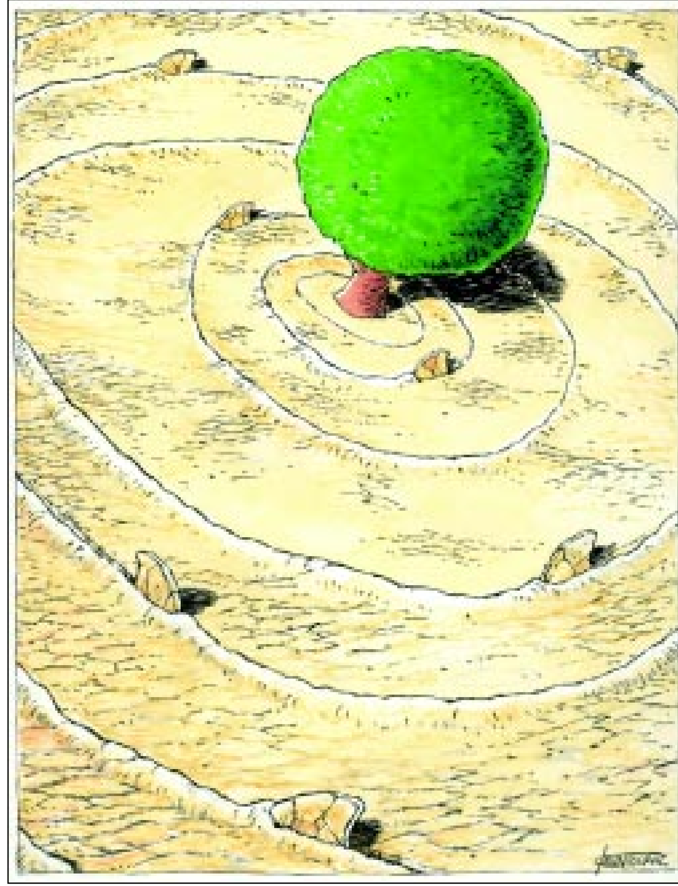
فالدوَلُ العربيّة تعرّضت تاريخيًا لمخاطر مرتبطة بمناخٍ قاس. وهى حاليًا الأولى بين مناطق العالم من حيثُ نُدرة المياه، و٩٠٪ من مساحة سطحها تقع ضمن مناطقَ قاحلة، ونصف قاحلة، وجافّة شبْه رَطبَة. لكنّ تُظهر العديد من الإسقاطاتِ أنّ ظَروفا مناخيّة أقسى قد لا تزال بالمرصاد.

وتُشير سيناريُوهاتُ تَغيُّر المناخ فى المنطقة العربيّة إلى أنّ فترات الجفاف ستزداد تواترا. وتُظهر إسقاطاتُ الهيئة الحكوميّة الدوليّة المعنيّة بتَغيُّر المناخ انخفاضاً مقبلاً لهطول الأمطار فى المنطقة. ومن المرجّح جداً أن تكون منطقةُ غرب آسيا خاضعةً لتجفيف شديد فى العقود المقبلة، مع توقّع ارتفاعَ الحرارة أكثرَ من ٤ درجات مئويّة فى جميع أنحاء الجزء الشماليِّ الأقصى فى الصيف، وانخفاضٍ فى معدّلات سُقوط الأمطار بما يزيد على ٣٠ فى المائة فى بعض المناطق.

وسيؤدّى ارتفاعُ درَجات الحرارة وانخفاضُ هطول الأمطار إلى الإقلال من تَدفُّق الأنهار والجداول، وإبطاء معدلَ ما تحتاج إليه خزّاناتُ المياه الجَوْفيّة لتَعبئة نفسها، وجعلِ المنطقة كلّها أكثرَ قُحولةً. ستكون لهذه التّغيُّرات سلسلةٌ من الآثار، لا سيّما فى الزّراعة، والطاقة، والأمنِ الغذائى.

من المتوقّع أيضًا أن يَزيد تَغيُّرُ المناخ

من كلمة السيدة أمة العليم السوسوة الأمين العام المساعد للأمم المتحدة، والمدير الإقليمى لمكتب الدول العربية ببرنامج الأمم المتحدة الإنمائى في الاجتماع الوزارى لمناقشة المبادرة العربية لمواجهة آثار تغير المناخ. الرباط، المغرب (٣-٥ نوفمبر ٢٠١٠)



وتيرةَ الظروف المناخيّة القصوى والكوارث ذات الصلة وحدّتَها، الأمرُ الذى يؤدّى إلى أحداث أشدّ قسوةً مثل الجفاف، والفيضانات، والأعاصير، والعواصف الترابيّة. وقد شهدت المنطقةُ العربيّة فى السنوات القليلة الأخيرة عدداً متزايداً من الأحداث المناخيّة المتطرّفة مثل الجفاف، والفيضانات الخاطفة، والأنواء العاصفة. ومع أنّ الضّرر المرتبطَ بهذه الأحداث نادراً ما قيسَ كميًّا، فإنّ التقديرات الأوّليّة تُشير إلى تكاليفَ اقتصاديّة واجتماعيّة وبيئيّة ضخمة وإلى خسائرَ يُمكن أن تُقيّد التّنمية فى بلدان عديدة.

وقد يُؤدّى ارتفاعُ مستوى سطح البحر إلى غمْر المناطق الساحليّة الطويلة فى المنطقة العربيّة، حيث تتجمّع الغالبيّة الساحقة من السكّان. ويُرى أنّ هذا الأمرَ يُمثّل خطراً بنوعٍ خاصٍ على الدوَل الجزَريّة الصغيرة فى المنطقة، فضلاً عن الجُزُر الطبيعيّة والمصطنعة. إضافةً إلى ذلك، يُمكن أن تُلوّث المياهُ المالحةُ المياهَ الجوْفيّة، مما يؤدّى إلى تدهْورٍ حادٍّ للأراضى وخسائرَ فادحة فى التنوّع الحيوى.

منْ بين الآثار المرصودة، والمتوقّع ازديادُها، لتغيُّر المناخ فى بعض البلدان العربيّة، أن يزداد التوسُّع الحضرى/ المَدنىّ وهجرُ المناطقِ الريفيّة. ومن المرجّح أن يؤدّى تغيُّرُ أنماط هطول الأمطار، وتوسيعُ نطاق التصحُّر، وانخفاضُ الإنتاجيّة الزراعيّة إلى تقويض سُبُل العيش فى الريف، وسوء احتمالات توافر فُرص العمل فى المناطق الريفيّة، وتسريع الهجرة إلى المناطق الحضريّة حيث سيكون توفيرُ البِنْية التّحتيّة والخدمات العامّة الملائمة تحدّياً رئيسيًّا، لا سيّما بالنّظر إلى احتشاد مجموعات سكّانيّة فى المُدن محرومة من الخدمات وأُخرى حاصلة على أقلّ ممّا يَلزم من الخدمات.

ويُضخّم النّمُوُّ السُّكّانىّ تحدّيات تَغيُّر المناخ من خلال تَزايُد الطّلَب على الغذاء والماء، فيما يَضع كذلك ضُغوطاً متزايدة على استخدام الأراضى. وقد تَضاعف عددُ سكّان البلدان العربيّة ثلاثَ مرّات تقريباً بين ١٩٧٠ و ٢٠١٠، قافزاً من ١٢٨ مليونَ نسَمة إلى ٣٦٠ مليوناً. وتتنبأ شعبةُ السُّكّان فى الأمم المتّحدة بأن يَصل عددُ سكّان المنطقة العربيّة بحلول ٢٠٥٠ إلى ٦٠٠ مليونَ نسمة - أى ٢٤٠ مليوناً أكثرَ ممّا هو عليه فى عام ٢٠١٠.

وقد ينطوى تَغيُّرُ المناخ على إمكان التّسبُّب بعدَم الاستقرار أو النّزاع. فمحاولاتُ السُّكّان المحلّيّين غيرُ المنسّقة للمواجَهة أو للبقاء على قيْد الحياة قد تَشمل هجرة غيرَ طوْعيّة، أو منافَسةً مع جماعات على الموارد الشحيحة، أو إثقالَ كاهل قدرات الحُكم المحلّىّ أو الوطنىّ. وقد تَكشف اتّجاهاتٌ كهذه عن نفسْها فى شكل نزاعات محلّيّة وتوتُّرات متصاعدة حول الموارد.

على الرّغم من المؤشّرات الواضحة على التّهديدات التى تُواجه المنطقة، مازالت الدوَلُ العربيّة على نحوٍ ملحوظ غيرَ مدركة أنّ تأثيرات تَغيُّر المناخ عاملٌ يُهدّد تنميتَها واستقرارَها. وقد انْضمّ معظمُ الدوَل العربيّة إلى اتّفاقيّة الأمم المتّحدة الإطاريّة بشأن تَغيُّر المناخ وبروتوكول كيوتو، فضلاً عن عدد من المنظّمات والمعاهدات البيئيّة الدوليّة والحكوميّة الإقليميّة؛ لكنّ الوعىَ والمشاركة فى أوساط القادة المجتمَعيّين والوطنيّين تجاه تَغيُّر المناخ لا يزالان منخفضَيْن.

فى هذه المنطقة، كما فى مناطقَ عديدة أخرى، نَعرف أنّ صانعى القرار يميلون إلى تجنُّب اتّخاذ قرارات صعبة ومُكلفة. وفى حالة تَغيُّر المناخ، سوف يُعبّر عن هذا الاتجاه كأفضليّة لمجرّد التّفاعل مع كوارث تَغيُّر المناخ عند وقوعها، بدلا من محاولة تخفيف تأثيراتها أو التكيُّف معها على نحوٍ مستدام. ومن دون أدنى شكّ، فإنّ ثمّةَ حاجةً لمعالجة الكارثة عندما تقع؛ لكنّ هذا الأمرَ لا يُمكن أن يكون الهدفَ الاستراتيجى. إنّ تنفيذَ التدخُّلات الإنسانيةِ الهائلة هو فى الواقع أكثرُ تكلفةً بكثيرٍ من بناء المرونة التى تحمى السكّانَ من الكوارث. فتأثيراتُ تَغيُّر المناخ التى لا يُستعَدّ لها تحمل أيضاً فى طيّاتها إمكانيةً كونها مزعْزعةً للاستقرار. وسوف تتطلّب الاستجاباتُ الفعّالة لتَغيُّر المناخ وجود قيادات ومؤسّسات قادرة على وضع وتنفيذ رؤية شاملة لمواجهة تغيّر المناخ.



تَستلزم مكافحةُ تَغيُّر المناخ استجابةً متفانيةً، منسّقةً، متعددةَ الأوجُه، سوف تعتمد على الصعيدَين الوطنىّ والمحلّىّ على التفاعُل بين مجموعةٍ من المؤسّسات، من وزارات مركزيّة كوزارة الماليّة، إلى الوزارات القطاعيّة مثل المياه والزّراعة، إلى القطاع الخاصّ، والمجتمع المدنىّ، والأوساط الأكاديميّة، ووسائل الإعلام. ويسعى المكتبُ الإقليمىُّ للدوَل العربيّة فى برنامج الأمم المتّحدة الإنمائىّ إلى الإعداد لمبادرة إقليمية لمواجَهة آثار تغيُّر المناخ وتوفير الدعم اللازم فى هذا الإطار من خلال تعزيز القدرة على الاستجابات المتكاملة للتأثيرات والتحدّيات المرتبطة بها.

وتَستهدف هذه المبادَرة التركيز على مستوى السياسات، وتعزيز قدرة المؤسّسات على تحديد الأخطار والفُرص المتاحة، وعلى التّكيُّف مع ظروف تَغيُّر المناخ مع الوقت بطريقة متكاملة؛ كما ستُقدّم الدّعمَ على المستوى الوطنى لمؤسّسات تسعى لوضع استراتيجيات للتّكيُّف مع تغير المناخ ونشاطات التّنمية ذات الكربون المنخفض.

واستناداً إلى المشاورات التى قمنا بإجرائها فى كل من دمشق والقاهرة والمنامة هذا العام خلال الشهرين الماضيين والدراسات المتوافرة حول تحليل وقْع تغير المناخ وتقويمُ القدرات وبناء على التوافق العربى الرسمى الذى تضمنه الإعلان الوزارى العربى حول التغير المناخى الصادر فى كانون الأول/ ديسمبر ٢٠٠٧ يُرى أن تركز المبادَرة على معالجة ثلاثة تحدّيات أساسيّة، هى:

١ - نُدرة المياه والجفاف والأمن الغذائى.

٢ - وارتفاع مستوى سطْح البحر وتآكل السواحل.

٣ - والكفاءة فى استخدام الطاقة والاستثمار فى الطاقة المتجددة.

أثبتَت التجربة على نحوٍ لا لَبْسَ فيه أنّ المبادَرات الإقليميّة لا تكون ذاتَ وقْعٍ حقّاً إلاّ إذا قامت على أساس مشاوَرات معمّقة مع الجهات المعنيّة، وتَبادُلٍ مكثف لوجهات النّظر، وارتباط بهيئات معرفيّة عالميّة المستوى ومختصّة بالمنطقة، وإشراك القادة السياسيّين، والأوساط الأكاديميّة، ووسائل الإعلام.

ومن الضرورى أن تعتمد المبادَرة الإقليمية لمواجهة آثار تغيّر المناخ هذه المنهجيّة لبناء القوّة الدافعة. ولذلك قمنا بإجراء مشاورات إقليميّة ووطنية لمناقشة تطوير استراتيجيات متكاملة لمعالَجة تحدّيات تَغيُّر المناخ. وتسعى المبادرة فى الوقت نفسه إلى زيادة الوعى بالقضايا المطروحة وفهمها، وتحديد سرعة التقدّم فى صياغة السياسات، فيما تَحشد الجهات الفاعلةَ الرئيسيّة على أعلى المستويات لتوجيه الاهتمام إلى ما يتعلّق بهذا الأمر من السياسات، والإجراءات الاستراتيجيّة. كما أنّ العمليّة التشاوُريّة ملائمة فى هذا التوقيت فيما تستعدّ البلدانُ لمؤتمر قمة المناخ فى المكسيك هذا العام.

فى هذا الإطار، يسعى برنامجُ الأمم المتّحدة الإنمائىُّ إلى المساهمة فى وضع إطار استراتيجى للتعامل مع تغير المناخ فى المنطقة من خلال تأسيس نهْج متكامل لا يتبنى نهج التكيُّف مع التأثيرات المستمرّة فحسْبُ، وإنما أيضاً نهج الحفاظ على النُّمُوّ الاقتصادىّ والتّنمية البشريّة وتوسيعها. ■

خلف الأبواب المغلقة

ستيف كول
Steve Coll

■■ منذ اندلاع أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وقيام الكاتب الأمريكى بوب وودوارد «Bob Woodward»(١) بإصدار خمسة كتب يتناول من خلالها فترة اتخاذ البيت الأبيض لقرار خوض الحرب، والتى لم يقتصر بها دوره على أن يكون مراسل استقصائى ولكنه كان بمثابة شاهد على العصر، مؤرخ معاصر، صانع للأحداث الجارية التى تمس سمعة واشنطن، كما أنه يعد بمثابة مفتش عام فيما يخص العلاقات المدنية - العسكرية الأمريكية، وذلك باسم جمهور الناخبين فاقدى الأمل بشكل متزايد من جراء الحروب، حيث تم استثمار حالة الإحباط التى أصابتهم لاتخاذ قرار خوض الحروب التى شنتها أمريكا فى تلك الفترة.

إن مسألة حمل وودوارد «Bob Woodward» على عاتقه تلك الأدوار من منطلق البحث عن الثروة، الشهرة، التميز والتفوق فى مجال النشر يثير بعض التعقيدات : فإصداره الأخير «حروب أوباما»، والذى إما تم تسريب

Steve Coll joined The New Yorker from the Washington Post, where he was the managing editor from 1998 to 2005. In 1990, he shared a Pulitzer Prize with co-writer David Vise for a series of articles about the Securities and Exchange Commission. Coll is the author of “The Bin Ladens: An Arabian Family in the American Century,, which won the PEN/John Kenneth Galbraith Award for Nonfiction in 2009. His other books include “Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan, and Bin Laden, from the Soviet Invasion to September 10, 2001,.

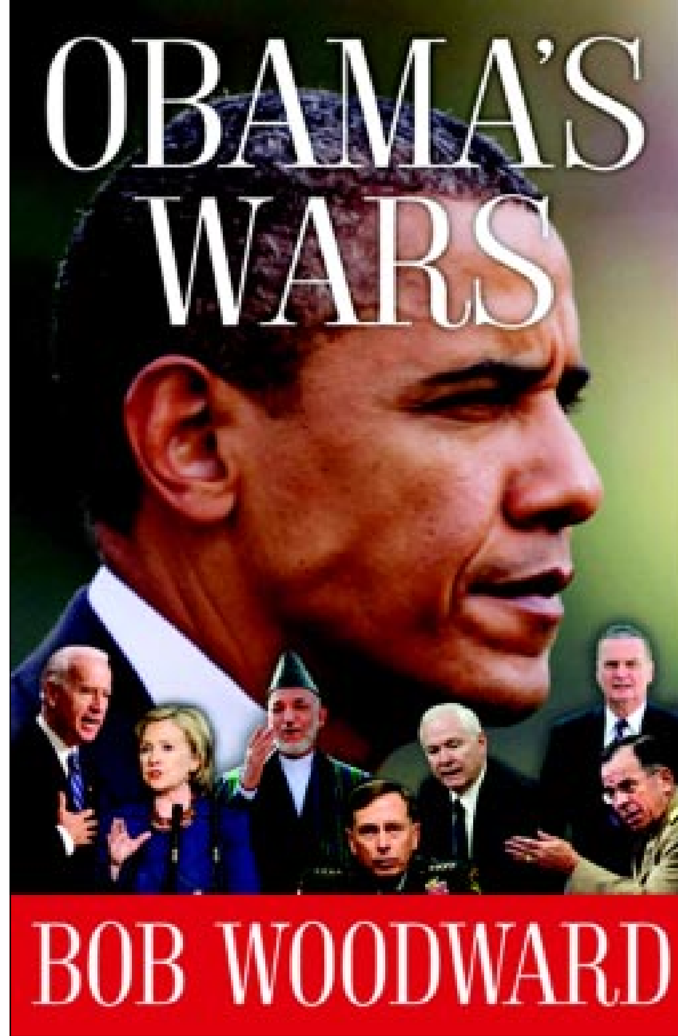
Woodward, Bob. Obama,s Wars. Simon & Schuster, 2010

بترتيب مع:
The New Yorker

ترجمة: رحاب منير صالح

مقتطفات منه أو من خلال المقابلات التى أجريت معه. فما يزال، أسلوب عرض وودوارد «Bob Woodward» للأحداث التى وقعت فى عام ٢٠٠٩ بين البيت الابيض والبنتاجون حول تحديد الغرض من الحرب الأفغانية، بالإضافة لحصر عدد القوات الأمريكية اللازمة لإنهاء هذا الصراع، يتسم بحدة بالغة.

حيث يرصد الكتاب بدقة حرص الرئيس، وفى بعض الأحيان، جهوده المتخمة لبناء نهج مقبول فيما يخص إرثه من أفغانستان وباكستان، فكما أوضح وودوارد للعيان من خلال عرضه لجدول البيانات كدليل يؤكد ملابسات صنع القرار الذى كان يعرف سابقا للجمهور كخطوط عريضة.



إذ يمكن للكاتب القول على سبيل السرد، بأن باكستان حليف غير جدير بالثقة للولايات المتحدة. حيث يصف مايك ماكونيل المدير السابق لجهاز الاستخبارات الوطنية فى عهد جورج دبليو بوش لأوباما قبل انتخابه كرئيس للولايات المتحدة هذا الوضع بقوله: «إنهم يعيشون كذبة».

فكان حينئذ ماكونيل يعنى بأنه على الرغم من قدرة باكستان العسكرية وخدماتها فيما يخص كشف شبكات الجاسوسية لصالح جهاز المخابرات الباكستانية(٢)، أو «I.S.I»، فهى فى مقابل ذلك تحصل على بليونى دولار سنويا كتمويل من الولايات المتحدة، إلا أنها لا تزال تؤيد سراً حركة طالبان الأفغانية

وغيرها من الميليشيات التى تهاجم الجنود الأميركيين وترعى الإرهاب الدولى. ففى إحدى المرات تلقى أوباما بمكتبه تقارير حول تكرار مرات تلك الخيانة من الجانب الباكستانى. «إن تغيير الإحصاءات الباكستانى أمر أساسى لتحقيق أهدافنا الأساسية»، حيث جاء ذلك فى كلمة ألقاها الرئيس الأمريكى لوزراء حربه فى مطلع خريف عام ٢٠٠٩، حينما بدأ فى النظر بمسألة إرسال أمريكا للمزيد من الجنود الأمريكيين للحرب.

لم يتغير شىء يذكر منذ ذلك الحين. وقد حاول فريق الرئيس منح باكستان بعض الإغراءات: حيث أمدت الولايات المتحدة الجيش الباكستانى بطائرات الهليوكوبتر، منحتها التشجيع والوعود بالشراكة الاستراتيجية. فضلا عن اتباع الولايات المتحدة لأسلوب التهديد: فبعد فشل تفجير تايمز سكوير، فى الربيع الماضى، أصدرت الولايات المتحدة دليلا على أن المتآمرين قد خضعوا للتدريب فى باكستان، حيث حذر جيمس جونز، مستشار الأمن القومى، الرئيس الباكستانى آصف على زردارى بأنه ليس هناك أى وسيلة لإنقاذ تحالف بلاده مع الولايات المتحدة، ما لم تقم باكستان بعمل أى إجراء للقضاء على الإرهابيين. فى الربيع الماضى، كتب وودوارد: «أكدت مصادر مخابراتية بعبور شاحنات للحدود (الأفغانية) محملة بمقاتلى طالبان وهم مسلحون بجميع أنواع الأسلحة معبأة خلف الشاحنات... وهذا ما أعطى للبيت الأبيض الحق للعودة لانتهاج ما بدأته».

لقد جاء فى تعليقات أوباما الخاصة، والتى أرخت فى الكتاب، إلى أن أوباما أصبح يلم بتفاصيل اللغز الباكستانى ويمتلك أيضا رؤية بناءة لمستقبل جنوب آسيا نحو طريق تحقيق الاكتفاء الذاتى، وهو مستقبل ستكون الهند ركيزته الأساسية. فكما يروى وودوارد «وفق تقرير رفعه مدير مكتب الاستخبارات الوطنية إلى الرئيس» أفضل طريقة للخروج من هذا بالنسبة له هو «التوصل إلى نوع من السلام بين الهند وباكستان». وفى

خلف الأبواب المغلقة



يرصد الكتاب بدقة حرص الرئيس، وجهوده لبناء نهج مقبول فيما يخص إرثه من أفغانستان وباكستان



اجتماع تلو الاجتماع، يحث أوباما مستشاريه على التفكير بعمق فى المشكلة الباكستانية الكامنة دائما وراء انعدام الأمن بشأن الهند، وهذا الخوف، كما دون أوباما، يفسر دعم المخابرات الباكستانية (I.S.I) لحركة طالبان وجماعات متشددة أخرى، كدرع ضد الهيمنة الهندية المحتملة. وهو يتساءل: «لماذا لا نستطيع إجراء محادثات مباشرة مع الهند لمعرف ما هى الأهمية البالغة التى ستأتى من جراء استقرار الوضع الباكستانى؟». ولذلك، يعتزم أوباما السفر إلى الهند بعد أسابيع قليلة من الفترة الحالية، لوجود الكثير من الأمور الحتمية التى يجب مناقشتها والتى عرضها على مستشاريه.

لقد أخذ الرئيس على عاتقه منذ بداية حملته الانتخابية عهداً بوضع حل للحرب الأفغانية. فما شعر به من تناقض لدى توليه السلطة، ومحاولته لتحقيق ما التزم به على أكمل وجه لهو أمر شاق للغاية معرفته. فبدلا من التردد، على أية حال، سعى أوباما بوضوح خلال عام ٢٠٠٩ لتحديد الوسائل والأهداف من تواجده فى أفغانستان. لقد جاء فى رواية وودوارد بأن الرئيس نفسه، وليس مستشاروه، هو وحده الذى يعرف أهداف الحرب الأمريكية. إن هدفه هو تحقيق الاستقرار وتسليح نظام الرئيس حامد كرزاى الضعيف، بحيث تستطيع الولايات المتحدة الانسحاب من القتال المباشر دون ترك أى حرب أهلية أو اندلاع ثورة من جانب طالبان بعد شحذ قوتها مرة أخرى، وليس أكثر. حيث رفض أوباما رأى نائبه جو بايدن الذى يرى ضرورة تقليل التكلفة عن طريق نشر كتيبات صغيرة لتوجيه ضربات لمكافحة الإرهاب، لأنه من المرجح أن يتسبب ذلك لأن ينتهى الأمر فى سيطرة طالبان.



ففى الوقت الذى أصر فيه أوباما على استراتيجية الخروج عندما عرضها البنتاجون فى البداية ولم يستجب لها أحد، حيث لجأ جنرالاته لحق الفيتو تحت دعوى وجود أهداف أكثر توسعية، ولكن الرئيس الأمريكى لجأ أيضا لأسلوب التفاوض للتأكد من تعليق قادته وأعضاء مجلس الوزراء معا على قراره النهائى، فقد تم الإعلان قبل عشرة أشهر، عن إرسال مزيد من القوات الأمريكية يبلغ عددها ثلاثين ألف جندى للقتال، على الرغم من تحديد تاريخ يوليو عام ٢٠١١، موعدا لبدء بعض الانسحابات تدريجيا. ولهذا فهناك القليل مما يمكن وصفه بأنه بطولة كلاسيكية حول الأداء الرئاسى والموثق هنا، ولكن هناك الكثير مما وعد به أوباما ناخبيه عندما سعى للبيت الأبيض: وهما التحلى بالواقعية والذكاء.

لقد نشر وودوارد، كملحق، مذكرة قام الرئيس الأمريكى بكتابتها فى نوفمبر الماضى بوصفها «أوامر نهائية» أو كمحام يكتب «ورقة ملزمة»، تهدف إلى تنظيم زيادة عدد القوات الأفغانية ولضمان عدم عودة البنتاجون لطلب المزيد من الجنود أو المهام. ونقلا عن الجنرال ديفيد بتريوس، وهو رجل معروف باهتمامه بالتفاصيل وإدمان العمل، ومعربا عن استغرابه بقوله: «ليس هناك رئيس فى التاريخ قام بكتابة خمس صفحات على شكل سطور مفردة بنفسه. فهذا ما يحصل عليه الموظفون كأجر للقيام به». يأتى تعليق الجنرال عما جاء فى الصفحات التى كتبها أوباما بورود بعض الأخطاء، حيث مثل ذلك بالرئيس جيمى كارتر كرجل مدمن البحث فى التفاصيل.

وخلاصة القول أن الوثيقة الكاملة التى كتبها أوباما توحى بشىء يبعث على الطمأنينة: يعتبر أوباما رئيس مسئول عن معظم القرارات المصيرية التى تستدعى منه اتخاذها.

فمن المحتمل أن الرؤساء فقط الذين كانوا جنرالات سابقا هم الذين يمكنهم تخيل ما يمثله استدعاء الجنود للحرب.

ولذلك فوودوارد يتركنا مع أوباما كرئيس حرب بشكل كامل، كمؤلف يكتب عن الأحياء والأموات فى الحرب. وهو لذلك يجب أن يتحمل مكاسبها وأعباءها على عاتقه. ■

الضحايا المنسيون

الكاردينال ثيودور إى. ماكاريك
Cardinal Theodore E. McCarrick

■■ فى ٣١ أغسطس، أعلن الرئيس أوباما أن العدد الأكبر من القوات الأمريكية قد غادر العراق، تاركا حوالى ٥٠ ألف أمريكى للمساعدة فى الحفاظ على السلام ودعم الجيش والشرطة العراقيين. كان هذا خبرا طيبا للجنود الأمريكيين، وعائلاتهم والأمة. ولكن هذا الانسحاب ينبغى ألا يصاحبه سحب دعمنا للشعب العراقى، خاصة ملايين العراقيين الذين فروا من منازلهم وما زالوا يعيشون مهمَلين داخل العراق وخارجه فى دول أخرى. ومؤخراً خلال اشتراكى فى بعثة لملاحظة أوضاع هؤلاء العراقيين المشردين على الطبيعة، توضحت لى الحقيقة المؤلمة.



فى العادة، لا يغطى الإعلام، الآثار الإنسانية لحرب السنوات السبع هذه على المدنيين العراقيين. منذ ٢٠٠٣، فرّ ٢٫٠٪ مليون عراقى من البلاد معظمهم انتهى به الحال فى الأردن وسوريا ولبنان، فى حين تم تهجير مليونين آخرين داخل العراق، الكثير منهم يعيش الآن فى مخيمات مؤقتة فى أطراف بغداد والمدن الأخرى. كانت الدول المجاورة فى معظمها ترغب فى إيواء العراقيين الفارين ولكن بدون منحهم وضعا قانونيا، وهذا التدفق قد تسبب فى إجهاد شديد على سكان تلك البلاد ومواردها. وللإنصاف فإن المجتمع الدولى بقيادة الولايات المتحدة قدم مساعدات أساسية لهؤلاء العراقيين، حتى إن عددا صغيرا منهم أعيد توطينه فى دول ثالثة، من ضمنها الولايات المتحدة وأوربا، ولكن أية حلول طويلة المدى لهذا التهجير الجماعى تظل بعيدة المنال.

من بين اللاجئين العراقيين الذين زرتهم فى الأردن مثلا، كان الكثير منهم يعيش فى شقق صغيرة تسكنها أساسا عائلة أو أكثر، ومدخراتهم تكاد تتبخر، وبدون الحصول على إقامة قانونية ليس لديهم أمل كبير فى الحصول على عمل ثابت فى البلد المضيف. اضطرت بعض العائلات إلى إرسال أطفالها للعمل خدما فى المنازل أثناء النهار، مما يعنى تسريبهم من الدراسة وتعرضهم للاستغلال.

ويزداد عدد البنات والأولاد العراقيين الذين يقعون ضحايا لتجارة تهريب البشر ودعارة الأطفال. وقد أخبرتنى امرأة شابة كانت ضحية للعنف الجنسى، عن معاناتها من نبذ عائلتها لها بعد تحميلها مسئولية تحولها إلى ضحية. وقد عبر كل من التقيته تقريبا عن الخوف من العودة إلى منازلهم فى العراق - إذا لم تكن قد احتلت فعلا من قبل آخرين - خاصة الآن والقوات الأمريكية تقوم بالانسحاب.



فوق كل هذا، فقد خفض المجتمع الدولى من دعمه، وليس العكس كما ينبغى. وقد حافظت الولايات المتحدة على مستوى تمويلها ولكنها لم ترفعه بما يكفى لتلبية الاحتياجات الراهنة. وفى هذا العام يقول المفوض الأعلى للاجئين التابع للأمم المتحدة (UNHCR) وهى الوكالة المختصة بمعالجة أزمة اللاجئين، إن النقص يعادل ٢٥ بالمائة من ٧٠٠ مليون دولار أمريكى تقريبا مطلوبة لتغطية الاحتياجات

Cardinal Theodore Edgar McCarrick is the Archbishop Emeritus of Washington and a consultant to Catholic Relief Services.(October 2010)

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: بثينة الناصري



لا يمكننا التخلى عن اللاجئين العراقيين والعائلات المهجرة. لا يمكن للولايات المتحدة والعالم ترك أزمة إنسانية وراءهما على أمل أن تحل نفسها





البارزة. وطبقا لتقرير صدر مؤخراً «حتى الآن، لم تسمح دول التوطين سوى بإدخال أقل من نصف ٨٠ ألف حالة عراقية قدمتها المفوضية. وكان من المخطط أن أغلبية هذه الحالات سوف يعاد توطينها فى الولايات المتحدة»[(١)]. ولكن لن يسمح للدخول إلى الولايات المتحدة خلال ٢٠١٠ إلا بعدد ١٧ ألف لاجئ.

ومع انسحاب القوات الأمريكية، يمكن أن تشهد الأوضاع المزيد من التدهور. يمكن أن يزداد العنف وسيجد الكثير من العراقيين الذين ما زالوا فى العراق أنفسهم مضطرين إلى الهروب مما يخلق المزيد من اللاجئين فى المنطقة. وما زال على الولايات المتحدة أن تعلن خطة لمعالجة التحديات الإنسانية التى يمكن أن تعقب الانسحاب. إنها مسئوليتنا الأخلاقية التى ينبغى أن نلتزم بها.

وفوق ذلك، أصبح المسيحيون العراقيون أهدافا لعنف منظم ومنهجى، خاصة فى الموصل ونينوى (الموصل هى عاصمة محافظة نينوى - المترجمة). وهؤلاء المسيحيون ينتمون إلى مجتمعات عريقة نمت وازدهرت فى عصور ماضية ولكنهم الآن يواجهون احتمال الانقراض. أبلغنى المسيحيون فى العراق بالتهديدات التى تصلهم لترك ديانتهم أو الموت. ووصف آخرون كيف هوجمت منازلهم وكنائسهم.

فى ٢٥ أغسطس، وهو توقيت انسحاب القوات الامريكية، قيل إن الجنود العراقيين انتشروا فى شوارع الموصل متوقعين عودة العنف الطائفى. إذا لم تتحسن حالة الأمن فى الأحياء المسيحية، تتضاءل وتخبو حظوظ المسيحيين فى العودة إلى العراق فى المستقبل القريب وإعادة إحياء مجتمعاتهم.

ماذا يمكن للولايات المتحدة وأعضاء المجتمع الدولى الآخرين عمله لمعالجة هذه القضايا؟ أولا، ينبغى ألا يفترضوا أن نهاية العمليات العسكرية يعنى نهاية الدعم الإنسانى. كمسألة أخلاقية، ينبغى ألا نزعم النصر فى العراق فى حين أن هناك ملايين العراقيين الذين فقدوا منازلهم، وليس لديهم أمل كبير فى استعادتها، وهم مكرهون الآن على العيش فى ظروف بالغة الصعوبة.

وأكثر أهمية من كل ذلك، أن الولايات المتحدة بالتعاون مع الحكومة العراقية والمجتمع الدولى، ينبغى أن تتوصل إلى خطة لما بعد الحرب، شبيهة بما أنجز بعد الحروب الأخرى لإيجاد حلول دائمة للاجئين والمشردين العراقيين. من شأن خطة كهذه أن تعزز دور القانون والأمن داخل العراق، وبهذا تمكن العراقيين من ضمنهم المسيحيون من البقاء فى بيوتهم أو العودة. إذا كانت العودة مستحيلة، ينبغى أن تراعى الخطة العمل مع الدول المجاورة لدمج اللاجئين فى مجتمعاتها أو إعادة توطينهم فى دول ثالثة.



لا بد أن تكون أول خطوة هى تلبية الحد الأدنى من طلب التمويل السنوى للمفوضية العليا للاجئين التابعة للأمم المتحدة، وقبول إعادة توطين عدد اللاجئين الذى توصى به المفوضية خلال السنوات القادمة. بعد الحرب العالمية الثانية ساعدت خطة مارشال على إحياء أوربا، وبعد حرب فيتنام، ساعد برنامج الرحيل المنظم (Orderly Departure Program) على استقدام الكثير من الفيتناميين إلى الولايات المتحدة ودول أخرى. هذه أمثلة على الفطنة الأمريكية ورغبتها فى إصلاح ما دمرته الحرب فى الحدود الممكنة. بطبيعة الحال ينبغى أن توافق خطة ما بعد الانسحاب واقع الأوضاع الراهنة، ولكنها ينبغى أن تظهر نفس نوع الالتزام الذى أبديناه فى جهود ما بعد الحروب الأخرى، وهو ترك العراق وشعبه ككلٍ متماسك قدر الإمكان.

إن من شأن خطة جيدة التنفيذ ألا تلبى الالتزامات الإنسانية فحسب وإنما سوف تساعد على استقرار المنطقة. أما ترك عدد كبير من العراقيين مهجرين فى أنحاء الشرق الأوسط، فإن ذلك سوف يخلق مشاكل اجتماعية ومالية سوف تكبر وتتحول إلى مشاكل سياسية أكثر تعقيدا، تؤثر على قدرة الولايات المتحدة فى تحقيق أهداف سياسية مهمة أخرى.



فى النهاية، لا يمكننا التخلى عن اللاجئين العراقيين والعائلات المهجرة. لا يمكن للولايات المتحدة والعالم ترك أزمة إنسانية وراءهما على أمل أن تحل نفسها. مثل هذه النتيجة لن تفشل فى مساعدة الناس الذين هم فى أمس الحاجة، فقط، وإنما تخلق عداوة طويلة المدى فى المنطقة. سوف تزيد من إحساس الجيل التالى من العراقيين بالغربة، الجيل الذى نعول عليه لبناء أمة مستقرة ومسالمة. ■

---

(١) ألكساندرا مولر Alexandra Moller «حساب غير المحسوب: إعادة توطين اللاجئين العراقيين» موقع foreignpolicydigest.org مارس ٢٠١٠.

حـدث فى منتصـــف الليـــل

مـــــــــازن الـنـجــــــار

■■ الحـدث: قـوات الـكـومـانـدوز الإسرائيلية، من البحر والجو، تهاجم الـزوارق الـسـتـة المكونة لـلأسـطـول الصغير المتجه لكسر الحصار على غزة، والتى كانت تبحر فى المياه الدولية لـتـقـديـم الإغـاثـة الإنـسـانـيـة للفلسطينيين المحاصرين فى قطاع غزة. فى غضون دقائق، كان تسعة من نشطاء السلام قد لقوا حتفهم، بعد أن أطلق عليهم الإسرائيليون النار، وأصيب عشرات آخرون. وتم اعتقال السبعمائة شخص الموجودين على متن السفن، ثم نقلوا إلى مراكز الاعتقال فى إسرائيل، ثم تم ترحيلهم بعد ذلك.

فى غضون ساعات، وفى جميع أنحاء العالم ترددت الأصداء وردود الأفعال الـغـاضـبـة مـن إسـرائـيـل. وقـامـت مظاهرات عفوية فى أوروبا والولايات المتحدة وتركيا وغزة نفسها تندد بهذا الهجوم. أطلق رئيس الوزراء التركى على هذا الهجوم «المذبحة الدموية»، و«إرهاب الدولة». ووصفه رئيس الوزراء اللبنانى بأنه «خطوة خطيرة ومجنونة من شأنها أن تؤدى إلى تفاقم حدة التوتر فى المنطقة».

على صفحات هذا الكتاب، يقوم مجموعة من الناشطين والصحفيين والمحللين بسرد الأحداث التى وقعت فى تلك الليلة من شهر مايو ويحللون معانيها المتعلقة بالحصار الإسرائيلى غير المشروع الذى استمر لثلاث سنوات على غزة، وبشكل أعم ما يتصل بعقود من الصراع العربى الإسرائيلى.

يـمزج الكتاب بـين شـهـادة شـهـود الـعـيـان، وسـجـل وثـائـقـى، ورسـوم توضيحية، مع تحليل عملى واقعى، واستعراض تاريخى؛ ليكشف الأسباب التى قد تجعل الهجوم على أسطول كسر الحصار على غزة هو بداية النهاية للفصل العنصرى فى فلسطين.

محرر الكتاب مصطفى بيومى هو أستاذ اللغة الانجليزية فى كلية بروكلين بجامعة مدينة نيويورك[1]، وقد صدر له أيضا قبل عامين كتاب بعنوان «ما الذى تشعر به لدى كونك مشكلة؟: أن تكون شابا وعربيا فى أميركا»[2]، الذى فاز بجائزة الكتاب الأمريكى وجائزة الكتاب العربى الأمريكى. وتظهر كتاباته دوريا فى مجلات «نيشن»، و«لندن ريفيو أوف بوكس»، و«ڤليج ڤويس».



Moustafa Bayoumi, Midnight on the Mavi Marmara: The Attack on the Gaza Freedom Flotilla and How It Changed the Course of the Israeli/Palestine Conflict (Haymarket Books, 2010).

شارك فى تأليف فصول الكتاب ثلة من أبرز الكتاب والأكاديميين والمثقفين من الشرق والغرب: على أبو نعمة، وإياد السراج، ولميس أندونى، وعمر برغوتى، وجورج بشارات، وماكس بلومنثال، ونعوم تشومسكى، ومارشا كوهين، وخوان كول، ومراد داغلى، وجمال الشيال، وسمية إرتكين، ونورمان فنكلشتين، ونيفيه غوردن، وغلن غرينوالد، وآرون غوبتا، وأميرة هاس، ونادية حجاب، وآدم هوروفيتز، ورشيد خالدى، وستيفن كنزر، وإيارا لى، وهينينغ مانكل، وبول لارودى، وغديون ليفى، وعاليا مالك، ولبنى مصاروة، ومايك مركوسى، ويوسف منيِّر، وكين أوكيف، ودانييل لوبان، وكيفن أوفندن، وإيلان بابيه، ودورون روزنبلوم، وسارة روى، وبن سول، وآدم شابيرو، ورجا شحادة، وهنرى سيغمان، وأهداف سويف، وراجى الصورانى، وريتشارد تيلينغاست، وأليس ووكر، وستيفن والت، وفيليب فايس، وحنين الزعبى.

بدأت قصة الكتاب بأن أرسل كولن روبنسُن وهو صاحب دار النشر الطليعية «OR Books» رسالة بالبريد الإلكترونى إلى الدكتور مصطفى بيومى، بعد بضعة أيام من الهجوم الإسرائيلى على السفينة مرمرة، وسأله ما إذا كان بمقدوره أن يضع كتابا عن هذا الموضوع، ووافق بيومى. فقد شعر أن هذا الحدث قد اهتز له ضمير معظم العالم، وأن من الضرورى أن يفهم العالم هذا الحدث فى إطار شهادات شهود العيان وسياقه وتحليله، وهو ما يمكن للكتاب أن يقدمه أفضل من أى وسيلة أخرى.

فى البداية كان كولن روبنسُن يريد نشراً سريعاً للكتاب، لا سيما أن هذا النموذج فى النشر كان ناجحا مع دار نشر «OR Books» فى الماضى. ولأن دار النشر هذه تستخدم موقعها الإلكترونى فى نشر الكتب فإن عملية النشر تكون سريعة جدا، وأراد روبنسن الاستفادة من هذه الميزة ليجعل ما ينشره من كتب تدور مباشرة حول الأحداث الجارية.

تقرر منذ البداية أن يكون الكتاب مزيجاً من أفضل المواد المنشورة حول هذا الحدث بالإضافة إلى المواد الجديدة التى أراد المحرر إضافتها.

خطط المحرر لكى يكون الجزء الأول من الكتاب مخصصاً لشهادة الشهود العيان على أن يتناول الجزء الأخير التحليل والتاريخ والسياق. سعى المحرر لمقابلة العديد من المتطوعين الذين استقلوا الزوارق مثل: لُبنى مصاروة وحنين زعبى، ليطلب منهم تقديم مساهمات فى هذا الكتاب ووافقوا بسرور على المشاركة. بعض المتطوعين مثل الناشط كين أوكيف والكاتب السويدى هيننغ مانكل، كانوا قد قاموا بالفعل بكتابة مقالات قوية عن هذا الموضوع وسعى بيومى للحصول على حقوق الطبع والنشر لها.

كان العنوان المقترح للكتاب فى أولى مراحل إعداده هو «جريمة قتل على سفينة مرمرة» لكن تم تغييره إلى «منتصف الليل على متن ماوى مرمرة» ليكون العنوان مقبولاً لدى معظم القراء. كما أن هناك العديد من المشاركين فى الكتاب من الأكاديميين والروائيين والصحفيين المشهورين بالإضافة إلى أحد الشعراء. ولأن موضوع الصراع الفلسطينى الإسرائيلى مثير لنطاق واسع من المشاعر والنقد اللاذع، ما جعل محرر الكتاب يعد نفسه لهجمات تتناوله شخصيا بصورة غير موضوعية، لذلك آثر اختيار عنوان أكثر حيادية.

لا يعتبر الكتاب مناقشة لموضوع واحد، بقدر ما هو محاولة لتقديم رؤية أقل شيوعًا (على الرغم من أنها بالتأكيد شائعة اليوم أكثر من ذى قبل) لأحداث تلك الليلة وللصراع العربى الإسرائيلى عموماً. تعد أحداث هذه الليلة - ويجب ألا ننسى أن تسعة أشخاص لقوا مصرعهم فيها- على درجة عالية من الأهمية من عدة زوايا. فقد أظهر أسطول كسر الحصار المفروض على غزة العدد المتزايد من الناس العاديين حول العالم الذين ينضمون إلى الدعوة لإنهاء الاحتلال والتوصل إلى حل عادل للصراع. وأظهر الموقف كيف أن طبقة الساسة فى إسرائيل، التى تستعبدها القوة العسكرية الباطشة، تزيد من عزلتها فى العالم فى السنوات الأخيرة، بشنها سلسلة من الهجمات وردود الأفعال المتهورة غير المتناسبة على الإطلاق عقابا لخصومها على ما يفعلونه.

كانت ردود الأفعال على الهجوم توضح ما يطلق عليه الكاتب والصحفى اليهودى الأميركى بيتر بينارت أزمة المؤسسة الأمريكية اليهودية الليبرالية[٣]، فى الوقت الذى لم يعد فيه الكثيرون يدعمون تلقائيا ما تتخذه إسرائيل من إجراءات وصاروا غالبا ما ينتقدون «دولة إسرائيل». يناقش الكتاب أيضا استراتيجيات المقاومة الشعبية المتزايدة ومعظمها صور مقاومة غير عنفية، يستخدمها الفلسطينيون وحلفاؤهم فى الوقت الحاضر. من نواح عديدة، يحاول الكتاب أن يظهر اتجاهات ومسارات الصراع كما هى الآن.

السؤال الذى يحاول مؤلف الكتاب طرحه: هل من الكثير علينا أن نطلب وضع حد للصراع الفلسطينى الإسرائيلى، يقوم على أساس مبادئ العدالة والمساواة الحقيقية للجميع؟ بالإضافة إلى هذا، يحاول محرر الكتاب أن يتحدى السردية أو الرواية الإسرائيلية للأحداث التى دارت فى تلك الليلة، والتى بصراحة لم يعد يصدقها الكثير من الناس فى مختلف أنحاء العالم (فيما عدا الولايات المتحدة وإسرائيل). تقدم شهادات شهود العيان فى هذا الكتاب فرصة نادرة لقراءة ما حدث فى تلك الليلة، وبأقلام أولئك الذين نجوا منها.



لا يخفى أن الكثير من وسائل الإعلام الغربية - لا سيما فى الولايات المتحدة الأمريكية - تنقل الأحداث غالبا من وجهة النظر الإسرائيلية فقط. فعلى سبيل المثال، قامت صحيفة نيويورك تايمز بنشر مقالتى رأى على الأقل تدعمان الموقف الإسرائيلى أو وجهة النظر الإسرائيلية، وفيهما مقالة بقلم السفير الإسرائيلى، ولكنها لم تنشر رأيا بقلم أى من الأشخاص الستمائة المشاركين فى أسطول ماوى مرمرة. لذلك سيكون من الرائع أيضًا أن نرى كيف سيؤدى الكتاب إلى الاهتمام باستمرار النضال الفلسطينى فى اعتماد المزيد من استراتيجيات المقاومة غير العنفية.

كان الهجوم الإسرائيلى الوحشى على السفن التى انطلقت لكسر الحصار على غزة طفرة جعلت العالم يدرك مدى القسوة الإسرائيلية التى تمارس على غزة. ربما لم يتمكن أسطول التحرير الصغير من تسليم ١٠ آلاف طن من المساعدات الإنسانية إلى قطاع غزة المحاصر، لكنه أنجز شيئا أكثر أهمية، ألا وهو كسر الحصار الذى ضربته إسرائيل على إدراك ورؤية العالم لكارثة غزة.

ينبغى النظر إلى الهجوم الإسرائيلى على الأسطول جنبا إلى جنب مع الهجوم الإسرائيلى على غزة فى شتاء ٢٠٠٨-٢٠٠٩ على أنهما يدشنان عهدا جديدا، تحولت فيه رؤية العالم للاحتلال الإسرائيلى تحولا لا رجعة فيه. مع بداية هذا العهد، ظهرت وحشية الاحتلال الإسرائيلى كاملة على مرأى ومسمع من الجميع؛ وعُرضت قضية تعرض الفلسطينيين للاضطهاد فى صفحات الرأى الافتتاحية فى الجرائد وظهرت حتى فى مذكرات قانونية. فى المحصلة، قد تكون هذه الأحداث علامة فارقة تضع حدا لإفلات إسرائيل المزمن من العقاب.

من وجهة نظر تاريخية، يمكن أن ينظر إلى عملية «الرصاص المصبوب» (الحرب على غزة فى شتاء ٢٠٠٨/ ٢٠٠٩) والهجوم على «ماوى مرمرة» على أنهما يمثلان حربا مضادة لحرب عام ١٩٦٧. فقد كانت حرب عام ١٩٦٧ هى التى ساعدت على ترسيخ صورة إسرائيل فى أعين العالم، وبخاصة أمام يهود أمريكا، على أنها الدولة المستضعفة للشعب المشتت الذى تمكن من تغيير حظه. لكن هذه الصورة تغيرت الآن تغيرا أبديا؛ فقد دفع الحصار المستمر لقطاع غزة الكثير من الناس إلى إعادة النظر فيما زرعته الصهيونية فى الشرق الأوسط. ويعد تقرير جولدستون هو لائحة الاتهام المميزة لهذا العهد الجديد.

خلص التقرير إلى أن كلا من إسرائيل وحماس ارتكبتا جرائم حرب مع احتمال ارتكابهما لجرائم ضد الإنسانية، وهو ما يتضمن تحديدا اضطهاد غزة. كما سلط التقرير الضوء على حالات قامت فيها إسرائيل عمدا بمهاجمة البنية المدنية التحتية، بما فى ذلك آبار المياة ومزارع الدواجن وآخر ما تبقى من مطاحن الدقيق الصالحة للعمل فى القطاع. وليس من المستغرب أن يصبح التقرير وجولدستون نفسه هدفا للانتقادات المتواصلة والنقد اللاذع لأنه كشف النقاب عن الأعمال الإسرائيلية.

بالنسبة لأولئك الذين راودتهم بعض الشكوك حول ما توصل إليه تقرير جولدستون من نتائج، فقد تبددت شكوكهم بفضل الهجوم على الأسطول. فجرائم القتل التى ارتكبت على سفينة ماوى مرمرة بررت قراءة جولدستون للأساليب الإسرائيلية. ويلاحظ أن دفاع وزارة الدفاع الإسرائيلية عن أفعالها هذه هو نفس دفاعها عن أفعالها فى غزة: لدينا الحق فى عبور الخطوط الدولية، فقد تعرضنا للاستفزاز الشديد، ما يفترض أنهم مدنيون كانوا بالفعل مقاتلون، لا يمكن لأى دولة أن تسمح بتحمل هذا الوضع، لقد دافعنا عن أنفسنا، انظروا إلى تسجيل الفيديو.

وفى حين تقول الحقائق إنه فى غزة قتل الإسرائيليون ما يتراوح بين ١٢٠٠ إلى ١٤٠٠، فى حين لم يلق مصرعه إلا القليل جدا من الجانب الإسرائيلى؛ كذلك كانت أرقام الضحايا غير متوازنة بين الجانبين على السفينة مرمرة.

والآن تتصاعد الجهود الرامية إلى تشويه سمعة الناشطين الذين كانوا على القوارب باعتبارهم من الجهاديين، وهو ما تناولته بحماسة صحيفة الواشنطن بوست وصحف أمريكية أخرى، ولنتذكر الجهود التى



الهجـــــوم الإســــرائيلى الوحـــشى عـــلى الســـفن التى انطلقت لكسر الحصار على غزة طفرة جعلت العالم يــدرك مدى القســـوة الإســـرائيلية التى تمارس على غزة



بذلت لتصوير سكان غزة على أنهم مجموعة من السكان المتطرفين المخابيل.

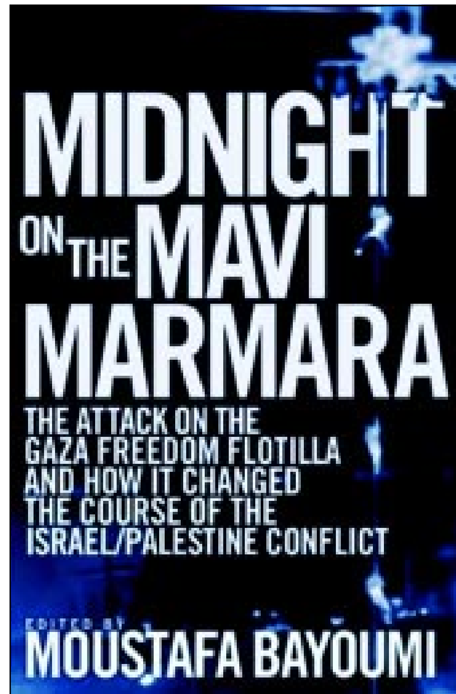
كان دفاع جولدستون هو أن أى شخص لديه عينان فى رأسه يعرف أن هناك خطأ فادحا فيما يتعلق بما فعلته إسرائيل مع السفن- كما يكون لأى شخص لديه عينان فى رأسه- أن يعرف أن هناك خطأ فيما يتعلق بالهجوم على غزة.

ولكن فى ذلك الحين، كان الغرب لا يزال فى حالة إنكار. بيد أن الرفض الإسرائيلى الأمريكى لتقرير جولدستون يمكن اعتباره الآن على أنه جهد دفاعى الغرض منه التغطية على الفظائع الإسرائيلية. لكن من يستطيع أن يشكك الآن فى النتائج التى توصل إليها تقرير جولدستون، والتى تتلخص فى أن إسرائيل استهدفت تدمير البنية التحتية المدنية فى غزة بصورة غير متناسبة، وبدون تمييز بين المدنيين والمقاومين؟ لقد أظهرت لنا إسرائيل مرة أخرى الطريقة التى تلعب بها.

يمكن رؤية هذا الوعى فى تحول الخطاب الدائر حول الهجوم على قافلة سفن كسر الحصار، لاسيما على شبكة معلومات الإنترنت، حيث يقوم صحافيو الشبكة العنكبوتية بقيادة على أبو نعمة بفضح جهود التزييف الإعلامى الإسرائيلى. توغل هذا الوعى ليصل إلى وسائل الإعلام القائمة. فعلى موقع صحيفة نيويورك تايمز، تقوم مدونة روبرت ماكاى بفهرسة كتابات أولئك الذين يكشفون القصص الإسرائيلية الملفقة.

أبرز ماكاى تقرير ماكس بلومنتال حول التسجيل الصوتى الذى تلاعب فيه الجيش الإسرائيلى للهجوم على السفن، وما كتبه ناعوم شيزاف حول الصور التى التقطها أتراك من على متن سفينة مرمرة للهجوم عليها وهو ما يتناقض مع ادعاءات الجيش الإسرائيلى. تشمل التقارير المهمة الأخرى مقال ليا تاراتشانسكى ومقال بلومنتال اللذين يدحضان ادعاءات الجيش الإسرائيلى بوجود صلة بين السفن وبين تنظيم القاعدة، ومقال جارد مالسين الذى يؤكد التلاعب فى التسجيل الصوتى، وإعادة رسم أبو نعمة لمسار «ماوى مرمرة» موضحا أنها كانت تفر بالفعل فى وقت الهجوم الإسرائيلى.

على الرغم من الجهود الحثيثة التى تبذلها وزارة الخارجية



الإسرائيلية، إلا أن صحافيى الإنترنت هؤلاء كانوا قادرين على تجميع القصة وملء الفراغات المهمة فى سردية الهجوم، هذه الفراغات كان سببها هو رفض إسرائيل نشر إجمالى تسجيل الفيديو واللقطات (الصور) الثابتة التى صادرتها من ركاب السفن.



فى الماضى، كانت سيطرة إسرائيل على قصة الصراع، ولاسيما فى الغرب، مصدرا هائلا للقوة. أما الآن فنحن نشاهد انكسار شوكة قوتها بوتيرة سريعة لا تُصَدَّق. كان النجاح الوحيد الذى حققته جهود التلفيق الإعلامى الإسرائيلى هو تسجيل الفيديو العنصرى المقلد «نحن نخدع العالم» (We Con The World) وهو أغنية على لحن وإيقاع أغنية «نحن العالم» (We Are The World) لمايكل جاكسون وليونيل ريتشى وستيفى وندر وآخرين، كانوا قد كتبوها وغنوها فى ١٩٨٥ من أجل جمع التبرعات لضحايا القحط والمجاعات بإفريقيا. فى المحاكاة الإسرائيلية للأغنية يصورون الناشطين -على متن سفن قافلة كسر الحصار- على أنهم إرهابيون من حماس يستدرون عطف العالم لجمع التبرعات لغزة، ويسخر الإسرائيليون فيه من العرب والمسلمين بصورة مهينة. لم تنجح هذه الأغنية إلا فى التأكيد على أن الكثير من الإسرائيليين يصمون آذانهم تماما عن المشاعر التى تجتاح الناس حول العالم.

فى عصر آخر، ساعد الروائى ليون يوريس على تقديم سردية للصراع الإسرائيلى الفلسطينى، واستمرت هذه السردية لأجيال، إلا أن القصة اليوم تروى على الإنترنت ممن عايشوها. كانت أجزاء من الهجوم الإسرائيلى على سفينة «ماوى مرمرة» قد تم بثها على الهواء مباشرة تقريبا، عن طريق قناة بث مباشر على الإنترنت. علاوة على ذلك، تمكن العديد ممن التقطوا أفلاما على متن السفينة من تهريب بعض اللقطات، وعلى الأخص الناشطة إيارا لى من «مشروع ثقافات المقاومة»، والتى ساعد ما سجلته من لقطات على دحض السردية الإسرائيلية الرسمية للأحداث. حتى الآن لم تجد إسرائيل ردا مناسبا على «دمقرطة» وسائل الإعلام. ومن يدرى - فربما قبل مرور وقت طويل- قد يتحدث الناس عن كيف انتهى المطاف بسكان غزة إلى الإقامة فيها فى المقام الأول، أى نكبة ١٩٤٨ التى جاءت باللاجئين إليها. من سيصدق أسطورة «أرض بلا شعب، لشعب بلا أرض» بينما هناك عشرة تسجيلات فيديو على الأقل بموقع يوتيوب تثبت خطأها؟

نريد أن نقول إن عصر إفلات إسرائيل من العقاب قد يكون اقترب من نهايته بسبب التزايد الكبير فى الجهود الشعبية الدولية لمحاسبة إسرائيل. حفز الهجوم الإسرائيلى على غزة الدعوة المعروفة اختصارا بـ«BDS»، أى الدعوة لمقاطعتها عالميا، وسحب الاستثمارات منها، وفرض العقوبات عليها. وجاء الهجوم على قافلة كسر الحصار ليضيف المزيد من الوقود إلى النيران. فى الأسبوع التالى للهجوم على القافلة، اندلعت ثورة من أنشطة المقاطعة فى جميع أنحاء العالم بدءا من عمال الموانئ فى السويد الذين رفضوا تفريغ السفن الإسرائيلية، إلى أكبر اتحاد عمالى فى بريطانيا يونايت «UNITE» الذى قرر الترويج لحملة مقاطعة إسرائيل، إلى إحدى الفرق الغنائية الشعبية التى رفضت أن تعزف فى تل أبيب. وبالإضافة إلى هذا، استدعت الإكوادور وتركيا وجنوب إفريقيا سفراءها فى إسرائيل -وأكثر من خمس عشرة دولة أخرى- استدعت سفراء إسرائيل فيها للتعبير عن غضبها. يبدو أن هذا الغضب يتكتل أيضا فى الأمم المتحدة، حيث يدفع الأمين العام بان غى مون قدما بخطط لإجراء تحقيق دولى فى الهجوم على السفن بالرغم من المحاولة الإسرائيلية لعرقلة الجهود باستخدام لجنة تحقيق محلية.

يشير البعض بالفعل إلى هذا التحقيق الجديد للأمم المتحدة على أنه «تقرير جولدستون الثانى». ويوضح المعلق الفلسطينى على أبو نعمة فى موقع «الجزيرة نت» الإنجليزى أنه فى حين حرك الهجوم على غزة شعوب العالم، فيبدو أن الهجوم على السفن قد حرك حكومات العالم. وأشار إلى التكوين العالمى للأسطول وكتب قائلا: «فى هذا اليوم صار العالم كله غزة. وكشأن سكان قطاع غزة، من غير المرجح أن يقبل العالم الكذب عليه. ومن ثم، فإن الهجوم على أسطول غزة قد يثبت فى أحد الأيام أنه نقطة فاصلة فى التاريخ الحديث. ■

---

(1) City University of New York‘s .Brooklyn College

(2) Moustafa Bayoumi, How Does it Feel to be a Problem?: Being Young (Penguin and Arab in America 2008) Press,

(٣) انظر مقال بيتر بينارت، فشل المؤسسة اليهودية الأمريكية، الكتب وجهات نظر، عدد أغسطس/آب ٢٠١٠.



إن السينما لم تزدهر سوى فى المدينة، وقد قامت صناعة السينما فى المدن الكبرى، مثل هوليوود (لوس أنجلوس)، وباريس، وروما، والقاهرة، وبكين، ونيودلهى..



محمود قاسم

المدينة والفيلم



اتساع بلا نهاية

المدينة والسينما.. صنوان:

■■ لا يمكن لإحداهما أن تنفصل عن الأخرى، وبينهما نقاط تشابه عديدة، مثل الاتساع، والتجدد، والغموض، وازدحام الحواديت، والحياة..

ومع كل صباح جديد، تستلهم السينما من المدينة قصص أفلامها الجديدة، وتستقبل قاعات المدينة المزيد من الأفلام لعرضها على عشاق السينما، كى يروا فى هذه الأفلام انعكاسات حقيقية للحياة التى يعيشها الناس..

وقد دأبت السينما على تصوير المدينة، وما يحدث فيها، لدرجة أن السينما هى مدينة لا نهاية لها من الاتساع، وأن المدينة ليست سوى فيلم لا تنتهى أحداثه، فى حالة مستمرة، من العرض، ولا يعرف التوقف..

ونحن نتكلم بشكل عام عن الطرفين، ففى كل فنون السينما فى العالم، لاحظنا مدى العلاقة الجبرية بين الفيلم والمدينة، فعلى مستوى الصناعة، فإن السينما لم تزدهر سوى فى المدينة، وقد قامت صناعة السينما فى المدن الكبرى، مثل هوليوود (لوس أنجلوس)، وباريس، وروما، والقاهرة، وبكين، ونيودلهى..

أما عن الموضوعات، فإن المدينة موجودة فى القصص، حتى فى السينما الصحراوية، أو الريفية فإن هناك رجلا من المدينة يأتى إلى هذه الأماكن، للإقامة المؤقتة أو الدائمة هناك..

لكن ما المقصود بالسينما والمدينة حسبما نود أن نطرح مفهوم العلاقة..؟

إنها بلا شك الصورة التى جاءت عليها المدينة، أياً كان شكلها فى السينما الروائية خاصة فى مصر، بمعنى إلى أى حد صورت الأفلام التى رأيناها أبعاد المدينة، وحدودها، وسكانها، والمؤسسات بها، وما يعتمل فى قاع المدينة، وفى أركانها المختلفة من أسواق، وميادين، ومنتديات، وغيرها..

من أعلى، تقترب الكاميرا، كى تصور المدينة بمثابة مجموعة من المبانى المتلاصقة، بعضها شاهق العلو، يعكس هوية المدينة وثراءها، والبعض الآخر، مبان منخفضة، يحضن بعضها البعض الآخر، أو تتكدس تكدس البشر الذين يعيشون فى أروقتها..

ولعل أسهل مدخل لفهم هذه العلاقة، هو أسماء الأفلام نفسها، وعلى المستوى الشخصى يعجبنى كثيراً عنوان فيلم أخرجه وكتبه حسين حلمى المهندس عام ١٩٦١، يحمل عنوان «تحت سماء المدينة»

وهذا العنوان يختصر الكثير مما نود أن نفسره فى هذا المقال، فتحت سماء المدينة تحدث فى كل لحظة، وكل ساعة، عشرات الحكايات التى تصلح لأن تصنع فيلماً، وتحت هذه السماء هناك البيوتات بما تحمل من أسرار، وهناك المصانع، والمقاهى، والعشش، والمتاجر، وقصور الأغنياء، وبنات الليل، والجرائم التى يتم اكتشافها، أو تظل مجهولة، يستمر أصحابها دوماً فى ممارسة كل ما هو ضد شرائع الطبيعة، والحياة..

وبالتالى فإن الرجوع إلى كلمة «مدينة» فى عناوين الأفلام يعطى تعبيراً مختصراً عن أشياء كثيرة تدور فى هذا المكان المتسع، ولعل من العناوين المليئة أيضاً بالبلاغة ذلك المأخوذ عن إحدى أقاصيص يوسف إدريس «قاع المدينة» فى الفيلم الذى أخرجه حسام الدين مصطفى عام ١٩٧٤، وهو عنوان ملىء بالبلاغة، والدلالة. إنه يتحدث عن أماكن بعينها فى المدينة، وبشر يسكنون هذه الأماكن، والغريب أن الفيلم ليس عن قاع المدينة كمكان، بقدر ما هو عن قاض، من طبقة أرستقراطية يعيش حياة ماجنة، يستجلب امرأة فقيرة للعمل عنده كخادمة، لا تلبث أن تصير عشيقة له..

وإذا كان اسم المدينة نفسه نادرا فى العناوين، فإن أسماء المدن موجودة أيضاً لماما، خاصة العاصمة «القاهرة»، فالاسم موجود فى العديد من الأفلام قليلة القيمة، والغريب أن هناك فيلماً بريطانيا تم تصويره فى مصر عام ١٩٦٣، قامت ببطولته فاتن حمامة، وكمال الشناوى وجورج ساندرز وريتشارد جونسون يحمل اسم «القاهرة»، والمدينة بالنسبة لصناع الفيلم لم تتعد أن تكون المتحف المصرى الذى تجرى سرقته، وأماكن الليل فى شارع الهرم..



وقد برز اسم القاهرة على أفيشات أفلام قليلة للغاية، وهى أفلام تكاد تكون مجهولة، مثل «امرأة من القاهرة»، وهو أول أفلام المخرج محمد عبد العزيز فى عام ١٩٧٤. ثم هناك فيلم من إنتاج مصر .البحرين باسم «حبى فى القاهرة» إخراج عادل صادق عام ١٩٦٦، إلا أن أهم هذه الأسماء على الإطلاق هو «القاهرة ٣٠»، كما أن هناك «القاهرة فى الليل» لمحمد سالم عام ١٩٤٣..

بالإضافة إلى أن كافة المناطق القاهرية، صارت عناوين للأفلام، خاصة فى الأفلام المأخوذة عن نجيب محفوظ، أو التى كتبها خصيصاً للسينما، وهى كلها أسماء لمناطق صغيرة يعيش فيها عدد محدود من البشر مثل «بين القصرين»، و«قصر الشوق»، و«السكرية»، و«زقاق المدق»، و«خان الخليلى».. كما تجولت عناوين الأفلام بين «بنات وسط البلد»، و«فى شقة مصر الجديدة»، و«باب الحديد»، و«فضيحة فى الزمالك»، و«السكاكينى»، و«درب المهابيل»، و«الدرب الأحمر»، و«فتوات الحسينية»، و«سوق السلاح»، و«كذلك فى الزمالك»، و«شارع محمد على»، و«شارع السد»، و«الشرابية»، و«فى محطة مصر»، و«الفحامين»، و«جدعان الحلمية».. وغيرها..

هذا بالإضافة إلى أسماء مقاه، ونواد ليلية، وأماكن يتردد عليها الناس بشكل دائم، وجماعى، والملاحظ من خلال هذه الأسماء، والعناوين، أن هناك عدة ملحوظات يمكن أن نوجزها كالتالى:

«أغلب الأماكن العامة، أو الأسماء التى جاءت كعناوين للأفلام، الخاصة بالقاهرة، باعتبارها المدينة الأم، والأكبر، هى أماكن تخص الفقراء، أو فلنقل أنها موجودة فى أحياء شعبية، بمعنى أن هناك حالات ملحوظة من التكدس السكانى، من ناحية، وأيضاً ازدحام وتواصل فى العلاقات، ففى هذه الأحياء تختلف طبيعة البشر، وعلاقاتهم فيما بينهم، هم يأتلفون بالمكان، وتحس كأنما ليس هناك فاصل بين البنايات، أو حتى بين الشقق، ففى بعض الأفلام، تبدو النوافذ والشرفات مفتوحة على بعضها، لشدة اقتراب الشقق والسكان مثل «هذا هو الحب»، و«السفيرة عزيزة»، و«حياة عازب»، وهى أفلام تم إنتاجها فى فترات متفاوتة»..

أما خارج البيوت، فإن حالة «زقاق المدق» تبدو أفضل نموذج ملىء بالألفة والتقارب اللذين يجمعان بين الناس، فالمحلات متجاورة، صالون الحلاقة، إلى محل المعلم كرشة، وصانع البسبوسة، والمقهى، وغيرها، يقعون فى دائرة ضيقة للغاية، مما يوحى بروح العائلة، بل إن الزقاق نفسه أشبه بشقة واسعة، أقرب إلى الربع فى أحياء القاهرة القديمة، وفى هذا الزقاق المحدود المساحة، يقيم السكان أفراحهم وأحزانهم، وفى هذا الفيلم بالذات فإن أغلب السكان من القاهرة، وليسوا من النازحين من خارجها، والناس هنا يتحابون ويتزاحمون فيما بينهم، طموحاتهم لا تتعدى حدود المكان..

وقد تكرر الأمر نفسه فى أغلب الأفلام التى كتبها نجيب محفوظ، حول جزء فى



فلم عبد الوهاب

يقدم

تحية كاريوكا

سعد عبد الوهاب

في

بلد المحبوب

اخراج حلمي رفله * موسيقى والحان محمد عبد الوهاب

قصة وحوار: أبو السعود الأبياري

بلد المحبوب.. ١٩٥١

المدينـــــــــة والـفـيـــــــــلـم

ظلت المدينة دومًا سببًا لجذب أبنائها، بمعنى أن المدينة نفسها تجبر أبناءها على البقاء فيها، حتى لو رحلوا إلى الخارج مضطرين، بحثًا عن لقمة عيش



المدينة، سواء المأخوذة عنه رواياته مثل «خان الخليلى»، و«المطارد»، و«شهد الملكة»، والتى كتبها مباشرة للسينما، ومنها «درب المهابيل»، و«فتوات الحسينية»، فالمدينة رغم اتساعها، فإنها تبدو ضيقة بأهلها وسكانها، والناس فى هذه الأماكن من المدينة شبه محكوم عليهم بالإقامة الجبرية، لا يستطيعون، ولا يرغبون فى الخروج منها ولو مرة واحدة، فحميدة فى «زقاق المدق» التى تستجيب إلى فرج بأن تذهب إلى منطقة عماد الدين محكوم عليها بالموت، وألا تعود إلى الزقاق سوى جثة هامدة، محمولة على أعناق عباس الحلو، والأم فى «الثلاثية» طردها زوجها من جنته، لمجرد خروجها من البيت مرة واحدة، لزيارة الحسين، وفى «درب المهابيل» فإن الحلم بالثروة، والحصول على المال لا يرتبط قط بالخروج من المكان.

وقد ظلت المدينة دومًا سببًا لجذب أبنائها، بمعنى أن المدينة نفسها تجبر أبناءها على البقاء فيها، حتى لو رحلوا إلى الخارج مضطرين، بحثًا عن لقمة عيش، مثلما حدث فى «عودة مواطن» لمحمد خان عام ١٩٨٦.. أى أن المدينة هنا تحولت إلى شبه حارة ضيقة، وزقاق بيوته بمثابة جدران سجن..

يعنى هذا أن المدينة رغم اتساعها الملحوظ من أعلى، تظل بمثابة مكان ضيق على سكانها، لا يخرجون من الأطر الضيقة لهذه المدينة إلا فى أقل الحدود، وتبدو هذه السمة، فيما أطلقت عليه السينما بأفلام الواقعية، خاصة عند صلاح أبو سيف، فسوق الجملة فى «الفتوة» هو المسكن، ومكان العمل، والصراع وسبيل الحياة الوحيد لكل من يعيش فيه، وعلى المرء أن يظل هناك فى حالتى عمل ومنافسة من أجل البقاء على قيد الحياة..

وفى بعض أفلام هذا المخرج، فإن القادمين إلى المدينة، فعلوا ذلك بهدف البحث عن وسيلة للرزق، فالتعليم الذى جاء من أجله إمام فى «شباب امرأة» هو وسيلة للرزق فى المستقبل، وأيضًا لقد جاء مئات من البشر للعمل فى سوق الخضار فى «الفتوة»، وكم امتلأت المدينة بأمثال هريدى، وإمام فى أفلام كثيرة، جاء أغلبه عن طريق القطار..

وتلعب محطة القطار الرئيسية دورًا فى التعرف على المدينة، وقد تعمدت أفلام عديدة تصوير كيف كان اللقاء الأول المبهر الذى حدث للقرويين والصعايدة القادمين من قرى صغيرة إلى عالم واسع، ولا تزال هذه الصدمة الممزوجة بالإبهار موجودة لدى أبطال الأفلام، حتى وإن جاءوا من مدن أخرى، وليس فقط من الريف..

بدت الدهشة الأولى على وجوه أبطال فيلم «أرزاق يا دنيا» لنادر جلال عام ١٩٨٤، فالفتاة التى جاءت لتعمل خادمة بصحبة أبيها، تبدو عيناها غير قادرتين على استيعاب اتساع المكان الذى تنظر إليه، أما الشاب صاحب الساق الخشبية، فبدا مثل غيره، ممن جاءوا إلى المدينة بحثًا عن الرزق، وعقب تلك النظرات الغامضة الجائعة، فإن المدينة سوف تصدم الطرفين بعنفها الشديد، ودمويتها، فلقمة العيش ليست مليئة بالمرارة، بل بالدم والاغتصاب، والقهر، وهذا هو حال المدينة..



إذن، فالمدينة تباينت صورتها، من عالم وردى، ملىء بمظاهر الربيع، وجمال الطبيعة، وحميمية الصحبة فى أفلام عديدة مثل «شم النسيم» لفرنيتشيو عام ١٩٥٢، و«أميرة حبى أنا» لحسن الإمام عام ١٩٧٤، وغيرهما، حيث يذهب الناس لقضاء إجازاتهم فى الجناين، والأماكن الواسعة، ويعطينا هذا النوع من الأفلام الإحساس أن المدينة مليئة بالخضرة والحدائق، وعلى كل فهذه الأفلام قليلة للغاية، قياسًا إلى تلك التى تصور صورة العنف، والوحشية فى أروقة المدينة، خاصة جبال المقطم، والمناطق المجاورة، وصحراءها، فقد قتلت الراقصة الأولى فى منطقة قفر، تطل على المدينة فى فيلم «أبناء وقتلة» لعاطف الطيب عام ١٩٨٧، وقامت مجموعة من الشباب باختطاف عروس، واغتصابها أمام عريسها ليلة زفافهما فى فيلم «الأوباش» لأحمد فؤاد عام ١٩٨٦، وحول الموضوع نفسه قدم سعيد مرزوق فيلمه «المغتصبون» عام ١٩٨٩، وكانت المدينة بالغة التوحش، أشبه بأرض تدور عليها معارك عسكرية بين أطراف متطاحنة مثل «١٣١ أشغال» لنادر جلال عام ١٩٩٣، وفى هذه الأفلام وغيرها، اختلطت دماء الضحايا والقتلة بتراب المدينة، وهذه الأمثلة المذكورة، تم العنف فيها تحت السماء، ليلا أو نهارًا، وليس فى الأماكن المغلقة. وقد امتلأت أروقة المدينة بأوكار يعيش فيها زعماء عصابات التهريب لا يمكن لشرطة أن تقترب من أوكارهم المفتوحة، مثلما حدث فى «الكيف» لعلى عبد الخالق عام ١٩٨٥، فرجل العصابة هنا يمتلك قطعة أرض نيلية، وهو يستحضر المهندس الذى ابتكر تركيبة المخدرات كيميائيًا، كى يخبره على عمل التركيبة، وتبدو الأحداث الدامية على خلفية المدينة التى يطل المنظر عليها..

وعلى ذكر نهر النيل، فإن هناك رموزًا بعينها، ما إن يظهر أحدها، أو كلها فى فيلم، فإن هذا يعنى المدينة دون غيرها، مثل بروج المدينة، وأنهارها، وقلاعها، وجامعاتها، والمبانى التجارية، أو أماكن العبادة، والمواصلات، ولو توقفنا عند القاهرة، كرمز للمدينة الضخمة، الواسعة، التى كانت مكانًا دائمًا لمئات الأفلام، فإن نهر النيل الذى يخترق المدينة، وجسوره العالية، والأحياء المطلة على جانبيه، قد صار البطل الرئيسى فى أفلام عديدة، منها «العوامة رقم ٧٠» لخيرى بشارة عام ١٩٨٢، و«نهر الخوف» لمحمد أبو سيف عام ١٩٨٨، حيث تدور الأحداث حول رجل موتور، يأخذ مركبًا نهريًا، ومن عليه من ركاب كرهينة، ويتحرك المركب النهرى فوق صفحة النيل، ويرسو أحيانًا فوق إحدى الجزر حيث تتم المفاوضات بين الشرطة، والموظف الموتور، ويكاد يكون الفيلم هو أحد الأعمال القليلة الذى تدور أحداثه بالكامل فوق النهر، لكن الفيلم المهم بالفعل هو «ثرثرة فوق النيل»، الذى يدور فوق عوامة على نهر النيل، تعيش فوقها مجموعة من الباحثين عن المتعة، والهروب من الضغوط النفسية، ورغم أن هناك عوامات عديدة يعيش فى داخلها سكان، وأسرات، فإن السينما نظرت إلى العوامات باعتبارها مكانا للمتعة، وقضاء وقت ممتع، مثلما حدث فى فيلم «ليلة ساخنة» لعاطف الطيب عام ١٩٥٥..

وقد تجول أبطال بعض الأفلام الغنائية فوق سطح النهر، يغنون للحبيبة، مثلما فعل عبد الحليم حافظ فى «أيام وليالى» لبركات عام ١٩٥٥، وفريد الأطرش فى «قصة حبى» لبركات أيضًا عام ١٩٥٥.

ولا شك أن علاقة الأفلام المصرية بالنهر تحتاج إلى دراسة فى كتاب متخصص، فالمكانة التى يتمتع بها النيل فى حياة المصريين قد انعكست فى عشرات الأفلام، سواء التى تدور خارج إطار المدينة مثل «صراع فى النيل»، أو الأفلام التى تدور فى القاهرة باعتبارها المدينة الأكبر، والأكثر حضورًا فى السينما..

أما البرج الأعلى الذى يطل على المدينة، فمنذ تأسيسه فى عام ١٩٦٠، والسينما تحج إليه كثيرًا، بين وقت وآخر خاصة فى أول أفلام هذه السلسلة مثل «موعد فى البرج» لعز الدين ذو الفقار عام ١٩٦٢، حيث يبدو البرج شامخًا فى أفيش الفيلم، وقد تشعلق عليه بطلاه، اللذان يتواعدان على اللقاء فوق البرج بعد ستة أشهر، لكن فى يوم اللقاء، تمنع الظروف الطرفين من اللقاء، ومن الواضح أن السينما قد أعدت احتفالية خاصة بالبرج فى هذا الفيلم، وأهمية المبنى هنا أنه يطل على المدينة ويمكن مشاهدة القاهرة بمجرد الدوران فى مساحة صغيرة بأعلى البرج، وقد حاول المخرج الاستفادة من العلو الشاهق للبرج، حيث كاد اثنان من أفراد عصابة أن يرفعا عادل كى يرميا به من أعلى..

ورغم أن حالات انتحار قد حدثت فى الواقع من أعلى البرج، فإن السينما لم تهتم بتحويلها إلى أفلام، لكن الجزء الأخير من فيلم «آخر الرجال المحترمين» لسمير سيف عام ١٩٨٤ يدور فى أعلى البرج، حيث تأتى امرأة خطفت تلميذة، كى تتنزه مع الطفلة، وإلى المكان تأتى الشرطة، وأهل قرية الفتاة، وتحاول المرأة التهديد بإلقاء الطفلة من أعلى إن قبضوا عليها، أى أن استخدام التهديد بإلقاء شخص، هو سمة رئيسية فى الأفلام التى تصور المدينة من خلال البرج..



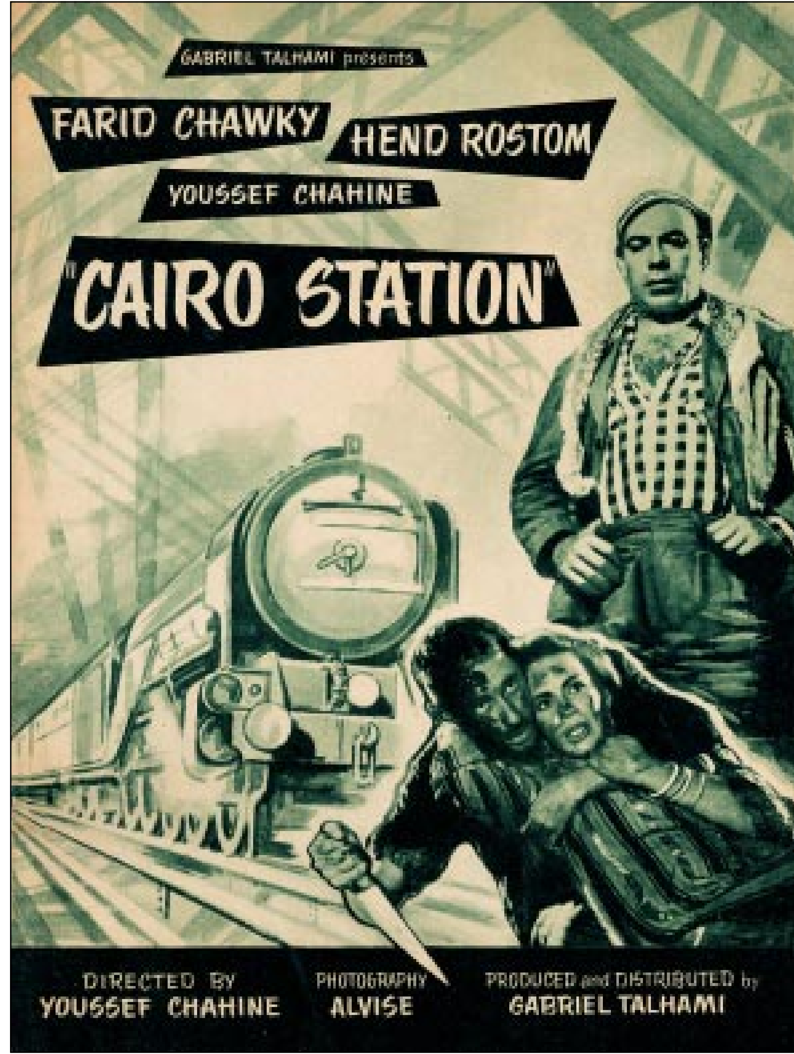
وعلى كل، فبرج القاهرة، مكان ضيق، لعل ظهوره فى السينما المصرية، كان أقل بقليل من ظهور برج إيفل. الذى صعد إلى أعلاه أبطال أفلام عديدة منها «التوربينى» عام ٢٠٠٧. وقد اتسم برج القاهرة بأنه يكشف عن الجانب الحديث من المدينة، والأحياء الراقية، فالمرأة التى خطفت التلميذة فى «آخر الرجال المحترمين» تسكن الزمالك. أما القلعة (قلعة صلاح الدين) فإنها كمكان يقع فى أعلى المدينة يختلف تمامًا عن البرج، باعتبارها الأقدم، والأكثر اتساعًا، وهى تطل مباشرة على أحياء مصر القديمة، وعلى مبانيها الأثرية، وعلى الفقراء.. وقد بدت القلعة شاهدًا على أسرار المدينة أكثر من البرج، الذى تم بناؤه فى مكان يخلو تمامًا من السكان، أما القلعة فقد أقام أسفلها أبطال أفلام عديدة منها

«اللص والكلاب» لكمال الشيخ عام ١٩٦٢، و«شحاتين ونبلاء» لأسماء البكرى عام ١٩٩٠، و«حرامى الورقة» لعلى رضا عام ١٩٧٠، و«غرباء» لسعد عرفة عام ١٩٧٣، بالإضافة إلى الأفلام التاريخية التى اتخذت من القلعة مكانًا رئيسيًا لها، خاصة فيلم «وا إسلاماه» لأندرو مارثون عام ١٩٦١..

بدت القلعة شاهداً على ما يدور فى المدينة، أكثر منها مكانًا تدور فيه الأحداث، ففى الكثير من الأفلام التى دارت أحداثها فى المنطقة المطلة عليها، فإن القلعة تبدو فى الأفق، أو أقرب من ذلك، كأنها تحفظ الأسرار، بعد أن تسمعها من أصحابها..

أما جامعة القاهرة، فكانت ذات مكانة خاصة لقصص الشباب والطلاب أكثر من أى جامعة أخرى فى المدينة، ولا شك أن ذلك يرجع لعراقة الجامعة، وللبناء المعمارى، المتمثل فى الساعة، والقبة، والباب الحديد، ثم الشارع الممتد أمام باب الجامعة، إلى أن يصل المنظر إلى تمثال نهضة مصر، أو بالعكس، وقد بدا مبنى كلية الآداب، الذى يقع مباشرة إلى جوار الباب الرئيسى، هو الأوفر حظًا فى قصص الأفلام التى صورت المكان، وذلك باعتبار أنه الأقدم، والأفضل والأجمل كطراز معمارى، وأيضًا لما ارتبط به طلاب الكلية من انفتاح، وأيضًا لجمال السلم الطويل، وقد تم تصوير الكثير من الأفلام فى كافيتريا الكلية، وإذا كانت المدرجات تعبر عن ازدحام الطلاب، وعلاقاتهم بالأساتذة، فإن أفلامًا بعينها قامت فى فناء الكلية، وعلى رأسها «خلى بالك من زوزو» لحسن الإمام عام ١٩٧٢، و«بنات فى الجامعة» لعاطف سالم عام ١٩٧١، و«خلف أسوار الجامعة» لنجدى حافظ عام ١٩٨١، وذلك بصرف النظر عن القيمة الفنية للفيلم..

تبدو المدينة فى هذه الأفلام فى صورة زاهية متحضرة، فالجامعة ملتقى للشباب فى أفضل مراحل حياتهم، جاءوا للتعلم، ويعيشون هناك قصص الحب الأولى، وهناك علاقات رومانسية، أو متشابكة، وهناك أبناء الأغنياء، والفقراء يلتقون فى مكان واحد، وهناك قصص حب بين تلميذة وأستاذ مثل «الباب المفتوح» لبركات عام ١٩٦٣، ونادراً ما رأينا هذه الأماكن بصورة سيئة، فالعيب ليس فى المكان، بقدر ما هو فى أشخاص بأعينهم، يصدمون مع المكان وأبنائه، من خلال طموحات لا حدود لها. ورغم أن هناك جامعة واحدة، وعشرات الألوف من



محطة مصر.. ١٩٥٨



بين القصرين.. ١٩٦٤

المدارس، فإن الجامعة حاضرة فى الأفلام بقوة ملحوظة، أكثر من المدارس، باعتبار أن الأولاد والبنات قد صاروا أكثر قدرة على الحرية، والتصرف، وهم فى الجامعة، لذا كانت هى البؤرة التى تشكل فيها الطلاب سياسيًا وعاطفيًا، وقد ارتبط الغضب، والتمرد، والثورة ضد الأنظمة السياسية من خلال مظاهرات الطلاب فى أفلام كثيرة منها «فى بيتنا رجل» لبركات عام ١٩٦١، و«العاصفة» لخالد يوسف عام ٢٠٠١، و«الكرنك» لعلى بدرخان عام ١٩٧٥، و«زوجة رجل مهم» لمحمد خان عام ١٩٨٨، وغيرها.. أى أن المكان يتحول من الرومانسية والبهجة، إلى الغضب والرفض، وقد اعتبرت الجامعة بمثابة بؤرة المدينة، فلا تكاد توجد أسرة فى أفلام السينما المصرية، إلا وذهب أحد أبنائها إلى الجامعة، وكان له نصيب من الحكى فى المكان. بما يعنى تشابك أماكن المدينة، فالفتاة زينب لها دور فعال فى الأماكن التى تتواجد فيها، ابتداء من الكلية، ومدرجاتها، ثم بيتها، والبيوت التى تذهب إليها للرقص بدلاً من أمها، بما يعنى أن الأماكن لا تنعزل عن بعضها فى المدينة، ولعل الأماكن هنا تبدو مفتوحة تفتح الذين يعيشون فيها، بمعنى أن المدينة المفتوحة تطل بسماتها على أماكن، والجامعة هى مرآة المدينة، تتسم بالألوان الزاهية المتعددة، وبحضور دائم للربيع، إذ لا يذكر المرء أن هناك مشهداً واحداً للأمطار تسقط فوق الجامعة، وهى مكان مخصص للشباب من الطلاب، مقابل حضور نادر للبالغين، خاصة من الأساتذة، وإذا كنا قد أشرنا إلى أن طلاب كلية الآداب هم الأكثر حضوراً، فإن طلاب الحقوق يأتون فى مرحلة تالية، ثم دارسى الطب..

تلعب وسائل المواصلات فى المدينة دوراً لا يقل أهمية عن الجامعة، إن لم يزد، فهى شبكة من المركبات والبشر، البالغة التعقيد، والصيرورة، فى حالة حركة دائمة، وتنقل من مكان لآخر، وهذه الوسائل أشبه بالملابس فى الأفلام، حيث إنها مؤشر ملحوظ على التاريخ الذى ينتمى إليه، ونحن لا نقصد بهذه الوسائل السيارات بالمرة، بل وسائل النقل العام التى يركبها معظم الناس، من ترام وأتوبيس، وترولى، ومترو، وقطارات الضواحى، وكم من قصص عاطفية دارت داخل هذه المركبات وهى تجوب المدينة، ونحن لم ندخل فى إطارها السيارات الخاصة، باعتبارها وسيلة خاصة، لكن يمكن أن نضم

إليها سيارات الأجرة، باعتبارها أيضًا وسيلة نقل عام، أى أن السائق الواحد قد يلتقى فى يومه بالعشرات من الأشخاص الذين يركبون معه..

فالترام القديم له مذاقه الخاص، فمجرد ظهوره يعنى العودة إلى تاريخ بعينه، تلك العربة الواحدة المفتوحة الأبواب، حيث السائق، والمحصل، والناس يصعدون وينزلون، وقد استخدم الترام كأداة للتعبير عن الغضب الاجتماعى حين أشعل المصريون المظاهرات فى فيلم «بين القصرين» لحسن الإمام عام ١٩٦٤، وأيضًا فى فيلم «معلش يا زهر» لبركات عام ١٩٥٠، حيث يعمل سائقًا للترام، يغنى فى بدايته للحب، والترام وقد ظهر هذا الترام فى أفلام عديدة من أبرزها «حياة أو موت» لكمال الشيخ عام ١٩٥٤. فالطفلة التى تذهب لإحضار الدواء لأبيها تركب الترام دون أن تكون معها الأجرة، فيطردها المحصل من الترام، وتتعرف على صبى فى مثل عمرها يأخذها معه كى يدلها على طريق عودة بديل إلى الدار.. وهناك ترام مشابه فى أفلام كثيرة، لكنها فى مدن أخرى، مثل الترام الذى ركبه الطفل كى يلحق بأسرته، من أجل تدبير مجموعة من الرجال لإنقاذ أخته وصديقتها من براثن «ريا وسكينة» فالأحداث هنا تدور فى الإسكندرية، وفى حى القبارى واللبان بالتحديد..

وكم هى كثيرة، الأفلام التى تدور أحداثها فى الأوتوبيسات، وهى وسيلة نقل جماعية، تكشف المعاناة التى يعيشها البسطاء فى رحلتى الذهاب والعودة يوميًا من وإلى العمل، وقد ارتبطت هذه الأوتوبيسات فى المقام الأول بالازدحام والتكدس، واحتكاك الناس ببعضهم البعض، والنشالين وهناك أفلام تتحدث عن الحياة الخاصة للعاملين فى هذه المواصلات التى تجوب أنحاء المدينة، وقد خصص عاطف الطيب فيلمه «سواق الأوتوبيس» ليعبر عن الحياة الأخرى التى يعيشها واحد من الذين نراهم يوميًا، وقد كساه الفيلم بأجواء إنسانية ملحوظة. فحسن أبو العلا متزوج من فتاة جامعية، ويعانى من الظروف الاقتصادية الخاصة بأبيه، صاحب الورشة، والغريب أن حسن لم يترك وظيفته من أجل التفرغ للورشة، بل إنه أيضًا سائق تاكسى فى أوقاته الأخرى بعيدًا عن مهنته الرسمية، وهناك صداقة، ومودة مع زميله السائق الذى يطلب خطبة أخت حسن، وسط الظروف الاقتصادية المنهارة، ويبدو السائق هنا إنسانًا مثل قرينه فى فيلم «٣ لصوص»، ففى أقصوصة «سارق الأوتوبيس» التى أخرجها حسن الإمام عام ١٩٦٦، فإن الأسطى فهمى سائق الشاحنة يحاول العثور على دواء لعلاج زوجته التى أصابتها نوبة قلبية، وفى الطريق تركب أوتوبيسًا، لكن السائق يتلكأ، مما يدفع بفهمى إلى أن يقود الأوتوبيس، وأن يتجه إلى حيث يتم العثور على الدواء، وتقوم الشرطة بمطاردة الأوتوبيس..

وفى فيلم «الناس اللى جوه» لجلال الشرقاوى عام ١٩٦٩، هناك سائق أوتوبيس تزوج بفتاة صغيرة، وحبسها فى منزله وهو لا يستطيع التوافق بين حياته الخاصة والمهنية، كما أن فيلم «الكمساريات الفاتنات» لحسن الصيفى عام ١٩٥٧، يتحدث عن تجربة اجتماعية جديدة، حيث تعمل ثلاث فتيات فى مهنة «الكمسارى»، وهى مهنة تليق بالرجال، ولم يحدث أن مارستها امرأة حتى الآن، فى مصر، وفى الفيلم يدبر الرجال بعض المقالب من أجل إبعاد الفتيات عن المهنة، فيتزوجون منهن، ويطلبون إبقاءهن فى البيوت، وهى وجهة نظر تبنتها السينما والمجتمع بشكل يؤكد نظرية الرجل الشرقى للمرأة..



ومن المواصلات العامة حيث تم تصوير المدينة من الخارج، إلى مصاعدها، حيث يلتقى غرباء بشكل عابر، لكن الكثير من القصص تتولد فى المصاعد، باعتبارها مكانًا مغلقًا، قد يستغله شخص لإقامة علاقة ما، سواء تعطل أم سار. فى نهجه بشكل طبيعى، ونحن نعرف التجربة المهمة لصلاح أبو سيف فى «بين السماء والأرض» عام ١٩٥٩، حيث اجتمع كل هذا العدد المتناقض، والمتنوع من البشر داخل مكان ضيق للغاية، يمثلون المدينة بأغلب طبقاتها، لبعض الوقت، كى يتولد بينهم احتكاك مباشر، لكل منهم ظروفه التى دفعته إلى ركوب المصعد، وقد بدا الاختيار عبقريًا للغاية. كما أن جزءًا من أحداث الفيلم يدور فى ملعب الكرة، حيث أشخاص آخرون يلتقون أيضًا لأول مرة تحت سماء المدينة، وهناك أفلام كثيرة، تم فيها التعارف بين رجل وامرأة فى المصاعد مثل «الثلاثة يحبونها» لمحمود ذو الفقار عام ١٩٦٥، و«قص ولزق» لهالة خليل عام ٢٠٠٧..

وقد تعددت الأماكن التى صورتها السينما من ملامح المدينة، ابتداء بالمدارس، والمصانع والشركات، والجسور، والمنتزهات، والمراكز التجارية، بالإضافة إلى ما تتركه المدينة على أبنائها من ملابس..

والعلاقة بين الفيلم والمدينة تبدو أكثر اتساعًا من المدينة نفسها، وذلك بتعدد الأفلام التى يعيش أبطالها بين أروقة المدينة وأحيائها، فإذا توقفنا عند حى بعينه، فإن مصر الجديدة تلقى شغفًا ملحوظًا من المخرجين من كافة الأجيال، باتساعها، ورقيها، ونوع العلاقات فيها، وهى ماثلة دومًا فى عشرات القصص، ومن أبرز من صور شوارعها، وبيوتها كان صلاح أبو سيف، المخرج نفسه الذى تجول فى العديد من أحياء الفقراء، وأيضًا الأغنياء، فإنه صور هوليوبوليس بجمالها، ونقائها فى فيلمه «الوسادة الخالية» عام ١٩٢٧، وها هو صلاح يتجول فى الشارع الرئيسى لمصر الجديدة، قريبًا، من بيت حبيبته سميحة، التى تحاول لفت أنظاره من شرفتها، فتصفر له، وقد عاد المخرج نفسه فى أفلامه التالية «لا أنام» عام ١٩٥٧، و«لا تطفئ الشمس» عام ١٩٦٠..

كما أن مصر الجديدة صارت أجمل مكان للذكريات عند مخرجين معاصرين ففى شوارعها، ومدارسها، وكنائسها عام ١٩٦٨ عاش أبطال فيلم «ضحك ولعب وجد وحب» لطارق التلمسانى عام ١٩٩٠، فأدهم التلميذ الفاشل، يقع فى حب ابنة الليل إش إش التى تطل شرفتها مباشرة على فناء المدرسة. ولكل من التلاميذ قصة حب، وطموح، وصراعات، وتبدو مصر الجديدة فى هذه الحقبة نبض للوطن، وصورة حية من ذكريات المخرج نفسه..

كما شغف داود عبد السيد، بهذه المنطقة التى يسكن فيها، وعبر عن هذا الشغف بقوة فى فيلمه «أرض الأحلام» عام ١٩٩٣، وفى بداية الفيلم، فإن نرجس تروى عن الشجيرة الصغيرة التى تم غرسها فى أسفل المنزل الصغير، ومع مرور السنوات، زحفت خضرتها وأوراقها إلى الأدوار والنوافذ، فصارت شاهدة على الذكريات والأشخاص، وقد سجل الفيلم وقائع الحياة فى مصر الجديدة، التى عاشت فيها نرجس، وأسرتها، وبدا المخرج شغوفًا بشدة بعالم الليل فى هذا الجزء الراقى من المدينة، الذى عاد إليه محمد خان عام ٢٠٠٧ فى فيلمه «فى شقة مصر الجديدة» مرة أخرى، وبدت التجربة مختلفة. فالمخرج لم يعش فى المنطقة نفسها مثلما فعل داود عبد السيد، كما أن الفتاة نجوى التى جاءت لتبحث عن مدرستها غريبة عن المدينة، تأتى إلى المكان لأول مرة، وقد بدا الحى بالنسبة لها أقرب إلى اليوتوبيا، ففيه سوف تلتقى بالمدرسة التى تأثرت بها كثيرًا.. وهى وإن لم تلتق بمدرستها؛ فإنها سوف تقابل شابًا سيصبح بلا شك هو قرينها، أى أن مصر الجديدة بالنسبة لها ستكون الحلم، والذكريات مع أكثر من شخص: المدرسة، والشاب يحيى..

ولعل محمد خان، هو أكثر المخرجين شغفًا بالمدينة، وشوارعها، وأزقتها، وأركانها الصغيرة، وأطلالها، وسطحها، ولم يخل فيلم واحد من أفلام المخرج من غزل واضح ومحبة للمدينة، وقد حرص دومًا على تصوير أفلامه فى «أرجاء» المدينة، وفى الوقت الذى يعانى الكثير من المخرجين فى تصوير المدينة من الخارج، فإن خان استطاع بمهارته أن يتغلب على هذه الصعاب، بدليل أنه لم يتوقف عن تكرار تصوير المدينة من أرجائها، وهناك مكان فى بداية شارع الجلاء، يمر عليه كل من يأتى إلى المدينة، هو عبارة عن ممر ضيق لا يثير انتباها، صورة محمد خان، فى واحد من أضعف أفلامه، هو «يوم حار جدًا» عام ١٩٩٥، تعكس الصورة التى رأينا عليها الممر، كيف أعاد المخرج، والمصورون الذين عملوا معه تشكيل هوية المدينة وإذا كان هذا قد حدث فى واحد من الأفلام الأقل أهمية، فما بال بقية أعمال المخرج الذى جاءت المدينة فى تسمية أفلامه «فارس المدينة» عام ١٩٩٢، وأيضًا أماكنها وأحيائها ومنها «بنات وسط البلد» عام ٢٠٠٥، و«فى شقة مصر الجديدة» ثم «طائر على الطريق» الذى دارت أحداثه بين أكثر من مدينة من الإسكندرية والقاهرة والإسماعيلية، والطرق التى تربط بينها..

وقد تواجدت المدينة دومًا فى أفلام المخرج، من الإسكندرية فى «الرغبة» عام ١٩٨٠، و«دعوة على العشاء»، والقاهرة فى «دائرة الانتقام» عام ١٩٧٧، و«ضربة شمس» عام ١٩٨٠، و«سوبر ماركت» عام ١٩٩٠، «الحريف» عام ١٩٨٤، وجزء من «خرج ولم يعد»، و«زوجة رجل مهم» عام ١٩٨٨، وسوف نتوقف عند علاقة المخرج بالمدينة من خلال فيلم «فى شقة مصر الجديدة».

انقسم فيلم «فى شقة مصر الجديدة» فى غالبه إلى قسمين ملحوظين، يدور الأول فى شوارع القاهرة التى يحبها المخرج بطريقة جعلته أفضل من يقدم صورة لهذه الشوارع، مهما كان شكلها



دارت أحداث الفيلم، فى غالبها خارج هذه الشقة، ابتداء من مدينة المنيا، ومحطة قطار القاهرة، وبيت المغتربات، ومدرسة الجيزويت، بالإضافة إلى وسائل المواصلات العديدة التى ركبتها نجوى



الحقيقى كما تراه أعيننا، أما القسم الثانى، فهو عبارة عن مجموعة من المسرحيات القصيرة ذات الفصل الواحد، تعتمد على حوار طويل ممل، به تطويل ملحوظ، تبدو أننا أمام فيلمين، الأول ينتمى بحذافيره إلى اسم المخرج وأسلوبه المتميز، والثانى ينتمى إلى كاتبة السيناريو وسام سليمان التى تميل إلى عمل مثل هذه الحوارات الأسرية، أو الحميمية بين أبطال أفلامها، ومنها «أحلى الأوقات»..

كما أن الفيلم بدا كأنه يصلح أن يحمل عنوانين، الأول «فى شقة مصر الجديدة»، والثانى وهو الأقرب «خارج شقة مصر الجديدة» فقد دارت أحداث الفيلم، فى غالبها خارج هذه الشقة، ابتداء من مدينة المنيا، ومحطة قطار القاهرة، وبيت المغتربات، ومدرسة الجيزويت، بالإضافة إلى وسائل المواصلات العديدة التى ركبتها نجوى (غادة عادل)، وشوارع المدينة ومنها شارع رمسيس، وشارع منصور.. وغيرها..

بدأ الفيلم بشكل حيوى ملحوظ، وهو يقدم عالم المدرسة، وعلاقة نجوى بمدرستها وهى طفلة، فالمشاهد سريعة، والموسيقى التصويرية أخاذة، وحية، حيث نستمع إلى ليلى مراد من خلال محاولة التعرف على تأثير أغنيتها «قلبى دليلى» على جيل بأكمله، لكن، لا بد أن ينتابك الإحساس أن محمد خان حاول أن يستجمع شيئًا ما من فيلمه «زوجة رجل مهم»، ابتداء من اختيار المنيا التى تدور فيها أحداث الجزء الأول من الفيلم، ثم أثر الأغنيات على بنات صغيرات فى المدرسة سوف يكبرن حاملات ذكريات أغنية ليلى مراد التى تعلمها المدرسة تهانى لتلميذاتها، فإذا كانت أغنية «أهواك» هى الأكثر تأثيراً فى حياة بطلة فيلم «زوجة رجل مهم» فإن أغنية «قلبى دليلى» صارت هى الحدث الرئيسى فى الجزء الأول من الفيلم، مما يعنى أن هناك مطربة وأغنية وطفلة تنمو مع الوقت، لتصبح نجوى شابة ناضجة، لم تتوقف قط عن مراسلة أستاذتها التى نقلوها من المدرسة عقابًا لها على تعليمها البنات أغنيات عاطفية..

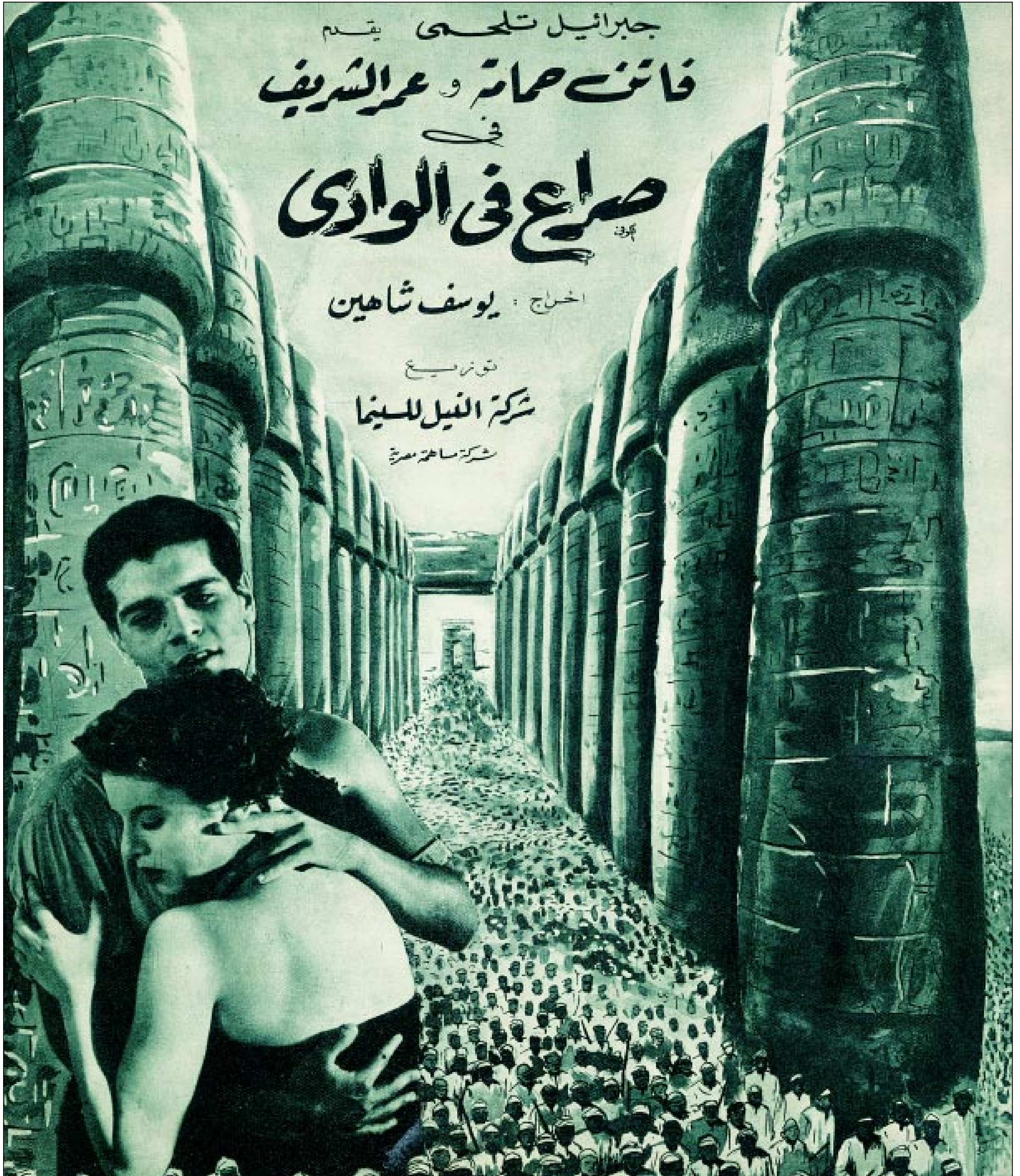
وليس فى الفيلم زمن محدد، ويمكن أن نحس أن أزمنة متعددة، تداخلت معاً، فلو افترضنا أن الأحداث تدور الآن، فى عام ٢٠٠٦ مثلاً، فإن نجوى التى صارت فى الثلاثين من عمرها. كانت تلميذة فى مدرسة الراهبات بالمنيا عام ١٩٩٠، وهو تاريخ لا أعتقد أن أغنية ليلى مراد كانت بهذا التأثير



أفلام الاتحاد "عباس حلمى" تقدم
شادية
بقلم الكاتب الكبير
نجيب محفوظ
عزت العلايلى
بالاشتراك مع
عماد حمدى
ذات الوجهين
بالألوان الطبيعية
سيناريو وحوار
فيصل ندا
مدير التصوير
وديد سرى
إخراج
حسام الدين مصطفى
التوزيع الداخلى
التوزيع الخارجى

ذات الوجهـــين.. ١٩٧٣

صـراع فى الـوادى.. ١٩٥٤





فى المشاهد الأخيرة أيضاً، بدا كيف أن أبطال الفيلم ينتمون إلى الأفلام القديمة، فلم يفكر أى من الطرفين فى أن يأخذ رقم هاتف الآخر لأى سبب من الأسباب



لدى الناس، كما أن الفيلم يدور أيضاً فى العام الذى تم فيه التصوير بدليل أن كاتبة السيناريو لا تعرف أسعار تذاكر الأوتوبيسات، ومن البادى أنها لا تركبها، كما أن السيناريو نفسه قد اعتمد بقوة على مسألة سطوة الراديو، وبرنامج ما يطلبه المستمعون الذى يذيع اسم نجوى، وأستاذتها التى ترسل لها تحية ورداً، فهذا الابن انتمى أكثر إلى الخمسينيات والستينيات، أما الآن. فإن هناك أشياء أخرى كثيرة يسمعها الناس فى راديوهات وكاسيتات سيارات الأجرة. وليس برنامج ما يطلبه المستمعون الذى أذاع بالذات رسالة أبلة تهانى إلى تلميذاتها، مما أكد أنها على قيد الحياة..

كما ذكرنا، فنحن أمام فيلمين الأول يدور فى أعماق المدينة، من خلال نجوى التلميذة التى جاءت، فى زمن المحمول، والتى لا تزال تعتمد على المراسلة على طريقة بطلة رواية «وقائع موت معلن عنه» لماركيز، التى أرسلت لزوجها الذى هجرها عشرات الرسائل التى تم لفها فى «أستيك»، ونجوى هذه التى تنجح فى إصلاح محمول، فإنها لم تسع حتى لأخذ رقم تليفونه إلا فى المشهد الأخير من الفيلم، وهى تحفظه عن ظهر قلب..

نجوى هذه جاءت من المنيا، حيث رأينا النيل، والمدرسة، إلى القاهرة. عبر قطار، ومعها زميلاتها فى المدرسة، تعمل مدرسة، وسوف يقام فى مدرسة الجيزويت حفل غنائى، ونرى تفصيلات الرحلة من خلال القطار، ونزول المجموعة إلى محطة القاهرة لأول مرة، وتبدو الكاميرا هنا مدهشة، وهى ترينا أماكن مألوفة بشكل لم نعتده، ومهما كان اسم المصور، فإننى أعتبرها كاميرا خاصة بالمخرج، الذى صور لنا المنطقة نفسها فى فيلم «يوم حار جداً».. فأحسسنا أننا نراها بأعين ليست هى العيون المألوفة فى وجوهنا، وذاكرتنا.. فالكاميرا تبدو منبهرة انبهار نجوى نفسها، وفى هذا المشهد، وصول المجموعة إلى القاهرة، يتأكد لنا أن الفيلم يدور اليوم، بعد أن تم التخلص من تمثال رمسيس. ثم تبدأ رحلة الفتاة داخل المدينة..

وأمام هذه الرحلة فى أدغال القاهرة، رؤية مختلفة، والإيقاع المدهش، الحميمى لتصوير المدينة، فإن السيناريو يحدث تقاطعاً مع الشخصية الرئيسية الأخرى فى الفيلم يحيى (خالد أبو النجا)، لنرى تفصيلات حياته فى شقة مصر الجديدة التى سوف تقصدها نجوى، وفى هذه



أمـــواج بـــلا شـــاطئ.. ١٩٧٦

المشاهد نحس أننا نشاهد مسرحيات الفصل الواحد، بشكل متكرر، تعتمد على الحوار الطويل، وعلاقة يحيى بزميلته فى العمل، ونعرف تفاصيل طويلة، مملة، عن هذه العلاقة يمكن اختصارها كثيراً، فهى مطلقة تؤمن أنه «لو تزوجنا، فالأمور التى فيما بيننا سوف تفسد».. فهى تأتيه إلى شقته لقضاء وقت ما ثم تذهب، وفى ديكور الشقة، نرى ديكور للوحة النمساوية الشهيرة «القبلة» دون أن نعرف هل هى تخص أبلة تهانى. أم تخص يحيى. فهى ثقافة مصرية مهمة تعكس ذوق صاحبها، خاصة أن يحيى الذى يعمل فى البورصة، ليست له أى اهتمامات فنية، من أى نوع، هو مجرد موظف لا أكثر، يرتكب خطأ، كاد أن يؤثر فى مستقبله المهنى..



لذا، فإنه أمام حيوية دهشة نجوى بوصولها القاهرة ومشاهدتها لبعض معالمها، خاصة عمارة الإيموبيليا التى تسكنها ليلى مراد مع أنور وجدى، فإن المشاهد التى تعبر عن إيقاع حياة يحيى، تبدو رتيبة، رتابة أفكاره، حتى وإن كانت تأتيه عشيقته الفاتنة داليا، لتكسر حدة ملله، وليدور بينهما نقاش طويل، أطول بكثير من علاقتهما فى الفراش. هو محبوس فى هذا المكان، لا يخرج منه إلا للعمل وسوف يستخدم الدراجة البخارية فيما بعد ليخرج إلى المدينة مصاحباً نجوى.. حتى الأماكن التى يذهب إليها فهى أماكن مغلقة مثل صالات البلياردو، تدور فيها حوارات أشخاص يعيشون فى رتابة، حتى وإن كانت العلاقات مع النساء هى هاجسهم..

وأمام بساطة القصة، فإن الفيلم يحاول إيجاد حوادث أخرى جانبية، مثل نزول نجوى إلى بيت مغتربات، وهناك تلتقى بقصص ونماذج تصنع قصصاً إضافية فى الوقت القصير الذى عليها قضاؤه فى المدينة، مثل رضوى التى تنام فى الغرفة نفسها، والتى تنتحر بتناول أقراص دواء بسبب قصة حب فاشلة، مما يوسع ما يسمى بالزمن الدرامى، وعلى الجانب الآخر، فإن الفيلم يضيف شخصية شقيق صاحب المنزل الذى يسكن به يحيى، والذى يفرد له السيناريو مشاهد طويلة، أقرب إلى الفصل الواحد كى يتحدث عن حبه لتهانى، ويعود الفيلم إلى نجوى كى يضيف قصة أخرى، كى يجعلها تبقى لأطول فترة بالقاهرة، حتى تتبلور مشاعرها العاطفية تجاه يحيى، وهى قصة غير متوقعة، حين يطلب رجل من نجوى أن تبحث عن زوجته فى دورة المياه، وعندما تدخل تكتشف أن الزوجة تلد، ولا أعتقد أن مثل هذا الحادث يمكن أن يؤخر فتاة عن السفر إلى الصعيد، باعتبار أن أناساً كثيرين قد تولوا هذا الأمر، أى أنها لم تكن أحدها، ومن الطبيعى أن تنسحب. لكنها السينما التى يجب أن تكلم لنا هذه القصص، كى تعود إلى بيت المغتربات مرة أخرى، ونشاهد قصصاً إضافية كثيرة..

وقد زاد عدد هذه القصص الجانبية، لدرجة أن شقة مصر الجديدة، قد ابتعدت تماماً عن الأحداث، وهى التى صورها الفيلم على أنها شقة عفاريت، أو ما شابه، ومن هذه القصص ما يدور فى بيت المغتربات، وهكذا، فقد بدا الجزء الأول من الفيلم براقاً، لامعاً، ثم انطفأت جذوته وسط كل هذه الثرثرة، والعلاقات المألوفة، والقصص الروتينية، فالمتفرج يعرف سلفاً، من خلال الحدوتة أن قصة حب سوف تنمو فى هذه الفترة القصيرة بين يحيى ونجوى، وأن علاقة الأول بزميلته الحسناء المتحررة داليا سوف تنتهى، مثل الحوار الممل جداً. الذى يدور بين نجوى ويحيى فى المصعد الذى توقف فجأة، فصنع ما يشبه الفيلم القصير، أو المسرحية ذات الفصل الواحد، ولعل من شاهد فيلم «الأسانسير» القصير، وما حدث به أثناء عطله، وما حدث فى مصعد بيت مصر الجديدة، يكتشف الفارق فى حيوية الكتابة والتمييز..

أما المغامرة الليلية التى قامت بها نجوى مع يحيى، وذهابه معها إلى مبنى الإذاعة، التى يصر المخرج والفيلم أن لهما تأثيرا حتى الآن فى حياة الناس، فإنها تبدو محاولة جديدة من المخرج للخروج من «حلقة» شقة مصر الجديدة، وفى مكان هادئ تتحدث نجوى عن سبب رفت أبلة تهانى من المدرسة، وكيف عرفت الحب وهى فى الرابعة عشرة من عمرها لأول مرة. وأن أغنية «قلبى دليلى»، كانت سبباً فى إظهار هذا الحب، ونكتشف فجأة أن هذه الفتاة الصعيدية الثلاثينية، بدأت تتحدث بجرأة عن مشاعر الحب وهناك فى هذه المشاهد أحاديث بين الطرفين، فى مطاعم، وكازينوهات، يجلس يحيى على طرف، وهى أمامه، وهات يا «رغى»، قد يكون هذا الرغى صورة من الواقع، ومحمد خان لا يحتاج إلى من يخبره الفرق بين أحاديث العشاق حول الموائد فى كازينوهات الواقع، وكيف يمكن لهذه الأحاديث، وما أكثرها، أن تصور فى فيلم يحتفل بالمدينة..

وفى المشاهد الأخيرة أيضاً، بدا كيف أن أبطال الفيلم ينتمون إلى الأفلام القديمة، فلم يفكر أى من الطرفين فى أن يأخذ رقم هاتف الآخر لأى سبب من الأسباب، وقد أدى خالد أبو النجا مشهد النهاية مرتين فى العام نفسه، حيث رأيناه أيضاً يجرى وراء حبيبته، ليلحق بالقطار فى فيلم «لعبة الحب» وها هو يكرر الأمر نفسه فى فيلم «زوجة رجل مهم» إلى زمن عبد الحليم حافظ..

مثلما بدأنا الحديث، فالمدينة واسعة اتساع الأفلام، والسينما تظل تنهل قصصها من المدينة، وتمتلئ الصالات بالمشاهدين، من كل الأعمار لتظل السينما دوما شاهداً: كيف كانت صورة المدينة فى كل الأزمان.. ■



العقـــل العـــربى.. ومجتمـــع المعـــرفة!

إن جوهر الثقافة العربية يتمثل فى قدراتها على الحوار مع الآخر واحتوائه، واستيعاب الوافد وهضمه، والاستفادة من المختلف، والتعامل مع المغاير، هكذا اتسع نسيج الفكر الإسلامى ـ مثلا ـ ليحتوى بداخله فلسفة يونانية ذات عقيدة مختلفة تماما، إذ ترجمها، وشرحها، واتفق معها تارة، واختلف معها تارة أخرى



زكـــــــى ســــالـــم

■■ صدر ـ فى جزأين ـ عن سلسلة «عالم المعرفة» كتاب من أهم الكتب التى ظهرت فى السنوات الأخيرة، إذ يتناول مشكلة «العقل العربى» فى مواجهة ظاهرة الانفجار المعرفى، وهل نحن ـ العرب ـ نواجه عصرا جديدا تماما بعقل قديم غاية فى القدم؟

والعنوان الكامل للكتاب: «العقل العربى ومجتمع المعرفة ـ مظاهر الأزمة واقتراحات بالحلول». وهذه الدراسة تحفز عقل المثقف العربى على كسر احتكار المتخصصين فى مجالات معرفية عدة، من خلال الإدراك الواعى للمفاهيم المحورية لعلوم العصر، وهذه المعرفة عبر التخصصية (Inter-disciplinary) هى وسيلتنا الوحيدة لتحقيق التكامل المعرفى، أو مجتمع المعرفة العربى.

وهذا التنوع المعرفى، أو تعدد المجالات العلمية، من علوم طبيعية، وإنسانية، وصورية، ومعارف تكنولوجية، وأجناس الفنون المختلفة، هذا الجمع بينها جميعا ـ بفضل تكنولوجيا المعلومات والاتصالات ـ يعد أهم مميزات الكتاب، وهو أيضا ـ وفى الوقت نفسه ـ أهم عيوبه! كيف؟!

لقد استطاع المؤلف ـ بجهد يحتاج إلى مؤسسة علمية ـ أن يلم بكل هذه المعارف والعلوم والفنون والآداب، كما تمكن كذلك من عرضها بطريقة جذابة، ودقيقة، وواضحة لتكون فى متناول القارئ غير المتخصص، أو المثقف العام. وهذه الميزة الكبرى، يقابلها ـ فى الوقت ذاته ـ صعوبة تكاد تصل إلى درجة الاستحالة فى دقة التناول، والعرض لكل هذه التفاصيل العلمية الدقيقة فى مختلف التخصصات، ومن ثم فلابد من وجود بعض الهنات، والتى لم تغب عن ذهن الدكتور نبيل على، وهو يقدم للكتاب، ومن ثم فقد كتب فى المقدمة هذه الكلمات الحكيمة، والمعبرة عن تواضع العلماء: «لابد أن أقر بأن الدراسة الحالية لا تخرج عن كونها محاولة، وأننى على استعداد تام لإعادة النظر فى جميع ما احتوته من آراء ومواقف باستثناء وحيد هو ما يتعلق باقتناعى الراسخ بأنه لا أمل فى إقامة مجتمع معرفى عربى من دون تكامل إقليمى، ولا سبيل لتحقيق هذا التكامل إلا من خلال مدخل ثقافى معلوماتى ينطلق من اللغة العربية بصفتها البوابة الملكية لتحقيق هذه الغاية».



ثمة تصور ـ كما جاء بالكتاب ـ أننا نحمل مخا لم يصنع لعصرنا، مخا توقف تطوره البيولوجى منذ ملايين السنين، وقد تكيفت آلياته لكى تكفل البقاء لإنسان الغاب.. أى أنه ليس مصمما لإدراك الظواهر ذات التطور البطىء والمتراكم.

وللخروج من هذه الورطة أمامنا بديلان:

الأول: تطعيم المخ بمؤازرات إلكترونية، لتقوية مادة المخ (Hardware).

والثانى: إنضاج الشق اللامادى، أى العقل، أو شق البرمجيات (Software).

وهنا أحب أن أوضح طبيعة اختلافى مع هذا التصور القائم على وجود ـ ما أسماه المؤلف ـ فجوة المخ، وفجوة العقل! فنحن، طبقا للحقائق العلمية، نستخدم نسبة ضئيلة جدا من قدرات عقلنا المعجز، فثمة إمكانات هائلة للعقل لم تستغل بعد الاستغلال الأمثل.

وهذا العقل الجبار لا يُخرج مجمل قدراته، ولا يعبر عن كامل إمكاناته، إلا بعد أن يتم تأهيله من خلال برامج حديثة للتربية الصحيحة، ومناهج متطورة للتعليم الراقى، كما لابد أن يتمتع العقل البشرى بالاستقلال والحرية، حتى يتاح له التعبير عن قدراته النقدية، وحتى تتفجر ينابيع إبداعه الخلاق.

وقد تحدث المؤلف عن ثلاثية صنع مجتمع المعرفة، متمثلة فى: العقل الإنسانى، والعقل الآلى، والعقل الجمعى. وذكر «أن ثقافتنا تنزع دوما إلى الإجماع، ولا تستأنس الاختلاف وتضيق ذرعا بمسائل الخلاف». وهذا يعد صحيحا بالنسبة لأوضاعنا الحالية، والمتردية على كل المستويات، ومنها بالضرورة وضعنا الفكرى الراهن، لكن الثقافة العربية والإسلامية ـ عبر تاريخها الطويل ـ تتميز برحابة الأفق واتساعه، إذ روحها جد متسامحة، وتسعى دائما إلى الحوار، وتسمح بالخلاف والاختلاف، ولذلك كثرت الفرق الإسلامية، وتعددت المذاهب الفقهية، وبرزت مدارس مختلفة فى علم الكلام، وتباينت الأطروحات الفكرية للشعراء والأدباء، وتنوعت الرؤى الفلسفية بين فيلسوف وآخر، كما تميزت الاتجاهات الفكرية بين ربوع المشرق والمغرب العربى، واعتصم بعض الصوفية بالكتاب والسنة، وتحرر آخرون من كل شىء فتجلى الشطح بلا حدود.



ومن ثم فقد استوقفتنى طويلا إشارة المؤلف إلى «تيار الغزو الثقافى الجارف». إذ إن هذا الموقف المتوجس من ثقافة الآخر، أو من معتقداته وتقاليده ومعارفه وعلومه يتناقض مع انفتاح مجتمع المعرفة على جميع مناهل العلوم والفنون والآداب، بالإضافة إلى أن جوهر الثقافة العربية يتمثل فى قدراتها على الحوار مع الآخر واحتوائه، واستيعاب الوافد وهضمه، والاستفادة من المختلف، والتعامل مع المغاير، هكذا اتسع نسيج الفكر الإسلامى ـ مثلا ـ ليحتوى بداخله فلسفة يونانية ذات عقيدة مختلفة تماما، إذ ترجمها، وشرحها، واتفق معها تارة، واختلف



العقل العربى ومجتمع المعرفة، مظاهر الأزمة واقتراحات بالحلول (جزآن)
د. نبيل على
عالم المعرفة ـ الكويت ٢٠٠٩



معها تارة أخرى. فالحضارة العربية - حين تألقها - عرفت كيف تتعامل مع الثقافات الأخرى، وكيف تستفيد من علوم الآخر ومعارفه، ولعل أعظم ما يعبر عن جوهر الحضارة العربية والثقافة الإسلامية، هى تلك المواقف الخالدة التى كانت تُبادل فيها الكتب بالأسرى، وحين كانت تزن ترجمتها بالذهب.

يرى الفيلسوف جون لوك أن العقل الإنسانى سيظل ينشد المزيد من المعرفة دون أن يبلغ فى ذلك غايته النهائية. ويشبه كارل بوبر إنتاج المعرفة بحلقات تتوالى إذ تبدأ من البحث عن حل مشكلة، وتنتهى بظهور مشكلة أو مشاكل أخرى، ولا تكمن الخطورة - كما قال مارك توين - فيما لا نعرف، بل فيما نعتقد أننا نعرفه حق المعرفة، ومن ثم فلابد من العمل المستمر على تفنيد أفكارنا، وتنقيح علومنا، وتصويب معارفنا.

وقد تصور إديسون أن اختراعه للجرامفون، سوف يحل مشكلة التعليم، بعدما توافرت أداة لتسجيل المعلومات، ثم جاء من بعده تيم لوى لى - عالم نظم المعلومات الفرنسى - وأقام شبكة للمعلومات العنكبوتية الكونية، وظن أنها سوف توفر المعرفة، وتشيعها بين الناس، وتشجع الجميع على أن يشاركوا فى إنتاجها واستغلالها. لكن أجيال الإنترنت - الآن - تواجه مفارقة الطوفان المعلوماتى، والجدب المعرفى!

ولقد تنبه مفكرو نظم التعليم إلى أن قلة المعلومات أفضل من كثرتها (Less is more) فيركزون فى تقديم المادة التعليمية على المفاهيم الأساسية، والأفكار المحورية. إذ كانت المشكلة فيما مضى هى ندرة المعلومات (Under-information)، أما الآن فالمشكلة هى إفراط المعلومات(Over-information) أو حمل المعلومات الزائدة(Information overload).

فقد تضيع الحكمة فى خضم المعرفة، على حد تعبير تى. إس. إليوت، كما يمكن للمعرفة أن تضيع فى خضم المعلومات، إذ إن المعرفة فى جوهرها ذات طابع جدلى، وهذا ما أبرزته بوضوح تكنولوجيا المعلومات، حيث أثبتت عمليا أنه كلما ارتقت التكنولوجيا زادت قدرتها على أن تؤالف بين ما كان يبدو متناقضا فيما مضى.

ولذلك يطرح مؤلفنا سؤالا مهما: هل سيفلح عقل الإنسان فى أن يرشح ذلك الكم الهائل من المعلومات، مستخلصا منه المعرفة الكامنة فى جوفه، وأن يقطر هذه المعرفة، ويسمو بها إلى مستوى الحكمة، التى تعينه على حل مشكلاته وترشيد قراراته؟



يرى ميشيل فوكو أن واجب الفلسفة الأساسى هو تشخيص الحاضر، ورؤية الماضى من منظور الحاضر. ويمكن لتكنولوجيا المعلومات والاتصالات أن تنقل إلينا نبض هذا الحاضر، كما يمكنها أيضا أن تكون من أنجع أدوات تغييره، إذ إن تغيير العالم هو الهدف الأهم للفكر الفلسفى من وجهة نظر كارل ماركس، ومازال عالمنا فى حاجة ملحة إلى التغيير.

وقد وفرت تكنولوجيا المعلومات، لأول مرة، معملا تجريبيا لنظرية المعرفة، ووفرت تكنولوجيا الواقع الخائلى (Virtual Reality) بيئة تسمح باختبار الأطروحات الفلسفية، أو الأدبية، أو الفنية، أو غيرها.

وقد توقف الدكتور نبيل عند ما شهده القرن العشرون من فلسفتين قائمتين على العلم، وتعدان ثورتين معرفيتين، الأولى فى فيزياء الكوانتم، والأخرى فى البيولوجيا الجزيئية.

وفيزياء الكوانتم تدرس طبيعة المادة والطاقة على مستوى العناصر الذرية الأولية مثل الإلكترونات والبروتونات والنيترونات والجسيمات دون الذرية مثل الكواركات.

إذ إن سلوك هذه العناصر المتناهية الصغر لا يمكن ملاحظته، وكثيرا ما يتنافى مع الحس الطبيعى الدارج. فثمة عشوائية فى حركة الجسيمات المتناهية الصغر التى لا يمكن تحديد موضعها وسرعتها بصورة قاطعة مهما كانت دقة وسائلنا فى قياسهما، إنه لا يقين كامن فى عمق المادة الملغزة. وقد نجحت فيزياء الكوانتم فى التنبؤ بوجود المادة المضادة (Anti-matter)، وفى فهم النشاط الإشعاعى الذى قاد إلى الطاقة النووية. أما البيولوجية الجزيئية فتدرس البنية الداخلية الدقيقة للأعضاء الحيوية، والآليات التى تحكم نموها وضمورها، وذلك على المستوى الجزيئى. وقد أحدثت البيولوجية الجزيئية ثورة فى دراسة الكائنات الحية باكتشافها الحلزون المزدوج (Double helix)، وحدة بناء جزىء الوراثة، واكتشاف لغة الجينات التى يصاغ بها السرد الوراثى أو الجينوم.

ويؤكد المؤلف على دور تكنولوجيا المعلومات فى نزوع المعرفة الإنسانية إلى التكامل المعرفى، والتجانس الإبستمولوجى، من خلال تبادل المناهج والوسائل والتآزر التلقائى فى حل الإشكاليات.

ويركز المؤلف على علمين أساسيين من علوم المعرفة، وهما: علم اجتماع المعرفة، وعلم نفس المعرفة.

ويتناول علم اجتماع المعرفة العلاقة التبادلية بين المعرفة والمجتمع، وأى منهما له الأولية على الآخر. فالمعرفة التربوية مسألة اجتماعية وسياسية، وليست مسألة فنية وموضوعية فقط. وفى عصر المعلومات لابد من إتاحة فرص التعلم المستمر مدى الحياة.

أما علم نفس المعرفة، فيسعى إلى توصيف وتفسير العمليات الذهنية الباطنية التى تمر بها المثيرات المدركة وصولا إلى توليد الاستجابة لها لدى المتلقى. ويعرف هذا بالإدراك المعرفى (Cognition).

وإذا نظرنا إلى عملية اكتساب الأطفال للغتهم الأم - بناء على نظرية ناعوم تشومسكى - نجدها تتم بطريقة تلقائية طبيعية، فاللغة - غريزة - تنمو فى عقولنا، والعضو اللغوى ينمو فى الطفل كما تنمو بقية الأعضاء. وثمة مبادئ عامة مشتركة بين جميع اللغات، تشكل ما يعرف بالنحو العام (Universal grammar).

وقد أشار الدكتور نبيل إلى «اقتصاد الانتباه»، فالانتباه سلعة نادرة، وقدرة الإنسان على تلقى المدركات الحسية محدودة بقيود فسيولوجيا الجهاز العصبى، وثراء المعلومات الحالى يقابله فقر فى الانتباه! ويبدو أثر ذلك فى ظاهرة «التلوث الرقمى» بسبب قمامة البريد الإلكترونى، ونفايات سيل الإعلانات والنشرات التى تقذفنا بها مواقع الإنترنت، بالإضافة إلى ضوضاء الويب، ويقصد بها إفراط محركات البحث الحالية فى إمطار طالب البحث بفيض هائل من النتائج يتضح أن معظمه لا يهم الباحث.

ومشكلة حمل المعلومات الزائد تتفاقم حدته بفعل زيادة قدرة تكنولوجيا المعلومات والاتصالات على توليد المعلومات بمعدلات متصاعدة، فسرعة الكمبيوتر تتضاعف كل ١٨ شهرا، وسعة تخزين المعلومات كل ٩ أشهر، وسرعة تبادلها كل ٦ أشهر، وفى كل يوم ينضم مائة ألف عضو جديد إلى نادى الإنترنت، ويضاف إليها مليون صفحة جديدة، بالإضافة إلى ما يعرف بمستودعات البيانات (Data warehouses) إنه ماموث معلوماتى هائل الضخامة. فقد قامت الإنترنت على فكرة محورية هى «التشعب النصى» بمعنى أن كل وثيقة يمكن أن تحيل إلى وثائق أخرى من خلال حلقات الربط التشعبى.

وهذا كله يعيدنا إلى أهمية العمل على ترشيح هذا الطوفان الهائل من المعلومات المتنامية، وجمعها معا بالمعارف عبر التخصصية، أى التكامل



تضيع الحكمة فى خضم المعرفة، على حد تعبير تى. إس. إليوت، كما يمكن للمعرفة أن تضيـع فى خضـم المعــلومات



المعرفى، بحيث تشكل رؤية شاملة للتعامل مع مشاكل عالمنا العربى.

«نظرية الرجل العظيم» أو العبقرى الفرد الذى يخرج علينا، من معمله أو مكتبته، بفكرة فذة يتغير على أثرها العالم فجأة بين عشية وضحاها، وتتم إزاحة البارادايم (Paradigmatic shift) إذ يستيقظ المتخصصون ليجدوا أنفسهم يعملون فى إطار فكرى مغاير تماما، ويكاد يعلن القطيعة المعرفية مع ما قبله، كما فى حالة أينشتين وغيره. هذا التصور الفردى للإنجازات العلمية، لم يعد له وجود، إذ إن البحث العلمى يقوم الآن على مجموعات من العلماء والتكنولوجيين. وهذا يتيح تداخل التخصصات المعرفية وتعددها. (Inter & multi - disciplinary) فظهرت فروع علمية بينية بين فرعين معرفيين، وأخرى ما فوق تخصصية، قادرة على اختراق الحواجز الفاصلة بين فروع العلوم والفنون، ويمكن وصفها بالعلوم الميتامعرفية (Metacognitive).

ولا أحد ينكر أهمية التخصص، فلولاه ما أنجز العلم كل ما أنجزه، لكن الأمر لم يعد يتحمل المضى فى مسارات التخصص المتشعبة، والتى تزداد ضيقا يوما بعد يوم، من دون وقفة يبحث فيها العلم عن موقف وسط يوازن بين عمق التخصص رأسيا، وشمولية النظرة أفقيا. وتكنولوجيا المعلومات والاتصالات تؤدى دورا أساسيا فى الربط بين التخصصات المختلفة.

ويقول المؤلف: «العقل ولا شىء سواه هو الذى يشكل رؤيتنا، ويولد رغباتنا، ويتحكم فى مواقفنا وسلوكنا»..! وهذا يخالف ما نراه فى سلوك الغالبية العظمى من البشر. إذ مواقفهم تؤكد لنا أنها لا تنبع ـ فقط ـ من العقل. فرغباتهم تنبع أساسا من غرائزهم، ومواقفهم كثيرا ما تتغير ـ فى الأعم الأغلب ـ طبقا لمصالحهم الشخصية، أما سلوكهم فيتوقف على أمور عدة، ومن بينها ـ بالتأكيد ـ العقل، ولكن دوره قد يتراجع بالمقارنة مع دور الغرائز أو الانفعالات النفسية.

ثم يقول المؤلف إن عقل الإنسان ليس مصمما أصلا لكى يعطينا صورة صحيحة ومكتملة عن الواقع، وقد كتب على الإنسان أن يرى واقعه دوما من خلال عدسة مشوهة. وهذا ـ فيما أرى ـ لا ينطبق على كل البشر، ولا فى جميع أحوالهم، ولا فى كل الأوقات، ومن ثم فهذا التعميم لا يتسم بالدقة، إذ لم يكتب الضلال على بنى البشر جميعا، فثمة من وهب عقلا سليما، وبصرا صحيحا، وبصيرة نقية أيضا.

وهذا يقودنا إلى أهمية دراسة مهارات التفكير عموما، والتفكير النقدى بصفة خاصة. ولنتوقف هنا عند قول المؤلف: لا يوجد فى أى من جامعاتنا مقرر واحد للتفكير النقدى! فى حين أن مقررا واحدا لتدريس التفكير النقدى لأجدى نفعا من أربع سنوات من التعليم الجامعى، ولن تثمر جهود إصلاح التعليم من دون أن تتمحور حول تنمية مهارات التفكير. ولنتأمل فى حكمة كونفوشيوس التى تقول: «إن تعليما بلا تفكير جهد ضائع، وتفكيرا بلا تعليم أمر محفوف بأشد المخاطر».



ونظرا لكثرة أخطاء التفكير، وسهولة الوقوع فيها، قدم الدكتور نبيل قائمة بعلل التفكير وآفاته:

الهجوم الشخصى Ad hominem: مهاجمة الشخص لا تفنيد ما يدعيه، والتشكيك فى دوافعه ونواياه والتنديد بأفعاله وعلاقاته.

برهنة الصواب بخطأ مزدوج Two wrongs a right: تبرير الخطأ بخطأ مكافئ أو يفوقه إثما.

اللجوء إلى الخوف (peal to fear): استخدام سلاح التخويف والتهديد لفرض القبول بفكرة أو موقف معين من دون توافر ما يبرره.

اللجوء إلى السلطة (Appeal to authority): بالإحالة إلى سلطة موثوق بها كالعلماء والخبراء، أو إلى مصادر من ذوى السلطات من دون تقديم ما يبرر الارتكان إليها.

اللجوء إلى الجهل (Appeal to ignorance): عند الحكم بصحة زعم ما لعدم توافر ما يقوضه، أو العكس عند الحكم بخطأ زعم ما لعدم توافر ما يدعمه.

اللجوء إلى الشفقة (Appeal to pity) : استخدام الاستعطاف بالإشارة إلى أمور أو مواقف منقطعة الصلة بالمسألة المطروحة.

اللجوء إلى الناس (Appeal to people): الإشارة إلى ما يتفق عليه معظم الناس كدليل على صحته القاطعة.

اللحاق بالركب (Bandwagoning): الدعوة بقبول الأمر حتى يحذو حذو من سبقوه من ذوى المكانة والرأى السديد.

إضعاف الخصم افتعالا (Straw man): إضعاف الخصم حتى تسهل هزيمته بتشويه رأيه، وعدم الأمانة فى عرض موقفه.

التحايل بالتشتيت (Red herring): بإقحام المتلقى فى أمور جانبية لا تمت بصلة للمسألة قيد البحث.

المصادرة على المطلوب (Begging the question): بجعل المقدمات تفترض صحة نتائجها.

خلل بدليلين لا ثالث لهما (Either/or fallacy): بافتراض بديلين لا ثالث لهما، أحدهما صائب والآخر خاطئ، وفى هذا تبسيط مخل يلغى المناطق الرمادية فى عصر نهاية الأضداد.

طرح الأسئلة المستترة المغرضة (Loaded questions): استخدام أسئلة تنطوى على وجهة نظر سلبية.

خلل التعليل الخاطئ (False causation): فإذا وقعت حادثة قبل أخرى، نستنتج خطأ أن الأولى سبب الثانية.

التعميم المجازف المتسرع (Hasty generalization): التسرع فى إقامة مزاعم من دون كفاية من الشواهد والأدلة.

الحكم المقولب (Stereotyping): هو وصف يصم جماعة معينة بصفات تتسم بالتعميم والمجازفة.

التعميم الكاسح (Sweeping generalization): إصدار أحكام مطلقة من دون كفاية من الشواهد والأدلة.

المنحدر الزلق (Slippery slope): توقع سلسلة متعاقبة من الأحداث، غالبا ما تنتهى بنتيجة كارثية إذا لم يُتخذ الأمر المقترح فى حينه.

تراكم الفروق الصغيرة (Accumulation of minor differences): حين تُسرد حالات عدة، بينها فروق صغيرة، بيد أن تراكمها يمثل فرقا له وزنه بالنسبة إلى الأمر المطروح.

التناظر الخاطئ أو الضعيف (Wrong or weak analogy): عقد تناظر بين أمرين أو أكثر، متناظرين فى جوانب عدة، دون أن تشمل أمورا يجب أخذها فى الاعتبار.

عدم اتساق النتائج مع المقدمات (Disambiguation) غياب الرابط المنطقى بين المقدمات والنتائج.

التناقض الذاتى (Self Contradiction): طرح مقدمتين لا يمكن أن تكونا صحيحتين فى آن واحد.

التبسيط الزائد (Over simplification): اختزال العلاقة بين العلة والأثر.

خلل مادام الكثير فمن ثم أى حالة أخرى (If many then any fallacy): إذا كانت هناك خاصية تتوافر فى كثير من الحالات، فهى متوفرة فى أى حالة أخرى.

التقاط التوافه (Quibbling): بتصيد الأخطاء الصغيرة فى وجهة نظر الآخر، والتى لا تؤثر فى صواب ما طُرح.





حكمة كونفوشيوس التى تقول:
«إن تعليما بلا تفكير جهد ضائع، وتفكيرا بلا تعليم أمـــر محفـــوف بأشـــد المخاطـــر»



العقـــل العــــربى ومجتمــع المعــرفة



خلل تكديس المسائل (Stacking): بالسؤال عن أشياء مختلفة فى سؤال واحد يفترض أن له جوابا واحدا.

خطأ النظرة الانتقائية (Selective perception) : أو التفكير بالتمنى (Wishful thinking) فينتقى كل ما هو ملائم لغايته، ويتغاضى عن كل ما لا يتفق معها.

خلل كونه لا واقعيا (Virtually fallacy): مادام الأمر افتراضيا، فلا ضرر متوقعا يمكن أن ينتج عنه.

إساءة استخدام اللغة: فاللغة لا يمكن أن تتطابق مع الواقع، ونظرا لمرونتها الهائلة، فهى قابلة لإساءة الاستخدام، سواء بافتعال الغموض (Obfuscation)، أو التلطيف اللغوى (Euphemism) باستخدام تعبير محل آخر، أوالتغليظ اللغوى بغرض التهويل، أو استغلال لبس الكلمات (Equivocation) فمعظم الألفاظ تحتمل أكثر من معنى، أو التكلف فى استخدام الاستعارة، أو ادعاء الأهمية.

ولنتذكر هنا قول جورج أورويل: «لا شيء أفسد اللغة قدر ما أفسدتها السياسة». وهذا أيضا ما تقوم به كثير من أجهزة الإعلام الحكومية، والخاصة، العربية، وغير العربية، فكثيرا ما تفسد اللغة، حين تسعى لتضليل الناس بالكلمة والصورة، وكذلك كل ما يعرض - من كم هائل من المعلومات والمعارف والأفكار والأخبار - على شبكة المعلومات الدولية، إذ يحتوى على الغث والسمين، الصادق والكاذب، الحقيقى والمزيف، ومن ثم تبرز أهمية العقل النقدى القادر على فحص كل ما يقدم إليه بدقة، ونقده، وتفنيده، وتمحيصه لاستخلاص جوهر الحقيقة من بين أكوام هائلة من أنصاف الحقائق، أو الأكاذيب!

وإذا كان التفكير النقدى يعد جناحا للعقل المحلق فى سماوات العلم والمعرفة، فالجناح الآخر هو التفكير الخلاق القائم على تجاوز الواقع، والخروج من اطر التفكير التقليدية، بالمغامرة المدروسة، والإبداع المنهجى.

ومشاكلنا الراهنة على درجة شديدة من التعقيد والتشابك، مما يستلزم لحلها أفكارا ثورية خلاقة غير تقليدية من جهة، ومعرفة عبر تخصصية تتجاوز النظرة الضيقة للتخصص الدقيق من جهة أخرى.

وقد ظهر من خلال تكنولوجيا المعلومات والاتصالات ما يعرف« بالنص التشعبى» (Hypertext) وتمثل شبكة الإنترنت أوسع تطبيق له، من خلال الربط بين مواقع الشبكة وما تحتويه من وثائق إلكترونية. فالنص التشعبى يسمح للقارئ بأن ينفذ إلى النص من مداخل مختلفة بفضل الطابع الشبكى الذى لا يعرف بداية ولا نهاية. مما يعضد من قدرة العقل على إدراك الواقع المعقد بصورة أدق وأوضح، وهنا يأتى دور المبدع ذى البصيرة النافذة القادرة على اختراق حجب هذه العتمة المعلوماتية.



ويرى المؤلف أن تكنولوجيا النص التشعبى لابد أن تكون لها انعكاساتها على منظومة الثقافة، فى أصعدة المعرفة والأدب واللغة والسياسة، ونشر قيم الديمقراطية وتعميقها. كما أن اتساع نطاق البحث والتفرع الذى يوفره النص التشعبى، سيكون له دور فى دعم حوار الثقافات وتلاحقها، فالنصوص لن تتناص مع نصوص ثقافتها فقط، بل سيمتد تناصها إلى نصوص الثقافات الأخرى.

ويعرض المؤلف، من خلال رؤية معلوماتية، إطارا عاما لثلاثية العقول التى تتضمن العقل الإنسانى، والعقل الآلى، والعقل الجمعى وليد احتشاد العقول الإنسانية يؤازره احتشاد العقول الآلية.

فثمة ثنائية للذكاء والذاكرة، ولكل عقل من العقول الثلاثة ذكاؤه وذاكرته. وثمة ثنائية المادى واللامادى، والتى تنطبق أيضا على العقول الثلاثة، وتتمثل بالنسبة للعقل الإنسانى فى ثنائية المخ والعقل، التى تناظرها بالنسبة للعقل الآلى ثنائية العتاد (Hardware) والبرمجيات (Software)، وللعقل الجمعى ثنائية الاتصالات والتواصل، حيث تمثل الاتصالات الشق المادى المكون من شبكة الاتصالات السلكية واللاسلكية، أما الشق اللامادى فيمثل التواصل، ويقصد به الحوار المباشر بين الوثائق الإلكترونية، والتفاعل بين الأفكار وأصحابها.

والذكاء - بوجه عام - هو القدرة على التعامل مع المعلومات والمعارف من أجل ترشيد الآراء، وحل المشكلات، والتكيف مع الجارى والطارئ، والذكاء العاطفى هو القدرة على فهم انفعالاتنا وانفعالات الآخرين، أما ذكاء السلوك فهو أداة الإنسان للتكيف مع محيطه الاجتماعى، والتوفيق بين توقعاته وحقائق واقعه، وتحمل مسئولية أقواله وأفعاله.

وثمة مراكز فى المخ تتحكم فى جميع وظائف الجسم، وقد حُددت مواضع هذه المراكز على نصفى المخ الأيمن والأيسر. ويمكن القول أن النصف الأيسر عقلانى تحليلى حرفى يتعامل مع الجزئيات، وعلى العكس النصف الأيمن غرائزى يتعامل مع الكليات، ويعمل بصورة أكثر تحررا. وقد اعتبر النصف الأيسر - حتى وقت قريب - هو صانع الحضارة الإنسانية، وهُمش النصف الأيمن إلى حد أن اعتبره البعض من بقايا حضارات غابرة، ورواسب لوظائف ذهنية تم الارتقاء بها، وفى ثلاثينيات القرن الماضى أثبت العالم الفرنسى بوول بروكا أن النصف الأيسر يتضمن مركز التحكم فى اللغة، ومن ثم يمنح البشر أهم سمات تميزهم.

إلى أن جاء روجرز سبرى - الحائز على جائزة نوبل فى الطب - وأكد على أهمية النصف الأيمن بصورة كادت تفوق نظيره الأيسر، فهو يعتمد على الحدس بصورة أساسية، ومن ثم فهو القادر على عقد المقارنات، واستخلاص النتائج، وإحداث المفاجآت، وهذا ما عرف بـ«ثورة النصف الأيمن» الذى يستوعب الشعر، ويدرك ظلال المعانى، ويستخلص المغزى من صخب الألفاظ وشواش التفاصيل.

ومن ثم فعلى المسئولين عن التعليم فى بلادنا أن يسعوا إلى تحقيق نوع من التكامل بين نصفى المخ، من خلال تنمية القدرات المعرفية لكل جانب من جانبى المخ البشرى.

وعند الحديث عن العقل الجمعى، تعرض الدكتور نبيل لدور التليفزيون فى مجتمعاتنا العربية، وكيف أسأنا استخدامه، وعجزنا عن إنتاج محتوى تليفزيونى مفيد يملأ قنوات فضائياته، وأضحينا ضحية لما نستورده من إنتاج تلفزيونى. وهنا لابد من الإشارة إلى أمر مهم أغفله المؤلف، وهو دور الحكومات الديكتاتورية فى التضليل الإعلامى لشعوبها من ناحية، وجهدها المتواصل فى تسطيح العقل الجمعى من ناحية أخرى.

وكلما ارتقت التكنولوجيا عظم نفعها لو أحسن استخدامها، وعظمت أضرارها لو أسأنا ذلك، ويبدو هذا بوضوح عند النظر إلى إمكانات الإنترنت، وقدرتها على البث على نطاق عريض (Broad casting)، والبث الضيق (Narrow casting)، والبث المصوب (Point casting).

وإذا نظرنا إلى أنواع التواصل الجاد عبر الإنترنت، سنرى أن مشاركة العرب محدودة للغاية، مع ضعف واضح فى مهارات التواصل، مما يؤثر على صنع عقل جمعى قادر على أن يتعايش، أو يتحاور مع عقول جمعية أخرى.

كلما ارتقت التكنولوجيا عظـم نفعها لو أحسـن استخدامها، وعظـمت أضـرارها لو أسـأنا ذلك



إلا أن المدونات التى انتشرت بسرعة فى مجتمعاتنا العربية، قد أظهرت ـ فى الوقت ذاته ـ ظمأ شديدا يبديه الجميع لحرية التعبير، والرغبة فى المشاركة، تعويضا عن مشاركة سياسية متعذرة أو محظورة، كما أظهرت المدونات مدى حدة التنوع الثقافى الفردى، حتى ما بين أفراد الجماعة الواحدة.

وكما يقول المؤلف فمجتمع المعرفة من أجل الجميع، ومن صنع الجميع، وهو مجتمع التفرد لا الانفراد، وألفة الصفوة مع العامة، والتجمع مع التنوع، والوفاق مع قبول الاختلاف.



وينظر الدكتور نبيل إلى اللغة باعتبارها نهجا معرفيا عاما يمكن تطبيقه فى مجالات معرفية مختلفة، وقد طبق هذا النهج على التنظير للأدب بصفته نموذجا لدور اللغة فى التأسيس النظرى فى مجال علوم الإنسانيات. فالأدب ممارسة لغوية فى المقام الأول، إذ إن اللغة أداة للعلم، أما الأدب فقابع بكليته فى مملكة اللغة. وبينما يتطلب العلم لغة منضبطة، يفجر الأدب اللغة من داخلها.

ويغفل البعض عن حقيقة أن اللغة غير شفافة على الإطلاق، فهى زائغة، ومحملة بالأيديولوجيا، مما يجعلها قادرة على الكشف عن مشاعرنا وأفكارنا، وقادرة فى الوقت ذاته على إخفاء حقيقة المشاعر والأفكار! إذ إن اللبس، والغموض، وعدم التحديد خصائص أصيلة فى منظومة اللغة.

ومع ذلك تبقى الكتابة هى الأداة المثلى لصياغة الأفكار وتحليلها، وهنا يقول المؤلف: «تكمن روعة الأدب فى قدرة بلاغته على خلق التوتر من خلال اللجوء إلى أشكال الحيود تحايلا على قيود النحو وتجاوزا لمعنى المعجم». ثم يقول فى موضع آخر: «تكمن روعة الأدب فى استغلال العلاقة السلبية التى تربط البلاغة مع ما دونها من مستويات اللغة». والحقيقة ـ فيما أرى ـ أن روعة الأدب وعظمته لا يمكن حصرها فى وجود عنصر ما، كما لا يمكن تثبيتها فى مجموعة من العناصر مهما كانت مهمة، وكأنما من يلتزم بتحقيق هذه العناصر أو الشروط، يمكنه أن ينتج أدبا خالدا أو عظيما! إذ إن الأدب فى جوهره هو تعبير صادق، ورائع عن تجربة إنسانية حقيقية، مع خيال خلاق، وبصيرة ثاقبة، ومن ثم لا يمكن أبدا أن نحدد مجموعة من العناصر، أو الشروط إذا تحققت تجلت بسببها روعة الأدب وعظمته.

والعالم الذى ندركه فى أذهاننا، يمكننا أن نتمثله كعالم من العلامات، فالعلامة وسيط مهم للتواصل، وقد جاء فى القرآن الكريم: «وعلامات وبالنجم هم يهتدون» (سورة النحل ـ آية ١٦). وحين ظهر علم السيميوطيقا (Semiotics) على يد فرديناند دى ـ سوسير، ركز على وظيفة العلامة لا ماهيتها. فالسيميوطيقا تصبو إلى تمثيل العالم بصورة أدق، ووضع خارطة له تتسم بالوضوح، ومداومة التجدد، دون أن تختزل تعقد الواقع، ودون افتراض أوضاع مثالية (Idealization). وغاية السيميوطيقا أن تجعل رؤيتنا للواقع أكثر صفاءً وعمقا من دون اختزال أو تحريف.

وهذا يعيدنا إلى أزمة لغتنا العربية من حيث تعليمها وتعلمها: منهجا، ومعلما، ومتعلما. فعلاقة لغتنا بتنمية القدرات الذهنية والإبداعية، مهملة تماما! برغم ما حققه فكرنا العربى التكنولوجى من إنجازات فى مجال معالجة اللغة العربية حاسوبيا على مستوى الحرف والكلمة والجملة، مع تطوير نظم آلية للصرف العربى، والنحو العربى أدت إلى تطوير نظم لتشكيل النصوص العربية تلقائيا.

ويختتم الدكتور نبيل كتابه بالتأكيد على أهمية مشروعه الفكرى، فلا مجتمع معرفة عربيا من دون تكتل عربى على أساس ثقافى يتخذ من اللغة العربية منطلقا محوريا له. فاللغة بأدواتها وإشكالياتها وفنونها: أدبا وشعرا، هى وسيلتنا لإصلاح عقولنا: إنسانية وآلية وجمعية، وتنمية تفكيرنا: نقديا وإبداعيا، ولزيادة إسهامنا فى إنتاج المعرفة: فلسفة وعلما وفنا وتكنولوجيا. ■

كتاب الزاوية



حسان بن ثابت

المدائـــح النبويـــة

إن الذوائب من فهر وإخوتهم — قد بينوا سنة للناس تتبع
يرضى بها كل من كانت سريرته — تقوى الإله وبالأمر الذى شرعوا
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم — أو حاولوا النفع فى أشياعهم نفعوا
سجية تلك منهم غير محدثة — إن الخلائق فاعلم شرها البدع
لا يرفع الناس ما أوهت أكفهم — عند الدفاع ولا يوهون ما رفعوا
إن كان فى الناس سباقون بعدهم — فكل سبق لأدنى سبقهم تبع
ولا يضنون على مولى بفضلهم — ولا يصيبهم فى مطمع طبع
لا يجهلون وإن حاولت جهلهم — فى فضل أحلامهم عن ذاك متسع
أعفة ذكرت فى الوحى عفتهم — لا يطبعون ولا يرديهم الطمع[1]

(١) لا يطبعون: من الطبع بالتحريك، وهو دنس الأخلاق.

المكتبـــــة البـــديـل!

روبــــــرت دارنـــــتـــــــون
Robert Darnton

■■ الهدف من هذا اللقاء هو مناقشة قضية فى غاية الأهمية بالنسبة للحياة الثقافية فى بلادنا: هل باستطاعتنا تكوين مكتبة رقمية وطنية؟ بمعنى مكتبة شاملة للكتب المخزنة رقميا يمكن لعموم الجمهور الوصول إليها بسهولة. بخلاف ما يبدو عليه السؤال من بساطة، فإنه معقد بصورة استثنائية. وهو ينطوى على قضايا تتعلق بطبيعة المكتبة التى نحن بصدد تكوينها والصعوبات التقنية لتصميمها والعقبات القانونية للشروع فيها والكلفة المالية لإنشائها وصيانتها والمشاكل السياسية لحشد التأييد لها.

رغم تلك التعقيدات، فإن فكرة مكتبة رقمية وطنية هى - مثل جوهرها - فكرة صادقة تماما. سوف تجعل تلك المكتبة الإرث الثقافى لتلك البلاد متاحا بحرية لجميع مواطنيها. وسوف تكون المكافئ الرقمى لمكتبة «الكونجرس»، ولكن بدلا من اقتصاره على مقر «كابيتول هيل» «Capitol Hill»، فإنه سيكون موجودا فى كل مكان، مستحضرا ملايين الكتب والمواد الرقمية الأخرى على مسافة نقرة من المكتبات العامة والمدارس الثانوية والكليات والجامعات والمنتجعات وأى شخص لديه حرية الولوج للإنترنت.

يرجع الطموح وراء هذا المشروع إلى بداية تأسيس هذه البلاد. وقد صاغ «توماس جيفرسون» ذلك باختصار:

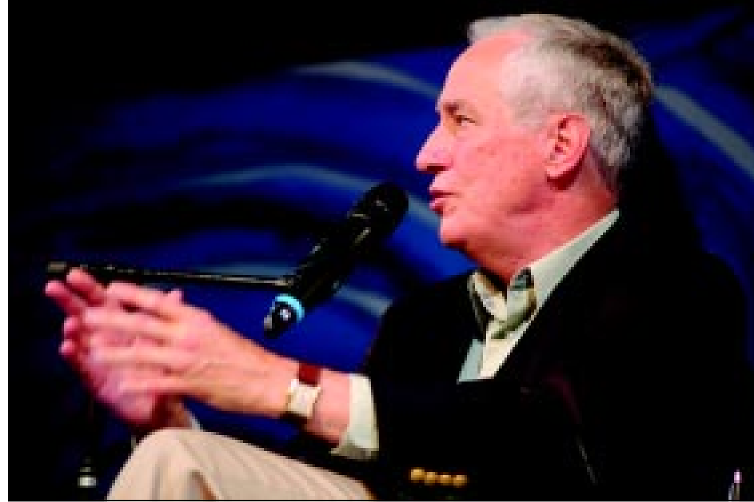
«المعرفة هى الملكية العامة للجنس البشرى». كان «جيفرسون» على حق - من ناحية المبدأ. ولكن فى الواقع فإن غالبية البشر حرمت من المعرفة المتراكمة عبر العصور. ففى عصر «جيفرسون» كان لنخبة قليلة فقط حرية الوصول إلى عالم التعليم. أما اليوم، وبفضل الإنترنت، فيمكننا فتح هذا العالم أمام جميع إخواننا المواطنين. إن لدينا الوسائل التقنية لتحقيق حلم «جيفرسون»، ولكن هل لدينا الإرادة؟

أعرف: حتى الشيطان نفسه يستطيع أن يستشهد بـ«جيفرسون». بإمكان أى شخص أن ينقب فى أوراق الآباء المؤسسين للعثور على اقتباسات تدعم قضية ما. ولكنى لا أستطيع المقاومة. إليكم «جيفرسون» مرة ثانية: «إذا كانت الطبيعة قد جعلت شيئا

واحدا من بين كافة الملكيات الحصرية أقل حساسية، فتلك هى قوة التفكير التى يطلق عليها الفكرة. إن من يتلقى منى فكرة فإنه هو نفسه يتلقى تنويرا دون انتقاص شىء منى؛ مثل الذى يضىء سراجه باتجاه سراجى، فإنه يتلقى الضوء دون أن يصيبنى بالظلام».

كان «جيفرسون» يفكر فى تأثير طباعة الكتب والقراءة - والذى كان موضوعا أثيرا لدى الآباء المؤسسين. هنا يقول «فرانكلين»: «إن فن الطباعة ينشر ضوءا عاما جدا، لدرجة أن كافة مغاليق نوافذ الاستبداد والكهانة التى تقاوم لإبقاء الضوء خارجا، تبقى عاجزة عن ذلك».

ويقول «جون آدامز»: «وأنتم، يا سادة الطباعة، فمهما يقول طواغيت الأرض عن أوراقكم، فلن يزيدكم ذلك



هــل باسـتطاعتنا
تكوين مكتبة رقمية وطنية
بمعنى مكتبة شاملة للكتب المخزنة رقميا
يمكـــن لعمــــوم الجمهــور
الوصول إليها بسهولة؟

إلا شرفا، لأن أفواه القوة هى مفتوحة دائما للالتهام، وذراعها ممدودة دائما - إذا أمكن - لتدمير حرية الفكر والكلام والكتابة. إن «الاستبداد والكهانة» لديهما رابطة عتيقة، ولكن خطر تقييد حرية الوصول للمعرفة هو وشيك اليوم مثلما كان منذ مائتى عام. فيما يلى ملحوظة خاصة بحقوق النشر مرفقة بطبعة إلكترونية حديثة من كتاب «مغامرات آليس فى بلاد العجائب Alice Adventures in Wonderland» الذى نشر للمرة الأولى عام ١٨٦٥:

النسخ: لا يمكن نسخ مقاطع نصية من الكتاب إلى ذاكرة الكمبيوتر.

الإعارة: لا يمكن إعارة هذا الكتاب لشخص آخر.

الهبة: لا يمكن إهداء هذا الكتاب لشخص آخر.

القراءة بصوت عال: لا يمكن قراءة هذا الكتاب بصوت عال.

(هذا الاقتباس والاقتباسات السابقة مأخوذة من كتاب «لويس هايد Lewis Hyde» «مشاع مثل الهواء: الثورة والفن والملكية Common as Air: Revolution, Art, and Ownership»، ٢٠١٠).

قارن ذلك التصريح الذى صدر بالأمس فقط، بالملاحظات التالية التى أدلى بها «فولتير Voltaire» بعد نشر كتابه «تساؤلات عن الموسوعة Questions sur l'Encyclopedie» عام ١٧٧٢: «إنى أصرح هنا لأى بائع كتب بإعادة طباعة حماقاتى، سواء كانت حقيقية أم زائفة، على مسئوليته ومخاطرته وتكلفته». وكما صاغها «لويس هايد» فى كتابه «مشاع مثل الهواء»، فهناك حركة تطويقية تهدد بتدمير ملكيتنا العامة الثقافية، عالم المعرفة الذى ينتمى إلينا جميعا.

أنا أدرك أن الملكية الفكرية هى أمر معقد. وبدلا من طرح السؤال المزعج عن حقوق النشر فى تلك المرحلة، فأنا أود أن أطرح نقطة مختلفة تتعلق بمبادئ تأسيس بلادنا.

إن الآباء المؤسسين لم يصرحوا فقط بمجرد ملاحظات اقتباسية، بل إنهم كانوا يقصدون ما قالوه، وهذا

Robert Darnton is Carl H. Pforzheimer University Professor at Harvard and director of the Harvard University Library. ?His new book, Poetry and the Police: Communication Networks in Eighteenth-Century Paris.

ألقيت الكلمة التالية في افتتاح مؤتمر بجامعة «هارفارد» في الأول من أكتوبر بهدف مناقشة إمكانية تكوين مكتبة رقمية وطنية.

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: عادل فتحي



يقوم الهولنـــديون الآن بالتخـــزين الرقمى لكل كتاب وكتيب وصحيفة هولندية صدرت منذ العام ١٤٧٠ وحتى الآن.. وكذلك يفعـــل الفرنســــيون واليـــابانيـــون



المعنى لا يزال ساريا اليوم - ما لم تعتقدوا أن الدستور قد عفا عليه الزمن نتيجة للإنترنت. لقد كانت هناك جمهورية أخرى وراء إقامة الجمهورية الأمريكية، وهى التى جعلت الدستور قابلا للتمعن. تلك كانت جمهورية الأدب - نظام للمعلومات يحركه القلم والصحافة المطبوعة، ملكوت من المعرفة مفتوح أمام كل من يستطيع القراءة والكتابة، مجتمع من الكتاب والقراء بلا حدود أو شرطة أو تمييز من أى نوع فيما عدا الموهبة فقط. ومثل باقى رجال عصر التنوير، آمن الآباء المؤسسون أن حرية الولوج للمعرفة كانت شرطا جوهريا لجمهورية مزدهرة، وأن الجمهورية الأمريكية سوف تزدهر إذا ما مارس مواطنوها مواطنتهم فى جمهورية الأدب.

من المؤكد أن القدرة على القراءة والكتابة كانت محدودة فى القرن الثامن عشر، وكانت حرية الوصول للكتب محدودة بالنسبة لمن استطاعوا القراءة. كانت هناك فجوة هائلة بين حقائق الحياة الراسخة منذ قرنين من الزمان وبين القيم المثالية للآباء المؤسسين. لذا يمكنكم اتهام الآباء المؤسسين باليوتوبية. بالنسبة لى فإنى أعتقد أن جرعة قوية من المثالية اليوتوبية قد منحت أفكارهم قوتها الدافعة. أعتقد أننا يجب أن نستفيد اليوم من تلك القوة، لأن ما كان يبدو يوتوبيا فى القرن الثامن عشر قد أصبح الآن ممكنا. باستطاعتنا أن نغلق الفجوة بين القمة المرتفعة للمبادئ ومستوى الكفاف للحياة اليومية. ويمكننا تحقيق ذلك من خلال تكوين مكتبة رقمية وطنية.

أم هل فكرة مثل تلك المكتبة هى يوتوبية بالمعنى السلبى - أى أنها غير واقعية وخيالية؟ سأجيب بلا، للأسباب التالية:

● برهنت «جوجل» Google على إمكانية تحقيق ذلك، من خلال التخزين الرقمى لأعداد كبيرة من الكتب وتوفير الكثير منها على الإنترنت. إن «جوجل» هى حقا عملية تجارية تضع ربح الشركة فى المقام الأول قبل المصلحة العامة، ولكنها أيضا قصة نجاح ودرس نتعلم منه: بإمكاننا تطويع التقنية وإدارة السوقيات اللازمة للتخزين الرقمى لموجودات مكتبات أبحاثنا على نطاق هائل.

● يمكن تكوين تحالف من المكتبات لتوفير غالبية الكتب التى يرغب فيها القراء.

● يمكن تكوين تحالف من المؤسسات والجامعات والمنظمات غير الربحية الأخرى لتغطية التكاليف.

● يمكن تشكيل منظمة مركزية لمعالجة مشاكل التنسيق والمعالجة والصيانة.

لا أود أن أقلل من شأن تلك المشاكل، ولكنى أعتقد أننا يجب أن نعالجها بروح دءوبة. فرغم كل شىء لدينا قدر هائل من خبرة التخزين الرقمى. كل مكتبة بحثية طورت مشروعات رقمية، وبعضها على نطاق واسع جدا. كما تعاونت المكتبات مع بعضها البعض ومع وكالات خارجية من خلال كافة أنواع المبادرات التى يمكن أن تكون مفيدة وتنويرية لتكوين مكتبة رقمية وطنية. انظروا إلى «وقف هاثى HathiTrust» و«أرشيف الإنترنت Internet Archive» و«مبادرة مشاع المعرفة Knowledge Commons Initiative» و«مكتبة كاليفورنيا الرقمية California Digital Library» و«اتحاد المكتبة الرقمية Digital Library Federation» و«برنامج البنية التحتية والصيانة للمعلومات الرقمية الوطنية National Digital Information Infrastructure and Preservation Program» والمشروعات غير الربحية الأخرى. لقد فتحت سبلا عديدة نحو ما يمكن أن يشكل هدفا عاما. آمل أن نستطيع التوصل إلى إجماع حول الطبيعة العامة لهذا الهدف؛ ومهما كانت اختلافاتنا، فإنى لا أعتقد أن المخاوف التى لا لزوم لها بشأن قابلية التنفيذ يجب أن تعيقنا. إن لدينا المهارة والخبرة لإنجاز العمل.



بل إن باستطاعتنا التعلم من خبرات دول أخرى. بالفعل فإن كل دولة متقدمة قد دشنت نوعا ما لمكتبة رقمية وطنية، كما تقوم العديد من الدول النامية بالأمر نفسه. فقد عالجوا جميع أنواع المشاكل وتوصلوا إلى حلول قابلة للتطبيق. وإذا كانوا لم يتوصلوا إلى نموذج واحد يناسب كافة أحجام الدول، فقد برهنوا على إمكانية تحقيق فكرة مكتبة رقمية وطنية. إن ذلك ليس حقيقى فقط بل إنه كان موضع التجربة.

لقد قمنا هنا فى «هارفارد» بمسح تمهيدى للمشروعات الجارية فى بلدان أخرى. بل إننا عثرنا على مكتبة رقمية وطنية أولية فى منغوليا. ويقوم الهولنديون الآن بالتخزين الرقمى لكل كتاب وكتيب وصحيفة هولندية صدرت منذ العام ١٤٧٠ وحتى الآن. كما أعلن الرئيس الفرنسى «ساركوزى» فى نوفمبر الماضى أنه سيقدم ٧٥٠ مليون فرنك للتخزين الرقمى لـ «إرث» الأمة الثقافى. وقد خصص المجلس التشريعى اليابانى ١٢.٦ مليار ين لبرنامج متميز مدته عامان للتخزين الرقمى لكل مكتبتهم الوطنية. إذا كان الهولنديون والفرنسيون واليابانيون قادرين على تحقيق ذلك فلماذا لا تستطيع الولايات المتحدة؟

أرى أن نستبعد فكرة أن مكتبة رقمية وطنية أمريكية هى أمر بعيد المنال، وأن نركز بدلا من ذلك على ما يمكن أن نتعلمه من الآخرين بشأن قضايا مثل: كيف يمكننا معالجة مشكلة حقوق النشر والكتب اليتيمة، أى الكتب التى لا يمكن العثور على أصحاب حقوق نشرها؟ كيف يمكن أن نجارى تعقيدات بيانات الفهرسة - أى معلومات التصنيف اللازمة للعثور على نصوص رقمية فى البيئة المتغيرة دائما للفضاء الإلكترونى؟ كيف يمكننا الحصول على التمويل وتطوير خطة عمل لحل الصعاب طويلة الأمد لتنظيم عملية جمع الكتب وصيانتها؟ آمل أن يوفر هذا اللقاء الفرصة لمناقشة تلك السلسلة من أسئلة «كيف».

ولكنى رغم كل شىء آمل أن يروج هذا الاجتماع للهدف العام بتوفير نوع المكتبة التى يستحقها الشعب الأمريكى، النوع الذى يلبى حاجات القرن الحادى والعشرين. إننا نستطيع أن نزود أصغر كلية فى «آلاباما» وأبعد مدرسة ثانوية فى «نورث داكوتا» بأعظم مكتبة عرفها العالم يوما ما. ونستطيع أن نفتح تلك المكتبة لبقية العالم، كممارسة لنوع «القوة الناعمة» التى سوف تزيد من الاحترام للولايات المتحدة فى أنحاء العالم. فيمكننا من خلال تكوين مكتبة رقمية وطنية أن نجعل من مواطنينا أعضاء فاعلين فى جمهورية دولية للأدب، ويمكننا أن نقوى أواصر المواطنة بالداخل. بإمكاننا العثور على المال وعلى المهارة، ولكن هل يمكننا العثور على الإرادة؟ هذا هو السؤال الذى أود أن أطرحه فى مستهل هذا اللقاء والذى آمل أن تتم الإجابة عليه فى النهاية. ■

إيجـــار أم تمليـــك

هل يجب أن تشترى بيتا؟!

بـــاربـــــرا كـيـفـيـــــات
Barbara Kiviat

■ ■ خيّبت سياسة تملُّك المنازل رجاءنا. لأجيال عديدة ظنّ الأمريكيون أن تملُّك منزل مصلحة بدهيّة، فقد انبرى قادتنا السياسيون لجعل المسألة مفهومة. حاجج «هربرت هوفر» بأن تملُّك منزل يمكن أن «يغيّر الطبيعة البدنية والذهنية والمعنوية لأطفالنا.»؛ و«فرانكلين روزفلت» آمن بأن دولة قوامها مالكو المنازل دولة «لا تقهَر.» بل إن تملُّك منزل، بحسب كلمات «جاك كمب» وزير الإسكان والتنمية الحضرية فى إدارة بوش الأب، يمكن أن «ينقذ الرضّع وينقذ الأطفال وينقذ الأُسر وينقذ أمريكا.» لم يكن المنزل الذى يمتاز مدخله بمَرج وسياج خشبى مجرد مكان لطيف للعيش أو استثمار خالٍ من المخاطرة؛ بل كان وسيلة لتحويل أمّة.

ظننّا أن المنازل المملوكة لمن اتخذوها مساكن خلقت استقراراً اجتماعياً ومالياً – مواطنين أكثر إقبالا على المشاركة، ومناطق سكنية أكثر أمناً، وأطفالاً يؤدّون بشكل أفضل فى مدارسهم. لا عجب إذن أن القادة من كافة الأطياف السياسية أرادوا إنفاق أكثر من ١٠٠ مليار دولار سنوياً على الإعانات الحكومية والتخفيضات الضريبية لتشجيع المواطنين على شراء المنازل.

لكن قادتنا، بتشجيع منّا، ذهبوا إلى أبعد من ذلك بكثير. لقد أصبح الآن الجانب المظلم لتملّك المنازل واضحاً تمام الوضوح: نزع الملكية ومغادرة المنزل، والمناطق السكنية التى ابتليت بها الممتلكات العقارية الخاوية والقيمة المادية المتهاوية للمنازل – إنها أمّة لدى مواطنيها ثروة إسكانية أقل بستة تريليون دولار مقارنة بما كان لديهم منذ ثلاث سنوات فقط. حقاً، ربما يكون الإقراض الميسور الذى شجعه الهوس بفكرة تملّك المنازل قد أشعل فتيل الأزمة المالية وأفضى بصورة مباشرة إلى أكبر محاولة إنقاذ مالى على الإطلاق، وهى محاولة إنقاذ مؤسستى «فانى ماى» و «فريدى ماك». لا تزال الأزمة العقارية عائقاً أمام الاقتصاد، فقد هبطت مبيعات المنازل القائمة فى يوليو بنسبة ٢٧ فى المائة مقارنة بالشهر السابق، الأمر الذى فاقم المخاوف من كساد مزدوج وعجّل بالهبوط المصاحب فى البورصة الذى هبط بمؤشر داو جونز الصناعى إلى مستوى منخفض لسبعة أسابيع. لا يعدو كل ذلك كونه الحكاية الواضحة للعيان للفقاعة العقارية وما حدث حينما انفجرت؛ أمّا القصة الحقيقية فلا تزال أعمق وأكثر قتامة.

بالنسبة للجزء الأكبر من القرن العشرين انتظمت السياسة والصناعة والثقافة صفاً ليخلقوا من فكرة شراء منزل تعويذةً سحرية. لقد أثمر تملّك المنازل منافع عديدة خلال العقود الماضية: وفّر الاستقرار لعشرات الملايين من الأُسر وأرسى قطاعاً من الاقتصاد يمتاز بأنه كثيف العمالة. لكن بإضفاء المثالية على شراء المنازل فقد تجاهلنا التأثيرات السلبية. فى سنوات الزيادة الوهمية لأسعار الأصول (bubble years) انخفضت معايير الإقراض بصورة درامية الأمر الذى سمح للعديد من الأمريكيين أن يضعوا قدراً كبيراً جداً من دَخلهم فى شراء منازل. وقد تجاهلنا ظواهر أطول أمداً أيضاً، فقد ساهم تملّك المنازل فى تفريغ المدن وأبقى المستأجرين خارج أفضل الأماكن السكنية. كذلك ساهم تملّك المنازل فى تغذية الاستهلاك المفرط فى أمريكا للطاقة والنفط. وبالنسبة للذين فقدوا وظيفة جعل تملّك المنازل عثورهم على وظيفة أخرى أمراً أصعب. وربما يكون الأسوأ على الإطلاق أنه أعاننا على أن نصبح من دون قصد مخادعين لذواتنا: قلنا لأنفسنا إن تملّك المنازل كان سبيلاً يفضى إلى الثروة ومجتمعات مستقرة ونتائج طيبة فى الاختبارات المدرسية فتَجنبنا التعامل مع هذه المسائل المرعبة بطريقة مباشرة وحاسمة.

وإذ تتعافى الولايات المتحدة حالياً من أكبر أزمة إسكان على الإطلاق منذ الكساد الكبير، فإن الوقت الحالى هو وقت إعادة النظر فى المدى الواقعى الذى تصل إليه توقعاتنا بشأن تملّك المنازل وحجم الأموال التى نحتاج لإنفاقها للسعى وراء هذه التوقعات. وفى حين يشتبك أعضاء من الحكومة وقطاع الصناعة مع إعادة تصور لمؤسستى «فانى ماى» و«فريدى ماك» وبقية النظام المالى للإسكان، يجادل كثيرون بأن تملّك المنازل لا ينبغى أن يكون هدفاً يُبتغى مهما كلّف الأمر. يقول «رافائيل بوستيك»، مساعد وزير الإسكان والتنمية الحضرية لوضع السياسات وشئون البحث، «ثمة فكرة مفادها أن التمتع بمأوى ملائم مرادف لكون الشخص مالك منزل. هذه الفكرة يجب أن تخضع للتغيير».

> **لم يكن المنزل الذى يمتاز مدخله بمرَج وسياج خشبى مجرد مكان لطيف للعيش أو استثمار خالٍ من المخاطرة؛ بل كان وسيلة لتحويل أمّة**

مُلاك الضِّياع

يبدو أن مفهوم تملّك المنازل على نطاق واسع جزء يتعذر فصله عن الميثولوجيا الأمريكية. إننا نقول لأنفسنا إن الولايات المتحدة لطالما كانت أمّة من مهاجرين مستقلين، لطالما كانت مكاناً، فى القرن التاسع عشر، يمكن فيه لأى فرد يتمتع بجلَد كافٍ أن يتجه صوب الغرب ويحصل لنفسه على ضيعة.

ومع ذلك لم يحدث إلا بحلول القرن العشرين أن بدأت واشنطن فى وضع مواردها لتحويل الجميع إلى ملاك منازل. فى عام ١٩١٩ تولّت الحكومة أمر

خدمة Time Warner

ترجمة: عاطف سيد عثمان



حملة «تملّك منزلك» التى أطلقتها «الرابطة الوطنية للمجالس العقارية NAREB» (المعروفة اليوم باسم الرابطة الوطنية للوسطاء العقاريين NAR)، حيث كان وزير التجارة، «هربرت هوفر»، متحمسًا فأعلن أن «الحفاظ على نسبة مئوية مرتفعة من ملاك المنازل الأفراد هو واحد من اختبارات البحث التى تواجه الآن الشعب الأمريكى».

لم يجعل الكساد الكبير هذا الاختبار أمرًا ميسورًا، فعندما انهار الاقتصاد واجتاح نزع الملكيات الدولة وقّع، أولاً، «هوفر»، الذى انتخب رئيسًا للبلاد فى ١٩٢٨، ثم «فرانكلين روزفلت» من بعده سلسلة من القوانين ليجعل البنوك تُقرض من جديد، بما فى ذلك تشريع بإنشاء «إدارة الإسكان الفيدرالية» لتأمين الرهون العقارية وإنشاء «الجمعية الوطنية الاتحادية للرهن العقارى» (فانى ماى) لشرائها كلها، وبذلك تتحرر البنوك لإقراض أموال أكثر. سارت هاتان الوكالتان جنبًا إلى جنب مع إرساء نوع جديد من القروض، قرض يمتد لثلاثين سنة بفائدة ثابتة. كان الرهن الممتد لثلاثين عامًا ثورة، كان تبايُنًا مذهلاً مع القروض قصيرة الأجل التى كانت معتادة فى ذلك الوقت؛ فقد وضع هذا الرهن تملُّك المنازل فى متناول يد المزيد من عائلات عديدة. فى وقت كان فيه ٢٥٪ من العمال بلا وظائف وثلث الوظائف المفقودة كانت فى قطاع الإنشاء والمهن ذات الصلة، كانت فكرة دفع مشروع الإسكان حافزًا اقتصاديًا.

لكن حتى عندما استعاد الاقتصاد استقراره بعد الحرب العالمية الثانية، استمر تشجيع واشنطن لفكرة تملُّك المنازل. فى البداية كان تملُّك المنازل أسلوبًا سلسًا لدفع التحول إلى مستوى معيشة أعلى: الانتقال من الشقق ذات المياه الباردة فى المدن إلى الشوارع المغلقة المزدانة بالأشجار فى الضواحى. لكن مع كل إدارة أمريكية جديدة تظهر ميزة جديدة ونادرًا ما يُطرح تساؤل بشأن المنفعة. شرع بيل كلينتون فى خلق ثمانية ملايين ملاك منازل، وجورج بوش الابن فى خلق خمسة ملايين ونصف آخرين. فى عام ٢٠٠٢ قال بوش «إذا كنتَ تملك منزلك فأنت تحقق الحلم الأمريكى» - برغم أن المؤرخ «جيمس تراسلو آدامز» حينما صاغ مصطلح «الحلم الأمريكى» فى عام ١٩٣١ لم يذكر أى شىء بشأن امتلاك منزل. إضافةً لذلك ما قاله المؤرخ «فنسنت كاناتو»، البروفيسور بجامعة ماسشوستس فى بوسطن، «قبل انفجار فقاعة الزيادة الوهمية للأصول كان تملُّك المنازل مكسبًا للجميع». وسواء كنتَ تسعى إلى تعزيز المسئولية الفردية أو تخفف من حدة نقص المساكن للمحاربين العائدين فيما بعد الحرب العالمية الثانية، أو تساعد الفقراء على ترسيخ أقدامهم ماليًا، وتجتذب الاهتمام بالصناعات كثيفة العمالة، فقد كان تملُّك المنازل هو السبيل لكل ذلك.

نتيجةً لذلك أسبغت واشنطن على ملاك المنازل معاملة خاصة. حينما يقدّمون ضرائبهم على الدخل يكون بإمكانهم اقتطاع فوائد الرهن وضرائب الملكية. وحينما يبيعون ملكيتهم لا يصبحون ملزمين بدفع ضريبة على بضع مئات من آلاف الدولارات من الربح. فى عام ١٩٨٦ أُعيد كتابة قانون الضريبة بما لا يسمح بخصم الفائدة المدفوعة على الرهن مثل دين كارت الائتمان، لكن كان هناك استثناء للفائدة المدفوعة على رهن - إنذار يكلف الحكومة حوالى ٨٠ مليار دولار فى شكل عائدات ضائعة فى ٢٠٠٩.

ثم كان هناك سوق الرهن العقارى. فى ثلاثينيات القرن العشرين أرادت الحكومة من المستثمرين الخاصين أن يدشّنوا سوقًا ثانوية لشراء الرهون وإعادة بيعها من أجل جلب الاستقرار وأسعار أقل للسوق. وحينما لم يفعل ذلك أحد، أنشأت الحكومة «فانى ماى» ثم «فريدى ماك». تقدم المؤسستان خدمة جليلة لمشترى المنزل الأمريكى - تلك الرهون العقارية ذات معدل الفائدة الثابتة لثلاثين سنة، وهى رهون يبغضها المقرضون، ربما لم تكن لتوجد بأعداد كبيرة دون وجود هاتين المؤسستين. لكن الطريقة التى تشكلت بها هاتان المؤسستان فى العقود الأخيرة يشوبها الخلل: إنهما تسعيان وراء الربح بشراسة ومع ذلك تحصلان على مؤازرة الحكومة بصورة ضمنية. سمح ذلك لمؤسستى «فانى» و«فريدى» باقتراض الموارد المالية بفائدة قليلة - وساعد على الاحتفاظ بأسعار الرهون منخفضة - لكنه كان يعنى أن هناك حافزًا ضئيلاً لدى المستثمرين لمراقبة ما كانت تفعله المؤسستان، حتى لو كان الأمر خطيرًا جدًا لدرجة أن خطة الإنقاذ النهائية فى سبتمبر ٢٠٠٨ كلفت أكثر من ١٥٠ مليار دولار.

أمّة عالقة

«ستار كورايكيك»، واحدة من الملاك الجدد للمنازل فى أمريكا، لا تهتم بوجه خاص بكل هذا التاريخ. ما تهتم به هو كونها قادرة على طلاء غرفة ابنتها باللون القرمزى دون أن تحتاج لإذن من أحد.

حتى شهر فبراير كانت «ستار» تعيش فى شقة مؤجّرة فى برلنجتون مع زوجها «دانيال» وابنتهما «ألينا» التى تبلغ من العمر ست سنوات. أما الآن فهذه الأسرة تعيش فى منزل تملكه فى «كيب كود». يعمل «دانيال» سائق شاحنة لإحدى عشرة ساعة، بينما تعمل «ستار» فى وظيفتين كى تحصل على الرهن العقارى لكن التضحية، كما تقول، تستحق و«الأمر مذهل؛ باستطاعتنا أن نفعل ما نشاء. يمكننا زرع حديقة ويمكننا الجلوس فى الخارج لنستمع إلى الموسيقى ونحتفل فى الهواء الطلق. بمقدورنا أن نحيا حياة طبيعية طيبة».

لا شك أن شراء منزل، بالنسبة لعائلات أمريكية عديدة، اختيار ذكى. على الورق قد يبدو وضع كل أموالك السائلة تقريبًا فى عين واحدة فقط تصرفًا أحمق، لكن من الوجهة العملية غالبًا ما تسير الأمور سيرًا حسنًا؛ مع سداد الرهن قبل التقاعد مباشرة يجد الزوجان مكانًا رخيصًا للعيش فى سن الشيخوخة. إن النقطة الرئيسية فى مساءلة مزايا امتلاك منزل ليست التشكيك فى قرارات أُسر مثل أسرة «كورايكيك»؛ بل الأخذ فى الاعتبار الاختيار المتضمن بين أمرين مرغوبين.

أحد الأمور المرغوبة الرئيسية: التنقّل. كون المرء قادرًا على التحرك باستمرار فى البلاد بسهولة يعنى أن الأشخاص بإمكانهم الذهاب إلى حيث تكون الوظائف. منذ خمس عشرة سنة كان «أندرو أوزوالد»، بروفيسور الاقتصاد فى جامعة وارويك فى المملكة المتحدة، واحدًا من أوائل من انتبهوا إلى أن الأماكن ذات المعدلات المرتفعة لامتلاك المنازل بدت أنها ذات معدلات مرتفعة للبطالة أيضًا. وبالفعل بعض مدن الولايات المتحدة الأمريكية ذات

إيجـــــــار أم تمــلــيــك





بإضفـــاء المثاليـــة على شـــراء المنازل فقد تجاهــلنا التأثيـرات السلبيـة. والظواهر الأطول أمداً، فقد ساهم تملّك المنازل فى تفريـغ المدن. كذلك ساهم فى تغذية الاستهلاك المفرط فى أمريكا للطاقة والنفط



المعدلات المرتفعة فى امتلاك المنازل لديها اقتصادات «حزام الصدأ الراكدة» stagnant (Rust Belt economies): ديـتـرويـت، ألـنتـاون فـى بـنسلفانيا، روشستـر فـى نـيـويـورك، أكـرون فـى أوهـايـو. يـقـول «أوزوالد»: «الاقتصاد يتغير طوال الوقت، ونحن بحاجة إلى أناس يكونون متنقّلين حتى يضعوا أيديهم على الوظيفة المناسبة». حيثما يكون أغلب الناس ممن يمتلكون منازلهم تكون الوحدات السكنية القابلة للتأجير قليلة وهو ما يجعل الأمر أصعب على العمال - لاسيما الشباب وذوى الفطنة - أن ينقلوا عملهم من مكان لآخر.

للصلابة التى يجلبها تملُّك المنازل المنتشر لأسواق العمالة كلفة. تنبّه «لورانس كاتز»، المحلل الاقتصادى بجامعة هارفارد، إلى أن الأمريكيين، مقارنة بالجنسيات الأخرى، أكثر ميلاً للتنقل فى أعقاب الانكماش الاقتصادى. فى دراسة مميزة لعام ١٩٩٢ وجد كل من «كاتز» و«أوليفير جين بلانشارد»، اللذين كانا فى ذلك الوقت فى «معهد ماساشوستس للتكنولوجيا»، أن مناطق الولايات المتحدة تستغرق حوالى ست سنوات حتى تتعافى من الزيادة المحلية المفاجئة فى معدلات البطالة، وخلال تلك السنوات الست يغادر نفس عدد الأشخاص الذين فقدوا وظائفهم المنطقة. يقول «كاتز»: «لا يتعلق الأمر بأن الوظائف التى اختفت قد عاودت الظهور ولكن أن الأشخاص ينتقلون إلى مناطق جديدة بفرص جديدة». فى أى سنة معيارية ينتقل ٤٠ مليون أمريكى من مساكنهم - وقرابة ٢٠٪ يفعلون ذلك لأجل وظائف.

ينتقلون إلا إذا لم يكن باستطاعتهم فعل ذلك بالطبع. وتلك هى حالة الكثيرين الآن. فى أعقاب انتهاء الحافز الضريبى للشراء قصير الأجل هوَت مبيعات المنازل القائمة مرة أخرى. مع انخفاض قيمة العقارات يجد أحد عشر مليون أمريكى من ملاك المنازل أنفسهم الآن مدينين لجهة الإقراض بأكثر مما تساوى منازلهم. وحتى لو ظهر مشترٍ واعد فعملية البيع ليست أمراً يقينياً. درست «جين هارتزل» فكرة بيع منزل عائلتها فى جلين بيرنى فى ولاية ميريلاند حينما تقاعد زوجها من الخدمة فى القوات الجوية وصادف «وظيفة أحلامه» - فى العمل كمخرج لبرنامج إذاعى - فى «سان دييجو». ولكن قيمة المنزل كانت أقل من النقود التى لا تزال ديناً فى الرهن العقارى لهما. قالت «هارتزل»: «لم نتمكن من البيع؛ لم يكن باستطاعتنا أن نرحل».

فى اقتصاد اليوم يمكن أن يكون الرهن العقارى عبئاً ثقيلاً، وهذا أمر جديد. فى الزمن الذى كان، توقع العمال أن يحتفظوا بعملهم فى نفس الشركة لعقود وأن يروا ارتفاعاً مضطرداً فى الدخل السنوى. لكن فى هذه الأيام كون المرء ضمن القوى العاملة هو أمر ينطوى على لعبة إعادة تجديد مستمرة. يتوقع العمال تغيير الشركات، بل ومهنهم، مرات عديدة. أصبحت الأسر الآن أكثر من أى وقت مضى أقرب لأن ترى الدخل ينحدر بصورة مفاجئة - حتى لو كان هذا أمراً مؤقتاً. وفقاً للمحللة الاقتصادية «كارين دينان» من «معهد بروكنجز» عانى ٧٪ من الأسر فى أواخر الستينيات من انخفاض فى الدخل بنسبة ٥٠٪ أو أكثر على مدار سنتين. فى منتصف العقد الأول للقرن الحادى والعشرين شهدت نسبة ١٢٪ من الأسر مثل هذا الانحدار فى الدخل. لكن الرهن العقارى، وهو بصورة نمطية أكبر نفقة تقع على كاهل من يتملّك منزلاً، صارمٌ لا يرحم كما هو شأنه على الدوام. بالنسبة لملاك المنازل نادراً ما يكون التكيّف السريع مع الحقائق المالية الجديدة خياراً أمامهم. قد يوفر تملك المنازل إحساساً بالاستقرار للأسر لكن الاستقرار فى اقتصاد اليوم ليس ميزة على الدوام. ما تحتاجه الأسر لكى تحافظ على الدخل المرونة التى يناهضها تملُّك المنازل.

يحل المشكلات أم يسبّبها؟

فى وقت سابق هذا العام، أجرت «فانى ماى» مسحاً على تملُّك المنازل. كان السبب الأهم الذى ذكره المشاركون فى المسح وراء شرائهم منزلاً: «إنه يعنى توافر مكان ملائم لتربية الأطفال وتعليمهم تعليماً جيداً». أما السبب الثانى أن «يكون لديك بناء مادى تشعر فيه أنت وأسرتك بالأمان».

إن الاعتقاد بأن امتلاك منزل هو السبيل لوجود مناطق سكنية أكثر أمناً ومدارس أفضل راسخ بعمق فى الضمير القومى. لازلنا نذكر ما قاله «جاك كمب»: تملُّك المنازل يمكن أن ينقذ الأطفال الرضع. ومع ذلك فالدلائل على أن تملُّك المنازل يحمل معه فوائد أخرى بالفعل مختلطة من دون ريب. على السطح غالباً ما تكون النتائج مثيرة للإعجاب. ففى عام ١٩٩٧ وجد المحللان الاقتصاديان الأكاديميان «ريتشارد جرين» و«ميشيل وايت» أن أطفال ملاك المنازل يمكثون فى المدرسة وقتاً أطول مما يفعل أطفال المستأجرين وأن بنات ملاك المنازل من المحتمل بدرجة أقل أن يصبحن أمهات فى سنى المراهقة. وانتهت دراسة فى عام ١٩٩٩ أجراها «دينيس ديبسكال» و«إدوارد جليزر» إلى أن ملاك المنازل على الأرجح يصوتون فى الانتخابات وينخرطون فى المنظمات المجتمعية.



غير أن الباحثين الذين يجرون مثل هذه الدراسات غالباً ما يحذرون من الذهاب بنتائجها بعيداً. تماماً كما هو الحال حينما تظهر سمتان فى نفس الوقت لا يعنى أن إحداها تتسبب فى وجود الأخرى. يعزى «ديبسكال» و«جليزر»، على سبيل المثال، جزءاً كبيراً من نتائج دراستهم إلى حقيقة كون ملاك المنازل ينتقلون من مساكنهم بدرجة أقل: لذا فلديهم وقت أكبر يصرفونه فى مجتمعهم مقارنة بما لدى المستأجرين لينخرطوا فى نشاطات مجتمعية. ووجدت دراسة فى ٢٠٠٩ فى مجلة «ريل إستيت إكونوميكس (Real Estate Economics)» أن الأطفال الذين يعيشون فى المنازل المملوكة لأسرهم أقل ميلاً لترك المدارس الثانوية، لكن إذا كان للأسرة سيارة فإن العلاقة تبدوا أقوى. فهل يعزى الفضل إلى السيارات؟ أم ينبغى أن ندرك بدلا من ذلك أن امتلاك كل من المنزل والسيارة هو على الأرجح علامة على شىء آخر، مثل الحياة الأسرية المستقرة أو العيش فى مربع سكنى أنيق؟

وهناك حقاً تأثير واحد فقط يبدو أن تملُّك المنازل يسببه باتساق: استثمار الملاك وقتاً أكبر وأموالاً أكثر فى صيانة منازلهم. إنهم على الأرجح يقومون بعمليات الإصلاح المنزلية وهم فى الغالب يرعون حدائقهم.

فى الولايات المتحدة الأمريكية يصاحب تملُّك المنازل العيش فى مساكن تجمع أسرة واحدة مستقلة. ٨٩٪ من المنازل القائمة بمفردها مملوكة بينما ١٧٪ فقط من الشقق كذلك. ثمة منطق وراء ذلك: بالنسبة للمالك المؤجِّر توفُّر الشقة اقتصاداً لإنتاج واسع النطاق (economy of scale) وهو ما لا توفره التنمية الضاحوية (suburban). ولكن ذلك يعنى أن النظام الذى يمجد تملُّك المنازل ويقدم له دعماً مالياً يدفع الناس إلى العيش فى الضواحى حيث يمكن أن يجدوا، هم أو مطورو الأراضى للسكنى، قطع أراضى يمكن تحمُّل ثمن شرائها من أجل البناء عليها. لا بأس بكل تأكيد أن يختار المرء أن يقطن بعيداً عن المدينة بعدة أميال، لكن ذلك الاختيار يحمل معه عواقب واسعة النطاق. وفقاً لبيانات «إدارة معلومات الطاقة» يستهلك سكان المنازل المستقلة ٤٩٪ من الطاقة - مثل الكهرباء والغاز الطبيعى - أكثر مما يستهلك سكان المبانى المكونة من خمس شقق أو أكثر. وتتطلب المعيشة فى الضواحى من الناحية العملية قيادة سيارة بصورة يومية، وهو ما يعنى بدوره أن سياسة الطاقة فى الولايات المتحدة تعطى الأولوية للنفط الرخيص - أيا تكن التبعات الجيوبوليتيكية والبيئية.

هناك أسباب وراء رغبة الناس فى العيش فى ضواحى خضراء مورقة. فى «الحدود العشبية (Crabgrass Frontier)»، وهى دراسة كلاسيكية لعام ١٩٨٥ حول الانتشار العمرانى فى شكل ضواحى، يقتفى المؤرخ «كينيث جاكسون» من جامعة كولومبيا أثر إضفاء أمريكا للصبغة المثالية على الحياة الزراعية عبر قرون من الزمن. تُراكم المدن الصناعة والأمراض والحوادث، فمن ذا الذى لا يرغب فى الفرار إلى منزل وفناء خاص؟ لكن فى هذه الأيام، لا تشتعل النيران فى نهر كاياهوجا بكليفلاند، وهواء بيتسبيرج نظيف، وأسواق السمك وأرصفة الميناء لا تهزّ أرجاء جزيرة مانهاتن - إنما طرق الدراجات وملاعب كرة البيسبول هى التى تفعل. ليست المدن المكان الملائم للجميع. لكن ربما تصبح كذلك لعدد أكبر من الناس إذا لم نشعر جميعاً كما لو أننا عند نقطة معينة يُفترض بنا أن ننتقل إلى الضواحى ونشترى منزلاً.

إيجـــــــار  أم تمــلــيـــك



في البـــداية كــان تمــلُّك المنــــازل
أسلوباً سلساً لدفع التحول إلى مستوى معيشة أعلى: الانتقال من الشقق داخل المدن إلى الشوارع المزدانـــة بالأشـــجار في الضـــواحي



أتمتلك منزلاً؟ إليك بعض المال

حيث إن منافع امتلاك منزل بالنسبة للمجتمع غير واضحة، فلعلك تستنتج أن الأُسر ينبغي أن تُترك لتقرر ما إذا كانت ستؤجر أم تشتري منزلاً. لكن واشنطن تُلقي أكثر من ١٠٠ مليار دولار سنويا في الإعفاءات الضريبية والإعانة الحكومية للمشترين من خلال فوائد الرهن والتخفيضات الضريبية على العقارات، واستبعاد الأرباح الرأسمالية (capital gains)، ومؤسستي «فاني ماي» و«فريدي ماك»، وهي إجراءات تساعد على جعل قروض المنازل أرخص مما كانت لتكون في ظل ظروف أخرى.

ما من شيء من هذا يتسم بأنه عادل بوجه خاص: فليس هناك إعانات شاملة لعشرات الملايين من العائلات الأمريكية التي تستأجر منازل، إما لأنهم اختاروا نظام التأجير أو لأنهم مضطرون لفعل ذلك. كذلك فليست تلك الإعفاءات الضريبية سياسة اقتصادية فعالة. في عام ٢٠٠١ قدَّر «مكتب ميزانية الكونجرس» أن نصف المنفعة فقط من الدعم الحكومي الضمني للرهون العقارية عبر «فاني ماي» و«فريدي ماك» ذهبت للمقترضين في شكل أسعار أقل. أما النصف الثاني فذهب إلى المساهمين في الشركات وللبنوك في شكل فوائد أعلى.

بل إن الخفض الضريبي على فوائد الرهن يعدّ دراسة حالة صارخة بدرجة أكبر. لقد قال نصف الأشخاص ممن شملهم مسح «فاني ماي» لعام ٢٠١٠ أن المنافع الضريبية كانت «سبباً رئيسياً» لشراء منزل. ومع ذلك فحتى الخفض على فائدة الرهن ميزة لا يتمتع بها كل ملاك المنازل. كي تحصل عليها عليك أن تفصّل مفردات ضرائبك، لكن أكثر من ثلث ملاك المنازل لا يفعلون. إن غالبية المنفعة تذهب إلى الأُسر الأكثر ثراءً التي لن تجد على الأرجح مشكلة في شراء منزل دون ميزة خفض الضرائب. وفقاً لتحليل في ٢٠١٠ لـ«جيمس بوتيريا» من «معهد ماساشوستس للتكنولوجيا» و«تود سايناي» من جامعة بنسلفانيا، فإن العائلات المالكة للمنازل وتعدادها يقترب من الثلاثة ملايين (٢,٨ مليون) عائلة بدخل سنوي أكثر من ٢٥٠ ألف دولار يدخرون ١٥ مليار دولار، والفضل يرجع للخفض الضريبي. في الوقت ذاته، هناك ١٩ مليون عائلة دخلها يتراوح بين ٤٠ ألف دولار و٧٥ ألف دولار يدخرون ١٠ مليار دولار. بالنسبة لهذه الأُسر من الطبقة المتوسطة يساوي الخفض الضريبي السنوي العادي ٥٤٢ دولار، أو دولار و٤٨ سنت يومياً. هل الجمع الغفير من أُسر الطبقة المتوسطة قادرين على شراء منازل لأنهم يدخرون ٥٤٢ دولار سنوياً؟ هذا أمر مشكوك فيه. لقد تخلصت المملكة المتحدة من الخفض الضريبي على الرهن منذ سنوات، ومعدل امتلاك المنازل فيها لا يزال أعلى من معدل الولايات المتحدة.

بل والأكثر إرباكاً أن طريقة خفض ضريبة الفائدة على الرهن تُغري الناس باقتراض مال أكثر: فأنت تحصل على الخفض بناء على الفائدة المحسوبة على القرض، لا على امتلاكك للمنزل ولا على تقسيط الدين. يتذكر «سايناي»، الذي يصف نفسه بأنه «شخص مناصر للتملُّك»، كيف أن مُحاسبه اقترح عليه ذات مرة أن يشتري منزلاً أكبر كي يحصل على خفض ضريبي أفضل. يقول هذا المحلل الاقتصادي صاحب السلوكيات المهذبة بصورة طبيعية «تقريبا نَهرتُه. إننا نمزج فكرة تملُّك المنازل مع الإسراف».

لكن حتى لو كانت الحكومة ستغير المدى والأساليب التي تدعم بها تملُّك المنازل، فسنظل عالقين في معضلة إسكان تشكلت في قدر كبير منها بسبب التحيز للتملُّك. حينما اتصلت «كيرتي لو»، وهي جرّاحة يد حديثة، بوكيل عقارات في هتشنسون بولاية كنساس (سكانها ٤٠ ألف نسمة) ليجد لها مكانا للإيجار، أخبرها الوكيل أنها سترغب في الشراء. كانت «لو» تنتقل من ولاية كونيتيكت بعقد مدته عام، وبالفعل لم تكن ترغب في الشراء، لكنها أدركت سريعاً ما كان يعنيه الوكيل بشأن المدينة. تقول «لو»: «لديهم شقق»، ثم تتوقف بحثاً عن الكلمات المناسبة، وتكمل «لكنها شقق خالية من أسباب الترف».

ذلك في الغالب هو ما يعنيه الناس حينما يقولون إن السبب الرئيسي لامتلاك منزل هو الحصول على مكان طيب لتنشئة أبنائهم. إنهم يريدون أن يقطنوا في مربعات سكنية جميلة، وغالباً ما يعني هذا في الولايات المتحدة أنه عليك شراء مسكنك. في عالم مثالي، لا ينبغي أن تعكس الطريقة التي تدفع بها المال لتوفر مأوى لنفسك مكانتك الاجتماعية الاقتصادية. في سويسرا، وهي واحدة من أشد بلدان العالم ثراءً، يستأجر ثلثا الأُسر مساكنهم. لكن في الولايات المتحدة سواء كنت تمتلك مسكنك أو تستأجره ينبئ بشيء ما بشأن من أنت - وغالبا ما يحدد ذلك أين تعيش.

وهنا مرة أخرى يتضح أن يد الحكومة مرئية، لكنها هذه المرة على مستوى المدينة والمقاطعة. المحلل الاقتصادي «جليزر» من هارفارد نظر إلى كيفية قَصر الحكومات المحلية، مدفوعة في الغالب بملاك المنازل الموجودين، لنوعية الإسكان. من بين ١٨٦ بلدة ومدينة في حدود ٥٠ ميلا (٨٠ كم) في بوسطن تمنع ٣٤ المساكن متعددة الأُسر مثل البيوت المدنية (townhouses) والعمارات السكنية، وتسمح ٨١ بها على أقل من ١٠٪ من الأرض المتاحة. الأشخاص الذين لا يشترون المنازل المستقلة - في الغالب المستأجرون - غير مرحَّب بهم. وهذا لا يحدث حول بوسطن. يقول جليزر «في مناطق عديدة من الدولة يخضع تفكير المستأجرين للتطويق».

يتوقع بعض علماء الديموغرافيا أن الاتجاه إلى أن أغلب المناطق ينبغي أن تكون مقاطعات حصرية لمنازل العائلة الواحدة على رقع أرض كبيرة سوف يتغير حيث يكلّ مواليد فترة ما بعد الحرب (١٩٤٦ - ١٩٦٥) من المنازل ذات الغرف الأربعة والمروج التي تحتاج لمن يقوم عليها وفواتير الضريبة العقارية الكبيرة. سوف يكون هذا تعديل ضخم، تعديل بدا في بعض الأوقات من الصعب تخيله. لكن ثمة سبب يدعو لتجربته.

كلفة الاقتراض الميسور

ربما يكون الجانب الأسوأ في التعلق الهَوَسي بفكرة تملُّك المنازل مظلماً حقاً: لسنوات عديدة مكّننا واقع كون أسعار منازلنا في ارتفاع من تجاهل التغيرات البنيوية العميقة التي تجري في الاقتصاد الأمريكي. ولمدة عقود كان التفاوت في الدخل يتنامى، وأجور الطبقة المتوسطة راكدة. من وجهة نظر بعض المراقبين الأكاديميين كان الاقتراض الرخيص، لاسيما الذي يستخدم لشراء المنازل الأكبر من أي وقت مضى، وسيلة لجعل الناس يشعرون بأن قسمتهم ونصيبهم على ما يرام. في كتابه الجديد «خطوط الصدع (Fault Lines)» كتب «راجورام راجان» المحلل الاقتصادي في جامعة شيكاغو، يقول «كما قد يبدوا الأمر سلبياً متشائماً فقد استُخدم الاقتراض الميسور بوصفه مهدئًا عبر التاريخ على يد حكومات غير قادرة على تناول مخاوف الطبقة المتوسطة مباشرة». ويضيف «إن التوسع في تملك المنازل - وهو عنصر رئيس في الحلم الأمريكي - بالنسبة للأسر منخفضة الدخل ومتوسطة الدخل كان مسمار المحور للأهداف الكبرى المتعلقة بالائتمان المتزايد والاستهلاك الأوسع.» ومع زيادة الثقة المفرطة اعتماداً على ديون البطاقات الائتمانية وقروض الأصل العقاري، أخذنا ننفق ونشعر بأننا أكثر ثراءً مما نحن في الواقع.

إذا كانت الولايات المتحدة تكسر تلك الدائرة، فسوف نضطر إلى أن نقوم بإجراء تغييرات معروفة جيداً: مزيد من الادخار، والاستثمار في الأفراد من خلال تعليم وتدريب أفضل، واستخدام أدوات الحكومة للمساعدة على خلق وظائف عالية الجودة - من ذلك النوع الذي يمكّن الفرد من تكوين أسرة - بدلا من إغواء الناس بامتلاك منازل.

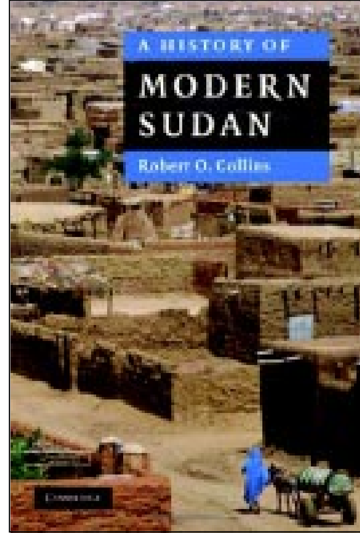
ليس ذلك ترتيباً تافهاً. لكن إذا كان للبدء في فطام أمريكا من فكرة كون تملُّك المنازل الترياق لكل عللنا وقتٌ على الإطلاق، فالوقت الحاضر - بعد أسوأ أزمة إسكان على الإطلاق منذ ٧٥ سنة - هو ذاك الوقت.

«جين هارتزل»، التي أصبحت عالقة في منزلها بميريلاند، ليس بمقدورها أن تنتقل إلى كاليفورنيا حيث الوظيفة التي يحلم بها زوجها، وبعد أن أنفقت آلاف الدولارات وساعات غير معدودة على إصلاحات منزلية مختلفة، تُمعن النظر في قرارهما شراء منزل. تقول «لقد كانت بحق خبرة تعليمية كبيرة. لعلى أقول إنني سعيدة أنني مررت بها». ثم تتوقف. «أعتقد بأنني.. لست واثقة». حينما يخبرها أصدقاؤها بأنهم يفكرون في شراء منزل، تقول «أتدرون، ليس الأمر بالصورة التي نشأنا على الاعتقاد بأنها سوف تكون». ■

تاريخ السودان الحديث



تاريخ السودان الحديث
روبرت كولينز
ترجمة: مصطفى مجدى الجمال
مراجعة: حلمى شعراوى
دار العين للنشر
المشروع القومى للترجمة
القاهرة - ٢٠١٠



"a History of modern Sudan"
Robert O. Collins
Cambridge University Press;٢٠٠٨

أية محاولة لفهم سودان اليوم يجب أن تقوم على البحث فى وقائع المائتى عام الأخيرة

■■ يُعَدُّ التأريخ للسودان عملاً فى موضوع حافل ومعقد، فهو يمتد من مملكة «كوش» (٧٦٠ قبل الميلاد . ٣٥٠ بعد الميلاد) إلى يومنا الحالى، إلا أن تاريخ السودان المستقل يبدأ مع انسحاب الحكام البريطانيين والمصريين فى أول يناير ١٩٥٦. ومن المؤكد أن تاريخ ممالكه القديمة (كوش، الدول المسيحية، وسلطنتى الفونج والفور) بماضيها الخاص المتفرد، قد حاز على اهتمام الأثريين والمؤرخين أيضًا، بيد أن أية محاولة لفهم سودان اليوم يجب أن تقوم على البحث فى وقائع المائتى عام الأخيرة. ذلك أن مجىء الأتراك والبريطانيين إلى السودان قبل وبعد الثورة المهدية (١٨٨١ . ١٨٩٨) لم يؤد فحسب إلى إضافة المزيد إلى التنوع المدهش أصلا لشعوب السودان، وإنما أفضى أيضًا إلى خلق دولة تتحكم فيها أشكال حكم جديد مصطنعة. فقد جلب الأتراك والمصريون معهم حضارة وثقافات من الإمبراطورية العثمانية والعالم العربى فى القرن التاسع عشر، بينما أدخل البريطانيون إمبريالية وتعليم وديانة وتكنولوجيا الغرب فى ذات القرن. وقد ترك كل طرف من أولئك الغزاة وراءه، وعلى طريقته الخاصة، طبقات إضافية من المؤسسات الغربية فوق عناصر أصلية عميقة الجذور فى نسيج الماضى السودانى.

ومن أكثر هذه العناصر صمودًا وقوة، ذلك الحجم والتنوع الكبيران فى بلد مترامى الأطراف كالسودان، واللذان ظلا ولا يزالان. أى الحجم والتنوع. يمثلان مكونين رئيسيين فى تاريخه. فالسودان هو أكبر بلدان القارة الإفريقية من حيث المساحة التى تبلغ مليون ميل مربع تقريبًا، وتشغل ١٨ درجة من خطوط العرض، أى ما يعادل حجم الولايات المتحدة شرقى نهر المسيسيبى، وحوالى ٢٪ من مساحة اليابسة فوق الكرة الأرضية. غير أن حجم جمهورية السودان الديمقراطية المستقلة لا يمثل سوى الجزء الشرقى فقط من السهل السودانى الأكبر، أو ما أسماه الجغرافيون العرب فى العصور الوسطى «بلاد السودان» التى تمتد من البحر الأحمر إلى المحيط الأطلنطى. وتعترض هذا السهل جبال وهضاب، وتحده مرتفعات مختلفة تحيط به، مثل منبع النيل فى الكونغو جنوبًا، والمنحدرات الإثيوبية وتلال البحر الأحمر شرقًا، والصحراء الكبرى شمالاً.

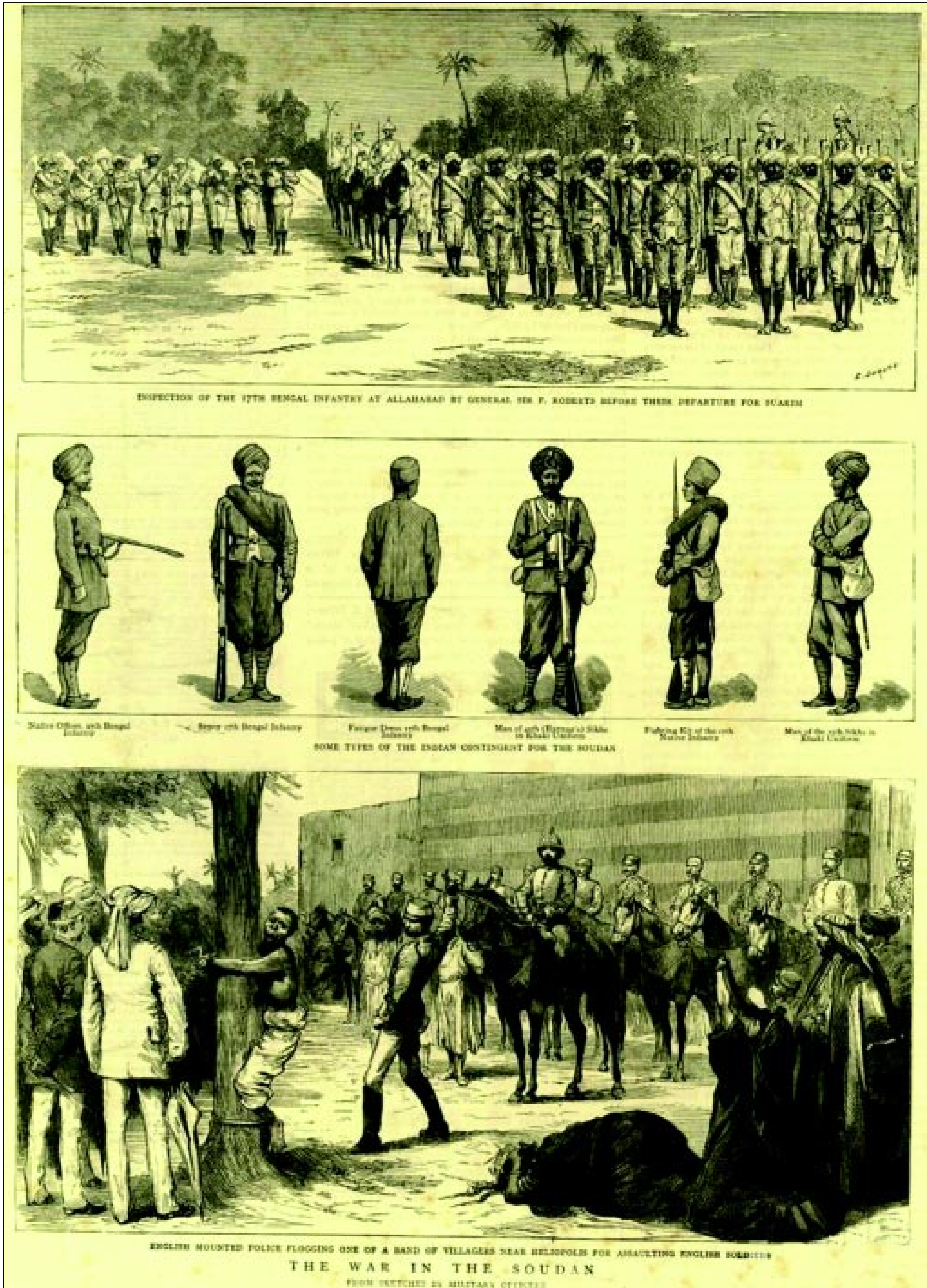
ولما كان هذا السهل المترامى يتمدد فى كل اتجاه فى الأفق، فإنه يبدو ككتلة واحدة متجانسة، إلا أن هذا المظهر يخفى وراءه تنوعًا هائلاً. ففى الشمال الأقصى يصبح هذا السهل السودانى صحراء فى السودان، وإن يوجد عدد قليل من الواحات الغنية بالملح ولكن مع القليل من الماء، ومناطق منعزلة من الصخور البركانية التى تشكل ينابيعها وكهوفها مصدرًا للبقاء والمأوى منذ العصور الحجرية، فضلاً عن «الجيزُّو» (حيث تُرعى الإبل شتاءً بالاعتماد على أمطار متقطعة).

أما إذا اتجهنا نحو الجنوب فإن الكثبان الرملية «الكيزان» بشجيراتها البرية القليلة تتحول إلى سهول طينية تدعم حزامًا من مراعى السافانا التى تنتعش فى فصل الأمطار، وتهيمن عليها من الشرق جبال النوبة الواقعة غرب النيل الأبيض والتى تشمخ فجأة أمام السهل السودانى الغربى الذى يبدو وكأنه بلا نهاية. أما بين النيلين الأبيض والأزرق فتوجد سهول «الجزيرة» الطينية الخصيبة التى مكّن انحدارها الطبيعى من الجنوب باتجاه الشمال من القيام بالكثير من مشروعات الرى فى القرن العشرين. وفى شرق النيل الأبيض، تحت المنحدرات الإثيوبية، تمتد مراعى «بوتانا» المموَّجة من المنحدرات الإثيوبية شمالاً إلى «الساحل» على حدود النوبة. وفيما وراء هذا توجد تلال البحر الأحمر الجافة المتناثرة التى تبدأ من إثيوبيا وتنتهى فى مصر، وتطل هذه الأراضى الوعرة على سهل ساحلى قاحل وضيق قوامه الرمال والحجر والشواطئ البللورية وشريط من الصخور المرجانية الكثيفة. وترتفع هذه السهول تدريجيًا، شرقًا وغربًا، وتطوق منخفض «السد» الضحل (اسم مشتق من الكلمة العربية «السد») الذى يعد المستنقع الأكبر فى العالم.

ومن ثم فإن «السد» هو أعظم مانع طبيعى فى عالمنا، حيث يتكون من ١١.٧٠٠ ميل مربع من البحيرات والبرك والقنوات المتعرجة. ويرتفع سطح المياه فى تلك البرك والمستنقعات حسب كميات الماء الواردة من البحيرات الاستوائية وكميات الأمطار الموسمية، مما يؤدى إلى تغطية الجزر بنباتات مائية طافية (نباتات السد) التى تتراكم وتندمج فيما يشبه السدود النباتية التى تجبر النهر على الصعود وشق قناة جديدة حول العائق الذى يقف فى طريقه. وبتكرار هذه العملية تتشكل حواجز جديدة فى دورات لا نهائية. وبفعل هذه المصيدة من البرك والمستنقعات شاسعة المساحة تضيع كميات هائلة من المياه جراء البخر والرشح. وبصرف النظر عن حجم المياه المتدفقة من البحيرات الاستوائية أو كمية الأمطار الساقطة، فإن كمية المياه المتبددة فى «السد» تظل ثابتة تقريبًا من عام لآخر، مما يشكل خسارة لكل من مصر والسودان. وترتفع الأرض بداية من «السد» باتجاه الجنوب الغربى حيث هضبة الصخور الحديدية المسماة «جبل الحديد»، ومنبع النيل فى الكونغو حيث تتدفق أنهار كثيرة باتجاه الشمال الشرقى عبر

روبــــــرت كـــــــــولـيـنـز

Robert O. Collins



وديان ضيقة منحدرة في وسط الصخور الحديدية صوب غابات الكونغو الاستوائية المطيرة. أما في الاتجاه الجنوبي الشرقي من «السد» فإن الأرض تأخذ في الارتفاع وصولاً إلى سلسلة من الجبال: «إماتونج»، «ديدنجا»، «دونجوتونا».. (ويصل ارتفاعها جميعاً إلى عشرة آلاف قدم) ثم إلى أعلى قمة جبلية في السودان وهي جبل «كينيتي» على الحدود السودانية الأوغندية والذي يبلغ ارتفاعه ١٠.٤٥٦ قدم.

ويتدفق نهر النيل (الذي يمثل . مع مجموع روافده. أطول أنهار العالم) من الجنوب إلى الشمال في مجراه المتعرج بطول السودان، وهو الذي حدد طريقة عيش أولئك السودانيين الذين استقروا على ضفافه، ومن ثم كان تميزهم عن الفلاحين والرعاة القاطنين في السهول السودانية بعيداً جداً عن النهر. وبدءاً من بحيرة الهضبة يمتد النيل، المسمى هناك «بحر الجبل»، ٨٠ ميلاً إلى أسفل، عبر مجاري «بيدن» الضيقة وشديدة الانحدار، والتي تتعرج خلال «السد» إلى بحيرة «نو» التي ينبع منها النيل الأبيض (البحر الأبيض) مع مياه الروافد الأخرى التي لم تتبدد في «السد»، فضلاً عن المساهمة الإثيوبية الكبيرة من نهر «السوباط» والتي تبلغ ١٤٪ من إجمالي المياه المتدفقة في نهر النيل، وهو ما يساعد في تدفق النيل الأبيض بعنفوان في اتجاه الشمال حتى نقطة الالتقاء المهيبة مع النيل الأزرق «البحر الأزرق» في الخرطوم. وينبع النيل الأزرق من المرتفعات الإثيوبية، وهو يسهم بحصة تبلغ ٨٦٪ من مياه النيل للسودان ومصر.

والآن بعد أن يصبح النهر مجرى واحداً عند الخرطوم فإنه يأخذ في التدفق القوي باتجاه الشمال ليحصل على آخر مساهمة مائية من نهر عطبرة على بعد ١٨٠٠ ميل من البحر المتوسط قبل أن يشق طريقه، بمنحنى بشكل حرف «إس» (S) ليصل إلى الحدود الجنوبية التاريخية لمصر عند أسوان والشلال الأول.

ولا يوجد أي بلد آخر في العالم له مثل هذا المناخ المتنوع والقاسي للسودان، فهو بلد حار حيث تتراوح درجة الحرارة بالخرطوم في شهري مايو ويونيو بين ١٠٦ و١٢٠ فهرنهايت وربما أكثر أثناء قيظ الصيف. وحينما تهب رياح الشتاء من الشمال فإن متوسط درجة الحرارة في الخرطوم يكون ٦٠ فهرنهايت، وربما تهبط إلى ٤٣ فهرنهايت. ويتحقق هذا التفاوت السنوي بفعل تيارين هوائيين عالميين. ففي الشتاء تهب على السودان رياح شمالية شرقية، لطيفة وجافة، آتية من آسيا الجافة فتدفع الفاصل المداري (ITCZ) بعيداً إلى الجنوب حتى تصل إلى مدار الجدي. وفي شهر إبريل يبدأ الفاصل المداري في التحرك شمالاً مدفوعاً بكتلة هائلة مع الهواء الرطب تجعل من الصعب استمرار سيادة الرياح الشمالية الشرقية التي استنفدت قوتها. وبالنسبة لتباين مستويات تساقط الأمطار في السودان فإنه يتراوح بين لا شيء تقريباً على الحدود مع مصر وأكثر من ٤٧ بوصة عند منابع النيل في الكونغو. وفي شهر إبريل أيضاً تتناقص قوة السحب المطيرة القادمة من جنوب الأطلنطي إلى السودان الجنوبي عندما تتحرك في اتجاه الشمال، لتصل إلى الخرطوم في شهر يوليو، حيث تخلق في الغالب عواصف ترابية عنيفة (الهَبوب) ثم تهدأ قبل أن تتجمع مرة أخرى كتلة الهواء الآسيوية الشمالية شرقية.

وينجم عن هذا التباين الكبير في مستويات تساقط الأمطار تنوع كبير آخر في النباتات والحيوانات التي تقوم عليها سبل عيش السودانيين، فيما يمكن تقسيمه إلى خمسة أحزمة للحياة النباتية من الشمال إلى الجنوب. فمستوى ٣ بوصات سنوياً من الأمطار المتقطعة لا يساعد الحياة النباتية الدائمة في الصحراء إلا في الوديان (المجاري المائية الجافة المتناثرة)، بينما المنطقة فيما وراء الساحل تستقبل سنوياً ما بين ٣ و١١ بوصة من الأمطار، وهو ما يعني إمكانية بقاء خليط من الأعشاب وأشجار الأكاسيا التي ينتج من أحد أنواعها (الأمكاسيا السنغالية أو «هشب») الصمغ العربي الذي يُعد من الصادرات الرئيسية في السودان.

أما بالنسبة لحزام السافانا العريض الذي يمتد من شرق السودان إلى غربه، وحيث يبلغ مستوى الأمطار السنوية ٣٠ بوصة، فإنه يكتسي بغطاء من الأعشاب الخضراء تتخلله غابات مورقة وموارد مائية يعتمد عليها، ويمتد هذا المظهر ليصل إلى هضبة الصخور الحديدية ومنابع النيل في الكونغو والجبال القائمة شرق بحر الجبل.



وإذا كانت الجغرافيا من بين العناصر الحاضرة دوماً في تاريخ السودان الحديث على مدى المائتي عام الماضية، فإن أراضيه المختلفة بمستويات أمطارها المتباينة قد أوت ما يقدر بحوالي ٦٠٠ جماعة عرقية ولغوية، وإن تكون العديد منها من أفراد قليلين. وقد درج العلماء تاريخياً على مجرد تصنيف هذه الجماعات المختلفة وعلاقة كل جماعة بغيرها. وهناك أسلوب آخر يمكن تفهمه يقوم بتقسيم السودانيين إلى فئتين كبيرتين: المسلمين وغير المسلمين. وإن كان من الممكن تقسيم المسلمين في السودان بدورهم إلى من يدعون الهوية العربية وأولئك الذين لا يرون في أنفسهم عرباً.

وعلى الرغم من اشتراك عرب السودان في اللغة والديانة الواحدة فإنهم لا يشكلون جماعة متماسكة حيث يُقسمون بشكل متعسف إلى حد ما إلى مجموعتين: النوبيين المُعرَّبين و«الجعليين»، ويقصد بالأخيرين أولئك الذين يدعون التحدر من «إبراهيم جعل»، وهو من نسل «العباس» عم النبي، وقد عاش وسط جماعات استوطنت النيل بطوله، والمجموعة الأخرى تضم بدو وأشباه بدو جهينة ويعيشون في السهول.

ويعيش النوبة المعربون الآن على ضفاف النيل في المنطقة الواقعة بين الشلالين الأول والثالث، المعروفة بالنوبة السفلى، وهم يحتفظون باعتداد قوي بمعمارهم وثقافتهم ولغتهم السابقة على مجيء العرب. وفي المنطقة الواقعة فوق الشلال الثالث يستوطن «الدناقلة» (المفرد: «دنقلاوي») الذين يزعمون بأنهم «جعليون» ولكنهم يعتزون كثيراً بأصولهم النوبية، ولا يزال الكثيرون منهم يتحدثون بلهجة نوبية. وهم ينفصلون عن بقية «الجعليين» بعصبة «الشايقية» ويعيشون بطول النيل من «الدبّه» إلى الشلال الرابع، وهم لا يدعون التحدر من «إبراهيم جعل»، ولا يزالون حتى اليوم على وعي كبير بخصوصيتهم المميزة. ويعد النيل من الشلال الرابع إلى نقطة الالتقاء مع عطبرة موطن الجعليين من الرباطاب والمناصير، وأولئك الذين يقطنون فيما بعد عطبرة حتى حجر «السبلوقة»، والذين حصلوا بشكل خاص على تسمية الجعليين. وهناك أيضاً جماعات أصغر حجماً تتناثر في سائر أنحاء السودان ولكنهم استؤصلوا من مجتمعاتهم التقليدية. لسبب أو آخر. وبحثوا عن الأمن وحماية الهوية عن طريق التجمع وراء زعيم جعلي أو رجل دين، ومن ثم كان الشك في ادعائهم بأنهم «جعليون».

أما الجماعات المتبقية التي تنسب نفسها لأصل عربي غير جعلي فيعرفون جملة. باستثناء «الرفاعة» .باسم الـ«جهينة». وينحدر «الجهينة» من عرب جنوب شبه الجزيرة العربية



على الرغم من اشتراك عرب السودان في اللغة والديانة الواحدة فإنهم لا يشكلون جماعة متماسكة



والذين جاءوا إلى صعيد مصر، ومن هناك انتقلوا جنوبًا إلى النوبة فى القرن الرابع عشر ثم انتشروا بعد هذا باتجاهى الجنوب والغرب، ثم استوعبوا بعد ذلك جماعات من السكان الأصليين غير العرب، ليكونوا ثلاث جماعات رئيسية هى «الشكرية» و«الكبابيش» و«البقارة». وبالنسبة للشكرية فهم من الرُحل رعاة الإبل الذين استقر بهم المقام منذ القرن الثامن عشر، تحت قيادة أسرة «أبو سن»، فى مناطق الرعى الكائنة بين النيل وعطبرة والتلال السفحية الإثيوبية، وتعرف بـ«بوتانا» الجنوبية.

وفى غرب النيل يتنقل الكبابيش على نطاق واسع بإبلهم وأغنامهم وماعزهم عبر «الساحل» فى كردفان الشمالية. وقد كانوا بمثابة تحالف قبلى فضفاض تكون فى القرن الثامن عشر لسلالات عربية مختلفة ذات طريقة حياة مشتركة، ثم اتحدت معًا فى القرن التاسع عشر تحت قيادة الشيخ «على التوم» (١٨٧٤ - ١٩٣٧) ذى الشهرة العريضة. أما البقارة فقد جاءوا بماشيتهم من «باجيرمى» و«وادى» فى تشاد فى القرن الثامن عشر قاصدين مراعى السافانا فى كردفان ودارفور. ورغم مرور أجيال كثيرة حفلت بالاسترقاق والتسرى والمصاهرة مع الأفارقة غير المسلمين فى منطقة بحر الغزال المجاورة، وهو ما أدى إلى تغيير مظهرهم البدنى، فإنهم لم يبتعدوا عن اللغة والثقافة العربية، وهم يشكلون فى واقع الأمر مجموعة من الجماعات الفرعية المتمايزة، نذكر من بينها: الرزيقات، المسيرية، الحمر، الحبانية، والتعايشة.

تطل جبال النوبة على سهول كردفان الجنوبية، ويبلغ عرضها ٩٠ ميلاً من التلال والمنحدرات الصخرية والجبال التى يتراوح ارتفاعها بين ٣ - ٤ آلاف قدم، وجميعها مروية جيداً بمياه الأمطار. وقد عاش النوبيون منعزلين فى هذه المنطقة منذ أن وعت ذاكرتهم. وهم يمثلون أكثر من خمسين جماعة عرقية تتحدث ما يزيد عن سبعين لغة مختلفة، ويمارسون دياناتهم الإفريقية التقليدية، وقد أطلق عليهم جميعًا مسمى «النوبة» فى القرن العشرين[1]، ولا يجوز الخلط بينهم وبين النوبيين القاطنين على النيل شمال السوان، وذلك على الرغم من حقيقة أن الجماعتين تتحدثان لغات من عائلة اللغات النيلو .صحراوية. وقد بدأت عزلتهم تتداعى فى القرن الثامن عشر تحت ضغط العرب البقارة القادمين من السهول. فأصبحت العربية لغة للتفاهم المشترك، ولكن الإنجليزية كانت مألوفة الاستخدام وسط النوبة المتعلمين، بينما واصلت هذه الجماعات ذات التنوع اللغوى والعرقى بالغ التعقيد تزرع الذرة والدخن والسرغوم فى سفوح الجبال والوديان والسهول.

وهناك كثير من المسلمين فى السودان لا يدعون الأصل العربى، وخاصة «البجا» الذين يقطنون تلال البحر الأحمر ويتحدثون «الكوشية». ومن بينهم «الهدندوة»، وهم بالأصل من رعاة الإبل الذين أصبح الكثير منهم خلال القرن العشرين فلاحين يزرعون الدلتات الخصبة لأنهار «جاش» و«طوكر». وبالنسبة لـ«العبابدة» الذين يمثلون الفرع الشمالى من البجا، فقد تحكموا لقرون طويلة فى الطريق الحيوى عبر الصحراء النوبية من «كورسكو» إلى «أبو حامد». هناك أيضًا مسلمون آخرون غير عرب، وهم أفارقة جاءوا منذ عهود سحيقة من الجنوب الشرقى، وتحديداً من على أطراف الغابات الإفريقية الاستوائية المطيرة، ليستقروا حول جبل «مَرة» الضخم وسط دارفور (أرض «الفور»). وقد كان معظمهم فلاحين يتحدثون لغات نيلو . صحراوية تربطهم لغويًا بالنوبيين وبـ«الماساى» فى تنزانيا. وقد زرع «الفور» وديان جبل مَرَّة الخصيبة والمروية جيداً، مثلما فعل «الداجو» و«البرتى» فى شرق السهول و«المساليت» فى غربها، بوديانها التى مهدتها الأمطار الغزيرة. أما فى «الساحل» شمال جبل مَرَّة فإن الزراعة تصبح هامشية، ومن ثم فقد كان «الزغاوة» (ذوو الأصول الإفريقية) رعاة إبل مثل «الكبابيش» جيرانهم العرب إلى الشرق.

وإذا كان المسلمون قد هيمنوا على شمال السودان، فإن السودانيين غير المسلمين ويتكونون من حوالى ستين جماعة مختلفة من الأصول النيلية الغربية والشرقية، وهو مصطلح جامع ومصطنع إلى حد ما، حيث يشير إلى كل أولئك الذين يتكلمون اللغات النيلية، والتى تدخل ضمن الأسرة الأكبر للغات النيو . صحراوية. ويتكون النيليون الغربيون من: «اللو»، «الشيلوك»، «الأنواك»، «الأتشولى»، «الجور»، إلى جانب الجماعتين العرقيتين الأقوى فى جنوب السودان وهما «الدينكا» و«النوير».



وقد سيطر أولئك النيليون الغربيون على مناطق الكلأ المحيطة بـ«السد»، حيث ربطت ثقافة تربية الماشية بين الدينكا والنوير، بينما يعد «اللو» و«الشيلوك» و«الأنواك» فلاحين بالدرجة الأولى، وإن امتلكوا ماشية أيضاً. أما النيليون الشرقيون، والذين يتكلمون أيضاً لغات سودانية شرقية، فيتكونون من جماعات عرقية صغيرة الحجم يقدر عدد الواحدة منها بالآلاف وليس بمئات الألوف، ومن بينها: «البارى»، الفاجولو»، و«الكاكوا» وهم معًا من الفلاحين المستقرين؛ أما «الماندارى»، «التابوسا»، و«التوركانا» فهم رعاة ماشية.

وقد كان موطن هذه الجماعات السودانية النيلية الإفريقية ذات يوم فى وسط السودان، وخاصة منطقة الجزيرة. وحسبما تقول تقاليدهم الشفاهية عن الهجرة فإن «الدينكا» (أو «جيانج» أو «موينجيانج» فى لغتهم الخاصة) كانوا آخر من غادر الجزيرة فى وقت ما من القرن التاسع عشر، ومن ثم أزاحوا «اللو». الذين هاجروا قبلهم. إلى الوراء أكثر باتجاه جنوب السودان. وقد أصبحت هجرتهم إلى الجنوب ممكنة بعد حصولهم على ماشية الجاموس ذى السنام المنخفض من منطقة الحدود الإثيوبية قبل حوالى ألف عام، ومن المعروف أن هذا النوع من الماشية أكثر قدرة على احتمال الجفاف وقطع مسافات طويلة أثناء التنقل وراء الكلأ.

وفى القرن السابع عشر دخل أولئك «الدينكا» فى صراع مع «الشيلوك»، وهم الوحيدون بين النيليين الذين أقاموا دولة مركزية بقيادة ملك مقدس «ريث» وقاوموا بشراسة كل محاولات «الدينكا» لتحويل أراضيهم الزراعية إلى مراع للماشية. وقد اتسمت المائتا عام التالية من العلاقات بين «الدينكا» و«الشيلوك» بالحروب التى لا تنتهى حول الحدود بينهما مع فترات من السلام الهش، وهو الوضع الذى استمر حتى عهد «ريث أكوت» (١٨٢٥ - ١٨٣٥) الذى استطاع القضاء على تهديدات الدينكا لأرض مملكته.

وعندما هاجر «الدينكا» الذين يعيشون شرق بحر الجبل عبر النهر باتجاه بحر الغزال خلال النصف الثانى من القرن السادس عشر، اكتشفوا الأراضى الخصبة التى يعيش عليها «اللو» و«اللويل». وكان «اللو» قد احتلوا مساحات شاسعة فى جنوب السودان خلال القرن الثانى عشر، إلى أن وقعت المجاعة بفعل دورات الجفاف الشديد فى أواسط القرن الخامس عشر وأوائل القرن السابع عشر، الأمر الذى تسبب فى تشتتهم.





إن تحـــديد ما يشـــكل الهـــوية هـــو مـــن الأمـــور المحـيـرة وصـعـبـة المنـال، بـالـضـبط مثـــل محــاولة تفســـير العنصـــريـــة



فذهب بعض «اللو» شمالاً ليؤسسوا مملكة «شيلوك»، واستوطن البعض مثل «الأنواك» في أعالي نهري السوباط والبيبور. ولكن لم يشترك كل «اللو» في هذه الهجرات حيث بقي القلة في مستوطنات حول هضبة الصخور الحديدية، وهناك اتسمت العلاقات بين الفلاحين «اللو» ورعاة «الدينكا» الوافدين بالوئام إلى حد بعيد، ووطدتها الزيجات بين الجماعتين، ذلك أن المكانة الاجتماعية التي مثلها امتلاك «الدينكا» لقطعان الماشية كان لها جاذبية كبيرة عند «اللو» الذين سعدوا بالاندماج في مجتمع «الدينكا».

أما «اللويل» فقد كانوا القاطنين الأصليين الذين استقروا في جنوب السودان في وقت ما من القرن الثامن، وحيث كانوا يذكرون ببناء التحصينات القوية، كما اشتهروا بالمهارات الحربية، وقد تمكنوا لبعض الوقت في القرن السابع عشر من تعطيل تقدم «الدينكا» عبر بحر الغزال. ولكن «الدينكا» استطاعوا في نهاية الأمر إجبار «اللويل» على التقهقر بعيداً حتى بحر العرب «الكير» عند «الدينكا»، حيث اندمجوا في كثير من مجتمعات غير «دينكية» تعيش غرب بحر الغزال. أما من بقوا ولم يفروا، فإما أن يكونوا قد استوعبوا في «الدينكا» وإما عاشوا في تجمعات صغيرة منعزلة. وظل هذا حالهم حتى القرن العشرين. هذا وبعد أن أكمل «الدينكا» هجراتهم بالاستقرار في جنوب السودان انتظموا في إطار ثلاثة اتحادات قبلية: «دينكا بادانج»، «دينكا بور»، و«دينكا بحر الغزال». وتحت هذه الاتحادات توجد ست وعشرون جماعة فرعية.

وبالنسبة «للنوير» أو «ناث» في لغتهم، فهم الجماعة النيلية الأخرى التي سيطرت على سهول «التويك» الواقعة شرق وغرب «السد». وبالرغم من أن الكثير من «النوير» المحدثين يصرون على تحدرهم من «الدينكا»، فإن الدلائل الأكثر إقناعاً تؤكد أنهم كانوا في الأصل جزءاً من شتات «اللو» الذين شقوا طريقهم إلى جنوب كردفان قبل مجيء «الدينكا» بزمن طويل. وتقول التقاليد الشفاهية إنهم قد تركوا وراءهم أراضي جنوب كردفان التي ضربها الجفاف في بداية القرن الثامن عشر ليستقروا في مناطقهم الحالية الغنية بالعشب والمروية جيداً «كوير. كونج» شرق وغرب «السد»، وحيث دخلوا مع «الدينكا» المحيطين بهم في حروب على الماشية والكلأ والنساء طوال الثلاثة قرون. وعندما وصل البقارة إلى جنوبي دارفور وكردفان في أوائل القرن الثامن عشر، أدت غاراتهم إلى طرد «البول نوير» الذين كانوا يقطنون على حدود البقارة باتجاه الشرق حوالي عام ١٧٥٠، وعجل هذا . فيما يشبه تساقط قطع «الدومينو». بإزاحة جماعات أخرى من «النوير». ومع أواسط القرن الثامن عشر اقتطع «النوير» لأنفسهم مساحة بعرض مائة ميل تمتد من «السد» إلى المنحدرات الإثيوبية، حيث أخضعوا «الدينكا» للاستيعاب والقتل، واستولوا على ماشيتهم ونسائهم، ومن ثم وسعوا أرضهم أربعة أضعاف، تاركين «الدينكا» مقسمين بين الشمال والجنوب ويجترون ذكريات أليمة لا تزال حاضرة عندهم حتى اليوم.



وكان «الأزاندي» (المفرد: «زاندي» ويطلق عليهم أيضاً «نيام. نيام») هم أحدث موجات الأفارقة الذين جاءوا للاستيطان في جنوب السودان. وهم يتكلمون لغة «أداماوا»، وهي فرع من عائلة اللغات «النيجر. كونغولية» التي تنتمي إليها أيضاً لغات «البانتو». وتحت قيادة أرستقراطية «أفونجارا» نجح محاربو «الأزاندي» المهابون في عبور منابع النيل بالكونغو إلى السودان في النصف الأول من القرن التاسع عشر فقط، قادمين من وادي نهر «مبومو» ليقع الصراع بينهم وبين تجار الرقيق من العرب، حتى أسس «جبودوي»، «يامبيو» مملكته التي أخذت في التوسع، ومن ثم دخلت في حرب مع «الدينكا»، ولم يستطع أي من الطرفين حسمها. وعندما قتل عام ١٩٠٥، على أيدي حملة تأديبية حكومية تم تقسيم المملكة بين أولاده تحت الإشراف البريطاني.

إن ذلك التنوع . العرقي واللغوي . الهائل في السودان قد أسهم مباشرة في بلورة العنصر الثالث في تاريخ السودان الحديث، ألا وهو العنصرية الثقافية. ومن المعروف أن «العنصرية» موضوع معقد ومحل خلاف، ولكن لا يزال مضمون تعريفها الأساسي هو الاعتقاد بأن بعض العرقيات متفوقة والبعض الآخر متدنية. وقد بنيت العنصرية عميقة الجذور في السودان على الأساسين . التاريخي والثقافي . أكثر من بنائها على أساس اللون، وهي أيضاً عنصرية فردية ومؤسسية أكثر من كونها أيديولوجية. فقد كان الاسترقاق مؤسسة تاريخية ومقبولة في السودان لآلاف السنين، وكان التمييز العنصري هو المبرر الأول له، وهو ما استمر في السودان المعاصر من خلال استخدام التعبير التحقيري «عَبْد» لوصف أولئك الذين يملكون خصائص ثقافية مختلفة، أو ذوي الوضعية الاقتصادية والاجتماعية المنخفضة سواء أكانت ظاهرة أم ضمنية.

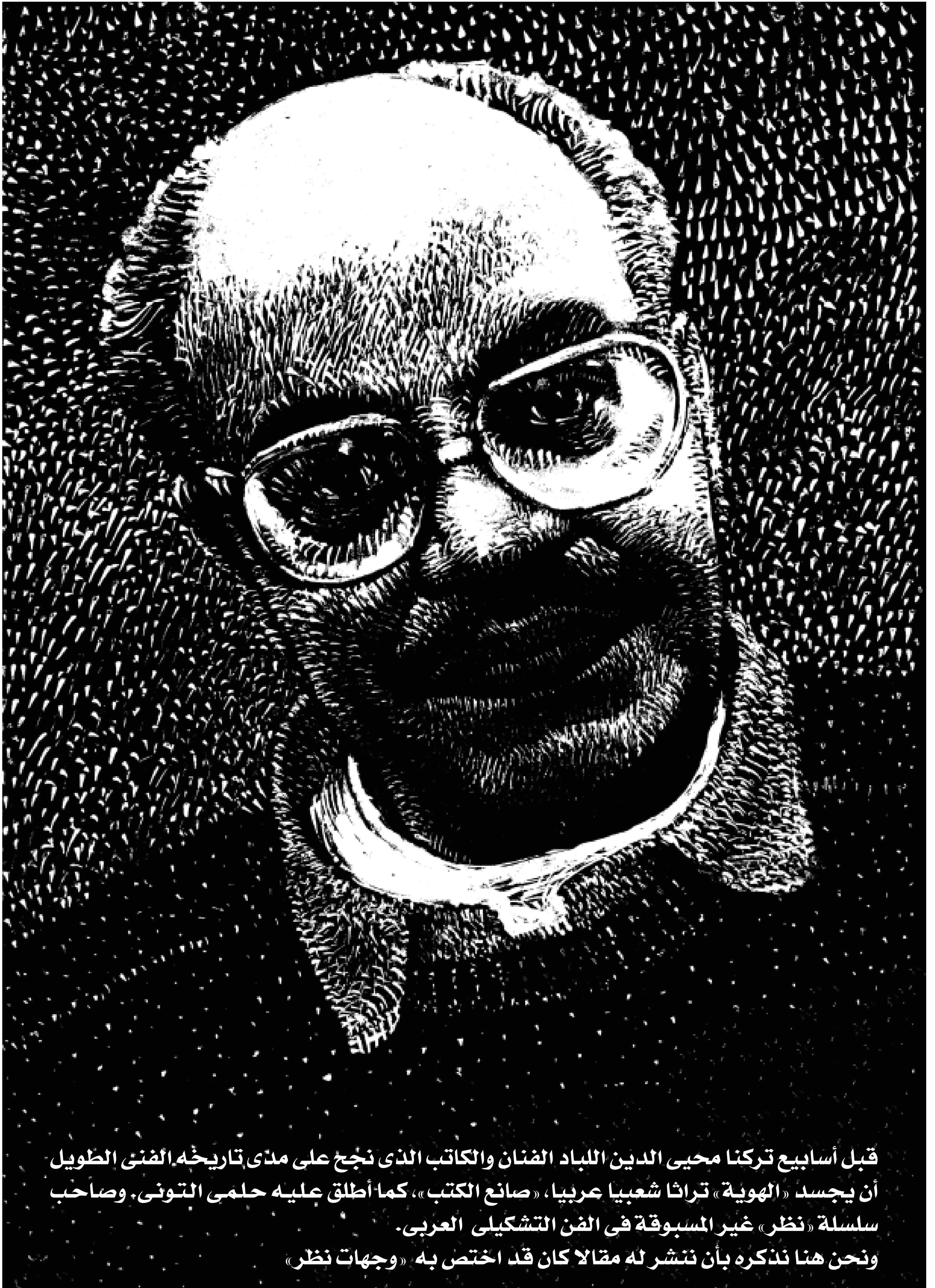
وتُعد العنصرية الثقافية أقل حدة نظراً لكونها نتاج التفاخر الناجم عن حالة من التنوع الثقافي تتحدد فيها مكانة الجماعة على حساب الجماعات الأخرى ذات الخصائص الثقافية واللغوية المختلفة. وهكذا فإن سكان السودان النهري «أولاد البحر» قد أظهروا منذ زمن ازدراءهم للعرقيات الأخرى في الغرب «أولاد الغرب» حيث اعتبروهم أجلافاً غير متحضرين. وهو ما أفضى إلى عنصرية سياسية بينة استطاعت بمقتضاها جماعات عرقية ثلاث («الجعليين» و«الشايقية» و«الدناقلة» الذين يشكلون معاً «أولاد البحر») الاحتكار الفعلي لجميع المناصب الحكومية، بدءاً بمنصب الوزير وانتهاء بالوظائف الحكومية الصغيرة، وذلك على مدى الخمسين عاماً التالية على استقلال السودان، الأمر الذي بات يشكل أحد العراقيل الرئيسية في طريق البحث عن هوية وطنية واحدة.

إن تحديد ما يشكل الهوية هو من الأمور المحيرة وصعبة المنال، بالضبط مثل محاولة تفسير العنصرية، ولكن تحديد من هو «السوداني» لا يزال يمثل مقوماً آخر للعنصرية الثقافية. ففي زمن الفتح التركي . المصري، تم تبني الهوية الإسلامية العربية من جانب سكان السودان الشمالي، وتمثلت مقومات هذا في التحدث بالعربية والادعاء بالأصل العربي واعتناق الديانة الإسلامية. أما في سنوات الحكم الثنائي البريطاني . المصري (١٨٩٨ . ١٩٥٦) فقد أدخل المسئولون البريطانيون اللغة الإنجليزية والفكرة الغربية عن القومية وسط من علموهم من أبناء العائلات العربية المرموقة، ولكن هؤلاء بدورهم بدأوا في البحث عن الهوية السودانية. ورغم الإيحاءات بالدونية التي ينطوي عليها مصطلح «السوداني» فإن النخبة الناشئة التي تلقت تعليماً غربياً قد أعطت لهذا المصطلح معنى جديداً، ليدل على هوية وطنية تحددت بكونها عربية وإسلامية، وهو ما جعلها ضيقة واستبعادية ولا تستجيب إلا في القليل، أو لا تستجيب على الإطلاق، لمشاعر ثلث سكان السودان وهم من الأفارقة غير المسلمين وغير العرب. ويضاف إلى هذا أن بقية العالم العربي لم يشاركوا النخبة السودانية اعتقادها بأن السودانيين عرب أصلاء، بينما تصارعت النخبة نفسها مع الالتباس الناجم عن أن الكينونة السودانية تتضمن أفارقة سوداً لم ترغب هذه النخبة في أن يتم الخلط بينها وبين هؤلاء، خاصة عندما يعتبرون سوداً في أوربا وأمريكا الشمالية.

وبينما يعترف معظم السودانيين الشماليين في قرارة أنفسهم بأصولهم الإفريقية، فإن هذه الحقيقة نفسها قد شجعت . بالمفارقة . الكثير منهم على التمسك بحماسة أكبر بجذورهم العربية المدعاة. ورغم أن أزمة الهوية هذه قد نشأت أولاً قبل الحرب العالمية الثانية، فإن سؤال «من هو السوداني؟» قد أصبح بعد الاستقلال موضع جدل وطني وسط النخبة الثقافية، الأمر الذي كان دافعاً رئيسياً وراء قيام انقلاب ٣٠ يونيو ١٩٨٣ الإسلامي، بإنشاء لجنة حكومية لجعل كل السودانيين عرباً وأصوليين «سلفيين» تماماً من خلال برنامج قوي للتعريب والأسلمة. ■

---

(١) هكذا بالأصل، ويعتقد المترجم أن الكاتب يقصد القرن الثامن عشر، وهو الأصح.



قبل أسابيع تركنا محيى الدين اللباد الفنان والكاتب الذى نجح على مدى تاريخه الفنى الطويل أن يجسد «الهوية» تراثا شعبيا عربيا، «صانع الكتب»، كما أطلق عليه حلمى التونى. وصاحب سلسلة «نظر» غير المسبوقة فى الفن التشكيلى العربى.
ونحن هنا نذكره بأن ننشر له مقالا كان قد اختص به «وجهات نظر»

الخط.. الحرف.. المقدس

محيى الدين اللباد

■■ لم يكن ما أشيع عن تحريم الإسلام لتصوير الإنسان والكائنات الحية، السبب في تبوؤ الخط العربى مكانته الرفيعة في حياتنا، وبالتالى انفراد الخط والزخرفة بميدان الفن البصرى كله، بل أخذ الخط مكانته لأنه كان جزءاً من حضارة ونهضة ثقافية وروحية وفلسفية وفنية رفيعة شملت بلاد الإسلام. كانت تلك النهضة تعبيراً عن الخطوات الواسعة الجريئة التى خطتها البشرية خارج الظلمات والجهل والعنف والمظالم التى سقطت فيها بلاد العرب وما حولها لقرون طوال قبل الإسلام.

اكتسب الخط العربى مكانته الرفيعة أيضاً لأنه الحامل لكلمات القرآن، الكتاب الذى قدسه المسلمون على طول ألفية ونصف فى مختلف أرجاء الكوكب. ولكن تلك المكانة الرفيعة التى أعلت من شأن الخط العربى والزخرفة المصاحبة، وأحاطته بمحيط من العناية والوقت والمال والمنزلة الثقافية والاجتماعية بقصد حمايته والحفاظ عليه، كانت سبباً فى تجميد هذا الفن وفى إيقاف تطوره.

فى القرون الخمسة الأخيرة، فهم البعض أن «حفظ» القرآن المعنى فى آية «إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون»، على أنه -يعنى أيضاً- تثبيت طرق كتابة نصوصه. وقد ساهم الأتراك العثمانيون فى هذا التجميد، عندما روجوا -فى القرن ١٧م- لأسلوب كتابة القرآن بالخط النسخى الحديث الذى اشتهر به الخطاط التركى البارع الحافظ عثمان أفندى (اسطنبول، ١٦٤٢-١٦٩٨م) الذى كان من أشهر خطاطى المصاحف «العثمانية» بالخط النسخى، التى كتب منها ٢٥ مصحفاً، طبعت الدولة العثمانية عدداً منها انتشر فى البلاد الإسلامية.

قبل العثمانيين، ازدهرت جنات من التنوع الخلاق المبهج فى أساليب الخط العربى التى كتبت مصاحف القرآن الكريم، وطبعت الثقافات المحلية فى أركان العالم الإسلامى المختلفة تلك الأساليب بأرواحها المتباينة والمنوعة، وأغنتها. وكان ذلك بدءاً من الخط الكوفى القديم (المسمى بكوفى المصاحف)، مروراً بالثلث والنسخى والنستعليق (الفارسى) وصولاً إلى الخط العربى المغربى/الأندلسى الذى تحرر من كل القواعد الحرفية، وأصبح فناً تعبيرياً شخصياً وحراً.

إلا أن تقديس الخط العربى لارتباطه بآيات القرآن الكريم الذى يجتهد المسلمون كثيراً لحمايته من أى تحريف أو تبديل، بلغ درجة جمدت الخط العربى، وجمدت إبداع الخطاط وتفكيــــره، ومنعته من الاجتهاد والمراجعة والتجاوز والتحرر والإبداع والابتكار.

وشهد فن الخط العربى بعض تقاليد صاحبت فترات «ازدهاره» فى الدولة العثمانية، وكان من تلك التقاليد احتفاظ الخطاطين الأساتذة ببرية أقلامهم فى علب ذهبية أو فضية حماية لها من دوس الأقدام أو النجاسة، بعد أن كُتبت بها آيات القرآن ولفظ الجلالة. ولنتخيل ما أدت إليه مظاهر التقديس تلك من تجميد وتحنيط لفن الخط العربى.

أدى ذلك التقديس والتجميد والتحنيط إلى تثبيت تصور عند البشر يعارض تحرير الكتابة العربية من إسار التقليد والتكرار، إذ ساد شعور خفى كما لو أن الخط العربى نزل من السماء، وكما لو كانت أصول كتاباته قد هبطت إلينا عن طريق «الوحى». وبسبب تلك المواقف نفسها، عارض سلاطين آل عثمان دخول آلة الطباعة دولتهم، حتى لا يُطبع القرآن بآلة لا روح لها ولا عقل، ولا عقيدة!.

لذلك، شعر من طالع بعض كتابات الخطاط الشجاع المجتهد مسعد خضير البورسعيدى بشىء من الصدمة أمام ما فعله هذا الخطاط فى بعض تجاربه، حين كتب لوحة بخط النستعليق: «إن الله بالغ أمره». كان خضير يقصد إرسال تلك الصدمة الرمزية: فلم يجعل حرف «غ» بدورانه المعروف «المقدس»، بل وضع له بدلاً من الدوران حوض «ف»، وعاد فوضع دوران «غ» للهاء الأخيرة.

ما فعله خضير هو مجرد طرح للفكرة والمبدأ: هل نعتبر أساليب الخط العربى أزلية لا يمكن التعديل فيها للحصول على الأصلح والأنفع والأكثر ملاءمة أم لا؟ والحكم على ما فعله بالإعجاب والتشجيع هو إعجاب بالفكرة وتشجيع لمبدأ المراجعة والاجتهاد في الخط.

كم هى مبهجة تلك التجربة البسيطة الشجاعة، التى تتحدى الثبات والجمود والتحنيط الذى يستقر فى روعنا وكأنه تقديس. إنها شجاعة «لم لا؟» التى يجب أن نستفز بها الجمود. إن الخط العربى هو ابن الإنسان ومن إبداع البشر وليس مُنَزّلاً ولا وحياً، والإنسان هو صاحب الحق فى مراجعة إبداعه وتطويره وتبديله حسب الحاجة وحسب تبدل الأحوال، وحسب الوظائف الجديدة للخط والكتابة.

ومثل هذه التعديلات والتغيرات كانت قد حدثت فى الخط العربى بالفعل منذ قرون طويلة وعلى طول هذه القرون، حين تطور من الكوفى البدائى إلى النسخ والثلث، وبعده النستعليق والرقعة والديوانى، التى تم فيها تغيير الكثير من ثوابت الأساليب السابقة، بل وتغيير منطق كتابة الخط نفسه، ولكننا اكتفينا بما استقرت عليه الكتابة سابقًا، ولم نبدع جديداً بعدها.

التعصب (الذى شاركنا فيه جميعاً) والصراخ بشعار «حماية الخط العربى من العبث والتحوير»، لم يعد موقفاً ناضجاً مسؤولاً، ويجب علينا جميعاً مراجعته. نعم علينا أن نقيّم وننقد نتائج محاولات تطوير الخط العربى، ونمسح بالردىء منها الأرض. لكن ليس لنا أن نحرّم المحاولة أو نحظرها على أحد. ليس هناك شىء يستمر بدون تبديل وتطوير لمواكبة المتغيرات المتلاحقة فى حياتنا.



أدى ذلك التقديس والتجميد والتحنيط إلى تثبيت تصور عند البشر يعارض تحرير الكتابة العربية من إسار التقليد والتكرار، إذ ساد شعور خفى كما لو أن الخط العربى نزل من السماء



الخطّ وحرف الطباعة

هناك ضرورة للتفريق القاطع بين كلمتى «الخطوط» (بمعنىCalligraphy) و«تصميم حروف الطباعة» (بمعنى Fontography). والخطأ فى الخلط والالتباس بين التعبيرين خطير. إذ أنه ليس مجرد خطأ فى التعبير اللغوى، بل هو -إذا ما وقع- يستدرج إلى أخطاء عملية ذات تأثير جسيم على المفاهيم والتخطيط والتوجهات فى مسارات البحث والابتكار والتصميم والاستثمار فى مجال حروف الطباعة بأنواعها.

«الخط»Calligraphy هو فن شخصى وحرفة فردية يعتمد أداؤها على اليد البشرية، وعلى التكوين الشخصى، وعلى الذوق، وعلى حال الخطاط لحظة خطّه لقطعة من العمل بعينها، لن يتكرر إنتاجها مرة أخرى. ويعتمد الأداء والأسلوب فى الخط على: البحث عن الحل الأمثل لحالة معينة محددة - الارتجال (بما يشابه تقاسيم الموسيقى الارتجالية على مقام معلوم) -الاستدراك - الفذلكة - الطابع الشخصى التقديرى. ويحكم على نتيجة عمل الخطاط على أساس كونها وحدة عمل واحدة متشابكة، وعلى أساس تكاملها مع نفسها.

أما الحرف المصمم للطباعة Font، فهو نظامsystem وظيفى نمطى، معدّ للاستعمال العام بواسطة مستخدمين لا تشترط فيهم كفاءات خاصة، ولا تتوفر لهم -عند استخدامه- فرص للارتجال، أو الاستدراك، أو الفذلكة، أو التجويد، أو إضفاء الطابع الشخصى والتقديرى. ويأخذ قيمته من درجة التواصل الـcommunication التى تنتج عن الاصطلاح العام على استعماله الواسع.

وقد تغيرت فنون كثيرة بانتقالها إلى وسيطmedium جديد، أو بتغيرات فى تقنيات الوسيط، وغالباً ما انفرزت منها فنون جديدة مستقلة بذاتها: ذات سيادة،

إن الله بالغ أمره

experimentū querītis eius qui in me loquit xp̄c. Post damascū arabiāq lustratā: ascēdit iherosolimā ut vidit

وَهٰذَا ٱلنِّيلُ لَهُ خَصَّتَانِ ٱلْأُولَى بُعْدُ مَرْمَاهُ فَإِنَّا لَا نَعْلَمُ فِي ٱلْمَعْمُورَةِ نَهْرًا أَبْعَدَ مَسَافَةً مِنْهُ لِأَنَّ مَبَادِئَهُ عُيُونٌ تَأْتِي مِنْ جَبَلِ ٱلْقَمَرِ وَزَعَمُوا أَنَّ هٰذَا ٱلْجَبَلَ وَرَآءَ خَطِّ ٱلْإِسْتِوَآءِ بِإِحْدَى

وغير ملحقة بالأصل. ومن هذه الفنون: فن حرف الطباعة، الذى انفصل عن فن الخط، مثلما انفصل فن السينما عن فن المسرح، ثم فن التليفزيون عن فن السينما -وأصبح لكل فن منها قوانينه وشروطه الخاصة.

وقد انفك الإسار عن فن حرف الطباعة اللاتينى عندما حرر نفسه من محاولة محاكاة فن الخط اليدوى، وحين كف عن المراوغة والتحايل على حدود limitations الوسيط الجديد التى «تعجزه» عن الوصول إلى «كمال» الخط اليدوى. تحرر حرف الطباعة حين جعل من تلك الحدود خصوصيات وصفات وقسمات أساسية تميزه، بل لقد ركز على إبرازها، وجعل منها قيمه الجمالية الخاصة. كف الحرف عن اعتبار نفسه من مرتبة أدنى من الخط اليدوى؛ فانطلق إلى الأمام وإلى الأعلى.

المسافة شاسعة بين الحرف اللاتينى القوطى Gothic الذى بدأ به جوتنبرج عام ١٤٥٠ وبين ما نعرفه الآن من حروف لاتينية. وعمليات الابتكار والتطوير فيها لا تزال مستمرة. ويستفيد تصميم الحرف اللاتينى ويتأثر بكل أشكال النمو والتطور فى: الصناعة والعلوم (تطبيقية وإنسانية) والنظريات الفلسفية والمدارس الفنية، وبالمتغيرات السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ويتطور تصميم حرف الطباعة اللاتينى أيضًا بالبحث الدؤوب فى تراث الخط اليدوى وتراث الفنون البصرية، سواء فى الحضارة الغربية أو فى الحضارات الأخرى غير اللاتينية. بينما نتجمد نحن ونجمد معنا حروفنا الطباعية، ولا نزال متوقفين بها عند مرحلة تعادل مرحلة حرف الطباعة القوطى الذى بدأ به «جوتنبرج» طريقه فى القرن ١٥م، ولم نتحرك بحروفنا إلى الأمام إلا قليلا!

عرفنا حروف الطباعة العربية، على نطاق واسع مع حملة نابليون (١٧٩٨م)، وكانت الحروف التى جلبها معه مسبوكة فى جنوة، والبندقية (حيث كانت إيطاليا سباقة فى صناعتها -منذ القرن ١٦- لطباعة ترجمات عربية للكتاب المقدس).

لم يختلف الحال كثيرًا طوال القرنين اللذين يفصلاننا عن حملة نابليون ومطبعته؛ فحتى سنوات قريبة كانت التجارب المحلية قليلة، والإسهام المحلى فى صياغة الحروف كان قليلاً. أما الاختيار وقرار

الإنتاج فكانا -غالباً- اختيار وقرار شركات غير عربية، لا تملك المعرفة الكافية بنا وباحتياجاتنا، ولا تملك الدراية الثقافية بتاريخنا وتراثنا فى الميدان، ولا تعرف أولويات ضروراتنا، ولا تعنى بإنجاز ما يبنى لنا تراكماً صحيحاً يؤسس لتنمية ثقافية فى بلادنا.

وفى النصف الأول من القرن العشرين، جرت محاولات عربية جادة قليلة لتطوير حرف الطباعة العربى، وتوصلت دار المعارف المصرية فى ١٩٤٨، مع شركة «مونوتايب» البريطانية، إلى حرف طباعة كامل رفيع المستوى للكتب كان معتمداً على خط النسخ. كتب هذا الخط خطاطون مصريون وأشرف عليه خبير الطباعة يوسف قاروط كما توصلت الشركة الأخرى «لينوتايب» لحرف طباعة مختصر مقبول للصحف والدوريات. كان الحرفان المصنعان لغرض صف المتون، مثلما كانت كل الأبحاث الجادة فى مجال حرف الطباعة تدور حول حروف المتن. وظل الاعتماد -فى عناوين الصحف والدوريات وأغلفة الكتب والإعلانات المطبوعة وغيرها- على الخطاط اليدوى، باستثناء تجارب قليلة لا يتجاوز عددها عدد أصابع الكفين: فى الستينيات أنجزت جريدة «الأهرام» حرفاً حصرياً خاصاً لعناوينها (الخطاط عدلى بولس + المصمم المعمارى ثم الجرافيكى هـ .توفيق بحرى). وفى منتصف السبعينيات، لجأت بعض الصحف اللبنانية (دار «الصياد») إلى طباعة حروف عناوين منفصلة على ورق مصقول، وكانت العناوين تجمع منها يدوياً بقصها ولصقها متجاورة على ورق، ثم تصويرها.

وبعد الطفرة فى أسعار النفط فى منتصف السبعينيات، اهتمت شركة «ليتراسيت» (وبعض الشركات الإيطالية الأصغر) بالسوق العربية وسوق إيران، وأنتجت لهما -على عجل- قائمة من حروف العناوين العربية المطبوعة على أسطح شفافة لاصقة، وقابلة لأن تُنقل على الورق. تم الإنتاج فى هرولة، وكانت النتائج -فى أغلبها- مشوهة ومتدنية المستوى (يصل بعضها إلى درجة الفكاهة المحزنة). ولم يكن منجزو هذه الحروف خطاطين أكفاء، ولا مصممين جرافيكيين مبدعين، بل كانوا من قناصة فرص السوق. لكن هذا الإنتاج سرى فى بلادنا المندهشة سريان النار فى الهشيم، ولا يزال الكثير من أحرفه يتسيد السوق، ويتصدر الصفحات الأولى لصحف عربية كبرى يشترك عدد كبير منها فى استخدام نفس الحرف «المريض»، الذى يجعل تشابهها العام فى الشكل والمذاق متقارباً إلى حد كبير.

ودخلت «ميكانورما» (نظيرة «الليتراست» فى فرنسا) السباق على السوق العربية، فأنتجت -فى هرولة هى الأخرى، وعبر فريق صغير من المصممين حديثى العمر والخبرة- قائمة قليلة العدد من الحروف العربية لم يختلف مستواها عن سابقتها البريطانية، ولم تلق رواجاً فى السوق العربية.

وعندما ازدادت إمكانات الصف الضوئى photocomposing واتسعت سوقه فى بلادنا، وكان ضرورياً أن تضيف الشركات إلى حروف آلاتها حروفاً للعناوين، لم يكن أمام شركة «لينوتايب» سوى حروف «ليتراسيت» المشوهة إياها، لتجعلها حروف العناوين الرئيسية فى آلاتها، وأضافت إليها حروفاً قليلة جديدة (مشوهة بدورها) «أبدعها» نفس الفريق الذى ارتكب الجريمة الأولى. وقد تفكك ذلك الفريق، فيما بعد، وانقسم إلى شركات متعددة تختص فى إنتاج حروف الطباعة وملحقاتها، ولا زالت حروفهم هى الرائجة فى السوق العربية، وفى قوائم الشركات العالمية الكبرى، رغم سذاجتها وضعفها البادين.

ومع تسارع ظهور التقنيات والأدوات المساعدة التى تيسر (حتى للأفراد) إنتاج حروف الطباعة للحاسب، زاد الهرج، واشتد زحام الميدان، واختلط الحابل بالنابل، وازدحم المولد وزادت هيصته.

وظل همنا الأكبر -فى أغلبه- محاولةً لإعادة إنتاج أساليب الخط اليدوى المعقدة فى شكل حروف للطباعة: بالأحرف المعدنية البارزة، أو بالصف الضوئى، أو على الكمبيوتر. وكم بذلنا من جهود كبيرة من أجل هذه المحاكاة المستحيلة، والتى يعدّ البعض الاقتراب من النجاح فيها انتصاراً.

لن يمكن بلوغ هذا النجاح، ولوى رقاب أساليب الخط العربي، وإدخالها فى نسق الكمبيوتر. فالتراكب بين الحروف العربية، ووجود أكثر من شكل للحرف العربى حسب موقعه وعلاقته بالحروف المختلفة السابقة عليه واللاحقة، لن يمكّن من ذلك باليسر الذى تتطلبه اقتصاديات الوقت والعمليات فى الكمبيوتر.

ولقد كانت مهمة ثقيلة تلك التى صرف المصممون والمطورون فيها جهوداً مضنية طويلة للحصول على خطوط مثل الثلث والديوانى والفارسى والرقعة والمغربى عن طريق الكمبيوتر. فهى أساليب لا تتسق مع التركيب الخطى الاستطرادىlinear المعتمد فى تتالى حروف الطباعة. والنتائج التي حصلنا عليها -بالكمبيوتر- لتلك الأساليب الكلاسيكية متواضعة وتحفل بالتنازلات في تقاليد الكتابة دون أن تصل إلى تصميمات حديثة متوافقة مع الوظائف الجديدة والذائقة الجديدة والمعارف الحديثة.

αβγδεζηθικλμνξοπρστ

山猫

абвгдежзийклмноп

桜雨

абвгдежзийклмнопрсту

أفكار وتجارب وتطبيقات

علينا الآن النظر بحساسية أقل إلى ضرورة مراجعتنا لكثير مما جعلناه ثوابت فى الخط العربى وفى علاقتنا به، حتى ننقد حرف الطباعة العربى الذى قيدناه بالخط العربى لدهر طويل. وكانت النداءات والأفكار التى ارتفعت فى الثلث الأول من القرن العشرين لتطوير الكتابة العربية والطباعة، والتى قادها عدد من مثقفى مصر ومفكريها وعلى رأسهم مجمع اللغة العربية ورئيسه عبد العزيز باشا فهمى كانت -فى وقتها- عملاً جريئاً يستحق الاحترام والبحث. وكان يجب أن نجرب تطبيق تلك التجارب والأفكار التى طرحت وقتذاك وبعدها، تطبيقاً عملياً -ولو بطريقة معملية- ثم تقييمها. لكننا استسهلنا الرفض السلبى لكل المحاولات الجريئة التالية فى النصف الثانى من القرن الماضى (انظر مثلا محاولات المهندس اللبنانى نصرى خطار فى حروف الطباعة العربية المنفصلة بدءاً من عام ١٩٤٧).

وقد تعرض القارئ (بل والأمّى) العربى -وعلى مدى نصف قرن على الأقل- لخبرات كثيفة بالحروف اللاتينية الحديثة، وازدادت معرفته بمنطقها وبدلالاتها القرائية، وبطرق فك رموزها وبإيماءاتها. وقد تضاعفت تلك الخبرات عدة مرات فى العشرين عاماً الأخيرة مع توسع سوق الاستهلاك السلعى بتغليفات بضائعه الأجنبية، وتوسع مجال الإعلانات عن السلع الأجنبية المستوردة أو المصنعة محلياً، ومع يسر استقبال الإرسال التليفزيونى الأجنبى، وازدياد تدفق المعلومات المطبوعة الواردة إلينا من الخارج. وقد ترتب على هذا استقرار قدر من الألفة مع اللغة الجرافيكية للأحرف اللاتينية، والوعى بقيمها الجمالية وبنظامها البصرى وبمعمارها، فى بديهة المواطن العربى.

كانت تصميمات الحروف اللاتينية قد مرت بظروف فرضت تطورها ونموها الدائم، ومنها عمليات الملاءمة لضرورات ووظائف وخصائص إنسانية وعملية وتقنية واقتصادية مستجدة ومتغيرة، ولم يسبق طرحها على حروف الطباعة من قبل. بينما انقطع تطور حروفنا العربية منذ زمن طويل، وجمدت فى مشيخيتها الهرمة.

كذلك استفادت من «إنجازات» الحروف اللاتينية حروف لغات عديدة غير لاتينية، وأدخلت إلى تصميماتها قيماً بصرية وابتكارات واكتشافات وحلولا توصل إليها الحرف اللاتينى عبر طريق تطوره الطويل (على سبيل المثال: حروف

اللغات السلافية الأصل Cyrillic (الروسية والبلغارية والصربية) – اليونانية– اليابانية والصينية والكورية – العبرية – بعض اللغات الهندية).

نحن أيضًا يجب علينا النظر بحساسية أقل إلى ضرورة استخدامنا لبعض هذه الإنجازات، وضرورة استغلالنا لتلك الخبرات الجديدة للفرد العربى بقيم الحروف اللاتينية وجمالياتها ومقروئيتها، وذلك عند تصميم حروف عربية جديدة. ولا صلة لهذه الدعوة بالتقليد المتهافت الأعمى –ومن موقع أدنى– لأشكال بعض الحروف اللاتينية ولزماتها الشكلية، ولا بتلك الأشكال المتهافتة من الحروف «العربية» الهجينة التى ظهرت أحيانًا فى بلادنا خلال العقدين الأخيرين. ويجب أن يتلازم هذا التطلع إلى ما وراء الأفق مع بحث هادئ وعميق وتأمل للداخل: للخط العربى الذى يمثل جوهره جزءاً حميمًا من تكويننا الثقافى والوجدانى والروحى.

...

لنرفع أيدينا عن فن الخط اليدوى حين نتحدث عن حرف الطباعة، إذ سيعيش الأول فنًا جميلا غاليًا راقيًا له وظائف الفن الطليعية، ويحضُر جليلا فى الأعمال التطبيقية الهامة الاستثنائية الخصوصية، كما هو الحال فى باقى العالم المتحضر، بما فيه الهند وكوريا والصين واليابان وأمريكا اللاتينية. وعلينا رعاية هذا الفن مثل كل فنوننا البصرية الأخرى، والتعامل معه على هذا الأساس.

وستظل لوحات الخطاط الفرد إبداعاً خالداً يحتل مواقعه المتنوعة فى حياتنا: فى المتحف، وفى المعرض، وفى منازلنا، وأماكن عملنا، وعلى أغلفة كتبنا، ووثائقنا، ولافتاتنا، وعلاماتنا التجارية، وعلى كل ما نحرص على تمييزه من مصنفاتنا.

أما حرف الطباعة فهو شأن آخر جديد يحتاج لتكاتف عدد من التخصصات، وقد أصبح صنعة وعلمًا، له أصوله ومناهجه ومعاهده لتكوين المبدعين فيه، وأصبح الخطاط أحد التخصصات العاملة فى حقل حرف الطباعة، وليس المبدع الوحيد.

...

لم يعد من الجائز أن نشرع فى تصميم حروف للطباعة بأساليب محددة من الأساليب التى قسم إليها الخط العربى من قبل: نسخ ورقعة وثلث وديوانى وكوفى وفارسى وخلافها. إذ أن الضرورة فى التحديث قد تحتم خلط أو تهجين أساليب مختلفة: تهجين النسخ بالثلث وبالكوفى القديم، أو مزاوجة الكوفى الهندسى مع بعض حلول الحروف فى الفارسى، وهكذا.

وإذا ما هدف المصمم إلى تصميم عائلات حروف فى شخصيات متباينة، تؤدى كل منها دورها الخاص فى مجال محدد من النشر والمطبوعات (جريدة يومية، مجلة سياسية، شهرية أو فصلية ثقافية، مجلة خفيفة، مجلة اقتصادية .. إلخ)، لن يكون الطريق هو طريق تصميم حروف بأساليب الخط القديمة الرائعة، التى لم تعد تعبر عن شىء ولا تقول شيئًا، سوى المباهاة بالإجادة والإحكام والعظمة.

وبمراجعة تصميماتنا الجرافيكية العربية فى النشر وفى الصحافة والإعلان، قد نكتشف أن من أسباب توقف تطور هذا الإنتاج فى بلادنا هو تخلف تصميمات حروف الطباعة العربية. بينما نطالع التصميمات المناظرة فى اللغات المكتوبة بالحروف اللاتينية، فنرى اعتماد تلك التصميمات على التنوع الغنى فى أشكال حروف الطباعة، بحيث إن الحروف فى أغلب الأحيان تلعب دور البطولة فى تصميم الإنتاج الطباعى فى النشر والصحافة والإعلان.

وأصبح على الدول العربية مجتمعة أن تتعاون فى تأسيس معهد لتكوين المصممين لهذه المهنة الجديدة، يخطط عمله على أساس ظروفنا واحتياجاتنا الخاصة. وربما كان علينا أن نستعين فيها بأساتذة من خارج بلادنا: من الغرب ومن دول العالم الثالث التى سبقتنا إلى هذه التجربة، مثل الهند وكوريا واليابان والصين.

إن استمرار الوضع المتخبط الملتبس القائم فى بلادنا فى هذا الميدان، لم يعد تأثيره السلبى ينحصر فى تشويه الذوق العام، وفى تعرية أحد تجليات تخلفنا، بل هو تأثير سلبى فعلى قوى وتراكمى على العقل العربى، وعلى الذاكرة الجمعية، وعلى الحساسية، وعلى الوجدان السليم، وعلى قدرتنا على الإبداع والتفكير الحر. ■

«لليســار دُرْ...»

فـى نقــد العقــل العــربى

■■ حواتمة يستمطر غيوم العروبة الملبدة بلا انهمار المطر: الديمقراطية والمواطنة والحداثة فى مواجهة التصحر وزحف الرمال.

مشروع نقدى مشبع بالقراءة للتاريخ العربى فى عمقه حتى الراهن، وقراءة ملموسة كاشفة للسلطة العربية ومجتمعاتها فى إعادة إنتاج الإخضاع عبر القوالب الجاهزة مقطوعة الصلة بالواقع...

يعبر الكتاب عن أمور كبيرة بكلمات بسيطة، نقيض ذلك الشىء الذى يعبر عن أشياء تافهة بكلمات طنانة... والقيمة تتضاعف حين يتناول الكاتب التاريخ العربى، والاجتماع والمجتمعات العربية والوضعية التاريخية التى لهذا الحقل العربى الشائك والمعقد؛ والمشبع بالمولدات الموروثة للعنف فى نسيج الاجتماع والسلطة العربية فى تاريخها؛ الدولة «الطوطم» والكاريزميات والأساطير والخرافات فى استعارات أنساقها فى التكوين الثقافى المجتمعى وفى العقل العربى.

والكتاب، باعتباره خلاصة تجربة متلاحقة متصلة منذ عقد الخمسينيات من القرن الماضى وحتى يومنا هذا، ما يعبر عنه العنوان «اليسار العربى. رؤيا النهوض الكبير. نقد وتوقعات»...

ومن العنوان إلى الواقع؛ لنرى كيف يطغى اللهاث العربى الرسمى حول التجديد الشكلى فيما يُلقى من أوراق وبيانات هنا وهناك فى معالجة الأزمات... دون معالجات، تجديد شكلى على حساب الجوهر والمعنى والمضمون، كذلك فى سياق تجربة اليسار ومشروع العصرنة والحداثة العربية.

إن واقع ووقائع الحياة العربية، يشيران إلى حالة العرى العربية، العرى السياق التاريخى والنسق الثقافى العربى المهيمن، وبالكشف عنه وعن أزمة انقطاع العقل، يرفض الكاتب ممالأة المهيمنات العربية المركزية، والسلطات القامعة والتواطؤ مع خطاباتها الزائفة الملتبسة حول قناع الحداثة بروح المجتمع المستهلك «الكومبرادورى»... أو الريعى، يرفض مواصلة إرث الخواء والأغراض للخطاب الرسمى الجاهز... والخلاصة للمتلقى والتى ينبغى أن يستخلصها؛ هى ركائز الكتاب الأساسية وما يتوالد منها، الأولى: ممثلةً بتحفظ العقل الفاعل على رواية التاريخ العربى كما دونت «رسمياً»، تلك التى تواصل أسطورة «الزير سالم وعنترة» و«أمجاد ياعرب أمجاد» باعتبارها «تعويضاً» عن الهزائم المتتالية والتى تبدأ عسكرياً وتنتهى بمختلف أنساق الحياة العربية.

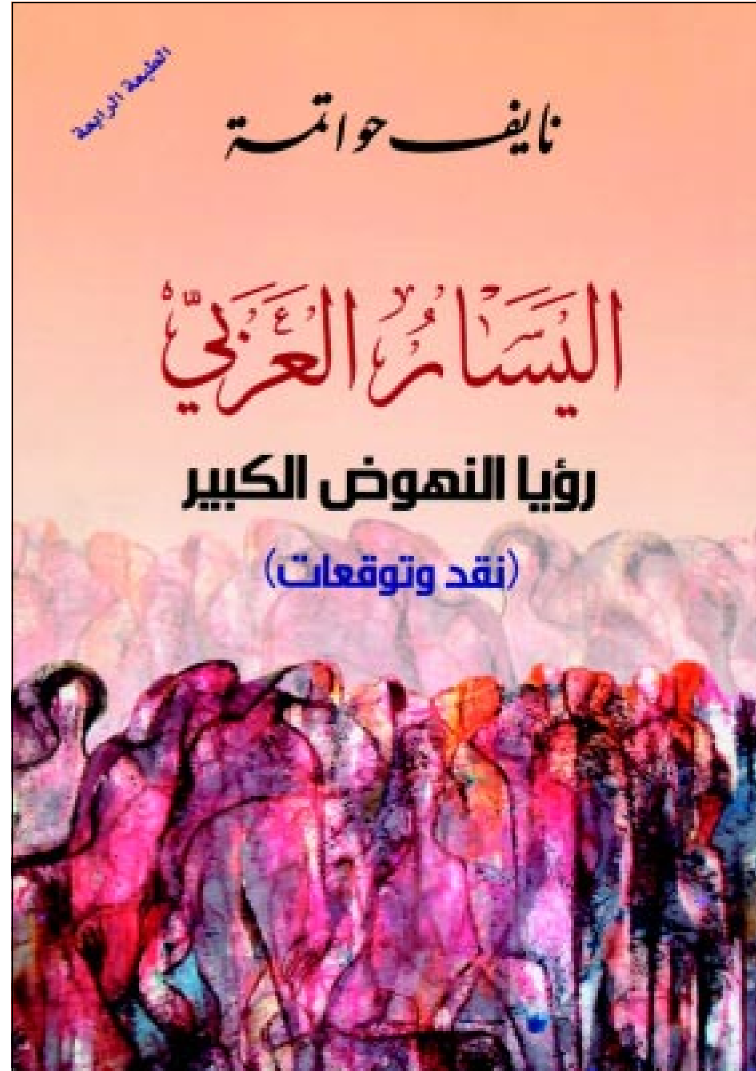
ويشمل التحفظ أيضاً على المناهج التعليمية والتربوية فى سياق التاريخ العربى، باعتبارها مكرسة للألم العربى المفتوح على مداه، الألم المتجدد فى دوراته التاريخية منذ وقوع الانقطاع مع العقل وانسداد التاريخ، وصولاً إلى الراهن وعواصف الهيمنة والعدوان فى مراكزها القطبية والإقليمية التى تهز أركان الوطن العربى من كل حدب وصوب، وتفتح شهية الإمبريالية والكولونيالية والصهيونية وربيباتهما على المزيد، ومعهما كل القوى المتكالبة الطامعة فى البلاد وشرذمتها؛ فى تقسيم المقسم للثروات والأرض والعباد؛ بيافطاتها المختلفة.

فى الوقت الذى تطحن به اليوم الحروب الأهلية (إثنية قومية وعرقية، طبقية اجتماعية وسياسية، طائفية، مذهبية، جهوية، إشكالات الهوية) أكثر من قطر عربى، وتبقى أُخريات تحت نُذر الفتن، حيث تذرُ الفتن بقرنها هنا وهناك على مساحة أرض العروبة، مقرونةً بحالة الاستكانة والاستهانة وحالة الموات العربى التى وصلت إلى المأساة التاريخية، حيث إن عالماً عربياً ممتداً على قارتين من الماء إلى الماء لم يعد يدخل نظمه فى حسابات الدول الكبرى والصغرى، فالأمة عبر الانسداد التاريخى المديد فقدت الحيلة، وهذا لم يكن نتاج حالة تأسن وتفكك للحوامل والروافع الداخلية التاريخية فقط، بل والانقطاع عنها، ونحن نرى كهوف اليائسين من غياهب النسيان، وسياسات «الرقص فى الظلام» التى تدل عليها البيانات والخطب الصوتية النافخة التى تلوك لسانها وتجترّه، ونرى مواقف أكل الدهر عليها وشرب وكلما ضرب الأمة زلزال؛ مواقف تزيدها يأساً، بعد أن تطال شعوبها قشعريرة رعب إنسانى من عدوان ومجزرة ومذبحة ومحرقة هنا وهناك، يأساً حتى تدمن حدّ الإشباع على صورة الدم الذى لا يُدمَنُ إنسانياً؛ المشهد المفتوح على مداره ولما يتوقف بعد... نظام عربى استمرأ الهزائم، وإلا لما تجرأت «إسرائيل» إلى هذه الحدود فى عدوانيتها وإرهابها وغطرستها، وتدخلها فى مسببات الحياة العربية وفى كل شىء، ولما استخفت الولايات المتحدة وإداراتها الأمريكية بكل هذه الحمولة من النُظم العربية الرسمية.

الركيزة الثانية: للكتاب هى النقد والمراجعة للثقافة العربية وموروثاتها فى العقل العربى السائد والمؤسطر على مدى زمنى شاسع بدءاً من انقطاعه عن الواقع، وانقطاعه عن التفعيل والتأثير، فالعقل المتردى المتلقى منقطع وفى إجازة مديدة ولا يمكن له أن يبدع ريادة، فهو غير متناسب مع زمنه وغيبوبته.

إن دافع الكاتب بالبحث بهذا العقل المنقطع المخلوع عن سياقه العصرى، ومهما ادعى من طليعية هى غير متناسبة مع سياقات التاريخ وتطوره، كما أنها حالة اختلال فادح تعبر عن واقع محكوم بفقر اجتماعى وقهر سياسى بسبب من غياب تفعيل العقل النقدى.

ويرى فى هذه الاندفاعة القهقرية الرجعية غياب العقل، ما يؤدى إلى



«اليسار العربى... رؤيا النهوض الكبير ـ نقد وتوقعات»
نايف حواتمة
الطبعة الأولى: الأهالى للطباعة والنشر ـ دمشق، بيسان للنشر والتوزيع ـ بيروت، ٢٠٠٩
الطبعة الحادية عشرة: ـ العراق ـ بغداد: «دار الجريدة للصحافة والنشر» ٢٠١٠



إن تراكيب الحيـــاة العربيـــة السـيـاسـيـة ـ الاجـتـمـاعـيـة وثـقـافـتـهـا وذهـنـيـتـهـا الـغـالـبـة قـد بـاتـت معيقــة للتقــدم والنهــوض



التطرفات القصوى بأنواعها المشهودة باسم «التراث»، ومشهودة فى حالة السبات العام. وعليه يرى أيضاً ومن موقعه العربى؛ أنه ينبغى أولاً تمثل قيم التنوير والعقلانية واستلهامها وترسيخها والتعلم منها، نحو ردم وتجاوز تلك الفجوة صانعة تلك الأزمات المتصلة فى سلسلتها، والتى تبدأ بفصل الناس عن الحياة، بدلاً من إغناء تجربتها معرفياً وروحياً، واستبدالاً من «التقليد» و«النقل على العقل»، بما يشمل هذا وعلى زاوية «يسارويه» تنشد «ما بعد الحداثة» باعتبارها مفهوماً زمنياً محايداً لا أفضليات له فى الواقع العربى الراهن؛ درج عليه بعض المثقفين المنقطعين، بدلاً من تغيير الواقع، باعتبارها حلاً فردياً ذاتياً، يعفيه من المسؤوليات التاريخية، بعزلة من نوع جديد؛ وخاصة تلك التى راجت بعد الانهيار البنيوى للمنظومة الاشتراكية، وباعتباره أيضاً هروباً من مسؤوليات الواقع ومن معالجاته، بالتكور على الذات لحظة الإحساس بالمسؤولية والخطر، وهذا لا يفتح على شيء. هنا نراه فى بعض المثقفين الذين حُسبوا على اليسار وهم يقيمون فى حواضر العرب، وبما يتسمون بانقطاع واغتراب آخر؛ هو عدم الأمانة الفكرية والثقافية للواقع الملموس، وعدم الأمانة للثورية الواقعية، وبما يشملها «تقليدياً» من ادعاءات، فحقيقة الواقع هى من خارج «النقل على العقل» وليست عبر المطلقات «الإيمانية» دينية ويساروية، وخارج الحقيقة المحصورة باليقين العلمى.

وفيما نشاهد كيف يستخدم البعض «يساروياً» مصطلحات علمية دون دراية كافية بمضامينها، مثلما «ما بعد الحداثة» للترويج لرطانة فارغة مضللة، بينما هم معنيون بإمعان التفكير وتحليل الواقع واستنبات الحديث الجديد على أرضه وتربته، بدلاً من الدخول فى نصوص منقطعة مغلقة. وبالإجمال فهى حذلقة على الجانبين «يمينياً ويسارياً»،حيث تخفى وراء قواها الذهنية حالة عضلية فارغة من المعنى، بيد أن الفارق هو أن مَنْ يمتلك شيئاً من جديد الفكر فهو يصنع المستحيل من أجل إيصاله بلغة بسيطة، لا الحيلولة باللغة دونه.

هنا نجد الكاتب فى منهجه المعرفى ينهل مما يترابط بالواقع الحىّ، كما ينهل من ثريات التراث المفيد بدءاً من الحديث الشريف: «الخروج عن الوطن عقوبة»؛ وحكمة أبقراط الذى «يداوى كل عليل بعقاقير أرضه، فإن الطبيعة تنزع إلى غذائها»، وعقاقير الأرض هى ذروة حب الأوطان... وويلٌ لمن نسى وطنه... ونسى قلبه...

فى جانب هذه المعالجة التى يتصدى لها، يركز على عقاقير جبهات اليسار الوطنية برؤيا وممارسة نقدية، بتوفير القاطرة التى تدفع الحركة والإنجاز، نحو الخروج من الضعف وتشتت الأدوار إلى فرص بنائها وتطوير مكوناتها، فاليسار هو الأكثر جديّة فى طلب التغيير، ولكن من خلال تعبيره الواقعى الملموس عن مصالح طبقات شعبية يسحقها الواقع الراهن، وهى مهمة تاريخية لإعادة بناء ذاته، واكتشاف نفسه وسط حركة الجماهير العاملة والفقيرة.



ومن اشتقاقات هذه الركيزة يستمطر حواتمة غيوم العروبة الملبدة دون نثيث المطر: «الديمقراطية والمواطنة والحداثة»، وعليه فقد تناول اليسار العربى وقوى الحداثة، والكتاب طبع فى بلدان العروبة وأمصارها من الماء إلى الماء، نحو تلمس مخارج الاغتراب من يوم «قارعة عربية»، حيث إن الجميع من رواد وأهل هذه المفاهيم فى «محنة وامتحان»، وكأنى به التحية والسلام على أرض العرب، السلام على غاية الأرب... السلام على الضاد، وبإيمان عروبى تربينا عليه: «من الشام لبغداد... ومن نجد إلى يمن... وأوراس يلاعبه المحيط»... السلام على خير منزل... يا أهل فلسطين لا تهنوا ولا تحزنوا...

كما السلام على جالينوس المخاطب لكل اغتراب وكل غريب بقوله: «يتروّح العليل بنسيم أرضه، كما تتروح الأرض الجدباء ببلل المطر»... وفى العلل والاغتراب نكثف التالى عربياً...

رشـــــــيـــد قـــــــويـــدر

١ ـ إن تراكيب الحياة العربية السياسية ـ الاجتماعية وثقافتها وذهنيتها الغالبة قد باتت معيقة للتقدم والنهوض، وعلى هذا مطالبته أطياف اليسار والليبراليين العرب. الملتزمين اجتماعياً. تفريقاً لهم عن الليبرالية المتوحشة؛ عليهم ألا يعدموا الفرص للاستئثار بمساحات نفوذ وتأثير متطور متراكم الاتساع ومؤسسى، عبر استغلال المساحات الشعبية المتسعة؛ وللتأطير الشعبى وعلى الرغم من القيود الرسمية الشتى المفروضة عليهم، وبدءاً من الإعلام.

٢ ـ نظراً لما تعانيه البلدان العربية من اختلالات فادحة طاحنة اقتصادية. اجتماعية، أبرزها الفقر والبطالة والأمية والهجرة غير الشرعية، وانهيار الخدمات الأساسية للدول العربية فى قطاعات التعليم والصحة، وغياب شبكات الضمان الاجتماعى بفعل الانسياق وراء قاطرة النيوليبرالية، منذ سبعينيات القرن الماضى؛ فإن اليسار هو المعنى أولاً بأن يملك تصورات واضحة لاستقطاب القطاعات الشعبية الفقيرة؛ التى تعانى من الإقصاء الاجتماعى، والمدفوعة إلى حالة أزمة حقيقية. تصورات واضحة للتعامل مع الإجحاف الاجتماعى فى الحقوق الاقتصادية والاجتماعية للمواطنين، بالمساواة فى المواطنة، بحلول إشكالات الهوية فى البلاد العربية، والمعضلات الإثنية، الطائفية، المذهبية المزمنة، والمستولدة حروباً أهلية لا تنتهى بغير حلول جديدة تنتمى إلى عالم العصر الحديث بتقرير المصير والمساواة فى المواطنة، وبنزوع برنامجى معاكس يستهدف عودة الدولة إلى مسؤولياتها فى الموازنة الاجتماعية، نحو قضايا العدالة والمساواة ومكافحة البطالة، وبناء شبكات فعالة للضمان الاجتماعى، وتقليص الفجوة الهائلة والمتزايدة فى توزيع الدخل بين الأغنياء والفقراء فى المجتمعات العربية، كما أن العقد الاجتماعى بات مفقوداً، وباتت الحاجة ماسة إلى صناعة توافق فعلى حقيقى بالجوهر والمضمون؛ وهو ما ينبغى أن تأخذه قوى اليسار بعين الاعتبار وبالجوهر.

٣ ـ الحريات السياسية والمدنية والفردية وحكم القانون، والفصل بين السلطات الثلاث، ورفع نسب معدلات المشاركة الشعبية فى الحياة السياسية العربية، خاصةً فى المشاركة بالقرارات التى تتعلق بمستقبلها ومصيرها ومصالحها، وفى القرارات السياسية الهامة والتاريخية، وذلك برفع مستوى وممارسة الحريات السياسية والمدنية والفردية؛ دفعاً للإصلاح الحكومى بالتركيز على القطاعات المتضررة والفقيرة التى تتعرض للضغط الأوسع فى حياتها اليومية، ورفع الضيم والتمييز عن المرأة وتمكينها، برفع مستويات العمل النسائى الاجتماعى والسياسى. وبهذا المضمار يملك اليسار بأطيافه والتيار الليبرالى التقدمى فرصا حقيقية لصياغة برامج بديلة، وصولاً إلى البحث عن إمكانية الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى، باعتباره أهم مقدمات الإصلاح السياسى والتحول الديمقراطى التعددى الواقعى والجاد، والكف عن صناعة الحالة الواحدية والتوحيدية العربية.

٤ ـ إخراج محاولات «تخصيص» الحالة العربية باعتبارها استثناءً معزولاً عن التجارب الثورية فى هذا العالم، إخراجها من قميص عثمان الحديدى المثقل على صدرها وتنفسها، نحو رحاب المعالجات والحوارات العالمية بذات الغرض، فالأزمة المالية التى ضربت المرتكزات المالية للنظام الاقتصادى العالمى، وبما أعلنت بوضوح عن نهاية حقبة الليبرالية المتوحشة هى مرشحة للتصاعد، وهى أزمة عالمية بحكم الهيمنة الإمبريالية، وذلك فى اختلالاتها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الطاحنة، وهى بذات الوقت حالة إرهاص إنسانى أممى مشترك فى تعدد تداعياته.

كما أن مفهوم العدالة والحرية والمساواة والتضامن وحق تقرير المصير هى مفاهيم إنسانية أممية، بما يلزم الإفادة من الترابطات الدولية الأممية المتعددة، ومن الخبرات المالية الاقتصادية فى المعالجات العالمية، وقد

خصص الكتاب حالة أمريكا اللاتينية ونهوضها نموذجاً.

٥. يمر عالم اليوم راهناً بحالة تفكير متجدد، حول النموذج الواقعي الأمثل لدور الدولة وترابطاتها، واليسار بأطيافه معني أولاً بالتجديد وذلك بعموم أطيافه، كما بحكم منطلقاته ولأنه يملك تجربة كبيرة بهذا المضمار، بحكم برامجه وبحكم أدواته المفاهيمية، من حيث رؤيته المستقبلية للعالم ومن موقع تضامن الضمير الأممي.

الركيزة الثالثة: هي أن حواتمة يعبر عن رؤياه كثوري ومفكر ومثقف، من موقع كونه إنساناً أممياً يسكن هذا الفضاء الإنساني الواسع، ويفسره بدلالاته الكامنة عبر معيار وحيد هو قلب نهر الحياة الإنسانية الجارف، وباستقصاء متطلبات التطور، أما مداده كحالة بنيوية عميقة فهو تجربته وتاريخه وموقعه ودوره، وانحيازه ذاته إلى الانخراط الكلي في عالم الجموع العالمي الثوري، في مواجهة السلطات والمهيمنات المركزية العالمية القامعة وتوابعها هنا وهناك؛ وشعاراتها البراقة، وتبرز هنا لغة الشارح والباحث في هذه الأسباب، ولغة المفسر الباحث عن المعاني في ثنايا الخبرة التاريخية الإنسانية الأممية وبمحدداتها التاريخية، ويبرز هنا ما هو من السياسي، بتعميقه الفكري بحثاً عن الحقيقة.

في هذا كله؛ الذي يعالجه الكاتب ويتصدى له الكتاب، يكشف بأن له في العقل العربي سوابق ومقدمات تاريخية مديدة، في اعتماد تعطيل العقل والنقل. والراهن هو انعكاس مرآة صافية لروح التاريخ العربي قهقرياً، يقدم المعيار الموضوعي للتمييز في تطبيقاته النقدية، كاشفاً عن الدلالات المطمورة فيه، بالمعنى المتقدم على الشكل إطلاقاً، قاصراً جهده على مخاطبة العقل الذي يمثل أعلى الملكات للنفسية الإنسانية، مقارناً الموجودات المحسوسة التي هي بدورها انعكاس للتمَثُّل والأفكار «الرواسب» في بواطن الأعماق، باحثاً عن الجمال الإنساني في رقيّه الكفاحي وجمال الروح.

وفي سياق بحثه عن مخارج لمأزق تاريخية مذمومة في ثقافتنا وفكرنا، بتقرير مصير الأشمل بين الحقيقة والواقع، بين الذات والتاريخ، وجميعها في الكتاب تحيط بين إبراز المعضلة والمعاناة؛ والموهبة المتسمة بروح العصر والنهوض فيه، ومسؤولياته التي تفتح أبواب التاريخ العربي المتلاحمة الصدئة، وعليه فالكتاب كناية عن بيان عربي لمشروع التنوير والحداثة، ومشروع نقدي مكتمل بين فصله النظري وتطبيقاته بالفصول الأخرى؛ بالمعالجات والأفكار الجريئة المتقدمة للواقع العربي الآسن إجمالاً، والمعالجات هي التي تعبر عن قيمة الكتاب، والذي سيكون ناقصاً بما أثاره؛ إن عجز عن تبرير صلته بالموضوع، وهو التغيير والتقدم اليساري... ولليسار دُرّ...

بيان في مشروع النهضة والتنوير العربي

إن مشروع النهضة العربية هو مشروع يرتبط أولاً بمرتكزات بناء دولة عربية حديثة راسخة ذات مشروع سياسي تاريخي؛ تُسهم في ترسيخ قيم المساواة وحرية الإنسان وكرامته، نحو خلق استجابات مجتمعية عامة لمتوالية التطور في كل شيء بما فيها الفنون والجمال، في إنتاج ثقافي ومعرفي وجمالي متعدد المصادر؛ بروح لرؤية إنسانية عقلانية منفتحة على العلم والعالم، لا مكان فيه لآليات الإقصاء والاختزال والطمس والحذف في النسق البنيوي للثقافة، وفي صيرورة تمركزها في منظومة الهوية المعبرة عن الاجتماع والاجتماعي.

وعليه؛ فإن مشروعا سياسيا تاريخيا حديث، يبدأ أولاً بالخروج من «مأزق الديمقراطية العربية» التي تعطل الحراك السياسي، وتراكم إعادة إنتاج الإخضاع عبر القوالب الجاهزة المقطوعة الصلة بالواقع، فإن الحال تفضي إلى توليد تطرفات قصوى انحطاطية، واستقطابات حادّة للديني اليميني المذهبي السياسي، وللقومية والإثنية العرقية في الهويات الفرعية.

إن هذا المشروع السياسي. الثقافي النقدي هو ما يكشف عجز الفكر العربي الرسمي الراهن في توارثاته، وفي تصوره وتمثله عن إنجاز الاجتماع البشري باعتباره اجتماعا مدنيا؛ يستند على مقولة المواطنة والمساواة والحقوق المدنية، في ارتكازه المنقطع على الحالة المغلقة بالتمثيل الحصري لجماعات محددة، وارتكازها على العنف والإقصاء لكسب الشرعية السياسية، في متوالية إنتاج مفرخة توليد إرهاب دموي أعمى في متواليات التاريخ... نتاج الأفكار السوداء وفقدان الأمل الناجم عن الافتقاد المدني للدولة، وإنتاج سلطات قيم «بدوية» بطريركية متخلفة...

كما تُبرز المسألة السياسية الراهنة الأساس في مواجهة المشروع التنويري العربي؛ هو بارتباط وكما هو الدين بالدولة، وما تفرزه من أصوليات شعبوية عدمية سياسية في إشكالية ومأزق البنية الثقافية العربية، وارتباطاتها بالمجال السياسي، وتوليد ما يطلق عليه: «العُرف»...

وهذا كله يعني مصادرة الأسس الفلسفية والاجتماعية والاقتصادية لإقامة مشروع تنويري عربي فعّال؛ في تغييب كامل للاشتراطات الموضوعية والوسائل والحاجات؛ ضمن دولة تعددية صاهرة للُحمة قومية تستند على الديمقراطية...

إن هذا التلخيص المشبع بالقراءة للتاريخ العربي ومجتمعاته، يرمي إلى الوصل بالتاريخ، ويرمي إلى إحداث قطيعة مع الثقافة التداولية بامتلاك مفاتيح التطور وآلياته، قطيعة مع الأيديولوجيات المسبقة التي تفتقر إلى العلمية السياسية وعلم الاجتماع الإنساني، نحو الرهان على إنتاج معرفة تتكرس في الإنتاج الفلسفي العقلاني للنُظم الاجتماعية ولأنساقها القيميّة، وإبعاد أية تهويمات و«توليفات مطلقة يقينية» تدعي «الكمال»، وتسعى إلى النبذ والانغلاق وإثارة العصبيات بالرفض المستديم للآخر، برفض الاندماج بالحداثة العالمية، ورفض الشراكة والتعدد في بناء الدولة الوطنية المدنية.



إن هذه المناهج والمفاهيم النقدية هي بمواجهة أيضاً مع كل مقيدات التسييس؛ خاصةً تلك التأطيرات الشعبوية السلطوية السياسية. الأيديولوجية، التي تقف بالمواجهة من عمليات «الدولنة»، ومواجهتها بإطلاق هويات فرعية انحطاطية مذهبية سياسية، ثم إطلاقها وإفلاتها من عقالها، بهدف احتواء قطاعات من المجتمع الأهلي وتحويله حالة طوائفية، بدلاً من ترسيخ ثقافة إنسانية مصدرها الإنسان كوجود وتحديث الولاءات، بالتعاقد الاجتماعي المنفتح للتنوع وللخصوصيات المحلية، وبسحب الدولة المدنية من الحقل والمجال الديني. السياسي.

ضمن هذه السيرورات يمكن بناء مجتمعات قوية غير قهرية وهشّة، تلك تؤسس ذاتها على العنف بتلاوينه، المفتقدة للتنظيم العقلاني، مجتمعات هشّة تابوية تتحكم فيها الأنساق البطريركية الطائفية السياسية والعشائرية والخرافية بثقافاتها الرثّة الملتبسة، التي تعمل على انهيار عناصر المدنية والتحضر الإنساني. وتنفي مفهوم المجتمع كنسق سوسيولوجي، تعجز في التعبير عن الإرادة العامة ودمج المجتمع في إطار سياسي متين من الاستقرار مادياً وروحياً وأفكاراً سياسية حديثة، مرتكزات دولة مدنية حديثة راسخة ذات مشروع سياسي تاريخي، تقرأ تاريخها ومستقبلها كجزء من التاريخ العالمي الأممي، وليس بوصفه حالة منقطعة معزولة، وبما يتطلب إمعان الفكر والبحث في الصيرورات التاريخية والأبحاث والدراسات التاريخية والاقتصادية والمنهجيات المعرفية الحديثة، ونقد الجذور للتمثلات العتيقة البالية المهترئة، الخلاصة الموضوعية لنهاية أشكال الرؤية الأحادية في النسق البنيوي المركزي في الثقافة العربية.

وفي الختام يمكن اشتقاق ركائز أخرى من المهتمين؛ فالكتاب وميض لأكثر من شعلة؛ ولأن نعمة الكشف والانبعاث هي مهمة التنويريين، بتمزيق حجب ونقاب الحياة العربية المانعة للرؤية...

إننا نعيش زمناً عربياً غدت به الحال في كينونته ذاتها مهددة، ونعيش صدمة الانسداد التاريخي... صدمة «الأضداد» حين تفعل فعلها المزمن... صدمة الضاد والناطقين بها... كما نرى من الماء إلى الماء، وحين يهرب أهل الماء عطشاً إلى الرمضاء.

وفيما نحن نرى الوجه والخلف؛ البناء الفوقي والتحتي، نرى وبالأعماق الأبنية التحتية الانحطاطية... كما نرى العتمة والضوء... الحقيقة والكذب... لا نكتفي بأن نصرخ، بل نبدأ بكشف الغطاء... أن نحاول التجسيد في قلب مجرى الحياة، في تجذير أنساق الحياة... الحياة، ومعرفة الكيفية التي ننتزع بها الطلاء، فالتحدي الأول عربياً هي الحداثة... والتحدي الأخير هي الحداثة، عبر معرفة استيلاد أفكار عملية بكلام حيّ ومن أرض الواقع...

هذا هو انفتاح اليسار الديمقراطي العربي على رؤيا النهوض... على فضاء النهوض التاريخي... ■

تهتم «وجهات نظر» بتعريف قرائها بجديد المكتبة العربية والعالمية، وتشكر الناشرين والكُتّاب والمؤلفين الذين يساعدونها في ذلك. وتدعو قراءها لإرسال مراجعاتهم النقدية لما يرونه من إصدارات.

النبطـــى

المؤلف: يوسف زيدان
القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠ ، ٣٢٠ صفحة



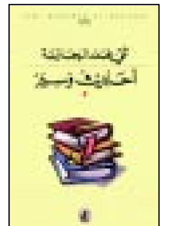
انتهى الروائى يوسف زيدان من آخر أعماله الروائية «النبطى» وهى تتألف من ثلاثة أقسام «حيوات» وتقع فى (٣٢٠) صفحة من القطع المتوسط. يقول د. يوسف زيدان الحاصل على جائزة البوكر «الجائزة العالمية للرواية العربية» للعام ٢٠٠٩ عن روايته الشهيرة عزازيل، إن روايته الجديدة تنزع على المستوى السردى إلى الشعرية، حيث يأتى نصها على لسان الفتاة المصرية (مارية) التى كانت تعيش بكفر من الكفور الصغيرة الواقعة فى المنطقة التى نسميها اليوم: محافظة الشرقية.. وهى منطقة كان يعيش فيها العرب (الأنباط) ويتاجرون، من قبل الفتح العربى/ الإسلامى لمصر، بزمن طويل.

والأحداث الروائية التى تقع زمنياً فى العشرين سنة التى سبقت فتح مصر، وفى محيط جغرافى يمتد من دلتا النيل إلى جنوب الأردن (حالياً) مروراً بسيناء وبلدة أيلة (إيلات) تحكيها مارية التى خطبها تاجر نبطى ورحل بها من مصر مع إخوته، ثم استقرت بالناحية المسماة اليوم «البيضا» أو البتراء الصغيرة، الواقعة خلف المنطقة الأثرية الشهيرة «البتراء» ذات العمائر المنحوتة فى الجبال. وتشهد بطلة الرواية بشكل عارض، عمليات التجهيز لغزو مصر، على هامش الوقائع الحياتية المضطربة (والثرية) التى عاشتها بمضارب الأنباط، وهم جماعة كبيرة من العرب، كانت لهم مساهمة كبيرة فى حركة الفتوح، لكنها مساهمة منسية فى وعينا المعاصر.. النبطى، هو أخو زوج البطلة، وهو شخصية روائية لإنسان كان يريد أن يصير نبياً.

■

أحاديث وسير

تقي محمد البحارنة
المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠١٠
٤٤٨ صفحة



يضم هذا الكتاب مقالات شتى في شئون الفكر والأدب والحياة، وفي أحوال المجتمع في البحرين، كتبها المؤلف بأسلوب أدبي ممتع لتكون بمثابة واحة للاستراحة من تعب الفكر والفؤاد، وفي سائر فصول الكتاب ندوات أدبية وثقافية وسير لشخصيات رائدة في مسيرة البحرين الثقافية وفي مجال العمل الوطني.

والمؤلف يزيح الستار بأسلوبه المميز عن وقائع أدبية وثقافية وشخصيات كان لها دور ريادي بارز في مجتمع البحرين ومنطقة الخليج العربي. ويعتبر هذا الكتاب (أحاديث وسير) مساهمة في نشر الثقافة والتعريف بالجوانب الفكرية والثقافية في منطقة الخليج العربي، ليكون في موضوعاته زاداً لكل مستزيد.

■

الفوضى الرتيبة للوجود

هشام البستاني
دار الفارابي ٢٠١٠



في مجموعة «الفوضى الرتيبة للوجود» للكاتب هشام البستاني تواجهنا اللغة منذ البداية مقدمة لنا نفسها ليس كمرشد محايد، بل كحركة فعلية في الحدث، لها ما للشخصيات القصصية من حضور فعلي ومن كاريزما نجومية.

بل إن اللغة عند البستاني تستأثر بالمتابعة فيما قد تتضاءل أهمية الحدث القصصي؛ فهي التي تشكل الشخصيات وعلاقاتها بالزمان والمكان. وقصص البستاني ليست من ذلك النوع من القصص المعتمدة على الحبكة وعلى حركة الشخصيات المؤدية في النهاية إلى الذروة، فهذا النوع من القصص قد تختفي فيه اللغة كعنصر مستقل وتكون وظيفتها سرد المشاهد الحية، مما قد يؤدي بالقارئ المتعجل إلى مجاوزة بعض الفقرات أو قل قراءتها قراءة سريعة بغية الوصول إلى النهاية. ولكن عند البستاني تطلب منا قصصه ألا نتعجل، وأن نرتشف المفردات واحدة إثر أخرى؛ فسقوط أي مفردة منها سيكون له أثر سلبي على التتابع السلس للحكاية، بما يمكن أن نسميه ترابطاً «سنمارياً» في لغته إذا صحت التسمية.

يقول البستاني في قصة «سقوط حر في مرآة مهشمة»: «حين أمسكَ بيدها دافعاً إياها بخفةٍ إلى الوراء، تفاجأ بأن الابتعاد لم يتوقف، بل كان - لدهشته - يتزايد إلى الجانب وإلى الوراء. نظر بطرف عينه، فرأى نصفه الآخر يبتعد بهدوء مع نصفها «كم أُشبهكِ».

يعيد البستاني في قصصه تشكيل الواقع الاجتماعي عبر تفكيكه وإظهار عوراته، ثم إعادة بناء جديدة قد تبدو للبعض طريقة عبثية أو بلا فائدة، خصوصاً عند أولئك الذين يبحثون دائماً عن «الزبدة» أو المفيد.

والقالب الشكلي عند البستاني لا يبتدأ بالخيال، ولكنه ينتهي به؛ إذ إن الواقع لديه هو الأساس، ولكن فقط ليبني عليه أحلاماً هو يعلم أنها ستبقى كذلك، وقد تتغلب الواقعية أو المباشرة عليه كما في قصة «الفيصلي والوحدات»، وهو ما تعمده الكاتب على الأرجح ، فقد أراد أن يلقي علينا قصته كمن يلقي بجيفة نتنة بين قوم محتفلين. وقد كان لبعض الإسقاطات الرمزية أن تخفف قليلا من الوصف الواقعي المباشر لولا شدة التطابق بين ما في القصة وما يعيشه القارئ الأردني.

ولقد تحلى الكاتب بالشجاعة عند إشارته للحليب الأزرق والحليب الأخضر الذي يشربه المتبارون من المشجعين إظهاراً منه لمدى تغلغل العنصرية في العائلة الأردنية.

والبستاني أراد أن لا يدفن رأسه في الرمل إزاء هذه الظاهرة، وهو قد ألقى كل ما نعرفه ولا نبوح به إعلامياً على الطاولة أمامنا دفعة واحدة، وهذا قد لا يفسر فنياً؛ إذ إن نشوة اللغة التي انتشرت في الكتاب كله تضاءلت هنا.

وفي صياغته الشكلية استعان الكاتب بالهوامش بطريقة ملفتة للنظر؛ فهو لم يستعمل الهامش كجزء من القصة، فلا يوجد رقم صغير عند كلمة معينة وفي الأسفل شرح أو تعليق، بل نحن نتفاجأ بالهوامش عند نهاية القصة، وأحياناً تكون الهوامش إيذاناً بنهاية القصة، وهذا ما يذكرنا ربما برواية غسان كنفاني التي لم تكتمل «برقوق نيسان»، ولكن الهامش في رواية غسان كنفاني كان عنصراً رئيسياً في الرواية عبر تكوين خلفية لماضي الشخصيات. أما الهامش عند البستاني فهو فقط إيضاح لأسماء ومعان أحياناً تكون علمية، وهذه الخلفية الثقافية التي توضحها الهوامش لا تزيد شيئاً للقصة ولكنها تزيد أشياء للقارئ.

قصص البستاني تشكل ردة فعل إزاء عالم عربي ضعيف متخلف ونمطي من وجهة نظر الكاتب، مما جعلها تضمنت بعض الكلمات النابية، وكأن الكاتب أراد أن يهز مشاعر الكسالى بخشونة الكلمات التي تشبه الصفعات. وهو ما يذكرنا بالكاتب الفرنسي «هيبير» أو الشاعر مظفر النواب حيث تنحو الكلمات النابية أحياناً منحى ثورياً.

كما ذكر بعض الأسماء الوطنية والعربية والعالمية التي كان لها دور فيما مضى في المقاومة والتغيير لم يتكلم عنها فقط بالقصص والهوامش، بل ونشر صورها أيضاً. ربما بدافع رد الجميل حيناً، وربما لحب الكاتب للتغيير حيناً آخر. وهي أسماء حري بها أن تحفر في جدار الزمن، أسماء مثل: كايد المفلح العبيدات، أحمد المجالي، زياد طناش، فراس العجلوني، محمد بيك حمد الحنيطي، دلال المغربي، القسام، سعيد العاص، راشيل كوري.

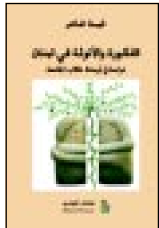
قسم الكاتب مجموعته القصصية إلى أربع مجموعات هي: اضطراب، وغزة، والعبور، وكأنه حلم. وضم تحت كل عنوان من هذه العناوين الأربعة قصتين أو ثلاثا باستثناء «اضطراب» حيث حوى العنوان اثنتي عشرة قصة.

وقد أهدى الكاتب كتابه إلى ذلك الواقف في المرآة يبحث عن عريه خلف الأسئلة.

■

الذكورة والأنوثة في لبنان

دراسة في أوساط طلاب الجامعة
غيدا ضاهر
منتدى المعارف ٢٠١٠
١٢٦ صفحة



لا يكتفي هذا الكتاب بالعرض النقدي لبعض التوجهات الكبرى في تناول الذكورة والأنوثة، وإنما يعرض، أيضاً، نتائج عمل ميداني قد تفاجئ القارئ بدلالاتها الثقافية والسياسية.

من ذلك أن التعليم الجامعي، بمعارفه كلها، لا يمنع الطلاب من التعلق بأكثر الأحكام تقليدية، وبأكثر الصور تنميطاً، عن الرجل والمرأة. ومن ذلك - وهذا أكثر تجذراً وخطورة - ما تسميه الباحثة «تطييف الذكورة والأنوثة»، إذ تبيّن لها أن هناك «انشطاراً» ثقافياً في لبنان، وكأن هناك «ثقافتيْن» مسلمة ومسيحية، تمد كل واحدة منهما «طلابها» بمعايير الذكورة والأنوثة وبأسماء الشخصيات «النموذجية» المجسدة لهما. لقد امتد «التطييف» إلى مجال كهذا، وإلى هذا الحد!..

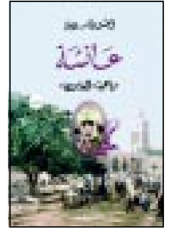
غيدا ضاهر: باحثة اجتماعية، وعضو مجلس أمناء الجمعية العربية لعلم الاجتماع، وعضو الهيئة الإدارية للجنة حقوق المرأة اللبنانية.

■

عائشـــــة

البشير بن سلامة

القاهرة: دار الشروق ٢٠١٠ ، ١٩٠ صفحة



رباعية «العابرون» واحدة من أهم روايات الأدب التونسي المعاصر. تدور أحداثها في القرن الذي يسبق استقلال تونس. وتتناول في ذلك تاريخ عائلتين تونسيتين اختار الكاتب من بين أفرادهما أربع شخصيات، وضع على كل رواية من الرباعية اسم إحداها. وجاء ترتيب صدورها كالتالي: «عائشة» (١٩٨٢)، «عادل» (١٩٩١)، «علي» (١٩٩٦)، «الناصر» (١٩٩٨). «العابرون» بأبطالها وشخوصها العديدة هي نوع من التاريخ الروائي للمجتمع التونسي في تلك الفترة المهمة من تاريخ البلاد.

ولدت «عائشة» لأب كان قد انتقل حديثًا من الفقر والضعف إلى الغنى والسلطة بعد ارتباطه بالحكّام التونسيين. لكن تلك الحياة الناعمة الهادئة لم تلبث أن انقلبت رأسًا على عقب حينما هاجم الاحتلال الفرنسي تونس فغيّر - أول ما غيّر - في نفسيات البشر وعلاقاتهم. «عائشة» نفسها وقعت في حب سالم فأفقدها عذريتها لتظل رهينة ذلك الخوف - الذي يقدم وجهًا آخر لمجتمعاتنا - حتى جاءت لحظة الزواج من خالد. في رواية «عائشة» نقرأ عن الأنثى صانعة الأحداث وراوية الحكايات التي عادة ما تتخفى وراء الرجال. هنا نرى وجه الأب وهو يكبر فتعلوه الشيخوخة بضعفها من ناحية وجبروتها من ناحية أخرى. وفي الخلفية هناك «عائشة» وإخوتها الذين يكبرون بين أيدينا مع الوقت ومع الحكي.

■

رقصة شرقية

خالد البري

دار العين ٢٠١٠



من الرواية:

«متى اخترع الإنسان صيغة السؤال؟ وكيف رسم علامة الاستفهام؟ مستديرة في قمتها ومنقوطة في القاع، كعجوز محنية الظهر تخفي مفتاحًا تحت قدميها. علامة الاستفهام امرأة بالتأكيد. انسيابيتها لا تشبه أجسام الرجال المخلوقة على هيئة الأرقام الإنجليزية الحادة: وان، سيفن وفور. النساء يشبهن ما تبقى: تو امرأة تتوب، سيكس وناين امرأة تتقلب على سرير القلق، فايف امرأة حبلى تنظر إلى المستقبل بترقب، وثري امرأة تستثمر فقط في أنوثة تتآكل، لكن إيت هي المرأة كاملة الأنوثة، انسيابية وملفوفة ومراوغة ومرنة، دون أذى، ولا سوء طوية. والمرأة من ثم تشبه - حين تكون ممددة كما كاتيا الآن على سريرها - علامة اللانهائي، التي لا يستطيع أحد أن يسبر حدودها. وهكذا هي. حياتها دائرة كبيرة فيها دوائر صغيرة. ربما فقاعات صابون، أو حتى كلبشات، كما قال زوجها السابق. والحمد لله أنها اليوم ستنتقل من هنا، مرة أخرى إلى حياة جديدة، سترمي فيها - كالعادة - القديم وراء ظهرها، كما ترمي الشمس ظلام الليل بكل ما غطى وما كشف، حتى في يوم غائم كذاك، بدا في بدايته أن الحياة توقفت».

خالد البري: من مواليد سوهاج ١٩٧٢، حاصل على بكالوريوس الطب ١٩٩٦، يعمل في البي بي سي ويعيش في لندن منذ ١٩٩٩، له كتابان هما: «الدنيا أجمل من الجنة، سيرة ذاتية» عن دار النهار ٢٠٠١، ودار ميريت ٢٠٠٤ و٢٠٠٩، ورواية «نيجاتيف» دار ميريت ٢٠٠٤.

■

ديمقراطية جديدة لمجتمع المعلومات

راجي عنايت

دار العين ـ ٢٠١٠

٢٠٥ صفحة



بعد التحول من العمالة العضلية واليدوية إلى العمالة العقلية والمعرفية، يتغير دور الفرد في مجتمع التعددية الجديدة. فالمؤسسات التعددية الجديدة، هي عبارة عن تنظيمات من «العمال المعرفيين». هؤلاء العمال المعرفيون تكون لديهم القدرة على الحركة. وهم «زملاء» داخل المؤسسة، ولهم وضعهم الاجتماعي والاقتصادي. كما أنهم يتمتعون بالقوة التفاوضية، النابعة من المساواة الاجتماعية، ومن كونهم يشكلون ضرورة اقتصادية.

ومن ثم، يكون علينا أن نعيد تفكيرنا وتعريفنا بالنسبة لكل من حقوق وواجبات العمالة المعرفية، في المجتمع التعددي، وفي مؤسساته.

ستصبح وظيفة الفرد من بين حقوق ملكيته. واليوم، مضى العديد من الدول المتطورة معرفيًا بعيدًا في هذا الاتجاه. والمحاكم الأمريكية تنظر إلى وظيفة العامل باعتبارها نوعًا من الممتلكات.

راجي عنايت من مواليد أسيوط ١٩٢٩، حاصل على بكالوريوس علوم ١٩٥١، ودراسات حرة بكلية الفنون الجميلة، له عدة كتب في مجال الإذاعة والتلفزيون، وله عدة سلاسل في الخيال العلمي، وكتب في الدراسات المستقبلية.

■

القطيعـــة

خليل النعيمي

المؤسسة العربية للدراسات والنشر



قال عنها محمود أمين العالم: «إن رواية القطيعة تمثل مرحلة مغايرة في الرواية العربية المعاصرة، لا تكتب للحكي أو لتصف أو لتسلي أو لتعظ أو حتى لتنتقد، بل لتنقض وتهدم وتسعى لتحقيق تغيير جذري، وقطيعة كل ما هو سائد في الرواية والفكر والقيمة والبنية الأدبية، وهي لا تسعى، بكتابتها الخشنة المكدسة، إلى إقامة بنية مغايرة مقلقة محرضة على التجاوز، ولهذا قد يصدق عليها هذه التفرقة التي ميز بها كانط بين الجميل والجليل فهي ليست الكتابة الجميلة المتسقة والمحدودة العناصر التي تثير الإحساس بالمتعة، وإنما هي الكتابة الغامضة الضبابية التي تثير الإحساس بالرهبة والعذاب».

■

تشارلز بلجريف السيرة والمذكرات (١٩٢٦-١٩٥٧)

مي محمد الخليفة

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

الطبعة الثانية ٢٠١٠



يروي الكتاب سيرة السيد تشارلز بلجريف الذي ولد في سويسرا، عام ١٨٩٤ وتلقى تعليمه العالي في كلية بد فورد، ولنكلن بجامعة أكسفورد. التحق بالجيش البريطاني في السودان، وعمل في مصر وفلسطين، وكان على مدى عامين الأوروبي الوحيد في واحة سيوة بالصحراء الليبية. عام ١٩٢٥م، وبعد سنين من العمل في مكتب المستعمرات بتنجانيقا، استجاب بلجريف لإعلان نشرته حكومة البحرين في جريدة التايمز البريطانية، وبناء عليه تقدم إلى وظيفة المستشار المالي. وعلى مدى واحد وثلاثين عامًا (١٩٢٦-١٩٥٧) كان «المستشار» من أهم الشخصيات السياسية في البحرين. وكان له أثر رئيسي في تطوير النواحي الإدارية والاقتصادية في هذه الجزيرة.

غادر بلجريف البحرين في ١٨ إبريل ١٩٥٧، وعاد إليها مرة أخيرة في زيارة خاصة عام ١٩٥٦. وكانت وفاته في ٢٨ فبراير ١٩٦٩ في بريطانيا، حيث أمضى هناك سنوات التقاعد.

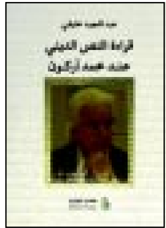
■

قراءة النص الديني عند محمد أركون

عبد المجيد خليقي.

منتدى المعارف ٢٠١٠

٢٢٤ صفحة



إن حاجة الواقع العربي إلى مشروع تنويري يسلط الضوء على أدواء الأمة العربية المستديمة، ويحاول إيجاد أدوية ناجعة لاستئصالها، كان عاملا أساسيًا لصدور كتاب قراءة النص الديني عند محمد أركون، لمؤلفه عبد المجيد خليقي، باعتباره قراءة تجديدية حداثية للمشروع الأركوني.

فهذا الكتاب يُسلط الضوء على المنهجية الأركونية من خلال المزاوجة بين الدراسة التحليلية للخطاب الأركوني من جهة والممارسة النقدية من جهة ثانية، هذا فضلا عن إدخال منهج المقارنة بين فكر أركون أو منهجه وبين غيره من المفكرين الآخرين الذين يقاسمونه التصور نفسه.

ولتحقيق غايته المنشودة، انطلق البحث من جملة فرضيات ضمنية أو صريحة منها: أن القراءة الأركونية في الدراسات الإسلامية قراءة متميزة قلَّ نظيرها في الفكر العربي المعاصر. كما إن من فرضيات هذا البحث، التنقيب في أدوات الحداثة الفكرية التي وظفها أركون لتقويم التراث. وهذه النقطة لها علاقة بفرضية أخرى تقوم كذلك على تصور أركوني جديد للإسلام يتجاوز التصور الأقنومي له.

في الكتاب قسمان وتسعة فصول مع خلاصة، ومقدمة واستنتاجات ثم خاتمة تركز على أهم الخلاصات والنتائج التي توصل إليها المؤلف في كتابه.

ولا بد من الإشارة إلى أن هذا الكتاب هو في الأصل موضوع رسالة جامعية تقدم بها المؤلف لنيل شهادة الدكتوراه في الفلسفة من كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط تحت إشراف الدكتور محمد سبيلا.

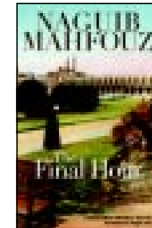
■

The Final Hour

الباقي من الزمن ساعة

Naguib Mahfouz

AUC Press 2010



في سياق ترجمة أعمال نجيب محفوظ للغة الإنجليزية تمت أخيراً في دار نشر الجامعة الأمريكية بالقاهرة ترجمة رواية «الباقي من الزمن ساعة». وهي كأعمال محفوظ الشهيرة في مرحلته الواقعية، رواية ملحمية تحكي تاريخ عائلة عبر تقلبات الزمن. يبني حامد برهان وزوجته سنية منزلاً في ضاحية حلوان حيث يودون تربية ابنهم وابنتيهم في خلال ما يتوقعون أن تكون حياة سعيدة وهادئة. وتتمثل لهم تلك الحياة في صورة فوتوغرافية التقطت لهم خلال رحلة خلوية في حديقة تطل على النيل في الثلاثينيات. من حولهم تمتلئ الدنيا بالأحداث: ثورات وحروب والسلام مع إسرائيل. تمثل الزوجة سنية ويمثل البيت نفسه الصخرة الثابتة التي تستقر عندها مفاهيم العائلة، بينما يتغير الجميع بشكل أو بآخر تأثراً بالأحداث المتغيرة من حولهم. ولعل الفرق الجوهري بين تلك الرواية والملحمة العائلية الأولى لمحفوظ، وهي الثلاثية، أن «الباقي من الزمن ساعة» قد كتبت في أوائل الثمانينيات مما جعل أحداثها تختلف بشكل لا يدع أي مجال للمقارنة بين العملين.

■

Against the Wall: The Art of Resistance in Palestine

ضد الجدار: فن المقاومة في فلسطين

William Parry ed.

AUC Press 2009



في هذا الكتاب المميز سجل بصري لأعمال الجرافيتي والرسم التي حولت الجدار العازل الذي بنته إسرائيل في الضفة الغربية؛ والذي تسبب في خسائر متعددة للفلسطينيين بالإضافة إلى المضاعفة من الصعوبات التي عانوها خلال تنقلهم بين مدنهم وقراهم، إلى توثيق حي للمقاومة والتضامن. وقد قام العديد من الفنانين برسم أعمالهم على الجدار ومن أهمهم بانكسي رسام الجرافيتي الشهير، وهو اسم مستعار لشخص مجهول ينفذ أعماله حول العالم في سرية تامة رغم انتشاره ورغم كبر حجم الكثير من هذه الأعمال التي ينفذها بتقنية الحفر. كما يتضمن الكتاب أيضا أعمالا لرون أنجليش وبلو وفنانين وناشطين آخرين أجانب وفلسطينيين. وتعبر الأعمال المنتقاة عن الغضب والتعاطف والسخرية اللاذعة. كما تشرح الصور المعاناة التي سببها الجدار لعشرات الآلاف من الفلسطينيين في حياتهم كما في أرزاقهم وقدرتهم على العمل حيث إنه يقف بينهم وبين الوصول بسهولة إلى أماكن عملهم ودراستهم والمؤسسات العلاجية. ويتضمن الكتاب بالإضافة إلى الصور المرسومة على الجدار، صوراً فوتوغرافية لفلسطينيين ممن يعيشون حول الجدار ويتأثرون به يوميًا.

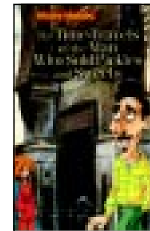
■

The Time Travels of the Man who sold Pickles and Sweets

رحلات الطرشجي الحلوجي

Khairy Shalaby

AUC Press



يعرف الكاتب الكبير خيري شلبي بغزارة إنتاجه ليس فقط من حيث العدد وإنما أيضًا من حيث الموضوع؛ فهو يكتب بجدارة عن مختلف محافظات مصر بشكل يجعل القارئ يظنه أقام أغلب حياته في تلك المحافظة. كما أنه على دراية موسوعية أيضاً بالفترات المختلفة من التاريخ المصري، وقادر على تضفير ذلك التاريخ بشكل شيق في روايته أو كتبه. في كتاب «رحلات الطرشجي الحلوجي» يبحث البطل، ابن شلبي، عن وظيفة، ولكنه وفي خلال رحلة بحثه يحدث حوله اختلال في الزمن فينتقل بلا أي سيطرة منه بين الفترات المملوكية والفاطمية والأيوبية وهو يحمل حقيبته وساعة يده التي تدله على التاريخ الهجري ويعود أحيانًا إلى التسعينيات. في خلال رحلاته يلتقي ابن شلبي بشخصيات تاريخية مثل مؤسس القاهرة جوهر القائد ومسافرين آخرين عبر الزمن مثل المؤرخ المعروف، المقريزي. وبعد أن يفشل في إثارة إعجاب أحد الخلفاء بجهاز التسجيل فإنه يجد نفسه عالقا في القرن الرابع عشر فينضم إلى ثورة يقودها البرابرة وأكلة لحوم البشر وأسرى الحرب الذين ينشئون دولة في تحدٍ لأوامر المماليك. ويجد ابن شلبي نفسه مضطراً للعب دور العميل المزدوج في الصراع بين الثوار والدولة.

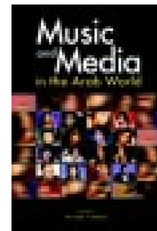
■

Music and Media in the Arab World

الموسيقى والإعلام في العالم العربي

Michael Frishkopf

AUC Press



منذ بداية القرن العشرين كان لصعود الإعلام واسع الانتشار أثرٌ على الموسيقى وطرق أدائها في العالم العربي. وقد تبنت صناعة الموسيقى أشكالاً مختلفة من الإعلام بدءاً من أسطوانات الجرامافون وحتى الإم بي ثري. وكان لكل شكل من تلك الأشكال قوة اقتصادية وسياسية نابعة من الزمن الذي ظهرت فيه تحديداً ومن المنطقة الجغرافية التي بدأت بها الظاهرة. كما أن ثقافة الموسيقى العربية قد تحولت عندما نقلتها تلك الوسائل الحديثة، فقد أصبحت الموسيقى المنقولة عبر وسائل الاتصال الجمعية قوة اجتماعية. ومع أن هذه الظاهرة عالمية إلا أن صداها في العالم العربي لم يلقَ حتى الآن الاهتمام البحثي الكافي. من هنا تأتي أهمية هذا الكتاب الذي يتضمن ١٦ مقالاً بحثيًا، تفحص تلك الظاهرة خصوصًا الموسيقى المُعدة للتلفزيون أو تلك المصورة تلفزيونيًا والظاهرة الخلافية المعروفة بالفيديو كليب. ويقوم بالأبحاث العديد من الكتاب الجدد والكبار المنتمين إلى مجالات بحثية مختلفة. من المهم أن الكتاب يحوي كتابات لنقاد موسيقى مصريين يقدمون نسيج البحث العربي للقارئ الأجنبي. ويتناول المؤلفون قضايا تخص المجتمع العربي المعاصر مثل الجنوسة والجنس والإسلام والطبقة والاقتصاد والقوى ومفهوم الأمة كما تظهر من خلال الثقافة والموسيقى المنتشرة إعلامياً. وبسبب غنى المادة المقدمة في هذا الكتاب فإنه يتجاوز كونه كتاباً عن الموسيقى ويصبح مرجعاً عن المجتمع العربي الحديث. اشترك في الكتاب والتر أرمبرست ووليد الخشاب وتميم البرغوثي وعبد الوهاب المسيري وزين نصار وآخرون.

■

Islamic Law and Civil Code

القانون الإسلامي والتشريع المدني

Richard A. Debs

AUC Press¨ 2010



يتتبع ريتشارد دبس في هذا العمل البحثي تطور القانون في مصر الحديثة على اعتبار أنه تطور يحدث في مجتمع إسلامي فرض عليه الغرب شروط ومبادئ التقدم في العصر الحديث. ويركز دبس تحديداً على مصر ومؤسساتها القانونية الحديثة والتي تستقي قواعدها من التقاليد القانونية الراسخة، بينما تشكل قوانين حديثة في نفس الوقت. ويفحص دبس قضايا مشتركة بين كل الدول التي تبنت، سواء طواعية أو بالضرورة، الأنظمة القانونية الغربية. ويطرح فكرة أن الهجين المصري الفريد من العناصر التقليدية والغربية هو نتيجة لمجهودات أرادت أن تتفاعل مع الأهداف القومية للبلاد ومتطلباتها. إن القانون التقليدي في مصر هو الشريعة وهو الأساس لكل التشريع في المجتمعات الإسلامية. يركز المؤلف على قوانين الملكية ليوضح مدى تعقيد التشريع الإسلامي الذي هو في الوقت نفسه منطقي وفاعل وقد تم تطويره عبر القرون ليخدم احتياجات مجتمعات ازدهرت في ظل حكم القانون.

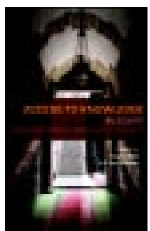
■

Access to Knowledge in Egypt New Research on Intellectual Property¨ Innovation and Development

الوصول إلى المعرفة في مصر: أبحاث جديدة حول الملكية الفكرية والابتكار والتطوير

Nagla Rizk

AUC Press 2010



يسيطر إنتاج السلع المعرفية بشكل متزايد على الاقتصاد العالمي اليوم كما تتزايد الصراعات التي تهدف للسيطرة على المعلومات. يقدم هذا الكتاب نظرة شاملة للتحديات والفرص التي تواجه

مجهودات انتشار المعلومات والمعرفة في مصر. كتب المقالات الواردة في الكتاب نخبة من الخبراء في المجال، الذين قدموا فهمًا عميقًا لكيفية تأثير صناعة المعلومة والابتكار والثقافة في جوهر تقدم الإنسان وحقوقه. وتمزج مقالات الكتاب بين الأساليب النظرية والعملية مما يصنع منه مرجعًا ذا أهمية خاصة للعلماء والباحثين والممارسين في حقول الملكية الفكرية والابتكار عبر العالم. شارك في الكتاب: أحمد عبد اللطيف، حسام بهجت، جاك بالكين، شريف القصاص، نجلاء رزق، شريف كامل، ليا شيفر وربيكا رايتنان.

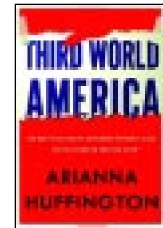
■

Third World America: How Our Politicians Are Abandoning the Middle Class and Betraying the American Dream

أمريكا العالم الثالث: كيف تخلى سياسيونا عن الطبقة المتوسطة وكيف خانوا الحلم الأمريكي؟

Arianna Huffington

Crown 2010¨ 288pp¨ $12¨62



هل الوضع في الولايات المتحدة ينذر بأنها على وشك أن تكون دولة من دول العالم الثالث؟ جذب هذا السؤال الأنظار إلى ذلك الكتاب الجديد الذي طرحته Arianna Huffington والذي تتناول فيه الكيفية التي كان من خلالها الإسراف في الإنفاق على الحرب على حساب الشئون الداخلية سببًا في تراجع الطبقة المتوسطة بشكل واضح مما يؤكد على أن الولايات المتحدة تفقد استقرارها السياسي والاجتماعي والاقتصادي، هذا الاستقرار الذي طالما حافظت عليه الطبقة المتوسطة. تشير المؤلفة إلى حقبة ريجان Reagan باعتبارها بداية عدم الاستقرار وبداية انحطاط الشعور بالأمان المستمد من قبل الحكومة ولا تنفي مسئولية حكومتي جورج دابليو بوش George W. Bush وبيل كلينتون Bill Clinton عن توجيه المزيد من الاهتمام للمال والذي كان له الأفضلية عن إحاطة الطبقة المتوسطة بالرعاية والاهتمام، ولا تنكر المؤلفة اتجاه حكومة أوباما Obama إلى الإنفاق الزائد لإنقاذ Wall Street على حساب مصالح المواطنين الأمريكيين. أشارت المؤلفة أيضًا إلى فقدان وظائف التصنيع والاستعانة بمصادر خارجية. تحدثت عن العولمة وتحدثت عن غلبة أرباح الشركات على مصالح العمال، كما ذكرت أنه بالرغم من تعرض الولايات المتحدة لأزمة مشابهة في عام ١٨٠٠ والسنوات العشر التالية والتي عرفت بالكساد الكبير إلا أن الطبقة المتوسطة لم تكن مهددة حينذاك بنفس قدر التهديد الذي تتعرض له الآن. تقدم المؤلفة مقترحات لمعالجة هذا التراجع بما في ذلك خلق فرص جديدة للعمل لإعادة بناء البنية التحتية الوطنية والإصلاحات الرئيسية في الإقراض والائتمان وتشديد القيود على البورصة. من تحليلات المشاركة الاقتصادية والسياسية المثيرة للقلق تخشى المؤلفة من أن يكون الحلم الأمريكي قد أصبح مفهومًا قد أتى عليه الدهر.

■

Monsoon: The Indian Ocean and the Future of American Power

رياح موسمية: المحيط الهندي ومستقبل القوة الأمريكية

Robert D.Kaplan

Random House2010¨ 384pp¨ $17.99



مؤخرًا، قام الكاتب والرحالة روبرت كابلان بجولة على حافة المحيط الهندي متفقدًا الجغرافيا السياسية له. تتفاوت وجهات النظر حول توازن القوى من دولة إلى أخرى ومن لغة إلى أخرى، ولكن يتفق الجميع تقريبًا على أن الهند والصين هما القوتان الصاعدتان في المنطقة. مثلما عكست جولات كابلان حول المحيط الهندي التقاليد في الصين والهند فإنها أيضًا قدمت كشفًا للأنشطة المعاصرة للبلدين في هذا المحيط. الحقيقة الواضحة جدًا هي النشاط الدائم من البلدين للحصول على الموارد والمواد الخام في سعيهما التصاعدي نحو النمو. في رحلات كابلان من عمان Oman وباكستان Pakistan وبورما Burma وإندونيسيا Indonesia فإن العامل الأهم من وجهة النظر الجيوسياسية هو وصول المواد الخام بأمان إلى الدولة المستهدفة. يستعرض كابلان التهديدات الممكنة للملاحة البحرية مثل القرصنة والصراعات العرقية والسيطرة العدوانية على بعض النقاط الاستراتيجية. يظهر كابلان تفاؤلاً حذرًا بشأن قيام الولايات المتحدة وغيرها من القوى المهتمة بإدارة المحيط الهندي بشكل هادئ وسلمي.

■

The Water Secret: The Cellular Breakthrough to Look and Feel 10 Years Younger

سر الماء: اختراق الخلايا من أجل الظهور والإحساس بعشر سنوات أصغر

Howard Murad

Wiley2010¨ 272pp¨ $10.42



طبيب يعد من أشهر الخبراء في عالم صحة وجمال البشرة يطلقون عليه «عبقري الجمال» يقدم هذا الدليل القيم الذي يضم نصائحه للقارئ حتى يبدو أصغر من عمره بعشر سنوات ليس مظهرًا فقط ولكن جوهرًا أيضًا. ساعدت فلسفته في عالم الجمال في جعل الرجال والنساء حول العالم يشعرون بالشباب في مختلف مراحل العمر تلك الفلسفة التي تعتمد على «سر الماء»، إنها فلسفة ناتجة عن تجارب تم تطبيقها على ما يقرب من ٥٠٠٠٠ مريض، وكان ذلك محكومًا باستراتيجية علمية مثبتة. يكشف كتاب «سر الماء» عن سر رائع من الأسرار الإلهية «وجعلنا من الماء كل شيء حي» ويتيح للقارئ كيفية استخدام هذا السائل الرائع للحياة بشكل أفضل صحيًا ومعنويًا. يعرض الكتاب معلومات قيمة حول تأثير الالتهاب والترطيب وعوامل أخرى على صحة الإنسان، يفسر المؤلف كيف يؤدي تسرب الماء من الخلايا التالفة إلى الظهور بمظهر سيئ ويقدم منهجًا صحيًا متكاملاً وشاملاً لإعادة الحيوية إلى الخلايا وتحسين قوتها لبدء أولى الخطوات للحصول على بشرة رائعة. خطة مكونة من عشر خطوات ووصفة للوصول إلى جلد نقي خالٍ من التجاعيد وطاقة وصحة أفضل بشكل عام.

يوجه المؤلف النصيحة قائلاً: «اكتشفوا سر الماء وتعلموا كيف تسيطرون على تقدم العمر بتحسين صحة كل خلية على حدة، غيروا نمط حياتكم وسوف تكتشفون الفرق بعد أسبوع واحد فقط». يجيب الكتاب على بعض التساؤلات مثل: هل تحسين قدرة خلايا الجسم على الاحتفاظ بالماء يحميه من تطور الأمراض المزمنة؟ ليس الماء علاجًا فقط للأمراض المزمنة، ولكنه وسيلة لتهيئة المناخ الداخلي للجسم للوصول إلى أفضل صحة لمقاومة الأمراض من خلال تغيير نمط الحياة. يعاني معظم الناس عند اتباع حميات غذائية من أجل إنقاص الوزن. كيف يختلف «سر الماء» عن هذه الحميات؟ بالرغم من أن إنقاص الوزن هو ما سيحدث تلقائيًا عند اتباع نظام سر الماء إلا أن اتباعه لا يعد أمرًا شاقًا؛ لأن المطلوب هنا ليس ابتلاع الماء في شكله السائل فقط مما يشعر بالملل، بل المطلوب البحث عن كل الأغذية المليئة بالماء وتناولها كالخضراوات والفاكهة والحرص عليها كروتين حياة. ما هي الفلسفة العامة لسر الماء؟ يعد هذا الكتاب نقلة نوعية في فهم تطور عملية الشيخوخة وهذا الفهم يتيح إمكانية تحسين صحة الإنسان بدءًا من المستوى الخلوي لضمان صحة عامة ممتازة وحالة نفسية جيدة ولا تعتمد هذه الفلسفة على حل أو تجنب حدوث مشكلة في الجسم فقط، بل على إعطاء الجسم الصحة الجيدة كسياق عام اعتمادًا على مبدأ أن كل خلايا الجسد متصلة ببعضها فإذا استطعنا تحسين الصحة الخلوية فسوف نجني تغيرات جذرية في حياتنا ونستمتع بالشباب طول العمر.

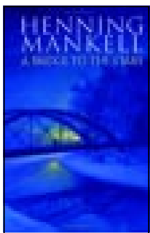
■

Bridge to the Stars A

جسرٌ إلى النجوم

Henning Mankell

Delacorte Books for Young Readers 2009¨ 176pp¨ $8.99



في بلدة معزولة وسط الجبال السويدية تدور أحداث رواية هينين مانكيل «جسر إلى النجوم» حيث تتخلى والدة جويل جوستافسون - طفل الحادية عشرة من العمر - عنه وعن والده في طفولته المبكرة. يقرر الطفل البقاء طوال الوقت منصتًا إلى حكايات والده حول أيام اشتغاله بالملاحة، يولد خياله ويترعرع في جو من صنع أبيه ويحلم بالذهاب إلى البحر عندما يكبر. في إحدى الليالي لاحظ جوستافسون وجود كلب بمفرده في الخارج وتخيل أن هذا الكلب قد ذهب إلى النجوم. صنع الطفل عالمًا خاصًا به، وبدأ في التسلل ليلاً بحثًا عن الكلب. على طول الطريق يتنقل الصبي من بلدة إلى أخرى وفي تنقله يتقابل مع العديد من الشخصيات غير السوية؛ مثل ذلك الصبي الأكبر منه سنًا والذي يقحمه في أنواع من النكات والمزاح الذي لا يستسيغه، ووالده الذي يكتشف وجود علاقة بينه وبين إحدى النادلات في حانة داخل البلدة. وبعد محاولة للهروب في مغامرة خطرة يكتسب بعضًا من البصيرة التي تتيح له تفهمًا أكثر لشعور الوحدة لدى أبيه.

■

Real Kids¨ Real Stories¨ Real Change: Courageous Actions Around the World

أطفال حقيقيون، قصص حقيقية، تغيير حقيقي: مواقف شجاعة حول العالم

Garth Sundem

Free Spirit Publishing 2010¨ 176 pp¨ $9.99



تيلي طفل في الحادية عشرة من عمره يعيش في تايلاند، كان السبب في إنقاذ آلاف الأرواح عندما حذر بلدته من قدوم موجة تسونامي.

مليكة طفلة الخمسة عشر ربيعًا قاومت التمييز العنصري في بلدتها الأباما.

جين دومينيك طفل العاشرة الذي انتصر في معركته ضد السرطان الذي سببته له المبيدات الزائدة في الفاكهة والخضراوات.

هاروكا طفلة في الثانية عشرة من العمر ابتكرت آلة لحلج القطن صديقة للبيئة. صبي أمريكي يوفر الحماية للسلاحف المهددة بالانقراض.

طفل يتيم من رومانيا يدافع عن قضيته وقضايا غيره من الأيتام الذين يعانون من الوحدة واليُتم. طفل ياباني معجزة استخدم موهبته في الرسم لتضميد جراح العالم، ما سبق هو مجرد جزء من ثلاثين قصة رائعة يضمها هذا الكتاب بين دفتيه، هي قصص لأطفال حول العالم ممن اهتدوا إلى أروع الطرق لاستخدام مهاراتهم وقدراتهم لإحداث تغيير حقيقي وتحسين العالم.

ينقسم الكتاب إلى خمسة فصول ويعرض هذه القصص بأسلوب سلس يناسب الأطفال في المرحلة العمرية من التاسعة إلى الثالثة عشرة.

يعتمد الكتاب على قاعدة تقول إن الإنسان إذا امتلك قلبًا شجاعًا؛ فهو يمتلك سلاحًا قويًا ورائعًا، كتاب يحتوي على ملف لثلاثين طفلاً استخدموا عقولهم وقلوبهم وشجاعتهم وأحيانًا عنادهم من أجل مساعدة الآخرين والقيام بأشياء غير عادية. عندما يتقابل صغار القراء مع أبطال هذه القصص على صفحات الكتاب فقد يكون السؤال الأول الذي يثار في نفس القارئ هو: «أين هو البطل الكامن بداخلي؟».

■

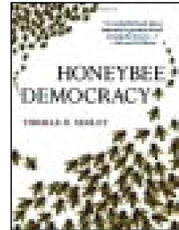
Honeybee Democracy

ديمقراطية نحل العسل

Thomas D.Seeley

Princeton University Press 2010¨

280pp¨ $19.77



تتخذ مملكة نحل العسل قراراتها بشكل جماعي وديمقراطي. تواجهها كل عام مشكلة اتخاذ بيت جديد والانتقال إليه؛ وهي مشكلة حياة أو موت. تعتمد هذه المملكة في بقائها على عملية تتسم بتقصي الحقائق بشكل جماعي ومناقشات نشطة وبناء توافق في الآراء. يكشف لنا عالم الحشرات الشهير توماس سيلي أن هذه الكائنات المذهلة لديها الكثير لتعلمه لنا خاصة عندما يتعلق الأمر بالحكمة الجماعية واتخاذ القرارات الفعالة. كشف علمي رائع وغني هو نتاج عقود من البحث والدراسة قام بها العالم سيلي يؤكد فيه الديمقراطية الجماعية السائدة بين نحل العسل، ويحكي لنا قصة الحوار الديمقراطي بين أفراد مملكة النحل.

في أواخر الربيع وأوائل الصيف وعندما تكون مستعمرة النحل مكتظة تبدأ قيادة الخلية في التفكير في الانتقال إلى وطن وبيت جديد، وبينما تنشغل الملكة الأم مع الوصيفات في إعداد الملكة الجديدة يذهب سرب من النحل يشبه السحابة إلى الموطن الجديد لاكتشافه وتقييمه. ويصف لنا سيلي كيف يقوم هذا السرب بالتواصل والإعلان عن اكتشافاتهم لبعضهم البعض والمشاركة في مداولات مفتوحة واختيار موقع نهائي للخلية.

يرى سيلي أن ما يطبق بشكل جيد في مملكة النحل يلائم الناس إلى حد كبير، فلا بد لأي جماعة تختص بصناعة القرار أن تأخذ في الاعتبار الأفراد ذوي المصالح والاهتمامات المشتركة، ولا بد من سيادة الاحترام المتبادل بينهم، وكذلك يجب التقليل من سيطرة ونفوذ الزعيم؛ فالنفوذ الأهم هو نفوذ الجماعة وليس الزعيم بشكل فردي ولا بد من إيجاد أرضية للحوار والمناقشة وتوفير حلول بديلة، ولابد من عمل حساب للأغلبية للوصول إلى قرار يُعتمد عليه. إن هذا الاستكشاف الرائع لسلوك الحشرات يؤكد على أن ديمقراطية نحل العسل تظهر بوضوح أن مجموعات صناعة القرار سواء كانت في خلية النحل أو بين مجموعة من البشر تستطيع اتخاذ قرارات تتميز بكونها أذكى من أي قرار يتخذه إنسان بمفرده حتى لو كان شديد الذكاء.

■

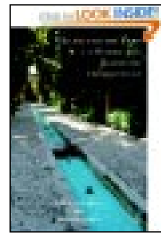
Islam and the Path to Human and Economic Development

الإسلام والطريق إلى تنمية إنسانية واقتصادية

Abbas Mirakhor¨ Hossein Askari

Palgrave Macmillan2010¨

242pp¨ $68.07



يمثل هذا الكتاب محاولة رائدة في تصور نموذج إسلامي حقيقي للمجتمعات النامية. لقد نجح هذا الكتاب فيما فشلت فيه محاولات أخرى؛ لأنه يجمع بين معرفة واسعة لهذا الموضوع مع رؤية فكرية متماسكة وعاطفة عميقة. إن الغاية التي يسعى إليها هذا الكتاب هي أن يكون معيار العمل في هذا المجال لسنوات قادمة. لأسباب مفهومة وواضحة جداً تكاثرت الأطروحات على الاقتصاد الإسلامي والشريعة الإسلامية والإسلام والإرهاب - وهكذا - في السنوات الأخيرة. تعالج معظم هذه الأطروحات الجوانب الفردية لمؤسسات إسلامية محددة وتنتقد بشدة بعض المؤسسات المعروفة فيما يطلق عليه العالم الإسلامي المعاصر. يقدم عباس ميراخور Abbas Mirakhor وحسين العسكري Hossein Askari رؤية نقدية لهذه الدول الإسلامية. ويعد ما قدماه في كتاب «الإسلام والطريق إلى تنمية إنسانية واقتصادية» مختلفًا بشكل جذري.

إن جوهر ما فعله هذان المؤلفان هو حصولهما على استفادة كاملة من كلام الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) نفسه، وقد قدما التعاليم الإسلامية المنبثقة من القرآن والسنة بشكل رائع يؤكدان من خلاله على أن الإسلام بقرآنه وسنته يستطيع أن يوفر الإطار المتماسك والمتوازن والشامل الذي تبنى عليه المجتمعات التي تعمل بصورة جيدة حتى هذه الأيام.

إذا تم استخدام الإطار المؤسس للقرآن والسنة كأساس لهذه المجتمعات فإن الفائدة المكتسبة لن تكون قاصرة على تراكم رأس المال - سواء أكان بشريًا أم ماديًا - ولا على التطور التكنولوجي فقط كأدوات لتحقيق النمو المستدام، ولكن سوف يتم أيضًا تحقيق أهداف التنمية البشرية والوئام الاجتماعي.

ومن شأن هذا الإطار الشامل أن يعمل على تخفيض قيمة المعاملات على مستوى عالمي بطريقة تؤدي إلى تعالي قيمة الأخلاقيات الاجتماعية القوية مما يؤدي إلى تقليل الاحتياج إلى البيروقراطية وإلى تقلص الديكتاتورية، وفي الوقت نفسه تدعيم البنية الاجتماعية التحتية. يمتع المؤلفان قراءهما من خلال هذه الجولة الرائعة عبر التاريخ الفكري من خلال تسليطهما الضوء على هذه المساهمات الفريدة للبنية المؤسسية التحتية للمجتمعات في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم).

■

The H1N1 Influenza Pandemic of 2009 (Public Health in the 21st Century)

وباء الإنفلونزا لعام ٢٠٠٩ الصحة العامة في القرن الواحد والعشرين

Charles R. Bartolotti

Science Publishers 2010¨

255pp¨ $115.00

حينما تهب النسمات الباردة للخريف وبوادر الشتاء يتبادر إلى الأذهان أحداث العام الماضي ٢٠٠٩، وما شاع فيه من أسوأ أشكال الفزع والهلع العالمي من جراء انتشار وباء إنفلونزا الخنازير.

هذا العام تختلف اللهجة ويسيطر عليها نوع من الاتزان الذي يعطي لهذا المرض حجمه الطبيعي وما يتطلبه من الحذر والكياسة في التعامل معه. يقدم هذا الكتاب ملخصًا للأحداث الرئيسية والإجراءات المتخذة والتي تذرعت بها منظمة الصحة العالمية والحكومة الفيدرالية الأمريكية والحكومات المحلية لتحديد وتخفيف مراحل وباء الإنفلونزا.

فضلاً عن ذلك يتناول الكتاب المسائل القانونية المتعلقة بهذا الوباء بما في ذلك التدابير الطارئة والحقوق المدنية والمسئولية وقضايا العمالة. يناقش أيضًا استجابة الولايات المتحدة لحالات الإصابة البشرية العالمية والإجراءات الوقائية الواجب اتخاذها للسيطرة الكاملة على هذا الوباء والقضاء عليه.

■

انظروا إلى إندونيسيا

هذا إسلام «آخر»

ألفريد ستيبان و جيرمى مينتشك
Alfred Stepan & Jeremy Menchik

باختلاف ألوان الطيف، تختلف نظرة الأوربيين للإسلام. كما هى تطبيقاته ومفاهيمه؛ عربيًا وآسيويًا وأوربيًا.. وطبعًا أمريكيًا.

هذا مقال لباحثين متخصصين فى الإسلام والعقائد.

يكتبون عن جانب من الصورة ربما لا نراها هنا فى شرقنا العربى جيدًا

■ ■ إن زيارة «بارى أوباما» - اسم التدليل الإندونيسى للمقيم السابق ورئيس الولايات المتحدة الحالى باراك أوباما - لجاكرتا، المقصود منها، بين أمور أخرى، الاحتفال بإنجازات الدولة ذات الغالبية المسلمة الأضخم على مستوى العالم. فعلى مدى اثنى عشر عامًا منذ تحولها إلى الديمقراطية، عقدت إندونيسيا انتخابات محلية ووطنية منتظمة، وأنشأت سوقًا حرة عاملة، وعززت ثقافة التسامح تجاه الأقليات المسيحية والهندوسية والبوذية والصينية فى البلاد.

وإندونيسيا هى الدولة الوحيدة بين بلدان رابطة دول جنوب شرق آسيا العشرة التى حصلت على تقييم «حرة» من مؤسسة دار الحرية. وتأتى الفلبين الكاثوليكية وتايلاند البوذية وسنغافورة الكونفوشيوسية فى مراتب متأخرة كثيراً عن إندونيسيا فيما يتصل بتوفير الحقوق الديمقراطية الأساسية لشعوبها. لذا فقد نظر صناع القرار السياسى فى الولايات المتحدة إلى إندونيسيا باعتبارها نموذجًا لبقية العالم الإسلامى. ولكن ما هى الدروس التى يمكن استخلاصها من الديمقراطية الإندونيسية؟

إن الدرس الأكثر أهمية هو أن المنظمات الإسلامية قادرة على تشكيل العمود الفقرى لمجتمع مدنى متسامح. ففى إندونيسيا، تدير مؤسسات إسلامية جماهيرية، مثل المحمدية التى تضم عضويتها أكثر من ثلاثين مليون عضو، ونهضة العلماء التى تضم عضويتها أكثر من أربعين مليون عضو، تدير أكثر من عشر آلاف مدرسة ومئات المستشفيات، فضلاً عن العديد من المنظمات الشبابية، كما تدعم الحركات النسائية. وكل من هاتين المؤسستين لديها اتصالات بأحزاب سياسية تنادى أغلبها بالديمقراطية وتعارض إقامة دولة إسلامية.

والواقع أن سيافى معارف، الرئيس السابق لمنظمة المحمدية، استند إلى القرآن الكريم فى تقديم العديد من الحجج المؤيدة للتعددية فى مواجهة الطاعة العمياء لفلسفة التشريع الكلاسيكية. كما ظل عبد الرحمن وحيد، الرئيس السابق لمنظمة نهضة العلماء، يدعو طيلة عقود من الزمان إلى احترام التعددية الدينية، وكان يشكل أهمية محورية فى حشد المعارضة الديمقراطية للزعيم الاستبدادى سوهارتو. كما دعا مفكر إسلامى ثالث، وهو نورشوليش مجيد، إلى انتزاع صفة القداسة من السياسة فى سبعينيات القرن العشرين، كما دعا إلى الديمقراطية الحقيقية المتعددة الأحزاب فى التسعينيات، وحث سوهارتو شخصيًا على التنحى فى عام ١٩٩٨.

كما توضح إندونيسيا كيف يوفر الإسلام الدعم لحقوق المرأة؛ فأكثر المنظمات نجاحًا بين دوائر المجتمع الناشط فى جاكرتا هى تلك التى تستمد الدعم من الأجنحة النسائية فى منظمة المحمدية ومنظمة نهضة العلماء: جمعية مسلمات، وجمعية فتيات، وجمعية عائشة. وكانت ماريا أولفا أنشور، رئيسة جمعية فتيات السابقة تقدم حججًا قوية رفيعة الثقافة ومستمدة من الفقه الإسلامى فيما يتصل بحقوق المرأة الإنجابية. وبفضل الشراكة بين الدولة والعلماء المسلمين والتى ترجع إلى أربعين عامًا، نجحت إندونيسيا فى إنشاء بعض أفضل برامج تنظيم الأسرة وأكثرها نجاحًا فى العالم النامى.



وفى كثير من الأحيان تكون هذه التصرفات هدامة إلى حد كبير. ففى إحدى الحالات الغريبة المنافية للعقل بشكل خاص، اضطرت مجموعة ناشطة فى مجال الحركة النسائية إلى نشر كتاب يدعو إلى مناصرة حقوق المرأة استناداً إلى تفسيرات للقرآن سراً، وذلك لأن الكتاب كان يحتوى على حجج مؤيدة لحقوق المرأة الإنجابية، وكانت نسبة ضئيلة من تمويل المجموعة آتية من مؤسسة تلقت إعانات مالية من الوكالة الأمريكية للتنمية.

وقد تساعدنا أيضًا حقيقة أن المنظمات الإسلامية أفادت المرأة إلى حد كبير فى تفسير النجاح السياسى الذى أحرزته المرأة فى إندونيسيا، حيث بلغت المشاركة النسائية فى البرلمان ١٨٪ (وهى نسبة أعلى قليلاً من نظيرتها فى الكونجرس الأمريكى)، وكانت امرأة، وهى ميجاواتى سيكارنوبوترى، الرئيسة الرابعة للبلاد. وتقدم منظمات رائدة مثل عمر وفتيات ومسلمات تصحيحًا لوجهة النظر المنتشرة التى تزعم أن الشريعة الإسلامية تعوق تقدم النساء بالضرورة.

والواقع أن النساء فى إندونيسيا أظهرن كيف قد توفر الشريعة الإسلامية أداة لمكافحة السياسات المعادية للمرأة. على سبيل المثال: نشر رئيس الشئون الدينية فى وزارة الأديان، نصر الدين عمر، وهو من أنصار الحركة النسائية فى إندونيسيا - كما يصف نفسه- نقداً واعيًا للتحيز ضد المرأة فى بعض التفسيرات للقرآن الكريم.

إن الدين يتخلل كافة جوانب الحياة فى إندونيسيا تقريبًا، بما فى ذلك السياسة. ولكن الأحزاب السياسية التى تدعو إلى تطبيق الشريعة الإسلامية خسرت شعبيتها فى الانتخابات المتعاقبة منذ عام ١٩٥٥ إلى عام ٢٠٠٩. ولقد اختفت الأحزاب التى لا تزال تؤيد الشريعة إلى حد كبير أو غيرت برامجها الانتخابية. فبدلاً من محاولة تولى السلطة فى الدولة، اضطرت الأحزاب الإسلامية تحت ضغط من الناخبين إلى تغيير سياساتها لصالح التعددية فى إندونيسيا.

ولعل أفضل طريقة لمساعدة المسلمين ليست محاولة زرع مؤسسات تحمل الطابع الإندونيسى فى الشرق الأوسط، أو منح المساعدات للمعتدلين الذين تمنحهم أمريكا موافقتها ومباركتها، بل إن الأمر يتلخص ببساطة فى الإنصات عن كثب إلى أصوات الإسلام فى إندونيسيا.

ولكن تحقيق هذه الغاية أمر صعب. فحتى الآن لم تتم ترجمة أى من كتابات المفكرين الذين شكلوا أهمية حاسمة فى التحول إلى الديمقراطية ومناصرة حقوق المرأة فى إندونيسيا - ومنهم عبد الرحمن وحيد، ونورشوليش مجيد، وسيافى معارف، وسيتى مصداح موليا، وماريا أنسور أولفا - إلى اللغة الإنجليزية. ولعل الأمر الأكثر غرابة من هذا أن أيًا من هذه الكتابات لم يترجم حتى إلى اللغة العربية. ■

Alfred Stepan, a professor of political science at Columbia University and the director of its Center for the Study of Democracy, Toleration, and Religion, is a co-author with Juan J. Linz and Yogendra Yadav of Crafting State Nations: India and Other Multinational Democracies. **Jeremy Menchik**, a Ph.D. candidate at the University of Wisconsin-Madison, has spent the past two years studying Islam and politics in Indonesia.

ترجمة: هند على

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 12 - Issue 143 - December 2010

مجلة شهرية العدد143 - السنة الثانية عشرة - ديسمبر2010 - الثمن عشرة جنيهات

2010/2001
نحن















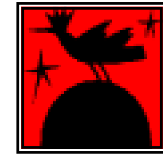


عدد خاص
1

السنة الثانية عشرة
العدد ١٤٣
ديسمبر ٢٠١٠

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

أيمن الصياد.. صحفى
بشير نافع.. باحث وكاتب
جاى سورمان.. فيلسوف واقتصادى فرنسى
حسن مكى.. أكاديمى سودانى، رئيس الجامعة الأفريقية بالخرطوم
دانيال بايمان.. مدير مركز السلام والأمن ـ جامعة جورج تاون
دومينيك مويزى.. كاتب متخصص فى الجغرافيا السياسية
رشدى سعيد.. كاتب مصرى. الرئيس الأسبق لهيئة المساحة الجيولوجية فى مصر
سلامة أحمد سلامة.. صحفى
شلومو بن عامى.. نائب رئيس مركز توليدو الدولى للسلام، ووزير سابق للخارجية الإسرائيلية
عزمى بشارة.. كاتب عربى، وعضو سابق بالكنيست الإسرائيلى
علاء بيومى.. باحث عربى فى الشؤون الأمريكية، مقيم فى واشنطن
فولكر بيرثيس.. مدير المعهد الألمانى للشؤون الدولية والأمن
فيصل أمين الاستراباذى.. مدير مركز دراسات الشرق الأوسط ـ جامعة انديانا
كريس باتين.. رئيس جامعة أكسفورد، والمفوض الأسبق للشئون الخارجية لدى الاتحاد الأوروبى
محمد السطوحى.. صحفى
محمد حسنين هيكل.. صحفى
محمد سليم العوا.. محام وكاتب، رئيس جمعية مصر للثقافة والحوار
نعيم قاسم.. نائب الأمين العام لحزب الله

رسوم العدد

محمد حجى ـ سعد الدين شحاته ـ عماد حجاج
Petar Pismestrovic - Kerry Waghorn - Peter Lewis - Vince O'Farrell





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص. ب: ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١,٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١,٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

2010 / 2001

حكايا ومشاهد وأسئلة و«وجهات نظر»

أيمن الصياد

■■ «ولما كان العقدُ الأول، من القرن الأول بعد العشرين...»

هكذا تقول لغة «شهرزاد» إذا حكت لمليكها الأسطورى قصصاً وحكايات يغلفها الغموض، وتؤججها الإثارة. فهل ياترى تفتقر حكايا «واقعنا» غير الأسطورى؛ الموثقة بالكاميرا والإنترنت ومدونات Wikileaks إلى الغموض نفسه والإثارة ذاتها؟!

البادى أنه كما كانت شهرزاد تعمد - تشويقًا - إلى أن تنهى حكاياتها الليلية بالأسئلة المفتوحة، كانت هكذا معظم حكايا/ أسئلة العقد الأول من قرننا الجديد:

● ماهى خفايا ماجرى فى ذلك اليوم الذى لم يتوقعه أحدٌ أبدًا؛ عندما اختفى «على الهواء مباشرة» البرجان الشاهقان من سماء مانهاتن؟ ومن هم اللاعبون؛ على المسرح أو خلف الستار؟ هل هم «فقط» أولئك الساكنون فى كهوف أفغانستان؟! عشر سنوات مضت، فهل نعلم حقا «كل» الحقيقة.. وكل التفاصيل؟

● ماهى حقيقة لغز «القاعدة»؛ هذا التنظيم - إن جاز لنا أن نسميه كذلك - الذى أصبح فى العقد الأول من القرن الجديد خبراً رئيساً فى نشرات الأخبار، وبندا ثابتا على أجندة كل اجتماع أمنى أو استخباراتى؟

● هل تصبح «أوروبا مسلمة» (!) كما يأمل البعض هنا، أو يتوجس الكثيرون هناك؟ أم أن الأمر لن يعدو تعاظما لمشاعر الإسلاموفوبيا، يصبح فيه المسلمون فى نهاية المطاف، كما كان «يهود أوروبا» فى وقت من الأوقات؟

● كيف اصطف العالم كله «حكومياً على الأقل» فى حرب كبرى قامت على «كذبة كبرى»، وكيف صدق الجميع كولين باول وهو يعرض على مجلس الأمن (٥ فبراير ٢٠٠٣) أدلة ثبت كذبها فيما بعد تؤكد امتلاك العراق لأسلحة دمار شامل؟ وكيف ارتضى «الضمير العالمى»، بعد كل الدماء التى أريقت، والآلاف الذين قضوا، ألا يسائل الكذاب على كذبه؟ قد يبدو ذلك سؤالا ساذجًا، وهو كذلك. ولكنه يبقى مشروعًا. وسؤالا «مفتوحا» فى بداية قرن يتحدثون فيه عن «القانون الدولى الإنسانى»، وعن جرائم حرب لا تسقط بالتقادم.

● أين يذهب العراق، أو بالأحرى أين يذهب بنا العراق، فى رحلته الدموية الطويلة؛ من الاستبداد.. إلى الاحتلال.. ثم.. إلى أين؟

● ما الذى يجعل استبداداً بتلك الفظاعة يولد من أحشاء المجتمع العربى؟ وكيف يترسخ العجز والاستسلام لعقود، حتى يأتى الزلزال أجنبيا. ويصبح ترويج المعادلة / المقايضة ممكنًا: «إما الاستبداد أو الاحتلال»؟! كيف يؤله «الناسُ» «الناسَ» - فقط لكونهم هناك «على المنصة» فيصبح رأيهم دائماً سديداً، وقراراتهم صائبة - فى ثقافة محفور فى تراثها: «أصابت امرأة وأخطأ عمر»؟



هل ينتقل العرب فى قرننا الجديد من شرعية القبيلة، أو الشرعية الثورية ـ لافرق ـ إلى ماتعارف عليه العالم المعاصر من «شرعية دستورية»؟ وهل سنشهد حاكما عربيا يتقاعد بإرادته؟



● هل ينتقل العرب فى قرننا الجديد من شرعية القبيلة، أو الشرعية الثورية - لا فرق - إلى ماتعارف عليه العالم المعاصر من «شرعية دستورية»؟ وهل سنشهد حاكما عربيا يتقاعد بإرادته؟

● أين سيذهب الفلسطينيون، بعد أن ذهب «الختيار» (٢٠٠٤)، رافضا «إنهاء القضية» فى كامب دافيد الثانية (٢٠٠٠)؟

● وهل ستكون ١٩٦٧ هى بداية



النهاية «الديموجرافية» للدولة الصهيونية، كما يقول مفكرون يهود داخل وخارج إسرائيل؟ وهل سيدفع الكيان الذى جرى إنشاؤه ١٩٤٨ فى سياقات قرن مضى، ثمن «تجاوز السلاح لحدوده» (اقرأ محمد حسنين هيكل فى وجهات نظر: مارس ٢٠٠١)

● كيف نجح حزب الله (٢٠٠٦) فى ما لم تنجح فيه جيوش نظامية عربية؟

● هل السودان (أو السودانَان) هو أول الطريق نحو مزيد من الانفصالات والانقسامات؟

● هل تصبح «صراعات الهوية» هى بديل القرن الجديد لما كان سائداً فى القرن الفائت من صراعات عقائدية/ أيديولوجية، أو قومية/ وطنية؟

● هل نشهد فى القرن الجديد تغيرا جذريا لمفهوم «الهوية / الانتماء» ذاته؟ وهل يشهد قرننا هذا نهاية «الدولة القطرية»، بمفهومها وحدودها التى رسمتها نتائج حربى القرن الفائت العالميتين؟ وهل يبدأ هذا التغيير هنا؟ فى منطقتنا التى لم ترتض الوحدة جامعا، فأصبحت مهددة ربما قبل غيرها بالخرائط الجديدة؟



لم يكن القرنُ الفائت قد أغلق أبوابَه على ماماج به من أحداثٍ ودماء، ولم تكن الأصفار الثلاثة قد اصطفت بعد إلى جوار الرقم (٢) لتنتقل بنا فى احتفالية صاخبة إلى قرن جديد. على مكتبى وجدت مغلفا يحمل شعار واسم السفارة الأمريكية بالقاهرة، وفى داخل المغلف كتابٌ ذو طباعة أنيقة، يحمل ترجمة عربية لكتاب كان قد صدر للتو. لم يكنِ الأمرُ مألوفا، كما لم تكن له سابقةٌ على حد علمى. والترجمة الأنيقة، التى كان هناك فى السفارة من حرصَ على أن يرسلها إلىَّ، وبالطبع إلى غيرى من الكتاب والصحفيين فى مصر. كانت للكتاب الذى اشتهر بعد ذلك بوصفه المروج، أو المؤسس «إعلاميا» لنظرية العولمة The Lexus and the Olive Tree للصحفى الأمريكى الذى سرعان ما اشتهر أيضا «توماس فريدمان» (صدرت الطبعة الأولى للكتاب فى أبريل ١٩٩٩ عن دار نشر Farrar, Straus & Giroux)

قد لا أختلف كثيرا مع تنبؤات ذهب إليها فريدمان فى كتابه، ولكننى. بحكم «المهنة» على الأقل - أفهم تماما أثر «التبشير بالإلحاح»، كما - وبحكم المهنة «المتسائلة» أيضا - كان طبيعيا أن تستوقفنى طبيعة المغلف الذى وصلنى فيه الكتاب.

العولمة .. والحرب على الإرهاب .. وصراع الحضارات، بعد أن «انتهى التاريخ»، بدت مع غيرها من عباراتٍ ملحة، وكأنها «عناوين لغوية» لبداية قرن جديد.

ربما لم ينته التاريخ كما تنبأ فرانسيس فوكوياما، قبل أن يراجع بعض أفكاره عشية غزو العراق، ولكنه كان قبل أن ندلف إلى قرن جديد قد نظّر لفكر المحافظين الجدد، الذين رسمت أفكارهم، أو بالأحرى تطبيقاتها، معظم الملامح الدموية للعقد الأول من القرن الجديد. والذين كانوا قد أنشأوا لها مبكراً مؤسسة بحثية باسم «مشروع القرن الأمريكى الجديد PNAC».

لم ينته التاريخ إذن. تراجعت أفكار المحافظين الجدد (ولو إلى حين)، ولكن لم تتراجع أفكار صمويل هنتنجتون Huntington صاحب الكتاب الأشهر على بوابة القرن The Clash of Civilizations and the Remaking of World Order الذى أثار جدلا ربما لم يثره غير أرنولد توينبى فى بدايات القرن الفائت (العشرين).

ولمن لا يذكر، تذهب نظرية هنتنجتون الذى يرى أن «الغرب فاز بالعالم ليس بتفوق أفكاره أو قيمه أو ديانته، ولكن بتفوقه فى تطبيق العنف المنظم»، إلى أن «صراعات ما بعد الحرب الباردة ستكون على أسس ثقافية وحضارية، بدلاً من الأسس العقائدية أو الاقتصادية كما كان الحال فى القرن الماضى.



لم يرحل هنتنجتون «الأكاديمى»، إلا وكانت القنوات التليفزيونية فى العالم أجمع، تنقل على الهواء مباشرة المشهد الأكثر درامية فى القرن فى بداية القرن

الجديد؛ برجا التجارة العالمية (رمز الحضارة الغربية المادية) ينهاران بطوابقهما الـ ١١٠ فى قلب العاصمة المالية للدولة التى كان قد بدا أنها تفردت بسيادة العالم فى القرن الجديد. وسرعان ما أطل علينا من الشاشات التليفزيونية ذاتها «شيخٌ ذو لحية» يحدثنا بلغة بدت مفرداتها قديمة ولكنها دالة، عن «غزوة» مانهاتن.. وعن «الفسطاطين». وسرعان ما دخلت المفردات القديمة فى «أبجديات القرن الجديد»، ثم كان أن تغيرت كلُ السياسات والحسابات، بل وسلوكيات البشر.. بدءا من خلع الأحذية فى المطارات، وحتى تخصيص دورات فى الكليات العسكرية لـ Asymmetric War .

وقعت الواقعة إذن، وزلزلت الأرض فى صباح هذا اليوم البعيد من العام الأول من القرن الجديد. وكان أن تم، على الطريقة الأمريكية المعتادة، تعليبُ التفسيرات لتصبح وجبةً جاهزةً عند الحاجة.. وكل حاجة. وكان أن ازدحمت ساعات إرسال الشبكات التليفزيونية المتنافسة دوماً بمحللين ومفسرين كل مؤهلاتهم «التفضيلية» أنهم جاءوا يوماً من، أو حتى زاروا، تلك البلاد البعيدة.

وعبر الآلة الإعلامية «العولمية» الجبارة، جرى «تدويرُ» تلك التفسيرات، وفى الخلفية دائما أفكار هنتنجتون المثيرة للجدل، وصورة الشيخ المعمم ذى اللحية. لم ينتبه الذين شاهدوا بن لادن فى بيانه الأول (٧ أكتوبر ٢٠٠١) معلقا على ماجرى فى نيويورك، إلى حديثه عن «الذل والهوان الذى يتعرض له المسلمون منذ أكثر من ٨٠ عاماً». فاختزلوا إعلاميا كل ماقاله فى حديثه عن «فسطاطين». فكان أن وضع برنارد لويس؛ نافذة الغرب على الإسلام، والأب الحقيقى لفكرة «صراع الحضارات» لكتابه ذائع الصيت «The Crisis of Islam» عنواناً جانبياً يختصر فيه القضية فى «حرب مقدسة وإرهاب غير مقدس Holy War and Unholy Terror».

فكريا، وإعلاميا، وسياسيا، لم ينجح المسلمون أن يتفادوا استقطاب ثنائية أريد لهم أن يكونوا أحد طرفيها فى قرن جديد. وعلى الأرض، لم يكن الغبار الذى تصاعد فى سماء نيويورك قد هدأ، إلا وكان جورج دبليو بوش (المقتنع أنه مبعوث من السماء) قد ذهب إلى أفغانستان (٧ أكتوبر ٢٠٠١)، رغم أن أفغانيا واحدا ـ من طالبان أو غيرها ـ لم يكن على أى من طائرات الحادى عشر من سبتمبر.

ومن أفغانستان إلى العراق (٢٠٠٣)، وبحجة، أو حجج ثبت كذبها؛ فى ٢٤ سبتمبر ٢٠٠٢ لم يتردد تونى بلير أن يعلن أمام النواب المحترمين فى مجلس العموم البريطانى أن «العراق يملك أسلحة كيماوية وبيولوجية.. وأن فى إمكانه نشر صواريخه خلال ٤٥ دقيقة..»(!) وفى ٥ فبراير ٢٠٠٣ كانت لهجة خوسيه ماريا إزنار رئيس الوزراء الإسبانى قاطعة (لا مجال للشك فيها) حين أكد أمام برلمانه: «نعلم جميعاً أن صدام حسين يملك أسلحة دمار شامل.. كما نعلم جميعاً أن لديه أسلحة كيميائية». وحسب رواية الهيرالدتريبيون (٥ يونيو ٢٠٠٣) كانت هناك شكوك لدى كولن باول فى مصداقية الخطاب الذى ألقاه أمام مجلس الأمن قبل أسابيع من الحرب. ولذا حرص على أن يجلس جورج تينت مدير وكالة الاستخبارات الأمريكية A.I.C خلفه ربما ليشاركه مسئولية ما يقول. وربما حرص على ذلك أيضاً مخططو حملة «الترويج» الأمريكية ليقولوا لأولئك المحدقين فى شاشات العرض الضخمة والمنبهرين بالـPowerPoint Presentation وتقنيات Microsoft المتفوقة أن وراء كل ذلك إمكانات الاستخبارات الأقوى فى العالم «غير المشكوك فيها».

أيا ما كان الأمر، فقد ذهبت واشنطن إلى الحرب، بعد أن سحبت وراءها«دول الائتلاف»، لتصورها «حربا عالمية»، بين الخير والشر كما قال بوش، أو بين «فسطاطين» كما فسرها بن لادن، وكان أن هزت ضمير العالم كله، ومعه «المستضعفون فى الأرض» مشاهد «الصدمة والترويع». ثم كان أن أصبحت «القاعدة» الواحدة أكثر من قاعدة؛ من منتجعات بالى شرقا إلى أزقة المغرب العربى غربا، ومن لندن ومدريد فى قلب أوروبا، إلى الصومال البائس فى القرن الأفريقى. ومن العراق شرق الجزيرة، إلى اليمن جنوبها. وكان لابد لكل ذى عين أن يلاحظ أن أكثر من تصدى للتضحية بحياته فى عمليات هنا أو



هل يشهد قرننا هذا نهاية «الدولة القطرية»، بمفهومها وحدودها التي رسمتها نتائج حربي القرن الفائت العالميتين؟ وهل يبدأ هذا التغيير هنا؟





العولمة.. والحرب على الإرهاب.. وصراع الحضارات، بعد أن «انتهى التاريخ»، بدت مع غيرها من عبارات ملحة، وكأنها «عناوين لغوية» لبداية قرن جديد



هناك، فتيان لم يتجاوزوا العشرين من العمر. وهم بحكم السن على الأقل، لم يشاركوا قطعًا فى الجهاد الأفغانى (١٩٧٩ ـ ١٩٨٩) ولم يربهم عبدالله عزام (مات ١٩٨٩) ولكنهم بالضرورة رأوا (على الفضائيات) صورة الأم العراقية المحترمة التى بالت واقفة فى ملابسها أمام أبنائها (تجسيداً لمعانى «الصدمة والترويع») أمام فوهات المدافع سريعة الطلقات لجنود المارينز مفتولى العضلات الذين اقتحموا دارها فى أيام الحرب الأولى (الصورة بثتها CNN.. ونقلتها عنها فى حينه جميع الفضائيات العربية).



«الصدمة والترويع» اختاره الأمريكان عنواناً للحرب الأكبر فى العقد الأول من القرن العشرين، ان لم يكن بحكم عدد دول «الائتلاف» الكارتونى، فبحكم عدد الضحايا[1] وبحكم مشاهدها التلفزيونية «الدرامية»:

١ ـ إسقاط تمثال صدام فى ساحة الفردوس بعد تغطية وجهه بالعلم الأمريكى (٩ أبريل ٢٠٠٣)

٢ ـ المشهد الهوليوودى لإخراج الرئيس «المهيب» من القبو بلحيته الكثة وشعره الأشعث. بعد وشاية متوقعة، وبمصادفة أن تعثرت قدم جندى الفرقة الرابعة بسجادة مهترئة فى أحد أركان المزرعة. (١٣ديسمبر ٢٠٠٣) ثم مشهده ـ متحدياً ـ أمام المحكمة: «أنا رئيس العراق.. فمن أنت».

٣ ـ مشهد «الهواتف المحمولة» لإعدام الرئيس، صبيحة عيد الأضحى (٣٠ ديسمبر ٢٠٠٦)

٤ ـ مشاهد سجن «أبو غريب» الذى كتب قصته كاملة صحافى التحقيقات الأمريكى الفذ سيمور هيرش (مايو ٢٠٠٤)[2]

٥ ـ مشاهد أنهار الدم فى الفلوجة المحاصرة تحت قصف الـ F16، وقناصة المارينز. كثيرون يومها لم يروا فرقاً حقيقياً بين وحشية إنهاء التمرد فى الفلوجة (٢٠٠٤) بقرار من رئيس الوزراء «علاوى» وبين وحشية إنهاء التمرد الشيعى فى الجنوب (١٩٩١) بقرار من رئيس الجمهورية «صدام»؟ يومها حكى مراسلُ الواشنطن بوست «الأمريكية» كيف كان جندى البحرية الأمريكية المختبئ فى مدرعته يصوب رشاشه إلى رأس أى عراقى «قذر» ـ حسب التعبير الذى نقله المراسل عن الجندى. تصادف مروره فى مرمى مدفعه. وكيف يصيح مبتهجاً لإصابته «الهدف» كأنه فى مباراة لصيد البط البرى.

والحاصل، فى نهاية المطاف «أن العالم لم يصبح أكثر أمناً» كما نبهنا الرئيس الفرنسى السابق جاك شيراك (نوفمبر ٢٠٠٤). كما لم يصبح العراق (الجديد) أفضل حالاً. ولم تعد المنطقة أكثر استقراراً. بعد أن أتى الأمريكيون إليها بالفوضى، وبعد أن شُحن شبابها بالغضب والحقد والكراهية. وبعد أن ضاعت فى صحراء الإحباط القاتلة المسافاتُ الفاصلة بين المقاومة والإرهاب، وبين العدل والظلم. وارتبكت فى عقول الكثيرين المعانى والمفاهيم. أبرياءٌ كثيرون سقطوا ضحية هذا الحقد وتلك الكراهية؛ لا فرق بين أولئك الذين قضوا فى كنيسة «سيدة النجاة» (أكتوبر ٢٠١٠) وبين الشيخ السبعينى (الأعزل) الذى كان يسند رأسه إلى حائط مسجد الفلوجة (٢٠٠٤) قبل أن يعاجله «رامبو»؛ جندى المارينز المدجج بترسانة كاملة من الأسلحة بطلقات من مدفعه الأتوماتيكى المتطور مزهواً بشجاعته وقوته الطاغية الرعناء. هل تذكرون المشهد الذى أذاعته «الجزيرة» يومها؟.

لم يصبح العالم أكثر أمناً.. وكذلك لم يصبح العراق. بعد أن استباحت حربُ الصدمة والترويع فائقةُ العنف والجبروت كلَ المحرمات. وبعد أن حرثت القنابلُ الذكية الأرضَ لكل بذور الفتنة والعنف. وبدا أن العراقَ؛ الذى هو مهيأ أصلاً بحكم تاريخه وجغرافيته وتركيبته للانفجار، اشتعلت فيه النيران. وصرنا وكأننا أمام كومة من القش تراكمت عبر سنوات من كبت القهر «الصدامى» وظلم الحصار «الأمريكى». ثم كان أن أشعل أحدُهم، متغطرساً بقوته متباهيا بسطوته المتفردة، عودَ الثقاب الأرعن فى كومة القش العائمة على بحر من النفط.. فكان ما كان.

ليس هذا فقط، بل كان ـ ولهذا أهميته بلا شك ـ أن اختلطت المفاهيم، وغامت الرؤى وفقدت اللغةُ معانيها التى استقرت عليها لقرون. فضاعت أو كادت المسافاتُ الفاصلةُ بين «التحرير» و«الاحتلال» .. و«المقاومة» و«الترويع» (يسمونه رغم أنف اللغة «إرهابا») بعد أن أصبحت اللفظة رغم أنف اللغة مرة أخرى الجريمةَ الأولى التى تبيحُ كل «الجرائم الاستباقية».

والخلاصة، أن الثمن على كل صعيدٍ كان فادحا. وأن المشهد العربى ـ على اختلاف تفاصيله ـ فى العقد الأول من القرن الجديد، لم يعد أبدا كما كان.

يومها، خرج جورج بوش، وبعد يوم واحد من اجتماعه بمبارك؛ زعيم الدولة العربية الأكبر، ليلتقى شارون، ثم لا يجد حرجا أن يعلن «بنبرته الواثقة» أن لإسرائيل الحق فى الاحتفاظ بأراضٍ فى الضفة الغربية، وأن لا عودة لحدود ١٩٦٧ وأن لا منطق لعودة الفلسطينيين إلى ديارهم «لأن أموراً كثيرة تغيرت على الأرض».



نعم، فلسطينيا أمورٌ كثيرة تغيرت على الأرض فى العقد الذى مضى. غاب «الختيار» (١١ نوفمبر ٢٠٠٤)، غيبه الموتُ أو السم. بعد أن حاصره الإسرائيليون لسنوات فى «المقاطعة». وغاب أحمد ياسين (مارس ٢٠٠٤) بصاروخ استهدف الرجل المقعد على كرسيه المتحرك (لم نسمع أحدا يتحدث يوما عن جريمة حرب، أو حتى عن «الاستخدام المفرط للقوة») ذلك التعبير الدبلوماسى اللزج، الذى استخدمه بعضهم فى وصف حملة «الرصاص المصبوب» على غزة (ديسمبر ٢٠٠٨ / يناير ٢٠٠٩) والتى بلغ عدد ضحاياها ١٢٨٥ و ٤٨٥٠ جريحا حسب التقارير الدولية.

نعم.. أمورٌ كثيرة تغيرت. حتى بدا أن المسافة «فلسطينيًا» على الأرض بين بداية القرن (٢٠٠١) ونهاية العقد الأول منه، طويلة جدا. دخل الفلسطينيون القرن الجديد وقد انهارت «كامب دافيد» الثانية (٢٠٠٠)، بعد أن رفض قائدهم التاريخى التوقيع على «إنهاء قضيتهم» للأبد. كانت سبعة أعوام كاملة قد مرت على «أوسلو» التى تقضى بنودها أن يجرى الاتفاق على الحل النهائى فى غضون خمسة أعوام. إلا أن ذلك لم يكن ممكنًا أبداً، فالفلسطينيون اعتقدوا ـ أو أرادوا أن يعتقدوا ـ بأنهم وُعدوا بدولة «حقيقية» فى أوسلو. فى حين بدا أن الإسرائيليين لم يكونوا على استعداد أبداً لأن يعتبروا أن ثمن السلام «الذى يحلمون بطمأنينته» هو عودة الأرض التى لم يتخلوا عن فكرة أنها باتت «جزءا من بيتهم». وكان أن أدى استمرار الإذلال اليومى للاحتلال، وعجرفة المستوطنين، وسياسة مصادرة الأراضى وتدمير المنازل، بالفلسطينيين إلى اليأس من تحقيق السلام الذى وعدت به أوسلو. ثم كان أن دخل شارون المسجد الأقصى مع حراسه، فكان أن دخل الفلسطينيون قرنهم الجديد بانتفاضتهم الثانية، التى نظر إليها الإسرائيليون على أنها بتدبير من عرفات نفسه.

فلسطينيا.. ماذا جرى بعد أن انتهى عقد كامل من القرن الجديد، وبعد سبعة عشر عاما كاملة على احتفال حديقة البيت الأبيض بالتوقيع على أوسلو؟ وبعد خمسة أعوام من الموعد الذى حدده جورج دبليو بوش للحل النهائى والدولة الفلسطينية؟

الإجابة: لاشىء. غير فرض حقائق الواقع الاحتلالية على الأرض، تهويد القدس، ومزيد من المستعمرات/ المستوطنات، وآلاف الأفدنة من الأراضى المصادرة، وأشجار الزيتون المحترقة، وجدار فصل عنصرى (رغم أنف محكمة العدل الدولية)، ومزيدٍ من طائرات الأباتشى الأمريكية، وبالطبع مزيد من مشاعر الإحباط والكراهية والدماء (هنا وهناك). ومزيدٍ من الدموع والهتافات وطوابير الجنازة.

هل هذا فقط؟

لا.. فهناك أيضاً المزيد من الأوراق والخرائط والخطط التى تحمل اسم السلام أو أسماء أصحابه، أو أسماء المدن التى اجتمعوا فيها: اتفاقات شرم الشيخ (أكتوبر ٢٠٠٠)، طابا (يناير ٢٠٠١)، توصيات ميتشيل (مارس ٢٠٠١)، المبادرة المصرية الأردنية (أبريل ٢٠٠١) وتفاهمات تينيت (يونيو ٢٠٠١)، ومبادرة السلام العربية (مارس ٢٠٠٢)،



فكريا، وإعلاميا، وسياسيا، لم ينجح المسلمون أن يتفادوا استقطاب ثنائية أريد لهم أن يكونوا أحد طرفيها فى قرن جديد



الخلاصة، أن الثمن على كل صعيد كان فادحا. وأن المشهد العربي ـ على اختلاف تفاصيله ـ فى العقد الأول من القرن الجديد، لم يعد أبدا كما كان



التى أعلنها أصحابها فى قمةٍ فشلوا فى دعوة عرفات ـ المحتجز فى المقاطعة ـ لحضورها، ثم خارطة الطريق (يونيو ٢٠٠٣)، ووثيقة جنيف (ديسمبر ٢٠٠٣)، ومؤتمر أنابوليس (نوفمبر ٢٠٠٧).. ثم قمة واشنطن / أوباما الأخيرة التى انهارت فى شرم الشيخ على صخرة الموقف الإسرائيلى القاطع بشأن المستوطنات.. وغير ذلك كثير. وبعد، لا شىء.. غير الدائرة المفرغة ذاتها.

خارج «الدائرة المفرغة»، لاشىء يبدو قد ميز العقد الأول من القرن الجديد، وسيكون له بصماته على قادم الأيام، غير حديث علا ـ بلا مواربة لما فيه من عنصرية ـ عن «دولة يهودية خالصة»، وحديث آخر، وإن ظل خافتا وأكاديميا، عن «حل الدولة الديموقراطية الواحدة»، وبين الحديثين سيكون على الأغلب صراع الأيام القادمة. كما فى ثنايا سطورهما، تكمن بالضرورة علامة الاستفهام الكبرى حول مستقبل «المشروع الصهيونى» ذاته.

بديل «الدولة الواحدة» كان قد طرحه فى بداية العقد المؤرخ البريطانى الراحل «تونى يوت»، فى مقال أثار جدلا غير مسبوق، نشره فى NewYork Review of Books (أكتوبر ٢٠٠٣) ونشرته «وجهات نظر» (ديسمبر ٢٠٠٣). ورغم أن الفكرة لا جديد فيها عن ماطرحه ياسرعرفات فى خطابه الشهير أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة (نوفمبر ١٩٧٤)، إلا أن السياق كان مختلفاً. بعد أن تأكد للجميع ـ ولو لم يعترفوا بعد ـ أن حصاد أوسلو بعد كل هذا الدوار فى دائرة مفرغة، لم يأت غير بمزيد من اليقين أن ماوعدت به لن يجد طريقه إلى أرض الواقع. ولذا فقد كان من البدهى أن يثير مقال الكاتب «اليهودى» كل ما أثاره من جدل، فتعقبه مقالات، وندوات، ودراسات وكتب. وقبل ذلك كله، هواجس تتزايد يوما بعد يوم بادية فيما نقرأه لكتاب ومفكرين إسرائيليين.



ها قد انتهى عقدٌ جديد.

ويبدو أن لا جديد هناك، فنحن هنا ـ فى غير موضع ـ نكرر ما قلناه سابقا.

ها قد انتهى عقدٌ جديد؟

ومازال العربُ يضربون رمالَهم.. ويسألون عرافيهم.. ويحدقون غربًا فى «النجوم الزرقاء»، عسى أن يجدوا عندها حظوظَهم، أو أن يتحسبوا للقادم فى أيامهم؛ وهو دومًا فى يقينهم وروعهم آتٍ «عبر الأطلسى » من هناك.

ها قد انتهى عقدٌ جديد.

تُهنا فيه فى «خرائط الطرق».. وانشغلنا «خوفا أو طمعا» بمبادرة الشرق الأوسط الكبير فعقدنا لها قمة (٢٠٠٤) هرب فيها حكام العربُ من الاستحقاقات الصعبة، ومن ضغوط المطالبة بالإصلاح إلى لغتهم الثرية. فتخندقوا مطمئنين خلف «إعلان ووثيقتين» لا تختلف واقعيا فى معظم اللفظ والمعنى. وكان مثيرا أن يعلن العرب «وثيقة الإصلاح» من تونس (٢٠٠٤)، التى لم ينته العقدُ إلا وكانت هى نفسها (تونس) قد ثارت مطالبة بإصلاح طال انتظاره، ولم تبد حتى بشائره فى أفق. «لا أستثنى أحداً..»، كما يقول شاعرنا مظفر النواب فى قصيدته الشهيرة.

ويذكر من يذكر، أن فى قمة تونس أيضا عجز العرب يومها. لأسباب مفهومة عديدة. عن تفعيل فضيحة أبوغريب قانونيا أو دوليا، فى حين نجحت آليات «الديموقراطية الغربية» من حرية للصحافة وضمان لتدفق المعلومات فى تفجير الفضيحة وتفعيلها بطريقة كان لها تأثيرها بلا شك على مجرى الأمور فى العراق. وكان ذلك لافتًا و«دالا».

ها قد انتهى عقدٌ جديد

وفى زمن نضبت فيه مصادرُ الفرح الحقيقية عدا تلك التى تزهرُها دماءُ المقاومة، صفقنا لوصول باراك أوباما إلى سدة الحكم فى واشنطن. معتبرين بتفاؤل ربما كان قد تجاوز «بجموح الأمل» حدَ المنطق وحقائقَ الواقع، أننا بصدد «أمريكا جديدة». متجاهلين أو غافلين بغواية الأمل عن حقيقة أن ماجرى فى صناديق الانتخاب لم يكن اقتراعًا على سياسة تحددها استراتيجية وأهداف، بقدر ماكان ضمن أمور داخلية أخرى تصويتًا على أساليب ووسائل. وفى التحليل النهائى تبقى حقيقة أن



«مايحدد أى سياسة هو هدف هذه السياسة وليس وسائلها..» وللإمبراطورية الأمريكية فى منطقتنا «أهدافٌ ثابتة ومستمرة.. وإن اختلفت الوسائل أو تغيرت..» كما يقول الأستاذ هيكل والذى لم يذهب يوما مع أولئك المتفائلين أو «المتعجلين» إلى اعتبار أننا أمام «بداية النهاية» للمشروع الامبراطورى الأمريكى. فالحرب أو «الصراع» وإن اختلفت وسائله مازال طريقه طويلا جدا بحكم الموارد وقيمتها، وبحكم التاريخ وتجربته.

هدفٌ ثابتٌ إذن وسياسات متغيرة.

الناظر من بعيد إلى مايجرى فى المنطقة من تفكيك اثنى وتأجيجٍ طائفى لابد أن يأتى إلى باله التعبيرُ «الاقتصادى» الأمريكى الذى شاع فى السنوات الأخيرة Outsourcing وهو يعنى ببساطة أن تلجأ الشركات الكبرى توفيرا للموارد وخفضا للتكاليف إلى استئجار مؤسسات أو شركات «محلية» لتتولى تنفيذ مهام وأنشطة معينة بديلا عن الشركات الكبرى. (تجاوز حجم الاستثمار الأمريكى فى هذا النوع من الاقتصاد ١٢١ مليارا من الدولارات حسب إحصاءات عام ٢٠٠٠)

هل انتقل الأسلوب «الاقتصادى» المستحدث إلى ساحة السياسة والاستراتيجيا؟ طرحنا هذا السؤال هنا قبل سنوات. والسؤال، وإن لم تكن إجابته مؤكدة، إلا أنه قد لا يبدو بعيدا بالضرورة عن المشهد الشرق أوسطى الذى اختلطت أوراقه و«هوياته» إن فى ساحة الشهداء وسط بيروت، أو فى ساحات المساجد فى بغداد، أو حتى فى منتديات الحوار/ الشجار اليومى على الإنترنت. ولعله من المفيد أن أعود هنا مرة أخرى إلى قراءة الأستاذ هيكل «للتاريخ المهنى» لروبرت جيتس؛ وزير الدفاع الأمريكى الجديد الذى خلف رامسفيلد فى منصبه (ديسمبر ٢٠٠٦)، والذى اعتبره البعض «يومها» انتصارا للحمائم على الصقور: عمل جيتس ٢٦ سنة فى عمليات المخابرات المركزية الأمريكية. وكان أحد مهندسى حرب الخليج الأولى عندما جرى «إغراء» العراق بتأييد عربى غير خاف على أحد بضرب الثورة الإسلامية فى إيران .. إلى آخر القصة المعروفة، والتى لم يكن الاجتياح العراقى للكويت إلا أحد فصولها. وكما لم يكن رجل «العمليات الاستخباراتية» الأمريكى الذاهب إلى وزارة الدفاع بعيداً بحكم موقعه وقتها عن محاولة جر مصر إلى نزاع مسلح حقيقى مع ليبيا (١٩٨٥)، كان جيتس أحد أعمدة عملية «إيران كونترا»، وهى تجسيد بامتياز لاستراتيجية Outsourcing عندما يعتمدها جهاز للاستخبارات مثل الـ CIA . وقتها نتذكر كيف استُخدمت أموال «عربية» فى شراء أسلحة «إسرائيلية» تجد طريقها فى النهاية إلى «إيران» عبر بوابة فى «أمريكا اللاتينية». وذلك كله أرجو الملاحظة دعما لإيران فى حربها ضد العراق (الذى لم يذهب إلى الحرب أصلا إلا بتأييد وربما تحريض أمريكى). هل تذكرون الصورة التى اشتهرت بعد الغزو الأمريكى للعراق لرونالد رامسفيلد لاغيره يصافح صدام حسين؟!

نحن إذن.. والاستنتاج كان يومها للأستاذ هيكل، أمام «عملية» توظيف آخرين، أو أضيفُ إذا أذن الأستاذ «استدراج» آخرين لتحقيق مطالب سياسة أمريكية. وهى «عملية» وإن كانت مستمرة، إلا أنها مع «جيتس»؛ صاحب الخبرة المهنية ربما أصبحت، فى النصف الثانى من العقد الذى انتهى أكثر تواجدا، أو للأسف أكثر كفاءة.

ها قد انتهى عقدٌ جديد

بلغة الأرقام والحقائق، يطرقُ بابنا عقدٌ آخر وخمسة آلاف من الفلسطينيين فى السجون الإسرائيلية(٣). وثلاثة ملايين عراقى لاجئون خارج وطنهم أو حتى داخله.(٤) واللبنانيون كما السودانيين يدخلون فى طريق لا أحد يعرف نهايته.

يطرقُ بابنا عقدٌ جديد.. والفلسطينيون الذين فى يناير ٢٠٠٦ مارسوا «الديموقراطية» التى طالبهم بها الغرب، مازالوا يعاقَبون «على ديموقراطيتهم»؛ دوليا بالتجويع وإسرائيليا بالإذلال والقتل، ورغم أن بوش لم يتوقف لسنوات عن التأكيد على أن ياسر عرفات هو العقبة الوحيدة أمام السلام، فحقائق الواقع تقول أن عرفات قد ذهب ولم يأت السلام.

ها قد انتهى عقدٌ جديد.

بتفاؤل تجاوز «بجموح الأمل» حد المنطق وحقائقَ الواقع، صفق العرب لوصول أوباما للسلطة. واحتفلوا مبكرا جدا بما اعتبروه «أمريكا الجديدة»

كيف اصطف العالم كله «حكوميًا على الأقل» فى حرب كبرى قامت على «كذبة كبرى»، وكيف صدق الجميع كولين باول وهو يؤكد أن فى العراق أسلحة دمار؟

وللأسف، كما قلنا هنا من قبل، فالبادى أن فى «مستنقع العراق الأمريكى» غرقت كلُ أحلام الديموقراطية فى هذه المنطقة المحصورة قدرا بين سندان الطاغية ومطرقة المحتل. ففى ظل هذا «النموذج» الدموى لم يعد هناك نظامٌ عربىٌ واحد يشعرُ بأنه يواجه ضغوطا تجبره على أن يقومَ بعملية «حقيقية» للإصلاح. فضغوطُ الخارج بدا أنها انشغلت بورطتها العراقية، وضغوطُ الداخل تكفلت بها القبضة الأمنية. والمتيبسون على مقاعدهم «استمرارا واستقرارا»، بدا لهم أن بإمكانهم «الآن» أن يكتفوا بمغازلة «أبانا الذى فى السماء» الجالس هناك على الضفة الأخرى من الأطلنطى، ليس بخطواتٍ «ديموقراطية حقيقية» وإنما بتقديمِ قرابين تحملُ لافتات براقة تخطفُ الأبصار من قبيل «تمكين المرأة» ومكافحة الإرهاب، ومعاداة إيران... فضلا عن القبول بإسرائيل، والعمل بشكل أو بآخر على حماية أمنها.

كثيرة هى إذن شجون العرب فى عقد مضى، منها ماهو قديمٌ، ورثناه من قرن فات، ومنها ماهو جديد «أو مستجد»، أتت به رياحُ قرن جديد، ونظامٌ عالمى جديد، لايمكن أن يغفل لاعبوه الكبار - بالضبط كما كان سابقوهم - هذه المنطقة فى قلب الجغرافيا. وربما أيضا فى عمق التاريخ. استغرقتنا - فى حديثنا هنا - هموم العراق «الجديدة»، وفلسطين «القديمة»، تاريخا وجغرافيا.. وحسابات، ودماء. ولكن يبقى فى الملف العربى، هموم وشجون وأزمات أخرى كثيرة؛ سودانٌ يصبح «سودانين»، ومصر «الرائدة» المستعصية على التغيير، وأزمة حكم، أو حكام هنا وهناك، يأبون الانتقال من أنماط للشرعية كانت مقبولة، وربما مطلوبة فى قرن مضى بتوازناته، وقضاياه، إلى شرعية «دستورية» حقيقية باتت هى الوحيدة السائغة فى قرن جديد.... ولهذا كله حديث آخر.

وبعد..

فقد تصادف أن صدرت هذه المطبوعة «وجهات نظر»، فى المسافة بين قرنين - إذا ما كانت هناك تلك المسافة - لتطلُ على ما فات - وهو قائمٌ.. أو أثرهُ - بحكم أنه جرى. وتستشرفُ ما هو آت - وهو قادمٌ.. أو توابعهُ - بحكم طبائع الأمور. وكلاهما مطلوبٌ لنفهم، وضرورىٌ «لنُقدرَ للقدم قبل الخطوِ موضعها».

وعليه فقد قررنا أن نخصص هذا العدد (ديسمبر ٢٠١٠) الذى يصدر فى نهاية عقد مضى، وكذلك العدد التالى (يناير ٢٠١١) الذى يصدر فى بداية عقد قادم، للنظر فيما جرى فى العقد الأول من القرن الأول بعد العشرين؛ شخصيات أثرت وتأثرت، وأحداث جرت وقائعها، وتراكمت فأنسانا بعضُها بعضَها. أردنا أولا أن نتذكر، ويتذكر معنا قارئنا كيف نظرنا إلى ماجرى (فى حينه)، ثم كان أن اتفقنا مع عدد من أهم المراكز الفكرية، لننشر لبعض كتاب الرأى من ثقافات واتجاهات مختلفة، كيف ينظرون من زاويتهم إلى ماجرى. ■

هوامش

(1) 601,027 violent deaths out of 654,965 excess deaths - March 2003 to June 2006 *(Lancet Survey)*
1,033,000 deaths as a result of the conflict - March 2003 to August 2007 *(Opinion Research Business survey)*

(٢) كانت «النيويوركر» قد نشرت لهيرش قبل ذلك بسنوات مقالا فى ٢٥ ألف كلمة احتل صفحات عدد بأكمله من المجلة الشهيرة، عرض فيه تفاصيل الوقائع التى حققها بنفسه للمذبحة التى ارتكبها الجنرال ماكافرى قائد الفرقة ٢٤ الأمريكية يوم ٢٠ مارس ١٩٩١ «بعد وقف إطلاق النار» فى حرب الخليج الأولى، والتى راح ضحيتها مئات من العراقيين، من بين الجرحى والأسرى المدنيين الذين كانوا على متن سيارات الإسعاف. وهو الاتهام الذى يعد بكل المقاييس جريمة حرب، (المقال نشرته «وجهات نظر» فى عدد يوليو ٢٠٠٠)

(٣) ٥٧٤٠ فى نهاية نوفمبر ٢٠١٠ حسب إحصاءات مؤسسة بتسليم الإسرائيلية لحقوق الانسان

(٤) ٣،٥٦٥،٣٧٥ (UNHCR) المفوضية السامية لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة.



Osama bin Laden- by Petar Pismestrovic ©

صــــراع.. صـــــدام.. حـــوار

أبجــــديات قـــــرن جـــديد

محـــاضـــــــرة فـــى أوكـــســـفـــورد



محمـــــد حســـــنين هيـــكل

عن الصحافة والسياسة والحضارة والتاريخ

ربما لم يتناول أحد القضية التي باتت عنوانا على بوابة قرننا الجديد؛ «الحضارات.. صراعًا كان أو حوارا»، مثلما تناولها محمد حسنين هيكل فى محاضرته تلك، مذكرا بما نسيناه من حقائق التاريخ بحكم سطوة الصورة، ومنبها إلى مافى أفكار شاعت من حاجة إلى إعادة نظر وتفكير.

المحاضرة ألقاها «الأستاذ» فى جمع من الأكاديميين، كانت بدعوة من اللورد كريس باتن، رئيس جامعة أكسفورد العريقة والسياسى البريطانى الشهير، وذلك بمناسبة افتتاح الجامعة لمعهد رويترز للدراسات الصحفية فى أكتوبر (٢٠٠٦).

المحاضرة حملت عنوان: «جسور وعقبات» وننشر هنا نصها كاملا:



■■ اللورد «باتن»
رئيس جامعة أوكسفورد
حضرات السيدات والسادة

● يسعدني ويشرفني أن تتفضلوا بدعوتي أول متحدث في المحاضرة التذكارية بكلية الصحافة التي أسس لها هذا التوافق بين جامعة «أوكسفورد ووكالة رويترز».

إن هذا التوافق بين جامعة عريقة (أوكسفورد) ووكالة أنباء شهيرة (رويترز) يصعب أن يكون لقاء مصادفات، إذا دققنا أسبابه وتمثلنا نتائجه.

ومن وجهة نظر عملية وعلمية كذلك فإن الصحافة على تنوع وسائلها وأدواتها لديها ثلاث طرق اقتراب واضحة إلى وظيفتها الحيوية في مجتمعات الحرية والتقدم.

● أول طرق الاقتراب: أن تكون الصحافة مكتوبة أو مسموعة أو مرئية خطوطا مفتوحة تنقل القرار السياسي على اختلاف مجالاته: داخلية وخارجية اقتصادية واجتماعية إستراتيجية وعسكرية من مواقع صُنعه إلى أوسع دوائر المواطنة التي يهمها شأنه، بحيث يتأكد الحق العام في العلم به، وتتوافر إمكانية التعرف على موجباته، والاستعداد لآثاره وتكاليفه، والاطمئنان إلى اتساقه مع الإرادة العامة في الوطن وخارجه، ولكي يظل تحت المتابعة الدستورية والقانونية، ويصبح الرأي العام قادرا على ممارسة مسئولية الرقابة عليه، والقدرة على إعادة توجيهه ديمقراطيا إذا لزم.

● وطريق الاقتراب الثاني: أن تكون وسائل الصحافة وأدواتها خطوطا مفتوحة أيضا ما بين مجالات الفكر والعلم والفن من مراكز حيويتها، سواء في الجامعات، أو المعاهد ومراكز البحث، أو مسارح العرض والأداء وأشكالها المتعددة في التعبير إلى جمهور واسع له الحق أن يرى ويستوعب ويستمتع.

● وطريق الاقتراب الثالث: أن تحاول نفس الوسائل والأدوات قصاراها كي تنقل وتستثير أنفع وأرفع حوار بين القرار السياسي وشئونه الجارية وقضاياه واهتماماته وبين الأفكار وقدرتها على تخصيب الفعل الإنساني وتوليده، لكي يجمع الحوار ما بين الفعل والفكر، ويؤكد القيمة ويحفز إرادة إنسانية ذكية وقوية وهنا فإن التوافق بين الجامعة العريقة ووكالة الأنباء الشهيرة يصبح مرغوبا فيه ومطلوبا.

إن طرق الاقتراب الثلاثة كما وصفتها لا تحقق مطلوبها بهذه البساطة التي وصفتها، فالواقع العملي أكثر تعقيدا، لأن مراكز صُنع القرار لا تمارس فعلها في المثالي المفترض، وإنما تمارسه تحت سطوة صراعات تاريخية كبرى ومصالح يتعارض بعضها مع بعض، والكثير منها غائر في زمانه، أو جامح في مقاصده، أو عنيف في ممارساته، وفي ظل هذه الأحوال فإن القرار السياسي تحكمه بالقطع عوامل غير مثالية!

● بالتوازي فإن مجالات صُنع الأفكار ومنجزات العلوم وتجليات الفنون لا تطرح ما لديها في ذات الفضاء المثالي المفترض، وإنما تتأثر هذه المجالات في مجمل نشاطها بضغوط يناسبها أن تضرب عليها تزيح، أو تحجب عليها تحتكر، وهنا تبرز عوائق تعرقل المثال الحر للقيمة والقدوة.

● يلي ذلك أن قنوات الاتصال التي تمثلها الصحافة لا تمارس دورها في نقل الأخبار والأفكار وصوت وصدى الحوار، على خطوط مستقيمة سالكة ومطهرة، وإنما تتعرض قنواتها المفتوحة على الطرق الطويلة لأنواع ودرجات من التدخل والتحيز تمليها الصراعات والضغوط والمصالح، وحتى الأهواء والأمزجة.

وجهات نظر: نوفمبر ٢٠٠٧

حضرات السيدات والسادة

إنني سعيد بهذه الفرصة التي أتحتموها لي كي أتحدث أمامكم في هذه المناسبة التي توافقت فيها جامعة عريقة مع وكالة أنباء شهيرة على لقاء يسهم في دعم كفاءة الإعلام من حيث إعداده وتأهيله لأداء دوره دون عوائق بين القرار والأفكار والحوار، وبحيث يتحمل هذا الإعلام مسئوليته في أزمنة متغيرة.

إننا نتحدث كثيرا عن عالم واحد لكن مثل هذا الحديث فيه قدر من المبالغة، أو ربما التمني، فقد نكون في حكم الجغرافيا عالما واحدا، لكننا في حكم التاريخ عالمان: شمال وجنوب، وليس يجدي أن نتأدب ونجامل في الحقيقة، وكذلك ليس يجدي أن نكتفي بالنظر إلى النخب المتعولمة في الجنوب، وننسى الكتل الهائلة من البشر وراءها بل وبعيدا عنها.

إن هناك عالمين: شمال وجنوب والفجوة بين الاثنين واسعة وخطرة، وهي تزداد اتساعا وخطرا إذ تلتبس الحقائق وتتداخل الهواجس بين المثالي المفترض وبين الواقع العملي المعقد عند صناع القرار والأفكار، وعندما تتلكأ قنوات النقل والتدفق الحر، وتتلوى مرات وتنسد مرات، وتصبح الفجوة هوة، والهوة هاوية، وتتحول الرسالة لغما في حرف أو قنبلة في رسم!

حضرات السيدات والسادة

إذا كانت دعوتكم مبعث سعادة وشرف لي، فهي في ذات اللحظة مسئولية تدعوني أن أتحدث معكم بصراحة وأمانة، أزعم أنها قد تكون مقبولة مني وربما مغفورة.

ذلك أنني رجل من عالم الجنوب يدرك هموم عالمه لأنه يعيش واقعها، وهو يتحدث إلى عالم الشمال ويحسب أنه يستطيع فهمه، بظن أن الظروف أتاحت له أن يعيش مهنة الصحافة في الجنوب وفي الشمال معا، فقد كتب في العالم العربي وعنه، ومارس في الجريدة والكتاب والتليفزيون هناك، ثم إن الظروف منحته فرصة أن يمارس هنا كذلك وانطلاقا من هذا البلد بالتحديد، حيث قامت صحف ودوريات بريطانية عديدة مثل «التيمس» و«الجارديان» و«الإندبندنت» و«الأبزرفر» بنشر مقالاته وأحاديثه، ثم إن مؤسسات نشر عريقة قامت بإصدار الطبعات الأصلية من كتبه، فظهرت كاملة في المكتبات لطالبيها، ثم نشرت على فصول مسلسلة حملتها صحف كبرى مثل «الصنداي تلجراف» و«الصنداي تيمس» إلى جانب مقالات وأحاديث وغيرها، وكل ذلك أخذ عمله إلى لغات كثيرة وصلت به واسعا وبعيدا!

حضرات السيدات والسادة

قلت إن انتمائي لعالم الجنوب يجعلني مدركا لهمومه ومشاكله، وقلت إنني زائر للشمال يظن أو يتوهم أنه يتفهم هذا العالم ومحركاته، وقلت إن المسافة بين العالمين واسعة وتزداد اتساعا، وأسمح لنفسي بالقول ومن هذه الحافة بين العالمين بأننا نحتاج الآن وبسرعة إلى جسور لعبور هذه المسافة، وإلا تصادمت الكتل ووقعت انفجارات مهولة تسقط مثل الكواكب التي يختل مدارها في ثقوب سوداء في مجاهل الفضاء! وبعض ذلك وارد، واحتمالاته تتزايد إن لم نبذل جهدا، وأول الجهد أن نتصارح، مهما كانت المصارحة مزعجة!

دعوني أبدأ وأقول بتعميم إجمالي إن عالمنا في الجنوب يشعر بأن القرار الصادر من مراكز القوة الدولية كما يصل إليه يصدمه بقسوة لا يبدو أنها تأبه وتهتم وبإصرار على العنف لا يبدو أنه يخشى أو يتحرج ثم إن صوت الحوار لا يدعوه إلى مشاركة، لأن القرار في معظم الأحيان ينقض عليه بغتة ودهما.

يشعر عالمنا في الجنوب كذلك أن دنيا الأفكار والعلوم والفنون كما تضيء أمامه من بعيد ليست مقبلة عليه أو مرحبة به كما يأمل ويتمنى.

ثم إن صوت الحوار يصل إلى الجنوب - إذا وصل - مثقلا بشوائب من التحيز بل والعدوانية!

وهنا وفي هذا السياق فإنني أستأذن أن أطرح أمامكم ثلاث ملاحظات، آمل أن توضع في اعتباركم، راجيا ألا يعتبر القول فيها نوعا من الشكوى أو عارضا من هواجس عقد نفسية لدى القائلين بها، وإذا بدا ظاهر هذه الملاحظات بعيدا عن الموضوع، فإنني آمل في صبركم لعله يتضح أنها قريبة منه إن لم تكن في صميمه.

أولى الملاحظات: أننا لسنا أمام صراع حضارات متعددة متعارضة يمكن أن تتصادم أو تتصالح، لأن شواهد التطور التاريخي تومئ إلينا بأنها حضارة إنسانية واحدة، صب فيها الجميع ما زاد عندهم أوقات الفيض، وسحب منها الجميع ما لزمهم أوقات الجفاف، وساعدوا - كلٌ في زمانه - على ملء خزان هائل للحضارة الإنسانية أصبح شراكة طبيعة ورصيدا جماعيا متاحا بالحق لمن يريد ويستطيع.



جـئت إلى هنا لداع رئيسي هو أن أطل على مشهد المحيط الحضاري الإنساني، قريبا من شاطئ المهنة التي تعنيكم وتعنينا



لسنا أمام صراع حضارات تتصادم أو تتصالح، بل هي حضارة واحدة، صب فيها الجميع ما زاد عندهم أوقات الفيض، وسحبوا منها ما لزمهم أوقات الجفاف



ومن المفيد هنا أن نتذكر أنه مع اتساع الأرض واتصال التاريخ فإن كافة الشعوب والأمم قدمت ما راكمته من ثقافات البيئة والمعرفة والتجربة وعن طريق الانتقال الحر للمنافع إضافات سخية ومستمرة وتلقائية إلى المشترك البشري الجامع.

ذلك أحدث حالة التأمل والفلسفة بحثا عن الحق والحقيقة حالة كشف العقل حين تعرف الناس في الفجر الإنساني الأول على ملكات التصور، وتوصلوا إلى سر الحرف في الأبجدية وسحر الرقم في العدد، حالة التنبه إلى معجزة الزراعة، حالة صناعة الأدوات والمعدات، حالة فنون المعمار، حالة فتح الطرق واستئناس وسائل المواصلات، حالة صنع السفن وركوب البحار، حالة النظر إلى الفلك ومسارات النجوم، إلى آخره.

في هذه الحالات وغيرها فإن الثقافات الطالعة في كل مكان شقت جداول وينابيع محلية، فاضت على جوارها عندما تبين هذا الجوار نفعها، ثم التقت هذه الجداول والينابيع لتكوِّن ما يمكن أن نسميه مجمع ثقافات أو أحواض حضارة بعضها يكاد يكون مرسوما محددا كخط بالقلم ومثاله الأظهر حوض البحر الأبيض ثم إن الأحواض الحضارية في كل إقليم من أقاليم الدنيا امتلأت وفاضت، وتمددت واتصلت بحيث بسطت محيطا واسعا لحضارة إنسانية قابلة للانتشار، قادرة على العطاء، عابرة للزمان والمكان.

وعلى امتداد عملية التفاعل بين الثقافات وهي تتدفق من مواقعها الأولية وأحواضها الأوسع إلى المحيط الكبير، وما بين الصب والسحب من الرصيد المشترك للحضارة الإنسانية فإن الحوض الحضاري للبحر الأبيض تحركت عليه تيارات تتبدى وكأنها خريطة مناخية حية موصولة بين معابد وقصور بابل ومنف إلى أروقة وأعمدة أثينا إلى مكتبة الإسكندرية، إلى دار الحكمة في بغداد إلى دمشق إلى قرطبة، ثم عبر صقلية نحو جنوب أوروبا إلى إيطاليا ثم إلى الشمال نحو ألمانيا وفرنسا وبريطانيا، ثم يتجه الخط عابرا للأطلسي إلى أمريكا ينفذ من الشاطئ إلى الشاطئ في اتجاه الباسيفيك، ليعود فيطل على شرق آسيا، فإذا الحيوية المتجددة لفيض البحر الأبيض عبر الأطلنطي تجتاز المحيط الهادي لكي تلتقي هناك بالحوض العميق للحضارة الصينية.

لقد تصادف هذا الصيف أنني وقفت أمام مكتبة الإسكندرية التي أعيد بناؤها، ثم كنت بعد أيام عند سفح «الأكروبول»، ثم صعدت سلم كنيسة القديس «بطرس» في الفاتيكان، ثم تجولت متأملا معالم النهضة ومقتنيات القصور في «فلورنسا»، ثم مشيت فوق جسور فينيسيا نحو ميدان القديس «مرقس»، وعند هذه المواقع ومشاهدها فقد ملأت خواطري عبارة كتبها الأستاذ Stefano Carboni أمين متحف «المتربوليتان» في نيويورك قال فيها: «إن حوض البحر الأبيض المتوسط حدود سائلة! Liquid Frontiers»، وذلك وصف دقيق لحركة الثقافات في صنع أحواض حضارية، ثم فيضان هذه الأحواض لتصنع محيطا حضاريا عالميا وإنسانيا واحدا، وربما أننا إذا عدنا لحظة إلى مجال السياسة نتذكر أن هذا المحيط الإنساني ينسب ولو من باب المجاز في كل عصر إلى القوة الغالبة فيه: فهو فرعوني في عصر، إغريقي في عصر ثان، روماني في عصر ثالث، مسيحي في عصر رابع، إسلامي في عصر خامس، أوروبي في عصر سادس، أمريكي هذه اللحظة العابرة!

ومع تعدد اللغات في حالة الثقافات، فإن الحضارة لها لغة رئيسية في كل آن، هي لغة القوة الغالبة في زمانها، فهذه اللغة الرئيسية نطقت يونانية لحظة، لاتينية لحظة أخرى، عربية بعد ذلك ثم فرنسية أو إنجليزية في هذا الزمان، وقد تصبح نبرة أخرى غدا أو بعد غد!

وعلى تقلب العصور فإن غلبة القوة لا يصح أن



علـى مشـهـد المحـيـط الحـضـارى..

قريبـــا من شـــــاطئ المهنـــة



كان أمل كثيرين لو تذكر خليفة بطرس الرسول أن السيد المسيح نفسه من مواليد الناصرة، والقديس بطرس الذي يقوم الفاتيكان على رفاته من أبناء القدس، كلاهما من الشرق



تُنسينا شراكة الرصيد الإنساني لمحيط الحضارة فوق أي إمبراطورية أو لغة!



أنتقل إلى ملاحظة ثانية ملخصها أنه قبل سنوات قليلة وقع استغلال فجيعة إنسانية محزنة ضربت مدينة نيويورك في الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، وبهذا الاستغلال تحولت الفجيعة إلى عملية تلاعب مقصود بالصور وبأسلوب خداع البصر، فإذا العالم يفاجأ بأن صورة المسلم عربيا وغير عربي قد أزيحت لتحل محلها صورة المتعصب الإرهابي، ثم تضافرت عناصر من عوالم القرار والأفكار والحوار تحت ضغوط المصالح المتصارعة بقصد ترسيخ هذا التلاعب بالصور وخداع البصر، إلى حد إعادة كتابة قصة الإرهاب في التاريخ، فإذا الشمال بريء منه، وإذا الشرق الأقصى بعيد عنه، وإذا الدين الإسلامي وحده مرادف للانتحار والقتل في المخيلة العامة الشائعة في الشمال.

نلاحظ أن رمزا دينيا له مقامه هو بابا الفاتيكان «بنديكتوس السادس عشر» وقف يتحدث عن الإسلام وعن الحضارة في جامعة ألمانية، فإذا هو يلحق «التمدن» بالشمال، و«الهمجية» بالجنوب الإسلامي، ويقرر - ولو بالتلميح - أن الفارق بين العالمين: «أن الغرب أخذ من المسيحية ثم من الفلسفة اليونانية ما يميزه عن غيره في إعلاء قيمة الإنسان»، وكان أمل كثيرين ورجاؤهم لو تذكر خليفة «بطرس الرسول» أن المسيحية كلها غيث نزل على الشرق وفاض على الغرب رسالة وحكمة، حواريين وقديسين، قصصا وتعاليم، صلوات وترانيم، كما أن السيد «المسيح» نفسه من مواليد «الناصرة»، والقديس «بطرس» الذي يقوم الفاتيكان على رفاته من أبناء القدس، كلاهما من الشرق، وأن القديس «مرقس» الذي تقوم كنيسته بمعمارها المتميز على أجمل ميادين أوروبا «سان ماركو»، مولود في أقاصي صعيد مصر، وكان مدفنه في الإسكندرية، ومنها أخذ رفاته (ولا أقول سُرق) في القرن التاسع إلى «فينيسيا» وذلك رغم أن كبار فناني النهضة جنحوا إلى تصوير هؤلاء الرسل والقديسين والحواريين معظم الوقت أصحاب بشرة بيضاء وعيون زرقاء وشعر ذهبي.

هذا عن التأثر بالمسيحية في شأن تمدن الشمال أو تمدن الغرب.

وأما عن نفحة الفلسفة الإغريقية، فليس هناك من لا يعرف أن الفلسفة الإغريقية لها مقدمات سبقتها وجوار مشرقي أحاط بها وانساب إليها، ثم إن الفلسفة الإغريقية ضاعت من أوروبا في ظلام القرون الوسطى، بينما كان الجنوب الإسلامي في حالة انتعاش وتدفق ثقافي، وضمن تفاعلات هذا الانتعاش والتدفق فإن الفلسفة الإغريقية عادت إلى أوروبا عن طريق فلاسفة الأندلس العرب، وعلى رأسهم الفيلسوف المسلم الأشهر «محمد بن أحمد بن رشد الأندلسي»، ولم يكن «ابن رشد» وغيره من فلاسفة الإسلام مجرد وسطاء أو ناقلين، وإنما كانوا مجددين زادوا بالدرس، وتوسعوا وأحاطوا.

هي إذن حدود سائلة على حد وصف أستاذ متحف «المتربوليتان» الحكيم.



حضرات السيدات والسادة

بقيت ملاحظة ثالثة أتمنى أن ألمسها في رفق.

إنني توسعت كثيرا في حديث التاريخ، بينما حديثنا عن الصحافة، وظني أن هناك صلة من نوع ما بين الاثنين، معقدها أن الشرق المسلم ومعه مسيحيوه يدفع الضرائب مرتين:

الأولى لأن حركة التقدم العالمي بسبب ثورة العلوم والتكنولوجيا لم تعطه حتى الآن فرصة لالتقاط الأنفاس، يمسك لحظتها بالعصر ويواصل معه وفي حين أن الشرق البوذي نجح أحيانا في الإمساك باللحظة، فإن الشرق الإسلامي ومعه مسيحيوه تعذر عليهم اللحاق لأسباب معقدة ليس هذا مجالها.

والثانية - وهي التي تعنيني لاتصالها بموضوع الإعلام، وملخصها أن الشرق المسلم يعاني من أن الأقلام والأضواء والعدسات كلها توجهت وتركزت عليه، بينما هو يعاني المرحلة الأصعب في الانتقال من قديم إلى جديد، ومن تأخر إلى سبق، ومن عتمة إلى نور.

وبالطبع فإنكم تتذكرون أن ولادة الجديد عندكم جرت وراء ستار، وأما في عالمنا فإنها جارية في منتصف النهار، وكذلك كان الجديد عندنا حملا ومخاضا وميلادا عاريا تحت الوهج وعلى مرأى ومسمع من عالم يتابع ما يجري متجاهلا لحقيقة أن الحمل والمخاض وولادة الجديد حتى وإن كانت مؤلمة عندكم كما هي عندنا، فإن الفارق أنها جرت عندكم مكتومة لتظهر بعدها في كتب التاريخ بأثر رجعي، لكنها عندنا جرت على الهواء مباشرة فبدت وكأنها فضائح بالصورة والصوت واللون.

حضرات السيدات والسادة

لقد كنتم محظوظين في اجتياز الجسور من التخلف إلى التقدم ولم يكن لدينا مع الأسف هذا الحظ أو بعضه.

ويسأل بعض زملائنا هنا في الشمال: وماذا نفعل؟ - أوليست تلك طبيعة عصر السرعة؟ والتساؤل صحيح والرد عليه بأمانة: أن الإعلام في الغرب ليس مطالبا بالتأكيد وهو يغطي الشأن الجاري في الجنوب أن يستعيد السجلات كل مرة لكن المرادف المعنوي لتعذر الاستعادة هو استذكار درجة من ثقافة الإدراك والتعاطف والموضوعية.

دعوني أقول أنه ليس من باب التعسف أن نسأل لو أن الصحافة الحديثة وضمنها وكالات أنباء مثل «رويترز» أو مؤسسات مثل A.B.C، وC.B.S، وN.B.C، والجزيرة، وSKY، وFOX، وC.N.N، كانت حاضرة زمن حروب الأباطرة والملوك والكرادلة والعلماء والمذاهب والطوائف والقوميات والطبقات والإمبراطوريات والتحديات الإمبراطورية لها في أوروبا؟!

ماذا على سبيل المثال لو كانت هذه الصحافة الحديثة حاضرة أيام مذبحة سان بارتوليميو مثلا حين جرى ذبح مئات الألوف من الهوجونوت الفرنسيين على أيدي مواطنيهم من الكاثوليك، بتحريض كرادلة ونبلاء؟!

وماذا لو كانت هذه الصحافة الحديثة حاضرة في ميدان الكونكورد حيث كانت مقصلة الثورة الفرنسية تدور وتقطع رؤوس الملوك والأمراء والسياسيين والمفكرين كل يوم من الصباح إلى منتصف الليل؟! أو لو عبرت البحر إلى برج لندن تنقل ما يجري وراء أسواره للإخوة من النبلاء والمحظيات وأولياء العهود من مآسي وأهوال؟!

وماذا لو كان هناك بث على الهواء مباشرة لوقائع الحرب الأهلية الأمريكية، حين قتل فيها الأخ أخاه، وانتهك عرضه، وحرق زرعه واستباح مدنه وقراه في أطول مجزرة عاشتها أمريكا، وأغزر شلال دم تدفق في العالم الجديد!

وماذا لو كان نفس البث المباشر حاضرا ينقل على الهواء مباشرة مشاهد بعض أو أشد الأعمال ظلما في تاريخ الإنسانية؟! تلك التي كان الشمال لسوء الحظ فاعلها، من ظاهرة الاستعمار إلى ظاهرة العبودية وإلى ظواهر أخرى متوالية في قلب القرن العشرين، وضمنها الستالينية والفاشية والنازية، ومعاداة السامية، ومحارق الهولوكوست التي طالت اليهود وغيرهم من الأجناس والأعراق.

وماذا لو أن هذه الوسائل كانت حاضرة وعلى الهواء مباشرة تنقل الحرب الأهلية في أسبانيا، وتنقل فظائع «جويرنيكا» و«فالينسيا» و«توليدو»، بدل أن تعتمد في وصفها على لمحات من كتابات فنانين وساسة من وزن «بابلو بيكاسو» و«أرنست همنجواي» و«أندريه مالرو» و«هيو توماس»؟!

تذكرون أن وسائل الإعلام الحديث لم تلحق إلا قرب النهاية بأهوال الحرب العالمية الأولى، وإلى حد محدود بالحرب العالمية الثانية، ونعرف بالطبع أن هاتين الحربين العالميتين كانتا صراعا بين قوى



ماذا لو كان البث المباشر حاضرا ينقل على الهواء مشاهد بعض أو أشد الأعمال ظلما في تاريخ الإنسانية؟!
والتـي كـان الشـمـال لسـوء الحـظ فـاعـلـهـا



الشمال ذاتها، لكن الأطراف المتحاربة نقلت ميادين القتل إلى كافة القارات وفرضتها على كل الأمم والشعوب، وكانت الحصيلة الإنسانية ما بين ستين وسبعين مليونا من القتلى، وما بين مائة وخمسين إلى مائة وسبعين مليونا من الجرحى في الحربين معا، وعندما جاء المشهد الأخير في الحرب العالمية الثانية ووقع استعمال السلاح النووي، فإنه لم يكن هناك نقل مباشر على الهواء، وعلى أية حال فقد اكتفينا جميعا بسماع أصداء المأساة قائلين في نَفَس واحد شمالا وجنوبا: لن يتكرر ذلك مرة أخرى، ومع ذلك وبرغم هذا التعهد الإنساني الجامع فإنه عندما نشبت المعارك في أفغانستان والعراق، لم تتورع القوات الأمريكية عن استعمال أنواع من أسلحة «اليورانيوم» المستنفد، وتلك درجة من الاستهتار بالوعد وبالإنسان يصعب اغتفارها.

حضرات السيدات والسادة

تلاحظون أنني أطلت الحديث فيما جرى عندكم وكنت في ذلك عامدا حتى تبين الصورة أمامكم، ومع ذلك إلحاح أعتذر عن طوله ولا أعتذر عن مقصده فمن الإنصاف أن نتمثل وجها آخر للحقيقة، وهذا هو الحال دائما، فإلى جانب ما عرضت لطرف منه وكان يمكن أن أمضي في قوائمه إلى ما لا نهاية فإن هناك فضلا يصعب إنكاره مبدئيا على صحافة الشمال، أوله ودون تحفظ، فإن بعض قضايانا توجهت إليها لمحات مضيئة لضمائر يقظى قاومت ضغوطا وتهديدات نعرف مدى خطرها ونقدر درجة نفاذها إلى دوائر صنع القرار والأفكار والحوار.

وعلى سبيل المثال فإنه رغم سطوة أصدقاء إسرائيل فإن بعضا من الحقيقة ظهر وبان عن قضية الشعب الفلسطيني الذي اقتلع من أرضه وأزيح إلى معسكرات وجيتوات مقهورة يائسة ثم إنه برغم سلطان ما سُمي بجماعة المحافظين الجُدد ومعهم مجموعة المستشرقين الجدد فإن حقيقة ما جرى في العراق تكشفت ابتداءً من غزو وطن عربي وتمزيقه بغرور وجهالة القوة وبذرائع مختلقة كما أننا عرفنا أن الشعب العراقي فَقَدَ نصف مليون مواطن قتلوا، وثلاثة ملايين خرجوا لاجئين من وطنهم، بعضهم داخله في العراق، وأكثرهم في المنافي خارجه، ثم إننا بفضل تلك الضمائر اليقظى في الشمال عرفنا ما جرى في معاقل القهر من «جوانتانامو» إلى «أبو غريب» إلى الفالوجة إلى البصرة إلى الموصل.

إن تلك الضمائر الحية في صحافة الشمال هي التي كشفت كثيرين من هؤلاء الذين قدموا خططا سياسية والذين قدموا فتاوى علمية في خدمة مشروع أخذه ما يعتري الإمبراطورية من حماقة القوة، وتجاهل ما تراكمه الإمبراطورية من حكمة الخبرة، ليثبت أن مشروعه هو الأقصر عمرا في تاريخ الإمبراطوريات، لأنه الأقصر نظرا بينها!

إننا وأهم من ذلك كله في تجربة الصب والسحب من الرصيد الإنساني المشترك في المحيط العالمي الأوسع أخذنا هذا العلم البديع الذي قام هذا المعهد ليخدم أهدافه وهو: الصحافة مكتوبة، مسموعة، مرئية، ولا أتجاوز إذا قلت أنه أدى دورا هائلا في حياة عالمنا.

إنكم بالطبع سبقتم وطورتم، مستعينين باختراقات التكنولوجيا، حتى أصبح الإعلام العابر لمسافات الكون أبرز ظواهر العصر وأقوى محركاته.

حضرات السيدات والسادة

على أن طبائع مراحل التطور كما تفتح باستمرار تقيد أحيانا فتضع حدودا لما يمكن أن يأخذه الناس عن غيرهم، بل يتحتم عليهم أن يصنعوه في تجربتهم بآلامهم، لأن هناك مجالات يستحيل فيها اختصار المعاناة بالنقل أو بالمحاكاة، تجنبا لإعادة اختراع العجلة من جديد.

وأول هذه المجالات هو مجال الحرية ليس بمعناها الشاعري وإنما باعتبارها توجها إلى نظم دستورية وقانونية مضمونة بعقد اجتماعي وسياسي يفرض احترام الحقوق وبحيث يستطيع أي مواطن حر أن يمارس مسئولية المواطنة.

إن تجارب الحرية يصعب نقلها ويصعب انتشارها، وتعميمها بالحركة الطبيعية الذاتية لعملية التطور بل يتحتم صناعتها من البداية إلى مقصودها، أو صيانة هذا المقصود والدفاع عنه، لأن العصور لا تتماثل والأحوال لكلٍ أحكامها.

فعبر القرن العشرين بالذات تحددت القواعد والأصول عندكم، وأصبح ممكنا إرساء أصول وترسيخ بناء، وذلك لم يحدث بعد عندنا في الجنوب، حيث مازالت الحدود مضطربة، ومازالت القواعد واهية، لأن الصراع من أجل التنوير والحرية والتقدم يتخبط محتدما وتحت ظروف عصية.

● بينها أن هذه المعركة في الجنوب تختزل في لحظة زمنية راهنة معارك واجهت الشمال متتالية، فهناك تعاقبت وتوالت عصور التغيير: الحرية والتنوير، الصناعة والتجارة، العدل الاجتماعي، المواصلات والاتصالات، الإنترنت وعالم النشر الإلكتروني، لكنه عندنا تزاحم ذلك كله مع تباين الخلفيات والرؤى والضرورات.

● وبينها أن تداخل العصور أحدث ضغوطا ومؤثرات حادة، قومية ودينية وطائفية ومذهبية، أدت إلى خلط بين الأولويات، وإلى شطط في الوسائل قاد أحيانا إلى مجاهل تاهت بعيدا بالمقاصد.

● وبينها أن المناخ الذي يحيط بعملية ولادة تجري على الهواء مباشرة، على قارعة الطريق وفي منتصف النهار يصيب كافة الأطراف بكل الأعراض التي تصاحب الانكشاف، ومنها الاضطراب والادعاء والإخفاء والتعمية.

● وبينها أن نظم الحكم القائمة عجزت أن تؤسس لنفسها شرعية دستورية أو قانونية، ولم تعد سلطتها اختيارا وتفويضا وإنما إملاءً وقمعا، تعطلت إزاءه دواعي الرشد السياسي والاجتماعي وإدارة الأزمات، وذلك ساعد على الإساءة لمشهد التطور عندنا وإساءة إلى صورته.

● ومع أنني أتردد كثيرا قبل أن أضيف أي مسئولية إلى حساب غير المعنيين في الأصل بها، فلابد من القول ودون حرج أن العنصر الخارجي يلعب دورا شديد السلبية في منطقتنا من الجنوب، بالتحديد الشرق الأوسط.

فهناك في قلب هذه المنطقة ثلاثة دواعٍ للخطر أشير إليها باقتضاب لكي أتجنب تكرارا شائعا ومملا رغم صحته، وهي بالترتيب: الموقع الإستراتيجي، وأهمية البترول حتى يظهر بديل له، وإسرائيل.

● وهنا فمن الحق أن أضيف أن التفاعل بين عوار الشرعية الذي أصاب الدولة العربية الراهنة مع ضغوط التطور في الداخل على النظم مع دواعي الخطر من العناصر الخارجية، كل ذلك أدى إلى فجوات واسعة سمحت بالتدخل الدولي في الشأن الداخلي للمنطقة، على أنه لسوء الحظ أن بعض النفاذ الخارجي إلى المنطقة لم يكن دائما ضيفا ثقيلا دعا نفسه، وإنما وصل مدعوا مرغوبا فيه لمناورات السياسة الداخلية وتوازناتها المتصورة أو المتوهمة!

حضرات السيدات والسادة

إذا كنت قد وجهت بعض الملاحظات وفي لهجتها نبرة حدة، فإنني لم آتِ إلى هنا مكابرا ولا معايرا.

وإذا كنت في نفس الملاحظات قد اعترفت بالتقدير لضمائر حية أدت أمانتها عندكم، فإنني لم آتِ إلى هنا مادحا أو مهنئا.

وإذا كنت أخيرا قد لمست جانبا من الأوضاع الراهنة في أحوالنا، فإنني لم آتِ إلى هنا شاكيا أو محرضا.

لقد جئت إلى هنا لداعٍ رئيسي هو أن أطل على مشهد المحيط الحضاري الإنساني، قريبا من شاطئ المهنة التي تعنيكم وتعنينا وجئت ووارئي مؤسسة تحمل بمحض المصادفات اسمي، شاغلها خدمة الكفاءة المهنية لشباب الصحفيين العرب.

وقصارى ما أريده وذلك قصدي وهدفي، لا يخرج عن المشاركة معكم في بناء جسر على موقع من مواقع الحضارة الإنسانية الواحدة التي صبت فيه كل الأمم ما تجمع لديها من نتاج ثقافاتها مما يكون صالحا للجميع، وحقا للجميع، لأنه ملك الجميع.

وشكرا لكم. ■

عن الإسلام.. والأصولية..

محمد السطوحى

■■ منذ أكثر من عشرين عاما، كان نائب وزير الدفاع الحالى بول ولفويتس يتحدث كمن يقرأ المستقبل، فقال: «إن فوكوياما الصغير (٣٥ عاما فى ذلك الوقت) سيكون أول وزير خارجية أمريكى من أصل يابانى».

وإلى الآن لم تتحقق نبوءة ولفويتس، وربما تثبت السنوات القادمة ذلك إن كانت صحيحة. غير أن الدلالة الأهم لهذه العبارة، هى ما تكشف عنه من جوانب أساسية فى شخصية فرانسيس فوكوياما. فهو ليس مجرد منظّر، يمضى وقته فى القراءة والكتابة، ثم يذهب لممارسة لعبة الجولف. لقد استهل حياته العملية بعد حصوله على درجة الدكتوراه فى العلوم السياسية من جامعة هارفارد، بالعمل فى وزارة الخارجية الأمريكية كنائب لمدير إدارة التخطيط السياسى، وشارك أثناء هذه الفترة فى بداية الثمانينيات ضمن الوفد الأمريكى فى المحادثات المصرية الإسرائيلية، إلى أن توقفت بعد الغزو الإسرائيلى للبنان. ورغم أن فوكوياما ركز بعد ذلك على الكتابة، والعمل الأكاديمى، إلا أن تأثيره وصلاته لم تنقطع يوما عن العمل السياسى ومؤسساته فى الكونجرس أو وزارة الخارجية، أو البيت الأبيض الذى عين فيه مؤخرا ضمن مجلس استشارى للرئيس بوش لاقتراح السياسات الخاصة بقضايا الهندسة الوراثية.

صحيح أن فوكوياما لم يصبح بعد وزيرا للخارجية كما تنبأ ولفويتس، إلا أن البعض يعتقد أن دوره فى تشكيل السياسات الخارجية الأمريكية، بل والغربية بشكل عام، ربما يفوق فى تأثيره بعض من تولوا هذا المنصب بالفعل. فقد شارك فى صياغة نوع من التأصيل الفكرى، أو الإطار النظرى لتلك السياسات، فى وقت كان فيه المسئولون الأمريكيون يبحثون عن إطار نظرى جديد يحكم عمل مؤسساتهم وتوجهاتها، بعد أن تهاوت المنظومات الفكرية القديمة بانتهاء الحرب الباردة.

واعتبر كتاب فوكوياما «نهاية التاريخ، والإنسان الأخير» مع كتاب صامويل هنتينجتون الشهير«صراع الحضارات» أهم ماظهر من مؤلفات خلال العقد الأخير من القرن العشرين لتقديم هذا الإطار الفكرى المفقود، وإن كانا من منظورين مختلفين، بل و متناقضين. غير أن النظرة الأكثر تفاؤلا فى كتاب فوكوياما واتفاقها مع الروح التى سادت تلك الفترة مع نهاية الحرب الباردة، جعلته الأكثر تأثيرا، حتى إن خبيرا استراتيجيا مثل توم بلو وصف «نهاية التاريخ» بأنه أهم ما كتب خلال العقد الماضى على الإطلاق.

وقد تعرض الكتاب منذ صدوره لانتقادات عديدة، إلا أن فوكوياما ومؤيديه أصروا على أن التطور البشرى بلغ قمته بالليبرالية الديمقراطية، بمفهومها العلمانى كما هو مطبق فى الغرب، وبما يعنيه من تعددية، وحريات مدنية ودينية، واقتصاد السوق الحرة.

ثم جاءت أحداث سبتمبر وما أعقبها من حرب. لا تزال مستمرة. ضد الإرهاب، بكل ما تحمله من مخاطر واحتمالات. وقد اعتبر البعض تلك الأحداث نهاية لـ «نهاية التاريخ»، لتبرز بشكل أكبر النظرية المقابلة لهنتينجتون المعروفة بصراع الحضارات.

وقد تمسك فوكوياما بنظريته حتى الآن، باعتبار أن الليبرالية الديمقراطية لا تزال هى المحرك الرئيسى للسياسات العالمية. وحقيقة أن فوكوياما لم يتجاهل تماما ذلك «التحدى الإسلامى» فى كتابه «نهاية التاريخ» إلا أنه لم يجد فيه مايهدد الليبرالية الديمقراطية، لاعتقاده بانحسار جاذبية المنظور الإسلامى فى بعض الدول الإسلامية، كما أنه لم ير مايمنع المواءمة بين الإسلام كدين، وبين مفاهيم الليبرالية الديمقراطية.

إلا أنه نشر أوائل ٢٠٠٢ مقالا مهماً فى مجلة «نيوزويك» ركز فيه على ما وصفه بالإسلام الراديكالى أو المسلح، أو الفاشية الإسلامية، باعتبارها تهديداً خطيراً تنبغى مواجهته وهزيمته.



وعندما يصدر هذا الكلام الخطير عن مفكر فى ثقل وتأثير فوكوياما، فلابد من الوقوف عنده، ومناقشته، خاصة أننا بدأنا بالفعل نرى انعكاسات له فى منظور وسياسات إدارة بوش، وهى تتجه لتوسيع الحرب ضد الإرهاب فيما بعد أفغانستان.

لذلك اتصلت بفرانسيس فوكوياما، أو فرانك كما نناديه منذ بدأت معرفتى به عندما كان أستاذا لى بجامعة جورج ماسون فى منتصف التسعينيات. وقد رحب على الفور بهذا اللقاء الذى تمنينا فيه معاً أن يكون بداية لحوار حقيقى وجاد عبر المحيط. فالفكرة الآن لاتقل تأثيرا عن السلاح، وتجاهلها أصبح ترفا لا نقدر عليه. فمن الضرورى الآن أن نشارك فى حوار فعال، وناضج، بعيدا عن التشنج و الانفعالات، لايعمينا فيه اعتزازنا بأنفسنا، ورغبتنا فى (إفحام) الآخرين، عن رؤية نقائصنا وعيوبنا والتعامل معها بصراحة وموضوعية.

بقى أن أشير إلى أن مقال فوكوياما الأخير بمجلة نيوزويك بعنوان «هدفهم العالم المعاصر» قد صحبته صورة لأطفال فلسطينيين وهم يلقون الحجارة، بما فى ذلك من دلالات ذات مغزى، ولا تتفق مع مضمون المقال ذاته. ورغم معرفتى بأن نشر الصورة هو قرار محرر المجلة فى المقام الأول، إلا أننى سألت فوكوياما فى البداية عن رأيه فى اختيار الصورة، وقد وافقنى الرأى فى أنها لم تكن موفقة ولا تعبر عن مضمون المقال، مشيرا إلى أن الصراع الفلسطينى الإسرائيلى يمثل قضية مختلفة.

وبعد هذا التوضيح الواجب، انتقلنا مباشرة إلى صلب الموضوع: الإسلام، والغرب، والحداثة حيث بدأ المفكر الأمريكى بتوضيح رأيه فى القضية بشكل عام:

.فوكوياما: أنا أرى أن التوفيق ممكن بين الإسلام كدين، وبين الحداثة. فالإسلام يمثل ديناً ونظاماً ثقافياً معقداً للغاية، وقد أثبت قدرته على التوافق مع الحداثة فى عدد كبير من المجتمعات،ولدى كثير من الأفراد، ولا أرى هناك سببا يمنع وجود شكل «حديث» للإسلام. غير أن «نوع الإسلام» الذى يروج له الوهابيون فى السعودية، وأسامة بن لادن وحركة طالبان، لا يمكن أن يتفق مع الحداثة، وأنا أعتقد أن القضية الأساسية هى إمكانية وجود دولة علمانية، ولكن يجب أن نفهم أن العلمانية ليست فكراً موروثًا فى الحضارة الغربية، فمنذ خمسة قرون لم تكن هناك علمانية فى أى مجتمع

وجهات نظر: مارس ٢٠٠٢



أنا أرى أن التوفيق ممكن بين الإسلام كدين، وبين الحداثة. فالإسلام يمثل دينا ونظاما ثقافيا معقدا للغاية، وقد أثبت قدرته على التوافق مع الحداثة فى عدد كبير من المجتمعات



مسيحى غربى، كان هناك أمراء وأديان للدولة. لكن المجتمعات الغربية تعلمت المبادئ العلمانية فى إطار عملية التنوير نتيجة الحروب الدينية التى اشتعلت فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر، والتى تقرر بناء عليها فصل الدين عن مجال السياسة، وفى اعتقادى أن هذا الأمر. ليس فقط ممكنا . لكنه أيضا ضرورى ومطلوب فى إطار التقاليد الإسلامية. فالإسلام السياسى أوالمسيس يؤدى إلى الصراع المستمر، كما أن العلمانية يمكن توفيقها مع الإسلام، وهى أيضا ضرورية لتحديث المجتمعات الإسلامية، كما حدث فى تركيا،ومصر وبعض الدول التى قبلت هذا المبدأ الأساسى للحداثة.

● لكن كما تعرف فإن التجارب التاريخية للإسلام والشعوب الإسلامية تختلف جوهريا عن تجارب الشعوب الغربية المسيحية فى تحولها إلى العلمانية، وبالنسبة لكثير من المسلمين فإن الإسلام كدين لا يقف عند حدود العبادات أو المبادئ الأخلاقية، بل يتجاوزها إلى تحديد مفاهيم عامة لنظام الدولة، وأسلوب إدارة شئون الحكم. وهذا فى ذاته يجعل من الصعب تحقيق هذا الفصل بالأسلوب الذى تم به فى المجتمعات العلمانية الغربية.

. أعتقد أن هناك فارقا بين العلمانية، وبين معاداة (الإكليركية) كتعبير عن الدين، فالدين يمثل مكونا أساسيا للمجتمع، ولابد أن يكون له دور فى تشكيل السياسة وفى تحديد أسلوب حياة الناس داخل المجتمع .لكن المشكلة التى تواجهها كل المجتمعات الحديثة، هى التنوع الكبير بداخلها، وحتى فى العالم الإسلامى هناك فروق بين السنة والشيعة، وبعض الطوائف الإسلامية الأخرى، ولابد أن تكون هناك طريقة للتعامل مع هذا التنوع. ولاشك أن هناك أشكالا ووسائل سياسية تتواءم مع ما يفرضه الإسلام كدين. ولكن يبقى هناك مبدأ أساسى يتطلب فصلا معينا بين السياسة والدين، حتى فى المجتمعات الإسلامية، وأنا لا أستطيع أن أحدد لك نوعية المؤسسات، أو أن أرسم الخطوط الفاصلة بين الإسلام والسياسة، فهذا أمر متروك لكل مجتمع يقرره لنفسه، لكن هذا الأمر يمثل قضية أساسية لنا جميعا.

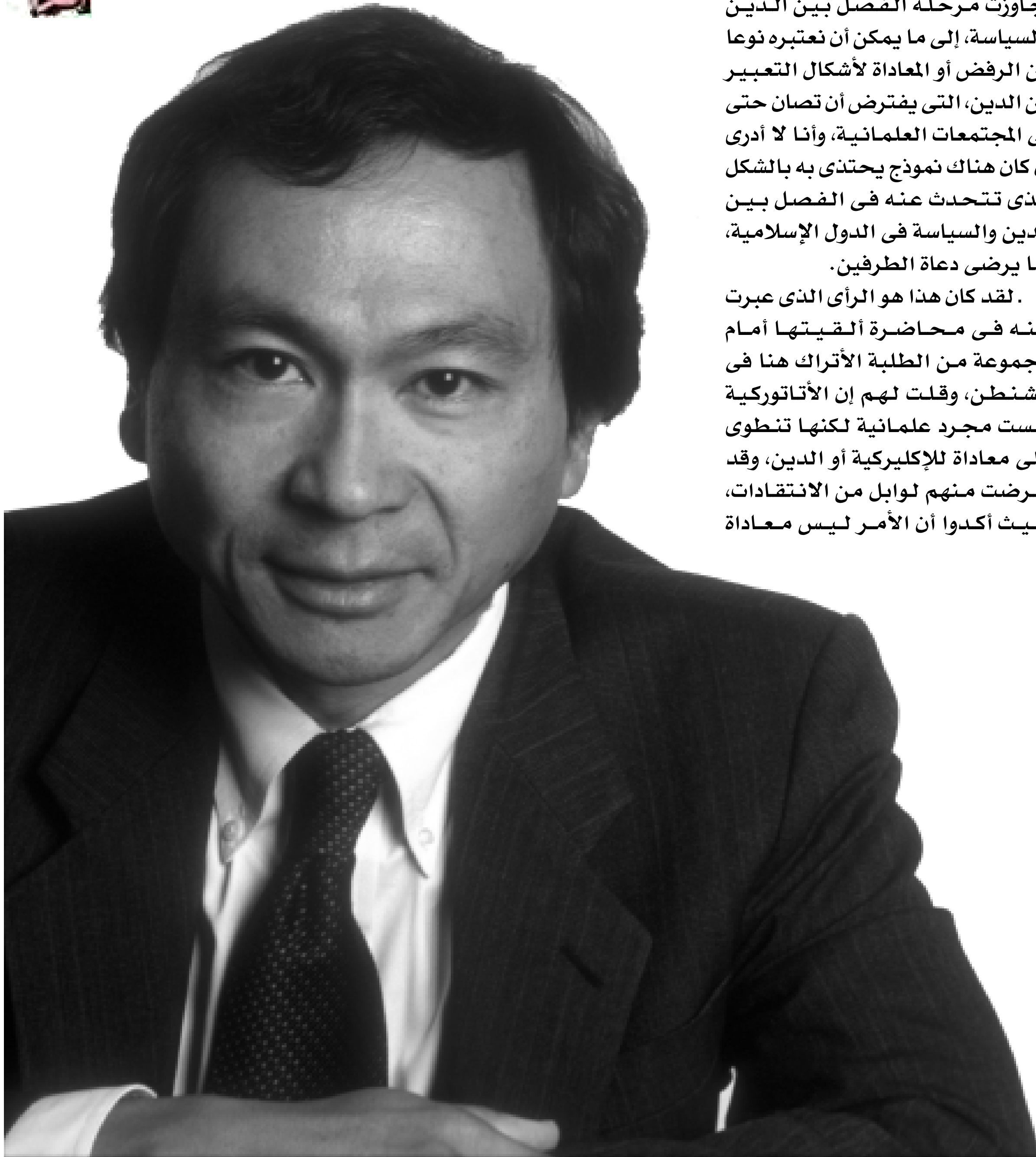
● لكن المشكلة أنه إذا أخذنا دولة مثل تركيا، التى ذكرتها كدولة قبلت العلمانية كمبدأ للحداثة، نجد أنها تجاوزت مرحلة الفصل بين الدين والسياسة، إلى ما يمكن أن نعتبره نوعا من الرفض أو المعاداة لأشكال التعبير عن الدين، التى يفترض أن تصان حتى فى المجتمعات العلمانية، وأنا لا أدرى إن كان هناك نموذج يحتذى به بالشكل الذى تتحدث عنه فى الفصل بين الدين والسياسة فى الدول الإسلامية، بما يرضى دعاة الطرفين.

. لقد كان هذا هو الرأى الذى عبرت عنه فى محاضرة ألقيتها أمام مجموعة من الطلبة الأتراك هنا فى واشنطن، وقلت لهم إن الأتاتوركية ليست مجرد علمانية لكنها تنطوى على معاداة للإكليركية أو الدين، وقد تعرضت منهم لوابل من الانتقادات، حيث أكدوا أن الأمر ليس معاداة للدين، ولكن منع تسييس الإسلام. وأنا لا أريد أن أتخذ الآن موقفاً صارماً بشأن هذا الموضوع، لكنك محق فى أن هناك نوعاً من العلمانية التى تتحول إلى معاداة الدين، ويمكنك أن ترى ذلك فى الولايات المتحدة، فهناك من يعادون أى شكل من أشكال التعبير عن الدين فى الحياة العامة، وأنا شخصيا أعتقد أن من غير الممكن أو الملائم وجود هذا النوع من كبت الدين، سواء فى المجتمعات الإسلامية أو المسيحية الغربية، فلابد أن تتاح الحريات الدينية بشكل حقيقى وأن يسمح للناس بالتعبير عن معتقداتهم الدينية، ولكن عندما يرتبط دين معين بسلطة الدولة، فإن هذا يمثل مشكلة حقيقية.

● اللافت للنظر أنك عبرت قبل ذلك عن اعتقادك بأن إيران هى المؤهلة لقيادة العالم الإسلامى لحل هذه المعضلة، كيف يكون ذلك؟

. إن إيران هى التى قادت العالم الإسلامى لإحياء الأصولية منذ الثورة ضد الشاه عام ١٩٧٨، ووصول آية الله





والحداثة

فـوكـويـامـا

عـن الإســـــلام.. والأصـــولـيـة.. والحـــــداثـة

خومينى للحكم. وهناك دولتان عاشتا فى ظل شكل صارم للإسلام الأصولى، هما إيران وأفغانستان، ويمكن القول إنه لا أحد ممن عاشوا هذه التجربة يريد أن يستمر فيها، فالناس قد يعتقدون برغبتهم فى ذلك قبل الثورة، لكن بعدها يتبين لهم وجهها القمعى، وتقييدها لحرية المرأة، وحرية الصحافة، وأشكال التعبير الأخرى. وفى إيران الآن نجد أن سبعين فى المائة من السكان تحت سن الثلاثين، ولا أجد بينهم تأييدا لاستمرار هذا النظام الثيوقراطى، والاحتمال الأكبر هو أنه مع نمو هذا الجيل سوف تتحول إيران إلى الليبرالية. وبما أن إيران هى التى قادت الحركة الأصولية الإسلامية، فإنها ستكون فى وضع يمكنها من توضيح إمكانية وجود مجتمع إسلامى أكثر حداثة.

● ربما يكون ذلك صحيحا لو أن تلك الحداثة لم تكن انقلاباً كاملاً، أو سيراً فى الاتجاه المعاكس لكل ما جرى خلال العقدين الماضيين، فهل ترى ذلك ممكناً؟

. لا أعتقد ذلك، وفيما أراه من اتصالاتى مع الإيرانيين، فهم ليسوا راغبين فى نظام معادٍ للإكليركية أو قمع الدين، لكنهم يريدون الاحتفاظ بهويتهم الإسلامية فى ظل مجتمع لا يسيطر عليه رجال الدين، بل يكون مجتمعا أكثر حداثة، به حكومة أكثر تكنوقراطية، ومؤسسات حديثة مع المزيد من التعددية والحريات.



● لكن تجربة الإسلاميين فى كل من إيران وأفغانستان، ربما لا تكون كافية بذاتها للحكم. فكما تعلم أن القضية ليست فقط فى تولى الإسلاميين السلطة، ولكن أيضا فى الوسيلة التى يصلون بها إلى الحكم، فهى إلى حد كبير تحدد نوعية أولئك الإسلاميين، فلو كانت من خلال ثورة أو انقلاب عسكرى، فإننا بالتأكيد سنرى تلك النوعية من الإسلاميين التى تحدثت عنها. لكن ماذا عن الإسلاميين الذين يتعايشون داخل المجتمع المدنى، ويقبلون بالمفاهيم الأساسية للديمقراطية من حيث التداول السلمى للسلطة من خلال انتخابات تحدد إرادة الشعب؟ إننا لم نر بعد تجربة حقيقية مكتملة من هذا النوع تسمح لنا بالحكم المستند إلى تجارب الواقع، وليس المبنى على مخاوف.

. هذا صحيح..وقد كانت هناك حالة الجزائر التى كان يمكن فيها للإسلاميين أن يصلوا إلى السلطة عن طريق الانتخابات، ولكن هذا لم يحدث نتيجة الضغوط الخارجية وتدخل الجيش. وأنا أميل للقول إن هذا كان خطأ، وأنه كان من الأفضل السماح لهم بالوصول إلى الحكم. فمن الأشياء التى تتعلمها عندما تتولى السلطة، هى أن عليك الوصول إلى صيغ توفيقية بشأن القضايا المعروضة، كما أن دخول هذه الأحزاب فى العملية السياسية يقلل بطريقة ما من جاذبيتها، وهذا ما حدث مع حزب الرفاه فى تركيا. وبصفة عامة فأنا أعتقد أن من المفيد السماح للأحزاب الإسلامية المستعدة للمنافسة الديمقراطية أن تفعل ذلك، مادامت تلتزم بقواعد تلك المنافسة. إلا أن ما يخشاه الكثيرون، هو أن أغلبهم من الراديكاليين، وأنهم لن يسمحوا بتكرار الانتخابات التى وصلوا عن طريقها إلى الحكم، ولن يسمحوا بالتعددية. وهذا قلق حقيقى، وهو يفسر تدخل الجيش التركى ضد حزب رفاه لإبعاده عن مجال السياسة التركية.

● لكن أليس ذلك انتهاكا للمبادئ الديمقراطية الأساسية، حتى وإن كان يتم باسم الدفاع عن تلك المبادئ؟

. هذا صحيح تماماً، وهذه مشكلة صعبة، لذلك فأنا أعتقد أن من الأفضل على المدى الطويل السماح بهذا النوع من التعبير الديمقراطى، حتى لو أدى ذلك إلى بعض السياسات الراديكالية أو كبت للحريات على المدى القصير، لأن هذا سيؤدى فى النهاية إلى نوع من النضج الديمقراطى فى تلك المجتمعات، بما يسمح بحريات التعبير.

● هل تعتقد أن فى المنظور الفكرى للإسلاميين ما يحول دون قدرتهم على التطور الديمقراطى، بما يسمح بحرية التعبير واستيعاب الجماعات والتوجهات المختلفة أو المتناقضة؟

. هناك قضيتان : الأولى هى الديمقراطية، والثانية هى الليبرالية، وهى حرية الناس فى أن تكون لديهم أنظمة تعددية تسمح لهم بالمشاركة. والمشكلة مع الإسلاميين أو الراديكاليين الإسلاميين، هى أنهم ديمقراطيون بمعنى أنهم يقبلون بإرادة الشعب، لكنهم ليسوا ليبراليين من حيث الإيمان بالتعددية السياسية والتسامح، وهذا ما حدث فى إيران، فقد كانت أكثر ديمقراطية فى ظل آية الله خومينى عنها أيام الشاه، الذى لم يسمح بالانتخابات. إلا أنه فى عهد الخومينى أصبح المجتمع أقل تسامحاً وأقل ليبرالية فتم اضطهاد البهائيين ومن لا يشاركونهم معتقداتهم الدينية، وهنا تكمن المشكلة مع الإسلاميين، فهى ليست كونهم غير ديمقراطيين، ولكن أنهم لا يسمحون بأى تعددية، بينما المطلوب هو وجود الحريات، والديمقراطية، لكى تتمكن المؤسسات السياسية من العمل بشكل سليم.

● لكن، على فرض صحة ذلك لدى بعض الإسلاميين، هل ترى فى الإسلام. كمنظومة فكرية، ما يتعارض مع هذه المفاهيم الديمقراطية والليبرالية؟

. بالتأكيد لا فيما يتعلق بالديمقراطية، ولا أعتقد أن الإسلام كدين فيه ما يتعارض مع ذلك، لكن لست أنا من يتحدث عن هذا الموضوع، فهذا نقاش ينبغى أن يدور بين المسلمين أنفسهم حول حجم التعددية ودرجة التسامح الموجودة فى مجتمعاتهم. وأنا يمكننى أن أحدثك عن آرائى ونصائحى من الخارج، غير أن هذه فى الأساس قضية يتعين على المجتمعات الإسلامية أن تواجهها. لكن بناء على ملاحظاتى الشخصية فإنه يمكن أن تكون إسلامياً وفى الوقت نفسه متسامحاً وتؤمن بالتعددية.

● لقد أثرت تساؤلات كثيرة فى مقالك الأخير بمجلة نيوزويك بشأن الدول العربية والإسلامية، وأشرت إلى التراجع الكبير فى كل الدول العربية وأغلب الدول الإسلامية عن التحرك فى اتجاه الديمقراطية كما حدث فى كثير من الدول الآسيوية أو فى أمريكا اللاتينية، وذكرت أيضا أنه لم تفلح دولة عربية واحدة فى وضع أسس التنمية الاقتصادية السليمة، أو اتباع السياسات التى تدمج اقتصادياتها فى الاقتصاد العالمى بالشكل الذى رأيناه فى تايوان وكوريا الجنوبية، وتشيلى والمكسيك



إن الأتاتـــوركيـــــــــــة
ليســـــــت مجـــــــرد علمـــــانيـــــة
لكنهـــــا تنطـــوى عـــلى معـــــــاداة
للإكليريكيـــــة أو الـــــدين





أعتقد أن من المفيد السماح للأحزاب الإسلامية المستعدة للمنافسة الديمقراطية أن تفعل ذلك، مادامت تلتزم بقواعد تلك المنافسة



وغيرها، وأنا أذكر أيضا أننى عندما كنت أدرس المؤسسات السياسية معك طرحت علينا هذا الموضوع وطلبت رأيى الشخصى فيه، لكننى لم أعرف أبدا رأيك فى تفسير هذه القضية المعقدة، وإن كان تكرار طرح السؤال فى ذاته قد يوحى باتجاه الإجابة عنه. لذلك فإننى أود أن أستمع منك الآن لرأيك الشخصى.

. لقد شغلنى هذا الموضوع لفترة طويلة، وأنا بدأت بدراسة الاتحاد السوفيتى والحركات الشيوعية، وكان من الأشياء التى لاحظتها فى آسيا وجود أشكال عديدة من الأحزاب الشيوعية القوية التى تمكن بعضها من الوصول إلى الحكم فى الصين وفيتنام، وأماكن أخرى. أما فى الشرق الأوسط فكانت هناك بعض الأحزاب الشيوعية المتفرقة التى لم يتمكن أى منها من الوصول إلى السلطة باستثناء اليمن الجنوبى لفترة قصيرة نسبياً. وقد تساءلت كثيراً عن سبب ذلك، وأعتقد أن الإسلام هو أحد الأسباب التى منعت وجود أحزاب مناهضة عسكرياً للإكليركية مثل الأحزاب الشيوعية، فكان ذلك تعبيراً عن التأثير الواضح للدين. لكن يبدو لى أن ذلك أيضاً كان أحد العوامل التى ساعدت شرق آسيا على التحديث بسرعة أكبر من الدول الإسلامية. ففى شرق آسيا لا يوجد دين بالشكل المتعارف عليه فى أوربا أو الشرق الأوسط. فهناك بعض التقاليد الأخلاقية مثل الكونفوشية، لكن بشكل عام هناك دول علمانية، مع درجة عالية من التسامح الدينى. فهذه الدول لم تنشغل بصراعات داخلية أو بعنف طائفى بسبب الدين، لقد تصارعوا لأسباب أخرى، غير أن الدين لم يكن قضية بالنسبة لهذه المجتمعات. أما فى الشرق الأوسط فإن إنشاء الدولة العلمانية كان أكثر صعوبة، كذلك فإن الإسلام الراديكالى كان فى اعتقادى إحدي العقبات أمام تحقيق قدر من الديمقراطية، فى ظل التخوف من أن وصول الإسلاميين إلى الحكم بوسائل ديمقراطية، سيؤدى إلى تراجع العملية الديمقراطية، وقد كان ذلك أحد أسباب تعثر التنمية السياسية فى عدد من الدول الإسلامية.



● لكن حتى إذا سلمنا جدلاً بكل ذلك، ألا ترى أى تأثير إيجابى للإسلام أو للقيم الدينية التى يمكن أن يستفاد بها فى عملية التنمية السياسية والاقتصادية لتلك المجتمعات كما حدث بالفعل فى عدد من الدول الإسلامية الآسيوية؟

. إننى لا أعنى بذلك أنه مجرد تأثير سلبى، فهناك عدد من الدول الإسلامية التى كانت قادرة على التحديث، منها ماليزيا على سبيل المثال، فقد كانت فى فترة ما، واحدة من أسرع الدول نمواً فى العالم، وكذلك إندونيسيا، التى تمكنت من تحقيق إنجازات كبيرة مع احتفاظها بهويتها الإسلامية. فمن الواضح أنه لا توجد مشكلة هنا وأعتقد أن الإسلام يمكن أن يأتى بحلول مبتكرة وخلاقة للتوفيق بين المعتقدات الدينية والمؤسسات العصرية. وكتابى الأخير The Great Disruption يتناول قضية الأسرة والتفكك الاجتماعى الذى يحدث فى المجتمعات الغربية. وفى جوانب عديدة نرى أن المجتمعات الإسلامية أكثر تماسكًا، وبها معدلات أقل للجريمة، فهناك أمور إيجابية عديدة فى تلك المجتمعات.



● لقد ذكرت فى مقال لك حول هذا الموضوع إنه إذا استندت السياسة لشىء مثل الدين فإنه لن يحدث أى نوع من السلام المدنى، وفى اعتقادى أن هذه عبارة أو حكم قوى، وأود أن أعرف مبرراتك للوصول إليه.

. إنه بيان يستند للتجارب التاريخية، فى مجتمعات عديدة، فمن الممكن أن يكون هناك مجتمع صغير، مثل القبيلة أو مجموعة منعزلة من الناس، وأن تعيش فى ظل دين واحد، بدون مشاكل لسنوات ولأجيال عديدة. ولكن من المستحيل تقريباً أن نتصور مجتمعاً حديثاً به مثل هذا التجانس أو التماثل الدينى لأنه يتعارض مع طبيعة المجتمع الحديث، الذى يعيش فيه عدد كبير من السكان، لهم آراء متنوعة. وفى أى إطار فإن هذا المجتمع لابد أن يفرز خلافات فى الرأى والمواقف، حتى فى ظل التقاليد المشتركة.فهى لابد أن تنقسم إلى فروع متعددة، وهكذا .وعندما تسيس الدين، فإن هذا سيقود إلى صراع سياسى، وهذا هو الهدف الأساسى للعلمانية، فهى تقول إننا لن نتفق أبدا على مبادئ المعتقدات الدينية، فعلينا إذن أن نضعها بعيدا عن السياسة، وأن نتفق على أنه لا اتفاق بيننا بشأنها، لكن أن يكون ذلك فى إطار الحياة الخاصة لكل منا، وليس كموضوع للصراع السياسى.أما الدولة غير العلمانية فتقتضى أن يعتنق الجميع نفس المعتقدات الدينية.

● لكن حتى فى الدولة الدينية، يمكن وجود معتقدات دينية أخرى مخالفة؟

. صحيح طبعا، كأن تكون هناك أديان أساسية ثابتة، لكن مع وجود مبدأ التسامح الدينى، أما بالنسبة لكثير من الإسلاميين الراديكاليين فهذه ليست القضية، إنهم لا يريدون التسامح مع الأديان الأخرى، بل يريدون أسلمة المجتمع بما يتفق مع رؤيتهم الخاصة للإسلام، وهذا ما يؤدى إلى الصراع.

● إن التجربة التاريخية للإسلام، تؤكد أيضا أن أصحاب المعتقدات المختلفة يمكن أن يعيشوا بسلام فى مجتمعات إسلامية بدون مشاكل، أليس ذلك صحيحا؟

. بالتأكيد، لذلك فإننى أقول إنه لا يوجد شيء جوهرى فى الإسلام يفرض تلك الأرثوذكسية غير المتسامحة، فمثلا النظام العثمانى : كان متسامحًا تمامًا وسمح للجماعات الدينية المختلفة بالاستمرار فى ممارساتها الدينية، فالإسلام ذاته لا يمنع ذلك، لكنها بعض التفسيرات الخاصة بالإسلام.

● أود أن أتوقف هنا عند قضية الأصولية الإسلامية، صحيح أنها الآن تسلط عليها الأضواء لارتباطها بأحداث سبتمبر الأخيرة من الهجوم على مركز التجارة العالمى فى نيويورك والبنتاجون فى واشنطن، وما أعقب ذلك من حرب فى أفغانستان، والحملة ضد الإرهاب، لكن هناك أيضا الأصولية المسيحية، والأصولية اليهودية، وغيرها من الأشكال





فوكوياما

عن الإسلام.. والأصولية.. والحداثة

الأصولية، التى تحدثت عنها فى كتابك «نهاية التاريخ» فهل ترى فيها مشاكل مشابهة لتلك التى تراها فى الأصولية الإسلامية؟

. أعتقد أن أغلب أشكال الأصولية معادية للحداثة، لكن هناك أيضًا فروقًا بينها، ومن الخطأ وضعها جميعا فى سلة واحدة، لأن العامل الاجتماعى يميز بينها. وعلى سبيل المثال فإن إحدي أكبر الحركات الثقافية الجارية الآن، هى تحول الكاثوليك فى أمريكا اللاتينية إلى البروتستانتية (الإنجيلية) وهناك أعداد هائلة من البعثات التبشيرية وغيرها تشارك فى تلك العملية. لكن لأنه لم يتم تسييس هذا الشكل من الإنجيلية البروتستانتية، فإنه لم يؤد إلى راديكالية سياسية، وكان لها فى الحقيقة تأثير حميد على قضايا التنمية الاقتصادية وغيرها. وفى المقابل فهناك صعود الأصولية الهندوسية فى الهند، مما أدى إلى هدم المسجد الشهير فى أيوديا.، وما يحدث أيضا فى سريلانكا بين التاميل والهندوس.وهى كلها تمثل هذا النوع من تسييس الدين، وهو أمر خطير للغاية.

● فى هذا الإطار، هل ترى هناك ما يميز الأصولية الإسلامية عن غيرها من الأشكال الأصولية الأخرى؟

. لا أدرى إن كان هناك ما يميز الأصولية الإسلامية بشكل خاص، فجميع الحركات الأصولية ترفض الدولة العلمانية، أو الفصل بين الدين والسياسة.

● عندما تحدثت عن الراديكاليين الإسلاميين قلت إنهم يمثلون من عشرة إلى خمسة عشر فى المائة من العالم الإسلامى، مستندًا فى ذلك إلى الباحث دانيال بايبس، وهو كما تعلم مشكوك فى مصداقيته على الأقل لدى جانب من الخبراء المسلمين، أو المتعاطفين مع قضايا العالم الإسلامى وهذه قضية أخرى، لكن إذا سلمنا جدلا بصحة هذا التقدير، فإنه يعنى ببساطة وضع نحو مائة وخمسين مليونا من المسلمين فى سلة الراديكاليين، وهذا رقم هائل، ويفرض التساؤل حول الأسلوب الذى تقترحه للتعامل معهم؟

. أولاً أنا لا أعرف ما هو الرقم الحقيقى، وقد كان هذا هو التقدير الوحيد الذى رأيته، وربما يكون الرقم أكثر أو أقل، لكن ما تقوله صحيح، فرقم مائة وخمسين مليونًا يمثل عددًا كبيرًا من الناس، وهم ربما لا يمثلون أغلبية فى العالم الإسلامى، كما أنهم موزعون بطريقة غير متساوية بين الدول الإسلامية، لكنهم يظلون قوة سياسية مهمة ينبغى احتواؤها، والمسألة ليست اضطهادهم أو قمعهم سياسيًا، ولكن بإجراء حوار داخلى حول قضايا الإسلام والحداثة. وأنا أعتقد أن المملكة العربية السعودية كان لها دور مهم فى ترويج الأفكار الوهابية الراديكالية، فهم لديهم الأموال التى مكنتهم من نشر تلك الأفكار ليس فقط فى السعودية ولكن فى مناطق عديدة من العالم بما فيها الولايات المتحدة، وهى الأموال التى مكنت أسامة بن لادن وأتباعه عمليًا، من شراء دولة فى أفغانستان.

● لكن هذه المذاهب والأفكار بما فيها الوهابية كانت مسالمة فى أغلبها، وربما لا يكون من الإنصاف إلصاق ما حدث من سلوكيات مرفوضة أو عمليات إرهابية بها.

. الحقيقة أن سجلها خليط من هذه الناحية، و إذا استخدمنا باكستان كمثال، فإنها لم يكن من الممكن أن نرى بها هذه الحركات الراديكالية بدون التأييد السعودى لنشر الأفكار الوهابية من خلال ما يعرف «بالمدارس» التى تروج لأفكارهم.

● حتى فيما يتعلق بهذه المدارس، لقد ظلت قاصرة على أداء دورها التقليدى بنشر التعليم الدينى البسيط للفقراء فى باكستان، دون الدخول فى الكثير من القضايا السياسية التى تثير القلق الغربى الآن بشأن توجهاتها، لكن نقطة التحول فيها كانت الغزو السوفيتى لأفغانستان، الذى حول اهتماماتها إلى مساندة الأفغان فى مواجهة الغزو الشيوعى، وكانت النتيجة ما يوصف الآن بظاهرة الإسلام الراديكالى أو المسلح.فالقضية ليست فيما يدرسونه، ولكن أساسًا فى العوامل أو الأحداث الخارجية التى كثيرًا ما تفرض نفسها عليهم.

. هذا الكلام صحيح بالتأكيد، فهو تطور معقد للغاية، وقد كانت تجاربهم بدون شك عاملاً فى هذا التحول الراديكالى، ولكن تبقى القضية أن هناك معاداة للحداثة بشكل أساسى فى جوهر الوهابية، حتى لو كانت تروج لتعاليم سلمية. فالمجتمع الوهابى يمكن أن يثرى بسبب البترول كما حدث، لكنه من وجهة نظرى غير قادر على التحديث.



● لكن هذا يجرنا للحديث عن مصادر الراديكالية الإسلامية أو العمليات الإرهابية كما تراها. فيبدو لى من بعض كتاباتك المنشورة أنك تقلل من أهمية العوامل المتعلقة بالسياسة الخارجية الأمريكية خاصة بشأن الفلسطينيين أو العراق.

. إننى لا أريد بالضرورة أن أقلل من تأثير هذه العوامل، ولكن يبدو لى أن الراديكالية لا يمكن تفسيرها ببساطة من منطلق المعارضة للسياسة الخارجية الأمريكية، فهناك شكاوى فى مناطق عديدة من العالم تجاه السياسة الأمريكية، لكن قليلاً منها يمكن أن يفرز أسامة بن لادن كرد فعل. وأنا أعتقد بوجود أسباب أكثر عمقًا تتمثل فى الفقر، وانعدام التنمية، والركود السياسى بالإضافة طبعا للسياسة الأمريكية تجاه إسرائيل، فأنا لا أحاول أن أقلل من ذلك، غير أننى لست واثقًا أيضًا من أن هناك ما يمكن عمله بالنسبة لهذا الموضوع،فالولايات المتحدة يمكن أن تقوم بدور أكبر للتوصل إلى تسوية للصراع العربى الإسرائيلى، وهو ما شاركت فيه شخصياً عندما كنت فى الخارجية الأمريكية (فوكوياما عمل نائبا لمدير إدارة التخطيط السياسى بالخارجية الأمريكية فى بداية الثمانينيات) إلا أننى لست متأكداً أن شخصًا مثل أسامة بن لادن يمكن أن يقبل بنوعية التسوية. فلو افترضنا جدلاً أن عرفات وباراك تمكنا من التوصل إلى اتفاق خلال العام الأخير لإدارة بيل كلنتون، وتفاهما بشأن العديد من القضايا التى لا تزال تفصل بين الجانبين، لا أعتقد أن ذلك كان سيؤثر بأى درجة على أسامة بن لادن، وكان سينظر إلى ذلك الاتفاق على أنه غير شرعى.

● قد يكون ذلك صحيحًا بالنسبة لأسامة بن لادن، لكن التوصل إلى اتفاق معقول كان سيحرمه من الغطاء السياسى الذى يستخدمه كمبرر لعملياته الإرهابية، والذى يجعل الكثيرين. حتى من بين المعتدلين.



وفى جوانب عديدة نرى
أن المجتمعات الإسلامية أكثر تماسكا، وبها معدلات
أقل للجريمة، فهناك أمور إيجابية عديدة
فى تلك المجتمعات





المشكلة مع الإسلاميين أو الراديكاليين الإسلاميين، هى أنهم ديمقراطيون بمعنى أنهم يقبلون بإرادة الشعب، لكنهم ليسوا ليبراليين من حيث الإيمان بالتعددية السياسية والتسامح، ولا أعتقد أن الإسلام كدين فيه ما يتعارض مع ذلك



يستمعون إليه، ويشاركونه بعض مشاعره الغاضبة تجاه السياسات الأمريكية.

. ليكن، وأنا أعتقد بالتأكيد أن تحقيق تقدم بشأن قضية فلسطين سيكون شيئًا جيداً.

● لكن كل هذا الجدل لا يدور نظرياً فى الفراغ، إنه يأتى بعد أحداث سبتمبر الأخيرة، وفى إطار ما وصفته واشنطن بالحملة أو الحرب ضد الإرهاب، وقد سبق أن كتبت أن الإسلام الراديكالى يمثل تحدياً أيديولوجياً أكبر من الشيوعية، أو أنه يمثل قوة يمكن أن تحدث دماراً هائلاً فى العالم الحديث. وبصرف النظر عن اتفاقنا أو اختلافنا حول هذا التقييم، لابد أن نتساءل عما تنصح به الولايات المتحدة أو الغرب لمواجهة ما تراه من هذا الخطر؟

. لا أعتقد أنه يمكن عمل أكثر مما يتم الآن، فقد كانت هناك مشكلة فى أفغانستان، كمكان تعمل منه منظمة القاعدة، ولكن يبدو أن هذه المشكلة يتم التعامل معا بالفعل، صحيح أنه لا تزال هناك عناصر منتشرة للمنظمة، أو قضية التعامل مع صدام حسين، لكن هذه مشكلة منفصلة، وربما تشغل واشنطن على مدى العام أو العامين القادمين. كذلك فأنا أعتقد أن من الضرورى إعادة النظر فى العلاقات مع السعودية، فالحكومة الأمريكية تنظر للنظام السعودى على أنه معتدل وصديق مع وجود بعض الجوانب السلوكية الغريبة لديه، لكنى أعتقد أن السعوديين لهم دور أساسى فى ترويج هذا النوع من الراديكالية.

● لكنك هنا تتحدث أيضًا عن العراق أو صدام حسين، ولا أعتقد أنك تريد وضعه فى سلة واحدة مع الراديكاليين الإسلاميين.

. بالطبع لا، فهو بعثى علمانى وليس إسلامياً على الإطلاق، وهو يمثل قضية منفصلة. لكن ما حدث بعد الحادى عشر من سبتمبر هو أن الجميع أدركوا ما تمثله أسلحة الدمار الشامل من تهديد كبير. قبل ذلك كان هناك فهم نظرى بإمكانية حصول شخص أو جماعة ما على سلاح نووى أو قنبلة قذرة أو سلاح بيولوجى وأن يستخدمها، لكن كان هناك تجاهل لهذا الخطر لأن أحداً لم يصدق أن يكون هناك أشخاص على هذه الدرجة من السوء. أما الآن وبعد ١١ سبتمبر فلم يعد من الممكن الاعتماد على هذه الفرضية، وصدام حسين لديه هذه الأسلحة، ولديه بالتأكيد النوايا السيئة، وهى مشكلة كان يتعين مواجهتها حتى لو لم تقع أحداث سبتمبر.



● لكن لا يوجد ما يشير إلى امتلاكه لأسلحة نووية، وحتى بالنسبة للأسلحة البيولوجية والكيماوية، فمن شهادة شخص مثل سكوت ريتر رئيس فريق المفتشين سابقا فى العراق، فإنه تم تدمير قدر هائل من مخزون العراق بل وإمكانياته اللازمة لتصنيع تلك الأسلحة؟

. أعتقد أنه عندما غادر المفتشون العراق عام ١٩٩٨ كان ما اكتشفوه يزيد بكثير عن كل تصوراتنا السابقة بشأن ما يمتلكه العراق. ثم كان ما كشف عنه المنشقون العراقيون حيث تبين أنه نفذ كثيراً من هذه البرامج.

● لكن هناك دولاً أخرى عديدة تملك هذه الأسلحة بما فيها الأسلحة النووية مثل إسرائيل والهند وباكستان..

. بالتأكيد، لكن ليس هناك قلق من أن أياً من هذه الدول سوف تعطى قنبلة لإرهابى لكى يهاجم بها الولايات المتحدة، لكنه احتمال قائم بالنسبة للعراق.

● دعنا نعود إذن لقضيتنا الأساسية فى هذا الحوار، فقد لاحظت أيضًا أنك عند استعراضك لأسلوب مواجهة «الخطر الراديكالى»، ذكرت أن الفاشية الألمانية لم تفشل لتناقضاتها الأخلاقية الداخلية، بل لأن قوات الحلفاء دمرتها وحولتها إلى حطام ثم احتلتها، وهو ما يعطى انطباعا بأن هذا هو الأسلوب الذى تقترحه لمواجهة ما وصفته «بالفاشية الإسلامية». فهل هذا ما تقصده بالفعل؟

. لا.. فهناك أسلوبان للتعامل مع الظاهرة: إما على المستوى الفكرى أو العسكرى، وكلاهما مهم. لكن المشكلة أن الولايات المتحدة لا يمكنها أن تهزم «فكرة» الإسلام الراديكالى. وأنا لا أرى فائدة من حملة العلاقات العامة التى تقودها تشارلوت بيرز فى العالم الإسلامى،

(تشارلوت بيرز كانت مسئولة تنظيم حملات إعلانية فى ماديسون أفنيو بنيويورك ثم استقدمها وزير الخارجية كولين باول لتكون نائبة له لشئون الدبلوماسية العامة، ولتتولى تنظيم حملة دعائية لتحسين صورة الولايات المتحدة فى العالمين العربى والإسلامى. وقد شكك البعض فيما إذا كانت السيدة التى نجحت فى ترويج أرز «العم بن» يمكن أيضا أن تروج «العم سام»)

ويضيف فوكوياما: إننى لا أعتقد أن مديرة من ماديسون أفنيو يمكنها أن تقنع الناس فى العالم الإسلامى بأمور تتعلق بالدين، إنهم يمكنهم فقط أن يقدموا صورة أو تفسيرا أفضل لمواقف السياسة الخارجية الأمريكية، وإن كنت لا أعتقد أيضًا أن بإمكاننا الانتصار فى هذا المجال. غير أن الأمر المؤكد أنه لا يمكن الدخول فى حوار مع أسامة بن لادن، وفى هذه الحالة يكون اللجوء للعمليات العسكرية. فإذا كان نجاحه فى الحادى عشر من سبتمبر قد أعطاه بعض الشرعية، إلا أنه فقد الكثير منها بانتزاع قاعدته التى كان يعتمد عليها فى أفغانستان. فهذا إذن عنصر مهم فى المواجهة، لكن ذلك لا يعنى أنه الأسلوب الوحيد، فهناك أيضًا وسائل غير عسكرية للتعامل مع بعض القضايا، وأنا لا أعتقد مثلاً بضرورة وجود الولايات المتحدة فى منطقة الخليج الفارسى (العربى) أو أن تكون لنا قواعد فى السعودية، والسبب الوحيد لذلك هو فرض منطقة الحظر الجوى فوق العراق، وإذا أمكن بطريقة ما التخلص من صدام حسين، فإن الولايات المتحدة يمكنها أن تخرج من المنطقة، وأعتقد أننا جميعًا هنا فى واشنطن سنسعد بذلك. فأنا لا أقول إن العمل العسكرى هو الوسيلة الوحيدة لحل تلك المشكلة.

● لكن إذا أخذنا منظمة القاعدة كمثال، فإنها لم تمارس نشاطاتها من داخل الدول العربية رغم أن أغلب أعضائها من العرب، بل وجدت ضالتها فى أماكن بها حالات خاصة جداً مثل أفغانستان أو الصومال حيث لا توجد حكومات قوية، وتمكنت المنظمة من فرض وجودها فى هذه الأماكن. وهذا فى ذاته يعطى مؤشراً على أبعاد القضية على المدى الطويل.





فـوكـويـامـا

عـن الإســـــلام.. والأصــــوليـة.. والحــــداثـة

. هـذا صـحـيـح، لـهـذا كـان مـن الـضـرورى اتـخـاذ إجـراءات فـى تـلـك الأماكن التى يعملون فيها بحرية، لكن الموقف يبقى قابلاً للاشتعال فى مصر والجـزائـر ودول أخـرى، فـرغـم عـدم السماح لـهم بـحـريـة الـعـمل، إلا أنـهـم يبقون كقوة سياسية أساسية، وكعامل زعزعة للاستقرار.

● لكنك تشير إلى هذه النوعية من الإسلاميين باعتبار أنها هى التى ترفض تصديق أن مسلمين تورطوا فى هجمات سبتمبر، وتعزوها لإسرائيل، وهذا بالتأكيد. بصرف النظر عن مدى صحته. يشير ولو بشكل غير مباشر إلى الرفض الضمنى لهذه الهجمات أو لاتباع هذا الأسلوب الإرهابى، لكن يبدو أنك خرجت بنتيجة مختلفة.

. نعم، فما يزعجنى حقيقة فى تلك الآراء، هو انفصالها الكبير عن الـواقـع كـمـا أراه أو يـراه أغـلـب الأمريكيين. وهو يعنى أن الأمر سيكون أكثر صعوبة فى التعامل مـن أناس يرون العالم بهذه النظرة المخالفة تماماً. وهذا يعنى أنهم كما تقول يعتقدون بأن ما حدث ليس شيئاً جيداً، لكن عدم القدرة على قبول الحقائق الأساسية لما وقع بالفعل، يوضح اختلافاً هائلاً فى الرؤية.

● لكن هذا أيضاً قد يكون نتيجة أزمة عدم الثقة فى الولايات المتحدة، أو فيما تقدمه من أدلة.

. نعم، وهناك بالتأكيد تفسيرات عديدة لعدم الثقة، لكن إذا كنا غير قادرين على الاتفاق بشأن الحقائق الأساسية لما حدث، فإن هذا يعنى وجود مشكلة حقيقية، تجعل سوء الفهم أمراً لا مفر منه.

لكن مع التسليم بسوء الفهم للولايات المتحدة من جانب الكثيرين فى الدول الإسلامية، فإنه ليس من الإنصاف القول بأنه من جانب واحد، فالولايات المتحدة تواجه أيضا مشكلة سوء الفهم للعالم الإسلامى.

. ربما يكون من المأمون القول إنه لا توجد حدود أو نهاية لسوء الفهم الأمريكى للعالم الإسلامى، ولكن فى هذه القضية بالتحديد، فإنه حتى بعد إذاعة شريط الفيديو الذى يصور أسامة بن لادن وهو يعترف بجريمته، فإن هؤلاء الناس لم يكونوا مستعدين لقبول أن أسامة بن لادن وراء تلك الهجمات، فمن الصعب تصور ما يمكن أن يقنعهم.



● أود أن أنتقل بك الآن للحديث عن قضية صراع الحضارات، التى أثارها صامويل هنتينجتون، وقد ذكر فى مقال أخير بمجلة نيوزويك أن أحداث سبتمبر الأخيرة وتوابعها من الممكن أن تؤدى إلى وقوع هذا الصراع. هل تشاركه هذا التخوف؟

. لا بد من التأكيد هنا على أنه لم يقل إن هذا سيؤدى إلى صراع الحضارات، ولكن كما ذكرت، فإنه قال إن ذلك ممكن، وأعتقد أن ذلك يمثل قلقاً حقيقياً، وأنا أتفق معه فى أن ما حدث يمكن أن يتضخم ليؤدى إلى هذا الصراع، وبالتالى فمن المهم عدم السماح بتفسير تلك الأحداث بهذه الطريقة. فهذا ما يقوله أسامة بن لادن بأن ذلك صراع للحضارات، لكن هذا غير صحيح.

● ماذا يمكن عمله إذن لتجنب وقوع مثل هذا الصدام؟

. إن ما تفعله إدارة الرئيس بوش بهذا الشأن مهم للغاية، من خلال التأكيد للمسلمين فى أنحاء العالم، وفى الولايات المتحدة، بأن ما يحدث ليس حرباً ضد الإسلام، ولكن ضد هؤلاء الذين قادوا الطائرات المدنية لاقتحام المبانى الأمريكية.

● لكن يبدو من خلال مقالك حول هذا الموضوع، أنك توسع من هدف هذه الحرب. فهى ليست قاصرة كما تقول على الإرهابيين الذين كانوا وراء اقتحام مركز التجارة العالمى، ولكنها أيضاً. كما كتبت. تشمل قطاعاً أوسع ممن تصفهم بالراديكاليين الإسلاميين أو الفاشية الإسلامية؟

. كما سبق أن ذكرت، فأنا أعتقد بوجود مشكلة حقيقية فى هذا الشكل من الإسلام الراديكالى، وحقيقة الأمر أنها ليست مجموعة صغيرة من الإرهابيين، ولكنها تشمل أيضا قطاعاً أكبر من أصحاب الأفكار الراديكالية فى العالم الإسلامى. وهى بالطبع لا تمثل الأغلبية أو القوة المسيطرة، لكنها جزء من العالم الإسلامى.

● هل ترى أى تأثير للأحداث الأخيرة بعد هجمات سبتمبر والانتصار فى أفغانستان، من حيث تحجيم هذه الجماعات، أو تقليل نفوذها؟

. أعتقد أن التأثير وقع بالفعل، فقد كان السقوط السريع لحركة طالبان مؤثراً بقوة فى الرأى العام الإسلامى، إن الناس تحب المنتصرين، والنجاح يجلب معه نوعاً من الشرعية.

● منذ عشر سنوات خرجت بنظريتك الشهيرة عن «نهاية التاريخ» والتى أكدت فيها أن تطور المجتمعات البشرية، بلغ نهايته بالليبرالية الديمقراطية، والرأسمالية القائمة على اقتصاد السوق. الآن. وبعد ١١ سبتمبر. قال بعض الكتاب مثل فريد زكريا إن هذه الأحداث تمثل نهاية لـ «نهاية التاريخ» هل توافق على هذا التحليل؟

. لا أعتقد أن هذا صحيح، «فنهاية التاريخ» كان يمثل رأيى فى قضية الحداثة، وأنها عملية ستستغرق وتسيطر على السياسات العالمية، ولا يوجد فيما حدث بعد الحادى عشر من سبتمبر ما ينقض هذه الرؤية. فأسامة بن لادن يمثل بطريقة ما حركة رد فعل يائسة ضد عملية التحديث.

● لكن لاشك أيضاً أن «شجرة الزيتون» إذا استخدمنا رمز توماس فريدمان للتعبير عن القيم والمفاهيم، أو الصراعات التقليدية التى تربط أو حتى تقيد الإنسان المعاصر. ربما لا يزال لهذه الشجرة جذورها القوية التى تمكنها حتى الآن من مواجهة تيار العولمة أو الحداثة أو سيارة اللاكساس، وهى التى تجعل البعض يتمسك بها ولو على حساب ما تقدمه له الحداثة من مكاسب اقتصادية.

. هذا صحيح، والواقع أن الحداثة لم تكن لها أبداً نفس الجاذبية لدى كل المجتمعات، لكنها تظل الشكل الأساسى للسياسات العالمية، حتى بالنسبة لمن يرفضون الحداثة، فالاستقطاب الآن أصبح بين من يختارون شجرة الزيتون، ومن يختارون اللاكساس، وهذا يمثل التركيبة الحالية للسياسات العالمية. فحتى عندما ترفض الحداثة، فإنها تظل الطريقة التى يتحدد بها العالم الآن.

● وكيف ترى الإسلام والدول الإسلامية فى إطار هذه التركيبة العالمية، هل هو جزء منها أم أنه بديل لها؟

. هذا يعتمد على شكل الإسلام



الذى تتحدث عنه، فلو كان الإسلام الراديكالى، فالإجابة ستكون : أنه البديل. فهو فى هذه الحالة لا يمكن توفيقه مع الليبرالية الديمقراطية، وجوانب عديدة للحداثة. وأعتقد أن الشعوب التى ستختار هذا الشكل من الإسلام سوف تكون رافضة للحداثة بشكل أساسى، وعلى الجانب الآخر هناك مجتمعات إسلامية عديدة تريد التعددية والديمقراطية والدولة العلمانية والتنمية الاقتصادية مع الاحتفاظ بهويتهم الإسلامية والثقافية. وأعتقد أن هذا أيضا ممكن.



● لكن حتى من بين من سيقبلون بالكثير من مفاهيم الحداثة، فإن هناك من لا يرونها مفاهيم غربية أو جديدة عليهم، ويعتقدون أن لها أصولاً فى التراث والثقافة الإسلامية، مما قد يعنى على الأقل إطلاق تسميات مختلفة؟

. هذا ممكن جداً، فهذه مفاهيم عالمية. وهى تشبه الوسائل العلمية التى تستخدم لتحقيق تقدم فى العلوم الحديثة فقد ابتكرت فى الغرب المسيحى، ولكنها بعد ذلك لم تعد تمثل فكرة مسيحية أو غربية، إنها فقط فكرة يمكن تطبيقها عالمياً. فالبشر كلهم متشابهون تحت الجلد، والطبيعة البشرية واحدة، وهذا الكلام ينطبق على آسيا أيضاً، وما بها من قيم خاصة مثل قيم العمل الصينية أو اليابانية، فالمجتمعات تصل إلى أشكال مؤسساتية متشابهة، من خلال طرق ثقافية مختلفة.

● لو طبقنا ذلك على قضية الديمقراطية على سبيل المثال، فإن كثيراً من الإسلاميين يعتقدون بأن فى الإسلام مفاهيم ديمقراطية خاصة مثل الشورى وأنه لا يوجد شكل واحد لتطبيق الديمقراطية بالمفهوم الغربى.

. هناك أشكال مؤسساتية مختلفة للديمقراطية، وحتى فى الغرب هناك النظام الرئاسى والنظام البرلمانى، والأنظمة الفيدرالية وغيرها. وللإجابة عن هذا السؤال لابد من معرفة نوع المؤسسات التى تتحدث عنها، لأن هناك مواصفات أساسية للديمقراطية، إذا تم تجاوزها إلى درجة معينة، فإنه يصعب عندها القول إنها ديمقراطية. لكننى أتفق معك فى أنه توجد وسائل عديدة لخلق نظام سياسى ديمقراطى.

● لكن ماذا لو سادت الراديكالية الإسلامية بالشكل الذى تحذر منه، هل يمكن القول إنها ستكون نهاية «نهاية التاريخ».

. نعم إذا سادت بالفعل فى العديد من الدول، لكنى لا أعتقد أن ذلك سيحدث، فكما رأينا فى إيران وأفغانستان، إنهما الآن فى مرحلة التخلص من هذا التطبيق الراديكالى للإسلام، وبالتالى فإنه لا يمثل بديلاً على المدى الطويل.

● إذا كان الحادى عشر من سبتمبر لم يبدأ تاريخاً جديداً حتى الآن على الأقل، فما معنى العبارات المكررة بأنه قد غير العالم؟ ما هى أوجه هذا التغيير كما تراها؟

. ربما كان أكثر التغييرات الجوهرية إدراك الجميع لحجم المخاطر التى تتعرض لها المجتمعات التكنولوجية الحديثة. فبعد سنوات عديدة من تصنيع الطائرات وبناء ناطحات السحاب، فإن المؤامرة كانت فى استخدام هذين الرمزين للمجتمعات الحديثة ضد تلك المجتمعات. وأعتقد أن هذا الإحساس بالخطر لن يتلاشى، لذلك فهو يمثل تغييراً مهماً. أما فيما يتعلق بتركيبة السياسات العالمية فلا أعتقد أنها تغيرت بصورة جوهرية، فهى سوف تستمر بالشكل الذى كانت عليه. ■



فى أرشيف
وجهات نظر

صراع.. صدام.. حوار
أبجديات قرن جديد

● محمد حسنين هيكل: حريق أمريكى ـ أكتوبر ٢٠٠١
● أيمن الصياد: بن لادن.. الحقيقة والأسطورة ـ أكتوبر ٢٠٠١
● أحمد كمال أبو المجد: الإرهاب والإسلام، ومستقبل النظام الدولى ـ نوفمبر ٢٠٠١
● سيمور هيرش: الفرار من أفغانستان ـ نوفمبر ٢٠٠١
● فهمى هويدى: مابعد طالبان ـ نوفمبر ٢٠٠١
● سلامة أحمد سلامة: دور مسلمى الغرب فى إنهاء عزلة الإسلام ـ ديسمبر ٢٠٠١
● نصر حامد أبوزيد: الاسلام والغرب.. حرب الكراهية ـ يناير ٢٠٠٢
● محمد الميلى: قراءات فى ١١ سبتمبر ـ مارس ٢٠٠٢
● حسن حنفى: الجهاد فى التراث الإسلامى ـ مايو ٢٠٠٢
● عبد العظيم أنيس: الحروب الصليبية.. منظور إسلامى ـ يونيو ٢٠٠٢
● طارق على: بعض الجروح لاتلتئم..الحروب الصليبية ـ يونيو ٢٠٠٢
● أحمد فتحى سرور: القانون والعولمة وحوار الحضارات ـ يوليو ٢٠٠٢
● ناعوم تشومسكى: إرهاب الرد على الإرهاب ـ أكتوبر ٢٠٠٢
● جور فيدال: مسؤولية الإدارة الأمريكية عن ١١ سبتمبر ـ ديسمبر ٢٠٠٢
● محمد حسنين هيكل: الامبراطورية على الطريقة الأمريكية ـ مارس ٢٠٠٣
● محمد السماك: الغرب والإسلام.. ثقافة الكراهية!! ـ ديسمبر ٢٠٠٣
● كاتيا ديفيناج: حروب الغرب الجديدة ـ يناير ٢٠٠٤
● طارق رمضان: مسلمون ولكن «أوربيون» ـ فبراير ٢٠٠٤
● رشيد الخالدى: اقتفاء خطى الإمبراطورية ـ يوليو ٢٠٠٤
● لورد كارى: صدام أم لقاء؟.. المسيحية والإسلام ـ يوليو ٢٠٠٤
● طارق البشرى: سياسى.. لا ثقافى: ما بيننا وبينهم ـ يوليو ٢٠٠٤
● عبد الوهاب المسيرى: عصر النهايات!! ـ سبتمبر ٢٠٠٤
● محمد سعيد رمضان البوطى: الاسلام والآخر ـ مارس ٢٠٠٦
● أيمن الصياد: «صدام الجهالات» ـ مارس ٢٠٠٦
● مجدى عبد الحافظ: رد الأفغانى على رينان ـ الترجمة الأولى الكاملة ـ أبريل ٢٠٠٦
● محمد حسنين هيكل: حوارات على ضفاف «الحوار» ـ أبريل ٢٠٠٦
● أمارتيا سين: فى البحث عمّا يجمعنا.. سراب الهوية ـ نوفمبر ٢٠٠٦ ـ أكتوبر ٢٠٠٦
● عزمى بشارة: حديث فيما قبل وما بعد العاصفة! ـ يناير ٢٠٠٧
● زكارى لوكمان: اختراع الإنسان الإسلامى ـ أكتوبر ٢٠٠٧
● هانز كونج: من حتمية الصراع إلى جدلية الحوار ـ نوفمبر ٢٠٠٧
● أمبرتو ايكو: الإنسانية تتقدم إلى الوراء! ـ يناير ٢٠٠٨
● وليد محمود عبدالناصر: الإسلام..«اليابانى»!! ـ أبريل ٢٠٠٨
● إريك هوبزباوم: دماء مابعد الحربين ـ مارس ٢٠١٠

ماهــــو الغـــــــرب

جـــاى ســــورمـــــان
Guy Sorman

■■ لابد أن كل إنسان فى كل مكان قد سمع الآن عن «صِدام الحضارات". لقد أصبح هذا المفهوم الذى ابتدعه صامويل هنتنغتون عالمياً. وفى خمسينيات القرن العشرين وجد الاقتصادى الفرنسى ألفريد سوفاى نجاحاً مماثلاً حين ابتدع تعبير «العالم الثالث". من بين الأسباب التى تيسر لمثل هذه العبارات اكتساب القبول بين الناس على نطاق واسع أنها تفتقر إلى أى تعريف واضح. فمن المفترض فى تعبير «صِدام الحضارات"، المقصود به فى الأساس الغرب فى مواجهة بقية العالم، أن يصف العالم كما هو عليه. إلا أن تعبير «الغرب "ذاته يتسم بالغموض، إذ يشتمل على مجال واسع من المناطق دون وصفٍ للخصائص التى توحد هذه المناطق.

إذاً ما هو الغرب على وجه التحديد؟ وماذا يعنى التغريب؟ ولماذا تعتبر اليابان غربية بينما لا تعتبر الصين كذلك؟ وأين تقف شنغهاى؟ وهل تنتمى روسيا إلى الغرب؟

نستطيع أن نستنتج من علامات الاستفهام هذه أن الغرب لا يشكل كياناً جغرافياً. وربما نجح الغرب فى ترسيخ نفسه باعتباره أسلوباً فى التفكير منذ خمسة وعشرين قرناً من الزمان، حين كان الإغريق يعتبرون أنفسهم غربيين فى مواجهة الفرس الشرقيين. وما دام الغرب قد خسر أى أساس إقليمى واضح منذ ذلك الوقت فقد تحول تعبير «الغرب "إلى مفهوم عالمى.

إن الانتساب إلى الغرب يعنى فى المقام الأول تبنى أسلوب فى التفكير لا يتوافق مع أى قارة أو أمة أو دين. ومن الواضح أن خطأ هنتنغتون الأساسى يتلخص فى حصر الغرب داخل حدود وطنية: فالغرب لا خريطة له.

فلا يمكننا أن نرسم خريطة للغرب ما دامت بعض الدول الآسيوية غربية (مثل اليابان وتايوان)، وما دامت المجموعات غير الغربية (مثل المسلمين فى أوروبا) تعيش فى بلدان من المفترض أنها غربية، وما دامت بعض الدول الشرقية تتبنى أسلوباً شبه غربى وبعض الدول الغربية (مثل روسيا) لا تتبنى أسلوباً غربياً كاملاً. وفى نهاية المطاف يبدو من الأيسر أن نعين الحدود الفكرية للغرب بدلاً من محاولة تعيين حدوده الجغرافية.



وأنا أعتقد أن الغرب يعبر عن أسلوب فكرى محدد بثلاث سمات جوهرية لا يمكن العثور عليها بسهولة فيما يسمى بالحضارة الشرقية: الرغبة فى الإبداع والتجديد، والقدرة على انتقاد الذات، والمساواة بين الجنسين.

منذ العصر الهيلينى كانت التحية المعتادة بين المعارف والأصدقاء «ما الجديد؟». وهذه التحية تجسد جوهر العقلية الغربية. أما غير الغربيين فإنهم يضعون التقاليد فى مرتبة أعلى من الإبداع. إلا أن الإبداع باعتباره قيمة جوهرية يفسر النجاحات العلمية التى حققها الغرب. كما يفسر الصراعات الحتمية مع المجتمعات المحافظة غير الغربية، ويفسر ما يتعين علينا أن نطلق عليه «تغريب الغرب».

إن الغرب يواصل تدمير تقاليده، بما فى ذلك معتقداته الدينية. كان الاقتصادى جوزيف شومبتر يُعَرِّف هذه العملية بـ«التدمير الخلاق». ومن الممكن أن ينطبق هذا التعبير على كافة أشكال الحياة فى الغرب. والمحافظون فى الغرب ليسوا أقل نزوعاً إلى التدمير الخلاق من الليبراليين الغربيين: فالمحافظون معروفون بابتداع التقاليد. وأذكر هنا رئيس الوزراء البريطانى بنيامين ديزرائيلى الذى اخترع فى القرن التاسع عشر أغلب تقاليد الملكية البريطانية التى كان من المفترض آنذاك أنها عتيقة. ويبدو أن الإبداع فى الغرب يشكل عملية أبدية تتسم بالقدرة على تحويل وتبديل ذاتها.

أما انتقاد الذات فهو يشكل سمة أساسية للغرب. ففى أغلب الحضارات الغربية، إن لم يكن جميعها، تعمل الكبرياء وحب الذات على صد انتقاد الذات، أو على الأقل منع الفرد من انتقاد حضارته. فالمفكر المسلم أو الصينى الحقيقى لا يمكن وصفه بالمسلم أو الصينى الحقيقى إذا ما تعرض لعالمه بالانتقاد. أما فى الغرب فالأمر ليس كذلك.

إذ يظل المفكر الغربى يتمتع بشرعيته الكاملة حين يحكم بالموت على القيم الغربية: فليس بين الصينيين أو المسلمين «نيتشه» يزعم أن إلهه ميت. ولن نجد بين الصينيين أو المسلمين شخصاً مثل «مونتين» الفيلسوف الفرنسى الذى قال فى كتاباته فى القرن السادس عشر إن «المتوحشين من الهنود الحمر» ربما كانوا أكثر حكمة منا.

بطبيعة الحال، لابد أن يكون هناك أكثر من «مونتين» و«نيشه» بين الصينيين أو المسلمين، ولكن لن يعتبرهم أحد فى عالمهم من المنارات الفكرية لحضاراتهم. وعلى هذا فإن انتقاد الذات وليس حب الذات، والنسبية الثقافية، يشكلان جوهر الفكر الغربى.

ويصدق نفس القول على مسألة المساواة بين الجنسين. إلا أن الأمر لم يكن كذلك دوما. ففى اليونان القديمة، وفى الديانتين اليهودية والمسيحية، كانت المرأة تُعَد فى مرتبة أقل من الرجل. إلا أن هذه الفكرة ظلت تشكل موضوع نزاع فى الغرب طيلة قرون من الزمان. واليوم، أصبحت المساواة بين الجنسين قاعدة ثابتة. وهذه ليست الحال فى أغلب الحضارات غير الغربية. وقد يزعم البعض أن المساواة بين الجنسين تشكل نتاجاً لعملية الحداثة وليس التغريب. وقد يكون هذا الزعم صادقاً، إلا أن وضع المرأة يشكل بوضوح قضية تضع المسلمين غير الغربيين فى تعارض مع الغرب.

إذا ما قبلنا التعريف المذكور آنفاً للعقلية الغربية، فإن هذا يتركنا أمام ثلاثة أسئلة رئيسية: هل من الممكن تحديث الشرق دون تغريبه؟ وأين نرسم الخط بين الغرب والشرق؟ وهل يظل الغرب غربياً؟

حتى الآن لم يشهد التاريخ أى شكل من أشكال الحداثة غير الغربية؛ والحديث حول القيم الآسيوية، الذى بدأ أولاً فى سنغافورة، ليس أكثر من حديث سياسى. إذ إن الدول الغربية لم تصبح حديثة ومعاصرة إلا بعد أن أعادت توجيه عقليتها نحو الإبداع وانتقاد الذات.

وهذا لا يجعل هذه البلدان أقل اتساماً بالآسيوية. إذ يظل الكوريون أو اليابانيون المعاصرون كوريين أو يابانيين بالكامل إلا أنهم أقرب إلى الغربيين منهم إلى أسلافهم. وعلى نحو مماثل، سنجد أن المصرى المعاصر أو السعودى المعاصر أقرب شبهاً بالفرنسى أو الأميركى من قربه إلى العربى القديم.

هل هذا القرب من الغرب يجعل المصرى أو السعودى أقل انتماءً إلى جذوره العربية؟ الحقيقة أن مثل هذه المناقشات تدور فى كل المجتمعات الشرقية، وهو ما يقودنا إلى الصدام الحقيقى بين الحضارات: إذ إن كل المجتمعات اليوم أصبحت منقسمة بين متغربين وغير متغربين. وهذا النوع من الصدام فى داخل الحضارات حول تحديد معنى الحداثة يشكل أهمية أعظم من صدام هنتنغتون المزعوم بين الكيانات الجغرافية.

وهذا الجدال الدائر حول المعنى الأساسى للحداثة، والمعروف أيضاً بأزمة الهوية، يؤثر على الدول الغربية أيضاً. إذ أن مجموعات ضخمة ممن يعيشون فى الغرب، من الأصوليين الغربيين وغير الغربيين، يكافحون عملية التغريب المتواصلة باسم التقاليد. وكثيرون منهم يودون لو يتمكنوا من إيقاف المحرك الذى يدفع هذه العملية بالتنكر فى هيئات متنوعة، مثل النظام البيئى أو الهوية. إلا أن المجتمع الغربى الذى لا تستطيع فيه أن تبدأ يومك بالسؤال عما هو جديد، لا يجوز لنا أن نعتبره غربياً بعد الآن. ■

Guy Sorman, is a French philosopher and economist. He is the author of “*The Empire of Lies: the Truth about China in the Twenty-first Century*. New York: Encounter, 2010.

ترجمة: إبراهيم محمد على



George w. Bush by Petar Pismestrovic ©

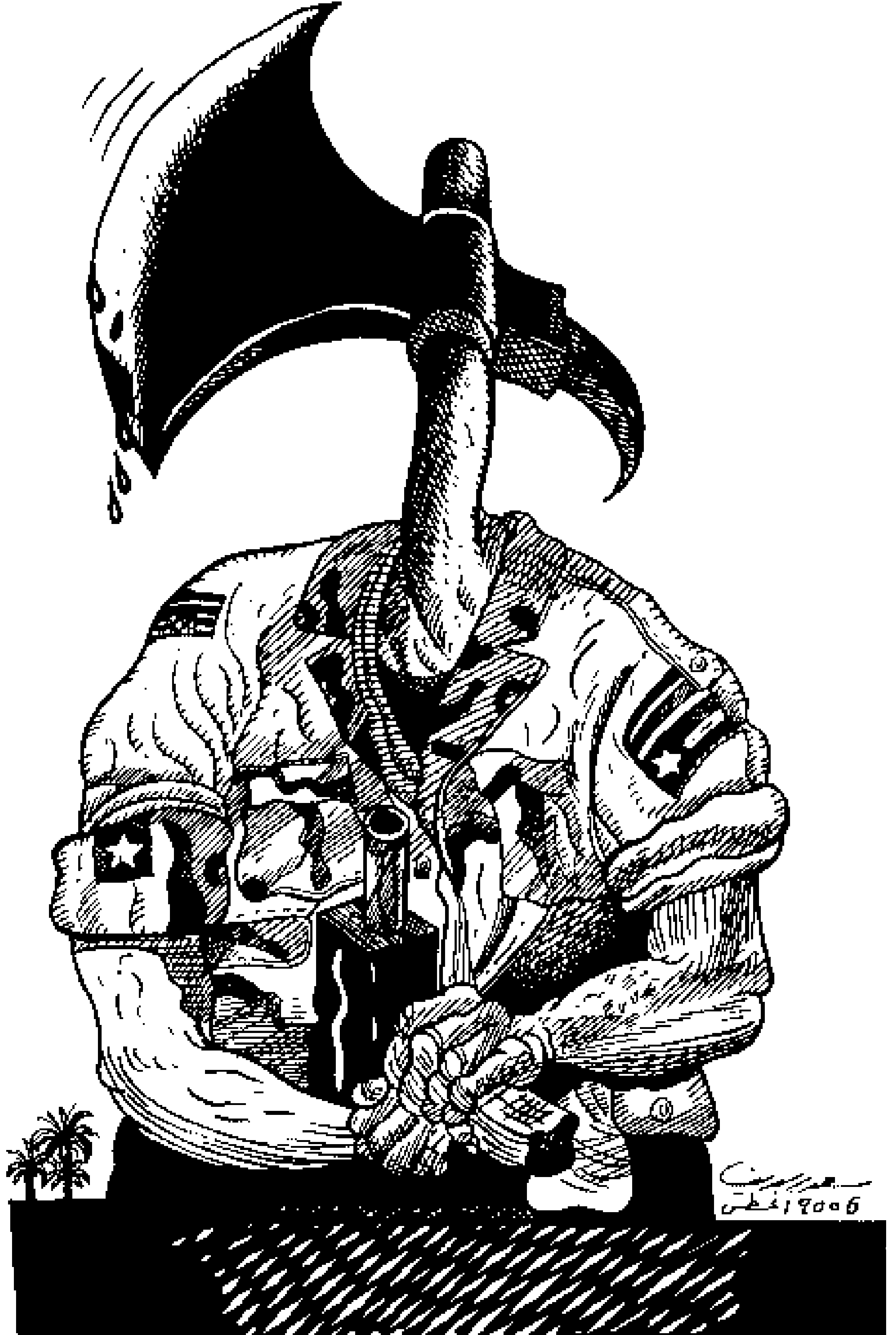


العراق: من الاستبداد.. إلى الاحتلال.. إلى المجهول

حرب بوش «المزيفة»

المغـــــــــامـــرة الأمـــــر

«في بحثه الجذاب والعميق يكشف توماس ى. ريكس وهو صحفى حائز على جائزة بولتزر للواشنطن بوست، بألم ولكن بوضوح، حقيقة مهمة حول كارثة العراق: «أن لها من الآباء ألفا»»



■■ علمنا الإغريق القدماء أن النقمة تتبع العنجهية. وأن ربة العقاب والانتقام الإلهى تجدّ فى أثر التكبر. واشنطن تتعلم هذا الدرس المؤلم مرة أخرى اليوم.. والمدنيون العراقيون والقوات الأمريكية يدفعون ثمن العنجهية التى دفعت الولايات المتحدة لمحاولة زرع ديمقراطية بالقوة فى قلب العالم العربى.

إذن مـن نـلـوم؟

أصبح من الأقوال المأثورة أن القادة السياسيين للبنتاجون خاصة وزير الدفاع دونالد رامسفيلد ونائبه فى الفصل الأول من استيزاره بول وولفوفتز وهو من المحافظين الجدد ورئيس أركان سياستهم الواثق من نفسه دوجلاس ج. فيث.. هم الذين انحدروا بنا إلى طريق الكارثة فى العراق. ولكن ليس من اللياقة تحميل مسؤولية الجريمة للقادة المدنيين ذوى البدل المقلمة ونهمل تخبط أصحاب الزى العسكرى أو، بالنسبة لهذه المسألة، بقية الحكومة الأمريكية، وكما حدث فى فيتنام، تتحمل القيادة المدنية والعسكرية مسؤولية الفشل.

فى بحثه الجذاب والعميق يكشف توماس ى. ريكس وهو صحفى حائز على جائزة بولتزر للواشنطن بوست، بألم ولكن بوضوح، حقيقة مهمة حول كارثة العراق: أن لها من الآباء ألفا.

وكما يوحى العنوان (الفشل التام) فإن الكتاب لا يفشل فى تسديد اللكمات. وبالتأكيد فإن رامسفيلد ووولفوفتز وفيث يتلقون إصابات شديدة فى كتاب ريكس. ولكن هذا ما يحدث أيضا لمعظم أعضاء الكونجرس الديمقراطيين (الذين يسميهم ريكس ليسوا حمائم وإنما «حملان») لفشلهم فى مراقبة الفرع التنفيذى (الرئاسة) والإعلام خاصة نيويورك تايمز التى فشلت بشكل بائس فى التحقيق فى تبريرات إدارة بوش للحرب وتخطيط ما بعد الحرب.

ويهاجم ريكس أيضا بشكل خاص بول بريمر الذى رأس سلطة الاحتلال

وجهات نظر: سبتمبر ٢٠٠٦

يكيـــة فى العـــراق!!

FIASCO

دانيــال بــايـمــان

المدنية فى العراق فى ٢٠٠٣-٢٠٠٤. ويقتبس ريكس عن أحد الكولونيلات وصفه لجهود بريمر فى سلطة التحالف المؤقتة على أنها «إلصاق الريش مع بعضه البعض على أمل الحصول على بطة».

ورغم ما تثيره هذه الإخفاقات من قلق فإنها أصبحت الآن معروفة على نطاق معقول، أما ما ليس معروفا جيدا فهو تخبط القيادة العسكرية العليا.

ويوثق ريكس بتفاصيل مدمرة كيف أساء الجنرالات الأمريكان فهم المشاكل التى يواجهونها فى العراق ويبين كيف أن الجيش لم يعد إعدادا جيدا لخطر (التمرد السنى) غير المتوقع فيما بعد الحرب. لأنه بإغفال مخاطر انبثاق تمرد بعد سقوط صدام فإن الجنرال تومى فرانكس رئيس القيادة الأمريكية الوسطى «قد أفشل الاستراتيجية» كما يقول ريكس. «لقد خطط الجنرال القائد» ربما أسوأ خطة حربية فى التاريخ الأمريكى» أما الجنرال ريتشارد مايرز رئيس هيئة الأركان خلال الغزو ونائبه الجنرال بيتر بيس (الذى رقى فيما بعد لخلافة مايرز) فقد ظهرا وكأنهما المطيعان المبتسمان اللذان يوافقان على كل نزوات القيادة السياسية فى إدارة بوش واللذان تخليا عن واجبهما فى تقديم قرارات مهنية موضوعية وبدلا من ذلك يلعبان دور دمى الإدارة فى حياتيهما الخاصة والعامة.

ونتيجة لأخطاء العسكريين الكبار وعنجهية رجال رامسفيلد جاء الجيش الأمريكى إلى العراق بدون استعداد كاف واضطر إلى بذل جهد كبير للتكيف. ومن البداية فشل الجيش فى إدراك أن ضبط الجماهير كان مفتاح نجاح ما بعد الحرب. وكما عبر عن ذلك أحد الجنرالات بقوله: «كنت اقف فى زاوية شارع فى بغداد أدخن سيجارا وأنا ارقب رجالا يحملون أريكة ويمضون، ولم يدر بخلدى أبدا أنى سأكون الرجل الذى على أن أعيد تلك الأريكة إلى مكانها».

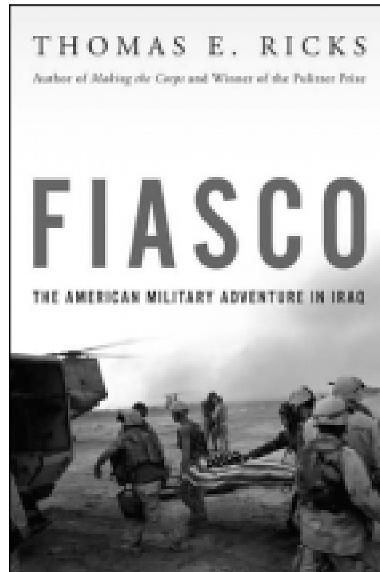
وحين اشتد التمرد، تجاهلها قادة البنتاجون العسكريون والمدنيون فى أول الأمر ثم ساهموا فى اشتعالها حين لجأوا إلى تكتيكات خاطئة. فبالإصرار على قتل العدو بدلا من كسب الشعب، صنع الجيش الأمريكى أعداء جدداً بأسرع من القضاء على أعداء موجودين. الاعتقالات الجماعية والمحاولات الأخرى لترهيب العراقيين ارتدت عليهم بسرعة بزيادة الانضمام إلى التمرد. وكانت الوحدات الأمريكية والقوات تنتشر وتستبدل بسرعة، تدخل إلى العراق وتخرج منه بسرعة الصاروخ بدون بذل أى جهد لبناء صورة استخباراتية مفهومة للوضع على الأرض أو للحفاظ على العلاقات التى أقيمت بصعوبة مع المسؤولين العراقيين المحليين الذين يحاولون إجراء بعض الإصلاحات فى بلدهم.



مدن مثل الموصل والفلوجة حررت من المتمردين ثم تركت فسرعان ما عاد إليها المتمردون. إن مثل هذه الأخطاء محبطة ولكنها ليست مفاجئة تماما: حيث إن الجيش الأمريكى نسى الكثير من دروس حرب مكافحة التمرد التى تعلمها بصعوبة فى فيتنام وغيرها. وطالما أننا أغفلنا التدريب على مكافحة التمرد فى برامجنا التعليمية العسكرية يجب ألا نصدم حين نواجه عجزنا عن شن مثل هذه الحرب.

يرسم ريكس صورة فظيعة حتى انه فى بعض الأوقات يكون من الإحسان القول أن القيادة العسكرية والمدنية (فشلت). كتاب (الفشل التام) يصور بعض القادة على أنهم يذهبون فى الاتجاه الخطأ ولكنهم يبذلون قصارى جهودهم ولكن آخرين - على الأخص فرانكس - يبدون وكأنهم حتى لم يحاولوا. وأسوأ من ذلك فإن المجهود الكلى للحرب والاحتلال افتقر إلى تنسيق من البيت الأبيض وعلى أعلى مستوى كضرورة للنصر مما سمح لبريمر أن يلعب وحده متخذا قرارات رئيسية بدون استشارة البنتاجون أو مجلس الأمن القومى ناهيك عن نظرائه فى الجانب العسكرى للاحتلال.

كانت هذه الإخفاقات تبدو بائسة أمام التضحيات والهمة والهزيمة لأبطال كتاب ريكس: وهم الضباط الصغار والذين يأخذون على عاتقهم أن يخاطروا بحياتهم فى شوارع العراق إضافة إلى بعض الضباط الكبار المبدعين مثل اللفتنانت جنرال ديفد هـ. بترايوس الذى حاول بذكاء (كما وصفه صحفى نيويورك جورج باكر) أن يكسب «السكان المدنيين بتشجيع إعادة بناء الاقتصاد والحكومة المحلية» سواء فى طرق تمرير قوافل التموين عبر قلاع التمرد أو التعرف على طرق لهزيمة العبوات الناسفة المرعبة أو اتخاذ قرار فى ترهيب أو ترغيب القادة المحليين، كان الضباط المبدعون يخترعون فى التو واللحظة تكتيكات واستراتيجية جديدة. وحين كانوا ينجحون فقد كانوا يفعلون ذلك رغم قادتهم. المقابلات مع مثل هؤلاء الجنود إضافة إلى رسائل البريد الإلكترونى والمدونات والتقارير الخاصة للجنود تشكل جوهر تقرير ريكس. وذلك التقرير مؤثر بالتأكيد. عادة



تأتى الأخبار من العراق بعناوين ساطعة صارخة مع مضمون تافه ولكن عمل ريكس يسمح لنا أن نضع الأحداث التى تبدو لا رابط بينها فى نمطها الكلى. خذ مثلا الكارثة الأخلاقية والسياسية لانتهاكات السجناء فى أبو غريب، يبين ريكس أن القسوة لم تكن فشلا فى القيادة والانضباط فى الوحدة التى تدير السجن فحسب وإنما نتيجة لقرارات بليدة على مستوى عال فى كيفية قتال التمرد. ويقول الكاتب إن العديد من وحدات الجيش كانت تعتقل العراقيين بشكل عشوائى بدون بذل محاولة لفصل القلة الذين قد يعلمون شيئا عن نشاط التمرد عن الكثيرين الذين كانوا فى المكان الخطأ فى التوقيت الخطأ. كان نظام الاعتقال بشكل عام يفتقر إلى الموظفين أمام الألوف من المحتجزين الذين يتوافدون كل يوم. ومع أن هذا ليس مبررا لحدوث انتهاكات أبى غريب ولكنه هيأ الأجواء لحدوث ذلك.

ولكن رغم أن كتاب (الفشل التام) يطمح للتكامل ولكنه لا يقدم صورة شاملة لسلطة الاحتلال التى رأسها بريمر أو التمرد الخفى نفسه. بل يركز الكتاب على السنة الأولى للاحتلال ويتناول غالبا السنتين التاليتين للصراع بمقارنتها بأيام الاحتلال الأولى. وإضافة هذا التركيز الضيق فإن كتاب ريكس المهم يملك نقطة ضعف أخرى: انه متفائل جدا حول تبنى الجيش أسلوب بيترايوس لمكافحة التمرد بكسب العقول والقلوب. ويصيب ريكس فى ملاحظة التحركات الأمريكية الإيجابية مثل إعادة النظر فى البرامج التدريبية وتغيير القيادة ولكن الجيش مازال يركز على كسب المعارك ضد المتمردين الفرديين ولا يركز بما فيه الكفاية على توفير الأمن للشعب العراقى بأجمعه وهو مفتاح تقليل أثر التمرد.

ولكن هذه النواقص لا تنال من قيمة هذا الكتاب المهم. يبدأ ريكس كتابه بنصيحة الاستراتيجى القديم صن تسو حول كيفية الفوز بالنصر «اعرف أعداءك، تعرف نفسك» ويبدو بوضوح أن أولئك الذين دفعوا بنا إلى الحرب فى ٢٠٠٣ لا يعرفون الاثنين. والسؤال اليوم هو ما إذا سوف يتعلمون. وفيما يلى فصل من الكتاب. ■

رأى

هل تخسر واشنطن العراق؟

■■ باختصار .. إن السياسة التى تنتهجها إدارة أوباما فى التعامل مع العراق تتسم بالفوضى .فبعد أشهر من انعقاد الانتخابات الوطنية فى العراق، كانت الولايات المتحدة تنفى أثناءها علناً أى انحياز من جانبها فى الجدال الذى كان دائرا حول من سيتولى منصب رئيس الوزراء فى العراق.كنا جميعا نعلم أنها تدعم سراً رئيس الوزراء نورى المالكى.

لقد فرضت الولايات المتحدة ضغوطاً دبلوماسية هائلة على الدول العربية المجاورة للعراق لحملها على قبول فترة ولاية أخرى للمالكى، الأمر الذى رفضته أغلب هذه البلدان .ففى البداية كانت الولايات المتحدة تدعم المالكى من أجل منع الكتلة الصدرية من اكتساب نصيب من السلطة .بيد أن هذا الدعم أسفر عن نتائج عكسية الآن، وذلك لأن التيار الصدرى يمثل المجموعة الوحيدة، غير تحالف المالكى من الأحزاب الشيعية، التى تؤيده.

ومن بين النتائج المقلقة التى ترتبت على الدبلوماسية التى تتبناها الولايات المتحدة أنها عززت دور إيران فى العراق، وذلك لأن المالكى يُعَد المرشح المفضل فى نظر إيران لتولى منصب رئيس الوزراء. وعلى هذا، ففى اللحظة التى تقود فيها الولايات المتحدة حملة عالمية لعزل إيران بسبب برنامجها النووى، فإنها تعمل على تعزيز مكانة إيران الإقليمية.

ولا يقتصر الخلاف بين الولايات المتحدة وإيران على القضية النووية .فقد واجهت الجهود الأميركية الرامية إلى إعادة بدء محادثات السلام الإسرائيلية الفلسطينية معارضة صلبة من جانب إيران، المستمرة على سياستها التى دامت ثلاثين عاماً حتى الآن فى معارضة أى جهود لتعزيز السلام فى المنطقة .والواقع أن إيران تمارس نفوذاً كبيراً على الجهات الفاعلة الحكومية أو غير الحكومية التى يشكل دعمها ضرورة لا غنى عنها لأى سلام طويل الأمد فى الشرق الأوسط.

وتأتى سوريا فى مقدمة هذه الجهات. ويبدو أن العراق فى مرحلة ما بعد الانتخابات كانت بمثابة الفرصة السانحة للولايات المتحدة لدق إسفين بين إيران وسوريا .ففى حين تشجع إيران الأحزاب الشيعية فى العراق، فإن مصالح سوريا هناك تميل فى اتجاه القومية العلمانية، التى كانت متمثلة فى ائتلاف رئيس الوزراء السابق إياد علاوى، الذى نجح فعلياً فى إلحاق الهزيمة بالمالكى فى الانتخابات البرلمانية فى وقت سابق من هذا العام. والواقع أن سوريا كانت تؤيد علاوى طيلة الأعوام السبعة الماضية .ولكن على الرغم من ذلك، وفى أعقاب ضغوط دبلوماسية مكثفة من جانب الولايات المتحدة وإيران لصالح المالكى، حولت سوريا ظاهرياً دعمها فى استجابة لهذه الضغوط.

ومن الواضح أن تأثير هذه الزلة الأميركية أصبح محسوساً الآن، حيث شجع الرئيس الإيرانى محمود أحمدى نجاد على القيام بزيارته الاستفزازية إلى لبنان، والتى اشتملت على الظهور فى مناسبات علنية عامة فى مناطق يسيطر عليها حزب الله بالقرب من الحدود الشمالية لإسرائيل.

وكانت دول الخليج، وخاصة المملكة العربية السعودية، تقاوم حتى الآن الضغوط الأميركية الرامية إلى حملها على تأييد المالكى .فمن المؤكد أن هذه البلدان لا تستطيع أن تنسى أن المالكى كان مسؤولاً أثناء عملية التطهير العرقى للمسلمين السُنّة فى بغداد .وينظر حكام هذه البلدان إلى إيران . وبالتالى تقرب المالكى منها . باعتبارها تهديداً لوجودهم .وتنظر الكويت والمملكة العربية السعودية والبحرين بصورة خاصة إلى إيران بوصفها سبباً فى إثارة الاضطرابات بين التجمعات السكانية الشيعية الكبيرة هناك.

كما قاومت النخب السياسية فى العراق رغبة المالكى فى الحصول على ولاية ثانية لسببين .الأول أنهم منزعجون من احتمالات تجدد المحاولات الإيرانية لزعزعة استقرار العراق .فقد اعترضت قوات الأمن مؤخراً مفجرين انتحاريين يحاولون الدخول إلى كردستان العراق من إيران، بدعم من الاستخبارات الإيرانية وبتدريب منها، طبقاً لمزاعم الزعماء الأكراد.

والثانى أن ولاية المالكى كانت مقلقة إلى حد كبير بالنسبة لهؤلاء الذين يؤمنون بالديمقراطية والانتقال السلمى للسلطة. فقد عمل المالكى على إنشاء قوات أمنية . عمل بعض أفراد منها كفرق إعدام، كما أوردت بعض التقارير . مسؤولة منه وتحت قيادته المباشرة، فتجاوز بالتالى التسلسل الدستورى للقيادة .كما عمل على وضع أقرانه فى محل ضباط الجيش والأمن.

وفى شهر مارس/آذار الماضى، بينما ترددت الشائعات بأنه قد يخسر التصويت، أكد المالكى أن أمن الدولة سوف يصبح مهدداً فى حالة خسارته، مشيراً إلى مسؤوليته عن الحفاظ على النظام .وحين خسر بالفعل، طالب المالكى بإعادة فرز الأصوات، ليس كمرشح، ولكن بوصفه القائد العام للقوات المسلحة .وحقيقة أن المالكى، على الرغم من شغله للمنصب، لم يتمكن من تأمين فترة ولاية ثانية بعد مرور سبعة أشهر من الانتخابات، تدلل على المعارضة الواسعة النطاق لاستمراره فى الحكم بين أهل الطبقة السياسية فى العراق.

ولا يوجد سوى سبيل واحد لتفسير القرار الذى اتخذته الإدارة الأميركية بفرض مثل هذه الضغوط السياسية لصالح الرجل المفضل لدى إيران فى العراق :ألا وهو تعهد أوباما أثناء حملته الانتخابية الرئاسية بالانسحاب من العراق أثناء فترة ولايته الأولى.

وفى هذا يقتدى أوباما بالرئيس جورج دبليو بوش، الذى سمح للأجندة الانتخابية فى الولايات المتحدة، وليس المصالح الوطنية الأميركية . ناهيك عن المصالح الوطنية العراقية . بإملاء السياسة التى انتهجتها إدارته فى التعامل مع العراق .فقد أصرت إدارة بوش على أن العراق لابد وأن تحقق إنجازات" مهمة ". الانتخابات التى لم تكن البلاد جاهزة لعقدها، والانتهاء من وضع الدستور فى ستة أسابيع، على سبيل المثال لا الحصر. لمجرد خلق وهم الإنجازات الكبرى قبل انتخابات ٢٠٠٤ الرئاسية أو انتخابات التجديد النصفى فى عام.٢٠٠٦

وعلى نحو مماثل، تحاول إدارة أوباما الآن فرض ما تعتبره أسهل وسيلة لتشكيل حكومة جديدة فى العراق . حتى ولو كانت موالية لإيران . ليس لأن ذلك يصب فى المصلحة الوطنية الأميركية، بل لتمكين الإدارة من الخروج السريع قبل حملة إعادة انتخاب الرئيس.

إن السياسة التى تنتهجها الولايات المتحدة فى العراق تعمل الآن على تعزيز قوة إيران على المستوى الإقليمية على حساب حلفاء أميركا العرب، الأمر الذى لابد وأن يؤدى إلى تقويض الجهود الأميركية الرامية إلى صنع السلام فى الشرق الأوسط، وإضعاف الديمقراطية الوليدة فى العراق. والحق أنه لمن الصعب أن نتخيل مجموعة أسوأ من هذه النتائج بالنسبة للمصالح الأمنية القومية للولايات المتحدة فى هذه المنطقة البالغة الأهمية من العالم.

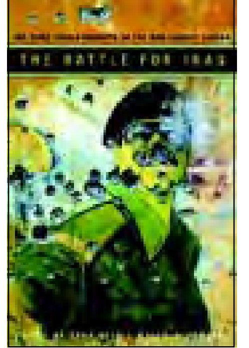


فيصل أمين رسول الاسترابادى مدير مركز دراسات الشرق الأوسط التابع لجامعة إنديانا، وكان يشغل منصب سفير العراق ونائب ممثلها الدائم لدى الأمم المتحدة أثناء الفترة٢٠٠٧-٢٠٠٤ ، كما كان من بين كبار الخبراء الذين عملوا على صياغة الدستور المؤقت للعراق فى عام ٢٠٠٤. ■

Feisal Amin Rasoul al-Istrabadi, is a Director of the Center for the Study of the Middle East at Indiana University, served as Iraq's Ambassador and Deputy Permanent Representative to the United Nations from 2004-2007, and was principal legal drafter of its 2004 interim constitution

فيصل أمين الاسترابادى

ترجمة :أمين على



The Battle for Iraq: BBC News Correspondents on the War against Saddam, by Malcolm Downing.

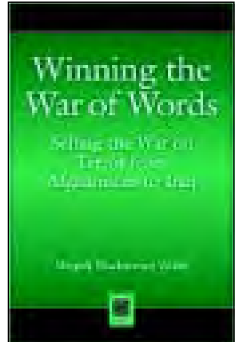
المعركة من أجل العراق: مراسلو البى بى سى يتحدثون عن الحرب ضد صدام

The Johns Hopkins University Press, 2003

Pp216, $37.00

فى هذا الكتاب يقدم أفضل مراسلى هيئة الإذاعة البريطانية (BBC) تاريخًا متوازنًا يمكن فهمه ومتعدد النواحى بصورة متفردة للصراع فى العراق، يسير بالقارئ عبر كل مرحلة من مراحل الأزمة العراقية. تروى الفصول الأولى من الكتاب التعبير المتكرر لإدارة بوش عن رغبتها فى تخليص العراق من صدام حسين، والنهاية الحاسمة فى الأمم المتحدة لمسألة امتلاك العراق لأسلحة الدمار الشامل المزعومة، والانقسامات بين الولايات المتحدة والمملكة المتحدة من جهة وبقية دول العالم من جهة أخرى. ينتقل المراسلون بعد ذلك إلى الصراع نفسه: الاستراتيجية العسكرية لقوات التحالف وتطبيق استراتيجية «الصدمة والترويع (shock and awe)»، والانهيار السريع لنظام صدام حسين. يشتمل الكتاب كذلك على روايات مباشرة من خطوط المواجهات المسلحة ينقلها المراسل الأشهر راجح عمر. ويصف «ألان ليتل» فى الفصل الأخير النهاية الدموية والمحبطة للصراع القصير، من إعلان الرئيس بوش أن «المعارك الرئيسة قد انتهت» إلى قصف مراكز الأمم المتحدة فى بغداد ومسجد الإمام على فى النجف - ويتأمل مستقبل العراق المضطرب.

■



Wars on Terrorism and Iraq: Human Rights, Unilateralism and US Foreign Policy

الحروب على الإرهاب والعراق: حقوق الإنسان، القوة الأحادية والسياسة الخارجية للولايات المتحدة

Margaret Crahan (Editor), John Goering (Editor), Thomas G. Weiss (Editor).

Routledge 2005,

Pp 272, $195.75

يقدم هذا الكتاب تحليلاً نقديًا فى مجموعة من المقالات بشأن تأثير الحرب على الإرهاب والحرب على العراق على حقوق الإنسان، وكذلك التوترات ذات الصلة بين الأحادية والتعددية كما تمارسهما الولايات المتحدة فى سياستها الخارجية. يبحث المساهمون المميزون فى هذا الكتاب فى العواقب التى تسببت فيها الولايات المتحدة - بوصفها النصير التقليدى لحقوق الإنسان والديمقراطية - بانتهاجها سياسات لا تنتصر لمبدأ القانون وحسم الصراعات بالتفاوض. وتقترح هذه المقالات أيضا سياسات فعالة لتعزيز حقوق الإنسان من أجل تحقيق تفاهم سلمى بين الشعوب والاستقرار على المستوى الدولى.

■

Winning the War of Words: Selling the War on Terror from Afghanistan to Iraq

الانتصار حرب الكلمات: بيع الحرب على الإرهاب لأفغانستان والعراق

Wojtek Mackiewicz Wolfe

Praeger 2008

Pp 152, $86.95

عبر التاريخ وبشكل خاص خلال الأزمنة المعاصرة حددت الخطابة الرئاسية النغمة السائدة فى السياسة الخارجية، ليس للكونجرس وحسب بل وبشكل رئيس لعامة الشعب الأمريكى. وبالتالى فالسياسة الخارجية الأمريكية يتم تسويقها بصورة نشطة لعموم الأمريكيين. يصف هذا الكتاب استراتيجية التسويق للحرب على الإرهاب وكيف دفعت هذه الاستراتيجية الرأى العام نحو دعم انتشار الحرب من أفغانستان إلى العراق. يبحث المؤلف فى كيفية تهيئة الإطار المبدئى لهجمات سبتمبر ليشكّل منصة لخلق دعم شعبى طويل الأمد للحرب على الإرهاب والتدخل العسكرى فى العراق. وعن طريق البحث فى بيانات الرأى العام وقرابة ١٥٠٠ خطاب رئاسى خلال أربع سنوات يذهب مؤلف الكتاب إلى أن التأطير الرئاسى للتهديدات والخسائر، بدلا من المكاسب، ساهم فى خلق الدعم الشعبى للحرب فى أفغانستان والعراق وإعادة انتخاب بوش لولاية ثانية. فى البداية تم تأطير التهديد الإرهابى مباشرة بعد الحادى عشر من سبتمبر ثم تم تأكيده باحتلال أفغانستان. اضطلع بوش بتسويق استراتيجية الحرب الوقائية وقاد البلاد إلى حرب بذريعة البحث عن أسلحة الدمار الشامل. وحتى بعد انقضاء سنتين على احتلال العراق ظل ٥٢٪ من الأمريكيين يعتقدون أنه ينبغى للولايات المتحدة أن تبقى فى العراق إلى أن تنعم الأخيرة بالاستقرار. هذه القاعدة الكبيرة من الخطب الرئاسية إلى جانب الدراسة سوف تكون إضافة مهمة للباحثين الراغبين فى تعليم الطلاب الخريجين وطلاب مرحلة ما قبل التخرج وسائل البحث الكيفى.

■



Voicing Dissent: American Artists and the War on Iraq, by Violaine Roussel.

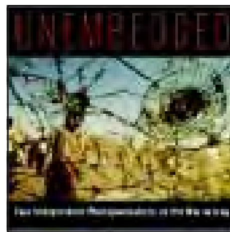
Routledge, 2010/ 304 pp/ $93.50

يعرض هذا الكتاب سلسلة فريدة من المقابلات الصحافية مع فنانين أمريكان ممن جاروا بمعارضتهم للحرب على العراق. وسيرًا على درب بيير بورديو تنتهج هذه المقابَلات المقاربة الاجتماعية (السوسيولوجية) وتقدم تحليلاً مستفيضاً للعلاقات بين الفنون والسياسة بالإضافة إلى حدود الخطاب والفعل السياسى وشروطهما. يكشف هؤلاء الرسامون والموسيقيون والممثلون وكتاب المسرحيات والمخرجون المسرحيون ومنتجو الأفلام عن آرائهم فى السياسة والحرب وقضية الأمن والإرهاب والشرق الأوسط، وخبراتهم فى الجهاد السياسى (activism) وكذلك تعريفهم لدور الفنان وممارساتهم للمواطنة. والكتاب بطرحه أسئلة محورية على الديمقراطيات المعاصرة - مثل وظيفة الفنان فى المجتمع، وأزمة الشرعية السياسية والتمثيل السياسى، والقيود المفروضة على حرية التعبير، يشكّل موردًا للباحثين فى مجالات علم الاجتماع والسياسة والفنون.

■

Unembedded: Four Independent Photojournalists on the War in Iraq

غير محصور: أربعة مصورين صحفيين مستقلين يتحدثون عن الحرب فى العراق



Ghait Abdul Ahad

Chelsea Green Publishing Company, 2005

Pp192, $15.50

نجحت جهود البنتاجون فى «احتواء ودمج» الصحافة مع القوات الغازية فأسفر ذلك عن إخفاء حقائق كثيرة متعلقة بالحرب على العراق، وهذه مسألة يعرضها بوضوح هذا الكتاب بما يضمه من مجموعة صور التقطتها كاميرات أربعة مصورين صحافيين مستقلين رفضوا الاندماج مع قوات الاحتلال فالتقطوا صورًا قلّما تظهر مثيلاتها فى الصحافة السائدة. تتضمن الصور الملونة مشاهد للحرب تتجاوز التصوير البطولى للجنود الغزاة، فتعرض المعارك من منظور المقاومة، والمدنيين الذين قتلوا بنيران أمريكية وأقربائهم المنتحبين، والمبانى التى جرى تفجيرها. كذلك تعرض هذه الصور مظاهر أخرى للحياة فى العراق تحت وطأة الاحتلال: صورًا لنساء اجتمعن فى مطعم، ولطقوس الزواج التقليدى فى العراق، ومَشاهد للحجاج الشيعة، وصورًا داخل مصحة نفسية وغيرها.

■

فــى أرشـــــــــيـــف وجــهــات نــظــر

العراق.. حرب بوش المزيفة

- ريتشارد راسل: الحرب ومعضلة العراق ـ نوفمبر ٢٠٠٢
- أنتونى كوردســمان: التقييم الأمريكى لقدرات العــراق العســكرية ـ نوفمبر ٢٠٠٢
- أناتول لايفن: البترول هو الهدف.. واسرائيل هى الشريك ـ ديسمبر ٢٠٠٢
- سلامة أحمد سلامة: من أزمة الصواريخ الكوبية الى أسلحة الدمارالعراقية ـ ديسمبر ٢٠٠٢
- وليام نوردهاس: فاتورة حرب العراق.. من يدفعها هذه المرة ــ يناير ٢٠٠٣
- أنتونى كوردسمان: أعراض الحرب والسلام فى العراق ـ فبراير ٢٠٠٣
- محمد حسنين هيكل: هذا الإعصار الأمريكى ـ أبريل ٢٠٠٣
- أيمن الصياد: من دفتر ملاحظات الحرب ــ أبريل ٢٠٠٣
- طالب البغدادى: من أحرق بغداد؟ التراث.. الذاكرة.. التاريخ ـ مايو ٢٠٠٣
- روبرت فيسك: شاهد عيان.. حرب تحرير أم «تدمير» ـ مايو ٢٠٠٣
- نصير شمة: بين جناحى ثور عظيم! ـ مايو ٢٠٠٣
- جلال أمين: الحملة على العراق أولى مراحل الاستعمار ـ مايو ٢٠٠٣
- يوسف القعيد: صدام حسين فى قصر النهاية! ـ مايو ٢٠٠٣
- محمد حسنين هيكل: ساسة وجنرالات بين واشنطن وبغداد! ـ أغسطس ٢٠٠٣
- ويزلى كلارك: الخطأ الأمريكى فى العراق ــ نوفمبر ٢٠٠٣
- تشالمرز جونسون: بيزنس الحرب ــ يناير ٢٠٠٤
- محمدالسطوحى: عام على الغزو: أولى حروب القرن بعيون أمريكية ـ أبريل ٢٠٠٤
- محمد عبد العاطى: من يطلق النارفى العراق؟ ـ أبريل ٢٠٠٤
- سلامة أحمد سلامة: أبو غريب.. الوجه الآخر للإرهاب ـ يونيو ٢٠٠٤
- هانز بليكس: لماذا قامت الحرب؟! ـ يونيو ٢٠٠٤
- ريتشارد جارفيلد: قتلى العراق فى الحرب الأمريكية ـ ديسمبر ٢٠٠٤
- أيمن الصياد: العراق الجديد ــ ديسمبر ٢٠٠٤
- عماد خورى: أرادوه خاليا من الأسلحة.. فأصبح خاليا من العلماء ــ أبريل ٢٠٠٥
- بيتر جالبيرث: العراق.. جمهورية بوش الإسلامية ــ سبتمبر ٢٠٠٥
- بشير موسى نافع: عراق واحد.. أم أكثر من عراق؟! ـ نوفمبر ٢٠٠٥
- توماس ريكس: المغامرة الأمريكية فى العراق!! ـ سبتمبر ٢٠٠٦
- سلامة أحمد سلامة: مأزق الخروج من جحيم العراق ـ ديسمبر ٢٠٠٦
- كريستيان كاريل: ... وماذا عن العراقيين ـ مارس ٢٠٠٧
- كريس فلويد: بترول العراق.. الجائزة الكبرى! ـ يوليو ٢٠٠٧
- الكاردينال ثيودور إى. ماكاريك: الضحايا المنسيون ــ نوفمبر ٢٠١٠

فــى المـكـتـبـــة



Iraq: The Moral Reckoning

العراق: كشف الحساب الأخلاقى

Craig M. White
Lexington Books, 2010
Pp 290, $29.95

يمثل هذا الكتاب تطبيقاً مكثفاً للمعايير الستة للنظرية الكلاسيكية للحرب العادلة على قرار شن الحرب على العراق ٢٠٠٣، من خلال وزن المعلومات المتاحة فى ذلك الوقت من طيف عريض من المصادر. وينتهى كريج م. وايت إلى أن ذلك القرار لم يستوفِ إلا نقطة واحدة من بين المعايير الستة بينما على الحرب العادلة أن تستوفى كل المعايير. ويكمل الكتاب هذه المعايير بالمبادئ الأخلاقية واسعة الانتشار ويدحض حجج المحافظين الجدد بأن الحرب استوفت المعايير اللازمة لشن حرب عادلة ضد العراق.

■



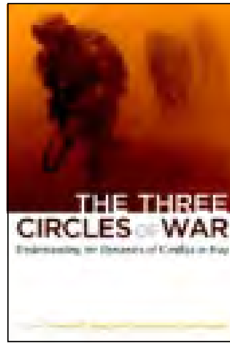
Street Art and the War on Terror: How the World's Best Graffiti Artists Said No to the Iraq War

فن الشارع والحرب على الإرهاب: كيف قال أفضل فنانى الجرافيتى فى العالم لا للحرب على العراق

Xavier A. Tapies (Author), Eleanor Mathieson (Editor)
Korero Books (2007) - Pp 176, $26.60

يجمع هذا الكتاب مجموعة مدهشة من صور الجرافيتى (graffiti) المناهضة للحرب والمناهضة لكل من بوش وبلير، تلك الصور المرسومة على الحوائط فى الشوارع من أماكن مختلفة: الولايات المتحدة الأمريكية، كندا، أوروبا، أستراليا، الشرق الأوسط، واليابان. تحفظ هذه المجموعة المثيرة للجدل العديد من الصور الفريدة التى لم يستمر ظهورها على الحوائط فى الشوارع سوى ساعات قليلة قبل إزالتها. تشتمل هذه المجموعة على تأريخ لمعارضة الحرب بحسب القارات وتعليقات فنانى الجرافيتى أنفسهم، وبذلك يعد هذا الكتاب سجلاً رئيساً للمعارضة السياسية منذ هجمات سبتمبر ٢٠٠١.

■



The Three Circles of War: Understanding the Dynamics of Conflict in Iraq

الدوائر الثلاث للحرب: فهم ديناميكية الحرب على العراق

Heather S. Gregg (Editor), Hy S. Rothstein (Editor), John Arquilla (Editor)
Potomac Books Inc. (2010)
Pp 272, $35.62

اتسم الصراع فى العراق بثلاثة أوجه للحرب: صراع بين الدول، حرب أهلية، والتمرد (insurgency). بدأ غزو التحالف للعراق بوصفه حربا بين التحالف والعراق، ثم ما لبث أن واجه التحالف تمرداً عنيفاً بعد خلع صدام حسين. وبعد أن فجرت منظمة القاعدة ضريح العسكرانى الشيعى فى ٢٠٠٦ اتخذ الصراع وجهاً آخر وهو الحرب الأهلية، وتصاعد العنف الطائفى بين السنة والشيعة.

وعلى ذلك فزيادة القوات الأمريكية فى ٢٠٠٧ تجاوزت مجرد إرسال مزيد من القوات، بل تغيرت المهمة وأصبحت الأولوية إحلال الأمن العام. وهذا الاتجاه الجديد تعامل فى نفس الوقت أيضاً مع التمرد بالإضافة إلى الحرب الأهلية عن طريق تشكيل علاقات جديدة قائمة على الثقة بين الأمريكان والعراقيين وبين السنة والشيعة. يتسم هذا الكتاب باستنتاجاته الواسعة فيما يتعلق بالقرارات المستقبلية بشأن الحرب والسلام فى القرن الحادى والعشرين.

■



Omar al-Bashir by Kerry Waghorn ©

السودان
جناية التاريخ والجغرافيا

السودان.. أين نعلق الجرس؟

حسن مكي

■ أول ما برز مصطلح السودان الجديد كان فى الأربعينيات من القرن المنصرم حينما والت الصدور جريدة يومية كان يرأسها نقيب الصحفيين السودانيين الأستاذ أحمد يوسف هاشم، وكانت واحدة من جملة الصحف التى تتحرى فكرة الجامعة السودانية، كما سارت فى اتجاه خط الجبهة الاستقلالية التى رأت طموحاتها ترتكز فى قيام جمهورية سودانية مستقلة على عكس التيار الاتحادى بأشواقه المتعلقة بوحدة وادى النيل، ثم ما لبث أن برز هذا المصطلح من جديد فى البيان الافتتاحى للحركة الشعبية لتحرير السودان والجيش الشعبى لتحرير السودان بقيادة جون قرنق الصادر فى عام ١٩٨٣، حيث ركز البيان على طبيعة الحركة الجديدة التى تستخدم العنف ومنهج الثورة لتغيير الأوضاع فى السودان القديم وتحطيم الهياكل القديمة وتحرير الخرطوم، وقيام سودان اشتراكى علمانى ديمقراطى، وتحرير كل السودان من سيطرة الأقلية الخرطومية كناية عن إضعاف ثقافة المركز الإسلامى العربية.

واختلفت الحركة عن حركات التمرد الجنوبية حيث طرحت نفسها كحركة لتحرير كل السودان وعرفت شمال السودان بأنه فقط مديرية الخرطوم والجزيرة، بينما نظرت إلى كل مناطق السودان الأخرى مثل كردفان ودارفور وشرق السودان والشمالية القديمة وغيرها كمناطق متخلفة تستوى فى ذلك مع المديريات الجنوبية، وبذلك فإنها تعتبر مجالاً حيوياً للحركة الشعبية وتتوفر فيها إمكانيات الثورة، ولذلك اعتبرت الحركة إنها مجرد مقدمة لزحف ثورى كبير ينتظم كل مناطق السودان بحيث يشكل الجنوب قاعدة انطلاق ثم يلى ذلك جبال النوبة فجنوب النيل الأزرق ومناطق البجا ثم دارفور.

وقامت الحركة على فكرة بسيطة مستندة على الإحصاء السكانى للسودان لعام ١٩٥٥ والذى أبرز أن فقط ٣٩٪ من سكان السودان يشكلون المكون العربى وأن البقية أفارقة وزنج، ولكن كان تعريف العروبة فى هذا الإحصاء محصوراً فى النقاء العرقى، بينما لا يوجد فى السودان نقاء عرقى، ولا نقاء لغوى لأن العروبة فى السودان إنما هى اللسان، واعتبر الإحصاء أن من له لساناً آخر بجانب اللسان العربى ليس عربياً، وبهذا خرجت جملة قبائل السودان المسلمة التى تتكلم بجانب العربية بلسان محلى عن العروبة، علماً بأن ثقافتها إسلامية عربية وأشواقها إسلامية عربية، وتشكل بجانب الناطقين باللغة العربية، كلغة أم أكثر من ٨٠٪ فى سكان السودان.

نجحت الحركة الشعبية فى استقطاب دعم هائل من أثيوبيا وليبيا وكوبا والدول الاشتراكية والأفريقية، وجاءت أول دفعات سلاح معتبرة للحركة من ليبيا والتى أرادت أن تؤدب الرئيس السابق جعفر نميرى وتطيح بنظامه لتأييده لكامب ديفيد، وتحالفه مع السادات، وإيوائه للمعارضة الليبية أما نظام الرئيس منجستو، فقد اعتبر الحركة شريكاً استراتيجياً فوهبها إذاعة كاملة بثت منها ثقافتها الجديدة القائمة على الدعوة للثورة فى المناطق المهمشة ضد ثقافة المركز وضد سيطرة المركز، كما فتحت أبواب الكليات العسكرية الأثيوبية لمنسوبى الحركة، كما فتحت المدارس السياسية الأثيوبية لتأصيل كوادر الحركة على مبادئ الاشتراكية، كما فتحت الدبلوماسية الأثيوبية الآفاق أمام الحركة للتدريب والتسليح فى البلدان الأفريقية والاشتراكية، وكان الهدف فى المرحلة الأولى خلق جيش بديل يتفوق على الجيش السودانى فى العدة والعتاد، وتتكون نواته الصلبة من مائة ألف مقاتل، بالإضافة لتسليح القبائل والقوى المعينة الأخرى، وجاءت ظروف سودانية ودولية لتخدم الحركة، منها رضوخ الرئيس السابق جعفر نميرى لمطالب الجنوبيين الاستوائيين لتقسيم الجنوب إلى ثلاثة كيانات، ثم إن نظام نميرى دخل فى عزلة عربية ودولية بسبب تهجيره للفلاشا، كما إنه ضعف داخلياً بسبب خصامه مع الحركة الإسلامية، مما أدى إلى ضعف الجبهة الداخلية وانسحب ذلك على القوات المسلحة مما سهل مهمة جون قرنق، مما أدى فى النهاية للإطاحة بنظام نميرى فى أبريل ١٩٨٥. ولعل أهم نجاح للحركة الشعبية فى الفترة الانتقالية تمثل فى إجبارها لحكومة السيد/ الصادق المهدى على إلغاء اتفاقية الدفاع المشترك بين مصر والسودان.

ثقافة الكراهية:

نجح خطاب الحركة الشعبية القائم على مفردات الاشتراكية والتقدمية والتهميش أن يقع موقعاً حسناً، فى نفوس اليسار السودانى المصدوم بتجربته مع نظام الرئيس النميرى، والراغب فى تصفية الحسابات مع المؤسسة العسكرية السودانية ومع نظام الرئيس نميرى، وبذلك دخل فى تحالف غير معلن مع الحركة الشعبية لتحرير السودان ودعمها ببعض كوادره من الداخل وفى المهجر، كما خدم خطيها الفكرى والإعلامى، وكان من أجل الخدمات كتاب أصدره أستاذان جامعيان بعنوان (مجزرة الضعين أو الرق فى السودان) وهو كتاب كتب بصورة تعبوية ضد حادثة معزولة تطورت من عراك بين قبيلة ذات جذور عربية وهى المسيرية وقبيلة الدينكا التى ينتمى لها جون قرنق، ومع أن نهاية الحدث كانت مؤلمة إلا أنه تحول فى الكتاب إلى كارثة قومية واستعلاء عرقى مركز فى العقل السودانى وأصبح الكتاب وقوداً تتناوله الكنائس فى مؤتمراتها العالمية والإقليمية والمحلية كما تناولته كبريات الصحف العالمية، ثم جاء بعد ذلك كتاب الأستاذ محمد إبراهيم نقد سكرتير الحزب الشيوعى فى السودان بعنوان «علاقات الرق فى المجتمع السودانى» وهو كتاب يصور المجتمع السودانى مجتمعاً نهض على مرتكزات هياكل السخرة والعبودية فى الحقبتين التركية والمهدية، كما جاء كتاب آخر للسياسى الجنوبى المعروف ابل الير بعنوان «مشكلة جنوب السودان والتمادى فى نقض المواثيق». والتى صور فيها كذلك العلاقات بين الشمال والجنوب كعلاقات سخرة وأن الكنيسة وهى التى مثلت صوت خلاص لأهل الجنوب، وصور الشماليين كأنهم شياطين والجنوبيين كأنهم ملائكة، كما برزت كتابات د. منصور خالد «هكذا تحدث جون قرنق» وغيرها، وازدهر فى هذا الإطار أدب الشكوى وثقافة الكراهية التى وقف عليها شباب ساخط وبتمويل سخى من الهيئات الاستخبارية والجماعات ذات الأجندة السياسية وفى فترة من الفترات أصبحت إذاعة الحركة الشعبية لتحرير السودان فاعلة ومسموعة أكثر من إذاعة أم درمان، وبقية الإذاعات العربية، ولكن ما لبثت أن تلاشت هذه الهيبة الأسطورية لثقافة الحركة الشعبية وخطابها السياسى على الأخص بعد وصول الحركة الإسلامية واستلامها للسلطة السياسية فى ٣٠ يونيو ١٩٨٩.

ومع أن نظام الإنقاذ استطاع عن طريق التعبئة العسكرية والجهاد وإعطاء الحرب مع جون قرنق أولوية، وتدمير هياكل حركة الجيش الشعبى لتحرير السودان مما أدى إلى انقسامه، وانفضاض الكثيرين عنه حتى إن قوام جيشه تناقص من مائة ألف أو يزيد إلى ما يقل عن الخمسين ألفاً، ولكن النجاح الأكبر للحركة الشعبية تمثل فى نجاحها فى نقل دائرة الحرب خارج نطاق الجنوب حيث أصبح لها وجود معتبر فى جبال النوبة بقيادة المرحوم يوسف كوة، والقائد عبد العزيز الحلو، كما تمددت فى مناطق الانقسنا والفونج تحت قيادة العمدة أبو شتولا والقائد مالك عقار، وكذلك سعت الحركة فى عام ١٩٩١ للدخول إلى مناطق دارفور حيث أرسلت جيشاً بقيادة أحد أبناء الفور المنشقين عن الحركة الإسلامية وهو المرحوم داود يحيى بولاد وفى معيته عبد العزيز الحلو القائد الثانى لمنطقة جبال النوبة وكان يهدف للتحصن فى سلسلة جبل مرة المنيعة وكان تحت قيادتهما خمسة آلاف مقاتل، ولكن تمت إبادة الحملة عن آخرها، نسبة لأن المجتمع المحلى بكل مكوناته رفضها، بما فى ذلك القبائل الأفريقية الفور والزغاوة، التى ناصرت الحكومة، وحاربت مع الجيش القومى متناسية خلافاتها الداخلية وصراعاتها المتأججة حول المرعى والماء والتى راهن عليها قرنق فى محاولاته الأولية فى اختراق دارفور.

وقد وجدت الحركة الشعبية فى بداية التسعينيات أن الخريطة السياسية الإقليمية قد تغيرت حيث سقط نظام منجستو الشريك الاستراتيجى لجون قرنق، كما برزت إريتريا كداعم لنظام الإنقاذ كما أدى تفكك الاتحاد السوفيتى وسقوط الكتلة الاشتراكية إلى حرمان الحركة الشعبية من مدد الأممية، كما استدارت ليبيا لتصبح حليفاً لنظام الإنقاذ كما توجست يوغندا فى البداية من بروز نظام قوى فى السودان، أخذ يقوى فى حركة جيش الرب، حتى يوازن بها الجيش الشعبى لتحرير السودان، دفعت هذه المتغيرات المحلية والإقليمية والدولية أن يرجع جون قرنق مرة أخرى للجذور الأصيلة التى نهضت عليها حركة الثورة والمقاومة فى جنوب السودان وهى بريطانيا وإسرائيل وأوروبا الغربية والولايات المتحدة والكنيسة العالمية ولكن برز نضج وشطارة ودهاء قيادة الحركة الشعبية حينما استطاعت إعادة علاقاتها من إريتريا وأثيوبيا، وكذلك الدخول فى تحالف مع قوى السودان القديم، وكل المجموعات والكيانات والأحزاب المتضررة من قيام سلطة الإنقاذ وبرز ذلك فى مؤتمر القرارات المصيرية والذى عقد فى اسمرا فى عام ١٩٩٦ بزعامة من الحكومة الإريترية وحضور من أمريكا والدول الأوروبية الذى أدى لقيام التجمع الوطنى، وفى إطار مفهومية سياسية وبرنامج سياسى اعتمد العنف والثورة، ضم كل القوى السياسية المناهضة للإطاحة بنظام الإنقاذ، وأصبح السيد محمد عثمان الميرغنى، رئيساً للتجمع الوطنى الديمقراطى، وجون قرنق

أميناً عاماً وقائداً للواء السودان الجديد المناط به إحداث التغيير العسكرى.

ولعل أبرز نجاحات الحركة ظهر فى تمددها فى منطقة جنوب النيل الأزرق وبلغ هذا النجاح قمته حينما بسطت الحركة سيطرتها على مدينة الكرمك فى عام ١٩٨٨. وهى مدينة حاكمة ما بين أثيوبيا والسودان، كما يمتد منها طريق إلى مدينة الدمازين التى تخزن المياه للسودان ومصر، كما تتولد فيها الكهرباء التى تغذى معظم السودان، ومن سخريات الأقدار أن زعيم السودان حينها محمد الميرغنى سافر للعراق وأحضر كميات من العتاد العسكرى مكنت القوات المسلحة من استرداد الكرمك، ولكن بعد عشرة أعوام من ذلك أصبح السيد محمد عثمان الميرغنى رئيساً للتجمع الوطنى الديمقراطى المعارض وشريكاً لجون قرنق مما أدى إلى إسقاط الكرمك مرة أخرى فى يد جون قرنق وما تزال حتى يومنا هذا تسيطر عليها قوات جون قرنق تحت قيادة شريك من أبناء منطقة الفونج وهو القائد مالك عقار. وحينما زار وزير الدولة الفرنسى للشئون الخارجية فى يونيو ٢٠٠٤ الخرطوم، ودارفور أعقبها بزيارة أخرى لجون قرنق فى المدينة الشمالية المهمة مدينة الكرمك فذلك أمر له دلالاته ومغزاه.

أما بالنسبة لشرق السودان، فقد كان التجمع الديمقراطى متردداً فى قيام حركة ثورية مسلحة قوامها جمهور البجة، نسبة لأنها منطقة نفوذ للسيد محمد عثمان الميرغنى، والذى لم يكن راضياً على خروج البجة من تحت عباءته، خصوصاً أنه كون جيش الفتح كذراع عسكرى للاتحاد الديمقراطى.

ومهما يكن فقد انتهت التسوية فى مؤتمر أسمرا بالاعتراف بمؤتمر البجة تحت قيادة أحد أبناء المنطقة (أحمد محمد طاهر) وإن ظل تسليحه وتمويله وحركته محدودة، بينما تم التركيز على تنظيم آخر وهو تنظيم الفهود الحرة أو أسود الرشايدة، وهى قومية ذات جذور عربية هاجرت من الجزيرة العربية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر طلباً للمرعى وتوطنت فى مناطق البجة، وأصبحت كالبجة عابرة للحدود السودانية الإريترية، وإن كان ٨٠٪ منهم يقيمون فى الطرف السودانى.

وينظر الرشايدة لعلاقاتهم مع السلطات السودانية من خلال قضيتين:

القضية الأولى: هى قضية الاعتراف بكيانهم وإيجاد نظارة لهم وتعارض هذا القبائل المحلية، أى قبائل البجة صاحبة الأرض والتى لا ترفض وجودهم ولكن ترفض تخصيص كيان على أرض تقتطع لهم كمشيخة مستقلة.

أما الأمر الثانى فيتعلق بالصدام الشرس الذى وقع بينهم وبين سلطة ثورة الإنقاذ، حينما تصدت للمجموعات المتخصصة فى تهريب البضائع عبر البحر الأحمر وعبر إريتريا وصادرت بضائعهم وعرباتهم وطاردت شبابهم، والذى وجد الفرصة فى تصفية حساباته مع الحكومة فى تنظيم الفهود الحرة، والذى وجد التسليح



والتدريب والتمويل من إريتريا وتحت عباءة التجمع الوطنى الديمقراطى.

الحركة الشعبية وحريق دارفور:

كان من أبرز مكونات التجمع الوطنى الديمقراطى، وحلفاء جون قرنق فى دارفور «اتحاد السودان الفيدرالى الديمقراطى»، الذى يتزعمه السياسى السودانى المخضرم أحمد إبراهيم دريج (من قبيلة الفور) ونائبه دكتور شريف حرير من (قبيلة الزغاوة) وقد انصب جهدهم طيلة فترة نشاط التجمع الوطنى بتغذية النشاطات العسكرية للتجمع الوطنى فى كل من جنوب السودان، وجنوب النيل الأزرق والشرق، ولكن حينما نضجت اتفاقيات الشراكة السودانية الجنوبية بين الحكومة السودانية وجون قرنق وجد الاتحاد الفيدرالى نفسه معزولاً، وحينما طلبت قيادات دارفور من جون قرنق تمثيلهم فى المفاوضات الجارية مع الحكومة تعلل بأن الأمور لم تنضج فى دارفور، وأن الحريق لم يشتعل بما فيه الكفاية حتى ينتبه إليه العالم الخارجى، ويصبح جزءاً مهماً فى محاولات قسمة السلطة والثروة وإعادة هيكلة السودان القديم، لافتاً نظرهم إلى ما قام به من محاولات لإشعال الثورة فى دارفور، وكيف ضاع خمسة آلاف من رجاله غنيمة سهلة فى يد الحكومة السودانية فى عام ١٩٩١ بقيادة المرحوم بولاد. ولكن تنصل قرنق من التزامه تجاه بث الحياة فى «اتحاد السودان الفيدرالى الديمقراطى» كان يعود لسبب آخر، وهو أنه بالتعاون مع الاستخبارات الإسرائيلية وإريتريا كان قد أعد فيلقاً قوامه ألف ومائتا مقاتل من أبناء الفور والزغاوة والمساليت وتحت قيادة حلفائهم اليساريين ومنسوبى الحزب الشيوعى السودانى، وأصبح لهذا التنظيم اسم مشتق من الاسم الأصلى للحركة الشعبية لتحرير السودان حيث أصبح اسمه حركة تحرير السودان وبقيادة محام من الفور يسمى عبد الواحد محمد أحمد النور، بينما ذهبت الأمانة العامة وقيادة الجيش لأحد أبناء الزغاوة ويسمى منى اركاوى مناوى، واستفادت الحركة من العداوات التاريخية القديمة والمتأصلة فى نفوس أبناء المنطقة والأوهام المتعلقة بوجود مشروع لاستئصال الزرقة من أهل دارفور، وتعود أوهام هذا الأمر إلى مؤتمر عقد فى عام ١٩٨٧ باسم تضامن القبائل العربية دعمته بعض الجهات الليبية فى محاولاتها لتطويق تشاد، ومن العجيب أن القبائل العربية الكبرى كالرزيقات قاطعت هذا المشروع، بينما التقت فيه القبائل البدوية الصغيرة، ولم يكن لهذا المشروع أى أهمية تذكر، لولا خلفيات الحرب التشادية، الليبية. إذ وقر فى ذهن القبائل التشادية الزنجية، أن تسليح ليبيا للقبائل العربية التشادية بقيادة أحمد أصيل وغيره، القصد منه استضعاف مركز القبائل غير العربية الأخرى مثل القرعان. والتى كانت تساند حكومة الرئيس حسين هبرى كما تصاعدت هذه النبرة فى كل مناطق الحزام السودانى على غرار ما حصل من صراع بين موريتانيا والسنغال، وبين الطوارق وإخوانهم فى مالى



كما يقولون فإن مشكلة السودان الرئيسية أنه جنوب مصر وبالتالى فإنه عمق مصر، ومن يريد الإحاطة بمصر فعليه بالسودان، وازدادت أهمية السودان كذلك باكتشاف البترول واليورانيوم فيه، كما ازدادت أهمية أمن البحر الأحمر الذى يشاطئه السودان



والنيجر، ولكن خمدت هذه الحركة فى الحزام السودانى حينما اتجهت ليبيا لإحياء فكرة الجامعة الأفريقية والأفريقانية، خصوصاً بعد رفض القادة الأفارقة للحصار المفروض على ليبيا، ولكن ما إن تلاشت آثار المشروع فى مناطق الحزام السودانى الأخرى حتى ترسخت فى دارفور. وقامت على أساطير وأوهام أن هناك قبائل تريد استئصال قبائل حركات سياسية وعسكرية.

وما لا يعرفه الكثيرون الدور المصرى فى نشأة السودان، بل حتى لفظ السودان نفسه إنما أطلقه الخديوى إسماعيل فى أحد فرماناته. مسمياً به هذا الكيان، والذى صنعته مصر وعلى مراحل، ففى المرحلة الأولى تم احتواء سلطنة الفونج والتى كانت تحكم السودان النيلى الوسيط والذى كان يجاور مصر وذلك فى عام ١٨٢٠ ثم أدخلت مصر فى إطار مملكة الفونج مناطق جنوب السودان الحالية فى عام ١٨٢١ وبعد ثلاثة وخمسين عاماً ألحقت بها أى فى عام ١٨٧٤دارفور وأطلق الخديوى إسماعيل على هذا المولود المؤلف من ثلاثة كيانات اسم السودان وظل الحنين للاستقلال يراود أصحاب مملكة دارفور وهم أساساً الفور والزغاوة والمساليت وبعض القبائل الأفريقية الأخرى الصغيرة، علماً بأن دارفور تبلغ مساحتها مائتى ألف ميل مربع وتشاركها ١١٣ قبيلة معظمها تدعى النسب العربى ومع أن دارفور هى المنطقة الوحيدة فى السودان التى ليست بها كنيسة ويعتنق كل أهلها الإسلام، بل إن أكبر نسبة فى حفظ القرآن الكريم ربما توجد وسط قبائل الفور، إلا أن دارفور كذلك ظلت منطقة حروب وصراع مع سلطنة وداى أى تشاد فى تجاه الغرب، وفى حروب مع القبائل العربية العابرة للحدود السياسية لدارفور كالرزيقات والزيادية والمحاميد، كما ظلت الحروب سمة مع القبائل التى تشاركها الأرض كالقمر والبرتى والبرقد والبرنو وغيرها ولم تهدأ دارفور لا فى ظل الحكم المصرى ١٨٢١ . ١٩٨٥ ولا فى إطار المهدية ١٨٨٥ . ١٨٩٨ ولا حتى فى ظل الحكم الثنائى.

ومن المعروف أنه حينما انشغل الخليفة عبد الله، بمهام التصدى لحملة كتشنر فى ديسمبر ١٨٩٨، انسحب على دينار من أبناء سلاطين الفور وأبناء عمومته هاربين إلى الفاشر، حيث أحيوا مملكة أجدادهم من جديد ابتداء من عام ١٨٩٩, واعتمد السلطان على دينار تعاليم واوراد الطريقة التجانية كأساس روحى لدولته بدلاً من الأيديولوجية المهدوية، كما سعى لإقامة علاقات جوار مع ليبيا والأشراف فى العالم الإسلامى، وحينما أطلت الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ قام بمراسلة سلطان تركيا، وكانت عواطفه مع المحور الذى يضم ألمانيا وتركيا فى وجه الحلفاء مما جلب عليه غضب بريطانيا التى قذفته بالطائرات وربما كانت أول منطقة يستخدم فيها الطيران العسكرى فى أفريقيا وراء الصحراء، كما أحيت بريطانيا العداوة التاريخية ما بين القبائل الرعوية البدوية ذات الجذور العربية، ومملكة الفور بقيادة السلطان على دينار وقامت بتسليح قبيلة الكبابيش فى حملتها لاستعادة دارفور وتم ذلك فى عام ١٩١٦ بقوة الحديد والنار وقتلت السلطان على دينار وأنزلت علم مملكة دارفور ورفعت العلمين المصرى والإنجليزى فى مكانه ليستبدلا بالعلم السودانى فى١٩٥٦/١/١.

ومنذ ذلك الوقت ترسخ فى أذهان أهل دارفور وجود كيانين: كيان رعوى بدوى تمتد جذوره إلى بقية أنحاء السودان بل وكذلك بقية أنحاء أفريقيا لأن حياته تقوم على البداوة وعبور الحدود طلباً للكلأ والمرعى، ونسبة لذلك فإنه يظل مرتبطاً بالسلطة القومية العابرة للحدود المحلية والولائية، وكيان قوامه القبائل الزراعية المرتكزة فى أرضها، وما ينتج من علاقات مع الأرض، ومع أن هذه القبائل، قبائل مسالمة، كما أن استقرارها يخلق بينها تجانساً مع الجغرافيا والتاريخ إلا أن علاقاتها تدهورت بشدة مع القبائل الرعوية على الأخص بعد موجة الجفاف التى ضربت الساحل الأفريقى ابتداء من سبعينيات القرن المنصرم، مما عرض مزارع هذه القبائل للرعى الجائر من القبائل البدوية وحدوث الاحتكاكات والصراعات المألوفة، ولكن الجديد هو استخدام السلاح النارى الفتاك بدلاً من الأسلحة العتيقة، ولكن من أين جاء السلاح الفتاك؟

الجغرافية السياسية لدارفور

يمكن القول بأن من يحكم دارفور يستطيع تشكيل مناطق الحزام السودانى، وتاريخياً اخترق الفرنسيون منطقة دارفور قبل الإنجليز، ووصل قوادهم إلى مناطق دار مساليت حدود دارفور الغربية فى عام ١٩٠٠، وكان ممكناً أن تكون دارفور منطقة نفوذ فرنسى لولا المقاومة الباسلة التى أبداها السلطان تاج الدين ضد الفرنسيين، أما الأمر الثانى فهو انسحاب القوات الفرنسية بقيادة مارشان، حينما جابهت القوات الإنجليزية فى فشودة فى عام ١٨٩٩, ويقال أنه لولا انسحاب مارشان لوقعت الحرب العالمية الأولى فى عام ١٨٩٩ بدلاً من ١٩١٤ وربما تغير تاريخ الدنيا حينها لأن فرنسا ستكون جزءاً من المحور ضد بريطانيا العظمى، ومهما يكن فقد ظلت دارفور مركزاً لحركات المقاومة ضد الاستعمار الفرنسى فى تشاد، ومن رحم دارفور خرجت حركة فرولينا ١٩٦٥ والتى أسست لمشروع حكم النخب الإسلامية لجمهورية تشاد بدلاً من استئثار النخب التشادية المنتصرة بالسلطة والثروة، كما ظلت قبائل دارفور تسهم فى تشكيل حركة الحياة فى تشاد وأفريقيا الوسطى، ومن دارفور حكم إدريس ديبى تشاد والحق هزيمته المروعة بالقوات الليبية بقطاع ازو، ومن دارفور كذلك خرجت قوات إدريس ديبى التى أبعدت قبائل القرعان من السلطة لمصلحة نخب قبيلة الزغاوة، مما جعل السلاح النارى يتدفق من ليبيا وتشاد، كل يعزز من حليفه فى دارفور.



وحينما ضعفت هياكل السلطة فى أفريقيا الوسطى التى كانت يحكمها الرئيس السابق لى باتاسيه قامت ليبيا بنقل المعارضة التشادية لتصبح حرساً للرئيس باتاسيه، كما عززت ذلك بنقل قوات سودانية وليبية وجيبوتيه لحراسة وضع متهالك، ومع أن السودان لم يكن من مصلحته التدخل العسكرى فى أفريقيا الوسطى، ولكنه ربما فعل ذلك لأنه خشى أن تصبح أفريقيا الوسطى محطة للحركة الشعبية لتحرير السودان، ولكن لم تنجح الوصفة الليبية وتهالك نظام باتاسيه فى أواخر نهايات ٢٠٠٢ وتقهقر جيش أفريقيا الوسطى إلى دارفور وبيع سلاحه لمن طلب

وبأتفه الأثمان كما أصبح بعض مكونات الجيش نواة لما عرف بعصابات النهب المسلح، وفى ظل هذه الظروف المعقدة، تكاملت أبعاد انقسام المؤتمر الوطنى الحاكم، الذى انشق إلى جناحين، جناح مع السلطة احتفظ باسم المؤتمر الوطنى وجناح اختار مسمى المؤتمر الشعبى.

وكان لانقسام التيار الحاكم فى السودان إلى فريقين أحدهما وقف مع الدولة بقيادة الرئيس البشير كحقيقة واقعة، وكإطار للمشروعية والشرعية والآخر انحاز إلى دكتور الترابى، بينما احتار قسم لا يستهان به، وأصبح فى منزلة بين المنزلتين وفقد النظام بفقدانه الدكتور الترابى ليس فقط المرجعية الروحية، ولكن الرجل بعيد النظر الذى كان يتحسب للمآلات ويخطط وفق ذلك ولكن أخطأ د. الترابى فى حساباته مع الرئيس البشير ومهما يكن، فإن انقسام السلطة الحاكمة أدى إلى إضعاف هياكلها، ومع أن السلطة الحاكمة حاولت أن تعوض ذلك بالانفتاح على الغرب، وبالأخص أمريكا بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ إلا أن حساباتها أخفقت ولم تأت بثمار واضحة إلا على مستوى العلاقات العربية وعلى الأخص مصر ودول الخليج.

حينما شعر الترابى بأن حساباته فى أمر السلطة قد طاشت وأن هياكل الدولة تنفلت عن مشروعه، أخذ فى التركيز على أبناء الغرب أى دارفور كعصبية تنظيمية وسياسية وجعل نائبه من هناك، وقد تحدث فى مجالسه بأن الإمام المهدى وجد النصرة فى الغرب، ولم يكن دقيقاً فى ذلك لأن الغرب القصى آخر من ناصر الإمام المهدى، اللهم، إلا إذا كان يقصد الخليفة عبد الله التعايشى فهو محسوب كذلك على تيار الغرب العروبى.

وأخطأت الحكومة حينما تعقبت مؤيدى دكتور الترابى من أبناء الغرب فى هياكل الدولة، وتكونت حركة العدالة والمساواة كواجهة من واجهات المؤتمر الشعبى، ولكنها ما لبثت بعد اتصالها تنظيمياً وحركياً بالقيادات الغربية، أن أصبحت لها شخصيتها وكينونتها الخاصة، وأصبحت مرشحة للخروج من عباءة الترابى كما فعل تلاميذه الذين انفردوا بالسلطة.

ووجدت الحركة أرضاً خصبة لممارسة نشاطها فى ألمانيا حيث انعقد مؤتمر المهمشين بدعوة وتمويل من المنظمة الألمانية AKE فى مدينة هتنجن فى أبريل ٢٠٠٣م.

وأصبح دكتور على الحاج نائب الأمين العام للمؤتمر الشعبى رئيساً للمؤتمر كما التقى وزير الخارجية الألمانى فيشر بقيادة الحركة وبرز اسم الحركة فى ٢٥ سبتمبر ٢٠٠٢ فى مدينة الفاشر، حينما قامت بالتنسيق مع حركة تحرير السودان بضرب المدينة واحتلالها لعدة ساعات وتدمير ست طائرات عسكرية وكانت هذه الضربة الموجعة التى أذهلت السلطة وكسرت هيبتها فى دارفور، المناسبة التى لفتت الرأى العام المحلى والعالمى إلى أن الفوضى والثورة فى دارفور قد دخلت مرحلة اللا عودة، كما أصبح قادة الحركتين نجوماً على موائد الفضائيات والإذاعات وقبل ذلك الاستخبارات. وتركزت حركة العدالة والمساواة فى ألمانيا لوجود عدد من شباب الزغاوة المثقفين هناك واستفادتهم من خدمات الكنيسة الافنجلكانيد الألمانية AKD ومنظمة سودان فوكل بوينت الألمانية.

ومع أن الاستخبارات الإسرائيلية والت نشاطها فى دارفور فى الظلام مخفية نشاطاتها، إلا أن التقارير تفيد أن إسرائيل تمارس نشاطها من أسمرا التى أصبحت مركزاً لقيادات حركة العدل والمساواة وحركة تحرير السودان، ونائب الأمين العام للمؤتمر الشعبى، وأبرزت الصحف الإريترية والتليفزيون الإريترى صور قيادات الثورة والتمرد فى دارفور فى حضرة الرئيس اسياس افورقى ومساعده الأمين محمد سعيد، كما تواترت الأنباء عن لقاءات بعضهم بالقنصل الإسرائيلى هناك.

كما أعلن خمسة من أعضاء المكتب السياسى للتجمع الفيدرالى بالسودان استقالتهم نسبة لزيارة مسئول كبير بالتجمع ويتكلم باسم دارفور لإسرائيل، كما نشرت جريدة The Jerusalem post الصادرة فى السابع من أغسطس ٢٠٠٤ أن وزارة الخارجية الإسرائيلية تقوم بتعبئة التنظيمات اليهودية لدعم أجهزة الإغاثة المتعلقة بدارفور، تحت واجهة جامعة، وأن وزير الخارجية الإسرائيلى سلفان شالوم خاطب مجلس الوزراء قائلاً إن إسرائيل تواصل مساعيها لمساعدة الجهود الدولية المتعلقة بالمأساة الإنسانية بدارفور وأن أمة إسرائيل التى كانت لها معاناة عظيمة فى الماضى لا يمكن أن تقف مكتوفة الأيدى إزاء الآلام التى تعصف بالآخرين فى دارفور وما خفى أعظم.

التوظيف السياسى لقضايا التخلف والفقر:

خلقت اتفاقيات تقاسم السلطة والثروة ما بين الحكومة السودانية والحركة الشعبية لتحرير السودان، دافعية سياسية جديدة فى كثير من أطراف السودان خصوصاً أن هذه الاتفاقيات تنقل هياكل السلطة من المركز إلى الأقاليم، كما أنها أوجدت منافذ للتدخل الدولى منها العسكرى والسياسى والاقتصادى، أما العسكرى فيتمثل فى قوات المراقبة والرصد والتى أصبحت تنتشر مع انتشار مناطق النزاع أى فى جبال النوبة وكذلك سيتم الانتشار فى جنوب السودان، ومناطق جنوب النيل الأزرق والشرق وأبيى ودارفور، وتشكل هذه الرقعة من المساحة أكثر من نصف السودان لأن مساحة الجنوب ٢٥٠ ألف ميل مربع ودارفور مائتى (٢٠٠) ألف ميل وجبال النوبة ٣٢ ألف ميل مربع وجنوب النيل الأزرق ٢٦ ألف ميل مربع، وهذه بدون شك أكثر من خمسمائة ألف ميل مربع، ويسكنها أكثر من ثلث سكان السودان، كما أنها تتميز بأنها سودان المستقبل ففيها تكمن الموارد الطبيعية من مياه وبترول ونحاس وتعتبر حفرة النحاس فى دارفور جزءاً من حزام اليورانيوم الذى يمتد من النيجر ومروراً بأفريقيا الوسطى وانتهاء



"السـودان"

بالكنغو وزائير، ومن المعروف أن الولايات المتحدة ظلت تعتمد على اليورانيوم الأفريقى، وحتى قنبلة نجازاكى وهيروشيما تم تطويرهما من اليورانيوم المستخرج من الكنغو/ زائير، وقد شهد العالم كيف حاولت الولايات المتحدة جعل يورانيوم النيجر أحد مسببات غزو العراق.

ولكن على الثراء الكامن فى هذه المناطق من السودان، فإن إنسان هذه المناطق ما يزال فقيراً، ومنهكاً، وأصبح لا يعرف فى السنين الأخيرة إلا صناعة الحرب، وأدت ضغوط الحاجة والفقر والعوز إلى الاستجابة لمؤثرات الدولار، لأن البطون الجائعة لا تعرف المعانى العالية. ونتيجة لذلك شاعت الفوضى، كما شاع التجنيد القسرى لمصلحة مختلف التنظيمات والقبائل والأحزاب وأمراء الحرب، وتكشف الخريطة العسكرية مثلاً لجنوب السودان أن هناك ستة وعشرين مجموعة عسكرية منظمة بجانب جيش الحكومة وجيش الحركة الشعبية لتحرير السودان، وبعض هذه الميلشيات لها هياكل سياسية وعسكرية مثل قوات دفاع جنوب السودان. وبعضها يملك الهياكل العسكرية مثل مجموعة بحر الغزال وقوات دفاع جنوب السودان وقوات السلام قارينق وقوات فشودة المتحدة وقوات السلام الناصر، وقوات السلام وات وقوات السلام شمال أعالى النيل وقوات المابان، وغيرها، ولا تقل قوة هذه الجماعات المسلحة عن الثلاثين ألف مقاتل، ولكن لا يملكون شيئاً سوى الذخيرة والسلاح، وكذلك ينتشر السلاح فى دارفور، حيث تقدر بعض الجهات، أن فى دارفور ما لا يقل عن نصف مليون قطعة سلاح موزعة على القبائل والحركات العسكرية المسيسة، وكذلك ينتشر السلاح فى ولاية كردفان وسط القبائل الرعوية، والتى كانت تطلق عليها الدوائر الغربية اسم المراحيل، والتى تم تسميم سمعتها ووصمها بذات الطريقة التى حدثت للقبائل البدوية فى دارفور والتى أطلق عليها مصطلح الجنجويد.

وفى ظل انتشار ثقافة العنف يبدو الأداء الحكومى فى هذه المناطق ضعيفاً ومتلاشياً، بينما يزداد التوظيف السياسى فى مختلف القوى السياسية التى تحاول أن تتحالف مع الحركات الرافعة للسلاح، وبرز آخر مشهد لذلك بقبول التجمع الوطنى الديمقراطى المعارض لحركة تحرير السودان فى عضويته، كما تسعى حركة العدل والمساواة لذات الوضعية.



وفى ظل تزايد التدخل الدولى ويكفى أن هنالك ثلاثة جيوش أجنبية ظلت تدخل الأراضى السودانية، ومنها الجيش اليوغندى المرابط فى المناطق الاستوائية بحجة مقاومة جيش الرب والجيش التشادى الذى يدخل فى معارك ضد ما يسمى بالجنجويد ويقدم أحياناً الذخيرة والسلاح لحركات التمرد، والجيش الإريترى الذى خلق واقعاً على الأرض فى منطقة همشكوريب بشرق السودان، وفى ظل هذه



تكثفت التدخلات الخارجية الطامعة فى هضم السودان واحتواء مصر، وكما يقولون فإن مشكلة السودان الرئيسية أنه جنوب مصر وبالتالى فإنه عمق مصر، ومن يريد الإحاطة بمصر فعليه بالسودان



المتغيرات والضغوط تتعرض الحركات السياسية السودانية ذات الطبيعة القومية للتآكل والقسمة، فالحزب الاتحادى الديمقراطى مثلاً لم تبرز فيه قيادة فى قامة الزعيم المرحوم إسماعيل الأزهرى، وأصبحت تنازعه ثلاثة مراكز، منها المركز الذى يقوده السيد محمد عثمان ميرغنى والذى يعتمد على أتباعه من الطريقة الختمية، علماً بأن الولاء فى الطريقة الختمية نفسها قد ضعف، كما أن الآراء السياسى اليومى يكاد يكون فى طور التلاشى.

والمجموعة الثانية بقيادة الشريف زين العابدين الهندى وهى أحسن حالاً نسبة لارتباطها بالحكومة ونسبة لوجودها فى ميدان العمل السياسى اليومى ولكن طاقاتها محدودة ومواردها السياسية والتنظيمية أقل بكثير من التحديات الشاخصة، أما المجموعة الثالثة فيجمع بينها الاحتجاج والرفض ولكنها لم تؤسس كياناً محسوساً.

أما عن حزب الأمة، فهناك المجموعة المحورية بقيادة السيد الصادق المهدى وأخرى ممثلة فى الحكومة بقيادة ابن عمه مبارك الفاضل بينما اكتفى الطرف الثالث بإعلان إمامه السيد أحمد المهدى كإمام للأنصار.

كما يعيش الحزب الشيوعى أسوأ حالاته حيث خرجت عليه حالتان بينما المجموعة التاريخية غلبت عليها عقلية العزلة، واختارت التغلغل وسط تحركات الرفض والثورة المسلحة ولذلك فإن بعض كوادر الحزب مبثوثة فى الحركة الشعبية لتحرير السودان وحركة تحرير السودان، ولا يكاد يبرز أثر للحزب إلا وسط تجمعات طلابية محدودة.

وما ينطبق على هذه القوى السياسية يسرى كذلك على كيان الحركة الإسلامية الذى تضربه الحيرة والتردد والإحباط، ما بين مشروع المؤتمر الشعبى بقيادة الترابى الجانح تجاه العنصرية وتصفية الحسابات مع الحكومة وما بين ضعف المؤتمر الوطنى وتآكل كيانه الخاص فى إطار التشظى والضعف الحادث فى هياكل السلطة والدولة، وفى إطار هذه الصورة يصعب التنبؤ بالتطورات السياسية والمآلات المستقبلية.

رؤية للمستقبل:

تقف الأوضاع السياسية فى السودان فى مفترق طرق، كما تبدو هناك استحالة مادية فى القضاء على حركات التمرد والثورة فى شرق وغرب وجنوب البلاد فى وقت تزايدت فيه التدخلات الدولية، إن السودان تشكله على الأقل، ثلاثة بلدان لكل بلد خصائصها السكانية والجغرافية والتاريخية (السودان النيلى الأوسط، ودارفور، وجنوب السودان) بل إن كل كيان من هذه الكيانات فيه من التعددية العرقية والثقافية ما يجعله نسيج وحده، وتأثرت هذه المنطقة بالتدخلات العرقية والقبلية على طول الحدود مع جيران السودان التسعة، وقد أغرى اتساع مساحة السودان بعض جيرانه باقتطاع أجزاء كبيرة منه، حيث أخذت كينيا مثلث الى وهى منطقة ضخمة، وغنية بالموارد، كما وضع المزارعون الأثيوبيون أياديهم على سهول الفشقة الخصبة، لخلق أمر واقع، كما أن حدود السودان التى تزيد على ستة آلاف كيلو متر غير مخططة ومتداخلة مع دول الجوار، كما أن هذه الحدود التى خطها المستعمر بصورة عشوائية قسمت القبائل السودانية مع دول الجوار، فالزاندى ما بين السودان والكنغو. زائير والأشولى والمادى والكاكوا ما بين السودان ويوغندا، والتبوسا ما بين السودان وكينيا، والأدوك والنوير والأنواك والقمز وقبائل بنى شنقول ما بين السودان وأثيوبيا، والبجا ما بين السودان وإريتريا والبشاريين والنوبة ما بين السودان ومصر.. إلخ.

وفى إطار هذه التعددية تكثفت التدخلات الخارجية الطامعة فى هضم السودان واحتواء مصر، وكما يقولون فإن مشكلة السودان الرئيسية أنه جنوب مصر وبالتالى فإنه عمق مصر، ومن يريد الإحاطة بمصر فعليه بالسودان، وازدادت أهمية السودان كذلك باكتشاف البترول واليورانيوم فيه، كما ازدادت أهمية أمن البحر الأحمر الذى يشاطئه السودان.

وفى ظل هذه المتغيرات يمكن القول بأن السودان يحتاج لحكومة قوية يقوم حولها ما يشبه الإجماع الوطنى، بمعنى أنها تجمع بين عنصرى القوة والتمثيل لمكونات السودان وهذا يحتاج لرؤية عميقة واجتهادات، لأن وصفة العودة للحكومات الحزبية ثبت عدم مقدرتها على الاستجابة لمشكلات السودان ثلاث مرات، كما أن ذات الوجوه التى تطرح نفسها كمخلص سبق أن جربت، وانتزعت منها السلطة على النطاقين، فى الأطراف والمراكز ولا يمكن التعويل عليها فى مرحلة دقيقة ومركبة كما هو حادث الآن.

ومن الناحية الأخرى، ينبغى الاعتراف بأن الحكومة الحالية فشلت فى إقامة مؤسسات حكم قوية وقادرة على المحاسبة وفشلت فى قضية الشفافية كما فشلت فى ترقية أوضاع الشورى والداهية الكارثة فشلها فى حفظ الأمن مما أدى إلى انقلاب أوضاع دارفور. كما أن الفشل فى حفظ الأمن يعنى فشلها فى رعاية وتنمية المؤسسات القومية التى قام عليها السودان وظلت مسئولة عن حفظ حدوده وأوضاعه. ولا توجد طريقة لتحديد على من تقع مسئولية الفشل إلا بإطلاق القول على عمومه بأنه فشل الحكومة وفشل قيادة المؤتمر الوطنى التى أجهضت مذكرة العشرة، التى أبعد بمقتضاها د. الترابى لتحل محله عقلية قابضة، استغنت بذهاب الترابى عن المطلوبات والحيثيات المتعلقة بذهابه من شورى ومحاسبة ومؤسسية وشفافية.

أدى تعقيد الأزمة السودانية، إلى فتح شهية الأجندة الخارجية والتوظيف السياسى، حيث تحوم الذئاب حول الجثة وتحلق الصقور للانقضاض على الفريسة الضعيفة، وفى ظل هذه الأوضاع، فلا يمكن استنزال سودانيين من المريخ لحكم السودان، ويظل الأمر معقوداً بحوار سياسى مسئول بين كافة القوى الوطنية لإيجاد حكومة تراض وطنى وقومى فى مهلة تسبق الذهاب للانتخابات لترتيب الأوضاع. ووطنى وقومى هنا كلمتان مترادفتان.

وفى هذا الإطار فلا غنى عن الحريات وللحريات تبعاتها من سيادة قانون وقضاء قوى ومستقل وكذلك المحاسبة وتقتضى أن تكون للجهاز التشريعى والقضاء صلاحية محاسبة رئيس الدولة ومعاقبته وكذلك سيادة الشورى والشفافية وهى تحصيل حاصل المبدأين الأولين.

لقد شاهدنا كيف دفع اليأس بعض مكونات النخب لطرح فصل الجنوب، وفصل الجنوب سيؤدى إلى تفتيت السودان وجواره وخلق دويلات ضعيفة على غرار الحالة الصومالية وطرح البعض الفيدرالية بين كيان السودان وهو حل تحت الاختيار وطرح آخرون الفيدرالية بينما طرح البعض الوحدة مع مصر وكل هذه الأطروحات تفيد بأن السودان يبحث عن مخرج وعن حل وتشخيص الأزمة نصف الحل وأرجو أن تكون هذه، مساهمة فى هذا الاتجاه. ■

خـــــرائط جـــــديـدة

■■ تُرى هل أصبح العالم على وشك الدخول إلى فترة جديدة من إعادة تنظيم الذات، على غرار ما شهدناه قبل ما يقرب من عشرين عاماً؟

فى تسعينيات القرن العشرين، كان سقوط الإمبراطورية السوفيتية، وانهيار يوغوسلافيا على نحو وحشى، من الأسباب التى أدت إلى زيادة مذهلة فى عدد الدول المستقلة. ولمتابعة الألعاب الأوليمبية أو كأس العالم، كان على العالم أن يتعلم كيف يتعرف على الأعلام والأناشيد الوطنية الجديدة.

والآن ربما تقترب موجة جديدة من تشرذم الهوية، تمتد عبر أفريقيا وربما أوروبا. فمن المقرر فى شهر يناير/كانون الثانى أن يتم إجراء الاستفتاء على الاستقلال فى جنوب السودان. وإذا أجرى الاستفتاء فيكاد يكون من المؤكد أن يؤدى إلى تأسيس دولة جديدة فى قارة أفريقيا، وهى الأولى منذ تفكك أثيوبيا فى عام ١٩٩٣. وقد تؤدى الانقسامات فى الصومال، وكوت ديفوار، بل وحتى نيجيريا، إلى ميلاد دول جديدة.

لقد ظل العديد من الناس، لعقود طويلة من الزمان، ينددون بالحدود بين بلدان أفريقيا باعتبارها عملاً مصطنعاً وتعسفياً قام به مستعمرون جهلة وهازئون، الأمر الذى ساهم فى إحداث سلسلة طويلة من الخصومات القَبَلية. إن لم يكن التطهير العرقى. ولكن لا أحد، وخاصة فى المنظمات الأفريقية، يرغب فى إعادة رسم الحدود. وكلما ازداد التوازن هشاشة وعدم استقرار أصبح من المحتم الحفاظ على الوضع الراهن.

هل توشك إذن أبواب الجحيم أن تنفتح على أفريقيا، فتتحرر الشياطين التى كان من الواجب أن تُكَبَّل؟ أم أن الوضع الراهن المصطنع ذاته هو الذى أدى إلى اندلاع أعمال العنف المنظم بوتيرة مهلكة؟

إن السلوك الوحشى الذى انتهجه النظام السودانى فى الخرطوم جعل من تطور البلاد نحو التقسيم أمراً مشروعاً ولا مفر منه. والسؤال الرئيسى الآن هو ما إذا كان التقسيم سوف يشكل نموذجاً وسابقة فى أماكن أخرى من أفريقيا.

ففى كوت ديفوار على سبيل المثال، يستمد الرئيس السابق لوران جباجبو الإلهام من رئيس زيمبابوى المستبد روبرت موجابى، فيتشبث بالسلطة بعد الهزيمة الواضحة التى لحقت به فى الانتخابات الرئاسية الأخيرة. ونتيجة لهذا فإن انقسام البلاد على أسس عرقية ودينية جزئياً على طول الخطوط الشمالية والجنوبية لم يعد مستبعدا؛ بل أصبحت احتمالات الانقسام مرجحة على نحو متزايد.

والواقع أن هذا الميل نحو تفتيت الهوية ليس مجرد ظاهرة أفريقية. ففى مكان أقرب كثيراً إلى الموقع الذى أكتب فيه هذا المقال، فى أوروبا، يؤثر هذا الميل على بلجيكا، تلك الدولة التى تبدو وكأنها عازمة على الحياة فى ظل شلل سياسى مطلق كثمن لبقائها. بيد أن هذا الاعتلال الذى تعانى منه بلجيكا أرسل موجاته التصادمية إلى كاتالونيا فى أسبانيا، حيث أسفرت انتخابات نوفمبر/تشرين الثانى الماضى للبرلمان الإقليمى عن خروج تحالف اليسار الذى كان مهيمناً لمدة سبع سنوات لصالح التحالف المؤيد للسيادة المستقلة.

والواقع أن الأزمة الاقتصادية تؤثر على كافة أجزاء أسبانيا. ولكن مثلهم كمثل أنصار الرابطة الشمالية فى إيطاليا، بدأ عدد كبير من أهل كاتالونيا فى المقارنة بين شخصيتهم الجادة الميالة إلى الكد والاجتهاد ونجاحهم النسبى وبين "كسل الأسبان." ولكن لماذا يتعين عليهم أن يعملوا لصالحهم؟ وبالطبع هناك عدد متزايد من الألمان يتحدثون عن بقية أوروبا كما يتحدث أهل كاتالونيا عن الأسبان.

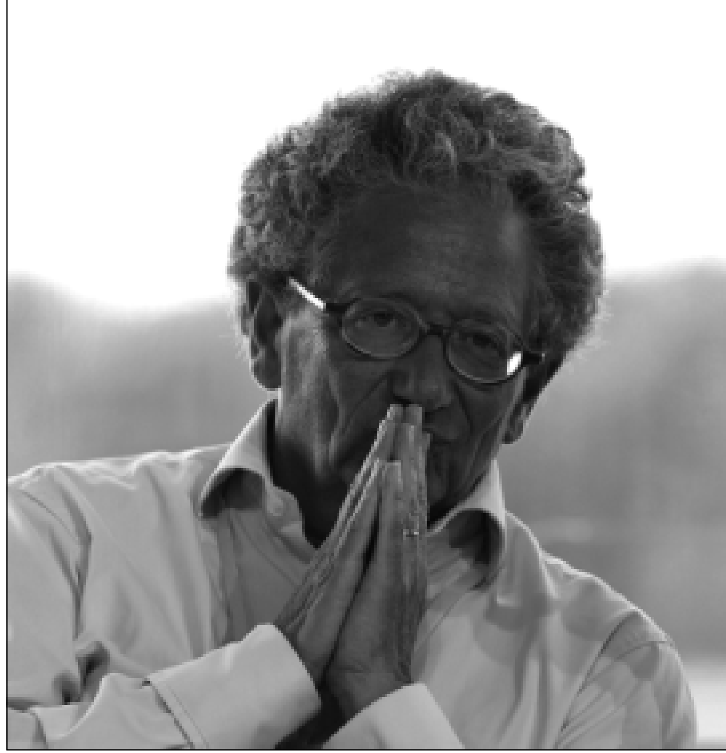
لا شك أن أوروبا ليست أفريقيا، حيث يحرك العنف واليأس حالة من التفتت والانقسام. وفى أوروبا اليوم، إذا كان هناك عنف، فهو اقتصادى بطبيعته. ولكن مع استمرار الأزمة الاقتصادية. التى قد تتفاقم سوءا. فقد نشهد تفجر المزيد من النعرات القومية والشعوبية التى قد تترجَم إلى موجة جديدة من التفتت والانقسام.

إن إدارة أوروبا التى تتألف من ٢٧ دولة أصبحت تشكل عملية بالغة الصعوبة بالفعل. فالاتحاد الأوروبى، الذى بات يعانى من أزمة هوية عميقة، لا يحتاج إلى دول جديدة، بل إلى أفكار جديدة وسرد جديد. أو بعبارة أخرى تغيير نوعى وليس كميا. بطبيعة الحال، قد يكون بوسعنا أن نحلم، كما حلم البعض ذات يوم، بأوروبا «المقسمة إلى مناطق» استناداً إلى نموذج الدولة المدينة فى إيطاليا فى عصر النهضة.

ذات يوم قال عالم الاجتماع الأميركى دانييل بل إن الدولة أضخم من أن تتأثر بالمشاكل الصغيرة وأقل حجماً من أن تتمكن من التعامل مع المشاكل الكبيرة. ولكن فى هذا العصر العالمى، تحولت "الأمة" إلى شكل أكثر قوة من حماية الهوية، تماماً كما تبدو "الدولة" اليوم، فى أعقاب أزمة رأسمالية التمويل الغربية، أكثر قوة من "السوق" التى تزعزع استقرارها بسبب تجاوزاتها.

وفى الوقت عينه، سنجد أن البحث عن هوية، والذى يؤدى إلى انقسام بعض الدول وتشتتها، يدفع دولاً أخرى إلى تصور آفاق إمبراطورية جديدة. وكل منها يعكس نفس المنطق. فالطبيعة الإمبراطورية للهوية فى روسيا، على سبيل المثال، راسخة ومتأصلة إلى حد عميق. وحتى تركيا، التى تشجعت بفضل خواء السلطة فى كل مكان، فضلاً عن المقاومة العنيدة من جانب أغلب بلدان الاتحاد الأوروبى لقبول الأتراك فى «ناديهم المسيحى»، بدأت تميل إلى اعتناق فكر عثمانى جديد. ويبدو أن التقاليد الإمبراطورية لا تتلاشى بالكامل أبدا.

ولعل الناس ينظرون ذات يوم إلى العقد الأول من القرن الحادى والعشرين باعتباره الاستمرار المنطقى للعقد الأخير من القرن العشرين. وإذا كان الأمر كذلك فإن عصرنا سوف يكون عصراً جديراً بالدراسة، فهى لحظة من الزمن حيث أصبح العالم فى خضم عملية عصيبة وغير يقينية من إعادة التكوين. ■



دومــيـــنـــيـــك مـــويـــزى

Dominique Moisi

Dominique Moisi, is the author of *The Geopolitics of Emotion: How Cultures of Fear, Humiliation, and Hope Are Reshaping the World.* New York: Anchor, 2010. Print.

ترجمة: أمين على

خطايا الإسلاميين فى حكم السودان

علاء بيومى

■■ كتاب «مراجعات الحركة الإسلامية السودانية» لو تحول إلى فيلم لفاز بإحدى جوائز أوسكار ككتاب صغير مميز عن الحركات الإسلامية فى العالم العربى لعام٢٠١٠ ، فالكتاب كتبه إسلاميون سودانيون عن الإسلاميين فى السودان ونشره إسلاميون، ومع ذلك يحتوى على نقد لاذع للإسلاميين لو كتبه علمانيون لاتهموا بالتربص بالحركات الإسلامية فى السودان وعبر العالم العربى.

الكتاب يقول إن ثورة الإنقاذ الإسلامية فى السودان (١٩٨٩) هى الثورة الإسلامية الأولى فى العالم الإسلامى السنى، وأنها توفر لها من المقومات الشكلية الكثير، فقد جاءت إلى الحكم بانقلاب عسكرى يقوده إسلاميون من خلف الستار على رأسهم شيخ كاريزمى (حسن الترابى) يحرك قيادات الجيش التى استولت على الحكم نيابةعن الشيخ كعرائس مسرح فى سرية واقتدار، وذلك بعد أن قضى الترابى ورفاقه عقودا فى قيادة الحركة الإسلامية على المستوى الطلابى والشعبى وفى صفوف المعارضة.

وسرعان ما انقلب السحر على الساحر لينقسم الإسلاميون السودانيون على أنفسهم ويزجوا بعضهم فى السجون، وتبقى الحركة بعد أكثر من عشرين عاما فى الحكم فى حالة حيرة وأزمة هوية عميقة يتساءل أبناؤها حول ما إذا كانوا حركة إسلامية حقيقية تؤمن بقيم الإسلام وتسعى إلى تطبيقها بعيدا عن شغف الدنيا، أم أنهم كغيرهم تاهوا فى السلطة فأفقدتهم إسلاميتهم فصاروا فى مرتبة ربما أقل من الساسة العلمانيين.

هذه المقدمة الدراماتيكية هى إحدى الخلاصات التى يمكن أن تخرج منها من قراءة الكتاب، والذى يتميز بسهولة أسلوبه وصغر حجمه، فهو عبارة عن عدد من المقالات القصيرة والمتوسطة الحجم التى نشرت على موقع إسلام أون لاين بالأساس فى فترات متقاربة حول عام٢٠٠٨، وتم جمعها فى كتاب بمناسبة مرور ٢٠ عاما على حكم الإسلاميين فى السودان.

مراجعات الحركة الإسلامية السودانية: عشرون عاما فى السلطة.. المسيرة، التجربة، المستقبل
إعداد: وليد الطيب
تقديم: د. حسن مكى
مكتبة مدبولى، القاهرة، الطبعة الأولى٢٠١٠



عيوب منهجية

ويعيب الكتاب منهجه القائم على تجميع مقالات صحفية أو بحثية قصيرة ونشرها فى كتاب واحد، وهو منهج يبدو منتشرا فى بعض الكتب العربية بدون سبب علمى واضح، فمقال الصحافة يظل دائما مقالا مختصرا مقتضبا يثير من الأسئلة أكثر مما يقدم من الإجابات، بل إنه أحيانا يؤدى إلى خلط الأمور على القارئ لتركيزه على قضايا بعينها وتضخيمه لها كطبيعة أى مقال صحفى.

لذا نشعر فى نهاية الكتاب أن منهجه القائم على المقالات الصحفية أضره وأنه تركنا فى حيرة من أمرنا حول ما إذا كان ينبغى علينا تصديق كل ما جاء فيه والاطمئنان إليه، وسبب حيرتنا هو أن الكتاب لم يغط بعمق مختلف الجوانب المتعلقة بالحركة الإسلامية فى السودان فهو لا يتضمن تأريخا واضحا لجذورها أو لإنجازاتها فى الحكم أو للبيئة الداخلية التى عملت فيها أو الدولية التى تحركت فى ظلها.

فالكتاب يتناول جميع النقاط السابقة فى مقالاته الصحفية المختصرة تناولا سريعا يشعرك بأنك مررت عليها مرور الكرام دون التعمق فى أى منها كالمسافر فى قطار سريع، بعكس ما تنتظر عادة من الكتب التى تسير بك ببطء وتمكن وعمق، لهذا يمكن النظر إلى الكتاب كمقدمة عن حصاد الحركة الإسلامية فى السودان دون أن يكون نقدا منهجيا شاملا لتجربتها.

عموما الكتاب مكتوب بأقلام إسلاميين سودانيين مما يعطيه مصداقية خاصة، كما أنه يؤكد عددا من المخاوف السائدة عن الإسلاميين فى أوساط الإعلام العربى، ويأتى على رأسها ضعفهم المؤسسى وسطحية فكرهم السياسى وأزمة الهويات المتصارعة التى يعانون منها.

ثورة الإنقاذ

الكتاب يقول إن الحركة الإسلامية فى السودان هى خليط من الإخوان المسلمين والحركات الصوفية والسلفيين والحركات الدينية التقليدية، وأن وجودهم التنظيمى والحركى فى السودان يعود للأربعينيات كردة فعل على حالة التغريب التى سيطرت على الحياة العامة السودانية، والتى أتت بأحزاب شيوعية إلى الحكم فى بلد عربى مسلم، وأن وجودهم ظهر فى الجامعات والمساجد ومؤسسات المجتمع، واستمروا فى حالة تفاعل ـ تتراوح بين المعارضة والصدام والمشاركة ـ مع الحكومات السودانية المتعاقبة حتى قرروا الثورة العسكرية عليها فى عام١٩٨٩، ونجحوا.

الكتاب يقول إن الإسلاميين فى السودان لم يسعوا إلى انقلاب عسكرى بالضرورة، ولكنهم اضطروا إليه بعد أن أيقنوا - خلال تجربتهم السياسية الطويلة - أن أفضل وسيلة لحمايتهم وحماية حركتهم هى التوغل داخل مؤسسات الحكم وعلى رأسها الجيش، ولما أحسوا بقرب الانقلاب عليهم وزجهم فى السجون كما حدث سابقا ـ قاموا بالثورة وأطاحوا بحكومة الصادق المهدى فى ١٩٨٩واستولوا على الحكم.

الثورة قادها على السطح عسكريون يقودهم الرئيس السودانى الحالى عمر البشير، وشيوخ من خلف الستار يقودهم حسن الترابى (القائد التاريخى للحركة الإسلامية السودانية).

حسن الترابى ظل خلف الستار يحرك البشير وأصحابه لفترة حتى لا يكتشف العالم الطبيعة الإسلامية للثورة خوفا من الإطاحة بها فى مهدها، وحتى يتمكن الإسلاميون أولا من «تمكين أنفسهم» فى السلطة ومؤسسات الحكم والتخلص من المعارضين لهم ومن يمثلون خطرا على قيمهم ودولتهم.

مشيخة بلا شورى أو مؤسسات

وهنا تظهر مشاكل عديدة تمحورت حول شخصية الترابى وأسلوب إدارته للثورة، فالكتاب يقول إن الترابى رجل يشعر بثقة مفرطة فى النفس وفى إمكاناته وفى قدرته على قيادة الآخرين، فقد قاد الثورة من خلف الستار «كشيخ» لها وليس كحاكم مساءل يعمل بشفافية.

كلمة شيخ هنا تستخدم - كما ورد فى بعض أجزاء الكتاب - بمعناها النمطى السلبى، والذى يعنى أن الترابى - كما يقول الكتاب - رأى فى نفسه شيخ الثورة الملهم غير المساءل، والذى يحق له أن يفعل ما يشاء بدون نقاش أحيانا، وأن يسلط على أتباعه غضبه العلنى ونقده اللاذع أحيانا بلا رابط، وقد فعل ذلك من منطلق أخلاقى وإيمان بأنه على حق.

وهذا بالطبع يجسد أكبر المخاوف من تسلم الإسلاميين للسلطة فى أى بلد كما يشاع عنهم فى وسائل الإعلام العربية على أيدى كتاب علمانيين فى أغلب الأحيان.

ولكننا هنا أمام كتاب كتبه إسلاميون سودانيون بالأساس، فالكتاب يقول إن الترابى أدار الثورة بدون شفافية وجمع خيوط اللعبة المعقدة والمتناقضة فى يديه فلما تعرض لحادث اعتداء فى كندا عام ١٩٩٢ – غاب الترابى بسببه عن الساحة السياسية لفترة - ظهرت على السطح أسرار عديدة وخيوط متضاربة كثيرة كان الترابى وحده الذى يمسك بأطرافها مما خلق حالة من التشاحن والصدمة والتضارب والصدام بين أتباعه. (انظر المقال الخامس :الحركة الإسلامية السودانية مرونة البدايات، بقلم د. مصطفى إدريس بشير).

هذا يعنى أننا أمام قائد لم يسع لبناء مؤسسات واضحة للحكم، ولا لإرساء تقاليد ديمقراطية أو شورى إسلامية شفافة، بل على النقيض فعل كما يفعل غيره وأمسك بخيوط اللعبة فى يديه وحده فى سرية تامة.

حركة استيلاء على السلطة

الخطيئة الثانية للإسلاميين فى السودان وتجربتهم السياسية - والتى تطل عبر صفحات الكتاب - هى ضعف فهمهم للسياسة.

فالكتاب يكاد يصور الحركة الإسلامية بأنها «حركة استيلاء على السلطة» مثلها مثل عدد كبير من الحركات السياسية العربية السلطوية، ونعنى بذلك أن الحركة سعت بالأساس للاستيلاء على السلطة ظنا منها بأنها أحق بالسلطة من غيرها، وأنها أقدر على إدارة دفة الحكم من معارضيها.

وهنا انطلق الإسلاميون فى السودان مرة أخرى من شعور أخلاقى متعال يجعلهم يشعرون بأنهم أفضل من غيرهم، وأنهم لو وصلوا للسلطة لحققوا الحكم الرشيد دون فهم حقيقى لمعنى السلطة أو لمعنى الحكم الرشيد.



فالكتاب يتحاور ويستكتب أكثر من مؤلف يصفهم بأنهم مفكرون إسلاميون سودانيون، ويجمع هؤلاء على أن الحركة الإسلامية السودانية بقيادة الترابى لم تملك فكرا سياسيا واضحا أو عميقا، بل إنها حاربت الفكر السياسى خاصة والفكر الإنسانى عامة.

فالحركة - كما يؤكد الكتاب - كانت تنظر للفكر السياسى كنوع من السفسطة التى لا طائل منها، والتى لن تؤدى إلا إلى الانقسام والفرقة بين أتباعها، ورأت فى المقابل أن من الأفضل لها التركيز على التربية الدينية لكوادرها وعلى التنظيم الحركى لهم.

بمعنى آخر فرضت الحركة الاتباع على أبنائها، ولم تعطهم الفرصة لفهم ما يجرى أو للمشاركة فى عملية شورى حقيقية، وكيف يمكن ممارسة الشورى والحركة يقودها شيخ ملهم يضع نفسه فوق الجميع، فالشورى تكون بالأساس بين أفراد متساوين فى الحقوق والواجبات والمعلومات أيضا.

وهنا يقول الكتاب إن الحركة رفضت الفكر السياسى وقمعته، لذا عندما وصلت للسلطة وجدت نفسها فى حالة بدائية فكرية سياسية، فالحركة آمنت دوما بأفكار إسلامية عامة مستقاة من النموذج الإسلامى التاريخى (عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين)، وهو عهد بعيد عنا بقرون، كما أن المفاهيم الإسلامية الأصيلة لا تطبق نفسها بنفسها فى الوقت الحاضر.

لذا وجد الإسلاميون أنفسهم فى حالة ارتباك أمام مؤسسات الدولة العديدة التى لم يدرسوها فى أدبياتهم البسيطة، وأمام المعاهدات والمؤسسات الدولية المعقدة، وأمام أزمات السودان المتفاقمة.

ويقول الكتاب إن الحركة نجحت فى نشر مظاهر التدين فى الحياة العامة السودانية، ونجحت فى إدارة بعض جوانب الاقتصاد السودانى، وفى حشد السودانيين للقتال ضد تمرد الجنوبيين، ولكن يبدو أنها فشلت فى نواح سياسية أخرى عديدة.

فقد فشلت فى بناء مؤسسات سياسية ديمقراطية وفى إرساء التقاليد الديمقراطية بين أبنائها ووسط صفوفها وانتهى بها الحال إلى الانقسام والصدام مع بعضها بعضا والشعور المؤلم بالفشل.

وهنا يقول الكتاب إن هناك فارقا بين التدين والسياسة، فالمتدين المخلص ليس بالضرورة سياسيا ناجحا أو طبيبا ماهرا أو عالم فضاء نابغا، فمن أراد العمل فى السياسة أو الطب أو الهندسة فعليه تعلم السياسة أو الطب أو الهندسة، فالتقوى وحدها لا تكفى.

ونظرا لأن الحركة الإسلامية فى السودان افتقرت إلى فهم سياسى عميق، فإنها تحولت للأسف إلى حركة للاستيلاء على السلطة سعت فور الاستيلاء عليها للتخلص من المعارضين لها بغض النظر عن كفاءتهم وسرعان ما حارب بعضها بعضا. (انظر المقال الحادى عشر :الحركة الإسلامية السودانية برجماتية أكثر منها نظرية، حوار مع د .محمد وقيع الله).

أزمة هوية وشعور بالغربة

وهذا يقودنا إلى عرض آخر وخطير من أعراض أزمة الحركة الإسلامية فى السودان، وهو أزمة الهوية التى تمر بها الحركة الإسلامية السودانية فى الفترة الحالية، والتى تبدو أزمة كلاسيكية تطل برأسها فى الكتابات العربية عن الإسلاميين.

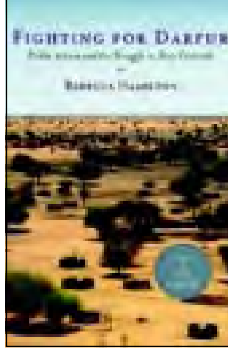
فالكتاب يؤكد عبر صفحاته وبشكل لافت للنظر لشعور الإسلاميين بالإحباط واليأس والانكفاء على الذات والندم، فهم يشعرون أنهم خانوا مبادئهم، وأنهم لم يعودوا أتقياء ورعين إسلاميين كما كانوا فى الماضى، وأنه كان الأفضل لهم البعد عن السياسة والسياسيين والحكم والسلطة الملوثة والتى لا طائل من ورائها، وكأن لسان حالهم يقول أنه لا دين فى السياسة ولا سياسة فى الدين.

وهنا تشير بعض مقالات الكتاب (أنظر على سبيل المثال مقال د. غازى صلاح الدين: دعوة لإحياء العمل الإسلامى الوطنى) إلى أن المشكلة تكمن فى الضعف الفكرى للحركة والذى لم يعد أبناءها للتعامل مع الواقع، وجعلهم ينظرون إليه من خلال مفاهيم سطحية براقة مستمدة بعدم فهم من التاريخ الإسلامى الأصيل، فالمفاهيم الإسلامية الأصيلة انقطعت عنا تاريخيا بقرون ومع ذلك استعارتها الحركة الإسلامية فى السودان فى أدبياتها كما هى، ولما وصل الإسلاميون السودانيون إلى الحكم فى نهاية الثمانينيات لم يجدوا تلك المفاهيم أمامهم ولا وجدوا المؤسسات والظروف والمؤسسات التى تسمح لهم بتطبيق تلك المفاهيم ووجدوا على العكس السلطة والمال والسياسة والمصالح ففرق بعضهم فى المادية، وشعر بعضهم بغربة شديدة وانقسام على الذات.

وهنا ينصح غازى صلاح الدين وغيره من المؤلفين بالكتاب بضرورة فهم السياسة وتجديد الفهم الدينى والبناء على ما قدمه الآخرون، فليس كل ما أنتجه الآخرون من نظم سياسية عربية ومؤسسات دولية أجنبية غير إسلامى، فكثير منه مفيد مما يتطلب فهمه والبناء عليه وليس رفضه وتصور إمكانية البناء الجديد الخالص من كل شوائب، وأن العبرة هى ببناء المؤسسات وتقاليد الحكم الرشيد، والعبرة أيضا بالصبر على العمل العام وفهمه وتطبيق المبادئ الإسلامية دون العزلة أو الانعزال.

بقى لنا فى النهاية أن نؤكد على طبيعة الكتاب الصحفية والتى لم تسمح لنا بفهم تجربة الإسلاميين فى السودان فهما علميا شاملا، كما أنها لم تقارن بينهم وبين أوضاع نظم الحكم العربية الأخرى، ولكن يبقى الكتاب مقدمة مفيدة وسلسلة عن تجربة الإسلاميين السودانيين فى الحكم وأخطائهم كما يراها الإسلاميون أنفسهم. ■

فـــى المـــكـــتــبـــــــــــــــة



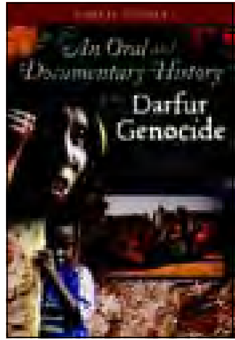
Fighting for Darfur: Public Action and the Struggle to Stop Genocide
Rebecca Hamilton
الحرب من أجل دارفور: العمل العام والكفاح لوقف الإبادة

Palgrave Macmillian, 2011
Pp 272, $15.95

لقد وثقت ريبيكا هاملتون - بشكل واقعى، ومثير للإعجاب -- النجاحات وأوجه القصور فى حركة الدفاع عن دارفور Darfur advocacy movement منذ بدايتها وحتى الآن. حيث يسلط هذا الكتاب الضوء على التحديات التى تواجه المواطنين وصناع القرار على حد سواء، للدفاع عنهم ضد الأعمال الوحشية التى ترتكب علنيا وتفوق الهولوكوست أو رواندا..

يأتى هذا الكتاب ليعبر بشكل بارع من خلال البحث وعرض التقارير والمحادثات التى أجرتها مع امثال كولن باول، مايكل غيرسون، كوفى عنان وغيرهم الذى جمعته على مدى خمس سنوات لتكشف عما حدث داخل أروقة السلطة، كما عرضت من خلال الكتاب تأثير حركة الدفاع عن دارفور ضد فظائع الإبادة حيث عرضت بعض التقارير فى محاولة للتنبؤ عما وراء الشعارات التى تعلنها تلك الحركة من أجل إنقاذ الأرواح التى تعيش فى خطر، فعلى حد قول هاملتون فهى تقدم أفكارا تمثل قيما للمواطنين المعنيين، المدافعين عن حقوق الإنسان وصناع القرار على حد سواء لسنوات وسنوات قادمة.





An Oral and Documentary History of the Darfur Genocide
Samuel Totten
التاريخ الشفوى والتسجيلى لدارفور

Praeger 2010,
Pp 556, $104.95

لقد اندلعت حرب الإبادة الجماعية فى دارفور فى عام ٢٠٠٣ لكن بذورها زرعت قبلها بسنوات. وهى سنوات من الهجمات على القرى والأشخاص فى سبل عيشهم، فضلا عن الحرمان من الحقوق السياسية والاقتصادية من جانب حكومة السودان، وتمرد الأفارقة السود فى دارفور. وعلى سبيل الانتقام، قام الرئيس السودانى عمر البشير بجمع قواته وميليشيا يطلق عليها الجنجويد، بتنفيذ سياسة الأرض المحروقة التى أدت إلى قتل أعداد لا حصر لها من المدنيين، رجالا، نساء، أطفالا ومسنين. وفى هذه العملية، تم اغتصاب النساء من جميع الأعمار، وأحرقت مئات القرى على الأرض، وأكثر من مليونى شخص أجبروا على النزوح من قراهم. بحلول منتصف ٢٠٠٧ تراوحت التقديرات بشأن أولئك الذين قتلوا أو قد لقوا حتفهم بسبب المجاعة، أو نقص المياه، أو الإصابات، إلى عدد بلغ ما بين ٢٥٠٠٠٠ إلى أكثر من ٤٠٠٠٠٠.

تعرض هذه المجموعة التى صدرت على جزءين لقصص مروعة على لسان الناجين من هذه الابادة الجماعية، كما يتضمن مجموعة من الوثائق الرسمية ترصد رد فعل المجتمع الدولى تجاه الأزمة فى دارفور. حيث أجرى المؤلف مقابلات مع اللاجئين الذين يبلغون حوالى عشرين من السودانيين الذين فروا من منازلهم وشقوا طريقهم إلى البلاد المجاورة لتشاد، يروون من خلالها أحداث الإبادة الجماعية المختلفة، وبعد هربهم. وهذه المقابلات صدرت فى جزء كامل. أما فى المجلد الثانى، فقد اختار المؤلف الوثائق الهامة الصادرة عن الولايات المتحدة والأمم المتحدة والمحكمة الجنائية الدولية، كل منها يقدم رؤى حاسمة لنظرة المجتمع الدولى إلى سياسة الأرض المحروقة وفظائعها. يمثل هذا الكتاب سجلا لا يقدر بثمن يكشف مدى تحول حكومة قوية ضد الأقليات الأضعف فى البلاد.



فـــى أرشـــــــــيـــف وجـهـات نـظـر

الســـودان / الســـودانَان



- عبدالله على إبراهيم: فى وصف الحالة السودانية.. بئر معطلة وقصر مشيد ـ أبريل ٢٠٠٣
- غازى صلاح الدين العتبانى: السودان.. الطريق الصعب إلى الوحدة ـ مارس ٢٠٠٤
- عايدة العزب موسى: جنوب السـودان.. عــبء المــاضى وضغـوط المســتقبل ـ مارس ٢٠٠٤
- أليكس دى وال: جناية التاريخ والجغرافيا ـ سبتمبر ٢٠٠٤
- محمد سليم العوا: عائد من دارفور ـ أكتوبر ٢٠٠٤
- حسن مكى: مصر.. والسودان.. والقرن الأفريقى.. إسرائيل على الخط! ـ نوفمبر ٢٠٠٤
- أمير حمد: كتبته سودانية ويقرأه الأوروبيون: المستعبدة ـ نوفمبر ٢٠٠٥
- إجلال رأفت: بين عجز الداخل وأطماع الخارج.. دارفور ـ نوفمبر ٢٠٠٦
- الأخضر الإبراهيمى ـ ديزموند توتو: السودان.. مستقبل على المحك ـ مايو ٢٠١٠
- روبــرت كــولينز: تاريخ السودان الحديث ـ نوفمبر ٢٠١٠

Yasser Arafat by Peter Lewis ©



٦٠ عاما على النكبة .. ثم ماذا بعد؟

رحلة عرفات الأخيرة

إسرائيل إلى أين؟!!

■■ بات تراكم الأحداث باتجاه واحد فى السنوات الأخيرة يدل على تغير كيفى فى حال القضية الفلسطينية إقليميا. ولم يعد بوسع المحلل والمراقب المسيس تجاهل التشابه بين السياق «العربى-الإسرائيلى» الحالى وحال الدول الصليبية فى عصرها فى المنطقة العربية.

فقد رفضت إسرائيل السلام العادل مع الشعوب العربية والشعب الفلسطينى، ونقصد ذاك الممكن والمتمثل بالعيش المشترك فى «دولة وحدة» ديمقراطية لجميع مواطنيها العرب واليهود، بحيث تشكل جزءاً من المنطقة العربية، أو ذاك الحل الآخر الممكن والمتمثل فى تسوية فى «حل الدولتين» مع ضمان حق العودة للاجئين الفلسطينيين. وقد اختارت إسرائيل نموذجا ثالثا حتى بعد أن تبنى العرب حلولا ومبادرات سلمية طرحت رسميا على إسرائيل.

هى اختارت نموذج الدولة الصليبية. ولا تتناقض التسويات والمعاهدات وحتى التعاون الأمنى فى علاقاتها الحالية مع أنظمة عربية مع هذا النموذج. فالدول الصليبية الأربع لم تعش بالفروسية والحصون وحدها، وما كان بإمكانها ذلك أصلا.

لقد نجحت الدولة الصليبية طيلة ١٩٠ عامًا، بواسطة الجمع بين الحصون والقلاع والتسويات والمعاهدات مع أمراء وسلاطين ومماليك، وفى الرهان على خلافاتهم فى تحالفات مع بعضهم ضد بعضهم الآخر.

ولكن هذه التسويات لم تتحول إلى سلام ولم تقبل شعوب المنطقة بالدولة الصليبية. فاستمرت هذه نبتة غريبة ثقافيا وحضاريا وسياسيا. وفى النهاية أصبح امتحان الزعامة العربية الإسلامية فى تقديم نماذج لمحاربتها وهزيمتها.

لقد انتهت الدولة الصليبية رغم مزجها بين التسويات وحملات القتل والإبادة، وحتى فى غياب شعب فلسطينى.

وليس هنالك حاجة للتذكير أن تعبير «الصليبية» نفسه هو تعبير أوروبى متأخر (وليس عربيًا أو إسلاميًا)، يعود إلى مؤرخى القرن السابع عشر فى فرنسا. أما العرب فقد أسموهم الإفرنج أو الفرنجة. والتعبير لا يعنى المسيحية (بالتأكيد ليس الشرقية، ولا حتى الغربية) ولا يتطابق معها.

ويبحث هذا المقال فى الخيارات التى رفضتها إسرائيل والخيار الذى انتهت إليه، خيار الدولة الصليبية. ونقصد بها الدولة الاستيطانية الغريبة عن محيطها التى قامت بالعدوان، وتعيش بالسيف والتسويات والهدنات المؤقتة وباستغلال الخلافات فى محيطها، ولكنها لا تكتسب شرعية فى محيطها عبر الزمن.



عموما لم تُطرَح قضيةٌ كولونيالية، قضية شعب تحت الاحتلال إلا كقضية تحرر من الاحتلال وإزالة الاستعمار. ولكن فى فلسطين طرحت التصورات للتسوية حتى اليوم كمشاريع حلول لمعضلة أو قضية شائكة هى قضية فلسطين.

وفى التعامل مع الحالة الاستعمارية فى فلسطين كأنها قضية شائكة أو معضلة، وفى التعامل مع «قضية فلسطين» كأنها معضلة يكمن تخصيص يهدف إلى تمييزها عن باقى قضايا التحرر الوطنى... وذلك بخلطها مع النزاعات الحدودية والتمايز الدينى والحضارى والمسألة اليهودية. هذا التعقيد المصطنع هو الذى أقصى فلسطين عن عملية إزالة الاستعمار. ولكنه يتحول أيضا إلى المانع أمام «حل دائم»، وهذا التعقيد الذى يستخدم لمنع الحلول يقود فى النهاية إلى التمسك عربيا برفض شرعية إسرائيل وإلى نموذج الصراع المستديم.



انتهت الدولة الصليبية رغم مزجها بين التسويات وحملات القتل والإبادة، وحتى فى غياب شعب فلسطينى



انطلقت ثقافة مرحلة النضال ضد الاستعمار من أنه من واجب الشعوب الواقعة تحت الاحتلال أن تقاوم الاحتلال، ويبقى على الدولة الاستعمارية أن تستنتج من مقاومة الاحتلال ما تستنتج من حلول لقضية عدم تمكنها من السيطرة، وعدم تمكنها من تحمل كلفة الاحتلال.

ولم يكن التفكير بتحرير فلسطين كبلد عربى ممكنا إلا فى سياق معادلة: استعمار مقابل حركة قومية عربية. فُهِمَ التحرير كمهمة الشعب الفلسطينى والشعوب العربية التى افترض أن تقاوم احتلالاً أجنبيًا لجزء من الوطن العربى.

لم تكن المعركة من هذا المنظور منفصلة عن الشعوب العربية. بل كانت جزءًا من القضايا العربية، وكانت رمزيًا هى القضية العربية لأنها كثفت فى ذاتها باقى القضايا القومية... مثل التجزئة والتبعية، والهيمنة الخارجية، وقطع التواصل العربى، وشرعية الأنظمة. ومارس العرب (أو لم يمارسوا حين لم يمارسوا) تضامنا مع الفلسطينيين على المستوى الإنسانى. أما على المستوى السياسى فلم يكن الحديث ممكنا عن تضامن، إذ إن المعركة واحدة.

ليست المعركة ضد الصهيونية وإسرائيل قضية الفلسطينيين وحدهم بحيث يتضامن معهم العرب سياسيًا. فهى إما معركة عربية، أو هى «نزاع فلسطينى إسرائيلى». لا توجد قضية فلسطينية خارج السياق العربى. ولن يلبث أن يتحول ما يسمى «النزاع الفلسطينى الإسرائيلى» إلى صراع حدودى بين كيانين يخضع لموازين القوى بينهما فى غياب العرب.

بعد عام ١٩٦٧، أى بعد الهزيمة التى منى بها التيار القومى وهو على سدة الحكم فى دول عربية مواجهة، وصلت إلى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية فئات سياسية اجتماعية اتجهت عبر تشديدها على الكيانية الوطنية نحو التحول إلى نظام عربى، أو إلى أحد الأنظمة العربية. ومع الردة التى حصلت بعد الحرب على مستوى الأنظمة خاصة فى مصر، التقت هذه الرغبة خلال فترة قصيرة مع رغبة جزء من النظام العربى الرسمى. فمثلا النظام المصرى الذى ولَّدت مرحلته القومية صيغة منظمة التحرير اتجه نحو قطع الصلة مع العرب فيما يتعلق بالصراع مع إسرائيل، وقرر أن يذهب فى طريقه التسووى الذى حتمته سياسته فى حينه. فقد كان السلام المنفرد مع إسرائيل جزءًا من رزمة تضمنت تغيير بنية الاقتصاد، وشملت أيضا خيار التحالف مع الولايات المتحدة إقليميا.

وفى حالة مصر يبدأ قطع الصلة السياسية مع العرب بفك الارتباط مع قضية فلسطين. ما بدأ كموقف وطنى على شكل دعم مصرى لمنظمة التحرير «ممثلا شرعيا ووحيدا» ضد الأردن فى قرارات قمة الرباط، ثم تحول لدعم «استقلالية القرار الفلسطينى» ضد سوريا... كان فى الواقع موافقا للسياسة الجديدة بقطع صلة مصر مع «الصراع العربى الإسرائيلى» لينتهى إلى اعتبار القضية الفلسطينية قضية الفلسطينيين. وكما قلنا يستخدم بعض العرب مؤخرا حتى مقولة أسوأ: «الصراع...» أو «النزاع الفلسطينى الإسرائيلى».

ونجد مثالا حيا لهذا السلوك الفلسطينى فى إصرار ياسر عرفات - رحمه الله - على فصل الوفد الفلسطينى المفاوض فى واشنطن عن الأردنى؟ فماذا كانت النتيجة؟ سلام أردنى إسرائيلى ناجز ومنفصل، وعملية سلام مرتبكة متخبطة لا يحكمها مبدأ بين إسرائيل وقيادة منظمة التحرير مازالت مستمرة بعد عقد ونصف على السلام الأردنى الإسرائيلى.

هذه خلفية اعتبار النظام الرسمى العربى محاصرة الفلسطينيين، والقصف الإسرائيلى الوحشى على مجتمع مسجون فى غزة، قضية الفلسطينيين. وقد انقسم النظام

وجهات نظر: مايو ٢٠٠٨

العربى بين متضامن معهم ولائم لهم يحملهم المسئولية لأنهم يعرضون أنفسهم لغضب إسرائيل. وقد وصلت الحاجة لتأسيس وترويج موقف غير شعبى كهذا شعبيا درجة تأليب المشاعر الوطنية المصرية ليس مع فلسطين وضد إسرائيل، كما هى فى سجيتها، بل ضد «غزوة فلسطينية».

ترك القضية للفلسطينيين هو نتاج لقاء بين نوعين من المواقف والتصورات: أولا، مصالح أنظمة عربية أخرجت نفسها ودولها من تعريف العرب كذات سياسية فاعلة ذات أمن قومى ومصالح ومواقف مشتركة من جهة، وثانيا، مع نضال قيادة حركة التحرر الفلسطينى لكى تصبح نظاما عربيا هى أيضا من جهة أخرى.

ترحب الدول العربية بالسلطة الفلسطينية تحت عنوان (م ت ف) كنظام عربى لأنه يلبى حاجة الأنظمة بأن تترك «القضية» للسلطة والمنظمة تحت عناوين شتى من نوع «وحدانية التمثيل» و«استقلالية القرار» وغيرها. تتحول فلسطين من قضية بلد عربى محتل، إلى نزاع فلسطينى إسرائيلى على حدود دولة فلسطينية افتراضية، ومن «القضية الفلسطينية»، إلى قضية الفلسطينيين، ثم إلى قضية الفلسطينيين القاطنين فى الضفة وغزة دون غيرهم، ومن حلقة ضرورية من حلقات التحرر والوحدة العربية إلى مسألة كيان سياسى آخر، ومن صراع مع الصهيونية وما تمثله فى هذه المنطقة إلى نزاع حدودى.

وتتحول المقاومة من التحرر إلى البحث عن حلول لقضية فلسطين. ويتحول البحث عن حل إلى تفاوض بين محتل وواقع تحت الاحتلال، قبل أن يقتنع المحتل بموضوع التفاوض الوحيد الممكن فى مثل هذه الحالة وهو: كيفية إزالة الاحتلال. ويتحول التفاوض إلى «عملية سياسية جارية» تفصَلُ فيها «حلول» و«مخارج» بموجب موازين القوى السائدة فى ظل ابتزاز تتعرض له النخبة السياسية للشعب الواقع تحت الاحتلال لدفع ثمن بقائها قيادة مقبولة على الساحة الدولية و«المجتمع الدولى».



فى ظل هذا النموذج نشأ التعويل العربى على مستوى الخطاب السياسى والإعلامى على مصطلحات مثل «الشرعية الدولية» و«المجتمع الدولى». وهى عوالم افتراضية بديلة لعالم حقيقى تم التخلى عنه وهو معركة التحرر العربى والفلسطينى ضد إسرائيل والصهيونية والمجتمع العربى.

المجتمع الدولى هو مجتمع افتراضى. وهو تعبير يُعَدّ خصيصا ويُفَصَّلُ للغة المناشدة. ولا يعنى فى الممارسة الفعلية شيئا سوى موازين القوى القائمة لصالح الولايات المتحدة الأميركية.

خيار الدولتين كحل ناجم عن تفاوض، أو يفترض أن تتوصل إليه المفاوضات، هو نتاج هذا السياق، سياق البحث عن «حلول لمعضلة». ولكن سخرية التاريخ أن نفس السياق الذى أوصل النظام الرسمى العربى ومنظمة التحرير الفلسطينية إلى التنازل والاقتناع بفكرة «حل الدولتين» الذى يعرِّض ممارسة حق العودة للخطر بحكم تعريفه، هو نفس سياق القبول العربى بموازين القوى حَكَما، والرهان الحصرى على الاستراتيجية الأمريكية. وهذا ما مكّن إسرائيل من تفريغ الحل من مضمونه

©AP Photo/Eyal Warshavsky



برفضها الانسحاب من القدس المحتلة، ورفض الانسحاب إلى حدود عام ١٩٦٧، والإصرار على الاحتفاظ بكتل استيطانية فى الضفة الغربية.

و«حل الدولتين» الذى أفرغته إسرائيل من المضمون هو الحل الوحيد الذى يمكن أن ينتج عن مفاوضات فى هذه الظروف، فلا يبدو أن «حل» الدولة الواحدة يمكن أن ينتج برضا «الطرفين» أو يتمخض عن مفاوضات بينهما فى هذه المرحلة.

رفض «حل الدولتين» هو رفض لحل كان يمكن أن يشكل أساسا لتعايش فى المنطقة العربية، مع أنه لا يجسد عدلا، ولكنه يتضمن الحد الأدنى من الإجماع العربى إذا تضمن استعادة القدس وعودة إسرائيل إلى حدود عام ١٩٦٧ واعترافا بحق العودة.

ولكن إسرائيل كما قلنا رفضت هذا الخيار. رفضت خيار الدولتين بشكله ومركباته التى كان يمكن أن تقبل عربيا، وسياسات إسرائيل تجعله غير ممكن التحقيق فى المستقبل. فما هو الخيار الآخر؟

لقد تم تقزيم التفاوض على «حل الدولتين» وتفريغه من أى مضمون. إذ فقدت حركة التحرر الوطنى الفلسطينى مصادر قوة حركة التحرر، بما فيها التعويل على المجتمع العربى بدل «المجتمع الدولى». فقدتها، وتخلت عنها دون أن تصبح دولة، وقبل أن تضمن السيادة. وأصبح كيان السلطة الذى أقامته مرتبطا كليا بالتفاوض وبحسن النية الأمريكى الإسرائيلى، وبمواقف الرأى العام الإسرائيلى وغير ذلك. وتحوّل التفاوض على الدولة الفلسطينية إلى عملية ابتزاز، يتم فيها تقديم تنازلات ومقايضتها بقضايا متعلقة بالحقوق الثابتة.

ومن رحم اعتبار التفاوض بديلا عن المقاومة، وليس نتيجة لها تنشأ قيادة فلسطينية جديدة. وهى قيادة محتواة فى العملية السياسية التفاوضية إلى درجة ارتباطها وجوديا بهذه العملية. وإسرائيل تعرف ذلك، كما نعرفه. وهى تستبدل التفاوض السياسى الجوهرى بمكرمات ومبادرات حسن نية إسرائيلية تحتاجها هذه القيادة فى مقابل محاصرة ومحاربة واغتيال القوى الفلسطينية التى تتبنى خيار المقاومة وترفض التخلى عنه.

هكذا يصبح ما كان مفروغا منه تحت الاحتلال ذاته مثل الكهرباء والماء وحرية التنقل والعمل والغذاء والدواء موضوعا للتفاوض والمساومة... ويغدو إنجازا فى وجه القوى التى «تستفز» أو «تغضب إسرائيل» بنهجها و«تعرض نفسها ومجتمعها لحصار» بعدم تخليها عن خيار المقاومة، فهذا الخيار يمنع عنها هذه «الإنجازات» العظيمة (التى كانت قائمة فى ظل الاحتلال).

فى مرحلة التحرر الوطنى كان الطرف الفلسطينى الذى يطرح نفسه كوسيط مع الاحتلال لأن الاحتلال يوفر بواسطته تصاريح السفر والعمل والكهرباء والوقود وغيرها، كان يُعتبَرُ عميلا، وكانت هذه الاستراتيجية تعتبر محاولة لخلق قيادة بديلة لمنظمة التحرير الفلسطينية، التى اعتبرت قيادة وطنية لأنها لا تقبل بالخدمات فى ظل الاحتلال حلا، بل تصر على التخلص من الاحتلال ذاته.



فى مرحلة التفاوض على الدولة أصبحت هذه أدوات إسرائيلية-فلسطينية للضغط وللتمييز بين قيادة معتدلة تستحق أن تدعم بواسطة هذه الخدمات، وقيادات أخرى متطرفة يجب أن تدفع الثمن شعبيا بالضغط على المجتمع الفلسطينى ليتخلى عنها لأنها تتمسك بخيار المقاومة.

ولكن فى الوقت الذى يجرى فيه تفريغ برنامج الدولة الفلسطينية كجزء من «حل الدولتين» من أى مضمون، لا يبدو أن التيار الفلسطينى المقاوم، الذى يتشكل بغالبيته حاليا من قوى تتبنى أيديولوجية دينية، متمثلة بحركتى حماس والجهاد، يميل إلى طرح ديمقراطى بديل يتضمن خيارا للإسرائيليين مثل «حل الدولة الواحدة».

لم يطرح خيار الدولة الواحدة لكافة المواطنين العرب واليهود بشكل فعلى وحقيقى فى تاريخ الصراع. فقد نظر العرب بحق إلى الصهيونية كحركة استعمارية وإلى الصهاينة من غير المقيمين أصلا فى فلسطين كمستعمِرين يحركهم هدفُ إقامةِ دولةٍ فى بلد يقيم فيه شعب آخر. لم يكن وعد بلفور سرا، وقد كانت مشاريع الصهيونية بإقامة دولة يهودية فى فلسطين معروفة معلنة تخفى على الجهلة فقط.

ولأن الصهيونية كانت وما زالت تعنى فى الممارسة العمل على جلب عدد غير محدود من «القادمين» المستوطنين إلى فلسطين، فلم تكن حدود المواطنة واضحة المعالم. والمواطنة المتساوية هى أساس وجوهر فكرة العيش فى دولة واحدة دون هيمنة صهيونية. وهى أيضا الرسالة العربية المطلوب أن تقدم شيئا للمجتمع اليهودى لإبعاده عن فكرة الدولة اليهودية، وأقصد شرعنة الوجود فى فلسطين بواسطة المواطنة. هذه رسالة عيش مشترك، وهى نقيضة للإبادة أو الطرد أو «رمى اليهود فى البحر» (التى تتغنى بها وتخترعها إلى حد بعيد الدعاية الصهيونية فى حين رمت إسرائيل الفلسطينيين فى البحر والصحراء). و لكن بدا أن كل تحديد يقوم به العرب لتاريخ لا يعتبر بعده المهاجرون مقيمين شرعيين من أجل توضيح حدود المواطنة هو تحديد غير واقعى ومثير للسخرية والتسخيف.

ومن الناحية الأخرى، وهى الأهم، أصرت الحركة الصهيونية على إطار الدولة اليهودية فى فلسطين كحل للمسألة اليهودية. هذا هو مبرر وجود الصهيونية التاريخى بنظر ذاتها. وقد كانت الدولة اليهودية موضوع وعنوان الصراع الذى خاضته حتى داخل المجتمعات اليهودية فى الشتات، ناهيك عن الدول العظمى، وتحصيل وعد بلفور، وناهيك بمشروع الاستيطان نفسه. وهو مشروع قام على أنقاض عرب فلسطين، ولم يهدف إلى الحياة مع العرب فى كيان سياسى واحد.

هذا صحيح من الناحية التاريخية، ما عدا فى استثناء قصير واحد هو طرح «هشومير هتشعير» فكرة الدولة الثنائية القومية فى الثلاثينيات، ولكن هذا الطرح جاء فى خضم نشاطها الاستيطانى فى تناقض مع السكان الأصليين.

من السخف الاعتقاد أن الصهيونية، وأى تيار من تياراتها، وإسرائيل أو أى مركب من مركباتها الحزبية السياسية أو حتى الاجتماعية الرئيسية، يمكن أن يقبل الآن بـ«الدولة الواحدة» الديمقراطية كإطار لحل.

ليس هذا النموذج حلا تفاوضيا فى إطار موازين القوى الحالية وبالمعنى الذى يفهم فى أيامنا هذه من كلمة «حل». وعندما طرح لفترة قصيرة من قبل حركة فتح مثلا فى السبعينيات اعتبر إسرائيليا على أنه رديف لعبارة «إزالة إسرائيل». كما طرحت فكرة الدولة الواحدة من قبل (م ت ف) كبرنامج «الدولة الديمقراطية العلمانية» بحيث تضمن المساواة الكاملة بالحقوق بين سكان البلاد: مسلمين ومسيحيين ويهود. أى أنها تعاملت مع الديانات تحييدا، وذلك دون أن تعيِّن طابعا قوميا للدولة. ولكن لم تطرح أدوات تحول الفكرة إلى برنامج سياسى بعمل يهودى عربى مشترك مثلا، بل من خلال تحرير فلسطين كبلد عربى. وعلى كل حال لم تدم الفكرة طويلا فى التداول.

وقد اختلف هذا البرنامج الديمقراطى عن فكرة الدولة الثنائية



نجحت الدولة الصليبية طيلة ١٩٠ عاماً، بواسطة الجمع بين الحصون والقلاع والتسويات والمعاهدات مع أمراء وسلاطين ومماليك، وفى الرهان على خلافاتهم فى تحالفات مع بعضهم ضد بعضهم الآخر





القومية. وهى فكرة تطرح حاليا من قبل مثقفين عرب ويهود. وقد طرحت بداية من قبل يسار الحركة الصهيونية «هشومير هتسعير» فى ثلاثينيات القرن الماضى ولفترة قصيرة فقط. وتتضمن الفكرة الثنائية القومية اعترافا بوجود جماعتين قوميتين فى فلسطين، تشكل كل منهما كيانا داخل دولة واحدة. وتلبى بالتالى فكرة الوطن القومى، أو الوطن لكل قومية من القوميتين فى نفس الدولة، فى إطار دولة واحدة تعترف بقوميتين. طبعا أسقطت «هشومير هتسعير» هذا الطرح سريعا ولم تتابعه. فقد رفض فلسطينيا وصهيونيا... وبقيت شذرات منه تطرح من قبل أساتذة فى الجامعة العبرية ومثقفين يهود بارزين ولكن معدودين قبل النكبة فى إطار حركة «بريت شالوم».

يسلم نموذج «الثنائية القومية» بوجود قوميتين واحدة أصيلة وأخرى متشكلة، ولكنها فى الحالتين أقرب إلى واقع فلسطين من جنوب أفريقيا. ففى جنوب أفريقيا الجديدة التى يعاد بناؤها بعد انهيار النظام العنصرى جرى تجاهل فكرة القوميات (التى اعتبرت غير متشكلة كفكرة سياسية) لصالح فكرة تعدد الثقافات واللغات والديانات والإثنيات فى إطار أمة المواطنة الواحدة. أى أن عملية بناء الأمة الجنوب أفريقية الواحدة (وخلافا للأمة الفرنسية مثلا) لا تتجاهل الإثنيات والقبائل واللغات والجماعات والثقافات. وهى تعترف بها فى إطارها. فى جنوب أفريقيا إذًا ليس المطروح نموذجا متعدد القوميات، بل متعدد اللغات والثقافات والإثنيات.

ومع أن «الحل الثنائى القومية» أقرب إلى واقع فلسطين لأنه يتعامل مع قوميات متشكلة فعلا خلافا لنماذج أخرى مهاجرة (الولايات المتحدة، أستراليا، نيوزيلندا) تبنى فيها الأمة على أساس المواطنة وحدها دون ذكر القومية، فإنه ليس أكثر واقعية من الناحية السياسية فى موازين القوى الحالية فى فلسطين.

إضافة إلى ذلك ففى جنوب أفريقيا تبنت حركة التحرر الوطنى متمثلة بالمؤتمر الوطنى الأفريقى هذا الخيار، خيار التحرر عبر المواطنة المتساوية فى إطار الدولة متعددة الثقافات. ولكن حركة التحرر الوطنى الفلسطينى تاريخيا اتجهت نحو فكرة الدولة الوطنية فى نهاية السبعينيات.

وهكذا وُجِّهَت الانتفاضة الأولى والثانية فى الضفة الغربية وقطاع غزة باتجاه انفصالى وليس توحيدى مع بقية فلسطين. ولا توجد قوى فلسطينية سياسية حزبية جدية تتبناه، أو تطرح استراتيجية نضالية سعيا إليه، ناهيك عن أنه ليس خيارا تفاوضيا مع إسرائيل، فى حين تتبنى النخبة السياسية الفلسطينية طريق التفاوض حصريا.

وقد انقسمت الخارطة السياسية الفلسطينية والقوى المنظمة الفاعلة فلسطينيا بين قوى تدفع جميعا باتجاه الدولة، الدولة الوطنية فلسطينية، وتختلف على أمور أخرى. وحقيقة تبنى هذا الخيار مؤخرا من قبل مثقفين فلسطينيين ديمقراطيين لا يغير من جديته وجدية مناقشته، بل يؤكد ضرورة ذلك.



ونحن نعتقد أنه لا توجد عوائق كبرى أيديولوجية أو بنيوية فلسطينية ضد مثل هذا الحل كما أن مصلحة الشعب الفلسطينى بطرح برنامج ديمقراطى يضمن حق العودة ولا يفرط بالحقوق ويعطى إجابة للمواطن اليهودى تجد لها إجابة معقولة لها فى تبنى مثل هذا الحل. وإذا تم تبنيه فلسطينيا فلن يكون هنالك عائق عربى جدى.

المشكلة أن إسرائيل لم تقبل بهذا الموقف أبدا. ولم تنشأ قوى إسرائيلية تطرحه أو تتحزب له. وهذا هو العائق الرئيسى أمام تبنيه من قبل نخب سياسية فلسطينية ترى بالتفاوض خيارها الوحيد. أما القوى الفلسطينية المقاومة فتبدو شعاراتها واستراتيجيتها النضالية مخالفة تماما لمفهوم وروح الدولة الواحدة وفكرة المواطنة الديمقراطية فى دولة علمانية.

ومن الواضح أنه ليس من جدوى فى انتظار فئات اجتماعية إسرائيلية كبرى لتنضم لمثل هذا الطرح. لأن الفئات الاجتماعية الكبرى لا تتنازل عن امتيازات عن طيب خاطر. إن «حل الدولة الواحدة» هو تنازل عن امتيازات اليهود، وذلك بدرجة أكبر فى حالة الدولة الديمقراطية العلمانية القائمة على المواطنة، وبدرجة أقل فى حالة الدولة الديمقراطية العلمانية القائمة على الاعتراف بقوميتين على شكل اتحاد فيدرالى.

لا يبدو فى الأفق القريب تيار سياسى اجتماعى إسرائيلى يدفع بهذا الاتجاه فى تناقض مع فكرة الدولة اليهودية. وأقصى ما نسمعه من اليسار الصهيونى هو فصل الضفة والقطاع عن إسرائيل فى دولة، ورفض حق العودة فى كافة الحالات.

المشكلة أن من تبنى خيار «حل الدولة الواحدة» مؤخرا تبناه نتيجة لقناعة بفشل «حل الدولتين» على أساس حدود الرابع من حزيران، وليس نتيجة لتبين فرص نجاح «حل الدولة الواحدة»، وأيضا لأنه بات واضحا أن حل الدولتين لا يستوعب تطبيق حق العودة... لا يفرز فشلُ «حلِّ الدولتين» بحد بذاته مقومات نجاح حل «الدولة الواحدة».

لا يمكن استنتاج «حل الدولة الواحدة» فوريا من فشل «حل الدولتين». وإذا قبلنا الحديث بلغة الحلول فإن «حل الدولة الواحدة» برأينا أيضا هو الحل الأفضل والأكثر استيعابا لمركبات الحقوق الفلسطينية ويتضمن رسالة ديمقراطية للمجتمع الإسرائيلى.

على كل حال أهم أسباب عدم نجاح هذا النموذج المطروح حاليا هو رفض إسرائيل مجرد التفكير بالفكرة، وغياب أية قوة جدية إسرائيلية قادرة على طرح الموضوع بجدية على جدول أعمال الرأى العام اللهم إلا بهدف تخويف الرأى العام الإسرائيلى من الاحتفاظ بالسيطرة الكاملة على الفلسطينيين. تطرح فكرة الدولة الواحدة فى إسرائيل حتى الآن سلبيا، أى للتخويف بها، ولإقناع المجتمع بضرورة التخلى عن مساحات مكتظة بالسكان الفلسطينيين مثل قطاع غزة.

والمشكلة أن إسرائيل باتت تجأ إلى خيار «حل الدولتين» خشية من تطور هكذا واقع يدفع باتجاه «الدولة الواحدة».

وما تقدمه إسرائيل حاليا كـ «رؤية بوش» أو كـ «رؤية شارون» هو ليس خيار «حل الدولتين» فعلا بل هو إثبات لفشل هذا الحل. ومع ذلك فإن النخبة السياسية الفلسطينية المتولدة عن «عملية السلام»، ومعها أنظمة عربية تريد أن «تتخلص» من هذا الهم تساعد إسرائيل فى تخريجات وصناعة خطاب لكى يبدو ما يطرح وكأنه دولة فلسطينية فى إطار «حل الدولتين»... وذلك بآليات مثل «تبادل أراضٍ»، بدون القدس، «الاعتراف بحق العودة دون ممارسته»، وبكيان دون سيادة كاملة يسمى دولة وغيرها من التخريجات والتسميات التى لا ينضب لها معين.

ولكن أليست هذه التسوية سلاما حتى لو لم يكن عادلا؟ حول هذا الموضوع فى الحلقة القادمة.

قد تؤدى المفاوضات المتعثرة بين السلطة الفلسطينية (تحت عنوان م ت ف) وحكومة إسرائيل إلى اتفاق تقوم على أساسه دولة فلسطينية. وربما تجرى بينهما حاليا مفاوضات سرية مكثفة موازية غير متأثرة بردود فعل الساسة

يجرى تمرير التسوية دون أى تأثير على نفور الشارع العربى من عملية التسوية والسلام وعدم إيمانه برغبة إسرائيل بالسلام العادل، ورفضه للامتيازات التى تحظى بها دوليا

إســــرائيـل إلـــى أيـــن؟!



اليمنيين فى إسرائيل أو بما يجرى فى الشارع العربى. ولا بد أن أبحاث هذه المفاوضات أكثر عمقا مما يظهر فى الإعلام.

ويعتقد صناع القرار فى أمريكا وإسرائيل أنه ذلك سوف يبدو إنجازا كافيا لتحقيق السلام فى المنطقة، بعد أن يتم التوصل إلى اتفاق على شروط قيام هذه الدولة التى لا تصل حدودها إلى حدود ١٩٦٧ ولا تشمل القدس الشرقية عاصمة وتُسقط حقَّ العودة. لقد جهدت إسرائيل والإدارة الأمريكية لتحويل مطلب الدولة الفلسطينية إلى رزمة تختزل وتصفى كل الحقوق الوطنية للفلسطينيين.

ويجدر هنا التفكير بمعنى رفض ياسر عرفات مثل هذا العرض فى كامب ديفيد. فهو يحمل دلالات ليس لجهة تمسكه بالثوابت بالضرورة، بل لجهة فهمه لعدم مشروعية الحل عربيا وفلسطينيا. فهو الذى ربط مصيره الشخصى والسياسى بالمفاوضات وذلك: بعد حرب الكويت، وبعد انحسار (م ت ف) كجهاز فى تونس إثر الخروج من بيروت، وبعد انهيار الاتحاد السوفيتى، وبعد وصول الانتفاضة إلى طريق مسدود. وهو لم يقبل هذا العرض بعد أن بات رهينة الحبس الإسرائيلى فى المقاطعة، ودفع ثمن رفضه، وبدا أن تشييع النظام الرسمى العربى وجزء كبير من القيادة التى أحاطت به شمل أيضا تنفس الصعداء للتخلص منه كعائق أمام عجلات نفس العملية التى بدأها والتى عادت تدور بعد وفاته.

وقد لا يتم التوصل إلى تسوية. ولكن يجب عدم استبعاد إمكانية التوصل لورقة مبادئ حول الحل الدائم بروح ما رفضه عرفات، بحيث تصلح برنامجا انتخابيا عند أولمرت وموضوعا للاستفتاء عند محمود عباس.

وإذا لم يتم التوصل إلى تسوية يبدو لى أن النتائج على الساحة العربية والفلسطينية سوف تكون واضحة من ناحية تقوية المحور الرافض للتسوية والمعوِّل على استمرار المقاومة، رغم أن البعض سوف يواصل «عملية السلام» لسنين طويلة. ولكن إذا تم التوصل إلى تسوية من هذا النوع فإنه لا يعنى أن الصراع قد وجد نهايته المحتومة. فهذه التسوية ليست «حل الدولتين» الذى يحظى ببعض الشرعية، رغم أنها ترضى قيادات عربية. فهذه تتذرع بقبول ما تقبل به القيادة الفلسطينية لأنها ترغب بالتخلص من عبء قضية فلسطين.

إن الكيان الناجم عن المفاوضات والذى يُعرَض وكأنه «حل الدولتين» لا يحظى بشرعية عربية على مستوى الشعوب والرأى العام والمجتمع العربى كتسوية للحساب المفتوح وكتعويض عن الظلم اللاحق بالشعب الفلسطينى.

قد يقال إن هذا كلام عام. ولكن الحقيقة أنه يترك قضايا ملموسة خارج الحل مثل قضية اللاجئين. وهى الأصل، وذات الوزن النوعى والمعنوى الكبير، وتتضمن معاناة فعلية لملايين البشر. كل ما تعرضه هذه التسوية على اللاجئين هو تغيير اسمهم من لاجئين إلى رعايا سفارات فى الخارج، أو مغتربين. كما أن إسرائيل لن تبقى بعد هذا الحل ساكنة فى القدس، بل سوف تنكأ الجراح يوميا بالتهويد المستمر للقدس وأراضيها ومقدساتها. وسوف تتكثف يهودية إسرائيل وتزداد تزمتا وصلفا فى العلاقة مع العرب المواطنين فيها والذين سوف يُخيَّرون بعد مثل هذه التسوية بين الولاء الكامل لإسرائيل إلى درجة الخدمة العسكرية وبين الحقوق المنقوصة قانونيا. أما من يصر على هويته القومية والوطنية من العرب فى إسرائيل فقد وجدت هذه من وجهة النظر الإسرائيلية تعبيرا كافيا عنها فى هذا الكيان الفلسطينى.

وفوق كل هذا سوف يبقى التناقض قائما بين تطوير الدولة العربية وتحديثها وتحديث جيشها، وبين إسرائيل كدولة مغتربة عن محيطها على خشيتها ورعبها من أى تطور فيه.

وسوف يبقى تناقض إسرائيل مع الديمقراطية عربيا لأنها تخشى الأكثرية ورأيها العام وتقلباته.

إذا كان هنالك سؤال عن المشروعية فإن الشعب الفلسطينى هو القادر أن يمنح المشروعية للتسوية إقليميا. ولكن التسوية المطروحة تتم من خلال تحالف مع طرف فلسطينى ضد أطراف أخرى، أحدها ربح الانتخابات المحلية عندما خاضها. أما فى الشتات الفلسطينى فهذا النوع من التسوية، بحكم تعريفه كإقصاء لقضية اللاجئين، لا يحظى بمشروعية. هذه التسوية ليست فقط غير شرعية فلسطينيا، بل إنها أكثر من ذلك سبب احتراب داخلى. وحتى إنضاجها قبل أن يتم التوصل إليها يجرى عبر تجويع وقصف جزءٍ من الشعب الفلسطينى واستنزافه إلى درجة لا يقوى فيها على الرفض. هذه ليست مؤشرات على شرعية.



وإقليميا يجرى تمرير هذا النوع من التسوية من خلال هيمنة أمريكية وصراع محاور إقليمى، وسوف يحوِّل أحد المحاور عدم عدالة التسوية إلى راية فى معاركه.

يجرى تمرير التسوية دون أى تأثير على نفور الشارع العربى من عملية التسوية والسلام وعدم إيمانه برغبة إسرائيل بالسلام العادل، ورفضه للامتيازات التى تحظى بها دوليا.

وإن صحت أم لم تصح افتراضات الشارع العربى، يحمل العرب مسئولية جزءاً كبيراً مما هم فيه لهذه الحالة التى أنتجت هذه التسوية، وللتحالف الأمريكى مع إسرائيل، والازدواجية المعايير دوليا. لا التسوية ولا العملية التى قادت إليها شرعية بنظرهم. ولا شك أن حالة الاستباحة الإسرائيلية للشعب الفلسطينى لثنيه عن خيار المقاومة وقبول الشروط الإسرائيلية قد روَت بذور النقمة وأججت مشاعر الغبن والميل لإلصاق تهم العمالة لإسرائيل وأمريكا بالضالعين فى التسوية.

صحيح أن العربى مغلوب على أمره فى ظل الأنظمة ولكنه لا ينظر برضى إلى مشهد استمرار التآمر من أطراف عربية مع إسرائيل ضد نتائج انتخابات فلسطينية، وهو لا ينظر بعين الرضا إلى استمرار التفاوض مع إسرائيل وهى تحاصر وتقصف وتقتل المدنيين فى وسط العالم العربى، وهو لا يقبل موقف «الاستيطان عقبة فى طريق السلام» ولا يعتبره أكثر من رفع للعتب من أجل الاستمرار بالتفاوض رغم الاستيطان، واستهانة بالرأى العام العربى من قبل دول عربية قادرة على فعل أكثر من ذلك بكثير.

من هنا فإنه بعد رفض إسرائيل ما تعتبره أوساط عربية وفلسطينية واسعة حلولا شرعية، فإن التوصل أو عدم التوصل إلى اتفاق مع إسرائيل خارج إطار الحلول العادلة لا يعنى إلا تبنى إسرائيل نموذج الصراع المستديم، الذى يستمر رغم التسويات والتحالفات.

فى الواقع سوف يستمر الصراع بعد هذا النوع من التسوية. فهى تمثل خيارا عرفته المنطقة العربية فى الماضى، هو نموذج الدول الصليبية. لقد رفضت إسرائيل خيار «حل الدولة» وخيار «حل الدولتين». وإن نجحت أو لم تنجح فى فرض تسوية كالتى يجرى التفاوض عليها سرا وعلنا، فهى اختارت بالمنظور التاريخى العيش فى صراع مستديم دون شرعية من محيطها.

ونحن لن نذكر أوجه الشبه ولن نقوم بمقارنة بين سياق الصراع الحالى المعاصر وسياق الحملات الصليبية فليس هذا هو المقصود. وطبعا السياق التاريخى مختلف تماما. يمكننا أن نذكر أن التسويات كثرت فى ظل الدولة الصليبية مع محيطها، بما فى ذلك تحالفات مع أمراء ضد آخرين فى مصر وبلاد الشام، ولن يكون صعبا أن



إن تمت التسوية أم لم تتم، سوف يجرى كل هذا فى ظل رفض عربى لقبول إسرائيل، جزئيا على المستوى الرسمى وكليا على مستوى الرأى العام العربى





نجد أمثلة شبيهة راهنة. ويمكننا أن نذكر حتى حرق كنيسة القيامة أيام جنون الحاكم بأمر الله، فى باب تقديم الذرائع للحملات، ولن يكون ذكر زعامات غير متزنة شبيهة معاصرة متعسرا. ولو ذكرنا دور الإمارات الشمالية فى تسهيل العبور وفتح الطريق أمام جيش الصليبيين من أنطاكية وحتى القدس، ولو ذكرنا تسخير الدين فى التعبئة والتجييش وحتى فى الفهم الذاتى لمنظمى الحملات ومقاوميها... حتى لو قمنا بكل هذا ووجدنا الأمثلة المقابلة فى عصرنا، فسوف نجد دائما من يجيب بحق أن النظام الدولى الحالى يختلف عن تلك الإمارات العربية والصليبية، وثبات واستقرار الدولة الحديثة العربية واليهودية يختلف جذريا، ودور الدين اختلف، وعلاقة إسرائيل مع الغرب أوثق وأسرع وأكثر كثافة من علاقة الدولة الصليبية التى لم يصل خبر سقوط القدس بيد الصليبيين منها إلى البابا إلا بعد وفاته، مع أنها سقطت قبل وفاته بعشرة أيام...

كما يمكن لإحباط أية مقارنة الإشارة إلى الفجوة التكنولوجية والعلمية بين إسرائيل والعرب. وهى فجوة لم تكن قائمة بين الدول الصليبية الأربع ومحيطها الإسلامى العربى والتركى والفارسى.

ويمكن الرد على الرد بالقول أن من يراجع تلك الفترة يدرك أيضا أن العرب ليسوا نفس العرب من حيث الوعى الوطنى والقومى والهموم المشتركة وفهمهم للاستعمار وللقضية الوطنية. ولذلك لسنا من السذاجة لإجراء مقارنات.



ما يهمنا من هذا النموذج هو: دولة غريبة عن المنطقة أُنشِئت حملات عسكرية استيطانية، ثم استقرت دون أن تندمج بالسكان بل من خلال بناء القلاع الحصينة والاعتماد على الفروسية، والرهان على وجود تنافر وصراع بين الكيانات السياسية القائمة على النفوذ أو على المصالح أو غيره. (ولا يهمنى هنا ما يعتبره البعض هو الجوهر أى التجييش الدينى والتجييش المضاد إلا كدليل على الغربة).

وهذا يعنى أنه فى غياب حل شرعى اختارت إسرائيل أن تبقى قلعة حصينة خلف جدار حديدى، تعيش على قوة الردع من جهة، وعلى الخلافات العربية العربية من جهة أخرى... وتتضمن هذه الخلافات تسويات إسرائيلية عربية طبعا، فطريق الصراع المستديم الذى اختارته الدولة الصليبية كان مرصوفا بالتسويات.

هذا ظرف مستديم. ويصح حتى الآن أنه خيار عميق الجذور فى الرأى العام الإسرائيلى، وأنه يستند إلى عناصر قوة راهنة توفرها علاقة مشوهة وغير صحية مع الولايات المتحدة ليس لها مثيل بين الدول. ولا يبدو فى الأفق قبول إسرائيلى لأحد الحلين: «حل الدولة الواحدة»، أو «حل الدولتين». ويفترض أن يتوقع الشعب الفلسطينى والشعوب العربية وضعا لا يمكن فيه تحقيق الحقوق، ومع ذلك لا يجوز التنازل عنها، ويتوجب فيه رفض التسويات غير العادلة، ولكن إلى جانب رفض التسويات وإغلاق باب التسوية غير العادلة، يجب أن يطرح برنامج ديمقراطى ثابت للحل لليهود والعرب فى إطار تصور للمنطقة العربية كلها. وهذا يعنى الحياة والتطور والمحافظة على سبل العيش فلسطينيا ومقاومة الحقائق الإسرائيلية الجاهزة على الأرض. وهى مقاومة تنجز مكاسب جزئية وهامة، وتمنع تحول الحالة الكولونيالية إلى حالة طبيعية. ولكن التراكم على المدى البعيد هو فى التحدى الإقليمى العربى ومن ضمنه الفلسطينى لإسرائيل، وتحديث الدول والمجتمعات والاقتصاديات العربية، واستكمال عوامل الصمود والبناء بما فيها مهام التنمية والديموقراطية وقوة الردع.

إن تمت التسوية أم لم تتم، سوف يجرى كل هذا فى ظل رفض عربى لقبول إسرائيل، جزئيا على المستوى الرسمى وكليا على مستوى الرأى العام العربى.

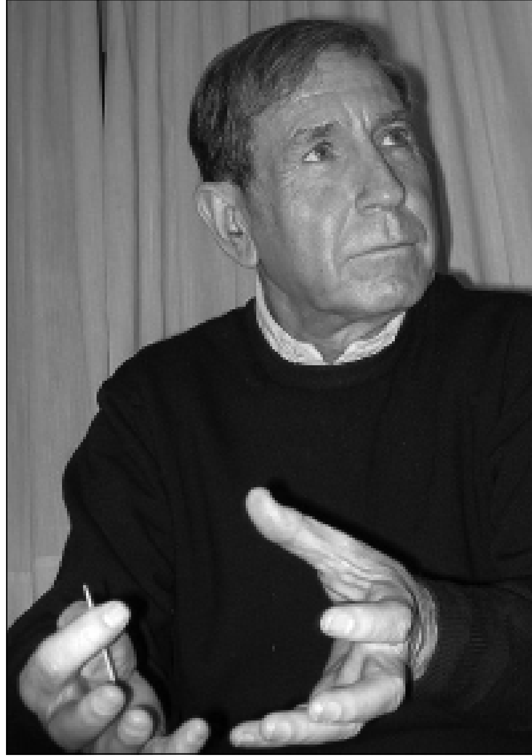
هذا صراع طويل يجب أن يدار بالإيقاع الصحيح. وليس الزمن فيه لصالح إسرائيل بل لصالح من يحسن استغلاله. هذا هو أحد أهم المغازى من الستين عاماً الفائتة. ■

فى أرشيـــــــف
وجهات نظر

ستون عامًا على النكبة

- خليل الشقاقى: السلام وعرفات.. ضحايا أوسلو ـ مارس ٢٠٠٢
- تونى يوت: إسرائيل إلى أين ـ مايو ٢٠٠٢
- فاروق عبد القادر: الحياة الفلسطينية بين انتفاضتين ـ أبريل ٢٠٠٣
- تونى يوت: دولة واحدة..من البحر إلى النهر! ـ ديسمبر ٢٠٠٣
- ايلان بابيه: إسرائيل الكبرى؟؟ ـ يونيو ٢٠٠٤
- محمد السطوحى: ذهب عرفات... وعاد بوش... ماذا بعد؟! ـ ديسمبر ٢٠٠٤
- حسين أغا ـ روبرت مالى: الفلسطينى الأخير.. ـ مارس ٢٠٠٥
- جُمانة أبو غزالة: الزيارة الأولى.. للوطن ـ أبريل ٢٠٠٥
- محمود محارب: إسرائيل..نحو نظام أبارتهايد ـ أكتوبر ٢٠٠٥
- سعاد أميرى: حماتى وشارون!..من يوميات الحصار ـ مارس ٢٠٠٦
- آموس ايلون: «جـدار.. وبُؤَر استيطانية وتفرقة عنصرية»: ما الذى يريده أولمرت؟ ـ يوليو ٢٠٠٦
- أيمن الصياد: وهم السلام.. وهم السلاح.. خرائط التيه ـ أغسطس ٢٠٠٦
- كارين آرمسترونج: القدس.. مدينة واحدة.. عقائد ثلاث ـ أبريل ٢٠٠٧
- مازن النجار: مشروع فاقد القداسة ـ يونيو ٢٠٠٧
- دايفيد ريمبك: اليوم السابع! ـ يوليو ٢٠٠٧
- سارى نسيبة ـ انطونى ديفيد: كان ياما كان... وطن ـ فبراير ٢٠٠٨
- عزمى بشارة: إسرائيل إلى أين؟!! ـ مايو ٢٠٠٨
- فيصل دراج: ستون عاما من الحكى ـ مايو ٢٠٠٨
- ذاكرة الكاميرا.. فلسطين التى كانت! ـ مايو ٢٠٠٨
- شهادات إسرائيلية وبريطانية... مشوار الموت ـ مايو ٢٠٠٨
- مريد البرغوثى: عائد من رام الله ـ يونيو ٢٠٠٨
- وليد سيف: الصراع على المعانى.. تحريف الكلم عن مواضعه ـ مارس ٢٠٠٩
- جون ميرشايمر: لقد انتهت المحرقة..كتاب آفراهام بورج الجديد ـ مارس ٢٠٠٩
- رونى كاسرلز: دولة الفصل العنصرى الأخرى ـ مايو ٢٠١٠
- أيمن الصياد: من أوسلو إلى واشنطن.. حكايا الدائرة المفرغة ـ سبتمبر ٢٠١٠
- نصير عرورى: المحو!! ـ سبتمبر ٢٠١٠
- عزام التميمى: «فن الممكن»! ـ سبتمبر ٢٠١٠
- أليز أغازريان: زهرات جَدّتى.. ومَدائن عمتى ـ سبتمبر ٢٠١٠
- آرون ديفيد ميلر: لماذا كفرت ـ أكتوبر ٢٠١٠
- محيى الدين عميمور: «الطريق المصرى إلى القدس» ـ أكتوبر ٢٠١٠

عودة ١٩٤٨



■ ■ إن مؤتمر الأمم المتحدة للاحتفال بمناسبة مرور ستين عاماً على إنشاء الأونروا (وكالة الأمم المتحدة لغوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين) ما كان ليأتى فى لحظة أفضل من لحظتنا هذه. إن إعادة الأراضى التى احتلت فى عام ١٩٦٧ سوف يظل بشكل بوضوح أمراً لا غنى عنه لحل الصراع الفلسطينى الإسرائيلى، ولكن الإرث الذى خلفته حرب عام ١٩٤٨ هو الذى يشكل الآن المحور الذى يركز عليه طرفا النزاع فى المناقشة.

والعجيب فى الأمر أن رئيس الوزراء الإسرائيلى بنيامين نتنياهو هو الذى أعاد فتح ملف ١٩٤٨ حين طالب الفلسطينيين بالاعتراف بإسرائيل كدولة يهودية .وبهذا فقد أعاد المساعى الرامية إلى إحلال السلام أعواماً إلى الوراء، حيث بات من المحتم أن تلعب مسألة اللاجئين دوراً محورياً.

كان نتنياهو يرمى فى الأساس إلى إرغام الفلسطينيين على الاعتراف بأن حق العودة للاجئين لا ينطبق إلا على الدولة الفلسطينية، وليس إسرائيل .ولكن المغزى الحقيقى من هذا الطلب يكمن فى التصريح به فى وقت حيث أصبحت السياسات التى ينتهجها رئيس الوزراء سلام فياض تفرض تحدياً حقيقياً على الحركة الوطنية الفلسطينية للاختيار بين التبرير وبناء الدولة.

تحت زعامة فياض، تبدو السلطة الفلسطينية وكأنها عازمة على التخلص من تأكيدات الحركة الوطنية الفلسطينية على اللاجئين فى الشتات لصالح بناء الدولة ضمن الحدود الإقليمية للأراضى المحتلة .وبدا الأمر وكأن صوت الشتات قد أخرس فى فلسطين .ومن الواضح أن اللجنة التنفيذية المنتخبة مؤخراً لمنظمة التحرير الفلسطينية . والتى كانت فى الماضى تتألف بالكامل من ممثلى الفلسطينيين فى الشتات. لم يعد بها الآن سوى عضو واحد من الشتات، وهو مندوب من لبنان.

وهذا قد يكون علامة على تغيير جذرى فى تطور القومية الفلسطينية. ففى الصهيونية، كان المجتمع اليهودى فى فلسطين يشكل مركز اتخاذ القرار، فى ظل الدعم الاستراتيجى من جانب اليهود فى الشتات. ولكن الموقف أصبح معكوساً فى حالة الفلسطينيين: حيث كانت روح الشتات، وفى مركزها المحنة التى يعيشها اللاجئون، بمثابة القلب النابض للقضية الفلسطينية ومركز اتخاذ القرار بالنسبة للحركة الوطنية.

ونتيجة ذلك فقد كان المجتمع الفلسطينى فى الأراضى المحتلة خاضعاً دوماً لسيادة الفلسطينيين فى الشتات. وحين سعى المجتمع الفلسطينى فى الأراضى المحتلة للاضطلاع بدور قيادى . أثناء الانتفاضة الأولى فى عام ١٩٨٧، على سبيل المثال . سارعت قيادات منظمة التحرير الفلسطينية فى الشتات إلى قمع هذه المساعى.

أما فياض وأنصاره فهم على النقيض من ذلك يسعون إلى" صهينة "الحركة الوطنية الفلسطينية .وهذا من شأنه أن يضفى روحاً إيجابية على عملية بناء الدولة والأمة من خلال إبطال التركيز على المشاغل الخاصة بالقومية الفلسطينية والتى تتركز على الفلسطينيين فى الشتات . وبالتالى تجاوز الهوس المدمر بالتسويغ الذى لم يتحقق قط للحقوق والعدالة.

وفى إطار عملية السلام، طبقاً لمجرياتها وأساليب إدارتها حتى الآن، كان الإسرائيليون راغبين فى التركيز على قضايا ١٩٦٧ . والتى تتلخص فى الأرض والأمن .ولكن الفلسطينيين فى المقابل كانوا راغبين دوماً فى العودة إلى قضايا ١٩٤٨: اللاجئين، والشتات، وما حدده أكرم هنية (الذى كان من أقرب المقربين إلى عرفات) بضرورة «حمل إسرائيل على المثول أمام محكمة التاريخ».

ويبدو الأمر الآن وكأن الأدوار قد انعكست .فبالتحديد حين نجحت إسرائيل فى تدجين الحركة الوطنية الفلسطينية عن طريق إجبارها على التخلى عن مسارها الثورى لصالح بناء الدولة والتنمية الاقتصادية . وهى إعادة التوجيه التى كانت الحركة الصهيونية حريصة أيضاً على رعايتها . قرر الإسرائيليون أن يجروا الفلسطينيين إلى العودة إلى المبادئ الأساسية للصراع.

والواقع أنه على الرغم من انتشار مذهب فياض ، فإن الحركة الوطنية الفلسطينية سوف تكون حريصة على عدم خيانة مصادرها الحقيقية للشرعية: روح الشتات واللاجئين .إن القرارات التى اتخذت فى مؤتمر فتح الأخير كانت صريحة فى دعوة اللاجئين إلى «العودة إلى منازلهم ومدنهم».

ويبدو أن الفلسطينيين يحاولون إمساك العصا من طرفيها فى نفس الوقت، زاعمين أمام العالم أنهم يوافقون على حل الدولتين بينما ينادون بحق العودة .وأى زعامة فلسطينية واقعية لابد أن تكون قد أدركت الآن أن الوعود الخطابية فيما يتصل بالعودة إلى المنازل المهجورة وأشجار الزيتون تشكل سراباً غير مسؤول ويتناقض جوهرياً مع المطلب العقلانى المتمثل فى إقامة دولة فلسطينية منفصلة.

إن السلام قد لايدور فى أحوال كثيرة حول العدالة، بل حول الاستقرار .ويتعين على الفلسطينيين أن يوحدوا محادثاتهم الوطنية على ما يمكن تحقيقه، بينما يتعين على إسرائيل أن تحل تناقضاتها الذاتية، وأن تعالج مشكلة اللاجئين على النحو الذى يضمن شرعية واستدامة أى اتفاقية سلام تبرم فى المستقبل مع الفلسطينيين .ولأن إسرائيل سوف يكون لزاماً عليها أن تتخذ تدابير عملية لإعادة التوطين والتعويض على نحو لا يستند إلى الحق التلقائى فى العودة البدنية، فإن الأمر يتطلب أيضاً رمزاً للتعويض الأخلاقى الحقيقى.

فبدلاً من قمع ذاكرة اللاجئين، يتعين على إسرائيل أن تعترف بأن الأرض قد قُسِّمت بحد السيف فى عام١٩٤٨ ، وأن الدولة اليهودية خرجت إلى حيز الوجود جزئياً بسبب اقتلاع وتشريد أعداد هائلة من التجمعات السكانية الفلسطينية. ويتعين على إسرائيل أن تبنى القدر الكافى من الثقة فى متانتها كأمة فتدمج فى مناهجها المدرسية الحديث عن مأساة النكبة الفلسطينية. إن حل الصراعات من هذا النوع يتطلب استرجاع الذاكرة التاريخية، والإنصات إلى الرواية التاريخية لكل من الطرفين، وربما يتحقق ذلك من خلال تأسيس لجان للحقيقة والمصالحة.

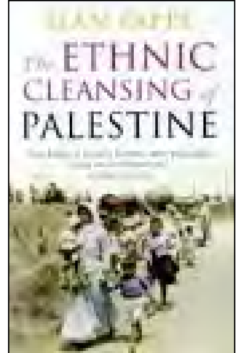
وسوف يكون عزاء الإسرائيليين أن الفلسطينيين أيضاً سوف يتحملون نصيبهم فى المسؤولية عن الكوارث التى حلت بهم .ولن يتسنى إغلاق ملف١٩٤٨ نهائياً إلا من خلال التوصل إلى صفقة مقبولة لتعويض اللاجئين . وآنذاك فقط يصبح من الممكن إنهاء الصراع فى فلسطين. ■

شـــــلـومـو بـن عــــامـى

Shlomo Ben Ami

Shlomo Ben Ami is a former Israeli foreign minister who now serves as Vice President of the Toledo International Centre for Peace. He is the author of: *Scars of War, Wounds of Peace: the Israeli-Arab Tragedy*. Oxford: Oxford UP, 2007

ترجمة: هند على



The Ethnic Cleansing of Palestine

التطهير العرقى لفلسطين

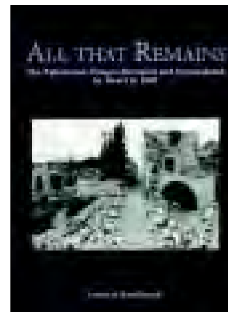
by Ilan Pappe
Oneworld Publications, 2006, 320 pp., $10.17

إيلان بابيه مؤرخ إسرائيلى شهير ومحاضر بجامعة حيفا. يورد فى كتاب التطهير العرقى لفلسطين تقريراً مذهلاً عن تهجير الإسرائيليين للفلسطينيين من أراضيهم فى عام ١٩٤٨ . يستشهد بكلمات ديفيد بن جوريون - قائد الحركة الصهيونية من منتصف العقد الثالث من القرن العشرين حتى السابع منه - الذى صرح بما يلى فى مذكراته المنشورة عام ١٩٣٨: «أؤيد الترحيل الجبرى؛ ولا أجد أى شىء غير أخلاقى فيه». مما يناقض الادعاء الصهيونى العلنى بأن إسرائيل كانت تصادر أرضاً بلا شعب.

يتوخى بابيه منتهى الصراحة فى كتابه؛ فهو يتهم إسرائيل بالتطهير العرقى وارتكاب جرائم ضد الإنسانية بدءاً من حرب ١٩٤٨ الرامية إلى الاستقلال ووصولاً إلى الوقت الحاضر. يركز بالأساس على «الخطة دى» (تسمى داليت بالعبرية) المتبلورة فى ١٠ مارس ١٩٤٨ لينهى إلى القارئ أن التطهير العرقى لم يكن وليداً لظروف الحرب بل هدفاً متعمداً من أهداف القتال انتهجته الوحدات العسكرية الإسرائيلية بقيادة بن جوريون. وهنا يطلق بابيه على بن جوريون اسم «مهندس التطهير العرقى». لقد حاول بابيه البرهنة على أن الطرد القسرى لـ ٨٠٠٠٠٠ فلسطينى فى عامى ١٩٤٨ و١٩٤٩ كان جزءاً من خطة صهيونية طويلة الأمد لصناعة دولة يهودية نقية العرق فى أطر حجمه بتعريفات دولية معترف بها للتطهير العرقى ويتتبع سرداً مفصلاً كل التفصيل للتورط العسكرى الإسرائيلى فى تدمير مئات القرى وإخلائها من سكانها وطرد مئات الآلاف من السكان العرب.

إن هذا المجلد مورد سياسى سهل المنال يزود القارئ بسبل مهمة تنتهى إلى الأحداث التاريخية لصراع اليوم إلا أن نتائجه لن يسهل على الجميع تحملها؛ إذ يثبت بابيه أن التطهير العرقى للفلسطينيين يتواصل حتى اليوم ويدعو إلى عودة غير مشروطة لكل اللاجئين الفلسطينيين ووضع حد للاحتلال الإسرائيلى. لا مراء أن رواية بابيه سوف تثير غضب الكثير من القراء الإسرائيليين؛ لكن الأهم هو أنها سوف تشعل المناقشات بينهم.

■



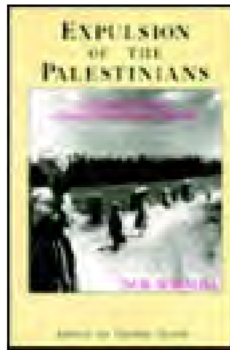
All That Remains: The Palestinian Villages Occupied and Depopulated by Israel in 1948

كى لا ننسى: قرى فلسطين التى احتلتها إسرائيل وأخلتها من سكانها عام ١٩٤٨

by Walid Khalidi
Institute for Palestine Studies, 1992, 636 pp., $49.00

ولد وليد الخالدى فى القدس وتخرج من جامعتىَ لندن وأكسفورد. يعتبر مؤرخاً بارزاً وحجة معترفاً بها فى الشئون الفلسطينية. يعمل زميلاً باحثاً فى مركز هارفارد لدراسات الشرق الأوسط. وقد ألف هنا مرجعاً جديراً بالاعتماد عليه، كتاباً يصور بالتفصيل أكثر من ٤٠٠ قرية فلسطينية دُمرت أو أخليت من سكانها خلال حرب ١٩٤٨ . يكرس الخالدى أغلبية النص للقرى نفسها؛ إذ يشمل كل باب معلومات إحصائية عن إحدى القرى وعدة أجزاء روائية عنها. يستخدم أبحاثاً ميدانية أجراها السكان السابقون والمرشدون كى يعين بدقة الموقع الصحيح لكل قرية وأسماء المستعمرات الإسرائيلية القائمة على أطلالها وأراضيها. كما يلجأ إلى تشكيلة واسعة من المصادر العربية والغربية حتى يلخص تاريخ القرى قبل ١٩٤٨ ويؤلف المعلومات حول طبوغرافيتها ومعمارها ومؤسساتها وحالة مواقع القرى أثناء إجراء البحث (١٩٩٠-١٩٩١) ونشاطاتها الاقتصادية والعمليات العسكرية الإسرائيلية المؤدية إلى سقوطها عام ١٩٤٨ . تركز الروايات الإسرائيلية والعربية على العمليات العسكرية المؤدية إلى غزو القرى. تشتمل الأبواب أيضاً على وصف لوضعية الموقع الحالية بما فيها مستوطنات شيدتها إسرائيل على أراضى القرى المصادَرة بعد عام ١٩٤٨ . سوف يجد القراء عدة مئات من الصور (ثمة صور تجسد ما تبقى من مبانى القرى مصاحبة لكل باب) وعدد من الخرائط المفصلة المفيدة وخمسة ملاحق، كلها تعزز نصاً أعده ما يربو على ثلاثين مشتركاً فى غضون نحو ست سنوات. بين يدىَ القارئ بحث علمى لا غنى عنه لكل المؤرخين المهتمين بتاريخ فلسطين. «إنه جهد هام وإنجاز ضخم»، على حد قول روجر أوين الأستاذ بجامعة أكسفورد.

■



Expulsion of the Palestinians: The Concept of "Transfer" in Zionist Political Thought, 1882-1948

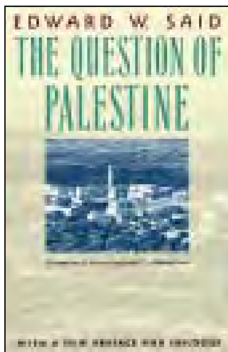
طرد الفلسطينيين: مفهوم «الترحيل» فى الفكر السياسى الصهيونى، ١٨٨٢-١٩٤٨

by Nur Masalha
Institute for Palestine Studies, 1992, 236 pp., $11.95

يعج تاريخ تكون الدول بحالات تبادل السكان والطرد و«التطهير العرقى» والترحيل الإجبارى. وقد توخى قادة الحركة الصهيونية الصراحة، كما تعرض تلك الدراسة الدقيقة، فى اعتقادهم بأن إنشاء دولة يهودية بفلسطين لن يتاح سوى بإقناع السكان العرب المقيمين بالمغادرة. وتتمحور الجدل حول الترحيل، عند حدوثه، حول عمليته وما قد يُحدثه من أثر على علاقة الدولة الإسرائيلية بالدول الأخرى. وفى ضوء عملية تبادل السكان بين تركيا واليونان عقب الحرب العالمية الأولى، شكك قلة من زعماء الحركة الصهيونية فى أخلاقية الترحيل. وبدلاً من ذلك رنوا إليه باعتباره حلاً عملياً لمشكلة جلية بين شعبين يعيشان على أرض واحدة فيما تراءت مبررات هذا الجدل - البالغة ذروتها حين أوصت لجنة بيل بالتقسيم عام ١٩٣٧ - ذات أساس وطيد. يتعاطى مصالحة فى خاتمة موجزة مع القضية الخلافية المتعلقة بأصول أزمة اللاجئين الفلسطينيين فى عام ١٩٤٨ ليتبين صلة واضحة بين التأييد طويل الأجل للترحيل وهروب اللاجئين. وسواء قبِل القارئ ذلك الاستنتاج أو رفضه، البين أن النقاش المطول حول مزايا الترحيل السابق على عام ١٩٤٨ أقنع العديد من الصهيونيين بأن اللاجئين الفلسطينيين لا يجب السماح لهم بالعودة أياً كانت دواعى رحيلهم.

إن كتاب مصالحة يعتمد بالكامل على مواد أرشيفية إسرائيلية ظهرت مؤخراً إلى النور لتبرهن تفاصيله المُحكمة بما لا يدع مجالاً للشك أن «الترحيل» - كلمة بديلة تخفف من وطأة كلمة «الطرد» - كان من البداية جزءاً لا يتجزأ من الصهيونية. إنه كتاب مبهر بلغ القراء فى الوقت المناسب ليشعل بينهم الجدل، لا لأن ما توصل إليه من نتائج قابل للتفنيد - فالمصادر لا تخلف فى نفس القارئ ريباً فى الحقائق - بل لأن الكتاب يعرى تفصيلياً فكرة المكيدة الصهيونية والوسائل التى تحققت بها.

■



The Question of Palestine

قضية فلسطين

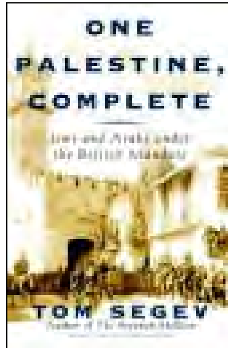
by Edward W. Said
Vintage, 1992, 320 pp., $10.85

تبدو كلمات إدوارد سعيد وكأنها صادرة من قومى فلسطينى وتبدو كتاباته وكأنها صادرة من أستاذ فى الأدب الإنجليزى، والحق أنه كلاهما. إن كتاب قضية فلسطين دفاع بليغ اللغة عن الشعب الفلسطينى وحقهم فى تقرير المصير. ولو حدث وأفرط سعيد فى سرد الدلائل المبرهنة على حجته وفى رسم إسرائيل والصهيونية بلا أية ملامح إيجابية، ربما يعود ذلك إلى قوة

اعتقاده بأن العالم الغربى استغل الشعب الفلسطينى وأهمله ونبذه. إن سعيد يخوض فى هذا الكتاب مناقشة تثبت حق الفلسطينيين فى الحصول على الأرض المسماة بـ«فلسطين». فقد هيمن العرب على فلسطين منذ القرن السابع. إذ يبرز إحصاء ١٩٢٢ مثلاً أن ٧٨٪ من السكان من العرب. لكن بعد تأسيس الأمم المتحدة لدولة إسرائيل عام ١٩٤٨، تشتت هؤلاء العرب، بالقوة الجبرية فى الغالب. المفارقة هنا هى أن نفس العام شهد الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الذى ينص على أن للكل الحق فى العودة إلى بلده. بيد أن حق الفلسطينيين قد قوبل بالتجاهل أو الرفض، فلم يجر حتى استفتاء عام لتمثيل وجهة نظرهم.

وبالرغم من مرور ما يزيد على عقد من الزمان، لا يزال الكتاب يقدم سرداً أساسياً لا غنى عنه لقضية فلسطين. إن حجة سعيد قوية المنطق. يكتب بلسان منطقى وبصيرة نافذة. وإذا لم يتفق معه القارئ فى آخر الأمر، فهو ولا شك سيتدبر طويلاً فى عباراته. يضم تفسير سعيد الجدلى المتنور لصراع الشرق الأوسط الآن مقدمة جديدة وخاتمة تعقب على أحدث التطورات بدءاً من الانتفاضة إلى حرب الخليج ثم محادثات السلام التاريخية بمدريد.

■



One Palestine, Complete: Jews and Arabs Under the British Mandate

فلسطين واحدة، كاملة: اليهود والعرب تحت الانتداب البريطانى

by Tom Segev
Metropolitan Books, 2000, 612 pp., $22.73

تعود المناقشات - فضلاً عن سفك الدماء - الدائرة حول الأمة اليهودية والإسلامية وحقوق الأرض إلى قرون مضت، ومهما حسنت نوايا عملية السلام القائمة، سوف تتواصل على الأرجح لقرون قادمة. يؤمن الطرفان عن تعصب بأن لديهما حقاً تاريخياً غير قابل للتبديل فى إقامة دولة على الأرض المعنية كما يتطلع الاثنان إلى القدس بوصفها مدينة مقدسة. وكما يليق بالمحرومين، سوف نجد الفلسطينيين أكثر انفتاحاً على خوض المفاوضات وإبرام تسوية فيما يظل الإسرائيليون على تصلبهم، فهم لا يعيدون سوى أشد المناطق القاحلة عدوانية فضلاً عن الأنقاض ليس إلا. ففى معركة بين الرصاص وصندوق الاقتراع، يفوز الرصاص بسهولة ما بعدها سهولة.

يعد توم سيجيف واحداً من أبرز مؤرخى إسرائيل وصحفييها - واحداً من قلة تحاول جاهدة الحفاظ على موضوعية كتاباتها - لذا فإن أى كتاب جديد له يستحق دائماً الانتظار. يعرض كتاب فلسطين واحدة، كاملة وصفاً مستفيضاً لفلسطين تحت الحكم البريطانى من عام ١٩١٧ حتى عام ١٩٤٨، تلك الفترة الحرجة فى تاريخ المنطقة الحديث التى أفضت إلى تأسيس الدولة الإسرائيلية. يبدأ سيجيف كتابه بسرد حذر للتضارب المعروف الذى شاب تعامل بريطانيا مع كل من اليهود والعرب - إذ وعدت على ما يبدو الاثنين بالفوز بأرض فلسطين بعد منحها الاستقلال - ثم تابع حديثه ليحيك قضية مقنعة تقول بأن بريطانيا اعتبرت فلسطين ملكية إمبريالية عاطفية لذا رجت أن ينحل الموقف لمصلحة الجميع بلا استثناء.

يحيد سيجيف عن السياق التاريخى ليشدد على أن أياً كان ما قاله البريطانيون للفلسطينيين، فقد كانت أفعالهم مناصرة بكل عند للصهيونية من البداية. وقد حدث ذلك، على حد قوله، من جراء الاعتقاد الخاطئ المعادى للسامية بأن اليهود يتحكمون فى عالم الأعمال ويديرون عجلة التاريخ بدلاً من اعتراف حقيقى بعدالة قضيتهم.

■



Palestine and the Arab-Israeli Conflict: A History with Documents

فلسطين والصراع العربى-الإسرائيلى: تاريخ بالوثائق

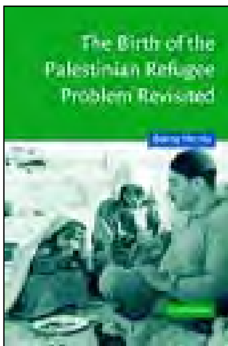
by Charles D. Smith
Bedford/St. Martin's, 2006, 624 pp., $46.76

يزود هذا الكتاب القارئ بتاريخ مختصر لأصول الصراع العربى- الإسرائيلى وتطوره كما يتعاطى بنفس المنهج مع الفترة السابقة على تأسيس إسرائيل عام ١٩٤٨، أى المجتمع العربى فى القرن التاسع عشر وأصول الصهيونية وتأثيرها على الفلسطينيين العرب قبل الحرب العالمية الأولى وبعدها. يسهب الجزء الأول من الكتاب فى تأمل دور الإمبريالية البريطانية والفرنسية فى هذه التطورات. أما الثانى منه فيبحث فى الصراع العربى-الإسرائيلى فى ضوء الحرب الباردة وبزوغ الحركة القومية الفلسطينية التى بلغت ذروتها فى الاتفاق الإسرائيلى-الفلسطينى عام ١٩٩٣ . وهنا يولى تشارلز سميث السياسة الخارجية الأمريكية فى الشرق الأوسط اهتماماً موسعاً. يغطى الكتاب أيضاً مواضيع رئيسية تتراوح بين الحركات القومية المتنافسة المتصارعة، العربية الفلسطينية والصهيونية/الإسرائيلية؛ والدول المتنازعة، العربية والإسرائيلية؛ ودور القوى الخارجية فى التأثير على التطورات فى المنطقة.

يعتقد تشارلز سميث، أستاذ تاريخ الشرق الأوسط بجامعة أريزونا، أن الوقوف على خلفية الصراع التاريخية سوف يسهم فى استيعابه الاستيعاب الأمثل. ومن أجل هذا الغرض، يقدم نصه نظرة عامة على تاريخ فلسطين المبكر ثم يكرس فصولاً للمجتمع العثمانى وجذور الصهيونية والحرب العالمية الأولى وتسوية السلام التالية والانتداب البريطانى والحرب العالمية الثانية وإنشاء دولة إسرائيل. أما الباقى من الكتاب فيسرد تفصيلياً ما أعقب ذلك من صراع بين العرب وإسرائيل.

لقد حتمت التغييرات الهائلة بالشرق الأوسط فى العقد العاشر من القرن العشرين نشر ذلك الكتاب المنقح، كتاب يمد القارئ بتاريخ متوازن لكل من الأهداف الإسرائيلية والعربية. إذ يتجنب كتاب فلسطين والصراع العربى-الإسرائيلى: تاريخ بالوثائق بوجه عام ما يستثيره هذا النزاع من عواطف مغرقة وذلك بما يطرحه من تحليل لا يعوزه الإنصاف، تحليل مثالى للطلبة الدارسين وكذا القارئ العادى. تلحق بكل فصل مجموعة من الصور والوثائق الأصلية، وقد تحدث الكتاب ليحوى اتفاق أوسلو الثانى عام ١٩٩٥ ومحادثات عام ٢٠٠٠ .

■



The Birth of the Palestinian Refugee Problem Revisited

ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين

by Benny Morris
Cambridge University Press, 2003, 664 pp., $42.80

يعمل بينى موريس أستاذاً فى التاريخ بقسم دراسات الشرق الأوسط بجامعة بن جوريون. هو متحدث صريح عن الصراع العربى-الإسرائيلى وواحد من أوائل مؤرخى إسرائيل التعديليين. يفضح كتابه «ولادة مشكلة اللاجئين الفلسطينيين» حقيقة أن ٧٠٠٠٠٠ فلسطينى باتوا لاجئين خلال الحرب العربية الإسرائيلية فى عام ١٩٤٨ . وعلى حين يظل تركيز تلك الطبعة على الحرب والتهجير الجماعى، تمعن مواد أرشيفية جديدة النظر فيما وقع فى القدس ويافا وحيفا، وكيف أدت هذه الأحداث إلى انهيار فلسطين المدينية. يكشف الكتاب النقاب عن معارك وممارسات وحشية ساهمت فى تفكك المجتمعات الريفية، وهنا سوف يلفى القارئ السرد مريعاً. لقد وصل عدد اللاجئين الآن إلى أربعة ملايين ولا تنفك قضيتهم عقبة رئيسية أمام تحقيق السلام فى المنطقة.

إنه كتاب ذو قوة استثنائية ونزاهة غير معهودة ألّفه دارس وصحفى إسرائيلى. يروى فيه تلك الحكاية العظيمة عن الهروب والغزو ويرويها كما لم يروها أحد من قبل: بلغة دقيقة وإيجاز أدبى وتفاصيل مرعبة وأمانة بالغة. وهكذا يلبث الكتاب عملاً رائداً يناقش إجلاء الفلسطينيين عن أراضيهم ما بين ١٩٤٧ و١٩٤٩. يتدفق بمنتهى السلاسة ليحكى قصة اقتلاع شعب من جذوره حتى وإن غاب عنه صوت المقتلَعين.

■

Hassan Nasrallah by Kerry Waghorn ©, Ahmad Yasin by Unknown

مارس ٢٠٠٤: استشهاد الشيخ أحمد ياسين
يوليو ٢٠٠٦: الانسحاب الإسرائيلى من لبنان
ديسمبر ٢٠٠٨: السماء تمطر جحيما على غزة



حماس .. حزب الله

الرقم العربى الصعب



الخيـــــــــــارات المـفـتـــــــــوحــــــة

مستقبل حزب الله

نعيـــــم قاســـــم



«التساؤل حول مستقبل حزب الله ظل حاضراً وبقوة منذ سنوات عديدة وتحديداً عقب الانسحاب الإسرائيلي من لبنان في مايو عام ٢٠٠٠م. عندها قيل: لقد انتصرت المقاومة فما الداعي لاستمرار السلاح في أيدي حزب الله وبقاء الجيش اللبناني بعيداً عن الحدود مع إسرائيل؟ ثم تجدد السؤال وبإلحاح مع صدور القرار الدولي ١٥٥٩ الداعي لانسحاب سوريا من لبنان ونزع أسلحة الميلشيات، ومع اغتيال رئيس الوزراء اللبناني رفيق الحريري في فبراير ٢٠٠٥م. وعقب الانسحاب السوري وسلسلة الاغتيالات التي تلته، عقد الفرقاء اللبنانيون جلسات حوار خلال الشهور القليلة الماضية لبحث مستقبل لبنان وفي القلب منه مستقبل الحزب لكن جاء العدوان الإسرائيلي في ١٢ يوليو الماضي ليبعث الفوضى والدمار في لبنان وليحاول فرض واقع جديد على الأرض كان الفرقاء اللبنانيون أنفسهم يحاولون تجنبه من خلال التوصل إلى اتفاق وطني يراعي المصلحة اللبنانية أولا.

سؤال المستقبل لم يغب عن حزب الله ذاته، وقد تحدث زعماء الحزب وكتبوا كثيراً في هذه المسألة ومن بينهم الشيخ نعيم قاسم نائب الأمين العام لحزب الله الذي أصدر كتابا عام ٢٠٠٢ اخترنا منه هذه الصفحات.»

«وجهات نظر»

■■ أطل حزب الله على الساحة العملية من خلال المقاومة، وارتبط خطابه تبعًا لأولويته بالعمل العسكري ضد إسرائيل، وأنجز خلال فترة وجيزة حضوراً مميزًا في عملياته الجهادية النوعية، ولم تكن الحياة السياسية موجودة في لبنان خلال نشوئه بسبب الحرب الداخلية[1]، واتجهت الأنظار الدولية والإسرائيلية إلى نمو الحزب المقاوم وخروجه إلى العلن في مطلع العام ١٩٨٥، فانهمرت الاتهامات عليه بالأصولية والإرهاب، وظهّرت وسائل الإعلام الأجنبية - بتوجيه استخباري - صورة الحزب المقاتل والصلب الذي لا يمكن التعايش معه، وتتالت التصريحات والتحليلات الأجنبية وبعض المحلية عن مناطق مقفلة للحزب، وحياة خاصة لم يعهدها الناس، وصلابة لا تُبقي صاحبًا ولا تبني علاقة، وشدة برزت من خلال المواجهات القاسية مع الجيش الإسرائيلي وعملائه، ما ربط الحزب بحضوره وصورته العسكرية، حتى ترسخت القناعة عند أكثر المحللين والناس، أن وجود الحزب مرتبط بالمقاومة، ولا شيء عنده غيرها، ولا يستطيع الاستمرار بدونها، فإذا تم التوصل إلى تسوية ما في المنطقة، فسيكون الحزب ضحيتها، وبالتالي فحضوره ووجوده مؤقت، ولمرحلة خاصة في الصراع مع إسرائيل.

ولّد هذا الانطباع مناخًا عامًا عن حصرية اهتمام الحزب بالمقاومة، شمل أيضًا شريحة من قاعدة الحزب، بسبب ظروف النشأة وضرورات التعبئة ضد الاحتلال وواقع لبنان. وهذا ما تطلب جهداً ثقافيًا وتربويًا وعمليًا في الأوساط المؤيدة، عندما قرر الحزب المشاركة في الانتخابات النيابية عام ١٩٩٢، كما تطلب خطاباً عامًا، وإجابات عن أسئلة صحفية متكررة ومتلاحقة، وتوضيحات تفصيلية أثناء بناء العلاقة مع الشخصيات والأطراف المختلفة.

ساهم خطاب الحزب، إضافة إلى العمل الميداني شعبيًا ونقابيًا وانتخابيًا ونيابيًا وسياسيًا في الاكتشاف التدريجي لنظرة الحزب الشمولية، ورؤيته للعمل السياسي، واهتماماته المتنوعة، شأنه شأن أي حزب يعمل في بلده، مع تمايزه بمنهجه وما ترتب عليه من أهداف، وخصوصية المقاومة في لبنان.

فالحزب إسلامي قبل أن يكون مقاومًا، والتزامه العقائدي هو الذي دفعه ليرفض الاحتلال ويقاتل إسرائيل، فهو يحمل منهجًا للحياة بشموليتها، ولا يقتصر واجبه على ناحية دون أخرى، وإن برزت أولوية الجهاد على غيرها. وقد تحققت مكانته وانتشاره الشعبي من إيمانه بهذا المنهج، الذي يقدم حلولاً لمشاكل الواقع، حيث توفق الحزب في تجسيد جزء منها بمقاومة الاحتلال، بأداء متميز وتجربة ناجحة، أتت ثمارها بالتحرير في ٢٤ آيار ٢٠٠٠، وبسلوكيات فردية وعامة، اجتماعية وسياسية وعسكرية، أثرت في جمهور عريض، أيد وناصر والتف حول قيادته.

بناء عليه لم يعد الحزب فكرة للإقناع، بل تحول إلى واقع متجذر في كيان الأمة، ولم يقتصر الحزب على المجموعات الجهادية العسكرية، بل دخل في كل النسيج الاجتماعي والسياسي والثقافي للناس، ولم يتوقف عند حدود المحازبين، بل أصبح تياراً شعبياً واسعاً يشمل الرجال والنساء والأطفال، ويتجاوز الحدود المذهبية والمناطقية، فإذا كانت الاستمرارية ترتبط بالتكون النظري للفكرة والخطة والبرامج، والمسار العملي يرتبط بالامتداد الشعبي، فهما متحققان في الحزب، ما يعطيه قابلية الاستمرار بثبات، فكيف إذا اجتاز امتحانات عدة[2]، راهن البعض عليها لتكون محطته النهائية، فخرج الحزب منها أقوى، وأسس بعدها للمزيد من الحضور والتأثير.

أما التهديدات الأمريكية الإسرائيلية المتكررة، فهي جزء من وسائل الضغط على الحزب ومن يؤيده، وتدخل في إطار الحرب النفسية، التي إذا نجحت توفر النتائج المطلوبة، من دون التورط بأعمال لها مفاعيل سلبية مضادة، لكنها لم تجد نفعًا مع حزب عقائدي، يعلم تمامًا طبيعة أهدافه، وما يمكن أن يتحمله في سبيلها. لذا كانت تتحول التهديدات في بعض المحطات إلى اعتداءات كبيرة، وهي قابلة للتكرار، فهي جزء من المواجهة، لكنها لا تضمن للعدو فرصة تحقيق ما يزيد بل قد ترتد عليه، وهذا ما حصل فاضطر للانسحاب من جزء كبير من لبنان، على الرغم من كل الأساليب العدوانية التي استخدمها. ولا يتوقع أحد أن تكون نتيجة العدوان عادية ففيها التضحيات الكبرى، إلا أن نتائج الصمود أكبر بكثير. وبما أن

فصل من: حزب الله
المنهج.. التجربة.. المستقبل
الشيخ نعيم قاسم
بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠٠٢

وجهات نظر: أغسطس ٢٠٠٦

لم يسبق للمحتل الإسرائيلى أن التزم بخيار مستقبلى محدد، ليُبقى الطرق مفتوحة أمامه، وليستفيد من مناورة الخيارات المحتملة إلى أقصى حد، فما الداعى لنتصرف بغير طريقته فى إبقاء الخيارات مفتوحة؟!



السياسة الأمريكية الإسرائيلية مبنية على فرض واقع الاحتلال وشروطه بالقوة، فالخيار محصور بالاستسلام أو المواجهة.

وقد أحرز حزب الله تقدماً فى النظرة إليه، وتوسعت علاقاته الإقليمية والدولية، وحصل تعديل نسبى فى طريقة تعامل الغرب معه، وهذا يعود إلى حكمة أدائه وبيانه وعلاقاته. ولا يمكن التعويل على هذا المؤشر ومدى استمراريته، إلا أنه يحمل دلالة على الأهمية التى اكتسبها الحزب، حيث استطاع تغيير الصورة السلبية التى روج لها مع بداية نشأته.

احتمالان للضغط

وبما أن الهجمة شديدة على الحزب ووجوده ودوره وأهدافه، فإن التساؤل عن استمراريته يبقى حاضراً، فإذا لم يكن بالإمكان تصفية وجوده مباشرة عبر الاعتداءات الإسرائيلية، فإن تطورات المنطقة قد تؤدى إلى ظروف تحصل فيها إحدى حالتين أو كلتاهما معاً:

١ ـ تحريك فتنة داخلية مع الجيش اللبنانى، أو مع قوى محلية، تستدعى أداء سياسياً من الحكم اللبنانى يلغى وجود الحزب كمقاومة.

هذا الاحتمال لا يحصل كمشكلة عابرة، بل ينطلق من موقف سياسى تبرز مقدماته تدريجياً باتجاه الفتنة لتسهل النتيجة. ولكن لا قابلية لحصوله، لأن الموقف السياسى للجيش اللبنانى والأطراف المحلية الفاعلة والميدانية منسجم تماماً مع الموقف المقاوم وداعم له، وقد نسجت التحالفات السياسية فى لبنان على أساس الموقف مع إسرائيل، الذى أعطى المقاومة أولوية فى الاهتمام والتبنى. ومع ارتباط هذا الموقف بالظروف الإقليمية، فإنه لا ينعقد من دونها، وبخاصة الموقف السورى، الذى لا يسمح بما يؤدى إلى التصادم مع المقاومة. فإذا أضفنا أسلوب المقاومة فى التعاطى مع القضايا الداخلية، ومراعاة القوى المحلية، وترك التدخل فى خصوصيات الدولة الأمنية، أمكن استيعاب سبب اطمئنان الواقع الداخلى، وعدم دفعه إلى التفكير بالتصادم مع المقاومة، فالتصادم لا يخدم هذه القوى، وإنما يستفيد منه خصوم لبنان.

٢ ـ مقايضة سوريا بالتخلص من الضغوطات التى تمارس عليها مقابل التخلى عن دعم الحزب، وبما أنها الجهة التى توفر الغطاء السياسى المساعد لاستمرارية المقاومة، فإن رفع هذا الغطاء يكشف الحزب ويجعله مستفرداً فيسهل ضرب المقاومة.

لكن هذا الاحتمال غير وارد أيضاً، لأن العلاقة الاستراتيجية التى نمت بشكل تدريجى وهادئ بين سوريا والحزب، والقواسم المشتركة فى النظرة إلى تطورات المنطقة، والمصداقية التى حكمت تاريخ جهاد الحزب منذ الاجتياح حتى التحرير وما بعده، والحاجة الفعلية لبقاء التعاون بين الطرفين لمواجهة التحديات، وجدية الموقف السورى من الاحتلال الإسرائيلى وحق تحرير الأرض.. كلها عوامل تؤكد على استحالة هذا الاحتمال.

ومهما كانت الظروف صعبة ومعقدة، فالخيارات مفتوحة للتعاون المناسب بين سوريا والحزب، بما يساعد على تخطى العقبات والمخاطر بأقل الخسائر الممكنة وبأعلى مستوى من التفاهم. فعندما تتحمل سوريا منفردة وفى اللحظات الصعبة، فى زمن المرحوم الرئيس حافظ الأسد عبء الدفاع عن حق لبنان وفلسطين بمقاومة المحتل، وترفض المساواة بين المقاومة وبين الإرهاب، وعندما يرفض الرئيس الدكتور بشار الأسد أى خدش بالمقاومة وبسلامة أهدافها، ويعلن تمسكه بخيارها من دون تحفظ، فهذا يختلف عن مجرد التأييد أو الدعم العابر أو الحديث عن حق يجب أن يُراعى، فقد تحولت المقاومة إلى جزء لا يتجزأ من الإيمان والسياسة السورية الثابتة، وهذه ضمانة مهمة لعدم الاختراق والمقايضة المزعومة.

استمرارية المقاومة

هل يعنى هذا أن المقاومة مستمرة بشكل دائم ولا عائق أمامها؟

لقد نشأت المقاومة كرد فعل على الاحتلال الإسرائيلى، الذى انطلق من فلسطين وامتد إلى المنطقة العربية، ومادام الاحتلال موجوداً فإن المقاومة مستمرة، لأنها انطلقت من الإيمان بإزالة الاحتلال، ولم تكن حالة عرضية أو عشوائية. وبما أن مفاعيل الاحتلال امتدت لتشمل احتلال الأرض، وإرهاب المنطقة، وتهجير الفلسطينيين، واختراق الأجواء والمياه الإقليمية لدول مجاورة كلبنان، فمقاومته يجب أن تستمر، وبطرق مختلفة، تنسجم مع طبيعة الظروف الميدانية الجغرافية، وبالأساليب التى تُفوت على إسرائيل تحقيق أهدافها، وبالاستفادة أيضاً من الواقع السياسى الإقليمى والدولى.

ولطالما طرح الدبلوماسيون والصحافيون سؤالاً على حزب الله: ماذا سيفعل الحزب فيما لو تحررت الأراضى اللبنانية بالكامل وتم الإفراج عن المعتقلين والأسرى؟ وهو سؤال تحتاج إسرائيل وأمريكا معرفة الإجابة عنه، لبناء منظومة من الخطط والمواجهة تنسجم مع الإجابة. لكن الحزب أصر على عدم الإجابة. فالأمور متشابكة ومترابطة، والتطورات تحمل الكثير من المفاجآت والمتغيرات، ولكل احتمال مستقبلى إجابة تفصيلية مختلفة، وبما أن الاحتمالات كثيرة فالإجابات كثيرة، وحيث تؤدى الإجابة إلى تحقيق رغبة إسرائيلية، فالأفضل أن تبقى مبهمة، ولا داعى لأن تقيد المقاومة نفسها بأجوبة تُلزمها أو تضعها أمام مساءلة من الآن، إضافة إلى تعقيدات وترابط التطورات على الساحات الفلسطينية واللبنانية والسورية وما يمكن أن تفعله إسرائيل فى المنطقة، وهذا ما يتطلب جهوزية عالية لا تنفع معها كثرة التصريحات.

كما لا يمكن تحديد طريقة عمل واحدة للمقاومة، ولا يمكن تقييدها بأساليب محددة، بل من الحكمة إبقاء الخيارات مفتوحة أمامها. ولا داعى لرسم نتائجها المستقبلية وما يمكن أن تقوم به لتصل إليها، حتى لا تنكشف مخططاتها للعدو، وكى يبقى فى حالة قلق مما تختزنه المقاومة من قوة ومفاجآت وأداء مستقبلى.

لم يسبق للمحتل الإسرائيلى أن التزم بخيار مستقبلى محدد، ليُبقى الطرق مفتوحة أمامه، وليستفيد من مناورة الخيارات المحتملة إلى أقصى حد، فحدود ومساحة فلسطين خاضعة للتفاوض، وطبيعة الدولة الفلسطينية تحسمها المفاوضات، والمدى الزمنى الذى يرسم الوضع النهائى مرتبط باطمئنان الإسرائيلى على أمنه، ولا تحدد الخطوات اللاحقة إلا بعد الانتهاء من كل خطوة بطريقة منفصلة عن غيرها. فما الداعى لنتصرف بغير طريقته فى إبقاء الخيارات مفتوحة؟!

وإذا تخوف البعض من إبقاء لبنان فى دائرة المواجهة بهذه النظرة للمقاومة، فإن تخوفه خاطئ فى تحديد سبب المواجهة، لأن العدوان على لبنان بدأ من إسرائيل بعنوان تحقيق المدى الأمنى للاحتلال، واستمر لفترة ٢٢ سنة من أجل استدراج لبنان لاتفاق سياسى وضمانات أمنية لمصلحة الكيان الإسرائيلى، ومع انسحاب الهزيمة عام ٢٠٠٠، فإن مطامع الاحتلال فى لبنان لم تتوقف، وإذا لم يُقدم على مغامرة عدوان جديدة حتى الآن فلخشيته من جهوزية المقاومة الإسلامية وردة فعلها، ما يؤكد ضرورة إبقاء القدرة المقاومة للبنان كى يتصدى للأخطار المحتملة، فضلاً عن تبعات الاحتلال التى لازالت مترتبة على لبنان، من وجود اللاجئين على أرضه، إلى الاختراقات الدائمة لأجوائه ومياهه الإقليمية، واحتلال مزارع شبعا، ووجود الأسرى والمعتقلين، ومحاولة منعه من الاستفادة من مياهه. ومهما عالجت إسرائيل مضطرة لبعض هذه الملفات، فإنها ستبقى الخطر المستقبلى على لبنان.

لبنان وفلسطين

ولا ننس مسئوليتنا فى مؤازرة الشعب الفلسطينى، وترابط قضيته مع واقعنا، وانعكاس القضية الفلسطينية على لبنان والمنطقة، وهذا ما يجعل الإيمان بالتحرير قضية واحدة، والمصالح المشتركة همًا واحداً. أما كيفية المؤازرة والدعم، فهى من عوامل القوة فى الموقف والتى تُمارس عمليًا ولا ينفع الحديث عنها، وهى مرتبطة بعوامل كثيرة سياسية وجغرافية وميدانية.

فالقاعدة الأساس فى مواجهة الخطر الإسرائيلى الآنى والمستقبلى هى: أن الكيان الإسرائيلى يشكل خطراً كبيراً على فلسطين والمنطقة، ويجب مواجهته ورفضه ومقاومته، وإعداد العدة اللازمة للتصدى له، والتعاطى مع كل مرحلة بحسب مستلزماتها، على قاعدة رفض تشريع الاحتلال واستمرار مقاومته كأصل، ولا داعى للحديث عن أى خطوة مستقبلية، فلكل حادث حديث.

هل هذا يعنى أن الجبهة اللبنانية قد تُفتح للتواصل مع الداخل الفلسطينى؟ إنه سؤال مستقبلى يخضع لطريقة التعاطى مع كل الأسئلة المستقبلية، التى لا تسدى الإجابة عنها خدمة لإسرائيل. فلا يضمن أحد ما سيكون عليه حجم العدوان المستقبلى، والجبهات التى يمكن أن تُفتح أو تُقفل، فالمسألة لا ترتبط بما تقرره المقاومة فقط، بل ترتبط بمجموعة من التطورات الإقليمية التى قد تفتح الأبواب على كل الاحتمالات، فلا داعى للعجلة، لأن المهم هو التحصين والاستعداد لمواجهة التحديات، من دون السقوط أمام التهويل والتهديدات المتكررة، فهى أقل بكثير من النتائج الصعبة والخطرة التى تنشأ عن التسليم لضغوطات الصهاينة ومطالبهم.

آمن الحزب بوجوب تحرير كامل فلسطين والأراضى العربية المحتلة، واعتبر أن زرع الكيان الصهيونى فى المنطقة غير



مشروع، فهو غدة سرطانية ووجوده مقدمة للسيطرة على المنطقة بأسرها، ولا تبرر مصالح الدول الاستكبارية ودعمها للكيان الغاصب خضوع المنطقة لمشروع الاحتلال، فمن الضرورى والواجب الشرعى والإنسانى والأخلاقى والقانونى بذل أقصى الجهد للتحرير، وإذا كان فرض الاحتلال بقوة السلاح والدعم الدولى، فإن إسقاط الاحتلال يكون بقوة المقاومة وتعاون القوى التحررية فى المنطقة.

هذا لا يعنى أن الطريق معبدة وأن النتائج سريعة، لكن يجب أن تكون الآمال كبيرة وأن يتم السعى لتحقيقها، وأن تبحث كل القوى التحررية عن وسائل التعاون والدعم ومقاومة الاحتلال.

فلو سلمنا جدلاً بحصول التسوية، ورسمت معالم جديدة لفلسطين والمنطقة، فإن الحزب لا يمكنه أن يقبل أو أن يوقع على مثل هذه التسوية التى تُلزم أصحابها، ولا تغير واقع فلسطين فى أنها لأصحاب الأرض الأصليين. لكن كيف تترجم هذه الممانعة؟ فهذا يرتبط بالتطورات والظروف، لكن عندما تكون الممانعة هى الأصل، فمن الطبيعى أن يتلازم معها إعداد عدتها، ولا داعى لاستعجال الاحتمالات الكثيرة فى هذا الاتجاه.

إن الحزب يأخذ بعين الاعتبار الظروف الموضوعية التى تحيط به، ويُدخلها فى حسابه فى إجراءاته العملية، لكنه لا يخضع لها ولا يستسلم لضغوطاتها. إنه حريص على إيمانه وثوابته حيث لا تؤثر التكتيكات المرحلية عليها ولا تكون ثمنًا للتخلى عنها، وهو يستفيد من الظروف السياسية، للنفاذ منها باتجاه تقوية عوامل تحقيق أهداف المقاومة. فهو لا يعزل المقاومة عن العوامل المحيطة بها بطريقة تجريدية، لكنه لا يجعلها جزءاً من صفقة أو مساومة على حل سياسى يسقطها، فى مقابل ما يكرس شرعية الاحتلال. فلا بديل عن التحرير ولو طال الزمن وكثرت العوائق، لكن المهم هو الثقة بالله وبالنفس والحق، والصبر على الصعوبات والتضحيات، وعدم استعجال النتائج.

توقعات المستقبل

عند الحديث عن المستقبل، لابد من تقييم الحاضر، الذى يحمل مقومات النجاح أو الفشل، الاستمرارية أو الانحسار، النمو أو الاضمحلال، لتكون مؤشرات التقييم مساعدة فى رسم الصورة المستقبلية المحتملة.

فإذا عدنا إلى المنهج، نجد أن منهج الإسلام الذى استمر قوياً فاعلاً، على الرغم من مرور أكثر من ألف وأربعمائة سنة على طرحه، وهو الذى بنيت على أساسه وانطلقت مسيرة حزب الله بهذا الثبات والوضوح. وبما أن الانتماء لا ينفصل عن التربية العقائدية والسلوك الإسلامى، وحيث يعتبر التثقيف والتعبئة جزءاً أساسياً من نمط عمل الحزب، فإن التأصيل العقائدى والشرعى قد ربى جماعة متمسكة بالمنهج، الذى يحمل قدرة ذاتية على الاستمرار ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ (سورة الحجر الآية ٩) وهو تأصيل لم يقتصر على المحازبين، وإنما شمل شرائح الأمة المختلفة، بمواقعهم وأنشطتهم ومستوياتهم العمرية المختلفة، وبما هم متواجدون فى الدائرة الشعبية الواسعة.

لم يعمل الحزب ليربط الناس به كمحور بمعزل عن المنهج، وما يسجل للحزب، نجاحه فى أن يكون إطاراً فاعلاً لحشد الطاقات، وتوزيع الأدوار، وربط الجماعة ببعضها، وإنجاز تجربة عملية فى ساحة الجهاد، وفى ترجمة المضمون الإسلامى السليم. وهذا يعطيه حصانة التماسك والنمو والصمود أمام التحديات.

وبما أن النمو كان طبيعيًا، من الضعف إلى القوة، ومن القلة إلى الكثرة، ومن العزلة إلى التعاون، فقد رسخت هذه الخطوات بناء متينًا، على الرغم من التطور السريع الذى ارتبط بشكل أساسى بحجم التضحيات، وقبل وبعد كل شىء بتسديد الله لعباده المؤمنين ﴿يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ (سورة محمد الآية ٧) فالبناء المركز والثابت لا يمكن أن ينهار بتهويل أو قرار استكبارى.

فإذا أضفنا حاجة الناس إلى من يقودهم ويسير أمامهم، وما حققته طروحات الحزب وتجربته وإنجازاته من إشراقة أمل فى المنطقة بواقعها الأليم والمحبط، وما آلت إليه تجارب المستسلمين والمنسحقين أمام الاستكبار وإسرائيل، فإن النتائج الواعدة للاستمرارية متوقعة أكثر من أى احتمال آخر.

وكى تكون الأمور أكثر وضوحًا، فإن الخطر على الحزب وعلى غيره من القوى الحية، يأتى من القرارات العدوانية لأمريكا وإسرائيل. أما تجربة إسرائيل فى فرض حدودها وأمنها، رغم مرور ٥٤ سنة على احتلالها لفلسطين، فلم تنجح حتى الآن، وأما تجربة أمريكا بأساليبها المشابهة للأساليب الإسرائيلية فهى تسير فى مخاض عسير، واضطرت فى بداية الطريق لمواجهة حملة عارمة من الكراهية لها فى المنطقة، ولم تستطع تسخير نفوذها لتحريك أدواتها، فانكشفت فى أداء استكبارى إرهابى مباشر، وهذه بداية السقوط وعدم القدرة على تحقيق الأهداف.

على الرغم من القرار الأمريكى بالتغيير الجيو سياسى فى المنطقة، عبر العدوان المباشر على العراق، فإن فلسطين ولبنان وسوريا داخلة فى حصة العدوان الإسرائيلى المباشر، الذى يريد الاستفادة من تداعيات العدوان الأمريكى، لتحقيق مشروعه.

لكن لأن إسرائيل فشلت فى الاعتماد على نفسها، فإن أمريكا ستكون داعمة وموجهة، وبما أننا ناقشنا قدرة إسرائيل وأثبتنا عجزها عن إنجاز استقرارها، فلنناقش قدرة أمريكا برؤية إجمالية تتعلق بالسيطرة على المنطقة ومن ضمنها ضرب حزب الله، من دون التوقف عند المباشرة الإسرائيلية (التى تعثرت) أو المباشرة الأمريكية (المستبعدة) لها.

إن أمريكا قادرة على التخريب فى المنطقة، وعلى الاعتداء على ثرواتها وأنظمتها وشعوبها وأحزابها، لكنها قدرة المحتل والمستعمر، التى لا تؤدى إلى الاستمرارية والاستقرار، أما قدرتنا على حشد الطاقات والمقاومة فهى مستمرة ومتصاعدة، فحقنا يحمل قوة ذاتية، ومنطقنا قوى، ونحن مصممون على متابعة المسيرة.

فمن من الخطأ أن ينحصر التفكير باللحظة الحاضرة، وطبيعة ظروفها والمعادلات التى تحيط بها، فالسؤال عن المستقبل هو سؤال عن مستقبل أمريكا وإسرائيل والعالم والمنطقة، كما هو عن مستقبل حزب الله، لأن عوامل التغيير والضغط والظروف السياسية لا تختص بفئة دون غيرها، ومؤشرات النجاح أو الفشل تخضع لقواعد وسنن تنطبق على الجميع، مع ميزة يعيشها المؤمنون من اطمئنان وثقة بدعم الله تعالى لهم، تمدهم بقوة إضافية فيستفيدون من نتائج الإيمان التى لا يستفيد منها المعتدون.

فلننزع الوهم من نفوسنا عن قوة العدو التى لا تقهر، فلكل عدو نقاط ضعف وعلينا معرفتها والتركيز عليها جيداً، ولنقم بواجبنا فى بذل الجهد للمحافظة على قيمنا واستقلالنا، ولنعلم بأن النصر يبدأ من انتصار الإنسان فى داخل نفسه، فإذا كنا مؤمنين بنصر الله تعالى فهو آت: ﴿ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين﴾ (سورة القصص الآية ٥). وإذا كنا واثقين بأننا نمهد لظهور الإمام المهدى[3] (عج) ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد أن ملئت ظلماً وجوراً، فإن المستقبل واعد، وعلى الله فليتوكل المؤمنون. ■



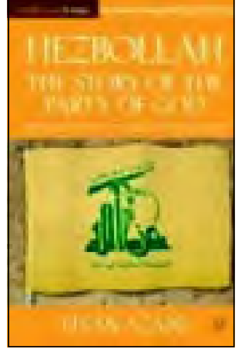
الـــهــــوامـــش:

(١) منذ تأسيس حزب الله عام ١٩٨٢ إلى سقوط العماد عون عام ١٩٩٠ كان الانقسام قائماً بين منطقتين شرقية وغربية، وبرزت المعارك الداخلية كعنوان رئيس فى هذه المرحلة، كما توجهت الأنظار إلى ما يحدث فى الجنوب والبقاع الغربى من عمليات لحزب الله ضد الاحتلال الإسرائيلى.

(٢) منها فتنة أمل ـ حزب الله، عدوان تموز ١٩٩٣، وعدوان نيسان ١٩٩٦، الانتصار فى آيار ٢٠٠٠.

(٣) أجمعت الرسالات السماوية على وجود المخلص فى آخر الزمان، وهو الإمام المهدى (عج) عند المسلمين، لكن السنة يقولون بولادته فى آخر الزمان، أما الشيعة فيعتبرونه موجوداً على قيد الحياة، لكنه غائب عن أنظار الناس، وهو الإمام الثانى عشر من أئمة أهل البيت عليهم السلام، محمد بن الحسن الذى يصل نسبه إلى الإمام الحسين عليه السلام والذى ولد سنة ٢٥٥ للهجرة، وسيظهر فى الوقت المناسب ليحكم بالعدل.

فــى المــكــتــبــة



Hezbollah: The Story of the Party of God: From Revolution to Institutionalization (The Middle East in Focus)

حزب الله: القصة من الثورة إلى المؤسسة

Eitan Azani

Palgrave Macmillman, 2008

يعد الكتاب الذى كتبه «إيتان إيزانى» Eitan Azani المدير التنفيذى لمعهد السياسة الدولية لمكافحة الإرهاب بإسرائيل، بمثابة دراسة وافية لحزب الله ككل، ويسلط الضوء على سياسات الشرق الأوسط ولبنان والحركات الإسلامية بلبنان وحركات التحرير الأخرى، ويقدم تحليلا وصفيا لحزب الله، ودراسة مفصلة من قبل الباحث، فالباحث يسلط الضوء ويركز على الدعم المالى والعسكرى الواسع الذى يتلقاه حزب الله من إيران، وبمثابة بحث ميدانى يساعد فى استيعاب وتفهم العلاقة الديناميكية التى تجمع مثلث حزب الله وإيران مع لبنان كدولة.

ويرى الكتاب أنه بعدما توسعت الحركة وأصبحت ذات طابع مؤسسى، تحولت أكثر حساسية للتأثيرات الداخلية والأنظمة الإقليمية، ولجأت لسياسة محكمة تدمج بين حرب العصابات والهجمات الإرهابية مع الأخذ فى الحسبان الاعتبارات «الربح والخسارة» وأضاف خلال كتابه أن نموذج حزب الله الحالى حتى عام ٢٠٠٨ أخطر بكثير من كونه حركة ثورية خلال الثمانينيات، وأن الحزب لم يتخل عن أهدافه، ولكنه قام بتغيير وتيرة تنفيذ أهدافه.

■



Hezbollah Military Activities

الأنشطة العسكرية لحزب الله

Frederic P. Miller , Agnes F. Vandome, /John McBrewster

Alphascript Publishing, 2010

يزعم ذلك الكتاب الذى شارك فيه ثلاثة مؤلفين Frederic P. Miller , Agnes F. Vandome, /John McBrewster أن حزب الله لديه جناح عسكرى معروف باسم «المقاومة الإسلامية» وهو راع محتمل لتنظيمات أصغر من الحزب، وهى التى يمكن اعتبارها جبهات لحزب الله نفسه، وتضم تلك الجبهات جماعات أقل شهرة وحجما مثل «منظمة المقهورين» و«منظمة العدالة الثورية»، و«منظمة الحق ضد الباطل»، و«أتباع النبى محمد»، ويقول الكتاب أن قرار مجلس الأمن الدولى التابع للأمم المتحدة رقم ١٥٥٩ عام ٢٠٠٦ بعد انتهاء حرب لبنان الثانية أو حرب حزب الله مع إسرائيل (حرب يوليو)، إلى نزع سلاح الميليشيات مع تنفيذ اتفاق الطائف الخاص بنهاية الحرب الأهلية اللبنانية، ولكن حزب الله أدان واحتج على القرار، وما زاد من الجدال حول القضية هو حرب الحزب مع إسرائيل، ويؤكد الكتاب على أن فشل الحكومة اللبنانية فى نزع سلاح حزب الله يعد خرقا للقرار الصادر من مجلس الأمن، ووفقا للدولة العبرية، بينما يرى الشيعة فى لبنان أن السلاح ضرورى وشرعى كعنصر من عناصر المقاومة، كما أن مجلس الوزراء اللبنانى فى عهد الرئيس اللبنانى ميشال سليمان ورئيس الوزراء اللبنانى السابق فؤاد السنيورة يرى أن حزب الله يتمتع بحق تحرير الأراضى المحتلة.

■

فــى أرشــيــف وجــهــات نــظــر

حماس.. حزب الله
الرقم العربى الصعب

- إدوارد سعيد: رسائل راشيل كورى: من غزة مع التحية! ـ أغسطس ٢٠٠٣
- عزمى بشارة: العرض التليفزيونى الأخيـر... الخروج من غزة! ـ أكتوبر ٢٠٠٥
- عزام التميمى: فى التعامل مع الأسباب.. تجربة أليستر كروك ـ ديسمبر ٢٠٠٥
- هنرى سيجمان: حمَاس: الفرصة الأخيرة ـ مايو ٢٠٠٦
- صالح محمد النعامى: خطة الانطواء ـ مايو ٢٠٠٦
- محمود درويش: الجِـرَار الفارغة..! ـ يوليو ٢٠٠٧
- أليستر كروك: لم نتعلم الدرس! ـ أغسطس ٢٠٠٧
- أفراهام بورج: سؤال الخير والشر .. والحب والكراهية.. من نحن؟؟ ـ أغسطس ٢٠٠٨
- بشير موسى نافع: حماس.. الطريق إلى الأزمة ـ يناير ٢٠٠٩
- أيمن الصياد: «ومازالت الحمائم...تبحث» ـ يناير ٢٠٠٩
- جيمى كارتر: جريمة فى حق الإنسانية فى غزة ـ فبراير ٢٠٠٩
- أيمن الصياد: عشيّة الفجر الدامى.. «حديث الحصار» ـ يونيو ٢٠١٠
- هينج مانكل: لم يكونوا غير مجموعة من اللصوص!!! ـ يوليو ٢٠١٠
- كريس باتين: فى سِجن غزة ـ أغسطس ٢٠١٠
- نيثان ثرول: رجُلنا فى فلسطين!! ـ أكتوبر ٢٠١٠

غــــــــــــــــزة

ســـياســـة المقبـــرة!

■■ لندن. أمضيت مطلع العام الجديد فى سيدنى أشاهد الألعاب النارية فوق الجسر الرمزى ترحيباً بمقدم العام ٢٠٠٩. ولكن الانفجارات التى غطت سماء غزة فى نفس الليلة لم تكن للترفيه عن الناس، بل كان المقصود منها سحق حماس وتسفيه مكانتهاوقدرها فى أعين الفلسطينيين.

كان ذلك العنف الرهيب بمثابة الملجأ الأخير لحل المشكلة المتعلقة بكيفية التقاسم السلمى للمكان الذى يحلو للمسيحيين حتى الآن أن يطلقوا عليه «الأرض المقدسة». كان المهاتما غاندى ينتقد التبرير التوراتى (فى الكتاب المقدس) لمبدأ القصاص، «العين بالعين»، زاعماً إننا لو اتبعنا ذلك المبدأ إلى النهاية فهذا يعنى أن الجميع سوف يصبحون عمياناً. وهذا ما ثبت بالفعل فى فلسطين وإسرائيل. فالعمى فى غزة، والعمى فى القدس.

إن الكثير مما حدث كان متوقعاً، هذا فضلاً عن مقتل ما يزيد على ١٤٠٠ من الرجال والنساء والأطفال وإصابة أكثر من ٥٤٠٠ بجراح.

أولاً، بررت الولايات المتحدة الاعتداء الإسرائيلى وألقت بكل المسؤولية على حماس، تماماً كما تعودت من قبل تعليق كل المسؤولية عن كل البلايا على ياسر عرفات وفتح.

ثانياً، وعلى الرغم من الترحيب بالجهود الدبلوماسية رفيعة المستوى التى بذلها الرئيس الفرنسى نيكولا ساركوزى، فإن أوروبا كانت خارج الصورة تماماً، إن لم تكن خفية بالكامل. وكما أشار مسؤولون إسرائيليون فإن الأوروبيين يظهرون دوماً كلما سنحت الفرصة لالتقاط الصور. أما تونى بلير مُـحِب السلام فى اللجنة الرباعية فقد كان على عهدنا به دوماً، شخصاً مداهناً زلقاً عديم القيمة. فهو يواظب على الظهور على شاشات (السى إن إن CNN)، ولكن هل زار غزة منذ تعيينه مبعوثاً رسمياً للجنة الرباعية فى صيف العام ٢٠٠٧ ؟ أبداً.

ثالثاً، وكما تعودنا دوماً، وجهت إسرائيل تهمة معاداة السامية لكل من تجرأ على

Chris Patten, the last British Governor of Hong Kong and a former EU Commissioner for External Affairs, is Chancellor of the University of Oxford. His most recent book is: *What Next?: Surviving the Twenty-first Century*. Toronto, Ont.: Viking Canada, 2009. Print.

ترجمة: مايسة كامل



انتقاد ردود أفعالها المفرطة فى مواجهة هجمات حماس الصاروخية (التى لا يمكن تبريرها) وعقابها الجماعى للفلسطينيين. على سبيل المثال، اتهم الكاردينال الإيطالى، الذى تحدث بنوع من العصبية باعتراف الجميع، باستخدام لغة إنكار الهولوكوست (المحرقة). ولكن بهذا المعيار، هل تؤهلنى انتقاداتى غير الجازمة للهجمات الصاروخية التى تشنها حماس لاستحقاق تهمة التحيز ضد الإسلام ومعاداته؟

بالصدفة البحتة، تزامن الهجوم القاتل على غزة مع نشر عدد من الكتب التى تحدثت عن كيفية التعامل مع المهمة فى الشرق الأوسط على النحو اللائق، من تأليف مجموعة من المدعين الراغبين فى إظهار حبهم للسلام فى الشرق الأوسط. وبدا الأمر فى مجمله وكأنه سلسلة من طلبات التوظيف. التنافس من أجل الفوز بانتباه الرئيس باراك أوباما.

ثمة أمر واحد ربما اتفق عليه كل هؤلاء الخبراء، ألا وهو أن الرئيس جورج دبليو بوش كان كارثة بمعنى الكلمة. بل وربما كانت السياسة الأميركية تُصنَع فى مقر حزب الليكود. وحتى فى النهاية، حين صوت مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة بشأن غزة، كان بوش منشرح البال إزاء امتهان كونداليزا رايس بأمر من رئيس الوزراء الإسرائيلى إيهود أولميرت.

إن هؤلاء «الرجال الحكماء» الذين عملوا جميعاً كمستشارين للرئيس بِل كلينتون وغيره من الرؤساء، يسلمون فيما يبدو بأن المسؤولية عن فشل اتفاق كامب ديفيد فى العام ٢٠٠٠ لا يمكن إلقاؤها بالكامل على عاتق عرفات، ولابد أن يتحمل رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق إيهود باراك نصيبه من اللوم. فضلاً عن ذلك فقد انتقدوا جميعاً ممارسات عهد كلينتون فى الحرص على تنسيق السياسات الأميركية مع إسرائيل أولاً، وهو السلوك الذى لا يصلح بطبيعة الحال لاكتساب ثقة العرب أو تأييدهم.

إن الحجج التى ساقها الدبلوماسيون الأميركيون فيما يتصل بعملية السلام لا ترقى فى مجملها إلى حد الخلاف بشأن مضمون اتفاق السلام. فجميعهم تقريباً يتفقون على ما يلى: الحل القائم على دولتين؛ وتوفير الضمانات الأمنية لإسرائيل؛ وإقامة الدولة الفلسطينية ضمن حدود عام ١٩٦٧، والتى يمكن تعديلها بموجب اتفاق بين الأطراف لتبادل الأراضى؛ وتفكيك أغلب المستوطنات المقامة على أرض الضفة الغربية؛ ورفض «حق العودة» بالنسبة للاجئين الفلسطينيين، ولكن منحهم التعويضات المالية المناسبة؛ وفرض شكل من أشكال السيادة المشتركة أو الدولية على الأماكن المقدسة فى القدس، وتقسيم المدينة بحيث تصبح عاصمة لدولتين.

بالطبع، هذا هو ما ينبغى أن يحدث. وأنا أفترض أن كل ذلك ما زال من الممكن أن يحدث بمساعدة وسطاء جدد مرحب بهم مثل قطر وتركيا، التى وصف رئيس وزرائها الهجوم الإسرائيلى الأخير بأنه «جريمة خطيرة ضد الإنسانية».

بيد أننى رغم كل ذلك بدأت أتساءل عما إذا كان من الممكن بالفعل تحقيق السلام استناداً إلى هذه الأسس. فقد خسرت فتح وخسر الفلسطينيون المعتدلون مثل الرئيس محمود عباس كل مصداقيتهم. والفلسطينيون عموماً أصبحوا أكثر تشدداً.

أما حماس، التى يشكل دعمها واشتراكها فى الأمر ضرورة أساسية لنجاح أى تسوية، فقد أقسمت على الثأر. فمع كل يوم جديد يمر تتراكم أحزان فلسطينية جديدة حتى تبلغ عنان السماء. والأرامل والأمهات الثكالى يبكين ويصرخن طلباً للعدالة القتيلة. ولكن هل ينبغى لهذا أن يدهشنا؟ فلنفترض أن الحكومة البريطانية فى سعيها إلى إرساء السلام والقضاء على الجيش الجمهورى الأيرلندى قررت قصف مدينة ديرى الكاثوليكية، فهل كان ذلك ليؤدى إلى الفوز بقلوب الأيرلنديين الكاثوليك أم أنه كان ليؤدى إلى نفورهم واستوحاشهم؟

وعلى الجانب الإسرائيلى، فمن من القادة السياسيين يرغب حقاً فى قيام دولة فلسطينية وعلى استعداد لخوض المجازفة السياسية المرتبطة بمحاولة إقامة تلك الدولة؟ ومن منهم يتمتع بالقوة الكافية للتعامل مع المستوطنين فى الضفة الغربية؟ لو لم يكن لدى إسرائيل هذا الصنف من القادة السياسيين فإن التسوية السلمية تصبح مجرد وهم. ومن من الزعماء قادر على تلقين أعضاء الجالية اليهودية الأكثر تشدداً وتطرفاً فى أميركا الحقائق الفعلية للحياة؟ ومن بين زعماء إسرائيل يفهم أن المصالحة أكثر أهمية من الانتقام والثأر؟

رغم أن الأمور كانت تبدو فى غاية الصعوبة فيما مضى، إلا أننى لم أشعر قط بمثل هذا القدر من اليأس إزاء ما يحدث فى فلسطين وإسرائيل. فقد غرق العقل والمنطق فى الدماء، وبات الأمر وكأن سياسة المقبرة حلت محل سياسة الأمل. وإنى لأشفق على فلسطين، وأشفق على إسرائيل. فمن هناك الآن ما زال قادراً على إيقاد شمعة فى الظلام؟ ■

كـــــريــــس بـــاتـــــن

Chris Patten



Hosni Mubarak by Kerry Waghorn ©

مصر

أسئلة الديمقراطية الصعبة

الطــــريق إلــى الحكـــومة الصــالحة

رشـــــدى ســـــعيـد

■■ الديمقراطية نظام للحكم يختلف الناس فى طريقة تطبيقه اختلافاً كبيراً. ويُقصد به فى المجتمعات الغربية الحديثة حق الناس فى أن يحكموا على أداء الحكومة على فترات تتراوح بين ثلاث وسبع سنوات فيثبتونها فى مكانها أو يغيرونها. وفى هذا النظام يكون لكل مواطن صوت واحد يدلى به لا يجوز منعه من استخدامه بالقوة أو التزوير أو بغير ذلك من الطرق، وتتولى الحكومة التى اختارها المواطنون الحكم وتقوم بتنفيذ برامجها دون أن تضطر إلى استخدام العنف كما أنها تلتزم بألا تفسد أو تعطّل بأى شكل العملية الديمقراطية التى جاءت إلى السلطة عن طريقها.

ويحمل هذا التعريف البسيط، الذى لا أتصور أن أحداً يمكن أن يختلف عليه، شروطاً عدّة لنجاح هذا النظام لعلّ أولها وأهمها هو أن يكون المجتمع قابلاً لنظام التعدّد ومتيحاً الحريّة الكاملة لأفراده للتجمّع فى أحزاب أو هيئات دون قيد أو شرط تكون لها حرية التجمع والدعوة إلى أفكارها فى مختلف وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية دون حائل. ولا يكتمل النظام الديمقراطى إلا إذا كانت هذه التجمعات طوعية يدخلها الفرد باختياره وليس بسبب انتماءاته الأسرية أو القبلية أو الطائفية - أو العرقية أو الدينية - وهذا أمر لا يتيسّر إلا فى الدول ذات التقاليد العريقة فى تنظيم الأحزاب السياسية والنقابات المهنية والتعاونيات والجمعيات الحرفية وغير ذلك من منظمات المجتمع المدنى. وفى مثل هذه التجمعات ينتمى الفرد بناءً على معرفة عقلانية إلى حزب أو نقابة أو جمعية يرى أن أفرادها قد يكونون أقرب إليه من أفراد أسرته أو قريته أو قبيلته أو طائفته أو مذهبه الدينى.

ولا تتهيأ الظروف التى تفرز مثل هذه التجمعات إلا فى دول معينة تنتمى فى أغلبها إلى عالم الدول الصناعية وفى أقلّها إلى بعض دول العالم النامى مثل مصر والهند اللتين أتيحت لهما قيادة متقدمة فى بداية القرن العشرين مع نشوء حزب المؤتمر فى الهند وحزب الوفد فى مصر والعديد من الأحزاب الأخرى والتى انضمّ تحت لوائها جموع الناس بكامل إرادتهم ليكونوا من أوائل التنظيمات المدنية التى أدخلت هذين البلدين فى العالم الحديث. وقبل ظهور هذه الأحزاب وعلى طول العصور لم يكن بالهند أو بمصر تنظيم طوعى يمكن أن ينضمّ الناس إليه باختيارهم، فقد كانت انتماءاتهم تعود إلى البلدة أو القبيلة أو الدين الذى ولدوا فيه والذى لم يكن لهم فيه اختيار. وكان الناس فى هذا النظام القديم يولون ولاءهم لبلدياتهم أو عصبياتهم أو لإخوانهم فى الدين وينظرون إلى الآخر بعين الريبة. وعندما جاء تنظيم الأحزاب انفتح الباب أمام كل الناس وبغضّ النظر عن انتماءاتهم للدخول فيها بكامل إرادتهم، والتأمت تحت لوائها هذه التجمعات المتفرقة لكى يتكوّن المجمع المدنى الحديث الذى أعطى لمفهوم الوطن أو المواطنة بعداً جديداً، فقد أصبح الهنود والمصريون بفضل هذه الأحزاب مواطنين متساوين يجمعهم لواء الوطن بعد أن كانوا رعايا شيخ القبيلة أو حاكم البلاد أو أتباعاً لرجل الدين.

ولعلّ عملية الانسلاخ من قبضة رجال الدين هى من أصعب عمليات بناء الديمقراطية التى هى فى حقيقتها أحد مظاهر المجتمع المدنى الذى يسود فيه القانون الوضعى. أمّا فى تلك المجتمعات التى يسود فيها القانون العرفى أو الإلهى والتى يزعم حكامها أنّهم يستمدّون سلطتهم من موقعهم القبلى أو من مصدر إلهى فهؤلاء الحكام لا يمكن أن يقبلوا أن يصبح أداؤهم محل حكم جموع البشر. وليس من الغريب أن جاء ظهور المؤسسات الديمقراطية فى أوروبا بعد أن لفظت أوروبا الحق الإلهى للملوك وبعد أن قرّرت شعوبها ألا تكون المرجعية فى قوانينها إلى كتاب مقدس بعينه بل إلى حاجاتها الدنيوية. وقد صاحب هذا التحوّل فى أوروبا فصل المؤسسات الدينية عن الدولة تماماً أو تقليصها إلى موقع رمزى فى الوقت نفسه الذى أعطى فيه الحق للجميع من مواطنى الدولة لممارسة شعائرهم الدينية فى حرية تامة.



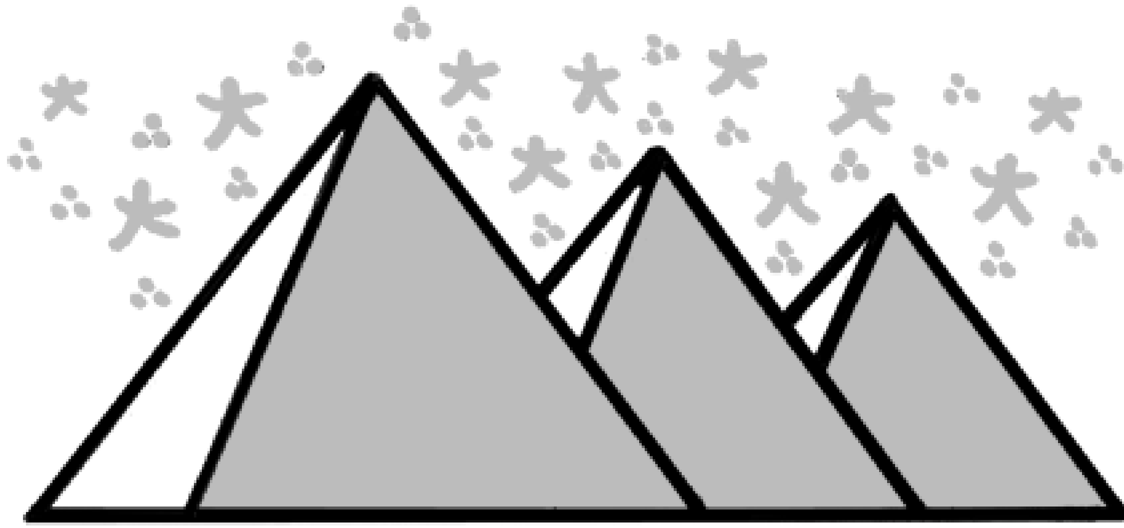
ويمكن الجزم بأن الحكومة المدنية الديمقراطية هى أكثر الحكومات احتراماً للدين بل لعلّها الوحيدة من بين جميع الحكومات التى عرفها الإنسان التى تسمح لجميع مواطنيها بممارسة شعائرهم الدينية بحرية ودون تمييز ودون خوف من اضطهاد، كما أنها الوحيدة التى تسمح للناس بالاجتهاد فى تفسير دياناتهم دون أن يتّهمهم أحد بالارتداد أو يصيبهم غضب المؤسسة الدينية.

ومن العوامل الأساسية التى تؤدى إلى ازدهار الديمقراطية وجود طبقة متوسطة كبيرة العدد متماسكة وواثقة من نفسها ومؤثرة فى الحياة السياسية لمجتمعاتها. وفى الحقيقة فإن ظهور الديمقراطية فى أوروبا جاء مع ظهور الطبقة المتوسطة، فقد رأت هذه الطبقة الجديدة أن النظام الديمقراطى هو خير طريق يكفل لها المشاركة فى الحكم الذى كانت تحتكره طبقة الإقطاعيين بمساندة المؤسسات الدينية. وقد جاءت هذه المشاركة سلمياً ودون إراقة دماء فى بعض البلاد وبالثورة والعنف فى بلاد أخرى. وفى كلتا الحالتين تمّ تغيير نظام وفلسفة الدولة فصفّيت أعمدة النظام القديم وفصلت المؤسسة الدينية عن الدولة وتأسّست حكومات نيابية مسؤولة أمام الناس.

وقد تطوّر النظام الديمقراطى منذ ذلك الوقت فأصبح نظاماً يقوم بالتوفيق بين المصالح المختلفة للطبقة الوسطى. ومن الوجهة التاريخية فإن هذا النظام كان فى أوج نجاحه عندما كان المجتمع مستقراً، ففى هذه الحالة يتفق أغلب الناخبين على مبادئ عامة تتخذها الأحزاب السياسية أساساً لبرامجها المختلفة، ويتفاوت المدى الذى تختلف فيه هذه البرامج من مجتمع إلى آخر؛ فهو كبير عندما يكون المجتمع مستقراً تماماً وآمناً، وضيقاً عندما

وجهات نظر: سبتمبر ٢٠٠٧

والـديـمـقـراطـيـــــــــــــة.. والانـــتـــمـــــــــــــــــاء



جميع الدول العربية لا تتبع نظام التعدّد ولا تسمح بقيام الأحزاب السياسية أو تسمح بها فى حدود ضيقة

يكون المجتمع أقل استقراراً ومشوباً بالقلق. وتشجع معظم بلاد أوروبا الغربية الحديثة تمثيل جميع الأحزاب، بما فيها تلك التى تقف على هامش الفكر السياسى فى العملية الديمقراطية.

ولا يوجد فى النظام الديمقراطى من الوجهة النظرية على الأقل ما يمنع الناخبين من اختيار حكومة تدعو إلى تغيير جذرى فى النظام الاقتصادى أو الاجتماعى للدولة ولا تنتمى إلى أى من التيارات السياسية الأساسية فى البلاد. إلا أن هذا الأمر لم يحدث أبداً من الوجهة العملية حتى فى أعرق البلاد الديمقراطية. ففى الحالات التى رفض فيها الناخبون نظام الدولة الأساسى واختاروا نظاماً مغايراً، ألغيت نتائج الانتخابات وأوقفت الحياة الديمقراطية. ويمتلئ تاريخ أوروبا القرن العشرين بأمثلة كثيرة ليس آخرها ما حدث فى روسيا فى شهر أكتوبر سنة ١٩٩٣. وكثيراً ما صرف النظر عن نتيجة الانتخاب عندما اختار الناخبون حكومة شيوعية فى أوروبا الغربية أو حكومة رأسمالية فى أوروبا الشرقية خلال سنى الحرب الباردة. ففى كلتا الحالتين ألغيت الانتخابات التى رأتها النخبة الحاكمة ضارة على البلاد أو على النظام الديمقراطى ذاته. ويعود ظهور الفاشية والنظم القمعية الأخرى فى أوروبا القرن العشرين إلى عدم قبول النخب الحاكمة لنتائج الانتخابات. ويمكن القول لذلك أن الديمقراطية هى نظام لا يزدهر إلا عندما تكون المجتمعات مستقرة وعندما يسود جو من الثقة بين الناخبين ويؤمنون بأن المبادئ الأساسية التى تنبنى عليها برامج الأحزاب هى مبادئ تصلح أساساً لتقدمهم ورفاهيتهم وأنها قادرة على إصلاح مسار أى خطأ قد ينجم عن تطبيقها.

الديمقراطية فى العالم العربى

والآن، وبعد هذه المقدمة الطويلة عن نشأة الديمقراطية ومقوماتها، ماذا عن العالم العربى وأحوال النظم الديمقراطية التى تدّعى كل دولة (باستثناء المملكة العربية السعودية) أنها تسير على نهجها وتحكم بآلياتها. أول ما نلاحظه على هذا النهج الديمقراطى فى مختلف صوره المتبعة فى الدول العربية هو أنه لا يستوفى الشرط الأساسى الذى جاء فى تعريفنا للنظام الديمقراطى فى أول هذه المداخلة وهو ضرورة القبول بمبدأ التعدد. وإذا استثنينا الحالة الخاصة للبنان، فإن جميع الدول العربية وبلا استثناء لا تتبع نظام التعدّد ولا تسمح بقيام الأحزاب السياسية على وجه الإطلاق أو تسمح بها فى حدود ضيقة وخانقة تمنعها من التجمع أو إيصال رسالتها عبر وسائل الإعلام المرئية على وجه الخصوص كما هو الحال فى كلٍ من مصر وسوريا. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن الكثير من المجتمعات العربية لم تنمُ بعد لتعبر جسر العلاقات الأسرية أو القبلية أو الدينية ولم يتم إدماج طوائفها ومللها المختلفة فى بوتقة المجتمع المتناسق. ولعلّ أبرز مثال على تلك الحالة هو حال لبنان التى تتكوّن من موزاييك فريد استطاعت مكوناته وطوائفه أن تتعايش بعد الاستقلال عن طريق قبولها بمعادلة التمثيل النسبى لكل طائفة. وكان من المنتظر أن تكون هذه المعادلة مؤقتة لحين إيجاد معادلة أخرى يتمّ فيها الاندماج الكامل لكل الطوائف فى نسيج واحد. ولكن هذا الاندماج لم يحدث بل وعلى العكس من ذلك فقد أصبح الانقسام الطائفى أكثر وضوحاً عن ذى قبل.

أمّا فى مصر التى كانت من أوائل الدول العربية التى اندمجت طوائفها لتكون المجتمع المتماسك والحديث، فقد تراجعت عمليات الاندماج فى الخمسين سنة الأخيرة من القرن العشرين عندما ألغيت الأحزاب ثم أعيدت بعد سنوات طوال بقيود وتحت إشراف سلطوى، ومنعت من حرية الاجتماع العام والوصول الحر للرأى العام. وفى هذه السنوات تمّ تقييد الحركة النقابية حتى كاد الكثير منها أن ينقلب إلى مؤسسات حكومية. وفيها ظهر قانون ينظم تكوين الجمعيات الأهلية يكاد أن يضع كل أمورها تحت رقابة الحكومة.



وفى هذه السنوات تم تكديس توريث المهن فأصبح من الشائع أن يرث الابن عن أبيه مهنته وأصبحت وظائف أساتذة الجامعات والقضاء والجيش والبوليس والسلك الدبلوماسى حكراً على الأبناء.

ولم يعد من المثير للدهشة أن نرى جميع أعضاء السلك الدبلوماسى فى إحدى السفارات بدءاً من السفير ونهاية بأصغر ملحق فيها من أبناء السفراء السابقين. كما لم يعد مثيراً للغضب أن يكثر الكلام فى الصحف عن البلديات والعصبيات، بل إن رئيساً سابقاً لمصر كان كثير الكلام عن القرية التى نشأ فيها والتى كان يختار أقرب معاونيه من بين أبنائها. كما أصبحت انتخابات مجلس الشعب تدور حول العصبيات والانتماءات القبلية والدينية. وهكذا تشرذمت مصر وتفرّق أهلها ولم يعد من الممكن على سبيل المثال أن ينجح قبطى فى الانتخابات العامة بعد أن كان الكثير منهم ينجحون فى دوائر لم يكن بها وجود قبطى يذكر. كما لم يعد الدخول فى مختلف المهن مفتوحاً كما كان بل عاد الناس إلى أحوال العصر الوسيط يرثون مهن آبائهم حتى وإن لم يكونوا مهيئين لها.

وإذا أردنا أن نعرف ماذا يمكن أن يأتى به تآكل المجتمع المدنى فما، علينا إلا أن نرى ما أتى القضاء عليه وتكريس نظام الطوائف من كوارث نراها فى العراق والسودان والصومال التى تفتّتت وعادت إلى النظم القديمة فى الحكم والتى كان الولاء فيها إلى القبيلة التى نشأ الفرد فيها أو الدين الذى ولد عليه. ويبدو أن الكثير من الدول العربية تسير فى الطريق نفسه فما لم تسارع بلاد مثل اليمن والسعودية ودول الخليج العربى والجزائر وسوريا فى بناء المجتمع المدنى وكسر نظام الطوائف ومعالجة مشاكل أقلياتها

الطريق إلى الحكومة الصالحة

التى بدأت تتململ من طول الحكم السلطوى للأكثرية الغالبة فلن يكون المستقبل مأموناً.

ويسير نظام الطوائف يداً بيد مع تصاعد دور الدين فى الحياة العامة فى كافة البلاد العربية، فقد أصبح رافداً هاماً فى حياتها السياسية وزادت المطالبة بجعله نظاماً للحكم يسترد قوانينه من شرائعه. وفى مثل هذا الجو الذى يتحكم فيه المطلق والقانون الإلهى فمن غير المتصوَّر أن تزدهر العملية الديمقراطية كما بيَّنا فى بداية هذه المداخلة. ومن الملاحظ أن كل البلاد العربية وبلا استثناء واحد وبما فى ذلك البلاد التى تحرم خلط الدين مع السياسة مثل مصر قد تصاعد فيها هذا الفكر الذى وجدت الحكومات أن فى تشجيعه فائدة لها كفزاعة لتحصل على تأييد نخبها والحكومات الغربية التى تسعى هذه النخبة للحصول على صداقتها وتأييدها.

ولعل أكبر معوق لبناء الحكم الديمقراطى فى البلاد العربية هو فى غياب الحكومة الصالحة التى تسودها الشفافية والاستقامة فهى الوحيدة التى يمكن أن ينمو فى ظلها المجتمع المهيأ للعيش فى نظام ديمقراطى، كما أنها الوحيدة التى يمكن أن تجرى الانتخابات فى نزاهة كاملة وحياد تام لتتيح لمجتمع التعدد بأحزابه وهيئاته حرية الاجتماع والفرص المتساوية لعرض برامجها فى وسائل الإعلام على اختلافها وإدارة عملية الانتخاب فى شفافية ودون تزوير. ومثل هذه الحكومات الصالحة هى الأساس الحقيقى لقيام نظام ديمقراطى فعال ودون وجودها يكون الحديث عن الديمقراطية هو العبث بعينه. فقد أثبتت التجربة عدم جدوى المجالس النيابية التى أفرزتها الحكومات الرديئة التى تحكم العالم العربى اليوم حتى ليمكن القول بأن هذه المجالس تشكل فى الوقت الحاضر عبئاً على البلاد، فهى بحكم تركيبها ونوعية أعضائها غير صالحة بأى شكل من الأشكال للقيام بأعمال التشريع أو الرقابة حتى ليمكن القول بأنه لو أقفلت كل هذه المجالس أبوابها لما حدث هناك أى شىء يمكن أن يؤثر على البلاد.

وفى نظرى فإن القضية الأولى التى يجب أن تشغل الرأى العام فى الوقت الحاضر والتى ينبغى أن تجند لها كل قوى التقدم فى البلاد العربية هى الدعوة إلى إيجاد هذه الحكومات الصالحة التى يمكن أن تمهِّد الأرض لبناء المقومات الأساسية لبناء المجتمع الديمقراطى. وهنا قد يقول قائل بأن الطريق إلى الحكومة الصالحة هو فى تطبيق النظام الديمقراطى الذى ينبغى أن ندعو إليه. وهنا أذكر القائل بأن التجربة العملية أثبتت خطل هذا الرأى فها نحن نرى نتيجة ما تقوم به الحكومات الرديئة القائمة من هدم لكل المقومات اللازمة لبناء النظام الديمقراطى.

وعلينا أن نتذكر أن قيام الحكومة الصالحة هو رهن بقيام المجتمع المدنى الذى يعتمد اقتصاده فى المقام الأول على الإنتاج لأن مثل هذا المجتمع هو الكفيل بإخراج قيادات لها مصلحة حقيقية فى بناء أجهزة ومؤسسات الدولة التى تعمل فى كفاءة وشفافية ونزاهة خالصة. فالمنتج هو صاحب العمل الذى يهمه أن يكون ببلاده مؤسسات ذات كفاءة وعلى درجة كبيرة من الاستقامة يرى أن لها فائدة كبرى تيسر له العمل وتفتح أمامه النجاح. المنتج هو الذى يريد أن يرى ببلاده مؤسسات عالية الكفاءة للقضاء والأمن والجمارك والضرائب والتعليم وغيرها لأن فى نجاحها واستقامتها مصلحة مؤكدة. ومن الملاحظ أن كافة الدول العربية أصبحت دولاً غير منتجة فكلها وباستثناءات قليلة تعتمد فى اقتصادها على تصدير الخامات الأولية وتقديم التسهيلات التجارية والخدمات السياحية والاتجار فى الأموال والأراضى والعقارات والكثير منها يعيش على المعونات الأجنبية التى تأتيه من كل صوب. ومثل هذا النشاط الاقتصادى يولد الفساد فهو فى حقيقته نشاط اقتصادى مبنى فى الأساس على عمليات غسيل الأموال.

وفى ختام هذه المداخلة، فإنى أتوجه بالنداء إلى كافة القوى الوطنية فى العالم العربى لبدء حملة مكثفة للدعوة لمحاربة الفساد وبناء الحكومة الصالحة والمجتمعات المنتجة، فمثل هذه الدعوة ستكون البدء الحقيقى لبناء الديمقراطية فى ظل الأحوال الحاضرة فى العالم العربى. ■

■ ■ التغيير سُنَّة من سنن الحياة، فليس هناك شىء يبقى على حاله بصورة دائمة، ولذلك صحت العبارة العربية التى تذهب مذهب المثل على ألسنة الخاصة والعامة «سبحان من يُغَيِّر ولا يَتَغيَّر» يَعْنُونَ بها أن الثبات المطلق فى الصفات والقدرات هو لله تعالى وحده، وأن كل ما سواه يلحقه التغيير.

وعندما نقرأ فى الأدبيات الإسلامية والعربية المعاصرة عبارات مثل «الثوابت» و«المتغيرات» ومثل «الأصول» و«الفروع» فإننا لا نفهم منها إلا أن هناك أفكاراً أو ضوابط أو قواعد يُرْجَعُ إليها بصورة متكررة، وتُسْتَدْعَى لبناء التصورات المتباينة فى العصور المتوالية، وليس هذا، فى حقيقته، إلا تغييراً لفهمنا لهذه «الثوابت» وتلك «الأصول» على الرغم من هاتين التسميتين اللتين توحيان بعدم قبولهما للتغيير.

وفى مسيرة الفكر الإسلامى لم يكن التغيير مترتباً على تغير العصور والأحوال فقط، بل كان التغاير (وهو اختلاف يؤدى إلى تغيير الحكم على أمر أو شىء أو تصرف ما) فى فهم النصوص القرآنية والنبوية، نفسها، قائماً بين العلماء والفقهاء والمحدثين واللغويين والمتكلمين والصوفية جميعاً فى المجتمع الواحد وفى الزمان الواحد. وهذا التغاير هو الذى أنتج ظاهرة التعدد المذهبى الفقهى والكلامى، والتعدد المدرسى اللغوى، والتعدد الطرقى الصوفى، وهى ظاهرة دلت، ولا تزال تدل، على ثراء الفكر العربى الإسلامى وتعدد تجلياته تبعاً لتعدد المصادر التى استقى منها المعبرون عنه والمشاركون فيه.

ولم يضق المجتمع العربى الإسلامى بهذا التعدد فى المجالات الفكرية والثقافية والدينية كافة بل اعتبره ظاهرة طبيعية؛ واستعملت فى تسويغه والتدليل على قبوله عبارات نبوية أو قرآنية مثل «كلٌ ميسرٌ لما خلق له» و«كل يعمل على شاكلته» فى إشارة لا يخطئها العقل إلى أن هذه التعددية الفكرية من معالم الفطرة التى فطر الله الناس عليها.

وتَبعَ هذه التعددية توالى التغيير فى مختلف أمصار الإسلام وأقطار العروبة فلم يبق الناس فى أى مصر أو قطر على فهم واحد أو فكرة واحدة وإنما تغيرت المذاهب المتبوعة والأفكار السائدة من وقت إلى وقت آخر بحسب قدرة المعبرين عنها على الإقناع وكسب الأتباع.

وهذا الواقع كان يستند إلى موروث ثقافى لا ينكره أحد مؤداه أن الإسلام نفسه لم يكن سوى حركة تغييرية كبرى فى العقائد السائدة والعادات والتقاليد المتبعة والأعراف المهيمنة على حياة الناس وقت البعثة النبوية.

فالدعوة الإسلامية إلى توحيد الله بالعبودية كان هدفها القضاء على الوثنيات التى سادت جزيرة العرب عند بعثة محمد صلى الله عليه وسلم، وتصحيح التصورات الخاطئة التى تسربت إلى الدينين السماويين السابقين على الإسلام: اليهودية والمسيحية.

والتشريعات الإسلامية فى العبادة كان هدفها تغيير العبادة الفاسدة، التى وصفها القرآن الكريم بقوله: (وَمَا كَانَ صَلاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ) (الأنفال:٣٥)، إلى العبادة الصحيحة التى يستحقها الله تعالى وحده، ولا يقبلها إلا كما شرعها على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

والتشريع الإسلامى فى مجال المعاملات كان يرمى إلى تحقيق مصالح الناس ودرء المفاسد التى كانت غالبة على تعاملاتهم قبل الإسلام، ولذلك لم يلغ الإسلام كل ما كان معروفاً من صور العقود والتعامل قبله وإنما ألغى بعضها وأبقى بعضها. ألغى ما فيه ضرر محض، وأكل للمال بالباطل، وظلم يقع من القوى على الضعيف، ونحو ذلك من المنكرات وأبقى ما ليس كذلك من معاملاتهم.

وأقر التشريع الإسلامى الأعراف الصالحة، مع حملته القوية على الأعراف الفاسدة. فأبقى للقبيلة كيانها وتعاونها ورايتها التى تقاتل تحتها، ونصت الوثيقة النبوية المعروفة بـ«دستور المدينة» بعد ذكر القبائل المختلفة فى المدينة المنورة على أنهم «على ربعتهم يتعاقلون بينهم» و«يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف» (رَبْعتهم هى حالهم التى كانوا عليها قبل الإسلام؛ والمعاقل هى الديات؛ ومعاقلهم الأولى أى المقادير المتعارفة بينهم لكل اعتداء؛ والعانى هو الأسير؛ والمعروف هو العرف)(1).

وهكذا لا يستطيع أحد أن ينكر على الإسلام نفسه أنه كان حركة تغييرية إنسانية كبرى، وجَّه الوحى خطوها نحو تحقيق مصلحة الناس؛ وسار الأئمة من أهل الفقه والفكر والنظر على هَدْى هذه

التغيير.. وجهة نظر إسلامية

محمد سليم العوا

السنة الإسلامية فى التغيير والتصويب فى كل أرض دخلها الإسلام وفى كل جيل من أجياله. وليس جيلنا، ولا أقطارنا الإسلامية والعربية المعاصرة بدعاً من الأجيال والأعصار، فنحن نحتاج إلى التغيير فى كثير من نواحى حياتنا السياسية والاجتماعية والثقافية والدينية أيضاً، وهو تغيير تفرضه حالنا التى لم تعد ترضى أحداً، وعلاقتنا بالعالم من حولنا الذى أصبح يهيمن على حياتنا بصناعته وتقنيته وثقافته دون أن تكون لنا فى ذلك كله مساهمة تذكر.

القرآن الكريم وقضية التغيير:

يتناول القرآن الكريم قضية تغيير حال الناس فى عدد من الآيات الكريمة يرد فيها لفظان هما: «التغيير» و«التبديل».

فأما التغيير فقد جاء فى آيتين اثنتين فى قول الله تعالى: (بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) (الأنفال:٥٣)؛ وفى قوله تعالى: (لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ) (الرعد:١١).

وأما لفظ التبديل فقد جاء فى عدد من آيات القرآن الكريم منها قوله تعالى: (فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ) (البقرة: ٥٩)؛ وقوله تعالى: (سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (البقرة: ٢١١).

وقوله سبحانه: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) (إبراهيم: ٢٨). وأهل العلم بالقرآن يقولون إن التبديل والتغيير بمعنى واحد[٢].

ويرد اللفظان للانتقال من حال حسن إلى حال سيئ، أو من حال سيئ إلى حال حسن. فقوله تعالى: (بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ) صريح فى أن التغيير هنا من حال حسنة إلى حال سيئة بينما قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) يحتمل التغيير من الحسن إلى السيئ والتغيير من السيئ إلى الحسن.[٣]

ونستطيع أن نقول مثل ذلك فى قوله تعالى: (ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) (الأعراف:٩٥)، فهذه الآية تدل على التبديل من السيئ إلى الحسن ثم من الحسن إلى السيئ، بينما قول الله تبارك وتعالى: (وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) (البقرة: ٢١١)؛ وقوله: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْراً وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) يدلان على التبديل من الحال الحسنة إلى الحال السيئة. وقول الله تعالى: (فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً) (الفرقان: ٧٠)؛ وقوله: (وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً) (النور:٥٥) يدلان على تبديل الأحوال السيئة بأحوال حسنة.

والتغيير والتبديل فى الآيات كلها نتيجة مترتبة على فعل الناس بأنفسهم «فقد قضت مشيئة الله وجرت سنته أن تترتب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر وأن تنفذ فيهم سنته بناء على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم. والنص... دليل التكريم لهذا المخلوق الذى اقتضت مشيئة الله أن يكون هو بعمله أداة التنفيذ لمشيئة الله فيه»[٤].

وإرادة الإنسان وحركته فى التصور الإسلامى عامل مهم فى حركة تاريخه وفى تفسير هذا التاريخ. والقرآن الكريم عندما يعرض لمثل قضية التغيير لا يروى حادثة بعينها إنما يكشف عن سنة كونية مستمرة مؤداها أن ما يقع بالناس من خير أو شر مرده ومآله إلى ما يصنعه الناس أنفسهم بسلوكهم ومواقفهم[٥].

وورود هذه السنة فى القرآن الكريم، مكررة فى المواضع كلها التى يتناول القرآن فيها مسألة التغيير أو التبديل، تقرير لعدل «الله فى معاملة العباد؛ فلا يسلبهم نعمة وهبهم إياها إلا بعد أن يغيروا نواياهم ويبدلوا سلوكهم ويقلبوا أوضاعهم، ويستحقوا أن يغير ما بهم مما أعطاهم إياه، للابتلاء والاختبار من نعمة لم يقدروها ولم يشكروها. ومن الجانب الآخر يكرم هذا المخلوق أكبر تكريم حين يجعل قدر الله به ينفذ ويجرى عن طريق حركة هذا الإنسان وعمله»[٦] والنص القرآنى بذلك يلقى تبعة على الإنسان الذى يملك تغيير مصيره بما يصنعه بنفسه فى حياته؛ فهو العنصر الإيجابى فى صياغة هذا المصير لا سواه. وهذا الفهم قديم عند أهل النظر فى القرآن الكريم فقد نص عليه الطبرى فى تفسير قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)[٧]؛ والقرطبى فى تفسير الآية نفسها[٨]؛ وابن عطية فى تفسير قول الله تعالى: (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)[٩].

والحاصل أن القرآن الكريم يجعل تغيير أحوال الناس، إصلاحاً وإفساداً، منوطاً بعملهم هم، لا يقع خبط عشواء، ولا يتم بإرادة سواهم من خلق الله.

فالذين ينظرون اليوم إلى الأحوال الموجبة للتغيير فى أوطان العرب والمسلمين كافة، ويتطلعون إلى تغييرها طلباً للإصلاح، وحرصاً على مستقبل الأمة، وأملاً فى استعادة ما كان لها فى غابر الزمن من مكانة بين الأمم، عليهم أن يسألوا أنفسهم ماذا صنعوا؟ وماذا قدموا لكى يقع التغيير الذى يطلبونه؟ وهم من ناحية أخرى لا يجوز لهم أن ينتظروا قيام فئة أو طبقة أو ملك أو زعيم بإجراء التغيير من تلقاء نفسه، فإن مصالح هؤلاء - فى زعمهم - إنما تتحقق ببقاء الحال على ما هو عليه، استدامة للسلطان والنفوذ، باحتكار الثروات، وإهمال حقوق الإنسان، إن لم أقل العدوان عليها، ومصادرة حق الأمة فى المشاركة فى صنع حاضرها ومستقبلها تحت دعاوى الاستقرار والمحافظة عليه، أو انتظار حل مشكلاتنا الكبرى مثل مشكلة العدوان الصهيونى على فلسطين والعدوان الأمريكى البريطانى على العراق «كما لو أن تحرير فلسطين والعراق يتطلب استمرار الفساد والتعذيب والاستبداد وتعطيل الديمقراطية وسيادة القانون وحقوق الإنسان فى العالم العربى»[١٠].

ومنهج القرآن فى التغيير كما يجعله موقوفاً على صنع الناس يجعله متوقفاً على إرادة الله تبارك وتعالى، ويجعل الأمرين مقترنين، بل يجعل وقوع التغيير القدرى مبنياً أصلاً على وقوع التغيير البشرى. فالركون إلى الأقدار وانتظار تحركها لتحقق ذلك الإصلاح، الذى لم يسع الناس إلى تحقيقه بأنفسهم، فساد فى التصور وجهل بالسنن الربانية التى تدل عليها النصوص القرآنية. وهو جهل شائع بدرجة كبيرة - للأسف الشديد - بما يسوغ التنبيه إليه والتحذير من الوقوع فيه، وضرورة مواجهة الذين يشترون بنشره فى الناس سكوتهم على المظالم، ورضاهم بالفساد، وقعودهم عن العمل، لمصلحة القوى المهيمنة فى هذا القطر أو ذاك.

أولويات التغيير الضرورى:

قد يختلف الناس اختلافاً واسعاً حول أولويات التغيير، ولا يسع أحداً أن ينكر حق الباحثين والمفكرين والزعماء السياسيين - أيضاً! - فى تصور ترتيب الأولويات، وفى وضع خطط تنفيذ الإصلاحات التى يجب إجراؤها فى عالمنا العربى. وليس فى وسع باحث إلا أن يقرر لنفسه ما يراه فى شأن الأولويات ووسائل الإصلاح، وأن يعرض ذلك على المعنيين بالشأن الإصلاحى، فإن قبلوا منه فذلك ما كان يبغى، وإن أبوا عليه فَهُمْ إما أن يدلوه على خير من رأيه أو يزيدوه إدراكاً لصوابه وفى الحالين، يكون عملهم، مضافاً إلى عمله،



ليس لأحد حجة فى إبعاد النساء عن العمل العام بسبب أنهن نساء، ولا فى حرمان الأمة من جهد المرأة لأنها امرأة



نوعاً من أنواع التعاون على البر والتواصى بالمعروف وهما واجبان شرعاً وعقلاً!

الإصلاح السياسى أولاً:

والرأى عندى أن الإصلاح الضرورى يبدأ، أول ما يبدأ، بالإصلاح السياسى. فمشكلتنا الرئيسية فى العالم الإسلامى كله هى فساد نظم الحكم المترتب على خلودها وأبديتها! والخلود والأبدية جعلا لحكامنا سلطة مطلقة لا تعلوها سلطة، ولا تنال منها مساءلة، ولا يُتَصَوَّرُ عليها قيد ولا حد.

وقد ورثنا هذه الخصيصة. أعنى خصيصة الخلود الأبدية. من تراثنا الثقافى الإسلامى الذى يقرر ويكرر أن الحاكم، سواء أكان مختاراً من الأمة (منتخباً) أم كان متغلباً عليها، يبقى فى منصبه إلى أن يأتيه أجل الله، أو يقوم متغلبٌ آخر يقدر عليه فيستولى منه على سلطان حكمه؛ ونضيف، بعد ما حدث مؤخراً فى أفغانستان والعراق، احتمالاً ثالثاً لزوال سلطان الحكام هو أن يقع غزو أجنبى لبلد ما فيسقط نظامه وتحل محله فوضى عارمة أو نظامٌ يعمل لحساب المستعمر ويأتمر بأمره (!)

وفكرة تأبيد سلطة الحكام جاءت من التقليد الذى كانت تسير عليه الدول كلها فى العصر الذى نشأت فيه الدولة الإسلامية الأولى، فلم يكن آنذاك ثمة تداول للسلطة ولا تأقيت لمدة الحاكم فى أى مكان فى العالم. وجاءت كذلك نتيجة خوف الفقهاء والمفكرين السياسيين الإسلاميين من حلول الفوضى ووقوع المظالم. ففى مروياتهم التى تكاد أن تكون مسلمة بينهم أن: «ظلم سنة خير من فتنة ساعة». فمدار هذا الرأى كله وأساسه الذى ليس له سواه أن «درء المفسدة مقدم على جلب المصلحة». وهذه القاعدة صحيحة، كما أن العبارة الخاصة بتفضيل الجور لمدى طويل على الفتنة التى يهلك فيها البُرَءاءُ وتُسْتَحَلُّ فيها الدماء المعصومة، عبارة صحيحة أيضاً. لكن الإشكال ينشأ . وإن شئت قلت نشــأ واســتمر . من تحويل الحكم الفقهى المؤقت (منع الفتنة) و(درء المفسدة) إلى حكم دائم يجعل الاستيلاء على السلطة بالقوة (حكومة المتغلب) مشروعاً، والظلم المستمر جائزاً، ومصادرة الحقوق، واحتكار الثروات، والتفرد بالسلطان كله، عن غير شورى من المسلمين، أموراً مباحة.

وبغير التخلص من هذا الفكر، وما ترتب عليه فى حياتنا السياسية من جمود وفساد فإن أى إصلاح آخر، فى أى مجال كان، لا جدوى منه ولن يكون له أثر.

وإذا كان اجتهاد الفقهاء الأقدمين مبنياً على قاعدة درء المفاسد وتقديمه على جلب المصالح، وعلى قاعدة أن الضرورات تبيح المحظورات، باعتبار المحظور هو الاستيلاء على الحكم بالقوة والبقاء فيه إلى الأبد، والضرورة التى أباحته هى خشية الفتنة والهَرْج[11].

والضرورة فى صحيح الفقه الإسلامى، وفى صريح العقل أيضاً، تقدر بقدرها، ولا يجوز التوسع فى تفسيرها، ولا تحويلها من حال عارضة طارئة مؤقتة إلى حال دائمة لا تزول ولا تنتهى بل تتجدد مع تولية كل حاكم جديد، وتتسع فتشمل الأقطار كلها على اختلاف ظروفها وأحوالها. والبقاء على القول القديم الذى بَيَّنْتُ أساسه وسنده يؤدى بالأمة إلى أن تبقى فى حال التخلف والقعود الذى هى فيه.

مضمون الإصلاح السياسى:

والبدء بالإصلاح السياسى يعنى تمكين الأمة من اختيار حكامها. وتحديد مدة ولايتهم. وتحديد سلطاتهم وصلاحياتهم. وصنع المؤسسات التى تراقب عملهم. ووضع الأساليب والوسائل التى تتخذها هذه المؤسسات فى أداء واجب الرقابة.

وتحديد مدة الولاية يترتب عليه تقرير أن الحق فى تجديد الاختيار، أو القيام باختيار جديد، حقٌ للأمة لا يجوز عند ممارسته أن تزيف إرادتها أو تزور الأصوات التى يدلى الناخبون بها.

وأنا أستعمل كلمات (الأصوات) و(الإرادة) و(الناخبين) عامداً غير مخطئ، لأننى أدعو إلى اتخاذ الوسيلة المعروفة فى العالم الحديث باسم الديمقراطية وسيلة وحيدة لتنظيم العلاقة بين الحاكمين والمحكومين. فليس فيما أدركته البشرية وسيلة أفضل من الديمقراطية، باعتبارها سبيلاً لاختيار الحكام وعزلهم وتقرير مسؤوليتهم. وهذه الديمقراطية يمارسها العالم بصور متفاوتة من حيث التنظيم ولكنها متفقة من حيث النتيجة التى تؤدى إليها، أعنى من حيث تمكينها الناس من إدارة شؤونهم بأنفسهم، باختيار من يديرونها نيابة عنهم، وعزلهم، ومحاسبتهم عما قدموا فى أثناء توليهم مناصبهم.

وإذا كانت الشورى قد تقررت فى القرآن الكريم بآيتين اثنتين هما قول الله تبارك وتعالى: (وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ) (الشورى:٣٨)؛ وقوله سبحانه: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) (آل عمران: ١٥٩).

فإن هاتين الآيتين تقرران مبدأ الشورى دون أن تتعرض أيهما لتفاصيله ولا لكيفية ممارســته، وهو منهج إسلامى أصيل يقوم على تفصيل ما لا يتغير بتغيــر الزمان من الأحكام وإجمال ما يتغير. ولأن الشأن السياسى كله ليس مما يثبت على حال فقد أجمل فيه القرآن الكريم هذا الإجمال الشديد ليتــرك للأمة الإســلامية تنظيم حياتها السياسية بما يحقق مصالحها فى الأزمنة المتوالية والأمكنة المتعددة[12].

والأصل فى الشورى، على الأصح من أقوال العلماء، أنها واجبةٌ ابتداءً مُلزِمَةٌ انتهاءً حتى قال بعض العلماء: «إن من تركها من الحكام فعزله واجب بلا خلاف[13].

وليس المقصود بالشورى فى المفهوم الإسلامى حل صراع مفترض بين الحاكمين والمحكومين، فهم، فى التصور الإسلامى للدولة والمجتمع، أسرة واحدة لا فضل فيها لأحد على أحد إلا بالتقوى. وصاحب الولاية العامة ليس إلا واحداً من الناس جعله الله أثقلهم حملاً. والرقابة الشعبية التى تقيمها نظم الحكم الديمقراطية المعاصرة هدفها منع الاستبداد ومقاومة الظلم؛ والاستبداد والظلم محرمان شرعاً، ومنعهما واجب على الأمة كلها لأن هذا المنع داخل فى واجب النهى عن المنكر.

ولا يجوز الاستغناء عن الرقابة الشعبية التى توفرها النظم الديمقراطية، فى عصرنا هذا، بالركون إلى مفهوم أهل الحل والعقد الذى يروج له أهل التقليد من الكتاب المعاصرين فى الشأن السياسى الإسلامى. فإن مفهوم أهل الحل والعقد مفهوم تاريخى نشأ فى صدر الإسلام نتيجة ظروف الهجرة النبوية وتأسيس الدولة الإسلامية، وحركة الفتح الإسلامى التى صبغت بصبغتها أكثر الآراء السياسية فى عصر الاجتهاد والتدوين. وهذه الظروف تغيرت فى العصور الإسلامية المتوالية، وهى . يقيناً . غير قائمة فى العصر الإسلامى الذى نعيش فيه. فماذا نفعل فى هذا المفهوم، وما رتبه الفقه عليه من نتائج وآثار؟ إن الواجب أن يكون فى الدولة الإسلامية قادرون أكفاء يقومون بما كان يقوم به أهل الحل والعقد فى الزمان الأول، وهم اليوم. عندى. أعضاء المجالس النيابية المنتخبون انتخاباً حراً ليمثلوا الأمة تمثيلاً صحيحاً. ولا يجوز أن يدين هؤلاء بطاعة أو ولاء إلا للأمة كلها، ويجب أن تنظم علاقتهم بها على نحو يضمن قيامهم بحراسة مصالح الأمة والذود عنها دون أن يستميلهم أو ينحرف بهم ترغيب أو ترهيب[14] وهؤلاء إن أحسنوا كسبوا ثقة الناس، فى مقبل الأيام، وإن أساءوا وجدوا جزاء الإساءة القانونى والمعنوى على السواء!

التعددية السياسية حق للناس:

ولا يتصور إصلاح سياسى فى مجتمعنا العربى المعاصر دون التسليم بالحق فى التعددية السياسية الذى هو نتيجة طبيعية للاختلاف الفطرى الذى جعله الله تبارك وتعالى لازماً من لوازم الوجود الإنسانى كما قال تعالى: (وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) (هود: ١١٨-١١٩)، قال العلماء أى وللاختلاف خلقهم[15] ووهبهم حرية الاختيار، وحملهم تبعاته[16] والتسليم بالتعددية السياسية تبعاً لحق الاختلاف وحرية الاختيار أمر لا يحتمل المراء ولا الشك[17].

ولم تعرف البشرية ظلماً أشد ولا



لم تعرف البشرية ظلماً أشد من الظلم المستند إلى نظرة دينية يساء فيها استخدام نصوص الدين الصحيحة



طغياناً أقسى من الظلم والطغيان اللذين استندا إلى نظرة دينية يساء فيها استخدام نصوص الدين الصحيحة بتأويلها على وفق أهواء الظالمين، أو يدس فيها ما ليس منه تحقيقاً لنزواتهم أو تمكيناً لها من القضاء على خصومهم، ولذلك فإن الدعوة إلى التعددية السياسية وضمانها باعتبار حق الاختلاف حقاً إنسانياً أصيلاً تعد اليوم من ضرورات الإصلاح السياسى فى الوطن العربى والإسلامى كله. وإذا كان فقه القواعد الأصولية الإسلامية يقوم، من بين ما يقوم عليه، على قاعدة «ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب» فإن النظام السياسى الضامن لحقوق الناس لا يمكن أن يقوم وحق الناس فى التعبير عن رأيهم منكورٌ عليهم بدعوى أن وحدة الأمة واجب دينى[18].

إصلاح أوضاع المرأة:

ويلى الإصلاح السياسى فى ضرورته لمجتمعاتنا العربية والإسلامية المعاصرة الاعتراف بحق المرأة فى العمل العام.

وهذا الحق مستمد مباشرة من القرآن الكريم الذى يقرر صراحة المساواة بين الرجال والنساء فى الأصل الذى يقوم عليه كل عمل عام وهو مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:٧١).

ومع هذا النص القرآنى الصريح فلا مجال للمماحكة والمجادلة فى حق المرأة فى ممارسة العمل العام وأنه كحق الرجل سواء بسواء.

وقد أكد الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك فى قوله: «إنما النساء شقائق الرجال»[19]. وفى قوله صلى الله عليه وسلم: «الدين النصيحة» قلنا لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»[20]. فالسنة والقرآن إذن متفقان على المساواة بين الرجال والنساء فى الشأن العام الذى لا يخرج عن أن يكون «نصيحة» سماها رسول الله صلى الله عليه وسلم «الدين»! ومن جميل فهم العلماء لحديث النبى صلى الله عليه وسلم «إنما النساء شقائق الرجال» أن معناه أنهما نظيران، كأن النساء شققن من الرجال، أو العكس «فما ثبت للرجال من الأحكام يثبت للنساء إلا ما قام عليه دليل الخصوصية»[21].

وليس لأحد حجة فى إبعاد النساء عن العمل العام بسبب أنهن نساء، ولا فى حرمان الأمة من جهد المرأة لأنها امرأة. وهذا هو ما تؤكده السوابق الإسلامية الثابتة منذ عهد النبوة لمشاركة المرأة فى العمل السياسى والعسكرى بصوره كافة[22].

التغيير واجب والتدخل الخارجى مرفوض:

إن الأمراض التى تعانى منها شعوبنا ودولنا كافة ليست حصيلة عهود قريبة وإنما هى آثار قهر سياسى واجتماعى طال مداه حتى أنتج ركام المشكلات التى نعانى منها فى أقطارنا كلها، ولم تزل الإرادة السياسية متخلفة عن الإرادة الشعبية فى العمل لتحقيق الإصلاح ووضع خططه موضع التنفيذ حتى ظهرت فى الأفق الدعاوى الغربية، وبوجه خاص الأمريكية، لإصلاح أوضاع الدول العربية والإسلامية فيما عرف بمشروع الشرق الأوسط الكبير أو الشرق الأوسط الواسع، أو الجديد، أو مبادرة إرساء الاستقرار فى الشرق الأوسط.

وفى كل هذه المبادرات اختلط السم بالدسم، وتحقيق الخير فى بعض الجوانب لأمتنا وشعوبنا مع تحقيق المصلحة الخالصة فى الجوانب كلها لأصحاب هذه المشروعات على تعددها وتباينها.

وكثير ممن يتناولون موضوع الإصلاح فى صحفنا ووسائل إعلامنا يؤيدون هذه الخطط الأجنبية، إما يأساً من إمكان تنفيذ إصلاح داخلى ذاتى وإما طمعاً فى حُظْوَة عند أصحاب المشروعات الأجنبية تمكنهم على أيديهم مما لم يتمكنوا منه فى ظل الأوضاع الحالية لأوطانهم وبلدانهم.

والإصلاح مطلب شعبى شامل للأقطار الإسلامية والعربية كافة، ومن أبرز أمثلته نشوء الحركة المصرية من أجل التغيير، والدعوات الإصلاحية النظيرة لها، فى كل قطر عربى آخر. وأصحاب هذه الدعوات يؤمنون بضرورة الإصلاح وضرورة البدء فيه فوراً، ويحددون مناهجهم، ويتحدثون عن أولوياته وخطواته، ويختلفون فى ذلك كله دون أن يخطِّئَ بعضهم بعضاً، أو يلوم أحد منهم أحداً. لكنهم يجْمعُون بلا خلاف بينهم على رفض خطط الإصلاح الأجنبية لما تؤدى إليه من استمرار الاستتباع والهيمنة لقوى الخارج على قوى الداخل. والنظرة الوطنية التى تقبلها جماهير أمتنا هى التى تدعو إلى استقلال قرارنا السياسى والاقتصادى الذى لا يكون إلا بإصلاح يلبى الآمال والمطامح المشروعة ويصون للأوطان استقلالها ويحفظ لها كرامتها ويحول بينها وبين أن تُرْتَهَنَ من جديد للقوة الواحدة المهيمنة اليوم، أو تُقْتَسَمَ غداً بين قوى تتنازع الهيمنة على العالم والسيطرة على دوله وشعوبه.

وشعار هؤلاء الإصلاحيين الوطنيين هو قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود:٨٨).

والحمد الله رب العالمين. ■

هوامش:

١ ـ العلامة الشيخ محمد مصطفى شلبى، الفقه الإسلامى بين المثالية والواقعية، الإسكندرية، ١٩٦٠ ص ٦٨-٧٢؛ وأبو عبيد القاسم بن سلام، كتاب الأموال، القاهرة، ١٩٦٩، ج٢ ص ٢٩٦؛ والسهيلى، الروض الأنف فى شرح سيرة ابن هشام، ج٢ ص١٧؛ ومحمد حميد الله الحيدر آبادى، الوثائق السياسية ص ٣٩-٤٧.

٢ ـ الراغب الأصفهانى، مفردات ألفاظ القرآن، دار القلم والدار الشامية، ط الثانية ٢٠٠٢، بتحقيق صفوان داوودى، ص١١١ و٦١٩؛ الفيروز آبادى، بصائر ذوى التمييز، وزارة الأوقاف المصرية، ط الثانية ١٩٨٦، بتحقيق محمد على النجار، ج٢ ص٢١٦.

٣ ـ سيد قطب، فى ظلال القرآن، دار إحياء التراث العربى، بيروت ١٩٧١، ج١٣ ص ٧٨.

٤ ـ سيد قطب، المصدر السابق.

٥ ـ سيد قطب، المصدر السابق، ج٩ ص٥٨٣.

٦ ـ سيد قطب، المصدر السابق، ج١٠ ص ٣٦-٣٧.

٧ ـ محمد بن جرير الطبرى، جامع البيان فى تفسير القرآن، ط بولاق ١٣٢٨هـ، ج١٣ ص ٨١ .

٨ ـ القرطبى، الجامع لأحكام القرآن، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر (مصورة عن ط دار الكتب) ١٩٦٧، ج٩ ص٢٩٤.

٩ ـ ابن عطية، المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز، ط وزارة الأوقاف المغربية ١٩٨١، ج٨ ص٩٣.

١٠ ـ بيان صادر من ٣٤ منظمة غير حكومية فى ١٤ دولة عربية بتاريخ ٢٠٠٤/٥/٢٦ بعنوان «القمة العربية تصوت لصالح الإصلاح من الخارج!» وزعه فى مصر مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان.

١١ ـ الهرْج كثرة القتل، كما فى الحديث الذى أخرجه البخارى ومسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعة حتى يكثر الهرْج» قالوا: وما الهرْج يا رسول الله؟ قال: «القتل القتل». وهو فى البخارى، ط دار السلام، الرياض ١٩٩٧، برقم (٦٠٣٧) وفى مسلم، ط بيت الأفكار الدولية، الرياض ١٩٩٨، برقم ٢٨٨٨.

١٢ ـ محمد سليم العوَّا، فى النظام السياسى للدولة الإسلامية، ط الثامنة، دار الشروق ٢٠٠٦، ص ١٧٧ وما بعدها.

١٣ ـ تفسير القرطبى، المصدر السابق، ج٤ ص٢٤٩-٢٥١؛ والفخر الرازى، مفاتيح الغيب، القاهرة (د.ت)، ج٣ ص ١٢٠-١٢٢؛ محمد سليم العوَّا، الفقه الإسلامى فى طريق التجديد، ط الثالثة، سفير الدولية للنشر ٢٠٠٧، ص ١٢١و١٢٦.

١٤ ـ فى تفصيل هذا المعنى وتأصيله انظر: محمد سليم العوَّا، المصدر السابق، ص ١٢٦-١٢٨.

١٥ ـ القرطبى، المصدر السابق، ج٩ ص١١٥

١٦ ـ سيد قطب، المصدر السابق، ج١٢ ص٦٣٣.

١٧ ـ برهان غليون ومحمد سليم العوَّا، النظام السياسى فى الإسلام، دار الفكر بدمشق ٢٠٠٤، ص ١٠٩.

١٨ ـ برهان غليون ومحمد سليم العوَّا، المصدر السابق.

١٩ ـ رواه أبو داود والترمذى عن عائشة رضى الله عنها، وهو فى صحيح سنن أبى داود للألبانى برقم ٢٣٦؛ وفى صحيح الترمذى برقم ١١٣، وقال الإمام الخطابى فى شرحه إن «فيه من الفقه إلحاق حكم النظير بالنظير».

٢٠ ـ الحديث متفق عليه واللفظ هنا لمسلم، ج٧ ص ٣٧، من الطبعة المصرية بشرح النووى.

٢١ ـ العلامة محمد شمس الحق العظيم آبادى، عون المعبود بشرح سنن أبى داوود، دار الكتب العلمية بيروت ١٩٩٠، ج١ ص ٢٧٥؛ والعلامة الشيخ محمود خطاب السبكى، المنهل العذب المورود، ط الأولى ١٣٥١هـ، القاهرة، ج٢ ص ٢٣٦.

٢٢ ـ محمد سليم العوَّا، الإسلاميون والمرأة، دار الوفاء ٢٠٠٠، فصل المرأة وممارسة العمل السياسى وفصل المشاركة فى العمل العام، ص ٢٦-٤٣. وراجع الجزءين الثانى والثالث من كتاب الأستاذ عبد الحليم أبو شقة رحمه الله: تحرير المرأة فى عصر الرسالة، دار القلم بالقاهرة، ط الرابعة، ١٩٩٥. واقرأ بوجه خاص كتاب الدكتور محمد هيثم الخياط: المرأة المسلمة وقضايا العصر، دار سفير الدولية للنشر ٢٠٠٧ فصل: التمييز ضد المرأة، وفصل: دائرة العمل العام.

فــى المــكــتــبـــــــــــــــــة



Elections and Distriputive Politics in Mubarak's Egypt

الانتخابات والسياسة المعطلة فى مصر مبارك

Lisa Blaydes

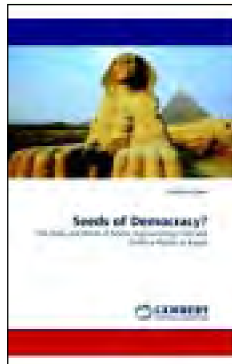
Cambridge University Press, 2010

Pp 288, $90.00

فى هذا الكتاب، تسعى د. ليزا بلايدز «Dr.Lisa Blaydes» إلى الإجابة عن السؤال التالى: «لماذا يسمح حكام الأنظمة الاستبدادية مثل الرئيس حسنى مبارك بإجراء الانتخابات؟» ويعد ذلك الكتاب نتاجا لأبحاثها حول كيفية بقاء النظام الحاكم غير الديمقراطى فى مصر من خلال اللجوء إلى الانتخابات، وترى فى كتابها أن الانتخابات فى مصر تمثل تحسنا لجميع الجهات الفاعلة ذات الصلة فى السياسة المصرية، مثل النظام والمواطنين والنخبة السياسية، بمن فى ذلك الباحثون عن دور سياسى والمتاجرون بالمعارضة، وحركات المعارضة، والمؤسسة العسكرية فى مصر. وتركز بلايدز من خلال هذا الكتاب على كيفية عمل الأنظمة الاستبدادية والطرق التى تلجأ إليها لتدعيم وجودها، وتتطرق فى كتابها إلى الانتخابات فى مصر لتفهم كيفية عمل النظام المصرى الحاكم، وكيفية تفاعل المواطن المصرى سواء كان فقيرا أو غنيا مع النظام السياسى وتفاعله سياسيا، وكيف تعمل قوى المعارضة من خلال القنوات القليلة المقدمة لها من قبل النظام. وتعتقد فى كتابها، أن الانتخابات فى الأنظمة الاستبدادية لم تصبح قاعدة شاذة، بل أصبحت «عادة».

كما أنها تستكشف الآليات التى تعقد من خلالها الانتخابات البرلمانية التنافسية واستغلالها للحفاظ على النظام الاستبدادى فى مصر، وترى أن الانتخابات التنافسية تؤدى وظائف متعددة، انطلاقا من إدارة الصراع التوزيعى بين النخبة لرسم خريطة التوزيع المكانى لمناصرى النظام، وترى أن هناك علاقة ثلاثية بين النظام الحاكم فى مصر، والنخبة المؤيدة للنظام الحاكم والمواطن العادى الذى يشارك فى الانتخابات، وتشرح الأسباب التى تدفع المواطن المصرى للتصويت فى انتخابات برلمانية فاقدة الشرعية.

■



Seeds of Democracy?: The Role and Work of NGOs in promoting Civil and Political Rights in Egypt

بذور الديموقراطية: دور وعمل المنظمات غير الحكومية فى دعم الحقوق المدنية والسياسية فى مصر

Sigmund Aas

LAP LAMBERT Academic Publishing, 2010

Pp 68,

$62.00

يتساءل هذا الكتاب عن الأسباب التى تجعل الشرق الأوسط المنطقة الوحيدة التى تشهد معوقات فى تنمية الديمقراطية؟، ويقول إن مشاكل حقوق الإنسان فى مصر ليست بعيدة عن تلك المتواجدة عموما فى الشرق الأوسط ككل، على الرغم من نمو اقتصاد مصر مؤخرا بشكل كبير، ولكن هناك فى نفس الوقت صعوبات فى إحداث تنمية اجتماعية حقيقية بسبب نقص التعليم والفقر والفساد والوضع الراهن السياسى، كما أن الرئاسة والسلطة التنفيذية لديها صلاحيات واسعة كثيرا ما تستخدمها لقمع أو كبح جماح أى معارضة سياسية جادة، من خلال تلفيق التهم والاعتقالات، وجزئيا من خلال منع إنشاء أحزاب سياسية جديدة.

ويرى الكاتب سيجموند آس Sigmund Aas أن هناك كثيرا من الدول مستاءة من وضع حقوق الإنسان فى مصر، إلا أنها تمتنع عن انتقادها علنيا، لأنها تعتبر مصر دولة معتدلة وتحتفظ بعلاقات ودية مع الغرب، ويعتبرها البعض أفضل مثال يمكنه الاحتذاء به فى الشرق الأوسط فى حالة تحقيق مصر للديمقراطية، كما يتطرق الكتاب لمناخ عمل منظمات المجتمع المدنى والمنظمات الحقوقية فى مصر، وكيفية تحركات النظام وجماعات المعارضة، والضغوط الخارجية على مصر لتنفيذ إصلاحات ديمقراطية.

نبذة عن الكاتب:

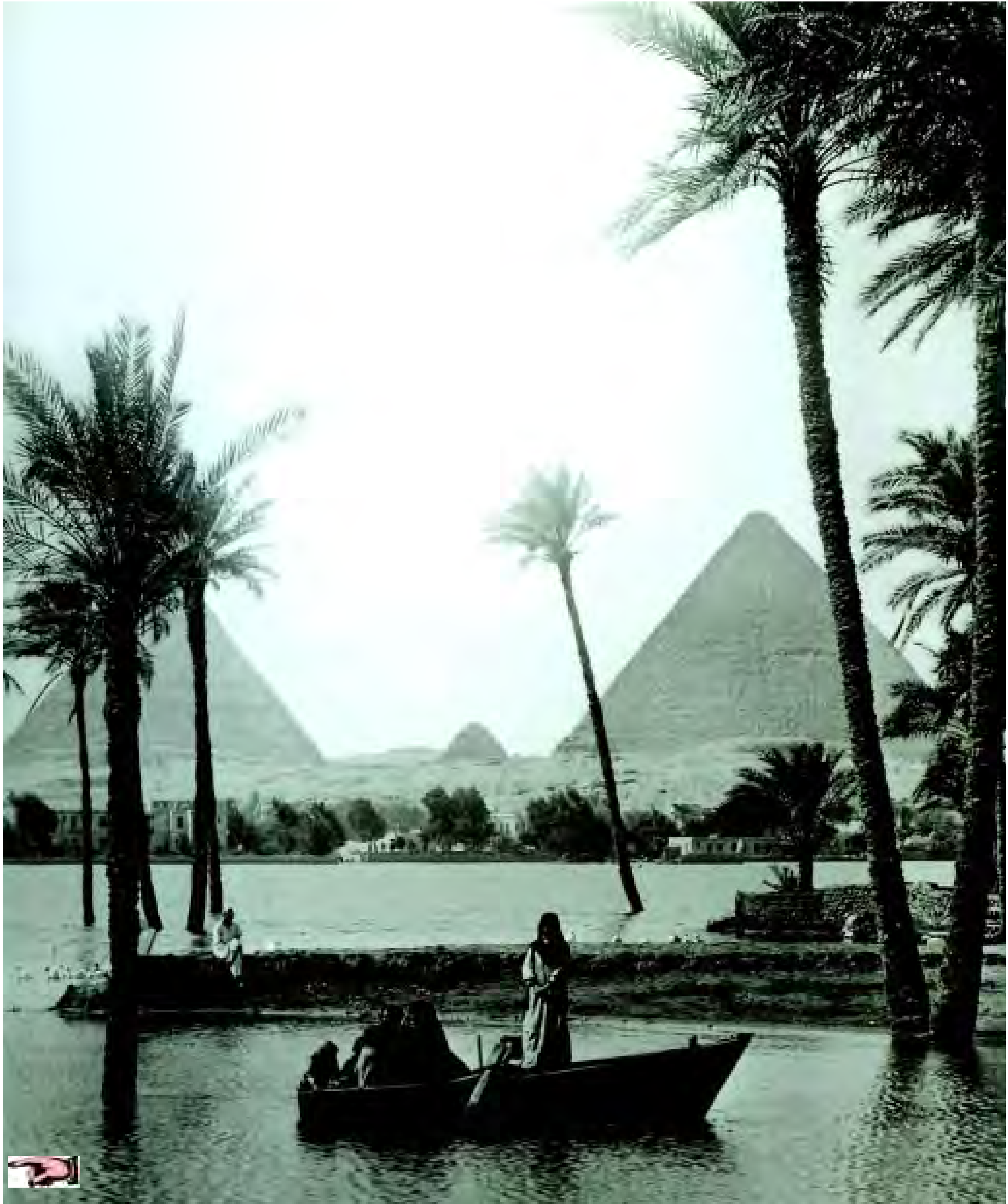
حاصل على بكالوريوس فى العلوم السياسية من جامعة بوسكيرود Buskerud وجامعة تكساس التقنية Texas Tech University، وعلى درجة الماجستير فى حقوق الإنسان من جامعة أوسلو ٢٠٠٨ University of Oslo. وقد عمل سابقا فى وزارة الخارجية النرويجية.

■

فــى أرشـــــــيـــف وجـهـات نـظـر

مصـــــر
أسئلة الديموقراطية الصعبة

- أحمد زويل: كيف تعبر مصر بوابة العالم الثالث ـ مارس ٢٠٠٢
- طارق البشرى: القضاء المصرى.. بين الاستقلال والاحتواء ـ مارس ٢٠٠٣
- خالد فهمى: حين كانت مصر تبحث عن الحداثة ـ مايو ٢٠٠٤
- مازن النجار: مصر.. والإسلاميون الجدد ـ يونيو ٢٠٠٤
- أحمد كمال أبو المجد: تأجيل الإصلاح دعوة للمجهول! ـ يونيو ٢٠٠٤
- رباب المهدى: الإصلاح وظاهرة العصيان المدنى فى المجتمع المصرى ـ مارس ٢٠٠٥
- محمد حسنين هيكل: كلام فى ما يجرى ـ يونيو ٢٠٠٥
- أيمن الصياد: مصر الآن ـ يونيو ٢٠٠٥
- رضوى عاشور: بوابات مغلقة، وفساد أكاديمى، وتدخلات أمنية ـ يونيو ٢٠٠٥
- طارق البشرى: القضاء فى مفترق الطرق ـ يونيو ٢٠٠٥
- سلامة أحمد سلامة: التدخل الخارجى، ندينه ولانستغنى عنه ـ سبتمبر ٢٠٠٥
- أيمن الصياد: الأبواب الدوارة.. وانتظار ما لا يأتى وحده! ـ سبتمبر ٢٠٠٥
- محمد أبو الغار: الحريات الأكاديمية فى الجامعات المصرية ـ سبتمبر ٢٠٠٥
- أيمن الصياد: هل نحن حقا «ديموقراطيون»؟ ـ ديسمبر ٢٠٠٥
- طارق البشرى: المسلمون والأقباط والمساواة.. مبدأ المواطنة ـ ديسمبر ٢٠٠٥
- البابا شنودة الثالث: المسيحيون فى الحكم الإسلامى ـ ديسمبر ٢٠٠٥
- سلامة أحمد سلامة: الإخوان إلى أين؟ ـ يناير ٢٠٠٦
- عمرو حمزاوى ـ ناتان براون: ثنائية النظام والإخوان ـ يناير ٢٠٠٦
- أمينة شفيق: إفسَاد الفقَراء!! ـ فبراير ٢٠٠٦
- أيمن الصياد: القُضاة.. والقَضاء.. والقضية ـ يونيو ٢٠٠٦
- تقرير المجلس القومى لحقوق الإنسان ـ يونيو ٢٠٠٦
- سلامة أحمد سلامة: سراب الديموقراطية ـ أغسطس ٢٠٠٦
- مها عبد الرحمن: المنظمات غير الحكومية اللوبى الجديد فى مصر ـ نوفمبر ٢٠٠٦
- أنور عبدالملك: فى البحث عن مصر.. لماذا التوهان؟ ـ مايو ٢٠٠٧
- شريف دلاور: الاقتصاد المصرى.. إلى أين؟ ـ سبتمبر ٢٠٠٧
- منار الشوربجى: إعادة تعريف السياسة فى مصر ـ أكتوبر ٢٠٠٧
- محمود محيى الدين: النمو وحده لا يكفى! ـ يناير ٢٠٠٨
- صلاح الدين حافظ: تحريم السياسة وتجريم الصحافة ـ يونيو ٢٠٠٨
- محمد البرادعى: مصـر فى عالم متغير ـ ديسمبر ٢٠٠٨



النيل.. مياه «جديدة»
فى النهر «القديم»

النيل نجاشي

مصر... التي كانت

أيمن الصياد

■■ كان العام ١٩٣٣، عندما وقف «الأنيق» محمد عبد الوهاب يزين جيب سترته بمنديله الأبيض المميز على شكل الأهرامات «المصرية» الثلاثة، ليغني من كلمات أحمد شوقي «النيل نجاشي»[1].

ثم كان العام ٢٠١٠، عندما بدا مثيرا للمتابع للتصريحات الرسمية وللهرولة الدبلوماسية المصرية «المتأخرة»، أن هناك من كان قد نسي الحقيقة الجغرافية البسيطة، التي بدأ بها أحمد شوقي مطلع أغنيته الشهيرة «النيل نجاشي» والتي توارث المصريون الترنم بها منذ أن شاهدوها للمرة الأولى في فيلم «الوردة البيضاء» لمحمد كريم، قبل حوالي قرن كامل من الزمان.

بين التاريخين تاريخ طويل، وبقدر ما هطل على هضبة الحبشة من أمطار «جرت في النهر مياه كثيرة»، حسب مايقول التعبير الشائع. كان زمن عرف فيه المصريون أن التاريخ تصنعه الجغرافيا، كما تصنعه «الإرادة». وضع المصريون أيامها «الدائرة الأفريقية» ضمن الدوائر الحاكمة للسياسة الخارجية (راجع «فلسفة الثورة» ١٩٥٣).

وقتها اعتبرت كل الثورات الأفريقية القاهرة عاصمة لها. جاء لومومبا، وتزوج نكروما من «فتحية». وعرف بطرس بطرس غالي طريقه الى كل ركن وكل زعيم قبيلة أو حركة تحرر في القارة الفتية، كما ذهب عبد الباسط عبد الصمد ليقرأ القرآن هنا وهناك (مازالت تسجيلاته في جوهانسبرج ١٩٦٦ الأكثر انتشارا على الانترنت).. وكان ذلك كله، وغيره كثير تجسيدا لما يعرفه أساتذة العلاقات الدولية بـ«القوة الناعمة»؛ تقديرٌ ومهابة ونفوذ، لايحتاج الى سلاحٍ، أو الى تهديد به.

بين التاريخين تاريخ (ذو صلة) طويل. بنى المصريون السد العالي، بالإرادة ـ وفقط ـ بأننا «معا نستطيع». لم يكتف المصريون ـ زمنها ـ بإدراكهم أن «النيل نجاشي»، بل غنوا أيضا «وقف الخلق ينظرون جميعا كيف أبني قواعد المجد...».



والحاصل أن الرصيد الذي صنعته مصر في سنوات الصعود منتصف القرن الماضي قد تلاشى في الثلاثين سنة الأخيرة. انصرفت مصر ـ غفلة أو استدراجا ـ عن القارة (عمقها الجنوبي)، كما انصرفت عن غيرها، بعد أن حسبت أن أمنها وأمانها مرهون فقط برضا واشنطن. وكان لذلك مظاهر كثيرة؛ قامت مصر بإغلاق مكاتبها التجارية في إفريقيا وبيع منشآتها ومبانيها في إطار ما سمي بـ«الخصخصة». وغابت القاهرة

(1) وجهات نظر: يوليو ٢٠١٠



كان ذلك كله، وغيره كثير تجسيدا لما يعرفه أساتذة العلاقات الدولية بـ«القوة الناعمة»؛ تقديرٌ ومهابة ونفوذ، لايحتاج إلى سلاحٍ، أو إلى تهديد به





الرئيس جمال عبدالناصر والإمبراطور هيلاسلاسي (من محفوظات مكتبة الاسكندرية)

تدريجيا عن المشاركة الفعالة التي تليق بمكانة (كانت لها) في مؤتمرات القمة الإفريقية والمؤسسات التابعة لمنظمة الوحدة الإفريقية، وجرى بالتالي انحسار طبيعي للأنشطة الأهلية والمدنية ابتداءً من البعثات الدينية والتعليمية، وانتهاءً بالأزهر الشريف، بل ولحق العطب روابط كانت قوية بين الكنيسة في إثيوبيا وكنيسة الإسكندرية. (يذكر جيلنا كيف كان الامبراطور هيلاسلاسي ينحني ليقبل يد البابا كيرلس) ولم تحاول مصر الرسمية «المنشغلة» الإبقاء على شيء من هذه العلاقات، والتي كانت من أهم الروابط بين الشعبين في كل من مصر وإثيوبيا.

لقد تركت مصر «الجديدة» المنكفئة على ذاتها، والمنشغلة بحساباتها الداخلية، إفريقيا خاليةً من أي دور أو مكانة مصرية. وكان من الطبيعي أن تخلو الساحة للآخرين. جاء الصينيون من الشرق، والايطاليون من الشمال.. وبالطبع كان الفرنسيون والأمريكيون، وحتى الاسرائيليون هناك.

لم تعد مصر اذن هي مصر التي عرفها الأفارقة، كما لم تعد أثيوبيا التي يأتي منها ٨٥٪ من مياه النيل هي الدولة الحليف. ولذلك قصة طويلة، لعبت فيها أطراف كثيرة.

في عام ١٩٧٤ وصل «منجستو هايلاميريام» بالشيوعيين الى السلطة في إثيوبيا. فتغيرت سياسة مصر (التي كانت قد اختارت بوضوح الانحياز للمعسكر الغربي) تجاه إثيوبيا من النقيض إلى النقيض. بدأ «السادات» خصومةً غير مباشرة مع إثيوبيا، تبدت في موقف مصر المعلن وقتها من الصراع حول أوجادين. فضلا عن تأييد بأساليب مختلفة لكل من أريتريا والنميري.

ثم كان أن جاء «النيل» ليصل بالخلاف المكتوم، الى ذروة العلانية عندما أعلن السادات عن فكرته لتوصيل مياه النيل إلى اسرائيل (١٩٧٩) ليخرج منجستو مذكرا بالاتفاقات التي تمنع مصر من أن تفعل ذلك، ومهددا بأن اثيوبيا ستبني سلسلة من السدود والخزانات. وقتها هدد السادات بالحرب «للحفاظ على الحقوق المكتسبة والتاريخية في مياه النيل» ورد منجستو ملوحا بأنهم على استعداد لأن يكون النهر «نهرا من الدماء»..

كان العالم كله وقتها يتغير.. ذهب السادات .. وذهب منجستو. وبقي النيل في مكانه؛ «نجاشي» يأتي من الحبشة ويجري الى مصر.. ويغني له عبد الوهاب.



هل إسرائيل هناك..؟

رغم أن الاهتمام الاسرائيلي بأفريقيا لا يخفى على أحد، ورغم حقيقة أن تل

تركت مصر «الجديدة» المنكفئة على ذاتها، والمنشغلة بحساباتها الداخلية، إفريقيا خاليةً من أى دور أو مكانة مصرية. وكان من الطبيعى أن تخلو الساحة للآخرين



أبيب نجحت (بعد توقيع المعاهدة المصرية) فى اقامة علاقات دبلوماسية مع دول أفريقيا التى لم تكن حتى تعترف بها، ورغم كل ما أعلن من فاصيل لزيارة ليبرمان؛ وزير خارجية تل أبيب لعدد من دول حوض النيل (سبتمبر ٢٠٠٩)، الا أنه من غير المنطقى أو الواقعى الذهاب بعيدا مع الذين ينشغلون بالبحث عن الأصابع الاسرائيلية وراء كل قصة.

رغم ذلك، فللاسرائيليين مع النيل قصة يذكرها كل من اهتم بهذا الملف.

فى ١٦ يناير ١٩٧٩ نشرت مجلة «أكتوبر»، ذات العلاقة المعروفة بالرئيس الراحل أنور السادات خطابا من الرئيس المصرى الى مناحم بيجين رئيس الوزراء الاسرائيلى يقول فيه: «سوف نجعل مياه النيل مساهمة من الشعب المصرى باسم ملايين المسلمين كرمز خالد وباق على اتفاق السلام، وسوف تصبح هذه المياه بمثابة مياه زمزم لكل المؤمنين أصحاب الرسالات السماوية فى القدس ودليلا على أننا رعاة سلام ورخاء لكافة البشر». وقالت المجلة إن السادات أعطى بالفعل إشارة بدء حفر الترعة، وطلب عمل دراسة جدوى دولية لتوصيل المياه إلى القدس.

ورغم أن الأستاذ أنيس منصور والذى كان رئيسا لتحرير أكتوبر وقتها (ومقربا من الرئيس السادات) قال بعد ذلك أن السادات لم يكن يقصد، وأن الرسالة لم تكن أكثر من بالون اختبار، الا أن الدكتور بطرس غالى والذى كان وزيرا للدولة للشئون الخارجية أيام السادات، كان قد قد قال فى مذكراته أن موشى ديان ابلغه موافقة الرئيس السادات على مد مياه النيل لاسرائيل وهنا ابلغ بطرس غالى الدكتور مصطفى خليل رئيس الوزراء بما سمعه وهرع الاثنان للسادات للتأكد من الخبر فأكده لهما!! وهنا أبلغه د.مصطفى خليل ان هذا غير قانونى ويتنافى مع اتفاقيات حوض النيل فقال له السادات. والرواية لغالى. «نبقى نقول لهم المية بتروح فى البحر».

أيا ماكان الأمر، فالفكرة ـ رغم غموض مازال يحيط بكثير من تطوراتها ـ لم تتم. ولكنها بقيت دوما فى خلفية مايجرى. كما بقيت مذكِرةً دوما بالدور الذى لعبته المياه فى الصراع العربى الاسرائيلى. وبالتذكير به كرقم أساسى فى معادلة الأمن القومى.

فى صفحات التاريخ نقرأ:

● فى مارس ١٩٠٣ ومن نافذة فندق «شبرد»، الذى كان ينزل فيه، تأمل تيودور هيرتزل طويلا نيل القاهرة الذى يجرى أمامه قبل أن يذهب للقاء اللورد كرومر ليقترح عليه «أن نمد فرعا من النيل الى صحراء سيناء لنتمكن من توطين اليهود المهاجرين هناك»، وكانت مسألة توطين اليهود فى سيناء محل بحث وقتها، وموضوعا لمفاوضات ماراثونية يهودية بريطانية اشترك فيها تشامبرلين وزير المستعمرات البريطانية، وغيره من المسؤولين البريطانيين. اصطدمت على الدوام بعدم ترحيب بطرس غالى «الأب» وزير الخارجية المصرى أيامها، قبل أن تنهار تماما على صخرة الأسباب التقنية التى طرحها مهندس الرى البريطانى وليام جارستون الذى كان رأيه أن المشروع «غير عملى. فضلا عن أن البريطانيين أنفسهم لم يرحبوا بإيقاف الحركة فى قناة السويس لحين الانتهاء من حفر نفق لتمر به المياه أسفلها. (Stewart, Desmond "Herzl's Journeys in Palestine and Egypt" Journal of Palestine Studies 3, No. 3 (1974): 18-38)

● فى عام ١٩٦٧، نشبت الحرب التى غيرت نتائجها مجريات الصراع فى الشرق الأوسط. ولم يكن «تحويل مجرى نهر الأردن» ببعيد عن كل ماجرى.

● فى عام ١٩٨٢ وتحت مسمى ربما كان ذا دلالة «عملية الليطانى»، أقدمت اسرائيل على غزو لبنان للسيطرة على نهر الليطانى، والذى وفر لها ٨٠٠ مليون متر مكعب من المياه سنويا.

● فى أوائل التسعينيات من القرن الماضى ظهر كتاب لخبير المياه الاسرائيلى «اليشع كيلى»، يعرض فيه من الناحية التقنية مشروعا متكاملا لتنفيذ فكرة هيرتزل القديمة (Kally, Elisha, and Gideon Fishelson. Water Resources and the Arab-Israeli Peace Process. Westport, Conn: Praeger, 1993)

● فى عام ٢٠٠٢ صدر كتاب آخر تحت عنوان مثير «الصليب والنهر»، يتنبأ فيه كاتبه «الاسرائيلى» بصراع قادم بين مصر وأثيوبيا على مياه النهر (الكتاب عرضناه فى «وجهات نظر» فى مايو ٢٠٠٤)

... وغير ذلك كثير. دون. مرة أخرى. أن نذهب بتوقعاتنا بعيدا. أو أن نقع فى محظور اختزال الأمر كله فى «مؤامرات اسرائيلية» مفترضة. فالحقيقة أن المسألة أبعد من ذلك بكثير، وأننا. وحدنا. نتحمل المسؤولية كاملة.



الثابت إذن أن الماء كان دوما هناك.. كما هو الآن عند كل من يتوقعون أن تكون حروب القرن الحالى «حروب مياه».

والحروب بالتعريف هى رقم فى معادلة السياسة، مثلما القوة والقانون.

هل لمصر حق قانونى فى النزاع الحالى حول مياه النيل؟

الإجابة الواضحة والمختصرة: «نعم» وفى ذلك تفصيل كثير (يكفى مراجعة اتفاقية فيينا لعام ١٩٧٨ الخاصة بالتوارث فى مجال المعاهدات الدولية والتى تقضى بعدم المساس بحقوق الدول النهرية)

ولكن السياسة لم تكن أبدا قانونا فقط. فكما أهدرت السياسة يوما ما، ما أتت به الحرب عام ١٩٧٣، هانحن نراها اليوم تهدر حقا قانونيا لم نعد فى المكان «أو المكانة» التى تمكننا من الحفاظ عليه.

إن أخطر ما فى الاتفاقية الإطارية الجديدة التى تم توقيعها رغما عن مصر، أنها ضمَّت بنداً يشير إلى حق الدول المتشاطئة مع دول حوض النيل فى الحصول على مياهه، بمعنى أن كلا من اسرائيل وليبيا المتشاطئتين مع مصر سوف يكون لهما الحق قانونا فى الحصول على المياه.

والأشد خطورةً فى الاتفاقية الجديدة أن القانون الدولى يلزم بوجود اتفاقيات جماعية، ويمكن فى هذه الحالة أن يكون عدم اعتراف دول حوض النيل بالاتفاقية الثنائية بين مصر والسودان (١٩٥٩) قانونًا فى حد ذاته.

ويزيد الأمر تعقيدا أن السودان قد يصبح «سودانين» بعد أشهر قليلة، وأن الاتفاقات التى تمهد للأمر ناقشت تقريبًا كل شىء عدا قضية المياه.



والخلاصة أن السياسة المصرية تجاه ملف النيل فى السنوات الأخيرة جانبها التوفيق، إذ بدا أنها إما غاب عنها ماللموضوع من أهمية فى ملف الأمن القومى المصرى، أو أنها اطمأنت. كعادتها ـ إلى «التوقع بالتمنيات». فطوال ١٠ سنوات من المفاوضات لم تنتبه إلى إصرار دول المنبع على مطالبهم، بل ولم نكترث بأن هناك أبحاثا علمية تجرى هناك، ودراسات جدوى، ووفود تذهب وتجىء. لم نر جديدا هناك، رغم أنه كان يطرق بابنا كل يوم. لم يخدعنا أحد، فموقف الآخرين كان «واضحا ومحددا ومعلنا»، لعشر سنوات كاملة. ورغم ماجرى فى كينشاسا قبل حوالى العام من خلاف بدا ـ لكل ذى عينين ـ أنه تجاوز خط اللاعودة، الا أن المنهج «الفرعونى» فى التفكير كان كعادته كافيا لعدم رؤية «عصا موسى تتحرك».

تغير العالم.. فرفضنا رؤيته يتغير. ورفضنا أن نعترف ـ ولو أنفسنا ـ أننا تغيرنا، فكان طبيعيا أن يتغير الآخرون. رفضنا أن ندرك أن التمثال القائم فى جوهانسبرج هو لعبد الناصر (الراحل منذ أربعين عاما)، ☛



امبراطور اثيوبيا مع البابا كيرلس السادس (من محفوظات مكتبة الاسكندرية)

من نافذة فندق «شبرد»، الذى كان ينزل فيه، تأمل تيودور هيرتزل طويلا نيل القاهرة الـذى يجـرى أمـامه قبـل أن يقتـرح على اللـورد كـرومر «أن نمـد فرعـا مـن النيـل إلـى سـيناء»



لا لأحد بعده. كما غفلنا عن أن ثلاثين عاما من الابتعاد والتعالى عن القارة «السوداء» التى كنا يوما الهاما لثوارها وقادتها له بالتأكيد تبعاته وآثاره. وبدا مضحكا أن من نسى تاريخه، يتحدث اليوم عن حقه التاريخى.

جاء المصريون متأخرين، ليجدوا أن اثيوبيا/ زيناوى، لم تعد هى الحبشة/ هيلاسلاسى. وأن ماسيسمعونه اليوم فى تلفزيونهم الرسمى، من الحاكم الأثيوبى، لن يكون أبدا تكرارا لما كان أسلافهم يسمعونه من «الامبراطور» فى حضرة «الزعيم» أو فى بهو الكاتدرائية المصرية فى العباسية.

....

....

«كالزواج الذى لايقبل الطلاق» هكذا شبه مليس زيناوى علاقة مصر بأثيوبيا، فى حديث حرص التلفزيون المصرى «الرسمى» على اجرائه لطمأنة المصريين المتجهين بعد ثلاثة أشهر الى صناديق الاقتراع. التشبيه على أية حال ـ فى نظر كل من يعرف أن ٨٥٪ من مياه النيل تأتى من اثيوبيا ـ كان دقيقا، وإن بدا أن بعض من احتفى به، لم يسمع الرجل ربما قبل خمسة أسابيع فقط (١٩ مايو) يقول نصاً: «أعرف أن البعض فى مصر لديهم أفكار بالية تستند إلى أن مياه النيل هى ملك لمصر وهى تمتلك الحق فى كيفية توزيع مياه النيل، وأن دول المنبع غير قادرة على استخدام المياه لأنها غير مستقرة وفقيرة».

مضيفا: «هذه الظروف تغيرت، فإثيوبيا فقيرة ولكنها قادرة على تسخير الموارد الطبيعية الضرورية لإقامة أى أشكال من البنى التحتية والسدود على النهر.. لا أرى ما يمنع مصر من الانضمام للركب، لن تستطيع مصر أن توقف إثيوبيا أو تمنعها من بناء سدود على النهر، هذا تاريخ ولن يكون جزءا من الحل، فالحل ليس هو محاولة مصر أن توقف ما لا يمكن وقفه».

قد يكون هذا الكلام «للاستهلاك المحلى» كما قرأه البعض فى القاهرة وقتها. وقد يكون أن أية اجراءات قد تقوم بها أثيوبيا أو غيرها، لن يكون لها تأثير على الأرض قبل عشرين عاما على الأقل، كما طمأن سياسيون مصريون ناخبيهم. ولكن تبقى حقيقة:

١ـ أن هذه لغة جديدة.

٢ـ أن عشرين عاما فى عمر النهر، ليست أكثر من طرفة عين.

فى حديثه للتلفزيون المصرى، الذى بدا وكأن مصر الرسمية قد خصصته لاقناع المصريين «بأن للأثيوبيين حقا» كان زيناوى واضحا وصلباً، وقال مانصه. «لقد قلت ذلك تكرارا ومرارا هناك حل واحد فقط لمشكلة النيل. هذا الحل هو الحل الذى يرضى جميع الأطراف ويراعى مصالحهم دون تمييز. فاذا كان هناك أى طرف خاسر فلا يمكن ان نصل الى حل»، معتبرا أن ماجرى لاعودة عنه: «إذا انضمت مصر والسودان إلينا خلال هذا العام فسوف نبدأ التنفيذ معا فى آن واحد، ولكن إذا لم تنضم مصر والسودان خلال هذا العام فسوف تبدأ الدول الخمس فى تنفيذ الاتفاقية».



أين نحن الآن؟ ربما أمكن تلخيص شىء من الإجابة فى النقاط التالية:

● بعد عشر سنوات من المفاوضات، خسرت مصر معركتها، أو بتعبير أكثر تحديدا: لم تحتفظ القاهرة بالاتفاقية التى كان الاحتفاظ بها هدفها الوحيد، والتى طالما قال مسؤولوها أنها غير قابلة للتعديل «أو اعادة النظر». معتبرة أن الأمـر يقع فى صميم «أمنها القومى».

● القراءة (الصحيحة) لحديث ميليس زيناوى للتلفزيون المصرى، توضح أن الرجل صلب فى موقفه، وأن حديثه للجزيرة قبل أسابيع لم يكن لأسباب انتخابية، كما تمنى البعض فى القاهرة وقتها. وأن المصريين خسروا ـ ربما ـ بلاعودة ـ معركة التمسك بالاتفاقات القديمة. فما جرى قد جرى، والدول السبع التى وقعت فى عنتيبى، قد مضت خطوة الى الأمام (كما يقول زيناوى) ولا يعنيها من بعيد أو قريب أن يتمسك البعض باتفاقياتهم القديمة. «نحن نعيش فى قرن جديد» كررها زيناوى إحدى عشرة مرة فى حديثه للتلفزيون المصرى، كأنما يقولها لمن لايريد أن يعترف بحتمية «التغيير».

● الملف الذى ترك عشر سنوات كاملة للفنيين، رغم حقيقة مركزيته فى «الأمن القومى» المصرى، اتضح أنه سياسى بامتياز. ولم يعد العامل الحاسم فى المعادلة هنا، مقياس النيل ارتفاعا وانخفاضا، أو بندا فى اتفاقية هنا أو بندا هناك. وانما «قدرة» كل طرف على أن يصل الى أهدافه. ويعرف التاريخ والعلاقات الدولية أن لهذه القدرة عوامل ومعايير.

● رغم تخوف مشروع من أن دبلوماسية اللحظة الأخيرة جاءت بعد «أن سبق السيف العزل»، الا أن لاشىء غيرها ممكنٌ «وواقعى» الآن. شرط أن يكون لها استراتيجية واضحة، وأن لاتكتفى بالتعامل مع التداعيات دون النظر الى المسببات.

● أن حل مشكلات حوض النيل (بعد أن فات مافات) يتطلَّب النظرة إلى الحوض كوحدة مائية واقتصادية وبيئية واحدة واعتراف كل دولة بحقوق الدول الأخرى، دون حديث استعلائى جرى اختباره فى أزمة الجزائر الأخيرة. يقول الخبراء أن الطاقة الكهربائية فى إثيوبيا التى يمكن توليدها من النيل وحده تكفى كل دول الحوض، وأن إمكانيات السودان الزراعية، والثروة السمكية فى البحيرات الاستوائية تشكل آفاقا واسعة للتعاون. يبقى ذلك كله مرهونا «بالسياسة» وما أدراك بالسياسة فى نظام بدا «وقد وهن العظم منه»، فتعثرت خطواته أو ارتبكت على أحسن تقدير.



وبعـد..

فلا أحد يملك بحسابات المسؤولية التاريخية أن يهون من الأمر، فـ «مصر هبة النيل»، ليس مجرد قول مأثور لمؤرخ مشهور، ولاعبارة يبدأ بها التلاميذ مواضيع الانشاء. بل هى حقيقة حفرتها الجغرافيا فى كتاب التاريخ. وعبر آلاف السنين كان النيل دوما أشبه «بالحبل الشوكى/ العصبى» الذى يربط الجسم كله زراعة واقتصادا وتكاملا «ودولة مركزية». يحدثنا المقريزى أن الناس فى مصر «كانت تأكل بعضها بمجرد أن ينقص مقياس النيل لأقل من ١٦ ذراعاً».

ولكن لاأحد يملك اليوم، وأيضا بحسابات المسؤولية التاريخية، أن يتحدث «حديث السادات» مهددا بقصف أديس أبابا «منجستوهيلاماريام»، فتلك لغة «قرن فات»، وارجعوا الى حديث زيناوى واشاراته الإحدى عشرة.

....

....

«النيل نجاشى» نعم منذ أن عرفناه قبل آلاف السنين. ولكن عرفنا أيضا أن أحدا لم يبخل به يوما ـ حباً أو احتراماً ـ على مصر .. «التى كانت».

واقرأوا التاريخ. ■



© Roger Viollet

كوبرى بولاق١٩١٢

هـوامـش:

(١) النَّجاشيِّ: فى «لسان العرب» هوكلمةٌ للحبَش تُسَمى بها ملوكها.

والكلمة فى اللغة العربية منذ بداية عهد الدعوة الإسلامية، فقد أذن الرسول ص لعدد من أصحابه الذين لَقُوا الاضطهاد من قريش فى الهجرة إلى أرض الحبشة «فإن فيها ملكًا لا يُظلَم عنده أحد»، وكان لقب ذلك الملك «النَّجاشى».



by Emad Hajjaj ©

العرب أزمات الهوية
والديموقراطية.. والتخلف

اضمحلال الفكر

■■ يكاد المشهد العربى بتفاصيله المركبة وأصواته المتباينة وتطوراته السريعة المتلاحقة خلال الأسابيع الأخيرة، يستغرق ما تبقى فى العقل العربى من قدرة على التفكير والرؤية الشاملة، بعد أن تشظت الأوضاع وتناثرت فى اتجاهات متعددة.. فأصبحت مثل ذرات تدور فى الخلاء حول نواة غير مرئية. لا نبصر منها غير جزيئات وتجليات لعجز عربى جامع مانع على كافة المستويات. قد يصعب تعليل مصادره وأسبابه. ويصبح اقتناص الصورة الكلية للمشهد بحاجة إلى جهد إيجابى، يرتفع من الخصوصيات إلى العموميات، ومن الأجزاء إلى الكليات، ومن الأفراد إلى الأمم، ومن سياقات متعددة إلى سياق أشمل.

فقد جرت على كافة الجبهات العربية تطورات مأساوية..

انفجرت التداعيات الدامية فى العراق وتشعبت بسرعة فائقة، منبئة بما كان يتوقع الجميع حدوثه من اضطرابات شبه دينية وشبه سياسية وشبه شعبية، سبقت خطط قوات الاحتلال التى كشفت عن عجزها المفرط، وتخبطها الناجم عن جهل بطبيعة النسيج العراقى المعقد، فلم تجد من وسيلة أمامها كدولة كبرى فى ظروف انتخابية ساخنة، غير استخدام القوة العسكرية المفرطة بخشونة وغشامة استقرت فى تقاليد الكاوبوى الأمريكى، الذى اعتاد مواجهة الهنود الحمر من السكان الأصليين بأقسى درجات العنف والإبادة.

وعلى الجبهة الفلسطينية لم تتوقف حمامات الدم اليومية ضد الشعب الفلسطينى واغتيال كوادره وتفجير بيوته واقتلاع أشجاره، واحتجازه وراء أسوار من العزلة المسلحة، والقمع المجهز بإمكانيات آلة عسكرية ضخمة تتلذذ بالعدوان والكراهية والاحتقار للشعب الفلسطينى.. يعززها صمت دولى، وتأييد عالمى صهيونى، وعجز عربى عميق الجذور، أفضى إلى التحرك الشارونى الذى أيدته أمريكا لوضع نهاية للصراع من جانب واحد.

ثم يمتد المشهد إلى وضع داخلى عربى متأزم، يئز بالتناقضات الكامنة فى مجتمعات تاريخية شبه منقرضة وغير قادرة على التكيف مع المتغيرات والعمليات الباسطة قوانينها وسلطانها على كل شىء، تخضع لنظم حكم خشبية متوارثة بحكم القبيلة أو بحكم قوى أيديولوجية شبه عسكرية. لا تكاد أمواج الحداثة والتغيير تلامسها إلا عند نقاط التماس مع المصالح العالمية الكبرى ونهمها إلى مصادر الثروة والنفوذ والاستغلال.



قد يتساءل المرء عن أسباب حالة النكوص والانحطاط التى أصابت الفكر السياسى العربى، والتى أدت إلى تآكل المواقف العربية وعجزها عن الارتفاع إلى مستوى الأحداث والتحديات الجارية، على عكس ما كان عليه الحال خلال فترات المد القومى من قدرة على الهجوم والصد، والمناورة والمبادرة، والسرعة فى اتخاذ القرار وحشد القوى اللازمة له.. والتى ربما تكون قد صدرت عن منطلقات خاطئة أو غير مدروسة فى بعض الأحيان، إلا أنها كانت فى كل الأحوال تجعل من الأمة العربية نقطة ثقل فى الموازين الدولية لا يسهل الاستخفاف بها أو تجاهلها على النحو الذى يقع اليوم، حيث تتقرر المصائر والمشاكل والحلول من فوق رأس الجميع. تفاجأ بها الحكومات العربية ودوائر صنع القرار فيها، هذه الدوائر لا تتخذ القرارات ولكن القرارات تتخذها. ويصبح التدخل فى صميم الشئون الداخلية والتوجهات الخارجية أمراً لا غضاضة فيه ولا تثريب عليه!

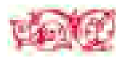
وفى ظنى أن بوسع المرء أن يرصد سببين رئيسيين لهذه الظاهرة:

أولهما أن مؤسسات الحكم القطرية تخلفت عن تطوير نفسها رغم مرور أكثر من نصف قرن على التحرر والاستقلال. وبقيت أذرع السلطة التنفيذية وبكل ما تختزنه من أشكال الفساد وقلة الكفاءة والاستئثار بالسلطة قادرة على طمس حقوق الإنسان العربى المدنية والسياسية، تتعالى على المساءلة والحساب والمشورة. وهو ما انعكس بدوره على مؤسسات العمل العربى المشترك فى الجامعة العربية وغيرها، فلم يسفر عن نتائج تذكر، ولم يحقق تقدماً يعتد به اقتصادياً أو سياسياً أو حتى ثقافياً كما هو الحال فى مؤسسات أوروبية أو حتى آسيوية تحولت بمرور الوقت إلى تكتلات دولية يحسب حسابها.

وفى هذا فإن أسلوب النظم العربية الحاكمة فى صناعة القرار واتخاذه وتنفيذه يمثل العنوان الرئيسى لأشكال القصور المذهلة فى مواجهة الأزمات والتحديات.. إذ تغيب العقول السياسية المفكرة عن الاقتراب من دوائر الحكم أو تستبعد. ويصبح أى رأى تبديه محلاً للاستخفاف والازدراء أو الصمت فى أفضل الأحوال. وكلما طال أمد البقاء فى مقعد السلطة ومراكز القوة كلما ضاقت حلقة المستشارين والخبراء لتنتهى إلى طائفة من البيروقراطيين المحترفين، الذين يجعلون من الأحادية المفرطة للحاكم. فى حكمته ووطنيته وذكائه وبعد نظره. مسألة مبدأ لا تهاون فيه. تغذيها فى ذلك روافد ثقافة الخوف والانصياع وعدم الرغبة فى فقد الحظوة وما تحمله معها من منافع. وتكون النتيجة ضيقاً شديداً فى أفق الرؤية، وانسداداً مخيفاً فى الخيال السياسى.

وربما عكست ظاهرة المديح والثناء فى الأدب العربى جذور هذه الثقافة المتأصلة فى الفكر العربى، والتى تحتل نسبة كبيرة فى مجموع ما أبدعته القريحة العربية من شعر ونثر. وربما كان لبعض الثقافات الدينية أثرها فى ذلك، فمازلنا حتى اليوم نعيش وسط جماعات دينية سياسية فى الأمة العربية تؤمن بعصمة الفرد وقدسيته وتخلع عليه من صفات النبوة والقداسة ما يعفيه عن كل مساءلة، وتترك له مرجعية القرار والحل والربط. وتنتظر على لسانه إلهامات الحكمة وفصل الخطاب. وحتى فى بعض النظم العربية التى أخذت بأشكال تحاكى الديمقراطية ولكنها ليست ديمقراطية، حرصت التشريعات والقوانين فيها على أن تطلق يد الحاكم فى نقض ومراجعة أى قرار أو حكم، بحيث تظل الكلمة النهائية له. وهو ما يكرس لدى الشعوب العربية حالة نفسية من «العبودية المختارة» التى تجعل الشعوب تكبل نفسها بنفسها.

لا توجد فى نظم الحكم ومؤسساتها فى العالم العربى، آليات لأى مراجعات نقدية لقرارات أو سياسات ثبت فشلها وعادت بأفدح الكوارث. بل إن كثيراً من أسرار الحروب والصراعات العربية الإسرائيلية مازالت طى وثائق سرية لم يفرج عنها بعد. وعلى عكس ما شهدناه أخيراً من لجان التحقيق فى الكونجرس الأمريكى التى قررت فحص الملابسات التى أحاطت بأحداث سبتمبر الأمريكية، وعلاقتها بالحرب ضد الإرهاب ثم بحرب العراق، والتى أجبرت إدارة بوش على الكشف عن وثائق مخابراتية سرية، فضحت كثيراً من الأخطاء.. فإن أى محاولة فى



كلما طال أمد البقاء فى مقعد السلطة ومراكز القوة كلما ضاقت حلقة المستشارين والخبراء لتنتهى إلى طائفة من البيروقراطيين المحترفين، الذين يجعلون من الأحادية المفرطة للحاكم. فى حكمته ووطنيته وذكائه وبعد نظره. مسألة مبدأ لا تهاون فيه



وجهات نظر: مايو ٢٠٠٤

سلامة أحمد سلامة

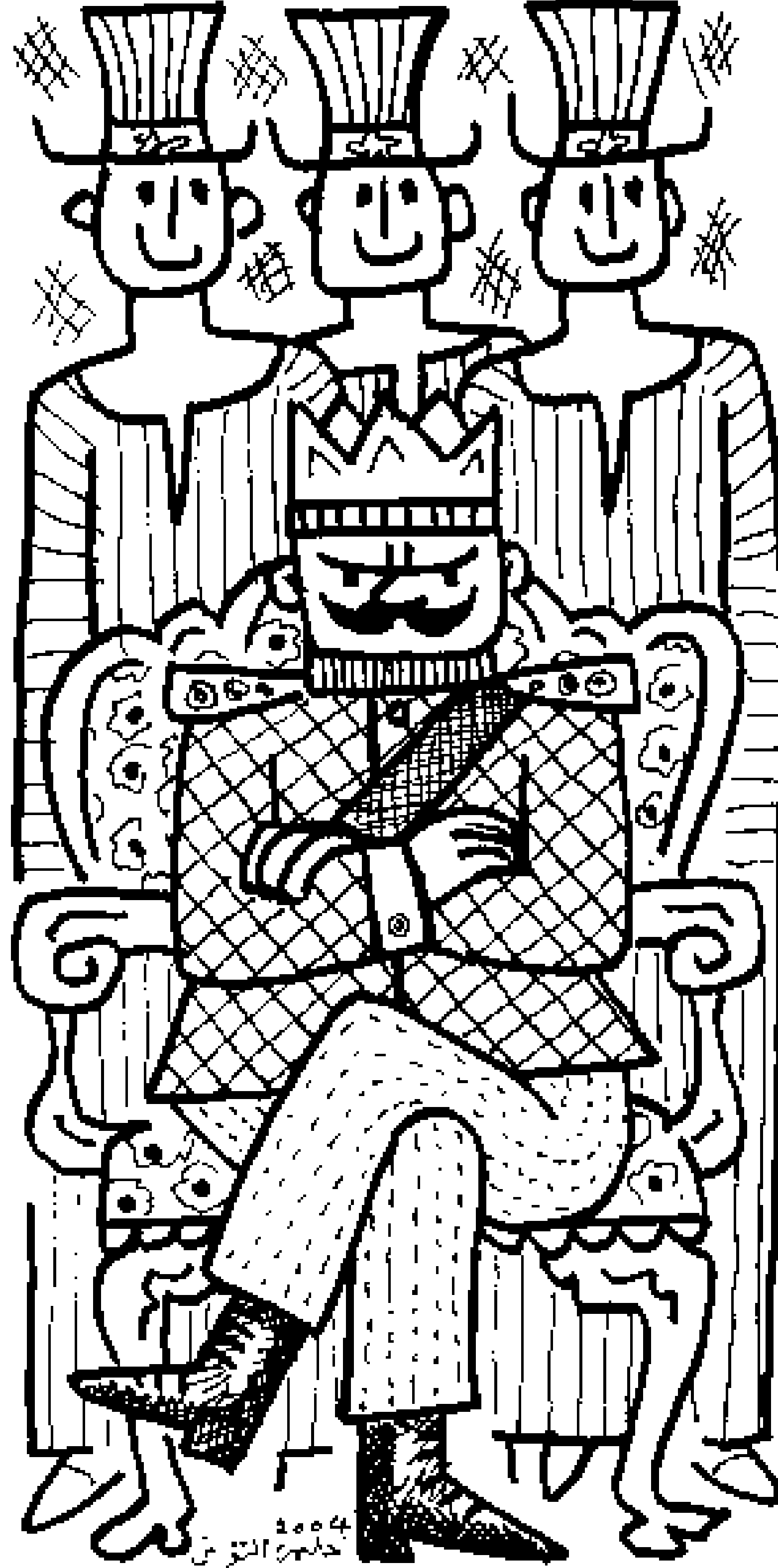
السياسى العربى

العالم العربى للتصدى بنزاهة عقلية ورغبة جادة فى تصحيح الأخطاء وتقييمها، سرعان ما يتم إجهاضها ودفنها ومعاقبة مرتكبيها. ولذلك يظل الفكر السياسى العربى يدور فى حلقات مفرغة تنم عن جدب الفكر وعقم الخيال ونمطية التفاعل والانفعال.



السبب الثانى. فى اعتقادى. لظاهرة التآكل السياسى العربى هو ظهور طبقة من المنظرين والدارسين، الذين تلقوا تدريبهم الفكرى والأيديولوجى فى مراكز الأبحاث والدراسات والجامعات الأمريكية. ومنذ تبوأت الولايات المتحدة مكانتها كقوة عظمى وحيدة فى أعقاب الحرب الباردة، تراجع تأثير مدارس الفكر السياسى الأوروبى فى فرنسا وألمانيا وبريطانيا. وأصبحت التوجهات الفكرية والفتوحات العقلية الأمريكية هى القوالب التى تستخدم لتفسير وتبرير تحولات السياسة الأمريكية وتقلباتها واستراتيجياتها. وتشير دراسات عديدة إلى أن هذه المراكز البحثية التى تحرص على إقامة علاقات حوار وتبادل مع الباحثين والدارسين العرب، تخضع لتفكير طائفة من المثقفين اليهود ذوى الاتجاهات الصهيونية، وتتولى رياستها فى أغلب الأحيان عناصر أمريكية إسرائيلية هى التى يعهد إليها بتخطيط السياسات الأمريكية.. وذلك فى الوقت الذى تجرى مطاردة وإغلاق مراكز الدراسات الشرق أوسطية التى كانت تتمتع بقدر من الاستقلالية، وفقدت العون والتمويل بعد الهجمة الشرسة التى أطاحت بتوازن المجتمع الأمريكى فى أعقاب أحداث سبتمبر ٢٠٠١.

هذه الطائفة من الدارسين والباحثين العرب التى باتت تشكل جبهة فكرية قوية على امتداد العالم العربى، تحظى الآن بدعم ومساندة وتلميع المؤسسات الرسمية العربية. وهى على استعداد. دائماً. للرهان على الجانب الذى تهيأت له من ظروف القوة الاقتصادية والمنعة العسكرية لأقوى دولة فى العالم باعتباره صاحب النصر التاريخى فى نهاية المطاف.. ومن ثم فإن اكتساب ثقته وعطفه ورضاه يجب أن يسبق أى صراع أو خلاف على



التمسك بالحقوق الطبيعية والشرعية التى كفلتها القوانين الدولية.

وهؤلاء فى الأغلب هم الذين يسارعون إلى تصوير العلاقات الشخصية واللقاءات المجانية بين الزعماء وكأنها طوق النجاة فى الدفاع عن مصالح الشعوب. وهو قدر من السذاجة فى تصوير العلاقات الدولية لم تنج منه السياسات العربية فى السنوات الأخيرة.. على الرغم من أن علاقات الود والصداقة التى ربطت شاه إيران بالولايات المتحدة على سبيل المثال، لم تحل دون نبذه نبذ النواة حين لزم الأمر.

ويظهر الجدل الذى نشب أخيراً فى العالم العربى فى أعقاب الاتفاق الخطير الذى تم بين بوش وشارون من وراء ظهر الجميع فى مشروعات الحل من جانب واحد، وإهدار معظم حقوق الشرعية الفلسطينية، كيف يمكن أن يسهم هذا النوع من تآكل الفكر السياسى الذى يمكن أن يدرج تحت بند خيانة المثقفين والسياسيين، فى إحداث البلبلة والتخبط الذى يفضى إلى التراجع والتفريط فى حقوق شعب عربى، قررت إدارة بوش فجأة التخلى عن التزاماتها إزاءها، دون أدنى اعتبار ليس فقط لحلفائها الأوروبيين بل وأيضاً لحلفائها العرب.



تظل مشكلة اضمحلال الفكر السياسى العربى أحد أهم روافد العجز والقعود العربى عن التفاعل مع المتغيرات الدولية ومواجهة تحديات المستقبل. ولا غرابة فى ذلك، فاستقلالية الفكر والبحث العلمى وغياب الإيمان بمناهج البحث فى كافة فروع العلوم الإنسانية والطبيعية والتكنولوجية، لابد أن يطبع بطابعه طريقة جيل كامل فى التفكير والممارسة. وقل لى بربك مَنْ مِنْ بين الزعامات والقيادات العربية من اتسعت مداركه لأبعد من بعض العلوم العسكرية والمبادئ الاستراتيجية.. أو حصل على موقعه بإرادة شعبية وانتخابات حرة نزيهة أمام منافسين أقوياء؟ نحن أمام كارثة فكرية وثقافية بالدرجة الأولى! ■

فى المكتبة

السنّة والشيعة محاولة تقريب «أزهرية»



بشير موسى نافع



منذ أدارت تركيا مصطفى كمال ظهرها للعالم الإسلامى، برزت مصر باعتبارها أكثر الدول الإسلامية تأثيراً، سواء فى الحقل الثقافى أو السياسى



■ يعالج هذا الكتاب، بالغ الأهمية، موضوعاً لم يلق عناية كافية من قبل، لا من الباحثين المسلمين ولا غير المسلمين، لا فى اللغة العربية ولا فى غيرها. فبالرغم من المحاولات السنية - الشيعية المستمرة طوال القرن العشرين للتقارب وإيجاد أرضية مشتركة، ليس هناك عمل واحد كرس لدراسة هذه المحاولات والنتائج التى نجمت عنها. لهذا، فإن كتاب برونر يملأ فراغاً طال أمده فى حقل دراسة الإسلام الحديث. ولكن هذا الكتاب لا يعالج العلاقات السنية مع كل الطوائف الشيعية، بل يقتصر على الطائفة الشيعية الإثنى عشرية، التى تشكل أغلبية المسلمين الشيعة.

يستند كتاب برونر، الذى هو فى الأصل دراسة أكاديمية لنيل درجة الدكتوراة، إلى عمل بحثى مكثف وواسع. وقد تمت مراجعة النص الألمانى الأساسى وتحديثه قبل ترجمته إلى الإنجليزية. ينقسم الكتاب إلى مقدمة، عشرة فصول، خاتمة، وينتهى بقائمة شاملة ومفيدة للمصادر الأولية والثانوية. وبالرغم من أن الجزء الأكبر من الكتاب قد كرس لدراسة تاريخ جمعية التقريب الإسلامية، التى أسست فى القاهرة على يد مجموعة من العلماء وأهل الرأى السنة والشيعة فى الأربعينيات، فإنه لا يقتصر على تتبع جمعية التقريب.

كما كل المواريث الدينية، تمتد جذور العلاقات السنية ـ الشيعية إلى التصور الجمعى للتاريخ. ومن هنا، فإن كتاب برونر يبدأ بفصل تقديمى طويل، يعيد بناء تاريخ الحقبة المبكرة للإسلام وسياق الاختلاف السنى - الشيعى. ويبدو واضحاً فى معالجة برونر، أن هذا الخلاف لم يبدأ (كما هو حال الانقسامات الطائفية المسيحية، مثلاً) من نزاع حول التصور الصحيح للأنظمة العقدية، بل من نزاع حول أحداث معينة، هى فى جوهرها ذات طبيعة سياسية، وحول التصور الصحيح للماضى. ولذا، ففيما يتعلق بالمسائل العقدية، بالعبادات والطقوس، والمفاهيم... إلخ، فإن الخلافات السنية ـ الشيعية وليدة عملية إنشاء تاريخى لاحقة.

Islamic Ecumenism in the 20Th Century: The Azhar and Shiism between Rapprochement and Restraint

(التقريب المذهبى الإسلامى فى القرن العشرين: الأزهر والتشيع بين التفاهم والتحفظ)

Rainer Brunner
Translated from German by Joseph Greenman. Revised and Updated by the Author (Leiden: Brill, 2004), 423 pp.

وجهات نظر: مايو ٢٠٠٦

بيد أن ما تتجاهله معالجة برونر للسياق التاريخى للخلافات السنية ـ الشيعية هو الفارق بين رؤيتى السنة والشيعة وتصورهم لأنفسهم. منذ القرن الخامس الهجرى/ الحادى عشر الميلادى، وما أسماه مارشال هدجسون بـ«انتصار العالمية السنية»، أخذ الشيعة يسلكون مسلك الطائفة، مسلك المجموعة الخاصة، بينما رأى السنة أنفسهم كجسم جامع للإسلام، الأمة الإسلامية. وقد وصل التطور الطائفى للشيعة اكتماله فى القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، فى أعقاب الغزو المغولى للمشرق والعراق وتدمير بغداد والخلافة العباسية. فى الفترة التكوينية للتشيع، كانت الرواية الشيعية الاثنى عشرية فى جلها موجهة ضد الفرق الشيعية الأخرى. ولكن مع بروز الصفويين فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى، اكتسب التشيع نزعة مناهضة للسنة بالغة التطرف والعنف، عززتها مصالح الدولة الصفوية وقادها الحكام الصفويون والعلماء الاثنا عشريين المرتبطون بهم. تعهد الصفويون سلسلة من الإجراءات البشعة للقضاء على التسنن فى البلاد الواقعة تحت سيطرتهم، استمرت حتى بعد سقوط السلالة الصفوية فى ١٧٢٢ ميلادية. ولكن نجاح الصفويين فى القضاء على السنة اقتصر على المنطقة المركزية من الإمبراطورية، المنطقة التى يقطنها الفرس والتركمان - الأذريون؛ أما فى أطراف الدولة، فى مناطق الأكراد والبلوش والأفغان، فقد استمر الوجود السنى مهيمناً.



كانت هذه الخلفية هى ما أطلق المحاولة الأولى لتحقيق مصالحة وتقارب سنى ـ شيعى. فخلال العقود القليلة التالية لانهيار الصفويين، نجح نادر خان الأفشارى (الذى عرف بعد ذلك بنادر شاه)، الزعيم القبلى بالغ الشراسة والعنف، فى توحيد الإمبراطورية الصفوية المتناحرة، بما فى ذلك المناطق ذات الأكثرية الشيعية والسنية. ولوعيه بالعداء الطائفى العميق بين الشعوب الواقعة تحت حكمه وعواقب هذا العداء على الاستقرار الداخلى، إضافة إلى إدراكه للارتباط الأسطورى بين التشيع وشرعية السلالة الصفوية، وسعيه إلى منع الصفويين استعادة الحكم، عمل نادر شاه على وضع نهاية للانقسام السنى ـ الشيعى. فى ١٧٤٣، عسكر نادر شاه بقواته قرب مقام الإمام على فى النجف، حيث استدعى عدداً من العلماء السنة والشيعة الممثلين لمختلف الشعوب الواقعة فى نطاق سيطرته. كما أرسل للوالى العثمانى فى بغداد يطلب إرسال أحد كبار علماء الولاية كى يشهد الاجتماع التاريخى. ولأن نادر شاه كان يأمل فى أن ينعكس مشروعه التقريبى على التوتر المزمن فى العلاقات الفارسية ـ العثمانية، فإن دعوته لأحد علماء بغداد لم تكن دعوة بريئة. وقد أوفدت بغداد بالفعل الشيخ عبدالله السويدى، القاضى الحنفى للولاية، وهو الذى ترك لنا فى مذكرات قصيرة لرحلته المصدر الرئيس لأحداث ومناقشات لقاء النجف.

كان نادر شاه حاكماً مخيفاً، ولم يجرؤ أحد من العلماء المتواجدين فى اللقاء على مخالفته. ولكن مشروع نادر شاه كان أبعد طموحاً مما يمكن تحقيقه. إذ بدلاً من أن يحاول التقريب بين السنة والشيعة بالتعامل مع القضايا محل الخلاف، قضية قضية، استهدف نادر شاه توحيد أتباع الطائفتين مرة واحدة. شهد اللقاء بالفعل بعض المبادرات الإيجابية من علماء كلا الطرفين، كما انتهى إلى اتفاق مكتوب. ولكن اغتيال نادر شاه اللاحق، وعودة الفوضى إلى ملكه، ترك مشروعه التوحيدى فى سجلات التاريخ. لا السلطات العثمانية كانت على استعداد لأخذ مساعى نادر شاه مأخذ الجد، ولا العلماء الذين جمعهم فى لقاء النجف كانوا ممثلين كافين للطائفتين، لا على مستوى العدد ولا على مستوى الموقع العلمى، أو حتى أنهم أظهروا من الصدقية ما يكفى للاتفاق مع الطرف الآخر. الخلافات الطائفية المتجذرة فى التاريخ ما كان يمكن حلها بإرادة حاكم طاغية. ولكن القضية الرئيسية التى تمحورت حولها مساعى الاتفاق فى لقاء النجف، والتى يمكن تلخيصها فى توقف الشيعة عن ممارسة الطقوس والتقاليد التى يراها السنة منافية للشرائع الإسلامية، بينما يقبل السنة الشيعة باعتبارهم مذهباً خامساً من المذاهب الإسلامية، أصبحت الهدف الرئيس لجهود التقريب الإسلامى فى القرن العشرين.

لم تسجل أية محاولة جادة للتقريب خلال القرن ونصف القرن التالى لنادر شاه. ولكن برونر يخطئ فى تقديره لأثر التهديد الإمبريالى الذى أخذ العالم الإسلامى فى مواجهته فى القرن التاسع عشر ومطلع العشرين. فعلى خلاف ما يسجله برونر، شهدت تلك الحقبة تقارباً ملموساً بين السنة والشيعة، بما فى ذلك التفاف المسلمين السنة والشيعة فى البلاد العثمانية حول الدولة ومعاركها ضد القوى الغربية، سواء فى البلقان أو فى ليبيا والعراق. وقد ساهم صعود حركة الجامعة الإسلامية فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر فى إحداث تقارب مطرد فى العلاقات العثمانية ـ القاجارية. وكلما اشتدت وتيرة الاختراقات الغربية الإمبريالية لبلاد

السنّة والشيعة

المسلمين، تصاعد الإحساس لدى السنة والشيعة بالتهديد الغربى للدين ونمط الحياة. هذا الشعور المشترك بالخطر وحد بين العراقيين، سنة وشيعة، فى مواجهة الغزو البريطانى للعراق العثمانى فى الحرب العالمية الأولى، كما فى الثورة العراقية الكبرى ضد الاحتلال البريطانى فى ١٩٢٠. بعد انتهاء الحرب الأولى، وانهيار السلطنة العثمانية، ومن ثم قيام الحاكم التركى الجديد مصطفى كمال أتاتورك بإلغاء الخلافة، تنافس عدد من الحكام المسلمين على الخلافة. وقد شهد عقد العشرينيات من القرن الماضى تدافعاً حاداً لإحياء الخلافة فى هذا البلد الإسلامى أو ذاك؛ وأصبح كسب تأييد المسلمين الشيعة جزءاً من استراتيجيات المتنافسين الرئيسيين على المكانة التاريخية والقوة الرمزية المرتبطة بمقعد الخلافة. ولكن حتى عقد الثلاثينيات لم تكن بدأت بالفعل جهود ملموسة للتقريب.

قبل التطرق إلى مناقشة هذه الجهود، يكرس برونر فصلاً كاملاً لمناقشة واحد من أكثر الكتب إشكالاً فى تاريخ العلاقة بين السنة والشيعة فى العصر الحديث: «المراجعات». احتل هذا الكتاب، ولا يزال، حيزاً هاماً فى الجدل السنى ـ الشيعى؛ فمن ناحية، يتكون «المراجعات» من نص جدلى يستهدف الانتصار للرؤية الشيعية لتاريخ الإسلام، ومن ناحية أخرى، شكك كثير من المسلمين السنة بمصداقية الإطار الذى وضع فيه الكتاب. صاحب «المراجعات» هو المرجع الشيعى اللبنانى عبد الحسين شرف الدين (١٨٧٣ - ١٩٥٧)، الذى نشر كتابه للمرة الأولى فى ١٩٣٦. ويظهر الكتاب فى شكل أجوبة توضيحية، كتبها شرف الدين رداً على أسئلة وجهت إليه من عالم سنى كبير. ومن المفترض أن كلاً من الأسئلة والأجوبة حملتها رسائل متبادلة بين العالمين، السنى والشيعى. وبالرغم من أن الإصدار الأول للكتاب لم يوضح هوية العالم السنى، فقد شاع فى الأوساط الشيعية اللبنانية القريبة من شرف الدين أن المقصود هو شيخ الأزهر فى مطلع القرن العشرين الشيخ سليم البشرى (١٨٣٢ - ١٩١٧). ثم عاد شرف الدين فى كتابه «النص والاجتهاد»، الصادر فى ١٩٥٦، ليسجل صراحة أن العالم السنى فى «المراجعات» هو بالفعل سليم البشرى.



يميل برونر إلى وجهة النظر المشككة فى حقيقة بناء «المراجعات» على أساس أسئلة من البشرى وإجابات من شرف الدين، وذلك بعد تحليل تاريخى تفصيلى لحياة الأخير وتحليل نصى لكتابه. الزيارة التى يفترض أن شرف الدين قام بها إلى مصر وقابل أثناءها سليم البشرى جرت بين أكتوبر/ تشرين أول ١٩١١ وأبريل/نيسان ١٩١٢. وطبقاً لكتاب شرف الدين، شهدت هذه الشهور الستة ١١٢ رسالة بين الطرفين، كان آخرها قبل قليل من عودة شرف الدين إلى بلاده. وما يعكسه «المراجعات» ليس فى الحقيقة حواراً بين الطرفين، بل أسئلة قصيرة موجهة من السنى، كتبت بصيغة خضوع كامل واستعداد للتلقى من «المعلم» الشيعى، وتقبل مقولاته. بل إن الكتاب ينتهى، بدون جدل فعلى، بموافقة العالم السنى على الرواية التاريخية التى يقدمها شرف الدين للإسلام بأكملها. المشكلة أن سليم البشرى يعتبر واحداً من أكثر شيوخ الأزهر محافظة فى القرن العشرين، وكان قد تولى المشيخة للمرة الأولى بين ١٨٩٩ و١٩٠٣، وتركها لاعتراضه على الإصلاحات التى كان معسكر محمد عبده يريد إدخالها على الأزهر. ثم عاد البشرى لتولى المشيخة فى ١٩٠٩، بعد أن خفت الجدل حول قضية الإصلاح. فى ١٩١١، عندما جرت المراسلات التعليمية المفترضة بينه وبين شرف الدين، كان البشرى فى الثمانين من عمره. فكيف يعقل لهذا العالم السنى، التقليدى، المحافظ، أن يقبل الوقوف موقف المتلقى من عالم شيعى شاب نسبياً (كان شرف الدين عندها فى الثلاثينيات من عمره وغير معروف بعد)، ثم ينتهى إلى الموافقة على مقولاته كلها؟

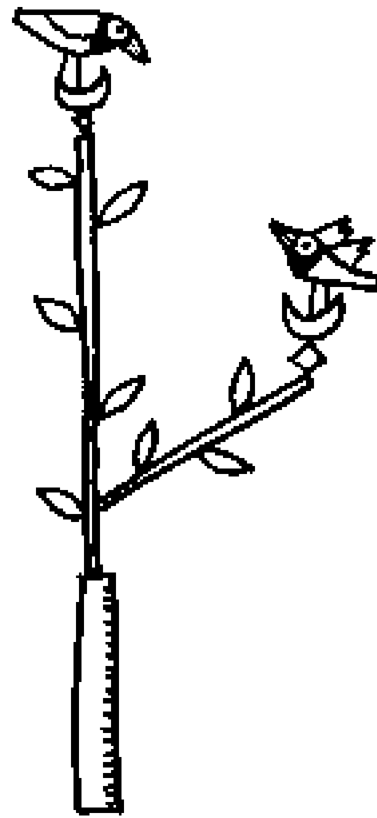
بيد أن هناك ما هو أكثر إشكالية. فبالإضافة إلى أن أسرة البشرى أعلنت مراراً أنها لم تجد فى أوراق الشيخ سليم ما يشير إلى مراسلات بينه وبين شرف الدين، فإن سيرة الأخير تثير أسئلة حول الأصل الذى ارتكز إليه نص «المراجعات». إذ إن بيت شرف الدين ومكتبته بمدينة صور تعرضا للنهب والتدمير على يد الجنود الفرنسيين فى ١٩٢٠، عقاباً له على معارضته الاحتلال الفرنسى، وذلك فى وقت كان شرف الدين قد فر إلى دمشق (قبل معركة ميسلون). وطبقاً لشرف الدين، فإن عشرين كتاباً مخطوطاً من كتبه قد أحرقت فى تلك الحادثة. وبالرغم من أن مصادر حياة شرف الدين لم تشر قبل الثلاثينيات إلى وجود مخطوط باسم «المراجعات» بين أعماله، فالواضح أن «المراجعات» لم يستند إلى أصل مكتوب (لا فى شكل رسائل أو نسخة مخطوطة) بل إلى ذاكرة مؤلفه، وهو ما اعترف به شرف الدين. إعادة البناء المفترضة هذه جاءت بعد مرور ربع قرن على زيارة شرف الدين للقاهرة، وعقدين كاملين على وفاة الشيخ البشرى. كل هذا بالطبع يثير شكوكاً قوية حول مصداقية رواية شرف الدين



للسياق الذى ولد فيه الكتاب؛ وما يزيد هذه الشكوك أن «المراجعات» كتب فى صيغة مشابهة تماماً لكتاب العالم الشيعى المعاصر لسقوط بغداد فى يد المغول، على بن موسى بن طاووس (ت ١٢٦٦)، «كشف المحجة»، ولذات الهدف.

فى ١٩٣١، دعا الزعيم الفلسطينى (الدينى والسياسى) الحاج أمين الحسينى، مفتى القدس، إلى عقد مؤتمر إسلامى جامع لمناقشة القضية الفلسطينية والصراع المتصاعد على فلسطين. وقد التأم المؤتمر، الذى يعتبر الأول من نوعه فى تاريخ الجامعة الإسلامية، فى نهاية العام نفسه بمدينة القدس، حيث التحق به ما يزيد على مائة من العلماء وقادة الرأى من أنحاء العالم الإسلامى كافة. وقد شهد المؤتمر تمثيلاً شيعياً قوياً بحضور المرجع الشيعى العراقى محمد حسين آل كاشف الغطاء، ورئيس وزراء إيران السابق ضياء الدين طباطبائى. وفى استعراض قوى ومؤثر للوحدة دعى كاشف الغطاء لقيادة صلاة الجمعة الحاشدة فى المسجد الأقصى، حيث ألقى المرجع الشيعى خطبة الصلاة الجامعة.

بيد أن القاهرة، لا مؤتمر القدس، هى التى ستشهد انطلاق حركة التقريب. فمنذ أدارت تركيا مصطفى كمال ظهرها للعالم الإسلامى، برزت مصر باعتبارها أكثر الدول الإسلامية تأثيراً، سواء فى الحقل الثقافى أو السياسى. فى أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٣٦، وصل إلى القاهرة فى زيارة قصيرة عبد الكريم زنجانى، العالم الشيعى من أصل إيرانى المقيم فى مدينة النجف العراقية. حظى الزنجانى بلقاء شيخ الأزهر فى ذلك الوقت، الشيخ محمد مصطفى المراغى، أحد تلاميذ عبده وأكثر علماء الأزهر نفوذاً وتأثيراً منذ فترة طويلة من الزمن. كان زنجانى مهتماً باستكشاف طرق ووسائل للتقريب بين السنة والشيعة، بينما كان المراغى، طبقاً لبرونر، يحاول من جديد توسيع نفوذ مصر العربى والإسلامى وإحياء مؤسسة الخلافة فى القاهرة. ولكن بالرغم من أن مراسلات زنجانى والمراغى استمرت بعد عودة الأول إلى النجف، لم يسفر هذا الجهد المبكر عن نتائج ملموسة. لم يكن زنجانى يعتبر من العلماء الكبار فى المؤسسة العلمائية الشيعية، وليس ثمة من مؤشر على أن نشاطه فى حقل التقريب كان



ليس هناك من عالم سنى، ناهيك أن يكون هذا العالم شيخا للأزهر، قد ذهب إلى الحد الذى ذهبه شلتوت فى اعترافه بالشيعة الاثنى عشرية



مدعوماً من أى من المراجع الرئيسيين آنذاك.

بعد سنوات قليلة، فى ١٩٣٩، حضر إلى القاهرة عالم إيرانى آخر هو الشيخ محمد تقى القمى، ضمن عداد الوفد الإيرانى الكبير المرافق لولى عهد إيران محمد رضا بهلوى. وقد جاءت زيارة ولى العهد بمناسبة زواجه من الأميرة فوزية، شقيقة ملك مصر، فاروق الأول. خلال وجوده فى القاهرة، سعى القمى أيضاً لمقابلة الشيخ المراغى، كما قابل عدداً آخر من علماء الجناح الإصلاحى فى الأزهر. وحتى بعد وفاة الشيخ المراغى، حافظ القمى على صلاته بمجموعة من العلماء المصريين الكبار، مثل عبد المجيد سليم، محمود شلتوت، وعبد المتعال الصعيدى، باحثاً معهم فكرة التقريب بين السنة والشيعة. أخيراً، وفى يناير/ كانون الثانى ١٩٤٧، أثناء ولاية الشيخ مصطفى عبد الرازق لمشيخة الأزهر، أسست جمعية التقريب الإسلامية بمدينة القاهرة، وأعلن الشيخ القمى رئيساً للجمعية. كان مفهوماً ضمنياً أن القمى تلقى التأييد والدعم من آية الله حسين بروجردى، المرجع الإيرانى الشيعى الكبير آنذاك. ومع تأسيس الجمعية، أصبحت لمساعى التقريب مؤسسة دائمة للمرة الأولى، مؤيدة ليس فقط من عالم كـ«بروجردى» بل أيضاً من أهم وأكثر مراكز الإسلام السنى احتراماً، الأزهر الشريف، ممثلاً بشيخه مصطفى عبد الرازق وآخرين من كبار علمائه.



استهدفت جمعية التقريب تشجيع تبادل الأفكار بين العلماء السنة والشيعة، ودعم تدريس الفقه الجعفرى فى أقسام جامعة الأزهر، وتطوير مناخ من التعارف والمصالحة بين السنة والشيعة فى عمومهم. وبالرغم من أن الجمعية وضعت فى حسبانها توظيف وسائل متعددة لتحقيق غاياتها، كانت مجلة «رسالة الإسلام» هى أهم هذه الوسائل. فى الحقيقة، ارتبط تاريخ الجمعية ومسارها، إلى حد كبير، بتاريخ المجلة ومصيرها. أقامت الجمعية علاقات متفاوتة القوة مع عدد من العلماء والكتاب وأهل الرأى، السنة منهم والشيعة، لاسيما فى مصر ولبنان والعراق، وقد ساهم أغلب هؤلاء فى الكتابة لمجلة «رسالة الإسلام». ولكن ما إن تولى مشيخة الأزهر الشيخ المحافظ محمد الخضر حسين حتى فترت علاقة الجمعية بالأزهر. قام الشيخ محمد الخضر حسين بتعيين الكاتب والصحافى محب الدين الخطيب، المعروف بتوجهاته السلفية وعدائه للشيعة، رئيساً لتحرير مجلة الأزهر الرسمية، الذى سرعان ما حول المجلة إلى منبر مناهض ومعارض لمشروع جمعية التقريب كله.

فى ١٩٥٨، أصبح الشيخ محمود شلتوت، أحد العلماء المرتبطين بفكرة التقريب منذ انطلاقها، شيخاً للأزهر. وقد بادر شلتوت مباشرة إلى استبدال أحمد حسن الزيات بمحب الدين الخطيب فى تحرير مجلة الأزهر؛ وكان الزيات معروفاً بتأييده فكرة التقريب. وهكذا، ومرة أخرى، تغيرت حظوظ الجمعية إلى الأفضل. وقد استطاعت الجمعية، عبر الشيخ شلتوت، تحقيق واحد من أهم إنجازاتها على الإطلاق. ففى عدد من المقابلات الصحفية التى أجريت مع شيخ الأزهر فى النصف الأول من ١٩٥٩، أكد الشيخ شلتوت على وجهة النظر التقريبية بين السنة والشيعة. ولكن الخطوة الهامة أخذت فى مقابلة أعطاها شلتوت لصحيفة «الحياة» اللبنانية، نشرت فى ٧ يوليو/ تموز ١٩٥٩. وقد تناولت الفقرة الأبرز من حديث الشيخ شلتوت: ١- أن الإسلام لا يجبر مسلماً على الالتزام بمذهب معين. فلكل مسلم الحق فى اتباع أى من المذاهب الفقهية التى انتقلت إلى المسلمين بالطرق الصحيحة، والتى سجلت قواعدها الفقهية كتابة. ويمكن للمسلم الذى يتبع أياً من هذه المذاهب الانتقال إلى اتباع مذهب آخر، بدون أن يتعرض للوم. ٢- فيما يتعلق بشئون الشريعة الإسلامية، يجوز للمسلم التعبد طبقاً للمذهب الجعفرى، المعروف بالمذهب الشيعى الإمامى، تماماً كما يتعبد طبقاً لأى من المذاهب السنية.

استبطن موقف شلتوت مؤثرات سلفية- إصلاحية وقناعة عميقة بمشروع التقريب. والحقيقة أن الأغلبية العظمى من العلماء السنة المؤيدين لفكرة التقريب، من المراغى إلى مصطفى عبد الرازق، كانوا علماء سلفيين- إصلاحيين. ومن جهة أخرى، فإن أشد الأصوات المناهضة للتقريب، مثل محب الدين الخطيب، كانت هى الأخرى أصواتاً ذات

الســـــنّـة والشـــيـعـة

خلفية سلفية. وتدلل هذه الظاهرة على التعقيد والتعدد المتزايد فى الساحة الإسلامية السلفية الحديثة. فكما يلاحظ برونر، محقاً، أن ليس هناك من عالم سنى، ناهيك أن يكون هذا العالم شيخاً للأزهر، قد ذهب إلى الحد الذى ذهبه شلتوت فى اعترافه بالشيعة الاثنى عشرية. كان واحداً من الأهداف الأساسية لجمعية التقريب العمل على نقل التشيع من وضع الطائفة إلى وضع المذهب الفقهى الإسلامى. وقد بدا شلتوت وكأنه يمد يد عون قوية ومؤثرة لتحقيق هذا الهدف الكبير. ولكن الأزهر ليس فاتيكان، كما أن الإسلام السنى لا يعترف بسلطة دينية واحدة. وهكذا، فبالرغم من أن موقف شلتوت استقبل بحماس واسع فى أوساط العلماء الشيعة، لم يكن هذا الموقف ملزماً لكل السنة. ولم يكن لهذا الموقف، بالتالى، أن يبدد شكوك العديد من الدوائر السنية تجاه الشيعة الاثنى عشرية.



يضع برونر تركيزاً فائضاً على السياق السياسى (والدوافع السياسية للشخصيات الرئيسية) لحركة التقريب. بالنسبة لبرونر، ارتبطت مبادرات المراغى التقريبية بسعيه لتأمين مقعد الخلافة لمصر؛ وكان جهد القمى التقريبى فى أربعينيات القرن العشرين نتيجة للتطور السريع فى العلاقات بين الأسرتين المالكتين فى مصر وإيران. أما موقف شلتوت غير المسبوق فى تاريخ العلاقات السنية - الشيعية فيقرأه برونر فى سياق الصراع المتصاعد بين مصر الجمهورية (الناصرية) ونظام عبد الكريم قاسم فى العراق، ومحاولة الرئيس عبد الناصر جلب شيعة العراق إلى دائرة التأثير والنفوذ المصرى. وعندما تدهورت العلاقات بين القاهرة وطهران على خلفية من اعتراف شاه إيران بالدولة العبرية فى ١٩٦٠، انهارت جمعية التقريب، كما انهارت مجلتها، وتوقف نشاط الجمعية كلياً تقريباً طوال العامين التاليين. استأنفت الجمعية عملها بعد ذلك، ولكن فى شكل متقطع. ثم بذلت بعض الجهود لإحياء الجمعية من جديد فى مطلع السبعينيات، فى ظل العلاقات الدافئة التى ربطت الرئيس السادات بشاه إيران.

الحقيقة أن تحليل برونر لا يمكن اعتباره صحيحاً إلا فى شكل جزئى؛ إذ أن السياق السياسى لا يوفر تفسيراً لانحدار علاقات جمعية التقريب بالأزهر طوال معظم الخمسينيات، بالرغم من أن الضباط الحاكمين فى القاهرة كانوا (ولأسباب عديدة) مؤيدين لفكرة التقريب. والسؤال الهام الذى كان على برونر أن يسأله هو ما إن كان عبد الناصر سيتمكن من دفع شيخ الأزهر إلى إصدار تصريح يتعلق بالعلاقات السنية - الشيعية، كذلك الذى أصدره شلتوت، لو أن شيخ الأزهر لم يكن مؤيداً لجهود التقريب وعلى اقتناع عميق وحقيقى بها. ليس هناك من شك فى أن السياسة كانت عاملاً مؤثراً فى تاريخ التقريب كله (كما كانت فى عهد نادر شاه)، ولكن المؤكد أن السياسة لم تكن العامل الوحيد؛ بل إنها فى كثير من المناسبات لم تكن العامل الرئيس. عندما لم يتوفر المؤيدون للتقريب لم تستطع السياسة التقدم بالمشروع أو حتى المحافظة عليه.

مع نهاية السبعينيات، وصلت جمعية التقريب إلى آخر الطريق، ولم يعد أحد يسمع بها أو يكترث لتلاشى نشاطاتها. وقد ارتبط معظم الجهد المتعلق بالتقريب بالنظام الإسلامى الشيعى الثورى فى إيران، الذى لم يستطع التقدم بفكرة التقريب، فى شقها الدينى على الأقل، أية خطوات ملموسة، حتى بالمقارنة بإنجازات جمعية التقريب المتواضعة. فى الواقع، أصبحت العلاقات السنية - الشيعية مشروطة، إلى حد كبير، بالكيفية التى رؤيت بها الجمهورية الإسلامية الإيرانية من قبل الدوائر المختلفة فى العالم الإسلامى. ولكن المهم أنه وبالرغم من النكهة الساخرة التى تصبغ تقييم برونر لمسعى التقريب، فالحقيقة أن التقريب الإسلامى لم يكن ليحقق أكثر مما حققته جهود التقريب المشابهة بين الكنائس المسيحية، أو المشاريع المتعددة للحوار الإسلامى - المسيحى. فرضية برونر الأولية هى، ربما، الأكثر فائدة فى مجال تقييم فكرة التقريب: أن الميراث التاريخى للسرديات الدينية أثقل بكثير مما يمكن للمتحدثين باسم الدين التفاوض عليه. وربما كانت التجارب والآمال المشتركة فى الواقع والحياة المعاشة أكثر تأثيراً وأمضى فعالية من جدل العلماء المتخصصين، فى قدرتها على تقريب الطوائف من بعضها البعض. ■

فى أرشيـــــف وجهات نظر

العـــرب
أزمات الديموقراطية.. والهوية.. والتخلف

- سلامة أحمد سلامة: أوراق محترقة.. وأوراق رابحة ـ أكتوبر ٢٠٠١
- حسن حنفى: فى طبائع الاستبداد، ومصارع الاستعباد ـ فبراير ٢٠٠٢
- سلامة أحمد سلامة: تعديل مناهج التعليم بيدنا أم بيد عمرو؟ ـ يونيو ٢٠٠٣
- محمود عبد الفضيل: الديموقراطية.. جهاد المسلمين الأكبر ـ يوليو ٢٠٠٣
- يحيى الرخاوى: تعليم تلقينى وسلطات قامعة ـ نوفمبر ٢٠٠٣
- سلامة أحمد سلامة: الديمقراطية بين التحدى الأمريكى والمراوغة العربية ـ ديسمبر ٢٠٠٣
- حازم الببلاوى: لماذا لا يتكامل العرب اقتصاديا؟ ـ مارس ٢٠٠٤
- سلامة أحمد سلامة: الإصلاح: بين ديمقراطية الأتوبيس والوجبات السريعة! ـ أبريل ٢٠٠٤
- صبرى حافظ: التعليم الجامعى.. أداة للنهضة أم لتكريس التخلف؟ ـ مايو ٢٠٠٤
- محمد سليم العوا: هذه عيوبنا.. الديمقراطية هى الرد ـ يوليو ٢٠٠٤
- رءوف عباس: تَحت القبّة وهْم!! ـ يناير ٢٠٠٥
- هشام شرابى: هذا ما جناه علينا الأبويون! ـ فبراير ٢٠٠٥
- أيمن الصياد: للحرية .. لا لواشنطن ـ فبراير ٢٠٠٥
- خيرى منصور: من وعى التخلف إلى وعى الطوفان! ـ ديسمبر ٢٠٠٥
- سلامة أحمد سلامة: متى يتقاعد السياسيون؟ ـ ديسمبر ٢٠٠٥
- خيرى منصور: البطرياركية العربية والفطام المحرم! ـ أبريل ٢٠٠٦
- بشير موسى نافع: السنّة والشيعة محاولة تقريب «أزهرية» ـ مايو ٢٠٠٦
- إريك هوبسباوم: العرب.. عصور التحول ـ مايو ٢٠٠٧
- عزمى بشارة: المواطنة الديمقراطية فى الثقافة العربية ـ نوفمبر ٢٠٠٧
- أنطوان زحلان: إنه التعليم يا عرب!! ـ يناير ٢٠٠٨
- أبو يعرب المرزوقى: عطالة النخبة! ـ أبريل ٢٠٠٨
- رضوان السيد: الشيعة والسنّة التوتُّر ومداه ومصائره ـ يونيو ٢٠٠٨
- نايف حواتمة: عَرَب اليسَار ـ أغسطس ٢٠٠٨
- ماكس رودينبيك: .... ما بعد ربيع العرب! ـ سبتمبر ٢٠٠٨
- طارق البشرى: تعالوا إلى كلمة سواء..فى البحث عن المشترك ـ فبراير ٢٠٠٩
- فضل مصطفى النقيب: أمرَاء السّلام!.. قراءة فى «نهج الاعتدال العربى» ـ مارس ٢٠٠٩
- كمال عبداللطيف: كيف يفكر العرب؟.. العقلانية النقدية فى الفكر العربى المعاصر ـ يناير ٢٠١٠
- لارى دايموند: فن الاستبداد العربى ـ مارس ٢٠١٠

رأى

الآبـــاء والأبنـــاء العـــرب



■■ كانت وفاة ياسر عرفات (٢٠٠٤) والشيخ زايد (٢٠٠٤) الذى حكم الإمارات العربية المتحدة لمدة طويلة، والملك فهد (٢٠٠٥) استمراراً لتغيير الأجيال الذى بدأ فى ١٩٩٩ . ٢٠٠٠ حين توفى زعماء الأردن، والمغرب، والبحرين، وسوريا فى تعاقب سريع. وفى كل أرجاء الشرق الأوسط فإن الشعوب أصغر سناً، وزعماؤهم السياسيين أكبر سناً، من المتوسط العالمى. وإن الإحلال التدريجى لجيل من النخبة بجيل آخر قد يشكل أحد العوامل الرئيسية فى تقرير ما إذا كان العالم العربى قد يشهد إصلاحاً حقيقياً بالفعل.

فى الوقت الحاضر، تتعايش أربعة أجيال سياسية معاً فى إطار الخريطة السياسية الاجتماعية للمنطقة. ولقد ولدت الزعامات الراحلة أو التى فى طريقها إلى الرحيل قبل عام ١٩٣٥. ولقد ظلت هذه الزعامات ترسم الأحداث فى الشرق الأوسط منذ سبعينيات القرن العشرين.

شب هؤلاء الزعماء عن الطوق وبدءوا يباشرون العمل فى فترة الاستقلال عن الاستعمار. ولقد فُطموا على أفكار جمال عبد الناصر، والقومية العربية، وكان الحدث السياسى الحاسم العصيب بالنسبة لهم هو هزيمة ١٩٦٧ فى الحرب العربية الإسرائيلية. ولقد سعى أفراد هذا الجيل إلى تقوية الزعامة العربية التى من شأنها أن تخلق توازن القوى مع إسرائيل. كما كانوا يؤمنون . أو على الأقل كانوا يلهون . بأشكال من الاشتراكية وسيادة الدولة، ولم ينظروا إلى الديمقراطية أو الحقوق المدنية باعتبارها من الأولويات.

أما أهل الجيل التالى فقد ولدوا فى الفترة ما بين ١٩٣٥ و١٩٥٥، وهم من جوانب عديدة يمثلون جيلاً «وسطاً». ولقد استفاد أغلبهم من النمو الاقتصادى واتساع فرص التعليم علاوة على ازدهار صناعة البترول الذى شهدته فترة سبعينيات القرن العشرين. وفى ذات الوقت، ظلت المشاركة السياسية مقتصرة على الجيل السابق الذى لم تخطر له قط فكرة التخلى عن السلطة طواعية. ومما لا يثير الدهشة أن العديد من أفراد هذا الجيل قد شبوا فى حالة من الشعور بعدم الرضا، فبدأ كثيرون منهم فى البحث عن البدائل الإسلامية للأنظمة السياسية السائدة.

وبدلاً من أن يشارك أفراد هذا الجيل فى تقرير الأحداث فى العقدين أو العقود الثلاثة القادمة، فإن نصيبهم سيكون على الأرجح أن يُنَحَّوا جانباً من قِبَل الجيل التالى ممن ولدوا فى الفترة ما بين١٩٥٥ و١٩٧٥. وهذا هو الجيل الذى ينتمى إليه الرئيس بشار الأسد فى سوريا، وملك الأردن عبد الله، ومحمد السادس ملك المغرب. ويطلق بعض الناس على هذا الجيل «جيل الأبناء» أبناء الزعماء الذين قادوا دولهم لعقود من الزمان.

لم يتأثر أبناء هذا الجيل كثيراً بالحروب العربية الإسرائيلية أو بالصراع بين الشرق والعرب. لكن ثقافتهم السياسية تضمنت بدلاً من ذلك حرب الخليج فى عام١٩٩١، وعملية السلام بين العرب وإسرائيل التى شهدتها مرحلة تسعينيات القرن العشرين، كما عاصروا الأزمات التى تعرضت لها هذه العملية وانهيارها فى النهاية. ويعتبر مروان البرغوثى زعيم حركة فتح فى الضفة الغربية . السجين الآن . ممثلاً لهذه المجموعة مثله كمثل زعيمى سوريا والأردن.

وأبناء هذا الجيل أكثر اطلاعاً على أفكار العولمة والإصلاح الاقتصادى من اطلاعهم على الأفكار الاشتراكية والثورية. وباستثناء أبناء فلسطين فهم لم يعرفوا دولهم إلا مستقلة ومستقرة نسبياً. أما فى المناطق الفلسطينية، فإن جيل الانتفاضتين (الأولى والثانية) من الأرجح أن يكون هو الجيل المؤسس.

لكن المجموعة الرابعة هى التى تؤكد على أهمية قضايا الأجيال فى العالم العربى. وذلك لأن الأجيال الثلاثة السابقة حتى إذا اجتمعت فإنها تشكل بالكاد ثلث تعداد العالم العربى بالكامل. فإن حوالى٦٠ ٪ من العرب تقل أعمارهم عن عشرين عاماً، و٧٠٪ منهم تقريباً تقل أعمارهم عن ثلاثين عاماً.

وهذا الأمر يثير تساؤلاً مهماً: ما الذى سيحدث لهذا الجيل الناشئ من الشباب إذا ما تشبث أفراد الجيل الحالى المقدم على تولى مقاليد الحكم بالسلطة كما فعل جيل مبارك والأسد والملك حسين؟

يشكل الجيل السياسى المتمثل فى بشار الأسد، والملك عبد الله، وجمال مبارك صورة أقل تماسكاً من صورة الزعامات الراحلة، التى تميز عدد كبير من أفرادها بخلفية عسكرية، والتى كان الكثير من مساعديهم والمتعاونين معهم من المهندسين والموظفين المدنيين.

يتميز الجانب الاجتماعى المهنى للنخبة الجديدة بالاتساع. فمن الشائع أن نجد بينهم رجال الاقتصاد، ورجال البنوك، ورجال الأعمال، علاوة على خبراء التكنولوجيا والاتصالات. وهناك أيضاً رجال سياسة أكثر تقليدية :من الشخصيات البارزة الذين يرون أنهم يمثلون مصالح اجتماعية واقتصادية خاصة، وأنهم ليسوا كالتكنوقراط الذين لا تمثل السياسة بالنسبة لهم أهمية كبيرة.

يتميز أفراد النخبة الجديدة من الزعامات عن أسلافهم، فى كثير من الجوانب، بالعالمية أو التحرر من قيود القوميات؛ كما يتمتعون فى المتوسط بمستوى تعليمى أعلى؛ ومنهم من حصل على درجات علمية من الخارج. كما يلعب النساء أيضاً دوراً أكبر إلى حد ما.

مما لا شك فيه أن التطورات الجارية فى المغرب، والبحرين، والأردن تشير إلى أن هذا التغيير فى الحرس القديم قد يساهم فى تليين البنية السياسية الصلبة والسماح بمزيد من المشاركة. لكن التغيير فى الأجيال لا يعنى بالضرورة أن يصاحبه إصلاح اقتصادى وخطوات نحو التحرر السياسى. ولنتأمل كوريا الشمالية تحت قيادة كيم جونج إيل ابن كيم إل سونج.

والحقيقة أن الخبرة لاتجعلنا نفترض بالضرورة أن اتباع أسلوب حديث فى التعبير، والاستعداد لتحرير الاقتصاد، والمطالبة بالتطوير التكنولوجى قد تترجم إلى فرصة ملائمة لترسيخ الديمقراطية. وقد يكون الأقرب إلى الواقعية أن نتوقع أن تستغل النخبة العربية الجديدة المؤسسات الاستبدادية القائمة فى بلدانهم، للتغلب على أى مقاومة لأجنداتهم الاقتصادية، ولترسيخ سلطانهم الذى اكتسبوه حديثاً.

وهذا المسار لا يمكن أن يخلو من المجازفات والعقبات. فبدون زيادة ملموسة فى فرص المشاركة السياسية، بما فى ذلك إقامة انتخابات تنافسية حقيقية، فإن الفجوة بين الفئة الغالبة من السكان الشباب وبين النخبة الحاكمة ذات القاعدة الضيقة ستزداد اتساعاً. ومثل هذا الجمود السياسى المستمر يترك عدداً هائلاً من شباب العرب فريسة لمغريات الإيديولوجيات المتطرفة، بينما يدفع أفضل الشباب وأكثرهم ذكاءً وتألقاً إلى البحث عن الحظ والنجاح فى مكان آخر. ■

فــولــكــر بــيــرثــيــس

Volker Perthes

Volker Perthes is Chairman and Director of Stiftung Wissenschaft und Politik, the German Institute for International and Security Affairs, Berlin

ترجمة: مايسة كامل

وجهات نظر

الكتب

فى الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 12 - Issue 144 - January 2011

مجلة شهرية العدد ١٤٤ - السنة الثانية عشرة - يناير ٢٠١١ - الثمن عشرة جنيهات

2010/2001

العالم

















عدد خاص
2

السنة الثانية عشرة
العدد ١٤٤
يناير ٢٠١١

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى



رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

إبراهيم الهضيبى.. باحث مصرى
أمارتيا سن.. أستاذ بجامعة هارفارد، وحاصل على جائزة نوبل فى الاقتصاد ١٩٨٨
باتريشيا جاتسبى.. باحثة فى شؤون الصحة العامة والأوبئة
جاريث إيفانز .. رئيس المجموعة الدولية للأزمات، ووزير سابق للخارجية فى استراليا
جوشوا ووكر.. باحث فى العلاقات الدولية ـ واشنطن
جون بول فيتوسى .. مدير مركز البحوث الاقتصادية ـ باريس
جيفرى جولدبرج ..صحفى أمريكى متخصص فى شؤون الشرق الأوسط
جيفرى واسرستروم .. أستاذ التاريخ بجامعة كاليفورنيا ـ ايرفين
خالد منصور.. مستشار إعلامى بالأمم المتحدة
ستيفن والت.. أستاذ العلاقات الدولية بجامعة هارفارد
السيد أمين شلبى.. الرئيس التنفيذى للمجلس المصرى للشؤون الخارجية
فاطمة أيوب .. مسؤولة السياسات فى معهد المجتمع المفتوح
كامل تريشى.. أستاذ جامعى للعلاقات الدولية ـ اسطنبول
مايكل ماسينج.. كاتب فى نيويورك ريفيو أوف بوكس
ناتالى توشى.. باحثة فى العلاقات الدولية بمراكز بحثية فى روما وبروكسل وواشنطن
نيكولسون بيكر.. روائى وكاتب أمريكى
هنرى ميللر.. المدير المؤسس لمركز التكنولوجيا الحيوية، بإدارة الأغذية والعقاقير الأمريكية

رسوم العدد

عماد حجاج
Petar Pismestrovic - Kerry Waghorn - Peter Lewis - Vince O'Farrell - Taylor Jones - Deng Coy Miel - Rainer Hachfeld - Peter Broelman





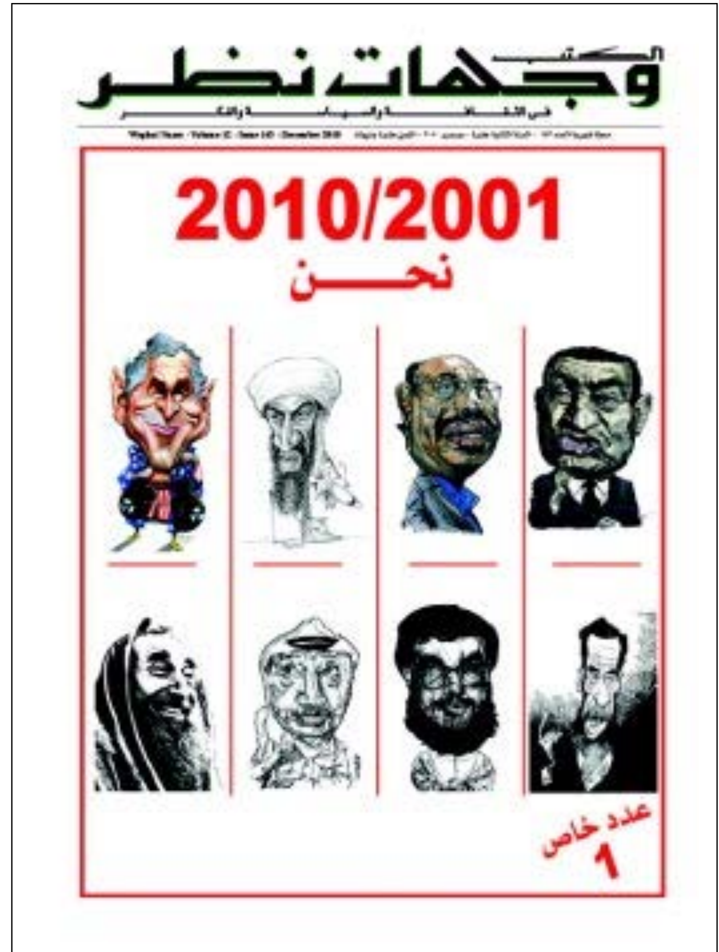
المراسلات:
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

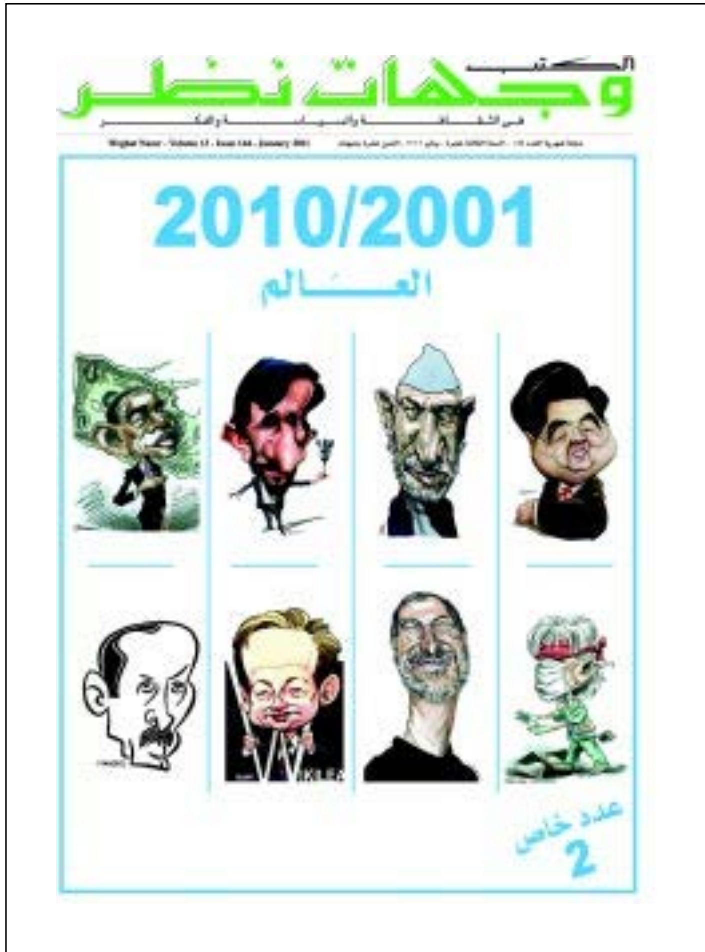
الاشتراكات:
السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:
فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١,٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١,٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

2010 / 2001





نحن... والعالم

■■ ... كنا فى «وجهات نظر» قد قررنا أن نخصص العدد الماضى (ديسمبر ٢٠١٠) الذى صدر فى نهاية عقد مضى، وكذلك العدد الحالى (يناير ٢٠١١) الذى يصدر فى بداية عقد قادم، للنظر فيما جرى فى العقد الأول من القرن الأول بعد العشرين؛ شخصياته.. وأحداثه. مشاهده، وحكاياه.. وأسئلته التى سيلصقها على بوابة عقد جديد.

فى العدد الماضى قرأنا لهيكل كيف أننا «لسنا أمام صراع حضارات متعددة يمكن أن تتصارع أو تتصالح، بل هى حضارة واحدة صب فيها الجميع مازاد عندهم أوقات الفيض، وسحبوا منها مالزمهم أوقات الجفاف..» وقرأنا حوارا حول الموضوع ذاته أجرته «وجهات نظر» مع فرانسيس فوكوياما صاحب «نهاية التاريخ».

ثم كان أن ناقشنا قضايا عربية مختلفة:

العراق: من الاستبداد.. إلى الاحتلال.. إلى المجهول.

السودان: جناية التاريخ والجغرافيا

فلسطين: ٦٠ عاما على النكبة.. ثم ماذا بعد؟

عقاب غزة: حين تمطر السماء جحيما.

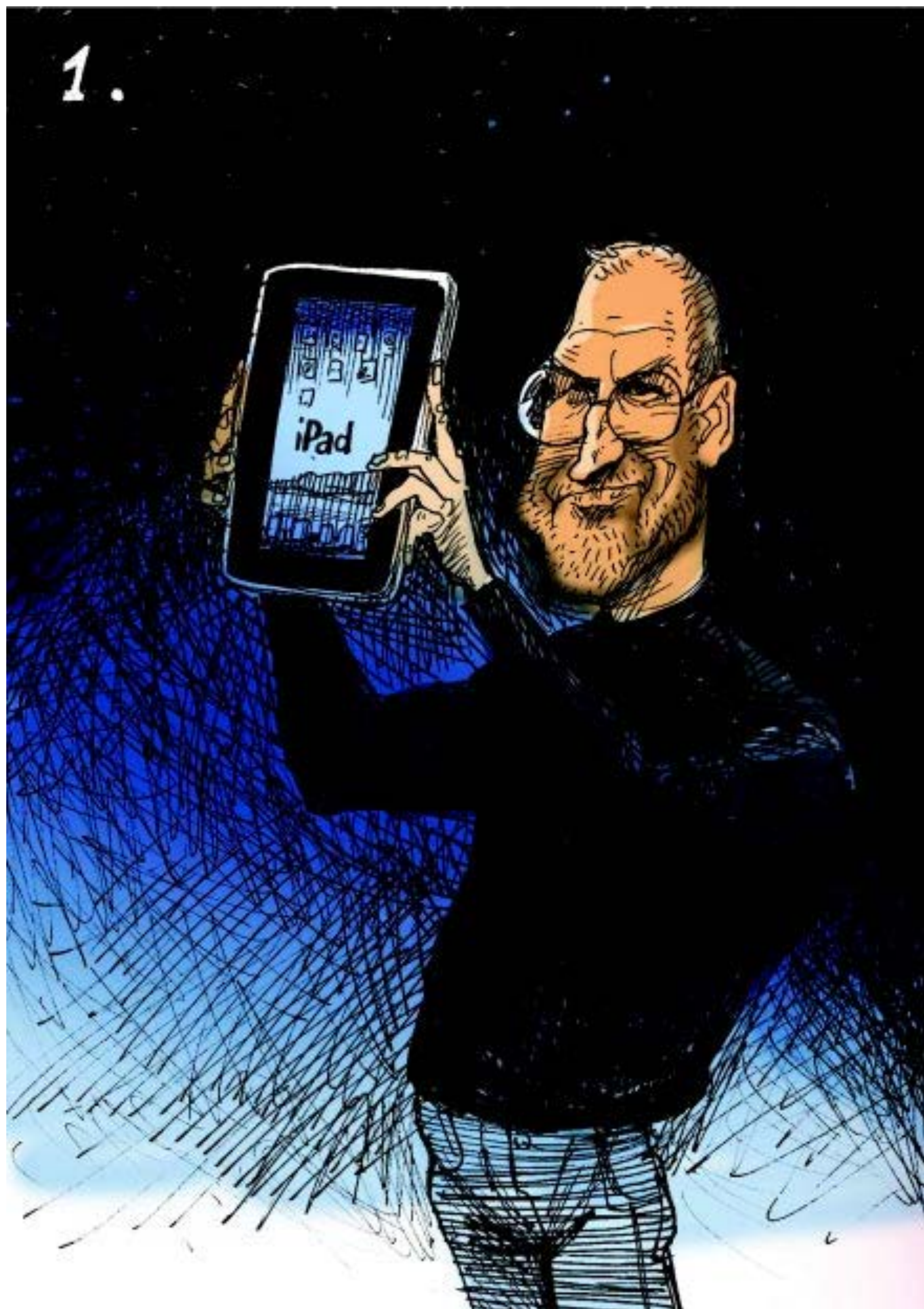
حزب الله: الرقم العربى الصعب.

مصر: أسئلة الديموقراطية.

النيل: مياه «جديدة» فى النهر «القديم».

العرب: أزمات الهوية والديموقراطية.. والتخلف.

وفى هذا العدد ننظر إلى الفضاء الذى يتسع حولنا، إقليميا ودوليا، وفى الحالتين حاولنا أولا أن نتذكر، ويتذكر معنا قارئنا كيف نظرنا فى «وجهات نظر» إلى ماجرى (فى حينه)، ثم كيف ينظر الآخرون من ثقافات واتجاهات مختلفة إلى القضايا ذاتها. ■



Steve Jobs by Petar Pismestrovic ©

iPad.. Twitter.. Kindle.. iPhone.. YouTube.. Wikileaks.. Google Books.. Wikipedia.. Facebook

إنه حقا عالم جديد

دفـــاعـــا عـــن

«Wikileaks»

ســــــتـيـفـن م. والــــــــت

Walt .Stephen M

■■ كتب جورج أورويل ذات مرة يقول: «في عصر الخداع الكوني قول الحقيقة فعلٌ ثوري.» تأملتُ هذا القول بينما أحاول تبيّن رد فعلي تجاه أحدث مجموعة تسريبات يقدمها موقع «ويكيليكس (Wikileaks)»، وتتكون بصورة أساسية من تقارير قتالية مفصلة من العراق. وسؤالي هو: هل من الأفضل لنا أن تكون هناك منظمة تستغل الإنترنت لكشف المعلومات التي قد يفضل مسئولو الحكومة إبقاءها طي الكتمان؟

من ناحية، لا يثيرني أن أرى أفراداً داخل بيروقراطية الأمن القومي يضعون أيديهم على عملية التصنيف ثم يقررون تسريب قدر كبير من المعلومات. وبقدر ما أبدى إعجابي بشجاعة واحد ممن أفشوا معلومات مثل «دانيال إلزبيرج»، فإن الوكالات الحكومية لا يمكن أن تعمل دون قدر معين من النظام، وهناك على الدوام خطر قيام أحدهم بتسريب مادة ليست محرجة على المستوى السياسي وحسب بل تتضمن معلومات قد تضعنا أمام خطر أكبر. كذلك هناك قلق واضح من أن المعلومات المسربة قد تكشف هويات الأشخاص الذين قدموا لنا العون في أماكن مثل العراق وأفغانستان (رغم أن وزير الدفاع روبرت جيتس أقرَ بأن الإفشاء السابق من قبل «ويكيليكس» لم يكشف في الواقع عن معلومات أو أساليب حساسة). ومع ذلك أعتقد أنه يجب التكتم على بعض الأسرار، وذلك الاعتقاد يجعل من الصعب عليَ أن أرى نشاطات «ويكيليكس» بوصفها منفعةً خالصة.

لكن ثمة اعتبارات عديدة أخرى تتجاوز في أهميتها تلك المخاوف، وتفضي بي إلى استنتاج فحواه أن «ويكيليكس»، بقياس كل الاعتبارات، تؤدي خدمة ثمينة. بدايةً، الغضب الرسمي من نشاطات «ويكيليكس» غضب أكثر من زائف، لاسيما ونحن على علم بتواتر تسريب كبار المسئولين لمعلومات سرية عندما يوافق هذا الإجراء أغراضهم السياسية. فإذا كان القائد السابق للجيوش الأمريكية في أفغانستان «ستانلي ماكريستال» قد تمكّن بنجاح من تقييد يد الرئيس أوباما من خلال تسريب تقرير سري يطالب بمزيد من القوات، فلمَ لا يستخدم

Stephen Martin Walt: is a professor of international affairs at Harvard University's John F. Kennedy School of Government. Among his most prominent works are *Origins of Alliances and Revolution and War*: He coauthored *The Israel Lobby and U.S Foreign Policy* with John Mearsheimer

ترجمة: عاطف سيد عثمان



آخرون «ويكيليكس» لنشر معلومات اعتقدوا أنه ينبغي للعامة أن يطّلعوا عليها؟

ومادام كبار المسئولين يحاولون دفع أجنداتهم السياسية بتسريب معلومات سرية لصحافيين متعاطفين فمن الصعب بالنسبة لي أن أشعر بغضب حينما يقرر مرؤوسوهم أن المعلومات التي يبقونها سراً تستحق أن تعرض على جمهور أعرض.

علاوة على ذلك، نحن نعيش في عصر «الخداع الكوني» حيث من الصعب الوثوق في أي شيء يخبرك به أحد المسئولين في قطاع الأمن القومي. منذ اللحظة التي تخلقت فيها فكرة الحرب على العراق، على سبيل المثال، وكبار المسئولين الأمريكيين ينشرون قدراً هائلاً من الخداع والمعلومات المضللة - افتُرض أنها قائمة على معلومات استخباراتية في غاية السرية - لإقناع الشعب الأمريكي بأن «صدام حسين» يمثل تهديداً رهيباً للأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية. ولم يكن هؤلاء أول مجموعة قادة يكذبون على الشعب الأمريكي. ولقد استمر نسج الأكاذيب أثناء الحرب كما أوضح الرئيس السابق لمكتب واشنطن بوست في بغداد «إلين نيكماير». (للكاتب «جلين جرينوالد» مقالات حول هذا الموضوع تستحق القراءة).

وكما وثّق كل من «إريك ألترمان» و«جون ميرشايمر» في كتابيهما[1]، يتضح من السجل التاريخي أن كل الحكومات تكذب لأسباب متنوعة. لكن ما لم تكن مستعداً لأن تصدق أن الأشخاص في مواقع السلطة دائماً على حق وأن أكاذيبهم بالتالي مبررة (وإذا كنت تعتقد ذلك، فأنت لم تكن منتبهاً)، فينبغي عليك أن تشجع أي آلية من شأنها أن تخرج المزيد من الحقائق للنور.

من الواضح بصورة متزايدة كذلك أن دافعي الضرائب الأمريكيين يموّلون منظومة شاسعة من النشاطات السرية لا يعرفونها إلا بصورة مطموسة، والتي طُلب منهم أن يسلّموا بأهميتها، بشكل تام تقريباً، دون مساءلة. فإذا ما تم توجيه بعض هذه النشاطات توجيهاً خاطئاً فلن نتعثّر في دفع الفاتورة وحسب بل سندفع ثمن نشاطات يمكن أن تجعلنا أقل أمناً.

إضافة إلى ذلك، إذا لم يكن لدينا علم حقاً بالنشاطات التي تنخرط فيها حكومتنا (أو ذلك الجيش المتنامي من الشركات الخاصة)، فلن يفهم الأمريكان لمِ لا تحبنا دول أخرى كثيراً. إذا لم يكن لدينا علم بشأن كل الأفعال الفاسدة التي نرتكبها فسوف نظن أنهم يكرهوننا بسبب «ما نحن عليه وما نمثله» وليس «ما نفعله.» وكما سجلتُ هذه الملاحظة من قبل، لا ينبغي أن يكون العداء العربي أو الإسلامي للولايات المتحدة الأمريكية لغزاً بينما نرى السياسات التي انتهجتها الولايات المتحدة الأمريكية تجاه العديد

من هذه المجتمعات خلال العقود العديدة الماضية. هل تتوقع حقاً من العراقيين أن يشعروا بالامتنان للولايات المتحدة الأمريكية أنها غزت بلادهم وأشعلت حرباً أهلية قضى فيها مئات الآلاف وأصبح الملايين بسببها لاجئين؟

لقد اعتقد الآباء المؤسسون أن الفصل بين السلطات ووجود صحافة مستقلة من شأنهما أن يضمَنا المساءلة، لكن الأمر كما لو أن الكونجرس يمارس سهواً صارماً على كل هذه النشاطات، وينخرط أعضاؤه فى مجادلات حامية بشأن مزايا التدخل العسكرى، أو يدفع هذه الإدارة أو الإدارة السابقة لتبرير ما تفعله فى الخارج. كذلك لم ينجح الإعلام السائد تماماً فى اكتساب الإعجاب خلال العقد الفائت، برغم وجود بعض النقاط المضيئة الفردية التى تتلاشى فيما بعد ليبتلعها ثقب الذاكرة. ويعلم الله أن عدداً قليلاً، إن وجد، من بين مهندسى كوارثنا الحديثة فى السياسة الخارجية قد وقفوا مسئولين بأى طريقة ذات معنى.

ولأننى واقعى فإننى أعتقد أن البشر على الأرجح يسيئون التصرف حينما يظنون أنه يمكنهم التستر على ما يفعلون بعيداً عن نظر الآخرين. ولهذا السبب أعتقد كذلك أن المجتمعات الديمقراطية تتبنى على الأرجح سياسات أفضل حينما يكون هناك وفرة فى المعلومات وحينما لا يتمكن مسئولو الحكومة من تحديد أىّ الحقائق متاحة للعامة وأيها غير متاح. ولأن الوظيفة الأساسية لموقع «ويكيليكس» أن يتيح معلومات أكثر بشأن القضايا التى تهمّنا جميعاً فإننى أخلص إلى أن ما يقوم به موقع «ويكيليكس» - مع أخذ كل شىء فى الاعتبار - عملٌ مفيد.

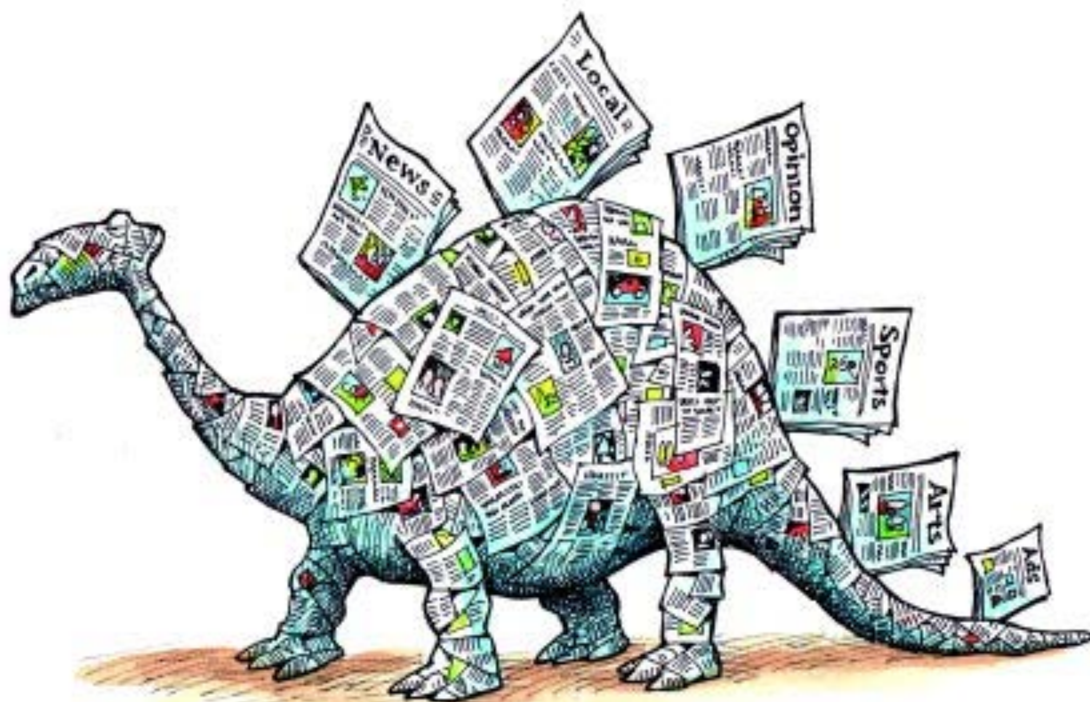
وإذا كانت الولايات المتحدة الأمريكية تتمتع بنفوذ واسع تحت تصرفها فإننى أريد أن يعرف المسئولون الذين يديرون السياسة الخارجية وسياسة الدفاع أن ما يقومون به من المحتمل أن يخضع للتحقيق العلنى. إننى أريد منهم أن يفكروا مرتين بشأن السياسات التى ينتهجونها: ما إذا كان من الممكن الدفاع عنها على أساس أخلاقى أو عملى. أتمنى لو أننا عرفنا الحقيقة بشأن حادث خليج تونكين فى عام ١٩٦٤ والحقيقة بشأن أسلحة الدمار الشامل لدى صدّام حسين (وعلاقاته غير الموجودة بتنظيم القاعدة) قبل غزونا للعراق. وأنا سعيد حقاً أننا نكتشف المزيد بشأن حرب العراق الآن لأن هذه المعرفة ربما تساعدنا على تجنب مآزق مشابهة فى المستقبل. وإذا لم يخبرنا المسئولون المنتخبون، وممثلوهم المعينون، والإعلام المسيّس والمستوعَب بما لنا حق فى معرفته فإننى أعتقد بأننى سعيد بأن «ويكيليكس» سيفعل.

حاشية: نقيضاً لما يراه زميلى «بيتر فيفر»، لا أعتقد أن الوثائق توفر تلك المساعدة الكبيرة للمدافعين عما يسمى «زيادة عدد القوات الأمريكية (surge)». ما من أحد ينكر أن العنف انحسر بعد البدء فى زيادة القوات، وأولئك الذين يقلّلون من شأن تأثير زيادة القوات يقرّون بأن القوات الإضافية والتكتيكات الحديثة لعبت دوراً ما فى هذا التطور. كذلك تؤكد التقارير الحديثة أن التغيرات داخل المجتمع العراقى كانت أيضاً مهمة: انخفضت نسبة العنف لأن العراقيين كانوا منهكين من الحروب ولأن التطهير الاثنى السابق محا المناطق الطائفية المختلطة حيث اندلعت أعمال العنف فى وقت سابق.

تؤكد التقارير الحديثة كذلك أن إيران كانت تتدخل فى العراق وتساند بعض المتمردين. ما من أخبار جديدة فى هذا بالطبع، وسلوك إيران ليس مدهشاً بالنظر إلى اهتمامها البيّن بمحاولة التأثير فى صورة العراق ما بعد صدام حسين. علاوة على ذلك، ليست الولايات المتحدة الأمريكية فى موضع يسمح لها بأن تتهم أى طرف بـ «التدخل» فى شئون العراق بالنظر إلى ما بدأناه فى عام ٢٠٠٣. لكن هذا «الكشف» غير المدهش جداً لا يعنى أن زيادة القوات كانت سياسة ناجحة، لأنها لم تضع حداً للتأثير الإيرانى فى العراق بقدر ما أفضت إلى مصالحة سياسية بين الطوائف العراقية المتعددة (الذين لا يزالون غير قادرين على تشكيل حكومة). فبمجرد أن خلعت الولايات المتحدة نظام صدام حسين البعثى المهيمن بأغلبية سُنّية كان من المؤكد أن شيعة العراق سيكونون أقوى، وأن تأثير إيران سيزيد. (شىء سيئ أن إدارة بوش لم تفكر بشأن هذه الاحتمالية قبل الحرب)! لم تقلب سياسة زيادة القوات ذلك التوجه، وهكذا فالكشف الجديد لا يُظهر أن الأمركان أكثر من مجرد نجاح تكتيكى تظل ثماره على المدى الطويل محل شك كبير. ■

هـــــــوامـــــــش:

(1) **When Presidents Lie: A History of Official Deception and Its .Consequences**, by Eric Alterman Viking Adult; (1st edition,2004).
Why Leaders Lie: The Truth about Lying in International Politics, by John J Mearsheimer (Dec 2010,. Not Yet Published)



حبر "الأيام الخوالى"

مايكل ماسينج
Michael Massing

انهار توزيع الصحف والجرائد.. وتراكمت الديون والخسائر، وأصبح كثير من الصحفيين التقليديين بلا وظيفة... ولكن انتبهوا... هل رأيتم ماجرى فى إيران؟

■■ وفقاً لمدونة Paper Cuts فإن ١٥٩٧٤ عاملا بالصحف خسروا وظائفهم فى عام ٢٠٠٨ وفى النصف الأول من عام ٢٠٠٩ انضم إليهم ١٠٠٠٠ آخرون؛ قد يكون هذا رقما مفجعا ولكنه واقع لحوالى ٢٦٠٠٠ مراسل، محرر، مصور، كاتب عامود حول شئون العالم، ومحلل سياسى أو اقتصادى، وصحفيين ممن كشفوا قضايا فساد، وآخرين يكتبون عن الثقافة والترفيه والرياضة... فقدوا وظائفهم ويواجهون هذا الواقع.

لقد تقلصت عضوية «اتحاد المراسلين الحربيين والمحررين» من ٦٠٠ عضو فى عام ٢٠٠١ إلى ١٠٠ عضو حالياً. وفى ابريل، أغلقت صحيفة Cox Newspapers مكتبها فى واشنطن مما ادى الى نقص فى عدد المراسلين الذين يغطون اخبار الحكومة الفيدرالية.

أمـــا Boston Globe، وThe Baltimore Sun، وThe Philadelphia Inquirer، وNewsday كلهم اضطروا لإغلاق مكاتبهم الخارجية لتقليل النفقات؛ أما عن مجموعة McClatchy التى تضم صحيفة The Sacramento Bee، وThe Charlotte Observer، وأكثر من عشرين صحيفة يومية توزع فى أنحاء الولايات المتحدة لا تستطيع تحمل نفقات مكاتبها فى جنوب آسيا أو الحفاظ على مراسل دائم لها فى المكسيك او حتى بغداد، على الرغم من العمل الرائع الذى قام به مراسلو هذه المكاتب. فى «الأيام الخوالى» كان من الممكن الاستغناء عن المراسلين ولا تتغير القدرة على تغطية الأخبار، هذا ما كتبه المحرر الرئيسى فى مجموعة McClatchy الصحفى Mark Seibel ولكنه الآن يعترف أن هذه التقليصات الأخيرة فى الميزانية وما ترتب عليها من تسريحات قد أثرت عليهم وبشدة مهنياً.

فى اوائل هذا العام تحدث رئيس تحرير صحيفة New York Times الصحفى Bill Keller؛ عن «تناقص منتج صحافة الجودة» وتعبير «صحافة الجودة» هنا يقصد به هذه الصحافة التى يقوم بها مجموعة من المراسلين الذين تتوافر لديهم الخبرة، للذهاب إلى مكان الحدث، والتحدث مع شهود العيان، والبحث فى الوثائق والملفات، والتواصل مع مصادره ليؤكد الخبر مرة واثنتين؛ وعادة ما يكون هذا المراسل مدعوماً بمحرر يطبق أعلى قواعد المهنية الصحفية.

ولكن Keller يرى أن هذه صحافة مكلفة وخطرة فى بعض الأحيان، وأن الممارسين التقليديين لهذه الحرفة خاصة فى الصحف يتم تسريحهم أو المؤسسات بأكملها تعلن إفلاسها. وهذا ادى بالضرورة إلى انتعاش الاتصال من خلال الانترنت الملىء بمحاولات صحفية ولكن فى أغلبها لا ترقى للمهنية المطلوبة.

هذا الاتجاه الذى يعد Keller من الجوقة التى تتغنى به والذى يقلل من شأن الانترنت وقدرته على ممارسة الصحافة وقدرة المدونين على التعليق على الأحداث.

ولكن هذا الاتجاه يواجه نقدا لاذعا على يد المدونين أنفسهم، David Simon المراسل السابق فى جريدة Baltimore Sun ومبتكر The Wire فى مؤتمر عن «مستقبل الصحافة» فى مجلس الشيوخ أعلنها «الإنترنت وسيلة رائعة».

ونفى عنهم صفة الطفيلية التى يتهمهم بها تيار الصحافة التقليدية تحت دعوى انهم يأخذون الأخبار من الصحافة جاهزة ويعلقون عليها دون إضافة جديد؛ ولكن المدونين يرون أن اسهاماتهم تتخطى التكرار والتعليق؛ بل تتعدى هذا الدور بأنها مصدر الأخبار، حيث بدأ مستخدمو الانترنت يعتمدونهم بدلاً من الصحف التقليدية.

ولكن بالتأكيد الصورة الطفيلية التى يوضع فيها الانترنت بها شىء من الصحة، لولا جمع المعلومات الذى تقوم به المؤسسات الصحفية كان لكثير من مواقع الانترنت أن تحتضر وتموت من قلة المعلومات. ولكن هذا الادعاء وحده

بترتيب مع:
The New York Review of Books

ترجمة: منة أكرام

وجهات نظر: نوفمبر ٢٠٠٩

يبدو قديماً ودفاعيا؛ حيث إنه فى الأشهر الماضية المنصرمة بدأت مواد أصلية، ومثيرة ومبتكرة على الرغم من فوضويتها فى الظهور على الانترنت.

وهذا ما يسمى «بإعادة اختراع الصحافة» باستخدام الانترنت؛ من خلال تجارب متنوعة فى جمع الأخبار وتقديمها وتوصيلها. وهذا ما يجب أن يفهمه محررو الصحف ليكونوا قادرين على مواجهة هذا التطور والبقاء.

المدونان اللذان يعتبران رائدى هذا المجال هما: Mickey Kaus وAndrew Sullivan. حيث انشأ Kaus مدونته kausfiles سنة ١٩٩٩؛ كما بدأ ËSullivan مدونة The Daily Dish فى عام ٢٠٠٠ ويدونون أيضاً فى The Atlantic.

وهما مازالا يستخدمان نفس الأسلوب الذى نشراه وتميزا فيه، وهى تدوينات قصيرة وحادة تعلق على الأحداث وتقدم وصلات لمقالات وأعمدة رأى ووثائق ومدونات أخرى؛ مما قد يتهم موقعه قبل الظهور فى وسائل الإعلام الجماهيرية.

ولم يكن Sullivan محايداً أو حاول ادعاء هذا، فلقد كان راغباً وبشدة فى سقوط حكومة «أحمدى نجاد»، وفى حين كانت الكثير من وسائل الإعلام مكممة كانت The Daily Dish هى مركز الأخبار من قلب طهران. فأنا عند مشاهدتى لشبكة CNN كنت أتابع واقرأ موقعه، وأقول وأنا واثق أنه وهو جالس على حاسوبه تفوق على شبكة CNN بكل مواردها.

أسلوب Kaus وSullivan الذى يعتمد على «الاختزال والتعليق» هو أسلوب شائع بين المدونين ولكن على مر السنوات طوره البعض وأصبح له أسلوبه الخاص؛ ومن الأمثلة الواعدة هى مدونة (Talking Points Memo) TPM التى بدأها John Marshall سنة ٢٠٠٠ عندما كان محرراً فى واشنطن فى The American Prospect.

بعد خلافات عدة مع زملائه المحررين الشخصية؛ التى تضم TPMDC التى تغطى أخبار العاصمة، وTPMmuckraker التى ينشر فيها تحقيقات، وTPMcafe التى تظهر المشاركات من القراء والمتابعين. إن الانتشار السريع لمدونة Talking Points Memo يوضح تغيراً سياسياً كبيراً حدث على الانترنت.



فى عام ٢٠٠٥ حين كتبت عن «عالم التدوين» blogosphere كان اليمين هو المسيطر وكانت أشهر المدونات اليمينية هى Drudge Report؛ ولكن اليسار الليبرالى هو الاتجاه الصاعد فى الحين الذى وجهت طاقات المحافظين للحديث عبر الراديو.

وفى زيارة مؤخراً لمكتب TPM فى منهاتن، كان المكان به حوالى درزينة من المراسلين الشباب والكتاب و«الموصلين» الاخبارية مثل 60 Minutes وThe New York Times ونشر هذه التحقيقات من خلال هذه المؤسسات حتى وجدت أنه من الضرورى أن يكون لها موقعها الخاص على الانترنت. ولقد تحدث Paul Steiger رئيس التحرير السابق لصحيفة The Wall Street Journal والمدير الحالى للعملية: «إن الشباب المثقف الذكى الذى يجيد التعامل مع الانترنت الذين أعينهم من أمثال Paul Kiel هم كنز حقيقى فبدلاً من قراءة الوثائق الحكومية فقط فهو يبحث على الانترنت ويتصل بمصادره ويصنع الأخبار من مكانه لتدور عجلة الموقع».

من مهام Kiel الترجمة على الانترنت والبحث عن التحقيقات التى قام بها الآخرون وتوصيل هذه التحقيقات والتعليق عليها لإلقاء الضوء عليها وجذب الانتباه الى ما تحتويه من أخبار وآراء. كما خصص Kiel موقعا فرعيا لمتابعة كل الأموال التى تصرفها الحكومة فى واشنطون ولكن

.. إعادة اختـــراع الـــصـــحـــافـــة!

بالطفيلية. ولكن فى اوائل يونيو مثلاً، كتب Sullivan تحت عنوان «أين يقف اليمين المتطرف الآن؟!»:

«شاهدت هذا فى «آسبن» (حيث كنت أحضر مؤتمرا هناك)، حيث يصرح Michael Scheuer أن امل الولايات المتحدة الوحيد هو هجوم كبير يقوم به «أسامة بن لادن» ليمكن الحكومة الأمريكية من اتخاذ الإجراءات اللازمة لحماية مواطنيها، هم يقفون على حافة الجنون ويقتربون منها كل يوم أكثر، هذا هو مكان اليمين المتطرف».

وذيل هذه التدوينة بوصلة لمقطع فيديو عرض على شبكة Fox التليفزيونية يتحدث فيه المحلل السابق فى الاستخبارات الأمريكية Scheuer عن أمله فى أن يقوم «بن لادن» بهجوم على الولايات المتحدة.

قد يكون فى هذا اعتماداً على الصحافة التقليدية دون الاتيان بأى أخبار من قبله ولكن بالقراءة المستمرة لتدويناته فهى تفتح الباب إلى تنويعة من المصادر التى تعبر عن اتجاهه الكاثوليكى - الثيوقراطى - الراديكالى - الليبرالى؛ مما ينتج عنه رؤية خاصة ومختلفة للعالم.

ومثال واضح على ذلك هو ما حدث بعد الانتخابات الإيرانية، حيث أصبح موقعه متابعا حيا ومنبرا لكل: الرسائل الإلكترونية، تحديثات «تويتر»، مقاطع الفيديو على موقع You Tube، الصور من طهران وبعضها كان يظهر على حول تأييده لـBill Clinton وسياسات التجارة الحرة بدأ فى العمل بشكل مستقل وبدأ التدوين. وقد استلهم من أسلوب Kaus وSullivan ولكنه اضاف من المحرر بداخله. فلم يقتصر الأمر على التعليق على الأخبار بل كشفها فى بعض الأحيان.



ومن اوائل هذه الأخبار التى فجرها هى واقعة التعليقات العنصرية التى أطلقها Trent Lott حول Strom Thurmond التى كتب عنها فى أكثر من تدوينة مما ساهم فى سقوط Lott. مع اتساع قاعدة القراء لمدونة TPM أصبح Marshall قادراً على جذب المعلنين وأصبح لديه طاقم من الموظفين يساعده فى الكشف عن المزيد من الأخبار. وأيضاً بدأ القراء بتزويده بمعلومات عن الأحداث السياسية فى مجتمعاتهم ومن خلال هذه الرسائل استطاع Marshall الكشف عن نمط اتبعته إدارة الرئيس «بوش» فى طرد المحامين الأمريكيين عبر البلاد. تدويناته الغاضبة ساعدت فى لفت انتباه الصحافة القومية للموضوع مما ساعده فى الحصول على جائزة George Polk.

اليوم موقع TPM من أكثر المواقع السياسية زيارة على شبكة الانترنت بالإضافة إلى مدونة John Marshall الذين يقومون بعمل وصلات لمواقع أخرى؛ يعملون بجد أمام حواسيبهم. أما Marshall الرجل الأربعينى صاحب الوجه المحايد فقد شرح لى انه يقضى معظم يومه فى قراءة الرسائل الإليكترونية. ويقول عنها: «تصلنا رسائل الكترونية من حيث الحجم والجودة أكثر مما يصل الى صحيفتى The New York Times وThe Washington Post». وهذا يتيح لنا فرصا للعمل أكثر من أى صحيفة بتعدد مصادرنا، التى فى أغلبها تكون مصادر محترفة ممن اعتادوا الاتصال بالمراسلين واعطاءهم المعلومات. معلوماتنا تأتى أيضاً من الطبقة الواسعة التى لا تعمل فى الصحافة السياسية لذا فإذا حدث اى شىء فى أى مكان أسمع عنه.

وعلى مر السنين ساعد Marshall فى تدريب العديد من المدونين الذين اخذ مهاراتهم إلى مؤسسات كبيرة، مثلاً Paul Kiel الذى قضى عامين فى TPM ثم عمل فى ProPublica وهى وحدة تحقيقات الكترونية تدعمها منح تقدر بالملايين من المستثمر العقارى Herbert Sandler وآخرين. ومنذ بداية ProPublica عام ٢٠٠٨ وهى تقوم بتحقيقات هائلة تكشف العديد من الفضائح، عن تورط الأطباء فى عمليات التعذيب حتى تلوث مياه الشرب من استكشاف الغاز الطبيعى. فى البداية قامت ProPublica بعمل تحقيقات مشتركة مع مجموعة من المؤسسات الموقع مازال قيد البناء لتجميع ومنطقة كل هذه الأرقام والاحصاءات والرسوم البيانية وهذا ليس بالعمل السهل ولكنه تجربة مهمة ومنتظرة لتبين جدوى عمل تحقيقات إخبارية على الانترنت.

Kielهو مثال عن جيل جديد هجين بين الممارسة الصحفية التقليدية واستخدامات الانترنت المتعددة ومن هذا الجيل أيضاً Matthew Yglesias وهو مدون يبلغ من العمر ٢٨ عاماً بدأ التدوين وهو طالب فى «هارفارد» ويكتب الآن عن السياسات الأمريكية فىThink Progress وهى مدونة «مركز للتقدم الأمريكى» Center for American Progress.وأيضاً Ross Douthatالذى بعد تخرجه من «هارفارد» فى سنة ٢٠٠٢ عمل فىThe Atlanticمحرراً ومدوناً والتحق هذا العام بصحيفة The New York Times ككاتب عمود. وعلى قائمة هذا الجيل أيضاً Ezra Kleinالذى بدأ التدوين حين كان طالبا فى جامعة كاليفورنيا «بسانت كروز» وقام بتطوير خبرته فى مجال الرعاية الصحية مما أبهر محررىThe Washington Post وعينوه ليدون على موقع الجريدة. «الشرح تخطى أهمية التعليق» وفقاً لما يقوله Kleinالذى يبلغ من العمر ٢٥ سنة.

أصبح الانترنت الآن منبرا لكل الأمريكيين من مختلف الخلفيات والأعمار الذين تجول بخواطرهم الكثير من الأفكار ولكن لا يجدون قناة لبث هذه الأفكار؛ مثال على هذا Marcy Wheeler التى



عـــالـــم جـــديـــد

تعيش فى «آن اربور» فى «ميشيغان» الحاصلة على شهادة الدكتوراه فى الأدب المقارن وتعمل مستشاراً فى صناعة المحركات وقد بدأت التدوين فى عام ٢٠٠٤. بدأت تدويناتها فى جذب الانتباه على مدونتها عن Valerie Plame leak case، وفى بداية عام ٢٠٠٧ قامت بعمل تدوين حى ومباشر لمحاكمة Lewis Libby. وفى وقت لاحق من نفس العام بعد ان تركت عملها كاستشارية بدأت فى العمل بالتدوين بدوام كامل لصالح مدونة FireDogLake وهى مدونة يسارية جماعية، وهى تركز الآن على قضايا التعذيب والمراقبة للاتصالات دون إذن، وأزمة صناعة المحركات. لقد سمعت عن Wheeler فى ابريل الماضى حين ظهر اسمها فى مقال تصدر الصفحة الأولى فى جريدة The New York Times عن صدور مذكرة عن أساليب الاستجواب فى ولاية الرئيس «بوش». فمن خلال قراءة متأنية للوثائق استطاعت Wheeler استخلاص أن «خالد شيخ محمد» قد تم تعذيبه بطريقة waterboarding ١٨٣ مرة فى شهر واحد. ونشرت هذا الكشف صحيفة The Huffington Post ونقلته عنها The Times.

«ادعاء ان عملنا هو عمل طفيلى هو مهزلة، هناك الكثير من العمل الجاد والأصلى فى عالم التدوين، نصف الصحفيين الآن يرجعون إلى الفضاء التدوينى عند كتابة قصة. وفى نفس الوقت يسعدنى أن اعترف أننى لازلت اعتمد على الصحفيين. فلا يمكنك الحديث عن التعذيب دون الحديث مع Jane Mayer من The New Yorker» هذا ما قالته لى Wheeler فى حديث تليفونى، كما مدحت كلا من Dana Priest وJoby Warrick من The Washington Post، وJames Risen وDouglas Jehl من The New York Times. «من الأفضل الحديث عن علاقة تكاملية بدلاً من الحديث عن علاقة طفيلية» وأضافت أن: «أكثر ما يزعج المدونين هو الفصل الذى يقوم به الصحفيون ومحاولة الحفاظ على الوضع الحالى دون تطويره او الاستفادة منه».

وعلى العكس أثبت الفضاء التدوينى قدرته على اجتذاب المتخصصين فى مختلف المجالات الذين لا تتوفر لهم فرصة الوصول الى افتتاحيات الصحف الكبرى؛ ومثال على هذا هو Juan Cole الباحث فى شئون الشرق الأوسط بجامعة «ميشيغان» الذى قام فى مدونته Informed Comment بتقديم تحليل دقيق لكل التطورات الحادثة فى العراق وإيران الآن أكثر من معظم المراسلين الموجودين هناك فعلاً. اليوم، بإمكانك ان تجد معلقين خبراء تقريباً فى كل المجالات على الانترنت. فمثلاً للحصول على رأى حول مشاكل الرعاية الصحية فى أمريكا تقرأ مدونة KevinMD لكاتبها Kevin Pho. ولنظرة واقعية ومتجددة على أحوال التعليم فى مدونة joannejacobs.com، وللحديث عن سياسات الدواء مدونة The Reality-Based Community للبروفيسور Mark Kleiman فى جامعة «كاليفورنيا».

بعيداً عن هذه المجهودات الفردية، فلقد فتح الانترنت المجال للحديث عن المواضيع المسكوت عنها مثل سياسات الولايات المتحدة الأمريكية الداخلية تجاه إسرائيل؛ كل النشاطات التى تقوم بها الجماعات المساندة لإسرائيل مثل AIPAC كانت مسكوتا عنها خوفاً من إتهام من يتناولها بمعاداة السامية أو معاداة إسرائيل. اليوم الانترنت يعج بأخبار وتحليلات وآراء حول العلاقات الأمريكية - الإسرائيلية. Rob Browne - طبيب الأسنان الذى يعيش فى «لونغ آيلند» - يتابع كل التشريعات التى تصدر من الكونجرس بخصوص إسرائيل على مدونته اليسارية الليبرالية Daily Kos. Rosenberg.J.M أحد العاملين السابقين فى AIPAC وانشق عنهم، يشرح كل نشاطات اللوبى الاسرائيلى على مدونة Talking Points Memo. وفى المقابل هناك كتيبة من المدافعين عن إسرائيل من أمثال Ron Kampeas وMichael Goldfarb المحرر لصحيفة The Weekly Standard الإلكترونية، والصحفى والمدون المهم والأكثر تأثيراً فى الأمور الخاصة بإسرائيل Jeffrey Goldberg.

> **الصحف التى لم تدرك أننا نعيش فى عالم له آلياته الاتصالية الجديدة، وأن الخيارات أمام القارئ اتسعت بشكل غير مسبوق، ستنقرض ولو بعد حين**

والطرفان يتسلحان بالمعلومات اللانهائية الموجودة على الإنترنت؛ فيضرب المدون Philip Weiss صاحب مدونة Mondoweiss «لم يكن باستطاعتك الحصول على جريدة هاآرتز الإسرائيلية سوى عن طريق Hotaling,s. أما الآن فيمكننى الحصول على كل الصحافة الإسرائيلية والعربية الكترونياً».

Weiss هو احد الذين يناضلون وعانوا لسنوات طويلة من إحباط صوتهم فى الوصول لقراء المجلات والجرائد ولكن البديل الإليكترونى من خلال مدونته أتاح له الفرصة لجمع حوالى ٨٠٠٠ دولار من تبرعات القراء والسفر فى قافلة مناهضة للحرب إلى غزة؛ وقام بعمل مجموعة تقارير عن أوضاع من قابلهم من طلبة وعاملين بمجال الإغاثة ومسئولين فى حركة حماس.

حتى الأحداث التى تتصدر عناوين الأخبار هذه الأيام فالإنترنت قادر على متابعتها بالكشف والتحليل؛ ومثال على ذلك عند احتدام أزمة الرهونات العقارية فى أواسط عام ٢٠٠٧؛ هرع الصحفيون إلى مدونات يكتبها اقتصاديون مخضرمون ذوو خبرة واسعة فى المجال ليستفهموا عن ماهية الأزمة، ومنها: مدونة Calculated risk لصاحبها Tanta، ومدونة Naked Capitalism التى تحدث فيها Yves Smith عن مسائل تتعلق بصناعة الخدمات المالية ومشاكلها، ومدونة Grasping Reality with Both Hands التى تناول فيها البروفيسور Brad Delong بجامعة كاليفورنيا بيركلى؛ الأزمة الاقتصادية وقدم تحليلاً دقيقاً عن السياسات الاقتصادية.

عند قيامى بالأبحاث اللازمة لكتابة هذا المقال صادفت الكثير من المواد المكتوبة عن العلاقة بين وول ستريت وواشنطن، مثل التحقيقات التى يقوم بها Ryan Grim وتنشر على موقع صحيفة Huffington Post التى تتميز بتحقيقاتها المثيرة والتى عادة ما يكون لها صدى واسع لدى القراء خاصة فيما يخص المشاهير؛ ولكن مكتبهم الجاد فى واشنطن يضم ٧ محررين متميزين منهم: Dan Froomkin الذى انضم للجريدة بعد إنهاء عقده مع Washington Post بالإضافة إلى Grim، وعمله اللافت فى تغطية أخبار الكونجرس والمعارك الضارية بين البنوك، شركات البطاقات الائتمانية، وشركات الرهونات العقارية. وحتى أنه نشر ملاحظات السيناتور Dick Durbin عن تحكم البنوك فى أمور الكونجرس، وهى الملاحظات التى أهمل تغطيتها الإعلام المقروء، حيث علق السيناتور قائلاً: «لم يكن احد ليصدق أن البنوك فى ذروة الأزمة التى خلقتها بنفسها كان سيكون للوبى الخاص بها كل هذا التأثير فى Capitol Hill؛ أنهم بصراحة كمن يمتلكون المكان.» ولكن بعد كتابات Grim بعدة أسابيع؛ كتب Frank Rich عن نفس الموضوع فى عموده فى صحيفة Times. وتبنت Arianna Huffington الكتابة عن هذا الموضوع المهم فى مدونتها تحت عناوين ساخنة، مثل: «لماذا يعامل أصحاب البنوك كالملوك؟» و«مصالح البنوك هى ما يحرك الكونجرس!!».

على الجانب الآخر كانت تغطية الصحافة المقروءة للأزمة الاقتصادية معالجة مخففة، وعرضية، ويتم تحييدها من قبل رجال الأعمال أصحاب المصالح والمتحدثين باسمهم وهو أمر يضطر الصحفيون للرضوخ إليه تحت قواعد المهنية. ولكن هناك استثناءات مثل مجموعة التقارير التى كتبها Gretchen Morgenson وStephan Labaton ونشرت فى صحيفة Wall Street Journal.

ولكن المدونين تحرروا من قيود المهنية والحيادية التى تفرض عليهم شكلا لطرح القضايا؛ بل أصبح المدونون يعبرون عن آرائهم واتجاهاتهم السياسية؛ مما جعل محيط التدوين محيطا جاذبا

المؤكد أن التحليلات والصحافة المعمقة (الثقيلة)، هى التى ستستمر بعد أن تهجر «الأخبار» الصحافة التقليدية إلى وسائل أكثر سرعة، وأكثـــــر ديناميكيـــــة



وحيا. وهذا يتجلى فى جذب هذا المحيط لأشـخـاص مـن خـارجـه؛ Glenn Greenwald المحامى ومحامى الادعاء السابق هو حديث العهد بالتدوين فقد بدأه فى ديسمبر ٢٠٠٥؛ ولكنه سرعان ما تبوأ المكانة والقيادة بمقالاته اليومية الطويلة التى تقدم تحليلاً وافياً للأحداث مما جعله من قادة الرأى غير الرسميين.



أهم القضايا التى طرحها Greenwald وأكثرها شراسة هى هجومه الضارى على إدارة الرئيس بوش فيما يخص المراقبة بدون تصاريح؛ وأحدث هذه القضايا هو حديثه عن تأثير Goldman Sachs على إدارة الرئيس أوباما. كما هاجم Jeffrey Rosen ورفضه لتولى Sonia Sotomayor رئاسة المحكمة العليا بالولايات المتحدة. كما هاجم الصحافة القومية ككل لإصرارها على استخدام التلطيف اللغوى euphemism عند تناول مسائل التعذيب؛ وفى هذه المسألة كتب:

«فى ظل إصرار وسائل الإعلام الرائدة فى عدم تسمية ممارسات إدارة بوش «بالتعذيب» على الرغم من موت أكثر من ١٠٠ معتقل، وعدم وصف الوسائل المستخدمة فى «غوانتنمو» على انها تعذيب ولكن عند استخدامها فى بلدان أخرى تحرص هذه الإدارة فى وضعها تحت بند «التعذيب» وفضح هذه الممارسات إعلامياً. وهذا يبين الكثير عن صحفيى هذه الأيام.»

على الرغم من أهمية تدوينات Greenwald إلا أنها تعيبها بعض الأمور المتعلقة بالجرعة الايدولوجية المبالغ فيها بكتاباته والتى غالباً ما تفقدنا القدرة على متابعة مقصده فى وسط متاهة التنظير. مثل موقفه المناهض لرفض الرئيس أوباما نشر صور التعذيب الأخيرة من «غوانتنمو»، فمع وجود منطق لموقفه إلا أن موقفه يغفل الكثير من الاعتبارات العملية للعبة السياسة والتى يجب أن يتقيد بها لاعبوها.

ولكن مشكلة التدوين «غير المحايد» أو المعبر عن آراء أصحابه بوضوح أنه جعل محيط التدوين عبارة عن سلسلة من الوصلات من مدونة لأخرى وبين مجموعة من القراء والكتاب؛ وهذا وفقاً لدراسة قام بها Wasik؛ أن ٨٥٪ من وصلات المدونات تكون لمدونات تعبر عن نفس الآراء السياسية وتقريباً دون أى احترام للمدونات التى تقف على الجانب الآخر من موقفهم السياسى؛ مما يؤدى بالتأكيد إلى خلق وعى مفلتر مسبقاً وتدعمه معلومات منتقاة وتعرض جانب واحدا من الحقيقة.

على الرغم من وجود أصوات كثيرة تحاول التعبير عن آرائها؛ تواجه هذه الأصوات نوعا آخر من الفلترة وهو مسألة الأولويات، فمديرو المواقع يحرصون على ظهور الأخبار المثيرة والحسية. فمثلاً على الرغم من العمل الرائع الذى قام به Ryan Grimuk عن حقيقة العلاقة بين وول ستريت وواشنطن إلا أن خبر مثل وجود صورة Lindsay Lohan عارية الصدر على تويتر سيأخذ حيزا وأهمية أكبر على موقع Huffington Post.

بالإضافة إلى كل هذا يعانى كتاب الإنترنت من مشكلة الإيقاع السريع للعمل، الذى يفرض عليهم سرعة التفكير والكتابة وقصر التدوينات مما لا يتيح لهم الوقت للعمل على مشاريع أكبر، فكما يقول Jacob Weisberg المحرر السابق لموقع Slate: «العقبة الوحيدة التى لم نتخطها بعد هى كيفية ممارسة الشكل الصحفى المفصل اليكترونياً...القراء لا يحبون قراءة مقالات طويلة على الإنترنت» وهو ما دفع خليفته David Plotz إلى منح فرصة لكل كاتب فى الموقع مدتها ٦ أسابيع للعمل على مشاريع أكبر.

ولكن كل ما سبق لا ينفى ان الانترنت لا يزال مرتعاً للشائعات، والحقائق المشوهة، والأخبار الملفقة. وأكبر دليل على ذلك هى الانتخابات الرئاسية الأخيرة، فالمدونات اليسارية أشاعت أن «سارة بالين» قد ادعت الحمل لتساعد ابنتها وتجمل موقفها، والمدونات اليمينية أدعت أن الرئيس أوباما زور شهادة ميلاده وأنه لم يكن مواطناً أمريكياً. وكذا ما حدث وقت الانتخابات الإيرانية الأخيرة حيث اختلطت الرسائل الاليكترونية والفيديوهات وتحديثات «تويتر» الحقيقية بالملفقة مما احتاج إلى خبراء لتدقيق هذه المصادر ليتابعها متصفحو الإنترنت.

إذن الإنترنت هو بمثابة حاضنة لكل هذه التجارب المثيرة، فموقع Youtube يقدم نصائح عن عمل التقارير التليفزيونية وكيفية تغطية الأخبار العالمية؛ كما قامت Huffington Post بعمل صندوق لتمويل الأبحاث الصحفية. كما قامت GlobalPost بالتنسيق مع عشرات من المراسلين المستقلين لإيجاد منافذ لنشر عملهم. ومواقع مثل Minn Post فى مينيابولس وVoice فى سان دييغو يختبرون هل من الممكن القيام بخدمات metro reporting اليكترونياً. ومن التطورات الجديدة أيضاً هو القسم المخصص فى The Daily Beast لتدقيق الكتب وتحريرها؛ وكذا وحدة المناظرات المرئية على bloggingheads.tv، وتجمع مدونات المحافظين NweMajority.com الذى أنشأه David Frum بعد انفصاله عن National Review.



كل هذه المبادرات مجتمعة تدل بشكل حقيقى على وجود تغيير حقيقى فى صناعة الخبر حول العالم، كما أوضح مركز دراسات «بيو» للتميز الصحفى فى تقريره لعام ٢٠٠٩ عن «دولة الأخبار»، ما يلى:

إن الدفة تتحول من يد المؤسسات الصحفية إلى ناحية الصحافة الفردية، من خلال البحث والرسائل الاليكترونية والمدونات والإعلام الاجتماعى وغيره الكثير...وهذا دليله ازدياد طلب المستهلك على صحافة الأفراد بدلاً من الماركة المسجلة للمؤسسات الصحفية. ومثال على هذا تجربة GlobalPost التى تعتمد فى الأساس على مراسلين ومصورين مستقلين.

وفى مقارنة أخرى قدمها باحث فى علوم الإنترنت والبروفيسور فى جامعة نيويورك Clay Shirky قال أن: ما يحدث الان شبيه لما حدث عندما ابتكرت الصحافة المطبوعة، وكيف أن وسائل نقل المعلومات التى كانت موجودة قبلها اندثرت وأن هذه النقلة صاحبها الكثير من الشك وعدم التأكد؛ ويمكن رؤية المسألة من زاوية أخرى فكما ساعد اختراع الطباعة على كسر القيد الذى فرضته الكنيسة على أوروبا فى العصور الوسطى؛ فانتشار الإنترنت والصحافة فى شكلها الجديد قد يحررنا من سطوة وسائل الإعلام الجماهيرية، وما سيحدثه ذلك من آثار على عملية الديمقراطية والتخلص من المركزية.

بالطبع الوسائل التقليدية لنقل الخبار مازالت قادرة على إعلام الناس ولكن هل ستقدر على التكيف مع التغير السريع الحادث فى عالم صناعة الأخبار؟ ومن سيدفع فى مقابل خدمات الأخبار والمعلومات فى المستقبل؟

ان كنا نتحدث عن الأخبار، فالمسألة فعلا محل شك، ولكن المؤكد أن التحليلات والصحافة المعمقة (الثقيلة)، هى التى ستستمر بعد أن تهجر «الأخبار» الصحافة التقليدية الى وسائل أكثر سرعة، وأكثر ديناميكية.، كما يشير بحث جامعة نيويورك، والذى يتفق مع دراسات أخرى ذات صلة، تشير كلها الى أن الصحف التى لم تدرك أن أننا نعيش فى عالم له آلياته الاتصالية الجديدة، وأن الخيارات أمام القارئ اتسعت بشكل غير مسبوق، ستنقرض ولو بعد حين. كما تشير أيضا الى أنه لا يكفى أن يكون شباب الصحفيين فاهمين للآليات الجديدة، فالقائد فى المعركة لن يستطيع أن يقود جنودا يستخدمون أسلحة ليس لديه الخبرة الكافية بها، بمعنى أنه اذا لم تكن القيادات الصحفية ذاتها واعية بمتطلبات هذه الميديا الجديدة، لن تتمكن من ادارة دفة العمل فى عصر يموج بالتحدى والمنافسة. ■



إذا لم تكن القيادات الصحفية ذاتها واعية بمتطلبات هذه الميديا الجديدة، لن تتمكن من إدارة دفة العمل فى عصر يموج بالتحدى والمنافسة

3500
كتاب في حقيبتك
.. ولكن
هذا القاتل الجميل



نيكولسون بيكر
Nicholson Baker

■■ قمت بطلب جهاز «كيندل٢» من «أمازون» Amazon («كيندل» هو قارئ إلكترونى للكتب ـ المترجم). كيف كان يمكننى ألا أفعل؟ لقد امتلأت شبكة الإنترنت بالإعلانات الشريطية عنه. وكلما دخلت إلى موقع «أمازون»، كنت أتعرض للضغوط لشراء واحد. كان الإعلان يقول «ألق التحية على «كيندل٢» بحروف طويلة على الصفحة الرئيسية. وإذا ما بحثت فى «أمازون» عن كاتب معين - «مارى هيجنز كلارك» Mary Higgins Clark على سبيل المثال - ووصلت إلى صفحة روايتها المثيرة «ضوء القمر يصبح أنت Moonlight Becomes You»، فإن السطر بأعلى الصفحة يقول «ضوء القمر يصبح أنت» بالإضافة إلى أكثر من ٢٧٠ ألف كتاب آخر متوفرة لجهاز «كيندل» من «أمازون» - جهاز القراءة اللاسلكى الجديد من «أمازون». اعرف المزيد». وتحت صورة النسخة الورقية لكتاب «كلارك» (٧,٩٩ دولار) كان هناك إعلان آخر مثير للفضول: «ابدأ فى قراءة «ضوء القمر يصبح أنت» على جهاز «كيندل» الخاص بك فى أقل من دقيقة. ليس لديك «كيندل»؟ احصل عليه هنا». وإذا ما ذهبت إلى صفحة «كيندل» للتنزيل الرقمى لـ «ضوء القمر يصبح أنت» (٦,٣٩ دولار)، فسوف تعرض على وصلة للرجوع إلى النسخة المطبوعة. لقد كنت موجها.

كان الجميع يقولون بأن «كيندل» الجديد هام للغاية - وأنه بمثابة صيحة بوق رعاة جبال الألب لإعادة إحياء حقبة ما بعد «جوتنبرج» Gutenberg (مخترع الطباعة الألمانى فى القرن الخامس عشر، المترجم). فى صحيفة «وول ستريت جورنال» Wall Street Journal، كتب الناقد الثقافى «ستيفن جونسون» Steven Johnson أنه كان وحيدا ذات يوم فى مطعم بمدينة «أوستن» Austin بولاية تكساس، عندما تملكته رغبة عارمة لقراءة رواية. وبفضل مجموعة الملحقات المجانية لتردد «٣G» مع لاسلكى «سبرينت» Sprint والمتوفرة مع «كيندل» - والمسماة بـ «همس نت» Whispernet - كان فى خلال دقائق يقرأ الفصل الأول من رواية «عن الجمال» On Beauty من تأليف «زادى سميث» Zadie Smith (٩,٩٩ دولار للنسخة الإلكترونية، و١٠,٢٠ دولار للنسخة الورقية). يعتقد «جونسون» أن الكتابة والنشر لن يعودوا أبدا كسابق عهدهما. وفى مجلة «نيوزويك» Newsweek، كشف «جاكوب فايزبرج» Jacob Weizberg رئيس تحرير «مجموعة سليت» Slate Group، أن «جيف بيزوس» Jeff Bezos - مؤسس «أمازون» ورئيسها التنفيذى - «قد صنع جهازا يعد ثورة ثقافية. فالكتب المطبوعة - أهم ما أنتجته الحضارة البشرية - سوف تلحق بالصحف والمجلات على طريق الاندثار».

لقد أثار «كيندل٢» أيضا شغف العديد من الناس العاديين، فقد كان هناك فى ذلك الوقت فى موقع بيع «كيندل» حوالى ١٥٠٠ من آراء المستهلكين ذات النجوم الخمس (يحتوى مقياس الآراء على تدريج من خمسة نجوم بحد أقصى ـ المترجم) تقول جميعها - مرة بعد مرة - «أعشق «كيندل» الخاص بى»، بينما لم يكن هناك سوى عدة مئات من آراء النجمة الواحدة التى تعبر عن الاستياء. كانت كتب «كيندل» نظيفة. وعلى موقع «أمازون»، كتبت «كريستين رينج» Christine Ring، إحدى الزوار، تقول «كانت تعوقنى دائما كتب المكتبات العامة والكتب القديمة. لا يمكنك أبدا أن تعرف مكانها! وقال زائر آخر «لقد أثار «كيندل» من جديد اهتمامى بالقراءة». وقال ثالث «لقد تعلقت به. لو سقط جهاز «كيندل» الخاص بى فى بالوعة، فسوف أشترى واحدا آخر فورا».

كانت حركة بيع «كيندل» على ما يرام: ففى أبريل انتشرت على المدونات التقنية شائعات بأنه قد تم شحن ثلاثمائة ألف جهاز «كيندل٢» منذ طرحه فى ٢٤ فبراير. وقد وجه «بيزوس» رسالة إلى حملة الأسهم: «لقد تجاوزت مبيعات «كيندل» أكثر طموحاتنا تفاؤلا». وقد ظهر وضحك فى برنامج «العرض اليومى» The Daily Show). (شاهد فيديو «يوتيوب» YouTube بعنوان «جيف بيزوس يضحك ضحكة عالية غريبة فى برنامج العرض اليومى مع جون ستيوارت Jeff Bezos Laughing Freakishly Loud on The Daily Show with Jon Stewart».

عرض موقع «أمازون» صورة لامرأة ترتدى نظارة شمسية وتجلس على شاطئ حاملة «كيندل» على ركبتيها. وتحت ذلك كانت هناك شهادات فيديو من كبار الكتاب مثل «مايكل لويس» Michael Lewis و«تونى موريسون» Tony Morrison، ترجع إلى انطلاقة «كيندل» الأصلى فى خريف عام ٢٠٠٧. وقد ذكر «جيمس باترسون» James Patterson، وهو القوة المحركة وراء فيض من أفضل المبيعات حسب مجلة «تايمز» Times، أنه يستمتع بالقراءة فى الهواء الطلق، حيث لديه حسب قوله «باحة خلفية بديعة وحمام سباحة رائع



بترتيب مع:
The New Yorker

ترجمة: عادل فتحى.

وجهات نظر: سبتمبر ٢٠٠٩

هل هذا هو ما يطلقون عليه الورق الإلكترونى؟ هل هو تلك النافذة قياس أربع فى خمس بوصات



وكل شىء». وقد ابتهج «باترسون» عندما اكتشف أثناء استعماله «كيندل» بجوار حمام السباحة أن الريح لم تجعل صفحات الكتاب ترفرف. وشرح قائلا «هناك صفحة واحدة فقط». أما «نيل جيمان Neil Gaiman» فقد تحول من الشك إلى «اليقين المطلق».

حسنا! بدأت أشعر بسعادة لطيفة أثناء مشاهدتى للإعلان الوثائقى ذى الدقائق العشر. إن «كيندل» غالى الثمن بالتأكيد، ولكن الكلفة هى إحدى طرق شراء الالتزام الكامل. إن بإمكان ذلك أن يغير وإلى الأبد طريقتى فى القراءة. لم أكن أبدا قارئا سريعا. وأنا متقلب؛ فأنا لا أكمل الكتب التى أبدأ فى قراءتها؛ فأضع الكتاب جانبا لمدة خمس أو عشر سنوات ثم أتناوله مرة أخرى. وقد فكرت، ربما إذا قمت بشراء هذا الـ «كيندل٢» اللاسلكى فسوف أنجذب إلى عالم من الاستهلاك الأسطورى الإلزامى للكتب. وقد أنكب بشراهة على مؤلفات «ريبكا ويست Rebecca West» أو «جاك فانس Jack Vance» أو «دون باول Dawn Powell». ربما كان «كيندل» هو آلة التمارين الرياضية الخاصة بعالم الكتب: شىء غالى الثمن يجبرك عندما تلتزم به أن تكثر من القيام بعمل ما تعتقد أنه يجب عليك الإكثار منه.

فى الحقيقة أن اسم المنتج ليس رائعا. «كيندل»؟ (بمعنى قطيطة، المترجم). كان الاسم ظريفا وشريرا فى الوقت نفسه - أسوأ من منتجات أخرى سابقة. ولكن المرء قد يتسامح بشأن اسم ردىء. بل قد يقع فى غرامه إذا كان المنتج نفسه رائعا.

وصلنى الجهاز بالشحن السريع فى صندوق كبير من الورق المقوى. وداخل الصندوق كانت هناك بعض الفقاقيع البلاستيكية الشفافة الناتئة وعليها قصاصة التغليف مكتوب عليها «٣٥٩ دولارا» ثم صندوق آخر من الورق المقوى. كان مكتوبا على الصندوق الثانى بحروف صغيرة ناحلة «كيندل». وعلى جانب الصندوق كان هناك شريط بلاستيكى مدفون فى الورق المقوى؛ بهدف أن تجذبه لتمزيق الغلاف وفتح الصندوق تماما. كان مكتوبا على الشريط «يحكى أن». قمت بجذب الشريط وفتحت الصندوق.

بالداخل، كان هناك صندوق آخر أكثر زخرفة من الأول. كان الورق المقوى الأسود مطبوعا بحشد من الحروف السوداء اللامعة، وفى الوسط كانت هناك كلمة «كيندل» مرة ثانية. كان هناك شريط آخر للجذب على الجانب، وكان أيضا يقول «يحكى أن». ولجت إلى كومة من حواديت عالم التغليف مشابهة لحكايات «إيتالو كالفينو Italo Calvino» (صحفى وكاتب إيطالى، ١٩٢٣-١٩٨٥، المترجم). (بالمناسبة، لا تزال حواديت «كالفينو» الشعبية الإيطالية غير متوافرة فى منفذ بيع «كيندل»). جذبت مرة أخرى وفتحت.

هناك كان الجهاز نفسه مستقرا ووجهه للأعلى فى صندوق ذى بطانة بيضاء. كان شاحبا، تقريبا فى حجم رواية ذات غلاف مقوى، ولكنه أقل سمكا بكثير، وكانت له شاشة صغيرة ولوحة مفاتيح قياسية بالأسفل مصنوعة من أزرار نقطية لطيفة دائرية دقيقة تقاوم الضغط. حدقت لبرهة فى المفاتيح التى ذكرتنى بآلة أكورديون فى مطعم.

كان القابس المتصل بوصلة الـ «يو إس بى USB» بديع التصميم للغاية. كان القابس جيدا جدا جدا. قمت بتشغيل «كيندل» وضغطت على الزر الرئيسى «Home». يفتح لك هذا الزر قائمة بما هو متوفر على جهاز «كيندل» خاصتك. كانت هناك بانتظارى بعض الكتب التى كنت قد طلبتها بالفعل - كان ذلك لطيفا - وكانت هناك أيضا رسالة تحية من «جيف بيزوس». كتب «بيزوس» «إن «كيندل» هو نوع جديد تماما من الأجهزة، ونحن سعداء جدا بانضمامك إلينا كعميل مبكر». قرأت الرسالة وبعضا من «تنين جلالته His Majesty's Dragon» (رواية تنين خيالية من تأليف «ناعومى نوفيك Naomi Novick» تدور أحداثها أثناء الحروب النابوليونية، والرواية مقدمة كهدية مجانية)، و«رحلات جاليفر Gulliver's Travels» و«أيادى بطيئة Slow Hands» وهى رواية ساخنة مجانية من تأليف «ليزلى كيلى Leslie Kelly». قمت بتغيير حجم الخط. وبحثت عن قائمة لأحجام خطوط النص. وانتابنى إحساس بخيبة الأمل.

لم تكن المشكلة أن الشاشة باللونين الأسود والأبيض؛ لو أنها كانت فعلا باللونين الأسود والأبيض لكان الأمر على ما يرام. كانت المشكلة أن الشاشة رمادية. ولم تكن رمادية فحسب؛ بل كان اللون رماديا باهتا ضاربا إلى الخضرة. كان رماديا بلون الموت. لقد ظهر الحجم المتغير للحرف من نوع «Monotype Caecilia» رماديا قاتما. كان اللون الرمادى القاتم على الرمادى الباهت الضارب إلى الخضرة هما درجات ألوان جهاز «كيندل» من «أمازون».





هل هذا هو ما يطلقون عليه الورق الإلكترونى؟ هل هو تلك النافذة قياس أربع فى خمس بوصات بعد ظهر يوم ملبد بالغيوم؟ أين كان الورق أبيض أو ضارب إلى الصفرة؟ دعك من الألوان الثلاثية أو الرباعية. أين كانت الحروف السوداء الحادة متراصة كعيدان مطلية بالورنيش على قماش مائدة نظيف؟

أريت «كيندل» لزوجتى. قالت «للأسف لا يوجد به مسند معدنى صغير. كان بإمكانك وضعه كمرآة وتقرأ أثناء تناول الطعام». انسجم ابنى مع نسخة «كيندل» من رواية لـ «برنارد كورنويل Bernard Cornwell» تدور حول بريطانيا القديمة، وقال «إنه ليس سيئا إلى تلك الدرجة. إن الخريطة تبدو جيدة جدا. وبعض الأسماء الأصغر لا يمكن قراءتها. من الأفضل أن أقرأ ذلك» - مشيرا إلى نسخته الورقية من رواية «كورنويل» والتى كانت ملقاة على وجهها بالقرب منا - «ولكن بالتأكيد يمكننى قراءة هذا».

نعم، يمكنك بالتأكيد قراءة أشياء على «كيندل». وأنا قمت بذلك. قليل من الأشياء فى البداية. قرأت بعضا من «اعترافات Confessions» لـ «دى كوينسى De Quincy»، وبعضا من «الحب يقهر كل شىء Love Conquers All» لـ «روبرت بينشلى Robert Benchley»، وبعضا من الطبعات الجديدة لـ «كتاب الأدغال The Jungle Book» لـ كيبلنج Kipling». ومع ذلك، لم أعتصر بهجة جديدة من تلك الكتب الرائعة. كانت رسوم «جلوياس ويليامز Gluyas Williams» مفقودة فى رواية «بينشلى»، بل إن مقطع الزنابير فى «هل تفكر الحشرات؟ Do Insects Think?» لم يبد كأنه هو نفسه فى اللون الرمادى لـ «كيندل». قمت بعمل تجربة. وجدت نسخة من «الحب يقهر كل شىء» طبعة «Common Reader» وقرأت نفس مقطع الزنابير تماما. وضحكت: ها - ها. ثم عدت إلى «كيندل٢» وقرأت مقطع الزنابير ثانية. لم يكن هناك ضحك. بالطبع كنت عندئذ قد قرأت المقطع ثلاث مرات ولم يعد بنفس القدر من الإمتاع. ولكن جوهر الموضوع أنه لم يكن ممتعا عند قراءته للمرة الأولى عندما كان على شاشة «كيندل». كان الخط من نوع «Monotype Caecilia» كريها ومتزمتا، كان لديه أسلوب للإقلال من كل شىء إلى مجرد أكوام عشوائية من الكلمات.

وقد اختبرت خاصية تحويل النص إلى كلام، بقراءة بعض من رواية «ماكس Max» لـ «جيمس باترسون». كانت للقارئ الآلى نبرة أوروبية متوسطة مترددة مؤدبة، مثل «توم هانكس Tom Hanks» فى فيلم «المحطة The Terminal»، وكانت علامات الوقف تسبب للجهاز ارتباكا فى بعض الأحيان. ففى إحدى المرات اعتقد أن «آنسة miss» هى اختصار لاسم ولاية أمريكية (ولاية ميسيسيبى Mississippi، المترجم) حيث قال فى أحد المقاطع: «لقد أحب الملاحقة والمطاردة والتقاء الحظ والمهارة فى جزء من الثانية، مما مكنه من ممارسة كماله وعجزه أمام ميسيسيبى». فقمت بإغلاق الجهاز.

مع ذلك، فكما تعلمون، وقع كثير من الناس فى غرام «كيندل». ولكى أكون عادلا معه، قمت بقراءة كتاب كامل على الأقل من خلاله. يسمى «جيف بيزوس» ذلك بقراءة «الصيغة

المطولة». وقد حالفنى بعض النجاح ذات صباح عندما شققت طريقى بعمق من خلال الجهاز فى كتاب «الدليل الكامل للأغبياء إلى كتابة الرومانسيات الجنسية The Complete Idiot's Guide to Writing Erotic Romance» من تأليف «أليسون كنت Allison Kent». وقد علمت أن هناك أربعة مستويات محددة من القوة فى صناعة الروايات الرومانسية الجنسية: القوة اللطيفة واللافحة والمهيجة والحارقة. وقد بدت تلك معلومات وثيقة الصلة، حيث إن قراء الروايات الرومانسية هم من المستخدمين الرئيسيين لأجهزة «كيندل». فقد علق «بيتر سميث Peter Smith» من شركة «عالم تكنولوجيا المعلومات ITworld» قائلا «إن سوق الروايات الرومانسية والرومانسية الجنسية هو الوقود الذى يؤدى إلى نجاح الكتاب الإلكترونى». ويستشهد «سميث» بالممثلة وعاشقة «كيندل» «فيليشيا داى Felicia Day» التى شاركت فى الحلقات التليفزيونية «بافى قاتلة مصاص الدماء Buffy the Vampire Slayer» والتى انغمست فى روايات خارقة للعادة مثل «الاحتياجات السوداء على حافة الليلة Dark Needs at Night's Edge». ذكرت «داى»: «لقد قرأت حوالى ستة كتب هذا الأسبوع وطلبت حوالى عشرة آخرين. إنها مواد لم يكن من الممكن أن أبحث عنها فى «بارنز آند نوبل Barnes and Noble» (كبرى متاجر بيع الكتب فى الولايات المتحدة، المترجم)، لأن صورة صدر الرجل المصقولة المدهونة بالزيت على الغلاف كانت ستجعلنى أحمر خجلا أكثر من اللازم».

إن الروايات الرومانسية الإلكترونية ليست هى التفسير الوحيد لنجاح «كيندل» ونمط الولاء الذى يكرسه. ولاكتشاف المزيد، ذهبت إلى مدينة «فريبورت Freeport» بولاية «مين» للتحدث مع «إيلين ميسينا Eileen Messina» مديرة مخزن الواردات البريطانية الواقع تماما مقابل شركة «إل إل بين L. L. Bean» (شركة كبرى للبيع بالتجزئة وعبر البريد، المترجم). لدى «ميسينا» - وهى امرأة فى الثلاثينيات من عمرها تتميز بالحكمة والذكاء - جميع أنواع الأشياء على جهاز «كيندل» الخاص بها، بما فى ذلك «آنا كارنينا Anna Karenina» و«كافكا على الشاطئ Kafka on the Shore» لـ «موراكامى Murakami»، وكتب لـ «دان سيمونز Dan Simmons» و«إبراهام فيرجيز Abraham Verghese»، والرواية الهزلية «كبرياء وتحامل والموتى الأحياء Pride and Prejudice and Zombies». وهى سعيدة جدا بالجهاز لدرجة أنها تطوعت ضمن حوالى مائة آخرين لعرضه على المشترين المحتملين، كجزء من حملة «أمازون» لترويج الجهاز تحت عنوان «شاهد «كيندل» فى مدينتك». كان جهاز «كيندل» خاصتها فى حافظتها؛ وقد حاكت له غطاء من خيوط خضراء. قالت «ميسينا» أنها كانت تحصل على الكتب فى الماضى من المكتبات العامة، ولكن بعض الكتب كانت تنبعث منها رائحة الدخان، أما كتاب «كيندل» فهو بيئة خالية من الدخان. وقد شكرتها وابتعت بعضا من بسكوت الهضم وإبريقا للشاى، ثم دلفت من الباب المجاور إلى متجر «شيرمان للكتب والأدوات المكتبية Sherman's Books and Stationary». وسألت «جوش كريستى Josh Christie» الذى يعمل هناك أن يرشح لى رواية مشوقة فعلا تثير الاضطراب فى الأمعاء. كنت سأقوم بعمل مقارنة بين النسخة الورقية ونسخة «كيندل٢». وقد اقترح «كريستى» «الهوية الغاية The Bourne Identity» وكتاب لـ «مايكل كونيللى Michael Connelly» بعنوان «محامى لينكولن The Lincoln Lawyer» الذى أقسم عليه أحد زملائه بالمتجر. وقد اشتريت الكتابين.

بالخارج، جلست على مقعد طويل بالقرب من شركة «إل إل بين» أتناول الآيس كريم، وحاولت أن أطلب «الهوية الغاية» باللاسلكى من منفذ بيع «كيندل». ولكن كلا - ليست هناك نسخة «كيندل» من «الهوية الغاية». لماذا؟

ماذا كان مفقودا غير ذلك؟ عندما عدت للمنزل، أمضيت ساعة واقفا أمام بعض خزانات الكتب الروائية أستعرض العناوين. ليست هناك نسخة «كيندل أمازون» من «جوهرة التاج The Jewel in the Crown». وليست هناك نسخة «كيندل» من أعمال «جان ستافورد Jean Stafford» أو «فلاديمير نابوكوف Vladimir Nabokov»، ولا توجد رواية «ببغاء فلوبرت Flaubert's Parrot» أو «بقايا اليوم Remains of the Day» أو «عطر Perfume» من تأليف «باتريك ساسكايند Patrick Suskind» ولا توجد أعمال «بهاراتى مخرجى Bharati Mukherjee» أو «مارجريت درابل Margaret Drabble» أو «جراهام جرين Graham Greene» فيما عدا نص إذاعى، ولا توجد أعمال «دافيد ليفيت David Leavitt» أو رواية «فى الريف In Country» لـ «بوبى آن ماسون Bobbie Ann Mason»، ولا توجد أعمال «بينشون Pynchon» أو «تيم أوبراين Tim O'Brien» أو رواية «مكتبة حمام السباحة Swimming-Pool Library» أو أعمال «باربرا بيم Barbara Pym» أو «سول بيلو Saul Bellow» أو «فريدريك إكسلى Frederick Exley» أو رواية «العالم وفقا لـ جارب World According to Garp» أو «الحق-٢٢ Catch-22» أو «إفطار لدى تيفانى Breakfast at Tiffany's» أو «شكوى بورتنوى Portnoy's Complaint» أو «هنرى وكلارا Henry and Clara» أو أعمال «لورى مور Lorrie Moore» أو رواية «إدوين مولهاوس Edwin Mullhouse» أو «البرتقال المنتظم Clockwork Orange».



بالطبع سوف يزداد حجم القائمة. وذلك لأنه لا تمارس قوى ذكية على الناشرين والمؤلفين. وهناك تحت مواصفات جميع الكتب المعروضة للبيع لدى «أمازون» والتى لا تتوافر لها نسخة «كيندل» خانة تقول «أخبر الناشر! أريد قراءة هذا الكتاب على «كيندل». وإذا ضغطت على الخانة، فإن «أمازون» تعرض رسالة شكر: «سوف نمرر طلبك المحدد إلى الناشر».

ولكن لنفرض أنك بالفعل وجدت الكتاب الذى تنشده لدى منفذ بيع «كيندل»، وأنك اشتريته. فهل تحصل على ما هو مذكور فى نسخة الكتالوج؟ نعم وكلا. نعم، أنت تحصل على الكلمات، وأحيانا على الرسوم بصورة محدودة. أما الصور الفوتوغرافية والرسوم والخطوط البيانية والحروف الأجنبية والجداول فلا تظهر بشكل جيد على الشاشة الرمادية الصغيرة. ولا تظهر أرقام الصفحات، كما لا تعمل الفهارس أحيانا. وليس من السهولة بمكان استعراض هوامش المؤخرة. وإذا أردت أن تستشهد من كتاب اشتريته، فعليك أن تستشهد فى نطاق الموقع - فعلى سبيل المثال فإن عبارة ما يمكن العثور عليها فى نطاق الأسطر ١٥٩٦-١٦٠٥ فى رواية «مارى كار Mari Carr» الرومانسية الجنسية «حقيقة تيكيلا Tequila Truth».

عندما تشترى نسخة «كيندل» من رواية «كونراد لورينز Konrad Lorenz» «خاتم الملك سليمان King Solomon's Ring» بدلا من النسخة الورقية، فإنك توفر ٣,٥٨ دولار، ولكن رسومات «لورينز» الساحرة لأوزة برية رمادية وفراخها يتهادون من منتصف إحدى الفقرات باتجاه الهامش الأيمن قد تم اقتطاعها من النص - لقد ألغيت الملاحظات الهامشية. ويوفر منفذ بيع «كيندل» «كتاب ودليل الطبخ لعاشق الجبن The Cheese Lover's Cookbook and Guide» من «سايمون آند شوستر Simon & Schuster». وقد كتبت إحدى زائرات «أمازون» السعيدات معلقة «إن صورة فطائر الـ «بان كيك Pancakes» بجبن الـ «ريكوتا Ricotta» الإيطالى مع شراب الجوز والموز تكفى وحدها لإثارتك بما يكفى لأن تكون تلك هى الوصفة الأولى التى تقوم بتجربتها». كانت تشير إلى الوصفة فى النسخة المطبوعة، والتى أعيد تكرار وصفها فى نسخة «كيندل» فى منفذ بيع «كيندل» - ولكن لم تكن هناك صور للفطائر فى نسخة «كيندل».

نعم، يمكنك توفير تسعة دولارات إذا ما اشتريت نسخة «كيندل» من كتاب «الجمال الخلاب للطحالب البحرية والإسفنج والصخور المرجانية The Algorithmic Beauty of Seaweeds, Sponges, and Corals» من تأليف «جاب أ. كاندورب Jaap A. Kaandorp» - فهو سيكلفك ٨٥,٤٠ دولار مع التسليم لاسلكيا، مقابل ٩٤,٨٩ دولار مطبوعا. تقول مجلة «نيو ساينتست New Scientist» أن كتاب «كاندورب» «موضح بالصور الفوتوغرافية والرسومات ومحاكيات الكمبيوتر بطريقة بديعة وأحيانا غريبة». إن الرسومات موجودة فى نسخة «كيندل» ولكنها عسيرة تماما على الاستيعاب، حتى لو قمت بتكبيرها باستخدام زر الضغط ذى الحركات الخمس أو «حلمة التحكم» كما يطلق عليه أحد مستخدمى «كيندل». وهناك كتاب نصى طبى فائز بجوائز بعنوان «التصوير فى

بعض الكتب كانت تنبعث منها رائحة الدخان، أما كتاب «كيندل» فهو بيئة خالية من الدخان

3500

كـتــــــاب فى حقيبتــــك

عــلــم الأورام Imaging in Oncology» (الطبعة الثانية) يباع فى منفذ بيع «كيندل» بسعر ٢٨٧,٩٦ دولار. الجداول أصبحت مشوهة. وضاع الترميز اللونى - الأصفر للأورام الخبيثة والأزرق للأنسجة السليمة. والأسهم التى تشير للأورام المظللة تصبح غير مرئية فى اللون الرمادى. بل أن الأورام نفسها تختفى.

مثال آخر غالى الثمن. تباع نسخة «كيندل» من «مواد وأنظمة هندسية نووية مختارة Selected Nuclear Materials and Engineering Systems»، وهو كتاب إلكترونى للقائمين على تصميم مفاعلات الطاقة النووية، بما يزيد على ثمانية آلاف دولار. والشكل رقم ٢ عبارة عن مخطط مفصل لرسم مفاعل مع العديد من التنويهات والمعادلات الكيميائية. وكلها غير مقروءة. يقول منفذ بيع «كيندل» «أنت توفر ١٦٠٧,٨٠ دولار (٢٠٪). وقد علق زائر عنيد لـ «أمازون» «لن أشترى هذا الكتاب حتى يتم تخفيض السعر».

هذا هو ما تحصل عليه عندما تشترى كتاب «كيندل». أن تشترى الحق فى عرض مجموعة من الكلمات أمام عينيك لاستخدامك الشخصى بمساعدة جهاز عرض إلكترونى معتمد من «أمازون». وتستخدم الشركة نظام تشفير يسمى «توباز Topaz» («توباز» هو أيضا اسم رواية لـ «ليون أوريس Leon Uris»، وهى ليست متوفرة فى منفذ بيع «كيندل»). هناك صيغ برمجية أخرى للكتاب الإلكترونى - مثل «أدوب أكروبات Adobe Acrobat» و«ميكروسوفت ريدر Microsoft Reader» وصيغة مجانية متاحة تسمى «إيباب ePub» - ولكن أمازون اختارت طريقها الخاص. ولا تستطيع معدات أى شركة أخرى التعامل مع «توباز» دون إذن من «أمازون». ويعنى ذلك أنك لا تستطيع قراءة كتب «كيندل» الخاصة بك على حاسوبك الشخصى أو على قارئ إلكترونى للكتب منافس لـ «كيندل». (مع ذلك يمكنك قراءة كتب «كيندل» على «آيبود تاتش iPod Touch» و«آيفون iPhone» - سيرد المزيد عن ذلك لاحقا - لأن أمازون قررت أن من مصلحتها أن تسمح لك بذلك). ربما تكون قد سمعت عن «قارئ سونى Sony Reader»؟ إن أزرار التحكم فى قلب الصفحات فى «قارئ سونى» أفضل تصميما من أزرار «كيندل»، كما أنه ظهر قبل عام من ظهور «كيندل»؛ كما أن شاشته أقل رمادية بدرجة طفيفة وسطح الطباعة أفضل، كما يستطيع التعامل مع مستندات «إيباب ePub» و«بى دى إف PDF» دونما حاجة إلى تحويلها، ولكن انس كل ذلك. فلا يمكنك قراءة كتاب «كيندل» على جهاز «سونى» أو على «Ectaco jetBook» أو «BeBook» أو «iRex iLiad» أو «Cybook» أو «Hanlin V٢» أو «Foxit eSlick» (كلها قارئات إلكترونية مختلفة، المترجم). إن كتب «كيندل» غير قابلة للتحويل. فأنت لا تستطيع إهدائها أو إعارتها أو بيعها. كما أنك لا تستطيع طباعتها. إنها لفائف مغلقة من الشفرة الرقمية التى يمكن لمشتر واحد فقط أن يمتلكها. إن النسخة من كتاب «كيندل» تموت مع مالكها.

ومن ناحية أخرى. ليست هناك فوضى، ولا توجد كومة من الكتب بجوار الأريكة. إن كتاب «كيندل» يصل لاسلكيا: لا يمكن لمسه؛ وهو موجود على سطح أسمى وأكثر نقاء. ومن المفترض أنه صديق لكوكب الأرض أيضا. نعم، إنه مصنوع من مواد أجنبية تشحن عبر جميع محيطات العالم؛ نعم، إنه يحتاج للكهرباء كى يعمل ولوحدات تزويد خدمة مكيفة الهواء كى تغذيه؛ نعم، إنه هش ويحاكى ما تفعله ماكينات أخرى؛ نعم، إن من الصعب تدويره؛ نعم، إنه غالبا سيستقل فى رحلته الأخيرة قاربا إلى مكب نفايات نيجيرى فى خلال خمس سنوات. ولكن لا يتم قطع غابات أشجار من أجل صناعة كتاب «كيندل»؛ ولا تدور مطابع وزنها عشرة أطنان ولا يراق أى حبر.



بدلا من الحبر على الورق، هناك ما يسمى بالـ «فيزبليكس Vizplex». والـ «فيزبليكس» هو الاسم التجارى لمادة الطبقة التى تصنع شاشة عرض «كيندل» - أى المستطيل الذى تقرأ منه والذى يبلغ قطره ست بوصات. إنها معجزة من الجسيمات الكروية الدقيقة ثنائية الاستقرار، وقد استغرقت كثيرا من العمل وأكثر من مائة وخمسين مليون دولار لتطويرها، ولكنها ما زالت بالفعل فى مرحلة النموذج الأولى. تصنع «فيزبليكس» فى صورة شبه سائلة فى مدينة «كامبريدج Cambridge» بولاية «ماساتشوسيتس» بواسطة شركة تدعى «إى إنك E Ink». وتقوم الشركة بوضع طبقة من تلك المادة على غشاء رقيق أو «صفيحة سطحية أمامية»، وذلك بمصنع فى غرب «ماساتشوسيتس»، ثم ترسل الصفائح إلى تايوان، حيث تقوم الشركة الأم «بى فى آى P. V. I» (وهى اختصار «الدولية للرؤية المثالية Prime View International»، وهى نفسها شركة فرعية لشركة كبرى للورق)، بدمجها مع شبكة إلكترونية أو سطح خلفى. والسطح الخلفى يخبر السطح الأمامى بما يفعله.



لا يتـــم قطـــع غــابات
أشـــجار مـــن أجـــل صـــناعــة
كــتـــاب «كـــيـــنـــدل»؛ ولا تـــدور مـــطـــابـــع
وزنهـــا عـشـــرة أطنـــــان
ولا يـــــراق أى حبـــر



لقد برزت احتمالات استخدام «فيزبليكس» للمرة الأولى فى عقل العالم «جوزيف جاكوبسون Joseph Jacobson» الذى يعمل الآن بمعمل الوسائط فى «معهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا Massachusetts Institute of Technology»، ويتجنب إجراء مقابلات حول موضوع الورق الإلكترونى. فى وقت ما بمنتصف التسعينيات، وفقا لما ذكره أحد زملائه، كان «جاكوبسون» جالسا يقرأ على أحد الشواطئ. وانتهى من قراءة كتابه. ماذا بعد ذلك؟ لم يشأ أن يغادر الشاطئ لجلب كتاب آخر، ولم يرغب فى الاستلقاء على الشاطئ وعمل حفر مائية بقدميه وهو يفكر فى الجمال الخلاب للطحالب البحرية. ما أراده هو أن يضغط زرا صغيرا لاستبدال الكلمات فى الكتاب الذى بين يديه بكلمات من كتاب آخر فى مكان آخر. لقد أراد أن يكون الكتاب الذى بين يديه قابلا لإعادة الكتابة عليه إلى الأبد - أن يكون فى الواقع آخر كتاب على الإطلاق يتوجب عليه أن يمتلكه. لقد أسماه «الكتاب الأخير». ولصناعة الكتاب الأخير، كان عليه أن يخترع نوعا جديدا من الورق: «ورق البث RadioPaper».

قام «جاكوبسون» ومجموعة من الطلاب فى «معهد ماساتشوسيتس للتكنولوجيا» بإعداد قوائم بالاحتياجات والوسائل والمواد. وكان أحد أفكارهم: ورق البث يجب أن يعكس مثل الورق الحقيقى. لا يجب أن يومض. ولا يمكن صناعته باعتباره نوعا محسنا من شاشات الكريستال السائل، مهما ارتفعت دقة وضوحه أو درجة كمال ألوانه أو سرعة ارتعاشه غير الملحوظة، وذلك لأن الكريستال السائل يضاء خلفيا، والإضاءة الخلفية - حسب اعتقادهم - سيئة لأنها قاسية على العين. كما أنهم اعتقدوا أن ورق البث يجب أن يكون مرنا وأن يدوم حتى يتم تدويره. ويجب أن يحتفظ بصورته حتى عندما لا يسحب أى تيار كهربى، مثل الورق العادى تماما. كيف يمكن تحقيق ذلك؟ جاء أحد الطلاب بفكرة صنع حرام من الكريات البيضاء الدقيقة فى صبغة ملونة. ولتشكيل الحرف «A» على سبيل المثال، فإن نوافير دقيقة من الكهرباء سوف تمسك بعضا من الكريات الدقيقة وتجذبها للأسفل فى غشائها، غامرة إياها فى الصبغة، ما يجعل ذلك الغشاء والأغشية المحيطة به تصبح داكنة وتبقى داكنة إلى أن تمر مزيد من الكهرباء خلالها فى خلال ثانية أو يوم أو أسبوع. كان ذلك هو سحر الحمل الكهربى.

فى عام ١٩٩٧، انضم «جاكوبسون» وشركاؤه إلى «روس ويلكوكس Russ Wilcox» وهو مقاول مشروعات من «كلية هارفارد للأعمال Harvard Business School»، لإنشاء شركة «إى إنك». قال «ويلكوكس» مؤخرا عبر الهاتف «عندما شرعنا فى ذلك، كان رد فعل الناس «أوه، أنتم تحاولون قتل الكتاب». وكنا نرد «كلا، نحن نحب الكتاب». للأسف، نحن نخشى على مستقبل الكتاب، لأن الناس لا يتوقعون اليوم سوى وسائل الإعلام الرقمية. إن الضغوط الاقتصادية هائلة».

قدر «ويلكوكس» قيمة أعمال صناعة الصحف بمائة وثمانين مليار دولار سنويا، وقيمة نشر الكتب بثمانين مليار دولار إضافية. كانت نصف تلك التكلفة تذهب إلى صناعة الورق وخلط الأحبار والطبع والنقل والجرد وتخزين السلع العينية. وأخبرنى «وبذلك يمكنك توفير مائة وثلاثين مليار دولار سنويا إذا ما قمت بنقل المعلومات رقميا. هناك الكثير من القوى الخفية العاملة والتى تتضافر جميعا لتحقيق موجة المد الكبيرة القادمة».

واجهت «إى إنك» بعض المشاكل بعد عام ٢٠٠٠ عندما تقلص المطروح من حجم رأس المال المغامر. وتغيرت توجهات الشركة قليلا. إنها لن تصنع «الكتاب الأخير»، ولكنها ستبيع لمصنعين آخرين الوسائل لتحقيق ذلك. لقد اقتدت الشركة فى ذلك بـ «كوكاكولا Coca-Cola» - التى نمت كثيرا من خلال بيع المشروب والسماح للآخرين بتعبئته - و«نوتراسويت NutraSweet». قـــــال



«ويلكوكس» «تخيل أنك «نوتراسويت». وصناعة الكولا موجودة بالفعل وتعمل. ولا توجد أمامك وسيلة لصناعة كولا الريجيم الخاصة بك والمنافسة رأسا برأس. إذا ماذا تفعل؟ تقوم ببيع المكونات».

كانت «سونى Sony» هى أول عميل كبير متاح لـ «إى إنك». اشترت «سونى» كمية كبيرة من شاشات عرض «فيزبليكس» لقارئها الإلكترونى «PRS-٥٠٠»، الذى طرحه «هوارد ستريـنجر Howard Stringer»، الرئيس التنفيذى لـ «سونى»، فى معرض الإلكترونيات للمستهلكين فى «لاس فيجاس» فى يناير من عام ٢٠٠٦، واقفا أمام صورة فوتوغرافية للنسخة المحمولة كهربيا من رواية «دان براون Dan Brown» «شيفرة دافنشى The Da Vinci Code». أنشأت «سونى» منفذا لبيع الكتب على الإنترنت، وباعت أجهزتها فى «بوردرز بوكس Borders Books» و«سونى ستور Sony Store» و- لاحقا - فى «تارجت Target» و«كوستكو Costco» و«ستابلز Staples» و«وولمارت WalMart». إن «سونى» بالطبع شديدة البراعة فى تصميم الأجهزة المحمولة باليد. كان قارئ «سونى» جيدا جدا، بالنظر إلى محدودية إمكانيات مادة «فيزبليكس»، ولكن كانت تنقصه خاصية اللاسلكى - كان يتوجب عليك أن توصله بالكمبيوتر عن طريق كابل «يو إس بى USB» حتى تقوم بتحميل كتاب عليه - ولم تكن «سونى» تتمتع بموهبة بيع الكتب بالتجزئة. تم بيع مئات الآلاف من «قارئ سونى» - ويمكنك الآن أن تقرأ عليه نصف مليون كتاب مجانى من «جوجل Google» بصيغة «إيباب ePub» - ولكن من الغريب أن الناس تتجاهله.

بالإضافة لـ «سونى»، سارعت العديد من الشركات الأخرى لتطوير أجهزة مبنية على «فيزبليكس». كانت «أمازون» واحدة منها. فمنذ عام ٢٠٠٠ تطرح «أمازون» أنواعا مختلفة من الكتب الإلكترونية (تقرأ على شاشة الكمبيوتر) ولكنها لم تحقق نجاحا. فكما صرح «جيف بيزوس» لـ «شارلى روز Charlie Rose» فى نوفمبر ٢٠٠٧ إبان طرح «كيندل١»: «لا أحد يشترى كتبا إلكترونية. إن التحول إلى الصفحة الرقمية لم يحدث. لماذا؟ «لأن الكتب جيدة جدا» حسب قول «بيزوس». وقد أوضح أنها جيدة لأنها تختفى عندما تقرأها: «فأنت تصل إلى تلك الحالة من التدفق - كما أنه (وإن لم يذكر ذلك) باعه بسعر مخفض ليدرأ «سونى» عن التعدى على صناعة الكتاب ويربط المشترين بـ «أمازون» للأبد.

وهكذا، غامر مهندسو «بيزوس» - بما فيهم «جريج زير Gregg Zehr» الذى كان يعمل سابقا لدى «بالم Palm» و«آبل Apple» - بتصميم الجهاز. صرح «بيزوس» لـ «نيوزويك» فى ذلك الوقت «هذا هو أهم شىء أنجزناه على الإطلاق. إنه طموح عظيم أن تأخذ شيئا متطورا جدا مثل الكتاب ثم تعمل على تحسينه».

ولكن «كيندل١» لم يكن تحسينا. كان تقليب الصفحات بطيئا وكانت تصاحبه ومضة من السواد عندما كانت الجسيمات الكروية الدقيقة تغوص فى العقد المملوءة بالزيت قبل تكوين النص الجديد. كتب «جوزيف فايزنتال Joseph Weisenthal» على موقع paidContent.org: «الشىء الأول الملحوظ هو أن الشاشة لا تشبه قراءة ورق حقيقى. فهى ليست بنفس درجة السطوع، وهناك وهج فى حالة ما إذا كان الضوء مباشرا أكثر من اللازم».

لم تكن المشكلة فقط فى شاشة «فيزبليكس». كان تصميم «كيندل١» نكسة غريبة - عبارة عن كتلة من البلاستيك غير متناسقة للحمل باليد. كانت لوحة مفاتيحه تتكون من أزرار عديدة مستطيلة متراصة كأنها سيارات فى ساحة للانتظار، وزر طويل لتقليب الصفحات شكا المئات من المستخدمين من أنه كان يجعلهم يقلبون الصفحات عن غير قصد عندما كانوا يحملونه. وقد ذكر أحد المعلقين ويدعى «كينك KenC» على موقع «Silicon Alley Insider» «بصراحة، كان الجهاز قبيحا وينتمى إلى حقبة بداية التسعينيات». وكانت التعليقات على موقع Engadget.com أكثر حدة على وجه الخصوص. كتب «ماركوس» «يبدو وكأنه جهاز «تايمكس سنكلير Timex Sinclair» تم لصقه أسفل جهاز «بالم Palm» كبير الحجم من الجيل الأول». ووافقه «جوهان» «هذا هراء قبيح». وسأل «جيروم» «هل تم تصميم هذا الشىء اللعين بواسطة مجموعة من الجان المخمورين؟ ولخص «سى بى» الموضوع: «إنه فعلا شديد القبح. ياه. قبيح».

لم يرتدع فريق «أمازون» وروجوا لتسويق «كيندل١» فى أواخر عام ٢٠٠٧. وكان الحظ فى جانبهم. فقد أعلنت «أوبرا Operah» التى تم تسريب «كيندل» إليها قبل طرحه أنها مغرمة به. قالت «إنه الشىء المفضل لدى فى العالم على الإطلاق. لقد غير حياتى». ولمواجهة التهديد، كثفت «سونى» من دعايتها لـ «PRS-٥٠٠»، ولكنها لم تتمكن من المنافسة. فقد باعت «أمازون» جميع أجهزة «كيندل» قبل أعياد الميلاد عام ٢٠٠٧.

لابد أن قراءة آراء النجمة الواحدة حول الجهاز، والتى تراكمت على مدار عام ٢٠٠٨، كانت تجربة مؤلمة لمهندسى منتج «أمازون». ومع ذلك فقد واصلوا العمل لتجهيز النسخة المعدلة - تشذيب الحواف ومعالجة أكثر العيوب المادية الأكثر وضوحا. وقد جعلوا تقليب الصفحات أكثر سرعة بحيث أصبح الوميض الأسود أقل إزعاجا، كما جعلوا الشاشة تعرض ست عشرة درجة من اللون الرمادى بدلا من أربع، وهو تحسين أفاد إلى حد ما بالنسبة للصور الفوتوغرافية.



رغم التصميم الأكثر نعومة، يقول البعض أن «كيندل٢» أكثر صعوبة فى القراءة من «كيندل١» كتب أحد المستخدمين ويدعى «تى فورد» «لقد لاحظت على الفور أن التباين فى «كيندل٢» كان أسوأ من «كيندل١». وبدأت إحدى المستخدمات «إليزابيث جلاس» التماسا على الإنترنت ترجو «أمازون» أن تصلح مشكلة التباين. وصرحت ملتمسة أخرى تدعى «لويز بوتر» «كأنك تقرأ جريدة مبتلة».

كانت هناك مشكلة أخرى مع «كيندل المعدل - الخبو. فقد اكتشف بعض المستخدمين (لم أكن من بينهم مع ذلك) أن الحروف تبدأ فى الاختفاء عندما يقرأون فى الشمس. واضطر القراء إلى الضغط على زرى Alt-G عدة مرات لاستعادة الحروف. كتب أحد المستخدمين «وودى»: «كان اليوم هو أول يوم تسطع فيه الشمس، ولذلك أخذت «كيندل» إلى الخارج فى الشمس، فشعرت بالخيبة لرؤيتى للنص يخبو فى خلال ثوان (وخاصة بالقرب من مركز الشاشة). وقال مستخدم آخر «مارك»: لقد فحصت أربعة أجهزة «كيندل» حتى وجدت واحدا جيدا لا يخبو فى ضوء الشمس. كان الأمر شجارا، ولكن «أمازون» لديها خدمة عظيمة لما بعد البيع».

بقيت «أمازون» مخلصة تماما لنظرية الحمل الكهربى. وقد أخبر «بيزوس» محللى الأسهم فى أبريل «نعتقد أن القراءة هى نشاط هام بما يكفى لأن يستحق أداة تصنع خصيصا لهذا الغرض. فى منتصف يونيو، طرحت «أمازون» - مستمدة التشجيع من رواج «كيندل٢» - جهازا أكبر هو «كيندل دى إكس Kindle DX» بحجم جهاز تليفزيون صغير. يستطيع «كيندل دى إكس» أن يقلب الصورة عندما تديره جانبيا. مثل جهاز «iPod Touch» (رغم أن حساسية نظام التوجيه بالقصور الذاتى به تجعل الصفحة أحيانا تدور عندما لا تريد أنت ذلك)، كما يمكنك أن تستعرض عليه - ولكن دون خاصية التكبير أو التتبع - ملفات «PDF» غير المحولة. مرة أخرى أصيب المهندس المكلف بتصميم لوحة المفاتيح بنيران الرجعية المقدسة: وكانت النتيجة أزرارا مضغوطة مصفوفة بشكل حبوب الدواء تجمع مفاتيح الأرقام مع مفاتيح الحروف بالصف العلوى فى شكل غريب غير متناسق. وقد وضعت برامج رائدة فى العديد من الجامعات - بما فيها «برنستون Princeton» بهدف اختبار قدرات «كيندل دى إكس» كبديل للكتب الدراسية والنسخ الورقية من المواد الدراسية. وتقوم مؤسسة «High Meadows Foundation» بتمويل برنامج جامعة «برنستون» جزئيا، تحت شعار المحافظة على البيئة؛ وبالنسبة لـ «أمازون»، تعد تلك أيضا وسيلة لدخول السوق الواحد للكتب الدراسية، بجانب «بارنز آند نوبل» و«كينكو Kinko» وشركة تدعى «زانيدو XanEdu».

ولكن العصف الحقيقى بشأن «كيندل دى إكس» الجديد يتعلق بمصير الصحف. إن «كيندل دى إكس» يتيح من «فيزبليكس» أكثر من ضعف المساحة الموجودة لدى «كيندل٢» - حوالى نصف مساحة قطعة ورق من قياس صفحة الرسائل - وهى مساحة تكفى - كما يؤكد البعض - لجذب قراء الإنترنت للدفع مقابل نسخ رقمية من - على سبيل المثال - «تايمز»، مما يتيح إنقاذ الصحافة اليومية المطبوعة من الخراب المالى. وحسبما يذكر موقع «أمازون» فإن «قراءة الصحف من خلال شاشة العرض الواسعة لـ «كيندل دى إكس» هى أكثر متعة من أى وقت مضى».

قدر «ويلكوكس» قيمة أعمال صناعة الصحف بمائة وثمانين مليار دولار سنويا، وقيمة نشر الكتب بثمانين مليار دولار إضافية

3500
كتاب
في حقيبتك

ستكون ممتعة لو أنك تحب قراءة نسخ ماكينات تصوير المستندات. إن نسخة «كيندل» من «تايمز» (١٣,٩٩ دولار شهريا) تنقصها معظم الصور الرائعة للنسخة المطبوعة - وكذلك العناوين الفرعية والتنويهات وفخامة وتنوع الطباعة البديعة وقابلية التصفح ووصلات الإنترنت وقائمة أسماء المراسلين المشاركين وكذلك الغالبية العظمى من الرسوم والأشكال التوضيحية وخرائط الطقس وألغاز الكلمات المتقاطعة وملخص نتائج المباريات والبيانات المالية وكذلك - بالتأكيد - الإعلانات عن المجوهرات وملابس السباحة وأماكن قضاء الأجازات والمؤسسات الاستثمارية المستحوذ عليها حديثا. إن قرنا ونصف قرن من الجمال المتطور والتعبيرية المعلوماتية قد ذهبت أدراج الرياح في تلك الأكذوبة الرقمية.

في بعض الأحيان، تختفي مقالات كاملة ومساهمات في المقال الافتتاحي. لقد اختفت من نسخة «كيندل»، أو على الأقل لم أستطع العثور عليها (رغم أنها متوفرة مجانا على موقع «تايمز» على الإنترنت) ثلاثة مقالات من عدد الثامن من يوليو ٢٠٠٩ من نسخة «تايمز» المطبوعة - هي مقالة «آدم ناجورني Adam Nagourney» حول استقالة «سارة بالين Sarah Palin»، ومقالة «أليساندرا ستانلي Alessandra Stanley» عن جنازة «مايكل جاكسون Michael Jackson»، ومقالة «دافيد جونستون David Johnston» عن الحقوق المدنية للمعتقلين؛ وقد افتقدت نسخة «كيندل» بتاريخ ٩ يوليو تقرير النسخة المطبوعة عن شركاء السكن من الأعراق المختلفة في المدن الجامعية ومعدلات عدم فاعلية حبوب الإجهاض. وقد قمت بالتدقيق ثانية يومي ٢٠ و٢١ يوليو: لقد غابت مقالة «فيرلين كلنكنبورج Verlyn Klinkenborg» في مديح «والتر كرونكايت Walter Cronkite»، وكذلك مقالة طويلة عن الديانة الشامانية للمغول.

إن«كيندل دي إكس» لا ينقذ الصحف؛ بل أنه يقلصها وينتقص منها - إنه يقتل بهجتها. إنه يحولها إلى مدونات جادة ولكن يمكن الاستغناء عنها.

إن «أمازون» بارعة جدا في بيع الأشياء، بالقوائم البديعة لمنتجاتها وبالتوصيات التي تكون موجهة أحيانا وبالآراء الخلابة العديدة. ولكنها ليست على نفس القدر من البراعة - حتى الآن على الأقل - في صناعة الأشياء. ولكن إذا أردت قراءة كتب إلكترونية فهناك لحسن الحظ سبيل آخر أمامك. اشترى «iPod Touch» (يكلف سبعين دولارا أقل من «كيندل٢»، حتى بعد خفض سعر «كيندل٢» مؤخرا)، أو اشترى «iPhone»، وقم بتحميل تطبيق «kindle for iPod» عليه. عندئذ، عندما تستيقظ في الثالثة صباحا وتحتاج إلى كلمات حزينة كبيرة مرتبة تتدفق ببطء إلى أعماق عقلك، ولا ترغب في إيقاظ شريكك في الفراش، فيمكنك مد يديك تحت الوسادة لتجد جهاز «آبل» الناعم وتقوم بتشغيله. إنه صامت تماما. امسكه على بعد بوصات قليلة من وجهك، مع تكبير الكلمات وضبط القضيب المنزلق لسطوع الشاشة على أدنى درجة، ثم اقرأ لمدة عشر أو خمس عشرة دقيقة. وكلما أردت تقليب الصفحة فقط حرك إبهامك فوقها، كما لو أنك تستعد لتوزيع ورقة لعب؛ عندما تفعل ذلك، سوف تنزلق الصفحة بعيدا وتظهر واحدة جديدة مكانها. بعد برهة، سوف تنجرف أفكارك وتذهب في النوم. سوف تستيقظ بعد لحظة وتكتشف أنك ما زلت تمسك بالجهاز ولكنه قد أغلق نفسه. ضعه ثانية تحت الوسادة. ثم أكمل نومك.

فعلت ذلك مع رواية «جوزيف ميتشيل Joseph Mitchell» «قاع الميناء The Bottom of the Harbor» (١٣,٨٠ دولار لنسخة «كيندل»، و١٧,٢٥ دولار للنسخة الورقية). ورواية «حجر القمر Moonstone» لـ «ويلكي كولينز Wilkie Collins». إن دقة وضوح شاشة «iPod» هي عالية بشكل جيد، بنقاطها الـ ١٦٣ في البوصة المربعة. (ومع ذلك، من الممكن أن تكون أعلى من ذلك كثيرا. لقد توصلت إلى الاعتقاد بأن كثافة النقاط العالية - وليس السطح العاكس - هو ما يحتاجه الناس عندما يقرأون النشر الإلكتروني). هناك أيضا طرق أخرى لقراءة الكتب على «iPod». والطريقة المفضلة لدى هي تطبيق «يوكاليبتوس Eucalyptus» من إنتاج مطور برمجيات سكوتلاندي يدعى «جيمس مونتجومري James Montgomerie": ففي مقابل ٩,٩٩ دولار، تحصل على أكثر من ٢٠ ألف كتاب متاح مجانا ويتم تقليب صفحاتها بأناقة مبهجة. وهناك أيضا برنامج «قارئ الأيسبرج Iceberg Reader» من شركة «سكرولموشن ScrollMotion» بأرقام صفحات ثابتة، وهناك تطبيق شائع جدا يسمى «ستانزا Stanza». وبإمكانك - مع «ستانزا» - اختيار ألوان الكلمات والصفحة، وكذلك ضبط درجة السطوع أثناء القراءة بواسطة رافعة إبهامية عمودية. ويأخذك «ستانزا» إلى «Harlequin Imprints» و«Fictionwise» و«Book Store» و«Oص Reilly Ebooks» و«Feedbooks» وعدد آخر من الكتالوجات. وقد قام مليون شخص بتحميل «ستانزا». (في الحقيقة أن «ستانزا» هو جيد إلى درجة أن «أمازون» اشترت لتوها شركة «ليكسايكل Lexcycle» التي تقوم بتصنيع البرنامج؛ وفي الوقت نفسه، قامت «بارنز آند نوبل» القلقة بشراء شركة «فيكشنوايز Fictionwise».



ينتشر في العالم أربعون مليون من أجهزة «iPod» و«iPhone»، ومعظم الناس لا يقرأون الكتب عليها. ولكن بعضهم يفعل. واللطيف في تلك الأجهزة أنها - أولا - جميلة، و- ثانيا - لا تقلد شيئا آخر. إنها لا تحاول أن تكون حبرا على ورق. إنها تشبع حاجة القراءة الليلية التي لا يلبيها «كيندل» عديم الضوء. ومقطع الزنابير في «هل تفكر الحشرات؟» هو ممتع مرة ثانية على «iPod».

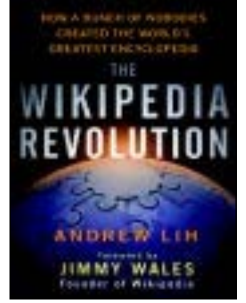
إن الطبعة الورقية من «محامي لينكولن» (٧,٩٩ دولار لدى «شيرمان» في «فريبورت») تحتوي على غلاف أخضر ساطع عليه صورة مشوشة لسيارة على الغلاف الأمامي. ويظهر على الكتاب «MICHAEL CONNELLY» بحروف أرجوانية معدنية ضخمة، وعلى الغلاف الخلفي، هناك حزام أرجواني: «رقم ١ على قائمة نيويورك تايمز لأفضل المبيعات». وعلى الغلاف الخلفي «حبكة تتحرك مثل طلقة من مشروب «ريد بول Red Bull». إنه براق وجديد ومناسب ويتمتع بالبساطة الهرمونية المثيرة للبابة والصمغ. عندما تقرأ الكتاب ينفتح أمام عينيك وتشعر وكأنك في داخله. لقد استحوذت على النسخة المطبوعة من «محامي لينكولن». في المساء، تحولت إلى النسخة الإلكترونية من الكتاب على «iPod» (٧,٩٩ دولار من منفذ بيع «كيندل») حتى أتمكن من الاستمرار في الظلام. بدأت في تقليب الصفحات الدقيقة لـ «iPod» أسرع وأسرع.

ثم أجبرت نفسي - من منطلق الإحساس بالواجب - على قراءة الكتاب على «كيندل٢». كان الأمر أشبه بالانتقال من سيارة «ميني كوبر Mini Cooper» (سيارة بريطانية ضيقة جدا، المترجم) إلى سيارة «إمبالا Impala» (سيارة أمريكية واسعة جدا، المترجم) موديل ١٩٨٢ وذات أجهزة امتصاص صدمات تالفة. ولكن لا يهم: عند تلك النقطة، كنت قد اندمجت في حبكة الرواية ولم يعد شيء يهم. للعجب، أحسست وكأن «كيندل» قد اختفى، تماما كما وعد «جيف بيزوس». بدأت أمشي ذهابا وإيابا في طريق خاص، أقرأ في الشمس. كانت ثلاثة جزازات عشب تعمل بعيدا. وكان شخص يرتدي قميصا وردي اللون يرش بخرطوم عبر الشارع. ولكني كنت في قاعة المحكمة استمع إلى شهادة القاتل. شعرت بفضول طفولي شديد لا يقاوم في معرفة كيف ستسير الأمور.

بدأت في الضغط على زر «الصفحة التالية» بلهفة متزايدة لدرجة أن عادتي في تقليب الصفحات، والتي اكتسبتها عبر أعوام من القراءة - وهي مد يدي إلى ركن الصفحة مبكرا قليلا للاستعداد لقلبها - عاودتني بلا وعي. فكنت أضغط على زر «الصفحة التالية» بمجرد وصولي إلى بداية السطر الأخير، وكانت الصفحة تومض بالسواد وتتغير قبل أن أقرأها بالكامل. كنت أحاول أن أتعجل «كيندل». لا يجب أن تتعجل «كيندل». ولكن هيهات، لم أهتم بذلك. كان قضيب قياس التقدم بالأسفل يشير إلى أنني أنجزت ٩١٪. كنت عند السطر ٧٥٤٧. كنت أطير. فكرت، إن اللون الرمادي جيد. في النهاية، وصلت للمقطع الأخير. كان بعنوان «بطاقة بريدية من كوبا». أطلقت تنهيدة طويلة ساخرة. قرأت الإهداءات والفقرة عن المؤلف - يعيش «مايكل كونيللي» في فلوريدا. إنه رجل طيب. وصل مؤشر التقدم الصغير إلى ٩٩٪. ضغطت على زر «الصفحة التالية». فظهر غلاف الكتاب ثانية. ضغطت مرة أخرى، ولكن لم تكن هناك صفحة تالية. لقد وصلت روايتي الأولى على جهاز «كيندل» إلى نهايتها. ■

إن «أمازون» بارعة جدا في بيع الأشياء، ولكنها ليست على نفس القدر من البراعة. حتى الآن على الأقل. في صناعة الأشياء





Wikipedia Revolution: how A bunch of nobodies created the world's greatest Encyclopedia

ثورة الويكيبيديا: كيف خلقت مجموعة من النكرات اعظم موسوعة فى العالم

Andrew Lih
Foreword by: Jimmy wales
Bargain Price, 2009
pp237, $7.68

«تخيل عالما يكون لدى كل شخص فيه الحرية الكاملة فى المشاركة فى صياغة موسوعة تتضمن جميع دروب المعرفة البشرية، ان هذا هو ما نفعله»

جيمى ويلز (مؤسس الويكيبيديا)

لقد أصبحت الويكيبديا ظاهرة حقيقية على الإنترنت،حيث تضم ما يزيد على ٢.٥ مليون مقال باللغة الإنجليزية، ولكن اللغة الإنجليزية تمثل أقل من ثلث العمل الكلى فيها، فقد تحولت الويكيبيديا إلى مشروع عالمى يشمل العديد من اللغات، حيث يوجد بها أكثر من ٨ ملايين مقال باللغة الألمانية، وما يزيد على ٥٠٠.٠٠٠ مقال باللغات الفرنسية واليابانية والبولندية، وفى المجمل هناك طبعات بحوالى خمس وعشرين لغة على الأقل تمثل ١٠٠.٠٠٠ مقال، ومن هنا احتلت الويكيبديا الترتيب الثامن من حيث أكثر المواقع التى يطرقها المترددون على الانترنت، حيث فاق انتشارها - على سبيل المثال - صحيفة نيويورك تايمز، وفى الويكيبيديا يكون لدى كل شخص حرية الدخول والمشاركة أيضا فى تحرير المحتوى، مما جعل معدل الكلمات فى الموقع يفوق ثلاثة ملايين كلمة شهريا..

ويقدم كتاب «ثورة الويكيبديا: كيف قام مجموعة من المجهولين بصياغة أعظم موسوعة فى العالم » القصة الكاملة للكيفية التى حدث من خلالها كل هذا منذ أن كان الموقع مجرد فكرة الى أن تحول إلى ظاهرة عالمية.

وقد كان أندرو ليه - مؤلف الكتاب - واحدا من المديرين المسئولين عن الويكيبيديا لمدة أربع سنوات، وهو يصف فى هذا الكتاب تفصيلا بدايات الموقع، ويتتبع تطوره وتناميه الملحوظ، بينما يوضح أيضا النتائج الثقافية الأعظم له.

الويكيبديا ليست فقط مجرد موقع على الإنترنت، إنها مجتمع عالمى من المساهمين الذين اجتمعوا من أجل هدف مشترك وهو اتاحة المعرفة بشكل مجانى للجميع.

وقد قام بكتابة مقدمة الكتاب مؤسس الويكيبيديا جيمى ويلز، حيث يقول: «لقد أصبح من الصعب الآن استخدام الإنترنت بدون الاستعانة بالويكيبديا فى البحث أو التصفح، ذلك لأنها أصبحت مصدرا شديد الأهمية على الإنترنت يصاغ بالعديد من اللغات».

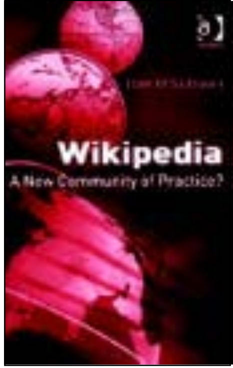
إنك الآن عندما تستخدم الويكيبيديا ربما لا تفهم الفلسفة التى تكمن خلفها، ما هى الويكيبديا؟ يعرف جيمى ويلز الويكبيديا بأنها عبارة عن موسوعة حرة ومتاحة يقوم بصياغتها مجموعة من المتطوعين بالعديد من اللغات، ولعل الإتاحة الحرة والمجانية هى واحدة من أهم سمات الويكيبديا، انها تعنى منح الناس أربعة أنواع من الحريات، حيث إنك تحصل على الحرية فى نشر أعمالك، تستطيع التعديل والتغيير فيها، وإعادة توزيعها ونشرها، وتستطيع أيضا اعادة توزيع ونشر النسخ المعدلة منها، ويمكنك القيام بكل هذا سواء بشكل تجارى أو غير تجارى.

يقول جيمى ويلز فى مقدمة الكتاب: «إننا عندما نتحدث عن الويكيبديا لا نتحدث عن السعر الذى يتعين عليك دفعه فى مقابل الدخول اليها، وانما نتحدث عن الحرية التى ستستمتع بها وتتبناها وتستخدمها كيفما تحب».

إن كل الابداع التكنولوجى الذى يكمن خلف الويكيبديا ليس أكثر من موقع ألكترونى أو مساحة على الإنترنت يستطيع أى فرد الحصول عليها، ولكن الويكيبديا ليست ابداعا تكنولوجيا، انها ابداع اجتماعى فى المقام الأول، حيث أظهرت الويكيبيديا - على حد قول جيمى ويلز - لنا المعانى القوية والحقيقية التى تتجه نحو تمكين جميع الناس من التعاون لإنجاز عمل جيد».

ومن هنا يتناول الكتاب الويكيبديا كظاهرة اجتماعية وتكنولوجية، ويعرف ماهية الويكيبديا وجذورها ونشأتها، وكيف تطورت لمجتمع معرفى واسع الانتشار، ويتناول الكيفية التى تعمل بها، وسياستها، وكيف اتسعت وانتشرت، وكيف تم تنويع لغات تحريرها مع عرض للويكيبديا اليابانية، والويكبيديا الألمانية، والصربية، والكازاخستانية، واللغات الأفريقية، ويتعرض الكتاب للانتقادات التى وجهت للويكيبديا والأزمات القانونية التى تعرضت لها، والجدل الدائر حولها.

■



Wikipedia: A New Community Of Practice

ويكيبيديا: مجتمع جديد من الممارسة

Dan O'Sullivan
Ashgate, 2009
Pp 187, $79.

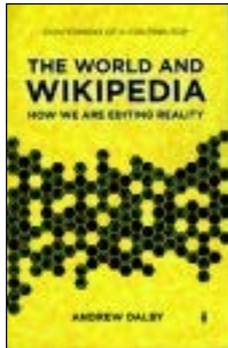
خلال فترة وجودها القصير أثبتت الويكيبديا وجودها وحققت نجاحا ملحوظا، حيث أصبحت مقالاتها متاحة مجانا لمستخدمى الإنترنت بمجرد دخولهم إلى صفحة الإنترنت. ويرى المؤلف أن الويكيبديا يمكن أن ينظر إليها على أنها نسخة القرن الواحد والعشرين من المحاولات التاريخية المبكرة لجمع المعرفة البشرية فى مكان واحد، ولعل هذا الكتاب يقدم ولأول مرة وصفا لبعض هذه المحاولات المبكرة، حيث يناقش المؤلف خمس جماعات أو مجتمعات تاريخية حاولت اجراء هذا،جميعها كان لديها طموح مشابه للويكيبديا ألا وهو إحداث تأثير فى مجتمعاتهم فى وقتها من خلال إتاحة المعلومات ونشرها. ويتضمن الجزء الثانى من الكتاب تحليلا للويكيبديا نفسها، بينما يتضمن الجزء الثالث اقتراحات عن كيفية توجيهها والمساهمة فيها، وما يمكن أن يحصل عليه الفرد من خلالها، ولعل الكتابة بنمط سهل وسلس هو ما اتسم به المؤلف الذى تبنى اتجاها اجتماعيا تاريخيا فى طرحه للموضوع وناقش ذلك من خلال مجتمعات الممارسة فى الماضى وكيف يمكننا أن نفهم بشكل أكبرالطبيعة السياسية والراديكالية للويكيبديا.

هذا الكتاب عن الويكيبديا كموسوعة الكترونية واسعة الانتشار، ويتحدث أيضا عن من أطلق عليهم «الويكيبيديون» وهو يعنى بهم المجتمع المسئول عنها. ويرى أن الويكيبديا وان كانت قد حققت نجاحا من حيث حجمها وحجم الذين يستعينون بها، ولكنها بالرغم من ذلك أيضا غريبة عن تقاليدنا الثقافية بطرق عديدة، ويوجه لها العديد من الانتقادات منها أنها تتم ادارتها وتحريرها من قبل أناس عاديين وليسوا أكاديميين أو متخصصين فى مجالات المعلومات التى يتم طرحها، وثانيها أن الويكيبديا تفتقر إلى الإحكام والخصوصية وحقوق الملكية، وهناك حرية زائدة فى استخدامها وتحريرها، على حين أننا نميل إلى قياس مدى نجاح أى مشروع بمعايير ومصطلحات مادية، والنقد الثالث أنه تتم ادارتها وتحريرها من قبل مجموعة من المجهولين.

ولعل هذا الكتاب سيجد صدى كبيرا لدى المهتمين برصد نمو هذا المشروع الفريد، متضمنا المتخصصين فى ادارة تكنولوجيا المعلومات، والباحثين فى التاريخ، والاجتماع، والتعليم.

ولقد قضى مؤلف الكتاب دان سوليفان معظم حياته فى تدريس التاريخ فى الجامعة، وقام بتأليف كتب أخرى مثل «ثقافة الشباب»، و«عصر الاكتشاف ١٤٠٠-١٥٥٠»، و« تيودور بريتين».

■



The World and Wikipedia: How we are editing reality

العالم وويكيبيديا: كيف نحرر الواقع

Andrew Dably
Siduri Books, 2009
Pp 256 , $18.48

تناول أى مقال من المقالات المنشورة على ويكيبديا وتأمله، من الذى كتب هذا المقال؟ من أين جاء؟ الآن يمكنك أن تنظر من زاوية أكثر قربا لهذه الجمل المكتوبة بصياغة سيئة وغير مقنعة، لماذا يضيف شخص ما هذه المقالات؟ كم تستغرق من الوقت قبل أن يقوم شخص آخر بحذفها؟ وكم عدد الناس الذين يقرءونها قبل أن يتم تداركها وحذفها؟

منذ خمس سنوات مضت أسئلة كهذه لم يكن أحد يلتفت إليها، وكانت الويكيبديا عبارة عن مصدر واحد بين العديد من المصادر، ولم تكن تمثل قضية ذات بال، ولا يأخذها أحد بجدية شديدة، ولكن منذ عامين تقريبا أصبحت قضية ذات شأن وتشغل بال الكثيرين، لأن الصحف بدأت تردد منذ هذه الآونة أن الويكيبديا كمصدر للمعلومات لا يمكن الوثوق فيه، وفجأة أصبحت هذه الأسئلة تتزايد بدون جدوى، وبالرغم من الأخطاء الفادحة وجهلها وعدم مصداقية ما يرد فيها من معلومات فهى تصنف فى المركز الثامن من بين أكثر المواقع اقبالا على الإنترنت. وبغض النظر عن كل ما يقال عنها فإن معظم الناس يعتمدون

عليها معظم الوقت، وتتحول لتصبح الأفضل، ولكن هل هذا كاف بشكل جيد لصياغة عالم من المعرفة؟ وكيف ستكون مدى ضخامة الويكيبديا بعد عشر سنوات من الآن؟

هذه هى الأسئلة التى يطرحها ويحاول الإجابة عنها كتاب «العالم والويكيبديا: كيف نحرر الواقع.

■



The Facebook Effect: The Inside Story Of The Company That Is Connecting The World

تأثير الفيس بوك: الحكاية الداخلية للشركة التى توصل العالم

David Kirkpatrick
Simon & Schuster 2010
Pp384, $17.16

لا يوجد موقع مثل الفيس بوك، أكثر من ٣٥٠ مليون شخص لديهم حسابات على هذا الموقع، وإذا استمرت الزيادة بنفس المعدل، فبحلول عام ٢٠١٣ سيكون لكل مستخدم للإنترنت فى جميع أنحاء العالم حساب على صفحة الفيس بوك، ويتتبع كيركباتريك – المشرف على صفحة التكنولوجيا فى صحيفة فورتيون – الشركة منذ ميلادها، ومراحل انتشارها، ويناقش المؤلف أيضا المتضمنات الاجتماعية للموقع، من تحليل للأفكار والمصطلحات الواردة إلى محاولة الإجابة عن سؤال: لماذا وكيف يستخدم الناس الفيس بوك، ويمتد ليرصد تأثير الفيس بوك عليهم.

ولقد كان كيركباتريك لمدة سنوات واحدا من أهم كتاب صحيفة فورتيون، ولعل هذه الموهبة ظهرت بشكل واضح هنا، حيث يقيم المواقف العريضة والمعقدة المحيطة بالفيس بوك بطريقة سلسة وسهلة، حيث يحكى مؤلف الكتاب القصة المميزة لهذه الصناعة العملاقة، وعن الرجل الذى يكمن خلف كل هذا وهو مارك زوكربرج.

من المعروف أن الفيس بوك قد بدأ فى ٤ فبراير ٢٠٠٤ وكان يقتصر بداية على طلبة جامعة هارفارد، ثم امتد ليشمل جميع الطلبة الجامعيين، وقد بدأت شعبيته تتزايد وفقا لمنهج «الكرة الثلجية»، وهو المنهج الذى يمكن أن نصف به تنامى وانتشار ظاهرة الفيس بوك الى الآن. ولقد كان مؤلف الكتاب قادرا على التحدث مع لاعبى الأدوار المبكرة فى هذه القصة، متضمنة زوكربرج نفسه.

ويتناول الثلثان الأولان من الكتاب نمو الشركة تجاريا من عام ٢٠٠٤ إلى عام ٢٠١٠، بينما تتناول المائة صفحة الأخيرة من الكتاب موضوعات مثل: «الفيس بوك والعالم»، و«تطور الفيس بوك»، و«المستقبل»، وهى عبارة عن مقالات تأملية كانت ضرورية لإحداث التوازن داخل الكتاب.

■



Facebook: The Missing Manual

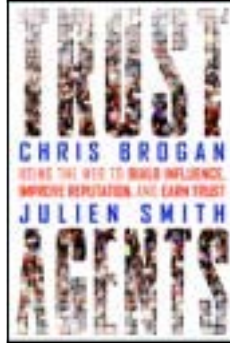
فيس بوك: الكتالوج المفقود

Vander Veer .A .E
Pogue Press, 2010
Pp 272 , $ 13.59

هو كتاب صغير الحجم نسبيا (٢٧٢ صفحة)، ولكنه يحتوى على شرح لكيفية التعامل مع الفيس بوك، حيث يحتوى الكتاب على معلومات قيمة للمستخدمين الجدد للفيس بوك، مصحوبة برسوم توضيحية وصور من صفحة الفيس بوك نفسها، وهو موجه نحو من يتطلعون لأن يكونوا جزء من مجتمع الفيس بوك، حيث يوضح الكيفية التى من خلالها تستطيع التواصل مع الآخرين على صفحة الفيس بوك، وكيف ترسل رسائل لأصدقائك، أو دعوات لأحداث معينة، ويتناول أيضا حماية الخصوصية بالاضافة إلى أجزاء متضمنة استخدام مواقع المساعدة فى الفيس بوك.

الفيس بوك موقع شديد الشعبية يتردد عليه أكثر من ٣٥٠ مليون شخص سواء للتواصل، أو لتحرير صفحات، أو الإعلان عن منتجاتهم، ولكن هناك شيئا واحدا لن تحصل عليه عند دخولك الى موقع الفيس بوك، ألا وهو الدليل الإرشادى المطبوع، لذلك فيمكنك الاستعانة بهذا الكتاب الإرشادى عن كيفية التحرك فى الموقع والمستجدات على موقع الفيس بوك ويغطى الكتاب أربعة أجزاء: كيفية البدء أو الالتحاق بمجتمع الفيس بوك، ثانيا كيفية الاستفادة من البرامج والألعاب المتاحة على الصفحة، ويتضمن الجزء الثالث كيفية الاستفادة من الموقع فى التسويق للمنتجات والشركات، ثم يتضمن الجزء الرابع شرحا للكيفية التى تستطيع من خلالها حماية خصوصيتك على الموقع.

■



Trust Agent: Using The Web To Build Influence , Improve And Earn Trust

وكيل الثقة: استخدام الأنترنت لبناء التأثير وتحسين وكسب الثقة

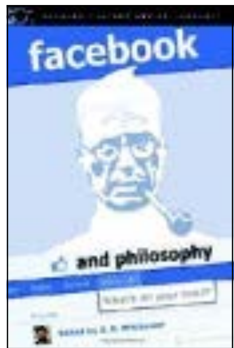
Chris Brogan and Julien Smith
Wiley; Rev Upd edition , 2010
Pp 302, $11.53.

«إذا كنت تريد النجاح لعملك التجارى لا تجلس على الجانب بينما هناك قنوات وأسواق جديدة تفتتح. بدلا من ذلك، استخدم الإنترنت لبث الثقة بينك وبين عملائك».

اليوم يستخدم المؤثرون على شبكة الإنترنت مواقع الإنترنت فى الترويج للثقة، وتحسين السمعة، والعلاقات، حيث يستخدم الإعلام الاجتماعى فى بناء الثقة فى الكيانات التجارية والسياسية، وفى كتاب «وكلاء الثقة: استخدام شبكة الإنترنت فى التأثير، وتحسين السمعة، وكسب الثقة»، وهو الكتاب الذى يتصدر قائمة المبيعات فى نيويورك تايمز،ووول ستريت يظهر لك اثنان من المتمرسين فى مجال الاعلام الاجتماعى الكيفية التى من خلالها تستطيع أن تنظم أو تتتبع قوة الشبكات الاجتماعية لتبنى تاثيرك وسمعتك وبالطبع مكاسبك.

ويعرض الكتاب كيف تستخدم الكيانات التجارية المواقع الاجتماعية مثل الفيس بوك وتويتر واليوتيوب فى التأثير، وكيف يمكن استخدام هذه الشبكات التى تعود عليك بنتائج ايجابية من خلال الدمج بين نظرية عالية المستوى وأفعال عملية. يقدم هذا الدليل الخطوات المتبعة ودراسات حالة التى تظهر كيف يستطيع الإعلام الاجتماعى أن يأتى بعائد إيجابى على مشروعك التجارى، حيث إن الشبكات الاجتماعية والارتباطات الشخصية لها تأثير أعلى بكثير على الجمهور من الرسائل التسويقية.

■



Facebook and Philosophy: What's on your minds ?

الفيس بوك والفلسفة: ماذا فى بالنا؟

Wittkower .E.D
Open Court, 2010
Pp 288 , $ 13.13

هل يمكن لتفاعلاتنا عبر الفيس بوك أن تساعدنا على الاهتمام كل منا بالآخر؟ هل الفيس بوك يعد علامة أو إشارة إلى موت الخصوصية، أو ربما على أسوأ تقدير موت رغبتنا فى الخصوصية؟ كيف يمكن أن تعبر صورة البروفايل الخاصة بالفرد على الفيس بوك عن تصوره لذاته، وما الذى يحاول مستخدمو الإنترنت أن يصوروه عن أنفسهم من خلال هذه الصور؟هل يجب أن نفكر فى صفحة البروفايل الخاصة بنا باعتبارها ممثلة لذواتنا الخاصة أو كنوع من المحادثة مع أصدقائنا عما نحب أن نكون فى المستقبل؟ كيف يمكن ان يستخدم الفيس بوك فى تنظيم المجتمع الواقعى الذى نعيش فيه؟ هل نكون متفاعلين من خلال الفيس بوك أم أن اهتمامنا ينصب فقط على ذواتنا؟ لماذا تعد العاب الفيس بوك شيئا غير معتاد بالنسبة لنا، ولماذا نرسلها لأصدقائنا؟ هل يمثل الفيس بوك معنى مختلفا للأجيال المختلفة؟

يتناول كتاب «الفيس بوك والفلسفة: ما الذى يدور فى عقلك » بشكل ضاحك محاولة الإجابة عن تساؤل ما الذى يعنيه الفيس بوك لنا وما يعنيه لعلاقاتنا مع الآخرين، مع مناقشة تتراوح بين طبيعة الصداقة وعلاقتها بصداقات الإنترنت، واثارة قضايا حول النشطاء على صفحة الإنترنت، ويعد الكتاب محاولة متقنة ومنظمة لفهم الفيس بوك الآن، وهو كتاب شديد الأهمية لكل شخص يعمل فى مجال الإعلام الاجتماعى، سواء فى المجال الأكاديمى، أو الصحفى، أو العلاقات العامة، أو من النشطاء، أو من أصحاب الأعمال التجارية.

وبالتالى ينصب تركيز الكتاب على ثلاثة أبعاد رئيسية وهى الحقيقة وإظهار أو تمثيل الذات، والصداقة، والوكلاء السياسيون.

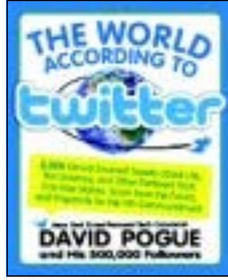
■

فـى أرشـيـف وجـهـات نـظـر

عــالــم جــديــد

- ريتشارد بريستون: الرعب البيولوجى ـ نوفمبر ٢٠٠١
- أيمن الصياد: الانترنت فى الزمن الأمريكى ـ فبراير ٢٠٠٢
- أحمد مستجير: الهندسة الوراثية: أمل الجوعى ـ يناير ٢٠٠٣
- جمال غيطاس: من يحكم العالم الافتراضى؟.. ديمقراطية الإنترنت ـ نوفمبر ٢٠٠٥
- تيموثى جارتون آش: هل هو موجود حقًا؟.. هذا الكائن الافتراضى ـ مارس ٢٠٠٦
- بيل ماكين: أمل الشبكة العنكبوتية..ـ أغسطس ٢٠٠٦
- راسل بيكر: GOOD BYE NEWSPAPERS ـ أكتوبر ٢٠٠٧
- جوشوا فوير: غياهب الذاكرة!! -أبريل ٢٠٠٨
- نيكلسون بيكر: سِحر الويكيبيديا Wikipedia ـ يوليو ٢٠٠٨
- أحمد درويش: عودة العرضحالجى ـ أكتوبر ٢٠٠٨
- أنطونيو موجيكا: الطريق الالكترونى للديموقراطية ـ أكتوبر ٢٠٠٨
- مايكل ار.نيلسون: The Crowd ..The Cloud ـ يناير ٢٠١٠
- كوجى أومى: تعالوا نودع عصر النفط ـ يناير ٢٠١٠
- جيسون إبستاين: نهاية الناشر «الذى نعرفه»! ـ مايو ٢٠١٠
- تشارلز بيترسون: فى عالم Facebook ـ مايو ٢٠١٠
- جارى كسباروف: العقل والآلة...سؤال الذكاء الأبدى ـ مايو ٢٠١٠
- جيمس بانفورد: كبر سجل سرى جدا فى التاريخ ـ يونيو ٢٠١٠
- وضاح خنفر: فى عالم بات أكثر تعقيدا.. نحو صحافة أكثر عمقا ـ يونيو ٢٠١٠
- سو هاليبرن: ثورة الـ iPad ـ أغسطس ٢٠١٠
- كين أوليتا: النشر... أو الموت!! ـ سبتمبر ٢٠١٠
- مالكولم جلادويل: Twitter & Facebook ولكن لاثورة هناك ـ نوفمبر ٢٠١٠
- أمة العليم السوسوة: أسئلة العرب المناخية ـ نوفمبر ٢٠١٠
- روبرت دارنتون: المكتبة البديل ـ أكتوبر ٢٠١٠

فـى المـكـتـبـة



The world According to Twitter

العالم بناء على تويتر

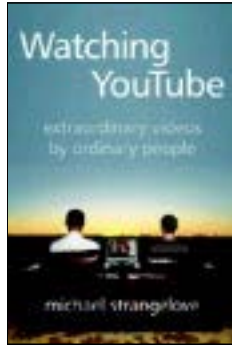
David Pogue
Black Dog & Leventhal Publishers 2009
Pp 304 , $10.36

اذكر رسالة أنت حقا حقا لا تود قراءتها، لخص كتابا شهيرا فيما لايزيد على ١٤٠ حرفا، ما هو أكثر شيء تشعر بالندم عليه؟ صف أكثر اللحظات المؤثرة فى حياتك؟ ما هى أكثر جملة منطوقة تستثير جنونك؟ ما هى خطتك لحماية الصحافة الأمريكية؟ ما هى فكرتك العظمى لتحسين الهواتف المحمولة؟ ما مقدار أكبر مبلغ مالى ضاع منك؟ ضع حرفا اضافيا لأحد أسماء الشخصيات المشهورة، ووضح؟

كل هذه وغيرها أسئلة وضعها دافيد بوكر، الكاتب الصحفى بجريدة نيويورك تايمز، على موقع تويتر، حيث كان يقوم بطرح سؤال أو موضوع أو قضية للمناقشة، ثم يقوم بتجميع أفضل الإجابات عن هذه الأسئلة أو القضايا فى كتاب بعنوان «العالم طبقا لتويتر»، وهو يهدف بشكل أساسى من هذا الكتاب إلى رصد الكيفية التى يرى بها رواد هذا الموقع حياتهم والعالم والأحداث من حولهم.

وقد أصبح موقع تويتر ظاهرة الكترونية حيث يلتقى من خلاله الأفراد ذوو الاهتمامات المتشابهة، ويستطيع من خلاله أى شخص أن يعبر عن رأيه،والأفكار، والأخبار، والمحادثات، على ألا يزيد عدد الحروف المكتوبة على ١٤٠ حرفا.





Waching youtube: Extraordinary Videos by Ordinary people

مشاهدة يوتيوب: أفلام فيديو استثنائية بواسطة أشخاص عاديين

Michael Strangelove
University of Toronto Press, Scholarly Publishing Division, 2010
Pp 272 , $ 25.79

ما الذى يحدث عندما تنتقل عملية إنتاج الثقافة من ايدى الشركات والكيانات التجارية إلى أيدى أفراد عاديين لا يملكون سوى كاميرات فى أيديهم؟ كيف يؤثر اليوتيوب على حياتنا؟ هل نستطيع الآن أن نعلن وفاة التليفزيون الذى نعرفه؟ ما هو تأثير مشاهدة اليوتيوب على السينما؟ ما الذى يستطيع اليوتيوب أن يبلغنا به عن المستقبل؟ هل سترفع مشاهدة اليوتيوب أو تثير أسئلة عن مستقبل الذاكرة الثقافية، الهوية، والسياسات، والحياة الأسرية؟

هذه الأسئلة، وما يدور من حروب عبر فيديوهات اليوتيوب فى السياسة والدين والفن والحروب يتضمنها كتاب «مشاهدة اليوتيوب: فيديوهات غير عادية بواسطة أناس عاديين».

يمر هذا العام خمس سنوات على انشاء اليوتيوب، وهو موقع فيديو مشترك يستطيع المشاركون من خلاله تحميل أو مشاركة ومشاهدة الفيديوهات التى صنعوها بأنفسهم أو صنعها آخرون.

وقد قام ميتشل سترنجلف، وهو أستاذ فى قسم الاتصالات بجامعة أوتاوا، بتأليف كتاب علمى عن الظاهرة، والتى تعد ظاهرة ذات خصوصية عالية، والكتاب عن الناس العاديين وحياتهم المسجلة بشكل غير عادى.

ويحاول الكتاب تحليل محتوى اليوتيوب واحصائياته، حيث يتم رفع ما يقارب ٣٥٠.٠٠٠ فيديو يوميا، ولعل موطن قوة الكتاب يكمن فى قوة التحليل والمنهج العلمى القائم عليه، متضمنا استجابات مجموعة من الأكاديميين مع الاستعانة بمراجع فى مجالات الاتصالات، والأنثربولوجيا، وعلم الاجتماع.

ويصف المؤلف كيف أننا نتحرك إلى عصر ما بعد التليفزيون، وهو العصر الذى لا يكتفى فيه الناس بمشاهدة أفلام الفيديو وإنما يشاركون فى صياغتها وربما تعديلها.

ويتناول الكتاب موضوعات فى فصول بعنوان: «الأفلام المنزلية فى القرية العالمية»، و«المنزل والأسرة على اليوتيوب»، «اليوميات على اليوتيوب»، «واقعك على اليوتيوب»، «مجتمع اليوتيوب»، «حروب اليوتيوب: السياسة، والدين، والصراع العسكرى».



Obama by Taylor Jones ©

©Taylor Jones • El Nuevo Día



أين ذهبت النقود

كـــابوس الاثنيـــن الأســـــود

"هل علينا أن نبحث عن «عالم جديد»..

أمارتيا سن
Amartya Sen

[١]

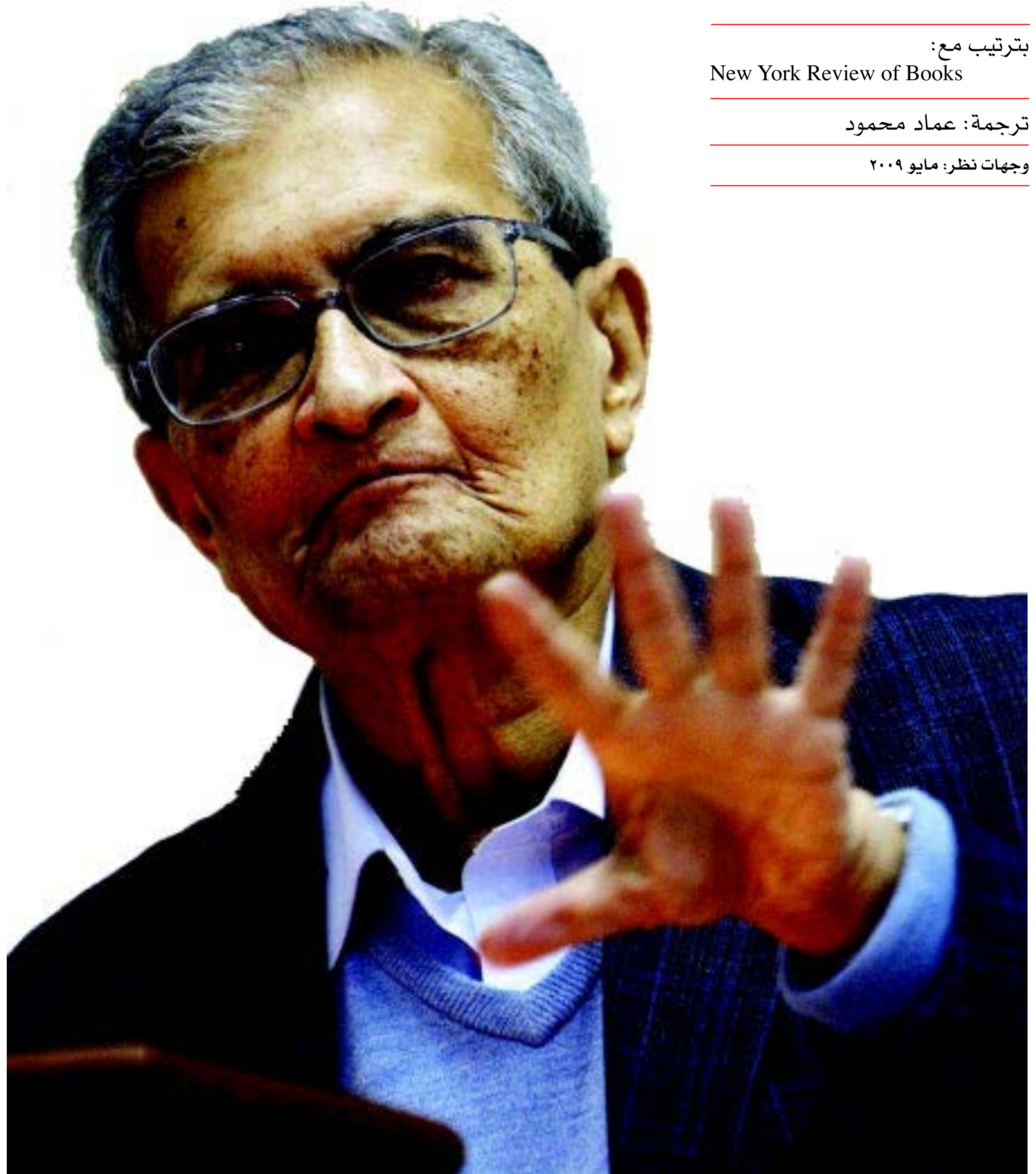
■■ كان عام ٢٠٠٨ عاماً حافلاً بالأزمات، أولاً كانت هناك أزمة الغذاء التى هددت الفقراء من المستهلكين وخاصة فى أفريقيا. تزامن ذلك مع الزيادة القياسية فى أسعار النفط التى هددت جميع البلدان المستوردة للنفط. وأخيراً، وتحديداً فى الخريف، جاءت أزمة الكساد الاقتصادى العالمى التى تتسارع الآن بصورة مرعبة. من المحتمل أن ٢٠٠٩ سيزيد أزمة الكساد العالمى حدة، كما يتوقع الكثير من الاقتصاديين حالة من الكساد الشامل فى قوة وضخامة ما واجه العالم فى الثلاثينيات من القرن العشرين. وفى الوقت الذى عانت فيه الثروات الضخمة حالات تدهور حادة، فإن أكثر المتأثرين بها من كانوا يعانون حالة اقتصادية مزرية بالفعل.

بترتيب مع:
New York Review of Books

ترجمة: عماد محمود

وجهات نظر: مايو ٢٠٠٩

السؤال الذى يطرح نفسه بقوة الآن يدور حول طبيعة الرأسمالية وما إذا كانت بحاجة إلى التغيير. يقاوم بعض المدافعين عن الرأسمالية غير المقيدة التغيير لاقتناعهم بأن الرأسمالية تتعرض كثيراً للوم بسبب مشكلات اقتصادية قصيرة الأمد. مشكلات تُعْزى إما إلى سوء الحكم (على سبيل المثال سوء الحكم بإدارة بوش) أو السلوك السيئ لبعض الأفراد (أو كما وصفه جون ماكين أثناء حملته الانتخابية الرئاسية بـ «جشع وول ستريت»). لكن البعض الآخر يرون عيوباً حقيقية فى الأنظمة الاقتصادية الحالية ويريدون إصلاحها، ويسعون وراء منظور بديل يطلق عليه «الرأسمالية الجديدة».



لعبت فكرة الرأسمالية القديمة والجديدة دوراً شيقًا فى ندوة «عالم جديد، رأسمالية جديدة» التى عقدت فى باريس يناير الماضى باستضافة الرئيس الفرنسى نيكولاس ساركوزى ورئيس الوزراء البريطانى السابق تونى بلير، وألقى الأخيران خطباً بليغة عن الحاجة للتغيير. كما تحدثت المستشارة الألمانية أنجيلا ميركل عن الفكرة الألمانية القديمة «السوق الاجتماعية» - الفكرة التى قيدها مزيج من سياسات الحصول على إجماع الأصوات - كنسخة محتملة للرأسمالية الجديدة (رغم أن ألمانيا لم تبل بلاء حسناً بشكل أفضل فى الأزمة الأخيرة من اقتصاديات السوق الأخرى).

من الجلى أننا بحاجة إلى أفكار حول تغيير تنظيم المجتمع على المدى البعيد، وذلك بغض النظر عن استراتيجيات التعامل مع الأزمة الراهنة. ما أود أن أقوم به، هو فصل وإبراز ثلاثة أسئلة من بين الأسئلة الكثيرة التى يمكن أن تثار. أولاً، هل نحن حقاً بحاجة إلى نوع من «الرأسمالية الجديدة» بدلاً من نظام اقتصادى غير موحد مبنى على مجموعة من المؤسسات المنتقاة بشكل عملى، ومستند إلى القيم الاجتماعية التى يمكننا الدفاع عنها بشكل أخلاقى؟ وهل علينا أن نبحث عن رأسمالية جديدة أو «عالم جديد» - بحسب التعبير الآخر المذكور فى اجتماع باريس - يأخذ شكلاً مختلفاً؟

يتعلق السؤال الثانى بنوع الاقتصاد الذى نحتاج له اليوم، خاصة فى ضوء الأزمة الاقتصادية الحالية. كيف يمكننا تقييم ما تعلمناه من أساتذة الاقتصاد والأكاديميين كمرشد للسياسة

ما بعد الأزمة
الرأســـمالية

الاقتصادية بما فى ذلك إحياء سياسة كينز خلال الشهور الأخيرة بعدما بدأت الأزمة فى النمو بعنف. ولكن أكثر تحديداً، بماذا تخبرنا الأزمة الاقتصادية الحالية عن المؤسسات والأولويات التى يجب أن نبحث عنها. ثالثاً، بالإضافة إلى المضى فى طريقنا لنصل إلى أفضل تقييم للتغييرات التى نحتاج إليها على المدى الطويل، علينا أن نفكر بل ونفكر بسرعة حول كيفية الخروج من الأزمة الحالية بأقل الخسائر المحتملة.

[٢]

ما هى السمات والخصائص التى تجعل من أى نظام رأسمالياً بشكل يقينى سواء قديماً أو حديثاً؟ إذا ما كان النظام الاقتصادى الرأسمالى الحالى سيصلح، ما الذى يجعل النتيجة النهائية هى الرأسمالية الجديدة، بدلاً من أى نظام آخر؟ يبدو أن هناك فرضية عامة تؤكد أنه من الضرورى الاعتماد على الأسواق للصفقات الاقتصادية كشرط أساسى لاقتصاد يطلق عليه رأسمالى. على نحو مماثل، يعتبر حافز الربح ومكافآت الفرد بناء على الملكية الخاصة ترى كمميزات نموذجية أصيلة للرأسمالية. على أية حال، إذا كانت هذه هى المتطلبات الضرورية، هل تعتبر الأنظمة الاقتصادية الحالية، على سبيل المثال، المطبقة فى أوروبا وأمريكا، حقاً رأسمالية؟

كل البلدان الغنية فى العالم تلك التى فى أوروبا، والولايات المتحدة، وكندا، واليابان، وسنغافورة، وكوريا الجنوبية، واستراليا، وآخرون اعتمدوا جزئياً لفترات طويلة على الصفقات الاقتصادية والمكافآت الأخرى التى تحدث بشكل كبير خارج الأسواق. ويشمل هذا معونات البطالة، ورواتب التقاعد، ومميزات أخرى من الضمان الاجتماعى، وبند التعليم، والرعاية الصحية، مجموعة منوعة من الخدمات الأخرى توزع من خلال ترتيبات بعيدة عن السوق. لا تعتمد هذه الخدمات المرتبطة بالتأهيلات الاقتصادية على الملكية الخاصة وحقوق الملكية.

كما لم يعتمد اقتصاد السوق ليظل قائماً على تحقيق أقصى ربح ممكن ولكنه اعتمد أيضاً على العديد من النشاطات الأخرى، مثل الحفاظ على الأمن العام وتقديم خدمات جماهيرية بعضها أعان الناس بالفعل بغض النظر عن كونها صادرة عن اقتصاد يحركه عامل الربح. إن الأداء الموثوق به لما يعرف بالنظام الرأسمالى، عندما تحسنت الأمور، اعتمد على مجموعة من المؤسسات التى تمول علناً التعليم، والرعاية الصحية، ومشاريع النقل الجماعى وذلك على سبيل المثال لا الحصر، والتى ابتعدت تماماً عن اقتصاد سوق قائم على أقصى ربح ممكن وعلى التأهيل الشخصى المنحصر فى الملكية الخاصة.

يقع تحت سقف هذه القضية سؤال أساسى: إذا كانت الرأسمالية مجرد تعبير له استخدامه المحدد اليوم. فإن فكرة الرأسمالية فى الحقيقة لها دور هام وحيوى من الناحية التاريخية، ولكن على ما يبدو أن هذه الميزة أو الفائدة يمكن استغلالها الآن باعتدال وحكمة.

فعلى سبيل المثال، لقد أوضحت الأعمال الرائدة لآدم سميث فى القرن الثامن عشر فائدة وديناميكية اقتصاد السوق، ولماذا وتحديداً كيف عملت هذه الديناميكية. لقد أضاف تحقيق سميث تشخيصاً مضيئاً لأعمال السوق عندما ظهرت هذه الديناميكية بقوة. تعد المساهمة والإضافة التى أضافها ثروة الأمم، والذى نشر عام ١٧٧٦ لفهم أعمق لما يدعى الرأسمالية فى غاية الأهمية.

لقد وضح سميث كم هى مفيدة فكرة تحرير السوق والتى تساعد بشكل كبير فى أغلب الأحيان على دعم وخلق حالة من الانتعاش والرخاء الاقتصادى من خلال التخصص فى الإنتاج وتقسيم العمل وفى حسن استغلال الاقتصاديات واسعة النطاق.

وتبقى تلك الدروس وثيقة الصلة بعالم واقتصاد اليوم (ومن المثير أن العمل التحليلى الرائع والمتطور للغاية عن التجارة الدولية والذى نال من أجله بول كروجمان جائزة نوبل فى الاقتصاد مرتبط بشكل وثيق بتنبؤات سميث بعيدة المدى منذ أكثر من ٢٣٠ عاماً مضت). كما أن التحليلات الاقتصادية التى تلت تلك الشروح المبكرة للأسواق واستخدام رأس المال فى القرن الثامن عشر نجحت فى تأسيس وإنشاء نظام قوى وصلب للسوق فى ظل الاقتصاديات الرأسمالية السائدة.

على الرغم من ذلك، ومع وضوح المساهمات الإيجابية للرأسمالية خلال عمليات السوق والتى تم شرحها وتوضيحها، إلا أن الجوانب السلبية قد أصبحت أيضاً واضحة جلية فى أغلب الأحيان بالنسبة للمحللين ذاتهم. بينما أخذ عدد من النقاد الاشتراكيين، وبشكل خاص كارل ماركس، فى إثبات أحقية اللوم بشكل كبير على الرأسمالية ومن ثم وفى النهاية وجوب استئصالها. ولقد كانت المعوقات الكبيرة للاعتماد كلياً فى السوق على اقتصاد يدفعه الربح واضحة منذ البداية حتى لآدم سميث. فى

الحقيقة، لم يتخذ المدافعون الأوائل لاستغلال السوق، بمن فيهم سميث، آلية السوق البحتة لكى تكون العامل الوحيد للتفوق، كما لم يقروا بأن عامل الربح هو كل ما نحن بحاجة إليه.

وعلى الرغم من أن الناس يقومون بالعمليات التجارية بهدف المنفعة الشخصية (لا يسعون لشىء أكثر من المنفعة الشخصية، كما أوضح سميث بطريقته الشهيرة، مبينا لماذا يسعى الخبازون، وصانعو الخمور، والجزارون، والمستهلكون للتجارة)، فعلى الرغم من ذلك يمكن للاقتصاد عملياً أن يقوم على عامل الثقة بين الأطراف المختلفة. فعندما تحقق الأنشطة التجارية، بما فى ذلك البنوك والمؤسسات المالية الأخرى، الثقة التى يتعهدون بها والتى يسعون لكسبها، فإن العلاقة بين الدائن والمدين يمكن أن تسير على نحو مشجع بصورة متبادلة، كما كتب سميث:

«عندما يثق الناس فى أى بلد محدد فى الثروة والأمانة والتعقل لمصرف معين إيماناً بأنه مستعد دائماً للسداد بناء على طلب أوراقه النقدية المتعهدة كما يمكن أن تقدم إليه فى أى وقت، على أن تكون هذه الأوراق النقدية من نفس العملة كالعملات الذهبية والفضية مما يمكن أن يكون فى أى وقت كان عندها لهم.»(١)

قام سميث بشرح لماذا قد لا يحدث ذلك فى بعض الأحيان، وهو ما قد نجده محيراً للغاية، ولذا فإننى أقترح، ومع الصعوبات التى يواجهها عالم الأعمال التجارية والبنوك فإننا نشكر الخوف وسوء الظن اللذين انتشرا وأبقيا على أسواق الائتمان فى حالة تجمد ومنعا نسق توسع الائتمان.

ولأن الشىء بالشىء يذكر، وخاصة منذ أن ظهرت «دولة السعادة» بفترة طويلة بعد سميث، والذى حاول فى كتاباته المختلفة، التعبير عن قلقه الشديد وقلقه حول المصير السيئ للفقراء والمتضررين بشكل واضح للغاية. يكمن الإفلاس الفورى لآليات السوق فى الأشياء التى يتركها السوق بدون أن تتم وتنجز. نجح تحليل سميث فى ترك كل الأشياء تقريباً





إن الأزمات الاقتصادية الحالية، على ما أعتقد، لن تدعو إلى «رأسمالية جديدة» ولكنها تنادى بفهم جديد للأفكار القديمة كتلك التى قدمها سميث



إلى اليد الخفية لآلية السوق. إنه لم يكن فقط من المدافعين عن دور الدولة فى تقديم الخدمات العامة، مثل التعليم وإعانة الفقراء (سوية مع طلب حرية أكبر للفقراء والذين حصلوا على الدعم من قوانين الفقراء والذى تم تقديمه فى يومه)، ولكنه كان منشغلاً أيضاً بعدم المساواة والفقر اللذين يمكن أن يبقيا فى اقتصاد سوق ناجح عادة.

إن الافتقار إلى الوضوح فيما يخص الفرق بين الضرورة وكفاية السوق كان له دور كبير فى حدوث نوع من سوء الفهم لتقييم سميث لآلية السوق من قبل الكثير ممن يدعون أنهم أتباعه. فعلى سبيل المثال، تمت ترجمة دفاع سميث عن سوق الغذاء ونقده للقيود التى تضعها الدولة على التجارة الخاصة بحبوب الغذاء فى أغلب الأحيان على أنها مجادلة لإثبات أن التدخل الحكومى قد يزيد الجوعى جوعاً ويجعل المجاعة أكثر سوءاً.

لكن دفاع سميث عن التجارة الخاصة أخذ شكل معارضة الاعتقاد بأن إيقاف المتاجرة فى الغذاء يخفف من عبء الجوع. ولكن هذا لا ينكر بأى حال من الأحوال الحاجة إلى دور الدولة فى خلق فرص عمل جديدة وتوفير دخول (من خلال برامج العمل على سبيل المثال). وإذا ما كانت البطالة سوف تشكر بشدة الظروف الاقتصادية السيئة أو السياسة العامة غير الحكيمة، فإن رد فعل السوق لن يكون مماثلاً، فإنه وحده، قادر على إعادة خلق موارد دخل لأولئك الذين فقدوا وظائفهم. كتب سميث عمن فقد عمله لتوه: «إما أن يتضور جوعاً وإما أن يبحث عن البقاء من خلال الاستجداء أو فعل أعمال شنعاء وسوف يسود فوراً الشعور بالحاجة والمجاعة والفناء»[٢]. يرفض سميت التدخلات التى تستثنى السوق ولكنه لا يعنى التدخلات التى تتضمن السوق بينما تستهدف إنجاز الأشياء التى تركها السوق بدون تحقيق نتيجة.

لم يستخدم سميث تعبير «رأسمالية» (على الأقل فيما أمكننى تتبعه) ولكن من الصعب أن نجزم بأن أعماله لم تحتو على نظرية تدافع عن احتياج السوق للقوى المتعارضة، أو الحاجة لقبول هيمنة رأس المال. كما تحدث سميث أيضاً عن أهمية القيم الأكثر تحرراً والتى تتخطى فكرة الأرباح فى ثروة الأمم، ولكنه تحقق وتحرى عن الحاجة القوية لمواقف وأعمال تستند إلى القيم التى تتخطى حاجز الربح وذلك فى كتابه الأول، نظرية المشاعر الأخلاقية، والذى نشر بالضبط منذ ربع ألفية ماضية أى تحديداً فى عام ١٧٥٩. بينما كتب أيضاً أن «التعقل» يعد من أهم الفضائل المفيدة للفرد، وظل آدم سميث يتحدث عن أن «الإنسانية، والعدالة، والكرم، وروح الجماعة هى من أفضل الميزات المفيدة للآخرين»[٣]

قام سميث بفحص الأسواق ورأس المال على اعتبار أنهم يبلون بلاء حسناً فيما يتضمن المنطقة الخاصة بهما، ولكن أولاً، فإنهما يتطلبان دعماً من المؤسسات الأخرى. بما فى ذلك الخدمات الحكومية مثل المدارس. إضافة إلى القيم أكثر من طلب الربح الصافى، وثانية، فإنهما بحاجة إلى عملية ضبط وتصحيح من قبل مؤسسات أخرى، على سبيل المثال، تعليمات مالية مبتكرة بدقة ومساعدة من الدولة للفقراء، لمنع عدم الاستقرار، وانعدام الإنصاف والظلم. وإذا أردنا البحث عن طريقة جديدة لفهم منظومة النشاط الاقتصادى والتى تضمنت اختياراً عملياً واقعياً لمجموعة من الخدمات الحكومية والتعليمات المدروسة بعناية شديدة، فإننا سنجد أنفسنا لا نبتعد عن جدول أعمال الإصلاح الذى حدده سميث بينما كان يدافع عن الرأسمالية وفى ذات الوقت، ينتقضها .



بغض النظر عن استراتيجيات التعامل مع الأزمة الراهنة، نحن بحاجة إلى أفكار حول تغيير تنظيم المجتمع على المدى البعيد





[٣]

من الناحية التاريخية، لم تظهر الرأسمالية قبل أن تظهر أنظمة جديدة من القانون والممارسات الاقتصادية تحمى حقوق الملكية وتجعل فكرة الاقتصاد القائم على الملكية فكرة عملية. إن عملية التبادل التجارى لا يمكن أن تحدث عملياً حتى يتم إرساء مبادئ العمل الأخلاقية ونتأكد من كونها مستمرة ورخيصة، بمعنى أنها لا تتطلب مقاضاة دائمة نتيجة لإهمال المقاولين، وذلك على سبيل المثال. لن يزدهر الاستثمار فى الأعمال التجارية المنتجة وتتحدد المكافآت الهائلة للفساد. سعت الرأسمالية الباحثة عن الربح دائماً إلى كسب الدعم من القيم المؤسساتية الأخرى.

لقد أصبح من الصعب تتبع الالتزامات الأخلاقية والقانونية والمسئوليات المرتبطة بالتعاملات فى السنوات الأخيرة، فشكراً للنمو والتطور السريع للأسواق الثانوية التى تتضمن الاشتقاقات والآليات المالية الأخرى. يمكن لأى دائن أن يضلل المستدين ليواجه مخاطر غير متعمدة فيمرر الأصول المالية إلى أطراف أخرى بعيدة عن التعامل الأصلى. وهكذا تصبح المسئولية مفوضة بشكل خاطئ، وتصبح الحاجة إلى عملية إشراف وتقنين أقوى بكثير.

ورغم أن الدور الإشرافى للحكومة فى الولايات المتحدة بشكل خاص، فى نفس الفترة، قد تقلص بشدة، بتأثير الاعتقاد المتزايد فى الطبيعة التنظيمية لاقتصاد السوق. ولنكون أكثر دقة فمع نمو الإشراف الحكومى، فإن الحاجة إلى المراقبة تقلصت. ونتيجة لذلك، كانت هناك كارثة من المتوقع وقوعها، والتى حدثت بالفعل فى نهاية السنة الماضية، وقد ساهم ذلك بالتأكيد وبشكل كبير فى الأزمة المالية العصيبة التى يواجهها العالم اليوم. إن انعدام النظام للأنشطة المالية له نتائجه ليس فقط على التطبيقات غير الشرعية ولكن أيضاً على الميل نحو التروى والتفكر بعمق، وهذا ما يؤدى كما تحدث آدم سميث، إلى ميل البشر فى البحث عن الربح ولو بشق الأنفس.

دعا سميث مروجى الخطر المفرط بحثاً عن الأرباح «مبذرين وعارضين» والذى يعد وصفاً جيداً لمن بدءوا فى تفعيل الرهونات خلال السنوات القليلة الماضية. وفى صدد مناقشة القوانين المضادة للفوائد المضاعفة، على سبيل المثال، أراد سميث أن يقوم الإشراف الحكومى بحماية المواطنين من «المبذرين والعارضين» الذين قاموا بالترويج للقروض غير الثابتة.

وعليه فإن جزءا كبيرا من رأس مال الدولة يصبح بعيداً عن متناول أيد كانت فى الغالب سوف تتربح وتستفيد منه، ويذهب إلى هؤلاء الذين فى الغالب سوف يهدرونه ويدمرونه.[٤]

إن الإيمان الضمنى فى قدرة اقتصاد السوق على تصحيح وضعه، والذى يعد مسئولاً بشكل كبير عن إزالة التعليمات المؤسسة فى الولايات المتحدة، يميل إلى إهمال نشاطات المبذرين والعارضين بطريقة صادمة بالنسبة لآدم سميث.

لقد تولدت الأزمة الاقتصادية الحالية بشكل جزئى نتيجة سوء تقدير حكمة عمليات السوق، وازدادت حالة القلق وانعدام الثقة فى السوق المالية وفى الأعمال التجارية واتضح ذلك فى الردود العامة وردود أفعال السوق والذى أدى إلى سلسلة من الخطط التحفيزية، بما فى ذلك خطة الـ٧٨٧ بليون دولار التى تم التوقيع بالموافقة عليها فى فبراير الماضى من قبل حكومة أوباما الجديدة. وبحدوث هذه المشاكل، التى تم تعريفها فى القرن الثامن عشر من قبل سميث، إلا أن المسئولين فى السنوات الأخيرة أهملوها وتغاضوا عنها، وخاصة فى الولايات المتحدة، والذين انشغلوا بالاستشهاد بآدم سميث لمساندة السوق الحر.

[٤]

بينما كان آدم سميث يقتبس كثيراً مؤخراً، حتى وإن كان لا يقرأ بنفس الدرجة، وقد أعيد إحياء جون مايناد كينز مؤخراً بشكل كبير. بالتأكيد، الكساد المتراكم الذى نلاحظه الآن، والذى يقربنا أكثر إلى حالة كساد كاملة، له ملامح وخصائص واضحة كما أشار إليها كينز، وذلك بأن انخفاض الدخل لمجموعة من الأفراد أدى إلى انخفاض معدل مشترياتهم مما يؤدى بالتالى إلى انخفاض دخول الآخرين.

على أية حال، يمكننا أن نعتبر أن كينز قد يكون المنقذ بالنسبة لنا بشكل جزئى، وعلينا لذلك أن نتطلع إلى فهمه لأزمتنا الحالية. إن أحد رجال الاقتصاد الذى لم يعترف بصلته بالأزمة بشكل كبير هو منافس كينز آرثر سيسيل بيجو، والذى مثله كمثل كينز، كان فى جامعة

كامبردج، وأيضاً فى كلية كينجز، فى نفس وقت كينز. كان بيجو مهتماً بشكل أكبر من كينز بعلم النفس الاقتصادى وكيفية تأثيره على الدورات الاقتصادية ويقوى أو يضعف أى حالة كساد اقتصادى والذى قد يقود إلى حالة كساد كاملة (وهو ما نحن بصدده الآن فى الحقيقة). أرجع بيجو التقلبات الاقتصادية بشكل جزئى إلى «أسباب نفسية» تشمل الاختلافات فى صوت عقل الأشخاص الذين تتحكم أعمالهم فى الصناعة، ويظهر ذلك فى الأخطاء الناتجة عن التفاؤل الذى لا داعى له والتشاؤم الذى لا داعى له أيضاً فى توقعات عملهم.(٥)

إنه من الصعب تجاهل حقيقة أن اليوم، بالإضافة إلى تأثيرات كينز الخاصة بالانحدار المدعوم بشكل متبادل، إننا الآن فى وجود «أخطاء ناتجة عن التشاؤم الذى لا داعى له». ركز بيجو بشكل خاص على الحاجة لحل تجميد سوق الائتمان عندما يكون الاقتصاد فى قبضة التشاؤم المفرط:

لذلك، فإن هناك أشياء أخرى قد تكون متساوية، الحدوث الفعلى لحالات فشل العمل سيكون تقريباً واسع الانتشار، قبول (على السواء) قروض البنوك، تجاه أزمة الطلبات، أقل أو قابل للحصول بسهولة أكثر(٦).

على الرغم من أنه تم ضخ أرقام كبيرة من الأموال إلى اقتصاديات أمريكا وأوروبا، من قبل الحكومات، والبنوك، والمؤسسات المالية رغبة منهم حتى الآن فى حل مشكلة تجميد سوق الائتمان. تواجه الأعمال التجارية الأخرى فشلاً جزئياً أيضاً، وذلك نتيجة انخفاض الطلب أو يمكننا أن نقول المعدوم (عملية «المضاعف» التى ذكرها كينز)، ولكن هذا يأتى كنتيجة أيضاً للخوف من انخفاض الطلب بصورة أكبر فى المستقبل، وذلك فى ظل مناخ يخيم عليه الإحباط (وهو ما أطلق عليه بيجو «التشاؤم المعدى»).

إن إحدى المشاكل التى يجب على إدارة أوباما مواجهتها هى أن تلك الأزمة الحقيقية، والتى نشأت نتيجة سوء الإدارة المالية وبعض التجاوزات الأخرى، تضخمت وتضاعفت عدة أضعاف مع عامل الانهيار النفسى. إن الإجراءات التى تتم مناقشتها الآن فى واشنطن وفى أى مكان آخر لإعادة تجديد سوق الائتمان تتضمن عمليات إنقاذ - مع وجود متطلبات لازمة وقوية تدعم المؤسسات المالية التى تبتاع - من خلال شراء الحكومة للأصول الفاسدة، والتأمين ضد الفشل فى دفع القروض، وتأميم البنوك (أصاب الاقتراح الأخير العديد من المحافظين بالذعر حيث إن السيطرة الخاصة من المال العام المعطى للبنوك تصيب أولئك المهتمين بالمسئولية بحالة من القلق). ويبدو أن رد الفعل الضعيف للسوق على إجراءات الإدارة هو حتى الآن اقتراح أن يتم تقييم كل هذه السياسات بشكل جزئى لتبين تأثيرهم على الحالة النفسية للأعمال التجارية وعلى المستهلكين، خاصة فى أمريكا.

[٥]

إن التفاوت بين بيجو وكينز له علاقة بسبب آخر أيضاً. فبينما انشغل كينز بالإجابة عن سؤال كيف يزيد الدخل الكلى، وانشغل نسبياً بدرجة أقل بتحليل مشاكل توزيع الثروات غير المتعادلة والرفاهية الاجتماعية. فعلى النقيض من ذلك، فإن بيجو لم يكتب فقط الدراسة الكلاسيكية عن اقتصاديات الرفاهية، لكنه ابتكر مقياساً ليقيس عدم المساواة الاقتصادى أيضاً كمؤشر رئيسى للتقييم والسياسة الاقتصادية (٧). ما دامت معاناة الناس الأكثر حرماناً فى كل اقتصاد، وفى العالم كله، تسترعى وتستوجب الانتباه الأشد، فإن دور التعاون المساعد بين القوى الاقتصادية والحكومة لا يمكن أن يتوقف بمجرد حدوث عملية توسع متبادل منظمة للاقتصاد. هناك حاجة ماسة لتوجيه الانتباه إلى المستضعفين فى المجتمعات عند التخطيط لتجاوز الأزمة الحالية، وفى اتخاذ الإجراءات لعملية توسع اقتصادية عامة. لقد أصيبت الأسر والعائلات التى تعانى البطالة فى مقتل مع وجوب ذكر غياب الرعاية الصحية لديهم، إضافة إلى الحرمان الاجتماعى والاقتصادى. يجب الاعتراف بأن نظريات كينز الاقتصادية كانت قاصرة عن معالجة تلك المشاكل.

هناك طريق آخر كان من الضرورى أن يستكمله أحد ما غير كينز وهو ما تعلق بتجاهله للخدمات الاجتماعية - فى الحقيقة كان لدى أوتو فون بيسمارك الكثير ليقوله فى هذا الصدد. ناقش بعض الاقتصاديين البارزين المعاصرين فكرة أن اقتصاد السوق قد يكون سيئاً فى تقديم بعض المصالح العامة (مثل التعليم والرعاية الصحية) وكان من ضمن هؤلاء الاقتصاديين بول صامويلسون وسميث كينيث. (ساهم بيجو فى هذا الموضوع أيضاً بتأكيده على «التأثيرات الخارجية» على تعاملات السوق، حيث لا تنحصر المكاسب والخسائر على الباعة والمشترين المباشرين وحدهم). إنها بالطبع قضية طويلة الأمد، لكن يجدر بنا أن نذكر أيضاً أن التأثير السلبى لحالة الكساد يكون أعنف بكثير إذا لم تتوفر الرعاية الصحية بشكل خاص للجميع.

فعلى سبيل المثال، فى غياب مؤسسة عامة للصحة، فإن كل وظيفة مفقودة تعنى حرمان المزيد من الرعاية الصحية الضرورية، وذلك بسبب خسارة الدخل أو خسارة التأمين الصحى الخاص بالوظيفة. إن الولايات المتحدة تعانى من نسبة بطالة الآن تصل إلى ٧.٦٪، والتى تتسبب فى المزيد من الحرمان الكبير. هنا يجدر بنا أن نطرح سؤالاً هاماً وهو يخص البلدان الأوروبية، بما فيها فرنسا وإيطاليا، وأسبانيا، والتى عاشت لعقود وعقود بمعدلات بطالة أعلى من تلك بكثير، فكيف استطاعت أن تتفادى حدوث انهيار كلى لجودة الحياة. الإجابة بشكل جزئى إنها الطريقة التى تتبعها الدول الأوروبية الغنية من خلال نظام تأمين للبطالة أقوى من نظيره فى أمريكا بكثير، والأهم من ذلك، وجود توفير الخدمات الطبية الأساسية للجميع من قبل الحكومة.

إن فشل آليات السوق فى توفير الرعاية الصحية للجميع يعد شيئاً مريعاً وصارخاً، وخاصة فى الولايات المتحدة، ولكن أيضاً كان ذلك صارخاً فى قضية تقدم الصحة وطول العمر فى الصين واللذان تليا إلغاء التأمين الصحى فى ١٩٧٩. فقبل تلك التعديلات الاقتصادية فى هذا العام، كان كل مواطن صينى يضمن توفر الرعاية الصحية له من خلال الدولة أو المؤسسات التعاونية، على الأقل المستوى الأساسى للرعاية، وعندما أنهت الصين نظامها والذى كانت له نتيجة عكسية على المجمعات التعاونية الزراعية والوحدات الإدارية والوحدات الصناعية التى يديرها البيروقراطيون، مما أدى إلى ارتفاع نسبة نمو الناتج المحلى الإجمالى بصورة أسرع من أى مكان آخر فى العالم. ولكن فى ذات الوقت، ونتيجة للإيمان الجديد باقتصاد السوق، قامت الصين بإلغاء نظام الرعاية الصحية الشاملة أيضاً، وبعد تعديلات ١٩٧٩، كان على الأفراد شراء التأمين الصحى (فيما عدا بعض الحالات النادرة نسبياً التى قامت فيها شركات كبيرة أو حكومية بتزويد موظفيها بالتأمين الصحى). وبهذا، فإن تقدم الصين فى مسألة طول العمر أخذ فى التباطؤ بحدة.

كانت هذه مشكلة كافية عندما كان الدخل الإجمالى للصين ينمو بسرعة فائقة، لكنه حتماً سيكون مشكلة أكبر بكثير إذا ما كان الاقتصاد الصينى يتقدم ببطء حاد، كما هو الحال الآن. إن الحكومة الصينية تحاول بصعوبة الآن إعادة تقديم الرعاية الصحية بشكل تدريجى للجميع، كما تتعهد الحكومة الأمريكية تحت قيادة أوباما بعمل تغطية صحية كاملة أيضاً. فى كل من الصين والولايات المتحدة، لا يزال الطريق أمام التصحيحات طويلاً، ولكن يجب أن تكون هناك عوامل أساسية لمعالجة الأزمة الاقتصادية، وكذلك لإتمام عملية التحول طويلة المدى لكل من المجتمعين.



على أية حال، يمكننا أن نعتبر أن كينز قد يكون المنقذ بالنسبة لنا بشكل جزئى، وعلينا لذلك أن نتطلع إلى فهمه لأزمتنا الحالية



[٦]

إن إحياء ما قدمه كينز يساهم كثيراً بالنسبة للتحليل الاقتصادى والسياسة، مع الوضع فى الاعتبار أن الجعبة لا يزال بها الكثير والكثير من السهام. فعلى الرغم من أن كينز يرى فى أغلب الأحيان أن نوعاً ما «ثائر» بالنسبة للاقتصاد المعاصر، فإنه فى الحقيقة اقترب من أن يكون من كبار أساتذة ومعلمى الرأسمالية الجديدة، والتى ركزت على محاولة تثبيت تقلبات





اقتصاد السوق (ومرة ثانية دون إيلاء الاهتمام الكافى للأسباب النفسية وراء هذه التقلبات). وعلى الرغم من أن سميث وبيجو يعتبران من أساتذة الاقتصاد المحافظين، فإن العديد من الأفكار العميقة التى جاءت حول أهمية المؤسسات غير المرتبطة بالسوق والتى لا تهدف إلى الربح نبعت منهما، ولم تأت من كينز وأتباعه.

إن أى أزمة لا تقدم فقط تحدياً فورياً علينا مواجهته. وإنما تمنحنا الفرصة لمعالجة المشاكل طويلة المدى حتى تكون لدى الناس رغبة فى إعادة النظر فى أمور عديدة. لذا يجب أن نستغل الأزمة الاقتصادية الحالية لمواجهة القضايا طويلة المدى والتى أهملت مثل حماية البيئة والرعاية الصحية، بالإضافة إلى الحاجة للنقل العام والذى أهمل بشكل سيئ جداً فى العقود القليلة الماضية وتم استثناؤها حتى الآن. وبينما أكتب هذه المقالة الآن. وحتى فى السياسات الأولية التى أعلنتها حكومة أوباما. إن قضية قابلية التحمل الاقتصادية هى بالطبع قضية هامة ولكن إذا أخذنا مثال حكومة كيرالا، فإننا نرى أنه من المحتمل أن تكون هناك رعاية صحية مضمونة بتكلفة صغيرة نسبياً. فمنذ أن أسقط الصينيون الرعاية الصحية الشاملة فى ١٩٧٩، واصل كيرالا دعم تقديمها، وتمكن من تخطى الصين من حيث متوسط الأعمار وبعض المؤشرات مثل معدل وفيات الأطفال، على الرغم من أن معدل أو مستوى دخل الفرد لديه أقل بكثير. مما أكد أن الفرصة لا تزال متاحة حتى للبلاد الفقيرة أيضاً.

ولكن التحديات الأصعب والتى تواجه الولايات المتحدة والتى تعد من أعلى معدلات الدول من حيث دخل الفرد وإنفاقه على جانب الصحة بين بلدان العالم، ولكن لا يزال ما حققته فى مجال الصحة ضئيلاً مع وجود أكثر من أربعين مليون شخص بدون ضمان رعاية صحية. جزء من المشكلة يرجع إلى الفهم العام. فهناك تصورات مشوهة بشكل كبير ويجب على مؤسسات الصحة العامة أن تصحح ذلك خلال مناقشاتها العامة. فعلى سبيل المثال، فإن من الشائع عن مؤسسات الصحة الأوروبية أنه غير مسموح لأحد باختيار الأطباء، وهذا غير صحيح.

هناك، على أية حال، حاجة لفهم الخيارات المتاحة الأفضل. فى المحاورات الأمريكية بشأن إصلاح الصحة، كان هناك اهتمام زائد وغير عادى بالنظام الكندى ـ وهو نظام رعاية صحية عام يجعل من الصعب جداً على أى فرد أن يكون لديه نظام رعاية طبية خاص. ولكن فى أوروبا الغربية، إضافة إلى الرعاية الطبية العامة والتى تتوفر بصورة رسمية، يسمح أيضاً بالتأمين الصحى الخاص، لأولئك الذين يتوفر لديهم المال ويودون إنفاقه على هذا النحو. ولا أدرى لماذا يمكن للأغنياء إنفاق أموالهم بحرية شديدة على اليخوت والسلع الكمالية والترفيهية بينما لا يسمح لهم بإنفاق نقودهم على أشعة الرنين المغناطيسى أو أشعة اختبارية بدلاً من ذلك. إذا أمكننا أن نأخذ نموذجاً من مناقشات آدم سميث الخاصة بتنوع المؤسسات، وتهيئة مجموعة حوافز متنوعة، فإن هناك إجراءات عملية يمكننا حينئذ أن نتخذها مما يحدث فرقاً كبيراً فى العالم الذى نعيش فيه.

إن الأزمات الاقتصادية الحالية، على ما أعتقد، لن تدعو إلى «رأسمالية جديدة» ولكنها تنادى بفهم جديد للأفكار القديمة كتلك التى قدمها سميث، وحتى الأحدث، كالتى قدمها بيجو، والعديد من الأفكار التى تم التغاضى عنها وإهمالها بشكل محزن. ما نحن بحاجة إليه أيضاً هو فهم صافى الذهن لكيفية عمل المؤسسات المختلفة، وكيف أن مجموعة من المنظمات ـ من السوق إلى مؤسسات خاضعة للحكومة ـ يمكن أن تتجاوز فى فترة قصيرة المدى وتقدم حلولاً للأزمة وتساهم فى إنتاج عالم اقتصادى أكثر احتراماً.

الملاحظات والإحالات

(١) آدم سميث، بحث فى طبيعة ثروة الأمم وأسبابها، حرره آر. إتش. كامبل وأى. إس. سكينر (دار نشر كلاريندون، ١٩٧٦) الجزء الأول والثانى والثالث. ٢٨. صفحة ٢٩٢

(٢) سميث، ثروة الأمم، الجزء الأول والثانى والثامن. ٢٦. صفحة ٩١

(٣) آدم سميث، نظرية المشاعر الأخلاقية، حرره دى. دى. رافاييل وأى. إل. ماكفى (دار نشر كلاريندون، ١٩٧٦) صفحة ١٨٩-١٩٠

(٤) سميث، ثروة الأمم، الجزء الأول، والثانى والرابع. صفحة ٣٥٧

(٥) أى. سى. بيجو، تقلبات صناعية (لندن: ماكميلن، ١٩٢٩) صفحة ٧٣

(٦) بيجو، تقلبات صناعية، صفحة ٩٦

(٧) أى. سى. بيجو، اقتصاديات الرفاهية (لندن: ماكميلن، ١٩٢٠). الأعمال الحالية المتعلقة بعدم المساواة الاقتصادى، بما فى ذلك المساهمات الرئيسية لأى. بى. أتكنسن، قد كانت ملهمة إلى حد كبير بمبادرة بيجو الرائدة: أنظر أتكنسن، العدالة الاجتماعية والسياسة العامة (دار نشر إم آى تى، ١٩٨٣).

الإرهاب الحقيقى: وول ستريت

كريس هيدجز
Chris Hedges

■■ لدينا قدرة ملحوظة على خلق وحوشنا. عقود من التطفل فى الشرق الأوسط مع قريننا الإسرائيلى أتت لنا فى النهاية بحزب الله وحماس والقاعدة وحركة المقاومة العراقية وطالبان المستعيدة لنشاطها، والآن نخرب اقتصاد العالم وندمر النظام البيئى ونجلس لمشاهدة صنيعة أيدينا.

لاحت علامات عالمنا الجديد الشجاع عندما أدلى المدير الجديد للاستخبارات الوطنية الأمريكية - الأدميرال المتقاعد دينيس بلير - بشهادته أمام لجنة الاستخبارات بمجلس الشيوخ. حذر من أن عمق وضع الأزمة الاقتصادية ربما يكون التهديد الأكثر قتامة لنا للاستقرار والأمن القومى، وأضاف دينيس أنها من الممكن أن تحدث عودة «للعنف المتطرف» الذى ميز الفترة بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠.

اتضح أن وول ستريت - وليس الجهاديين الإسلاميين - أنتجت أكثر إرهابيينا خطورة، سنشهد إغلاق متاجر التجزئة والمنشآت بشكل متسارع، تضخم ووباء الإفلاس، دورات جديدة من حبس الرهون وطوابير الخبز وبطالة تفوق مستويات الكساد الكبير، وكما يخشى بلير، اضطراب اجتماعى.

تقدر منظمة العمل الدولية التابعة للأمم المتحدة أن ما يقرب من ٥٠ مليون عامل فى أرجاء العالم سيفقدون وظائفهم هذا العام. صاحب الانهيار حتى الآن فقدان ٣,٦ مليون وظيفة فى الولايات المتحدة، ويتنبأ صندوق النقد الدولى أن نمو الاقتصاد العالمى فى ٢٠٠٩ سيكون ٠,٥٪ وهو الأسوأ منذ الحرب العالمية الثانية. خلال العام الماضى، تلقى ٣,٢ مليون عقار فى الولايات المتحدة إنذارات لعدم السداد أو تم استرداده، وهذا الرقم مهيأ للارتفاع فى ٢٠٠٩، خاصة مع بداية تعرض العقارات التجارية الخالية لحبس الرهون. قرابة ٢٠,٠٠٠ بنك من البنوك العالمية الكبرى انهارت أو بيعت أو أممت فى عام ٢٠٠٨، ومن المتوقع أن تغلق قرابة ٦٢,٠٠٠ شركة أمريكية هذا العام.

ترجمة: وليد سليم

البطالة - عندما تضيف الأشخاص الذين لم يعودوا يبحثون عن وظائف والعاملين بنصف دوام الذين لا يستطيعون إيجاد وظيفة بدوام كامل - أصبحت تقارب ١٤٪.

لم يتبق لدينا سوى القليل من الأدوات التى يمكن أن نشق بها طريق النجاة. قطاع الصناعة فى الولايات المتحدة دمرته العولمة. المستهلكون - بفضل شركات بطاقات الائتمان وحدود الائتمان السهلة - مدينون بـ١٤ تريليون دولار. تعهدت الحكومة بتريليونات من أجل الأزمة، معظمها مقترض أو مطبوع فى شكل نقود جديدة، إنها تستعير المزيد من التريليونات لتمويل حروبنا فى أفغانستان والعراق، ولا أحد يصرح بما هو واضح: أننا لن نكون قادرين أبداً على سداد تلك الديون. يفترض بنا أن نجد طريقاً للخروج من الأزمة عن طريق الإنفاق بشكل أو بآخر، وأن نحافظ على مشروعنا الامبريالى بالائتمان. لندع أبناءنا يقلقون من ذلك. لا توجد أى خطة متماسكة وواقعية - خطة قائمة على مواطن القصور الخطيرة التى لدينا - لوقف النزيف أو لتخفيف الحرمان المتزايد الذى سنعانى منه كمواطنين. قارن ذلك بإستراتيجيات الدولة للأمن



القومى لكسر القلق المدنى الكامن وستحصل على لمحة للمستقبل، لا يبدو جيدا.

أخبر بلير مجلس الشيوخ أن «الاهتمام الأمنى الرئيسى للولايات المتحدة على المدى القصير هو الأزمة الاقتصادية العالمية وتداعياتها الجيوسياسية»، وأن «الأزمة مستمرة منذ أكثر من عام والاقتصاديون منقسمون حول ما إذا كنا سنرتطم بالقاع ومتى سيحدث هذا، والبعض يتخوف حتى من أن فترة الركود من الممكن أن تزداد عمقاً وتصل لمستوى الكساد الكبير. بالطبع كلنا نتذكر العواقب السياسية الدراماتيكية التى صنعتها الاضطرابات الاقتصادية فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن العشرين والاستقرار والمستويات المرتفعة للتطرف العنيف».

ظهر شبح الاضطراب الاجتماعى فى الكلية الحربية الأمريكية فى نوفمبر فى وثيقة بعنوان «المجاهيل المعروفة: صدمات إستراتيجية غير تقليدية فى تطوير الإستراتيجية الدفاعية».

تنبه الوثيقة إلى أن الجيش يجب أن يكون مستعداً لـ«اضطراب استراتيجى عنيف داخل الولايات المتحدة» يمكن أن يحدثه «انهيار اقتصادى غير متوقع» أو «مقاومة داخلية شديدة» أو «انتشار الطوارئ الصحية العامة » أو «فقدان النظام السياسى والقانونى الفعال». «العصيان المدنى المنتشر» -وفقا للوثيقة - «سيجبر المؤسسة الدفاعية على إعادة توجيه أولوياتها لأقصى مدى للدفاع عن النظام الداخلى الأساسى والأمن الإنسانى». وتستمر الوثيقة، «الحكومة الأمريكية وإدارة الدفاع الراضية وهماً عن نفسها- بسبب نظام أمنى داخلى نعمت به طويلاً- ستكون مجبرة على أن تسحب بعض أو معظم التزاماتها الأمنية الخارجية لمعالجة انتشار عدم الأمان الإنسانى فى الداخل.

وفى أقصى الظروف، قد يتضمن هذا استخدام القوة العسكرية ضد الجماعات العدائية داخل الولايات المتحدة. علاوة على ذلك، قد تصبح وزارة الدفاع بالضرورة محورا أساسيا لتمكين السلطة السياسية من الاستمرار فى ظل أضطرابات أو صراع مدنى فى ولايات متعددة أو فى جميع أنحاء الأمة»، كما تقول الوثيقة.

بلغة واضحة ــ يبدو أن البيروقراطيين والعسكريين غير قادرين على استخدامها - يعنى هذا فرض الأحكام العرفية وإدارة الحكومة بشكل فعلى من وزارة الدفاع، إنهم يفكرون فى ذلك، وكذلك أنت أيها القارئ.



حذر الأدميرال بلير مجلس الشيوخ بقوله: إن ما يقرب من ربع الدول فى العالم عانت بالفعل من مستويات منخفضة من عدم الاستقرار مثل تغيير الحكومة بسبب التباطؤ الحالى، وأشار إلى «أن معظم المظاهرات ضد الدولة» على مستوى العالم والتى شوهدت فى أوروبا والاتحاد السوفيتى السابق لا يعنى عدم إمكانية انتشارها فى الولايات المتحدة، وأخبر أعضاء مجلس الشيوخ أن انهيار النظام المالى العالمى على الأرجح سيُنتج موجة من الأزمات الاقتصادية فى أسواق الدول الناشئة خلال العام القادم، وأضاف بلير: إن معظم أمريكا اللاتينية ودول الاتحاد السوفيتى السابق وإفريقيا جنوب الصحراء تفتقر لاحتياطات نقدية، أوطريقة للوصول لمساعدات دولية، أو ائتمان، أو أى آليات أخرى للتكيف.

قال أيضا : «عندما تنخفض معدلات النمو تلك، يخبرنى إحساسى بأن هنالك مشاكل ستظهر نتيجة لذلك، ونحن نتوقعها»، وأشار إلى أن النماذج الاحصائية تظهر أن الأزمة الاقتصادية تزيد من مخاطر عدم الاستقرار التى تهدد النظام إذا استمرت مدة أكثر من عام أو عامين.

إن ماقاله بلير هو أحدث المخاوف. فبسبب اقتصاد تنحل خيوطه بتسارع، سيقال لنا إن الإسلاميين المتطرفين الملتحين ليسوا هم من يهددوننا، بل الغوغاء المحليون، والمدافعون عن البيئة، والفوضويون والنقابات والأعضاء الغاضبون من الطبقة العاملة المحرومة، وبالرغم من ذلك، فإن من فى السلطة سيخرج من جرابه المتطرفين الإسلاميين عندما يحتاج إعطاءنا صدمة غرائبية، وكما يحدث دائماً فى أوقات الاضطرابات، سوف تتزايد الجريمة، وأولئك الذين يعارضون القبضة الحديدية لجهاز الدولة الأمنى سيُجمعون مع الطبقة الدنيا المجرمة المتزايدة أعدادها فى تقارير إخبارية مجُمعة ماكرة.

لم يعلم تماماً نائب رئيس اللجنة السيناتور الجمهورى عن ميسورى/ كريستوفر بوند CHRISTOPHER BOND ما يفعله بشهادة بلير وقال أنه كان مهتماً بأن بلير كان قلقاً من جعل الظروف فى البلد والأزمة الاقتصادية العالمية بؤرة الاهتمام الرئيسية لمجموعة الاستخبارات.

لقد كشف الانهيار الاقتصادى غباء إيماننا الجماعى بسوق حرة، وسخافة اقتصاد يرتكز على أهداف النمو اللانهائى والاستهلاك والاقتراض والتضخم. لقد فشلت أيديولوجيا النمو اللامحدود فى أن تأخذ فى اعتبارها الاستنزاف الضخم لموارد العالم من وقود حفرى، وماء نقى ومخزون أسماك، وعوامل تعرية، بالاضافة للزيادة السكانية وارتفاع درجة حرارة الأرض وتغير المناخ، فالفيضان الضخم لرؤوس الأموال العالمية أغرق النظام المالى العالمى.

ودولار مُقيم بأزيد من قيمته -سوف ينكمش قريباً- تكنولوجيا جامحة، أسهم وفقاعات مالية فى قطاع الإسكان، أطماع بلا قيود، إهلاك القسم الأعظم من قطاعنا التصنيعى ، منح سلطة لطبقة أوليجاركية ، فساد نخبتنا السياسية ، إفقار العمال، ميزانية دفاع لجيش متخم وانغماس فى الائتمان بلا قيود، تآمروا لإسقاطنا. ستصبح الأزمة المالية قريباً أزمة عملة. تلك الصدمة الثانية سوف تهدد إمكانية استمرار نظامنا المالى. لقد تركنا السوق يحكم والآن ندفع ثمن ذلك.

مجموعة اللصوص أولئك الذين أصروا على أن يدفع لهم عشرات الملايين من الدولارات لأنهم كانوا الأفضل والأذكى، كُشفوا كممثلين مخادعين، مسئولونا المنتخبون بجانب الصحافة كُشفوا كفاسدين و كجماعة من التابعين ضعاف الشخصية ، مدارس الأعمال والنخبة المثقفة كُشفوا كخُدع .

لقد انتهى عصر الغرب.

انظر للصين. رأسمالية «دعه يعمل» دمرت نفسها، حان وقت إزالة الغبار عن النسخ التى لديكم لماركس. ■

رأى

الأزمة المالية: الفاشـــــلون



جـــون بـــول فيـتـوســى

Jean-Paul Fitoussi

■■ باريس. ذات يوم قال أوسكار وايلد إن التجربة هى المسمى الذى نطلقه على أخطائنا. وفى العام الماضى حاولنا تحليل الأخطاء التى قادت العالم إلى الأزمة الاقتصادية. والآن حان الوقت لتحليل الأخطاء التى ارتكبناها أثناء محاولاتنا للخروج من الأزمة.

وحينما أصبح حجم الأزمة واضحاً فى العام الماضى، كان العديد من المراقبين على ثقة من أن إدارة الأزمة سوف تكون بالغة الرداءة. ولكن ربما كان من الواجب علينا أن نشعر بالامتنان لأن الأزمة وجدت من يديرها فى المقام الأول. فخلافاً لما حدث فى ثلاثينيات القرن العشرين، سارع صناع القرار السياسى إلى العمل، متجاهلين المسَلّمات التى حذرت من التدخل السريع.

وكان صناع القرار السياسى يدركون فضلاً عن ذلك أن الأمر سوف يتطلب التنسيق الدولى الوثيق، خلافاً لفترة ما بين الحربين العالميتين. وأثناء الفترة ٢٠٠٨ - ٢٠٠٩ تصاعد نفوذ مجموعة العشرين، على حساب مجموعة الثمانى. وأصبح الناس مدركين للحاجة إلى الحوكمة العالمية الحقيقية. وبعد طول انتظار ظهرت مجموعة من الاقتراحات الرامية إلى تحويل الحوكمة إلى حقيقة واقعة.

ولقد تبين أن التجربة (الخبرة) ليست مجرد اسم نطلقه على أخطائنا. وكما أظهرت الأزمة المالية فقد أصبحت أيضاً العملية التى تمكننا من تعميق فهمنا وفى نهاية المطاف تصورنا لعالم جديد.

ولكن من المؤسف أن هذه العملية لم تذهب بعيداً بما فيه الكفاية، الأمر الذى سمح للعديد من البنوك والحكومات والمؤسسات الدولية بالعودة إلى" العمل كالمعتاد". بل إن من أشعلوا الحرائق فى الاقتصاد العالمى تحولوا إلى مدعى عموم، واتهموا رجال الإطفاء بإحداث الفيضان.

فى أوج الأزمة، سنحت الفرصة للحكومات لإنشاء بنية أساسية مالية عالمية جديدة. ولكنهم تركوا هذه الفرصة تفلت من بين أصابعهم. ولا ينبغى لنا أن ننخدع بنجاح العديد من البلدان الغربية فى الخروج من الركود فى العام الماضى فنتصور أن الأزمة كانت مجرد فترة فاصلة وجيزة، وأن عالم ما بعد الأزمة قادر على العودة إلى الوضع الذى كان سائداً فى مرحلة ما قبل الأزمة. وهناك ضغوط تفرضها جهات تسعى إلى إعادة كتابة تاريخ هذه الأزمة بتصوير الآثار المترتبة عليها وكأنها أسباب لها، وتوجيه اللوم إلى الحكومات التى أدارت الأزمة واعتبارها مسؤولة عن اندلاعها.

ولعل النقطة الأدنى. أو ربما قمة السَخَف. كانت فى العام الماضى عندما كشفت وكالات التصنيف من مراقبتها للديون الحكومية، والأسواق التى سقطت ضحية لافتقار هذه الوكالات للكفاءة، وبعد أن أصبح سوء النية متأصلاً فى تقييماتها. فقد حصلت ليمان براذرز على تقييم مرتفع فى عشية انهيارها، ورغم ذلك فإن وكالات التصنيف تنتقد الآن الحكومات التى سحبت الاقتصاد العالمى قبل أن يسقط فى الهاوية بتهمة انتهاك المبادئ المحاسبية.

ولكن هل بلغت وكالات التصنيف والأسواق حقاً هذه الدرجة من سوء الاطلاع على الإنفاق العام؟ فطبقاً لصندوق النقد الدولى، خصصت بلدان مجموعة العشرين١٧,٦ ٪ من ناتجها المحلى الإجمالى فى المتوسط لدعم نظامها المصرفى، ولو أن إنفاقها كان أقل كثيرا. وعلى نحو مماثل، لم يتجاوز مجموع الإنفاق لتحفيز الاقتصاد الحقيقى٠,٥ ٪ من الناتج المحلى الإجمالى فى عام٢٠٠٨ . و١,٥٪ فى عام ٢٠٠٩، وربما١ ٪ هذا العام. وفى مجموعها لم تتجاوز خطط التعافى فى بلدان الاتحاد الأوروبى١,٦ ٪ من الناتج المحلى الإجمالى مقارنة بنحو٥,٦ ٪ فى الولايات المتحدة.

لقد اتخذت الحكومات التدابير المناسبة لإنقاذ البنوك ولكنها تجاهلت العواقب السياسية. وبتوزيع مبالغ طائلة من المال لإنقاذ النظام المالى، من دون المطالبة بضمانات حقيقية فى المقابل، أظهرت الحكومات عجزاً واضحاً فى بصيرتها. وقد ارتكبت الحكومات خطأً لا يغتفر حين اعترفت بعجز وكالات التصنيف وافتقارها إلى الكفاءة من دون القيام بأى تحرك لتنظيمها.

ونتيجة لهذا فقد يضطر دافعو الضرائب إلى الدفع مرتين، مرة لتغطية تكاليف الإنقاذ ومرة أخرى لتغطية تكاليف الدين الردىء الذى تحملوه أثناء عملية الإنقاذ، كما تشهد برامج التقشف التى تم الكشف عنها فى أوروبا. ومن عجيب المفارقات هنا أن الشعور المتنامى بنجاحنا فى تجنب الكارثة سمح بمطالبة الحكومات على نحو متزايد بخفض الإنفاق العام والاجتماعى، والامتناع عن اقتراح برامج الاستثمار. أى أننا بدأنا نتسابق فى العودة إلى السياسات التى أدت إلى اندلاع الأزمة فى المقام الأول.

بيد أن الحكومات ليست مذنبة بخداع الناس؛ وإن كان بوسعنا أن نتهمها بأى شىء فهو أنها تصرفت بسذاجة، وهى الآن تدفع الثمن. إن الحكومات ليس لديها خيار حقيقى :إذ يتعين عليها أن تتحمل المسؤولية وأن تمارس سلطتها، حتى ولو تطلب الأمر السباحة ضد تيار الرأى العام. وخاصة إذا كان بوسعها أن تساعد فى تخفيف المعاناة الاجتماعية التى جلبتها الأزمة.

والواقع أننا لابد أن نتذكر أن النمو الاقتصادى لم يكن مستداماً إلا فى البلدان التى تتبنى أنظمة رعاية اجتماعية ناضجة، مثل فرنسا. صحيح أن هذه البلدان سوف تتعافى بخطوات أبطأ من بلدان أخرى، ولكن البلدان التى سقطت فى حفرة عميقة لابد أن تعمل بجدية أكبر من تلك البلدان التى سقطت فى حفرة ضحلة.

ولعل الأمر الأكثر أهمية على الإطلاق هو أن المحرك اللازم لاكتساب المزيد من القدرة التنافسية، بصرف النظر عن التكاليف، لن يؤدى إلا إلى تفاقم الأزمة. فمن الواضح أن سياسات النمو القائم على التصدير لا تصادف النجاح إلا إذا كانت بلدان أخرى على استعداد لتحمل العجز. وبما أن الاختلال العالمى فى التوازن، والذى أدى إلى اندلاع الأزمة، ما زال بلا علاج، فإن زيادة القدرة التنافسية سوف تكون بمثابة نصر باهظ الثمن. فهو النصر الذى من شأنه أن يؤدى إلى خسائر شديدة فى مستويات المعيشة المحلية والاستهلاك. ■

Jean-Paul Fitoussi is Professor of economics at Sciences-po and President of OFCE (Sciences-po Center for Economic Research, Paris). His most recent book is: Stiglitz, Joseph E., Amartya Sen, and Jean-Paul Fitoussi. *Mismeasuring Our Lives: Why GDP Doesn't Add up : the Report*. New York: New, 2010

ترجمة: إبراهيم محمد على



All the Devils Are Here: The Hidden History of the Financial

كل الشياطين هنا: التاريخ الخفى للمالية

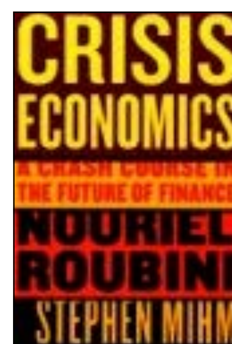
Bethany McLean and Joe Nocera
Viking, 2010
PP 400, £14.99
Bethany McLean (Author)
› Visit Amazon's Bethany McLean Page
Find all the books, read about the author, and more.
See search results for this author
Are you an Author? Learn about Author Central

يقدم اثنان من أكثر صحفيى الأعمال تميزا وهما بيثانى ماكلين وجو نوكيرا عرضا للازمة المالية الأكثر إشكالية والأكثر تصدرا لعناوين الأخبار فى الوقت الحالى وفى المستقبل، يفحص الكتاب تحديدا الوهم الأمريكى باستحقاق كل عائلة أن تمتلك منزلا، والذى قدم غطاء لكل طرق النصب المكنة، حيث تم إعطاء منازل لأناس لا يمكنهم تحمل تكلفتها إلى جانب التشجيع على بناء إمبراطوريات استثمار فاسدة بناء على تصور خاطئ وغير واقعى وهو أن الاستحقاقات المالية العقارية (الأقساط) سوف يتم سدادها .كل من الديمقراطيين، الجمهوريين، أصحاب البنوك الاستثمارية، المضاربون وأنصار سياسات الإسكان معقولة التكاليف، جميعهم تآمروا وفقا لدوافعهم المتباينة وروجوا لوهم انه لا يمكن لأسعار العقارات أن تنهار.

يعود الكتاب إلى السبعينيات، حين تحولت الأقساط العقارية الشهرية مستحقة الدفع بفضل البورصة إلى أمر أكثر تعقيدا وهو التوريق (تحويل الأوراق المالية)، فبدلا من امتلاك العقارات قام المقرضون ببيعها إلى سماسرة قاموا بدورهم- بمقابل- بتحويل القروض الشخصية إلى سندات ثم تقسيمها إلى شرائح وبيعها إلى مستثمرين، مع الوقت أصبحت هذه السندات عالية المخاطر وأيضا العقارات المرتبطة بها والتى توسعت كنتيجة للفوائد منخفضة القيمة التى اقرها البنك الاتحادى الأمريكى، فلم يقلق شخص حول خطر العجز لان ملكية العقارات ظلت تنتقل من يد لأخرى.

تفجر الطلب على العقارات من اجل الحفاظ على خطوط الإنتاج ثابتة، الأمر الذى حدث دون تفكير، فحين لعبت قوى الجاذبية المالية دورها، ولم يتمكن أصحاب العقارات من سداد الأقساط الشهرية، انهارت قيمة صكوك الائتمان، فانتشر الفزع وانهارت العديد من الشركات، تجمدت السيولة، آخذة إيانا إلى منحدر الكساد العالمى.

■



Crisis Economics: A Crash Course in the Future of Finance

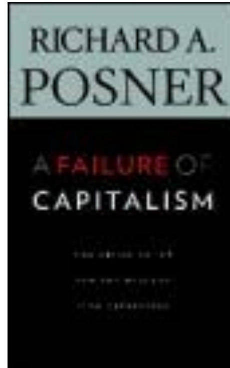
الأزمة الأقتصادية: دورة سريعة فى مستقبل المالية

Nouriel Roubini and Stephen Mihm
Nouriel Roubini (Author)
› Visit Amazon's Nouriel Roubini Page
Find all the books, read about the author, and more.
See search results for this author
Are you an author? Learn about Author Central
Penguin Press HC, 2010
Pp 368, $27.95

يأخذ هذا الكتاب القارئ عبر قرون من الرأسمالية حيث يشير إلى انه من السهل توقع نماذج الازدهار والانهيار الاقتصادى، بدءا من ظهور مخاطر الأصول المالية إلى انتشار الانهيار الاقتصادى وانتقاله عبر الحدود التى تشترك فى أشكال متقاربة من التجاوزات. فغياب الشفافية وقلة تقدير المخاطر والجهل بكيفية أداء المنتجات المالية الجديدة تحت ضغوط كبيرة كلها إشكاليات مكررة فى أزمات عدة عبر الماضى والحاضر.

يشير الكتاب إلى أن الخسائر المالية فى ٢٠٠٨ لم تنتج بسبب حزمة من الرهون العقارية أو سياسات إسكانية عالية المخاطر بل بشكل أعمق بسبب ضغوط هيكلية تراكمت لسنوات،ليس فقط بسبب فشل الحكومة فى الحفاظ على أسعار المنتجات المالية الجديدة مثل المشتقات المالية بل أيضا تجاهل قانون تنظيم البنوك الذى تم إنشاؤه مع صحوة الكساد العظيم إلى جانب القدرة العظيمة للبورصة الأمريكية على التهرب من القواعد المنظمة للعمل، الأمر الذى نتج عنه نظام بنكى مواز واسع الانتشار خارج الإطار القانونى، فى نفس الوقت نظام العلاوات الذى اتبعته عدة شركات مالية حفز على استهداف الأرباح قصيرة المدى واخذ المخاطر المرتفعة، حتى أن الفوائد المنخفضة وسياسات الأموال السهلة التى اتبعها البنك الاتحادى الأمريكى شجعت على نمو الديون.

■



Failure of Capitalism: The Crisis of '08 and A the Descent into Depression

فشل الرأسمالية: ازمة ٢٠٠٨ والتدهور نحو الكساد

Richard A. Posner
Harvard University Press; 1 edition, 2009, 368 pp, $23.95

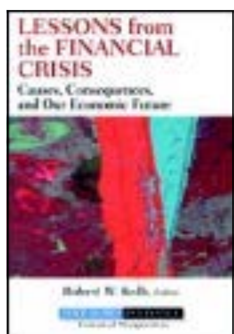
يشير هذا الكتاب إلى إننا نعانى من ركود اقتصادى فقط بسبب خوفنا من تسميته كسادا، من خلال استبيان دقيق يغطى الكتاب كل النقاط الأساسية للأزمة ويضع يده على الدروس المستفادة من كل من الرأسمالية والحكومة ويحاول فهم قصر نظر المجتمع الاقتصادى والمدرسة المحافظة الناتجة عن الأزمة.

لماذا لم يتم توقع الأزمة؟ لاتخاذ الخطوات العلاجية المناسبة؟ لماذا كانت كل ردود الفعل المتخذة من قبل الحكومة والاقتصاديين مائعة، يفحص بونسر أصل الأزمة بدون الخوض فى تفاصيل الاقتصاديات الكلية ونظريات رأس المال ليتمكن كل من القارئ العادى والمتخصص من فهم الكتاب.

يعرض بونسر أستاذ القانون فى جامعة شيكاغو لواحد من أسباب الأزمة وهو الادخار المتدفق من آسيا والخفض المتهور لأسعار الفائدة من قبل مجلس إدارة البنك الاتحادى الأمريكى، والعلاقة بين الإجراءات الإصلاحية، أهداف الربح قصيرة المدى والإقراض عالى المخاطر إلى جانب التشريعات الفضفاضة ومعدلات الادخار المنخفضة للشعب الأمريكى.

بينما يحلل النظريتين اللتين واجهتا الكساد العظيم فى الثلاثينيات: وهما الحل النقدى القائل بخفض الاحتياطى النقدى المتدفق فى الأسواق والذى فشل فى منع الانكماش الاقتصادى الكارثى، والنظرية الكنزية التى رأت أن الأزمة كانت بسبب نهم الائتمان فى العشرينيات وانهيار بورصة الأوراق المالية الذى ترتب عليه انهيار النشاط الاقتصادى بشكل حلزونى لكن يرى بونسر أن بندول الساعة قد خرج عن مساره فى الأزمة الحالية وان الحل هو نظام تشريعى قوى للأسواق المالية.

■



Lessons from the Financial Crisis: Causes, Consequences, and Our Economic Future

دروس من الأزمة الاقتصادية: الأسباب والتبعات ومستقبلنا الاقتصادى

Robert Kolb
Wiley , 2010
Pp 667, $95.00

هذا الكتاب يجمع العقول الرائدة فى عالم المال والعالم الأكاديمى فى محاولة لتحليل الأزمة، حيث يضع الأحداث من خلال منظور أكاديمى، ويقدم نظرة تحليلية لما علينا فعله لتجنب الخطوات والإجراءات الخاطئة فى المستقبل.

مع وجود كميات كبيرة من المعلومات تشبع السوق كل يوم للمستثمرين، نحاول أن نفهم لم حدثت الأزمة الاقتصادية وما هو المطلوب لتجاوزها، فهناك حاجة ضرورية لكل من المستثمرين والمجتمع المالى للحصول على إجابات بهذا الشأن.

فهذا الدليل يعرض لبداية الأحداث وتطورها وكيف أثرت على الناس وتطبيقاتها على الاقتصاد وعلى الفئات الأوسع من المجتمع عبر مساهمين متعددين كل يساهم بتحليله فى هذا الجدل فى محاولة لفهم الأزمة، وفى هذا السياق يتحدث الكتاب حول: المشكلات المؤسسية أثناء الأزمة، دور المقترضين العقاريين فى تضخيم الأزمة، فشل نظم تحليل وإدارة المخاطر وكيف يمكن تحسين مثل تلك الأنظمة، عملية تحويل الأوراق المالية وكيف أن إنشاء نظام جديد للرهون اثر فى سوق الرهون وتفجر فى شكل الأزمة المالية، أيضا يتناول الكتاب الحلول النظامية والتشريعية وغيرها والتى يمكن تطبيقها لتفادى أزمات مماثلة فى المستقبل.

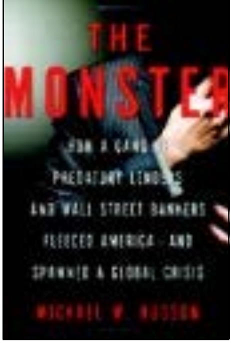
■

فــى أرشــــــــــيــف
وجــهــات نــظــر

أيــن ذهــبـت النقـــود

- حازم الببلاوى: الاقتصاد رهان على المستقبل.. والمستقبل محفوف بالمخاطر ـ أكتوبر ٢٠٠٢
- محمود عبد الفضيل: الرأسمالية الأمريكية فى أزمة ـ أكتوبر ٢٠٠٢
- عمرو محيى الدين: هوس، هلع، انهيار..تاريخ الأزمات الاقتصادية ـ يناير ٢٠٠٣
- آلان جرينسبان: مغامرات فى عالم جديد ـ يونيو ٢٠٠٨
- سعد القرش: فى زمن الاقتصاد الجديد.. تروس المغانم والمظالم ـ يوليو ٢٠٠٨
- جلال أمين: أهواء الاقتصاديين!!! ـ أغسطس ٢٠٠٨
- فضل مصطفى النقيب: سياسة، واقتصاد، وتاريخ، ومليارات ضائعة.. فى فهم ما جرى ـ نوفمبر ٢٠٠٨
- جون كاسيدى: جورج سوروس.. نهاية عصر ـ نوفمبر ٢٠٠٨
- ألان جرينسبان: الاثنين الأسود ـ نوفمبر ٢٠٠٨
- محمود محيى الدين: الأزمات العالمية.. دروس غير مستفادة! ـ ديسمبر ٢٠٠٨
- جويل بينين: الاقتصاد العالمى الجديد والاقتصاد السياسى للحركات الاجتماعية الإسلامية ـ ديسمبر ٢٠٠٨
- بول كروجمان: موضوعات صعبة..وأفكار غامضة!!! ـ ديسمبر ٢٠٠٨
- تونى يوت: لماذا لم يجرِّب الأمريكيون الاشتراكية؟ ـ أبريل ٢٠١٠
- لبنى الريدى: كيف أصبحت الكارثة ممكنة؟! ـ يونيو ٢٠١٠
- بول كروجمان: الاقتصاد الأخضر ـ أغسطس ٢٠١٠

فــى الـمـكـتــبــــــــــــــــــــة



The Monster: How a Gang of Predatory Lenders and Wall Street Bankers Fleeced America—and Spawned a Global Crisis

الوحش: كيف نصبت على المدينين عصابة من الدائنين ووول ستريت والبنوك نحلت وبر أمريكا ـ وازدهرت الأزمة العالمية

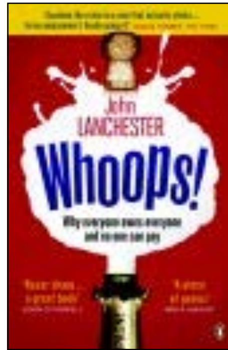
Michael W. Hudson
Times Books, 2010
Pp 384, $26.00

كيف وصلنا إلى هذه الفوضى؟ من قتل الاقتصاد؟ فى كتابه يوضح هدسون الضعف الإنسانى وهشاشة المؤسسات التى خلقت الفضيحة المالية الأكبر فى التاريخ الأمريكى، هدسون كان من الصحفيين الأوائل الذين استقصوا فى هذا الموضوع «من الصعب على الشخص أن يعى بالذنب إذا لم يكن لديه وعى بالأساس، فأى شىء فى صالح الإنتاج والربح سوف أقوم به»

قوى البيع المسيطرة على الرهون العقارية الأمريكية اتبعوا هذه الفلسفة بحذافيرها، فلقد تعاملوا مع الفيلم الأمريكى «حجرة الغليان» والمتعلقة بجرائم أصحاب الياقات البيضاء باعتباره نموذج التدريب، موضحا فى دراسته كيف تمت الاتفاقات بأسعار تفوق القيمة لأصحاب المنازل ذوى النوايا الحسنة، فلقد تعلموا كيف يقومون بتزوير توقيعات أوراق الرهون العقارية وخلق مستندات مزيفة فى عمليات القص واللزق والتى أطلقوا عليها اسم المعمل أو القسم الفنى.

فى دراسته يكشف هادسون صعود وانهيار الأعمال الخاصة بالرهانات العقارية من خلال تأريخ صعود وانهيار اثنين من الإمبراطوريات التجارية وهما: امريكيست وليمان بروذرز باعتبارهما من أهم المقرضين العقاريين والمضاربين فى مجال العقارات، فلقد ساهما أكثر من غيرهما فى حالة السرع التى ملأت الأمة بحالها على قروض العقارات عالية الأرباح وعالية المخاطر.

■



Whoops!: Why everyone owes everyone and no one can pay

أوبس!: لماذا يدين الكل للكل ولا أحد يقدر أن يدفع

John Lanchester
Penguin, 2010
Pp 256, £9.99
John Lanchester (Author)
› Visit Amazon's John Lanchester Page
Find all the books, read about the author, and more.
See search results for this author
Are you an Author? Learn about Author Central

هذا الكتاب يعرض لأزمة الرأسمالية الحديثة، فى طبعته الثانية، فلقد اتسعت الأزمة ليدلى الجميع بدلوهم فيها، ولا يقتصر الأمر فقط على الاقتصاديين، يعرض لانشستر الصحفى والروائى وكاتب السيناريو كيف فشل نظام تحليل المخاطر بالبنوك ويعطى رؤية متوازنة لسوق الإسكان الأمريكى، ويشير إلى التعقيدات السياسية الخاصة بالقروض العقارية فى الولايات المتحدة الأمريكية وكيف أسهمت فى التأثير بالأزمة من خلال الضغوط السياسية وممارسات السوق السيئة، ويشير أيضا إلى فشل السياسة النقدية الأمريكية حيث تم الإبقاء على أسعار الفائدة منخفضة لفترات طويلة وكأن أحدا لم يلاحظ كيف ارتدت الاقتصاديات الأوروبية للوراء.

باستخدام مصطلح اقتصادى تقنى، لقد أخفقنا، فرعاة البقر الرأسماليون أقاموا حفلة بأموال الجميع، ونحن ندفع الثمن الآن، ما الذى حدث؟ وهل سنتعلم الدرس، أم فقط سنكمل الطريق وكأننا نحتفل لتونا بالبقاء على الحياة بعد أزمة قلبية، بلغة بسيطة وللأشخاص الذين لا يستطيعون معرفة الفارق بين التزامات الدين ذات الضمان وسندات الدين ذات الضمان وأوراق الرهن العقارى المدعومة وساندويتش الجبن، يعرض لانشستر للأزمة متجنبا ذلك التعقيد.

■



إيران
رائحة القنبلة

من يقدر على إيـــــران؟

نـقــطـــــة اللا عــــودة

جــيـــفــرى جـــولـــدبــرج

Jeffrey Goldberg



من المؤلم لإدارة أوباما تصور إيران كدولة نووية فى المستقبل. فإن ذلك سوف يخلق تحديات قومية - أمنية كبيرة وجديدة، وسوف يحطم أيضا حلم الرئيس فى إنهاء الانتشار النووى. ولكن المشهد من جانب القدس كان أكثر كآبة: إن إيران النووية تمثل إلى جانب أشياء أخرى تهديدا حقيقيا لوجود إسرائيل. وفى المسافة ما بين رؤى واشنطن والقدس لإيران يكمن السؤال التالى: من - إذا كان هناك بالفعل أحد - الذى سيمنع إيران من أن تكون دولة نووية وكيف؟ وبينما يقوم كل من واشنطن والقدس بدراسة بعضهما البعض عن كثب، نقدم لكم هنا نظرة من الداخل (داخلية) على الحسابات الإستراتيجية لكل جانب. وكيف ستكون الضربة الجوية الإسرائيلية إذا ما استمرت الأحداث على ماهى عليه.



■■ إن العقوبات الاقتصادية المدمرة التى فُرضت على جمهورية إيران الإسلامية قد تقنعها فى وقت ما خلال الاثنى عشر شهرا القادمة بالكف عن البحث عن أسلحة نووية. ومن الممكن أيضا أن تحل الحركة الخضراء الإيرانية التى تنادى بالإصلاح محل النظام الذى يقوده الملالى بطريقة ما أو على الأقل تكتشف وسائل تستطيع بواسطتها أن تعدل من التطرف الأيديولوجى للحكم. ويمكن أيضا تنفيذ «عمليات إحباط» بقيادة وكالات الاستخبارات الإسرائيلية والأمريكية والبريطانية والقوى الغربية الأخرى. وهى برامج صممت لتدمير الجهود النووية الإيرانية من خلال عمليات تخريب وفى بعض الأحيان تنفيذ عمليات ناجحة يختفى فيها علماء نوويين. مما يعيق تقدم إيران بدرجة كبيرة. ومن الممكن أيضا أن يقوم الرئيس أوباما، الذى أعلن فى مناسبات عدة أنه يعتبر فكرة إيران نووية «شىء غير مقبول»، بضربة عسكرية ضد المنشآت النووية ومفاعل تخصيب اليورانيوم.

ولكن كل هذه الأفكار لا تبدو ممكنة الحدوث فى الوقت الحالى، خاصة وإنه من المستبعد أن يقوم باراك أوباما بشن عملية عسكرية ضد إيران، لأن إشعال حروب جديدة فى الشرق الأوسط ليست من أهداف سياسته الخارجية. ولكن من الأرجح أن يقوم المستشار القومى والأمنى الإسرائيلى عوزى أراد ووزير الدفاع الإسرائيلى يهود باراك فى أحد أيام الربيع المقبل بالاتصال هاتفيا فى وقت متزامن مع نظرائهم فى البيت الأبيض والبنتاجون لإعلانهم بأن رئيس وزرائهم بنيامين نتنياهو قد أصدر أمرا فى التو لحوالى مائة طائرة اف ١٥E، اف I١٦ واف C١٦ وطائرات أخرى من القوات الجوية الإسرائيلية بالطيران شرقا فى اتجاه إيران. إما عبر المملكة العربية السعودية أو بمحاذاة

الحدود بين سوريا وتركيا أو غالبا بالطيران مباشرة عبر المجال الجوى العراقى بالرغم من أن ذلك المجال مزدحم بالطائرات الأمريكية. (إن المجال الجوى العراقى فى الواقع مزدحم لدرجة أنه عندما سألت القيادة المركزية الأمريكية المسئولة عن الشرق الأوسط الكبير البنتاجون عما يجب عمله إذا قامت إسرائيل بغزو هذا المجال الجوى، كانت الإجابة طبقا لمصادر عديدة «لا تطلق النار عليهم»). وفى هذه الأحاديث المشحونة سوف يخبر الإسرائيليون نظراءهم الأمريكيين أنهم قد أخذوا هذه الخطوة العنيفة لأن

إيران النووية تمثل أخطر تهديد لبقاء الشعب اليهودى منذ هتلر. وسوف يؤكد الإسرائيليون أنهم يعتقدون أنهم بذلك سوف يخلقون فرصة معقولة لتعطيل البرنامج النووى الإيرانى على الأقل لمدة تتراوح من ثلاث إلى خمس سنوات. سوف يقولون لزملائهم الأمريكان إنه لم يكن لدى إسرائيل أى خيار آخر.

فور انطلاق الطائرات الإسرائيلية بشكل جماعى من قواعدها عبر إسرائيل لتبدأ فى قصف أماكن تخصيب اليورانيوم فى ناتانز وموقع التخصيب السرى السابق فى قم ومركز الأبحاث النووية فى أصفهان ومن

الممكن أيضا قصفها لمفاعل بوشير بالإضافة للمواقع الرئيسية الأخرى فى البرنامج النووى الإيرانى، يصبح متاحا لهم فرصة تغيير الشرق الأوسط إلى الأبد. بغض النظر عما إذا نجحوا فى تدمير أجهزة الطرد المركزى الإيرانية ومصانع الصواريخ والرؤوس النووية أو حتى إذا فشلوا تماما فى إحداث أى تأثير سلبى بسيط فى البرنامج النووى الإيرانى.

قد يسبب ذلك إشعال أعمال عنف شرسة أو حرب إقليمية واسعة النطاق ينتج عنها قتل آلاف الإسرائيليين والإيرانيين وربما عرب وأمريكان أيضا؛ قد يسبب ذلك أزمة حرجة لباراك أوباما لتقزيم حرب أفغانستان فى الأهمية والتعقيد؛ قد تمزق العلاقات بين القدس وواشنطن التى تعتبر الحليف المُجدى الوحيد؛ قد ترسخ عن غير قصد حكم الملالى الضعيف نسبيا فى طهران؛ قد يسبب ذلك ارتفاعا كارثياً فى أسعار البترول فينطلق الاقتصاد العالمى فى فترة من الاضطرابات لم يشهدها العالم منذ خريف ٢٠٠٨ أو حتى منذ صدمة البترول فى عام ١٩٧٣؛ قد يضع مجتمعات فى جميع أنحاء الشتات اليهودى فى خطر مميت وذلك بجعلهم أهدافا للهجمات الإرهابية التى تمولها إيران بطريقة محدودة ولكنها مميتة كما كانوا فى الماضى؛ وأخيرا يكون ذلك سببا فى تعجيل تحول إسرائيل من ملاذ محترم لشعب مضطهد إلى كيان منبوذ من الشعوب الأخرى.

أما إذا نجحت الضربة فى إصابة البرنامج النووى الإيرانى بالشلل تكون إسرائيل قد نجحت. بالإضافة إلى إحداث خليط من الكوارث العديدة التى تم تحديدها سابقا، فى إزالة الشبح الملح والمسلح نوويا. المدفوع بوازع دينى ومعاداة السامية. من قائمة مخاوفها؛ وقد تحصل لنفسها على شكر سرى. على الرغم من الإدانة العامة من الأنظمة العربية المعتدلة فى الشرق الأوسط التى تخشى القنبلة النووية الإيرانية بالقدر الذى تخشاه إسرائيل فى بعض الحالات. وسوف تنجح إسرائيل فى التصدى لانتشار الأسلحة النووية فى الشرق الأوسط وذلك لكونه الهدف الرئيسى للشخص المتحمس الذى يسكن حاليا فى البيت الأبيض، ولاستخدامها للمقاومة المسلحة التى لها ما يبررها فى هذا السياق.

عندما أناقش معقولية والعواقب المحتملة لهجوم إسرائيلى على إيران،

بترتيب مع: The Atlantic Monthly

ترجمة: ميسون شعث

Jeffrey Goldberg is a national correspondent for *The Atlantic*. Author of the book Prisoners: *A Story of Friendship and Terror*, he has reported from the Middle East and Africa. He also writes the magazine's advice column.

وجهات نظر: أكتوبر ٢٠١٠

فأنا لا أمارس تدريبات ذهنية أو لعبة حرب الرجل الواحد، ولكن إسرائيل كانت قد قامت من قبل بهجومين ناجحين حطمت فيهما البرنامج النووى للعدو. فى عام ١٩٨١ عندما قامت الطائرات الإسرائيلية بقصف المفاعل العراقى فى أوزيراك وأنهت بذلك وللأبد كما اتضح. الطموح النووى لصدام حسين؛ وفى عام ٢٠٠٧ عندما حطمت الطائرات الإسرائيلية المفاعل النووى الذى أقامته كوريا الشمالية فى سوريا، وبالتالى فإن الجديد فى الهجوم على إيران هو فقط بعدها الجغرافى والتعقيدات التى حولها.

منذ سبع سنوات عندما قمت بزيارتى الأولى لطهران فى محاولة لفهم الرغبة الإيرانية للحصول على أسلحة نووية ورغبة النظام الناتجة عن دوافع دينية ليرى الشرق الأوسط وقد تم تطهيره من الدولة اليهودية وأنا أحاول استكشاف إمكانية حدوث مثل هذه الضربة، خصوصا منذ مارس ٢٠٠٩ عندما دخلت فى مناقشة مطولة مع بنيامين نتنياهو بخصوص البرنامج النووى الإيرانى وكان ذلك قبل أن يحلف اليمين ليكون رئيس وزراء إسرائيل ببضع ساعات. وفى الأشهر التى تلت هذا النقاش قمت بعمل لقاءات مع أكثر من أربعين إسرائيليا من صناع القرار الحاليين والسابقين وكذلك مع مسئولين عرب وأمريكان لمناقشة إمكانية حدوث ضربة عسكرية. وطرحت أثناء معظم هذه اللقاءات سؤالا بسيطا هو: ما هى النسبة المئوية فى أن تقوم إسرائيل بمهاجمة البرنامج النووى الإيرانى فى المستقبل القريب؟ لم يجب الجميع على السؤال ولكن توافقت الآراء بأن الفرصة تزيد على خمسين بالمائة بأن تقوم إسرائيل بضربتها هذه فى شهر يوليو المقبل. وبالطبع أنه فى مصلحة إسرائيل أن تجعل العالم يدرك أنها تفكر فى عملية عسكرية وإن لم يكن لسبب آخر سوى أن تحظى بتركيز اهتمام إدارة أوباما. ولكنى اختبرت توافق الآراء هذا بالحديث إلى مصادر متعددة داخل وخارج الحكومة، والأحزاب السياسية المختلفة، وبسبب الحساسية غير العادية فى هذا الموضوع، تحدث معظمهم على مضض، وطلبوا عدم نشر أسمائهم. لم يكونوا جزءا من حملة علاقات عامة، لذا كان المنطق التى تحدث به صناع القرار الإسرائيلى غير معقد: إيران تبعد من ٣.١ سنوات على الأكثر، من إمكانية الوصول إلى قدرات نووية (فهى غالبا ما ستكون القدرة على تركيب أكثر من جهاز نووى لصواريخ جاهزة فى غضون ثلاثة أشهر تقريبا بعد صدور قرار القيام بذلك). لقد جعل النظام الإيرانى نفسه العدو الأكثر تعصبا لإسرائيل من خلال تصريحاته وأفعاله،لأن أهم عنصر فى عقيدة الأمن القومى الإسرائيلى الذى يعود إلى ١٩٦٠ . عندما استطاعت إسرائيل تطوير قدراتها النووية كرد على تجربة اليهود خلال المحرقة. وهو أنه ينبغى عدم السماح لأى خصم إقليمى بتحقيق التكافؤ النووى مع الدولة اليهودية التى ولدت من جديد ولا تزال محاصرة.

فى حديثنا قبل أدائه اليمين، رفض نتنياهو أن يضع هذه القضية فى إطار التكافوء النووى حيث سياسة إسرائيل الأميموت amimut، أو الغموض، تحظر الاعتراف بوجود ترسانة نووية للبلاد، والتى تتألف من أكثر من ١٠٠ قطعة سلاح، وهى أساسا أجهزة حرارية ذات مرحلتين يمكن إرسالها بواسطة صاروخ أو قذيفة مقاتلة أو غواصة (اثنتان منها متمركزتان حاليا فى الخليج الفارسى حسب أقوال مصادر مخابراتية)، بدلا من ذلك، صرح نتنياهو أن البرنامج الإيرانى يشكل تهديدا ليس فقط لإسرائيل بل لمجمل الحضارة الغربية.

قال «لا نريد سيطرة دين رهيب messianic على قنابل ذرية»، «ثم أضاف «عندما يمسك المؤمن الجرىء بزمام السلطة وأسلحة الموت الشامل، على العالم أن يشعر بالقلق، وهذا ما يحدث الآن فى إيران». ثم قال لى نتانياهو أن إسرائيل قلقة من مجموعة مشكلات معقدة، وليس فقط أن إيران، أو أحد وكلائها، قد يدمر تل أبيب، ولكنه مثل معظم القادة الإسرائيليين، قال انه يعتقد انه إذا امتلكت إيران سلاحا نوويا، فإنها ستستخدم قوتها الجديدة فى دعم عملائها الإرهابيين فى محاولاتهم لجعل الحياة صعبة وخطيرة، وأنه يخشى أن تتزعزع مكانة إسرائيل كملاذ لليهود إلى الأبد، ومعها سينتفى سبب وجود التجربة الصهيونية ذات المائة عام.

أثناء هذا اللقاء، رفض نتنياهو مناقشة جدوله الزمنى للعمل، أو ما إذا



ينبغى عدم السماح لأى خصم إقليمى بتحقيق التكافؤ النووى مع الدولة اليهودية التى ولدت من جديد ولا تزال محاصرة

عندما يمسك المؤمن الجرىء بزمام السلطة وأسلحة الموت الشامل، على العالم أن يشعر بالقلق

كان حتى يفكر فى عملية وقائية عسكرية ضد البرنامج النووى الإيرانى. ولكن ساعدنى آخرون من هم على دراية بطريقة تفكيره لفهم نظرته العالمية. يعتقد نتنياهو أن إيران ليست مشكلة إسرائيل وحدها، بل هى مشكلة العالم بأكمله، وبالتالى أنه من واجب العالم، بقيادة الولايات المتحدة، التعامل معها. ولكن نتنياهو لا يضع ثقة كبيرة فى العقوبات، وخاصة العقوبات الضعيفة نسبيا التى صدرت مؤخرا من قبل مجلس الأمن للأمم المتحدة، ولا فى العقوبات الأكثر صرامة التى فرضتها الولايات المتحدة وحلفاؤها الأوربيون. والأشخاص القريبون منه يقولون أن نتنياهو يدرك أن الرئيس أوباما. الذى تربطه به علاقة صعبة شابها التوتر والبرود بشكل متقطع، وإن كان الجليد قد بدأ فى الذوبان فى الآونة الأخيرة. يعتقد أن العقوبات الصارمة، جنبا إلى جنب مع مختلف الإغراءات للتعامل مع الغرب، يمكن أن توفر لإيران ما وصفه لى أحد المسئولين فى الإدارة الأميركية «خطوة محترمة تضطر إيران اتخاذها للهروب من المنحدر».

ولكن، استنادا إلى ما قيل لى من قبل صانعى القرار الإسرائيلى، فإن هذه الفترة من التسامح والصبر، الذى ينتظر نتنياهو خلالها لمعرفة ما إذا كانت أساليب الغرب غير العسكرية يمكن أن توقف إيران، سوف تنتهى فى ديسمبر (كانون الأول) المقبل. وكان قد قال روبرت جيتس، وزير الدفاع الأمريكى، فى حزيران / يونيو الماضى خلال اجتماع لوزراء دفاع حلف شمال الأطلسى أن معظم التقديرات الاستخباراتية تتوقع أن تنتهى إيران فى غضون ثلاث سنوات من بناء سلاح نووى. احد صانعى السياسة الإسرائيلية قال لى «لقد سمعنا فى إسرائيل أن بناء سلاح نووى فى إيران سيتم بعد تسعة أشهر بدءا من حزيران/ يونيو، وبعبارة أخرى، سيتم ذلك فى آذار/ مارس من عام ٢٠١١». «وإذا افترضنا أنه لن يتغير شىء فى هذه التقديرات، هذا يعنى أن علينا أن نبدأ التفكير فى خطوتنا التالية ابتداء من مطلع العام القادم».

بدأت حكومة نتنياهو بالفعل بتكثيف جهودها التحليلية ليس فقط بالنسبة لإيران، ولكن على موضوع آخر يجد العديد من الإسرائيليين صعوبة فى فهمه: الرئيس أوباما. يكافح الإسرائيليون لإيجاد

إجابة لما هى بالنسبة لهم المسألة الأكثر إلحاحا: هل هناك أى ظرف من الظروف التى بموجبها يستطيع الرئيس أوباما أن ينشر القوات لمنع إيران من امتلاك أسلحة نووية؟ كل شىء يتوقف على الإجابة.

يقول الإسرائيليون إن إيران تطالب باهتمام عاجل من المجتمع الدولى بأسره، وخاصة من الولايات المتحدة بقدرتها التى لا مثيل لها فى نشر قوات عسكرية. هذا هو موقف العديد من القادة العرب المعتدلين أيضا. وقبل أسابيع قليلة، فى تصريحات مباشرة غير عادية، قال لى سفير دولة الإمارات العربية المتحدة لدى الولايات المتحدة، يوسف العتيبى، فى منتدى عام فى مهرجان أسبن للأفكار أن بلاده تؤيد توجيه ضربة عسكرية لمنشآت إيران النووية. وقال أيضا انه إذا سمحت أميركا لإيران دخول المجال النووية، فلن يكون للدول الصغيرة فى الخليج العربى أى خيار أمامهم سوى مغادرة الفلك الأميركى، والتحالف مع إيران لحماية أنفسهم. قال «هناك العديد من البلدان فى المنطقة الذين، إذا كانت تفتقر إلى ضمانات بأن الولايات المتحدة مستعدة لمواجهة إيران، سوف يهرعون نحو إيران لحماية أنفسهم»، ثم أضاف قائلا: «إن البلدان الصغيرة، الغنية والضعيفة فى المنطقة لا تريد أن تكون الشخص الذى يضع أصبعه فى عين الغول الكبير، إذا لن يأتى أحد لنجدتهم».

يقترح العديد من القادة العرب أن موقف أميركا فى الشرق الأوسط يتوقف على استعدادها لمواجهة إيران. كما يناقشون من منظور ذاتى أن هجوما جويا على عدد محدود من المنشآت النووية الإيرانية لن يكون معقدا أو فوضويا مثل غزو العراق. صرح لى وزير خارجية عربى «هذا ليس نقاشا حول غزو إيران. نحن نأمل فى ضربة دقيقة ومحددة لعدد من المنشآت الخطرة. تستطيع أميركا أن تفعل ذلك بسهولة بالغة».

وقال لى ذات مرة مستشار الأمن القومى الإسرائيلى، عوزى اراد، أن رئيس الوزراء أحيانا يقول مازحا أثناء إحاطة الزوار الأجانب بأهمية اتخاذ إجراءات ضد البرنامج النووى الإيرانى «اسمحوا لى أن أقول لكم سرا. إن الجيش الأميركى اكبر من جيش إسرائيل».

لقد صرح باراك أوباما فى العديد من المناسبات أنه سيعتبر امتلاك إيران أسلحة نووية أمرا «غير مقبول». ولقد تجاهل بعض المسؤولين الإسرائيليين تصريحات أوباما القوية فى هذا الموضوع لأنه كان قد أدلى بها أثناء حملته الانتخابية للرئاسة عند زيارته لسديروت، بلدة فى جنوب إسرائيل، التى كانت هدفا متكررا للهجمات الصاروخية من جانب حماس عندما قال «على العالم أن يمنع إيران من الحصول على سلاح نووى»، ثم أضاف قائلا: «لن ألغى أى خيار مطروح على الطاولة فى التعامل مع هذا التهديد الإيرانى المحتمل. إنى أطلب منكم محاولة فهم جزء من المنطق هنا. وجود إيران نووية سوف يخلق وضعا لتغيير قواعد اللعبة، ليس فقط فى الشرق الأوسط، ولكن فى جميع أنحاء العالم، وأعتقد أن ما تبقى من إطارنا فى منع الانتشار النووى سيبدأ فى التفكك. وبالتالى سنجد أن عددا من دول الشرق الأوسط سيكون لديها الحاجة المحتملة للحصول على أسلحة نووية».

لكن الإسرائيليين يتشككون أن يستطيع الرجل الذى وضع نفسه على نقيض جورج بوش، صاحب الغزو على كل من أفغانستان والعراق، شن هجوما وقائيا على دولة إسلامية.

صرح لى مسئول إسرائيلى كبير، «لقد استمعنا لخطابه فى القاهرة» فى إشارة إلى خطاب أوباما الذى ألقاه فى حزيران / يونيو ٢٠٠٩ فى محاولة لإعادة العلاقات مع المسلمين من خلال التأكيد على روح التعاون والاحترام الأمريكى للإسلام. وأضاف قائلا «أننا لا نعتقد انه هذا الرجل الذى سيشن ضربة جريئة على إيران. ونخشى أن يتبنى سياسة لاحتواء إيران النووية بدلا من مهاجمتها».



ولاحظ هذا المسؤول أن حتى بوش قد أحجم عن مهاجمة المنشآت النووية الإيرانية، ولم يشجع الإسرائيليين على تنفيذ الهجوم من تلقاء أنفسهم. (كان بوش فى بعض الأحيان يسخر من مساعديه والمعلقين الذين دعوا لشن هجوم على إيران، وكان يشير إلى الكتاب الصحفيين المحافظين تشارلز كراوتهامر ووليام كريستول باسم «الأولاد المفجرين»، وفقا لاثنين من الناس الذين تحدثت معهم وكانوا قد سمعوا هذا التعليق).

علق مسؤول إسرائيلى أن «بوش كان قبل عامين، ولكن البرنامج الإيرانى مازال هو نفسه، والقصد هو نفسه. لذلك لا أتوقع شخصيا أن يكون أوباما أكثر من بوش نفسه».

وإذا كان الإسرائيليون قد وصلوا إلى استنتاج راسخ بأن أوباما لن يقوم، تحت أى ظرف من الظروف، بشن هجوم على إيران، إذا لابد أن يبدأ العد التنازلى لهجوم إسرائيلى من جانب واحد. «إذا كان الخيار هو بين السماح لإيران امتلاك سلاح نووى، أو أن نقوم نحن فى محاولة عمل ما لن يحاول أوباما عمله، إذا على الأرجح سوف نقوم به نحن». هذا ما قاله لى المسؤول الإسرائيلى.

وهو ما يقودنا إلى السؤال الثانى الذى له علاقة بطبيعة الرجل الذى يفكر فى عمل عسكرى: هل من الممكن أن يجازف نتنياهو. رئيس الوزراء المتفهم جيدا للدور الأساسى والجوهرى الذى تلعبه أمريكا فى تأمين وجود إسرائيل. بعمل قد يقطع العلاقة الحميمة مع أمريكا إلى الأبد لكى يقوم هو بمحاولة محفوفة بالمخاطر لوقف إيران؟ (تخرج نتنياهو من مدرسة شلتنهام الثانوية، فى ضواحى مدينة فيلادلفيا، ومعهد ماساتشوستس للتكنولوجيا، وهو أكثر رئيس وزراء متأمرك فى تاريخ إسرائيل، وأكثر بكثير من جولدا مائير التى ترعرعت فى ميلووكى). إذا ما هجمت إيران ضد القوات الأمريكية فى العراق أو أفغانستان، فإن العواقب على العلاقة بين إسرائيل والقيادة العسكرية الأميركية ستكون كارثية. (وبالطبع، فإن نتنياهو سيخاطر بأكثر من علاقته مع الولايات المتحدة: المسؤولون فى الاستخبارات الإسرائيلية يعتقدون أن الهجوم على إيران يمكن أن يثير ضربة انتقامية شاملة من جانب حليف إيران اللبنانى. حزب الله. الذى يمتلك الآن حسب أغلب التقديرات الاستخباراتية، عدد صواريخ يصل إلى ٤٥٠٠٠ صاروخ وهو على الأقل ثلاثة أضعاف ما كانت تمتلكه فى صيف عام ٢٠٠٦، خلال الجولة الأخيرة من القتال بينا وبين وإسرائيل).

«السبب الوحيد لبيبى (نتانياهو) الذى من شأنه أن يضع علاقة إسرائيل مع أمريكا فى خطر هو إذا كان يعتقد أن إيران تشكل تهديدا مثل المحرقة»، هذا ما قاله لى مسؤول إسرائيلى يمضى وقتا طويلا مع رئيس الوزراء. وأضاف «فى الحرب العالمية الثانية، لم يمتلك اليهود قوة لوقف هتلر من إبادتنا. وقد تم ذبح ستة ملايين يهودى. اليوم، يعيش ستة ملايين من اليهود فى إسرائيل، وهناك من يهددهم بالفناء. ولكن الآن لدينا القوة لوقف هذه المذبحة. ويعلم بيبى أن هذا هو الخيار».

وأشار العديد من المعلقين والمحللين الإسرائيليين أن نتنياهو ليس وحده من يفهم هذا التحدى، العديد من رؤساء الوزراء الذين سبقوه طرحوا تهديد إيران بنفس المصطلحات. ولكن نتنياهو مختلف. لقد أخبرنى مايكل اورين سفير إسرائيل لدى الولايات المتحدة أن نتنياهو «لديه إحساس عميق لدوره فى التاريخ اليهودى».

لكى نفهم لماذا نتنياهو يملك هذا الحس العميق، ولماذا فهمه للتاريخ اليهودى قد يقوده لمهاجمة إيران بالرغم من اعتراضات أوباما، فمن الضرورى فهم بن صهيون نتانياهو والد نتنياهو الذى يبلغ من العمر مائة عام.

بن صهيون نتنياهو. يعنى اسمه الأول «ابن صهيون»، هو أول مؤرخ فى العالم لمحاكم التفتيش الاسبانية كما كان سكرتيرا لفلاديمير جابوتنسكى، مؤسس الفرع العنيد «والمعدل» للصهيونية. وهو والد البطل الإسرائيلى المأساوى، يونتان نتنياهو، الذى توفى فى عملية الإفراج عن الرهائن اليهود فى عنتيبى عام ١٩٧٦. والأب أيضا لبنيامين، الذى يسعى لأن يكون عظيما فى عينى والده ولكنه فى بعض الأحيان يصيبه بخيبة الأمل، خاصة عندما خضع فى فترة ولايته الأولى كرئيس للوزراء فى أواخر ١٩٩٠، للضغوط الأمريكية وسحب القوات الإسرائيلية من معظم مدينة الخليل فى الضفة الغربية، وهى ثانى أقدس مدينة يهودية. والمعروف فى معظم الدوائر إن بنيامين نتنياهو لا ينظر للمسائل المتعلقة بالفلسطينيين بمرونة، بالرغم من أنه فى الآونة الأخير حاول تلبية بعض مطالب باراك أوباما فى دفع عملية السلام إلى الأمام.

قال لى احد أصدقاء رئيس الوزراء «أن بن صهيون دائما يسيطر على تفكير بيبى» وأضاف «أنه دائم الخوف من أن يعتقد والده انه ضعيف».

من أهم أعمال بن صهيون نتنياهو كتابه «أصول محاكم التفتيش فى اسبانيا فى القرن الخامس عشر»، الذى قلب مفاهيم جذور ذلك الفصل القاتم فى التاريخ اليهودى التى أجمع عليها العلماء. وقال إن كراهية الأسبان لليهود

انطلقت من مبدأ sangre de limpieza، أى نقاء الدم. الذى هو أساس الفكر النازى، وبعبارة أخرى، لم يحرك محاكم التفتيش الوازع الدينى. وقال بن صهيون أيضا أن محاكم التفتيش تتوافق مع المبدأ القائل بأن الاضطهاد لمعاداة السامية يسبقه فى جميع الحالات حملات تشهير طويلة تجرد اليهود من آدميتهم كتبت بعناية لضمان القضاء عليهم فى نهاية المطاف. بالنسبة لبن صهيون الدروس المستفادة من التاريخ اليهودى واضحة وملحة.

كان أبناء بن صهيون يعبدونه فى طفولتهم بكل المقاييس، واليوم، بنيامين الذى يبلغ من العمر ستون عاما، والمعروف عنه التصرف بطرق سخيفة، يتمسك بشكل واضح بالوصية الخامسة عندما يتناقش مع والده. فى حفل بمناسبة عيد ميلاد بن صهيون المائة، الذى أقيم فى شهر مارس الماضى فى مركز مناحيم بيجين للتراث فى القدس وأمام جميع الحاضرين الذى كان بينهم رئيس إسرائيل، شمعون بيريس،تحدث بنيامين عن والده الذى كان له الفضل فى التنبؤ بالمحرقة. كما أكد أن والده فى بداية عام ١٩٩٠ توقع أن «المسلمين المتطرفين سيحاولون نسف برجى مركز التجارة العالمى فى نيويورك»، لكنه ذكر أيضا بعض القصص العائلية بأسلوب أكثر دفئا واصفا والده بأنه أب محب، على الرغم من مظهره المتجهم المخيف للأغراب، فهو يستمتع بمشاهدة أفلام رعاة البقر ويلعب كرة القدم مع أبنائه.

بعد مناظرة قصيرة بين بن صهيون وأكاديمى بارز حول تفسيرات تنافسية لمحاكم التفتيش، وصف بينى، مناحيم بيجين الابن. وهو وزير بدون حقيبة فى حكومة نتنياهو. الاحتفال «أنه احتفال غير عادى بمناسبة عيد ميلاد المائة عندما يثار نقاش حول محاكم التفتيش». ثم نهض بن صهيون ليلقى خطبة الوداع، وعلى عكس كلمة ابنه، كانت الخطبة مختصرة ومجردة من أى مشاعر كما كانت شديدة الوضوح.

«إن احتفالنا هذا المساء يفرض على الحديث عن التعليقات الأخيرة التى تدور حول استمرار وجود دولة إسرائيل والتهديدات الجديدة من قبل أعدائها لتدميرها الآتى»، هكذا بدأ بن صهيون كلمته «نحن نسمع تهديدات من الجانب الإيرانى الذى يتعهد بالقضاء على الحركة الصهيونية فى العالم قريبا وفى غضون أيام، وبالتالى يفترض أن نستنتج من هذا أنه سوف يتم إبادة جميع يهود أرض إسرائيل، بينما يقال تلميحا ليهود أميركا، التى يرفض قادتها الضغط على إيران، أن إبادة اليهود لن تشملهم».

وتابع حديثه قائلا «إن الشعب اليهودى قد وضح موقفه ووضع الثقة فى قواته العسكرية. دولة إسرائيل تظهر للعالم اليوم كيف يمكن لدولة أن تتصرف عندما تقف أمام ما يهدد وجودها: يجب مواجهة الخطر والتفكير بهدوء فى ما ينبغى القيام به وما يمكن القيام به. كما يجب أن يكون جاهزا لدخول المعركة فى اللحظة التى تظهر فيها فرصة معقولة للنجاح».

وقال لى كثير من الناس فى أوساط حزب الليكود أن الذين يقللون من نفوذ بن صهيون على ابنه يعرضون أنفسهم للخطر. «إن هذا والد يعطى ابنه أوامر للمضى» قالها احد الحضور «لقد شاهدت بيبى أثناء حديث والده، كان مستغرقا تماما». (واحد من حلفاء نتنياهو فى الكنيست قال لى بطريقة غير مهذبة ولكن ربما بدقة شديدة، أن فرصة التحرك نحو إقامة دولة فلسطينية مستقلة لن تتحقق إلا بعد وفاة بن صهيون. «لا يمكن لبيبى أن ينسحب أكثر من ذلك من يهودا والسامرة. الأسماء التى تطلق على الضفة الغربية فى التلمود، ثم يواجه والده»).

يرى بنيامين نتنياهو أن إيران هى سبب الأزمة من نفس المنظور التاريخى لوالده. صرح لى نتانياهو بأن «إيران قد هددت بإبادة دولة». «من الناحية التاريخية، فإن هذا شيء مذهل. أنها إساءة هائلة تحدث بفاعلية دون اعتراض أو منازع من الرأى العام. من المؤكد أن هناك إدانات فاترة دون حماس، ولكن ليس هناك اتهامات ولا هناك صدمة»، واستطرد قائلا أن من دروس التاريخ البالغة الأهمية هى أن «الأشياء السيئة تزداد سوءا إذا لم يتم اعتراضها فى وقت مبكر». وأضاف «أن القادة الإيرانيين يتحدثون عن تدمير إسرائيل أو اختفائها وفى نفس الوقت يصنعون الأسلحة لضمان اختفائها».

أحد الجوانب الأكثر تعاسة فى المواجهة بين إيران وإسرائيل هى أن الحضارات الفارسية واليهودية لم تكن دائما على خصام؛ احد أبطال الكتاب المقدس كان الملك الفارسى قورش، الذى أعاد اليهود إلى أرض إسرائيل بعد أن حررها من أسر البابلى منذ ٢٥٠٠ سنة مضت. (وبعد سنوات قليلة منح هارى ترومان الاعتراف بالدولة الوليدة إسرائيل فى عام ١٩٤٨ وأعلن: «أنا قورش»).

كانت إيران موطنا لمجتمع يهودى قديم حيث عاشوا هناك منذ أن نفاهم البابليون وقبل وصول أتباع محمد بالإسلام إلى بلاد فارس بمائة عام. وفى العصر الحديث، احتفظت إيران وإسرائيل بعلاقات دبلوماسية وثيقة بين البلدين قبل سقوط الشاه فى عام ١٩٧٩. ومن الواضح أن دعم إسرائيل للشاه قد اغضب أعداءه، رجال الدين الذين تمكنوا من السلطة حديثا فى طهران، ولكن هذا لا يكفى لتفسير مدى عمق الكراهية الإيرانية الرسمية لإسرائيل واليهود ؛ لابد أن يكون هناك سبب آخر يفسر المشاعر التى أعرب عنها محسن رضائى، القائد السابق للحرس الثورى الإيرانى، الذى قال فى عام ١٩٩١. أى أربعة عشر عاما قبل ظهور محمود أحمدى نجاد، السياسى الإيرانى الذى ارتبط اسمه ونظامه فى الغرب بعدائه الصارخ للسامية. أحدهم قال «سيأتى اليوم الذى لن يجد اليهود فيه مكانا للعيش فى أى بقعة فى العالم، مثل سلمان رشدى».

قد نجد الجواب فى سطر من كتب المسلمين الشيعة الذين يرون عقائديا أن اليهود ملوثون، وهى وجهة نظر مستمدة جزئيا من تصوير القرآن الكريم لليهود كأعداء خانوا النبى محمد. كما يروى روبرت ويستريش فى كتابه الجديد عن تاريخ العداء للسامية، «الهوس القاتل»، فى القرن ١٧ و١٨ كان يرى رجال الدين الشيعة اليهود كأنهم «مرضى جذام الخلق» و«أقذر الناس فى الجنس البشرى». سألت ذات مرة على أصغر سلطانية، وهو دبلوماسى إيرانى بارز الذى يعمل حاليا سفيرا لإيران لدى الوكالة الدولية للطاقة الذرية، لماذا قيادة إيران تصر على وصف إسرائيل كنوع من الأمراض المعدية وليس كمجرد مجرم إقليمى؟ فسألنى «هل تختلف فى الرأى» ثم أضاف «ألا ترى أن هذا صحيح؟».

فى خطاب ألقاه فى حزيران / يونيو، أوضح أحمدى نجاد، الرئيس الإيرانى، تاريخ



نحن نسمع تهديدات من الجانب الإيرانى الذى يتعهد بالقضاء على الحركة الصهيونية فى العالم قريبا

حلفاء نتنياهو فى الكنيست قال لى: إن إقامة دولة فلسطينية مستقلة لن تتحقق إلا بعد وفاة بن صهيون

الشرق الأوسط على هذا النحو: «منذ ستين عاما قاموا بتجميع مجموعة من أكثر الناس إجراما وأقذرهم من جميع أنحاء العالم لا يمتون إلى الآدمية إلا بمظهرهم فقط وذلك عن طريق ذريعة مصطنعة وزائفة، وتلفيق معلومات واختراع قصص. تم تنظيمهم وتسليحهم، ووفرت لهم وسائل الإعلام وتم دعمهم عسكريا. وهكذا، احتلوا الأراضى الفلسطينية، وشردوا الشعب الفلسطينى وكانت القصة المختلقة بالطبع هى المحرقة». يدعم جهود أحمدى نجاد لإنكار الحقيقة التاريخية للمحرقة مسؤولون رسميون على مستوى عال: صرح وزير الخارجية الإيرانى، منوشهر متقى فى عام ٢٠٠٥، «أن كلمات محمود أحمدى نجاد عن المحرقة وإسرائيل لا تعبر عن رأيه الشخصى وليست مجرد عبارات معزولة، ولكنها تعبر عن رأى الحكومة».

وربما كان أفضل تعبير عن وجهة نظر القيادة الإيرانية عن الأخطار النووية هو تعليق الرئيس الإيرانى السابق على اكبر هاشمى رافسنجانى فى عام ٢٠٠١، الذى أطلق فكرة أن زوال إسرائيل يمكن أن تحدث بطريقة خالية نسبيا من الألم للعالم الإسلامى. «إن استخدام قنبلة نووية ضد إسرائيل سيدمر إسرائيل بالكامل فى حين أى هجوم نووى ضد الدول الإسلامية سوف يتسبب فى أضرار فقط».

إن هذا الخط من التفكير، مما يوحى بأن نظرية الردع العقلانى، أو التهديد بالدمار المتبادل المؤكد، قد لا ينطبق فى حالة إيران، التى تضع الحكومة الإسرائيلية على حافة السكين. هذه النظرية لا تقلق فقط جناح اليمين فى إسرائيل، ولكن حتى حزب ميرتس اليسارى الذى يدين سياسات نتنياهو تجاه الفلسطينيين بكثير من الشدة، يعتبر برنامج إيران النووى تهديدا لوجود إسرائيل.

ليس بالضرورة أن يعتقد صانعو السياسة الإسرائيلية أن إيران سوف تطلق صاروخا على تل أبيب فور حصولها على أسلحة نووية. قال لى مسؤول إسرائيلى فى وزارة الدفاع «فمن ناحية، تود إيران أن يختفى اليهود من الوجود، ولكن من ناحية أخرى، هم يعلمون أن لدى إسرائيل القدرة على الانتقام غير المحدود». هذه كناية إسرائيلية لتوجيه ضربة ثانية للبلاد وترسانتها النووية. «وبالرغم مما يقوله رافسنجانى وآخرون، ولكن نحن نعتقد أنهم يعرفون أنهم يضعون الحضارة الفارسية فى خطر».

وقال نتنياهو «إن التحديات التى تشكلها إيران النووية هى أكثر مكرا من هجوم مباشر»، وأضاف «العديد من النتائج السيئة سوف تنبثق من هذا التطور الوحيد. أولا: أن وكلاء إيران المتشددين قادرون على إطلاق صواريخ والانخراط فى أنشطة إرهابية أخرى وهم يتمتعون بمظلة نووية. وهذا ما يثير المخاطر فى أى مواجهة سوف يفرضونها على إسرائيل. وبدلا من أن يكون الحدث محليا مهما كان مؤلما، فإنه يصبح مشكلة عالمية. ثانيا: أن هذا التطور سوف يشجع المتشددين الإسلاميين على نطاق واسع وفى قارات عديدة، وهم يعتقدون أن هذه هى إشارة من العناية الإلهية أن هذا التطرف فى نهاية طريقه إلى الانتصار».

ثم أضاف «أنك تخلق تغييرا هائلا فى ميزان القوى فى منطقتنا، لأن إيران بأسلحتها النووية سوف تحاول إقناع الدول العربية تجنب صنع السلام مع إسرائيل، وأن ذلك من شأنه أن يشعل سباقا إقليميا للتسلح النووى. إن منطقة الشرق الأوسط مشتعلة بما فيه الكفاية، ولكن مع سباق التسلح النووى، سوف تصبح صندوقا من البارود».

زعماء إسرائيليون آخرون يعتقدون أن مجرد التهديد بهجوم نووى من قبل إيران. إلى جانب التهديد المزمن للمدن الإسرائيلية من قبل صواريخ حماس وحزب الله. سوف يقوض تدريجيا قدرة البلاد على الاحتفاظ بمواطنيها الأكثر إبداعا وإنتاجية. وقال لى ايهود باراك وزير الدفاع أن هذا هو خوفه الكبير على مستقبل إسرائيل.



وأضاف «أن التهديد الحقيقى للصهيونية هو التخفيف من الجودة. اليهود يعلمون أنهم يستطيعون أن يقفوا على أقدامهم فى أى ركن من العالم، ولكن الاختبار الحقيقى بالنسبة لنا هو جعل إسرائيل مكانا جذابا، مكانا متطورا فى المجتمع البشرى، وفى مجال التعليم والثقافة والعلوم. يجب أن نخلق نوعية مميزة للحياة تحفز حتى الشباب الأميركى اليهودى على أن يأتى إلى هنا». وقال باراك «أن هذه الرؤية مهددة من إيران وحلفائها. يستطيع شبابنا أن يقرروا الذهاب إلى أماكن أخرى بكامل وعيه، إذا كانوا يكرهون العيش تحت تهديد هجوم نووى، يستطيع أفضل شبابنا أن يقرروا البقاء بعيدا عن هنا بكامل اختيارهم».

وفقا لاستطلاعات الرأى العديدة إن الإحساس بالوطنية فى إسرائيل مرتفع جدا، ويبدو لى أنه ليس من المرجح أن مجرد الخوف من إيران قد يدفع يهود إسرائيل إلى البحث عن ملاذ فى مكان آخر. ولكن افرايم سنيح. وهو جنرال سابق ونائب وزير الدفاع السابق وأحد المؤيدين البارزين لهجوم إسرائيلى على المنشآت النووية الإيرانية. مقتنع انه إذا دخلت إيران فى المجال النووى، ستكون مجرد فكرة وجود إسرائيل معرضة للخطر. ويقول افريم سنيح أن «هؤلاء الناس مواطنين صالحين وشجعان، ولكن القوى المحركة للحياة هى تلك التى إذا حصل شخص ما على منحة دراسية لمدة سنتين فى الجامعة الأمريكية وقدمت له تلك الجامعة سنة ثالثة، سوف يقول الآباء له، «امض قدما فى طريقك وابق هناك». فقال لى سنيح عندما التقيت به فى مكتبه خارج تل أبيب منذ وقت ليس ببعيد، «إذا حصل شخص ما على درجة الدكتوراه وعرضوا عليه وظيفة فى أمريكا، سوف يبقى هناك. لن يكون المشهد كما لو كانوا جميعا يهرعون إلى المطار ولكن القرار على مستوى الأسرة تدريجيا سوف يكون لصالح البقاء فى الخارج. خلاصة القول أنه سيحدث استنزاف متنام للعقول فى إسرائيل، وأن إسرائيل التى لا تقوم على الالتزام، والتى لا ترتكز على التميز، لا يمكن أن تكون إسرائيل اليوم».

وأضاف سنيح قائلا بنبرة ناقدة، إذا لم يعد الستة ملايين مواطن يهودى قادرين على فهم إسرائيل بالإضافة إلى حوالى ٧ ملايين يهودى يعيشون خارجها على أنها «الملاذ الآمن الطبيعى»، إذا مبرر وجودها يكون قد انتفى. ووجه انتباهى إلى صورة معلقة على جدار مكتبه لثلاث طائرات من سلاح الجو الإسرائيلى F15. وهى تحلق فوق معسكر أوشفيتز فى بولندا. كانت قد دعت القوات الجوية البولندية فى عام ٢٠٠٣ الإسرائيليين للقيام فى هذه الرحلة الرمزية للغاية. لم تكن الصورة جديدة بالنسبة لى، لقد كنت قد رأيتها من قبل على جدران العديد من مكاتب وزارة الدفاع الإسرائيلية فى تل أبيب. ثم سألنى سنيح: «هل ترى هذه الطائرات؟ هذه هى الصورة التى أنظر إليها طول الوقت. عندما يقول شخص ما أنهم سوف يمحون اليهود من الوجود، يجب علينا حرمانه من الأدوات. المشكلة فى الصورة هى أننا كنا هناك فى وقت متأخر جدا».

لكى نفهم لماذا الإسرائيليون من تنظيمات سياسية مختلفة يرون إيران على أنها من المحتمل جدا أن تكون أكثر وأهم تحد واجههم فى الـ ٦٢ عاما من تاريخهم، يجب علينا أن نأخذ فى الاعتبار أن الاحتكار النووى الإسرائيلى فى أذهان الجمهور يقترب من القدسية. إن الرواية الإسرائيلية الوطنية باختصار، تبدأ بالحرقة، وهى تعنى بالعبرية «الكارثة»، وتنتهى بكلمة «تكومة» أى «النهضة». وبالنسبة للإسرائيليين ترمز ترسانة إسرائيل النووية إلى نهضة وطنية، وشىء آخر أيضا: لقد خرج اليهود من الحرب العالمية الثانية بدرس واحد على الأقل، وهو ثمن العجز.

فى كتابه الجديد، «أسوأ سر لم يذع: المساومة بين إسرائيل والقنبلة»، كتب أفنير كوهين، مؤرخ بارز عن برنامج إسرائيل النووى، أن دافيد بن جوريون، رئيس وزراء إسرائيل الأول، استحوذ على تفكيره ضرورة تطوير أسلحة نووية كضامن أكيد لعدم تكرار مذبحة أخرى. وقال «إن ما قام به آينشتاين، أوبنهايمر، وتيلير. كلهم من اليهود. للولايات المتحدة، ويمكن أيضا أن يقوم به العلماء فى إسرائيل، لشعبهم»، ويضيف كوهين أن بن جوريون قد أعلن إن المظلة التى نشأت عن الاحتكار النووى الإسرائيلى قد أتاحت للدولة العبرية أن تتعافى من جروح المحرقة».

ولكن هذه الجروح لا تلتئم، كما يقول سنيح. «إن المحرقة ليست نوعا من العقد النفسية، إنها درس تاريخى. كان جدتى وجدى من بولندا، وكان والدى ضابطا فى الجيش البولندى ثم هرب فى عام ١٩٤٠. بقى أجدادى ولكنهم قتلوا على يد الفلاح البولندى الذى كان من المفترض أن يقدم لهم المأوى فى مقابل كثير من المال. لهذا السبب أنا لا أثق بالغوييم. مرة واحدة تكفى. لن أضع حياتى فى أيدى الغوييم».

ذات ليلة الاثنين فى أوائل الصيف، جلست فى مكتب رام ايمانويل الذى لم يكن بالتأكيد جوييم، وهو رئيس موظفى البيت الأبيض. واستمعت هناك إلى عدة مسئولين فى مجلس الأمن القومى، كانوا مجتمعين على

طاولة المؤتمرات فى شرح مطول لماذا يجب على الدولة اليهودية أن تثق فى رئيس من غير اليهود فى الولايات المتحدة لمنع إيران من الدخول إلى المجال النووى.

«إن عبارة كل الخيارات مطروحة على الطاولة تعنى إن كل الخيارات مطروحة على الطاولة» قال لى ذلك إيمانويل قبل الاجتماع، بطريقة توحى بالتصميم والعصبية من أولئك الذين يعتقدون إن الرئيس يفتقد حلا من هذا القبيل. وكان اجتماع المجموعة الذى نظمه، نوعا من ندوة للتداول حول التحديات التى تطرحها إيران ؛ ناقش ستة من المسؤولين نفس الموضوع بطرق مختلفة، وهو أن الرئيس اوباما يتحدث معظم الوقت مع الزعماء الأجانب بخصوص إيران أكثر من أى موضوع آخر.

واحد من الجالسين على طاولة، بن رودس وهو نائب مستشار للأمن القومى، وهو المؤلف الرئيسى «لأحدث إستراتيجية للأمن القومى للولايات المتحدة»، والذى كتب كذلك خطاب الرئيس التصالحى بالقاهرة، اقترح إن برنامج إيران النووى يمثل تهديدا واضحا للأمن الأميركى، وأن إدارة أوباما تستجيب لتهديدات الأمن القومى على طريقة الإدارات الأخرى. «نحن ننسق إستراتيجية متعددة الجوانب لزيادة الضغط على إيران، ولكن هذا لا يعنى إننا أزلنا أى خيار من على الطاولة»، وقال رودس أيضا «لقد أظهر هذا الرئيس مرارا وتكرارا أنه عندما يعتقد أنه من الضرورى استخدام القوة لحماية مصالح الأمن القومى الأمريكى، قام بذلك بالفعل. نحن لن نناقش افتراضات حول متى وإذا كنا سنستخدم القوة العسكرية، ولكن أعتقد أننا قد أوضحنا بأننا لن نزيل خيار القوة فى أى موقف قد يؤثر على أمننا القومى».

كان هناك سمة شائكة فى هذه الجلسة بشكل متقطع، وليس فقط لأنها كانت تستضيف عمانوئيل، وهو دائما ساخط بطبيعته، ولكن لأكثر من عام، ومسؤولو البيت الأبيض يتصدون للاتهام بأن رئيسهم يرفض مواجهة العواقب المحتملة لامتلاك إيران أسلحة نووية. وإنهم محبطون بسبب ما يعتقدون أنه صورة كاريكاتورية لموقفه. (قال لى مسؤول سابق فى إدارة الرئيس جورج بوش أن رئيسه كان يواجه مشكلة معاكسة: غرق بوش مرتين فى مستنقع الحروب ولأنه كان يعتقد أن إيران لم تكن قريبة من الوصول إلى الطاقة النووية، عارض استخدام القوة ضد برنامج إيران، وشرح وجهة نظره بوضوح، «ولكن لم يصدقه»).

فى فترة ما، كنت قد طرحت رأيا يقول أنه لأسباب عديدة واضحة، أن قلة فقط من الناس يعتقدون أن باراك أوباما من شأنه أن يفتح جبهة ثالثة فى الشرق الأوسط الكبير. ورد أحد المسؤولين على بحماس: «ماذا فعلنا لكى نسمح لك بالوصول إلى استنتاج مفاده أننا نعتقد أن وجود إيران نووية من شأنه أن يمثل حالة مقبولة؟».

حقيقة لا يمكن إنكارها، أن الإدارة قد ظهرت فى بعض الأحيان على أنها غير جادة فى هذه القضية. وانتقد الرئيس الفرنسى، نيكولا ساركوزى، أوباما باعتباره بائع أمل بدون أساس. قال ساركوزى فى مجلس الأمن للأمم المتحدة فى سبتمبر الماضى: «أنا أؤيد هذه اليد الممدودة من الأميركيين، ولكن ما هى الفائدة التى عادت على المجتمع الدولى من مقترحات لفتح الحوار؟ غير المزيد من تخصيب اليورانيوم وتصريحات صدرت عن قادة إيران للقضاء على دولة عضو فى الأمم المتحدة من على الخريطة»، قال هذا فى إشارة إلى إسرائيل.

قد أشار مسئولو إدارة أوباما، خاصة فى وزارة الدفاع الأمريكية، مرات عديدة إلى عدم رضائهم عن إمكانية ضربة عسكرية استباقية فى نيسان / ابريل، صرحت وكيل وزارة الدفاع للشؤون السياسة، ميشيل فلورنوى، للصحفيين أن القوة العسكرية ضد إيران «ليست مطروحة على الطاولة فى المدى القريب». ولكنها تراجعت عن هذا التصريح فى وقت لاحق. ولكن انتقد الأدميرال مايكل مولين، رئيس لهيئة الأركان المشتركة، فكرة مهاجمة إيران. وأضاف مايكل «إن حصول إيران على سلاح نووى من شأنه أن يزعزع الاستقرار بشكل لا يعقل. ولكن مهاجمتهم من شأنها أن تخلق أيضا النتائج فى منطقة غير مستقرة كهذه الآن، لسنا فى حاجة إلى أكثر من ذلك».

وكان الهدف من الاجتماع فى مكتب ايمانويل هو توصيل عدد من الرسائل الواضحة لى، بما فى ذلك تلك التى



«ماذا فعلنا لكى نسمح لك بالوصول إلى أننا نعتقد أن وجود إيران نووية من شأنه أن يمثل حالة مقبولة؟»

نحن نتفق مع هذا التقييم الأمريكى، ونتفق أيضا مع جيتس بأن إيران ستدخل المجال النووى فى غضون عام

كانت أكثر تشددا من التى قالها الأدميرال مولين: لم يستبعد الرئيس أوباما بأى حال من الأحوال مكافحة الانتشار النووى بالقوة. كان من المفترض أيضا أن يبلغنى الاجتماع أن وراء محاولة التواصل التى بدأها أوباما تجاه الإيرانيين لم يكن يحركها دوافع ساذجة، ولكن من الرغبة فى اختبار نوايا طهران بطريقة متعمدة. وأن الرئيس يدرك أن القنبلة النووية الإيرانية ستؤدى إلى سباق تسلح فى المنطقة قد يدمر برنامجه لمنع الانتشار النووى. كما علمت أن التقييم الأمريكى والإسرائيلى للبرنامج النووى الإيرانى قد تم بأسلوب متزامن بطرق لم تستخدم من قبل. كما أخبرنى جارى سامور، مسؤول فى مجلس الأمن القومى الذى يشرف على برنامج الإدارة فى مكافحة الانتشار النووى، الذى كان فى الاجتماع، قائلا أن الإسرائيليين يتفقون مع الأمريكان فى تقييمهم لبرنامج إيران لتخصيب اليورانيوم بأنه محفوف بالمشاكل.

قال سامور «ومن أهم طرق قياس قدرة الأسلحة النووية هو مدى سرعة تمكنهم فى بناء المواد المستخدمة فى صنع الأسلحة، ومن هذا المنطلق نستطيع أن نحكم، استنادا إلى تقارير الوكالة الدولية IAEA أن الإيرانيين لا يبلون بلاء حسنا فى هذا المجال. إن أجهزة الطرد المركزى الخاصة التى تقوم بتشغيل المنشآت تستند إلى تكنولوجيا متخلفة، ويواجهون بعض الصعوبات التقنية، ويرجع ذلك جزئيا إلى العمل الذى قمنا به لمنعهم من الوصول إلى المكونات الأجنبية. وعندما يصنعون هذه الأجزاء بأنفسهم، فهم يصنعونها دون أن يكون لديهم مقياس لمراقبة الجودة». عندما ذكرت هذا التعليق إلى مسؤول إسرائيلى رفيع المستوى، قال: «نحن نتفق مع هذا التقييم الأميركى، لكننا نتفق أيضا مع جيتس بأن إيران سوف تدخل المجال النووى فى غضون عام».

وقال دينيس روس، المفاوض السابق للسلام فى الشرق الأوسط والذى يشغل حاليا منصب أحد كبار مسؤولى مجلس الأمن القومى، خلال الاجتماع انه يعتقد إن الإسرائيليين يدركون أن الإجراءات الأمريكية التحريضية قد أخرت التقدم الإيرانى، وان الإدارة تعمل على إقناع الإسرائيليين. وغيرها من الأطراف فى المنطقة. أن إستراتيجية العقوبات «لديها فرصة للنجاح».



وقال «قال الرئيس انه لم يلغ أى من الخيارات المطروحة، ولكن دعنا نلقى نظرة على السبب الذى يجعلنا نعتقد أنه من الممكن أن تنجح هذه الإستراتيجية. لدينا بيانات مهمة على امتداد العام الماضى، حول محاولة إيران فى إزاحة الضغط عندما ظنوا أن الضغوط قادمة، مما يوحى بأن قدرتهم على حساب التكاليف والفوائد حقيقية جدا. فى حزيران / يونيو الماضى، عندما لم تستجب إيران للمناشدة الثنائية، قال الرئيس سوف نقيم الموضوع فى أيلول / سبتمبر. أسبوعين قبل انعقاد مؤتمر مجموعة العشرين. اجتماع رؤساء أكبر عشرين دولة اقتصادية فى العالم. «صرح الإيرانيون أنهم على استعداد للمحادثات، بعد أن كانوا يقاوموا الدخول فى أى محادثات حتى تلك اللحظة. ولم يفعلوا ذلك لأنهم فجأة شاهدوا الضوء، ولكنهم فعلوا ذلك لأن الضغوط كان قادما. إنهم قادرون على التفكير فى ما يهم بالنسبة لهم».

ذهب روس إلى القول إن العقوبات التى تواجه إيران الآن قد تؤثر على تفكير النظام. «ستطول هذه العقوبات جميع المجالات. سوف تبدأ هذه العقوبات من داخل سوء الإدارة الإيرانية. سيضطر الإيرانيون قطع المعونات فى مجال الغذاء والوقود، وبدأوا يعانون من عزلة شعبية. هناك انقسام فى أوساط النخبة، وبين النخبة وبقية الشعب. إنهم يبحثون فى تكاليف محاولة الحفاظ على السيطرة على جمهور ساخط. أرادوا تجنب العقوبات لأنهم كانوا يعرفون أن العقوبات ستكون مشكلة. وهناك احتمال حقيقى أيضا أن تؤثر العقوبات على حساباتهم. أننا نتبع منهاجا الآن يؤدى إلى بعض الاحتمالات. هذا لا يعنى أننا لا نفكر فى شىء آخر، ولكننا على الطريق».

السؤال الوحيد لا يبدو أى مسؤول فى الإدارة حريص على إجابته هو: ما الذى سوف تفعله الولايات المتحدة إذا فشلت العقوبات؟ واشتكى لى العديد من المسؤولين العرب أن إدارة أوباما لم تبلغ نواياها لهم، ولا حتى بالخطوط العريضة. ولا يبدو أن أيا من المسؤولين العرب الذين تحدثت معهم يعتقد بأن الإدارة تتفهم الطموحات الإقليمية لعدوهم الفارسى. وقال أحد وزراء الخارجية العرب انه يعتقد أن إيران تستغل اعتدال موقف أوباما.

قال وزير الخارجية: «يبدو أن ناخبى اوباما يشعرون بالراحة عندما تشير الإدارة إلى أنها لا تريد محاربة إيران، ولكن هذه ليست قضية سياسية داخلية، وأضاف أن إيران سوف تستمر فى هذا المسار المتهور، ما لم تبدأ الإدارة فى الكلام غير المعقول. إن أفضل طريقة لتجنب ضرب إيران هو جعل إيران تعتقد أن الولايات المتحدة على وشك توجيه ضربة لإيران. وعلينا أن نعرف نوايا الرئيس بشأن هذه المسألة، ونحن حلفاؤه»). ووفقا لمصادر اثنين من الإدارة، فإن هذه المسألة قد سببت توترا بين الرئيس أوباما ومدير الاستخبارات الوطنية الذى تم فصله مؤخرا وهو الأدميرال دنيس بلير. ووفقا لهذه المصادر، بلير، الذى كان تركيزه كبيرا على تهديد إيران قال للرئيس أوباما: إن حلفاء أميركا العرب فى حاجة إلى مزيد من الاطمئنان. ومن الواضح أن أوباما لم يقدر هذه نصيحة»).

فى إسرائيل، بطبيعة الحال، بذل المسؤولون جهدا هائلة لفهم الرئيس أوباما، رغم الضمانات التى تلقوها من ايمانويل وروس وغيرهم. قامت وفود كثيرة من مكتب نتنياهو ومن وزارات الدفاع والخارجية، وكذلك من أجهزة الاستخبارات الإسرائيلية بزيارات منتظمة إلى واشنطن مؤخرا، كما قال مسؤول إسرائيلى «نحن نحزم حقائبنا ونملؤها بموازين الحرارة ونذهب إلى واشنطن لقياس درجة حرارة الجميع».

إن زيادة وتيرة هذه الزيارات ليست سوى علامة واحدة من أجل تعميق الاتصالات بين إسرائيل وأميركا كلما اقتربت إيران من الحصول على سلاحها النووى. ويقال أن رئيس هيئة الأركان فى الجيش الإسرائيلى الجنرال جابى اشكنازى يتحدث مع نظيره الأميركى، الأدميرال مولين، بشكل منتظم. مؤخرا قام مولين بزيارة إسرائيل لهدف رئيسى واحد، وفقا لمصدر إسرائيلى: «للتأكد من أننا لم نفعل أى شىء فى إيران قبل أن يظنوا أننا يمكن أن نفعل شيئا فى إيران».

منذ وقت ليس ببعيد، قام رئيس الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية الميجور جنرال عاموس يادلين، بزيارة سرية إلى شيكاغو للقاء ليستر كراون، الملياردير الذى تملك أسرته جزءا كبيرا من «جنرال دايناميكس»، شركة المقاولات العسكرية. ومن المعروف أن كراون هو واحد من مؤيدى إسرائيل البارزين فى الجالية اليهودية الأميركية، كما كان واحدا من أوائل مؤيدى باراك أوباما وأكثرهم صمودا. ووفقا لمصادر أمريكية وإسرائيلية، طلب الجنرال يادلين من كراون توصيل مخاوف إسرائيل على وجودها مباشرة إلى الرئيس أوباما. وعندما اتصلت هاتفيا بكراون أكد لى أنه اجتمع مع يادلين، لكنه نفى أن يكون الجنرال قد سافر إلى شيكاغو لتقديم هذه الرسالة. وقال «ربما كان لديه ابن عم فى شيكاغو أو أى شىء من هذا القبيل». ولكنه قال أن يادلين قد ناقش معه موضوع «الساعة الإيرانية». الوقت المتبقى قبل أن تتوصل إيران إلى قدراتها النووية. وقال إنه يتفق مع يادلين أنه يجب على الولايات المتحدة أن توقف إيران قبل أن تصبح نووية. «أنا مع الإسرائيليين بالشعور أن لدينا بالتأكيد القدرة العسكرية وأنه يجب أن يكون لدينا الإرادة لاستخدامها. صعود إيران ليست فى مصلحة الولايات المتحدة».



قال كراون «أنا أؤيد الرئيس» وأضاف «لكن أود لو أن مسؤولى الإدارة كانوا أكثر جراءة من ذلك بقليل فى الطريقة التى يتحدثون فيها. سأشعر بالراحة أكثر إذا علمت أن لديهم الإرادة فى استخدام القوة العسكرية، كملاذ أخير. لا يمكنك تهديد أى شخص بمجرد خدعة. يجب أن يكون هناك إرادة لتحقيق ذلك».

فى زيارتى الأخيرة لإسرائيل، سئلت ما يقرب من اثنتى عشرة مرة من قبل كبار المسؤولين والجنرالات المتقاعدين إذا كان بإمكانى شرح باراك أوباما ومشاعره نحو إسرائيل. كما سألنى العديد من المسؤولين إذا كنت أعتقد أن أوباما معاد للسامية. كنت قد أجبت على هذا السؤال من قبل مستخدما كلمات ابنير ميكفا الشهيرة. وهو عضو الكونجرس السابق والقاضى الفيدرالى، ومستشار أوباما، الذى قال فى عام ٢٠٠٨، «اعتقد أنه عندما ينتهى الموضوع بأكمله، سوف يقول الناس أن باراك أوباما هو أول رئيس يهودى»، أوضحت أن أوباما قد تشبع بأعمال الكتاب وعلماء القانون، والمفكرين، وأن عددا كبيرا من أصدقائه ومؤيديه ومساعديه من اليهود. لكن التعاطف مع السامية لا تعنى بالضرورة وجود نفس التعاطف مع حزب الليكود بزعامة نتانياهو، وبالتأكيد ليس بين اليهود الأميركيين، الذين، كما هو حال الرئيس الذى صوتوا له بأعداد هائلة، يدعمون بشكل عام حل الدولتين، ومتشككون بشأن الاستيطان اليهودى فى الضفة الغربية.

وعندما أبديت هذه النقاط لمسؤول إسرائيلى كبير قال: «هذه هى المشكلة. إذا كان من مجموعة يهود شارع J، إذا نحن فى ورطة». جى ستريت هى منظمة ليبرالية موالية لإسرائيل أسست لمواجهة نفوذ ايباك «AIPAC» وغيرها من المنظمات. وأضاف «نحن قلقون أن يكون تفكيره مثل اليهود الأميركيين الليبراليين الذين يقولون، إذا أزلنا بعض المستوطنات، سوف تنتهى مشكلة التطرف ومشكلة إيران».

اقترح رام ايمانويل إن الإدارة تحاول وضع الخيط فى ثم الإبرة: لتوفير دعم «لا يتزعزع» لإسرائيل ولحمايتها من تداعيات القنبلة النووية الإيرانية، ولكنها بذلك تدفع إسرائيل باتجاه التسوية مع الفلسطينيين. ناقش ايمانويل فى لقائنا وقال إن إسرائيل غير قادرة على المضى قدما فى عملية السلام طالما إيران تلوح بتهديداتها بإزالة إسرائيل. وبدأ يستعرض رؤساء الوزراء الإسرائيليين الستة الماضين، بما فى ذلك نتنياهو وكيف قام خلال فترة ولايته الأولى فى أواخر الستينيات، مثيرا استياء والده، بالدخول فى تسوية مع الفلسطينيين، لدعم قضيته. أضاف رام ايمانويل أن كلا من «رابين، بيريس، نتنياهو، باراك، شارون وأولمرت، قد سعى إلى شكل من أشكال التسوية عن طريق التفاوض، الذى كان فى مصلحة إسرائيل الإستراتيجية الخاصة، كانت هناك الكثير من التهديدات الأخرى بينما الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة اتبعت عملية السلام. ليس هناك شك فى إن إيران تشكل تهديدا كبيرا، لكنهم لم يبدءوا برنامجهم النووى سوى منذ عام فقط».

وكان لدى ايمانويل رسالة أخرى لتوصلها: من أجل أسباب عملية كثيرة، يجب على إسرائيل أن تدرس بعناية ما إذا كان توجيه ضربة عسكرية سوف تستحق المشاكل التى سوف تثيرها، فقال «لست متأكدا لو منحنا إيران مدة زمنية، بغض النظر عن ما هى هذه المدة، فإنها لن توقف برنامجها النووى. «كل ما هناك سوف يتم تأجيله».

وعندئذ أدركت أن فى بعض

المواضيع، لا يزال الإسرائيليون والأميركيون لا يتحدث كل منهم للآخر. فالأميركيون يعتبرون تأجيل برنامج إيران النووى مؤقتا سيكون ذات قيمة مشكوك فيها. أما الإسرائيليون لا يرون ذلك. لقد قال لى أحد وزراء الحكومة «عندما قام مناحيم بيجن بقصف أوزيراك (فى العراق)، كان قد قيل له أن ضربته هذه سوف تعطل العراقيين سنة»، وأضاف «ولكنه قام بها على أى حال».

خلال محادثاتى مع الجنرالات السابقين فى السلاح الجوى الإسرائيلى والاستراتيجيين، كانت اللهجة السائدة حذرة. وكثير من الناس الذين قابلتهم كانوا مستعدين للحديث، بشرط عدم نشر أسمائهم، عن لماذا هجوم على المواقع النووية الإيرانية سيشكل صعوبة على إسرائيل. وبعض جنرالات إسرائيل، على غرار زملائهم الأميركيين، شككوا فى فكرة مجرد وقوع هجوم. فقال لى أحد الجنرالات «سيكون من الأفضل أن نضغط على باراك أوباما للقيام بهذا الهجوم بدلا من إهدار الوقت فى محاولة ذلك بأنفسنا». «نحن نجيد مثل هذا النوع من العمليات، ولكنها سوف تكون خطوة كبيرة بالنسبة لنا. بالمقارنة يمكن أن يقوم الأميركيون بذلك بحد أدنى من الصعوبة، هذه عملية كبيرة جدا بالنسبة لنا».

وقد أمر رؤساء الحكومة الإسرائيلية المتعاقبون وزراءهم التكتيكيين والعسكريين بوضع خطة لتوجيه ضربة لإيران، وبالطبع استجابت القوات الجوية الإسرائيلية. ولكن من المستحيل أن نعرف على وجه اليقين كيف سيقوم الإسرائيليون فى تنفيذ مثل هذه العملية، ولكن تبادل المسئولون فى كل من واشنطن وتل أبيب أشركونى فى بعض الافتراضات.

الافتراض الأول هو أن إسرائيل سوف تقوم بمحاولة واحدة فقط. ستحلق الطائرات الإسرائيلية على ارتفاع منخفض فوق المملكة العربية السعودية،ثم تقوم بقصف الأهداف فى إيران ثم العودة إلى إسرائيل بالطيران مرة أخرى فوق الأراضى السعودية، وقد يهبطون فى الصحراء السعودية للتزود بالوقود، وربما يتم ذلك بالتعاون السرى مع السعودية، هذا إذا صدقت تكهنات الأوساط الاستخبارات. ويجب على هذه الطائرات العودة إلى إسرائيل على وجه السرعة، لأن المخابرات الإسرائيلية تعتقد أن إيران سوف تطب فورا من حزب الله إطلاق صواريخ على المدن الإسرائيلية كرد فعل لهذه الضربة، وبالتالى ستكون القوات الجوية الإسرائيلية مطلوبة على الفور لمطاردة فرق حزب الله الصاروخية.

عندما قمت بزيارة الميجور جنرال جادى ايزنكوت، والقائد المسؤول عن قيادة المنطقة الشمالية الإسرائيلية، فى مقره بالقرب من الحدود اللبنانية، قال لى انه فى حال توجيه ضربة إسرائيلية من جانب واحد على إيران، ستكون مهمته محاربة قوات حزب الله الصاروخية. وقال ايزنكوت أن حرب عام ٢٠٠٦ بين حزب الله وإسرائيل، والتى بدأت عندما عبر مقاتلى حزب الله الحدود وهاجموا دورية إسرائيلية، اعتبرها المول الإيرانى للحزب خطأ استراتيجيا. «إن الإيرانيين غضبوا من حزب الله لهجومهم المفاجئ هذا»، وأضاف ايزنكوت قائلا «إن المسؤولين فى الاستخبارات الإسرائيلية والأمريكية يتفقون على أن الإيرانيين يأملون الآن الحفاظ على حزب الله كقوة احتياطية حتى يمكن لإيران أن تدخل المجال النووى».



ويصر ايزنكوت على رأيه بأن حرب عام ٢٠٠٦ كانت انتكاسة لحزب الله. «حزب الله عانى الكثير خلال هذه الحرب، لقد فقد الشيخ حسن نصر الله، زعيم حزب الله، الكثير من رجاله، وهو يعرف انه ارتكب خطأ. وهذا هو أحد الأسباب التى أدت إلى أربع سنوات من الهدوء. ولكن التغير الذى حدث فى الأربع سنوات هذه هو إن حزب الله زاد من قدراته الصاروخية، ولكننا نحن قمنا أيضا بزيادة قدراتنا». وخلص إلى القول، فى إشارة إلى ضربة إسرائيلية محتملة على إيران، «إن استعدادنا يعنى أن إسرائيل تمتلك حرية التصرف».

وحتى وإن قامت القيادة الشمالية الإسرائيلية بمواجهة الهجمات الصاروخية لحزب الله بنجاح فى أعقاب غارة إسرائيلية، فإن القيود السياسية لن تسمح لإسرائيل بطلعة جوية متكررة على إيران. «سوف يسمح لنا السعوديون أن نعبر مرة واحدة» قالها احد الجنرالات. «يمكنهم غلق الرادار عندما نكون فى طريقنا إلى إيران، ونعود بسرعة. مشكلتنا ليست الدفاعات





«الاستخبارات الإسرائيلية والأمريكية تتفق على أن الإيرانيين يأملون الحفاظ على حزب الله حتى تدخل إيران المجال النووى»



لقد اقترح اثنان من المسئولين بأن تقوم إسرائيل بالتنبيه مسبقا إلى الهجوم عددا من المرات قبل أن تهجم بالفعل



الجوية الإيرانية، لأن لدينا وسائل لتحييدها. ولكن مشكلتنا هى أن العالم سوف يعتبر السعوديين مذنبين جدا إذا ما واصلنا التحليق فوق أراضيها».

أميركا أيضا، سوف تبدو متواطئة مع الهجوم الإسرائيلى، حتى لو لم تكن على علم بهذا الهجوم. فى كثير من الأحيان، ولكن ليس دائما، يكون الافتراض، أن إسرائيل لا تقوم بأى عمل إلا بموافقة من الولايات المتحدة صحيحا. وهى سمة من سمات الحياة فى منطقة الشرق الأوسط التى يأخذها الإسرائيليون فى الاعتبار. لقد تحدثت مع عدد من المسئولين الإسرائيليين الذين يحاولون التعامل مع هذه المسألة، من بين أمور أخرى: ماذا لو تعلم المخابرات الأمريكية النوايا الإسرائيلية ساعات قبل الموعد المقرر لإطلاق هجوم؟ وقال أحدهم «انه كابوس بالنسبة لنا، ماذا سيحدث إذ قام الرئيس أوباما بالاتصال بيبى ويقول له.. نحن نعرف ما تفعلونه. توقف على الفور! هل نتوقف؟ قد نكون مضطرين لذلك. كان قد اتخذ قرارا بأننا لا يمكن أن نكذب على الأمريكيين بخصوص خططنا. نحن لا نريد إعلامهم مسبقا. وكان ذلك من أجلهم ومن أجلنا. فماذا نفعل؟ هذه هى الأسئلة الصعبة». لقد اقترح اثنان من المسئولين بأن تقوم إسرائيل بالتنبيه مسبقا إلى الهجوم عددا من المرات قبل أن تهجم بالفعل: وبالتالى بعد المرة الخامسة أو السادسة، ربما لن يعتقد أحد أننا حقا سنقوم بالهجوم».

سؤال آخر يقلق مستشارى التخطيط فى إسرائيل: كيف يعرفون أن هجماتهم قد دمرت فعلا عددا كبيرا من أجهزة الطرد المركزى وغيرها من التى يصعب استبدال أجزائها فى البرنامج السرى الإيرانى؟ وقال اثنان من الخبراء الاستراتيجيين بأن إسرائيل سوف تضطر إلى إرسال قوات كوماندوز لإنهاء المهمة، إذا لزم الأمر، والعودة بدليل على تدميرها. قد ينطلق الكوماندوز من أراضى الحكم الذاتى الكردى فى شمال العراق ووفقا لمصادر استخباراتية، سوف يواجهون تحديا غادرا، ولكن قال مخطط عسكرى كنت قد تحدثت معه أن الجيش الإسرائيلى لن يكون له أى خيار سوى أن يرسل هؤلاء الكوماندوز.

كما قال «من المهم جدا أن نكون قادرين على إعلام الشعب الإسرائيلى بما حققناه»

كثير من الإسرائيليين يعتقدون إن الإيرانيين يقومون ببناء أوشفيتز. علينا أن نخبرهم أننا قد دمرنا أوشفيتز، أو عليهم أن يعرفوا أننا حاولنا وفشلنا».

هناك، بطبيعة الحال، قادة إسرائيليون يعتقدون أن مهاجمة إيران محفوفة بالخطر. لقد قالت مصادر عديدة أن جابى اشكنازى، رئيس أركان الجيش الإسرائيلى، متشكك من جدوى الهجوم. وهناك الجنرالات الآخرون الذين تحدثت معهم قلقون لأن الحديث عن «التهديد الوجودى» هو فى حد ذاته نوع من التهديد الوجودى للمشروع الصهيونى، التى كان من المفترض أن يمنع مثل هذه التهديدات ضد الشعب اليهودى. وأضاف «إننا لا نريد أن يضعنا السياسيون فى موقف سيئ بسبب كلمة المحرقة، ولا نريد أن يعتقد جيراننا أننا بلا حول ولا قوة ضد امتلاك إيران لقنبلة نووية، وذلك لأن إيران قد تمتلك القنبلة يوما ما. ليس هناك ما يضمن أن إسرائيل لن تفعل ذلك، أو أن أمريكا لن تفعل ذلك».

بعد التحديق فى صورة الجسر الجوى للقوات الإسرائيلية فوق أوشفيتز أكثر من عشر مرات مختلفة فى أكثر من اثنى عشر مكتبا مختلفا، استطعت أن أرى جوهر التناقض. ماذا لو أن علماء الفيزياء اليهود، الذين أنشأوا ترسانة إسرائيل النووية، استطاعوا عمل ثقب فى الفضاء للتواصل مع الزمن لإرسال سرب من المقاتلات إلى عام ١٩٤٢ لكانت مشكلة أوشفيتز قد حلت فى عام ١٩٤٢. وبعبارة أخرى، فإن إنشاء قدرة عسكرية يهودية خطيرة. لنقل قنبلة نووية، أو السلاح الجوى الإسرائيلى. خلال الحرب العالمية الثانية استطاع أن يضع نهاية أسرع للمحرقة. ومن الإنصاف القول، إذن، أن وجود سلاح الجو الإسرائيلى، وترسانة إسرائيل النووية، تعنى بصورة بديهية أن البرنامج النووى الإيرانى لا يتساوى مع أوشفيتز.

وضعت هذه الصيغة أمام افرايم سنيح، الجنرال السابق والمؤيد القوى لهجوم إسرائيلى. «لقد خلقنا توازنا استراتيجيا لصالحنا، لكن إيران قد تطلق صاروخا ذاتى الدفع بقنبلة نووية، ولن تمنع ذلك هذه الطائرة إف ١٥ الموجودة فى الصورة».

هذه مشكلة شيطانية. وقد تسببت هذه المشاكل الشيطانية فى بعض الأحيان إلى تجاوز إسرائيل.

ويشعر بنيامين نتنياهو، لأسباب





لا نريد أن يعتقد جيراننا أننا بلا حول ولا قوة ضد امتلاك إيران لقنبلة نووية



ستطول هذه العقوبات جميع المجالات. سوف تبدأ هذه العقوبات من داخل سوء الإدارة الإيرانية



تتعلق بالأمن القومى، انه إذا فشلت العقوبات، سوف يضطر إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة. ولكن هجوما إسرائيليا على المنشآت النووية الإيرانية، سواء كانت ناجحة أم لا قد تدفع إيران إلى مضاعفة جهودها. وهذه المرة مع قدر من التعاطف الدولى. لإنشاء ترسانة نووية. وقد يسبب ذلك حالة من الفوضى للولايات المتحدة فى الشرق الأوسط. واحد من القلائل الذين تحدثت معهم فى إسرائيل كان يبدو هادئا إلى حد ما ورابط الجأش تجاه التهديد النووى الإيرانى، وهو رئيس البلاد شيمون بيريز وهو آخر عضو من جيل مؤسسى إسرائيل الذى لا يزال فى الحكومة. بيريس يرى البرنامج النووى الإيرانى كارثة متوقعة بلا شك. لكنه يدعو إلى فرض «عقوبات معنوية» يعقبها عقوبات اقتصادية، ثم إنشاء «مغلف حول إيران من أنظمة مضادة للصواريخ لكى لا تكون صواريخ إيران قادرة على الطيران». وعندما سألته إذا كان يؤمن بالخيار العسكرى، أجاب: «لماذا ينبغى لى أن أعلن شيئا من هذا القبيل؟» وأشار إلى انه غير مرتاح من فكرة العمل الإسرائيلى من جانب واحد، واقترح أن إسرائيل تستطيع أن تعترف بقصورها، لأنه يعتقد، على عكس كثير من الإسرائيليين، أن الرئيس أوباما، سوف يكافح بطريقة أو بأخرى التهديد الإيرانى، ولكن ليس لحساب إسرائيل (رغم انه قال انه يعتقد أن اوباما سيأتى للدفاع عن إسرائيل إذا لزم الأمر)، ولكن لأنه يدرك أنه بالنسبة للتحدى الإيرانى، فان مصالح أميركا وإسرائيل (والغرب، والدول العربية المتحالفة مع الغرب) تسير فى خط متواى وبشكل طبيعى.



واستنادا إلى مقابلات عديدة استمرت عدة أشهر، ولقد وصلت إلى الاعتقاد بأن الإدارة تدرك أنه من شبه المؤكد إن إسرائيل ستتعامل قريبا مع إيران إذا لم يقم أحد أو شىء بإيقاف البرنامج النووى الإيرانى. بعلم أوباما ومساعديه. وغيرهم فى وزارتى الخارجية والدفاع. أوضحا لى أن إيران المسلحة نوويا تمثل تهديدا خطيرا لمصالح الولايات المتحدة، والتى تشمل أيضا حلمه فى عالم خال من الأسلحة النووية. اتفقت فى وقت سابق من هذا العام، مع كثيرين، بمن فيهم العديد من الإسرائيليين والعرب والإيرانيين الذين يعتقدون أنه لا يوجد أى احتمال أن يلجأ أوباما فى أى وقت إلى القوة لمنع إيران. وما زلت لا أعتقد أن هناك فرصة كبيرة ليتخذ أى إجراء عسكرى فى المستقبل القريب لأنه من المعروف أن وزارة الدفاع غير متحمسة لهذه الفكرة. لأنه من الواضح أن أوباما غير متحمس لهذه القضية. متفهمة أن أفضل طريقة لتفادى توجيه ضربة عسكرية لإيران هو جعل التهديد بالضربة من قبل الأميركيين يبدو حقيقيا، قامت إدارة أوباما عن عمد بتصعيد الموقف. منذ أسابيع قليلة،قال لى دنيس ماكدونو، رئيس هيئة الأركان فى مجلس الأمن القومى، «ما ترى فى إيران الآن هو تقاطع عدد من الأولويات الرئيسية للرئيس، الذى يرى تهديدا خطيرا لنظام منع الانتشار النووى العالمى، تهديدا من الأنشطة النووية المتتالية فى منطقة مضطربة، وتهديدا لإسرائيل الصديق الوثيق للولايات المتحدة. أعتقد أنك ترى كيف تتجمع هذه التيارات العديدة معا، بما يفسر السبب الذى يجعل هذا الموضوع مهما جدا بالنسبة لنا».

عندما سألت بيريز عن رأيه فى الجهد الذى يبذله نتنياهو ليجعل إسرائيل قضية مميزة فى إدارة أوباما، أجابنى كعادته بسرد قصة رمزية، قصة تقترح أن بلاده يجب أن تعرف مكانتها، والأمر متروك بعد ذلك للرئيس الأميركى، وللرئيس الأميركى فقط، أن يقرر فى النهاية أفضل طريقة للحفاظ على مستقبل الغرب. وكانت القصة عن أستاذه، ديفيد بن جوريون.

وقال بيريز «بعد فترة وجيزة من انتخاب جون كينيدى رئيسا، التقى به بن جوريون فى فندق والدورف استوريا فى نيويورك، وبعد اللقاء، رافق كينيدى بن جوريون إلى المصعد، وقال له السيد رئيس الوزراء، أريد أن أقول لك أننى انتخبت بسبب شعبك، لذلك ماذا يمكننى أن افعل لك فى المقابل؟» شعر بن جوريون بالاهانة لهذا السؤال. وأجاب قائلا: «ما يمكنك القيام به هو أن تكون رئيسا عظيما للولايات المتحدة. يجب أن تفهم أن وجود رئيس عظيم للولايات المتحدة هو حدث كبير».

واستمر بيريز فى شرح ما يراه فى مصلحة إسرائيل الحقيقية قائلا: «إننا لا نريد الفوز على الرئيس، بل نريد من الرئيس أن يفوز». ■

مِن داخل المنطق النووى الإيرانى



■■تُرى هل نستطيع أن نزعم أن إيران عاقدة العزم حقاً على التحول إلى دولة مسلحة نوويا؟ أم أنها قد تكتفى باكتساب القدرة النووية الكفيلة بتمكينها من إنتاج الأسلحة النووية وتختار ألا تنتجها؟ وهل يشكل الفارق بين الأمرين أى أهمية؟

الواقع أن قِلة من القضايا الدولية قد تشتمل على قدر أعظم من المخاطرة مقارنة بهذه القضية. ومصدر القلق المباشر هنا يتمثل فى انتشار التشاؤم العميق بشأن النوايا الإيرانية، وتصاعد احتمالات إقدام إسرائيل على توجيه ضربة وقائية إلى المنشآت النووية فى إيران، الأمر الذى قد يؤدى إلى اندلاع حرب كبرى أخرى فى الشرق الأوسط. وما سيترتب على ذلك من عواقب مأساوية محتملة بالنسبة للاقتصاد العالمى.

ولا ينبغى لأحد أن يستخف بصعوبة تقييم نوايا إيران الحقيقية. فالإشارات المختلطة المتضاربة الصادرة عن مراكز القوى المتنافسة لا تساعد فى التوصل إلى تقييم دقيق فى هذا السياق؛ ولا يساعد أيضاً ذلك التباين الواضح بين التصريحات العامة الصاخبة التى يلقيها المسؤولون الإيرانيون عادة والأحاديث الخاصة المعتدلة فى أغلب الأحيان. ويشير المتشائمون والمتشككون إلى سجل إيران الطويل فى وضع العقبات وتبنى سياسة حافة الهاوية فى التعامل مع المخاوف الدولية المشروعة إزاء برامجها النووية.

ورغم ذلك فقد سارع العديد من صناع القرار السياسى والمعلقين إلى إصدار الأحكام، والإصرار على أن إيران عاقدة العزم على إنتاج الأسلحة النووية، أو أنها راغبة فى اكتساب القدرة على إنتاجها، وهو أمر لا يقل خطورة.

وهناك فى واقع الأمر سبب وجيه يجعلنا نعتقد أن الوضع أقل خطورة من هذه التصورات وأكثر قابلية للاحتواء. ورغم صعوبة التوصل إلى تسوية مقبولة من جانب إيران وبقية المجتمع الدولى من خلال التفاوض، فإنها ليست بالمهمة المستحيلة.

والواقع أن المرء لا يحتاج إلى بذل جهد كبير فى البحث عن الأسباب التى قد تدفع إيران إلى اختبار حدود التسامح الدولى: التعويض عن مذلة عهد مصدَّق وما بعده؛ واستعراض القدرات التكنولوجية المتفوقة أمام المنطقة والعالم ككل؛ والتأكيد للقوى الغربية. التى بلغت بها ازدواجية المعايير حد التغاضى عن الحرب الكيماوية التى شنها صدام حسين على إيران فى أواخر الثمانينيات. على أنها لن تتنازل عن" حقها" فى تخصيب اليورانيوم بموجب معاهدة منع انتشار الأسلحة النووية.

وفى المقابل، لم يكن من السهل بالنسبة للمراقبين أن يستوعبوا الأسباب التى قد تدفع إيران إلى الامتناع عن إنتاج الأسلحة النووية التى قد تكتسب القدرة على إنتاجها قريبا. ولكن فى العديد من مناقشاتى غير الرسمية مع مسؤولين كبار فى إيران وبلدان أخرى على مدى السنوات القليلة الماضية استمعت إلى خمسة من هذه الأسباب التى عُرِضت بقدر كبير من الوضوح والاتساق، والتى تستحق أن تؤخذ على محمل الجد.

السبب الأول يتلخص فى خشية إيران من أن تنظر إسرائيل إلى وجود قنبلة إيرانية أو اثنتين باعتباره تهديداً لوجودها يستلزم شن هجمة عسكرية وقائية. بمساعدة الولايات المتحدة أو من دون مساعدتها، ولكن بالاستعانة فى كل من الحالتين بموارد تدرك إيران حق الإدراك أنها غير قادرة على مضاهاتها. ويعتقد الإيرانيون أن مثل هذه الهجمة غير مرجحة إذا لم يتجاوزا الخط الأحمر المتمثل فى التسلح النووى الفعلى.

والسبب الثانى أنه من المفهوم للجميع أن روسيا والصين لن يسمحا على الإطلاق بوجود قنبلة نووية إيرانية، وأن القدر الذى أبدته هاتان القوتان من التسامح مع إيران فى مجلس الأمن سوف ينقلب إلى النقيض تماماً فى حالة سعى إيران إلى الإنتاج الفعلى للقنبلة النووية. وكان هذا المنطق شديد الوضوح بعد الجولة الأخيرة من المفاوضات الخاصة بتشديد العقوبات المفروضة على إيران.

ويرجع السبب الثالث بالتالى إلى تصور واضح فى إيران مفاده أن امتلاك القنبلة النووية فعلياً من شأنه أن يؤدى إلى عقوبات اقتصادية شديدة الصرامة على أقل تقدير. والواقع أن العقوبات المالية الحالية، المباشرة منها أو غير المباشرة، كانت مؤلمة بالفعل. بما فى ذلك العقوبات المفروضة على الحرس الثورى ومصالحه الاقتصادية الضخمة. ولكنها كانت محتملة فى سياق التأكيد على حق إيران فى تخصيب اليورانيوم بموجب معاهدة منع الانتشار النووى. ولا شك أن إيران تدرك بوضوح أن المشاركة العالمية فى عقوبات أكثر صرامة تشكل احتمالاً مؤكداً فى حالة قيامها بانتهاك واضح لمعاهدة منع الانتشار النووى.

والسبب الرابع أن الإيرانيين يقرون بأن أى محاولة لفرض الهيمنة الإقليمية بالاستعانة بالتسلح النووى من المرجح أن تجهض سريعا. وهناك شكوك بشأن قدرة مصر، أو المملكة العربية السعودية، أو تركيا، على التحرك السريع لصنع قنابل خاصة بها، هذا فضلاً عن الضغوط الدولية. وخاصة من جانب الولايات المتحدة. التى ستتعرض لها هذه البلدان لمنعها من سلوك هذا السبيل. ولكن هناك أيضاً رؤية واضحة مفادها أن التوترات العربية الإيرانية، والسُنّية الشيعية، أو التوترات بين القوى الإقليمية عموماً، من شأنها أن تجعل من سباق التسلح النووى أمراً لا مفر منه.

وأخيراً، هناك سبب دينى :ألا وهو أن استخدام أسلحة الدمار الشامل يشكل ببساطة انتهاكاً صارخاً لتعاليم الإسلام. صحيح أن قِلة من أهل الغرب قد يجدون فى هذا حجة مقنعة، ولكنها كانت ذات صدى قوى فى كل مناقشة جمعت بينى وأى من المسؤولين الإيرانيين، كباراً كانوا أو صغارا. والواقع أن هذه الحجة لا تخلو من الصحة: فقد امتنعت إيران رغم كل شىء عن الرد بالمثل عندما قصفتها العراق بالأسلحة الكيماوية.

كل ما سبق ليس المقصود منه الإيحاء بأن إيران قد تكون محل ثقة. فهناك تاريخ طويل وأسباب مستمرة للشكوك. وأى اتفاق يشتمل على إنهاء العقوبات والعزلة الدبلوماسية المفروضة على إيران لابد وأن يكون مصحوباً بمراقبة لصيقة وترتيبات خاصة بالتفتيش والتحقق لا تغطى المراحل الحساسة من دورة الوقود النووى فحسب، بل وأيضاً أى تصميم لسلاح أو منشأة هندسية مثير للريبة. ويحتاج المجتمع الدولى إلى الثقة الحقيقية فى توفر الوقت الكافى ١٢ شهراً أو نحو ذلك. للرد على أى دليل يشير إلى النية الحقيقية فى التحرك نحو التصنيع الفعلى للأسلحة النووية.

سوف يستمر الإحباط، كما أحبطت على مدى العام الماضى الجهود الخلاقة التى بذلها أعضاء مجلس الأمن. ثم الجهود التى بذلتها البرازيل وتركيا مؤخراً. لإيجاد حلول مؤقتة لبناء الثقة، لأن قادة الحركة الديمقراطية فى العام الماضى رفضوا تأييد الرئيس محمود أحمدى نجاد الميال إلى إيجاد حل وسط. ولكن هناك قاعدة صلبة من العقلانية تسمح بإبقاء الباب مفتوحاً للمفاوضات.

إن إيران دولة بالغة التعقيد. ولكن كما لا يجوز لنا أن نستخف بقوى التطرف التى لا تزال قائمة هناك، فلا ينبغى لنا أيضاً أن نعرض أنفسنا للخطر بالتقاعس عن محاولة فهم واستيعاب تيارات ضبط النفس والحس السليم التى تعمل داخل البلاد، بما فى ذلك على مستويات رفيعة بين جهات صنع القرار السياسى هناك. ■

جـــاريـــث إيـــفـــانـــز
Gareth Evans

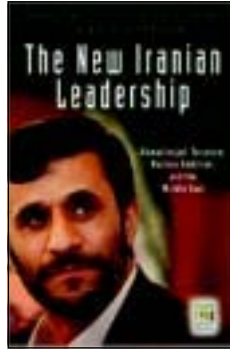
Gareth Evans, a former Foreign Minister of Australia and President Emeritus of the International Crisis Group, is Co-Chair of the International Commission on Nuclear Non-Proliferation and Disarmament and Professorial Fellow at the University of Melbourne. His most recent book is:*The Responsibility to Protect: Ending Mass Atrocity Crimes Once and for All*. Washington, D.C.: Brookings Institution, 2008

ترجمة: إبراهيم محمد على

فــى أرشـــــــــيـــف وجهات نظر

إيـــران
رائحـــة القنبــلة

فـــى المـكــتــبـــــــــــة



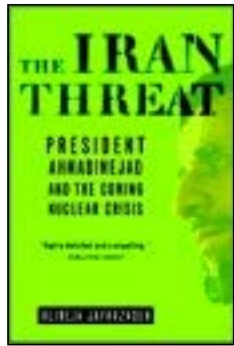
The New Iranian Leadership: Ahmadinejad, Terrorism, Nuclear Ambition, and the Middle East

القيادة الإيرانية الجديدة: أحمدى نجاد، الإرهاب، الطموح النووى والشرق الأوسط

Yonah Alexander
360 pages (December 30, 2007),
Praeger 2007 - Pp 360 $49.95

«هذا الكتاب يقدم نظرة عامة للدولة الإيرانية، والطموحات النووية للبلاد.،حيث يوثق هذا الكتاب خلفية صعود أحمدى نجاد إلى السلطة. وهذا ما يفسره الهيكل الحالى للحكومة الثورية الايرانية – الأحزاب المتنافسة على السلطة. فمنذ انتخابه، عكس الرئيس الإيرانى محمود أحمدى نجاد سياسات أكثر اعتدالا وتعددية من سلفه من خطبه التى تحتل عناوين الصحف بشأن اليهود ودولة إسرائيل، والتحدى السافر لمجلس الأمن الدولى بشأن مسألة السلاح النووى المسألة، والرؤية الواضحة لبلاده أن تصبح القوة المهيمنة فى الشرق الأوسط. كما يقدم الكتاب صورة شاملة عن تطلعات ايران الى الحصول على أسلحة نووية، فضلا عن الآثار المترتبة على ذلك لأسباب أمنية إقليمية وعالمية. كما يوضح أن طموحات ايران النووية فى صراع مباشر مع رغبات الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى، والعديد من الحكومات فى الشرق الأوسط، مما أدى إلى العواقب التى لا تزال غير مؤكدة.

■



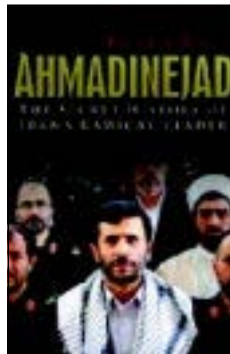
The Iran Threat: President Ahmadinejad and the Coming Nuclear Crisis

التهديد الإيرانى: الرئيس أحمدى نجاد والأزمة النووية القادمة

Alireza Jafarzadeh
304 pages
Palgrave Macmillan 2007 - Pp 304 $14.95

يعتبر على رضا جعفر زاده من أشهر من جذب الاهتمام الدولى لتفاصيل برنامج ايران النووى، جعفر زاده يقدم صورة واقعية من وطنه الأم، واقعية فى عرض يتسم بأنه مزيج من التاريخ والسياسة المعاصرة. بدءا من ثورة ١٩٧٩ التى اتسمت بصعود آية الله الخمينى، ويقول إن التطرف الإسلامى قد لعب دورا محوريا فى السنوات الـ٢٥ الماضية من السياسة الإيرانية، بما فى ذلك الحرب فى العراق وايران وانتخابات عام ٢٠٠٥ للرئيس محمود أحمدى نجاد، الذى يعتقد زاده بأن نظام خامنئى هو من قام بتدبيرها . أثناء ذلك، حافظت ايران على برنامجها السرى للاسلحة النووية، والذى سيهدد بزعزعة استقرار منطقة الشرق الأوسط بشكل جذرى وتعزيز مدى ونطاق النظام الإيرانى. يعتبر جعفر زاده، وهو محلل الشؤون الخارجية لشبكة فوكس نيوز وكان أيضا المتحدث باسم الولايات المتحدة عن التحالف الوطنى للمقاومة الايرانية (مجاهدى خلق) حتى عام ٢٠٠٣، عندما تم وضعها على قائمة وزارة الخارجية الأمريكية للمنظمات الإرهابية الدولية.. يرفض الكاتب من خلال كتابه الحلول العسكرية والدبلوماسية للازمة النووية التى يتوقع حدوثها، ولكنه يقترح أن الدعم الدولى لحركات المقاومة الايرانية قد ينجح فى اغضاب النظام الحالى. وعلى حد قول بروس كاكولم رئيس المعهد الإستراتيجى الديمقراطى » يقدم لنا جعفر زاده معلومات جديدة عن الخلفية السياسية والدينية للرئيس الحالى محمود أحمدى نجاد والتى يجب أن تثير انتباه صانعى القرار الغربيين.

■



Ahmadinejad: The Secret History of Iran's Radical Leader

أحمدى نجاد: التاريخ السرى للقيادات الإيرانية

Kasra Naji
University of California Press 2008
Pp 312, $19.46

بينما يسرع البرنامج النووى الايرانى الخطى، تتجه الانظار إلى الذى يضع يده على الزناد. فيثير الكتاب تساؤل من هو محمود أحمدى نجاد؟ ما الذى يقوده ؟. فمن خلال المقابلات التى أجراها الصحفى الإيرانى المشهود له دوليا الكسرة ناجى على مدار أعوام مع أصدقاء أحمدى نجاد، والأسرة، وزملاؤه ليحصل للمرة الاولى على تفاصيل القصة الحقيقية لكيفية وصوله إلى السلطة. لقد عمل الكسرة ناجى كصحفى فى طهران لعدة سنوات. كما كان مراسلا لقنوات شهيرة مثل سى إن إن، الفاينانشيال تيمز، الجارديان، لوس أنجلوس تيمز و أيه بى سى.



تركيا الجديدة

الإمبراطورية القديمة فى عصر جديد

بين
أردوجان والإخوان

إبراهيم الهضيبى



حرص أردوجان على عدم تصعيد الاستقطاب مع العلمانية بينما زاد بعض النواب الإسلاميين فى مجلس الشعب المصرى من حدة الاستقطاب حينما اتخذوا موقفًا رافضًا للعلمانية باعتبارها تمهيداً لإزاحة الشريعة



حسن البنا



مصطفى كمال أتاتورك

أردوجـان تجنـب صراعـا مبكـرا مـع الجيـش فـى معركـة هامشيـة، خاضهـا مـن قبلـه أربكـان فاستنزفـت مجهـوده بشكـل كبيـر، وخـرج منهـا مجروحـا علـى أقـل تقديـر



■■ لم يعد بإمكان إسلامى يسعى للإصلاح وعلاج مشكلات الأمة أن يتجاهل التجربة التركية فى العمل الإسلامى وتجربة حزب العدالة والتنمية بشكل خاص للاستفادة منها فى فهم أسباب النجاح. والحقيقة أن اهتمامى بالتجربة التركية بدأ قبل أعوام مع وصول العدالة والتنمية للسلطة فى ٢٠٠٢ . ومن خلال متابعتى أظن أن (خلطة النجاح) التركية تمثلت فى توليفة كبيرة من المواقف السياسية قد تختلف صحتها وخطئها من قطر لآخر، إلا أن منهجيتها واحدة، ووصفتها تتمثل فى مجموعة من النقاط الواضحة.

الشرط الأول للنجاح هو فهم الواقع السياسى بمستوياته المختلفة؛ المحلية والإقليمية والدولية، وبتداخلات الداخل والخارج فى هذه المستويات. والواقع السياسى التركى معقد، فمحليا تعانى تركيا انقساما حادا بين الإسلاميين والعلمانيين الأتاتوركيين، تعمق بإصرار رئيس الوزراء (الإسلامى) الأسبق نجم الدين أربكان على انتهاج خط المواجهة، والذى أسفر فى النهاية عن إسقاط حكومته بعد أن حاصرتها المؤسسات العلمانية وعلى رأسها الجيش، وفرضت عليه تنفيذ أجندة علمانية لائكية فلم يجد بدا من الاستقالة. هناك أيضا الصراع العرقى التركى الكردى، وهو الصراع الذى يسبب حرجا شديدا للحكومة التركية فى مسألة حقوق الإنسان، وخاصة مع محاولات الانضمام للاتحاد الأوروبى.

وإقليميا كانت هناك أزمات متعددة، بدءا بالأزمة الكردية ، ومرورا بحرب العراق،، والقضية الفلسطينية، إضافة إلى الرغبة فى الانضمام للاتحاد الأوروبى، والتى لم تكن شديدة الإلحاح فى هذا الوقت كما أصبحت بعد أن تولى الحزب السلطة.

ودوليا كانت هجمات الحادى عشر من سبتمبر قد لفتت أنظار العالم إلى (الشأن الإسلامى)، وكذلك إلى أزمة الديمقراطية فى الشرق الأوسط، فسعت إدارة بوش إلى إيجاد مساحات أوسع (ولو نسبيا) من الحرية فى الأنظمة السياسية الشرق أوسطية، ومحاولة دمج الحركات الإسلامية المعتدلة (وإن ظل تعريف الاعتدال مبهما) فى الأنظمة السياسية لبلادها لدعم الاعتدال فى مواجهة التطرف، وكانت هناك الحرب على الإرهاب، وما أنتجته من استقطاب حاد على المسرح الدولى بسبب رؤية الرئيس الأمريكى الذى قسم العالم إلى قسمين؛

وجهات نظر: ديسمبر ٢٠٠٧

إرهابيين، وحلفاء للولايات المتحدة فى حربها على الإرهاب.

وعن تداخلات الداخل والخارج فقد كانت العلاقات الإقليمية مع إسرائيل محكومة بقوة الجيش العلمانى وسيطرته على نظام الحكم وعدم قدرة الإسلاميين على مواجهته، وكان للجيش كذلك دور كبير فى تحديد كيفية معالجة الشأن الكردى، والظرف الدولى كان يؤثر على شكل العلاقات الإقليمية لحرصه على إبقاء الدول (المتطرفة) مثل إيران وسوريا خارج التحالفات الرئيسية فى المنطقة، وكان المحلى والإقليمى يتداخلان فى قضية الحرص على إنجاز بعض الإصلاحات الداخلية للمضى قدما باتجاه الاتحاد الأوروبى.

ومسألة السعى للاتحاد الأوروبى فى ذاتها كانت موضع خلاف داخلى ؛ فقد جسدت الانقسام المجتمعى التركى بين طرف يرى بلاده جزءا من أوروبا، وطرف آخر يراها عاصمة الخلافة الإسلامية.

والحقيقة أن الواقع كان بطبيعة الحال أكثر تعقيدا من ذلك، ولكنى أردت فقط ان أشير إلى خطوطه العريضة. وبلا شك فقد كانت خطوات العدالة والتنمية تشير بوضوح إلى فهم دقيق لهذا الواقع. وما يعنينى هنا هو أن الحزب لم يدرك المؤثرات المحلية فى صناعة القرار وحسب، بل تخطى ذلك للمؤثرات الإقليمية والدولية، وفهم أشكال التشابك بينها، وعكف على دراسة التجارب الإسلامية التى لم تحقق النجاح المطلوب، الأمر الذى استغرق وقتا طويلا سبق الإعلان عن الحزب، وقد استفاد بذلك من أخطاء أربكان المتسرع دائما فى إنشاء حزب جديد كلما حظر النظام العلمانى أحد أحزابه.

ثانى شروط النجاح هو التسليم بمعطيات الواقع السياسى، أو شروط اللعبة السياسية فى الساحة التركية. وأقصد بذلك الموافقة على المعطيات والانطلاق من أرض الواقع، ومما هو موجود بالفعل، لا مما يراه منضبطا وصحيحا أو عادلا. ويبدو أن هذا أحد أهم أسباب النجاح، والمتابع للحركة الإسلامية فى المغرب وتركيا يلحظ ذلك؛ ففى تركيا لم يتخذ أردوجان وحزبه موقفا سلبيا من العلمانية، وفى المغرب اعترف الإصلاحيون بالملك كـ(أمير المؤمنين) واعتبروا مهمتهم بالتالى هى إصلاح المجتمع لا أسلمة الدولة، وفى كلتا الحالتين فقد أثر ذلك إيجابا على شكل التعامل معهم مقارنة بغيرهم من الإسلاميين الذى تمسكوا بمواقف صلبة فى قضايا لا تستحق هذا القدر من الجمود.

فأردوجان تجنب صراعا مبكرا مع الجيش فى معركة هامشية، خاضها من قبله أربكان فاستنزفت مجهوده بشكل كبير، وخرج منها مجروحا على أقل تقدير، وفى المغرب لا يزال الفارق بين تعامل النظام مع العدل والإحسان، وتعامله مع العدالة والتنمية مؤشرا واضحا على الفوارق والعقبات التى يسببها عدم الاعتراف بمعطيات الواقع السياسى. وهذا هو فقه الواقع الذى ينطلق من الأرض حتى يتمكن من التغيير.

ويمكن مقارنة ذلك ببعض المواقف الإسلامية فى مصر التى (تجاهد) و(تناضل) من أجل التأكيد على عدم جواز رئاسة الدولة للمرأة والقبطى، وهى قضايا خلافية ، ولا تأثير لطرح هذه الآراء، والتمسك بهذا الاختلاف (الذى يتم أحيانا من باب محاولة إبراز تمايز الحركة الإسلامية عن غيرها من القوى) إلا تعطيل الإسلاميين عن الإنخراط بشكل تام فى الحياة السياسية.

وإذا كان فهم الواقع والدخول السلس فى العملية السياسية من دون الاصطدام بقواعد اللعبة هما الشرطان الأول والثانى لنجاح حزب العدالة والتنمية فى تركيا، فإن التحديات التى يفرضها الوجود السياسى، بل والوجود فى الحكم، هى بطبيعة الحال أخطرمن تلك التى يجب اجتيازها للدخول إلى حلبة السياسة.



وأول شروط هذا النجاح هى الحرص على وحدة الوطن، وعدم الالتفات لاستفزازات من شأنها زيادة الاستقطاب بين أبنائه. ومن ذلك رفض أردوجان النزول للشارع بمظاهرات ردا على المظاهرات العلمانية الرافضة لترشيح جل للرئاسة قبل أشهر، وكان رفضه حتى لا تزيد رقعة الاستقطاب فى الشارع التركى بين المشروع الإسلامى الإصلاحى المدنى، وبين المشروع العلمانى الأتاتوركى، وقد قلّص أردوجان الرقعة بين أصحاب المشروعين من أبناء الوطن الواحد بحديثه عن العلمانية بعد الانتخابات، والذى أشار خلاله إلى الفارق بين النموذج الأوروبى الأنجلو ساكسونى والنموذج التركى اللائكى فى العلمانية فوضع غلاة العلمانية فى تركيا فى موقف محرج يصعب معه إيجاد مبرر للتمييز ضد الإسلاميين والتدخل السافر للدولة فى المؤسسات الدينية.

يمكن مقارنة هذا الموقف بموقف بعض النواب الإسلاميين فى مجلس الشعب المصرى الذين زادوا من حدة الاستقطاب بين المشروع الإسلامى والعلمانى فى مصر (إن جاز القول بوجود مشروع علمانى يُعبر عن تيار شعبى حقيقى) حين اتخذوا موقفا حادا رافضا للمواطنة باعتبارها تمهيدا لإزاحة الشريعة مثلا.

ويمكن كذلك المقارنة بين هذا الموقف وبين موقف حزب الله وحلفاؤه فى لبنان حين نزلوا للشارع لإسقاط الحكومة، ورد أنصار الحكومة اللبنانية بالنزول للشارع، وما سببه ذلك من انقسام فى الشارع اللبنانى بدأت آثاره تتضح جليا، نسأل الله السلامة للبنان وأهلها.

ثانى الشروط هى عدم استفزاز الخصوم السياسيين، والتركيز على مواطن الإجماع الشعبى والانطلاق منها عوضا عن ذلك. فعلى سبيل المثال، (معركة الحجاب) فى تركيا هى الساحة الأشهر للنزاع بين الإسلاميين والعلمانيين، ولأسباب تاريخية وواقعية لا تزال اليد العليا للعلمانيين استناداً إلى قوة الجيش والقضاء على الرغم من تفوق الإسلاميين على مستوى الشارع. وقد دفع هذا التفوق الشعبى بنجم الدين أربكان -أستاذ جل وأردوجان- للدخول فى صدام مباشر مع العلمانيين ، فدفع بمبرشحة محجبة للبرلمان، وكان نجاحها إيذانا باندلاع البركان العلمانى الذى انتصر على أربكان ومنعه من العمل السياسى، وسحب الجنسية من النائبة.

أما أردوجان فقد أدرك أن محاولة تغيير الواقع قبل تغيير معطياته هى معركة خاسرة، فقرر ألا يخوضها، ولم يستفز خصومه ، فلم يخض المعركة بشكلها التقليدى، وإنما خاضها بأشكال أخرى سيأتى تفصيلها لاحقا، المهم أنه أرسل ابنتيه للدراسة فى الولايات المتحدة لأن الجامعات التركية تحظر على الطالبات ارتداء الحجاب، وقد كسب بتلك الخطوة الكثير بعد أن خسر أردوجان بسبب المعركة ذاتها الكثير أيضا.

يأتى بعد ذلك عدم الالتفات لاستفزازات الخصوم السياسيين، أو (الفخاخ) التى ينصبونها، مثل ما سبق الحديث عنه عن مظاهرات العلمانيين فى الشارع، ومثل تصريح رئيس الجمهورية العلمانى عن أن قصر الرئاسة ليس المكان المناسب لوجود المحجبات. وقد جاء هذا التصريح قبل حفل كان من المفترض أن يستقبل فيه القصر الوزراء وزوجاتهم المحجبات، فذهب الوزراء من دون زوجاتهم لتجنب الاستفزاز، ولم يسمحوا للموقف بأن يكون استفزازا يدفعهم لزيادة الاستقطاب بين المشروعين الإسلامى والعلمانى بتنمية نقاش



حول أحقية الزوجات المحجبات فى الحضور، فلم تكن تلك القضية الجزئية هى ما يشغل بال أردوجان، ولم تكن معطيات الواقع تقول أن تحقيق مكسب جزئى فى هذه النقطة يصب فى مصلحة المشروع الإصلاحى الإسلامى بأبعاده الاستراتيجية.

ويختلف هذا الموقف بالطبع عن موقع الحركة الإسلامية فى مصر مثلا، التى انجرت بسهولة شديدة للرد على استفزازات كلامية لم يتبعها أى فعل متعلقة بالحجاب أطلقها وزير الثقافة، بل وحفرت لنفسها أفخاخا أخرى بتصريحات بعض النواب بأن رئيس الوزراء (يستحق الإعدام) واعتبار ذلك أمرا شرعيا، وتقديم استجوابات ومشروعات قوانين تحمل أسماء بها معارضات مع أسماء بعض الأفلام والمسرحيات بشكل استعدى الفنانين على الحركة (خاصة فى ظل غياب التوازن الإعلامى فى التناول) وأدخلها فى معارك بعيدة عن أهدافها الأساسية، وغيرها من مشاهد التصعيد التى تنجر إليها الحركة الإسلامية فتفقد الكثير.

ولا يمكن الإشارة لهذا الأمر من دون الإشارة لموقف الجناح المسلح لحماس، الذى استجاب للاستفزازات الفتحاوية والإسرائيلية فخسر الكثير لا من معركته فحسب بل من القضية الفلسطينية ككل، وأقول الجناح العسكرى لأن أى مراقب يستطيع أن يفصل بين الخطاب الرد-فعلى لقيادات الجناح وبين الخطاب السياسى المتوازن لقيادات حماس السياسية مثل خالد مشعل رئيس المكتب السياسى.

والمعيار الرئيسى هنا، والذى يحدد أسلوب الرد ويقى من الاستفزاز هو وضوح الرؤية الكلية، وهو ما توفَّر للعدالة والتنمية كما لم يتوفر لأى حركة إسلامية أخرى. فقراءة أردوجان للواقع السياسى لبلده جعله يدرك أن معركة الإسلام الحقيقية (كما هى فى الحقيقة فى جل -إن لم يكن كل- بلاد المسلمين) هى معركة الدفاع عن الديمقراطية وتوسيع قاعدتها وليس مواجهتها، وبالتالى فهو يحاول تحقيق مكاسب ديمقراطية يوسع بها مساحات الحرية بشكل تدريجى، سيأتى الحديث عنه..

المهم أنه من أجل ذلك الهدف، الذى به لا بغيره تتحقق مقاصد الشريعة، أجَّل أردوجان ورفقاؤه بعض الأهداف الجزئية، التى لم يحن وقتها بعد، ومرة أخرى تبقى كلمة السر فقه الواقع مع وضوح الرؤية.

فعندما قدَّم الحزب مشروع قانون الزنى للبرلمان، أثار ذلك خلافا مجتمعيا حادا، وبدأ الجيش يتحدث (وهى الخطوة السابقة للتحرك) دفاعا عن العلمانية من التهديد الإسلامى، وزاد هذا من حالة الاستقطاب الشعبى خاصة فى ظل تربص العلمانيين بالحزب، فقررت قيادة الحزب سحب المشروع من البرلمان على الرغم من امتلاك الأغلبية البرلمانية اللازمة لتمريره، لعدم وجود توافق مجتمعى عليه، وهى الخطوة التى أثارت حفيظة الإسلاميين حول العالم، بل وحتى التقليديين فى تركيا، الذين لم يدركوا أبعاد وأولويات واقعهم.

وليس هذا مجال الحديث الفقهى عن الأولويات والمقاصد، وعن التدرج الذى هو من طبيعة فقه الواقع، ولذا فسأكتفى بالإشارة إلى النجاح السياسى الذى حققه هذا القرار بوجود مزيد من الاستقرار الذى مكَّن الحزب من المضى قدما فى إصلاحاته الحقيقية، العميقة والهادئة فى آن واحد.

وإذا كان ذكاء أردوجان وحسن فهمه لواقعه سببا فى تجنب العديد من الصدمات على المستوى المحلى والدولى؛ وإذا كان نجاحه فى الاختبارات المحلية الأولى قد تمثل فى قبول قواعد اللعبة السياسية من دون فقد القدرة على تحريكها، وبناء التوافق المجتمعى والخروج من حيز الإستقطاب الإسلامى العلمانى، فإن هذه النجاحات لم تكن لتكون ذات قيمة إلا بنجاح أردوجان وجل فى تأمين المشروع إقليميا ودوليا.

ولا يمكن لمتابع المشهد التركى إلا أن يلحظ تفوق التلميذ أردوجان على أستاذه أربكان فى عمل توليفة ربط وتشابك للداخل بالخارج حقق من خلالها مكاسب كبيرة. فأربكان -وهو ابن المدرسة الإسلامية التقليدية التى حاولت التجديد إجرائيا ولكنها لم تُحدث تجديدا أو حراكا فكريا ملموسا- والذى أسس حركة الفكر الوطنى (حضَانة) الحركات الإسلامية التركية كان يفكر منذ اللحظة الأولى فى بناء تحالف إسلامى، وسلك لذلك المسالك التقليدية. فكانت زيارته الخارجية الأولى لطهران، ثم تبعها بزيارات لعدة دول إسلامية أسس خلالها مجموعة الدول الصناعية الإسلامية الثمانى. ولا يخفى على ذى لب حجم التغيرات التى يحتاجها المسرح الدولى قبل السماح بظهور مثل هذه القوى الإسلامية، خاصة إذا كانت تضم بين أعضائها إيران.

زاد من حدة الأمر أن أربكان التزم سياسة اقتصادية منغلقة أمام الغرب فلم يعد الباب مفتوحا أمام استيراد المنتجات الغربية كما كان من قبل، وهو ما شكَّل تهديدا لمصالح الغرب الاقتصادية، هذا بالإضافة إلى التهديد الأمنى والسياسى الذى رآه البعض بسبب الموقع الاستراتيجى لتركيا وكونها «بوابة أوروبا الشرقية».

بيد أن الآثار السلبية للزيارة لم تبرز على المستوى الدولى فحسب، بل كانت سببا فى زيادة الاحتقان بين أبناء مشروع علمانى يريدون الانفصال بتركيا عن ماضيها الإسلامى والانطلاق بها نحو أوروبا، وهؤلاء ليس من الممكن الاستهانة بهم فى الواقع السياسى التركى، إلا أن أربكان لم يأبه بهم، وكان واضحا فى اختياره السير شرقا ليزيد المساحة بينه وبين فصيل من أبناء شعبه إتجه غربا، وبالطبع فقد كلَّفت تلك الأخطاء أربكان غاليا، ومثَّلت أحد أسباب سقوط حكومته.

وقد تعلم أردوجان من أخطاء أستاذه، فلم يتخلى عن الحلم الإسلامى، ولكنه سعى لتحقيقه بطريقة أكثر فعالية، وبأدوات أكثر عصرية، وأكثر حفاظا على مصالح شعبه. فهو أولا أدرك أن ميزان القوة ليس فى صالحه لا داخليا ولا خارجيا، أى أنه غير قادر على مواجهة الجيش والغرب بسلك طريق أربكان، فسَلَك طريقا آخر يؤدى للمقصد ذاته.

حافظ أردوجان على قرب المساحة بينه وبين العلمانيين بأن قرر السير غربا فى اتجاه الاتحاد الأوروبى. وإذا كان أربكان قد استقل طائرة رئاسة الوزراء لأول مرة متجها إلى طهران، فإن رحلة أردوجان الأولى كانت إلى بروكسل، مقر الاتحاد الأوروبى، وهو بتلك الخطوة وحدها ضرب كل العصافير، وسأشير إليها واحدا تلو الآخر فيما بقى من هذا التحليل.

فهو أولا بعث برسالة طمأن بها شعبه على حرصه على الوحدة، ثم أنه جسد الحلم التركى بالانضمام للاتحاد الأوروبى فصار يحمل مشروعا وطنيا تركيا لا مشروعا إسلاميا يمثل طائفة دون أخرى من أبناء الشعب التركى.

والأهم أنه يعلم أنه فى طريق سيره إلى الاتحاد سيكون مطلوبا من تركيا القيام ببعض الإصلاحات السياسية الديمقراطية هو فى أشد الحاجة إليها، ويقف الجيش عثرة فى طريق تطبيقها، ولكن إذا كانت هذه الإصلاحات هى ثمن الانضمام للاتحاد الأوروبى، فإن الجيش لن يكون أمامه إلا الرضوخ، لأن المطالب فى تلك الحالة ليست مطالب الإسلاميين أو الحكومة، وإنما هى مطالب الشعب بأسره.

أول هذه المطالب كان القيام بإصلاحات ديمقراطية، وإبعاد الجيش (حامى الأتاتوركية) عن العمل السياسى، ذلك الجيش انقلب على أربع حكومات ذات طابع إسلامى خلال أقل من نصف قرن، وتقليص قوة الجيش فى الساحة السياسية التركية، هو مكسب كبير ولا شك للدولة بأسرها، وللحركة الإسلامية فيها على وجه الخصوص.

ومن مطالب الاتحاد الأوروبى كذلك ما يتعلق بحقوق الإنسان، وهو ما استخدمه أردوجان للضغط فى مسألة الحجاب أحيانا، ولكنه ظل حريصا على عدم جعلها معركته الأساسية، وعدم اتخاذ أى قرار جذرى فى هذه المسألة حتى يتحقق التوافق المجتمعى المطلوب، ومسألة حقوق الإنسان كانت هامة كذلك فى معالجة القضية الكردية بعيدا عن أسواط الجيش، وإن بقى أردوجان مضطرا للتقارب مع الجيش أحيانا فى هذه القضية، كما هو الحال فى الأسابيع الأخيرة.

لم تكن قضية «الزوجات المحجبات» هى ما يشغل بال أردوجان فى الوقت الذى انجرت فيه الحركة الإسلامية بسهولة للرد على استفزازات كلامية متعلقة بالحجاب أطلقها وزير الثقافة

أردوجـــان والإخـــوان



وتعامُل أردوجان مع الأزمات الدولية يعكس فهما عميقا للواقع والثوابت، ومرونة كبيرة فى التحرك بين هذه وتلك لتحقيق المقاصد. فقد واجهته أزمة حادة فور وصوله للحكم، وهى الرغبة الأمريكية فى استخدام الأراضى التركية فى حربها على العراق. والخيارات هنا كانت صعبة؛ فأردوجان يدرك أنه غير قادر على مواجهة الغرب، وغير راغب فى استعدائه خاصة فى ظل الترقب الداخلى لخطوات الحكومة (الإسلامية) كما رآها العلمانيون منذ اليوم الأول، ويرفض- من ناحية أخرى -خيانة مشروعه كما فعل الحكام الذين تحدثوا ملء أفواههم ضد الحرب ثم قدموا لها الدعم اللوجستى الذى طلبته الادارة الأمريكية. أقدم أردوجان على مناورة سياسية تدل على فهمه لواقعه والقدرة على استخدام آلياته بشكل جيد. فقد أعلن أنه لا يمانع فى استخدام الأراضى التركية كقواعد أمريكية فى الحرب، إلا أن الأمر يستلزم موافقة البرلمان، ورفض توجيه حزبه فى اتجاه القبول أو الرفض، وجاءت النتيجة بالرفض، وبالطبع أحدث ذلك توترا فى العلاقات التركية الأمريكية، ولكنه كان توترا سرعان ما تم تجاوزه، لأن الموقف ذاته اتسم بالمرونة بسبب قبول أردوجان لهذا الأمر فى البداية.

وكانت تلك القضية، وقضية العلاقات الإسرائيلية هى أخطر ما يهدد بقاء أردوجان، الذى تجاوز العقبة الأولى بمناورة سياسية مميزة، ثم تجاوز العقبة الثانية بقلب الطاولة على الجميع، واستغلال الأمر لبناء أهمية إقليمية لبلده تمكنه من تحقيق أهدافه، والأهم من ذلك تأمين مشروعه.

فقد كانت قضية العلاقات التركية الإسرائيلية شديدة الحساسية. فنجم الدين أربكان، الذى بدأ حكمه رافضا التعامل مع إسرائيل ومحاولا بناء تحالف إسلامى، اضطر فى نهاية الأمر إلى توقيع اتفاقيات عسكرية معها تحت ضغط الجيش. وكان ذلك درسا هاما لأردوجان فهم منه أن معطيات الواقع السياسى بأبعاده المحلية والإقليمية والدولية لن تمكنه من إحداث تغيير جذرى فى شكل العلاقة.

تجاوز أردوجان هذه النقطة بعبقرية فذة، فقد انتقل بالعلاقة من كونها علاقة حلفاء إلى كونها علاقة تنافس على النفوذ فى منطقة (الشرق الأوسط الجديد). ولم يكن بإمكان الغرب أو الجيش مواجهة هذا التغيير فى السياسة؛ فطالما أن الأمر لم يكن عداءً لإسرائيل، ولم يكن تحولاً إسلامياً كلاسيكياً، فهو أمر لا مناص من قبوله كأى تغيير سياسى ناتج عن تغيير حكومى، أو تغيير فى موازين القوى، أو الحسابات السياسية فى المنطقة.

انتقل أردوجان بنجاح بالعلاقة من علاقة الحليفين إلى الندين، وإن بقيت بعض الأمور خارج نطاق سيطرته مثل التعاون العسكرى الذى يسيطر عليه الجيش، فلم يحاول الاقتراب من هذه الملفات لعلمه أنه لن ينجح فى تغيير مسارها فى الوقت الحالى، وبالتالى فإن أى تدخل لن ينتج عنه إلا إحداث اضطراب لحكومته، وفى نفس الوقت فقد كان سكوته عنها مطمئنا للغرب ولإسرائيل، فلم تتخذ أية مواقف عدائية تجاه سياساته الإصلاحية، وإصلاحه فى العمق الإسلامى الذى سيأتى الحديث عنه لاحقا.

ومن موقعه الجديد، أشار أردوجان أكثر من مرة إلى ربط العلاقة بإسرائيل بسير عملية السلام، فكسب بذلك نقطة لصالح القضية الفلسطينية، استفزت العلمانيين فى تركيا، ولم ترض إسرائيل من دون شك، ولكنها بقيت خطوة فى إطار لا فقط (الشرعية الدولية)، بل وأيضا مساحة الحرية التى تسمح بها موازين القوى الدولية. وقد استقبل أردوجان بعد ذلك مجموعة من قيادات حماس فاستغل موقعه لإتاحة آفاق سياسية جديدة للحركة فى وقت عانت فيه اختناقا كبيرا.

وقد أدرك الحزب بوعى شديد التغييرات التى طرأت على العالم بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر، فقدَّم نفسه للعالم كنموذج إسلامى ديمقراطى جدير بالاحتذاء، فلم يكن بإمكان الحكومات الغربية السعى لإسقاطه. بل إنه (ركب موجة) الإصلاحات الديمقراطية فحاول استثمار علاقاته بالعالم الإسلامى من أجل (نشر الديمقراطية) وإقناع الأنظمة العربية بتوسيع دائرة المشاركة السياسية. أدرك أردوجان أن الواقع السياسى الإقليمى يحتاج لنموذج ديمقراطى له صبغة إسلامية فكان هو هذا النموذج، وقال إن حزبه (ليس حزبيا محليا، بل هو نموذج عالمى سيُثبِت للعالم أن الإسلام والديمقراطية يلتقيان ولا يتصارعان).

وبهذا الوجه الإصلاحى اكتسب أردوجان لحزبه دورا وأهمية إقليمية مكنته من تأمين مشروعه، كما اكتسب لإصلاحاته الداخلية المزيد من الشرعية السياسية فاستطاع تحجيم الجيش بشكل أكبر. والعبقرية تكمن مرة أخرى فى أنه اختار خطابا غير صدامى، بل إنه اختار الخطاب الذى يجبر الغرب على عدم مقاومة مشروعه من دون خسائر سياسية كبيرة.

وهذا التوجه وهذه المساحات المشتركة من العمل مع الغرب على القضايا المشتركة هو ما سمح لأردوجان بأن يتوغل فى العمق الإسلامى ويبدأ عملية إصلاحه من دون مقاومة داخلية أو دولية شديدة. وفى هذا الإطار- كما فى غيره- تعلم أردوجان من أخطاء أربكان، وسعى لتحقيق أهدافه بشكل أكثر فاعلية وتأثيرا، فلم يحاول إنشاء أى مؤسسة أو تحالف إسلامى جديد، بل حاول إصلاح ما هو قائم بالفعل، فدفع بأكمل الدين إحسان أوغلى مرشحا لمنصب الأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامى، هى المنظمة التى يرى فيها عدد كبير من المفكرين الإسلاميين نموذجا عصريا لوحدة الأمة الإسلامية، بديلا عن نموذج أو نسق الخلافة التاريخى. وبالطبع فإن وجود الدفع بمرشح لمؤسسة موجودة بالفعل وتركيا عضو فيها أقل استفزازا للأطراف الداخلية والخارجية من بناء مؤسسة جديدة، كما أنه فى واقع الأمر أكثر تأثيرا على المدى البعيد، فى حالة استجابة بعض الأطراف الإسلامية على الأقل للمحاولات الإصلاحية.

كانت السياسة الخارجية واحدة من أهم مجالات التمايز بين حكومتى أربكان وأردوجان، فسياسة الأول كانت أحد أسباب تهشمه الداخلى، فيما كانت للثانى أحد أهم عناصر القوة الداخلية. وقد أثبت أردوجان أنه من الممكن دائما تحقيق مقاصد الشريعة، وأن الشريعة بفهمها العميق قابلة للتطبيق فى كل زمان ومكان، إذا ما اجتهد العقل فى فهم الواقع، وإذا ما استخدمت الأدوات المختلفة فى تنزيل النص، مثل فقه الواقع، والمقاصد، والأولويات، والموازنات.

وكانت أهم نجاحات أردوجان الداخلية توسيع قاعدة مؤيديه، واستطاعته جذب أنصار من خارج التيار الإسلامى، يؤمنون بحكومته وبرنامجه ويدافعون عنه، فى تجسيد عملى رائع لمفهوم الشريعة التى جاءت لخير وسعادة البشرية، فقد كان هؤلاء الذين لا يؤمنون بالفكرة الإسلامية يرون الخير فى حكومته وبرنامجه. ففى الانتخابات الأخيرة، حقق العدالة والتنمية الفوز فى ٦٩ من أصل ٨١ محافظة تركية، وهو رقم تخطى منتهى أحلام الإسلاميين قبل فترة قصيرة.

نجاح أردوجان فى هذه الخطوة انبنى على نجاح سابق لأربكان، الذى التزم منذ البدء خطابا تركيا وطنيا، على عكس العديد من الحركات الإسلامية المعاصرة التى لا تزال تعانى انفصاما بين انتمائها الأممى وانتمائها الجغرافى، من دون أن تدرك أن التقسيم الجغرافى للأمة يفرض عليها الالتفات للانتماء الجغرافى. ونجاح الحركة التركية فى هذا الإطار يعبر عنه أستاذى الدكتور عماد الدين شاهين- أستاذ العلوم السياسية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة - بقوله إن أردوجان نجح فى تحويل حركته من كونها تيارا إسلاميا رئيسيا لكونها تيارا وطنيا رئيسيا.

وقد تم ذلك بالتزام خطاب وطنى يخاطب



الجميع ولا يستعدى أحدا (يمكن مقارنة ذلك بالخطاب الإسلامى فى مصر، إذ تكفى قراءة سريعة للموقع الرسمى للإخوان ليقرأ المرء مصطلحات عدائية للـ«علمانيين الشيوعيين الماركسيين الملحدين أعداء الإسلام» عشرات المرات فى مقالات مكررة الأفكار والألفاظ لمجموعة من الكتاب غير المميزين، والقياديين الذين يتم إفساح المجال أمامهم للكتابة باتساع من قبيل المجاملة التنظيمية، وجل هذه الاتهامات تأتى بسبب خلافات فى الرؤية السياسية لا علاقة لها بالدين، والحقيقة أن هناك محاولات ملموسة للحد من هذه الكتابات، ولكنها لازالت غير كافية)، وكذلك تحقيق إنجاز ملموس على الأصعدة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

فأما الإنجاز السياسى فقد كان إعادة الاعتبار للدور التركى فى المنطقة باعتبارها لاعبا أساسيا، ورقما لا يمكن تجاوزه فى معادلة الشرق الأوسط، وهو ما أعاد إلى (التركى) اعتباره وثقته فى نفسه، حتى صارت تركيا أكثر هدوءا واتزانا فى السعى للانضمام للاتحاد الأوروبى. ذلك أن أردوجان أدرك أن تركيا الأوروبية لن تكون أبدا بلدا بنفس الأهمية السياسية لتركيا المتوسطية، ، وبإعادة توجيه البوصلة السياسية، من دون التنازل عن الطموحات الأوروبية، فقد زادت من أهمية تركيا، وهو ما انعكس من دون شك على شعبية الحكومة.

وهناك الإنجاز السياسى على المستوى الداخلى بتوسيع قاعدة التأييد والمشاركة من خلال إنجاز سياسى ملموس فى مكافحة الفساد، انعكس اقتصاديا بالطبع فى شكل زيادة الموارد الحكومية. وقد تم ذلك من خلال عدة إجراءات بدأ بها الحزب فترة حكمه الأولى، منها بيع آلاف البيوت الفيلات الحكومية التى تستخدم من قبل كبار البيروقراطيين، وتقليص عدد الوزارات بما يزيد على الثلث، وغيرها من الإجراءات التى كان الحزب قد أعدها قبل وصوله للسلطة، وأعلن عنها أردوجان فور استلام حزبه مقاليد الأمور

كان هناك الإنجاز السياسى الرائع فى الانفتاح السياسى الذى شهدته قوائم الحزب الانتخابية، التى ضمت بعض رموز (العلمانية المعتدلة) ، وهو ما شكل ضربة قاصمة للسجال والاستقطاب الإسلامى العلمانى الذى كانت تدفع باتجاهه قوى المعارضة أملا فى حدوث اضصرابات تدفع الجيش للتحرك. والعبقرية هنا تكمن فى إدراك أردوجان بأن مطالبه فى زيها الوطنى لا تتعارض مع مطالب المعتدلين العلمانيين، وإنما الصدام واقع لا محالة بين الغلاة فى الطرفين الإسلامى والعلمانى. ثم إنه يدرك أن معركة الإسلام الحقيقية -كما سبق- هى معركة توسيع قاعدة الديمقراطية وجعلها أكثر تمثيلا، وهو المطلب الذى سيلتف حوله معتدلى العلمانية، حتى لو لم توافق مآلاته أهدافهم.

وهذا الانفتاح (والتواضع) السياسى كان سلاحا فائزا فى يد العدالة والتنمية منذ البداية؛ فبعد فوزه فى انتخابات ٢٠٠٢ بأغلبية مطلقة من مقاعد البرلمان للمرة الأولى فى تركيا منذ زمن بعيد، كانت الخطوة الأولى لأردوجان هى اللقاء مع زعماء المعارضة لتنسيق أجندة العمل الوطنى. هذا النهج انتهجه الإخوان المسلمون فى مصر عقب انتخابات مجلس الشعب ٢٠٠٥، حيث عقدوا لقاءات مع الزعامات السياسية المختلفة، بل ومع القوى التى تخاف الصعود الإسلامى مثل الأقباط، إلا أن عقبات كثيرة (أغلبها أمنى) حالت دون أن تحقق هذه اللقاءات مقاصدها، وهو ما يستحق الدراسة والتقييم، وليس هذا مجاله.

وعلى الصعيد الاجتماعى نجح الحزب فى استقطاب بعض الفئات الاجتماعية الهامة فى تركيا، بقطع النظر عن انتمائها الإيديولوجى، لما رأت فى برنامج العدالة والتنمية من تحقيق لأهدافها ومصالحها. فالحزب أولا بسياساته الاقتصادية نجح فى استقطاب رجال الأعمال الوطنيين، بأن فتح أمامهم سبل الاستثمار وتحقيق الأرباح، وكان من نتيجة ذلك أن نجح الحزب أيضا فى استقطاب قطاع كبير من الفقراء، بعد أن توفرت فرص كبيرة للعمل، وزاد الدعم الحكومى بسبب توفر قدر كبير من الأموال نتيجة لترشيد الإستهلاك الحكومى.

وقد كان من أسباب دعم الفقراء للحكومة كذلك خلفية أهم شخصيات الحزب، أردوجان وجل، فكلاهما ينتمى أصلا لهذه الطبقة، وكلاهما يصر فى كل مناسبة سياسية على تأكيد انحيازه لها، وهو ما تترجمه السياسات الفعلية لهما لا كما يحدث فى النظام المصرى. والحقيقة أن الجانب الشخصى لأردوجان وجل كان له دورا كبيرا فى نجاح الحزب، وهو ما سنتناوله فيما بعد.

أما على الصعيد الاقتصادى، ولعله الأهم، فقد كانت النجاحات الاقتصادية للحكومة التى انتشلت تركيا من تعثرها الشديد سببا أساسيا فى التفاف الكثير من غير الإسلاميين حولها. وقد نقل لى أساتذتى ممن هم على صلة بعلمانيى تركيا قولهم أنهم لا يمانعون فى بقاء أردوجان الإسلامى فى السلطة طالما استمر فى مكافحة الفساد، وتوسيع مساحات الحريات الشخصية، والأهم تحقيق الإنجاز الاقتصادى. ولعل ثقة الشعب التركى فى السياسة الاقتصادية لأردوجان قد عكسه ارتفاع مؤشر البورصة التركية فور إعلان فوزه.



أما عن أسباب النجاح الاقتصادى فلعل أهمها على الإطلاق التخطيط الجيد. فبحسب مسؤولى الحزب، فإن أردوجان ورفاقه كانوا قد أعدوا ٣٠٠ مشروعا اقتصاديا جاهزا للتنفيذ قبل وصول الحزب للسلطة، وهو ما يدل على أن الحزب قد تجاوز الخطاب الدينى العاطفى، الذى يتحدث عن سعادة البشرية بحكم الإسلام من دون تقديم حلول عملية، واتجه إلى العملية فى توفير أسباب النجاح، فاعتمد مشروعات وسياسات اقتصادية توفر قدرا من الرخاء، وتتجاوز بالوطن أزمته الاقتصادية.

وقد انعكس هذا (التخطيط الدقيق) -كما يسيمه الإمام البنا- على المؤشرات الاقتصادية بشكل كبير؛ فقد انخفض معدل التضخم من ٧٠٪ عام ٢٠٠١ إلى ٩,٥٪ عام ٢٠٠٦، وزاد الناتج القومى بنسبة الثلث، وزادت الصادرات التركية بنسبة كبيرة بسبب الدعم الحكومى، وزادت الاستثمارات الأجنبية بسبب الإصلاحات السياسية التى جذبت الإستثمارات، ووصلت معدلات النمو الاقتصادى إلى ٧٪.

وأخيرا يبقى القول فى هذا الإطار أن هذا الإنجاز الملموس على الأصعدة المختلفة هو ما مكن العدالة والتنمية من اختراق الحصار الإعلامى الذى فرضه عليه العلمانيون. ففى انتخابات ٢٠٠٢، وفى الانتخابات المبكرة الأخيرة، شنت الصحف الرسمية العلمانية، إضافة إلى المؤسسات العلمانية من قضاء وجيش، حملة عنيفة على الحزب، طالت فى المرة الأولى أردوجان فاتهمته بالفساد، وطالت فى الثانية الحزب بأسره، وفى كلتا المرتين كان التلاحم الحقيقى (لا البروباجاندا ولا الظهور السياحى) مع الشارع، إضافة إلى العمل وتحقيق الإنجاز المستمر، هو الواقى، وهو السلاح الذى وصل بالعدالة والتنيمة إلى السلطة.

وتبقى فى مناقشة أسباب النجاح الذى حققه حزب العدالة والتنمية التركى نقطة هى من الأهمية بمكان، وتتمثل فى الفارق فى أسلوب وقدرات القيادة بين نجم الدين أربكان ورجب طيب أردوجان.

وليس المقصود من هذه المقارنة هو الانتقاص من شأن أربكان، بل هو سياسى إسلامى كانت له نجاحات كبيرة، وسيبقى التاريخ يذكر له كونه أحد أهم إسلاميى تركيا. ولعل هذا السبب تحديدا هو ما يجعل هذه المقارنة غاية فى الأهمية؛ فأربكان هو النموذج التقليدى للـ(إسلامى)؛ وهو نموذج متكرر بطول العالم الإسلامى وعرضه، يتصدر ساحات العمل الإسلامى، ونموذج أردوجان هو نموذج آخر يحاول أن يحدث (نقلة) فى الحركة الإسلامية وتتفاوت قوته بين مكان وآخر.

نجم الدين أربكان هو (الأستاذ) كما يلقبه أتباعه، الذين (يقبلون يده) كدلالة على الاحترام والتقدير، تماما كما هو الحال مع العديد من القيادات الإسلامية. وهو الزعامة التاريخية، التى ظهرت فى ستينيات القرن الماضى، ولا تزال تتصدر ساحات العمل، بجد وحماس، وإصرار على استكمال المسيرة. أما أردوجان فهو المواطن الإسلامى،



تعامُل أردوجـــان مع الأزمــات الدوليـــة يعكــس فهمـــا عميقـــا لـلــواقــع والـثــوابــت، ومــرونــة كــبــيــرة فــى التحــرك بــيــن هـــذه وتـــلــك لتحقيــــــق المقاصـــــد



أردوجـــان والإخـــوان



لاعب الكرة الذى شارك فى المباراة التى أقيمت بين زعماء أوروبا وأمريكا اللاتينية بمناسبة تسلم فنلندا لرئاسة الاتحاد الأوروبى، وهو ليس الزعيم الأوحد وإنما هو قائد الفريق، الذى يظهر فيه لاعبون لا يقلون عنه أهمية مثل جل وزير الخارجية ثم رئيس الجمهورية، وأرنيش رئيس البرلمان. وهو أيضا التكنوقراطى المتميز، هو وأغلب قيادات الحزب، الذى اكتسب خبرة العمل فى المؤسسات الدولية، وانشغل منذ البداية (بالسياسة الشعبية) عن طريق التواصل مع الجماهير فى المحليات.

وأربكان هو الإسلامى التقليدى، صاحب المواقف الصلبة، التى يظن تجاوزها تفريطا، مثل إصراره على أن تتصدر قضية الحجاب أولوياته، وموقفه من إسرائيل، وهى مواقف أقرب للعاطفية والنظرية منها للعملية والبراجماتية السياسية الإسلامية (وأنا أعلم أن الإسلاميين لا يحبون هذه اللفظة، ويمكن استبدالها بالمقاصدية أو الواقعية)، وهذه المواقف الصلبة هى ما أنتجت صدامات كبيرة مع الجيش والمؤسسات العلمانية كان نتيجتها إسقاط حكومته ومنعه من العمل السياسى وحظر حزبه. ولكن (العناد السياسى) الذى يتميز به أربكان كغيره من الإسلاميين التقليديين جعله يصر على الاصطدام، فأسَّس حزبا آخر على نفس المبادئ بل وفى نفس المقر أداره عن طريق أحد أصدقائه وخاض به نفس المعارك فخسر جولات أخرى.

وأنا هنا أقاوم إغراءً فى أن أستطرد فى هذه النقطة، وأن أشير إلى أوجه التشابه بين هذا السلوك وبين سلوك العديد من القيادات الإسلامية فى مصر ولبنان والجزائر والأردن وفلسطين، أقاوم هذا الإغراء حتى لا أضع أحدا فى موقف دفاعى يمنعه من رؤية المقصود من المقال، وحتى لا تتم شخصنة الفكرة وتحويلها لاتهامات لأفراد مخلصين يحملون قضايا أمتهم، ولكن تبقى الإشارات والمشابهات واضحة لكل ذى عينين.

أما أردوجان فهو السياسى المرن؛ يعارض الانضمام للإتحاد الأوروبى ويعتبر ذلك سلخا لتركيا عن جذورها الإسلامية، ثم يعيد تقييم الأمور ويرى المصلحة فى ذلك فيذهب للتوقيع على أحد الشروط فى كنيسة أوروبية؛ يقرأ أبيات من الشعر الإسلامى فى مظاهرة تساند أربكان فيسجن، ثم يخرج فيدرك خطورة الصدام الإسلامى العلمانى فيزور قبر أتاتورك، يؤكد حفاظه على علمانية الدولة (وليس هذا تفريطا، فكما أشرت من قبل، كان العلمانية التى أعلن أردوجان قبولها هى ما نسميه فى مصر مدنية الدولة)؛ يقدم مشروعا لتجريم الزنى للبرلمان فيحدث ذلك اضطرابا داخليا وأوروبيا فيسحبه؛ يناور الولايات المتحدة فيحقق مقصده من دون مواجهة، كل هذا لخصه أردوجان نفسه حين انفعل على هجوم عنيف فى البرلمان فرد قائلا: «تغيرت، بل تطورت، ولم أبق على ما كنت عليه قبل ٣٠ سنة، إن عقلى ليس متحجرا».

والحقيقة أن هذا (التطور) عجزت بعض العقول (خاصة من ذات التشكيل الذى يسميه الدكتور القرضاوى بالظاهرية الجدد، الذين ينظرون إلى النص بمعزل عن الواقع والمقصد) عن فهمه، ولم تر الخير الذى تعود به هذه الديناميكية ودورها فى تحقيق المقاصد، وأشعر أننى أكثر من استخدام كلمتى الواقع والمقاصد، ولكنى أراهما المفتاح لفهم سياسات أردوجان، وكذا لبناء منهجية إصلاح إسلامى معاصرة.

وعلى صعيد القيادة، فأربكان هو القائد الإسلامى التقليدى، الذى تكاد زعامته تصطبغ بصبغة دينية، فيكون زعيما دينيا لا سياسيا، وهو ما تنكره كل الحركات الإسلامية المعاصرة لأن الإسلام لا يعرف الزعامة الدينية، ومع ذلك تبقى تصبغ قياداتها بتلك الصبغة الدينية. فقول أربكان فى حزبه لا يرد، وهو لا يعتذر أبدا عن تصريح أو قرار خاطئ لأن ذلك ينتقص من قدر حركته أو دعوته.

وكان طبيعيا لذلك أن يبقى أربكان على رأس الأحزاب الإسلامية المختلفة التى أسسها فى تركيا لمدة ثلاثين عاما من دون أن يحاسبه أحد، بل ومن دون أن ينافسه أحد على الزعامة (حين ناقشت فضيلة الأستاذ محمد مهدى عاكف، المرشد العام للإخوان المسلمين، حول هذه النقطة رآها نقطة الضعف الوحيدة فى صديقه أربكان). حتى عندما منعه القضاء من ممارسة العمل السياسى إختار هو رئيس الحزب البديل، صديقه رجائى كوطان، فظل بعلم الجميع الرئيس الفعلى للحزب. والأمر يكاد يكون متطابقا مع حركات إسلامية متعددة بطول العالم الإسلامى وعرضه.

ولذلك كان صعبا على الحزب أن يحتمل وقوف جل كمرشح لرئاسة الحزب أمام كوطان، فجل وأردوجان ومجموعتهما- بحسب أربكان- لازالوا صغارا، رغم أنه كان أصغر منهم حينما تصدر العمل الإسلامى ودفع بالحركة خطوات للأمام قبل أربعة عقود. بل إن كوطان اعتبر ترشح جل أمامه (خروجا سافرا على تقاليد الحزب) التى لم تكن تسمح لأحد بالترشح أمام الرئيس!!

أما جل وأردوجان فقد أعلنا من البداية أن مجموعتهم لن تقصى أى فكرة من الحوار، وأدارا حوارات علمية فكرية سياسية بمساعدة متخصصين مثل المفكر أحمد داود أوغلو لبناء برنامج للحزب ومنهجية للتعامل مع الواقع، فكان التجديد الفكرى.

وحرص جل وأردوجان على ألا تتكون حول أى منهما هالة الزعامة الأسطورية، فتبادلا مواقع القيادة غير مرة. فجل ترشح أمام كوطان على رئاسة حزب الفضيلة، ثم رأس أردوجان حزب العدالة والتنمية، وتولى جل رئاسة الوزراء، ثم تنازل عنها لأردوجان، ثم عاد الحزب يرشح جل لرئاسة الجمهورية، لتكتمل السيمفونية الرائعة التى أكدت أن المناصب والزعامة ليست هدفا، وقد تنازل كل منهما عنها مرات، وهى آخر ما ينزع من القلب من حظوظ النفس كما فى الحديث.

ويحضرنى هنا قول الله (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم)؛ واللسان ليس اللغة المنطوقة فحسب، والبيان ليس البيان الكلامى دون غيره. وأردوجان تحدث بلسان قومه حين كان مواطنا تركيا، تواصل مع الفقراء، وشاركهم حلم الانضمام للاتحاد الأوروبى، وتعامل مع معطيات الواقع بشكل جيد، فقدم بيانا عمليا تمثَّل فى نجاحات سياسية واقتصادية واجتماعية كانت دليلا على فعالية فكرته وقابليتها للتطبيق، وما فكرته إلا فهمه للإسلام.

والحقيقة أن أربكان عجز عن رؤية العالم كما يراه أردوجان، وأصر على عناده وأحادية التفكير التى تميز بها كغيره من الإسلاميين التقليديين الذين لا يرون الأمور إلا من زاوية واحدة، فاتهم العدالة والتنمية بالعمالة لأمريكا وإسرائيل، ثم قال فى كلمة معبرة وقت الانتخابات (إن من أعطى صوته للعدالة والتنمية قد اشترى تذكرة لجهنم). هكذا وصل الخلاف بين الإسلاميين التقليديين والمجددين إلى (حارة سد)، بسبب جمود فى مواقف القيادات التاريخية للحركة الإسلامية التركية، ولكن الشعب التركى انحاز للخيار التجديدى. وحتى بين الأصوات الإسلامية فقد كانت الغالبية فى صالح مشروع أردوجان التجديدى؛ ففى حين حصد الرفاه ٢٢٪ من الأصوات عام ١٩٩٥، لم يحصل السعادة إلا على ٤٪، وأغلب الظن أن باقى الأصوات الإسلامية ذهبت للعدالة والتنمية.

وبعد، فهذه محاولة لتقييم تجربة إسلامية وليدة ولكنها ناجحة، أشرت فيها لبعض أسباب النجاح، دون أن أنسى توفيق الله، ودون أن أنسى أن للتجربة أخطاء، ولكن هذه تكفل بها غيرى، إذ ما لبثت الحركة أن نجحت فى الانتخابات حتى تلقتها الأقلام الإسلامية بالاتهامات، وبالإشارة إلى أخطائها، أو على أحسن تقدير عدم القدرة على استنساخها مع الإشارة لعوامل التمايز من دون العوامل المشتركة، فرأيت أن الأولى أن أشير لبعض الدروس، لعل الله ينفع بها العاملين على الساحة الإسلامية، وتبقى إشارة أخيرة إلى الفارق بين السياق التركى والسياقات الأخرى، ففى تركيا -كما يقول الدكتور محمد حبيب- يقصى الجيش الإسلاميين، وفى مصر يقصى النظام الإسلاميين وغير الإسلاميين، وبالتالى فالسياق مختلف، وأنا أعلم أنه من غير المعقول تطبيق نفس سياسات العدالة والتنمية فى غير تركيا، وإنما أقصد دراسة المنهجية فى التعامل وليس ما ينتج عنها، علنا نتمثل قول الله تعالى (قل سيروا فى الأرض فانظروا)، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل، والحمد لله رب العالمين. ■





تركيـــا «المختلفـــة»

■■ من منا يدرك أن تركيا الآن تُعَد مكاناً مختلفاً تمام الاختلاف عن تركيا التى بدأت محادثات الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى قبل خمسة أعوام. فبسبب العقم الذى تتسم به هذه المحادثات، بدأت تركيا فى توسيع آفاقها الدولية. والواقع أن السياسة الخارجية التركية أصبحت الآن أكثر استباقاً وباتت تشتمل على أبعاد أكثر تعدداً مقارنة بأى وقت مضى منذ أسس كمال أتاتورك تركيا الحديثة من أنقاض الإمبراطورية العثمانية.

والآن أصبحت تركيا بفضل جهودها لاعباً رئيسياً فى منطقة الشرق الأوسط وخارجها. ولقد تسبب هذا فى نوع من الارتياع فى الولايات المتحدة وأوروبا، وأدى إلى مخاوف متزايدة من احتمال «خسارة» الغرب لتركيا على نحو ما.

بيد أن «تميز» تركيا فى الشرق الأوسط ليس بالأمر المؤذى بالضرورة لمصالح الغرب. بل إن الأمر على العكس من ذلك، فتركيا قد تشكل أصلاً بالغ الأهمية بالنسبة لشركائها الأوروبيين والأميركيين.

ولكن هذا لا يعنى أن نفوذ تركيا المحتمل فى منطقة الشرق الأوسط قد يعود بالنفع تلقائياً على الغرب. إن الوعد الذى تمثله تركيا فى المنطقة يتوقف على سعيها الثابت نحو إرساء الديمقراطية فى الداخل وانتهاج سياسة قائمة على قواعد ثابتة فى التعامل مع السياسة الخارجية. فضلاً عن ذلك فإن الفوائد المترتبة على نفوذ تركيا فى جوارها المباشر لن تتحقق إلا إذا تعامل الاتحاد الأوروبى مع عملية انضمام تركيا

Kemal Kirisci is Professor of International Relations, Department of Political Science and International Relations, Bogaziçi University, Istanbul.

Nathalie Tocci is Senior Fellow at the Istituto Affari Internazionali, Rome, Associate Fellow at the Centre for European Policy Studies, Brussels, and Associate Editor of The International Spectator. She is currently Senior Fellow at the Transatlantic Academy in Washington.

Joshua Walker is a fellow at the Transatlantic Academy.

ترجمة: أمين على



بطريقة أكثر صدقاً ونشاطاً، وإذا بدأت الولايات المتحدة فى التعامل مع تركيا باعتبارها شريكاً لا يمكن الاستغناء عنه فى المنطقة.

لقد بدأت تركيا الانخراط فى منطقة الشرق الأوسط فى وقت متأخر من خلال التوسط فى النزاعات، وتنمية العلاقات الاقتصادية، وتحرير حركة الناس، وكلها مبادرات تهدف إلى تعزيز السلام والازدهار والانفتاح فى المنطقة. وهذا على وجه التحديد ما كانت تركيا تقوم به فى علاقاتها مع العالم السوفييتى السابق منذ تسعينيات القرن العشرين من دون جذب قدر كبير من الاهتمام من جانب الغرب.

ومن خلال الإسهام فى دمج منطقة الشرق الأوسط فى النظام العالمى، خلفت الديمقراطية التركية واقتصاد السوق أثراً إيجابياً على جيرانها فى الجنوب. وعلى هذا فإن تنمية قنوات التعاون مع تركيا من أجل الاستفادة من إمكانياتها فى الإسهام فى تعزيز السلام الإقليمى والاستقرار فى منطقة الشرق الأوسط تشكل ضرورة أساسية بالنسبة للولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى.

بيد أن الديمقراطية التركية ذاتها لم تتبلور بعد، وهذا يشكل شرطاً أساسياً لتحول السياسة الخارجية التركية إلى أصل مفيد للاتحاد الأوروبى والولايات المتحدة. والواقع أن الإصلاحات التى حركها الاتحاد الأوروبى نجحت فى تغيير الساحة السياسية فى تركيا بشكل كبير، ولكن التحول نحو الديمقراطية الليبرالية ما زال بعيداً عن الاكتمال، كما تشير حالة عدم الاستقرار التى تمر بها البلاد اليوم، فضلاً عن نوبات الشعوبية المتكررة التى أبداها رئيس وزرائها.

لقد غدت أوجه القصور الداخلية والاستقطاب السياسى إغراءات الانجراف بعيداً عن السياسة الخارجية القائمة على قيم عالمية. وهنا تتضح أهمية المشاركة المستمرة من جانب شركاء تركيا عبر الأطلسى. وفى استطلاع أجرى فى شهر يوليو/تموز ٢٠٠٩ أكد ٦٤٪ من المستجيبين فى سبعة بلدان عربية أنهم يعتقدون أن توقعات التحاق تركيا بعضوية الاتحاد الأوروبى من شأنها أن تجعل من تركيا شريكاً جذاباً للإصلاح فى العالم العربى، الأمر الذى يسلط الضوء على الصلة المباشرة بين إمكانيات السياسة الخارجية التركية ومسار الانضمام إلى الاتحاد الأوروبى.

كان النهج الذى تبنته إدارة أوباما فى التعامل مع تركيا بناءً إلى حد كبير. ولقد شهدنا أيضاً تعاوناً سياسياً فعّالاً بشأن مستقبل العراق وأفغانستان، والعلاقات العربية الإسرائيلية، ولبنان. وحتى فيما يتصل بإيران فإن الخلافات تدور حول الوسائل وليس الأهداف. ومن الممكن أن يساعد تحسن موقف تركيا فى الشرق الأوسط الولايات المتحدة فى محاولاتها الرامية إلى تعزيز الديمقراطية فى المنطقة. ويتعين على الولايات المتحدة أن تفكر فى عقد شراكة مع المجتمع المدنى التركى فى هذا السياق، فتخدم بذلك قضية تعزيز الديمقراطية سواء فى تركيا أو فى البلدان المجاورة لها.

ويستطيع الاتحاد الأوروبى أن يلعب دوراً أكثر أهمية. فبعد إشراك تركيا فى عملية الانضمام، بدا الأمر وكأن الاتحاد الأوروبى تخلى عنها، ففشل بذلك فى الوفاء بتعهداته قبل عقود من الزمان. على لسان شارل ديجول وكونراد أديناور. بالتفاوض على التحاق تركيا بعضوية الاتحاد بإخلاص.

ويحتاج النظام السياسى التركى إلى الشعور بالثقة الذى يتأتى مع مشاركة الاتحاد الأوروبى والاحتمال الحقيقى للحصول على العضوية، حتى يتمكن من مواصلة الإصلاحات السياسية الشاملة التى ما زالت مطلوبة. والواقع أن تنشيط محادثات العضوية يشكل السبيل الوحيد لإعادة بناء الثقة بين الحكومة، والليبراليين، والمؤسسة العلمانية، وبالتالى تنشيط عملية الإصلاح فى البلاد.

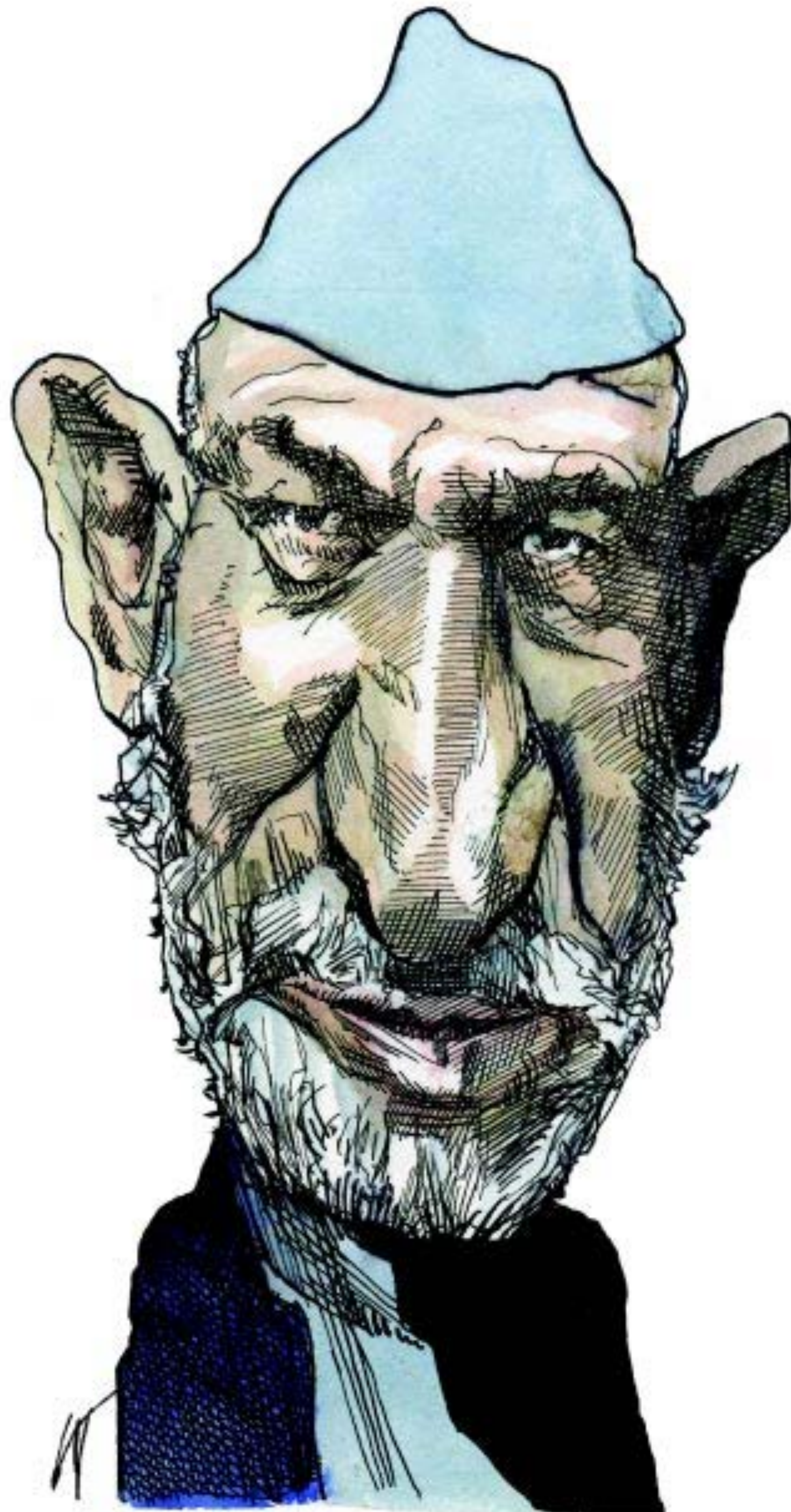
وإذا استؤنفت عملية الانضمام ونجحت فى استعادة مصداقيتها فإن هذا من شأنه أن يسمح لتركيا بالاستمرار فى العمل باعتبارها مركزاً اقتصادياً وثقافياً وسياسياً فى جوارها، فتعود الفائدة بذلك على الاتحاد الأوروبى، والجوار التركى، وتركيا ذاتها.

لقد عمل بروز تركيا على المستوى الإقليمى على تحويل حاجز الحرب الباردة الجامد إلى عامل محفز محتمل للسلام والازدهار والاستقرار فى المنطقة. ولكن لا يجوز لنا أن نتعامل مع هذا التغيير باعتباره أمراً مفروغاً منه، فهو يحتاج إلى الدعم من الاتحاد الأوروبى والولايات المتحدة. إن الغرب لم يتمكن قَط من امتلاك تركيا، وعلى هذا فإن مناقشة مسألة من «خسر» تركيا تشكل جهداً ضائعاً لا جدوى منه. والمطلوب بدلاً من ذلك هو الانخراط فى مناقشة جادة بشأن الظروف التى قد تسمح لتركيا بالوفاء بوعدها فى دعم المصالح عبر الأطلسية. ■

كامل تريشى، ناتالى توشى وجوشوا ووكر

Kemal Kirisci, Nathalie Tocci and Joshua Walker

Hamid Karzai by Kerry Waghorn ©



أفغانستان

فى البحث عن دولة

تذكرت غرف كابول الحصينة، التى لم أحتج أبداً إلى النزول إليها، عندما رأيت موقعاً للمراقبين الدوليين فى جنوب لبنان، صار أكوام حجارة فى صيف ٢٠٠٦ تحت التأثير المدمر للقنابل الإسرائيلية الضخمة



رحلة إلى كابول



خالد منصور

■■ كنت قلقاً قليلاً قبل أن أغادر العاصمة الباكستانية، إسلام آباد، فى صباح مبكر من أحد أيام شتاء ٢٠٠٠ بادئاً أول رحلة لى إلى أفغانستان. شعور سيفسح المجال أمام دهشة مستمرة إزاء إجراءات الحماية المفرطة المحيطة بمكاتب ومقار إقامة عمال الإغاثة الأجانب. الآن لم أعد صحفياً، لم أعد مراسلاً إخبارياً حراً من تلافيف البيروقراطية. بت أعمل مع مؤسسة كبيرة تقدم المساعدات الإنسانية ويعمل بها الآلاف فى شتى أنحاء العالم.

فى أحيان كثيرة تصير حواجز الأمن فقاعة كبيرة يعيش داخلها هؤلاء العمال والموظفون الأجانب، الذين صرت أنتمى إليهم الآن. نعيش خلف أسلاك شائكة على أسوار مرتفعة ووراء بوابات يقف أمامها وبجوارها حراس يشبهون فى سلوكهم جنود الأمن المركزى الذين يقفون أمام السفارات فى القاهرة. يقفون فى بعض وجل ودهشة أو لا مبالاة وتعب وجوارهم حواجز وظيفتها أن تمنع اقتحام السيارات للمكان قبل أن يجرى تفتيشها وأحواض زهور تقف على قواعد خرسانية مكعبة تلتهم نصف الرصيف لتعيق آثار الانفجارات القريبة وزجاج مقاوم للتحطم إلى شظايا. وفى البيوت التى يقيم بها عمال الإغاثة الأجانب (دور ضيافة تابعة لمنظماتهم) وكمهرب أخير إذا اقتحم أحدهم المبنى - رغم كل هذه الاحترازات الأمنية - توجد غرف محصنة ضد الشظايا والقنابل الصغيرة تحت الأرض ينزل إليها بسلالم ولها أبواب مدعمة وبها مخزون من مياه الشرب والطعام المعلب والبطاريات الكهربائية تكفى عدة أيام لنزلاء المكان.

تذكرت غرف كابول الحصينة، التى لم أحتج أبداً إلى النزول إليها، عندما رأيت موقعاً للمراقبين الدوليين فى بلدة الخيام فى جنوب لبنان، صار أكوام حجارة فى صيف ٢٠٠٦ تحت التأثير المدمر لعديد من القنابل الإسرائيلية الضخمة التى سقطت على الموقع وأحالته وغرفه الحصينة إلى حطام. كان التعرف على جثة أو اثنتين من بقايا المراقبين الأربعة التعساء صعباً، إذ سحقتهم كتل الخرسانة التى كانت مكلفة بحماية أجسادهم.

ربما توفر هذه الحماية الفائقة (ولكن غير الكفء فى أحيان) احتياطاً ضد هجمات إرهابية أو المئات من طالبى العمل أو المتظاهرين المنفعلين إثر حادثة أو أخرى. وربما تتيح هذه الحماية إمكانية العمل فى مناخ وادع يتناقض كثيرا مع البيئة المحيطة بضجيجها وإلحاحها وفقرها وشظف عيشها. ولكن هذه الحماية أيضاً تحرمنا من أن نرى المجتمع الذى نحاول أن نساعده، معزولين عنه مضاعفةً بسبب الحاجز اللغوى.

عندما وصلت إلى كابول فى شتاء ٢٠٠٠ لم يكن عديد من الأجانب قد تعرضوا بعد للخطف والقتل والارتهان فى عالم ما بعد ١١ سبتمبر فى أفغانستان. كانت أكثر الذكريات طزاجة عن التهديدات الأمنية أن أجنبيا يعمل بأنشطة الإغاثة أطلق عليه النار فى عام ١٩٩٨ بعد أن أخطأ طريقه إلى داخل مظاهرة كانت تسير فى العاصمة الأفغانية احتجاجا على صواريخ أمريكية انهمرت على البلاد عقب تفجير إرهابى أطاح بسفارتى واشنطن فى نيروبى ودار السلام وقتل عشرات وجرح آلاف. مسلسل الثأر بين الحكومة الأمريكية والجهاديين (القاعدة أو غيرها) كان قد بدأ مباشرة عقب نهاية الجهاد ضد الشيوعية فى أوائل التسعينيات وعودة الجهاديين مما اعتقدوا أنه هزيمة الدب الروسى ليلتفتوا إلى «الشيطان» الأمريكى الذى كان يتجول فى الشرق الأوسط طوال عقود قبل غزو السوفييت الأبله لأفغانستان.

كانت كابول مقصد شباب أوروبا الفارين من حضارة رفضوا استهلاكيتها وميكانيكيتها فى الستينيات ورفعوا ضدها شعارات حرية فكرية وجنسية. كانت المدينة محطة قبل أخيرة فى طريق حج ينتهى فى نيودلهى. طريقٌ اندثر مع سقوط شاه إيران ودخول جيش السوفييت إلى أفغانستان فى عام ١٩٧٩ . تلك الكابول، التى كانت توفر الماريجوانا والحدائق والفنادق الرخيصة لشباب السياح الغربيين والأفلام الحديثة والحياة الحرة نسبياً للباكستانيين، صارت نسياً منسياً. ما زالت التلال المحيطة بها نفس التلال وإن اختفت أشجار وغابات تحت جنازير الدبابات والحاجة إلى وقود التدفئة.

حلقت طائرتنا الصغيرة فوق المدينة على علو شاهق عدة دورات ثم بدأت هبوطاً حلزونياً سريعاً كاحتراز أمنى ضد الصواريخ الطائشة أو المقصودة. عندها شعرت لأول مرة بدوار الجو، بيد أننى تمالكت نفسى حتى ضربت عجلات الطائرة المطاطية مدرج المطار الأسفلتى المتشقق.

نحن فى عصر الطالبان الذين أمسكوا بزمام ما تبقى من أفغانستان فى منتصف التسعينيات بعد عشرين عاما من الاضطراب السياسى والنضال والجهاد ضد السوفييت والحرب الأهلية الدموية بين الأشقاء. ونحن فى بلاد حظر تجول يبدأ فى التاسعة مساء (معظم عمال الإغاثة يخضعون لحظر تجول يبدأ فى الثامنة مساءً). وصلنا فى الصباح وفى العصر قررت أن أذهب إلى الشارع التجارى الرئيسى والذى يدعى شارع الدجاج حيث البازار ومحال الأكلمة والسجاجيد الأفغانية والفضة التركمانية وما حولهم من مشغولات يدوية قديمة باعها أصحابها الذين دارت بهم الدنيا كثيراً أو صنعتها النساء والأطفال فى القرى أو فى خيامهم إذا كانوا من الرحل.

يجب علينا للخروج من دار الضيافة التابعة لمنظمتى أن نستقل إحدى السيارات المخصصة مع سائق أفغانى. هذا أيضا جزء من الاحتياطات الأمنية التى تشمل نصائح مشددة ضد السير كثيراً فى الشارع أو استقلال سيارات الأجرة. كنت قد طلبت سيارة من سيارات المكتب للخروج إلى شارع الدجاج مع زميل إيرانى تعرفت عليه فى الطائرة ولكن سوء تفاهم أدى إلى وقوفى مع مجتبى داخل المبنى بجوار البوابة الرئيسية نتسول الركوب مع أى سيارة رسمية. زميلة ألمانية تدعى ك. نظرت إلى بنصف اهتمام بدا مصطنعاً من مقعد القيادة وقالت أنها ذاهبة للعب التنس فى مقر إقامة منظمة فرنسية ويمكنها أن تقلّنا إلى شارع «الدجاج».

- سائقو التاكسى هنا لصوص، قالت كأنها تلفظ حقيقة بديهية لا يجهلها سواى، أنا الزائر للمرة الأولى إلى عاصمة الأفغان.

- تعنين أنهم يبالغون فى محاسبة الزبائن، رددت بعفوية.

- لا. إنهم يضاعفون الأجر عدة مرات. عندما اضطررت ذات مرة لأن أستقل تاكسياً من المطار طلب منى السائق اللص أضعاف ما يتقاضاه لنفس المشوار من المحليين[1].

- ولكن يا عزيزتى ك. الفارق كله لا يعادل دولارين أو أقل على الأرجح وربما كان هذا السائق هو الفرد الوحيد الذى يعمل فى عائلة ضخمة فيها عشرون آخرون يعتمدون عليه!

واصلنا الحديث فى السيارة

- ماذا تعنى؟ أتريد أن تبرر النصب؟ ثم إن وجود نظامين أو ثلاثة أنظمة للأسعار يفسد السوق تماماً وهذا سيكون سبباً فى عدم تطور اقتصاد السوق هنا. فى ألمانيا لدينا نظام واحد للأسعار للمواطنين وللزوار (لاحظت أنها استعملت كلمة «المواطنين» للدلالة على أبناء وطنها وليس كلمة «المحليين» التى تشير بها للأفغان).

كانت محقة، نظرياً، بيد أن النظريات فى أغلبها جافة لا تقيم الأود ولا تطعم الأطفال فى الحال بل تعد بالرخاء فى المستقبل (سواء كان هذا المستقبل فى الجنة، أو فى تمام الشيوعية أو فى «نهاية التاريخ» مكللة بنصر للرأسمالية). أو ربما امتعضت من أفكارها ببساطة لأننى «طيب» كما تقول أمى (والطيبة تستدعى فى بلدى مصر وصف البلاهة - فيقال كثيرا «طيب وأهبل»). صديق لم أعد أتجاذب معه خيوط الحديث أو الصداقة قال لى ذات مرة بعد خلاف مشابه على البقشيش لعمال فندق فى واحة فى الصحراء الكبرى أن «رهافتى» المبالغ فيها تصور لى أننى أساعد الناس، بينما هى فى الحقيقة تفسد قدرتى على النظر الموضوعى إلى حقائق الأشياء. حسناً إذن فلأقبل نفسى على علات هبلها وطيبتها وفساد قدرتها على الموضوعية ولكنى مصر على موقفى.

وجهات نظر: فبراير ٢٠٠٨

Steve McCurry / MAGNUM

توقفت ك. أمام شارع «الدجاج». نزلت أنا وصديقى مجتبى من المقعد الخلفى. نظرت إلىّ عبر ضابط أمن أسترالى كان يجلس بجوارها فى المقعد الأمامى قائلة أن علينا الانتظار فى تمام السادسة مساءً فى نفس المكان كى تقلنا عائدين إلى دار الضيافة بعد أن تنتهى من لعب التنس. لم تستغرق الرحلة كلها بالسيارة التويوتا البيضاء السائرة ببطء تفرضه حُفر الطرقات سوى عشر دقائق. اضطرت ك. للإبطاء قليلاً خلف سيارة نصف نقل تقل حوالى خمسة من الطالبان المسلحين فى صندوقها الخلفى. ضربتهم الدهشة ومشاعر الاستهجان بوضوح عندما تبينوا أن هناك ثلاثة رجال يجلسون فى السيارة السائرة خلفهم وامرأة تقودها. أخذوا يشيرون إلينا مبتسمين بصورة كأنها تقول: «يا أيها المخنثون، لماذا تقود سيارتكم امرأة؟» وانفعل أحدهم وهو يحث الأسترالى الجالس فى برود فى مقعده أن ينتقل إلى مقعد القيادة.

كان من المستحيل فى معظم الأوقات وفى كل زياراتى اللاحقة أن أتمكن من إجراء حوار مفيد أو عميق لأىٍ من الطرفين مع أى من الطالبان. لم تكن هناك مساحات مشتركة بيننا فى حقيقة الأمر. شباب فى أواخر العقد الثانى وأوائل الثالث هجروا مدارسهم فى أفغانستان وباكستان فى أوائل التسعينيات وحملوا السلاح من أجل أن يفرضوا نظاماً يعتقدون أنه إسلامى خالص على بلد مسلم كانت تتناوشه من كل الجهات فصائل المجاهدين الدموية. حياة الطالبان تأكيد لرجولة ذكور الباشتون (ومعظم الطالبان من هذه القبيلة) وتمجيد للسلاح وتقديس لمفهوم ضيق جامد عن الدين وتبجيل للجهاد المسلح والعنف. وهى كلها أمور لا تعنينى.

قلت لزميلتى ك. ألا تبالى بالعودة لأننا سنقطع الرحلة القصيرة عائدين على أقدامنا. نظرت إلىّ بعينى أم قد ملت عجز صغيرها عن فهم الأوامر الواضحة. غيرت ك. وضع عصا التروس فى السيارة وانطلقت دون أن ترد علىّ.



كانت السوق مهجورة. لا كهرباء. يدل على غيابها منذ مدخل الشارع صوت وشيش مولدات كهربائية صغيرة معظمها حمراء اللون ورائحة العادم الكربونى المنبعث منها. بعض أصحاب محال السجاد ينتظرون حتى نقترب قبل أن يجذبوا حبلاً قصيراً يشغل المولد - ربما توفيرا للوقود. برؤوس محنية كنا ندخل إلى المحال الواطئة الأبواب.

رائحة قوية للمطرزات التركمانية بأحمرها القانى وأخضرها الداكن وأصفرها الزاهى وأزرقها الكحلى - مطوية فى أكوام يصل بعضها إلى السقف. ورود كبيرة فى تصميمات فرحة. صعب على أن أتخيل كيف خطر هذا الاشتعال اللونى على مخيلة النساء (وأحيانا الأطفال) الذين طرزوا أو نسجوا هذه القطع البديعة فى بلد اختفت غاباته كلها أو تكاد وضاعت الخضرة والصفرة والحمرة والزرقة تقريبا لتستحيل ألوان الواقع إلى درجات من الرمادى تنتهى بالأسود. رائحة قوية تقترب من العطن ولكنها ليست كذلك. رائحة الزمن على مطرزات وسجاجيد لم تتحرك من مكانها منذ مدةٍ طويلة. رائحة الكساد كانت.

وبعد ساعةٍ من التجوال بين المحال وعدة أكواب من الشاى الأخضر غير المحلى المصحوب بطبق زجاجى صغير به سكاكر ملونة يمكن أن تضعها تحت لسانك لتكسر حدة الشاى المر، صرنا السائحين الأجنبيين الوحيدين فى السوق وربما المتسوقين الوحيدين. حتى النسوة المتسربلات ببراقعهن واللائى كدنا نصطدم بهن عندما اندفعنا ونحن نضحك من نكت تبادلناها إلى داخل محل فضيات تركمانية، كن بائعات لحليهن ولسن مشتريات لحلى جديدة.

تسمر مجتبى عند المدخل بعد أن كدنا نتلامس مع النسوة الواقفات فى الداخل واللاتى تميزن عن متسولات شوارع كابول ببراقع مكوية من خامات يبدو ارتفاع ثمنها النسبى ودقة صنعها. سحبنى من مرفقى بقوة لنترك المكان لهن.

- صدقنى نحن لا نريد أن نكون مع هاته النسوة داخل المحل إذا فاجأنا الطالبان، همس مجتبى.

انتظرنا فى الشارع قليلا نراقب المارة ويراقبوننا.

اشتريت سواراً فضياً دقيق الصنع - لكن فى بدائية قبلية محببة - من أجل زوجتى. لم يكن هناك مولد كهرباء لدى هذا البائع الجاد السحنة، المعتمر طاقيةً مطرزة زاهية الألوان ومشقوقة من الأمام مثل معظم طاجيك كابول، لذا قام بإخراج بضاعته على مفرش تركمانى أحمر مطرز بورود كبيرة إلى الرصيف الضيق حيث جلسنا على مقعدٍ خشبىٍ طويل نقلب فى الحلى. معظمها مشغولات هلالية الشكل تعلق فى سلاسل على الصدر أو توضع تيجاناً على الرأس، تربط أحزمة على الخصر، تلبس أساور حول المعاصم أو تعلق أقراط فى الآذان. بصيص شمس راحلة فى وقت انتصف بين العصر والمغرب انعكس قليلا على فضة الحلى المصفرة بينما كانت معظم المحال تبدأ طقساً حزيناً وهى تغلق أبوابا ربما لم يمر منها متسوق واحد فى هذا اليوم. مر بعض الطالبان وعصى فى أيدى معظمهم ومدافع رشاشة مترنحة على جوانب قلة، عيونهم مكتحلة ورؤوسهم تعتمر عمامات سوداء حريرية ونظرة هادئة فى قسوتها وتصميمها تكسو وجوههم العشرينية.

سوق تعيش حالة حداد معلن غير معروف حتى متى سيستمر، سوق كئيبة وخاصة لمن اعتاد مثلى على أسواق راولبندى ودلهى والقاهرة وحتى فى نيويورك.

أسواق راولبندى فى باكستان ودلهى فى الهند تكتظ أحيانا بالناس حتى يخيل إليك أنك لن تشترى شيئا ولن تعرف أن تعود من حيث أتيت. يتكاتف الناس ويحتكون كثيراً ببعضهم البعض. شكت لى صديقة إيطالية كانت تزور راولبندى معى قبل ذهابى إلى كابول تلك المرة أن عديدين قرصوها بعنف فى مؤخرتها ذلك الصباح الذى قضيناه بالأسواق. وكان خان الخليلى ساحرا بحاراته المتفرعة وشارع المعز وجوهر القائد حتى أحالت المنطقة يد التجديد والتحديث الحديدية إلى حفائر مستمرة لسنوات لم تنته بعد (وأنا أكتب الآن فى أواخر عام ٢٠٠٧) الخان قادر دائما على دفع الهدوء إلى النفس طالما دلفت إلى شوارع جانبية وخاصة تلك غير التجارية. وفى نيويورك لا أفضل من التكاسل فى صباح أحد فى أسواق البق - ويدعونها هكذا ربما تقليلاً من شأنها - حيث تباع الكتب والملابس والأدوات الكهربائية والتحف المستعملة والرخيصة.



فى كل هذه الأسواق هناك مساحة للسير، حتى لو تلاحماً، ولتدخين الأرجيلة والوجبات السريعة والبطيئة وأنت محاط بسياح مندهشين ونسوة متلفعات بملاءات سوداء وشباب وبنات بخليط من الـ «تى شيرتات» الملونة والبنطلونات الجينز والرجال بقمصان متربة أو جلابيب أو شورتات، ودراجات وعربات يد صغيرة محملة ببالات الأقمشة والبضائع. زحام يصم الأذن بضجيجه ويقتحم العين مالئها باندفاعاته.

أين هذا من الصمت الحزين ولون الرماد الجاثم على شارع الدجاج فى قلب كابول.

فى طريق العودة إلى دار الضيافة كان سائق التاكسى المرح يتحدث بعربية نصف طليقة قادمة من سنوات قضاها خلف مقود آخر فى سوريا والعراق. لمح بعض عدم تصديق فى مرآته فاستدار إلىّ وأخرج حافظته وأرانى رخصة قيادة سورية منتهية الصلاحية عليها صورته.

مشهد النساء فى شوارع كابول الحزينة أو بالأحرى اختفاؤهن القسرى منها سواء فى بيوتهن أو تحت براقعهن هو ما جعلنى مشدوهاً فى كابول يومى الأول. تسرع النساء فى خطوات قصيرة تحت «الشادور» أو «البوركا» كما تدعى بلغتى الدارى والباشتو(٢). معظم الشادور أزرق زاه وبعضه أصفر فاقع وهناك أسود وألوان أخرى. كثيرات تجرجرن ذيولاً متربة لهذا الرداء غير الإنسانى(٣) وبعضهن تجذبن الذيول القماشية أو يتركنها لقبضات أطفالهن الحفاة وهن يتوقفن أمام السائرين طلبا للصدقة. وعندما ترغب إحداهن فى عبور الطريق تجذب القماش الذى يستر وجهها لتشد الشبكة التى تغطى عينيها لأسفل وتنظر يمنة ويسرة ثم تعبر. معظم النساء اللاتى رأيت فى شوارع كابول والقرى القريبة منها كن فى الشوارع لأنهن يشحذن أو يشترين أشياء قليلة ويسرعن فى طريقهن. كثيرات منهن كن يتوقفن عادة أمام مطاعم المشويات بالقرب من سينما بارك (التى توقفت عن عرض الأفلام من زمن طويل) فى وسط كابول أو قريباً من مقار ومكاتب منظمات دولية أجنبية عاملة فى البلاد.

خارجا من مطعم هيرات فى قلب كابول بعد وجبة دسمة من الضأن المشوى ودهنه السائل على قطع اللحم الطرية واللبن الزبادى الذى أطفأ قليلا من حدة شرائح الفلفل الحارقة والبصل النافذة، أمسكت امرأة من المتسربلات كما صرت أسميهن بمرفقى بقوة فاجأتنى. دفعها رجل عابر بعيداً عنى كأنها حيوان أليف ارتكب خطأً ما ثم عنفها بالباشتو دون أن ينظر ناحيتى إطلاقا. فتحت باب السيارة ولكن متسولة أخرى مرقت بينى وبين الباب وأنا أتخذ مقعدى مانعة إياى من إغلاقه. تمنيت كثيرا فى حياتى أن أختفى فجأة وبسرعة أو تنشق الأرض وتبتلعنى. هذه الأمنية كانت تشتد وأنا طالب صغير فى مدرسة أم المؤمنين الإبتدائية بمدينة المنصورة فى دلتا مصر عندما يفاجئنى مدرس قاس بسؤال لا أعرف الجواب له ولكن أعلم عقاب الجهل به. تمنيت مع هذه المتسولة أن أختفى فى سحابة من الدخان مثل الجنى فى القصص القديمة الساذجة. لم يكن معى أى مال ولم أستطع حتى أن أعتذر لها بلغة تعرفها أو أطلب مالاً من السائق لأنه كان قد سارع بالخروج من المكان تاركة إياها واقفة فى مكانها. وراحت مناشداتى بالتوقف ضحية سرعته وضجة محرك السيارة وعدم إصرارى بما يكفى.

بعد يومين فى كابول يشعر المرء بالتأرجح بين حيوات متباعدة فى نفس المدينة: متحركا من مكتب متطور مزود بكل أجهزة الاتصال بالأقمار الصناعية إلى مقر إقامة نظيف مجهز بتوصيلات الإنترنت وأجهزة التليفزيون بمحطات فضائية بالإنجليزية والفرنسية والعربية إلى مجمعات إيواء مفزعة لآلاف النازحين الناحلة أجسادهم من الجوع والتعب المفتقرين إلى أبسط مقومات أبسط حياة إلى مخيمات البدو الرحّل فى مراع مؤقتة خارج المدينة ينسجون مطرزاتهم ويرعون جمالهم بينما يمر الطالبان فى سياراتهم ذات الدفع الرباعى وأسلحتهم البارزة من النوافذ الداكنة.

«كابول الآن رهينة»، قال لى حميد مضيف بار دار الضيافة.

وأضاف: «كنا أفضل قبل أن يسيطر الطالبان على هذه المدينة. نعم كانت هناك حرب قاسية طوال أكثر من ست سنوات. نعم كانت هناك صواريخ تنهمر يوميا من كل الاتجاهات. ولكننا كنا أحراراً».



عبرت سيارتنا ببطء مدخل دار الأيتام الكبيرة وأغلق البوابة المتهالكة فى صرير مدوى حارس عجوز. أربعة مبان يكسوها طلاء أبيض شاحب ويعيش ويدرس فيها ٤٥٠ من الأطفال. الصغار حتى السابعة يدرسون سويا، بنات وأولاد بعيونهن الواسعة وما تبقى من فضول ودهشة راح معظمها مع مرارة اليتم وحديدية نظام الدار. من يتعدون السابعة يتم فصلهم عن

أســــواق راولبنــــدى فى باكســـتان ودلهـــى فى الهنـــد تكتظ أحيانا بالناس حتى يخيل إليك أنك لن تشترى شيئا ولن تعرف أن تعود من حيث أتيت



بعضهم البعض، فالأولاد فى فصول والبنات فى أخرى. قاعات الدرس عارية سوى من حصر بلاستيكية يتجمع عليها الأطفال فى حلقات ويعود إليهم صدى أصواتهم الرفيعة من الحوائط والأسقف العارية يكرر عليهم آيات القرآن بالعربية. يتعلمون الكتابة بأحرف طفولية مائلة على سبورات من طلاء أخضر على الحائط فى مقدمة الفصل. يجلس المدرس متربعاً على الأرض فى المقدمة بزى أفغانى تقليدى وتقبع بجواره عصا رفيعة طويلة. تفاخر مدير الدار قائلا: «ندرسهم أيضا مبادئ الحساب والعلوم الاجتماعية». مائة وعشر بنات وثلاثمائة وأربعون صبيا يقيمون فى هذه الدار الجرداء حديقتها من الخضرة والالعاب، ومن البهجة.

فى المطعم الكبير تتصاعد الأبخرة من قدور ضخمة وطهاة يقلبون عصيدة فيها بمغارف حديدية طول يدها يزيد على المتر بينما سواد السناج يلف القدور ويترك بصماته على السقف والجدران. الأطفال بعيونهم الزائغة يتوقفون عن ازدراد طعامهم عندما ندخل مع المدير ويقولون فى صوت واحد «السلام عليكم». رفض المدير أن تدخل معى زميلتى ك. غرف نوم الأطفال لأنها «كافرة» ولا يجب أن يسمح لها بلقائهم. بينما يمكن السماح لى لأنى مسلم. ابتسم المدير العشرينى كاشفا عن أسنان مفلوجة فقلت له: «ولكنى رجل وهى امرأة ونحن الآن نزور قسم الفتيات». فرد دون كثير تفكير قائلا: «المدير من حقه أن يمنع ويسمح لأى زائر يشاء الدخول إلى المبنى». ويبدو أنه تذكر حجة إضافية قوية حيث أضاف بابتسامة ماكرة: «ثم إنك أخ مسلم رغم هذه» وهو يشير بيده الى ذقنى الحليقة ثم يمسد بنفس اليد لحيته الطويلة غير المهذبة.

فى الحقيقة لم أغضب كثيراً لاجل السيدة ك. التى كان غرورها وصلفها مهيناً بين الحين والآخر لزملاء أفغان فى المكتب. يفتقر بعضهم إلى الكفاءة لا شك وآخرون يتمتعون بقدرة فائقة على التكاسل ولكن نسبة الفاشلين والكسالى بين الزملاء الأفغان لا تختلف كثيراً عن نفس النسبة بيننا نحن الأجانب الذين نتقاضى رواتب هى أضعاف ما يتقاضاه الأفغان وعشرات أضعاف راتب موظف الحكومة الأفغانى (هذا إذا تلقى مثل هؤلاء الموظفين الصابرين رواتبهم بانتظام).

داخل الغرفة التى سمح لى المدير الطالبانى بدخولها كان الفتية والفتيات زائغى النظر شاحبى الأوجه، ملطخين ببقع بنفسجية من دواء رخيص لمعالجة مرض جلدى متفش(٤) بين أطفال أفغانستان. وهتفوا جميعاً، حوالى العشرينْ منهم بصوتٍ واحدٍ خفيض ومرتعش،: «السلام عليكم» عندما دخلنا الغرفة.



Alex Majoli-Magnum Photos

جالسين كلهم كانوا على الأرض وأيديهم الصغيرة بأظافر متسخة تغمس لقماً من الخبز فى صحونٍ بها شراب عدس. أسرة مستشفيات تتراص بجوار الحوائط وعليها ملاءات مهترئة ولكنها نظيفة. لا كهرباء، لا مياه جارية، لا شبابيك تغلق، لا أغطية ثقيلة تقى من برد الشتاء القارس فى كابول، لا ألعاب، ... أطفال وأسرة وأغطية وجدران ومشرفون. أمر صعب ولكن الأقسى هو أن ترى أطفال كابول فى الشوارع.

عدت إلى نفس دار الأيتام بعد عامين من زيارتى الأولى (وشهور ثلاثة من تفكك قوات الطالبان فى وجه قوات التحالف تحت القيادة الأمريكية) بصحبة وفد رفيع المستوى من منظمة إغاثة. دخل ركب السيارات الضخمة إلى الفناء حيث اصطف مئات الأطفال فى ثياب ملونة ووجوهٍ شاحبة (من أثر سوء تغذية) وانفعال زائد مع وجود كل هؤلاء الضيوف الأجانب المهمين واللطفاء والمبتسمين والمتبوعين بكاميرات يحملها رجال ونساء يتدافعون بين بعضهم البعض ومع الآخرين من أطفال وكبار ليحصلوا على أفضل زوايا التصوير وأقواها تأثيراً. بدأت مجموعة من الأطفال تغنى وراء ميكروفون محمول فى يد طفلة تقف أمامهم وتغنى بصوت أقوى منهم جميعاً، أغانى وطنية عن أرض الأجداد. وتقافز صبية فى مجموعة أخرى بينما أدى مراهقون مجموعات من حركات الكاراتيه فى استعراض من أجل الضيوف ثم انهالوا على الأرض يؤدون تمارين ضغط. عشرين مرة على الأقل. نحيفون كلهم تتقوس ظهورهم مع كل هبوط لمرافقهم نحو الأرض حتى تعتقد أن بطونهم ستلمس التراب المبتل ببعض الماء ولكن أذرعتهم الرفيعة كالعصى ترفع الأجساد النحيفة ببطء إلى أعلى مرة أخرى وهكذا. غادرت أرض الاستعراض الحزينة إلى دورة مياه سادرة فيها الروائح الكريهة ولا مياه سوى دوائر من بول عطن على الأرض.

وصلنا إلى الغرف التى كانت معدة لزيارة وفدنا رفيع المستوى. الأرض مجلوة تماما تتهادى منها رائحة مطهر قوى. فى غرفة المطعم وقف الأطفال صفاً فى جانب يحملون صحون طعامهم البلاستيكية بانتظار الحصول على وجبة الغداء. قدران كبيران ممتلئين بمعكرونة ولحم وخبز. يأكل الأطفال واقفين أمام مناضد تصل إلى أسفل صدورهم. ابتسم الزوار وربتت امرأة على رأس طفل يتيم بينما قبلت أخرى، أكثر عاطفية، طفلة يتيمة وأدلى المسئول الكبير بتصريحين إلى شبكة تليفزيونية أمريكية وعدت بأنها ستبث المقابلة مساء اليوم نفسه.

توجهت إلى الدور الثانى مع الوفد الذى اتجه يساراً فى الممر إلى غرفة وضعت بها مرطبات وفواكه للوفد. اتجهت يميناً لألقى نظرة سريعة على الغرفة التى زرتها منذ عامين تقريبا عندما رفض المدير الطالبانى أن تدخل زميلتى السيدة ك. (كانت قد غادرت أفغانستان إلى بلد آخر يحتاج إلى المساعدات). كانت الغرفة قذرة وخالية سوى من أسرة محطمة وعنكبوت ثقيل نسج بيته فى زاوية.



فى الطريق إلى مقاطعة لوجار امتدت لبضعة كيلومترات على يسارنا مقبرة للحافلات تتراص فيها هياكل عارية لمركبات لابد أنها قطعت آلاف الكيلومترات فى شوارع كابول فى شيوعية السبعينيات وعقود الملكية السابقة. تم تجريد الحافلات من كل ما يمكن نزعه ليدخل فى سوق تجارة الحديد الخردة التى راجت سنوات فى أفغانستان حتى ذابت مصانعها ومنشآتها الحديدية فى مصاهر بلدان مجاورة للتناسخ مرة أخرى ربما فى صورة أعمدة إنارة فى نيودلهى أو بنادق فى بيشاور. على اليمين مقبرة للبشر براياتها الخضر المتهرئة الأطراف الدالة على رفات شهداء. وكانوا بالآلاف.

توقفنا فى إحدى قرى المقاطعة القريبة من كابول. المنازل مهجورة وبينها حفر عميقة، هى ما تبقى من آثار ارتطام قنابل ثقيلة قال لنا بعض السكان الخارجين ببطء من منازلهم - بعد أن اطمأنوا إلينا - أنها كانت نتاج آخر الغارات السوفيتية على تلك القرية التى اعتادت إيواء عديد من المجاهدين لقربها من العاصمة. معظم السكان غادروا القرية إلى موقع قريب جديد بعد أرض المقابر وبدأوا بمساعدة منظمات اجنبية فى بناء بيوت صغيرة. إلى جوار المقابر كان هناك شاهد حرب آخر، طائرة هليكوبتر فقدت مروحتها وعجلاتها واستراحت على أربعة براميل نفط منزوعة الأبواب والأجهزة الإلكترونية. وبدا هيكل الطائرة مثل بطة قعيدة مجهدة. قال لى أحد السكان أنها كانت تخص مجاهدى قلب الدين حكمتيار زعيم الحزب الإسلامى والقائد المؤثر حتى الآن وسط الجماعات الجهادية الأفغانية. فى سنوات الجهاد الطويلة فى الثمانينيات ظل حكمتيار القائد الأثير لدى السلطات الباكستانية التى تولت سراً نقل السلاح - الممول مناصفة فى أحوال كثيرة بين الولايات المتحدة والسعودية - وتوزيعه على جماعات الجهاد السبع التى تقاسمت فيضان الأسلحة الغربية والأجساد العربية الساعية للانضواء تحت لواء جهاد صار عالمياً ضد جيش الغزاة السوفييت وعملائهم الأفغان الشيوعيين «الكفرة».

أغلب من التقيت من قادة الطالبان كانوا من الصف الثانى أو ما وراءه: قليلو الخبرة، جهلة حتى بكثير من الشئون الدينية، ضيقو الأفق، لا يهتمون البتة بقواعد البروتوكول والتهذيب ناهيك عن الأعراف القبلية الجامدة والمهمة فى مجتمع مثل أفغانستان. ذكرونى أحيانا بطلبة الستينيات فى أوروبا والذين وقفوا ضد آبائهم وضد النظم السائدة. ولكن الطلبة الأوروبيين والأمريكيين رفعوا شعارات ساذجة بعض الشىء عن الحرية والتسيير الذاتى، بينما سعى الطالبان لفرض برنامج كامل لا يقل سذاجة وإن كان يزيد خطراً عشرات المرات بسبب عنفه الدموى المتسربل بثوب دينى صارم طمعا فى نيل حظ الدنيا وثواب الآخرة فى ضربة واحدة.

قلائل من الطالبان كانوا ممن تعدوا الأربعين عندما وصلوا إلى الحكم، ومنهم دكتور ب. الذى كان يعمل فى وزارة الخارجية والذى صافح زميلتى ك. دون تردد (مقارنة بمسئولى الطالبان الآخرين الذين كانوا أحيانا يديرون وجوههم عندما تدخل امرأة أجنبية.) بعد أن وصلنا إلى مكتبه صباح ذلك اليوم المشمس الجميل إلى مبنى وزارى من الطراز السوفيتى. وبعد المصافحة الحارة والابتسامات المغدقة طلب لنا ب. شاياً ومياها معدنية. وفشلنا فى تحقيق الغرض من الاجتماع ولكننا لم نحمل له ضغينة ونحن خارجون من المبنى - لأنه كان فى الحقيقة متعاطفاً معنا ومع معضلتنا الشيطانية. كنا نحتاج إلى تعيين مزيد من النساء. فى ضوء البطالة المرتفعة بين الرجال والنساء لم يكن هناك عائق بل إنها فكرة جيدة. ولكن الطالبان فى أغلب الأوقات كانوا يحرمون عمل النساء سوى فى تدريس وطبابة النساء، وفى نفس الوقت يحرمون اللقاء بين الرجل والمرأة دون وجود محرم. كنا فى موقف غريب. لا يمكن أن يقوم رجال بعملية مسح شامل فى كابول لتحديد المحتاجين من عائلات السيدات الأرامل، إذ من شبه المستحيل اجتماعياً أن يسمح لهم بالدخول وتقصى الأوضاع فى منزل لا يوجد به رجال فى العادة. ومن حق النساء التزاور ولكن لا يمكن تعيين نساء للقيام بهذه المهمة والعمل معنا. معضلة حقيقية فى مدينة كانت بعض الإحصائيات تشير إلى وجود ٣٠٠٠٠ أرملة فيها.

قد تخدعك كابول ببساطة أهلها وكرمهم فى التعامل مع الأجانب وقد تخدعك لأنها قد تبدو بدائية ومتخلفة. ولكنها تخدعك تماماً عندما تبحث فيها عما ليس منها. عندما تبدأ فى قياسها نسبة إلى باريس أو واشنطن أو بيروت أو القاهرة. ساعتها يتبدى الخطل والخطأ كما يحدث فى عديد من الكتب الصحفية. والآن سقطت كابول تماما بالنسبة للعالم الخارجى فى غرف مرايا وسائل الإعلام التليفزيونية والإلكترونية والخطابات السياسية. قلائل هم الصحفيون والباحثون القادرون على منح كابول الوقت والجهد اللازم لعرض أوجه غير تلك الصالحة للفرجة والتسلية (وقد صار الدم والقتل والانتهاك إحدى التسليات التليفزيونية الشائعة فى عالمنا).

فى الثمانينيات كانت الموضة هى تصوير المجاهدين إما على أنهم عودة إلى العصر الذهبى لإسلام قادر وقوى أو على أنهم أحفاد الميليشيات المدافعة عن حقها فى وجه طغيان نظام قمعى مستند على إمبراطورية السوفييت الشريرة. عشرات الكتب والمقالات صار أفضل استعمال لها هو إعادة تدوير ورقها لصنع كراسات للأطفال.

يعترف روب شولتيز فى بداية كتابه أن حياته كانت تمر بمنعطف صعب عندما قرر أن يرحل ليغطى الحرب فى أفغانستان. ويمجد الكاتب[٥] المجاهدين فى الثمانينيات بلغة ووصفٍ أسطورى كأنما يصف محاربى الفايكنج. ورغم أنه كتاب عما حدث فى الثمانينيات من مواجهات بين جماعات الجهاد والجيش السوفيتى إلا أنه لا يتحدث سوى لماماً عن هذا العدو السوفيتى أو عن الأفغان الذين قرروا العيش بل والتعاون مع النظام «العميل».

معظم النساء اللاتى رأيت فى شوارع كابول والقرى القريبة منها كن فى الشوارع لأنهن يشحذن أو يشترين أشياء قليلة ويسرعن فى طريقهن





Abbas-Magnum Photos

ويكرر ترهات لا يمكن التقاطها سوى على المقاهى أو من الأدلاء السياحيين وما شابه، مثل أن أصل اسم «أفغانستان» هو «ياغيستان» وتعنى «أرض المتمردين أو الذين لا يمكن حكمهم». حسناً، معظم المصادر الأكاديمية تعتقد أن أفغانستان مركبة من شقين: الثانى «ستان» ويعنى أرض فى اللغات الهندو أرية الأصل (ومن هنا أسماء طاجيكستان أى أرض الطاجيك وباكستان أى أرض الأطهار... إلخ.) بينما يشير الشق الأول «أفغان» إلى «الفرسان» أو «مروضى الخيول». ومنذ العصور الوسطى تماهت كلمة أفغان مع اسم قبائل الباشتون التى سرعان ما سيطرت على البلاد لتسحب اسمها عليها كلها بعد أن كانت مقسمة إلى مناطق متعددة مثل إمارة بلخ ومملكة كابول. وظهرت كلمة أفغانستان أول مرة فى كتاب لمؤرخ عربى مجهول صدر فى عام ٩٨٢ ميلادية وهو كتاب «حدود العالم من المشرق إلى المغرب».

ولا يتورع كاتب أخر[٦] مثلاً عن القول بعد أن التقى مع بعض زعماء المجاهدين الأفغان إنهم «يعانون من نفس النقص الواضح فى الموهبة الإنسانية كما هو الحال فى المجتمعات المتخلفة. وغالبا فإن زعماء مثل هذه الأمم يفتقرون إلى العلوم السياسية والموهبة الإدارية والحنكة الاقتصادية والخبرة فى إدارة الأموال وأمور الصناعة. وقد تلقى معظمهم تدريبهم كأطباء ريفيين أو مدرسى إرساليات أو موظفى بريد أو جنود عاديين... إنهم الطبقة العليا للفقراء والتى تصور على أنها الطبقة المتعلمة فى المجتمعات ما بعد الكولونيالية المتهرئة». وعندما يعبر الحدود جنوبا إلى بيشاور يقول: «خذ منهم السيارات والشاحنات التى تزدحم بها شوارع المدينة الضيقة وستكتشف أن بيشاور لم تتغير قيد أنملة منذ زمن كيبلنج[٧]».

بيد أن هناك كتبا أخرى كثيرة (انظر ملحقا فى نهاية الفصل) لا تقع فى فخ العدسات الاستشراقية التى تشوه الواقع تحت وهم التلخيص والتى تلهث فى سعيها المحموم إلى المغامرة مع المجاهدين المسلحين إلى حد قيام بعض هؤلاء الكتاب بالاشتراك الفعلى مع المجاهدين فى إطلاق النار على الشيوعيين. ولا يقتصر الاستشراق أو حب المغامرة الحمقاء على الغربيين، فمن ينسى الصحفى العربى التليفزيونى الهمام الذى زار صحراء قندهار مع وفد إعلامى قبل بداية الحرب على الطالبان فى عام ٢٠٠١: ناوله أحد جنود الطالبان سلاحه فأخذ المراسل السمين يتقافز فرحاً فى الصحراء وهو يطلق زخات بعد زخات من المدفع الرشاش فى الهواء.



بعد عامين من أول زيارة لى وصلت مرة أخرى إلى كابول التى صرت أعرفها أفضل قليلاً. كان الشهر فبراير ٢٠٠٢ وكانت القوات الغربية بقيادة أمريكية قد أطاحت بالطالبان بعد أسابيع من تفجيرات نيويورك الإرهابية التى قتلت ما يقل قليلاً عن ثلاثة آلاف شخص فى برجى مركز التجارة العالمى. الولايات المتحدة اتهمت أسامة بن لادن وتنظيم القاعدة بتخطيط وتنفيذ التفجير ولم تنكر القاعدة أو بن لادن هذه التهمة.

وصلت المدينة برفقة مسئولٍ دولى كبير. فى المطار كان هناك استقبال رسمى بسيط اندفع بعدها موكب السيارات الطويل إلى مشروع تديره النساء فى حى مدقع الفقر فى المدينة. ضباط الأمن المرافقون وبعض موظفى الإغاثة وستة صحفيين وكاميرات تليفزيونية كانت كلها تفزع النساء المتسربلات ببراقعهن فى جوانب الحديقة الداخلية المتربة للبيت الصغير.

تنظر صحفية صغيرة السن ومتحمسة حولها فى عدم تصديق. تحيط بها بعض النسوة وببطء تقوم واحدة تلو الأخرى برفع البرقع عن وجوههن وإلقائه خلف ظهورهن. وتشير الأولى إلى رضيعها القلق على صدرها وتقول «بيبى جول» (البنت زهرة) ثم تشير بإصبعها إلى نفسها وتقول «سكينة» وتتدافع النسوة كأنما فاضت مياه على سد جاثم: وأنا «.... » وأنا «.....» وتتناثر أسماؤهن فى فضاء الحديقة الجرداء سوى من ظل تفرشه أفرع شجرة عطشى. تهتف النسوة بأسمائهن واحدة بعد الأخرى والصحفية بسرعة عصبية تخربش الأحرف اللاتينية على اوراقها وبعد الزيارة تسعى للتأكد من الهجاء الصحيح من مرافق افغانى ومعنى بعض هذه الأسماء. وفى المقالة التى نشرتها بعد أسبوع ترسم صورة نساء يردن أن يعرفهن العالم!

لن تقرأ هؤلاء النسوة 

مقالتها أبدا على الارجح. ولكنهن ربما فى مساء لقائهن بنا حكين لأزواجهن وأطفالهن عن المرأة البيضاء الأجنبية التى كتبت أسماءهن وهن الآن يأملن أنهن قد يتلقين حصص إغاثة أكبر عوضا عن الأرغفة الخمسة اللاتى يحصلن عليها لكل عائلة يوميا. وربما تكون الزيادة فى حصة الإغاثة من أجل العيد المقبل فقط وليست كل شهر. وحتى لو كان الأمر هكذا، فلا بأس.

كم من الفقراء الأفغان نطقوا أسماءهم ببطء وصبر أمام رجل أجنبى أو امرأة أجنبية: من الصحفيين إلى عمال الاغاثة، من المساحين إلى القائمين بالتعداد، ومن الخبراء الأجانب إلى المستشارين... إلخ.

قبع المسئول الكبير على الارض مقرفصا ليتحدث مع ثلاث نساء أفغانيات عبر مترجمة. سألتهن المترجمة أن يتحدثن عن شعورهن وعما يطعمن أطفالهن وكم عددهم. تحلق الصحفيون والمصورون حول المجموعة الجالسة بينما كان مدير عملية الإغاثة السيد م. واقفاً بالقرب منهم رهن الإشارة لتقديم المعلومات والأرقام والإحصائيات.

أمام البيت الواقع فى حى ضربت نصف منازله قنابل الحرب الأهلية كانت السيارات التويوتا اللاند كروزر السبع تسيطر على الشارع الضيق الذى يشبه وجه مريض بالجدرى، نتوءات وتشوهات وحفر، بينما تتلوى مياه المجارى القليلة شبه الراكدة فى خطوط متعرجة حول الإطارات الضخمة. ترفرف أعلام صغيرة على صوارٍ معدنية قصيرة فى مقدمات السيارات. يعدو رجال الأمن لإخلاء طريق خال ويتقافز صغار الموظفين حول المسئول الكبير ويعدو آخرون إلى سياراتهم وتتململ مواسير عادم للسيارات وتزعق بعضها ثم نمضى فى طريقنا إلى المجمع السوفيتى.



كان المجمع السوفيتى أو بقاياه شاهدة حية على الانتصار الأفغانى على السوفييت (بكل معانى كلمة الانتصار ومنها انتصار القبلية على المدينة والريف على الحضر..) انتصار تراه فى أفران الخبز الطينية المنتشرة فى شرفات المبانى السوفيتية الطراز التى تماثل المبانى الشعبية المغروزة فى أرض معظم مدن مصر منذ الستينيات مأوى لبقايا الطبقة الوسطى، أو المبانى السكنية التى ما زالت قائمة فى كل الجمهوريات السوفيتية السابقة تقريبا وخاصة كلما ابتعدت عن شرق أوروبا نحو القوقاز وآسيا الوسطى. مبان تشبه الصناديق ذات الفتحات التى كنا نستعملها ونحن صغار لتربية دود قز الحرير.

كان هذا المجمع فى كابول سكناً لآلاف الخبراء والدبلوماسيين السوفييت وعائلاتهم فى الثمانينيات ولكنه صار فى التسعينيات مقرا لإيواء آلاف الفقراء الأفغان النازحين عن قراهم التى صارت ميدان حرب بين الطالبان (وكلهم من الباشتون) وزعيمهم الملا محمد عمر من ناحية والتحالف الشمالى (ومعظمه من الطاجيك) وقائده الأشهر أحمد شاه مسعود آخر وزير دفاع فى آخر ما يمكن وصفه بحكومة أفغانية من ناحية أخرى. هذه الحرب الأهلية كانت الوريث المباشر للجهاد الذى ناضل فيه مخلصون ومؤمنون كثر واستغلته أجهزة مخابرات أكثر وصار آخر رقعة فى الحرب الباردة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى السابق. أذكر ملصقات فى شوارع القاهرة فى السبعينيات والثمانينيات تحمل شعار «ادفع جنيهاً تنقذ مسلماً» من أجل تمويل الجهاد فى أفغانستان. وتلقى الدب الروسى ضربات دامية من المجاهدين بجنيهاتهم المصرية وملايين دولاراتهم الأمريكية والسعودية وغيرها من المصادر العديدة، ولكن بعد انتصار وفرح وجيز انحلت الدولة الأفغانية إلى مكوناتها القبلية والعشائرية والعرقية والدينية الأكثر أصالة من الانتماءات المدنية والحزبية الهشة. وتغولت تجارة المخدرات وانتظمت الأنشطة الإجرامية وزرعت كل أجهزة المخابرات المعنية جواسيس فى البلاد وظلت محافظ النقود الإسلامية المتشددة على اتساعها تهطل نقودا ومجاهدين.

أفران الخبز الطينية الصغيرة العائشة على الحطب والأخشاب غطت من شرفاتها ومداخل العمائر الضيقة كل الحوائط والأسقف بطبقاتٍ سوداء من السناج. وأضيفت حجارة وقوالب من الطوب غير المتناسق من أجل تصغير الأبواب والنوافذ التى كانت مصممة بطريقة قياسية لا تتناسب مع الجو البارد جدا شتاءً والحار للغاية صيفاً. وعوضا عن المصاريع الخشبية، التى لا بد أنها تحولت فى شتاءات سابقة إلى وقود للأفران أو للتدفئة، وضع اللاجئون قماش خيام وبطاطين يغلقون بها الفتحات التى صارت صغيرة.

دورات المياه العامة حفر فى الأرض تداريها عن العيون المتلصصة صناديق خشبية لها أبواب تتراص بجوار بعضها البعض. وفى وسط كل صندوق حفرة كبيرة للتبرز بينما يتسرب البول فى مجرى محفور فى الطين خارجا إلى مجرى أكبر يمر وسط العمائر المكعبة ذات الأدوار الخمسة فى طريقه إلى مقلب قمامة فى الطرف الآخر من المجمع (كان المقلب وفقا لأحد النازحين ملاعب أطفال فيما مضى.)

وآهٍ من الأطفال. جموع غفيرة منهم مستعدون دائما لتحويل أى شىء وكل شىء إلى مغامرة. ليباركهم الله بجهلهم ويجعله دائما مصدر سعادة لا شقاء. إنهم يجهلون أن هناك حياة أسهل بكثير وظروفاً معيشية أفضل بمراحل على هذه الأرض. لم يروا أبداً مياهاً تنزل من صنابير فى المنازل، لم يعرفوا المواقد الغازية، أو فصول المدارس، لم يعرفوا الأسرة، الكتب، كوب اللبن الساخن فى الصباح، فناء المدرسة، كراهية المدرسين، الواجبات الثقيلة، متعة اللعب على الأرجوحة ورهبة أول مرة تقود فيها دراجة طالما تمنيت أن يسمح لك بركوبها ... مباركين هم لأنهم لا يعرفون أن هناك عالماً آخر يمكن أن يعيشوا فيه بدلا من هذا المسلخ البشرى ذى الروائح العطنة والذى يجثم بجرمه الهائل على الجسد والروح.

يتقافز الأطفال وهم يبعثرون كلماتهم الإنجليزية القليلة علينا ويتوقفون فى حركات استعراضية أمام الكاميرات التى لم تعد تبهرهم كثيرا بعد أن رأوا مئات الصحفيين وراءها. المرة الوحيدة التى ناوشهم شعور من الخجل يومها أمامى كان عندما أريتهم صورهم على شاشة كاميرتى الرقمية. صمتوا لحظة ثم انفجروا ضاحكين وجروا بعيداً وأحذيتهم المطاطية المصنوعة من إطارات سيارات مستعملة تنخلع عن كواحلهم بين الحين والآخر. سيمضون عدواً، ربما إلى أمهاتهم أو أشقائهم، ليقصوا عليهم هذه الحكاية الجديدة عن شاشة كاميرا هذا الغريب الجديد. اثنان منهما لم يتركا المكان منشغلين بإشعال نار أمام ما بدا أنه كان خشبة مسرح. قال لى أحد اللاجئين إن هذا المكان كان دار سينما ومسرح. ياالهول ما جرى إذن! سقف البناية ينوء منبعجا إلى الأسفل وخشبة المسرح خالية تماماً سوى من كتابات بفحم أسود على الحائط الخلفى.

مصور فوتوغرافى آخر يواصل التقاط الكادرات بينما أنا .. أنا متعب. أجرجر أقدامى إلى السيارة وأجلس بداخلها وخلف زجاج النافذة اقترب وجه ذلك الصبى الصغير وهو يرفع قلماً تجاهى بينما تقبض يده الأخرى على كراس. فتحت النافذة وأعطيته قلمى فابتسم بامتنان واضح ومضى. كان يتبعنى منذ نحو الساعة فى دهاليز المكان الذى يضم أكثر من عشرة آلاف شخص، صامت على عكس الآخرين ولا يتزاحم أمام العدسة من أجل أن يدخل فى الإطار الذى أصنعه رقميا لحياتهم.

قبل أن أغادر المكان تذكرت كبير اللاجئين بكرشه المكور. لم أره هذه المرة. سألت عنه فقال لى أحدهم بعد شبه حرج إن الرجل اتهم من جانب الإدارة الجديدة بأنه كان صنيعة للطالبان. وربما كان كذلك بالفعل. ربما.

بعد أن غادرت المجمع السوفيتى دون نظرة واحدة إلى الوراء وبعد عدة شوارع طلب منى مصور يعمل مع وكالة مقرها نيويورك أن نتوقف لنصور مزيدا من الأطفال. وفى السيارة قال: كم هم رائعون وطيبون، هؤلاء الأفغان، لقد منحناهم الآن حكايةً سيروونها هذا المساء لعائلاتهم. أليس أمرا رائعا أن نهب لهم بعض السعادة؟

تناول السيد م.، مدير عمليات الإغاثة، غداءه فى صمت. كان قد استمع إلى كثير من المديح وبعض النقد من المسئول الكبير الزائر. يريد المسئول أن يكون هناك توازن بين الرجال والنساء المستفيدين من المشاريع والعاملين عليها، ويجب تعيين مزيد من النساء فى المكتب ويجب مساعدة النساء فى أفغانستان أكثر خاصة بعد اندحار الطالبان. رد المدير قائلا: ولكننا حاولنا وعجزنا عن الحصول على نساء مؤهلات لتولى الوظائف الشاغرة لدينا.

كان م. مثل معظم عمال الإغاثة الاحترافيين والمؤمنين بأهمية عملهم وإنسانيته وحياديته. يتبع ويتقن كل النظم والإجراءات المطلوبة. يحترم المسئولية أمام الجهات المانحة ويشدد على استهداف المحتاجين دون غيرهم، وماهر فى إدارة عشرات من الأجانب من بلدان مختلفة فى مشاريع بمئات الملايين من الدولارات. كان خبيراً فى كل هذه المجالات وعلى درجة عالية من المهارة والنزاهة. يحب الأرقام ويستظهرها بسهولة ويسترجعها بسلاسة. يحب ما يصفه بالأدلة الموضوعية

كانت كابول مقصد شباب أوروبا الفارين من حضارة رفضوا استهلاكيتها وميكانيكيتها فى الستينيات ورفعوا ضدها شعارات حريةٍ فكرية وجنسية. كانت المدينة محطة قبل أخيرة فى طريق حجٍ ينتهى فى نيودلهى



والإثباتات والواقع المبرهن عليه علميا. لا يأنف من المبيت ليلاً فى كوخ طينى فى حقول قندهار ملتفا بكيس نومه وملتحفاً بالسماء دون حراسة، أو الجلوس فى مجرى نهر جاف ساعات تحت قيظ الشمس يتبادل الحوار مع المزارعين الذين نكبوا بجفاف لم يترك لهم أخضر أو أى لونٍ آخر. كان م. يسعى دائما للتعامل مع القيود السياسية والثقافية وكان يرى أن العمل الإنسانى يجب أن يكون واضحاً فى أهدافه ومبادئه مثل الطريق السريع بين نقطتين. ولكنه مثل عديد من المخلصين من أمثاله فى هذا المجال كان مضطرا إلى اللجوء إلى طرق بديلة وجانبية عندما يكون الطريق السريع مغلقا للإصلاح أو للقتال. وما أكثر الأوقات التى تنغلق فيها الطرق السريعة فى أفغانستان. ■

Alex Majoli-Magnum Photos

هـــــوامـــــش:

١ ـ يبدو أن عمال الإغاثة ـ خلفوا الاستيطانيين والاستعماريين القدامى ـ فى بعض الممارسات ومنها الإشارة إلى سكان البلاد الاصليين ومواطنيها على أنهم «محليون» وليسوا «أهل البلاد» أو «المواطنين» (تستعمل كلمة Natives أو Locals أو Nationals بمعنى «محلى» أو «وطنى» وليس Citizens بمعنى مواطنين.)

٢ ـ الدارى نسخة محلية فى أفغانستان من الفارسية وهى لغة عرقية الطاجيك، ثانى أكبر مجموعة لغوية عرقية فى البلاد، بينما الباشتو لغة هندو آرية الأصل تتحدثها قبائل الباشتون المتسيدة فى جنوب أفغانستان وعبر الحدود فى شمال شرق باكستان.

٣ ـ أصف هذا الرداء بأنه غير إنسانى بعد أن قمت بتجربته فعلاً. إذ قمت بارتداء هذا السجن القماشى فى منزلى بضع دقائق. كنت أريد أن أشعر بنفسى بما يشعر به هؤلاء النساء وكيف يرين من خلف الشبكة التى تغطى منطقة العين وكيف يتنفسن. كدت أن أختنق من الحرارة المتزايدة بسبب النسيج الصناعى للشادور وبدا العالم مقسما لمربعات كبيرة تتناوشها ذؤابات الخيوط التى تتقاطع أمام عينى.

٤ ـ يدعى المرض بالإنجليزية Leishmaniasis وتنتقل فيه طفيليات عن طريق نوع من الذباب إلى جلد المصاب ومنه إلى مسار الدم. وتؤدى هذه الطفيليات فى أقل هجماتها ضرراً إلى تشوهات جلدية قبيحة تصل فى أثرها أحياناً إلى ما يشبه الجذام، وفى أسوأ الهجمات تتضرر أجهزة الجسد الداخلية ويموت المصاب إذا لم يعالج بسرعة.

٥ ـ Rob Schultheis, "Night letters: Inside Wartime Afghanistan", Orion Books, New York, ١٩٩٢.

٦ ـ Eric S. Margolis, "War at the top of the World: The struggle for Afghanistan, Kashmir and Tibet" Routledge, New York, ١٩٩٩.

٧ ـ يشير المؤلف إلى الكاتب الإنجليزى الكولونيالى الشهير جوزيف إدوار كيبلنج (١٨٦٥-١٩٣٦) والذى ولد فى مدينة بومباى بالهند ومن أشهر كتبه «كيم» وصدر ١٩٠١ ووصفه الكاتب الشهير جورج أورويل بأنه كان «نبى الإمبريالية البريطانية».

كابول.. هذا وقت السياسة

■■ بينما يحتفل جنود الولايات المتحدة وحلف شمال الأطلنطى بعيد الكريسماس (عيد الميلاد) العاشر لهم فى أفغانستان، ظهرت عبارة معتادة جديدة: «المرحلة الانتقالية»، أو عملية نقل المسؤولية عن الأمن من القوات الدولية إلى القوات الأفغانية قبيل انسحاب القوات الأجنبية، والذى من المقرر أن يبدأ فى ربيع عام ٢٠١١. ولكن لكى يتحقق الأمل الذى يستمده الجنود العاديون من هذا المصطلح، فلابد وأن يبدأ قادة الغرب فى صياغة استراتيجية سياسية واضحة فى التعامل مع أفغانستان، وهى الاستراتيجية التى يعنى غيابها أن تظل البلد فى حالة حرب.

لقد أكد القادة العسكريون الأميركيون والأوروبيون مراراً وتكراراً أن الحل العسكرى البحت لإنهاء الحرب فى أفغانستان أمر غير وارد. ورغم ذلك فإن دول حلف شمال الأطلنطى لم تجب على السؤال الذى يتبع ذلك منطقيا: ما الذى قد ينطوى عليه الحل السياسى؟ بل إنهميفضلون بدلاً من ذلك أن يرتدوا إلى خطط تهيمن عليها النزعة العسكرية لتعزيز قدرة قوات الجيش والشرطة الأفغانية، فى حين يهتمون بالضغوط المحلية لإثبات أن أفغانستان لن تظل تشكل صراعاً لا ينتهى.

إن الغالبية العظمى من الأفغان يؤيدون السعى إلى التسوية السياسية لإنهاء الصراع، كما أكد استطلاع للآراء أجرته مؤخراً مؤسسة آسيا للمواقف الوطنية. فقد تحملوا العبء الأكبر لأربعين عاماً من الحرب، وهم يدركون تمام الإدراك أن القوات الدولية تخطط للرحيل. وتتركز مخاوف الأفغان وشواغلهم حول التركة التى قد يخلفها هذا الوضع، وما إذا كانت الدولة الأفغانية قادرة على توفير الأمن والعدالة والحكم الرشيد، وهو ما كانت حتى الآن عاجزة عن توفيره فى مواجهة التمرد الذى لم تضعف قواه بدرجة كبيرة.

والواقع أن شركاء أفغانستان الدوليين لا يستجيبون لهذه المخاوف والمظالم. ورغم أنهم ألزموا أنفسهم خطابياً بدعم برنامج السلام وإعادة الإدماج تحت قيادة أفغانية، فإن الأفغانى يعربون عن استيائهم وخشيتهم من هذه العملية التى أصبحت هامشية بشكل واضح على عكس» المرحلة الانتقالية».

إن عملية إعادة الدمج والمصالحة، التى تهدف إلى تقديم الحوافز للمتمردين لحملهم على تغيير ولائهم، بل وربما الانضمام إلى المؤسسات الأمنية الأفغانية أو الميليشيات الموالية للحكومة اسميا، يُنظَر إليها بوصفها مدفوعة بمنطق عسكرى، وليس باعتبارها تشكل حواراً صادقاً بين الدولة، والمتمردين، والأفغان العاديين. وهذا الافتقار إلى الشفافية يعمل على تعزيز المخاوف من أن تعمل حكومة حامد قرضاى على إبرام اتفاق لتقاسم السلطة مع طالبان، وهو الاتفاق الذى لن يساعد فى دعم الاستقرار أو تعزيز الحكم الرشيد فى أفغانستان.

وإذا كان أعضاء منظمة حلف شمال الأطلنطى، والحكومة الأفغانية، والمواطنون الأفغان، والمتمردون كما تؤكد بعض التقارير، قادرون على الاتفاق على عدم قدرة الحل العسكرى على إنهاء الصراع، فإن الوقت قد حان لدراسة ودعم عملية سياسية شاملة. وهذا يستلزم اتخاذ عدد من الخطوات الفورية والبعيدة الأمد.

وكخطوة أولى، يتعين على البلدان التى أرسلت قوات إلى أفغانستان أن تتقبل أنها باعتبارها أطرافاً فى الصراع فلابد وأن تعمل كأطراف فى السلام أيضا، وأن كل عملية عسكرية تؤدى إلى عواقب سياسية بعيدة المدى ولا رجعة فيها فى بعض الأحيان.

ثانيا، من الأهمية بمكان أن ندرك المنطق والتأثير المحدودين للمرحلة الانتقالية. فإذا نحينا جانباً المساءل ذات المصداقية حول قدرة القوات الأمنية الأفغانية، فإن نقل المسؤولية الأمنية إلى الدولة الأفغانية لن يعالج الشكاوى الأفغانية الأوسع نطاقاً بشأن سوء الإدارة أو الانتهاكات التى ترتكبها السلطة. التى تشكل محركات رئيسية للصراع. وبالنسبة للأفغان فلابد من معالجة هذه المخاوف من خلال عملية سياسية جادة يديرها طرف ثالث محايد، والذى يتفق الجميع على أنه لابد وأن يكون الأمم المتحدة.

وفى المقابل، يتعين على المجتمع الدولى أن يدعم الآليات الكفيلة بمعالجة مظالم الأفغان جميعا، وليس النخبة السياسية فقط، والتى تسعى إلى التعامل مع المخاوف الاستراتيجية والأجندات الإقليمية، وبخاصة تلك لدى باكستان وإيران. إن أى عملية حقيقية وشاملة سوف تتطلب المشاركة مع الطيف الكامل للمجتمع المدنى الأفغانى، بما فى ذلك المنظمات الحقوقية، والجمعيات النسائية، ورجال الدين، والمفكرين والمثقفين، والشبكات القَبَلية ذات النفوذ.

إن صنع السلام فى ليبريا ونيبال وأيرلندا وأماكن أخرى من العالم ليؤكد على ضرورة سعى هذا النهج إلى منح مثل هذه المجموعات دوراً رئيسياً فى صياغة ومراقبة مضمون العملية السياسية، فى ظل عواقب حقيقية يتحملها هؤلاء الذين ينتهكون الضمانات التى يقدمها هذا النهج فيما يتصل بحقوق المواطنين. ولهذا السبب فإن مرتكبى الانتهاكات الخطيرة لحقوق الإنسان من كافة الأطراف لابد وأن يخضعوا للمساءلة، وهو المطلب الذى كان موضع تجاهل متعمد منذ عام ٢٠٠١.

ولابد وأن تشتمل هذه العملية أيضاً على نزع السلاح الحقيقى لضمان عدم وقوع الأفغان فريسة لدوامة العنف المستمر، وقدرة الدولة الأفغانية على ترسيخ سيطرتها الحقيقية على الأمن. والواقع أن خطة الدمج الحالية، مثلها كمثل محاولتين سابقتين لنزع السلاح، تفتقر إلى القدرة على تسريح الجماعات المسلحة وتنظيم تجارة السلاح.

ولا تزال الفرصة سانحة للمجتمع الدولى لتحويل أفغانستان إلى مكان أفضل، وهو ما لن يتسنى من خلال خطة «الانتقال» التى تسعى إلى تنفيذها بلدان حلف شمال الأطلنطى. ولكن هذا يتطلب الالتزام برؤية حقيقية لما يشكل الحد الأدنى لدولة أفغانية عاملة، وبما يتجاوز الحاجة الواضحة لوجود قوات أمنية فعّالة.

إن الأفغان يطالبون بتسوية سياسية للصراع، والواقع أن هذه التسوية تشكل السبيل الوحيد لوقف العنف الذى يفسد عليهم حياتهم، وتعزيز المشاركة السياسية والمساءلة، وتمكين الحكم الأفضل. وفى حين تفكر بلدان حلف شمال الأطلنطى فى إنهاء عملياتها العسكرية، فيتعين عليها أن تدعم العملية السياسية إذا كانت راغبة حقاً فى جلب الاستقرار إلى أفغانستان. ■



فاطمـــــــة أيـــــــوب
Fatima Ayub

Fatima Ayub is the Senior Policy and Advocacy Officer at the Open Society Institute

ترجمة: مايسة كامل



by Deng Coy Miel ©

الصين الجديدة

هل تحكم الصين العالم؟!!



السيد أمين شلبي

■■ تستطيع أن تحكم كيف تغيرت نظرة الولايات المتحدة والغرب إلى الصين من مراقبة زيارات المسئولين الامريكيين، فلم يعد هؤلاء المسئولون يحضون الصين على مراعاة حقوق الإنسان، أو تخفيض عملتهم، وانما على الاستمرار فى شراء أذونات الخزانة الامريكية بمئات البلايين من الدولارات، او كما فعل وزير الخزانة الامريكى فى زيارته للصين عندما أكد للصينيين ان الخطوات التى تتخذها إدارة اوباما انما سوف تعمل على استعادة النمو، ولا يقتصر توقع امريكا والغرب من الصين على البعد الاقتصادى وإنما كذلك على طلب المساعدة فى قضايا كوريا الشمالية.

كيف تبدو الصين الجديدة بعد ان استعادت مكانتها وكيف سوف تتفاعل البلدان الأخرى معها؟ هل سوف يتم تقويض الغرب بشكل مصيرى أو ان الصين سوف تتبنى النموذج الغربى الناجح للاقتصاد والدولة والمجتمع؟

لا أحد يعلم الاجابة على هذه الاسئلة. فى الاجابة على هذه الاسئلة لدينا «الكتابة على الحائط» لويل هتون Will Hutton الصحفى والاقتصادى اليسارى، وكذلك «الصين تهز العالم» لجيمس كينج المراسل السابق «للفاينانشل» تايمز فى الصين والآن تضاف اليهم «عندما تحكم الصين العالم» لمارتن جاكز رئيس تحرير دورية «الماركسية اليوم» والكاتب فى الجارديان والاكاديمى الزائر فى عدد من المؤسسات وتقف رسالة جاكز معارضة لروح الانتصا رالتى سادت الولايات المتحدة بعد سقوط الشيوعية فى اوربا، وموضوعه هو هجوم واضح على كتاب هيوتن ووجهات نظره ان قيم التنوير ومؤسساته المنافسة، الحكومة المنتخبة، وتوازن السلطات وتشجيع التساؤل، والانفتاح والقضاء المستقل والصحافة أمور مطلوبة للصين لكى تواصل نجاحها الراهن، وبينما يرى هيوتن تناقضات ضخمة والمتاعب التى تنتظرها. يقول جاكز «ان السيطرة الغربية.. سوف تأتى إلى نهايتها ويرى الصين تواصل رخاءها واكثر من هذا يتصور جاكز ان العديد من البلدان الأخرى فى نطاق الصين سوف تنجذب إلى طريق الصين فى الأداء ومبتعدة عن الاساليب التى يشجعها الغرب الآفل.



ويقدم مارتن جاكز لكتابه بالقول: «اننا نشهد الآن تغيرا تاريخيا ورغم انه مازال نسبيا فى مرحلة الطفولة، إلا أنه مقدر له ان يغير العالم. فالعالم المتقدم، والذى لمدة اكثر من قرن كان يعنى الغرب (الولايات المتحدة وكندا واوربا الغربية واستراليا ونيوزيلاندا) اضافة إلى اليابان، انما يلحق بالمعنى الاقتصادى بالعالم النامى. وكما توضح استطلاعات جولدمان ساكس فإن الاقتصاديات الكبرى الثلاثة فى عام ٢٠٥٠ ستكون الصين فى مقدمتها تتبعها امريكا بقرب ووراءها الهند ثم البرازيل، والمكسيك وروسيا واندونيسيا. ولن تقع فى قمة العشرة سوى المملكة المتحدة والمانيا، ولن يقع من مجموعة السبعة فى القمة سوى اربعة فقط.

ويشير جاكز إلى ما كتبه عام ٢٠٠٤، المحلل المحافظ ذو النفوذ: Charles krauthmmer :

«فى ٢٦ ديسمبر ١٩٩١ مات الاتحاد السوفيتى وولد شىء جديد، شىء جديد كلية، عالم احادى القطبية تسيطر عليه قوة اعظم واحدة لا تجاريها أى منافس وذات وصول حاسم فى كل ركن من العالم. وهذا تطور مذهل فى العالم لم ير منذ سقوط روما».

وفى عصر ما بعد الحرب الباردة كان الانفاق العسكرى الامريكى تقريبا عظيما مثل بلدان العالم الاخرى مجتمعين، ولم يحدث ابدا فى تاريخ الجنس البشرى ان كان عدم المساواة العسكرية بين امة واحدة وبين كل الدول الأخرى بمثل هذه العظمة.

وتعتبر مكانة امريكا كقوة اعظم نتاجا لنموها الاقتصادى السريع من ١٨٧٠ ـ ١٩٤٥، وحقيقة انه من النصف الثانى للقرن العشرين كانت الاكبر والاكثر ديناميكية.

وعلى الرغم من اننا نشهد صعود عدد نام من البلدان النامية فإن الصين حتى الآن هى الأكثر أهمية اقتصادية فهى حاملة وقائدة العالم الجديد. وقد امتد تأثير الصين عبر شرق آسيا، وآسيا الوسطى، وجنوب آسيا، وامريكا اللاتينية وافريقيا فى اكثر قليلا من عقد. وتختلف الصين كثيرا جدا عن النمور الآسيوية المبكرة مثل كوريا الجنوبية وتايوان. وعلى عكس الأخيرة، فلم تكن ابدا دولة تابعة للولايات المتحدة، وزيادة على ذلك فهى تتمتع بعدد سكان ضخم بكل ما يعنيه هذا. والتحدى الذى تمثله الصين، نتيجة لهذا، على نطاق مختلف لدول النمور الآسيوية. ورغم هذا فإن التوافق فى الغرب، على الأقل حتى وقت قريب، ان الصين سوف تنتهى، نتيجة لعملية التحديث فيها، أو كنتاج لها، أو لكليهما، كدولة على النموذج الغربى. وقد اهتدت السياسة الامريكية خلال العقود الثلاثة الأخيرة بهذا الاعتقاد. وقد دعم هذا استعداد امريكا للتعاون مع الصين، وفتح اسواقها للصادرات الصينية، والموافقة على قبولها فى منظمة التجارة العالمية والسماح لها ان تكون عضوا كاملا بشكل متزايد فى المجتمع الدولى.

وقد اعتقد التيار الرئيسى فى الاتجاه الغربى، فى اساسياته، ان العالم سوف يتغير نسبيا بشكل قليل بصعود الصين. وكان هذا مستندا إلى ثلاثة افتراضات: ان تحدى الصين سيكون فى المقام الأول اقتصاديا فى طبيعته، وان الصين فى الوقت المناسب سوف تصبح امة غربية طبق الأصل، وان النظام الدولى سوف يظل بشكل واسع كما هو الآن، وحينئذ ستذعن الصين للوضع الراهن starus quo، وتصبح الصين عضوا متظلما فى المجتمع الدولى.

يعتبر جاكز ان كلا من هذه الافتراضات سيئة التصور، فصعود الصين سوف يغير العالم بأكثر الطرق عمقا. ويعتبر ان تأثيرات صعود الصين يجرى الشعور بها حول العالم وبشكل أوضح فى الثمن المنخفض فى العديد من المنتجات الاستهلاكية وارتفاع اسعار



يدعم الكتاب حججه حول مستقبل الصين بما يسميه «ثقل الأرقام»، فعلى عكس قوى مثل الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتى سابقا، وأوربا، فإن الصين تضم ٢٠,٧٪ من سكان العالم عام ٢٠٠١



Jacaues, Martin
"when china rules the world , the rise of the middle kingdom and the end of the western world" ,
Allen lane, penguin books, 2009

وجهات نظر: يناير ٢٠١٠

Crisio Komar
http://www.christoon.com

السلع. وبعدد سكان يبلغ (٤) اضعاف وبمعدل نمو مضاعف، مما يجعل جولدمان ساكس يتوقع انه فى عام ٢٠٢٧ سوف تتخطى الصين الولايات المتحدة كأكبر اقتصاد عالمى. وباعتبار مثل هذه التنبؤات الاقتصادية التى تأخذ الأنفاس، لماذا نفترض ان صعود الصين سيكون فى المقام الأول اقتصاديا فى طبيعته. فالقوى الصاعدة دائما ما تستخدم قوتها الاقتصادية الجديدة لغايات سياسية، وثقافية، وعسكرية واسعة. وهذا ما يعنيه أن تكون قوة مسيطرة وسوف تصبح الصين بالتأكيد واحدة من هذه القوى. ومع هذا فإن الغرب يجد من الصعوبة ان يتصور مثل هذا السيناريو. فبقاؤه مسيطرا لمدة طويلة اصبح الغرب فى الجزء الأكبر، سجينا داخل افتراضاته الخاصة وغير قادر على ان يرى العالم على غير صورته. فالتقدم، وفقا لهذا التصور الغربى، انما يتجدد بشكل دائم وفقا لدرجات التغريب، Westernization، ونتيجة لهذا فإن الغرب يجب ان يحتل دائما القمة للتطور البشرى طالما انه بالتحديد الاكثر غربية فى الوقت الذى يقاس فيه تقصير الآخرين لمدى أخذهم بمقاييس الغرب. ومع هذا، فإنه من غير المتصور ان الصين سوف تصبح امة على الطراز الغربى بالطريقة التى يتعود عليها الغرب، فالصين هى نتاج تاريخ وحضارة، والتى لديها القليل أو ليس لديها شىء مشترك مع التاريخ والحضارة الغربية، ويخلص الكتاب فى هذا السياق إلى انه فقط باستبعاد آثار التاريخ والحضارة، وخفض العالم إلى مستوى الاقتصاد والتكنولوجيا، فإنه يمكن استخلاص ان الصين سوف تصبح غربية.



والسيناريو الذى يستند اليه الكاتب فى تصوره لمستقبل الصين هو انها سوف تستمر فى ان تنمو بشكل اقوى وان تبرز فى النهاية فى نصف القرن القادم، أو أكثر مما يتوقع الكثيرون، باعتبارها القوة القائدة فى العالم. غير ان السؤال الرئيسى الذى يناقشه الكتاب هو فى الوقت الذى ستبدأ فيه الصين فى الظهور كقوة عالمية، فأى اشكال ستأخذها قوتها؟ أو بمعنى آخر، كيف ستبدو السيطرة الصينية ؟ كيف ستعبر عن قوتها وكيف ستسلك فى مثل هذا السيناريو؟

لقد كان التاريخ العالمى فيما سبق بشكل جوهرى تاريخا اوربيا، ولكن بصعود الصين لن يكون هذا هو الحال. ولن يكون التاريخ الصينى مألوفا فقط للصينيين ولا حتى للآسيويين الشرقيين ولكن للعالم كله. ومثلما تحول الكثيرون حول العالم بالأحداث الكبرى فى التاريخ الامريكى (وبنفس الشىء اصبح صحيحا بالقرارات الحاسمة فى التاريخ الاوربى مثل الثورة الفرنسية، والتنوير والثورة الصناعية وعصر النهضة كنتيجة للتفوق الاوربى المبكر)، كذلك فإن العلامات الاساسية فى التاريخ الصينى ستكون بشكل مشابه ملكية عالمية. واكثر الملامح الجاذبة للتاريخ الصينى هى تحقيقه فى الوقت الذى تجزأت فيه اوربا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية إلى عدة اجزاء. ثم بعد ذلك إلى عدة أمم، كانت الصين تتحرك بالفعل تماما إلى الاتجاه المعاكس وبدأت تتفوق فالوحدة كانت من اكثر الأمور الاساسية فيما يتعلق بالتاريخ الصينى أن لم تكن اكثرها اساسية.

وهناك ايضا العديد من مظاهر التاريخ الصينى التى سوف ستطبع الخطاب العالمى وعلى سبيل المثال ان الصين كانت مسئولة عن الكثير من التجديدات التى تم تبنيها بعد ذلك فى أماكن أخرى وخاصة فى الغرب وهو ما يطرد الأسطورة المعاصرة ان الغرب هو اكثر ثقافات التجديد.

ومثلما كانت نيويورك مع نهاية القرن هى عاصمة العالم الفعلية، وفى عام ١٩٠٠ خلال الموجة الأولى للعولمة، كانت لندن عاصمة العالم، فإنه بالنظر إلى المستقبل مرة أخرى فإنه يبدو من الأكثر احتمالا ففى تصور الكتاب فإنه خلال خمسين عاما وبالتأكيد مع نهاية هذا القرن، فإن بكين سوف تتبوأ مكانة عاصمة العالم الفعلية. وسوف تواجه المنافسة من مدن صينية أخرى مثل شنغهاى، ولكن كعاصمة الصين، مركز المملكة الوسطى وموطن المدينة المحرمة، فإن ترشيح بكين سيكون مؤكدا مع افتراض ان الصين حتميا هى القوة القائدة فى العالم.

الصين كانت مسئولة عن الكثير من التجديدات التى تم تبنيها بعد ذلك فى أماكن أخرى وخاصة فى الغرب وهو ما يطرد الأسطورة المعاصرة أن الغرب هو أكثر ثقافات التجديد



غير ان هذا ليس ببساطة مسألة مكانة بكين، فنحن نستطيع ان نفترض أن هيمنة الصين سوف تتضمن على الأقل تحولات جيولوتيكية اساسية : الأولى أن الصين سوف تبرز كعاصمة عالمية وثانيا أن الصين سوف تصبح قوة عالمية قائدة، وثالثا أن شرق آسيا سوف تصبح اكثر مناطق العالم أهمية ورابعا ان آسيا سوف تتبوأ دور أكثر قارات العالم أهمية، وهى عملية سوف تتدعم بصعود الهند. وسوف يؤدى كل هذا إلى تحول فيما يتعلق بعلاقة الصين بالنظام العالمى وبتأثير هذا فإن الصين سوف تفكر عن نفسها بشكل متزايد، وسوف يتعامل معها الآخرون كدولة حضارة Civilization state

ويدعم الكتاب حجته حول مستقبل الصين بما يسميه «ثقل الارقام»، فعلى عكس قوى مثل الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتى سابقا، واوربا، فإن الصين تضم ٢٠٫٧٪ من سكان العالم عام ٢٠٠١، وزيادة على ذلك فإنه ايا كانت أوجه الشبه الواضحة التاريخية والثقافية والعرقية والتى تساهم فى ربط ودمج العالم الغربى، فإن هذا يختلف جدا عن الوحدة والتماسك التى تتمتع بها الصين كأمة واحدة. والمقارنة الحقيقية هى ان نسبة ٢٠٫٧٪ الذى تمثله سكان الصين ضد ٤٫٦٪ للولايات المتحدة وبعبارة أخرى فإن الصين كقوة عالمية قائدة سوف تتمتع بالثقل الديموجرافى والذى يختلف نوعيا عن أى قوة مهيمنة أخرى فى العصر الحديث.

كذلك يتوقع الكتاب ان بروز الصين كأمة عالمية مهيمنة فإنه من غير المحتمل جدا أن تأتى بحكم ديموقراطى عالمى، ولكن صعود أمم نامية مثل الهند، والبرازيل وروسيا مع الصين يجب أن يفتح اقتصادا عالميا ديموقراطيا واكثر ديموقراطية من النظام الغربى الذى سبق ان ساد. ويعنى حجم السوق الصينى انه فى الوقت المناسب سوف يكون حتما أوسع اقتصاد فى العالم ونتيجة لذلك فسوف يتبوأ دور المقياس الفعلى لأكثر المقاييس العالمية، وسوف يكون من نتيجة حجم السوق الداخلى ان تصبح الشركات العالمية الاكبر فى العالم وكذلك البورصة الصينية. وقد تنبأ المجلس العالمى للسفر والسياحة انه مع عام ٢٠١٨، بأن قيمة السياحة الصينية سوف تكون أعظم من الولايات المتحدة. وبصورة مشابهة فإن اللغة الصينية سوف تتبوأ قيمة عالمية، كذلك مع ٢٠٠٨ فإن عدد مستخدمى الانترنت قد فاقوا بالفعل المستخدمين الامريكيين. اما على المستوى العالمى والتكنولوجى يعتبر الكتاب ان هناك الكثير من الشواهد ان الصين تتسلق بثبات السلم العالمى، وفى الوقت الراهن فإنها تمثل اقتصادا مبادرا iniator اكثر منه مجددا innivator ولكن حجم البحث العلمى الجاد يرتفع بشكل سريع شأن الانفاق على البحث والتطوير، فالصين هى بالفعل الأمة القائدة الخامسة فيما يتعلق بنصيبها من الاصدارات العلمية القائدة وهى قوية بوجه خاص فى المجالات الاساسية مثل النانوتكنولوجى. وفى عام ٢٠٠٦ ووفقا «Oecd» تجاوزت الصين لكى تصبح ثانى اكبر مستثمر فى البحث والتطوير بعد الولايات المتحدة. ويخلص الكتاب من هذا العرض للابعاد الاقتصادية والعلمية والتكنولوجية للصين إلى أن أحد الآثار الاقتصادية الاساسية لصعود الصين هو تحول وإعادة تشكيل النظام المالى العالمى.



اما السؤال الرئيسى الذى يناقشه ويدور حوله الكتاب فهو كيف ستسلك وتتصرف الصين كقوة عظمى؟ فى هذا الشأن يثير عاملين يجب أن يكونا فى الاعتبار : الأول يرتبط بما يسمى المدرسة الواقعية فى العلاقات الدولية والتى تركز على أهمية المصالح ولهذا تركز على كيف تميل لأن تتصرف فى طريقه مشابهة فى نفس الظروف، ومثلما يجادل عالم السياسة روبرت كاجان، فان القوى الصاعدة لديها بشكل مشترك احساس بالتوسع فى المصالح والاهلية. وتبعا لذلك فإن الصين، وفقا لوجهة النظر هذه، سوف تميل للسلوك وفقا لأى قوة اعظم أخرى بما فيها الولايات المتحدة.

اما العامل الثانى فإنه على النقيض، يركز على كيف تصاغ القوى العظمى بتاريخهم وظروفهم ولذلك فإنها تتصرف بطرق مميزة. ومثلما فى حالة الولايات المتحدة، فإن هذين العاملين المختلفين سوف يجتمعان لتشكيل سلوك الصين كقوة اعظم. فما هى الدروس التى يمكن أن نستخلصها؟ يقول مارتن جاكز، انه ربما لنصف القرن القادم فإنه يبدو من غير المحتمل ان الصين سوف تكون عدوانيه بوجه خاص، وسوف يستمر التاريخ فى ان يلقى بثقله بشكل كبير على كيف تدير قوتها النامية وبشكل ينصح بالحرص وضبط النفس، ومن ناحية أخرى وفى الوقت الذى تصبح فيه الصين اكثر ثقة فى النفس، فإن الاحساس القديم بالتفوق سوف يكون واضحا بشكل متزايد على الاتجاهات الصينية. ولكن اكثر من أن يكون امبريالية بالمعنى الغربى التقليدى. رغم ان هذا، بمرور الزمن، يصبح سمة نامية وهى تملك المصالح وغرائز القوة الأعظم، فإن الصين سوف تتميز بنظرة تراتبية قوية للعالم، مجسدة لذلك الاعتقاد انها تمثل شكلا اعلى من الحضارة اكثر من غيرها.

وبالنظر إلى حجم سكانها وطول حضارتها فإن الصين سيكون لها دائما اتجاها مختلفا تجاه مكانها فى العالم من أوربا إلى الولايات المتحدة. وقد شكلت الصين نفسها دائما واعتقدت أنها عالمية، وهذا معنى عقلية المملكة الوسطى. وبمعنى عام، فإن الصين لا تأمل أن تدير العالم لأنها بالفعل تعتقد انها مركز العالم وان هذا هو دورها الطبيعى وموقعها. ومثل هذا الاتجاه من المحتمل ان يقوى عندما تصبح الصين قوة عالمية كبرى، ونتيجة لذلك فإنها يمكن ان تثبت انها أقل عدوانية بشكل مكشوف اكثر مما كان الغرب، ولكن هذا لا يعنى انها ستكون اقل عدوانية أو أقل تصميما لفرض إرادتها وترك بصمتها. وقد تفعل هذا بطريقة مختلفة من خلال اعتقادها العميق فى تفوقها الموروث وتراتبية العلاقات التى تترتب بالضرورة وبالطبيعة عن هذا.

وعلى الرغم من ان الغرب يجد من الصعوبة ان يتصور بديلا جادا قابلا للحياة، ايا كان تاريخه وحضارته، فإن الصين تقدم مثل هذا البديل - ومن الممكن، بل من المحتمل، أنه فى المدى الطويل فإن الصين سوف تصبح بشكل متزايد ديموقراطية ولكن شكل هذه الديموقراطية سوف يحمل حتما بصمة تقاليدها الكونفوشيوسية العميقة.

وببروز الصين كقوة عالمية كبرى، فإنها سوف تمثل قوة سياسية مختلفة بالنسبة للغرب. ومنذ أن اشرف الحزب الشيوعى الصينى على تحول ناجح بدرجة عالية للبلد فإنه يتمتع بدرجة كبيرة من المكانة والتأييد كما ينعكس فى الثقة بالنفس التى يعرضها الصينيون حول توقعات مستقبلهم. وكنتيجة للعقدين القادمين، وربما أطول، فإن الحزب الشيوعى من المحتمل ان يستمر فى السلطة بل وربما يتمتع بشكل اكثر احياء بل ودعما لسمعته الدولية ، وهى العملية التى تجرى فعلا. فى هذا السياق فإننا يجب أن نفكر فى النظام الشيوعى الصينى بشكل مختلف جدا عن الاتحاد السوفيتى، فبعد كل شىء، فقد نجح فى الوقت الذى فشل فيه الاتحاد السوفيتى. ومنذ ان تابع دنج تشاوبنج استراتيجية مختلفة جدا مبتعدا عن الاشتراكية نحو الرأسمالية بما فيها جرعة كبيرة من النيوليبرالية. ويستخلص مارتن جاكز ان الصين سوف تتصرف كنموذج بديل للغرب مستخدمة نوعا مختلفا من فن الحكم، بلدا ناميا، نظام شيوعى، ونظام سياسى كونفوشيوسى سلطوى اكثر من ديموقراطى.



ويناقش الكتاب ماذا ستكون عليه مكانة الصين المتفوقة فى عدد من المجالات مثل : الجامعات، والقوة الناعمة، والرياضة، والطب. فحول الجامعات الصينية يذكر بالطريقة العامة التى تركت الولايات المتحدة بصمتها على العالم كله من خلال الجامعات، فهى تمتلك ما اعتبر انه أفضل جامعات والتى جذبت بعضا من



صعود الصين يجعل جولدمان ساكس يتوقع أنه فى عام ٢٠٢٧ سوف تتخطى الصين الولايات المتحدة كأكبر اقتصاد عالمى



هل سوف يتم تقويض الغرب بشكل مصيرى أم أن الصين سوف تتبنى النموذج الغربى الناجح للاقتصاد والدولة وا لمجتمع لا أحد يعلم الإجابة عن هذه الأسئلة



أفضل الاكاديميين والطلاب من حول العالم. اما الصين فقد كانت هناك خمس جامعات من بين ٢٠٠ جامعة فى القمة. وفى ترتيب جامعة شنغهاى لجامعات العالم فان جامعات القمة الصينية تحقق تقدما نحو المراتب العالمية. كذلك تبرز الصين كمركز رئيسى لتعليم الطيران. ويدرس عدد متنام من الطلاب الاجانب فى الجامعات الصينية، فخلال العام الجامعى ٢٠٠٣، كان عدد ٧٧٦٢٨ من الطلاب الاجانب يدرسون لدرجات متقدمة فى الجامعات الصينية وحيث ٨٠٪ من دول آسيوية. وهكذا يبدو من المحتمل أن الجامعات الصينية خلال الحقبتين القادمتين، سوف تصعد بثبات مراتب القمة وعلينا وحيث ستحتل بعد ذلك بين العشرة الأوائل ومن الأسرع بعملية لجذب الدارسين الصينيين فى الخارج للتعيين فى الجامعات الصينية، فإن جامعة مثل بكين وتسينجهوا Tsinghua وفودان Fudan ورنميين فى الوقت المناسب سوف تصبح مؤسسات للتميز Center of Excelence معترفا بها عالميا والتى ستكون قادرة بشكل متزايد لجذب بعض أفضل الباحثين من حول العالم سواء كانوا صينيين ام غيرهم بينما الاتجاه الواضح بالفعل سوف ينمو فى الوقت الذى بدأوا فيه لاداء دور اكاديمى مماثل للدور الاقتصادى الذى تلعبه الصين فى المنطقة. اما عن الثقافة كعنصر من عناصر القوى الناعمة Soft Power، فإنه فى الوقت الذى تنمو فيه الصين بشكل أغنى ويتمتع شعبها بآفاق متوسعة فإن الناتج الثقافى للبلد سوف يتزايد بشكل استثنائى. ومن المعروف ان هوليوود قد احتلت صناعة الفيلم العالمى لمدة اكثر من نصف قرن وبشكل همشت صناعات السينما الوطنية الأخرى ولكن الآن هناك منافسان جادان فى الأفق. وكما يجادل مايكل كيرتل : مان مراكز الفيلم والتليفزيون الصينية برزت بشكل متزايد كمنافسين هامين لهوليوود فى حجم وحماس مشاهديهم. ان لم يكن بالفعل فى العوائد. ولأول مرة، فإن الرؤساء التنفيذيين فى عالم الميديا وللمرة الأولى بدأوا يفكرون فى مستقبل المشاهدين الصينيين الذى يتضمن روادا اكبر للسينما ومزيدا من حائزى التليفزيون اكثر من الولايات المتحدة واوربا مجتمعين. وقد بدأت الحكومة الصينية مؤخرا فى توسيع وصول الصين الاعلامى عالميا بتحديث وكالة الأنباء الصينية تشنوا cyinhua واصدار طبعات عالمية من صحيفة الديلى نيوز وطبعات انجليزية من Global Times ويجعل القناة التليفزيونية CCTV اكثر مهنية وتمكين المشتركين فى القنوات الصينية. ومقارنة بالمشاهدين الدوليين الذين حققتهم الميديا الصينية بدأت تمس السطح، ولكن نجاح «الجزيرة» يوحى بأن مواجهة التحدى الجاد للميديا الغربية ليس صعبا كما بدا من قبل. وخلال الحقبة القادمة نستطيع أن نتوقع محاولة كبيرة من جانب السلطات الصينية لتحويل وصول الميديا الصينية عالميا. وعن الرياضة يقول الكتاب انها ليست النشاط الذى تتفوق فيه الصين تقليديا، ولكن خلال السنوات العشرين فإن الرياضيين الصينيين قد أصبحوا ناجحين بشكل متزايد، وقد استثمرت الحكومة مبالغ ضخمة من المال فى التسهيلات الرياضية من اجل رفع مستوى الصين فى الانجاز، وبالتركيز الرئيسى على مثل هذه الفروع الممثلة فى الأولمبياد وحيث ينظر إلى النجاح باعتباره أحد الرموز الأولية المطلوبة للقوة الكبرى. ورغم ان الصين لم تتنافس إلا فى أوليمبياد لوس انجلوس عام ١٩٨٤ فإن الاستثمار قد كوفئ فى اولمبياد اثينا عام ٢٠٠٤ حين كسبت الصين ٢٢ ميدالية ذهبية خلف الولايات المتحدة ولكن متفوقة على روسيا . وقد تقدمت الصين لأول مرة لاستضافة الاولمبياد عام ١٩٩٣، ولكن نجح طلبها فقط عام ٢٠٠١- وقد كانت اولمبياد عام ٢٠٠٨ المناسبة الأولى التى استضافت فيها حدثا رياضيا عالميا وكان واضحا خلال الاعداد ان الحكومة الصينية رأت هذا الحدث كفرصة لتثبت للعالم ما الذى أنجزته الصين منذ عام ١٩٨٧- أما عن الطعام والدواء الصينى فإن الكتاب يقرر ان هناك طريقين تتمتع فيهما الصين بالفعل بمنظور ثقافى عالمى كبير وهما، الطعام وإلى حد أقل الطب الصينى التقليدى، ورغم هذا فهو يتوقع ان الوصول العالمى للطب الصينى من المحتمل ايضا ان يستمر، فكل مستشفى صينى لديه فرع مخصص للطب الصينى، بأطباء متخصصين فى كل من الطب الغربى والصينى.



وإذا كان الكتاب قد كرس معظم فصوله لتوضيح الطرق التى من المحتمل أن تنمو بها الهيمنة العالمية الصينية خلال نصف القرن التالى، فإنه يعتبر ان هناك جانبا آخر من العملة لابد أن يناقش ويستكشف ويعنى بهذا أن اغلب النتائج الصادمة لهذه العملية هى التى سيشعر بها الغرب لأن الغرب هو الذى سيجد ان وضعه التاريخى تسلبه الصين. ومثل هذا التغيير من الصعوبة المبالغة فيه ذلك أنه لأكثر من قرنين وفى مثل هذه الأحيان اكثر طولا، فإن الغرب أولا فى صورة أوربا وبعد ذلك فى شكل الولايات المتحدة، قد تمتع بتفوق عالمى بالغ. واذا ما كانت اوربا سوف تعانى فإن هذا ليس شيئا أمام الازمة الجارية والوجودية التى سوف تواجه الولايات المتحدة. فهى كلية غير مستعدة لحياة لا تسيطر فيها عالميا. ففى ظل إدارة بوش فقد سعت لإعادة تحديد نفسها باعتبارها القوة الأعظم الوحيدة فى العالم قادرة على توسيع مصالحها من خلال الاحادية وتحت الحاجة للتحالفات وبعبارة أخرى، ابعد من الاعتراف بانحدارها النسبىRelative Decline واحتمالات نقصان قوتها، فإنها قد استخلصت النتيجة العكسية وبدت منتشية بفكرة ان قوة الولايات المتحدة يمكن أن تتوسع بشكل اكثر وان امريكا فى صعود وان العالم فى القرن الواحد والعشرين يمكن أن يعاد صنعه على صورة الولايات المتحدة. وهكذا فإن إدارة بوش مثلت اكثر تعبير متطرف عن امريكا العدوانية التوسعية المؤكدة لذاتها، وحتى بعد ان رؤيت بشكل واسع انها فشلت كنتيجة للانحدار فى العراق فإنه لم يكن هناك الكثير فى الولايات المتحدة الذين استنتجوا ان الولايات المتحدة هى فى حالة انحدار على المدى الطويل، وأنها أبعد من أن تكون مقبلة على سيطرة عالمية جديدة، وان قوتها بالفعل قد وصلت القمة، فإنه على العكس كان هناك تصور منتشر بشكل واسع ان الولايات المتحدة تحتاج ببساطة إلى طريق اقل تصادمية واكثر توازنا لممارساتها العالمية. وحتى التقدم الذى حققته الصين فى شرق آسيا لم يفسر كنذير لتحول كبير فى القوة العالمية. كذلك فإن عملية البحث التى صاحبت الحملة الانتخابية حول باراك أوباما لم تصل إلى نتيجة ان كل الولايات المتحدة عليها ان تتعلم ان تعيش مع الانحدار. وحتى الانحدار السريع فى قيمة الدولار ٢٠٠٦-٢٠٠٧، لم يؤشر لانحدار امريكا، على الرغم من اقلية صغيرة من المراقبين ادركوا انه فى المدى الطويل فإن وضع الدولار قد يتعرض للتهديد. وهكذا ظلت الولايات المتحدة عمياء لما قد يحمله المستقبل وانها مازالت تنعم فى مجد ماضيها وحاضرها ومفضلة أن تعتقد انه سوف يستمر فى المستقبل. وقد اظهرت بريطانيا جهلا مماثلا وانكارا حول انحدارها بعد ١٩١٨ واستمرت فى التمسك بما سبق ان اكتسبته، غير أنها بدأت تظهر اعترافا بانحدارها فى الخمسينيات، حينما أصبح واضحا أنها سوف تفقد مستعمراتها.

غير ان نقطة التحول فى الولايات المتحدة قد تثبت ان الانهيار المالى عام ٢٠٠٨ ومع اقتراب انهيار النظام المالى وموت الليبرالية الجديدة. فقد مثل تقرير مجلس الاستخبارات القومى عام ٢٠٠٨ تحولا بنسبة ١٨٠ درجة مقارنة بالتقرير الذى سبقه منذ أربع سنوات مضت عام ٢٠٠٤. ففى الوقت الذى تنبأ فيه الأخير باستمرار السيطرة الامريكية العالمية، فإن التقرير الجديد يشير إلى بروز التعددية القطبية، وعالم تجبر فيه الولايات المتحدة بشكل متزايد لكى تشارك القوة مع الصين والهند، فقد أعلن التقرير 



يتصور الكاتب أن الصين سوف تستمر فى النمو بشكل أقوى وتبرز فى النهاية فى نصف القرن القادم



2010-2001

الـصـــــــــــين



«مع ٢٠٢٥ سوف تجد الولايات المتحدة نفسها كواحدة من لاعبين هامين على مسرح العالم وان كانت مازالت الاكثر قوة ». وهكذا فإن المهمة التى تواجه رئاسة باراك اوباما هى أبعد من أن تحسد، فالنشوة العالمية الواسعة التى رحبت بانتخابه تقف فى مواجهة لما يبدو اكثر المهام صعوبة التى واجهت أى رئيس امريكى عبر القرن الماضى :

إدارة انحدار طويل فى سياق أسوأ ركود منذ عام ١٩٤٥ والالتزام بمحاربة حربين. غير انه مما يشجع أن انتخاب أوباما يوحى بأن الولايات المتحدة قادرة على اختيار استجابة حميدة واكثر خيالا لما تواجهه من عناء. لكن مازلنا فى الأيام الأولى فنحن فقط فى بداية عملية طويلة تتضمن العديد من الاعمال التى تتبع عبر عدة عقود ان لم تكن اكثر. فاليمين الامريكى قوى ومتخندق وله مصادر قوية من التأييد. الخطر الأكبر الذى يواجه العالم ان الولايات المتحدة عند نقطة ما ستتبنى موقفا عدوانيا يعامل الصين كعدو ويسعى لعزلها.

يعود مارتن جاكز إلى السياق الأوربى ومدى تاثره بصعود الصين فيعتبر أن حقيقة الصين تنبع من حضارة وجذور تاريخية مختلفة تماما عن الغرب وانها تمتلك من مكونات جيوغرافية مختلفة سوف يدعم احساس الغرب بالخسارة واقتصاد الاتجاه والوعكة. وواقع أن بريطانيا قد وجهت بالولايات المتحدة، وباعتبار الروابط المشتركة التى يتمتعون بها، كخليفتها ومنافستها كقوة عالمية مسيطرة، كل هذا شىء، ومسألة مختلفة تماما بالنسبة للولايات ا لمتحدة ان تواجه بالصين، والتى لايجمعها شىء مشترك سواء فى الظروف الحضارية أو السياسية، كقوة سوف تسلبها مكانتها وتحل محلها فى النهاية. وبالنسبة للولايات المتحدة فإن صدمة أنها لم تعد تمتلك العالم والذى كان يرقى إلى حقها تحديد ما يحدث حول كل القضايا الدولية الكبرى، سوف تكون عميقة. ومع صعود الصين، فإن عالمية الغرب سوف تتوقف ان تكون عالمية، وقيمها ونظرتها سوف تصبح بثبات اقل تاثيرا. فصعود الصين فى الواقع بصورة عالمية سوف يجعل كل شىء نسبيا، فقد تعود الغرب فكرة ان العالم هو عالمه، وان المجتمع الدولى هو مجتمعه والمؤسسات الدولية هى مؤسساته والعملة العالمية ـ وخاصة الدولار، هى عملته، واللغة العالمية ـ الانجليزية، هى لغته، وكان الافتراض أن صفة «الغرب» تتبع بشكل طبيعى وضمنى أمام أى اسم هام. وهذا ما لن يعود هو الحال. فسوف يكتشف الغرب بشكل متقدم، ولعدم ارتياحه الحاد، ان العالم لم يعد بعد غربيا. وزيادة على ذلك فسوف يجد نفسه بشكل متزايد فى نفس الوضع الذى كان فيه بقية العالم خلال عصر الغرب الطويل من التفوق، بمعنى ان يكون ملزما أن يتعلم ان يعيش وفق شروط الغرب. وللمرة الأولى، فإن الغرب المنحدر سوف يكون مطلوبا ان يرتبط مع حضارات وبلدان أخرى وان يتعلم من عناصر قوتها.

أما الولايات المتحدة فهى تدخل فى فترة طويلة من الصدمة الاقتصادية والسياسية والعسكرية. وهى تجد نفسها على مشارف أزمة سيكلوجية وعاطفية ووجودية ورد فعلها المتوسط المدى ليس من المحتمل ان يكون، وعلى العالم أن يأمل أن لا يكون.



غير أن مثل هذا الحماس والثقة التى يكتب بها مارتن جاكز عن صعود الصين ووصولها إلى مرتبة القوة العظمى وتأثير ذلك على تراجع مكانة الغرب بما فيه الولايات المتحدة، مثل هذا الحماس يقابل بالتحفظ والاعتراض من عدد من الخبراء من بينهم برناب بروان استاذ الاقتصاد فى جامعة كاليفورنيا الذى رفض المبالغة حول كل من الصين والهند ولاسباب فصلها فى كتابه «الصين، الهند، دولة عظمى؟ ليس بهذه السرعة» والذى صدر عام ٢٠٠٥. وكان آخر من عبروا عن هذا التحفظ ميتكسين باى فى دورية Foreign policy عدد يوليو / اغسطس ٢٠٠٩. فهو يجادل بأنه ليس حقا « ان السلطة تتحول من الغرب إلى الشرق »، ورغم انه لا مجال لانكار النمو الاقتصادى المطرد السريع منذ الحرب العالمية الثانية انتعش الناتج الاقتصادى للمنطقة وقدرتها العسكرية لكن من المبالغة الفادحة ان يقال ان آسيا ستصبح لاعب السلطة الابرز فى العالم، واقصى ما يمكن ان يؤدى إليه صعود آسيا هو حلول عالم متعدد الاقطاب لا إلى عالم ذو قطب واحد. وآسيا ليست قريبة بأى درجة من اغلاق فجوتها الاقتصادية والعسكرية مع الغرب. فالمنطقة تنتج حوالى ٣٠٪ من اجمالى الناتج العالمى ولكن بسبب ضخامة عدد سكانها فإن حصة الفرد فيها من الناتج المحلى الاجمالى لا تتعدى ٥٨٠٠ دولار بالمقارنة مع ٤٨٫٠٠٠ فى الولايات المتحدة، وكذلك سيحتاج الآسيوى المتوسط إلى ٧٧ عاما ليصل إلى دخل الامريكى المتوسط ويحتاج الصينى إلى ٤٧ عاما والهندى ١٢٣ عاما، ولن تتساوى ميزانية آسيا العسكرية مع نظيرتها فى الولايات المتحدة لمدة ٧٢ عاما. اما عن الصين تحديدا وسيطرتها على آسيا فإن مييكسين يعتبره افتراضا غير محتمل، فرغم انه صحيح ان الصين ستصبح اقوى بلدان آسيا بأى مقياس وان لصعودها حدودا كامنة. ومن غير المحتمل ان تسيطر على آسيا بمعنى ان تحل محل الولايات المتحدة كحافظ إقليمى للسلم وان تؤثر تأثيرا حاسما فى السياسة بخاصة للبلدان الأخرى كما أن نموها الاقتصادى واستدامته ليس مضمونا على أى نحو، فضلا عن ان للصين جيرانا هائلين فى روسيا والهند واليابان سيقاومون بضراوة أى محاولات صينية لأن تصبح المهيمن الإقليمى. ■

رأى

الصين: القوة العظمى الهشة



■■ فى الآونة الأخيرة كانت الحكومة الصينية تستخدم لغة قوية غير معتادة بهدف تأكيد سيادتها على المساحات المتنازع عليها من المياه الدولية الواقعة بالقرب من شواطئها .ولقد أدى هذا إلى تصعيد التوترات، وبصورة خاصة بين الصين والولايات المتحدة، فى ظل تأكيد وزيرة الخارجية هيلارى كلينتون على أن إدارة أوباما على استعداد تام للتدخل الآن والمساعدة فى ضمان التحكيم القضائى النزيه فى المنازعات المتعلقة ببحر الصين الجنوبى. ولقد ندد المتحدث باسم الحكومة الصينية بهذا التصريح باعتباره ارتداداً إلى أيام حيث تصورت الولايات المتحدة أنها قادرة على محاولة. بل ويتعين عليها أن تحاول. «احتواء» جمهورية الصين الشعبية.

ومن بين سبل تفسير النبرة الصينية المرتفعة . وردها الخشن على المناورات العسكرية المشتركة بين الولايات المتحدة وكوريا الجنوبية. أن نعتبرها بمثابة إشارة أخرى إلى أن قادة الصين اكتسبوا درجات أعلى من الثقة فى الذات وأنهم حريصون على فرض أنفسهم على الساحة السياسية العالمية .بيد أن الواقع أكثر تعقيدا .فإذا أمعنا النظر سوف يتبين لنا أن كلمات الرئيس هو جين تاو وأفعاله كثيراً ما يصوغها مزيج من الحس بانعدام الأمن والغطرسة، وأن المسؤولين الصينيين يتناوبون اللعب على أوتار صعود الصين المنخفضة والعالية.

بالطبع، هناك لحظات يبدو فيها قادة الصين وكأنهم أناس يدركون أنهم ناجحون ويريدون أن يعترف الآخرون بنجاحهم. فحتى قبل اندلاع الخلافات الدبلوماسية الحالية، كان قادة الصين يلفتون الانتباه بكل ابتهاج إلى مدى نجاح حزمة التحفيز التى أقروها مقارنة بحزمة أوباما فى مواجهة التأثيرات السلبية الناجمة عن الأزمة المالية.

ورغم ذلك، فحين أكدت الأنباء فى الشهر الماضى أن الصين احتلت رسمياً المرتبة التى كانت اليابان تحتلها باعتبارها صاحبة ثانى أضخم اقتصاد على مستوى العالم، لم يبادر قادة الصين إلى التفاخر بالتفوق على المنافس القديم والتطلع إلى احتلال مرتبة الصدارة التى تحتلها الولايات المتحدة الآن، بل أصدرت الحكومة بياناً يؤكد أن بلدهم لا يزال بلداً «فقيراً نامياً».

إن جانب الثقة بالنفس من الشخصية القيادية المنقسمة فى الصين كثيراً ما يثير مخاوف جيران الصين والولايات المتحدة على السواء. ورغم ذلك فمن الأهمية بمكان أن نتذكر أن ثقة الحزب فى نفسه تنطوى على جانب إيجابى. وكما زعم العالم السياسى كيفين أوبراين فإن تزايد استعداد الصين للتوصل إلى حلول وسط مع المحتجين فى الداخل، بدلاً من التعامل مع كافة أشكال العمل الجماعى بوصفها أعمالاً تخريبية، من الممكن أن يُنظَر إليه باعتباره مرآة تعكس شعوراً متنامياً بالأمان.

وفى المقابل سنجد أن بعض التحركات الصينية الأكثر إثارة للانزعاج من الممكن أن تفسر باعتبارها مشاعر مبالغ فيها بانعدام الأمان .ولنتذكر هنا المعاملة القاسية التى لاقاها المنتقد المزعج ليو جياو باو، والذى صدر الحكم فى حقه بالسجن لمدة أحد عشر عاما بموجب اتهامات ملفقة «بالتخريب» بسبب الالتماس الذى نشره على شبكة الإنترنت فى إطار حملة لمناصرة الحريات المدنية. ولكن هل كان لمجموعة من النخبة الحاكمة الواثقة فى ذاتها أن تتوتر إلى هذا الحد إزاء ما أبداه ذلك الناشط؟

من السهل أن نفهم جانب الثقة فى الشخصية القيادية الصينية المنقسمة. فمنذ أواخر ثمانينيات القرن العشرين وإلى عام ٢٠٠٠ ، كان العديد من المراقبين يصورون الحزب الشيوعى وكأنه يلفظ أنفاسه الأخيرة، وأنه لابد وأن يستسلم فى النهاية لانقراض اللينينية الذى بدأ بانهيار الشيوعية فى أوروبا .ولكن الحزب ظل ممسكاً بزمام السلطة حتى يومنا هذا. أما محلات بيع الكتب فى المطارات والتى كانت تعرض ذات يوم كتاب جوردون ج .تشانج «انهيار الصين الوشيك» فإنها تعرض الآن كتاب مارتن جاك «عندما تحكم الصين العالم».

لماذا إذن يواصل حكام الصين الارتداد إلى الشكوك والمخاوف، ولماذا يسعون إلى تجنب وصف الصين بالقوة العظمى؟

لا شك أن التقليل من شأن صعود الصين ينطوى على فوائد عملية .فمن المفيد أن بالنسبة للصين أن يُنظَر إليها باعتبارها دولة «فقيرة نامية» لا أن ينظر إليها بوصفها عملاقاً اقتصاديا، وذلك لأن الدول" المتقدمة "يُنتَظَر منها أن تبذل المزيد من الجهد فى مكافحة التحديات العالمية الكبرى، مثل تغير المناخ.

وفى الوقت نفسه فإن الصين لا تزال حقاً دولة «فقيرة» من حيث نصيب الفرد فى الدخل. والواقع أن أجزاءً من البلاد أشبه بالبلدان «النامية» المتعثرة، خلافاً لمدن الصين التاريخية الجميلة.

بل إن الحزب فى موقف ضعيف. وهو يدرك ذلك .بيد أن هذا ليس بالعذر الذى يبرر جنون العظمة والاضطهاد وعمليات القمع، ولكن مجرد نجاح الحزب فى البقاء متجاوزاً كل توقعات الزوال لا يعنى أنه لا يعانى من نقطة ضعف خطيرة. والأمر الملحوظ بوضوح أن الغضب إزاء الفساد والمحسوبية، والذى غذى احتجاجات ميدان السلام السماوى، لم يتلاش قط.

وعلى هذا فإن قادة الصين يواصلون الاعتماد على شكل من أشكال القومية يتمحور حول روايات الضحية .فهم يؤسسون شرعيتهم الآن على فكرة مفادها أن الحزب، الذى صعد إلى السلطة فى حين كانت الأمة تحارب الهيمنة الأجنبية، مؤهل بشكل فريد لحماية الصين من التحرشات فى ساحة دولية معادية، وأن الحزب هو الوحيد القادر على توفير البيئة المستقرة اللازمة للنمو.

إن الطبيعة المنقسمة للشخصية القيادية الصينية تفسر الظاهرة الغريبة التى تحدثت عنها مستشارة وزارة الخارجية الأميركية سوزان شيرك فى كتابها «الصين» القوة العظمى الهشة». وحين ذكرت عنوان الكتاب لأصدقاء أميركيين، تعجبوا من استخدامها لتعبير «هشة»، فى حين قال أصدقاؤها الصينيون إن إطلاق وصف «القوة العظمى» على بلدهم أمر سابق لأوانه.

إن العنوان الذى اختارته شيرك لكتابها يرصد ظاهرة مؤثرة تعمل على إرباك العلاقات الدبلوماسية. فالمراقبون من الخارج مقتنعون على نحو متزايد بأن الصين قوة عظمى، وأنها لابد وأن تثبت قدرتها على تحمل المسؤولية كقوة عظمى. ولكن حكام الصين لا يتبنون هذه التسمية إلا فى بعض الأحيان . ولا يزال الحزب يتصرف أحياناً وكأن قبضته على السلطة ضعيفة وغير محكمة.

جيفرى واسرستروم أستاذ التاريخ بجامعة كاليفورنيا فى ارفين، ورئيس تحرير مجلة الدراسات الآسيوية. وأحدث مؤلفاته كتاب بعنوان «الصين فى القرن الحادى والعشرين: ماذا ينبغى أن يكون معلوماً للجميع». ■

Jeffrey Wasserstrom is Professor of History at the University of California, Irvine, and Editor of The Journal of Asian Studies. His most recent book is *China in the 12st Century: What Everyone Needs to Know*. New York, NY: Oxford UP, 2010

جـيــفــرى واســرســتــروم

Jeffrey Wasserstrom

ترجمة: هند على



Chine ou japon quel leader pour l'Asie
Claude meyer
Sciences po les presses 2010,232P,12EUR

عجلت الأزمة الاقتصادية الأخيرة بانتقال مركز الاقتصاد العالمى الى قارة آسيا، حيث اننا نستطيع فى عام ٢٠٣٠ أن نعتبر الصين واليابان والهند من الأربع دول الكبرى الأولى فى العالم.

يتنافس كل من بكين وطوكيو على الزعامة الاقتصادية فى منافسة غير متكافئة تماما.

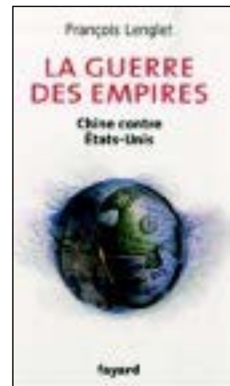
حيث الصعود الذى لا يقاوم للصين الديناميكية، الغازية على حد تعبير الكاتب فى مقابل ذلك الانخفاض الحتمى لنجم اليابان التى بدأت تشيخ اقتصاديا مقارنة بالصين.

فى ضوء تلك الرؤية المستقبلية للاقتصاد العالمى، يحلل الكاتب بدقة شديدة شرعية حصول الصين واليابان على السيادة الاقتصادية والاستراتيجية فى آسيا، ثم يطرح سيناريو الزعامة الاقتصادية الذى يراه متوقع الحدوث فى خلال العشرين عام القادمة.

يرى الكاتب أن تلك الدراسة هدفها الأساسى أن يحفز الأوروبيين غير المبالين على فتح النقاش حول مستقبلهم الاقتصادى، أى حول مصير أوروبا وصناعاتها وحول دور جامعاتها أيضا بطوكيو وبكين فى دراسة المستقبل الاقتصادى للمجتمع الآسيوى.

كلود ماير أستاذ اقتصاد دولى فى جامعة sciences po وباحث فى العلوم الاقتصادية عمل ببنوك يابانية وله عدة مقالات ودراسات عن الاقتصاد الآسيوى.

■



La guerre des empires : Chine contre Etats-unis
Francois lenglet
Fayard 2010,220 p,17 EUR

لا لرفع قيمة اليوان، لا لوجود جوجل فى بكين دون رقابة أيديولوجية، لا لتواجد البحرية الأمريكية بطول السواحل الصينية

وعلى الجانب الآخر لا لتدخل بكين فى السياسة الاقتصادية والمالية لواشنطن.

حلت المنافسة محل الحرب الباردة بين الصين والولايات المتحدة الأمريكية، فنحن نشهد بالفعل حربا باردة من نوع جديد. اتباعا للمنهج الذى أنهى الأزمة الاقتصادية فى الثلاثينيات يحاول فرنسوا لينجيليه وصف مراحل تحد متبادل ومواجهة بدأت منذ أربعين عاما واستمرت سرية لفترة طويلة محددا المجالات المختلفة التى يتنافس عليها الطرفان، محاولا بذلك بناء واستكمال السيناريوهات المحتملة لهذا الصراع المقلق.

فرانسوا لانجيليه هو مدير تحرير الجريدة الاقتصادية اليومية لاتريبون La tribune

■



La politique internationale de la chine :
Entre intégration et volonté de puissance
Les pressesde sciences po 2010,460P,20EUR

كيف تدير الصين علاقاتها السياسية الخارجية ؟
هل تسعى إلى وضع النظام الاقتصادى والسياسى الحالى محل تساؤل وشك متحدية بذلك السيادة الأمريكية والغربية عامة ؟ هل تستطيع ؟ ماهى طموحاتها وسياستها الدولية ؟

باختصار يحاول هذا العمل تحليل تحولات السياسة الخارجية والأمنية لجمهورية الصين الشعبية من بداية عام ٢٠٠٠ إلى الآن.

تعتمد تلك الدراسة بشكل أساسى على المصادر المتاحة حيث تلقى الضوء على تطور الخطاب السياسى الرسمى وبعض التحليلات السياسية لمتخصصين صينيين.

يستعرض الكاتب الوسائل الاقتصادية والدبلوماسية والعسكرية التى تحشدها الصين لتؤكد على قوتها وتزيد من تأثيرها فى الشئون العالمية، كما يحلل آليات اتخاذ الصين لقراراتها فى السياسة الدولية مستعرضا علاقاتها ببلد بلد من البلاد الحليفة الأساسية ودول الجوار.

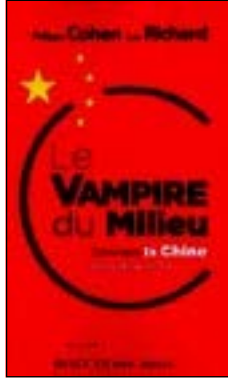
ومن أجل عولمة اقتصادها، تندمج الصين بشكل متزايد فى المجتمع الدولى محترمة قواعده إلى حد ما.

لكن وجود نظام شمولى وقومى يحول دون اكتمال هذا الاندماج فى المستقبل ويغذى مصادر الصراعات مع الخارج.

من ناحية أخرى تشعر الصين بهشاشة أكبر لاعتمادها على الخارج.

وهكذا يظل مستقبلها السياسى أحد أكبر التساؤلات فى مطلع هذا القرن.

■



Le vampire du milieu Comment la chine nous dicte sa loi
Philippe Cohen ,et Luc Richard
Fayard/mille et une nuits2010,,336P, 18,50 EUR

منذ أكثر من خمسة عشر عاما أنذر الكاتب بييرفيت المجتمع الأوروبى من خطر الصين على الاقتصاد العالمى فى كتابه «حين ستنهض الصين سينقلب العالم»...... وبالفعل نهضت الصين واستطاعت إخماد العالم.

ففى سنوات قليلة استطاعت تحقيق ازدهار استثنائى من خلال تركيزها على التوسع العالمى الاقتصادى مما جعل منها خطرا صعب تفاديه.

ففى ظل الحزب الشيوعى الصينى لم تعد ترضى بلاد الكونفوشيوس بأن تظل ورشة العالم أو معمل تجاربه، ولكنها تحولت إلى دراكولا الجديد. الذى يطمح إلى السيطرة على كل الثروات ليس فقط الثروة البشرية المنتجة والإمكانيات التكنولوجيا ولكن أيضا الاستيلاء على موارد الطاقة والخامات الأولية وأيضا الأراضى الزراعية

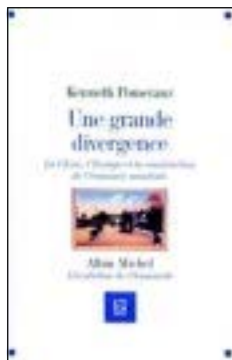
لتستطيع قريبا أن تخلف الولايات المتحدة فى سيادتها على الكوكب، اتبعت فى سياستها دبلوماسية قبل كل شىء اقتصادية.

على مايبدو ستنتصر الصين بلا معركة، فأسلحتها ليست مدافع أو صواريخ ولكن وقبل كل شىء أيدى عاملة منخفضة الأجر، وعملة منخفضة القيمة، وتجارتها الخارجية والداخلية فى منتجاتها قليلة التكلفة، بالإضافة إلى وسائل إعلامها الموجهة، وشتات عشرات الملايين ذوى الأصول الصينية الذين يدافعون عن مصالحها فى كل القارات والكثيرون فى باريس ولندن وواشنطن الذين بدأوا فى الركوع أمام سيد العالم الجديد.

ولأول مرة يكتمل بشكل جلى البازل الكبير للطموح الصينى.

فى هذا الكتاب يحاول فيليب كوهين ولوك ريتشارد مستعينين بالإحصائيات والمؤشرات الاقتصادية وأمثلة من الحياة اليومية أن يسردا كيف يملى علينا النظام الصينى قانونه الخاص.

■



Une grande divergence - La Chine, l'Europe et la construction de l'économie mondiale
Kenneth pomeranz
Mathieu Arnoux ،(Traducteur) Nora Wang
(Postfacier) Philippe Minard ،(Traducteur)
Albin Michel 2010, 560 P, 33 EUR

منذ فترة طويلة كان تفوق الاقتصاد الأوروبى على الاقتصاد الصينى من المسلمات التى لا شك بها خصوصا عند المؤرخين الغربيين.

الآن وقد كشف الوضع الحالى بوضوح أن هناك تحولات جذرية فى هذه السيادة الاقتصادية يطرح كتاب كينيث بومرانز سؤال لا مفر منه.

يعرض الكتاب الطرق التى اتبعها كل من الصينيون والأوروبيون فى حل مشاكلهم الاقتصادية والبيئية والسياسية من خلال مقارنة عمليات التنمية والتطور الصناعى عند كل منهم.

رجوعا إلى تاريخ العولمة الاقتصادية الذى برأيه بدأت بوادره فى عام ١٧٥٠ محاولا نقد مفاهيمها واكتشاف كيف تعاملت معها الكتل الكبرى فى العالم كأوروبا والصين والهند والأمريكتين متوصلا إلى إن التوزيع الجغرافى غير العادل لمصادر الفحم وغزو العالم الجديد كانا النبض والباعث الأخير للاقتصاد الأوروبى على الحياة.

منذ صدور هذا الكتاب عام ٢٠٠٠، أثارت تلك القضية خلافات عديدة بين المؤرخين والإقتصاديين فى العالم أجمع، ولكن مناقشة ولادة العولمة الاقتصادية لم تعد تحتمل التأجيل فى ظل الأزمات الاقتصادية الراهنة لهذا كانت ضرورة ترجمة هذا الكتاب.

كينيث ل بوميرانز مؤرخ ومتخصص فى الصين الحديثة (مابين القرن التاسع عشر والقرن العشرين) - أستاذ فى قسم التاريخ بجامعة كاليفورنيا.



الأنفلونزا

صناعة الخوف



الأنفلونزا: من الطيور.. إلى الخنازير..

باتريشيا جاتسبي

لا يكاد يمر عام دون ظهور سلالة جديدة من الأنفلونزا فى إحدى مناطق العالم بعضها يوقع مئات الضحايا والبعض الآخر يمر بقليل من الأضرار. وخلال الشهور القليلة الماضية ظهر فيروس أنفلونزا الطيور بجنوب شرق آسيا مما أوقع عشرات الضحايا من البشر. وسر خطورة هذا الفيروس هو قدرته على الانتقال مباشرة من الدواجن إلى البشر.

إن كثيرًا من العلماء يعتقدون أن فيروسات الأنفلونزا جاءت من الطيور لكنهم يقولون إن الفيروس يجب أن ينتقل من الطيور إلى الخنازير كي يسبب أوبئة بشرية حيث تبدأ التغيرات الجينية التى تجعل السلالة تصيب البشر والحيوانات.

ويعيد فيروس الأنفلونزا الحالى إلى الأذهان وباء الأنفلونزا الذى ضرب العالم عام ١٩١٨، وكان الأشد فتكًا (٣٠ مليون قتيل). وقد وجد الباحثون الأمريكيون والبريطانيون أن أنفلونزا ١٩١٨ كانت أقرب إلى أنفلونزا الطيور، مما كان يعتقد من قبل وأشار العلماء فى بحث نشرته مجلة «ساينس» العلمية عام ٢٠٠٤ إلى أنه ليس معروفًا حتى الآن بشكل دقيق سر شراسة أنفلونزا ١٩١٨، لكنهم أعربوا عن أملهم فى أن يساهم هذا البحث فى حل «اللغز القاتل» حتى يستطيع العلماء التعامل مع سلالات الأنفلونزا الأخرى القادمة.

فى مارس ٢٠٠٤ نشرت مجلة «وجهات نظر» تقريرًا يلقى مزيدًا من الضوء حول أنفلونزا الطيور وتحديدًا فيروس ١٩١٨ القاتل وملابساته.

المحـــرر

ترجمة: أحمد خالد توفيق

بترتيب خاص مع مجلة ديسكفر الأمريكية

وجهات نظر: مارس ٢٠٠٤

■■ فى عام ١٩١٨ حصد الموت نحو ٣٠ مليونًا من البشر بعد أن تمكن وباء الأنفلونزا من أن يلتف حول الكرة الأرضية فى عناق مميت. ولم تكن تلك المأساة هي الأخيرة وإن كانت بالتأكيد الأشد ضراوة فى التاريخ البشرى الحديث.

فى ذروة كارثة وباء الطيور فى هونج كونج الذى انتشر فى كريسماس ١٩٩٧، ثمة لحظة لن ينساها كنيدى شورتردج أبداً. كان (شورتردج) عالم فيروسات أسترالياً اعتاد لمدة ٢٧ عاماً أن يعتبر هونج كونج وطنه، وكان فى سوق دواجن تشونج شاوان للجملة مع فريق يفحص الدواجن، بحثاً عن فيروس أنفلونزا الطيور الذى يطلق عليه H5N1 والذى يمكنه الانتقال مباشرة من الدواجن إلى البشر. وقد فتك الفيروس فى البداية بآلاف الدواجن فى المزارع الواقعة على حدود جنوب الصين قبل أن يتراجع. وفى مايو عام ١٩٩٧ فتك بأولى ضحاياه من البشر، وهو صبى فى الثالثة من عمره كانت حضانته تحتفظ ببعض الكتاكيت والبط الصغير. ثم واصل الفيروس انتشاره بين البشر وهنا عرف (شورتردج) أن التخلص من الطيور صار واجباً.

بعد كل تلك الأعوام من مسح الأنفلونزا، لم ير شورتردج قط شيئاً كهذا. ليس من العسير أن تعرف الدجاجة المريضة، لكن هذه الدجاجة كانت تقف فى قفصها الخشبى، وتبدو طبيعية تماماً. ثم فجأة وببساطة شديدة سقطت على الأرض، ورأى شورتردج الدم يخرج من مدرقها، أى فتحة الشرج. فتساءل: «هل ما نراه هو داء (إيبولا) يصيب الدجاج ؟».

وكان يقصد بالايبولا التعبير عن هذه الميتة الدامية السريعة التى لا تصدق. «فى هذا السوق كان الدجاج يموت أمام عيوننا.. فهل نحن مقبلون على رؤية تغير فى الفيروس؟.. هل سنرى انتشار الفيروس عبر أسواق هونج كونج؟».

يمكن للمرء أن يرتاح لفكرة أنه ما بقى H5N1 فيروس طيور غير متطور، وبالتالى فإن فرصته فى الانتقال للناس من حين لآخر تظل محدودة. لكن ماذا لو تحول H5N1 إلى صورة يناسبها البشر أكثر ؟. وماذا لو ارتبط بأنفلونزا البشر فى زواج غير مقدس، وخلق سلالة تنتقل بسهولة ؟. وانتقل من شخص لآخر عبر السعال والعطس ؟.. يقول شورتردج: «هذا لم يحدث قط فى التاريخ، وإنه لاحتمال مخيف..».



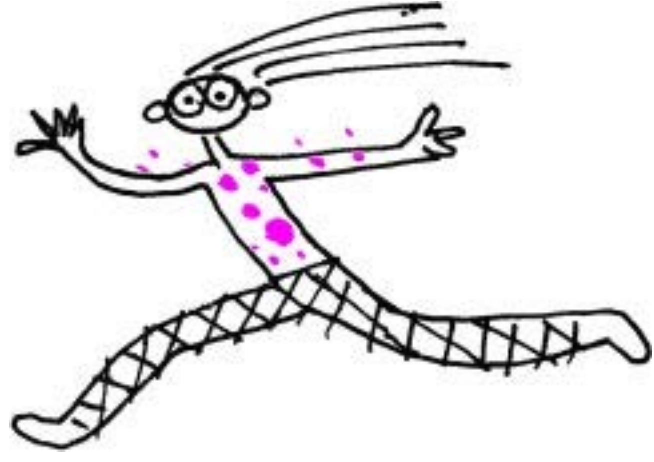
طيلة عطلة الكريسماس تلك، ظل شورتريدج وزملاؤه فى مستشفى (كوين مارى) يواصلون الاختبارات. كان خمس عينة الدجاج مصاباً بالفيروس H5N1 وفى ٢٩ ديسمبر. قبل أن تكتمل الأبحاث .بدأت الحكومة بصرامة فى إجراءات ذبح كل الدجاج الموجود فى السوق والمزارع، وهو ما يربو على المليون طائر، ثم بدأت عملية تطهير المخازن المغلقة. وجاء أول العام الصينى ورحل، دون أن يتم الاحتفال به بأطباق السمك والدواجن التقليدية. لم تعد هناك حالات بشر مصابين بفيروس H5N1 ومضت الأشهر وبدا أن الأزمة فى هونج كونج تبدو أقل أهمية. لكن (روبرت وبستر). وهو عالم فيروسات فى مستشفى (سانت جوداس) لأبحاث الأطفال فى ممفيس. يعترض تماماً على ذلك قائلاً:

«لو كان هذا الفيروس قد تكيف على البشر، لكان نصف البشر فى العالم قد هلكوا الآن.. وكنا سننتظر الوباء الشامل التالى».

لقد مرت بعالمنا ثلاثة أوبئة أنفلونزا شاملة خلال القرن العشرين. أسوأها حتى الآن هو ما يطلق عليه الأنفلونزا الأسبانية عام ١٩١٨. فقد أصيب كل فرد على ظهر الأرض تقريباً بالوباء، وهلك ثلاثون مليوناً، وهم أكثر بكثير من قتلى الحرب العالمية الأولى. أما الأنفلونزا الآسيوية عام ١٩٥٧ فقد قتلت سبعين ألف أمريكى (أرقام باقى العالم غير معروفة)، وقتلت أنفلونزا هونج كونج عام ١٩٦٨ ستة وثلاثين ألفاً. وعلى قدر ما نعلم فإن أوبئة الأنفلونزا الشاملة هذه والأوبئة المحدودة التى تحدث بعدها كأنها توابع الزلازل، تسببها طبيعة الفيروس المتغيرة. تحدث الأوبئة المحدودة من انحراف جينى: تحولات طفيفة تكفى فحسب كى يتسلل الوباء إلى الجهاز المناعى لبضعة أفراد، بينما الوباء الشامل يتضمن انحرافاً مزلزلاً. تبدلات جينية كبيرة إلى حد أنها تجعل الجميع عاجزين عن الدفاع عن أنفسهم. لكن يبقى هنا حشد من الأسئلة: من أين تأتى هذه الفيروسات القادرة على إحداث أوبئة شاملة ؟.. ماذا يجعلها بهذه الشراسة ؟.. هل نجونا بمعجزة فى هونج كونج ؟ هل هى مجرد مسألة وقت قبل ان نواجه وباءً كوباء عام ١٩١٨؟

ينتمى فيروس الأنفلونزا لإحدى ثلاث عائلات تسمى أنفلونزا A وB وC الأوبئة الشاملة تميز فيروسات النوع A (مجموعة ينتمى لها فيروس هونج كونج). وككل فيروسات الأنفلونزا تستعمل حمض RNA الوراثى أحادى الخيط كمادة المورثات، وترتكب أخطاء أثناء نسخ نفسها، لهذا تتغير الفيروسات خطوة بخطوة، وتنحرف عن شكلها الأصلى. والتغيرات الأهم تتم فى بروتينات السطح الشائك التى تستعملها لتصيب بالعدوى الجهاز التنفسى للإنسان (بروتين يدعى مولد التجلط H والنيوراميينيديز N).

لكن النوع A من الفيروسات غريب



ومن الآسيوية.. إلى الأسبانية.. إلى هونج كونج

الأطوار: إن حمض RNA الخاص به يأتي في ثمانية أجزاء. فلو هاجم فيروسان مختلفان من النوع A نفس الخلية، فإن بوسعهما خلط القطع الجينية كأنها أوراق اللعب على منضدة. إعادة التصنيف هذه قد تخلق أنواعاً فرعية من الفيروس تحتشد فيها مواد وراثية لم يعتدها أي نظام مناعي، مع جينات ترمز لبروتينات من نوعي H وN جديدة تماماً، وربما بروتينات أخرى كذلك.

في نهاية الستينيات بدأ الباحثون في الأنفلونزا يفهمون أن إعادة التصنيف reassortment كانت هي سبب التحولات المفاجئة التي تسبب الأوبئة الشاملة. وبدءوا يستوعبون حقيقة أن الحيوانات هي على الأرجح مصدر الجينات الجديدة الخطرة.

لكن أية حيوانات ؟.. من المعروف منذ زمن أن الخنازير البيتية تصاب بالأنفلونزا. وفي كل خريف منذ عام ١٩١٨ كانت خنازير الولايات المتحدة تصاب بأنفلونزا الخنازير النمطية، والتي يسببها الفيروس H1N1 وهو قريب لفيروس ١٩١٨ البشري (تصنيف الفيروسات يقوم بترقيم الفيروس حسب جينات مولد التجلط والنيوراميديز). لكن فيروس عام ١٩٦٨ في هونج كونج كان يحوي مولد تجلط ينتمي لا إلى الخنازير بل الطيور. وعندما احتدم هذا الوباء صار (وبستر) جزءاً من فريق مسح عالمي يبحث عن مستودعات الأنفلونزا في العالم. وعن طريق تحليل فيروسات الأنفلونزا في الحيوانات، راح الباحثون يأملون في العثور على مصدر الجينات التي اختلطت بأنفلونزا الإنسان، لتخلق هذه السلالات المخيفة المميتة.

وفي السبعينيات وأوائل الثمانينيات، جمع (روبرت وبستر) وزملاؤه في مستشفى «سانت جوداس» أدلة كافية تلقي بالمسئولية على الطيور، ففي ممفيس وجد وبستر فيروسات الأنفلونزا في البط العائد من كندا في الخريف. وفي كندا وجد أن ٢٥٪ من البط الذي فقس حديثاً لديه فيروس الأنفلونزا. ووجد فيروسات أكثر في الإوز والنوارس وطيور الشاطئ التي تهاجر كل ربيع بين شمال وجنوب أمريكا.

ويقول (وبستر): «إنه يمكنك أن تجد هذه الفيروسات أينما نظرت إلى طيور الماء المهاجرة».

وبينما يصاب البشر بالعدوى من استنشاق الفيروس، فإن طيور الماء تصاب عن طريق البراز - الفم. إنها تسكب كميات هائلة من الفيروس في برازها، ومما يثير العجب ان الفيروس يمر من طير لآخر دون أن يسبب المرض.

.ويستطرد قائلاً: «هذه الطيور تحوي خمسة عشر نوعاً من فيروسات الأنفلونزا A.. لكنها لا تمرض».

إن تنوع الفيروسات في هذه الطيور يشير إلى تاريخ مشترك طويل من الارتقاء. بالإضافة لهذا يبدو أن الجينات في فيروسات الطيور تلك متوقفة عن التطور، ومتكيفة تماماً مع عائلها بحيث لا تقدم لها التحولات الجديدة أية مزية، ولهذا لا تشجعها. يواصل (وبستر):

«هذا في حد ذاته يؤكد لي أننا وجدنا المستودع الرئيس للفيروس. إن الفيروسات لا تكسب الكثير من قتل عائلها، وحين يكون لفيروس تاريخ طويل في حيوان ما، فمعنى هذا أنه وصل إلى معاهدة سلام مع الجهاز المناعي للحيوان، فلا يسبب إلا مرضاً طفيفاً».

تأتي المشكلة حين يصل الفيروس إلى الطيور المدجنة مثل الدجاج والديك الرومي وهي طيور لم يتكيف عليها.. هنا ينتزع الفرامل التي توقف تطوره. وتصيب الفيروسات عائلها الجديد بالمرض فتستجيب الأنظمة المناعية ومن ثم يتحول الفيروس لتفادي النظام المناعي. ربما يقتل عائله كذلك.

وقد حدث في التسعينيات. على سبيل المثال. أن ظهر وباء عنيف في الدجاج المكسيكي، وتم تتبعه إلى سلالة أنفلونزا تشبه تماماً تلك التي تصيب طيور الشاطئ من دون أن تؤذيها. وتسببت أوبئة الأنفلونزا كذلك في خسائر ضخمة في مزارع الدواجن في الولايات المتحدة، أكثرها يحتشد حول مسار طيور الماء المهاجرة. يمكن أن تبلغ المشكلة المدن كذلك. ففي ديسمبر عام ١٩٩٧ وبينما كانت هونج كونج تعاني الفيروس H5N1، كانت (نيويورك) تغلق وتنظف أسواق طيورها مؤقتاً، بسبب انتشار فيروس طيور آخر هوH7N2 إن فيروسات H7 مثلها مثل H5 مشهورة بتحولها إلى طواعين دجاج مخيفة. إن الموظفين في نيويورك يصرحون بسرعة أن H7 لم يسبب قط تهديداً للبشر. لكن نفس الشيء قيل بالطبع عنH5 حتى العام الماضي؛ حين حدث ما حدث في هونج كونج.



و يقول (إدوين د. كيلبورن) عضو لجنة التخطيط للأوبئة بالمعهد القومي الأمريكي للصحة:

«أنا الآن أشعر بالخطورة أكثر مما كنت قبل موضوع هونج كونج. لقد رأينا ما يستطيع فيروس طيور أن يفعله».

كانت هناك أدلة منذ وبائي عامي ١٩٥٧ و١٩٦٨ على أن الأنفلونزا الوبائية تسببها الفيروسات البشرية التي استبدلت بجيناتها بعضاً من جينات الطيور.. غالباً طيور الماء. لكن التقاط العدوى من الخنازير بدا أكثر احتمالية. فعلى حين لا يحمل البشر مستقبلات لفيروسات الطيور على خلاياهم فإن الخنازير تحملها. وسادت نظرية أن أنفلونزا الطيور تصير أكثر تكيفاً مع البشر لو مرت بعائل وسيط كالخنزير. والخنازير في مزارع آسيا (حيث نشأ وباء ١٩٥٧ و١٩٦٨) تكون غالباً موجودة مع البط والدجاج. ولدى الخنازير مستقبلات لأنفلونزا البشر كذلك. لهذا قد يستنشق الخنزير فيروسات الطيور في الماء أو الفضلات، أو يستنشق فيروساً بشرياً من فلاح يسعل، ثم يصير وعاء يخلط فيه الفيروسان. ومن هنا يهاجم الفيروس الناتج البشر المجاورين.

وما أظهره وباء (هونج كونج) حتى الآن هو أن القفزة من الطيور إلى البشر مباشرة أمر ممكن. ولربما لم تكن الخنازير مهمة كما كنا نعتقد. من ناحية أخرى، فإن نظرية (الخنزير - الوعاء) مغرية وقد تأيدت ببعض ملاحظات: في العام ١٩٩٣ اختلط فيروس البشر H3N2 ونسخة طيور من الفيروس H1N1 في الخنازير الأوروبية، فنتج عن هذا فيروس أصاب طفلين في هولندا. لكن طبقاً لما يقوله (يوشيهيرو كاواوكا) عالم الفيروسات في جامعة (وسكونسين) في (ماديسون)، لا توجد أدلة مباشرة على أن الخنازير كانت متورطة في أنفلونزا البشر عامي ١٩٥٧ و١٩٦٨.

لهذا من يعطى ماذا؟.. ولمن ؟.. ربما كانت فيروسات الطيور مسئولة عن الوباءين الأخيرين، لكن أقرب شيء لأنفلونزا ١٩١٨ الأسبانية هو فيروس يبدو كفيروس الخنزير H1N1 الذي ظهر أول مرة عام ١٩١٨، ومازال في الخنازير حتى اليوم. وحسب التاريخ المدون، فإن البشر مرضوا أولاً، مما يوحي بأن البشر نقلوا الفيروس للخنازير. لابد أن هذا القاتل العالمي الذي ظهر من ثمانين عاماً هو الأنفلونزا التي نحاول فهمها. للأسف أيضاً هو الأكثر صعوبة في القبض عليه. ففي عام ١٩١٨ لم يكن هناك أحد يعرف ان الأنفلونزا يسببها فيروس، لذا ضاع المسبب من البداية. وفي الثلاثينيات حين عرف العلماء أن فيروساً هو المشتبه فيه، كان فيروس ١٩١٨ المميت قد رحل. أو حسبنا هذا حتى عام ١٩٩٧ حين بدأ الباحثون يعيدون إحياء هذا الشبح الجيني.

لقد مسحت الأنفلونزا الأسبانية العالم على موجتين. خلال موجة الربيع كانت معدية جداً لكن أقل شراسة. وحين بدأت موجة



...ومـــن الدجـــاج مـا قتـــل!



الخريف راح الفيروس يقتل الناس، خاصة الشباب، في جماعات. وكان لدى (جيفري تاوبنبرجر باحث الفيروسات في المعهد العسكري لعلم الأمراض بواشنطن) سؤالان: من أين جاء الفيروس ؟ ولماذا توحش فجأة؟

كان أول ما قام به هو البحث عن عينات من أنسجة ضحايا عام ١٩١٨ ومن بين ٧٠ عينة لم يجد الـRNA الخاص بالأنفلونزا إلا في حالتين. «العينة الأولى كانت لمجند عمره ٢١ سنة من (فورت جاكسون) ومن المدهش أنه توفى يوم ٢٦ سبتمبر عام ١٩١٨، وهو نفس اليوم الذى مات فيه زميله في (كامب أوبتون) بـ(نيويورك). الثاني مات خلال ثلاثة أيام بأوديما رئوية.. رئتاه غرقتا في السوائل تماماً ».

أظهرت دراسته الأولى التي انصبت على أجزاء من جين مولد التجلط في حمض RNA الذي وجده في الضحية الأولى، والذي بدا تماماً كفيروس الخنزير H1N1. وما زال يبدو كجين ثديي حتى اليوم حتى أنه أمكن معرفة ترتيبه. ويضيف (تاوبنبرجر): «إنه أقرب فيروس ثديي لفيروسات الطيور.. لهذا من المحتمل أنه جاء من طائر.. لكن السؤال هو منذ متى ؟».

ويمكن إيجاد دليل من دراسة أجسام الأنفلونزا المضادة في دماء الناس الذين عاشوا لدى بدء القرن. لربما كان بعض الناس لديهم أجسام مضادة لفيروس H1N1 جاءت من الأسلاف حوالي العام ١٩٠٥ ولربما راح الفيروس يتسلل خلسة لعدة أعوام قبل ظهور الوباء الأسباني. لربما تسلل إلى الناس لكنه لم يستطع الانتقال بسهولة أو بسرعة. لقد احتاج إلى وقت حتى يتعلم مهاجمة البشر.

يقول (تاوبنبرجر) متأملاً: «ترى هل رأينا شيئاً كهذا في هونج كونج ؟. لربما كان ما حدث في هونج كونج مؤخراً يكرر ما حدث عام ١٩٠٥ .. إن الأمر يستحق التفكير».

من ناحية أخرى لم يكن فيروس ١٩١٨ شبيهاً بفيروس طيور هونج كونج. في فيروسات الدجاج H5 وH7 يؤدي تحول بسيط في جين مولد التجلط، إلى أن ينقلب فيروس هادئ الطباع لقاتل مميت. هذا التحول يسمح للفيروس بالوصول إلى خلايا خارج مجاله الطبيعي.. ليس فقط في أمعاء الطيور وجهازها التنفسي ، بل قلبها وكليتها ومخها. هذا التحول المخيف كان من العلامات المميزة لفيروس الطيور الذي سبب مرضاً شديداً وقتل ثمانية عشر شخصاً في هونج كونج، لكن (تاوبنبرجر) وجد أن فيروس ١٩١٨ افتقر لهذا التحول.

ليس معنى هذا أن التحولات التي تزيد الشراسة لا توجد في أماكن أخرى. وقد حصل (تاوبنبرجر) على مصدر آخر من فيروسات ١٩١٨ ليفحصها. ففي العام ١٩٩٧ سافر (جون هالتين). وهو عالم أمراض متقاعد من سان فرانسسكو. إلى (بريفيج). وهي قرية في ألاسكا قضت عليها الأنفلونزا تقريباً عام ١٩١٨. وبعد أخذ إذن أهالي القرية وبمساعدة رجال الشرطة، فتح قبور ضحايا الأنفلونزا الذين دفنوا في الجليد، آملاً في أخذ عينات من الرئتين. من بين هؤلاء كانت امرأة شابة بدينة «ترقد على ظهرها وقد تحولت يداها لعظام.. لكن حالة باقي الجثة كانت جيدة لشدة عجبي. جلست على الأرض وقلت لنفسي: هذا هو المكان الذي سنجد الفيروس فيه، ليكشف السر عن وباء ١٩١٨». صارت هذه الشابة مفتاح (تاوبنبرجر) لتتبع جينات الفيروس. لقد ساعدت طبقة الدهن في جلدها على حفظ نسيج رئتيها ٧٩ عاماً.

جلب نجاح (تاوبنبرجر) و(هالتين) حماساً لمزيد من الحملات إلى الشمال القطبي في اغسطس. وتحت قيادة (كيرستي دونكان). وهو جغرافي كندي، سافر الفريق إلى (سبيتزبرجن) شمالي النرويج، لاستخراج أجساد ستة عمال مناجم ماتوا عام ١٩١٨. أظهرت دراسات الرادار الاختراقية للأرض أن قبورهم تحت خط الجليد الدائم. وبرغم ان أحتمالات العثور على فيروس حي في رئاتهم كانت معدومة، فإن الفريق ارتدى ثياباً واقية.

حين تم العثور على القبور كانت فوق طبقة الجليد الدائم. يقول (وبستر): «الأخبار الطيبة هي أننا ظفرنا بعدة عينات .. الأخبار السيئة هي أن الأنسجة لم تكن متجمدة». في أفضل الأحوال يجد الباحث نفسه أمام أجزاء صغيرة. إلى حد يثير الجنون. من حمض RNA الوراثي، تحتاج إلى عامين حتى تصل إلى «ما وصل إليه (جيفري) الآن». يقول (تاوبنبرجر) إنهم لو وجدوا فيروساً حياً في (سبيتزبرجن) لاحتاجوا إلى أسبوع او اثنين لمعرفة تتابع الجينوم الوراثي كله. وخلال أسابيع كان الفريق سيصل إلى معرفة جينات واحد من اكبر السفاحين على وجه الأرض، وربما عرف مصدره.



وحين تمكنت السلطات الزراعية في هونج كونج عام ١٩٩٧ من استخلاص الفيروس القاتل للدجاج، تبين أنه H5 وتم نقله إلى مختبر مؤمن في الولايات المتحدة. وحين وجد موظفو الصحة العامة فيروساً غامضاً لدى طفل مريض، أرسلوه إلى الباحثين الهولنديين المهتمين بالفيروسات الغريبة. وحين اتضح أن فيروس الدجاج هو المسبب لمرض البشر ، فعلت الحكومة ما كان عليها أن تفعله: أغلقت الأسواق، وقتلت الطيور بالغاز. ليس الدجاج فقط بل البط والإوز والطيور المائية التي ربما نقلت لها العدوى (أقرب مولد تجلط في فيروس هونج كونج تم العثور عليه في إوزة صينية). لقد حدثت تغيرات عظمى في نظام التجارة العالمي. مثلاً يتم اختبار الدجاج القادم من جنوب الصين مرتين على جانبي الحدود. ولم يعد مسموحاً بخلط الدجاج مع البط أو الأوز. وفي تطور هائل للعادات الصينية، صارت الطيور المائية تؤخذ لسوق منفصل، وتقتل مقدماً وتباع متبلة.

ولكي نقلل فرص انتقال فيروس الحيوانات إلى البشر، من الجوهري أن نعرف أي الفيروسات يجلب المتاعب، وأين هي. ولمدة عقود ظل العلماء يختزنون السلالات المهمة في ثلاجاتهم والآن حان وقت فتح هذه المكتبات، ومعرفة شجرة عائلتها. وقد جرب الهولنديون اختبارات سبق لـ (وبستر) إجراؤها كي يتعرفوا فيروس الأنفلونزا في طفل هونج كونج. لكن الخبرات التي اكتسبناها من هونج كونج تبين أن مستويات المسح الصحي الحالية ليست جيدة بما يكفي.

على الأرجح سوف يتضح أن المخزن الأمثل لفيروس دجاج هونج كونج موجود في الطيور المائية المهاجرة. يقول (وبستر): «ليس بوسعك قتل كل البط والطيور المائية في العالم .. هذا غير معقول.. هذا يجعلك تدرك أن الأنفلونزا مرض غير قابل للاستئصال».

وتستطيع مضادات الفيروسات أن تعمل ضد الأنفلونزا لكن أفضل سبل الحماية هي اللقاح. ما زال اللقاح الأفضل هو الذي يشبه الفيروس الأصلي كثيراً لكنه أكثر أمناً. وحتى هذه اللحظة لا يوجد شبيه آمن لفيروس أنفلونزا الطيور.

يسأل (وبستر): «هل لدينا لقاح على الرف إذا احتجنا إليه ؟.. لا .. ولم لا ؟.. لأننا لم نجد فيروساً بديلاً يصنع لقاحاً. ولماذا ؟.. لأننا لم نجر المسح اللازم .. لابد من البحث في كل جنوب شرق آسيا».

وفي لقاء لمعهد الصحة القومي، ناقش علماء الفيروسات وإداريو الصحة العامة الحاجة إلى إجراء مسح في المستقبل. ويجب أن تكون اللقاحات جاهزة ضد الأنواع الفرعية الخمسة عشر. حتى لا يأخذنا H5 على حين غرة».

الآن يلتقط الباحثون انفاسهم وقد سرهم أن H5N1 قد قتل في مهده، لكن (وبستر) يشعر بأن قفزة أخرى من الطيور للإنسان ستحدث في المستقبل القريب. ويضيف «وباء هونج كونج كان إنذاراً مما قد يحدث .. كان هذا سفاحاً. مثل وباء ١٩١٨. متجهاً إلى طريقه».■

مرت بعالمنا ثلاثة أوبئة أنفلونزا شاملة خلال القرن العشرين. أسوأها حتى الآن هو ما يطلق عليه الأنفلونزا الأسبانية عام ١٩١٨. فقد أصيب كل فرد على ظهر الأرض تقريباً بالوباء، وهلك ثلاثون مليوناً، وهم أكثر بكثير من قتلى الحرب العالمية الأولى

الوبـــاء الـــذى لـــم يكـــن

■■ فى شهر يونيو/حزيران الماضى قررت منظمة الصحة العالمية التابعةللأمم المتحدة، فى استجابة لتفشى فيروس H1N1، أو أنفلونزا الخنازير، رفع تحذير الوباء إلى أعلى المستويات، أو المرحلة٦ التى تعنى استمرار تفشى الوباء. للمرة الأولى منذ ٤١ عاماً تتخذ المنظمة هذه الخطوة المعلنة. ولكن يبدو أن الوباء كان أقل انتشاراً من توقعات منظمة الصحة العالمية بشكل واضح.

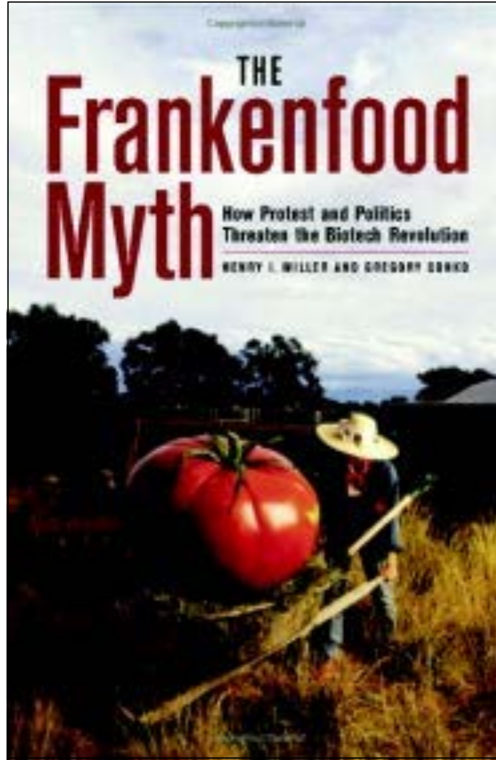
والواقع أن منظمة الصحة العالمية خالفت على نحو متكرر تحذير شيرلوك هولمز: إنه لخطأ فادح أن تبدأ التنظير قبل أن تتجمع لديك كافة الأدلة». ومن الواضح أن التحذير من الوباء كان عجيباً على مستويين، ذلك أن الأنفلونزا الموسمية العادية التى تجتاح العالم سنوياً أكثر فتكاً من فيروس H1N1 الحالى الأقل حدة وضراوة، ولا شك أنها تتفق مع تعريف منظمة الصحة العالمية للوباء: انتشار العدوى على نطاق جغرافى واسع وتأثيرها على قسم كبير من السكان.

ومن عجيب المفارقات هنا أن ظهور أنفلونزاH1N1 أثناء الأشهر التسعة الماضية ربما يشكل فى إجماله منفعة صحية خالصة. إذ يبدو أنه كان سبباً فى إخماد أو على الأقل تراجع سلالات الأنفلونزا الموسمية الأكثر ضراوة وفتكا. ففى خلال الأسبوع الثانى من يناير/كانون الثانى أثبتت الاختبارات إصابة ٣.٧٪من الأميركيين بالأنفلونزا الموسمية، مقارنة بحوالى ٥.١١٪ أثناء نفس الأسبوع من نفس الشهر فى عام ٢٠٠٩. والإجمالى الرسمى لعدد الوفيات الناجمة عن الإصابة بفيروس H1N1 كان أقل من ١٤ ألف، فى حين تقتل الأنفلونزا الموسمية حوالى ٣٦ ألفاً فى المتوسط فى الولايات المتحدة ومئات الآلاف فى أماكن أخرى من العالم.

إن أغلب خبراء الأنفلونزا والصحة العامة يرون أن منظمة الصحة العالمية بالغت فى إثارة المخاوف وترويع الناس بلا ضرورة. وكان القرار الذى اتخذته المنظمة فى إبريل/نيسان ٢٠٠٩ برفع تهديد وباء الأنفلونزا إلى المستوى ما قبل الأخير، أو المرحلة الخامسة (الاجتياحالوبائى الوشيك)، كان سابقاً كثيراً للبيانات المتراكمة، وكذلك كان إعلان المرحلة السادسة فى يونيو/حزيران، والذى كشف بوضوح أن النموذج الذى تستند إليه منظمة الصحة العالمية معيب على نحو جوهرى. ذلك أن نظام التحذير الذى يستند إلى مدى انتشار الفيروس فقط، ولا يضع فى الحسبان طبيعة أو شدة المرض الذى يسببه، لابد وأن يُدرج تحت تصنيف «الوباء»، ليس الأنفلونزا الموسمية فحسب، بل وأيضاً حالات البرد والتهاب المعدة والأمعاء الناتجة عن فيروسات، على سبيل المثال، والتى تنتشر على نطاق واسع رغم ضآلة خطورتها. (لم تفسر لنا منظمة الصحة العالمية لماذا لا تعتبر هذه الأمثلة الواضحة مطابقة لمعاييرها).

إن الإنذارات الكاذبة تجعل وصف «الوباء المنتشر» بلا معنى تقريباً وتقلل من فرص الاستفادة منه. وهذا بدوره يقود إلى عواقب مهمة، كما لاحظ جاك فيشر أستاذ الجراحة فى كلية الطب بجامعة كاليفورنيا فى سان دييجو»: إذا استمرت منظمة الصحة العالمية فى الصراخ محذرة من الذئب فمن المنطقى أن تتوقع قدراً من الامتثال أقل من المعتاد من جانب الناس فى الإقبال على اللقاح فى الخريف القادم.» ولنتخيل معاً ماذا قد يحدث حين نواجه مرضاً جديداً خطيراً بالفعل، مثل السلالةH5N1 من أنفلونزا الطيور، التى تنتقل بسهولة بين البشر) والتى تبلغ معدلات الوفاة الناجمة عنها فى هيئتها الحالية مائة ضعف معدلات الوفاة الناجمة عن الفيروسH1N1.

كما أدت إنذارات الأمم المتحدة الكاذبة إلى عواقب سلبية فورية. فطبقاً للمدير الإدارى لمجلس تصدير السياحة الأسترالى ماثيو هينجرتى، خسرت البلاد الآلاف من السياح بسبب إعلان منظمة الصحة العالمية عن الوباء. وفى مصر بالغت السلطات الصحية فى استجابتها للوباء فأمرت بقتل كل الخنازير فى البلاد. وفضلاً عن الخسائر الاقتصادية المباشرة، ولأن الخنازير التى كانت تستهلك كميات ضخمة من القمامة فى القاهرة لم تعد متوفرة، فقد ارتفعت أعداد القوارض فى المدينة إلى مستويات مخيفة.



كما أدت الدعاية والذعر الناتج عن إعلان منظمة الصحة العالمية للمرحلتين الخامسة والسادسة من تحذيراتها. وخاصة فى غياب اللقاح الكافى (حتى شهر ديسمبر/كانون الأول). إلى ظهور محتالين يبيعون كافة أنواع المعدات الواقية غير الفعالة بل والتى قد تكون خطيرة: القفازات، والأقنعة، والمكملات الغذائية، والشامبو، ومطهرات الأنف، والرذاذ الذى من المفترضأن يغطى الأيدى بطبقة من «الفضة الأيونية» المقاومة للميكروبات.

ولكل هذه الأسباب فإن الإعلان عن انتشار وباء ما لا يجوز أن يكون مجرد توقع أو تكهن، بل لابد وأن يكون تصويراً لواقع حقيقى.

كان أداء منظمة الصحة العالمية موضوعاً للانتقاد على نطاق واسع: ففى الثانى عشر من يناير/كانون الثانى أكدت الجمعية البرلمانية لمجلس أوروبا، على سبيل المثال، أنها تعتزم مناقشة «الأوبئة الكاذبة باعتبارها تشكل تهديداً للصحة» فى وقت لاحق من هذا الشهر. ورغم ذلك فما زال مسؤولو منظمة الصحة العالمية مستمرين فى الدفاع عن تحركاتهم. ففى دعوته إلى عقد مؤتمر صحافى فى الرابع عشر من يناير/كانون الثانى مع مراسلى الصحف وأجهزة الإعلام المختلفة، قال كيجى فوكودا، المستشار الخاص للمدير العام لمنظمة الصحة العالمية، إن المنظمة لم تبالغ فى تقدير حجم المخاطر بل إنها «كانت تستعد لأسوأ السيناريوهات وترجو أفضلها».

إن القرارات المشبوهة التى اتخذتها منظمة الصحة العالمية تبين لنا أن المسؤولين القائمين عليها إما أشد جموداً مما ينبغى أو غير أكفاء (أو الاثنين معا) إلى الحد الذى يجعلهم عاجزين عن إجراء التعديلات الضرورية لنظام التحذير من الأوبئة. وهو ما بتنا نتوقعه من منظمة تفتقر إلى الكفاءة العلمية، وتعانى من فرط الثقة بالذات والشعور بالأهمية، فضلاً عن عدم خضوعها للمساءلة. وقد تكون منظمة كهذه قادرة على القيام بعمليات رقابة عالمية. مثل إحصاء عدد حالات الإصابة والوفيات. أما دورها السياسى فلابد وأن يكون مقيداً بشكل جذرى.

هنرى ميللر طبيب وعالم فى مجال البيولوجيا الجزيئية، وباحث سابق فى مجال الأنفلونزا. وهو زميل معهد هوفر بجامعة ستانفورد، ومعهد المشاريع التنافسية. وكان مسؤولاً رسمياً فى حكومة الولايات المتحدة أثناء الفترة ١٩٧٧-١٩٩٤. ■

هنــــــــرى ميـــــــللـــر
Henry I. Miller

Henry I. Miller, is a physician and molecular biologist and a fellow at Stanford University's Hoover Institution. He was the founding director of the Office of Biotechnology at the U.S. Food & and Drug Administration. His most recent book is *The Frankenfood Myth: How Protest and Politics Threaten the Biotech Revolution*. Westport, CT: Praeger, 2004.

ترجمة: هند على

2010 - 2001

أرقـــــام

■ ■ لم ينته العقد الأول من القرن الواحد والعشرين، إلا وكان جوليان أسانج ناشط الانترنت، قدأطلق موقعه الشهير wikileaksالذى مثل «بالمعلومات»، ـ وبالآلية التى أصبحت متوافرة للكافة لإتاحتها ـ تهديدا حقيقيا لدبلوماسية الدولة الأكبر فى العالم، ورغم أن مجلة Time، رغم كل التوقعات، لم تختره ليحتل غلافها كشخصية للعام ٢٠١٠، إلا أن الواقع أنه ترك الغلاف على أية حال لشخصية تنتمى إلى الميدان ذاته؛ مؤسس facbook مارك زوكربيرج (٢٥ عاما). وكانت الـ Timeفاجأت الجميع بأن اختارت مستخدم الانترنت كشخصية للعام ٢٠٠٦، وحمل يومها غلافها المميز جدا «مرآة» على شاشة كمبيوتر مع كلمة واحدة YOU.

إنه حقا عصر المعلومات أو عصر الانترنت، سمه كما شئت. تأثرت به السياسة والحرب، والصناعة والاقتصاد. والأدب والعلوم، والنشر والعلوم، والعلاقات الاجتماعية والأسرية، والحب.. بل والجنس.

لكى ندرك إلى أين وصلنا فى هذا العصر، أو بالأحرى، إلى أين وصل بنا مع نهاية هذا العقد، هذه مجموعة من الأرقام لحالة الانترنت سنة ٢٠١٠:

البريد الإلكترونى

■ ١,٨٨ مليار مستخدم للبريد الإلكترونى.
■ معدل الرسائل اليومية وصل إلى ٢٩٤ مليار رسالة بريد الكترونى.
■ ١٠٧ ترليون رسالة بريد الكترونى تم إرسالها فى عام ٢٠١٠
■ ٨٩,١٪ نسبة البريد الالكترونى غير المرغوب فيه spam

المـــــواقــــــع:

■ ٢٥٥ مليون موقع موجود على الشبكة فى نهاية عام ٢٠١٠
■ ٢١,٤ مليون موقع تمت إضافتها فى عام ٢٠١٠
■ ١٥٢ مليون مدونةBlog (as tracked by BlogPulse)

الــنــطــاقــات:

■ وصل عدد نطاقات (.com) إلى ٨٨,٨ مليون نطاق
■ ١٣,٢ مليون لنطاق (.net)
■ ٨,٦ مليون لنطاق (.org)
■ ٧٩,٢ مليون نطاق تستخدم نطاقات الدول (eg,uk..etc)

مستخدمو الإنترنت

■ ١,٩٧ مليار مستخدم حتى شهر يونيو ٢٠١٠
■ ٨٢٥,١ مليون مستخدم من آسيا
■ ٤٧٥,١ مليون من أوروبا
■ ٢٦٦,٢ مليون من أمريكا الشمالية
■ ١١٠,٩ مليون من أفريقيا
■ ٦٣,٢ مليون من الشرق الأوسط.
■ ٢١,٣ من أستراليا

الشبكات الاجتماعية:

■ ٢٥ مليار رسالة تويتر twitter فى عام ٢٠١٠
■ ١٠٠ مليون حساب جديد لتويتر فى عام ٢٠١٠
■ ١٧٥ مليونا لديهم حسابات فى twitter فى سبتمبر ٢٠١٠
■ ٧,٧ مليون متتبع لليدى جاجا على تويتر
■ ٦٠٠ مليون مشترك فى facebook بنهاية عام ٢٠١٠
■ ٢٥٠ مليون مشترك بالفيس بوك تمت إضافتها فى عام ٢٠١٠
■ ٣٠ مليار موضوع (links, notes, photos, etc) تتم مشاركتها شهريا بين مستخدمى facebook

الــفــيــديــو:

■ ٢ مليار مشاهدة لمقاطع فيديو على YouTube يوميا
■ ٣٥ ساعة مدة مقاطع الفيديو المرفوعة إلى اليوتيوب فى كل دقيقة
■ أكثر من ٢ مليار فيديو تتم مشاهدتها شهريا عن طريق facebook
■ ٢٠ مليون فيديو يتم رفعه إلى facebook شهريا.

الـــصــــــور:

■ ٥ مليارات صورة فى موقع Flickr بنهاية شهر سبتمبر ٢٠١٠
■ أكثر من ٣ آلاف صورة يتم رفعها إلى Flickr فى الدقيقة
■ أكثر من ٣ مليارات صورة يتم رفعها إلى facebook شهريا.

Data sources and notes:
- Spam percentage from MessageLabs (PDF).
- Email user numbers and counts from Radicati Group (the number of sent emails was their prediction for 2010, so it's very much an estimate).
- Website numbers from Netcraft.
- Domain name stats from Verisign and Webhosting.info.
- Internet user numbers and distribution from Internet World Stats.
- Facebook stats from Facebook and Business Insider.
- Twitter stats from Twitter, TwitterCounter and TechCrunch.
- Web browser stats from StatCounter.
- YouTube video numbers from Google.
- Facebook video numbers from GigaOM.
- Flickr image numbers from Flickr.
- Facebook image numbers from pigdom blog.



















أعداد الثورة ١

وجهات نظر

الكتب

في الثقافة والسياسة والفكر

Weghat Nazar - Volume 13 - Issue 145 - (February - March - April) 2011 مجلة شهرية العدد ١٤٥ - السنة الثالثة عشرة - (فبراير-مارس- أبريل) ٢٠١١ - الثمن عشرة جنيهات

مصر تتغير

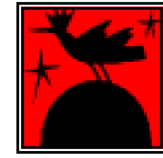
- سقط مبارك.. فهل سقط النظام؟ أيمن الصياد ورباب المهدي
- هل يمكن حقًا إعادة الأموال المنهوبة؟ سليمان عبد المنعم وياسر طنطاوي
- ماذا ستفعل واشنطن بعد مبارك؟ ريتشارد هاس ونصير عروري



السنة الثالثة عشرة
العدد ١٤٥
فبراير ٢٠١١

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر


تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- آنا لوى سوزمان.. صحفية أمريكية متخصصة فى شؤون الشرق الأوسط
- أحمد بهاء الدين شعبان.. مهندس وكاتب سياسى، من قيادات اليسار المصرى
- أشرف عاشور.. مهندس وكاتب مهتم بالتاريخ المصرى
- إيان بوروما.. أستاذ الديموقراطية وحقوق الإنسان فى كلية بارد
- أيمن الصياد.. صحفى
- بشير نافع.. باحث وكاتب عربى
- جيفرى ساكس.. أستاذ الاقتصاد ومدير معهد الأرض بجامعة كولومبيا
- دانى رودريك.. أستاذ الاقتصاد السياسى الدولى بجامعة هارفارد
- رباب المهدى.. أستاذة للعلوم السياسية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة
- ريتشارد هاس.. رئيس مجلس العلاقات الخارجية - واشنطن
- سليمان عبد المنعم.. أستاذ بكلية الحقوق - جامعة الإسكندرية
- شرين يونس.. صحفية مصرية مقيمة فى الإمارات
- مايكل شوارتز.. أستاذ الاجتماع فى ستونى بروك
- محمد بيلى العليمى.. كاتب مصرى
- نادية حجاب.. المدير المشارك لشبكة السياسات الفلسطينية
- نصير عرورى.. أستاذ العلوم السياسية فى جامعة ماساشوستس درتموث
- ياسر طنطاوى.. مستشار فى الأمن المعلوماتى

رسوم العدد

Martin Sutovec - Marca Agua





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب - القاهرة - جمهورية مصر العربية
ت: ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

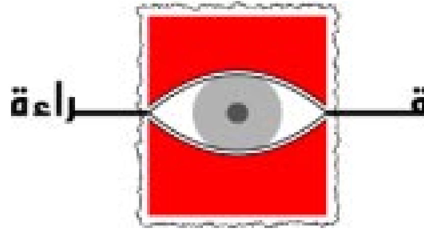
الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا - أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا - باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى - ص. ب: ٣٣ البانوراما - مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ - subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية - السعودية ١٥ ريالاً - الكويت ١,٥ دينار - الإمارات ١٥ درهما - مملكة البحرين ١,٥ دينار - قطر ١٥ ريالا - سلطنة عُمان ١,٥ ريال - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا ديناران - الجزائر ٣٠٠ دينار - المغرب ٣٠ درهمًا - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال - فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



«الشعب يريد..»

فهل حقا سقط النظام (؟)

أيمن الصياد



سقط الرجلُ إذن غيرَ مصدقٍ «وإن انفلق البحر..» وكان طبيعيًا ومنطقيًا أن يصبح سؤال اليوم التالى: إن كان مبارك قد سقط، فهل سقط النظام؟



■■ كان اليوم الثلاثين من يناير، السادس من أيام ثورة تميزت فى ملامحها وصورها وتفاصيلها الصغيرة. وكان الشعارُ الذى أصبح تجسيداً و«تلخيصًا» لكل الشعارات والمطالب، قد أخذ مكانه فى صدارة المشهد أصواتًا تهتف، ولافتات تحسم «الشعب يريد إسقاط النظام».

يومها لم يكن أحدٌ يعرف إلى أين ستسير الأمور بين عناد قصرٍ لايريد أن يصدق، وصمود شارع لايمكنه أن يتراجع.

كان قرارُ لجوء القصر إلى اعتماد القوة أيا ماكان مداها غير المسبوق، أو نتائجها غير المحسوبة، قد بات واضحًا مكتوبًا بالدماء، وكان قرارُ الخارجين إلى الشوارع فى اعتماد «الطريق ذى الاتجاه الواحد» تسهل قراءته لكل من يتابع twitter أو يشاهد «الجزيرة مباشر»، أو يطل على الميدان المزدحم من نافذة «مروحية» لم تحلق فى سمائه بالتأكيد ظهيرة هذا اليوم لغير هذا الغرض.

يومها كانت الأجواء على كل صعيد متوترة. كان الكثيرون ـ هنا وهناك ـ لا يعرفون أين يضعون أقدامهم، إن فى وسائل إعلام تخبطت رسائلها، أو فى عواصم العالم التى لم تكن تعرف ـ أو تصدق ـ إلى أين تسير الأمور، فترددت، وتباطأت.. وتأخرت.

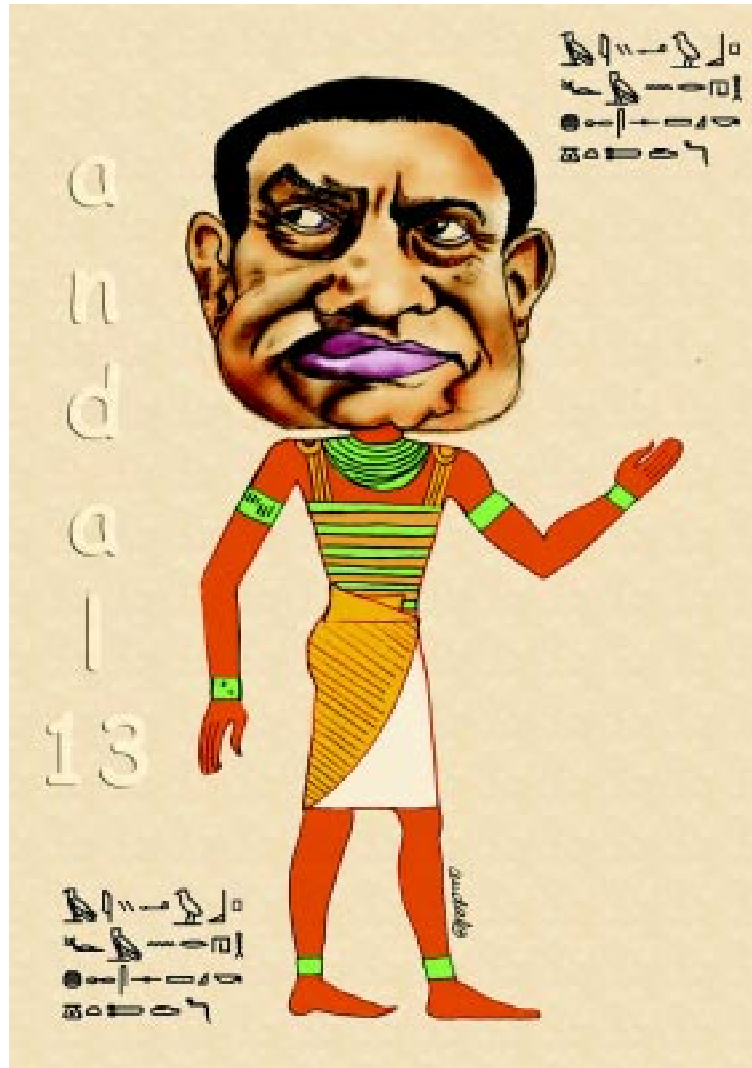
وحدهُم الملايين الذين كانوا فى الميدان كتلة «واحدة» من البشر؛ بطوائفها وتياراتها وألوانها تحت علم واحد، كانوا يعرفون طريقهم، أو على الأقل كانوا يعرفون مايطلبون: «الشعبُ يريد إسقاط النظام».

أيامٌ مضت.. نعرف قدرا ضئيلا من تفاصيلها. وفى اليوم الحادى عشر للعناد والاستكبار «والإنكار» ذهب مبارك، بغض النظر عن التباينات فى توصيف هذا الذهاب؛ خروجًا أم إخراجًا، توافقًا أم اتفاقا.. إجبارًا أم امتثالاً للبديل الذى لابديل له. لم يكن هذا وقت التفاصيل على أية حال. فـ«الصندوق الأسود» مازال فى أعماق بحر التاريخ العميق. وربما «ليس كل ما يُعرف يُقال.. أو ليس كل مايُقالُ جاء أوانه». إلى آخر حكمة الإمام على رضى الله عنه.

أيا ماكان الأمر، وأيا ماكانت التفاصيل التى سيأتى وقت روايتها يوما ما، فالرجل «سقط» مساء ذلك اليوم الذى ردد فيه أربعة ملايين؛ مسلمين ومسيحيين «دعاءَ القنوت» خلف شيخ ـ رغم شهرته ـ لم يتخيل يوما أنه سيقف من الله والناس هذا الموقف.

سقط الرجلُ إذن غيرَ مصدقٍ «وإن انفلق البحر». لتحل الأهازيجُ ليلتها محل الهتافات، والأغانى محل الشعارات.. ومن بينها بالضرورة شعار المطلب الأهم؛ الجامع لكل المطالب والشعارات: «الشعبُ يريدُ اسقاط النظام». وكان طبيعيًا ومنطقيًا أن يصبح سؤال اليوم التالى: إن كان مبارك قد سقط، فهل سقط النظام؟





القارئ لـ«دفتر أحوال» مصر فى العقود الثلاثة الماضية لابد أن يستشعر خطرَ الركون إلى إنجازٍ تمثل فى إخراج الرئيس، وخطرَ اختزال القضية فى خطوةٍ على أهميتها ليست كافية للانتقال بمصرَ إلى عصر جديد. أنا من الذين يعتقدون بعمق «حكمةً فطرية» تتبدى فى ما ينتجه هذا الشعب من عبارات ونكتٍ وأمثال شعبية. والذى يجلس فى المقاهى، ويركب المواصلات العامة، ويتصفح الانترنت، سيدرك بالضرورة أن الذى طالب به المحتجون من أسوان جنوبا إلى الإسكندرية شمالا، ومن «الشيخ زويد» شرقًا إلى الوادى الجديد غربًا لم يكن فقط إخراج الرئيس «على أهميته»، وإنما إسقاط النظام، الذى صنعه الرئيس، أو سمح به؛ تدبيرًا، أو غفلة.. أو بغض الطرف طمعًا أو جهلا. والذى تراكمت ملامحُه على مدى ثلاثة عقود كاملة:

النظام الذى بناه بدأ بـ«كهنةُ الفرعون»؛ يعدلون الدستور عام ١٩٨٠، ليسمح بتأبيد الحكم فى شخص الرئيس (السادات وقتها)، ثم ـ لاعتباراتِ المظهر «الخارجى» ـ يُجرون له جراحةَ تجميلية (فى ٢٠٠٥، ثم ٢٠٠٧) لا تُخفى رغم المساحيق حقيقة أنها «حيكت» بمهارة تضمن أن «يظل الرئيسُ رئيسا».

النظام الذى خرج ثوار يناير لإسقاطه، هو النظام الذى سمحَ بالاعتداء على القضاة (٢٠٠٦) لأنهم طالبوا باستقلال القضاء. وسمحَ بالاعتداء على أساتذة الجامعات، لأنهم طالبوا باستقلال الجامعات. وكوفئَ فيه رئيس جامعة فأصبح وزيرا،

سقط مبارك مساء ذلك اليوم الذى ردد فيه أربعة ملايين؛ مسلمين ومسيحيين «دعاء القنوت» رافعين أكفهم «جميعا» إلى السماء



لا لشىء إلا لأنه سمح للأمن بإحضار «بلطجية» ليعاقبوا طلبة جامعته. وهو النظامُ الذى أسس بقراراته وسلوكه اليومى لدولة «بوليسية» بامتياز؛ يتولى فيها اللواءات كل المناصب القيادية، وتتحكم فيها تقاريرُ الأمن فى كل شىء، من تعيين السعاة فى المكاتب، وحتى اختيار العاملين فى معامل الجامعات.. يحكى لى مفتى مصر «المعتدل» أنه استمر لسنوات غير قادرٍ على الصعود إلى المنبر للخطابة (لعدم وجود تصريح أمنى) .رغم أنه وقتها كان مستشارا لوزير الأوقاف(!)

النظام الذى جفف ينابيع السياسة فى مصر - حسب وصف الأستاذ هيكل - هو النظام الذى لم يسمح أبداً للأحزاب الحقيقية أن تقوم، وإذا أفلتت فقامت بحكم قضائى، عمل على تفجيرها من الداخل .فى حين شكل بنفسه - استيفاء للشكل والمظهر - أحزابًا «كارتونية»، مازالت - رغم الثورة للأسف - تدعى شرعيةً نعرف جميعا أنها مزيفة. وتحظى بفرصة «رسمية» لاتحظى بها قوى الثورة السياسية «الحقيقية» الجديدة.

النظام الذى - رغم سماحه بحرية الصراخ - لم يكن يعير اهتماما أبدا لكل ماتتحدث به الصحف مستندةً إلى شهادات وأدلة وتقارير؛ منها ما هو رسمى (مثل تقارير المجلس القومى لحقوق الإنسان) عن اعتقالات واحتجاز لمواطنين دون سند من القانون، وحالات مؤكدة للتعذيب، وعدم احترام لأحكام القضاء.. بل وحالات انتقام لذوى نفوذ يسقطُ ضحيتها حتى رجالُ أعمال كبار.. إلى آخر قائمة طويلة من تجاوزات وانتهاكات. صارت من تكرارها اعتيادا وخبزا يوميا للمانشتات وبرامج التلفزيون الحوارية.

النظام الذى طالب الجميع بإسقاطه هو ذلك الذى لم ير ضررا فى أن تعاندَ الدولة القانون، بتجاهل الأحكام الصادرة بشأن تزوير الانتخابات مثلا، أو الإفراج عن المعتقلين، أو إحالة المدنيين إلى محكمة عسكرية، أو إلغاء الحراسة على النقابات المهنية.. إلى غير ذلك من قائمة تطولُ بطول ثلاثين سنة من جبروتِ نظام لم يكترث سدنتُه يوما لخطورة أن يتعمق لدى المواطن العادى شعورٌ باليأس من اللجوء إلى التقاضى «سبيلاً سلميًا لحل المنازعات». غير مدركين أنه عندما تُغَلُ يد القضاءِ فى رد المظالم لأصحابها يصبحُ الأمنُ الاجتماعى مهدداً. كما يصبح مفهومُ الدولة ذاته فى خطر.

النظام الذى قضى بفساده وإفساده على قاعدة أن «من جد وجد»، بعد أن أصبحت البطالة بسياساته «قدراً» فقد معه التعليم دوره كأداة مشروعة للحراك الاجتماعى، وبعد أن ضاقت فرص العمل لتصبح حكرا على الوارثين أو على أولئك الذين اشتروا «بأموالهم» فرص تعليم متميز. هل تذكرون «عبد الحميد شتا»؛ ذلك الشاب المكافح المتفوق الذى رفضوا تعيينه ملحقاً تجاريا (٢٠٠٥) رغم حصوله على المركز الأول بين كل من تقدموا للوظيفة، لا لسبب إلا لأن والده مزارع بسيط. يومها لم يجد الشاب المتفوق أمامه غير الانتحار.

النظام الذى نسمع فيه من أحد البرلمانيين أنه أنفق ٢٥ مليونا للفوز بمقعده البرلمانى، دون أن يسأله أحد عن ماذا يبحث هناك؟ أو بالأحرى ماذا «يطمع» فيه هناك؟!

النظام الذى يخرج فيه رئيسُ الدولة فى كل مناسبة ليتساءل: «من أين يطعم شعبه»، ثم يفاجأ أولئك الجياع بأنه كان يعوم على بحر من الفساد والمليارات المنهوبة.



النظام الذى أضاع رصيدا إقليميا ودوليا كانت مصر قد صنعته فى سنوات الصعود منتصف القرن الماضى ليتلاشى فى الثلاثين سنة الأخيرة .بعد أن حسبت أن أمنها وأمانها مرهون فقط برضا واشنطن. وبعد أن شُغلت، أو بالأحرى انشغلت نخبتها الحاكمة بحسابات المقاعد استمرارا أو استقرارا. أو «استنساخا جينيا».

النظام الذى لم يتردد (فى انتخابات ٢٠٠٥) فى اللجوء إلى بلطجة سافرة غير مسبوقة، بحماية - أو بمشاركة، للأسف - من الذين من المفترض أن المجتمع أوكل إليهم - بحكم وظيفتهم - مهمة حماية أمنه .غير مدرك خطورة أن يشيع فى المجتمع مفهوم: أن القوة/ العنف هى السبيل «الوحيد» لكى تصل إلى هدفك (حقًا كان أو باطلاً).

النظام الذى لم يتردد أيضا - لحسابات سياسية ضيقة - فى أن يقحم الرقمَ القبطى فى حساباتِ السياسة، لعبا بالنار فى غير موضعها .(راجع كيف ظلت «الفتنة صناعة رسمية» تخطيطا ومراهنة وتوظيفا - «وجهات نظر»/ فبراير ٢٠١٠).

النظام الذى يرحب بالإخوان المسلمين، ويصنع الجماعة الإسلامية فى السبعينيات ليضرب بها الناصريين والشيوعيين، ثم تدور الدوائر فيساند السلفيين (ويجندهم) ليضرب بهم الإخوان المسلمين تارة، ويكسر بهم «شوكة الكنيسة» تارة أخرى. مستمتعاً بعراك الخصوم، أو بالأحرى بصنع الخصومة، مطمئناً للعبة الاستعمارية البراجماتية القديمة «فرق تسد»، دون إدراك لمعنى أن يكون «الوطن للجميع»، دون إقصاء أو تمييز.

نظام اختار أن يغيب فيه القانون «المجرد» ليفسح المجال لما يتصوره سياسة، وهى بحكم التعريف غير مجردة من حسابات«ولا نقول أهواء». فنرى من رجال السلطة من يتباهى علناً بالتزوير فى أوراق رسمية «بدعوى درء الفتن». و«التزوير» فى القانون المجرد جريمة! ونرى من رجال التحقيق من يُفْرط أو يُفرِّط؛ مواءمة أو استجابة أو إرضاء. ونسمع من رجال الدين من كانت فتواه عن سياسة، لا عن قرآن أو سنة أو كتاب مقدس.

النظام الذى يصبح فيه «نفاقُ السلطة» أيا ماكانت تلك السلطة؛ رئيسا للجمهورية، أو مديرا للعمل، أو حتى والدا فى المنزل، أو قارئا للصحيفة، الأداة الوحيدة للحفاظ على المكان.. أو للفوز بالمكانة. يتساوى فى ذلك وزراءٌ وخفراء، ورجالُ دين وسياسة وفكر.. ليبدو الأمرُ كله فى نهاية المطاف «ثقافة شعب» أو بالأحرى «ثقافة مرحلة».

النظام الذى يئس فيه الناس من التغيير عن طريق صناديق الاقتراع، ومن الحصول على حقوقهم عن طريق القانون والاحتكام إلى عدالة القضاء، ومن التطلع إلى مستقبل أفضل عن طريق بوابة التعليم والتفوق والاجتهاد.

نظام لم يبدُ مكترثًا يومًا بأنه لم يدَع للناس غير اليأس.



النظام الذى خرج الكل يطلبون إسقاطه، هو ذلك الذى كانت سمته الرئيسة هى «السلطة المطلقة» التى هى بالضرورة «مفسدة مطلقة». حين يصبحُ طبيعيًا أن يكونَ كلُ رجال الأعمال - تقريبًا - منتسبين بالعضوية والمساندة والدعم المالى والإعلانات الصحفية المدفوعة إلى حزب السلطة المطلقة. رغم أنه لم يدَع يومًا - فيما نعرف - أنه حزبٌ «رأسمالى» ليصبح معه ذلك «الزواجُ شرعيًا». ولكنه ببساطة حزب النفوذ و«السلطة المطلقة»؛ مجموعات من المصالح «المتشابكة» Oligarchy التى تستولى بسلطتها أو بأموالها أو بنفوذها على الإدارة ثم على الحكومة ثم على الدولة كلها. متشابكة خيوطها العنكبوتية. والتى هى مثل كل بيوت العنكبوت لاتتمدد إلا حيث يكون الركود والكمون .بعيدا عن الحركة، وماتستوجبه - تعريفًا - من تغيير.

النظام الذى مازالت أصابعه تلعب بمهارة فى «الميدان» - تحاول سرقته لحسابها تارة، أو إجهاض حركته «الموحدة» النبيلة تارة أخرى - أحزابا «ورقية» قديمة، وساسة بلا سياسة، متلونين ومتحولين ومتسلقين عاشوا حيواتهم كلها ملتصقين بشبكة العنكبوت التى يخشون أن تسقط فيسقطون.

بعضهم يحاول أن يجد لقدمه «القذرة» موضعا فى نظام جديد ينبغى أن يتطهر. وبعضهم يحاول بغريزة وحش جريح أن ينتقم، غير مبال بأن يكون الوطن ذاته الثمن.

وبعضهم يحاول عزل ثورة الشعب عن العالم «المتوجس والقلق» بمحاولة إلباسها جلباباً ولحية.

بعضهم خرج من جحوره، وبعضهم مازال ينتظر.



هذا هو «النظام» الذى خرج الشعب وسقط الشهداء لإسقاطه.. وهذه ببساطة هى ملامح «النظام» الذى إن لم ننتبه، فلست متأكدا أنه «متسللا» لن يعود.

فى ريفنا حيث يختبئ الصمت والحكمة فى عيون فلاحينا البسطاء، كان الكبارُ يحرصون على تنبيهنا دائماً إلى أنه «لا يكفى أبدا أن تقطع رأس الحية..» ■

أوان التغــيير



ربـــــــاب المهـــــــدى

■■ جاءت انتفاضة الشعب المصرى فى ٢٥ يناير لتنهى الكثير من التصورات الراسخة فى مجال دراسات الشرق الأوسط، سواء على المستوى الأكاديمى أو حتى فى الإعلام وعلى المستوى الشعبى. انتهت مقولات المستشرقين الجدد وكثير من المحللين حول تأبيد الحكم فى العالم العربى، أو أننا شعوب لا تثور، أو أن ثقافتنا تتوافق مع نظام الحكم الاستبدادى. ولكن مع تصاعد الأحداث التى تدحض هذه المقولات، بدأت نوعية أخرى من التصورات فى الظهور. أخطرها على الإطلاق وأوسعها انتشارا أن ماحدث هو «ثورة شباب الفيس بوك». فعلى الرغم من أهمية وسائل الاتصال الحديثة فإنها تبقى مجرد أدوات ولايمكن اعتبارها صانعة «ثورة» شارك فيها الملايين. خاصةً أن أى متابع للشأن المصرى يعرف أن هذه الأدوات والمجموعات المستخدمة لها فى الشأن العام، موجودة منذ عدة سنوات وسبق أن استخدمت نفس الوسائل للدعوة إلى تظاهرات لم تزد فى أفضل الأحوال على بضع مئات من الأفراد. بالإضافة إلى أن أى متابع لهذه الانتفاضة على مدى ١٨ يوما يرى بوضوح من اتساع نطاقها على المستوى الجغرافى والفئات المشاركة فيها (بدو سيناء، عمال مصانع والنقل العام، موظفين وقطاعات المهمشين فى الأحياء الشعبية) وامتدادها على مدى الأيام التى أوقف فيها النظام عمل الإنترنت، حتى لا يكون الأداة الأكثر تأثيراً فى التعبئة.

إذاً، نحن أمام حالة تدعو إلى تصور مختلف، بداية هذا الفهم فى تقديرى تبدأ من النظر إلى ما يحدث منذ ٢٥ يناير ليس على أنه انفجار لحظى جاء عن طريق أدوات بعينها أو مجمعات بذاتها ولكن على أنه نتاج لعملية تجذير سياسى بدأت فى مصر منذ ألألفية الجديدة وتراكمت وتوسعت لتصل بنا إلى ما نحن فيه. بهذا الفهم جاء كتاب «مصر: أوان التغيير» والذى نشر فى ٢٠٠٩ لينبئ بأن ما يعتمل تحت السطح فى مصر لابد أن يؤدى إلى التغيير.

يتناول الكتاب الاقتصاد والسياسة والمجتمع فى لحظة فارقة من التاريخ المصرى الحديث. ومع ذلك، فإن نقطة انطلاق الكتاب ليست الاقتصاد أو النظام السياسى، وإنما المشاركة الفعالة لمصريين يحاولون بإلحاح إحداث تغيير فى حياتهم الخاصة وكجزء من مشروعات تحول اجتماعى أوسع نطاقا. تركز معظم المؤلفات الأكاديمية عن مصر على «سياسة الصفوة» - على الدولة وصفقاتها مع عناصر المؤسسة السياسية (بما فى ذلك أحزاب وجماعات المعارضة، والسياسات الاقتصادية المتغيرة، والانقسامات بين الصفوة الحاكمة وما إلى ذلك). ولكن بينما توفر تلك التحليلات رؤى قيمة، فإنها أخفقت على نطاق واسع فى تناول الأحداث التى تؤكد، منذ بداية الألفية الجديدة، على «السياسة من الأسفل» - أنشطة عناصر المجتمعات المحلية لإحداث التغيير وتشكيله. فجاء هذا الكتاب ليشرع فى تناول أوجه القصور.

بحلول عام ٢٠٠٩، كان حسنى مبارك قد استمر رئيسا طوال ثمانية وعشرين عاما: هناك سبعة رؤساء دول فقط استمروا فى الحكم لوقت أطول. وحتى تحت قشرة التعددية الحزبية، فقد مُنعت التغييرات السياسية المنهجية من خلال الانتخابات المزورة التى أبقت على حكم الحزب الوطنى الديمقراطى لأكثر من ثلاثة عقود. وقد حدثت زيادة هائلة فى التفاوت الاجتماعى تحت إشراف نظام مبارك الشمولى: فقامت أقلية بجمع ثروات غير مسبوقة، بينما يعيش مزيد ومزيد من الناس على هامش البقاء. والقلة المحظوظة تحميها قوة أمنية ذات حجم غير مسبوق تعمل فى ظل حالة طوارئ رسمية سارية منذ عام ١٩٨١. ويحظر القانون الاحتجاج العام، الذى يعاقب فى معظم الحالات بشدة بواسطة أجهزة الشرطة والأمن التى تتبع نظاما من التعسف

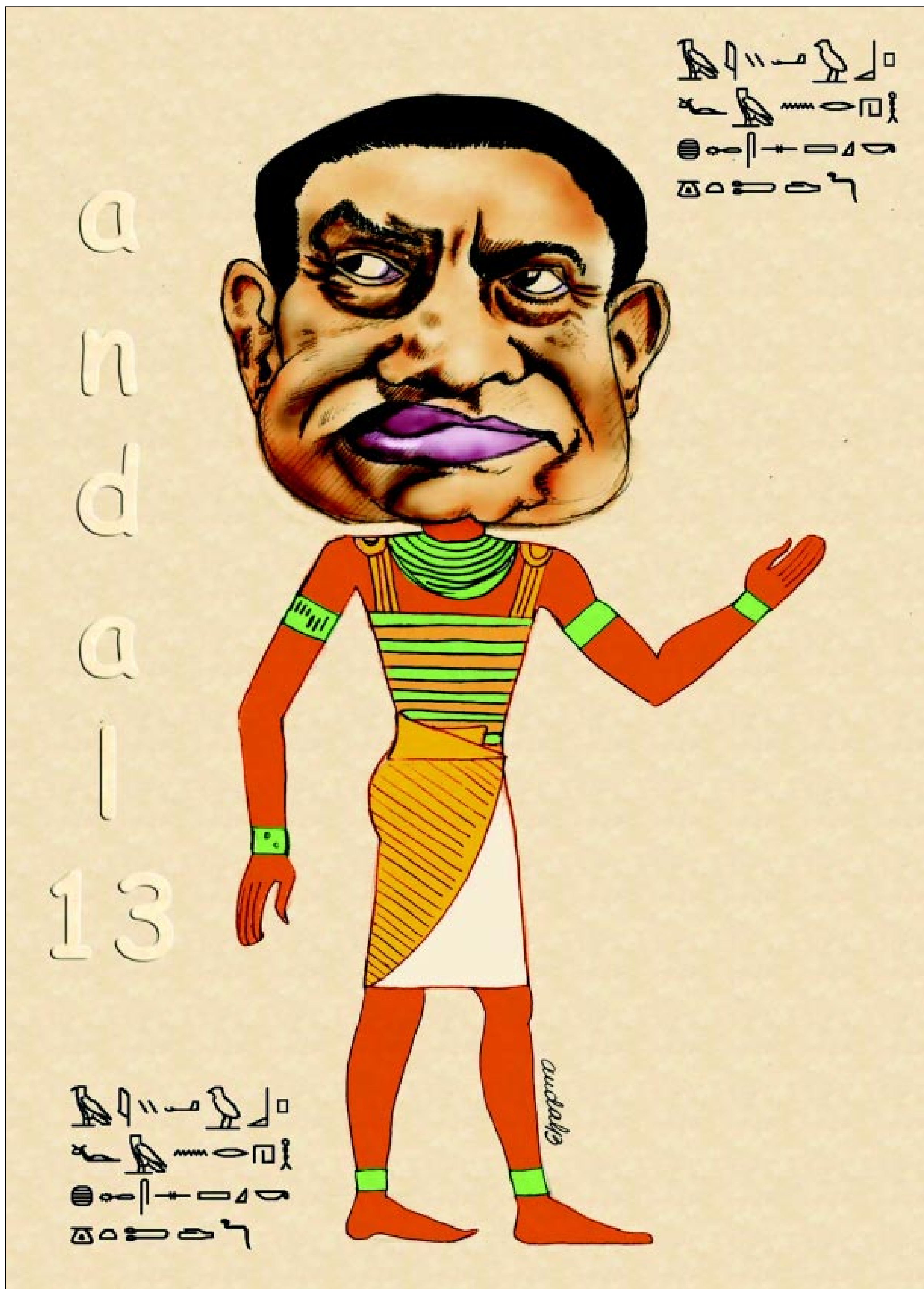
إن نقطة انطلاق الكتاب ليست الاقتصاد أو النظام السياسى، وإنما المشاركة الفعالة لمصريين يحاولون إحداث تغيير فى حياتهم الخاصة



للاستزادة:

Marfleet, Philip, and Rabab El-Mahdi. Egypt the Moment of Change. Cairo: AUC Press, London: Zed, 2009

ترجمة: عادل فتحى


andal
13
aadalla

مصـــــــر.. أوان التـغـيـيـــــــر

إن المقصد من هذا الكتاب هو توثيق لحظة فارقة فى التاريخ المصرى الحديث، والمساهمة بصورة متواضعة فى عملية التغيير



المنهجى. وأصبح التعذيب أمرا روتينيا؛ وتعتقد الجمعية المصرية ضد التعذيب أن مثل تلك الإساءة فى استعمال السلطة هى جزء من إستراتيجية – «إرهاب الأفراد وضمان خضوع الشعب تماما». مع ذلك ليس هناك من نظام قادر على الحكم طوال مثل تلك الفترة اعتمادا على القمع وحده. إن لهذا النظام والدولة التى تديره جذوره فى بنية تحتية من «الصفقات المرنة»، أى باستخدام القوة والتهديد المستمر بالقمع، وكذلك التخلص من المعارضة من خلال المحسوبية والشرعية القومية. وقد وضعت أسس كل ذلك منذ عام ١٩٥٢.

مع ذلك شهد العام ٢٠٠٠ انفجارا تعود جذوره لوقت طويل. فقد بدا خلال التسعينيات أن المشاركة الشعبية فى السياسة – ما يطلق عليه المصريون سياسة «الشارع» – كانت تتسم بالسلبية والتردد. على أية حال، بدأت فى سبتمبر عام ٢٠٠٠ سلسلة جديدة من الاحتجاجات، فى البداية كدعم للانتفاضة الفلسطينية. كانت موجات النشاط تتلاحق تباعا، وكانت كل منها توفر زخما لصراعات أخرى. وقد أدى الدعم لفلسطين إلى احتجاجات ضخمة بالشوارع وحملات للتبرع والمقاطعة؛ وعندما انحسر ذلك، بدأت احتجاجات أخرى ضد غزو العراق بقيادة الولايات المتحدة. واستمر النمط ذاته: فقد شارك فى الحركة المؤيدة للديمقراطية وحركة القضاة بين عامى ٢٠٠٤ و٢٠٠٦ الكثير من وجهاء الطبقة المتوسطة والنشطاء السياسيين من كافة المستويات، بما فى ذلك اليسار المتشدد وحتى الإخوان المسلمون (المحظورين حتى الآن). ثم بدأت إضرابات كبرى عام ٢٠٠٦ فى المحلة – والتى شكلت أهم حراك عمالى طوال خمسة عقود– مالبث أن كانت شرارة انطلاق موجة احتجاجات عمالية لم تخمد حتى الآن.

لم تكن جميع تلك الحركات والجماعات قادرة على بناء جماعات فعالة ؛ فقد بقى بعضها هامشيا، ولا يمكن لأى منها – باستثناء بعض الجماعات العمالية – أن تدعى تحقيق نصر حاسم. ولكنها نجحت معا فى تغيير جدول أعمال النشاط السياسى فى ظل ظروف من الشمولية المستمرة. فقد تحدت الحركة المؤيدة للديمقراطية القمع لاستعادة ظروف العصيان الشعبى واحتجاجات الشوارع. وأثناء انتخابات عام ٢٠٠٥ حققت جماعة الإخوان المسلمين أقوى حضور لها فى البرلمان، على الرغم من الممارسات غير العادلة والعنف الشديد من جانب الدولة. وقد بدأ عمال المحلة الكبرى، ولاحقا موظفو مصلحة الضرائب العقارية، موجة من الإضرابات والاعتصامات التى مثلت مشاكل خطيرة لأولئك الموجودين فى السلطة، وفى الحالة الثانية تكون أول اتحاد مستقل غير حكومى منذ عام ١٩٥٢. وتحدث القضاة للمرة الأولى ضد تزوير الانتخابات ولصالح استقلال القضاء، وأصبحت الصحف والمدونات المستقلة وسائل حاسمة انكشفت من خلالها للعلن مجموعة من الأعمال الوحشية – من تعذيب المدنيين فى أقسام الشرطة إلى الممارسات الانتخابية السيئة واعتقال النشطاء السياسيين. وقد ترددت أصوات متعددة للعصيان مما خلق تأثيرات متماوجة أثارت أعمالا جماعية متوالية وأزعج الاحتكار المريح للسياسة العامة الذى تتمتع به الصفوة.

وأصبح يطالب بالتغيير النشطاء السياسيون ووسائل الإعلام المستقلة والأكاديميون والمحامون والقضاة و – عندما يسمع صوتهم – ملايين المصريين العاديين، ومنذ عام ٢٠٠٠ ركزت سلسلة من مبادرات الإصلاح على إحلال الديمقراطية والحقوق الأساسية. رفض النظام تلك المبادرات – فبعد تردد مبدئى، قام باستئناف عادة مهاجمة المظاهرات والاجتماعات واعتقال النشطاء السياسيين والفلاحين والعمال والطلاب والصحفيين والكتاب. فكان السؤال هل ستتمكن الحركات الجديدة من إحداث تغيير، أم هل سيبقى نظام الحكم فى مصر استبداديا عنيفا يعاقب حتى الطموح إلى الإصلاح؟ هل سيؤدى الغضب واليأس المتصاعدان إلى تفجر الاحتجاجات الشعبية كما حدث فى الماضى؟ كيف سيكون رد فعل النظام؟ هل سينجو؟ وهل يستطيع المصريون تحمل خمسين عاما أخرى دون تغيير؟

حاول الكتاب من خلال فصوله المختلفة – وهو عبارة عن مجلد مطبوع من ثمانية فصول من وضع عدد من المؤلفين – أن يجيب على تلك الأسئلة. وأثناء ذلك، يركز كل فصل منه على بعد معين يتعلق بالاقتصاد السياسى المصرى المعاصر، سواء كان تغيير السياسات الاقتصادية، أو الدولة، أو العلاقات الخارجية، أو القمع؛ وكذلك العناصر النشطة للتغيير، سواء كانت العمال أو النشطاء السياسيين أو الأحزاب. يتناول كل فصل مجموعة محددة من القضايا. كما كتب كل فصل بوعى بتعقيد المجتمع المصرى المعاصر: الترابط الوثيق بين الهياكل الاقتصادية والعلاقات بين الدولة والمجتمع؛ وتعدد العناصر الاجتماعية والسياسية؛ وسمة حراك السلطة فى نظام فاشستى؛ والتقارب والتباعد بين أشكال المقاومة المختلفة. ويعتقد المؤلفون أن هناك عقبة رئيسية أمام فهم مثل تلك التطورات فى مصر ومجتمعات أخرى فى نصف العالم الجنوبى، والتى شكلت خلافا بين النشطاء/ الرعايا من جهة والعلماء/الباحثين/ الخبراء من جهة أخرى. إن ازدواجية أولئك «الفاعلين»، بينما يقوم آخرون بالتحليل والتأويل، يعنى أن الكثير يمكن أن يضيع خلال عملية «التفسير». ولذلك فإن المساهمين فى هذا الكتاب هم إما من النشطاء المرتبطين بالظاهرة التى يناقشونها، أو هم على صلة وثيقة بالأحداث من خلال الملاحظة الشخصية المكثفة والاتصال بالناس الذين يكتبون عنهم. ومع استيعاب أن الرواة يمثلون الأهداف ويشكلونها أيضا، فإن المقصد من هذا الكتاب هو توثيق لحظة فارقة فى التاريخ المصرى الحديث، والمساهمة بصورة متواضعة فى عملية التغيير. وفى انسجام تام، تقدم تلك الفصول رؤية شاملة – وإن كانت مبدئية – لمصر متغيرة، ولكنها رؤية تبرز التاريخ والناس الذين يصنعونه.

مصر: مختبر الليبرالية الجديدة

منذ السبعينيات وبداية الانفتاح، أصبحت مصر مختبرا للتحولات الاقتصادية التى طبقت لاحقا كجزء من جدول الأعمال الليبرالى الجديد للتنمية. وقد انتحل نظام السادات فى السبعينيات وضعا رائدا: يمكن النظر إلى ذلك الانفتاح باعتباره إحدى أولى المحاولات المستمرة للابتعاد عن دولة التنمية التى اتسمت بها مشاريع ما بعد الاستعمار فى العالم «الثالث». وبعد ثلاثين عاما أصبحت مصر نموذج البنك الدولى لسياسات التسويق؛ وفى الوقت نفسه فقد كشفت عن العديد من التناقضات المتأصلة فى المشروع الليبرالى الجديد.

رغم توقف قصير أثناء الثمانينيات، فى أعقاب انتفاضة الخبز عام ١٩٧٧، قام انفتاح السادات والسطوة العالمية الليبرالية الجديدة بتمهيد الطريق لـ«التسويق» اللاحق للاقتصاد والمجتمع. وكانت النتيجة صاعقة، حيث وفرت دليلا هاما طويل الأمد عن كيفية تأثير «التسويق» على المجتمع عموما. وبينما كدست أقلية من المصريين ثروات غير مسبوقة، تعانى الجماهير من زيادة الفقر وعدم الأمان؛ وهم فى الوقت نفسه ضحايا لحكم فردى خانق.

بينما حققت التقليدية الليبرالية الجديدة زخما عالميا، طبقت صيغ مشابهة فى نصف العالم الجنوبى، مع قليل من الاهتمام بالتأثير على المجتمع. وفى مصر، حذر مبارك المؤسسات المالية الدولية مرارا من احتمال وقوع مزيد من الاضطرابات السياسية التى قد تهدد استقرار النظام والمنطقة بكاملها؛ وفى الوقت نفسه فقد رضخ لمطالبها. وبعد خفض مزيد من مخصصات الدعم عام ١٩٨٤، وقعت احتجاجات جماهيرية فى مدينة كفر الدوار، وتدخل الجيش – كما حدث عام ١٩٧٧ – بقوة مفرطة. وقد رسخ نمط واصلت الدولة المصرية بموجبه تنفيذ جدول أعمال ليبرالى جديد، على الرغم من الثمن الذى يدفعه معظم أفراد المجتمع المغلوبين على أمرهم.

فى عام ٢٠٠٧، وصف البنك الدولى مصر باعتبارها «المصلح الأول فى العالم». فقد مدح سياسات الحكومة التى قيل إنها تشجع الأعمال وتقلل البيروقراطية وتحسن الائتمان المصرفى وتسهل التجارة. كما أثنى على الرئيس مبارك باعتباره إستراتيجيا بعيد النظر قادرا على التغلب على المشاكل الداخلية وتهيئة بلده لعصر العولمة. وتصفه صحافة الأعمال فى القاهرة باعتباره النموذج المفضل للمؤسسات المالية الدولية، كما تصف مصر كـ «قدوة لصندوق النقد الدولى». وقد اعتبرت مصر نموذجا من النوع الذى طرح فى السبعينيات عندما كانت المكسيك هى

هاجرت أعداد كبيرة من البشر
من المناطق الزراعية، بينما ارتفعت معدلات البطالة بشدة فى المدن



«المصلح الأول»، وفى الثمانينيات عندما قدمت الأرجنتين كنموذج للعالم. وقد فقدت المكسيك حظوتها أثناء أزمة الديون عام ١٩٨٢، كما سقطت الأرجنتين إلى الحضيض مع انهيار عام ٢٠٠١، فسقط ملايين الناس فى الفقر واليأس. فهل ستثبت مصر أنها بطل فعال لليبرالية الجديدة؟

بعد انتعاش اقتصادى قصير فى أواخر التسعينيات، تباطأ النمو العام، وتبنت الحكومة إجراءات تعديل هيكلية أكثر عدوانية، وعومت الجنيه المصرى مقابل الدولار الأمريكى وزادت من وتيرة الخصخصة - وهو اتجاه سانده مجلس وزراء من الخبراء التقنيين ورجال الأعمال تم تشكيله عام ٢٠٠٤. كان لتلك السياسات أثرها على غالبية المصريين، ولعبت دورا فى إثارة كافة أشكال الاحتجاجات والمطالبات - حول توفير الخبز والحصول على الماء وكلفة المعيشة. فى الوقت نفسه أدى الإحباط الشديد تجاه السياسات الاستبدادية إلى مبادرات سياسية مبتكرة. فعلى النقيض من سابقيه، حكم نظام مبارك مجتمعا تكافح غالبية المصريين فيه للوفاء بالاحتياجات الأساسية؛ فى تحول يبتعد عن الميثاق الاجتماعى الذى كان يحكم مصر خلال العقود الخمسة الماضية، والذى احتوى على ضمانات بتوفير المستويات الأساسية للبقاء والمعيشة مقابل التخلى عن المشاركة السياسية. مع ذلك، ففى الآونة الأخيرة تطلب الحصول على الأطعمة الأساسية الدخول فى صراع يومى: فقد اصطفت الطوابير فى أنحاء البلاد أمام المخابز حيث توفر الخبز غير مضمون غالبا. وفى خلال أسابيع قليلة من عام ٢٠٠٨، توفى خمسة عشر شخصا فى مشاجرات بين أناس يتصارعون من أجل الخبز. كما ارتفعت أسعار مستلزمات الحياة الرئيسية (الطعام والطاقة والإسكان) بصورة غير مسبوقة خلال السنوات الخمس السابقة. كما يكافح الملايين أيضا للحصول على مياه الشرب: فقد اندلعت تظاهرات عامى ٢٠٠٧ و٢٠٠٨ فى مدن دلتا النيل فى ما أطلقت عليه الصحف «ثورة العطشى». وقد هاجرت أعداد كبيرة من البشر من المناطق الزراعية، بينما ارتفعت معدلات البطالة بشدة فى المدن.

كما يشير الاقتصادى أحمد النجار فى فصله من هذا الكتاب، فقد تركز النمو فى مصر فى قطاعات محددة، خاصة السلع والتمويل المصرفى والعقارات والسياحة. ونادرا ما يحفز ذلك الاستثمار طويل الأمد أو يوفر قدرا يذكر من الوظائف؛ وبدلا من ذلك، يجتذب ذلك مشاركة متفائلة سرعان ما تتضاءل عندما تبدأ العائدات فى الانخفاض. كانت معدلات النمو المسجلة فى الفترة من ٢٠٠٥ إلى ٢٠٠٧ مرتبطة بقوة بالأموال «الساخنة» القادمة من الخليج العربى عندما ارتفعت أسعار النفط إلى مستويات تاريخية. ويمكن إرجاع جزء كبير من «قصة نجاح مصر التى دونها صندوق النقد الدولى» إلى استثمار دولارات البترول التى انسحبت فورا عندما أصبح مؤشر الانهيار المالى العالمى أمرا واضحا.

تراجع الاستثمار الأجنبى المباشر فى مصر إلى النصف تقريبا خلال العام الأول من الأزمة العالمية. وتراجعت أيضا مصادر أخرى للدخل: فقد تراجع بشدة عدد السائحين الأجانب وتضاءلت بشدة كل من عائدات العاملين بالخارج ودخل قناة السويس. وتنبأ عدد من التحليلات بانخفاضات حادة فى إجمالى النشاط الاقتصادى: ووصف أحدها أرقام النمو السابقة بأنها «ذكرى مؤلمة». وبعد أن واصل النظام حديثه البلاغى عن النمو والازدهار والاستقرار، يجب عليه الآن التعامل مع الاحتياجات الفورية لملايين الناس وتحررهم من الوهم.

أمة تزداد انقساما

تعد مصر بالنسبة لأنصار العولمة الرأسمالية نموذجا هاما للسمة التقدمية للمشروع الليبرالى الجديد. وهم ينظرون إلى تاريخها الحديث كدليل على حتمية الانحياز إلى اقتصاد السوق - ألا وهو «الانتصار» الواضح للفكر الاقتصادى التقليدى الجديد فى العالم النامى. أثناء الخمسينيات والستينات، وضع الرئيس عبد الناصر جزءا كبيرا من الاقتصاد تحت سيطرة الدولة، حيث أرسى نظاما لمستوى المعيشة وتكفل بالأمن الغذائى. ولم يبق الكثير من مشروعه. وفى منتصف التسعينيات أصبح مبارك ومسئولوه متحمسين للخصخصة: ومنذ ذلك الوقت أصبحت مجالات الكهرباء والمياه والصرف الصحى والرى والرعاية الصحية والنقل والاتصالات والتعليم مفتوحة جميعا بطرق متنوعة للمشروعات الخاصة.

فى عام ٢٠٠٦ أكد رئيس الوزراء أحمد نظيف أن الإصلاح الاقتصادى مضى «جنبا إلى جنب مع برامج التنمية الاجتماعية، كوجهين لعملة واحدة، لتبنى تنمية شاملة للمجتمع». ولكن التقديرات هى موضع تساؤل حتى من أصدقاء النظام. فقد أكد البنك الدولى عام ٢٠٠٧ أنه فيما بين عامى ٢٠٠٠ و٢٠٠٥ زادت نسبة المصريين الذين يعيشون فى فقر مدقع (والمحدد بدخل أقل من دولارين يوميا) من ١٦.٧٪ إلى ١٩.٦٪ - أى أكثر من ١٥ مليون نسمة. وتعد مثل تلك التقديرات متحفظة - فعلى أساس المؤشر العشوائى لدولارين فإنها تستبعد عشرات الملايين الذين يعيشون عند خط الفقر الرسمى أو فوقه بالكاد، والذين تأثروا بلا شك بزيادات أسعار الأغذية والوقود و/أو مشاكل توفرها. فى عام ٢٠٠٦ أكدت الدكتورة/ هبة حندوسة - المؤلف الرئيسى لتقرير للأمم المتحدة عن مصر - أن «الدولة مسئولة عن الفشل فى استيعاب القطاعات الأكثر تهميشا فى المجتمع المصرى بفعالية». كما أنها أشارت فى عام ٢٠٠٨، فى أعقاب نشر تقرير تنمية مصر الصادر عن برنامج الأمم المتحدة للتنمية، إلى الصلة بين الإفقار والإصلاح الاقتصادى، مشيرة إلى أن «فجوة الفقر» كانت تنمو باطراد وبشكل كبير.

تبرز التفاوتات فى الثروات وأنماط الاستهلاك بوضوح صارخ فى جغرافية جديدة لحياة المدن المصرية. فمنذ منتصف التسعينيات ظهرت المجمعات السكنية المغلقة فى الضواحى سريعة النمو المقامة فى الظهير الصحراوى للقاهرة. وكجزء من ظاهرة عالمية (ظهرت مجمعات مشابهة فى سلسلة من الدول فى أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية)، فإنها تكشف الكثير عن النموذج الليبرالى الجديد. وتستقطب تلك المجمعات السكنية المقامة على أراضى الدولة التى عرضت للبيع كجزء من عملية الإصلاح والتى زودت بالبنية الأساسية التى تمولها الدولة، تستقطب محدثى الثراء كى يكونوا جزءا من «مشهد تميز الصفوة». وفى عملية توازى الاستعادة الأخيرة للأراضى الزراعية التى استولت عليها الدولة فى الخمسينيات، جرى تشجيع قلة لاستغلال الموارد القومية لتحقيق المصلحة الشخصية.

يقطن الأغنياء الجدد فى عالم بعيد عن الجماهير المصرية. وتقوم شركات خاصة بحراسة العقارات ومجمعات التسوق ومراكز الترفيه والجامعات فى القاهرة الجديدة (شرق المدينة) ومدينة ٦ أكتوبر (إلى الغرب). هناك لا تكاد تلاحظ شرطة مكافحة الشغب التابعة لجهاز الأمن العام المصرى ذى الحجم الهائل. وتنتشر قوات الشرطة فى كل مكان بالمدينة القديمة: فجماهير الشعب فى الأحياء الشعبية والمناطق الصناعية ومعظم المناطق الشعبية تقع تحت الرقابة ويزداد احتمال اصطدامها بأجهزة الأمن التى اعتادت العمل تحت الحصانة.

فى الوقت نفسه، يقدر برنامج الأمم المتحدة للمستوطنات البشرية أن ٤٠٪ من سكان المدن يقطنون مناطق عشوائية ويتركز الكثير منهم فى «جيوب قذرة» تكون الحياة فيها على المحك على وجه الخصوص. هناك يعيش الملايين فى «فقر مدقع»، إما يعملون بدوام جزئى أو يعملون بأجور لا توفر دخلا يزيد على دولارين يوميا. كما تشير الأمم المتحدة أيضا إلى المشاكل المتزايدة للتدهور البيئى والسلامة البدنية. وقد شيدت مناطق واسعة من الإسكان العشوائى بدون بنية تحتية مناسبة وبدون رقابة مما أدى إلى انهيار المبانى بسبب سوء التصميم وغش مواد البناء و/أو العلاقات الفاسدة بين بناة العقارات والمسئولين.

ولذلك، ففى المناطق الزراعية أيضا، حيث تورطت الشرطة لسنوات فى قمع معارضة الفلاحين، فإنها قامت مؤخرا بتنفيذ العديد من أحكام إعادة الأراضى وإخلاء المزارعين المستأجرين بالقوة. وخلال العقد الأخير، عاد الكثير من الأراضى الزراعية إلى الملكية الخاصة أو إلى العائلات التى كانت مسيطرة قبل إصلاحات حقبة عبد الناصر. وقد زادت الهجرة من المجتمعات الزراعية بسبب الإخلاءات اللاحقة للفلاحين وكذلك السياسات التى تعطى الأولوية للمحاصيل النقدية للتصدير بدلا من إنتاج الأغذية الرئيسية. وفى المدن الكبرى كان التأثير



مع انسحاقهم بين صخرتى
عدم المساواة والقمع، هل وصلت الجماهير المصرية إلى نقطة الانفجار؟



صاعقا: فقد امتدت القاهرة الكبرى وراء الطرق الدائرية التى قطعت فى التسعينيات طرقا جديدة داخل الصحراء وأراضى المزارع التى لم تمس من قبل. وتضم المساكن العشوائية المزدحمة الممتدة ميلا بعد ميل ملايين من البشر الذين نزحوا من الريف. وقد ذكر رسميا عام ٢٠٠٥ أن القاهرة تضم ١٥ مليونا من السكان؛ أما التقديرات غير الرسمية فتذكر أرقاما تصل إلى ٢٢ مليونا، مما يجعل القاهرة «مدينة عملاقة» عالمية، مقارنة بعمالقة مثل «ساو باولو» و«مكسيكو سيتى». والقاهرة الآن هى موطن واحد من كل أربعة مصريين.

قد خلفت الفجوة المتزايدة فى الدخل ومستوى المعيشة معظم المصريين عرضة للكوارث من كافة الأنواع. فالحرائق وحوادث تصادم القطارات والانهيارات الكارثية للبنايات والحوادث الصناعية والكوارث البحرية كلها تؤجج الغضب الشعبى تجاه أولئك الموجودين فى السلطة، والذين يلمح إليهم عادة ولكن يبدو أنهم محصنون ضد المحاكمة الفعالة. وفيما بين عامى ١٩٩٥ و٢٠٠٦ كان هناك ٢٠ حادث تصادم قطارات سقط فى بعضها عشرات الضحايا. وفى عام ٢٠٠٦ غرق أكثر من ألف شخص عندما غرقت عبارة قادمة من المملكة العربية السعودية فى طريقها إلى ميناء سفاجا - وهى الكارثة الرابعة من نوعها منذ عام ١٩٩٤. ومالك السفينة الذى فر إلى بريطانيا بعد الحادث هو أحد أقطاب الأعمال المصريين؛ وهو أيضا عضو فى مجلس الشورى بالبرلمان المصرى وعضو بالحزب الوطنى الديمقراطى الحاكم. وقد تمت تبرئته من تهمة القتل الخطأ - وهو حكم يراه الكثيرون دليلا على أن صفوة رجال الأعمال والحكومة هم فوق القانون.

يشعر المزيد من المصريين أنهم مضطرون لمغادرة البلاد، ويواجه المزيد منهم أخطارا جديدة. وخلال السبعينيات والثمانينيات سافر كثير من المصريين للعمل بالخارج وخاصة فى ليبيا ودول الخليج. وعندما انخفضت فرص العمل فى المنطقة بشدة فى التسعينيات، بدأ البعض بالتحرك على غير هدى. ويشير مركز الأرض لحقوق الإنسان، وهو منظمة غير حكومية مقرها القاهرة، إلى أن أعدادا متزايدة من المصريين كانت تهاجر مباشرة إلى أوروبا، عادة باستخدام طرق ملتوية محفوفة بالمخاطر تلتف حول ضوابط الهجرة التى تفرضها دول الاتحاد الأوروبى. ويشاع أن الآلاف قد قضوا نحبهم فى الطريق، وغرق بعضهم أثناء محاولتهم عبور البحر الأبيض المتوسط. ويشير المركز إلى صلة مباشرة بين السياسة الاقتصادية للنظام - وخاصة التغيرات المطبقة فى المناطق الزراعية - وبين مصير هؤلاء المهاجرين:

بدأ تدهور الأوضاع مع تطبيق القانون ١٩٩٢/٩٦ (والذى يقضى بانتزاع الأراضى من مستأجريها) والذى طبق عام ١٩٩٧ وأدى إلى طرد حوالى مليون مزارع مستأجر من الأراضى. وبالتالى كان ذلك يعنى أن سبعة ملايين شخص على الأقل - هم عائلات المزارعين المستأجرين المطرودين - قد عانوا من الوقع المزدوج للبطالة والفقر بالقرى فى أنحاء البلاد. سيجد المهاجرون مليون وسيلة لبلوغ وجهتهم لأنهم يائسون. مثل المهاجرين من مجموعة من الدول الأفريقية الفقيرة الذين يستخدمون أيضا الطرق الملتوية، يشعر المصريون «باليأس والإحباط» وأصبحوا أكثر استعدادا للمجازفة بكل شىء للوصول إلى غايتهم.

مع انسحاقهم بين صخرتى عدم المساواة والقمع، هل وصلت الجماهير المصرية إلى نقطة الانفجار؟ هل تستطيع منظماتهم السياسية (معظمها محظور أو شبه قانونى) الأخذ بزمام المبادرة؟ هل النظام على استعداد لسحق المقاومة المتجددة؟ ما هى دلائل ذلك فى مصر والمنطقة؟

تشير بعض الآراء حول التأثير طويل المدى لليبرالية الجديدة إلى أنها تقضى على المقاومة وتضعف العمل الجماعى. فى حالة أمريكا اللاتينية، تتساءل «إكشتاين Eckstein» «أين اختفت جميع الحركات؟». وهى تعلق على «آثار الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية الشاملة على حركة التغيير»، وعلى اختفاء العديد من الحركات الجماهيرية وعودة ظهور غيرها فى أشكال جديدة. تشير التحليلات الواردة فى هذا الكتاب إلى أن جدول الأعمال الليبرالى الجديد المتسارع فى مصر قد زاد من التناقضات مما أدى إلى انتشار أشكال متباينة من المقاومة ودفع العناصر الكامنة لوقت طويل إلى الشروع فى دورات جديدة من الجدل الجماعى. وبدلا من القضاء على المقاومة، فإنها جاءت بضرورات ملحة جديدة وعناصر جديدة إلى المشهد السياسى.

معارضة منقسمة

لا يبدو النظام متحمسا لتقديم حتى إصلاحات معتدلة، كما يحد من احتمالات تطبيق الديمقراطية من خلال وسائل إجرائية رسمية. وقد أضعفت حركة الديمقراطية، بينما حركة المقاومة الجماهيرية الرئيسية - الإخوان المسلمون - غير مهيأة لتحدى أولئك الموجودين فى السلطة.

ويتمتع مبارك ومسئولوه بمستويات عالية من التكيف. فقد ضمن الرئيس فترة خامسة فى الحكم (تنتهى فى عام ٢٠١١)، وتستمر خطط الخصخصة والانخفاضات القاسية فى مستوى المعيشة فى سرعة غير مسبوقة. وزاد القهر. وقد حوكمت وأدينت مجموعة كبيرة من العمال والمحتجين الآخرين من المحلة الكبرى بعد انتفاضة عام ٢٠٠٨. كما ألقى القبض على مدونين ونشطاء من أنصار الديمقراطية واعتقلوا دون توجيه تهم. وأدين زعماء من الإخوان المسلمين (بمن فيهم خيرت الشاطر نائب المرشد العام) من خلال محكمة عسكرية وحكم عليهم بفترات من السجن تصل إلى سبع سنوات. كما تم تجديد قانون الطوارئ سيئ السمعة - والذى يمنح الأجهزة الأمنية سلطة الاعتقال دون تهمة أو محاكمة - حتى عام ٢٠١٠، رغم المطالبات المستمرة لإلغائه. أما جمعيات المجتمع المدنى فلا تزال تطبق عليها قوانين تمنح السلطة التنفيذية الحق فى حل أى منظمة، والتى من خلالها جرى اضطهاد منظمتين غير حكوميتين (مركز حقوق العمال ومركز الدعم القانونى). وقد تعرض أربعة من رؤساء تحرير صحف مستقلة للمحاكمة، كما تسلح النظام بسلطات جديدة لإغلاق القنوات التليفزيونية الفضائية. ويستمر اللجوء المنهجى للتعذيب ضد النشطاء السياسيين، كما يستخدم بصورة متزايدة ضد المواطنين العاديين.

مع ذلك فإن الموقف متقلب. فقد برزت إلى السطح عناصر جديدة هزت أركان البنيان الراسخ لتحكم أصحاب المصالح فى الدولة. وقد قام عمال الصناعة وموظفو الدولة ووسائل الإعلام المستقلة بتعديل قواعد اللعبة. ورغم ذلك فقد واجه النظام ونموذجه فى السيطرة التحدى. فللمرة الأولى منذ عقود واجه أولئك الموجودون فى الحكم صورة متباينة من النشاط: احتجاجات بشأن الماء والخبز، حراك فى القرى ضد انتزاع الأراضى، مظاهرات فى الشوارع من أجل الديمقراطية، مسيرات وقوافل تضامن لفلسطين، احتجاجات جامعية ضد الحرب والقمع، اعتصامات لموظفى الدولة؛ إضرابات فى الصناعة، ومجموعة من التحركات للقضاة والمعلمين وأساتذة الجامعات والأطباء والصيادلة. وقد شارك فى ذلك ملايين من المصريين. وتحقق كل جماعة درجات مختلفة من النجاح فيما يتعلق بجمع أصوات الناخبين والتكيف والتعاون، ولكن وجدت كل منها مكانا لها على المسرح السياسى ومن المرجح أن تلعب دورا فى الأحداث القادمة. وكما تعلمنا من أمثلة نصف العالم الجنوبى، عادة ما تنهار الحركات الصاعدة من الأسفل ويعاد تشكيلها بواسطة ضغوط وسياسات اجتماعية جديدة، لتعود فى صورة حملات للمطالبة بالحقوق وجماعات ضغط لتحقيق الإصلاح و - الأكثر أهمية - المبادرات الطبقية التى تنطوى على إمكانية الإتيان بتغيير ساحق.

التحدى الأكبر أمام أولئك الساعين إلى التغيير هو التفتيت المستمر للمعارضة السياسية وغياب التعاون الفعال الذى يوجه الطاقات ويوفر البدائل القابلة للتطبيق. وقد كتب «برومبرج Brumberg» عن «الحكم الاستبدادى المتحرر» والذى من خلاله «يكافح أولئك الموجودون فى السلطة لمساندة جماعة ضد أخرى بطرق تزيد من المجال أمام الحكام للمناورة وتقييد قدرة المعارضة على العمل معا». يمكن اعتبار مصر حالة تقليدية: فالمعارضة منقسمة وتبقى محدودة الفعالية. بل إن سنوات الخمول السياسى المستتر والمستمر قد جردت العصيان المتزايد من الخبرات التنظيمية اللازمة ومخزون الوسائل السياسية.

ليست تلك المشاكل فريدة من نوعها. ففى العديد من مجتمعات نصف العالم الجنوبى يكافح الناس الرازحون تحت الحكم الشمولى لإيجاد سبل جديدة للتعبير عن طموحاتهم وتحقيقها. وتعد

مصر موقعا ممتازا لفهم تلك التحديات. ويجب أن تدفعنا التطورات الأخيرة إلى إعادة النظر فى المفهوم القائل بأن إحلال الديمقراطية يتعلق فى الأساس بـ «تغيير النظام» وأن التحولات الديمقراطية تتطور بالطرق المستقيمة. وتؤكد تلك التطورات على مدى تعقيد العلاقات بين الدولة والمجتمع وظهور العناصر الخارجة على الحدود الراسخة لـ «المجتمع السياسى». ولذلك فإن من بين أهداف هذا الكتاب فهم التحولات السياسية الاجتماعية من خلال تناول العلاقات التى ترتكز عليها، بدلا من الإشارة إلى دعائم «الديمقراطية» و«الشمولية». والهدف من ذلك هو دراسة الفرص المتاحة للعمل الجماعى والقيود المفروضة عليه.

الديمقراطية من الأسفل

كانت معظم التحليلات الأكاديمية لمصر المعاصرة مقيدة بافتراضات حول سياسة الصفوة و/أو توجهات نحو الثقافة السياسية التى تؤكد «الاستثنائية». هناك انحياز واضح للصفوة: ميل لرؤية الاستمرارية والتغير من خلال منظور مركزى، مع اختزال السياسة إلى تغيير التشكيلات بين الصفوة وضمن الهياكل المؤسساتية الرسمية. ورغم كم وتنوع القضايا المطروحة - الشمولية المستمرة، أو غياب تحول ديمقراطى، أو تغير السياسات الاقتصادية، أو الصعود المتزايد للمعارضة، مثل الإسلام السياسى - فإن الدولة والصفوة هما العنصران الوحيدان اللذان يمثلان أهمية. ومثل تلك التناولات تخرس الآخرين الذين يلعبون دورا هاما - علانية أو سرا - فى وضع جداول الأعمال الاقتصادية-الاجتماعية والسياسية. فى الوقت نفسه، هناك ميل قوى للنظر فى أحداث الشرق الأوسط فى سياق الاستثنائية - بمفهوم أن الثقافتين العربية والإسلامية تقاومان التغيير، وخاصة فيما يتعلق بالتحولات الديمقراطية.

لقد حاول هذا الكتاب أن يعكس مسار الأحداث، مؤكدا على أهمية السياسة «من الأسفل» ومشاركة أولئك المحرومين عادة من دور على الساحة السياسية - العمال والنشطاء من أنصار الديمقراطية وجماعات المعارضة الجماهيرية مثل الإخوان المسلمون. وتتناول فصول الكتاب الثمانية التطورات التى شكلت اللحظة الحالية والتى أدت إلى انتشار الغضب واليأس بين الجماهير، وكذلك التحديات السياسية التى ما زال على حركات المعارضة أن تتجاوزها.

حاول الكتاب أن يفهم مصر كجزء من نصف العالم الجنوبى يتأثر بالأنماط الأقل تحديدا من الناحية الثقافية أكثر من كونها جزءا من اتجاهات أوسع. وقد أشار مؤلفو الكتاب إلى سلسلة من صور المقاومة، متسائلين عن علاقاتها ونتائجها. هل ستبقى القضية الفلسطينية حافزا للتطرف؟ هل هناك صلة بين الحركة المؤيدة للديمقراطية والصراعات اللاحقة؟ ما هو أثر حركات التغيير الأخرى على الأسلمة السياسية؟

كما طرح الكتاب أيضا قضية تشغل بال الكتاب حول سياسة التنافس: مسألة البنية والعمالة. إلى أى مدى يذهب النظام الشمولى فى قمع أو احتواء المعارضة؟ هل كان نمو الحركة الديمقراطية وظيفة للقمع المستمر، أم كان فى الأساس نتاج مبادرات النشطاء؟ هل تستطيع سياسات القمع واحتكار السلطة أن تحتوى طاقات المستضعفين والمقهورين؟ يشير المؤلفون بصورة جماعية إلى أن هناك علاقة عضوية بين العناصر الهيكلية والأنشطة السياسية الاجتماعية. وهناك حاجة إلى منهج شامل يلقى فيه دور الوكالات الاجتماعية اعترافا كاملا. وفى هذا السياق هناك أهمية خاصة لفصول «جويل باينين Joel Beinin» و«راى بوش Ray Bush» و«فيليب مارفليت Philip Marfleet» و«سامح نجيب» و«عايدة سيف الدولة»، مما يتيح لنا سماع شيئ من خبرات وطموحات أولئك الذين يقفون خارج الساحة السياسية الرسمية.

فى النهاية، يطرح المؤلفون تساؤلات حول ما هو محلى وإقليمى وعالمى. وكما توضح «آن ألكساندر Anne Alexander» فإن طول أمد الصراع العربى-الإسرائيلى واحتلال العراق قد جعلا من الدولة المصرية حليفا هاما للقوى العالمية التى تلعب أيضا دورا محوريا فى وضع السياسة الاقتصادية المحلية. تبقى مصر هنا ضمن العلاقات المعقدة التى تعد فيها جداول أعمال الليبرالية الجديدة والإمبريالية أمرا تكميليا بوضوح شديد. يخلق ذلك تحديات محددة أمام نظام الحكم والمعارضة، وخاصة المنافس السياسى الرئيسى، الإخوان المسلمون. ■

كتـــاب الـــزاويـــة

أغنية الكعكة الحجرية

أمل دنقل

(١)

لم تكن تلك هى المرة الأولى التى اعتصم فيها الشباب المصرى الثائر بـ «ميدان التحرير». يعرف تاريخ الحركة الطلابية أوائل السبعينيات، حين كان الكل يتعجل قرار الحرب «استردادا للأرض والكرامة» كيف ثار الطلاب حين لم يف السادات بوعده أن يكون عام ٧١ عام الحسم. ففى يناير (أيضا) من ١٩٧٢، وبعد اعتقال زملاء لهم من داخل حرم جامعة القاهرة، خرج الطلاب وكان أغلبهم من الناصريين والشيوعيين إلى ميدان التحرير. ليفترشوه معتصمين «حتى تحقيق مطالبهم».

فى وسط الميدان كانت هناك دائرة كبيرة مصنوعة من قطع الرخام وفى وسطها قاعدة كبيرة كان من المفترض أن ينصب فوقها تمثال، وهذه الدائرة هى «الكعكة الحجرية» التى يذكرها أمل دنقل فى قصيدته تلك التى كتبها لأولئك الأنقياء الذين لابد أن تتذكرهم وأنت تنظر «بإعجاب وفخر»، إلى أجيال جديدة، حملت الراية ذاتها.. والحلم ذاته.. إلى الميدان ذاته.. وأيضا فى الشهر ذاته.

(الإصحاح الأول)

أيها الواقفون على حافَّة المذبحةْ
أشْهِروا الأسلحه!
سقطَ الموتُ.. وانفَرَطَ القلبُ كالمسبحةْ
والدمُ انسابَ فوق الوشاح!
المنازلُ أضرِحَةٌ
والزنازن أضرحةٌ
والمَدَى.. أضرِحةْ
فارفعوا الأسلحه
واتبعونى!
أنا نَدَمُ الغد والبارحه
رايتى: عظمَتَان.. وجُمْجُمَه..
وشعارى: الصباح!

فى الطـــــريق إلـى

إن ثورة يناير لم تنته بإسقاط حكم مبارك، وإنما بدأت خطواتها فى سبيل إقامة نظام ديمقراطى، وهى فى سبيل ذلك شأنها شأن أية ثورة، تواجه ثورة مضادة شرسة.

ويقتضى ذلك من جميع شرفاء الوطن مواصلة الثورة ـ بالتوازى مع إدارة عجلة التنمية ـ حتى تبلغ الثورة جميع أهدافها.



محمــــد بيلى العليمى

■■ بنجاح ثورة يناير ٢٠١١ التى أضرم جذوتها الشباب المصرى - بفضل الله أولا وأخيرا - فى إسقاط حكم الرئيس حسنى مبارك فى الحادى عشر من فبراير المنصرم، فقد بدأ المشوار لإقامة الجمهورية الثانية فى مصر، خلفا للجمهورية الأولى التى تأسست فى أعقاب ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢. وقد دخل ميدان التحرير التاريخ كساحة للتغيير السياسى، الذى لم يعد بالضرورة يتم فى ثكنات الجيش. ولئن كانت ثورة الياسمين التى اندلعت فى ١٨ ديسمبر الماضى بتونس هى الشرارة التى أشعلت النار فى هشيم الشعوب العربية، بما حملته من سخط شعبى عفوى، وجد سبيله إلى الانفجار، فأسقطت زين العابدين بن على فى ١٤ يناير الماضى، فقد اتسمت ثورة يناير فى مصر بنمط أكثر تنظيما، عنوانه البارز توظيف التكنولوجيا الحديثة وانتهاج التظاهر السلمى والاعتصامات المفتوحة بعيدا عن لغة الاقتحامات، الأمر الذى ألهم ثورات عربية عدة فور نجاح الثورة المصرية فى تحقيق أول أهدافها.

وقد اندلعت الثورة فى صورة دعوة على موقع التواصل الاجتماعى على الإنترنت المعروف بالفيس بوك facebook إلى انتفاضة غضب على الفساد الذى استشرى فى أوصال نظام مبارك والممارسات القمعية للأجهزة الأمنية، تزامنت مع احتفال الشرطة بعيدها يوم الثلاثاء ٢٥ يناير، وهو ما رد عليه النظام بقطع خدمات الاتصالات والرسائل النصية عبر الهاتف الجوال، وتعطيل خدمات الإنترنت، مما عزل مصر عن عالم القرن الحادى والعشرين - وهو نفس النظام الذى طالما تغنى بالعصرنة وتحديث مصر - ظنا منه بأن ذلك سيعوق أجهزة الإعلام الدولية عن نقل ما يحدث فى مصر التى استحالت فى تلك الأيام سجنا كبيرا، واعتقادا بأن ذلك سيمنع التواصل والتنسيق بين المتظاهرين، الذين ردوا على تلك الإجراءات بالبقاء فى الشوارع.

ثم ما لبثت الانتفاضة أن تحولت إلى ثورة شاملة فى ٢٨ يناير فيما عرف بجمعة الغضب، والتى دارت خلالها اشتباكات عنيفة بين قوات الأمن المدججة بالسلاح والمتظاهرين العزل عمت مدن الجمهورية، وأسفرت عن مقتل المئات وجرح الآلاف، ثم تطورت إلى إشعال النار فى مقار الحزب الوطنى الحاكم ومراكز الشرطة فى مختلف المدن، فضلا عن إطلاق سراح عشرات السجناء، قبل أن تختفى قوات الشرطة من البلاد، لتسود حالة من الفوضى العارمة، استتبعت قيام الرئيس السابق بإعلان حظر التجول فى محافظات القاهرة الكبرى والإسكندرية والسويس ضمن صلاحياته كحاكم عسكرى فى ظل حالة الطوارئ التى تسود البلاد منذ عام ١٩٨١، طالبا من الجيش النزول إلى المدن لحفظ الأمن.

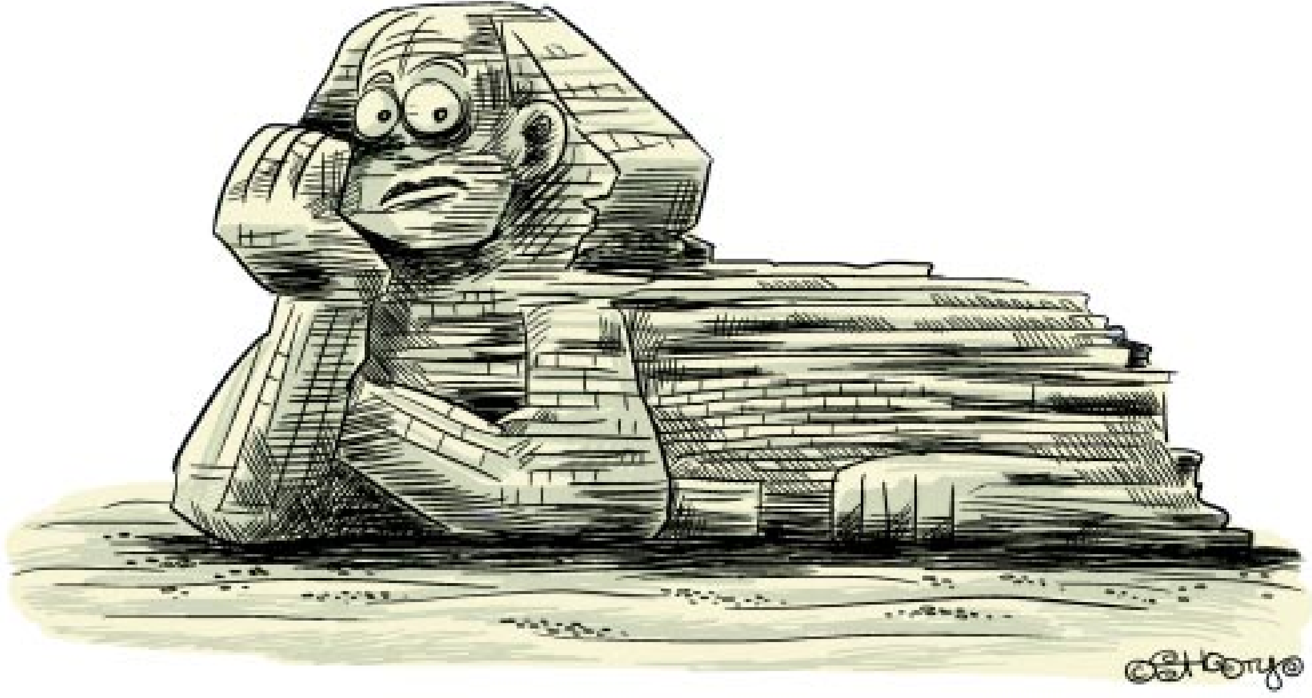
صاحب ذلك قيام عناصر من الشرطة السرية التى تعرف على نطاق واسع فى المجتمع المصرى بمسمى المخبرين بالاشتراك مع عدد من البلطجية ممن فروا من مراكز الشرطة والسجناء الهاربين بإثارة الذعر من خلال إطلاق النار العشوائى والتعرض للممتلكات العامة - وأبرزها المتحف المصرى - فضلا عن محاولات السطو على الممتلكات الخاصة، وهو ما تم تحت غطاء إعلامى رسمى من التهويل والمبالغة، هدف إلى صرف الجماهير عن التظاهر فى الميادين والشوارع الرئيسية وإعادتها إلى الأحياء السكنية لتأمين المال والعرض، من خلال ما عرف باللجان الشعبية، غير أن الشباب الذين كانوا محرك هذه الثورة ووقودها نجحوا فى تجاوز هذه الحيلة من خلال تخليف الصبية والرجال فى هذه اللجان، بينما حافظوا هم على مواقعهم فى قلب العاصمة والمدن الأخرى فى انتظار القوات المسلحة، التى استقبلها الثوار بصيحتهم الهادرة الموقظة للضمير الوطنى: «الشعب والجيش يد واحدة».



ومع هبوط الليل، ذكر التلفزيون الرسمى أن الدكتور أحمد فتحى سرور رئيس مجلس الشعب على وشك أن يذيع خبرا هاما، احتبست له أنفاس الثوار، ومن خلفوهم فى البيوت واللجان الشعبية، وفى الأذهان استرجاع لما ينص عليه الدستور من تولى رئيس مجلس الشعب بصفة مؤقتة مهام رئيس الجمهورية حال شغور هذا المنصب، واعتقد البعض أن ما جنته الثورة التونسية فى ثمانية وعشرين يوما ستجنيه الثورة المصرية فى يوم واحد من الغضب. غير أن الرئيس مبارك ظهر بعد قليل، وإن بدا صوته مختنقا بعض الشىء إلا أنه كان يبدو واثقا إلى حد كبير بسيطرته على الأمور، مؤكدا أن أهم مسؤولياته فى المرحلة المقبلة هى استعادة أمن واستقرار الوطن، ما اعتبره الثوار بالمقام الأول يعنى تصفية ثورتهم. وفى صباح اليوم التالى، قام مبارك بتعيين رئيس جهاز الاستخبارات العامة اللواء عمر سليمان نائبا لرئيس الجمهورية - وهو المنصب الذى لم يأبه مبارك بشغله طوال ما يقرب من ثلاثين عاما - فى خطوة سبقها قبول استقالة حكومة الدكتور أحمد نظيف ذات الطابع البلوتوقراطى، وتكليف الفريق الدكتور أحمد شفيق وزير الطيران المدنى وقائد القوات الجوية الأسبق بتشكيل الحكومة الجديدة، وهو ما أعاد إلى الذاكرة المصرية تعيين الرئيس الراحل أنور السادات فى ١٦ أبريل ١٩٧٥ للفريق حسنى مبارك قائد القوات الجوية حينذاك نائبا له واللواء ممدوح سالم وزير الداخلية رئيسا للوزراء، حيث اعتبر ذلك تعزيزا للقبضة الأمنية للدولة، سعى إليه السادات قبيل إطلاق مبادرة السلام مع إسرائيل والتوسع فى انتهاج سياسات الانفتاح الاقتصادى، متوقعا مواجهة مرحلة حافلة بالاضطرابات.

وعلى الرغم مما سعى إليه رئيس

الجمهـــــورية الثانيــــــة



الحكومة الجديدة الدكتور أحمد شفيق فور أدائها القسم من امتصاص غضب الشارع واستعادة الثقة فى النظام بأسلوبه البسيط المتواضع ودماثة أخلاقه المعهودة، ما كاد أن يعيد الأمور إلى هدوئها، لا سيما مع تعهد نائب رئيس الجمهورية بالبدء فى الحوار الوطنى مع كافة القوى السياسية بما فيها جماعة الإخوان المسلمين، والتى دأبت أدبيات النظام على وصفها بالمحظورة، وممثلون عن الشباب الذى قاد ثورة الغضب، فضلا عن التعهد بتطبيق الأحكام القضائية فيما يتعلق بالطعون المقامة على انتخابات مجلس الشعب التى أجريت فى ديسمبر الماضى، وإجراء تعديلات للمواد ٧٦ و٧٧ ، و٨٨ من الدستور، بما يتيح فرصا أوفر للترشح لمنصب رئيس الجمهورية، مع وضع حد لعدد الفترات الرئاسية، بالإضافة إلى الإشراف القضائى على الانتخابات، على الرغم من كل ذلك، فقد نجح الثوار يوم الثلاثاء الأول من فبراير الذى وافق الذكرى الأسبوعية الأولى لبداية انتفاضتهم فى حشد مسيرات مليونية فى عدد من المدن المصرية للمناداة بتنحى الرئيس مبارك عن الحكم، تصدرها ذلك المشهد المهيب فى ميدان التحرير، الذى غدا معقل قيادة الثورة، وهو ما استتبع الخطاب الثانى للرئيس خلال هذه الثورة، والذى عمد فيه إلى استجداء تعاطف الشعب من خلال استعراض تاريخه فى العمل الوطنى، معربا عن أمله فى أن يموت

ويوارى الثرى فى وطنه، ومشيرا إلى عدم نيته الترشح لفترة رئاسية جديدة، الأمر الذى أفلح إلى حد ما فى مسعاه - رغم إصراره كما فعل فى خطابه الأول مساء جمعة الغضب على تجاهل ذكر شهداء الثورة - ما كاد يشق صفوف الثوار فى جدل لم تمر عليه ساعات حتى تبخر وحل مكانه إصرار فولاذى. فالرئيس الذى خير شعبه فى خطاب الاستعطاف بين الفوضى والاستقرار، كان قد عقد العزم على إشعال نزاع أهلى بإطلاق تظاهرات مؤيدة للرئيس، بما يدحض فكرة مليونية الثورة ويوجد فريقا للموالاة فى مقابل فريق المعارضة - إن صح استخدام مفردات السياسة اللبنانية فى المشهد المصرى - وحاول جناح من النظام لا يعرف حتى الآن تحديدا ما إذا كان من فلول قوات الأمن أم من نواب الحزب الحاكم تفريق الثوار وتحويل ميدان التحرير إلى أنهار من الدماء بتسليط قطيع من البلطجية الذين شاركوا فى المظاهرات المؤيدة لمبارك منطلقة من أمام مقر اتحاد الإذاعة والتلفزيون بماسبيرو عبر ميدان عبد المنعم رياض إلى ميدان التحرير، حيث وقع ما أطلق عليه «موقعة الجمل الثانية»[1].

وصدم عالم القرن الحادى والعشرين، وهو يشهد عبر البث الحى الإبل والخيل والبغال تقتحم الميدان الرئيسى فى عاصمة، طالما عرفوها كوزموبوليتانية، وما لبث أن اندلع القتال عند الأصيل بين البلطجية المأجورين

لموالاة نظام مبارك والمسلحين بالأسلحة البيضاء وقنابل المولوتوف وبين الثوار العزل الذين لم يجدوا سوى الحجارة للدفاع عن أنفسهم، فى مشهد أعاد إلى الأذهان الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام ١٩٨٧، واستمر طوال ساعات الليل، مخلفا قتلى وجرحى، واستهجانا دوليا متزايدا، والأهم يقين الثوار بضرورة إنهاء حكم مبارك، على الرغم من الحوار الوطنى، الذى لهث إليه سياسيون طامعون فى اقتسام غنيمة لم تحضر، ومن ثم أعلن الثوار تنظيم ما أسموه جمعة الرحيل فى الرابع من فبراير.

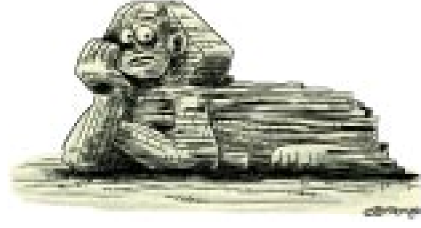


ومن المنصف أن نذكر أن حكومة شفيق قد نجحت فى تمرير جمعة الرحيل بلا صدام، مستفيدة من درس جمعة الغضب التى حولت الانتفاضة إلى ثورة، ومن ثم راح رئيس الوزراء يصرح بضعف موقف الثوار وأن النظام بدأ يستعيد توازنه، مراهنا على عامل الوقت وتسلل الوهن إلى نفوس الثوار والشقاق إلى صفوفهم، لا سيما بعد قيام نظام مبارك بتقديم قائمة جديدة من قرابين الفداء، باستقالة هيئة المكتب السياسى للحزب الوطنى الحاكم فى ٥ فبراير - ما تضمن إشارة واضحة إلى تنحية جمال مبارك مؤقتا من العمل السياسى - وفتح القضاء لملفات الفساد لعدد من وزراء حكومة نظيف.

وبدا وكأن الثورة قد تقلصت إلى اعتصامات مفتوحة فى ميدان التحرير ومدن مصرية أخرى، وراح الإعلام يركز على الأبعاد الثقافية والفنية للثورة والفعاليات التى يقيمها شبابها عندما يحل المساء، ما بدا معه المشهد وكأنه معسكر للكشافة، لا خطر منه على النظام من قريب أو بعيد، وساد اعتقاد بإمكانية تحويل ميدان التحرير إلى ما يشبه الهايد بارك بلندن، وتسيير المحاور المرورية خارج الميدان، وبالتالى يمكن احتواء الثورة والتعايش مع الاعتصام، بل والترويج له كأحد شواهد ديمقراطية النظام الذى يقبل بهذا التعايش.

غير أن ما لم يكن فى حسبان النظام أن ذلك الطور الفلكلورى للثورة جذب إليها الكثير من الوقود البشرى.. لم يعد الأمر شبابا فحسب، وإنما شهد الميدان عائلات بأكملها، أتت من كل صوب لتستمتع بروح الحماسة فى نهار الميدان ودفء السمر فى ليله، فيما يشبه معرض القاهرة الدولى للكتاب، الذى لم ينظم هذا العام؛ على خلفية حظر التجول. وقد حدا ذلك الإقبال الجماهيرى بالثوار إلى الدعوة إلى مسيرات مليونية أيام الأحد والثلاثاء والجمعة السادس والثامن والحادى عشر من فبراير، فيما خشى البعض من أن يخفق ذلك المسعى بسبب تحوله إلى ما يشبه طقسا احتفاليا. وبعد خروج المسيرات المليونية يومى الأحد والثلاثاء المشار إليهما، فوجئ النظام بأن عدد المتظاهرين المحتشدين فى

فى الطريق إلى الجمهورية الثانية



ميدان التحرير استمر على مليونيته يومى الأربعاء والخميس التاليين على الرغم من عدم الدعوة إلى مسيرات مليونية فيهما، وتأكد أنه لم يعد من الممكن زحزحة تلك الكتلة البشرية الضخمة قبل الاستجابة لمطالبها، وهو ما ووجه بتصريحات من جانب نائب رئيس الجمهورية عمر سليمان، أشار فيه إلى عدم استعداد المجتمع المصرى للديمقراطية (وهى ذات اللغة التى استخدمها من قبل رئيس الحكومة المقالة أحمد نظيف، ما وشى بأن الحوار الوطنى والوعود بالإصلاح والتعديلات الدستورية لم تكن سوى تكتيكات لاحتواء الثورة والالتفاف على مطالبها، ريثما يعيد النظام ترتيب أوراقه، ويقوم جناحه الأمنى بالبطش بالثوار فى ظل قانون الطوارئ انتقاما لهيبة النظام المهدرة) ملوحا باحتمال قيام الجيش - الذى ظل فى الشارع على الحياد طوال تلك الفترة - بالانقلاب على الثورة.

وسخرت الجماهير من ضيق النظام وتلويحه بسلاح بدا من اللحظة الأولى لحظر التجول أنه ملك للشعب، قبل أن يرد الشعب بتطوير ثورته بالتوجه إلى المقار السيادية للدولة، فحاصر الثوار مقرى البرلمان ورئاسة الوزراء بشارع قصر العينى أحد روافد ميدان التحرير، حيث اضطر رئيس الحكومة إلى ممارسة مهامه من مقر وزارة الطيران المدنى على أطراف القاهرة. ثم ما لبثت الإضرابات النقابية والعمالية أن دخلت على خط الأحداث، وغدا واردا أنه إذا ما اتسع نطاق الإضرابات فإن قناة السويس قد يتعطل العمل بها بعد أيام، ما يعنى احتمال تدخل المجتمع الدولى ليطالب مبارك صراحة بالتنحى. لقد بدا أن بنيان الدولة - فضلا عن النظام - على وشك أن يتهاوى، لا لشىء سوى أن الرئيس قد قرر أن يدخل فى صراع إرادة مع شعبه.

وتطلب التصعيد الجديد تدخلا حاسما من الجيش الذى ظل على الحياد طوال الثورة، مكتفيا بحفظ الأمن. وجاء انعقاد المجلس الأعلى للقوات المسلحة يوم الخميس ١٠ فبراير فى غياب رئيس الجمهورية - الذى هو بحكم الدستور القائد الأعلى للقوات المسلحة، ومن ثم رئيس ذلك المجلس العسكرى - ليرسل إشارة واضحة بأن الجيش لم يعد يدين بالولاء لمبارك، الذى رد بخطاب ثالث، أعلن عن إذاعته مساء ذات اليوم. وتواترت الأنباء على لسانى الدكتور حسام بدراوى الأمين العام الجديد للحزب الوطنى والذى استقال من منصبه حينها وليون بانيتا مدير وكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية C.I.A. بأن الرئيس مبارك على وشك التنحى، ثم ظهر الرجل مساء فى خطاب، بدا من اجتزائه أنه مسجل، وهو ما ثارت حول أسبابه الشائعات، حيث فوض نائبه عمر سليمان بصلاحيات رئيس الجمهورية وفقا للدستور - أى بما لا يمنح سليمان حق إقالة الحكومة أو حل البرلمان أو إجراء تعديلات دستورية دون العودة للرئيس - ومن ثم فقد خير مبارك ضمنا شعبه بين شل الإصلاحات السياسية التى وعد بها وبقائه فى واجهة المشهد السياسى، وهو ما اعتبره الثوار تحايلا على مطلبهم الرئيس الذى ارتفع سقف توقعاته تلك الليلة، بما لم يعد يقبل عن التنحى بديلا.

ولم ينم الثوار ليلتهم، بل غذوا السير إلى قصر العروبة بمصر الجديدة، حيث مقر رئاسة الجمهورية، الذى كان قد حصن بسياج من الأسلاك الشائكة وقوات الحرس الجمهورى وأحاطت بالطريق إليه القوات المسلحة، فى حين غادره سيده إلى شرم الشيخ بعد أن سجل خطابه الثالث إلى شعبه.



وطوال جمعة مليونية حاشدة، سميت بجمعة التحدى وجمعة الطوفان، لم تتوقف حناجر الثوار عن الهتاف بسقوط النظام، ولا توقفت أسرابهم عن التوافد إلى القصر الجمهورى، حتى ظهر نائب رئيس الجمهورية بعد الغروب يعلن تنحى الرئيس مبارك عن رئاسة الجمهورية وتسليمه السلطة إلى الجيش، الذى ظهر المتحدث الرسمى باسمه بعدها ليؤدى التحية العسكرية لشهداء ثورة الشباب، فى إيماءة إلى ولاء الجيش للثورة.

وكما لم ينم الثوار خميسهم حنقا، لم يناموا جمعتهم طربا، وقد أدركوا أن الكلمة قد أصبحت للشعب، قبل أن يدهشوا العالم أجمع مرة أخرى بتحضرهم الذى ما وعى إليه حكامهم، عندما دعوا إلى استمرار بقائهم فى الشارع، لا للاحتجاج كما فعلوا طوال ثمانية عشر يوما، وإنما لتنظيف وتجميل الشوارع التى تعرضت للضرر خلال الثورة.

وشهدت شوارع مصر صبيحة السبت ١٢ فبراير عيدا وطنيا، فالأسر كانت قد خرجت من مساء الجمعة تنشد الأهازيج الوطنية، ويرفع أطفالها العلم المصرى، ويلونون وجوههم بلونه، والشوارع امتلأت بمئات الشبان والفتيات، الذين راحوا يعملون بحيوية متدفقة فى كنس الشوارع وإزالة القمامة وتلميع الجدران وطلاء الأرصفة، حتى بدا ميدان التحرير أبهى مما كان عليه قبل الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١.

وبالعودة إلى أسباب اندلاع الثورة، فإن ثمة غابة متشابكة من الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية كثفت الضغط على خزان الغضب حتى انفجر بركانا ثائرا، متفاعلا مع عدد من المتغيرات الإقليمية والدولية. ويمكن تصنيف تلك الظروف والمتغيرات على مستويين: الأول تراكمى طيلة عهد الجمهورية الأولى، والثانى تفاعلى خلال العقدين الأخيرين - وبالذات الثمانى سنوات الأخيرة - من عهد مبارك. فبالنسبة للأسباب التراكمية، يمكن إيجاز أبرز ملامحها على النحو التالى:

أولا: استمرار الحكم الفردى للبلاد منذ ثورة يوليو ١٩٥٢، وطوال ما يقرب من ٥٩ عاما، توالى خلالها على حكم مصر أربعة رؤساء من المؤسسة العسكرية، كانت القبضة الأمنية السمة الغالبة لحكمهم، وإن تباين رد الفعل الشعبى لتلك القبضة. ومع إغفال حكم اللواء محمد نجيب أول رؤساء الجمهورية؛ نظرا لقصر الفترة التى تولى فيها مهامه، يمكن أن نلحظ دورا متزايدا للأجهزة الأمنية فى عهد جمال عبد الناصر، وعلى رأسها جهاز الاستخبارات العامة، الذى اكتسب فى ذلك الحين سمعة سيئة من تطبيق بوليسية الدولة، الأمر الذى بلغ ذروته إبان تولى صلاح نصر رئاسة ذلك الجهاز، وذلك على الرغم من اعتباره مؤسسه الحقيقى؛ نظرا للتطوير الذى أدخله على أدائه فى الخارج وقيامه بعدد من العمليات الصعبة، لم تحل - رغم ذلك - دون وقوع نكسة ٥ يونية ١٩٦٧، التى أطاحت بعدد من قادة المؤسسة العسكرية والاستخبارات، وتبعتها بعد ثلاث سنوات وفاة عبد الناصر لأسباب ثارت حولها الشبهات، وبعد أن خسر الكثير من رصيده كزعيم للقومية العربية، وقد تعرضت بلاده لهزيمة نكراء.

وفى تناقض مع ما استهل به أنور السادات عهده مما أطلق هو عليه ثورة التصحيح فى ١٥ مايو ١٩٧١ من إطاحة بمراكز القوى وهدم للمعتقلات وإطلاق حرية التعبير، فقد نكص السادات على عقبيه قبيل وإبان إطلاق عملية السلام مع إسرائيل، خاصة بعد اندلاع انتفاضة الخبز فى ١٨ - ١٩ يناير ١٩٧٧، فى مشهد ساده اعتقال رموز السياسة والفكر والأدب ورجال الدين، وتزامن مع شيوع حالة من الاحتقان الطائفى، وانتهى بقيام عدد من ضباط الجيش باغتيال السادات فى احتفاله بذكرى انتصار السادس من أكتوبر ١٩٧٣.

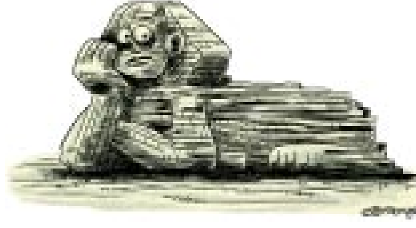
وسار حسنى مبارك على سنة السادات فى تدشين عهده بالعفو عن المعتقلين السياسيين والمناداة بالديمقراطية وحرية التعبير، على الرغم من تناقض ذلك مع حالة الطوارئ التى ظل متمسكا بفرضها منذ اغتيال السادات، والتى تتيح له الجثوم على المشهد السياسى والانقضاض على الحريات العامة فى أية لحظة، وهو ما قام به يوم جمعة الغضب من تكشير عن أنيابه بصفته حاكما عسكريا، غير أن الجيش الذى استدعاه مبارك لإحكام



ولم ينم الثوار ليلتهم، بل غذوا السير إلى قصر العروبة بمصر الجديدة، حيث مقر رئاسة الجمهورية، الذى كان قد حصن بسياج من الأسلاك الشائكة وقوات الحرس الجمهورى



فى الطريق إلى الجمهورية الثانية



قبضته على البلاد بعد فشل أجهزته الأمنية فى ذلك كان أحد اللاعبين الذين ضغطوا عليه للتنحى عن الحكم.

ثانيا: غياب المشروع القومى لمصر فى عهد الرئيس السابق، متزامنا مع تردى الظروف الاقتصادية، وإفراز شريحة جديدة من مراكز القوى، بما لذلك من انعكاسات اجتماعية. فإبان الحقبة الناصرية كان التحرر من الاستعمار وتحقيق التنمية الهدف القومى الأول، وأفرز عددا من الإنجازات التى عضدت شرعية ثورة يوليو ١٩٥٢، مثل توقيع اتفاقية الجلاء مع بريطانيا فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤، وتأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦، والبدء فى مشروع السد العالى فى ٩ يناير ١٩٦٠، والوحدة القومية بين مصر وسورية فى ٢٢ فبراير ١٩٥٨، وكلها عوامل أدت إلى وجود حالة من الاتزان لدى الشعب من تحمل للقبضة الأمنية فى سبيل إنجازات قومية وضمان الدولة لأقوات الناس من خلال انتهاجها لاقتصاد موجه.

وعلى الرغم من الشرعية التى اكتسبها نظام السادات فى أعقاب حرب أكتوبر، التى كانت مشروعا قوميا ملحا، فإن انتهاج السادات لسياسات الانفتاح الاقتصادى، وبالتالى انحسار المظلة الاجتماعية للاقتصاد المصرى فاقمت من الغضب الشعبى عليه وقادت إلى انتفاضة الخبز، خاصة فى ظل تفشى الفساد، وظهور مراكز قوى كما كان فى أواخر عهد عبد الناصر، ليست مسلحة بالنفوذ السياسى والأمنى فحسب وإنما بالهيمنة الاقتصادية أيضا.

وبعد محاولات مبارك فى ثمانينيات القرن الماضى التريث فى السياسة الانفتاحية التى أطلقها سلفه، فقد عمد فى أعقاب مشاركته فى حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١ إلى تطبيق سياسات أكثر رأسمالية بإيعاز من مؤسسات بريتون وودز، ما أدى إلى تذويب الطبقة الوسطى بين شريحة ضيقة من الأثرياء المقربين من النظام وطبقة عريضة من الفقراء، وعموم الفساد من رشوة ومحسوبية واعتداء وإهدار للمال العام فى كلتا الطبقتين. صاحب ذلك غياب أى مشروع قومى لمصر خلال ثلاثة عقود، واعتماد نظام مبارك على الترويج إعلاميا لعدد من المشروعات التنموية المحدودة باعتبارها مشروعات قومية عملاقة، فتارة كان مترو الأنفاق هو المشروع القومى، وأخرى كان مشروع توشكى، وأخيرا دعا النظام إلى بلورة مشروع قومى متمثل فى برنامج المحطات النووية المصرية أو ما يعرف على نطاق واسع بمشروع الضبعة، إلا أن هذا المشروع تعرض أيضا للتباطؤ، بسبب التنافس بين رجال الأعمال. وقد زاد الطين بلة مباركة نظام مبارك لزواج المحارم السياسى بين السلطة والثروة، والذى كان عرابه جمال مبارك، لتشهد حكومة أحمد نظيف غزوا من رجال الأعمال، ما زالت فضائحه المالية تترى حتى اللحظة.

ثالثا: انحدار الثقافة والإعلام المصريين منذ منتصف السبعينيات. فمصر التى قادت عصر التنوير فى العالم العربى، وانطلقت منها حركات الإحياء الأدبى والفكرى، وعرفت الصحف والمجلات، وجدت حضارتها طوال ثلاثة عقود تنحدر إلى درك سحيق. ومع تفنن الأدوات التعبيرية للأدب كالسينما والدراما والمسرح والموسيقى فى مخاطبة الغرائز المادية، فقد شهدت مصر حالة من تعهير الثقافة، حتى ظن البعض قبيل الثورة أن شباب مصر قد انكب إما على الكفاح فى محيط من الفساد وعدم تكافؤ الفرص، أو تغييب عقله وامتهان جسده. كانت مصر قد أمست نهبا للاعبى كرة ومطربين وممثلين ومقدمى برامج تلفزيونية يتقاضون أجورا فلكية، ولكتاب باعوا أقلامهم للرئيس السابق، وإعلاميين سفحوا شرف مهنتهم تحت قدميه، حتى ركبوا المناصب الإعلامية والصحفية البارزة، ووجهوا الإعلام المصرى خلال ثورة الشعب لصالح النظام، ثم إذا بهم بعد ترنحه، يعلنون التوبة السياسية، ويغتسلون بمداد أقلامهم النجس، خائلين أن ذاك مما ينطلى على الشعب الذى سطر أسماءهم فى قوائم سوداء تنتظر الحساب.

رابعا: تقزيم دور مصر الخارجى، فى عاهة أحدثتها كارثة ١٩٦٧ بجسد الدولة المصرية. فعلى عكس الخمسة عشر عاما الأولى من عمر ثورة يوليو ١٩٥٢ التى حملت فيها مصر على عاتقها مشروعا قوميا ذا ملامح واضحة، ومارست دورا سياسيا متميزا فى قيادة كتلة عدم الانحياز، لتقترب بها من مفهوم القطب الثالث فى عالم كان ثنائى القطبية، ودعمت حركات التحرر الوطنى فى دول العالم الثالث، انكمشت مصر تلملم جراح هزيمتها، وتحاول إصلاح ما أفسده عبد الناصر من علاقتها بمحيطها العربى والعالم الغربى، ثم ما لبثت الخصومة أن دبت بينها وبين أشقائها العرب، على خلفية توقيع السادات لمعاهدة السلام مع إسرائيل فى ٢٦ مارس ١٩٧٩، والتى كانت ضرورية لاستعادة باقى الأرض المصرية المحتلة التى لم يكن السلاح وحده قادرا على استردادها بدون الدبلوماسية. كما تراجع دور مصر الرائد فى إفريقيا، ما سمح بقيام قوى إقليمية أخرى بالتوغل داخل القارة، مثل إيران وإسرائيل، فضلا عن القوى الدولية كالولايات المتحدة وفرنسا والصين، وانتهى الأمر بتوقيع أربع دول إفريقية فى ١٤ مايو الماضى لاتفاق إطارى جديد خاص بمياه النيل، بما يتعارض مع الحصة المعلومة لمصر فى مياه النهر.



وعمد مبارك فى بداية عهده إلى استعادة علاقات مصر العربية، مع استكمال نهج السادات فى تطوير العلاقات بالولايات المتحدة، وظهر بصورة الزعيم العربى ذى المواقف المتزنة إبان حرب الخليج الثانية وفى أعقابها. وقد ساعد فى ذلك اختيار مبارك لمندوب مصر لدى الأمم المتحدة السفير عمرو موسى وزيرا للخارجية عام ١٩٩١، والذى عرف على نطاق واسع داخليا وخارجيا بآرائه القومية، ومواقفه المساندة للمفاوض الفلسطينى بعيد إطلاق عملية السلام فى مؤتمر مدريد فى نفس العام، فضلا عن تعاظم دور المؤسسة الدبلوماسية فى رسم السياسة الخارجية المصرية، وهو آخر ما كانت ترغب به مؤسسة الرئاسة، التى قامت بإقصاء موسى إلى جامعة الدول العربية عام ٢٠٠١.

غير أنه لا يمكن أن ننكر أن تركيز مصر خلال هذه المرحلة على الظهور فى صورة عملية السلام فى الشرق الأوسط لفت نظرها بعيدا عن ملفات إقليمية، لا تقل أهمية، فالحرب الأهلية فى السودان ازدادت احتقانا بين الشمال والجنوب. ثم ما إن وقع الطرفان اتفاقية السلام الشامل فى ٩ يناير ٢٠٠٥، حتى اندلعت أزمة دارفور، وأدت كل هذه التفاعلات التى غابت عنها مصر مبارك أو لحقت بها متأخرا إلى تقسيم السودان، بما يفتحه ذلك من سيناريوهات على الأمن القومى المصرى.

وقد ساهم فى تفاقم آثار تلك الأسباب التراكمية الأربعة عدد من الأسباب التفاعلية، أدت فى نهاية المطاف إلى الثورة، وأهمها هذه الأسباب:

أولا: ظهور عدد من الحركات الشعبية المنظمة فى الشارع المصرى، كرد فعل لتقوقع الأحزاب السياسية، وقد رفعت هذه الحركات مطالب التغيير التى تركزت حول رفض التمديد والتوريث. وكان أبرزها حركة كفاية التى تأسست عام ٢٠٠٤، والجمعية الوطنية للتغيير عام ٢٠١٠.

ثانيا: توتر المناخ العام بين النظام والهيئات النقابية، الأمر الذى كشفت عنه التحركات الاحتجاجية للصحفيين والمحامين، وبلغ ذروته فى أزمة نادى القضاة عام ٢٠٠٦.

ثالثا: ظهور الشباب غير المسيس بشكل مباغت على الساحة السياسية من خلال دعوته إلى إضراب عام فى مصر يوم ٦ أبريل ٢٠٠٨، تلاه إضراب آخر فى ٤ مايو من نفس العام، موافقا لاحتفال الرئيس السابق بذكرى ميلاده. وقد كشف الإضرابان عن تراجع سيطرة نظام مبارك على عدد من المدن الصناعية المصرية، كان أبرزها المحلة الكبرى وكفر الدوار.

رابعا: تسارع وتيرة أحداث الاحتقان الاجتماعى فيما بعد الإضرابين، وكان أهمها أربع محطات:

١ - وفاة الشاب خالد سعيد بالإسكندرية نتيجة تعذيبه على أيدى اثنين من رجال الشرطة فى يونيه الماضى.

٢ - الاشتباكات التى وقعت بين قوات الأمن وعدد من المسيحيين هاجموا الديوان العام لمحافظة الجيزة فى نوفمبر الماضى.

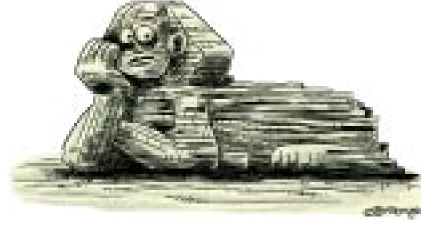
٣ - أحداث البلطجة والتزوير التى وصمت انتخابات مجلس الشعب الأخيرة، والتى أفرزت مجلسا تشريعيا مطعونا فى شرعيته، كاد أن يكون خلوا من المعارضة الحزبية، ما أوجد يقينا لدى المعارضة باستحالة المشاركة السياسية من خلال الأطر القانونية، ومهد لقبول مبدأ الاحتكام إلى الشارع.

٤ - أخيرا انفجار كنيسة القديسين بالإسكندرية ليلة رأس السنة الميلادية الجارية.

خامسا: اندلاع الثورة التونسية بمطالبها الاجتماعية والسياسية، نتيجة لظروف مشابهة لتلك السائدة فى مصر، وامتداد إلهامها إلى الشعب المصرى التواق إلى الحرية.

ولم يقدر عدد من دوائر صنع القرار المصرية أن مظاهرات ٢٥ يناير كان من الممكن أن

فى الطريق إلى الجمهورية الثانية



تتحول إلى ثورة، فعندما التقينا بالرئيس السابق يومى ١٨ و١٩ يناير الماضى خلال القمة العربية الاقتصادية الثانية بشرم الشيخ، كان كل شىء يبدو هادئا، وما هو إلا أسبوع حتى اندلعت الثورة، وهو ما جعل أطرافا كثيرة فى الداخل والخارج تتذبذب فى مواقفها حيالها.

فالذين هاجموا الثورة فى أيامها الأولى باعتبارها فى أكثر التقديرات تشاؤما احتجاجات شبابية، راحوا يغيرون مواقفهم تدريجيا كلما أحرزت تقدما مع إمساكهم بالعصا من منتصفها، حيث إن النظام المصرى كان من أقوى الأنظمة العربية من حيث استقراره وتعقيد وتشعب مؤسساته - وهو ما يحتم استمرار منطق الثورة لتطهير هذه المؤسسات - ومن ثم لم يكن هؤلاء يرغبون فى الانحياز إلى جانب النظام أو الشعب، الأمر الذى لم يستوعبه غيرهم بانحيازهم المطلق للنظام، الذى لم يكونوا يتصورون انهياره، حيث ضمت القوائم السوداء الكثير من أعداء الشعب من إعلاميين وصحفيين وممثلين ومطربين ولاعبى الكرة وغيرهم، وينبغى أن لا يفلت أيهم من عقوبة الإقصاء من المجال العام كحد أدنى سواء بالإقالة أو منعهم من خلال نقاباتهم من ممارسة عملهم العام.

وبوجه عام، فإن المرحلة المقبلة ستكون مرحلة بناء وتعمير، بعدما نهبت بلادنا لعقود طويلة، بما يمكن أن تتأثر معه القطاعات الترفيهية من سينما ودراما ومسرح ورياضة، خاصة فى ظل الأجور الفلكية التى يحصل عليها نجوم تلك القطاعات، مقارنة بما يحصل عليه ذوو المهن التى يحتاج إليها المجتمع بشكل أمس، كالمهندسين والأطباء والمدرسين والدبلوماسيين وضباط الجيش وأعضاء الهيئات القضائية على سبيل المثال.

وقد أكدت الثورة أهمية الدور المصرى إقليميا ودوليا، وهو الدور الذى كثيرا ما وصف صدقا وزورا بالتراجع، فقد اضطربت البورصات العالمية وأسعار النفط والعملات، وتذبذبت السياسات والمواقف، وبدا أن العالم كله قد حبس أنفاسه بانتظار ما يتقرر على الأرض فى ميدان التحرير، فى واحدة من الدول التى بدت مستقرة طوال ثلاثة عقود، متسترة على مظالم اجتماعية متنامية، لم يعد أمامها سوى الانفجار.

فعلى الصعيد الدولى، برز موقف الولايات المتحدة بتردده الواضح بين تأييد مبارك وتأييد الإصلاح الفورى - دون الثورة - حتى وصل الأمر إلى ذروته بامتناع البيت الأبيض عن التعليق على الأوضاع فى مصر وانتظار ما ستسفر عنه الأحداث. وعلى الرغم من هذا التردد الأمريكى، إلا أنه كان بالطبع أكثر ذكاء من تعاطى واشنطن مع الثورة الإيرانية عام ١٩٧٩، وتعاطيها الأسبق مع انقلاب مصدق عام ١٩٥٣، ما تسبب فى أزمة الرهائن بين إيران والولايات المتحدة، وقطع العلاقات الدبلوماسية بين البلدين منذ ذلك الحين، وهو ما لا يعتقد حدوثه فى مصر، خاصة مع وقوع ما هو منتظر من انحياز الولايات المتحدة للثورة المصرية فور نجاحها فى إسقاط مبارك، ودعوتها دول المنطقة للاعتبار بما حدث فى مصر وتونس.



وعلى الصعيد الإقليمى، فقد بادرت إيران من خلال خطبة الجمعة الرابع من فبراير لمرشدها على خامنئى إلى اعتبار الثورة المصرية جزءا من مشروعها الإقليمى، فى رسالة موجهة إلى إسرائيل والولايات المتحدة، الأمر الذى بادر الثوار إلى استهجانه ورفضه بالإصرار على وطنية ثورتهم، وهم الذين أعلنوا من قبل أن مصير وطنهم لا يتحدد فى واشنطن، وإنما يحددونه هم على الأرض فى ميدان التحرير، ما دحض كل محاولات نظام مبارك لإضفاء صفة العمالة والمغامرة وتنفيذ أجندات خفية على الثوار. وبعدما نجحت الثورة المصرية فى تحقيق أول أهدافها، قمع النظام الإيرانى التظاهرات التى قام بها شعبه تضامنا مع الثورة المصرية، فتحولت إلى تصعيد جديد للحركة الاحتجاجية فى إيران بقيادة المرشح السابق لرئاسة الجمهورية مير حسين موسوى.

الأكثر توترا فى متابعته لمجريات الثورة المصرية كان إسرائيل، التى شعرت بأنها على وشك أن تفقد نظاما لا يشكل خطرا على حدودها الجنوبية، بما مكنها من التركيز على حدودها الشمالية مع لبنان وسورية، وهى تخشى أن يبزغ فى مصر نظام ديمقراطى ذو طابع إسلامى أو عروبى، ما يمكن أن يشى باحتمال إلغائه لمعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية من طرف واحد، فضلا عن كون هذا النظام سيصبح نموذجا يحتذى به فى المنطقة، ستتبعه نماذج أخرى من خلال ثورات مماثلة، بما يضاعف حالة العداء الموجود فى المنطقة حيال إسرائيل.

وفى هذا الصدد، ينبغى أن نشدد على ما أكده المجلس العسكرى الحاكم فى مصر فى بيانه الرابع بتاريخ ١٢ فبراير المنصرم (فى اليوم التالى لاستلامه مهمة إدارة شؤون البلاد) من أن مصر ملتزمة بالمعاهدات الدولية التى هى طرف فيها. وبصرف النظر عما ستفرزه أية انتخابات قادمة، فإن أهم ما فى هذا الالتزام ثلاثة عناصر:

الأول: الحفاظ على العلاقات المتميزة مع الولايات المتحدة الأمريكية، وكذلك سائر القوى الدولية والإقليمية التى ترتبط بمصر بعلاقات دبلوماسية.

الثانى: الالتزام بمعاهدة السلام المصرية الإسرائيلية.

الثالث: التمسك بحقوق مصر المائية فى نهر النيل، وفقا للمعاهدات الدولية التى هى طرف فيها، مع التعاون مع بقية دول حوض النيل لتحقيق التنمية المستدامة لشعوب الحوض.

بالإضافة إلى تلك الالتزامات، يمكن للسياسة الخارجية المصرية فى عهد الجمهورية الثانية تطوير مسارها بشكل أكثر برجماتية واستقلالية عن الولايات المتحدة. ولعل سماح وزارة الدفاع المصرية فى ١٨ فبراير بعبور سفينتين حربيتين إيرانيتين فى قناة السويس، على الرغم من اعتبار وزير الخارجية الإسرائيلى أفيجدور ليبرمان ذلك تصرفا مستفزا من جانب إيران، مؤشر إلى بزوغ نمط جديد من التعاطى المصرى مع إيران على وجه الخصوص، وهو ما قد يكون مرشحا للتنامى إيجابيا فى حال أفلحت الاحتجاجات الإيرانية الحالية، التى اندلعت فى أعقاب نجاح الثورة المصرية فى إسقاط حكم مبارك، فى الدفع بقيادات إصلاحية أكثر انفتاحا إلى واجهة المشهد الإيرانى.

ومع احتفال المصريين بجمعة النصر فى ١٨ فبراير، زاد ذلك من حماس الثوار العرب للحاق بقطار الحرية، كما أن نجاح تلك الثورات فى بلوغ أهدافها سيشد من أزر الثورة المصرية فى استكمال تحقيق مطالبها.

وبتحليل تعاطى النظام المصرى مع الثورة، يمكن قراءة الكثير من السمات، نركز منها على التالى:

أولا: لم يدخل مبارك فى موقف تصادمى مع شعبه طوال ثلاثين عاما من الركود السياسى، تم الترويج له على أنه استقرار، وفى أول تصادم أبدى الرجل تحديا لإرادة شعبه واستعدادا لإراقة الدماء وإشعال حرب أهلية فى سبيل بقائه فى سدة الحكم، ولعل أحداث ٢٨ يناير و٢ فبراير قد نزعت أى تعاطف مع الرئيس السابق؛ إذ أصبح بينه وبين شعبه ثأر ودماء، يستحيل معها بقاؤه فى السلطة، حتى ولو من خلال تفويض صلاحياته لنائبه.

ثانيا: فاقم حديث الرئيس السابق لشبكة ABC الأمريكية من السخط الشعبى على الرجل، الذى من جهة استعطف شعبا لم يعد يطيق حكمه، بحجة الدفن فى تراب الوطن، ومن جهة أخرى قدم نفسه للأمريكان بأنه شرطيهم الضامن لاستقرار البلاد، وتجنيبها سيناريوهات الفوضى أو وصول الإخوان المسلمين إلى الحكم، بما قد يحمله ذلك فى اعتقاد إسرائيل من خطر على أمنها.

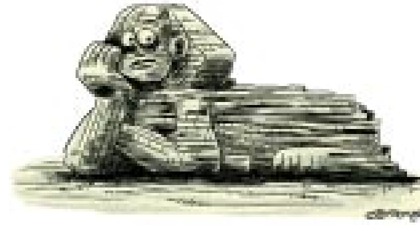
ثالثا: أثار الأداء الأمنى خلال الثورة استياء شعبيا عارما، سواء من خلال استخدامه للقوة المفرطة فى التعامل مع المتظاهرين، أو الانسحاب المباغت من



وبعدما نجحت الثورة المصرية فى تحقيق أول أهدافها، قمع النظام الإيرانى التظاهرات التى قام بها شعبه تضامنا مع الثورة المصرية، فتحولت إلى تصعيد جديد للحركة الاحتجاجية فى إيران



فى الطريق إلى الجمهورية الثانية



المدن وإشاعة حالة من الفوضى. وكان من الغريب أن تضمنت الاحتجاجات الفئوية التى اجتاحت مصر فى أعقاب تنحى مبارك عن الحكم استعراضا قام به عدد من رجال الشرطة فى ميدان التحرير وأمام مقر وزارة الداخلية، رافعين هتافات مناوئة لوزير الداخلية الأسبق حبيب العادلى ومنادية بتحسين الظروف المعيشية لرجال الشرطة، وهو ما انتهى بزيادة حوافز هيئة الشرطة بنسبة مائة بالمائة، فيما بدا مكافأة لها على إسقاط ٣٦٥ شهيدا و٥٥٠٠ جريح طوال أيام الثورة، فضلا عن تخليها عن مسؤوليتها فى حفظ الأمن، وقيامها بنشر الفوضى مع غروب شمس جمعة الغضب.

ومع رفض الثوار الصفح عن الشرطة، فإننا نعتقد أن لجنة الامتحان قد عقدت، ونجحت القوات المسلحة حتى هذه اللحظة فى أول امتحان تتعرض له من هذا النوع، بينما أخفقت الشرطة والإعلام، ولا مجال لقبول التوبة السياسية.

أما بالنسبة للثوار، فقد كانت الثورة بلا شك مدرسة تعلمنا فيها جميعا - أو ربما استعدنا - قيم الوطنية الصادقة والتحدى والحرية، ونقلنا عبرها إلى شباب العالم هذه القيم الحضارية. ويمكن إيجاز أهم الملامح العامة للثورة فى التالى:

أولا: أنها ثورة قادها الشباب من الطبقة الوسطى الذين ولد معظمهم فى عهد مبارك ولم يعرفوا رئيسا سواه، ثم تخرجوا من مؤسسات التعليم، ليجدوا غول البطالة فى انتظار قطاع غير ضئيل منهم، ولما فشلوا فى تحقق أى إصلاح من خلال الشعارات التى رفعتها الدولة طوال عقد كامل، من تحديث مصر، والفكر الجديد، وحقوق المواطن، وغيرها، لم يجدوا سوى الثورة منفذا لغضبهم وتحقيقا لآمالهم.

ثانيا: وضع ذلك الشيوخ بمن فيهم من كبار رجال أحزاب المعارضة والقوى السياسية المختلفة فى حرج بالغ، فقد استكانوا إلى الهوان على مدار عقود طويلة، فى حين لم يحتمل الشباب عقدا من الفساد، فانطلقت ثورته هادرة جبارة.

ثالثا: أدار الشباب ثورته بشكل سلمى، جذب احترام العالم وتعاطفه، وجذب قبل ذلك ملايين الثوار، خاصة وقد تحولت الثورة من عمل نضالى مشوب بالاحتقان إلى تظاهرة فلكلورية، زاوجت بين النضال والمرح، ولعل دعابة «الرجل اللى ورا عمر سليمان» خير شاهد على ذلك.

رابعا: سخر الشباب الإعلام - وهو سلاح فتاك، إن صح الوصف - فى خدمة الثورة منذ اللحظة الأولى للتفكير فيها من خلال الفيس بوك، وخلال مراحلها المختلفة التى فجع فيها المصريون بتخلى الإعلام الرسمى المصرى عن الشعب وانحيازه إلى النظام. ولم يجد الثوار منبرا حرا سوى «الجزيرة» - التى طالما وصمها الإعلام الحكومى فى مصر بالعمالة وخدمة أجندات أجنبية - فضلا عن عدد من الفضائيات الأخرى. ومع اتفاقنا واختلافنا مع كثير مما تبثه الجزيرة، إلا أنها أحرزت بطولة إعلامية فى نقلها وقائع الثورة من الميدان وإيصال صوت الثوار إلى إخوتهم فى الإنسانية حول العالم، ومقاومة محاولات النظام وقف بث الجزيرة على القمر الاصطناعى المصرى نايل سات، وإتاحة المجال لجميع المحطات الفضائية الراغبة فى بث تغطية الجزيرة.. لقد عطل نظام مبارك مكتب الجزيرة بالقاهرة فتحول المصريون إلى مراسلين للجزيرة، وأوقف بث الجزيرة فاستحالت جميع الفضائيات «الجزيرة».

خامسا: أن الثورة كانت حراكا شعبيا بلا قيادة، شاركت فيه جميع التيارات السياسية والفئات العمرية. ومن ثم سقطت كل الأكاذيب التى روجها النظام السابق من نسبة الثورة إلى الإخوان المسلمين مرورا بوصفها بالعمالة لأجندات خارجية إلى المغامرة بالوطن.

سادسا: أدى عدم وجود قيادة للثورة إلى عجز النظام عن التفاوض معها والسيطرة عليها، وباءت محاولات الحوار الوطنى ولجنة الحكماء ولقاء نائب الرئيس السابق بمجموعة من الشباب بالفشل الذريع، فقد أدرك الشعب أنه قد امتلك مصيره ولا مبرر للتفريط فيه فى مفاوضات تأخرت ثلاثين عاما.

سابعا: نجم عن ذلك أيضا عدم خروج الثورة بأيقونات حية محمولة على الأكتاف، وإنما كانت الأيقونة الوحيدة التى تمخضت عنها الثورة هى الشهداء الذين حملوا على الأعناق، وفى مقدمتهم خالد سعيد الذى تحول بعد وفاته نتيجة التعذيب إلى ملهم للثورة المصرية، كما كان محمد البوعزيزى مفجرا للثورة التونسية.

ثامنا: العجيب أن حالة الاحتقان الطائفى التى كثيرا ما تم الترويج لها والمبالغة فى وصفها لم تجد مكانا فى صفوف الثورة، فدماء الثوار التى سالت رسمت على أرض التحرير الهلال يحتضن الصليب، حيث لم يميز رصاص قوات الأمن بين مسلم ومسيحى، وبين شاب وفتاة، وبين شيخ وطفل. وكم تجلت روعة ووحدة الشعب المصرى، حين كان المسلمون يؤدون صلاة الجمعة فى ميدان التحرير فى حراسة إخوانهم المسيحيين، والمسيحيون يقيمون قداس الأحد فى الهواء الطلق بالميدان لأول مرة منذ الفتح الإسلامى لمصر فى حماية المسلمين. وكان نظام مبارك يقدم نفسه على أنه الحارس لإسلامية الدولة بما يحول دون مزيد من الحرية للمسيحيين، والضامن لبقاء المسيحيين المهدد باحتمال وصول الإسلاميين إلى السلطة. وقد انجلت الثورة عن حقيقة مفادها أن حرية المسيحيين لا تقوض إسلامية الدولة، ولا صعود الإسلاميين يمكن أن يهدد حرية المسيحيين كمكون أصيل للنسيج الوطنى المصرى.

ولعل هذا المشهد يقود إلى تساؤل هام حول طبيعة الدور الذى لعبته المؤسستان الدينيتان الرسميتان الإسلامية والمسيحية فى مصر، والذى اتسم بتأييد للرئيس السابق، واعتبار الثورة ضربا من الفتنة ينبغى وأدها، وحث الثوار على العودة إلى بيوتهم وتفضيل الاستقرار على الحرية. وهو ما يتطلب إعادة النظر فى علاقة المؤسسة الدينية بالنظام فى الجمهورية الجديدة بجعل تنصيب شيخ الأزهر بالانتخاب من قبل هيئة كبار العلماء، وكذلك انتخاب بطريرك الأقباط من قبل المجلس الملى العام، دون أن يشترط لأى من هذا أو ذاك صدور قرار جمهورى بإقرار نتيجة الانتخاب، أو إمكانية العزل. من جهة أخرى، ينبغى التخلص من الطبيعة الكهنوتية لشيخ الأزهر من حيث عدم إمكانية عزله من قبل هيئة كبار العلماء، وكأنه معصوم من الزلل والخطأ والشيخوخة.

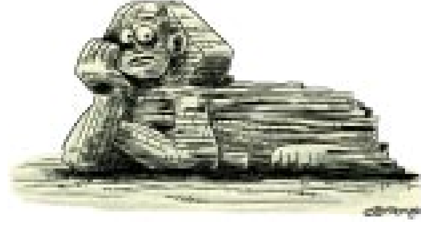
وبدراسة ديناميكية الثورات فى العصر الحديث، فإن أية ثورة تمر بمرحلتين أساسيتين: الهدم وإعادة البناء. وتتكون مرحلة الهدم من مرحلتين متتاليتين: إسقاط نظام الحكم، ثم التطهير لاجتثاث جذور هذا النظام، والتصدى لسيناريو الثورة المضادة. وتأتى مرحلة إعادة البناء لإقامة نظام جديد على المبادئ التى نادت بها الثورة. تم ذلك فى الثورات الفرنسية والبلشفية والإيرانية. أما فى الثورة المصرية، فما تحقق حتى اللحظة هو إسقاط رأس النظام، تحقيقا لأول أهداف الثورة، التى دخلت مرحلة ما بعد البداية، وهو ما يضع عددا من التحديات أمام الثورة خلال المرحلة المقبلة، نحددها فيما يلى:

أولا: بزوغ حكومة جديدة من التكنوقراط المشهود لهم بالكفاءة، تقوم بمهام المرحلة الانتقالية. وقد أصاب المجلس العسكرى الحاكم بإعلانه الدستورى فى ١٣ فبراير، الذى عطل فيه العمل بالدستور، وحل مجلسى الشعب والشورى، ليسقط بذلك الجناح التشريعى لنظام مبارك، وتنهار الشرعية الدستورية لهذا النظام، وتستبدل بشرعية ثورية مستمدة من إرادة الشعب، ويمثلها المجلس الأعلى للقوات المسلحة الذى كان قد أعلن فور توليه المسؤولية فى ١١ فبراير أنه لن يكون بديلا عن الشرعية التى يرتضيها الشعب.

ثانيا: تكمن المهمة الأولى للحكومة الانتقالية الجديدة فى تطهير مؤسسات الدولة كافة - وخاصة الإعلامية والصحفية والاقتصادية والأمنية منها - من جميع القيادات والكوادر الفاسدة التى تم تعيينها فى مناصبها فى عهد الرئيس السابق. وهو ما يشكل وجها آخر للاحتجاجات الفئوية من مختلف القطاعات التى اجتاحت مصر فور تنحى مبارك عن الحكم، تطالب ظاهريا بتحسين ظروفها الاقتصادية والاجتماعية، وتسعى جوهريا إلى إسقاط قياداتها الفاسدة - ونجحت مؤسسات صحفية ومالية فى هذا المسعى، وفشلت أخريات - الأمر الذى بلورته الجماهير بشكل واضح فى الشعار الذى نادت به فى جمعة النصر ١٨ فبراير: «الشعب يريد تطهير البلاد».

وتشمل عملية التطهير إجراءين لا ينفصلان، وهما العزل والمحاكمة، فعزل رموز الفساد يفقد أى مبرر له إذا لم يعقبه محاكمات عادلة لتلك الرموز، وتوقيع تلك المحاكمات للعقوبات على الفاسدين سيكون بلا جدوى إذا لم يتضمن استرداد الأموال المنهوبة من قوت الشعب المصرى، بما يكفل فى حال تحققه إعطاء دفعة قوية للاقتصاد المصرى العليل.

ثالثا: يجب أن يكون من أولويات الحكومة



الانتقالية الجديدة إصلاح هيئة الشرطة، وإعادة بنائها على أسس وطنية وحقوقية، وتخفيض عدد أفراد الأجهزة الأمنية، الذين يشكلون جيشا داخليا موجها ضد الشعب، وذلك من خلال حظر التجنيد الإلزامى لصالح الأجهزة الأمنية، وإحالة المجندين الحاليين لاستكمال فترة خدمتهم العسكرية بالقوات المسلحة، واعتماد الأجهزة الأمنية بدلا من ذلك على قاعدة من المتطوعين لشغل وظائف ضباط الصف، وأمناء الشرطة الذين يتخرجون من معهد أمنى مختص بهذا الغرض، ويترأسهم ضباط الشرطة، مع إلغاء ذلك الجهاز المعاون من المخبرين أو ما يطلق عليه الشرطة السرية. ويتعين بعد عودة السلطة إلى المدنيين أن يوكل منصب وزير الداخلية إلى أحد كبار رجال القضاء أو القيادات الحقوقية.

رابعا: ينبغى أن يتلو ذلك قيام المجلس العسكرى الحاكم بحل الحزب الوطنى الديمقراطى، وحظر نشاطه ونشاط رموزه وقياداته، وجميع أعضائه الذين خاضوا الانتخابات البرلمانية والمحلية منذ عام ٢٠٠٤ سواء بصفاتهم الحزبية أو بصفة مستقلة، وليس فى ذلك افتئات على الديمقراطية أو دكتاتورية للأغلبية، وإنما هو إجراء منطقى، يتخذ بعد التغيرات الكبرى فى بنية النظم السياسية، بما يسمح للأحزاب والقوى السياسية التى كانت مقموعة طيلة عهد الجمهورية المصرية الأولى باكتساب قواعد شعبية من الجماهير التى كان يشتريها الحزب الوطنى بالمال السياسى - أو بتعبير أكثر دقة رشوة الناخبين - والوعود المصلحية الضيقة، فضلا عن صنوف الإرهاب بالبلطجة وقطع الأرزاق.

خامسا: تشكيل لجان شعبية من شباب ثورة يناير فى جميع المحافظات المصرية؛ لنشر الوعى السياسى بين المواطنين بضرورة الإدلاء بالأصوات فى الاستفتاء القادم على التعديلات الدستورية ومختلف العمليات الانتخابية، ومعايير المفاضلة بين المرشحين، وتجنب التأثير على أصواتهم بعوامل الإغراء كالمال والوعود الانتخابية الكاذبة، وكذلك عوامل التهديد، كالبلطجة أو التدخل من بعض ضباط الشرطة.

سادسا: يبقى التوحد على قيادة معلنة للثورة وتبنيها لنموذج معين للدولة هدفا منشودا وملحا وموازيا لكافة ما سبق من تحديات على الثورة أن تواجهها، وهو عنصر ضرورى للثورات، فالثورة البلشفية التى اجتاحت روسيا عام ١٩١٧ كانت ذات قيادة محددة، متمثلة فى لينين، ونادت بأهداف واضحة تدور فى فلك القضاء على الإقطاع وإقامة مجتمع شيوعى، والثورة الإسلامية التى اندلعت فى إيران عام ١٩٧٨ كان يوجهها الخمينى من منفاه بباريس، وكانت كذلك محددة الأهداف بالقضاء على النظام الامبراطورى العلمانى الموالى للولايات المتحدة وتأسيس جمهورية إسلامية راديكالية تقوم على ولاية الفقيه.

ولا ينفى ما سبق وجود روافد متباينة أيديولوجيا أو تكتيكيا مع التيار العام للثورة، كحالة تروتسكى فى الثورة الروسية وحزب تودة فى الثورة الإيرانية، إلا أن هذه الروافد قررت الالتزام بالخط العام للثورة، على الأقل حتى تم اجتياز المرحلة الثورية فى ظل المرحلة الانتقالية إلى المرحلة الدستورية فى ظل النظام الذى أقامته الثورة.



وفى الثورة المصرية، فقد اتسم الحراك الجماهيرى بانعدام الأيديولوجيا، أو بعبارة أدق ذوبان الأيديولوجيا فى المقاصد الغائية للثورة، والمحددة بالديمقراطية والعدالة الاجتماعية، ولم ترتفع هتافات الثوار منادية بإقامة دولة دينية، أو الخصومة مع الولايات المتحدة أو إعلان «الجهاد» على إسرائيل. والملاحظ أن شباب الإخوان المسلمين الذين كانوا منتشرين فى صفوف الثوار بشكل بين عمدوا إلى عدم إطلاق أية هتافات دينية، ولم يرفعوا رايتهم المعروفة التى يرتسم عليها مصحف محمول على سيفين، بل إنهم أنكروا أن تكون هذه الثورة من نتاج جهدهم - وهذه حقيقة - ومن ثم فقد نحت هذه القوة السياسية المنظمة أيديولوجيتها جانبا فى سبيل الوقوف على المساحات المشتركة مع سائر أطياف الثوار من علمانيين ليبراليين واشتراكيين وقوميين، فضلا عن الجموع غير المسيسة من المسلمين والمسيحيين. وقد أحسن الإخوان المسلمون صنعا بإعلانهم عدم تقدمهم بمرشح لهم فى أول انتخابات رئاسية بعد الثورة، الأمر الذى يمكن معه استبعاد أن تكون ثورة الشباب ثورة دينية، على غرار الثورة الإيرانية.

غير أن انسحاب الإخوان من تصدر المشهد الثورى يفتح احتمالات أوسع حول قيادة الثورة. وبالنظر إلى عمومية مبادئ الثورة (الديمقراطية والعدالة الاجتماعية)، يمكن الزعم بأنها تتبنى نموذجا للدولة يزاوج الليبرالية السياسية بالاشتراكية الاقتصادية فى شقها الاجتماعى مع حماية وتشجيع القطاع الخاص، مشبعا بالطبع بصبغة إسلامية واضحة. وعلى الرغم من أن هذه المعادلة الأيديولوجية قد تكون مرضية لمعظم التيارات السياسية، إلا أن تبلور نواتجها فى قائد واحد يبدو مسألة شديدة التعقيد، خاصة مع اعتبار الطموحات الشخصية لكل من الشخصيات البارزة للثورة.

وبقراءة تاريخ ومواقف وتصريحات وأفكار هذه الشخصيات، يتجلى أنه ليس ثمة ملائكة لقيادة الثورة، وإنما يقتضى الظرف الراهن الاصطلاح على قائد توافقى، مستند إلى مجلس لقيادة الثورة يصوغ التوافقات السياسية التى تمثل السقفين الأدنى والأعلى لحركته فى الحوار مع المجلس العسكرى الحاكم طوال فترة المرحلة الانتقالية. وبمجرد الإعلان عن فتح باب الترشح لمنصب رئيس الجمهورية، فإنه من المفيد أن نشهد تنافسا بين مرشحين أقوياء، حتى لا نكرر سيناريو الانتخابات الرئاسية الهزلية التى جرت فى سبتمبر ٢٠٠٥.

ولعلنا لا نرجم بالغيب إن زعمنا أن أول رئيس للجمهورية الثانية فى مصر قد يكون سيئ الحظ، على نحو لا يستدعى أى قدر من الصراع على هذا المنصب؛ إذ إن كم الفساد الذى تراكم طوال عهد الجمهورية الأولى، لا سيما خلال العقدين الأخيرين - رغم وجود إنجازات تحققت بالتأكيد - سيكون من الصعب - إن لم يكن من المستحيل - القضاء عليه للنهوض بالبلاد خلال فترة رئاسية واحدة، ومن غير المتصور فى دولة ديمقراطية والحال هذه إعادة ترشيح مثل هذا الرئيس الذى قد يبدو فى نهاية عهده مخيبا لآمال عريضة عقدت عليه.

ويثور اليوم سؤال ملح حول طبيعة نظام الحكم فى الجمهورية المصرية الجديدة، وحسنا فعل المجلس الأعلى للقوات المسلحة بتعيين لجنة جديدة لإجراء التعديلات الدستورية، بدلا من اللجنة التى كان قد شكلها الرئيس السابق، فى إشارة تطمينية إلى الشعب بأن المجلس العسكرى لا يعد امتدادا لنظام مبارك. وكان تكليف المفكر والفقيه القانونى المخضرم المستشار طارق البشرى نائب رئيس مجلس الدولة السابق برئاسة اللجنة مدعاة للارتياح؛ نظرا لما يحوزه الرجل من سمعة طيبة على المستويات المهنية والفكرية والشخصية. وكما يتضح من القرار الأول للمجلس، فإن اللجنة مكلفة بإجراء تعديلات دستورية، وليس صياغة دستور جديد، ومن ثم فمن المتوقع أن تصوغ اللجنة وثيقة دستورية مؤقتة، يتم الاستفتاء عليها بشكل مباشر من الشعب. وإذا ما تم إقرارها، فستجرى على أساسها الانتخابات التشريعية والرئاسية، ليقوم الجيش بتسليم السلطة للرئيس المدنى المنتخب، الذى يقوم البرلمان فى ظل حكومته بإقرار الدستور الدائم للجمهورية وطرحه للاستفتاء الشعبى العام.

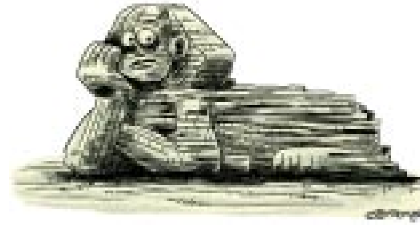
وقد طالب ائتلاف الثورة وعدد من المفكرين والناشطين السياسيين بأن تكون مصر جمهورية برلمانية، تتقلص فيها صلاحيات رئيس الجمهورية لصالح رئيس الوزراء، الذى ينتخب من البرلمان.



فى الثورة المصرية، اتسم الحراك الجماهيرى بانعدام الأيديولوجيا، أو بعبارة أدق ذوبان الأيديولوجيا فى المقاصد الغائية للثورة، والمحددة بالديمقراطية والعدالة الاجتماعية



فى الطريق إلى الجمهورية الثانية



وعلى الرغم من وجاهة النظام البرلمانى، ونجاحه فى عدد من الدول التابعة للتاج البريطانى، مثل المملكة المتحدة وكندا وأستراليا، إلا أنه ينبغى الحذر منه بشدة فى مصر للأسباب التالية:

أولا: أن النظام البرلمانى يقوم فيه الشعب بالانتخاب مرة واحدة من خلال الانتخابات البرلمانية. وتقوم الأغلبية البرلمانية بعد ذلك بترشيح رئيس للحكومة من بين أعضائها، يتم التصويت عليه فى البرلمان، ليكلفه رئيس الدولة بتشكيل الحكومة من أعضاء الأغلبية البرلمانية، وله إذا أراد أن يشرك أعضاء من الأقلية. ويقوم البرلمان كذلك بالتصويت على رئيس الدولة الذى يعتبر فى هذه الحالة منصبا بروتوكوليا.

ثانيا: أن تطبيق ذلك النظام فى كل من بريطانيا وكندا وأستراليا استغرق عقودا طويلة، اكتسب خلالها استقرارا وأفرز عددا محدودا من الأحزاب القوية التى تحوز ثقة الناخبين، ويمكنها الاكتساح فى الانتخابات أو الدخول فى ائتلافات مع عدد ضئيل من الأحزاب الصغيرة لتجاوز النسبة المقررة للحصول على أغلبية مقاعد البرلمان. أما تطبيق ذلك النظام فى بعض دول المنطقة، كالعراق ولبنان وإسرائيل، فضلا عن مصر فيما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢، فلا يتمتع بذلك الاستقرار فى الحياة السياسية، الأمر المرشح للظهور فى الحالة المصرية إذا ما تم اعتماد النظام البرلمانى؛ نظرا لضعف الأحزاب والقوى السياسية المصرية فرادى؛ نتيجة اعتماد الجمهورية الأولى لنظام الحزب الواحد إبان الحقبة الناصرية، والتضييق على تلك الأحزاب والقوى حتى بعد إعلان التعددية الحزبية خلال العهد الساداتى وطوال عهد مبارك، فضلا عن عدم امتلاك هذه الأحزاب لقاعدة جماهيرية تؤمن بمبادئها وأهدافها.

ثالثا: نتيجة لهذه الفسيفساء الحزبية، فلن يمكن لحزب بمفرده الحصول على أغلبية مقاعد البرلمان، ما يعنى حتمية الدخول فى ائتلافات بين أحزاب متناقضة فى أيديولوجياتها من أجل مصلحة وقتية، ومن ثم احتمال انهيار الائتلاف عند أول خلاف، أو الاستمرار حتى نهاية الدورة البرلمانية بقرارات وخطط هزيلة، تمثل الحد الأدنى من التوافق بين شركاء الائتلاف.

رابعا: فضلا عن ذلك، فمفاوضات تشكيل الحكومة بين الكتل البرلمانية قد تستغرق وقتا طويلا، يدخل البلاد فى حالة من الشلل السياسى تستمر لشهور، الأمر الذى يتكرر فى العراق بعد كل انتخابات برلمانية.

وإذا كان الأمر كذلك، وكان المطلوب تقليص صلاحيات رئيس الجمهورية، والتى شكلت عوارا مستديما فى دساتير الجمهورية الأولى، التى كان نظامها هجينا من النظامين البرلمانى والرئاسى، فى صورة مشوهة من نموذج الجمهورية الخامسة فى فرنسا - يروق للبعض دعوتها بالنظام البرلرئاسى - فقد يكون الحل فى انتهاج نظام رئاسى قائم على الرقابة والتوازن checks & balances على غرار النظام الأمريكى، وهو ما يحقق مزايا متعددة، من أبرزها:

أولا: إتاحة الفرصة للمواطن لانتخاب من يمثله فى مجلسى البرلمان، فضلا عن قيامه بانتخاب رئيس الجمهورية.

ثانيا: إلغاء الازدواجية بين رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة، حيث يقوم رئيس الجمهورية فى النظام الرئاسى برئاسة وزرائه بشكل مباشر، ويقوم بترشيحهم، ولا يصدق على تعيينهم إلا بعد موافقة البرلمان على ذلك الترشيح.

ثالثا: يترتب على ذلك غياب المفهوم الأبوى لرئيس الجمهورية الذى يعفيه من المساءلة عن أفعال وزرائه، بل يعتبر أى انتقاد لأى وزير فى الحكومة الرئاسية انتقادا لأداء الرئيس ذاته.

رابعا: عدم سيطرة حزب واحد أو ائتلاف حزبى على البرلمان والحكومة معا، ما يضيع معه إلى حد كبير مفهوم الرقابة التشريعية على السلطة التنفيذية، وإنما يمكن أن تكون الأغلبية البرلمانية من حزب، والتشكيل الوزارى من حزب آخر (وفقا لاختيار الرئيس لوزرائه وموافقة البرلمان على ذلك)، وهو ما تتجلى معه أبرز صور رقابة البرلمان للحكومة.

خامسا: نظرا لعدم وجود ائتلاف حاكم مستند إلى كتل برلمانية، وإنما حكومة متجانسة، يعينها رئيس الجمهورية وتحظى بقبول البرلمان، فإنه لا يتوقع انهيار الحكومة لخلافات سياسية كما فى الائتلافات البرلمانية.

سادسا: لا يمنع ذلك قيام البرلمان بسحب الثقة من وزير أو أكثر، دون سحب الثقة من الحكومة ككل. ولا يتم سحب الثقة من الحكومة ككل إلا بسحب الثقة من رئيس الجمهورية، وذلك وفق اشتراطات محددة.

سابعا: يتيح ذلك الاستقرار فى بنية نظام الحكم للحكومة القيام بتنفيذ خططها التنموية بشكل متجانس، تحت رقابة برلمانية حازمة.

وفى حال اعتماد النظام الرئاسى، فمن الضرورى تضمين الدستور الدائم للجمهورية الجديدة عددا من القواعد، أهمها:

أولا: ترشح رئيس الجمهورية ونائبه على بطاقة انتخابية واحدة.

ثانيا: تقليص فترة الولاية الرئاسية من ست سنوات إلى أربع سنوات، مع إمكانية إعادة انتخاب رئيس الجمهورية على التوالى لفترة رئاسية واحدة فقط لا غير مدى الحياة، مع اعتبار المادة التى تنص على ذلك مادة فوق دستورية، غير قابلة للتعديل لأى سبب، على غرار ما تم اتباعه فى الدستور الأمريكى، تفاديا لتكرار ما قام به فرانكلين روزفلت من الترشح للرئاسة لأربع فترات متوالية.

ثالثا: وضع حد أدنى لسن رئيس الجمهورية ونائبه لا يقل عن أربعين سنة وحد أقصى لا يزيد على خمس وسبعين سنة؛ لضمان القدرة الصحية والذهنية لرئيس الجمهورية ونائبه لتولى شؤون البلاد، بما يمنع من تكرار ظهور مراكز للقوى تستغل تقدم سن الرئيس.

رابعا: فى جميع الأحوال، ينبغى إعادة توزيع الاختصاصات بين مجلسى الشعب والشورى، مع زيادة دور الأخير، ليغدو مجلس شيوخ Senate حقيقيا، كما يتعين إعادة النظر فى النسب المقررة للعمال والفلاحين والمرأة فى البرلمان.



وبالنسبة للعملية الانتخابية، سواء كانت انتخابات رئاسية أو تشريعية أو محلية، فينبغى مراعاة عدد من الضوابط، يتم النص عليها فى الدستور، أبرزها:

أولا: إجراء الانتخابات على مستوى دوائر محافظات الجمهورية كلها فى يوم واحد، على غرار ما هو متبع فى الولايات المتحدة على سبيل المثال، والتى يزيد تعداد سكانها على ثلاثمائة مليون نسمة.

ثانيا: قيام الجاليات المصرية فى الخارج بالانتخاب فى نفس ذلك اليوم فى مقار السفارات والقنصليات العامة والقنصليات.

ثالثا: الإشراف القضائى الكامل على العملية الانتخابية باعتماد قاعدة: «قاض لكل صندوق».

رابعا: السماح بالمراقبة المحلية والدولية للانتخابات، كما تفعل الديمقراطيات الكبرى فى العالم.

ومن الراجح أن يحمل النظام المصرى القادم طابعا «اشتراكيا ليبراليا» يقوم على مفهومى الديمقراطية والعدالة الاجتماعية اللذين نادى بهما الثوار، فى تناقض مع نظام مبارك الذى اتسم بالرأسمالية الاستبدادية. ولا يستبعد على الإطلاق عودة موجة جديدة من قرارات التأميم لعدد من المرافق الحيوية التى كانت مملوكة للقطاع العام، ثم بيعت بشكل جزافى، ووضع قوانين أكثر انضباطا للاستثمارات غير الحكومية فى مختلف القطاعات، بما يعيد التوازن بين القطاعين العام والخاص، ومن ثم استعادة المظلة الاجتماعية مع تطبيق قاعدة التنافسية، وهو ما يجب أن يتم من خلال إدخال تغييرات جذرية على الاقتصاد المصرى، لتحويله من اقتصاد ريعى يقوم على الخدمات إلى اقتصاد إنتاجى يقوم على الصناعة، وتحويل معدلات النمو growth إلى معدلات تنمية development.

إن ثورة يناير لم تنته بإسقاط حكم مبارك، وإنما بدأت خطواتها فى سبيل إقامة نظام ديمقراطى، وهى فى سبيل ذلك شأنها شأن أية ثورة، تواجه ثورة مضادة شرسة من فلول نظام مبارك وشريحة المستفيدين من الفساد، الذين لا زالوا يسيطرون على عدد من المؤسسات، ويعملون على استجداء عطف الجماهير إزاء العهد البائد من خلال ما يعرف بمتلازمة ستوكهولم (تعاطف الضحية مع الجانى)، ريثما يعيدون تنظيم صفوفهم للمشاركة فى المشهد السياسى المقبل. ويقتضى ذلك من جميع شرفاء الوطن مواصلة الثورة - بالتوازى مع إدارة عجلة التنمية - حتى تبلغ الثورة جميع أهدافها، وحينها يمكن أن نطمئن على مستقبل مصر، ويمكن لأرواح الشهداء أن تهدأ وتقر «فى مقعد صدق عند مليك مقتدر». ■

(١) للتمييز بينها وبين موقعة الجمل التى دارت بالعراق فى يناير ٦٥٦ بين جيش الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - وجيش أم المؤمنين السيدة عائشة - رضى الله عنها - وتم خلالها عقر الجمل الذى كانت تمتطيه السيدة عائشة، وانتهت المعركة بانتصار جيش الإمام على.

فقـــــــر الديكتاتورية



دانـــــــــى رودريـــــــــك

Dani Rodrik

لطالما تباهت ـ حقا أو باطلا ـ حكومات مبارك بأرقام تتحدث عن زيادة فى قفزات فى مؤشرات النمو الاقتصادى. وقتها لم يلتفت أحد، أو ربما لم يرغب أحد فى أن يلتفت الى حقيقة أن«الأرقام ـ حتى وإن كانت من صندوق النقد الدولى ـ قد لاتأتى بالخبز.. والأهم أنها بالضرورة لا تأتى بالحرية». هذا مقال مهم يتحدث عن الفجوة بين مؤشرات التنمية والإدارة السياسية الرشيدة لتلك التنمية. تبقى له أهميته الخاصة حين نسمع بيننا كل يوم من لايكف عن تذكيرنا بأوضاع اقتصادية يرى أنها كانت مزدهرة فى الماضى، محذرا من تراجع لايخجل من التصريح بأن «البحث عن الحرية والعدل» مسؤول عنه.

المحـــرر

■ ■ لعل الأمر الأبرز والأكثر إذهالاً الذى توصل إليه تقرير التنمية البشرية السنوى العشرون التابع للأمم المتحدة، الصادر مؤخرا، كان الأداء المتميز الذى أبدته البلدان الإسلامية فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا. فهنا احتلت تونس المرتبة السادسة بين ١٣٥ بلداً فيما يتصل بتحسن مؤشر تنميتها البشرية على مدى العقود الأربعة السابقة، قبل ماليزيا، وهونج كونج، والمكسيك، والهند. ولم تتخلف عنها كثيراً مصر التى جاءت فى المرتبة ١٤.

إن مؤشر التنمية البشرية عبارة عن مقياس للتنمية التى تحقق إنجازات فى مجالات الصحة والتعليم إلى جانب النمو الاقتصادى. والواقع أن أداء مصر (وبخاصة) تونس كان طيباً بالقدر الكافى على جبهة النمو، ولكن أداء البلدين كان بارزاً بشكل خاص فيما يتصل بهذه المؤشرات الأوسع نطاقا. وتكاد تونس بمتوسط العمر المتوقع الذى بلغ ٤٧ عاماً تضاهى المتوسط فى المجر واستونيا، حيث يبلغ مستوى الثروة أكثر من ضعف مثيله فى تونس. وفى مصر يواظب نحو ٦٩٪ من الأطفال على الذهاب إلى المدارس، وهى نسبة تضاهى مثيلاتها فى بلدان أكثر ثراءً مثل ماليزيا. ومن الواضح أن مثل هذه البلدان لم تفشل فى توفير الخدمات الاجتماعية أو توزيع منافع النمو الاقتصادى على نطاق واسع.

ولكن فى النهاية لم يكن لكل هذا أهمية كبرى. فقد كان التونسيون والمصريون، فى صياغة جديدة لتعبير هاورد بيل، غاضبين كالجحيم إزاء تصرفات حكوماتهم، وعازمين على عدم قبولها بعد الآن أبدا. وإذا افترضنا أن زين العابدين بن على فى تونس أو حسنى مبارك فى مصر كانا بأملان فى الفوز بالشعبية السياسية فى مقابل المكاسب الاقتصادية، فلابد أنهما أصيبا بالإحباط الشديد الآن.

إن الدرس المستفاد من العالم العربى «المذهل» إذن يتلخص فى أن الأداء الاقتصادى الطيب لا يعنى فى كل الأحوال الأداء السياسى الطيب؛ فالانفصال بين الأمرين وارد لبعض الوقت. صحيح أن بلدان العالم الغنية تكاد تكون كلها ديمقراطية، ولكن السياسة الديمقراطية لا تشكل شرطاً ضرورياً أو حتى كافياً لتحقيق التنمية الاقتصادية على مدى فترة زمنية تمتد لعدة عقود من الزمان.

على الرغم من التقدم الاقتصادى الذى أحرزته بلدان مثل تونس ومصر، وغيرها من بلدان الشرق الأوسط، فقد ظلت هذه الدول رازحة تحت وطأة أنظمة مستبدة تتحكم فيها مجموعة ضيقة من المقربين، ويستشرى فيها الفساد والمحسوبية والمحاباة. والواقع أن هذه البلدان تحتل مراتب مشينة فيما يتصل بالحريات السياسية والفساد، على نحو يتناقض بشكل صارخ مع المراتب التى تحتلها على مؤشرات التنمية.

فعن تونس، أصدرت مؤسسة دار الحرية قبيل اندلاع ثورة الياسمين تقريراً يقول: «إن السلطات تواصل التضييق على الصحافيين والمدونين وناشطى حقوق الإنسان والمعارضين السياسيين للحكومة واعتقالهم وسجنهم». ولقد احتلت الحكومة المصرية المرتبة ١١١ بين ١٨٠ دولة فى مسح الفساد الذى أجرته مؤسسة الشفافية الدولية لعام ٢٠٠٩.

وبطبيعة الحال، نستطيع أن نقول إن العكس صحيح أيضا: فقد كانت الهند دولة ديمقراطية منذ استقلالها فى عام ١٩٤٧، ورغم ذلك فإنها لم تبدأ فى الإفلات من «معدل النمو الهندى» المتدنى إلا فى أوائل ثمانينيات القرن العشرين.

أما الدرس الثانى فهو أن النمو الاقتصادى السريع لا يستطيع أن يشتري الاستقرار السياسى بمفرده، ما لم يُسمَح للمؤسسات السياسية بالنمو والنضوج بسرعة أيضا.

Dani Rodrik, Professor of International Political Economy at Harvard University, is the author of The Globalization Paradox: Democracy and the Future of the World Economy.

ترجمة: إبراهيم محمد على

صورة تجمع مسؤولين فى البنك الدولى وصندوق النقد الدولى بينهم يوسف بطرس غالى وزير المالية المصري فى عهد مبارك والمتهم حاليا فى قضية فساد (واشنطن ٢٤ أبريل ٢٠١٠)

والواقع أن النمو الاقتصادى فى حد ذاته يعمل على توليد الاستنفار الاجتماعى والاقتصادى، الذى يشكل المصدر الأساسى لعدم الاستقرار السياسى.

وعلى حد تعبير العالم السياسى الراحل صموئيل هنتنجتون قبل أربعين عاما: «فإن التغير الاجتماعى والاقتصادى. التحضر، وزيادة مستويات الثقافة والتعليم، والتصنيع، وتوسع وسائل الإعلام الجماهيرى. يعمل على توسيع مساحة الوعى السياسى، ومضاعفة المطالب السياسية، وتوسيع مجال المشاركة السياسية». والآن بإضافة وسائل التواصل الاجتماعى مثل تويتر وفيس بوك إلى المعادلة، فإن القوى المزعزعة للاستقرار التى يطلقها التغير الاقتصادى السريع قد تصبح غامرة وساحقة.

إن هذه القوى تبلغ أوج قوتها عندما تتسع الفجوة بين الاستنفار الاجتماعى ونوعية المؤسسات السياسية. وعندما تكون المؤسسات السياسية فى أى بلد ناضجة، فإنها تستجيب للمطالب الصاعدة من الأسفل من خلال الجمع بين الاستيعاب والاستجابة والتمثيل. وحين تكون هذه المؤسسات متأخرة فإنها تمنع هذه المطالب وتحجبها على أمل أن تتلاشى من تلقاء ذاتها. أو تغطى عليها بتوفير بعض التحسينات الاقتصادية.

والواقع أن الأحداث الجارية الآن فى الشرق الأوسط تبرهن بوضوح على هشاشة النموذج الثانى. فالمتظاهرون فى تونس والقاهرة لم يحتجوا على الافتقار إلى الفرصة الاقتصادية أو الخدمات الاجتماعية الهزيلة، بل احتشدوا ضد نظام سياسى شعروا أنه ضيق الأفق، وتعسفى، وفاسد، ولم يسمح لهم بالقدر الكافى من حرية التعبير.



إن النظام السياسى القادر على التعامل مع هذه الضغوط لا يحتاج إلى الديمقراطية على الطريقة الغربية. فبوسعنا أن نتخيل أنظمة سياسية مستجيبة لا تعمل من خلال الانتخابات الحرة والمنافسة بين الأحزاب السياسية. وقد يشير البعض إلى عمان أو سنغافورة باعتبارهما مثالين لأنظمة استبدادية ثابتة فى مواجهة التغير الاقتصادى السريع. ولعل الأمر كذلك بالفعل، ولكن النوع الوحيد من الأنظمة السياسية الذى أثبت ذاته على مدى فترة زمنية طويلة هو ذلك النوع المرتبط بالديمقراطية الغربية.

وهو ما يقودنا إلى الصين. ففى ذروة الاحتجاجات المصرية، كانت النتيجة التى ظهرت لكل متصفحى الإنترنت الذين بحثوا عن كلمة «مصر» أو «القاهرة» هى «تعذر العثور على أية نتائج». ومن الواضح أن الحكومة الصينية لا تريد لمواطنيها أن يطلعوا على الاحتجاجات المصرية فتأخذهم أفكارهم إلى بعيد. وفى ظل ذكرى ميدان السلام السماوى الحاضرة دوماً فى الأذهان فإن قادة الصين عازمون على منع تكرار ما حدث.

إن الصين ليست تونس أو مصر بطبيعة الحال. فقد جربت الحكومة الصينية الديمقراطية المحلية وبذلت محاولات قوية للقضاء على الفساد. ورغم ذلك، انتشرت الاحتجاجات طيلة العقد الماضى. حتى أن الحكومة سجلت نحو ٨٧ ألف حالة مما أطلقت عليه «حوادث جماهيرية مفاجئة» فى عام ٢٠٠٥ وحده، وهو آخر عام نشرت فيه الحكومة مثل هذه الإحصاءات، وهو ما يشير إلى أن المعدلات قد تزايدت منذ ذلك الوقت. ويتحدى المعارضون سيادة الحزب الشيوعى الصينى على مسؤوليتهم.

إن حكام الصين يراهنون على الزيادة السريعة فى مستويات المعيشة وفرص العمل ويتصورون أن هذا من شأنه أن يبقى الغطاء محكماً على التوترات الاجتماعية والسياسية المختمرة. ولهذا السبب فهم حريصون كل الحرص على تحقيق مستويات نمو اقتصادى سنوية لا تقل عن ٨٪. وهو الرقم السحرى الذى يعتقدون أنه قادر على احتواء الصراع الاجتماعى.

ولكن مصر وتونس أرسلتا للتو إلى الصين وغيرها من الأنظمة الاستبدادية فى مختلف أنحاء العالم رسالة إيقاظ قوية: «لا تعولوا على التقدم الاقتصادى فى إبقائكم على عروشكم إلى الأبد». ■

Placement

BANK

Layering

Collection of Dirty Money

Dirty money Integrates
into the financial system

Transfer into
bank account of
company 'X'.

Payment by 'Y'
of false invoice
to company 'X'.

Wire
Transfer

Integration

Purchase of luxury Assets
Financial Investments

Loan to
Company 'Y'

Offshore Bank

هل يمكن حقا إعادة الأموال المنهوبة !؟

ياسر طنطاوى

■■ وفقا لمنظمة الأمم المتحدة فإن عام ٢٠٠٤ شمل أن هناك ٥٤ دولة أصبحت أكثر فقرا مما كانت عليه من ١٥ عاما سابقة بسبب الفساد وغسيل الأموال وسوء استغلال السلطة يحدث غالبيتها فى القارة الأفريقية والشرق الأوسط وجنوب شرق آسيا وعالميا تمثل معدلات نمو الدخول غير الشرعية (من فساد وإفساد وغسيل أموال ونهب أصول وممتلكات الشعوب والدول) نسبا خطيرة حيث تحظى منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا بنسبة ٢٤.٣٪ من إجمالى التدفقات غير الشرعية مقابل ١,٢٣٪ فى أوروبا الشرقية و٢١.٩٪ لمجمل قارة أفريقيا و٧.٨٥٪ لقارة آسيا و١٨.٥٪ لكل الكتلة الغربية وبالأرقام تعد كالتالى (مبالغ التدفقات النقدية غير المشروعة لأعلى ١٠ دول سنويا): ٢.١٨ تريليون دولار للصين، ٤٢٧ مليار دولار روسيا، الأرقام فيما يلى بالمليار دولار سنويا: ٤١٦ المكسيك، ٣٠٢ المملكة العربية السعودية، ٢٩١ ماليزيا ٢٧٦ الإمارات العربية المتحدة و٢٤٢ الكويت و١٥٧ فنزويلا و١٣٨ قطر، ١٣٠ نيجيريا. وتعد النظم الملكية والدكتاتورية أو الشمولية أو حكم الحزب الواحد كما هو ملاحظ جنة عمليات تدوير وغسيل الأموال لما لها من قدرة على وضع قواعد سرية بل ووضع قوانين بلا شرعية واضحة وعلى العموم تحظى الدول النامية بتدفقات غير شرعية بنسبة ٥٤.٧٪ من الإجمالى وذلك للفترة من ٢٠٠٠-٢٠٠٨ وحدها.

ومن المعروف أيضا أن هناك دولارا واحدا فقط يتم الاستفادة منه بحق من أصل كل ١٠ دولارات يتم سحبها أو صرفها من المعونات والمنح أو كل مايدرج فى مساعدات التطوير الاقتصادى الرسمى من دول أخرى Official Development Assistance ODA

دور منظمة الشفافية الدولية والأمم المتحدة والمنظمات الدولية.

لذلك قامت الأمم المتحدة وتوقيع وموافقة ٨٠ دولة بدعم اتفاقية الأمم المتحدة لمحاربة الفساد (United Nations Convention Against Corruption (UNCAC والتى تشمل ٧١ مادة توضح آليات ووسائل مكافحة الفساد وغسيل الأموال ووضع مفهوم للشفافية والإفصاح قابل للتنفيذ وذلك نظرا لما تمت دراسته من أن هناك أكثر من ١ تريليون (ألف مليار) دولار سنويا يتم دفعها فى الرشاوى من أصل ٨.١ تريليون دولار تتم فى عمليات غسيل الأموال ونهب الأصول تتم سنويا تحظى قارة أفريقيا بها بنصيب ١٤٨ مليار دولار من عمليات الفساد والأصول المنهوبة سنويا (هذا الرقم يمثل ٢٥٪ من إجمالى دخل دول القارة أجمع) وتلك الأموال يتم تداولها وتدويرها وبالتالى تبييضها فى البنوك والمؤسسات المالية العالمية وقد قام مكتب الأمم المتحدة المعنى بالمخدرات والجريمة UNODC United Nations Office On Drugs and Crime الأمم المتحدة بالتعاون مع البنك الدولى بصياغة وتفعيل منظومة Stolen Assets Recovery Initiative StAR والتى تضع توصيات بالتفعيل والأداء بمايكفل معايير واضحة للشفافية والنزاهة. وعلى كل دولة تنفيذها وفقا لقوانينها والإجراءات الحاكمة اللازمة.



كما قامت منظمة الشفافية الدولية Transparency International TIبإصدار بيان بانجكوك فى ٩ نوفمبر ٢٠١٠ والذى دعا الدول الأعضاء والمشاركة لإعطاء أولوية قصوى على خارطة التعاون الدولى عن طريق المنظمات والمجتمعات الدولية لآليات الإبلاغ واستعادة الأصول المنهوبة. وقد قامت منظمة السلامة

لعل أخطر تلك العمليات هو تدوير الأموال عن طريق مايسمى المنصات التجارية والتى تدور الأموال فى العديد من الشركات والبنوك عدة مرات فى عدد من الدول



المالية العالمية Global Financial Integrity بإعداد العديد من التقارير بغرض الإفصاح والتوعية وقد وجدت أن معدل نمو التدفقات غير الشرعية يزيد بنسبة من ١٢-١٨٪ سنويا على الرغم من المواثيق المعقودة نظرا لتعقد العمليات من الجانب الآخر أيضا ورغبة بعض المؤسسات فى الإستحواذ على تلك الأصول حتى لو كانت غير شرعية لسهولة الحصول عليها ولحاجة ناهبيها إلى إخفائها بسرعة شديدة قبل أن يلاحظ أنها نهبت.

ماذا يدرج تحت مسمى التداول غير الشرعى للأصول.

وعالميا تم حصر عمليات التداول غير الشرعى للأصول المنهوبة إلى ٤ عمليات رئيسية كمايلى:

١ ـ الفساد:

أ ـ عمليات تجارية بقيم مخالفة للحقيقة وهى ماتمثل ٥٤,٧٪ من إجمالى التدفقات غير الشرعية.

ب ـ الرشوة والاختلاس والتربح والتهرب الضريبى واغتصاب الممتلكات (بطرق قانونية أو غير قانونية).

جـ. التلاعب فى العقود طويلة الأجل القابلة للتجديد مثل عقود البترول.

د ـ التلاعب فى المستندات والأصول البنكية.

٢ ـ التزوير فى الهويات والأعمال والعقود وبيانات الممتلكات العقارية والمنقولة

٣ ـ السرقة: النقدية والممتلكات الفكرية (مثل الاقتباس بدون إذن أو السرقة المباشرة) وتزوير النقد (ويشمل ذلك بخلاف تزوير العملة إصدار الدولة سندات خزانة بدون غطاء مثلما حدث فى اليونان أو طباعة النقد بدون غطاء).

٤ ـ استغلال النفوذ للتربح وغسيل الأموال والجرائم الإلكترونية والاحتيال وسوء البت فى المناقصات والممارسات وإستغلال المعلومات الداخلية فى المؤسسات بغرض التربح.

ما المطلوب لمعرفة واسترداد الأصول والتدفقات المنهوبة.

هناك حاجة للإجابة على مايلى من تساؤلات.

١ ـ من هو الناهب والمنهوب وأين تم ذلك وأين ذهبت المنهوبات؟

٢ ـ متى حدث ذلك وماقيمة ماتم نهبه وكيف تم نهبه وما المسار الذى سلكته لتقنين النهب والتبييض؟

٣ ـ كيف يمكن استردادها؟

الحالة المصرية

نظرة عامة لمصر

(ما الذى تم نهبه وكيف ومن نهبه)

فى البلاد النامية - ومصر منها بالطبع- يتم إخفاء الأصول المنهوبة وخصوصا ما نهبته الشخصيات العامة (من مصادر شتى من رشوة وفساد وغسيل الأموال وبخس قيمة الأصول وابتزاز وخلافه) بطرق شتى داخل أو خارج البلاد وعن طريق آليات قد تكون بسيطة نسبيا أو معقدة عن طريق مسارات وأعمال متراكبة قد تبدو شرعية ظاهرا لكنها تعمل على إخفاء مصدر الأموال أو الأصول بطرق ملتوية تتسم بأنها ذات أفكار خلاقة ونهاية بإظهار قانونيتها بل ودفع الضرائب المستحقة عليها لضمان قبول الدولة المستضيفة لها شرعيا. ومن المتبع أن كل مصدر من تلك الأصول له دائما طريقة أو أكثر أو آلية مفضلة للنهب والإخفاء لضمان عدم كشفها أو تسريب بياناتها للغير. وتعد مصر الدولة رقم ٨٩ ثراء وفقا لمعايير الدخل الناتج المحلى لكل نسمة Gross Domestic Product GDP

وإجمالا يمكن القول أن هناك ٥ محاور إفساد واستنزاف ونهب للموارد متعارف عليها تطبق عليها روح بل وقواعد UNCAC فى مصر حيث يمكن توضيح تلك المحاور كما يلى:

١ ـ عمليات الفساد ونهب وسرقة الموارد والأصول والممتلكات وغسيل الأموال بطرق مختلفة كما يرد ذكره لاحقا ويقوم بذلك إما أفراد ذوو سلطة (فى مواقع اتخاذ القرار بغض النظر عن الصفة الوظيفية) أو أتباعهم (من العاملين معهم أو الأسرة والأقارب) أو مؤسسات وشركات خاصة (الشركات الوسيطة والوسطاء والوكلاء) أو حتى مؤسسات الدولة الرسمية وأكبر مثال على ذلك ما قامت به الدولة نفسها بتقنين دخول الأموال والممتلكات الليبية وأيضا البترول الليبى وقت الحظر عليها بعد عملية لوكيربى فى ١٩٨٨ مما خلق طبقة تجارية طفيلية غير شرعية لكنها قانونية تحظى بدعم مؤسسات الدولة نفسها ويشمل ذلك عدم اعتراف الدولة بقيامها بعمليات تجارية مع دول أخرى رغم قطع العلاقات الدبلوماسية مثل تجارة المنتجات البترولية مع إيران فى السنوات الأخيرة عن طريق وسطاء وشركات بينية (وسيطة) وكذلك إعادة بيع وتداول الديون الوطنية بعد شرائها سرا.

٢ ـ اقتناص الموارد البشرية الوطنية ذات الكفاءة والمتميزة لصالح شركات ومؤسسات فى دول أخرى مع عدم الاستفادة بها محليا عمدا وتحظى مصر بنصيب وافر من ذلك حيث تفقد الدولة العائد القومى لوجود تلك الخبرات محليا (والتى تعد فى دول أخرى من الأصول الوطنية اللازم حمايتها ودعمها) عن طريق عمليات التهميش المتعمد (كما فى المؤسسات الجامعية والأكاديمية) والتغريب (التكليفات للأطباء والمدرسين) وترك الدولة بدون بنية علمية أساسية لتشجيع عمليات الاستيراد وتشجيع نظرية الاستسهال والاستعانة بالخارج.

٣ ـ تجارة السلاح بطريقة غير شرعية مثلما تم مسبقا من تمويل مباشر وغير مباشر للعمليات المسلحة فى صورة نقدية أو معدات أو تدريب أو خبرات بغض النظر عن شرعيتها مثل الحرب الأفغانية فى الثمانينيات وحرب العراق-إيران بل والكويت عام ١٩٩١

٤ ـ سوء استغلال الموارد الطبيعية للدولة مثل المناجم والموارد المائية ومشروعات بنية أساسية بلا جدوى مثل فوسفات أبو طرطور وفحم المغارة وتوشكى وترعة السلام نظير مصالح مادية ومعنوية مع الشركات المنفذة والممولة وإنشاء الشركات الوسيطة لتقنين العمليات نظير نسب أرباح غير شرعية أو التكاسل العمدى الناتج للجهل عن تدخل جهات ودول فى مصادر الموارد المائية فى مصبات النيل.

٥ ـ استخدام السياسة الخارجية والحرب ضد الإرهاب وسوء استغلال المنظومة الأمنية لمصالح اقتصادية غير شرعية مثل عمليات التنصت والمراقبة غير الشرعية واستغلال ذلك لتحقيق مصالح خاصة وكذلك استغلال المعلومات الداخلية لشركات السمسرة للتلاعب بالبورصة عمدا بل يتعدى ذلك إلى قيام الجهات الأمنية بعمليات وهمية لتوفير التمويل لعمليات أخرى بل الضغط على السياسيين المحليين وفى الخارج للابتزاز أو تسهيل إذعانهم لطلبات معينة قد تكون فى الغالب الأعم طلبات شخصية مما لايمكن طرحه على العامة. وقد كانت الحرب ضد الإرهاب ذروة الاستغلال حيث تم استخدامها بطرق شتى لتسهيل بل وتمرير عمليات التدوير غير الشرعية



هذا وتشير المصادر العالمية مثل Global Financial Integrity فى تقريرها الصادر فى يناير ٢٠١١ أن ماتم نهبه من مصر عن طريق الفساد المؤسسى الحكومى يتعدى ٦ مليارات دولار سنويا بإجمالى يفوق ٥٧,٢ مليار دولار للفترة من ٢٠٠٠-٢٠٠٨ هذا بخلاف ما تم نهبه داخليا ولهذا فإن العمل المطلوب ليس بالبسيط لوجود تداخلات مع دول ومؤسسات وهيئات على مستوى العالم بالإضافة إلى طول فترة النهب (٣٠ عاما) ممايؤدى إلى تعقد الإجراءات لكم من الممكن الاستعانة بالمؤسسات التالية على سبيل المثال وليس الحصر: UNCAC Afro Egyptian Human Rights Organization Egyptians against corruption بالإضافة إلى ٢٤٠ هيئة مدنية على مستوى العالم تتعاون لنفس الهدف ألا وهو الكشف عن الأصول المنهوبة والتدفقات غير الشرعية. هذا وجدير بالذكر أن التحفظ الحادث على الأصول فى الخارج هو تحفظ إدارى لمدة عام واحد لذلك فأمامنا عام واحد لإثبات القضية فى هذه الحالة مع العلم أنه من الممكن تدويرها بطرق أخرى مشبوهة

كيفية إخفاء الأصول المنهوبة وتدويرها فى مصر



من المعروف أيضا أن هناك دولارا واحدا فقط يتم الاستفادة منه بحق من أصل كل ١٠ دولارات يتم سحبها أو صرفها من المعونات والمنح أو كل مايدرج فى مساعدات التطوير الاقتصادى الرسمى من دول أخرى



يمكن تفادى الوقوع فى الفساد عن طريق نشر وتفعيل معايير الحوكمة والشفافية ووضع قياس لمحددات أداء عمل للقطاع الحكومى والأعمال والخاص



ويتم إجمالا إخفاء الأصول عن طريق ثلاث خطوات التالية:

١ ـ فصل الأصل المنهوب عن المصدر ووضعه (إحلال) فى عدة آليات مالية داخل وخارج البلاد فى مشروعات مشروعة أو أعمال تجارية مباشرة مثل أسهم البورصة وخطابات الضمان للغير وأعمال التسويق العقارى ومراكز التسوق والتهرب الضريبى وتجارة المجوهرات والمعادن النفيسة والمجلات الفنية والدعائية وشركات الدعاية والإعلان والتسويق وكذلك المعارض الفنية والتى تشمل بيع قطع فنية ليست ذات قيمة بمبالغ طائلة وتمويل الأعمال الفنية (الأفلام والمسلسلات والأغانى) ورعاية الممثلين والمؤدين ودعم الفرق الكروية وشراء اللاعبين بأسعار لا ولن تتناسب مع إمكانياتهم ويشمل أيضا إنشاء مشروعات وهمية مثل المناجم وعمليات التنقيب والزراعة لمحاصيل ليست ذات جدوى اقتصادية فعالة (مثل زراعة الفراولة عوضا عن القمح) أو المشروعات التى ليس لها دورة عمل متكاملة تخدم المجتمع (بل يقتصر دورها على الصناعات الاستهلاكية التى لاطائل منها وتستنزف الموارد المالية للدولة مثل مصانع اللبان) كل ذلك لضمان عملية ظهور لأرباح مختلقة يتم دفع ضرائبها مما يسهم فى تقنينها مثل عمليات المرابحة فى عمليات التسويق والتمويل العقارى وتختص مصر أيضا بعمليات تدوير تجارة الآثار وبيع أصول الدولة وفقا لعمليات مقاصة تجارية لها خلفية مصالح شخصية يقوم بها القائمون على عمليات الخصخصة (مثل تقنين حسابات الإهلاك أو تعظيم العوائد مقابل أصول معدومة أو بيع أصول سيادية مثل الأراضى الخاصة بالمؤسسات المخصصة كجزء من القيمة التجارية ومايمثله ذلك من فساد فى التقييم) وهذا من أسوأ أشكال الفساد لشموليته على عمليات فساد وإفساد واستغلال نفوذ بالإضافة إلى غسيل الأموال ونهب الأصول

٢ ـ إنجاز عدد من العمليات المالية والمصرفية المتتالية لتفتيت الأصل وتدويره فى عدد من الحركات المالية والمصرفية لتفادى المحاسبة أو المراجعة ويتم هنا تكرار عمليات التدوير لضمان تضاخم الأصل وتيسير إدراج الأموال غير المشروعة فى سياق العمل لتقنينها بالإضافة إلى إضفاء طابعا أن تلك الأعمال تخلق طابع كأنها تفيد المجتمع وتسعده مثل تمويل عمليات الفرق الكروية وإنشاء المنتجعات أو المراكز الترفيهية أو المطاعم التى بلا جدوى ومن الملاحظ أن كل تلك الأعمال تحتاج مصروفات تشغيل كبيرة بطريقة مستمرة بخلاف التمويل الأساسى الخاص بالإنشاء والإشهار وهو مايمثل أفضل ماتحتاجه عمليات التبييض. . ولعل أخطر تلك العمليات هو تدوير الأموال عن طريق مايسمى المنصات التجارية والتى تدور الأموال فى العديد من الشركات والبنوك عدة مرات فى عدد من الدول قد تصل إلى ٤ مرات يوميا لتداول سندات قصيرة ومتوسطة الأجل حيث تتشتت الأصول المنهوبة تماما لتشابك التفصيلات وتشعبها.

٣ ـ ربط الناتج من تلك العمليات التى تبدو شرعية مرة أخرى ودمجه فى عمليات اقتصادية كبرى لتعظيم القيمة وتقنينها لضمان ظهور هيكل أعمال شرعى (رغم فقده التام لمؤهلات الشرعية الحقيقية) وذلك فى مشروعات كبرى يتم تدوير عائدها مرة أخرى وهنا يتم إنشاء الشركات القابضة بل المراكز الخيرية والجمعيات الأهلية والتوكيلات التجارية بغض النظر عن جدواها.

ومن الملاحظ أن ٢٥٪ من عمليات التدوير تتم عن طريق wire transfer البنكية مباشرة عن طريق استخدام العديد من البنوك الوسيطة فى دول عدة وباستخدام حسابات (حقيقية أو حركية) لنفس الشخص أو لأفراد متعددين على أن تتجمع فى النهاية فى أوعية محددة سبق التخطيط لها فى بنوك أخرى وهناك ١٣٪ بإستخدام شركات هيكلية شكلية ومتشعبة فى العديد من الشركات الأخرى يشمل ذلك أحيانا مؤسسات مالية ومصرفية وأشخاصا إعتباريين كواجهة للعمل حيث يتم إصدار فواتير شراء وهمية يتم دفع مستحقاتها بدون وجود بضائع حقيقية فى المقابل كما يتم استخدام عمليات المقاصة المالية والتوريق وعمليات التمويل المصرفى بضمان الأصول وأيضا العديد من الطرق التى ترهق متابعها أو متقصيها.

الانعكاسات على الإقتصاد

إن كل ذلك له انعكاسات سلبية على الاقتصاد القومى حيث إن:

١ ـ هناك نسبة من الأموال المحصلة ليست شرعية بالإضافة إلى حقيقة أن تلك الأموال والأصول من الواجب مصادرتها وتغريم مالكيها لفقدان القانونية والشرعية لعملياتهم.

٢ ـ إخفاء القيمة الحقيقية للثروات والعمليات التجارية.

٣ ـ حدوث إبخاس لأصول الدولة الحقيقية والاستثمارية مقارنة بما يتم تدويره وتدويله بطرق غير شرعية

٤ ـ حدوث انتكاسة للاستثمارات الحقيقية لعدم قدرتها على المنافسة الربحية أمام الوهم الإفتراضى لربحية العمليات الأخرى غير القانونية

٥ ـ تخلق تلك الأهمال سوقا وهمية مثل السوق الوهمية وغير الحقيقية للعقارات.

٦ ـ تشجيع الآخرين على لبقيام بعمليات أخرى مثيلة لرؤيتهم نجاح ذلك عن طريق آخرين.

٧ ـ تأثر بل انهيار النظام المصرفى فى الغالب لعدم وجود دورات عمل مالية ومصرفية حقيقية.

٨ ـ تأثر وتذبذب العملات الحرة والأجنبية نظرا لاضطراب عملياتها وعدم وجود سوق حقيقية لها.

٩ ـ فقدان الدولة للمصداقية ولافتقاد معايير الشفافية والإفصاح.

ولايمكن لدولة بمفردها مواجهة كل ذلك بمفردها وذلك لأن تلك العمليات تمس السيادة والمصداقية بالإضافة إلى تأثيراتها المتتابعة على الاقتصاد العالمى أجمع لأن تلك العمليات تتم فى عدة دول وليست دولة واحدة، هذا بالطبع بالإضافة إلى وجود العديد من الجنسيات لأشخاص ومؤسسات وهو مايستلزم مراعاة الأبعاد القانونية والجنائية للدول المعنية حتى لاتفقد القواعد الإجرائية المصداقية.

أسلوب المواجهة والعلاج

ولمواجهة ذلك يجب القيام بالخطوات التالية (على سبيل المثال وليس الحصر):

١ ـ وضع معايير واضحة للإفصاح والمحاسبة المعيارية عن الأصول والممتلكات وخاصة للأشخاص ذو الحيثية (الشخصيات العامة) Public Exposed Person PEP وهو ماتم حاليا على سبيل المثال فى البند ٥٨ من الإعلان الدستورى لكن هناك حاجة لوضع آلية عمل لذلك لكيلا تكون أساليب مطاطية لتقنين الأوضاع بطرق أخرى.

٢ ـ تفادى الوقوع فى الفساد عن طريق نشر وتفعيل معايير الحوكمة والشفافية ووضع قياس لمحددات أداء عمل للقطاع الحكومى والأعمال والخاص بدءا من آليات الشفافية فى الأعمال والمحاسبة الضريبية وعمليات تمويل الانتخابات وتفعيل حقوق المواطنة ومشاركة المجتمع المدنى فى تنمية الوعى والإدراك والمشاركة وكذلك تفعيل منظومة الرقابة المؤسسية والشعبية

٣ ـ التجريم: عن طريق وضع آليات وقوانين واضحة المعالم لمنع تضارب المصالح واستغلال النفوذ للعمليات المالية والتجارية وكذلك الممارسات الحكومية وآليات التعاون الدولى والمحلى

٤ ـ المشاركة فى المعلومات مع الدول الأخرى من بيانات الضرائب والجمارك والدخل والتعاون الدولى مع الجهات المختصة من مؤسسات مانحة وجهات تنفيذ القانون والمؤسسات التشريعية وكذلك تنسيق التعاون الدولى فى مجال حماية الشهود وسرية البنوك وتداول الأدلة وأخيرا التعاون فى مجال متابعة وتجميد الأصول والحسابات المشبوهة

٥ ـ وضع آلية استرداد الأصول عن طريق آليات فنية عملية موثوقة ومقننة وليس بالاجتهادات العشوائية واللجان التى لاطائل منها والاستعانة بمختصين تكنوقراط من أهل العلم والخبرة لهم صلاحيات وليس لجان وزارية كما نشر مؤخرا فمع الاحترام لشخوصهم لكن هناك شك لدرجة اليقين أن ذلك بداية عدم الاسترداد لعدم وجود خبرات متخصصة ولانشغال الأعضاء بمهام أخرى يوميا (حيث سيصبح ذلك نفس



إن التحفظ الحادث على الأصول فى الخارج هو تحفظ إدارى لمدة عام واحد، لذلك فأمامنا عام واحد لإثبات القضية فى هذه الحالة مع العلم أنه من الممكن تدويرها بطرق أخرى مشبوهة



فى حالة عدم وجود قواعد محاسبية وآليات لتفعيل معايير الشفافية فإن اتجاهات العمـــل الحكوميـــة تكـــون مخلخـلـــة ومفــرغــة من المضمــون



السيناريو السابق من تركيز السلطات فى يد مجموعة) أو لعدم وجود خارطة طريق Road Map وعدم وجود خطة عمل واضحة Plan.

لمزيد من التفصيلات يتم الرجوع إلى: اتفاقية UNCAC بنود ٨، ٩، ١٢، ١٤، ٢٣، ٢٦، ٣١، ٤٠، ٤٣، ٤٦، ٥١، ٥٢، ٥٥، ٥٧.

حالة مصر بالنسبة للقانون السويسرى

قامت سويسرا بعد ساعتين فقط من تخلى الرئيس السابق حسنى مبارك عن الحكم فى ١١ فبراير ٢٠١١ بتجميد كافة أصوله المادية فى البنوك السويسرية لضمان عدم إهدار أو تدوير لأصول الدولة المصرية والتى يجب أن تؤول لها الأصول مرة أخرى لاحقا وذلك وفقا للقانون الصادر فى ١ فبراير ٢٠١١ تحت اسم «قانون رد الأصول غير المشروعة Restitution of Illicit Assets Act RIAA لكن القانون وفقا للبيان الصادر لحالة مصر أوضح الشروط التالية:

١ ـ وجود آلية نقل ديموقراطى للحكم المدنى وهو مايقوم به المجلس العسكرى حاليا

٢ ـ إثبات تجاوزات الرئيس السابق وتجريمه بمايلزم الرد والتغريم مع حصر الأصول غير المشروعة التى تم نهبها

٣ ـ أن يثبت فساد وتجاوزات مؤسسة الحكم السابق وتطهير مؤسسة الحكم الحالية منه بما يضمن عدم إعادة النهب مرة أخرى

٤ ـ وجود آليات تشغيل بعد الاسترجاع وليست لسداد مديونيات سابقة أو لمجالات إنفاق وقتية أو لتدوير الفساد مرة أخرى ووضع ضمانات وآليات لعدم نهبها مرة أخرى.

٥ ـ وجود دعم مالى مناسب للإنفاق على عمليات التقصى والإسترداد لما تعنيه من عمليات تشغيل وإستعانه بمختصين وخبراء وتحريين ماليين ومصرفيين ومراجعين ماليين وقانونيين ومهام أخرى.

المصاعب الواجب مواجهتها مسبقا لضمان الاسترداد الأمثل والفعال للأصول المنهوبة.

١ ـ فى حالة عدم وجود قواعد محاسبية وآليات لتفعيل معايير الشفافية فإن اتجاهات العمل الحكومية تكون مخلخلة ومفرغة من المضمون نظرا لوجود فجوات فى نظم العمل مما يؤدى إلى فقدان معايير العدل الاجتماعى والنفع العام وينعكس بالتالى بآثار سلبية على منظمات المجتمع المدنى وحينها يفقد المواطن الثقة بالقانون والنظام العدلى وهناك أثر ملحوظ فى حالة استخدام وتفعيل نظم ومعايير تدقيق ومحاسبة حتى على مستوى مبدئى على تقليل الفاقد العام فى الأصول والمخصصات.

٢ ـ يجب التدقيق والفحص لآليات تحويل الأموال إلكترونيا وكذلك الشركات الهيكلية والفرعية وقواعد سرية وخصوصية الحسابات المصرفية والائتمانية وعمليات المقاصة.

٣ ـ يجب وجود نية سياسية وخطاب سياسى واضح المعالم من النظم الحاكمة فى الدولة لتطهير آليات تدوير وإخفاء الأصول ووضع معايير معالجة لها مع التركيز على آليات مواجهة تضارب المصالح والاستفادة غير المباشرة للأشخاص النافذين ولذلك يجب البت فى تنقيح إقرارات الذمة المالية للموظف العام ومراجعتها وتدقيقها وتوثيقها مع تنفيذ مراجعات Audit مرحليا (قبل تولى العمل العام ثم سنويا ثم بعد ترك الوظيفة مع المراجعات للعينات العشوائية أو حين الاحتياج) ويلاحظ هنا أنه فى مصر لايوجد قانون للخدمة المدنية Civil Service Code الذى يتيح مساءلة الموظف العام بطرق واضحة المعالم بدون الدخول فى متاهات القوانين الإجرائية مع مراعاة أن تسهيل الفساد (الإفساد) الذى يقوم به الموظفون فى الدرجات الوسطى والتنفيذية أشد أذى من فساد الساسة لكونهم دائما فى الخلفية ويتربحون بطرق أخرى

٤ ـ هناك مشاكل عدة فى قدرة الأجهزة التنفيذية على متابعة آلاف العمليات الشرعية والمشتبه بها وغير الشرعية فى حدود مبالغ تتراوح بين ١٠٠٠٠٠ دولار و٥٠٠٠٠٠٠ دولار لأنها بالآلاف.

٥ ـ معالجة قصور الأدوات القانونية من تشريعات حيث تشمل القوانين الحالية العديد من العبارات الفضفاضة مثل «وعلى الوزير المختص» أو «القرارات الوزارية» أو «اللائحة التنفيذية» ووضع العديد من السلطات غير المقننة فى يد الجهات التنفيذية للغض عن الرقابة ومعالجة أوجه القصور فى آليات مكافحة التداول غير الشرعية للأصول والأموال والحركات المالية.

٦ ـ معالجة عجز آليات التنسيق والتعاون والمتابعة حيث تتضارب الجهات المختصة ولايوجد تعاون أمنى واضح المعالم بأسلوب منهجى.

٧ ـ معالجة قصور آليات تشغيل وتأمين دورة الأصول وبالتالى قصور التشغيل فى حالة الاسترداد وهو مايعنى عدم القدرة على إقناع الدولة المضيفة بقدرة مصر على إدارة وحماية الأصول من نهبها مرة أخرى Recycle

المبادئ الحاكمة لخطوات متابعة وإسترداد الأصول العامة.

١ ـ التسجيل القانونى والمالى شاملا الكمية والقيمة والتاريخ ومعايير ومواعيد التفعيل.

٢ ـ أساليب تأمين الأصول فى حالة التشغيل (الاسترداد) المتابعة وتحديد المسئولين عنه.

٣ ـ إشهار عملية تشغيل الأصل وكذلك المسئوليات الخاصة بالتشغيل والمتابعة ومصروفاته وفقا لمعايير المحاسبة والإشهار بطرق معيارية موثقة يمكن مراجعتها وتدقيقها.

٤ ـ التوثيق والتدقيق المحاسبى والقانونى للأصل ومصروفاته ومشتملاته ووجود تقارير مما سبق تشمل النتائج والتوصيات وليس فقط عملية المتابعة.

٥ ـ وجود معايير وآليات استجابة حكومية واضحة.



ولايمكـــن لـدولـــة مواجهـــة كل ذلـك بمفـــردها وذلـك لأن تلك العمليات تمس السيادة والمصداقية بالإضافة إلـى تأثيـــراتهـــا المتــــابعـــة عـــلى الاقتصاد العالمى أجمع



آلـيــات الـكــشــف

١ ـ جمع الأدلة وتعريف طبيعة الفساد محل التقاضى وتعريف مصداقية المتهم.

٢ ـ تكوين فريق العمل المكلف بالعملية وتحديد جهات التعاون الخارجى والاتصال بها وتأمين الموارد المطلوبة لإنجاز العمل.

٣ ـ تقييم الأصول المنهوبة ومتابعتها وتعريف واستنباط الأدلة والمعلومات المرافقة ويتم تقييم الأصول عن طريقين:

أ ـ تقييم الأصول المباشرة Property based value

ب ـ تقييم الإنتفاع والتربح من الفسادvalue based

٤ ـ التجريم: وضع آليات تجريم وتقاضى (مع انتفاء وضع المحاكم الوضعية مثل أمن الدولة العليا وخلافه) بناء على:

أ ـ التجريم بواسطة القضاء Criminal Proceedings وتبسيط الإجراءات القانونية والقضائية ووضع معايير واضحة لتجريم الموظف العام فى حالة فساده.

ب ـ ترجيح احتمالات الفساد Non Convictional Bases (NCB) by Balance of Probabilities and Preponderance of evidence والتصالح فى حالة عدم وجود تجريم جنائى (فقط فى حالات الفساد فى تطبيق الإجراءات أو فساد أدوات التنفيذ).

جـ ـ Private Civil Action: الكشف عن المعلومات وتسريع الإجراءات عن طريق النيابة العامة وبلاغات المجتمع المدنى وقواعد الإفصاح والشفافية.

٥ ـ الأخذ بمفهوم وتقارير العمليات المشبوهة STR Suspicious Transaction Report والذى يصدر فى الغالب فى المؤسسات المالية والمصارف بالدول المضيفة والذى يوصف فيه مدى الاشتباه وجديته والدلائل عليه.

٦ ـ وضع وتنفيذ خطة الإسترداد وحفظ وتأمين الأصول ووضع معايير جزائية واضحة المعالم وفعالة بما لايتيح إهدار الموارد أو إعادة نهبها مرة أخرى وعمل تعاون قانونى دولى متبادل Mutual Legal Assistance MLA مع الدول الأخرى لضمان التعاون القانونى والجنائى.

٧ ـ تجميد الأصول وتحصيلها واستردادها.

.... وللحديث بقية. ■

مابين غسيل الأموال .. وتجميدها

فى البحث عن الكنز المسروق !

سليمان عبد المنعم

■■ لنا أن نتخيل وفقًا لأرقام نشرها البنك الدولى على موقعه الإلكترونى أن ١٠ مليارات دولار تكفى لبناء طريق مزدوجة بطول ٢٤ ألف كيلو متر مربع أو توصيل مياه الشرب لخمسة وعشرين مليون منزل. وأنه لو حسبنا تكلفة بناء مدرسة ابتدائية واحدة بتجهيزاتها بنحو مليون دولار فإن هذا المبلغ يكفى لبناء عشرة آلاف مدرسة. تُرى ماذا كان يمكن أن نفعل بأموال مصر المنهوبة بصرف النظر عن تفاوت أرقام تقديرها لو تم إنفاقها على مشاريع التنمية فى شتى ربوع بلادنا ؟!

قضية استرداد أموال مصر المنهوبة هى اليوم إحدى الأولويات بلا منازع. ولئن كانت هذه الأموال (حق) لنا فى مواجهة الدول التى توجد فيها فإن استردادها (التزام) يقع على عاتق الحكومة المصرية فى مواجهة الشعب. فهذا الشعب هو المالك الحقيقى للأموال والثروات التى تم تهريبها إلى الخارج أياً كانت التسميات أو الخدع أو الحيل التى تستخدم لتدويرها أو إخفاء مصدرها أو تمويه طبيعتها.



[١]

أغلب الظن أن الطريق لاسترداد هذه الأموال سيكون وعراً طويلاً محفوفًا بالشراك، وربما لن يخلو من قطاع الطرق من أصحاب الياقات البيضاء العارفين بالحدائق الخلفية للمصارف العالمية وثغرات النظم القانونية ودهاليز الاقتصاد الخفى العالمى. ولهذا فإن القانون (وحده) لن يكفى لكسب معركتنا المشروعة الشريفة لاستعادة أموال مصر المنهوبة. نحتاج لخطة عمل مدروسة ومتعددة المحاور يتكامل فيها مع القانونى السياسى والإعلامى. الدور السياسى يعنى أن تمارس مصر كل جهد ممكن بما تتيحه السياسة والدبلوماسية من أدوات تأثير وضغط مع المسئولين فى الدول المعنيّة وفى اجتماعات المنظمات الدولية. ولندرك منذ الآن أن حقنا فى استرداد هذه الأموال لا يجد سنده القانونى فقط فى التشريعات الوطنية أو اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد بل يجد سنده الدولى والأخلاقى والسياسى فى اتفاقيات ومواثيق أخرى تحظى بإجماع عالمى كبير. فالتكييف الحقيقى لرفض إعادة الأموال المنهوبة المهربة إلى الخارج يجعل منه انتهاكًا لأحكام العهد الدولى لحقوق الإنسان الاقتصادية والاجتماعية، ويجعل منه أيضًا مخالفة جديرة بالعرض أمام المجلس الدولى لحقوق الإنسان وذلك فى المفهوم العميق لحقوق الشعوب ذات الطابع الجماعى، والتى تمثل ما يطلق عليه الجيل الثالث لحقوق الإنسان. فمثلما هناك حقوق للإنسان (الفرد) هناك أيضًا حقوق (للشعوب).

ومن المؤكد أن مصر لا تفتقر إلى الكفاءات السياسية والدبلوماسية القادرة على إدارة ملف استعادة ثروتها المسروقة. المهم أن نتسلح بالفطنة والإرادة اللازمتين. وكفى حكومات مصر السابقة مواقفها الغريبة والمريبة حين لم تحرك ساكنًا للدفاع عن قضاياها المشروعة العادلة مثل قضية قتل الآلاف من أسراها فى سيناء وقضية التقاعس عن المطالبة بالمساعدة فى نزع الملايين من الألغام فى الصحراء الغربية فى حروب الآخرين على أرضنا أو هذا التجاهل غير المفهوم لانضمام مصر إلى نظام المحكمة الجنائية الدولية. نحلم اليوم بسلوك وطنى حقيقى (وليس الوطنى إياه الذى تم حله قضائياً) يضع مصر وقضاياها على الجبين وفى حدقة العين وليس على مقعد السلطة حيث أحلام الأبدية مقابل كوابيس التخلى عن مصالح الوطن!

لكن الجهد السياسى المطلوب فى قضية استرداد أموال مصر المنهوبة يجب أن يتسلح برؤية شاملة تعتمد عند الاقتضاء سياسة طرح البدائل. فالمصارف والمؤسسات المالية الأجنبية سوف تكافح بضراوة للحيلولة عند اللزوم دون إعادة المليارات من الدولارات التى تستفيد منها. من هنا قد يبدو مفيداً وبراجماتياً طمأنة هذه الجهات الأجنبية بوسائل ومبادرات شتى كأن يتم الإبقاء على إيداع هذه الأموال أو جزء منها باسم الحكومة المصرية، أو يقترح توظيفها فى مشروعات استثمارية جديدة، أو غير ذلك من البدائل.

أما الدور الإعلامى فلا يقل أهمية عن الدورين القانونى والسياسى. إنه يعنى باختصار تحويل مسألة استرداد أموال مصر المنهوبة إلى قضية رأى عام دولى. لكن المطلوب أن يتم ذلك بوعى وذكاء. ومن اليسير فى عصر ثورة الاتصالات التواصل الجيد مع الرأى العام الدولى. هناك هيئات مجتمع مدنى، وجمعيات ومؤسسات حقوقية،وإعلام، ومثقفون أحرار، ومنظمة عالمية للشفافية ذات فروع منتشرة فى الكثير من دول العالم. يمكننا أن نتواصل مع هذا القطاع الواسع العريض لانتزاع تأييد الرأى العام الدولى، وهو رأى فاعل ومؤثر فى القرار الحكومى فى الدول الديموقراطية. بوسعنا أن نجعل من قضية استرداد ثروات مصر بنداً على لائحة الاجتماعات والمؤتمرات والملتقيات الدولية.

والمهم فى هذا الجهد الإعلامى المطلوب أن يتم ربطه بقضايا الفقر والبطالة والمعاناة المعيشية التى تعانى منها المجتمعات النامية ومن بينها مصر. إن فرص نجاحنا كبيرة فى إيقاظ الضمير الحقوقى والإنسانى فى الدول التى توجد فيها أموالنا المنهوبة حين يتم التركيز عالمياً على سبيل المثال بين رقم الذين يعيشون تحت خط الفقر فى مصر وبين رقم الثروات التى تم نهبها، أو حين ترسل مشاهد ميدان التحرير ووجوه الشهداء والمصابين جنباً إلى جنب مع أرقام عن ديون مصر الخارجية ومظاهر البذخ والسفه التى يعيشها من نهبوا أموال مصر. هذه مجرد أمثلة عابرة لأهمية توظيف الجهد الإعلامى فى إيقاظ ضمير الدول المعنيّة لمساعدة مصر فى التغلب على ظروفها الاقتصادية الصعبة، وبداية ذلك إعادة أموال مصر المنهوبة. الفرصة اليوم سانحة لكى نستفيد من حالة التعاطف العالمى الكبير مع ثورة يناير المصرية بينما العالم لم تبرح خياله بعد صور ميدان التحرير وما شهده من تضحيات.

[٢]

على الصعيد القانونى نحتاج فى إدارة ملف استرداد ثروات مصر المسروقة إلى مهارة واحترافية. وهنا ثمة تفرقة واجبة ابتداء بين مستوى (النصوص) وما تتيحه لنا من حقوق فى اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد، وبين مستوى (الواقع) الذى لا يخلو من ثغرات وحيل قد تجهض ما تكرسه النصوص والأحكام. على مستوى النصوص هناك ثلاث وسائل قانونية تعطى لمصر كل الحق فى استرداد أموالها المنهوبة. أما على مستوى الواقع فثم خمسة محاذير يتعين الانتباه إليها قد تعطّل هذه الوسائل.

على مستوى النصوص والأحكام النظرية: أولاً تتيح اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد باعتبارها السند

يجب علينا تشجيع هذه الدول بشتى الوسائل والمبادرات على قبول مبدأ رد هذه الأموال والاعتراف بأحقية مصر فيها



القانونى الدولى الأهم والأبرز ثلاث وسائل قانونية بشرط أن يتم استخدامها وفق الشروط التى تتطلبها الاتفاقية.

الوسيلة الأولى- أن تطلب مصر سرعة اتخاذ الإجراءات الاستباقية والتحفظية بشأن البحث عن أموال وعقارات للمتهمين بجرائم فساد، وحجزها وتجميدها وذلك حتى قبل صدور حكم قضائى نهائى بإدانة هؤلاء المتهمين. وهو ما تجيزه المادتان ٤٦ و٥٢ من اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد. وتبدو هذه الوسيلة مجدية فى الظروف الحالية التى نمر بها إذ ربما تستغرق إجراءات التحقيق مع المتهمين بالفساد ومحاكمتهم فترة زمنية طويلة لا سيما مع إمكان الطعن على الحكم الصادر بإدانتهم وما يتطلبه ذلك من طول الإجراءات فى الوقت الذى يلزم فيه لمصادرة الأموال حكم قضائى نهائى غير قابل للطعن فيه. من حق مصر إذاً أن تطلب من الدول التى توجد فيها أموال أو عقارات مصدرها إحدى جرائم الفساد كاختلاس المال العام أو الرشوة أو التربح تعقب هذه الأموال والعقارات واقتفاء أثرها، بل والمطالبة بتقديم أصول السجلات المصرفية للحسابات المالية ومعرفة حركة عمليات الإيداع والسحب والتحويل التى أجريت على هذه الحسابات. كما أن لمصر أن تطلب أيضًا من الدول الأجنبية سجلات الشركات والمنشآت التجارية والحكومية أو نسخ مصدقة منها. وتم ذلك كله فى إطار ما يعرف بالمساعدة القانونية المتبادلة التى تنظمها المادة ٤٦ من اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد.

بل إن الاتفاقية المشار إليها تجيز بصريح عبارة الفقرة ج من المادة ٥٤-١ اتخاذ ما يلزم من تدابير للسماح بمصادرة عائدات الفساد قبل صدور حكم قضائى بالإدانة وذلك فى الحالات التى لا يمكن فيها ملاحقة الجانى بسبب الوفاة أو الغياب أو فى حالات أخرى مناسبة. كما تجيز الفقرة ب من المادة ٥٤-٢ من الاتفاقية ذاتها للدولة التى توجد فيها عائدات الفساد اتخاذ ما يلزم من تدابير للسماح لسلطاتها المختصة بتجميد أو حجز الممتلكات بناء على طلب يوفر أساساً معقولاً للدولة متلقية الطلب (أى التى توجد فيها الأموال المنهوبة) بأن هناك أسبابًا كافية لاتخاذ تدابير من هذا القبيل، وبأن تلك الممتلكات ستخضع فى نهاية المطاف لأمر مصادرة.

والآلية المخوّلة طلب اتخاذ مثل هذه التدابير والإجراءات هى السلطة المركزية فى كل دولة والتى تمثلها فى مصر إدارة التعاون الدولى فى وزارة العدل، التى لها أن تخاطب السلطة النظيرة لها فى الدول الأخرى. ويجوز لمصر أيضاً أن تخاطب الدول الأخرى عن طريق القنوات الدبلوماسية. أما فى الحالات العاجلة فإنه يجوز لمصر والدولة الأخرى المعنية التعاون فى ملاحقة المتهمين وتعقب الأموال المتحصلة عن جرائم الفساد عبر المنظمة الدولية للشرطة الجنائية المسماة انتربول وفقاً لما يستفاد من نص المادة ٤٦-١٣ من اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد.

الوسيلة الثانية- أن تقوم مصر بالدخول مباشرة فى مفاوضات مع الدول التى توجد فيها الأموال المنهوبة بهدف إبرام اتفاقات أو ترتيبات ثنائية أو متعددة الأطراف لاتخاذ ما يلزم من إجراءات تجميد الأموال ومصادرتها واستردادها فى نهاية المطاف بعد صدور حكم قضائى بإدانة المتهمين بجرائم الفساد. هذه الإمكانية هى الوسيلة الأكثر فعالية وبراجماتية ومباشرة إذا ما أرادت مصر سرعة استرداد أموالها المنهوبة. فعلى الرغم من أن اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد تمثل الإطار العام للتعاون الدولى واسترداد عائدات الفساد فإن إجراءاتها طويلة ومعقدة ومعظم أحكامها تبدو فضفاضة واسعة.

والسر فيما تمثله الاتفاقات والترتيبات الثنائية من أهمية أن للدول الأجنبية مصلحة مؤكدة فى ألا تكون ملزمة بحكم اتفاقية جماعية أممية بإعادة الأموال المودعة فى مصارفها أو المستثمرة فى أراضيها والمتحصلة عن جرائم فساد ارتكبت فى دول العالم الثالث. لهذا فإن هذه الاتفاقات الثنائية بين الدول التى هربت منها عائدات الفساد والدول التى توجد فيها هذه العائدات سوف يسمح لهذه الأخيرة بالتفاوض حول هذه الأموال. ومن المتوقع أن تطلب هذه الدول المستفيدة من عائدات الفساد جزءاً من هذه الأموال تحت ذرائع ومسميات ولأسباب شتى. وقد نصت على ذلك صراحة اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد فى مادتها ٥٧ التى تجيز للدولة الطرف متلقية الطلب (أى طلب استرداد الأموال) ... أن تقتطع لنفسها الأموال التى تكبدتها فى عمليات التحقيق أو الملاحقة أو الإجراءات القضائية المفضية إلى إرجاع الأموال المصادرة أو أن تتصرف فيها. ولا شك أن العبارة الأخيرة بالغة الأهمية لأنها تختزن معنى مضمراً خطيراً هو أن يكون للدولة التى توجد فيها الأموال المطلوب استردادها حق اقتراح كيفية التصرف فى هذه الأموال.

وليس أمام مصر على أية حال سوى اللجوء إلى مثل هذه الاتفاقات والترتيبات الثنائية مع الدول المستفيدة من عائدات الفساد، بل إنه يجب علينا تشجيع هذه الدول بشتى الوسائل والمبادرات على قبول مبدأ رد هذه الأموال والاعتراف بأحقية مصر فيها. أما كيف يتحقق ذلك فيمكن لمصر أن تبقى على جزء من هذه الأموال لتظل مودعة باسمها فى المصارف الأجنبية، أو توظيفها فى مشروعات مشتركة، أو إعادة استثمارها فى البلد الأجنبى ذاته ريثما يتسنى استردادها بالكامل فى نهاية المطاف.



الوسيلة الثالثة- أن تستخدم مصر ما تتيحه مبادرة STAR لاسترداد الأموال المنهوبة، وهى شراكة تجمع بين البنك الدولى والحكومة السويسرية ومكتب الأمم المتحدة لمكافحة المخدرات والجريمة UNODC . وأطلقت هذه المبادرة فى العام ٢٠٠٨ وتمكنت بعض الدول من خلالها من استرداد جزء من أموالها المنهوبة مثل نيجيريا. وتقدم هذه المبادرة المساعدة الفنية والتقنية لتمكين الدول المتضررة من تهريب أموالها من استعادتها مثل اقتفاء أثر الأماكن التى توجد فيها هذه الأموال والتى غالبًا ما يتم إخفاؤها أو خلطها بأموال أخرى مشروعة، واتخاذ التدابير الكفيلة باسترداد هذه الأموال المنهوبة فى الحالات التى يكون فيها المتهم بالفساد قد مات أو لاذ بالفرار أو متمتعاً بحصانة وظيفية تحول دون ملاحقته قضائيًا. ويمكن لمصر كما لأية دولة أخرى أن تستفيد مما تقدمه مبادرة STAR من المشورة والتنظيم المؤسسى وبناء القدرات فى اقتفاء أثر أموالها المنهوبة ومساعدتها فى التفاوض مع الدول التى توجد فيها هذه الأموال. ومن هنا استطاعت الحكومة النيجيرية التفاوض مع السلطات السويسرية لاسترداد بعض أموالها المنهوبة.

كما يمكن لمصر أيضاً أن تتيح للأفراد ومؤسسات المجتمع المدنى والتجمعات الحقوقية رفع دعاوى أمام محاكم الدول التى توجد فيها أموال وممتلكات للمتهمين بارتكاب جرائم الفساد، وهو ما فعله مواطنون تونسيون عقب الإطاحة بالرئيس التونسى السابق زين العابدين بن على. ويلاحظ أنه وفقًا لاتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد يحق للسلطات المصرية وبخلاف ما تقدمه من طلبات المساعدة القانونية لحكومات الدول الأجنبية أن ترفع بنفسها دعاوى مدنية أمام محاكم هذه الدول لتثبت حقها فى ملكية الأموال المنهوبة منها، وهو ما تنص عليه صراحة المادة ٥٣ فقرة (أ) من هذه الاتفاقية.

[٣]

لكن الوسائل القانونية المتاحة لمصر لاسترداد أموالها يمكن أن تصطدم فى الواقع بعدد من العقبات والمحاذير التى يمكن إيجاز أبرزها فى ما يلى:

أولا - ضرورة الإعداد الجيد الدقيق لملفات استرداد الأموال وطلبات المساعدة القانونية التى توجهها مصر لسلطات الدول المعنيّة بهدف تجميد عائدات الفساد ومصادرتها والاعتناء بصياغة هذه الطلبات. وتضع المادة ٤٦-١٥ من

على الرغم من أن اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد تمثل الإطار العام للتعاون الدولى واسترداد عائدات الفساد فإن إجراءاتها طويلة ومعقدة ومعظم أحكامها تبدو فضفاضة واسعة



المعايير الدولية تحبذ كضمانة للمتهمين عدم الجمع بين سلطات الادعاء والتحقيق والإحالة للقضاء فى يد جهة واحدة



اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد وصفًا دقيقًا شاملاً لما ينبغى أن تشتمل عليه طلبات المساعدة القانونية المتبادلة. وأهم ما يجب أن يتضمنه الطلب المقدم من السلطات المصرية الوصف القانونى الدقيق للفعل الجرمى المنسوب إلى المتهم، وتحديد ماديات هذا الفعل وأركانه وفقًا لما يمليه مبدأ لا جريمة ولا عقوبة إلا بنص القانون، وكذلك قائمة الأدلة ضد المتهم، وألا تكون هذه الأدلة متهافتة فتضعف من فرص الاستجابة لطلب المساعدة القانونية. هذا أمر ضرورى لكى نتفادى تكرار ما تناقلته وسائل الإعلام من أن إحدى الدول الأوربية قد رفضت مؤخرًا طلبًا مصريًا بتجميد أموال لأنه يفتقر إلى الشروط الواجبة.

ثانيًا - أهمية مراجعة القانون الأجنبى للدولة المطلوب منها تجميد الأموال ومصادرتها لكى نتأكد من أن الأفعال المنسوبة إلى المتهم فى مصر مجرّمة ومعاقب عليها وفقًا لقانون هذه الدولة. وهذا ما يعرف بشرط ازدواج التجريم. والواقع أن معظم جرائم الفساد من اختلاس مال عام، ورشوة، وتربح، وغسل أموال، واستغلال نفوذ هى جرائم تنص عليها كل القوانين الغربية، وهى واردة أيضًا فى اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد. ربما تكمن المشكلة فى جريمة الكسب غير المشروع، فعلى الرغم من أن هذه الجريمة واردة ضمن جرائم الفساد التى تجيز للدولة المتضررة طلب تجميد الأموال المتحصلة منها ومصادرتها (المادة ٢٠ من الاتفاقية المشار إليها) إلا أن بعض تشريعات الدول الغربية قد لا تجرم هذه (الحالة الجرمية) لكونها تنطوى على (شبهة) مخالفة مبدأ أصل البراءة الذى يوجب على جهة الادعاء تقديم الدليل على عدم مشروعية الأموال التى يحوزها المتهم وليس على الأخير تقديم دليل براءته لأن الأصل فيه أنه برىء. هذه مسألة هامة ينبغى التحسب لها فى الطلبات المقدمة لبعض الدول. ولهذا فقد أثارت هذه الجريمة بالذات جدلاً طويلاً أثناء مفاوضات اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد. كما أن بعض القوانين الغربية لا تعاقب بوصف الجريمة على ما ينص عليه التشريع المصرى من تجريم الإضرار غير العمدى بالمال العام (بطريق الإهمال).

ومن المهم أيضًا أن تراجع السلطات المصرية المعنية بصياغة طلبات تجميد الأموال ومصادرتها ما قد يوجد من اتفاقيات بين الدول الأوربية نفسها أو الغربية عمومًا لأنه لا يجوز لاتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد أن تمس بالتزامات الدولة متلقية طلب المصادرة أو الاسترداد الناشئة عن اتفاقيات أخرى. وهذا ما تنص عليه اتفاقية الأمم المتحدة ذاتها فى المادة ٤٦-٦. ولهذا فمن غير المستبعد أن تختلف بعض أحكام الاتفاقيات الأوربية للتعاون القضائى عن أحكام اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد، فيكون من المفيد لنا فى هذه الحالة معرفة هذه الاختلافات والتحسب لها منذ الآن عند إعداد طلبات المساعدة القانونية بهدف تجميد الأموال ومصادرتها.



ثالثًا - تفادى وقوع السلطات المصرية فى فخ (تسييس) التهم الموجهة إلى الأشخاص الملاحقين بجرائم الفساد. يجب أن لا تقحم الاعتبارات السياسية بأى شكل من الأشكال فى طلبات المساعدة القانونية الموجهة للدول الأجنبية. فمن المتوقع أن يدفع المتهمون بالفساد أمام محاكم الدول الأجنبية التى تنظر طلبات مصادرة أموالهم بأن ملاحقتهم كانت لاعتبارات سياسية وليس قانونية. والقضاء الغربى ذو حساسية بالغة فى مواجهة مثل هذه الدفوع. وليس سرًا أن هناك حالات سابقة رفضت فيها دول غربية تسليم بعض المصريين المقيمين لديها إلى السلطات المصرية بسبب ما أثاره هؤلاء الأشخاص من أن هناك (بواعث سياسية) وراء طلبات ملاحقتهم وتسليمهم. والمحكمة الأوربية لحقوق الإنسان تقف بالمرصاد أمام أية إجراءات قضائية تستهدف المتهمين بسبب آرائهم أو مواقفهم السياسية أو انتمائهم الدينى أو العرقى. وعلينا أن ننتبه إلى أنه وفقًا لاتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد (المادة ٤٤-١٥) يجوز لدولة أوربية أن ترفض تسليم المصرى المقيم لديها بتهمة الفساد إذا كان وراء طلب التسليم أسباب سياسية. من هنا يقع على عاتق السلطات المصرية واجب الحذق القانونى فى صياغة طلبات التسليم أو حتى طلبات تجميد الأموال ومصادرتها بحيث لا يترك للمتهم أدنى فرصة للزج بوضعه السياسى أو آرائه السياسية كمانع يبرر للدولة الأجنبية رفض تسليمه للسلطات المصرية أو رفض مصادرة ما يحوزه من ممتلكات.

رابعًا - الالتزام الصارم بشرعية الإجراءات التى تتخذ فى مواجهة المتهمين بارتكاب جرائم الفساد. فالأنظمة القانونية فى الدول الغربية التى توجد فيها الأموال المنهوبة لا تفرط فى مبادئ الشرعية الإجرائية ومعايير حقوق الإنسان وضمانات المحاكمة العادلة المنصفة حتى بالنسبة للمتهمين بارتكاب أشد الجرائم جسامة. ومن هنا يجب على جهات الإدعاء والتحقيق والمحاكمة ألا تتخذ أى إجراء مقيد للحرية استنادًا لقانون استثنائى أو بالمخالفة لما تكفله المواثيق والاتفاقيات الدولية لحقوق الإنسان التى انضمت إليها مصر. كما لا ينبغى إحالة المتهمين بالفساد أمام قضاء غير طبيعى مثل المحاكم العسكرية ومحاكم أمن الدولة طوارئ. ومن المؤكد أن السلطات القضائية المصرية واعية كل الوعى لهذه الاعتبارات. بل إنه من المحبذ (كلما كان ذلك ممكنًا) أن تكون جهة التحقيق الابتدائى مع المتهمين بالفساد غير جهة الادعاء. وهو ما حدث بالفعل فى بعض الحالات. إذ حسنًا فعلت النيابة العامة حين طلبت انتداب قضاة للتحقيق مع بعض المتهمين لأن المعايير الدولية تحبذ كضمانة للمتهمين عدم الجمع بين سلطات الإدعاء والتحقيق والإحالة للقضاء فى يد جهة واحدة. ومن المعروف أنه تم إلغاء نظام قضاء الإحالة فى مصر منذ العام ١٩٨١ حيث كان يتعين عرض أمر إحالة المتهم أمام محكمة الجنايات أمام مستشار للإحالة كضمانة إضافية للمتهم.

لا نريد أن نكرر خطأ ثورة يوليو ١٩٥٢ حين أعلت متطلبات الثورة على مقتضيات الشرعية القانونية فقلصت الضمانات القانونية ومبادئ حقوق الإنسان. لأن الكثير من أوضاعنا القانونية والقضائية الحالية التى عانينا منها طوال العقود الماضية هى نتاج تعديلات تشريعية تم إدخالها على النظام القانونى المصرى بعد العام ١٩٥٢. ولهذا حديث آخر.

[٤]

كلمة أخيرة بشأن الجوانب القانونية الخاصة باسترداد أموالنا المنهوبة هى أن مصر ما زالت تفتقر من أسف إلى تشريع وطنى ينظم مسائل التعاون القضائى الدولى وتسليم المجرمين. وعلى الرغم من أن مصر قد صادقت على اتفاقية الأمم المتحدة لمكافحة الفساد ما يجعلها بالتالى جزءًا من النظام القانونى المصرى إعمالاً لنص المادة ١٥١ من الدستور المصرى (المعطّل الآن) فإنه كان من الأفضل لو أن لدينا تشريعًا داخليًا للتعاون القضائى الدولى وتسليم المجرمين مثل معظم دول العالم بل والعديد من الدول العربية حولنا. وكانت وزارة العدل المصرية قد أنجزت منذ أكثر من سبع سنوات مشروعًا متكاملاً وحديثًا للتعاون القضائى الدولى وتسليم المجرمين أعدته إدارة التعاون الدولى بالوزارة التى كان يرأسها آنذاك المستشار د. اسكندر غطاس. لكن لسبب ما لم ير مشروع القانون النور حتى اليوم. فلعلها فرصة أن يدفع السيد المستشار محمد الجندى وزير العدل الحالى بهذا المشروع ليصبح قانونًا أو مرسومًا بقانون فى أقرب فرصة ممكنة. فقد أثبتت الظروف الحالية التى نمر بها مدى حاجتنا الملحّة لقانون يدعم جهود رحلتنا الشاقة الطويلة فى البحث عن كنز مصر المسروق! ■



من المتوقع أن يدفع المتهمون بالفساد أمام محاكم الدول الأجنبية التى تنظر طلبات مصادرة أموالهم بأن ملاحقتهم كانت لاعتبارات سياسية وليس قانونية



شبـــاب عـــربـى لا يـهـــدأ

جـيــفـــــرى ســـــاكــس
Jeffrey D. Sachs



■■ إن الاضطرابات الحالية التى تجتاح الشرق الأوسط ترجع إلى العديد من العوامل التى شكلت الأساس لاندلاعها: عقود من الفساد والحكم المستبد، ومجتمعات متزايدة الاطلاع والقدرة على التواصل الرقمى، وارتفاع أسعار الغذاء العالمية إلى عنان السماء. وفوق كل هذا، يعمل النمو السكانى السريع فى مختلف بلدان الشرق الأوسط (وفى الدول الواقعة إلى الجنوب من الصحراء الكبرى فى أفريقيا وأغلب بلدان جنوب آسيا) على تغذية ضغوط ديموغرافية هائلة.

على سبيل المثال، تضاعف عدد سكان مصر على مدى فترة حكم حسنى مبارك، من ٤٢ مليون نسمة فى عام ١٩٨٠ إلى ٨٥ مليون نسمة فى عام ٢٠١٠. وتزداد هذه الطفرة السكانية أهمية وتأثيراً إذا ما علمنا أن مصر بلد صحراوى يتكدس سكانها على طول نهر النيل. ومع تعذر الانتشار إلى الجانبين، فإن الكثافات السكانية ترتفع إلى نقطة الانهيار. فقد تحولت القاهرة إلى إقليم يقطنه نحو عشرين مليون نسمة يعيشون جنباً إلى جنب ويعتمدون على بنية أساسية غير وافية.

ويعنى النمو السكانى السريع تضخم الشريحة السكانية من الشباب. والواقع أن نصف سكان مصر تحت سن ٢٥ عاماً. وتواجه مصر، شأنها فى ذلك شأن عشرات البلدان فى مختلف أنحاء العالم التحدى العصيب. الذى لم يُحل إلى حد كبير. المتمثل فى ضمان توفير العمل المنتج المربح لشبابها.

والأمر ببساطة أن نمو العمالة عاجز عن ملاحقة الطفرة السكانية، على الأقل فيما يتصل بتوفير الوظائف اللائقة فى مقابل أجور معقولة. حتى أن معدل البطالة بين الشباب (من ١٥ إلى ٢٤ عاما) فى شمال أفريقيا والشرق الأوسط بلغ ٣٠٪ وربما تجاوزها. والآن يدفع الإحباط العاطلين وشبه العاطلين من الشباب إلى النزول إلى الشوارع.

ولكن من المؤكد أن مشكلة ارتفاع مستويات البطالة بين الشباب لا تقتصر على بلدان العالم النامى. ففى الولايات المتحدة، يبلغ معدل البطالة الإجمالى نحو ٩٪، ولكنه بين الشباب من سن ١٨ إلى ٢٥ عاماً يرتفع إلى ١٩٪. وهذه النسبة لا تشتمل إلا على الشباب العاملين بالفعل أو الباحثين عن عمل. وهناك كثيرون آخرون أصابهم اليأس والإحباط إلى الحد الذى جعلهم يخرجون من سوق العمل بالكامل: الذين لا يذهبون إلى المدرسة، ولا يعملون، ولا يبحثون عن عمل. وهم لا يعربون عن احتجاجهم كثيراً، ولكن العديد منهم تنتهى بهم الحال إلى السجن.

إن أسواق العمل فى العالم تتسم بالترابط الآن. فالشباب فى بلدان مختلفة مثل مصر والولايات المتحدة على سبيل المثال يتنافسون فى الواقع مع الشباب فى الصين والهند فى البحث عن عمل. والواقع أن العمال من ذوى الأجور المنخفضة فى الصين، والذين يتسمون بالإنتاجية المرتفعة نسبياً فى مجال التصنيع، إلى جانب البنية الأساسية العالية الجودة (الطرق، والطاقة، والموانئ، والاتصالات)، أصبحت تشكل المعيار للقدرة التنافسية على مستوى العالم. ونتيجة لهذا فإن العمال من ذوى المهارات المتدنية فى مصر، والولايات المتحدة، وغير ذلك من البلدان، يتعين عليهم إما أن يرفعوا إنتاجيتهم بالدرجة الكافية لتمكينهم من المنافسة بأجر لائق، وإما أن يتقبلوا أجوراً متدنية للغاية أو البطالة الصريحة.

لذا فإن خلق الوظائف اللائقة يُعَد فى صميم الجهود الرامية إلى تحسين القدرة التنافسية على المستوى الدولى. وهذا يتطلب تزويد العمال بالتعليم الجيد، والتدريب المكثف أثناء العمل، وتوفير البنية الأساسية الداعمة. وفى حين يتعين على القطاع الخاص أن يخلق أغلب فرص العمل، فإن القطاع العام لابد وأن يعمل على توفير الظروف الأساسية الكفيلة برفع مستويات الإنتاجية. وهى ليست بالمهمة اليسيرة.

والواقع أن منطقة واحدة فقط بين المناطق ذات الدخل المرتفع قامت بعمل طيب إلى حد كبير فيما يتصل بإعداد شبابها، واقتصاده عموما، للمنافسة العالمية الخشنة: وهى منطقة شمال أوروبا، بما فى ذلك ألمانيا والدول الاسكندنافية (الدنمرك، وفنلندا، والنرويج، والسويد). ففى هذه البلدان يتسم التعليم العام بالامتياز، وغالباً يشتمل الانتقال من المدرسة إلى العمل على برامج للتدريب فى مهن مختلفة كتلك التى تشتهر بها ألمانيا بصورة خاصة.

وفى البلدان النامية، يمكننا وضع أيدينا على أوجه التقدم فى البلدان التى تؤكد على امتياز التعليم، والاستثمار العام فى البنية الأساسية، والتدريب الجاد أثناء العمل. ولعل كوريا الجنوبية تُعَد قصة النجاح الرائدة فى هذا المجال، حيث نجحت بفضل التعليم المتفوق وبرامج تشغيل العمالة القوية بين الشباب فى الارتفاع من مستوى البلدان النامية إلى مستوى البلدان ذات الدخول المرتفعة فى غضون جيل واحد. ولقد نجحت كوريا الجنوبية فى تحقيق هذا الإنجاز الفذ رغم جوارها للصين التى تتمتع بقدرة تنافسية بالغة.

أما الولايات المتحدة فهى تشكل على النقيض من ذلك حالة فشل، باستثناء الشباب المنتمين إلى أسر ذات دخول مرتفعة. فالأطفال الأميركيون الناشئون فى بحبوحة من العيش يحصلون على تعليم ممتاز ويحظون بفرص جيدة فى الحصول على عمل بعد نيل درجة البكالوريوس. ولكن فى ظل نجاح الأثرياء فى الضغط من أجل خفض الضرائب وخفض الإنفاق الحكومى، أصبحت فرص الأطفال المنتمين إلى الأسر الفقيرة وأبناء طبقة العمال فى الحصول على تعليم جيد ضئيلة للغاية، كما فشلت الحكومة الأميركية فى توفير التدريب أو البنية الأساسية اللائقة. وكانت النتيجة الطبيعية اندلاع أزمة البطالة المتنامية بين الشباب المنتمين على الأسر الفقيرة وأبناء الطبقة العاملة.

وينبغى لبلدان شمال أفريقيا والشرق الأوسط أن تتعلم من شرق آسيا وشمال أوروبا، وأن تحرص كل الحرص على تجنب إخفاقات النموذج الأميركى. وإذا كان للديمقراطية أن ترسخ قدميها وتزدهر فى مصر وتونس، وأماكن أخرى من العالم العربى، فإن الحكومات الإصلاحية الجديدة لابد أن تضع أزمة البطالة بين الشباب على رأس أولوياتها.

ويتعين على بلدان الشرق الأوسط أن تعمل على وضع الاستراتيجيات اللازمة لتحسين جودة التعليم وزيادة فترة الدراسة، والاستثمار فى التدريب على العمل، وتعزيز التدريب فى القطاع الخاص، وتنمية المشاريع الصغيرة والمتوسطة الحجم. كما يتعين عليها أن تحدد مشاريع البنية الأساسية الرئيسية المطلوبة لضمان إنتاجية القطاع الخاص. ويتعين عليها أن تعمل فى إطار تعاونى على تعميق التكامل التجارى الإقليمية، وبالتالى خلق سوق أكبر.

لم يتورع الحكام المستبدون المخلوعون. زين العابدين بن على فى تونس، ومبارك فى مصر، وقريباً العقيد معمر القذافى فى ليبيا . عن تكديس المليارات من الدولارات المسروقة من الخزانة العامة. وكل هذه الأموال غير المشروعة لابد أن تعاد إلى أهلها وأن توضع فى صندوق خاص لتشغيل الشباب.

فضلاً عن ذلك، ومع عودة أسعار النفط إلى تجاوز المائة دولار للبرميل، فإن دول الخليج تتمتع بمنجم من الثروات الهائلة. ويتعين عليها أيضاً أن تعمل على إنشاء صندوق خاص لتشغيل الشباب فى المنطقة من خلال البنك الإسلامى للتنمية. والواقع أن الوسيلة الأمثل لاستغلال الموارد التى تتمتع بها المنطقة تتلخص فى ضمان إثراء حياة شبابها بالتعليم والمهارات والوظائف ذات الجودة العالية. ■

Jeffrey D. Sachs is Professor of Economics and Director of the Earth Institute at Columbia University. He is also Special Adviser to United Nations Secretary-General on the Millennium Development Goals.

ترجمة: أمين على

لم ينجح خلفاء محمد على فى تأسيس روابط قوية بينهم وبين شعب مصر، نظرا لعدم تبنيهم للثقافة المصرية العربية، وعدم تمصيرهم للدولة التى حكموها أجيالا متعاقبة

بين ثورتين



بشير نافع

■■ يتناول هذان الكتابان فترة حاسمة من تاريخ مصر الحديث، وينتميان إلى نوعين مختلفين من أنواع الكتابة. فالأول هو مذكرات خديو سابق، فى حين أن الثانى هو دراسة أكاديمية للتاريخ الاجتماعى؛ إلا أن هناك عنصرا قويا موحدا يجمع بين الكتابين. وأنا لا أقصد بهذا تركيزهما على مصر فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، وإنما اهتمامهما بموقف الطبقات الراقية المصرية.

فى ١٩٤٠، بعد أكثر من عقدين من الزمان على خلع الخديو عباس حلمى الثانى من منصبه، كتب عباس حلمى الكتاب الأول مبرئا حكمه، فرد على منتقديه ودافع عن مكانته فى التاريخ. من ناحية أخرى، حينما بدأت مصر فى أواخر التسعينيات تشهد بعض التحولات الاجتماعية والسياسية الأساسية، حيث اكتسبت الثروة والسلطة الاجتماعية احتراما وزادت الرغبة فيهما، كتبت ماجدة بركة كتابها الذى تحاول فيه أن تعيد الاعتبار لأمراء وباشوات مصر فيما قبل ١٩٥٢، وتكتب بكرامة عن دورهم فى تاريخ مصر الحديث. يدور الكتابان أساسا حول السلطة، السلطة التى انتزعها البريطانيون والتى لا يزال ينتحب عليها بشدة الخديو السابق، والسلطة التى فقدتها الطبقات العليا فى ١٩٥٢ بعد ثورة

- **Abbas Hilmi II**, The Last Khedive of Egypt: Memoirs of Abbas Hilmi II, translated and edited by Amira Sonbol (Reading: Ithaca, 1998), 390 pp.;

- **Magda Baraka**, The Egyptian Upper Class Between Revolutions, 1919-1952 (Reading: Ithaca, 1998), 328 pp.

ترجمة: مازن النجار

لم تكن هناك شرعية أو مبرر لدخول البريطانيين إلى مصر، والذى كان ظاهريا لقمع ثورة قومية ضد الخديو توفيق (١٨٧٩ـ ١٨٩٢)، وضد النخبة الحاكمة التركية الشركسية. فرغم الحكم الذاتى، كانت مصر لا تزال جزءا من الامبراطورية العثمانية

الضباط الأحرار، الذين لم يتخلوا أبدا عن هذه السلطة.

مما قرأناه فى هذين الكتابين، بدأت مصر فى التطور فى عهد الوالى العثمانى بمصر محمد على (١٨٠٥-١٨٤٨). دشن هذا الوالى بالغ الطموح والنشاط عهدا من النهضة الصناعية والزراعية والعسكرية بقيادة الدولة، وأسس مصر فى بدايات ثلاثينيات القرن التاسع عشر لتكون قوة إقليمية كبرى. ووضعته رغبته فى شغل مكانة مركزية بالامبراطورية العثمانية فى مسار متصادم مع أروقة الحكم فى استانبول، وأدت به إلى شن حربين كبيرتين ضد الدولة العثمانية. أدت سيطرة محمد على القوية على منطقة جنوب شرق البحر المتوسط إلى تهديد المصالح الاستراتيجية للبريطانيين وطريقهم إلى الهند، وعجلت بتدخلهم ضده وتوسعهم فى مصر. بحلول ١٨٤٠، كان محمد على قد هزم وأجبر على الانحدار إلى مصر وعلى تخفيض قدراته العسكرية والصناعية[1]. كان التعويض الوحيد فقط هو منحه حكما شبه ذاتى لمصر وتوريث الحكم لعائلته، وهى العائلة التى استمرت تحكم مصر منذ ذلك الحين من خلال منصب الخديو، ثم من خلال منصب الملك منذ ١٩٢٢ وحتى ١٩٥٢. بيد أن هزيمة محمد على لم تقلل من الأهمية الاستراتيجية لمصر. بل إن هذه الأهمية زادت إلى درجة بالغة بعد افتتاح قناة السويس فى ١٨٦٩، مما أدى-بعد فترة أخرى من النهضة الاقتصادية والعسكرية تحت حكم الخديو إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩) -إلى وقوع مصر تحت الاحتلال البريطانى فى ١٨٨٢.

لم تكن هناك شرعية أو مبرر لدخول البريطانيين إلى مصر، والذى كان ظاهريا لقمع ثورة قومية ضد الخديو توفيق (١٨٧٩-١٨٩٢)، وضد النخبة الحاكمة التركية الشركسية. فرغم الحكم الذاتى، كانت مصر لا تزال جزءا من الامبراطورية العثمانية، ولم تكن هناك حالة حرب بين البريطانيين والعثمانيين، تعطى بريطانيا الحق فى غزو مصر. كما أن القوى الاستعمارية الأخرى كانت تنظر إلى مصر باعتبارها هامة بنفس القدر بالنسبة لها، ولم يكن أحد منهم-خصوصا فرنسا-على استعداد للقبول بوجود طويل الأمد لبريطانيا فى مصر[2]. من الناحية الرسمية، أكدت بريطانيا أن وجودها فى مصر كان مؤقتا، وسوف يستمر فقط لحين ضمان الاستقرار والأمن الداخلى. لكن فى واقع الأمر، برز المبعوث البريطانى فى القاهرة-بدعم من الجيش البريطانى-بسرعة كمركز للقوة بمصر، وعليه فإن المستشارين والمسئولين البريطانيين فى مختلف الإدارات الحكومية أحكموا قبضتهم تقريبا على كل الخيوط المهمة للدولة فى أيديهم. ومن ثم تراجعت أهمية الخديو وحكومته، وصارت مناصبهم هامشية. ومع استمرار التغلغل البريطانى فى الحياة المصرية، بدأ رؤساء الوزراء المصريون شيئا فشيئا يأخذون جانب البريطانيين بدلا من حماية مصالح دولتهم أو حقوق ملكهم الخديو.

فى ظل هذه الظروف تم إعلان عباس حلمى الثانى (١٨٧٤-١٩٤٤) خديويا على مصر، ولم يكن قد أتم حينها عامه التاسع عشر، بعد وفاة والده الخديو توفيق الذى ساعد عجزه وضعفه البريطانيين على توطيد وجودهم بمصر خلال العشر سنوات الأخيرة. فى الفترة بين عامى ١٨٨٣ و١٨٩٢، تلقى عباس حلمى تعليمه فى مدارس ليست بالضرورة موالية للبريطانيين، فى سويسرا والنمسا، ليصبح بذلك الأول من سلالة محمد على فى تلقى التعليم الأوربى. عاد عباس إلى مصر شابا متشبعا بالقيم الليبرالية الأوروبية التى سادت فى أواخر القرن التاسع عشر، ولم تكن حقائق الوضع فى مصر مألوفة له حال عودته. شكلت عودة عباس إلى مصر إحدى أكثر الفترات إثارة للاهتمام فى تاريخ مصر الحديث، وهى الفترة التى ولدت فيها القوى الوطنية المصرية، واكتسبت معظم معالمها الأساسية. ووصلت علاقات عباس العاصفة مع البريطانيين إلى نقطة حرجة بعد اندلاع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤)، حين قررت لندن أن تخلعه عن العرش وتستبدل به عضوا أضعف وأكثر انعزالا من أسرة محمد على. وجاءت مذكراته التى كتبتها أميرة سنبل الأستاذة بجامعة جورج تاون بنص انكليزى قوى لتغطى الفترة التى كان



الخديو توفيق يتوسط أسرته الصغيرة، ويظهر على يمينه الأميرة نعمت ثم قرينته الأميرة أمينة إلهامى وجلس أمامها الخديو عباس حلمى، وعلى اليسار الأمير محمد على ثم الأميرة خديجة ـ نشرت فى مجلة المصور عدد رقم ١٣٤٤/ ١٩٥٠م

فيها خديويا، ولم تتطرق فيها أبدا إلى حياته فى المنفى (١٩١٤-١٩٤٤)، إلا أن المذكرات ليست بأقل أهمية للمؤرخين نظرا لأنها تتناول العلاقات والأنشطة المعقدة للخديو الذى تم خلعه خلال فترة ما بين الحربين العالميتين.

جاءت جهود أميرة سنبل فى الترجمة والمقدمة والتحرير على درجة عالية من الكفاءة والدقة؛ إلا أن الأبحاث الموسعة فى التاريخ الحديث لمصر، والتى أجريت ونشرت خلال نصف القرن الماضى، جعلت مذكرات عباس حلمى الثانى تبدو مكررة فيما يتعلق بفهمنا لتاريخ مصر أثناء الحكم البريطانى. المذكرات أساسا عبارة عن سلسلة من المقالات التبريرية والتأملية غير المترابطة. وعوضا عن أن تكون تسجيلا متماسكا واقعيا، فشلت هذه المذكرات فى تسليط أى ضوء جديد على حكم عباس حلمى، وعلاقاته المعقدة بالبريطانيين أو علاقاته بالدولة العثمانية ومختلف قوى المعارضة العثمانية للسلطان عبد الحميد الثانى. أهم مساهمة تقدمها هذه المذكرات هى البعد الإنسانى الذى تكشفه، ونظرة الخديو إلى نفسه، ونظرته إلى رفاقه ومحاوريه، والشعب الذى من المفترض أنه يحكمه. أحد الانطباعات الأولى الذى تنقله المذكرات هو الانفصال الثقافى بين الحكام الخديويين والشعب المصرى. لم يكن اكتساب الهوية العربية أو المصرية فيما يبدو هدفا أساسيا فى تربية الأمراء الخديويين، بمن فيهم عباس، ولم يحدث أن كان التعليم المصرى العربى هو أساس تعليم أى من الأمراء إلا بعد ١٩٢٢ (فى حالة فاروق). يتحدث عباس حلمى الثانى عن طفولته فى القاهرة بعد سبعين عاما وأجيال من تأسيس حكم عائلته فى مصر، قائلا (ص٥٦):

«من ١٨٧٤ إلى ١٨٨٠، قضيت طفولتى فى جناح الحريم فى بيتنا، حيث كانت زوجة توفيق الوحيدة -وهى أمى- الأميرة أمينة هانم تسهر على راحة أبنائها بنفسها. وهناك عرفت أصولى التركية، خصص لى والدى مربية إنجليزية لتهتم برعايتى. فكانت اللغتان الأوليان اللتان تعلمت التحدث بهما هما التركية والانكليزية. ما بين عامى ١٨٨٠ و١٨٨٢، كان والدى قد أمر ببناء مدرسة بحديقة كبيرة بجوار قصر عابدين. كانت هذه المدرسة من أجلى أنا وشقيقى محمد على ومائة طفل من أفضل الأسر فى مصر. كانوا يحصلون هناك على تعليم مجانى وتقدم إليهم وجبة غداء. فى هذه المدرسة، اعتدت على العيش بين أبناء البلد وتعلمت الكلام بلغتهم، بينما كان المدرسون يدرسون باللغة الإنجليزية».

كانت المسافة بين الحاكم والمحكوم تنشئ نوعا من نظام الحكم الصامت يفهم فيه المسئولون المصريون-والذين كان معظمهم من أصول تركية شركسية-دورهم حرفيا على أنهم يخدمون الحكم فى حين لا يستطيع الشعب الوصول إلى مركز السلطة. مرارا وتكرارا، اشتكى عباس من أنه لم يتلق نصحا أبدا من أعضاء حكومته، خاصة فى السنوات الأولى من حكمه، عندما كان يتطلع بشدة لمن يسدى إليه المشورة. أعرب عن أسفه لعدم وجود شعور بالوطنية بين الشعب المصرى، وفشل حكوماته المتعاقبة فى الوقوف بجانبه ضد بلطجة وترهيب المسئولين البريطانيين بمصر. كذلك، يلقى عباس حلمى باللائمة على سوء الحظ الذى ألم به لدى تقارب أهداف الدولة العثمانية والأهداف البريطانية، حيث سعت الحكومة العثمانية لمنع مصر من الحصول على الاستقلال التام، وسعت بريطانيا إلى قمع القوى المصرية التى عارضت وجود البريطانيين بمصر. كان هذا صحيحا إلى حد كبير، ولكن الصحيح أيضا أن النصيب الأكبر من المسؤولية يقع على عاتق خلفاء محمد على، خاصة الخديو توفيق (الذى دافع عنه ابنه عباس حلمى الثانى بقوة).

لم ينجح خلفاء محمد على فى تأسيس روابط قوية بينهم وبين شعب مصر، نظرا لعدم تبنيهم للثقافة المصرية العربية، وعدم تمصيرهم للدولة التى حكموها أجيالا متعاقبة، والإصرار على التمسك الشديد بأصولهم التركية الغريبة عن البلاد التى يحكمونها. وفاقم هذا الوضع التغيرات الجذرية التى شهدتها مصر بأواخر القرن التاسع عشر من حيث التكنولوجية والاتصالات والطباعة والحراك الاجتماعى، والتى أدت بدورها لصحوة الشعور بالهوية بين أبناء مصر ومطالبتهم بالتمثيل السياسى. كان ضعف توفيق وعجزه عن الاستجابة لتغيرات الزمن السبب الرئيس وراء ثورة عرابى وما تلاها من تدخل الجيش البريطانى. وبعد أن دخلت القوات البريطانية مصر، لم يكن لدى توفيق ولا أى من الطبقة الحاكمة التركية الرؤية أو الشجاعة أو البراعة السياسية اللازمة لمنع البريطانيين من تعزيز موقفهم. عدم ثقة توفيق بالعناصر المصرية فى الجيش، والعلماء المصريين، والشعب المصرى عموما، جعلته لقمة سائغة للورد

كرومر، المندوب السامى البريطانى الاستعمارى النزعة. عندما اعتلى عباس العرش، كانت بريطانيا قد رسخت وجودها فى مصر، ولم يعد من الممكن مواجهتها بالمناورات السياسية أو حتى بالطرق السلمية.

قلة خبرة عباس الثانى لم تسمح له، بعد أن صار خديويا، أن يرى أنه مجرد حاكم اسمى. وفى محاولته تأكيد موقعه، كان لابد له من مواجهة غطرسة وشراسة اللورد كرومر[٣]. ويذكر لعباس أنه بدأ بمد جسور التواصل مع أوساط الصحوة الوطنية المصرية، والتى كان يمثلها مصطفى كامل، والشيخ على يوسف، وذلك ليعادل سلطة ونفوذ البريطانيين. حفظت الرابطة بين عباس الثانى والوطنيين المصريين لحد كبير مكانة الخديو فى تاريخ الحركة الوطنية المصرية. لكن ما لم يذكره عباس فى مذكراته أكثر إثارة للاهتمام مما ذكره. فهو لم يقل مثلا كيف أو لماذا تحسنت علاقاته بالبريطانيين بعد رحيل كرومر فى ١٩٠٧. هل كان السبب هو الأخلاق والمواقف المعتدلة للسير إلدون غورست الذى حل محل كرومر كمندوب سامى لبريطانيا بمصر حتى ١٩١١، أم أن هناك أسبابا أخرى؟ ولماذا تراجعت علاقات الخديو بالوطنيين المصريين خلال نفس الفترة؟ هل كان فى سبيله إلى خيانة حلفائه الوطنيين والمقامرة بمصير مصر أم أنه كان يلعب إحدى ألعابه السياسية مع البريطانيين؟

فى عام ١٩١٤، وفى الوقت الذى لجأ فيه العديد من الناشطين المصريين إلى إستانبول، حاول أحد الوطنيين المصريين اغتيال عباس الثانى فى عاصمة الخلافة متلقيا التشجيع فيما يبدو من عناصر داخل الحزب الحاكم (لجنة الاتحاد والترقى)[٤]. يعكس هذا الحادث المرارة التى تملكت المصريين فى المنفى تجاه الخديو وعدم ثقة المسئولين العثمانيين به. يشير عباس فى مذكراته إشارة عابرة إلى الشائعات التى كانت تنتشر فى هذا الوقت عن تطلعاته لإقامة الخلافة العربية والتى كانت ستمثل ضربة قاصمة لما تبقى للخلافة العثمانية من وحدة ونفوذ. ولأن فكرة الخلافة العربية تتصل إلى درجة كبيرة بالسياسات البريطانية ضد العثمانيين، قبل وبعد اندلاع الحرب العالمية الأولى، فإن زيادة العداء ضد عباس فى اسطنبول يبدو مفهوما[٥].

ورغم نفى عباس لأى صلة بالمخططات البريطانية ضد العثمانيين فى المشرق العربى، وكما أن القضية برمتها لم يتحقق منها المؤرخون، إلا أن هناك أدلة تشير إلى أن العلاقات بين الخديو واللورد كتشنر (المندوب السامى البريطانى بمصر بين عامى ١٩١١ و١٩١٤)، لم تكن دائما سيئة كما ورد بالمذكرات. فقد تمت الاتصالات الأولى بين عبد الله، الابن النشط والمتآمر للشريف حسين حاكم مكة، وبين البريطانيين-ويمثلهم كتشنر- بالقاهرة، بتحريض من عباس الثانى[٦]. كانت هذه الاتصالات تمهيدا للتحالف الذى تم لاحقا بين الشريف حسين والبريطانيين ضد الحكومة العثمانية بقيادة لجنة الاتحاد والترقى، ولظهور فكرة الخلافة العربية. ليس واضحا ما دفع البريطانيين فى هذه المرحلة الحرجة الهامة إلى أن تفقد ثقتها بالخديو وتجبره على الذهاب للمنفى، فى الوقت الذى كانت فيه علاقاته مع الحكومة العثمانية تصل إلى درجة منخفضة. الإجابة الأكثر ترجيحا هى أن البريطانيين فى وقت الحرب تعميهم البارانويا، وهو ما حدث مرارا وتكرارا.



الخديو عباس حلمى الثانى

ما يثير العجب فى مذكرات عباس حلمى الثانى أنه لا يكاد يعبر مطلقا عن تقديره للطبقة العليا المصرية



ما يثير العجب فى مذكرات عباس حلمى الثانى أنه لا يكاد يعبر مطلقا عن تقديره للطبقة العليا المصرية، والتى كان من المفترض أن تكون هى القاعدة الحقيقية لحكم الخديو. نجد أن نظرة عباس للطبقة العليا المصرية تتسم غالبا بالازدراء، بصرف النظر عن أفراد عائلته الذين ذكرهم بالاحترام المتعارف عليه، وقليل من المحيطين به مثل تِغران باشا الأرمنى، زوج ابنة نوبار باشا- الوزير الشهير فى عهد الخديو إسماعيل. وفى معركة الإرادات التى طال أمدها بينه وبين البريطانيين، وجد عباس الثانى حلفاءه بين العناصر المتعلمة من الطبقة الوسطى الأقل تأثيرا، والتى لم تكن قد اكتمل تشكيلها بعد، وليس فى طبقة الإقطاعيين، سواء أكانت أصولهم مصرية أو تركية شركسية. يقود هذا بالطبع إلى دراسة ماجدة بركة حول تكوين ودور وقيم الطبقة العليا المصرية خلال نصف القرن العشرين الأول.

يرتبط ظهور الطبقة العليا المصرية لحد كبير بالتغيرات فى أنماط ملكية الأراضى، والتى شهدتها مصر خلال القرن التاسع عشر. لم تكن مصر مثلها مثل بقية البلاد العثمانية تعرف نظام حيازة الأراضى الخاصة، إلا أن جهود محمد على فى التوسع الزراعى جعلته يمنح مساحات من الأراضى المستصلحة حديثا إلى معارفه والمسؤولين بالدولة. وبمجرد أن ألغى محمد على نظام الالتزام (فى جمع ضرائب الأراضى)، أصبحت الأراضى الزراعية كلها تحت السيطرة المباشرة للدولة المتجسدة بالوالى نفسه. بالنسبة للأبعدية وهى الأراضى غير المزروعة التى تمت معاينتها والمخصصة للاستصلاح، والوسية وهى الأراضى الممنوحة لجامعى الضرائب الكبار كملكية معفاة من الضرائب، تم تخصيص هذه الأراضى لموظفى الدولة المدنيين والعسكريين فضلا عن الأعيان المحليين[٧]. تلقت خصخصة الأراضى دفعة قوية بصدور قانون الخديو إسماعيل لعام ١٨٧١، والذى يسير على خطى التنظيمات العثمانية ويعطى حقوق ملكية قانونية كاملة لأصحاب الأراضى «الخراجية».مقابل الدفع الفورى. بعد الاحتلال البريطانى لمصر، صدرت قوانين فى عام ١٨٨٣ وعام ١٨٩١ تؤكد على شرعية الملكية الخاصة للأراضى، وحماية حرمتها. كانت أراضى الدولة، وهو ما يعنى عمليا الأراضى التى يضع الخديو يده عليها، والمعروفة باسم الدائرة السنية، تعد المصدر الرئيسى للتوسع فى ملكية الأرض فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث إن أفرادا من الأسرة الحاكمة اضطروا لبيع أجزاء كبيرة من ممتلكاتهم من أجل تخفيف وخدمة الديون الخارجية.

كانت طبيعة تحول الأراضى من نطاق الدولة إلى الملكية الفردية-بحد ذاتها-تضع مساحات شاسعة من الأراضى بحوزة عدد قليل من العائلات، وبشكل رئيس، من الشخصيات المحلية المرموقة وبعض الأجانب، مما أدى لظهور طبقة اجتماعية ذات مصالح مشتركة تمكنت لاحقا-بعد الاستقلال الرسمى فى ١٩٢٢-من السيطرة على الدولة. فى ١٩٢٩، كان هناك أقل من ٣٢٠٠ شخص، يمتلكون أكثر من ٢,٥ مليون فدان، من أصل ٧,٥ مليون فدان تمثل إجمالى الأرض الزراعية بمصر، فى حين يمتلك أقل من ٨ آلاف مزارع ١,١ مليون فدان-بمتوسط ٥٠ إلى ٢٠٠ فدان لكل منهم-مما جعل ٠,٥ بالمائة من السكان يتحكمون فى أكثر من ٥٠ بالمائة من الأراضى الزراعية فى البلاد.

اعتمدت ماجدة بركة منهجا اجتماعيا ثقافيا فى تعريف وفهم الطبقة العليا المصرية، ورأت أن «المصالح الموضوعية لا يمكن عزوها إلى العوامل الاجتماعية دون الإشارة إلى التفسير الواعى لها أو بعض السياق المحدد».(ص ١٠-١١). كانت تحاول بهذا تبرير تصور الطبقة العليا المصرية «ليس من حيث الأيديولوجيات أو برامج العمل السياسى المشتركة، بل من حيث أنماط الحياة والتصورات الذاتية واللغات». أى افتراض أن المنهج التقليدى الاجتماعى السياسى لدراسة الطبقة عموما، وفى مصر بوجه الخصوص، ليس كافيا، يعد افتراضا معقولا.

لكن المشكل هنا أن صرف النظر عن الأسس الاجتماعية للسلوك السياسى فى مجموعه سيجعل أى محاولة لبناء إطار منهجى ومنطقى لتاريخ مصر السياسى فى نصف القرن العشرين الأول مهمة مستحيلة حقا. والأكثر أهمية هو السؤال حول الثقافة أو الخطاب الذى جرى استدعاؤه كمادة مرجعية لتحديد دور ومكانة الطبقة العليا المصرية. وإذا كان التحليل الماركسى يخذل المؤرخ، فهل من المناسب رسم تصور عن الطبقة الاجتماعية بالاعتماد فقط على آراء المنتمين لهذه الطبقة؟ ما تحاول ماجدة بركة فعله فى كتابها بالفعل يصل لحد (إعادة) اختراع بالجملة للطبقة العليا المصرية، وإعادة تخيلها باعتبارها طبقة معتدلة منفتحة منصهرة منتقدة للذات، بل وتتصرف بوحى من ضميرها.

أحد الأهداف الرئيسة لدراسة ماجدة بركة نقض الفكرة الراسخة القائلة بأن الطبقة العليا تتكون من كبار ملاك الأراضى. وبوضع معاييرها الخاصة بالثروة، تضم بركة إلى هذه الطبقة أيضا كبار التجار وكبار الموظفين الحكوميين وأصحاب المهن الحرة (الأطباء والمحامين وغيرهم). ورغم إقرارها بوجود علاقات وثيقة بين طبقة ملاك الأراضى وطبقة الصناعيين التى نشأت حديثا كما أوضح سابقا شارل عيساوى[٨]، إلا أنها لم تقدم على أى محاولة لدراسة الروابط الأخرى الممكنة بين طبقة ملاك الأراضى ومجموعات كبار المسئولين الحكوميين والمحامين والأطباء. فمثلا، لم يسمح بدخول المصريين العاديين إلى الكلية العسكرية إلا فى أواخر الثلاثينيات، وكذلك حتى عام ١٩٥٢، كان ضباط الجيش ذوو الرتب العليا يتم اختيارهم عموما من خلفيات محددة من الثراء والأرستقراطية. وليس واضحا، حتى من النتائج التى توصلت إليها ماجدة بركة، إن كانت مساهمة الطبقات الأخرى من غير ملاك الأراضى

فى تكوين الطبقة العليا ذات أهمية أو وزن، بما يكفى لتبرير هذه النقلة النوعية.

ثمة هدف آخر لهذا العمل، هو إثبات أن الطبقة العليا المصرية خضعت لتغيرات جوهرية خلال الفترة قيد الدراسة: تغيرات فى الحجم والتكوين وأسلوب الحياة والتصورات، وكذلك فى القاعدة المادية التى تستند إليها. نقلا عن محمد أنيس، أحد أبرز المؤرخين المصريين، كتبت ماجدة بركة قائلة أن حصة الدخل العقارى (أى الإيجارات والأرباح والفوائد) انخفضت نسبتها من ٦٦ بالمائة من الدخل القومى فى الفترة بين ١٩٣٧ و١٩٣٩ إلى ٦٢ بالمائة فى ١٩٥٠. يرجع هذا لانخفاض حصة الإيجارات والمبانى من ٢٩ إلى ٢٤ بالمائة بنفس الفترة (ص٤٣). بالكاد، يعد هذا تغيرا مهما، ويمكن أن يعزى بسهولة للتقلبات الطبيعية بالدورة الاقتصادية، أو لزيادة بالأنشطة الصناعية أو الصناعية التحويلية أثناء سنوات الحرب العالمية الثانية، ولتمركز مئات الآلاف من قوات الحلفاء بمصر. وكما تظهر باقى الأرقام بالكتاب، رغم أن حصة قطاع التصنيع فى الدخل القومى ارتفعت قليلا خلال الأربعينيات، إلا أن ملكية الأراضى تعززت وأصبحت أكثر ترسخا. كانت طبقة ملاك الأراضى لها مكانتها القوية سواء فى الدولة أو المجتمع، قبيل ثورة ١٩٥٢، وتم تعطيل حتى المقترحات الوفدية المتواضعة حول إصلاح نظام ملكية الأراضى. ينبغى البحث فى نطاق آخر عن الأسباب الكامنة وراء الفوضى الاجتماعية والسياسية بأواخر الأربعينيات، وتداعى تماسك طبقة ملاك الأراضى وسقوطها النهائى فى الخمسينيات.

كان التوتر يتصاعد بين المصريين الأصليين والعناصر التركية الشركسية ذات الامتيازات بالجيش والدولة خلال سبعينيات القرن التاسع عشر، كما تشهد بذلك ثورة عرابى. لكن بوقوع مصر تحت السيطرة البريطانية، وخاصة بعد تولى عباس الثانى للعرش، توجه ضغط القوى الوطنية المصرية ضد البريطانيين. لم يعد الصراع بين المصريين والأتراك، أو بين المواطنين العاديين وذوى الامتيازات، بل صار المصريون ضد المحتل الأجنبى، وهكذا كان الوطنيون المصريون ينظرون للدولة العثمانية باعتبارها حليفا رئيسا. بلغ التضامن الوطنى المصرى آفاقا جديدة خلال ثورة ١٩١٩. إلا أن نتيجة الثورة التى كان نصفها انتصارا ونصفها حلولا وسطى، مكنت البريطانيين من إنشاء نظام سياسى جديد فى مصر، وتحطيم التضامن الوطنى، وأعادت رسم الوضع الاجتماعى السياسى. بمنحها مصر الاستقلال الرسمى، نجحت بريطانيا فى تحويل الصراع السياسى فى البلاد إلى مصرى ضد مصرى[٩]. احتفظ البريطانيون بالسيطرة الكاملة على شؤون الدولة، ضمنيا أحيانا وصراحة إن لزم الأمر. ومع اشتداد الصراع والمنافسة بين الفصائل السياسية المتشاحنة وبين القصر ومعارضيه، أصبح البريطانيون هم الحكم النهائى للسلطة. إن ماجدة بركة محقة بالتأكيد فى تسليط الضوء على الأسس الطبقية لدستور ١٩٢٣، والتى تأسس عليها عصر كامل من المَلَكِية. وقعت الطبقة المصرية العليا ضحية لذات النظام الذى كانت المستفيد الرئيس منه، لأنها فشلت تماما فى أن تعكس وتدافع عن التطلعات القومية لمواطنى البلد. كما قوضت الطبقة العليا من احتكارها للسلطة، بانقسامها بين عدة أحزاب وتجمعات سياسية، يختلف كل منها عن الآخر اسميا، وتستعر حدة التنافس فيما بينها على السلطة والسيطرة[١٠]. جاء ظهور الطبقات المتعلمة، فضلا عن القوى الراديكالية، ليمهد الساحة للانهيار النهائى للنظام فى ١٩٥٢.


الخديو عباس حلمى الثانى

جاء ظهور الطبقات المتعلمة، فضلا عن القوى الراديكالية، ليمهد الساحة للانهيار النهائى للنظام فى ١٩٥٢



بصرف النظر عن بعض التفسيرات الخاطئة للجداول والأرقام التى جمعتها ماجدة بركة، فإنها ترسم فى كتابها صورة متعددة الجوانب لثقافة الطبقة العليا المصرية وعاداتها وأنماطها وتوجهاتها. يعد التهميش المتزايد لمظاهر الحياة التقليدية، وتبنى النخبة المصرية غير المشروط للثقافة والقيم الأوروبية، جزءا لا يتجزأ من هذه الصورة. إلا أن الحنين الدافئ الذى تعيد به ماجدة بركة رسم صورة الأندية القاهرية الحصرية وأحياء المدينة والمسارح والبرلمان (والذى كان أيضا مؤسسة خاصة إلى حد ما) كل هذا يغفل الأبعاد الحيوية الأخرى لحياة وأعمال الطبقة العليا المصرية. بدرجة معينة، نجحت ماجدة بركة بكفاءة فى توثيق ما وصفته بأنه «الحدود الخطرة» لمواقف الطبقة العليا من الديموقراطية وقضايا الإصلاح الاجتماعى، والتى تتضمن الخوف من انتشار التعليم بين الفلاحين، والاعتقادات الراسخة السائدة بين طبقة ملاك الأراضى بحقهم الأصيل فى الحكم، والتطور البطىء للديموقراطية والمشاركة السياسية. ما كانت ماجدة بركة تحاول فيما يبدو أن تتجنب ذكره هو التفاوت الحاد بين مستويات معيشة الباشوات والمصريين العاديين، والوحشية والاستغلال الذى اتسمت به العلاقات بين النخبة التى تمثل ٠.٥ بالمائة وباقى الشعب[١١]، والفجوة الواسعة التى تفصل الوسط الثقافى للطبقة العليا عن الحياة اليومية لغالبية الشعب العظمى.

تدخل مصر اليوم مرحلة جديدة من الاستقطاب والتمايز الاجتماعى. فبعد فترة قصيرة من تجربة ذات توجه اجتماعى، (والتى مهما صورت الآن بشكل سيئ، إلا أنها حاولت بالفعل إقامة مجتمع أكثر تكاملا)، نجد أن الهوة بين القلة الثرية والغالبية الفقيرة فى اتساع مستمر. وفى الوقت الذى يتبنى فيه الأثرياء الجدد الثقافة الأمريكية بطريقة مهينة، يبدو أن غالبية المصريين يغرقون أكثر فأكثر، ويكافحون ضد تدهور الأوساط الحضرية والإنسانية ووسائل النقل العام ونظام التعليم المختل. من أجل ذلك فقط، يستحق كتاب ماجدة بركة القراءة رغم ما يعتوره من قصوره. ■

هـــــوامـــــش

(١) من أهم الدراسات حول مصر فى عهد محمد على والتغيرات الرئيسة التى شهدتها تحت حكمه:
Afaf Lutfi al-Sayyid Marsot, Egypt in the Reign of Muhammad Ali (Cambridge: Cambridge University Press, 1984); and Khaled Fahmy, All the Pasha's Men: Mehmed Ali, His Army and the Making of Modern Egypt (Cambridge: Cambridge University Press, 1997).

(٢) حول الاحتلال البريطانى لمصر والتطورات التى سبقته وأدت إليه، انظر:
Holt, Egypt and the Fertile .M .P Crescent, 1516-1922 (London: Longmans, 1966), 211-30; Also, John Marlowe, Spoiling the Egyptians (London: Andre Deutsch, 1974); F. Robert Hunter, Egypt Under the Khedives, 1805-1879 (Pittsburgh, Pa.: .(1984 University of Pittsburgh Press,

(٣) حول اللورد كرومر وتخندق البريطانيين بمصر، انظر:
Afaf Lutfi al-Sayyid, Egypt and Cromer: A Study in Anglo-Egyptian Relations (London: John Murray, 1968).

(٤) حول الحزب الوطنى المصرى وتطور علاقته بالخديو عباس حلمى الثانى، انظر:
Arthur Goldschmidt, JR, "The Egyptian , in P. M.‚Nationalist Party, 1892-1919 Holt (ed.), Political and Social Change in Modern Egypt (London: Oxford University Pres, 1968), 308-33.

(٥) حول تأييد الخديو عباس حلمى الثانى للقوميين العرب الأوائل واتصالاته بهم، ورغبته فى إقامة خلافة عربية، انظر:
Eliezer Tauber, The Emergence of the Arab Movements (London: Frank Cass, 1993), 26, 113, 156, 217-9, 229, 279.

(٦) انظر: سليمان موسى، الحركة العربية: المرحلة الأولى للنهضة العربية الحديثة ١٩٠٨-١٩٢٤، بيروت: دار النهار، ١٩٨٦، ص٦٦؛ وانظر أيضا:
Basheer M Nafi, Arabism, Islamism and the Palestine Question, 1908-1941: A political History (Reading: Ithaca Press, 1998), 48.

(٧) انظر دراسة غابرييل باير المفصلة لظهور الملكية الخاصة للأرض:
Gabriel Baer, A History of Landownership in Modern Egypt, 1800-1952 (London: Oxford University Press, 1962), pp. 13-70.
وانظر أيضا:
Kenneth M. Cuno, The Pasha's Peasants: Land, Society, and Economy in Lower Egypt, 1740-1858 (Cambridge: Cambridge University Press, 1992), especially, 103-98.

(٨) انظر دراسة شارل عيساوى:
Charles Issawi, "The Entrepreneur , in S. N. Fisher (ed.), Social‚Class Forces in the Middle East (New York: Cornell University Press, 1955).

(٩) حول تشتت آمال المصريين فى أعقاب ثورة ١٩١٩، انظر دراسة المستشرق الفرنسى جاك بيرك:
Jacque Berque, Egypt: Imperialism and Revolution, tr. Jean Stewart (London: Faber and Faber, 1972), 385-450.

(١٠) حول الفوضى السياسية فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات، والتشظى السياسى للطبقة المصرية العليا، انظر:
Janice Terry, The Wafd, 1919-1952 (London: Third World Centre, 1982); Hoda Gamal Abdel Nasser, Britain and the Egyptian Nationalist Movement, 1936-1952 (Reading: Ithaca Press, 1994).

(١١) حول أوضاع الفلاحين المصريين خلال النصف الأول للقرن العشرين، انظر مشاهدات رسل باشا فى عمله:
Egyptian Service, 1902-1946 (London: John Murray, 1949), 30-42.

خلال فترة احتلال الفرنسيين لمصر من ١٧٩٨ حتى ١٨٠١، قامت فى مصر ثورات شعبية كبيرة، أقضت مضاجع الفرنسيين وسببت لهم مشاكل ضخمة. وقد اشتهر منها ثورتان كبيرتان وهما ثورتا القاهرة الأولى (١٧٩٨م) والثانية (١٨٠٠ م)

عندما ثار المصريّون واختاروا حكّامهم

أشــــرف عـــاشـــور

■■ «إن المصريين شعب مستكينٌ ومسالمٌ وغير معنى بشئون الحكم والسياسة، وهو مستعد لتحمل استبداد الحكام وفسادهم وظلمهم، دون أن يحرك ساكنًا» كثيراً ما نسمع عبارات تدور حول هذا المعنى.

إذا وضعنا العبارة السابقة موضع الاختبار، على مدى المائتى العام الماضية، وبالتحديد منذ الحملة الفرنسية على مصر فى نهاية القرن الثامن عشر، وحتى وقتنا الحالى، يتبين لنا أنها غير دقيقة، إن لم تكن خاطئة تماماً.

لا أبالغ إن قلت إن الشعب المصرى ربما كان من الشعوب التى لا تكاد تهدأ أو تستكين فترة من الزمن، حتى تنتفض وتثور مطالبة بما تراه حقًا مشروعًا لها. ويمكن للدارس أن يتبين أن الشعب المصرى فى عدد غير قليل من المرات، قد نجح فى فرض إرادته وانتزاع حقوقه من خلال خوض غمار ثورات شعبية كبرى، أو تنظيم حركات عصيان مدنى على نطاق واسع، ما أدى إلى إحداث تحولات هامة وعميقة على الخارطة السياسية ونظام الحكم فى مصر.

لنتبين مدى صحة الفكرة السابقة، يتعين علينا أن ننظر للأحداث من منظور تاريخى، وليس من زاوية رؤية محدودة. فعندما يصدر البعض الأحكام متأثراً بانطباعات تكونت على مدى عقود قليلة، قد تكون هى فترة حياته ومعايشته للأحداث، فلن يكون ذلك منهجًا صحيحًا للحكم على حركة تتم - بطبيعتها - على مدى زمنى أكبر وأوسع.

خلال فترة احتلال الفرنسيين لمصر من ١٧٩٨ حتى ١٨٠١، قامت فى مصر ثورات شعبية كبيرة، أقضت مضاجع الفرنسيين وسببت لهم مشاكل ضخمة. وقد اشتهر منها ثورتان كبيرتان وهما ثورتا القاهرة الأولى (١٧٩٨م) والثانية (١٨٠٠ م).

كانت ثورتا القاهرة الأولى والثانية هما الحدثان الأكبر والأشهر خلال فترة الغزو الفرنسى لمصر من الزاوية التى نحن بصددها. إلا أنه قد يكون من الإنصاف للشعب المصرى أن نذكر أن عدة ثورات وحركات تمرد، متفاوتة الحجم والقوة والتأثير، قد حدثت خلال تلك الفترة والتى تقرب من الثلاثة أعوام، وقدم فيها المصريون تضحيات كبيرة فى الأنفس والممتلكات.

ثورة القاهرة الأولى

فى أكتوبر ١٧٩٨ قامت ثورة شعبية كبيرة فى القاهرة قادها شيوخ الأزهر وكبار التجار واشترك فيها أعداد ضخمة من المصريين.

تضافرت أسباب عدة أدت إلى اشتعال الثورة. فإلى جانب إرهاق المصريين بالضرائب ومصادرة الأملاك والأموال (والذى تجاوز الحدود خاصة بعد ما تحطم الأسطول الفرنسى فى أبى قير على أيدى الإنجليز فى أول أغسطس ١٧٩٨، ازدياد اعتماد نابليون على المصادر المحلية لتمويل جيشه)، فرض الفرنسيون القروض الإجبارية والغرامات، وأخرجوا كثيراً من أصحاب البيوت من بيوتهم بحجة حاجتهم إليها، وهدموا الكثير من المبانى والآثار والمساجد بحجة تحصين القاهرة.

يقول الجبرتى: «... أمروا سكان القلعة بالخروج من منازلهم والنزول بالمدينة ليسكنوا بها ... و أصعدوا إلى القلعة مدافع ركزوها بعدة مواضع... وهدموا أبنية عالية.... وغيروا معالمها وأبدلوا محاسنها، ومحوا ما كان بها من معالم السلاطين العظام وآثار الحكماء والعظماء وما كان فى الأبواب العظام من الأسلحة والدرق واللبلط والحوادث.... وهدموا قصر يوسف صلاح الدين ومحاسن الملوك والسلاطين ذوات الأركان الشاهقة والأعمدة الباسقة».

كذلك قام الفرنسيون بهدم أبواب الحارات والدروب وكان الأهالى يشعرون بأن تلك الأبواب توفر لهم نوعًا من الأمان حيث تغلق ليلاً فتصير كل حارة بمأمن من اللصوص. وكان نابليون قد رأى هدمها حتى لا تستخدم كمتاريس فى وجه قواته إذا ما دعت الحاجة. وكان ذلك مما زاد سخط الناس وحنقهم على الفرنسيين[1].

و بالرغم مما حاول نابليون إشاعته فى بداية حملته من تعاطف مع المصريين لكسب ودهم وادعائه أنه إنما جاء ليرفع عنهم ظلم المماليك وافتراءهم ونهبهم للمصريين بجمع الإتاوات...إلخ[2]، إلا أنه ما لبث أن أمعن فى القتل والمظالم والتى كان منها اعتقال السيد محمد كُريم حاكم الإسكندرية والحكم عليه بالإعدام وتنفيذ الحكم فيه فى ٦ سبتمبر ١٧٩٨، رميًا بالرصاص، ومصادرة أملاكه وأمواله، بعد أن رفض هذا الزعيم الوطنى، فى إباء وشمم، أن يفتدى نفسه بالأموال، كما عُرض عليه. وقد كان ذلك قسوة لا مبرر لها خاصة مع ما كان له من مكانة كبيرة فى نفوس المصريين وقد وصفه المؤرخون الفرنسيون «بالشريف النزيه»[3].

(لم يلق السيد محمد كُريم التكريم إلا عام ١٩٥٣ بعد حوالى عام من ثورة يوليو، عندما أطلق اسمه على شارع من أهم شوارع الإسكندرية -شارع التتويج سابقًا- وعلى المسجد الكائن بجوار سراى رأس التين- مسجد فاروق سابقًا- ووضعت فى واجهته لوحة تذكارية نقشت عليها العبارة الآتية:

«إكبارًا للبطولة وتكريمًا للذكرى واعتزازًا بالوطنية وإنصافًا للتاريخ رأت

الإمبراطور الفرنسى
نابليون بونابرت
(١٧٦٩ ـ ١٨٢١)
أثناء الحملة الفرنسية
على مصر

وزارة الأوقاف أن يطلق اسم السيد محمد كُريم على هذا المسجد فى حى رأس التين، والسيد محمد كُريم هو حاكم الإسكندرية وابنها البار وشهيدها العظيم، اعتقله الجيش الفرنسى وقتله رمياً بالرصاص فى مدينة القاهرة بجوار القلعة يوم ٦ سبتمبر ١٧٩٨ وهو يدافع عن أمته ويزود دنس الاحتلال عن شرف وطنه العزيز»)

وكما يقول الرافعى نقلاً عن «ريبو» (التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية - ج٤):

«لقد اجتمع إلى جانب تذمر الأهالى واستيائهم، نشر الدعاية إلى الثورة، فكان فى الجامع الكبير المعروف بالأزهر لجنة لتدبير الثورة تعمل على إثارة الكراهية فى نفوس الناقمين».

اشتركت طبقات الشعب كلها فى الثورة... ويقول مؤرخنا نقلاً عن الكولونيل «ديترو» والذى كان شاهد عيان على تلك الأحداث:

«٢١ أكتوبر ١٧٩٨، الساعة السادسة صباحاً.... احتشدت الجموع فى عدة أحياء من القاهرة، وعلت أصوات السخط والإستياء، وأخذ الناقمون يعددون أسباب سخطهم، وصاح المؤذنون على مآذنهم ينادون نداءات مثيرة للخواطر، وانثال الناس مسلحين بالبنادق والعصى يقصدون الاجتماع فى صعيد واحد، ثم أقفلت



عندما ثار المصريون

تمكن نابليون من قمع الثورة بقوة الحديد والنار وقدرت الخسائر فى الأرواح من المصريين بحوالى أربعة آلاف خلال ثلاثة أيام دامية



الدكاكين، وفى نحو الساعة الثامنة صباحاً علم الجنود الفرنسية بهذا الشر فتأهبت للقتال.... وفى نحو الساعة العاشرة جاءه الخبر (نابليون) أن القتال قد بدأ فى المدينة وأن أناساً قتلوا من الفريقين وأن الجنرال ديبوى قومندان القاهرة ضمن القتلى...[4]

«... أما المعسكر الثائر فكان الجامع الكبير المسمى بالأزهر، ذلك المسجد الجميل الذى طارت شهرته فى أنحاء المشرق، وقد أقام الثائرون المتاريس على منافذ الشوارع المفضية إليه، فأصبح من المستحيل أن تقتحمه المدفعية أو الجنود المشاة».

وحسب شهادات مؤرخى الحملة الفرنسية، وشهادة «الجبرتى»، اشتعلت المدينة بالقتال وحاول الثائرون ضرب القلعة- حيث تركزت القوات الفرنسية ومدفعيتها - من على أسطح جامع السلطان حسن ومناراته، وأخذت آلاف القنابل تنهال على الأزهر والأحياء المجاورة له كالصنادقية والغورية والفحامين. ويذكر الرافعى عن «ريبو» الذى يصف تأثير الضرب: «أوشك الجامع الأزهر أن يتداعى من شدة الضرب فتدفن تحت أنقاضه الجماهير الحاشدة فيه، وأصبح الحى المجاور للأزهر صورة من الخراب والتدمير، فلم يكن يرى فيه إلا بيوت مدمرة ودور محترقة، ومات تحت الأنقاض آلاف من السكان الآمنين، وكانت الجهات القريبة من الأزهر ولاسيما شوارع الغورية والصناديقية مسرحاً لهذه المشاهد الفظيعة».

وفى رواية الجبرتى: «تتابع الرمى من القلعة والكيمان، حتى تزعزعت الأركان، وهدمت البيوت فى مرورها حيطان الدور وسقطت فى بعض القصور ونزلت فى البيوت والوكائل، وأصمت الآذان بصوتها الهائل....».

تمكن نابليون من قمع الثورة بقوة الحديد والنار وقدرت الخسائر فى الأرواح من المصريين بحوالى أربعة آلاف خلال ثلاثة أيام دامية هى ٢١ و٢٢ و٢٣ أكتوبر من عام ١٧٩٨. وأعقب ذلك سلسلة من الجرائم والفظائع التى ارتكبها الفرنسيون، ومنها ما جاء فى رواية الجبرتى:

«...ثم دخلوا الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول، وبينهم المشاة كالوعول، وتفرقوا بصحنه ومقصورته، وربطوا خيولهم بقبلته، وعاثوا بالأروقة والحارات، وكسروا القناديل والسهارات، وهشموا خزائن الطلبة، والمجاورين والكتبة، ونهبوا ما وجدوه من المتاع، والأوانى والقصاع، والودائع والمخبآت بالدواليب والخزانات، ودشتوا الكتب والمصاحف، وعلى الأرض طرحوها، وبأرجلهم ونعالهم داسوها وكسروا أوانيه، وألقوها بصحنه ونواحيه، وكل من صادفوه به عروه ومن ثيابه أخرجوه...»[5].

واستمرت الفظائع والجرائم التى ارتكبها الفرنسيون لفترة بعد قمع الثورة وتعدت الغرض من إخمادها إلى الانتقام والإرهاب، ويكفى أن نذكر بعض ما جاء على ألسنة القادة الفرنسيين، ومنها ما ذكره الرافعى: «كتب الجنرال برتييه ٢٣ أكتوبر ١٧٩٨ إلى الجنرال دوجا قومندان المنصورة قال: لقد نكلنا بالثائرين فى مذبحة رهيبة فسادت السكينة مساء أمس، وقد قتلنا منهم ألفين أو ثلاثة آلاف»!



وتعليمات نابليون بونابرت بتاريخ ٢٦ أكتوبر إلى قومندان المدينة «بقطع رءوس جميع المسجونين الذين أُخذوا ومعهم أسلحة، وعليكم إرسال الجثث فى هذه الليلة إلى شاطئ النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة وإغراقها فى النهر».

وهكذا أسرف الفرنسيون فى القتل والتنكيل وسفك الدماء ولم تأخذهم رحمة برجال ولا نساء ولا علماء أو شيوخ، فقتلوا كل من وقع فى أيديهم واشتبهوا فى علاقته بالثورة، ويحكى سكرتير نابليون الخاص فى مذكراته «...سيق المسجونون إلى القلعة، وكنت أتولى فى مساء كل يوم كتابة الأوامر القاضية بإعدام اثنى عشر سجيناً كل ليلة، وكانت جثث القتلى توضع فى زكائب وتغرق فى النيل، واستمر ذلك ليالى عديدة وكان كثير من النساء ممن نفذ فيهم أحكام الإعدام الليلية»[6]

ونذكر ما تقدم من الفظائع وسفك الدماء والوحشية التى قابل بها الفرنسيون ثورة القاهرة الكبرى الأولى، لما فى ذلك من دلالة هامة. فبالرغم من كل ما فعله بهم الفرنسيون من قتل وتنكيل وهدم للبيوت ونهب للممتلكات واعتداء على الحرمات، فإنه وبعد أقل من عامين على تلك الأحداث الدامية، وهى فترة قصيرة جداً بأى مقياس، إذا بالمصريين يقومون بثورة اخرى هائلة وأكبر من الأولى!

التمرد والثورة خارج القاهرة

لم تقتصر ثورات المصريين وحركات التمرد على القاهرة، فقد كانت هناك أعمال عصيان وتمرد كثيراً ما تطورت إلى مصادمات مع الفرنسيين، وقتال ومعارك حقيقية كما حدث فى الشرقية فى مارس ١٧٩٩، فى مناطق بردين، والعصلوجى و الغار والزنكلون وثورة أمير الحج،وكما حدث فى القليوبية وميت غمر وكفور نجم والتى سقط فيها مئات القتلى من المصريين وغنموا فى بعضها أسلحة ومدافع من الفرنسيين وراحوا يقاتلون بها الجيش المحتل.

وكان من أكبر تلك الحركات ما حدث فى البحيرة بزعامة رجل قدم من ليبيا (درنة)، يقال له «المهدى»، والذى انضمت له أعداد كبيرة من الناس وخاضوا معه معركة كبيرة فى بلدة «سنهور» فى ٣ مايو ١٧٩٩ والتى اشترك فيها إلى جانب الفلاحين المصريين، المشايخ وقبائل العرب وانتهت بهزيمة القوات الفرنسية وانسحابها بعدما تكبدت خسائر كبيرة فى الأرواح. وكان مركز تلك الحركة مدينة دمنهور - عاصمة البحيرة- ما أضطر الفرنسيين فى نهاية الأمر إلى مهاجمتها بقوات كبيرة بقيادة أحد جنرالات الحملة (لانوس)، وتمكنوا من اقتحامها ولم يكتفوا بنهب كل ما استطاعوا نهبه، بل أقدموا على ارتكاب مذبحة جماعية بشعة، مايعيد إلى الذاكرة، المذابح التى قام بها أجدادهم «الفرنجة» (الصليبيون)، عندما دخلوا القدس عام ١٠٩٩، قبل ذلك بسبعة قرون كاملة، ويكفى وصف المؤرخ الفرنسى «ريبو» للفظائع التى ارتكبها الجنود الفرنسيون، بقوله:

«...بعد أن احتل الجنود دمنهور، قتلوا من صادفوه من رجال المهدى جميعاً، ولما كان أهل دمنهور هم أول من اتبع المهدى من سكان البحيرة فقد أراد الفرنسيون أن يطبعوا هذه المدينة بطابع الغضب والانتقام، فأحرقوا مساكنها بالنار، وقتلوا كل من وجدوه من الشيوخ والنساء والأطفال بحد السيف، وفى اليوم التالى كانت دمنهور ركاماً من الأحجار السوداء اختلطت بها أشلاء الجثث ودماء القتلى».

بينما كتب الجنرال «لانوس» فى رسالة بعث بها إلى رئيسه الجنرال «دوجا» يقول مزهواً:

«كانت مدينة دمنهور وأهلها هدفاً لانتقام الجنود، فقد قتلوا من الأهالى نحو ٢٠٠ أو ٣٠٠، وبعد ذلك أمرت بتسليم المدينة لفظائع النهب وسفك الدماء، والآن لم يعد لدمنهور وجود (!!)...و قد قتل من أهلها ١٢٠٠ أو ١٥٠٠....ماتوا قتلاً او حرقاً».

(التاريخ العلمى والحربى للحملة الفرنسية - الجزء الخامس)[7]

ثورة القاهرة الثانية

شبت نار الثورة للمرة الثانية فى القاهرة يوم ٢٠ مارس سنة ١٨٠٠.

يقول الجبرتى: «أما بولاق فإنها قامت على ساق واحدة، و(تحزم) الحاج مصطفى البشتيلى وأمثاله وهيجوا العامة وهيأوا عصيهم وأسلحتهم، ورمحوا وصفحوا، وأول ما بدءوا به أنهم ذهبوا إلى وطاق الفرنسيين الذى تركوه بساحل البحر (النيل) وعنده حرس منهم فقتلوا من أدركوا منهم ونهبوا جميع ما به من خيام ومتاع وغيره، ورجعوا إلى البلد وفتحوا مخازن الغلال والودائع التى للفرنساوية وأخذوا ما أحبوا منها وعملوا كرانك حوالى البلد ومتاريس...»[8]

«كتب الجنرال برتييه ٢٣ أكتوبر ١٧٩٨ إلى الجنرال دوجا قومندان المنصورة قال: لقد نكلنا بالثائرين فى مذبحة رهيبة فسادت السكينة مساء أمس، وقد قتلنا منهم ألفين أو ثلاثة آلاف»!

لقد قام سكان القاهرة بما لم يقم أحد به من قبل، فقد صنعوا البارود، وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصناع، وفعلوا ما يصعب تصديقه



استغل الثوار قيام معركة عين شمس بين الفرنسيين وقوات العثمانيين، التى جاءت فى محاولة لاستعادة سيطرة الأتراك على مصر. وكان من زعماء تلك الثورة السيد عمر مكرم نقيب الأشراف، والسيد أحمد المحروقى كبير التجار، والشيخ الجوهرى، وغيرهم من شيوخ الأزهر.

امتدت الثورة إلى كثير من النواحى، وازداد عدد الجموع المنضمة إلى لوائها، وانبث دعاة الثورة فى كل مكان يحرضون الناس على القتال وامتلأت بهم الشوارع والميادين والأسطحة حتى بلغ عددهم كما قدرهم «جالان» (كتاب «صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسى» - عن الرافعى) بخمسين ألف ثائر (!) حاملين البنادق والأسلحة و العصى»... واندفعت جموعهم تتقدمهم طائفة من المماليك والانكشارية وانضم إليهم النساء والأطفال، فكان لهم نداءات وصيحات تصم الآذان، وهبت عاصفة الثورة على أحياء العاصمة كلها».

«...أقام الثوار المتاريس على أبواب المدينة وفى معظم أحيائها، كباب اللوق، وناحية المدابغ، والمحجر، والشيخ ريحان،...و قصر العينى، وسوق السلاح وباب النصر وباب الحديد....، وكانت المتاريس على جانب كبير من المناعة وبلغ علو بعضها اثنى عشر قدمًا وتحصن الناس حولها وتحمسوا للقتال...وبذل الأهالى ما فى طوقهم لتأييد الثورة، وأتوا فى هذا السبيل من الأعمال ما أدهش الفرنسيين،... فقد أنشأوا فى أربع وعشرين ساعة معملاً للبارود فى بيت قائد أغا بالخرنفش، وأنشأوا معملاً لإصلاح الأسلحة والمدافع، ومعملاً آخر لصنع القنابل وصب المدافع جمعوا له الحديد من المساجد والحوانيت، وتطوع الصناع للعمل فيه، وقدموا ما لديهم من الحديد والآلات والموازين، وأخذوا يجمعون القنابل التى تتساقط من المدافع الفرنسية فى الشوارع ويستعملونها قذائف جديدة للضرب.»

وبشهادة شاهد عيان وهو «المسيو مارتان» أحد مهندسى الحملة، فى كتابه «تاريخ الحملة الفرنسية على مصر»، قال:

«لقد قام سكان القاهرة بما لم يقم أحد به من قبل، فقد صنعوا البارود، وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصناع، وفعلوا ما يصعب تصديقه:



أحمد عرابى باشا

«ذلك أنهم صنعوا المدافع»

بينما قال الجنرال كليبر فى يومياته «استخرج الأعداء مدافع كانت مطمورة فى الأرض، وأنشأوا معامل للبارود ومصانع لصب المدافع وعمل القنابل وأبدوا فى كل ناحية من النشاط ما أوحت به الحماسة والعصبية...»[9]

تم كل ذلك فى ثلاثة أيام، وتطوع الأهالى لإمداد الثوار بالزاد وتوزيع الأقوات «وباشر السيد المحروقى وباقى التجار الكلف والنفقات والمآكل والمشارب، وكذلك جميع أهل مصر، كل إنسان سمح بنفسه وبجميع ما يملكه، وأعان بعضهم بعضًا...»

وإذا كانت ثورة القاهرة الأولى لم تستمر أكثر من ثلاثة أيام،قاد فيها نابليون بنفسه عملية قمعها، فإن الثورة الثانية التى نحن بصددها استمرت شهراً كاملاً.

خاض المصريون فى تلك الثورة قتالاً دمويًا عنيفًا، ودارت رحى المعارك سجالاً بين الجيش الفرنسى المدرب والمدجج بأحدث أسلحة عصره وقوات شعبية تعتمد على نفسها وعلى ما أوتيت من إمكانيات ذاتية.

فالمتتبع لأحداث ذلك التمرد الكبير يعجب مما يذكر عن أسماء مواقع هى أحياء فى القاهرة ونواحيها :معركة «كوم أبى الريش» (الفجالة)، وموقعة الأزبكية، والقتال الدائر فى باب الحديد وقنطرة الحاجب وبركة الرطلى والحسينية وباب النصر، وكما حدث فى الثورة الأولى يأمر «كليبر» قواته بالتصويب على الجامع الأزهر!

وتشتد المعارك والأهوال بالناس حتى يقول الجبرتى:

«... اشتدت الحرب وعظم الكرب، وأكثروا من الرمى المتتابع (قصف المدفعية الفرنسية) بالمكاحل والمدافع،...آناء الليل وأطراف النهار، فى الغدو والبكور والأسحار».

«واستمر الحال على ما هو عليه من اشتعال نيران الحرب، وشدة البلاء والكرب، ووقوع القنابل على الدور والمساكن من القلاع، والهدم والحرق، وصراخ النساء من البيوت والصغار من الخوف، والجزع والهلع، مع القحط وفقد المآكل والمشارب...»

والمدهش والعجيب أنه خلال تلك المحن يرسل كليبر الوسطاء لوقف القتال، فإذا بالثوار يرفضون الوساطة ويستمرون فى قتالهم العنيد والذى إنتهى بمأساة كبيرة فى بولاق، وكانت أكبر معقل للثوار.

يذكر الجبرتى «... قاتل أهل بولاق جهدهم ورموا بأنفسهم فى النيران..»

ولكن لم يتمكن الثوار فى نهاية الأمر من صد الفرنسيين الذين «... ضربوه بالمدافع (حى بولاق).. و أضرموا النار فى البيوت...وهدمت الدور على سكانها «ثم كانت المذبحة المأساوية عندما سقطت بولاق فى أيدى الفرنسيين ».. ملكوا بولاق وفعلوا بأهلها ماتشيب من هوله النواصى... النهب والسلب... وما لا تسعه السطو ولا يحيط به كتاب منشور».

بينما يقول جالان (صورة مصر أثناء إقامة الجيش الفرنسى)».. وإستبسل الأهالى فى الدفاع ولجأوا إلى البيوت فاتخذوها حصونًا يمتنعون بها.... فاضطرت الجنود إلى الاستيلاء على كل بيت منها، وبلغ القوم فى شدة الدفاع حداً لا مزيد بعده.... عرض العفو على الثوار فأبوا.... فاستعر القتال وجعلنا المدينة ضرامًا وصار أهلها عرضة للبطش والتنكيل.. فجرت الدماء أنهاراً فى الشوارع...»

وكان سقوط بولاق إيذانًا بنهاية الثورة فى بقية أنحاء القاهرة.

ولجأ الفرنسيون إلى إضرام النار فى الأحياء السكنية..الأزبكية. الفوالة... الرويعى.. بركة الرطلى وباب البحر والخروبى والعدوى إلى باب الشعرية، مما أدى إلى تدمير الكثير من أنحاء مدينة القاهرة وتحويل الكثير من معالمها إلى خرائب بعد أن كانت بيوتًا عامرة وقصوراً تحيط بها الحدائق والبساتين.

وبالرغم من أن تلك الثورات وحركات التمرد الكبرى لم يكتب لها النجاح ولم يتمكن المتمردون والثوار من فرض إرادتهم على القوات الفرنسية المحتلة، إلا أنها تجارب تاريخية كان لها أهمية كبيرة، خاضها الشعب المصرى برجاله ونسائه وأطفاله وشيوخه وجميع فئاته من فلاحين وصناع وشيوخ وعلماء ورجال الدين، حملوا فيها السلاح - بل وصنعوه- واستطاعوا أن يتحدوا فيها جيشًا من أحدث جيوش ذلك العصر وأكثرها فتكًا، وعلى رأسه كبار القادة المشهود لهم مثل نابليون بونابرت وصفوة جنرالاته، وأن يلحقوا بهم خسائر كبيرة وأن يقاتلوهم قتالاً عنيداً شهد بضراوته قوادهم ومؤرخوهم المعاصرون.

برز فى تلك الثورات أيضًا دور الأزهر وشيوخه العظام والذين كانوا هم قادة الكثير من تلك الثورات والعديد منهم ذهبوا ضحايا لها. ألقى الفرنسيون القبض على الشيخ السادات، وهو من كبار المشايخ، وضربوه وأهانوه وصادروا امواله وطلبوا منه

من المؤكد أن ثورة عرابى شكلت نقلة نوعية فى تاريخ الحركة القومية فى مصر، وعبرت عن تطور هام فى ثقة المصريين بأنفسهم



فدية كبيرة فاقت قدرته، وتعرض لصنوف العذاب والتحقير، لدرجة أن نابليون بونابرت يرجح- كما جاء فى مذكراته- أن يكون لإضطهاد ذلك الشيخ،الذى كان يتمتع بمكانة كبيرة فى البلاد، علاقة بمقتل كليبر على يد سليمان الحلبى فى الحادثة المشهورة[10].

فإذا قفزنا بعد ذلك قفزة يسيرة إلى عام ١٨٠٥، عقب نهاية الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين بسنوات قليلة، نجد أن أحوال مصر قد وصلت درجة شديدة من المعاناة والاضطراب، وعم السخط المصريين، وتطورت الأمور إلى قيام ثورة شعبية كبيرة أدت إلى نتائج فى غاية الأهمية والخطورة، تركت أثراً كبيراً على الحياة فى مصر، وربما لازال باقياً حتى وقتنا هذا.

وسأعود لتلك الأحداث بالتفصيل، فهى موضوعى الأساس.

الثورة العرابية

ثم إذا إنتقلنا إلى العام ١٨٨١، عندما اندلعت الثورة العرابية، بسبب سوء معاملة المصريين وسوء الأحوال الاقتصادية، والتدخل الأجنبى فى شئون البلاد، والتى تزعمها أحمد عرابى ضد الخديو توفيق وكان المشهد التاريخى أمام قصر عابدين والحوار المشهور الذى دار بين أحمد عرابى والخديو.

قدم أحمد عرابى مطالب الأمة وهى:

- زيادة عدد الجيش إلى ١٨٠٠٠ جندى
- تشكيل مجلس شورى النواب على النسق الأوروبى
- عزل وزارة رياض باشا (والذى كان يعامل المصريين بقسوة)

فقال الخديو: كل هذه الطلبات لا حق لكم فيها، وأنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائى وأجدادى، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا.

فرد عرابى قائلاً: لقد خلقنا الله أحراراً، ولم يخلقنا تراثاً أو عقاراً؛ فوالله الذى لا إله إلا هو، لا نُورّث، ولا نُستعبَد بعد اليوم.

أقيلت الوزارة وتشكلت وزارة برئاسة شريف باشا، ثم أعقبتها وزارة الثورة برئاسة محمود سامى البارودى والتى شغل فيها أحمد عرابى منصب وزير الحربية[11].

نجحت وزارة البارودى فى إعداد دستور للبلاد وصدر مرسوم خديوى به فعلاً.

وصلت الأمور إلى حد أن أصبحت القوى الأوروبية، التى كانت تتمتع بنفوذ كبير فى ذلك الوقت، غير قادرة على دعم الخديو توفيق والذى فر إلى الإسكندرية ليحتمى بها من نفوذ الجيش والعرابيين. وفى نفس الوقت أدت الانتصارات السياسية التى حققها العرابيون إلى اجتذاب تأييد القوى الوطنية المدنية وعلى رأسها الكتاب الصحفيون الذين ساهموا فى الدعاية لقضية عرابى ومطالبه. برز عرابى فى أعين المصريين، خاصة العامة والفقراء، كبطل قومى يطمحون لتخليصهم من النفوذ الأجنبى والحالة الاقتصادية المتردية[12].

ولكن سرعان ما تدخلت القوى الأجنبية (بريطانيا وفرنسا) وبمساعدة الخديو توفيق، ما أدى إلى إجهاض الحركة الوطنية والقضاء على الثورة ودخول الإنجليز لاحتلال مصر عام ١٨٨٢.

بالرغم من فشل الحركة فى نهاية الأمر، إلا أنه من المؤكد أن ثورة عرابى شكلت نقلة نوعية فى تاريخ الحركة القومية فى مصر، وعبرت عن تطور هام فى ثقة المصريين بأنفسهم وفى نظرتهم لعلاقتهم بالحاكم. كان عرابى يطلب للمصريين حق المشاركة فى حكم أنفسهم بشكل مؤسسى قائم على أساس دستور حديث يضمن لهم حقوقهم كمواطنين وليس مجرد الاكتفاء بالتوسل للحاكم ليكون رحيماً بهم كأجراء وعبيد.

ثورة ١٩١٩ الكبرى[13]

كان المفجر لثورة ١٩١٩ الكبرى، الاحتجاج على اعتقال ونفى الزعيم الوطنى سعد زغلول ورفاقه إلى مالطة، وهو الذى كان يتزعم وقتها حركة المطالبة الشعبية بإنهاء الحماية والاحتلال البريطانى.

بدأت الثورة بمظاهرات سلمية قام بها الطلبة يوم ٩ مارس ١٩١٩.

«وفى اليوم التالى الأحد ١٠ مارس سنة ١٩١٩ كان جميع طلبة المدارس والأزهر قد أضربوا عن دروسهم وأعلنوا الإضراب العام، وألفوا مظاهرة كبرى، انضم إليهم فيها من صادفهم من أفراد الشعب، فسار الجميع فى روعة ومهابة، مخترقين شوارع القاهرة وميادينها، ومروا بدور المعتمدين السياسيين هاتفين بحياة مصر والحرية والوفد، ومنادين بسقوط الحماية».

كان هذا وصف مؤرخنا العظيم المعاصر للثورة، الأستاذ عبد الرحمن الرافعى.

وتصاعدت الأحداث، وعم الإضراب وسائل النقل والمواصلات، وأقفلت معظم المتاجر والبيوت المالية، وتكررت المصادمات مع قوات الإنجليز، وبدأت الضحايا تتساقط.

«... وقد قابل الشعب النار بشجاعة واستبسال، فلم يرهب رصاص البنادق والمتراليوزات، واستمر فى مظاهراته على الرغم مما اكتنفها من الحوادث الدموية» (الرافعى)



كانت ثورة ١٩١٩، ربما كما يعلم معظمنا، ثورة كبرى، وعصياناً مدنياً شاملاً، اشتركت فيه جميع فئات الشعب المصرى وطوائفه، وشملت معظم قرى ومدن مصر، وأضرب فيها الموظفون والعمال، وأقيمت المتاريس فى الأحياء الشعبية للتصدى لقوات المحتل الإنجليزى، وهاجم الفلاحون أقسام ومراكز الشرطة وقطعوا السكك الحديدية، وتطورت الأمور إلى حدوث حالة شلل كامل لجميع مظاهر الحياة فى طول البلاد وعرضها.

وبالرغم من لجوء الإنجليز إلى ارتكاب أبشع الجرائم فى محاولة قمعهم لتلك الثورة، إلا أن المصريين استماتوا وأصروا على تحقيق مطالبهم، وقدموا فى سبيل ذلك تضحيات مادية وبشرية هائلة.

شهدت مصر خلال تلك الثورة أحداثاً تستحق الدراسة والتأمل. يصف لنا الأستاذ الرافعى،وهو المؤرخ المعاصر للأحداث، كيف نظم المتظاهرون فى القاهرة مظاهرة لا مثيل لها فى الضخامة يوم ١٧ مارس ١٩١٩.

«...كانت من أكبر مظاهرات الثورة، وقد نظمت تنظيماً محكماً، واحتاط لها منظموها، وأبلغوا الحكمدارية أمرها...وتولى رسل بك، حكمدار العاصمة بنفسه حفظ النظام... وركب سيارة فى مقدمة المظاهرة حتى لا يصطدم بها الجنود البريطانيون.... بدأت سيرها من الأزهر... تألفت من مواكب متلاحقة تحمل أعلامها وشارات طوائفها، وانتظم فيها الألوف... فسار فيها العلماء والمعلمون والمحامون والتجار وأرباب الأعمال وطلبة الأزهر وطلبة المدارس جميعها، وطوائف الصناع، وسارت فى أكمل نظام تهتف بالحرية والاستقلال».

ويصف الرافعى خط سير تلك المظاهرة المهيبة «..من الأزهر... فالغورية... فالحلمية الجديدة... فميدان عابدين... فميدان الأزهار.. فقصر الدوبارة... فالقصر العالى ثم عادت إلى شارع سليمان باشا.... حتى ميدان الأوبرا... فشارع إبراهيم باشا... فشارع عباس (نهضة مصر) حيث انتهت هناك بعد أن استمر سيرها ثمانى ساعات كاملة.

وقد أعجب كل من شهدوا تلك المظاهرة بقدرة المصريين على التنظيم...فإن مثل هذه المظاهرة والتى كانت تضم نحو خمسين ألف متظاهر لو حدثت فى أعظم الحواضر الغربية لكان من المحتمل أن يحدث فيها هرج ومرج أو اعتداء من المتظاهرين (على الممتلكات)... ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث. واستمرت المحال مفتوحة فى الشوارع التى اجتازتها المظاهرة».

ولكن ما إن رأت سلطة الاحتلال حجم المظاهرة وضخامتها، حتى سارعت فى اليوم التالى إلى منع جميع المظاهرات والاجتماعات والمواكب.

وعلى ما يبدو فإن الحادثة السابقة كانت حالة فريدة من نوعها. فقد سُجلت خلال ثورة ١٩١٩ الكثير من حالات الاعتداء الوحشى على المصريين مما أدى إلى سقوط أعداد كبيرة من الضحايا بين قتيل وجريح فى القاهرة والأقاليم.

ويظهر مدى الوحشية والعنف الذى قابل به الإنجليز الثورة أنهم كانوا يحرقون القرى التى يشكون فى تورطها فى تخريب السكك الحديدية، وقد كانت القيادة البريطانية تعتمد عليها فى نقل الجنود والعتاد والمؤن اللازمة لقمع الثوار.

ارتكب الإنجليز المذابح الجماعية المروعة. كما حدث فى بلدة «ميت القرشى» (مركز ميت غمر) فى ٢٣ مارس عندما كان الأهالى يقومون بمظاهرة سلمية، وبدعوى أنه حصل قطع فى السكة الحديدية على مقربة من البلدة، قام الجنود البريطانيون بفتح نيران المدافع الرشاشة على مدنيون عُزَل، وتعقبوهم حتى الحقول وقتلوا كل من صادفوه حتى بلغ عدد الشهداء نحو مائة قتيل خلاف الجرحى. (يذكر الرافعى أسماء عدد من الضحايا استطاع الوصول إليها وتسجيلها).

امتدت الثورة إلى جميع أقاليم مصر بدون استثناء. ولم تقتصر على مدن أو

عبد الناصر

قرى دون الأخرى بل تكاد تكون قد شملتها جميعها. وبلغت حداً عنيفاً فى الوجه القبلى وخاصة مدينة أسيوط، والتى يسجل الرافعى أن طائرتين حربيتين وصلتا إليها وألقتا بعض القنابل فأصابت وقتلت الأهلين وسجل بعض أسماء الضحايا.

«.... شهدت وقائع الثورة الأولى، وامتدادها إلى الأقاليم، فرأيت بعثاً جديداً للأمة، رأيت روح الإخلاص والتضحية تعم طبقاتها، بعد أن كانت من قبل محصورة فى دائرة ضيقة».

ولأول مرة، يحدث اشتراك النساء فى المظاهرات بقوة، لدرجة دفعت حافظ إبراهيم لكتابة قصيدة يصف المشهد قال فيها:

خرج الغوانى يحتججن
ورحت أرقب جمعهنه
فطلعن مثل كواكب
يسطعن فى وسط الدجنه
يمشين فى كنف الوقا
ر وقد أبن شعورهن
وإذا بجيش مقبل
والخيل مطلقة الأعنه
و الخيل والفرسان قد
ضربت نطاقاً حولهنه
فتطاحن الجيشان سا
عات تشيب لها الأجنة
فتضعضع النسوان والنسـ
ـوان ليس لهن منه

والحقيقة أن من يقرأ مذكرات الرافعى عن أحداث تلك الثورة العظيمة، تتملكه الحيرة فيما يجب الإشارة إليه وما قد يكون من الأنسب تجاوزه. فالمواقف والأحداث والتضحيات والعبر كثيرة ومثيرة لدرجة يصعب حصرها.

وأقف عند عبارة هامة للرافعى، ربما تجعلنا نعيش معه فى أجواء تلك الثورة، إذ يقول:

«.... بالرغم من أن السلطة العسكرية قد تصدت (للمظاهرات) بإطلاق الرصاص على المتظاهرين منذ يوم ١٠ مارس، فلم يرهب الناس رؤية الدم المسفوك فى الشوارع، وتقبل الشعب، شبابه وسائر طبقاته، التضحية، بلا خوف ولا تراجع، فكان لهذه التضحية وهذا الإجماع الرائع أثرهما فى رفع صوت مصر عالياً مدوياً، فى أرجاء العالم، بعد أن كان خافتاً طيلة سنى الحرب، واخذت الصحف التى كانت تمالىء الاحتلال، وتزدرى الأمة طوال السنين، تغير من أسلوبها، وتتملق الشعب، وتكتب عنه وعن مطالبه الوطنية بلهجة جديدة ملؤها التقدير والإعجاب.

رأيت الجماهير يشتركون فى المظاهرات، ولا يبالون ما يستهدفون له من الأخطار، كانوا يواجهون رصاص البنادق والمدافع الرشاشة بشجاعة لا تقل عن شجاعة الجند فى ميادين القتال، وسقط الكثير منهم قتلى أثناء المظاهرات».

«وتبدلت حالة الشعب النفسية بتأثير الثورة، وحاكى فى التضحية أرقى الأمم وطنية وإخلاصاً».

اضطُر الإنجليز فى نهاية الأمر إلى الإذعان لمطالب الشعب، والإفراج عن سعد زغلول ورفاقه والسماح لهم بالسفر إلى مؤتمر الصلح فى باريس لعرض قضيتهم والمطالبة بالاستقلال.

كذلك كان من نتائج الثورة، عزل الحاكم البريطانى، ثم رفع الحماية البريطانية عن مصر وإعلان استقلالها فى فبراير ١٩٢٢، وحصل المصريون على أول دستور لهم فى عام ١٩٢٣ وشكل سعد زغلول أول وزارة بعد الاستقلال فى عام ١٩٢٤. كانت تلك إنجازات رائعة بلاشك.

أدت الثورة ليس فقط إلى تولى سعد زغلول الحكم ولكن أيضاً إلى إرساء قواعد جديدة للحياة السياسية المصرية.

ثورة يوليو ١٩٥٢

بالرغم من أن ثورة ٥٢ بدأت بتمرد الجيش، إلا أنه من غير الإنصاف أن نعتبرها مجرد انقلاب عسكرى كغيره من الإنقلابات التى عرفتها شعوب أخرى. فقد حظيت حركة الضباط الأحرار بلا شك بمؤازرة شعبية كبيرة وفى خلال سنوات قليلة استطاعت ان تغير وجه التاريخ فى مصر والمنطقة العربية وامتد تأثيرها إلى الكثير من أنحاء العالم العربى والقارة الأفريقية بل والعالم أجمع.

نجحت الثورة فى إنهاء الملكية وحكم أسرة محمد



على والذى كان قد فقد شرعيته تماماً على أيدى آخر ملوكها فاروق الأول (والأخير) وأعلنت الجمهورية، وفى خلال سنوات معدودة كانت قد حققت حلم المصريين فى جلاء قوات الاحتلال الإنجليزى عن البلاد وأممت قناة السويس، بعدما ألغت الألقاب وبدأت عملية تحول اجتماعى ضخمة عقب تطبيق قوانين الإصلاح الزراعى وإنهاء الإقطاع ثم العمل على تذويب الفوارق بين الطبقات وقوانين التأميم والاشتراكية والتصنيع وبناء السد العالى.... و ما لا يتسع المقام لذكره أو حصره.

ولا شك أن الإحاطة بدور ثورة يوليو ومنجزاتها وما لها وما عليها لهو موضوع يحتاج لدراسة أو دراسات كثيرة ليس هذا هو المجال المناسب لها.

٩ و١٠ يـونـيـو ١٩٦٧

وفى نهاية حرب يونيو ١٩٦٧، وبعد الهزيمة الثقيلة التى منى بها المصريون فى تلك الحرب، أعلن الرئيس جمال عبد الناصر – فى خطاب التنحى الشهير – تحمله المسئولية عما حدث، واعتزاله السلطة مساء يوم ٩ يونيو.

وكانت المفاجأة التى أدهشت العالم كله، عندما قامت جموع المصريين بانتفاضة شعبية هائلة تطالب فيها عبد الناصر بالبقاء فى قيادة الأمة، وأكدت ثقتها فى إخلاصه وقدرته على استعادة الأرض والكرامة وتحقيق النصر. ومما تجدر ملاحظته أن تلك كانت المرة الأولى فى تاريخ مصر والأمة العربية التى تتواكب فيها إرادة المصريين مع باقى شعوب الأمة العربية فى مبايعة زعيم واحد ولتؤكد للدنيا أن عبد الناصر لم يكن فقط زعيم المصريين بل كان الزعيم الروحى لكل العرب.

إذن كان المصريون هم الذين فرضوا بقاء عبد الناصر فى السلطة، ووقفوا حجر عثرة أمام تحقيق أمل الغرب وإسرائيل فى القضاء على زعيمهم، وكانوا هم من قرر أن الرجل وبالرغم من الهزيمة العسكرية، لازال بطل حلمهم القومى، وأنهم مدينون له بماتحقق من إنجازات مادية ومعنوية منذ قيام الثورة فى يوليو ٥٢، وأن بقاءه يمثل تمسكهم بمبادئه فى الاستقلال ورفض التبعية، والإصرار على رد الضربة للعدو الإسرائيلى وإستعادة الأرض.

من الإنصاف أن نذكر أن ماحدث فى ٩ و١٠ يونيو ١٩٦٧، كان يوماً من أيام الشعب المصرى العظيمة، قال فيها كلمته فى اختيار الحاكم الذى أراده ولم يرض له بديلاً، فى ظروف بالغة الشدة والغرابة.

كان استفتاءً صادقاً وأميناً، وتأكيداً على أن عبد الناصر– بالرغم من ظروف الهزيمة المؤلمة – لم يكن يحكم مصر إلا بتأييد وإجماع شعبى لا يقبل أى شك أو تشكيك.

حركة العمال والطلبة

فـــبـــرايـــر ١٩٦٨

ربما كانت مظاهرات العمال والطلبة فى فبراير ١٩٦٨، هى الأولى من نوعها، منذ قيام ثورة يوليو١٩٥٢ وبعد أن استتب الأمر لقيادتها فى الحكم. بدأت الأحداث فور صدور الأحكام فى قضية قادة سلاح الطيران، والذين حوكموا بسبب اتهامهم بالتقصير الذى أدى إلى تمكن إسرائيل من الإجهاز على الطائرات المصرية وضرب وتحطيم غالبيتها وهى رابضة فى المطارات صباح ٥ يونيو، وهو ما أدى إلى تدهور موقف القوات البرية فى سيناء وانهيارها بسرعة واجتياح القوات الإسرائيلية لشبه الجزيرة ووصولها إلى الضفة الشرقية لقناة السويس فى أيام معدودة.

ومن المسلم به أن الهزيمة العسكرية التى منيت بها مصر والقوات العربية الأخرى فى سوريا والأردن، كانت ثقيلة وفادحة ومؤلمة بكل المقاييس.

ومن يونيو ١٩٦٧ حتى فبراير ١٩٦٨، كانت المشاعر تتجمع ويزداد ضغطها، كما يتجمع البخار فى قدر يغلى على النار. فما إن ظهرت الصحف تحمل أنباء «أحكام الطيران»، والتى كانت فى نظر البعض مخففة للغاية ولا تتناسب مع حجم الكارثة التى حاقت بالبلاد، حتى انفجرت المظاهرات والتى بدأت بمظاهرات عمال حلوان ثم امتدت إلى طلبة الجامعات فى القاهرة وعين شمس والإسكندرية.

وبالرغم من أن بداية المظاهرات كانت تعبيراً عن الغضب من أحكام الطيران، إلا أنها سرعان ما تحولت إلى حركة شعبية طلابية تطالب بتصحيح الأخطاء التى أدت إلى الهزيمة فى يونيو ٦٧.

تطورت الأحداث بأشكال مختلفة فى الجامعات الثلاث الكبرى.

فى القاهرة، وعقب مظاهرة طلابية توجهت إلى مجلس الأمة (مجلس الشعب الحالى)، أُلقى القبض على بعض زعماء الطلبة الذين كانوا قد اجتمعوا مع أنور السادات (الذى كان وقتها رئيساً للمجلس)، لبحث مطالبهم. ولما كان السادات قد تعهد لهم بعدم المساس بهم، وأعطاهم الأمان، فقد أدى ذلك إلى استثارة التجمعات الطلابية وأصبح من أهم مطالبهم الإفراج عن إخوانهم المعتقلين.



أضرب جميع طلبة جامعة القاهرة عن الدراسة، واشتعلت المظاهرات الطلابية بشكل أكبر فى اليوم التالى. أعلن طلبة كلية الهندسة بجامعة القاهرة اعتصامهم فى كليتهم، وحاصرتهم قوات الأمن لمنع دخول أى نشطاء أو إمدادات إليهم، وإن سُمح بالخروج لمن يريد منهم.

انتهت الحركة، بعد أيام قليلة، بتوسط بعض المسئولين لفض الاعتصام. عُقد اجتماع حاشد للطلبة المعتصمين، فى مجلس الأمة، حضره رئيس المجلس، أنور السادات، ونفر من كبار المسئولين بالاتحاد الاشتراكى العربى، لمناقشة الأحداث الأخيرة والقضايا التى أثارها الطلبة فى مظاهراتهم واعتصامهم.

كشفت الأحداث عن حالة التوتر السائدة فى الشعب المصرى، واهتزاز ثقته فى قادته، ورغبته فى حدوث تغييرات ملموسة فى الحياة السياسية. وأظهرت التطورات التى أعقبت تلك الأحداث أن عبد الناصر والقيادة السياسية قد وصلتهم الرسالة، وأنهم شعروا بأن الشعب المصرى الذى أعطى كثيراً فى معارك التنمية وتحمل ظروفاً صعبة لبناء أمته، لم يكن ليقبل بالهزيمة العسكرية المهينة، بعد أن ضحى بالكثير.[١٤]

ثـــورة الطعـــــــام

أحداث ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧

أدت سياسة الانفتاح الاقتصادى التى إنتهجتها حكومة الرئيس الراحل أنور السادات بعيد حرب أكتوبر ١٩٧٣، والتى وصفها نفر من المراقبين المعتدلين بالفوضى وعدم الانضباط[١٥]، إلى مضاعفات اقتصادية خطيرة، عصفت بالحالة الاجتماعية فى مصر. كانت الأنباء فى ذلك الوقت تتواتر عن انتشار الفساد بشكل غير مسبوق، وكثرت الروايات – سواءً ما كان منها حقيقياً أو مبالغًا فيه – عن نجوم الانفتاح الذين استطاعوا بفضل مساعدة بعض المتنفذين من رموز الدولة ركوب موجات التسيب والانفلات والعلاقات المشبوهة، وكونوا ثروات هائلة بين عشية وضحاها. وأدت القرارات الاقتصادية – بزيادة أسعار مجموعة كبيرة من السلع الأساسية- والتى كان الهدف منها مواكبة طلبات وتوجيهات البنك وصندوق النقد الدوليين، إلى ما يشبه سكب الزيت على النار.

تطورت الأمور بسرعة كبيرة، واشتعلت حركة اضطرابات شعبية ضخمة، شملت معظم أنحاء البلاد، تندد بالسياسات المالية وتحتج على زيادة الأسعار التى بدا أنها ستقع أساساً على محدودى الدخل والفقراء. هاجم المحتجون السيارات والمحلات التجارية ووسائل المواصلات وكل ما بدا لهم كرموز للثراء والغنى المستحدث فى عصر الانفتاح.

عمت الانتفاضة معظم مدن مصر الرئيسية، وكان من الواضح أنها أخذت الحكومة والمسئولين على غرة. فشلت قوات الأمن والشرطة فى مواجهة الثورة وعجزت عن إخمادها.

اضطرت الحكومة إلى إلغاء زيادات الأسعار، ونزلت قوات الجيش إلى شوارع



المصريون فرضوا بقاء عبد الناصر فى السلطة، ووقفوا حجر عثرة أمام تحقيق أمل الغرب وإسرائيل فى القضاء على زعيمهم، وكانوا هم من قرر أن الرجل لازال بطل حلمهم القومى



واستمرت محاولات الوالى ورسله لإنهاء العصيان، دون تحقيق أى نجاح، حتى اُضطر الوالى إلى رفع الإتاوة وأعلن إبطالها



العاصمة والأقاليم لضبط الأمن والسيطرة على الأوضاع.

ذكرت بعض المصادر أن ما يقرب من ثمانين قتيلاً وعدد كبير من الجرحى راحوا ضحية المواجهات بين جموع الشعب الغاضبة وقوات الأمن[١٦].

ترددت خلال الحركة شعارات مثل «يا بطل العبور... فين الفطور» و« سيد مرعى يا سيد بيه، كيلو اللحمة بقى بجنيه» وغيرها مما يؤكد أن تسميتها بثورة الطعام أو ثورة الجياع تسمية منطقية وواقعية.

أدت ثورة الطعام أو انتفاضة الجياع، إلى حنق الرئيس السادات الذى كان يعتبر نفسه بطلاً قوميًا بعد حرب أكتوبر، فراح يصب جام غضبه على اليسار، وأخذ يكيل له التهم معتبراً أنه كان وراء تلك الأحداث، وأطلق على ثورة الجياع اسم «انتفاضة الحرامية».

ومهما يكن من أمر فإن تلك الحركة الشعبية تميزت بضخامتها واتساع نطاقها الجغرافى، وقصر مدتها، فهى لم تستمر أكثر من يومين. ولكنها مع ذلك كانت قوية ومزلزلة للحكم والحاكم، ما جعله يشعر بأن سلطته باتت - بين عشية وضحاها - مهددة إذا لم يحسب حساب مطالب الشعب المصرى بشكل أفضل.

ومع هذا فإن نهاية الرئيس السادات بتلك الطريقة العنيفة والمأساوية بعد ذلك بأربع سنوات تدل على انه أخطأ الحساب مرة أخرى، ولكن للأسف فإن تلك المرة كانت القاضية.

كانت تلك هى المرة الأولى فى تاريخ مصر التى يتخلص فيه الشعب المصرى من زعيمه، وهو يستعرض جيشه وفى وسط قواده ورجاله وحاشيته، وفى أوج زينته، بقتله.

محمد على والثورة الشعبية الكبرى...

تعمدت أن أخرج بتلك الأحداث عن التسلسل التاريخى والذى كان يفرض أن تسبق أحداث ثورة عرابى وتلى أحداث ثورات فترة الحملة الفرنسية على مصر، لما وجدته فيها من حالة فريدة جديرة بالتأمل.

يقول عبد الرحمن الرافعى فى كتابه «تاريخ الحركة القومية» ج٢ (وهو فى هذا يرجع فى معظم الأحوال إلى الجبرتى والمؤرخين الفرنسيين المعاصرين للأحداث):

«فرض خورشيد باشا(الوالى العثمانى) افى شهر مايو ١٨٠٤ إتاوة



سعد زغلول مع الشيخ عبدالرحمن قراعة مفتى سابق للديار المصرية (١٨٦٢ - ١٩٣٩)

جديدة على أرباب الحرف والصنائع، فضجوا منها لما كانوا فيه من الضيق وسوء الحال، وأقفلوا حوانيتهم وحضروا إلى الجامع الأزهر يشكون أمرهم إلى العلماء، وكان إقفال الحوانيت من نذر الثورة...».



ثم يروى لنا الرافعى بعد ذلك كيف استمر الإضراب، وأن كثيراً من الناس صعدوا إلى منارات المساجد يصرخون ويدقون الطبول، فوصلت النداءات إلى سمع الوالى، فأرسل إلى السيد عمر مكرم نقيب الأشراف ينبئه برفع الإتاوات عن الفقراء وطلب إليه فض الجماهير، ولكن عمر مكرم رفض طلب الوالى، وطلب رفع الإتاوة عن الجميع... واستمرت محاولات الوالى ورسله لإنهاء العصيان، دون تحقيق أى نجاح، حتى اُضطر الوالى إلى رفع الإتاوة وأعلن إبطالها.

وهنا يلاحظ الرافعى ملحوظة جديرة بالاهتمام، عندما يقول: «كان الشعب متحفزاً للانتفاض والثورة، وقد كان لهذه الحركة أثرها فى نفوس الناس لأنهم أيقنوا أن فى استطاعتهم رفع المظالم باجتماعهم وتقرير الإضراب العام وامتناعهم عن دفع الضرائب، فأنظر ماذا جرى بعد ذلك وكيف تطورت الأحداث».

«كان جيش «الدلاة» الذى جلبه خورشيد باشا مؤلفاً من ثلاثة آلاف مقاتل من أردأ عناصر السلطنة العثمانية...».

وقال عنهم الجبرتى «ودخلوا بيوت الناس بمصر وبولاق وأخرجوا منها أهلها وسكنوها، وكانوا إذا سكنوا داراً أخربوها... فإذا صارت خراباً تركوها وطلبوا غيرها ففعلوا بها كذلك...».

سعى خورشيد باشا فى استمالة العلماء إليه ولكنه أخفق فى مسعاه، فحاول أن يجعلهم تحت رقابته كالرهائن.

«فى يوم الأربعاء أول مايو سنة ١٨٠٥، اعتدى جنود الوالى العثمانى خورشيد باشا (الدلاة)على أهالى مصر القديمة، وأخرجوهم من بيوتهم ونهبوا مساكنهم وقتلوا بعض الآمنين...

...وفى اليوم التالى عمت الثورة أنحاء العاصمة، فاجتمع العلماء بالأزهر(بقيادة عمر مكرم) وأضربوا عن إلقاء الدروس، وأقفلت الدكاكين والأسواق، واحتشدت الجماهير فى الشوارع والميادين يضجون ويصخبون...

انتهت الفترة التى حددها العلماء لجلاء جنود الوالى عن المدينة يوم السبت ١١ مايو، وبالرغم من أن الوالى قد استطاع أن يبعد بعضهم لتهدئة الخواطر، إلا أنه بقى منهم نحو ألف وخمسمائة بالقاهرة. علم زعماء الشعب أنهم ممتنعون عن الجلاء حتى تدفع رواتبهم، وأنه لا سبيل لدفعها إلا بفرض ضرائب جديدة!

أحدثت هذه الأنباء هياجاً عظيماً فى الخواطر ومزيداً من التوتر، واجتمع الزعماء واتفقوا على الذهاب إلى المحكمة الكبرى (بيت القاضى) لاختصام الوالى وإصدار قراراتهم فى مجلس الشرع.

احتشدت الجماهير بفناء دار المحكمة وحولها وبلغ عددهم أربعين ألف نسمة، «فكان اجتماع هذا البحر الزاخر من الخلائق هو الثورة بعينها»، وظهرت روح الشعب قوية ناقمة على الوالى وعلى الحكم التركى.

اجتمع زعماء الشعب فى دار المحكمة، وطلبوا من القاضى أن يرسل باستدعاء وكلاء الوالى ليحضروا مجلس الشرع، فأرسل يستدعيهم على عجل، فحضروا، وعندما انعقد المجلس عرض الزعماء ظلامة الشعب وحرروا مطالبهم وأهمها:

ألا تفرض من اليوم ضريبة على المدينة إلا إذا أقرها العلماء وكبار الأعيان.

أن يجلو الجنود عن القاهرة وتنتقل حامية المدينة إلى الجيزة.

ألا يسمح بدخول أى جندى إلى المدينة حاملاً سلاحه.

أن تعاد المواصلات فى الحال بين القاهرة والوجه القبلى.

رأى الوالى أن الحركة خطيرة، وأن الثورة تؤذن أن تقتلعه من مقره، وكان السيد عمر مكرم نقيب الأشراف فى مقدمة زعماء الحركة وأكبرهم نفوذاً، وحاول الوالى أن يلقى القبض عليه ويعتقله بالقلعة ليشل الحركة القائمة بالمدينة فلما وصلته رسالة القاضى، استدعاه هو والسيد عمر مكرم والعلماء إلى القلعة للتشاور. ولكن السيد عمر فطن إلى مقاصد الوالى وخشى الغدر، ورفض الذهاب.

«... حنق الوالى على الزعماء ورفض المطالب التى قرروها».

«... اجتمع وكلاء الشعب من العلماء ونقباء الصناع فى اليوم التالى (الاثنين ١٣ مايو١٨٠٥ م- ١٣ صفر ١٢٢٠ هـ) بدار المحكمة ليتداولوا فى الموقف، واحتشدت الجماهير حولها يؤيدون وكلاهم...

واتفقت كلمة «نواب» الشعب وأجمعوا رأيهم على عزل خورشيد باشا وتعيين محمد على واليًا بدله، وعندئذ قاموا وانتقلوا إلى دار محمد على لتنفيذ قرارهم، وأبلغوه ما اتفقوا عليه وقالوا:

«إننا لا نريد هذا الباشا واليًا علينا ولابد من عزله من الولاية»

ونادى السيد عمر مكرم بالنيابة عنهم وقال:

«إننا خلعناه من الولاية».

فقال محمد على: «ومن تريدونه واليًا»؟

فقال الجميع وبصوت واحد: «لا نرضى إلا بك وتكون واليًا (بشروطنا) لما نتوسمه فيك من العدالة والخير».

فأظهر محمد على تردداً وامتناعًا حتى لا ينسب له دور فى التحريض على الثورة، وقال

اشتركت جميع طبقات الشعب فى حمل السلاح على اختلاف أعمارهم ومراكزهم وطوائفهم، وبلغ عدد الثوار أربعين ألفاً حاملين الأسلحة والعصى



إن هذا التعيين قد يمس حقوق السلطان.

... وأمام إلحاح وكلاء الشعب، قبل محمد على ولاية الحكم وبعد أن أخذوا عليه العهود والمواثيق أن يسير بالعدل وألا يبرم أمراً إلا بمشورتهم، قام السيد عمر مكرم والشيخ الشرقاوى وألبساه خلعة الولاية، وكان ذلك وقت العصر.

وبذلك تمت مبايعة نواب الشعب لمحمد على، وأمروا أن يُنادى به فى أنحاء المدينة والياً لمصر.

ويقول الرافعى وقد بدا التأثر والحماس فى كلماته: «هذا هو اليوم المشهود الذى تولى فيه محمد على حكم مصر بإرادة الشعب، وهو من الأيام التاريخية المعدودة فى تاريخ الحركة القومية، ففيه تم انقلاب عظيم فى نظام الحكم، وفيه وضعت مصر لنفسها أساس حريتها واستقلالها، فيه أعلنت عن حقها فى تقرير مصيرها، فيه تجلت سلطة الأمة فى أشخاص زعمائها وذوى الرأى فيها، تجلت تلك السلطة فى خلع الوالى الذى لم ترتض حكمه وإسناده ولاية الأمر إلى من انتخبه زعماء الشعب ووكلاؤه، وتلك أول مرة فى تاريخ مصر الحديث (بل أظنها أول مرة فى تاريخ مصرعلى الإطلاق!) يُعزل الوالى ويُختار بدله بقوة الشعب وإرادته.

...لقد كان الولاة يعزلون بقوة الجند وإرادة رؤسائهم من المماليك، لكن هذه المرة كان الانقلاب شعبياً، فوقع بإرادة الشعب وبقوة الشعب».

«ويمتاز هذا الإنقلاب بأنه لم يكن مقصوراً على مجرد إنتخاب وكلاء الشعب لولى الأمر، بل كان مقروناً باشتراطهم أن يرجع إليهم فى شئون الدولة، فوضعوا بذلك قاعدة الحكم الدستورى فى البلاد.

يذهب وفد من ممثلى الشعب إلى القلعة ليبلغوا الوالى بقراراتهم، فيرفض الإذعان لما قرروه، ويجيبهم بإزدراء:

«إنى مولى من طرف السلطان فلا أعزل بأمر من الفلاحين، ولا أنزل من القلعة إلا بأمر من السلطنة».

و يذكر الجبرتى أنهم حرروا محضراً، يوم ١٦مايو، حينما طلب منهم خورشيد باشا سنداً شرعياً بالعزل، واقتبس منه عبارة قال أنها جديرة بالالتفات إليها (ولعمرى فإنها حقاً جديرة بكل اهتمام)، وهى:

« إن للشعوب، طبقاً لما جرى به العرف قديماً، ولما تقضى به أحكام الشريعة الإسلامية، الحق فى أن يقيموا الولاة ولهم أن يعزلوهم إذا انحرفوا عن سنن العدل وساروا بالظلم لأن الحكام الظالمين خارجون عن الشريعة».

«أخذ الوالى يحصن القلعة ويتزود من الميرة والذخيرة ويستعد للقتال لإخضاع المدينة وإخماد الثورة، وأخذ زعماء الشعب من ناحيتهم يعدون الوسائل لحصار القلعة لإجبار خورشيد باشا على التسليم...».

أخذ السيد عمر مكرم يحرض الناس على الاجتماع والاستعداد للقتال، ولبى الأهالى الدعوة متطوعين حاملين ما وصلت إليه أيديهم من الأسلحة والعصى. فأقاموا المتاريس والاستحكامات بالقرب من القلعة وتحصنوا بها وحمل السلاح كل قادر على حمله، وخلت مخازن الأسلحة مما فيها من آلات الكفاح «الجبرتى».

«اشتركت جميع طبقات الشعب فى حمل السلاح على اختلاف أعمارهم ومراكزهم وطوائفهم، وبلغ عدد الثوار أربعين ألفاً حاملين الأسلحة والعصى».

«وكان الفقراء من العامة يبيعون ملابسهم أو يستدينون ويشترون الأسلحة» (الرافعى - «فولابل» مصر الحديثة)

و فى رواية الجبرتى دلالة هامة حين يقول:

« ...فلما رأى من بالقلعة(جنود الوالى خورشيد باشا) ذلك، فعندها رموا بالمدافع والقنابل على البلد وبيت محمد على وحسن باشا وجهة الأزهر ولم يزالوا يراسلون الرمى من أول النهار إلى بعد الظهر فلم ينزعج أهل البلد من ذلك لما ألفوه من أيام الفرنسيس وحروبهم السابقة».

لقد ألف المصريون القتال، وقصف المدافع،و تعودوا أن تسقط القذائف من حولهم دون انزعاج (!) كما يقول الجبرتى. وهنا تظهر أهمية الخبرات المكتسبة من مراحل الكفاح الوطنى فترة الحملة الفرنسية. وكما أسلفنا فبالرغم من أن المصريين لم يحققوا انتصارات حاسمة على الفرنسيين (وماكان لهم تحقيق ذلك على جيش كبير وحديث كجيش الحملة) إلا أنهم تعلموا الكثير من فنون القتال وتعودوا الصبر عليه وتحمل ويلاته.

وتستمر المعارك العنيفة وحصار جموع الشعب المصرى للوالى التركى وجنوده بالقلعة، حتى جاءت الرسل تحمل فرماناً من الآستانة (السلطان العثمانى) بتثبيت محمد على والياً على مصر «حيث رضى بذلك العلماء والرعية وأن خورشيد باشا معزول عن ولاية مصر». وكان ذلك فى ١١ ربيع الثانى سنة ١٢٢٠ هـ (٩ يوليو ١٨٠٥).

فبطل الضرب من القلعة وأبطل الثوار الضرب من الجبل مع استمرار الحصار والمتاريس (لاحظ التصميم والمثابرة) إلى أن أذعن خورشيد باشا وسلم القلعة يوم الاثنين ٥ أغسطس ١٨٠٥، ونزل منها ورحل عن البلاد.

وانتصرت جموع الفلاحين المصريين البسطاء، على جيش الوالى العثمانى الفاسد المتغطرس، بل واختارت تلك الجموع من تريده حاكماً، ووضعته فى سدة الحكم، على أن يحكم بالعدل وبشروطها.

وفى ذلك يقول الجبرتى عن ولاية محمد على:

«تم الأمر بعد المعاهدة والمعاقدة على سيره بالعدل وإقامة الأحكام والشرائع والإقلاع عن المظالم وألا يفعل أمراً إلا بمشورته ومشورة العلماء وأنه متى خالف الشروط عزلوه».

ومتى خالف الشروط عزلوه!

يالقوة هذه العبارة وما أجمل وقعها فى الأذن! إن شعباً استطاع يوماً ما أن يضع حاكماً فى سدة الحكم ويفرض عليه شرطاً بتلك القوة وذلك الوضوح، لهو شعب جدير بكل احترام.

هذا هو الشعب المصرى الذى يعتقد البعض أنه شعب مستسلم ومستكين، ولم يكن له يوماً رأى فى اختيار حكامه.

ففى ١٨٠٥ بزعامة السيد عمر مكرم الأسطورية، وفى ١٨٨١ بقيادة أحمد عرابى الشجاعة، وفى ١٩١٩ مستلهمين كفاح زعيم الأمة المنفى، سعد زغلول، وفى ١٩٦٧ متمسكين بزعامة عبد الناصر التاريخية... تقوم جموع الشعب المصرى من سباتها، وتثور كالبركان الذى يفور ويطلق الحمم التى تجتاح كل شىء فى طريقها، وتسقط من تسقط من الحكام الطغاة الفاسدين وأزلام القوى الأجنبية التى تسعى لفرض هيمنتها، وفى كل مرة تهديها فطرتها السليمة إلى الاختيار الصحيح، والحاكم المؤهل للفوز بثقتها فتضعه فى السلطة وتسبغ عليه الشرعية.

الشرعية الحقيقية المستمدة من رغبة الشعب.

كانت دائماً هناك زعامة كبيرة تلهم الشعب، وتلهب حماسه، وتستدعى أفضل ما فيه من صفات وتظهر معدنه الأصيل فتزيل ما علاه من الصدأ فيسترد بريقه ويتألق.

كان هناك غالباً طغاة مستبدون يجد الشعب أنه قد آن الأوان لكى يرحلوا.

كانت هناك دائماً أسباب مباشرة تقوم بدور المفجر الذى يشعل نار الثورة.

وغالباً، وبسبب جهل الحاكم وقصر نظره وغياب الوعى بتاريخ الأمة، فهو يستسلم لخدر الفكرة البائسة التى تقول:

«إن المصريين شعب مستكينٌ ومسالمٌ وغير معنى بشئون الحكم والسياسة، وهو مستعد لتحمل استبداد الحكام وفسادهم وظلمهم، دون أن يحرك ساكناً»

لا أرى الشعب المصرى، خاصة فى العصر الحديث، شعباً خانعاً أو مستسلماً يُقاد بسهولة إلى حيث يُراد له. بل على العكس، فقد كان فى معظم الأحوال ميالاً للتمرد والوقوف فى وجه الظلم والظالمين. أعتقد عن قناعة، بأن المصريين يحملون فى جيناتهم الرغبة فى التفوق والسمو والسعى إلى إحتلال مكانة رفيعة بين الأمم. وأعتقد عن قناعة بأنهم من الشعوب المستعدة للتضحية عن طيب خاطر، بالكثير فى سبيل تحقيق أهداف عظيمة وسامية.

ربما كان ذلك هو السبب الرئيس لما أعطوه من حب وتأييد فى مطلع القرن



انتصـــرت جمـــوع الفلاحـــين المصـــريين البســطاء، على جيش الوالى العثمانى الفاسد المتغطرس، بل اختارت تلك الجموع من تريده حاكماً، ووضعته فى سدة الحكم، على أن يحكم بالعدل وبشروطها



التاسع عشر لمحمد على، ثم فى منتصف القرن العشرين لجمال عبد الناصر.

ولكن هناك فارقا بين الحالتين...

فبالرغم مما كان من مآثر عظيمة لمحمد على والذى يعتبر بحق مؤسس دولة مصر الحديثة، وما حققه من نهضة كبيرة فى جميع المجالات، فإن غالبية المصريين، وللأسف الشديد، كانوا خلال فترة حكمه يعيشون حياة أقرب إلى حياة العبودية ورزحوا طوال قرن ونصف تحت ذل الإقطاع وسيطرة القوى الأجنبية.

وهذا ما جعل الفارق كبيراً بين الحالتين.

فعبد الناصركان أول مصرى صميم، منذ عهد الفراعنة، يتولى حكم مصر(١٧)، وكان هو صاحب الشعار الذى ألهب حماس المصريين «ارفع رأسك يا أخى، فقد مضى عهد الاستعباد»، وكان هو من سارع منذ سنوات الثورة الأولى إلى إلغاء الألقاب، التى كانت تشرع لمنظومة السادة والعبيد، وكان من أول مشاريعه القضاء على الإقطاع وسيطرة رأس المال.

لا شك أن عبد الناصر قد نجح فى أن يستلهم روح الشعب المصرى التواقة للتقدم والتفوق والسمو، ولا شك أن جموع المصريين عاشت معه إعادة بعث الروح الوطنية والقومية، وهو ما دفعهم إلى الوقوف معه ضد أعتى القوى وأشرسها. وقفوا معه عندما أمم قناة السويس فى ١٩٥٦، ووقفوا معه يبنون السد العالى فى ملحمة أسطورية وتفان لا نظير له، ووقفوا معه يؤيدونه فى معارك الأمة العربية وأكدوا إيمانهم العميق بالانتماء لتلك الأمة.

وعندما حدثت هزيمة يونيو ١٩٦٧، توحدت أرواح المصريين وعزائمهم فى رفض تلك الهزيمة وكان الإحساس الذى يسيطر عليهم أنهم لا يستحقونها. هدف واحد لم يكن هناك أى خلاف حوله، وهو استعادة الكرامة الوطنية وتحرير التراب الوطنى ورد الضربة للعدو الذى كان يسعى إلى تحطيم معنوياتهم وإذلالهم، فقاموا بعزيمة وإرادة وحققوا معجزة العبور وثأروا من ذلك العدو.

المصريون شعب صبور، وقادر على تحمل الكثير، ولكنه عندما يثور فإنه يجتاح بثورته كل القوى التى كانت تستخف به ولم تعرف قدره.

إنه لمن المدهش أن يكون المصريون قد حققوا ذلك المستوىَ الرائع من الوعى بحقوقهم، بل وانتزعوا تلك الحقوق فعلاً، وبالقوة، منذ مائتى عام!

عندما يستعرض المرء تاريخ الحركة الوطنية فى مصر منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى نهاية القرن العشرين، ويرصد المواقف التى أثبت المصريون فيها وعيهم بحقوقهم، وما قدموه من تضحيات هائلة لنيل هذه الحقوق، فإنه لا يملك إلا أن يتساءل...

هل حان الوقت أن يفيق المصريون من غفوتهم، ويصروا على استخلاص الحق المشروع للشعوب فى اختيار من يحكمهم... على شروطهم... ومتى خالف الشروط عزلوه؟

ربما لو توفرت الزعامة المناسبة. ■

هـــــــوامــــــــش

(١) عبد الرحمن الرافعى - تاريخ الحركة القومية - ج ١
(٢) Juan Cole-Napoleon’s Egypt
(٣) ليلى عنان - الحملة الفرنسية فى محكمة التاريخ - ج٢
(٤) المرجع السابق (٢).
(٥) المرجع السابق (١).
(٦) المرجع السابق (١).
٧) عبد الرحمن الرافعى - تاريخ الحركة القومية ج٢
(٨) المرجع السابق (٧)
(٩) المرجع السابق (٧)
(١٠) ليلى عنان - الحملة الفرنسية -ج٢، والمرجع السابق (٧).
(١١) Vatikiotis- The History of.J.P Egypt, M.Ali to Mubarak
(١٢) المرجع السابق (١١).
(١٣) عاصر المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى ثورة ١٩١٩، واشترك فى بعض وقائعها، وسجل مقدماتها وأحداثها وتوابعها بشكل تفصيلى. وفى كتابه عن تلك الثورة رصد الرافعى الأسماء والوقائع ومحاضر البوليس وقوائم الجرحى والقتلى من دفاتر المستشفيات...إلخ. عبد الرحمن الرافعى - ثورة ١٩١٩.
(١٤) عاصر الكاتب تلك الأحداث بتفاصيلها، وكان شاهد عيان عليها.
(١٥) من أشهرالتعليقات على تلك السياسة ما جاء وقتها على لسان الكاتب الكبير أحمد بهاء الدين، عندما قال «الانفتاح ليس سداح مداح» والتى صارت تذكر كصنو لتلك السياسة فى كثير من الأحيان. راجع: أحمد بهاءالدين - يوميات هذا الزمان.
(١٦) لم يتوفر لنا مرجع موثوق به لأعداد القتلى والجرحى. هناك مصادر ذكرت رقم ٨٠٠ قتيل (!)، والذى يبدو مبالغاً فيه بشكل كبير، بينما خفضت أخرى الرقم إلى ٨٠ قتيلا فقط! والله أعلم.
(١٧) من الناحية الرسمية كان عبد الناصر هو الرئيس الثانى بعد محمد نجيب. وفعلياً فإن قيادة الثورة وزعامتها كانت لجمال عبد الناصر.

كتاب الزاوية

أغنية الكعكة الحجرية
أمل دنقل
(٢)

(الإصحاح الثانى)

دَقَّت الساعةُ المُتعَبَهْ
رفعت أمه الطيبِّه
عَيْنَها..
(دَفَعَتْهُ كُعُوبُ البنادقِ فى المركبه!)
...   .
دقت الساعةُ المُتعبه
نهضتْ.. نسقت مكتبه..
(صفعته يَدٌ..
- أدخلته يدُ الله فى التجربه -)
...   .
دقت الساعةُ المتعبه
جلست أمُّه.. رتَقَتْ جَوْرَبَهْ..
(وخَزَتْهُ عيونُ المحقِّق..
حتى تَفَجَّرَ من جلده الدمُ والأجوبه!)
...   .
دقت الساعةُ المتعبهْ!
دقت الساعةُ المتعبهْ!

(الإصحاح الثالث)

عندما تهبطين على ساحة القوم لاتَبْدئى بالسلامْ
فهمُ الآنَ يَقْتَسِمُون صغارَك فوق صحَاف الطعامْ
بعد أن أشعلوا النارَ فى العُشِّ..
والقَشِّ..
والسنبله.
وغدًا يذبحونك.. بحثًا عن الكنز فى الْحَوْصَله!
وغدًا تَغْتَدى مُدُن الألف عامْ
مدنًا.. للخيامْ
مدنًا ترتقى دَرَجَ المقصله!

جيـــــــل من

الذيـن يـتـصـورون أن ثـورة الخـامـس والعشرين من يناير، هـى مـجـرد هـبّـة لـلـشـبـاب المصـرى، مُنبتـة الصلة عما سبقها من مراحل، ولا رابـط بـيـنـهـا وبين ما سيأتى من بعدها من تفاعلات، لا يـعـرفـون تـاريـخ مـصـر جـيـدا، لم يـقـرأوه كـفـايـة، ولا أحـسـوا بـنـبـضـه إحساسا حقيقيا!

و



مـجـلـس قـيـادة
ثـورة ٢٣ يـولـيـو

بعد جيل

أحمد بهاء الدين شعبان

ثورة شعب!

■■ تاريخ مصر الحقيقى هو تاريخ شعبها، صانع المجد وبانى الحضارات.

وفى القلب من هذا التاريخ الناصع، يأتى دور شبابها، الذى ناضل وسط شعبه، ورفع راية الكفاح من أجل كرامة وطنه، واندفع، جيلا من بعد جيل، يذود عن استقلاله، ويسعى جاهدا لانتزاع حريته، ويقدم الشهداء الأبرار، صفوفا من خلف صفوف، قربانا للثورة، وفداء للأمة!.

والذين يتصورون أن ثورة الخامس والعشرين من يناير، هى مجرد هبَّة للشباب المصرى، منُبتة الصلة عما سبقها من مراحل، ولا رابط بينها وبين ما سيأتى من بعدها من تفاعلات، لا يعرفون تاريخ مصر جيدا، لم يقرأوه كفاية، ولا أحسوا بنبضه إحساسا حقيقيا!.

فالصحيح أنها ليست ثورة شبابية، بالرغم من أن دور الشباب فى التجهيز والدعوة إليها، وفى تفجيرها والمشاركة البطولية فى جميع وقائعها، وفى نشرها، وفى القتال دفاعا عن وجودها، كان دورا بطوليا، لا شك فى هذا أبدا!؟.

غير أن الثورة، مع هذا، لم تكن شبابية وحسب، كما يزعم البعض، بل إن مصلحتها المباشرة تقتضى الإصرار على عدم نعتها بهذا الوصف، والتأكيد، فى المقابل، على أنها كانت ثورة شعبية فريدة الطابع، شارك فيها كل أبناء الوطن، من جميع طبقات وفئات وطوائف الشعب المصرى، بأغنيائه وفقرائه، بنسائه ورجاله، بعجائزه وفتيانه، بمسلميه ومسيحييه، بيسارييه وقومييه، بإسلامييه وليبرالييه، دون حظر أو حجب، أو إقصاء أو تمييز!.

ولو لم يكن للثورة هذا الطابع الشعبى الشامل، لسهل على أعدائها حصارها، ولتمكنوا، فى النهاية، بما يملكونه من قدرات، وما فى قبضتهم من أسلحة، أن يقضوا عليها فى مهدها، وأن يُجهضوا حلم شعبنا فى الحرية والتغيير!.

مخاض ممتد!

والمؤكد أن هذه الثورة لم تأت من فراغ، ولا نجاحها كان ضربة حظ، وإنما وُلدت عبر مخاض طويل، قاسٍ ومكلفٍ، ونجحت لأنها راكمت الخبرة، عقدا من وراء عقد، وتجمعت عناصرها، سنة إثر سنة، حتى إذا حانت لحظة



مع توالى الحقب والقرون، وعلى مدار عمره الممتد، تعددت ثورات الشعب المصرى، فى مواجهة الإغريق والرومان والفرس والعرب، والإنجليز والفرنسيين والأتراك!

الوجود، أذهلت العالم باكتمال ملامحها، وفرضت عليه احترام تحضرها وسمو حضورها!.

ولقد سعى خصوم الشعب المصرى، وأعداء تقدمه، والحريصون على أن يظل مُحَاصراً ومهزوماً، إلى أن يُرسخوا فى أذهاننا، وأن يزرعوا فى إدراكنا، «حقيقة» كاذبة، بذلوا جهدا خارقًا لإثبات صدقيتها المفتعلة وتاريخيتها المزيّفة، واستخدموا كل أساليب الخداع وغسل المخ والعبث بالعقول، لزرعها فى وعينا، وتثبيتها فى خلايانا، حتى لا تقوم لنا قائمة، أو ننهض من كبوتنا أبدا!.

... ومزاعم باطلة!

وهذه «الحقيقة» الكاذبة، تدّعى أن الشعب المصرى خانع بطبعه، خاضع بسليقته، لا يثور أبداً مهما وقع عليه من ظلم، أو تعرض له من عسف واستغلال، وأن عصور القهر الممتدة، وقرون الاحتلال المستمرة، قد طبعت شخصيته بالسلبية الكاملة، ووسمتها بالميل للخضوع والركون للاستسلام، وأنه، اختصاراً، كما كتب البعض: «شعبٌ تُجمِّعَهُ طبلة، وتُفرّقَهُ عصا!»[1].

وقد تبددت كل هذه الترهات، فى الخامس والعشرين من يناير، وذرتها رياح الثورة إلى مزبلة التاريخ حيث مكانها اللائق!، وبرزت، فى المقابل، الحقيقة المؤكدة: لم يكف شعب مصر أبداً، طوال تاريخه المرصود، الطويل، عن الثورة، ولا صمت عن ظلم تَعَرَّضَ له، أو حيفٍ مورس فى مواجهته...

أولى ثورات التاريخ!

بل إن أول ثورات التاريخ المكتوب، كانت فوق أرضه، وهى الثورة التى وُصِفَت باعتبارها: «أول ثورة طبقية» فى التاريخ، (فى الفترة ما بين عامى ٢٢٨٠ق. م، ٢١٣٢ ق. م.، على وجه التقريب)[2]، حينما تمرد الشعب المصرى على الظلم الاجتماعى والامتيازات الطبقية، التى أثقلت كاهله على امتداد فترات طويلة قبل الثورة، وقد وصف الحكيم «إيبور»، فى نبوءاته الشهيرة أنواع المظالم التى عانى منها المصريون، وعكس تدهور الأحوال، واضطراب الأمن، وشيوع الأمراض، وانتشار الأوبئة والمجاعات، ووقوع البلاد تحت سلطان المطامع الأجنبية، وإعراض الملك، (المُرجّح أنه الملك «بيبى الثانى»)، عن التواصل مع الشعب، بفعل الطبقة العازلة المحيطة، من الحاشية والمستفيدين، الأمر الذى أصبح معه: «القوم يقتاتون الحشائش، ويعيشون على الماء، وحتى الطيور لا تجد ما تأكله من فاكهة وأعشاب، وأصبحت القاذورات تُخطف من أفواه الخنازير... لقد انبثّ الوباء فى كل الأرض، وأصبحت لفائف المومياوات تتكلم دون أن يقترب منها إنسان!»[3]... وهو الوضع الذى أفاض حكيم آخر فى شرحه، وهو الحكيم «نفر روهو»: «انتبه يا قلبى، واذرف الدمع على هذه البلاد فى كل نبضاتك!، أصبحت الأرض خراباً، ولا أحد يهتم بها، ولا من يتحدث أو يذرف الدمع السخين!... كيف أضحت هذه البلاد وأمست؟!... إن الشمس قد احتجبت ولم تعد تشرق ليرى الناس... ونهر مصر قد جفّ، حتى ليستطيع المرء أن يعبره ماشياً... إن كل ما هو طيب قد ولّى، والبلاد خضعت للشقاء، وغزاها البدو... وظهر الأعداء فى بر مصر، ونزل إلى برها الآسيويون... ولسوف أريك هذه البلاد ذليلة بائسة، وما لم يكن يحدث أبداً قد حدث!»[4].

وهكذا، وفى ظل الظروف المتدهورة التى أفاض الحكيمان فى وصفها، وتبيان آثارها على أوضاع الشعب المصرى، آنذاك، فلقد كانت ثورة الفقراء والمعوزين، أمراً محتماً، ثورة استهدفت تحقيق «العدالة»، حلم «المصرى الفصيح»، منذ القدم: «إن العدالة خالدة أبداً، وهى تنزل القبر مع من أقامها فى الأرض، فإذا توارى فى قبره، ووضع فى التراب، فلن يمحى ذكره فى الأرض، وسيذكره الذاكرون بما فعل من خير!»[5].

ومع توالى الحقب والقرون، وعلى مدار عمره الممتد، تعددت ثورات الشعب المصرى، فى مواجهة الإغريق والرومان والفرس والعرب[6]، والانجليز والفرنسيين والأتراك!.

ثورات المصريين المحدثين!

ثورتا القاهرة على الحملة الفرنسية:

ولم تتوقف انتفاضات شعب مصر فى مواجهة حكامه وقهرهم، فثار. فى العصر الحديث. على الحملة الفرنسية فى ثورتى القاهرة: الأولى (فى ٢١ اكتوبر سنة ١٧٩٨)، والثانية (أواخر مارس ١٨٠٠)، وهما ثورتان منظمتان اشترك فى وقائعهما جميع فئات الشعب وطبقاته، وباختلاف أديانهم وأصولهم وحرفهم، وقام على الزعامة فيهما قيادات شعبية مخلصة (السيد عمرمكرم، السيد أحمد المحروقى، وغيرهما)، وامتدت آثارهما إلى كافة أرجاء العاصمة وبالذات فى أحيائها الشعبية، مثل حى بولاق، ودارت فيهما معارك طاحنة، سقط على إثرها المئات من الشهداء من أبناء الشعب، وعلى الناحية المقابلة، تكبد الفرنسيون خسائر فادحة، وسقط لهم مئات القتلى والجرحى، لعل من أهمهم «سارى عسكر» فرنسا، الجنرال «كليبر» الذى خلف «نابليون بونابرت» فى حكم مصر، بعد رحيله، واغتيل على يد الشاب السورى، «سليمان الحلبى».

وقد أبدى المصريون فى هاتين الثورتين ضروبا من الإبداع والابتكار، حازت إعجاب حتى الأعداء أنفسهم، ودفعت «مسيو مارتان»، أحد علماء الحملة، إلى الاعتراف: «لقد قام سكان القاهرة بما لم يستطع أحد أن يقوم به من قبل، فقد صنعوا البارود، وصنعوا القنابل من حديد المساجد وأدوات الصنّاع، وصنعوا مايصعب تصديقه: ذلك أنهم صنعوا المدافع!»[7].

وقد أجبرت ثورات شعب مصر، الفرنسيين، فى نهاية المطاف، على اتخاذ قرار الرحيل[8].

تولية محمد على:

العدل والكف عن المظالم!

وقد تولى محمد على «موقع الولاية»، نزولا عند إرادة الشعب المصرى، بعد أن أزيح الوالى العثمانى المتسلط، «خورشيد باشا»، وبناءً على «وثيقة» حررها زعماء الشعب، بقيادة «السيد عمر مكرم»، ألزموا فيها «محمد على» بألا تُفرض ضريبة إلا بعد إقرار العلماء و«الأعيان»، وأن يلتزم بتحقيق العدل، وتنفيذ الأحكام والشرائع، والكف عن المظالم، وإلا عزلوه عن الحكم «متى حاد عن هذه الشروط»![9].

طرد حملة «فريزر»!:

وحينما حاولت انجلترا تكرار محاولات خصمها اللدود، فرنسا، باحتلال مصر بأساطيلها البحرية، عبر حملة عسكرية قادها الجنرال «فريزر»، (قوامها ستة آلاف جندى، وهبطت إلى الإسكندرية فى ٢١ مارس ١٨٠٧)، دارت معارك طاحنة، أبرزها فى بلدة «رشيد»، التى انتهت بهزيمة إنجليزية فادحة، تكبد فيها الغزاة ١٧٠ قتيلا، و٢٥٠ مصابا، و١٢٠ أسيرا، وحينما عاودت القوات الانجليزية العدوان على رشيد، انتقاما لهزيمتهم الشائنة، وطوقوا حدودها وقصفوها قصفا عنيفا بقنابل المدفعية، صمدت رشيد صمودا بطوليا، وأجبرت القوات الانجليزية على الاستسلام والانسحاب، ومغادرة أرض «المحروسة» نهائيا، فى غضون عشرة أيام من تاريخ توقيع معاهدة الانسحاب فى ١٤ سبتمبر ١٨٠٧، بعد أن عجزت أمام بطولة أهلها، وفى مواجهة قوات الإمداد التى وافاها بها الشعب المصرى من العاصمة ومن الاسكندرية والمدن المحيطة، وقد قتل فى هذه المعركة ما يزيد عن ٤٥٠ قتيلا، وأسر أكثر من ٤٠٠ ضابط وجندى بريطانى[10].

الثورة العرابية:

لن نورث ولن نستعبد!

ومع تزايد الإحساس بالظلم والتمييز، والشعور بالقهر والاستغلال، فى عهد «توفيق»، تحرك شعب مصر، هذه المرة بقيادة جيشه، وتحت زعامة «أحمد عرابى»، الذى واجه «الخديو» بمطالب الجيش والشعب: عزل وزارة «رياض»، وتشكيل مجلس نواب، وزيادة عدد قوات الجيش، وتنفيذ القوانين العسكرية... وحينما اعترض «الخديو» على هذه الطلبات معلناً: «لقد ورثت هذه البلاد عن آبائى وأجدادى، وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا!»، دوى صوت «عرابى» بصيحته الشهيرة: «لقد خلقنا الله أحرارا، ولم يخلقنا تراثا وعقارا، فوالله الذى لا إله إلا هو، إننا سوف لن نورث بعد اليوم!»[11].

وحتى بعد انكسار الثورة العُرابية، (لاختلال توازن القوى، وضعف الخبرة العسكرية، والخيانة التى تعرضت لها)، لم يتوقف نهر الثورة عن رى الأرض المصرية المتعطشة!



مـاحـدث يـوم ٢٥ يـنـايـر كـان تـطـوراً طـبـيـعـيـاً، وتـصـعـيـداً مـنـطـقـيـاً لـمـؤثـرات تـراكـمــت يـومـاً بـعــد يـوم، وعـامـاً فـى إثـر عـام

مصطفى كامل ومحمد فريد!

نهض شاب فى ريعان الشباب، «مصطفى كامل»، يتحدى الهزيمة، ويترنم بأناشيد الوطنية وحب الوطن والفداء، ومن بعده قدم «محمد فريد» جهوداً مضنية لتنظيم الصفوف فى مواجهة الأعداء، وأشعل الشعب المصرى الثورة الوطنية الكبرى، عام ١٩١٩، بزعامة «سعد باشا زغلول»، والتى لعب فيها طلاب المدارس والمعاهد والجامعة دورا مشهودا.

انتهت الحرب العالمية الأولى يوم ١١نوفمبر سنة ١٩١٨، وهى الحرب التى أرغم الاحتلال الانجليزى مصر على أن تتحمل أوزارها، دون رغبة منها، مساندة لبريطانيا ولمجهودها الحربى!

وقد بعث انتهاء الحرب الأمل فى نفوس المصريين فى أن ينالوا حريتهم، فألف نفرٌ من الوطنيين وفدا برئاسة سعد زغلول باشا، أخذ على عاتقه مهمة المطالبة بالاستقلال، بواسطة جمع «توكيلات» من الأمة تفوض «الوفد» فى عرض مطالبها، وحين تقدم سعد بطلب إلى قيادة الجيش البريطانى للسماح له ولزملائه بالسفر إلى انجلترا لعرض «القضية المصرية»، قوبل الطلب بالرفض، ثم ألقى القبض على سعد وثلاثة من رفاقه، وتم نفيهم، يوم ٩ مارس ١٩١٩ إلى مالطة، فانفجرت الثورة!.

خرجت المظاهرات من مدرسة الحقوق، وانضم لها طلاب «المهندسخانة» والزراعة وطلاب مدرسة التجارة العليا بالمبتديان، وفى حى« السيدة زينب» انضم إلى المتظاهرين طلاب دار العلوم والتجارة المتوسطة والقضاء الشرعى، وطلاب المدارس الثانوية، واصطدمت المظاهرات بقوات الأمن، حيث أصيب واعتقل المئات..

وفى اليوم التالى، والأيام التالية، وصلت المظاهرات إلى الأزهر والمدارس العليا والثانوية، وانضم إلى صفوف الثائرين فئات الشعب المختلفة، وإلى جانبهم أضرب سائقو الترام وسيارات الأجرة، والتجار، وتحولت الثورة . التى بدأها الطلاب والشباب . إلى «ثورة شعبية» حقيقية، شارك فيها العمال والفلاحون والمستخدمون والمهنيون، فى العاصمة، و«المديريات»، والأطراف، وسقط عشرات الشهداء فداء لثورتهم، وانتقلت الثورة إلى الريف البعيد، وإلى الإسكندرية وطنطا والمحلة الكبرى والمنصورة، وغيرها من المدن، وتجاوزت المدن إلى الريف، وشاركت فى وقائع الثورة، كل الطبقات والمستويات الاجتماعية، وتجسدت فيها أرقى معانى الوحدة الوطنية والكفاح المشترك!.

ثورات الشباب: الراية لم تسقط!

١٩٣٥: رفعت العلم يا عبد الحكم!

وانتفض الشباب والطلاب عام ١٩٣٥ فى مواجهة مؤامرات القصر، والاهتراء الحزبى، والاحتلال البريطانى، فبعد فترة من التخبط السياسى، وحكم أحزاب الأقلية المتواطئة مع القصر والاحتلال، الذى أعلن على لسان وزير خارجيته «صمويل هور»، فى نوفمبر ١٩٣٥، أن حكومته لا توافق على عودة دستور ١٩٢٣، بحجة أنه غير صالح للعمل!، انفجرت الانتفاضة فى البلاد يوم ١٣ نوفمبر، فى ذكرى «عيد الجهاد»، ودارت معارك بطولية بين قوات الأمن وطلاب جامعة القاهرة (فؤاد الأول)، الذين استشهد منهم «محمد عبد المجيد مرسى»، طالب كلية الزراعة، و«محمد عبد الحكم الجراحى»، الطالب بكلية الآداب، و«على طه عفيفى»، طالب كلية العلوم، كما سقط شهداء آخرون، فى مدن أخرى كطنطا وغيرها من المدن المصرية[١٢].

اللجنة الوطنية للعمال والطلبة

وفى عام ١٩٤٦تشكلت، قيادة شعبية من نوع جديد، لمرحلة جديدة من كفاح الشعب المصرى، بعد أن ثبُتت حقيقة عجز الأطر السياسية الحزبية القائمة عن الوفاء بالتزامات النضال الوطنى والشعبى، نتيجة لجمودها، وسيطرة كبار رجال المال وملاّك الأراضى عليها، وخفوت روح النضال فى أبرزها، «حزب الوفد». وخاضت الجماهير الطلابية والشعبية، معارك عنيفة، ضد الاحتلال والقصر، تحت قيادة «اللجنة الوطنية العليا للعمال والطلبة »، دفعت فيها تضحيات كبيرة، دون تردد أو خوف، وكما يحدث اليوم، أيضاً ، فقد تابع العالم كله، بتعاطف وإعجاب كفاح شعب مصر وطلابها وشبابها، وثمّن تضحياتهم فى سبيل «الحرية» و«الاستقلال»، وتقديراً لنضالهم البطولى، اعتبر يوم ٢١ فبراير من كل عام، وهو ذكرى اليوم الذى خرجت فيه المظاهرات الحاشدة فى مصر، تلبية لدعوة «اللجنة الوطنية العليا للعمال والطلبة»، فسقط المئات من الشهداء والمصابين، «يوماً للطالب العالمى»، يُحتفل به فى العالم أجمع، تقديرا لدور طلاب مصر، ودور طلاب الهند الذين كان لهم، فى نفس اليوم، وقفة بطولية مشابهة[١٣].

وقادت هذه المرحلة، بتفاعلاتها وتراكماتها، إلى ثورة يوليو عام ١٩٥٢، بقيادة تنظيم «الضباط الأحرار» الذى ترأسه «جمال عبد الناصر»، وانتقلت مصر من عهد الملكية، إلى العصر الجمهورى، وتحت زعامة «ناصر»، فى أعقاب فترة رئاسة محدودة لـ«الرئيس محمد نجيب»، خاضت مصر معارك طاحنة لتحقيق استقلال الإرادة والبناء، فأممت قناة السويس، وهزمت العدوان الثلاثى، وبنت السد العالى، وساندت حركات التحرر العربية والأفريقية والآسيوية، ووقفت ضد الاستعمار ومشاريعه المعادية للسلام وللشعوب، ودعت لوحدة الأمة العربية، وتوحدت مع سوريا لتكوين «الجمهورية العربية المتحدة»، التى سرعان ما انهارت تحت وطأة الضربات الانفصالية، عام ١٩٦١، بعد سنوات محدودة من إنشائها!.

وحينما تآمر الاستعمار والصهيونية، والتسلط والبيروقراطية، على شعب مصر، ووقعت هزيمة يونيو ١٩٦٧ المأساوية، لم يستسلم الشعب، وأعاد بناء جيشه المحطم فى زمن قياسى، وخاض معارك بطولية، لاسترداد كرامته المهدرة، ولتحرير أرضه المحتلة، طوال مرحلة «حرب الاستنزاف »، ثم فى عام ١٩٧٣، وكان لازما حتى تندفع مصر لعبور هزيمتها من أن ينتفض شبابها فى الجامعة والمصانع، أعوام ١٩٦٨ و١٩٧٢، و١٩٧٣ ، ١٩٧٥، ثم كان ضروريا حتى يدافع شعب مصر عن حقه فى الحياة الكريمة، أن يثور مجددا، فى انتفاضته الكبرى، يومى ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧!.

وفضلاً عما تقدم، فلقد كانت مصر الدولة العربية الكبيرة، التى أردى متمردون رافضون رئيسها، «أنور السادات»، برصاصاتهم، وسط احتفالاته و«جنوده»، وعلى مرأى ومسمع من العالم كله، يوم ٦ أكتوبر عام ١٩٨١!.

ومع تولى الرئيس السابق، «حسنى مبارك» مقاليد الحكم، لم تتوقف حركة شعب مصر الضاغطة من أجل انتزاع الحق فى العدل والحرية، فتشكلت عشرات اللجان والجمعيات ومؤسسات المجتمع المدنى الحقوقية، من أجل تنظيم القوى الشعبية فى مواجهة الفساد والاستبداد والقهر وضد توحش جهاز القمع، فى عهده، الذى استطال على مساحة ثلاثين عاما متصلة، كما تأسست «حركة كفاية»، التى كانت بداية مرحلة جديدة من النضال فى سبيل الديموقراطية، أواخر عام ٢٠٠٤، بشعارها المميز: «لا للتمديد... لا للتوريث!»، ومن بعدها لم يكد يمر يوم فى مصر دون أن تشهد شوارعها وجامعاتها ومصانعها وحقولها، معارك طاحنة، بلغت الآلاف، وعلى امتداد مصر كلها، وفى جميع مستوياتها الطبقية والاجتماعية، بين الشعب من جانب، وبين تحالف الثروة والسلطة، والقمع والاستغلال، من جهة أخرى!.

وهكذا تقول لنا القراءة الشاملة لمجريات تاريخ وطننا المعاصر أن ماحدث يوم ٢٥ يناير لم يكن من صنع اللحظة، ولا هبط علينا من سماوات السحر والغموض، بل كان تطوراً طبيعياً، وتصعيداً منطقياً لمؤثرات تراكمت يوماً بعد يوم، وعاماً فى إثر عام.

... كانت رياح الثورة تتجمع فى الأفق تنتظر الشرارة: ومن الشرارة... اندلع اللهيب!.

وقد كان من أسباب فخرى، أنى عاصرت، وقائع ثلاث هبّات شعبية كبرى، شاركت فيها، من الداخل بقسط متواضع، يسمح لى بأن أجزم أن ما أشرت إليه فى المقدمة السابقة، هو الحقيقة بعينها، وأن أقرر، تقرير العارف المشارك، أن شعب مصر لم يكف طوال العقود الماضية عن الرفض، وصولا إلى المقاومة، فالتمرد، ثم... الثورة.

(١) الانتفاضات الطلابية، الوطنية الديموقراطية، بعد الهزيمة:

صحت مصر يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ على أكبر كارثة واجهتها فى العصر الحديث، منذ انكسار الثورة العُرابية، واحتلال الانجليز لمصر عام ١٨٨٢، وهو الاحتلال الذى استمر لنحو ثلاثة أرباع القرن، وخاضت مصر معارك طاحنة، كلفتها الكثير من العرق والجهد والشهداء والأموال، حتى تمكنت من استعادة حريتها، بعد هزيمة العدوان الثلاثى (الانجليزى . الفرنسى . الصهيونى) عام ١٩٥٦.

لم يكن قد مر إلا عقد واحد على جلاء آخر جنود الاحتلال البريطانى، حتى دهمت هزيمة يونيو الوطن العربى بأسره!.

وكان من نتائجها



جيـــل مـــن بـعـــد جـيـــل

حينما شعر الطلاب بأن حلم خوض معركة الحرية، واستعادة الكرامة المهيضة، واسترداد الأرض المحتلة، قد تبدد، انفجر بركان ثورتهم، وآزرهم فى ذلك عمال حلوان والمناطق الصناعية الأخرى

المباشرة أن القوات الصهيونية، بعد أن حطمت الجيوش العربية الكبيرة، وخاصة فى مصر وسوريا، احتلت كامل التراب الفلسطينى، وأجزاء مهمة من الأراضى الأردنية، والجنوب اللبنانى، ومرتفعات الجولان السورية (التى لاتزال محتلة حتى الآن!)، أما فى مصر، فقد تقدمت القوات الصهيونية حتى وقفت على مبعدة مائة كيلومتر من القاهرة، على ضفة قناة السويس، بعد أن دمرت الطيران المصرى وهو قابعٌ على مدارج المطارات، وفرضت سيطرتها على كامل مساحة أرض سيناء المصرية، واغتصبت ثرواتها الطبيعية، وعلى رأسها البترول، كما ضربت صواريخها معامله فى مدينة السويس، التى قصفتها الغارات الإسرائيلية الوحشية، هى ومدينتى الاسماعيلية وبورسعيد، وفرضت تهجيرا مأسويا للملايين من المواطنين الذين كانوا يعيشون فيها، إلى قرى ومدن مصرية أخرى، ولم يقتصر الوضع على هذه المناطق، بل امتد إلى كل ركن فى مصر، حيث خضع لابتزاز وعدوان «اليد الإسرائيلية العسكرية الطولى»، التى، دمرت، بدم بارد، مدارس الأطفال (بحر البقر)، والمصانع (أبو زعبل)، وضربت المدن والقرى والنجوع (نجع حمادى)، مخلفة من ورائها الموت والدم والخراب، وقبل ذلك كله، نشرت دواعى القهر النفسى الرهيب، لإذلال مصر، وكسر إرادتها، ولتأكيد الهيمنة الصهيونية، وفرض القبول بالشروط الصهيونية، والإذعان، على شعبها!.

لكن شعب مصر لم يقبل هذا الوضع المهين، بل المشين، مطلقا:

فيوم ٩ و١٠ يونيو، خرج الملايين من أبناء الشعب يرفضون الهزيمة، ويتمسكون بالرئيس عبد الناصر، لأنهم اعتبروا أن عملية التنحى، إن مرّت، فهى تعنى القبول بانكسار مصر، والتسليم بالانتصار الصهيونى!.

وعاد عبد الناصر إلى موقع القيادة، متعهدا بأن يواصل مع شعب مصر مسيرة العرق والدم والدموع، لإعادة بناء الجيش المصرى المحطم، ولإعداده من أجل خوض معركة التحرير!، كما تقرر فتح التحقيق فى ملابسات التقصير المريع، الذى أدى لانهيار الجيش المصرى، فى الحرب، على النحو المأساوى الذى حدث!.

وقدمت مصر بجميع طوائفها، وبالذات عمالها وفلاحيها وشبابها وطلابها ومثقفيها، ملحمة من ملاحم الصمود والاحتمال، حتى يتسنى لبلدهم عبور الهزيمة، وفى ذات الوقت انتفض طلابها وعمالها، فى فبراير ونوفمبر ١٩٦٨، احتجاجا على ما لاحظوه من تواطؤ فى الأحكام الصادرة على المتسببين فى انكسار جيش مصر واحتلال أراضيها، وقد اهتز نظام الرئيس «عبد الناصر» فى مواجهة أول ثورة شعبية. شبابية تواجهه، وأصدر «بيان ٣٠ مارس»، للرد على المطالب الشعبية بالديموقراطية ومواجهة الفساد وتوزيع أعباء الحرب، وقال قولته المشهورة: «الشعب يريد التغيير، وأنا معه!».

لكن القدر لم يمهل «عبد الناصر» حتى يقود معركة استعادة الكرامة، فلقد توفى فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠، بعد جهود مضنية لحقن الدماء بين الملك الأردنى، «حسين»، والثورة الفلسطينية، التى وصلت ذروتها بمذابح «أيلول الأسود» التى قتل وجرح فيها الآلاف من أبناء الشعب الفلسطينى!.

وودع الشعب المصرى «عبد الناصر» وداعا عزّ نظيره، إلى مثواه الأخير، فيما صعد إلى كرسى الحكم نائبه، «أنور السادات»، الذى سرعان ما خاض معركة طاحنة مع بقايا نظام الرئيس الراحل، بهدف الانفراد بالسلطة، وهو ما تحقق فى ١٥ مايو عام ١٩٧١.

ومع وصول «السادات» إلى كرسى الحكم كان صبر المجتمع المصرى، على مهانة الاحتلال، قد نفد، ولذلك انفجر بركان الغضب حين اكتشف المصريون، أن «عام الحسم»، عام ١٩٧١، الذى وعد به الرئيس الجديد، كموعد نهائى لخوض حرب التحرير المرتقبة، قد مرَّ دون أن يتم إطلاق رصاصة واحدة تجاه العدو الصهيونى، متذرعا بأن «الضباب» المتكون نتيجة للحرب التى وقعت ذلك العام، بين الهند وباكستان، قد صادر على هذه الحرب المنتظرة، ورفضت القوى النشطة فى الجامعة هذه الذرائع التى لم يقبلوها، وانتشرت الآلاف من صحف الحائط والندوات والمؤتمرات السياسية، التى تعرضت بالنقد لمسببات تأجيل الحرب، مطالبةً بالديموقراطية، كمدخل للتحرير، وباقتصاد حرب حقيقى، وبإعداد الشعب والوطن، إعدادا حقيقيا، لخوض معركة التحرير!.

وقاد هذه الأنشطة عدد كبير من الجماعات الطلابية التى كانت قد انتشرت فى كل الجامعات والمعاهد العليا المصرية، واتخذت لنفسها أسماء ذات دلالة: «جماعة أنصار الثورة الفلسطينية»، «جماعة عبد الحكم الجراحى»، «جماعة مصر»، «أسرة النديم»... إلخ، ولعبت هذه الجماعات دورا رائعا فى رفع مستوى الوعى الطلابى السياسى، وفى تعبئة القاعدة الطلابية، وتنظيمها، ودعوتها للعمل المباشر والتحرك.

وحينما شعر الطلاب بأن حلم خوض معركة الحرية، واستعادة الكرامة المهيضة، واسترداد الأرض المحتلة، قد تبدد، انفجر بركان ثورتهم، وآزرهم فى ذلك عمال حلوان والمناطق الصناعية الأخرى، واعتصم الطلاب فى كلية الهندسة بجامعة القاهرة، حيث كنت أدرس، وانتقل الاعتصام إلى مبنى الجامعة الرئيسى، (تحت القبة الشهيرة)، بمشاركة طلاب باقى الكليات، مكونين «اللجنة الوطنية العليا للطلاب»، كقيادة طلابية، منتخبة ديموقراطيا، لقيادة انتفاضتهم، والتى قادها باقتدار الزعيم الطلابى النابه، المرحوم «أحمد عبد الله رزه»، طالب كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، آنذاك، وحامل شهادة الدكتوراه، حول تاريخ الحركة الطلابية المصرية، من جامعة «كمبريدج» بعد ذلك، وانتخبنى زملائى ممثلا لطلاب كلية الهندسة فى «اللجنة الوطنية العليا»، كما تم انتخاب «زين العابدين فؤاد»، عن آداب القاهرة، و«شوقى الكردى» عن كلية الطب البيطرى، وآخرين عن باقى الكليات، وسرعان ما عمّت الانتفاضة جميع جامعات مصر ومعاهدها، فى كل محافظاتها ومدنها، وأعلن الطلاب فى مؤتمراتهم ووثائقهم مطالب الشعب ومطالبهم..إنهم:

يؤكدون «على أن المعركة، والمعركة وحدها هى السبيل الوحيد لتحرير الأرض، كما يؤكدون على شجب الدور الذى تقوم به الولايات المتحدة الأمريكية، عدوة الشعوب، وإسرائيل ركيزتها المسلحة، ويؤكدون على رفض الحل السلمى، ويطالبون بسحب قبول النظام لقرار مجلس الأمن، الذى يعترف بحدود آمنة للدول (ولإسرائيل)، وينهى حالة الحرب (مع العدو الصهيونى) فى الوقت الذى لا زالت فيه الأراضى العربية محتلة، كما يُطالبون بسحب قبولنا لمبادرة روجرز (وزير خارجية الولايات المتحدة، آنذاك)، وسحب مبادرة الرئيس السادات، والإعداد الفعلى للمعركة.

.. إن قضية المعركة ترتبط بقضية الديموقراطية، ونحن نطالب برفع كل أشكال الوصاية على التنظيمات النقابية والسياسية للجماهير، ونطالب بحرية الصحافة، ورفع سلطة الرقيب إلا فيما يمس المسائل العسكرية!.

.. نطالب باقتصاد حرب حقيقى، تتحمل فيه الدخول العليا القسط الأكبر من أجل المعركة، ويكون فيه الحساب جاداً على وسائل الكسب غير المشروعة، إذ إنه من غير المعقول، ونحن نطالب باقتصاد حرب أن تتضخم شرائح معينة من المجتمع حتى أصيبت بالتخمة!»، (من بيان سياسى صادر عن مؤتمر للحركة الطلابية، بكلية الآداب، جامعة القاهرة، فى ١٨يناير ١٩٧٢).

ويلاحظ أن هذا البيان، الذى عكس توجهات الحركة الطلابية الرئيسية، فى عقد السبعينيات الماضى، قد ربط بشكل جدلى بين خوض معركة تحرير منتصرة وبين لزوم إيقاف مسلسل «الهرولة» السياسية، من خلف ما تلوح به الولايات المتحدة من وعود «سلمية» مزيفة، (لا زالنا حتى بعد نحو أربعين عاما نُخدع فيها)، وربطه أيضا بين القضية الوطنية، وقضية الديموقراطية، والأوضاع الاقتصادية العادلة، كشرط ضرورى لهزيمة الأعداء، وتحرير الأرض والإرادة.

وتحولت جامعة القاهرة باعتصامها الشهير إلى كعبة الحرية والأحرار فى مصر والمنطقة، وكان طبيعيا أن تتصاعد الضغوط من السلطة الحاكمة لفض الاعتصام بأسرع ما يمكن، حتى لا تمتد آثاره إلى باقى فئات المجتمع وطبقاته، وبالذات عمال مصر الذين كانوا قد بدأوا التحركات فى المصانع والتجمعات العمالية، ولكن جهود النظام التى سعت إلى إغراء قادة الانتفاضة الطلابية، بفض اعتصامهم، بعدما عرضت الحركة الطلابية مطالبها على «مجلس الأمة»، مقابل مكاسب شخصية أو هامشية، باءت بالخسران!.

وكعادته دائماً، استخدم النظام أجهزة الإعلام المملوكة بكاملها للدولة: الصحف والإذاعة، والتلفزيون، للتشهير بالانتفاضة، وتشويه مواقفها، وكعادته دائما، ادعى أن الطلاب عملاء، وهذه المرة لدولة «كوريا الشمالية!»، وقد احترنا جميعا فى البحث عن سبب هذا الاتهام، دون جدوى!

ولم يبق أمام السلطة سوى استخدام القوة الغاشمة لإنهاء الوضع بأى ثمن، وفى فجر يوم ٢٤ يناير ١٩٧٢، اقتحمت مجنزرات الأمن ومدرعاته أسوار الجامعة،



عبر سياسة ممنهجة، تم نهب ثروة المجتمع، وتجريف الملكية العامة، وتحويلها إلى ملكية خاصة لرجال السلطة والموالين لها، والمقربين منها

ووطأت بعجلاتها الحرم الجامعى، للمرة الأولى والأخيرة، على هذا النحو، وفى هجوم مباغت استخدمت فيه القنابل المسيلة للدموع والذخيرة، تم اعتقال نحو ١٥٠٠ طالب وطالبة، من الطلاب المعتصمين، من خيرة أبناء الأمة، كل جريمتهم هى أنهم عشقوا تراب بلدهم، وطالبوا بالحرية: حرية الوطن من الاحتلال الصهيونى، وحرية المواطن من قهر السلطة الغاشمة.

لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد!

فحين وفد باقى الطلاب، فى الصباح المبكر، إلى كلياتهم الجامعية، وعاينوا ما حدث مع زملائهم المعتصمين، فى الفجر، انفجرت مظاهرات الغضب، احتجاجا ومطالبة بالإفراج عن رفاقهم المعتقلين.

ووقعت صدامات دامية بينهم وبين قوات «الأمن المركزى»، التى حاولت إعاقة وصولهم إلى ميدان التحرير، مستخدمة القوة والعنف، دون جدوى، وهناك فى «ميدان التحرير» التقى عشرات الآلاف من الطلاب والعمال والمواطنين، الذين خرجوا فى مظاهرات حاشدة، رفعوا فيها مطالبهم، وأعلنوا إصرارهم على تحرير زملائهم من الطلاب المعتقلين، رافضين أى محاولة لتشويه حركتهم الوطنية، ومكونين «اللجنة الوطنية العليا»، المؤقتة، حتى يُفرج عن قادة «اللجنة الوطنية» من محابسهم، وبالطبع كان الصدام الدموى حتميا مع قوات الأمن، التى كررت نفس منهجها فى استخدام العنف الهمجى، فى مواجهة المتظاهرين المسالمين العزل!، الذين كانوا ينشدون أغانى العشق للوطن والشعب[١٤].

ومن وحى هذه المشاهد الملحمية، كتب الشاعر المصرى العظيم، «أمل دنقل»، رائعته قصيدة «أغنية الكعكة الحجرية»:

«أيها الواقفون على حافة المذبحة
أشهروا الأسلحة
سقط الصمت، وانفرط القلب كالمسبحة
والدم انساب فوق الوشاح!
المنازل أضرحه،
والزنازين أضرحه،
والمدى أسلحه
فارفعوا الأسلحه
واتبعونى، أنا ندم الغد والبارحه
رايتى: عظمتان وجمجمة، وشعارى الصباح!».

(٢) الانتفاضة الشعبية فى ١٨ و١٩ يناير ١٩٧٧:

لكن الحراك الطلابى الجامعى السبعينى، الذى كانت سماته يسارية الطابع، لم يتوقف عند هذا الحد، بل استمرت موجاته طوال السنوات الخمس التالية، وإن بدرجات متفاوتة، وبالذات فى عامى ١٩٧٣ . و١٩٧٥، وهما العامان اللذان شهدا أيضا صعود الحركة العمالية، التى تمركزت فى البؤر العمالية بحلوان وشبرا الخيمة والمحلة الكبرى وكفر الزيات وكفر الدوار وغيرها.

كانت ثمار الحرب، التى دفعت الطبقات الشعبية ثمنها: دماء وشهداء، ومعاناة وأهوالا، قد سقطت فى خزائن الطبقة الرأسمالية المستحدثة، المتحالفة مع البيروقراطية الفاسدة، وطفت على السطح جحافل «القطط السمان» من محاسيب السلطة، وأصهارها، والمتحلقين حول دوائرها، الذين كونوا ثروات هائلة فى ظل سياسات «إعادة الهيكلة »، وبرامج « الخصخصة»، وانفتاح «السداح مداح»، ومشروعات المناطق الحرة، وقوانين تشجيع رأس المال العربى والأجنبى،... إلخ، (بحسب النموذج المُملى من صندوق النقد الدولى والبنك الدولى والدول المانحة).

فعبر سياسة ممنهجة، تم نهب ثروة المجتمع، وتجريف الملكية العامة، وتحويلها إلى ملكية خاصة لرجال السلطة والموالين لها، والمقربين منها، وبدأ تنصل الدولة من واجباتها الاجتماعية، وتحللها من التزاماتها تجاه مواطنيها، الأمر الذى أدى إلى انهيار مستويات المعيشة للغالبية العظمى من أبناء الشعب انهيارا مريعا، لم يسبق لهم أن عاينوه أو عانوا منه، على الأقل على امتداد ربع القرن السابق، منذ عام ١٩٥٢ وحتى عام ١٩٧٧!.

والأدهى أن هذا كله كان يتم، وسط موجة عاتية من الأكاذيب والوعود، التى لم تنقطع، تزين للناس الغد القريب، فتعدهم بالجنة والبلهنية والرخاء العميم، فى الوقت الذى كانت تتصاعد فيه وتيرة الإفقار، وتزداد معدلات التضخم، مع ثبات الأجور، ويتم التهجم على الأوضاع المستقرة لصغار الفلاحين، والعمال والعاملين، بالعبث فى القوانين، وتسخير مجلس الشعب لخدمة مصالح كبار الملاك وأصحاب رؤوس الأموال، ولتوزيع أملاك الدولة على «المحاسيب »، وهو الأمر الذى تفاقم مئات المرات، بعد ذلك، فى زمن الرئيس السابق «حسنى مبارك»، وعلى نحو ما نتابعه، لاهثين، كل يوم!

وعلى الرغم من ادعاءات الرئيس السادات (الديموقراطية!)، فقد كان الجميع يعرفون أن هذه الادعاءات لا تقف على أقدام صلبة، فهو مارس السلطة منفرداً، وتدخل بديكتاتورية فى عمل المؤسسات والهيئات الأساسية بالدولة، وبطش بمعارضيه، وصك التعبير الدال: «ديموقراطية الأنياب «لإبراز القدرة على «فرم» خصومه!، واستن مجموعة من القوانين سيئة الصيت، التى تحول دون أن يشارك أى منهم فى أية تحركات سياسية تؤثر على سيطرته الكاملة على السلطة ومفاتيحها!

وفى النهاية ضاق «السادات» ذرعًا اللعبة كلها: فقرر أن يهدم المعبد فوق رؤوس الجميع، وأن يُعمل أنيابه لكى تنهش فى جسد المعارضين، مهما كانت حدود معارضتهم، فى مذبحة سبتمبر ١٩٨١، قبيل اغتياله بأيام!

ومع اقتراب عام ١٩٧٧ كانت معاناة المواطنين قد تضاعفت، وتدهورت أوضاع الصناعة الوطنية، على كل المستويات، لصالح الاستيراد من الخارج، وارتفعت أسعار السلع الأساسية ارتفاعا كبيرا، وتضاعفت ديون الدولة، وانتشر الفقر والمرض بدرجات أكبر، وبالذات فى الريف وبين الطبقات المسحوقة، وكانت الحكومة على لسان كبار مسئوليها، ومنهم «ممدوح سالم»، رئيس مجلس الوزراء، مستمرة فى إيهام المواطنين بقرب الانفراجة الكبرى، وبأن أسعار الحاجات الأساسية لن تمس، بل إن الرئيس السادات، حسبما نشرت جريدة « الأخبار»، (١٢ يناير ١٩٧٧)، طلب: «ألا يتحمل هذا الجيل كل التراكمات الماضية، كما طلب ضرورة التخفيف عنه لأنه قدم الكثير، وضحَّى عن طيب خاطر!».

ومن هنا كانت صدمة جموع الشعب المصرى، وهى تستمع، يوم ١٧ يناير، إلى قرارات «المجموعة الاقتصادية»، التى يرأسها الدكتور «عبد المنعم القيسونى»، برفع الدعم، ورفع الأسعار، صدمة من العيار الثقيل، فالقرارات عصفت بكل وعود المسئولين، وعلى رأسهم «السادات» نفسه، وبدلا من أن تقوم الحكومة بالتخفيف عن كاهل الملايين الغفيرة من الفقراء، كما هو متوقع، فإذا بها ترفع الدعم عن العديد من السلع المعيشية الضرورية (الدقيق الفاخر، والذرة، والسمسم، والحلاوة الطحينية، والفاصوليا، واللحوم المذبوحة، والشاى، والأرز، والملبوسات... والمنسوجات)، وتزيد من أسعار سلع أخرى (السجائر والبنزين والبوتاجاز، والسكر)، وتزيد رسوم التمغة، وترفع الرسوم الجمركية... إلخ!.

وهكذا، وفى ظل هذه المقدمات، كان طبيعيا أن تنفجر مصر فور إعلان قرارات رفع الأسعار، لأنها شعرت أن الطبقة الحاكمة تستخف بها، وتستهين بعقليتها، وتسرق منها حقها فى الحياة، وتكذب عليها، وتروج لأوهام لا تنفذ، وأحلام لا تتحقق!.

وفى توقيت واحد خرجت جموع المارد، بعد أن طال صمتها.

من الحوارى والأزقة والشوارع، اندفع الملايين يزأرون، غاضبين!.

ومن المراكز الصناعية، حيث بدأت «أحداث الشغب »، كما اعتاد ضباط الأمن تسمية المظاهرات الاحتجاجية، «يوم الثلاثاء ١٨ يناير ١٩٧٧، فى حوالى الساعة الثامنة والنصف صباحًا، بخروج عمال شركة مصر. حلوان للغزل والنسيج بتحريض العاملين بالشركة، فى مظاهرات أخذت تطوف بمنطقة حلوان، مرددة هتافات عدائية ضد سياسة الحكومة وقرارات رفع الأسعار والقيادة السياسية، ونجح المتظاهرون فى إخراج بعض عمال المصانع الأخرى الكائنة بالمنطقة »، (حسب تقرير اللواء أحمد رشدى، مدير أمن القاهرة (آنذاك) بتاريخ أول فبراير ١٩٧٧). وتزامن مع المظاهرات التى انطلقت من حلوان إلى مركز العاصمة، تفجّر مظاهرات أخرى، بدأت من كليات الهندسة بجامعة عين شمس والقاهرة، ولكن سرعان ماتضخم عددها، وانضم إليها مواطنون عاديون غاضبون من قرارات رفع الأسعار، واصطدمت بقوات الأمن فانتشرت فى أرجاء وسط البلد: ميدان التحرير، شارع سليمان، العتبة، الموسكى، حتى شبرا، الساحل، ووصلت إلى «مجلس الشعب»، وفى كل موقع كانت آثار الاشتباك العنيف، مع قوات الأمن، تترك آثارها الواضحة فى الأرض، وفى الجو الذى ظل طويلا محملا بآثار الاستخدام الكثيف للقنابل المسيلة للدموع![١٥]

من القاهرة والإسكندرية والمنصورة وبورسعيد والسويس... حتى أسيوط وقنا وأسوان، خرجت





كانت صرخة محاصرة بحشد قوات الأمن التى تحيط بها من كل جانب، لكنها مع ذلك، كانت صيحة قوية وقادرة على لفت الأنظار، والوصول إلى الأفئدة!

الملايين، صوت واحد، يهدر، فيرج الأرض رجاً:

- هو (أى السادات) بيلبس آخر موضه
واحنا بنسكن عشره فى أوضه!.
- هـو بيلبـس آخر موضـه
واحنا تاكلنـا السوق السوده!.
- هـو بيبنى فى استراحـات
واحنا نعـانى آهات وآهات!.
- هما بياكلوا حمـام وفـراخ
واحنا الجـوع دوخنا وداخ!.
- مش كفـايـه لبسنا الخيش
جايين ياخدوا رغيف العيش!.
- قولوا للنايم فى عابدين (قصر عابدين)
العـمال بيبـاتوا جعانين!.
- يا حاكمنا بالمباحـث
كل الشعـب بظلمك حاسس!.
- الصهيونى فـوق ترابى
والمباحـث علـى بابى!.
- يا أهالــــينا يا أهالينا
آدى مطـالبنا وآدى أمانينا:
- أول مطلـــب يا شبــاب
حــق تعـدد الأحزاب!.
- تانى مطلـــب يا جماهير
حــــق النشر والتعبير!.
- تالـــت مطلب يا أحرار
ربـط الأجـــر بالأسعار!.
- احنــا الطلبه مع العمال
ضــد حكومة راس المال!.

وكما كان متوقعا، واجهت السلطة مظاهرات الغضب بالعنف الدموى. وسقط المئات من الشهداء والجرحى... لكن زحف الشعب استمر كالطوفان الهادر، لا يقف فى طريقه شىء!.

وانهارت ممانعة جحافل الأمن التى طالما روعت الشعب، ومارست عدوانها على العزل من المواطنين!.

ولم ينقذ النظام سوى سحبه لقرارات رفع الأسعار، التى صدرت يوم ١٧ يناير، مصحوبا بنزول الجيش إلى الشارع لحفظ النظام، بعد أن تبدد جهاز القمع الخطير وتبخر فى مواجهة الملايين من أبناء الشعب!.

وقد سببت الانتفاضة، حرجاً بالغا للرئيس الأسبق، «أنور السادات»، وكاد بسببها أن يهرب بالطائرة من أسوان، بعد أن حاصرته أصوات الشعب الثائر، وبلغ من كراهيته لسيرتها أن ظل يسميها، حتى اغتياله: «انتفاضة الحرامية!».

وكالعادة، بحثت السلطة عن «شماعة» تعلق عليها جريمتها البشعة فى حق البلد!، فوجدت ضالتها فى عدو تاريخى: الشيوعيين، والناصريين، حيث أعلنت صبيحة يوم ١٩ يناير، وقبل إجراء أى تحقيق رسمى: أنه قد «تأكد لأجهزة الأمن أن العناصر الشيوعية، التى تعمل فى إطار شيوعى منظم، وبعض العناصر من الذين يسمون أنفسهم بالناصريين، تصر على تصعيد الموقف، وإحداث حالة من الفوضى لتنفيذ مخططها!».

وبناء على هذه النوعية المرسلة من الاتهامات المجانية، شن النظام حربا مفتوحة، فى مواجهة التنظيمات الشيوعية، الأربعة: (الحزب الشيوعى المصرى، التيار الثورى، حزب العمال الشيوعى، الحزب الشيوعى المصرى ٨ . يناير)، إضافة إلى التيار الناصرى، وسائر من «توسم» «فيهم رائحة اليسار، وقد تعرضوا جميعا لعملية هجومية ممنهجة، هدفها اجتثاثهم من الجذور، بعد أن أسبغ عليهم شرفا كبيراً باتهامهم بالتحريض على، وقيادة، الانتفاضة الشعبية المجيدة!.

ولما واجه الكاتب الراحل الكبير، «أحمد بهاء الدين »، الرئيس «السادات »، بحقيقة أن «أحدا من الشيوعيين لم يقبض عليه فى المظاهرات، وأن بعضهم أخذ من منزله القريب »، رد عليه «السادات»: «ما هى دى شطارتهم: يولعوا «الحريقة» ويجروا على بيوتهم، ويسيبوا الباقى للحرامية والأوباش!».

وأحال النائب العام ١٧٦ متهما، فى ٣١ مايو ١٩٧٧، (كان كاتب هذه السطور المتهم رقم ٧ من بينهم)، إلى المحاكمة، فى سبع قضايا متعلقة بأحداث اليومين الكبيرين، واستمرت المحاكمة على امتداد عامين كاملين، برياسة القاضى النزيه: حكيم منير صليب، الذى قضى ببراءة جميع المتهمين من التهم المختلقة، التى وجهتها النيابة للمتهمين، بالتحريض على العنف والتخريب، ومن إنشاء منظمات شيوعية تستهدف «قلب النظم الأساسية، السياسية والاقتصادية والاجتماعية للدولة، باستخدام القوة والإرهاب والوسائل غير المشروعة»!.

وصحيح أن الانتفاضة الشعبية فى ١٨ و١٩ يناير حققت جانبا من أهدافها، إلى حد كبير، بإسقاط قرارات رفع أسعار السلع الضرورية، لكن الأصح أن السادات، بعد أن استرد سيطرته على الوضع فى البلاد، أخذ ينكل بالمعارضة، وخاصة اليسارية، التى ظل يكن لها، حتى الممات كراهية عظمى، ورغم ذلك فقد انطبعت وقائع هذه الانتفاضة الشعبية المجيدة، فى الوجدان الشعبى العام، الذى عبر عن عميق احترامه لشهدائها، وحفرت «الانتفاضة الشعبية» اسمها، بمداد من خلود فى صفحات التاريخ المصرى الحديث![١٦].

(٣) «حركة كفاية»...

صرخة فى الزحام!

كان لابد أن تمر هذه السنوات الطوال، من ١٩٧٧ إلى ٢٠٠٤، حتى يتسمع الجميع، فى مصر والعالم، إلى صرخة «كفاية »، الضعيفة والمحاصرة، التى طرحت أعلى الأسقف السياسية المتاحة آنذاك: «لا للتمديد... لا للتوريث»، ورفضت الاعتراف بمهازل الانتخابات المزورة، والاستفتاءات المزيفة: «باطل!»، كانت صرخة محاصرة بحشد قوات الأمن التى تحيط بها من كل جانب، لكنها مع ذلك، كانت صيحة قوية وقادرة على لفت الأنظار، والوصول إلى الأفئدة!.

لكن هذه السنوات الطويلة لم تضع هباء، فلقد امتلأت بالعمل الوطنى، «القومى »، لخدمة القضية الفلسطينية، عبر «اللجان الشعبية لدعم الشعب الفلسطينى »، التى شاركت فى تجهيز حملات المساندة، المادية والطبية، لأشقائنا الفلسطينيين تحت الاحتلال، و«لجان مقاومة التطبيع مع العدو الصهيونى» و«مقاطعة البضائع الإسرائيلية والأمريكية»، وكذلك «لجان دعم الشعب العراقى»، وحملات «فك الحصار عن العراق»... وغيرها، وقد بدت نتائج هذه «التدريبات» وقت الانتفاضة الفلسطينية مفتتح العقد الماضى، وحينما وقع الاحتلال الأمريكى للعراق عام ٢٠٠٣، حين تدفق الآلاف من المحتجين، إلى وسط المدينة، فى أكبر التجمعات الاحتجاجية التى شهدتها البلاد قبل الثورة.

كانت «كفاية»، كما شبهتها فى كتابى المعنون: «رفة الفراشة»، الصادر عام ٢٠٠٦، عن «مطبوعات كفاية»، مستخدما أبياتا شعرية لـ «ديفيد ثورو»، يقول فيها:

«خفيفة هى الفراشة/ لكنها عميقة جداً بدلائلها/ تطير بحذر وتحط بحذر/ لكنها تدير حواراً جميلاً مع الهواء/ فيضطر معها أن يكون خفيفاً عليها/ إنها سيدة الهواء/ وهو بلا شك/ قابلٌ بهذه السلطة الجميلة!.

فقد استطاعت «الحركة المصرية من أجل التغيير» «كفاية» أن تؤثر تأثيرا كبيرا، داخل مصر وخارجها، فتأسست حركات عديدة على غرارها فى العديد من البلدان العربية، واتخذت لنفسها أسماء قريبة، وحاولت قوى سنغالية أن تؤسس حركة شبيهة، لكن الظروف لم تساعد!.

كان أهم ما فعلته حركة «كفاية «أنها كسرت حاجز الخوف من السلطة، وهزت ثقافة القمع والترهيب، وحطمت هالة القداسة التى كانت تحيط بالحاكم/ الإله، وعممت ثقافة الاحتجاج، وشجعت الجماهير على النزول إلى الشارع دفاعا عن الحق والمطالب، كما أنها فرضت معادلات جديدة للصراع تنطلق من امتلاك المبادرة، ورفض الاستكانة لردود الفعل أو لقواعد اللعبة التى وضعها النظام السابق، كما أسست «كفاية» لشرعية جديدة لا تتسول اعتراف النظام، وإنما تستند إلى شرعية الشارع، باعتباره نبض الشعب، صاحب السيادة، فضلا عن أنها جذبت إلى الحركة قطاعات واسعة من الشباب، برز الكثير منهم فيما بعد فى «٦ أبريل» وغيرها من جماعات الثورة الشبابية، شدته بأساليبها المبتكرة، إلى ساحة العمل الوطنى الجامع!.

والأهم مما تقدم، أن «كفاية «قدمت النموذج الملهم للعمل العام الجديد فى مصر، والمبنى على تعزيز «القواسم المشتركة» بين الفرقاء من مختلف الرؤى: (القومية والإسلامية والاشتراكية والليبرالية)، ودعم كل عمل جبهوى على أرض الواقع، وتخطى «الخندقة» السياسية، ونبذ سياسة الإقصاء، والتأكيد على وحدة كل القوى الوطنية فى النضال من أجل الحرية والكرامة البشرية،... إلخ.

كانت «كفاية»... «بروفة» ميدان التحرير يوم ٢٥ يناير، على أكثر من مستوى!:

- فهى أولا تجمع ممثل لكل قوى المجتمع وطبقاته، التى خرجت تقول بوضوح أن الوضع غير قابل للاستمرار، ولا بد من التغيير الفورى لجميع مكونات النظام، حتى يمكن فتح الطريق المغلق أمام التطور على كل المستويات، وهو ما حدث على مستوى أوسع فى الثورة.
- وهى رفضت العمل ضمن أفق السلطة، وقواعد اللعبة السياسية التى أرساها النظام السابق، وقبلت بها القوى السياسية (الرسمية)، الأمر الذى أدى إلى



شللها، وعجزها عن التواصل مع الناس والحياة، وهو ما حدث فى الثورة، التى رفعت منذ البداية شعار التغيير الشامل: «الشعب يريد إسقاط النظام »، ونجحت بإصرارها فى تحقيقه.

● وهى اعتمدت على القوى الشابة فى المجتمع، وطورت عبر تجمعاتها النوعية، (مثل: شباب من أجل التغيير)، علاقة خاصة مع أعداد منهم، لعبوا أدواراً بارزة فى جميع الأنشطة التى راكمت عناصر الثورة.

● وهى كانت سبّاقة إلى استكشاف قيمة الثورة التكنولوجية، ووسائل الاتصال الحديثة فى توصيل الرسائل السياسية للمجتمع والعالم، حينما استخدمت الفضائيات للتواصل، ولتخطى عقبة الحصار الأمنى الشرس، وهو الطريق الذى قطعت ثورة ٢٥ يناير أشواطًا أوسع عليه، باتجاه الاستفادة من الكمبيوتر، وشبكت الإنترنت، وشبكة التواصل الاجتماعى: الـ«facebook »... وغيرها.

● كما طرحت «كفاية» التغيير الداخلى باعتباره مفتاح أى تغيير فى السياسة الخارجية، على الضد مما كان سائداً، حيث كان النضال كله فى مواجهة أخطاء السياسة الخارجية للنظام، وبالذات فى سياق القضية الفلسطينية والعلاقات مع الولايات المتحدة الأمريكية.. وفى المقابل كان ذكاء الثورة المصرية، فى ٢٥ يناير، باديا ً فى التأكيد على التغيير الداخلى، حتى تنجح الثورة، وساعتها يمكن تناول باقى مظاهر الخلل فى السياسة الخارجية، التى هى بموجب التعريف، انعكاس موضوعى للسياسة الداخلية، وليس العكس[١٧].

ولم تكن حركة «كفاية» نهاية المطاف فى رحلة الثورة المصرية المعاصرة، منذ أن هتف الزعيم «أحمد عرابى» فى ساحة قصر عابدين، وسط الجيش الثائر: «لقد ولدتنا أمهاتنا أحراراً، ولم نخلق تراثًا أو عقاراً، ولن نورث بعد اليوم»، إلى أن هتف الثوار فى المظاهرات المليونية، وفى قلب «ميدان التحرير»: «تغيير... حرية... عدالة اجتماعية »..«خبز... حرية... كرامة إنسانية »... فلقد تعددت المحاولات والجهود فى الاتجاه نفسه، فتكونت «الجمعية الوطنية من أجل التغيير» وعشرات اللجان والجماعات التى كانت بمثابة روافد صغيرة، شقت المسار، وهيأت الأرض لفيضان النهر الكبير: نهر ثورة الخامس والعشرين من يناير الخالدة!.

جيل من بعد جيل، يحمل راية الوطن والثورة، حتى لا تسقط من الأيادى العفيّة، يعمل من أجل خير الإنسان المصرى، وفى سبيل تحقيق حلم شعب مصر فى دولة الحق والعدل والمواطنة والقانون... وحتى يصعد باسم مصر إلى مكانتها السامية المُستحقة. ■

الـــهـــوامـــش:

(١) لمزيد من التفاصيل حول هذه القضية، أنظر: إبراهيم السايح (الدكتور)، جذور السلبية الشعبية فى مصر، دار البستانى للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٢.

(٢) انظر: محمد العزب موسى، أول ثورة على الإقطاع، كتاب الهلال، العدد ١٨٢، مايو ١٩٦٦.

(٣) المصدر السابق، ص: ٧٣.

(٤) المصدر السابق، ص: ٨٢.

(٥) من وصايا «الفلاح الفصيح »، المصدر نفسه، ص: ١٢٠.

(٦) أنظر: حسين نصّار (الدكتور)، الثورات الشعبية فى مصر الإسلامية، منشورات إقرأ، الطبعة الثانية، بيروت، ١٩٨٠.

(٧) أنظر: حسنين كروم، ملامح الحرب الشعبية فى ثورات القاهرة، مجلة الهلال (عدد خاص: مصر المحاربة)، يونيه ١٩٧٠، ص: ٧٢.

(٨) لمزيد من التفاصيل، هناك عشرات المراجع عن هذه الفترة، منها تاريخ الجبرتى، وانظر: محمد عبد الرحمن حسين، كفاح شعب، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ص: ١٤ . ١٥.

(٩) المصدر السابق، ص ص: ٢٤ . ٢٢، وانظر أيضا: عبد الرحمن الرافعى، مصر المجاهدة فى العصر الحديث. الجزء الثانى، تاريخ مصر القومى: من ولاية محمد على إلى نهاية حكم سعيد، الطبعة الثالثة، دار الهلال، ١٩٨٩.

(١٠) المصدر السابق، ص ص: ٢٦ . ٣٢.

(١١) محمد أمين حسونه، كفاح الشعب من عمر مكرم إلى جمال عبد الناصر، المجلد الثانى، مطبعة جريدة الصباح، القاهرة، ١٩٥٥، ص: ٤٥، وانظر أيضا: عبد الهادى مسعود، ثورات مصر من أول عهد سعيد إلى آخر عهد توفيق، مطبعة مخيمر بالقاهرة، ص ص: ٢٠٩ . ٢٩٢.

(١٢) سعيد عبد الفتاح عاشور (الدكتور)، ثورة شعب: عرض للحركة الوطنية فى مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين، مع دراسة تفصيلية لثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، دار النهضة العربية، الطبعة الأولى، ١٩٦٤، ص ص: ١١٠ . ١١٢.

(١٣) أحمد عبد الله رزّة (الدكتور)، الطلبة والسياسة فى مصر، ترجمة: إكرام يوسف، دار سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٩١، ص ص: ٨٢ . ٩٧.

(١٤) المصدر السابق، ص ص: ٢٣٠ . ٢٤٢.

(١٥) أنظر شهادة الكاتب الشخصية عن يومى الانتفاضة، فى: أحمد بهاء الدين شعبان، ٤٨ساعة هزت مصر، دار هفن للترجمة والنشر والبرمجيات، الطبعة الأولى، القاهرة، ٢٠٠٩، ص ص: ٣٥. ٦٧.

(١٦) تحليل الظروف الاقتصادية والسياسية، التى سبقت وواكبت وتلت وقائع انتفاضة ١٨و١٩يناير، موضحة فى: حسين عبد الرازق، مصر فى ١٨و١٩ يناير: دراسة سياسية وثائقية، دار شهدى للنشر، القاهرة ١٩٨٥.

(١٧) لمزيد من التفاصيل حول تاريخ حركة «كفايه» ونضالاتها، أنظر: أحمد بهاء الدين شعبان، رفّة الفراشة: كفايه . الماضى والمستقبل، مطبوعات كفايه، القاهرة، ٢٠٠٦.

كتـــاب الــزاويـــة

أغنية الكعكة الحجرية

أمل دنقل

(٣)

(الإصحاح الرابع)

دقت الساعةُ القاسيةْ
وقفوا فى ميادينها الجَهْمَة الخاويةْ
واستداروا على درجاتِ النصبْ
شجراً من لَهَبْ
تعصف الريحُ بين وُرَيقاته الغضة الدانية
فَيَئِن: «بلادى.. بلادى»
(بلَادى البعيدة!)
... ...
دقت الساعةُ القاسيةْ
«انظروا» هتفت غانيةْ
تتمطى بسيارة الرقم الجُمْرُكى..
وتمتمت الثانيه:
سوف ينصرفون إذا البرْدُ حَلَّ.. وَرَانَ التعبْ
... ...
دقت الساعةُ القاسيه
كان مذياعُ مقهى يذيع أحاديثَ الباليةْ
عن دُعاة الشغب
وهم يستديرون
يشتغلون ـ على الكعكة الحَجَريَّة ـ حول النُّصبْ
شمعدانَ غَضبْ
يتوهجُ فى الليل
والصوتُ يكتسحُ العتمةَ الباقيةْ
يَتَغَنى لليلةِ ميلادِ مصرَ الجديدة!

(الإصحاح الخامس)

اذكريني!
فقد لوَّثتى العناوينُ فى الصحف الخائنةْ!
لَوّنَتنى.. لأنِّى منذ الهزيمةِ لا لونَ لى
(غير لون الضياع)
قبلَها.. كنت أقرأ فى صفحة الرملِ
والرملُ أصبح كالعُمْلة الصعبَة
الرملُ أصبح أبْسطَة.. تحت أقدام جيش الدفاع)
فاذكرينى، كما تذكرين المُهَرِّب.. والمطربَ العاطفى..
وكَابَ العقيد.. وزينة رأس السنةْ
اذكرينى إذا نَسيتنى شُهُودُ العيانِ
ومَضْبَطَةُ البرلمان
وقائمةُ التُّهم المعْلَنَةْ
والوداع!
الوداع!

السـيد أوبـامـا...

إحدى الإجابات المحتملة، وتأتى ضمنا فى تغطية وسائل الإعلام الرئيسة، هو أن الجيش المصرى على عكس نظيره الصينى قرر ألا يسحق التمرد، وأتاح هذا الرفق من جانب الجيش الفرصة لنجاح الاحتجاج. بيد أن هذه الحجة التى تبدو معقولة، لا تفسر فى الواقع أى شىء،



مايكل شوارتز

Michael Schwartz

■■ مذكّرة إلى الرئيس أوباما: نظرا لعدم وجود جهاز مخابرات ذكى وعدم كفاية نصائح مستشاريك؛ فإنه لم يكن مفاجئا أن تعاطيك مع الانتفاضة المصرية قد سجّل معايير جديدة لاضطراب السياسة الخارجية وعدم كفاءتها. قد يكون ما حدث درسا أوليا لك حول كيفية الحكم على القوة التى يمكن أن يستخدمها الاحتجاج الشعبى لتتمكن من إعداد نفسك إعدادا أفضل للجولات القادمة من الاضطرابات السياسية.

هل تذكرت انتفاضة الشباب الصينى فى ميدان السلام السماوى (تيانانمن) ببكين فى صيف ١٩٨٩؟ لقد كانت هى أيضا احتجاجا سلميا ضخما من أجل الديموقراطية، إلا أن العنف الوحشى سحقها. قد تكون ذكرى هذا الحدث قد أقنعتك أنت وفريقك أن نظام مبارك «مستقر» و«لا يواجه خطر السقوط»، كما أعلنت وزيرة الخارجية كلينتون عندما بدأت الاحتجاجات. أو ربما كنت تضع ثقتك فى حقيقة أن هذا النظام يتميز بجيش حديث منظم، دربته الولايات المتحدة الأمريكية وأمدته بالعتاد.

إلا أن نظام مبارك سقط، وكان عليك أن تعرف أنه فى خطر محدق. كان عليك أن تعرف أن احتمالات نجاح هذه الثورة كانت أفضل بكثير من تلك التى انتهت بمذبحة فى ميدان السلام السماوى؛ وأنها على الأرجح ستتبع نمط قوة الشعب فى تونس التى طردت قبل أسابيع معدودة حاكما آخر مطلق السلطة، أوما حدث فى إيران فى ١٩٧٩ وبولندا فى ١٩٨٩.

ونظرا لأن العاملين بأجهزة استخباراتك، بما فى ذلك وكالة الاستخبارات المركزية (CIA)، لم يخبروك كما هو واضح؛ دعنى أفسر لك لماذا أثبت المتظاهرون المصريون أنهم أكثر نجاحا بكثير فى صد التهديد بالعنف والاستخدام الفعلى له أكثر من رفاقهم الصينيين، ولماذا كانوا أفضل عتادا فى ردعهم أى هجوم من القوات النظامية.

والأهم من ذلك، دعنى أطلعك على السبب وراء نجاحهم-بمجرد بقائهم فى الشوارع والتمسك بالتزامهم بعدم العنف-فى إسقاط طاغية حكم لمدة ٣٠ عاما، بدعم من الولايات المتحدة، من قمة السلطة وإلقائه إلى مزبلة التاريخ.

متى يختار الجيش أن يكون غير عنيف؟

إحدى الإجابات المحتملة، وتأتى ضمنا فى تغطية وسائل الإعلام الرئيسة، هو أن الجيش المصرى على عكس نظيره الصينى قرر ألا يسحق التمرد، وأتاح هذا الرفق من جانب الجيش الفرصة لنجاح الاحتجاج. بيد أن هذه الحجة التى تبدو معقولة، لا تفسر فى الواقع أى شىء، ما لم نتمكن من الإجابة عن سؤالين متشابكين يصدران عنها.

السؤال الأول: لماذا تحلى الجيش بضبط النفس هذه المرة، بينما كان لمدة خمسين عاما «يقف فى قلب الدولة البوليسية القمعية»؟ والثانى هو: لماذا لم تستطع الحكومة-حتى مع عدم استعداد الجيش لتوجيه أسلحته إلى المتظاهرين-أن تحتمل بضعة أيام أو أسابيع أو أشهر أخرى، فى انتظار أن تستنفد الثورة نفسها أو كما وصفت إذاعة الـ«بى بى سى». الأمر «حتى يتبدد الموقف كله»؟

يكمن الجواب على كلا السؤالين فى الأثر الملحوظ للاحتجاج على الاقتصاد المصرى. لقد أصيب مبارك وأعوانه بالذعر (وكذلك الجيش والذى هو مركز القوة فى البلاد) من حقيقة أن شلل النشاط الاقتصادى فى مصر والناجم عن الاحتجاجات كان له تأثير هائل على الاقتصاد المصرى المتهالك. وكما قال وزير المالية سمير رضوان بعد أسبوعين من الثورة المصرية، كان الموقف الاقتصادى «خطيرا جدا»، وأنه كلما طال استمرار فترة الجمود، زاد ضررها.

منذ بدايتها، هددت الاحتجاجات الضخمة مليارات الدولارات التى جمعها القادة والمستفيدون الرئيسيون فى نظام مبارك خلال عهده الذى استمر ثلاثين عاما من الإرهاب والفساد وتكديس الثروات. بالنسبة لقادة الجيش بصفة خاصة، كان واضحا بالتأكيد أن الأعمال الوحشية الكثيفة اللازمة لقمع الثورة من الممكن أن تسبب ضررا لا يمكن إصلاحه يهدد مصالحهم الاقتصادية الواسعة. وبعبارة أخرى، فإن محاولة انتظار الثوار حتى تنتهى قدرتهم على الثورة، أو محاولة فرض الحل الذى نفذ فى ميدان السلام السماوى كان سيخاطر بسقوط الامبراطوريات الاقتصادية للفئات الحاكمة فى مصر.

لكن لماذا قد تؤدى أى من هاتين الاستجابتين إلى تدمير الاقتصاد؟

استنفاد الحياة من نظام مبارك

ببساطة، كان للثورة المصرية منذ بدايتها تأثير الإضراب العام. فمنذ يوم ٢٥ يناير/كانون الثانى، وهو اليوم الأول للاحتجاج، شهدت السياحة انهيارا سريعا، والسياحة هى أكبر نشاط اقتصادى فى مصر، وكانت قد بدأت لتوها

Michael Schwartz is a professor of sociology and faculty director of the Undergraduate College of Global Studies at Stony Brook University.

خـدمة: Tom Disptch

ترجمة: مازن النجار

مبــــــارك ســــــقـط



موسم نشاطها. بعد أسبوعين، كان هذا النشاط الاقتصادى قد توقف تماما، تاركا جزءا كبيرا من مليونى موظف يعملون بالسياحة يتعرضون لخفض أجورهم أو تلاشيها تماما، والسياح القلائل الباقون كانوا يتجولون فى الفنادق الخالية، يرون الأهرامات-إذا حدث ورأوها-فى التلفاز فقط.

ونظرا لأن الأهرامات وغيرها من المواقع المصرية الأخرى تجتذب أكثر من مليون زائر شهريا ويقوم عليها نحو ٥ بالمائة على الأقل من الاقتصاد المصرى، فإن السياحة وحدها (نظرا للأثر المضاعف القياسى) ربما تقدم أكثر من ١٥ بالمائة من التدفق النقدى فى البلاد. إذا ليس من المستغرب أن التقارير الإخبارية سرعان ما بدأت تذكر أن الخسائر فى العائدات الاقتصادية تبلغ نحو ٣١٠ ملايين دولار يوميا. فى اقتصاد يصل الناتج المحلى الإجمالى السنوى فيه إلى أكثر من ٢٠٠ مليار دولار، فإن كل يوم يتشبث فيه مبارك بالسلطة ينتج عنه انخفاضا ملموس ومتزايد فى هذا الناتج المحلى الإجمالى السنوى. بعد أسبوعين من هذه القنبلة الموقوتة، قامت مؤسسة «كريدى أجريكول»، وهى أكبر مجموعة مصرفية فى فرنسا، بخفض تقديراتها لنمو اقتصاد البلاد بنسبة ٣٢ بالمائة.

إن الخسائر الأولية الهائلة فى قطاعات السياحة والفنادق والسفر فى الاقتصاد المصرى ضربت أنشطة تجارية تهيمن عليها شركات ضخمة متعددة الجنسيات ومجموعات من الشركات المصرية الكبرى التى تعتمد على تدفق مستمر من العائدات. حتى عندما يتوقف التدفق النقدى، لابد من الاستمرار فى سداد دفعات القروض، وصيانة الفنادق، والحفاظ على جداول رحلات الطيران، ودفع رواتب العديد من الموظفين وخاصة لمن هم فى المراكز التنفيذية. فى مثل هذه الحالة، تشهد الخسائر تصاعدا سريعا، ويمكن أن تتعرض حتى أكبر الشركات للأزمات بسرعة. كان الوضع منذرا بالسوء بصفة خاصة لأن المعلوم أن السائحين المفزوعين من غير المرجح أن يعودوا مرة أخرى، حتى يتأكدوا من عدم حدوث مزيد من الاضطرابات.

إن الشركات الكبرى الوطنية ومتعددة الجنسيات ليست عادة عرضة للتعطل. وهى التى من المرجح أن تكون الأسرع تحركا لوقف موجة الخسائر المالية من خلال تحريضها للحكومة على قمع مثل هذا الاحتجاج بأقصى سرعة. بيد أن الحجم الهائل المتزايد للمظاهرات فى أيامها الأولى، وتوجه المجتمع المدنى الحاشد الذى مزق بوضوح ثلاثين عاما من السلبية، كان مذهلا. الاستجابة الشجاعة القوية لهجمات الشرطة، والتى واجه قمعها حشود المتظاهرين الجدد المتدفقين إلى الشوارع، جعلت من الواضح أن وحشية القمع لن توقف هذه الاحتجاجات بسرعة. كانت مثل هذه الأعمال القمعية على الأرجح تزيد من إطالة مدة الاضطرابات وربما تزيد من شدة الثورة.

حتى لو كانت واشنطن بطيئة الاستيعاب، فإن الطغمة المصرية الحاكمة التى لا تكف عن القمع لم تستغرق وقتا طويلا لتدرك حقيقة أن القمع العنيف واسع النطاق كان استراتيجية مستحيلة التنفيذ. فبمجرد أن شملت المظاهرات مئات الآلاف-إن لم يكن ملايين- المصريين، صار القمع الدموى الضخم يضمن شللا اقتصاديا على المدى الطويل ويضمن أن النشاط السياحى لن ينتعش لشهور قادمة أو أطول من هذا.

كان الشلل فى النشاط السياحى بحد ذاته قنبلة اقتصادية موقوتة تهدد بقاء الطبقة الرأسمالية المصرية، طالما استمرت المظاهرات. وما كان للانتعاش أن يبدأ إلا بعد «العودة إلى الحياة الطبيعية»، وهى العبارة التى أصبحت مرادفة لإنهاء الاحتجاجات فى خطاب الحكومة والجيش ووسائل الإعلام الرئيسة. ومع هذا العدد الكبير من الثروات على المحك، بدأت بسرعة فئات الأنشطة التجارية الأجنبية والمحلية فى الترحيب بالحل الأكثر وضوحا والأقل تخريبا، ألا وهو: رحيل مبارك.

خنق نظام مبارك

إلا أن الهجوم على السياحة كان فقط الضربة الأولى فيما أصبح بسرعة سلاح المتظاهرين الحقيقى فى التعطيل الشامل، وهو الإمساك بخناق الاقتصاد. وبسرعة اجتاحت المظاهرات أنشطة الاتصالات والنقل المهمة بالاضطراب والتعطيل. فى البداية أغلقت الحكومة الإنترنت وخدمات الهاتف المحمول فى محاولة لحرمان المتظاهرين من وسائل الاتصال والتنظيم، بما فى ذلك مواقع فيسبوك وتويتر. وعندما أعيد فتح هذه الخدمات، كانت تعمل على نحو ناقص، ويرجع هذا جزئيا إلى السلوك المتمرد المتزايد للموظفين العاملين فيها.

لوحظت تأثيرات مماثلة فى قطاع النقل والمواصلات التى أصبحت لا يمكن الاعتماد عليها ومتقطعة، إما لإغلاق الحكومة لها بهدف شل المظاهرات أو لأن المظاهرات تدخلت فى العمليات العادية لها. انتشرت هذه الاضطرابات بسرعة إلى كثير من قطاعات الاقتصاد، من الخدمات المصرفية إلى التجارة الخارجية، والتى كانت الاتصالات والنقل والمواصلات مهمة بالنسبة لها.

مع تنامى المظاهرات، انشغل الموظفون والعملاء

السيد أوباما.. مبارك سقط



بعد كل تصعيد جديد للاحتجاجات، كان مبارك وأعوانه يقدمون تنازلات جديدة بهدف تهدئة الحشود. وكان المتظاهرون بدورهم يعتبرون ذلك علامات ضعف



والموردون بمختلف الأنشطة التجارية فى الإعداد لآخر احتجاج أو المشاركة فيه أو التعافى منه، أو حماية المنازل من النهابين والمجرمين بعد أن استدعت الحكومة قوات الشرطة وأمرتهم بترك الشوارع. فى أيام الجمعة بصفة خاصة، غادر الكثير من الناس أعمالهم للانضمام إلى المتظاهرين خلال صلاة الجمعة، تاركين مكاتبهم، بينما تجتاح البلاد مظاهرة كبيرة أخرى قادمة ثم التى تليها.

مع استمرار واستدامة المظاهرات، ولما كان كل تصعيد جديد يطابق ما سبقه أو يتجاوزه، استمر الاقتصاد فى الاحتضار، بينما أصبحت النخب السياسية والاقتصادية فى حاجة ماسة أكثر من أى وقت مضى لإيجاد حل للأزمة.

الفئران تغادر سفينة النظام الغارقة

بعد كل تصعيد جديد للاحتجاجات، كان مبارك وأعوانه يقدمون تنازلات جديدة بهدف تهدئة الحشود. وكان المتظاهرون بدورهم يعتبرون ذلك علامات ضعف لا تزيدهم إلا اقتناعا بقوتهم، مما ضخم الحركة وقادها إلى قلب الطبقة العاملة المصرية والنقابات المهنية المختلفة. فمع بداية الأسبوع الثالث من المظاهرات، بدأت الاحتجاجات تصل مباشرة إلى المؤسسات المهمة.

فى ٩ فبراير/شباط، بدأت ترد تقارير عن اتساع موجة الاضطرابات فى الصناعات والمجالات الرئيسة بجميع أنحاء البلاد، مثل المحامين والعاملين فى المجال الطبى وغيرهم من المهنيين الذين خرجوا أيضا بشكاواهم إلى الشوارع. فى يوم واحد، كان عشرات الآلاف من العاملين فى مصانع النسيج، والصحف وغيرها من شركات وسائل الإعلام، والهيئات الحكومية (بما فى ذلك مكاتب البريد)، وعمال الصرف الصحى، وسائقو الحافلات-والأهم من هذا كله-من العاملين فى قناة السويس، قد بدأوا يطالبون بامتيازات اقتصادية فضلا عن رحيل مبارك.

ونظرا لأن قناة السويس تأتى فى المرتبة الثانية مباشرة بعد السياحة كمصدر للدخل القومى فى البلاد، فإن وجود اعتصام هناك يشمل أكثر من ٦ آلاف عامل كان منذرا بالسوء على نحو خاص. ورغم أن المتظاهرين لم يبذلوا أى جهد لإغلاق القناة، إلا أن التهديد الذى يواجه تشغيلها كان بديهيا.

كان إغلاق القناة سيعتبر كارثة عالمية وليست مصرية فقط: فنسبة كبيرة من إمدادات العالم النفطية تمر عبر القناة، مما يجعلها ذات أهمية كبرى لأوروبا المتعطشة للطاقة. والتهديد الكبير بمجرد تباطؤ الشحن عبر القناة-ناهيك عن إغلاقها-يمكن أن يؤدى إلى تجديد محتمل للركود العالمى الذى حدث فى عامى ٢٠٠٨ و٢٠٠٩، حتى لو كان هذا يغلق مصدرا رئيسا للدخل الثابت للحكومة المصرية.

وكأن ذلك لم يكن كافيا، قام المتظاهرون بتحويل انتباههم إلى مختلف المؤسسات الحكومية فى محاولة لشل قدرتها على العمل. اليوم الذى تلا الرفض الثالث للرئيس لأن يتنحى، أعلن المتظاهرون أن العديد من عواصم المحافظات-بما فى ذلك السويس والمحلة والمنصورة والإسماعيلية وبورسعيد وحتى الإسكندرية (الميناء الرئيس للبلاد على البحر المتوسط) -قد غدت «خالية من النظام»، وأنه تم تطهيرها من مسئولى مبارك، ومؤسسة الاتصالات التى تسيطر عليها الدولة، وقوات الشرطة والأمن البغيضة. فى القاهرة عاصمة البلاد، بدأ المتظاهرون يطوقون البرلمان ومبنى التلفزيون الحكومى، وغيرها من المراكز الهامة لحكومة البلاد. وقال علاء عبد الفتاح، ناشط سياسى ومدون معروف فى القاهرة، للبرنامج الإخبارى (الديموقراطية الآن) «إن الحشد يمكن أن يستمر فى التصاعد إما نحو أماكن أخرى أو الانتقال إلى داخل هذه الأماكن بالفعل؛ إذا ما اقتضى الأمر». فى ظل اختناق الاقتصاد حتى الموت، بدأ المتظاهرون فى التحرك لوضع أجهزة الحكومة ذاتها تحت سيطرتهم المحكمة.



عند هذه النقطة، اندلعت ظاهرة هروب الفئران من السفينة الغارقة، وظهرت واضحة جلية للعيان، حيث نشرت العديد من الشركات الكبيرة إعلانات فى الجرائد المحلية تضع مسافة فيها بينها وبين النظام. وقد أكد جاك شنكر مراسل جريدة الجارديان هذا التوجه العام نقلا عن مصادر مطلعة من وسط رجال الأعمال يصف «انتشار الهلع فى مجتمع الأعمال حول قدرة النظام على الاستمرار»، وأن «الكثير من الناس الذين قد تعتقد أنت أنهم على علاقة سرية مع مبارك قد بدأ صبرهم ينفد سرا».

كان هذا بمثابة تضييق الخناق حول رقبة نظام مبارك، وهو ما جعل هذه الاحتجاجات الكبيرة خلال الأسابيع الأخيرة تختلف كثيرا عن تلك التى كانت فى ساحة ميدان السلام السماوى ببكين. ففى الصين، لم يكن للمتظاهرين أى نفوذ اقتصادى أو سياسى، بينما فى مصر، كان خيار الهجوم العسكرى الوحشى، حتى لو أنه سيكون «ناجحا».فى إجبارهم على إخلاء الشوارع، لم يكن ليفعل شيئا سوى ضمان تعميق الأزمة الاقتصادية المتردية أصلا، معرضا المجالات الاقتصادية الواسعة، وكذلك ثروة الجيش، لمخاطر كارثية لا يمكن إصلاحها.

لربما كان مبارك على استعداد للتضحية بكل هذا من أجل البقاء فى السلطة. وعندما حدث هذا، وجدت مجموعة متزايدة من أصحاب الحل والعقد، وتتضمن القيادة العسكرية وكبار رجال الأعمال ومستثمرين أجانب وحكومات أجنبية مهتمة، حلا أكثر جاذبية.

كان وائل زيادة وهو رئيس قسم الأبحاث فى شركة مالية مصرية كبرى يتحدث بلسان طبقة الساسة ورجال الأعمال عندما أخبر جاك شنكر مراسل صحيفة الجارديان فى ١١ فبراير، قائلا: «إن المشاعر المناهضة للحكومة لن تهدأ، وإنما تكتسب زخما... هذه الموجة الأخيرة تسبب ضغطا كبيرا جدا ليس فقط على الحكومة وإنما على النظام بأكمله، لقد أوضح المتظاهرون مطالبهم وليس من سبيل للعودة إلى الوراء الآن. كل شىء يسير فى طريق واحد. هناك اثنان أو ثلاثة من السيناريوهات، إلا أنها جميعا تنطوى على الشىء نفسه: أن يتنحى مبارك، ومجتمع رجال الأعمال يضبط توقعاته وفقا لذلك».

فى اليوم التالى، استقال مبارك وغادر القاهرة.

أيها الرئيس أوباما: تذكّر هذا الدرس: إذا ما كنت تريد أن تتجنب فى المستقبل كراهية الناس لسياساتك المستقبلية الخارجية، عليك أن تدرك أن الاحتجاج غير العنيف لديه القدرة على خنق أكثر الأنظمة وحشية، إن كان بإمكانه أن يهدد نهائيا بقاء الأنشطة التجارية الأساسية بها. فى ظل هذه الظروف، يمكن لحركة جماهيرية مجهزة بأسلحة مخيفة تتمثل فى التهديد بالاضطراب الشامل أن تطيح بالطاغية المجهز بأعتى أسلحة الدمار الشامل.

مايكل شوارتز هو أستاذ فى علم الاجتماع ومدير هيئة التدريس بكلية الدراسات العالمية فى جامعة ستونى بروك. ■



قال علاء عبد الفتاح، ناشط سياسى ومدون معروف فى القاهرة: «إن الحشد يمكن أن يستمر فى التصاعد إما نحو أماكن أخرى أو الانتقال إلى داخل هذه الأماكن بالفعل؛ إذا ما اقتضى الأمر»

الديموقراطية

المأزق الأمريكى فى مصر



من المرجح أن يؤدى إسقاط مبارك إلى خيبة أمل زملائه فى الأردن والجزائر والسعودية والعراق والمغرب وآخرين فيما يتعلق بالضمانات الأمريكية لأمن النظم الحاكمة فى الشرق الأوسط



نصير عاروری

■■ فى الوقت الذى قام فيه ملايين من أنصار الديموقراطية بتحصين أنفسهم بمتاريس فى ميدان التحرير بالقاهرة لثمانية عشر يوما قبل أن ينزل حسنى مبارك على إرادتهم أخيرا ويتخلى عن موقعه كرئيس للجمهورية، أمطر الرئيس أوباما الشباب المصريين بالثناء السخى على الذين حققوا تغييرا ثوريا لم يسبق له مثيل فى مصر. إن كلمته المرحبة باستقالة مبارك وضعت نهاية لسياسة الولايات المتحدة التى تأرجحت بين الدعوة لرحيل مبارك على الفور، وإعادة الهيكلة الشاملة للنظام، و«الانتقال السلس». وجه الشعب المصرى إلى الديكتاتور اتهامات بالفساد والتربح والتعذيب وحرمانهم من حقوق الإنسان الأساسية والحريات المدنية. كان عميلا للولايات المتحدة وحليفا رئيسا لإسرائيل، جلب على نفسه حنق الملايين من العرب، بالإضافة إلى حنق المصريين. وبشرت الثورة المصرية فعلا بإحداث زلزال إقليمى وارتباك فى توازن القوى الإقليمى والعالمى. وهنا يكمن سر التحرك العشوائى لإدارة أوباما، وهو ما أعطى لسياسة الولايات المتحدة طابعا مفككا، إن لم يكن مظهرا مرتبكا تماما. الآن وبعد الاختباء وراء شعارات مثل التدرج، والخلافة المنظمة، والحاجة لمنع الفوضى، وقفت سياسة الولايات المتحدة صراحة إلى جانب الحركة المؤيدة للديموقراطية.

من المرجح أن يؤدى إسقاط مبارك إلى خيبة أمل زملائه فى الأردن والجزائر والسعودية والعراق والمغرب وآخرين فيما يتعلق بالضمانات الأمريكية لأمن النظم الحاكمة فى الشرق الأوسط، بما يجعلهم فى موقف لا يقل خطورة عن موقف المارشال كى والجنرال ثيو فى فيتنام فى سبعينيات القرن العشرين، وغيرهم من طغاة أمريكا اللاتينية خلال القرن الماضى. من هنا كانت استراتيجية الولايات المتحدة فى مرحلة ما قبل تنحى مبارك تقوم على احتمال استبدال اللص القمعى ليحل محله الجلاد الملطخ بالدماء. هذا الأخير هو عمر سليمان والذى ربما كان سيصل إلى الرئاسة، ويضمن أن يستمر نظام مبارك بدون مبارك. كان الوضع الراهن سيستمر على ما هو عليه، وكان النظام سيبقى على حاله. كان هذا هو السيناريو الذى يكمن وراء نهج أوباما المتذبذب. إلا أنه بعد أن تنحى مبارك يظل هذا السيناريو كما هو مجرد سيناريو. فقد كان أوباما مبتهجا وهو يبارك الثورة وينتظر الخطوة التالية.

أصبح لدى الولايات المتحدة-باعتبار أنها نصبت نفسها متحكما بالتوازن الاستراتيجى الإقليمى-فرصة نادرة لإعادة تقييم سياساتها المتعثرة فى الشرق الأوسط لدرء أى كارثة أخرى، ولتعزيز الاستقرار واستعادة الهدوء إلى المنطقة المترنحة. اتهمت الحركة المصرية المؤيدة للديموقراطية النظام بالسلوك المعادى للديموقراطية، وبالانتهاك الصارخ لحقوق الإنسان والحكم الديموقراطى.

منذ أحداث ١١ سبتمبر/أيلول ٢٠٠١، قدمت الإدارات الأمريكية شعار الديموقراطية كعلاج لهذا الورم الخبيث الذى نشأت عنه كارثة ١١ سبتمبر. فقد افترض المحافظون الجدد فى عهد بوش أنه يتعين إعادة تأهيل الثقافة التى ينتج منها مرتكبو مثل هذه الجرائم الإرهابية-إن لم يكن إعادة هيكلتها-بجرعات قوية من المبادئ الديموقراطية والقيم الإصلاحية. بيد أن إشكالية هذا العلاج، هى أن الديموقراطية ليست سلعة مناسبة لعملية التصدير والاستيراد، وهى العملية التى تستلزم درجة معينة من تحقيق المكاسب المالية أو الاستراتيجية. فالمُصدِّر المفترض (الولايات المتحدة) والمستورد (العرب فى هذه الحالة) لا يتشاركان نسقا متبادلا للمكاسب المتبادلة.

هناك ميراث استعمارى وثقافة سياسية ضعيفة تحول دون نشر الديموقراطية فى العالم العربى منذ قرون. وما دامت المنطقة مطمعا للقوى الأجنبية المصرة على الهيمنة، فستبقى الديموقراطية خارج جدول الأعمال الحقيقى إلى أجل غير مسمى. إن الديموقراطية تستلزم الاستقلال، بينما يفترض الاستعمار التبعية. لم يتغير جوهر هذا الانقسام منذ الإبعاد القسرى للقادة المحليين ذوى التفكير المستقل على يد القوى الأجنبية منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر.

لكن ما هو نوع الديموقراطية التى تخطط واشنطن لتصديرها إلى العرب؟ إنها ليست النوع المرتبط بالمساواة والعدالة الاجتماعية، ولا هى العدالة السياسية الغربية التى تتميز بالانتخابات والحريات المدنية والفصل بين السلطات وحكم الأغلبية وغيرها من أدوات المشاركة السياسية. ومع ذلك، تجدر الإشارة هنا إلى أن حكم الأغلبية والذى يعد مبدأ أساسيا من مبادئ الديموقراطية السياسية، لا يضمن بالضرورة احترام حقوق الإنسان. فقد أيدت أغلبية السكان فى المجتمعات الديموقراطية غالبا السياسات التى تنطوى على انتهاكات خطيرة لحقوق الإنسان.

فعلى سبيل المثال، أيدت غالبية الشعب الأمريكى سياسات الفصل العنصرى، والتى حظيت بتصديق رسمى من المحكمة العليا (وهى ليست مؤسسة تمثل الأغلبية) منذ عام ١٨٩٧ (قضية بليسى ضد فرجسون)، وحتى (قضية براون ضد مجلس التعليم). علاوة على ذلك، فقد أيد أغلبية الشعب الأمريكى الاستعمار الاستيطانى، وقبلوا الإبادة الجماعية للهنود الحمر، وتقطيع أوصالهم. الأغلبية أيضا أيدت استعمار الولايات المتحدة الاقتصادى لدول أمريكا الوسطى والجنوبية لمدة ثلاثة قرون. وأيدت الأغلبية أيضا السياسات التى تتعامل برفق مع منتهكى حقوق الإنسان فى الفلبين فى عهد ماركوس، وفى هيتى فى عهد دوفالييه، وكوريا الجنوبية فى عهد بارك، وفى إيران فى عهد الشاه، وفى زائير فى عهد موبوتو، وفى إندونيسيا فى عهد سوهارتو، والقائمة طويلة تتسع للمزيد. والواقع أن غالبية الأمريكيين إما أنهم دعموا أو قبلوا السياسات التى دعمت الحكام العرب المستبدين والقتلة الإسرائيليين.



بالتعاون مع:
Counterpunch

Naseer Aruri is Chancellor Professor (Emeritus) of Political Science at University of Massachusetts Dartmouth. His latest book (with the late Samih Palestine and the Farsoun) is Palestinians: A Social and Political History”

ترجمة: مازن النجار



ربما ظلت فلسطين، مع حركة فتح أيضا، كإقطاعيتين لعباس إلى أجل غير مسمى. وكذلك حكم «المباركية»، حتى من دون مبارك



الآن، وبعد انهيار الامبراطورية السوفياتية، استغل بوش الأب وكلينتون سلاح الديموقراطية والعولمة كدعامة لمنظومتهما العالمية الجديدة. بدأ خليفة كلينتون، جورج بوش الابن، رئاسته كرئيس لا يؤمن بأمور مثل العولمة وبناء الأمة وتعليم الديموقراطية. لكن المأساة المروعة فى ١١ سبتمبر/أيلول أتاحت له فرصة لتوظيف هذه المشروعات فى خدمة نشر الهيمنة الأمريكية وتوطيد الحكم الامبراطورى. فى نوفمبر/تشرين الثانى ٢٠٠٣، قام جورج بوش بصياغة عبارة جديدة فى سعيه لتحقيق الأمن القومى الأمريكى: «الثورة الديموقراطية العالمية». وقيل لنا إن العراق وأفغانستان هما «المستفيدتان» من هذه الثورة. ربما تكون المملكة السعودية وربما إيران أيضا وآخرون قد شملتهم خطط بوش الثورية الديموقراطية. قد يعنى هذا تغييرا ثقافيا مفروضا من الخارج، والذى قد يحرر ويُعلْمِن هذه المجتمعات التى تغمرها روح الدين، وهى ما يفترض أنها تجعل تلك المجتمعات متقبلة للإرهاب.

قد يبدو غريبا هذه المرة أن يتم توجيه مثل هذه الاتهامات ضد حليف للهيمنة الأمريكية، وإحدى دعائمها فى الشرق الأوسط لما يقرب من الستة عقود. فليس الأمر كما لو أن المملكة العربية السعودية قد تخلت فجأة عن نظامها القديم للقيم والأسس التى تقوم عليها العلاقة الخاصة التى تربط البلدين ببعضهما طوال كل هذه السنوات. فى الواقع، وكما نعلم جميعا، فقد شجعت الولايات المتحدة وعززت سياسات تتعارض مع الديموقراطية الليبرالية، والعلمانية وحقوق الإنسان فى إيران فى عهد الدكتور محمد مصدّق، وفى المملكة العربية السعودية، وفى دول أخرى فى العالم العربى.

افترض ملحق (تعهدات) ريجان فى عام ١٩٨٣ كأمر مسلم به أن الولايات المتحدة لن تسمح بأى ثورات محلية فى الجزيرة العربية. فقال الرئيس ريجان: «إن المملكة العربية السعودية لن تصبح إيرانا أخرى». وهكذا، فى حين أنه من الطبيعى للنظام السياسى الأمريكى أن تتعاقب فيه النخب السياسية كل أربع سنوات أو نحو هذا، فإنه ليس مسموحا للسعوديين أن يحذوا حذوها. وبالمثل، فإن السلطة الفلسطينية هى المستفيدة من ضمانات الولايات المتحدة بأن محمود عباس سيبقى رئيسا للسلطة الفلسطينية دون منازع. وبالتالى، فإن الفوز الانتخابى لحركة «حماس» فى يناير/كانون الثانى ٢٠٠٠ لقى رفضا من الحلفاء فى واشنطن وإسرائيل والاتحاد الأوروبى، كأنه لم يكن. ربما ظلت فلسطين، مع حركة فتح أيضا، كإقطاعيتين لعباس إلى أجل غير مسمى. وكذلك حكم «المباركية»، حتى من دون مبارك.



وعلينا أن نسأل: لماذا هذا الاكتشاف المفاجئ للحاجة الملحة إلى الديموقراطية بعد عقود من الإهمال الحميد، إن لم يكن الخبيث للديمقراطية؟ وما هو نوع الديموقراطية التى وضعت تحت السيطرة طوال عقود ثم تظهر فجأة فى عهد جورج بوش على أنها الدواء الشافى لجميع الأمراض؟ إن الإجابة على هذه الأسئلة بسيطة. لقد قام المحافظون الجدد-الذين مارسوا براعتهم وتأثيرهم على السياسة الخارجية لبوش- باستخدام الديموقراطية لتبرير الحرب على العراق، والتى منحت الولايات المتحدة موطئ قدم دائما فى المنطقة، لا يختلف عن وجودها البحرى فى المحيط الهادى، والذى بدأ فى الفلبين منذ بدايات القرن العشرين.

وقيل لنا أيضا إن الديموقراطية والسلام فى فلسطين/ إسرائيل ستكون من ثمار الحروب التى يسعى إليها المحافظون الجدد. لسوء الحظ، ثبت أن تلك الثمار التى وعدوا بها كانت زائفة، تماما مثلما كانت أسباب ومنطق بوش/ تشينى لغزو العراق والتى ثبت أنها هى نفسها زائفة أيضا. ألقى ديك تشينى نائب الرئيس الأمريكى خطابا فى المنتدى الاقتصادى العالمى فى دافوس فى ٢٠٠٤، قال فيه أن الإصلاح الديموقراطى أمر أساسى للحل السلمى للنزاع العربى الإسرائيلى الذى طال أمده. ولكن نظرا لأن هذا التأكيد يجسد فكرة أن الديموقراطية هى شرط مسبق للسلام، فقد حان الوقت لواشنطون لإعادة النظر فى سياساتها الكاملة فى منطقة الشرق الأوسط برمتها، للتأكد من أن الديموقراطية يمكنها أن تزدهر بالفعل فى جو من الكرامة السياسية. فطالما أن الفلسطينيين يعيشون الآن تحت السيطرة الإسرائيلية ويتعرضون للإذلال يوميا، فلن تجتذبهم فضائل الديموقراطية. وينطبق الأمر نفسه إلى حد كبير على العراقيين تحت الاحتلال الأمريكى، كما ينطبق الأمر نفسه أيضا على المصريين الذين تحملوا ثلاثة عقود كاملة من الحكم القمعى لمبارك وتحالفه الاستراتيجى مع إسرائيل.

يشك الكثيرون فى العالم العربى فى الحق الأخلاقى للولايات المتحدة فى التبشير بالديموقراطية وحقوق الإنسان، خاصة عندما ترفض هى منح هذه الحقوق لفقرائها، وأغلبهم أمريكيون من أصول أفريقية، والذين يتجاوز عدد شبابهم فى السجون أولئك الذين يذهبون منهم إلى المدارس. إن الظروف المريعة فى معسكر الاعتقال الأمريكى بقاعدة جوانتانامو يلقى بظلال قاتمة على أحدث السلع التى يتم الضغط على العرب لكى يستوردوها. إن تعذيب السجناء العراقيين فى أبو غريب واستخدام الضغط النفسى سيظل وصمة عار فى سجل الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط. وفيما يتعلق بالديموقراطية، فإن لكل من العالم العربى والولايات المتحدة أهدافا متعارضة. إن المساعى الديموقراطية وإعادة الاستعمار ليسا فقط متعارضين مع بعضهما؛ وإنما لا مجال أبدا للتوفيق بينهما.

فى سعيها لفرض هيمنتها العالمية بلا منازع، تعتمد الولايات المتحدة على مبادئ ثابتة ومألوفة، والتى تجسد عناصر «حملة صليبية» حقيقية، عناصر حملات مشيحانية (تبشيرية). إن دعوة واشنطن الملحة للإصلاح والديموقراطية فى العالم العربى التى تردد صدى المثالية الويلسونية -أو دعوة الرئيس وودرو ويلسون إلى «الحرب التى تنهى كل الحروب وتجعل العالم آمنا للديموقراطية». إن الحملة الصليبية الدائرة حاليا ضد المسلمين والإرهابيين الدوليين تكمن جذورها فى «أيديولوجية التوسع» التى يمكن تتبعها فى مبدأ الحتمية (القدرية) للدور الأمريكى الامبريالى، ومبدأ مونرو، ورد السوفييت إلى الوراء فى الخمسينيات والثمانينيات.

لقد حان الوقت الأنسب لواشنطن لفصل سياسات الاستعمار الجديد والليبرالية الجديدة عن الحكم الديموقراطى الحقيقى والعدالة الاجتماعية. إنها فرصة للولايات المتحدة للسعى إلى المساواة والتعاون مع مصر ودول أخرى بالمنطقة، بدلا من تكريس سياسات الهيمنة والسيطرة. ■



فيما يتعلق بالديموقراطية، فإن لكل من العالم العربى والولايات المتحدة أهدافا متعارضة. إن المساعى الديموقراطية وإعادة الاستعمار ليسا فقط متعارضين مع بعضهما؛ ولا مجال للتوفيق بينهما



أوبــاما يُحسِــــن صـــــنعا

إيـــــان بـــــــورومــــــا
Ian Buruma



■■ لقد تعرض الرئيس الأميركى باراك أوباما لانتقادات كثيرة فيما يتصل بالطريقة التى تعامل بها مع التغيرات الثورية فى شمال أفريقيا والشرق الأوسط. والواقع أنه لم يتعامل معها كثيرا، أو على الأقل ليس علنا.

وهذه على وجه التحديد مشكلة محاربى المقاعد الوثيرة الذين يراقبون الأحداث وهى تتكشف وتتضح أبعادها على أجهزة الكمبيوتر وشاشات التلفاز فى واشنطن ونيويورك. فهم يريدون من أوباما أن يكثف من جهوده فى هذا الصدد. فبدلاً من اتخاذ نهج حذر، وترك مهمة الصياح والمطالبات للمتظاهرين فى إيران وتونس ومصر وليبيا والبحرين واليمن وأماكن أخرى، يريدون من أوباما أن يتحدث بلهجة صارمة، أو الأفضل من ذلك أن يرسل القوات الجوية الأميركية لتفجير المقاتلات النفاثة والطائرات العمودية الحربية التابعة للقذافى وإخراجها من المعادلة. وهم يريدون من أوباما أن يطالب هؤلاء الطغاة بالرحيل الآن، وإلا ...

وإلا ماذا على وجه التحديد؟ لا شك أن الحكومة الأميركية دللت العديد من الطغاة الوحشيين على مدى نصف القرن الماضى. وأثناء الحرب الباردة، استفاد الحكام المستبدون من السخاء الأميركى طالما كانوا مناهضين للشيوعية. فكان الحكام المستبدون فى الشرق الأوسط يُمطَرون بالأموال والأسلحة إذا امتنعوا عن مهاجمة إسرائيل وأبقوا الإسلاميين تحت السيطرة. وفى الحالتين، ظلت هذه العلاقات الحميمة قائمة ومصانة لفترة طويلة للغاية. وفى البلدان العربية لم تساعد هذه العلاقات إلا فى تأجيج التطرف الإسلامى.

رغم ذلك، فقد تستفيد بعض الدول من عمالة حكامها للولايات المتحدة للبدء فى الانتقال إلى أشكال أكثر ديمقراطية من الحكم. ففى ثمانينيات القرن العشرين، تمكنت كوريا الجنوبية والفلبين وتايوان من التخلص من حكامها الطغاة، ويرجع ذلك جزئياً إلى أن هذه البلدان كانت تعتمد كلياً على أسلحة وأموال الولايات المتحدة. وبينما كانت الحرب الباردة تقترب من نهايتها، لم تعد معاداة الشيوعية تضمن الحماية الأميركية. لذا فعندما ثار الكوريون والفيليبينيون والتايوانيون على حكامهم، كانت الولايات المتحدة، ولو أنها تأخرت فى ذلك، فى موقف يسمح لها بمطالبة عملائها العسكريين بالتراجع. وربما حدث شىء من هذا القبيل فى مصر ولو بشكل حذر ومتكتم.

ولكن من المؤسف أن مثل هذا النوع من الضغوط من غير الممكن أن ينجح فى الصين عندما يطالب شعبها بما فازت به شعوب آسيوية أخرى. فكل من الحزب الشيوعى الصينى وجيش التحرير الشعبى قادر على البقاء من دون رعاية الولايات المتحدة. ويصدق نفس القول على النظام الحاكم شبه الدينى فى إيران. وإذا رحل القذافى فى نهاية الأمر فلن يكون رحيله راجعاً إلى اعتماد جيشه على الولايات المتحدة.

ولكن هناك مشكلة أخرى فى اضطلاع الولايات المتحدة بدور قيادى فى الثورات السياسية فى الشرق الأوسط. إن البعض من نفس الأشخاص الذين يتهمون أوباما اليوم باتخاذ موقف «لين» كانوا من أشد المروجين للحرب فى العراق حماسا. وآنذاك، تصور هؤلاء أن حالة «الصدمة والرعب» التى ستحدثها القوات الأميركية لن تؤدى فقط إلى الإطاحة بالدكتاتور العراقى (وهو ما حدث بالفعل)، بل تصوروا أيضاً إن الغزو تحت قيادة الولايات المتحدة سوف يستقبل بالحفاوة والترحاب من جانب العراقيين الذين تحرروا، والذين سوف يرحبون بعصر جديد من الديمقراطية فى الشرق الأوسط.

وكانت الثقة فى الولايات المتحدة باعتبارها قوة للخير من بين أهم ضحايا هذا المشروع الوحشى، بعيداً عن نحو مائة ألف من العراقيين لاقوا حتفهم فضلاً عن الملايين الذين تحولوا إلى لاجئين. والواقع أن عملية حرية العراق، ناهيك عن عملية الحرية الدائمة فى أفغانستان، أضفت على الجهود الأميركية الرامية إلى تعزيز الديمقراطية صبغة رهيبة. فالناس يريدون الحرية، ولكن ليس عندما تأتى من فوهة بندقية أميركية.

حتى وقتنا هذا، كان الخطاب المناهض للولايات المتحدة خافتاً بشكل ملحوظ فى الانتفاضات التى تجتاح الشرق الأوسط الآن. والواقع أن الطريقة الهزلية التى حاول بها الحكام الطغاة تشويه سمعة كافة أشكال المعارضة بوصفها نتاجا لجهود عملاء أجانب تلعب دوراً مفهوماً فى هذا الصمت. ولكن الحذر العام الذى توخاه أوباما لعب أيضاً دوراً مماثلا. لقد استهزأ الصقور فى الولايات المتحدة بخطاب المصالحة الذى ألقاه من القاهرة فى الرابع من يونيو/ حزيران فى عام ٢٠٠٩، كما كان اقتصاده فى الصخب والتهديد والوعيد فضلاً عن ذلك سبباً فى منح معارضى الأنظمة المستبدة فى الشرق الأوسط الحيز الكافى للتمرد من دون أن يتلوثوا بأى شكل من أشكال التدخل الأجنبى. فالأمر يعود إليهم، وهذا هو ما ينبغى أن يكون.

ولكن هذا لا يعنى أن الولايات المتحدة لابد أن تتخذ موقفاً سلبياً فى كل الأحوال. والواقع أنها لم تكن سلبية دوما. ذلك أن النفوذ الأميركى كان يستغل حيثما كان ذلك واردا، كما هى الحال بالنسبة للمؤسسة العسكرية فى مصر. ولقد أوضح أوباما دعمه للتطلعات الديمقراطية، على الرغم من الهلع الذى أصاب بعض الحلفاء مثل إسرائيل والمملكة العربية السعودية نتيجة لتصريحاته. ولكن كما أظهر التاريخ الحديث فإن الإطاحة بالرجال الأقوياء ليس أكثر من بداية لعملية التحول الديمقراطى.

إن بناء المؤسسات التى لا تضمن الحريات السياسية فحسب، بل وأيضاً حماية الأقليات وتوفير الظروف الليبرالية الأخرى، أمر صعب حتى فى البلدان التى كانت مثل هذه المؤسسات عاملة فيها ذات يوم، كما هى الحال فى بلدان أوروبا الوسطى فى مرحلة ما بعد الشيوعية. ولسوف يكون الأمر أكثر صعوبة فى البلدان التى لم تشهد قيام مثل هذه المؤسسات من قبل، أو حيث يظل الاقتصاد إلى حد كبير بين أيدى القوات المسلحة. إن التدخل المسلح الأنجلو أميركى، وخاصة إن لم تقره الأمم المتحدة، من شأنه أن يضعف من موقف الليبراليين والديمقراطيين الذين يحتاجون إلى أى قدر من المصداقية يمكنهم الحصول عليه.

لا شك أن البعض بين المتظاهرين يودون لو كان أوباما أكثر تشدداً فى دعمه لأهدافهم. بل إن البعض ينادون بمساعدات أميركية أكثر نشاطا. وقد يكون بوسع القوى الغربية أن تبذل جهوداً أعظم لتخفيف المعاناة، من خلال تقديم المساعدة للاجئين على سبيل المثال، أو استخدام أحدث التكنولوجيات للإبقاء على خطوط المعلومات مفتوحة. ولكن الصقور الأميركيين يريدون ما أعرب أغلب قادة المعارضة فى ليبيا عن رفضهم الواضح له. فهم يريدون من الولايات المتحدة إظهار زعامتها، وهو آخر ما يحتاج إليه الديمقراطيون الطامحون فى الوقت الراهن.

لقد أخضعت الشعوب فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لحكم الغرب أو لحكم طغاة يدعمهم الغرب لفترة طويلة بما فيه الكفاية. والآن تريد هذه الشعوب أن تجد طريقها إلى الحرية بنفسها. ويبدو أن أوباما يفهم هذه الحقيقة. ولهذا السبب كان على صواب فى كل ما فعله. ■

Ian Buruma is Professor of Democracy and Human Rights at Bard College. His latest book is Taming the Gods: Religion and Democracy on Three Continents

ترجمة: مايسة كامل



نســـوة مابعـــد مبـــارك

آنـــا لـــوى ســـوزمـــان

Anna Louie Sussman

رغم أهمية الموضوع الذى يتناوله هذا المقال،الا أنه ـ ربما لطبيعة الزاوية التى تنظر منها كاتبته، أو ربما لعدم اقترابها بدرجة كافية من الواقع وحقائقه ـ قد لاتتسم بعض المعلومات التى يستند إليها بالدقة الكافية. كما أنه ـ رغم اجتهاد باد من كاتبته ـ قد يعكس تصورات مسبقة لدوائر الفكر والثقافة فى الغرب، ولكن، رغم كل شىء تبقى أهميته ـ أولا ـ فى رصد مايطلع عليه الناس هناك، وثانيا فى لفت انتباهنا إلى بعض جوانب فى واقعنا قد لاننتبه إليها وسط تزاحم الأحداث وتسارعها.

المحــــرر

Anna Louie Sussman is a freelance reporter based in New York but She has often found elsewhere. reported from over a dozen countries in the Middle East, South America, Europe and North America on topics ranging from pro-choice clerics in Yemen to “gastro-terrorism,” or food items She banned by airline security. lived and worked for five years in the Middle East, spending substantial periods of time in Cairo, Beirut, Istanbul, Damascus, Tunis, Rabat, and Sana?a.

بترتيب خاص مع:
the Atlantic Monthely

ترجمة : عزة هاشم

■■ بعد وقوفها لمدة أسابيع تساعد فى قيادة الثورة، تواجه المرأة المصرية تحديات جديدة فى مرحلة ما بعد مبارك.

لابد أنك رأيتهن، فأنا أيضا رأيتهن، جميعنا رأى نساء ميدان التحرير، يشاركن فى المسيرات، يصرخن، يرقصن، يغنين، يدخن، يلوحن باللافتات، يتلقين الضربات جنبا إلى جنب مع باقى المواطنين. وفى طرفة عين منا أجبرت المرأة على الخروج سريعا جدا من العملية السياسية بشكل ربما يجعلك بحاجة لأن تذكر «إن النساء أيضا بشر».

وكانت الأمور صادمة للمرأة فى مصر ما بعد الثورة، وأصبح من السهل أن ننسى شجاعة الفتاة التى كانت أول من دعا المتظاهرين الى الخروج للشارع، ففى ١٨ يناير، دعت الناشطة ذات الكاريزما أسماء محفوظ من حركة شباب ٦ أبريل زملاءها من المواطنين المصريين للمشاركة معها فى «يوم الغضب»، وفى ٢٥ يناير واجهت الكاميرا، وهى تدعو المشاهدين لها قائلة «لا تخافوا».

تقول منى الطحاوى وهى محللة سياسية وصحفية مصرية تعيش فى نيويورك «إن أسماء عرفت كيف تصل للرجال، عندما قالت لهم » إذا كنت أنا قد استطعت الخروج، بالتأكيد يمكنك أنت». وقد جلبت دعوتها الملايين من النساء والرجال فى الشوارع للزحف والوقوف بشكل جماعى حتى سقط الديكتاتور. ولقد نوهت وكالات الأنباء الغربية إلى مشاركة المرأة، وغياب التحرش الجنسى، بصورة مفاجئة ومثيرة للإعجاب.

لكن وعلى الرغم من بسالتهن وتضحيتهن، تمت إزاحة النساء المتظاهرات بسرعة جانبا بمجرد أن وضع الجيش قبضته على السلطة.

تقول منى الطحاوى : «والآن عادت الحقيقة لتحتل موقع الصدارة» وتستطرد « ان الثمانية عشر يوما فى التحرير كانت أياما مثالية، ولكن الآن لدينا الكثير من العمل الذى علينا أن نؤديه فى مواجهة واقع شديد البشاعة».

فى أعقاب الثورة

من المثير للسخرية انه عندما تقاعد مبارك بعد هزيمته بفيلته فى شرم الشيخ، بدا وكأنه قد أخذ روح المساواة معه، وقد وجدت المرأة التى ألهمت وحافظت على الثورة نفسها خارج المعادلة. ففى ١٥ فبراير دعا الجيش جميع ذكور اللجنة الدستورية الذين قاموا ببعض التعديلات المقلقة للدستور، وقد أعادوا كتابة المادة ٧٥ والتى لم يطلب المتظاهرون اعادة النظر فيها، ومع ذلك تمت إعادة كتابتها بحيث نصت على أن المرشح للرئاسة «لا يسمح له بالترشح اذا كان متزوجا من غير مصرية». ومع وضع قائمة طويلة بالمشكلات التى يجب معالجتها، ركلت الأحزاب السياسية قضايا حقوق المرأة الى أسفل القائمة.

وترى نهاد أبو القمصان مدير المركز المصرى لحماية حقوق المرأة ردود الفعل القادمة على بعد ميل واحد، حيث حاولت أثناء الاحتجاجات أن تشرك النساء الأخريات فى مناقشة حول مستقبل حقوقهن فى مرحلة ما بعد مبارك. «لقد قلن أنه لا توجد قيمة مضافة للمرأة فى هذه القضايا، إن الدستور هو مجرد دستور، ولكن عندما شاهدن المادة ٧٥، اكتشفن أنهن بدأن فى الوقوع فى فخ أوقعن أنفسهن فيه، وبدأن فى رؤية قيمة الأخذ بوجهة نظر المرأة على كل المستويات».

ولعل السرعة التى فرض بها هذا الواقع القبيح الذى أعاد نفسه مرة أخرى صدمت محتجين مثل نهلة هانو التى قالت : «إننى لم أر انعكاسا يأتى بهذه السرعة «وتستطرد» رائحة التستوستيرون الثقيلة لسياسة ما بعد الثورة لم تكن قلقة حيالها كثيرا فى هذا الوقت» واستطردت: «لقد كنت مبتهجة جدا بالثورة والأجواء الإيجابية، أنا فقط بدأت أقلق عندما اختار المجلس العسكرى طارق البشرى كرئيس للجنة اصلاح الدستور»، وتقول إنه كان قائدا للمعارضين لتعيين أول امرأة قاضية فى مصر فى عام ٢٠٠٣.

المحصول الحالى لـ ٣١ وزيرا يحتوى على امرأة واحدة فقط، بعد أن كن ثلاثا فى عهد مبارك، وكما تحدث تضييقات

على الرغم من أن مبارك وقواته الأمنية كانوا يمارسون المضايقات الأمنية والترهيب، واعتقال الإسلاميين، فإن قبضة أو سيطرة هؤلاء الإسلاميين على المجتمع قد تنامت بشكل ثابت طوال فترة حكمه



فى المجال السياسى، فإن المساحة الفعلية المتاحة للمرأة لاثبات نفسها تتقلص أيضا، ولقد تجمع ألف أو نحو ذلك من المتظاهرين فى ٨ مارس للاحتفال باليوم العالمى للمرأة الذى تحول تحولا قبيحا بعد الظهر، بعدما تحولت النقاشات حول المساواة الى عنف وأعيرة نارية.

أحد الناشطين السياسيين يقول عن ماحدث: «يدعون أن هؤلاء النساء لسن متدينات، ويبحثن عن تدمير مصر وتقويض القيم الأسرية وقداسة أو حرمة الأسرة وذلك بدعوة أو حض النساء على هجر أزواجهن». وفى اليوم التالى أصبح ميدان التحرير مسرحا لأحداث مؤسفة أكثر، حيث أنه بمجرد أن فكرت الشرطة فى إخلاء الميدان من المحتجين الباقين والخيام، ألقوا القبض على ١٩ امرأة، تم ضربهن وتوجيه الشتائم لهن، واتهامهن بالبغاء، وتم اجبارهن على الخضوع الى «اختبارات قسرية للعذرية. . إنها صفعة على وجه الثورة، عندما يتم التعامل مع نساء الثورة على أنهن بغايا».

ويقول مايكل وحيد حنا، وهو زميل مؤسسة القرن، والذى عاد مؤخرا من رحلته إلى القاهرة، أن هذا رد فعل عنيف ضد قواعد ومعايير المساواة، وهو ليس مفاجئا.

ويقول: «إن جزءا من جوانب قلق المصريين فى حياتهم اليومية هو شعورهم بأن المجتمع المصرى يتفكك، وجميع معايير المجتمع المصرى تتغير» ويستطرد: « هناك شعور بانهيار مجتمعى تسبب فى الكثير من التوتر».

وأضاف: ما هى الطريقة المثلى للتعامل مع الانهيارات المجتمعية المحتملة أو الممكنة بدلا من الدفع ببعض القوانين القديمة والحكم بها على غرار قوة شرطة الأخلاق فى المملكة العربية السعودية؟، ولقد جاء ذلك المقترح من الجماعة الاسلامية، إنه شعور الاندفاع نحو الحرية بعدما كانوا يعيشون تحت كعب حذاء مبارك على مدى العقود الثلاثة الماضية.

على الرغم من أن مبارك وقواته الأمنية كانوا يمارسون المضايقات الأمنية والترهيب، واعتقال الاسلاميين، فإن قبضة أو سيطرة هؤلاء الاسلاميين على المجتمع قد تنامت بشكل ثابت طوال فترة حكمه، ولعل هذه الجماعات دخلت حالة تمكين جديدة بمغادرة مبارك، وهناك اشاعة تقول إن هناك تدفقا لدفعات جديدة من الأموال قادمة من الخليج، تخيف للغاية ناشطين مثل نهاد أبو القمصان.

حيث تقول: «الجماعات الدينية والأصولية، لها أصوات كبيرة وتتلقى تدعيما ضخما من داخل وخارج مصر».

كانت هناك نسوية منذ البداية:

منذ نهاية القرن الثامن عشر، عندما شاركت المرأة فى الحركات القومية المبكرة، كانت الحركة النسوية المصرية منارة للمنطقة، ففى عام ١٩٢٣، قامت قائدة الحركة النسوية المصرية هدى شعراوى بالوقوف فى محطة قطار القاهرة وأزالت حجابها، وفى عام ١٩٥٧ أصبحت مصر الدولة العربية الأولى التى تعطى المرأة حق التصويت فى البرلمان. ويقول Zachary Lockman - أستاذ دراسات الشرق الأوسط بجامعة نيويورك - أن فشل القومية والناصرية ترك فراغا أيدولوجيا ملأته التفسيرات المتشددة للإسلام.



ويقول « هذه الأنواع من التحديثات التى أعلنت عن نفسها بنفسها قوميا، والتى على الأقل وفرت تدعيما بلاغيا أو خطابيا للمساواة بين الجنسين والحقوق السياسية، أفسحت الطريق أمام سطوة تصدير الفكر السعودى، وهو الاصدار الاسلامى الأكثر تشددا، والتى تأصلت فى جميع البلدان فى جميع أنحاء المنطقة، ولا سيما أولئك المواطنين الذين هاجروا إلى المملكة العربية السعودية للعمل».

اليوم، يضم المجتمع المدنى المصرى العشرات من جماعات حقوق المرأة على مستوى القاعدة. والتى كانت تعمل دائما مع – أو فى كثير من الأحيان على خلاف مع – المجلس القومى للمرأة الذى أسسته السيدة الأولى السابقة سوزان مبارك. وقد حظرت سوزان مبارك المنظمات المتنافسة، مثل الاتحاد النسائى المصرى للكاتبة نوال السعداوى. تقول جميلة اسماعيل، وهى ناشطة معارضة وزوجة الاصلاحى أيمن نور انه عندما ترشحت لعضوية البرلمان فى ٢٠٠١ و٢٠١٠، لم تتلق أى تدعيم من المجلس القومى للمرأة، حيث تقول « لم يكن المقصود حقا هو الدفاع عن حقوق المرأة » وتستطرد: «إنهم كانوا يدافعون عن حقوق نساء الحزب الحاكم، وحقوق النساء القريبات من السيدة الأولى والمرأة فى دوائر الفساد، وحقوق السلطة».

لكن على الرغم من الجهود النشطة لتحالف الجماعات النسائية، فقد كانت المرأة المصرية فى أعقابهم بالفعل سياسيا عندما أسقطت مبارك، وتصف نادية خليفة الباحثة فى مجال حقوق المرأة فى منظمة « هيومان رايتس ووتش» للشرق الأوسط وشمال أفريقيا المشاركة السياسية للمرأة وحتى الوقت الحاضر بأنها «بالغة السوء». فى الوقت الذى أسقط فيه مبارك، لاحظت أن المرأة كانت تشكل عضويتها فى البرلمان نسبة ٧ ٪ طبقا للأرقام الصادرة عن فريدم هاوس، وهى مؤسسة غير هادفة للربح فى واشنطن. والتعديل الذى تم اقراره فى ٢٠٠٩ (والذى اقترحه جمال مبارك، وكان هدفه ظاهريا أن يعزز أرقاما لحزبه الوطنى الديموقراطى الحاكم)، خصص ٦٤ مقعدا (كوتة) للمرأة من مجمل ٤٤٤ مقعدا فى المجلس.

مـــــــاذا الآن ؟

فيما قد يعد اشارة لا شعورية استعارت جميلة اسماعيل مصطلح «مخاض الولادة» لكونداليزا رايز، حيث تشبه جميلة اسماعيل عملية صنع الديموقراطية المصرية المحتملة بطفل وليد جديد يتم الترحيب بتسلمه بصرف النظر عن جنسه.

تقول « انه طفل نتوق منذ زمن طويل الى ولادته، ونحن لم ننتظر حتى اذا كان هذا الوليد ذكرا أو أنثى» وتستطرد «الكثير من النساء يشكون من أنهن يعانين من مشكلة عند ممارسة حقوقهن، منها أن المرأة لم تكن ممثلة فى اللجنة الدستورية العليا، ومع ذلك فنحن لسنا بحاجة إلى اثبات لدورنا. إنهم يعرفونه جيدا، لقد كان للمرأة أدوار فى الجبهة، وأنا لست منزعجة حقا لكونى اعيد تقديمها أو أثبتها».

تعتقد فاطمة امام وهى باحثة وناشطة تبلغ من العمر ٢٥ عاما فى جماعة « نظرة» للدراسات النسوية، أن حقوق المرأة يجب التعامل معها على أنها قضية قومية ووطنية.

تقول : «علينا أن نؤكد أن الحركة النسوية هى حركة سياسية» وتستطرد: «إنها ليست فقط للاهتمام بحقوق المرأة، ولكن أيضا الاهتمام بالمساواة والعدالة بين جميع المواطنين المصريين. إنها قضية وطنية. ان هذه الفكرة تعبر عن رسالة هامة مؤداها انه يجب حدوث انتقال أو تحول فى توجه الحركة النسوية».

تقول سهى عبد العاطى، وهى ناشطة فى المبادرة المصرية للحقوق الشخصية، على أنه يجب نشر وتوصيل هذه الرسالة، ليس فقط لصانعى القرار، وإنما أيضا للجمهور الأوسع.

وتقول: «ما حدث فى ٨ مارس كان صحوة حقيقية لنا تبلغنا بأن الوقت قد حان للتركيز ليس فقط بشكل أساسى على السياسة، وإنما على مستويات الدفاع، ولكن على أن يتم ذلك فى الشوارع، والتواصل مع مختلف المجتمعات المحلية».

مع قائمة من المشكلات التى تحتاج الى معالجة - اقتصاد مدمر، وإضراب عمال، وعشرات من السجناء السياسيين - وضعت الأحزاب السياسية حقوق المرأة فى أسفل القائمة. فى حين أن وائل عباس يقول أنه لم يسمع مطلقا حديثا عن حقوق المرأة من أى من الأحزاب السياسية القائمة أو تلك التى تشكلت حديثا. لاحظت هبة موارايف، وهى باحثة مصرية لمؤسسة هيومان رايتس ووتش، أن الاخوان المسلمون قد اضطروا للتخلى عن مبدأ كانوا يعتنقونه لزمن طويل مؤداه أنه لايحق للمسيحى أو المرأة الترشح لمنصب رئاسة الجمهورية. ولم يمض وقت طويل بعد هذا الاعلان، عندما أعلنت مقدمة البرامج التليفزيونية بثينة كامل عن نيتها العمل على برنامج عن مكافحة الفساد، على الرغم من أن فاطمة امام كانت تتوقع ألا تحصل على الكثير من الأصوات، الا أنها قالت : «إن رؤيتها ومشاركتها كافية بالنسبة لها».

تقول هبة: «يجرى دفع الكثير من الناس من أجل التوصل إلى موقف ثابت بشأن حقوق المرأة، ولذا فإننا قد نرى تحولا فى الأشهر المقبلة».

وقد صرح القائد بجماعة الاخوان المسلمين سعد الحسينى لجريدة المصرى اليوم المصرية أنه على الرغم من أن الإخوان المسلمين لن يضعوا مرشحة امرأة، الا أن هذا لن ينفى عن المرأة حق الترشح، وهو الموقف الذى يؤرق سارة محمد، المشاكسة التى تبلغ من العمر ١٨ عاما، وهى عضو فى جماعة الاخوان المسلمين.

تقول : « إننالانقبل على الاطلاق هذه الطريقة فى التفكير» وتستطرد : «اذا ما كانوا يطبقون قواعد الشريعة الاسلامية، ففى الاسلام، لا يوجد شىء يقول أن الفتاة لا تستطيع أن تكون رئيسة، اذن ما هذا الذى تتحدث عنه».

على الرغم من أن المشهد السياسى الحالى لا يزال يلقى الضوء على هرمون الأستروجين، الا أن منى الطحاوى واثقة من أن «الأوضاع سوف تتغير، فالنساء الآن أصبحن أكثر جرأة وصراحة، ويعلمن أن وجودهن وموقعهن السياسى والشخصى جنبا إلى جنب بجوار الرجال». ■

إن العرب يطالبون بتغيير النظام بالجملة، تغييرا نابعا من الداخل، ولا يقاد من الخارج



فلسطينيون فى غزة يحتفلون بانتصار الثورة المصرية



فلسطينيون يلوحون بالعلم المصرى فى مواجهة جنود الاحتلال

فلســــطين بعد مبــــارك

نــــــادية حـجـــــاب

■■ فى غضون أيام من الإطاحة بالديكتاتور المخلوع حسنى مبارك، أعلنت السلطة الفلسطينية فى رام الله أنها تخطط لإجراء الانتخابات البلدية، والتشريعية، والرئاسية، فضلا عن تعديل وزارى. على الرغم من أن هذه الخطط تبدو شكلا على أنها إجراءات ديموقراطية تتوافق مع روح العصر الجديد، إلا أنها تتهرب-حتى الآن-من التحديات الخطيرة التى تواجه الفلسطينيين، بما فى ذلك الانقسام بين حركتى فتح وحماس، واستبعاد اللاجئين وفلسطينيى المهجر من الحكم الفلسطينى، واستمرار الاستعمار الإسرائيلى الاستيطانى وسيطرته على الحياة والأراضى الفلسطينية.

لا يبدو أن السلطة الفلسطينية مستعدة لمعالجة الانقسام بين حركتى فتح وحماس، وإلا كانت ستسعى إلى المصالحة قبل الإعلان عن الدعوة إلى الانتخابات، تلك الدعوة التى رفضتها حماس. ولعل السلطة الفلسطينية لا تزال تخشى الاعتراض الأميركى على جهود الوحدة حتى تفى حركة حماس بالشروط الثلاثة للجنة الرباعية الدولية. بيد أن إجراء الانتخابات فى ظل غياب المصالحة من شأنه أن يعزز انفصال الضفة الغربية عن قطاع غزة. وحتى لو افترضنا سيناريو أفضل الحالات، والذى يُتاح فيه لكل الأطراف خوض الانتخابات بحرية ونزاهة، وأن تحظى النتائج بالاحترام، فليس من الواضح كيف ستساعد الانتخابات على وضع حد للاحتلال الإسرائيلى.

من الصعب التهرب من الاستنتاج القائل بأنه بعيدا عن التمسك بـ«إرادة الشعب»، فإن السلطة الفلسطينية تختبئ من واقع ما بعد ثورتى تونس ومصر. إن العرب يطالبون بتغيير النظام بالجملة، تغييرا نابعا من الداخل، ولا يقاد من الخارج. فى الحالة الفلسطينية، قد يعنى هذا ما هو أبعد من مجرد إعادة توزيع الحقائب الوزارية، أو انتخابات أخرى تحت نير الاحتلال الإسرائيلى لمعالجة القضايا الجوهرية للحكم، واستراتيجيات جديدة للتحرر.

لقد أكدت استقالة صائب عريقات، كبير المفاوضين الفلسطينيين، انفصال السلطة الفلسطينية عن الشعب، عندما اتضح، بعد إجراء تحقيق داخلى، أن تسريب سجلات التفاوض الفلسطينى تم من مكتبه. لو حدث هذا فى إطار دولة طبيعية، لكان من شأنه كمحاسبة أو مساءلة أن يكون موضع ترحيب. لكن بالنسبة لمعظم الفلسطينيين، كان محتوى الأوراق التى تسربت هو المهم وليس مصدرها؛ لا سيما أن الأوراق كشفت أن السلطة الفلسطينية كانت مستعدة لتقديم تنازلات كبيرة بشأن حقوق اللاجئين الفلسطينيين والقدس.

كانت المجتمعات الفلسطينية فى المهجر أعلى صوتا فى غضبتها. إذ تتصاعد الأصوات التى تعترض علنا على ادعاء القيادة الفلسطينية فى رام الله أنها تمثل الفلسطينيين، كما جاء فى المطالبات التى نظمتها الجاليات الفلسطينية فى أميركا وكندا. ولئن كانت هذه التصريحات تميل إلى كونها بلاغية أكثر من كونها ذات قدرة فعلية على تغيير الموقف على أرض الواقع، إلا أنها تضعف الحاجز الذى فرضه الفلسطينيون على أنفسهم ضد الانتقادات على الملأ، هذا الحاجز الذى كان موجودا، مع القليل من الاستثناءات، منذ اتفاق أوسلو الأول فى عام ١٩٩٣. والأمر الأكثر أهمية هو البيان البسيط القوى للاتحاد العام لطلبة فلسطين، والذى شن حملة لإجراء انتخابات مباشرة للمجلس الوطنى الفلسطينى من أجل استعادة منظمة التحرير الفلسطينية، باعتبارها الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى، أينما كانوا.

لقد أصاب بيان الاتحاد العام لطلبة فلسطين كبد الحقيقة فيما يتعلق بالطريقة التى انحرف فيها مسار الحكم الفلسطينى نحو إقامة الدولة الفلسطينية، تقريبا بأى ثمن، مبتعدا عن السعى من أجل الحرية. ومنذ عقد اتفاقية أوسلو الأولى فى عام ١٩٩٣، تُركت منظمة التحرير الفلسطينية ليصيبها الهزال، فى حين كان يتم تسمين السلطة الفلسطينية. وبرغم أن منظمة التحرير الفلسطينية مسئولة رسميا عن المفاوضات والاتفاقيات، إلا أن القوة الحقيقية هى فى يد السلطة الفلسطينية إلى حد ما حيث إن لها حرية العمل فى ظل الاحتلال. إن التحرك لاستعادة منظمة التحرير الفلسطينية هو أمر بالغ الأهمية لأن الاتحاد العام لطلبة فلسطين يعد جزءا لا يتجزأ من البنية السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية،

Nadia Hijab is co-director of Al-Shabaka, The Palestinian Policy Network

باتفاق خاص مع:
Al-Shabaka, The Palestinian Policy Network

كما أنه احتضن طويلا القادة الفلسطينيين وبخاصة قادة فتح. ومن ثم فإن له القدرة على التأثير فى الوضع على أرض الواقع.

ومع ذلك فإن السلطة الفلسطينية لا تزال تبدو كأنها طائرة بدون طيار، وتصدق أن بإمكانها بالفعل أن تنجح من تلقاء نفسها فى إقامة دولة فلسطينية بحلول سبتمبر/أيلول ٢٠١١، على الرغم من أن الأمم المتحدة لن توقف الاستيطان الإسرائيلى، أو تخفف من قبضته.

وفى الوقت نفسه، تدعو حماس مصر لإنهاء دعمها للحصار الإسرائيلى وفتح معبر رفح. إلا أن أعضاء المجلس الأعلى للقوات المسلحة، الحاكم فى مصر، من المحتمل أن يظلوا متحفظين إزاء وراثة غزة كما كانوا فى عهد مبارك، نظرا لأن إسرائيل تهدف إلى التخلص من مسئوليتها باعتبارها من يحتل قطاع غزة. وإذا كانت السلطة الفلسطينية سعيدة بترك غزة تواجه مصيرها، وحماس سعيدة بأخذ غزة لنفسها، فإن كلا منهما بهذا يتصرف كما تريد إسرائيل.

هل ستعرقل الثورتان الملهمتان التونسية والمصرية أحلام إسرائيل التوسعية، وأوهام السلطة الفلسطينية فى إقامة دولة فلسطينية؟ الحقيقة أنه برغم التفتت السياسى والجغرافى للشعب الفلسطينى، إلا أن هناك عدة توجهات تتحرك فى هذا الاتجاه.

أهم هذه التوجهات، كما هو مذكور أعلاه، هو الاعتراض على ادعاء السلطة الفلسطينية بأنها تمثل الفلسطينيين، وكذلك محاولة إحياء منظمة التحرير الفلسطينية. هناك توجه آخر هو تأكيد الثورتين التونسية والمصرية على الإحساس بالمصير العربى المشترك، والذى أصبح خاملا منذ نهاية حرب أكتوبر/تشرين الأول ١٩٧٣. إن استخدام الشباب العربى حاليا لأدوات شبكات التواصل الاجتماعى للتواصل وتبادل الخبرات من المرجح أن يتزايد، بما يحافظ على حركة عبر الحدود للمشاركة فى القرارات السياسية والاجتماعية الاقتصادية التى تؤثر فى حياتهم.

قد يلهم هذا أيضا المزيد من الدعم العربى لكفاح المجتمع المدنى الفلسطينى من أجل الحرية. على مدى السنوات الست الماضية، تضمن هذا الكفاح المظاهرات ضد زحف الجدار العازل الإسرائيلى على الأراضى الفلسطينية، والذى أثار تضامنا دوليا ويهوديا أيضا، وحركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات (BDS)، والتى حققت نجاحا كبيرا لدرجة أن الكنيست الإسرائيلى أقر لتوه القراءة الأولى لمشروع قانون يُجرِّم دعم الإسرائيليين لحركات المقاطعة.

كما أعطت الثورتان المصرية والتونسية أيضا دفعة للخطاب العربى حول القضايا العربية والفلسطينية بشكل أكبر فى مجال حقوق الإنسان العالمية. كما أنهما تعززان تحولا بدأ يحدث بالفعل بوجود أعداد كبيرة الآن تريد استخدام مصطلح الفصل العنصرى لوصف تصرفات إسرائيل فى الأراضى الفلسطينية المحتلة، وتجاه مواطنيها أنفسهم. إن الجهود التى يبذلها المسئولون والمؤسسات الإسرائيلية لتبرئة الاحتلال العسكرى وعدم المساواة، وإسقاط صدقية من يحاولون نزع الشرعية عنها لن يؤدى إلا إلى تعزيز أوجه التماثل بينها وبين نظام الفصل العنصرى السابق بجنوب أفريقيا.

وأخيرا، فقد بدأت قبضة الولايات المتحدة على المنطقة تضعف، على الرغم من حقيقة أن العلاقات الأميركية الوثيقة مع الجيش المصرى سوف تعطى الولايات المتحدة الفرصة لما هو أكثر من إبداء الرأى فى التحول الذى تشهده مصر، وبأكثر مما يريد الشعب المصرى أن يعطيها. من ناحية أخرى، تواصل الولايات المتحدة تقويض قدرتها على التأثير على الأحداث بدعمها الثابت للاحتلال الإسرائيلى، بما فى ذلك عزمها الواضح على استخدام حق النقض (الفيتو) ضد قرار لمجلس الأمن بالأمم المتحدة، الذى يؤكد على عدم شرعية المستوطنات، حتى لو كان هذا هو الموقف الرسمى للولايات المتحدة منذ صدور المذكرة القانونية لوزارة الخارجية فى عام ١٩٧٨ والقائلة بعدم شرعية الاستيطان، ولم يتم إبطالها إطلاقا.

هناك بضعة أشهر فقط تفصلنا عن سبتمبر/ايلول ٢٠١١. وليس من الواضح بعد ما إذا كانت هذه الاتجاهات (الطارئة فى المنطقة العربية) سوف تتطور بسرعة كافية لمنع التحرك نحو تسوية للصراع، بما سيكون من شأنه إبطال حقوق الشعب الفلسطينى. ولكن على أقل تقدير، فقد عانت من خيبة أمل كبرى تلك الفكرة القائلة بأن الدولة الأمنية التى تمولها الولايات المتحدة، سواء فى مصر أو البحرين أو اليمن أو فلسطين، يمكنها شراء الاستقرار إلى الأبد. وبينما تتخذ الشعوب التحركات اللازمة لتحديد مستقبلها بأنفسها، على الجميع أن يتوقع أن يفعل الفلسطينيون الشىء نفسه. ■

كتاب الزاوية

أغنية الكعكة الحجرية

أمل دنقل

(٤)

(الإصحاح السادس)

دقت الساعةُ الخامسة
ظَهَر الجندُ دائرة من دروع وخوذات حربْ
ها همُ الآن يقتربون رويداً.. رويدًا..
يجيئون من كل صَوبْ
والمُغَنُّون - فى الكعكة الحجرية - ينقبضُونَ
وينفرجونَ
كنبضة قَلبْ!
يشعُلونَ الخناجرَ..
يستدفئون من البرد والظلمة القارسه
يرفعُون الأناشيد فى أوجه الحَرس المقترب
يشبكون أياديهمُ الغَضَّة البائسه
لتصير سياجًا يصُدُّ الرصاصَ!
الرصاصَ..
الرصاصَ..
وآه..
يغنون: «نحن فداؤك يا مصرُ»
«نحن فداؤُ..»
وتسقط حنجرة مُخْرَسهْ
معها يسقطُ اسمكِ يا مصرُ فى الأرض
لايَتَبَقَّى سوى الجسَد المتهشِّمِ والصرخاتِ
على الساحة الدامسهْ
دقت الساعة الخامسهْ
... ...
دقت الخامسة
... ...
دقت الخامسة
وتفَرَّقَ ماؤكَ - يا نهرُ - حين بَلَغتَ المَصبّ!

● ● ●

المنازل أضرحةٌ.. والزنازن
أضرحةٌ.. والمدى أضرحهْ
فارفعوا الأسلحه!
ارفعوا
الأسلحه

حركات التغيير فى الوطن العربى
دراســـة للحـــــالة المصـــــرية

■■ هذا عرض لكتاب صدر قبل عام كامل، وقبل أن تندلع الثورات العربية فى كل مكان. ولكنه كما يشير عنوانه، كان سباقا فى معالجة حركات التغيير فى الوطن العربى، والتى كان لها دور ملموس فى تطور الأحداث وصولا الى ماوصلت اليه، مركزا على الحالة المصرية

شهد عام ٢٠١٠ العديد من الأحداث سواء على الساحة المصرية الداخلية أو العربية دفعت حركات التغيير الجديدة بالوطن العربى لتكثيف تحركها على المستوى الشعبى سواء من خلال التظاهرات السلمية أو الحشد الإلكترونى الشعبى، وهو ما أعاد للأذهان الزخم الذى رافق نشأة هذه الحركات بدءاً من أواخر عام ٢٠٠٤، ونشاطها المحموم فى ٢٠٠٥.

فانطلقت التظاهرات الشعبية احتجاجاً على تجاوزات وممارسات رجال الأمن التى كان آخرها مقتل الشاب خالد سعيد فى مصر، وسبقه الاستقبال الشعبى الحافل للمدير العام السابق للوكالة الدولية للطاقة الذرية محمد البرادعى، وقيام العديد من الناشطين بالحشد الإلكترونى الشعبى له بعد إعلانه عن نيته الترشح للانتخابات الرئاسية العام المقبل فى حالة إجراء تعديلات دستورية تضمن نزاهة الانتخابات.

ويشار أيضاً إلى المسيرات التى خرجت احتجاجاً على ما اصاب «أسطول الحرية» وسط صمت عربى رسمى، بالإضافة إلى اقتراب العد التنازلى للانتخابات الرئاسية بمصر عام ٢٠١١، وتجدد الحديث عن سيناريو التوريث، خاصة بعد حديث مرض الرئيس مبارك والشائعات حول تدهور صحته مؤخراً. كل هذه الأحداث، وأيضاً مرور نحو ستة أعوام على نشأة أقدم تلك الحركات المصرية، وهى حركة «كفاية»، وانتشار عدوى تلك الحركات بمختلف الأقطار العربية شرقاً و غرباً، يطرح العديد من التساؤلات حول التقدم الذى أحرزته تلك الحركات فى الواقع السياسى العربى، ومدى قدرتها على تجاوز انشقاقاتها الداخلية، والبحث عن بدائل جدية للنظم السياسية القائمة والراغبة فى تغييرها كهدف أساسى لنشأتها.

البحث عن إجابة عن هذه التساؤلات كان موضوعا للكتاب الذى صدر قبل حوالى العام.

حركات التغيير الجديدة فى الوطن العربى: دراسة للحالة المصرية
الدكتور أحمد منيسى
مركز الإمارات للدراسات و البحوث الاستراتيجية فى أبوظبى ـ ٢٠١٠

شـــــريــــن يــــونـــــــس



المفهوم والسمات

يضع الكاتب فى الفصل الأول تعريفاً إجرائياً لحركات التغيير الجديدة بأنها منظمات أو تجمعات تتكون من تيارات لا يشترط فيها وحدة الفكر أو الايديولوجيا، تتفق على أجندة مرحلية، وينظم جهودها إطار تنظيمى مرن وبسيط، من أجل إحداث تغيير شامل فى الأوضاع المجتمعية القائمة من خلال الوسائل السلمية، دون سعيها للوصول للسلطة.

ويصفها فى مدخله لدراستها بأنها أهم مؤشرات حالة الحراك السياسى خلال العقد الحالى، حيث أسهمت فى تعميق هذا الحراك، ونقله إلى مرحلة أعلى فى بعض الدول العربية.

وتتميز حركات التغيير الجديدة بأنها أكثر انضباطاً من الحركات الاحتجاجية، ولها إطار تنظيمى وبرنامج خاص بالتغيير، إلا أنها تتشابه معها فى ممارسة بعض أساليب الاحتجاج، كما أن الحركات الاحتجاجية قد تطور نفسها فى مرحلة لاحقة لتشكل حركات تغيير جديدة.

وتختلف حركات التغيير الجديدة أيضاً عن حركات المعارضة التقليدية كالأحزاب فى طبيعة التكوين الفكرى، حيث تتسم حركات التغيير الجديدة بالتنوع الشديد، ويتميز خطابها وبرنامجها بالشمولية، وتنتهج العمل السياسى المباشر، ومن أهم أدواته التظاهر فى الشارع، على عكس الأحزاب المعارضة التى لم تلجأ إلى هذا العمل المباشر إلا فى أضيق الحدود. ولا تسعى حركات التغيير الجديدة للوصول إلى السلطة، بالإضافة إلى عدم تمتعها برخصة قانونية للعمل على خلاف الأحزاب المعارضة.

واتسم الظرف التاريخى المصاحب لظهور تلك الحركات بالوطن العربى بنشأتها فى مواجهة الدولة، نتيجة لعجز الأخيرة عن أداء دورها، وتوسعها على حساب المجتمع المدنى، خاصة مع تآكل دور الأحزاب السياسية كمنظمات للتعبئة والتمثيل الشعبى.

وصنف الكاتب تلك الحركات ضمن مجموعتين، الأولى تشمل الحركات السياسية، التى تعبر عن مطالب سياسية محددة، حيث تندرج معظم حركات التغيير الجديدة العربية، والثانية تتسم بطابع قطاعى اقتصادى أو مهنى، للتعبير عن مطالب فئات اجتماعية مهمشة أو جديدة اتخذتها أداة للدفاع عن مصالحها.

جمود وغليان

تفجرت ظاهرة الحراك السياسى - التى كانت حركات التغيير الجديد أبرز نتائجها - بالعديد من الدول العربية مع مطلع العقد الحالى، خاصة بعد أحداث ١١ سبتمبر، وتعددت أسبابها ما بين عوامل داخلية وخارجية.

فالأسباب الداخلية منها السياسية، كتردى الأوضاع السياسية العربية، وعجز النظام السياسى العربى عن مواجهة الأوضاع المستجدة على الساحتين العالمية والمحلية، فضلاً عن جمود المؤسسات التقليدية فى البلدان العربية، وتباطؤ معدلات الإصلاح السياسى، والتحايل على وعود التغيير، وتأزم أوضاع الأحزاب والقوى المعارضة.

أما الأسباب الاقتصادية، فمنها الضغوط الاقتصادية المتعاظمة التى أثقلت كاهل المواطن العربى، وتراجع مؤشرات النمو الاقتصادى، خاصة ارتفاع معدلات البطالة، وتزايد نسبة الذين يعيشون تحت خط الفقر، فقد بلغت هذه النسبة فى مصر ٩,٤٣٪ خلال الفترة ١٩٩٠-٢٠٠٣، وبلغت ١,٦٣٪، و٢,٤٥٪ و١,١٥٪ و ١٤,٣٪ فى كل من موريتانيا واليمن والجزائر والمملكة المغربية على التوالى خلال الفترة نفسها. وتزايد معدلات وصور الفساد الإدارى.

وتزامن ذلك مع ما شهدته معظم الدول العربية من تطور كبير فى مجال التعليم خلال العقدين الماضيين، وارتفاع معدل التحضر، وتنامى دور المرأة، والتحسن البارز فى المجال الصحى، وتكوين قطاعات متعاظمة من الأجيال العربية التى درست وتعلمت فى الخارج، مما أحدث تناقضاً فى بنية المجتمع السياسى العربى لم تستطع القوى السياسية التقليدية استيعابه.

أما الأسباب الخارجية للحراك السياسى، فنذكر منها تعرض النظم السياسية العربية لضغوط كبيرة بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١، واتهامها بأنها مسؤولة عن تفريخ الإرهابيين بسبب انغلاقها السياسى، والضغط عليها بضرورة البدء فى عملية إصلاح سياسى حقيقى يفرز نظماً ديمقراطية.

وفى سياق هذه الضغوط تم طرح العديد من مبادرات الإصلاح السياسى من قبل الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد الأوربى ومجموعة الدول الثمانى، منها «مبادرة الشرق الأوسط الكبير» التى تعرضت لانتقادات حادة فى الأوساط العربية، مما أدى لتعديلها تحت اسم «مشروع الشرق الأوسط الأوسع»، وتم إقرارها فى مجموعة الدول الثمانى فى يونيو ٢٠٠٤.

بيد أن الضغوط الخارجية للإصلاح السياسى بالدول العربية، تعرضت

لانتكاسة كبيرة خاصة بعدما نتج عنها صعود تيارات معادية للولايات المتحدة الأمريكية إلى السلطة، كفوز الإخوان المسلمين فى مصر بـ٨٨ مقعداً فى الانتخابات البرلمانية عام ٢٠٠٥، وفوز حركة المقاومة الإسلامية (حماس) بالانتخابات التشريعية التى أجريت فى يناير ٢٠٠٦.

ولعل أهم ما يميز ظاهرة الحراك السياسى بالدول العربية أن القسم الأعظم منه دار خارج المؤسسات التقليدية كالمؤسسات الحاكمة وأحزاب المعارضة، فتجلى هذا الحراك بأشكال وصور شتى، منها الحركات الاحتجاجية العشوائية.

وطرحت العديد من مبادرات الإصلاح، سواء على المستوى الرسمى، مثل «بيان مسيرة التطور والتحديث» الصادر عن القمة العربية فى مايو ٢٠٠٤، أو على مستوى القطاع الأهلى، مثل «إعلان صنعاء» فى يناير ٢٠٠٤، و«وثيقة الإسكندرية» التى صدرت عن مؤتمر «قضايا الإصلاح العربية الرؤية والتنفيذ» فى مارس ٢٠٠٤، فضلاً عن «وثيقة إعلان الدوحة للديمقراطية والإصلاح السياسى» فى يونيو ٢٠٠٤، أو على مستوى قطاعات معينة مثل مبادرة «مجلس الأعمال العربى» فى يناير ٢٠٠٤.

وتجلى الحراك السياسى فى مظهر آخر تمثل فى التنامى الكبير لدور منظمات المجتمع المدنى وحجمها، فبلغ عدد المنظمات الأهلية بالوطن العربى نحو ٢٢٠ ألف منظمة فى عام ٢٠٠٢، مقابل ١٦٠ ألف منظمة عام ٢٠٠٠.

ومن المؤشرات الأخرى للحراك السياسى ارتفاع مساحة النقد العام لسلبيات المجتمع العربى بصورة غير مسبوقة، وظهور توجهات معارضة فى قطاعات مجتمعية لم يعرف عنها تاريخياً التحرك بأفق سياسى مثل أساتذة الجامعات والقضاة، وتبنى قطاعات داخل النخبة الحاكمة برامج اصلاحية ولو جزئية، وتصاعد درجة الصدام بينها وبين القوى التقليدية فيما عرف بصراع الحرس الجديد والحرس القديم.

أما بالنسبة لحركات التغيير الجديدة التى تعتبر أبرز وجه لهذا الحراك السياسى بالمنطقة العربية، فقد أكد الكاتب سيطرة تيارين رئيسين عليها، هما: التيار الحداثى المدنى والتيار الدينى التقليدى.

فالتيار الحداثى المدنى يدور نضاله حول المطالبة بتغيير حقيقى فى الأوضاع السياسية بالبلاد ويؤسس لمجتمع المواطنة والحرية والتقدم، ويضم تحت لوائه اليسار الماركسى والاتجاه القومى والاتجاه «الاسلامى المستنير»، إضافة إلى التيار الوطنى الليبرالى، وأبرز نموذج له هو حركة كفاية المصرية.

بينما يضم التيار الدينى التقليدى تيارات شتى ذات مرجعيات إسلامية أبرزها جماعة الإخوان المسلمين، وبجانب مطالبه ذات الطبيعة الديمقراطية، فهو يؤكد أيضاً على البعد الأخلاقى استناداً إلى تأكيد المرجعية الإسلامية للمجتمع.

نماذج متعددة ونقلة نوعية

فى الفصل الثانى، يبحث الكاتب أسباب انتشار حركات التغيير الجديدة بالمنطقة العربية، والسمات الرئيسية لهذه الحركات، مستعرضاً نماذج منها بأقطار عربية مختلفة.

كان ظهور حركات التغيير الجديدة فى الوطن العربى نتاجاً لحالة الجمود الذى أصاب عملية التطور الديمقراطى فى تلك الدول، وانسداد أفق التغيير عبر الآليات الديمقراطية، وخصوصاً آلية الانتخابات.

وقد انتشرت تلك الحركات لاعتبارات شتى، منها: أنها غير ملزمة، ولا يتطلب اكتساب عضويتها إجراءات بيروقراطية معقدة، ولا يكلف الانضمام إليها تكاليف مادية، كما أنها نقلت فعل الممانعة والاحتجاج من الأطر النخبوية والحزبية الضيقة إلى الفضاء العام، فكان نزولها إلى الميادين العامة تظاهراً واحتجاجاً مصدر فاعليتها وذيوع صيتها. وتوجهت تلك الحركات لتشكيل تحالفات سياسية واسعة فضمت تحت لوائها معظم التيارات السياسية والحزبية.

ومن حركات التغيير الجديدة بالوطن العربى التى استعرضها الكتاب، تجمع «إعلان دمشق» الذى تأسس مع انتهاء ما يعرف بربيع دمشق، وهى الفترة التى تنامت فيها الحريات العامة والسياسية فى بداية حكم الرئيس بشار الأسد، وما أعقب اغتيال رئيس الوزراء اللبنانى الأسبق رفيق الحريرى عام ٢٠٠٥ من حصار دولى على سوريا.

ومع ذلك فإن ظهور التجمع سبقه بسنوات عدة حراك سياسى، كانت أبرز ملامحه، تصاعد المطالبات الخاصة بالتغيير الديمقراطى، وتعدد الوثائق والمشاريع التى تدعو إلى اتحاد القوى المطالبة بالتحول الديمقراطى، ومنها «بيان الـ٩٩» فى خريف عام ٢٠٠٠، ومشروع وثيقة «أصدقاء المجتمع المدنى»، ومشروع «حركة السلم الاجتماعى» فى فبراير ٢٠٠١، و«بيان الألف» الصادر عن ناشطين بلجان إحياء المجتمع المدنى، وبيان «المليون» الخاص بلجان الحريات الديمقراطية والدفاع عن حقوق الإنسان، بالإضافة إلى ظهور العديد من المنتديات السياسية وأهمها «منتدى الأتاسى للحوار الديمقراطى».

وضم تجمع «إعلان دمشق» فى أكتوبر ٢٠٠٥، أوسع ائتلاف معارض فى تاريخ سوريا منذ بداية الحقبة البعثية عام ١٩٦٣، وأكد بيانه التأسيسى فك الارتباط بين مشروع التغيير الديمقراطى وبين مشروع السلطة الذى نظم لسنوات نشاطات المعارضة. فتكلم البيان عن ضرورة بناء الدولة الحديثة، وإلغاء الأحكام العرفية، ووقف العمل بقانون الطوارئ، وإطلاق سراح جميع السجناء السياسيين، وإطلاق الحريات العامة، وتنظيم الإعلام والانتخابات وفق قوانين توفر الحرية والعدالة والفرص المتساوية للجميع.

وبالفعل، نجح التجمع فى طمأنة الشارع السورى بقدرة الفعاليات المعارضة المختلفة على التوافق وعلى احترام تنوعها والاحتكام إلى قواعد الصراع السلمى، وشكل إطاراً للتنسيق بين القوى المعارضة، وإطاراً مبادراً إلى الأنشطة الاحتجاجية المحدودة التى تجرى فى البلاد.

وفى تونس، أسست هيئة ١٨ أكتوبر للحقوق والحريات فى نهاية عام ٢٠٠٥، وضمت تحت لوائها العديد من التيارات السياسية، كالحزب الديمقراطى التقدمى، وحركة النهضة الإسلامية، والتكتل الديمقراطى من أجل العمل والحريات، وحزب العمال الشيوعى التونسى، والمؤتمر من أجل الجمهورية، فضلاً عن شخصيات نقابية وحقوقية.

وتشكلت هيئة ١٨ أكتوبر للحقوق والحريات فى مناخ داخلى غلب عليه تصاعد الاحتقان السياسى، بعدما شهدته تونس من تعديلات دستورية ألغت تحديد عدد الولايات الرئاسية، وصدور العديد من القوانين القمعية، كقانون العاشر من ديسمبر ٢٠٠٣، بالإضافة لما شهده عام ٢٠٠٥ من تصعيد خطير لقمع الحريات العامة.

وجاء تأسيس هيئة ١٨ أكتوبر للحقوق والحريات عقب انتهاء «إضراب الجوع» الذى قامت به مجموعة من قادة المعارضة والعمل المدنى والشخصيات العامة احتجاجاً على ممارسات السلطة وقمعها للحريات العامة ومنظمات المجتمع المدنى، مطالبين بحرية التنظيم وحرية الإعلام والتعبير، والإفراج عن المساجين السياسيين، وسن قانون العفو التشريعى العام.

وتأسست الهيئة للتأكيد على مواصلة العمل الموحد من أجل تلك المطالب، وكذلك إنشاء منتدى ١٨ أكتوبر كفضاء للحوار بين مختلف التيارات الفكرية والسياسية حول القضايا الأساسية التى يقتضيها الانتقال الى الديمقراطية.

وأضافت الهيئة إلى أجندة عملها خلال عام ٢٠٠٧ ثلاثة أهداف أخرى هى: النضال من أجل استقلال القضاء والقضاة وضمان شروط المحاكمة العادلة فى جميع أنواع المحاكمات، والنضال من أجل مقاومة الفساد والمحسوبية، والنضال من أجل انتخابات حرة و نزيهة.

ثم تحدث الكاتب عن الحراك السياسى بالمملكة العربية السعودية منذ مطلع العقد الحالى، والذى دفع بالنظام الحاكم إلى تبنى خطوات إصلاحية عدة.

فبعد أحداث ١١ سبتمبر تعرضت المملكة السعودية لحملات تشويه على الصعيد الدولى، استهدفت نمط الحياة السعودى، وتعبئة الرأى العام الأمريكى ضد العلاقة الاستراتيجية الخاصة التى ربطت بين الولايات المتحدة الأمريكية والمملكة منذ عقود. وطالبت الضغوطات الخارجية بإعادة بناء المجتمع السعودى، مع التركيز على تغيير مناهج التعليم، وضبط عمل الجمعيات الأهلية الخيرية، والبعض ذهب إلى حد المطالبة بتقسيم المملكة إلى كيانات سياسية عدة.

أما على نطاق الضغوط الإقليمية، فكان لسقوط نظام الرئيس صدام حسين فى أبريل ٢٠٠٣ تداعياته التى أثبتت ضعف النظم السياسية المستبدة فى مواجهة الضغوط والتحديات الخارجية، وحفزت الأقليات الشيعية بدول مجلس التعاون الخليجى للمطالبة بدور أكبر فى العملية السياسية.

وعلى الصعيد الداخلى، تعددت العرائض المطالبة بالإصلاح السياسى، كبيان الإصلاح الذى قدمه مئة مثقف سعودى فى يناير ٢٠٠٣، مطالبين فيه بوضع دستور للبلاد، والفصل بين السلطات، وإصلاحات جذرية فى القضاء. وكذلك عريضة «شركاء فى الوطن» التى قدمت فى أبريل ٢٠٠٣، ووقع عليها ٤٥٠ شخصية شيعية من مختلف مناطق المملكة للمطالبة فى بحث أوضاع الطائفة الشيعية، وعريضة «رؤية لحاضر الوطن ومستقبله»، وعريضة «الملكية الدستورية التى قدمها ١١٦ إصلاحياً فى ديسمبر ٢٠٠٣. وأعلنت «الحركة الاسلامية للإصلاح» فى المنفى عن تنظيم مظاهرة فى ١٤ أكتوبر ٢٠٠٣، فى شوارع الرياض قرب مقر اجتماع أول منتدى لحقوق الإنسان يعقد بالمملكة.

وأفرز هذا الحراك السياسى العديد من الإنجازات منها: تأسيس مركز متخصص للحوارات الفكرية والوطنية تحت اسم «مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطنى» فى أغسطس ٢٠٠٣، وكذلك قرار مجلس الوزراء فى ١٣ أكتوبر ٢٠٠٣ بتنظيم انتخابات جزئية للمجالس النيابية. وكذلك تعديلات أدخلت على نظام مجلس الشورى فى نوفمبر ٢٠٠٣، أصبح بموجبه للمجلس حق إبداء رأيه مرة أخرى فى الاقتراحات المعادة إليه، وكذلك إعطاء المجلس حق اقتراح ودرس الأنظمة التى يراها من دون الحصول على إذن مسبق من الملك. كما اتخذت خطوات عدة فى مجال تقنين منظمات حقوق الإنسان والجمعيات المهنية، فأسست «الجمعية الوطنية لحقوق الانسان»، وأسست «هيئة الادعاء والتحقيق» لتقوم بمهمات التحقيق مع المتهمين بدلاً من الشرطة، وأنشئت أول جمعية مهنية للصحافيين السعوديين، كذلك اتخذت إجراءات إصلاحية تربوية، وتنامت حركة التدوين، فقدر عدد المدونين فى المملكة عام ٢٠٠٦ بحوالى ٥٠٠-٦٠٠ مدون ومدونة. وأخيراً تم إصدار «نظام هيئة البيعة» الذى حسم مشكلة ولاية العهد فى أكتوبر ٢٠٠٦، ووفقاً لهذا النظام يتم تشكيل هيئة تتولى تأمين انتقال الحكم ضمن أسرة آل سعود بشكل سلس.

ورغم أن تلك الحركات عبرت كل منها عن نقلة نوعية فى عملية النضال من أجل الديمقراطية فى موطنها، إلا أنها

جميعاً عانت من نقاط ضعف حالت دون فاعليتها وتطورها، كعلامات الاستفهام حول تحديد هويتها و أهدافها، و الاتهامات التى وجهت إليها بالتواطؤ مع المشروع الأمريكى بالشرق الأوسط، و طبيعتها النخبوية وفشلها فى تأسيس قاعدة جماهيرية، و عوامل الانقسام الداخلى والخلاف على الأولويات، بالإضافة إلى التعرض للتنكيل و القمع من قبل السلطات.

التجربة المصرية

قسم الكاتب فى فصله الثالث مراحل الحراك السياسى فى مصر خلال العقد الحالى إلى ثلاث مراحل أساسية، بدأها بمرحلة ما قبل الانتخابات البرلمانية عام ٢٠٠٠، حيث شهدت مصر تحركاً واضحاً باتجاه تحريك الركود السياسى الذى سيطر على البلاد منذ تولى الرئيس مبارك مقاليد السلطة. ونتيجة لشعور النظام الحاكم بحالة التمرد، دعا الحزب الوطنى فى صيف ١٩٩٨ إلى مؤتمر للحوار الوطنى، ولكنه جاء محدود الفاعلية، فاتسم بالانتقائية سواء من قبل الأطراف المشاركة وكذلك القضايا التى دار حولها، كما أن توصياته لم تجد طريقا للتنفيذ بسبب غياب آليات محددة للتنفيذ.

أما المرحلة الثانية فهى مرحلة ما بعد الانتخابات البرلمانية لعام ٢٠٠٠ التى أشرف عليها القضاء جزئياً، مما حجم قدرة السلطة على تزوير النتائج كلياً لصالح مرشحى الحزب الوطنى الحاكم، وصعد معها ٨٨ مرشحاً من الإخوان المسلمين إلى البرلمان المصرى. ونتيجة لذلك ظهرت اتجاهات قوية داخل الحزب الوطنى نفسه تطالب بإصلاح الحزب وتطويره، وتشكلت كيانات جديدة داخل هيكله التنظيمى كان أهمها لجنة السياسات التى تولاها نجل الرئيس، إلا أنه فى الوقت ذاته تأكد غياب التواجد الشعبى للحزب. وترافق ذلك مع تدهور غير مسبوق على الصعيد الاقتصادى زاد من حدة الاحتقان الداخلى.

أما المرحلة الثالثة فهى مرحلة ما بعد تعديل المادة ٧٦ من الدستور فى مايو ٢٠٠٥، الذى أفرغ مضمونه من التطور الذى كان يبشر به، وفرض شروطاً تعجيزية على عملية الترشح لمنصب رئاسة الجمهورية، مؤكداً نية النظام فى توريث الحكم. وأعقب هذه الخطوة، خطوات أخرى أكدت نية الحزب الوطنى لإعادة إنتاج النظام الحاكم القائم حالياً بكل نواقصه وسلبياته، وأهم هذه الخطوات القانون ١٧٧ لعام ٢٠٠٥ الذى أقره مجلس الشعب بتعديلات قانون الأحزاب السياسية، وتقييد حق القوى السياسية فى أن يكون لكل منها حزبها الخاص، والتجاوزات التى شهدتها الانتخابات البرلمانية فى نوفمبر وديسمبر ٢٠٠٥، والتعديلات الدستورية التى أقرت فى مارس ٢٠٠٧ وقوبلت برفض مجتمعى وسياسى عارم. وحملة الاعتقالات الواسعة فى صفوف جماعة الإخوان المسلمين التى بلغت خلال عام ٢٠٠٧ نحو ٣٢٤٥ عضواً.

كل هذه الأمور تزامنت مع تطورات أخرى عمقت حالة الحراك السياسى فى مصر خلال العقد الحالى من ضمنها تطور الحركة الحقوقية، واستنهاض الحركة النقابية المهنية فى عقدى الثمانينيات والتسعينيات، وتطور النضال المدنى والسياسى من أجل القضايا القومية والعربية، ونتائج الغزو الأمريكى للعراق واحتلاله عام ٢٠٠٣، بالإضافة إلى التطورات داخل معسكر القوى المعارضة سواء على مستوى التكتل ضد النظام الحاكم و تكثيف الضغط عليه، وكذلك تقديم مبادرات الإصلاح السياسى، وكذلك انتفاضة القضاة للمطالبة باستقلال القضاء، والانتعاشة الملحوظة فى المجتمع المدنى، وتنامى المظاهرات المطالبة بالإصلاح، وأيضاً تأثير الصحف المستقلة والإنترنت وقدرتها على توفيرها منابر جديدة للترويج للأفكار الإصلاحية، وانتشار حركة التدوين. وأخيراً وقوع أحداث كشفت عن ضعف أداء النظام الحاكم وفساده كحريق قصر ثقافة بنى سويف، وغرق العبارة السلام ٩٨ فى فبراير ٢٠٠٦، وأحداث الفتنة الطائفية التى شهدتها الإسكندرية فى أكتوبر ٢٠٠٥ وأبريل ٢٠٠٦، وانتشار ظاهرة طوابير الخبز.

ونتيجة لكل هذه العوامل وإصرار النظام الحاكم على استمرار انتهاج سياسة العمل كالمعتاد، تفجرت ظاهرة حركات التغيير الجديدة بمصر.

كفاية ...صعود وخفوت

عنى الكاتب فى فصله الرابع برسم خريطة لأهم حركات التغيير الجديدة التى شهدتها مصر خلال العقد الحالى، من حيث تحليل ظروف نشأتها و أهدافها، و تقييم مدى فاعليتها، و إبراز أهم سمات هذه الحركات من حيث خطابها السياسى وتنظيمها وآليات عملها.

وتأتى الحركة المصرية من أجل التغيير (كفاية) فى قلب خريطة حركات التغيير الجديدة فى مصر والتى تأسست فى سبتمبر ٢٠٠٤، بهدف تغيير الأمر الواقع بأساليب النضال الديمقراطى، وضمت قائمتها الأساسية نحو ٣٠٠ شخصية سياسية من مختلف التيارات السياسية والأجيال.

واتسمت الأطروحات السياسية لحركة كفاية بطابع الشمول والجذرية، فدعا بيانها التأسيسى إلى إنهاء احتكار السلطة، وإنهاء احتكار الثروة، وإعلاء سيادة القانون والمشروعية، واستقلال القضاء واحترام الأحكام القضائية،العمل على استعادة دور مصر الإقليمى الذى فقدته منذ التوقيع على معاهدة السلام مع الكيان الصهيونى عام ١٩٧٩.

وطرح البيان آليات لتحقيق ذلك من خلال إلغاء حالة الطوارئ وكل القوانين الاستثنائية المقيدة للحريات، والبدء فوراً فى إجراء إصلاح دستورى يسمح بانتخاب رئيس الجمهورية ونائبه مباشرة لمدة لا تزيد عن دورتين، والفصل بين السلطات، وإطلاق حرية تكوين الأحزاب، وإجراء انتخابات برلمانية حرة ونزيهة.

ورفضت الحركة منذ البداية المشاركة فى العملية السياسية- باستثناء خوضها الانتخابات البرلمانية عام ٢٠٠٥ من خلال الجبهة الوطنية للتغيير- نظرا لافتقار الانتخابات إلى الحد الأدنى من النزاهة والجدية.

ونجحت الحركة لأول مرة بعد ما يقرب من خمسة عقود ونصف العقد- منذ مارس ١٩٥٤-فى انتزاع حق التنظيم العلنى المستقل، وفى الإضراب والتظاهر السلمى، وكسرت حاجز الخوف والرهبة، فطالت هيبة رأس الحكم فى مصر، ونجحت فى تكثيف الضغط على النظام الحاكم لتقديم تنازلات مهمة من أجل الديمقراطية. كما استطاعت جذب اهتمام النخبة السياسية القومية إلى الشأن الداخلى، وجسدت بالفعل وحدة النسيج الوطنى بصورة متقدمة نجحت فى تجديد دماء النخبة السياسية.

وبرغم نجاحاتها فإن تحركات «كفاية» فى الشارع بعد عام ٢٠٠٦ أصبحت أقل زخماً، وهو ما يمكن رده إلى عوامل عدة؛ منها: الموقف المتشدد للنظام الحاكم من التظاهر، واتجاه الحركة إلى تنويع نشاطها والاهتمام بقضايا كالبطالة والغلاء والفساد، وتركيز جزء كبير من جهودها بعد عام ٢٠٠٥ فى مجال ائتلاف التغيير وتطوير برنامجها السياسى وأطروحاتها الخاصة بالتحول الديمقراطى وبرنامج عملها.

واستعرض الكاتب حركات التغيير الجديدة التى ارتبطت نشأتها بحركة كفاية، فانبثق بعضها من الحركة، وبعضها الآخر انطلق بمشاركة من نشطائها، والبعض الثالث تمتع باستقلال بدرجة أو بأخرى وإن عمل لنفس الأهداف الخاصة بتعميق الممارسة الديمقراطية ومكافحة الاستبداد. ومن ضمن تلك الحركات: «أطباء من أجل التغيير»، و«صحفيون من أجل التغيير»، و«كتاب وفنانون من أجل التغيير»، و«محامون من أجل التغيير»، و«عمال من أجل التغيير»، و«شباب من أجل التغيير» و «طلاب من أجل التغيير».

ومن حركات التغيير الجديدة الأخرى حركة «الحملة الشعبية من أجل التغيير» التى تأسست فى نهاية عام ٢٠٠٤، وتحولت إلى ائتلاف سياسى أخذ الطابع اليسارى، فركزت نشاطها على المناطق الشعبية والأحياء الفقيرة.

وتحدث الكاتب عن حركات أخرى «كالتجمع الوطنى للتحول الديمقراطى»، و«الجبهة الوطنية للتغيير»، بالإضافة إلى حركات فئوية أخرى كحركة «٩ مارس» لاستقلال الجامعات، وحركة «لا للرئيس مبارك» وحركة «أوقفوا مبارك».

كما أشار الكاتب إلى حركات التغيير الجديدة التى نشأت خارج مصر وأبرزها «جبهة إنقاذ مصر»، و«جمعية مصر الديمقراطية» وحركة «مصريون بلا حدود»، وهى حركات تميزت عن مثيلاتها بالداخل فى عدم رفضها ممارسة الضغوط الدولية على النظام الحاكم لدفعه للتحول الديمقراطى، وعدم الاعتراض على التمويل الخارجى، ومطالبتها بإعطاء المصريين فى الخارج الحق فى التصويت فى الانتخابات العامة خاصة بعد تجاوز عددهم ٥ ملايين نسمة.

واختلفت جميع حركات التغيير الجديدة بمصر فيما بينها على مستوى الخطاب الفكرى لها، فمنها من اتخذ الطابع السياسى فى مطالبه، وأخرى كانت لها صبغة اقتصادية فى مطالبها، وهناك من امتزجت فيها المطالب السياسية مع الاقتصادية .

كما تنوعت الحركات من حيث الحجم والتنظيم والانتشار، وإن كانت اتسمت بشكل عام بالتركيب الجيلى، فكانت عناصر جيل السبعينات بمثابة العمود الفقرى لها، والقائم بدور الموجه والقائد، فى حين انخرطت فيها عناصر جيلية لم تكن محسوبة على القوى المعارضة التقليدية، ولم تكن ذات خبرة سياسية، بالإضافة إلى عضوية منظمات المجتمع المدنى وعناصر الطبقة الوسطى الجديدة.

وتبنت حركات التغيير الجديدة فى نشاطها المعارض للنظام الحاكم العديد من الآليات كالتظاهر و توظيف التكنولوجيا الحديثة وتوظيف الرموز التاريخية و اللجوء الى القضاء وعقد المؤتمرات الصحافية وإصدار البيانات.

رؤية تقويمية

كرس الكاتب الفصل الخامس والأخير لتقييم دور حركات التغيير الجديدة فى الوطن العربى فى عملية التطوير الديمقراطى، وحدود فاعليتها وأبرز الاختلافات بين خبرتى حركات التغيير الجديدة العربية و الأوروبية، واستشراف مستقبل حركات التغيير الجديدة فى مصر.

نجحت تلك الحركات بالمنطقة العربية فى زيادة المشاركة السياسية، وإشاعة ثقافة الاعتراض والرفض لدى المواطن العربى، وتنشيط دور أحزاب المعارضة التقليدية، وتشكيل نخب سياسية شابة، لكنها عجزت عن بناء تكتل قوى للمعارضة، وصياغة مشروع سياسى متكامل بديل للنظام القائم، بالإضافة إلى عجزها عن تحريك الجماهير وضمها

لصفوف المعارضين الفاعلين، وعدم تمكنها من تطوير أطر تنظيمية محكمة تتيح لها العمل وفق صيغ مؤسسية محددة، وأغفلت فكرة إقامة تحالفات إقليمية ودولية من أجل تحقيق الديمقراطية، والاستفادة من المناخ الدولى المشجع على التحول الديمقراطى فى مرحلة ما بعد أحداث ١١ سبتمبر.

وأرجع الكاتب اختلاف خبرتى حركات التغيير العربية الجديدة ونظيراتها الأوربية خاصة فى أوربا الشرقية وجمهوريات الاتحاد السوفيتى، لعدة أسباب أهمها عجز تلك الحركات بالدول العربية عن كسب دعم الطبقة الوسطى وغياب القواعد الشعبية لها، بالإضافة إلى حالة عزلة المعارضة التى تعتبر إحدى الحقائق البنيوية للنظم السلطوية بالدول العربية، بينما نشأت الحركات الأوربية فى مجتمعات هجين بين الديكتاتورية والديمقراطية. وكذلك غياب العقلانية عن النخب الحاكمة بالدول العربية.

وحول مستقبل حركات التغيير فى مصر، يتوزع الجدل بين اتجاهين يتراوح بين من يرى بأنها ستختفى باختفاء الظروف التاريخية التى ولدتها، والآخر يؤكد استمراريتها وتصاعد دورها مستقبلاً. ويتبنى الكاتب اتجاهاً وسطاً يقوم على التمييز بين حركات كبرى تتمتع بالقدرة على الاستمرار وحركات لا تمتلك مثل هذه القدرة، مما يجعلها مرشحة للاختفاء قبل أن تحقق أهدافها.

ويتوقع الكاتب مزيد من الانشقاق للحركات الكبرى وفى مقدمتها كفاية فى حالة عدم إنجازها برنامجاً متكاملاً للتغيير، وكلما اقتربت من القضايا التفصيلية حول التغيير الديمقراطى المنشود، كما يستبعد احتمالية سعيها للحصول على المشروعية القانونية والعمل كأحزاب سياسية لرفضها مبدأ المشاركة فى السلطة منذ البداية، متوقعاً ظهور مزيد من حركات التغيير الجديدة فى مصر.

وأنهى الكاتب مؤلفه بالقول بصعوبة إصدار حكم معين على خبرة حركات التغيير الجديدة بالوطن العربى فى ظل قصر عمرها الزمنى و خبرتها السياسية وما عانته من معوقات وعثرات.

وفى هذا السياق طرح المؤلف أولويات لتطوير تلك الحركات تتصل بخطابها الفكرى، مؤكداً حاجتها لإنتاج مشروع فكرى واضح للتحول الديمقراطى قادر على حسم قضايا أساسية مطروحة وفى مقدمتها العلاقة بين الدين والدولة. وعلى الصعيد السياسى المباشر طالبها ببناء تحالف واسع بين كل قوى الرفض السياسى، وابتكار وسائل تعبئة قادرة على جذب الجماهير لهذه الحركات، وإقناعهم بالأهمية الفائقة لإحلال الديمقراطية والكلفة الفادحة المدفوعة فى ظل استمرار غيابها. ■

جهاز «أمن الدولة» .. ثم ماذا بعد؟

■■ أهمية هذا الكتاب تعود فى المقام الأول الى أن كاتبه ضابط سابق فى جهاز «أمن الدولة» فى مصر (خرج برتبة عميد). ثم تعود فى المقام الثانى الى كونه يحاول الإجابة- من واقع خبرة عملية- على السؤال المحورى: كيف يمكن أن يكون لدينا جهاز شرطة «نظيف» يعمل لصالح المجتمع، دون ظلم أو قهر أو تعذيب.

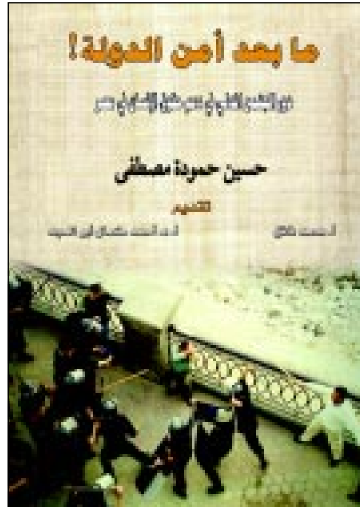
أهم النقاط التى يعرض لها الكتاب هى كالآتى:

● إن العوامل التى تؤثر بالسلب على أداء وممارسات ضباط الشرطة فيما يتعلق بقضايا حقوق الإنسان فى مصر، تتمثل فى عدم توافر العوامل والاعتبارات الشخصية بالكفاءة والقدر المطلوب، وتتمثل تلك العوامل فى: التنشئة الاجتماعية والتكوين النفسى والقدرات المهنية والمدركات بحقوق الإنسان، بالإضافة إلى وجود مثالب فى العوامل الموضوعية التى تتمثل فى: طبيعة نظام الحكم «استبدادى»، والثقافة السائدة فى المجتمع «القمع والإقصاء»، ومحاكاة بعض الأنظمة العالمية والإقليمية فى تطبيق معايير حقوق الإنسان «الانتقائية والمعايير المزدوجة»، وتدنى الدعم اللوجستى للسجون ومراكز الشرطة ومراكز الرعاية الاجتماعية «معاملة ومواصفات غير آدمية».

● إن الممارسات التى تقترفها السلطة فى مصر «ممثلة فى أجهزة وزارة الداخلية» استناداً إلى حالة الطوارئ، تعتمد على الحلول الأمنية واستخدام القوة وانتهاك حقوق الإنسان، وتقوض الحياة السياسية والحزبية.

● ضرورة التحول من المفهوم الضيق للأمن القومى، إلى المفهوم الأعم والأشمل لـ«الأمن الإنسانى - Human Security»، الذى يُكمل أمن الدولة ولا يهدده كما تتوهم السلطات الأمنية، والذى كان مسوغًا لرفض جهاز أمن الدولة إشهار الجمعيات الأهلية التى تنتقد السياسات الحكومية، أو تتطرق إلى قضية التعذيب فى أقسام الشرطة.

● ضرورة العناية بدور المجتمع المدنى



باعتباره «منظومة للإنذار المبكر- Early Warning Alarm System» وذلك عن طريق تشجيع وتنشيط العناصر الوطنية للمشاركة فى أنشطة المجتمع المدنى، وخاصة المنظمات الحقوقية والدفاعية؛ لكشف الحاجات المجتمعية المختلفة من خلال ممارسة أنشطتها- فى وقت مناسب -حتى يمكن توقى حدوث أزمات فجائية، يصعب علاجها عند وقوعها، لكن يمكن توقيها - ابتداءً - بتفهم أسبابها، مع الوضع فى الاعتبار أن أهم وأخطر التحولات العالمية الراهنة هو الانتقال من مجتمع الأمن إلى مجتمع المخاطر، وبزوغ عصر الشبكات والإرهاب الجديد؛ بمعنى أن المجتمع الدولى - وبالتالى المحلى - أصبح زاخراً بالمخاطر غير المعهودة والتى تستلزم إبداعاً علمياً لكى نصل إلى آلية تسمح لنا بالتنبؤ بهذه المخاطر قبل وقوعها.

- الأفكار المشار إليها طرحها المؤلف فى هذه الدراسة، التى قدمت كبحث علمى فى مسابقة نَظَّمتها أكاديمية مبارك للأمن تحت إشراف برنامج الأمم المتحدة الإنمائى «مشروع دعم قدرات ضباط الشرطة فى مجال حقوق الإنسان»، فى عام ٢٠٠٥م، وهذه الأفكار كانت محل تقدير المنسق الإقليمى للَّجنة الدولية للصليب الأحمر، وخبراء اللجنة الدولية للصليب الأحمر بجنيف، واعتُمد المؤلف بموجبها كخبير للَّجنة بوزارة الداخلية المصرية، وحصل على إجازة دولية بتدريس مادة حقوق الإنسان على المستوى الجامعى، صادرة عن المعهد الدولى لدراسات حقوق الإنسان بستراسبورج، فرنسا، إلا أنها كانت مسوغًا للزعم باعتبار الضابط (المؤلف) خطراً على الأمن القومى، ومصدراً لاختراق جهاز مباحث أمن الدولة؛ لإيمانه بأفكار نشطاء حقوق الإنسان فى مصر، وتم استبعاده من العمل بالجهاز على ضوء ذلك فى وقت لاحق.

يقدم محمد فائق نائب رئيس المجلس القومى لحقوق الإنسان فى مصر للكتاب باشارته الى أننا فى أعقاب ثورة قامت من أجل حقوق الإنسان، فى حاجة إلى الكتابات الجادة التى تضىء الطريق لدعم هذه الحقوق. ومما لاشك فيه أن المجتمع المدنى هو الدعامة الرئيسية لتحقيق ذلك، أو كما وصفه البحث بأنه بمثابة منظومة للإنذار المبكر للكشف عن احتياجات المجتمع فى وقت مناسب. كما أن احترام حقوق الإنسان هو الذى يُرَشِّد العلاقة بين الدولة والمجتمع. فلم يعد من المقبول أن تبقى الدولة بمؤسساتها سلطة فوق المجتمع وإنما مكانها الطبيعى فى قلب المجتمع تتفاعل معه ويتفاعل معها بحيث يقوم الحكم على الرضا قبل القمع، وعلى العدل قبل القوة، وهذا ما يجعلنا فى حاجة إلى مجتمع مدنى حر وقادر على أداء دوره.

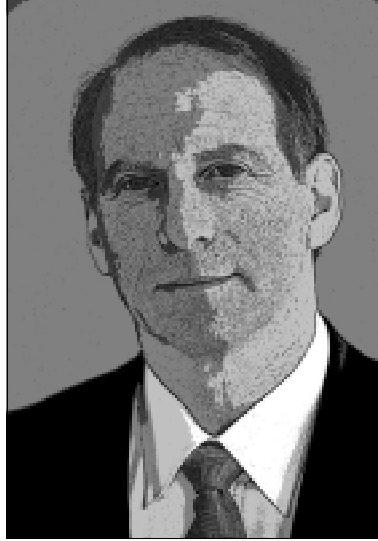
وترجع أهمية هذا البحث أيضًا إلى كاتبه، فهو ليس فقط مؤهلاً علمياً لذلك لما تحقق له من العديد من الدراسات الأكاديمية المُعَمَّقة، ولكنه أيضاً يملك تجربة فريدة، فقد دخل حسين حمودة حقل حقوق الإنسان كضابط شرطة فى جهاز مباحث أمن الدولة مكلف بملاحقة منظمات حقوق الإنسان لدرء مخاطرها على النظام فى وقت كانت تلك هى عقيدة هذا الجهاز. ولكنه اكتشف فساد هذه العقيدة، فانحاز لحقوق الإنسان ووقف مع المجتمع المدنى الذى ينادى باحترام حقوق الإنسان، فكانت القطيعة بينه وبين جهاز أمن الدولة قبل أن تسقطه ثورة يناير ٢٠١١م.

ويتطرق البحث إلى موضوعات جديدة فى مجال حقوق الإنسان مثل الأمن الإنسانى، كمفهوم أعم وأشمل من مفهوم الأمن القومى ويؤكد الباحث أن ذلك يكمل أمن الدولة ولا يهدده كما تتوهم السلطات الأمنية. ويصل حسين حمودة فى بحثه إلى نتيجة مفادها ضرورة إلغاء حالة الطوارئ رغم انتقال العالم من مجتمع الأمن إلى مجتمع المخاطر ببزوغ عصر شبكات الإرهاب، ولكنه يرى أن التغلب على ذلك لا يكون بالقهر والقمع، ولكن بالإبداع العلمى الذى يهيئ آلية تسمح بالتنبؤ بالمخاطر قبل وقوعها. ■

مابعد «أمن الدولة»
دور المجتمع المدنى فى دعم حقوق الإنسان فى مصر
حسين حمودة مصطفى
على نفقة المؤلف ـ ٢٠١١

تأملات فى الثورة المصرية

ريـتـشـــــــــارد هــــــــــــاس
Richard N. Haass



■■ نيويورك - إن الثورات لا تندلع من دون أسباب. وفى حالة مصر، كانت الأسباب عديدة: أكثر من ثلاثين عاماً من حكم الفرد؛ والخطط الذى وضعها حسنى مبارك لتمرير الرئاسة إلى ولده؛ والفساد المستشرى، والمحسوبية، والمحاباة؛ والإصلاح الاقتصادى الذى لم يستفد منه أغلب المصريين، والذى جاء على الرغم من ذلك متناقضاً كل التناقض مع الغياب شبه الكامل للتغيير السياسى.

وكانت النتيجة الطبيعية أن يشعر العديد من المصريين بالغربة فى وطنهم، ناهيك عن الخزى والمهانة. والواقع أن هذا النوع من المهانة والإذلال يشكل دافعاً بالغ القوة. أى أن مصر كانت على أتم استعداد للثورة؛ والواقع أن التغيير الجذرى كان آتياً لا محالة فى أى لحظة من السنوات القليلة المقبلة، حتى فى غياب شرارة تونس أو توفر وسائل التواصل الاجتماعى.

صحيح أن وسائل التواصل الاجتماعى الإلكترونية تشكل عاملاً بالغ الأهمية، ولكن المراقبين بالغوا فى تقدير الدور الذى تلعبه فى تحريك مثل هذه الثورات. فهى ليست التكنولوجيا الأولى التى تمكنت من قلب النظام القائم على مر التاريخ: فهناك المطبعة، والبرقية، والهاتف، والإذاعة، والتلفزيون، وأشرطة الكاسيت، وهى الاختراعات التى فرضت تحديات هائلة على النظام القائم فى أيامها. ومثلها كمثل هذه التكنولوجيات المبكرة فإن وسائل التواصل الاجتماعى الإلكترونية ليست حاسمة: ذلك أن الحكومات قادرة على قمعها بل وتوظيفها لتحفيز مؤيديها وأتباعها.

إن التوقيت يشكل أهمية كبرى فى عالم السياسة. والواقع أن إعلان مبارك عن عدم انتوائه الترشح لرئاسة الجمهورية مرة أخرى كان من المحتمل أن يؤدى إلى تحاشى الأزمة لو أدلى به فى شهر ديسمبر/كانون الأول. ولكن بحلول الوقت الذى ألقى فيه بإعلانه هذا، كان مزاج الشارع قد تطور إلى الحد الذى لم يعد معه مثل هذا الإعلان قادراً على استرضاء الناس وتهدئة مشاعرهم.

إن مدى النجاح الأولى الذى تحققه الثورات لا يتحدد بفعل قوة المحتجين بقدر ما تحدده إرادة النظام وتماسكه. فقد جاء انهيار النظام التونسى سريعاً لأن رأسه فقد رباطة جأشه ولأن الجيش كان ضعيفاً وغير راغب فى الوقوف فى صف الدكتاتور. أما مؤسسة الحكم فى مصر فقد أظهرت هى والمؤسسة العسكرية المصرية قدراً أعظم كثيراً من العزيمة والإصرار.

إن رحيل مبارك يشكل تطوراً بالغ الأهمية، إلا أنه لم يكن حاسماً. لا شك أن رحيله يسدل الستار على حقبة طويلة من السياسة المصرية، كما يشكل نهاية المرحلة الأولى من الثورة المصرية. ولكنها كانت نهاية البداية. والآن يبدأ النضال من أجل مستقبل مصر.

إن الهدف الآن لابد أن يتلخص فى إبطاء الساعة السياسية. إن المصريين يحتاجون إلى الوقت الكافى لبناء المجتمع المدنى وفتح الطيف السياسى الذى ظل مغلقاً طيلة عقود من الزمان. والواقع أن الاستعانة بحكومة مؤقتة هجين تشتمل على عناصر عسكرية ومدنية قد تكون الوسيلة الأفضل للمضى قدماً. ولكن إبطاء الساعة لا يعنى توقفها، بل إن الانتقال السياسى الحقيقى لابد أن يمضى قدماً ولو بوتيرة مدروسة.

وفى هذه المرحلة يتعين على مصر أن تتجنب عقد انتخابات مبكرة، خشية أن تتمكن بعض الجهات التى كانت قادرة على تنظيم نفسها على مدى الأعوام الماضية (مثل جماعة الإخوان المسلمين) من الفوز بميزة غير عادلة. ولابد أن يُسمَح لجماعة الإخوان المسلمين بالمشاركة فى العملية السياسية ما دامت تتقبل شرعية هذه العملية، وسيادة القانون، والدستور.

والواقع أن تاريخ مصر وثقافتها السياسية يدللان بوضوح على المحدودية الطبيعية للجاذبية التى قد تتمتع بها جماعة الإخوان المسلمين إذا تمكن المصريون من حل أبرز خلافاتهم، والحفاظ على النظام، واستعادة النمو الاقتصادى.

إن الإصلاح الدستورى أمر بالغ الأهمية. والواقع أن مصر تحتاج إلى دستور يتمتع بدعم واسع النطاق. ويشتمل على الضوابط والتوازنات الكفيلة بمنع الأقليات (حتى أولئك الذين يحظون بدعم عدد وافر من الناخبين) من حكم الأغلبية.

إن الحركات الثورية تنقسم على نحو لا مفر منه إلى فصائل مختلفة. ذلك أن هدفهم الأوحد فى مستهل الأمر يتمثل فى الإطاحة بالنظام القائم، وبمجرد اقتراب ذلك الهدف من التحقق فإن عناصر المعارضة تبدأ فى تجهيز نفسها لاستقبال المرحلة الثانية من النضال والمنافسة المقبلة على السلطة. ولقد بدأنا بالفعل نرى مؤشرات على هذا الاتجاه فى مصر، ولسوف نشهد المزيد فى الأيام والأسابيع المقبلة.

لن يرضى البعض فى مصر بأقل من الديمقراطية الكاملة؛ وسوف يهتم آخرون (وربما الأغلبية) بالنظام العام، وترسيخ قدر أعظم من المساءلة الرسمية، ودرجة من المشاركة السياسية، وتحسين الظروف الاقتصادية. ذلك أن تلبية مطالب كافة المحتجين أمر غير ممكن، ولا ينبغى للأنظمة أن تحاول تلبية كل المطالب.

لا شك أن مصر سوف تواجه مصاعب اقتصادية هائلة، وسوف تتفاقم هذه المصاعب بسبب الأحداث الأخيرة التى روعت السياح وأخافت المستثمرين ومنعت العديد من الناس من المواظبة على أعمالهم. إن التحديات المتمثلة فى النمو السكانى السريع، وعدم كفاية التعليم وفرص العمل، والفساد، والبيروقراطية، والمنافسة العالمية المتزايدة، كل ذلك يشكل فى مجموعه الخطر الأعظم الذى يهدد مستقبل البلاد.

إن الجهات الخارجية كانت وسوف تظل محدودة القدرة على التأثير على مجرى الأحداث. فعلى مدى الأعوام الثلاثين الماضية كانت الدعوات المتقطعة من قِبَل الولايات المتحدة بإجراء إصلاح سياسى محدود موضع رفض إلى حد كبير. وبمجرد اندلاع الأزمة، كان الناس فى الشارع، ومبارك ذاته، والجيش المصرى فى المقام الأول، هم الأطراف الرئيسية فى كل الأحداث. ومع تحرك المسيرة إلى الأمام فإن المصريين وحدهم هم الذين سوف يحددون مسارهم بسواعدهم.

وفى هذا السياق، يتعين على الجهات الخارجية أن تتوخى أشد الحذر فى التدخل بشكل مبالغ فيه، وخاصة بصورة علنية. فالمصريون وحدهم القادرون على تحديد مقدار وطبيعة الديمقراطية التى يرغبون فى إرسائها. وبوسع العديد من الجهات الخارجية أن تساعدهم فى ذلك. على سبيل المثال، بتقديم الأفكار الخاصة بالإصلاح الدستورى أو العملية الانتخابية. ولكن هذا النوع من المساعدة لابد أن يتم بشكل غير علنى وفى هيئة اقتراحات وليس مطالب.

إن التطورات الجارية فى مصر سوف تؤدى إلى عواقب متفاوتة فى المنطقة، ولن تتأثر كل دولة فى المنطقة بنفس القدر. فالممالك الحقيقية، مثل الأردن، تتمتع بقدر من الشرعية والاستقرار لا يتمتع به قادة الممالك الزائفة (مثل سوريا وليبيا واليمن)، ولا يتمتع به النظام الإيرانى. ومن المؤكد أن الكثير من الأحداث فى المنطقة سوف تتوقف على ما ستكشف عنه الأحداث.

لقد فُرِض التغيير على العراق من الخارج بالقوة، فى حين أتى التغيير فى مصر من الداخل، كما تحقق هذا التغيير باتفاق الجميع وليس قسرا. ولكن من السابق لأوانه أن نتكهن بما إذا كان التغيير فى مصر سوف يكون دائماً وبعيد المدى، ناهيك عن التكهن بمدى إيجابية هذا التغيير، وبالتالى فمن السابق للأوان أن نقيم أثره التاريخى. ■

Richard N. Haass, formerly Director of Policy Planning in the US State Department, is President of The Council on Foreign Relations.

ترجمة: مايسة كامل

أعداد الثورة ٢

الكتب
وجهات نظر
في الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية العدد ١٤٦ - السنة الثالثة عشرة - (فبراير-مارس - أبريل) ٢٠١١ - الثمن عشرة جنيهات Weghat Nazar - Volume 13 - Issue 146 - (February - March - April) 2011

زمن الغضب العربي

This is NOT a Facebook Revolution!!

أيمن الصياد / جيفري غنام / لاري دايموند

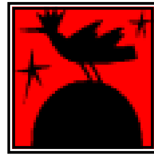


- دولة «الثقب الأسود» / عبدالوهاب الأفندي
- الثورات العربية في عيون أسبانية / خوان جويتيسولو

السنة الثالثة عشرة
العدد ١٤٦
مارس ٢٠١١

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر


تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى



محتويات العدد:

كتّاب العدد:

- **أكمل الدين إحسان أوغلو**.. أمين عام منظمة المؤتمر الاسلامى
- **أيمن الصياد**.. صحفى
- **برنارد هيكل**.. أستاذ الدراسات الشرقية بجامعة برنستون
- **بريان أوركوهارت**.. سكرتير عام مساعد للأمم المتحدة – سابقا
- **تيمور كوران**.. أستاذ الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة ديوك
- **جيفرى غنام**.. محام وكاتب مهتم بتقنية المعلومات
- **خوان جويتسيلو**.. كاتب وروائى أسبانى
- **دانى رودريك**.. أستاذ الاقتصاد السياسى الدولى بجامعة هارفارد
- **روبرت بيللترو**.. دبلوماسى أمريكى، عمل مساعدا لوزير الخارجية للشرق الأوسط
- **عبد الوهاب الأفندى عثمان**.. كبير الباحثين ـ مركز دراسات الديموقراطية بجامعة ويستمنستر
- **فضل مصطفى النقيب**.. أستاذ بجامعة واترلو ـ كندا
- **لارى دايموند**.. مدير مركز الديموقراطية بجامعة ستانفورد
- **مايكل برونينج**.. كاتب ألمانى
- **محمود قاسم**.. كاتب مصرى
- **مى يمانى**.. كاتبة سعودية
- **ميساء شجاع الدين**.. صحفية يمنية
- **وليام فاف**.. كاتب أمريكى

رسوم العدد

عماد حجاج – Andy Singer - Patrick Chappatte





المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

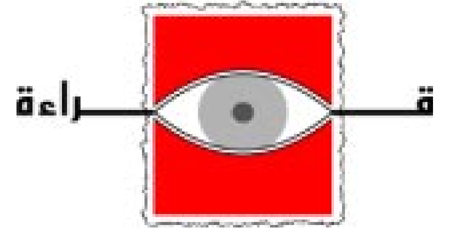
الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١,٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١,٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة



أيـمــــــــن الصــــــيــاد

#Jan25

كلام فى مفهوم «الثورة»

■ ■ أتفق مع الرأى القائل بالمبالغة فى توصيف ماجرى بأنه «ثورة الفيس بوك»، فالثورات - على الأرض - تبقى أكبر من أن تكون محض «افتراضية»، بأى معنى من المعانى. ولكننى أعتقد أن لا أحد يجادل أبداً فى الدور الذى لعبه Facebook وYoutube فى حرث الأرض تمهيداً. ثم twitter و«الجزيرة مباشر» تنظيما، وحشدا وتحريكا للكوادر والجموع يوما بيوم ولحظة بلحظة.

يتصل بهذا، ولا يبدو بعيدا عنه - حتى بحكم جغرافيا تغيرت قواعدها - أن الرياح القادمة من هذا الفضاء «السيبيرى»[1]، على منطقتنا، كان لها رديفٌ عبر الأطلنطى تجمع فى إعصار Wikileaks الذى عصف بأروقة الدبلوماسية فى عاصمة الدولة الأقوى فى نظامنا العالمى الجديد. والحاصل أن رياحه فى طريقها، ذهابا وجيئة مرت بغير عاصمة من عواصمنا التى كانت قد اطمأنت لعقود أن أسوار القصور تحجب ماوراءها. رغم أن أى قارئ للمقريزى أو حتى لليالى «الف ليلة»، كان سيدرك أن أسوارا كتلك، مهما تعالت أو سمكت جدرانها، لم تكن أبدا لتستر ماخلفها، إن لم يكن بفعل من الخدم والحشم والمؤامرة، فبمكائد النساء.



فى كتابه الجديد The Future of Power يقرر Joseph Nye صاحب نظرية «الليبرالية الجديدة» فى العلاقات الدولية، ومؤلف كتاب «القوة الناعمة» الشهير، أن قرننا الجديد يشهد تحولات جذرية فى مفهوم «القوة»، من شأنه أن يقلب أسس العلاقات الدولية التى استقرت طويلا. ففى الوقت الذى استمر فيه «انتقال القوة» من دولة مهيمنة الى دولة مهيمنة أخرى نمطا تاريخيا مألوفا لقرون، يبدو أننا صرنا أيضا بصدد مايمكن أن نعتبره انتشارا للقوة بطريقة تجعل مزيدا من الأحداث «المؤثرة» تحدث خارج نطاق سيطرة حتى أكثر الدول قوة.

ورغم أن كهنة كلاسيكيات العلاقات الدولية، مازالوا يلوكون قصة الإمبراطورية الرومانية مبشرين بأن الصين أو الهند أو البرازيل سوف تتفوق على الولايات المتحدة فى غضون العقود المقبلة، فإنه لايمكن لأى مراقب أن يتجاهل حقيقة أن التهديدات الحقيقية لسطوة «وكبرياء» الإمبراطورية الأمريكية فى العقد الأول من القرن الجديد، لم تكن من دول صاعدة فى الشرق، كما يقول الكلاسيكيون، بل من جماعات «مستقلة» أو حتى أفراد. هكذا جرى يوم فاجأ جوليان أسانج Julian Assang الأسترالى المتمرد ضئيل الحجم الدبلوماسية الأمريكية بنشره آلاف الوثائق السرية على موقعه الإنترنتى Wikileaks الذى صار المزار الأول لرواد الشبكة بعد ساعات فقط من إطلاقه، وهكذا كان يوم خرج أسامة بن لادن بمفاجأته على الشاشة يعلن «ببساطة» مسؤولية جماعته عن «غزوة مانهاتن» التى استهدفت رمز الإمبراطورية «الرأسمالية» فى نيويورك، فضلا عن «البنتاجون» رمز هيمنتها الحربية، حيث يجتمع القادة فى بزاتهم العسكرية ونياشينهم اللامعة يخططون على الخرائط بأقلامهم، وأسلحتهم.. وتصوراتهم «حدود الإمبراطورية».



حقائق التاريخ المجردة على أية حال تقول بوضوح لا يحتمل اللبس أن «سؤال الإمبراطورية» تختلف إجابته حتما من عصر لآخر. ففى القرن السادس عشر انعقدت لإسبانيا أسباب القوة لروابطها الملكية ولما كنزته فى خزائنها من سبائك الذهب. قبل أن تنتقل فى القرن السابع عشر إلى هولندا بسلطان التجارة والقوة البحرية. ثم إلى فرنسا المؤهلة للثورة والحرية فى القرن الثامن عشر، قبل أن ترسو فى التاسع عشر على شواطئ الإمبراطورية التى «لاتغربُ عنها الشمس» بقوة الرأسمالية؛ وقودا للأساطيل، وبارودا للمدفع. يومها رسمت «شركة الهند الشرقية البريطانية» باعتبارها الطبعة الأولى، للشركات العملاقة العابرة للقارات، الخطوط الأولى فى خارطة العالم الحديث (اقتصادا وعلاقات دولية).. تمهيدا. ربما. ليوم ترتفع فيه فى كل عاصمة «أعلام ماكدونالدز»، ويرتدى فيه العالم كله بنطلون «الجينز»، قبل أن يؤدى فيه العالمُ كله أيضاً أدوار «كومبارس» مختلفة فى فيلم يُبث «على الهواء مباشرة» خلف البطل الأوحد الذاهب إلى العراق.

ماهى إذن إجابات «سؤال القوة» فى عصر معلوماتى جديد يتسمرُ فيه الملايين أمام الشاشات «تلفزيونية أو حاسوبية»؟ ليس فقط متفرجين، بل مشاركين بدقات أصابعهم الواثقة على لوحة المفاتيح. ومنضويين فى جماعات ضغط ضخمة «ومؤثرة» تبدأ حقًا وكأنها سابحة فى الفضاء السيبيرى، ولكنها سرعان ماتنتقل إلى أرض الواقع وإلى «ميادين» التغيير. وهل هناك من يستطيع أن ينكر كيف اجتمع الآلاف.. ثم الملايين على صفحات «٦ أبريل» و«كلنا خالد سعيد».. وغيرها. ثم كيف أخذتهم تلك الصفحات إلى «ميدان التحرير».



كان الرأى السائد يفترض دوماً أن الغلبة تكون فى كل الأحوال للقوة العسكرية الأضخم. ولكن فى عصر المعلومات - يعتقد جوزيف ناى - أن الغلبة قد تكون للدولة أو الجهة «التى تمتلك الرواية الأفضل للوقائع». وفى كتابه الذى يناقش فيه كثيرا من المسلمات، ينتقد الأكاديمى الفذ التوقعات الحالية فيما يتصل بالتحول فى ميزان القوى العالمى والتى تستند فى المقام الأول إلى مؤشر واحد يرصد نمو الناتج المحلى الإجمالى للبلدان المختلفة. وهى هنا - كما يرى - تتجاهل الأبعاد الأخرى للقوة، بما فى ذلك القديمة؛ مثل

سؤال الإمبراطورية، كما سؤال القوة، تختلف إجابته حتماً من عصر إلى آخر. ماهى إذن إجابة السؤال فى بداية قرن جديد؟



Facbook و Youtube و twitter و الجزيرة مباشر ولكن.. تبقى الثورة هى الثورة



القوة العسكرية الصارمة، أو تلك الجديدة «والمؤثرة» مثل القوة الناعمة لسرد الوقائع. ورغم أن الدول ربما تظل الفاعل المهيمن على الساحة الدولية، إلا أن الواقع فى عصر جديد يشير بوضوح إلى حقيقة أن الساحة أصبحت أكثر ازدحاماً وأن السيطرة عليها باتت أكثر صعوبة. فالآن أصبح كثير من الأفراد، أو الجماعات. أكثر من أى وقت مضى. قادرا على الوصول إلى القوة التى توفرها المعلومات.

الثابت إذن أنه فى عصر المعلومات الحالى، والذى يطلق عليه أحياناً الثورة الصناعية الثالثة ومع هبوط تكاليف الحوسبة والاتصالات، تلاشت الحواجز أو كادت. فأصبح بوسع الأفراد والجماعات، التى تتراوح من الشركات إلى المنظمات غير الحكومية إلى الإرهابيين، أن يلعبوا دوراً مباشراً فى السياسة العالمية. هل تذكرون الدور الذى لعبته Google أيام الثورة المصرية لمساعدة الثوار على الالتفاف على قرار السلطات بقطع خدمات الإنترنت والرسائل القصيرة والهاتف المحمول. يومها ـ لمن لا يذكر، أو لا يعرف ـ قررت «الشركة المعلوماتية» العملاقة تخصيص خطوط هاتف أرضية مجانية يستطيع المتصل بها من المصريين أن يحول رسالته الصوتيه أتوماتيكيا إلى «تويته» فى أحرف مكتوبة تنتشر، فى اللحظة ذاتها، فى أركان الأرض الأربعة.

تبدو المعادلة بسيطة، والحقيقة التى نخرج بها من محصلتها بسيطة أيضاً: إن انتشار المعلومات الهائل واللحظى، أو بالأحرى القدرة على المشاركة فى نشر المعلومات بهذه الطريقة، يعنى أن القوة سوف تكون موزعة على نطاق أوسع، وأن الشبكات غير الرسمية (أفرادا أو مجموعات) سوف تعمل على تقليص احتكار الدولة التقليدية للقوة.



أكتب مقالى هذا «الآن» على حاسوب أحرص على ترك نافذة twitter مفتوحة فى زاوية شاشته، لأتابع التغطية المباشرة التى يقوم بها «أفراد عاديون» لتطورات ثورة مصر التى مازالت تتفاعل. وعيناى ـ فى الوقت ذاته ـ لا تفارقان «الجزيرة مباشر. مصر» للغرض ذاته.

ترسم إذن الشبكات الاجتماعية والإعلام التقليدى وصحافة المواطن خطوطا عريضة لاشك فى ذلك. ولكن يخطئ من يعتقد أنها «تصنع الثورة». فالثورة، حتى فى القرن الحادى والعشرين، كما هى ـ تعريفا ـ عبر التاريخ: فعلٌ تراكمى لعلل عميقة الجذور؛ قمع سلطة، وإحباط جماهير.. وقدر يتهيأ للغليان. ثم يحدث أن تأتيه اللحظة. لافارق بين أشرطة الخمينى فى سبعينيات القرن العشرين، وبين نداءات twitter القصيرة ذات المائة وأربعين حرفا فى بداية قرننا الجديد. كما لافارق بين شعارات لينين (١٩١٧) تصدح بها روسيا: «Bread, Peace and Land» وبين شعارات الميدان القاهرى (٢٠١١) تهتز لها أركانه: «عيش، حرية، عدالة اجتماعية». ■

(١) Cyberspace : تعبيرات يطلق على شبكات الاتصال عبر أجهزة الكومبيوتر وخاصة الإنترنت





facebook YouTube

مـــاذا يـفـعـــــل الإعـــــلام



لاري دايـــمــــــــــونـــــد
Larry Diamond

■■ فى شهر مارس عام ٢٠٠٣، أوقفت شرطة مدينة قوانغتشو Guangzhou (كانتون)، الصينية، شابا يبلغ من العمر ٢٧ عاما وهو طالب يدعى «صن زينجنج» وطلبت منه إبراز تصريح إقامته المؤقت وتحديد الهوية. وعندما لم يستطع إبرازهما تم اعتقاله. بعدها بثلاثة أيام، توفى بمستشفى المعتقل. حيث تم إثبات سبب الوفاة بأنه نتيجة لنوبة قلبية، ولكنه بعد تشريح الجثة بتصريح من والديه، أظهرت بأنه قد تعرض للضرب بصورة وحشية. لقد أخذ والداه قصته وذهبا بها للصحيفة الليبرالية نانفانغ دوشـــي بــــاو (Southern Metropolis Daily)، والتى أكدت بنتائج تحقيقاتها بأن صن قد تعرض للضرب حتى الموت فى الحجز. وسرعان ما ظهر تقريرها فى ٢٥ أبريل حيث قامت «الصحف ومواقع الإنترنت الصينية بنشر تفاصيل القضية وعلى شبكة «الإنترنت» اشتعلت غرف الدردشة والتعليقات غضبا» وبعدها صارت تلك القصة بمثابة قضية وطنية.

وقد اضطرت الحكومة المركزية لإجراء تحقيقاتها الخاصة، فى ٢٧ يونيو أثبتت الحكومة تورط اثنى عشر شخصا فى وفاة صن. إن قضية صن كانت بمثابة حالة نادرة فى الصين بسبب كشفها عن مخالفات لمسئولين ومعاقبتهم. وكان لهذا أثر أوسع بكثير وأكثر دواما، بسبب ما أثير من نقاش وطنى حول قضية معايير «الاحتجاز وعودة اللاجئين لوطنهم «C.R» والتى تسمح للبوليس باحتجاز المهاجرين الريفيين rural migrants (عادة ما يتم فى ظروف مروعة) نتيجة لافتقارهم للإقامة أو حصولهم على تصريح مؤقت للمعيشة. لقد كتب العديد من المواطنين الصينيين على شبكة الإنترنت خبراتهم الشخصية إزاء تعرضهم لإجراء «C.R»، بعد موجة الغضب لوفاة صن، كما أن التشريعات الدستورية لهذا الإجراء قد أثارت نقاشا ساخنا فى الجامعات. حيث طالبت عريضة نشرت أونلاين من اللجنة الدائمة للمجلس الشعبى الوطنى الكونغرس بسرعة إعادة النظر فى إجراء «C.R» وقد حصلت تلك المطالبة على تأييد شعبى واسع، وفى يونيو ٢٠٠٣، أعلنت الحكومة بأنها ستطلق سراح جميع المحتجزين الذين تم التحفظ عليهم رهن هذا الإجراء والذين يبلغ عددهم أكثر من ٨٠٠ شخص.

لقد تم اعتبار قضية صن كحدث فاصل - فكان للمرة الأولى يستطيع إجماع الرأى العام السلمى إرغام الدولة الشيوعية الصينية على تغيير لائحة وطنية. لكن سرعان أيضا ما أصبحت قضية الصحفى تشنغ يى تشونغ، والذى قام مسؤولون محليون بسجنه (مع ثلاثة من زملائه) انتقاما لجهودهم فى الكشف عن المخالفات التى أدت إلى وفاة صن. كما أصبح الدفاع القانونى الذى وكلوه والذى يدعى شو تشى يونغ Xu Zhiyong للدفاع عن الصحفيين الأربعة فى حد ذاته صاحب قضية شهيرة. كما أطلق زملاؤهم الصحفيون حملة لم يسبق لها مثيل للإفراج عنهم، وذلك باستخدام وسائل أخرى بينها نشر التماس على شبكة الإنترنت، حيث أسس Xu موقعا إلكترونيا، وهو عبارة عن مبادرة دستورية مفتوحة، لنشر الوثائق والحجج القانونية حول هذه القضية. وقد انعكس كل هذا على «حركة الدفاع burgeoning weiquan عن الحقوق».



ولكن حينما تم إطلاق سراح تشنغ ونائبه من السجن دون توجيه تهمة، كانوا قد خسروا وظائفهم كما قامت السلطات بإغلاق موقع Xu. ولكن Xu واصل عمله فى الدفاع عن الحقوق حتى شهر يوليو من العام الماضى، حينما تم إغلاق منظمته وتم اعتقاله بتهم ذات دوافع سياسية وهى التهرب من دفع الضرائب. لقد رأى بعض المتفائلين فى هذه الأحداث قدرة شبكة الإنترنت وغيرها من أشكال «تحرير التكنولوجيا» «liberation technology» - والتى تشجع الأفراد، وتيسر استقلال وتعبئة الاتصال، وتعزز نظام المجتمع المدنى الناشئ.

أما المتشائمون فيجادلون بأنه لم يحدث تغيير جوهرى فى الصين. فما يزال الحزب الشيوعى الصينى(CCP) راسخا فى فرض رقابته ومساءلته. بالنسبة لحركة weiquan فقد تم القضاء عليها. بالإضافة لوضع الدولة الصينية نظاما لا مثيل له على الرقابة الرقمية.

إن كلا المنظورين لهما وجه حق. فتحرير تكنولوجيا يمكن المواطنين من إرسال الأخبار، فضح الظلم، التعبير عن الآراء، تعبئة الاحتجاج، مراقبة الانتخابات، محاسبة الحكومة، تعميق المشاركة وتوسيع آفاق الحرية.

لكن الدول الاستبدادية مثل الصين، بيلاروسيا وإيران (قد تشاركت) بوضع قدرات تقنية لوضع فلترة وسيطرة على الإنترنت، تحديد ومعاقبة المخالفين. حيث يتنافس حاليا كل من الديمقراطيين والمستبدين لإتقان هذه التقنيات. ولكن فى نهاية المطاف، ومع ذلك، ليست التكنولوجيا فحسب، بل ستحدد المنظمة السياسية، الإستراتيجية والقوى ذات المعايير الاجتماعية والاقتصادية الراسخة من «سيفوز» فى هذا السباق.

إن تحرير التكنولوجيا بأى شكل من أشكال تكنولجيا المعلومات والاتصالات (ICT) يمكن لها توسيع نطاق الحرية السياسية،الاجتماعية والاقتصادية. ففى الحقبة المعاصرة، ويعنى أساسا المودم، وغيره من أشكال الترابط الخاصة بتكنولوجيا المعلومات والاتصالات الرقمية digital ICT - فى جهاز الكمبيوتر، الإنترنت، الهاتف النقال، والتطبيقات المبتكرة التى لا حصر لها بالنسبة لهم، بما فى ذلك «وسائل الاعلام الاجتماعية الجديدة» مثل الفيسبوك وتويتر. حيث تحوى تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الرقمية بعض المزايا المثيرة أكثر من التكنولوجيات السابقة. فالطابع اللامركزى لشبكة الإنترنت وقدرتها (جنبا إلى جنب مع شبكات الهاتف المحمول) للوصول لأعداد كبيرة من الناس بسرعة كبيرة، يناسب تماما

Larry Diamond is senior fellow at the Hoover Institution and the Freeman Spogli Institute for International Studies, director of Stanford University's Center on Democracy, Development, and the Rule of Law, and founding coeditor of the Journal of Democracy.

بترتيب خاص مع:
Journal of Democracy

ترجمة: رحاب منير صالح

Google twitter

ومـــاذا تـفعـــل الـتـكـنـولـوجـيـا



فى القرن الخامس عشر، أحدثت ثورة الطباعة تراكما ونشرا للمعلومات، ومهدت لعصر النهضة، من قيام البروتستانتية الإصلاحية والثورة العلمية. وعلى هذه الأسس، نشأت الديمقراطية الحديثة. كما ساعدت أيضا الصحافة المطبوعة على نشوء الدولة المركزية



القدرة على تنظيم القاعدة الشعبية. ففى ظل التناقض الحاد للاذاعة والتلفزيون، تسير تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة فى اتجاهين وأشكال متعددة للاتصال.

فبأدوات مثل تويتر (الشبكات الاجتماعية وخدمة المدونات الصغيرة والتى تتيح للمستخدمين إرسال وقراءة الرسائل النصية التى لا تتعدى ١٤٠ حرفا)، حيث يمكن للمستخدم الوصول على الفور للمئات أو الآلاف من «الأتباع» «followers». وفى هذه الحالة يعتبر المستخدمون ليسوا مجرد متلقين سلبيين ولكنهم يقومون بدور الصحفيين، المعلقين، مصورى فيديو، الفنانين، والمنظمين. ورغم أن معظم هذا الاستخدام ليس سياسيا، فيمكن للتكنولوجيا تمكين أولئك الراغبين فى أن يصبحوا سياسيين وتحدى الحكم الاستبدادى. ومن المغرى التفكير فى إمكانية شبكة الإنترنت بشكل لم يسبق له مثيل على إحراز تقدم سياسى. فالتاريخ، مع ذلك، يحذر من مثل هذه الغطرسة. ففى القرن الخامس عشر، أحدثت ثورة الطباعة تراكما ونشرا للمعلومات، ومهدت لعصر النهضة، من قيام البروتستانتية الإصلاحية والثورة العلمية. وعلى هذه الأسس، نشأت الديمقراطية الحديثة. كما ساعدت أيضا الصحافة المطبوعة على نشوء الدولة المركزية ودفعت الحركة نحو خضوعها للرقابة.

منذ قرن ونصف مضت، تمت الإشادة بالصحافة بوصفها أداة لتعزيز السلام والتفاهم.

ولكن فجأة، انكمش العالم: وأصبحت الأخبار التى كانت تستغرق أسابيع لنقلها عبر أنحاء العالم يمكن نقلها على الفور. ولكن ما أعقبها من أحداث لم تحقق السلام والحرية ولكنه كان القرن الأكثر دموية فى التاريخ البشرى. قد يتهم اليوم المتحمسين لتحرير التكنولوجيا بارتكابهم نفس الخطايا التى اقترفها أسلافهم الفيكتوريون «التكنولوجيا الطوباوية» و«chronocentricity» - وهذا يعد، غرورا يحاول جيل ما أن يملكه على قمة التاريخ.

وفى النهاية، فإن التكنولوجيا هى مجرد أداة، مفتوحة أمام كل الأغراض النبيلة والشائنة.

فمثلما يمكن للإذاعة والتلفزيونات أن تعد قاطرات لتعددية المعلومات والنقاش العقلانى، يمكنها أيضا أن تكون موجهة من قبل الأنظمة الاستبدادية لتعبئة مجموع المتعصبين وسيطرة الدولة. حيث يمكن للدولة الاستبدادية السيطرة على تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الرقمية لإحداث تأثير مماثل. وبقدر ما يمكن للمواطنين الحصول على أفضل استخدام لهذه الأدوات، يمكنهم فى ذات الوقت القضاء على الاستبدادية - كما حدث فى العديد من الحالات لديهم.

إن التعبئة ضد الحكم الاستبدادى لا يمثل سوى إمكانية «تحرير» استخدام تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الرقمية. ولكن قبل التعبئة من أجل الوصول لقمم الديمقراطية، فقد تساعد هذه الأدوات لتوسيع المجال العام، وخلق المزيد من التعددية والساحة لتحقيق استقلالية للأخبار، التعليقات، والمعلومات. إن تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الجديدة تعد أيضا أدوات قوية لتحقيق





فجأة استطاع الماليزيون الاطلاع على المواضيع المحرمة مثل الموضوعات المتعلقة بالفساد، انتهاكات حقوق الإنسان، التمييز العرقى ووحشية الشرطة



الشفافية والمساءلة، توثيق وردع انتهاكات حقوق الإنسان والإجراءات الديمقراطية.

وعلى الرغم من أننى قد لا يمكننى الحكم بدقة على هذا، ولكن تكنولوجيا المعلومات والاتصالات الرقمية تحرر الناس من الفقر واعتلال الصحة: فنقل المعلومات الصحيحة حول أسعار المحاصيل، تسهيل التمويل البسيط لأصحاب المشاريع الصغيرة، تحديد اماكن تفشى الأوبئة ووضع مقدمى الرعاية الصحية الأولية فى اتصال مع المناطق الريفية بشكل أكثر كفاءة.

ماليزيا: توسيع المجال العام

تعد الدعامة الأساسية للحكم الاستبدادى هى السيطرة على المعلومات. من خلال المدونات (هناك حاليا أكثر من مئة مليون منها فى جميع أنحاء العالم)، فمواقع المدونات،غرف الدردشة أونلاين، وزيادة وسائل الاعلام على الانترنت بشكل رسمى، حيث توفر شبكة الإنترنت إمكانيات جديدة مثيرة لتحقيق تعددية تدفق المعلومات، توسيع نطاق التعليق والمناقشة، وقبول الاختلاف. حيث تعد واحدة من الحالات التى حققت نجاحا مؤخرا هى صحيفة ماليزياكينى Malaysiakini على شبكة الإنترنت،

والتى أصبحت المصدر الماليزى الرئيسى الموثوق به للأخبار والتعليق عليها. حيث وثقت باعتبارها دارا للحرية بافتقار ماليزيا لحرية الصحافة.

هذا النظام (يمثله كل من الدولة وتحالف الحزب الحاكم باريسان ناسيونال Barisan Nasional[BN]) يهيمن على وسائل الإعلام المطبوعة والمرئية من خلال الملكية المباشرة والممارسات الاحتكارية. وهكذا يتحكم فيما يقرأه ويراه الماليزيون، ويمكنه من معاقبة الصحفيين الناقدين مع تعرضهم للفصل. حيث تقيد تلك القوانين القمعية بشدة حرية النشر، والبث. وعلى الرغم من كونها نامية بشكل سريع مع وجود نسبة عالية من الأمية، فقد شهدت ماليزيا نموا متفجرا للانترنت (ومؤخرا انتشار خدمة broadband)، لنسبة تصل إلى ١٥ فى المئة من السكان فى عام ٢٠٠٠ إلى ٦٦ فى المئة فى عام ٢٠٠٩ (تعد نسبة مساوية لتايوان وتقترب قليلا من هونغ كونغ.

إن تحقيق التوافق ما بين سيطرة الرقابة الحكومية على وسائل الإعلام التقليدية، الانتشار الكبير للإنترنت، والحرية النسبية لفرصة تأسيس صحف على شبكة الإنترنت فى ماليزيا، دعت اثنين من الصحفيين المستقلين، وهما Steven Gan and Premesh Chandran للمغامرة بذلك. فقد كانا معارضين للحكم الاستبدادى منذ أيام الدراسة، حيث رأيا منذ عام ١٩٩٨ أثناء الفترة الإصلاحية reformasi period ضرورة إصلاح وسائل الإعلام المستقلة وتقديم الأخبار والتقارير المستقلة إلى ماليزيا.



وبمساهمتهم بما يقرب من ٩٠٠٠ دولار أمريكى من مالهم الخاص (و هى نسبة ضئيلة مما يلزم لإصدار صحيفة مطبوعة)، حيث قاما بتأسيس صحيفة ماليزياكينى Malaysiakini فى نوفمبر ١٩٩٩. وعلى الفور تقريبا، اكتسبوا شهرة من خلال فضحها لمحاولة مؤسسة صحفية رقمية لقص صورة زعيم المعارضة المعتقل (ونائب رئيس الوزراء السابق) أنور إبراهيم من مجموعة من الصور التقطت لسياسيى الحزب الحاكم.

فمن بدايتها، حازت صحيفة ماليزياكينى على ثقة القراء المخلصين وتزايد عددهم من خلال توفير المصداقية، عرضها للتقارير المستقلة عن السياسة والحكم الماليزى. وعندما ارتفعت نسبة قرائها، هوت صحف التيار السائد. ففجأة استطاع الماليزيون الاطلاع على المواضيع المحرمة مثل الموضوعات المتعلقة بالفساد، انتهاكات حقوق الإنسان، التمييز العرقى ووحشية الشرطة. حيث تنشر حاليا تلك الصحيفة الالكترونية خمسة عشر خبرا باللغة الانكليزية يوميا، بالإضافة إلى مقالات الرأى، الرسائل والتعليقات القراء، ونقد يومى (in Cartoonkini) بالإضافة إلى الترجمات ونصوصها الأصلية المكتوبة باللغة الصينية، ولغة الملايو والتاميل. كما تنشر الصحيفة الفضائح التى لم تتعرض لها أى مؤسسة صحفية مطبوعة، مثل تجاوز التكاليف الضخمة المتعلقة بتضارب المصالح فى الوكالة الرسمية للميناء والفساد المالى فى بنك إسلام ماليزيا والمدعوم من الحكومة.

بالإضافة لتفاصيل لاعتداء النظام مجددا على أنور إبراهيم، فتلك الصحيفة هى المكان الوحيد الذى يمكن أن يستطيع الماليزيون من خلاله الإبلاغ عن الاضطهاد القانونى لزعيم المعارضة. ففى يوليو عام ٢٠٠٨ أصبح موقع الصحيفة أكثر المواقع الإخبارية زيارة بمعدل حوالى ٢,٥ مليون زائر شهريا. ولكنه حتى الآن يسعى جاهدا للبقاء لأسباب مالية شأنه شأن العديد من المنشورات على الإنترنت عبر أنحاء العالم.

ففى حين أن ماليزيا اليوم ليست أقل استبدادية مما كانت عليه حينما بدأت ماليزياكينى بالنشر قبل عقد من الزمن، ولكنها أصبحت أكثر قدرة على المنافسة، وربما أقرب إلى تحقيق انفراجة ديمقراطية مما كانت عليه فى أى وقت فى العقود الأربعة الماضية. فإذا حدث هذا الانتقال، سيرجع أساسا إلى عوامل سياسية - الالتحام بين قوى المعارضة الفاعلة والأخطاء التى يرتكبها النظام المتغطرس. وبالإضافة إلى ذلك، التغيير الاقتصادى والاجتماعى الذى سيفرز شعبا أفضل تعليما.

وأكثر تنوعا، أقل تسامحا لسطوة الحكومة الأبوية. تفيد نتائج الاقتراع وغيرها من البيانات بأن الشباب الماليزى على وجه الخصوص يدعم المعارضة (الأكثر ديمقراطية). ولكن من الصعب فصل هذه العوامل السياسية والاجتماعية من توسيع استقلال المجال العام، الذى قادته ماليزياكينى. فى مارس عام ٢٠٠٨، حققت الجبهة الوطنية أسوأ نتيجة لها فى الانتخابات على مدى نصف قرن، حيث فقدت ثلثى الأغلبية البرلمانية للمرة الاولى منذ الاستقلال.

حيث ساعد على ذلك النمو المتزايد لصحافة الانترنت، والتى قللت من فرصة الجبهة الوطنية للوصول إلى الإعلام و«صدمت البلاد» عبر توثيقها لإساءات الشرطة ضد المتظاهرين، ولا سيما ذوى الأصول الهندية.

لقد قامت ماليزياكينى وأشقاؤها بتنفيذ عدد من المهام الديمقراطية. حيث عرضت الاخبار ونقلت الصور التى لا يستطيع الماليزيون مشاهدتها فى أى مكان آخر. كما وفرت منتدى غير خاضع للرقابة من أجل التعليق والمناقشة، مما أدى إلى نشوء مجال للنقد العام. بالإضافة لتوفير المساحة والصوت إلى أولئك الذين تم وضعهم بسبب الدخل، العرق، أو السن على هامش المجتمع.

حيث مثلت المعارضة السياسية، التى صودرت الى حد كبير بوسائل الإعلام، فكانت هى المنبر لعرض القضية. فمن خلال تلك العملية، قامت تلك الصحيفة بتثقيف الماليزيين سياسيا وتعزيز قواعد أكثر ديمقراطية. كثير من المنشورات على الإنترنت ومواقع المدونات تؤدى وظائف مماثلة فى غيرها من البلدان شبه السلطوية، مثل نيجيريا، والناشئة وغير الليبرالية الديمقراطية. ولكن هل من الممكن لهذه المهام أن تترسخ فى بلد مثل الصين الاستبدادية كما هو الحال اليوم؟

فى مارس عام ٢٠٠٨، حققت الجبهة الوطنية أسوأ نتيجة لها فى الانتخابات على مدى نصف قرن







إن الشركات الصينية التى تقدم
خدمة البحث وخدمات شبكة الاتصال توافق على تشديد الرقابة الذاتية
أكثر مما تقوم به الشركات العالمية



فتح المجال العام فى الصين

الجواب السائد هو لا: حيث تمثل فلترة الإنترنت والرقابة المفروضة عليها فى الصين «جدار الحماية العظمى» يمنع نشوء مجال للرأى العام أونلاين. والواقع بأن رقابة الصين غير العادية للإنترنت لم يسبق لها مثيل من حيث نطاقها وتطورها. فالصين لديها الآن أكبر عدد من المستخدمين فى العالم لشبكة الإنترنت حوالى أكثر من ٣٨٠ مليون شخص (٢٩ فى المئة من السكان، وزيادة ستة عشر أمثالها منذ عام ٢٠٠٠). لكنها أيضا لديها أشمل الأنظمة «متعدد الطبقات»، والأكثر تطورا لفرض الرقابة، الرصد والسيطرة على أنشطة شبكة الإنترنت واحتكار الهواتف المحمولة. حيث تعود ملكية الاتصال بشبكة الإنترنت الدولية لحفنة من الشركات المملوكة للدولة التى تطوقه بالعديد من القيود الصارمة التى تنتج ما يعرف بشبكة «إنترانت وطنية» national a intranet,» قطع كل ما من شأنه أن يمثل تحديا أمام احتكار الحزب الشيوعى الصينى على السلطة.

ومنع الوصول إلى المواقع الحرجة والإبلاغ أونلاين تم حجبه منهجيا.

حيث قامت جوجل بسحب خدماتها من الصين احتجاجا على الرقابة، بينما يوتيوب، فيس بوك، وبلوغسبوت، من بين أكثر المواقع المستخدمة على نطاق واسع، يتم حظرها أو حجبها. إن الشركات الصينية التى تقدم خدمة البحث وخدمات شبكة الاتصال توافق على تشديد الرقابة الذاتية حتى أكثر مما تقوم به الشركات العالمية. فعندما اندلعت الاحتجاجات (كما حدث فى التبت فى عام ٢٠٠٨ على سبيل المثال) أو غيرها من اللحظات السياسية الحساسة، قامت السلطات بإغلاق مسبق لمراكز البيانات والمنتديات الموجودة على شبكة الانترنت. الآن يحاول حزب الدولة أيضا القضاء على الاتصال والتواصل المجهول، مع اشتراط تسجيل الأسماء الحقيقية عند دخول المنتدى أو التعليق عبر التحكم ورصد مقاهى الإنترنت.كما قامت الشرطة بإزالة ما يقرب من ٥٠ ألفا مما تسميه «المحتوى الضار فى غضون ما يقرب من ٢٤ إلى ٤٨ ساعة. كما يتم تجنيد الطلاب للتجسس على زملائهم. ويدفع النظام حوالى ربع مليون هاكر على الانترنت حيث «يطلق عليها اسم (مراكز ٥٠) بسبب المقابل الزهيد الذى يحصلون عليه لنشرهم تعليقات ايجابية حول الحزب الحاكم والإبلاغ عن التعليقات السلبية.

إن سيطرة ما يعرف quasi-Orwellian على فضاء الانترنت ليست سوى جزء من القصة، ومع ذلك. ببساطة هناك الكثير من الاتصالات والتواصل على الانترنت (وعبر الهواتف المحمولة بواسطة الدولة) لرصد ومراقبة كل شىء.

وعلاوة على ذلك، فإن الصينيين من «مستخدمى الانترنت» - ولا سيما الشباب الذين ينضجون منغمسين فى هذه التكنولوجيا - وهم شباب مبتكرون، لديهم إصرار، يسخرون من العقيدة الرسمية. فالعديد منهم يستمرون بالبحث عن أفضل التقنيات للتحايل على الرقابة المفروضة على الإنترنت كما إنهم يتشاركون فيما تعلموه بسرعة. فإذا كان معظم الشباب الصينيين من مستخدمى الانترنت لديهم حذر سياسى، فهم ينفرون أيضا من السلطة السياسية ويتبنون بشغف الأشكال المتواضعة من التحدى، والتى تتحول فى كثير من الأحيان للتلاعب بالكلام.

وفى الآونة الأخيرة، اخترع شباب المدونين الصينيين شخصية كرتونية يسمونها «grass mud horse» (يشير الاسم فى اللغة الصينية لاسم لعبة) كوسيلة للاحتجاج. فهذه الخيول الأسطورية، كما يقول المعلق، هى حيوانات ذكية وشجاعة مهددة بانتهاك «سرطان النهر». «river crabs». وباللغة الصينية، يطلق على هذه القشريات التى تعيش فى المياه العذبة (hexie) ويشبه كثيرا الكلمة التى أطلقها جين تاو عن فلسفة الحكومة الرسمية وهى «التناغم» - الشعار الذى يراه النقاد ككناية عن الرقابة وقمع الانتقاد.

أما شياو تشيانغ، رئيس تحرير جريدة التايمز الصينية الرقمية، فيقول بأن تلك الشخصية الكرتونية قد أصبحت رمزا لمقاومة الرقابة. فالتعبير وأفلام الكرتون قد تبدو وكأنها رد فعل للأحداث لحكم غير منطقى. ولكن حقيقة انضمام عدد كبير من مستخدمى الإنترنت للجوقة من الباحثين الجادين إلى السياسيين غير المبالين من أصحاب الياقات البيضاء، يبين كيف يكون صدى هذا التعبير.

من أجل نشر الدعوة لتلك المواجهة، يمتلك الصينيون عددا متزايدا من الأدوات الرقمية. حيث أصبح تويتر واحدا من أقوى الوسائل السياسية والشبكات الاجتماعية والمصدر السريع لضمان الانتشار السريع للأخبار والآراء والنقد. ففى يوم ٢٢ ابريل وفى الجامعة الأهلية People's University فى بكين، قام ثلاثة من المدافعين عن حقوق الإنسان بمهاجمة خطاب ألقاه أحد المسئولين التابعين للحزب الصينى الحاكم CCP والذى يدعى ووهاو Wu Hao. حيث قاموا بمهاجمته. حيث انتشرت صور تلك الواقعة على تويتر عبر أنحاء الصين، وسط ترحيب من الملايين من الطلبة الصينيين الذين كثيرا ما عانوا من جراء الظلم الواقع عليهم من هذا النظام.







إن تحرير التكنولوجيا يحقق ما يسمى «بتكنولوجيا المساءلة»، حيث إنها توفر وجود الكفاءة والأدوات القوية لتحقيق الشفافية والرصد



فعندما أعلنت جوجل فى أواخر مارس ٢٠١٠، سحب خدمات البحث على الإنترنت من الصين (بعد أن فشلت فى حل نزاعها مع الحكومة حول الهجمات والرقابة على شبكة الإنترنت) وزاد معدل تسجيل الصينيين بخدمة تويتر. وكان العديد من الصينيين قد أصابهم الإحباط بسبب تخلى جوجل عنهم بسبب الرقابة المفروضة عليهم فى الصين ولذلك لجأوا إلى استخدام محركات بحث بديلة (مثل بايدو)، ولكنهم كانوا يشعرون بالقلق حيال إغلاق the great firewall وغيرها من الخدمات مثل Google Scholar وGoogle Maps. أما البعض فقد اتهم جوجل بالتورط مع الحكومة الامريكية. لكن قرار الشركة أثار موجة من التعاطف والحداد، على غرار ما حدث فى يناير عندما أعلنت جوجل لأول مرة انها تفكر فى سحب «الصحفيين المدنيين الذين يرسلون التحديثات الفورية على..تويتر وتوثيق مشهد مستخدمى الانترنت الصينيين الذين يضعون الزهور، البطاقات، القصائد، الشموع، والأقواس الرسمية أمام لافتة شركة جوجل الموجودة أمام مقر الشركة فى بكين وشانغهاى وقوانغتشو. لقد قام حينئذ عشرة من الحراس بمطاردة الناشطين تحت دعوى «عدم شرعية مسيرة الزهور». لقد انتشرت تفاصيل هذا المشهد فى المنتديات الصينية على الإنترنت، والتى رمزت لقمع الحرية. فالمجال العام فى الصين ينطوى على أكثر من «tweets» بالطبع.

فهم عادة مرتبطون بمدونات أطول بكثير، مجموعات نقاش وتقارير إخبارية.فالعديد من المواقع التى تدعو للحوار من الصعب إغلاقها بسبب انتقاداتها الموجهة للحزب الشيوعى الصينى CCP، توضيح تلك المواقع لبعض المفاهيم الفلسفية العامة وأحيانا الإشارة إلى الكونفوشيوسية، الطاوية وعقائد الفكر الصينى التقليدى والتى لا تجرؤ أى قوانين على حظرها. إن المنتديات المشاركة على نطاق واسع (غير تابعة لخدمة تويتر) يحتمل أن توجه نقدا للحكومة (ولو بالتحايل أو المجاز).

ترى ريبيكا ماكينون بأن المدونات فى الصين بها مساحة من الحرية أكثر من تلك المعطاة لوسائل الإعلام الرئيسية مع وجود نسبة متفاوتة من الرقابة عبر خدمات التدوين البالغ عددها ١٥ من مقدمى تلك الخدمة والتى قامت بحصرهم. ولذلك فإن قدرا كبيرا من المواد الحساسة سياسيا توجد فى المدونات الصينية، وهذا يعطيها احتمالية وجود فرص للبقاء على قيد الحياة من خلال تدعيمها بالتكنولوجيا والإستراتيجية.

على الرغم من انتشار الضوابط، يعتبر الناشطون الصينيون بأن الأدوات الرقمية مثل تويتر، جوجل وبرامج الفلترة والتى تضمن مستويات من الاتصال، والنشر والربط بالشبكة من شأنه أن يكون الأمر خلاف ذلك لا يمكن تصورها فى الصين اليوم. بمساعدة تحرير التكنولوجيا وهى دعوة تم إطلاقها: الاستماع

قراءة صوتية للكلمات

القاموس - عرض القاموس المفصل

الاستماع

قراءة صوتية للكلمات

القاموس - عرض القاموس المفصل

الاستماع

قراءة صوتية للكلمات

القاموس - عرض القاموس المفصل

لتسعة عشر إصلاحا لتحقيق «الحريات، الديمقراطية وسيادة القانون» فى الصين - حيث حصلت على توقيعاتها من خلال دعمها لمواقع التدوين مثل bullog.cn.. عندما صدر ميثاق على الإنترنت فى ١٠ ديسمبر ٢٠٠٨، بحصوله على توقيعات بلغ عددها أكثر من ثلاثمائة من المثقفين الصينيين والناشطين فى مجال حقوق الإنسان، تحركت الحكومة بسرعة لقمع ذلك. ولكن بعدها، «حدث شىء غير عادى. فالناس العاديون مثل تانغ (Xiaozhao) من الذين ليس لهم تاريخ فى تحدى الحكومة بدأوا بتداول الوثيقة وأعلنوا عن أنفسهم كأنصار لها». حيث نبذوا خوفهم السابق».



وفى غضون شهر، وقع أكثر من خمسة آلاف من المواطنين الصينيين على الوثيقة. وشملت ليس فقط المنشقين المعتادين، ولكن «رجال الأعمال، العلماء، الصحفيين، تقنيى الكمبيوتر، المدرسين والطلاب الذين لم ترتبط أسماؤهم بمثل هذه الحركات من قبل، فضلا عن بعض من يعتلون الدرجات الدنيا من التسلسل الهرمى الاجتماعى بالصين - من عمال المصانع والبناء والمزارعين المصانع وعمال البناء والمزارعين. كما أغلق المسؤولون مدونة تانغ بعد أن وقعت على الميثاق، وفعل نفس الشىء عدد من مسئولى مدونات لا تعد ولا تحصى والتى ساندت الميثاق (بما فى ذلك كامل موقع bullog.cn). لكن الحملة استمرت فى صالونات تحت الأرض ونكات تخريبية انتشرت عبر وسائل الاعلام الاجتماعية والتراسل الفورى. إحدى هذه النكات تتخيل الرئيس الصينى هو جين تاو وهو يشكو من مفاهيم الميثاق الديمقراطى مثل الفيدرالية، أحزاب المعارضة وحرية تكوين الجمعيات حيث يتساءل «من أين يأتون كلهم؟». ولكن أتباعه ينقلون له مصادر الأخبار السيئة: إن هذه المفاهيم المزعجة ترجع لماو تسى تونغ، زهو ان لاى، قانون أصول المحاكمات الجزائية، الصحيفة الرسمية (شينخوا ديلى)، ودستور جمهورية الصين الشعبية نفسها. ويتساءل ما يجب عمله.

فيقترح موظفوه فرض حظر على جميع من ذكروهم من تلك الأسماء. ولكنه صرخ بهم قائلا «أنتم بلهاء». واضاف «إذا فرضتم حظرا عليهم، فيمكنكم فرض حظر على أنا أيضا» ولكن موظفيه ردوا «حسنا سيقول الناس ذلك إذا فرضوا الحظر عليك، فعلى الأقل سيترك الميثاق وحده».

مراقبة الحكم والكشف عــن الانــتــهــاكــات

إن تحرير التكنولوجيا يحقق ما يسمى «بتكنولوجيا المساءلة»، حيث إنها توفر وجود الكفاءة والأدوات القوية لتحقيق الشفافية والرصد. حيث تعمل الكاميرات الرقمية جنبا إلى جنب مع مواقع مثل يوتيوب على خلق إمكانيات جديدة لإظهار وتحدى إساءة استعمال السلطة. حيث قامت الكاميرات الموجودة على أجهزة المحمول بتصوير الانتهاكات الوحشية التى تقترفها الشرطة ثم تنشر بعدها على موقع يوتيوب وغيرها من المواقع، حيث دعا بعدها المدونون لإثارة الرأى العام ضدهم تحت دعوى «انتهاكات حقوق الإنسان» فى إطار البحث داخل موقع يوتيوب وحينئذ سوف تحصل على ما يقرب من عشرة آلاف من لقطات فيديو يظهر فيها كل شىء بدءا من ظروف العمل التى يعانى منها مزارعو القطن فى أوزبكستان، إلى ممارسات التعدين فى الفلبين، إلى تجارة الأعضاء البشرية فى الصين، لاضطهاد البهائيين فى إيران. كما يصور اليوتيوب فيديو لامرأة ماليزية ترغمها الشرطة على الجلوس فى وضع القرفصاء فى حين يظهر رئيس الوزراء عاريا وهو يدعو إلى وجود تحقيق مستقل. فعندما أرغم الرئيس الفنزويلى هوغو شافيز راديو وتلفزيون كاراكاس على قطع البث على الهواء فى مايو ٢٠٠٧، حيث واصلت بث برامجها على اليوتيوب، فلا عجب إذن أن تقوم دول استبدادية مثل إيران



إن قدرا كبيرا من المواد الحساسة سياسيا توجد فى المدونات الصينية، وهذا يعطيها احتمالية وجــود فرص للبقــاء على قيــد الحيــاة



لقد لعب تحـريـر التكنولوجيـا دورا بارزا فى أحداث الثورة البرتقالية التى أطاحت بالنظام الانتخابى الاستبدادى فى أوكرانيا عبر احتجاجات جماهيرية



والسعودية بحجب موقع نشر الفيديو. وفى معظم أنحاء العالم، خاصة فى أفريقيا، يعتبر السعى لتحقيق مبدأ المساءلة عن طريق استخدام أبسط أشكال تكنولوجيا تحرير الاتصال:- وهى الرسائل التى ترسل عبر الهاتف المحمول (وقد أثبتت شبكات الهاتف المحمول أهميتها ولاسيما الموجودة فى البنية التحتية بأفريقيا لأنها يمكنها تغطية مساحات شاسعة دون الحاجة إلى الكثير من المرافق المادية مثل أبراج المحمول). فحول العالم يتم توسيع قدرات الهواتف المحمولة بشكل كبير عبر برامج ذات مصدر مفتوح مثل Frontline SMS والتى تساعد على إيجاد مجال أوسع لشبكات المحمول، من خلال تمكين انتقال الرسائل فى اتجاهين عبر الهاتف المحمول.

وفى السنوات الأخيرة، تم استخدام البرنامج عبر شبكات الهاتف المحمول لرصد الانتخابات فى نيجيريا وغانا، لتسهيل الإبلاغ السريع عن انتهاكات حقوق الإنسان فى مصر، لإبلاغ المواطنين عن سبل مكافحة الفساد وموضوعات تتعلق بحقوق الإنسان فى السنغال، بالإضافة لرصد وتقرير الاضطرابات المدنية فى باكستان. فهناك منظمة كينية تدعى (Ushahidi سواحلية «للشهادة»)، قد قامت بتعديل البرنامج من أجل «تحديد مواقع الأزمات». مما يسمح لأى شخص بتقديم معلومات عن تلك الأزمة من خلال الهاتف المحمول والبريد الالكترونى أو أى شكل من أشكال الاتصال أونلاين،ثم تجميع المعلومات والمشروعات لوضعها داخل إطار بوقت حدوثها الحقيقى.



وقد قام الصحفيون المدنيون بتطويرها فى البداية من خلال وضع تقارير عن أحداث العنف التى وقعت أثناء الانتخابات فى كينيا فى أوائل عام ٢٠٠٨، حيث تصفحها حوالى ٤٥٠٠٠ مستخدم كينى. ومنذ ذلك الحين تم استخدام تلك الخدمة لتقرير حوادث العنف المعادية فى جنوب أفريقيا xenophobic، لتعقب انتهاكات حقوق الإنسان فى جمهورية الكنغو الديمقراطية، مراقبة الانتخابات فى أفغانستان، الهند، لبنان والمكسيك.

ويعد أكبر ممول لكل من Ushahidi وFrontlineSMS هى شبكة أوميديار ON (Omidyar)، وهى شركة استثمار خيرية تاسست منذ ستة أعوام على يد مؤسس موقع إيباى بييرأوميديار وزوجته بام. فتلك الخدمة تتغلغل فى عوالم الابتكار السياسية والاجتماعية: عبر إعطاء الجميع الفرصة للحصول على المعلومات والاستفادة من إمكانات الأفراد، وقوة الأسواق. يعد هذا الجهد المبتكر - والذى يضم كلا من صندوق رأس المال الموجه venture-capital fund لتحقيق الربح للشركات المبتدئة وصندوق تقديم المنح غير الهادف للربح nonprofit grant-making fund حيث التزمت تلك الجهات بمنح أكثر من ٣٢٥ مليون دولار فى مجال الاستثمارات والمنح بمجالين واسعين:- «الحصول على رأس المال» (التمويل البالغ الصغر لتنظيم المشاريع وحقوق الملكية) و«أسواق وسائل الإعلام و الشفافية» (الذى يدعم التكنولوجيا والتى تدعم بدورها الشفافية، المساءلة وتحقق الثقة عبر وسائل الإعلام، الأسواق والحكومة). كما تدعم شبكة ON بعض الشركاء الوطنيين فى نيجيريا، غانا وكينيا والتى تستخدم تكنولوجيا المعلومات لتحسين أساليب الحكم وحرية التعبير.

وهذا يشمل Infonet - وهى بوابة على الإنترنت توفر للمواطنين، الإعلام والمنظمات غير الحكومية NGOs مع سهولة الوصول للمعلومات التى تتناول ميزانيات الحكومة الوطنية والمحلية فى كينيا و- Mzalendo، وهو موقع شامل يمكن للكينيين متابعة ما يقوم به أعضاؤها فى البرلمان.

تدعم ON مبادرات الشفافية والتى امتدت إلى بلدان أخرى والمنظمات الموجودة فى الولايات المتحدة. وهذا يشمل النزاهة العالمية عن طريق تسخير الإنترنت وغيرها من مصادر المعلومات من أجل توليد تقييمات مفصلة عن وقائع الفساد فى أكثر من تسعين بلدا، ومؤسسة Sunlight والتى تستخدم الإنترنت والتكنولوجيات ذات الصلة من أجل توفير المعلومات حول تشريع الإنفاق الاتحادى للحكومة، واتخاذ القرارات وأن تكون فى متناول الناخبين الأمريكيين.

التعبئة رقميا

إن أكثر وأقوى ما يؤثر فى الأنظمة الاستبدادية هى الثورة الرقمية والتى سهلت القيام بتعبئة شعبية واسعة النطاق. فقد أتاحت الهواتف المحمولة مع وجود خدمة الرسائل النصية القصيرة ما وصفه «guru Howard Rheingold» بالغوغاء الذكية - وهى الشبكات





إن تأثير الرسائل النصية انتشر على الصعيد الوطنى على حد تعليق المدونين فى المدن الصينية الأخرى التى تلقت تلك الرسائل حيث انتشر الغضب سريعا فى جميع الأرجاء



الموسعة من الأفراد الذين يتواصلون بشكل سريع لإيجاد تسلسل هرمى أو توجيه مركزى من أجل جمع (أو حشد) الناس فى بعض الأماكن فى سبيل الاحتجاج. ففى شهر يناير عام ٢٠٠١، أصبح جوزيف استرادا رئيس الفلبين أول رئيس دولة فى التاريخ يفقد سلطته بسبب قوة الغوغاء الذكية،عندما قام عشرات الآلاف فى غضون أربعة أيام من حشد مليون فلبينى رقميا للتجمع فى مسيرة احتجاج تاريخية فى مانيلا. ومنذ ذلك الحين تم تحرير التكنولوجيا عمليا عندما يجتمع الناس بغرض المطالبة بتحقيق الديمقراطية أو الإصلاح السياسى.

لقد لعب تحرير التكنولوجيا دورا بارزا فى أحداث الثورة البرتقالية التى أطاحت بالنظام الانتخابى الاستبدادى فى أوكرانيا عبر احتجاجات جماهيرية خلال شهر نوفمبر وديسمبر عام ٢٠٠٤. حيث كانت صحيفة الإنترنت Ukrainskaya Pravda مصدرا حيويا للأخبار والمعلومات سواء عن جهود النظام لسرقة الانتخابات الرئاسية ومحاولات المعارضة لوقفها. وبحلول نهاية الثورة، قد أصبحت تلك الصحيفة الرقمية أكثر مصادر الأخبار اطلاعا على نطاق واسع من أى صحف أخرى فى أوكرانيا. حيث حفل موقعها بلوحات المناقشات مما مثل كمكان لتوثيقها. كما ساعدت خدمة الرسائل النصية على القيام بأفضل تعبئة وتنسيق لحركة الإحتجاجات الشعبية الضخمة وأستطاعت استقطاب الآلاف إلى ميدان الاستقلال بمدينة كييف فى ظل طقس متجمد - حيث أجبر هذا الاحتجاج على إعادة الانتخابات والتى فازت بها المعارضة الديمقراطية. إن تلك الأدوات الرقمية قد يسرت أيضا اندلاع أحداث ثورة الأرز فى لبنان عام ٢٠٠٥، والتى اجتذبت أكثر من مليونى متظاهر للمطالبة بانسحاب القوات السورية، بالإضافة لاحتجاجات عام ٢٠٠٥ من أجل نيل حقوق المرأة فى التصويت بدولة الكويت،و كذلك الاحتجاجات التى اندلعت فى عام ٢٠٠٧ من قبل الطلاب الفنزويليين ضد إغلاق شبكة راديو وتلفزيون كاراكاس، والإضراب العام بمصر فى أبريل عام ٢٠٠٨ حينما قام عشرات الالاف من المتظاهرين الشباب عبر الفيسبوك. وفى ١٧ سبتمبر عام ٢٠٠٧، لعبت شبكة الإنترنت، كاميرات الهواتف النقالة وغيرها من وسائل التكنولوجيا الرقمية دورا بارزا فيما يسمى بثورة الزعفران فى بورما بسبب ما قامت به من حشود الالاف من الرهبان البوذيين. وعلى الرغم من المساهمة القليلة للتكنولجيا الرقمية لتعبئة الاحتجاجات إلا أنها تقوم بدور هام وهى نقل تلك الأحداث للعالم، حيث تكشف الوسائل الدموية الى تشنها الحكومة لقمعها فى الرد على المواطنين البورمية التى قامت بالتقاط الصور والعديد من لقطات الفيديو على هواتفهم المحمولة، وتحميلها سرا من مقاهى الإنترنت أو إرسالها فى صورة ملفات رقمية عبر الحدود لتحميلها.

ربما قد تكون تلك الرؤية الدولية هى التى أنقذت حياة العديد عبر منع الجيش من استخدام القوة على نطاق واسع وبوحشية كما حدث فى عام ١٩٨٨.أما فى الصين فقد كان انتشار الرسائل النصية عاملا رئيسيا فى اندلاع أحداث الاحتجاجات الشعبية. ففى عام ٢٠٠٧، كان لتدفق الرسائل النصية عبر الهاتف المحمول دور فى الاحتجاجات بمدينة Xiamen بتايوان. حيث نقلت إستياء العامة ضد مصنع للمواد الكيميائية الخطرة وطالبت الحكومة بتعليق الموضوع. إن تأثير الرسائل النصية انتشر على الصعيد الوطنى على حد تعليق المدونين فى المدن الصينية الأخرى التى تلقت تلك الرسائل حيث انتشر الغضب سريعا فى جميع الأرجاء. لقد تسربت فعاليات تلك التكنولوجيا حتى إلى كوريا الشمالية وهى أكثر مجتمعات العالم انغلاقا، حيث يوجد المنشقون عن منطقة كوريا الشمالية والناشطون فى مجال حقوق الإنسان فى كوريا الجنوبية فى محاولة منهم لإغراء الكوريين الشماليين لحمل الهواتف المحمولة عند عودتهم للوطن من الصين واستخدامها لإرسال ما يحدث (عبر شبكة المحمول الصينية).

أما فى منطقة الخليج الغنية بالنفط، فقد سمحت الرسائل النصية للنشطاء بالمجتمع المدنى والمعارضين السياسيين «لبناء قوائم عضوية غير رسمية »، وعندما انتشرت الأخبار تم اعتقال الناشطين مما شجع الإقبال على التصويت، جدولة الاجتماعات والتجمعات وتطوير حملات جديدة - وفى الوقت نفسه إبعاد الحكومة من الرقابة على الصحف ومحطات التلفزيون والمواقع الالكترونية. لقد كان المثال الأخير الأكثر دراماتيكية للتعبئة الرقمية ما حدث للحركة الخضراء فى إيران. ففى أعقاب الممارسات الخاطئة التى اتبعها مرشح المعارضة للرئاسة مير حسين موسوى والتى فاز بها فى ١٢ يونيو ٢٠٠٩. ففى السنوات السابقة، حدث تصاعد فى الأنشطة العامة الإلكترونية بإيران، فكما يستدل على ذلك بوجود نحو أكثر من ٦٠٠٠٠ مدونة والتى تم إنشاؤها بشكل روتينى تناقض موضوعات ثقافية، دينية وسياسية،كذلك ثورة الفيسبوك شملت ما يقدر بـ٦٠٠٠٠٠ ألف مستخدم باللغة الفارسية ولجوء العديد من وكالات الأنباء لاستخدام شبكة الإنترنت، وكذلك الجماعات المدنية، الأحزاب السياسية والمرشحين.

كما كان الإعلان عن فوز الرئيس الحالى محمود أحمدى نجاد فى الانتخابات (حيث حصل على نسبة ٦٢٪ وهى نسبة ساحقة) فى ١٣ يونيو، ولكن التزوير الذى حدث أثناء الانتخابات أثار غضبا عبر غرف الدردشة على شبكة الإنترنت، المدونات والشبكات الاجتماعية. فعبر تويتر، الرسائل النصية، الفيسبوك ومواقع الشبكات الاجتماعية باللغة الفارسية مثل Balatarin æDonbleh. حيث قام الايرانيون بنشر الأخبار والآراء التى تدعو للقيام بالمظاهرات. وفى يوم ١٧ يونيو استخدم أنصار موسوى تويتر لجذب عشرات الآلاف من أتباعهم للاحتشاد فى وسط طهران. أما مستخدمو الإنترنت فقد حشدوا إحتجاجات منظمة فى مختلف أنحاء البلاد لمدة شهر، والذى اندلع خلاله أكبر مظاهرات فى العاصمة، والتى شارك بها حوالى مليونين أو ثلاثة ملايين شخص. أما موقع يوتيوب فقد وفر مساحة لنشر صور وأشرطة الفيديو عن انتهاكات حقوق الإنسان والتجاوزات التى اتخذتها الحكومة. ففى تسجيل مدته ٣٧ ثانية عرض مشهد وفاة ندى سلطان الأغا خلال احتجاجات عنيفة فى طهران فى ٢٠ يونيو ولكن سرعان ما انتشر الخبر عبر الإنترنت، كذلك الصور التى تم التقاطها للشرطة وبلطجية النظام وهم يتعرضون للمتظاهرين سلميا. إن وفاة ندى وعرض الصور المؤلمة الوحشية قد أهلكت الشرعية المتبقية للجمهورية الإسلامية محليا ودوليا. فحتى الآن، تعد الحركة الخضراء مثالا على إمكانات وحدود تحرير التكنولوجيا. ومع ذلك فإن الجمهورية الإسلامية قد ردت بنوع من الرجعية عبر تشبثها بالسلطة من خلال سيطرتها على الأمور بالإكراه واستعدادها لممارسة العنف إلى حد اللجوء للقتل.

إن التكنولوجيا الرقمية لم تستطع إيقاف الطلقات النارية والهراوات عام ٢٠٠٩، ولم تمنع الاغتصاب، والتعذيب،



إن وفاة ندى وعرض الصور المؤلمة الوحشية قد أهلكت الشرعية المتبقية للجمهورية الإسلامية محليا ودوليا





لا يـزال التحـدى الأكبـر أمـام العـالم الرقمى هو حـريـة التـداول. فاسـتخدام الفلـترة ومـراقبـة الإنـترنت من قبـل الأنظمـة غير الديمقراطيـة أصبح أكثر انتشارا وأكثر تطورا



وإعدام العديد من المتظاهرين. لكنها لم تملك توثيق هذه الانتهاكات بشكل واضح، ولكنها قامت بنقل الركائز الأساسية للنظام فى دعمه للقاعدة، بما فى ذلك قطاعات واسعة من رجال الدين من طائفة الشيعة. فى حين قيام النظام بتعذيب المعارضين للحصول على كلمات السر لبريدهم الإلكترونى لمنعهم من استقطاب المزيد من المعارضين، كما عزز الإنترنت التعددية المدنية والسياسية فى إيران، حيث ساعد على الربط بين قوى المعارضة داخل البلد وبين الشتات الإيرانى مما ساعد على توليد الوعى، المعرفة، وتعبئة القدرات التى من شأنها فى نهاية المطاف القضاء على الاستبداد فى إيران. ومن العوامل الرئيسية التى ستؤثر على موعد حدوث ذلك هى قدرة الإيرانيين على التواصل بحرية أكبر وأكثر أمانا على شبكة الإنترنت.

تحـطـيـم الجـدران

حتى فى أكثر الأجواء حرية، هناك حدود وتكلفة لوسائل الاتصالات والمعلومات الرقمية الحديثة.

فهناك خطوط رفيعة تفصل ما بين التعددية والتنافر، بين الدعوة والتعصب وبين توسيع المجال العام واليأس من حدوث الانقسام. ففى حين تضاعفت أعداد البوابات الإعلامية تم تقييد العديد من الأصوات، ولكن ليست جميعها عقلانية ومدنية. فانتشار وسائل الإعلام الموجودة أونلاين (والكابلات) لم يحسن من نوعية المناقشات العامة، ولكن نظرا لنشوء ما يعرف بـ «echo chamber» ذات التوجهات الإيديولوجية مثل كل وسائل التحريض الأخرى. والتى تجعل صعوبة للتوصل لنتائج وهم: المتاجرون بالكراهية، المواد الإباحية ، الإرهاب، الجريمة الرقمية، التجسس الالكترونى والحرب الالكترونية. فهذه هى التحديات الحقيقية والتى تتطلب تحليلا حذرا- قبل التنظيم والتشريع، لتحديد كيف يمكن تحقيق التوازن بين الديمقراطيات لإيجاد إمكانية لتوسيع نطاق حرية الإنسان، المعرفة والقدرة على مواجهة المخاطر التى قد تشكلها تلك التقنيات للفرد والأمن الجماعى على حد سواء.

ولكن لا يزال التحدى الأكبر أمام العالم الرقمى هو حرية التداول. فاستخدام الفلترة ومراقبة الإنترنت من قبل الأنظمة غير الديمقراطية أصبح أكثر انتشارا وأكثر تطورا على حد سواء. كما أن بعض الجهود تعد أقل تطورا، وذلك باستخدام برامج الفلترة التجارية، والتى قد تقوم بحجب مواقع أكثر دون تمييز. فحاليا، هناك أكثر من ١٣ دولة تلجأ إلى فلترة الإنترنت أو تنكر تماما حرية مواطنيها. إن المستخدمين المغامرين يستطيعون القيام بكثير من تقنيات التحايل.

ولكن بعضها يتطلب تثبيت البرنامج ولهذا فهى لن تكون متوفرة إذا كان يتم الوصول إلى الإنترنت من أجهزة الكمبيوتر العامة أو مقاهى الإنترنت، والعديد منها يتم حظرها بنفس أساليب الفلترة التى يتم حجبها نظرا لحساسيتها سياسيا، كما أن معظم هذه الوسائل تتطلب درجة معينة من التقنية العالية لمستخدميها. فليست كل أساليب التحايل تقوم بحماية مستخدمى الإنترنت مثل شروط الخصوصية وعدم الكشف عن هويته، والتى يمكن أن تمثل مشكلة حادة بشكل خاص عندما تقوم شركات مملوكة للدولة بتوفير خدمة الإنترنت. فالبرامج المجانية المتداولة بين الإيرانيين، وعود عدم الكشف عن هويتهم عن طريق «إعادة توجيه حركة مرور مشفرة من خلال التبديلات المتعددة... فى جميع أنحاء العالم،» مما يجعل من الصعب على أى نظام اعتراضها. ولكن إذا كان هذا يحتكر على نحو فعال توفير خدمة الإنترنت، فإن النظام اليائس فى بورما عام ٢٠٠٧ يمكن أن يستجيب دائما لإغلاق خدمة الإنترنت فى البلاد، أو كما فعلت الحكومة الإيرانية، عبر إبطاء الخدمة بينما تقوم السلطات بشل حركة البحث عن البيانات الإلكترونية ذات الصلة بالاحتجاج. حتى فى الديمقراطيات الليبرالية تحدث العديد من المشاكل بسبب صعوبة الدخول على الإنترنت. ففى الآونة الأخيرة، وفى جميع أنحاء العالم - بما فى ذلك الحكومة الامريكية - أصبحت معنية أكثر بإصدار مقترحات تشريعية واسعة فى أستراليا من شانها إرغام مقدمى خدمة الإنترنت من وضع قائمة كبيرة من المواقع بالقائمة السوداء وهى المواقع غير القانونية لاعتبارات أخلاقية (بما ذلك حماية الأطفال). إن الممارسة الصينية لإجبار مقدمى خدمات الإنترنت لتحمل مسئوليتهم عن المحتوى الذى يقدمونه تتسرب إلى أساليب التفكير القانونية والتنظيمية الأوروبية فيما يتعلق بشبكة الإنترنت.

وهناك حاليا ما يشبه السباق التكنولوجى بين الديمقراطيين الذين يسعون للتحايل على الرقابة على الإنترنت والدكتاتوريات التى ترغب فى توسيع وتحسين الرقابة. حيث قامت مؤخرا بعض الديكتاتوريات مثل ايران بتحقيق مكاسب كبيرة فى أساليب القمع. فجزئيا، حدث ذلك لنية بعض الشركات الغربية مثل نوكيا وسيمنس لبيع برامج فلترة متطورة ذات تقنيات متطورة. وجزئيا أيضا، تعمل تلك الدكتاتوريات لمشاركة أسوأ تلك الممارسات مع بعضها البعض. فهناك مجموعة جديدة من تقنيات التحايل تفد إلى السوق، ويتوق الملايين من الصينيين، الفيتناميين، الإيرانيين والتونسيين للوصول إليها. فالديمقراطيات الليبرالية الغنية بحاجة إلى بذل المزيد من الجهود لدعم تطوير مثل هذه التكنولوجيات، وتسهيل (ودعم) نشرها بطريقة رخيصة وآمنة للبلدان التى يتم بها قمع الإنترنت.

كما يمكن القيام بالمزيد من الإجراءات لتحسين فك التشفير حتى يتسنى للناس فى ظل الأنظمة الاستبدادية التواصل بشكل أكثر أمانا وتنظيم اتصالاتهم أونلاين. قد تأتى أيضا تلك الاختراقات مع التوسع فى الاتصالات الفضائية التى تتجاوز تلك الأنظمة الوطنية، إذا كانت تكلفة الأطباق الهوائية اللاقطة والاستخدام الشهرية تعد مرتفعة، يمكن تخفيض معدلات الاستخدام بشكل كبير. ويمكن للحكومات الغربية المساعدة فى ذلك من خلال حظر تصدير التكنولوجيات المتقدمة للمراقبة والفلترة إلى الحكومات القمعية، ومساندة شركات التكنولوجيا الغربية عندما تمارس تلك الديكتاتوريات أساليب الضغط عليهم «لتسليم البيانات الشخصية لمستخدمى الانترنت». وأخيرا، ينبغى أن تساند الديمقراطيات الليبرالية حقوق الإنسان الخاصة بالمدونين، النشطاء والصحفيين الذين تم القبض عليهم لتظاهرهم السلمى، للتواصل والتنظيم أونلاين بعد إعلان الولايات المتحدة الهام، على لسان هيلارى كلينتون فى خطابها التاريخى يوم ٢١ يناير بأنه على حد قولها «نحن نقف جميعا وراء شبكة إنترنت واحدة حيث يتساوى البشر جميعا فى حقهم بالحصول على المعرفة والأفكار». ولكن النضال من أجل تحقيق التواصل الإلكترونى يعد حقا نضالا خالدا، نضال من أجل الحرية عبر وسائل جديدة. إنها ليست التكنولوجيا بل المنظمات الشعبية والحكومات التى ستحدد من الذى سيفوز فى النهاية. ■



الديمقراطيات الليبرالية الغنية بحاجة إلى بذل المزيد من الجهود لدعم تطوير مثـل هـذه التكنـولوجيـات



this is NOT a Facebook revolution!!



جيفري غنام

Jeffrey Ghannam

■■ على مدى عقود، قام الجنود المسلحون بحراسة مبنى اتحاد الإذاعة والتلفزيون المصرى الذى يقع بوسط القاهرة وهذا على ما يبدو بهدف حماية أحد أضخم ممتلكات الدولة من تعرضه للسيطرة عند أى محاولة لقيام ثورة.

لكن رحيل حسنى مبارك من السلطة فى وقت سابق من هذا الشهر بعد مدة حكم استمرت لثلاثة عقود، أظهرت أن قوة وسائل الاعلام الاجتماعية وتكنولوجيا الهاتف المحمول مثلت تهديدا كبيرا للرئيس المصرى السابق.

و الآن مع انتشار موجة الاحتجاجات من تونس، مصر، البحرين، الجزائر، اليمن وليبيا، فإن المفهوم المطلق من «ثورة تويتر» أو «ثورة الفيسبوك» يعتبر قيد المناقشة - وtweeted تويتد، بطبيعة الحال - من واشنطن إلى القاهرة وخارجها.

فمن قبيل الصدفة، كنت قد قضيت عدة أشهر قبل اندلاع الاحتجاجات بدراسة دور وسائل الإعلام الاجتماعية فى العالم العربى - وهو الموضوع الذى أثار اهتماما كبيرا عند زملائى العاملين فى تطوير وسائل الإعلام الدولية، حتى أصبح فجأة جزءا من أكبر قصة تدور على هذا الكوكب.

ولكن السؤال هو كيف تمثل وسائل الإعلام الاجتماعية موضوعا رئيسيا فى هذه الانتفاضات؟ وهل كل ما تحتاجه لإسقاط نظام استبدادى راسخ هو مجموعة من التحديثات، تتمثل فى فيديوهات اليوتيوب، وتعليقات تويتر Twitter hashtags؟

فعند الاستماع لمدير التسويق التنفيذى البالغ من العمر ٣٠ عاما وائل غنيم «- وهو أحد أبطال حركة الاحتجاج فى ميدان التحرير - والذى يصرح بأن الثورة المصرية قد ولدت على الفيس بوك فعلى حد قوله «لقد بدأت هذه الثورة... فى يونيو ٢٠١٠ عندما قام مئات الآلاف من المصريين بتبادل التعليقات» وهذا وفق تصريحه لشبكة سى إن إن فى فبراير ٢٠١١ «سنقوم بتحميل فيديو على الفيسبوك سيتبادله حوالى ٦٠٠٠٠ شخص على صفحاتهم walls فى غضون بضع ساعات. فكنت دوما أقول بأنه إذا أردت تحرير مجتمع ما، امنحهم فقط شبكة الإنترنت».



وكان غنيم سابقا هو المسؤول المجهول عن صفحة الفيس بوك التى تسمى «كلنا خالد سعيد »، وهى تحمل اسم الشاب ذى الـ ٢٨ عاما الذى تعرض للضرب المبرح على أيدى الشرطة بعد نشره لفيديو يصور الشرطة عند ضبطها لبعض الممنوعات. وبمجرد بدء الاحتجاجات فى مصر الشهر الماضى، تم اعتقال غنيم لمدة ١٢ يوما معصوب العينين. وبعد إطلاق سراحه، أشيد به كبطل لحركة الاحتجاج نظير جهوده على شبكة الإنترنت.

لقد تفهم وائل غنيم بوصفه المدير التنفيذى لجوجل، قوة وسائل الإعلام الاجتماعية. حيث قال فى مؤتمر لجوجل أقيم فى القاهرة بشهر ديسمبر الماضى، بأنه بحلول عام ٢٠١٥ سيكون عدد مستخدمى الإنترنت ١٠٠ مليون شخص عربى من أصل ٣١٥ مليونا ينتمون لمناطق مختلفة حول العالم. كما أضاف غنيم فى المؤتمر بأنه يجرى تحميل ٢٤ ساعة من موقع يوتيوب كل دقيقة من المنطقة، وهذا قبل اندلاع الثورات.

قليل من ينكر بأن وسائل الإعلام الاجتماعية قد حالت دون وجود حرية للتعبير والتجمع فى التاريخ العربى المعاصر. فخلال الاحتجاجات، قامت وسائل الإعلام الاجتماعية بالتجميع،

Jeffrey Ghannam is a lawyer and journalist. He is author of the report Social Media in the Arab World: Leading up to the Uprisings of 2011.

ترجمة: رحاب منير صالح



إن عدد مستخدمى الفيسبوك،
وفقا لتقرير وسائل الإعلام الاجتماعية العربية يصل لأكثر من ٢١ مليون شخص
فـــى الشـــــــرق الأوســــــط



النشر والتسابق فى عرض الأخبار والمعلومات الحيوية. ولكن فى النهاية، كان الفيس بوك واليوتيوب فقط هما الأدوات - والأدوات التى لم ينافسها أحد فى عرض التغيرات التى شهدها العالم فى الأسابيع الأخيرة.

إن العلل الاجتماعية عميقة الجذور - من القمع والتى تأتى من أعلى والإحباطات السياسية والاقتصادية من أسفل - هى صميم الاحتجاجات التى تجتاح العالم العربى، بقدر ما كانت تمثل فى الثورات التى اندلعت على مر التاريخ.

إن نجاح أكبر الثورات السلمية التى تندلع فى العالم العربى اليوم هى بمثابة بداية لتغيير المفاهيم فى المنطقة وعزم مواطنيها للحصول على الديمقراطية بشروطهم الخاصة. فجزئيا من خلال وسائل الإعلام الاجتماعية، يعيد الشعب العربى كتابة رواياتهم الخاصة، إما فرديا أوجماعيا، حيث يمكنهم ذلك من الإعلان عن قدرتهم على إحداث التغيير سلميا والمطالبة بالحقوق العالمية.

إذن لا يجب أن نخلط بين الوسائل والدوافع. فالتفكير فى هذه اللحظة بأنها «ثورة الفيسبوك» تقلل من شأن التحديات التى يواجهها المتظاهرون والشعوب. فهل فى حالة - عدم وجود الفيسبوك أو تويتر - أو شبكة الإنترنت نفسها، من الممكن أن تندلع تلك الثورات؟ مع وجود قطاعات كبيرة من السكان العرب العاطلين عن العمل، المهمشين والذين يشعرون بالعجز عن قدرتهم على تغيير مستقبلهم فى ظل الأنظمة الاستبدادية التى كانت تحيطهم، فجميع العناصر المحركة لقيام الثورة كانت موجودة بالفعل: لقد ساهمت وسائل الإعلام الاجتماعية بجعل تلك المظالم أكثر إلحاحا ويصعب تجاهلها.

ومن المفارقات، أن عدد مستخدمى الفيسبوك، وفقا لتقرير وسائل الإعلام الاجتماعية العربية يصل لأكثر من ٢١ مليون شخص فى الشرق الأوسط (مع وجود ٥ ملايين فى مصر وحدها)، وهى بذلك تعد منبرا للاحتجاج. حيث يتم نشر رسائله وتحديثاته بشكل واسع لأولئك الذين ينتمون إلى جماعات معينة أو الذين يعرفون إلى من يتحدثون.

أما تويتر، فعلى النقيض من ذلك، فهو يسمح للمستخدمين بالوصول إلى الجمهور فى جميع أنحاء العالم من خلال استخدام hashtags على الرسائل، مثل تلك التى تعرف معنى الثورات: تونس، سيدى بوزيد - ٢٥ يناير مصر - والآن البحرين - الجزائر - اليمن - ليبيا، بين الناس.

لقد اعترف القادة العرب منذ زمن طويل بالخطر الذى تشكله شبكة الإنترنت، حيث قامت بوضع فلاتر filters and legal وقيود قانونية restrictions فى محاولات للسيطرة على الأنشطة التى تتم عبر الإنترنت. فمن المغرب إلى البحرين، تم القبض على عشرات النشطاء والمواطنين العاديين وحكم عليهم بالسجن بسبب نشاطاتهم ومدوناتهم على الإنترنت.

ومن المهم أيضا أن نلاحظ بأن «يوم الغضب» الذى اندلع فى مصر يوم ٢٥ يناير قد تم الترويج له مقدما على الفيسبوك، ولكن عندما منعت شبكة الإنترنت وخدمات الهاتف المحمول فى مصر، وجد المحتجين سبلا للتواصل والتجمع بأعداد كبيرة فى ميدان التحرير فى القاهرة، وعلى طول الواجهة البحرية فى الإسكندرية والمدن المصرية الأخرى.



أما فى تونس، فلم يلجأ الرئيس السابق زين العابدين بن على لمنع شبكة الإنترنت خلال الأسابيع الأربعة من الاحتجاجات التى اندلعت فى بلاده. ولكن نظامه قام بمنع نظام تويتر وغيره من المواقع، ولكنهم تغلبوا عليها نتيجة للجوء التونسيين لاستخدام proxies لتجاوز تلك الضوابط الحكومية. فإذا كان رجال بن على قد أجهضوا شبكة الإنترنت، فإن النتيجة قد تكون مختلفة، نتيجة إصرار بعض الناشطين - ولكن باختلاف كبير من الصعب معرفته.

تتمثل قدرة وسائل الاعلام الاجتماعية فى السماح للملايين من اتصالاتنا من الوصول بشكل واسع النطاق ومن ثم التأثير. ولكن أكثر وسائل الإعلام التقليدية لعبت أيضا دورا هاما. فالفضائيات العربية بثت دون توقف أيضا تغطية أحداث الاحتجاجات، عبر الاعتماد على الأطباق الهوائية اللاقطة للإشارة الموجودة فى مصر وجميع أنحاء المنطقة. فالواقع، أن الناشطين التونسيين وغيرهم قد وثقوا بتثليث triangulation وسائل الإعلام - الجديدة والقديمة - بقيامها بالتعبئة الناجحة وإعلام الجماهير فى البلاد.



لقد صرح سامى بن غربية الذى شارك فى تأسيس مدونة تونسية جماعية باسم نواة، فى مقابلة لإذاعة فرنسا الدولية بأن قدرا كبيرا من أحداث الثورة التى ظهرت فى وسائل الإعلام التقليدية نشأت على الفيسبوك. حيث يقومون بتجميع المحتوى الذى حمله النشطاء، بما فى ذلك الفيديو والصور الواردة من صفحات الفيسبوك، وترجمتها إلى لغات متعددة لنشرها على منابر أخرى.

وكان يتم نشر المحتوى على مدونة نواة وبثها على تويتر مع عرض وصلات إلى الفيديو وغيرها من المحتويات التى يمكن للصحفيين والنشطاء الاستفادة منها. حيث يمكن عن طريق البث عبر تويتر نشر تلك المواد على نطاق أوسع لهذا المحتوى مما يسمح به الفيسبوك، وأضاف بن غربية، بأنه يرجع أساسا بسبب عدم اشتراك الجميع فى الفيسبوك. وأخيرا، فإن شبكات الأقمار الصناعية - وأبرزها الجزيرة، وفقا للناشطين - التقطت محتوى وسائل الاعلام الاجتماعية وأعادت بثها فى تونس.

لقد أثبت التقارب ما بين وسائل الإعلام الاجتماعية، شبكات الأقمار الصناعية ووسائل الإعلام التقليدية بقيامها بدور محورى فى نشر رسائل المحتجين. «كان ذلك صدى لدائرة الصراع المندلعة فى الشارع» على حد قول بن غربية.

على ما يبدو بأن وسائل الإعلام الاجتماعية تستمر فى دورها الذى تلعبه إزاء السياسة فى الشرق الاوسط. أما السكان تحت سن ٢٥ فيشكلون ما يقرب من ٥٠ فى المئة من الشعب فى اليمن، سلطنة عمان، المملكة العربية السعودية، الأردن، المغرب ومصر. أما باقى المنطقة فإن جيل الإنترنت تحت ٢٥ سنة يشكل ٣٧ فى المئة إلى ٤٧ فى المئة من مجموع السكان، وفقا لتوقعات وسائل الإعلام العربية ما بين عامى ٢٠٠٨- ٢٠١٢.

فمن الواضح بأن هؤلاء الشباب يأخذون تلك المنطقة فى اتجاه جديد، تصاحبهم التكنولوجيات التى يعرفونها جيدا. ولكن الأحداث التى عصفت بالمنطقة ليست فى الشعارات المثيرة. فهذه ليست ثورات وسائل الإعلام الاجتماعية. ولكن وسائل الإعلام الاجتماعية دورها هو تأريخ وتضخيم ما يحدث فى الشوارع.

و فى الواقع، فإذا كان القلم - أو الكليك click - أحد من السيف، فإن وسائل الإعلام الاجتماعية والتكنولوجيا المتنقلة تمثل طريقا جديدا ومرحبا به للمضى قدما فى الشرق الأوسط. فليس معروفا إلى أين ستؤدى تلك الثورات، ولكن إذا كان الملايين من العرب لديهم شىء يقولونه حول هذا الموضوع، فإننا على يقين من قدرتنا على سماعهم أونلاين. ■

دولة الثقب الأسود

عبد الوهاب الأفندى



هذه رؤية للدكتور الأفندى الأستاذ فى جامعة وستمنستر، كان قد كتبها كورقة خلفية (لم تنشر) لتقرير التنمية الإنسانية العربية الصادر عام ٢٠٠٤ عن برنامج الأمم المتحدة الإنمائى، ولأهمية ماورد بها، ولأنها بدت وكأنها تستشرف ماجرى فى منطقتنا العربية التى باتت تجتاحها «رياح شمسية» فقد اخترنا فى «وجهات نظر» أن ننشرها.

المحرر



■■ كادت مواصفات «الحكم الصالح» التى انعقد حولها قدر من الإجماع الدولى (انظر تقرير التنمية الإنسانية فى البلدان العربية، ٢٠٠٢) تكون فى مجملها مطالب وواجبات منوطة بالجهاز التنفيذى فى الحكم. وإذا كانت الديمقراطيات الحديثة قد طورت آليات ومؤسسات رقابة حكومية ومدنية للجم النزعة الاستبدادية المتأصلة فى كل جهاز حكم، فإن أداء هذه المؤسسات يتطلب تعاون الجهاز التنفيذى واحترامه لقواعد التعامل المتفق عليها. وبدون هذا التعاون فإن مطالب مثل احترام حكم القانون أو الشفافية وقبول المساءلة الشعبية، وتأمين التوافق الاستراتيجى حول الأهداف والمصالح، وبالطبع الكفاءة والفعالية، لن تتحقق. ولعله من المؤسف أن نشير هنا إلى أنه فيما يتعلق بالعالم العربى، فإن الاجتهاد، لا التقصير، من قبل الجهاز التنفيذى هو المسؤول عن قدر كبير من القصور عن بلوغ مقاصد الحكم الصالح، التى يمكن بدورها اعتبارها متطلبات الحد الأدنى للحكم المقبول.

ملامح عامة لـ «دولة الثقب الأسود»

يبدو من الصعب لأول وهلة الحديث عن ملامح مشتركة لنظم الحكم فى العالم العربى، وذلك بسبب التنوع الكبير فى الأنظمة القائمة التى تتراوح بين الملكية المطلقة والجمهورية الثورية، ولا ننسى الراديكالية الإسلامية. ولكن مزيدا من التأمل يكشف عن تقارب مثير للاهتمام فى بنية وأساليب نظم الحكم العربية، إضافة إلى بروز ملامح بنية إقليمية متشابكة تشمل «تكاملاً» عربياً تعضد فيه الأنظمة بعضها بعضاً، مما يجعل من الممكن الحديث عن «نموذج عربى» للحكم له ملامح محددة تشترك فيها معظم الأنظمة، ويستند بدوره إلى نظام إقليمى عربى يشكل بنيته السياسية التحتية.

يمكن أن نستبين الملامح العامة لهذا النموذج العربى الذى أطلق عليه البعض تسمية «الدولة التسلطية» (النقيب، ١٩٩٦) وتم توصيفه بإسهاب فى دراسات عدة (سلامة، ١٩٩٥، سلامة وآخرون، ١٩٨٩. ٢٨-٤٠. ٨٩؛ هوبكنز وإبراهيم، بالانجليزية، ١٩٩٧، ٢٤) من تعليق حديث لصحافى وناشط عربى وصف فيه الحكم فى بلده بأنه نظام تفتقد فيه الانتخابات النيابية الحرية والشفافية وتنتج مجلساً نيابياً من «لون واحد» كما تضيق فيه حرية الصحافة ومساحة العمل السياسى والحقوقى، ويستخدم فيه القضاء للتنكيل بالخصوم، ويكرس فيه الدستور وجود حكم «غير مقيد بزمن ولا خاضع لرقابة برلمان او سلطة قضاء.» وفيه يصبح حتى الحزب الحاكم مجرد جهاز إدارى يقوم عليه «موظفون بلا مشروع ولا صدقية». (خشانة، ٢٠٠٣)

هذا النموذج يمكن أن نطلق عليه نموذج «دولة الثقب الأسود»، فى إشارة للظاهرة الفلكية المعروفة لنجوم منطفئة تتكور على نفسها وتتحول إلى حقل جاذبية جبار لا يستطيع حتى الضوء أن يفلت من إساره. فالدولة العربية الحديثة تقترب من هذا النموذج، حيث يشكل الجهاز التنفيذى «ثقباً أسود» يحول المجال الاجتماعى المحيط به إلى ساحة لا يتحرك فيها شىء ولا يفلت من إسارها شىء. وعلى غرار الثقب الفلكى الأسود، فإن هذا الجهاز بدوره يتكور على نفسه ويضيق حتى يصبح فى حجم رأس الإبرة، ويتداعى بالتالى الفضاء المحدود المتاح للحركة حوله حتى يتلاشى تماما. ويكتسب هذا النموذج أهميته من كونه يجسد طموحات الأنظمة العربية الأخرى مثل الأردن التى تردد أن النية تتجه فيها نحو إعادة صياغة دور رئيس الوزراء «وتقليص بعض صلاحياته واعتماد آلية قريبة من نموذج (الوزير الأول) فى المغرب وتونس حيث يكون دور رئيس الحكومة تنسيقيا وإداريا بين جميع الوزراء ولايتمتع بالدور الوطنى الكلاسيكى فى الملفات العامة». (البدارين، ٢٠٠٣) هذا التفكير يلقى الضوء بوضوح على طبيعة نظم الحكم العربية، وخاصة ضعف المؤسسية وعدم وضوح العلاقات حتى داخل الجهاز التنفيذى الذى يهيمن مركزياً على الحياة السياسية وكل أوجه الحياة الأخرى، ويهمش دور المؤسسات الأخرى مثل البرلمان، والاتجاه نحو تضييق الدائرة وتركيز القرار أكثر فى الطبقات العليا لهذا الجهاز، الذى أصبح بدوره لا يجسد حتى الحد الأدنى من مواصفات الجهاز البيروقراطى الحديث (تحديد الأدوار، وتوزيع الصلاحيات وتفويض السلطات).

هذه المركزية المتزايدة فى الجهاز التنفيذى نجدها مضمنة فى النصوص الدستورية للدول المعنية، التى تكرس حق الملك أو الرئيس أو الأمير(أو مجلس قيادة الثورة) فى التشريع، وتمنح رأس الدولة صلاحيات واسعة، باعتباره الرئيس الأعلى للجهاز التنفيذى ولمجلس الوزراء، وللقوات المسلحة والقضاء والخدمة العامة. وهو الذى يعين الوزراء والقضاة وكبار المسؤولين والضباط ويملك صلاحية عزلهم، وهو الذى يدعو البرلمان (إن وجد) للانعقاد ويملك صلاحية حله. وتكرس القوانين كذلك الهيمنة المركزية على السلطات المحلية، حيث يقوم الحاكم بتعيين المحافظين والولاة ويكون هؤلاء مسؤولين أمامه وليس أمام المواطنين (أيوبى، بالانجليزية، ١٩٩٥، ٣٢٢-٣٢٣). وحتى فى البلاد التى سعت لتطبيق نظام فدرالى مثل السودان، نجد أن النزعة المركزية ما تزال قائمة، حيث يصر الرئيس على تعيين الولاة بدل انتخابهم. وقد أدت إجازة البرلمان السودانى لتشريع يسمح بانتخاب الولاة فى عام ١٩٩٩ إلى قرار رئاسى بحل البرلمان وإعلان حالة الطوارئ التى ما تزال سارية حتى اليوم. وتتعقد الأوضاع أكثر

فى وجود أقليات عرقية ودينية تعانى من المركزية السياسية والإدارية التى تعوق تعبيرها عن ذاتها فى إطار الجماعة السياسية.

وتظهر مركزية الجهاز التنفيذى كذلك فى توسع الجهاز البيروقراطى، وزيادة تدخل الدولة فى الاقتصاد، وتعاظم نصيب الإنفاق الحكومى من الناتج القومى، وخاصة الإنفاق على الأجهزة الأمنية والعسكرية. ومن اللافت أن هذا الاتجاه يسود فى الدول الراديكالية التى انتهجت سياسة الاقتصاد الموجه وتلك المحافظة التى أعلنت منذ البداية تمسكها باقتصاد السوق فى آن واحد (النقيب، ١٩٩٦، ١٨١-٢٠٧؛ أيوبى، بالإنجليزية، ١٩٩٥، فصل ٩).

ولكن كثيراً من الحكومات لا تكتفى بهذه الصلاحيات الدستورية والإدارية الواسعة، حيث تستعين بقوانين الطوارئ التى ظلت سارية فى بعض الدول لأكثر من أربعين عاما، بينما نجد بعض الدول التى ظلت تحكم من دون دستور منذ نشأتها، عندما قررت سن قوانين أساسية فإنها لم تكرس فقط السلطات المطلقة التى كان الحاكم يتمتع بها فى غياب حكم القانون، بل أضافت له سلطات لم تكن له فى العرف السائد من قبل، مثل سلطة اختيار ولى العهد وخلعه، وهى صلاحيات لم يكن الحاكم يتمتع بها منفرداً من قبل.

إضافة إلى الصلاحيات المطلقة المركزة فى يد الجهاز التنفيذى (وعملياً فى يد الرئيس أو الملك)، والتى لا تحكمها أى ضوابط قانونية معقولة، فإن هناك آليات «فوق قانونية» تتيح للحاكم تركيز السلطات فى يده. على سبيل المثال، فإن ما يسمى بالأحزاب الحاكمة (إن وجدت) ما هى فى الواقع إلا مؤسسات تابعة للجهاز التنفيذى، حيث يتم تعيين المسؤولين الحزبيين (أو المرشحين فى حال الانتخابات) من قبل الرئيس الذى يعتبر فى نفس الوقت رئيس الحزب. (إبراهيم، ١٩٩٦، ١٩٤-١٩٥) وهذا يعنى عملياً أن البرلمان يصبح جهازاً بيروقراطياً يعينه الجهاز التنفيذى. إضافة إلى ذلك فإن الجهاز التنفيذى يستخدم القضاء العادى والاستثنائى لإقصاء وتحجيم الخصوم والمنافسين وحتى بعض الأتباع المتمردين. (انظر الفصل الخاص باستقلال القضاء فى هذا التقرير). ويقترن هذا بما يسمى «الفساد المسكوت عنه» (أيوبى، بالانجليزية، ٣٢١) حيث يسمح للأنصار المقربين باستغلال مناصبهم للإثراء غير المشروع، فى حين يظل «تطبيق القانون» عليهم سلاحاً مشهراً لضمان استمرار ولائهم الكامل.

وتعتبر الآلية الأهم فى تعزيز سلطة الجهاز التنفيذى هى أجهزة المخابرات، حيث توجد فى كل بلد عربى أجهزة مخابرات متعددة، تختلف عن مثيلاتها فى الدول الديمقراطية فى أنها تتمتع بصلاحيات تنفيذية إضافة إلى صلاحياتها فى جمع المعلومات الاستخبارية، كما أنها ليست مسؤولة أمام الأجهزة التشريعية أو الرأى العام. وتعتبر المخابرات هى لب الجهاز الحاكم فى كل الدول العربية تقريباً، وتخضع مباشرة لهيمنة الرئيس أو الملك، وتملك صلاحيات تفوق صلاحيات أى جهاز آخر. ويمتلك الجهاز الأمنى موارد هائلة، ويتدخل فى كافة صلاحيات الجهاز التنفيذى، خاصة فيما يتعلق بقرارات التوظيف والقرارات ذات الطابع السياسى، بحيث أصبح من الشائع إطلاق صفة «دولة المخابرات» على الدولة العربية المعاصرة (قارن أيوبى، ١٩٩٥، ٤٤٩؛ النقيب، ١٩٩٦، ١٨٥)

وتتفاوت الدول العربية فى تجسيدها لهذه الملامح العامة، وخاصة فى هامش الحريات الذى تسمح به دون أن تعتبره تهديداً. ولعل من اللافت هنا أن نجد أن هامش الحرية الأكبر يوجد فى بعض الأنظمة الملكية كما فى الأردن والمغرب، حيث توجد حرية تشكيل الأحزاب والمشاركة السياسية والتعبير بصورة أوسع مما هو متاح فى بقية الدول العربية. بينما تتيح كل من الكويت وقطر والبحرين حريات لا تصل إلى حرية تشكيل الأحزاب، وتقصر فى حال البحرين عن مطالب المعارضة. وهناك ثلاث جمهوريات عربية لها وضع خاص، هى السودان ولبنان واليمن، تجد الدولة المركزية فيها صعوبة فى فرض المركزية الأحادية بسبب التعددية الدينية والعرقية، وقوة العصبيات المعبرة عنها، مما نتج عنه هامش من الحرية منتزع انتزاعا من سطوة الدولة. وتعطى الحالة السودانية لمحة مفيدة حول تشكل دولة الثقب الأسود، لأن الحكم العسكرى الذى استولى على السلطة هناك فى عام ١٩٨٩ نفذ مشروع هذه الدولة فى سرعة قياسية وأمام أنظار العالم، وفى وجه مقاومة من مجتمع مدنى تمتع بحيوية استثنائية، حيث قام بتفكيك وتحجيم مؤسسات المجتمع المدنى والمنظمات السياسية، وركز السلطات فى يد الرئيس، وكرس هيمنة الأجهزة الأمنية. (الأفندى، ١٩٩٥) وانتهى الأمر بتهميش الحزب الحاكم والإطاحة بزعيمه كما هو معروف. ولكن الضغوط السياسية الداخلية (المدعومة دولياً) التى بلغت مرحلة العنف المسلح من قبل المعارضة، أجبرت الحكومة هناك على التراجع وإتاحة مساحة من الحريات.

هناك أيضاً دول مثل مصر والجزائر وتونس وموريتانيا والبحرين ابتدرت تجارب إصلاح سياسى ولكن المسيرة الإصلاحية فيها تعثرت ووصلت إلى طريق مسدود، أو شهدت تراجعاً كبيراً. ولكن الصورة العامة فى المحيط العربى تشير إلى تشابه فى بنية النظم يقوم على اعتماد أقصى قدر من تركيز السلطات فى قمة الجهاز التنفيذى، بحيث يعتبر منح هامش معين من الحريات جزءاً من استراتيجية تركيز السلطة لا خصماً عليها.





العسكر آخر من يعلم

هذه الظاهرة العربية المحيرة التى تمثل سباحة ضد التيار فى عصر التمايز بين المؤسسات والتخصص الذى يميز أطوار الحداثة، وتتناقض مع أبجديات الحكم الصالح ومطالب إطلاق طاقات المجتمعات العربية وتحقيق نهضتها، ظلت محور تفسيرات متعددة ومتضاربة أحيانا. ففى حقبة شهدت انتشار الديمقراطية وانهيار أنظمة الاستبداد حول العالم، إضافة إلى تعميق الديمقراطية فى الدول الصناعية وتقليص دور الدولة، نشاهد فى العالم العربى تحركًا مزدوجًا باتجاه توسيع دور الدولة من جهة، وباتجاه ما يمكن تسميته «تخصيص الدولة» من جهة أخرى. (هوبكنز وإبراهيم، ١٩٩٧ ، ٢٤) ويفسر بعض المحللين هذه الظاهرة بالرجوع إلى مكونات الثقافة العربية الإسلامية المتمثلة فى «العقلية الإسلامية» ونظرة المسلمين التقليدية إلى السلطة (كيدورى، بالانجليزية، ١٩٩٤) أو غياب مفهوم المجتمع المدنى فى الفكر الإسلامى ومناقضته لهيكلية المجتمعات المسلمة (جلنر، بالانجليزية، ١٩٩٤)، أو هيمنة العقلية «الأبوية» فى المجتمعات العربية المعاصرة (شرابى، ١٩٩٢). بينما يرى آخرون أن الطبيعة الريعية (اعتمادها على دخل ريعى يصل إلى الدولة مباشرة من الخارج عبر بيع النفط او المعونات الأجنبية أو منشآت القطاع العام مثل قناة السويس) يعطى الدولة نوعًا من الحصانة ضد الضغوط الشعبية التى تعتمد عليها الدول التى يأتى دخلها من جباية الضرائب. (لوتشيانى، ١٩٩٥)

ولا شك أن حجة الخصوصية الثقافية ضعيفة رغم الاستخدام الأيديولوجى المتزايد لها، من المنظور الاستشراقى من جهة، أو من قبل الأطراف العربية المتنافسة من جهة أخرى (محاولة إعادة التأكيد على تاريخ مصر الفرعونى فى عهد السادات وما بعده، والحديث عن الخصوصية الإسلامية فى بلدان أخرى)، وذلك لسبب بسيط وهو أن أدوات تركيز السلطة المستخدمة هى أدوات حديثة، وتعتمد فى فعاليتها على تحدى القيم والبنى الاجتماعية التقليدية وتفكيكها. وقد تبدو الحجة الريعية أفضل حالاً، بيد أن معظم الدول العربية لا تدخل فى تصنيف الدول الريعية.

البعض يفسر هذا الوضع بعوامل هيكلية، مثل ضعف المؤسسية وهشاشتها فى المجتمع، وخاصة ضعف الطبقة الوسطى ومؤسسات المجتمع المدنى، مما سمح للمؤسسة العسكرية بأن تهيمن على الأوضاع، وهى هيمنة لا تتأتى إلا بمساهمة فاعلة من النخبة المثقفة والطبقة الوسطى (واتربورى، ١٩٩٥ ، ٨٢-٨٥؛ إبراهيم، ١٩٩٦ ، ١٩٢-١٩٦). ويشير المحللون إلى استناد الجمهوريات على «تحالف شعبوى» بين قطاع من الطبقة الوسطى وفقراء المدن، فى مقابل استناد الأنظمة التقليدية إلى تحالفات قبلية - دينية - مالية (أيوبى، بالانجليزية، ١٩٩٥ ، ٢٠٩-٢٢١ ، ٢٤٤-٢٥٣). وهناك من يوسع هذه التحالفات لتشمل «تضامنيات» متداخلة تشمل جهاز الدولة المركزى، وقطاع الأعمال والمؤسسات الدينية والعسكرية، إضافة إلى النقابات والجمعيات المهنية (النقيب، ١٩٩٦ ، ١٨٣-١٨٦). ولا ننسى «الاختراق الامبريالى» والتدخل الأجنبى كعامل حاسم (النقيب، ١٩٩٦ ، ١٦٧-١٧٦).

ورغم أن هناك دلائل لا تنكر على قيام مثل هذه التحالفات ودورها فى دعم انماط الحكم القائمة، إلا أن الأرجح هو أن الدولة المركزية تلعب دوراً أكبر فى دعم هذه الكيانات من العكس (إبراهيم، ١٩٩٦ ، ٢٩٤-٢٩٦). إضافة إلى ذلك فإن قيام انقلاب عسكرى لا يعنى بالضرورة هيمنة الجيش على السلطة، إلا فى الحالات النادرة التى تقوم فيها قيادة الجيش نفسها بالاستيلاء على السلطة، كما فى حالة انقلاب الفريق إبراهيم عبود فى السودان عام ١٩٥٨ (وإلى درجة أقل الجزائر عام ١٩٩٢)، إذ إن أول نتائج الانقلاب تكون تقويض تماسك الجيش، وفرض الهيمنة عليه من خارجه. وإذا كان بلقزيز (٢٠٠٢) قد سعى للتفريق بين ما سماه «جيش السلطة» (حيث يكون الجيش أداة فى يد الحكم) و«سلطة الجيش» (حيث يتولى الجيش الحكم) و«الجيش الأهلى» (حيث يتحول الجيش إلى واحدة من ميليشيات متنافسة) فإن الغالب كما أسلفنا هو أن الجيش لا يتحرك للاستيلاء على السلطة إلا بعد أن يكون تحول إلى «ميليشيا» تخضع لمجموعة سياسية متماسكة تنفرد بالأمر فيه دون بقية قادة الجيش، بمن فيهم أصحاب الرتب الأعلى. ونفس الشىء يمكن أن يقال عن الأحزاب التى تستولى على السلطة انقلابياً باستخدام الجيش أو غيره، كما هو معروف عن تاريخ الحزب الشيوعى فى روسيا، والأحزاب القومية واليسارية فى العالم العربى وغيره، حيث شهدت هذه الأحزاب تصفيات واسعة فى صفوفها كرست فى النهاية هيمنة القائد الأوحد المستند إلى سطوة الأجهزة السرية وعلى رأسها المخابرات.

ولعل أهم مميزات «دولة الثقب الأسود» هو سعيها الدءوب إلى تقويض الهياكل والمؤسسات، بما فيها، وربما على رأسها، تلك الهياكل التى كانت سلم القيادة للوصول إلى السلطة، سواء أكانت هذه الجيش، أو الحزب أو الطائفة أو القبيلة أو الأسرة، لأن الحكم الاستبدادى بطبيعته لا يقبل المشاركة (ويسعى لـ«الانفراد بالمجد» حسب تعبير ابن خلدون)، فقد شهدت معظم الدول العربية صراعات تقع أحياناً داخل الأسرة الواحدة، وتنتهى بفرض هيمنة شخص واحد على جهاز السلطة.

أزمـة الـشــرعـيــة

يمكن إذن أن نخلص إلى أن أهم خاصية لـ«دولة الثقب الأسود» هى اعتمادها على «التهميش الاستراتيجى» لكل المؤسسات والقوى الاجتماعية، بما فى ذلك مؤسسات الدولة، والتسييس الكامل للفضاء الاجتماعى، مقابل تخصيص الدولة. بمعنى آخر فى حين تحجب كل القوى الاجتماعية من أى تأثير فاعل على الدولة، فإن الدولة تتدخل فى كل شىء ولا تسمح بأى تحرك اجتماعى مستقل يهدد احتكارها للسلطة. ولأن الحكم يهيمن مباشرة على مفاصل الاقتصاد، ويستخدم الإرهاب ضد كل من تسول له نفسه استخدام إمكانياته الاقتصادية ضد الحكم، فإن الحاكم لا يضطر إلى الدخول فى مساومات مع البرجوازية أو غيرها لضمان استمرارية الحكم، خاصة أن البرجوازية تعتمد فى الغالب اعتماداً كاملاً على الدولة (هوبكنز وإبراهيم، ١٩٩٧ ، ٣٨٢-٣٨٤). وفيما يتعلق بالنخبة فإن الدولة تستخدم سلاح التخيير بين القصر أو القبر (أو السجن والمنفى)، أى إما أن تكون مواليًا فيغدق عليك، أو مخالفًا فتقمع، مما يجعل تصرف الغالبية مفهومًا أمام هذا الوضع.

وهناك عامل آخر لم تتم دراسته بعمق كاف بعد، لعب دوراً محورياً فى تهميش دور النخبة الإصلاحى، ألا وهو عامل الهجرة، خاصة الهجرة بين الدول العربية. فقد لعبت الهجرة دوراً مزدوجاً فى تهميش النخبة، أولاً بإيجاد بدائل شخصية عن الإصلاح، حيث من الأسهل للمهنى أو الأكاديمى الهجرة إلى الغرب أو لدول النفط ليعيش حياة مرفهة ومليئة بالإشباع المهنى، بعيداً عن الفقر والفساد الضارب بأطنابه فى وطنه. وبنفس القدر فإن وجود طبقة من «البروليتاريا المهنية» فى دول النفط نجحت فى تحييد النخبة هناك مرتين، مرة لأن الدولة هناك بإمكانها الاستغناء تماماً عن المساهمة الاقتصادية للمواطنين، وثانياً لأن الحياة المرفهة التى أتاحها وجود هذه «البروليتاريا» ألهت النخبة فى الدول الغنية عن مطالب الإصلاح، خاصة أن حياة الرفاه التى تعيشها النخبة تتيح للكثيرين الهرب من قيود الإقصاء السياسى والتضييق الاجتماعى بـ«هجرات» أخرى، إما مؤقتة إلى دول الغرب حيث الحريات الاجتماعية متاحة، أو دائمة إلى داخل القصور والمساحات الخاصة التى نحتتها النخبة لنفسها. وعليه فيمكن أن يقال بأن وجود «البروليتاريا المهنية» الممثلة فى العمالة الأجنبية قد لعبت دوراً مزدوجاً فى منح الاستقرار للنظام العربى يشبه الدور الذى نسبه والرشتاين لدول «شبه الهامش» فى دعم استقرار النظام الرأسمالى العالمى (انظر والرشتاين، ١٩٩١).

«دولة الثقب الأسود» تتميز بطبيعتها

إن الخصوصية الثقافية ضعيفة رغم الاستخدام الأيديولوجى المتزايد، من المنظور الاستشراقى، أو من الأطراف العربية المتنافسة

أهم مميزات «دولة الثقب الأسود» سعيها إلى تقويض الهياكل والمؤسسات، بما فيها، تلك الهياكل للوصول إلى السلطة



بعزلة وغربة عن المجتمع، وبالتالى تفتقد أى شرعية تمثيلية، وهذا بدوره يدفعها إلى تكريس غربتها وعزلتها، فى حلقة خبيثة من تآكل الشرعية الذى يستدعى بدوره مزيداً من التمترس وراء أدوات القمع. وقد طورت هذه الدولة صيغة مبسطة وفعالة لتبرير شرعية وجودها، وهى كونها أهون الشرين، كونها خط الدفاع الأخير ضد الاستبداد الأصولى أو ما هو أسوأ، أى الفوضى وانهيار الدولة، وهو ما يسميه إبراهيم ورفاقه «شرعية الابتزاز» (١٩٩٦، ٣٢٤-٣٢٥). ويعتبر هذا إلى حد ما اعترافاً ضمنياً بإفلاس دعاوى الشرعية الإيجابية التى ما تزال الدعاية الرسمية تتمسك بها بيأس متزايد. وقد ابتعدت كل الدول تقريباً، عن النهج الشعبوى الذى ميز الأنظمة الثورية فى الماضى، واعتاضت عنه بالترويج لشخص الحاكم الذى يفتقر إلى الجاذبية الشخصية (الكاريزما، الإلهام) بخلاف بعض قيادات الحقبة الثورية-الشعبوية، التى ولدت بدورها كردة فعل على فشل الأنظمة التقليدية شبه الليبرالية (الأصح أن يقال أنها كانت استبدادية أبوية). وإذا كانت الانتكاسات المتلاحقة التى تعرضت لها برامج الأنظمة الثورية (الهزائم أمام إسرائيل وفشل مشاريع التنمية والتحديث، وسقوط دعاوى مكافحة الفساد والتبعية) قد أفادت الأنظمة التقليدية مؤقتاً وعززت شرعيتها المرتكزة على الدين والتقاليد الإسلامية، فإن هذه الأنظمة التى كسبت وتعزز نفوذها الإقليمى بتأثير الطفرة النفطية وما تبعها من إنجازات اقتصادية، تجد نفسها اليوم تواجه تحديات من ممثلين جدد للتيار الإسلامى ومن طموحات مستجدة للأجيال الصاعدة التى لم تعد مقتنعة بالإنجازات التنموية لتلك الأنظمة (قارن إبراهيم، ١٩٩٦، ٣٢٢-٣٣٠، لوتشيانى، ١٩٩٥).

ولهذا تبتعد كل الأنظمة إلى حد ما عن إطلاق الشعارات الرنانة والدعاوى العريضة، إلا حين تدخل فى مأزق، شأن النظام العراقى منذ الحرب مع إيران. وفى خطابها للجماهير تركز على شرعية الإنجاز فى مجالات محددة، مثل الاقتصاد أو السلام، أو شرعية الرخاء والاستقرار والمحافظة على القيم والتقاليد. وأحياناً يكون مجرد الحفاظ على كيان الدولة فى مواجهة تهديدات خارجية إنجازاً يكرس الشرعية (الأردن).

وإذا كان البعض ما يزال يتمسك بمفهوم «دولة الرسالة المقدسة» كملجأ أخير لتبرير شرعية تقوم على الوصاية على الشعب لا تمثيله (واتربورى، ١٩٩٥، ٨١)، فإننا نلاحظ أن مثل هذه الحكومات تتواضع كثيراً بحيث إن الحجة تكون هى حجة الابتزاز فى قالب «مثالى»، كأن يقال إن التحديث مطلوب للتصدى للأصولية أو الإرهاب، أو أن تقوية الدولة رد على «نهج الاستسلام». ويمكن وصف النهج السائد بأنه براجماتى، يتميز بمرونة فى الاتكاء على أسس الشرعية التى تناسب اللحظة، حيث تحولت نظم كثيرة من الاشتراكية إلى تبنى اقتصاد السوق، أو من العلمانية إلى الخطاب الإسلامى، وبالعكس، كلما بدا أن ذلك أقرب للمحافظة على بقاء النظام. وبالمقابل نجد أنظمة مثل الملكيات فى الأردن والمغرب يفترض أن تستند شرعيتها على التقليد حسب التصنيف الفيبرى، ولكنها فى الواقع مزجت بين استثمار نفوذها التقليدى (فى تحالف مع القوى الريفية والتقليدية فى المجتمع) من جهة، وبين طرح برنامج تحديثى يكاد يكون راديكاليًا، فى تحالف وثيق مع النخبة الحديثة والبرجوازية المحلية ومع المعسكر الغربى من جهة أخرى.

ومع تآكل شرعية الابتزاز بسبب الإدراك المتزايد بأن عدم وجود البديل الصالح هو فى حد ذاته ثمرة من ثمرات سياسات الأنظمة التى أغلقت منافذ العمل السياسى والمدنى بما يمنع تبلور البدائل، فإن استمرارية دولة الثقب الأسود اعتمدت أساساً على أجهزة القمع والتحكم والدعاية، إضافة إلى اتباع سياسة «فرق تسد»، عبر إذكاء عوامل الفرقة طائفياً وعرقياً ودينياً، وإحياء الروابط العشائرية التى اندثرت فى المدن وخارجها، وإعطاء هياكلها صبغة رسمية بهدف محاصرة وتهميش النخب الحديثة.

المحيط الدولى والإقليمى

أخيراً فإن الأنظمة ناورت كذلك لاستثمار العوامل الخارجية لصالحها، وهى عوامل يراها بعض المعلقين ذات أهمية قصوى فى نشأة الدولة أولاً، وفى أزمتها المستعصية ثانياً (سلامة وآخرون، ١٩٨٩، ١٦-١٨، النقيب، ١٩٩٦، ١٦٧). ويأتى الدعم الخارجى فى المقام الأول من «الريع» الذى تستدره الدولة من بيع المواد الأولية أو «الخدمات السياسية» (قواعد عسكرية أو متاجرة بدور إقليمى أو حتى بالابتزاز الصريح). هناك كذلك التوجه التضامنى الذى أخذ يبرز بين الأنظمة العربية فى السنوات الأخيرة، بعد التقارب اللافت بين الأنظمة فى سياساتها، وتبلور شكل «دولة المخابرات» وتشابه أساليبها، مع استمرار شخصيات بعينها على رأس الحكم لعقود متطاولة مما مهد لقيام علاقات شخصية بين الزعماء وأسرهم، ومهنية بين أجهزة مخابراتهم، إضافة إلى تشابك فى المصالح. ولعله أصبح من الصعب ألا يلاحظ المراقب تماهى الجمهوريات الراديكالية سابقاً مع الملكيات التقليدية من ناحية «تخصيص الدولة» واعتماد مبدأ وراثة الحكم، وقيام «عائلة حاكمة» ترتبط بعلاقات ود مع الملكيات، وتلعب دوراً محورياً فى شبكة العلاقات المالية التى أصبحت تتحكم فى الاقتصاد. وهذا بدوره خلق ما يمكن تسميته بـ «نقابة الحكام»، وهى صلة تضامنية لها هياكل رسمية (مجلس وزراء الداخلية العرب) وأخرى غير رسمية تقوم على رعاية المصالح المشتركة للأنظمة. ويعتبر هذا تحولاً مهماً، حيث إن المحيط العربى كان فى الماضى عامل عدم استقرار بسبب تنافس الأنظمة والمزايدات بينها على القضايا المصيرية (هدسون، بالإنجليزية، ١٩٧٧، ٥٤-٥٥؛ إبراهيم، ١٩٩٦، ٣٢٨-٣٢٩). ولعل مما يساعد فى تعزيز هذا التوجه هو المناخ الدولى الذى أصبحت فيه دول كبرى مثل الولايات المتحدة وبريطانيا تنتهج الممارسات التى كانت تنتقد الأنظمة العربية بسببها، مثل الاعتقال بدون محاكمة والإعدام خارج نطاق القانون وحتى الخطف والإخفاء. ولعل أمراً بالغ الدلالة أن أكبر انتقاد توجهه الولايات المتحدة للسعودية هذه الأيام لا يتعلق بانتهاكات حقوق الإنسان، بل بالعكس، بالتقصير المفترض فى القمع وانتهاك حقوق الإنسان لأنها لم تجار الإدارة الأمريكية فى أخذ الناس بالشبهات وتعويق العمل الخيرى بغير بينة.

ولكن قد يكون من السهل المبالغة فى تقدير الدور الخارجى، لأن هناك نماذج تشير إلى ضعف العامل الخارجى، كما فى حالات ليبيا والعراق، وهما بلدان تعرضا لضغوط خارجية غير مسبوقة على الأنظمة بغرض تغييرها، دون أن تحقق هذه الضغوط هدفها. ولعل البعض يرى فى هذين النظامين الاستثناء الذى يثبت القاعدة، لأنهما من أنظمة الريع التى تعتمد على الدخل النفطى، إضافة إلى أن الضغوط الأجنبية على البلدين لم تكن تهدف لتحقيق الديمقراطية بل لإسقاطهما، دون أن يكون هناك مانع باستبدالهما بأنظمة غير ديمقراطية، بدليل أن الضغوط رفعت الآن عن ليبيا حين استجابت لمطالب محددة ليس من بينها التحول الديمقراطى أو احترام حقوق الإنسان ولكن بالمقابل يمكن أن نضيف حالة السودان، وهو بلد فقير واجهت الدولة فيه، وهى ضعيفة مثقلة بحرب أهلية وتدهور اقتصادى، ضغوطاً دولية وإقليمية غير مسبوقة ليقوم بإصلاحات ديمقراطية، ولكن دون نجاح. (يلاحظ أن السودان أصبح بدوره دولة ريعية بعد بدء تصدير النفط فى عام ١٩٩٩).

عليه يمكن أن يقال إن «دولة الثقب الأسود» لها إمكانية لمقاومة الضغوط الخارجية مثلما لها القدرة على الاستقلال التام عن المجتمع وتركيز السلطة فى يد القلة المهيمنة (أو بالأحرى الفرد المهيمن)، خاصة حينما تعضدها أيديولوجية مستميتة كما هى حال البلدان الثلاثة المذكورة. ويعتبر الدعم الريعى عاملاً مساعداً يعضد صمود هذه الأنظمة ضد الضغوط الخارجية والداخلية، ولكنه ليس ضرورياً. ولعل ذلك يعود إلى طبيعة الضغوط الخارجية، خاصة الحصار والعقوبات، التى تعزز فى الواقع مركزية الدولة وقبضتها، لأن عبء هذه

> «دولة الثقب الأسود» تتميز بعزلة وغربة عن المجتمع، وتفتقد أى شرعية تمثيلية، وهذا يدفعها إلى تكريس غربتها وعزلتها

> إن الأنظمة ناورت لاستثمار العوامل الخارجية لصالحها، وهى عوامل يراها بعض المعلقين ذات أهمية قصوى فى نشأة الدولة



العقوبات يقع على المواطن العادى الذى يزداد اعتماده على الدولة بسببها.

ولعل ما نشهده من انفراج فى العلاقات الإقليمية هو نتيجة منطقية لنزعة الدول المستبدة للتصالح مع محيطها الإقليمى للدفاع عن استقرارها الداخلى (وهى حقيقة تناقض أطروحة «السلام الديمقراطى» الشهيرة التى تؤكد أن الدول الديمقراطية لا تحارب بعضها البعض). فقد أدركت الدول العربية أهمية الدعم الإقليمى لضمان استقرارها، وبالمقابل خطورة جلب عداوة دول المنطقة للاستقرار الداخلى. يمكن إذن أن نخلص إلى أن هناك «قواعد لعبة» أخذت تتبلور عربياً، وهى قواعد تكرس الدفاع عن الأوضاع القائمة و«الاستقرار». ويشمل هذا التعاون الأمنى ضد قوى الإصلاح، إضافة إلى بروز ملامح «نظام إعلامى عربى» (على الأقل فى عصر ما قبل قناة الجزيرة) يكرس الحظر الجماعى على نقد الأنظمة (الأفندى، بالانجليزية، ١٩٩٣). ولهذا الوضع التضامنى سوابق دولية مثل صلح وستفاليا (١٦٥٤) ومؤتمر فيينا (١٨١٥) التى كرست الأوضاع الأوروبية القائمة وقننت الدفاع عن أنظمتها ضد الثورات والحروب والتهديدات الأخرى.

إضافة إلى ذلك فإن دولة الثقب الأسود العربية قد سخرت التحولات العالمية والمحلية لصالحها، ليس فقط عبر ركوب موجة «محاربة الإرهاب» وتقديم «الخدمات السياسية» للمعسكر المنتصر، بل أيضاً عبر استغلال الانفتاح الاقتصادى لصالح تعزيز هيمنة الفئة الحاكمة على الدولة. وهكذا نجد أن الانفتاح الاقتصادى أدى إلى سيطرة أقوى للدولة على الاقتصاد، وليس العكس (النقيب، ١٩٩٦، فصل ٥)، حيث جنت العائلات الحاكمة أموالاً طائلة من ريع النفط ومن بيع أراضى الدولة للمستثمرين وتخصيص القطاع العام. وفى نفس الوقت فإن الحكام احتكروا المجالات الاقتصادية المهمة إما مباشرة أو كـ«شركاء» لرجال الأعمال الناجحين، كما يتلقى المسؤولون وأبناؤهم وبطانتهم عمولات طائلة عن العقود التى تبرمها الشركات الأجنبية والمحلية مع الدولة، بما فى ذلك صفقات التسليح. (أيوبى، ١٩٩٥، ٢٢٧-٢٤٣؛ فصل ١٠؛ إبراهيم، ١٩٩٦، ٢٨٣-٢٨٦)

الفكاك من الثقب الأسود

مما سبق يتضح أن التقدم باتجاه الحكم الصالح يستدعى إصلاحاً جذرياً محوره تقليص دور الجهاز التنفيذى المركزى لصالح مؤسسات الدولة الأخرى والمجتمع المدنى وأجهزة الحكم المحلى. ولكن هذا الأمر ليس من السهولة بمكان فى غياب تعاون الجهاز التنفيذى. وإذا كان «الإصلاح» الطوعى من قبل أنظمة أدركت أن الإصلاح لا مناص منه، خاصة فى ظل ضغوط أجنبية أو تصدع فى النخبة الحاكمة يمكن، إذا صدق، أن يكون أقصر الطرق وأقلها كلفة فى نفس الوقت، إلا أن وعود هذا الأسلوب ما تزال مجرد وعود. فالأنظمة تريد على ما يبدو اتباع سياسة «الهروب إلى الأمام» والمناورة عبر إجراءات شكلية لا تمثل إصلاحاً حقيقياً. وهناك أدلة على وصول هذا الأسلوب إلى طريق مسدود فى دول مثل مصر وتونس وموريتانيا، بحيث أصبح الوضع فيها فى بعض جوانبه أسوأ مما كان قبل بداية المشروع «الإصلاحى». وهناك شواهد على اتجاه لتراجع بدرجة أقل فى المغرب والبحرين والأردن واليمن.

هذا الوضع، مع ما فصلناه من تضافر العوامل الداخلية والخارجية لتعزيز الجاذبية الطاغية والمميتة لدولة الثقب الأسود، دفع البعض لتعليق الأمل على التحرك الأجنبى باعتباره أصبح عملياً الحل الوحيد المتاح للتغيير، إما بالإجهاز عسكرياً على النظام كما حدث فى العراق، أو بالتقرب منه وتقديم حلول توفيقية معه كما هو حال السودان. وقد أثار هذا الوضع جدلاً فى أوساط النخبة العربية حول جدوى الدور الخارجى فى التغيير (درغام، ٢٠٠٣، إبراهيم، ٢٠٠٣، الزيات، ٢٠٠٣)

ولكن نموذج التدخل الأجنبى (أو العربى، على غرار الدور السورى-السعودى فى لبنان، أو الإقليمى كما فى السودان) رغم إغراءاته وسهولته، لا يبدو واعداً، رغم نجاحه المحدود فى لبنان والمحتمل فى السودان. ويمكن أن نضيف هنا بالطبع حالة العراق، الذى أوجد فيه الاحتلال مفارقة كونه البلد العربى الوحيد الذى تحقق فيه، ظاهرياً على الأقل، الحلم الديمقراطى بقيام تحالف ضم كل طوائف النخبة من شيعة وسنة، وعرب وأكراد، وإسلاميين وعلمانيين، ويسار ويمين. ولكن كل هذه النماذج إما أنها لم تنجز وعودها بعد، أو أنها لا تعبر عن حقيقة الواقع، بحيث يشك كثيراً فى أن تستقيم أو تبقى بعد زوال الاحتلال أو النفوذ الخارجى. ومهما يكن فإن أهم متطلبات الحكم الصالح هو تحقيق الاستقلال والتخلص من الهيمنة الأجنبية التى يمكن اعتبارها أسوأ أنواع إساءة استخدام السلطة، باعتبارها تفتقد عنصر المساءلة أمام الشعب.

وهذا يقودنا إلى الاحتمال الأخير، وهو تغيير ينبع من الداخل وتتولى أمره القوى الاجتماعية الحية صاحبة المصلحة فيه. وتشير التجارب التاريخية فى أوروبا الشرقية وأمريكا اللاتينية (وبعض تجارب الدول العربية مثل السودان) إلى أهمية التحرك الذى يمكن أن تقوم به منظمات المجتمع المدنى من نقابات وجمعيات طوعية وحركات دينية فى اتجاه كسر احتكار الدولة للنشاط السياسى، ورفع قدرات المجتمع على مقاومة آليات القمع المنظم التى تستخدمها الدولة لشل القوى الاجتماعية. وتحتاج الخطوة التالية، وهى الانتقال إلى العمل السياسى المباشر إلى قيام توافق فى أوساط النخبة، لأن من أهم دعائم استمرار الأوضاع القائمة، ونجاح منطق شرعية الابتزاز هو نجاح الأنظمة فى بث الفرقة فى أوساط النخبة وإيهام قطاعات منها بأن من مصلحتها مقاومة التحول الديمقراطى، وإذكاء النعرات الطائفية والعشائرية وغيرها من عوامل التفرقة كما أسلفنا. ولهذا التوافق أهمية فائقة، أولاً لأنه يمثل لب العملية الديمقراطية التى هى فى الأساس نتاج مساومة بين أطراف فى صراع لم يحسم بعد، ويميزها من الشعبوية (برزورسكى، بالإنجليزية، ١٩٨٨، واتربورى، ١٩٩٥، ٩١-١٠٢). وثانياً لأن قيام الانتفاضات الشعبية المتوقعة ضد هذه الأوضاع ستتحول بالضرورة إلى حروب أهلية فى ظل غياب هذا التوافق كما شهدنا فى الجزائر مثلاً.

سياسات التحكم التى اتبعتها الأنظمة هدفت تحديداً لمنع تبلور «نخبة بديلة» كما أسلفنا، وعرقلة توصل النخب إلى التسويات التاريخية الضرورية لبناء مجتمع ديمقراطى تسود فيه الحرية وتنتعش. ولكن مع ذلك فإن هناك دلائل على أن النخبة وعت الدرس، حيث ظهرت بوادر توافق فاعل فى أوساط النخبة السياسية والمدنية فى تونس والمغرب والسودان، وبدرجة أقل فى مصر والجزائر والبحرين والسعودية. وهذا يذكر بأكثر وسيلة فاعلة لتجاوز نظام الثقب الأسود، وهى وسيلة جربت فى السودان فى انتفاضات ١٩٦٤ و١٩٨٥ الناجحة. ذلك أن أساليب القمع وإرهاب الدولة هى بالنسبة لأنظمة الاستبداد، كما قال واتربورى، «مثل الاحتياطى للبنوك»، تكون فعالة «فقط إذا لم يتدفق المودعون عليها لسحب أموالهم. فما إن يتحدى جل المواطنين النظام حتى يعجز عن ايجاد ما يكفى من الإرهاب والسجون ومن محض القسوة الوحشية لتلاقى متطلبات السيطرة». (واتربورى، ١٩٩٥، ٨٢)

هناك حاجة إذن للبناء على التجارب الناجحة للتوافق التى أشرنا إليها، وتوسيع إطار التعاون وتعميق أسسه حتى تمنح الجماهير بدائل إيجابية بناءة، وحتى نتجنب الانفجارات العنيفة التى مثلتها «انتفاضات الخبز» وأعمال العنف والحروب الأهلية إذا استمر الوضع السائد المتمثل فى استبداد السلطة وتشرذم النخبة.

خاتمة

يمكن أن نخلص مما سبق إلى الطريق إلى الحكم الصالح فى العالم العربى، يجب أن يبدأ بإصلاح جذرى فى الجهاز التنفيذى وإنهاء احتكاره المرضى للسلطة وتهميشه لأجهزة الدولة الأخرى وعرقلته للتطور الحر والصحى لقوى وطاقات المجتمع. وهذه مهمة يضاعف من صعوبتها كون نفس العوامل الهيكلية التى سمحت للدولة بتركيز السلطات فى قمة الجهاز التنفيذى هى التى تعوق العمل الاجتماعى الفاعل باتجاه الإصلاح السياسى. فنحن أمام وضع اختصرت فيه الدولة رسمياً فى الحكومة، والحكومة فى شخص الزعيم الذى يصر على إعطائه حرية كاملة فى التحرك لا يقيدها قانون، ولا يكبحها التفات إلى مطالب ومصالح عامة المواطنين.

من جهة أخرى، فإن هذا الوضع قد يهيئ الظروف الملائمة للإصلاح بصورة غير مباشرة. فالتركيز الشديد للسلطة فى القمة يكرس عزلة السلطة الاستبدادية اجتماعياً ويتحول إلى عامل توحيد للقوى السياسية والاجتماعية. ففى تجارب معظم الدول العربية، لم تستنزف الأنظمة المغلقة شرعيتها فقط، بل خيبت كذلك رهان القوى الحليفة عليها. ولعل من اللافت مثلاً أننا نجد القوى الإسلامية التى راهنت على الأنظمة ذات الشعار الإسلامى فى السودان والسعودية (قارن إيران كذلك) أصبحت الآن فى طليعة القوى المطالبة بالإصلاح، وبالمثل فإن القوى العلمانية والليبرالية التى راهنت على أنظمة «التحديث» فى مصر وتونس والجزائر تحولت إلى طليعة المطالبين بالتغيير. وقد رافق هذا الكثير من التقارب بين القوى السياسية ومرونة

ملحوظة فى مواقفها، بل وحتى مراجعات فكرية وأيديولوجية بغرض إطراح المواقف المتشددة لصالح رؤى تكرس قبول الآخر وتقبل أطروحات وسطية توحد ولا تفرق.

هذا أيضاً ليس ببدع من التطور، لأنه من المعروف أن قيام دولة الملكيات المطلقة فى أوروبا مهد إلى حد كبير لقيام الديمقراطية فى الغرب عبر وضع أسس الدولة الحديثة (هيلد، بالانجليزية، ١٩٩٦، ٧٠-٧٣). ولعل التحرك باتجاه الدولة المطلقة فى العالم العربى تكون له نتيجة مماثلة، خاصة أن هذا التطور كانت له ثمرة غير مباشرة تمثلت فى استقرار أسس الدولة، كما يظهر من ندرة الانقلابات العسكرية والاضطرابات الأخرى فى الدول فى العقدين الماضيين. وهذا بدوره يخلق المناخ الملائم لوسائل التحرك السياسى السلمى والتدريجى الملائم للترتيبات والمساومات الديمقراطية.

ولعل العبء الأكبر فى تحقيق هذا التحول يقع على عاتق النخبة من مثقفين وناشطين سياسيين ومدنيين، والمطلوب منهم أن يشقوا لأنفسهم وللأمة طريقاً وسطاً بين الانصياع الغالب لسطوة أهل السلطة والمال، وبين طريق اليأس والعنف الذى يجنح إليه كثير من الشباب الغاضب الذين سدت فى أوجههم سبل التحرك السليم. وهذا بدوره يتطلب الكثير من الحكمة والكثير من التضامن عبر الحدود، والكثير الكثير من التضحيات. ولهم أسوة حسنة فى مناضلى حقوق الإنسان وناشطى المجتمع المدنى الذين بدأوا فعلاً يشقون هذا الطريق المحفوف بالمخاطر والتضحيات الجسام فى غير ما بلد عربى، حيث ينبغى أن يدعم نشاط هؤلاء ويسلط عليه الضوء إعلامياً، خاصة فى البلدان العربية التى تتمتع بحريات أكثر نسبياً ومن قبل ناشطى المهجر. وقد تدهشنا نتائج هذا النشاط إذا ثابر أصحابه وتضامنوا ولم يكلوا أو يساوموا على الحد الأدنى من الحقوق والحريات لجميع المواطنين. ■

المـــــراجـــــع:

إبراهيم، سعد الدين (محرر- ١٩٩٦) المجتمع والدولة فى الوطن العربى، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية (الطبعة الثانية).

إبراهيم، سعدالدين (٢٠٠٣) «نعم بيد عمرو... إن لم تسارع أيدينا الى التغيير»، الحياة، ١٣ أغسطس ٢٠٠٣.

الأفندى، عبدالوهاب (١٩٩٥) الثورة والإصلاح السياسى فى السودان، لندن: منتدى ابن رشد.

البدارين، بسام (٢٠٠٣) «الاسباب غير المعلنة لاقالة قاسية لحكومة مدللة»، القدس العربى ٢٢/١٠/٢٠٠٣، ص ٨.

بلقزيز، عبدالإله (٢٠٠٢) «السياسة فى ميزان العلاقة بين الجيش والسلطة»، فى ولداده وآخرون (٢٠٠٢)، ١١-٣٤.

درغام، راغدة (٢٠٠٣) «التغييرات تأتى من الخارج إذا لم تنبثق من حيوية دائمة فى الداخل»، الحياة، ١ أغسطس ٢٠٠٣.

خشانة، رشيد (٢٠٠٣) «تونس بعد ١٦ عاماً»، الحياة، ٣ نوفمبر ٢٠٠٣.

الزيات، منتصر (٢٠٠٣) «التغيير بيدنا، ولن نقبله أبداً من الخارج»، الحياة، ٢٨ أغسطس ٢٠٠٣.

سلامة، غسان (محرر-١٩٩٥) ديمقراطية بدون ديمقراطيين بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

سلامة، غسان، وآخرون، (محررون، ١٩٨٩) الأمة والدولة والاندماج فى الوطن العربى، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

لوتشيانى، جياكومو (١٩٩٥) «الريع النفطى والأزمة المالية للدولة والتحرك نحو الديمقراطية»، فى سلامة (١٩٩٥) ص. ١٧٥-٢٠٦.

النقيب، خلدون حسن (١٩٩٦) الدولة التسلطية فى المشرق العربى، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية (طبعة ثانية).

شرابى، هشام (١٩٩٢) المجتمع الأبوى وإشكالية تخلف المجتمع العربى، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

ولداده، أحمد، وآخرون (٢٠٠٢) الجيش والسياسة والسلطة فى الوطن العربى، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

Ayubi, Nazih N. (1995) Overstating the Arab State: Politics and Society in the Middle East, London: I.B. Tauris.

El-Affendi, Abdelwahab (1993) “The Eclipse of Reason: The Media in the Muslim World,” Journal of International Affairs, vol. 46, no. 2 (Winter 1993).

Gellner, Ernest (1994) Conditions of Liberty, Civil Society and its Rivals (London: Hamish Hamilton).

Held, David (1996) Models of Democracy, Cambridge: Polity Press.

Hopkins, Nicholas S. and Sadd Eddin Ibrahim, eds. (1997) Arab Society: Class, Gender, Power & Development, Cairo: American University in Cairo Press.

Hudson, Michael (1977) Arab Politics: The Search for Legitimacy, New Haven: Yale University Press.

Kedourie, Elie (1994) Democracy and Arab Political Culture (London: Frank Cass).

Przeworski, Adam (1988) “Democracy as a Contingent Outcome of Conflicts,” in Jon Elster and Rune Slagstad (eds.) Constitutionalism and Democracy (Cambridge: Cambridge University Press, 1988) pp. 61-63.

Wallerstein, Immanuel (1991) “The rise and future demise of the capitalist system: concepts for comparative analysis,” in Richard Little & Michael Smith, eds. (1991) Perspectives on World Politics, London: Routledge.

كتاب الزاوية

لحن الحياة

أبو القاسم الشابى

(١)

إذا الشَّعْبُ يوماً أرادَ الحياةَ
فلا بُدَّ أنْ يَستَجيبَ القَدَرْ
ولا بُدَّ لِلَّيلِ أنْ ينجلي
ولا بُدَّ للقيدِ أن يَنْكَسِرْ
وَمَنْ لم يعانقْهُ شَوْقُ الحياةِ
تَبَخَّرَ في جَوِّها، واندَثَرْ
فويلٌ لِمَنْ لَمْ تَشُقْهُ الحياةُ
مِنْ صَفْعَةِ العَدَمِ المنتصِرْ
كذلكَ قالتْ ليَ الكائناتُ
وحدَّثَني روحُها المُستَتِرْ

● ● ●

وَدَمْدَمَتِ الرِّيحُ بَيْنَ الفِجاجِ
وفوقَ الجبالِ وَتَحْتَ الشَّجَرْ:
«إذا ما طَمَحْتُ إلى غايةٍ
رَكِبتُ المُنى، وَنَسيتُ الحَذَرْ»
«ولم أتجنَّبْ وُعورَ الشِّعابِ
ولا كُبَّةَ اللَّهَبِ المُستَعِرْ»
«وَمَنْ لا يُحِبُّ صُعُودَ الجبالِ
يَعِشْ أبَدَ الدَّهرِ بَيْنَ الحُفَرْ»
فَعَجَّتْ بقلبي دماءُ الشَّبابِ
وضجَّت بصدري رياحٌ أُخَرْ...
وأطرقتُ، أُصغي لقصفِ الرُّعودِ
وعزفِ الرِّياحِ، وَوَقْعِ المَطَرْ

● ● ●

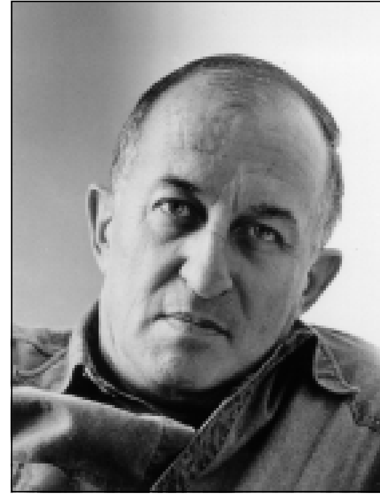
وَقالتْ ليَ الأرضُ ـ لما سألتُ:
«أيا أمُّ هلْ تكرهينَ البَشَرْ؟»:
أُباركُ في النَّاسِ أهلَ الطُّموحِ
ومَنْ يَستلذُّ ركوبَ الخطرْ
وأَلْعَنُ مَنْ لا يماشي الزَّمانَ،
ويقنعُ بالعيْشِ عيشِ الحَجَرْ
هُوَ الكَوْنُ حَيٌّ يُحِبُّ الحياةَ
ويحتقرُ المَيْتَ، مَهْما كَبُرْ
فلا الأُفْقُ يَحْضُنُ مَيْتَ الطُّيورِ،
ولا النَّحْلُ يلثِمُ، مَيْتَ الزَّهَرْ

التغيير فى العالم العربى

لاشك أن الأدب المكتوب باللغة الإسبانية قد حاز فى الآونة الأخيرة المزيد من الرعاية والاهتمام، فى عالمنا العربى، وبالتالى الترجمة إلى لغات أخرى ومنها العربية، ومردّ هذا الاهتمام هو أن اللغة الإسبانية هى اللغة الثانية على مستوى العالم من حيث عدد السكان الأصليين المتحدثين بها كما أن الموروث المشترك الإسبانى العربى الإسلامى كان أحد هذه العوامل، إضافة إلى الإبداعات الفذة مثل دون كيشوت.. وظهور شعراء فى العصر الحديث يتسمون بقامات أدبية متميزة على المستوى العالمى - لوركا على سبيل المثال-، ثم تأتى بعد ذلك الطفرة الكبرى وهى اليوم فى السرد القصصى فى أمريكا اللاتينية وفى إسبانيا خلال النصف الثانى من القرن العشرين.

ولد خوان جويتيسولو عام ١٩٣١، درس الحقوق وفى عام ١٩٥٦ أقام فى باريس وأخذ يعمل كمستشار أدبى لإحدى دور النشر الفرنسية - جاليمار-، وخلال الفترة ١٩٦٩ - ١٩٧٥ قام بالتدريس فى جامعات مختلفة منها كاليفورنيا وبوسطن ونيويورك -، كان دائم التردد على المغرب وعشق الحياة فيها لدرجة أنه أصبح الآن يقيم بشكل شبه دائم فى ذلك البلد العربى.

كانت الواقعية الاجتماعية هى ملمح أساسى من أوليات مراحل الإبداع عند كاتبنا وكان ذلك خلال عقد الخمسينيات، وهنا نجد له قصصاً مثل ألعاب الأيدى (١٩٥٤) وصراع فى الجنة (١٩٥٥). ويلاحظ أن هذه المرحلة تتناغم تماماً مع التيارات الأدبية التى كانت سائدة فى إسبانيا، خلال عصر فرانكو الذى



خـــــوان جويتيسولو

Juan Goytisolo

حال دون نشر أعمال جويتيسولو داخل البلاد حتى مرحلة متقدمة، ومن هنا لا نستغرب نوعاً من المقاربة الشعرية للواقع،وتمثل هذا فى ذكريات الحرب الأهلية الإسبانية، أى خلال فترة طفولة الكثير من المبدعين الإسبان من هذا الجيل، إضافة إلى أن كاتبنا كان واحداً من الذين أضيروا مبكرا فى الحرب الأهلية،إذ فقد أمه مبكراً وهو طفل بسبب عمليات قصف قامت بها القوات الانقلابية التابعة للجنرال فرانكو، الأمر الذى ترك فى نفسه صدمة عميقة وجرحا غائرا.

تأتى المرحلة الثانية لتتجاوز الواقعية الاجتماعية وتخطو خطوة أخرى، شأن التوجهات الإبداعية فى مسار الأدب الإسبانى فى تلك الفترة،وتدخل فى حقل التحليل النقدى الاجتماعى للواقع، أى أنه بدلاً من رصد الواقع بسلبياته كما كان يحدث فى المرحلة السابقة، أخذ كاتبنا يغوص فى أعماقه ويقرؤه قراءة إبداعية تحاول أن تكشف المستور وترصد الأسباب الكامنة وراء هذا الواقع سواء كانت اجتماعية أو سياسية (ثلاثية السيرك...١٩٥٧).

ينتقل هذا المبدع العظيم إلى مرحلة أخرى، هى مرحلة التجريب وكسر القوالب السردية والمزيد من التعمق فى القراءة النقدية للواقع بما فى ذلك المفاهيم الدينية، خلال المراحل اللاحقة.

له عدد كبير من الروايات (٢٤ رواية) والقصص القصيرة وفن المقال (٢٠ كتاباً أو يزيد) إضافة إلى إسهاماته بالكتابة فى أشهر الصحف الإسبانية.

ترجمت أعماله إلى عدد من اللغات هى الألمانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية واليابانية والتركية والبرتغالية.....الخ،

تتسم أعمال خوان جويتيسولو المتعدد الإبداعات (فهو يكتب القصة القصيرة والمقال والنقد الأدبى؛ وأدب الرحلات) بمناصرته للقضايا العربية العادلة فى إطار مناصرته للقضايا الإنسانية على مستوى العالم وفى إطار توجهاته النقدية الشديدة لتوجهات الدول الغربية والولايات المتحدة سواء على المستوى الداخلى أم على مستوى علاقاتها بدول العالم المختلفة. وهو فى مناصرته للحقوق العربية ينتقد سلبيات الموقف العربى ويدعوه للنهوض والأخذ بزمام المبادرة وعدم الركون للماضى وأن يستعيد ملامحه التقدمية التى كان عليها بالأمس بحيث تعيش متناغمة مع متطلبات وإيقاع العصر الحديث.



على المنوفى



فى عيـــون إســـــبانـيـة





من تونس إلى مصر

إن ثورة تونس هى أول ثورة ديمقراطية فى الدول العربية منذ أن حصلت على استقلالها

■■ إن عاصفة الحرية التى تهز الدول العربية منذ أن ضحى بنفسه ذلك الفتى التونسى محمد بو عزيزى يوم ١٧/١٢/٢٠١٠، إنما تقضى على مجموعة من الكليشيهات والمفاهيم العامة التى تصلبت فى أوساط الرأى العام الأوربى ولدى حكوماتنا ألا وهى القدرية والانصياع للمقادير واستحالة الجمع بين الإسلام والديمقراطية.

بادئ ذى بدء نقول إن كافة ديانات التوحيد تناقض مبدئيًا تلك الأنظمة الحكومية التى تخرج عن دائرة سلطانها، فالتاريخ الإسبانى والحلف المقدس للعرش والكنيسة «واللجوء إلى ما هو دينى لتغطية الدكتاتورية التى تشهر سيوفها، إنما هو خير مثال على ما نقول، وعادة ما نرى الرحالة الفرنسيين والإنجليز يقولون بذلك وهم يجوبون شبه جزيرة إيبيريا، إذ يتم اللجوء إلى مخزن المقولات المعتادة الخاصة بميولنا، معشر الإسبان، للحكم الاستبدادى والملكى والكنيسة التى يستند إليها هذا الحكم باستثناء فترات قصيرة؛ فالتجارب التى تم إحباطها خلال الجمهورية الأولى والثانية فى إسبانيا هى خير دليل على ذلك، فقد كانت إسبانيا حتى قبل أقل من أربعة عقود من الزمان تحت حكم طاغية (فرانكو) بفضل الله!!.

إلا أن هذه المقولات المسبقة سلفًا حقيقة وهى أن تمرّد الشعوب التى يتم حكمها بالتخويف والظلم والجهل ينضج فى صمت كما أن مجموعة من العناصر غير المتوقعة يمكن أن تجعله يشتعل.

ورغم أن الموقف السياسى والاقتصادى لكل من تونس ومصر مختلف للغاية، فإن الشرارة التى اندلعت فى كلا البلدين يوجد بها قاسم مشترك ألا وهو الضجر والسأم من شيخوخة السياسيين الذين يميلون إلى الاستمرار إلى ما لا نهاية فى الحكم من خلال عملية توريث أسرية مقنعة تقف حجر عثرة أمام أى إمكانية للتغيير. كان نظام بن على نظاماً بوليسيا يفرض سيطرته القوية على أى بادرة من بوادر التحدى، بينما يسكت غضب قطاع عريض من الشعب مقابل منحه مستوى معيشيا مقبولا لكنه لا يشمل الجميع وهذا ما أظهرته الأحداث بالنسبة للسكان فى الداخل والجنوب.



إن تونس التى زرتها منذ ما يزيد قليلاً على عشرة أعوام (انظر مقالى الذى نشر بصحيفة البايس ١٩٩٩ بعنوان: المغرب العربى فى لمحة عامة) تذكرنى فى كثير من أحوالها بإسبانيا عصر الإصلاح وبدكتاتوريات القرن التى خلفناها مؤخراً وراءنا؛ أما بالنسبة لنظامها السياسى فقد كان يبدو أنه معتدل ظاهريًا وموال للغرب،كما يسانده الاتحاد الأوربى، من حيث إنه حصن منيع ضد التطرف الإسلامى. أما نحن معشر الذين كنا نعرف ميل هذه العائلة إلى وجود الأقرباء فى الحكم ونعرف فسادها (بن على - الطرابلسى) كنا نتساءل كيف أنه يمكن أن يبقى إلى الأبد، وهنا فإن أفضل إجابة قرأتها حتى هذه اللحظة كانت التالية؛

«إن التوجه المعتدل يستقر بشكل دائم من خلال مجموعة قليلة من الرجال، المتفاهمين فيما بينهم، فى دائرة الإدارة والأعمال، وينتهى به الأمر عندما يضم الدولة تحت لوائه، ويحول الدولة إلى جزء تابع لحزب؛ وهنا فإن سياسة هذا التوجه تتمثل فى التوصل إلى نظام شرعى يتولى تغطية الاستبداد والقضاء على الطموحات وذلك من خلال تشجيع المصالح المادية؛ أما أسلحة مثل هذا النظام فهى الاستبداد والفساد».

إلا أن هذه الصورة التى رسمناها ليست صورة تونس بل صورة إسبانيا القرن التاسع عشر التى رسمها مانويل أثانيا فى مقال له بعنوان «ثلاثة أجيال فى المحفل». إنه «فن خلق برلمان دون برلمانيين من المعارضة»، وهو فن زعزعة الأحزاب السياسية، أى الواجهة التى يفترض أنها ديمقراطية. هى كلها قواسم مشتركة بين أجدادنا الإسبان والتوانسة والمصريين فى أيامنا هذه.

فى مصر مبارك نجد الموقف أكثر خطورة عما هو فى تونس بن على: فإلى جوار طبقة من الصفوة المترعة والطبقة المتوسطة التى تعرضت للفقر، هناك الفقر الذى يعيشه أغلب السكان؛ فهناك أكثر من ٢٠٪ من هذه الطبقة يعيش الفرد فيهم على ٢ يورو يوميًا، ومن يكسب ما يساوى مائة يورو شهريًا ينظر إليه على أنه إنسان محظوظ. وفى عام ٢٠٠٨ عدت إلى مصر بعد عشرة أعوام من غيابى عنها واكتشفت أن مستوى الحياة لدى أغلب المصريين قد ازداد هبوطًا، كما اتسعت الهوة بين من يستولون على الثروة فى البلاد وبين من لا يملكون شيئًا. كان الموقف متفجرًا، ولم أشعر بمفاجأة من سريان العدوى التونسية إلى مصر على الفور. كان الوجه الكرتونى (الذى لا يحمل أى تعبير) للفرعون منتشرًا فى كل مكان فى الشوارع والميادين فى القاهرة، وكان يبدو أنه تسرب لملايين من الشباب الذين لا يجدون عملاً أو لا تلوح هناك بارقة أمل فى التغيير. من الصعب أن نتكهن اليوم بنتائج هذا الانفجار الذى أطلق عليه «يوم الغضب»،الذى أشعل الشعب المصرى نارًا ودفع به إلى تحدى القمع شديد العنف من لدن سلطة منهكة ومحاصرة.

إن الهبة التلقائية التى قام بها التوانسة والمصريون والتى انتشرت من خلال الشبكات التى أنشأتها الإنترنت والهواتف المحمولة، لا يخضع لرئاسة أى زعيم أو حزب؛ فقد أصبح الرعية مواطنين يعبرون عن نفورهم، وكسروا الحاجز النفسى الذى يقضى بالولاء ويقضى بالإذعان للسلطة. ومن المعروف أن المخاطر التى تتعرض لها مثل هذه الحركات هى الطريقة المعروفة باستخدام الجيش كأداة للنجدة، أو استيلاء الحركات الإسلامية عليها؛ وعلى أية حال فإن هذه الحركات الأخيرة (الإسلامية) يبدو أنها قد تعلمت الدرس جيداً من فشلها فى المرات السابقة؛ أى مساندتها لترشيح البرادعى والحديث عن النموذج التركى وهذه كلها أسباب تزيد الأمل فى تحول فعلى ديمقراطى.



صوت تونس الجديدة

إن ثورة تونس هى أول ثورة ديمقراطية فى الدول العربية منذ أن حصلت على استقلالها؛ أما تلك الثورات التى حدثت قبل ذلك فكانت ثمرة انقلابات، أحيانًا، كانت تحظى بمساندة شعبية واسعة مثلما رأينا ما حدث فى مصر عبد الناصر؛ وكثر ذلك بدوره فى كل من العراق ١٩٥٨ وليبيا ١٩٦٩م. كما نجد أن الطموحات الديمقراطية للزعماء الاستقلاليين الجزائريين سرعان ما تهاوت ووقعت كما نعرف فى يد دكتاتورية الحزب الواحد الذى يسانده الجيش. وخلال فترة الستينيات نجد أن الحكومات القومية العربية قد وضعت الأسس لسلطة استبدادية تستهدف

ترجمة: على المنوفى



البقاء على الدوام فى إطار ما يسمى «بالأسر الجمهورية الجديدة». (أسرة صدام حسين وحافظ الأسد وحسنى مبارك). عندما ننظر إلى المغرب نجد محاولات انقلابية ضد الحسن الثانى وكانت هذه المحاولات تبرهن أيضاً على أن البديل للأسرة الملكية العلوية كان هو الدكتاتورية العسكرية، وما يمكن أن يكون بعد ذلك النظام الإسلامى، أى أن كل ذلك هو علاج أسوأ من المرض نفسه.



كما أن غيبة التربية المدنية للشعوب التى كانت تنظر للديمقراطية على أنها كلمة مفرغة من محتواها لأنها مستوردة من أوربا، إنما يفسر الانحراف نحو الأوتوقراطية الذى اتخذته الأنظمة العربية ويشير إلى فشل الفورات الشعبية مثل التى وقعت فى الدار البيضاء عام ١٩٦٥ و ١٩٨٠م. أضف إلى ما سبق أن أفول شمس القومية العربية وازدهار الإسلام السياسى كانا فى آن معاً الأسباب الكامنة وراء الحرب الأهلية الدامية التى هزت الجزائر خلال عقد التسعينيات من القرن العشرين.

لا يمكن للمرء أن يطلب ما يتم تجاهله، فقد تطلبت الديمقراطية معرفة مسبقة بالقيم العلمانية التى تغذيها، كما أن هذه المعرفة لا توجد فى أى بلد عربى بالعمق والتجذّر الذى نجده فى تونس، إذ قامت حكومة بورقيبة، منذ استقلالها، وحتى الثمانينيات، بوضع أسس الدولة العلمانية والديمقراطية، حيث نجد نظاماً تعليمياً مفتوحاً على المبادئ والقيم الخاصة بالعالم الحديث، وصدرت لوائح للمرأة وهى ذات مزايا أعلى بكثير مما نجده فى هذا المقام فى الدول المجاورة، ووصلت البلاد إلى مستوى معيشى مقبول مقارنة بجيرانها رغم عدم وجود الثروة البترولية، وساهم كل هذا فى خلق مفهوم للمواطنة واع بحقوقه، وهنا يكمن الاختلاف بين تونس وباقى الدول العربية الواقعة على شاطئ البحر المتوسط.

ها نحن نجد أفول حكم بورقيبة والانقلاب السلمى على السلطة الذى قام به بن على من أجل الحفاظ على الديمقراطية قد تحولا إلى كابوس على طريقة أورويل Orwell، إذ تمكن بن على من استخدام ذريعة مجابهة التهديد الإسلامى (وبذلك يكسب المساندة غير المشروطة للدول الأوربية) رويداً رويداً فى إقامة دولة بوليسية امتدت شباكها، كأنها شبكة العنكبوت فى مختلف أنحاء المجتمع، فقد تم القضاء على كافة المعارضة السياسية بلا رحمة وذلك باستخدام مناهج تذكرنا بأسوأ أنماط الاستبداد. وفى زيارتى الأخيرة لتونس منذ أحد عشر عاماً تأكدت شخصياً من المطاردة التى يعانى منها الديمقراطيون الذين يعيشون خارج أسوار السجن أو فى المنفى، وكذلك الرقابة البوليسية لكل هؤلاء الذين يتصلون بهم. كان كل ذلك مثيراً للصدمة، على اعتبار أن ذلك بلد متقدم سواء من الناحية الاجتماعية والثقافية، تحول إلى ضحية لبارانويا دكتاتورونهم، لا يشبع، للسلطة والثروة من قبل أسرة زوجه، الشهيرة للأسف بأسرة طرابلسى؛ لكن انصياع وصمت المجتمع لمثل هذا الصنف من الضغط لا يمكن أن يستمر، فقد كان للتجربة الديمقراطية فى عهد بورقيبة تأثيرها فى المجتمع وكانت تنتظر الفرصة المواتية لتعبر عن نفسها؛ ثم كان تأثير تسريبات ويكيلكس واتصال الكثيرين من التوانسة بشبكة الإنترنت ووجود منابر النقاش والهجمات ما يسمى بـ Hackers التى تمكنت من التشويش الكامل على مواقع النظام الحاكم وتضحية الشاب محمد بوعزيزى بنفسه باضرام النار فى جسده يوم ٢٠١٠/١٢/١٧ فى بلدة سيدى بوزيد، وهو متخصص فى المعلوماتية يبلغ من العمر ٢٦ عاماً ولا يجد عملاً، فعمل فى بيع الفاكهة،وهنا تعرض لمعاملة عنيفة من الشرطة وجرت إزالة موقع البيع نظراً لعدم وجود موافقة على بيعه، كل هذه كانت بمثابة شرارة الانفجار الذى أطاح بالدكتاتور وفتح فصلاً جديداً فى تاريخ البلاد يوحى بالأمل.

علينا نحن معشر أصدقاء الشعب التونسى أن نهنئهم بما حدث وأن نستلهم تضحية محمد بوعزيزى بنفسه، وهو الشهيد الذى حاز شرف بطولة تونس الجديدة المفتوحة على العالم والعلمانية والديمقراطية التى لا يمكن لأحد فيها أن يشعل النار فى نفسه حتى يسمع صوته. ■

فى ميدان التحرير: التاريخ يُكتب مجددا

سيكون أمرا عسيرا تخيل مجريات الأمور فى المستقبل، والتنبؤ بتفاصيل التحول إلى الديمقراطية

■■ إلى هؤلاء الذين ربما قد ترددوا عشرات المرات على ميدان التحرير، ذلك الفضاء الذى يتسم بفوضوية لا تخطئها العين، والذى تمكن على مدار الاحتجاجات التى استمرت ثمانية عشر يوما أن يهز مشاعر وقلوب الجميع.



المرة الأخيرة التى زرت فيها ميدان التحرير كانت فى شهر فبراير عام ٢٠٠٨، وتصادف أن أذيع خبر فوز فريق المنتخب القومى المصرى لكرة القدم بكأس أفريقيا، بينما كنت فى طريقى من مطار القاهرة إلى الفندق الذى نزلت به وكان قريبا من الميدان، وشاهدت آلاف الأشخاص يحتشدون على ساحته للاحتفال وارتفعت أصواتهم بأغانى الانتصار، يتبادلون التهانى والأحضان بينما ترفرف الأعلام. فى ذاك الحين تذكرت كلمات الشاعر محمود درويش التى كانت تقطر مرارة فى ديوانه «ذاكرة للنسيان»، والذى أشار فيه إلى كرة القدم باعتبارها الصمام الذى يسرب العرب غضبهم من خلاله إزاء الإذلال والامتهان الذى يتعرضون له.

ترجمة: عبير محمد عبد الحافظ

فبعد اغتيال السادات، وديكتاتورية مبارك، بدا وكأن الشعب قد اعتاد على المشهد السياسى الذى يتقاسمه مع البلدان العربية الشقيقة، وأبطال هذا المشهد الفقر، والأمية، والهوة السحيقة التى تفصل بين طبقات الشرائح الاجتماعية، فضلا عن الفساد والبرلمانات الواهية عديمة النفع والانتخابات المزورة. فالمدعو بن على فى تونس خلد فى السلطة حتى أنه كان يستعد ليتبوأ موضعه فى سلسلة الجمهوريات الملكية مثله مثل دول الجوار.

وتحدث بعض المتخصصين فى الإسلام فى هذا الشأن، وكأنه مثل القضاء والقدر، وقالوا إن المسلمين لا يمكن أن يُحكموا إلا من خلال دكتاتورية وحكومة دينية.

وحين ضحى الشاب التونسى بو عزيزى بحياته على غرار المسيح (ترى هل خطر ببال المسيح ما سيجرى فى العالم بعد أن تم صلبه)، وتبعه بعد ذلك عشرات من العرب فضلوا الامتناع عن تفجير أنفسهم بشكل انتحارى وسط المئات ممن يفترض بأنهم يخدمون الصهاينة والصليبيين، وجعلوا من أنفسهم المشاعل الإنسانية المضيئة التى كشفت عن حجم اليأس لوجودهم التعيس فى عالم يفتقر إلى أدنى بصيص من الأمل، فقد فتحت هذه التضحية بدورها نافذة



واسعة انطلق منها الغضب الذى تراكم على مدار عشرات السنين. إن سكان القاهرة الذين احتشدوا بميدان التحرير اكتشفوا قدرتهم على أن يصبحوا مسئولين عن مصيرهم، وأنهم قادرون على أن يقولوا «كفى». أجمعت كافة القطاعات الشعبية دون تفرقة أيديولوجية على الإيمان بضرورة التغيير العاجل، وكان بينهم المراهقون، والشباب، والعائلات، والمحامون والمدونون، والنقابيون. كنت أتابعهم يوما بيوم، وساعة بساعة أمام شاشة التلفزيون بينما تملكتنى مشاعر الحماسة والعاطفة الشديدة، وهو ما لم يحدث لى من قبل على هذا النحو.

وعلى ذلك سيكون أمرا عسيرا تخيل مجريات الأمور فى المستقبل، والتنبؤ بتفاصيل التحول إلى الديمقراطية تحت إشراف الجيش. ولا شك فى أن الإجراءات المثيرة للشفقة التى اقترحها مبارك فى الساعات القليلة التى سبقت طرده من السلطة لم تكن ذات شأن يذكر. فالشعب المصرى يطالب بديمقراطية حقيقية تتسع لجميع فئات وقطاعات المجتمع المصرى بتوجهاته السياسية والدينية وهذا بدوره يشتمل على المقومات الآتية: جمعية تأسيسية، حكومة مؤقتة، انتخابات حرة، إطار دستورى جديد، سياسات موجهة لطبقات المواطنين المعوزين والفقراء. جميع المجالات لا زالت مفتوحة ويجب البدء فى العمل على وجه السرعة، ومن أجل المصلحة العامة، مع ضرورة توفيق الآراء وتجنب استبعاد أى من الأحزاب أو التجمعات السياسية. وتجدر الإشارة إلى أن التكهنات القائمة المتخوفة من التفاف الإخوان المسلمين حول الثورة ومحاولة الانفراد بها، ليس لها أى أساس من الصحة، فالأمر لا يشبه ما وقع مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ خلال الانتخابات الجزائرية التى دعا إليها بن جديد. ذلك أن الإسلاميين يدركون تمام الإدراك الفشل الذى لازمهم من قبل ولا يرغبون فى تكرار المشهد. بعبارة أخرى فإن النصر الذى حققته الانتفاضة التلقائية لجموع الشعب المصرى نجحت فى أن تمحو صورة التطرف الجهادى لأحداث ١١ سبتمبر. ودلل الخطاب الشهير لأوباما فى القاهرة على قناعته بهذا المنطق، وذلك حين أشار إلى أن الديمقراطية - وليست الدكتاتورية مثل نظام بن على ومبارك- هى وحدها القادرة على التصدى لإرهاب تنظيم القاعدة.

النصر الذى حققته جموع المصريين التى احتشدت فى التحرير هو نصر لجميع الشعوب العربية، ومن جانب آخر يمثل تهديدا لقناعة نتنياهو المتمثلة فى مبدأ «الأسوأ أفضل دائما»، وأيضا للسلطة الوطنية الفلسطينية التى فقدت مصداقيتها، وبالمثل لليبيا القذافى، وإيران أحمدى نجاد. لقد تغير المشهد السياسى فى الشرق الأوسط بشكل كامل، كما أن القلق الذى تواجهه أنظمة الحكم الدينى فى الجزيرة العربية لا يقل عن قلق إسرائيل التى فقدت مكانتها «الديمقراطية الوحيدة فى المنطقة».



واستطاعت هذه الثورة التى نعيشها الكشف عن الدور البائس للاتحاد الأوروبى فى علاقته بدول جنوب وشرق البحر المتوسط. فموقف برلسكونى وساركوزى المتساهل من الدكتاتورين المخلوعين بدا عبثيا وسلبيا فى نفس الوقت. فالمصالح والمزايا التى تم شراؤها لا تبرر إغفال أولوية الدفاع عن القيم التى نطالب بها فى الخارج. فملايين المواطنين الذين انطلقوا فى الشوارع للمطالبة بحقوقهم جعلونا نشعر بالخزى جراء نفاقنا. فلنحتفل الآن ونشرب نخب الانتصار الذى حققه المتظاهرون المصريون فى القاهرة والإسكندرية، وكافة المدن المصرية، هؤلاء الذين نجحوا فى اقتناص الحرية، ولن يكونوا رعية لنظام قمعى وفاسد بعد الآن، وها هم يحتفلون اليوم بنصرهم كمواطنين دشنوا حريتهم من جديد. ■

أنا الدولة

يمسك القذافى بكل تقاليد السلطة فى بلد بدون دستور أو برلمان أو أحزاب سياسية وبلغ تألهه درجة لا حدود لها

■■ القذافى يمسك بمقاليد السلطة فى بلد ليس له دستور أو برلمان أو أحزاب سياسية، وتحول إلى ما يشبه الإله؛ كما أن الثورة الحالية إنما تملأ صدور من يعرفون هذا النظام القمعى بالفرحة الغامرة. فى منتصف عقد الثمانينيات من القرن الماضى كنت أدردش مع أصدقائى من الموسيقيين فى ميدان مراكش فى صالون الحلاقة الذى كان يعمل فيه أحدهم، وعندئذ دخل المحل رجل لا نعرفه يبلغ من العمر ثلاثين عاماً ؛كانت لهجته غريبة علينا جميعاً، لم يكن مغربيًا ولا مصريًا ولا من الشرق الأوسط، قال لنا إنه من ليبيا. وكعادة إنسان مثلى يستثيره الفضول سألته عن رأيه فى الزعيم الأعظم؛ فرد علىّ قائلاً: «إنه والدى، حسن، هو والد كل الليبيين»، فألححت عليه بالسؤال عن رأيه فى نظام حكمه الغريب؛ هل هو نظام جيد؟ فكان رده: إنه نظام ناعم وأملس كالحرير. فسألته وماذا عن الناس: هل الناس راضية؟ فرد بقوله: لا أقول إنها راضية بل أقول إنها سعيدة. فكان ردى عليه بأن الكمال الذى يحدثنا عنه ويرسمه لنا لا يوجد فى عالمنا الحزين، فكل مجتمعات الدنيا لها مشاكلها، سواء صغرت أو كبرت، لكن لها مشاكلها؛ فبدت على هذا الرجل المجهول مسحة من التأمل،وتحول ثناؤه على النظام إلى حزن وأسف. نعم، كانت هناك مشكلة كبيرة، إنها مشكلة المهور، فالزواج مكلف للغاية وليس بمقدور الكثيرين أن يتزوجوا. تغيرت نغمة صوته أيضاً من نغمة التأكيد إلى نغمة الشعور بالكرب؛ فلقد جاء إلى المغرب بحثًا عن عروس؛ وقد حدثه البعض عن وجود فتاة عذراء فى الدار البيضاء، ووعده من يعرفها بتدبير لقاء بينهما، لكنه كان بحاجة إلى أن يقدم لها هدية جيدة كمقدمة للاتفاق. فقدم للوسيط ألفى درهم، وعندما حانت الساعة الموعودة للقاء فى الصالة الخلفية الملحقة بأحد مقاهى وسط المدينة، لم يظهر كلاهما، لا الوسيط ولا الفتاة؛ لقد خدعاه، وكان يشعر بالإحباط، فقد كانت هذه آخر فرصة لديه، وسألنا فيما إذا كنا نعرف فتاة قابلة للزواج رغم أنها قد لا تكون سمينة أو معيبة؛ لم يكن يهمه أى شىء، كان يريد العودة إلى بلده والمستندات موثقة... هنا نرى أن هذه الرؤية المثالية لجنة جماهيرية القذافى قد تحولت فجأة إلى خليط من الأمل الضائع وشكوى وأنين على طريقة غناء الفلامنكو. وهنا أقول إننى أجهل فيما إذا كان ذلك الرجل قد بلغ مراده أو عاد إلى ليبيا خاوى الوفاض.



وبعد ذلك بوقت قصير، وبمناسبة هذه الزيجات بين الدول التى لا تدوم إلا قليلاً والتى نجد العقيد من أشد هواتها، نجد عشرات الآلاف من المغاربة يهاجرون إلى ليبيا بحثًا عن عمل، لقد

ترجمة: على المنوفى



أعلن القذافى «الوحدة العربية مع المغرب»، ووثق المهاجرون فى أنهم سيلقون ترحيباً حاراً من إخوانهم. لم يدم هذا الحلم الجميل بالأخوة، فكانت العودة البطيئة أولاً ثم الجماعية ثانياً وبعد ذلك انكشفت الخدعة. فمن وثقوا بوعود الزعيم عانوا فى ظل نظام قهرى، كما أن اتصالهم بالسكان المحليين كان محل رقابة صارمة من اللجان الشعبية التى تدافع عن الثورة، أضف إلى ذلك أن العيش فى ظل «حكومة الجماهيرية الشعبية»، طبقاً لما ورد فى الكتاب الأخضر، كان أسوأ بكثير جداً من البلد الذى تركوه. فكان ذكر القذافى وجماهيريته هو نوع من الزخرف. وكانوا هم الذين اتخذوا، على طريقتهم النكتة التى سمعتها فى الولايات المتحدة عن مسابقة فى فيلادلفيا جائزتها رحلة إلى الخارج، فالجائزة الأولى ثلاثة أيام فى ليبيا، والثانية ثلاثة أسابيع فى ليبيا، أما الثالثة فكانت ثلاثة أشهر فى ليبيا؛ وكان الحس الفكاهى لدى المغاربة هو نوع من صمام التنفيس.

فى تلك الفترة حدثنى دبلوماسى إسبانى كان قنصلاً فى طرابلس عن طرفة لها دلالتها البالغة بشأن جنة عدن القذافى؛ فقد جرى استدعاؤه ذات يوم إلى مركز الشرطة الرئيسى بالمدينة وقيل له بأن أحد المواطنين الإسبان حاول اغتصاب امرأة ليبية، وعندما حضر إلى المكان وقرأوا عليه نص محضر الاتهام، انتابت القنصل الحيرة؛ فقد تمت محاولة الاغتصاب فى وضح النهار فى وسط الميدان الأخضر. وإذا ما أخذنا فى الاعتبار الأعداد الكبيرة التى تفد إلى هذا المكان يومياً فإن الاتهام غير ممكن. وبعد الكثير من تداول المستندات والاحتجاجات تمكن من الوصول إلى الزنزانة التى بها المتهم، الذى هو أحد البحارة فى طاقم مركب كان يقف للتزود بالوقود فى طرابلس، واعترف للقنصل بالجريمة: لقد غمزت لها بحاجبى!؛ وهنا نجد أن تلك المرأة المعتدى عليها كانت من أفراد الحرس الشخصى للزعيم الأكبر، وبالتالى فهى تنسب إلى القيادات الكبرى. انتهت المفاوضات الخاصة بالإفراج عن المتهم بشكل غريب، فطبقاً لمحامى الدفاع، كان على المتهم أن يعترف بأنه شاذ جنسياً،وبذلك فإن ما فعله نحو الحارسة الشخصية لم يكن يقصد منه أى غرض جنسى. كان البحّار يلعن حظه النكد، ووقع على الورقة التى يراها شائنة له لأنها تعتبره شاذاً، وأطلق سراحه.



بينما تحدث تلك الأشياء، كبيرها وصغيرها، كان يتم الاحتفاء بشخصية الزعيم فى جامعة فى العاصمة مدريد على أنها عبقرية ذلك الزمان، وأن ما قدمه هو «النظرية العالمية الثالثة». الذى يفتح كتابها الأخضر باب المستقبل بالنسبة للعالم العربى وغير العربى. وجرى تنظيم فيديو كونفراس حيث توجه القذافى من خلاله إلى الطلاب الذين اجتمعوا فى كل من دارنا الروحية وفى طرابلس، وكانت كل عبارة ينطقها بصوته الثقيل وغير الحاد تكلل بالتصفيق المستمر الذى يتوقف عندما يشير الزعيم إليهم بأصبعه تعبيراً عن أنه يريد مواصلة سرد وتقديم فرائد عقده المعرفى. إنها سلطة مكونة من الاشتراكية والعروبة ومسحة دينية. حظى كل هذا بحماس الطلاب المجتمعين: ففى تاريخ ليس بالبعيد قرأت كتيباً مطبوعاً فى إسبانيا يقول بأن ٧٠٠ متخصص قدموا من أنحاء العالم واجتمعوا على مدى ثلاثة أيام فى العاصمة الليبية لدراسة المحتوى النظرى لعمل القذافى. وفكرت على الفور: لم لا يكونون سبعة آلاف متخصص وعلى مدى ثلاثة أشهر، أو سبعمائة ألف متخصص وعلى مدى ثلاث سنوات؟ اللامعقول سوف يكون هو نفسه وسوف نرى العجب العجاب.

إن الاحتياطيات البترولية الضخمة فى ليبيا - وهى الأكبر فى القارة الأفريقية - إنما تفسر كل هذا البذخ والأبوة وغيبة المبادئ؛ فمنذ انحيازه إلى الدول العربية المعتدلة - افتراضاً- أى الدول التى تعارض الإرهاب الإسلامى، جعل كل شىء يغتفر له: فقد غفرت له ديماجوجيته وسبّه للإمبريالية الأمريكية وكل ما كان يتم طهيه فى مطابخ السلطة مثل القمع الدموى لأى بادرة معارضة، واختفاء والد الروائى هشام مطر،مثلما اختفى آخرون كثيرون، وإسهام مخابراته فى تفجير طائرة لوكيربى عام ١٩٨٨ التى مات فيها ٢٧٠ مسافراً، والمشهد المنفر الخاص بالممرضات البلغاريات اللاتى اتهمن بنشر الإيدز، وقد فعل هذا بقصد التغطية على سوءات النظام الصحى فى ليبيا...؛ إن ميله الشديد للأقنعة والمشاهد «البدوية الأصيلة».كانت كلها أموراً فريدة، فها هى الطاقية على شكل طبق، وزى البوابين، والميداليات، والصدريات، والزّى الخاص بقائد القوات، أو الزى المجرى النمساوى، والطرابيش العثمانية، والشيلان القبلية، والشيلان الزرقاء التى تتناغم مع قلنسوات من القماش نفسه، وعباءات رائعة بكل ألوان قوس قزح (ربما تصدق على ذلك مقولة أن العباءة الجيدة تغطى على كل شىء). كل ذلك يضع إطاراً لوجه يزداد عدم قدرة على التعبير ويتحول إلى وجه كارتونى، فكّه مرتفع إلى أعلى على شاكلة ما كان يفعله موسولينى. هذا النمط الاستعراضى كان يرافقه فى كل رحلاته وفى كل تلك المناسبات التى يقدمها له الطغاة الأفارقة.

كان يقيم خيمته المتنقلة فى روما وباريس ومدريد ولندن، ويتلقى تهانى وعناق بيرلسكونى وساركوزى ورؤساء الحكومة الإسبانية والبريطانية، وكان يرد على إهانة بوليس جنيف الذى أوقف ابنه لأنه أساء معاملة خدمه بالاعتداء عليهم جسدياً، وكان رده ليس فقط التهديد بسحب أرصدته من البنوك السويسرية،بل أيضاً الاقتراح بزوال هذا الاتحاد الكونفدرالى لذلك البلد وتوزيعه طبقاً للغات سكانه، بين ألمانيا وفرنسا وإيطاليا.

هو «حكومة الجماهيرية الشعبية». يمسك القذافى بكل تقاليد السلطة فى بلد بدون دستور أو برلمان أو أحزاب سياسية وبلغ تألهه درجة لا حدود لها. ولهذا فإن المشهد الذى نراه فى الأيام الأخيرة والذى يتمثل فى خروج عشرات الآلاف من المتظاهرين - مثلما يحدث فى إيران - إلى الشارع متحدين رصاص البوليس والمرتزقة، إنما يملأ بالثورة والفرحة قلوب الذين يعرفون نظامه القمعى الذى يخدم جنون العظمة. ففى مقابل هؤلاء الذين يضربون على صدورهم نجد من يتظاهرون معلنين استعدادهم لتقديم دمائهم فداء للزعيم الأعظم (بينما يقومون أيضاً بسفك دماء الرعية)، وكذا صيحات الفرحة التى يطلقها من هم فى بنغازى عندما يضربون صورته بنعالهم، وهذا ما هو إلا نوع من التحرر. وأياً كانت النتائج المباشرة لهذه المذبحة لهؤلاء المواطنين الذين يحبهم، فإن القذافى هو جزء من ثالوث الطواغيت الذين سقطوا فى مطحنة التاريخ وهم بن على ومبارك. نأمل أن يكون أحمدى نجاد هو الطاغوت التالى. ■





إن القذافى هو جزء من ثالوث الطواغيت الذين سقطوا فى مطحنة التاريخ وهم بن على ومبارك. نأمل أن يكون أحمدى نجاد هو الطاغوت التالى





المنبر
لا تصدق ما تراه عيناك...

«العامة لا يجب أن يتلقوا أى تربية، فإذا ما كانوا يعرفون كثيراً مثلى فسوف يعصوننى بالدرجة نفسها التى يطيعوننى بها الآن».

كاتالينا العظيمة - قيصرة روسيا

■■ فى نهاية الستينيات من القرن الماضى كانت لى علاقة صداقة، فى باريس، بأحد الوافدين المغاربة وهو رجل قمت بمعاونته لاجتياز الدهاليز الإدارية الخاصة بلم شمل الأسرة وعودته إلى زوجه الثانية والأبناء الذين أنجبهم منها، وقد تحقق الهدف عام ١٩٨٠م إذا لم تخنى الذاكرة. أما الأبناء الثلاثة الذين يتمتعون بالجنسية الفرنسية فهم الآن يشغلون المناصب التالية: الابنة الكبرى واحدة من الشخصيات القيادية فى شركة من الشركات المتعددة الجنسية؛ أما الابنة الثانية فقد حصلت على بكالوريوس فى العلوم البيولوجية، بينما نجد الابن طالباً شاباً فى الهندسة الصناعية. أما عن الولدين من الزوجة التى طلقها قبل الهجرة فقد ظلا فى الجزائر رغم جهود هذا الصديق لاستقدامهما إلى فرنسا. ترك الولدان كلاهما الدراسة فى المدرسة الحكومية وحاولا الهجرة غير الشرعية إلى أوربا، لكنهما أعيدا إلى البلد الأصلى. وهاهما هناك لايعملان وبدون أى تغيير يلوح فى الأفق مثلهما مثل مئات الآلاف الذين يجلسون إلى جوار الحائط ولا يعرفون أى مستقبل لهم.

ترجمة: على المنوفى

تلخص هذه الحالة بشكل تصويرى نتائج التحولات المتلاحقة والناجمة عن مشروع سياسى كان علمانياً فى بدايته، وكذا ديمقراطياً، لكنه اتخذ وجهته صوب الدكتاتورية العسكرية ونحو نظام الحزب الواحد، وهذان الأمران هما المسئولان عن انهيار الجزائر وغرقها فى الأتوقراطية والتخلف. كما أن القضاء المتعمد والمخطط على كافة الزعماء الذين كانوا يؤيدون الخط الديمقراطى فى البداية فتح الأبواب أمام أيديولوجية متخلفة أسفرت بعد ذلك عن ظهور الطغمة الإسلامية والحرب الأهلية خلال عقد التسعينيات.

يرى الجميع رأى العين مدى البذخ فى الإنفاق على سياسة التصنيع الفاشلة التى كانت تسير على النهج السوفيتى، وانهيار قطاع الزراعة المزدهر الذى خلفه الفرنسيون والمبالغة فى شراء السلاح الذى يزيد من تبعية الجزائر للقوى التى تقوم بتزويده به، وشجع هذا الأمر على فساد القيادات العسكرية التى أثرت، وكان ذلك على حساب اقتصاد مستدام وعلى برنامج متسق يقضى بإدماج الشباب فى مشروع البناء القومى. غير أن الأخطر فى هذا السياق هو القضاء على النظام التربوى الموروث عن العصر الاستعمارى (وهو نظام علمانى كان يجب الحفاظ عليه بعد تطهيره من بقايا ارتباطه بالمركزية الأوربية)، وكذا فى اللعب سراً فى تعقيدات الهوية الجزائرية (العرب والبربر والفرنسيون)،وذلك باسم التوجه العروبى الإسلامى واستبعاد ما عداه، الأمر الذى أدى إلى تكميم الأفواه النقدية للمثقفين العلمانيين (مثل محمد حربى، وكاتب ياسين...... إلخ).

وفى إطار البحث عن شرعية للانقلاب الذى قام به بومدين متخفياً وراء خطاب تقدمى، جرى تطبيق سياسة تعريب إجبارى لم يسهم فى تحسين مستوى المعرفة باللغة الفصحى إضافة إلى أن هذا الخط قد قضى على تعليم الفرنسية، ومن خلال المدرسين الذين تم استقدامهم من مصر ومن بعض دول الشرق الأوسط وضع بذور الراديكالية الأيديولوجية لجبهة الإنقاذ الإسلامى، والجماعة الإسلامية المسلحة. وكانت الشرعية التى يبحث عنها تندرج، فى حقيقة الأمر، ضمن الموروث القديم الذى يقول باللجوء إلى الدين على يد الحكومات الأتوقراطية، أى تطبيق ثقافة الإذعان للسلطة، وإحياء معتقدات وعادات أبوية لا تتوافق مع إيقاع الزمن، والعودة إلى الدوجماطية التى تحول دون انطلاق الطاقات الخلاقة والقدرة على التأمل والتفكير من جانب من يحملون لواءها.

وكما حدث فى عصور سابقة من تاريخنا نجد أن التعليم الخاص بالأيديولوجيات والفكر النقدى ينزاح ويحل محله تعليم يقوم على حفظ النصوص المقدسة عن ظهر قلب. وها هى أسهم الفلسفة والعلوم واللغات الأجنبية تتوارى فى المدارس الحكومية وبذلك أصبح هناك حقل مهيأ لكافة التوجهات الأخرى الخاطئة. وبالتوازى مع هذه القفزة الضخمة إلى الوراء، نجد أن أعضاء الطبقة الحاكمة والمسئولين عما حدث يرسلون بأبنائهم للدراسة فى فرنسا أو أمريكا الشمالية، وذلك فى إطار ممارسة نموذجية للوقاحة تعكس الغاية فى العمل على استمرار الاختلاف بين السكان الغارقين فى الجهالة وبين سلالة ماهرة فى استخدام التقنيات الجديدة والمعارف ومهيأة لاستمرارها فى السلطة.

من البدهى أن هذا الانهيار الذى عانى منه النظام التعليمى فى الجزائر لا يقتصر على هذا البلد وحده وإنما يندرج على معظم الدول العربية والإسلامية بغض النظر عن الخصوصيات والملامح المتعلقة بكل بلد وتميز هذا عن ذاك. وخلال عقدى السبعينيات والثمانينيات من القرن العشرين نجد أن عملية تعريب التعليم وأسلمته كانت تهدف إلى فرملة «التهديد الماركسى»، وأسهمت بشكل درامى فى هبوط مستوى انخراط التلاميذ فى المدارس. والأمثلة على هذا تتحدث عن نفسها: ففى قائمة مائتى أفضل جامعة على مستوى العالم التى نشرتها هيئة News & .S.N World Report لا نجد أى جامعة عربية؛ النتيجة إذن مزرية وتتطلب نقداً ذاتياً حاداً؛ فكما قال مفتى البوسنة مصطفى سيريك الذى التقيت به فى سراييفو أثناء حصارها «لقد استغل المسلمون الإسلام واختبأوا وراءه لإخفاء أخطائهم».

وإذا انتقلنا من أضرار البترول فى المغرب العربى إلى الشرق الأوسط، فسوف نتأكد من أنه إذا ما كانت الجزائر لديها اليوم ١٥٠٠٠٠ مليون دولار احتياطى من العملات وكذا ٤٨٠٠٠



مليون يورو فى الصندوق التنظيمى للدخول (وهذه معلومات يتوفر عليها الشباب الذين يعبرون عن غضبهم من البطالة وقلة المساكن) فإن هذه الأضرار أقل بكثير من تلك التى تتوفر عليها الأنظمة الثيوقراطية فى الخليج. فها هى ميزانيات التسليح المهووسة (باعت الولايات المتحدة للسعودية والكويت والإمارات المتحدة طائرات وصواريخ بالستية وأنظمة دفاعية مضادة للطائرات بمبلغ يصل إلى ٩٠٠٠٠ مليون يورو خلال عام ٢٠١٠) وهذا يؤكد بوضوح شديد الأولويات السياسية لدى هذه الدول: «قطع رأس الأفعى».قبل أن تمتلك إيران السلاح النووى. إن هذا التناقض القائم بين نفقات التسليح والبذخ الذى عليه هذه الممالك والإمارات فى المنطقة، وبين المستوى التربوى المتواضع الذى عليه الشباب صادم للغاية؛ فالطلاب من الدرجة الثانية يحصلون على تقديرات ودرجات ضعيفة للغاية فى العلوم والرياضيات، بغض النظر عما هو عليه من جهل فى الدراسات الإنسانية التى أصبحت مستباحة فى المدارس والجامعات. ورغم ارتفاع معدل إجمالى الناتج القومى، ومصدره البترول ومشتقاته من مواد الطاقة، فإن دول شبه الجزيرة العربية لا يتوفر لديها العدد الكافى من الشباب المؤهلين وبالتالى عليها اللجوء إلى الآلاف من الوافدين من الهند وماليزيا وسنغافورة.

هناك مقارنة نميل إليها، وهى مقارنة تاريخية بين أبناء وأحفاد البدو من الذين يؤيدون الوهابية وبين المسيحيين القدامى فى إسبانيا، أى بين إسبانيا القرن السادس عشر والملكيات البترولية التى تعيش اليوم وهى مقارنة لا تخرج عن السياق؛ فقد لاحظ السيد ريتشارد بروتون، فى تصويره الرائع لحجيجه إلى كل من مكة والمدينة، وجود أصحاب المحلات والمتاجر فى هاتين المدينتين المقدستين وأن هؤلاء ليسوا أبناء البدو الذين لا يقبلون بأى حال من الأحوال القيام بمثل هذه الأعمال الوضيعة؛ وهنا أقول إن كلماته تتوافق وتنطبق تماماً على المفاهيم التى كان عليها علية القوم من الأسبان فى الزمن القديم وكيف أنهم كانوا ينظرون نظرة ازدراء للتجارة والأعمال اليدوية التى يقوم بها اليهود الذين اعتنقوا المسيحية والموريسكيون. نقول أيضاً إن هناك تناغماً فى هذا المقام بين مفهوم كبرياء السلالة والعرق والدم النقى من أى شائبة أو شائنة وبين حالة الرفض المتجذرة فى عقلية البدوى بالزواج من ابنة أحد أصحاب الحرف المهنية؛ ويواصل بروتون، الرجل الذى لم يقرأ شيئاً لأمريكو كاسترو، قوله بأن البدو هم مثل القشتاليين،إذ يعتبرون أن العمل مهين لأى إنسان اللهم إلا إذا قام به العبيد.



إذا ما انتقلنا من القرن التاسع عشر إلى بداية القرن الحادى والعشرين فإن المقارنة التقريبية، مثل كل المقارنات المطروحة، تتضمن العديد من التوافقات التى تحدو بنا إلى التأمل والتدبر. فلنقم بإحلال ذهب العالم الجديد محل البترول، ولنجعل أحد علية القوم يحل محل البدوى الذى أصبح اليوم ثرياً، وسوف نرى أنه إذا ما كان المعدن الأصفر كان يصل إلى شبه جزيرة أيبيريا من العالم الجديد ثم ينتقل ليستقر معظمه فى جنيف والبلاد الوطيئة (هولندا)، فإن نتاج الذهب الأسود يتراكم فى البنوك الأمريكية أو السويسرية أو البريطانية: فعندما قام صدام حسين بغزو الكويت للاستيلاء على ودائعها من العملات القوية، لم يجد إلا ١٣٪ منها فى الإمارة. وإذا ما كان الذهب قد استخدم فى إسبانيا لبناء الكنائس والقصور فإن أرباح البترول تم توجيهها لتمويل المدارس والمساجد، ولم يقتصر الأمر فى هذا على العالم الإسلامى بل شمل أوربا، وكذا فى بناء القصور المنيفة للمشايخ وأمراء البترول فى لندن وباريس وماربيلا أو الدار البيضاء. نجد إذن أنه فى كلتا الحالتين جرى استخدام الثروات التى أتت من بطن الأرض فى مسار غير ذلك الخاص بالوفاء بالحاجات الملحة للشعوب فى ميدان التربية، فهناك ٤٧٪ من العرب أميون، إضافة إلى هذا الخليط المتفجر من الجهل والإحباط والشعور بالظلم الذى هم ضحاياه وهو الذى يغذى الإرهاب الجهادى فى الوقت الحاضر.

إن ما حدث خلال العقد الماضى، ابتداء من العملية الإرهابية الرهيبة فى الحادى عشر من سبتمبر،إنما يفتح الطريق أمام مرحلة من التقلبات غير المشهورة، فى التاريخ المعاصر، لشعوب الشرق الأوسط. وإذا ما كان الردّ على السياسة الإسرائيلية فى الأراضى الفلسطينية المحتلة والمذابح التى جرت للمسلمين فى البوسنة وسحق الشعب فى الشيشان على يد قوات الكرملين، فإن كل ما يحدث اليوم يتضمن عنصراً جديداً وأكثر إضراراً فى إطار البربرية التى تنتشر فى الإقليم، فهناك تعدد فى العمليات الإرهابية الانتحارية ضد الطوائف الشيعية فى كل من العراق وباكستان، وهناك مناهضة للمسيحيين فى العراق ومصر الذين كانوا فى هذه البلاد قبل مجىء الإسلام إليها، وكل هذا يشير إلى أى درجة وصلت فيها الطائفية المذهبية وتراجع القيم المدنية والتربوية فى أغلب الدول العربية الإسلامية، لدرجة أنها أصبحت تقف ضد المبادئ الدينية التى ينادون بها العالم الخارجى وتشكل عقبة كبيرة أمام قبول الديمقراطية والحقوق الإنسانية بما فى ذلك حقوق المرأة فى المقام الأول.

إن الخوف والشعور بالصَّغار لدى الهوية العربية الإسلامية وركونها إلى اجترار الماضى التليد يقودها إلى رفض الاختلاف كقيمة ورفض التبادل الثقافى والتناضح. وما قام به كل من عبدالله لاروى ومحمد عبد الجبرى يصطدم للأسف بحائط التراث اللاهوتى،الذى هو فى واقع الأمر عبارة عن خطاب مؤدلج،يجهل أو يرفض التقدم الفكرى والعلمى «لا تصدق ما تراه عيناك، وعليك أن تؤمن بما نقصه عليك». إن الكوارث المتراكمة ابتداء من النظام اللاإنسانى للتمييز العنصرى الإسرائيلى فى كل من قطاع غزة والضفة الغربية والتدمير الإجرامى للعراق إنما يساعدان على هذا الجمود والاستمرار فى ركود العملية التعليمية والتطور الإنسانى سواء فى الشرق الأوسط أو المغرب العربى.

إذا ما تحدثنا عن الثورة المدنية فى تونس والتى انتهت بإقصاء زين العابدين بن على نجد أنها قد تحولت إلى فنار يوحى بالأمل ويضىء تلك المنطقة التى تمتد من المحيط الأطلنطى حتى الخليج. ولقد أدركت الشعوب أنها يمكن أن تكون مالكة مصيرها وذلك بفضل بائع الفاكهة المتواضع الذى أدى موقفه إلى إشعال الهمة لدى الملايين من العرب الذين هبوا،بعد الاتصالات بالإنترنت والهواتف المحمولة والقنوات الفضائية،وكسروا عزلتهم وعبروا عن غضبهم على هذه القيادات التى أصابتها الشيخوخة ورفضت أن يتمتعوا بالكبرياء ويحصلوا على فرصة عمل. ■



لقد أدركت الشعوب
أنها يمكن أن تكون مالكة
مصيرها وذلك بفضل بائع الفاكهة المتواضع الذى
أدى موقفه إلى إشعال الهمة
لدى الملايين من العرب



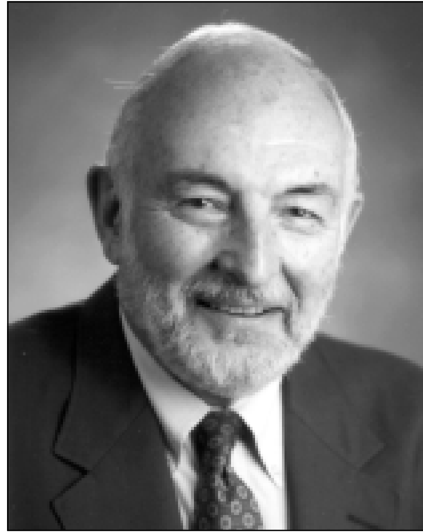
أعقبت الثورة التونسية احتجاجات شعبية مناهضة للنظام وأحداث عنف فى القاهرة والإسكندرية ومدن أخرى،

الانتفاضات

من تونس إلى القاهرة



ويليام فاف
William Pfaff



إن صعود الاشتراكية العربية فى مصر واليمن وأفولها فيما بعد لم يقطع الطريق على السلبية السياسية فى المنطقة



■■ الطغاة لا يموتون عادةً فى فراشهم. كما أن التقاعد الناجح يمثل دائمًا مشكلة بالنسبة لهم ليسوا جميعًا قادرين على إيجاد حل لها. وتصبح هذه المشكلة مشكلة لكل الناس عندما يرحلون. ما الذى ينبغى القيام به بعد ذلك؟ أرسلت الانتفاضة الشعبية التى أسقطت نظام زين العابدين بن على الدكتاتورى فى تونس فى منتصف شهر يناير بارقة أمل إلى الشعوب العربية.

وبصرف النظر عن الحالة اللبنانية الاستثنائية والمعقدة، عانت الشعوب العربية منذ انهيار الدولة العثمانية فى الأغلب من شبه الإمبراطورية الأوروبية، وأنظمة تلك الشعوب العسكرية الاستغلالية والدكتاتورية فى بعض الأحيان، ومؤخراً، من الديكتاتوريات الوراثية، وهى ارتداد إلى الحكم الملكى المطلق تحت ستار علمانى. وأفسد الحلمَ بأمة عربية موحدة ومستقلة تحل محل العثمانيين تسوياتُ السلام أثناء الحرب العالمية الأولى، والتى جعلت معظم الشعوب العربية تسقط فى يد الامبراطوريات الأوروبية كدول انتداب فى ظل عصبة الأمم.

وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية ومهزلة السويس، والتحالف الأمريكى مع المملكة العربية السعودية وإيران وإسرائيل فى سياق الحرب الباردة، وجدت المنطقة نفسها تحت هيمنة السلاح الإسرائيلى والدعم الأمريكى للأنظمة القائمة. كما أن صعود الاشتراكية العربية التى دشنها العقيد الراحل جمال عبد الناصر فى مصر واليمن وأفولها فيما بعد لم يقطع الطريق على السلبية السياسية فى السواد الأعظم من المنطقة، وصارت مصر نفسها، بعد اتفاقية كامب ديفيد عام ١٩٧٨، دولة عميلة أمريكية. ولم يقطع هذا الهدوء سوى الانقلاب الشعبى الإيرانى ضد الشاه، والاضطرابات الطائفية فى لبنان، ثم حرب الخليج والغزو الأمريكى للعراق.

ومع ذلك، بدأ آخرها سلسلة من حركات المقاومة المناهضة للولايات المتحدة والرافضة للوضع القائم والتى عبرت الآن عن نفسها تعبيراً متفجراً، مما أحاط النظام الإقليمى بظلال من الشكوك. أعقبت الثورة التونسية احتجاجات شعبية مناهضة للنظام وأحداث عنف فى القاهرة والإسكندرية ومدن أخرى، حيث توفى أربعة اشخاص فى ٢٥ يناير. حاول ستة أشخاص على الأقل الانتحار بإشعال النيران فى أنفسهم فى الأيام الأخيرة فى مصر ووووقعت أعمال مماثلة فى الجزائر والمغرب وموريتانيا والمملكة العربية السعودية. وقَّع أكثر من ٩٠ ألف مصرى فى «فيس بوك».للمشاركة فى مسيرات ٢٥ يناير (قدَّرت سى إن إن CNN أعداد المشاركين بأنها تراوحت بين ١٥ و٢٠ ألفًا)، والتى استأنفت فى يوم ٢٦ رغم حظر الحكومة لها، ودعت إلى الإطاحة بالرئيس حسنى مبارك. وفى يوم ٢٧ يناير، تظاهر أكثر من ١٥ ألف متظاهر فى عاصمة اليمن صنعاء مطالبين الرئيس على عبد الله صالح بالتنحى.

كان الدافع وراء حالات الانتحار بإشعال النيران فى أجسادهم فى الأيام الأخيرة فى المنطقة، من بينها محاولة لامرأة، أملاً مفترضًا فى أن يلهم ذلك العمل فى بلدانهم ما حققه بائع الفواكه والخضروات بإحدى المحافظات التونسية، الذى كان يحاول إعالة والدته الأرملة وسبعة أشقاء وتعرض للإهانة حينما صفعته على وجهه شرطية عندما أضرم النار فى نفسه فى ١٧ ديسمبر، ليشعل الانتفاضة التونسية. وتوجد صورته فى كل مكان الآن فى تونس - فى الأماكن التى كانت توجد بها صور زين العابدين بن على.

معنى هذا أن النظام القديم تعرض لتحديات، أو أصيب بهزة قوية على الأقل، بل وربما تعرض لضربة قاضية. ومن الأمثلة النموذجية لهذه الأنظمة المدعومة أمريكيًا الرئيس التونسى المخلوع زين العابدين بن على، الذى

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books

ترجمة: علاء الدين محمود عبد الرحمن

قضى الجزء الأول من حياته المهنية كضابط شاب واعد بالجيش. وهذا ما أدى به إلى الالتحاق بالمخابرات والأمن، وهو دائماً طريق النجاح السريع فى العالم العربى المعاصر. انتظم بن على فى دورات دراسية فى الأكاديمية العسكرية الفرنسية فى سانت سير وكلية فورت هولابيرد للاستخبارات التابعة للجيش الأمريكى بولاية مريلاند. ووردت تقارير أن توليه للرئاسة التونسية فى ١٩٨٧ - فى «انقلاب طبى».حينما كان الحبيب بورقيبة، مؤسس الجمهورية (فى ١٩٥٧) الذى أصبح رئيساً مدى الحياة، من الضعف للاستمرار فى القيام بمهام الرئاسة - جاء بالترتيب والتعاون مع الاستخبارات الإيطالية والجزائرية. ووفقاً لبعض الخبراء، لم يكن الفرنسيون، الحكام الاستعماريون السابقون للبلد، ووكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية ضالعين بصورة مباشرة، لكنهم سرعان ما تبنوا اهتماماً إملائياً بالنظام التالى.

للإصلاح التقليدى نتائج عكسية أيضاً. فقد أنتجت إصلاحات بن على الاقتصادية والتعليمية أفضل الدول المغاربية (والتى تشمل أيضاً الجزائر وليبيا والمغرب وموريتانيا) تعليماً وأكثرها ازدهاراً، لكنها أدت إلى ظهور شباب أكثر تأهيلاً وأقل تقديراً فى سوق العمل وطبقة وسطى متململة ومحبطة ساهمت بصورة حاسمة فى إسقاطه.



بعد تولى زين العابدين بن على السلطة فى عام ١٩٨٧، تضاعف عدد رجال الشرطة أربع مرات ليصل إلى حوالى ٦٠٠ ألف شرطى، بينما تجاهل إلى حد بعيد الجيش الذى وصلت أعداد أفراده إلى أقل من ٣٠ ألفاً، وزوده بمعدات وأسلحة متواضعة (اثنتى عشرة طائرة هليكوبتر أو نحو ذلك)، حيث كان ضباط الجيش التونسى جمهوريين فى توجههم العام (وفقاً للسفير الفرنسى السابق لدى تونس الأميرال جاك لاناد) وأشار إلى أن الجيش التونسى «لم يكن جيشاً يميل إلى الانقلابات... وإنما كان عامل اعتدال واستقرار». لم يشارك الجيش فى قمع الانتفاضة وتشير مصادر موثوقة أنه نصح بن على فى ١٤ يناير أن أمامه فرصة لا تتجاوز ثلاث ساعات من الحركة الجوية لمغادرة البلاد، وأن عليه أن يستغل هذه الفرصة.

ارتبطت زوجته وأقاربها المباشرون خلال فترة زين العابدين بن على بالإثراء الشخصى الجشع الذى لعب دوراً كبيراً فى الرفض الشعبى للأسرة الحاكمة. وتشير الصحافة الفرنسية إلى إلقاء القبض على ثلاثة وثلاثين من أفراد عائلة الرئيس التونسى السابق وزوجته. هذه قصة مألوفة. وفى البلدان الغربية حيث يحظى الإثراء بالتقدير أيضاً، عادةً ما يكون أساطين الصناعة والمال والمليونيرات من السياسيين وزوجاتهم الثانية (أو أكثر) أكثر حذراً.

تسير الجهود المبذولة لتشكيل حكومة انتقالية تونسية، حتى كتابة هذه السطور، على نحو سيئ، ذلك أن الشعب الذى تخلص من الرئيس بن على - بصورة أثارت دهشة الشعب التونسى نفسه - يبدو الآن غير راضٍ بأن تُسند السلطة إلى مساعدى بن على السابقين أو إلى شخصيات غير مألوفة من المعارضة، والتى عاشت غالباً فى المنفى.

هذا المنعطف، من الناحية التقليدية، هو الساحة التى يخطو فيها شخص على غرار نابليون بونابرت خطوته الأولى، رغم أن الجيش فى تونس ظل محافظاً على نظافه يده خلال فترة صعود نظام بن على وسقوطه. الأمل فى إقامة انتخابات نزيهة بعد أن تحصل جماعات المعارضة، بما فى ذلك أولئك المقيمون بالمنفى، على قدر معقول من الوقت لتنظيم أنفسهم. لكن الجزائر المجاور، خلال سنوات من الحكم العسكرى، وليبيا فى عهد العقيد القذافى غريب الأطوار، ومصر حسنى مبارك (وابنه الطموح) الذى يواجه تحديات الآن تمثل أنظمة قديمة ورَثّة تسبق حكماً جديداً تأمل فيه تلك النخب العربية التى تريد أن تصدق أن الأحداث فى تونس ليست إلا فجراً لمستقبل جديد. أطلق سراح المئات من المعتقلين الإسلاميين، وتجددت المظاهرات فى تونس العاصمة والمدن فى المحافظات فى ٢١ يناير للمطالبة بخروج المسئولين المرتبطين بنظام بن على من الحكومة.

لا يعتزم راشد الغنوشى، الزعيم السابق لحركة النهضة التونسية الإسلامية، الذى قضى عشرين عاماً فى المنفى فى لندن، العودة للمطالبة بالرئاسة ولكن لتسمية مرشحين للانتخابات التشريعية المقترحة فى يوليو. ويعتقد إريك غوب، وهو أحد الخبراء الفرنسيين البارزين فى شئون العالم العربى والإسلامى، أن الإسلاميين قد يصبحون الحزب الأكبر فى المجلس التشريعى لكن دون أغلبية مطلقة، مشيراً إلى أن الأجيال التى تلقت تعليمها فى عهد زين العابدين بن على قد لا ترغب فى استبداله بديكتاتورية دينية.



حان الوقت فى هذا الوضع لتدخل أمريكى على وجه السرعة، حسبما أوصت صحيفة «نيويورك تايمز». الأسبوع الماضى حينما قالت إن واشنطن ينبغى أن تبادر بتهنئة الشعب التونسى بحرارة، وعرضت «المساعدة فى تنظيم قوائم الناخبين والإشراف على الانتخابات»... وتقديم «مساعدة اقتصادية متواضعة». ولابد أن ما كُتب هذا تم فى تجاهل كامل لما يجرى فى العالم الإسلامى خلال العقد الماضى. وتعرض صفحة أخرى من نفس الصحيفة مقابلة متعاطفة مع الزعيم الإسلامى المعتدل التونسى على العريض، الذى تحدث عن رؤى موسعة عن الغرب فى حزبه، و«نسخة فريدة من السياسة الليبرالية الإسلامية»، لكنه لم يُبدِ أى اعتذار بشأن الدعوة للعنف فى الماضى ضد المصالح الأمريكية فى المنطقة، وأوضح عداءه لاستمرار التدخل الأمريكى فى البلدان العربية ودعم الديكتاتوريات، بما فيها الديكتاتورية التى أُطيح بها للتو فى تونس.

بالتأكيد لابد أن يكون واضحاً أن أى جهد أمريكى لأن تصبح الولايات المتحدة الراعى الخارجى لأى حكومة تونسية جديدة سيصيب القوى المعتدلة الموجودة فى مقتل، ويزيد من ردكلة الحركة الإسلامية، واستقطاب ما يبدو فى الوقت الراهن وضعاً يدعو للتفاؤل. لا تحتاج تونس ولا الولايات المتحدة تدخلاً سياسياً وعسكرياً أمريكياً فى العالم الإسلامى - أى فتح جبهة أخرى.

وماذا عن لوران باغبو فى ساحل العاج؟ العضو السابق فى منظمة الاشتراكية الدولية، ساعده الاشتراكيون الفرنسيون أثناء فترة رئاسة ميتران للوصول إلى السلطة، والذى يدعى (أو على الأقل تدعى زوجته البروتستانتية الإنجيلية) أن الله أرسله لحكم ساحل العاج، بغض النظر عن نتائج الانتخابات الرئاسية التى أجريت فى ظل إشراف دولى الشهر الماضى، وتصريحات الأمم المتحدة، والاتحاد الأفريقى، والدول الأجنبية المختلفة حول الانتصار الانتخابى لمنافسه القديم الحسن واتارا الذى طلب محاموه الفرنسيون إعادة فرز الأصوات.

لا يزال باغبو يسيطر على مقر الحكومة فى أبيدجان ولا يزال أنصاره يجوبون المدينة. يحاصر جيش باغبو وجنود متطوعون لحساب الرئيس المعترف به دولياً فى فندق «دو جولف».الفخم، الذى يعيش على إمدادات تأتى بها إليه مروحيات تابعة لقوة الأمم المتحدة فى البلاد، والتى تعتذر وتتراجع مثل قوات الاتحاد الافريقى المتحالفة معها رسمياً عندما تعترض عصابات من الشباب المؤيدين لباغبو الطرقات وتطلب منها الابتعاد. ويصف أحد الصحفيين الفرنسيين هناك، والذى كان أيضاً فى منطقة البلقان فى التسعينيات، قوات الأمم المتحدة بأنها «غير مجدية بصورة مفرطة».

لكن لو كان للأمم المتحدة أن تتوجه نحو تنصيب القادة بالقوة فى مختلف البلدان، بغض النظر عن عدالة القضية، فسوف تكون هناك عواقب وخيمة فى كل مكان بما فى ذلك الولايات المتحدة. ألم يُعلِّمنا اليمين الأمريكى لسنوات أن الأمم المتحدة، وبتحريض من النخب الليبرالية وصحيفة نيويورك تايمز «اليسارية»، تترقب لإرسال مروحياتها السوداء لاعتقال الوطنيين الأمريكيين وتنصيب الكائنات الفضائية والروبوتات داخل البيت الأبيض فى واشنطن؟ ربما تكون الأمم المتحدة تتدرب على ذلك فى أفريقيا.

يحظى باغبو بدعم كتلة اثنية متماسكة تشكل حوالى ٤٥ بالمائة من الناخبين، بينما من يدعم واتارا، وهو مسلم متزوج بفرنسية، هم الأقليات غير المتجانسة والأجانب. يلعب باغبو بأوراق القومية ومناهضة الاستعمار - فهو يطمح لأن يكون رئيساً مدى الحياة، وهو طموح لم يعد طموحاً واعداً الآن. ■

تحـــــولات الـشــــــرق الأوســـــط



روبـــــــرت بـيـــلـــلـــتـــــــرو
Robert H. Pelletreau

■■ الشرق الأوسط يغلى. فقد هزّت انتفاضات شعبية غير مسبوقة عددا من البلاد، خاصة البلاد الثلاثة التى عملت فيها سفيرا للولايات المتحدة الأمريكية: تونس ومصر والبحرين. رفض المتظاهرون-الذين أخذوا طريقهم إلى الشوارع للاحتجاج على ظروفهم المعيشية البائسة- النكوص والعودة تحت طائلة التهديد بالضرب، وتزايدت أعدادهم حتى طردوا رئيسيهما المستبدين فى تونس ومصر من السلطة. وحتى لحظة كتابة هذه السطور، لا تزال الحكومة التى تديرها العائلة المالكة فى البحرين صامدة تقاوم، على أمل أن قواتها الأمنية وتمسكها بالسلطة ستكون من القوة بحيث تصمد فى موقفها أكثر من المتظاهرين. هناك العديد من أوجه الشبه بين الثورات فى هذه البلاد الثلاثة، إلا أن هناك اختلافات كبيرة أيضا. فقد واجهت جميعها معدلات بطالة متزايدة نتيجة للركود العالمى. وكانت تعانى من فجوات متنامية بين الأغنياء والفقراء، وخنق حرية التعبير، وقمع المعارضة، وتفشى الفساد، ومواصلة السيطرة الأوتوقراطية (الاستبدادية) وراء قشرة من الانفتاح الديموقراطى.

لم تكن تونس تبدو هشة للغاية. لقد كانت تبدو دولة تضع الكثير من الأمور فى نصابها الصحيح: توفير التعليم للجميع رجالا ونساء، وانخفاض الإنفاق العسكرى، ونمو اقتصادى إيجابى. كانت الطبقة المتوسطة كبيرة وتنمو، وقد صارت البلد مقصدا سياحيا شهيرا للأوروبيين. كانت الحكومة استبدادية إلا أنها كانت تصر أيضا على علمانيتها وموالاتها للغرب. ومع ذلك كانت الفجوات أكبر مما يظن أحد: فقد أخفى الرئيس التونسى زين العابدين بن على بعناية مستوى الوهن الذى أصاب سيطرته على الحكم، وأضعف علاقاته مع باقى مراكز القوى مثل الجيش والشرطة، وصار الفساد داخل أسرته أكثر علانية وفداحة.

ورغم أن النسبة المئوية للشباب الذين يبحثون عن عمل فى تونس كانت أقل من البلدان المجاورة، إلا أن أكثرهم كانوا من خريجى الجامعات وكانت آمالهم وتطلعاتهم أعلى. وقد تفاقم شعورهم بالإحباط والغضب حتى أصبح لا يطاق. وصار التصرف اليائس من أحدهم- وهو محمد بوعزيزى الذى أشعل النار فى نفسه أمام مركز للشرطة فى مدينة بائسة فى وسط تونس-رمزا وشرارة لتحفيز جيل كامل. كان من الممكن أن تمر تضحيته بنفسه دون أن يلاحظها أحد، إلا أن أحدهم سجلها على كاميرا هاتفه الجوال، وبعدها بقليل عرفت بقية تونس -والعالم كله- ما حدث.

إذن فقد لعبت التكنولوجيا دورا وكذلك فعلت قناة الجزيرة الإخبارية العربية الجسورة التى اختلط مراسلوها بالمتظاهرين، وأرسلوا بانتظام تقارير ذات تأثير مضاعف. استخدم الناشطون التونسيون خدمات التواصل الاجتماعى «تويتر» و«فيسبوك»، لحشد المظاهرات فى الشوارع، ونشر التحذيرات بشأن تكتيكات وحشود الشرطة. علاوة على ذلك، كان موقع ويكيليكس قد نشر قبلها بأسابيع تقارير سرية للسفير الأمريكى فى تونس بشأن الفساد داخل عائلة الرئيس. كان لهذه التقارير تأثير على تحول القيل والقال والشائعات إلى حقائق وتأجيج الغضب الشعبى. إذا فى هذه الحالة، فإننى أزعم أنه تم تحقيق بعض الفوائد: فقد سقط ديكتاتور، واكتسبت التقارير الواردة من سفارات الولايات المتحدة مصداقية جديدة. ومع ذلك، فإن القادة الأجانب سوف يكونون أقل صراحة فى حديثهم مع الدبلوماسيين الأمريكيين فى المستقبل.

لقد ظل الجيش التونسى-ذو الحجم الصغير والمهنية الجيدة-دائما بعيدا عن السياسة. لكنه عندما أمر الرئيس بن على الجيش بأن يدعم شرطة الأمن فى إخماد العصيان، رفض الجيش الانتشار أو إطلاق النار على مواطنيهم. مما يحسب له، كانت الولايات المتحدة أسبق من الحكومات العربية والأوروبية فى الإعراب عن دعم لا بأس به للمتظاهرين، وانتقلت سريعا من الدعوة إلى التهدئة إلى الاعتراف بشرعية مطالب المتظاهرين. وفى خطابه عن حالة الاتحاد، قال الرئيس باراك أوباما: «الليلة، لنكن واضحين: إن الولايات المتحدة الأمريكية تقف مع شعب تونس، وتؤيد التطلعات الديموقراطية لجميع الشعوب». لقد أيدت كلماته المتظاهرين وشجعتهم.

بعد أن حرضتهم التغطية الإعلامية لنجاح التونسيين فى الإطاحة بحاكمهم الديكتاتور، تدفق المصريون إلى الشوارع فى جميع المدن الكبرى فى البلاد، مطالبين برحيل الرئيس مبارك البالغ من العمر ٨٢ عاما والفرعون منذ ثلاثين عاما. وأجج من غضبهم شبح أن يتولى ابنه



لعبت التكنولوجيا دورا وكذلك فعلت قناة الجزيرة الإخبارية العربية الجسورة التى اختلط مراسلوها بالمتظاهرين، وأرسلوا بانتظام تقارير ذات تأثير مضاعف



ROBERT H. PELLETREAU is former United States Ambassador to Bahrain (1979-80), Tunisia (1987-91), and Egypt (1991-93). From 1994 to 1997, he was Assistant Secretary of State for Near Eastern Affairs.

بالاشتراك مع:
Foreign Affairs

ترجمة: مازن النجار

وتـــــــونـــس والـبحـــــــريـــن



(جمال مبارك) لمدة ثلاثين عاما أخرى. ومع ذلك لم يكن من المتوقع أن ينهار النظام بسهولة مثلما كان الأمر فى تونس، وبالفعل لم يحدث هذا. لم يكن مبارك وحيدا ومعزولا مثل بن على، ولم يكن جشع عائلته واضحا للعيان. كان مبارك آتيا من القوات المسلحة، وهى المؤسسة الأكبر والأكثر تماسكا فى مصر، وكان جزءا من التراث العسكرى الفخور الذى أطاح بالملك فاروق، وأنهى نفوذ الاستعمار البريطانى، وحقق الاستقلال تحت حكم جمال عبد الناصر، وأنور السادات ومبارك.

فى البداية، وقف معه كبار ضباط الجيش، ودعموا بهدوء نقله للسلطة الحاكمة إلى عمر سليمان، نائبه المعين حديثا، وصديقه الحميم منذ فترة طويلة. ولكن عندما فشلت الأساليب العنيفة للعناصر الأمنية غير النظامية فى قمع المظاهرات الحاشدة فى ميدان التحرير، دفع كبار ضباط الجيش-الذين اعتبروا أنفسهم قبل كل شىء أوصياء على أول ثورة مصرية- مبارك إلى التقاعد. تشهد مصر الآن تحولين اثنين: الأول من مبارك إلى حكومة أكثر شمولا؛ والثانى من الحكم العسكرى المباشر إلى النفوذ العسكرى المخفف، وإن كان لا يزال قويا فى الشؤون المصرية.

كان التوصل إلى صياغة الاستراتيجية الصحيحة فى مصر مهمة أكثر حساسية وتعقيدا بالنسبة للولايات المتحدة الأمريكية مما كان عليه الأمر فى الحالة التونسية. ففى حين أن مصالح الولايات المتحدة فى تونس محدودة، نجد المصالح الأمريكية فى مصر واسعة جدا، وتشمل: الحفاظ على معاهدة عام ١٩٧٩ للسلام بين مصر وإسرائيل باعتبارها الضمان ضد حرب أخرى كبرى فى الشرق الأوسط؛ الحفاظ على الوصول إلى خطوط الاتصالات فى جميع أنحاء مصر، والتى هى طرق الإمداد الرئيسية للقوات الأمريكية فى العراق والخليج والشرق الأقصى، والإبقاء على طرق نقل النفط مفتوحة من خلال قناة السويس وخط أنابيب سوميد؛ استمرار التعاون ضد القاعدة والجماعات الإرهابية الأخرى؛ وتشجيع القوى المعتدلة فى المنطقة. ومما له أهمية نفسية كبيرة أيضا هو وجود حكومة علمانية غير إسلامية فى السلطة فى مصر، التى تعد العاصمة الثقافية ومركز الثقل فى العالم العربى.



اضطرت إدارة أوباما إلى تكييف سياستها مع الظروف المتغيرة على أرض الواقع، وجمعت بين الاتصالات من وراء الكواليس ودبلوماسية الصوت العالى، وتعمل طوال هذا الوقت فى جو الاستقطاب الحزبى بواشنطن، وتتعامل مع العواصم القلقة فى الشرق الأوسط. كان عليها أن تحمى مصالحها الكبيرة فى مصر، وأن تبقى فى الوقت نفسه واقفة على الجانب الصحيح من التاريخ. فمن السابق لأوانه معرفة ما إذا كان سينشأ نظام حكم مصرى ديموقراطى ملتزم بسياسة خارجية معتدلة. إلا أننى أعتقد أن التعامل الماهر للرئيس مع الأزمة المصرية حتى الآن يعزز سجله فى الشؤون الخارجية. أما بالنسبة لأولئك الذين يشعرون بالقلق من أن نفوذ الولايات المتحدة فى المنطقة يتهاوى، فمن الجدير بالذكر أن الدولة الخارجية الوحيدة المهمة فى هذه الدراما المصرية بالنسبة للحكومة، وبالنسبة للقادة الانتقاليين، وبالنسبة لمعظم المتظاهرين، هى الولايات المتحدة الأمريكية.

وبينما تونس تبرد ومصر تشتعل بدون لهب، فإن البحرين، التى تواجه العديد من نفس المشكلات الاجتماعية والاقتصادية التى تعانى منها الدولتان الأخريان، قد تصاعدت فيها ألسنة اللهب. إن عائلة آل خليفة السنية وعلى رأسها الملك حمد بن عيسى آل خليفة تحارب ثورة تصعدها الأغلبية الشيعية فى الدولة التى هى عبارة عن جزيرة، وتطالب بملكية دستورية حقيقية تحل محل الحكومة الحالية. تدعم حمد أقلية من السنة ومن الشيعة ذوى المصالح التجارية، إلا أن بإمكانه أن يعطى حيزا لمطالب الشيعة فقط إلى الحد الذى لا يعرِّض عائلته لخطر أن تجرفها حكومة يهيمن عليها الشيعة. ونظرا لأن بقاء النظام صار على المحك، فقد عرض ملك البحرين بالفعل الحوار بين المعارضة وولى العهد، وتوعد فى الوقت نفسه باستخدام القوة لقمع الاحتجاجات إذا لزم الأمر. إن قوات الأمن التى يتألف معظمها من مرتزقة من جنوب آسيا، والتى يدعمها الجيش بقيادته السُنية، لن يكون لديها نفس التردد-مثل الجيشين التونسى والمصرى-فى إطلاق النار على المواطنين المتظاهرين. بالإضافة إلى هذا، فإن الممالك المجاورة، لا سيما المملكة العربية السعودية، بما فيها من أقلية شيعية متململة فى المنطقة الشرقية، تنظر إلى البحرين باعتبارها خط دفاعها الأول ضد الاضطرابات فى بلادها، وقد تحاول مساعدة حمد على استعادة السيطرة.

لقد قيل الكثير عن كون البحرين هى مقر الأسطول الخامس للبحرية الأمريكية باعتباره السبب الذى يجعل الولايات المتحدة عازفة فيما يبدو عن دعم المتظاهرين بسهولة، مثلما فعلت فى تونس. فى الواقع، لقد وقعت الولايات المتحدة اتفاقات دعم للدولة المضيفة (لقواعدها العسكرية) مع كل دول الخليج؛ والبحرين ليست وحدها فى هذا الشأن. فقد استضافت وجود البحرية الأمريكية منذ أواخر الأربعينيات. على أيه حال، لقد دعا أوباما قادة البحرين إلى نبذ العنف، واحترام حق الشعب فى التظاهر، والتعجيل بالإصلاحات. ويبدو أن الإدارة الأمريكية ستتبع تقريبا نفس قواعد اللعبة التى طبقتها فى مصر.

إن الضجيج واكتساح المظاهرات الحاشدة وسقوط الأنظمة المستبدة ما هى إلا عناوين للأخبار، إلا أن العمل الشاق للانتقال إلى أنظمة سياسية أكثر انفتاحا هو أمر لا يقل أهمية. تجرى هذه العملية فى تونس ومصر. فى تونس يتولى الأمر حكومة مدنية انتقالية. وفى مصر فإن المجلس الأعلى للقوات المسلحة يشرف على كل من الحكومة الانتقالية وعملية الإصلاح. فى البحرين وأماكن أخرى حيث انتشرت حركات الاحتجاج، لا تزال النتائج غير مؤكدة. إلا أن هذه هى لحظة بداية فى المنطقة بأسرها. من الآن فصاعدا ستكون الحكومات القديمة والجديدة ملزمة بأن تبدى المزيد من الاهتمام للرأى العام، وأن تكون أكثر استجابة لتطلعات المواطنين، وأن تسمح بقدر أكبر من المشاركة فى صنع القرار الوطنى. ■

الأيـام الأخيـــــــــرة فـى الـقـصـــــــــر!!

بعد حرب ١٩٩٤م شكل الإصلاح ائتلافاً مع حزب المؤتمر الشعبى العام وقعت فيه الكثير من المناوشات بين الطرفين بعد سقوط العدو المشترك وانفك هذا الائتلاف بعد الانتخابات البرلمانية لعام ١٩٩٧م

ميســاء شـــجاع الــدين



■■ وحيداً فى ميدان السبعين على بعد أمتار قليلة من قصره الرئاسى، يقف الرئيس على عبدالله صالح فى أبريل عام ٢٠١١م بعد ما تخلى عنه كل من كان حليفه ليلة الثامن عشر من يوليو عام ١٩٧٨م عند توليه منصب الرئاسة، ذلك التحالف القبلى العسكرى الاسلامى الذى تفككت حلقاته من حول الرئيس بالتدريج حتى صار الحلقة الاضعف التى يجب التخلص منها على ساحة مشهد تجتاحه جماهير ثورية غاضبة معتصمة فى ساحات التغيير الموجودة فى خمس عشرة محافظة من إحدى وعشرين محافظة يمنية تطالب بالتغيير واسقاط الرئيس. السخط الجماهيرى على الرئيس على عبدالله صالح ليس بغريب لكن حدتها غير مسبوقة كما أن عزلته فى القصر ليست بجديدة لكنها صارت مطلقة بشكل غير مسبوق ايضاً.

البداية قد تساعد على فهم النهاية، وعلى وجه أدق البدايات الأولى لشخص الرئيس على عبد الله صالح الذى ولد على الأرجح فى عام ١٩٤٢م فى قرية بيت الأحمر بسنحان إحدى مديريات العاصمة صنعاء وتقع جنوب شرقها، كان من أسرة فقيرة وعانى كثيراً بعد وفاة أبيه وزواج أمه من بعده. تلقى تعليمه فى المعلامة «أى كتاب القرية» مع رفيق الدرب على محسن الأحمر وما كان يشاع إنه الأخ غير الشقيق لكنه لم يكن اكثر من أخ لأحد اخوانه غير الأشقاء، ليسافرا معاً وبرفقة كل اخوانهما لصنعاء للالتحاق بالجيش عام ١٩٥٨ أى قبل الثورة بأربع سنوات وكان الجيش وقتها ملاذاً من الفقر وشظف العيش. ثم التحق بمدرسة صف ضباط القوات المسلحة فى عام ١٩٦٠ ثم رقى لملازم ثان عام ١٩٦٣ وشارك مع الثوار فى الدفاع عن الثورة اثناء حصار السبعين يوماً على صنعاء عام ١٩٧٠م.

هكذا بدأ يتدرج الرئيس من مرتبة عسكرية لأخرى حتى صار يوم ٢٧ ابريل عام ١٩٧٥ قائد لواء تعز أثناء الفترة القصيرة- لم تتجاوز سنة - من رئاسة الغشمى الذى ينتمى لذات قبيلة الرئيس حاشد لكن من همدان بينما الرئيس على صالح من سنحان، استطاع الرئيس صالح وسابقه الغشمى الاستفادة من خصوم الرئيس الحمدى الذى اغتيل فى اكتوبر ١٩٧٧م ولحقه الغشمى الذى قتل فى يونيو ١٩٧٨م. كانت قوة شخصية



حزب الإصلاح مكون مهم فى السياسة اليمنية
ليس لأنه يمثل الإسلاميين فى اليمن بقدر ما تكمن أهميته فى الطبيعة القبلية للحزب وتحالفه الباطنى مع قائد الجيش



الحمدى وربما راديكاليته ألبت عليه الكثير من الأعداء فى الداخل وكذلك خصومة إقليمية بسبب تقربه من حكومة اليمن الجنوبى -آنذاك- .

حتى نعلم طبيعة الصراع الذى اودى بالحمدى واتى بالغشمى ثم صالح علينا معرفة طبيعة التحالفات التى تشكلت بعد ثورة سبتمبر فى الشمال التى اطاحت بالإمامة . فمنذ الف عام انقسمت اليمن لقسم زيدى شمالى يمتد حتى مرتفعات يريم جنوب العاصمة صنعاء وجزء شافعى يمتد من المرتفعات الوسطى حتى اقصى جنوب شرق البلاد، قد يكون التقارب الفقهى للمذهبين السبب فى تحول هذا التقسيم لمناطقى اكثر من كونه طائفيا وصارت له فيما بعد ابعاد سياسية واجتماعية اخرى حيث تمركزت السلطة سياسياً فى المرتفعات الجبلية الزيدية. تعقدت الأمور كثيراً فيما بعد وانقسمت البلاد سياسياً وصار اليمن الشافعى او الاسفل قسمين قسم تحت الاستعمار البريطانى وقسم تحت حكم الإمامة. لهذه التقسيمات اثرها الحقيقى على الحياة السياسية فى اليمن التى صارت تتجاذبها رياح التغيير التى قدمت من مدينة عدن التى كانت نافذتها الوحيدة للعالم وإرثها التاريخى الاجتماعى الثقيل الذى صارت تمثله مدينة صنعاء وماحواليها لكن هناك ايضاً حدث صدع حقيقى بعد ثورة سبتمبر عام ١٩٦٢م.

كانت السعودية تقف دائماً فى وجه أى رياح تغيير فى اليمن، لهذا تصدت للنظام الجمهورى عقب ثورة عام ١٩٦٢ مما اسفر عن حرب اهلية لمدة سبع سنوات دعمت فيها السعودية باستماتة الجناح الملكى رغم التغاير المذهبى، لكن بعد الحرب الاهلية توجهت السعودية لتبنى سياسة جديدة فى اليمن حيث تغيرت طبيعة تحالفاتها تجاه قبيلة حاشد التى ظهرت بقوة فى الساحة السياسية بلعبها دوراً اساسياً فى الدفاع عن النظام الجمهورى ثأراً لمقتل ابن زعيمها حميد بن حسين الأحمر على يد الإمام وبطبيعة الحال كانت خارج دائرة تحالفات المملكة،لكن هذا تغير ونجحت السعودية فى استمالة قبيلة حاشد التى كانت مستهدفة نظام الإمامة ومستعدية كل ما له صلة بالإمامة بما فيها المذهب الزيدى، دون أن يعنيها كثيراً مطالب المثقفين الداعية لتغييرات جذرية للبلاد تنقلها لحالة الدولة الحديثة بما يعنيه من تراجع لدور القبيلة. لذا لم تأخذ المسألة وقتاً طويلاً حتى انتقلت حاشد لحالة تحالف مع السعودية باعتبارها محور القوى التى تريد المحافظة على المركزية السياسية للحكم القبلى للمناطق الشمالية لكن هذه المرة مع مد سلفى وهابى فى تلك المناطق الزيدية.

جاء الرئيس الغشمى وبعده صالح مع رفيقه على محسن ممثلين الجناح العسكرى لهذا التحالف القبلى الدينى، هنا يجدر التوقف قليلاً عند شهادة الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر شيخ حاشد الذى تحدث عن لحظة صعود الرئيس صالح عندما جاء يطلب دعمه ليكون رئيساً لمدة اسبوع فقط للانتقام من قتلة الغشمى، ودعمه الشيخ الذى ربما يكون مثل غيره استخف بقدرات الرئيس الجديد الذى يبدو صغيراً فى السن وأقل كفاءة وتعليماً ممن سبقوه ولم يكن احد يتصور أن حكمه قد يتجاوز السنة. إذن هكذا بدأت القصة مقتل رئيسين وطلب رئاسة لمدة اسبوع مع حلفاء عسكريين وقبليين وتيار سلفى تدعمهم السعودية التى كانت تعادى أى تقارب لليمن الشمالى تجاه الجنوب.

كارت محروق

كان عام ٢٠٠٦ عاماً فارقاً فى اليمن، واجه فيه الرئيس لأول مرة خصماً حقيقياً فيصل بن شملان فى الانتخابات تقف وراءه احزاب اللقاء المشترك وعلى رأسها حزب الاصلاح الذى كان لأول مرة يعارض الرئيس صالح بجدية، كان بداية تفكك احد جدران المعبد على الرئيس. ظهر حينها الرئيس منفعلاً عندما وصف الاصلاحيين بالمتطرفين والإرهابيين وقاطعه مذيع قناة الجزيرة مذكراً إنهم حلفاؤه ليجيبه ليسوا اكثر من كارت محروق، هل كان يتصور الرئيس صالح انه سيتحول لكارت محروق فى يد حلفائه بعد خمس سنوات؟

حزب الاصلاح مكون مهم فى السياسة اليمنية ليس لأنه يمثل الاسلاميين فى اليمن بقدر ما تكمن اهميته فى الطبيعة القبلية للحزب وتحالفه الباطنى مع قائد الجيش على محسن الأحمر. بدأ حزب الاصلاح بداية غريبة ولافتة حسب ما يتضح من تصريحات رئيسه السابق المتوفى الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر، فالرئيس طلب منه تشكيل حزب بعد اقرار التعددية الحزبية مباشرة بعد الوحدة ليواجه الحزب الاشتراكى لأنه لايستطيع مواجهته بحكم انهم شركاء الوحدة. هكذا يتسلط الضوء قوياً على طبيعة نشأة ابرز احزاب المعارضة اليمنية الذى لم يكن إلا خروجاً من ذات نسيج السلطة التى يعارضها، فمن قبل ذلك لم يكن التيار الاسلامى الذى يمثله الإصلاح إلا شريكا اساسيا فى الحزب الوحيد لدولة اليمن الشمالى - آنذاك- وهو حزب المؤتمر الشعبى العام الذى اسهم بكتابة ميثاقه.

قام حزب الاصلاح بلعب دوره جيداً وكان خصماً لدوداً للحزب الاشتراكى واستقبلت اليمن آنذاك المجاهدين العرب القادمين من افغانستان فى ذروة المد الإسلامى بداية التسعينيات بل وعارضت الكثير من قيادات الحزب آنذاك مثل الشيخ الأحمر والزندانى اتفاق الوحدة على اساس أنه اتفاق مع الملحدين الشيوعيين. واستمر الحزب بتكفيره للحزب الاشتراكى ومحاربته وحشد الانصار حوله حتى انتهت حرب ١٩٩٤ تحت وقع دعاوى التكفير التى تصدر رفعها الحزب.

بعد حرب ١٩٩٤م شكل الاصلاح ائتلافاً مع حزب المؤتمر الشعبى العام وقعت فيه الكثير من المناوشات بين الطرفين بعد سقوط العدو المشترك وانفك هذا الائتلاف بعد الانتخابات البرلمانية لعام ١٩٩٧م، ليجد حزب الاصلاح نفسه فى ساحة المعارضة المليئة بالجرحى قوميين وناصريين وبعثيين جرحى منذ فشل انقلاب ١٩٧٨م والاشتراكيين جرحى منذ حرب ١٩٩٤م.

كان حينها يتوجب على الحزب أن يتخلص من جانبه العقائدى المتشدد وهذا ما بدأ بالتدريج وبدأ الحزب بتحجيم التيار السلفى المتشدد وعلى رأسهم الشيخ الزندانى واللافت إن هذا التيارالسلفى توزع بالتساوى بين الحزبين الاصلاح والمؤتمر الشعبى العام. وظلت العلاقات الرأسية بين حزب الاصلاح والسلطة جيدة على العموم بحكم الود الذى كان يسكن العلاقة بين الشيخ عبدالله بن حسين الأحمر والرئيس على عبد الله صالح عكس ماكان يبدو فى الظاهر من شد وجذب فى ساحات العمل السياسى.

لعنة التوريث

ظل الرئيس على صالح محتفظاً بعلاقات طيبة مع شريكيه الاساسيين فى الحكم على محسن الأحمر قائد الجيش والشيخ عبدالله بن حسين الأحمر شيخ قبيلته، حتى ظهر ابنه على الساحة السياسية وكانت بداية عمله السياسى فى الانتخابات البرلمانية لعام ١٩٩٧م لكن بداية اعداده للتوريث كانت عام ٢٠٠٠م عندما برز دوره فى الجيش بتوليه قيادة القوات الخاصة التى بدأت دورها بالتحكم بجميع مداخل العاصمة اليمنية صنعاء، ولم ترض هذه التحركات بالتحديد شريكيه السابقين.

كان اول اصطدام بين الطرفين الشيخ والرئيس بين ابنائهما فى اكتوبر عام ٢٠٠٢م، عندما اصر ابناء الشيخ على مرور موكب سياراتهم فى شارع السفارة البريطانية المغلق مما اسفر عن مواجهات مسلحة بينهم وبين قوات الأمن المركزى بقيادة زوج ابنة الرئيس وابن اخيه يحيى محمد صالح. توالت بعدها الاحداث بين الطرفين لتصل لمرحلة اللاعودة خاصة عندما انضم حزب الاصلاح لمجلس التنسيق الأعلى للمعارضة عام ٢٠٠٣م ويتشكل ماصار يعرف باحزاب اللقاء المشترك ويصل ذروته عند اشتعال حرب صعدة عام ٢٠٠٤م بامتدادات سيناريوهات التوريث المعروفة لها.

بالتأكيد اثار انتشار المدارس السلفية فى المناطق الزيدية الكثير من الحساسيات واستفز مشاعر المرجعيات الدينية الزيدية خاصة فى صعدة التى تعتبر معقل الزيدية بعد ما شهدته من نشاط سلفى عندما اسس الشيخ هادى بن مقبل الوداعى دار الحديث بدماج عام ١٩٧٨م وفى مقابلها تأسس منتدى الشباب المؤمن للمذهب الزيدى عام ١٩٩٠م.

صارت المدينة مشحونة بالكامل بسبب التوترات الطائفية ومنذ عام ٢٠٠٣م وبعد غزو العراق برزت بشدة جماعة متشددة من منتدى الشباب المؤمن بقيادة زعيمها الكاريزمى عبدالملك حسين الحوثى الذى يبدو إنه كان متأثرا بالمذهب الجعفرى فى إيران والثورة الإيرانية التى كان يردد شعاراتها عقب كل صلاة. تحججت الحكومة بهذه القصة لتشن حرباً ضارية عليهم بيدها القوية على محسن الأحمر، لم يكن صعباً جر على

محسن الأحمر لهذه المعركة بخلفيته السلفية المتشددة حيث تعتبره التيارات الدينية السلفية والاخوانية صمام أمانها فى المرتفعات الزيدية باعتباره يقف بشراسة فى مواجهة أى تحرك زيدى هناك.

لعلى محسن الأحمر هالته من الغموض رغم إنه الرجل القوى فى اليمن ولايقل تأثيراً وسطوة عن الرئيس على صالح ذاته، هو اسم لايتردد كثير اعلامياً والناس ينقسمون حوله ما بين كارهٍ بشدة ومعجب بشدة وهذا أمر يتناسب مع رجلٍ يحيط حياته الكثير من الغموض ويمتلك الكثير من القوة. للرجل ارتباطاته الواضحة بالاسلاميين على مختلف توجهاتهم من اخوان لجهاديين متطرفين، وهو شخص ودود وجذاب اجتماعياً يجيد الاحتفاظ بحلفائه عكس مزاجية الرئيس وتقلبه، لكن هذا لايمنع انه خصم قاسٍ جداً لايناور ولايواجه خصمه السياسى مباشرة فى العادة بل يؤلب عليه حلفاءه ومريديه. كان يد الرئيس الضاربة بقوة على خصومه بدءاً من اول انقلاب واجهه بعد مئة يوم من توليه الحكم مروراً بحروب المناطق الوسطى التى كانت متأثرة بالحكم اليسارى بالجنوب وانتهاء بحرب ١٩٩٤م. رجل له دائرة من العشاق والمريدين ويؤمن بأفكار شديدة الانغلاق تجعله يعادى أى انفتاح وبذات التوقيت أخذ الزيود اليمنيون الذين يمثلون ما لايقل عن ثلث سكان اليمن نصيبهم من العداء وضرب بلارحمة مدينة صعده لمدة لاتقل عن ستة اعوام.

لم ينفك على محسن الأحمر من التأكيد إنه لن يكون تحت إمرة رئيس آخر بعد على عبدالله صالح معلناً رفضه الكامل لسيناريو التوريث، لذا وجب التخلص منه لتمهيد الطريق لأحمد على للصعود لسدة الحكم، بدت حرب صعدة فرصة مناسبة لجر الرجل إلى حرب قد تقضى عليه، فى وقت انقسم فيها الجيش لقسمين قسم لعلى محسن الأحمر وآخر لأحمد على. واكدت وثائق ويكيليكس تلك الرغبة فى التخلص من على محسن عندما قدمت الحكومة اليمنية معلومات استخباراتية خاطئة للطيران السعودى لضرب مقرات اقامة القائد على محسن فى صعدة.

ليس هذا فقط بل كان لسيناريو التوريث تداعياته فى الجنوب حيث انضم الكثيرون من المحسوبين على القائد على محسن الأحمر للحراك الجنوبى عام ٢٠٠٩م و كان أبرزهم زوج ابنته طارق الفضلى شيخ أبين المعروف بتاريخه الجهادى فى افغانستان الذى استكمله بتفجير فندق عدن بداية الوحدة واستهداف القيادات الاشتراكية مما زج به فى السجن حتى اندلاع حرب ١٩٩٤م.

الايام الاخيرة لمن؟

سيناريو التوريث بالتأكيد ارهق الرئيس كثيراً واضعف موقفه فخلق له الأعداء فى الداخل وجعله عرضة للابتزاز فى الخارج، نتاج ذلك جاءت حادثة النيجيرى وحرب صعدة السادسة التى شاركت فيها السعودية لتكشف ضعف الموقف الحكومى للدولة اليمنية التى ضاق عليها هامش المناورة دون أن تكف عن التلاعب لصالح قضية التوريث. هكذا قدم الرئيس صالح معلومات خاطئة للسعودية للتخلص من غريمه على محسن وتعامل بعدم جدية مع قضية القاعدة ليبقيها خطراً قائماً حتى لايحصل الحراك الجنوبى على دعم دولى. ليس هذا فقط بل انفض من حول الرئيس مستشاروه وصار يتحرك ضمن دائرة ضيقة من افراد الاسرة والمتملقين، مع تعطل مؤسسات الدولة بالكامل لتقع البلاد تحت سيطرة شخصية مطلقة وتواجه مخاطر عدة شمالاً وجنوباً ناهيك عن الفقر والفساد اللذين سجلا اعلى معدلاتهما معاً.

بدا واضحاً أن اليمن صارت دولة متهاوية داخلياً لكن لم يتبق للرئيس سوى الدعم الخارجى للسعودية والغرب متمثلاً ببريطانيا وأمريكا، وكان هذا الدعم الخارجى هو كمامة اكسجين حقيقية للرئيس الغارق فى المشاكل. بدا واضحاً حجم احتياج الرئيس للخارج بسبب تآكل قاعدته الداخلية، وهذا ما يفسر حالة الهلع التى ظهر عليها عند قضية الطرود المفخخة التى كشفت ملابساتها حجم السأم السعودى حيث قدمت معلوماتها الاستخباراتية لأمريكا وبريطانيا وليس لليمن وبدا واضحاً أن الرئيس تلقى صفعة قوية حينها بسبب تلاعبه المستمر. يومها بدا الرئيس اليمنى رجلاً يجتر أيامه الآخيرة لكنه الوحيد الذى لم يدرك تلك الحقيقة، بل بالعكس اعلن يومها فى غمرة انشغال العالم بقضية الطرود المفخخة بفشل الحوار مع احزاب المعارضة الذى كان استمر لمدة عامين وكان توصل لاتفاق اولى لاجراء انتخابات برلمانية للبلاد عام ٢٠١١م، وتمادى كثيراً إذ قدم بعدها بفترة وجيزة طلبه لمجلس النواب لتعديل الدستور بشكل يتيح له البقاء رئيساً مدى الحياة.

كان هذا فى منتصف ديسمبر الماضى حيث بدأت تشهد البلاد بعض الاحتجاجات ضد التعديلات الدستورية المزمعة وبدا واضحاً أن اليمن من جديد تسير فى طريق أزمة سياسية بدت خانقة آنذاك، توالت الاحداث سريعاً ثورة تونس ثم مصر وبدأ الرئيس يتراجع تدريجياً، عقب ثورة تونس تراجع عن طلبه لتعديل الدستور وبمجرد اندلاع ثورة مصر دعا احزاب المعارضة للحوار متعهداً بعدم الترشح لولاية ثانية وعدوله عن التوريث.

بدا واضحاً إن الرئيس يحاول الانحناء للعاصفة بثقة إنه مر بأزمات كفيلة بجعله قادرا على تجاوز هذه ايضاً مع تأكده من توفر الغطاء الخارجى لكنه لم يكن جاداً فى الاصلاح حيث لم يقدم أى خطوات حقيقية فيما كان يقوله أمام شارع كان جاهزا للغليان، وبالفعل بدأ الغليان عقب ثورة تونس مباشرة وانفجر بشكل كبير أثناء ثورة مصر. لم يكن الانفجار الشعبى المفاجأة لكن كانت المفاجأة فى سقوط مراهنات الرئيس حيث راهن على تسلح الشعب اليمنى وتحويلها لصراع مسلح كما حدث مع الحراك الجنوبى أو بالايقاع بين الأطراف المختلفة بين شمالى وجنوبى، حوثى وسلفى وهكذا. لكن سلمية الثورة واستلهامها الهوية اليمنية التاريخية الجامعة جعلها متعسرة على التماهى مع النظام الذى سهل عليه التلاعب مع كل خصومه من احزاب وحراك وحوثيين.

استطاعت ساحات التغيير أن تجذب اعدادا كبيرة بانضباط عال دعا الكل ليلحق بها، انضم لها خصومه من ذات التحالف الذى بدأ معه ولم يكن غريباً أن ينضم لها الفريق على محسن الأحمر مدعياً حماية المتظاهرين. اللافت هنا هو تعامل حزب الاصلاح الذى صار ارتباطه بالقائد على محسن الأحمر صريحاً وليس خفياً والذى بدا مندفعاً ومحفزاً لتصعيد المظاهرات واقتحام المنطقة الخاصة بمؤيدى الرئيس للوصول للقصر الرئاسى، لكن تصدى له الشباب المستقل من الثوار الذى تثق فيه الغالبية العظمى حيث رفضوا ذلك معتبرين أنه يعرض البلاد لحرب أهلية وإنهم لن يتحركوا تحت حماية دبابة على محسن الذى طلبوا منه عدم التدخل بعد انضمامه للثورة.

هذا الحدث يكشف إنه لازالت القوى التقليدية تتحرك بذات المفاهيم محاولة ايجاد موطئ قدم لها فى الساحة بذات المفاهيم والقيم مستمدة من الثورة شرعية جديدة لكن الساحة السياسية تغيرت وللأبد، فهى بالتأكيد صارت تشهد ظهور قوى جديدة لن تقبل من جديد أى احتكار للحياة السياسية سواء من قبيلة أو حزب أو عودة لحكم الجيش اضافة لقوى قديمة مثل الحراك الجنوبى والحوثيين لن تقبل بالتجاهل من جديد. فإذ يتحدث على محسن الأحمر والشيخ حميد الأحمر عن عدم رغبتهم بالترشح للرئاسة فهو امر ليس فيه من الزهد بقدر مافيه ادراك كامل منهم أن قبول الآخرين لهم صار ضعيفا رغم المال والآلة الاعلامية الضخمة التى يمتلكونها، حيث صار هناك مايشبه التطابق بين اليمنيين حول ضرورة كسر دائرة احتكار القوى فى قبيلة حاشد وبناء شكل توافقى جديد للدولة اليمنية.

بالتأكيد لن يسقط النظام اليمنى بكل مفاهيمه ليس لأن تحالفاته لازالت قائمة بل لأنه كان نظاما لايتكون من حزب وافراد ومؤسسات بل من شىء اعمق من هذا، هو ناتج عن موروث تاريخى واجتماعى ثقيل استطاعت البلاد رغم الشرنقة الاقليمية المزعجة والاوضاع الاقتصادية المرهقة من تجاوز الكثير فيه، ففى خلال خمسين عاماً استطاعت البلاد أن تحقق ثورتين أولهما اسقطت نظام الإمامة وأخرى حققت استقلال ووحدة الجنوب ثم وحدة بين الشطرين والآن ثورة تحافظ على الوحدة وتدعو لدولة مدنية، هذه كلها انجازات عظيمة تحققت فى فترة قياسية قياساً على البيئة الصعبة التى يتحرك بها اليمنيون. وهى كلها انجازات تتراكم على بعضها البعض فالوحدة سقوطها كان يعنى سقوط انجازات الثورتين اللتين سبقتاها والثورة الآن سقوطها يعنى سقوطا للوحدة وهذا يجعل من خطورة التحدى القادم اكبر فى بلد لم تعرف الاستقرار إلا من خلال التوافق بين مكوناتها الاجتماعية المختلفة.

هذه المنجزات كلها قد لاتنجح فى تحقيق اهدافها كاملة لكنها بالتأكيد تنجح فى تحقيق وعى تراكمى لايمكن تجاهله، فالثورة الحالية إذ قامت فهى قامت ضد انتهاك قيم النظام الجمهورى بتجاوز حكم الرئيس العقود الثلاثة وتماديه فى سيناريو التوريث ومن ثم تهاونه فى الحفاظ على وحدة البلاد. واليوم يحقق اليمنيون وعيا تراكميا جديدا بمفاهيم الارادة الشعبية والعمل المدنى فى السياسة دون استخدام السلاح وهذا حتى آلان يعتبر نجاحاً كبيراً للثورة اليمنية التى حتى كتابة هذا المقال لم ينته فصلها الاول بإطاحة الرئيس، حيث لازالت الساحة السياسية فى حالة شد وجذب بينما تمترست الدبابات والأسلحة الثقيلة فى وسط شوارع صنعاء منقسمة بين المعسكرين على محسن وأحمد على متأهبة للقتال،لا احد يعلم لأين تتجه مجريات الأمور لكن حتى ذلك الحين فمن المؤكد أن التغيير قادم لامحالة فى اليمن لكن بأى كلفة وأى اتجاه؟ ■

تفكيـــــــك صـــــــالح

مــــــــى يـمـــــــــانـى
Mai Yamani

■■ لقد انتهى على عبد الله صالح كرئيس لليمن. فقد اتسعت الاحتجاجات الديمقراطية الشعبية التى بدأت على نطاق ضيق فى منتصف شهر فبراير/ شباط خارج جامعة صنعاء لتشمل البلاد بالكامل. وتشير استمرارية وقوة المظاهرات بكل وضوح إلى أن أيام النظام أصبحت معدودة. فقد انضم زعماء القبائل إلى المحتجين. حتى أن بعض أقرب الحلفاء من قبيلة حاشد التى ينتمى إليها صالح ذاته، مثل على محسن الأحمر، تخلوا عنه. والآن يبدو أن حتى الولايات المتحدة، التى وفرت له الحماية لمدة طويلة، بدأت تتخلى عنه.

إن صالح، الذى تولى السلطة منذ عام ١٩٧٨، يدرك الآن أن زمنه قد انتهى. ولقد علق مؤخراً على المنشقين على نظامه قائلا: «إنهم يتساقطون كأوراق الخريف». كما زادت الاستقالات: من سفراء، ووزراء، وشخصيات إعلامية بارزة، وجنرالات الجيش.

والواقع أن المجموعة الأخيرة كانت الحاسمة: فحينما يتخلى كبار المسؤولين العسكريين والأمنيين عن نظام استبدادى فى مواجهة ضغوط شعبية، تصبح أيام هذا النظام معدودة. ورغم ذلك فإن صالح لا يزال محتفظاً بولاء وزارة الداخلية، والحرس الجمهورى، وجزء من القوات الجوية. إلا أن الاشتباكات بين الجيش وقوات الحرس الجمهورى تؤدى بشكل أكبر إلى تآكل ما تبقى من تماسك النظام.

ومثله كمثل غيره من الحكام المستبدين فى سكرات موتهم السياسى، الرئيس المصرى الأسبق حسنى مبارك، والعقيد الليبى معمر القذافى على سبيل المثال، حذّر صالح من المخاطر التى ستواجه العالم إذ أرغم على الرحيل: مثل الإخوان المسلمين، وهجمات القاعدة، والهيمنة الإقليمية الإيرانية، وتفكك اليمن. وفى اعتقادى أن هذا هو كل ما يستطيع أن يسوقه من مبررات لاستمراره فى الحكم.

فى غمرة من اليأس أمر صالح بشن هجمات قاتلة ضد المحتجين، ومن الواضح أنه تصور أن مهارته الكبيرة فى المناورة السياسية كفيلة بإبلاغه مقاصده بسلام. ولكن منذ إعلانه لحالة الطوارئ فى الثالث والعشرين من مارس/آذار، تضاعفت أعداد المحتجين فى الشوارع. ونظراً لافتقار نظامه للشرعية بوضوح فإن صالح يمارس لعبة خطيرة، وكلما سارع بالرحيل كان ذلك أفضل لاستقرار اليمن وأمنه.

والواقع أن كل اليمنيين. الحوثيين، والحراك اليمنى الجنوبى، بل وحتى الحاشديين. يظهرون اتحادهم فى معارضتهم لنظام صالح المريض وفى سعيهم إلى الحصول على حقوقهم المدنية والإنسانية. ولقد أقام أعضاء المئات من القبائل الخيام فى «ساحة التغيير» فى صنعاء. ولعل الأمر الأكثر لفتاً للنظر أن المحتجين، فى دولة تحتوى على أكثر من ١٢ مليون سلاح نارى، لم يطلقوا رصاصة واحدة.

ثم فى عشية «جمعة الرحيل» التى خططت لها المعارضة اليمنية فى أواخر مارس/آذار، ردت الولايات المتحدة الحياة لحكم صالح، وذلك عندما أعلن وزير الدفاع الأميركى روبرت جيتس أن «سقوط صالح من شأنه أن يفرض مشكلة حقيقية بالنسبة للعمل الأميركى فى مكافحة الإرهاب». وسرعان ما ظهر صالح، الذى تشجع بتصريحات جيتس، على شاشات التلفاز ليأمر كل المعارضين بالرحيل عن اليمن. وكأن الملايين من اليمنيين قد يهجرون بلدهم ببساطة، ويتركونه هو وأفراد أسرته يعيشون فى سلام.

منذ عام ٢٠٠٩، دأبت الولايات المتحدة على إمطار حكومة صالح بالمساعدات العسكرية. ولكن الولايات المتحدة تدرك أن تنظيم القاعدة يشكل عدواً مريحاً لصالح، وأن التهديد الذى قد تتعرض له مصالح الولايات المتحدة برحيل صالح مبالغ فى تقديره. إن الديمقراطية لا تتعايش مع القاعدة. بل إن الأمر على النقيض من ذلك تماما، فالتهديد المتزايد المتمثل فى التطرف ينبع فى الأساس من تأخير رحيل صالح.

لقد بلغت مصداقية أميركا، المتدنية فى اليمن بالفعل، أدنى مستوياتها الآن؛ ولم تعد الكلمات الواردة على لسان زعمائها تؤخذ على محمل الجد. والواقع أن الفجوة بين خطاب الولايات المتحدة وسياستها اتسعت إلى حد كبير. فقد اعتمدت إدارة أوباما على لغة حقوق الإنسان فى ليبيا، ولكنها كانت راضية بتجاهل المطالب الديمقراطية التى ينادى بها الملايين من اليمنيين.



والحقيقة هى أن الولايات المتحدة أدركت لأسابيع أنها غير قادرة على إنقاذ نظام صالح. ويرتبط اهتمامها ببقاء صالح سياسياً ارتباطاً وثيقاً بوصايتها على النظام السعودى، الذى يخشى أن يؤدى الاهتياج فى اليمن إلى انتقال أفكار خطيرة عن الإصلاح الديمقراطى إلى السكان السعوديين المنتمين إلى الطائفتين الشيعيتين الزيدية والإسماعيلية، إن لم يفض ذلك إلى تهديد وجود الدولة السعودية ذاته. فالمعروف أن القبائل الجنوبية فى المملكة العربية السعودية والقبائل الشمالية فى اليمن تنتمى إلى نفس الأصل تاريخيا، فى حين يحتج الشيعة فى شرق المملكة الغنى بالنفط على نفس الخط مع الشيعة فى البحرين.

ولم يكن من المستغرب أن يحاول صالح التعلق بشريان الحياة السعودى المألوف، حينما أرسل وزير خارجيته إلى الرياض لالتماس نفس النوع من المساعدة الذى قدمه الملك السعودى للبحرين. ولكن السعوديين، الذين دعموا صالح ماليا، والذين أرسلوا قوات إلى اليمن فى عام ٢٠٠٩ لمساعدته فى شن حرب ضد الحوثيين، يرون الآن أن أوان إنقاذه قد فات. وهم يراهنون بدلاً من ذلك على نجاح تحالفات جديدة محتملة داخل اليمن فى التعامل مع جارتهم اليمن التى بات من الصعب التكهن بمستقبلها.

وأخيرا، يبدو الأمر الآن وكأن الولايات المتحدة أدركت أن إعادة نظام صالح إلى الحياة باتت مستحيلة. والواقع أن التدبير الأكثر تعاطفاً والذى ينبغى على الولايات المتحدة والمملكة العربية السعودية اتخاذه الآن هو شكل من أشكال القتل السياسى الرحيم. ولقد عبر أحد المحتجين الشباب اليمنيين عن هذه القضية بإيجاز: «أميركا، أوقفى جهاز دعم الحياة الذى تزودين صالحا به وتعاملى معنا مباشرة. فاليمن هو الشعب اليمنى، وصالح ليس أكثر من خدين لك». ■

Dr. Mai Yamani is a Saudi Arabian independent scholar, author, and anthropologist.Her most recent book is ‘The Cradle of The Hijaz and a Quest for-Islam an Identity in Saudi Arabia‘ (I.B.Tauris: London, 2004. Published in Arabic Al Saqi: Beirut, 2005)

ترجمة: أمين على

مــايــكـــــل بــرونــيــنـــــــج
Michael Broning

رغم ما فى نظرية «قطع الدومينو المتساقطة» من صحة، إلا أن الأمر يختلف بالضرورة من نظام إلى آخر، ومن بلد إلى آخر. ماذا يجرى فى سوريا؟ التى استند نظامها دوما إلى مقولة أنه يقف على يسار الأنظمة العربية الأخرى؟ فى أى زاوية يكمن «الأسد» هذه المرة؟ وما هو السيناريو الذى يمكن أن نتوقع؟



ثمن الاقتراب من عرين الأسَد

■■ بينما تهز الثورات عروش الأنظمة الاستبدادية من تونس إلى المنامة، سرعان ما رجح خبراء أن القيادة السورية قد جاء دورها لتسقط. وكشأن بقية البلاد الأخرى فى المنطقة، تعانى سوريا من الفقر المدقع. فى الظاهر، تبدو أوجه التشابه بين نظام دمشق الاستبدادى والأنظمة الأخرى فى تونس ومصر وليبيا مثيرة للدهشة. إذ يحكم نظام الحزب الواحد سوريا بقبضة من حديد منذ عقود، تماما كما هو الحال فى تونس ومصر. وعلى مدى العقود الخمسة الماضية، تم وضع البلاد بصفة مستمرة تحت طائلة قانون الطوارئ الدائم، والذى استخدم أيضا-كما هو الحال فى نظيراتها من دول شمال أفريقيا-لقمع الدعوات إلى المزيد من المشاركة السياسية. لكن على الرغم من أوجه التشابه المتعددة، فإن نظرة فاحصة لسوريا تكشف أن نظام الأسد-والذى قاده بشار الأسد خلال العقد الماضى-من غير المرجح أن يسقط. فمن قبيل المفارقة، أن الوضع الاقتصادى العسير فى سوريا، وسيطرة الأقلية العلوية على مقاليد الحكم هناك-والذى يتم تأمين استمراره بآليات القمع-ستحول دون تمكن قوى المعارضة من حشد كتلة شعبية حاسمة فى المستقبل القريب.

حققت سوريا فى الآونة الأخيرة معدلات نمو اقتصادى سنوى يبلغ نحو أربعة بالمائة، بيد أن البلاد لا تزال تعانى بطالة شديدة، وتفاقم تكاليف المعيشة، وركود الأجور، وانتشار الفقر. على الرغم من البيانات الاقتصادية الرسمية فى دمشق (وهى سيئة السمعة فيما يتعلق بتقاريرها المفرطة فى التفاؤل)، تشير إلى أن البطالة فى الربع الأول من عام ٢٠١٠ قد بلغت حوالى ٨ بالمائة من قوة العمل، غير أن التقديرات المستقلة تقدرها بحوالى ٢٠ بالمائة، مع معدلات أعلى فى أوساط جيل الشباب. ونظرا لأن الشباب العاطل المحبط كان إحدى القوى المحركة للثورات فى تونس ومصر، فقد أشار مراقبون بحماسة إلى أن معدل البطالة بين الشباب فى سوريا مؤشر ينبئ بثورة محتملة.

إن الشباب السورى بالتأكيد يشارك الشباب فى مصر وتونس نفس المظالم الاقتصادية، إلا أنه من غير المرجح أن يحفز انتشار الفقر والبطالة على تغيير مفاجئ للنظام الآن. وبرغم سياسة التحرير الاقتصادى الحذر التى بدأها الأسد بعد توليه مقاليد الرئاسة فى عام ٢٠٠٠، إلا أن المجتمع السورى لا يزال يتميز بدرجة عالية من المساواة. صحيح أن السلع الغربية الفاخرة أصبحت متاحة بشكل متزايد للنخب، وأن الاتهامات وجهت لبعض أفراد من أسرة الأسد بالمحسوبية والتربح، إلا أن تراكم الثروات الطائلة فى يد نخبة الأقلية السياسية كان هو الاستثناء وليس القاعدة. لقد حدت العزلة السياسية والاستبداد المحلى من آفاق تطور طبقة وسطى واعية سياسيا وقادرة اقتصاديا. فى هذا الصدد، يختلف الوضع فى دمشق كثيرا عن تونس ومصر وليبيا قبل الثورة. ففى كل هذه البلدان الثلاثة، زاد الغضب الشعبى بسبب الفجوة الاجتماعية بين طبقة كبيرة من النخبة والأغلبية المهمشة. وعلى عكس السوريين، ينظر المتظاهرون فى تونس ومصر والآن فى ليبيا إلى فقرهم على أنه نسبى، وليس مطلقا، ومن ثم فهو ظلم تسبب فيه النظام.



زاد الغضب الشعبى بسبب الفجوة الاجتماعية بين طبقة كبيرة من النخبة والأغلبية المهمشة. وعلى عكس السوريين، ينظر المتظاهرون فى تونس ومصر والآن فى ليبيا إلى فقرهم على أنه نسبى، وليس مطلقا، ومن ثم فهو ظلم تسبب فيه النظام



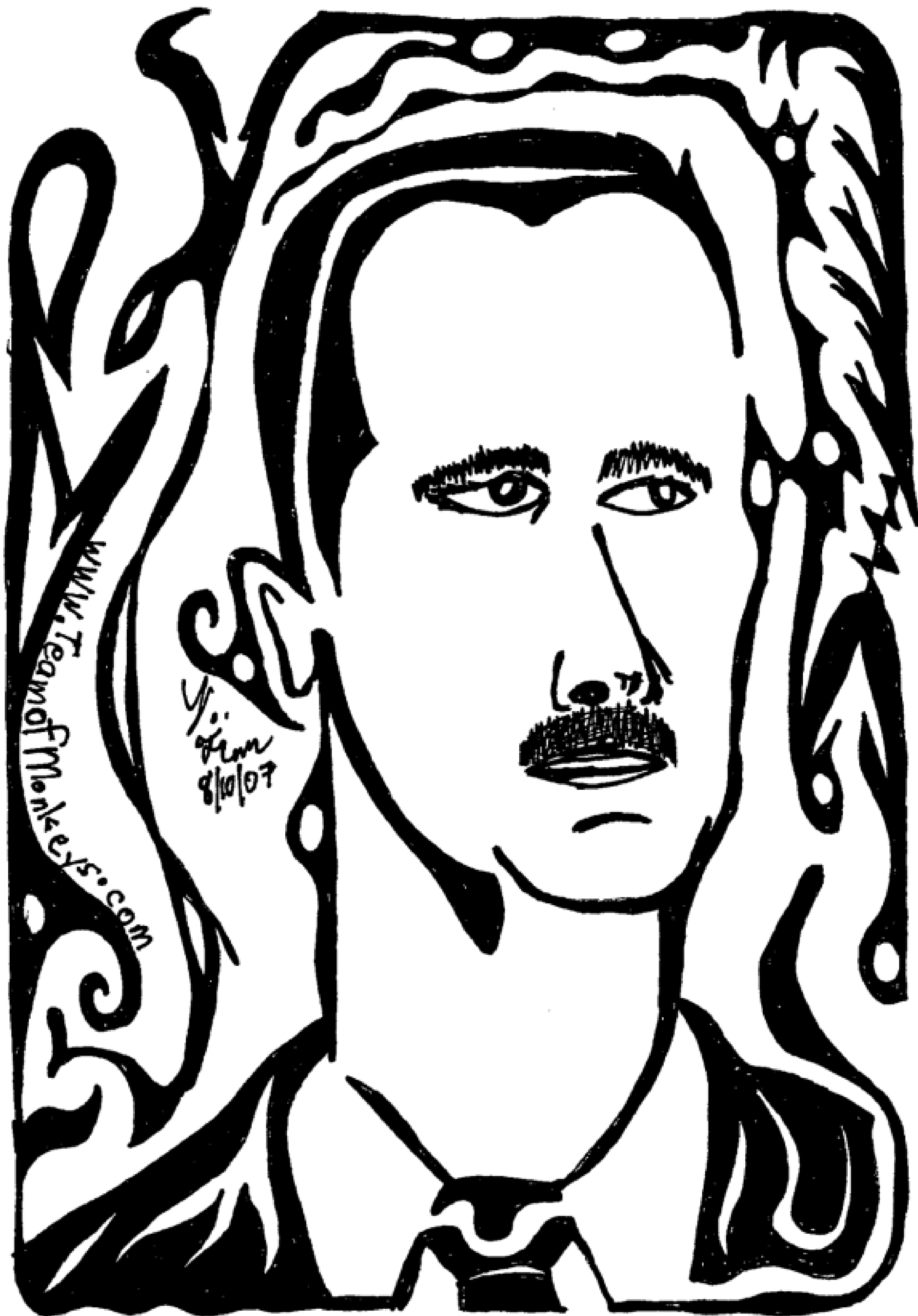
يضاف إلى ذلك أن عائلة الأسد خلال عقود من الحكم، وضعت شبكة أمان سياسية قوية من خلال دمج الجيش فى النظام. ففى عام ١٩٧٠، استولى حافظ الأسد-والد الرئيس الحالى بشار-على السلطة بعد أن ارتقى عبر مختلف رُتب القوات المسلحة السورية. وخلال هذا الوقت، أنشأ شبكة من العلويين الموالين عن طريق تثبيتهم فى المناصب الرئيسة. فى الواقع، إن الجيش والنخبة الحاكمة والشرطة السرية الشرسة متشابكون لدرجة أنه من المستحيل الآن أن نفصل نظام الأسد عن المؤسسة الأمنية. إن تهديد بشار الأسد باستخدام القوة ضد المتظاهرين سيكون أكثر قبولا مما كان عليه الأمر فى تونس ومصر.

لذلك، وخلافا لما حدث فى تونس ومصر، حيث اتجه



MICHAEL BRONING is Director of the East Jerusalem office of Friedrich-Ebert-Stiftung, a German political foundation affiliated with Germany's Social Democratic Party. He is the author of The Politics of Change in Palestine: State-Building and Non-Violent Resistance.

بالاشتراك مع:
Foreign Affairs


www.TeamofMonkeys.com
8/10/07

إن رد فعــل النظــام الليبى العنيف على الاحــتـجــاجــات هــو تــذكـيــر صـارخ لــلـمـعـانــاة الــتــى يـمـكــن لــطــاغـيــة قــوى العــزم أن يلحقهــا بشــعبه

الجيش المدرب مهنيا إلى لعب دور مستقل، فإن النظام السورى والقوات الموالية له كانوا قادرين على ردع معظم الناشطين المعارضين فيما عدا أكثرهم إصرارا وشجاعة. فى هذا الصدد، فإن الموقف فى سوريا يمكن مقارنته إلى درجة معينة بحكم الأقلية السنية القوية بقيادة صدام حسين فى العراق. فى نفس الوقت، فإنه يختلف كثيرا عن ليبيا، حيث الكتائب الأمنية للقذافى-على الرغم من وحشيتها وموالاتها للنظام- هى مجموعات غير منظمة من البلطجية المسلحين أكثر منه جيشا مدربا ومنظما.

والواقع أن استخدام الجيش للقوة ضد المعارضين لم يكن مجرد افتراض. ففى عام ١٩٨٢، قام حافظ الأسد بعملية القمع الشائنة لانتفاضة الإخوان المسلمين فى مدينة حماة، مما أسفر عن مقتل آلاف المدنيين. وفى وقت قريب فى ٢٠٠٤، قمعت القوات الأمنية لبشار الأسد الاحتجاجات الكردية مخلفة وراءها العشرات من القتلى. بل وتزيد عزلة سوريا من احتمال لجوء النظام إلى مثل هذا العنف مرة أخرى. إن للغرب تأثيرا ضئيلا جدا على سوريا خلافا لما حدث فى مصر، حيث ساعد وجود تاريخ طويل من العلاقات الثنائية الودية والجهود الدبلوماسية بقيادة الولايات المتحدة فى تشكيل استجابة الجيش للاحتجاجات المتصاعدة، أو ما حدث فى تونس حيث تلقى الجيش تدريبا مكثفا على يد الولايات المتحدة. ويمكن رؤية عواقب مثل هذه العزلة السياسية فى الشوارع الليبية: فمع عدم وجود من هو قادر على إيقاف الزعيم معمر القذافى-المنبوذ بدوره أيضا- سعى القذافى إلى استخدام القوة المطلقة للحفاظ على قبضته على السلطة. بالنسبة للعديد من السوريين، فإن رد فعل النظام الليبى العنيف على الاحتجاجات هو تذكير صارخ للمعاناة التى يمكن لطاغية قوى العزم أن يلحقها بشعبه.

خصوصية أخرى لسوريا هى انتماء الأسد إلى أقلية دينية، وهى الطائفة العلوية. لقد وصل المراقبون السياسيون إلى إجماع كامل تقريبا على أن انتماءه إلى تلك الأقلية يعرض الاستقرار بعيد المدى لمخاطر شديدة. هذا التقييم معقول ظاهريا إلا أنه لا يفسر سبب الظروف الخاصة لسوريا.

صحيح أن المؤيدين المتحمسين للأسد-خارج المجموعة الصغيرة من النخب التى استمالها-هى أقل مما كان لدى الرئيس التونسى السابق زين العابدين بن على والرئيس المصرى السابق حسنى مبارك، إلا أن معارضة النظام السورى لديها تأييد شعبى أقل. وعلى خلاف غيره من الطغاة، يرى الكثيرون الأسد كثقل موازن (مضاد) للتفكك الطائفى بدلا من أن يكون نصيرا للمصالح الطائفية. وعلاوة على هذا، فقد تعرض السوريون تعرضا متكررا ومباشرا للنتائج المدمرة للصراعات الطائفية فى العراق ولبنان. ففى عامى ٢٠٠٥ و٢٠٠٦، تدفق مئات الآلاف من اللاجئين اللبنانيين والعراقيين إلى دمشق مذكرين السوريين بالعواقب الوخيمة للمجازر التى تغذيها الفتن الدينية. وبعد رؤية كيف أن الطائفية أوهنت لبنان والعراق، فقد صار لدى المجتمع السورى بتعدديته سبب وجيه للإذعان لقيادة الأسد.

بالإضافة إلى ذلك، فإن شباب الأسد النسبى (فهو فى العام الخامس والأربعين من عمره، بينما بن على ٧٤ عاما، ومبارك ٨٢ عاما، والقذافى ٦٨ عاما)، وسجله من العداء القوى للغرب يعطيه طبقة من الحماية لا يتمتع بها الزعماء الآخرون. ويرى العديد من السوريين أن معارضته للغزو الذى قادته الولايات المتحدة للعراق وتصريحاته المناهضة لإسرائيل على أنها معارضة مرغوبة وتصب فى المصلحة الوطنية.



فى الواقع، لقد ترجمت سمعة الأسد فى الغرب باعتباره منبوذا إلى شعبية فى بلده. فبطريقة ملتوية إلى حد ما، ينسجم استعداده للوقوف فى وجه الولايات المتحدة مع موضوع الكرامة العربية التى احتشد لها المتظاهرون فى جميع أرجاء المنطقة العربية. وفى الحين الذى اتخذ فيه القذافى موقفا مماثلا معاديا للغرب، فإن قرب سوريا الجغرافى من الصراع العربى الإسرائيلى (ودخولها المباشر فيه) أعطى للخطاب المقاوم من الأسد مصداقية أكبر بكثير من القذافى، خاصة بعد تحسن علاقات القذافى مع الولايات المتحدة فى العقد الماضى.

هذا لا يعنى أن النظام السورى أظهر لامبالاة تامة بالتطورات فى المنطقة. أظهر النظام على الأقل بعضا من عدم الارتياح تجاه الإطاحة بنظرائه فى تونس ومصر، ووعد الأسد مؤخرا بإصلاحات «لانفتاح المجتمع». و«بدء الحوار». لكن اقتصرت إصلاحاته-حتى الآن-على زيادات مخصصة لأجور معينة، و(مما يثير الدهشة) رفع الحظر عن شبكات وسائل الإعلام الاجتماعية. ومع ذلك، فإن السوريين على الأرجح يفضلون وضع آمالهم فى عملية إصلاح بطيئة، ولكنها مستقرة، بدلا من ثورة عنيفة متقلبة. إن الدعوات على الفايسبوك لـ«يوم الغضب».فى سوريا لا تجد تجاوبا كافيا إلى الآن.

بالتأكيد، الاختبار المبكر لما إذا كان ما وعد به الأسد من إصلاحات كافيا سوف نراه فى الانتخابات البلدية والبرلمانية المقرر إجراؤها فى وقت لاحق من هذا العام. أيا كانت نتيجة هذه الانتخابات، يبدو أن الموجة الحالية من مكافحة الاستبداد سوف تستمر فى الابتعاد عن اجتياح سوريا. من المفارقات أن النظام العربى الوحيد الذى يريد قادة الغرب بشدة رؤيته وقد أطيح به خارج السلطة قد ينتهى به الأمر وقد وطد دعائم سلطته نسبيا مقارنة بالنظم الناشئة فى باقى دول المنطقة. وهذا يبعث على القلق بوجه خاص، نظرا لاحتمال أن ينظر النظام الذى لم يتزعزع فى سوريا بجدية فى التقارب مع القيادة المصرية التى سيتم انتخابها قريبا. ومن ثم فإن مسألة كيف ينبغى للغرب أن يجتذب الأسد نحوه، والتى عزز أهميتها الآن زوال القادة المدعومين من الغرب فى تونس ومصر سوف تعاود الظهور قريبا بشكل أكثر حدة. ■



فى عــامى ٢٠٠٥ و٢٠٠٦، تدفــق مئــات الآلاف مــن اللاجــئين اللبــنانيين والعــراقيين إلى دمشق مذكرين السوريين بالعواقب الوخيمة للمجازر التى تغذيها الفتن الدينية





دراما عربية

برنارد هايكل
Bernard Haykel



■■ لقد دخل العالم العربى إلى الفترة الأكثر دراماتيكية فى تاريخه الحديث. فالآن تسقط الأنظمة القَمعية وتُكتسَح أمام الشعوب العربية التى بدأت تأخذ مصائرها بأيديها الآن.

ولكن هذه اللحظة الانفعالية المتوقدة لا تنبئنا بما قد يخبئه المستقبل. ففى أحسن الأحوال، لا يزال الطريق إلى الديمقراطية طويلا: فالمؤسسة العسكرية لا تزال تهيمن على الساحة فى مصر وتونس، وفى ليبيا واليمن بدأت القوى القَبَلية تلقى بظلها الثقيل، ومن المرجح أن تهيمن الانقسامات الطائفة بين السُنّة والشيعة على السياسة فى البحرين، كما يحدث فى العراق منذ عام ٢٠٠٣.

لن نجد سرداً واحداً يفسر كل هذا. إن الأنظمة فى مختلف أنحاء الشرق الأوسط، والولايات المتحدة، والحكومات الأوروبية، فضلاً عن القاعدة وغيرها من التنظيمات الإسلامية، تبذل جميعها قصارى جهدها فى محاولة لفهم ما قد تأتى به الأيام المقبلة.

والآن يعترف الباحثون فى شئون المنطقة، من أمثالى، بأن فهمنا للسياسة العربية لم يؤهلنا لتوقع هذه الموجة من الاحتجاجات الناجحة. فإلى أن اندلعت انتفاضة تونس كنا نتصور أن أى تغيير سياسى فى المنطقة إما أن تقوده قوى إسلامية أو يأتى فى هيئة انقلاب تقوم به مجموعة من الضباط العسكريين. ولكن ليس بواسطة حشود غير منظمة يتقدمها الشباب.

إن التضخم الديموغرافى لشريحة عريضة من السكان الشباب فى الشرق الأوسط أمر معلوم للجميع، ولكن أحداً لم يتوقع أن أفراد هذه الشريحة قادرون على تعبئة الوسائل الإعلامية الاجتماعية والهواتف المحمولة لإسقاط طغاة راسخين. فقد كان من المتصور أن تكنولوجيا الإنترنت تعمل على تفتيت القوى الاجتماعية بدلاً من توحيدها فى قضية مشتركة. وكنا نرى أن الأنظمة الحاكمة فى المنطقة أكثر وحشية من أن تسقط من دون قتال، كما تثبت الأحداث المأساوية الجارية الآن فى ليبيا.

وحتى تنظيم القاعدة، وباعترافه، أخذ على حين غرة، ولا شك أن هذا راجع إلى أن الحجة المركزية للتنظيم كانت أن سقوط الحكومات العربية القمعية لن يتسنى إلا من خلال العنف. وفى رده على الأحداث الأخيرة، نشر أيمن الظواهرى، الرجل الثانى على رأس تنظيم القاعدة، تحليلاً مضجراً أشبه بملفات الباور بوينت للقانون الدستورى والتاريخ السياسى المصرى.



ومثله كمثل الرئيس المصرى المخلوع حسنى مبارك من قبله، كانت نبرة الظواهرى تحمل قدراً كبيراً من التنازل والادعاء. والواقع أن محاضرته سلطت الضوء على مدى ابتعاد كبار قادة تنظيم القاعدة عن روح العصر.

بيد أن أحد منظرى تنظيم القاعدة الأحدث سناً كان أكثر إقناعا. ففى رسالة مؤرخة بالسادس عشر من فبراير/شباط ٢٠١١ تحت عنوان «ثورة الشعب وسقوط النظام العربى الفاسد: بداية جديدة وتحطم صنم الاستقرار»، كتب ليبى أسمى نفسه عطية الله: «أعترف بأن الثورة لم تكن التصور الأمثل الذى كنا نسعى إلى تجسيده... ونحن نأمل أن يكون هذا بمثابة الخطوة الأولى نحو مستقبل أفضل».

ويزعم عطية الله أن هذه الثورات لم تسفر عن إسقاط أنظمة مثل نظام مبارك فحسب، بل إن الأهم من هذا أنها دمرت مبدأ «الاستقرار» الذى سمح للأنظمة والغرب باستغلال المنطقة وتوفير الأمن لإسرائيل.

وبعد اعترافه بدهشته إزاء السرعة التى تطورت بها الأحداث، ينصح عطية الله الجماعات المرتبطة بتنظيم القاعدة بالمشاركة المتأنية المتروية مع القوى الصاعدة فى هذه البلدان. وهو يزعم أن هذه الوسيلة هى الوحيدة من الناحية التكتيكية التى يستطيع تنظيم القاعدة من خلالها أن يحقق هدفه النهائى المتمثل فى الاستيلاء على السلطة.

ولقد أعرب آخرون من مفكرى تنظيم القاعدة عن إعجابهم بقدرة الشباب من أمثال وائل غنيم على حشد الآلاف من مواطنيه المصريين من خلال الإعراب عن رغبته المخلصة فى التغيير وحبه لبلاده. وهناك بلا أدنى شك درجة من الحسد لما نجح آخرون فى إنجازه، وشعور يائس بضرورة الاستفادة من هذا التغيير.

وخلافاً للانتفاضة فى مصر وتونس، فإن الاقتتال الذى يدور حالياً فى ليبيا يقدم لتنظيم القاعدة فرصة لتأكيد سرده الكلاسيكى عن أهمية التغيير عن طريق العنف. والأمر الأكثر إزعاجاً وإثارة للقلق هو أن العنف فى ليبيا يكشف عن ملامح معينة فى منطقة الشرق الأوسط، وهى الملامح التى نُسيَت بعد النجاح المسكر المبهر فى تونس والقاهرة.

والأمر الأشد وضوحاً هنا هو أن التغير السياسى لن يحدث بنفس النمط فى البلدان المختلفة فى العالم العربى. فعلى النقيض من تونس ومصر، حيث التجانس المجتمعى النسبى، تتسم ليبيا بانقسامات قَبَلية عظيمة الأهمية، فى حين تمزق الطائفية بلداناً مثل البحرين واليمن وسوريا. وفى غياب المؤسسات الوطنية القوية فإن التغيير فى هذه البلدان يهدد بإراقة الدماء على نطاق واسع.

فضلاً عن ذلك فإن العنف المفرط فى ليبيا قد يبث الرسالة إلى شعوب أخرى فى المنطقة مفادها أن ثمن التغيير أعلى من أن يتكبده أى شعب، وأن التحول السلمى نسبياً الذى شهدناه فى مصر وتونس قد لا يكون قابلاً للتكرار.

وأخيرا، أظهرت الفوضى فى ليبيا مدى اعتماد بقية العالم على المصير السياسى لمجتمعات الشرق الأوسط. فإذا انتشرت الفوضى على غرار ما يحدث فى ليبيا إلى بلدان الخليج الفارسى، على سبيل المثال، فإن العالم قد يتوقف عن الدوران حرفيا، وذلك نظراً لكميات النفط الهائلة التى تصدرها هذه البلدان إلى بقية العالم.

ورغم استبعاد حدوث أمر كهذا فى أى وقت قريب فإن هذا الاحتمال لابد أن يدفعنا جميعاً إلى التوقف لبرهة للتفكير المتعمق فى الأمر وأن يحثنا على إيجاد السياسات الكفيلة بمساعدة العرب على انتزاع ما يستحقون من الكرامة السياسية والحكم الرشيد من خلال عملية سلمية منظمة. والبديل يتلخص فى عالم حيث نظل رهينة للعلل التى تعيب المنطقة، وهو ما يشكل فرصة عظيمة لتنظيم القاعدة للتأكيد على سرده ونفوذه. ■

Bernard Haykel is Professor of Near Eastern Studies at Princeton University

ترجمة: مايسة كامل



مبارك / نتنياهو ـ شرم الشيخ ـ ٦ يناير ٢٠١١

سلام مابعد الثورة

فضل النقيب

■■ جسّد الموقف من إسرائيل أحد التناقضات الأساسية التى عاشتها مصر قبل ثورة ٢٥ يناير، فبينما كانت الغالبية الساحقة من الشعب المصرى تعد إسرائيل كيانًا غاصبًا معاديًا يرتكب يوميًا جرائم وحشية فى فلسطين، كان نظام حكم حسنى مبارك يمارس سياسة تنسيق وتعاون مع إسرائيل وصفها أحد الساسة الإسرائيليين بقوله «إن الرئيس حسنى مبارك رصيد إستراتيجى هائل لإسرائيل». ولذلك كان من الطبيعى أن يكون مستقبل العلاقات المصرية - الإسرائيلية بعد زوال نظام مبارك من أهم المواضيع التى شغلت المحللين السياسيين فى العالم العربى وفى الصحافة العالمية. ولقد اكتسب هذا السؤال أهمية قصوى بحكم أن ثورة ٢٥ يناير فى مصر لم تكن حدثًا منفردًا، فلقد حدثت بعد ثورة تونس الرائدة وتبعها ثورات اليمن والبحرين وليبيا وبصورة تؤكد أن تاريخًا عربيًا جديدًا هو فى دور التكوين ولذلك فالسؤال هو عن آفاق الصراع العربى - الإسرائيلى فى هذا التاريخ الجديد.

تراوحت التنبؤات عن مستقبل العلاقات الإسرائيلية - المصرية بعد الثورة من الرأى القائل إن مصر ستعود إلى دورها القيادى فى العالم العربى وبالتالى ستعود إلى دورها فى قيادة الجانب العربى فى الصراع العربى-الإسرائيلى، إلى الرأى القائل إن أى نظام جديد فى مصر سيكون مضطرًا إلى الإبقاء على علاقات الصداقة القوية مع إسرائيل وذلك لأن تلك العلاقات أصبحت مبنية على أسس مصالح اقتصادية وأمنية متبادلة تشكل ركيزة هامة فى توجهات السياسة المصرية وعلاقاتها بالولايات المتحدة والدول الأوروبية. وإذا كان هناك دور كبير للأمانى والرغبات فى تشكيل منطق هذين الرأيين المتناقضين، فإن هناك رأيًا ثالثًا فى الوسط يدعى «الموضوعية» يؤكد أن العلاقات المصرية - الإسرائيلية لن تكون كما كانت عليه فى عهد مبارك لأن نظام الحكم الجديد لا يستطيع تجاهل رغبات الشعب المصرى وأمانيه المعادية لإسرائيل، كما أنها لن تكون علاقة عداء كما كانت أيام عبد الناصر لأن النظام الجديد لا يستطيع تجاهل حقائق الأمن والسياسة والاقتصاد المختلفة عما كانت عليه فى الخمسينيات والستينيات.

على الرغم من الاختلافات الجوهرية بين هذه التنبؤات إلا أنها كلها ترتكز على فرضية واحدة، وهى أن مستقبل العلاقات المصرية - الإسرائيلية سيتحدد على أساس التوجهات التى يتبناها نظام الحكم الجديد فى مصر وردود أفعال الجانب الإسرائيلى عليها. وفى رأيى فإن هذه الفرضية صحيحة فى الأمد القصير، بمعنى أن العلاقات بين الجانبين فى الأسابيع والأشهر القادمة ستتحدد بالفعل على أساس ما يقوم به الجانب المصرى تجاه إسرائيل والقضية الفلسطينية وما يترتب على ذلك من ردود فعل إسرائيلية، ولكن هذه الفرضية لن تنطبق على الأمد الطويل. بمعنى أن ما سيحدد طبيعة العلاقات بين الجانبين فى السنوات القادمة لن يكون الموقف المصرى المباشر من إسرائيل بل سيكون، فى المقام الأول، مبنيًا على أساس تقييم إسرائيل لطبيعة التغيير فى نظام الحكم المصرى الذى سينبثق عن الثورة، فإذا كان ذلك التغيير يتجه نحو تأسيس شرعية ديمقراطية حقيقية فإن إسرائيل سوف تعادى نظام الحكم فى مصر بغض النظر عن موقفه المباشر منها. وفى المقابل إذا تمكنت القوى التى تمثل نظام مبارك من الإشراف المستتر على عمليات التغيير والإصلاح فى المرحلة الانتقالية ونجحت فى إقامة نظام جديد مظهره ديمقراطى ومضمونه استبدادى، فإن إسرائيل ستدعم النظام الجديد بكل

«تناصب إسرائيل العداء كل نظام عربى يعمل على تأسيس شرعية وطنية للحكم، وفى المقابل يتقرب من إسرائيل كل نظام عربى يشعر أن شرعيته الوطنية فى تآكل وانهيار»



ماتملك من قوة، وستتغاضى عن أى مبادرات قد تبدو أنها تراعى الرغبات الشعبية المعادية لإسرائيل، وذلك لإدراكها بأن أى نظام استبدادى جديد سيجد فى إسرائيل حليفه الطبيعى والثابت فى مواجهة الضغوط الداخلية والخارجية التى سيتعرض لها وستؤول الأمور بصورة أو بأخرى، وربما بإخراج جديد أكثر قبولاً فى ظاهره، إلى علاقات تحالف كتلك التى كانت قائمة أثناء حكم مبارك.

ويعتمد هذا الرأى على قراءة موضوعية لعلاقات الأنظمة العربية بإسرائيل خلال العقود الستة الماضية التى مضت على قيامها. والاستنتاج من تلك القراءة بأن تلك العلاقات، كانت محكومة طوال تلك السنوات بديناميات «القاعدة» التالية:

«تناصب إسرائيل العداء كل نظام عربى يعمل على تأسيس شرعية وطنية للحكم، وفى المقابل يتقرب من إسرائيل كل نظام عربى يشعر أن شرعيته الوطنية فى تآكل وانهيار».

يهدف هذا المقال إلى رصد التطبيقات التاريخية لهذه القاعدة وشرح مضمونه ومبرر الاعتقاد باستمرار صلاحيتها بعد قيام الثورة العربية الكبرى فى ٢٠١٠-٢٠١١.

فى الفقرة التالية: سنتعرض لمفاهيم الشرعية التى تخص تطبيقات هذه «القاعدة» فى سياق الصراع العربى - الإسرائيلى، وفى الفقرة اللاحقة سنرى كيف تفسر هذه «القاعدة» تطور العلاقات بين إسرائيل وأنظمة الحكم العربية التى اعترفت بإسرائيل وأقامت معها علاقات تعاون وتنسيق، كما سنرى كيف تفسر تطور العلاقات بين إسرائيل ونظام الحكم السعودى الذى قاد الأنظمة العربية إلى تبنى ما يعرف باسم «مبادرة السلام العربية» فى عام ٢٠٠٢، التى هى فى الواقع «خارطة طريق» لتصفية القضية الفلسطينية.

[١]

نظام الحكم الشرعى هو النظام الذى تؤيده غالبية الشعب عن قناعة، وتكون مستعدة للدفاع عنه إذا تهدد. وفى عصرنا الحاضر توجد ثلاثة أنواع من أنظمة الحكم الشرعية:

● أنظمة الحكم التى لها شرعية تاريخية، مثل أنظمة الحكم الملكية التى كان للعائلة المالكة دور فى تأسيس الدولة.

● أنظمة الحكم التى لها شرعية ثورية، مثل أنظمة الحكم التى انبثقت عن ثورة على نظام مستبد وتسعى لبناء نظام جديد.

● أنظمة الحكم التى لها شرعية ديمقراطية، أى أنظمة الحكم التى يتمتع فيها المواطنون بالحقوق الإنسانية الأساسية بشكل متساوٍ ولا تستطيع الدولة حرمان أى مواطن منها.

وتمتاز الشرعية الديمقراطية فى أنها شرعية مستقرة، بمعنى أن النظام الديمقراطى عندما يتعرض لصدمة أو هزة عارضة تنتقص من شرعيته فإنه يملك الديناميات الداخلية والمرجعية الدستورية والأخلاقية القادرة على استعادة الشرعية المفقودة. أما الشرعيتان، التاريخية والثورية، فإنهما شرعيتان لا تتمتعان بالاستقرار، فعندما تفقد الواحدة منهما جزءاً من الشرعية فإنها لا تملك مقومات استعادتها والإبقاء على نظام الحكم ذاته، فإما أن تسير فى طريق التحول الديمقراطى واكتساب الشرعية الديمقراطية، أو تسير فى طريق خسارة الشرعية بشكل كامل والتحول إلى نظام الاستبداد العارى.



ويهدد استقرار النظام الديمقراطى خطران: الأول هو جنوح الدولة إلى تبنى أيديولوجية معينة، وضعية أو دينية، حيث إن ذلك يتناقض مع الأسس الديمقراطية التى تكفل للمواطن حرية تبنى الأيديولوجية التى يختارها بشرط أن لا يعمل على فرضها على الآخرين، ففى الديمقراطية يجب أن تكون الأيديولوجية هماً فردياً وليست هماً قومياً. أما الثانى فهو جنوح النظام الاقتصادى إلى الانزلاق فى طريق زيادة درجة عدم المساواة فى الدخل بين المواطنين. وذلك لأن ذلك يعنى انتشار الممارسات الاحتكارية فى النشاط الاقتصادى وهو وضع لا يمكن له الاستمرار بدون دعم الدولة له، مما يشكل خرقاً لواحد من أسس الديمقراطية الهامة وهو قيام الدولة بتكريس البيئة الاقتصادية التى تتيح الفرص المتساوية أمام جميع المواطنين.

[٢]

إذا أردنا أن نحلل مواقف أنظمة الحكم العربية المختلفة من القضية الفلسطينية من منظور وضع شرعية تلك الأنظمة فعلينا أن ننطلق منذ البداية، فنتوقف أمام ملكين كان لموقفهما دور أساسى فى تشكيل موقف الأنظمة العربية من قيام دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، وهما الملك عبد الله فيما كان يعرف باسم شرق الأردن، والملك فاروق فى مصر.

كان الملكان عام ١٩٤٨ يحاولان استعادة الشرعية التى فقدتها عائلتاهما.

كان الملك عبدالله يشعر، أنه بعد أن تم طرد أخيه الملك فيصل من سورية من قبل الفرنسيين، وتنصيبه على عرش العراق من قبل البريطانيين، أن شرعية أسرته المنبثقة من شرعية «الثورة العربية الكبرى» التى قادها والده قد انتهت. وأصبح مقتنعاً أن بريطانيا العظمى هى القوة الوحيدة التى تستطيع منح الشرعية لحكمه فى شرق الأردن. وهذا الاقتناع يفسر تصرفاته أثناء حرب ١٩٤٨، فبينما نصبه الملوك والرؤساء العرب قائداً للجيوش العربية فى تلك الحرب، كان يجتمع فى السر مع قادة الحركة الصهيونية للتنسيق معهم من أجل قيام دولة إسرائيل وفى الوقت ذاته لتوسيع إمارة شرق الأردن لتضم الضفة الغربية من فلسطين. ومنذ ذلك الوقت والعائلة المالكة تمارس الحكم فى الأردن على أساس شرعية تأتى من الخارج (من بريطانيا ثم من الولايات المتحدة) وعلى أساس التنسيق الكامل مع إسرائيل. وكل ما أحدثه توقيع معاهدة السلام بين الأردن وإسرائيل عام ١٩٩٤ هو الإعلان عن وضع موجود فى الخفاء منذ سنين.

وفى المقابل، كان الملك فاروق يشعر بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية أن شرعية أسرته قد أخذت بالاهتزاز فلقد كان على علاقات عدائية بحزب الأغلبية (الوفد) والأحزاب العقائدية (الإخوان والشيوعيون) ولم يكن يقف معه إلا أحزاب الأقلية (السعديين والأحرار الدستوريين)، ولكنه لم يحاول البحث عن شرعية خارجية، كما فعل الملك عبد الله، فلقد كان يعتقد أنه يستطيع ترميم ما فقده من الشرعية فى الداخل ولقد وجد فرصة مواتية لذلك فى الوقوف إلى جانب الرأى العام ودخول حرب فلسطين وعدم الأخذ بنصيحة حكومته التى كانت بيد أحزاب الأقلية (حكومة النقراشى) التى كانت تعارض دخول مصر الحرب. وعند المقارنة بين تصرف الملكين نلاحظ أن محاولة الملك فاروق استرداد الشرعية فى الداخل جعلته يتخذ موقفاً مصرياً وطنياً من القضية الفلسطينية، أما محاولة الملك عبد الله الحصول على الشرعية فى الخارج فقد قادته إلى اتخاذ موقف التخلى عن القضية الفلسطينية فى أحلك ساعاتها خدمة لأحلامه الصغيرة.

ومن المعروف أن الشرعية الثورية التى حصلت عليها ثورة ٢٣ يوليو فى سنواتها الأولى كانت تعتمد على ثنائية التحرر الوطنى، والتنمية المستقلة: تحقيق جلاء القوات البريطانية عن مدن القناة، وتحقيق التنمية الوطنية بشكل يعيد توزيع الدخل القومى لصالح الأغلبية الفقيرة. عبر تحطيم الإقطاع وإنهاء سيطرة رأس المال على الحكم. ولم يكن فى أولويات الثورة، فى تلك السنوات، أى مكان للصراع العسكرى مع إسرائيل. ولكن قيادة بن غوريون رأت فى تبنى حكومة الثورة ثنائية التحرر الوطنى والتنمية المستقلة

نظام الحكم الشرعى هو النظام الذى تؤيده غالبية الشعب عن قناعة، وتكون مستعدة للدفاع عنه إذا تهدد. وفى عصرنا الحاضر توجد ثلاثة أنواع من أنظمة الحكم الشرعية



لم تكن حكومتا الولايات المتحدة وإسرائيل بحاجة إلى الاقتناع، فلقد وجدتا فى «شرعية الخوف» التى يرتكز عليها نظام مبارك فرصة تاريخية لابتزاز النظام وتحقيق كل أهداف السياسة الأمريكية ـ الإسرائيلية



خطراً بعيد المدى على إسرائيل فتبنت حكومته سياسة العداء الكامل للنظام الثورى فى مصر على كل الجبهات. فقام الجيش الإسرائيلى بالاعتداءات المتكررة على الجيش المصرى فى قطاع غزة بصورة مفاجئة فى صيف ١٩٥٥ ودون أى مبررات وهو ما بينته الوثائق الإسرائيلية لاحقاً. كما قام عملاء إسرائيل بعمليات إرهابية داخل مصر لزعزعة استقرار النظام وهى عمليات (عرفت بعد انكشافها بقضية لافون) وقام بالإشراف عليها شمعون بيرس بحكم منصبه فى وزارة الدفاع الإسرائيلية فى ذلك الوقت. ثم تتوجت تلك السياسة المعادية أحادية الجانب بالتآمر مع بريطانيا وفرنسا بالهجوم على مصر فى حرب السويس لعام ١٩٥٦، وهكذا فقد تبنت إسرائيل سياسة معاداة الشرعية الثورية فى مصر ليس بسبب مواقف الثورة المباشرة من إسرائيل ولكن بسبب تبنى الثورة نهج بناء شرعية وطنية تكرس التحرر الوطنى والتنمية المستقلة وهو النهج الذى تبناه عبد الناصر كمقدمة ضرورية للوصول إلى الشرعية الديمقراطية فى مصر.

جاء أنور السادات إلى الحكم، بعد رحيل عبد الناصر عام ١٩٧٠، وهو مقتنع بأن حل كل مشاكل مصر الاقتصادية والسياسية سيتحقق عن طريق تحوّل مصر إلى صديق «إستراتيجى» للولايات المتحدة. التى كانت فى رأيه تملك ٩٩٪ من أوراق اللعبة. وكان ذلك التحول يتطلب التخلى عن شرعية ثورة يوليو المتمثلة فى ثنائية التحرر الوطنى والتنمية المستقلة. ولقد اعتقد بعد حرب أكتوبر لعام ١٩٧٣ أن الحرب قد أكسبته شرعيةً تمكنه من التخلى عن شرعية يوليو، فبدأ فى التخلى عن نهج التنمية المستقلة واتباع سياسة التبعية لرأس المال الأجنبى فيما عُرف يومها بسياسة «الانفتاح» كما أخذ يتبنى سياسة فك الاشتباك مع إسرائيل عبر تنسيق كامل مع الولايات المتحدة وتجاهل كامل لكل الأطراف العربية والدولية. ولقد واجهت سياسة الانفتاح معارضة شعبية كبيرة تجلت فى انتفاضة ١٨ و١٩ يناير عام ١٩٧٧ التى كادت أن تودى بحكمه. وبعد الانتفاضة واجه السادات الخيار، الذى لا مناص منه، إما السير فى طريق التحول الديمقراطى أو الانزلاق إلى نظام الاستبداد العارى. وكانت رحلته إلى إسرائيل وتوقيع معاهدة الصلح المنفرد معها فى كامب ديفد مقدمة تبنيه الخيار الثانى، كما كان إقدامه على الزج فى السجن بكل ممثلى الطيف السياسى المصرى فى سبتمبر ١٩٨١ ثم مصرعه فى حادثة المنصة فى أكتوبر من ذلك العام نهاية ذلك الاختيار.

جاء حسنى مبارك إلى الحكم بدون شرعية. فلقد نجح أنور السادات فى تحطيم شرعية يوليو ونجحت حادثة المنصة فى تحطيم شرعية أكتوبر. فعمل مبارك بشكل متدرج، وبيروقراطى، ودءوب، على صياغة غطاءٍ من الشرعية الزائفة للتستر على حكمٍ لا شرعية له. فنجح فى تكريس ما أطلق عليه الأستاذ محمد حسنين هيكل اسم «شرعية الخوف» التى تعنى إما نظام مبارك أو الإرهاب، ولقد اعتمدت تلك الشرعية المدعاة على ركائز ثلاث:



● الحكم باستخدام أدوات الإرهاب والتخويف فى الداخل مثل قانون الطوارئ، وممارسات الاعتقالات التعسفية والتعذيب المبرمج وتغطية كل ذلك فى خطابه الداخلى والخارجى على السواء، باسم محاربة جماعات التطرف والإرهاب الإسلامى.

● تحطيم الإرادة الشعبية بواسطة تزوير الانتخابات وتغطية كل ذلك بالسماح بتواجد أحزاب معارضة مدجّنة، وصحافة معارضة لها حرية الانتقاد والتحريض.

● علاقة تبعية كاملة للسياسة الأمريكية وتنسيق كامل مع السياسة الإسرائيلية وتغطية كل ذلك بادعاءات الشراكة الاستراتيجية مع الولايات المتحدة وقيادة عملية السلام فى الشرق الأوسط.

ولقد نجحت «شرعية الخوف» لسنوات طوال فى إقناع نخب الطبقات المستربحة اقتصادياً فى الداخل، على أنه ليس هناك بديل لنظام مبارك إلا الفوضى والإرهاب.

بالطبع، لم تكن حكومتا الولايات المتحدة وإسرائيل بحاجة إلى الاقتناع، فلقد وجدتا فى «شرعية الخوف» التى يرتكز عليها نظام مبارك فرصة تاريخية لابتزاز النظام وتحقيق كل أهداف السياسة الأمريكية-الإسرائيلية المعادية لمصالح الشعوب العربية. ولقد أسفر هذا الابتزاز فى السنوات العشر الماضية عن وضعٍ كارثى، ومخجلٍ، ومهين، فمصر التى:

● كانت موطن مشروع محمد على الذى كان من أوائل مشاريع التحديث والنهوض فى آسيا وأفريقيا فى منتصف القرن التاسع عشر.

● وكانت موطن ثورة ١٩١٩ التى كانت من أوائل ثورات تحرر بلدان العالم الثالث فى القرن العشرين فى إطار ديمقراطى دستورى.

● وكانت موطن ثورة ٢٣ يوليو التى كانت من أهم ثورات التحرر الوطنى بعد الحرب العالمية الثانية، والتى أقامت نظاماً شكل سنداً ودعماً لكل حركات التحرر فى العالم طوال سنوات الخمسينيات والستينيات.

● وكانت موطن أهم حركات النهوض الفكرى والإصلاح الدينى ومركز تنويرٍ وإشعاع منذ نهاية القرن التاسع عشر لكل بلدان العالمين العربى والإسلامى.

أصبحت بفضل نظام «شرعية الخوف «بلداً لا حول له ولا قوة يعلن رئيس لجنة الشؤون الخارجية فى مجلس الشورى فيه أن رئيس مصر المقبل يجب أن يحظى برضا حكومة الولايات المتحدة وتأييدها وعدم معارضة الحكومة الإسرائيلية.

وعندما نأتى إلى النظام السعودى نرى أن تطور موقفه من الصراع العربى - الإسرائيلى كان انعكاساً لسيره فى طريق خسارة الشرعية التاريخية التى كان يتمتع بها بحكم دور العائلة السعودية فى تأسيس المملكة. ومن الممكن فهم تطور ذلك الموقف عبر مراحل أربع:

المرحلة الأولى تخص سنوات الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضى، عندما كانت الأوضاع الداخلية فى المملكة توصف بالهادئة والآمنة والمستقرة وذلك بفضل الثروة الهائلة التى بدأت تنهال على المملكة من عائدات النفط من ناحية، وبفضل طبيعة النظام القبلى الذى تمكّن الملك عبد العزيز، مؤسس المملكة، من ترتيبه بشكل متناغم مع سلطة الأسرة السعودية. وفى تلك المرحلة لم تكن الاسرة المالكة تشعر بأى تهديد لشرعيتها ولذلك كانت تأخذ موقفاً متشدداً فى مجال الصراع العربى - الإسرائيلى، وإن كان فى عمومه موقفاً لفظياً.

المرحلة الثانية كانت المرحلة الضبابية التى اتخذت فيها الأسرة السعودية مواقف متناقضة من الصراع العربى -الإسرائيلى. بدأت تلك المرحلة عندما بدأت الاسرة السعودية تشعر برياح التغيير تهب فى المنطقة بعد قيام ثورة اليمن عام ١٩٦٢ ولم يعد بإمكانها البقاء خارج حلبة الصراع العربى - الإسرائيلى كما كانت فى المرحلة السابقة، على أساس أن سياستها المبنية على أساس الإبقاء على أوضاعها الداخلية بدون تغيير ومحاربة رياح التغيير فى المنطقة فرضت عليها أن تكون مع إسرائيل فى معسكر واحد أثناء حرب اليمن، وخلال سنتين كان سلاح الجو الإسرائيلى يطير فوق السواحل الشرقية للمملكة ليلقى بالمساعدات لحلفاء السعودية من القوات الملكية اليمنية[1].

ولكن متطلبات الحفاظ على الاوضاع الداخلية للمملكة بدون تغيير تبدلت فى بداية السبعينيات حين ظهر التعاطف الشعبى العربى الهائل مع المقاومة الفلسطينية ثم الإجماع العربى الهائل على الوقوف مع سوريا ومصر فى حرب عام ١٩٧٣، وقد قاد هذا الأسرة السعودية، التى كان على رأسها آنذاك الملك فيصل، الذى كان يمتلك مزايا شخصية استثنائية مقارنة بمن سبقه ومن لحقه من الأسرة السعودية، إلى اتخاذ موقف معادٍ للمعسكر الأمريكى-



جاء حسنى مبارك إلى الحكم بدون شرعية. فلقد نجح أنور السادات فى تحطيم شرعية يوليو ونجحت حادثة المنصة فى تحطيم شرعية أكتوبر



الإسرائيلى وتبنى سياسة قطع إمدادات النفط عن الولايات المتحدة الأمريكية[٢].

المرحلة الثالثة التى اتصفت باتخاذ الأسرة السعودية دوراً نشيطاً فى الصراع العربى - الإسرائيلى، وقد تجلى ذلك النشاط فى مبادرة الملك فهد للسلام التى طرحتها المملكة على القمة العربية المنعقدة فى فاس عام ١٩٨٢. فلقد جاءت تلك المبادرة تعبيراً عن ظهور تحديات كبيرة لشرعية العائلة السعودية، إذ شهدت سنوات آخر السبعينيات ظهور تصدع فى التحالف الذى قامت على اساسه المملكة عام ١٩٣٢ بين العائلة السعودية والمؤسسة الوهابية وتجلى هذا الصدع فى حادث احتلال الحرم الشريف فى مكة فى نوفمبر/ تشرين الثانى عام ١٩٧٩ الذى انتهى بمقتل العشرات ثم باعدام قائد المتمردين جهيمان بن محمد بن سيف العتيبى مع العشرات من أتباعه. وفى الوقت ذاته ظهر التحدى الذى مثلته الثورة الاسلامية فى إيران وظهور الحركات الاسلامية المعادية للولايات المتحدة. وقد كان من تداعيات تلك التحديات تعاظم قوة اتجاه جديد فى الاسرة السعودية يقوده الامير بندر بن سلطان (وهو من ظل سفير المملكة فى واشنطن لحوالى عشرين سنة) وكان يرى ان التصدى للتحديات التى تواجهها الأسرة السعودية لا يتم إلا عبر تطوير العلاقة السعودية - الأمريكية إلى تحالف استراتيجى كامل فى كل الشؤون السياسية والعسكرية والامنية والاقتصادية، وأن مثل هذا التحالف لا يتحقق إلا إذا أظهرت السعودية مرونة كافية فى موضوع الصراع العربى - الإسرائيلى. وفى تلك الفترة بدأت المملكة العربية السعودية، باشراف بندر، بتوظيف شركات «العلاقات العامة» الامريكية للمساهمة فى رسم سياسات المملكة، ومن المعروف أن بندر لعب دوراً هاماً فى إقناع الملك فهد بتقديم مبادرة السلام فى مؤتمر القمة العربى فى فاس.

المرحلة الرابعة، ابتدأت بعد أحداث ١١ سبتمبر/أيلول لعام ٢٠٠١ فى الولايات المتحدة، وفيها أخذت الحكومة السعودية فى لعب دور قيادى فى تبنى العملية السلمية وفق الاملاءات الاميركية، ففى هذه المرحلة تعرضت الاسرة السعودية لأخطر تحد واجهته منذ تأسيس المملكة. وجاء هذا التحدى من ثلاثة مصادر. الأول من الكونغرس الأمريكى، الذى رأى أن الحكم السعودى المتزمت أوجد تربة خصبة لولادة الحركات الأصولية الارهابية فأخذ يطالب الاسرة السعودية بالقيام باصلاحات سياسية تفسح المجال امام الامراء الشباب الذين تلقوا تعليمهم فى الجامعات الامريكية لتسلم مهام قيادية فى الحكومة. وكان ذلك يثير قلق الكثيرين من أفراد الاسرة السعودية الاخرين. أما المصدر الثانى فجاء من الحركات الاصولية التى أخذت تقوم بعمليات ارهابية داخل المملكة، وكان المصدر الثالث للتحدى هو نمو ظاهرة المعارضة لنظام الاستبداد السعودى من أعداد متنامية من المثقفين ونخب الطبقة الوسطى. ولقد أشارت شركات العلاقات العامة الأمريكية على الامير (ثم الملك) عبد الله بأن أفضل طريق لمواجهة هذه التحديات هى ضمان التأييد الامريكى بشكل مطلق، وأن أقصر الطرق لضمان ذلك التأييد هو فى التقرب من إسرائيل. وفى هذا السياق قام الأمير ثم الملك بتقديم المبادرة السعودية للسلام مع إسرائيل وفق مبدأ الانسحاب الكامل مقابل التطبيع الكامل، مع إسقاط «حق العودة» والاستعاضة عنه بالتعبير الذى ليس له معنى: «حل عادل لمشكلة اللاجئين». كما أخذ يتخذ مواقف معادية لنهج المقاومة فى فلسطين ولبنان ويقود ما أصبح يعرف بنهج «الاعتدال العربى». وفى مؤتمر القمة العربى المنعقد فى بيروت عام ٢٠٠٢ تبنت الجامعة العربية مبادرة الملك عبدالله بن عبد العزيز للسلام مع إسرائيل وبذلك تكون قد نصبّته قائداً للعرب فى مسيرة السلام مع إسرائيل، تماماً كما نصبّت الملك عبد الله بن حسين قبل ذلك بأربعة وخمسين عاماً قائداً للعرب فى مسيرة الحرب مع إسرائيل. وكما تصرف الملك عبدالله الهاشمى فى التنصيب الأول تصرف الملك عبد الله السعودى فى التنصيب الثانى كما اتضح من موقفه فى حرب تموز ٢٠٠٦ فى لبنان ومن حرب كانون الأول ٢٠٠٨ فى غزة.

وأخيراً ننتقل إلى الوضع الفلسطينى لدراسة تطور العلاقة بين منظمة التحرير الفلسطينية وإسرائيل من منظور تطور شرعية المنظمة. نلاحظ تطابقاً كبيراً بين تطور «شرعية» المنظمة وتطور «شرعية» نظام مبارك فى مصر. فشرعية المنظمة ابتدأت فى منتصف الستينيات بشرعية «حركة التحرر الوطنى» وانتهت فى ٢٠٠٥- ٢٠٠٧ وحكم محمود عباس وسلام فياض إلى «شرعية الخوف»، ومن الممكن رصد المراحل التالية فى مسيرة المنظمة:



● تأسست منظمة التحرير الفلسطينية فى منتصف الستينيات من القرن الماضى فى أجواء صعود حركة التحرر الوطنى فى العالم الثالث ونص ميثاقها على هدف تحرير كامل التراب الفلسطينى من الاحتلال الصهيونى الإستيطانى الإحلالى الإجلائى وخاضت فصائل المنظمة الكفاح المسلح ضد إسرائيل حتى مطلع الثمانينيات تحت شعار تحرير فلسطين. وقامت المنظمة فى تلك الفترة بدور بالغ الأهمية التاريخية حيث تمكنت من تعبئة قوى الفلسطينيين من لاجئين موزعين فى مخيمات وبلدان مختلفة إلى شعب موحد الهوية له قيادة سياسية وفصائل مقاتلة فى سبيل انتزاع حق تقرير المصير.

● مع انكفاء حركة التحرر الوطنى فى منتصف السبعينيات، وبداية انزلاق الأنظمة الثورية فى العالم العربى إلى مستنقعات الاستبداد، وتعاظم دور النفط والعائلات المالكة فى الخليج فى تكريس الأمر الواقع ودعم الاستبداد وإعادة إنتاج التبعية، بدأت قيادة المنظمة فى التكيّف مع الأجواء الجديدة والعمل على تكييف مؤسسات المنظمة مع تلك الأجواء بهدف التفرد بالسلطة والقضاء على أجواء التعددية والديمقراطية التى صبغت حياة مؤسسات المنظمة فى سنواتها الأولى.

● مع تعاظم هرولة أنظمة الاستبداد والتأخر فى العالم العربى إلى التبعية للإمبريالية الأمريكية تسارعت خطوات قيادة منظمة التحرير فى التكيّف مع تلك الهرولة فتم فى البداية التنازل عن هدف تحرير كامل التراب الفلسطينى بهدف إقامة دولة مستقلة على المناطق المحررة من فلسطين «ثم تم التنازل عن ذلك بهدف إقامة دولة مستقلة على الأراضى الفلسطينية التى احتلتها إسرائيل فى حرب ١٩٦٧. كما تم إهمال مطلب حق العودة وحق تقرير المصير والتركيز المطلق على هدف الاعتراف بمنظمة التحرير كممثل شرعى ووحيد للشعب الفلسطينى. وكما ذهب أنور السادات إلى القدس وكامب ديفد والصلح المنفرد بعد اهتزاز شرعيته مع انتفاضة يناير ١٩٧٧ ذهب ياسر عرفات إلى أوسلو والحكم الذاتى والاعتراف بشرعية إسرائيل مقابل الاعتراف به وبالمنظمة على حساب الاعتراف بالشعب الفلسطينى وحقه فى تقرير المصير بعد أن اهتزت شرعية قادة المنظمة فى الخارج مع انتفاضة ١٩٨٧ وظهور قيادات فلسطينية جديدة فى الضفة والقطاع وظهور حركة المقاومة الإسلامية (حماس) خارج إطار المنظمة.

● بعد ست سنوات من الحكم الذاتى المحدود، وقيام «السلطة الوطنية الفلسطينية»، : الذى نتج عن اتفاقية أوسلو، وبعد فشل مؤتمر كامب ديفد أدرك ياسر عرفات أن مشروع أوسلو قد فشل فى السير على طريق إقامة دولة فلسطينية فى الضفة والقطاع فتمرد على نظام أوسلو وأيد ودعم انتفاضة الأقصى. كانت سنوات الانتفاضة الثلاث الأولى ملحمة وطنية عبر فيها الشعب الفلسطينى عن نهوض وطنى غير مسبوق، وقدم خلالها الرجال والنساء والأطفال





فى مؤتمر القمة العربى المنعقد فى بيروت عام ٢٠٠٢ تبنت الجامعة العربية مبادرة الملك عبدالله بن عبد العزيز للسلام مع إسرائيل وبذلك تكون قد نصبّته قائداً للعرب فى مسيرة السلام مع إسرائيل



من الواضح أن أنظمة الاستبداد العربية لا تملك أى خيار، فوجودها أصبح يعتمد بشكل كامل على تأييد الولايات المتحدة الأمريكية وهى تدرك أن التطبيع مع إسرائيل أنجع وسيلة لضمان استمرار ذلك التأييد



الفلسطينيون تضحيات وبطولات لا يمكن وصفها إلا أنها من نسج الأساطير. ولكن تآمر أنظمة الاستبداد العربى مع الولايات المتحدة وإسرائيل حاصر الشعب الفلسطينى بشكل خانق. وحطم أية إمكانية لاستمرار الانتفاضة وتحقيق هدفها بإنهاء الاحتلال الإسرائيلى.

● تمكنت إسرائيل من حصار ياسر عرفات فى مقره فى رام الله، وقامت الولايات المتحدة بفرض سلام فياض، الذى كان يعمل ممثلاً لصندوق النقد الدولى فى الضفة والقطاع، وزيراً للمالية بحجة اسمية هى القضاء على الفساد المالى فى أجهزة السلطة الوطنية (وهو موجود بالفعل) وبهدف حقيقى هو ضبط الحسابات المالية ومنع وصولها للمقاومة. وبعد ذلك قام رئيس الموساد أفرايم هاليبى بتقديم اقتراح لرئيس الوزراء شارون باستحداث منصب رئيس وزراء فى السلطة الوطنية الفلسطينية حتى يتم تقليص سلطات ياسر عرفات فقام شارون بدوره بعرض الاقتراح على الإدارة الأمريكية التى تبنته وقامت بفرض محمود عباس رئيساً للوزراء. وبعد ذلك تمت تصفية ياسر عرفات من قبل إسرائيل وتواطؤ الولايات المتحدة وأنظمة الإستبداد العربى.

● تم انتخاب محمود عباس رئيساً للسلطة الوطنية بعد وفاة عرفات وكان مؤمناً بضرورة إنهاء الانتفاضة وإقامة نظام فلسطينى يحاكى ما يسمى «أنظمة الاعتدال العربى» من ناحية التنسيق الكامل مع الولايات المتحدة وإسرائيل ومع أنه تمكن من محاكاة نظام مبارك فى كل أساسياته إلا أنه اعتقد أنه ما يزال يتمتع بشرعية حركة فتح وأنه لا يحتاج لتزوير الانتخابات فقبل نتيجة لضغوط دولية بإجراء انتخابات حرة نزيهة ففازت حركة المقاومة الإسلامية حماس بشكل كاسح مما اضطره إلى دعوتها لتأليف الوزارة والتراجع لمدة شهور تمكن فيها من ترتيب وضعه الجديد ومحاولة الانقلاب على الشرعية الديمقراطية فى غزة فى حزيران ٢٠٠٧ التى نفذها محمد دحلان وحين فشلت المحاولة أقال حكومة حماس التى جاءت على أساس أصوات ٦٥٪ من الناخبين وفصل بذلك غزة عن الضفة وكلف سلام فياض بتأليف حكومة لم يحصل كل أعضائها على ٥٪ من أصوات الناخبين.

● عملت حكومة سلام فياض على تصفية المقاومة والانتفاضة فى الضفة الغربية عن طريق التنسيق الأمنى الكامل مع إسرائيل لملاحقة المقاومين وقتلهم أو اعتقالهم وعن طريق بناء قوة أمن جديدة بإشراف الولايات المتحدة. وفى الوقت نفسه أسقطت حكومة سلام فياض عملياً هدف مقاومة الاحتلال واستبدلته بهدف بناء مؤسسات الدولة بالتعايش مع الاحتلال وكأن بقاء تلك السلطة الكرتونية أصبح هو هدف الشعب الفلسطينى وليس إنهاء الاحتلال. وأخذت السلطة بشكل سريع بناء مؤسساتها على أساس «شرعية الخوف» التى كرسها نظام مبارك فى مصر. فكما كان مبارك يقول: «إما أنا أو الإرهاب»، أخذ سلام فياض يقول «إما أنا أو الجوع». فاقتصاد الضفة الغربية، وبفضل سياسات السلطة الوطنية، أصبح يعيش على القوة الشرائية لحوالى ١٦٠ ألف موظف فى السلطة ورواتب هؤلاء تأتى من المعونات الدولية التى تتحكم فيها الولايات المتحدة التى أعلنت أكثر من مرة أنها ستقطع المعونات إن لم يكن سلام فياض إما وزيراً للمالية أو رئيساً للوزارة. ولقد إحتفظ بالمنصبين منذ حزيران ٢٠٠٧.

[٣]

لقد تبين لنا من هذا العرض التاريخى السريع أن إسرائيل تتخذ موقف العداء من أى نظام عربى يعمل على تأسيس شرعية وطنية له، وأن درجة تطبيع علاقات الأنظمة العربية بإسرائيل تزداد بشكل مطرد مع درجة تآكل الشرعية الوطنية لتلك الأنظمة. والسؤال الآن هو: هل سيستمر هذا الوضع بعد اندلاع الثورة العربية الكبرى فى ٢٠١٠-٢٠١١.



إن إسرائيل تتخذ موقف العداء من أى نظام عربى يعمل على تأسيس شرعية وطنية له، وأن درجة تطبيع علاقات الأنظمة العربية بإسرائيل تزداد بشكل مطرد مع درجة تآكل الشرعية الوطنية لتلك الأنظمة



من الواضح أن أنظمة الاستبداد العربية لا تملك أى خيار، فوجودها أصبح يعتمد بشكل كامل على تأييد الولايات المتحدة الأمريكية وهى تدرك أن التطبيع مع إسرائيل وإقامةَ علاقات تنسيق وتعاون معها هى أنجع وسيلة لضمان استمرار ذلك التأييد. لقد كان حسنى مبارك يفتخر فى السنوات الأخيرة بأنه عندما يريد شيئًا من الولايات المتحدة فإنه يقوم بالاتصال بأصدقائه فى إسرائيل، فيحصل من واشنطون على الذى يريد بسرعة فائقة.

أما بالنسبة لإسرائيل، فإنها سوف تعادى النظام الجديد فى مصر بقوة وشراسة وبكل الأساليب فى حال اتجه ذلك النظام نحو طريق التحول الديمقراطى الحقيقى، لأن هذا التحول سوف ينتشر فى العالم العربى وقيام مجتمع الحرية العربى سيشكل ثلاثة أخطار هائلة بالنسبة لإسرائيل:

● قيام مجتمع الحرية فى العالم العربى سيفقد إسرائيل فوراً القدرة على الادعاء أنها «الدولة الديمقراطية الوحيدة فى الشرق الأوسط». وفقدان هذا الامتياز مهم جداً بالنسبة لموقف الرأى العام العالمى منها. فهناك قطاعات كبيرة من الرأى العام فى العالم، وخصوصاً فى أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية التى تشكل رأيها من النزاعات الخارجية وفق منطق «الترتيب القاموسى» (Lexicographical Order) فكما أن نظام القاموس مبنى على أساس أن أى كلمة تبتدئ بحرف الباء تأتى بعد أى كلمة تبدأ بحرف الألف بغض النظر عن معنى الكلمة وعدد حروفها، كذلك فإن هناك قطاعات كبيرة من الناس فى هذا العالم تؤيد موقف أى دولة ديمقراطية فى نزاعها مع أى دولة غير ديمقراطية بغض النظر عن طبيعة النزاع ومضمونه. على أساس أنه لا يمكن لنظام يحرم مواطنيه من حقوقهم أن يكون على حق فى نزاعه مع دولة أخرى.

● وبعد أن تفقد إسرائيل ذلك الامتياز، فإن مجتمع الحرية فى العالم العربى سيفتح عيون العالم على أن إسرائيل فى الواقع ليست دولة ديمقراطية. صحيح أن عندها نظام إنتقال سلمى للسلطة عن طريق انتخابات حرة ' وعندها حرية مطلقة للصحافة، وفصل كامل بين السلطات الثلاث، وسلطة قضائية تحاكم رئيس الدولة ورئيس الوزراء وأى مسؤول فى الدولة، ولكن كل ذلك لا يعنى أنها ديمقراطية. إنه يعنى أنها نظام «حكم الأغلبية» الدينية أو العرقية على حساب الأقليات الدينية والعرقية الأخرى مثل أصحاب البلاد الشرعيين، فليس فى نظامها «حقوق متساوية لكل المواطنين لا تستطيع الدولة حرمان أى مواطن منها». وهذا الوضع ليس ناجماً عن وجود الأقلية العربية التى لاتتمتع بنفس حقوق الأغلبية اليهودية فقط، ولكنه ناجم أيضاً عن كون الدولة فى إسرائيل تتبنى الايديولوجية الصهيونية مما يتنافى مع الديمقراطية التى تقوم على أساس تبنى كل مواطن للإيديولوجية التى يختارها. فالأقلية فى إسرائيل ليست فقط عربية، إنها تضم أيضاً كل اليهود غير المؤمنين بالصهيونية. ولقد بدأت هذه الحقيقة تتجلى لكثير من النخب المثقفة فى العالم وهى فى الواقع وراء حملة «نزع الشرعية عن إسرائيل» (Delegitimizing Israel) فى الجامعات الأمريكية والأوروبية وهى حملة ستتسع بالتأكيد وتشمل قطاعات كبيرة من الرأى العام فى العالم عند قيام مجتمع الحرية فى العالم العربى.

● أما الخطر الثالث، وهو الأهم، فيتمثل فى أن قيام مجتمع الحرية فى العالم العربى سيغير من ميزان القوى فى الصراع العربى - الإسرائيلى، وذلك لإن ثورات تونس ومصر والبحرين وليبيا واليمن قد أثبتت حقيقتين لا يستطيع أحد إنكارهما بعد الآن وسيكون لهما دور محورى فى مستقبل الصراع. الحقيقة الأولى تؤكد أن شباب الأمة العربية قد حققوا وحدةً هدف عربية لم تتحقق فى الماضى على الإطلاق. والمهم فى الموضوع أنها ليست وحدة مبنية على أسس سياسية أو أيديولوجية أو مصلحية ولكن

على أسس الحقوق والقيم الإنسانية النهائية: حق الحياة، حق الحرية، حق العدالة وهذا النوع من الوحدة هو الوحيد القادر على تحطيم الحواجز التى أقامها الاستعمار وأنظمة الاستبداد بين أقطار الأمة العربية. وتكريس الأسس المبدئية والأخلاقية للسياسة العربية فى تعامل العرب مع بعضهم وفى تعاملهم مع العالم. أما الحقيقة الثانية فهى أن هذه الثورات العربية قد أثبتت أنه بقدر ما كانت أنظمة الاستبداد تتنكر للقضية الفلسطينية وتقترب من إسرائيل كانت معاناة الشعب الفلسطينى تنتقل إلى قلوب وعقول وضمائر الرجال والنساء والأطفال العرب حتى أصبحت «الحالة الفلسطينية» جزءاً عضوياً من «الحالة العربية» فانفجرت ثورات العرب فى ٢٠١٠-٢٠١١، تماماً كما انفجرت الانتفاضة الفلسطينية الأولى عام ١٩٨٧، وكما إنفجرت إنتفاضة الأقصى عام ٢٠٠٠: جماهير تخرج للشارع بدون قيادة وبدون تخطيط لمواجهة القهر والظلم والعدوان. ويحرق محمد بوعزيزى نفسه احتجاجاً على قهر وظلم واستهتار نظام الاستبداد تماماً كما فجر عشرات الشباب والشابات الفلسطينيين أنفسهم احتجاجاً على قهر وظلم واستهتار الكيان الصهيونى الغاصب.

هذا التماهى الطبيعى غير المخطط له بين الحالة الفلسطينية والحالة العربية هو الذى سيغير من ميزان القوى فى الصراع العربى - الإسرائيلى وعندئذ لن تواجه إسرائيل أبو الغيط وعمر سليمان ومحمود عباس وسلام فياض،... إلخ بل ستواجه الملايين من:

- الشعب الذى يريد حق العودة.

فالشعب الفلسطينى فى بيئة مجتمع الحرية العربى سيكون قادراً على استعادة قضيته من الذين اختطفوها طوال سنوات سيطرة أنظمة الاستبداد. وسيكون قادراً على التخلص من هدف «تسوية قضية اللاجئين بشكل عادل» وتكريس حق العودة على أنه الهدف الأساسى والمركزى لنضال الشعب الفلسطينى، فحق العودة مثل الحقوق الإنسانية الأساسية الأخرى، كحق الحياة، لا يقبل التسوية، فإما أن يتمتع الإنسان بحق الحياة أو لا يتمتع به، وكذلك فإما أن يتمتع الفلسطينى بحق العودة أو لا يتمتع به.

- الشعب الذى يريد حق تقرير المصير.

ومع استعادة الشعب الفلسطينى للهدف الحقيقى للنضال الفلسطينى سيكون قادراً على انتخاب ممثليه الشرعيين الذين يعبرون عن إرادته الحرة التى ستتابع النضال ليس من أجل تحقيق «الشرعية الدولية» ولكن من أجل تحقيق الحقوق الإنسانية للشعب الفلسطينى التى لا يمكن التصرف بها، فالشعب الفلسطينى كأى شعب آخر فى العالم له الحق المطلق فى تقرير مصيره

- الشعب الذى يريد حق المساواة أمام القانون.

وعندما يستعيد الشعب الفلسطينى مسيرته النضالية من أجل استعادة حقوقه الإنسانية فإن قضيته تصبح قضية كل إنسان فى هذا العالم يؤمن بالقيم الإنسانية كقيم كونية عامة شاملة لا تتجزأ ولا تقبل أى استثناء. وعندئذ سيواجه أنصار حقوق الإنسان فى أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية حقيقة أنهم يؤيدون فى إسرائيل أوضاعاً يعاقب عليها القانون فى بلادهم.

وسيتضح أن إسرائيل فى هذه المواجهة ستكون كما وصفها سيد المقاومة «أوهن من بيت العنكبوت».

[٤]

منذ عام ١٩٧٩ عندما وقع أنور السادات الصلح المنفرد لكامب ديفيد وإسرائيل تصول وتجول وتعربد فى المنطقة مستمدةً قوتها من:

- الاستبداد العربى.
- دعم الرأى العام فى أمريكا الشمالية وأوروبا الغربية.

وعندما تفقد إسرائيل الحليف الأول فإنها لن تتمكن من الاحتفاظ بالحليف الثانى لمدة طويلة.

١ - أعلنت الحكومة السعودية أكثر من مرة أنها لم تكن على علم بذلك ' على أساس أن شركة بريطانية قامت، بتمويل سعودى، بالاتفاق مع الحكومة الإسرائيلية على القيام بعمليات سلاح الجو الإسرائيلى. ، وليس مهماً إذا كان ذلك النفى صحيحاً أو كاذباً فالمهم فى الموضوع هو أن مصلحة الأسرة السعودية ومصلحة إسرائيل كانتا فى جانب واحد أثناء حرب اليمن.

٢ - هناك من يعتقد أن ذلك الموقف الذى قاده الملك فيصل كان وراء اغتياله، ولكن ليس هناك إثبات على ذلك. ■

كتاب الزاوية

لحن الحياة

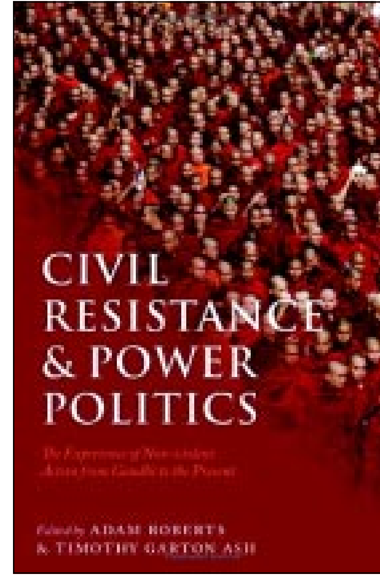
أبو القاسم الشابى

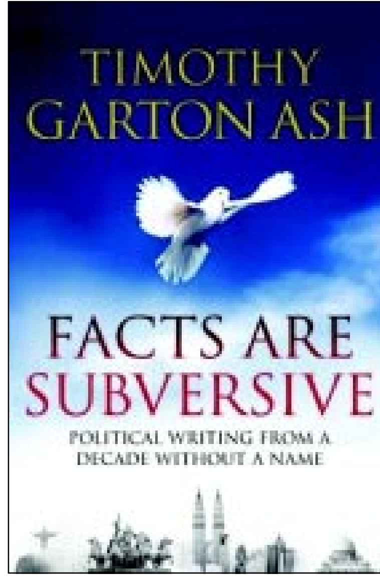
(٢)

ولولا أُمُومةُ قلبى الرَّؤومِ
لَمَا ضمَّت الميْتَ تلكَ الحُفَرْ
فويلٌ لِمَنْ لم تَشُقَّهُ الحَيا
ةُ، مِنْ لعنةِ العَدَمِ المنتصرْ!

• • •

وفى ليلة من ليالى الخريف
مُثَقَّلة بالأسَى والضَّجَرْ
سَكرتُ بها من ضياءِ النُّجوم
وغنَّيْتُ للحُزْنِ حتَّى سَكِرْ
سألت الدُّجى: هل تُعيدُ الحياةُ
لما أذْبَلَتْهُ ربيعَ العُمُرْ؟
فلم تَتَكَلّمْ شفَاهُ الظَّلامِ
ولم تَتَرنَّمْ عَذّارى السَّحَرْ
وقال لِيَ الغابُ فى رقَّة
محبَّبَة مثْلَ خفْقِ الوتَرْ:
يَجيءُ الشّتاءُ، شتاءُ الضّباب،
شَتاءُ الثّلوجِ، شتاءُ المَطرْ
فينطفئُ السّحْرُ، سحْرُ الغُصون،
وسَحْرُ الزُّهورِ، وسحرُ الثَّمَرْ
وسِحْرُ السَّماءِ الشَّجِيُّ الوديعُ،
وسحْرُ المروجِ، الشهيُّ العَطِرْ
وَتَهوِي الغُصونُ، وأوراقُهَا،
وأزهارُ عهدٍ حبيبٍ نَضِرْ
وتلهو بها الرّيحُ فى كُلِّ واد،
ويَدْفنُها السّيلُ، أنَّى عَبَرْ
ويَفْنَى الجميعُ كحُلْمٍ بديعٍ،
تألّقَ فى مهجةٍ واندَثَرْ
وتبقَى البُذور، التى حُمّلَتْ
ذخيرةَ عُمْرٍ جميلٍ، غَبَرْ
وذِكْرَى فصولٍ، ورؤيا حَياة،
وأشباحَ دنيا، تلاشَتْ زُمَرْ
مُعانِقَةً ـــ وَهْىَ تحتَ الضَّباب،
وتحْتَ الثُّلوجِ، وتحتَ المَدَر





ثـــــورة بـــلا عــنـــف؟

بـــريـــــان أوركــــــوهــــــارت
Brian Urquhart

■■ ما بين كآبة الحاضر والانتفاضات الأخيرة فى العالم العربى، من المفيد أن ننظر خلفنا إلى الأعوام الثلاثين الأخيرة تقريبا ونرى ما الذى جرى بالفعل على نحو جيد أو سيئ. إن انتهاء الحرب الباردة وفناء الشيوعية وصعود دول ديمقراطية جديدة ذات سمات متنوعة، كل ذلك يمثل تحولا تاريخيا هاما. بل إن غالبية التحولات السياسية والاقتصادية الجذرية فى ربع القرن الأخير جاءت بقليل أو دون إراقة دماء. لقد أصبحت الثورة «المخملية» القائمة على العصيان والتنظيم والتفاوض المدنى هى الموضة السائدة. ويعود الكثير من الفضل فى ذلك إلى «ميخائيل جورباتشوف Mikhail Gorbachev».

إن ما نطلق عليه الآن «عصيان مدنى» يأتى عادة فى صورة مسيرات وتظاهرات حاشدة، مثلما حدث فى براغ عام ١٩٨٩ وفى طهران عام ٢٠٠٩. كما يشارك الناس أيضا فى الإضراب عن العمل والمقاطعة والإضراب عن الطعام ورفض الالتزام بالقانون. وقد أصبح كل ذلك جليا فى الإطاحة بالحكومة فى تونس والاحتجاجات الجماهيرية فى القاهرة، التى تم تنسيقها عبر الإنترنت وكانت بلا قيادة إلى حد كبير، والتى ربما لن تتضح نتائجها قبل مضى بعض الوقت. إن العصيان المدنى لا يستطيع النجاح فى العادة أمام القمع المنهجى العنيف أو فى دولة بوليسية شمولية، وهو لا يزال يقمع على أيدى الأنظمة المتسلطة وحكومات الزمرة. يبدو أن ذلك يتغير، على الأقل فى العالم العربى.

عادة ما يقترن العصيان المدنى السلمى الحديث باسم «مهندس ك. غاندى Mohandas K. Gandhi» الذى بدأ تجربته مع العصيان المدنى فى وجه التمييز ضد الهنود فى جنوب أفريقيا عام ١٩٠٦ ثم انتقل إلى الهند ليتحدى إدارة الـ«راج Raj» (فترة الحكم البريطانى فى الهند من ١٨٥٨ إلى ١٩٤٧) البريطانية عام ١٩١٥. وبغض النظر عن نجاح أو فشل حملاته، يعد «غاندى» الاسم الأكثر استلهاما من قبل حركات العصيان المدنى السلمية على الرغم من أنى لم أجد له ذكرا تقريبا أثناء الانتفاضات الأخيرة فى الشرق الأوسط.

[١]

تم إنشاء مشروع جامعة أوكسفورد حول العصيان المدنى عام ٢٠٠٦. ويتضمن كتاب «العصيان المدنى وسياسات القوة: تجربة العمل السلمى من غاندى إلى يومنا هذا» من تأليف «آدم روبرتس» و«تيموثى جارتون آش» تقارير لتسعة عشر من أعضاء هذا المشروع عن حالات مختلفة. وهو مصنف زاخر للغاية عن أنماط مختلفة من البحث عن التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية - ومعظمها سلمية - طوال نصف القرن الماضى. وسواء كان نصيبها النجاح أو الإخفاق، فقد ساهمت تلك الجهود فى زيادة حصيلة المعرفة حول كيفية نجاح العصيان المدنى.

العصيان المدنى هو قوة نادرا ما تعمل اعتمادا على نفسها فقط. وكما يشرح «آدم روبرتس»، هناك «شبكة ضخمة من العلاقات بين العصيان المدنى وأشكال النفوذ الأخرى»، والتى أحيانا ما تتضمن القوة والعنف أو التهديد بهما. ولا توجد لذلك معادلة محددة، رغم أن الوسائل المستخدمة بواسطة حركات العصيان المدنى الناجحة تمت دراستها بعناية



بترتيب مع:
The New York Review of Books

Civil Resistance and Power Politics: The Experience of Non-violent Action from Gandhi to the Present
edited by Adam Roberts and Timothy Garton Ash
Oxford University Press, 407 pp., $50.00

Facts Are Subversive: Political Writing from a Decade Without a Name
by Timothy Garton Ash
Yale University Press, 441 pp., $35.00

ترجمة: عادل فتحى

كان النظام الاستعمارى البريطانى مسئولا أمام حكومة ديمقراطية فى الوطن؛ وقد اعتمد حكمه على علاقاته مع مؤسسات هندية عريقة - مدنية ودينية وعسكرية واقتصادية - كانت مصدر قوته



شكل نموذج وتعاليم «غاندى» إلهاما رئيسيا لحركة الحقوق المدنية فى الولايات المتحدة التى قادها «مارتن لوثر كينج الابن» و«مؤتمر الزعامة المسيحية الجنوبى»



وأحيانا ما تجرى محاكاتها بواسطة الحركات اللاحقة. وتذكر «أبريل كارتر April Carter» أن «جين شارب Gene Sharp» مؤلف كتاب «سياسات العمل السلمى The Politics of Nonviolent Action» قد وضع قائمة بـ ١٩٨ من الأعمال السلمية. حتى لو كان ذلك صحيحا فإن العناصر الأساسية للعمل السلمى الناجح، من «غاندى» إلى «مارتن لوثر كينج Martin Luther King» إلى «ليش فاليسا Lech Walesa» كانت الإستراتيجية الحكيمة والزعامة المبدعة الحاذقة والتنظيم والدعم الشعبى. وقد لعبت تغطية الصحافة والإنترنت والتليفزيون للعصيان المدنى دورا متزايد الأهمية فى نجاحه.

المنطق الأساسى للعصيان المدنى هو أن سلطة الحكام تكمن فى النهاية فى طاعة وتعاون رعاياهم. ولم يعثر أى شخص حتى الآن - وعلى أى مستوى - على طريقة موثوقة لإنجاح العصيان المدنى فى دولة بوليسية شمولية - وليس فى الدول التابعة لتلك الدولة - رغم أن الانتفاضات الحالية فى العالم العربى ربما تشكل استثناء لتلك القاعدة. لقد تمكنت حركة الحقوق المدنية الأمريكية أو الاحتجاجات الفعالة فى النهاية ضد الحرب فى فيتنام، من الاعتماد على الدعاية والدعم فى نظام ديمقراطى. لم تكن هناك مثل تلك النجاحات فى ألمانيا النازية والاتحاد السوفيتى. كما لم تتمكن حركة «ميدان تيانانمن Tiananmen Square» الإصلاحية فى الصين عام ١٩٨٩ أو الاحتجاجات الحاشدة للرهبان البوذيين فى بورما ضد زيادات أسعار الطعام والوقود عام ٢٠٠٧ من النجاة من القمع العنيف. إن تفهم «جورباتشوف» للحاجة للتغيير والإصلاح ورفضه استخدام القوة العسكرية السوفيتية ضد التظاهرات فى دول أوروبا الشرقية التابعة هو ما جعل من التحولات المذهلة عام ١٩٨٩ أمرا ممكنا. إن استعداد الزعماء للتراجع - «جورباتشوف» و«ف. و. دو كليرك F. W de Klerk» فى جنوب أفريقيا أو - مؤخرا وعلى نحو مفاجئ - «سلوبودان ميلوسيفيتش Slobodan Milosevi'c» فى صربيا - هو بالفعل عنصر حاسم لنجاح حركات العصيان المدنى. وتؤكد ذلك الأحداث الجارية فى تونس ومصر.

لقد حقق «غاندى»، الذى صاغ فكرة العصيان المدنى باعتبارها «خيارا واعيا» لمقاومة الظلم، نجاحا باهرا. فقد توفرت لديه فى الهند تحت الاستعمار البريطانى ميزات مبدئية معينة استغلها ببراعة. كان النظام الاستعمارى البريطانى مسئولا أمام حكومة ديمقراطية فى الوطن؛ وقد اعتمد حكمه على علاقاته مع مؤسسات هندية عريقة - مدنية ودينية وعسكرية واقتصادية - كانت مصدر قوته.

عرف «غاندى» كيف يستغل تلك السمات الأساسية لـ «راج» وقضى فى النهاية على التعاون الهندى الذى كان يعتمد عليه الحكم البريطانى. لقد حقق استخدامه البارع للمسرح السياسى الذى كان نجما له تعاطفا واسعا فى العالم الخارجى، كما ألهم حزب «المؤتمر الوطنى الهندى Indian National Congress» الذى تحول إلى حزب جماهيرى استطاع أن يتحدى الـ «راج» وأن يشكل حكومة مستقلة بنهاية الحرب العالمية الثانية. وقد أضافت تعاليم «غاندى» وفلسفته للسلم والـ «ساتياجراها Satyagraha» («قوة الحقيقة» أو «قوة الروح») عنصرا جديدا لإحساس الهند بالهوية والفخر. كانت تلك التطورات السياسية والروحانية - وليس العصيان المدنى - هى التى جعلت استمرار الحكم البريطانى مستحيلا فى النهاية. وكانت المأساة التى أدت أيضا إلى اغتيال «غاندى» هى أن حركته عجزت عن منع أهوال العنف الطائفى الهندوسى-المسلم الذى واكب استقلال وانقسام الهند.

شكل نموذج وتعاليم «غاندى» إلهاما رئيسيا لحركة الحقوق المدنية فى الولايات المتحدة التى قادها «مارتن لوثر كينج الابن» و«مؤتمر الزعامة المسيحية الجنوبى Southern Christian Leadership Conference». فمن التهديد بمسيرة «أ. فيليب راندولف A. Philip Randolph» إلى واشنطون فى يوليو ١٩٤٠ للاحتجاج ضد ممارسات التوظيف الإقصائية فى صناعات الدفاع، إلى الأنشطة الناجحة لـ «كينج» فى الستينيات، كان العصيان المدنى السلمى المخطط له ولأهدافه بعناية هو جوهر عمليات الحركة.

تضمنت إستراتيجية العصيان المدنى استدراج الخصوم للرد بوحشية، مما يستدعى دعما تعاطفيا من الصحافة والجمهور لتشجيع الحكومة الفيدرالية للتدخل لصالح القانون والنظام. أتقن «كينج» و«مؤتمر الزعامة المسيحية الجنوبى» هذا الأسلوب تماما. فقد اختاروا مدينة «برمنجهام» فى ولاية «آلاباما» لحملتهم عام ١٩٦٣، حيث إن مفوض السلامة العامة هناك - «بول كونور Bull Conor» - كان متهورا عنصريا عنيفا عتيدا يمكن أن يعول على استخدامه للكلاب والعصى المكهربة ومدافع المياه ضد المتظاهرين المسالمين. وقد اجتذبت أعمال «كونور» الوحشية التغطية التليفزيونية التى جعلت منه وغدا قوميا ومهدت الطريق للرئيس «ليندون جونسون Lyndon Johnson» لإصدار قانون الحقوق المدنية عام ١٩٦٤.

فى مفارقة ساخرة، تحدث الرئيس «كينيدى» إلى «كينج» بخصوص «كونور» قائلا: «لقد أدى - بطريقته الخاصة - خدمة جليلة لقانون الحقوق المدنية هذا العام». كتب «داج مكادام Doug McAdam» (أستاذ علم الاجتماع بجامعة ستانفورد) أنه مع تمرير قانون حقوق التصويت للرئيس «ليندون جونسون» فى أغسطس ١٩٦٥ فقد «سقطت فى النهاية الركائز الانتخابية للنظام الجنوبى». وكما تنبأ «جونسون»، فقد أدى أيضا القانون الذى كان مكسبا رئيسيا للحقوق المدنية إلى هيمنة جمهورية فى الجنوب الديمقراطى سابقا. أما التظاهرات الهائلة التى طالبت برحيل شاه إيران ونجحت فى ذلك، فقد جاءت بديكتاتورية دينية قتلت وعذبت آلاف الإيرانيين وتصر الآن على قمع حركة العصيان المدنى التى تعارضها.

استفادت حركة الحقوق المدنية بلا شك من التركيز العالمى على حقوق الإنسان فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، والذى لعبت الزعامة الأمريكية فيه دورا حاسما. فمع رغبة «فرانكلين روزفلت Franklin Roosevelt» فى مقايضة قضية الحقوق المدنية للسود فى الولايات المتحدة بدعم الديمقراطيين فى الجنوب لقانون «الاتفاق الجديد New Deal» (سلسلة برامج اقتصادية فى الفترة ١٩٣٣-١٩٣٦ لمعالجة آثار الكساد العظيم، المترجم) فى حقبة الثلاثينيات، كان «روزفلت» أيضا بطلا مفوها فى الخارج ضد الاستعمار. وكانت العنصرية الداخلية فى الولايات المتحدة نفسها تنصلا واضحا من أهدافها الدولية. كما أنها جعلت من الولايات المتحدة هدفا سهلا لأبواق الدعاية السوفيتية إبان الحرب الباردة. وقد دعمت تلك الاعتبارات من موقف الحكومة الفيدرالية تجاوبا مع حركة الحقوق المدنية.

قام منظمو حركات العصيان المدنى بدراسة حركة الحقوق المدنية الأمريكية بحثا عن تحولات تاريخية فى مناطق أخرى وخاصة فى أوروبا الشرقية. وقد طرحت الأحداث فى تشيكوسلوفاكيا وبولندا - والتى أصبحت بدورها نماذج لما تلاها من كفاح - أفكارا جديدة حول أسلوب العصيان المدنى. فى كلتا الحالتين انتهت المحاولات المبكرة إلى فشل، إن لم يكن إلى مأساة. فأثناء الأحداث الدرامية عام ١٩٦٨، والتى عرفت بـ «ربيع براغ Prague Spring»، طالبت حركة شعبية سلمية واسعة النطاق وحسنة التنظيم بقيادة «ألكسندر دوبشيك Alexander Dub'cek» بالتغيير وبدأت بالفعل عملية الإصلاح. وقد رفض الاتحاد السوفيتى التفاوض وقام فى ٢٠ أغسطس ١٩٦٨ بغزو البلاد مع أربعة آخرين من الحلفاء فى حلف وارسو. وقد تم اعتقال «دوبشيك» وزملائه الإصلاحيين ونقلوا إلى موسكو «للتفاوض».

يصف «كيران ويليامز Kieran Williams» (الأستاذ بجامعة «دريك Drake» الأمريكية ومؤلف كتاب «ربيع براغ وعواقبه Prague Spring and Its Aftermath»، المترجم) ربيع براغ بأنه «رائع من الناحية الرمزية» ولكنه يوضح كيف أنه كان فشلا سياسيا أدى إلى حكومة أكثر قمعا. فى نوفمبر ١٩٨٩ اندمجت مرة أخرى حركة ١٩٦٨ الجماهيرية. فى تلك المرة، مع وجود «جورباتشوف» فى السلطة، لم يكن هناك تدخل عسكرى سوفيتى، وقاد «فاكلاف هافل Vaclav Havel» (كاتب مسرحى تشيكى أصبح آخر



رئيس لتشيكوسلوفاكيا قبل تقسيمها، المترجم) حركة الكفاح ضد الحكومة الشيوعية باقتدار رائع من مقر مسرحه ومن خلال مسيرات يزداد حجمها باستمرار حتى استقالت الحكومة.

كانت بولندا أول دولة ذات حكم شيوعي تتحول سلميا عن طريق التفاوض إلى ديمقراطية تعددية. قدم هذا الإنجاز والأسلوب المستخدم نموذجا مختلفا. وقد تشكلت ثورة بولندا «المكبوحة ذاتيا» فى السبعينيات كإستراتيجية جديدة للمعارضة السلمية ترتكز على حركة «التضامن» وهى عبارة عن تحالف سلمى تماما للعمال والنخبة والكنيسة الكاثوليكية الرومانية يصل عدد أعضائه إلى حوالى عشرة ملايين. كان الهدف المبدئى للحركة هو زيادة مساحة الحريات المدنية وحقوق الإنسان والحد من هيمنة الحزب الشيوعى على المجتمع. وقد اتسم أداء الحركة بالحكمة و- كما صاغها «الكسندر سمولار Aleksander Smolar» (أستاذ العلوم السياسية، المترجم) - «ضبط رائع للنفس» بزعامة «ليش فاليسا». وقد أحبطت بنجاح كافة أفكار الثورة الشعبية باعتبارها سبيلا مؤكدا تقريبا لتفريخ طاغية جديد. مع ذلك، بحلول عام ١٩٨٠ أصبحت الحركة تشكل - فى نظر السلطات البولندية وموسكو - تهديدا واضحا للنظام الشيوعى، وفى ديسمبر ١٩٨١ قام رئيس الوزراء البولندى الجنرال «فويتشيس ياروزيلسكى Wojciech Jaruzelski» بفرض الأحكام العرفية وقمع حركة «التضامن». وقد اعتقل «فاليسا» وسجن عشرة آلاف من أعضاء المعارضة.

فى عام ١٩٨٥ وصل «جورباتشوف» إلى سدة الحكم بأفكار جديدة تماما بشأن الرغبة فى التغيير، بتشجيع من اتفاقيات هيلسنكى عام ١٩٧٥ التى ألزمت جميع الحكومات الموقعة عليها - نظريا على الأقل - باحترام حقوق الإنسان. وقدم البابا البولندى صاحب الشخصية الكاريزمية «جون بول الثانى John Paul II» - بطريقته الخاصة - دعما شعبيا كبيرا للحرية وحقوق الإنسان. لقد دقت ساعة «التضامن». فى عام ١٩٨٨ وقعت سلسلة متلاحقة من الإضرابات كتحذير أخير، وفى عام ١٩٨٩ مهد العفو عن سجناء «التضامن» الطريق إلى محادثات مائدة مستديرة مع الحكومة. كان زعماء «التضامن» دائما واقعيين بشأن ضرورة التوصل إلى حل وسط. لم يبق زعماء النظام السابق فقط بلا عقاب، بل إنهم احتفظوا بمواقعهم الشخصية والاقتصادية والاجتماعية. وكما كتب «الكسندر سمولار»، فإن حقيقة أن «تأمين

فــى عــام ١٩٨٥ وصــل «جــورباتــشــوف» إلـى سـدة الحـكـم بـأفـكـار جـديـدة تـمـامـا بـشـأن الـرغـبـة فــى الـتـغـيـيـر



ملاذ آمن لأعضاء النظام السابق» قد أصبحت منذ ذلك الوقت مصدرا رئيسيا للاستياء فى السياسة البولندية. ولكن أسلوب التحرير البولندى كان عاملا رئيسيا فى القضاء السلمى على الشيوعية فى أوروبا. من جهته، اعتقد «ياروزيلسكى» على ما يبدو أن المعارضة كانت ضعيفة. ولذلك وافق على إجراء مفاوضات وانتخابات شبه حرة. وفى غياب خطر تدخل سوفيتى، واصلت حركة «التضامن» التفاوض لإسقاط الحكومة محققة فى النهاية نصرا ساحقا فى انتخابات يونيو ١٩٨٩. والآن بعد أن تحقق النصر، تعرض «فاليسا» لاتهامات من قبل بعض دوائر المعارضة بأنه كان لينا أكثر من اللازم أمام الشيوعية، ولكنه التزم بمنهجه التفاوض السلمى. وعلى الرغم من أن رئيس الوزراء الجديد «تادوز مازوفيسكى Tadeusz Mazowiecki» أصبح أول رئيس وزراء غير شيوعى فى العالم الشيوعى، إلا أن «ياروزيلسكى» انتخب رئيسا. وبعد عام واحد خلفه «فاليسا» فى المنصب.

[٢]

فى السنوات الأربعين الأخيرة اندلع اثنا عشر حدثا ثوريا على الأقل فى أنحاء العالم يحركها العصيان المدنى، أخفق العديد منها - خاصة فى الصين وبورما - فى تحقيق أهدافها. إن القيمة الكبرى فى كتاب «العصيان المدنى وسياسات القوة» تكمن فى تقديم روايات موجزة نسبيا لتلك الأحداث المتنوعة بصورة تؤكد على تباينها وتشابهها. (الحالات المستعرضة لا تتضمن القضية الفلسطينية المعلقة).

كانت «ثورة القرنفل» فى البرتغال فى أواسط السبعينيات رد فعل لنصف قرن من الديكتاتورية اليمينية و- بصورة أقل قليلا - اليسار الشيوعى المستبد. وقد تمكن «ماريو سواريز Mario Soares» من حشد حركة جماهيرية تمكنت بحلول عام ١٩٧٦ - ودون إراقة دماء - من إرساء نظام حكومى تعددى تمثيلى. واستطاع «سواريز» أن يحطم النمط التاريخى لما أطلق عليه المؤرخ «أليستير هورن Alistair Horne» - مشيرا إلى الحرب الجزائرية - «فشل متكرر مؤسف للمعتدلين، أو قوة ثالثة تتنافس مع طرفين متناقضين». ولمرة واحدة تمكن «كيرينسكى Kerensky» (أول رئيس وزراء روسى فى حكومة ديمقراطية عام ١٩١٧) فى البرتغال من اكتساب شعبية أكثر من «لينين Lenin». وكما كتب «كينيث ماكسويل Keneth Maxwell» مؤلف هذا الفصل من كتاب «العصيان المدنى وسياسات القوة»: «إن المنهج الذى سار عليه الشعب البرتغالى أثناء تلك الشهور المضطربة جعل من بلدهم رائدا عظيما للتحولات السلمية الكبرى اللاحقة من الشمولية إلى الديمقراطية فى جنوب وشرق أوروبا وفى أمريكا اللاتينية. كان ذلك إنجازا تاريخيا رائعا».

يغطى كتاب «العصيان المدنى» - بكافة تنوعاتها - أحداث الثورة الإيرانية وسقوط «فرديناند ماركوس Ferdinand Marcos» فى الفلبين وطرد «أوجوستو بينوشيه Augusto Pinochet» من شيلى وتحرير ألمانيا الشرقية واستقلال كوسوفو وإطاحة الشعب الصربى بـ «سلوبودان ميلوسوفيتش Slobodan Milosevi'c» و«ثورة الورد» فى جورجيا و«ثورة البرتقال» فى أوكرانيا. مع ذلك، ليس هناك من فصل يروى قصة هامة وبعيدة الاحتمال مثل مقال «توم لودج Tom Lodge» «التفاعل بين العمل السلمى وأعمال العنف فى الحركة ضد سياسة التمييز العنصرى فى جنوب أفريقيا، ١٩٨٣-١٩٩٤ The Interplay of Nonviolent and Violent Action in the Movement against Apartheid in South Africa, 1983-1994» وهى قصة تلقى الضوء على عيوب ونجاحات العصيان المدنى.

كان حزب «المؤتمر الوطنى الأفريقى The African National Congress» قد اعتنق بالفعل فكرة العصيان المدنى ضد سياسة التمييز العنصرى عام ١٩٥٠، ولكن العصيان الذى قاده الحزب لم يتمكن من استبدال النظام شديد الرسوخ لحكومة الأقلية البيضاء داخل جمهورية جنوب أفريقيا إلا بعد ذلك بخمسة وأربعين عاما تقريبا. فى عام ١٩٦٠، حثت جماعة منشقة تدعى «المؤتمر الأفريقى العام Pan-Africanist Congress» الأفارقة على تسليم أنفسهم بصورة جماعية أمام مراكز الشرطة دون حمل «التصاريح» التى تخولهم العيش فى مناطق عديدة من البلاد. وقد أطلقت الشرطة النار على تلك الحشود وقتلت تسعة وستين شخصا فى «شاربفيل Sharpeville» مما أثار ردود فعل عنيفة فى أنحاء العالم. بعد شهر حظرت الحكومة كلا من «المؤتمر الوطنى الأفريقى» و«المؤتمر الأفريقى العام».

بحلول عام ١٩٦١، بدا أن القمع الحكومى المتزايد يؤكد أن الاحتجاج السلمى لن يحقق شيئا. ولذلك وافق «نيلسون مانديلا Nelson Mandela» وزعماء آخرون بالحزب على تأسيس جناح مسلح تابع لـ «المؤتمر الوطنى الأفريقى» باسم «أومخونتو وى سيزوى Umkhonto we Sizwe» (رمح الأمة) للقيام بعمليات تخريب. بحلول نهاية عام ١٩٦٣ كان معظم زعماء «أومخونتو» فى السجن - بمن فيهم «مانديلا» - وانتقل «المؤتمر الوطنى الأفريقى» إلى المنفى بعدد هائل من الأعضاء وجيش يتخذ من أنجولا قاعدة له.

فى عام ١٩٧٦ بدأت المعارضة ضد الحكومة فى التجمع ثانية. كانت



بحــــلول عــــام ١٩٦١، بدا أن القمع الحكومى المتزايد يؤكد أن الاحتجاج السلمى لن يحقق شيئا





النقابات العمالية نشيطة، وذكرت عمليات تخريب «أومخونتو» الأفارقة أن«المؤتمر الوطنى الأفريقى» فى المنفى لا يزال فاعلا. قامت منظمة داخلية جديدة باسم «الجبهة الديمقراطية المتحدة The United Democratic Front» بتنظيم عصيان مدنى من خلال سبعمائة منظمة فرعية تابعة لها، وبدأت فى توفير تدريب مدنى أو مجتمعى من خلال جماعات نسائية ومؤتمر للشباب. وبدأت الجماعات المدنية فى المقاطعات فى إنشاء المؤسسات البديلة لـ «قوة الشعب». كتب «لودج» أن «هجمات نشطاء الجبهة الديمقراطية المتحدة ضد من يشتبه فى تواطؤهم كانت ضرورية لتحقيق انهيار إدارى فى الحكومة المحلية الأفريقية». كما أوضح «لودج» أيضا كيف فاقمت موجة من الإضرابات الصناعية ومقاطعات المستهلكين من المشاكل الاقتصادية لجنوب أفريقيا. وفى يناير ١٩٨٦ أعلنت الحكومة حالة الطوارئ وطردت أنصار «الجبهة الديمقراطية المتحدة» من الشوارع. بدأت «الجبهة» و«المؤتمر الوطنى الأفريقى» فى المنفى فى التفكير فى خياراتهم الأخيرة؛ إما «حرب شعبية» أو انتقال تفاوضى للسلطة. كان «المؤتمر الوطنى الأفريقى» يفضل «حربا شعبية». زادت «أومخونتو» من غارات حرب العصابات. وتفاقمت المشاكل الدولية لجنوب أفريقيا - سحب الاستثمارات الأجنبية ودين خارجى يبلغ ٢١ مليار دولار ومشاكل مع جاراتها الأفريقية. ومن زنزانته فى سجن جزيرة «روبين Robben» فتح «مانديلا» حوارا مع الحكومة. كذلك أدى انهيار سور برلين وسياسات «جورباتشوف» الجديدة عام ١٩٨٩ إلى إبعاد هاجس جنوب أفريقى أبيض قديم، ألا وهو عصيان مسلح لـ«المؤتمر الوطنى الأفريقى» يدعمه الإتحاد السوفيتى. خلف «ف. و. دو كليرك» «ب. و. بوتا P.W. Botha» فى الحكم وبعد تسعة أيام أفرج عن «مانديلا» الذى تفاوض مع الحكومة طوال السنين الأربعة التالية لإقامة ديمقراطية ليبرالية دستورية. عاد «المؤتمر الوطنى الأفريقى» إلى الوطن وأكد قدرته على السيطرة على أنصاره ودعم المفاوضات.

أقر كلا الطرفين بقوة الطرف الآخر ومشاكله. وفى ظل قيادة «مانديلا» الكاريزمية، اتخذت الاحتياطات لتجنب إذلال الأقلية البيضاء التى احتفظت بقوتها الاقتصادية، وكذلك نسيان الماضى المرير. ورغم كل المشاكل التى لا زالت تواجه جنوب أفريقيا، بما فى ذلك انتشار مرض الإيدز والبطالة والجريمة، فإن المحصلة المعجزة كما يذكر «لودج» جاءت من خلال «حركة تمردية سلمية فى الغالب ولكن عنيفة جدا بنفس القدر» وكذلك - فى النهاية - قيادة سياسية حكيمة غير مسبوقة وسخاء روحانى.

عاد «المؤتمر الوطنى الأفريقى» إلى الوطن وأكد قدرته على السيطرة على أنصاره ودعم المفاوضات



[٣]

«تيموثى جارتون آش» هو مؤرخ - بل وشاعر - تحرير أوروبا الشرقية وكثير من التاريخ المعاصر أيضا. وهو عبارة عن خليط فريد من أستاذ بجامعة «أوكسفورد» وصحفى من الطراز الأول («المهنة الهجينة التى مارستها طوال ثلاثين عاما») ولا يبدو أن هناك شيئا يهتم به يقع خارج متناوله. وحول عنوان كتابه «الحقائق مخربة» وهو مجموعة من كتاباته منذ عام ٢٠٠٠ وحتى العام الأول من رئاسة «أوباما»، يشرح أن الحقائق «مخربة بسبب الأكاذيب وأنصاف الحقائق والخرافات؛ وكل تلك الأحاديث المعسولة التى تريح قساة الرجال». كتب «جارتون آش» أن «مصادر تأكيد الحقيقة تقع فى الأساس عند الحدود بين السياسة والإعلام. لقد طور السياسيون وسائل شديدة التعقيد لفرض سرد سائد فى الإعلام». وهذا - من بين أشياء أخرى - وصف رائع للسياسات الأمريكية خلال العامين الأخيرين.

يعلن «جارتون آش» أن الوظيفة الأولى لكل من المؤرخين والصحفيين هى العثور على الحقائق. إن قوة ملاحظته وتحليله وحسه التاريخى، بالإضافة إلى حسه الفكاهى وموهبته فى النكات الشعرية والتعليقات اللاذعة، تجعل من قراءة مقالاته أمرا ممتعا وإلهاميا. وإذا نظرنا إليها نظرة شاملة نجدها تعليقا جازما حول عقد من صعود قوى غير غربية، والاحترار العالمى، وأزمة الرأسمالية، وأفول الولايات المتحدة الظاهر، وشرود أوروبا.

الموضوع الأول لـ «جارتون آش» هو الطبيعة المتغيرة للثورة والجماهير الغفيرة المصاحبة لها: «قضيت ساعات عديدة من حياتى واقفا وسط تلك الجماهير فى وارسو وبودابست وبرلين وبراغ؛ كان سلوكها ملهما وغامضا». يطلق «جارتون آش» على العام ١٩٨٩ «أحد أفضل الأعوام فى التاريخ الأوروبى»؛ لقد سلب لب العالم بسلسلة مما يطلقون عليه ثورات «مخملية»، واللا-عنف، والعداء للمثالية، ترتكز ليس على فكرة منفردة وإنما تحالفات اجتماعية واسعة، وتتسم بممارسة ضغط اجتماعى جماهيرى لجلب من هم فى السلطة حاليا إلى التفاوض.

فى كتابه «الإسلام فى أوروبا Islam in Europe» يذكر «جارتون آش» أن «شارل مارتل Charles Martel» صد التقدم الإسلامى إلى أوروبا فى «موقعة بواتييه Battle of Poitiers» فى العام الميلادى ٧٣٣، ثم يستمر فى تحليل بارع لأكبر مشاكل القارة الحالية. كتب «جارتون آش» أن «العودة من الولايات المتحدة إلى أوروبا» تعنى الارتحال من بلد يعتقد أنه على الخط الأمامى للكفاح ضد الإرهاب الجهادى ولكنه ليس كذلك، إلى قارة تقع على الخط الأمامى ولكنها لم تستيقظ بعد على تلك الحقيقة.



«قضيت ساعات عديدة من حياتى واقفا وسط تلك الجماهير فى وارسو وبودابست وبرلين وبراغ؛ كان سلوكها ملهما وغامضا»



عندما كتب «جارتون آش» ذلك عام ٢٠٠٦، يبدو أنه استهان بالجرح الفظيع الذى لم يبرأ بعد - ورد الفعل تجاهه - الذى ألحقه الحادى عشر من سبتمبر بالروح الجماعية الأمريكية.

بينما كان «جارتون آش» فى أوكسفورد فى صيف ٢٠٠١ طلب منه البيت الأبيض القدوم إلى واشنطون (بالدرجة الاقتصادية) «يوم الخميس القادم» لـ«إعداد (الرئيس جورج دبليو بوش) لرحلته الرسمية الأولى إلى أوروبا». فى نهاية تلك الجلسة التى لم تكن مرضية تماما ولكن كاشفة للغاية («بدا أن (الرئيس) كان لديه عقل مفتوح - ولا أقول خاويا - تجاه معظم القضايا المتعلقة بأوروبا»)، ويذكر «جارتون آش» أن «بوش» علق قائلا: «يحتاج المرء إلى قليل من الوقت ليناسب هذه الوظيفة». ولكن هل ذلك صحيح؟ من الواضح أنه كانت لديه فى أعماقه بعض الشكوك عما إذا كان سيتمكن من ذلك. وكذلك أنا».

يعترف «جارتون آش» أنه كان مخطئا فى «تردده الليبرالى المؤلم» تجاه غزو العراق عام ٢٠٠٣، وكان يجب عليه أن يكتب ضد الغزو قبل أن يبدأ. فكما تبين فى النهاية «لم يسبق فى مجال الصراع البشرى على الإطلاق أن تحقق مثل ذلك القدر الضئيل بواسطة مثل تلك الدولة العظيمة بمثل تلك الكلفة الهائلة. فبينما زعمنا أننا ندفع العراق للأمام نحو حرية «لوكية» (نسبة إلى الفيلسوف جون لوك John Locke الذى نادى بالليبرالية، المترجم) فقد أطحنا به للوراء نحو حالة «هوبزية» (نسبة إلى توماس هوبز Thomas Hobbes، الذى نادى بالسيادة المطلقة للدولة فى مواجهة الفوضى، المترجم)».

بعيدا عن أوروبا يكتب «جارتون آش» عن بورما قائلا «نادرا ما رأيت بلدا أكثر جمالا أو نظاما أكثر قبحا». بعد حديث طويل مع المعارضة «أونج سان سوكى Aung San Suu Kyi» التى رفعت عنها مؤرخا الإقامة الجبرية لأسباب لم تتضح بعد، يشير «جارتون آش» إلى «هالة تشبه «مانديلا» نتيجة الجمع بين البقاء فى الأسر لمدة طويلة والشهرة الدولية، بما فى ذلك - فى حالتها - جائزة نوبل للسلام عام ١٩٩١ والقدح والذم اليومى من قبل النظام». لقد حول «مجلس

كتاب الزاوية

لحن الحياة

أبو القاسم الشابى

(٣)

لِطَيِّفِ الحياةِ الذى لا يُمَلُّ،
وقلبِ الرّبيعِ الشّذىِّ الخَضِرْ
وَحَالِمةً بأغانى الطّيورِ،
وعِطرِ الزُّهورِ، وَطَعمِ الثَّمَرْ

• • •

ويمشى الزَّمانُ، فتنمو صروفٌ،
وتذوى صروفٌ، وتحيا أُخَرْ
وتُصْبِحُ أحلامُهَا يقْظَةً،
موَشَّحةً بغموضِ السَّحَر
تُسَائِل: أينَ ضَبابُ الصَّباحِ،
وسِحْرُ المَساءِ؟ وضوءُ القَمَرْ؟
وأسرابُ ذاكَ الفَراشِ الأنيقِ؟
وَنَحْلٌ يغنّى، وغيمٌ يَمُرْ؟
وأينَ الأشعَّةُ والكائناتُ؟
وأينَ الحياةُ التى أَنْتَظِرْ؟
ظمئتُ إلى النُّور، فوق الغصونِ!
ظمئتُ إلى الظّلّ تحتَ الشَّجَرْ!
ظمئتُ إلى النَّبْعِ، بينَ المروجِ،
يُغَنّى، ويرقُصُ فوقَ الزّهَرْ!
ظمِئتُ إلى نَغَماتِ الطُّيورِ،
وهَمسِ النّسيمِ، ولحنِ المَطَرْ،
ظمئتُ إلى الكونِ! أينَ الوجودُ
وأنَّى أرى العالَمَ المنتظَرْ؟
هُو الكونُ، خلفَ سُبَاتِ الجُمودِ،
وفى أفقِ اليَاقظاتِ الكُبَرْ
وما هُوَ إلاّ كَخَفْقِ الجَنَا
حِ حتى نما شوقُها وانتصَرْ
فصدَّعَتِ الأرضُ مَن فوقَها
وأبْصرتِ الكَوْنَ عذبَ الصُّوَرْ
وجاءَ الرَّبيعُ، بأنغامِه،
وأحلامِه، وصِباهُ العَطِرْ
وقبَّلها قُبَلاً فى الشّفاه،
تُعيدُ الشَّبابَ الذى قد غَبَرْ

الدولة لاستعادة القانون والنظام State Law and Order Restoration Council»، وهو النظام العسكرى الحاكم، بورما إلى دولة تابعة للصين. أين الأمل فى ثورة «حريرية» لإعادة «أونج سان سوكى» إلى المنزلة الشرعية التى اكتسبتها عن طريق الانتخابات وحب الناس؟ فى كتاباته عام ٢٠٠٠ اعتقد «جارتون آش» أن الانفجار كان أمرا مرجحا، وبالفعل كان هناك انفجار عام ٢٠٠٧ بتظاهرات الرهبان، ولكن الجنرالات أخمدوه بسهولة.

رغم كل مشاكل بورما المروعة يأمل «جارتون آش» أن شيئا من الجمال الهادئ لثقافة تقليدية منعزلة فريدة تقريبا فى العالم المعاصر، قد ينجو من عاصفة الحداثة الضرورية التى طال انتظارها. ولكن جيوش الرأسمالية العالمية تنتظر على الحدود بمحركاتها الهادرة وحمولات حاوياتها من السلع المبتذلة وبضائع الموضة الجاهزة والحوانيت الإباحية وقبعات البيسبول المقلوبة وأحدث البرمجيات للتصنيع المتواصل حسب رغبات المستهلك الجديدة. تلك الجيوش لا يمكن مقاومتها بخلاف أى جيش شعبى، حيث تلقى ترحيبا باعتبارها جيوش تحرير.

وعن الوقت الذى قضاه فى إيران، كتب «جارتون آش»: «لقد انشغلت الثورة الإسلامية، مثل الثورتين الفرنسية والروسية قبلها، بالتهام أطفالها. ويوما ما سوف يلتهم أحفادها الثورة». وكتب عن مصر: «بمحاولة خنق النزعة الإسلامية فإنهم يقومون بتغذيتها».

احتوت الأميال المائة وعشرة من ملفات «ستاسى Stasi» (وزارة الأمن الداخلى بألمانيا الشرقية، المترجم) التى أصبحت متاحة عام ١٩٩٠ على ملف من ٣٢٥ صفحة عن «جارتون آش» يرتكز على السنوات التى قضاها فى الدراسة فى ألمانيا الشرقية. وقد أجرى «جارتون آش» مقابلات مع جميع معارفه - باستثناء واحد - الذين تحدثوا عنه إلى «ستاسى» وجميع ضباط «ستاسى» فى حالته، وألف كتابا عن ذلك بعنوان «الملف The File» (١٩٩٧) الذى يتسم فى وقت واحد بالتصوير الفاتر والغضب الهادئ إزاء نظام يدعو إلى الخيانة الشخصية.

يتحول «جارتون آش» فى النهاية إلى «الفيل الموجود فى كل غرفنا» ألا وهو الانتصار العالمى للرأسمالية. وعلى الرغم من أنه لا يبدو الآن أن هناك بديلا عمليا لها، فإن التطورات الأخيرة ليست مشجعة. كتب «جارتون آش» عام ٢٠٠٧ أنه من الواضح أن الرأسمالية ليست نظاما يصحح نفسه تلقائيا. وقد ثبت منذ ذلك الوقت أن هذا صحيح بصورة مدمرة. كما وصل تفاوت الثروة إلى مستويات شاذة. يعلق «جارتون آش»: «إذا بدأ العديد من أفراد الطبقة المتوسطة بالشعور بأنهم يخسرون شخصيا لصالح نفس عملية العولمة التى تجعل تلك القلة من مدراء الصناديق المالية أثرياء بصورة فاحشة، بينما يجرى تصدير وظائف الطبقة الوسطى خاصتهم إلى الهند، فعندئذ ربما تكون لديك نكسة».

لقد أثبتت «حفل الشاى The Tea Party» (حركة سياسية أمريكية، المترجم) أن ذلك مجرد تلميح. على المدى الطويل فإن أسوأ شىء هو أن هذا الكوكب لا يستطيع تحمل ستة مليارات ونصف مليار من البشر يعيشون مثل مستهلكى الطبقة المتوسطة المعاصرين فى شمالها الغنى. ربما تكون الاستدامة كلمة رمادية مملة، ولكنها أكبر تحد منفرد للرأسمالية العالمية اليوم. إن عبقرية الرأسمالية المعاصرة ليست ببساطة أنها تمنح المستهلكين ما يريدون ولكنها تجعلهم يريدون ما يتوجب عليها أن تقدمه. إن هذا المنطق الجوهرى للرغبات المتزايدة باستمرار هو الذى لا يمكن تحمله على نطاق عالمى.

كما يصوغها «جارتون آش»: «تخل عن المقومات الأساسية للحياة المتحضرة المنظمة - الطعام والمأوى ومياه الشرب والحد الأدنى من الأمن الشخصى - وسوف نعود خلال ساعات إلى حالة «هوبزية»، حرب يشنها الجميع ضد الجميع». هناك الآن مشاكل عالمية خطيرة، من بينها الكوارث الطبيعية المرتبطة ربما بالتغير المناخى والتى تزداد عنفا وعددا وسيكون لها تأثير خطير قبل مرور وقت طويل. إن الهجرات الجماعية الناتجة وحدها سوف تختبر المظهر الخادع للحضارة كما لم يحدث أبدا من قبل. هل سقط الجنس البشرى فى دوامة حلزونية بلا إمكانية للعودة؟ أم هل يمكن أن يتوصل إلى الفطرة السليمة والتضامن ليكافح من أجل العودة؟ يشعر «جارتون آش» بالتشكك.

يشكل كتاب «الحقائق مدمرة» رفيقا ذكيا لكتاب «العصيان المدنى وسياسات القوة». ويذكرنا «جارتون آش» أيضا أنه بينما حدث تقدم ملموس فى فن وأسلوب التحول السياسى الجذرى، فإننا لا نستطيع أن نعتمد على نجاة ونمو الديمقراطية تلقائيا أو على قدرة نظام تسوده الرأسمالية على تصحيح نفسه. ونحن نواجه أيضا مشاكل عالمية عاجلة بدأنا بالكاد فى البحث عن حلول لها. الوطن بحاجة ماسة الآن للمشاركة السياسية الشعبية التى كانت دائما شريان الحياة لحركات العصيان المدنى، وكذلك لقيادة باسلة عاقدة للعزم. ■

سياسة المفاجأة الثورية

تـيــمــــــــــــور كــــــــــوران
Timur Kuran



■ ■ بإشعال النار في نفسه بعد مواجهة مهينة مع الشرطة، أشعل بائع الخُضَر التونسي محمد البو عزيزي الذي تخرج في الجامعة، أشعل موجة من الاحتجاجات في مختلف أنحاء العالم العربي. وبالفعل، طُرِد العديد من الحكام المستبدين العرب الذين تمسكوا بالسلطة لعقود من الزمان أو اضطروا إلى الإعلان عن رغبتهم في التقاعد قريبا.

ولكن المحتجين في القاهرة وتونس وصنعاء يريدون ما يتجاوز ذلك بكثير. فهم يطلبون أيضاً إدارة تتسم بالكفاءة، وإصلاحات اقتصادية لتحفيز النمو، وإبعاد المتعاونين مع النظام الفاسد، والحقوق الديمقراطية، وحرية الدين (بل وربما حرية عدم التدين). أي أنهم باختصار يطلبون تحولاً اجتماعياً شاملا.

وفي كل مكان كانت الأنظمة القائمة حريصة على تصعيد المقاومة. ويشير المشهد الذي لا ينسى لمؤيدي مبارك على صهوة الجمال والخيول وهم يضربون المحتجين المصريين من ذوي المهارات التكنولوجية الرفيعة إلى أن النظام القديم لن يستسلم من دون قتال.

الواقع أن هذه الثورات فاجأت المراقبين المخضرمين، وحتى القادة العرب، وأخذتهم على حين غرة. فلو كانت الولايات المتحدة تدري ماذا تخبئه الأيام القليلة التي تلت اندلاع الثورة في مصر، فما كانت وزيرة الخارجية الأمريكية هيلاري كلينتون لتعلن بعد اندلاع المظاهرات مباشرة أن الحكومة المصرية «مستقرة». والزعماء العرب الذين يمطرون جماهيرهم الرئيسية الآن بزيادات في الأجور وإعانات دعم السلع الغذائية كانوا ليفعلوا ذلك في وقت سابق، لو كانوا يعلمون، في محاولة لتجنب ترك انطباع عنهم يشير إلى ضعفهم.

وحتى أولئك الذين عارضوا النظام لفترة طويلة أخذوا على حين غرة. فالأيام بعد اندلاع الثورة في مصر، ظلت جماعة الأخوين المسلمين في حيرة من أمرها لا تدري كيف تتفاعل مع الأحداث، الأمر الذي جعلها تبدو وكأنها منفصلة عن نبض «الشارع العربي».

على مدى عقود من الزمان كانت أغلب الشعوب العربية، على الرغم من سخطها، حريصة على إبقاء المظالم السياسة التي تتعرض لها في طي الكتمان، خوفاً مما قد تعانيه من اضطهاد إذا انقلبت على زعمائها علنا. ومن خلال المناقشات الخاصة مع أصدقاء موثوق بهم، شعر الجميع بأن الاستياء بات شعوراً عاما، ورغم ذلك فإن أحداً لم يكن يعرف أو ما كان له أن يعرف المدى الذي بلغه الاستياء والسخط بين الناس.

وكان الأمر الأكثر تعذراً على القياس هو الوقت الذي قد يستغرقه الأمر قبل أن يعلن الساخطون أن «الكيل قد طفح» وقبل أن يتحدوا نظامهم الحاكم علنا، وبكل إصرار، وبقدر عظيم من التنسيق. وإذا بلغ العدد الكافي من العرب تلك العتبة في الوقت المناسب، فإن الشارع العربي الذي طال امتثاله سوف ينفجر غضبا، وسوف تشجع كل مجموعة جديدة من المحتجين المزيد من الناس على الانضمام إلى الاحتجاجات، الأمر الذي لابد وأن يمنح الناس في أماكن أخرى من العالم العربي الشجاعة الكافية للبدء في تنظيم احتجاجات خاصة بهم.

والواقع أن ذلك كان مفهوماً على نطاق واسع من قِبَل الحكام المستبدين العرب الراسخين، الذين كانوا حريصين على تحريك أجهزتهم الاستخباراتية والأمنية لإخماد أي شعلة تمرد قبل أن تنتشر.

سوف يسجل التاريخ أن عود الثقاب الذي استخدمه البو عزيزي لإشعال النار في نفسه في السابع عشر من ديسمبر/كانون الأول من عام ٢٠١٠ كان بمثابة الشرارة غير المتوقعة التي أشعلت ناراً عربية خضراء. ولقد انتشرت النيران بسرعة بالغة، حتى أن الحكام العرب حينما أدركوا ما الذي قد تلتهمه هذه النيران كانت قد خرجت عن السيطرة، وفي أكثر من بلد. وأظن أن الدكتاتور التونسي المخلوع يشعر بالندم الآن لأن القوات الأمنية التابعة له لم تعتقل البو عزيزي وتحتجزه وراء القضبان، بدلا من السماح له بالتضحية بذاته علنا.

وكما تبين، ففي الوقت الذي أصبحت فيه خطورة التمرد واضحة، كان الخوف قد انتقل بالفعل من الشارع إلى أروقة السلطة التونسية. ويبدو أن مساعدي الرئيس زين العابدين بن علي بدءوا يشعرون بالخوف بشكل خاص من أن يعلقوا على الجانب الخطأ من التاريخ التونسي، وهو ما غلب خوفهم من مواجهة غضب رئيسهم المحاصر. وتوحي الانقسامات داخل النظام المصري الآن بأن الخوف قد تغلغل أيضاً داخل حاشية حسني مبارك.

إن الآليات الكامنة وراء هذه الحيرة السياسية ليست فريدة من نوعها في العالم العربي. والواقع أن اندلاع الانتفاضات غير المتوقعة أمر ممكن حيثما عمل القمع على منع الناس من التعبير عن ميولهم السياسية علنا.

ففي عام ١٩٨٩، أذهل سقوط الأنظمة القمعية في أوروبا الشرقية على التوالي وبسرعة كل العالم، بما في ذلك المنشقين الذين أدركوا منذ فترة طويلة نقاط الضعف التي تعيب الشيوعية. وقبيل اندلاع الثورة الإيرانية في عام ١٩٧٩، وصف تقرير لوكالة الاستخبارات المركزية النظام الملكي الإيراني بأنه «جزيرة من الاستقرار». وقبل شهر واحد من اندلاع الثورة الروسية في فبراير/شباط من عام ١٩١٧، توقع لينين أن الانفجار الأكبر في بلاده ما زال كامناً في المستقبل البعيد. وكل هذه الحالات اشتملت على توسع الاحتجاجات الشعبية وامتدادها إلى جماهير ظلت ساكنة لفترة طويلة ولم يسبق لها أن نظمت عملاً منسقا.

وتشكل الآثار المترتبة على الثورات غير المتوقعة في حد ذاتها مفاجأة. ففي مصر وتونس واليمن لا أحد يدري إلى أي يد قد تنتهي السلطة في الأشهر المقبلة. فكما حدث في إيران في عام ١٩٧٩، كان المتظاهرون الذين اتحدوا على معارضة النظام القديم يسعون إلى تحقيق أهداف متباينة إلى حد كبير. ولم تكن أكبر مطالبهم. تأمين الوظائف، وتحقيق نمو أسرع، وخفض أسعار المواد الغذائية. متوافقة بالضرورة، وربما كانت تتطلب فرض سياسات مؤلمة. وهذا يعني أن نشوء الانقسامات داخل حركات المعارضة أمر حتمي لا مفر منه.

لو كانت هذه المجتمعات العربية الثائرة الآن تتمتع بتقاليد ديمقراطية، لكان من المتوقع أن تتوصل إلى الحلول الوسط بشكل سلمي، من خلال المناقشة المفتوحة الأمينة. ولكن من المؤسف، وفي ضوء التاريخ الطويل الذي عاشته هذه المجتمعات من الحكم الاستبدادي، فمن غير المرجح أن نشهد قفزات عملاقة نحو ديمقراطية ناضجة. ورغم أن اتخاذ خطوات نحو الديمقراطية أمر ممكن، بعد مرور نشوة اللحظة الحالية، فإن المتنافسين السياسيين سوف يدركون أنهم مضطرون، ولو لمجرد الدفاع عن النفس، إلى تقييد حريات خصومهم.

وما يزيد الطين بلة ويزيد الموقف تعقيداً هو ظهور الإسلاميين، الذين كانوا حريصين حتى الآن على التواري عن الأنظار. فهم أنفسهم منقسمون، حيث تتراوح رغباتهم بين تطبيق حكم الشريعة بشكل أو آخر إلى تطبيق «النموذج التركي» الذي ينطوي على قدر معتدل من التوجه الإسلامي القادر على اكتساب الدعم الحاشد من خلال صناديق الاقتراع.

ولكن هناك العديد من الأمور المؤكدة. لقد نجح الشارع العربي في تغيير حسابات الخوف، ليس فقط في البلدان التي شهدت احتجاجات كبرى، بل وأيضاً في بقية بلدان العالم العربي، حيث انتبه الحكام إلى حقيقة مفادها أن السخط ليس من الممكن أن يظل محجوباً إلى الأبد. وسوف يسارع الحكام العرب القدامى والجدد إلى تنفيذ سياسات مصممة للتخفيف من حدة السخط الشعبي. وسوف يفكرون في تخفيف القمع في محاولة لكسب التعاطف، وتشديده من أجل منع الاحتجاجات التي لا يمكن السيطرة عليها. ولكن مهما فعلوا فيتعين عليهم. وبقية العالم. أن يتوقعوا المفاجآت الآن. ■

Timur Kuran is Professor of Economics and Political Science at Duke University and the author of The Long Divergence: How Islamic Law Held Back the Middle East.

ترجمة: مايسة كامل

ســــيف القـــذافى وأنـا

دانــــــــى رودريـــــــــك

Dani Rodrik

■■ قبل وقت ليس بالبعيد، كتب لى أحد الزملاء فى جامعة هارفارد ليبلغنى بأن سيف الإسلام القذافى، أحد أنجال دكتاتور ليبيا، سوف يكون فى المدينة وأنه يرغب فى لقائى. وأضاف زميلى واصفاً سيف الإسلام بأنه شخص مثير للاهتمام ويحمل درجة الدكتوراه من كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية؛ وأكد لى أننى سوف أستمتع بالحديث معه، وأننى قد أكون قادراً على مساعدته فى تفكيره فيما يتصل بمسائل اقتصادية.

ولكن الاجتماع انتهى إلى خيبة أمل كبيرة. فى البداية جلس معى موظف سابق بشركة مونيتور، وألمح بلطف إلى أننى لا ينبغى لى أن أتوقع الكثير من المقابلة. كان سيف الإسلام يحمل نسخاً مصورة من صفحات من أحد كتبى تحمل بعض الملاحظات التى دونها بيده. ولقد وجه إلىّ عدة أسئلة. عن الدور الذى تلعبه المنظمات غير الحكومية الدولية، كما أتذكر. بدت بعيدة إلى حد ما عن مجال خبرتى. ولا أظن أنه خرج من المقابلة وقد أثرت إعجابه كثيراً؛ والواقع أنه لم يجتذب اهتمامى أيضاً. ومع نهاية الاجتماع، دعانى سيف الإسلام لزيارة ليبيا فأجبته بأن هذا من دواعى سرورى. بدافع من المجاملة فى الحديث لا أكثر.

ولم يتابع سيف الإسلام عرض الزيارة قط. ولكن لو تسلمت دعوة حقيقية، فهل كنت لأسافر إلى ليبيا، وأقضى وقتاً مع سيف الإسلام، أو ربما كنت لألتقى بوالده ورفاقه؟ هل كنت لأستسلم لحجج مثل: «نحن نحاول تنمية اقتصادنا، ويمكنك حقاً أن تساعدنا بخبراتك ومعارفك»؟ أو بعبارة أخرى، هل كنت لأسير على خطى العديد من الزملاء فى جامعة هارفارد الذين سافروا إلى ليبيا لتبادل وجهات النظر والمشورة مع حاكمها الدكتاتور. والذين حصلوا على مقابل مجز لخدماتهم؟

لقد تعرض هؤلاء الباحثون للتشنيع فى وسائل الإعلام فى الأسابيع الأخيرة بتهمة التودد للقذافى. ولقد اختار السير هاورد ديفيز أن يستقيل من منصبه مديراً لكلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، التى منحت سيف الإسلام شهادة الدكتوراه (التى يدعى البعض أنها كانت مسروقة) والتى تلقت أموالاً من النظام الليبى.

هناك شعور قوى بأن الأكاديميين والمؤسسات التى تعاونت مع هذا النظام البغيض. بتشجيع من حكوماتهم فى كثير من الأحيان بكل تأكيد. وقعوا فى زلة جسيمة. ولقد كشف موقف معمر القذافى السفاح أثناء الانتفاضة الليبية عن ميوله الحقيقية، على الرغم من مواقفه الأكثر اعتدالاً التى أبداها فى الأعوام الأخيرة. ويشير الدعم الذى قدمه سيف الإسلام لوالده فى الآونة الأخيرة إلى أنه ليس إصلاحياً ليبرالياً كما تصور العديد من المراقبين.

بيد أن إصدار مثل هذه الأحكام كان أسهل كثيراً بعد ما شهدناه من أحداث مؤخراً. فهل كانت الميول الأخلاقية المستترة واضحة إلى هذا الحد فى التعامل مع القذافى قبل انتشار الثورات العربية إلى ليبيا؟ أو لنطرح السؤال بشكل أكثر توسعا: هل نستطيع أن نجزم بأن المستشارين لابد أن يتجنبوا التعامل مع الأنظمة الاستبدادية؟

إن الجامعات فى مختلف أنحاء العالم تتسابق فى محاولة لتعميق مشاركاتها مع الصين. والواقع أن أغلب الأكاديميين لا يتورعون عن انتهاز أى فرصة لمقابلة الرئيس الصينى هو جين تاو. ولم أسمع الكثير من الانتقادات الموجهة لمثل هذه الاتصالات، والتى ننظر إليها عادة بوصفها أمراً طبيعياً لا يستحق الكثير من الجدال. ورغم ذلك فإن قلة من الناس قد ينكرون أن النظام الصينى قمعى ويتعامل مع خصومه ومعارضيه بكل قسوة. ولا تزال ذكريات ساحة السلام السماوى حاضرة فى الأذهان. ومن يستطيع أن يجزم بالكيفية التى قد يرد بها حكام الصين على الانتفاضات المؤيدة للديمقراطية فى المستقبل والتى قد تهدد بتقويض النظام؟

وماذا عن دولة مثل أثيوبيا؟ لقد خضت فى عدد من المناقشات المكثفة فى مجال السياسة الاقتصادية مع رئيس الوزراء ملس زيناوى فى أديس أبابا. ولا بد لى من الاعتراف بأننى استمتعت بهذه المحادثات أكثر من أغلب اللقاءات التى جمعتنى بشخصيات فى واشنطن العاصمة وغيرها من العواصم الديمقراطية. والواقع أننى لا أستسلم لأية أوهام فيما يتصل بالتزام زيناوى بالديمقراطية. أو الافتقار التام إليها فى أثيوبيا. ولكننى أعتقد أيضاً أنه يحاول تنمية اقتصاده، وأنا أقدم مشاوراتى فى مجال السياسات بدافع من اعتقادى بأن الأثيوبيين العاديين قد يستفيدون منها.

إن اللغز المحير الذى يواجه المستشارين الذين يقدمون نصائحهم للأنظمة الاستبدادية أشبه بمشكلة قديمة فى الفلسفة الأخلاقية تعرف بمعضلة «الأيدى القذرة». إذا ما احتجز أحد الإرهابيين على سبيل المثال مجموعة من الرهائن، وطلب منك أن تقدم لهم الماء والطعام، فقد تختار الأرضية الأخلاقية العالية وتقول: «لن أتعامل أبداً مع إرهابى». ولكنك بهذا تهدر الفرصة لمساعدة الرهائن. وقد يقول أغلب الفلاسفة الأخلاقيين إن التصرف السليم فى هذه الحالة هو مساعدة الرهائن، حتى ولو كان ذلك قد يساعد الإرهابى أيضا.

ولكن اختيار العمل الذى قد يفضى إلى قدر أعظم من الصالح العام لا يعفينا من المسؤولية الأخلاقية. إن أيدينا تصبح قذرة حينما نساعد إرهابيا أو طاغية. ويصف الفيلسوف مايكل والترز هذا الموقف بعبارة بليغة: «من السهل أن نوسخ أيدينا بالسياسة»، ولكنه يضيف على الفور قائلاً إن توسيخ المرء ليده على هذا النحو «هو التصرف السليم غالبا».

فى نهاية المطاف، لا يستطيع من يقدم المشورة للزعماء المستبدين أن يتهرب من المأزق. ففى كثير من الأحيان يسعى الزعماء إلى المشاركة لتحقيق هدف واحد يتلخص فى إضفاء الشرعية على حكمهم، وفى هذه الحالة يتعين على الناصح الأجنبى أن يبتعد ببساطة عن الأمر. ولكن إذا ارتأى الناصح الأجنبى أن عمله سوف يفيد هؤلاء الذين يحتجزهم الزعيم رهائن، فإن واجبه يملى عليه فى هذه الحالة ألا يحجب مشورته.

وحتى فى تلك الحالة، فيتعين عليه أن يدرك أن الأمر يشتمل على درجة من التواطؤ الأخلاقى. وإذا لم يخرج الناصح من هذا التفاعل شاعراً بأنه تلوث بعض الشىء وأنه مذنب إلى حد ما، فهذا يعنى أنه ربما لم يتأمل بالقدر الكافى فى طبيعة هذه العلاقة. ■



لقد كشف موقف معمر القذافى السفاح أثناء الانتفاضة الليبية عن ميوله الحقيقية، على الرغم من مواقفه الأكثر اعتدالاً التى أبداها فى الأعوام الأخيرة



Dani Rodrik, Professor of International Political Economy at Harvard University, is the author of The Globalization Paradox: Democracy and the Future of the World Economy.

ترجمة: إبراهيم محمد على

NO EXIT © Andy Singer

MUAMMAR QADDAFI'S SON, **SAIF AL ISLAM:**

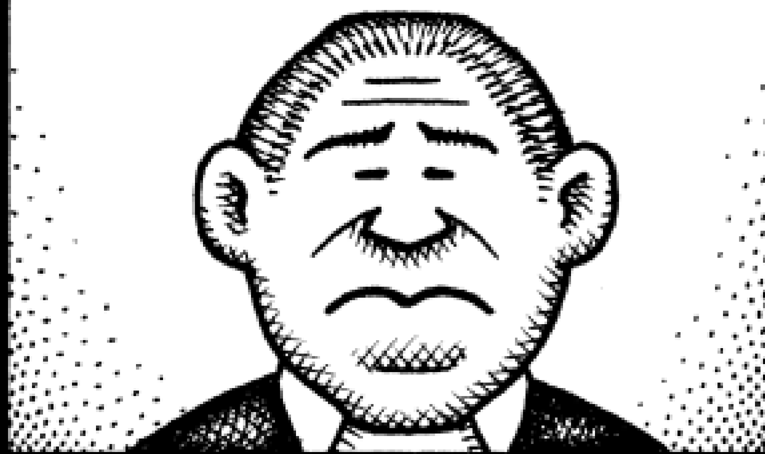


"WE WILL ***NEVER*** LEAVE. WE WILL FIGHT TO THE LAST MAN, THE LAST BULLET."

HE GOT A PH.D. FROM THE LONDON SCHOOL OF ECONOMICS. HIS DISSERTATION WAS ON "***DEMOCRATIZING GLOBAL GOVERNANCE.***"

IT TURNS OUT THAT LARGE SECTIONS OF THE DISSERTATION WERE PLAGIARIZED...BUT THIS WAS IGNORED BECAUSE QADDAFI DONATED ***2.3 MILLION DOLLARS*** TO THE SCHOOL. L.S.E.'S PRESIDENT, HOWARD DAVIES RESIGNED OVER THE SCANDAL...BUT IT MAKES YOU WONDER:

WHAT OTHER WEALTHY LEADERS WERE ABLE TO PURCHASE BOGUS DEGREES FROM **BIG NAME SCHOOLS**?



NO WONDER THEIR ALUMNI ARE DESTROYING THE WORLD!

أدب
الثـــــــــورة


Miguel Angel Asturias

محـمــــــود قـاســـــم

■■ تزدهر الرواية السياسية الضد، حيث يوجد الديكتاتور، وتتنامى أهمية هذه الروايات مع تصاعد حدة الديكتاتورية، وقسوته، واستخدامه لكافة أشكال العنف، والقمع، من أجل ترويض معارضيه أو التخلص منهم.

ولولا ظهور الديكتاتور، ما تنامت مكانة الرواية السياسية فى مناطق بعينها من العالم، خاصة فى أمريكا اللاتينية، وقد تباين الحديث عن هذا الديكتاتور، والوقوف ضده، حسب البلاد، ففى العالم العربى، تم التعامل أدبيًا، مع الديكتاتور، باستخدام الرمز، أو اللجوء إلى الفانتازيا.

وفى أمريكا اللاتينية، كان الديكتاتور، بشكله المرعب، المثير للجزع، موجودًا فى الكثير من روايات كتاب وضعوا أقدارهم بين كفوفهم، فتعرض الكاتب للكثير من المضايقات، بدأت بالمنفى، وانتهت بالسجن، أو الموت الغامض..

وسوف نتوقف هنا عند أبرز الحالات والنماذج، لعلها أهمها وأبرزها هو رواية «السيد الرئيس».. للروائى الجواتيمالى ميجيل انخل اوسترياس Miguel Angel Asturias الفائز بجائزة نوبل عام ١٩٦٧ وهو الكاتب الذى قضى أغلب حياته يعمل بالسلك الدبلوماسى، وقد عرف بنشاطه السياسى الضخم، راح يدفع به إلى الولايات المتحدة، والكثير من العواصم فى أمريكا اللاتينية، وعاش فى متاعب سياسية مع زعماء بلاده بسبب مواقفه المتشددة من نظم الحكم، مما اضطره للرحيل إلى باريس عام ١٩٦٢ وقد نشر الكاتب روايته «السيد الرئيس» وهى رواية استوحى أحداثها من الظروف التى جاءت للرئاسة بالرئيس خورخه اوبيكو بمساندة من الولايات المتحدة الأمريكية.

وقد كتب اوسترياس روايته عام ١٩٣٢، لكنه لم يتمكن من نشرها إلا بعد أربعة عشر عامًا، وهى بمثابة رواية سياسية ملحمية حول الصمت الذى يسيطر على الديكتاتور الذى تحوطه بطانة من المنتفعين الذين يغلقون عينيه عما يدور حقيقة من حوله، ولا شك أن هذه الصورة تحدث دومًا لكل ديكتاتور فى كافة الأوطان.

الديكتاتور الحقيقى «كابريرا»، حكم جواتيمالا لمدة عشرين سنة حكمًا ديكتاتوريا غاشمًا، أما المؤلف فقد استخدم الصور البلاغية الجديدة فى تصوير شخصياته، وغلف روايته بستار شفاف من

The president
Miguel Angel.Asturias - Frances Partridge - Waveland Press - 1963

السخرية، ممزوجة بالفولكلور الخاص بسكان البلاد الأصليين، فالديكتاتور هو مجنون مستبد ملىء بالطغيان، والشهوانية، شهوانية السلطة والبقاء فيها. والماء، والمناصب والقتل، فهو يقتل خصومه بنفس السهولة التى يتناول بها طعام فطوره، وهو يصدر قراراته الدموية بالرقة نفسها، والهمس الذى يخاطب بهما النساء، وهو يستمع إلى نغمات الموسيقى، لقد حول هذا الديكتاتور وطنه إلى جحيم، ومأوى للصوص، والقتلة المأجورين، واختار معاونيه من مسخ البشر المشوهين، وهم من المرتشين، خربى الذمم، فى الوقت نفسه الذى صار فيه المواطنون من المقهورين المذلين، الذين يحلمون بكل ما هو جميل..

انها المفردات نفسها التى نقرأها كل يوم حول أى ديكتاتور، لقد فتح السجون، كى يدخله رجال الفكر والابداع الذين وقفوا ضده، وايضا رجال الدين الذين نبهوا الرعية إلى ما يمارسه من طغيان. لقد رفضوا أن يحولوا هذا الديكتاتور إلى إله، وعندما يتم القبض على واحد من معارضيه، تتم محاكمته بشكل صورى، وسط غياب للعدالة، وكما جاء فى موسوعة الويكيبديا انه «فى هذه المحاكم من الافضل أن تكون مذنبًا على أن تكون بريئًا ولا ترضى عنك الحكومة..» كما تقول الموسوعة أيضاً أن أكثر ما يميز هذه الرواية التى فاز صاحبها بجائزة نوبل هو «الصدق الفنى العالى الذى يجعل من العمل الفنى عملاً أغرب ما يكون إلى متلقيه، حيث يستطيع نقلنا من عالمنا إلى عالمه فنعيش معه رطوبة السجن، وعفن الخبز والموت الحى الأبدى، والانتظار فى زنازين مغلقة لا ترى فيها إلا وجه الموت القادم، وتحلق معه فى عالمه. وتجرى لتحتضن الشمس وتعانق طين الأرض».

تبدأ أحداث رواية «السيد الرئيس» بالحديث عن الشحاذين الذين ينامون فى «رواق الرب» الرب القريب من الكاتدرائية بعد أن تدق أجراس الكنيسة، يجمعهم الشقاء، ينامون متباعدين، وقد وضعوا كل ممتلكاتهم أسفل الرؤوس، بعد أن قاموا بعد ما كسبوه خلال ساعات النهار، وقد ولوا الوجوه نحو الجدران، دون أن ينسوا التسليح بقطع من الحجارة وصور من التعاويذ.

هذه صورة من المحكومين، يختارهم الكاتب من أفقر طبقات الشعب، علمتهم ظروفهم أن يكونوا شديدى القسوة، يفضلون إطعام الكلاب على اغاثة جائع بينهم، يتنابذون بالألقاب، يتسمون بالمشاكسة، لا تخلو أوقاتهم من ضحكات وقهقهة، يقوم رجال الديكتاتور بالقبض على شحاذ أعمى، هو نصف مخلوق، جسد بلا ساقين «أورمة»، يذهبون به إلى السجن، هو ومجموعة من الشحاذين بتهمة قتل أحد كبار رجال الجيش، لقد أجمع الشحاذون على أن القاتل هو الأبله الذى رأوه بالأمس يرتكب جريمته، ثم يغير الشحاذون أقوالهم بشأن الجريمة، ويعترفون أن القاتل ليس هو «العبيط» إلا أن السلطات تعدم هذا الرجل، وترمى به عربة القمامة، ويتم اطلاق بقية الشحاذين.

فى قصر الطاغية، فإن السيد الرئيس، يطلب من مستشاره القاء القبض على الجنرال «كاناليس» بتهمة ارتكاب جريمة الضابط العظيم، ويرى الرئيس أنه من غير المناسب القاء القبض على واحد من رجاله، فيساعده على الهرب..

يقوم مستشاره الرئيس، بعد منتصف الليل، بالاستعانة برجاله للهجوم على منزل الجنرال كاتاليس ويستحل هذا المستشار لنفسه كل ممتلكات بيت الجنرال الهارب، كما أنه يستحوذ لنفسه بالمرأة التى يحبها الجنرال الهارب.

ويحدث أن يرسل الرئيس مستشاره بالسفر إلى نيويورك فى مهمة تتعلق بالمعارضة، يصور الكاتب أن الرئيس يعتمد فى سلطاته على التوجهات الأمريكية، لاحظ أن الرواية مكتوبة عام ١٩٣٢، أى فى فترة الكساد الاقتصادى الكبير، ويصور اوسترياس مستشار الرئيس الطاغية، بأنه ذو وجه ملائكى. يتصرف كالقلب الذكى المتدرب جيداً، السعيد بنصيبه من العظام، والمتشبع بغريزة حب البقاء فابتسم وهو يخفى عداءه. بينما يصور الكاتب مسيرة الزوجة كميلة وهى تبحث عن جنرالها الهارب الذى ترك لها طفلا ينمو فى بطنها، ويحدث أن يتم القبض على مستشار الرئيس الذى يدخل السجن، وتأتيه الأخبار أن كميلة صارت عشيقة للرئيس.

ترك الكاتب اوسترياس ظله بروايته هذه على الكثيرين من الأدباء فى أمريكا اللاتينية، خاصة رواية «خريف البطريرك» لجابرييل جارثيا ماركيز، وايضا «حفل التيس» لماريو فارجاس يوسا وكلا الكاتبين فازا فيما بعد بجائزة نوبل فى الأدب.

وإذا كان اوسترياس قد حدد شكل الرئيس الديكتاتور فى روايته، فإن ماركيث قد تناول الطاغية عنده من طغاة أمريكا

هذا البطريرك يملك من القسوة ما لم يملكه غيره من الطغاة، ويصفه ماركيث على أنه رجل جاهل، دموى، وليست له خبرة إلا بالأعمال الدموية، مما يجعل البلد الذى يحكمه يسير من سيئ لأسوأ، خاصة فيما يخص الجانب الاقتصادى



الوسطى، فى دون لم يحدده المؤلف، كى يخفى عن نفسه حرج المباشرة، ومن أجل أن تكون صورة الطاغية بشكل عام فى روايته هى صورة لكل طاغية فى أى زمان، وفى كل الأمكنة التى يتولد فيها مثل هذا البطريرك، حيث ان المؤلف يتكلم عن سيرة حياة الطاغية منذ الطفولة وذلك أثناء فترة العهد الأخير لنظام النيابة الملكية لأسرة «جووس»، فبعد أن تنتهى حروب الاستقلال فى أمريكا الوسطى، سرعان ما تقوم حرب أهلية شرسة بين طرفين، الأول يمثلهم المحافظون، والثانى هم الليبراليون، وتستمر هذه الحرب أحد عشر عاما، تناوب على الحكم فيها أربعة عشر جنرالا، لقد اختار ماركيث أن تكون دولته هنا أيضاً هى دولة جنرالات، مثلما سبق لأوستورياس أن فعل.

آخر هؤلاء الجنرالات يحمل كافة السمات المألوفة للطاغية، خاصة التى قرأناها فى رواية «السيد الرئيس» فهو أيضاً رجل شره للسلطة، وللملذات الحياة، هذا الجنرال هو عميل للبريطانيين، الذين يحتلون الوطن، وهو يساعد البطريرك فى أن يصبح فوق قمة السلطة، هذا البطريرك يملك من القسوة ما لم يملكه غيره من الطغاة، ويصفه ماركيث على أنه رجل جاهل، دموى، وليست له خبرة إلا بالأعمال الدموية، مما يجعل البلد الذى يحكمه يسير من سيئ لأسوأ، خاصة فيما يخص الجانب الاقتصادى.

هذا الطاغية يستمد قوته من أصدقائه الأمريكيين، الذين يمنحونه المساعدات المالية، مقابل المزيد من التسهيلات لاستثمار الثروات الموجودة فى بلاده، لذا فإن هذا الطاغية لديه حماية، وقد أكسب المؤلف للطاغية كافة سمات الطغاة الذين عرفهم التاريخ، خاصة فى العصر الحديث، فهو قادر على قراءة خريطة وجوه خصومه، ويعرف كيف يتسرب من مكانه حين يأتيه الخطر، ومتى يأمر باغتيال خصومه، وكيف يدخلهم السجون دون محاكمة، كما أنه يبقى دوما فى الحكم، من خلال ديمقراطية ينسجها هو لنفسه، حيث يبتدع ما يشبه اليانصيب، يقوم بسحب بطاقات اختياره اثنان من الأطفال، البطاقتان مكتوب عليهما اسم البطريرك، وبعد السحب، يتم القاء الطفلين فى المعتقلات.

يتحدث ماركيث أن اختفاء عدد كبير من الاطفال وراء غياهب السجون، قد أرق الأهالى، فلجأوا إلى الاحتجاج، والمناداة باطلاق سراح الأطفال الذين دبر لهم الطاغية عملاً تخريبياً للتخلص منهم ويكتشف الطاغية أن مساعده الأول هو الذى يدبر المؤامرة ضده، فيأمر بالقبض عليه، ويوضع فى فرن من أجل تحويله إلى لحم مشوى، يقدم فوق طبق من الفضة ليأكل من اللحم كل الجنرالات الذين تورطوا مع الجنرال فى ارتكاب فظائعه.

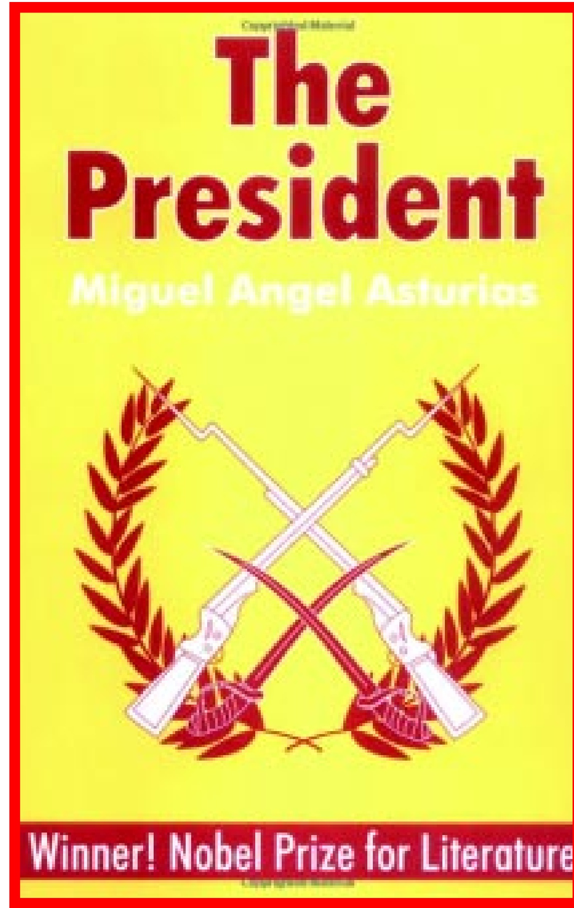
وقد تحدث الكاتب العراقى عبدالكريم كاظم حول هذه الرواية، قائلاً: «ثمة آلية، غريبة تحصل داخل الرواية تميز عهد هذا البطريرك تتمثل بعملية تقسيم وتوزيع الثروات بوصفها كما يعتقد ملكية خاصة لهم. أعنى الحاشية. ومن معهم، خصوصا أمه بنديتون الفارادو التى أعطاها بمرسوم ملكى صفة قديسة الوطن، على الرغم أنهم فى لحظة من اللحظات الكثيرة كانوا يتمنون التخلص منه بشتى الطرق التى قد تتاح لهم بسبب عناده وتخلفه الذى يهدد . كما يتصورون . استقرار الحكومة الذى يجعل حدوث انفجار ما ممكنا نتيجة حالة الاستياء العامة التى يشعر بها المدنيون والعسكريون على حد سواء، أو لنقل بصور متفاوتة..

وقد كتب عبدالستار ناصر مقالا آخر عن هذه الرواية، جاء فيه ان الجنرال ينتهى فى خريفه الأخير إلى أن الكذب هو أنسب بكثير من الشك كما أنه أنفع من الحب وأبقى من الحقائق، وذاك «هو النشيد الذى صار يحكمه بعد عمر دام أبعد من قرنين من الزمن فى أغرب عمل ابداعى كتبه ماركيث. وذلك حول الحاكم الذى لا يعرف أى شىء حول ظروف السياسة العالمية، وربما لا يفهم أبدا ما اذا كان ثمة فى الكون بلاد غير بلاده، انه بمعنى آخر مجرد أحمق جاء إلى السلطة عن طريق المصادفة ثم عاش وصار سيدها من حيث كانت السلطة سيدة عليه، الكاتب يرى أن الطاغية لا يعرف سوى الإنجليز الذين يمنحهم التسهيلات، ويعطونه الأمان للبقاء..

مثل هذه الأجواء ارقت الكاتب الشيلى خوسيه دونوسوا ١٩٢٤ - ، فى العديد من الروايات منها «التتويج» عام ١٩٥٧، و«طائر الليل القبيح» ثم «الاختفاء» وقد بدأ ذلك فى رواية «منزل العسكر» حيث يصور جواً فانتازياً لم يعتد تقديمه من قبل، وان كان هذا اللون منتشراً فى الغرب، خاصة فى أمريكا اللاتينية، وهو ما أطلق عليه النقاد الواقعية السحرية، فهناك طاغية يدعى «فنتورا» يعيش فى قصر ضخم، مملوء بالسلاحف، وآكلة لحوم البشر، الذين ينهشون فى أجساد سكان المنطقة، ويكون أبناء فنتورا هم أول من تنهشهم هذه المخلوقات المتوحشة، يجذبونهم من المدخنة، ويصعدون بهم إلى أعلى القصر، ثم يجذبونهم إلى ممرات الحديقة، لا يجرؤ أحد على مطاردتهم، لقد تمرد آل فنتورا على القانون، وعليهم أن يدفعوا الثمن.

تدور الأحداث فى مدينة ماريلاند الخالية، حيث اعتاد حاكم المدينة أن يخرج من قصره فى الخامسة مساء مصطحباً أطفالاً، انه رجل جاهل، لا يحب الشعر، لذا فإن مكتبة المدينة تخلو من الكتب، لكنها تضم مجموعة من الرسومات واللوحات المدون فيها الأوامر. أمر بالصمت أو أمر بمنع الطعام، أو بمنع التدخين، وعلى الأغلفة الأخيرة لبعض الكتب يمكن أن نقرأ حول بعض الأسماء المجهولة مثل كوبرنيكس، ونيوتن، وأفلاطون، ويؤمن هذا الديكتاتور أن الكتب هى صانعة الثورات.

يرى فنتورا ان آكلة لحوم البشر ليسوا هم من سحبوا أبناءه من المدخنة، ونهشوا أجسادهم، بل هم الذين يأكلون الكتب، ترى ابنة صديقه انه من الشرف أن يتحول المرء إلى آكل لحوم البشر، وتطلب من أبيها أن يلحق بها، يفتح الرجل الفرن، ويخرج الطبق الذى يعلوه الجزر والخضراوات ورأس ابنته الكبرى بنجامين، يصاب الأب بحالة من الفزع، وعليه الآن أن يتحول إلى طاغية إلى آكل لحوم البشر، يأكل كل من نهشوا لحم ابنته، حبس نفسه فى برج لعدة أيام، حملت الرياح صرخاته إلى كل أبناء المدينة، لقد صرخ منادياً: «ابعدوا هذه الطواويس»، رغم أن المدينة الخيالية لم تعرف قط مثل هذا الطير.



نفس هذه الأجواء تحدثت عنها ايزابيل الليندى (١٩٤٢ -) فى أكثر من رواية لها، فمن المعروف أن الكاتبة هى ابنة شقيقة الرئيس التشيلى السابق سلفادور الليندى، وأغلب أعمالها حول الديكتاتور فى بلادها، نشرت روايتها الأولى «منزل الأرواح»، وقد سافرت إلى فنزويلا منفية من رجال الطاغية آجوستينو بينوشيه، وتقول «هذه البلاد ساحرة جميلة، إلا أن الجنة تفقد بريقها لمن يغترب عن بلاده فالحنين يدفعها إلى الكتابة عن وطنها» فعندما تحمل عشرين كيلو من المتاع، فعليك أن تترك وراءك الصور القديمة، والموائد المستديرة، وكراسات الذكريات التى كانت الجدات تحبها..

«بيت الأرواح» نتاج مخيلة تحمل مشكلات بلاد برمتها، فشيلى ووضعها الساخن، وما الأرواح التى تتقافز فى ذلك البيت الكبير الا ارواح الأرامل فى اعادة ترتيب هذا البيت، بعيدا عن العنف والرعب.

وتروى الكاتبة عن وقوفها ضد الطاغية وتقول إنها بعد الانقلاب الفاشى الذى قام به بينوشيه ذهبت إلى فنزويلا مع زوجها.. وفى







نحن نؤدى خدمات عندما نتكلم عن الثوار، نحن نعطى الرجال والنساء للوجود، دون أن نفهم أن حياة كل منهم قد صنعت فى ميلادهم



عام ١٩٨١ نشرت رواية «منزل الأرواح» وفيها تتحدث عن شيلى من خلال أربعة أجيال من النساء اللاتى تتابعن على تربيتها، انها تحكى عن البيت الذى عاشت فيه سنوات طويلة، لم تتحدث عن الديكتاتور بشكل مباشر، لكنها حكت عن الظروف التى يتولد فيها الديكتاتور، وهى ترى أن الروائيين هم وحدهم الذين يعرفون كتابة التاريخ.

ورغم أهمية تجربة اليزابيل الليندى مع الديكتاتور، فإن هناك تجربة روائية سجلتها إحدى بنات عائلتها، تعتبر أكثر أهمية مما أشارت له الليندى فى رواياتها عن الطغاة، هذه الكاتبة من كارمن كوستيللو، التى شهدت مثل ايزابيل وقائع الانقلاب الذى أحدثته الولايات المتحدة فى شيلى عام ١٩٧٣، ضد الرئيس سلفادور الليندى، هذا الانقلاب الذى جاء بالطاغية بينوشيه، وقد سجلت الكاتبة هذه الأحداث فى كتاب يحمل عنوان «يومان من أكتوبر فى سنتياجو» منشور عام ١٩٨٠. وفى هذه الرواية - التسجيل، وهو واحد من أهم الكتب التى تندد بما حدث فى شيللى فى الحادى عشر من أكتوبر، حيث بدأت البلاد تشهد مجموعة من الحركات المتتالية من العنف، وتروى كارمن ما حدث فى يوم عصيب، ظل محفوراً فى ذاكرة كارمن، حين هاجم رجال الدينا - الجسنابو الشيلى - بيتها حيث تختفى مع زوجها ميجيل انريكث السكرتير العام للحزب الثورى، وقبضوا عليه، ثم قتلوه أمام عينى زوجته.

هذا الرجل ميجيل انريكث عضو الحزب الثورى كان أحد الذين بحثت عنهم سلطات بينوشيه منذ اللحظة الأولى للانقلاب، وقد مات على أيدى رجال الانقلاب وهو فى الثلاثين من عمره، كان يقرأ فلوبير ودوستويفسكى، ويرتجل القصص من أجل الأطفال.

كتبت كارمن كوستللو رواياتها وهى فى سن الخامسة والثلاثين، كى تحكى قصة دامية عاشتها قبل هذا التاريخ بسبع سنوات، تتكلم مباشرة عن الديكتاتور، وتقول إن حركة اليسار الثورى تأسست فى شيللى عام ١٩٦٤، وقامت بمناهضة الرئيس السابق السلفادور الليندى، وقد مثل هذا الحزب قوة معارضة، برلمانية له، وقد قام بينوشيه بأكبر حركة للتخلص من أكبر معارضيه، وهو الذى ظل يمثل الجهة الثورية الوحيدة التى تناضل ضد الديكتاتور.

تقول الكاتبة: فى يوم السبت الخامس من أكتوبر ١٩٧٣، فى الساعة الواحدة بعد الظهر، وقفت ثلاث سيارات من الدينا فى شارع سانتافيه، كانت تدور منذ صباح اليوم فى حى سان ميجيل. هدفهم هو منزل أزرق وسيارة حمراء وامرأة حامل، استغرقت المواجهة بعد اتصالات عسكرية ساعتين ونصفا. كنا أربعة فى المنزل، بعد ربع ساعة من بداية المعركة ران صمت رهيب، هل راحوا يبحثون عن نجدة؟ حاولنا أن نبحث عن مخرج، وعبرنا التكعيبة، لاحقتنى قنبلة يدوية أنا وزوجى «اصابته فى جبهته واصابتنى فى حلقى وذراعى الأيمن، نجح أصدقاؤنا فى الهروب، قبل أن يغمى علىّ. سمعت أحدهم يقول: لقد نلنا منهم»، وفيما بعد، رأيت ميجيل واقفاً، وسلاحه فى يده، انه يقاوم، يناضل وحده طيلة ساعتين، تصور رجال الدينا ان هناك على الأقل خمسة وعشرين مناضلا فى المنزل، فطلبوا خمسمائة جندى، وطائرات مروحية، ظلت تدور أعلى المنزل.

واستطاع عسكر الطاغية بينوشيه النيل من ميجيل انريكث: «نقلنى الجنود إلى المستشفى التى تقع عند تقاطع العناية الإلهية، حيث استجوبنى أحد ضباط الدينا طوال شهر.. وبعد تحقيق طويل، اسئلة سخيفة وأجواء بالغة القتامة، ذات صباح، اصطحبنى جنود الدينا إلى المطار الدولى، كنت حاملا وجريحة، وليس معى مليم واحد، ولا أوراق هوية، قال لى أحد الضباط «سوف يتركك الجنرال بينوشيه، بطيبة قلبه، ترحلين. ولكن لا توجد بلدة واحدة تريدك، لأنك ارهابية، ولذا سوف أصحبك إلى سجن المدينة، فى هذه اللحظة وصلت إحدى قريباتى، ومعها جواز سفر حصلت عليه من القنصلية البريطانية، ووجدت نفسى أمتطى طائرة فرنسية دون أن أعرف إلى أين وجهتى.

ووصلت بها الطائرة إلى لندن، فى أواخر أيام عام ١٩٧٣، وبعد شهر واحد، ولد ابنها ميتًا، ومرت بحالة صحية بالغة السوء حيث فقدت الكثير من دمائها، ثم رحلت فيما بعد إلى منفاها فى باريس، وعرفت هناك تحت اسم «الأرملة البطلة».

وترى كارمن كوستيللو أن المنفى ليس الذهاب إلى بلاد يعذب فيها المرء، ولكن المنفى هو أن تبتعد عن الأرض التى اعتدت على اريجها وترابها وروائحها المتميزة، ولذا فإنها تسمى المنفى بالموت الصغير، فرغم أن وصولها إلى باريس قد أحاطها بالكثير من الأضواء والمؤتمرات الصحفية ووسائل الإعلام إلا أنها كانت تشعر بالخواء، ووجدت كارمن أن عليها أن تعيش فى ظل صورتها هى وليست صورة امرأة، أحد المناضلين الذين قتلتهم قوات الطاغية بينوشيه، وقررت أن تتكلم باسمها: «المنفى انه شىء داكن. رخو. هجران». فى عام ١٩٧٧، انتحرت صديقتى بياتريث ابنة سلفادور الليندى، بسبب رحيل أبيها، لعلها كانت تشعر أيضاً أنها مذنبة لأنها على قيد الحياة، بينما كانت تود أن تبقى إلى جوار أبيها فى مونيدا. لكنها كانت حاملا وعليها الرحيل، «على المرأة أن تهب الحياة»، قالت رفيقتى التى ماتت فى غياب السياسة أن انتحارها كان مشهداً سياسيا، حركة للتخلص من المنفى لم يكن فى امكانها أن تتظاهر فى اللقاءات كابنة بطل ميت، هذا الدور الذى تؤديه زوجات وبنات الثوار، انه الوعى الطيب لردود الفعل، والانفعالات العنيفة، للمناضلين، عندما يكفينى، يقولون «لقد مات ميجيل انريكث مثلما تمنى.. هذا خطأ، لأن ميجيل كان يتمنى أن يعيش والطاغية يود أن يعبده الحكام، والثوار يودون أن يعيشوا لأن الحياة تحبهم.

وقد أثرت تجربة انتحار بياتريث فى كارمن، التى قررت أن تكتب روايتها «وددت أن أتكلم عن حياة الثوار وليس عن ميتتهم، نحن نؤدى خدمات عندما نتكلم دوما عن صوت الثوار، نحن نعطى الرجال والنساء للوجود، دون أن نفهم أن حياة كل منهم قد صنعت فى لحظات ميلادهم».

كتبت كارمن كوستيللو روايتها بما يشبه التحقيق الروائى، على غرار ما فعله ماركيث فى روايته «وقائع موت معلن عنه»، حين رجعت إلى مقولات كل شهود الحادث «لقد غزوت ذاكرتهم، بأقل قدر من الألم، الجريمة هى الصمت، قال البعض إن هذه الرواية قد تسبب مشاكل للحزب، لأنها تحكى حياة الثوار، واننى اقدس الرجال، وثوراتهم على أحسن ما يكون التقديس، واننى مخلصة إلى أقصى حد لأصدقائى الذين يناضلون فى شيلى، ومن أجلهم كتبت»، وتقول إن بينوشيه رجل جماهيرى، يحب وسائل الاعلام، وان يتم تصويره بلا توقف، يود أن يرى الناس صورة واحدة فقط، هى صورته..

فى أمريكا اللاتينية ايضا وقف الروائى الكوبى ارماندو فالادار ضد الديكتاتور، وكان ثمن ذلك هو أن اختفى فى ظروف غامضة، بعد أن قضى فى سجون كوبا قرابة اثنين وعشرين عاما، بين عامى ١٩٥٩ و١٩٨٢، ففى عام ١٩٨٦ نشر روايته «ذكريات السجن» التى ترجمت إلى لغات عديدة، وكأنما أحست السلطات الكوبية ان من الافضل التخلص منه، فقتلته فى ظروف غامضة، بدأت الأحداث باختفاء الأديب فى أوائل عام ١٩٨٧، وتحدثت الصحف عن اختفاء الكاتب، ثم العثور على جثته.

أرماندو رجل لم يعرف الجنة ذات يوم فى حياته، فقد تم القبض عليه وهو فى الثالثة والعشرين من العمر عام ١٩٥٩، ثم صار عليه أن يقضى قرابة ربع قرن فى السجن، سنوات طويلة دفعها، رغم أنه لم تكن هناك تهمة محددة سوى أنه كتب قصائد، ونصوصا قصصية، ينتقد فيها النظام السياسى الجديد فى كوبا آنذاك.. وجاء فى التقارير الآمنية أن هذه الأبيات بالغة الخطورة على الأمن القومى فى البلاد، وانه يجب ابعاد صاحبها عن الناس. بل وعليه أن يدفع الكثير لأنه تجرأ وكتب.

كان على الكاتب أن يعكف على كتابة روايته فى السجن، فى صورة رواية، وصف فيه كافة ألوان المهانة التى يمكن أن يلاقيها الكاتب فى السجن ثمنا لما كتب من قصائد يرددها الناس، وقد روى الكاتب أن زنزانته كانت بمثابة مقبرة حية، ذات نافذة مظلمة لا تطل سوى على مجهول، كان على سجانته أن يتركوه عاريا ساعات طويلة، ويمارسون عليه سادية خاصة، فهم يوقظونه وسط الليل، ويجبرونه أن يتجرع بوله.

قضى الكاتب السنوات التسع الأولى من سجنه، دون أن يرى أحداً من أهله، حيث منعت عنه الزيارات خشية أن يتسرب نبض قصائده وكتاباته خارج السجن، لكنه مع ذلك نجح فى أن يسرب كتاباته إلى إحدى الصحف الأمريكية، ويستكمل فى مذكراته التى دونها عن السجن: «فى ديسمبر عام ١٩٦٠ قبضت الشرطة السياسية الكوبية علىّ، ولم أكن قد ارتكبت أى جريمة يعاقب عليها القانون، فتشوا منزلى، فلم يجدوا شيئًا، لا متفجرات ولا أسلحة، ولا وثائق سرية، ومع ذلك، فقد راح الضباط يطرحون علىّ الأسئلة، وأعلنوا لى أنه رغم غياب الادلة، فإنهم مقتنعون اننى عدو لدود للثورة.. فى الواقع كان الدافع الأول لدخولى السجن هو أننى أحرض بكتاباتى أبناء وطنى ضد شمولية الديكتاتور، واننى استخدم حقى الفكرى، كى أعبر عن آرائى، وقضيت اثنين وعشرين عاما فى السجن السياسى، لأنهم رفضوا دوما أن يتجاهلوا هذه الأفكار. كان علىّ أن أعيش فى السجن داخل عزلة موحشة، وكان على روحى ويدى أن تحتفظا بآثار الماضى، وكنت الشاهد والضحية لنظام سياسى عنيف لا يعرف الرحمة..





لأنه لا توجد حكومة نموذجية فى تواريخ البشر، فإن الكاتب يعتبر مرآة يحاول أن يعكس فى مؤلفاته، خاصة رواياته، مطالب الناس



«منذ أن استولت قوات كاسترو على السلطة فى عام ١٩٥٩، خضعت كوبا لقانون سلطوى، وسار الدستور الشمولى فى كوبا..

«فى كوبا، يحكم الديكتاتور منذ قرابة ربع قرن، قبيح وقاس، ويسيطر على المكان بالدبابات والرعب الذى يلهم الشرطة السياسية.

يقول فالادار فى روايته «فيما يخصنى»: «قضيت أغلب أوقاتى فى حراسة مشددة، فى سجن كاباتا، الذى نقلت إليه فى يناير ١٩٦١، وهناك كان يتم اعدام مجموعات المساجين السياسيين.. لم أظل فى هذا السجن سوى بضعة أيام، قبل أن أنتقل إلى سجن آخر فى جنوب كوبا، يحمل اسم «جزيرة الصنوبر».

«عملت ردحًا طويلاً من الزمن فى معسكرات الزراعة، وهناك عانينا كضحايا للضباط المسئولين، وبعد سنوات عديدة نقلونى إلى سجن بونيا تو فى الاقليم الشرقى، كانت كل الأبواب والنوافذ مسيجة بالحديد، أمر من زنزانة لأخرى، وأنا آمل أن أطويها، كانت هذه أصعب فترات حياتى، لم أحس أننى معزول، لأننى شعرت أن الله معى فى هذا الجحيم، كنت على صلة مباشرة به، كان يكفينى أن أغلق عينى كى أملأ نفسى بضياء، ولأكتشف الشمس التى لا يمكن أن تختفى، والأفق الذى لا يصل إليه أحد. فحالة كهذه لا تحدث سوى بالحب، حب الله..

وإذا تركنا امريكا الجنوبية، فإن تجربة الكاتبة الايطالية اوريانا فالاتشى تستحق الاهتمام، وذلك فى روايتها المشهورة «انسان»، التى تروى فيها قصة وفاة حبيبها اليونانى الذى وقف ضد الديكتاتور الذى قام بانقلاب عسكرى فى اليونان. هذه الرواية بمثابة سيرة ذاتية للغاية، تروى فيها قصة ارتباطها بالمناضل اليونانى اليكو باتاجوليس، وهو الرجل الذى جابه الديكتاتور، وهذه الرواية، يضعها العديد من النقاد ضمن الأدب السياسى، فالرجل هنا شخصية سياسية، والمرأة لها فكرها السياسى المتبلور تجاه قضايا العالم الحديث، وفيها لقاء بين مناضل وامرأة تؤمن به. يتم زواج كل منهما بوحدة الآخر، لكن الآخر يموت، وتبقى المرأة تروى قصة حبها، تكتب كل وقائع قصتها مع الرجل «عندما مات اليكو، شعرت أننى مدانة، انها أول مرة أتركه وحده، لو كنت معه لاستطعت أن أمنع الموت من الاقتراب منه».

وتصوغ الكاتبة روايتها فى صورة خطاب موجه إلى حبيبها الذى مات، وتهاجم فيها نظام بابا دوبلوس الذى أصدر حكمه بالاعدام على حبيبها، ثم قرار الرجل أن ينتحر لأنه لم يعد يجد لنفسه مكانا، لقد مات رجل كى يتكلم، لكن المؤلفة تقول له: «حبيبى لقد أخطأت، فالموتى يسكنون دائماً، وعندما نشعر أنهم يتكلمون فإن الأحياء هم الذين يجعلونهم يتكلمون».

التقت أوريانا فالاتشى بألكو لأول مرة فى أغسطس ١٩٧٣ عقب خروجه من السجن، حيث ذهبت لتعقد معه لقاء صحفيا فى اليونان، ضمن لقاءاتها الصحفية المعنونة «لقاء مع التاريخ»، «كان له وجه مسيح تم صلبه عشر مرات، وكان يبدو أكبر سناً من عمره الحقيقى. كان فى الرابعة والثلاثين من عمره، على جبينه الشاحب، وبين عيونه السوداء تبدو خصلات بيضاء، وتبدو عيناه مليئتين بالكآبة والثورة».

اليكو باتاجوليس ينتمى إلى أسرة يونانية مناضلة، لم تتوقف عن افراز الأبطال، كان أبوه كولونيلا حاملا لأوسمة الشرق، أخوه جورج قبطان، درس اليكو فى مدرسة الصناعات، وهو يحب علم الرياضيات مثلما يحب الشعر، يكتب أغنيات المقاومة اليونانية التى لحنها تيودوراكس، لم يكن يمكنه أن يحتمل النظام الديكتاتورى للكولونيلات، واشترك فى تنظيم أول محاولة اغتيال ضد بابا دوبولوس، وقد كلفته هذه المحاولة الكثير، فحكم عليه بالموت، مثل أمام المشنقة أكثر من مرة، وفى فترة انتظار الاعدام كتب الكثير من القصائد وهو مكبل اليدين، حاول الهرب أكثر من مرة، ونجح فى إحدى المرات، لكنه عاد إلى السجن من جديد بعد أن وشى به من اختبأ عندهم.

«لو كنت رجلاً، لكتبت نفس الرواية، فالوقائع قد حدثت كما سردتها، بالأسماء والتواريخ، ولكننى صفت الأحداث فى بناء روائى، طريقة الحكى، كنت أريد أن أظهر الظروف الإنسانية والتاريخية لاليكو، والحياة اليومية التى جعلته شخصاً عالمياً.

وتقول الكاتبة إن اليكو «كان يعيش فى السجن فى حلم، عندما خرج منه، اكتشف الحقيقة ود أن يبدأ الكفاح المسلح، فهمت انه سوف يسافر إلى اليونان.

«عندما سقطت الحكومة عاد الجميع إلى اليونان، كل المعارضين والذين عرفوا المنفى فى أوروبا والولايات المتحدة، تم استقبالهم استقبال المنتصرين، كان هو ينتظر يوم الثالث عشر من أغسطس، عيد ميلاد اغتياله، لم أكن أود أن أحضر معه، كانت أختى فى مطار أثينا، لم يكن أحد كى ينتظرها، لقد نسى، فقد تحطمت رأسه فوق أرض الواقع يوم مصرعه.

وفى هذا الصدد أيضا هناك روايات كثيرة كتبها أدباء فى مختلف أنحاء العالم، مثل السيناريو الذى كتبه جان بول سارتر عام ١٩٤٧ تحت عنوان «تاريخ حياة طاغية»، والذى استوحى منه الروائى جون شتاينبك سيناريو فيلم «فيفا زاباتا»، وأيضا رواية «ابنة برجر» للكاتبة نادين جورديمر، ورواية «العنف والسخرية» تأليف البير قصيرى، وغيرها، والكثير من هذه النصوص مترجم إلى اللغة العربية.

وإذا كان الكاتب نفسه قد وقف ضد الطغاة، فإن هناك أدباء سعوا وراء السلطة، أى أنهم رأوا أن السلطة بمثابة وسيلة لتحقيق الطوباوية التى حلموا بها، وهناك فى الأدب المعاصر بعض الحالات القليلة لأدباء اعتلوا المناصب السلطوية، وكانوا نموذجين، مثلما حدث فى دولة التشيك، حيث تم اختيار الكاتب المسرحى فاتسلاف هافل ليكون رئيساً للبلاد، دورتين، بعد أن كان رئيساً لدولة تشيكوسلوفاكيا الموحدة، كما أن الكاتب البيروفى ماريو بارجاس يوسا قد رشح نفسه عام ١٩٨٩ ليكون رئيساً لبلاده، وعندما فشل، آثر الرحيل إلى اسبانيا، والحصول على الجنسية الاسبانية، دون أن يبتعد كثيرا عن السياسة.

لقد رسخ فى مفاهيم الناس أن الأديب هو المدافع الأول عن حقوقهم، ولأنه لا توجد حكومة نموذجية فى تواريخ البشر، فإن الكاتب يعتبر مرآة يحاول أن يعكس فى مؤلفاته، خاصة رواياته، مطالب الناس، وأفكارهم كى تصل إلى الحكومة، من أجل تحقيقها بشكل أو بآخر.

ولذا، فعندما سعى بعض الأدباء والروائيين إلى مقاعد السلطة، تنهد البعض فى ارتياح، باعتبار أنه أولى لهذا المبدع أن يوجه نفسه نحو تشكيل حكومة طوباوية، باعتبار أن الكثير من الكتاب قد جربوا السجن، والامتهان من الطغاة، خاصة هؤلاء الذين عارضوا حكوماتهم، وقد تمثل هذا فى المنفى، والاغتيال، أو الاعتقال، أو اليهم جميعا، كما رأينا فى حالات تحدثنا عنها.

والغريب أنه رغم سعى بعض الروائيين إلى السلطة، إلا أنهم لم يستمروا فيها، وكان عمرهم السلطوى قصير للغاية، وفى تاريخنا العربى هناك تجربة ابو فراس الحمدانى الشاعر الذى ما لبث أن غضب عليه الحاكم، لكن فى التاريخ الحديث هناك فى القرن التاسع عشر تجارب قليلة منها أن الشاعر الفرنسى الفونس دولامارتين تولى أحد مناصب الوزارة عقب ثورة ١٨٤٨، فلم يظل مقامه طويلا فى المنصب، وعاد لامارتين إلى قصر الابداع، بعد أن وجد أن قصر الاليزيه لن يضيف اليه كثيرا.

وفى القرن العشرين اقترب أدباء عديدون من رؤساء بلادهم، منهم الروائى فرانسوا مورياك، أما الكاتب الذى جلس بالفعل على مقعد الوزارة لفترة طويلة نسبيا، فهو الروائى اندريه مالرو، وقد كان من الغريب على كاتب ناهض سياسات بلاده فى الهند الصينية، وكتب عن مغامرات فرنسا الاستعمارية، هذه البلاد موجودة فى رواياته مثل «الأمل»، «القدر الانسانى»، أن يكون جزءاً من السلطة التى هاجمها.

وقد كان ارتباط مالرو بالوزارة هو اعجاب شخص الرئيس شارل ديجول، اكثر منه ايمانا بأن ذلك يمكنه أن يصبح وزيراً، وقد بقى الروائى وظيفته كوزير للثقافة طالما استمر ديجول فى قصر الاليزيه، وحدث أن استقال مالرو ذات مرة من المنصب، لكنه عاد ثانية تحت الحاح من صديقه، وقد ظل مالرو ينظر إلى ديجول باعتباره مناضلا، حتى وهو فى قصر الاليزيه.

فى عام ١٩٩٠ تم تعيين روائى اسبانى شهير وزيرا للثقافة، وقد ظل فى المنصب أربعة أعوام، انه خورجه سمبرون، الذى أثار تعيينه ارتياحا ودهشة، الارتياح لأنه ظل خارج اسبانيا سنوات طويلة ابان حكم الجنرال الطاغية فرانكو، أما الدهشة فقد جاءت أن رئيس الوزراء جونزاليس آنذاك أن يكتسب المزيد من المؤيدين، فسمبرون هو من أبرز الأدباء المناضلين، وقد هرب إلى باريس عام ١٩٥٧، وهناك ظل يناهض حكومة فرانكو فكتب الروايات وقصص الأفلام التى تناهض الطغاة فى العالم، ومنها فيلم «زد»، «الاعتراف»، «حالة حصار»، «انتهت الحرب».

والغريب أن سمبرون الذى كان اسمه يملأ الأسماع فى زمن الكتابة، أصبح وزيراً يرسم السياسات ويوقع القرارات، ولم تعرف دول النشر طريقا لكتاباته الجديدة، وهو الذى عرف بغزارة انتاجه فى الرواية والسيناريو. ■

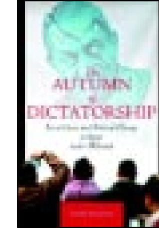
مصر تتغير

The Autumn of Dictatorship: Fiscal Crisis and Political Change in Egypt Under Mubarak

خريف الديكتاتورية: الأزمة المالية والتغير السياسى فى مصر تحت حكم مبارك

خريف الديكتاتورية

Samer Soliman
Stanford University Press, 2011



صدر هذا الكتاب بالعربية منذ عدة سنوات باسم النظام القوى والدولة الضعيفة وكان فى وقته من أهم الدراسات التى فسرت كيف يعمل النظام القمعى على الابتزاز وإعادة ترتيب الأمور بتحريك الأموال بشكل اساسى، حيث يقول الكاتب الدكتور سامر سليمان أستاذ الاقتصاد السياسى بالجامعة الأمريكية «أن علينا تتبع مسار الأموال فهى تدلنا على الحقيقة». وهو بهذه الطريقة لا يكتفى بمساعدتنا على فهم كيف كانت تعمل هذه الدولة وإنما أيضا تبعات طرق العمل المختلفة من السياسات الاقتصادية بما فى ذلك رعاية رأس المال. ويستخدم الكاتب فى تتبع هذه معلومات تتوفر فى موازنة الدولة لم تكن متوفرة من قبل كى يدعم استنتاجاته المثيرة والمقنعة حول طبيعية الدولة والنظام والسياسات الشمولية بشكل عام. ومع قراءة الكتاب يبدو أن ثورة ٢٥ يناير لم تكن مفاجئة قدر ما كانت المفاجأة فعليا هى صمود نظام مبارك ويطرح سامر سليمان هنا تاريخ التناقص المستمر فى الأموال والخدمات الاجتماعية المقدمة من الدولة إلى المواطنين والتزايد فى الضرائب والموارد التى يطلبها النظام من نفس هؤلاء المواطنين مما ادى إلى دولة أكثر ضعفا وخدمات عامة متدهورة وقدر أقل من فرض القانون وتزايد البطالة بينما يزيد نفوذ الجهاز الأمنى الذى يحمى النظام الشمولى. وبالتالى فإن الكتاب يدرس النظام من وجهة نظر أفعاله وليس سياسته المعلنة وتحديدا العلاقة بين الأزمة المالية والتغيير السياسى فى مصر. لقد صمد النظام المصرى لمدة ٣٠ عاما لأنه استطاع الحفاظ على نفسه وإعادة انتاج نفسه ولكنه ترك، على أثر ذلك، دولة يزداد ضعفها وينتج عن أزمتها المالية تغيير فى الساحة الاقتصادية والاجتماعية ممهدا بذلك الطريق لتغيير سياسى وظهور قوة اجتماعية جديدة.

■

The Last Pharoh: Mubarak and the Uncertain Future of Egypt

الفرعون الأخير: مبارك ومستقبل مصر المبهم

Aladdin Alaasar
Beacon Press, 2009



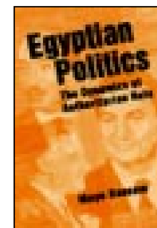
يرسم هذا الكتاب خريطة لقبضة مبارك القوية على جميع أنحاء الحياة فى مصر ويربط الكتاب نقاطا مختلفة ببعضها البعض لتظهر لنا صورة كانت معروفة ولكنها غير مثبتة لأسرار قوة مبارك وكيف يخطط للحفاظ على حكمه. لقد دخلت ديكتاتورية مبارك عقدها الثالث جاعلة منه الديكتاتور الأقدر على الصمود بخطة خلافة واضحة يقوم فيها ابنه جمال بتبوؤ نفس المنصب من بعده. ويقوم جمال فى سبيل ذلك بمحاولات نقل التجربة الاقتصادية الصينية مع تعطيل الاصلاح السياسى. وتقع الولايات المتحدة فى مأزق الاختيار بين حاكم ذى قبضة حديدية ينتقى خليفته بنفسه أو معارضة ديمقراطية يعتقد البعض أنها تفتح الباب لحكم إسلامى أصولى. ومن المثير أن البروفيسور ميشيل دون الأستاذة بجامعة جورج تاون قالت فى معرض نقدها لهذا الكتاب أن مبارك الثمانينى سيغادر منصبه إما باختياره الشخصى أو بشكل قدرى فى السنوات الثلاث التالية لصدور الكتاب وان القليلين فى الغرب هم من ينتبهون إلى ان المصريين يستعدون لهذا الاحتمال. لقد غادر مبارك منصبه فى العام التالى مباشرة ولكن بثورة شعبية وليس بتأثير القدر او باختياره.

■

Egyptian Politics: The dynamics of authoritarian rule

السياسة المصرية: ديناميكية الحكم الشمولى

Maye Kassem
Lynne Rienner Publishers, 2004



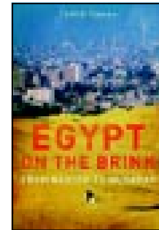
تكتب مى قاسم دراسة أكاديمية ولكنها سلسة عن الخدع التى تستخدم فى جميع أوجه الحياة العامة لإبقاء الطبقة الحاكمة المصرية فى الحكم. وتبنى مى قاسم الدراسة على الأساس النظرى للحكم الشمولى وتدعم هذه النظرة بفحص الأساليب التى انتهجها الحزب الوطنى الديموقراطى كى يحافظ على استقرار حكمه بالسيطرة على الأحزاب والعمليات السياسية وتنظيم عمل هيئات المجتمع المدنى والسيطرة على المعارضة. وتظهر الكاتبة كيف أن الطبقة الحاكمة فى مصر كانت ناجحة فى هذا المخطط وتقرر (بخلاف الحقيقة التى نعرفها الآن) أن النظام المصرى قوى ويبدى استمرارية منذ اشتراكية عبد الناصر وحتى نظام مبارك الذى يملك واجهة لامعة وزائفة من التعددية الديموقراطية. وقد كان كتاب مى قاسم مهما فيما سبق عندما كان من المتصور أن الكلام عن عدم الاستقرار فى الشرق الأوسط هو السائد وكان يبدو كأن الكتاب يهزم تلك الأسطورة التى طال الحديث عنها. ولكن وحتى بعد ثبوت كذب استنتاج الكتاب مع سقوط النظامين التونسى والمصرى وانتشار الاحتجاجات الشعبية الواسعة إلا أن الكتاب يظل مستحقا للقراءة لما ورد به من استعادة للمواقف الأكثر إثارة فى التاريخ المصرى السياسى منذ ثورة ١٩٥٢ وبتركيز كبير على المواقف الأحدث مما يعطى الفرصة لرؤية كيف كان يتم تفسير الأحداث المختلفة كى تعطى أنطباعا بأن النظام المصرى قوى.

■

Egypt on the Brink: From Nasser to Mubarak

مصر على الحافة

Tarek Osman
Yale University Press, 2011



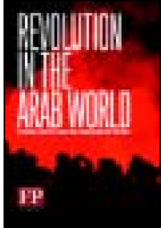
كانت مصر شهيرة حتى الخمسينيات بالتعددية الدينية وتراثها الثقافى الاستثنائى ولكن ينظر لها الآن على أنها بلاد يزداد فيها القمع والانقسام وعلى أنها بلد الإخوان المسلمين ونظام مشوش يقوده حسنى مبارك الهرم. وبرغم الكتب العديدة عن مصر التاريخية إلا أن هذا النظام لم يحظ بنفس القدر من الاهتمام برغم مركزيته. هذا الكتاب على النقيض يوفر مادة للقراءة واضحة ومكتوبة بشغف عن تلك الفترة المهملة نسبيا من تاريخ مصر حيث يستكشف طارق عثمان ما حدث لأكبر دولة فى العالم العربى منذ تولى جمال عبدالناصر الحكم عام ١٩٥٤. ويتفحص الكاتب بشكل خاص دور مصر المحورى فى تطور اثنين من أهم الأتجاهات فى نفس الفترة، وهما القومية العربية والإسلام الراديكالى. كما يبحث الكتاب فى العلاقة المتوترة بين المسلمين والمسيحيين والأهم انه يفحص التباعد بين الصفوة الكوزموبوليتانية وجماهير يبلغ عمر أكثر من نصفها أقل من ثلاثين عاما والتى لم تحصل على قدر كاف من التعليم أو فرص العمل.

■

Revolution in the Arab World: Tunisia, Egypt and the Unmaking of an Era

الثورة فى العالم العربى

Marc Lynch, Blake Hounshell and Susan Glasser
Foreign Policy Magazin, 2011



فى فترة قصيرة استمرت ١٨ يوما قلب الشباب المتظاهرون فى ميدان التحرير السياسة الدولية. بعد أقل من ثلاثة أسابيع من بداية المظاهرات السلمية وبعد أقل من أسبوعين من مهاجمة مؤيدى النظام على ظهور الجمال والخيول للمتظاهرين كى يدفعوهم للخروج من الميدان، نجح هؤلاء المتظاهرون فى تنحية أحد أشد الحكام الشرق أوسطيين تمسكا بمنصبه. كما انه، أى حسنى مبارك، حليف تاريخى للولايات المتحدة. وقد استشعر حكام شموليون وآخرون آثار هذا الحدث من البحرين إلى ليبيا. من أين أتت تلك الموجة من الغضب ولماذا بدأت فى تونس وما تفسيرها. تقدم مجلة فورين بوليسى تقريرا خاصا يبدأ بفصل مهم يتحدث عن كيف تم تجاهل الأصداء الأولى لهدير تلك الثورات ويعود إلى التحذير الذى أرسله الصحفى اساندر الأمرانى لباراك أوباما فى يناير من عام ٢٠١٠ حيث كتب أن مصر هى القنبلة الموقوتة التى ستطغى على الأجندة الدولية. كما يتضمن التقرير يوميات مفصلة ترصد بشكل يومى تفاصيل المعركة للسيطرة على ميدان التحرير وداخليات العمل فى واشنطن الذى تقلب بين يوم وآخر لمحاولة تتبع الأحداث. ويشارك فى الملف بعد أهم الكتاب والمتخصصين منهم جيمس تاروب وجارى سيك وروبرت كابلن.

■

The Copts of Egypt: The Challenges of Modernisation and Identity

أقباط مصر: تحديات الحداثة والهوية

Vivian Ibrahim

Tauris Academic Studies, 2011



يتم عادة النظر إلى أقباط مصر على أنهم أقلية منغلقة ولكن هذا الكتاب يستخدم أرشيفا من الوثائق القبطية تم الكشف عنه مؤخرا كى يقدم صورة واضحة ومغايرة للمجتمع القبطى فاحصا الدور القبطى فى القرن العشرين. وتكشف فيفيان إبراهيم ردود أفعال قوية للأقباط عند ظهور خطر الإسلام السياسى منذ الأربعينيات من القرن الماضى. وتفحص الباحثة أساليب الأقباط فى المفاوضة على وجود دور لهم خلال الفترة الاستعمارية وخلال حكم عبد الناصر. وتنفى من خلال بحثها الفكرة الرائجة عن الأقباط أنهم مجتمع أحادى التوجه بإظهار التوجهات والمجموعات القبطية المختلفة التى تساهم فى تكوين الهوية القبطية فى النصف الأول من القرن العشرين.

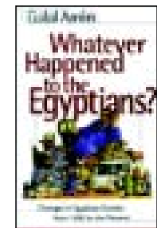
■

Whatever happened to the Egyptians

ماذا حدث للمصريين؟

Galal Amin

American University Press, 2001



ألف العديد من الكتاب عبر التاريخ كتبا تتحدث عن طباع المصريين وعاداتهم من المقريزى وحتى الكتاب الغربيين وأشهرهم أدوارد لين صاحب المؤلف الشهير عادات وطباع المصريين المعاصرين.

وقد كان لين الأشهر فى سلسلة طويلة من الكتاب الغربيين الذين احتكروا تسجيل التاريخ الاجتماعى للمصريين نهاية بماكس رودينبك فى كتاب القاهرة الذى اختلف عمن جاءوا قبله فى أنه لم يحمل نفس النبرة المتعالية الاستعمارية تجاه من يوصفون بـ«السكان المحليين».

ويأتى كتاب جلال أمين فى السياق نفسه من حيث إنه بشكل ما كتاب فى التاريخ الاجتماعى للمصريين ولكنه بطبيعته كمجموعة من المقالات المنفصلة أسهل فى القراءة حتى وهى تؤرخ لتحولات مهولة حدثت فى المجتمع المصرى منذ ثورة ١٩٥٢. ويرجع الدكتور جلال أمين الكثير من تلك التغيرات إلى التوسع الكبير فى الطبقة الوسطى فى عهد جمال عبد الناصر والذى تسارع فى ظل سياسة الانفتاح التى طبقها أنور السادات والتى نتج عنها تزايد فى الطلب على العمالة المصرية الماهرة وغير الماهرة فى الدول النفطية. وقد استخدم جلال أمين مجموعة من المواقف الشخصية والمثيرة للاهتمام لقياس التغيرات فى المجتمع. فهو يقارن مرتبه كأستاذ جامعى بمرتب العاملة المنزلية موضحا كيف أن الفجوة بينهما انخفضت بعد عام ١٩٥٢ ثم زاد الانخفاض بعد عام ١٩٧٢ ثم عاد للاتساع فى السنوات الأخيرة. كما يفحص جلال أمين دور النساء فى المجتمع موضحا التناقض بين التغيرات التى حدثت من عالم والدته إلى أخواته ثم ابنته. ويعترف الكاتب نفسه أن طريقته تلك غير علمية ولكنها فى نفس الوقت أنتجت استنتاجات مطابقة لدراسات أكثر علمية. فهو يرى، على عكس الكثيرين أن الحجاب فى مصر يمثل أداة تحرر للمرأة وليس أداة قمع. كما يرى أن الاعتماد على الحكومات قد قل عن أيام والده الكاتب الكبير أحمد أمين.

■

Modern Egypt: The Formation of a Nation State

مصر الحديثة: بناء دولة

Aurther Goldschmidt

Westview Press, 2004



هذه هى الطبعة الثانية من كتاب العالم أرثر جولد شميت والذى يمثل دراسة مختصرة لتاريخ مصر منذ منتصف القرن الثامن عشر ويركز على تطور مصر كدولة حديثة ناقدا العديد من المفاهيم الشائعة عن تاريخ مصر الحديث. ويستخدم البروفيسور جولدشميت العديد من المراجع المصرية والغربية كى يوثق النقاط المحورية مثل ثورة ١٩٥٢ وكى يزيل الغموض عن بعض الأمور الخلافية مثل دور السادات فى حرب ١٩٧٣. ومع الطبيعة البحثية للكتاب إلا أنه أيضا ملىء بالوقائع والحكايات التى تغطى التاريخ الاجتماعى والدين والسياسة والاقتصاد والتاريخ العسكرى والجغرافيا وحتى الحالة النفسية لبعض القيادات السياسية. وقد استخدم الكاتب التحليل النفسى لشخصيات مثل الملك فاروق وعبد الناصر والسادات فيما يخص دوافع سياساتهم ونتائجها. والكتاب الذى يغطى احداثا مثل أتفاقية كامب دايفيد وصعود المعارضة الإسلامية واغتيال السادات ونظام مبارك. الكتاب موجه بشكل أساسى للطلاب والصحفيين والدبلوماسيين ورجال الأعمال الذين يحتاجون أن يتعرفوا على مصر ودورها فى شئون الشرق الأوسط وتعاملاتها مع دول العالم الأخرى. والكاتب هو أستاذ تاريخ الشرق الأوسط فى جامعة بنسلفينيا ستيت وهو مؤلف لعديد من الكتب الأساسية فى دراسة تاريخ الشرق الأوسط.

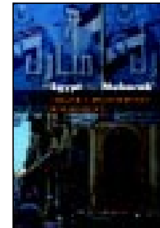
■

Egypt After Mubarak: Liberalism, Islam and Democracy in the Arab World

مصر بعد مبارك: الليبرالية والإسلام والديمقراطية فى العالم العربى

Bruce K. Rutherford

Princeton University Press, 2008



يتم إضعاف النظام المصرى الشمولى بسبب الأزمة الاقتصادية والمعارضة السياسية المتزايدة وضغوط العولمة. ويتساءل المراقبون عن الطريق الذى ستسلكه مصر بعد رحيل مبارك الهرم عن الصورة. هل ستعتنق الليبرالية والديمقراطية الغربية أم ستصبح أتوقراطية دينية مثل إيران. ويفسر الكاتب كيف أن فى مصر بعد مبارك ستسير المعارضة العلمانية والإسلامية سيسلكون معا طريقا وسطيا قد ينتج نوعا جديدا من الإسلام الليبرالى وربما الديمقراطية. ويبحث الكاتب فى المعارك السياسية والأيديولوجية التى تحرك السياسة المصرية وتشكل إمكانيات الديمقراطية عبر المنطقة. وهو يرى أن العلمانيين والإسلاميين يلتفون فى وقت ظهور الكتاب حول أجندة للإصلاح تدعم نقاطا اساسية من الليبرالية والتى تتضمن قيودا على سلطة الدولة بالإضافة إلى ترسيخ حكم القانون وحماية بعض الحقوق المدنية والسياسية. ولكن هل ستؤدى تلك الليبرالية إلى الديمقراطية وما الذى يمكن للولايات المتحدة فعله كى تتأكد من ذلك. فى رده على تلك الأسئلة يظهر بروس روزرفورد ان الإصلاحيين فى مصر غير راغبين فى اتساع دور العامة فى السياسة. وهو ما يوحى بأنه بالرغم من أن الليبرالية ستتقدم فى الأغلب فى المستقبل إلا أن تقدم الديمقراطية سيكون بطيئا وغير مستقيم. ويتضمن الكتاب مقابلات عديدة مع قضاة مصريين ومحامين ونشطاء إسلاميين وسياسيين ورجال أعمال كما أنه يفحص العديد من أحكام المحاكم والوثائق السياسية للإخوان المسلمين وكتابات المفكرين الإسلاميين.

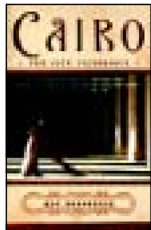
■

Cairo: The City Victorious

القاهرة: المدينة المنتصرة

Max Rodenbeck

Vintage, 2000



تستحق كل مدينة عظيمة كتابا من هذا النوع: سجل كبير من تأليف كاتب واحد يختلط عنده الشغف بالدهشة. عبر أربع ألفيات كانت القاهرة عصية على التصنيف وهى تعيد إنتاج نفسها بشكل متكرر فقد عاشت القاهرة عبر غزوات متكررة وفترات ازدهار وسقوط وفترات مجاعة وأوبئة وكوارث. انتقل الكاتب ماكسيم رودينبك الصحفى فى مجلة الأيكونيمست إلى القاهرة وهو فى الثانية من عمره وقد قضى قدرا كبيرا من حياته المهنية فى مصر. ويشعر الكاتب بالنفور من الزحام والتلوث اللذين يميزان المدن الكبرى فى نهايات القرن العشرين ولكنه فى نفس الوقت يجد نفسه منجذبا لحيوية القاهرة التى لا تنقص مع الزمن. فى كتابه عن القاهرة يمزج الكاتب بين التاريخ وأدب الرحلات فى نص غير تقليدى ينتقل بسهولة من الحاضر إلى الماضى ثم يعود مرة أخرى وعندما تتعقد الحكاية وتتشابك خطوطها فإن الكاتب يرى «أن ذلك ايضا من شخصية القاهرة». ولا يخجل رودينبك بأن يقول إنه يفقد أحيانا حبه للمدينة التى قضى فيها أغلب عمره بفوضاها وإزعاجها. فهى أكبر مدينة فى أفريقيا والبحر المتوسط والعالم الإسلامى وهو ينزعج بشكل خاص من تسارع المدينة فى محو ماضيها لصالح اكسسوارات العولمة الرأسمالية. ولكنه يلحظ أيضا أن جميع الأجيال التى وردت على القاهرة فى تحولاتها العديدة عبر الـ٥٠٠٠ عام الماضية قد عبرت عن استيائها من تدهور المدينة. ويمر رودنبك عبر مراحل تاريخ القاهرة كلها حتى يصل إلى الحاضر فيتوقف طويلا عند أزمة الهوية التى تعانى منها عاصمة الرقص الشرقى فى العالم التى تغازل الإسلام الأصولى.

■

The Politics of Egypt: State-Society Relationship
السياسة فى مصر: العلاقة بين الدولة والمجتمع

Routledge, 2002
312 pp, $138.70
Ninette S. Fahmy (Author)



يتناول هذا الكتاب اثنتين من القضايا الهامة التى تشغل عقول علماء السياسة فى الشرق الأوسط، وهما، أولا: طبيعة الدولة والمجتمع المصرى والعملية التفاعلية بينهما، وثانيا: كيف يمكن إطلاق مبادرة التغيير الذى يؤدى فى النهاية إلى التنمية، يقول الكتاب إن الحالة التى عليها مصر الآن تجعلها تمثل دولة استبدادية ضعيفة، تتبنى سياسات قمعية وقسرية تجاه مختلف القوى الاجتماعية والأحزاب السياسية، والجمعيات، والمنظمات الأهلية، والأفراد، وكل هذا أدى من وجهة نظر الكاتب إلى خلق مجتمعات ضعيفة، حيث ينظر إلى السلوكيات الفردية فى المجتمعات الحضرية والريفية أحيانا على أنها دلائل على قوة القوى والنظم الاجتماعية، ولكنها تبدو هنا أعراض لمجتمع ضعيف ومجزأ، وإذا كان هذا هو الحال فى مصر فإنه يرى وجوب المبادرة بتغيير الأطر السياسية والاقتصادية الحاكمة.

■

Egypt Under Mubarak
مصر فى عهد حكم مبارك

Roger Owen and Charles Tripp
Routledge, 1990
208 pp, $200



إن مصر هى واحدة من القوى الكبرى فى الشرق الأوسط، وقوة الحياة الثقافية فيها ومدى نفوذها جعلها قوة لا يستهان بها فى الوطن العربى، ويبحث كتاب «مصر فى عهد مبارك» أبعاد الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية فى مصر، والاستراتيجيات التى وضعتها حكومة الرئيس مبارك فى التعامل مع هذا الإرث، كذلك دراسة بعض القضايا المتعلقة بالعديد من الأزمات التى تتعرض لها الأنظمة السياسية والاقتصادية فى مصر، وذلك من خلال مجموعة من المقالات لعدد من الكتاب العرب والأجانب.

حيث يتضمن مقالا بقلم نزيه الأيوبى بعنوان: «الحكومة والدولة فى مصر اليوم»، وتتناول منى مكرم عبيد فى الفصل الثانى دور المعارضة الرسمية، بينما يكتب هانى شكر الله فى الصراع والأزمات السياسية فى الفترة التالية لعام ١٩٦٧ فى مصر، ويتناول جلال أمين فى الفصل الرابع موضوعات: الهجرة، والتضخم، والحراك الاجتماعى، ويركز ديفيد بوتر فى الفصل الخامس على الديون والسياسات المالية فى مصر، بينما تكتب سيمون كوماندر فى قضايا فى سياسة القطاع الزراعى فى مصر، وفى النهاية فصل بقلم تشارلز تريب عن العلاقة بين مصر والمنطقة فى الفترة التالية لعام ١٩٨٠.

■

Elections and Distributive Politics in Mubarak's Egypt
الانتخابات وسياسة التوزيع فى مصر مبارك

Lisa Blaydes
Cambridge University Press, 2010
288 pp, $77.62



«إذا كنت تود أن تقرأ كتابا واحدا عن الحياة السياسية المعاصرة فى مصر، فاقرأ هذا الكتاب» روجر أوين (جامعة هارفارد) أيضا يقول عنه دفيد ولدنر من جامعة فرجينيا: «يمثل هذا الكتاب مرجعا هاما لجميع الطلاب الذين يدرسون ديناميات النظم الاستبدادية».

إذا كان نظام مبارك يعد نظاما ديكتاتوريا، إذًا لماذا الإصرار على عقد انتخابات؟ هذا هو التساؤل الرئيسى الذى يقوم عليه كتاب «الانتخابات وسياسة التوزيع فى مصر مبارك»، وتقرر ليزا بلايدس أنه على الرغم من أن الانتخابات البرلمانية بدأت فى مصر خلال أواخر ١٨٠٠، فقد حدد المؤرخون فترتين هامتين للتأريخ لسياسة التعددية الحزبية فى البلاد. الأولى وقعت بعد صدور دستور ١٩٢٣، بعد أن أعلنت بريطانيا إلغاء الحماية وأصبحت مصر دولة مستقلة. وبدأت الفترة الثانية فى ١٩٧٦ فى عهد الرئيس أنور السادات واستمرت خلال حكم حسنى مبارك.

وتتناول دراستها الكيفية التى تعزز من خلالها الأنظمة الديموقراطية بقاءها فى ظل قانون غير ديموقراطى بالاعتماد على الانتخابات. حيث إنه على الرغم من البناء السياسى الاستبدادى للحكومة المصرية، إلا أنها لازالت تعقد انتخابات برلمانية قائمة على المنافسة والتعددية الحزبية لأكثر من ٣٠ عاما.

هذا الكتاب يقول إنه بدلا من تقويض نظام مبارك، فإنه يعقد انتخابات برلمانية تنافسية وذلك لتخفيف أشكال الصراع التوزيعية. وذلك من خلال إجراء دراسة شاملة للآثار التوزيعية للانتخابات الاستبدادية فى مصر، حيث تدرس بلايدس العلاقة التكاملية الثلاثية التى يقوم عليها النظام الحاكم فى مصر، والذى يسعى إلى استئجار النخبة التى تدعم النظام، والمواطنين العاديين الذين يشاركون فى هذه الانتخابات. وتصف لماذا وكيف تمول حملات المرشحين للبرلمان.

■

Forcing Freedom: Political Control of Privatization and Economic Opening in Egypt and Tunisia
فرض الحرية: التحكم السياسى فى الخصخصة والانفتاح الاقتصادى فى مصر وتونس

Boyan Belev
University Press of America, 2000



«تتبنى الحكومات المصرية والتونسية وسائل وأدوات غير ليبرالية لتحقيق نتائج ليبرالية»، هذا ما يقرره كتاب «فرض الحرية: التحكم السياسى فى الخصخصة والانفتاح الاقتصادى فى مصر وتونس»، حيث يتأمل الكتاب معضلة «الوسائل فى مقابل الغايات» فى مجال الإصلاح الاقتصادى، ويتناول مسألة تضمين الدولة فى تحقيق إصلاحات اقتصادية وسياسية ليبرالية، وذلك فى ضوء تطبيق نظام الخصخصة فى مصر وتونس، حيث تبنت السلطات برنامجا عمليا بهدف تحرير الاقتصاد، ولكن الصفوة فى الداخل استمرت فى إظهار اتجاه متناقض حيال الإصلاحات الموجهة نحو السوق، وجاء ذلك نتيجة الاهتمامات والمكتسبات الراسخة فى الوضع الاجتماعى والسياسى القائم، ويناقش هذا الكتاب أن الحكومات وإن بدت وكأنها تتبنى اتجاها إصلاحيا، إلا أنها كانت تستخدم وسائل غير ليبرالية.

ويتعامل الكتاب مع الاقتصاد المصرى والتونسى، حيث يتناول السياسة والأداء الاقتصادى فى مصر خلال الثلاثة عقود الماضية، حيث يبدأ المؤلف بوصف مختصر لنظرية النمو الاقتصادى، ويركز بشكل أساسى على النمو الاقتصادى فى ظل ظروف التحول من الاقتصاد الذى تقوده أو تحكمه الدولة إلى الاقتصاد.

■

Egypt and the Politics of Change in the Arab Middle East
مصر وسياسة التغيير فى الشرق الأوسط العربى

Robert Bowker
Edward Elgar Publishing, 2010
225 pp, $115.00
Robert Bowker (Author)



فى كتابه «مصر وسياسة التغيير فى الشرق الأوسط» يناقش روبرت باركر أنه إذا فشلت الأنظمة الحاكمة فى التحديد والاستجابة الفعالة لمطالب التمكين التى يتطلع إليها شبابها المتعلم، فمن المتوقع أنها ستواجه ارتدادا وفوضى شبيهة بتسونامى، حيث يقدم الكتاب تحليلا أيضا للعلاقة بين الإصلاح الاقتصادى والإصلاح السياسى فى مصر، والطبيعة التحاليلية للثقافة الاجتماعية والسياسية فى مصر وأماكن أخرى من الوطن العربى، ويناقش بروكر أيضا الآثار المحتملة للمقاومة المنظمة التى تحاول الضغط على السلطات بهدف الوصول إلى إصلاح سياسى، ومحاسبة وشفافية أعظم، بالإضافة إلى التغيرات الديموجرافية والتعليمية، ويشمل تحليله أيضا الخدمات الأمنية والعسكرية، وتأثير الأطياف المختلفة فى الدولة، وأثر الرقابة والقمع الاجتماعى والقسر والإكراه والفساد المتفشى.

يقول روبرت باركر مؤلف الكتاب: «إن الوضع القائم فى مصر وأماكن أخرى من الشرق الأوسط العربى يشتمل على هاديات وانعكاسات واضحة على مستقبل الوضع السياسى العربى، حيث وللمرة الأولى يظهر بديل سياسى مدنى مقابل للتيار الإسلامى، تسيطر عليه الخيالات والأحلام السياسية للطبقة الوسطى العربية، وسوف يشكل بيئة الأمن فى المنطقة. إن نتائج ظهوره من الصعب توقعها، ولكن هناك خطرا عظيما على المنطقة من تهميش وتغريب هذه الحركة والتى أصبحت لها أطيافها السياسية».

■

كـتـب فـرنـسـيـة

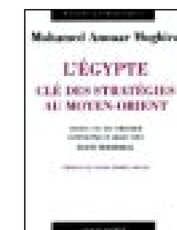
L’Egypte entre démocratie et islamisme : Le système Moubarak à l’heure de la succession
Jean-Noël Ferrié
Editions Autrement, 2008



هل مصر فى مفترق طرق؟ فالأزمة الاقتصادية والاجتماعية باتت تقوض من شرعية نظام مبارك القمعى منتقدا من الديمقراطيين ومتحملا لضغط التيار الإسلامى خصوصا الإخوان المسلمين الذين حصلوا على ٨٨ مقعدا فى مجلس الشعب فى الانتخابات الأخيرة.
هذا الوضع مستمر طيلة رئاسة حسنى مبارك التى بدأت عام ١٩٨١.
أما عن جمال مبارك فيبدو أكثر فأكثر أنه الخليفة المحتمل ولأول مرة يطرح رئيس لمصر ليس عسكريا، رغم تفاقم الأزمة وسوء الأوضاع وغياب الرؤية السياسية الشعبية الواضحة مصر لم تنفجر.
يحاول هذا العمل فك شفرة آليات نظام مبارك الهادفة إلى استمرارية النظام فالخلافة القريبة تحمل فى طياتها الكثير من التغيرات فابن الرئيس والإصلاحيون المحيطون به يأملون فى تبديل مجرى الأشياء.
إذن ستبدأ مرحلة خطرة فى تاريخ مصر، حيث سيطرح بحدة التساؤل القديم عن دور الإخوان المسلمين فى مصر.

■

L’Egypte, clé des stratégies au Moyen-Orient : Trente ans de politique égyptienne et arabe sous Hosni Moubarak
Mohamed Anouar
Editions l’Age d’Homme, 2009



تحكم السلطة المصرية قبضتها على الحياة السياسية ووسائل الإعلام منذ ١٩٨١ بينما تنقسم المعارضة الفعالة من حيث أولوياتها.
أما عن المواطن العادى فشغلته قضايا أكثر حيوية مثل الاكتفاء الغذائى الذاتى وحال العمالة مما يجعل التغييرات المحتملة فى التوازن السياسى الداخلى المصرى وشيكة.
ليس من المستحيل أن نتوقع حدوث انفجار اجتماعى قريب يجعل إدارة البلاد غير آمنة خصوصا بعد رؤية أعمال الشغب أثناء أزمة الخبز فى ٢٠٠٨ والعمليات الإرهابية التى تحدث بين وقت وآخر وردود أفعال الشعب والحكومة عليها.
الرئيس حسنى مبارك البالغ من العمر ثمانين عاما الذى أعيد انتخابه فى ٢٠٠٥ لفترة رئاسية جديدة تعهد فيها بإصلاحات جذرية وطموحة أمام أعين الكثير من المصريين الذين نفد صبرهم من الفقر والبطالة والأمية التى تستشرى يوما بعد يوم خصوصا فى الأقاليم والفساد الذى يحكم بدعم من الاستغلال والمحسوبية.
فى كل ذلك يراهن الرئيس على الاستقرار بالسيادة الداخلية المطلقة ولعبة السياسة الخارجية.
فمصر تلعب دورا رئيسيا ومركزيا فى العالم العربى، فى الحرب الإيرانية - العراقية، وفى غزو الكويت، وفى حرب الخليج، وفى الصراع العربى الإسرائيلى، وفى الاحتلال الأمريكى للعراق، وفى زعزعة الاستقرار اللبنانى والقضية السورية وأخيرا وليس آخرا مأساة دارفور.
العديد من الصراعات والأزمات أخذت مصر مشروعية التدخل بها فى مناخ من عدم الاستقرار الإقليمى المتزامن والمتكرر لعبت الدبلوماسية المصرية السرية دور الوسيط من وراء الكواليس وسعت بشكل رسمى إلى تهدئة الأوضاع والتوفيق بين الحكام العرب المنقسمين، ولهذا إذا تحقق تغيير ديمقراطى فى مصر سيمتد بالتأكيد إلى بلدان العالم العربى والإسلامى.
تحتفظ الدولة المصرية بوزن وتأثير تاريخى وثقافى لا ينكر فى منطقة الشرق الأوسط.
ومن الناحية الدولية يلاقى التكوين السياسى لمصر والولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى الكثير من المديح المختلط بالنقد والاستنكار.
هذا الكتاب بين سرد تسلسل الأحداث وتحليل ودراسة الكاتب يحاول رسم مايقرب من ثلاثين عاما من النظام المصرى.
ويحاول الإجابة عن تلك الأسئلة وطرح رؤية مستقبلية لمستقبل مصر السياسى.
هل ستأتى رياح التغيير الديمقراطى إلى بلاد الفراعنة قبل ٢٠١١؟
فى أى مناخ جغرافى سياسى ودولى تطور الدور الدبلوماسى المصرى منذ ١٩٨١؟
مثالية أمريكية فى مواجهة سياسة فرنسية واقعية، مصر والولايات المتحدة وعلاقات المصالح.
ماذا بعد مبارك؟
مصر وإيران قوى عسكرية قادمة؟
أين فرنسا من الحوار العربى الإسرائيلى من أجل السلام؟

■

L’egypte contemporaine
Le Cavalier Bleu, 2008



للكثيرين مصر هى بلاد الفراعنة بالرغم من توافد ملايين السائحين إليها يطرح هذا الكتاب تساؤلا عن ماذا يعرف الأوروبيون عن مصر المعاصرة.
ولكن مصر المعاصرة تختلف كثيرا عن صورتها عند الأوروبيين الذين يرونها إما مصر الفرعونية ذات الشعب المبتسم وإما الإسلامية أو القمعية، فيحاول الكاتب تصحيح الكثير من الصور النمطية وتقديم رؤية جديدة عن الإسلام المعتدل على حد قوله فى مصر كما يقدم دراسة عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية وتأثير ذلك على العالم العربى والإسلامى الذى تعتبر منارته.

■

Vote et démocratie dans l’Egypte contemporaine
Karthala , 2005



نسبيا بدأ أداء الناخبين الغربيين يقترب من أداء ناخبى بلاد الجنوب فالغربيون بسبب ظروفهم لم يبدأوا الآن التجربة.
ولكن ما يعيشه الآخرون هو بالضبط (تمثيلهم السيئ) وتناقص هامش العمالة بالدولة وعدم قدرة الحكام على إحداث تحول وتغيير اجتماعى حقيقى.
هذا الكتاب هو خلاصة بحث نظرى وميدانى متعمق فى احدى القرى المصرية مستعينا بشهادات شخصية لبعض المشاركين فى انتخابات الفترة الليبرالية مابين ١٩٢٤ - ١٩٥٢ والفترة الناصرية مابين ١٩٥٢-١٩٧٠.
يحاول هذا العمل طرح تساؤلات عن افتراضيات قديمة تخص تفسير السلوك السياسى والانتخابى فى مصر ورصد تطوره إلى عام ٢٠٠٥.
يوضح كيف كانت تجرى العملية الانتخابية دون ناخبين قبل فرض الرقابة القضائية عام ٢٠٠٠
كما يشير إلى أهمية العملية السياسية والانتخابية المحلية التى بها تتشكل السلطة المركزية المصرية رافضة تماما فكرة سيطرة الأفراد بمختلف طوائفهم الذين يمتنعون أو يمنحون خيارهم السياسى وقت الانتخاب.
ان الفرد هو من يبنى ويعيد بناء مجتمعه بناء على مصالحه وأهم نقطة فى هذا البناء هى الانتخابات فى محاولة لإعادة القيمة للناخب الفرد فى العملية الانتخابية تأتى الرقابة القضائية على مكاتب الانتخابات ولمواجهة الطوائف يعتبر ذلك تقدما إيجابيا للديمقراطية الانتخابية فى مصر.
سارة بن نفيسة سياسية وباحثة فى معهد أبحاث التنمية لها أكثر من دراسة عن العالم العربى
نشرت العديد من المقالات عن المجتمع المدنى والديمقراطية فى مصر والعالم العربى.

■

Egypte, l>envers du décor
بالفعل مصر ساحرة ولكن من منا يعرفها حقا؟



عادة لا يحتفظ السائحون إلا ببعض الانطباعات الطيفية كالشعب الحميمى والمبتسم والأكثر حرارة على الإطلاق، بعض الأماكن والمقاهى شرقية الطابع، الآثار وبعض الصور النمطية المرتبطة بالعالم الثالث وأخيرا الوجه المحفوظ للرئيس المبتهج.
بالنسبة للمجتمع الدولى تعتبر القاهرة المعبر الإجبارى للدبلوماسية فى منطقة تعتبر الأكثر اضطرابا فى العالم أجمع.
الحقيقة أكثر تعقيدا من كل هذا فالنموذج الاشتراكى الناصرى الذى شكك به فى عهد السادات تم إلغاؤه تماما بليبرالية كاسحة.
وبدأت فرق السلطة الاندماج مع القواعد الجديدة للعبة السياسية بدءا من الرئيس الذى يتبع منطق الخلافة ويرغب بشكل معد له بتمرير السلطة إلى ابنه.
يتنازل العسكريون عن موقعهم لرجال الأعمال ورغم ذلك دائرة الحكم تظل نفسها.

■

الغـضــــــــــب العـــــــــربـى

The Long War for Freedom: The Arab Struggle for Democracy in the Middle East

الحرب الطويلة من أجل الحرية: النضال العربى من أجل الديموقراطية فى الشرق الأوسط

Barry Rubin
Wiley, 2005
304 pp, $5.19



لقد جعلت الولايات المتحدة انتشار الديموقراطية فى الشرق الأوسط هو حجر الزاوية فى سياستها الخارجية، وبالرغم من أن المسئولين فى الإدارة توقعوا أن عملية تعزيز ونشر الديموقراطية فى الشرق الأوسط سوف تتم الاستجابة لها بحماس، فإن معظم دول العالم التى أشادت بهذه الاستراتيجية كانت تنظر إليها بشك هائل.

ولعل كتاب «الحرب الطويلة من أجل الحرية» هو الكتاب الأول الذى يتناول الأسس الحقيقية لتدعيم الإصلاح، والاعتدال، وتشجيع انتشار الديموقراطية فى الشرق الأوسط، ويعد بارى روبن من الخبراء الذين يتمتعون بمصداقية هائلة فى هذا الشأن، وقد ألقى نظرة عميقة على شجاعة الجماعات الواعدة من الليبراليين العرب الذين أظهروا تشجيعا شخصيا للدفاع عن الحريات.

ولعل الأهمية الشديدة لهذا الكتاب تكمن فى أنه يتناول أخيرا الحرب الطويلة من أجل الحرية للعالم الغربى فى تصوير متعمق لهذه «الأصوات الصغيرة» فى العالم العربى التى تخوض المعركة الأكثر حسما فى القرن الواحد والعشرين، إنها معركة الدفاع عن روح الشرق الأوسط. لا يمكن لأحد من المهتمين بحركة النضال من أجل الإصلاح السياسى والاقتصادى فى العالم العربى أن يتجاهل هذا العمل العميق والمثير، والذى كشف بوضوح وجلاء على حد سواء عن أهمية وصعوبة مساعدة العالم العربى فى إجراء هذا التحول، ويرى بارى روبن أن الديموقراطية بدون استعدادات متضمنة لتعددية حزبية حقيقية، وسيادة للقانون، وحكومة مستقرة، لا يمكن تقديمها على أنها الدواء الذى يعالج معظم المشكلات التى يعانى منها الشرق الأوسط.



Islam and Democracy in the Middle East (A Journal of Democracy Book)

الإسلام والديموقراطية فى الشرق الأوسط

Larry Diamond (Editor), Marc F. Plattner (Editor), Daniel Brumberg
352 pages , The Johns Hopkins University Press (July 3, 2003), $28.00



لعل الحداثيين المسلمين الأكثر وعيا هم هؤلاء الذين اتخذوا خطوات عبر الحدود التاريخية فى اتجاه التشكيك المستنير للموروثات الثقافية الإسلامية، هناك العديد من العقلانيين المسلمين الذين فعلوا ذلك، وبعضهم ساهم فى محاولة الجمع بين الإسلام والديموقراطية فى الشرق الأوسط، ويختلف كتاب «الإسلام والديموقراطية فى الشرق الأوسط» عن معظم الكتب المعاصرة التى تناولت نفس القضية فى أنه يميز بين قضايا «تسييس الإسلام» و«أسلمة الشئون السياسية»، والتمييز بين الإسلام السياسى، والإسلام الليبرالى. ويقدم الكتاب تقييما شاملا لأصول القوة الأوتوقراطية المعاصرة فى الشرق الأوسط، بالإضافة إلى حساب رصين لنضالات الإصلاحيين وقوى المعارضة لتعزيز الحريات المدنية، والانتخابات التنافسية، والرؤية التقدمية للإسلام، ويرسم رؤى لما يقارب ٢٥ عالمًا رائداً فى الغرب والشرق الأوسط، ويتناول الكتاب دراسات حالة منصبة على المغرب، ومصر، والأردن، والكويت، وقطر، واليمن والتى تشير إلى أن الحرية السياسية التى كانت تدار على النحو الذى تحدده الدولة لا تفتح فقط وجوها جديدة من الجدل والنقد، ولكن تستخدم أيضا كوسيلة معتمدة لتجنب الديموقراطية الحقيقية.

الكتاب عبارة عن تجميع لثلاثين مقالا نشرت فى مجلة الديموقراطية ويتناول السبب فى أن الشرق الأوسط هو المنطقة الوحيدة التى لم تمسها الموجة الثالثة من الانتشار الديموقراطى فى عام ١٩٧٤، مع تناول لاعتبارات العلاقة بين الإسلام والديموقراطية، وبالرغم من عدم وجود نتائج واضحة توصل لها الكتاب، إلا أن هذا التجميع يوفر إثراء وأمثلة إمبريقية لأبعاد الديموقراطية فى الشرق الأوسط.



The Coming Revolution: Struggle for Freedom in the Middle East

الثورة القادمة: الكفاح من أجل الحرية فى الشرق الأوسط

Walid Phares , 400 pages , $16.18 , Threshold Editions (December 7, 2010)



«يعد وليد فارس واحدا من العلماء الأكثر دراية بشئون الشرق الأوسط، وشعوبه، وثقافاته، ودياناته، وحركاته الراديكالية» سيناتور جو بيرمان.

يظهر وليد فارس – الخبير فى شئون الشرق الأوسط والمتخصص فى الاستراتيجيات الدولية – فى كتابه «الثورة القادمة: الكفاح من أجل الحرية فى الشرق الأوسط» تطلعات شعوب الشرق الأوسط إلى عالم حر وديموقراطى، حيث لا يمكننا تجاهل الرغبة العميقة فى الحرية لدى شباب ونساء وأقليات المنطقة، ووليد فارس يجعل قضيتهم أكثر وضوحا، حيث يناقش السباق العنيف من أجل السيطرة على الشرق الأوسط، وأن مستقبل العالم كله ربما يتوقف على نتيجة ذلك الكفاح، ولعل الإخفاق الأمريكى – من وجهة نظره – فى معالجة قضايا الشرق الأوسط، ليس فقط ناتجا عن عدم الإدراك، وإنما أيضا عن الفشل فى تعليم الأمريكيين وحصولهم على المعلومات الأساسية لجماعات التهديد الجهادية المتزايدة، إن الديموقراطيات الغربية تظهر سوء فهم خطيرا عندما تتناول من يعارضون ديموقراطيتها، وتتساءل لماذا يعارضونها؟ فى الحقيقة قد تجاهل الغرب القوى الواسعة والمتباينة داخل العالم الإسلامى، بما فى ذلك الإخوان المسلمون وموقفهم المناهض للديموقراطية، وقتالهم من أجل جعل المنطقة تحت السيطرة الشمولية، وكذلك جيل الشباب الذى يشن ثورة محرومة من أجل الديموقراطية وحقوق الإنسان.

ويبقى العديد من الأسئلة الهامة التى لم يتم الرد عليها أو إجراء استطلاع للرأى بشأنها وهى: أين هؤلاء الديموقراطيون والمناهضون للجهاديين فى العالم الإسلامى؟ هل الشرق الأوسط يرفض الديموقراطية حقا؟ هل تفضل شعوب المنطقة حقا حركة طالبان، وجماعات الإخوان المسلمين، أو حزب الله عن الليبراليين والعلمانيين؟

وهل هناك بالفعل أمل حقيقى فى أن تتغلب الحرية والديموقراطية على الخلافة الإسلامية؟

يحاول فارس أن يستكشف كيف يمكن للعالم الحر أن يفوز فى صراعه مع الجهاديين، ولكن ليس عن طريق استخدام الأساليب والسياسات، والاستراتيجيات التى كانت ولا تزال تستخدمها الولايات المتحدة حتى الآن، ويحث الولايات المتحدة وصانعى السياسات أن يتأملوا فى البداية المواطن الحقيقية للخطر قبل أن يقوموا بصياغة أيديولوجيتهم، وإلا فلن يكون هناك انتصار.

إن كتاب «الثورة القادمة» عبارة عن خطوة حيوية فى الحرب العالمية ضد الإرهاب، وعمل هام وواضح وضرورى يقوم بحكى قصص لم يتم الإخبار بها، أو التعرض لها من قبل، وذلك من أجل صياغة شرق أوسط قادر أخيرا على الوصول إلى الحرية، ولعل النتيجة هنا يمكن أن تغير طبيعة حياتنا السياسية والاجتماعية للأبد.



The Struggle over Democracy in the Middle East: Regional Politics and External Policies

الصراع حول الديموقراطية فى الشرق الأوسط: السياسة الإقليمية والسياسات الخارجية

Nathan J. Brown and Emad Shahin (Editors)
Routledge, 2009
224 pp, $40.30



لدى العديد من حركات المقاومة فى الشرق الأوسط، وحديثا القوى الغربية، أمل عظيم فى إرساء قواعد الديموقراطية فى المنطقة، ولكن تظل حتى الآن القوى الاستبدادية هى القاعدة، والتوجهات نحو الديموقراطية بطيئة وغير منتظمة. ويتناول كتاب «الصراع حول الديموقراطية فى الشرق الأوسط» الديموقراطية، وعمليات بنائها وانتشارها فى ضوء الحقائق الإقليمية بدلا من التطلع إلى الأفكار والحقائق الخارجية. حيث يقوم المتخصصون فى المنطقة بتحليل الأبعاد الديموقراطية فى المنطقة، مثلما قام علماء الولايات المتحدة

والمملكة المتحدة بإنجاز تحليل للسياسات الغربية، وتوفير مسوح ودراسات استقصائية واسعة النطاق لرصد الجهود التى تبذلها البلدان كل على حدة، وما يمكن أن تحدثه المؤثرات الخارجية من تأثيرات.

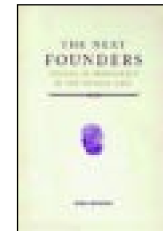
ويتضمن الكتاب معالجة لموضوعات تتعلق بالطائفية، والثقافة، والدين، والأمن، وتعزيز الديموقراطية، ويقدم الكتاب أيضا دراسة لخبرات النشطاء السياسيين، والأحزاب السياسية، والجماعات الدينية، والحكومات، ويسلط الضوء على الصعوبات التى ينطوى عليها جلب الديموقراطية إلى الشرق الأوسط. ويوفر توضيحا متعدد الأوجه لقضية إرساء الديموقراطية. إن هذا الكتاب يعد مرجعا قيما لبرامج التدريب على سياسات الشرق الأوسط، والديموقراطية، والعلوم السياسية.

■

The Next Founders: Voices of Democracy in the Middle East

المؤسسون القادمون: أصوات من الديموقراطية فى الشرق الأوسط

Joshua Muravchik , $12.85, 350 pages , Encounter Books (June 15, 2009)



يسلط كتاب المؤسسون القادمون الضوء على قصص سبعة من الأشخاص المتميزين أو البارزين: عربا وإيرانيين، خمسة منهم من الرجال واثنتان من النساء، أربعة من السنة، واثنان من الشيعة والسابع مختلط، تدور حياتهم حول الدفاع عن رسالتهم، وبالرغم من أن وجهات النظر بينهم تتباين وتختلف وأحيانا تتعارض، إلا أن رسالتهم جميعا واحدة، وهى جعل بلدانهم أكثر حرية وديموقراطية. كل شخص من هؤلاء السبعة دفع ثمنا ثقيلا، أربعة منهم تعرضوا للسجن والثلاثة الباقون مهددون بالقتل، ثلاثة منهم تعرض أحباؤهم للتهديد أو العقاب، واثنان تم نفيهما إجبارا، وأحدهم شهد مقتل طفله، جميعهم ضحوا بالرفاهية المادية، إن قصصهم بالفعل ملهمة.

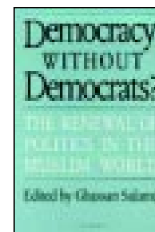
يقول مؤلف الكتاب «عندما كنت أقول للناس إننى سأكتب كتابا عن الديموقراطية فى الشرق الأوسط، كان رد الفعل الدائم لهم هو نفسه، وهو: «إن هذا الكتاب سيكون قصيرا»، وهذا يعكس الاعتقاد بأن منطقة الشرق الأوسط ستظل تحيا فى حالة استبدادية عنيدة». وفى الحقيقة فإن ندرة الديموقراطية فى الشرق الأوسط لا تعنى أنه لا يوجد ديموقراطيون، فقد أظهرت الدراسات أن الغالبية العظمى من الشعوب فى هذه البلدان يرغبون فى الديموقراطية، وإن كانوا لا يدركون حتى الآن المعنى الحقيقى والصحيح لها، وربما يكون الأكثر أهمية هنا أن هناك أشخاصا يعيشون وهم يسعون نحو هدف أن تصبح بلادهم أكثر حرية وديموقراطية، إننا نعرف القليل عنهم، وذلك لأن أعمالهم مسالمة وتدريجية وليست ثورية، بالإضافة إلى طغيان المتعصبين دينيا والإرهابيين عليهم. ولقد تناول المؤلف سبعة منهم، أهدافهم، وأنشطتهم، وحاولوا رسم صورة كاملة عنهم أملا فى فهم الكيفية التى أصبحوا من خلالها على ما هم عليه الآن.

■

Democracy in the Arab World: Explaining the Deficit

الديموقراطية فى العالم العربى: توضيح لمواطن القصور

Ibrahim Elbadawi (Editor), Samir Makdisi (Editor) , 352 pages , Routledge (October 19, 2010) , $97.14



بالرغم من التطور الاجتماعى والاقتصادى الملحوظ فى المنطقة العربية، إلا أن الحق فى الديموقراطية والحقوق السياسية لازالت عاجزة عن الانتصار، إن هذا الكتاب يتناول الأسباب الرئيسية الكامنة وراء استمرار هذا العجز عن الديموقراطية على مدى العقود الماضية ويلمس بعمق عملية التحول الديموقراطى فى العالم العربى، حيث يعد كتاب «الديموقراطية فى العالم العربى» مساهمة هامة فى دراسة جوانب وأبعاد قصور عملية الديموقراطية فى منطقة العالم العربى، وعلى عكس الدراسات الأخرى التى تتعامل مع الديموقراطية، يركز الكتاب على الدوافع الرئيسية وراء العجز عن تطبيق الديموقراطية فى معظم البلدان العربية، ويقدم مجموعة معقدة من التفسيرات التحليلية، ويتحاشى الثنائيات المبسطة والعقيدة الثقافية، ويشخص الديموقراطية فى العالم العربى من حيث الدور الحرج الذى تلعبه النزاعات والنفط، كما يكشف تأثير القيادة السياسية والتدخلات الأجنبية والنخب فى عملية التحول الديموقراطى فى المنطقة، على الرغم من أهدافها الاجتماعية البارزة وهى التنمية الاقتصادية، ولعل أبرز نقاط القوة الرئيسية فى الكتاب هى أنه يسد الفجوة بين النظرية والتاريخ وذلك من خلال قائمة رائعة من الباحثين والعلماء فى المنطقة.

وبناء على مساهمات من كبار أهل العلم فى المنطقة يقدم الكتاب تحليلا شاملا للتنمية الاقتصادية، والمؤسسات السياسية، والعوامل الاجتماعية فى هذه البلدان، وأثر الثروة النفطية والحروب الاقليمية فى تقديم نموذج للديموقراطية فى العالم العربى، يتم ذلك من خلال تناول حالات بلدان عربية بعينها، وهى: الجزائر، ومصر، والعراق، والأردن، ولبنان، وسوريا، والسودان، ومنطقة الخليج، وإجراء تحليلات لهذه البلاد والتحقيق وراء المتغيرات والنماذج السياسية للتغيرات العالمية بالنظر إلى تأثير النفط والصراعات، وهناك فصول لتوضيح كيفية تحديد معنى التاريخ الاجتماعى والسياسى للبلد، والخوف من الجماعات الأصولية، والتواطؤ مع القوى الخارجية، والتدخلات الأجنبية، ويضع موقف الديموقراطية فى العالم العربى فى سياق عالمى، ويعد هذا الكتاب مساهمة هامة فى مجال السياسة فى الشرق الأوسط، ودراسات التنمية والدراسات حول الصراع والديموقراطية.

■

Democracy Without Democrats?: Democracy Without Democrats?: The Renewal of Politics in the Muslim World

ديموقراطية بدون ديموقراطيين: تجديد السياسة فى العالم العربى

Ghassan Salame (Editor), 352 pages, $92.50 I. B. Tauris (December 15, 1994)



«يقدم هذا الكتاب منجما من المعلومات والأفكار الهامة عن المسار المتقلب لمحاولات إرساء قواعد الديموقراطية فى العالم الإسلامى» يوجندر سيكاند.

لقد أصبحت أفكار الديموقراطية والليبرالية السياسية حديثا مركزا للنقاش والجدال السياسى فى الشرق الأوسط وعنه، ومن ذلك التركيز الحالى على واقع الممارسات الديموقراطية فى مناطق كثيرة من العالم، إلى جانب انتشار الليبرالية الاقتصادية، وتحقيق قدر من التعددية السياسية فى الشرق الأوسط، حيث يتناول النقاش استمرار الأنظمة الاستبدادية، إلى جانب هشاشة التجارب الديموقراطية، والعودة إلى الإشكالية التى مؤداها: هل يمكن الجمع بين الإسلام والديموقراطية؟

يجمع هذا النص بين العديد من الكتاب المعروفين فى سياسة الشرق الأوسط، ويتحدى الافتراض القائل بأن الشرق الأوسط هو حالة فريدة من نوعها، وأنها توفر أطرا جديدة يمكن من خلالها تحليل عملية التحول الديموقراطى. ولكن إذا كنت تميل إلى وجهة النظر الاستثنائية فى النقاش الدائر حول الديموقراطية، أو الاشتراك فى الفكرة القائلة بأن الإسلام يشكل تهديدا للحضارة الغربية، فإن هذه المجموعة من المقالات الهامة تعد وسيلة ممتازة لتشجيعك على إعادة التفكير.

هذا لا يعنى أن الكتاب يقدم قضية التحول الديموقراطى على نحو مسلسل فى الشرق الأوسط أو القدرة وإمكانية التوفيق بين الإسلام والديموقراطية، إنه يشكك فى كل هذه النقاط على حد سواء، ولكنه يميل إلى وضع مشكلات العالم العربى فى سياق آخر، من حيث إنها يمكن فهمها على أنها مماثلة للمشكلات التى تواجهها الأجزاء الأخرى من العالم، والعديد من الكتاب الواردين فى الكتاب يتناولون قضية الاتفاقات قبل إجراء الانتخابات باعتبارها وسيلة للعمل خارج قواعد اللعبة، وآخر ينظر إلى دور الريع النفطى والضرائب باعتبارها قضايا مميزة فى تحديد شروط المناقشة بين الدولة ومواطنيها، وبالرغم من أن معظم التركيز على العالم العربى، ولكنه يوجه الانتباه أيضا إلى تركيا وإيران.

هذه المجموعة من الأعمال كتبها خبراء فى سياسة الشرق الأوسط والهدف منها تحدى الافتراضات السائدة وتقديم رؤى بديلة يمكن أن توسع نطاق المناقشات بشأن الديموقراطية، حيث يحاول المساهمون فى الكتاب إعادة صياغة وتحديد التعريفات وقواعد المشاركة السياسية فى العالم العربى.

■

كـتـب فـرنـسـيـة

impossible

المغرب العربى: الديموقراطية المستحيلة

Pierre Vermeren

Fayard, 2004



الجزائر والمغرب وتونس يمثلون شمال إفريقيا بالنسبة لفرنسا.

تشكل اليوم هذه البلاد المغرب العربى المستقل. هذا المغرب العربى أصبح الشرق القريب للفرنسيين، بلاد مجاورة وصديقة لكنها فى الوقت نفسه غير معروفة للفرنسيين على الإطلاق.

بعد مكافحة الاستعمار وخصوصا بعد حرب الجزائر انتصر العالم الثالث وآتى وقت النضج السياسى ولكن بين السلطات القمعية وتهديد الإسلام السياسى هل تجسدت الديمقراطية بأى شكل من الأشكال فى هذه البقعة من العالم؟ ذلك هو التساؤل الذى يطرحه هذا العمل ويحاول أن يجيب عنه بالرجوع لتحليلات تاريخية متعمقة ورجوعا إلى تاريخ نشأة القومية العربية الإسلامية على مدار عشرين قرنا من حروب الاستقلال عن الغرب.

ما مصير المغرب العربى فى ظل ديموقراطية يتم فرضها بالـلـعـبـة الأمريكية الكبرى فى الشرق الأوسط؟ سيكون الاختيار للزحف الأمريكى للعالم العربى أم لهامش الديموقراطية الذى يقدمه الاتحاد الأوروبى؟

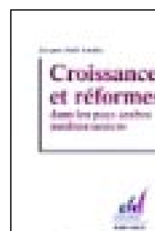
■

Croissance et réformes dans les pays arabes méditerranéensns

النمو والإصلاح فى البلاد العربية المتوسطية

Jacques Ould Aoudia

/Karthala, 2008



فى الوقت الذى تحاول فيه أوروبا أن تجدد علاقتها مع بلاد البحر المتوسط، يستعرض هذا العمل بانوراما للتوجهات الاقتصادية بعيدة المدى فى البلاد العربية المطلة على الشاطئ الجنوبى من المتوسط بخطة بحثية مختلفة الزوايا (تحليل اقتصادى - تحليل لمؤسسات - تحليل الاقتصاد السياسى لبعض الحركات الصاعدة.

يثرى هذا العمل فهمنا للتحديات التى تواجهها المجتمعات والاقتصاد العربى متوسطى. عن طريق تحليل الصفات المؤسسية لتلك البلاد الخاضعة للتنمية ويضيف الكاتب أبعادًا أساسية للآليات الاقتصادية كما يحاول طرح فرضيات عديدة حول التحول الديموجرافى، والفقر، وآليات الحكم وطبيعة النمو فى هذه البلاد.

■

Dictateurs en sursis

إرجاء الديكتاتورية

Moncef Marzouk

Editions de l'Atelier, 2009



لماذا تندر الديموقراطية فى البلدان العربية؟ فى أى تربة تتأصل الديكتاتورية الضارية حيث الحكام مفروضون على شعوبهم؟

يطرح منصف مرزوق أحد أكثر معارضى زين العابدين بن على الذى حكم تونس لأكثر من ربع قرن بلا منازع يطرح الكاتب تلك الأسئلة فى عمله الجديد إرجاء الديكتاتورية.

يحاول الرئيس السابق للاتحاد التونسى لحقوق الإنسان والذى نفى إلى فرنسا منذ ٢٠٠١ الكشف عن انتهاك الحريات اليومى فى بلاده عن طريق التعذيب وغيره من الطرق القمعية.

محاولا توسيع تحليلاته على كل البلاد العربية.

فى الواقع إذا كانت تونس تمثل أحد النماذج المكتملة التى استطاع الديكتاتور إدخالها فى السوق العالمى ففى بلاد المغرب والمشرق العربى الأخرى نجد وضعًا لا يختلف كثيرا عن تونس.

من المملكة العربية السعودية إلى الجزائر مرورا بمصر وليبيا مازالت الشعوب مكممة بواسطة شرطة وجيش منتشر ومتواجد فى كل أنحاء البلاد وفساد وعدم مساواة اجتماعية متوطنة تعتبر مهدًا للإسلام السياسى. رغم كل هذا هناك أمنية شعبية بمجىء المستبد العادل فى البلاد العربية.

يدافع الكاتب فى هذا العمل بقوة عن ضرورة زرع الديموقراطية فى مبادئ الثقافة الإسلامية العربية فى جزئها الأكثر انفتاحا.

هذا الكتاب هو صرخة أمل ودعوة للخروج من حالة القدرية ومن النظرة المحدودة المتواطئة للقوى الغربية.

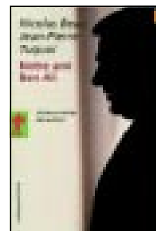
■

Notre ami Ben ali

صديقنا بن على

Nicolas Beau and Jean –Pierre

Editions La Découverte, 2011



من ١٩٨٧ إلى ٢٠١١ حول الرئيس التونسى زين العابدين بن على تونس الصغيرة المسالمة إلى ثكنة عسكرية كبيرة.

معارضو تونس دائما ما يقمعون بشكل منهجى ودائما ما يعذبون ويدانون فى المحاكم.

كيف تستطيع فرنسا التسامح مع نظام ظلامى ومتخلف يبعد عنها ساعتين بالطائرة؟

يوظف هذا العمل منذ طبعته الأولى فى ١٩٩٩ كل جهوده لفهم وشرح الآليات التى أدت إلى اندلاع «ثورة الياسمين» فى يناير ٢٠١١.

بفضل معرفة الكتاب وإلمامهم التام بهذا الملف وجوانبه المعتمة والخفية استطاعوا الكشف عن الوجه الخفى «للمعجزة التونسية» متبعين المجالات المفاجئة للرئيس زين العابدين بن على الذى يبسط سيطرته على تونس بنظامه القمعى كاشفين عن مافيا النظام التونسى.

يشرح الكتاب كيفية استفادة «صديقنا بن على» من فرنسا ومن أوروبا عامة دون الالتفات إلى مدى قمعه للشعب.

الضيافة الكريمة التى ظل يحظى بها بعض المسئولين السياسيين والصحفيين الفرنسيين، التعاون الذى كان يتم من أجل قمع المعارضين الإسلاميين، المصالح الاقتصادية المتبادلة بين تونس وأوروبا.

تم تحديث هذا الكتاب كى يرصد تطور الوضع فى تونس حتى بداية عام ٢٠١١ من أجل أن يعرِف أصدقاء تونس الحقيقيين والذين هم كثر فى فرنسا الذين لا يريدون أن يظلوا عميانًا موارد وركائز حكم دام ثلاثة وعشرين عاما.

■

Dynamiques de la pauvreté en Afrique du Nord et au Moyen-Orient

ديناميكيات الفقر فى شمال إفريقيا والشرق الأوسط

Blandine Destrernau

Karthala , 2004



لا يتصدر الفقر العناوين الرئيسية فى وسائل الإعلام بجميع أنواعها.

فمنطقة الشرق الأوسط وشمال إفريقيا تشغلها مشاكل أكثر حدة. ففى المقام الأول هناك خطر الإسلام السياسى والصراعات الإقليمية.

فمشاكل الفقر لا تشغل إلا بعض الفئات المهمشة من شعوب هذه المنطقة التى تعتبر غنية بشكل عام.

رغم ذلك يزداد الفقر شيئًا فشيئًا ويكسب أراضى جديدة ليضخم من عدم المساواة الاجتماعية ويحدث فجوات أكبر.

تحاول الإسهامات فى هذا العمل أن تعرف الفقر من حيث آلياته وبشكل نسبى مرتبط بهذه المنطقة فى هذا الزمن المحدد وليس على نحو مطلق.

يحاول هذا العمل الكشف عن الخطابات السياسية والاجتماعية التى تتكلم عن الفقر كواقع وحقيقة ولكنها تساهم أيضا فى أن تعطى للفقر شرعية ما وللفقراء أماكنهم وللسياسيين تأكيداً على شرعيتهم بمكافحة الفقر دائما وفى النهاية تعطى التبريرات الكافية لغياب العدالة الاجتماعية.

اعتمد الكتاب بشكل أساسى على العمل الميدانى دون إغفال التحليل التاريخى وأهميته وذلك محاولة من الكاتب أن يعطى للفقراء الحق فى وضع استراتيجياتهم الخاصة لحل مشاكلهم الاجتماعية والاقتصادية.

■

الإسلام و / فى الغرب
فى الحديث عن «الربيع العربى»

أكمل الدين إحسان أوغلو
Ekmeleddin Ihsanoglu



■■ إن الثورات فى تونس ومصر تعتبر إلى حد كبير أمثلة على الانتقال السلمى للسلطة بعد عقود من الحكم الاستبدادى الذى لا يتزعزع. لكن التغيير فى هذين البلدين وغيرهما من البلدان العربية قد فاجأ العالم.

إن الحديث عن «الربيع العربى» قد هيمن على وسائل الإعلام الغربية والجدل السياسى منذ عدة أشهر. إن العديد من المسلمين الذين يعيشون فى الغرب يراقبون أيضا الأحداث فى المنطقة عن كثب، وكلهم أمل بأن إخوتهم فى الدين سوف يستمتعون بحقوق أكبر وحريات والحماية تحت حكم القانون، وذلك كما هو الحال عندهم لعقود عديدة.

لكن ليس هناك ضمان بأن تلك الانتقالات سوف تكون نتائجها سلمية. إن الوضع الحالى فى ليبيا والبحرين واليمن هو مصدر للقلق الشديد، وإيجاد حلول سياسية عملية فى تلك البلدان هو بمثابة تحد ليس فقط للعالم الإسلامى، ولكن أيضا للغرب والمجتمع الدولى بأكمله.

إن من الخطأ أن نحدد العلاقة بين العالم الإسلامى والغرب فقط على ضوء الحركات الشعبية العربية. إن هناك جانبا آخر لتلك العلاقة : الإسلام فى الغرب -أى القضايا المتعلقة بالمسلمين الذين يقطنون ضمن المجتمعات الغربية وخصوصا أوروبا.

إن التقرير الذى نشره مجلس أوروبا فى مايو ٢٠١٠ تحت عنوان الإسلام والأسلمة والإسلاموفوبيا فى أوروبا أشار إلى أن أوروبا اصبحت موطنا للمسلمين لقرون عديدة، وأقر بمساهمة الحضارة الإسلامية فى الثقافة الأوروبية. لكن كما يلاحظ التقرير أيضا فإن المسلمين فى أوروبا يشعرون بالعزلة الاجتماعية والإساءة لسمعتهم والتمييز العنصرى. لقد أصبح هؤلاء ضحايا للقوالب النمطية التى يتم وصفهم بها بسبب تقاليدهم الدينية والثقافية.

إن هناك تصاعدا واضحا لموجة الخطاب الذى يتميز بالإسلاموفوبيا فى وسائل الاعلام المطبوعة والمكتوبة وضمن الأحزاب السياسية فى أوروبا- فعلى سبيل المثال، حزب الشعب الدنماركى، حزب الحرية الهولندى، الجبهة الوطنية الفرنسية، حزب الشعب السويسرى، رابطة الدفاع الانجليزية، الرابطة الشمالية الايطالية وحزب الحرية النمساوى. إن هناك أحزابا مماثلة فى أوروبا إما موجودة فعلا أو فى طور النشوء.

إن هذا الوضع هو تذكير لنا بالمعرفة غير الكافية بين العديد من الاوروبيين فيما يتعلق بالجذور المشتركة والروابط التاريخية التى تربط العالم الإسلامى والغرب. إن هذا الوضع أيضا بمثابة اشارة للحاجة لإقامة علاقات مبنية على أساس التفاهم والتسامح والاحترام والتنوع الثقافى.

لقد جاء فى تقرير منتدى مؤسسة بيو فى سبتمبر ٢٠١٠ عن الدين فى الحياة العامة بأن إجمالى عدد المسلمين فى أوروبا الغربية يزيد على ١٧ مليون نسمة. إن عدد المسلمين فى دول مثل النمسا وبلجيكا وفرنسا وألمانيا وهولندا والسويد وسويسرا يناهز ٥٪ أو أكثر من السكان. يجب أن يتم دعم وتشجيع هؤلاء من أجل أن يلعبوا دورهم كاملا فى كل من المجتمع والحياة العامة.

إن منظمة المؤتمر الإسلامى بصفتها ثانى اكبر منظمة حكومية دولية، ملتزمة بالتعاون مع المجتمع الدولى من أجل تعزيز وتدعيم السلام العالمى والاستقرار والوئام والأمن والتنمية. لقد ذكرت فى عدة مناسبات أن منظمة المؤتمر الإسلامى تسترشد بمبادئ الاعتدال والحداثة. إن المستندات الأساسية لمنظمة المؤتمر الإسلامى مثل برنامج عمل المنظمة لمدة عشر سنوات وميثاقها الجديد توفر خارطة طريق تتميز بالرؤية المستقبلية وذلك من أجل التعامل مع التحديات التى تواجه الإسلام فى القرن الحادى والعشرين.

إن الثقافات المتنوعة يجب أن تكمل وتعزز بعضها البعض. إن رعاية التسامح والاستقرار والرخاء تتطلب قيام المجتمعات والثقافات بالتواصل مع بعضها البعض واحترام بعضها البعض.

ان الكلام عن الإسلاموفوبيا لا يعنى أنه لا توجد كراهية ضد الديانات الأخرى، ونحن كمسلمين يجب أن نمد يد العون من أجل التعاون فى مكافحة العداء للسامية والعداء للمسيحية والمفاهيم المغلوطة عن الثقافة الغربية.

يجب ألا نكون رهائن للمتطرفين الموجودين عندنا. بينما المجتمع الدولى بأكمله يحارب الراديكالية والإرهاب، نحن نؤمن بقوة أن هذا الجهد يجب أن يكون جزءا من سعى عام يهدف إلى بناء عالم افضل مبنى على أساس التنوع الثقافى، بحيث يتم احترام الكرامة الإنسانية وحقوق الإنسان والحريات الأساسية بشكل لائق.

عندما أصبح باراك أوباما رئيسا للولايات المتحدة الأمريكية، وعد بفتح فصل جديد فى العلاقات بين العالم الإسلامى والغرب. لقد تحدث اوباما فى أول زيارة خارجية له كرئيس مخاطبا البرلمان التركى بالقول:

«إن الولايات المتحدة الأمريكية لم ولن تكون فى حرب مع الإسلام...... إن علاقة أمريكا بالجالية المسلمة والعالم الإسلامى لم ولن تكون مبنية فقط على أساس معارضة الإرهاب. نحن نسعى إلى مشاركة أوسع مبنية على أساس المصالح المشتركة والاحترام المتبادل. سوف نستمع بحرص وسوف نجسر الهوة فيما يتعلق بسوء التفاهم وسوف نسعى لأن نجد ارضية مشتركة. سوف نظهر الاحترام وحتى لو لم نكن متفقين. سوف ننقل تقديرنا الشديد للدين الإسلامى، والذى قدم الكثير على مر العصور من أجل تشكيل هذا العالم - بما فى ذلك فى بلدى.»

بالرغم من العقبات الكثيرة على طريق إقامة علاقات جيدة، فإن هذه السنة يمكن أن تشكل فرصة فريدة من أجل إقامة مقاربة جديدة قائمة على التسامح والتفاهم بين شعوب العالم الإسلامى والغرب. ربما يجب علينا أن نتطلع إلى الجاليات الإسلامية ضمن المجتمعات الغربية من أجل أن توفر القيادة والتوجيه للمستقبل. يجب أن يتم إيجاد المزيد من الفرص من أجل إقامة لقاءات عامة أو معمقة بين المسلمين وغير المسلمين واستدامتها سواء على المستوى الفردى أو المؤسساتى. ان احتمالية عقد مثل تلك اللقاءات قد تحسنت أكثر من أى وقت مضى على ضوء المناخ الجديد من الانفتاح السياسى فى البلدان ذات الأغلبية الإسلامية.

إن من أهم العوامل فى هذا الخصوص هو أنه يجب على المنظمات الملتزمة والأفراد الملتزمين بأن يتحدوا ويتحركوا من أجل عزل المتطرفين - وإن يبقوا متحدين فى العمل على تنمية ثقافة التسامح والاحترام والتى نحتاج إليها من أجل التحقق من الاستمتاع الكامل بحقوقنا. إن هذه هى الطريقة الوحيدة من أجل التقدم للأمام للعالم الإسلامى والغرب - وللإسلام فى الغرب. ■

أكمل الدين إحسان أوغلو هو أمين عام منظمة المؤتمر الإسلامى.

أعداد الثورة ٢

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية العدد ١٤٦ - السنة الثالثة عشرة - (فبراير-مارس - أبريل) ٢٠١١ - الثمن عشرة جنيهات Weghat Nazar - Volume 13 - Issue 146 - (February - March - April) 2011

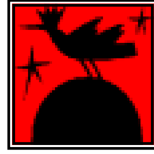
٢٥ يناير
يوميات ثورة



السنة الثالثة عشرة
العدد ١٤٧
أبريل ٢٠١١

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر



تصدر عن:
الشركة المصرية
للنشر
العربى والدولى

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

رئيس مجلس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير
أيمن الصياد

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى





مصورو العدد:

© AFP
© Reuters

- Abulent Kilic
- Amr Ahmad
- Amr Abdallah Dalsh
- Andrey Smirnov
- Anwar Amr
- Asmaa Waguih
- Dylan Martinez
- Goran Tomasevic
- Khaled Desouki
- Marco Longari
- Mohamed Abd ElGhany
- Mohammed Abed
- Patrick Baz
- Steve Crisp
- Suhaib Salem
- Yannis Behrakis





المراسلات :

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية
ت : ٢٣٩٣٠٤٩٠/ ٢٣٩٣٠٤٩٢/ ٢٣٩٣٠٤٩٦ ـ فاكس ٢٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): e-mail: info@weghatnazar.com

الاشتراكات :

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد : داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى ـ اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولارًا أمريكيًا ـ أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولارًا أمريكيًا ـ أمريكا وكندا: ٨٠ دولارًا أمريكيًا ـ باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ مدينة نصر
هاتف: ٢٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٢٤٠٤٨٥٤٦ ـ subscription@weghatnazar.com

ثمن النسخة :

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية ـ السعودية ١٥ ريالاً ـ الكويت ١,٥ دينار ـ الإمارات ١٥ درهما ـ مملكة البحرين ١,٥ دينار ـ قطر ١٥ ريالا ـ سلطنة عُمان ١,٥ ريال ـ لبنان ٥٠٠٠ ليرة ـ سوريا ١٥٠ ليرة ـ الأردن ديناران ونصف ـ ليبيا ديناران ـ الجزائر ٣٠٠ دينار ـ المغرب ٣٠ درهمًا ـ تونس ٤ دنانير ـ اليمن ٣٠٠ ريال ـ فلسطين ٣ دولارات.
Austria, France, Germany and Italy: EURO 6 - United Kingdom £ 3 - USA $ 5.

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

25 يناير

الطبعة الثانية

الأمن والمعارضة و«الوطني» يضعون اللمسات النهائية لمظاهرات «عيد الشرطة»

يوم الغضب

بروفة حية على «الانترنت» بين المؤيدين والمعارضين.. والشرطة تنشر عناصرها السرية بين المتظاهرين وتغلق العاصمة

«الوفد» يشارك في اللحظات الأخيرة.. ولجان التجمع تتحدى السعيد.. و«٦ أبريل» توزع ١٥ ألف بيان جديد

هكذا تحدث تحية عبدالناصر

ليلة رحيل الزعيم

الحلقة الأخيرة

الشروق الجديد

الثلاثاء

www.shorouknews.com

الأهرام

رئيس مجلس الإدارة د. عبدالمنعم سعيد

رئيس التحرير أسامة سرايا

Al-Ahram

تنظيم إرهابي من ١٩ انتحاريا لتفجير دور العبادة

وزير الداخلية يكشف في حوار شامل لـ«الأهرام» أبعاد حادث الإسكندرية

المتهم أحمد لطفي ضبط بالخارج.. والأمن فتش منزله بعد يوم من التفجير

منفذ الجريمة ليس مصريا على الإطلاق

المتهم لا يعلم شيئا عن مرتكبي الحادث

لا يوجد ارتباط بين حادثي سمالوط والإسكندرية

القواعد المنظمة لبناء الكنائس تحتاج إلى إعادة نظر

سنحمي أي تجمعات تلتزم بالتعبير عن الرأي فقط

كتب: أسامة سرايا

الجمهورية

رئيس مجلس الإدارة علي هاشم

رئيس التحرير محمد علي إبراهيم

٢٨ صفحة جنيه واحد

"AL-GOMHURIA"- 25 - JANUARY -2011

في حوار شامل لمجلة الشرطة

مبارك: أنحاز للفقراء ولن أسمح بأعباء إضافية على المواطنين

المصريون أكثر شعوب العالم اعتصاما بوحدتهم والشرطة في قلب العمل الوطني

الأهلي ينتظر برازيليا.. ويحتفل بأبوتريكة



الصدام المعتاد بين المتظاهرين وآلاف من قوات الأمن المركزى ـ ظهيرة الخامس والعشرين من يناير
© AFP PHOTO/MOHAMMED ABED



إزالة صور جمال مبارك من أعلى محطة القطار بالإسكندرية
ظهيرة يوم الخامس والعشرين من يناير © REUTERS



أحد المتظاهرين ينزع صورة مبارك الضخمة فى أحد ميادين الإسكندرية
© REUTERS

26 يناير

الشروق الجديد

الأربعاء

السنة الثالثة - العدد ٧٢٨ - ٢٦ من يناير ٢٠١١م - ٢٢ من صفر ١٤٣٢ هـ

www.shorouknews.com

الصفحة الثالثة

من قريب

سلامة أحمد سلامة

الأمل فى الغد!

بركان الغضب يجتاح شوارع القاهرة وينفجر فى ميدان التحرير

الأهرام

رئيس مجلس الإدارة: د. عبد المنعم سعيد

رئيس التحرير: أسامة سرايا

٥٢ صفحة ١٠٠ قرش

www.ahram.org.eg

Al-Ahram

احتجاجات واضطرابات واسعة فى لبنان

تكليف ميقاتى بتشكيل الحكومة.. والحريرى يتمسك بالسلم الأهلى

رشيد: لانرغب فى اتفاق تجارة حرة مع أمريكا

٨٠٠ مليون جنيه استثمارات كويتية وأمريكية جديدة فى مصر

اهتمام إعلامى كبير بحوار الأهرام مع العادلى

جماعة عراقية سلفية تعلن مسئوليتها عن جريمة الإسكندرية

الآلاف يشاركون فى مظاهرات سلمية بالقاهرة والمحافظات

شيكولاتة وورد فى عيد الشرطة

لسد احتياجات السوق المحلية من البوتاجاز

٢٠٠ ألف طن من ثنائى ميثيل الأثير

القمة الإفريقية تبحث إعادة الإعمار

أهالى الوراق يحتجون على نزع ملكية أراضيهم

الجمهورية

رئيس مجلس الإدارة: على هاشم

رئيس التحرير: محمد على إبراهيم

٣٦ صفحة جنيه واحد

"AL GOMHURIA" - 26 - JANUARY - 2011

٥٠ متظاهراً بالمنصورة و١٠٠ بدمياط و٢٠٠ بالإسكندرية.. وبورسعيد والمنوفية والفيوم هادئة

المتظاهرون عطلوا المرور وأثاروا الشغب فى ميدان التحرير

عناصر المحظورة وسط ١٠ آلاف من المتجمهرين.. ألقوا الحجارة وأتلفوا المنشآت



© REUTERS/Amr Abdallah Dalsh

«لا» فى مواجهة القمع الأمنى

© REUTERS/Asmaa Waguih

رجال شرطة بملابس مدنية يعتقلون أحد المتظاهرين

27 يناير

الشروق الجديد
الخميس
السنة الثانية - العدد ٧٢٦ - ٢٧ من يناير ٢٠١١ - ٢٣ من صفر ١٤٣٢ هـ
www.shorouknews.com
٢٠ صفحة - جنيه واحد

عنف عشوائى وقسوة أمنية مفرطة فى ثانى أيام الغضب

■ أكثر من ١٠٠٠ معتقل ومطاردات بالرصاص المطاطى وعمليات ضرب وسحل ■ المواجهات بين الأمن والمتظاهرين فى السويس تتحول إلى حرب شوارع وتنذر بكارثة ■ الأمن يحاول اقتحام نقابة الصحفيين بالقنابل المسيلة للدموع ويعتقل ٢٦ صحفيًا

الأهرام
رئيس مجلس الإدارة
د. عبدالمنعم سعيد
رئيس التحرير
أسامة سرايا
www.ahram.org.eg
٣٠ صفحة ١٠٠ قرش
Al-Ahram
Thursday 27 Jan. 2011

وفاة ٤ وإصابة ١١٨ مواطنا و١٦٢ شرطيا والقبض على ١٠٠ بالقاهرة والمحافظات

تجدد الاشتباكات بوسط القاهرة بين المتظاهرين وقوات الأمن

توجيه تهم التجمهر ومقاومة السلطات وإتلاف الممتلكات لـ ٦٤ من مثيرى الشغب

الحكومة مستمرة فى الإصلاحات وملتزمة بحماية حرية التعبير دون تجاوزات

فى اتصال هاتفى مع مبارك عاهل البحرين: استقرار مصر استقرار لكل الدول العربية

وزير التنمية الاقتصادية الإيطالية يشيد بحرية الرأى فى مصر

الحكومة تنفى حجب تويتر والفيس بوك ولا تشويش على الدخول

اهتمام عالمى بالمظاهرات فى مصر

أمريكا تحث الحكومة على مواصلة الإصلاحات

هبوط حاد للبورصة.. والخسائر ٢٠ مليار جنيه

الخبراء: يدعون المستثمرين للتريث قبل البيع



© AFP PHOTO/
KHALED DESOUKI

الشيخ زويد: الشهيد محمد عاطف .. شهيد الشيخ زويد الذي نقلت شبكة AP التليفزيونية العالمية مشهد إطلاق رجال الشرطة النار عليه عندما كان يسير منفردا في عرض الطريق
© REUTERS







السويس: إحدى قريبات الشهيد غريب عبد العزيز (الذى قضى فى احتجاجات السويس) أثناء تشييع جنازته
© REUTERS/Mohamed Abd El-Ghany

28 يـنـــــــــايـر

جمعـــــة الغضـــب

«جمعة الشهداء» توحد صفوف الغاضبين فى مواجهة الأمن

■ الآلاف ينطلقون من المساجد.. وأنباء عن مشاركة قبطية.. والأمن يستعد بخطة تأمين ■ «حرب شوارع» فى السويس وبولاق.. والطب الشرعى: وفاة الشرطى طبيعية

الشروق الجديد

الجمعة

السنة الثانية - العدد ٧٣٧ - ٢٨ من يناير ٢٠١١ - ٢٤ من صفر ١٤٣٢ هـ

www.shorouknews.com

٢٠ صفحة - جنيه واحد

مصر الغاضبة

■ ملف شامل داخل العدد

البرادعى عقب وصوله للقاهرة: مطلوب تغيير فورى وشامل

الأهرام

رئيس مجلس الإدارة
د. عبدالمنعم سعيد

رئيس التحرير
أسامة سرايا

٢٩٩ مليار جنيه إجمالى الأصول

بزيادة ٤٠ مليار جنيه فى عام واحد

www.ahram.org.eg

٧٤ صفحة ١٥٠ قرشا

الطبعة الأولى

Al-Ahram — Friday 28 Jan. 2011

عدد الجمعة

مبارك يتابع الأحداث ويتصل بمحافظ السويس للاطمئنان على المواطنين

تجدد المظاهرات فى السويس والإسماعيلية والشيخ زويد.. والأمن يلتزم بضبط النفس

أحداث ٢٥ يناير.. المعنى والمغزى

أسامة سرايا



الرئيس يطلب وضع قضية البطالة والفقر والأسعار على رأس أولويات الحكومة

■ الشريف ينفى هروب بعض قيادات الحزب ولا تعديل وزاريا مرتقب ■ التوسع فى البطاقات التموينية ودعم البوتاجاز والبنزين والكهرباء





© REUTERS/Amr Abdallah Dalsh

ضابط شرطة يصوب سلاحه نحو المتظاهرين من فوق سطح أحد الأقسام

29 يناير

هيكل يتكلم عما يجرى فى مصر الآن

الشروق الجديد

الثلاثاء

السنة الثالثة - العدد ٧٣١ - ١ من فبراير ٢٠١١ - ٢٨ من صفر ١٤٣٢ هـ

www.shorouknews.com

١٦ صفحة - جنيه واحد

05 مصر الغاضبة

ملف شامل داخل العدد

قبل ساعات من المظاهرة المليونية

بيان من القوات المسلحة: لن نستخدم العنف ضد أبناء مصر

ندرك المطالب المشروعة للمواطنين ونكفل لهم حرية التعبير طبقاً للدستور

مباركيصدر قراراً بحظر التجول بالقاهرة والاسكندرية والسويس

الجمهورية

الطبعة الثالثة

رئيس مجلس الإدارة: على هاشم

رئيس التحرير: محمد على إبراهيم

٤٤ صفحة جنيه واحد

http://www.eltahrir.net

E.mail:eltahrir@eltahrir.net

"AL GOMHURIA"- 29- JANUARY -2011

السبت ٢٥ من صفر ١٤٣٢هـ - ٢٩ من يناير ٢٠١١م - ٢١ من طوبة ١٧٢٧ق - العدد ٢٠٨٥١

الرئيس يقبل استقالة الحكومة ويكلف غيرها اليوم بمهام المستقبل

مبارك: لن أترك الخوف يتسلل إلى قلوب المصريين إذا ضاعت إنجازاتهم ومكتسباتهم

لن أتهاون فى اتخاذ إجراءات تحفظ الأمن لكل مصرى ومصرية

أعى التطلعات المشروعة للشعب وأعلم حجم همومه ومعاناته

الشرطة بادرت بحماية المتظاهرين احتراماً لحقهم فى التظاهر السلمى

هذه المظاهرات ما كان لها أن تتم لولا ما تشهده مصر من حراك فى المجتمع

ما حدث فى هذه التظاهرات مخطط لزعزعة الاستقرار والانقضاض على الشرعية

مصر تربأ بشبابها أن يندس بينهم مشعلو الحرائق

تابعت اعتلاء البعض لموجة هذه التظاهرات وأسفت لسقوط ضحايا أبرياء

إنحاز كل الانحياز لحرية المواطن فى إبداء الرأى وأتمسك بالحفاظ على أمن مصر

الرئيس مبارك يلقى كلمته

أكدت مراراً كرئيس للجمهورية وسوف أظل أن السيادة للشعب



كان انضمام أحد ضباط الجيش إلى المتظاهرين مشجعا لهم ورافعا لمعنوياتهم
© REUTERS/Yannis Behrakis



بعد الاختفاء المفاجئ لرجال الشرطة والانهيار الأمنى الناتج عن إطلاق المسجونين تشكلت لجان شعبية من المواطنين لحماية مساكنهم
© AFP PHOTO/KHALED DESOUKI

30 يناير

الشعب يتقدم ومبارك يبدأ التراجع

■ مسيرات لمئات الآلاف من المتظاهرين تواصل الهتاف «الشعب يريد إسقاط النظام»

الشروق الجديد

الأحد

السنة الثانية - العدد ٧٢٩ - ٣٠ من يناير ٢٠١١ - ٢٦ من صفر ١٤٣٢ هـ

www.shorouknews.com

١٦ صفحة - جنيه واحد

مصر الغاضبة

■ ملف شامل داخل العدد

عمر سليمان نائبًا للرئيس.. وأحمد شفيق رئيسًا للوزراء

■ طرد عز من الوطني وأنباء عن هروب علاء وجمال مبارك إلى لندن

■ توقع تعديلات دستورية بتحديد مدتين للرئاسة.. إبعاد الوجوه الإعلامية «المكروهة شعبيا»

عم محمد أمين، يصرخ: مصدر رزقي اتحرق

أشرف الأشموني: الحياة أهم من الرزق الآن

طارق حسن: حسبي الله ونعم الوكيل فيهم

رمضان حسين: سرقوا تحويشة عمري

لطفي مختار: لم أتمكن من صرف راتبي

حكايات هؤلاء المواطنين مع السلب والنهب ص٢و٨

حسام انكشف وأبوتريكة سياسي والقيعي يطارد إمام وجدو «حيطفش»... «بطولات ونجوم» مع العدد غدا

الجمهورية

رئيس مجلس الإدارة: علي هاشم

رئيس التحرير: محمد علي إبراهيم

٢٨ صفحة جنيه واحد

الطبعة الثالثة

http://www.eltahrir.net
E.mail:eltahrir@eltahrir.net

"AL GOMHURIA"- 30- JANUARY -2011

الأحد ٢٦ من صفر ١٤٣٢هـ - ٣٠ من يناير ٢٠١١م - ٢٢ من طوبة ١٧٢٧ق - العدد ٢٠٨٥٢

دار التحرير للطبع والنشر - ١١٥-١١١ شارع رمسيس-القاهرة وتليفون: ٢٥٧٨٣٣٣٣-٢ الرقم البريدي: ١١٥١١ - فاكسيملي: ٢٥٧٨٧١٠٢ ٢٥٧٨٦٦٦ ٢٥٧٨٥٥٥ الإنترنت للجميع 07772220 - 09080220 www.gom.com.eg

مصر أولاً..

بدأ التغيير.. سليمان نائباً للرئيس.. وشفيق رئيساً للوزراء

المظاهرات مستمرة.. رغم مد حظر التجول من الرابعة عصراً حتى الثامنة صباحا

بيروت: مظاهرات تأييد الثوار المصريين فى سائر دول العالم رفعت صور عبد الناصر. الصورة من تظاهرة أمام السفارة المصرية فى بيروت © AFP PHOTO/ANWAR AMRO

اسطنبول: الأتراك الذين تظاهروا دعما للثورة أحرقوا صور حسنى مبارك. الصورة من أمام السفارة المصرية فى القنصلية المصرية فى اسطنبول © AFP PHOTO / BULENT KILIC

31 يناير

الشروق الجديد

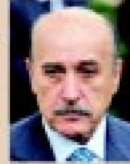
الاثنين

السنة الثانية - العدد ٧٣٠ - ٣١ من يناير ٢٠١١ - ٢٧ من صفر ١٤٣٢ هـ

www.shorouknews.com

١٦ صفحة - جنيه واحد

مقترحات عمر سليمان لاحتواء انتفاضة الغضب



- ١ إلغاء ملف التوريث
- ٢ حكومة بلا رجال أعمال
- ٣ تعديل الدستور
- ٤ محاسبة المقصرين



- ٥ تخلى مبارك عن رئاسة الوطنى

مصر الغاضبة
ملف شامل داخل العدد

أمريكا تتراجع وتطالب مبارك بانتقال سلس لـ«السلطة»

الأهرام

رئيس مجلس الإدارة
د. عبدالمنعم سعيد

رئيس التحرير
أســـامة ســرايا

www.ahram.org.eg

١٦ صفحة ١٠٠ قرش

الطبعة الأولى

Al-Ahram

Monday 31 Jan. 2011

اجتماع للرئيس مبارك مع القيادات العسكرية

تكليفات للمحافظين لتوفير الاحتياجات الأساسية للمواطنين



الرئيس مبارك يستمع إلى الفريق سامي عنان رئيس الأركان وإلى جانبه السيد عمر سليمان نائب رئيس الجمهورية



متظاهرون في ميدان التحرير أمس

حشود المتظاهرين بميدان التحرير تطالب بالإصلاح وترفض الفوضى

الشرطة تستأنف عملها .. والعادلى يتفقد معسكرات الأمن

الطيب وشنودة يؤكدان تفهمهما للرئيس

مراد موافى رئيسا للمخابرات العامة



أباظة محافظا لشمال سيناء

حسني بيضرب
شعبه هنا


ارحل

1 فبـــــراير

هيكل يتكلم عما يجرى فى مصر الآن

05

الشروق الجديد

الثلاثاء

السنة الثالثة - العدد ٧٣١ - ١ من فبراير ٢٠١١ - ٢٨ من صفر ١٤٣٢ هـ

www.shorouknews.com

١٦ صفحة - جنيه واحد

مصر الغاضبة

■ ملف شامل داخل العدد

قبل ساعات من المظاهرة المليونية

بيان من القوات المسلحة: لن نستخدم العنف ضد أبناء مصر


■ ندرك المطالب المشروعة للمواطنين ونكفل لهم حرية التعبير طبقاً للدستور

الأهرام

رئيس مجلس الإدارة
د. عبدالمنعم سعيد

رئيس التحرير
أســـامة ســـرايا

١٦ صفحة ١٠٠ قرش

www.ahram.org.eg

Al-Ahram

حكومة جديدة بلا «رجال أعمال»

مبارك يصدر تكليفاته لمجلس الوزراء بعد أداء اليمين

الأولوية القصوى لاستتباب الأمن تمهيدا لعودة الجيش لثكناته ورفع حظر التجوال

العمل الفورى للتحكم فى معدلات التضخم ومحاربة الفساد بكل صوره أيا كان مرتكبوه

مظاهرات بالقاهرة والإسكندرية والإسماعيلية ومحافظات أخرى

المتحدث العسكرى: القوات المسلحة لم ولن تلجأ لاستخدام القوة ضد الشعب

1 فبـــرايـــر

بيــــدالشــــباب © REUTERS/Dylan Martinez



الإحساس بالصدمة على وجوه المعتصمين فى ميدان التحرير بعد استماعهم إلى خطاب مبارك الذى تمسك فيه بالبقاء فى السلطة © REUTERS/Dylan Martinez

2 فبراير

مبارك: لن أترشح لفترة رئاسية جديدة

الشروق الجديد
الأربعاء
السنة الثالثة - العدد ٧٣٢ - ٢ من فبراير ٢٠١١ - ٢٩ من صفر ١٤٣٢ هـ
www.shorouknews.com
١٦ صفحة - جنيه واحد

مصر الغاضبة
■ ملف شامل داخل العدد

الرئيس يطالب البرلمان بتعديل المادتين ٧٦ و٧٧ من الدستور

٢٠٪ علاوة اجتماعية لجميع العاملين.. صرف المعاشات اليوم من ٤ بنوك (ص٣)





رئيس مجلس الإدارة:
علي هاشم
رئيس التحرير:
محمد علي إبراهيم

الجمهورية
الطبعة الثالثة
http://www.eltahrir.net
E.mail:eltahrir@eltahrir.net

١٦ صفحة
جنيه واحد





"AL GOMHURIA"- 2- FEBRUARY -2011
www.gom.com.eg 09080220 - 07772220

الوطن باق والأشخاص زائلون .. ومصر العريقة هى الخالدة أبداً



مبارك فى كلمة مؤثرة للأمة:

لن أترشح فى الانتخابات الرئاسية المقبلة

سوف اتخذ فى الأشهر المتبقية من ولايتى إجراءات الانتقال السلمى للسلطة

أطالب البرلمان بمناقشة تعديل المادتين «٧٦» و«٧٧» من الدستور

لابد من الالتزام بكلمة القضاء وأحكامه فى الطعون على الانتخابات الأخيرة

تعديل شروط الترشيح لرئاسة الجمهورية واعتماد فترات محددة للرئاسة

أتابع تنفيذ الحكومة للمطالب المشروعة للشعب وإتاحة فرص العمل ومكافحة الفقر وتحقيق العدالة الاجتماعية

أكلف الشرطة بحماية المواطنين.. واحترام حرياتهم وكرامتهم

2 فبراير

مؤيدو مبارك يغزون الميدان على ظهور الجمال والبغال والأحصنة © AFP PHOTO / ANDREY SMIRNOV



المعتصمون فى الميدان يدافعون عنه بعد أن تحول الهجوم إلى استخدام زجاجات المولوتوف والرصاص الحى © AFP PHOTO/MOHAMMED ABED

3 فبـــــــرايــــر

محمد حسنين هيكل يكتب لـ «الشروق» عن:

أول ثورة مصرية كاملة فى التاريخ الحديث

■ أسبوع عبور المصريين لعصر الشعوب الحرة ■ ثوار ٢٠١١ تجاوزوا تمرد ضباط

عرابى وثورة الجيش فى ١٩٥٢ ■ ميزان المستقبل أصبح فى يد القوات المسلحة

03

الشروق الجديد

الخميس

السنة الثالثة - العدد ٧٢٣ - ٣ من فبراير ٢٠١١ - ٣٠ من صفر ١٤٣٢ هـ

www.shorouknews.com

١٦ صفحة، جنيه واحد

مصر الغاضبة

■ ملف شامل داخل العدد

البلطجية يعلنون الحرب على التغيير

■ عشرات الجرحى.. والجيش يقبض على ٣٠ مسلحا يحملون «كارنيهات» الشرطة ■ مظاهرات «مدفوعة الأجر» لتأييد مبارك تهاجم معارضيه بـ«الخيول والجمال»

■ القوات المسلحة تطالب المتظاهرين بالعودة لمنازلهم ■ أنباء عن اجتماع بين قيادات فى «الوطنى» وأجهزة أمنية لشق صف المحتجين

الأهرام

رئيس مجلس الإدارة
د. عبدالمنعم سعيد

رئيس التحرير
أســـامة ســـرايا

www.ahram.org.eg

٢٠ صفحة ١٠٠ قرش

Al-Ahram

Thursday 3 Feb. 2011

الملايين يخرجون تأييدا لمبـــارك

مسيرات ومظاهرات بالقاهرة والمحافظات للترحيب بقرارات الرئيس



مظاهرة مليونية فى حب الرئيس بحى المهندسين وميدان مصطفى محمود

3 فبـــــرايـــــر



حرب ميدان التحرير الأهلية استمرت لليوم الثانى بين المتظاهرين والبلطجية الذين استأجرهم مؤيدو مبارك ليخرجوا المتظاهرين من الميدان © REUTERS/Goran Tomasevic

عدد من البلطجية الذين اتضح أن بعضهم يحمل بطاقات هوية خاصة بأفراد الشرطة، والذين تمكن المعتصمون من الإمساك بهم وحبسهم داخل مترو الأنفاق قبل تسليمهم للقوات المسلحة
© REUTERS/Amr Abdallah Dalsh

4 فبـــــرايـــــر

جمعـــــة الرحيـــل

منع العادلى وعز والمغربى وجرانة وآخرين من السفر والتحفظ على أموالهم


حبيب العادلى — أحمد عز

أحمد المغربى — زهير جرانة

الشروق الجديد

الجمعة

السنة الثالثة - العدد ٧٢٤ - ٤ من فبراير ٢٠١١ - غرة ربيع الأول ١٤٣٢ هـ

www.shorouknews.com

١٦ صفحة ـ جنيه واحد

المعتصمون يرابطون بميدان التحرير فى «جمعة الرحيل»

■ وزير الداخلية يتعهد بعدم المساس بالمتظاهرين ومخاوف من «سيناريو خداع» ■ سليمان: التقيت ممثلين للمعتصمين ولأحزاب المعارضة والمستقلين

الجمهورية

رئيس مجلس الإدارة: علـى هاشـــم

رئيـس التحـريـر: محمد على إبراهيم

الطبعة الثالثة

١٦ صفحة — جنيه واحد

http://www.eltahrir.net
E.mail:eltahrir@eltahrir.net

"AL GOMHURIA"- 4 FEBRUARY -2011

الجمعة غرة ربيع أول ١٤٣٢هـ ـ ٤ فبراير ٢٠١١م ـ ٢٧ من طوبة ١٧٢٧ق ـ العدد ٢٠٨٥٧

مكاســب الثـــورة الشـــعبية


عمر سليمان


أحمد شفيق

سليمان: الإفراج عن الشباب المعتقلين.. وجمال مبارك لا يترشح للرئاسة

شفيق: تحقيــق فــورى فى «مهـزلة» ميدان التحـــريــر

أعتـــذر للمحتجـين .. ومســتعد للذهــاب إليهــم ومحـاورتهم

ســيحاكم حــبيب العادلــى فى الفــراغ الأمنى إذا ثبت تورطه فى ذلك

طلبت من محافظ البنك المركزى حجم الأموال التى خرجت من مصر

الحــوار مع القــوى المعارضـــة ليس له ســـقف محدد.. وســأحاسب أى وزير مقصــر

نحتـرم تقـاليدنا وأصـولنا ولا نأخذ بتصريحات دولة أجنبية وثبت وجود مخطـط أجنبـي

الغبـــاء!

4 فبـــــرايــــر



© REUTERS/Amr Abdallah Dalsh

جمعة الرحيل: الملايين يؤدون الصلاة فى ميدان التحرير

© AFP PHOTO/MOHAMMED ABED

5 فبراير

..وقال الشعب كلمته فى الثلاثاء العظيم

محمد حسنين هيكل يتحدث لفهمى هويدى:

▪ الداخلية تقول: إن جهازًا سريًا ليس تابعًا لها وراء الفوضى التى حدثت

▪ أسوأ ما فى مصر حاول بشراسة قتل أنبل ما فيها

الشروق الجديد

السبت

السنة الثالثة - العدد ٧٣٥ - ٥ من فبراير ٢٠١١ - ٢ من ربيع الأول ١٤٣٢ هـ

www.shorouknews.com

١٦ صفحة ـ جنيه واحد

مصر الغاضبة

▪ ملف شامل داخل العدد

مصر تغيَّرت

ملايين المصريين يصلُّون «جمعة الرحيل» ويبدأون «أسبوع الصمود»

▪ الأقباط يحرسون المسلمين أثناء الصلاة ▪ موسى و«الحكماء» يزورون الميدان لدعم الانتفاضة

منع رشيد من السفر وتجميد أمواله





رئيس مجلس الإدارة:
على هاشم

رئيس التحرير:
محمد على إبراهيم

الجمهورية

الطبعة الثالثة

http://www.eltahrir.net
E.mail:eltahrir@eltahrir.net

١٦ صفحة
جنيه واحد



السبت ٢ من ربيع أول ١٤٣٢هـ - ٥ فبراير ٢٠١١م - ٢٨ من طوبة ١٧٢٧ق - العدد ٢٠٨٨٨ "AL GOMHURIA" - 5 - FEBRUARY -2011

دار التحرير للطبع والنشر - ١١٥ - ١١١ شارع رمسيس - القاهرة - تليفون: ٢٥٧٨٣٣٣٣ - الرقم البريدى: ١١٥١١ - فاكسميلى: ٢٥٧٨١٧١٧ - ٢٥٧٨٥٥٥٥ - ٢٥٧٨١٦٦٦ - انترنت للجميع 07772220 - 09080220 www.gom.com.eg

مظاهرات الجمعة.. حضارية

الآلاف من المعارضين والمؤيدين عبروا عن آرائهم.. بسلام

سليمان: لن نستخدم الجيش ضد الشعب مهما حدث

5 فبـــــرايـــــر

© REUTERS/Dylan Martinez

فــراش المعتصـــمين



© REUTERS/Yannis Behrakis

ومأكلهـــــم

6 فبراير

استبعاد صفوت الشريف وجمال مبارك من الحزب الوطني

تعيين حسام بدراوي أميناً عاماً للحزب وأميناً للسياسات.. ومحمد رجب أميناً للتنظيم

الشروق الجديد
الأحد
السنة الثالثة - العدد ٧٣٦ - ٦ من فبراير ٢٠١١ - ٣ من ربيع الأول ١٤٣٢ هـ
www.shorouknews.com
١٦ صفحة - جنيه واحد

مصر الغاضبة
■ ملف شامل داخل العدد

مبارك يجتمع بالمجموعة الاقتصادية.. وسليمان يفاوض المعارضة

■ الإخوان يقبلون بالحوار قبل تنحي الرئيس بشرط أن يحقق إرادة الجماهير ومطالبها

الجمهورية
رئيس مجلس الإدارة: علي هاشم
رئيس التحرير: محمد علي إبراهيم
الطبعة الثالثة
http://www.eltahrir.net
E.mail:eltahrir@eltahrir.net
١٦ صفحة جنيه واحد
"AL GOMHURIA" - 6 - FEBRUARY -2011
الأحد ٣ من ربيع أول ١٤٣٢هـ - ٦ فبراير ٢٠١١م - ٢٩ من طوبة ١٧٢٧ق - العدد ٢٠٨٥٩
www.gom.com.eg 09080220 - 07772220

بدراوي أميناً عاماً للوطني ورئيساً للجنة السياسات واستقالة الشريف وجمال مبارك

بدء التحقيق مع المتهمين بالفساد ونهب أموال الشعب

الحياة طبيعية.. القطارات انتظمت.. البنوك تعمل .. والمظاهرات مستمرة

عمر سليمان اجتمع برؤساء الوفد والتجمع والناصري.. والنتائج اليوم..

شفيق بعد اجتماع وزاري مع مبارك: الإخوان سيتفاوضون.. الوضع مطمئن.. والأمن يتحسن

رضوان:
لا مساس بالدعم.. تأجيل دفع متأخرات التأمينات

المصيلحي:
تعويضات لضحايا الأحداث ودراسة لتشغيل أسرهم

سميحة:
المصانع تعمل.. لا ارتفاع في أسعار الخضر والفاكهة.. توفر المواد الغذائية

فهمي:
كل محطات البنزين تعمل خلال ساعات ولا نية لرفع أسعار البترول

خامنئي في التحرير!

«الجمهورية»

6 فبراير

للوقاية من الحجارة صنع خوذته من آنية طهو فارغة

© AFP PHOTO/PATRICK BAZ



الميدان أنتج فنانيه

© AFP PHOTO/MOHAMMED ABED

7 فبــــرايــــر

الطبعة الثانية

المستشار طارق البشرى يكتب لـ «الشروق»:

تقدير موقف من أوراق ثورة ٢٥ يناير 09

٤ وجوه من الجنة

تحقيق خاص - ص٦

الشروق الجديد

الاثنين

www.shorouknews.com

مصر الغاضبة

ملف شامل داخل العدد

الدين لله.. والميدان للجميع

صلاة الغائب وقداس الأحد على أرواح الشهداء فى ميدان التحرير.. والإسكندرية تطلق أسماءهم على شوارعها

الأهرام

رئيس مجلس الإدارة
د. عبدالمنعم سعيد

رئيس التحرير
أسامة سرايا

www.ahram.org.eg

٢٠ صفحة ١٠٠ قرش

Al-Ahram

Monday 7 Feb. 2011

الطبعة الأولى

شباب الميدان يحاور سليمان.. والاعتصام مستمر

عقل الثورة

الجمهورية

رئيس مجلس الإدارة:
علي هاشم

رئيس التحرير:
محمد علي إبراهيم

١٦ صفحة
جنيه واحد

الطبعة الثانية

"AL GOMHURIA" - 7 - FEBRUARY -2011

الاثنين ٤ من ربيع أول ١٤٣٢هـ - ٧ فبراير ٢٠١١م - ٣٠ من طوبة ١٧٢٧ق - العدد ٢٠٨٦٠

www.gom.com.eg

عهـــد جديد

اتفاق نائب الرئيس.. والشباب والمعارضة والإخوان على وثيقة الوفاق الوطنى

تنفيذ فورى لتعهدات مبارك.. انتقال سلمى للسلطة.. لجنة قضائية للتعديلات الدستورية

ملاحقة الفاسدين.. إنهاء الطوارئ طبقاً للظروف الأمنية.. ضمان القوات المسلحة لكافة البنود

اعتذار للشباب!

7 فبـــــــرايـــــر



© REUTERS/Yannis Behrakis

الإنترنت فى الميدان.. غرفة العمليات «الإلكترونية» فى الشارع

© REUTERS/Steve Crisp

والمستشفى الميدانى على الرصيف

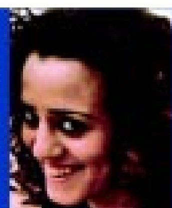
8 فبـــــرايـــــر

النيابة تتهم حبيب العادلى بقتل المتظاهرين عمدًا



■ بلاغ يتهم وزير الداخلية السابق بالمسئولية عن «تفجيرات كنيسة القديسين»

الشروق الجديد
الثلاثاء
السنة الثالثة - العدد ٧٣٨ - ٨ من فبراير ٢٠١١ - ٦ من ربيع الأول ١٤٣٢ هـ
www.shorouknews.com
١٦ صفحة - جنيه واحد



محمد المخزنجي يكتب:
وللدم النبيل كرامة
من صور شهداء الحرية 05

«التحرير» ينتظر «مليونية» جديدة اليوم

الأهرام
رئيس مجلس الإدارة
د. عبدالمنعم سعيد
رئيس التحرير
أســـامة سـرايا
٢٢ صفحة ١٠٠ قرش
www.ahram.org.eg
Al-Ahram
Tuesday 8 Feb. 2011

محاولات لتشكيل أئتلاف ثورة ٢٥ يناير

المتظاهرون يطالبون بمحاكمة الفساد.. وأنباء غير مؤكدة بالإفراج عن وائل غنيم

مبارك يعقد اجتماعين لبحث الأوضاع الداخلية وتنفيذ الإصلاحات السياسية

أوباما يدعو لحكومة نيابية منتخبة تمثل الشعب المصري

رئيس الوزراء اليوناني يرجىء زيارته للقاهرة

كهنة الخارج

المغربى أمام النيابة ....ص٤ وجدول مرتبك بعد العلاوات الجديدة ص٩

الجمهورية
رئيس مجلس الإدارة:
على هاشم
رئيس التحرير:
محمد على إبراهيم
١٦ صفحة
جنيه واحد
الطبعة الثانية
"AL GOMHURIA" - 8 - FEBRUARY - 2011
الثلاثاء ٥ من ربيع أول ١٤٣٢هـ ـ ٨ فبراير ٢٠١١م ـ ١ من أمشير ١٧٢٧ق ـ العدد ٢٠٨٦١

الإفراج عن وائل غنيم..وشباب التحرير يحتفلون بخروجه

اجتماعان للرئيس مع نائبه وشفيق وسرور والشريف وطنطاوى وصيام ووجدى وموافى

ملعب التحرير

8 فبراير



© AFP PHOTO/MARCO LONGARI

© REUTERS/Dylan Martinez

9 فبراير

عمر سليمان: مصر تغيَّرت .. والجيش ضامن لكل تعهدات النظام

لا يوجد معتقل واحد من الشباب .. والشرطة لن تعتقل أحدًا وستكون فى خدمة الشعب 03

الشروق الجديد
الأربعاء
www.shorouknews.com

مصر الغاضبة
ملف شامل داخل العدد

«المليونية الرابعة» تحوِّل مصر إلى «ميدان تحرير»

الأهرام
رئيس مجلس الإدارة
د. عبدالمنعم سعيد
رئيس التحرير
أسامة سرايا
www.ahram.org.eg
Al-Ahram

سليمان: مصر بين خيارين.. «الحوار» أو «الإنقلاب»

الجمهورية
رئيس مجلس الإدارة:
على هاشم
رئيس التحرير:
محمد على إبراهيم
١٦ صفحة جنيه واحد
"AL GOMHURIA"- 9 - FEBRUARY -2011

سليمان لرؤساء مجالس إدارات وتحرير الصحف المصرية:

الدولة قائمة ولن تنهار.. مسئولون عن الحفاظ على مصر.. ونبذ الفوضى

الرئيس الجديد يؤدى اليمين الدستورية ١٤ أكتوبر

لم تحدث صفقة مع الإخوان.. لكنهم استفادوا من اللقاء.. والحوار أفضل حل للأزمة

«الجمهورية» ترصد تطورات اليوم الخامس عشر

لجنة التعديلات التشريعية تنعقد اليوم

دموع وائل

9 فبراير

© REUTERS/Suhaib Salem

مصر الحقيقية.. قبل أن تعبث بها المؤامرات والفتن



© AFP PHOTO/MOHAMMED ABED

رغم أربعين عاما على وفاته، مازال جمال عبد الناصر حلم المصريين الضائع

10 فبـــــرايـــــر

الشروق الجديد

الخميس
السنة الثالثة - العدد ٧٤٠ - ١٠ من فبراير ٢٠١١ - ٧ من ربيع الأول ١٤٣٢ هـ
www.shorouknews.com
١٦ صفحة - جنيه واحد

هيكل: المؤسسة العسكرية هى الضامن لنقل الروح الجديدة للفترة المقبلة 03

«جمعة تصعيد» جديدة على مشارف قصر عابدين

■ المتظاهرون يجبرون الحكومة ونواب الوطنى على الهروب من «وسط البلد»

الأهرام

رئيس مجلس الإدارة
د. عبدالمنعم سعيد

رئيس التحرير
أسامة سرايا

٢٨ صفحة ١٠٠ قرش
www.ahram.org.eg
Al-Ahram
Thursday 10 Feb. 2011

المتظاهرون يجبرون الحكومة على نقل اجتماعاتها إلى مصر الجديدة

الاتفاق على تعديل ٦ مواد بالدستور.. قابلة للزيادة

التغيير لمصر لا عليها

الجمهورية

المظاهرات تتخطى المليون.. مد اجازة نصف العام لاسبوع.. الاتفاق على ٦ تعديلات دستورية

رئيس مجلس الإدارة:
على هاشم

رئيس التحرير:
محمد على إبراهيم

٢٤ صفحة - ١٥٠ قرشا
الطبعة الثالثة
انترنت للجميع
07772220 - 09080220
www.gom.com.eg

العدد الاسبوعى

"AL GOMHURIA" - 10 - FEBRUARY - 2011

الخميس ٧ من ربيع أول ١٤٣٢هـ - ١٠ فبراير ٢٠١١م - ٣ من أمشير ١٧٢٧ق - العدد ٢٠٨٦٣

10 فبـــرايـــر



خطابات مبارك الليلية لا تأتى بما تطلبه الجماهير. الإحباط على وجه الذين استمعوا إلى الخطاب فى قلب الاعتصام
© REUTERS/Dylan Martinez

فى تصرف تلقائى، ارتفعت جميع الأحذية ردا على ماقاله مبارك فى خطابه الذى لم يستجب فيه لمطالب المعتصمين
© AFP PHOTO/MOHAMMED ABED



11 فبــــــرايــــــر

جمعـــــة الزحـــف

مبارك يرفض التنحى ويفوض سلطاته لسليمان و«التحرير» يرفض

الشروق الجديد

الجمعة

www.shorouknews.com

مصر الغاضبة

ملف شامل داخل العدد

غضب عارم من الخطاب والآلاف يحاصرون مبنى التليفزيون

تعديل خمس مواد دستورية لتسهيل الترشح للانتخابات الرئاسية وحذف مادة لإلغاء الطوارئ

الأهرام

رئيس مجلس الإدارة د. عبدالمنعم سعيد

رئيس التحرير أســـامة ســرايا

٣٦ صفحة ١٥٠ قرشا

www.ahram.org.eg

Al-Ahram

عدد الجمعة

مبارك يتجه لتفويض سلطاته استجابة لمطالب المتظاهرين

ضمير مصر.. يقود التغيير

المجلس الأعلى للقوات المسلحة يتعهد بحماية طموحات الشعب

الجمهورية

رئيس مجلس الإدارة: علي هاشم

رئيس التحرير: محمد علي إبراهيم

١٦ صفحة جنيه واحد

"AL GOMHURIA" - 11 - FEBRUARY -2011

الوهم الذى عشناه!

مبارك يفوض سليمان باختصاصاته وفقاً للدستور

الرئيس: سيثبت المصريون أن أحداً لا يفرض علينا قراراً أو رأيا

لا أجد حرجاً فى الاستماع لشباب البلاد لكنى لا أستجيب لإملاءات الخارج

تعديل ٥ مواد بالدستور وإلغاء السادسة ● دماء الشهداء لن تضيع هدراً ولن أتهاون فى معاقبة المسئولين عنها

عمر سليمان: عودوا لمنازلكم وأعمالكم.. واستمعوا إلى ضمائركم

11 فبـــــرايـــر



«الشعب يريد إسقاط النظام» قولا واحدا لا رجوع فيه ولا مساومة

© REUTERS/Dylan Martinez



الملايين فى صلاة الجمعة داخل الميدان

© REUTERS/Amr Abdallah Dalsh



دعاء وبكاء: أربعة ملايين مسلم ومسيحى رددوا دعاء التهجد خلف الشيخ محمد جبريل

© REUTERS/Dylan Martinez

12 فبـــرايـــر

..وانتصـر الشعـب

الثورة تسقط مبارك .. والمجلس الأعلى للقوات المسلحة يتولى الحكم


الشروق الجديد

السبت

السنة الثالثة - العدد ٧٤٩ - ١٢ من فبراير ٢٠١١ - ٩ من ربيع الأول ١٤٣٢ هـ

www.shorouknews.com

١٦ صفحة ـ جنيه واحد

أول هتافات بعد نجاح الثورة: ارفع رأسك أنت مصرى

الشعب يريد بناء نظام جديد

الشـــعب أســـقط النـــظام


الأهرام

رئيس مجلس الإدارة

د. عبدالمنعم سعيد

رئيس التحرير

أســـامة ســـرايا

www.ahram.org.eg

٢٤ صفحة ١٠٠ قرش

الطبعة الأولى

Al-Ahram

Saturday 12 Feb. 2011

البنك الأهلي المصري

NATIONAL BANK OF EGYPT

12 فبـــرايـــر



© REUTERS/Dylan Martinez

12 فبـــــــرايـــــر



© REUTERS/Yannis Behrakis